سلسلة التراجم الأندلسية

VIII

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري

المتوفى بعد سنة ٧١٢ هـ

حققه، وضبط نصه، وعلق عليه

بشار عواد معروف

محمود بشار عواد

دار الغرب الإسلامي

تونس

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري

المتوفى بعد سنة ٧١٢ هـ

المجلد الأول

حققه، وضبط نصه، وعلق عليه

بشار عواد معروف — محمود بشار عواد

دار الغرب الإسلامي

تونس

الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب. 677 تونس 1035

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

المجلد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين، وبعد:

فهذا كتاب «**البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**»(١) للمؤرخ المغربي المراكشي أبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري المتوفى بعد سنة ٧١٢هـ، وهو التاريخ الذي ألف فيه هذا الكتاب(٢)، والذي لم نقف على ترجمة له سوى ما ورد من معلومات نزرة عنه في هذا الكتاب(٣).

وقد جعل ابن عذاري كتابه هذا في ثلاثة أجزاء، تناول في الجزء الأول تاريخ شمال إفريقية منذ الفتح العربي الإسلامي وحتى ظهور المرابطين والموحدين. وخصص الجزء الثاني لأخبار الأندلس منذ فتحها، وعصر الولاة، ثم العهد الأموي، وقيام الدولة العامرية، فظهور ملوك الطوائف وحتى دخول المرابطين إلى الأندلس سنة ٤٧٨هـ(٤). أما الجزء الثالث فهو عودة إلى تاريخ المغرب إذ أتى فيه على أخبار الدولة المرابطية اللمتونية وما كان من شأنها في المغرب والأندلس، ثم أخبار الدولة الموحدية وما عاصرها من أخبار الهوديين والحفصيين والنصريين، ثم الدولة المرينية وانتصارها واستيلائها على مراكش في أواخر سنة ٦٦٧هـ.

وقد وصل إلينا أكثر هذا الذي ذكره المؤلف من أجزاء الكتاب، فنشر المستشرق الهولندي رينهات دوزي الجزء الأول وقسمًا من الجزء الثاني الخاص بالأندلس إلى سنة ٣٨٧هـ وذلك في السنوات ١٨٤٨-١٨٥١م معتمدًا مخطوطة في ليدن محفوظة في الرقم (٦٧)، وطبعَ الـجُزءَين

---

(١) هذا هو العنوان الصحيح الذي نص عليه المؤلف في المقدمة التي كتبها لكتابه واتفقت عليها النسخ، ومن ثم فإن الاعتماد على ما ورد في عناوين المخطوطات لا قيمة له.

(٢) ينظر المجلد الثالث من نشرتنا هذه، ص٥٨٥ حيث نص على هذا التاريخ وهو يتكلّم على أولاد المرتضى الموحدي.

(٣) لصديقنا الفاضل الدكتور عبد الواحد ذنون طه الـمَوْصلي دراسة ماتعة عن ابن عذاري وكتابه «البيان المغرب» عنوانها: «ابن عذاري المراكشي شيخ مؤرخي المغرب العربي»، كان قد نشر أكثرها منجمةً في مجلة المجمع العلمي العراقي، ثم أعاد النظر فيها ونشرها بكتاب مستقل (بيروت، دار المدار الإسلامي ٢٠٠٤م)، تناول فيها عصره ومنهجه وموارده، أغنانا عن إعادة الكتابة فيها.

(٤) على أن الذي وصل إلينا منه إلى سنة ٤٦٠هـ فبقي القسم المتضمن للسنوات ٤٦٠-٤٧٨هـ.

بمدينة ليدن، وكتب له مقدمة مفصلة بالفرنسية، ولكنه خَلَط النص بنصوص كثيرة من كتاب «صلة تاريخ الطبري» لعريب بن سعيد القرطبي، فأساء إلى الكتاب إساءةً بالغة في الوقت الذي سعى فيه جاهدًا إلى تقديم مادة أكثر دسامة وتفصيلًا، ولكن هذا في علم تحقيق النصوص مما لا يجوز فعله[١].

ثم قام كل من كولان وليفي بروفنسال في إعادة نشر هذين الجزءين في ليدن في السنوات ١٩٤٨-١٩٥١م، ولكنهما من أسفٍ أبقيا على الزيادات التي أقحمها دوزي في النص من كتاب عريب القرطبي، ولا ندري كيف سوّغا هذا الصنيع المخالف لمناهج البحث العلمي وتحقيق النصوص.

ونشر ليفي بروفنسال النص الخاص بدول الطوائف في الأندلس في باريس سنة ١٩٣٠م على أنه الجزء الثالث من «البيان المغرب»، وزاد في آخره قطعة مجهولة المؤلف مبتورة الطرفين، فجاء الجزء في ٣٦٨ صفحة من ضمنها الفهارس.

وعثر ليفي بروفنسال على قطعة خاصة بعصر المرابطين في المغرب والأندلس في خزانة جامع القرويين بفاس تنتهي في أوائل سنة ٥٤١هـ ونشر منها القسم الخاص باستيلاء السيد الكبيوطور على بلنسية. ثم قام الأستاذ هويسي ميراندا بنشر سائرها في مجلة «هسبرس» Hesperes سنة ١٩٦٠م والمخطوطة التي وقف عليها بروفنسال قد احتجنها ولم يعدها ولا يُعلم اليوم أي خبر عنها. ثم أعاد نشر هذه القطعة صديقنا العلامة الأستاذ إحسان عباس يرحمه الله في دار الثقافة استنادًا إلى نشرة ميراندا وعَلّق عليها بعض تعليقات مفيدة أفدنا منها، كما أصلح بعض أخطائها، ولم يكن بوسعه غير ذلك بعد ضياع الأصل الذي نشر عليه ميراندا ما نشره. وكانت دار الثقافة في بيروت قد أعادت طبع الأجزاء الثلاثة التي نشرها كولان وبروفنسال في ثلاثة أجزاء بالتصوير.

وفي سنة ١٩٦٠م ظهر الجزء الخاص بالموحدين بتطوان بتحقيق هويسي ميراندا ومساهمة الأستاذين محمد بن تاويت ومحمد بن إبراهيم الكتاني[٢].

واكتشف الأستاذ عبد القادر زمامة قطعة من تاريخ الموحدين تشتمل على (٢٦) صفحة لم ترد في طبعة تطوان سنة ١٩٦٠م نشرها في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد

(١) اعتمد دوزي مخطوطة الصلة لعريب المحفوظة في كوتا Gotha رقم (٢٦١). ولما نشر دي خويه كتاب عريب حذف منه القسم الذي نشره دوزي.

(٢) ثم كان الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني قد نشر في العدد العاشر من مجلة تطوان (ص٢٣٧-٢٤٢) مقالة بعنوان: «العثور على الورقات الأخيرة من البيان المغرب لابن عذاري».

سنة ١٩٨٠م[1]، ثم أعاد نشرها في مجلة كلية الآداب والعلوم بفاس سنة ١٩٨٠-١٩٨١م (العددان: ٤ و٥).

وفي سنة ١٩٨٥م ظهر الجزء الكامل الخاص بالموحدين وقد أضيفت إليه القطع الجديدة التي عُثر عليها وكتب على غلافها أنها من تحقيق: محمد بن إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت، ومحمد زنيبر، وعبد القادر زمامة. وكان جل اعتمادهم على نشرة ميراندا.

وهكذا يتضح أن الكتاب يكاد أن يكون كاملًا لولا ما اعتوره من نقص يسير، الأول في الجزء الثاني حيث لم تصل إلينا السنوات ٤٦٠-٤٧٨ وهو القسم الخاص بالأندلس، والثاني أوائل القطعة المتعلقة بالمرابطين، وهي التي نشرها ميراندا ثم أعاد نشرها العلامة إحسان عباس يرحمه الله.

أما نحن فقد قَسّمنا الكتاب كما قسمه مؤلفه ابن عذاري إلى ثلاثة أجزاء، إذ لا معنى لكل التقسيمات السابقة، ولا سيما بعد وقوفنا على مخطوطات جديدة من الكتاب أتحفنا بها صديقنا العلامة الأستاذ بشير البكوش، وصديقنا الأستاذ المحقق العالم أحمد بنبين جزاهما الله خيرًا.

وقد أعدنا مقابلة النص بالمخطوطات الكثيرة التي توفرت عندنا، وأثبتنا الاختلافات ورَجّحنا القراءة الصحيحة التي رأيناها مناسبة، فضلًا عن الإحالة إلى الموارد التي اقتبس منها مؤلف الكتاب مما وقفنا عليه ومما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

ثم كان من أهم وكدنا تخليص النص من الزيادات التي أقحمها دوزي في نص «البيان المغرب»، وقد قاسينا من أجل ذلك الكثير، ذلك أن دوزي كان يتصرف في النص تصرفًا عجيبًا، وكأنه يؤلف تاريخًا جديدًا.

وضبطنا ما يُشكل من النص بالشَّكْل ليقرأ قراءة سليمة، والضبط إنما يقوم على دعامتين رئيستين، أولاهما: حسن قراءة المخطوطات والإدمان على خطوطها وأساليب رسمها، وثانيهما: المعرفة بموضوع الكتاب. أما الأسماء فهي من أولى الأشياء بالضبط، فإنه شيء لا يدخله القياس ولا سيما في الأسماء الأعجمية؛ الإسبانية والأمازيغية التي ترسم بأشكال متنوعة، وقد استعنا بخبرتنا وبكل وسيلة لإتقان هذا الضبط؛ إيمانًا منا بأن نشر مثل هذه النصوص من غير ضبط مخالف لأصول التحقيق الدقيق الذي نسعى من أجل الوصول إليه.

ولا أراني بحاجة إلى ذكر منهجي في التحقيق، فهو مدوّن في كتبي المؤلفة في هذا الشأن، وفي المقدمات التي كتبتها لعشرات الكتب التي عنيت بتحقيقها.

---

(١) المجلد العشرون، ص٧٧-١٠٢.

وقد شاركني في تحقيق هذا الكتاب ولدي المؤرخ البارع الأستاذ محمود بشار عواد الذي تشرّب هذا العلم، فبرع فيه وأجاد، فكان أكثر الحمل عليه، في مقابلة النسخ الخطية التي صار من أميز المحققين في قراءة الخطوط المغربية والأندلسية العسيرة، وفي الإشارة إلى مناجم النصوص والمقابلة بينها.

ولست في هذه المقدمة الوجيزة في معرض انتقاد ما نُشر من هذا الكتاب، فقد أشرت إلى إساءة دوزي بإقحام نصوص من كتاب عريب القرطبي وإدخالها في نص «البيان المغرب» مما أربك النص الأصلي الذي كتبه ابن عذاري، ثم إبقاء كولان وبروفنسال هذه الإساءة على حالها، لعله ظنًا منهم أنهم يصنعون خيرًا للدراسات المغاربية والأندلسية، فضلًا عن قراءات معوجّة لكثير من النصوص، ولا سيما عند انعدام النسخ الخطية المتقنة، وقيامهم بالنشر يومئذٍ على نسخ فريدة، فضلًا عن عجمتهم التي أدت في كثير من الأحيان إلى قراءات غير دقيقة، استدرك بروفنسال بعضها مما يتصل بالجزء الثالث المنشور في باريس سنة ١٩٣٠م فاستدرك الكثير منها.

ومع ذلك فإنَّ مثل هؤلاء يستحقون كل تقدير وثناء لما قاموا به من جهود محمودة لنشر التراث العربي الإسلامي في وقت كانت فيه الأمة العربية في سبات عميق وجهل مدقع، إذ كانوا روّادًا لنشر أمهات الكتب التراثية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

إنما العتب على أبناء هذه الأمة التي كان أكثر تحقيقاتها لا يتعدى في كثير من الأحيان اجترار هذه الأعمال وإعادة نشرها من غير تحقيق دقيق ومقابلة صحيحة بأصول المخطوطات.

ومن ذلك القسم الخاص بالموحدين الذي وضعت على غلافه أسماء لامعة في الدراسات المغاربية فإنه لم يكن بالمنزلة التي عُرفت عن هذه الأسماء، فالقراءات غير دقيقة في كثير من الأحيان. وكنت حريصًا على بيان ما وقع من تصحيف وتحريف وسقط في هذا الجزء المهم من الكتاب، ثم توقفت عن ذلك بعد برهة لم تتجاوز المئة صفحة لعدم إحالة ذلك على سبب من الأسباب سوى متابعة نشرة هويسي ميراندا السقيمة، فالسقط كثير قد تجاوز الحد المعقول، والتحريف والتصحيف يكثر في كل صفحة، وربما غيروا بعض العبارات مما لا أصل له في النسخ الخطية ظنًا منهم أن هذا هو الصواب الذي ليس فيه ارتياب. وربما تركوا نص المخطوطات وراحوا ينقلون من المصدر الذي ينقل منه المؤلف، كما في كثير من النصوص المنقولة من كتاب «المن بالإمامة»، وهو أمر غريب عجيب في تحقيق النصوص لم نعهده عند أحد قبلهم.

ولا بد لي وقد أنهيت تحقيق هذا الكتاب أن أنوّه بفضل من كان السبب في ظهوره بهذه الهيئة العلمية التي نأمل أن تسر كل محب لتراث هذه الأمة حريص عليه، وفي مقدمتهم الصديق الصدوق الحاج الأستاذ حبيب اللمسي الذي أصر على هذا العمل ووفر له كل ما يحتاجه على أحسن موفر.

ثم إلى صديقنا العَلّامة الأستاذ بشير البكوش الذي صَوّر لنا بعض المخطوطات وأتحفنا بها طبع من الكتاب، ثم ما اقترحه من خطة لتحقيق الكتاب دلّلت على فهم عميق ودراية بالتراث المغاربي.

أما الصديق المحقق العلّامة الأستاذ أحمد بن بنبين فإن أفضاله علينا تترى بما وفره لنا من صور المخطوطات ليس لهذا الكتاب حسب، بل لكثير مما نشرنا في سلسلة التراجم الأندلسية فاستحق كل ثناء وتقدير على كرمه وأريحيته وتشوقه الدائم لخدمة التراث العربي الإسلامي والعاملين على تحقيقه ونشره.

وصف النسخ الخطية:

أولًا: مجلد الخزانة الملكية بالرباط رقم (٣٣٤).

ويتكون من ثلاثة أقسام في مجلد واحد، خالٍ من تاريخ النسخ ومن تسمية الناسخ، كتب بخط مغربي متأخر، وكتبت العناوين بالحمرة، ومسطرته (٢٩) سطرًا في كل صفحة.

القسم الأول: ويقع في (١١٥) صفحة، وهو موافق للجزء الأول من تقسيم المؤلف وقد رمزنا له «ر١».

القسم الثاني: يبدأ عند الصفحة (١١٦) وأوله: «الجزء الثاني من الكتاب في أخبار الأندلس» ويستمر إلى الصفحة (٢٥٤) وجاء في آخره: «كمل السفر الأول بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجميل ويمنه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا»، وقد رمزنا له «ر٢»، وهو القسم الأول من التاريخ الأندلسي.

القسم الثالث: وقد كتب في صفحة مستقلة منه: «السفر الثالث، وهو الأخير من البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تأليف الشيخ الأجل الأثير الأفضل الراوية المطلع الحسيب الأكمل أبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري رحمه الله بمَنّه آمين». ويبدأ في الصفحة (٢٥٥): «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم» ثم بخط أحمر وسط الصفحة: «اختصار الخبر بحركة تاشفين إلى الجبل برسم قتال الموحدين» وينتهي بآخر الكتاب عند الصفحة (٤٨٨)، وقد رمزنا له «ر٣».

ثانيًا: مجلد المكتبة الوطنية للمملكة المغربية رقم (٣٣٣).

وهذا المجلد كان في خزانة العلامة المحدث الشريف السيد محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني بمدينة فاس، ثم انتقل إلى المكتبة الوطنية بالرباط، ويتكون من (١٢٠) ورقة، في كل ورقة صفحتان، مسطرة الصفحة (٢١) سطرًا، كتب بخط عتيق جميل مشكول، لكن الأرضة والإصلاح غير الفني لكثير من أوراقه جعل النسخة صعبة القراءة، لكن الحَسّابات (الكومبيوترات) تسهل هذه

المهمة. وهذا المجلد هو الذي نشره بروفنسال باسم الجزء الثالث في باريس سنة ١٩٣٠م، ويبدأ بـ«ذكر ولاية عبد الملك بن أبي عامر الحجابة للخليفة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر». وينتهي بقوله: «وقال الحميدي في كتابه: كان أبو عمرو عباد صاحب إشبيلية من أهل الأدب البارع والشعر الرائع، وقد رأيت له سفرًا صغيرًا في نحو ستين ورقة من شعر نفسه فمن قوله:

كأنها ياسميننا الغَضُّ ... كواكب في السماء تبيض»

وقد رمزنا له بـ«الأصل».

ثالثًا: مجلة الخزانة الملكية بالرباط رقم (٣٣٦).

وهو قسم من المجلد الثالث الذي يبدأ بـ«اختصار الخبر بحركة تاشفين إلى الجبل برسم قتال الموحدين»، وينتهي بآخر الكتاب، ويقع في (٤٥٩) صفحة مسطرتها (٢١) سطرًا، كتب بخط مغربي جميل، وكُتبت العناوين بالحمرة وتاريخ نسخه مثبت في آخره وهو: «وكان الفراغ منه بين صلاة الظهر من يوم الاثنين الموفي عشرين للشهر المبارك شعبان سنة خمس وستين ١١٠٠» فكأنه يريد ١١٦٥هـ. وقد رمزنا لهذا المجلد بالحرف (ك).

رابعًا: مجلد الخزانة الملكية بالرباط رقم (٧٧٧).

ومحتواه مثل محتوى المجلد (٣٣٦) إذ يبدأ باختصار الخبر بحركة تاشفين وينتهي بآخر الكتاب، ويتكون من (١٨٣) ورقة ذات وجهين مسطرتها (٣٢) سطرًا، وخطه مغربي جيد، وكتبت العناوين بالحمرة وبخط غليظ. وقد رمزنا له بالحرف (ق).

خامسًا: مجلد الخزانة الملكية بالرباط رقم (٢١٥٠).

ومحتواه مثل سابقه، ويقع في (٢٣٢) ورقة ذات وجهين مسطرتها (٢٣) سطرًا، كتب بخط مغربي جميل، وكتبت عناوينه باللون الأحمر، وليس فيه اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ. وقد رمزنا له بالحرف (ب).

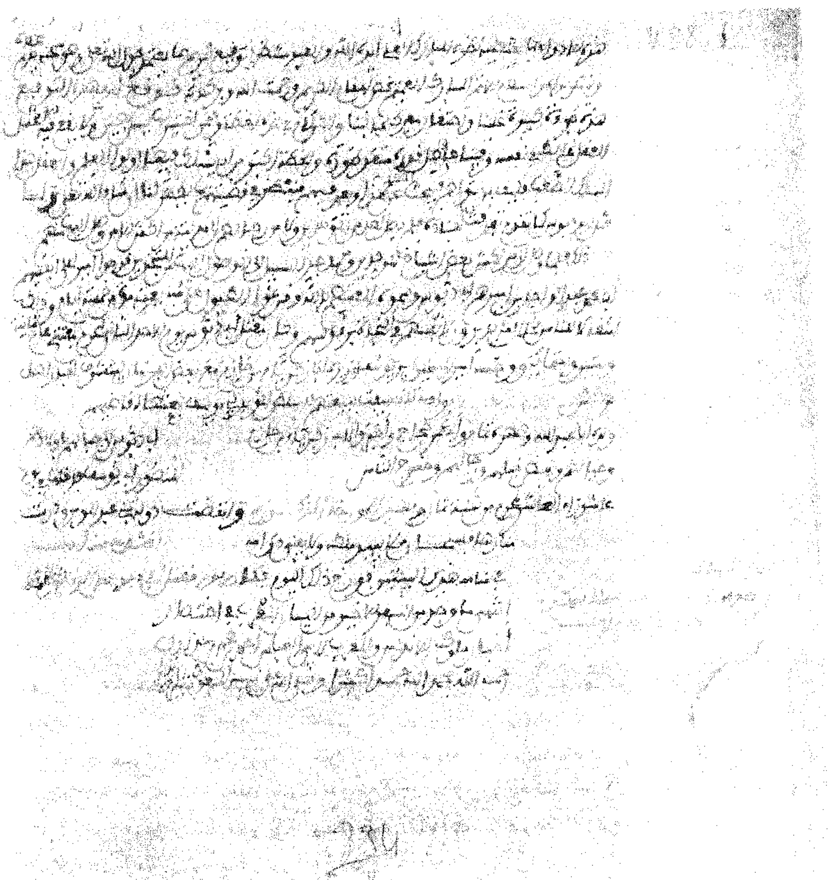
سادسًا: مجلد الخزانة الملكية بالرباط رقم (١٠٣٠١).

وهو قسم من أول الجزء الثاني الخاص بالأندلس ويقع في (٦٩) ورقة، ويبدأ في أثناء حوادث سنة ١٩٣هـ[1]، وينتهي في آخر الجزء الثاني الذي نشره بروفنسال، وهو آخر القسم الأول من الجزء الثاني. وقد رمزنا له بالحرف (ت).

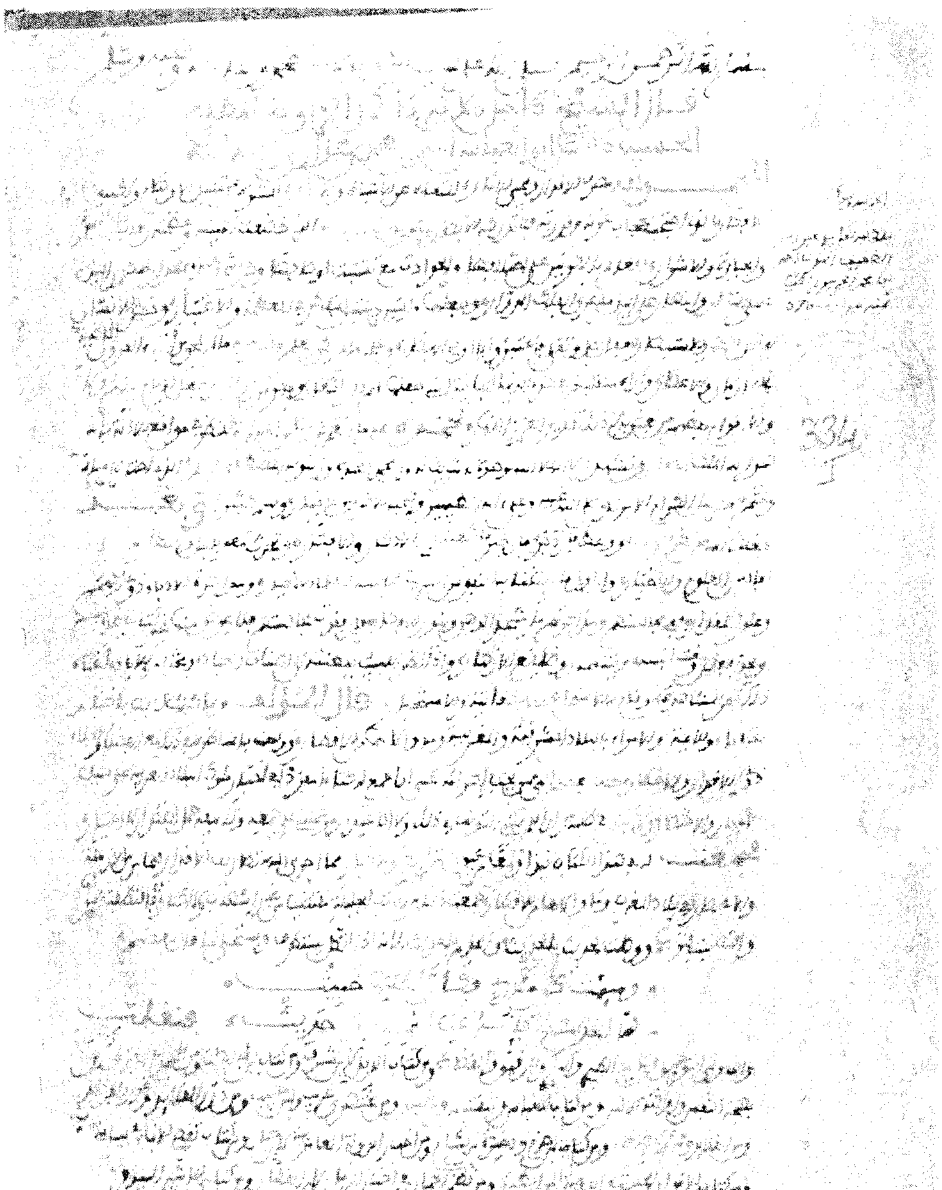
أما رمز ما طُبع من الكتاب فهو (م).

---

(١) تنظر الصفحة ٨٩ من المجلد الثاني.



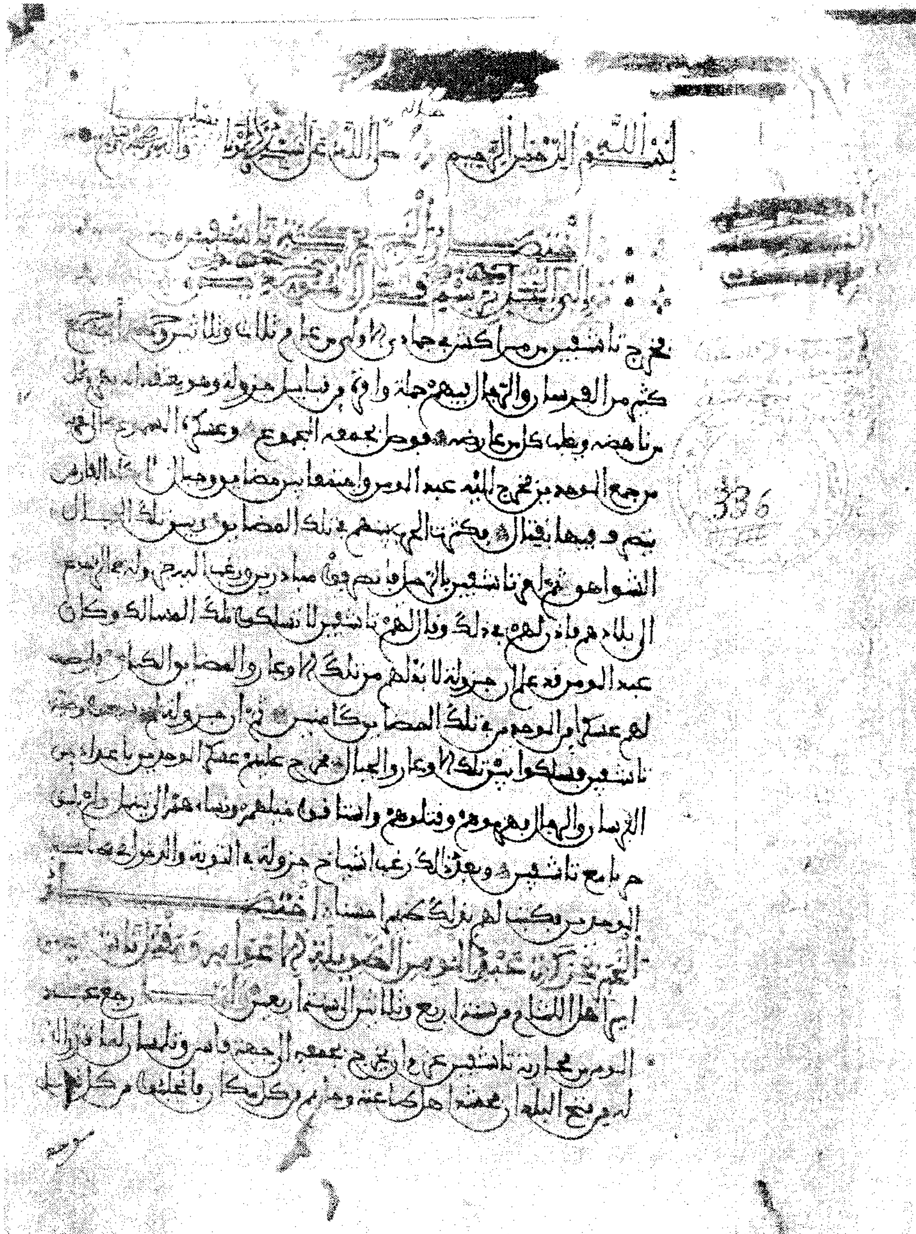
آخر المجلد المحفوظ في الخزانة الملكية بالرباط برقم (٣٣٤) وهو آخر القسم الثالث من الكتاب



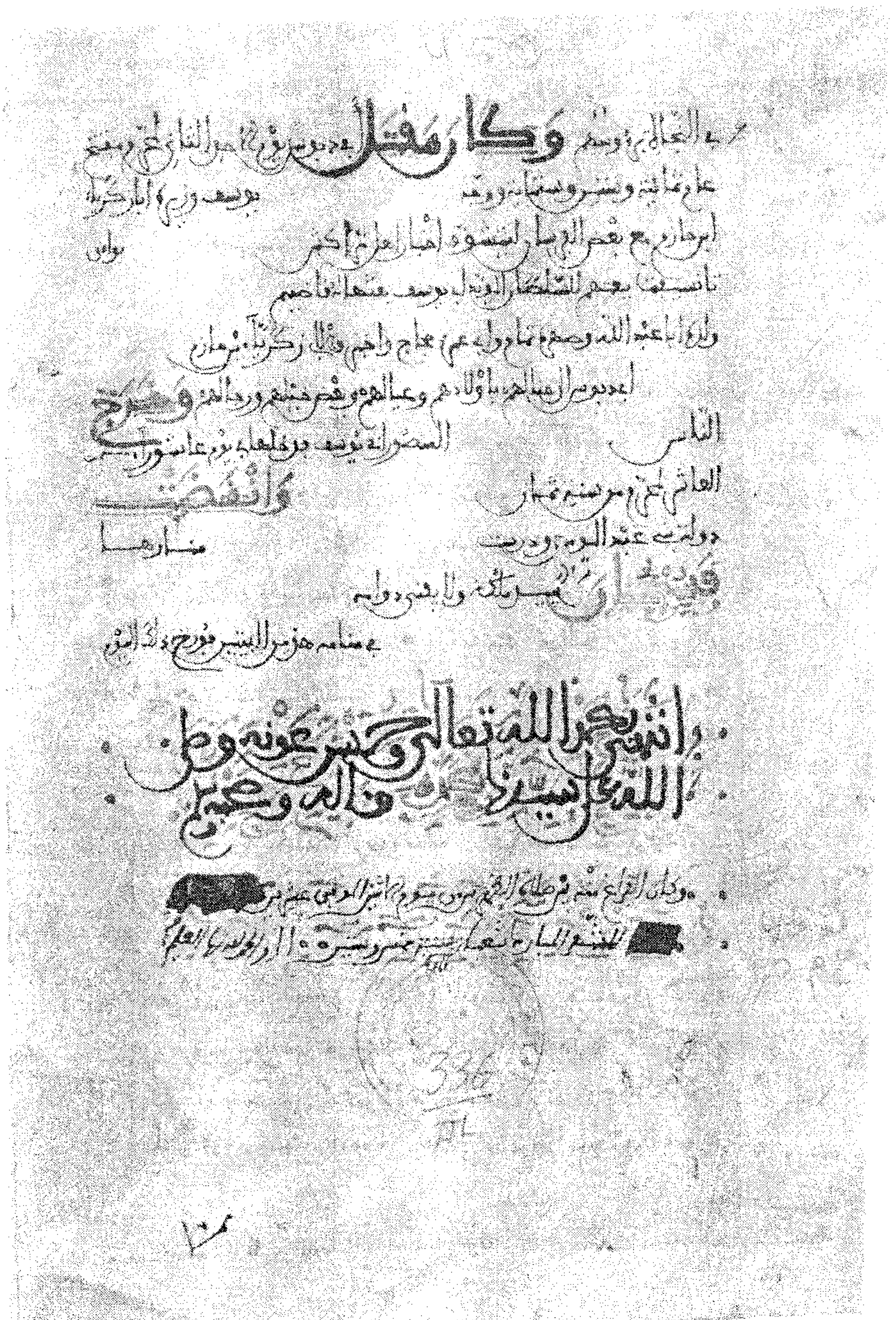
راموز أول المجلد المحفوظ في الخزانة الملكية بالرباط برقم (٣٣٤)



راموز الورقة الأولى من نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم (٣٣٣)

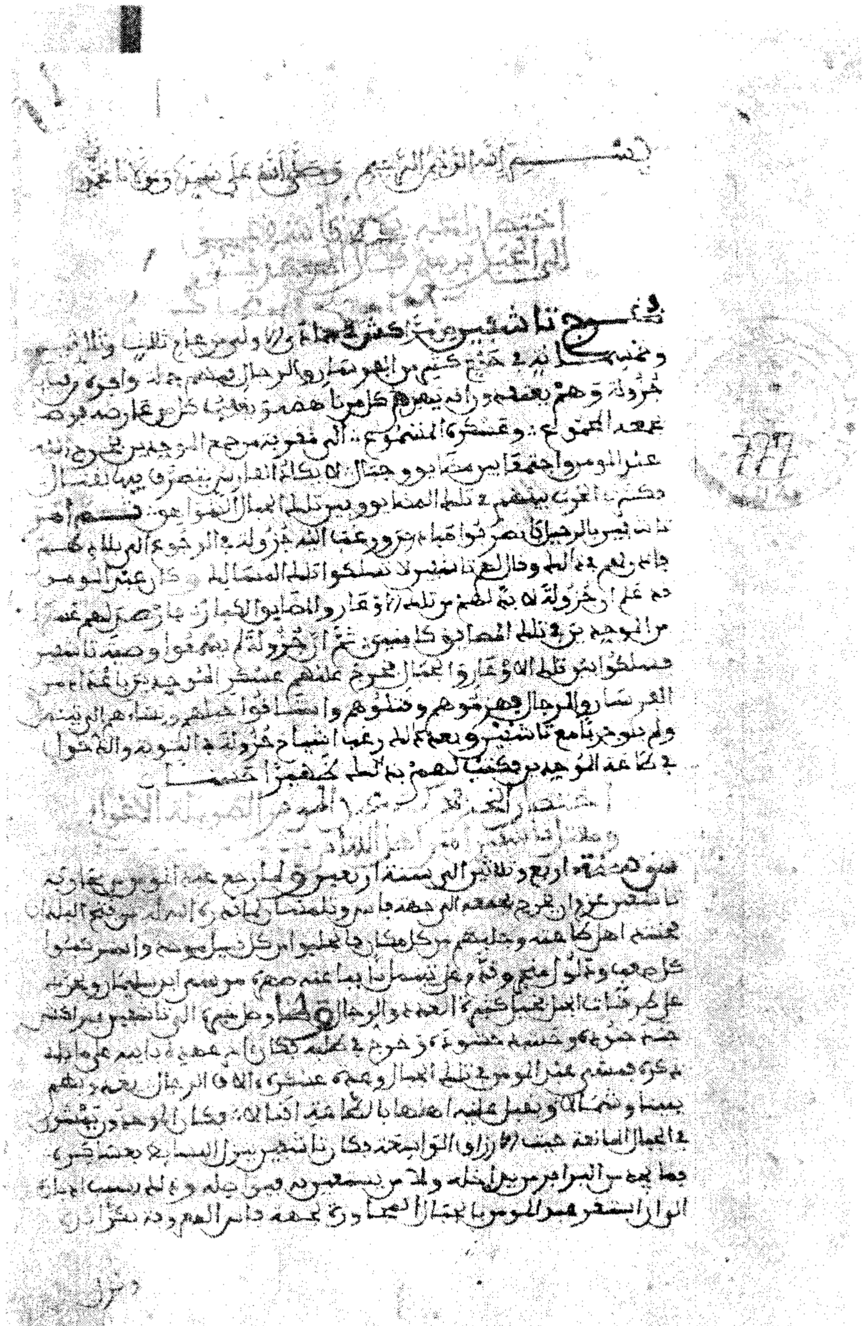


راموز الورقة الأولى من نسخة الخزانة الملكية بالرباط رقم (٣٣٦)



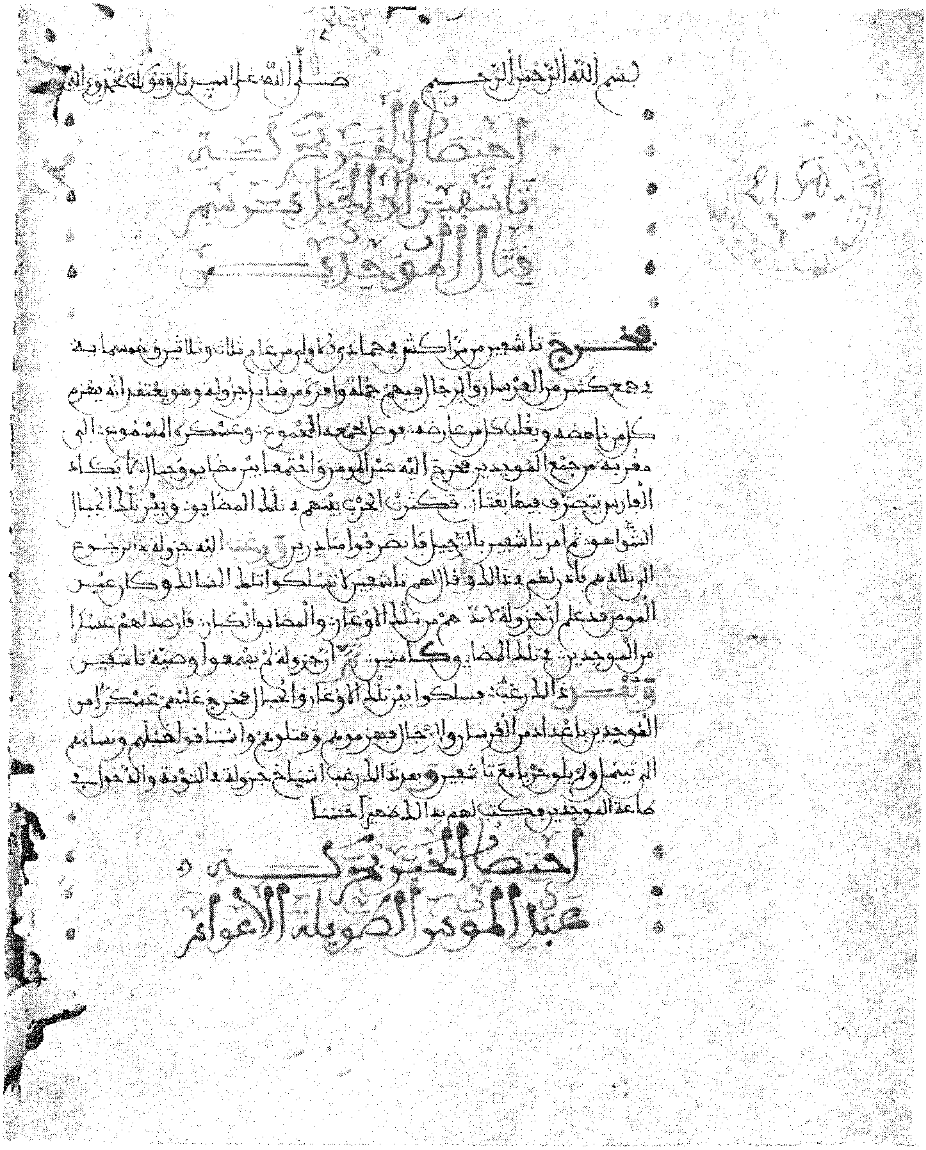
وانتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وصلى
الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

آخر نسخة الخزانة الملكية بالرباط رقم (٣٣٦)



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

الورقة الأولى من مجلد الخزانة الملكية بالرباط رقم (٧٧٧)



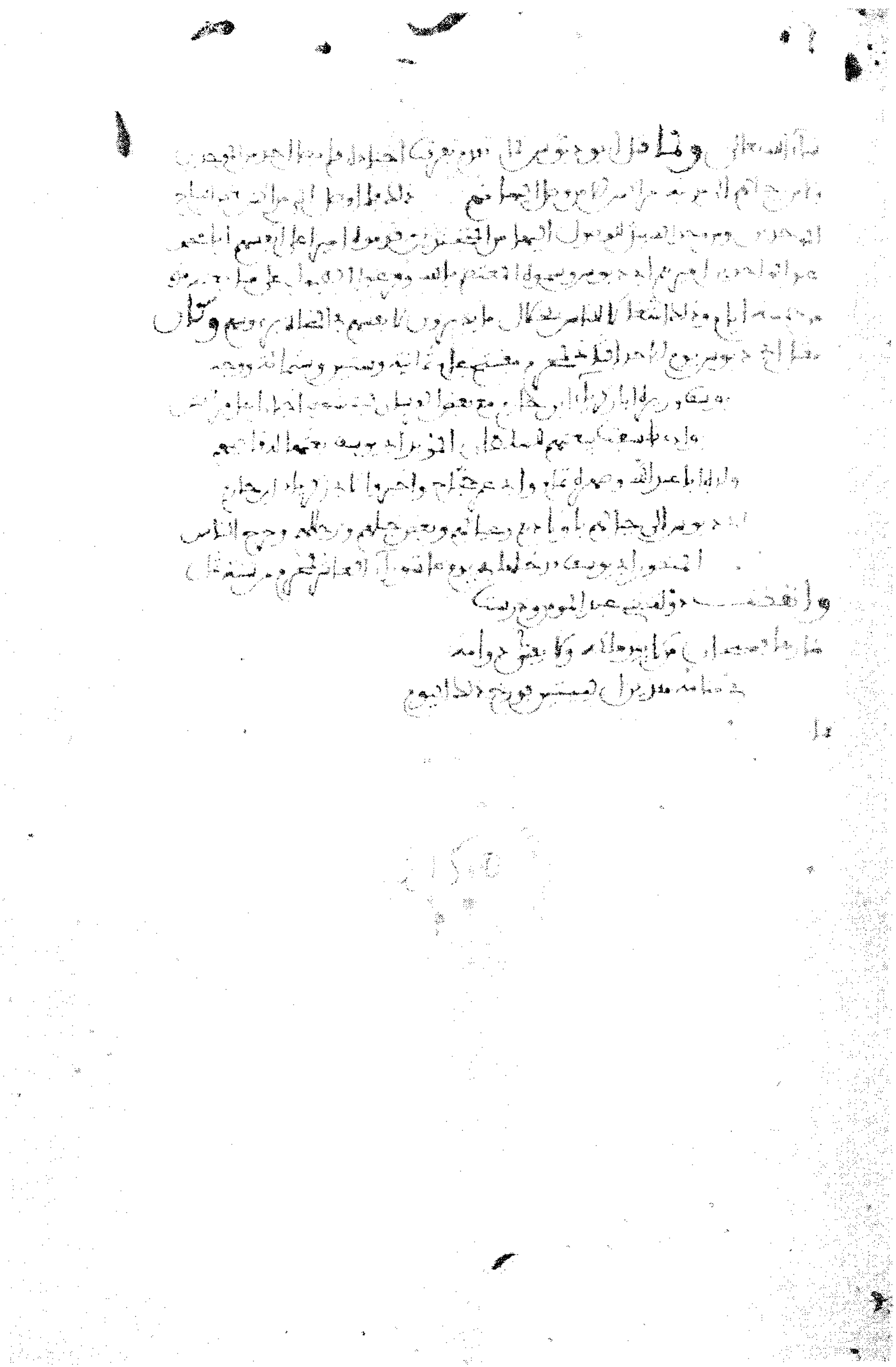
بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

الخبر عن حركة تاشفين بن علي بن يوسف وقتال الموحدين

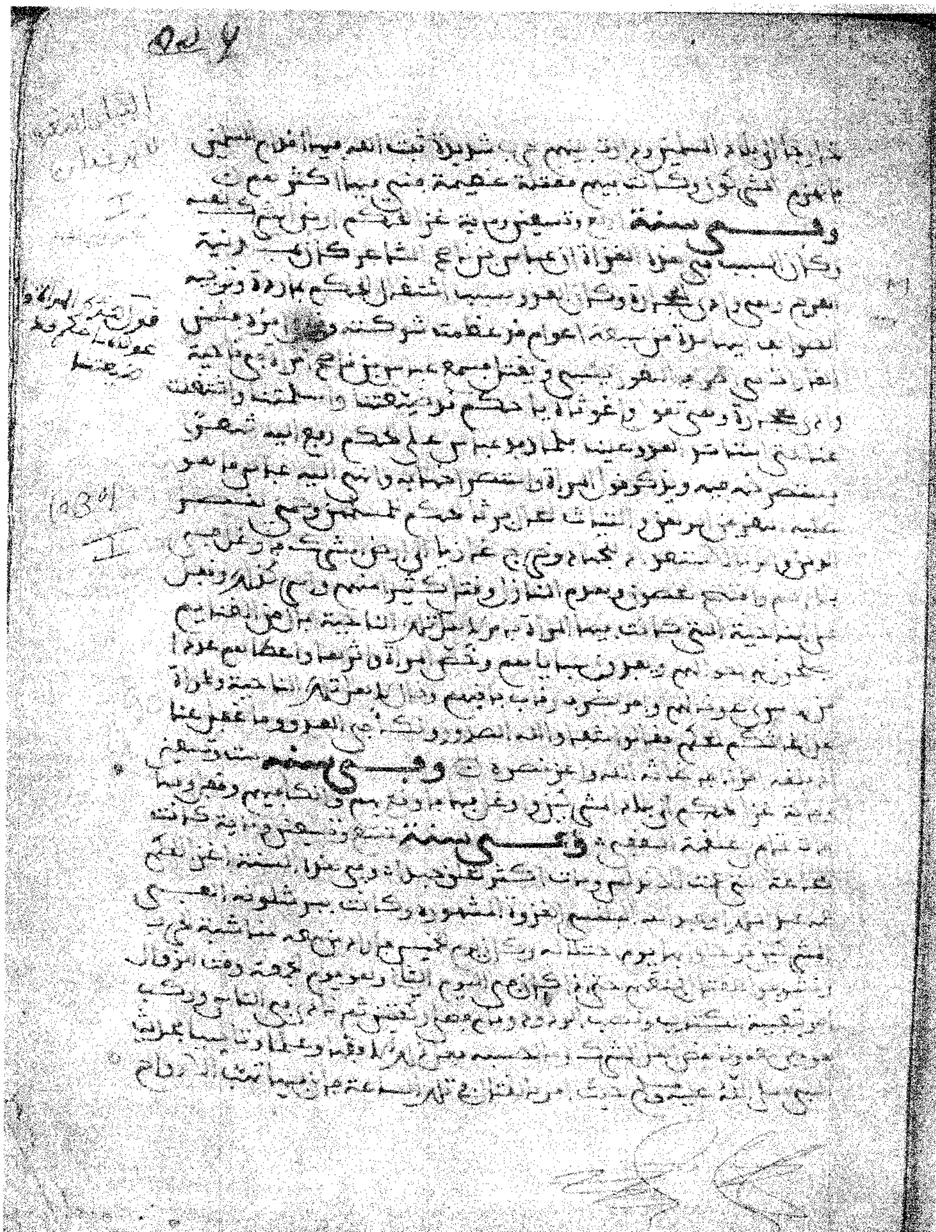
خرج تاشفين من مراكش في جمادى الأولى من عام ثلاثة وثلاثين وخمسمائة في جمع كثير من الفرسان والرجال فيهم جملة وافرة من قبائل جزولة وهو يعتقد أنه يهزم كل من ناهضه ويغلب كل من عارضه فوصل بجمعه المجموع وعسكره المشهور إلى [illegible] من جمع الموحدين فخرج إليه عبد المؤمن واجتمعا بين مضايق وجبال لا تكاد الفارس يتصرف فيها بعنان فكثرت الحرب بينهم في تلك المضايق وبين تلك الجبال الشواهق ثم أمر تاشفين بالرحيل فانصرفوا [illegible] جزولة في الرجوع إلى بلادهم فأذن لهم في ذلك وقال لهم تاشفين لا تسلكوا تلك المسالك وكان عبد المؤمن قد علم أن جزولة لابد لهم من تلك الأوعار والمضايق والكهاف فأرصد لهم عسكرا من الموحدين في تلك المضايق وكامنين [illegible] جزولة لم يسمعوا وصية تاشفين وتفرقت الرعية فسلكوا بين تلك الأوعار والجبال فخرج عليهم عسكر من الموحدين [illegible] من الفرسان والرجال فهزموهم وقتلوهم واستأصلوا خيلهم وسلاحهم ولم ينج منهم [illegible] تاشفين [illegible] أشياخ جزولة في التوبة والدخول في طاعة الموحدين فكتب لهم [illegible]

الخبر عن حركة عبد المؤمن الطويلة الأعوام

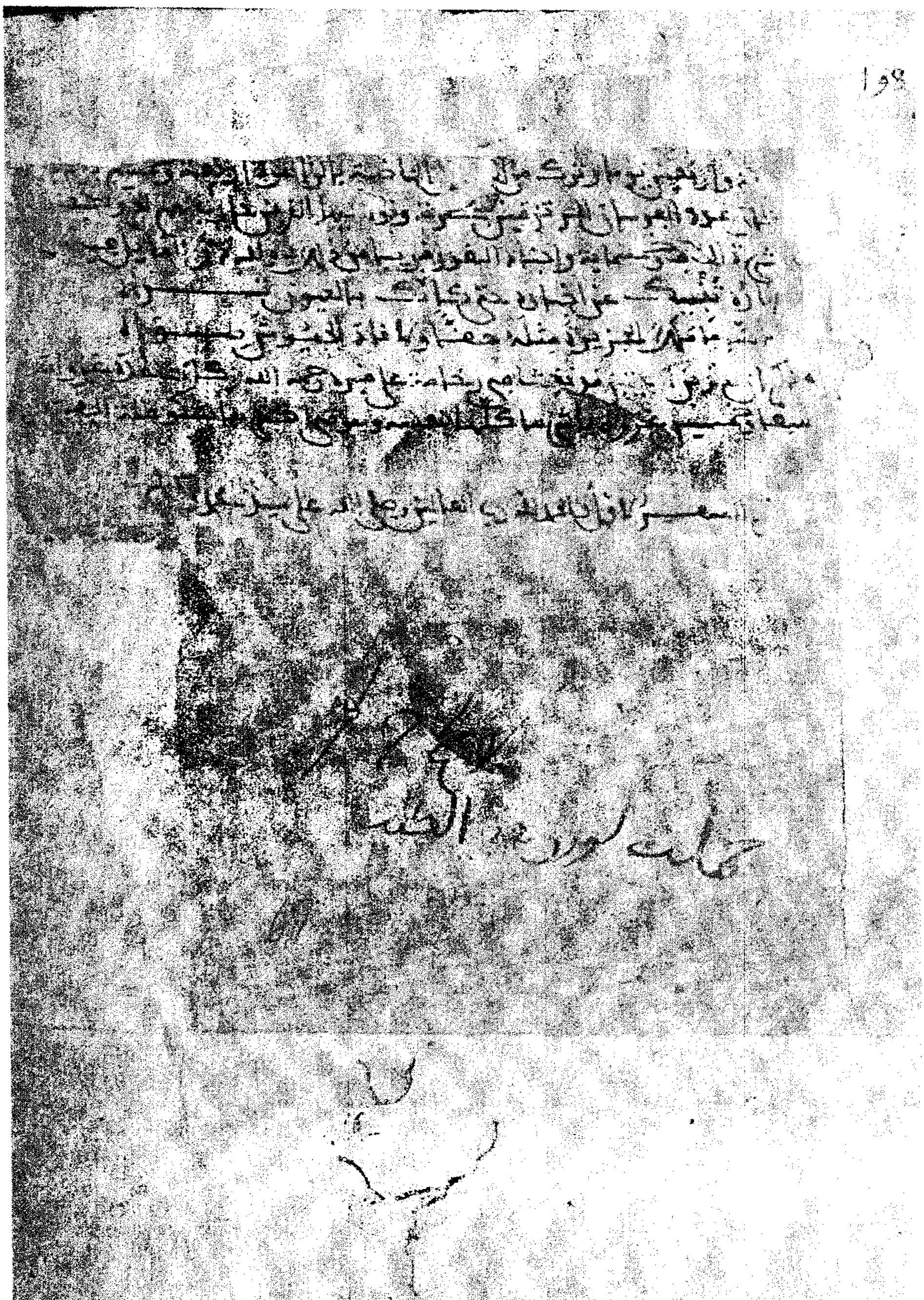
راموز الورقة الأولى من المجلد المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط برقم (٢١٥٠)



آخر المجلد المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط رقم (٢١٥٠)



راموز الورقة الأولى من نسخة الخزانة الملكية بالرباط رقم (١٠٣٠١)



راموز الورقة الأخيرة من نسخة الخزانة الملكية بالرباط رقم (١٠٣٠١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه(١)

الحمدُ لله مُصَرِّفُ الأقدار، ومُحْيي الآثار، الـمُتَعالِـي(٢) عن الأشباه والأنظار، الـمُتَنَزِّهُ عن تمثيل الأوهام وتكييف الأفكار(٣)؛ الذي احتجبَ بحجاب عِزَّته وقُدْرته، فلا تُدْرِكه الأَبْصار، وهو يُدْرِكُ الأَبْصار؛ الذي خَضَعت لهيبته وعَظَمته رقابُ الأكاسِرة والـجَبابِرة والأشرار؛ العالمُ بالكَوْنَيْن على اخْتِلافها، والحوادِث مع تشتيت أَوْصافها، وكلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدار؛ مُكَوِّرُ الليل على النهار، والنهار على الليلِ ما جَرَى الفَلَكُ الدَّوَّار، وجعلهما آيتَين بيّنتَيْن للتفكُّر في العَظَمَة(٤) والاعتبار؛ وخَصَّ الإنسان بفَضْل النَّظر والاستبصار، فقال، جلَّ وتعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢]؛ وعلَّمه ما لم يكن يَعْلم، وكرَّر عليه ما لم يَلْحقْ من أنباء القُرون الماضية في الأزمان والأعصار؛ وأراه مُتَقَلَّبَهم في هذه الدنيا الفانية التي جعلها لهم دارَ انتقال، ومَفَرٌّ من زوال(٥)، وجعل الأَيَّام بينهم دُوَلًا، والأقوامَ بعضَهم من بعضٍ بَدَلًا، ذلك تقديرُ العزيز القهَّار! نحمدُه على ما أنعم به علينا من الهداية للنظر في مَواقِع الأدِلَّة بأنّه هو اللهُ الـمَلِك الغفَّار! ونشهد أن لا إلهَ إلّا الله وَحْدَه لا شريك له، وأنّ مُـحَمّدًا عبدُه ورسولُه الـمُصْطَفى المختار، الذي اختارَهُ لرسالته وختمَ به الرُّسُلَ الكِرام الأَبْرار، صلَّى الله عليه وعلى آله الطيِّبين وصَحْبه الأكْرَمين الأخيار، وسلَّم كثيرًا، وبعد:

جَعَلَنا اللهُ مـمّن نظر فاعْتَـبَر، ووُعِظَ فازْدَجر، فإنّ خَيْرَ ما شُغِلَتْ به الأذكار والأفكار، وتحدَّثَتْ معه بالليل والنهار، حِفْظُ ما أفادَ من العلوم والأخبار، وإنّ أولى

---

(١) بعد هذا في ر١: «قال الشيخ الأجل الأثير الأكمل الراوية المطلع الحسيب الأفضل أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري رحمه الله»، وهي من قول الناسخ بلا ريب.

(٢) في م: «والمتعالي».

(٣) في م: «الأذكار»، ولا معنى لها.

(٤) في م: «العظة»، وما هنا من النسخ.

(٥) في م: «وزوال».

ما رَيَّضْنا به النفوسَ البَشَرِيّة مُـجالسةُ العُلَماء والأخيار، ومُذاكَرةُ الأُدَباء ذَوِي الـهِمَم وعُلُوِّ الـمِقْدار، ففي مُـجالَستِهم ومُذاكَرتِهم ما يَسْحضرُ الذهْنَ وينوِّرُ الأفكار؛ فإن فُقِدَتْ مجالستُهم، فلا عِوَضَ منها غيرُ كتاب يتَّخذه جليسَه، ويَـجِدُه في كل وقت أنيسَه، ويتَنَسَّمه رَوْضًا يانِع الأزهار، وإذا نظر اللبيبُ بفطنته إلى أصْناف العِباد، ومُـخْتَلِف الآباد، أغْنَاهُ ذلك عن المشاهَدة، وقام له الاستماعُ مقَامَ المعايَنة والاسْتِخبار.

قال المؤلف: ولـمّا كُنْتُ كَلِفْتُ بأخبار الـخُلَفاء والأئمَّة والأمراء بالبلاد الـمَشْرقيَّة والـمَغْرِبيَّة وما والاهما من الأقطار، ووَلعتُ بالـمُناظرة في ذلك مع الفُضَلاء والأخِلاء ذَوِي الأقدار والأخطار، طَلَبَ بَعْضُهم إليَّ، مـمّن يجب إكرامُه عليَّ، أن أجْمَع له كتابًا مُفْرَدًا في أخبار ملوك البلاد الغربيَّة على سبيل الإيجاز والاختصار، ولازَمَني في طلبه مِرارًا؛ فلم يُمْكِنِّي التوقُّفُ في ذلك ولا الاعتذار، وحـمَلَني على جَمْعه وتأليفه حَـمْلَ اضطرار لا اختيار، فجَمَعْتُ له في هذا الكتاب نُبَذًا ولُـمَعًا من عيون التواريخ والأخبار، مـمّا أجرى اللهُ به تصاريفَ الأقدار، فيما مرَّ من الأزْمِنة والأعصار، في بلاد الـمَغْرِب وما والاها من الأقطار: جَـمَعْتُ ذلك من الكُتُب الجليلة مُقْتَضَبًا من غير إسهاب ولا إكثار، فاقتطفْتُ عيونَها، واقتضبْتُ فنونَها، ووَصَلْتُ الحديثَ بالقديم، والقديمَ بالحديث؛ لأنّه إذا اتَّصل، يُسْتَطْرَفُ ويُسْتَحْلَى، كما قال بَعْضُهم[1] [من مجزوء الكامل]:

وسَـئِمْتُ كـلَّ مـآرِبي ... فكـأنَّ أطْيَبَهـا خَبِيـثُ

إلّا الحـــديثَ فإنَّـــهُ ... عند اسمه أبدًا حَـدِيثُ

فنَقَلْتُ ـ واللهُ وليُّ التوفيق ـ من تأريخ: الطَّبَرِيّ، والبَكْرِيّ، والرَّقيق، والقُضاعيّ، ومن كتاب «الذَّيْل» لابن شَرَف، ومن كتاب ابن أبي الصَّلْت، ومن «المجموع الـمُفْتَرَق» ومن كتاب «بَهْجة النَّفْس ورَوْضة الأنْس»، ومن كتاب «الـمِقْباس»، و«الـمُقْتَبَس»، و«القَبَس»، ومن مُـخْتَصَرَيْ عَرِيب وابن حَبِيب، ومن «دُرَر القلائد وغُرَر الفوائد»، ومن «القلائد» و«الـمَطْمَح» لابن خاقان، ومن كتاب ابن حَزْم، و«ذخيرة» ابن بَسَّام،

---

(١) هو ابن الرومي، كما في ديوانه ٩٣٤، والإمتاع والمؤانسة ٣٤، والبصائر والذخائر ١٩٨ وغيرها.

ومن «أخبار الدولة العامِريَّة» لابن حَيَّان، ومن كتاب «تَقَصِّي الأنْباء في سياسة الرؤساء»، ومن كتاب «الأنوار الـجَلِيَّة في الدولة الـمُرابِطيَّة»، ومن «نَظْم الـجُمان في أخبار الزمان» لابن القَطَّان، ومن كتابَي الأشيري والبَيْذَق، وكتاب يوسف الكاتب، وكتاب ابن صاحِب الصَّلاة أبي مروان، ومن كتاب ابن رَشِيق، ومن كتابٍ وجَدتُه أو تعليق، ومن شيوخ أخذتُ الأخبار الوقتيَّة عنهم بتحقيق، واللهُ الهادي إلى سواء الطريق[1].

ولـمّا كمل ما قيَّدتُه وجرَّدتُه، جَزَّأتُهُ على ثلاثة أجزاء: كلُّ جُزْء منها كتابٌ قائمٌ بنفسه، ليكون لـمُطالِعه أوضحَ بيان، وأسهلَ مرام لدى العِيان. وسمَّيتُه بـ«**البَيَان الـمُغْرِب في اخْتِصار أخْبار مُلوك الأندلُس والـمَغْرِب**». أما الـجُزْءُ الأوَّل: فاختصرتُ فيه أخبار إفريقية من حِين الفَتْح الأوَّل، في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، ثمَّ أخبار أمرائها من وُلاة الـخُلفاء الأمَويّين، ومن دخل الغَرْب منهم، ومَن قام بإفْريقية من الصُّفْريَّة والإباضيَّة[2]، ثمَّ قام فيها بالدولة العبَّاسيَّة، ومَن مَلَكَها من بني الأغْلَب؛ وأخبار بني عُبَيْد الشيعة؛ وأخبار زناتة الصُّنْهاجيّين[3] وغيرهم، وكلّ ما اشتُهر من أمرهم، إلى حين انتقال العُبَيْدِيَّة إلى البلاد المصريَّة، واستخلافهم صُنْهاجة على إفريقية؛ ثمَّ خَلْع صُنْهاجة لهم، واستيلائهم على إفريقية. ونذكر فتنة العرب وأسبابها، ودخولهم إلى القَيْرَوان وخَرَابها، وتنقُّل أمراء صُنْهاجة إلى الـمَهْديَّة، ومَن مَلَكها منهم، وما اشتُهِر في ذلك من الأخبار عنهم من ملوك الـمَنادِيّين، والـحَمَّاديّين، إلى حين ظهور الـمُوَحِّدين. ولَـخَّصْتُ في ذلك كلّه أخبار أمراء البلاد الغربيَّة، ومن دخلها، من أخبار الدولة العُبَيْديَّة؛ وذكرتُ أخبار الـمِدْراريّين السِّجِلْماسيِّين، والأمراء الإدريسيّين، وأخبار البَرْغَواطيّين، والزَّناتيّين، ومن ملكَ فاسًا من زناتة الـمَغْراويّين، ومن وُلاةِ الـخُلَفاء الأمَويّين الأنْدَلُسيّين، على أنّ أخبار المغرب الأقصى أكْثَرُ من أن تُـحْصَى؛ لكنّي نَسَقْتُهـا نَسْقَ الأسلاك، وسُقْتُ من كان فيـه

---

(١) فَصّل الأستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون طه موارد ابن عذاري في البيان فراجعه تجد فائدة.

(٢) الصُّفْرية والإباضية ـ نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمي ـ فرقتان من فرق الخوارج.

(٣) قيدها ناشر (م) بفتح الصاد، والمحفوظ أنها بالضم والكسر، والضم أكثر.

على الـوَلاء من الأملاك، من حيـن فتحِهِ الأوَّل إلى حيـن ابتداء الدولة اللَّمْتُونيَّـة الـمُرابِطيَّة.

والجزء الثاني: اختصرتُ فيه أخبار جزيرة الأنْدَلُس، وأملاكها الغابرين الدَّرْس، من حين الفتح الأوَّل؛ ثمَّ من وليَها من الأمراء للخُلَفاء الأمَويّين بالـمَشْرق؛ ثمَّ من قامَ بها من العَرَب الفِهْريين إلى حين دخول الخلفاء الأمَويّين في ابتداء أمرهم؛ ومن قامَ عليهم من الثوَّار الأنْدَلُسيّين. وذكرتُ بعض أخبارهم وآثارهم في غَزواتهم وحَرَكاتهم، إلى انقضاء مدَّتهم بعد ذِكْر حُجَّابهم العامريّين ومآثرهم إلى حين انقضاء الدولة العامِريَّة، وقيام الفتنة البَرْبَريَّة. وذكرتُ فيه أخبار ملوك الطَّوائف، بعد انقضاء دُوَل الخلائف، من الـحَمُّوديّين، والـهُوديّين، والـجَهْوَريّين، والعَبَّاديّين، وفِتيان العامِريّين، والصُّمادِحيّين، والزَّناتيّين، والبَكْريّين، والأفْطَسيّين، والصُّنْهاجيّين، وغيرهم من الرؤساء الأندلسيّين؛ وكل ذلك إلى حين دخول لَـمْتُونة إلى الأنْدَلُس سنة ثمانٍ وسبعين وأربع مئة.

والجزء الثالث: اختصرتُ فيه أخبار الدولة الـمُرابِطيَّة اللَّمْتُونيَّة، وخروجهم من صَحْرائهم في ابتداء أمرهم، واستيلائهم على مملكة أمَراء المغرب والأنْدَلُس، وخلْعِهم لجميعهم، وتَغَلُّبهم على مملكة كلٍّ منهم، وما تسنَّى لهم فيها من الفُتوحات والـمُنوحات، إلى حين ابتداء دولة الـمُوَحِّدين وظهورهم، ونُـبَذٍ من أحوالهم وأمورهم، ثمَّ ما كان بين أمراء الدولتَيْن من مُقاتَلات ومُنازَلات، وحَصْرِ من حُصِر ونَصْرِ من نُصِر ـ سمح الله لهم ـ وذلك إلى حين انقراض الدولة الـمُرابِطيَّة، وابتداء الدَّولة الموحِّديَّة. ثمَّ ما تخلَّل بعد ذلك للموحِّدين من النصر والتأييد، ومن فُتوح ومُنوح، وصُنْع عَجيب في البلاد الإفريقيَّة والأنْدَلُسيَّة، إلى حين انقراض دولتهم، وذلك بسبب أحداث حدثَتْ عليهم، وأحوال نُسِبَتْ إليهم؛ وذكرتُ الدولة الـحَفْصيَّة الـمُوَحِّديَّة الـهِنْتاتيَّة، في البلاد الإفريقيَّة، والدولة الـهُوديَّة الـمُتَوَكِّليَّة والنَّصْريَّة الأحْـمَريَّة في البلاد الأندلسيَّة، والدولة السعيدة الـمَرِينيَّة في البلاد[1] الغَرْبيَّة؛ اختصرتُ من ذلك كلِّه ما اشتهر أمرُه، وأمكَنَني ذكرُه. وذكرتُ بعض البَيْعات والرسائل السُّلْطانيَّات،

---

(١) سقطت من ر١.

وما تعلَّق بها، وكان بسببها من الوقائع المذكورات، والأمور المشهورات؛ وذلك إلى انقضاء الدولة الـمُوَحّديَّة، واستيلاء الإمارة اليوسُفيَّة الـمَرِينيَّة على حَضْرَتهم الـمَرَّاكُشيَّة؛ وذلك على مرور السِّنين إلى عام سبعة وستين وست مئة.

قال المؤلِّف ـ سمح الله له ـ: فإن كنتُ اقتصرتُ، فيما اختصرتُ، فعُذْرًا فيما ظهر من تَقصير، وباع قصير، فإنَّ الذِّهْنَ كليل، والقَلْبَ شَغِيل. وكنتُ قد قدَّمتُ نُسخةً من هذا الكتاب، ورُبَّما زِدتُ في هذه الثانية أو نقصت، إذ كان الأَوْلَى بي والأَحْرى، ألّا أقَدِّمَ الأولى ولا أوَخِّر الأخْرى؛ ولكنِّي لا أمْلِكُ لنفسي نفعًا ولا ضَرًّا؛ وحَسْبي الاعتراف، فهو سبيل الإنصاف، نسأل الله الإرشاد إلى سواء السبيل، فهو حَسْبي ونِعْمَ الوكيل.

ذكر حَدِّ الـمَغْرِب وإفريقية وما اتَّصل بهما وعُدَّ مَعَهُما

قال أبو مَرْوان في كتاب «الـمِقْباس»، وابن حَـمَادُه في كتاب «القَبَس» وغيرهما، من المؤرّخين لأخباره، الـمُعْتنين بآثاره: إن حَدَّ الـمَغْرب[١] هو من ضفَّة النيل بالإسْكَنْدريَّة، التي تَلِي بلاد المغرب، إلى آخر بلاد الـمَغْرِب؛ وحَدُّه مدينةُ سَلا[٢]. ويَنْقَسِم أقسامًا: فقِسْمٌ من الإسْكَنْدرِيَّة إلى أطْرابُلُس؛ وهو أكْبَرُها، وأقلُّها عمارةً؛ وقِسْمٌ من أطْرابُلُس وهي بلاد الـجَريد، ويُقال أيضًا: بلاد الزاب الأعلى[٣]؛ ويلي هذه البلاد بلادُ الزاب الأسفل؛ وحَدُّها إلى مدينة تِيهَرْت[٤]، ويَليها بلادُ المغرب؛ وهي بلاد طَنْجة؛ وحَدُّها مدينةُ سَلا، وهي آخر المغرب. وإذا جُزْتَ سَلا، وأخَذتَ إلى ناحية الجنوب، تَرَكْتَ مَغْرِبَ الشمس يَمْنةً، وأخَذتَ منها قافلًا إلى القِبْلة، فتُسَمَّى تلك البلاد بلادَ تامَسْنا[٥]. ويُقال لها أيضًا: بلاد السُّوس الأدْنَى، وحَدُّها إلى جبل دَرَن[٦]. وإذا جُزْتَ هذا الجبل، فعَنْ يمينك بلاد السُّوس الأقْصَى، ويُقال لها: بلاد ماسَّة؛ ويتَّصل السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى السودان، وهي بلاد الزَّنْج[٧]. وبلاد الأنْدَلُس أيضًا من المغرب، وداخِلةٌ فيه، لاتِّصالها به. ويَلِيها المجاز الأعظم، الذي يسمَّى بحر الزُّقاق؛ وفيه مَصَبُّ البحر الكبير، الذي يُسمَّى الـمُحِيط؛ ويُقال له: بحر الظُّلُمات[٨]. وهذا البحر لا يُعْلَم له ساحِلٌ غير الذي عليه بلاد السُّودان وبلاد الـمَجُوس، الذين يَلون بلاد الأنْدَلُس. ويَصُبُّ ماء الزُّقاق في البحر الروميّ؛

(١) ينظر عن المغرب وحدوده في نظر ياقوت وما نقله عن بعض الجغرافيين (معجم البلدان ٥/ ١٦١).

(٢) بلفظ الفعل الماضي، مدينة عامرة إلى اليوم (معجم البلدان ٣/ ٢٣١).

(٣) ينظر الروض المعطار ٢٨١-٢٨٢.

(٤) ويقال فيها: تاهرت (معجم البلدان ٢/ ٧).

(٥) ينظر الروض المعطار ١٢٩، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ١٦٢.

(٦) بفتح الدال والراء (معجم البلدان ٢/ ٤٥٣).

(٧) في م: «الزنج» بكسر الزاي، خطأ.

(٨) هو المعروف بالمحيط الأطلسي.

ويُقال له أيضًا: البحر الشاميّ[1]؛ وهو يتّصِلُ إلى بلاد الشام وينعطف[2] إلى ناحية القُسْطَنْطِينة. وبينه وبين بحر الزُّقاق الخليجُ الذي منه. وذكر ابن حَـمَادُه أن حدَّ المغرب من بحر القُلزُم[3] وهو الـهابط[4] من اليَمَن إلى عَدَن إلى عَيْـذاب[5] إلى القُلـزُم ويأتي من مِصْرَ قبلة وشرقًا. وحدُّ الـمغرب من الـجَوْف: البحرُ الشاميّ، وهو بحر الإسْكَنْـدَرِيَّة، وهو الـمُتَفرِّغ في بحر الزُّقاق من جزيرة طَرِيف[6]؛ وعلامتُه صَنَمُ قادِس. وحدُّ المغرب من الغرب: البحر الـمُحِيط المسمَّى الأبْلايُه. وصار المغرب كالجزيرة؛ دخل فيه بعضُ أعمال مِصْرَ، وإفريقيةُ كلُّها، والزابُ، والقَيْرَوانُ، والسُّوس الأدْنَى، والسُّوس الأقْصَى، وبلاد الـحَبَشة، ومنه يتفرَّغ نيلُ مِصْرَ.

ذكر فَضل الـمَغرِب وما ورد [فيه][7] من الأخبار والآثار

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «لا تزال طائفةٌ من أمَّتي بالمغرب ظاهرينَ على الحقّ حتَّى تقوم الساعة»[8]، ومن ذلك ما أخرجه مُسْلِم في «صَحيحه»[9] عن سَعْد بن أبي وَقَّاص، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال أهل المغرب[10] ظاهرين على الحقّ حتَّى تقوم الساعة»، وذكر البُخاريُّ، عن النبي ﷺ قال: «ستكونُ فتنةٌ، خَيْرُ

(١) هو البحر المتوسط.

(٢) سقطت من م.

(٣) كتبت في م: «القلزوم»، وهو البحر الأحمر.

(٤) في ر١: «الضابط»، ولا معنى لها.

(٥) معجم البلدان ٤/ ١٧١.

(٦) الروض المعطار ٣٩٢.

(٧) ما بين الحاصرتين زيادة متعينة للتوضيح.

(٨) هذا حديث عام من المؤلف، وسيأتي تفصيله فيما يأتي عنده من أحاديث.

(٩) صحيح مسلم (١٩٢٥).

(١٠) هكذا في النسخ، وفي صحيح مسلم: «الغرب»، وهو الصواب، وفي تفسيره اختلاف كما بينه الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم.

الناس فيها الـجُنْد الغَرْبيُّ»[1]. وعن أَنَس بن مالِك، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزال عِصابةٌ من أمَّتي بالمغرب، يقاتلون على الحقّ، لا يَضُرّهم من خالَفَهم، حتَّى يرون[2] قيامًا فيقولون: غشِيتُم! فيغشون سَرْعانَ خيلِهم؛ فيرجعون إليهم، فيقولون: الجبال سُيِّرت! فيخِرُّون سُجَّدًا فتُقْبَضُ أرواحُهم»[3]. ورُوِيَ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «خَيْرُ الأرض مَغَارِبُها؛ وأعوذُ بالله من فتنة الغَرب»[4]، وذكر خالِد بن سعيد أن محمَّد بن عُمَر بن لُبابة كان يَرْوِي عن عُبَيْد الله بن خالد، عمَّن حدَّثه عن أبي زيد الـمِصْريّ، يرفع الـحديث عن ابن عبَّاس رضي الله عنه، عن أبي أيُّوب الأنصاريّ، قال: بينما رسول الله ﷺ واقفٌ، إذ توَّجَه تِلْقاء المغرب؛ فسلَّم، وأشار بيده؛ فقلتُ: على من تسلِّم؟ يا رسول الله! قال: «على رجال من أمَّتي يكونون في هذا المغرب، بجزيرة يُقال لها: الأَنْدَلُس؛ حَيُّهُم مُرابط، ومَيِّتهُمُ شهيد! وهم مـمّن استثنى اللهُ تعالى في كتابه: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾» [الزمر: ٦٨][5]، وصحّ وَعْدُ رسول الله ﷺ أن الإسلام سيَبْلُغ مشارِقَ الأرض ومغَارِبَها، فكان الأمر كما وعد.

وقال الـحُمَيْديُّ[6] في قول رسول الله ﷺ «لا يزالُ أهل الغَرْب ظاهرين على

---

(١) هذا خطأ فاضح فإن البخاري لم يخرج هذا الحديث، وأخرجه البزار ٦/ ٢٨٧ (٢٣١١)، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٥/ ٢٨١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٩٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٥/ ٤٩٢ من حديث عميرة بن عبد الله المعافري، عن أبيه، عن عمرو بن الحمق، وعميرة هذا مجهول، ولذلك ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ٢٩٤ وقال: «لا يدرى من هو» وساق حديثه هذا. وأخرجه نعيم بن حماد في الفتن ١/ ٥٤ (٨٥) من طريق يزيد بن أبي حبيب بلاغًا، فهذا حديث لا يصح.

(٢) هكذا في النسخ، وهي صحيحة لأن «حتى» هنا غير عاملة لا تفيد الحال والاستقبال.

(٣) لا أصل له من حديث أنس ولا من حديث غيره!

(٤) لا أصل له في حديث النبي ﷺ.

(٥) هذا حديث ظاهر الوضع لا أصل له في حديث النبي ﷺ.

(٦) جذوة المقتبس، ص٢٦.

الحقّ حتّى تقوم الساعة»: هذا، وإن كان عامًّا فلِلأنْدَلُس منه حظٌّ وافرٌ بدخولها في الإسلام، وتحقُّقِها من المغرب[١]، وأنّها عن[٢] آخر المعمور فيه، وبعضُ ساحلها الغَرْبيّ والبحر مُحيطٌ بجميع جهاتها؛ فصارت بين البحر والرُّوم[٣].

وروى الرَّقيق عن عبد الله بن وَهْب، يرفع الحديث إلى النبيّ، أنّه بعث سَرِيَّةً في سبيل الله؛ فلمّا رجعوا، ذكروا شدَّة البَرْد الذي أصابهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «لكنْ إفريقيةُ أشدُّ بَرْدًا وأعْظَمُ أجْرًا»[٤]، وعن سُفْيان بن عُيَيْنة، أن النبيَّ ﷺ قال: «الشرُّ عشرة أجزاء؛ فتِسعةٌ في المشرق، وواحدٌ في سائر البلدان»[٥].

ويُقال: إن بإفريقية ساحِلًا يُقال له: الـمُنَسْتِير[٦]؛ وهو بابٌ من أبواب الجنَّة، وبها جبلٌ يُقال له: الـمَمْطُور: بابٌ من أبواب جَهَنَّمَ[٧]. وفي الحديث أن إفريقية يُـحْشَر منها سبعون ألف شهيد، وجوهُهم كالقَمَر ليلة البَدْر[٨]. وعن سُفْيان بن عُيَيْنة، قال: يُروى أن بالمغرب بابًا للتَّوْبة، مفتوحًا مسيرةَ أربعين خريفًا، لا يغلقه الله حتّى تطلع منه الشمس[٩].

ودخل إفريقية من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأوّلين[١٠] ناسٌ كثيرٌ. ودخل الأنْدَلُسَ من التابعين قومٌ. فأوّلُ من دخل إفريقية غازيًا، في زمن عُمَر

---

(١) في الجذوة: «الغرب».

(٢) في الجذوة: «من».

(٣) في الجذوة: «وبعض ساحلها الغربي على البحر المحيط، وليس بعده مسلك».

(٤) لا أصل له في حديث النبي ﷺ.

(٥) لا يُعرف مثل هذا من حديث سفيان بن عيينة، ولا من حديث النبي ﷺ، وفي تاريخ ابن عساكر من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «الشر عشرة أعشار واحد بالشام وتسعة في سائر البلدان» أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١/ ١٥٤ بإسناد ضعيف.

(٦) معجم البلدان ٥/ ٢٠٩ وهي قائمة إلى يوم الناس هذا بتونس.

(٧) هذا كذب لا يصح.

(٨) وهذا لا أصل له في حديث النبي ﷺ.

(٩) كذلك.

(١٠) قوله: «من المهاجرين الأولين» ليس في ر١.

ابن الخطَّاب رضي الله عنه عَمْرو بن العاص؛ وكان استفتح مِصْر في سنة عشرين من الهجرة، ووجَّه منها عُقْبَةَ(١) بن نافِع الفِهْريَّ إلى لُوبية(٢) وإفريقية؛ فافتتحهما. ثمّ توجَّه عَمْرو بنفسه إلى بَرْقة؛ فصالح أهلها على الجزية: دينارٌ على كلّ حالم. وتوجَّه منها إلى أطْرابُلُس؛ فافتتحها بعد استغاثة أهلها بقبيلٍ من البربر يقال لهم نُفُوسة، إذ كانوا دخلوا معهم في دين النصرانيَّة.

(١) تاريخ الإسلام ٢/ ٦٨٢.

(٢) ومنها اشتق اسم ليبيا (وينظر معجم البلدان ٥/ ٢٥).

ابتداءُ التأريخ سنةَ إحدى وعشرين من الهجرة

فيها افتتح عَمْرو بن العاص مدينة الإسكندريَّة.

وفي سنة اثنتين وعشرين بعدها: افتتح بلاد أطْرابُلُس، وكتب إلى أمير المؤمنين عُمَر بن الخطّاب رضي الله عنه يُخبِره بما أفاء الله عليه من النَّصْر والفَتْح، وأن ليسَ أمامه إلّا بلاد إفريقية، وملوكُها كثيرٌ، وأهلُها في عدد عظيم؛ وأكْثَرُ رُكوبهم الخَيْل. فأمره بالانصراف عنها؛ فأمر عَمْرو العسكر بالرحيل قافلًا إلى مصْرَ. ثمَّ استُشْهِدَ عُمْر رضي الله عنه؛ فلمّا ولي عُثمان الخِلافةَ، عَزَل عَمْرو بن العاص عن مِصْرَ، وولّاها عبدَ الله[1] بن سَعْد بن أبي سَرْح سنة خمس وعشرين من الهجرة.

وفي سنة سَبْع وعشرين من الهجرة: أمر أمير المؤمنين عُثمان عبدَ الله بن سَعْد بن أبي سَرْح العامريَّ بغزو إفريقية.

فتحُ إفريقية للإسلام

ندب عثمان رضي الله عنه الناسَ إلى غَزْوها؛ فخرجَ المسلمون في جيش عظيم، فيهم مروان بن الحَكَم، وجَمْعٌ كبير من بني أمية، وبَشَرٌ كثير من بني أسد بن عبد العُزَّى، وعبد الله بن الزُّبَيْر بن العوَّام في عدَّة من قومه، وعبد الرحمن بن الأسود[2] وعبد الرحمن ابن أبي بكر رضي الله وعبد الله بن عمرو[3] بن العاص، والمُطَّلِب بن السائب، وبُسْر[4] بن أرطاة، وغيرُ هؤلاء من المهاجرين. وأعان عثمانُ المسلمينَ في هذه الغَزْوة بألف بَعيرٍ، يُحمل عليها ضُعفاء الناس؛ وفتحَ بيوت السلاح التي كانت للمسلمين. فلمّا توافى الناسُ، جدُّوا السير، وذلك في المحرَّم من هذه السنة، وأمرَ الناس فعسكروا، وقام فيها خطيبًا، فوعظهم، وذَكَّرهم وحَرَّضهم على الجهاد؛ ثم قال: وقد عهدتُ

---

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام ٢/ ٢٩٧.

(٢) سقط هذا الاسم جملة من م، وهو عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث بن وهب أبو محمد القرشي الزهري، وترجمته في تهذيب الكمال ١٦/ ٥٢٥، وتاريخ الإسلام ٢/ ٦٧١.

(٣) في م: «عمر» وهو تحريف ظاهر.

(٤) في م: «بشر»، وهو تصحيف ظاهر، ويقال فيه: ابن أبي أرطاة، وينظر تاريخ الإسلام ٢/ ٧٩٣.

إلى عبد الله بن سَعْد أن يُحسِن صحبتكم، ويرفق بكم؛ وقد استعملتُ عليكم الحارث بن الـحَكَم، إلى أن تَقْدَموا على ابن أبي سَرْح، فيكون الأمر له.

بعضُ أخبار عبد الله بن سَعْد وإمْرته[١]

نسبُه[٢]: هو عبد الله بن سَعْد بن أبي سرح العامريُّ. وكان[٣] يكتب الوَحْيَ إلى رسول الله ﷺ ثم ارتدَّ عن الإسلام، ولحق بالمشركين بمكَّة. وكان معاوية بن أبي سُفيان بمكَّة قد أسْلَم، وحَسُن إسلامُه؛ فاتَّخذه رسولُ الله ﷺ كاتبًا للوحي، بعد ابن أبي سَرْح. فلمّا فتح النبيُّ ﷺ مكَّة، استجارَ ابن أبي سَرْح بعُثمان؛ فأخذَ له عُثمان الأمانَ من النبيّ ﷺ. وكان ابن أبي سرح أخًا لعثمان من الرَّضاعة؛ فحَسُن إسلامُه من ذلك الوقت. فلما أفضت الخِلافةُ إلى عثمان رضي الله عنه ولّاه مُلْكَ مِصْر وجُنْدَها. فكان يبعث الـمُسلمين في جرائد الـخَيْل، يُغيرونَ على أطراف إفريقية، فيُصيبون كثيرًا من الأنفس والأموال. فكتب إلى عثمان بذلك؛ فكان السبب في توجيه الـجَيْش إليه، وتقديمه عليه. وأمر له بالدخول لغزو إفريقية، فخرج عبد الله من مِصْر في عشرين ألفًا إلى إفريقية، وصاحِبُها بِطْرِيقٌ[٤] يقال له: جِرْجِير؛ وكان سلطانُه من أطْرابُلُس إلى طَنْجة؛ فبعث عبد الله السرايا في آفاق إفريقية؛ فغنموا في كلّ وجه. والتقى عبد الله مع البِطْريق ضُحى النهار في[٥] موضع يُعرف بسُبَيْطِلة[٦]. وكان جِرْجير في مئة وعشرين ألفًا؛ فضاقَ الـمُسلمون في أمرهم واختلفوا على لين

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد ٧/ ٤٩٦، ونسب قريش ٤٣٣، والاستيعاب لابن عبد البر ٢/ ٩١٨، والكامل لابن الأثير ٣/ ٨٨، وتاريخ الإسلام ٢/ ٢٩٧، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣-٣٥ وغيرها.

(٢) من هنا إلى قوله: «كان يكتب الوحي» ليس في ر١.

(٣) في ر١: «كان عبد الله يكتب... إلخ».

(٤) البطريق: القائد العسكري الكبير، وهو بكسر الباء، لا بفتحها كما هو مقيد في م.

(٥) سقط من ر١.

(٦) ينظر معجم البلدان ٣/ ١٨٧ وقيّدت في الأصل بضم الطاء المهملة، وما هنا هو تقييد ياقوت الحموي.

سَعْد في الرأي. فدخل فُسْطاطَه مُفَكِّرًا في الأمر، فلمّا رأى جِرْجير خَيْلَ العرب، اشتدَّ رُعبُه، وأهمَّتْه نفسُه، فأخرج دَيْدَبانَه، وصَعِد فيه يُشرف على العساكر ويرى القتال؛ وأمر ابنتَه؛ فصعدت الدَّيْدَبان[١]، وسَفَرت عن وَجْهِها. وكان عدَّةُ خَدَمها اللائي صَعِدْنَ الدَّيْدَبان أربعين جارية، في الـحِلَى والـحُلَل، من أجمل ما يكون. ثم قدَّم كَرَادِيسَه، كُرْدُوسًا كُرْدُوسًا، وهو تحت الدَّيْدَبان؛ ثم قال لهم: «أتعرفون هذه!» فقالوا: نعم! هذه سيّدتُنا، ابنةُ الملك، وهؤلاء خَدَمُها! فقال لهم: وحقِّ المسيح ودين النصرانيَّة! لَئِن قَـتَلَ رجلٌ منكم أميرَ العَرَب عبدَ الله بن سَعْد، لأزوجنَّهُ[٢] ابنتي هذه، وأعطيتُهُ[٣] ما معها من الجواري والنعمة، وأنزلتُهُ[٤] المنزلة التي لا يطْمَعُ فيها أحدٌ عندي، وما زال ذلك من قوله، حتّى مرَّ على مَسامِع خَيْله ورَجْله؛ فحرَّضَ بذلك تحريضًا شديدًا.

وإن عبدَ الله بن سَعْد، لـمّا انتهى إليه ما فعل جِرْجير، وما كان من قوله، نادَى في عسكره؛ فاجتمعوا؛ فأخبرهم بالذي كان من جِرْجير؛ ثم قال: وحقِّ النبيِّ محمد ﷺ لا قَـتَلَ أحدٌ[٥] منكم جِرَجيرًا إلّا نفَّلته ابنتَه ومن معها، ثم زحف بالمسلمين؛ فالتقى الـجَمْعان، واستحرّ القِتالُ، واشتعلت نارُ الحربِ، والمسلمون قليلٌ، والمشركون في عشرين ومئة ألف. فأشكل الأمر على ابن سَعْد، ودخل فُسْطاطَه مُفَكِّرًا في الأمر.

ذكرُ قَتْل عبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنه لجرجير مَلِك إفريقية والمغرب كلِّه

قال عبد الله بن الزُّبَيْر: فرأيت عَوْرةً من جِرْجير، والناسُ على مصافِّهم؛ رأيتُه على بِرْذَوْن أشْهَب خَلْفَ أصحابِه، منقطعًا عنهم، معه جارِيتانِ له تُظِلانِهِ من الشَّمْس بريش

---

(١) في المعجم الوسيط: الديدبان: الحارس والرقيب والطليعة. قلنا: وهو تفسير قاصر، فالظاهر أن من معانيه: الشيءَ الذي يُعتلى به، وهو المرقب كما في كليات أبي البقاء، ص١٣٣٢.

(٢) في م: «لأزوجه».

(٣) في م: «وأعطيه».

(٤) في م: «وأنزله».

(٥) ليست في ر١.

الطواويس. فأتيتُ فُسطاطَ عبد الله بن سَعْد؛ فطلبتُ الإذن عليه. فقال لي حاجِبُه: دَعْه فإنّه يفكِّر في شأنكم، ولو اتّـجَهَ له رأيٌ لَدَعا بالناس، فقلتُ: أني محتاجٌ إلى مذكراته، فقال: إنّه أمَرَ في[1] أن أحبس الناس عنه، حتّى يدعوني. قال: فدُرْتُ حتّى كنتُ من وراء الفُسْطاط. فرأى وجهي، فأومأ إليَّ برأسِهِ[2] أن تَعالَ، فدخلتُ عليه وهو مُسْتَلْقٍ على فراشه، فقال: ما جاء بك يا ابن الزُّبَيْر؟ فقلتُ: رأيتُ عَوْرةً من عدوّنا، فرجوتُ أن تكون فُرْصةً هيَّأها الله لنا، وخشَيْتُ الفَوْتَ. فقام من فَوْره، وخرج حتّى رأى ما رأيتُ. فقال: أيّها الناس، انتدبوا مع ابن الزبير إلى عدوّكم. فتسرَّع إليَّ جماعةٌ اخترتُ منهم[3] ثلاثين فارسًا، ثم قلتُ[4]: «إنِّي حاملٌ فاصرفوا عن ظهري من أرادني، فأنّي سأكفيكم ما أمامي إن شاء الله. قال عبد الله: فحملتُ في الوجه الذي هو فيه؛ وذَبَّ عنّي الناسُ الذين انتدبوا معي واتَّبعوني، حتّى خرقتُ صُفُوفَهم إلى أرض خاليةٍ فضاء بيني وبينهم، فوالله ما حَسِبَ إلّا أنّي رسولٌ إليه حتّى رأى ما بي من أثَر السلاح؛ فقدَّر أنّي هاربٌ إليه. فلمّا أدركتُه، طعنتُه؛ فسقط: فرميتُ نفسي عليه، وألقَتْ جاريتاه عليه أنفُسَهما؛ فقطعتُ يد إحداهما، أجهزتُ عليه، ورفعتُ رأسَهُ على رُمحي، وحالَ أصحابُه، وحمَلَ الـمُسلمون في ناحيتي، وكَبَّروا؛ فانهزمَ الرُّوم، وقتلهُم المسلمون كيف شاءوا، وثارت الكمائن من كلّ جهة ومكان، وسَبقَتْ خيولُ المسلمين ورجالُـهم إلى حِصْن سُبَيْطِلة؛ فمنعوهم من دخوله، وركبهم الـمُسلمون يمينًا وشمالًا في السَّهْل والوَعْر؛ فقتلوا أنجادَهم وفُرسانَهم، وأكثروا فيهم الأساري، حتّى لقد كنتُ أرى في موضع واحد أكْثَرَ من ألف أسير.

وذكر أشياخٌ من أهل إفريقية أنّ ابنة جِرْجير، لـمّا قُتِل أبوها، تَنازَعَ الناسُ في قتله، وهي ناظرةٌ إليهم؛ فقالت: ما لي أرى العَرَبَ يَتَنازعون؟ فقيل لها: في قَتْل أبيك، فقالت: قد رأيتُ الذي أدرك أبي فقَتَلَهُ.

---

(١) في م: «فقال له: أمرني»، وهو تحريف.

(٢) سقطت من م.

(٣) في م: «منها».

(٤) في م: «فقلتُ».

فقال لها الأمير ابن أبي سَرْح: هل تَعْرِفينَهُ؟ فقالت: إذا رأيتُه عَرَفْتُه. قال: فمرَّ الناسُ بين يدَيْها، حتّى مرَّ عبد الله بن الزُّبير. فقالت: هذا، والمسيح قتل أبي. فقال له ابن أبي سَرْح: لِـمَ كَتَمْتَنا قَتْلَك إيّاه؟ فقال عبد الله: عَلِمَهُ الذي قَـتَلْتُه من أَجْلِه. فقال الأمير: إذًا والله أَنَفِّلك ابنته. فنفَّله ابن أبي سَرْح ابنةَ الـمَلِك جِرْجير، فيُقال: إنّه اتّـخَذَها أمَّ وَلَدٍ.

ولـمّا انهزمت جيوشُ جِرْجير، سارَ عبدُ الله بن أبي سَرْح حتّى نزلَ على[1] بابِ مدينته العُظْمَى: قَرْطاجَنَّة، فحصرها بمن[2] كان معه من المسلمين حصارًا شديدًا حتّى فتحها[3]، فأصاب فيها من السَّبْي والأموال ما لا يُحيط به الوَصْفُ. وكان أكثرُ أمواِلهم الذَّهَب والفضَّة، فكانت توضع بين يَدَيْه أكوامُ الذهب والفضّة، لأنّه افترع إفريقية بِكْرًا، فعجب، هو والمسلمون، من كَثْرة ذلك، فقال للأفارِقة: من أين لكم هذا؟ فجعل الرجل منهم يَلْتَمس شيئًا من الأرض، حتّى جاء بنواةِ زيتون؛ فقال: من هذا أصبنا الأموال، لأنّ أهل البَحْر والـجُزُر ليس لهم زيتٌ؛ فكانوا يمتارونه من هنا، فكان سَهْمُ الفارس ثلاثة آلاف دينار عَيْنًا، وسَهْمُ الراجل ألف دينار. وقسم ابن أبي سَرْح السرايا والغارات من مدينة سُبَيْطِلة. فبلغت جيوشهُ بمِصْر[4] قَفْصة، فسبوا كثيرًا وغنموا. فأذلَّت هذه الوقعة الرُّومَ بإفريقية، ورُعِبوا رُعْبًا شديدًا. فلجأوا إلى الحصون والمعاقل. ثمّ طلبوا من عبد الله بن سَعْد أن يقبض منهم ثلاث مئة قنطار من الذهب في السنة، جِزْيةً على أن يكُفَّ عنهم، ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم، وقبض المال. وكان في شرط صلحهم أنّ ما أصابَ المسلمون قبل الصُّلْح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصُّلْح ردُّوه عليهم.

ودعا الأمير عبدُ الله بن سَعْد عبدَ الله بن الزُّبَيْر؛ فقال له: ما أحدٌ أحقُّ بالبشارة منك فامْضِ، فبَشِّر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالمدينة، بما أفاء اللهُ على المسلمين،

---

(١) سقطت من م.

(٢) في م: «من»، وهو تحريف.

(٣) في م: «فتحت».

(٤) في م: «بقصر»، وهو تحريف.

فتوجَّه عبد الله بن الزُّبَيْر من سُبَيْطِلة، فقيلَ: إنّه وافى المدينة في أربعة وعشرين يومًا، وكانت إقامتُه بإفريقية سنةً وشهرَيْن. ثمّ وصل فَيء إفريقية إلى المدينة؛ فبيع الـمَغْنَم. فطَفِقَ مروان بن الـحَكَم على الـخُمس، فأخَذَ منه خمسين ألف دينار؛ فسلَّم له من ذلك عثمان رضي الله عنه، فكان ذلك ممّا انتقد عليه.

وفيه، وفي رَدّ الـحَكَم أبيه بعد أن أنفاه رسولُ الله ﷺ يقول عبد الرحمن أخو كَنْدة [من المتقارب]:

سَأحْلِفُ بالله جَهْدَ اليَمِيـ ـنِ ما تَرَكَ اللهُ شَيْئًا سُدَى

ولكِنْ خُلِقْتَ لنا فِتْنَةً لِكَيْ نُبْتَلَى بِكَ أو تُبْتَلَى(١)

دَعَوْتَ اللعينَ فأدنَيْتَهُ خِلافًا لِسُنَّةِ مَنْ قد مَضَى

وأعطَيْتَ مَرْوانَ خُمْسَ العِبا دِ ظُلْمًا لَهُمْ وحَمَيْتَ الـحِمَى

وقال مَرْوان بن الـحَكَم يومًا، في مَجلسِ مُعاوِيَة: ثلاثٌ لم أدخُلْ فيهنَّ حرامًا قطُّ: داري بالمدينة، ومالي بِذِي خُشُب، وصَدَقاتُ نِسائي. فنظر مُعاوية إلى عبد الله بن الزُّبَيْر، وكان حاضرًا، فقال له: ما تقول؟ فإنَّك طَعَّانٌ ما علمتُ(٢)، فقال: مَهْلًا أبا عبد الـمَلِك! خرجنا مع ابن أبي سَرْح إلى غزو إفريقية، فوالله ما كان مروان أحْسَنَنا وَجْهًا، ولا أكْثَرَنا نَفَقةً، ولا أعْظَمَنا في العدوّ نكايةً، فطَفِقَ على خُمُسِ إفريقية بِمَ تعلم، وتَحابَى له من تَعْلم؛ فبنَى منه الدار، واتَّخذ منه المال، وتَزَوَّج منه النساء. فقال له مروان: أتطْعنُ على أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له مُعاوية: دَعْهُ وخُذْ منّي غير هذا، فإنَّك صِحَّةُ ما أقول.

قال الطَّبَريُّ(٣): كان عثمان، رحمه الله، قال لعبد الله بن سَعْد: إن فتحَ اللهُ عليكَ إفريقيةَ، فلَكَ ممّا أفاء الله على المسلمين خُمُسُ الـخُمُسِ نَفْلًا. فلما فتح إفريقية في هذه

(١) في م: «وتبتلى»، وما أثبتناه من ر١ ولا يستقيم الوزن إلا به.

(٢) قوله: «ما علمتُ» سقط من م.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٥٣ مع اختلاف في اللفظ.

السنة، وهي سنة سبع وعشرين، قَسَمَ عبدُ الله الفَيْء على المسلمين. فأبقى الـخُمُس لنفسه، وبعثَ بأربعة أخْماسه إلى عُثمان، وضربَ فُسطاطه في أرض القَيْرَوان؛ فوفد وَفْدٌ على عثمان، يشكون بابن أبي سَرْح فيما أخذَ من الـخُمُس؛ فقال لهم عثمان: أنا نفَّلْتُهُ إيَّاه، وذلك الآن إليكم؛ فإن رَضيتُمْ، فقد جاز، وإن غَضِبْتُم، فهو رَدٌّ. قالوا: فإنّا نَسْخَطُ. فكتب عثمان إلى ابن سَعْد بردِّ ذلك. قالوا: فاعزِلْه عنَّا، فإنّا لا نُريد أن يتأمَّرَ علينا، وقد وقع ما وقع. فكتب إليه أن استخلِفْ على إفريقية رجلًا ترضاه ويرضَوْنه، واقسِمْ خُـمُسَ الـخُمُس الذي كنتُ نَفَّلْتُكَ في سبيل الأخماس، فإنّهم قد سَخِطوا النفل. ففعلَ ذلك عبدُ الله، ورجعَ إلى مِصْر وقد فتحَ الله إفريقية. فما زالوا من أسْمَعِ أهْلِ الأقاليم وأطْوَعِهم، إلى زمن هشام بن عبد الملك. ثمّ ورد الـخُمُس على أمير المؤمنين عُثمان؛ فكان من أمر مروان بن الـحَكَم فيه ما تقدَّم ذِكْرُه.

وفي سنة ثمانٍ وعشرين: غَزَا حَبِيبُ بن مَسْلَمة قُورية[1] من أرض الروم. ذكر ذلك الطَّبَرِيُّ[2] وغيرُه[3].

وفي سنة تسع وعشرين: افتتح عبد الله بن عامِر أرضَ فارِس[4].

وفي سنة ثلاثين: سقط الخاتَم من يد عثمان رضي الله عنه في بئر أريس؛ وقد ذكرنا خَبَرَ سقوطه في كتابنا المسمَّى بـ«البَيان الـمُشْرِق في أخبار الـمَشْرِق».

وفي سنة إحدى وثلاثين: كانت غزوة ذات الصَّواري، وغزوة الأساوِرة، في قول الواقِدي[5].

---

(١) هكذا في النسخ، وهو وهم صوابهُ: «سورية» كما في تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٣، وهو موضع بالشام بين خناصرة وسلمية كما في معجم البلدان لياقوت ٣٠/ ٢٨٠. أما قورية فمدينة من نواحي ماردة بالأندلس، كما في معجم البلدان ٤/ ٤١٢ فأين هي من فتح الأندلس؟!

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٣.

(٣) تاريخ خليفة ١٦١.

(٤) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٣.

(٥) نقله عنه الطبري في تاريخه ٤/ ٢٨٨.

وفي سنة اثنتين وثلاثين: توفِّي عبد الرحمن بن عَوْف رضي الله عنه وهو ابن خمس وسبعين سنة. وفيها مات عبد الله بن زَيْد بن عَمْرو بن نُفَيْل. وفيها مات أبو طَلْحة، وأبو ذر رضي الله عنهما. وفيها توفِّي عبد الله بن مسعود؛ فدُفِن بالبَقيع.

وفي سنة ثلاث وثلاثين: كانت غزوة عبد الله ابن أبي سَرْح إفريقية، مرَّةً ثانيةً، حين نقض أهلُها العَهْدَ؛ هكذا ذكره عَرِيب في مُـخْتَصَره. وقد تقدَّم خبر ابن أبي سَرْح على الـجُمْلة دون تعيين سنة.

وفي سنة أربع وثلاثين: مات عُبادة بن الصَّامِت في قول الواقِديّ[1] وهو ابن اثنتين وتسعين سنة؛ ودُفِن بالرَّمْلة[2]. وفيها غزا مُعاوية بن حُدَيْج[3] إفريقية، وهي أوَّل غزواته إلى المغرب، ثمّ اشتغل الناس بعد ذلك بأمر عُثمان رضي الله عنه وبوقائع الـجَمَل وصِفّين وغيرهما، إلى أن اعتدلت الـخِلافة لـمُعاوية بن أبي سُفْيَان.

وفي سنة خمس وثلاثين: استُشْهِد عثمان رضي الله عنه واستخلفه أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه فنازعهُ مُعاوية ولم يبايعه.

وفي سنة ست وثلاثين: عزل عليٌّ رضي الله عنه ابن أبي سَرْح عن مِصْرَ، وقدّم[4] عليها قَيْس بن سَعْد[5] بن عُبادة الأنصاريَّ.

وفي سنة سبع وثلاثين: كان العامل على مِصْرَ محمَّد ابن أبي بكر الصِّدِّيق[6].

وفي سنة ثمان وثلاثين: قُتِل محمَّد ابن أبي بكر الصِّدِّيق بمِصْرَ، قتله مُعاوية بن حُدَيْج بأمر مُعاوية بن أبي سفيان[7]. وقد ذكرنا شرح مقتله في «[البيان الـمُشْرِق][8] في أخبار الـمَشْرِق».

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٥٠٦ (ط. الخانجي).

(٢) معجم البلدان ٣/ ٦٩.

(٣) ترجمته في تاريخ الإسلام ٢/ ٥٣٩.

(٤) في م: «وأقام»، وما أثبتناه من ر١.

(٥) سقطت من م، وترجمته في تاريخ الإسلام ٢/ ٥٣٢.

(٦) ينظر تاريخ الإسلام ٢/ ٣٤٠.

(٧) تاريخ الطبري ٥/ ٩٤.

(٨) ما بين الحاصرتين زيادة متعينة للتوضيح.

وفي سنة أربعين: كانت مهادنةٌ بين عليّ رضي الله عنه وبين مُعاوية، إلى أن توفّي علي، وفيها دُعِيَ مُعاوية بأمير المؤمنين؛ وكان قبل ذلك يُدْعَى الأمير.

وفي سنة أربعين المذكورة: توفّي أمير المؤمنين أبو الحسن عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وبويع بالخلافة ابنُه الـحَسَن رضي الله عنهما[١].

وفي سنة إحدى وأربعين: كان تسليمُ الـحَسَن رضي الله عنه الأمر لـمُعاوية، واستوسقت الـمَمْلكة له.

وفيها غزا مُعاوية بن حُدَيْج إفريقية المرَّة الثانية؛ قال عَرِيب في مُـخْتَصَره: ذكر أهل العِلْم بأخبار إفريقية أن مُعاوية بن حُدَيْج نزل جَبَلًا فيها؛ فأصابه فيها مطرٌ شديدٌ، فقال: إن جَبَلَنا هذا لـمَمْطُورٌ فسُمِّيَ البلد مَـمْطُورًا إلى الآن[٢]، وقال: اذهبوا بنا إلى ذلك القَرْن، فسُمِّيَ ذلك الموقع قَرْنًا[٣]. وكانت لـمُعاوية هذا إلى إفريقية ثلاث غَزَوات.

وفي سنة اثنتين وأربعين: وُلِد الـحَجَّاج بن يوسف الثَّقَفيُّ[٤]. وولَّى مُعاوية مروانَ بن الـحَكَم المدينة[٥]. وفيها غزا عُقْبة بن نافِع إفريقية؛ قال عَرِيب في مُـخْتَصَره للطَّبَرِيّ: فيها غزا عُقْبة بن نافِع الـمَغْرِب، وافتتح غَدامِس[٦]؛ فقَتَل فيها وسَبَى[٧].

وفي سنة ثلاث وأربعين: مات عَمْرو بن العاص بِمِصْرَ، يومَ الفطر. فذُكِر أنّه عَمَلَ فيها لعُمَر بن الخطاب رضي الله عنه أربعَ سنين، ولعثمان رضي الله عنه أربعَ سنين إلا شَهْرين[٨]، ولـمُعاوية سنتَيْن إلّا شَهْرًا.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة ١٩٨، وتاريخ الطبري ٥/ ١٤٣.

(٢) ذكر خليفة هذا الخبر في حوادث سنة خمس وأربعين (تاريخه، ص٢٠٧).

(٣) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠.

(٤) هذا قول الطبري في تاريخه ٥/ ١٧٢، أما خليفة فذكر أن مولده سنة إحدى وأربعين (تاريخه ٢٠٥).

(٥) هذا قول الطبري في تاريخه ٥/ ١٧٢، وذكر خليفة ذلك في حوادث سنة إحدى وأربعين (تاريخه ٢٠٤).

(٦) بفتح الغين المعجمة وتُضم (معجم البلدان ٤/ ١٨٧).

(٧) تاريخ خليفة ٢٠٥.

(٨) قوله: «إلا شهرين» سقط من م، وأثبتناه من ر١ ويعضده ما في تاريخ الطبري ٥/ ١٨١، وينظر تاريخ خليفة.

وفي سنة أربع وأربعين: عَمِلَ مروان بن الـحَكَم الـمَقْصُورة بمسجد المدينة، كرَّمها الله، وعملها أيضًا مُعاوية بالشام(١).

وفي سنة خمس وأربعين: غزا مُعاوية بن حُدَيْج الكِنْديُّ إفريقية، وكانت حَرْبًا كلَّها؛ قال الطَّبَريُّ(٢): وذلك أنّ حُباجِبة الروميَّ قَدِمَ على مُعاوية بن أبي سفيان، فسأله أن يبعث معه جيشًا إلى إفريقية؛ فوجَّه مُعاوية بن حُدَيْج في عشرة آلاف مُقاتل، فسار(٣) حتّى انتهى إلى الإسْكَنْدَرِيّة؛ فاستعمل عليها حُباجِبة الروميَّ. ومضى ابن حُدَيْج حتّى دخل إفريقية. وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وعن أبيه، وعبد الله بن الزُّبَيْر، رضي الله عنه وعن أبيه، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الـحَكَم بن العاص، وغيرُهم من أشراف قُرَيْش. فبعث مَلِك الرُّوم إلى إفريقية بِطْرِيقًا يُقال له: نجفور(٤) في ثلاثين ألف مقاتِل، فنزل الساحل فأخرج إليه مُعاوية بن حُدَيْج عبدَ الله بن الزُّبَيْر في خيل كثيفة، فسار حتّى نزل على شَرَفٍ عالٍ، يُنْظَر منه إلى البحر، بينه وبين مدينة سُوسة اثنا عشر ميلًا، فلمّا بلغ ذلك نجفورًا، أقلعَ في البحر منهزمًا من غير قتال. فأقبل ابن الزُّبَيْر حتّى نزل على باب سوسة؛ فوقف على البحر، وصلَّى بالمسلمين صلاة العَصر، والرومُ يتعجَّبون من جُرْأته، فأخرجوا إليه خَيْلًا، وابن الزُّبَيْر مُقْبلٌ على صلاته، لا يهولُه خَبَرُها، حتّى قَضَى الصلاةَ. ثمّ ركب، وحمل على الروم بمن معه، فانكشفوا منهزمين. ورجع ابن الزُّبَيْر إلى مُعاوية بن حُدَيْج، وهو بجبل القَرْن.

ثمّ وجَّه ابن حُدَيْج عبدَ الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة جَلُولا؛ فحاصرها، وقتل من أهلها عددًا كثيرًا، حتّى فتحها عَنْوَةً؛ فقتل المقاتلة، وسَبَى الذُّرِّيَّة،

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٢١٥.

(٢) لم نقف على هذا الخبر في المطبوع من تاريخ الطبري، ومعلوم أن المؤلف ينقل من مختصر عريب بن سعيد لتاريخ الطبري فلعل هذا من زياداته على تاريخ الطبري فظنه المؤلف منه، وهي موجودة في نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠.

(٣) في ر١: «فصار».

(٤) في ر١: «عفور» ولعله تحريف.

وأخذَ جميع ما كان في المدينة، وحمل ذلك كلَّه إلى مُعاوية بن حُدَيْج؛ فقَسَمَهُ على المسلمين، فيُقال: إنّه أصابَ كلُّ رجل منهم مئتي مثقال.

وأغزى مُعاوية بن حُدَيج جيشًا في البحر إلى صِقِلِّيَّة في مئتي مركب؛ فسبوا وغنموا وأقاموا شَهْرًا؛ ثمّ انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة، ورقيق، وأصنام منظومة بالـجَوْهر؛ فاقتسموا فَيْهِم. وبعث ابن حُدَيْج بالـخُمُس إلى مُعاوية ابن أبي سفيان. هكذا نصَّ عريب في مُـخْتَصَره للطَّبَريّ.

ومن أخبار مُعاوية بن حُدَيْج الكِنْديّ[١] بإفريقيّة[٢]

ذكر الرَّقِيق في كتابه قال: كان هِرَقْل مَلِك القُسْطَنْطِينة العُظمى ورُومة[٣] يؤدّي إليه كلُّ نصرانيّ، في برٍّ وبَحْرٍ، جِزْيَتَه؛ منهم الـمُقَوْقِس، صاحب الإسكندريَّة وبَرْقة، ومنهم صاحب أطرابُلُس وصَبْرة[٤]؛ ومنهم صاحب صِقِلِّيَّة، ورُوم إفريقية والأَنْدَلُس. فلمّا بلغه ما صالح عليه أهلُ إفريقية عبدَ الله ابن أبي سَرْح، بعثَ إلى إفريقية بِطْرِيقًا يُقال له: وليمة[٥]، وأمره أن يأخذ ثلاث مئة قنطار من الذَّهَب، كما أخذ ابن أبي سَرْح. فنزل قَرْطاجَنَّة، وأخبرهم بذلك. فأبوا عليه، وقالوا: إنّ الذي كان بأيدينا من الأموال، فَدَيْنا به أَنْفُسَنا من العَرَب! وأمّا الـمَلِك، فهو سيِّدُنا؛ فيأخُذُ عادتَه منّا. وكان القائم بأمرهم رجلًا يُقال له حُباحِبة؛ فطردوا وليمة الواصل إليهم، واجتمع رأيهم على تقديم الأطريون[٦]. وصار حُباحِبة إلى الشام، فقدم على معاوية، فوصف له

---

(١) عن معاوية بن حديج الكندي ينظر: تاريخ خليفة ١٦٨، ١٩٢، ٢٠٧، ٢١٠-٢١٢، وطبقاته ٧١، ٢٩٢، وتاريخ البخاري الكبير ٧/ الترجمة ١٤٠٧، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ الترجمة ١٧٢٤، والاستيعاب ٣/ ١٤١٣، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٣٧، وتهذيب الكمال ٢٨/ ١٦٣ وفيه مزيد مصادر عنه.

(٢) ليست في ر١.

(٣) قوله: «العظمى ورومة» ليس في ر١.

(٤) ينظر عن صبرة معجم البلدان ٣/ ٣٩١ وهي قريبة من القيروان.

(٥) في م: «أوليمة»، وما هنا من النسخ، وسيأتي بعد قليل على الصواب.

(٦) في ر١: «الأطرمون».

حال إفريقية، وسأله أن يبعث معه جيشًا من العَرَب، فوجَّه معه مُعاوية بن حُدَيْج، في جيش كثيف، وذلك سنة خمس وأربعين. فسار ابن حُدَيْج حتّى وصل إفريقية وقد صارت نارًا. وكان معه جماعةٌ من قُرَيش، قد تقدّم ذكرُهم. وبعث ملكُ الروم البِطْريقَ المتقدّم ذكرُه في ثلاثين ألفًا؛ فبعث ابن حُدَيْج إليه عبدَ الله بن الزُّبَيْر؛ فقاتَلَه. فأقلعَ مُنهزمًا في البحر. وحاصر ابن حُدَيْج جَلُولا، فكان يقاتلهم وسَطَ النهار، وينصرف إلى عسكره.

فلمّا انصرف ذاتَ يوم، نسي عبدُ الملك بن مروان قوسًا له معلَّقةً بشجرة؛ فانصرفَ إليها؛ فإذا بجانب من [سور] (١) المدينة قد انهدم، فصاح في أثر الناس، فرجعوا، فكان بينهم قتالٌ شديدٌ، حتّى دُخِلت المدينة عَنْوةً، واحتوى المسلمون على جميع ما فيها، كما تقدَّم ذِكْرُه. وكان بين مُعاوية بن حُدَيْج وعبد الملك بن مروان تنازُعٌ في ذلك، لأنّ عبد الملك أراد مُحاباةَ إخوانه وأصحابه، لأنّه كان سَبَبَ فتح المدينة، فقال حَنَش الصّنْعانيُّ(٢) يومًا لعبد الملك: ما شأنُك؟ فوالله، لَـتَلِيَنَّ الخلافة، ويصير ذلك الأمرُ إليك فلا تَغْتَمَّ. فلمّا أفضت الخلافة إلى عبد الملك، بعث الحجَّاجَ بن يوسف لقتال عبد الله بن الزُّبَيْر، فأخذ حنَشًا الصَّنْعانيَّ أسيرًا، وبُعِثَ إلى عبد الملك ابن مروان، فلمّا وقف بين يدَيْه، قال له: أَلَسْتَ أنْتَ الذي بشَّرتني بالخلافة يوم جَلُولا؟ قال: نعم. قال: فلِمَ مِلْتَ عنّي إلى ابن الزُبَيْر؟ فقال: رأيتُه يُريدُ اللهَ، ورأيتُك تريدُ الدُّنيا فلذلك مِلْتُ إليه، فقال: قد عفَوْتُ عنك.

وفي سنة ست وأربعين: قال البَلاذُريُّ(٣): أوّلُ من غزا صِقِلّيَّةَ مُعاوية بن حُدَيْج، بعث إليها عبدَ الله بن قَيْس، ففتحها، وأصاب فيها أصنامًا من ذهب وفضَّة مكَلَّلةً بجَوْهَر؛ فحُملت إلى مُعاوية ابن أبي سفيان(٤)، فبعث بها إلى الـهِنْد؛ فأخذ ثَمَنَها. فأنكر الناسُ عليه ذلك إنكارًا كُلِّـيًا. وكان العاملُ على بلاد إفريقية من قِبَل مُعاوية ابن أبي سفيان مُعاويةَ بن حُدَيْج الكِنْديَّ.

---

(١) زيادة متعينة ليست في النسخ.

(٢) أحد التابعين المعروفين (تاريخ الإسلام ٢/ ١٠٨٦).

(٣) فتوح البلدان ٢٣٣ (بيروت ١٩٨٨م).

(٤) قوله: «ابن أبي سفيان» ليس في ر١.

وفي سنة سبع وأربعين: عَزل مُعاوية بن أبي سفيان عبدَ الله بن عَمْرو بن العاص عن مِصْرَ، وولّاها مُعاويةَ بن حُدَيْج الكِنْديَّ[1]، وكان عثمانيًّا، فسار متوجِّهًا إليها[2] من إفريقية. وكان قد قتل محمَّد ابن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه؛ فلقيه عبد الرحمن[3] ابن أبي بكر، فقال له: يا مُعاوية، قد أخذتَ أجْرَكَ من مُعاوية بن أبي سُفيان، حين قتلتَ محمد بن أبي بكر، ليُوَلِّيك مصر، فقد وَلاكَها. فقال: ما قتلتُ محمَّد بن أبي بكر لولايةٍ، وإنّما قتلتُه لِـمَا فعل بعثمان رضي الله عنه.

وفي سنة ثمان وأربعين: كان العاملَ على مِصْرَ وإفريقية لـمُعاوية بن أبي سُفيان معاويةُ بن حُدَيْج.

وفي سنة تسع وأربعين: غزا عُقْبة بن نافِع الفِهْريُّ الرُّومَ في البحر بأهل مِصْرَ[4]. وفيها عزل مُعاويةُ مروانَ بن الـحَكَم عن المدينة[5]، وأمَّرَ عليها سعيد بن العاص. وكانت ولايةُ مروان المدينةَ لـمُعاوية ثماني سنين وشهرَيْن.

وفي سنة خمسين من الهجرة: عزلَ مُعاويةُ بن أبي سُفيان مُعاويةَ بن حُدَيْج عن إفريقية، وأقرَّه على ولاية مِصرَ، ووجَّه إلى إفريقية عُقْبة بن نافِع الفِهْريَّ.

ذكر ولاية عُقْبة بن نافِع[6] إفريقية وغَزَواته فيها واخْتِطاطه مدينة القَيْرَوان

نَسَبُه: هو عُقْبة بن نافِع بن عبد قَيْس بن لَقِيط بن عامِر بن أميَّة بن طرف بن الحارث بن فِهر[7]، ومن فِهْر بن مالك تفرّقت القبائل.

(١) ينظر تاريخ الطبري ٥/ ٢٢٩.

(٢) ليست في ر١.

(٣) في ر١: «محمد» وهو تحريف ظاهر.

(٤) تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٢.

(٥) تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٢. أما خليفة فذكر أن العزل كان في سنة ثمان وأربعين (تاريخه ٢٠٨).

(٦) عن عقبة بن نافع ينظر: فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٩٤، ١٩٧، والاستيعاب ٣/ ١٠٧٥، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠/ ٥٢٥، والكامل لابن الأثير ٤/ ١٠٥، وتاريخ الإسلام ٢/ ٦٨٢، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٥٣٢، والإصابة ٢/ ٤٩٢.

(٧) بعد هذا في ر١: «وقريش لقب»، ولا معنى لها هنا.

وقال ابن أبي الفَيَّاض: إنّ عُقْبة وُلِد قبل وفاة رسول الله ﷺ بسنةٍ واحدة.

قال إبراهيم بن القاسم: ووصل عُقْبة بن نافِع الفِهْريُّ إلى إفريقية في عشَرة آلاف من المسلمين، فافتتحها، ودخلها، ووضع السيف في أهلها، فأفْنَى مَن[1] بها من النصارى. ثمّ قال: إنّ إفريقية، إذا دخلها إمامٌ، أجابوه إلى الإسلام؛ فإذا خرجَ منها، رجعَ مَن كان أجاب منهم لدين الله إلى الكُفر، فأرى لكم، يا مَعْشَرَ المسلمين أن تتَّخِذوا بها مدينةً تكون عِزًّا للإسلام إلى آخر الدهر. فاتَّفق الناسُ على ذلك، وأن يكون أهلها مُرابِطين؛ وقالوا: نَقْرُب من البحر ليتمَّ لنا الجهاد والرباط. فقال عُقْبة[2]: إنّي أخاف أن يَطْرُقَها صاحبُ القُسْطَنْطينة بَغْتةً، فيملكَها. ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يُدْرِكها صاحبُ البحر، إلّا وقد عُلِّم به، وإذا كان بينها وبين البحر ما لا يُوجب فيه التقصيرَ للصلاة، فهم مُرابِطون. فلمّا اتّفق رأيُهم على ذلك، قال: قَرِّبوها من السَّبْخة، فإنّ دوابّكم الإبل، وهي التي تحمل أثقالكم؛ فإذا فَرَغْنَا منها، لم يكن لنا بُدٌّ من الغزو والجهاد، حتّى يفتح الله لنا منها الأوَّل فالأوَّل، وتكون إبِلُنا على باب قصرنا في مَراعيها، آمِنةً من عادية البربر والنصارى.

قال الإشْبِيليُّ في مَسالِكه: إنّ البَرْبَر حين دخلوا الـمَغْرِب، وجدوا الإفْرَنْج قد سبقوهم إليه، فأخلوهم حتّى اصطلحوا، على أن يسكن البَرْبَرُ الجبالَ، وتسكن الإفرنج الأوطئة، فبنوا المدائن بها.

رَجْع الـخَبَر:

وفي سنة إحدى وخمسين: شرع عُقْبة رضي الله عنه في ابتداء بناء مدينة القَيْرَوان، وأجابه العَرَب إلى ذلك[3]. ثمّ قالوا: إنّك أمَرْتَنا بالبناء في شَعَارَى وغياض لا تُرام، ونحن نخافُ من السِّباع والحيَّات وغير ذلك. وكان في عسكره ثمانية عَشَر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وسائرُهم من التابعين. فدعا الله سبحانه وأصحابُه يؤمِّنون على دُعائه، ومضى إلى السبخة وواديها، ونادى: أيَّتُها الحيَّات والسباع، نحن أصحابُ

---

(١) سقطت من ر١.

(٢) ليست في ر١.

(٣) ذكر خليفة أن ذلك كان في سنة خمسين (تاريخه ٢١٠)، وكذلك جاء في نسخة أ.

رسول الله ﷺ فارحلوا عنَّا فإنّا نازلون ومَن وجدناه بعد هذا قتلناهُ. فنظرَ الناسُ بعد ذلك إلى أمر مُعْجِب، من أنّ السباع تخرج من الشَّعْرَى، وهي تحمل أشبالها سمعًا وطاعةً، والذئب يحمل جِرْوَه، والحيَّة تحملُ أولادَها. ونادَى في الناس: كُفُّوا عنهم، حتّى يرحلوا عنها. فلمّا خرج ما فيها من الوَحْش والسِّباع والهوامِّ[١]، والناسُ ينظرون إليها، حتّى أوجعهم حرُّ الشمس، فلمّا لم يروا منها شيئًا، دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر. فأقام أهل إفريقية بعد ذلك أربعين عامًا لا يرون بها حيَّةً، ولا عَقْرَبًا، ولا سَبُعًا.

فاختطَّ عُقْبة أوَّلًا دار الإمارة، ثمّ أتى إلى موضع المسجد الأعظم، فاختطَّه، ولم يُحْدِث فيه بناءً[٢] وكان يصلِّي فيه وهو كذلك، فاختلفَ الناسُ عليه في القبلة، وقالوا: إنّ جميعَ أهل المغرب يَضَعون قِبْلَتَهم على قِبْلة هذا المسجد، فاجهَدْ نفسك في تقويمها[٣]، فأقاموا أيّامًا ينظرون إلى مطَالِع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس. فلمّا رأى أمرَهم قد اختلفَ، باتَ مغمومًا، فدعا الله عزَّ وجلَّ أن يُفَرِّج عنه، فأتاه آتٍ في منامه، فقال له: إذا أصبحتَ، فخُذ اللواء في يدك، واجعله على عُنُقك، فإنَّك تسمع بين يديك تكبيرًا ولا يسمعه أحدٌ من المُسلمين غيرُك. فانظُر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير: فهو قِبْلَتُك ومِحْرابُك، وقد رَضِيَ اللهُ لك أمْرَ هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يُعِزُّ الله بها دينَه، ويُذِلُّ بها من كَفَر به. فاستيقظ من منامه، وهو جَزِعٌ، فتوضَّأ للصلاة، وأخذ يُصَلِّي، وهو في المسجد ومعه أشرافُ الناس. فلما انفجر الصُّبْح، وصَلَّى رَكْعتَي الصُّبْح بالمُسلمين، إذا بالتكبير بين يدَيْه. فقال لمن حَوْلَه: أتسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أنّ الأمر من عند الله. فأخذَ اللواء، فوضعَهُ على عُنُقه، وأقبلَ يتبع التكبير، حتّى وصل إلى موضع المحراب، فانقطعَ التكبيرُ. فركزَ لواءه، وقال: هذا مِحْرابُكم. فاقتدى به سائر مساجد المدينة. ثمّ أخذَ الناسُ في بناء الدُّور والمساكن والمساجد، وعمرت، وشَدَّ الناسُ إليها المطايا من كلّ أُفُق، وعَظُم قدرُها. وكان دَوْرُها ثلاثةَ عشَرَ ألفَ ذراع وستَّ مئة ذراع[٤]، حتّى كمُل أمرُها.

---

(١) ليست في ر١.

(٢) في ر١: «أمرًا».

(٣) في ر١: «فأجهدَ نفسَهُ في تقويمها».

(٤) قوله: «وست مئة ذراع» ليس في ر١.

وكان عُقْبة خَيْرَ والٍ وخَيْرَ أميرٍ، مُسْتَجابَ الدعوة.

وفي سنة خمس وخمسين: استعمل مُعاوية ابن أبي سفيان على مصر وإفريقية مَسْلَمة بن مُـخَلَّد الأنصاريّ[1]، وعزلَ مُعاويةَ بن حُدَيْج عن مِصْر، وعزلَ عُقْبة بن نافِع عن إفريقية، فكانت ولايتُه عليها أربعة أعوام. وكان مُعاوية قد ولَّى مَسْلَمة مِصْرَ، فلما ولَّى مَسْلَمة الآن إفريقية، عزل عنها عُقْبة، وولَّى عليها مولاه أبا الـمُهاجِر دينارًا، وبقي هو صاحب مِصْر؛ جمع ذلك كلَّه مُعاوية له، من أطراف إقليم مِصْر إلى طَنْجة. وهو أوَّلُ مَن جُـمِعَ له الـمَغْرِبُ كلُّه؛ فلم يزل واليًا عليه حتّى هلك مُعاوية.

ولاية أبي الـمُهاجِر إفريقية وعَزْل عُقْبة

لـمّا جمعَ مُعاوية ولاية الـمَغْرِب لـمَسْلَمة بن مُـخَلَّد، استعمل عليه مولاه دينارًا، ويُكْنَى أبا الـمُهاجِر، وعزلَ عُقْبة عن إفريقية. فقيل لـمَسْلَمة بن مُـخَلَّد والي مِصْر: لو استعملْتَ عُقْبة[2]، وأقْرَرْتَه على إفريقية، فإنّ له فضلًا وسابِقةً وهو الذي بنَى القَيْرَوان ومسجدها[3]. فقال مَسْلَمة: إنّ أبا الـمُهاجِر، كأحدِنا، صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نَيْل، فنحن نحبُّ أن نكافيه ونصطنعه. فقدم أبو الـمُهاجِر إفريقية، فأساء عَزْلَ عُقْبة، ونزل خارجًا عن المدينة، وكره أن ينزل الموضعَ الذي اختطَّه عُقْبة، ومضى حتّى خلفه بميلَيْن، مـمّا يَلي طريق تُونُس، فاختطَّ بها مدينةً، وأرادَ أن يكون له ذِكْرُها، ويُفْسِدَ عَمَلَ عُقْبة، فبنى مدينةً، وأخذ في عمرانها، وأمرَ الناسَ أن يخربوا[4] القَيْروان ويَعْمُروا مدينته. فخرج عُقْبة منصرفًا، وأدركه الخبرُ في الطريق، فتوجَّه إلى المشرق، آسِفًا على أبي الـمُهاجِر، ودعا الله عليه أن يُمَكِّنَه منه. فبلغت أبا الـمُهاجِر دعوتُه، فقال: هو عَبْدٌ لا تُرَدُّ دعوتُه. ولم يزل أبو الـمُهاجِر خائفًا منه، نادِمًا على ما فعل معه.

---

(١) ترجمته ومصادرها في تهذيب الكمال ٢٧/ ٥٧٤-٥٧٦، وتاريخ الإسلام ٢/ ٧١٦.

(٢) سقطت من ر١.

(٣) من ر١.

(٤) في م: «تحرق»، وهو تحريف.

ولـمّا قدم عُقْبة على مُعاوية، قال له: إني[1] فتحتُ البلاد، ودانَتْ لي، وبنيتُ المنازِل، واتخذتُّ مسجدًا للجماعة، وسكَّنتُ الناسَ، ثمّ أرسلتَ عَبْدَ الأنصار، فأساء عَزْلي. فاعتذر له مُعاوية، وقال له: قد عرفتَ مكانَ مَسْلَمة بن مُـخَلَّد من الإمام عثمان، وبَذْلَه مُهْجَتَه، صابرًا مُـحْتَسِبًا مع[2] مَنْ أطاعه من قومه ومواليه، وأنا أردِّدك إلى عملك. وتراخى الأمر حتّى توفّي مُعاوية وأفضَى الأمرُ إلى يزيد ابنِه. فلمّا علم حال عُقْبة، قال: أدركْها قبل أن تفسد، فردَّه واليًا على إفريقية، وقَطَعَها عن[3] مَسْلَمة بن مُـخلد والي مِصْرَ.

وفي سنة ست وخمسين من الهجرة: دعا مُعاوية بن أبي سُفيان إلى بيعة يزيد، وجعله وليَّ عهده من بعده، فانقادَ له الناسُ كلُّهم، إلّا خمس نَفَر: الـحُسَيْن بن عليّ، وعبد الله بن الزُّبَيْر، وعبد الله بن عُمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصِّدِّيق، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم[4].

وفي سنة سبع وخمسين: عزل مُعاويةُ مروانَ عن المدينة، واستعمل الوليد بن عُقْبة[5] وكان العامل على مِصْرَ وإفريقية مَسْلمة بن مُـخلَّد، ووالي[6] مَسْلَمة على إفريقية أبو الـمُهاجِر، وبقي الحال على ذلك، إلى وفاة مُعاوية.

وفي سنة ستين: توفّي مُعاوية بن أبي سفيان، يومَ الجمعة مُنْـتَصِفَ رَجَب، وهو ابن اثنتَيْن وثمانين سنة[7]، وتولَّى الخلافة من بعده يزيد ابنُه، وتلقَّب بالـمُسْتَنْصِر بالله في بعض الأقوال، وكُنْيَتُه أبو خالِد، وقد ذكرنا أخباره في تأليفٍ.

---

(١) ليست في م.

(٢) في م: «طع» ولا معنى لها.

(٣) في م: «على»، وهو تحريف.

(٤) تاريخ الطبري ٥/ ٣٠١.

(٥) تاريخ خليفة ٢٢٤، وتاريخ الطبري ٥/ ٣٠٨.

(٦) في م: «ووليُّ»، وهو تحريف.

(٧) تاريخ الطبري ٥/ ٣٢٣.

وفي سنة إحدى وستين: كان مقتل الـحُسَيْن بن عليّ رضي الله عنهما(١)، وفيها أظهر عبد الله بن الزُّبَيْر الـخِلافَ بمَكَّة، وخلع طاعة يزيد بن مُعاوية، وخَبَرُهما [مشهورٌ](٢).

وفي سنة اثنتين وستين ولَّى يزيد بن مُعاوية على بلاد إفريقية والـمَغْرِب كلِّه عُقْبَةَ بن نافِع الفهريَّ، وهي ولايتُه الثانية على إفريقية.

ذكر فَتْح الـمَغْرِب الأقْصى على يد عُقْبة الـمُجاب(٣) رضي الله عنه وغزواته

فرحل عُقْبة من الشام، ومعه خمسة وعشرون رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلمّا مرَّ على مَسْلَمة بن مُـخَلَّد صاحب مِصْرَ، خرج إليه، واعتذرَ من فِعْل أبي الـمُهاجِر، وأقسمَ له أنّه خالَفَه فيما صنعَ، وأنّه كان قد أوصاه بتقوى الله وحُسْن السيرة، وأن يُـحْسِن عِشْرَةَ عُقْبة. فقبل منه عُقْبةُ، ومضى حَنِقًا(٤) على أبي الـمُهاجِر، حتّى قدم إفريقية. فأوثق أبا الـمُهاجِر في الحديد، وأمر بتخريب مدينته التي بناها، وردَّ الناسَ إلى القَيْرَوان، وركب في وجوه العسكر ومن معه من الصحابة والتابعين، فدارَ بهم حَوْلَ مدينة القَيْرَوان، وهو يدعو لها، ويقول: يا ربِّ امْلأها عِلْمًا وفِقْهًا، واملأها بالـمُطيعين لكَ، واجعلْها عِزًّا لدينك، وذُلًّا على من كَفَر بكَ. ثمّ عزم رضي الله عنه، على الغزو في سبيل الله، وتركَ بها جُنْدًا من المسلمين، واستخلفَ عليهم زُهَيْرَ بن قَيْس البَلَويَّ(٥)، وكان رجلًا صالحًا. ودعا عُقْبة أولاده، فقال لهم: إنّي قد بِعْتُ نَفْسي من الله عزَّ وجلَّ وعزمتُ على مَن كَفَر به، حتّى أُقْتَلَ فيه، وأُلْـحَقَ به، ولَسْتُ أدري أتَرَوْني بعد يَوْمي هذا أم لا، لأنّ أمَلي الموتُ في سبيل الله. وأوصاهم بما أحبَّ، ثمّ قال: عليكم سلامُ الله، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ نفسي في رِضاكَ. ثمّ مضى بعسكره، فكانت النصارى تهرب من طريقه يمينًا وشمالًا، وهو يستفتحُ البُلْدان، ويغزو في سبيل الله.

---

(١) تاريخ خليفة ٢٣٤، وتاريخ الطبري ٥/ ٤٠٠.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين للسياق.

(٣) من ر١.

(٤) في م: «خَنقًا» وهو تصحيف.

(٥) ترجمته في تاريخ الإسلام ٢/ ٨١٣.

وشرعَ عُقْبة في هذه الغزوات المذكورة بَعْدُ، فلا أعْلَمُ هل كانت مُتَّصِلةً في هذا العام وحده، أو فيه وفيما بعده من بقيَّة أيَّام يزيد بن مُعاوية، فرأيتُ إيرادَ غزواته هنا مجموعةً مختصرةً. لئلّا ينقطعَ خبرُها. إذ مَبْدأها كان[1] في هذه السنة وفي ولاية يزيد، فهو منسوبٌ إليه.

فخرج رحمة الله عليه غازيًا للرُّوم والبربر، وهم إذ ذاك مَـجُوسٌ ونَصارى، وذلك بمدينتي باغاية[2] وقَرْطاجَنَّة وما والاهما. فهزمهم، وقَتَّلَهم تقتيلًا، وأخذ المسلمون من سَبْيِهم وخَيْلهم شيئًا كثيرًا.

وغَزْوتُه إلى مدينة باغاية، وذلك أنَّه لجأ إليها الرومُ واجتمعوا بها. فنزل بجمعه[3] عليهم، وحاصرهم. فخرجوا إليه في جمع كبير، فقاتلهم قتلًا ذَرِيعًا، وأخذ لهم خَيلًا كثيرة. فلم يَرَ المسلمون في مغازيهم أصْلَبَ منها. وكانت من نِتاج جَبَل أوْراس الـمُطِلّ عليها. ودخل على الروم حصنهم، فكَرِهَ أن يُقيم عليهم. وكان قد حَصَر صاحِبَ قلعة بجَاية[4]، فمضى إلى مدينة الـمُنَسْتِير، وكانت في ذلك الزمان من أعظم مدائن الرُّوم. فلجأ إليها من كان حَوْلَـها منهم، وخرجوا إليه في عُدَّة وقوَّة. فقاتلهم قتالًا شديدًا، حتّى ظَنَّ الناسُ[5] أنّه الفناءُ، إلى أن هزمهم الله إلى باب حصنهم. فأصاب المسلمون غنائم كثيرة، ورحل عنهم.

وغَزْوَتُه أيضًا للروم بمدينة الـمُنَسْتِير ثانيةً، وكانت من أعظم مدائن الروم، فخرجوا إليها، واجتمع جميعُهم بها، وخرجوا لحربه، فهزمهم الله، وقُتِّلوا تقتيلًا، وأُصيب من غنائمهم ما لم يُعْهَد مثلُه.

وغَزْوَتُه لهم أيضًا بالزاب وقتالُه إيَّاهم على وادي الـمَسِيلة[6]، فهزمهم، وقتلهم. وذهب عِزُّ الروم ومُلكُهم من الزاب إلى آخر الدهر.

---

(١) سقطت من م.

(٢) ينظر عنها معجم البلدان ١/ ٣٢٥.

(٣) في ر١: «بجمعهم»، وهو تحريف.

(٤) في أ: «باغاية»، وما أثبتناه من ر١ وهو الصواب.

(٥) سقطت من م.

(٦) ينظر عن الـمَسِيلة معجم البلدان ٥/ ١٣٠.

وغَزْوَتُه لهم أيضًا بتيهَرْت[1]، وقد اجتمع الروم والبربر في إقليم تِيهَرْت اجتماعًا عظيمًا. فخطب عُقْبةُ الناسَ، ووعظَهُم، ثمّ زحفَ إلى الكفَّار، فالتحم الـجَمْعانِ، فولَّى الكفَّارُ منهزمين، فأباد فُرسانَهم، وقتل حُماتهم، وفرَّق جَمْعهم. وسبقَتْهم خيلُ المسلمينَ إلى باب مدينتهم، فأفنَوْهم وقطعوا آثارهم.

صِفةُ مدينة تِيهَرْت، على ما ذكره ابن القطَّان، قال: هي مدينتانِ: القديمةُ منهما هي المذكورة في هذه الغزاة، على خمسة أميال من الحديثة، وفي شرقيّها قَصْرٌ لبعض القبائل. والحديثةُ مشهورةٌ، ولها أربعة أبواب: باب الصَّفّ، وباب الـمَنازِل، وباب الأَنْدَلُس، وباب المواجن. وهي في سفح جبل يُقال له: جُزُول. ولها قَصَبةٌ مُشْرِفة على السوق، يُقال لها: الـمَعْصُومة. وهي على نَهْر يأتيها من القبلة. وهي كثيرة البَرْد والثلج والأمطار، حتّى قيل لبعضهم: كم زمان الشتاء عندكم؟ قال: ثلاثة عشر شهرًا، وقال بَعْضُهم [من السريع]:

مـا أطْـوَلَ الـبَرْدَ ورَيْعانَـهُ ... وأطْـرَفَ الـشَّمْسَ بتِيهَـرْتِ
تَبْـدُو مِـن الغَـيْمِ إذا مـا بَـدَتْ ... كـأنَّما تُنْـشَرُ مِـن طَخْـتِ[2]
فـنحنُ في بَـحْرٍ بِـلا لُـجَّةٍ ... تَجْـرِي بنا الـرِّيحُ عـلى السَّكتِ[3]
نَفْـرَحُ بالـشَّمْسِ إذا مـا بَـدَتْ[4] ... كَفَرْحَـةِ الـذِّمِّيِّ بالـسَّبْتِ

وبقِبْليّها من القبائل: لُوَاته، وهُوَّارة، وبغَرْبيّها: زُواغة، وبجوفيّها: مَطْماطة وزَناتة. وكان إحداث تِيهَرْت الحديثة بعد سنة أربعين ومئة من الهجرة، والقديمة قبل ذلك بها لا يُعرف أوَّلُه. وللحديثة أسواقٌ كثيرةٌ عامرةٌ واثنا عشر حَمَّامًا، وحَواليها من قبائل الغَرْب[5] أُمَمٌ كثيرةٌ، وهي من آخر إفريقية.

---

(١) ويقال فيها «تاهرت» كما في ر١.
(٢) في م: «تحت» وهو تحريف، والطخت: شدة الظلام.
(٣) في م: «السمت» محرفة.
(٤) في ر١: «بدا» خطأ.
(٥) في م: «المغرب».

وغَزْوَتُه أيضًا إلى طَنْجة. وذلك أنَّه لـمّا توالَت الهزائم على نصارى إفريقية وبَرْبَرِها، وكَثُر القتلُ فيهم حتّى كاد يستأصلهم، لجأ من بقي منهم إلى الحصون والـمَعاقِل، فلم يبرحوها. فكَرِهَ الـمُقام على مُـحاصرتهم، فيفوتَه الغزوُ وقَتْلُ غيرهم من طوائف الكفَّار، إذ كانت أُمَمُ المغرب من نصارى وبَرابِر لا يُـحْصَوْنَ كثرةً وانتشارًا، ولا يُكاثَرون بالرمل والحصا. فترك أهْلَ إفريقية مُتَحَصِّنين بحصونهم، وأوغل في الغَرْب، يقتل ويأسر أُمَّةً بعد أُمَّة، وطائفةً بعد طائفة، بائعًا نفسَه من مولاه، لا تَرُوعه كثرةٌ، ولا تَعْتَرِيهِ هو ومن معه سآمةٌ ولا قَتْرةٌ، حتّى صار بأحواز طَنْجة. وكان بها مَلِكٌ اسمُه يُلْيان، يملك منها إلى ساحل الـمَجاز بسَبْتة. وكان من أشراف ملوك الروم وأعاظِمِهم، وذَوي العقل والدهاء فيهم. فلمّا قاربه، وجَّه إليه أرساله، مستعْطِفًا ومستلْطِفًا، وبعث له هديَّةً عظيمةً، وسأل منه الـمُسالَمَة، وأن ينزل على حُكمه. فقبل منه، واجتمع به، وسأله عن الأنْدَلُس، فعظَّم عليه أمرها، وقال له: قد تركتَ الرومَ وراء ظهرك، وما أمامَكَ إلّا البربر، وهم مثل البهائم، لم يدخلوا في دين نَصرَانيَّة ولا غيرها، وهم يأكلون الـجِيَف، ويأكلون مَواشيهم، ويشربون دماءها من أعناقها، فقد كفروا بالله العظيم، فلا يعرفونه، ومُعْظَمُهم الـمَصامِدة. قال: فسار عُقْبة نحو الـمَصامِدة بعد فَتْحه طَنْجة، على ما ذكرنا من الصُّلْح والمسالَمَة بسياسة يُلْيان. وهي طَنْجة القديمة في التواريخ، وفيها آثارٌ كثيرة للأُوَل.

صِفَةُ طَنْجة(١): قيل: عَمَلُها مسيرةُ شَهْر في شَهْر، وإنّها كانت دارَ مملكة ملوك المغرب، وإنّ ملكًا من ملوكها كان في عسكره إذا اجتمع ثمانون ألفًا. ومسافةُ ما بين القَيْرَوان وطَنْجة مسيرة ألفَي ميل. وهي قديمة أزَليَّةٌ، ليس بالمغرب أقدم منها، لكنَّها غلب عليها الرَّملُ، والعمارةُ اليوم فَوْقَها. وهي طَنْجة المذكورة في هذه الغزاة، ويُـحْفَرُ خَرابُها، فيوجَدُ فيه أصنافُ الجواهر؛ هكذا ذكر البَكْريُّ في كتابه.

---

(١) ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٣.

وقال الوَرَّاق: إن كُورةَ طَنْجة هي مَساكِن صُنْهاجة الهَبْط بطريق الساحل مـمّا يَلي سَبْتة. وبُطونُ صُنْهاجة كثيرةٌ، تَفْتَرِق من قبيلتَيْن، وبُطونُ مَصْمودة تتشعَّبُ من أربع قبائل: دُغاغ، وآصاد، وبني سَمْغرة، وكُتامة.

رَجْع الـخَبَر إلى ذكر عُقْبة الـمُجاب، وغَزْوَتُه أيضًا للبربر بالسُّوس الأدْنَى، وهي بلاد تامَسْنا، وهي بلاد الـمَصامِدة، فهزمهم، وأفناهم، وبثَّ الخيل في بلادهم، فافترقت في طلبهم إلى كلّ موضع هربوا إليه، لا يدفعهم أحَد.

وغزْوَتُه أيضًا للسُّوس الأقْصَى، فاجتمعَ به البربرُ في أُمَم لا تُـحْصَى، ولا تُكاثَر بالـحَصا، فقاتلهم[1] قتالًا ما سَمِعَ أهلُ المغرب بمثله قط، ثم[2] هزمهم، وقتل منهم خلقًا عظيمًا، وأصاب منهم نساء لم يَرَ الناسُ في الدنيا مثلهُنَّ؛ قيل: إنّ الجارية منهنّ كانت تبلغ بالمشرق ألف دينار أو نحوَها. وهربَ الناسُ أمامه، لا يُدافِعه أحَدٌ، ولا يقوم له، تأييدًا من الله لأوليائه. وسارَ حتّى بلغ البَحْر الـمُحيط، فدخل فيه، حتّى بلغ الماءُ بطنَ فَرَسه، ثمّ رفع يديه إلى السماء، وقال: يا رَبِّ لولا أنّ البحر منعني، لمضيتُ في البلاد إلى مَسْلَك ذي القَرْنَيْن، مدافعًا عن دينك، مقاتلًا من كَفَر بك. ثمّ قال لأصحابه: انصرفوا على بركة الله، فجلا الناسَ أمامَه بكلّ ناحية هاربين، وخافت الـمُشركون أشدَّ مخافة، حتى أنّ قلوبهم تنخَلِع لذكره. وانصرف قافلًا من السوس الأقصَى؛ قال ذلك ابن أبي الفَيَّاض وغيرُه.

وقال غيرُه: ونزل من دَرْعة[3] إلى بلاد صُنْهاجة، ثمّ إلى بلاد هَسْكُورة، ثمّ نزل أغْمات وَرِيكة[4]، ثمّ نزل منها على وادي نَفِّيس[5]. وقام عُقْبة من وادي نَفِّيس، وسار حتّى نزل إيجْلي[6] بالسوس، وبَنَى فيه مسجدًا.

---

(١) في م: «فقتلهم»، وهو تحريف.

(٢) قوله: «قط، ثم» لم يتمكن ناشرو (م) من قراءتها فوضعوا بدلها «حتى» بين حاصرتين.

(٣) معجم البلدان ٢/ ٤٥١.

(٤) قريبة من مراكش (معجم البلدان ١/ ٢٢٥).

(٥) الروض المعطار ٥٧٨.

(٦) معجم البلدان ١/ ٢٨٨.

أخبرني الشيخُ الصالح أبو عليّ صالح بن أبي صالح أنّه لم يصِحَّ عنده أنّ عُقْبة رضي الله عنه حضرَ بُنيان شيء من المساجد بالمغرب، إلّا مسجد القَيْرَوان، ومسجدًا بدَرْعة، ومسجدًا بالسوس الأقصى، وأمّا غير ذلك من المساجد المسمّاة باسمه؛ فإنّ الناس، والله أعلم، بنوها بموضع نزوله.

وقال الإشْبِيلِيُّ، في كتاب[1] «الـمَسَالِك» له: إنّ المسجد الذي على وادي نَفِّيس، بناه عُقْبة رضي الله عنه.

قال أبو عليّ: ثمّ سار عُقْبة من إيـجْـلِي، حتّى وصل ماسَّة[2]، فأدخل فرسَهُ في البَحْر، حتّى وصل الماءُ تَلابيبَه، وقال: السلامُ عليكم يا أوْلياء الله، فقال له أصحابُه: على من تُسَلِّمُ؟ قال: على قوم يُونُسَ عليه السلام، ثمّ قال: اللَّهُمَّ إنّك تعلم أنّي لم أطلب إلّا ما طلبَ عبدُكَ ووليُّكَ ذو القَرْنَيْن ألّا يُعْبَدَ في الأرض غيرُك.

ثمّ رجع عُقْبة قافِلًا إلى المغرب الأوسط، وسلكَ على إبعير[3] فَطَوَّف[4]، ثمّ أتى[5] تارنا[6]، ثمّ إلى موضع شاكِر، وترك به صاحبَه شاكِرًا، فسُمِّيَ باسمه. ثمّ رحل منه إلى بلاد دَكالة[7]؛ فوجد فيها قومًا، فدعاهم إلى الإسلام، فامتنعوا، فقاتلهم، فقتلوا جملةً من أصحابه، فسُمِّيَ ذلك الموضع مَقْبرةَ الشُّهَداء إلى الآن. ثمّ رجع من دَكالة إلى بلاد هَسْكُورة إلى موضع يُقال له: إطار، فوجدَ فيه أقوامًا، فدعاهم إلى الإسلام، فامتنعوا، فتَقاتَل معهم حتّى فرُّوا أمامه. فلم يقاتِلْه بعد ذلك أحَدٌ من أهل المغرب.

---

(١) في م: «كتابه» وهو تحريف، ولا يستقيم مع قوله بعد: له.

(٢) ذكرها ياقوت في «أدَبي» من معجمه ١/ ١٢٥.

(٣) هكذا في النسخ، وفي م: «إيغير»، ولم نقف عليه.

(٤) في م: «أن يطوف»، وهو تحريف.

(٥) في م: «إلى»، وهو تحريف.

(٦) هكذا في النسختين، وفي معجم البكري ٨٧ والروض المعطار ١٢٧: «تارنانا» وهو الصواب.

(٧) قيده ناشرو (م) بضم الدال، وقيده ياقوت بالفتح (معجم البلدان ٢/ ٤٥٩).

قال ابن عبد البَرّ[1]: فتح عُقْبة عامَّةَ بلاد البَرْبر، إلى أن بلغ طَنْجة؛ وجال هنالك، ولا يقاتله أحَدٌ، ولا يعارضه، حتّى فتح كُورةً من كُوَر السُّودان.

وقال أبو عليّ المذكور: لـمّا رجع عُقْبة من بلاد جُزُولة، سلكَ على بلاد صَوْدة.

قال ابن القطان: ثمّ سار عُقْبة إلى إفريقية.

وغَزْوَتُه أيضًا للروم والبربر بقرب من إفريقية، قافِلًا إليها بعد تلك الغزوات، فتفرَّق عنه جيشُه، للإياب إلى أحيائهم، والبدارِ إلى عيالهم، فبقي في جمع قليل.

ذكر وفاة عُقْبة بن نافِع رضي الله عنه

وذلك أنّ عُقْبة، لـمّا وصل إلى مدينة طُبْنة[2]، أمر أصحابه، فتقدَّموا ثِقةً منه بما دوَّخ من البلاد، وأنّه لا يقوم له أحَدٌ لينفذَ قدرُ الله ومرادُه، ويتعجَّلَ لعبده من كرامته ميعادُه. فصرف أصحابه إلى منازلهم عند قُرْبهم منها، وسار هو إلى مدينة تَهُودا[3]، لينظر فيمن يَصْلح لها من الفُرسان. فلمّا انتهى إليها في بقيَّةٍ مَن معه وكانوا قليلًا، نظرَ الروم إليهم؛ فطمعوا فيهم، فأغلقوا باب حصنهم، وجعلوا يشتمونه ويرمونه بالحجارة والنَّبْل، وهو يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، فلمّا توسَّط البلاد، بعثَ الرُّوم إلى كُسَيْلة بن لمزم الأورَبيّ، وقيل: البُرُنْسيّ، وقد كان في عسكر عُقْبة، وذلك أنّ أبا الـمُهاجِر في ولايته لإفريقية، كان نهض إلى المغرب، فنزل عيونًا عند تِلِمْسان، تُعْرَف الآن بعيون أبي الـمُهاجِر. فزحف منها إلى كُسَيْلة، وهو في عدَّة من قبائل البرانِس، فظَفر به أبو الـمُهاجِر، وعرض عليه الإسلام، فأسلم، وأحسن إليه أبو الـمُهاجِر واستبقاه. فلمّا قدم عُقْبة وعَزَلَ [أبا المهاجر عَرّفهُ][4] أبو الـمُهاجِر

---

(١) ينظر الاستيعاب ١/ ١٠٧٥ بتصرف، ولعله ذكره في كتاب آخر.

(٢) معجم البلدان ٤/ ٢١.

(٣) هي التي ذكرها ياقوت في معجمه باسم «تهوذة» ٢/ ٦٤.

(٤) ما بين الحاصرتين منا لا يستقيم النص إلا به.

بحال كُسَيْلة، وأنّه من مُلوك البربر، ولم يستحكم الإسلام بقلبه. فاستخفَّ به عُقْبة. وأُتي عُقّبةُ يومًا بذَوْدِ غَنَم، فأمر بذبحها للعسكر، وأمر كُسيلةَ أن يسْلَخَ منها مع السلاخين، فقال كُسَيْلة: أصلح الله الأمير، هؤلاء فِتْياني وعَبِيدي يُكْفوني. فقال عُقْبة: لا، فقام كُسَيْلة مُغْضِبًا. فكان، كلّما دحس، مسح بلِحْيته؛ فجعل العَرَب يمرُّون به، فيقولون: يا بَرْبَري ما تَصْنَع؟ فيقول: هذا جيّدٌ للشَّعَر[1]. حتّى مرَّ به شيخٌ من العرب، فقال لهم: كلا إنّ البربريَّ يتوعَّدُكم، فقال أبو الـمُهاجِر لعُقبة: بِئسَ ما صَنَعْتَ، كان رسولُ الله ﷺ يتألَّف جبابِرةَ العرب، وأنت تأتي إلى رجل جَبَّار في قومه، في دار عِزّه، قريب العهد بالشِّرْك، فتُهِينه؟! فتهاون عُقْبة بكلامه.

فانتهز كُسَيْلةُ فُرْصةً، فنكث، وقامَ في أهل بيته وقبائله من البربر، فقال أبو الـمُهاجِر: عاجِلْهُ قبل أن يستفحلَ[2] أمْرُه. فوقف إليه عُقْبة، فتنحّى أمامَه. فقالت له البَرْبر: لِـمَ تتنحَّى عنه، وهو في خمسة آلاف، ونحن في خمسين ألفًا في الزيادة، والرجل ليس عنده من يَمُدُّه، وقد سار عنه أصحابُه؟ فركَّبه البربر في الجيوش العظيمة، وغَشِيَهُ بهم كُسَيْلة بقرب تَـهُودا. فنزل عُقْبة رضي الله عنه وركعَ ركْعتَيْن، وقال لأبي الـمُهاجِر: الحق بالمسلمين، فقُمْ بأمرهم، فأنا أغْتَنِمُ الشهادة. فقال له أبو الـمُهاجِر: وأنا، والله أغْتَنِمُها معك. فكسرَ كلُّ واحد منهما جَفْنَ سيفه، وكسرَ المسلمون كذلك أغمادَ سيوفهم، وأمرَهم أن يترجَّلوا عن خيولهم. فقاتلوا قتالًا شديدًا، حتّى بلغ منهم الـجَهْدُ، وكَثُر فيهم الجراحُ. وتكاثرَ عليهم العدوُّ؛ فقُتِل عُقْبة، وأبو الـمُهاجِر، ومَن كان معهما من الـمُسلمين، ولم يفلت منهم أحَدٌ إلّا بعض وجوههم أُسِروا، ففَداهُم صاحبُ قَفْصة[3]، وبعثَ بهم إلى زُهَيْر بن قَيْس، وكان عُقْبة قد خَلَّفه أميرًا على القَيْرَوان وعلى تلك البلاد في كثير من الـمُسلمين، فلمّا بلغ ذلك زُهَيْرًا، أرادَ الانصراف إلى مِصْرَ.

---

(١) ليست في ر١.

(٢) في النسختين: «يستعجل»، ولعل ما أثبتناه هو الصواب.

(٣) معجم البلدان ٤/ ٣٨٢.

فقيل له: الهزيمة بالمسلمين من إفريقية إلى مِصر؟ فعزم على القتال. فاجتمع إلى كُسَيْلة أهلُ الـمَغْرِب قاطِبةً وزحف يريد القَيْرَوان. واضطرمت إفريقية. وكان وصول عُقْبة إلى الغَرْب سنة إحدى وستين. وقيل: سنة اثنتين وستين. وجال في المغرب ثلاثة أعوام، يُجاهِد في سبيل الله، رحمة الله عليه.

ويُرْوَى أنَّ النبيَّ ﷺ أنذرَ بقَتْل عُقْبة وأصحابِه رضي الله عنهم، وأنَّه عليه الصلاة والسلام نَهَى عن سُكْنَى مدينة تَهُودا، وقال: «سَوْفَ يُقْتَلُ عليها رجالٌ من أُمَّتي مُـجاهِدون في سبيل الله ثَوابُهم كثَواب أهل بَدْرٍ ما بدَّلوا ولا غيَّروا، يأتون يومَ القيامة، وسيوفُهم على عواتِقهم»[1]. وكان شَهْر بن حَوْشَب[2] يقول: واشَوْقاهُ إليهم. وكان يقول: سألتُ أكثر العلماء عن هذه العِصابة، فقالوا: ذلك عُقْبة بن نافِع وأصحابُه، قتله البَرْبر والروم بمدينة تسمَّى تَهُودا، فمنها يُـحْشَرون حتّى يَقِفوا بين يدي الله سبحانه.

وقال ابن القَطَّان في «نَظْم الـجُمان»: وأُخْبِرْتُ أنّ عُقْبة كان قَدِم مِصْر، وعليها عَمْرو بن العاص في خِلافة مُعاوية، فنزل مَنْزِلًا من بعض قُراها، ومعه عَمْرو بن العاص، وعبد الله، وجماعةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فوُضِع بينهم طعامٌ، فلما تناولوا منه، ضربت حِداةٌ على الطعام الذي بين أيديهم، فأخذَت منه. فقال عُقْبة: اللَّهُمَّ دُقَّ عُنُقَها، فأقبلت الحِداةُ حتّى ضربت برأسها إلى الأرض، وقد اندقَّ عُنُقُها. فاستوجعَ عَمْرو بن العاص يومًا، فقال له عُقْبة: ما لك يا أبا عبد الله تتوجع؟ فقال له: بلغني أنّ قومًا من قُرَيْش يُسْتَشْهَدون جميعًا، فقال عُقْبة: اللَّهُمَّ وأنا منهم. فكان منه ما تقدَّم ذَكرُه.

ومدينة[3] تَهُودا: هي مدينة أَزَليَّة، بُنيانُها بالحجارة، لها أسواقٌ كثيرةٌ، ورَبَضٌ واحدٌ. وبها جامعٌ جليلٌ، ومساجدُ، وفنادِقُ كبارٌ، ويسكنها قوم من البربر.

---

(١) لا أصل لمثل هذا في حديث النبي ﷺ.

(٢) وشهر بن حوشب هذا ضعيف، وينظر تاريخ الإسلام ٢/ ١١١٤.

(٣) في م: «وصفة مدينة».

وفي سنة أربع وستين: دخل كُسَيْلة البُرْنُسيُّ مدينة القَيْرَوان، وانتزعها من أيدي المسلمين، في مُحَرَّم؛ وذلك أنّه اجتمع معه جميعُ أهل المغرب، وزحفَ إلى القَيْرَوان. فعظُم البلاء على المسلمين، فقام زُهَيْر بن قَيْس خطيبًا في الناس، فقال: يا مَعْشَرَ المسلمين إنّ أصحابكم قد دخلوا الجنَّة، وقد مَنَّ الله عليهم بالشهادة فاسلُكوا سبيلهم أو[1] يفتح الله لكم دون ذلك. فقال حنَشٌ الصَّنْعانيُّ: لا والله ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولايةٌ ولا عَمَلٌ أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مَشْرِقهم، ثمّ قال: يا مَعْشَرَ المسلمين، من أراد منكم القفول إلى مَشْرِقه، فلْيَتَّبِعْني، فاتَّبعه الناس. ولم يَبْقَ مع زُهَيْر إلّا أهل بيته. فنهض في أثره ولحق بقصره ببَرْقة، فأقامَ بها مُرابِطًا إلى دولة عبد الملك بن مروان.

وأقبل كُسَيْلة البُرْنُسيُّ بعساكره، فلمّا قرب من القَيْرَوان، خرج من كان فيها هاربين، إذ لم يكن لهم طاقةٌ بقتاله، لعظيم ما اجتمعَ عنده من البربر والرُّوم. فأمَّن كُسَيْلة من بقي بالقَيْرَاون من الـمُسلمين، وأقامَ بالقَيْرَاون أميرًا على سائر إفريقية والـمَغْرِب، وعلى من فيه من المسلمين، إلى أن وَلِـيَ الخلافةَ عبدُ الملك بن مروان.

وفي سنة خمس وستين من الهجرة: وَلِـيَ عبدُ الملك بن مروان. فلمّا اشتدَّ سلطانُه، واجتمعَ أكابر المسلمين عليه، سألوه تخليصَ إفريقية، ومَن بها من المسلمين، من يد كُسَيْلة اللَّعين. فقال: لا يَصْلُح للطلب بِدَمِ عُقْبة من الروم والبربر إلّا مَن هو مِثْلُهُ دينًا وعَقلًا. فاستشار مع وزرائه، فاجتمعَ رأيُهم على تقديم زُهَيْر بن قَيْس البَلَويّ، وقالوا: هذا صاحبُ عُقْبة، وأعْلَمُ الناس بسيرته وتدبيره، وأولاهم بطلب دَمِه. فوجَّه عبد الملك إلى زُهَيْر، وهو ببَرْقة، يأمره بالخروج على أعِنَّة الخيل إلى إفريقية، ليستنْقِذ مَن بالقَيْرَوان. فكتب إليه زُهَيْر يُعرِّفه بكثرةِ مَن اجتمع على كُسَيْلة من البَرْبر والرُّوم، فأمدَّه عبد الملك بن مروان

---

(١) في م: «و» وهو خطأ.

بالـخَيْل والرجال والأموال، وحشد إليه وجوهَ العرب، وبعثهم إليه. فوفدت الجيوش على زُهَيْر، وتسرَّع الناسُ معه إلى إفريقية.

وفي سنة تسع وستين: أقبل زُهَيْر بن قَيْس البَلَويُّ في عسكر عظيم إلى إفريقية. فبلغ كُسَيْلَةَ بن لمزم قدومُه إليه، وعزمُه عليه. فجعل لا يَهابُه ولا يخاف منه، وكان كُسَيْلة في خَلْقٍ عظيم من البربر والرُّوم، أضعاف ما مع زُهَيْر مُضاعَفةً. فدعا كُسَيْلة أشرافَ البربر وقال لهم: إنّي رأيتُ أن أرحل عن هذه المدينة، فإنّ بها قومًا من المسلمين، لهم علينا عهودٌ، ونحن نخاف، إن أخذنا القتال معهم، أن يكونوا علينا، ولكن ننزل على موضع مسيرهم[1] وهي على الماء فإنّ عسكَرَنا خَلقٌ عظيمٌ، فإن هزمناهم إلى أطرابُلُس، قطعنا آثارهم، فيكون لنا المغرب إلى آخر الدهر، وإن هزمونا، كان الجبل منَّا قريبًا والشَّعْراءُ نتحصَّن[2] بهما.

ذكْر محاربة زُهيْر بن قَيْس البلويّ مع كُسَيْلة بن لـمْزَم البُرْنُسي[3]

لـمّا رحل كُسَيْلة عن القَيْرَوان، نزل عليها زُهَيْر بن قَيْس ثلاثةَ أيَّام، ولم يدخلها، وفي اليوم الرابع رحل عنها حتّى أشرف على عسكر كُسَيْلة في آخر النهار، فأمر الناس بالنزول. فلمّا أصبحَ وصَلَّى، زحف إليه. وأقبل كُسَيْلة ومن معه، فالتقى الجمعان، والتحم القتال بين الفريقَيْن؛ ونزل الضرُّ وكثر القتل في الفريقين، حتّى يئس الناسُ من الحياة. فلم يزالوا كذلك حتّى انهزم كُسَيْلة وقُتِلَ. ومَضَى الناسُ في طلب البربر والرُّوم، فلحقوا كثيرًا منهم، وقتلوهم، وجدُّوا في طلبهم إلى وادي مَلْوِيَة بالغَرْب؛ ففي تلك الوقعة ذهب رجالُ الروم والبربر المشركين، وقُتِلَ ملوكُهم وأشرافُهم وفُرسانُهم. ثمّ انصرف زُهَيْر إلى القَيْرَوان، فأوطنها. ففزع منه أهلُ إفريقية، واشتد خوفُهم، فلجأوا إلى الحصون والقِلاع. ثمّ إنّ زُهَيْرًا رأى بإفريقية مُلْكًا عظيمًا، فأبى أن يقيم بها، وقال: إنّي ما قدمتُ

---

(١) في ر١: «ميسر»، وفي م: «مبس» ولعل ما أثبتناه من أ هو الصواب.

(٢) في النسختين: «نتحصنوا»!

(٣) جاء العنوان في ر١ كما يأتي: «ذكر محاربة زهير مع كسيلة».

إلّا للجهاد وأخافُ أن تَـمِيلَ بي الدنيا[1] فأُهْلَكَ، وكان من رؤساء العابدين، وكُبراء الزاهدين. فترك القَيْرَوان آمِنَةً، وانصرف عنها، وأقام بها كثيرٌ[2] من أصحابه.

خُروج زُهَيْر إلى بَرْقة وكيفيَّة مقتله بها

ثمّ رحل زُهَيْر إلى الـمَشْرق في خلقٍ عظيم. فبلغ الرومَ خروجُه من إفريقية إلى بَرْقة، فأمكنَهُم ما يُريدون. فخرجوا إليها في مراكبَ كثيرة، وقوّةٍ عظيمة. فأغاروا على بَرْقة، فأصابوا فيها سَبْيًا كثيرًا، وقتلوا ونبهوا. ووافق ذلك قدوم عسكر زُهَيْر إلى بَرْقة من إفريقية، فأُخْبِرَ زُهَيْر بخبرهم. فأمر عسكره بالـمَسِير إلى الساحل، طَمَعًا أن يُدرك سَبْي الـمُسلمينَ، فيستنقذهم. فأشرفَ على الرُّوم، وإذا هم في خَلْق عظيم. فلم يقدر على الرجوع، وقد استغاثَ به الـمُسلمون وصاحوا، والروم[3] يُدْخِلونهم المراكِب. فنادى بأصحابه النُّزولَ، فنزلوا. وكانوا أشراف العابدين، ورؤساء العرب الـمُجاهِدين، أكثرُهم من التابعين. فنزل الرُّوم إليهم وتَلَقَّوْهم بعددٍ عظيم. والتحم القتال، وتكاثرت عليهم الروم، فقُتِلَ زُهَيْر رضي الله عنه وأشرافُ مَن كان معه من العرب.

ومضى المسلمون إلى دِمَشق، فدخلوا على عبد الملك بن مروان، فأخبروه أنّ أميرَهم وأشرافَ رجالهم قد استُشْهِدوا، فعظُم ذلك عليه، لفضل زُهَيْر ودينِه. وكانت مُصيبتُه مثل مُصيبة عُقْبة قَبْلَه. فاجتمعَ أشرافُ العرب، وسألوا عبد الملك أن ينظر لإفريقية مَنْ يَسُدُّ ثَغْرَها، ويُصْلِح أمرَها. فقال لهم عبد الملك: ما أعرفُ[4] أحدًا كُفْؤًا لإفريقية كحَسَّان بن النُّعْمان[5].

---

(١) في م: «إلى الدنيا» ولا معنى لها.

(٢) في م: «كثيرًا»، خطأ.

(٣) سقطت من ر١.

(٤) في أ: «أرى».

(٥) تنظر ترجمته في تاريخ الإسلام ٢/ ٨٠٨.

وفي[1] **سنة أربع وسبعين**: مات عبد الله بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما، ذُكَر أنّ الحجَّاج بن يوسف سمَّه، في خبرٍ طويل.

وفي سنة ست وسبعين: كان حدوث السِّكَّة في الإسلام، وأمر أمير المؤمنين عبد الملك بضرب الدنانير والدراهم بَنْقش الإسلام[2].

وفي سنة سبع وسبعين: ثار المطرِّف بن الـمُغِيرة بن شُعْبة على عبد الملك بن مروان، فكايده عبد الملك، واحتال عليه إلى أن قُتل[3]. وفيها كان [قتلُ] رؤساء الخوارج.

ولاية حَسَّان بن النُّعْمان إفريقية والمغرب

وفي سنة ثمان وسبعين[4]: قدم حَسَّان بن النُّعمان إفريقية[5]. اختاره لها عبد الملك بن مروان، وقَدَّمه على عَسْكرٍ فيه أربعون ألفًا: أقامه أوَّلًا في مِصْر بالعسكر، عدَّةً لِـما يَـحْدُث. ثمّ كتب إليه يأمره بالنهوض إلى إفريقية، ويقول له: إني قد أطلقتُ يدكَ في أموال مِصْر، فأعْطِ مَن معك ومَن وَرَدَ عليك، وأعْطِ الناسَ، واخْرُجْ إلى بَلَد إفريقية، على بركة الله وعونه.

بعض أخبار حَسَّان بن النُّعْمان

نَسَبُه[6]: هو حَسَّان بن النُّعمان بن عَدِي بن بَكْر بن مُغِيث بن عَمْرو بن مُزَيْقيا بن عامِر بن الأزْد. قدم إفريقية في عَسْكر عظيم، فلم يدخل المسلمون قطُّ إفريقية بمثل ما دخلَها حَسَّان بن النُّعمان. فلمّا حصَلَ بالقَيْرَوان، سأل أهل إفريقية: من أعْظَمُ الملوك بها قَدْرًا؟ فقالوا: صاحِبُ قَرْطاجَنَّة دار مُلْك إفريقية، فسار حتّى نزل عليها.

---

(١) من هنا إلى «ولاية حسان بن النعمان إفريقية» سقط كله من ر١.

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٢٥٧.

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٢٨٤.

(٤) في ر١: «ثمانين»، خطأ.

(٥) ذكر ذلك خليفة وقال: إن عبد الملك زاده أطرابلس على إفريقية (تاريخه ٢٧٧).

(٦) ليست في ر١.

وكان بها من الروم خَلْقٌ لا يحصون[1] كثرةً. فخرجوا إليه مع مَلِكِهم، فقاتلهم حَسَّان حتّى هزمهم، وقتلَ أكثرَهم. ثمّ نازَلَـها حتّى افتتحها، وهي كانت دارَ الـمُلْك بإفريقية.

ذكر قَرْطاجَنَّة إفريقيـة[2]

ويسمّيها أهلُ إفريقية[3] بالـمُعَلَّقة. وكانت قَرْطاجَنَّة مدينةً عظيمةً، تضربُ أمواجُ البحر سورَها. وهي من مدينة تُونُس على اثنَيْ عَشَر ميلًا. وكان بينهما قُرًى مُتَّصِلةٌ عامرةٌ. وكان البحر لم يُـخْرَق إلى تُونُس، وإنّما انخرق بعد ذلك. وفي هذه المدينة آثارٌ عظيمةٌ، وأبنيةٌ ضَخْمةٌ، وأعْمِدةٌ ثابِتةٌ غليظةٌ، تدُلُّ على عِظَم قُدرة الأُمَم الدائرة. وأهل تُونُس، إلى الآن، لا يزالون يَطَّلِعُون في خرابها على أعاجيب ومَصانِع لا تَنْقَطِعُ بطول الأزمان لـمُتَأمِّل[4].

فلمّا قَدِمَ حَسَّان إليها، وقتلَ فُرسانَها ورجالَـها، اجتمعَ رأيُ مَن بقي بها على الفرار منها. وكانت لهم مَراكِبُ كثيرةٌ، فمنهم من مَضَى إلى صِقِلّيَّة، ومنهم من مضى إلى الأنْدَلُس. فلمّا انصرفَ عنها حَسَّان، وعلم أهل بواديها وأقاليمها هُروبَ الملك عنها، بادروا إليها، فدخلُوها. فرحل إليها حَسَّان ونزل عليها. فحاصَرَها حِصارًا شديدًا حتّى دخلها بالسَّيف، فقتلهم قَتْلًا ذريعًا، وسَبَاهم، ونهبَهُم. وأرسلَ لمن حَوَاليها، فاجتمعوا إليه مُسارعين، خَوْفًا من عظيمِ سطوته، وشدَّةِ بأسه. فلمّا أتَوْه، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، أمرَهُم بتخريب قَرْطاجَنَّة وهَدْمِها. فخَرَّبُوها حتّى صارت كأمْسِ الغابِر. ثمّ بلغه أنّ النصارى اجتمعوا، وأمدَّهم البربرُ بعسكرٍ عظيم في بلاد صَطْفُورة[5]، فرحلَ إليهم حَسَّان حتّى لقيهم، وقاتَلَهم حتّى هزمهم، وقتل الروم والبربر قَتْلًا ذريعًا، وتركَ[6] عليهم أعِنَّـةَ

---

(١) في أ: «يحصى».

(٢) قوله: «إفريقية» ليس في ر١. ونقل النويري هذه الأخبار عن الرقيق القيرواني (نهاية الأرب ٢٤/ ١٨-١٩).

(٣) في أ: «أهل تونس اليوم».

(٤) في ر١: «لمتأمل بطول الأزمان».

(٥) ينظر عنها وعن ضبطها معجم البلدان ٣/ ٤٠٥.

(٦) في م: «وحمل»، ولا معنى لها.

خيله، فما ترك من بلادهم مَوْضِعًا إلّا وَطِئَهُ. ولجأ الرومُ خائفين هاربين إلى مدينة باجة[1]، فتحصَّنوا بها، وهرب البربرُ إلى إقليم بُونه[2]. وانصرف حَسَّان إلى القَيْرَوان.

خبرُ حَسَّان مع الـمَلِكة الكاهِنة وهزيمتها له[3]

لـمّا دخل حَسَّان القَيْرَوان، أراحَ بها أيَّامًا. ثمّ سأل أهلها عمَّن بقي من أعْظَم ملوك إفريقية، ليَسِيرَ إليه، فيُبِيدَه أو يُسْلِمَ، فدلُّوه على امْرأةٍ، بجبل أوْرَاس[4]، يُقال لها: الكاهِنة، وجميعُ مَن بإفريقية من الروم منها خائفون، وجميعُ البَرْبر لها مُطيعون، فإن قَتَلْتَها، دان لك الـمَغْرِب كلُّه، ولم يَبْقَ لك مُضادٌّ ولا مُعانِدٌ. فدخل بجيوشه إليها، وبلغ الكاهِنةَ خبرُه، فرحلت من الجبل في عدد لا يُحصى، ولا يُبْلَغ بالاستقصاء، وسبقَتْه إلى مدينة بَاغَاية[5]، فأخْرَجت منها[6] الرومَ، وهدمَتْها، وظنَّت أنّ حَسَّانًا يريد مدينةً ليتحصَّن بها منها. فبلغ خبرُها حَسَّانًا، فنزل بِوادي مَسْكِيَانة[7]. فرحلت الكاهِنة حتّى نزلت على الوادي المذكور، فكان هو يشرب من أعلى الوادي، وهي من أسفله. فلمّا توافت الخيلُ، دنا بعضُهم من بعض، فأبى حَسَّان أن يقاتلها آخر[8] النهار. فباتَ الفريقان ليلتَهم على سُرُوجهم. فلمّا أصبح الصباح، التقى الجمعان، فتقاتلوا قتالًا لم يُسْمَع بمثله، وصبرَ الفريقان صَبْرًا لم يَنْتَهِ أحَدٌ إليه، إلى أن انهزم حَسَّان بن النُّعْمان، ومَن معه من الـمُسلمين. وقتلت الكاهنةُ العربَ قَتْلًا ذريعًا،

---

(١) هي المعروفة بباجة القيروان وباجة القمح، وهي غير باجة الأندلس (وينظر معجم البلدان ١/ ٣١٤-٣١٥).

(٢) معجم البلدان ١/ ٥١٢.

(٣) قوله: «وهزيمتها له» ليس في ر١. والخبر نقلًا من تاريخ الرقيق في نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٩-٢٠.

(٤) معجم البلدان ١/ ٢٧٨.

(٥) معجم البلدان ٤/ ٢٨٩.

(٦) في ر١: «لها».

(٧) في ر١: «سكتانة»، وهو تحريف، وما هنا من أ، وينظر الروض المعطار ٥٥٨.

(٨) في ر١: «داخل»، وهو تحريف.

وأسرت ثمانين رَجُلًا من أعيان أصحابه[1]. وسُمِّيَ ذلك الوادي وادي العَذَارَى. واتَّبعَتْه الكاهنة حتّى خرج من عَمَل قابِس[2]. فكتب حَسَّان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يُخبره بذلك، وأنّ أُمَمَ المغرب ليس لها غايةٌ، ولا يقِفُ أحدٌ منها على نهاية، كلَّما بادَتْ أُمَّةٌ، خَلَفَتْها أُمَمٌ، وهم من الـجَهْل والكثرة كسائمة النَّعَم. فعاد له جوابُ أمير المؤمنين يأمرهُ أن يقيم حَيْثُما وافاهُ الجواب، فوردَ عليه في عَمِل بَرْقة. فأقام بها وبنى هنالك قُصورًا تُسَمَّى إلى الآن بقصور حَسَّان.

وملكت الكاهِنة الـمَغْرب كلَّه بعد حَسَّان خمس سنين. فلمّا رأت إبطاء العرب عنها، قالت للبربر: إنّ العربَ إنّما يطلبون من إفريقية المدائنَ والذَّهبَ والفضَّةَ، ونحن إنّما نريدُ منها المزارعَ والمراعي، فلا نرى لكم إلّا خراب بلاد إفريقية كلّها، حتّى يَيْأسَ منها العربُ، فلا يكون لهم رجوعٌ إليها إلى آخر الدهر. فوجَّهت قومها إلى كلّ ناحية: يقطعونَ الشجرَ، ويهدمونَ الـحُصونَ، فذكروا أنّ إفريقية كانت ظِلًا واحدًا من أطْرابُلُس إلى طَنْجةَ، وقُرًى متَّصلةً، ومدائن منتظمةً، حتّى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونًا من إقليم إفريقية والـمَغْرِب، مَسِيرةَ ألفَيْ ميلٍ في مثله. فخرَّبت الكاهنةُ ذلك كلَّه، وخرج يومئذ من النَّصارى والأفارِقة خَلْقٌ كثيرٌ، مُسْتَغِيثين مـمّا نزلَ بهم من الكاهنة[3]، فتفرَّقوا على الأنْدَلُس وسائر الـجُزُر البَحْرِيَّة.

وكانت الكاهنة، لـمّا أسرت ثمانين رجلًا من أصحاب حَسَّان، أحسنت إليهم، وأرسلت بهم إلى حَسَّان، وحَبَسَتْ عندها خالِد بن يزيد. فقالت له يومًا: ما رأيتُ في الرجال أجملَ منك، ولا أشجعَ، وأنا أُريدُ أن أُرْضِعَك، فتكون أخًا لوَلَدَيَّ ـ وكان لها ابنان أَحَدُهما بَرْبَرِيٌّ، والآخر يونانيٌّ ـ وقالت له: نحن جماعةَ البربر لنا رَضاعٌ: إذا فعلناه، نتوارَثُ به. فعمدَت إلى دقيق الشَّعير فَلَتَّتْهُ بزيتٍ، وجعلَتْه على ثَدْيَيْها، ودعت ولَدَيْها، وقالت: كُلا معه على ثَدْيَي، ففعلا، فقالت: قد صِرْتم إخْوَةً.

---

(١) في ر١: «وأسرت من أعيانهم ثمانين رجلًا».

(٢) معجم البلدان ٤/ ٢٨٩.

(٣) في ر١: «مما نزل بالكاهنة»، وهو تحريف.

ذكر مَقْتل الكاهِنة الـمَلِكة[1]

ثم إن حسَّانًا توافت عليه فُرْسانُ العرب ورجالُـها من قِبَل أمير المؤمنين عبد الملك. فدعا حَسَّان عند ذلك برجل يَثِقُ به، وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتابٍ. فقرأه وكتب في ظهره: إنّ البربر مُتَفَرّقون، لا نِظامَ لهم ولا رأيَ عندهم، فاطْوِ المراحِل، وجُدَّ في السَّير. وجعلَ الكتابَ في خبزةٍ وجعلها زادًا للرجل، ووجَّهه بها إلى الأمير حَسَّان. فلم يَغِبْ عن خالد بن يزيد إلّا يسيرًا حتّى خرجت الكاهنة ناشرةً شعرَها، تضربُ صَدْرها، وتقول: يا وَيْلَكم يا مَعْشَرَ البربر، ذهب مُلْكُكم فيها يأكلُه النَّاسُ. فافترقوا يمينًا وشمالًا يطلبون الرجل، فستَرُه اللهُ تعالى حتّى وصل حسَّانًا، فكسر الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد، فوجده قد أفسدَتْه النارُ. فقال له حَسَّان: ارجع إليه، فقال الرجل[2]: إنّ المرأة كاهنةٌ: لا يخفَى عليها شيءٌ من هذا[3]، فرحل حَسَّان بجنوده إليها. وبلغ الكاهنةَ خبره، فرحلت من جبل أوْراس في خلق عظيم، ورحل إليها حَسَّان. فلمّا كان في الليل، قالت لابْنَـيْها: إنّي مقتولةٌ، وأعلمَتْهم أنّها رأت رأسها مقطوعًا موضوعًا بين يَدَيْ مَلِك العرب الأعظم الذي بعث حَسَّانًا. فقال لها خالِد: فارحلي بنا، وخَلِّي له عن البلاد فامتنعت، ورأته عارًا لقومها. فقال لها خالدٌ وأولادُها: فما نحنُ صانعونَ بعدك؟ فقالت: أمّا أنت، يا خالِد فستُدْرِك مُلْكًا عظيمًا عند الـمَلِك الأعظم[4]، وأمّا أولادي، فيدركون سُلطانًا مع هذا الرَّجُل الذي يقتلني ويَعْقِدون للبربر عَزَائمَ[5]، ثمّ قالت: اركبوا واستأمِنوا إليه. فركب خالد وأولادها في الليل، وتوجَّهوا إلى حَسَّان. فأخبرهُ خالِدٌ بخبرها، وإنّها عَلِمت قتلَها، وقد وَجَّهت إليك بأولادها. فوَكَّل بهما من يحفظهما، وقَدَّم خالدًا على أعِنَّة الـخَيْل. وخرجت الكاهنة

(١) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٢٠.

(٢) ليست في ر١.

(٣) في ر١: «لا يخض عليها هذا القدر».

(٤) بعد هذا في ر١: «عبد الملك».

(٥) في م: «غرائم»، وهو تصحيف.

ناشرة شعرها، فقالت: انظروا ما دهمكم فإنّي مقتولةٌ، ثمّ التحم القتال، واشتدَّ الحربُ والنزال، فانهزمت الكاهنة، واتَّبعها حَسَّان حتّى قتلها.

وكان مع حَسَّان جماعةٌ من البربر استأمنوا إليه. فلم يقبل أمانهم إلّا أن يعطوه من جميع[1] قبائلهم اثنَيْ عشر ألفًا يُـجاهِدون مع العرب. فأجابوه وأسلموا على يَدَيْه. فعقد لولَدَي الكاهنة، لكلّ واحد منهما على ستَّة آلاف فارس، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يُقاتلون[2] الروم ومَن كفر[3] من البربر. وانصرف حَسَّان إلى مدينة القَيْرَوان، بعد ما حسن إسلامُ البربر وطاعتُهم، وذلك في شهر رمضان من[4] سنة اثنتين وثمانين. وفي هذه السنة، استقامت بلاد إفريقية لـحَسَّان بن النُّعمان، فدوَّن الدواوين، وصالَح على الـخَراج، وكتبه على عَجَم إفريقية وعلى مَن أقامَ معهم على دين النصرانيَّة.

وأقام حَسَّان بعد قتل الكاهنة، لا يغزو أحدًا، ولا ينازعه من أهل المغرب[5] أَحَدٌ. ثمّ عزله عبدُ العزيز بن مروان الوالي على مِصْر، وكان الوالي على مِصْر يُوَلِّي على إفريقية، فعزل حَسَّانًا وأمرَهُ بالقدوم عليه. فعلم حَسَّان ما أرادَ عبدُ العزيز بن مروان، أخو عبد الملك، فعمد إلى الـجَوْهَر والذَّهَب والفضَّة، فجعله في قِرَب الماء، وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة، وأنواع الدواب، والرقيق، وسائر أنواع الأموال. فلمّا قدم على أمير مِصْر عبد العزيز بن مروان[6]، أهدى إليه مئتي جارية من بنات ملوك الرُّوم والبربر. فسلبَهُ عبدُ العزيز جميعَ ما كان معه من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف والوصفان. ورحل حَسَّان بالأثقال التي بقيت له، حتّى قَدِمَ على الوليد بن عبد الملك وهو خليفة[7]،

---

(١) هذه اللفظة من ر١.

(٢) في ر١: «يقتلون».

(٣) في ر١: «وفر من البربر».

(٤) من ر١.

(٥) قوله: «من أهل المغرب» من ر١ فقط.

(٦) في ر١: «فلما قدم على عبد العزيز بن مروان أمير مصر».

(٧) قوله: «ابن عبد الملك وهو خليفة» من ر١. على أنّ هذا الخبر ربما يصح مع عبد الملك بن مروان لا مع الوليد، لأن عبد العزيز بن مروان توفي سنة خمس وثمانين في عهد عبد الملك بن مروان الذي بقي خليفة حتى سنة ست وثمانين (تاريخ خليفة ٢٩٢).

فشكا له ما صنع به عبدُ العزيز. فغضب الوليد على عمّه عبد العزيز، ثمّ قال حَسَّان لمن معه: ائتوني بقِرَب الماء، ففرَّغ منها من الذهب والفضَّة والجَوْهَر والياقوت والزَّبَرْجرد[١] ما استَعْظَمَهُ الوليد، وعجب من أمر حَسَّان، فقال له الوليد: جزاك الله خيرًا، يا حسَّان. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّما خَرجتُ مُجاهِدًا في سبيل الله، وليس مثلي يخون اللهَ والخليفةَ. فقال له الوليد: أنا أرُدُّك إلى عملك، وأُحسن إليك[٢]، وأُنوِّهُ بك، فحلف حَسَّان: لا أُوَلِّي لبني أُميَّة أبدًا! فغضب الوليد بن عبد الملك على عمّه عبد العزيز.

وكان حَسَّان يُسمَّى الشيخ الأمين. وغَزَواتُ حَسَّان لم تَنْضَبطْ بتأريخ محقَّق[٣] ولا فَتْحُهُ لمدينة قَرطاجَنَّة وتُونُس، ولا قَتْلُه للكاهِنة. وذكر ابن القَطَّان أنّ عَزْل حَسَّان وولاية موسى بن نُصَيْر كان من قِبَل عبد العزيز بن مروان، دون أمر أخيه عبد الملك، ولا مَشْوَرَته.

ذكر ولاية أبي عبد الرحمن موسى بن نُصَيْر إفريقية والمغرب وبعض أخباره رحمة الله عليه[٤]

نَسَبُه: قيل: إنَّه من لَخْم، وقيل: من بَكْر بن وائل. وذكر ابن بَشْكُوال في كتاب «الصِّلة» له[٥]، أنّه موسى بن نُصَيْر بن عبد الرحمن بن زيد. وكان موسى على خَراج البَصْرة، قدَّمه عليها عبد الملك بن مروان، فاحتجن الأموال، على ما ذُكِر، لنفسه. فأوصى

---

(١) من ر١.

(٢) قوله: «وأحسن إليك» ليس في ر١.

(٣) في ر١: «مُعين».

(٤) جاء العنوان في ر١ كما يأتي: «ذكر ولاية موسى بن نصير المغرب وبعض أخباره رحمة الله عليه» ثم بعد هذا: «كنيته: أبو عبد الرحمن».

(٥) لم يذكر ابن بشكوال موسى بن نصير في «الصلة» وسيعيد ذلك في أول الجزء الثاني، ولعله ذكر ذلك في كتابه: «التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين» وهو كتاب مشهور لابن بشكوال (تنظر التكملة الأبارية ١/ ٤٣٤ و٢/ ٤٢٥ و٣/ ٥، ٢٤٢).

الـحَجَّاجَ به ألّا[1] يَفُوتَه، فخافَهُ موسى وقصدَ إلى عبد العزيز بن مروان صاحب مِصْر، لانقطاعٍ كان منه إليه. فتوجَّه عبد العزيز مع موسى إلى الشام، فوفدا[2] على عبد الملك، فأغْرَمه عبد الملك مئة ألف دينار، فغرم عنه عبد العزيز نصفَها. وعادَ مع عبد العزيز إلى مِصْر، فولّاه منها إفريقية.

فأوَّلُ فُتوحه: قَلْعة زَغْوان[3] ونواحيها. وبينها وبين القَيْرَوان مسيرة يوم كامل. وبنواحي زَغْوان قبائل بَرْبَر بَعَثَ إليهم موسى خمس مئة فارس، ففتحها الله. فبلغ سبيُهم عشرة آلاف، وهو أوَّل سَبْي دخل القَيْرَوان في ولاية موسى. ثمّ وجَّه ابنًا له اسمه عبد الله إلى بعض نواحي إفريقية، فأتى بمئة ألف رأس من السبي. ثمّ وجَّه ابنه مروان، فأتى بمثلها. فكان الـخُمُس يومئذٍ ستّين ألفًا. فكتب موسى إلى عبد العزيز يُعلمه بالفَتْح، ويُعلمه أنّ الـخُمُس بلغ ثلاثين ألفًا. وكان ذلك وهمًا من الكاتب، كتب[4] ثلاثين ألفًا بدلًا من ستّين ألفًا. فلمّا قرأ عبد العزيز بن مروان الكِتابَ، وأنّ الـخُمُسَ من السّبي ثلاثون[5] ألفًا، استكثر ذلك، ورأى أنّه وهمٌ من الكاتب لكثرته. فكتب إلى موسى يقول له: إنه قد بَلَغني كتابُك تذكر أنّ خُـمُسَ ما أفاء اللهُ عليك ثلاثون ألف رأس، فاستكثرتُ ذلك، وظننْتُه وَهَـمًا من الكاتب، فاكتب بالحقيقة. فكتب إليه موسى: قد كان ذلك وَهَـمًا من الكاتب على ما ظَنَّه الأميرُ، والـخُمُس، أيُّها الأمير، ستُّون ألف رأس ثابتًا بلا وهم. فلمّا بلغه الكتاب، عَجِبَ كلَّ العَجَب، وامتلأ سُرورًا. وقد كان عبد الملك كتب إلى أخيه عبد العزيز[6]: قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك في عَزْل حَسّان وتولية موسى، وقد أمضى لك أمير المؤمنين ما كان

---

(١) في ر١: «لا».

(٢) ليست في ر١.

(٣) معجم البلدان ٣/ ١٤٤.

(٤) من هنا إلى قوله: «الكتاب» سقط من ر١.

(٥) في ر١: «ثلاثين»، خطأ.

(٦) في ر١: «وكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز».

من رأيكَ وولاية مَن ولَّيتَ. فكتب عبد العزيز إلى أخيه يُعلمه بالفَتْح وبكتاب موسى. ثمّ وجَّه عبد الملك رجلًا إلى موسى، ليقبضَ[1] ذلك منه على ما ذكر، فدفعَ موسى إليه مثل ذلك، وزادَ ألفًا.

وكان موسى عند وصوله إلى إفريقية، لـمّا صار في الجيش الأول، أتى عصفورٌ حتّى نزل على صدره، فأخذه موسى[2]، وذبحه، ولطَّخ بدمه صدرَهُ من فوق الثياب، ونتفَ ريشَهُ، وطرحَهُ على نفسه، وقال: هو الفَتْحُ ورَبِّ الكعبة.

قال ابن قُتَيْبة: فتحَ موسى بن نُصَيْر سَجُومة[3] وقتلَ ملوكها، وأمرَ أولاد عُقْبة: عِيَاضًا وعثمان وأبا عَبْدة، أن يأخذوا حقَّهم من قاتل أبيهم، فقتلوا من أهل سجَوُمة ست مئة رجل من كبارهم[4]، ثمّ قال لهم: كُفُّوا، فكَفُّوا، وذلك سنة ثلاث وثمانين على قول من قال: إنّه وَلِي فيها[5].

ثمّ فتح موسى هوّارة وزَناته وكُتامة، فأغار عليهم وقتلَهُم وسباهُم، فبلغ سبيُهم خمسة آلاف رأس. وكان عليهم رجلٌ يُقال له: طامون[6]، فبعثَ به موسى إلى عبد العزيز بن مروان، فقتله عند البِرْكة التي عند قرية عُقْبة، فسُمِّيت بِرْكة طامون[7] إلى اليوم. وكانت كُتامة قد قَدِمت على موسى، فولَّى عليهم رجلًا منهم، وأخذ منهم رهائن من خيارهم.

وفي سنة خمس وثمانين: تُوُفِّي عبد العزيز بن مروان، صاحبُ مُلْك مِصْر من قِبَل أخيه أمير المؤمنين[8] عبد الملك بن مروان، ووليها عبدُ الله بن مروان أخو

---

(١) في م: «ليقبضنَّ»، وهو تحريف.

(٢) في أ: «فأخذ به موسى»، وما هنا من ر١.

(٣) لم نقف عليها، والظاهر أنه اسم قبيلة من البربر.

(٤) في ر١: «من كبار سجومة ست مئة رجل».

(٥) قوله: «على قول من قال: إنه ولي فيها» من ليست في أ.

(٦) في أ: «كامون».

(٧) كذلك.

(٨) من ر١.

عبد الملك[1]. وكان عبد الملك بن مروان أراد أن يخلعَ أخاه عبد العزيز بن مروان[2] عن مِصر في هذه السنة، على ما فعل من عزل حَسَّان[3] بن النُّعْمان وفَيْئه. فنهاه قَبِيصة بن ذُؤيْب[4]، وقال: لعل الموت يأتيه فنستريح منه، فكفَّ عبد الملك عنه، وبقيت نفسُه تُنازعه أن يخلعه. فبينا هو على ذلك، ورَوْحُ بن زِنْباع[5] الـجُذاميُّ يقول له يومًا: لو خَلَعْتَهُ، ما انتطَحَ فيه عِنْزانِ، إذ دخل عليهما[6] قَبِيصة، فقال: آجَرَكَ اللهُ يا أمير المؤمنين في أخيك، فقال: وهل تُوفِّي؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: كفانا الله يا أبا زُرْعة ما كُنَّا أجْـمَعْنا عليه. وكانت وفاة عبد العزيز[7] في جمادى الأولى من السنة المؤرَّخة.

وفي سنة ست وثمانين: توفِّي عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين[8]، فكتب الوليد إلى عمّه عبد الله بن مروان بولاية موسى بن نُصَيْر إفريقية والـمَغْرِب، وقَطْعِها عن عَمِّه. وكانت أكثر مُدُن إفريقية خاليةً باختلاف البرابر عليها.

فَتْح المغرب الأقصى على يدِ[9] الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نُصَيْر

ثمّ خرج موسى، رحمه الله، غازيًا من إفريقية إلى طَنْجة، فوجد البربر قد هربوا[10] إلى الغَرْب خوفًا من العَرَب. فتبعهم وقتلهم قتلًا ذريعًا، وسَبَى منهم سَبْيًا كثيرًا، حتّى بلغَ السُّوسَ الأدنى، وهو بلاد دَرْعة. فلمّا رأى البربرُ ما نزلَ بهم، استأمنوا

(١) قوله: «أخو عبد الملك» ليس في ر١. والخبر في تاريخ الطبري ٦/ ٤١٣.

(٢) قوله: «عبد العزيز بن مروان» ليس في أ.

(٣) في ر١: «على ما فعل مع حسان».

(٤) في م: «قُبَيْصة بن ذؤيِّب»، وهو تقييد خطأ في الاسمين.

(٥) قيده ناشر (م) بفتح الزاي، وهو خطأ، وترجمته في تاريخ الإسلام ٢/ ٩٨٨.

(٦) في ر١: «عليه».

(٧) في ر١: «وكانت وفاته».

(٨) تاريخ خليفة ٢٩٢، وتاريخ الطبري ٦/ ٤١٨.

(٩) في م: «يدي».

(١٠) في أ: «خرجوا».

وأطاعوا. فولَّى عليهم واليًا، واستعمل مَوْلاه طارِقًا على طَنْجة وما والاها، في سبعة عَشَر ألفًا من العرب واثْنَيْ عَشَر ألفًا من البربر[1]. وأمر العرب أن يُعلِّموا البرابرَ القُرآنَ، وأن يُفَقِّهوهم في الدين. ثمّ مضى[2] موسى قافلًا إلى إفريقية.

قال ابن القَطَّان: وذُكِر أنّ موسى بن نُصَيْر[3] بعث أثر بيعته للوليد، في هذه السنة المؤرَّخة، زُرْعة بن أبي مُدْرِك إلى قبائل من البربر، فلم يَلْقَ حَرْبًا منهم. فرغبوا في الصلح منه، فوجَّه رؤساءهم إلى موسى بن نُصَيْر، فقبض رهونهم، ثمّ عقد لعيَّاش بن أخْيَل على مَراكِب إفريقية، فمشى في البَحر إلى صِقِلِّيَّة، فأصاب مدينةً يُقال لها: سَرَقُوسة[4]، فغنمها وجميعَ ما بها، وقفل سالمًا غانمًا.

ولـمّا حمل أبو مُدْرِك[5] زُرْعة بن أبي مُدْرِك رهائن الـمَصامِدة، جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين أخذهم إلى إفريقية والمغرب، وكانوا على طَنْجة، وجعل عليهم مَوْلاه طارِقًا، ودخل بهم جزيرة الأنْدَلُس. وترك موسى بن نُصَيْر سبعة عشر رجلًا من العرب، يعَلِّمونهم القرآن وشرائع الإسلام. وقد كان عُقْبة بن نافِع ترك فيهم بعض أصحابه يُعلّمونهم القرآن وشرائع[6] الإسلام، منهم: شاكِر صاحب الرباط وغيرُه. ولم يدخل المغربَ الأقصى أحدٌ من ولاة خُلَفاء بني أُمَيَّة بالمشرق إلا عُقْبة بن نافِع الفِهْرِيّ، ولم يعرف المصامِدة غيرَه. وقيل: إنّ أكثرهم أسلموا طَوْعًا[7] على يدَيْه، ووصل موسى بن نُصَيْر بعده.

وفي سنة اثنتين وتسعين من الهجرة: جازَ طارق إلى الأنْدَلُس، وافتتحها بمن كان معه من العرب والبرابر، ورهائنهم[8] الذين تركَ موسى عندَهُ، والذينَ أخذهم

---

(١) في ر١: «في سبعة عشر ألفًا من البربر والعرب»، وما هنا من أ وهو الصواب.

(٢) في ر١: «رجع».

(٣) قوله: «ابن نصير» ليس في ر١.

(٤) قيدها ناشر (م) بكسر السين، خطأ، وينظر معجم البلدان ٣/ ٢١٤.

(٥) الكنية ليست في ر١.

(٦) سقطت من أ، م.

(٧) ليست في ر١.

(٨) في ر١: «ورهبانهم»، وهو تحريف.

حَسَّان من المغرب الأوسط قَبْلَه[1]. وكانت ولاية طارق على طَنْجة والمغرب الأقصى في سنة خمس وثمانين. وفي هذا التأريخ، تَمَّ إسلامُ أهل المغرب الأقصى، وحوَّلوا المساجد التي كان بناها الـمُشْرِكون إلى القِبْلة، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات. وفيها صُنِعَ مسجد أغمات هَيْلانة.

ونَسَبُ طارِق: هو طارِق بن زِيَاد بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نبرغاسن بن واماص بن يطوفت بن نَفْزاو. فهو نَفْزيٌّ، ذُكِرَ أنَّه من سَبْي البربر، وكان مَوْلَى موسى بن نُصَيْر.

وفي سنة ثلاث وتسعين: جاز موسى بن نُصَيْر إلى الأنْدَلُس، فعبر البحر غاضِبًا على طارِق، ومَشَى على غير طريقه، وفتح فتوحًا كثيرةً[2]، يَقَعُ ذِكْرُها، إن شاء الله، في الـجُزْء الثاني من هذا الكتاب، في فتح الأنْدَلُس.

وفيها: وَلِيَ عبدُ الله بن موسى إفريقية عِوَضًا من أبيه، حين توجَّه إلى الأنْدَلُس، إلى أن وصل أبوه منها متوجِّهًا إلى الـمَشْرِق، فقدم مدينة القَيْرَوان في أواخر سنة خمس وتسعين.

وفي سنة خمس وتسعين: انصرف موسى من الأنْدَلُس إلى إفريقية، بما أفاء اللهُ عليه، فأجاز الأموال من الذَّهَب والفِضَّة والـجَوْهر في المراكب إلى طَنْجة. ثمّ حملها على[3] العَجَلات[4].

قال الرَّقِيق: كانت وَسْقَ مئة عَجَلة وأربع عشرة عَجَلة. وفيها المائدة، وكانت من ذَهَب، يشوبه شيءٌ من فضَّة، مُطَوَّقةً بثلاثة أطواق: طَوْق ياقوت، وطَوْق زَبَرْجَد، وطَوْق جَوْهر[5]؛ وحُـمِلت يومًا على بغل عظيم أفْرَه وأقوى ما وُجِد، فما بلغ المرحلة حتّى تفتحت قوائمه.

---

(١) ينظر تاريخ خليفة ٣٠٤، وتاريخ الطبري ٦/ ٤٦٨.

(٢) تاريخ خليفة ٣٠٥، وتاريخ الطبري ٦/ ٤٦٨.

(٣) في ر١: «إلى».

(٤) ينظر تاريخ خليفة ٣٠٧، وتاريخ الطبري ٦/ ٤٩٢.

(٥) في أ: «لؤلؤ».

قال اللَّيْث بن سَعْد: لم يُسْمَع قطُّ بمثل سبايا موسى بن نُصَيْر في الإسلام.

ولـمّا قدم عليه ابنُه من السُّوس، خرج للقائه مع وجوه الناس. فلمّا التقيا، قال مروان بن موسى لرجاله: مرُوا لكلّ من خرجَ مع والدي بوَصِيفٍ أو وَصيفةٍ. وقال موسى: مُرُوا أنْتُمْ لهم من عندي بمثل ذلك. فرجع الناسُ كلُّهم بوصيفٍ أو وصيفةٍ.

ومن أخبار موسى بن نُصَيْر أيضًا[١]، رحمه الله، لـمّا انصرف من الأنْدَلُس، ولَّى عليها ابنَهُ عبدَ العزيز، وشخص قافلًا إلى إفريقية. فقدِمَ القَيْرَوان في آخر سنة خمس وتسعين، فلم يدخلها، ونزل بقصر الماء. ثمّ قعدَ في مجلسه، وجاءتْه جيوشُ العرب من القَيْرَوان، فمنهم مَن سافَرَ معه، ومنهم مَن تخلَّف مع ابنه[٢] عبد الله بإفريقية، فقال لأصحابه: أصبحتُ اليومَ في ثلاث نِعَمٍ، منها: كتابُ أمير المؤمنين بالشُّكر والثناء، ثمّ وصَفَ ما أجرى الله على يَدَيْه من الفتوحات، ثمّ كتابُ ابني عبد العزيز يَصِف ما فتحَ اللهُ عليه في الأنْدَلُس بحمد الله تعالى. فقاموا إليه، فهنّأوه، وأمّا الثالثة، فأنا أُرِيكُموها، وقام، فأمر برفع ستر[٣]، فإذا فيه جَوَارٍ مُـخْتَلِفات، كأنَّهُنَّ البدور الطوالع، من بنات ملوك الرُّوم والبَرْبر، عليهنَّ الـحِليُ والـحُلَلُ، فُهنِّئَ أيضًا بذلك. فقال عُليُّ بن رَباح السُّلَميُّ[٤]: أيُّها الأمير، أنا أنْصَحُ الناسِ إليك: ما من شيء انتهى إلّا ورَجَعَ فارْجِعْ قبْلَ أن يُرْجَعَ إليك. قال: فانكسر موسى، وفرَّق جواريه من حينه على الناس.

ثمّ رحل إلى المشرق، وخلف على إفريقية ابنَهُ عبدَ الله، وعلى الأنْدَلُس ابنَهُ عبدَ العزيز، وعلى الغرب[٥] وطَنْجة ابنَهُ عبدَ الملك.

وقال ابن القَطَّان: الأكثرون يقولون إنّ مُسْتَقَرَّ طارِق قبل مُـحاولة الأنْدَلُس كان بطَنْجة، ومنهم من يقول: كان بموضع سِجِلْماسة، وإنّ سَلَا، وما وراءها من

(١) ليست في ر١.

(٢) كذلك.

(٣) في ر١ : «فقام فرفع سترًا».

(٤) المحفوظ أنَّ عُليّ بن رباح لخمي كما في تهذيب الكمال ٢٠/ ٤٢٦-٤٢٧ والمصادر المذكورة فيه.

(٥) ليست في أ، م.

أرض فاس وطَنْجة وسَبْتة، كانت للنصارى. قال: واختلف الناسُ هل دخل موسى القَيْرَوان في هذه الوجهة أم لا.

ثمّ رحل عنها مع بقيّة أولاده: مروان، وعبد الأعلى، وغيرهما، ومعه أشرافُ الناس من قُرَيْش والأنصار وسائر العرب، ومن وجوهِ البَرْبر مئة منهم: كُسَيْلة بن لَـمْزَم، وبنو يسُّور ومَزْدانة مَلِك السُّوس ومَلِك ميورقة ومَنُورقة، ومن أولاد الكاهِنة، ومئة من وجوه ملوك الروم الأَنْدَلُسِيّين، وعشرون مَلِكًا من ملوك المدائن التي افتتحها بإفريقية. وخرجوا معه بأصناف ما كان في كلّ بلد من طُرَفها، حتّى انتهى إلى مِصْر. فلم يَبْقَ بها فقيهٌ ولا شريفٌ إلّا وصَلَهُ وأعطاه. ثمّ خرج من مِصْر متوجِّهًا إلى فِلَسْطِين، فتلقّاه آلُ رَوْح بن زِنْباع ونحروا له خمسين بعيرًا. ثمّ خرج وترك عندهم بعض أهله وصغارَ وَلَده فأعطى آلَ رَوْح بن زِنْبَاع عطاءً جَزْلًا. ثمّ وافاه كتابُ الخليفة الوليد بن عبد الملك، يأمره بشدِّ السَّيْر إليه، ليُدْرِكه في قَيْد الحياة، وكان مريضًا. ووافاه كتابٌ من سُليمان بن عبد الملك وليّ عَهْد أخيه الوليد، يأمره بالتأنّي والتربُّص. فأسرع موسى، ولم ينظر في كتاب سُليمان، إلى أن وصل إلى الوليد قَبْل موته بثلاثة أيّام. فقال سُليمان: لَئِنْ ظَفرْتُ به لأصلبنَّهُ، فدفعَ موسى الأموالَ والمائدةَ والدُّرَّ[١] والياقوتَ والتيجان والذهب والفضّة إلى الوليد بن عبد الملك.

وقال الـمَسْعُوديُّ، في كتابه المسمَّى بـ«عجائب البلاد والزَّمن»، قال: لـمّا فتح طارِق طُلَيْطُلة، وجد فيها[٢] بيت الملوك، ففتحه. فوجد فيه زَبُورَ داود عليه السلام في وَرَقات ذَهَب، مكتوبًا بماء ياقوت مَـحْلُولٍ، من عجيبِ العَمَل الذي لم يَكَدْ يُرَ مثلُه[٣]، ومائدة سليمان عليه السلام وقد تقدَّم وصفُها. ووجد فيه أربعة وعشرين تاجًا منظومةً بعَدَد ملوك القُوطيّين بالأَنْدَلُس: إذا توفّي أَحَدُهم، جعل تاجَهُ بذلك البيت، وفعل الملكُ بعده لنفسه غيرَه، جرت عوائدُهم على ذلك. ووجدَ فيه قاعةً كبيرةً مملوءةً بإكْسير الكِيمِياء، فحمل ذلك كلَّه[٤] إلى الوليد بن عبد الملك.

---

(١) في ر١: «الدرر».

(٢) في م: «بها».

(٣) قوله: «الذي لم يكد يُر مثله» ليس في ر١.

(٤) ليست في ر١.

وفي سنة ست وتسعين: توفّي الوليد بن عبد الملك في جُمادى الآخرة. ووَلِيَ الخلافة سُليمان[1]. فغضب على موسى غَضَبًا عظيمًا[2]، وأمر عليه، فأُوقِفَ في يوم شديد الحرّ في الشمس، وكان رجلًا بادنًا ذا نسمةٍ. فوقف حتّى سقط مَغْشيًّا عليه. وقال له سليمان: كتبتُ إليك، فلم تنظر كتابي، هَلُمَّ مئة ألف دينار. قال: يا أمير المؤمنين، قد أخذتُمْ ما كان معي من الأموال، فمن أين لي مئة ألف دينار؟ قال: لا بدَّ من مئتي ألف، فاعتذر، فقال: لا بدَّ من ثلاث مئة ألف دينار. وأمر بتعذيبه، وعزمَ على قتلِه. فاستجارَ بيزيد بن الـمُهَلَّب، وكانت له حُظوةٌ عند سُليمان، فاستوهبَهُ منه، وقال: يُؤدِّي ما عنده، وقيل: إنّ موسى افْتُدِيَ من سُليمان بألف ألف دينار؛ ذكر ذلك ابن حَبِيب وغيرُه. ثمّ إنّ يزيد بن الـمُهَلَّب سَهر ليلةً مع الأمير موسى، فقال له: يا أبا عبد الرحمن في كم كُنْتَ تَعْتَدُّ أنت وأهلُ بيتك، من الموالي والـخُدَّام، أتكونون في ألفٍ؟ فقال: نعم وألف ألف إلى منقطع النَّفَس. قال: فَلِمَ ألقيتَ بنفسك إلى التَّهْلُكة، أفلا أقَمْتَ في قَرار عِزِّك، وموضع سلطانك؟ فقال: والله لو أردتُّ ذلك، لَـمَا نالوا من أطرافي شيئًا، ولكنِّي آثَرْتُ الله عزَّ وجلَّ ورسولَهُ، ولم أرَ الخروجَ عن الطاعةِ. وقيل: إنّ سُليمان بن عبد الملك، بعد ما افْتُدِيَ منه موسى، دعا يومًا بطِسْتٍ من ذَهَب، فرآه موسى ينظر إليه، فقال له[3]: يا أمير المؤمنين، إنّك لتعجبُ من غير عجب، والله ما أحْسِبُ أنّ فيه عشرة آلاف دينار، والله لقد بعثتُ إلى أخيك الوليد بتَنُّورٍ من زَبَرْجَد أخضر كان يُصَبُّ فيه اللبنُ فيخْضَرُّ، ولقد قُوِّمَ بمئة ألف دينار، ولقد أصبتُ كذا وأصبتُ كذا، وجعل يُكثر عليه في ذلك[4]، حتّى بُهِتَ الأميرُ من قوله.

وكان مَوْلِد موسى بن نُصَيْر سنة تسع عَشْرة، ووفاته سنة ثمان وتسعين، فكان عُمُره تسعًا وسبعين سنة. وفي سنة ثمان وثمانين ولي إفريقية، فأقام عليها أميرًا وعلى

(١) تاريخ خليفة ٣٠٩، وتاريخ الطبري ٦/ ٤٩٥.

(٢) في ر١: «شديدًا».

(٣) ليست في ر١.

(٤) قوله: «وجعل يكثر عليه في ذلك» ليس في ر١.

الأَنْدَلُس[1] والمغرب كلّه نحو ثمان عشْرةَ سنة، إلى أن مات. ومـمّا ذُكِر في وفاته، أنّه حجَّ مع سُليمان، فلمّا وصلا المدينة، قال موسى بن نُصَيْر لأصحابه: لَيَمُوتَنَّ بعد غَد رجلٌ قد ملأ ذِكْرُه المشرق والمغرب، فمات موسى في ذلك اليوم[2].

ولاية محمّد بن يزيد إفريقية[3] والمغرب

قال الواقديُّ: ثمّ إنّ أمير المؤمنين[4] سُليمان بن عبد الملك قال لرَجاء بن حَيْوة[5]: أُريد رَجُلًا، له فضلٌ في نفسه، أُوَلّيه إفريقيةَ[6]. فقال له[7]: نعم. فمكث أيّامًا، ثمّ قال له[8]: قد وجدتُ رجلًا له فضلٌ. قال: مَن هو؟ قال: محمَّد بن يزيد مَوْلى قُرَيْش[9]. فقال: أدْخِلْه عليَّ، فأدخله عليه. فقال سُليمان: يا محمَّد بن يزيد اتّقِ الله وَحْدَه لا شريكَ له وقُمْ فيما ولَّيْتُك بالحقّ والعدل، وقد ولَّيْتُك إفريقية والمغرب كلَّه[10] قال: فودَّعه وانصرفَ، وهو يقول: ما لي عُذْرٌ عند الله إن لم أعْدِلْ.

وفي سنة سبع وتسعين من الهجرة: استقرَّ محمَّد بن يزيد بإفريقية بأحسن سيرة وأعدلها. ثمّ وصله الأمر بأخْذ عبد الله بن موسى بن نُصَيْر وتعذيبه، واستئصال أموال بني موسى، فسجنه محمد وعذَّبه، ثمّ قتلَهُ بعد ذلك. وكان سُليمان قد أمَره[11] بأخْذِ أهل[12]

---

(١) سقطت من ر١.

(٢) في ر١: «فمات موسى ذاك اليوم».

(٣) ليست في ر١.

(٤) قوله: «أمير المؤمنين» ليس في ر١.

(٥) ترجمته في تاريخ الإسلام ٣/ ١٦٤.

(٦) في ر١: «المغرب».

(٧) ليست في ر١.

(٨) من ر١.

(٩) ترجمته في تاريخ الإسلام ٣/ ١٦٤.

(١٠) في ر١: «وليتك المغرب كلّه».

(١١) سقطت من ر١.

(١٢) في ر١: «آل».

موسى وَوَلده وكلّ من تلَّبس بهم[1] واستئصال أموالهم، وتعذيبهم[2]، حتّى يؤدُّوا ثلاث مئة ألف دينار. وتولَّى قَتْلَ عبد الله بن موسى خالدُ بن أبي حَبيب القُرَشيّ.

وأمّا عبد العزيز بن موسى، فخلعَ دعوةَ بني مروان واستبدَّ بأمره لـمّا بلغَهُ ما نزلَ[3] بأبيه وأخيه وأهل بيته، فجاءت الكُتُب إلى حَبِيب بن أبي عَبْدة ووَجوهِ العرب من سُليمان بن عبد الملك، يأمرُهم بقتله، فقتلُوه، وحُمِل رأسُه ورأسه أخيه عبدِ الله حتّى وُضِعا بين يدي أبيهما موسى، وهو في عَذابه[4]. فكان فِعْلُ سُليمان هذا بموسى وبنيه، وقد فعل من الفَتْح في الإسلام ما فَعَلَ، من هَفَوات سُليمان التي لم تزل تُنقم عليه.

واستعمل محمَّد بن يزيد على الأَنْدَلُس الـحُرَّ بن عبد الرحمن القيسي[5]. وكانت الأَنْدَلُس إذ ذاك إلى والي إفريقية، كما كان أيضًا والي إفريقية من قِبَل والي مِصرَ. وكان محمَّد بن يزيد يبعث بسريَّةَ إلى ثغور إفريقيةَ، فما أصابه قَسَمَهُ عليهم. وكانت ولايتُه سنتَيْن وأشْهُرًا.

وفي سنة تسع وتسعين: توفّي سُليمان بن عبد الملك، واستُخْلِف عُمَر بن عبد العزيز رضي الله عنه يومَ وفاته[6]، فاستعمل على إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي الـمُهاجِر[7]، مَوْلى بني مَـخْزُوم.

وفي سنة مئة: ولي إسماعيل بن أبي الـمُهاجِر إفريقية من قبَل أمير المؤمنين عُمر بن عبد العزيز. فكان خَيْرَ أمير وخَيْرَ والٍ[8]. وما زال حريصًا على دُعاء البربر إلى الإسلام حتّى أسلمَ بقيَّةُ البربرِ بإفريقية على يديه، في دولة عمر بن عبد العزيز. وهو الذي

---

(١) في أ: «به».

(٢) قوله: «واستئصال أموالهم وتعذيبهم» ليس في ر١.

(٣) في ر١: «فُعِلَ».

(٤) تاريخ الطبري ٦/ ٥٢٣.

(٥) هكذا في النسختين، وفي م: «الثقفي»، محرف، وتنظر جذوة المقتبس (٤٠٦).

(٦) تاريخ خليفة ٣١٦، وتاريخ الطبري ٦/ ٥٤٦.

(٧) من هنا إلى قوله في الفقرة الثانية: «المهاجر» سقط من ر١ من قفز النظر بين اللفظين المتماثلين.

(٨) تاريخ خليفة ٣٢٣.

عَلَّم أهل إفريقية الحَلال والحَرام، وبعثَ معه عُمَر رضي الله عنه عَشَرةً من التابعين أهلِ علمٍ وفضلٍ، منهم: عبدُ الرحمن بن نافِع، وسَعْد[1] بن مسعود التُّجيبيُّ، وغيرُهما. وكانت الخمرُ بإفريقيةَ حلالًا، حتّى وصل هؤلاء التابعيون، فبيَّنوا تحريمَها رضي الله عنهم.

وفيها: استخلفَ إسماعيلُ بن أبي المُهاجِر على الأندُلس السَّمْحَ بن مالك الخَوْلانيَّ، فكان حلولُه بها في رمضان من السنة.

وفي سنة إحدى ومئة: توفِّي عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بدَيْر سَمْعان، لست خلون من شعبان، فكانت خِلافتُه سنتَيْن وخمسةَ أشهر. ووَلِيَ الخِلافةَ بعده يزيد بن عبد الملك[2]. فوَلَّى على إفريقية يزيد[3] بن أبي مُسْلِم مَوْلى الحَجَّاج بن يوسف وصاحب شُرْطته[4].

وفي سنة اثنتين ومئة: قَدِمَ إلى إفريقية، واليًا عليها، يزيد بن أبي مُسلِم، وكان ظَلُومًا غَشُومًا، وكان البربر يَحْرُسُونه، فقام على المنبر خَطيبًا، فقال: أيها الناس[5]، إنّي رأيتُ أن أرسم اسم حَرَسي في أيديهم كما تصنع ملوكُ الروم بحرسها، فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره حرسي ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس، فإذا وقفوا على أحد، أسرع لِمَا أمرتُ به. فلمّا سمعوا ذلك منه، أعني حَرَسَه، اتّفقوا على قتله، وقالوا: جَعَلَنا بمنزلة النصارى. فلمّا خرج من داره إلى المسجد، لصلاة المغرب، قتلوه في مُصَلّاه، فتكلَّم الناسُ في رجل يقوم بأمرهم، حتّى يأتيهم أمْرُ الخليفة، فتراضَوْا بالمغِيرة بن أبي بُرْدة[6] وكان شجاعًا كبيرًا، فقال له ابنه عبد الله: إنَّ يزيد بن أبي مُسْلِم قُتِل بحضرتك. فإنْ قُمْتَ بهذا الأمر، اتُّهِمْتَ بقتله، ولكن الرأي أن نتراضى لمحمَّد بن أوْس الأنصاري[7]، وكان غازيًا بصِقِلِّيَّة، فلم يلبث إلّا يسيرًا

---

(١) في أ: «سعيد»، محرف.

(٢) تاريخ خليفة ٣٢١، وتاريخ الطبري ٦/ ٥٦٥.

(٣) ترجمته في تاريخ الإسلام ٣/ ١٨٣.

(٤) تاريخ خليفة ٣٣٤.

(٥) قوله: «أيها الناس» من ر ١.

(٦) ترجمته في تاريخ الإسلام ٢/ ١١٧٥.

(٧) ترجمته في تاريخ الإسلام ٣/ ١٥١.

حتّى قدم بغنائم قد أصابها، فقلَّدوه أمر إفريقية، فكتبَ إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما حَدَثَ من الأمر، فاستعمل على إفريقية بِشْرَ بن صَفْوان.

ولاية بِشْر بن صَفْوان[1] إفريقية والمغرب[2]

هو بِشْر بن صَفْوان بن نَوْفل[3] بن بِشْر بن حَنْظَلة بن عَلْقَمة بن شَراحِيل بن عَزيز بن خالِد. وُلِّيَ إفريقية سنة ثلاث ومئة. فاستصفى بقايا آل[4] موسى بن نُصَيْر، ووفد بعد ذلك إلى يزيد بن عبد الملك، فألفاه قد هلك.

وفي سنة خمس ومئة: هلك يزيد بن عبد الملك في ربيع الأوَّل[5]، ووَلِيَ هشام بن عبد الملك، فردَّ بِشْر بن صَفْوان إلى إفريقية. فلمّا قَدِمها، وَلَّى على الأَنْدَلُس عَنْبَسة بن سُحَيْم الكَلْبيَّ[6]. ثمّ إنّ بِشْر بن صَفْوان غزا بنفسه صِقِلّيَّة. فأصابَ بها سبيًا كثيرًا، وقفل إلى القَيْرَوان. فلمّا حضرَتْه الوفاة، قالت جاريتُه: وا شَماتةَ الأعداء، فقال لها: قَوْلي للأعداء لا يموت[7]، واستخلف العبَّاس بن باضِعة الكَلْبيَّ[8].

وفي سنة سبع ومئة: ولّى بِشْر بن صَفْوان على الأَنْدَلُس يحيى بن سَلَمة الكَلْبيَّ. فقدمها في شوَّال. وفي هذه السنة اختلط أمر ولاة مِصْر اختلاطًا كثيرًا.

وفي سنة تسعٍ ومئة: تُوُفّي بِشْر بن صَفْوان والي إفريقية بمدينة القَيْرَوان، فكانت ولايتُه سبع سنين، وبقي نائبُه على القَيْرَوان حتّى وصل والٍ من قِبَل الخليفة هشام بن عبد الملك.

---

(١) ترجمته في تاريخ دمشق ١٠/ ٢٣٣، وتاريخ الإسلام ٣/ ١٨.

(٢) من ر١.

(٣) في م: «توبل»، محرف.

(٤) في ر١: «مال».

(٥) ذكر خليفة والطبري أن وفاته لخمس بقين من شعبان (تاريخ خليفة ٣٣١، وتاريخ الطبري ٧/ ٢١).

(٦) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٤٤١، وجذوة المقتبس (١٠١١)، وتاريخ الإسلام ٣/ ١٣٤.

(٧) في ر١: «يموتوا»، وهو تحريف.

(٨) هكذا في النسختين، وفي تاريخ خليفة: «نعاس بن قرط الكلبي» (ص٣٣٩).

ولاية عُبَيْدة بن عبد الرحمن السُّلَميّ إفريقيةَ والمغرب(١)

وهو ابن أخي أبي الأعْوَر السُّلَميّ صاحبِ خَيْل مُعاوية بِصِفّين، فقدم إفريقية سنة عَشْر ومئة في ربيع الأوّل، فدخل القَيْرَوان فجاءةً وذلك يوم الـجُمُعة. فألفى خليفةَ بِشْرِ بن صَفْوان قد تَـهَيَّأ لشهود الـجُمُعة، ولَبِسَ ثيابه، فقيل له: هذا عُبَيْدة قد قَدِمَ أميرًا، فقال: لا حَوْلَ(٢) ولا قوَّةَ إلّا بالله هكذا تقوم الساعةُ بغتةً وألقى بنفسه، فما حملَتْه رِجْلاه، ودخل عُبَيْدة، فأخذ عُمّال بِشْر وأصحابَه، فحبسهم وأغرمَهم وعذَّب بَعْضَهم(٣).

وفي سنة عشر ومئة: وَلَّى عُبَيْدة بن عبد الرحمن المذكور عُثمان بن أبي نِسْعة على الأنْدَلُس، فقَدِمَها في شعبان(٤).

وفي سنة إحدى عَشْرة ومئة: قَـدِم إلى الأنْدَلُس واليًا أيضًا من قِبَل عُبَيْدة بن عبد الرحمن صاحبِ إفريقية والـمَغْرِب كلِّه حُذَيْفَةُ بن الأحْوَص القَيْسيُّ، وقيل: الأشْجَعيُّ، وذلك في غُرَّة مُـحَرَّم من السنة المذكورة(٥).

وفي سنة اثنتي عَشْرة: ولَّى عُبَيْدة المذكور على الأنْدَلُس أيضًا الـهَيْثَم بن عُبَيْد الكنانيَّ، فقدمها في محرَّم أيضًا من هذه السنة، ثمّ توفّي سنة أربع عَشْرة ومئة، فكانت ولايتُه سنتَين وأيّامًا.

---

(١) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٠.

(٢) قوله: «لا حول» ليس في ر١.

(٣) الخبر في الحلة السيراء لابن الأبار ١/ ٦٤-٦٥.

(٤) الكامل لابن الأثير ٥/ ١٤٦، وذكر ابن الأثير أن عبيدة استعمل حذيفة بن الأحوص الأشجعي، فقدم الأندلس في ربيع الأول سنة ١١٠هـ وبقي واليًا عليها ستة أشهر ثم عزل بعثمان بن أبي نِسْعة، ولعل هذا هو الصواب.

(٥) هكذا قال وفيه اضطراب واضح، فهل تولاها ثانية؟! وذكر ابن الأثير أن الذي تولى الأندلس في محرم سنة ١١١ هو الهيثم بن عبيد الكناني، وأنه أقام واليًا عليها عشرة أشهر وأيامًا، ثم توفي في ذي الحجة، فقدّم أهل الأندلس على أنفسهم محمد بن عبد الله الأشجعي، وكانت ولايته شهرين، وولي بعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي في صفر سنة اثنتي عشرة ومئة، واستشهد في أرض العدو في رمضان سنة أربع عشرة ومئة (الكامل ٥/ ٤٩٠)، وما ذكر هنا فمضطرب.

ولما أخذ عُبَيْدة عُمّال بِشْر وأصحابَه، وأغْرَمَهم، وعَذَّبهم، كان فيهم أبو الـخَطّار الـحُسامُ بن ضِرار الكَلْبيُّ[1]، وكان شريفًا في قومه، مع فصاحةٍ وبراعةٍ. وكان وليَ في إفريقية ولايات كبيرة في أيّام بِشْر بن صَفْوان، فعزله عُبَيْدة ونكّل به، فقال [من الطويل]:

أفـأَتُمْ بنـي مَـرْوانَ قَيْـسًا دِماءنـا ... وفي الله إن لم تُنْصِفوا حَكَمٌ عَـدْلُ
كـأَنَّكُمُ لم تَـشْهَدُوا مَـرْجَ راهِـطٍ ... ولم تَعْلَموا مَنْ كان ثَمّ له الفَـضْلُ
تَعَـــاميتُمُ عَنَّـــا بعَـــينٍ جَليَّـــةٍ ... وأنتُمْ كذا ما قد علمنا لنا فُعْلُ[2]

وبعثَ بهذه الأبيات إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأمرَ هشام بعزل عُبَيْدة عن إفريقية والمغرب، فقفل[3] واستَخْلَفَ عُقْبَة بن قُدامة، وذلك[4] في شوّال سنة أربع عشرة ومئة. فكان مُلْكُ عُبَيْدة بإفريقية أربع سنين وستّة أشهر. وتوجَّه إلى الشام سنة أربع عشرة ومئة بهدايا وتُـحَف عظيمة، وبقي خليفتَه على القَيْرَوان ستَّةَ أشْهُر.

وفي سنة ثلاثَ عَشْرة ومئة: كان عُمّال إفريقية والأنْدَلُس الذين كانوا في السنة قبلها. ثمّ ولي الأنْدَلُس عبد الرحمن بن عبد الله الغافِقيُّ[5]. فغزا الروم، واستشهد

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس (٤٠٣) وتعليقنا عليها.

(٢) جاءت الأبيات في ر١:

أفادت بنو مروان قيسًا دماءنـا ... وفي الله إن لم يعدلوا حَكَـم عـدلُ
كأنّهم لم يـشهدوا مـرج راهـطٍ ... ولم يعلموا مَن كان ثمّ له الفـضلُ
تغافلتم عنّا كـأن لم نكـن لكـم ... صديقًا وأنتم ما رعيتُم لنا فُعْلُ

وهي متفقة مع ما ورد في جذوة المقتبس، ص٢٩٢.

(٣) بعد هذا في أ: «منه».

(٤) ليست في ر١.

(٥) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٤٢ (٧٧٠)، وجذوة المقتبس (٦٠٤)، وبغية الملتمس (١٠٢١)، وتاريخ الإسلام ٣/ ٢٧٣، وتهذيب الكمال ١٧/ ٢٤٣-٢٤٥.

مع جماعة من عسكره سنة خمس عَشْرة ومئة بموضع يُعرف ببَلاط الشُّهَداء. وفيها أصاب الناسَ مجاعةٌ عظيمة.

ولاية عُبَيْد الله بن الحَبْحاب[1] إفريقيةَ والمغربَ كلَّه

وهو مَوْلى بني سَلُول. وكان رئيسًا نبيلًا، وأميرًا جليلًا، بارعًا في الفَصاحة والخطابة، حافظًا لأيَّام العرب وأشعارها ووقائعها. فقَدِمَ إفريقية في ربيع الآخر من سنة ست عَشْرة ومئة. وهو الذي بَنَى المسجدَ الجامع ودار الصِّناعةِ بتُونُس. وكان أوَّلَ الأمر كاتِبًا. ثمّ تناهَتْ به الحالُ إلى ولاية مِصْرَ وإفريقية والأنْدَلُس والمغرب كلِّه، فاستخلفَ على مِصْر ابنَهُ القاسم، واستعمل على الأنْدَلُس عُقْبة بن الحَجَّاج السَّلُوليَّ[2]، واستعمل على طَنْجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه إسماعيل، ثمّ عُمَرَ بن عبد الله المُراديَّ.

وبعث حَبِيب[3] بن أبي عَبْدة[4] بن عُقْبة بن نافِع الفِهْريَّ غازيًا إلى السُّوس الأقصى، فبلغَ أرض السُّودان، ولم يقابِلْه أحَدٌ إلّا ظهرَ عليه، ولم يَدَعْ بالمغرب قبيلةً إلا داخلها وأصابَ من السبي أمرًا عظيمًا. ووجد جاريتَيْن ليس لكل واحدة منهما إلّا ثَدْيٌ واحدٌ. ثمّ رجع سالـمًا ظافرًا. فغزا صِقِلِّيَّة وظفرَ بأمر لم يُرَ مثلُه.

ثُمّ إنّ عُمَر بن عبد الله المُراديَ، عاملَ طَنْجة وما والاها، أساءَ السيرة وتعدَّى في الصدقات والعُشُر، وأراد تَخْميس البربر، وزعمَ أنَّهم فَيْءُ المسلمين، وذلك ما لم يرتكبْه عاملٌ قبله، وإنّما كان الولاة يُخَمّسون من لم يَجِبْ للإسلام. فكان فعلُه الذَّميم هذا سببًا لنَقْض البلاد ووقوع الفِتَن العظيمة المُؤدِّيَة إلى كثيرِ القَتْل في العِباد، نعوذ[5] بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله.

---

(١) تاريخ الإسلام ٣/ ٦٩١.

(٢) جذوة المقتبس (٧٤٠)، والحلة السيراء لابن الأبار ٢/ ٢٣٦.

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (٣٩٤)، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٢/ ٤٢، وتاريخ الإسلام ٣/ ٣٩٤.

(٤) هكذا في النسخ، وفي مصادر ترجمته: «عُبيدة».

(٥) من هنا إلى آخر الفقرة ليس في ر١.

فلمّا عَلِمَ البربرُ خروجَ حبيب بن أبي عَبْدة إلى بلاد الرُّوم، نَقَضُوا الطاعةَ لعُبَيْد الله[1] بن الـحَبْحاب بطَنْجة وأقاليمها، وتَدَاعت برابرُ المغرب بأسره، فثارت البَرْبر بالمغرب الأقصى، فكانت أوَّلَ ثورة فيه وفي إفريقية في الإسلام.

وفي سنة اثنتين وعشرين ومئة: كانت ثورة البربر بالمغرب، فخرج مَيْسَرة الـمَدْغَريُّ، وقام على عُمَر بن عبد الله الـمُراديّ بطَنْجة، فقتلَهُ. وثارت البرابر كلُّها مع أميرهم مَيْسَرة الـحَقِير. ثمّ خَلَّفَ مَيْسَرَة على طَنْجة عبد الأعلى بن حُدَيْج، وزحفَ إلى إسماعيل بن عبيد الله بن الـحَبْحاب إلى السُّوس، فقتله. ثمّ كانت[2] وقائعُ كثيرةٌ بين أهل المغرب الأقصى وأهل إفريقية، يطولُ ذِكْرُها. وكان بالمغرب حينئذٍ قومٌ ظهرت فيهم دعوةُ الـخَوارِج، ولهم عَدَدٌ كثيرٌ وشوكةٌ كبيرةٌ، وهم بَرَغْوَاطة.

وكان السبب في ثورة البربر وقيامِ مَيْسرة أنّها أنكرت على عامل ابن الـحَبْحاب سُوء سيرته كما ذكرنا. وكان الـخُلَفاءُ بالمشرق يستحبُّون طَرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية، فيبعثون لهم البربريَّات الـمَسْبِيات[3] فلمّا أفضى الأمر إلى ابن الـحَبْحاب، منَّاهم بالكثير، وتكلَّف لهم أو كلَّفوه أكْثَرَ مـمّا كان. فاضطَّر إلى التعسُّف وسُوء السيرة. فحينئذٍ عَدَت البرابر[4] على عامِلِهم، فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الـحَبْحاب.

وكان لعُبَيْد الله بن الـحَبْحاب أولادٌ قد أعجبَتْهم أنفسُهم، فقدم عُقْبة بن الحجَّاج عليهم، وكان أبو عُقْبة قد أعتق الـحَبْحابَ والِدَ عُبَيْد الله. فلمّا دخل عُقْبة على عُبَيْد الله، قامَ إليه، وأعظمه، وأقعده على سريره. فلمّا خرج عُقْبة من عنده، أنكر ذلك عليه أولادُه[5]، فقال لهم: ما رأيُكم؟ قالوا: أن تعطيه شيئًا وتَصْرِفَه عنّا فلا

(١) في ر١: «على عبيد الله».

(٢) في ر١: «فكانت».

(٣) في م: «السنيات»، وهو تحريف.

(٤) في ر١: «البربر».

(٥) في ر١: «أولادهم»، وليس بشيء.

يكسر شَرَفنا. فقال لهم: نعم. فلمّا كان في غدٍ، أمرَ الناسَ، فدخلوا عليه ودخل عُقْبة في جُـمْلَتهم فقامَ إليه، وأجلسَهُ على سريره، ووقفَ قائمًا، فقال: أيها الناس، إنّ بنِيَّ هؤُلاء غَرَّتْهم غِرَّةُ الشيطان لعزْة[1] السُّلطان، وأرادوا أمرًا أخرجُ به عن الحقّ، وأنكروا ما رأوا من بِرِّي بهذا الرجل، وإنّما أُخبِرُكم أنّه مَوْلاي، وأنّ أباه أعتقَ أبي وأنا أكْرَهُ كِتْمان أمرِ اللهُ سُبْحانَه شهيدٌ به عليَّ. ثمّ خَيَّرَ عُقْبَةَ في ولاية ما شاءَه من سُلطانه، فاختارَ الأَنْدَلُس، فولّاه عليها، وذلك في[2] سنة ست عَشْرة ومئة. وأقام بها إلى سنة إحدى وعشرين ومئة. وقام عليه عبد الملك بن قَطَن الفِهْريُّ[3]، فخلعَهُ. وقيل: بل هو استخلفَهُ.

رَجْع الـخَبَرِ إلى مَيْسرة الـمَدْغَريّ، رأس الصُّفْريَّة[4]، أمير الغرب: لـمّا بلغ عُبَيْدَ الله بن الـحَبْحاب قتلُ عامله ووَلَدِه، كتبَ إلى صاحب جيشه[5] حَبِيب بن أبي عَبْدة، يأمره بالرجوع من صِقِلّيَّة، ليأخذ في الـحَرَكة مع أهل إفريقية إلى حرب[6] مَيْسَرة. وولَّى ابن الـحَبْحاب على عَسْكَر إفريقية وأشرافهم ووجوههم خالِدَ بن أبي حَبيب الفِهْريَّ. فشخص إلى مَيْسَرة، ووصل حَبيب بن أبي عَبْدة في إثره. وسارَ خالدٌ حتّى عبر وادي شَلَف[7]، وهو نهرٌ بمقربة تِيهَرْت. ثمّ قَدِمَ حَبيب، فنزلَ على مجازِ الوادي[8] المذكور، فلم يبرح منه. ومضَى خالدٌ من فورِه حتّى لقي مَيْسَرة بمقربة من طَنْجة، فاقتتل معه قتالًا شديدًا لم يُسمع قطُّ بمثلِه. ثمّ انصرف مَيْسَرة إلى طَنْجة فأنكرت البربر عليه سوء سيرته وتغيُّرَه عمّا كانوا بايعوه عليه.

---

(١) في ر١: «بقوة».

(٢) ليست في ر١.

(٣) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٥٨ والتعليق عليه.

(٤) قوله: «رأس الصفرية» ليس في ر١.

(٥) قوله: «صاحب جيشه» ليس في أ.

(٦) ليست في أ.

(٧) الروض المعطار ٣٤٣.

(٨) في ر١: «وادي المجاز».

قال الرَّقيق: وكان مَيْسَرة قد تسمّى بالخلافة، وبويعَ عليها، فقتلُوه وولّوا أمرهم بعده خالِدَ بن حُـمَيْدٍ الزَّناتيَّ. فالتقى خالِد بن أبي[1] حَبِيب بالبربر، فكان بينهم قتالٌ شديد. فبينا هم[2] كذلك إذ غَشِيُهم خالِد بن حُـمَيْد الزَّناتيُّ من خَلْفهم بعسكرٍ عظيم، فتكاثرت عليهم البَرْبرُ، فانهزمَ العربُ وكَرِهَ خالِد بن أبي حبيب أن يهربَ، فألقَى بنفسه، هو وأصحابه، إلى الموت أنفةً من الفِرار[3]، فقُتل ابن أبي حبيب ومَن معه، حتّى لم يبْقَ من أصحابه رجلٌ واحد. فقُتِل في تلك الوقعة حُماةُ العرب، وفُرسانُها، وكُماتُها، وأبطالُـها، فسُمِّيَت الغزوة غزوة الأشراف، فانتفضت البلادُ. وبلغ أهلَ الأنْدَلُس ثورةُ البربر، فوثبوا على أميرهم؛ فعزلُوه وولَّوا عبد الملك بن قَطَن. فاختلَّت الأُمور على ابن الـحَبْحاب، فاجتمعَ الناسُ عليه وعزلوه. وبلغ ذلك الخليفةَ هشام بن عبد الملك فقال: والله لأغْضَبَنَّ لهم غَضْبَةً عَرَبيَّةً ولأبْعَثَنَّ لهم جَيْشًا أوَّلُه عندهم وآخِره عندي[4] ثمّ كتبَ إلى ابن الـحَبْحاب بقدومه عليه، فخرج في جُمادى الأُولى من سنة ثلاث[5] وعشرين ومئة.

ولاية كُلْثوم بن عِيَاض إفريقية[6] ومُقاتلته مع أميـر الـمَغْرب خالد بن حُـمَيْد الـزَّنانـيّ

لما بلغ هشامَ بن عبد الملك انتقاضُ البلاد الغربيَّة والأندلسية، بعثَ كُلثُومَ بن عِيَاض هذا إلى إفريقية، وعقدَ له على اثني عشر ألفًا من أهل الشام. وكتبَ إلى والي كل بَلَد أن يَـخْرجَ معه بمن معه. فصارت عُمَّـال مِصْرَ وأطْرابُلُس وبَرْقة معه حتّى قَدِمَ إفريقية في رمضان سنة ثلاث وعشرين ومئة، فنكبَ عن القَيْروان. وكان على

(١) سقطت من ر١.

(٢) في ر١: «فينما».

(٣) قوله: «أنفة من الفرار» ليس في أ.

(٤) في ر١: «أوله عندي وآخره عندهم»، خطأ.

(٥) في ر١: «ثمان»، خطأ.

(٦) ينظر تاريخ خليفة ٣٦٠.

طَلائعه بَلْجُ[1] بن بِشْر القُشَيْرِيُّ ابن عمّه. فلمّا وصل بَلْج، قال لأهل إفريقية: لا تُغْلِقوا أبوابكم، حتّى يعرف أهلُ الشام منازلكم[2]. ومع ذلك كلامٌ كثير يَغيظهم به[3]. فكتبوا إلى حَبيب بن أبي عَبْدة، يُعَرِّفونه بمقالة بَلْج. فكتب إلى كُلْثوم: إنّ ابن عَمّك السَّفِيه قال كذا وكذا، فارْحَلْ بعسكرك عنهم، وإلّا حوَّلْنا أعِنَّـةَ الخيل إليك. فكتب كُلْثوم يعتذر إليه ويأمره أن يُقيم بشَلَف حتّى يَقْدُم عليه. فاستخلف كُلْثوم على القَيْرَوان عبدَ الرحمن بن عُقْبة الغَفَّارِيَّ، وسار حتّى عَسْكَر حبيب، فرفضه، واستهانَ به، وسبَّ بَلَجُ بن بِشْر حبيبًا[4] وتنقَّصَه، وقال: هذا الذي يُـحوِّل أعنَّـةَ الخيل إلينا؟ فقام إليه عبد الرحمن بن حبيب، وقال: يا بَلْج، هذا حبيبٌ فإذا شئتَ، فاعْرِض له للمقابلة، وصاح الناسُ: السلاحَ السلاحَ! فمال أهلُ إفريقية إلى ناحيةٍ، ومعهم أهلُ مصر. ثمّ سَعَى بينهم في الصلح. فكان هذا الاختلاف سَبَبَ هلاكهم، مع سوء رأي كُلْثوم وبَلْج.

ولـمّا قدم كُلْثوم على وادي سُبُو[5]، وهو في ثلاثين ألفًا، قال ابن القَطَّان: فيهم عَشَرة آلاف من صُلْب بني أُميَّة، وعشرون ألفًا من سائر العَرَب. فتوجَّه إليهم خالدُ بن حُـمَيْد الزَّناتيُّ الذي تولَّى الأمر بعد مَيْسَرة. فوجَّه كُلْثوم بَلْجًا ليلًا، ليُوقِعَ بالبربر. فسرى ليلَـتَه، وأوقعَ بهم عند الصَّباح، فخرجوا إليه عُراةً، فهزموه ووصلوا إلى كُلْثوم. فأمر بدَيْدَبان[6] فنُصِبَ له، وقعدَ عليه، ثمّ نشب القتال[7]، وقعدت البَرْبر تحت الدَّرَق، وناشبت الخيلُ الخيلَ، وكشفت خيلُ العرب خيلَ البربر، ثمّ

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس (٣٣٧) وتعليقنا عليه.

(٢) في ر١: «منازلهم»، وهو تحريف.

(٣) في ر١: «وكلام كثير مع ذلك يغيظهم».

(٤) في أ: «الحبيب».

(٥) ينظر معجم البلدان ٣/ ١٨٦.

(٦) تقدم الكلام عليه، وقال دوزي: «نوع من الدبابات المتحركة يركب فيها القائد ليراقب المعركة ويصدر منها أوامره» (المستدرك ٤/ ٤٥٩).

(٧) قوله: «وقعد عليه ثم نشب القتال» سقط من ر١.

انكشفت خيلُ العرب، وألتفَّت الرجَّالة بالرجَّالة، فكان صَبْرٌ وقتالٌ. وخالطت خيلُ البربر[١] ورجّالتُهم كُلْثومًا وأصحابَه، فقُتل كُلْثوم، وحَبيب بن أبي عَبْدة، وسُليمان بن أبي الـمُهاجِر، ووجوهُ العرب. فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأنْدلُس، وهزيمةُ أهل مِصْر وإفريقية إلى إفريقية.

قال ابن القطَّان: لـمّا بعثَ هشام بن عبد الملك كُلْثومًا واليًا على إفريقية والمغرب، أمره بالـجِدّ والاجتهاد في أمرها، إذ كان بنو أُميَّة يجدون في الروايات[٢] أنّ مُلْك القائمين عليهم لا يُـجاوِز الزاب. فتوهَّموا أنّه زابُ مِصْر، وإنّما كان زابَ إفريقية. وعهد إليه في سَدّها وضَبْطها، وعهد إن حَدَثَ بكُلْثوم حَدَثٌ[٣] أن يكون ابن أخيه بَلْج مكانَه. فدارت بينه وبين البربر حروبٌ، هزموا في بعضها كُلْثومَ بن عياض وقتلُوه، وصارَ أمرُ العرب بإفريقية إلى بَلْج بالعهد المذكور. ولجأ فلُّهم إلى سَبْتة، وبقوا بها حتّى ضاق عليهم الأمر؛ فكاتب بلْجٌ وأصحابُه عبدَ الملك بن قَطَن أميرَ الأنْدَلُس، وسألوه إدخالَـهم الأنْدَلُس. فلم يأمَنْهم عبدُ الملك، ومَطَلهم بالميرة والسُّفُن. ثمّ اضطرَّ إلى إدخالهم الأندلس بعد ذلك، لسبب أشْرَحُهُ في الـجُزء الثاني إن شاء الله، وهو موضعُه في أخبار الأندلس. فكاتبهم، وشرط عليهم إقامة سَنَةٍ في الأندلس، ثمّ يخرجون عنها. فرضُوا بذلك، وكانوا نحو عَشَرة آلاف من عَرَب الشام.

ولـمّا دخلوا الأندلس وأقاموا فيها سَنَةً، ترفَّهوا بها. فأمرَهُم عبدُ الملك بالخروج منها، كما اشترطَ عليهم. فامتنعوا، وقتلوا عبدَ الملك بن قَطَن، واستولى بَلْج على الأندلس، وبقي بها أحد عَشَر شهرًا، أميرًا. وقد شرحنا أمره في أخبار الأندلس في الجزء الثاني.

وقال الرَّقِيق: لم ينهزم من أهل إفريقية إلّا عبدُ الرحمن بن حَبِيب، فإنّه جازَ إلى الأندلس، فقال لأميرها عبد الملك بن قَطَن: هؤلاء أهلُ الشام يقولون: ابْعَثْ لنا مَرَاكِبَ نجوز فيها، وهم، إن جازوا إليك، لم نأمنهم عليك. فلما أجازهم إليها، ما

(١) في ر١: «العرب»، ولا تصح لما سيأتي.

(٢) في أ: «الدرايات».

(٣) سقطت من ر١.

لبثوا فيها إلّا سنةً حتّى وثبوا عليه مع بَلْج. فكانت بينهم اثنتا عَشْرة وقيعة[1]، كلُّها على عبد الملك بن قَطَن حتى قتله بَلْجٌ واستولى على الأندلس.

وفي سنة أربع وعشرين ومئة: قُتل بَلْج بالأندلس، ووليها ثَعْلَبة بن سَلامة العامِليُّ[2]، أقعده أصحابُ بَلْج مكانَه بما عَهِدَ به هشامٌ إليهم، وبايعوه. فثارت[3] في أيَّامه بقايا البربر بمارِدة؛ فغزاهم ثَعْلَبة، وقتل منهم خلقًا كثيرًا وأسر منهم نحو الألف، ثم انصرف[4] إلى قُرْطُبة. فكانت ولايتُه عَشَرة أشهر. وفيها كان ابتداء ظهور بَرَغْواطة.

ذكر بَرَغْواطة وارْتِدادِهم عن الإسلام[5]

قال ابن القطَّان وغيرُهُ: كان طَرِيف من وَلَد شِمْعُون بن إسحاق عليه السلام، وإنّ الصُّفْريّة رجعت إلى مدينة القَيْرَوان لِنَهْبِها واستباحَتِها في ثلاث مئة ألفٍ من البربر مع أمير منهم. وكانوا قد اقتسموا بلادَ إفريقية وحَرِيمها وأموالها، فهزَمَهم اللهُ تعالى بأهل القَيْرَوان، وهم في اثني عشر ألف مُقاتل، نصرهم الله تعالى عليهم، وخَبَرُهم طويلٌ، يمنع من إيراده هنا خيفةُ التطويل. وكان طَرِيف هذا من جملة قوَّاد هذا العسكر، وإليه تنُسب جزيرةُ طَرِيف. فلمّا هزمهم الله بأهل القيروان، وتفرَّقوا، وقُتِلَ مَن قُتِلَ منهم، وتشتَّت جمعُهم، سار طَرِيف إلى تامَسنا، وكانت بلاد بعض قبائل البربر. فنظر إلى شِدَّة جَهْلهم، فقامَ فيهم، ودعا إلى نفسه، فبايعوه وقدَّموه على أنفسهم، فشرَّع لهم ما شرَّع، وماتَ بعد مدَّة. وخَلَّفَ من الوَلَد أربعة. فقدَّم البربر ابنه صالِحًا، فأقام فيهم على الشَّرْع الذي شرَّعه أبوه طَرِيف. وكان قد حضر مع أبيه حرب مَيْسَرة الحقير ومَغْرُور بن طالُوت الصُّفْرِيَّيْن، اللَّذيْنِ كانا رأس الصُّفْرِيَّة،

(١) في ر١: «وقعة».

(٢) ترجمته في جذوة المقتبس (٣٤٩) والتعليق عليه.

(٣) في أ: «فثار».

(٤) في أ: «وانصرف».

(٥) هذا العنوان والمادة الآتية بعده إلى ذكر ولاية حنظلة كله ليس في ر١.

فادَّعى أنّه أُنزل عليه قُرْآنهم، الذي كانوا يقْرَأونه، وقال لهم: إنّه صالحُ المؤمنين، الذي ذكره الله في كتابه العزيز.

وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعَلَّمه شرائعه، وفقَّهه في دينه، وأمره ألّا يُظْهِر الديانة حتّى يَظْهَر أمرُه، وينتشر خبرُه، فيَقْتُل حينئذٍ من خالَفَه، وأمره بموالاة أمير المؤمنين بالأنْدَلُس. وخرج صالِحٌ إلى المشرق، ووعده أنّه يرجع في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنّه المهديُّ الذي يكون في آخر الزمان لقتال الدَّجَّال وأنّ عيسى عليه السلام يكون من رجاله وأنّه يُصَلِّي خَلْفَه. وذكر في ذلك كلامًا نسبه إلى موسى عليه السلام.

فوَلِـيَ بعد خروجه إلى المشرق ابنُه إلياس خمسين سنة. فكتم شريعته إلى سنة ثلاث وسبعين ومئة. فخُرِّج عن ذلك كلّه من أمر صالح وابنه أنّ ابتداءَه كان في هذه السنة، أو التي قبلها، وما يأتي بعدهما من السنين، إذ خمسون سنة آخِرُها سنة ثلاث وسبعين ومئة، مبدأها سنة أربع وعشرين ومئة أو نحوها، والله أعلم.

ولاية حَنْظَلة بن صَفْوان[1] إفريقية والمغرب كلَّه[2]

ولما بلغ أميرَ المؤمنين[3] هشام بن عبد الملك قَتْلُ كُلْثوم بن عِيَاض وأصحابه، بعث إلى إفريقية والمغرب حَنْظَلة بن صَفْوان الكَلْبيَّ. وكان عامِلَه على مِصْرَ، ولّاه عليها سنة تسع عَشْرة ومئة. فقدمها في شهر ربيع الآخر منها. فبعثَ إليه أهلُ الأندلس أن يبعث إليهم عاملًا، فوجَّه إليهم أبا الـخَطَّار حُسام بن ضِرار الكَلْبيَّ. فسار في البحر من تونُس إلى الأندلس، واليًا عليها، فقدمها في رَجَب، وسأذْكُر خبره في أخبار الأندلس إن شاء الله.

ومن أخبار حَنْظَلة أمير إفريقية مع أُمراء بعض القبائل الغربيَّة: وذلك لما استقرَّ حَنْظَلة بالقَيْرَوان، لم يمكُث فيها إلّا يسيرًا، حتى زحف إليه عُكَّاشة الصُّفْريُّ

---

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام ٣/ ٨٥٣.

(٢) جاء العنوان في ر١: «ولاية حنظلة بن صفوان المغرب».

(٣) قوله: «أمير المؤمنين» ليس في ر١.

الخارِجيُّ، في جمع عظيم من البربر، وزحفَ أيضًا إلى حَنْظَلة عبدُ الواحد بن يزيد الـهَوَّاريُّ في عدد عظيم. وكانا افترقا في الزاب. فأخذ عُكّاشة على طريق مَـجَّانة، فنزل بالقَيْرَوان، وأخذَ عبدُ الواحد على طريق الـجِبال، وعلى مقدمته أبو قُرَّة الـمَغِيليُّ. فرأى حَنْظَلَةُ أن يُعجّل قتال عُكَّاشة، قبل أن يجتمعا عليه، فزحف إليه بجماعة أهل القَيْرَوان، فالتقوا بالقَرْن، وكان بينهم قتالٌ شديد، فهزم الله عُكَّاشة ومَن معه، وقُتِل من البربر ما لا يُحصى كثرةً. وقيل: إنّ حَنْظَلة، لـمّا رأى ما دَهِمَه من البربر، قال لأصحابه: نَسْتَمِدُّ أميرَ المؤمنين، فقال له شابٌّ جميل الوجه: بَلْ نخرجُ إلى عدوِّنا حتّى يحكم الله بيننا، فعزم حَنْظَلَةُ، وخرجَ، فهزم الله عُكَّاشة في خبر طويل.

قال عبد الله بن أبي[1] حَسَّان[2]: فأخرج حَنْظَلَة[3] كلَّ ما في الخزائن من السِّلاح، وأحضر الأموال، ونادى في الناس، فأوّل من دخل عليه، رجلٌ من يَـحْصُب. فقال له: ما اسمك؟ فقال[4]: نَصْر بن يَنْعَم. قال: فتبسَّم حَنْظَلة كالـمُكَذِّب له وقال له: بالله اصْدُق! فقال: والله، ما لي اسمٌ غير ما قُلْتُ لك. فتفاءَل به، وقال: نَصْرٌ وفَتْحٌ. فأعطى الناسَ، وخرج لمقابلة الصُّفْرِيَّة، وهم الـخَوَارِج. فكان بينه وبينهم حربٌ يطولُ ذِكْرها، فالتحم فيها القتال، وتداعَى الأبطالُ، ولزم الرجَّالة الأرضَ، فلا تسمع إلّا وَقْع الحديد على الحديد، وتقابُض الأيدي بالأيدي. وكانت كَسْرةً على مَيْسِرَة العَرَب، ثمّ انكسرت مَيْسَرةُ البربر وقَلْبُهم، ثمّ كَرَّت العربُ على مَيْمَنة البربر، فكانت الهزيمةُ. وسِيقَ إلى حَنْظَلة رأسُ عبد الواحد، وأُخِذَ عُكَّاشة أسيرًا، فأُتِي به إلى حنظلة، فقتلَهُ وخَرَّ لله ساجدًا.

وقيل: إنَّه ما عُلم في الأرض مقتلة كانت أعظم منها؛ أراد حَنْظَلة أن يُـحْصِيَ من قُتل، وأمرَ بعدِّهم، فما قُدر على ذلك، فأمر بقَصَبٍ، فطُرِحَ على كلّ قتيل قصبة[5].

---

(١) سقطت من ر١.

(٢) ترجمته في تاريخ الإسلام ٥/ ٥٩٤.

(٣) ليس في ر١.

(٤) في ر١: «قال».

(٥) في أ: «فطرح قصبة على كل قتيل»، وما هنا من ر١.

ثمّ جُمعت القَصَبُ، وعُدَّت، فكانت القتلى[1] مئة ألف وثمانين ألفًا وكانوا صُفْريَّةً يستحلُّون النساء وسَفْكَ الدماء.

وكتب بذلك حَنْظَلة[2] إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، فسُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا[3]، وكان اللَّيْثُ بن سَعْد يقول: ما غزوة كنتُ أُحبُّ أن أشْهَدَها، بعد غزوة بَدْر، أحبُّ إليَّ من غزوة القَرْن والأصنام.

وفي سنة خمس وعشرين ومئة: تُوفِّي أمير المؤمنين هشامُ بن عبد الملك بعلَّة الذُّبْحة[4]. وعُمَّاله في هذه السنة هم الذين كانوا في السنة قبلها، ومن جُـمْلتهم: حَفْص بن الوَليد[5] على مِصْر، وحَنْظَلة بن صَفْوان على إفريقية والمغرب[6]، وأبو الـخَطَّار على الأندلس. ثمّ استُخْلِف بعده الوليدُ بن يزيد، يومَ موت هشام بن عبد الملك، وذلك يوم الأربعاء لستّ خَلَوْن من ربيع الآخر[7].

وفي سنة ست وعشرين ومئة: تُوفِّي الوليد بن يزيد مقتولًا، يوم الخميس لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة[8]، قتله يزيد بن الوليد المسمَّى بالناقِص واسْتُخْلف من بعده[9]. ولم يكن في أيَّامه في هذه السنة بإفريقية أمرٌ. وبويع بدِمَشْق وجعل العهد بعده لأخيه[10] إبراهيم. وتوفِّي في ذي الحجَّة[11] من هذه السنة[12]؛ واستخلف

---

(١) ليست في ر١.

(٢) في ر١: «وكتب حنظلة بالفتح».

(٣) في ر١: «فسُرَّ به».

(٤) تاريخ خليفة ٣٥٦، وتاريخ الطبري ٧/ ٢٠٠.

(٥) ترجمته في تاريخ الإسلام ٣/ ٣٩٨.

(٦) في ر١: «على المغرب» فقط.

(٧) تاريخ خليفة ٣٦٩، وتاريخ الطبري ٦/ ٢٠٨.

(٨) تاريخ خليفة ٣٦٩، وتاريخ الطبري ٧/ ٢٥٢.

(٩) في أ: «واستخلف يزيد».

(١٠) في أ: «لابنه»، وما أثبتناه من ر١ وهو الصواب، وينظر تاريخ الطبري ٧/ ٢٩٥.

(١١) قوله: «في ذي الحجة» ليس في ر١.

(١٢) تاريخ خليفة ٣٦٩، وتاريخ الطبري ٧/ ٢٩٨.

إبراهيم بن الوليد[١]، فأقام نحو شهر ونصف. ثمّ خلعَ نفسَهُ لمروان الـجَعْديّ، فقيل: إنّه نَـبَش على يزيد بن الوليد وأخرجَهُ من قبره وصَلَبه[٢].

انتزاءُ عبد الرحمن بن حبيب الفِهْريّ[٣] بإفريقية وبعض أخباره[٤]

كان عبدُ الرحمن بن حَبيب هذا قد هربَ إلى الأندلس عند هزيمته من الوقيعة[٥] التي قُتل فيها أبوه حَبيب بن أبي عَبْدة بن عُقْبة بن نافِع، مع كُلْثوم بن عِيَاض. فلم يزل، وهو بالأندلس، يُـحاوِل أن يتغلَّب عليها. فلم يمكنه ما أرادَ، إلى أن وجَّه حَنْظَلَةُ أبا الـخَطَّار إليها، فخافَ على نفسه، وخرجَ مُسْتَتِرًا، فركبَ البحرَ إلى تونُس، فنزل بها، وذلك في جُـمادى الأولى سنة سبع وعشرين ومئة. فدعا الناس إلى نفسه، فأجابوه. وأراد حَنْظَلة الخروج إليه، والزحف لقتاله. ثمّ كره قتال المسلمين، وكان ذا وَرْع ودين، فوجَّه إليه[٦] حَنْظَلَةُ جماعةً من وجوه إفريقية يدعونه إلى مراجعة الطاعة. فلمّا قدموا عليه، أوْثَقَهم في الحديد، وأقبل بهم إلى القَيْرَوان، وقال: إن رَمَى أحَدٌ من أوليائهم بحجر، قتلتُهم، وكانوا وجوهَهم ورؤساءهم. فلمّا رأى حَنْظَلة ذلك، دعا القاضي والعُدول، وفتح بيت المال، فأخذ منه ألف دينار، وترك الباقي، وقال: لا أتلبَّس منه إلّا بقدر ما يكفيني ويبلِّغُني، ثمّ شخص عن إفريقية في[٧] سنة تسع وعشرين ومئة في جُمادى الأُولى. وأقبل عبد الرحمن حتّى دخل القَيْرَوان، ونادَى مُناديه: لا يَـخْرُجَنَّ أحدٌ مع حَنْظلة، ولا يشيّعه أحدٌ. فرجع عنه الناسُ خوفًا من عبد الرحمن. ولـمّا قفل حَنْظَلَةُ إلى المشرق، دعا على عبد الرحمن وعلى أهل إفريقية،

---

(١) في أ، م: «يزيد» خطأ، كما بينا سابقًا.

(٢) تاريخ الطبري ٧/ ٣١١.

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (٥٩٥) والتعليق عليه.

(٤) جاء العنوان في ر١: «انتزاء عبد الرحمن بن حبيب الفهري وبعض أخباره في انتزائه».

(٥) في ر١: «الوقعة».

(٦) في أ، م: «إلى»، خطأ.

(٧) ليست في ر١.

وكان مُستجابَ الدعوة، فوقع الوباءُ والطاعون بإفريقية سبع[١] سنين، لا يكاد يرتفع إلّا مرَّةً في الشتاء ومرَّة في الصيف.

وقال بعضُ المؤرّخين: إنّ مروان بن محمَّد الـجَعْديَّ بعث إلى عبد الرحمن بن حبيب بولايته على إفريقية بعد تغلُّبه عليها.

ولـمّا ولي عبد الرحمن، ثارَ عليه جماعةٌ من العرب والبربر. ثمّ ثار عليه عُروة بن الوَليد الصَّدَفيُّ، فاستولى على تونُس، وثارَ عليه عَرَبُ الساحل، وقام عليه ابن[٢] عَطَّاف الأزْديُّ. وثارت البربر في الجبال. وثار ثابِت الصُّنْهاجي بباجة، فأخذها. فخرج إليه إليَاس بن حَبيب، أخو عبد الرحمن، في ست مئة فارس، ولم يُظْهِر أنّه خرج إليه، بل أعمل الحيلة مع أخيه في ذلك. ولـمّا وصل الجاسوسُ، وقال: إنّ القومَ آمِنون غافلون[٣]، خرج العسكر إليهم، فقتل ابن عطَّاف وأصحابه، وأمعن عبدُ الرحمن بن حبيب في قَتْل البربر، وامتحنَ الناسَ بهم، وابتلاهم بقَتْل الرجالِ صَبْرًا، يؤتى بالأسير من البربر، فيأمر مَنْ يتهِمه بتحريم دمه بقَتْله، فيقتله. وكانت بإفريقية حروبٌ ووقائع يطول ذكرُها.

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد كتبَ إلى مروان بن محمد، وأهدَى إليه الهدايا، فكتبَ إليه مروان، يأمره بالقُدوم عليه. ثمّ ضعفَ أمرُ بني أُميَّة بالـمَشْرق، واشتغل مروان بحرب الـمُسَوِّدة[٤]. فأقامَ عبد الرحمن بالقَيْروان، حتّى كانت سنة خمس وثلاثين ومئة. فغزا تِلِمْسان، وخَلَّف ابنه حبيبًا على القَيْروان، فظفر بطوائف من البَرْبر، وعادَ إلى القَيْروان، ثم غزى صِقِلّيَّة، ثمّ بعثَ إلى سَرْدَانية[٥]، فقتل بها[٦] قتلًا ذريعًا، ثمّ صالحوه على الجزية. وبعث إلى إفْرَنْجة، فأتى بَسبيها؛ ودَوَّخ المغرب كلَّه،

---

(١) في ر ١: «ست».

(٢) في ر ١: «أبو».

(٣) في ر ١: «آمنين غافلين»، خطأ.

(٤) هم العباسيون اتخذوا السواد شعارًا لهم.

(٥) معجم البلدان ٣/ ٢٠٩.

(٦) في أ: «مَن بها».

وأذلَّ مَن به[1] من القبائل، لم يُهزم له عسكرٌ، ولا رُدَّت له رايةٌ، وداخل[2] جميعَ أهل المغرب الرعبُ والخوفُ منه.

وقُتل مروان بن محمَّد بالـمَشْرق، وزالت دولة بني أُميَّة[3]، وبقي عبد الرحمن بن حبيب أمير إفريقية والمغرب. وهرب جماعةٌ من بني أُميَّة خوفًا من بني العبَّاس، ومعهم حُرَمهُم، فتزوَّج منهم عبدُ الرحمن وإخوتُه. وكان فيمن قدم ابنانِ للوليد بن يزيد، وكانت ابنة عمِّهما عند إلياس بن حَبيب، فأنزلهما عبدُ الرحمن في دار، ثمّ احتال في بعض الليالي، فاطَّلع عليهما من موضع خفيٍّ، وهما على نبيذٍ، ومَوْلاهُما يسقيهما، إذ قال أحدهما: أيظنُّ عبد الرحمن أنَّه يبقى أميرًا معنا، ونحن أولادُ الخليفة؟ فلما سمع هذا منه، انصرف. ثمّ دعاهما، وأظهر لهما بشرًا، حتّى أتاهما من أخبرهما أنّ عبد الرحمن سَمِعَ كلامَهُما. فرَكِبا جَـمَلَيْن وهَرَبا. فبعثَ عبدُ الرحمن[4] الخيلَ في طلبهما، وأُدْرِكا. فأمر بضرب أعناقهما. وكانت ابنة عمّهما عند إلياس، فقالت له: قتل أختانك، وأنت صاحبُ حربه وصاحبُ سيفه، وجعل العهد من بعده لِـحَبيب ولده، فهذا تَهاوُنٌ بك، ولم تزل به حتّى اجتمع رأيُ إلياس وأخيه عبد الوارث على قتل أخيهما عبد الرحمن. وهاوَدَهما على ذلك جماعةٌ من أهل القَيْرَوان على ما يأتي ذكُره.

وفي سنة سبع وعشرين ومئة: كان دخول عبد الرحمن بن حَبيب هذا إفريقية ودُعاؤه لنفسه، كما تقدَّم. وفيها كان انتزاءُ ثُوَابة بن سَلامة بالأَنْدَلُس، وبويع بها. وكان قد هزم[5] أبا الـخَطَّار سنة خمسٍ وعشرين ومئة. وتمَّ له الأمر في هذه السنة، لكن بغير[6] من بني أُميَّة، ولا من بني العبَّاس، بل عَنْوةً بالسيف. وأقام معه الصُّمَيْل، فكان السلطان لثُوَابة والأمر للصُّمَيْل.

---

(١) في ر١: «بها».

(٢) في ر١: «ودخل».

(٣) تاريخ الطبري ٧/ ٤٣٧.

(٤) الاسم ليس في ر١.

(٥) في ر١: «تقدم»، وهو تحريف ظاهر.

(٦) في أ، م: «لكن لا بعهد»، وما هنا من ر١.

وفي سنة ثمانٍ وعشرين ومئة: هلك أمير الأَنْدَلُس ثُوَابة في شعبان، فكانت دولتُه نحو سنة، حسبما أذكر ذلك في أخبار الأَنْدَلُس، إن شاء الله. فبقيت الأَنْدَلُس دون أمير أربعة أشهر. فاجتمعَ الناسُ على الصُّمَيْل بن حاتِم، فوقع نظرُه ونظرُهم على تقديم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْريّ.

وفي سنة تسعٍ وعشرين ومئة: استقلَّ يوسف الفِهْريّ بولاية الأَنْدَلُس، فكانت ولايته إيّاها عَشْر سنين: فما من سنة من هذه السنين إلّا ويمكن أن يكون له فيها غَزْو، إذ قالوا: إنّه واصل الجهاد؛ وسيأتي ذِكْرُه وخَبَرُه في خَبَر الأَنْدَلُس، إن شاء الله.

وفيها كانت بالأَنْدَلُس حروبٌ ووقائعُ وغلاءٌ في السِّعر. وقيل: إنّ ولاية يوسف كانت في صَفَر من هذه السنة، وإنّهم كتبوا لعبد الرحمن بن حبيب عامِل القيروان، فأنفذ إليه عهده بولاية الأَنْدَلُس.

وفي سنة ثلاثين ومئة: كان استيلاء أبي مُسْلِم على مَرْو[1]، وتفريقُه كلمةَ العَرَب، واختيارُه اليمانيَّة لنُصْرته، وتشريدُه الـمُضَريَّة، وكان له غَزَوات ومواقعات، وعبد الرحمن بن حبيب أميرُ إفريقية كذلك، في حروب ووقائع مع البربر.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومئة: كان استيلاءُ أبي مُسْلِم على خُراسان، وعامِلُ مِصْر وإفريقية والأَنْدَلُس على ما كان عليه قبل ذلك. وفيها بَنَى عبد الرحمن بن حبيب سُورَ مدينة أطْرابُلُس، وانتقل الناسُ إليها من كلّ مكان.

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئة: كانت الوقعة التي هُزِمَ فيها الأمويُّون مع ابن هُبَيْرة، وفَتْحُ العبَّاسيَّة للكُوفة. ثمّ اتَّصلت الولايات العبَّاسيَّة، والفتوح للبلاد الشرقيَّة، وخروجُها عن الأمويَّة واحدًا من بعد واحد. فقُتِل مروان بن محمَّد[2] الـجَعْديُّ في هذه السنة، وانقطعت الدولة الأَمَويَّة. وكانت دولتُهم إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيَّام. وخلفاؤهم[3] أربعة عشر رجلًا: منها أيَّامُ ابن الزُّبير تسع سنين واثنان وعشرون يومًا.

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٣٧٧.

(٢) قوله: «ابن محمد» ليس في ر١.

(٣) في أ، م: «وهم».

ثمّ تفرَّقت بنو أُميَّة في البلاد هربًا بأنفسهم، وهرب عبد الرحمن بن مُعاوية إلى الأنْدَلُس، فبايعه أهلُها وتجدَّدت لهم بها دولةٌ استمرَّت إلى بعد الأربع والعشرين والأربع مئة.

فانقطعت دولتُهم ستَّ سنين أو نحوها، من هذه السنة إلى حين دخول عبد الرحمن الأندلس، وجدَّدها في[١] سنة سبع وثلاثين ومئة. فإن صحَّ أنّ عَهْدَ عبد الرحمن بن حبيب، صاحب القَيْرَوان وإفريقية من قِبَل بني أُميَّة، وصَلَ إلى يوسف بن[٢] عبد الرحمن المتغلّب على الأنْدَلُس، الذي أدخل عبد الرحمن إليها وهو أميرُها، فعلى هذا، كانت لهم دولةٌ متَّصلةٌ بالأنْدَلُس. فتأمَّلْ هذا: فإنّه، إنْ صحَّ، نُكْتةٌ غريبةٌ وفائدةٌ عَجيبةٌ[٣].

قال أبو محمد بن حَزْم: وانقطعت دولة بني أُميَّة، وكانت على علاتها دولةً عَرَبيَّة، لم يتَّخِذوا قاعِدةً ولا قَصَبةً، إنّما كان سُكْنَى كلّ أمير[٤] منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل خِلافته، ولا كلَّفوا الـمُسلمين[٥] أن يخاطبوهم بالعبوديَّة والملك ولا تقبيل يَدٍ[٦] ولا رِجْلٍ، إنّما كان غَرَضُهم التَّوْلِيَة والعَزْل في أقاصِي البلاد، فكانت عُمَّالُهم ووُلاتُهم في الأنْدَلُس، وفي الصِّين، وفي السِّنْد، وفي خُرَاسان، وأرمينية، واليَمَن، والشام، والعِراق، ومِصْرَ، والـمَغْرِب، وسائر بلاد الدنيا، ما عدا الـهِنْد[٧].

وانتقل الأمر إلى بني العبَّاس في هذه السنة، قال ابن حَزم في جُملة كلامه أيضًا: فكانت دولتُهم أعْجَمِيَّة: سقطَتْ فيها دَواوينُ العَرَب، وغلب عَجَمُ خُراسان على الأمر، وعادَ الأمْرُ مُلْكًا عضوضًا كِسْرَوِيًّا، إلّا أنّهم لم يُعْلِنوا بسبِّ أحدٍ من الصحابةِ، رضوان الله عليهم، وافترقت في دولة بني العبَّاس دعوةُ المسلمين وكلمتُهم،

---

(١) ليست في ر١.

(٢) قوله: «يوسف بن» سقط من ر١.

(٣) قوله: «وفائدة عجيبة» ليس في ر١.

(٤) في أ: «امرئ».

(٥) بعد هذا في ر١: «قبل».

(٦) في أ: «أرض».

(٧) قوله: «ما عدا الهند» ليس في أ.

فتغلَّبت على البلاد طوائفُ من الـخَوَارِج والشيعة والـمُعْتَزِلة، ومن وَلَد إدريس وسُليمان ابْنَيْ عبد الله بن الـحَسَن بن الـحَسَن بن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، ظهروا في الـمَغْرِب الأقصى، وتملَّكوا فيه. ومنهم من وَلَد مُعاوية تغلَّبوا على الأنْدَلُس، وكثيرٌ من غيرهم أيضًا. وفي خلال هذه الأمور، تغلَّبت الكَفَرة على أكثر بلاد الأنْدَلُس وأكثر بلاد السِّنْد. وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئة المذكورة، كان الـمُوَلُّون للعُمَّال بالبلاد أربعة أُمراء: وهُمْ مروان بن محمَّد، وأبو سَلَمة الـخَلّال، وأبو مُسْلِم، وأبو العبَّاس السفَّاح. فأمّا مروان، فعزل الوليد بن عُرْوة[1] عن المدينة، وولّاها أخاه عيسى، وأمّا أبو سَلَمة، فاستعمل محمَّد بن خالد على الكوفة إلى أن ظهر أبو العبَّاس السفَّاح ظُهورًا تامًّا، وأمّا أبو مُسْلِم، فهو كان السلطان الأعظم الذي لا يُرَدُّ أمره، وهو الذي قدَّم محمَّد بن الأشْعَث[2] على فارِس، وأمره أن يأخذ عُمَّال أبي سَلَمة فيضربَ أعناقهم، ففعل ذلك، وأمّا أبو العبَّاس، فوجَّه بعد ذلك إسماعيل بن عليّ[3] واليًا على فارِس، وأخاه أبا جَعْفر على الجزيرة وأرمينية وأذرِبيجان، وولَّى أخاه يحيى بن محمَّد بن عليّ على الـمَوْصِل[4]، وولَّى على مِصْرَ أبا عَوْن عبد الملك بن يزيد، وولَّى على إفريقية عبد الرحمن بن حبيب؛ لأنَّه، لـمّا بلغَتْه بيعةُ أبي العبَّاس، كتب إليه بالسمع والطاعة، فأقرَّه[5].

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومئة: ولَّى أبو العبَّاس السفَّاح عمَّه سُليمان بن عليّ[6] البَصْرة وأعمالها والبَحْرَيْن وغيرَ ذلك، وولَّى عمَّه إسماعيل على[7] الأهواز[8]، وولَّى عمَّه داود المدينة، وولَّى عُمَّالَه سائر البلاد الشرقيَّة، وإفريقية والأنْدَلُس على ما كانت عليه.

---

(1) في ر١: «عقبة»، خطأ، وهو الوليد بن عروة بن محمد بن عطية، وينظر تاريخ خليفة ٤٠٧.

(2) ترجمته في تاريخ الإسلام ٣/ ٩٥٨.

(3) ترجمته في تاريخ الإسلام ٣/ ٨١٨.

(4) في أ: «وولى سائر البلاد الشرقية».

(5) ليست في أ.

(6) قوله: «ابن علي» ليس في ر١.

(7) ليست في ر١.

(8) تاريخ الطبري ٧/ ٤٥٩.

وفي سنة أربع وثلاثين ومئة: بعث أبو العبَّاس السفَّاح موسى بن كَعْب[1] في اثنَيْ عشر ألفًا لقتال منصور بن جُـمْهُور[2] من الـمُتَنْزِين على بني العبَّاس، فسارَ إليه حتى لحقه بأرض الهند، فهزمه ومَن كان معه، ومضى، فمات عطشًا في الرمال[3].

وفيها كان أيضًا العَزْلُ والولايات بالمشرق. وبقي على مِصْر أبو عَوْن، وعلى إفريقية عبد الرحمن بن حَبيب، وعلى الأنْدَلُس يوسف الفِهْريُّ.

وفي سنة خمس وثلاثين ومئة: كانت غزوة عبد الرحمن بن حَبيب صاحبِ إفريقية صِقِلِّيَّةَ، فسَبى وغَنِم[4]. وغزا أيضًا سَرْدانِيَة، وصالحهم على الجزية. وغزا أرض البربر بجهة تِلِمْسان. ومدينة تِلِمْسان قاعدةُ الـمَغْرِب الأوسط، وهي دارُ مملكة زَناتة.

قال البَكْريُّ: بنو[5] يَغْمُراسن من هَوَّارة يعتدُّون في ستِّين ألفًا، وتلِمِسْان دارُ مملكة زناتة على قديم الزمان، مُتَوَسِّطة بلاد القبائل من زناتة وغيرهم، ومَقْصِدُ التجار، ونزلها محمَّد بن سُليمان من ذُرِّيَّة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. ومن ذُرِّيَّته أبو العيْش عيسى بن إدريس بن محمَّد بن سُليمان الذي بنى مدينة جراوة[6].

ونسب زناتة: قال أبو الـمَجْد الـمَغِيليُّ، وعليُّ بن حَزْم[7]، وغيرُهما: إنّ زناتة هم أولاد جانا[8] بن يحيى بن صُولات بن ورتناج بن ضَرِي بن سفكو[9] بن قيدواد بن شعبا بن مادغيس بن هدك بن هرسق بن كداد بن مازيغ. وذكروا أنّ ضَرِي هو ابن

---

(١) ترجمه الذهبي في تاريخ الإسلام ٣/ ٩٨٨.

(٢) ترجمته في تاريخ الإسلام ٣/ ٧٣٩.

(٣) تاريخ الطبري ٧/ ٢٦٤.

(٤) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٥٦، ونهاية الأرب للنويري ٢٢/ ٤٣.

(٥) من هنا إلى قوله: «زناتة» سقط كله من ر١.

(٦) في ر١: «كيراوة» وهو جائز، فأصل الجيم كاف أعجمية.

(٧) الجمهرة ٤٩٥ باختلاف يسير.

(٨) في الجمهرة: «شانا».

(٩) في الجمهرة: «سقفو».

وَزْجيج بن مادغس بن برّ، فولد ابن برنوس[1]. وولد برنوس كُتامة، ومَصْمُودة، وأوْرَبة، ووَزْدَاجة[2]، وأوزيغة، فولد أوزيغة هوارة، ومن قبيل هَوَّارة بنو كَهْلان ومَلِيلة، وولد يحيى جانا وسَمْجان ووَرْسَطِيف، وولد جانا وَرْسِيج، وولد وَرْسيج مَرِين، وولد مرين نَجْدة ونَمالة، وولد وَرْسطِيف وَرْكُونة ومِكْناسة، وولد ضَرِي أيضًا تَـمْزِيت، وولد تَـمْزِيت مَطْماطة، ومَدغرَة، وصَدِينة، ومَغِيلة ومَلْزُوزة[3]، ومَدْيُونة، وولد وزجيج لاوي الكبير، وولد لاوي الكبير لاوي الصغير، ومَغْراوة، وإيفْرَن، وولد لاوي الصغير[4] نَفْزاو، وولد نَفْزاو[5] يطوفت، وولد لاوي[6] الصغير أيضًا كطوف، وولد كطوف ونيطط، فولد ونيطط سَدْراتة، وكانت سَدْراتة إخوان بني مَغْراوة لأمِّهم، وكان أولاد مَغْراوة وبني يفْرَن من أعظم بطون زَناتة.

قال رُجار من كتابه: كان بنو مَرِين يسكنون وراء تِلِمْسان، وهو من زَناتة، من وَلَد[7] جانا بن يحيى بن ضريس بن لوا بن نفزاو بن بتر بن قَيْس غَيْلان بن إلياس ابن مُضَر. قال: وبنو مَرِين من العَرَب الصريحيّين.

وفي سنة ست وثلاثين ومئة: كان ابتداء أبي العبَّاس السفَّاح مُـحاولةَ الغَدْر بأبي مُسْلِم، وظفرُ أبي مُسْلِم بمن حاوَلَ ذلك، وقتلُه لهم، وذلك في خبر طويل. وقيل[8]: بل كان ابتداء تلك المحاولة في سنة خمس وثلاثين ومئة قبلها. وقدم أبو مُسْلِم في هذه السنة على أبي العبَّاس مستأذِنًا في الحجّ، فهمَّ أبو العبَّاس بقتله، ثمّ انثنى عن ذلك، وحجَّ أبو مُسْلِم وأبو جعفر.

---

(١) رسمت في الجمهرة «بُرنُس».

(٢) في الجمهرة: «أزداجة».

(٣) من هنا إلى قوله: «وولد لاوي الكبير» سقط كله من أ.

(٤) قوله: «وولد لاوي الكبير» سقط من أ.

(٥) قوله: «وولد نفزاو» سقط من أ.

(٦) ليس في ر١.

(٧) في ر١: «أولاد».

(٨) من هنا إلى قوله: «وقدم» سقط من ر١.

وفيها: توفّي أبو العبّاس السفّاح في ذي الحجّة، بعد أن ولّى العهد أخاه أبا جعفر المنصور، وبايعه الجمهور، واستقامت له الأمور[١].

وفي سنة سبع وثلاثين ومئة: كان قدومُ أبي جعفر المنصور من مَكّة، وتتميمُ بيعته، فدخلَ أبو جعفر الكوفة وصَلّى الجمعة، ووافاه كتابُ أبي مُسْلِم بالحيرة، ثمّ شخص أبو مُسْلِم إلى الأنْبار.

وفيها: انتزى عبد الله بن عليّ على أخيه وامتنعَ من بيعته، فبعثَ إليه أبو جعفر أبا مُسْلِم، فحاربه[٢]. وفيها قتل المنصور أبا مُسْلِم[٣]. وكَيْفِيَّةُ ذلك في أخبار الـمَشْرِق.

بقيَّة أخبار عبد الرحمن بن حبيب بإفريقية

لما صار[٤] الأمر إلى أبي جعفر المنصور، كتب إلى عبد الرحمن يدعوه إلى الطاعة. فأجابه، ودعا له[٥]، ووجَّه إليه بهديَّةٍ كان فيها بُزاةٌ وكِلابٌ، وكتب إليه[٦] إنّ إفريقية اليوم إسلاميَّةٌ كلُّها، وقد انقطع السَّبْيُ منها، فغضب أبو جعفر وكتب إليه يتوعَّده. فلما وصل إليه الكتاب، غَضِبَ غضبًا شديدًا، ثمّ نادى: الصلاةُ جامعةٌ فاجتمعَ الناسُ، وخرج عبد الرحمن في مطْرَفِ خزٍّ، فصعدَ المنبرَ، فحمِدَ الله وأثنى عليه، ثمّ أخذَ في سَبِّ أبي جعفر، وقال: إني ظننتُ أنّ هذا الخائن يدعو إلى الحقّ ويقوم به، حتى تبيَّن لي خلافُ ما بايعتُه عليه من إقامة العدل وإنّي الآن خلعتُه، كما خلعتُ نَعْلي هذا، وقذفه من رجله. ثمّ دعا بخَلْع السُّود وأمر بتخريقها، وقال[٧]: هذا لباس أهل النار في النار.

---

(١) في أ، م: «بعد أن ولى العهد لأخيه أبي جعفر المنصور، فاستوسقت له الأمور وبايعه الجمهور»، وما أثبتناه من ر١، وينظر تاريخ الطبري ٧/ ٤٧٠.

(٢) تاريخ الطبري ٧/ ٤٧٤.

(٣) تاريخ الطبري ٧/ ٤٧٩.

(٤) في ر١: «وصل».

(٥) في ر١: «فدعا له وأجابه».

(٦) قوله: «وكتب إليه» سقط من أ.

(٧) من هنا إلى آخر الفقرة ليس في أ.

قال الرقيق: كان قد لَبِسها قبل ذلك، ودعا فيها لأبي جعفر، فقُطّعت قِطَعًا وأُحْرِقَت.

وقال ابن القَطَّان: كان عبد الرحمن بن حبيب يُظْهِرُ الطاعة لأبي جعفر، ويدعو له على المنابر، إلّا أنّه لم يلبس السواد، وقال: إنّ هذا لباس أهل النار في النار، ثمّ خلعه ونبذَ طاعته. وحقّق[1] عَرِيب أنّ خَلْعه لطاعة أبي جعفر كان في هذه السنة.

مقتل عبد الرحمن

كان عبد الرحمن يوجِّه أخاه غازيًا، فإذا ظَفِرَ، كتب عبد الرحمن بالفتح، ويزعم أنّ ابنه كان يتولّى الفتوح. وكان قد ولّاه عهدَهُ، فعمد إلياس إلى قتل أخيه عبد الرحمن، وشاورَ في ذلك أخاه عبد الوارث، فأجابه[2]. ودَعَوَا إلى ذلك قومًا من أهلِ القَيْرَوَان من العرَب على أن يقتلوا عبدَ الرحمن، ويؤمِّروا إلياسَ بن حبيب، وتكون الطاعة لأبي جعفر. وكان عبد الرحمن ولَّى أخاه إلياسَ تونُس، وودَّعه للخروج إليها، وعبد الرحمن إذ ذاك مريضٌ. فدخل عليه، وهو في غِلالةٍ ورِداء، وابنٌ له صغيرٌ في حجره، فقعد طويلًا، وعبد الوارث يَغْمِزه. فلمّا قامَ يوادعه[3]، أكبَّ عليه ووضع السكّين بين كتفَيْه حتّى وصل إلى صدره، ثمّ ردَّ يده على السيف، فضربه، وخرج هاربًا دَهِشًا. فقال له أصحابُه: ما فعلتَ؟ قال: قتلتُه. قالوا: ارجِعْ فحزَّ رأسَه. فرجع وحَزَّه. وثارت الصيحةُ. وأخذَ إلياسُ أبوابَ دار الإمارة، وسمعَ ابنُه حبيبٌ الصيحةَ، فأُخْبِر بقتل والده، فاختفَى، ثمّ تحامل على وجهه إلى باب تونُس، أحدِ أبوابِ القَيْرَوان، فخرجَ منه ومضَى إلى عمِّه عِمْران بن حبيب، وهو والي تونُس لوالدِه. فكانت ولايةُ عبد الرحمن بن حبيب إفريقيةَ عَشْر سنين وسبعة أشهر[4]. وكان أوّلَ ثائرٍ متغلّب على بلاد[5] إفريقية.

(١) من هنا إلى آخر الفقرة سقط من ر١.

(٢) تأريخ خليفة ١٢٣.

(٣) في أ: «يودعه»، وكلاهما بمعنى.

(٤) الكامل لابن الأثير ٥/ ٣١٤.

(٥) ليست في ر١.

ولاية إلياس بن حبيب إفريقية

ولما قتلَ أخاه، وَلِيَ أُمور[1] إفريقية والقَيْرَوان، وحبيبٌ عند عمِّه عِمْران بتونُس. فأخبره بخبر أبيه، ولحق بهما مَوَاليها وعبيدُهما من كلِّ ناحية. فخرج إلياس، وأتاه حبيبٌ وعِمْرانُ بمن معهما، فهمُّوا بالقتال. ثمّ اصطلحوا على أن يعود عِمْران إلى ولاية تونُس وصَطْفورة والجزيرة، ويكون حبيبٌ على قَفْصَة وقَسْطِيلِيَّة، وإلياس لسائر إفريقية والمغرب[2]. ومضى إلياس مع أخيه عِمْران إلى تونُس، فوثب عليه إلياس، وبعثَ به إلى الأنْدَلُس[3]. وولَّى على تونُس محمَّد بن الـمُغِيرة، وانصرفَ إلى القَيْرَوان، فبلغه عن حبيب أخبارٌ كَرِهَها. فعلم ذلك حبيبٌ، فدَسَّ له مَن زيَّن له الـخُروج إلى الأنْدَلُس، ففعلَ، ووجَّه معه شقيقَه عبدَ الوارث ومَن أحبَّ من مواليه[4]. فركبوا البحر، وقد تعَذَّرَتْ بهم الريح، فكتب حبيبٌ إلى إلياس يُعْلِمه بأنّ الريح ردَّتْه، ووقفوا بطَبَرْقة[5]. فكتب إلياس إلى عامله بها يُـحَذِّرُه من أمْرِهِ. فسمع به موالي عبد الرحمن وأهلُ طاعته، فأتوا إليه من كلّ ناحية، وطرقوا سُليمان بن زِيَاد عامل إلياس ليلًا، وهو في معسكره يحرس[6] حبيبًا، فأسَروه، وشدُّوا وثاقَه، ورَكبوا إلى حبيب، فأخرجوه إلى البرّ[7].

ذكر قيام حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب على عمّه إلياس وتغلُّبه على بلاد إفريقية[8]

لما خرج حبيب هذا إلى البرّ، واجتمعت عليه أهلُ طاعة أبيه، ظهرَ أمرُه، وشاعَ ذكرُه. وتوجَّه إلى الأُرْبُس، فأخذَها. وبلغَ خبرُه إلى[9] إلياس، فخرج يريدُه،

---

(١) كذلك.

(٢) في ر١: «ويكون إلياس على القيروان وسائر إفريقية».

(٣) ذكر ابن الأثير أن إلياسَ سار مع عمران إلى تونس فغدر به وقتله (الكامل ٥/ ٣١٤).

(٤) في ر١: «الموالي».

(٥) معجم البلدان ٤/ ١٦.

(٦) في أ: «يحارس».

(٧) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٧.

(٨) جاء العنوان في ر١ كما يأتي: «ذكر تغلب حبيب بن عبد الرحمن على إفريقية».

(٩) قوله: «وبلغ خبره إلى» في ر١: «وسمع».

واستخلف على القَيْرَوان محمَّد بن خالد القُرَشيَّ. فلما قرب إلياس منه، تحارَبَا حربًا خفيفةً. فلما أمسى حبيب، أوقد النيران ليظنَّ الناس أنَّه مقيمٌ. ثمّ سَرَى، فأصبح بجَلُولا. ثمّ نفذ إلى القَيْرَوان، فاستولى عليها. ثمّ رجع إلياس في طلبه، ففسد عليه مَن كان معه، وتقوَّى حبيبٌ وخرج إليه في جمع عظيم. فلما التقيا، ناداه حبيبٌ: لِـمَ نقتلُ صنائعَنا وموالينا بيننا[١]، وهم لنا حِصْنٌ ولكن أَبْرُزُ أنا وأنت: فأيُّنا قتلَ صاحبَه، استراح منه. فناداه الناسُ: قد أنْصَفَك يا إلياس، فخرج كلُّ واحد منهما إلى صاحبه، ووقف أهلُ العسكر ينظرون إليهما، فتَطاعَنا حتّى تكسَّرت قَنَاتاهما، ثمّ تضارَبا بسيوفهما، وعَجِبَ الناسُ من صبرهما. ثمّ ضرب إلياس حبيبًا ضربةً[٢] في ثيابه ودِرْعه، ووصلت إلى جَسَده، وضَرَب حبيبٌ عمَّه إلياس ضَرْبةً أسقطَتْه. ثمّ أكبَّ عليه، فحزَّ رأسه، وأمر برفعه على رُمح، وأقبل به إلى القَيْرَوان.•فدخلها وبين يَدَيْه رأسُ عمّه ورؤوسُ أصحابه، فيهم عمُّ أبيه محمَّد بن أبي عَبْدة بن عُقْبة، ورأسُ محمَّد بن الـمُغِيرة القُرَشيّ وغيرِهما من وجوه العَرَب، وذلك في عام ثمان وثلاثين ومئة، فكانت ولاية إلياس إلى أن قُتِل نحوَ سنة وستَّة أشهر[٣].

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئة: قام البربر بإفريقية على حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب[٤]. ولما قتلَ حبيبٌ عمَّه إلياس، هرب عبد الوارث بن حبيب ومن كان معه إلى عسكر إلياس أخيه إلى بَطْن من البربر، يُقال لهم وَرْفجومة من نَفْزة، لاجئين إليهم، فنزلوا عليهم، وأميرهم عاصِم بن جَميل. فكتب إليه حبيب يأمره بتَوْجيهِهم إليه، فلم يفعل، فزحف إليه حبيب، ولقيه عاصِم، ومعه كلُّ من هَرَب من حبيب، فاقتتلوا، فانهزم حبيبٌ. وكان إذا خرج إليهم، استخلف على القَيْرَوان أبا كُرَيْب القاضي، فكتبَ بعضُ أهل القَيْرَوان إلى عاصم وأشياخ وَرْفَجُومة، وظنُّوا أنَّهم يُوفُون لهم بالعهد، وأظهروا لهم أنَّهم إنّما يريدون أن يدعوا لأبي جعفر. فزحفَ

---

(١) سقطت من أ، م.

(٢) قفز نظر ناسخ ر١ من هنا إلى «ضربة» الآتية.

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٣١٥، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٧.

(٤) قفز نظر ناسخ ر١ من هنا إلى «حبيب» الثانية، فسقط ما بينهما.

عاصِم بن جميل[1] وأخوه مُكْرَم بمن كان معهم من البربر، ومن لجأ إليهم من العَرَب، بعد أن هزموا حبيبًا، وساروا إلى ناحية قابِس، حتّى انتهوا إلى القَيْرَوان فخرج إليهم القاضي في أهل القيروان[2]. فلما دنا بعضُهم من بعض، خرج جماعة من عسكر عاصم، فقتلوا منهم أُناسًا، وتفرَّق الناس عن القاضي أبي كُرَيْب، ورجعوا إلى القَيْرَوان، ولم يعلموا ما يحلُّ بهم من البربر. وثبتَ أبو كُرَيْب في نحو ألف رجل من أهل الدين، مُستسلمين للموت، فقاتلوا حتّى قُتل أبو كُرَيْب وأكثرُ أصحابه. ودخل ورْفَجُومة القَيْرَوان، فاستحلُّوا المحارم، وارتكبوا الكبائر، ونزل عاصِمٌ بمُصَلَّى رَوْح. ثمّ استخلف على القَيْرَوان عبد الملك بن أبي الـجَعْد اليفْرَنيَّ، وسارَ إلى حبيب، وهو بقابِس، فانهزم حبيبٌ ولَـحِق بجبل أوْراس. فسار إليه عاصِم، فهزمه حبيبٌ، وقتله مع جملة من أصحابه. وأقبل حبيب إلى القَيْرَوان، فخرج إليه عبد الملك بن أبي الـجَعْد، فاقتتلا، فانهزم حبيب وقُتل في المحرَّم من سنة أربعين ومئة، فكانت[3] ولاية عبد الرحمن بن حبيب نحو عَشْر سنين وأشهرًا، وولاية أخيه إلياس سنة وستَّة أشهر[4].

ثمّ تغلَّب على إفريقية بعضُ القبائل[5] الصُّفْرِيَّة بعد قتل حبيب وعاصِم، فدخلوا القَيْرَوان وربطوا دوابَّهم في المسجد الجامع، وقتلوا كلَّ من كان من قُرَيش، وعذَّبوا أهلها. وأساءت[6] وَرْفَجُومة لأهل القَيْرَوان سوءَ العذاب، وندم الذين استدعوهم أشدَّ ندامة. ثمّ قام أبو الخطَّاب عبد الأعْلَى بن السَّمْح الـمَعَافِرِيُّ[7]، وكان ثائرًا متغلِّبًا خرج من أطرابُلُس بعد ما كان استولى عليها يريد القَيْرَوان، لقتال وَرْفَجُومة. فالتقى معهم وقاتلهم. ثمّ هزمهم وتبعهم يقتلهم. ثمّ انصرف إلى القَيْرَوان،

---

(١) ليس في ر١.

(٢) قوله: «فخرج إليهم القاضي في أهل القيروان» سقط من أ، م.

(٣) من هنا إلى نهاية الفقراء جاء بدلًا عنها في ر١: «فكانت ولايته سنتين وأشهرًا».

(٤) ينظر الكامل لابن الأثير ٥/ ٣١٥، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٧-٣٨.

(٥) قوله: «بعض القبائل» ليس في ر١.

(٦) هكذا في أ، ر١، م، ولعل الصواب: «وسامت».

(٧) ينظر الوافي للصفدي ١٨/ ٥.

فولَّى عليها عبدَ الرحمن بن رُسْتُم صاحبَ تِيْهَرت بعد ذلك. ومَضَى أبو الخطَّاب إلى أطْرابُلُس[١]. وكانت مدَّةُ هذه الأهوال[٢] والفِتَن التي اختصرناها هنا مُـجْمَلَةً في نحو ثلاثة أعوام.

وفي سنة تسعٍ وثلاثين ومئة: كان الفداء بين أبي جعفر الـمنصور والروم، فاستنقذ المنصور منهم أُسارى المسلمين، ولم تكن بعد ذلك صائفةٌ للمسلمين إلى سنة ست وأربعين ومئة[٣].

وفي سنة إحدى وأربعين ومئة[٤]: كان ابتداء بناء سِجِلْماسة. وفيها[٥] كان خروج أبي الخطَّاب إلى القَيْرَوانَ[٦] لقتال وَرْفَجُومة، فخرج إليه واليها عبدُ الملك، فخذَلَه أهل القَيْرَوان وانهزموا عنه، فقُتل عبد الملك وأصحابه في صفر. وكان تغلُّب وَرْفَجُومة على القَيْرَوان سنةً وشهرَيْنِ.

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئة: أقبل أبو الأحْوَص العجْلِيُّ بالـمُسَوِّدةِ. فخرجَ إليه أبو الخطاب، فالتقوا بمِقْدَاس على شاطئ البحر، فانهزمَ أبو الأحْوَص وأصحابُه، واحتوى أبو الخطَّاب على عسكرهم. ورجع أبو الأحْوَص إلى مِصْر، وانصرف أبو الخطَّاب إلى أطْرابُلُس. وكانت إفريقية كلُّها في يديه إلى أن وجَّه المنصورُ ابن الأشْعَث[٧].

وفي سنة ثلاث وأربعين ومئة: اتّصل بأبي الخطَّاب أنّ ابن الأشْعَث يريد القَيْرَوان. فخرج إليه في زهاء مئتي ألف، فعسكر بهم في أرض[٨] سُرْت[٩]. واتَّصل ذلك بمحمد بن الأشْعَث.

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٩.

(٢) في ر١: «الأحوال».

(٣) تاريخ الطبري ٧/ ٥٠٠.

(٤) في أ: «أربعين ومئة».

(٥) في أ: «وفي سنة إحدى وأربعين ومئة».

(٦) في ر١: «القبائل».

(٧) من هنا إلى «الأشعث» في الفقرة الآتية قفز نظر ناسخ ر١ فسقط ما بينهما.

(٨) قوله: «في أرض» ليس في ر١.

(٩) معجم البلدان ٣/ ٢٠٦ والضبط منه.

وفي سنة أربع وأربعين ومئة: ولي إفريقية محمَّد بن الأشْعَث الـخُزاعيُّ[1].

ذكر ولاية محمَّد بن الأشْعَث الـخُزاعيّ إفريقية[2]

لما غَلَبت الصُّفْريَّة على إفريقية، بعد أن قتلت وَرْفَجُومة مَن قتلت من قُرَيْش وغيرِهم، خرجَ جماعةٌ من عَرَبها إلى المنصور يستنصرونَ به على البربر، ويصفونَ له ما نالـهُم منهم. فولَّى أبو جعفر ابن الأشْعَث مِصْرَ. فوجَّه أبا الأحْوَص، فهزمَتْه البربر كما تقدَّم، فكتب أبو جعفر إلى ابن الأشْعثَ أن يسيرَ بنفسه، فخرج إلى إفريقية في أربعين ألفًا، عليها ثمانية وعشرون قائدًا. فالتقوا بأبي الخطَّاب، وكان قد جمعَ أصحابَهُ في كلِّ ناحية، ومضوا في عدد عظيم. فضاق ذَرْعُ ابن الأشْعَث بلقاء أبي الخطَّاب لما بلغه كَثْرة جيوشه. ثمّ إنَّ زَناتة وهَوَّارة تنازعَتْ فيما بينها، واتَّهمت زَناتة أبا الخطَّاب في ميله مع هَوَّارة، ففارَقَه جماعةٌ منهم، وبلغ ذلك ابن الأشْعَث، فسُرَّ به ورحل إليه. فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فانهزم البربر، وقُتل أصحاب أبي الخطَّاب وأبو الخطَّاب. فظنَّ ابن الأشْعَث ألّا بقيَّةَ بعد أبي الخطَّاب، ثمّ طلع عليهم أبو هُرَيْرة الزَّناتيُّ في ستَّة عَشَر ألفًا. فتلقَّاهم ابن الأشْعَث، فهزمهم وقتل بعضَهُم، وذلك في ربيع الأوَّل من السنة[3]. ووجَّه ابن الأشْعَث برأس أبي الخطَّاب إلى بغداد.

ولما انتهى إلى عبد الرحمن بن رُسْتُم قتلُ أبي الخطَّاب، ولَّى هاربًا إلى موضع تِيْهَرت، فاختطَّها ونزلها. وأخذَ أهلُ القَيْرَوان عامِلَه عليها، فأوثقوهُ في الحديد وولَّوا على أنفسهم عَمْرو بن عُثمان القُرَشِيَّ، إلى أن وفدَ عليهم ابن الأشْعَث فدخل القَيْرَوان غُرَّة جمادى الأُولى من السنة[4].

وفي هذه السنة: أمر ابن الأشْعَث ببناء سور القَيْروان في ذي القَعْدة[5]. وكان تمامُه في رجب من سنة ست وأربعين. وضبط ابن الأشْعث إفريقية وأعمالها، وأمعن في

---

(١) سقطت النسبة من ر١، وانظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٩.

(٢) سقط العنوان من أ.

(٣) قوله: «وذلك في ربيع الأول من السنة» سقط من ر١.

(٤) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٩-٤٠.

(٥) في ر١ بدلًا من هذه العبارة: «ولما حَلّ بها ابن الأشعث أمر ببناء سورها».

كل من خالَفه من البربر بالقتل، فخافوه وأذعنوا له بالطاعة. ثمّ ثار عليه عيسى بن موسى بن عَجْلان، وكان أحد جُنده، في جماعة من قوّاده. فأخرجوا ابن الأشْعَث من القَيْرَوان من غير قتال. فكان خروج ابن الأشْعَث من القَيْروان في ربيع الأوَّل سنة ثمان وأربعين ومئة. فكانت ولايتُه بها ثلاثة أعوام وعشرة أشهر، في خلافة أبي جعفر المنصور.

وفي سنة خمس وأربعين ومئة: اشتغل ابن الأشْعَث ببناء سور القَيْرَوان، وأخصبَتْ بلاد إفريقية. وكان قد بعث إلى زُوَيْلة ووَدَّان، فافتتحهما وقتل مَن بهما من الإباضيَّة. وقتل عبد الله بن حِبّان الإباضيَّ، وكان رأس أهل زُوَيْلة. وسكَّن ابن الأشْعَث أحوال أهل إفريقية في هذه السنة، فلم تكن بها حركةٌ له.

وفي[1] سنة ست وأربعين ومئة: استتمَّ ابن الأشْعَث بناء سُور مدينة القَيْرَوان. وفيها أيضًا استتمَّ المنصور بناء بَغْداد، ولازمَ العمل فيها، وانتقل إلى سكناها في شهر صَفَر من هذه السنة.

وفي سنة سبع وأربعين ومئة: كان الأمير على مِصْرَ يزيد بن حاتِم، وعلى إفريقية محمَّد بن الأشْعَث الـخُزَاعيُّ، وليس هو محمَّد ابن الأشْعَث[2] الكندي ابن أخت عائشة رضي الله عنها.

وفي سنة ثمان وأربعين ومئة: ثارَ الـجُند على محمَّد ابن الأشْعَث بإفريقية، وسألوه الخروجَ عنهم. فخرجَ في ربيع كما تقدَّم ذكره. ثمّ اتَّفقَ الـجُند على تولية عيسى بن موسى الـخُراسانيّ.

ثورة عيسى بن موسى بالقَيْرَوان وببعض بلاد إفريقية

فتغلّب عليها بعضُ العَرَب والـجُنْد من غير عهد من المنصور، ولا رضى منه، ولا تراضٍ من العامَّة، وذلك في شهر ربيع الآخر من عام ثمانية وأربعين ومئة المذكور. فكانت مدَّتُه ثلاثة أشهر.

(١) سقطت هذه الفقرة كلها من ر١.

(٢) قفز نظر ناسخ ر١ من هنا إلى «الأشعث» في الفقرة الآتية، فسقط ما بينهما.

ولاية الأغْلَب بن سالِـم التَّمِيميّ[1]

لما بلغ المنصور ما كان من أمر قوَّاد الـجُنْد الـمِصْريَّة وصرفهم محمَّد بن الأشْعَث، بعث إلى الأغلب بن سالم بن عقال التَّميميّ عَهْدَه بولايته، في آخر جُمادى الآخرة من السنة المؤرَّخة. فاستقامت له الحال[2]. وكان من أهل الرأي وذوي الـمَشْورة. ووصله كتابُ المنصور بعد كتاب العهد، يأمُره بالعدلِ في الرعيَّة، وحُسن السيرة في الـجُنْد، وتحصين مدينة القَيْرَوان وخَنْدَقِها، وترتيب حَرَسها ومن يَتْرُك فيها إذا رحل إلى عَدُوِّه، وغيرِ ذلك من أُموره.

وسنة تسع وأربعين ومئة: لم يكن فيها حركةٌ.

وفي سنة خمسين ومئة: ثار الحسن بن حَرْب الكِنْديُّ[3] بالقَيْرَوان على الأغْلَب بن سالم، وسبب ذلك أنّ أبا قُرَّة الصُّفْريَّ خرج في جمع كبير من البربر، فسار إليه الأغلب في عامَّة القوَّاد الذين معه، وخَلَّف على القَيْرَوان سالم بن سَوادة. فلما علم أبو قُرَّة أنّ الأغْلَب قرب منه، هربَ، وتفرَّق أصحابُه. وقدم الأغْلَب الزاب، وعزمَ على الرحيل منه إلى تِـلِمْسان، قاعدةِ زَناتة، ثمّ إلى طَنْجة. فكره الجندُ المسيرَ معه[4]، وقالوا: قد هرب أبو قُرَّة الذي خرجنا إليه، وجعلوا يتسَلَّلون عنه إلى القَيْرَوان. فلم يبْقَ معه إلّا نَفَرٌ يسيرٌ من وجوههم. وكان الحسن بن حرب بتونُس. فلما خرجَ الأغلب يريد أبا قُرَّة، كاتَبَ جميع القوَّاد. فلحق به بعضُهم، وأقبل معهم إلى القَيْرَوان، فدخلها، وأخذ سالِـم بن سَوادة عاملَها، فحبسه. وبلغ الخبر الأغْلَب، فأقبلَ في عِدَّة يسيرة، وكتب إليه، يُعَرِّفه بفضل الطاعة، ووَبال المعصية. فأعاد الجواب إلى الأغْلَب، وفي آخره[5] [من الوافر]:

---

(١) تنظر الحلة السيراء لابن الأبار ١/ ٦٨.

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٤١.

(٣) الحلة السيراء لابن الأبار ١/ ٧٢.

(٤) ليست في ر١.

(٥) الأبيات في الحلة السيراء ١/ ٧٢، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٤١ باختلاف لفظي.

ألا قُولُوا لأغْلَبَ غَيْرَ سُوءٍ مُغَلْغِلةٍ عن الـحَسَنِ بن حَرْبِ
بأنَّ البَغْيَ مَرْتَعُهُ وَخيمٌ عَلَيْكَ وقُرْبُه لك شَرُّ قُرْبِ
فإنْ لم تَنْثَني لِتنالَ سِلْمِي وعَفْوِي فادنُ من طَعْني وضَرْبِي

وأقبل الأغْلَبُ يحثُّ السيرَ بعد ما مضَى إلى قابِس، وقدمَ رسولُ[1] المنصور عليه بكتاب منه إليه وإلى الـحَسَن بن حَرْب، يدعو الـحَسَن إلى الطاعة، فلم يقبَلْ. فأقبل إليه الأغْلَب، فاقتتلوا، وانهزم الـحَسَن ومضى راجعًا إلى تونُس، ودخل الأغْلَبُ القَيْرَوان. ثُمّ حشَد الحسَنُ وسار في عدَّة عظيمة إلى القَيْرَوان. ثمّ إن الأغْلَب، لـمّا بلغه قدومُ الـحَسَن إليه، جمع أهلَ بيته وخاصَّتَه، وخرج إليه، فأصابه سهمٌ، فمات منه في شعبانَ من السنة المؤرَّخة. فكانت ولايتُه سنةً واحدةً وثمانيةَ أشهر[2].

وِلاية عَمْرِو[3] بن حفص بن قَبِيصة إفريقيةَ

ثمّ وَلي إفريقية عمرُو بن حفص بن قَبِيصة سنة إحدى وخمسين ومئة[4]. وكان شجاعًا بطلًا. وسببُ ولايته أنّ أبا جعفر، لـمّا بلغه قتلُ الأغْلَب بن سالم، وجَّهه في نحو[5] خمس مئة فارس. فأقام بالقَيْرَوان ثلاثَ سنين وأشهرًا من ولايته، والأمورُ له مستقيمةٌ. ثمّ سار[6] إلى الزاب، واستخلف حَبِيبَ بن حَبِيب بن يزيد[7] بن الـمُهَلَّب. فخَلَت إفريقية من الجند، وثار بها البربر، فخرج إليهم حبيبٌ والتقى معهم، فهزموه وهزموا[8] عسكرَ

---

(١) سقطت من ر١.

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٤١-٤٢.

(٣) هكذا في أ، ر١، م، وهو تحريف صوابه «عمر» كما في تاريخ خليفة ٤٣٤، وتاريخ الطبري ٨/ ٣٣، وغيرهما وهو المعروف بهزارمرد.

(٤) جاء في ر١ بدلًا من هذه العبارة: «وفي سنة إحدى وخمسين ومئة ولي المغرب».

(٥) ليست في ر١.

(٦) في ر١: «صار».

(٧) سقط من ر١.

(٨) في ر١: «وهُزم».

أطرابُلُس معه. فاشتدَّت الفتنة بإفريقية واشتعل نارُها. وأتاها أُمراءُ القبائل من كلِّ فجّ، واجتمعوا في اثْنَي عشرَ عسكرًا، وتوجَّهوا إلى الزاب وليس مع عمرو بن حَفْص إلّا خمسةَ عشَرَ ألفًا وخمس مئة. وكان أُمراءُ المغرب في ذلك الوقت ورؤساؤهم: أبو قُرَّة الصُّفْريُّ في أربعين ألفًا، وعبد الرحمن بن رُسْتُم الإباضيُّ في خمسةَ عشرَ ألفًا، وأبو حاتِم في عَدَد كثير، وعاصِمٌ السَّدْراتيُّ في عَدَد كثير، قيل: في ستَّة آلاف، والـمِسْور[1] الزَّناتيُّ في عشَرة آلاف، وعبدُ الملك بن سكرديد الصُّنْهاجيُّ الصُّفريُّ في ألفَيْن سوى جماعاتٍ أُخَر[2]. قال[3] الرقيق: لم أذْكُرْهم.

فلما رأى عَمْرو بن حفص ما أحاط به من العساكر بمدينه طُبْنة بالزاب، جمع قوّادَه، فاستشارهم، وقال لهم: إنّي أُريد مُناهضةَ هذا العدوّ، فأشاروا عليه ألّا يبرح من مدينة طُبْنة، وقالوا له: أخْرِجْ مِنَّا من أردتَّ إلى عدوِّك ولا تَـخْرُجْ أنت، فإنّك، أن أُصِبْتَ، تَلِفَ الـمَغْرِبُ وفَسَد، فوجَّه عمرٌو إلى أبي قُرَّة مالًا كثيرًا وكِسًى[4] كثيرةً، على أن ينصرفَ عنه، فقال: لا حاجةَ لي بذلك، فانصرف الرسولُ بذلك إلى أخيه، فدفع له بعضَ المال والثياب على أن يعملَ في صَرْف أخيه أبي قُرَّة والصُّفريَّةِ إلى بلادهم، فعَمِل في ليلته تلك، واجتمع بأهل العسكر، فلم يعلم أبو قُرَّة حتّى انصرف عنه أكثرُ أهل العسكر، فلم يجد بُدًّا من اتّباعهم[5].

فلمّا انصرف الصُّفْريَّة، وجَّه عمرٌو إلى ابن رُسْتُم عسكرًا، وكان في تَهُودا. فانهزم ابن رُسْتُم، وقُتل من أصحابه نحوُ ثلاثة آلاف، ووصل منهزمًا إلى تِيهَرْت.

ورجع عَمْرُو بن حفص إلى القَيْرَوان، فجعل يُدخل إليها كلَّ ما يُصلحه من الطعام والمرافِق وعُدَّةِ الحصار. ثمّ أقبل أبو حاتم في جموعه حتّى نزل عليه. وكثُرت الفِتَنُ ببلاد إفريقيّة. ويقال: إنّ عِدَّةَ من حاصر القَيْرَوان مئةُ ألفٍ وثلاثون ألفًا. وكان ابن

---

(١) في أ: «المصور».

(٢) الكامل لابن الأثير ٥/ ٥٩٨-٥٩٩.

(٣) هذه العبارة ليست في ر١.

(٤) في ر١: «وكتبًا»، ولا معنى لها.

(٥) الكامل لابن الأثير ٥/ ٥٩٩.

حفص يَخرج إليهم في كلِّ يوم، فيُحاربهم. فلم يزالوا حتّى ضاق أمْرُهم، وأكلوا دوابّهم وكلابَهم وسنانيرَهم، وماتوا جوعًا[١]، وانتهى الـمِلْح عندَهم أُوقيَّةٌ بدرهم. واضطرب على ابن حفص أمره وساءَتْ خُلُقُه، وبلغه أنّ يزيدَ بن حاتم بعثه أميرُ المؤمنين[٢] في ستّينَ ألفًا لنصرة القَيْرَوان. فقال: لا خَيْرَ في الحياة بعد أن يقالَ: يزيدُ أخْرَجَه من الحصار، إنّما هي رَقْدةٌ وأُبْعَث إلى الحساب.

وخرج، فجعل[٣] يُطعن ويُضرب حتّى قُتل في النصف من ذي الحجَّة من سنة أربع وخمسينَ ومئة[٤]. ولم يُعْطِ الحالُ تفصيلَ هذه السنين من سنة إحدى وخمسين ومئة إلى ثلاث وخمسين ومئة بعدها سنةً سنةً: فأجملتُ أمرَها هنا إجمالًا مختصرًا، يُغني[٥] عن إعادتها في كلّ واحدةٍ منها.

ولـمّا قُتل[٦] عمرُو بن حَفْص، بايع الناسُ أخاه جَـمِيل بن حفْص بالقَيْرَوان. فلما طال عليه الحصار، دعاه الاضطرارُ إلى مُصالحة أبي حاتم، على أنّ جميلًا وأصحابَه لا يخلَعون طاعةَ سلطانهم، ولا ينزِعون سوادَهم. فغضب أبو حاتم، وأحرق أبواب القَيْرَوان، وثَلَمَ سورَها، ودخَلَها عَنْوةً. ولـمّا دخل أبو حاتم القَيْرَوان، أخرج[٧] أكثر أهلِها إلى الزاب. ثمّ بلغه قدومُ يزيدَ بن حاتم، فتوجَّه للقائه نحو أطرابُلُس، واستخلف على القَيْرَوان عبدَ العزيز الـمَعافريَّ. فقام عليه عُمر بن عثمان، وقتل أصحابَ أبي حاتم، فزحف إليهم أبو حاتم إلى القَيْرَوان، فاقتتل معهم. وتوجَّه ابن[٨] عثمان إلى تونُس، ورجع أبو حاتم إلى أطرابُلُس حين بلغه قدومُ يزيد بن حاتم،

---

(١) قوله: «وماتوا جوعًا» ليس في أ.

(٢) في ر١: «أن أمير المؤمنين بعث يزيد بن حاتم».

(٣) ليست في ر١.

(٤) الكامل لابن الأثير ٥/ ٦٠٠.

(٥) من هنا إلى نهاية الفقرة سقط من ر١.

(٦) في ر١: «مات».

(٧) في ر١ بدلًا من الجملة الأخيرة: «ودخلها عَنْوةً، فأخرج».

(٨) في أ، م: «أبو»، وهو تحريف.

فقيل: إنّه كان بين العَرَب والبربر، من لدُن قاتلهم عَمْرو بن حَفْص إلى انقضاء أمرهم، ثلاث مئة وخمس وسبعون وقيعة.

وفي سنة إحدى وخمسين ومئة: وَلَّى المنصورُ عَمْرَو بن حفص المتقدِّمَ الذِّكر إفريقية، فقدمها في صفر في خمس مئة فارس[1]، وكان قد ولي إفريقية سنة خمسين ومئة، بعد موت الأغْلَب، المخارقُ بن غِفار الطائيُّ، استخلفه الأغْلَبُ على القَيْروان، واجتمع الناس عليه في رَمَضان، فوجَّه الخيلَ في طلب الـحَسَن بن حَرْب، فهرب من تونُس إلى كُتامة، فأقام شهرَين، ورجع إلى تونُس، فخرج إليه مَن بها من الخيل، فقُتِلَ الـحَسَنُ بن حَرْب.

وفي سنة اثنتين وخمسين ومئة: كان ما تقدَّم ذكرُه على الجملة بإفريقية. وفيها عزَلَ المنصورُ يزيدَ بن حاتِم عن مِصْر، وولّاها محمَّد بن سعيد. وكان سائرُ عمّالها الذين كانوا في السنة قبلها.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومئة: قال الطبَريُّ[2]: قُتِل عَمْرو[3] بن حَفْص: قتله أبو حاتم الإباضيُّ، وأبو غادِي[4]، ومن كان معهما من البربر، وكانوا ـ فيما ذُكِر ـ ثلاث مئة ألف وخمسين ألفًا، الخيل منها خمسة وثلاثون ألفًا، ومعهم أبو قُرَّة اليَفْرَنيُّ[5] أميرُ تِلِمْسان في أربعين ألفًا، وكان يُسَلَّم عليه بالخلافة. هكذا ذكر ابن القَطّان في «نَظْم الـجُمان». وقد[6] تقدَّم أنّ قتل عمرو بن حَفْص كان في سنة أربع وخمسين ومئة. ذكر ذلك الرَّقِيق وابن حمادُه وغيرُهما.

وقال الرَّقِيق وعَرِيب: في سنة ثلاث وخمسين، زحف أبو قُرَّة من تِلِمْسان في جمع كبير من البربر إلى القَيْرَوان، فصالَـحَه عَمْرو بن حَفْص، وانصرف. وفيها ثارت البربُر بأطرابُلُس، وقدَّموا أبا حاتم الإباضيَّ، واسمه: يعقوب بن لَبيب.

---

(١) قوله: «في خمس مئة فارس» ليس في ر١.

(٢) قوله: «قال الطبري» ليس في ر١، والخبر في تاريخ الطبري ٨/ ٤٢.

(٣) في تاريخ الطبري: «عمر»، وهو الصواب.

(٤) في تاريخ الطبري: «أبو عاد».

(٥) وهو الصفري.

(٦) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في ر١.

وفي سنة أربع وخمسين ومئة: قال عَرِيب[1]: استخلف عمرُو بن حَفْص على طُبْنة الـمُهَنَّأ بن الـمُخارِق، وخَرَج عمرٌو إلى القَيْرَوان، فأقبل إليه أبو حاتِم الإباضيُّ إلى أن قُتل عمرٌو كما تقدَّم ذكرُه. ولـمّا بلغ المنصورَ قتلُ عَمْرو، بعث إلى إفريقية يزيدَ بن حاتِم، على ما سيأتي ذكرُه إن شاء الله تعالى.

وفي سنة خمس وخمسين ومئة: قال الطَّبَرِيُّ[2]: فيها افتتح يزيد بن حاتم إفريقية، وقتَل أبا غادي وأبا حاتِم، واستقامت بلادُ المغرب، ودخل يزيد بن حاتم القَيْرَوان.

وفيها: انصرف أبو حاتم الإباضيُّ من أطْرابُلُس إلى القَيْرَوان، ثمّ قدم يزيد.

وِلايةُ يزيدَ بن حاتم إفريقيةَ والمغرب[3]

هو يزيدُ بن حاتم بن قَبِيصة بن الـمُهَلَّب، وكان يُكْنى أبا خالد. ولّاه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور العبَّاسيُّ[4] المغربَ[5]. وحالُه في كرمه، وجوده، وشجاعته، وبُعْدِ صيته، ونفاذِ رأيه، وتقدُّمه، معروفٌ غيرُ نَـكِير[6]. وكان كثيرَ الشبه بجدِّه الـمُهَلَّب بن أبي صُفْرة في حروبه وكرمه. وكان له أولادٌ مذكورون بالشجاعة والإقدام. ويقال: إنّه انتهى ولدُ الـمُهَلَّب ثلاثَ مئة وَلَد من الذكور والإناث، من مات منهم ومن عاش. وكان أبو جعفر المنصور عالـمًا ببلاد إفريقية، وكان لا يبعثُ إليها إلّا خاصَّته. وكان يزيدُ هذا حسنَ السيرة. فقَدِم إفريقية، وأصلحها، ورتَّب أسواق القَيْرَوان، وجعل كلَّ صناعة في مكانها. ولم تزل البلادُ هادنة إلى أن ثارت عليه البربر. فزحف لهم وأوقع بهم. وله فيهم مَلاحِمُ مشهورة. وفيه قيل: «شَتَّانَ

(١) قوله: «قال عريب» ليس في ر١.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٤٦.

(٣) ينظر تاريخ الرقيق ٨٥، والكامل لابن الأثير ٥/ ٦٠١، ونهاية الأرب ٢٤/ ٤٦-٤٧.

(٤) ليست في ر١.

(٥) ليست في أ.

(٦) في أ، م: «منكر».

ما بين اليزيدَيْن»، يعني: يزيدَ بن سُلَيْم ويزيدَ بن حاتم. ومن شعر رَبيعة[1] فيه من قصيدة [من الطويل]:

حلَفْتُ يمينًا غَـيْرَ ذي مَثْنَويّـةٍ ... يمـينَ امْـرئ آلى ولـيس بـآثمِ

لَشَتّانَ ما بين اليَزيدَيْنِ في النَّدَى ... يزيد سُلَيْم والأغرِّ ابن حـاتمِ

وقدم يزيدُ على إفريقية ومعه كلّ جند من الشام والعراق وخُراسان، فنزل أوَّلًا أطْرابُلُس، وسار إليه أبو حاتم، فزحف إليه يزيد، واقتتل معه قتالًا شديدًا، فانهزم أبو حاتم وقُتِل[2] هو وكثيرٌ من أصحابه. واتبع سائرَهم، فقَتل من أدرك منهم. واستعمل يزيدُ على أطْرابُلُس سعيدَ بن شَدَّاد، وحينئذٍ نهض إلى القَيْرَوان، فدخلها يومَ الاثنين لعشر بقين لـجُمادى الآخرة من هذه السنة.

وفي هذه السنة أنكرت الصُّفريَّةُ المجتمعةُ بسِجِلْماسةَ على أميرهم عيسى بن يزيد أشياء، فشدُّوه وثاقًا، ووضعوه على قُنَّة جَبَل، فلم يزل كذلك حتّى مات، وقدَّموا سَمْغُو بن وَاسُول بن مدلان الـمِكْناسيَّ جَدَّ مِدْرار.

وفي سنة ستّ وخمسين ومئة: بعث يزيدُ بن حاتِم العلاء[3] بن سعيد الـمُهَلبيَّ مددًا لابن المخارِق بمدينة طُبْنة بالزاب، ودخل قلعة[4] حَبْحَاب بجبل كُتامة، وهرب عبد الرحمن بن حبيب عنها. وقَتل العلاء[5] جماعةً مـمَّن أدْرَكَ فيها، ثمّ انصرف إلى القَيْرَوان.

وثار على يزيدَ بن حاتِم أبو يحيى بن قَرْياس الـهَوَّاريُّ بناحية أطْرابُلُس، واجتمع إليه كثيرٌ من البَرْبر. وكان بها عبد الله بن السِّمْط الكِنْديُّ قائدًا ليزيد، فالتقَوْا على شاطئ البحر، واقتتلوا قتالًا شديدًا، فانهزم أبو يحيى وقُتل عامَّةُ أصحابه. وتهدَّنت إفريقية ليزيد بن حاتِم، وضَبَطَها.

---

(١) هو ربيعة بن ثابت الرقي، والقصيدة بطولها في تاريخ الرقيق ٨٧.

(٢) سقطت من ر١.

(٣) قوله: «حاتم العلاء» سقط من ر١، وترجمة العلاء بن سعيد المهلبي في الحلة السيراء ١/ ٨٧.

(٤) سقطت من ر١.

(٥) سقطت من ر١.

وفي سنة سبع وخمسين ومئة: جدَّد يزيد بناء المسجد الجامع بالقَيْرَوان[1]، وكان غايةً في الجود والـحُسْن. وفيها تُوفّي أبو جعفر المنصور، في ذي الحجَّة من السنة الـمؤرَّخة.

وفي سنة ثمانٍ وخمسين ومئة: ولي الخلافةَ المهدي[2]، بويع يوم مات أبو جعفر بمكَّة، شرَّفها الله، بعهد من أبيه، وذلك يومَ السبت لستٍّ خلون لذي الحجَّة. واستقـلَّ بالملك والخلافـة في هذه السنة. وكان أديبًا، جـوادًا، محبًّا لأهل الأدب والشعر.

وقد ذكرنا بعض أشعاره[3] وأخباره في تاريخ المشرق، إذ الغرضُ[4] هنا ذكرُ أخبار المغرب: الأقصى والأوسط.

وفي سنة اثنتين وستين ومئة: توفّي أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم[5]، القاضي بالقَيْرَوان، وصلَّى عليه أميرُ إفريقية يزيدُ بن حاتِم، وتمثَّل بهذا البيت لـمّا رأى ازدحام الناس عليه [من البسيط]:

يا كَعْبُ ما راحَ من قوم ولا ابتكـروا ... إلا وللمـوت في آثـارهم حـادي

وكان مرضُه أنَّه أكل حُوتًا وشَرِبَ عليه لبنًا على مائدةِ يزيد، وكان قد جاوز تسعينَ سنةً، فهلك من ليلته.

وفي سنة ثلاث وستين ومئة: أمر المهديُّ يحيى بن خالد بن بَرْمَك أن يكون كاتبًا لابنه هارون، وقال له: إنّي اخترتُك وولَّيتك الكتابة. وأمر له بمئة ألف درهم معونةً على سفره مع هارون ابنه[6].

---

(١) ينظر تاريخ الرقيق ٩٣.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ١١٠.

(٣) ليست في ر١.

(٤) في أ: «والغرض».

(٥) تاريخ الإسلام ٤/ ١١٥.

(٦) تاريخ الطبري ٨/ ١٤٧.

وفي سنة خمس وستين ومئة: أغزَى المهديُّ ابنَه هارون إلى بلاد الروم، في خمسة وتسعين ألفًا[1]، بمئة ألفِ ألف من العَيْن[2]، وبعشرينَ ألفَ ألف من الوَرِق[3]. فبلغ خليج البَحر على القُسْطَنْطِينيَّة، وأذعَن له الرومُ بالجِزية[4] تسعينَ ألفَ دينار في كلّ سنة، وانصرف بخمسة آلاف من الأسرى وبالغنائم.

وفي سنة ست وستين ومئة: قدم هارونُ ابن[5] أمير المؤمنين من غزوته هذه، وقدمت الروم بالهديَّة والجزية[6]. وفيها سَخِط المهديُّ على وزيره يعقوبَ بن داود، وكان قد فوَّض إليه أمر خِلافته[7].

وفي سنة تسع وستين ومئة: توفّي المهديُّ بن المنصور، رحمه الله، واخْتُلِف في سبب موته، فقيل: مسمومًا غَلَطًا، وقيل غيرُ ذلك[8]. واستُخْلف ابنُه موسى الهادي[9].

وفي سنة سبعين ومئة: توفّي موسى الهادي في ربيع الأوَّل وهو ابن ستٍّ وعشرين سنة ونصف، فكانت خلافته سنةً وشهْرَيْن[10]. واستُخْلِف هارون بن محمَّد الرشيدُ.

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ١٥٢.

(٢) هكذا في النسختين، وهو خطأ بلا ريب، ومبلغ ضخم غير معقول، وصوابه كما في تاريخ الطبري: مئة ألف دينار وأربعة وتسعون ألفًا وأربع مئة وخمسون دينارًا.

(٣) الذي في تاريخ الطبري: واحد وعشرون ألفًا وأربع مئة ألف وأربعة عشر ألفًا وثمان مئة درهم.

(٤) في ر١: «بالجزيرة»، وهو تحريف بيّن.

(٥) قوله: «هارون ابن» سقط من ر١.

(٦) تاريخ الطبري ٨/ ١٥٤.

(٧) في ر١، م: «أمور خاصته»، وما هنا من أ، وينظر تاريخ الطبري ٨/ ١٥٦، وفيه: «وفوّض إليه أمر الخلافة».

(٨) تاريخ الطبري ٨/ ١٦٨.

(٩) تاريخ الطبري ٨/ ١٨٧.

(١٠) تاريخ الطبري ٨/ ٢٠٥.

وفي سنة إحدى وسبعين ومئة: توفّي أمير إفريقية يزيد بن حاتِم، وكان خاصًّا بأبي جعفر المنصور، وتولّى ولايات كثيرة قبل قُدومه المغربَ، منها: أرمينية، والسِّنْد، ومِصْر، وأذْرَبِيجان[١]، وغيرُ ذلك. وكانت ولايتُه مِصْر سنة أربع وأربعين ومئة إلى سنة اثنتين وخمسين ومئة، وكان حسن السيرة بإفريقية، امتدَحَهُ كثيرٌ من فحول الشعراء، فأجزل لهم العطاء.

قال الزُبَيْر بن بكّار عمَّن حدَّثه من الشُّعراء، قال: كنتُ أمدحُ يزيد بن حاتِم من غير أن أعْرِفَه ولا ألقاهُ، فلما ولّاه المنصور مِصْرَ، أخذَ على طريق المدينة، فلقِيَه، فأنشده مُنْذُ خَرَجَ من مسجد رسول الله ﷺ إلى مسجد الشَّجَرة[٢]. فأعطاه رَزْمَتَيْ ثيابٍ وعشرة آلاف دينار؛ هكذا ذكر الرَّقيق[٣]. وممّا قيل فيه[٤] [من الكامل]:

يا واحِدَ العَرَبِ الذي دانَتْ له ... قَحْطانُ قاطِبةً وسَادَ نِزارا

إنّي لأرجو إذ بَلَغْتُك سالمًا ... ألّا أُكابِدَ بَعْدَكَ الأسْفارا

وفيه قيل [من الطويل]:

لَشَتَّان ما بَيْن اليزيدَيْن في النَّدَى ... يزيد زريع والأغر ابن حاتمِ[٥]

وقولُه: «لشَتَّانَ ما بَيْن اليزيدَيْن» مَثَلٌ يُتمثَّلُ به في كلّ ناحية على لسان كلّ سائر[٦]. وكان على ربيعة الشاعر دِيَةٌ، فأعطاه عَشْر دِيَات، ووَصَلَه، وأحسن إليه، وكان سَخِيًّا. ومن قول يزيد بن حاتِم، رحمة الله [من البسيط]:

---

(١) قوله: «ومصر وأذربيجان» ليس في ر١.

(٢) في تاريخ الرقيق: «الصخرة»، وهو تحريف.

(٣) تاريخه، ص٩٠.

(٤) في ر١: «وفيه قال»، وقائل هذين البيتين هو ابن المولى، محمد بن عبد الله بن مسلم، كما ذكر الرقيق في تاريخه ٨٩.

(٥) في أ: «إذا عُد في الناس المكارم والمجد»، وما هنا من ر١، وهو الصواب لأن الشطر الوارد في أ قاله أبو الشمقمق في مدح يزيد من مزيد الشيباني كما في تاريخ الرقيق ٨٨ وغيره.

(٦) في ر١ بدلًا من هذه العبارة: «وهو مثل سائر تقول العرب: شتان ما بين اليزيدين».

ما يألفُ الدِّرْهَمُ المضروبُ خِرْقَـتَنا إلّا لُـــماَمًا يـسيرًا ثـم يَنْطَلِـقُ
يَمُـرُّ مَـرًّا عليهـا وهْـيَ تَلْفِظُـهُ إنّي امرؤٌ لم يحالِفْ صُرَّتي الوَرِقُ

ومن أخباره بإفريقية، رحمه الله[١]: رُوي أنّ بعض وكلائه زَرَع فولًا كثيرًا في بعض رياضاته، فقال له: يا ابن اللخناء، أتُريد أن أعَيَّرَ بالبَصْرة، فيُقالَ: يزيدُ بن حاتم باقِلانيٌّ[٢]! ثمّ أمر بأن يُباحَ للناس. وخرج أيضًا يومًا في طريقه من القَيْرَوان مُتَنَزِّهًا، فنظرَ إلى غَنَم كثيرةٍ كانت لابنه. فزجَرَهُ عليها، وأمر بذَبْحها وأن تُباحَ للناس، فانتهبوها، وأكلُوها، وجعلوا جُلُودها في كُدْية، فهي تُعرف من ذلك الوقت بكُدْية الـجُلُود[٣]. وكانت وفاتُه في رمضان من سنة إحدى وسبعين ومئة فكانت ولايتُه خمسة عَشْرة سنة وثلاثة أشهر، في بعض خِلافة المنصور، وخِلافة المهدي كلّها، وبعض خلافة هارون[٤] الرَّشيد.

ولاية داود بن يزيد بن حاتِم إفريقية[٥]

استَخْلَفَه أبوه في مرضه، فأقام واليًا بإفريقية تسعة أشهر ونصفًا، يحارب أُمراء قبائل البربر محاربةً عظيمةً. وكان[٦] بينه وبينهم مواقِفُ كثيرةٌ في جبال باجة وغيرها. وقام عليه نُصَيْر بن صالِح الإباضيُّ، فخرجَ إليه الـمُهَلَّبُ ين يزيد، فهزموه وقتلوا من أصحابه جماعةً. فوجَّه إليهم داودُ سُليمانَ بن يزيد في عَشَرة آلاف، فهربَ البربرُ أمامَهم، فتبعهم، وقتلَ منهم أكثر من عَشَرة آلاف. وأقامَ داود على إفريقية إلى أن قدم عليه عمُّه[٧] رَوْح بن حاتم أميرًا على الـمَغْرِب.

---

(١) قولـه: «ومن أخباره بإفريقية، رحمه الله» ليس في ر١.

(٢) تاريخ الرقيق ٩١.

(٣) كذلك.

(٤) ليس في ر١.

(٥) تاريخ الرقيق ٩٧.

(٦) في ر١: «وكانت».

(٧) ليس في ر١، وهي ثابتة في تاريخ الرقيق.

ذكر ابتداء الدولة الهاشِميَّة بالبلاد الغَرْبيَّة، وهُم الأدارِسة رحمهم الله

اتَّفق جماعة المؤرِّخين أنّ دخول إدريس بن عبد الله[1] رضي الله عنه إلى المغرب كان في سنة سبعين ومئة، وهو إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وكان دخوله في إمارة يزيد بن حاتم إفريقية، وإمارة هشام بن عبد الرحمن الداخل بقرطبة، وأوَّلِ ظهور بني مِدْرار بِسِجِلْماسة. وكان نزولُه بوادي الزَّيْتون، بموضع يُعرف بمدينة البَلَد. وكان وصولُه مع مَوْلاه راشِد.

وقال البَكْريُّ في «المجموع الـمُفْتَرِق»[2]: كان نزولُه بوَلِيلَى، وهي اسمٌ لطَنْجة باللسان البَرْبَريّ. وذكر محمَّد بن يوسف أنّها كانت على مسافةِ يومٍ من موضع فاس الآن. وكانت مدينةً أزَلِيَّةً، وبها مات إدريس رضي الله عنه. وكان سَبَبُ وصول إدريس إلى المغرب، على ما ذكر الرَّقِيق والنَّوْفَليُّ[3] في «المجموع الـمُفْتَرِق»، وغيرُهما من المؤرِّخين، وذلك أنّ الحسين[4] بن عليّ بن حسن[5] بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان قد قام بالمدينة أيّامَ موسى الهادي، ثمّ خرجَ إلى مكَّةَ في ذي الحجَّة سنة تسع وستين[6]، وخرج معه جماعةٌ من إخوانه وبني عَمِّه، ومنهم

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢.

(٢) هذا الكتاب لا نعرف مؤلفه، وهو بلا شك ليس للبكري، والظاهر أن ابن عذاري ينقل قولًا للبكري ورد في هذا الكتاب.

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد بن سُليمان بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب النوفلي، أكثر أبو جعفر الطبري النقل عنه في تاريخه (ينظر الفهرس)، والمسعودي في «مروج الذهب» وذكر أن له كتاب «الأخبار». كما أكثر النقل عنه أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «مقاتل الطالبيين»، ونقل ابن الأبار في الحلة السيراء وفاة إدريس بن عبد الله عنه. وينظر تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٠٥.

(٤) في ر١: «الحسن»، خطأ، وينظر تاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ٢٨٣.

(٥) في ر١: «حسين»، خطأ.

(٦) يعني: ومئة.

إدريس ويحيى ابنا عبد الله بن حسن. وبلغ ذلك الهادي، فولَّى حَرْبَه محمدَ بن سُليمان ابن عليّ. وكانت الوقعة بفَخّ، فقُتِل الحسين[1] بن عليّ وأكثرُ أصحابه. وأفلت إدريس هذا الداخلُ إلى المغرب، فوقع[2] إلى مِصْرَ، وكان على بريدها واضِحٌ مَوْلَى صالح بن المنصور، فحَمَلَه على البريد إلى أرض المغرب. فوقع بمدينة وَليلى[3] من أرض طَنْجة، فاستجاب له من بها من قبائل البَرْبَر. ولما ولي الرشيدُ وبلغه أمْرُه، بعث إلى واضِح، فضرب عنقه، ودسَّ إلى إدريس الشَّمّاخَ مَوْلى الهادي، فخرج حتّى وصل وَلِيلة، وذكر أنّه مُتَطَبِّبٌ من شِيعتِهم العَلَوِيَّة، ودخل[4] إلى إدريس، فأنِسَ به واطْمَأنَّ إليه. ثمّ إنّه شكا له عِلَّةً في أسنانه، فأعطاه سَنُونًا مسمومًا قاتلًا، وأمره أن يستنَّ به عند طُلوع الفَجْر، فأخذَهُ منه. وهربَ الشَّمّاخ من تحت ليلته. فلما طلع الفجر، استنَّ إدريس، وأكثر منه في فَمِه، فسقطت أسنانه[5] ومات من وقته. وطُلِب الشَّمّاخ، فلم يُظْفَرْ به، وقَدِمَ على الرشيد، فولّاه بَرِيدَ مِصْرَ. هكذا ذكر الرَّقيق في كتابه[6].

وفي سنة اثنتين وسبعين ومئة: اجتمعت القبائل على إدريس بن عبد الله من كلِّ جهة ومكان، فأطاعوه وعظَّموه وقدَّموه على أنفسهم، وأقاموا معه مُغْتَبِطين بطاعته، ومُتَشَرِّفين بخدمته طُولَ حياته. وكان رجلًا صالحًا[7]، مالكًا لشَهَواته، فاضلًا في ذاته، مؤثِرًا للعدل، مُقْبِلًا على أعمال البِرّ.

وفي سنة ثلاثٍ وسبعين ومئة: كان خروجُه بعساكر القبائل الغربيَّة حتّى انتهى إلى بلاد السُّوس الأقصى، ودخل ماسَّة، فغنم وسبى، ورجع إلى الغرب سالـمًا غانـمًا.

---

(١) في ر١: «الحسن»، خطأ.

(٢) في ر١: «فهرب».

(٣) تبعد نحو ثلاثين كيلو مترًا من مكناس، وتسمى اليوم قصر فرعون.

(٤) في ر١: «ورحل».

(٥) قوله: «فسقطت أسنانه» ليس في ر١.

(٦) نقله عنه النويري في نهاية الأرب ٢٥/ ٣٩.

(٧) قوله: «رجلًا صالحًا» ليس في أ.

وفي سنة أربع وسبعين ومئة: توجَّه بعسكره إلى رباط تازا[1] لما قفلَ من حركةِ السُّوس[2]، فوجد في جَبَلها معدن الذهب. وأجابه جميع القبائل الغربيَّة، وأطاعوه، وبايعوه في هذه السنة، وكملت له الإمارة فيهم.

ولاية رَوْح بن حاتِم بن قَبِيصة بن الـمُهَلَّب إفريقية[3]

ولّاه عليها أميرُ المؤمنين هارونُ بن محمد الرشيد، فقدِمَها في سنة إحدى وسبعين ومئة. وكان له ولايات كثيرة: فحجب المنصور، ثمّ ولّاه البَصْرة، ووَلِـيَ الكوفةَ في أيّام المهدي، وولي السِّنْد وطَبَرِسْتان وفِلَسْطِين وغير ذلك.

ونظر رجلٌ إلى رَوْح بن حاتِم واقِفًا في الشَّمْس عند باب المنصور، فقال له: لقد طالَ وقوفُك في الشَّمْس، فقال له: ليطول بذلك وقوفي في الظلّ. وتُوفّي له ابنٌ فدخلَ عليه أصحابُه، وهو ضاحكٌ، فتوقَّفوا عن تعزيته، فعرف ذلك فيهم، فأنشأ يقول [من الطويل]:

وإنّا لَقَـوْمٌ مـا تَفِـيضُ دُموعُنـا على هالِكٍ مِنَّا وإنْ قُصِمَ الظَّهْرُ

وقيل: إنّه بعث لكاتبه ثلاثين ألف درهم، ووقَّع إليه[4]: إنّي بعثتُ إليك بكذا، لا أستَقِلُّها لك تَـكَـبُّرًا، ولا أستَـكْثِـرُها تَـمَـنُّـنًا، ولا أقْطَـعُ عنك بها رجاءً بَعْدُ، والسلام.

وكان رَوْح أكبر سنًّا من أخيه يزيد وأكْثَرَ ولايةً. وعندما يطول جُلوسُه بالقَيْرَوان، رُبَّما خطرَ عليه النعاسُ من الضَّعْف والشاخةِ، وكان يُكْنَى أبا خالد. تُوفّي ليلةَ الأحد لسبعٍ بَقِينَ من رمضان المعظَّم من سنة أربع وسبعين ومئة، فكانت ولايتُه ثلاثَ سنين وثَلاثةَ أشهر[5].

---

(١) ينظر الروض المعطار ١٢٨.

(٢) قوله: «لما قفل من حركة السوس» ليس في ر١.

(٣) تاريخ الرقيق ٩٨-١٠٤ وتاريخ دمشق ١٨/ ٢٣٤-٢٣٨، وتاريخ الإسلام ٤/ ٦٢٠.

(٤) في ر١: «له».

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٣-١١٤، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٤٨.

ولاية نَصْر بن حَبيب الـمُهَلَّبيّ إفريقية[1]

وكان صاحبُ البريد وأبو العَنْبر القائدُ قد كتبا[2] إلى الرشيد، في جملة من كتب إليه من القوّاد، يُعْلِمـانِهِ[3] بضَعْف رَوْح بن حاتِم وكبره، وأنّهما لا يأمَنانِ موته عن قريب، وإفريقية ثغرٌ كبيرٌ لا يصْلُح بغير سُلطان. وكان نَصْر هذا على شُرطة يزيد بن حاتِم بمِصْر وإفريقية، وكان محمود السيرة. فكتبَ الرشيدُ عَهْدَه، وبعَثهُ به سرًّا إليه. فلما مات رَوْح، بويع قَبيصة ابنه في المسجد الجامع، وأجمع الناس على بيعته[4]. وكان الفَضْل بن رَوْح عامِلًا في الزاب، فركب أبو العَنْبَر وصاحبُ البريد بعهد أمير المؤمنين هارون إلى نَصْر بن حبيب، فأوصلاه إليه، وسلّما عليه بالإمارة، وركبا معه إلى المسجد فيمن معهما، حتّى أتيا قَبيصة، وهو جالسٌ على الفراش. فأقاماه، وأقعدا نَصْر بن حبيب، وأعلما الناس بأمره. وقُرئ الكتابُ الواصل من أمير المؤمنين هارون إلى نَصْر بن حبيب على الناس، فسمعوا وأطاعوا. وكان ذلك في العشر الأواخر لرمضان المعظَّم من عام أربعة وسبعين ومئة. فحسنت سيرته، وعدل في أحكامه. فولـيَ سنـتَيْن وثلاثة أشهر.

وفي سنة خمس وسبعين ومئة: عقدَ الرشيدُ لابنه محمَّد بمدينةِ السلام ولايةَ عَهْد المسلمين من بعده، وأخذَ عليه بيعة القوّاد والـجُنْد، وسَمّاه بالأمين، وله يومئذٍ خمسُ سنين[5].

وفي سنة ست وسبعين ومئة: ظهرَ يحيى بن عبد الله بن حَسن بن حَسن بن عليّ بن أبي طالب بالدَّيْلَم، واشتدَّت شوكتُه، وقَوِيَ أمرُه، فاغتمَّ الرشيدُ لذلك، فلم يكن في تلك الأيّام يشربُ النبيذَ، فصرفَ إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل، فانهزمَ يحيى بن عبد الله[6].

---

(١) تاريخ الرقيق ١٠٤-١٠٥، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٤٨.

(٢) جاء في ر١ بدلًا من هذه الجملة: «كان نصر هذا قد كتب»، وهو خطأ بيّن.

(٣) في ر١ : «يعلمونه».

(٤) في ر١ : «باجتماع من الناس» بدلًا من «وأجمع الناس على بيعته».

(٥) تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٠.

(٦) تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٢-٢٥١ بتفصيل.

وفي سنة سبع وسبعين ومئة: ولي إفريقية الفَضْل بن رَوْح بن حاتِم[1]، ولّاه أمير المؤمنين الرشيد عليها، وكتب بعزله نَصْرَ بن حبيب، وأن يقوم بأمر الناس الـمُهَلَّب بن يزيد إلى أن يقدم الفَضْل. فكان قدومُه في محرَّم من هذه السنة. ولما قدم الفَضْل[2]، ولَّى ابن أخيه الـمُغِيرة تُونُس، وكان غير ذي تَـجْرِبة بالأمور[3] ولا سِياسة للجُمْهور، فاستخفَّ بالـجُنْد، وسار بهم سيرةً قبيحةً، فاجتمعوا، وكتبوا كتابًا لعمّه الفَضْل، يخبرونه بما صنعَ الـمُغِيرةُ فيهم، وبقُبح سيرته، فتثاقَلَ الفضلُ عن جوابهم. فقالوا: كلُّ جماعة لا رأسَ لها لا ينجحُ سَعْيُهم ولا مَطْلَبُهم، فقال بعضُهم: أُشيرُ عليكم بعبد الله بن عبد رَبِّه بن الجارُود، فانطلقوا إليه وقالوا له: قد رأيتَ ما صنعَ بنا الـمُغِيرةُ، وقد خاطَبْنا عَمَّهُ، فلم يَصِلْنا جوابُه، وأنت المنظورُ إليه، والـمُعَوَّل في الأُمور عليه، ونحن نُصيِّرُ أمْرَنا إليكَ، ونعتمد فيه عليك. فقال لهم: ليس لي من الجواب إلّا النصيحة لي ولكم، وأنا أخافُ على نفسي وأقنعُ بالعافية، وإن كان أمْرٌ، كنتُ فيه كأحَدِكم. فقالوا له: ما لك من هذا بُدٌّ، فقال لهم: أعطوني من بيعتكم ما أثق به، فبايعوه وأطاعوه.

وفي سنة ثمان وسبعين ومئة: ثارَ الـجُنْد على أمير إفريقية الفَضْل بن رَوْح بن حاتِم، وقدَّموا ابن الجارُود بتُونس. ثمّ ساروا إلى الـمُغِيرة، وهو بدار الإمارة[4]، فقالوا له: الْـحَقْ بصاحبك أنتَ ومَن معكَ. وكتب للفَضْل بن رَوْح: من عبد الله بن الجارُود، أمّا بعدُ، فإنّا لم نُخْرِج الـمُغِيرة خروجًا عن الطاعة، ولكن لأحداثٍ أحْدَثَها فينا، ظهر فيها فسادُ الدولة، فعَجِّلْ لنا مَنْ ترضاه[5] يقوم بأمرنا، وإلّا نظَرْنا لأنفسنا. وكتب الفَضْل إلى عبد الله بن الجارُود: أمّا بعدُ، فإنّ الله يُـجْرِي قَضاءهُ على ما أحبَّ الناسُ أو كرهوا، وليسَ اختياري أن أُولِّي عليكم فاختاروا لأنفسكم ولكن

---

(١) تاريخ الرقيق ١٠٥-١٢٣، وتنظر الحلة السيراء ١/ ٧٦.

(٢) قوله: «ولما قدم الفضل» سقط من ر١.

(٣) ليست في أ، م.

(٤) بعد هذا في أ، ر١: «بها» ولا معنى لها.

(٥) في ر١: «ترتضيه».

أُوَجِّه إليكم عاملًا. فوجَّه عبد الله بن محمَّد إلى تُونُس. فلما وصل إليها، قال لهم ابن الجارُود: كيف تصنعونَ ذلك، وأنتُم قد أخرجتُم ابن أخيه وشَتَمْتُموه؟ والله ما بعثه إليكم[1] إلّا ليطيبكم[2]، حتّى ترجعوا عن رأيكم، فإذا اطْمأنَنْتُم أخَذَكُم[3] واحدًا بعد واحد. قالوا له: فما رأيك؟ قال: الذي ذكرتُ لكم. فخرجوا حتّى التقوا بالعسكر الواصل مع العامل من قِبَل الفَضْل أمير إفريقية والقَيْرَوان[4] بموضع الزَّيْتون، فدفعوه عن أنفسهم، وجرى بين الـجُنْد كلامٌ كثيرٌ يطولُ ذكرُه، إلى أن وقعتِ الحربُ بين ابن الجارُود وعَسْكر الفَضْل، فهزمهم ابن[5] الجارُود واتَّبعهم إلى القَيْروان، فنزل عليها. فاجتمع الفَضْل مع بني عمِّه وخاصَّتِه،وتشاوَرَ معهم في أمره. فاضطربَ الأمرُ عليه، ولم يَصِحَّ له أمرٌ. فلما أصبح، أقبل عبد الله بن عبد رَبِّهِ[6] بن الجارُود في عسكره، والفَضْل في دار الإمارة مع أصحابه. وكانَ بعضُ القوَّاد على الأبواب، فلما قرب ابن الجارود[7] منها، فتحوها له؛ فدخل أصحابه، لا يدافعهم أحدٌ، ونزل ابن الجارود[8] خارجَ المدينة، ثمّ دخلَ دار الإمارة، فأمّن الفَضْلَ وأصحابَهُ، ثمّ أمرهم بالخروج إلى قابس وقال لهم: إنّي لا آمَنُ أصحابي عليكم، ولكن أُوَجِّهُ معكم من يوصلكم إلى قابِس. فوجَّه لهم أبا الـهَيْثَم في جماعة، وأخذ عليه الأيمان ألّا يَسُلّم الفَضْل. فخرج الفَضْل معه، مع ثلاثة من بني عَمِّه وبعض أصحابه من باب آخر. فقال لهم البوَّاب: اخرجوا، يا كلاب النَّار، لا رحمكم الله! فقال[9] الفَضْل عند ذلك: لا إله

---

(١) في ر١: «بعثته لكم» ولا يصح.

(٢) في أ: «ليطلبكم».

(٣) في ر١: «أُخذتم».

(٤) قوله: «أمير إفريقية والقيروان» ليس في ر١.

(٥) سقطت من ر١.

(٦) قوله: «عبد الله بن عبد ربه» ليس في ر١.

(٧) في أ: «ابن عبد ربه» وكله صحيح.

(٨) كذلك.

(٩) في ر١: «فقال لهم».

إلّا الله، لم يبْقَ أحدٌ إلّا صار علينا، حتى مَنْ أعتَقْناه. وسار ليلتَه ونهارَه حتّى دنا الغُروب، فسمع طَبْلًا، فقال: ما هذا؟ فقالوا: فلان جاء بمئة فارس، بعثه ابن الجارُود إليك لأنّه خاف عليك الـجُنْدَ. ثمّ سمع طبْلًا آخَرَ، فإذا هو منصورُ بن هاشِم، فقال له: ما جاء بك؟ فقال: كذا وكذا. ثمّ سمع طبْلًا آخر، فإذا هو صاحِبُ شُرْطة ابن الجارُود[1]، فقيل للفَضْل: إنه[2] جاء لِيَرُدَّكَ، وذلك أنّه أشار على ابن الجارود جماعةٌ من أصحابه أن لا يتركوا[3] الفَضْلَ يدخل أطرابُلُس لِئَلّا يقومَ الناسُ معه ويرجع إلى القَيْرَوان. فنادَى مُناديه[4]: مَن كانَ من طاعةِ ابن الجارود، فَلْيَنْعَزِلْ، فانعزلَ الناسُ، ولم يَبْقَ مع الفَضْل أحَدٌ. فردُّوه إلى القَيْرَوان، بعدما خلوا عن الـمُهَلَّب وجميع الناس الذين كانوا مع الفَضْل إلّا محمد بن هشام والفَضْل بن يزيد، فانطلقوا بهما حتّى جُعِلوا في الدار معه. ثمّ قُتِلَ الفَضْلُ بن رَوْح في شعبان من سنة ثمان وسبعين ومئة، فكانت ولايتُه سنةً واحدةً وخمسةَ أشْهُر[5]، فكانت دولة الـمَهالِبة بإفريقية ثلاثًا وعشرين سنةً. وثار ابن الجارود في جمادى الآخرة من سنة ثمان وسبعين ومئة[6]، فكانت له[7] مع البربر وقائعُ عظيمةٌ، ثمّ أمَّنَهُ الرشيد[8]، فأجابَ إلى الطاعة.

وفي سنة تسع وسبعين ومئة: كتبَ ابن الجارود المتغلِّب على إفريقية إلى يحيى بن موسى، وهو بأطْرابُلُس، أن: اقْدَمِ القَيْرَوان فإنّي مُسلِّمٌ إليكَ سُلطانَها، فخرجَ يحيى بن موسى بمن معه في مُحَرَّم، فلمّا بلغَ قابِس، تلقّاه بها عامَّةُ الـجُند من القَيْرَوَان، ومعهم

(١) في أ: «ابن عبد ربه بن الجارود».

(٢) في أ: «إذًا».

(٣) في م: «لن تتركوا».

(٤) في ر١: «المنادي».

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٣٥-١٣٧.

(٦) قوله: «وثار ابن الجارود في جمادى الآخرة من سنة ثمان وسبعين ومئة» ليس في ر١.

(٧) في ر١: «لابن الجارود».

(٨) في أ: «وأعطاه الرشيد الأمان»، وما هنا من ر١.

النَّضر بن حَفْص، وعَمْرو بن مُعاوية. فخرج ابن الجارود من القَيْرَوَان، واستخلف عليها الـمُفَرِّج بن عبد الملك، فكانت أيَّامُ[1] ابن الجارود سبعةَ أشْهُرٍ[2].

وأقبل يحيى بن موسى والعلاء بن سعيد مُتسابِقَيْن إلى القَيْرَوَان، فسبقه العلاء إليها، فقتلَ بها جماعةً من أصحاب ابنِ الجارود، فبعثَ إليه يحيى بن موسى أن يُفَرِّق جموعه إن كانَ في الطاعة. فأمرَ مَن كان معه أن ينصرفوا إلى مواضعهم. ورحل العلاء إلى أطْرابُلُس، وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصول العلاء، فلقي بها يَقْطِين بن موسى، فخرجَ معه سائرًا إلى المشرق، فلقوا هَرْثَمة بن أعْيَن[3] قد وصل بولاية إفريقية. وقد كان العلاءُ كتب إلى هَرْثَمة يُعْلِمه بأنّه هو الذي أخرج ابن الجارود من إفريقية، فأجازه بجائزة سنيَّة. وكان يحيى بن موسى قَدَّمَهُ هَرْثَمة. ولـمّا لقي هرثمةُ ابن الجارود، سَيَّره[4] إلى أمير المؤمنين الرشيد[5].

ولاية هَرْثَمة[6] بن أعْيَن إفريقية[7]

ولّاه عليها أمير المؤمنين هارون الرشيد، فقدم[8] القَيْرَوان غُرَّةَ ربيع الآخر، فآنسَ الناسَ، وسَكَّنهم، وأحسنَ إليهم.

قال ابن حَمَادُه: وصل هَرْثَمَة في جيش كثيفٍ، حتّى نزل تِيهَرْت، فخرج إليه ابن الجارود، واقتتلَ معه، فانهزم[9] ابن الجارود، وطاعَت البربرُ لـهَرْثَمة، وانصرفَ

(١) في ر١: «دولة».

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٥١.

(٣) ينظر تاريخ الإسلام ٥/ ٢١٢.

(٤) في ر١: «صيّره».

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٣٩.

(٦) في ر١: «هارون»، وهو تحريف بيّن.

(٧) بعد هذا في ر١: «من قبل الرشيد»، بدلًا من «ولاه عليها أمير المؤمنين هارون الرشيد» الآتية بعد.

(٨) في ر١: «قدم».

(٩) في أ: «فهزم».

راجعًا إلى القَيْرَوان، وهو الذي بَنَى القصر الكبير المعروف بالمُنَسْتِير؛ قالَهُ الرَّقِيق[١].

وفي سنة ثمانين ومئة: كانت الزلزلة العُظْمَى بأرض مِصْر، وسَقَطَ رأسُ منار الإسكندريَّة.

قال الرَّقِيق[٢]: لما رأى هَرْثَمة بن أعْيَن ما رأى من الخِلاف بإفريقية، وسوء طاعة أهلها، طلب الاستعفاء، فكتب إليه الرشيد بالقُدوم عليه، فرجع إلى المشرق. وهو الذي بَنَى سور أطرابُلُس[٣].

ولاية محمد بن مُقاتِل العَكِّيّ إفريقية[٤]

وفي سنة إحدى وثمانين ومئة: ولَّى أمير المؤمنين[٥] الرَّشيد على إفريقية محمَّد بن مُقاتل بن حَكِيم[٦] العَكِّيَّ، فقدمها في رمضان. وكان رضيعَ الرشيد، وكان أبوه من كبار أهل دولته. وكان محمَّد هذا[٧] غير محمود السيرة، فاضطرب أمرُه، واختلف عليه جندُه. ولو لم يكن من سوء سيرته، وقبيح[٨] ما يؤثَر عنه من أخباره[٩]، إلّا إقْدامُه على عابِد زمانه ووَرِع عصره[١٠] البُهْلُولِ بن راشد[١١]، فضَرَبَهُ بالسياط ظُلْمًا وحَبَسَهُ، فكان ذلك سببَ موته. ومن أخباره أنّه[١٢] اقتطع أرزاق الجند، وأساء

---

(١) تاريخه ١٢٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) هذه العبارة من أ فقط.

(٤) خبر ولايته مفصل في الكامل لابن الأثير ٦/ ١٣٧-١٣٩.

(٥) قوله: «أمير المؤمنين» ليس في ر١.

(٦) قوله: «بن حكيم» ليس في ر١.

(٧) في ر١: «وكان العكي».

(٨) في ر١: «ولو لم يكن من قبيح».

(٩) سقطت من ر١.

(١٠) في ر١: «على ورع زمانه وعابد عصره».

(١١) أخباره في تاريخ الإسلام ٤/ ٨١٧، ووقع في أ: «البهلوان»، وهو تحريف ظاهر.

(١٢) قوله: «ومن أخباره أنه» ليس في ر١.

السيرة فيهم وفي الرعيَّة، فمشى القائدُ فَلاح في أهل خُراسان وأهل الشام؛ فلم يزل بهم حتّى اجتمع رأيهم على مَخْلَد بن مُرَّة الأزديّ. وخرج على العَكّيّ تَـمَّامُ بن تميم التميميُّ[١]، وكان[٢] عاملَه بتُونُس[٣].

ثورة تَـمَّام بن تميم التَّميميِّ على محمد بن مُقاتل العَكّيّ

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئة: زحف تـمَّام من تُونُس مع جماعةِ القُوَّاد والأجناد من أهل الشام[٤] وخُراسان، متوجِّهًا إلى القَيْرَوان[٥]، في النصف من رَمَضان، فخرج إليه العَكّيُّ، فتقاتلا، فانهزمَ العَكّيُّ ورجعَ إلى القَيْرَوان، فتحصَّن في داره التي بناها، وترك دار الإمارة. وأقبل تَـمَّام، فنزل بعسكره خَلْفَ باب أبي الربيع. فلما أصبحَ تَـمَّام، فُتِحَتْ له الأبواب، فدخل القَيْرَوان يوم الأربعاء لخمس بقين من رمضان سنة ثلاث وثمانين ومئة، فأمَّن تـمَّامٌ العَكّيَّ على دمه وأهله وماله. فكانت ولايتُه، إلى أن أخرجه تـمَّام من القَيْرَوان، سنتَيْن وعشَرة أشهر[٦].

ثمّ ولي إفريقية أبو الـجَهْم تـمَّام بن تميم التميميُّ. وكان[٧] ثائرًا متغلّبًا من غير عَهْدٍ من الرشيد، وهو جدُّ أبي العَرَب بن تميم صاحب التواليف[٨]. فدخل القَيْرَوان، وخرج العَكّيُّ منها بأمانه، ومشَى لأطْرابُلُس، ولحق به قومٌ من أبناء[٩] خُراسان، منهم طَرْخُون صاحبُ شرطته، فاجتمع رأيُهم على أن يُدخلوه، فدخلها.

---

(١) الحلة السيراء لابن الأبار ١/ ٩١.

(٢) ليست في ر١.

(٣) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٥٤.

(٤) ليست في ر١.

(٥) من هنا إلى قوله: «القيروان» انزلق نظر الناسخ فسقط ما بينهما في ر١.

(٦) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٥٤.

(٧) سقطت من ر١.

(٨) محمد بن أحمد بن تميم بن تمام (الوافي بالوفيات ٢/ ٣٩).

(٩) في ر١: «أهل».

وأقام تَـمَّام مُلْك القَيْرَوان، فنهض إليه إبراهيم بن الأغْلَب[1] من الزاب، وكان أميرًا عليه. فلما بلغ تـمَّامًا إقبالُه إليه، سارَ إلى تُونُس، فدخلَ ابن الأغْلَب القَيْرَوان، وابتدرَ المسجدَ الجامع، وصعدَ المنبرَ، وكان فصيحًا بليغًا، فأعلم الناس أنّه ما وصل إلّا لنصرة العَكّيّ محمّد بن مُقاتل[2]، وأنّه أميرهم[3] المقدَّم عليهم من أمير المؤمنين. وكتب إلى العَكّيّ يخبرُه بما فعل في حقِّه، ويؤكِّد عليه في الوصول. فأقبل راجعًا، حتّى دخل هو ومن معه القَيْرَوان[4]. فمشى يومًا في أزِقَّتها، فنادَتْه امرأةٌ من طاقها[5]، تقول له: اشْكُر إبراهيم بن الأغلب فهو الذي ردَّ عليك مُلْك إفريقية، فكبُر ذلك عليه، وكان تـمَّام بن تميم بتُونُس، فقال لأصحابه: إنّ إبراهيم بن الأغْلَب قد ردَّ الـمُلْك على العَكّيّ، والذين مع العَكّي قد ملئُوا رُعْبًا من وقعتنا بهم، وإذا بلغهم خروجي من تُونُس، يُسْلِمونه ويصلون إليَّ، ومع هذا فإنَّ العَكيَّ حَسُودٌ، لا بدَّ أن يخالف إبراهيم بن الأغْلَب فيما يشير به عليه. وكان الناس يقولون: كُنّا[6] استَرَحْنا من العَكّيّ، فردَّه إبراهيم علينا فالموتُ خيرٌ لنا من الحياة في سلطان العَكّيّ[7]. ففزع الناس إلى تـمَّام بن تميم[8] التَّميميّ. فلما رأى كثرة من معه، طابت نفسُه لقتال العَكِّيّ. فكتب تـمَّام إلى العَكّيّ: أمَّا بعدُ، فإنَّ إبراهيم بن الأغْلَب لم يبعث إليك فيَرُدَّك من كرامتك عليه، ولا للطاعة التي يظهرها للخليفة، ولكن كَرِهَ أن يبلغ إليك أخْذُه البلاد فترجع إليه، فإن منعك، كان مُـخالفًا لأمير المؤمنين، وإن دفعها إليك، كان ما فعله لغيره، فبعث إليك لترجع، ثمّ يُسْلِمك إلى القتل. وغدًا تعرف ما جرَّبْتَ من وقعتنا لك بالأمْسِ، وفي آخرِ كتابه [من الطويل]:

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ١٠٦٣.

(٢) قوله: «محمد بن مقاتل» ليس في ر١.

(٣) هذه اللفظة ليست في ر١.

(٤) الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٥.

(٥) في ر١: «طاقتها».

(٦) ليست في أ.

(٧) في ر١: «ابن العكي».

(٨) في ر١: «تميم بن تمام»، مقلوب.

وما كان إبراهيمُ من فَضْلِ طاعةٍ يردُّ عليك المُلْكَ لكن لِتُقْتَلا
فلو كنتَ ذا عَقْلٍ وعِلْمٍ بكَيْدِهِ لَمَا كُنْتَ منه يا ابنَ عَكٍّ لتَقْبَلا

فلما وصل كتابُه إلى محمد بن مُقاتل العَكّيّ، قرأه ودفعه إلى ابن الأغْلَب، فقرأه وضحك، وقال: قاتَله اللهُ، ضَعُفَ رأيُه، وكتب إليه ابن العَكّيّ: من محمد بن مُقاتل إلى الناكث ابن تميم. أمَّا بعدُ، فقد بلغني كتابُك، ودلَّني على قلة رأيك، وفهمتُ قَوْلَك في إبراهيم، فإن كانت نصيحةٌ، فليس مَنْ خان اللهَ والخليفةَ مقبولٌ منه ما نصح به[1]، وإن كانت خديعةٌ، فأقْبَحُ الخدائع ما فُطِنَ له، وفي آخِر كتابه [من الطويل]:

وإنّي لأرجو إن لقِيتَ ابنَ أغْلَبٍ غَدًا في المنايا أن تُفَلَّ وتُقْتَلا
تُلاقِي فَتًى يستصحبُ الموتَ في الوغَى ويَحْمِي بصدر الرُّمْحِ عزًّا مُؤَثَّلا

وأقبل تمَّام من تُونُس بعسكر عظيم، وأمر ابنُ العَكّيّ مَن كان معه من أهل الطاعة بالخروج إليه مع إبراهيم بن الأغْلَب، فتقاتلوا قتالًا شديدًا، فانهزم تمَّام، ورجع[2] إلى تُونُس. وانصرف ابن العَكّيّ[3] إلى القَيْرَوان، وأمر إبراهيمَ بن الأغْلَب بالمسير إلى تُونُس[4].

وفي سنة أربع وثمانين ومئة: خرجَ العسكرُ من القَيْرَوان لحصار تُونُس وقتال تَمَّام، وذلك في محرَّم منها. فلما بلغ تَمَّامًا إقبالُه، طلب الأمان منه[5]، فأمَّنه إبراهيم، وأقبل به إلى القَيْرَوان، يومَ جمعةٍ، لثمان خلون من المحرَّم المذكور[6].

---

(١) قوله: «منه ما نصح به» ليس في ر١.

(٢) في ر١: «وانصرف».

(٣) في ر١: «ورجع العكي».

(٤) ينظر تاريخ الرقيق، ص١٢٦.

(٥) ليست في ر١.

(٦) قوله: «لثمان خلون من المحرم المذكور» ليس في ر١. وينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ١٥٥.

ولاية إبراهيم بن الأغْلَب بن سالم بن عِقال التَّميميّ إفريقية[١]

وصَلَهُ عَهْدُ الرشيد في العشرِ الوُسَطِ لـجُمادى الآخرة من سنة أربع وثمانين ومئة، وقال له فيه: قد تقدّم لكم بإفريقية أمْرٌ. وكان الرشيد قد[٢] ولّاه بلادَ الزاب، وهي بلاد الـجَرِيد، وابن العَكّيّ على إفريقية. وكان إبراهيم بن الأغْلَب فقيهًا، أديبًا، شاعرًا، خطيبًا، ذا رأي ونجدة وبأس وحَزْم وعِلْم بالحروب ومكائدها، جَرِيء الـجَنان، طويلَ اللسان، لم يَلِ إفريقيةَ أحسنُ سيرةً منه، ولا أحسنُ سياسةً، ولا أرْأفُ برعيَّةٍ، ولا أوفى بعَهْدٍ، ولا أرعى لـحُرمةٍ منه[٣]. فطاعت له قبائلُ البربر، وتمهَّدت إفريقية في أيّامه. وعزل العَكّيّ عنها، واستقامت الأحوال بها.

وكان إبراهيم قد سَمِعَ من اللَّيْث بن سَعْد، ووَهَبَ له جَلاجِل أُمَّ ولده لمكانه منه[٤]. ولقد قال اللَّيْث يومًا: ليكونَنَّ لهذا الفتى شأنٌ. وكان لإبراهيم فضائلُ جـمَّةٌ ومآثر حسنةٌ. وكان له مع راشِد أميرِ الغرب مولى إدريس الـحَسَنيّ مواقِفُ ومحاربةٌ، وكان راشد قد علا أمرُه.

ومن قول إبراهيم، وكان قد خلَّف أهْلَه بمِصْر [من البسيط]:

ما سِرْتُ مِيلًا ولا جاوزتُ مرحلةً ... إلّا وذِكْـرُكِ يثنـي دائـمًا عُنُقـي

ولا ذكرتُـكِ إلّا بِـتُّ مرتقِبًـا ... أرْعَى النجومَ كأنَّ المَوْتَ مُعتنقـي[٥]

ولما ملك إفريقية، قمع أهلَ الشرّ بها وضبط أمرها[٦]. وكان له مع بربرها حروبٌ يطول ذكرُها، وأحسن إلى عرب جيشها[٧].

---

(١) لفظة «إفريقية» ليست في ر١.

(٢) ليست في أ.

(٣) تنظر الحلة السيراء ١/ ٩٣.

(٤) تاريخ الرقيق ١٢٧-١٢٨.

(٥) ر١، م: «مغتبقي»، وما هنا من (أ) ويعضده ما في تاريخ الرقيق ١٢٨.

(٦) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٥٥.

(٧) في أ: «قريشًا»، وهو تحريف.

وفي سنة خمس وثمانين ومئة: شرعَ إبراهيمُ في بناء مدينة القَصْر القَدِيم[1]، وصارَ بعد ذلك دارَ الأُمَراء بني الأغْلَب. وكان على ثلاثة أميال من القَيْرَوان، وكان قد اشترى موضعه من بني طالُوت، فبناه ونقل إليه السلاح والعُدَد سرًّا، وسكَّن حوله عَبِيدَه وأهل الثقة به من خَدَمَته. وكان حافظًا للقرآن، عالـمًا به. وثارَ عليه الكنديُّ بتُونُس، وكانت له معه وقائع وافقَتْ مُحاربة المأمون للأمين، بعد موت الرشيد.

وفيها، قال الطَّبَرِيُّ[2]: وقعَتْ بالمسجد الحرام صاعقةٌ فقتلت رجلَيْن.

وفي سنة ست وثمانين ومئة: حجَّ بالناس هارونُ الرشيد، وأخرج معه ابنَيْه محمدًا الأمين، وعبد الله المأمون، وقوَّاده، ووزراءه، وقُضاته، وولَّى عهده عبدَ الله.

قال الطَّبَرِيُّ[3]: وكان الرشيدُ عقدَ لابنه محمد ولايةَ العهد في شعبان سنة ثلاث وسبعين، وسَمَّاه الأمين، وضمَّ إليه الشامَ والعراقَ في سنة خمس وسبعين؛ ثمّ بويع لعبد الله المأمون بالرَّقَّة في سنة ثلاث وثمانين ومئة، وولّاه من حدّ هَـمَذان إلى آخر المشرق. ولما قَضَى مناسِكه في هذه السنة، كتب للمأمون كتابَيْن، أحدُهما: على محمد[4] بما اشترطَ عليه من الوفاء بما فيه من تَسْليم وما وُلّي عبدُ الله من الأعمال، وما صُيِّر له من الضياع والأموال، والآخر: نسخةُ البيعة التي أخذها لعبد الله على محمد وعلى الخاصَّة والعامّة، وأشهد بذلك في البيت الحرام، وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد، وأشهدَ عليهما جماعةَ مَن حَضَر من بني هاشِم وغيرهم. ثمّ أمر أن يُعلَّق الكتاب في الكَعْبة. فلما عُلِّق، وقع، فقيل: إن هذا لأمْرٌ[5] سريعٌ انتقاضُه قبل تمامه[6].

---

(١) الروض المعطار ٤٧٦.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٢٧٤.

(٣) تاريخ الطبري ٨/ ٢٧٥-٢٨٦.

(٤) قوله: «على محمد» ليس في أ.

(٥) في ر١: «الأمر».

(٦) قوله: «قبل تمامه» ليس في ر١.

وفي سنة سبع وثمانين ومئة: كان قَتْلُ الرشيد لجعفر بن يحيى، وإيقاعُه بالبَرَامِكة[١]. والوالي على إفريقية إبراهيم بن الأغْلَب كما كان[٢].

وفي سنة ثمان وثمانين ومئة: كان غزو إبراهيم بن جِبْرِيل أرض الروم: وجَّهه الخليفة هارون، ودخل أرض الروم من دَرْب الصَّفْصاف، فخرج للقائه البِطْرِيق نقْفُور، فوردَ عليه من ورائه أمْرٌ صَرَفَه عن لقائه، فانصرف ومرَّ بقوم من المسلمين، فخرجوا عليه[٣]، وانهزم، وقُتل من الروم أربعون ألفًا وسبع مئة، وأُخِذَ لهم أربعة آلاف دابَّة[٤].

وفي سنة تسع وثمانين ومئة: كان شُخوصُ الرشيد إلى الرَّيّ[٥]: وبعث حُسَيْنًا الخادم إلى طَبَرِستان بالأمان لـمَرْزُبان صاحب الدَّيْلَم، وقدم عليه، فأمَّنه وأمَّن غيره.

وقال أبو العَتاهِية في خَرْجة هارون هذه [من السريع]:

إنَّ أمِـــينَ الله في خَلْقِـــهِ ... حَـنَّ بـه الـبرُّ إلى مَوْلِـدِهْ

لِيُـصْلِحَ الـرَّيَّ وأقطارَهـا ... ويُمْطِرَ الخيرَ بهـا مِـن يَـدِهْ

وفيها كان الفداءُ بين المسلمين والروم، فلم يَبْقَ في أرض الروم مُسْلِم إلّا فُدِيَ[٦].

وفي سنة تسعين ومئة: فتحَ الرشيدُ هِرَقْلة من مدائن الروم[٧]، وقال شُبيل الترجمان: لما فتحَ الرشيدُ هِرَقْلة، رأيتُ على بابها لَوْحَ رخام مكتوبًا فيه بلسانهم، فجعلتُ أقْرَأُهُ، والرشيد ينظرُ إليَّ، وأنا لا أشعر، فإذا فيه: يا ابن آدَمَ، غافِصِ الفُرْصة قبل إمكانها، وكِلِ الأُمور إلى وليِّها، ولا يَـحْمِلنَّك[٨] إفراطُ السُّرور على المآثِم، ولا تُـحَمِّلْ نفسَك هَمَّ يَوْم لم يأتِ، فإنَّه إن يَكُ من أجَلِك وبقيَّةِ عُمُرك، يأتِ اللهُ فيه

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٢٨٧.

(٢) ليست في أ.

(٣) في ر١: «فخرج» بدلًا من «فخرجوا عليه».

(٤) تاريخ الطبري ٨/ ٣١٣.

(٥) الخبر مفصل في تاريخ الطبري ٨/ ٣١٤-٣١٧.

(٦) تاريخ الطبري ٨/ ٣١٨.

(٧) تاريخ الطبري ٨/ ٣٢٠.

(٨) في أ: «يجعلنك».

برزقك، فلا تكن من المغرورينَ بجَمْع المال، فكَمْ قد رأينا جامِعًا لبَعْلِ خَليلته، ومُقَتِّرًا على نفسه تَوْفيرًا لخزانةِ غَيْرِه.

وفي سنة إحدى وتسعين ومئة: ولَّى الرشيدُ هَرْثَمةَ بن أعْين غزْوَ الصائفة، وضمَّ إليها ثلاثين ألفًا من جند خُراسان[١].

وفيها: أمر الرشيد بهدم الكنائس في الثُّغور[٢]. ولم يكن للمسلمين بعد هذه السنة صائفةٌ بالمشرق إلى سنة خمسَ عشْرةَ ومئتين[٣].

وفي سنة ثلاث وتسعين ومئة: تُوُفِّي هارون بن محمد الرشيد، رحمه الله[٤]، بِطُوس من أرض خُراسان، ليلةَ السبت لثلاث خلون من جُمادى الآخرة[٥]. واستُخْلِف محمد الأمين ابنه.

ولما صارَ الأمر إلى الأمين، أقرَّ إبراهيمَ بن الأغْلَب على إفريقية، فبقي بها إلى أن توُفِّي، رحمه الله[٦]، بالقَيْرَوان في العَشْر الآخر من[٧] شوَّال من سنة **ست وتسعين ومئة**، وعُمُره ستٌّ وخمسون سنة، وولايتُه إفريقيةَ اثنتي عَشْرة سنة وأشهرًا.

ولاية عبد الله بن إبراهيم بن الأغْلَب إفريقية[٨]

وفي سنة ست وتسعين ومئة: ولِـيَ عبد الله بن إبراهيم[٩] بن الأغْلَب إفريقية[١٠]. وذلك أنّه، لما مات أبوه[١١] إبراهيم، كان ابنه عبد الله هذا غائبًا بمدينة أطْرابُلُس،

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٢٣.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٣٢٤

(٣) تاريخ الطبري ٨/ ٣٣٧، ووقع في ر١: «خمس ومئتين»، وهو تحريف.

(٤) الترحم عليه ليس في ر١.

(٥) خبر وفاته مفصل في تاريخ الطبري ٨/ ٣٤٢-٣٤٦.

(٦) الترحم عليه ليس في أ.

(٧) قوله: «العشر الآخر من» ليس في ر١.

(٨) العنوان كله ليس في أ، وترجمة عبد الله بن إبراهيم في تاريخ الإسلام ٥/ ٩٧.

(٩) قوله: «ابن إبراهيم» ليس في ر١.

(١٠) ليست في ر١.

(١١) ليست في أ.

فقام له أخوه زيادة الله[1] بالأمر، وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وجميع رجاله وخَدَمته، وبعث إليه بذلك[2].

وفي سنة سبع وتسعين ومئة: قدم[3] أبو العبَّاس عبد الله بن إبراهيم بن الأغْلَب من أطْرابُلُس، فتلقَّاه أخوه زيادة الله، وسَلَّم الأمرَ إليه. وحمل عبد الله في إمارته على أخيه زيادة الله حَـمْلًا شديدًا، وكان يتَنَقَّصُه، ويأمر نُدَماءه بإطلاق ألسنتهم بسَبِّه، وزيادة الله مع ذلك يُظْهِر له التعظيم والتبجيل[4] والصنع الجميل، ولا يُظهر له تغيُّرًا، ولا يَظْهَر عليه منه أثَرٌ. وقد كان عبد الله بن إبراهيم أراد أن يُـحْدِث جَوْرًا عظيمًا على رعيَّته، فأهلكه الله قبل ذلك. وكان من أجمل الناس وجهًا، وأقبحهم فعلًا، وأعظمهم ظُلْـمًا، أحدث بإفريقية وجوهًا من الظُّلْم شنيعةً، منها أنَّه قَطَعَ العُشْرَ حَبًّا، وجعله ثمانية دنانير للقفيز[5] أصاب أو لم يُصِبْ، وغير ذلك من المغارِم والمظالِـم[6]. فاشتدَّ على الناس ذلك.

وفي سنة ثمان وتسعين ومئة: قُتِلَ الأمين بن الرشيد[7]؛ قتله طاهِر [بن الحسين][8] عاملُ أخيه المأمون، وذلك لخمس بقين من المحرَّم. واستُخْلِفَ أخوه المأمون، فأقرَّ عبد الله ابن الأغْلَب على إفريقية. ولما قدم الرجلُ الصالحُ حَفْصُ بن حُـمَيْد[9] على إفريقية، ومعه قومٌ صالحون من الجزيرة، قصدوا إليه، فوعظوه في أمر الدين ومَصالِح المسلمين[10]،

---

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام ٥/ ٥٧٢.

(٢) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق ١٤٠ وهو آخر ما في القطعة المطبوعة، والكامل لابن الأثير ٦/ ١٥٧.

(٣) في ر١: «قام»، خطأ.

(٤) في أ: «التسهيل»، وهو تحريف.

(٥) ليست في أ.

(٦) في أ: «من الظلم والمغارم»، وما أثبتناه من ر١، وهو الأوفق إن شاء الله.

(٧) خبر مقتله مفصل في تاريخ الطبري ٨/ ٤٧٨-٤٩٨.

(٨) في النسختين: «ابن طاهر»، وهو خطأ بين، وما بين الحاصرتين منا.

(٩) في أ: «ولما قدم حفص بن حميد الصالح»، وما أثبتناه من ر١.

(١٠) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٥٧.

فتهاوَنَ بهم، فخرجوا مغمورينَ، يريدونَ القَيْرَوان، وكان هو في القَصْر القديم. فلما وصلوا وادي القَصَّارين، قال لهم حَفْص بن حُـمَيْد: قد يَئِسْنا من المخلوق، فلا نيأس من الخالق فاسألوا المولى واضّرّعوا إليه في زوال ظلمه[1] عن الـمُسلمين فإن فُتِحَ في الدُّعاء، فقد أُذِنَ في الإجابة، فتوضَّأ جميعُهم، وساروا إلى كُدْيَة مُصَلَّى رَوْح[2]. فصلَّى بهم حَفْص رَكْعتَيْن، ودعوا الله أن يكُفَّ عن المسلمين جور أبي العبَّاس، ويُريحهم من أيَّامه، فيقال: إنّ قرحةً خرجت له تحت أذُنه، فقتلته في السادس[3] من دعـاء القوم، وقال مَن حضر غَسْلَه: إنّـه، لما كُشف عنه ثيابُـه، ظُـنَّ أنّه عبدٌ أسود بعد شِدّة[4] جماله، وذلك بسوء فعاله. وكانت وفاتهُ ليلة الجمعة لستّ خَلَون من ذي الحجَّة من سنة إحدى ومئتين، فكانت دولته خمسة أعوام وأشهرًا[5].

وفي سنة إحـدى ومئتين: كان[6] تقديم أهل بغـداد منصور بن الـمهدي[7] أميـرًا عليهم، خَدِيمًـا للمأمون، إلى أن يَقْـدَم أو يقَـدِّم. وكانت وقائع قبْل ذلك وبعْده[8].

وفيها: مات عبد الله[9] بن الأغْلَب كما ذكرناه، ووَلي أخوه زيادة الله ساعةَ موته[10].

(١) في ر١: «ضرّه».

(٢) في أ: «كدية روح».

(٣) في نهاية الأرب للنويري: «السابع» (٢٤/ ٥٧).

(٤) ليست في أ.

(٥) نهاية الأرب ٢٤/ ٥٧.

(٦) ليست في ر١.

(٧) تنظر ترجمته في تاريخ الإسلام ٥/ ٤٤٩.

(٨) تاريخ الطبري ٨/ ٥٤٦.

(٩) ليس في أ.

(١٠) قوله: «ساعة موته» ليس في ر١.

ذكر ولاية زيادة الله بن الأغْلَب إفريقيةَ وبعضُ أخباره[1]

كُنْيتُه: أبو محمد، وهو أوَّل مَن اسمُه زيادة الله ممَّن ولِيَ[2] من بني الأغْلَب. بُويعَ يوم الجُمُعة لسبعٍ بقينَ من ذي الحجَّة؛ فأساء السيرة في الجُند، وسفكَ فيهم الدماء، واشتدَّ عليهم في كلّ وجه[3]. فثار عليه زياد بن الصَّقْلَبيَّة بفَحْص أبي صالح[4]؛ فأخرج إليه سالِم بن سَوَادة، فهزمه سالم[5]. ثمّ ثارت العامَّة عليه أيضًا، وذلك أنّ زيادة الله كان أغْلَظَ على الجُند، وأمعن في سفك دمائهم، والاستخفاف بهم، وحملَهُ على ذلك سوء ظنّه بهم، لوثوبهم على الأُمراء قبله وخلافهم على أبيه. وكان أكْثَرُ سفكه وسوء فعله إذا سكر، فكَثُر[6] الخَوْضُ عليه، وخالفت الجندُ عليه وغيرُهم، فكانت بينه وبينهم حروبٌ ووقائع، حتّى خاف على نفسه، فحصَّن القَصْر القديم، وبقي فيه، على[7] ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة اثنتين ومئتين: توجَّه الأغْلَب[8] بن إبراهيم بن الأغْلَب إلى المَشْرق، خوفًا من أخيه زيادة الله، وذلك أنّ الأغْلَب كان شقيق أبي العبَّاس عبد الله بن إبراهيم، وكان أبو العبَّاس، طُولَ ولايته، يتنقَّص زيادة الله ويأمر نُدَماءه بإطلاق ألسنتهم فيه. فلما صارَ الأمر إلى زيادة الله، جاءه الأغْلَب، فأستأذنه في الخروج إلى الحجّ، فأذِنَ له زيادةُ الله، فخرجَ الأغْلَب، وخرج معه ابنا أخيه: محمد المَكْنِيُّ بأبي فِهْر، وإبراهيم المَكْنِيُّ بأبي الأغْلَب، وهُما إذ ذاك صغيران، فحجَّ، وأقام بالمشرق. وكان وزير زيادة الله والقائم بأمره الأغْلَب بن عبد الله المعروف بغَلْبُون.

---

(١) في ر١: «خبره».

(٢) قوله: «ممن ولي» ليس في ر١.

(٣) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٥٨.

(٤) عن فحص أبي صالح، ينظر الروض المعطار ٤٣٦.

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٢٩.

(٦) في م: «وكثير».

(٧) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في ر١.

(٨) ينظر الحلة السيراء لابن الأبار ١/ ١٦٨، وتاريخ الإسلام ٥/ ٥٣٩.

وفي سنة ثلاث ومئتين: كانت ولاية أبي عبد الله أَسَد[1] بن الفُرات بن سِنان، مولى بني سُلَيْم، قضَاء القَيْرَوان، وهو مـمَّن سَمِعَ من مالك بن أنس. فلما وَلِـيَ أسدٌ القضاء، ضاق أبو مُـحْرِز[2] القاضي إذ تشرَّك معه، ولم يُعْلَم قبلهما قاضيان في وقت واحد.

وفي سنة أربع ومئتين: لم يكن فيها ولا في التي بَعْدَها خبرٌ يُـجْتَلَب.

وفي سنة ست ومئتين: غزا المسلمون جزيرة سَرْدَانِية، وعليهم محمد بن عبد الله التميميُّ، فأصابوا، وأُصيب منهم، ثمّ قفلوا[3].

وفي سنة سبع ومئتين: ثار زياد بن سَهْل على زيادة الله بن الأغْلَب، وزحفَ إلى حرب باجة، فحاصرها أيَّامًا. فأخرج إليه زيادةُ الله العساكر، فهزموا زيادًا، وقتلوا من وجدوا معه على الخلاف[4] وغنموا الأموال[5].

وفيها: كانت وفاة اليَسَع بن أبي القاسم صاحب سِجِلْماسة، وتقديمُ أهلها على أنْفُسهم أخاه إلْيَاس الـمُنْتَصِر بن أبي القاسم[6] الذي كانوا خَلَعُوه.

وفي سنة ثمان ومئتين: ثار عَمْرو بن مُعاوية القَيْسيُّ على زيادةِ الله بن إبراهيم[7] بالقَصْرَيْن وتغلَّب على تلك الناحية، وكان عاملًا لزيادة الله. وكان له ولَدانِ، يُقال لأحدهما: حُباب وللآخر سَجْمان[8]. فقال له ابنه حُباب: إنَّك دخلتَ في أمر عظيم وعَرَّضتَ نفسكَ للهلاك، ولسْتَ من رجال هذا الأمر، ولا ينفعك عَدَدٌ ولا عُدَّةٌ، فراجِعْ أمرك، واتَّقِ الله في نفسك. فضربه مئتي سوط وتَـمَادى على الخلاف. فأخرج

---

(1) ترجمته في تاريخ الإسلام ٥/ ٢٧٤.

(2) في النسختين: «أبو محمد» وهو تحريف ظاهر.

(3) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٢٩.

(4) قوله: «على الخلاف» ليس في ر١.

(5) في ر١: «أموالهم»، وينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٢٩.

(6) قوله: «ابن أبي القاسم» ليس في ر١.

(7) قوله: «ابن إبراهيم» ليس في ر١.

(8) في أ: «سمجان»، محرف.

إليه زيادة الله جيشًا كثيفًا حاصَرَه أيّامًا، ثمّ نزل هو وولداه على أمان، وجيء بهم إلى زيادة الله، فأُلفِيَ على شراب مع قوم من وجوه أهل بيته، فأمرَ بحبسهم حتّى يَـرَى فيهم رأيه، ودخل إثْرَ ذلك مُضْحِكٌ له، يُقال له: أبو عمّار، فقال له زيادة الله: ما يقول الناسُ، يا أبا عمّار؟ فقال: يقولون: إنّما منعكَ أن تقتل عَمْرو بن مُعاوية مخافة أن تَثِبَ القَيْسِيَّة على عَمِّك بمِصْر. فوقع كلامُه بقلب زيادة الله. ثمّ شرب ساعةً والتفت إلى غَلْبُون وزيره، فقال: انقل عَمْرو بن مُعاوية وولدَيْه من حبسك إلى حبسي[١]، ففعل. فلما كان في نصف الليل، أقبلَ زيادة الله إلى السجن، وبيده السَّيف، فقتل عَمْرو بن مُعاوية، ثمّ رجعَ إلى قصرِه، فدعا بحُباب وسَجْهان ابني عَمْرو، فأمرَ بحُباب أن يُقتل، فقال: أيُّها الأمير، إنّي مظلوم، وقد بلغَتْك نصيحتي لأبي فيك حتّى ضربني بالسياط. فقال: أجَلْ، قد كان ذلك، ولكنِّي أعلم أنَّك لا تخلُصُ لي، وأمر بضرب عنقه. واستبقى الأصغر، وهو سَجْهان. فلما أصبح، دعا بتُرْس، فوضع فيه الرأسَيْن، ودعا بسَجْهان، فقال: أتعرف هذَيْن الرأسَيْن؟ فقال: أعرفهما ولا خَيْرَ في الحياة بعدهما، فأمرَ زيادةُ الله بضرب عُنقه، وجعلَ رؤوسهم في تُرْس، وشرب عليها في ذلك اليوم مع أهل[٢] منادمته[٣].

وفي سنة تسع ومئتين: ثار منصور الطُّنْبُذيُّ[٤] بتُونُس. فأخرج زيادةُ الله محمدَ بن حَـمْزة في ثلاث مئة فارس مُسَلَّحين، وأوصاه بكتمان حركته حتّى يَبْغَت[٥] منصورًا بتُونُس، فيقبض عليه ويأتي به مصفَّدًا. فسار ابن حَـمْزة إلى تُونُس، فألفَى منصورًا غائبًا في قصره بطُنْبُذة، فنزل دار الصِّناعة، ووجَّه إليه شَجَرة بن عيسى[٦] القاضي، في أربعين شَيْخًا من أشياخ تُونُس، يناشِده الله ويرغبه في الطاعة، ويُعَرِّفه بما له في ذلك من الـحَظّ في دينه ودنياه. فتوجَّه شَجَرة بن عيسى مع المشايخ إلى منصور،

---

(١) في ر١: «انقل عمرو بن معاوية من حبسك إلى حبسي هو وولديه».

(٢) قوله: «مع أهل» سقط من أ.

(٣) ذكر النويري خبرهم مختصرًا في نهاية الأرب ٢٤/ ٥٨.

(٤) في أ: «الطنبري»، وفي ر١: «العبدي»، وكله تحريف، وينظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٥٨.

(٥) في أ، ر١: «يبعث»، وهو تصحيف ظاهر.

(٦) ترجمته في تاريخ الإسلام ٦/ ٣٤١.

فدعوه إلى الطاعة[1]. فقال منصور: ما خلعتُ يدًا، ولا أحدثْتُ حَدَثًا، وأنا سائرٌ معكم إلى زيادة الله، ولكن أقيموا عليَّ يومي هذا، حتّى أُعِدَّ لكم ما يُصْلحكم. فأقاموا معه[2]، ووجَّه إلى ابن حَـمْزة والذين معه ببقر وغَنَم وعَلَف وأحمال قَهْوة[3]، وكتب إليه: إنّي قادمٌ عليك[4] بالغداة مع القاضي شَجَرة. فركن ابن حَـمْزة إلى قوله، وذبحَ البَقَر والغَنَم، وأكلَ هو والناس الذين معه، وشَربوا. فلما أمسى مَنْصور، أخذَ القاضي والذين معه، فحبسهم في قصره، وأخذ دوابَّهم فحمَلَ[5] عليها أصحابه، وجمعَ خَيْلَه وأشياعَه، وزحفَ إلى تُونُس، وأمرَ أصحابه ألّا يُسْمَع لهم حِسٌّ ولا حَرَكةٌ حتّى يصيروا إلى دار الصِّناعة. وسارَ حتى إذا كان بالقُرب من دار الصِّناعة، أمر بالطُّبول، فضُرِبت. وأمر أصحابَهُ، فكبَّروا، فوثبَ ابن حَـمْزة ومَن كان معه، والتحمَ القتال عامَّةَ الليل. وكَثُر الناسُ عليهم، فقُتِل من كان مع ابن حَـمْزة، ولم يسلم منهم إلّا من سبحَ في البحر[6]، وذلك يومَ الاثنين لخمس بقين من صَفَر.

وأصبح منصور، فاجتمع إليه الـجُنْدُ، وقالوا له: نحن لا نَثِقُ بك، ولا نأمَنُ أن يَسْتَنْزلك السلطان بدنياه وماله، فتميل له، ولكن إن أحببتَ أن نقومَ بنصرك، فاخضبْ يَدَكَ في دماء أصحاب السُّلطان وأهلِ بيته. فوجَّه حينئذٍ عن عامل زيادة الله على تُونُس، وهو إسماعيل بن سالِـم بن سُفْيان، وعن ولده محمد، فأمر بقتلهما فقُتلا[7] معًا.

فلما اتَّصل الخبر بزيادة الله، وما كان من قَتْل رجاله وعامِله، عقد لغَلْبون وزيره على عَسْكر جليل، وقال: والله لئِن انهزم واحدٌ منكم، لأجْعَلَنَّ عقوبتَه ما فرَّ منه، وهو

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٥٨.

(٢) ليس في ر١.

(٣) في نهاية الأرب: «نبيذ»، والقهوة: النبيذ.

(٤) في ر١: «إليك».

(٥) في أ: «فجعل».

(٦) نهاية الأرب ٢٤/ ٥٩.

(٧) سقطت من أ، م.

السيفُ، فسار غَلْبون في العاشر لربيع الأوَّل حتى وصلَ إلى سَبْخة تونُس، فخرجَ إليهم منصور الطُّنْبُذيُّ في تعبئَة عبَّأها لنفسه، فاقتتلوا مليًّا. ثمّ حمل منصور حملةً كانت فيها هزيمة غَلْبون وأصحابه، لعشر بقين من ربيع الأوَّل، وسارَ منهزمًا إلى زيادة الله، فاعتذرَ غَلْبون عن الهزيمة، وحلف أنّهم نصحوا واجتهدوا، ولكنَّ قضاء الله لا يُرَدُّ. وتواثب القوَّادُ على أعمال إفريقية، كلُّ قائد على بلدة يَضْبطها، ويمتنع فيها من عقوبة زيادة الله التي تَوَعَّدهم بها. واضطرمت إفريقية نارًا، ورَمَى الـجُند كلُّهم إلى منصور الطُّنْبُذيّ أزِمَّةَ أمورهم وولَّوه على أنفسهم. وقَدِمَ غَلْبون على زيادة الله، فأعلمه بما كان من أمره ونَغَلِ[1] الجند. فكتبَ إليهم زيادةُ الله[2] صكوكَ أمان، وبعثَ بها إليهم، فلم يثقوا بها منه، وخَلَعوا الطاعة.

ولما ظفرَ منصور، واجتمعَ إليه بتونُس جميع الـجُند والـحُشود والوفود من كلِّ جهة ومكان، فزحف بهم من تونُس، فوصلَ إلى القَيْرَوان لخمس خَلَون من جُمادى الأُولى. فركب إليه القاضيان أبو مُـحْرِز وأَسَدٌ، فكان بينهما وبينه كلامٌ لم يُفِدْ. وخَنْدَقَ منصور الطُّنْبُذيُّ على نفسه، فكانت بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة. ثمّ رحلَ منصور من خَنْدقه، ونزلَ منزلًا آخر، وأخذ منصور في إصلاح سور القَيْرَوان، فوالاه أهلُ القَيْرَوان وحاربوا معه. فدامت الحرب بين منصور وبين عسكر زيادة الله على القَيْرَوان أربعين يومًا. ثمّ زحفَ زيادةُ الله على تعبئَةٍ عَبَّأها لنفسه قَلْبًا ومَيْمَنةً. فلما رأى ذلك منصور، هالَهُ وراعَهُ. والتقت الفِئَتان، فاقتتلوا اقْتِتالًا شديدًا[3]، فانهزم منصور وولَّى هاربًا، وقُتل أصحابه قتلًا ذريعًا، في منتصف جمادى الآخرة[4]. وانتهى زيادة الله إلى القَيْرَوان، فأمر برفع القتال. وتمادى منصور في هزيمته إلى أن دخل قصره بتُونُس، والناسُ لا يشعرون، وعفا زيادة الله عن أهل القَيْرَوان، وصفحَ عن جميعهم، غَيْرَ أنّه جعل عقوبتهم هدم سور القَيْرَوان، حتّى ألصقه بالأرض.

---

(١) النغل: الفساد.

(٢) ليس في ر١.

(٣) ليس في ر١.

(٤) في أ، م: «الأخيرة».

وفي سنة عشر ومئتين: كانت وقيعة سبيبة[1]، وهي مدينة، وذلك أنّ الـجُند الذين تَقدَّم ذِكْرُ ثيارتهم[2] وتمنُّعهم لأجْل الهزيمة التي طرأت عليهم، كان قائدُهم عامِر بن نافِع. واستقودَ[3] زيادةُ الله على الجيش محمد بن عبد الله بن الأغْلَب، فالتقوا هنالك لعشر بقينَ من المحرَّم، فانهزمَ ابن الأغْلَب وقُتِلَ، وتمادت الهزيمة إلى القَيْرَوان من ضُحى النهار إلى بعد صلاة العشاء، فاغتَمَّ لذلك زيادة الله، وأخذ في جمع[4] الرجال وبَذْلِ الأموال. وكان عيالُ الجند بالقَيْرَوان، فلم يعرض لهم زيادة الله. ثمّ إنّ الـجُند سألوا منصورًا أن يحتال في نقل عيالاتهم من القَيْرَوان، فزحفَ بهم منصور إليها، ونزلَ على القصر نحو ستَّة عشر يومًا، فلم يكُنْ بينه وبين زيادة الله فيها قتالٌ، وأخرج الجندُ حرمهم من[5] القَيْرَوان. ثمّ انصرفَ منصور إلى تُونس، ولم يَبْقَ بيد زيادة الله من إفريقية كلها إلّا قابِس والساحِل ونَفْزاوة وأطْرَابُلُس، فإنّهم تمسَّكوا بطاعته، ولم ينقصوه شيئًا من جبايته. وملك منصور جميع عَمَل زيادة الله، وضربَ السكَّة باسم نفسه.

وكتب الـجُند إلى زيادة الله: ارْحَلْ[6] عن إفريقية ولك الأمان في نفسك ومالك، فشاورَ زيادةُ الله أهلَ بيته وخَدَمَتَه، وقد ضاقَ به الأمر، فقال له سُفْيان بن سَوَادة: مَكِّنّي مـمَّن أثِقُ بهم، أتَقَدَّمُ بهم إلى نَفْزاوة. فانتقى له مئة فارس، فأعطاهم، وسارَ بهم إلى نَفْزاوة. فدعا بَرْبَرَها إلى نُصْرته. فأجابوه[7]. فأقبل عامِر بن نافِع في الجند[8] نحو نَفْزاوة، فلما وصل إلى قَسطِيلية[9]، جمعَ ألفَ أسود، ومعهم الفؤوس

---

(١) ينظر عنها الروض المعطار ٣٠٤.

(٢) في أ: «ثيارهم».

(٣) في أ: «واستقر».

(٤) في أ: «صنم».

(٥) في أ: «عن».

(٦) في أ: «أن خلّ».

(٧) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٣٣.

(٨) قوله: «في الجند» ليس في أ.

(٩) انظر عنها الروض المعطار ٤٨٠.

والمساحي، وخرج بهم إلى نَفْزاوة، فنزل بتَقْيُوس[1]. وبلغ ابن سَوَادة قدومُه، فخرج إليه[2]، واقتتل معه، فانهزم الجند[3]، وقُتل منهم عددٌ كثيرٌ. ورجع عامر إلى قَسْطِيلية، فأقامَ بها ثلاثة أيّام، يجبي أموالها ليلًا ونهارًا، حتّى كمل له من ذلك ما أراد، وسارَ نحو القَيْرَوان.

وفي سنة إحدى عَشْرة ومئتين: قام عامِر بن نافِع على منصور الطُّنْبُذيّ. وكان حاسِدًا له لأنّ منصورًا كان يتوعَّده على الشَّرَاب، فعَمِلَ عليه عامِر مع الـجُنْد، فلم يشعر منصور، وهو بقصره بطُنْبُذة، حتّى زحفَ إليه عامِر من تُونُس، فحاصرَهُ. فراسَلَه منصور، وطلب منه الأمان، على أن يتوجَّه في سفينةٍ إلى الـمَشْرق. فأجابه إلى ذلك، وخرجَ منصور في أوّل الليل مستخفيًا، يريد الأُرْبُس. فلما أصبحَ عامر، قفا أثَرَه وأثَرَ مَن كان معه، حتّى أدركَهُم، فاقتتل معهم، فانهزم منصور، ودخل الأُرْبُس، فتحصَّن بها، فحاصره عامِرٌ فيها. فلما ضاق الحصارُ بأهلها، قالوا لمنصور: إمّا أن تخرجَ عنّا، وإلّا دفعناك إلى عامِر. فرغبَ منهم أن يُمْهِلوه حتّى يعمل في الخلاص لنفسه. فأرسل إلى عبد السلام بن الفرَج وكان من وجوه الجند يسأله الاجتماع به، فأتاه، فقال له منصور من أعلى السُّور: بهذا كان جزائي منكم يا مَعْشر الـجُنْد، وقد علمْتُمْ أنّ قيامي على القوم إنّما كان من أجلكم، فإذ قد صارَ الأمْرُ إلى ما صارَ إليه، فأُحِبُّ أن تسعى في أماني وخلاصي، وأخْرُجَ عنكم إلى الـمَشْرق. فأجابه عبد السلام إلى ما سأل[4]، واستعطفَ له عامر بن نافع، فأسعفه في ذلك. ثمّ وجَّه عامر منصورًا مع خَيْل، وأمر مُقَدَّمَهم سِرًّا أن يعرجوا به إلى مدينة جَرْبة، ويحبسَه بها. ففعل ذلك، وحُبس منصورٌ هنالك. فلما علم عبد السلام بهذه الغَدْرة من عامر، حقدَ عليه، وكان بباجة مع أصحابه، وكان هاشم أخو عامر واليًا عليها، فأخذوه، وحَبَسُوه، وكتبوا إلى أخيه عامر: إمّا أن تُخَلِّي عن منصور، وإلّا قتلنا أخاك، فكتب إليهم

---

(١) الروض المعطار ١٣٩.

(٢) ليست في ر١.

(٣) في ر١: «الجيش الأغلبي».

(٤) في ر١: «إلى ذلك».

عامر: إنّي لسْتُ أُخلِّي عن منصور، فاصنعوا بهاشم ما شئْتُم، فستعلمون عاقبة أمركم. فلما جاءهم كتابُه، أطلقوا هاشمًا، وأمرَ عامر بضرب عُنق منصور وأخيه حَـمْدون، واستقامت الأمور لعامر بن نافع.

وفي سنة اثنتي عشْرَة ومئتين: أغزَى زيادةُ الله صِقِلّيَّة، واجتمع له سبعون مركبًا، حمل فيها سبع مئة فرس. وعرضَ القاضي أسَد بن الفُرات نفسَهُ على زيادة الله في الخروج للغزو، فولّاه على الجيش، وأقرَّهُ على القضاء مع القيادة[1]، فخرج معه أشرافُ إفريقية، من العرَب، والـجُنْد، والبَرْبَر، والأنْدَلُسيّين، وأهل العلم والبَصائر، وذلك في حفلٍ عظيم وعُدَّة جليلة في ربيع الأوَّل. فساروا إلى حصون الرُّوم ومُدُنهم، فأصابوا سبيًا كثيرًا، وسائمةً كثيرةً، وكراعًا، وكثرت الغنائم عند المسلمين، واحتلَّ القاضي أسَد بمن معه على مدينة سَرَقُوسة[2]، وحاصرها برًّا وبحرًا، وأحرقَ مراكبها، وقتلَ جماعةً من أهلها. وجاءتْهُ الأمداد من إفريقية والأنْدَلُس وغيرهما.

وفي سنة ثلاث عَشْرة ومئتين: تُوُفّي عامر بن نافع على فراشه. فلما بلغ موته زيادةَ الله، قال: اليومَ وضعت الحربُ أوزارَها، فاستأمن بنوه إلى[3] زيادة الله، فأمَّنهم.

وفيها: تُوفّي إدريس بن إدريس الـحَسَنيُّ، فقامَ بأمر فاس والبربر ابنُه محمدٌ، فولَّى أخاه البَصْرة وطَنْجة وما يليهما، وولّى سائر إخوته بلاد الغرب[4].

ذِكْر مدينة البَصْرة بالغَرْب

كانت قبلُ مدينةً كبيرةً أزليَّةً، تُعرف ببَصْرة الكَتّان، لأنّهم كانوا يتبايعون، في بَدْء أمرها، في أكثر تجاراتهم بالكتَّان. وتُعرف أيضًا بالـحَمْراء، لأنّها حمراء التُّراب. وكان سورُها مبنيًّا بالحجارة والطوب، ولها عَشَرة أبواب، ولجامِعها سَبْع بَلاطات، وبها حَمّامانِ كبيرانِ، ومقبرتُها الكُبْرى في شرقيِّها، والأُخرى في غربيِّها، وهي التي

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) انظر عنها الروض المعطار ٣١٧.

(٣) في را: «على».

(٤) في أ: «جهات البربر».

تُعرف بمقبرة قُضاعة. وماؤها زُعاقٌ، وشربُهم من بئر عَذبٍ كبيرٍ على باب المدينة، يُعرف ببئر أبي ذَلْفاء.

ونساء البَصْرة مخصوصات بالجمال الفائق، والـحُسْن الرائق، ليس بأرض المغرب أجمل منهنَّ، وفيهنَّ يقول أحمد بن فَتْح التِّيهَرْتيُّ، في قصيدة مدحَ بها أبا العَيْش[1] الـحَسَنيَّ منها[2] [من الكامل]:

ما حازَ كُلَّ الـحُسْنِ إلّا قَيْنةٌ … بَصْرِيَّةٌ في حُمْرةٍ وبَياضِ

الـخَمْرُ في لَحَظاتِها والـوَرْدُ في … وجَناتِها هَيْفاءُ غَيْرَ مُفاضِ

وأُسِّسَتْ البصْرة في الوقت الذي أُسِّسَتْ فيه أصَيْلا أو قريبًا منه[3]. ومنها إلى قَصْر كُتامة، وهو قَصْر عبد الكريم، مرحلةٌ، ومنها إلى مدينة جَنْيارة مرحلةٌ. وقيل: إنَّها كانت قرية على وادي سُبُو، بينها وبين فاس مرحلةٌ. ومن مدينة البَصْرة طريقٌ آخر إلى فاس، فمنها إلى وَرْغة مرحلةٌ، ثمّ إلى وادي ماسِنة[4] مرحلةٌ، وهي مدينة عيسى بن حسن الحسنيّ المعروف بالحجَّام؛ ثمّ إلى مدينة سداك، وهي[5] قاعدة خَلُّوف بن محمَّد الـمَغِيليّ، ثمّ إلى فاس. فذلك سبعُ مراحِل.

وفي هذه السنة: تُوُفّي أسَدُ بن الفُرات في رَجَب منها، وهو محاصِرٌ لسَرَقوسة. فلما توفّي، هَرَبتْ رَهْنُ الروم التي كانت عنده، ووقعَ الموتُ في عسكر المسلمين، فاغتمُّوا لذلك، وولَّوا على أنفسهم ابن أبي الجواري[6].

وفي سنة أربع عشرة ومئتين: توفّي القاضي أبو مُـحْرِز الكلابيُّ. وفيها وصل من الأنْدَلُس إلى صِقِلِّيَّة نحو ثلاث مئة مركب، فيها أصبغ بن وكيل المعروف

---

(١) في أ: «أبا عيسى».

(٢) ليست في أ.

(٣) ينظر مثل هذا الكلام في الروض المعطار ١٠٨-١٠٩.

(٤) من هنا إلى قوله: «الحجام» سقط كله من ر١.

(٥) ليست في ر١.

(٦) في ر١: «الجراوي»، وما هنا يعضده ما في كامل ابن الأثير وفيه: «محمد بن أبي الجواري» ٦/ ٣٣٦.

بفَرْغَلُوش. وبلغ المسلمين المحصورين بها خَبَرُ وصولهم، فاستغاثوا بهم، فوعدوهم بذلك[1].

وفي سنة خمس عشرة ومئتين: كان غَزْوُ فَرْغَلُوش الواصلِ في المراكب إلى صِقِلِّية هو والقوَّاد الذينَ معه، فأخذوا القِلاع، وسبوا، وغنموا في بلاد الروم. ثمّ سُئِلُوا إغاثة مَن كان من الـمُسلمين بها، فأجابوهم إلى ذلك على أن يكون أمر الناس إلى فَرْغَلُوش. فساروا إلى ذلك، وأخذوا في طريقهم القِلاع، وأغاروا حتى انتهوا إلى ميناو، فتَزَحْزَح مخنق مَن كان بها من المسلمين، وحرقوا المدينة وهدموها، وانتقلوا عنها. وسارَ المسلمون إلى غلوالية؛ فحصروها وتغلَّبوا عليها. واعتلَّ جماعةٌ من المسلمين بها، وأخذهم الوباءُ، ومات فَرْغَلُوش وغيرُه من القوَّاد. فرحل الـمُسلمون وركب العدوُّ إثْرَهم، فقُتِلَ منهم خلقٌ كثير في خبر طويل. ثمّ أخذوا في إصلاح مراكبهم، قافلين إلى الأنْدَلُس.

وفيها: وَلي سعيد[2] بن إدريس مدينة نَكُور.

وفي سنة ست عشرة ومئتين: كانت وقيعة بين مُطِيع السُّلَمّي[3] وإسماعيل بن الصَّمْصامة بإفريقية، فاقتتلا بمن معهما. فهُزِمَ مُطيع وقُتل، وانهزمَ أصحابُه. ووَلِـيَ أبو فِهْر صِقِلّيَّة.

وفي سنة سبع عشرة ومئتين: توجَّه أبو فِهْر محمد بن عبد الله التَّميميُّ من إفريقية إلى صِقِلّيَّة، وهربَ عثمان بن قُرْهُب عنها.

وفي سنة ثماني عشرة ومئتين: قام بمدينة تُونُس فَضْل بن أبي العَنْبَر بعد هزيمته لخيل زيادة الله، فضبطها لنفسه. وسارَ إليه أبو فِهْر بن عبد الله بن الأغْلَب في جيشٍ كثيفٍ، حتّى افتتحها وقتلَ فيها عبَّاس بن الوليد الفقيه الصالح[4].

---

(١) في ر١: «بالغوث».

(٢) في ر١: «شبيب».

(٣) في أ: «السهمي».

(٤) ليس في ر١.

وفي سنة تسع عشرة ومئتين: أمَّن زيادةُ الله كلَّ مَن طلب الأمان ممَّن تفلَّتَ من تُونُس وخرج عنها وقتَ دخول أبي فِهْر لها. فأمَّنهم، وسكنتْ أحوالُهم. وكان [فيهم] عبدُ الرحمن وعليٌّ ابنا أبي سَلَمة وأبو العَزَّاف، وكانوا شعراء فصحاء، فأنشده عبد الرحمن مديحًا له فيه، فلما انقضى إنشادُه، قام يعقوب بن يحيى الشاعر يُحرِّض زيادة الله على بني أبي سَلَمة وأبي العَزَّافِ بهذه الأبيات [من الوافر]:

تَسَمَّعْ أيُّها المَلِك المُعانُ ... قَوافي في مَعانيها البَيانُ

يَتِمُّ أمانُ مَنْ خَضَبَ العَوالي ... ولَيْسَ لشاعرٍ أبدًا أمانُ

لأنَّ قوافيَ الأشعارِ تَبْقَى ... على الأيَّامِ ما بَقِيَ الزمانُ

وقَدْ يُرجَى لِجُرْحِ السَّيْفِ بُرْءٌ ... ولا بُرْءٌ لِما جَرَحَ اللِّسانُ

فلم يلتفت زيادةُ الله إلى قوله، وأمضى لهم أمانَهم، وقال لأبي العَزَّاف: ما منعك أن تستأمن إلينا قبل هذا الوقت؟ قال: أيُّها الأمير، كنتُ مع قَوْم حَمْقَى، يُوَلُّون كلَّ يوم واليًا، ويعزلون آخر، فرجوتُ أن تكون لي معهم دَوْلةٌ. فضحك زيادة الله، وقال: قد عفوتُ عنك.

وفي سنة عشرين ومئتين: ولي أحمد بن أبي مُحْرِز قضاء إفريقية. وفيها أغزى محمد بن عبد الله بن الأغْلَب صاحبُ صِقِلِّيَّة. فالتقى بالمشركين[(١)]، فانهزموا أمامه. وانصرف بالغنائم إلى بَلَرم[(٢)]. وكانت بصِقِلِّيَّة في هذه السنة غزوات كثيرة للمُسلمين برًّا وبَحْرًا، وكذلك بالأنْدَلُس.

وفيها وصل ابن الأغْلَب إلى بَلَرم، قاعدة صِقِلِّيَّة، واليًا عليها، في رمضان، بعد أن رأى شِدَّةً في البحر، وعطبتْ له مراكبُ، وحُطِمَتْ له أُخرى[(٣)]، وأصابَ له النَّصارى حَرَّاقةً من مراكبه. وجاهَدَهم محمدُ ابن السِّنْديّ في حرَّاقات، فاتبعهم حتّى حال الليل بينهم.

---

(١) في ر١: «بهم».

(٢) ينظر عنها: الروض المعطار ١٠١.

(٣) قوله: «وحطمت له أخرى» ليس في ر١.

وفي سنة إحدى وعشرين ومئتين: توفّي قاضي صِقِلّيَة ابن أبي مُـحْرِز. وكان قد أوصى أخاه عِمْران أن يكتُمَ موتَه حتى يكفِّنه ويُصلِّي عليه، خوفًا أن يكفِّنه زيادة الله ويُصلِّي عليه، ففعل عِمْران ذلك. فلما حُمِل نعشه وخُرِج به من داره، أقبل خَلَفٌ الفتَى بمسكٍ كثير وأكفان من قِبَل زيادة الله، فقال له عِمْران: قد كفَّنَّاه. فذرَّ خَلَفٌ المسكَ الذي كان معه عليه، وحُـمِل إلى المصلَّى، فحضر زيادةُ الله دفنه وعَزَّى أخاه عنه، وقال: يا أهل القَيْرَوان، لو أرادَ الله بكم خيرًا، لـمَا خرج ابن أبي مُـحْرِز من بين أظهركم. وكان زيادةُ الله يقول: ما أُبالي ما قَدِمْتُ عليه يومَ القيامة وفي صحيفتي أربع حَسَنات: بُنياني المسجدَ الجامع بالقَيْرَوان، وبُنياني قَنْطرةَ أبي الربيع، وبُنياني حِصْنَ مدينة سُوسة، وتَوْليتي أحمد بن مُـحْرِز قضاء[1] إفريقية. ثمّ ولِيَ القضاء بعده ابن أبي الجواد.

وفي هذه السنة: ابتدأت الفتنة بسِجِلْماسة بين مَيْمون وأخيه، ابني الـمُنْتَصِر بن اليَسَع.

وفي سنة اثنتين وعشرين ومئتين: كانت غَزْوة صِقِلّيّة، غزاها الـمُسلمون إلى ناحية جَبَل النار، فأصابوا وغَنِموا وقفلوا سالمين غانمين.

وفيها: فتح الـمُسلمون حصن مدنار ومعَاقِل كثيرة في غزوة للفَضْل بن يعقوب أغزاه إيَّاها ابن الأغْلَب، وغزوة أخرى[2] لعبد السلام بن عبد الوهَّاب، أغزاه أيضًا إيَّاها ابن الأغْلَب[3]، فخرج إليه العدوُّ، فانهزمَ المسلمون وأُصيب منهم جماعةٌ. وأُسِر عبد السلام حتّى فُدِي بعد ذلك.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومئتين: توفّي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغْلَب صاحب إفريقية، يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلَتْ من رجب، وهو ابن إحدى وخمسين سنة. فكانت ولايتُه إحدى وعشرين سنة، وسبعة[4] أشهر، وثمانية أيّام.

---

(١) في م: «قاضي».

(٢) في ر١: «وجهه إليها زيادة الله ثم كانت غزوة أخرى»، بدلًا من: «أغزاه إياها أبو الأغلب، وغزوة أخرى».

(٣) في ر١: «زيادة الله».

(٤) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٩٣: «تسعة».

ولاية أبي عِقال الأغْلب بن إبراهيم بن الأغْلَب إفريقية

وهو الملقَّب بخَزَر. فلمّا وَلِيَ، أمَّن الناس وأحسنَ إليهم وإلى الـجُند، وغَيَّر أحداثًا كثيرة كانت قبله، وأجرى على العُـمّال أرزاقًا واسعة وصِلات جَزْلة، وقبض أيديهم عن الرعيَّة، وقطعَ النبيذ من القَيْرَوان، وعاقب على بيعه وشُربه[١]. وتوفّي في العَشْر الأواخر لربيع الآخر سنة ست وعشرين ومئتين وهو ابن ثلاث وخمسين سنة. فكانت ولايتُه سنتَيْن وتسعة[٢] أشهر وأيّامًا[٣].

وفي سنة أربع وعشرين ومئتين: كانت وقعةٌ بإفريقية بين عيسى بن ريعان الأزْديّ، وقد أخرجُه السُّلطانُ لذلك، وبين لَواتة وزُواغة ومِكْناسة. فقتلهم عن آخرهم بين قَفْصة وقَسْطِيلية؛ ذكر ذلك ابن القطّان[٤].

وفيها: قَدَّم أهلُ سِجِلْماسة ميَمْون بن مِدْرار، وأخرجوا أخاه. فلما استقرَّ الأمر لـمَيْمون، أخرج أباه مِدْرارًا وأُمَّه إلى بعض قُرَى سِجِلْماسة.

وفي سنة خمس وعشرين ومئتين: كانت وفاة أبي جعفر موسى بن مُعاوية الصُّمادِحِيّ[٥]، مَوْلى آل جعفر[٦]، وكان مـمَّن روى عنه سُحْنون.

وفي سنة ست وعشرين ومئتين: توفّي أبو عِقال الأغْلَب ين إبراهيم في ليلة الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر[٧]، وولايةُ ابنه أبي العبَّاس يومَ موت أبيه.

ولاية أبي العبَّاس محمد بن الأغْلَب بن إبراهيم بن الأغْلَب إفريقية

كانت ولايتُه في أوَّلها ساكنةً، والأمور معتدلةً، وقلَّد أحمد بن الأغْلَب كثيرًا من أموره. وكان محمد هذا قليل العلم، ذُكِر أنّ رَجاء الكاتب كان يومًا بين يديه،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٩٣.

(٢) في الكامل: «سبعة».

(٣) الكامل لابن الأثير ٦/ ٥١٩.

(٤) وهو في كامل ابن الأثير أيضًا ٦/ ٥٠٨.

(٥) ترجمته في تاريخ الإسلام ٥/ ٧٠٩.

(٦) في أ: «أبي جعفر».

(٧) قوله: «في ليلة الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر» ليس في ر١.

فكتب محمد «لحم ضبي» بضاد مسقوطة. فلما خلا المجلس، قال له كاتبُه: أيَّد الله[1] الأمير، الظبي يُكتب بظاء مرفوعة. فقال له محمد: قد علمنا فيه اختلافًا: فأبو حنيفة يجعله بالظاء، ومالِك يجعله بالضاد! فعجب الحاضرون من قوله. وكان عقيمًا لا يولَد له، وكان مظفَّرًا في حروبه.

وفي سنة سبع وعشرين ومئتين: توفّي أبو محمد عبد الله بن أبي حسَّان اليَحْصُبيُّ[2] فقيهُ إفريقية، لقي[3] مالِكًا، وسمع منه. وسأله زيادة الله عن[4] النبيذ، فقال له: كَمْ دِيةُ العَقْل؟ قال: ألف دينار. قال: أصلحَ اللهُ الأمير، يعمد الرجل إلى ما قيمتُه ألف دينار، فيبيعه بنصف دِرْهَم؟! فقيل له: إنَّه يعودُ ويرجعُ. فقال: أصلح الله الأمير، يعود[5] بعد كَشْفِهِ سَوْءَتَهُ، وإبدائه عَوْرَتَه، وضَرْبِ هذا وشَتْم هذا.

وفي سنة ثمان وعشرين ومئتين: كانت إفريقية هادِنةً ساكِنةً، قال عَرِيب وغيرُه: لم يكن في إفريقية هذه السنة خبرٌ يُذكر، ولا في السنتَيْن بعدها.

وفي سنة ثلاثين ومئتين: توفّي بُهْلُول بن عَمْرو بن صالِح[6] الفقيه، سمع من مالِك وطَبقَته.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومئتين: كانت ثَوْرة أحمد بن الأغْلَب على أخيه محمد واستيلاؤه عليه[7]؛ وذلك أن أحمد تواعَدَ مع جملة من الموالي إلى موضع، فتوافَوْا هنالك وقْتَ الظهيرة، فقصدوا إلى مدينة القَصْر القَدِيم، وقد خلا البابُ من الرجال.

---

(١) في ر ١: «أيها».

(٢) تاريخ الإسلام ٥/ ٥٩٤.

(٣) في م: «ولقي».

(٤) في أ، م: «في».

(٥) من ر ١.

(٦) هكذا في النسختين، وهو غلط صوابه: «بهلول بن صالح بن عمر، وهو تجيبي، أبو الحسن، ذكره القاضي عياض في الرواة عن مالك (ترتيب المدارك ٢/ ١٨٥)، وترجمه الذهبي في تاريخ الإسلام وذكر روايته عن مالك وأنه توفي سنة ٢٣٣ (تاريخ الإسلام ٥/ ٨٠٠).

(٧) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٥.

فدخلوا، وأغلقوا الباب، ثم ساروا حتّى أغلقوا الأبوابَ الأُخَر. ثمّ هجموا على أبي عبد الله بن عليّ بن حُـمَيْد الوزير، فأمر أحمد، فضُربت عُنُقُه. ووقع القتال بين رجال محمد بن الأغْلَب وبين رجال أحمد بن الأغْلَب، وجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد: ما لكم تقاتلوننا؟ نحن في طاعة محمد بن الأغْلَب، إنَّما قُمْنا على أولاد عليّ بن حُـمَيْد الذين أفقروكم واستولوا على أموال مولاكم دُونَكم، وأمّا نحن ففي الطاعة. فلما سمعوا ذلك، أوقفوا عن القتال. ولما نظر محمد إلى ما دَهِمَه من غير استعداد، قعد في مجلسه الذي يقعد فيه للعامَّة، وأذن لأخيه أحمد والرجال الذين معه في الدخول عليه. فدخلوا بسلاحهم، فكانت بينهما معاتبة. ثمّ حلفا ألّا يغدر أحدُهما بصاحبه، واصطلحا. واعتدلت الأمور لأحمد بن الأغْلَب إلا اسم الإمارة فقط. وقبض أحمد بن عليّ[1] على من شاء، واستصفَى مَن أرادَ، وعَذَّب مَن أحبَّ، وأعطى الرجال، وجَبَى الأموال، واستوزرَ نَصْر بن حَـمْزة.

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئتين: ظفر محمد بن الأغْلَب بأخيه أحمد، وحبَسُه، ورجع له سلطانُه[2]. وقامَ معه في ذلك جماعةٌ من بني عَمِّه ومواليه، وسقى البوَّابين، واحتال عليهم حتى دخل المدينة، وحارب أخاه طول الليل، وأطلق مَن كان في حَبْس أخيه، فاستمدَّ بهم، ووصل أهلَ القَيْرَوان حتّى أنفذَ جميع ما في خزائنه من الأموال والكِسَى. ثمّ نفى محمدُ بن الأغْلَب أخاه إلى المشرق، فمات بالعراق.

وفيها: عُزِلَ عبدُ الله بن أبي الـجَواد عن القضاء، فقال سُحْنون لمحمد بن الأغْلَب: أيُّها الأمير، أحسن الله جزاءك، فقد عَزَلْتَ فِرْعَوْنَ هذه الأُمَّة وجَبَّارَها وظالِـمَها، وابن أبي الجواد حاضرٌ، ولحيتُه تضطرب على صدره، وكان تامَّ اللحية.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومئتين: وَلِي سُحْنون[3] بن سعيد بن حَبيب التَّنوخيُّ الفقيهُ ـ واسمُه عبدُ السلام، إنَّما سُمِّيَ بسُحْنون لـحِدَّة ذهنه ـ القضاء بإفريقية، بعد

---

(١) قوله: «ابن علي» ليس في م.

(٢) في ر١: «ملكه».

(٣) ترجمته في تاريخ الإسلام ٥/ ٨٢٥.

أن راجع[1] محمد بن الأغْلَب في ذلك عامًا كاملًا، وهو يأبى عليه، حتّى حلف له الأيمان المؤكَّدة، وأعطاه العهود المغَلَّظة أنَّه يُطلِق يديه على أهل بيته وقرابته وخدمته وحاشيته، ويُنَفِّذ عليهم الحقَّ، أحَبُّوا أو كَرِهوا.

وفيها: كانت ثورة سالِـم بن غَلْبُون وقتلُه، وذلك أنَّه كان واليًا على الزَّاب. فعزله محمَّد بن الأغْلَب، فأقبل سالِـم يريد القَيْرَوان، ثمّ عدل في بعض طريقه إلى الأُرْبُس[2] مُظْهِرًا للخلاف، فمنعه أهلُها من دخولها، فسار إلى باجة ودخلها وضبطها. فأخرج إليه ابن الأغْلَب خَفاجة بن سُفْيان في جيشٍ كثيف، فنزل عليه، وحاربه أيَّامًا، فهرب سالِـم بن غَلْبون في الليل، فأتبعه خَفاجة، فلحقه لما أصبح، وقتله، وحمل رأسه إلى محمد بن الأغْلَب. وكان ابنه أزْهر محبوسًا عنده، فأمر بضرب عنقه.

وفي سنة أربع وثلاثين ومئتين: ثار عَمْر بن سُلَيْم التُّجِيبيُّ بتُونُس، فأخرج إليه ابن الأغْلَب خَفاجة بن سُفْيان، فأقامَ عليه بقيَّةَ هذه السنة، ثمّ انصرف عنه من غير ظفر.

وفيها: مات عبد الله بن أبي الـجَواد في سجن سُحْنون. وكان وَرَثَةُ ابن القَلْفاط يطلبونه بخمس مئة دينار وَدِيعةً، واستظهروا بخطّه، فأنكر الوديعة والخط. فكان سُحْنون يُـخْرِجه كلَّ جمعة، فإذا استمرَّ على الإنكار، ضربه عشرة أسواط، وأرادت زوجتُه فِداءه بمالها[3]، فامتنع سُحْنون إلّا أن يعترف ابن أبي الجواد بأنّ هذا مالُ الأيتام أو عِوَضًا عنه، فأبى ابن أبي الجواد. فما زالت تلك حالُه إلى أن مرض، فمات، فشنَّع الناسُ على سُحْنون أنّه قتله، وكان يقول بخَلْق القرآن.

وفي سنة خمس وثلاثين ومئتين: كانت وقيعةٌ بمقربة من تُونُس، بين الـمُنْتزي في العام الفارط عَمْرو بن سُلَيْم المعروف بالقُوَيْع[4]، وبين محمد بن موسى المعروف بعُرْيان الذي استقْوَدَه ابن الأغْلَب بجيشٍ لمحاربته، ففزعَ كثيرٌ من موالي ابن الأغْلَب إلى القُوَيْع. فوقعت على محمد بن موسى هزيمةٌ، وأُسِرَ أَحَدُ قوَّاده، بعد أن انكسرت

---

(١) بعده في ر١: «السلطان».

(٢) ينظر الروض المعطار ٢٤.

(٣) في ر١: «بأموالها».

(٤) في م: «القوبع» مصحف، وما أثبتناه مجوّد في النسختين وفي الكامل لابن الأثير ٧/ ٤٤.

رِجْلُه، ثمّ طعنه ولدُ القُوَيْع طعنةً كان فيها حتفُه، وقُتل كثيرٌ من أصحابه، وانصرف باقي الجيش إلى ابن الأغْلَب مفلولين، واشتدَّت شَوْكةُ القُوَيْع.

وفي سنة ست وثلاثين ومئتين: كانت وقعةٌ بين عَمْرو بن سُلَيْم القُوَيْع الـمُنْتَزِي بتونُس وبين خَفاجة بن سُفيان، قائد جيش محمد بن الأغْلَب، فاقتتلوا قتالًا شديدًا فانهزم القُوَيْع، وقُتل أصحابُه مقتلةً عظيمةً، وأُدْرِك القُوَيْع، فضُربت عُنُقُه وحُـمِلَ رأسُه إلى محمد بن الأغْلَب، فوصلَ قاتِلَه، وكَساهُ، وأحسنَ إليه. ودخل خَفاجة مدينة تُونُس بالسيف، يوم السبت لعشر خَلَوْن من ربيع الأوَّل؛ وسَبَى فيها، وانصرف بالجيش إلى القَيْرَوان، فكَساهُ ابن الأغْلَب.

ولاية العبَّاس بن الفَضْل، رحمه الله، جزيرة صِقِلِّيَّة

لما تُوفّي صاحبُ صِقِلّيّة أبو الأغْلَب[1] إبراهيم بن عبد الله بن الأغْلَب، قدَّم أهلُها على أنفسهم العبَّاس بن الفَضْل هذا، وكتبوا إلى محمد[2] بن الأغْلَب بالخبر. فأقرَّ العبَّاس، وكتب إليه بعهده بولاية صِقِلّيّة. فجاهدَ كثيرًا، وغَزَا طويلًا. وكان له في الروم مَواقِفُ أذلَّـهم بها[3].

وفي سنة سبع وثلاثين ومئتين: وَلِـيَ حبيبُ بن نَصْر بن سهل[4] التَّميميُّ الـمَظالِـمَ بالقَيْرَوان بتقديم القاضي سُحْنون إيَّاه عليها.

وفيها: أغزى العبَّاس بصِقِلّيَّة أرضَ الروم، فغنم غنائمَ عظيمة، وسَبَى سبيًا كثيرًا، وأداخ[5] بلادهم.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئتين: أغزى العبَّاس بن الفَضْل صاحبُ صِقِلّيَّة الرومَ، فقتلَ اللهُ المشركين، وبعثَ العبَّاس برؤوسهم إلى مدينة بَلَرم، وأقامَ ينتسف زروعهم، ويَطأُ أرضهم، ويسبي من ظَفر به منهم. ثمّ قفل إلى صِقِلّيَّة.

---

(١) سقطت من ر١.

(٢) في ر١: «إلى السلطان محمد».

(٣) الكامل لابن الأثير ٧/ ٦٠، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٩٧.

(٤) من ر١.

(٥) في ر١: «وأدلع».

وفي سنة تسع وثلاثين ومئتين: كان الجهاد بصِقِلّيّة في غزوة العبّاس بن الفَضْل في الصائفة، فأفسد زُروع النصارى، وبثَّ السرايا في كلّ موضع، وغنم قَصْريانة[1] وقَطانِيَة[2] وسَرَقُوسة[3] وغيرها، وحاصَرَ مدينة بنيرة[4] ستَّة أشهر حتّى صالحوه على ستّة آلاف رأس قَبَضَها منهم. وقفل إلى حضرة[5] بَلَرم، وفتح مدينة سَبْرينة[6].

وفي سنة أربعين ومئتين: تُوفّي الفقيه سُحْنون، رحمه الله.

وفيها: كان الجهاد أيضًا بصِقِلّيّة؛ غزا العبَّاس بن الفَضْل صاحبُها بلادَ الروم، فسبى، ونكى، وخرَّب، وانتسف، وبثَّ السرايا، فغنموا غنائم عظيمةً[7].

وفي سنة إحدى وأربعين ومئتين: غزا العبَّاس بن الفَضْل أيضًا الروم بصِقِلّيّة[8]، فأفسد زُروعهم، وبثَّ السرايا في أراضيهم، فغُنمت غنائم كثيرة، وأقامَ في جبل مانع ثلاثةَ أشهر، يضرب كلَّ يوم حَوْلَ يانة، فيقتل ويُصيب، وتتوجَّه سراياه، فتغنم في كلّ جهة. وأغزَى أخاه عليَّ بن الفَضْل في البحر، فأصاب وغنم، وانصرف برؤوس كثيرة.

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئتين: تُوفّي أبو العبَّاس محمَّد بن الأغْلَب، صاحبُ إفريقية، لليلتين خلتا من المحرَّم، فكانت ولايتُه خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثنَيْ عَشَر يومًا[9]، ومات وهو ابن ستّ وثلاثين سنة، وولي بَعْدَه ابن أخيه[10].

---

(١) الروض المعطار ٤٧٥.

(٢) الروض المعطار ٤٦٥.

(٣) تقدمت، وينظر الروض المعطار ٣١٧.

(٤) في ر١: «ينبرة».

(٥) في ر١: «مدينة».

(٦) هي المعروفة بسانتا سفرينة.

(٧) العبارة في ر١ مختلفة حيث جاء فيها: «... بصقلية على يد صاحبها العباس بن الفضل والغنائم العظيمة».

(٨) النص في ر١ في هذه الفقرة مضطرب، فأثبتنا ما في أ فقط.

(٩) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٥١٩: «وعشرة أيام».

(١٠) قوله: «وولي بعده ابن أخيه» ليس في ر١، وينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٥١٩.

ولاية أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأَغْلَب إفريقية[1]

وليها وهو ابن عشرين سنةً. وكان حَسَنَ السيرة، كريمَ الأخلاق والأفعال، من أجودِ الناس وأسمحِهم وأرفقِهم بالرعيَّة، مع دينٍ واجتنابٍ للظُّلْم، على حَدَاثة سنه وقلة عمره. وكان يركب في ليالي شعبان ورمضان وبين يديه الشمع، فيخرج من القصر القديم، ويمشي حتى يدخل من باب أبي الربيع، ومعه دوابّ بالدراهم. فكان يعطي الضُّعفاء والمساكين حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقَيْرَوان، فيخرج الناسُ إليه، يدْعون له.

وفيها: ولي القضاء بإفريقية أبو الربيع سُليمان بن عِمْران بن أبي هاشِم الملقَّب بخَرُوفة[2].

وفيها: كان الجهاد بصِقِلّيَّة: غزا صاحبُها العبَّاسُ بن الفَضْل الرُّوم بالصائفة، فغنم وسَبَى، وانتقل من حِصْن[3] إلى حِصْن، ففتح أكثرها، وصالَحه بعضُ أهلها.

وفي سنة ثلاث وأربعين ومئتين: كان الجهاد بصِقِلّيَّة: غزا العبَّاس بن الفَضْل صاحبُها بالصائفة، فسَبى وغَنِمَ، وصالَحه أهلُ قصر الحَدِيد، بعد أن حاصَرَهم شهرَيْن، بخمسة عشر ألف دينار، وصالَحه أهلُ حصن شلفودة[4] على أن يخرجوا منه ويهدِمَه، ففعل ذلك.

وفي سنة أربع وأربعين ومئتين: غزا العبَّاس صاحبُ صِقِلّيَّة أرضَ الروم، فغنم غنائم كثيرة. وخرج أخوه في مراكب في البحر إلى جزيرة أَقْرِيطِش[5]، فقتل وسَبَى وغنم. ثمّ دارت على المسلمين جَوْلَةٌ، فقُتِل منهم، وأُخذت لهم عشرون مركبًا.

---

(١) هذه اللفظة ليست في ر١، والخبر باختصار في الكامل لابن الأثير ٦/ ٥١٩-٥٢٠.

(٢) ينظر الديباج المذهب لابن فرحون ١/ ٣٧٦.

(٣) قوله: «من حصن» سقط من أ.

(٤) في ر١: «سلعودة».

(٥) بفتح الهمزة، وتكسر (معجم البلدان ١/ ٢٣٦)، وهي جزيرة كريت.

وفي سنة خمس وأربعين ومئتين: أخرج[١] أبو إبراهيم بن الأغْلَب صاحبُ إفريقية مالًا كثيـرًا لحفْر الـمَوَاجِل[٢]، وبنيان المساجد والقَـنَاطر، لكلمةٍ كانت منه على سُكْر.

وفي سنة ست وأربعين ومئتين: كان حَفْر المأجل الكبير على باب تُونُس المعروف ببئر ابن ظبيان[٣].

وفيها: تُوفِّي أبو خَلَف الزاهد، واسمُه مَطْروح بن قَيْس، وكان عابدًا زاهدًا.

وفي سنة سبع وأربعين ومئتين: كان بالقَيْرَوان سَيْلٌ عظيمٌ كسر القَنْطرة فأمر صاحب إفريقية بإصلاحها.

وفيها: تُوفِّي عبد الرحمن بن عبد ربِّه، وكان مُستجابَ الدعوة.

وفيها: تُوفِّي العبَّاس بن الفَضْل صاحبُ صِقِلِّيَّة، في جمادى الأولى لثلاث خلون منها، ووَلِـيَ عمُّه أحمد صِقِلِّيَّة؛ ولّاه أهلُها، وكتبوا بذلك إلى صاحب إفريقية أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغْلَب، فجاء كتابُه بإثباته.

وفي سنة ثمان وأربعين ومئتين: كَمُل بناءُ مأجل باب تُونُس الكبير، وتـمَّت الزيادة في جامع القَيْرَوان، وكَمُل إصلاح قنطرة باب أبي الربيع.

وفيها: كانت غزوة رَباح، فأصابَ وغَنِمَ، ثمّ دارت عليه وقيعةٌ، أُخِذَتْ فيها طُبولُه وأعلامُه، ثمّ أُسِرَ قَوْمٌ من أصحابه، ثمّ تراجَعَ وافتتح مدينةَ جبل أبي مالك، وسَبَى جميعَ ما كان فيها، وأحرقها وبثَّ سرايا كثيرةً، فأصابت وغَنِمت.

وفي سنة تسع وأربعين ومئتين: تُوفِّي أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغْلَب صاحبُ إفريقية، يومَ الثلاثاء لثلاث عشْرة ليلةً خلَتْ من ذي القعدة، فكانت ولايتُه سبع سنين وعشرة أشهر ونصفًا، ومات وهو ابن ثمانٍ وعشرين سنةً[٤].

---

(١) بعدها في ر١: «السلطان».

(٢) جمع مأجل، وهو حوض تجمع فيه المياه وتخزن.

(٣) قوله: «المعروف ببئر ابن ظبيان» ليس في أ، م.

(٤) الكامل لابن الأثير ٦/ ٥١٩-٥٢٠.

ولاية زيادة الله بن محمد بن الأغْلَب بن إبراهيم ابن الأغْلَب إفريقية[1]

ولِـيَ يوم وفاة أبي إبراهيم، في ذي القَعْدة، فكتبَ إلى خَفاجة بإمضاء ولايته وخَلَعَ عليه. وكان أبو محمد زيادة الله هذا عاقِلًا[2]، حليمًا، حَسَنَ السيرةِ، جميلَ الأفعال، ذا رأيٍ ونَجْدة وجودٍ وشجاعةٍ. وهو الثاني مـمَّن اسمه زيادة الله في بني الأغْلَب. ولم تطُلْ في الـمُلْك مدَّته، فتكونَ له أخبارٌ تؤثر، وتُوفِّي ليلة السبت لعشر بقِين من ذي القعدة من سنة خمسين ومئتين، فكانت دولتهُ سنةً واحدةً وسبعة أيَّام[3].

ولاية أبي الغَرَانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغْلَب[4]

ولِـيَ **سنة خمسين ومئتين**، وهو ابن أخي زيادة الله المتوفّى قَبْلُ، ولِـيَ يوم السبت لعَشْرٍ بقِينَ من ذي القَعْدة، ولُقِّبَ بأبي الغَرَانيق لأنَّه كان يَهْوَى صَيْدَها، حتّى بنى قصرًا يخرج إليه لصَيْدِها، أنفقَ فيه ثلاثين ألف مثقال من الذهب. وكان مُسْرِفًا في العطاء، مع حُسْن سيرة في الرعيَّة. ثمّ غلبت عليه اللذَّاتُ والاشتغالُ بها، فلم يزل كذلك طُولَ مدَّته. ولم تكن له همَّة في جمع مال. فلما مات، لم يَـجِدْ أخوه في بيت المال شيئًا يُذْكَر. وكانت ولايتُه حروبًا أكثرُها على ما يأتي ذكره.

وفي سنة إحدى وخمسين ومئتين: كانت غزوة السَّرِيَّة المعروفة[5] بسَرِيَّة ألف فارِس، وذلك أنّ خَفاجة صاحبَ صِقِلِّيَّة غزا قَصْريانة، فأفسدَ زروعَهُ، وسارَ إلى سَرَقُوسة، فقاتل أهلها. ثمّ رحل عنهم، وأخرجَ ابنه محمدًا إليهم في سَرِيَّة، فكَمَنَ لهم، فخرجوا، فخرج عليهم[6] وقتل منهم ألف فارس، فسُمِّيَتْ تلك السريَّة سريَّة ألف فارس[7].

---

(١) لفظة «إفريقية» ليست في ر١.

(٢) في أ: «عاملًا».

(٣) الكامل لابن الأثير ٦/ ٥٢٠.

(٤) الكامل لابن الأثير ٦/ ٥٢٠-٥٢١.

(٥) في ر١: «التي تعرف».

(٦) قوله: «فخرجوا فخرج عليهم» سقط من أ، م.

(٧) في ر١ بدلًا من هذه العبارة: «فسميت بذلك تلك السرية».

وفي سنة اثنتين وخمسين ومئتين: بنى محمد بن حَمْدون الأَنْدَلسيُّ المَعافِريُّ الجامعَ الشريفَ بالقَيْرَوان المنسوبَ إليه: بناهُ بالآجُرّ والجصّ والرخام، وبَنَى فيه جِبابًا للماء.

وغزا خَفاجة صاحبُ صِقِليَّة أرضَ الروم، وافتتحَ حُصونًا كثيرةً، ثمّ مرض مرضًا شديدًا، فانصرفَ في مَحْمَل إلى بَلَرم.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومئتين: قال ابن القَطَّان: عريت هذه السنة من أخبار إفريقية، فلم يكن فيها خبرٌ مشهورٌ يُجْتَلَب[1].

وفي سنة أربع وخمسين ومئتين: غزا خَفاجة صاحبُ صِقِلِّيَّة بِطْرِيقًا وصل من القسْطَنْطِينة، في جمع كبير، في البرّ والبحر، فانهزم البِطْرِيق بعد قتالٍ شديد، وقُتل من أصحابه آلافٌ كثيرة، وأُخذَ لهم سلاحٌ وخيلٌ. ودخل خَفاجة إلى سَرَقُوسة وغيرها، فغنم غنائم كثيرة، ورجع إلى بَلَرم قاعِدَتِه أوّلَ يوم من رجب[2].

وفي سنة خمس وخمسين ومئتين: خرجَ خَفاجة صاحبُ صِقِلِّيَّة للغزو، فلَقِيَهُ العدوُّ في جمعٍ كبير، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فقُتِل شُجاعٌ من شُجْعان المسلمين، فانكسروا لقتله. فسارَ خَفاجة إلى سَرَقُوسة، فامتنعت منه[3]، فأقامَ عليها، وأفسد زَرْعها.

وفيها: تُوفِّي خَفاجة، وذلك أنَّه، لما أكمل غزاته المذكورة، قفلَ من سَرَقُوسة، يُريدُ بَلَرم، فأدلج ليلًا، فاغتاله رجلٌ من عَسْكره، وطَعَنَه طعنةً مات منها، وذلك أولَ يوم من رَجَب، وهربَ الذي طعنه إلى سَرَقُوسة. وحُمِل خَفاجة إلى حضرة[4] بَلَرم، فدُفن بها. فولَّى أهْلُ صِقِلِّيَّة ولده محمدًا، وكتبوا بذلك إلى الأمير محمد بن أحمد ابن الأغْلَب أبي الغرانيق[5]، فكتب إليه بالولاية، وخلع عليه[6].

---

(١) في ر١: «عريت هذه السنة بإفريقية عن خبر يجتلب».

(٢) قوله: «أول يوم من رجب» ليس في ر١.

(٣) قوله: «فامتنعت منه» ليس في ر١.

(٤) ليست في أ، م.

(٥) في ر١: «إلى السلطان أبي الغرانيق».

(٦) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٠٨.

وفي سنة ست وخمسين ومئتين: تُوفِّي محمد بن سُحْنون التَّنُوخيُّ[1]، وكان فقيهًا وَرِعًا، رضي الله عنه.

وفي سنة سبع وخمسين ومئتين: وَلِـيَ القضاء بإفريقيةَ عبدُ الله بن أحمد بن طالب[2]، صارفًا لسُليمان بن عِمْران.

وفيها: تُوفِّي صاحب صِقِلّيَّة محمد بن خَفاجة، قَـتَلَهُ خَدَمُه نهارًا لثلاث خَلَوْن من رَجَب، وكتموا أمرَهُ، فلم يُعرف قتلُه إلّا بعد يوم لهروب الـخَدَم، فأُخِذوا وقُتل بعضُهم. فوَلِـيَ صِقِلّيَّة أحمد بن يعقوب بن المضاء[3] بتقديم ابن الأغْلَب إيَّاه. ووَلِـيَ على الأرض الكبيرة عبدُ الله بن يعقوب، فكانت لهما في هذا العام غزوةٌ أوقعا فيها بالمشركين. ولم يكن بإفريقية في سنة سبع خبرٌ يُذكر.

وفي سنة ثمان وخمسين ومئتين: تُوفِّي أحمد بن يعقوب صاحب صِقِلّيَّة، وولي ابنُه الـحُسين مكانَه، وأقرَّه صاحبُ إفريقية عليها.

وفي سنة تسع وخمسين ومئتين: ولي سُليمان بن عِمْران قضاء إفريقية، وعُزِلَ عبدُ الله بن أحمد بن طالب التَّميميُّ عنه.

وفيها: غزا صاحب صِقِلّيَّة سَرَقُوسة، فصالـحَه أهلُها على أن يُـخْرِجوا إليه من أسْرَى المسلمين الذين كانوا عندهم ثلاث مئة وستّين أسيرًا.

وفي سنة ستين ومئتين: كانت المجاعة العامَّة بالـمَشْرق والمغرب، والوباء، والطاعون[4].

وفيها: تُوفِّي محمد بن إبراهيم بن عَبْدُوس[5] الفقيه العالم، الذي دوَّن «المجموعة»، وكان مُجابَ الدعوة.

---

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام ٦/ ٤٠٣.

(٢) تنظر جمهرة ابن حزم ٢٢١.

(٣) قوله: «ابن المضاء» من ر١.

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٧٣.

(٥) ترجمته في تاريخ الإسلام ٦/ ٥٩٦.

وفي سنة إحدى وستين ومئتين: تُوفِّي أبو الغَرانيق محمد بن أحمد بن الأغْلَب ليلة الأربعاء لستّ خَلَوْن من جُمادى الأُولى من هذه السنة، فكانت ولايتُه عشر سنين وخمسة أشهر ونصفًا[1]، في دولة الـمُسْتَعين بالله، والـمُعْتَزّ، والـمُهْتَدي، والـمُعْتَمِد في بعض أيَّامه.

ولاية إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغْلَب إفريقية[2]

وصِفَةُ ولايته أنّ أبا الغَرانيق كان عهدَ لأبنه أبي عِقال، واستحلفَ أخاه إبراهيم بن أحمد ألا يُنازِعَه في مُلكه بخمسين يَمِينًا. فلما ماتَ أبو الغَرانيق، أتى أهلُ القَيْرَوان إلى إبراهيم بن أحمد، وهو[3] إذ ذاك والٍ على القَيْرَوان. فقالوا له: قُمْ، فادخُل القصرَ، فأنتَ الأميرُ. وكان إبراهيم[4] قد أحسن السيرة فيهم، فقال لهم: قد علمتُم أنّ أخي قد عقد البيعةَ لابنه، واستحلفني خمسين يَمِينًا ألا أُنازِعَ ولَدَهُ ولا أدْخُلَ قصرَهُ. فقالوا له: تكون أميرًا في دارك بالقَصْر القديم، ولا تُنَازِعْ ولَدَهُ، فنحنُ كارهون لولايته ومبايعون لك وليس في أعناقنا له بيعةٌ. فركب من القَيْرَوان ومعه أكثر أهلها، فحاربوا أهلَ القَصْر حتى دخل إبراهيم داره، فبايَعَه مشايخُ أهل إفريقية ووجوهُها، وبايَعَه جماعةُ بني الأغْلَب[5].

وفي سنة اثنتين وستين ومئتين: تُوفِّي أبو زَيْد شَجَرة بن عيسى[6] القاضي بتونُس، وكان من خيار القُضاة، له مناقِبُ كثيرةٌ، وهو ابن تسع وتسعين سنة.

وفيها: أُسِّسَتْ قلعةُ مدينة تَنَس، أسَّسها البحريُّون من أهل الأنْدَلُس.

وفي سنة ثلاث وستين ومئتين: ابتدأ إبراهيم بن أحمد بن الأغْلَب ببناء مدينة رَقَّادة[7].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٨٣.

(٢) لفظة «إفريقية» ليست في أ، م.

(٣) في ر١: «وكان».

(٤) ليس في ر١.

(٥) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٨٤.

(٦) ترجمته في تاريخ الإسلام ٦/ ٣٤١.

(٧) ينظر عنها الروض المعطار ٢٧١.

وفي سنة أربع وستين ومئتين: كَمُل بناءُ القصر المعروف بالفَتْح، وانتقل إليه إبراهيم بن أحمد، وقَتْلُه للموالي بالقَصْر القديم لأنَّهم ثاروا عليه.

وفيها: فُتِحَتْ سَرَقُوسة، فتحها صاحبُ صِقِلّية[1] يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خَلَتْ لرمضان[2]، وقُتِل فيها أكثر من أربعة آلاف عِلْج، وأُصيب فيها من الغنائم ما لم يُصَبْ بمدينة من مدائن الشِّرْك، ولم يَنْجُ من رجالهم أحدٌ. وكان مُقامُ المسلمين بصِقِلّيّة[3] عليها إلى أن فُتحت تسعةَ أشهر، وأقاموا بعد فتحها شهْرَين، ثم تهدَّمت.

وفيها: قُتِل صاحبُ صِقِلّيّة جعفر بن محمد، قتله غلمانُه مع الأغْلَب بن محمد بن الأغْلَب، الـمُلَقَّبِ بخُرْج الرُّعُونة، وأبي عِقال الأغْلَب بن أحمد، وكانا محبوسَيْن عنده، فتولَّى خُرْج الرُّعُونة بَلَرم وضَبَطها، فوثبَ أهلُها عليه وعلى أبي عِقال ومن اتَّصل بهما، فأخرجوهم من صِقِلّيّة إلى إفريقية، ووَلِـيَ الحسن بن رَبَاح صِقِلّيّة.

وفي سنة خمس وستين ومئتين: غزا صاحب صِقِلّيّة الحسن بن رَبَاح الصائفة[4] إلى طَرْمِين، ودارت بينه وبين مُشْرِكي صِقِلّيّة حربٌ قُتِل فيها من المسلمين، ثمّ كانت لهم الكرَّة على المشركين، فهزموهم، وقَـتَلُوهم، وقتلوا بِطْرِيقَهم.

وفي سنة ست وستين ومئتين: كان القَحْط العظيم والغلاء الـمُفْرِط بإفريقية.

وفيها: أغزى صاحبُ صِقِلّيّة الرومَ، فالتقَى في البَحْر بمراكبهم، وهم في نحو مئة وأربعين[5] مركبًا، فدارت بينهم حربٌ شديدةٌ حتّى أسلم المسلمون مراكِبَهم وأخَذَها الرومُ. وانصرفَ مَن كان في تلك الـمَراكِب إلى بَلَرم، فأقاموا بها شهورًا يبثُّون السَّرَايا، ويغنمون أرضَ الروم المجاورين لهم.

---

(١) قوله: «فتحها صاحب صقلية» من ر١.

(٢) قوله: «يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت لرمضان» ليس في ر١.

(٣) ليست في ر١.

(٤) في ر١: «الروم بالصائفة».

(٥) في ر١: «أربع مئة».

وفي سنة سبع وستين ومئتين: وَلِـيَ عبدُ الله بن أحمد بن طالب التَّمِيميُّ القضاء، صارفًا لسُليمان بن عِمْران عنه.

وفيها: وَلِـيَ الـحُسين[١] بن العبَّاس جزيرة صِقِلِّيَّة.

وفيها: كانت فتنة وَلَد ابن طُولون، حين أراد التغلُّب على إفريقية. وها أنا أذْكُرُ قِصَّتَه إلى أن هُزم؛ وذلك أنّ العبَّاس بن أحمد بن طُولُون، ولَدَ صاحب مِصْر، قَدِمَ في هذه السنة في ثمان مئة فارس وعشرة آلاف راجل من سُودان أبيه على خمسة آلاف جَـمَل إلى مدينة بَرْقة، في ربيع الآخر، يُريد إفريقية، والتغلُّب عليها[٢]، وإخراج بني الأغْلَب عنها. وحمل مع نفسه من بيت مال مِصْر ثماني مئة حمل دنانير ذَهَبًا، فأعطى أصحابه الأرزاق بها[٣]. وقيل[٤]: إنّ مبلغ ما حمل من المال ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار، ومعه أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب مُكَبَّلًا، لأنّه أظهرَ الامتناعَ من الخروج معه، وكان أشارَ عليه بأن يؤخِّر التقدُّم إلى أطْرابُلُس حتّى يُصانِع البربرَ، فقال: أخشَى أن تَقْدَمَ العساكرُ من الشام قبل إحكام هذا الأمر ـ يعني عساكر أبيه، لأنَّه كان ثائرًا على أبيه ـ ويكون أيضًا في ذلك فُسْحةٌ لإبراهيم بن أحمد، فيتمهَّلَ في الاستعداد، ولكنّي أمضِي على فَوْرِي هذا، فآتي لَبْدة وأطْرابُلُس فجاءةً، ثمّ آخُذُ في استمالةِ البربر بعد ذلك بالعطاء والإفضال، وأبعدُ عن مِصْر، فلا يقوم لأحمد بن طُولُون ـ يعني أباه ـ أمَلٌ في مُطالَبتي لبُعْدي عنه[٥].

وخرج يريد لَبْدة[٦]، فاتَّصل خَبَرُه بإبراهيم بن أحمد، فأخرج إليه أحمد بن قُرْهُب في ألف وست مئة فارس، خيلًا مُـجَرَّدةً لا رَجْل فيها، وأمره[٧] بإغْذاذ

---

(١) في أ، م: «الحسن»، وهو تحريف، وسيأتي بعد قليل على الوجه.

(٢) في ر١: «يريد التغلب على إفريقية».

(٣) في ر١: «ببرقة».

(٤) هذا القيل وفيه كمية المال ليس في ر١.

(٥) ينظر تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٦/ ٢٣٨.

(٦) الروض المعطار ٥٠٨.

(٧) سقطت من أ.

السَّيْر والسُّرَى بالليل، حتّى دخل أطْرابُلُس قبل وصول العبَّاس بن أحمد بن طُولُون إلى لَبْدة. ثمّ أحشد ابن قُرْهُب مَن أمكنه من جند أطْرابُلُس وبَرْبَرِها، ثمّ بادر إلى لَبْدة، ودخلها. وأقبل العبَّاس بن طُولُون وقد صُنع له ببَرْقة خمسة آلاف بَنْد، فجعلَ له على كلّ جمل راجلًا ببَنْده. وزحف بثمان مئة فارس وخمسة آلاف راجل. فالتقى به أحمد بن قُرْهُب على خمسة عشر ميلًا من لَبْدة، وقد تأخَّرت الجمال بالرجَّالة أصحاب البنود، فلم يكن بينهم إلّا مناوَشة يسيرة حتّى انهزم أحمد بن قُرْهُب، وهو يظنُّ أنّ مَن ناوَشَهُ القتال من أصحاب ابن طُولُون كانوا مُقَدِّمةً للجيش. ووصل أحمد بن قُرْهُب إلى أطْرابُلُس منهزمًا. وركب العبَّاس بن طُولُون إثْرَه حتّى نزلَ أطْرابُلُس، ونصبَ عليها الـمَجانِيق، وناصَبَهم الحربَ. وأقامَ محاصِرًا لهم ثلاثة وأربعين يومًا، فتعدَّى بعضُ سودانه على بعض حُرَم البوادي، وهتكوا الـحُجب[1] فاستغاثَ أهلُ أطْرابُلُس بأبي منصور صاحِبِ نُفُوسة، فقام مُـحْتَسِبًا وناصِرًا جِيرانَه من الـمُسلمين، وزحفَ في اثني عشر ألفًا من رجال نُفُوسة إلى العبَّاس بن أحمد بن طُولُون، فناشبوه الحرب، فقال العبَّاس لأبي عبد الله الكاتِب: ما الرأيُ؟ فقال له: ببَرْقة خَلَّفْتَهُ! وألحَّ أهل نُفُوسة في محاربة ابن طُولُون، فانهزم، وخرجَ إلى بَرْقة بعد انتهاب أهل أطْرابُلُس لجميع عسكره. ولم يتلبَّس النُّفُوسيُّون منه بشيءٍ، بل تورَّعوا عنه. وكان إبراهيم بن أحمد قد حشدَ الأجناد، وضربَ حُلَى نسائه دنانيرَ ودراهمَ، إذ لم يُبْقِ أبو الغَرَانيق مالًا. ثمّ خرجَ بنفسه يريد أطْرابُلُس، فلقيه[2] خبرُ هزيمة ابن طُولُون، فبحث ابن الأغْلَب عن الأموال، وأخذها مـمَّن وُجدت عنده، فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مثاقِيل ابن طُولُون سِرًّا بما أمكنه، خوفًا أن تُؤخَذَ منه.

وفي سنة ثمان وستين ومئتين: كان فَتْكُ إبراهيم بن الأغْلَب بأهل الزاب، فقتلهم وقتلَ أطفالَـهم، وحُـمِلوا على العَجَل إلى الـحُفَر، فأُلْقوا فيها.

وفيها: عُزِل صاحبُ صِقِلّيَّة الـحُسين بن العبَّاس، ووليَها محمد بن الفَضْل[3].

---

(١) في ر١: «الستر».

(٢) في ر١: «فبلغه».

(٣) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٧٠.

وفي سنة تسع وستين ومئتين: تُوفِّي سُليمان بن حَفْص الفَرَّاء، وكان جَهْمِيًّا[١]. وكان يقول بخلْق القرآن، ودعا الناس إليه، فهمُّوا بقتله[٢].

وفي سنة سبعين ومئتين: تُوفِّي سُليمان بن عِمْران القاضي مَفْلُوجًا، وتُوفِّي حُسين بن زيد بن عليّ[٣]، وتُوفِّي أبو حاتِم هشام بن حاتِم الفقيه، وكان مُجاب الدعوة.

وفي سنة إحدى وسبعين ومئتين: تُوفِّي الـحُسين بن أحمد صاحب صِقِلِّيَّة، ووَليها سَوَادة بن محمد بن خَفاجة التَّميميُّ.

وفي سنة اثنتين وسبعين ومئتين: أغزى سَوَادة صاحبُ صِقِلِّيَّة سراياه إلى بلاد الرُّوم، فغَنِمت وانصرفت[٤].

وفيها: كانت وقائع بين الـمُسلمين وبين بِطْرِيق جاء من القُسْطَنْطِينة، يُقال له: نجفور[٥]، في عَسْكر كبير، فدخل مدينة سَبرينة، وخرجَ منها المسلمون بأمان إلى صِقِلِّيَّة.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومئتين: وثبَ أهل بَلَرم على سَوَادة بن محمد[٦] صاحب صِقِلِّيَّة وعلى أخيه وبعض رجاله، فوجَّهوهم مقيَّدين إلى إفريقية، واجتمعَ أهلُ البلد على أبي العبَّاس بن عليّ، فولَّوه على أنفسهم.

وفي سنة أربع وسبعين ومئتين: كان وصول أحمد بن عُمر بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغْلَب المعروف بحَبَشِيّ.

وفيها[٧]: تُوفِّي أحمد بن حُدَيْر بإفريقية، وله سُماعٌ من سُحْنون.

---

(١) قوله: «وكان جهميًا» ليس في ر١.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٩٨.

(٣) قوله: «وتوفي حسين بن زيد بن علي» ليس في ر١، وهو بلا شك غير حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فذاك أقدم وفاة.

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٤٢١.

(٥) يكتب هكذا، ويكتب «نقفور» أيضًا، وأصلُه كافًا أعجمية.

(٦) «ابن محمد» ليس في ر١.

(٧) هذه الفقرة ليست في ر١.

وفي سنة خمس وسبعين ومئتين: كانت لأهل صِقِلِّيَّة على المشركين[1] صَوْلة، فقُتل فيها من المشركين أكثر من سبعة آلاف، وغرق نحوٌ من خمسة آلاف، حتّى أخلى الرومُ كثيرًا من الـمُدن والـحُصون التي تُجاوِر الـمُسلمين. ووصلت سرايا المسلمين إلى الأرض الكبيرة، فسَبَتْ وانصرفت.

وكانت[2] بإفريقية هيجةٌ تُعرف بثورة الدراهم.

ثورة الدَّرَاهِم على إبراهيم بن أحمد

وذلك أنّ إبراهيم بن أحمد ضربَ الدراهم الصِّحاح، وقطعَ ما كان يُتعامَل به من القِطَع، فأنكرت ذلك العامَّة، وغلَّقوا الحوانيتَ، وتألَّفوا، وصاروا إلى رقَّادة، وصاحوا على إبراهيم، فحبسهم في الجامع. واتَّصل ذلك بأهل القَيْرَوان، فخرجوا إلى الباب، وأظهروا الـمُدافعةَ. فوجَّه إليهم إبراهيم بن أحمد وزيرَه أبا عبد الله بن أبي إسحاق، فرموه بالحجارة وسبُّوه، فانصرفَ إلى السلطان إبراهيم بن أحمد، فأعلمه بذلك. فركب إبراهيم إلى القَيْرَوان، ومعه حاجِبُه نَصْر بن الصَّمْصامة في جماعةٍ من الـجُند، فناصَبَه أهلُ القَيْرَوان القتال. فتقدَّم إبراهيم بن أحمد إلى المصلَّى، فنزلَ، وجَلَس[3]، وكفَّ أصحابَهُ عن قتالهم. فلما اطمأنَّ به مَـجْلِسُه، وهدأ الناسُ، خرجَ إليه الفقيه الزاهد أبو جعفر أحمد بن مُغِيث، فكان بينهما كلامٌ كثيرٌ. ودخل أبو عبد الله بن أبي إسحاق الوزير مدينةَ القَيْرَوان مع أحمد بن مُغِيث، فشقَّ سِماطَها وسَكَّن أهْلَها. فرجع إبراهيم بن أحمد إلى رَقَّادة، وأطلقَ المحبوسين بالجامع. وانقطعت النُّقُود والقِطَع من إفريقية إلى اليوم، وضربَ إبراهيم بن أحمد دنانيرَ ودراهمَ سمَّاها العاشِرِيَّة، في كلِّ دينار منها عشرة دراهم.

وفيها: عُزِلَ عبدُ الله بن أحمد بن طالب بن سُفْيان عن قضاء إفريقية وحَبْسِه، ثمّ أُرْسِلَ إليه بطعامٍ مَسْموم، أكَلَهُ في الـحَبْس، فمات من فوره في رَجَب. واستقضَى

---

(١) في ر١: «مشركيها».

(٢) هذه العبارة ليست في ر١.

(٣) في ر١: «فجلس» بدلًا من: «فنزل وجلس».

إبراهيمُ بن أحمد محمدَ بن عَبْدُون بن أبي ثَوْر، وكان جدُّه طحَّانًا، وكان يكتب اسْمَه: محمد بن عبد الله الرُّعَيْنيّ.

وفي سنة ست وسبعين ومئتين: كان الجهاد بصِقِلّيَّة في غزوة سَوَادة بن محمد إلى طَرْمين، فحاصرها.

وفيها: حَبَسَ إبراهيمُ بن أحمد كاتِبَه محمد بن حَيُّون المعروف بابن البريدي، فكتب إليه من السجن [من البسيط]:

هَبْنـي أسَـأتُ فَـأيْنَ العَفْـوُ والكَـرَمُ ... إذْ قـادَنِي نَحْـوَكَ الإذْعـانُ والنَّـدَمُ
يا خَيْرَ مَنْ مُـدَّتِ الأيْـدِي إليـه أمَـا ... تَرْثـي لِـصَبٍّ نَـهاه عنـدَك القَلَـمُ
بالَغْتَ في السخْطِ فاصْفَحْ صَفْحَ مقتدرٍ ... إنَّ الـمُلُوكَ إذا مـا استُرْحِموا رَحِمـوا

قال: فلما قرأ إبراهيم بن أحمد أبياته، قال: يكتب إليَّ: هبْني أسأتُ! وهو قد أساء، أمَّا إنَّه لو قال [من الوافر]:

ونحْنُ الكـاتِبُونَ وقَـدْ أسَـأنا ... فَهَبْنَـا لِلكِـرامِ الكاتِبِينـا

لعفَوْتُ عنه! ثمّ أمرَ، قبَّحه الله، بِه، فجُعلَ في تابوت مطبقًا عليه[1] حتّى مات، رحمه الله تعالى.

وفي سنة سبع وسبعين ومئتين: قَتَلَ إبراهيمُ بن أحمد حاجِبَه نَصْر بن الصَّمْصامة بِأن ضربه خمس مئة سَوْط، فلم ينطِقْ بكلمة، ولا تحرَّك من موضعه، ثمّ أمر بضرب عنقه، فقال لمن حَوْلَه: لا تظنُّوا أنّي أجزعُ من الموت، ووعدَهُم أنَّه يفتح يده ويغلقها ثلاث مرَّات بعد ضرب عُنُقه، ففعل. فأُخبر إبراهيم بذلك، فتعجَّب، وأمر بشقّ بطنه شقًّا لطيفًا، ويؤتى إليه بقلبه، فأُتي به[2]، فنظرَ منه إلى منظرٍ عجيب، وذلك أنَّه كان فائتًا في كبده، ووُجِدت فيه شَعَرات نابتةٌ في أكثر أجزائه.

---

(١) قوله: «مطبق عليه» من ر١.

(٢) قوله: «فأُتي به» من ر١.

وفي سنة ثمان وسبعين ومئتين: كانت ولايةُ أبي العبَّاس أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن الأغْلَب للمَظالم، وولايةُ محمد بن الفَضْل صِقِلّيَّة، وعَرْضُ ديوانِ الخراج على سَوادة النصرانيّ على أن يسلِم، فقال: ما كنتُ لأدَعَ ديني على رياسة أنالُـها، فقُطع بنصفَيْن وصُلِبَ.

وفي سنة تسع وسبعين ومئتين: كانت ولاية محمد بن الفَضْل صِقِلّيَّة، ودخلَ حضرةَ بَلَرم لليلتَيْن خَلَتا من صَفَر.

وفيها: قَـتَل إبراهيم بن أحمد من أهل إفريقية مَنْ قَـتَل بَطَرًا[١] وشهوةً. فممَّن قُتِل في هذه السنة: إسحاق بن عِمْران الـمُتَطَـبِّب المعروف بسَمِّ ساعة، قتله وصَلَبه[٢]. ومنهم: حاجِبُه فَتْح، ضربه بالسياط حتّى مات. وقتل فيها جميعَ فتيانه، وسَبَبُ ذلك أنَّه كان كثير الإصغاء إلى قول الـمُنَجِّمين والكَهَنَة، وكانوا قالوا له: إنَّه يقتله رجلٌ ناقِصُ العقل[٣]، وإنَّه يُمْكِن أن يكون فتًى، فكان إبراهيم، إذا رأى أحدًا من فتيانه، فيه حَرَكةٌ ونشاطٌ وحِدَّةٌ، يتقلَّد سيفًا، قال: هذا هو صاحبِي فيقتله. فلما قتل منهم جماعةً، وقعَ بقلبه أنَّه قد استفسد إليهم، فضمَّه الـحَذَرُ منهم إلى قَتْل جـمِيعهم، فقتلهم في هذا العام، واستخدم عِوَضًا عنهم السودان. ثمّ عرض لهم منه ما عرض للفتيان الصَّقالِبة: فقتل السُّودان أجمعين.

وفي سنة ثمانين ومئتين: كان الإيقاع برجال بَلَزْمة[٤]، وقِصَّتُهم أنَّ إبراهيم بن أحمد بن الأغْلَب[٥] كان قد حارَبَهم واستَقْدَم منهم إلى مدينة رَقَّادة نَحْوًا من سبع مئة رجل من أبطالهم، فأنزلهم، ووَسَّعَ عليهم، وبنَى لهم دارًا كبيرةً تشتمل على دُور ترجع إلى باب واحد، وأسكنَهُم فيها. فلما سكنوا واطْمأنُّوا، جمع ثِقات رجاله لأخْذِ

---

(١) ليست في أ.

(٢) انظر عنه الوافي بالوفيات للصفدي ٨/ ٤١٩.

(٣) في ر١: «الخلق».

(٤) ينظر عنها الروض المعطار ١٠٣.

(٥) «ابن الأغلب» ليس في ر١.

أرزاقهم، ثمّ أمرهم بمصاحبة[1] ابنه عبد الله لِـمَا أمره به. فلما اجتمعوا إليه، ركب إلى دار البَلَزْميّين في الجند، فقتلهم عن آخرهم، بعد أن دافعوا عن أنفسهم إلى وقت العصر. وكان ذلك من أسباب انقطاع دولة بني الأغْلَب، إذ كان أهلُ بَلَزْمة في نحو ألف رجل من أبناء العَرَب والـجُنْدِ الداخلين إلى إفريقية عند افتتاحها وبعده، وكان أكْثَرُهم من قَيْس، وكانوا يُذِلُّون كُتامة. فلما قتلهم إبراهيم، استطالت كُتامة، ووجدت السَّبِيل للقيام مع الشيعيّ على بني الأغْلَب.

وفيها: كان تمنُّع البلاد ومخالَفَتُها على السلطان إبراهيم بن أحمد، وانتزاءُ من انتزى عليه[2]؛ وذلك أنّ أهلُ تُونُس والجزيرة والأُرْبُس[3] وباجة وقَمُودة[4] خالفوا عليه وقدَّموا على أنفسهم رجالًا من الـجُند وغيرهم، لأنّ السلطان إبراهيم بن الأغْلَب[5] أخذ عبيدَهم وخيلَهم، وجارَ عليهم، فصارت إفريقية عليه نارًا مُوقَدةً، ولم يَبْقَ بيده من أعمالها إلا الساحِل والشَّرْق إلى أطْرابُلُس، فحفرَ حفيرًا حوالَيْ رَقَّادة، ونصبَ عليها أبواب حديد، وجمعَ إلى نفسه ثِقاته، وقرَّب السُّودان من قصره، وقد كان جمع منهم خمسة آلاف أسْوَد[6].

وفيها: كانت وقائعُ انجلت عن فتح تُونُس عَنْوةً، وذلك أنّ أهل قَمُودة تحركوا لقتال إبراهيم بن الأغْلَب؛ فأخرجَ إليهم مَيْمونًا الـحَبَشيَّ، فقاتلهم حتّى انهزموا، وقَـتَلَ جماعةً منهم، ثمّ فعلَ ذلك أهلُ تُونس، فهزمهم مَيْمون أيضًا، وهزم أهل الجزيرة وصَطْفُورة، وقتلَ منهم كثيرًا، حتى سِيقَ القَتْلَى في العَجَل إلى القَيْرَوان. ثمّ دُخِلت تُونُس بالسَّيف، لعشر بقَين من ذي الحجَّة، فانتُهِبَت الأموالُ، وسُبِيَت الذُّرِّيَّة، واسْتُحِلَّت الفُروج[7].

---

(١) في م: «بمصابحة»، وفي ر١: «بمصالحة».

(٢) بعد هذا في ر١: «فيها».

(٣) ينظر الروض المعطار ٢٤، وقد تقدم ذكرها.

(٤) الروض المعطار ٤٧٢.

(٥) في ر١: «ابن أحمد»، وكله صواب.

(٦) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٧٢.

(٧) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٧٢.

ومـمَّا كان بإفريقية في هذا العام، دخولُ أبي عبد الله[١]، داعية الشيعة، إفريقية، ونزوله بكتُامة منها[٢]. فلنذكُرِ الآن مبتدأ أمره مختصرًا، إلى أن استقلَّ بالـمُلْك. ثمّ[٣] نرجع إلى ما كُنَّا بصَدَده.

ابتداءُ الدولة العُبَيْديَّة الشيعيَّة

قال الوَرَّاق وغيرُه[٤]: لم تزل الشيعة مُنْذُ مات عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه تدعو إلى إمامٍ معصومٍ، يقومُ بالحقِّ، على زَعْمهم؛ فتُرْسِلُ دُعاةً إلى سائر النواحي، فلا ينجح لهم سَعْيٌ. ثمّ تفاوضوا وتراسَلوا على أن يُرسلوا داعيًا إلى المغرب، يدعو الناس إلى التديُّن بحبِّ أهل البيت، وتكاتَبوا بذلك من سائر الآفاق. فاختاروا منهم رجلًا ذا فَهْم، وفصاحة، وجدال، ومعرفة، يُسمَّى أبا عبد الله الصَّنْعانيَّ، وجَمَعوا له مالًا يتقوَّى به على سَفَره. فسارَ أبو عبد الله هذا إلى مَوْسِم الحجّ ليجتمع مع من يحجُّ تلك السنة من أهل المغرب، ويذوق أخلاقهم، ويطَّلِعَ على مذاهبهم، ويتحيَّل على نَيْل الـمُلْك بضعيف[٥] الـحِيَل. فسُبْحَان مُقَدِّر المقدور، ومحكم الأمور، كيف يشاء! لا إلهَ إلّا هو[٦]. فلما وصل للمَوْسِم، لا للحَجّ، لأنَّ الحجَّ ليسَ من مذهبهم الفاسد، بل تكلَّف حضورَه ليتسبَّب في مُراده، فرأى في الـمَوْسِم قومًا من أهل المغرب، فلصقَ بهم وخالَطَهُم. وكانوا نحو عشرة رجال[٧] من قَبِيل كُتامة، مُلْتَفِّين على شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم، فأخبروه بِصفَتها[٨]، وسألهم عن مذهبهم،

---

(١) في ر١ بدلًا مما تقدم: «وفيها: دخل أبو عبد الله الشيعي». قلنا: وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا (الوافي ١٢/ ٣٢٨).

(٢) قوله: «إفريقية ونزوله بكتامة منها» ليس في أ.

(٣) من هنا إلى آخر الفقرة ليس في أ.

(٤) ليست في أ، م.

(٥) في ر١: «بصعيب».

(٦) هذا الدعاء كله ليس في ر١.

(٧) «رجال» ليست في ر١.

(٨) في ر١: «عن صفتها».

فصَدَقوه عنه. فتكلَّم أبو عبد الله الداعي في المذاهب، فوجدَ الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضيَّة النكَّارة، فدخلَ عليه من هذه الثُّلْمة. ولم يزل يستدرجهم ويَخْلُبهم بما أُوتِيَ من فَضْل اللسان والعلم بالجَدَل، إلى أن سَلَبهم عقولَهم بسحر بيانِه. فلما حانَ رجوعُهم إلى بلادهم، سألُوه عن أمره وشأنه، فقال لهم: أنا رجلٌ من أهل العراق، وكنتُ أخْدُم السُّلطان، ثمّ رأيتُ أنَّ خِدْمته ليست من أفعال البِّر، فتركتُها وصرتُ أطلب المعيشة من المال الحلال، فلم أرَ لذلك وجهًا إلّا تعليم القُرآن للصبيان، فسألتُ أين يتأَتّى ذلك تأَتِّيًا حَسَنًا، فذُكِر لي بلاد مِصْر. فقالوا له: ونحن سائرون إلى مِصْر، وهي طريقُنا فكُنْ في صُحْبتنا إليها، ورغبوا منه في ذلك. فصحبهم في الطريق. فكان يُحَدِّثهم، ويميل بهم إلى مذهبه، ويلقي إليهم الشيْء بعد الشيْء، إلى أن أُشربت قلوبُهم محبتَه، فرغبوا منه أن يسير(١) إلى بلادهم ليعلِّم صبيانهم، فاعتذرَ لهم ببعد الشقَّة، وقال: إن وجدتُّ بمصر(٢) حاجتي، أَقَمْتُ بها، وإلّا فرُبَّما أصْحَبُكم إلى القَيْرَوان. فلما وصلوا مِصْر، غابَ عنهم فيها(٣) كأنَّه يطلب بغْيتَه. ثمّ اجتمعوا به وسألوه، فقال لهم: لم أجِدْ بهذه البلاد ما أُريد. فَرَغَّبُوه أن يصحبَهُم، فأنعم لهم بذلك. فكانوا في صُحبته إلى أن وصلوا القَيْرَوانَ، فراودُوه على أن يصل معهم إلى بلادهم، وضَمِنوا له ما أرادَ من تعليم الصِّبْيان. فقال لهم: لا بدَّ لي من المقام بالقَيْرَوان، حتّى أطْلُبَ فيها حاجتي، فإن اتَّفق لي فيها غَرَضِي(٤)، وإلّا نهضتُ إليكم. وكان شيخُهم أحْرَصَهم عليه وأكْرَمَهم له، فوصفَ له منزله وموضعَهُ من قبيلة كُتامة، فأقامَ بالقَيْرَوان يتعرَّف أخبارَ القبائل حتّى صحَّ عنده أن ليس في قبائل إفريقية أكثرُ عددًا، ولا أشَدُّ شوكةً، ولا أصْعَبُ مَرَامًا على السُّلطان، من كُتامة.

---

(١) في ر١: «يصير معهم».

(٢) «بمصر» ليست في ر١.

(٣) ليست في أ، م.

(٤) في ر١: «فإن وجدتها» بدلًا من: «فإن اتفق لي فيها غرضي».

فلما تقرَّر ذلك عنده، نهَض نحو صاحبه الشيخ الكتاميّ، فاشترى بَغْلةً شَهْباء، ودخلَ الطريق مع الرِّفْقة حتى قرب من موضع الشيخ صاحبه، فعدل عن الطريق إليه، ومرَّ في الطريق بأنْدَرٍ[1]، والبَقَر فيه تَدْرسُ الزَّرْع، ورجلٌ كَهْلٌ من أهل كُتامة[2] جالسٌ فيه مع ابنه، فقرب منهما، وسَلَّم عليهما. فقاما إليه، ورحَّبا به، ورغبا منه في النزول عندهما، فأجابهما إلى ذلك، فأنزلوه وأكرموه. فقال الداعي للرجل: ما اسم ولدك هذا؟ قال: تَـمَّام. قال: وما اسمُك أنت[3]؟ قال: مُعارِك. فقال في نفسه: تمّ أمْرُنا إن شاء الله[4]، لكن بعد مَعَارِك. ثمّ أرادَ الداعي الانصراف، فصرفوه مع امرأة تَدُلُّه على الطريق، لأنَّ الحرب كانت بينهم وبين بني عمِّهم. فسارَ حتى نزل في منزل من منازل كُتامة. فأتى المسجد، وفيه مُعَلِّمٌ يُعَلِّمُ الصبيان. فقام إليه المعلِّمُ، وسَلَّم عليه، وهو راكبٌ على بغلته الشهباء، فجعل المعلِّمُ يُطيل النظر إليه، فاسترابَ لذلك أبو عبد الله، ونزل عن الدابَّة، ودخل المسجد. ثمّ دعا الـمُعلِّمَ، فقال له: لقد رأيتك تنظر إلي كثيرًا وإلى البَغْلة. فقال له: ذلك لسَبَبٍ أنا أقولُه لك، وذلك أنَّه كان فيما تقدَّم رجلٌ من كُتامة كاهِنٌ، يُقال له: فَيْلَق، وكان، إذ رأى تفاتُنَهم، يقول لهم: إنَّما تَـرَون الحرب إذا جاءكم الرجلُ الشرقيُّ صاحبُ البغلة الشَّهْباء. فلما رأيتُك، تذكَّرتُ قولَه. فلما وَقَر ذلك في سمعه، استبشر. وكان ذلك والذي قبله من الفأل[5] تقويةً له على أمره[6]، وزيادةَ إقدام، لولا هو، لم يقدر أن يتجاسر على شيء منه، فسبحان مُسَبِّب الأسباب!

فسار أبو عبد الله الداعي حتّى وافى[7] منزلَ الشيخ صاحبه الكُتاميّ، فقصدَ إلى المسجد، ونزل به، وفيه مُعَلِّمٌ يعلِّم الصبيان، وعنده أبناء الشيخ صاحبه. فلما

---

(١) الأندر: البيدر.

(٢) في أ: «وكهل من كتامة»، وما هنا من ر١.

(٣) في ر١: «وأنت»، بدلًا من «وما اسمك أنت».

(٤) «إن شاء الله» ليس في ر١، ولعله الأصوب من غيرها، فالقائل دَجّال أشر.

(٥) في ر١: «وكان ذلك والقائل الذي قبله تقوية».

(٦) بعد هذا في ر١ إلى آخر الفقرة: «ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا».

(٧) في ر١: «ثم سار حتى وافى».

حانَ وقت الظُّهر، أذَّن الـمُعَلِّم، فسمعَ الشيخُ الأذان، فخرجَ إلى المسجد، فرأى أبا عبد الله، فسلَّم عليه، وعانقه. فلما أراد الـمُعَلِّم الدخول للمحراب، أخَّره عنه الشيخ، وقدَّم أبا عبد الله[1] الداعي. فلما انقضت الصلاة، قامَ معه إلى منزله، وبالغَ في إكرامه، وتحدَّث معه إلى أن حانت صلاة العَصْر، فخرجَ معه للصلاة. فاستراب مُعلِّم الصبيان بذلك، فترك ذلك المسجد والتعليم فيه، وانصرفَ. وصارَ أبو عبد الله في ذلك المسجد يُصلِّي ويُعلِّم الصبيان. واجتهد في تعليم الأولاد، فجمعوا له أربعين دينارًا، وزادَ عليها الشيخ، وأتى بها إلى أبي عبد الله، فدفعها له، واعتذر له من ذلك. فتركها أبو عبد الله أمامه، وردَّ يده إلى كيسٍ كان معه، وصَبَّ منه خمس مئة دينار أمام الشيخ، وقال له: لستُ بمُعَلِّم الصبيان، إنّما الأمر ما أُخبرك به، فاسمع، إنّما نحن أنصارُ أهلِ البَيْت، وقد جاءت الرواية فيكم يا أهل كُتامةَ إنّكم أنصارُنا، والمقيمون لدولتنا، وإنّ الله يُظْهِر بكم دينَه، ويُعِزُّ بكم أهلَ البيت، وإنّه سيكون إمامٌ منهم أنتم أنصارُه، والباذِلون مُهْجَتَهم دُونَه، وإنّ الله يستفتح بكم الدنيا كلَّها، ويكون لكم أجْرُكم مُضاعَفًا، فيجتمع لكم خيرُ الدنيا والآخِرة. فقال له الشيخ: أنا أرْغَبُ فيما رغبتَني فيه، وأبْذُلُ فيه مُهْجَتي ومالي، أنا ومَن اتَّبعني، وأنا أطْوَع إليك من يدك: فمُرْ بما شِئْتَ، أمْتَثِلْه. فقال له: ادْعُ الخاصّةَ من بني عمِّك، الأقْرَب فالأقْرَب. فقال: نعم. فنظر الشيخ فيما قالَهُ، وبثَّ دعوته في أقاربه ومَن يختصُّ به.

وجاء شهر رمضان، فقال أبو عبد الله للشيخ: إنّ رمضان قد جاء، ومَذْهَبُنا أنّه لا تُصَلَّى التَّراويحُ، لأنّها ليسَتْ من سُنّة النبيّ ﷺ، وإنّما سَنَّها عُمَر[2]، ونحن نُطَوِّل القراءة في صلاة العشاء الآخرة، ونقرأُ بالسُّوَر الطِّوال، فيكون ذلك عِوَضًا عن التَّراويح. فقال له الشيخ: أنا طائعٌ لك. فأفعلُ ما تُريده، فقطعَ التراويح[3]. وبلغ خبرُ هذه الصلاة ولُـمَعٌ من أخبار هذا الداعي إلى بعض من اتَّصل بمنزل الشيخ وبأخيه. فسارَ أخو الشيخ إليه، وقال له: ما لكَ ولهذا الـمَشْرقيّ الذي أفسدَ دينَكَ،

---

(١) «أبا عبد الله» ليست في ر١.

(٢) بعد هذا في م: «رضي الله عنه»، ومثل هذا الشيعي الحاقد لا يترضى عن سيدنا عمر.

(٣) «فقطع التراويح» سقطت من أ، م.

وغَيَّر مذهبك؟ فلما فرغَ من كلامه، قال له الشيخُ: أنا أدعوك للأمر الذي دخلتُ فيه، فإمَّا أن تتقلَّد ما تقلَّدتُّه، وإمّا أن لا تلقاني بِذَمِّ مَنْ قد بَلَوْتُ خَيْرَه وفَضْلَه ودينَه(١). فانصرفَ عنه أخوه مُغْضَبًا. وانفردَ الشيخ مع سائر الجماعة(٢)، فوصفَ لهم أبا عبد الله بكلّ فضيلةٍ، حتّى تمكّنت محبَّتُه في قلوبهم، وقد تقرَّر تعظيمه في نفوسهم، ثمّ أخرجه إليهم، وقال له: كَلِّمْهم يا أبا عبد الله. فكَلَّمهم بلسانه، وقال لهم: أنتم أنصارُ أهل البيت وشيعتُه، حتّى خلبَ عُقولَـهم بحلاوة لفظه(٣)، فلم يبرحوا حتّى دخلوا في دعوته.

ثمّ إنّ أخا الشيخ توجَّه إليه، يفخُرُ عليه بُمعلِّم أولاده، ويدَّعي أنّه أعْلَمُ من أبي عبد الله، ويطلب مُناظَرَتَها، فتواعدوا لذلك. ولـمّا حانَ الوعدُ، جاء أخو الشيخ بُمعَلِّمه وأبنائه، وبلغ أخاه مَـجِيئُه، فأتى بجماعة من بني عمِّه مـمَّن دخل في مذهبه، وقال لهم: إذا نحن اجتمعنا، اضْرِبوا أنتم على قَيْطُون أخي كأنَّكم من أعدائه، وأمر جماعةً أُخرى، فكمنت له في طريقه، فبينما أخو الشيخ مع مُعَلِّمه وأولاده، إذ صَرَخت صارخةٌ من نحو قَيْطونه، فأسرعَ يركض إلى ناحيته، فخرج عليه الكمين، فخبطوه بأسيافهم، وتركوه عَقِيرًا. وبلغ الشيخ خبر قتل أخيه. فبادر كأنَّه لا علمَ عنده من ذلك، وجاءه بنو عمِّه يُعَزُّونه في أخيه، فذُبِحت البَقَرُ، وصنَع طعامًا لبني عمِّه ونَعَى لهم أخاه، واحتال على قوم من بني عمِّه، وأخذَ عليهم العهود والمواثيق بطاعة الداعي، فاجتمعَ له منهم خلقٌ كثير.

وأقامَ هذا الشيخ في حربٍ مع قومه وبني عمِّه مدَّةً من سبعة أعوام، إلى أن وافاه أجَلُه. فلمّا حضرَتْه الوفاة، جمعَ بني عمِّه وقَرابته، وقال لهم: أُوصِيكم بهذا الرجل ألّا تختلفوا عليه، وأوصى أبا عبد الله على أولاده، وقضى نحبه. فالتزمت كُتامة الطاعة لأبي عبد الله(٤)، ودخلت قبائل كثيرةٌ في دعوته. فصيَّر لهم ديوانًا، وألزمهم العَسْكَرِيَّة،

---

(١) «ودينه» ليست في ر١.

(٢) في ر١: «أصحاب أخيه».

(٣) قوله: «حتى خلب عقولهم بحلاوة لفظه» ليس في ر١.

(٤) قوله: «وقضى نحبه، فالتزمت كتامة الطاعة لأبي عبد الله» ليس في ر١.

وقال لهم: أنا لا أدعوكم لنفسي، وإنّما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت، الذي صِفَتُه كذا وكذا. ووصفَ لهم من كراماته ما تُنْكِره العقولُ، فكانت تَصِحُّ عندهم، ويقول لهم: هو صاحبُ هذا الأمر، وأنا مُتَصَرِّفٌ بين يديه إذا ظَهَر. يعني عُبَيْد الله، ولم يكن رآه قط، وإنّما يسمع أخباره من شيوخ[1] الشيعة، وكان يعتقد ذلك اعتقادًا صحيحًا، لا مِرْيَةَ فيه، إلى أن صفا له أمرُ البربر، فنازل الحواضِرَ وهزم مَلِكَ إفريقية، وانتزعها من يديه.

وفي سنة إحدى وثمانين ومئتين: أمر إبراهيم بن الأغْلَب صاحبُ إفريقية مَيْمونًا الـحَبَشيَّ أن يسير إلى تونُسَ، فيقتل بها جماعةً من بني تَـمِيم وغيرهم، فقُتلوا وصُلبوا على بابها. فوفد أكابِرُ أهل تونُس مع مَيْمون الـحَبَشيّ، فكسا السُّلطان ميمونًا الخزَّ والوشي والديباج، وطوَّقه بالذَّهَب، وحَـمَله على فرس، وصَرَفه إلى تونُس من غده.

وفيها: خرج السلطان إبراهيم بن الأغْلَب إلى تونُس، لثمان خَلَون من رَجَب، فاستوطنها.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين: انعقد الصُّلْحُ بين أهل صِقِلّيَّة والروم لأربعين شهرًا، على إخراج ألف أسير من المسلمين، وعلى أن تكون عندهم رَهائن الإسلام في كلّ ثلاثة أشْهر ثلاثة من العرب وثلاثة من البربر.

وفيها: قَدَّمَ إبراهيم بن الأغْلَب بنيه على بلاد إفريقية.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئتين: رجع إبراهيم بن أحمد من تونُس إلى رَقَّادة، وخرج أبو منصور أحمد بن إبراهيم إلى أطْرابُلُس، وخرج أبو بَحْر بن أدْهَم إلى مِصْر.

وفيها: كانت وقعة نُفُوسة، وذلك أنّ إبراهيم بن أحمد اعترضَتْه نُفُوسة بين قابِس وأطْرابُلُس، ومنعَتْه الجواز، وكانوا في زهاء عشرين ألف رجل، لا فارسَ معهم، فناصبهم الحربَ، وقاتلوهم قتالًا شديدًا حتى هزموهم وقتلوا أكثرهم. ثم تَـمادى إلى مدينة أطْرابُلُس، فقتلوا بها أبا العبَّاس محمد بن زيادة الله بن الأغْلَب[2]، وكان

---

(١) في ر١: «ملوك».

(٢) تنظر الحلة السيراء لابن الأبار ١/ ١٧٩.

أديبًا ظريفًا، له تواليف، وسببُ قتله أنّ الـمُعْتَضِد بالله العبَّاسيَّ كتب إلى إبراهيم بن أحمد يُعَنِّفُه على جَوْره وسوء فعله بأهل تونُس، ويقول له: إن انتهَيْت عن أخلاقِك هذه، وإلّا، فسَلِّم العَمَلَ الذي بيدك لابن عمّك محمد بن زيادة الله[1]. ثمّ نهض من أطرابُلُس إلى تاوَرْغا: فقتلَ بها خمسة عَشَر رجلًا، وأمر بطَبْخ رُؤوسِهم، مُظْهِرًا أنّه يُريد أكلها، هو ومَن معه[2] من رجاله، فارتاع أهلُ العسكر منه، وقالوا: قد خُولِطَ. فانفَضَّ الناسُ عنه، فلما رأى ذلك، خَشِيَ أن يبقى وحده. فرجعَ إلى تونُس، فجعلَ عقوبة من انفضَّ عنه غُرْمَ ثلاثين دينارًا، فسمي غُرْمَ الهاربين.

وفي سنة أربع وثمانين ومئتين: كانت وقعةٌ بنُفُوسة لأبي العبَّاس بن إبراهيم، فقتل منهم مقتلةً عظيمةً، وأسر منهم نحو ثلاث مئة. فلما وصل بهم إلى والده إبراهيم بن أحمد، دعا بهم. فقُرِّبَ إليه شيخٌ منهم، فقال له إبراهيم: أتعرف عليَّ بن أبي طالب؟ فقال له: لعنك الله يا إبراهيم على ظُلْمك وقتلك، فذبحه إبراهيم، وشَقَّ عن قَلْبه، وأخرجَهُ بيده، وأمرَ أن يُفْعَلَ ببقيَّة الأُسارى كذلك، حتّى أُتي على آخرهم. ونُظِمَتْ قلوبُهم في حِبال، ونُصِبَتْ على باب تونُس.

قصَّة ابن الأغْلَب مع الشيخ الصالح أبي الأحْوَص[3]

وذلك أنّ أبا الأحْوَص أحمد بن عبد الله المكفوف المتعبِّد، من أهل سُوسة، كان زاهدًا وَرِعًا[4]. فلمّا أكثر إبراهيم بن أحمد الـجَوْر والقتل، دعا برجل من أهل سُوسة، وأملَى عليه رسالة إلى إبراهيم، كان في فَصْل منها: «يا فاسِق، يا جائر، يا خائن، قد حِدتَّ عن شرائع الإسلام، وعن قريبٍ تُعاين مَقْعَدَك من جهنَّم، وسَتَرِد فتَعْلَم». وبعث به إليه، فلما قرأه، غَضِبَ وبعث إلى أبي الأحوص من قال له: عَذَرْناك لفضلك

---

(١) الحلة السيراء ١/ ١٨٠ نقلًا من تاريخ الرقيق.

(٢) في م: «ومعه».

(٣) جاء العنوان في ر١ كما يأتي: «قصة إبراهيم بن أحمد مع الشيخ الصالح أحمد بن عبد الله بن الأحوص»، وترجمة أبي الأحوص هذا في ترتيب المدارك ٤/ ٣٩٠.

(٤) العبارة في ر١: «وذلك أن أبا الأحوص كان متعبدًا زاهدًا من أهل سوسة».

ودينك، ولكنِ ابعثْ إليَّ الذي كتبَ الكتاب، وبالله لَئِن لم تفعل، لأقْتُلَنّ فيه من أهل سُوسة كذا وكذا، ويكون إثمُ ذلك في عُنُقك. فقال أبو الأحوص للرسول: قُلْ له: لَئن قتلتَ ألفًا، لا يكون إثْمُهم إلّا عليك، ولو عَمِلْتَ ما عَمِلْتَ، ما أعلمتُك بالرجل، فتُبْ إلى خالِقك، وارجع عن جورك. فأمسكه الله عنه ومات أبو الأحْوَص في هذه السنة.

وفي سنة خمس وثمانين ومئتين: كانت فتنةٌ بصِقِلّيّة، بين عَرَبها وبَرْبَرها، وفي خلال ذلك، وردت كُتُب ابن الأغْلَب يدعوهم إلى الرجوع للطاعة، ويؤمِّنُهم أجمعين، حاشَى أبا الحسن بن يزيد وولدَيْه والـحَضْرَميَّ، فتقبَّض عليهم، وبعثَ بهم إلى إبراهيم بن أحمد. فأمّا أبو الحسن، فإنّه تناول سُمَّـا، فمات من ساعته، وصُلبت جُثّتُه: وقُتل وَلَداه، وجعل إبراهيم من يُضاحِك الـحَضْرَميَّ ويُهازِلُه، فقال له: ليس هذا وَقْتَ هَزْل، وأمر به، فقُتل بالـمَقارِع بين يديه.

وفي سنة ست وثمانين ومئتين: سخطَ إبراهيم بن الأغْلَب على جماعة من فتيانه وقتلهم.

وفيها: كانت وقعةٌ بين أبي العبَّاس بن إبراهيم بن أحمد بن الأغْلَب وبين بني بَلْطِيط ببَسْكِرة[1]، ففرَّق جموعَهُم، وقتلَ عددًا كثيرًا منهم، وأصلحَ ما كان التاث هناك.

وفي سنة سبع وثمانين ومئتين: كانت بِصقِلّيّة مَلْحَمةٌ كبيرةٌ؛ وذلك أنّ أبا العبَّاس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد[2] أخرجهُ أبوه بالأُسطول مُصْلِحًا لها، فأسرعَ إلى بَلَرْم يُؤمِّن أهْلَها. فأتاهُ قاضيها في جماعةٍ من أهلها، فحبسَهُم عند نفسه وصرفَ القاضي. ثمّ وجَّه إليهم ثمانية مشايخ من أهل إفريقية، فحبسوهم مكافأةً لفعله في مشايخهم. ثمّ زحفوا إليه وحاربوه، فانهزموا، وقُتل منهم عددٌ كثيرٌ، ودُقَّت لهم سُفُنٌ، وتمادت هزيمتهم إلى بَلَرْم. ثمّ زحف إليهم، فحاربَهُم على باب بَلَرْم، وقتلَ منهم عددًا كثيرًا، وطلبوه بالأمان، فأمَّنهم. ودخلها لعشر بقين من رمضان من السنة[3].

---

(١) ينظر عنها معجم البلدان ١/ ٤٢٢.

(٢) تنظر الحلة السيراء ١/ ١٧٤.

(٣) ذكر ذلك ابن الأثير في الكامل ٧/ ٥٠٥-٥٠٧ بتفصيل أكثر.

وفي سنة ثمان وثمانين ومئتين: أخرج إبراهيم بن أحمد ولده أبا عبد الله في جيش كثير إلى الزاب.

وفيها: أغزى أبو العبَّاس صاحبُ صِقِلّيَّة، فدخل مدينة زلَّة[(١)] عَنْوةً، وغنم فيها غنائمَ[(٢)] كثيرةً، واستأمنت له حصونٌ، وأعطوه الجزيةَ.

وفي سنة تسع وثمانين ومئتين: أظهرَ صاحبُ إفريقية إبراهيم بن أحمد التوبة لـمّا استقام أمرُ أبي عبد الله الداعي بكُتامة، فأرادَ إبراهيم بن أحمد أن يُرْضِيَ العامَّة، ويستميلَ قلوبَ الخاصَّة بفعله، فردَّ الـمَظالِـم، وأسقطَ القَبالات، وأخذ العُشُرَ طعامًا، وتركَ لأهل الضِّياع خَراجَ سَنَةٍ، وسَمَّاها سنة العَدْل، وأعتقَ مماليكه، وأعطَى فُقهاءَ القَيْرَوان ووجوهَ أهلها أموالًا عظيمةً ليُفَرِّقوها في الضُّعفاء والمساكين، فاسْتُؤكِلَتْ وأُعْطِيَتْ من لا يستحقُّها، وأُنْفِقَتْ في اللَّذَّات، وصُرِفَتْ في الشَّهَوات. وقدِم ولدُه أبو العبَّاس من صِقِلّيَّة مُسْتَدْعًى، فأسلم إليه أبوه الـمُلْكَ، فولَّى أبو العبَّاس على الكُوَر من أحبَّ.

ومن أخبار إبراهيم بن أحمد على الـجُمْلة ووَفاته

كان مولدُه يوم الأضحى سنة سبعٍ وثلاثين ومئتين[(٣)]، وتوفِّي يوم الاثنين لثلاث عشْرةَ ليلة بقيت من ذي القعدة من هذه السنة المؤرَّخة بأرض الروم، وسِيقَ مَيّتًا إلى جزيرة صِقِلّيَّة، فدُفن بها بعد ثلاثة وأربعين يومًا من موته، وكان عُمُره اثنين وخمسين[(٤)] سنة، ومدَّةُ ولايته ثماني وعشرين سنة وستَّة أشهر واثنَيْ عشَرَ يومًا. وأقام في أوّل ولايته سبعة أعوام على ما كان أسلافُه من حُسْن السيرة وحَـمِيد الأفعال. ثمّ تغيَّرت أحواله، وأخذَ في جمع الأموال. ثم صارَ في كلّ سنة يزداد تغيُّرًا وسوء حالٍ. ثمّ اشتدَّ نكره[(٥)]؛

---

(١) هكذا في النسختين، وغيّرها ناشر (م) إلى «ريُّه».

(٢) ليست في ر١.

(٣) في أ: «ثلاثين ومئتين» ولا يستقيم ذلك مع عمره الذي سيذكره بعد قليل.

(٤) في أ: «وأربعين»، وهو خطأ بيّن.

(٥) في م: «نكاده»، وهو تحريف.

فأخذ في قتلِ أصحابه وحُجَّابه، حتى أنَّه قتل ابنه الـمَكْنِيَّ بأبي الأغْلَب، وقتل بناته، وأتى بأُمور لم يأتِ بها أحدٌ غيره. وكان كثير الـمَلَلِ، شديدَ الـحَسَد. وكانت له في بدء أمره سيرةٌ حَسَنةٌ، وأفعالٌ محمودةٌ، ثمّ غلب عليه خِلْطٌ سَوْداويٌّ، فتغيَّر، وساءت أخلاقُه كما ذكرنا. فقيل: إنّه افتقد منديلًا صغيرًا، كان يمسح به فمه، وكان سقط من يد بعض جواريه، فأصابه خادمٌ له، فقتلَ بسببه ثلاث مئة خادم. وكان سببَ قتله لولده ظنٌّ منه به، فضُربت[1] رقبتُه بين يديه صَبْرًا. وقتل إخْوَتَه ثمانيةً: ضُربت أعناقُهم بين يديه. وكانت أُمُّه، إذا وُلِدَت له ابنةٌ، أَخْفَتْها ورَبَّتْها، لئلا يقتلها، حتّى اجتمع عندها منهنَّ ستَّ عشْرةَ جارية، كأنَّهُنَّ البدور، فقالت له يومًا، وقد رأت منه رِقَّةً: يا سيّدي، قد ربَّيْتُ لك وصائف ملاحًا، وأُحِبُّ أن تراهنَّ. قال: نعم. فلما رآهُنَّ، قالت له: هذي بنتُك من فُلانة، وهذه بنتُك من فُلانة، حتّى عدَّتْهُنَّ. فلمّا خرجَ من عند أُمّه، قال لخادم له أسْوَد: امْضِ إليهنَّ وجئْني برؤوسهنَّ! فوقف الغلام استعظامًا لذلك، فقال له: امْضِ وإلّا قدَّمْتُك قبلَهنَّ، فلما دخل على أُمِّه، كَبُر ذلك عليها، وعَظُم في قلبها، وقالت له: راجِعْه، فقال لها: لا سبيل إلى ذلك، فقتلهنَّ وأخذ رؤُوسهنَّ، وجاء بها إليه معلَّقةً بشعورهنَّ، فطرحها بين يديه، قبَّحه الله. وأدخل كثيرًا من فتيانه الحمَّام وأغلقَ عليهم بابَ البيت السُّخْن، فماتوا فيه جميعًا. وأخبارُه كثيرةٌ في هذا المعنى، ذكرها الرَّقيق وغيرُه.

وفي سنة تسع وثمانين ومئتين المذكورة: استرجعَ أبو العبَّاس بن إبراهيم بن أحمد المال الذي أخرجَهُ أبوهُ إلى الفقهاء ووجوهِ الناس ليُفَرِّقوه في المساكين، فرجع مُعْظَمُه، وقال لمشايخ إفريقية: اغتنمتُم الفُرصةَ في المال لـمَرَضِ الأمير[2] أبي، ومَغِيبي عنه.

وفيها: شَخَصَ أبو عبد الله الأحْوَلُ بن أبي العبَّاس إلى مدينة طُبْنة إلى مُحاربة الشيعيّ[3].

---

(١) في ر ١: «ثم ضربت».

(٢) في ر ١: «السلطان».

(٣) الكامل لابن الأثير ٧/ ٥٢٠.

وفيها: تساقطت النجوم لثمان بقين من ذي القَعْدة، فسُمِّيتِ السنةُ سنةَ النجوم، فلهذه السنة ثلاثة أسمـاء: سنة العَـدْل، وسنة الـجَوْر، سمَّاها العامَّة بذلك، وسنة النُّجوم.

وفي سنة تسعين ومئتين: كتب أبو العبَّاس بن إبراهيم إلى العُمَّال ليأخذوا له البيعة، لأنّ أباه فوَّض إليه، وتخلَّى له عن الـمُلك، واشتغل بالعبادة، وذلك قبل أن يبلغه وفاة أبيه.

ولاية أبي العبَّاس بن إبراهيم بن أحمد وسيرتُه

وذلك أنّه أظهر التقشُّفَ، والجلوسَ على الأرض، وإنصافَ المظلوم، وجالَسَ أهْلَ العلم وشاوَرَهم. وكان لا يركب إلّا إلى الجامع، فقال قومٌ: إنّ أهل النجوم أمروه بذلك، وقال قومٌ: به وَسْوَسةٌ، وكتبَ إلى ابنه زيادة الله[1]، يستحثُّه في القدوم عليه من صِقِلّيَّة، لأنَّه وُشِيَ به إليه أنّه يُريد الانتزاء عليه. فقَدِمَ زيادةُ الله على أبيه لعشرٍ بقينَ من جُمادى الآخرة، فقبض أبو العباس ما كان معه من الأموال والعُدَّة، وحبس زيادةَ الله في بيتٍ داخلَ داره، وحبسَ ناسًا من أصحابه.

مقتل أبي العبَّاس بن إبراهيم بن أحمد

قُتل يوم الأربعاء، ليوم بقي من شعبان، فكانت ولايتُه بعد أبيه تسعةَ أشهر وأحد عشر يومًا، ومن يوم أفضى إليه أبوه الأمر سنةٌ واثنان وخمسون يومًا. وكان قتلُه على ما أصِفُه: وذلك أنّه خرج من الحمَّام إلى دارٍ خاليةٍ، واستلقَى على سرير خَيْزُران، ووضعَ تحت رأسه سَيْفًا، ونامَ بعد أن أخرج كلَّ مَن كان في الدار غير فتَـيَيْنِ كان يثِقُ بهما، فلما نامَ، تآمرا على قتله وقالا: هذه فرصة في تقديم اليد عند زيادة الله، فنُطْلِقه من أسره، ونستريح من أبيه. ويَلِي مكانَه، ونفوز بالـحُظوة عنده. فتقدَّم أحدهما، فاستل السيف الذي كان تحت[2] رأسه، وضربَهُ به ضربةً قطعَ عنقه ولحيته، حتّى نفذ إلى السَّرير. ومضى الفَتَى الآخر إلى ناحيةٍ من الدار، فارتقَى الـحائط،

(١) تنظر الحلة السيراء ١/ ١٧٥.

(٢) في ر١: «عند».

ونفذَ إلى زيادة الله، وأعلمه أنّ أباه قُتِـل، فظنَّ أنّها مكيـدةٌ عليه، فقال له: إن كنتَ صادقًا، فأرِني الرأس، فانصرف مُسْرِعًا، ورمى إليه بالرأس، فعند ذلك صدَّقه[١].

ولاية زيادة الله بن أبي العبَّاس عبد الله ابن إبراهيم بن أحمد بن الأغْلَب

وذلك أنّ زيادة الله، لما صحَّ عنده قتلُ أبيه، ورأى الرأس[٢] بين يديه، كسرَ قيودَهُ، وبادَرَ خوفًا أن يَشْعُرَ بالأمر أحدٌ من أعمامه، فيبدده[٣]. فلما صار زيادة الله في الدار، أرسلَ في عبد الله ابن الصائغ وفي أبي مُسْلِم منصور بن إسماعيل، وهما ممَّن كان سُجِن معه تهمةً، وفي عبد الله بن أبي طالب، فلما دخلوا عليه، قال لهم: انظروا لي ولأنفسكم. فقالوا له[٤]: أرْسِلْ في أعمامك على لسان أبيك، وفي وجوه الرجال والقُوَّاد. فأرسل فيهم، ودفع إليهم الصِّلات، وأخذ عليهم البيعة[٥]، وأمر أن يُنادَى بتونُس: من كان هاهُنا من الـجُند، فلْيُوَافِ باب الأمير. فركبوا بأسلحتهم، فأمر بإدخالهم واحدًا واحدًا: يدخل الرجلُ، فيبايع، ويُعْطَى خمسين مثقالًا. ففعل ذلك بالوجوه. وكُتب ذلك اليومَ كتاب بيعته، فقُـرئ بتونُس على مِنْبَر جامعها، وأُخِذَتْ له البيعة على العامَّة بها. وكتب إلى العُـمّال بأن يأخـذوا له البيعة على من قِبَلهم. فلما قرب العشاء، نُودِيَ في الجند: أصبحوا لأخذ عطياتكم. وأمر عمومه بالانصراف عنه إلى الليل، ثمّ أكبلهم أجمعين، وأدخلهم في شيطي[٦] ووكَّل بهم ثِقاتَه، وأمرَهُم أن يمضوا بهم إلى جزيرة الكُرَّاث، وهي على اثني عشر ميلًا من مدينة تونُس، فضُربت هناك رقابُهم

---

(١) «فعند ذلك صدقة» ليست في ر١، والخبر في الحلة السيراء باختلاف لفظي يسير ١/ ١٧٥.

(٢) في ر١ بدلًا من العبارة المتقدمة: «لما رأى زيادة الله الرأس».

(٣) في ر١: «فيسبقه» وهي بمعنى.

(٤) ليس في ر١.

(٥) في ر١: «وأخذ بيعتهم».

(٦) هكذا في النسختين، وغيّرها ناشر (م) إلى «شيني» من كيسه، وشيطي وشيطية وجمعها شياطي: سفينة صغيرة ذات شراعين، وهي تصحيف للكلمة اللاتينية Sagitta وفي الإيطالية: Saettia (وينظر معجم دوزي ٦/ ٣٠٦ من الترجمة العربية).

ليلةَ السبت لثلاث خَلَون لرمضان، وأصبحَ الجندُ والموالي من غَد ذلك اليوم لأخذ الصِّلات. فلما مضى صَدْرٌ من النهار، قيل لهم: انصرفوا فإنّه يوم شُغْلٍ. ثمّ أتوا من الغد، فدُفِعوا. فلم يزالوا يتردَّدون إلى أن بردت قلوبهم وملُّوا الاختلافَ[١].

ولما كمل الأمرُ لزيادة الله، دعا بالفَـتَـيَيْنِ اللذَيْن قتلا أباه، فأمرَ بهما، فقُطِعت أيديهما وأرجلهما، وصُلِبا على باب القَيْرَوان وباب الجزيرة من أبواب تونُس. وقَتل أيضًا زيادةَ الله عمَّه أبا الأغْلَب الزاهد الساكن بسُوسة، وقتل أخاه أبا عبد الله الأحْوَل، بعد أن استقدمه من طُبْنة[٢].

وولَّى[٣] زيادةُ الله الوزارةَ عبد الله ابن الصائغ، وولَّى قضاء القَيْرَوان حِـمَاس بن مروان بن سِمَاك الـهَمْدانيَّ[٤]، وكان عالـمًا بمذهب مالِك، فعدلَ في أحكامه، ولم يكن[٥] يهيب أحدًا في ولايته.

وفي هذه السنة: أُسِّسَتْ مدينة وَهْران[٦]، على يدَيْ محمد بن أبي عَوْن بن عبدون وجماعةٍ من الأندلُسيّين.

وفي سنة إحدى وتسعين ومئتين: ولِـيَ محمد بن زيادة الله العهدَ، وأُخِذَت البيعة له بذلك. ووَلِـيَ عليُّ بن أبي الفوارس عمالة القَيْرَوان، ثمّ عُزِل عنها[٧]، ووليها أحمد بن مَسْرور. ووَلِـيَ إبراهيم بن حَبَشيّ التَّميميّ قتال أبي عبد الله الشيعيّ. ووَلِـيَ الحسنُ بن أبي العيش بن إدريس بن محمد بن سُليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عمل جراوة لوفاة أبيه أبي العيش. وجمعَ زيادةُ الله

(١) في ر١: «يئسوا» بدلًا من «بردت قلوبهم وملوا الاختلاف».

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٧٩.

(٣) من هنا خلط دوزي، ثم تبعه بروفنسال، كتاب عريب بن سعيد بالبيان الـمُغرب، ولم يكونا موفقين في ذلك، مما اقتضى تخليص النص مما أضيف إليه.

(٤) ينظر الديباج المذهب لابن فرحون ١/ ٣٤٢.

(٥) ليست في ر١.

(٦) معجم البلدان ٥/ ٣٨٥.

(٧) نهاية الأرب ٢٤/ ١٩٩.

فقهاء إفريقية إلى مدينة تونُس، مستظهرًا بهم على أبي عبد الله الشيعي، فتفاوضوا في أمره، وقال لهم الوزير ابن الصائغ: إنّ الأمير يقول لكم: هذا الصَّنْعانيُّ الخارج علينا مع كُتامه يلعن أبا بكر وعُمر رضي الله عنهما ولُعِنَ من يلعنهما، ويزعم أنّ أصحاب النبيّ ﷺ ارتدُّوا بعده ـ لعن الله مَن استنفقهم ـ ويُسمِّي أصحابه: المؤمنين، ومن يخالفه في مذهبه: الكافرين، وأرسلَ زيادةُ الله[١] هديَّةً للعبَّاسيّ، فيها عشرة آلاف مثقال، في كلّ مثقال منها عشرة مثاقيل، وكتب في كلّ مثقال[٢] هذَيْن البيتَيْن[٣] [من الكامل]:

يا سائرًا نَحْوَ الخليفة قُلْ لـه — أنْ قـد كَفـاكَ اللهُ أمْـرَك كلَّـهُ
بزيادة الله بـن عبـد الله سَيْـ — ـف الله من دونِ الخليفـة سَـلَّهُ

وفي سنة اثنتين وتسعين ومئتين: كانت وقعة على عَسْكر السلطان، وذلك أنّ أبا عبد الله الدَّاعي، لما عَلِمَ بخروج العَسْكر إليه حَشَدَ كُتامة، وكان حَشْده بغير ديوان، إنّما يكتب إلى رؤساء القبائل، فيحشدون مَن إليهم، طاعةً له ورغبةً فيه. وكان لا يزيدهم في كتابه إليهم على أن يقول: إنّ الوعدَ يوم كذا في موضع كذا، ويَصْرُخ صارخٌ بين يديه: حرامٌ على من تخلَّف. فلا يتخلف أحدٌ من كُتامة، فاجتمعَ له منهم ما لا يُحصَى، فالتقَى مع إبراهيم بن حَبَشيّ أمير العسكر بكَيْنُونة واقتتل الفريقان، فكانت بينهما ملحمةٌ عظيمة، تطاعنوا بالرِّماح حتّى تحطَّمت، وتجادلوا بالسيوف حتّى تقطَّعت، ثمّ انهزم إبراهيم، ووقعَ القَتْلُ في أصحابه، فانهزم وقُتل كثيرٌ منهم، ونجا باقيهم، واشتغلت كُتامة بالغنيمة والأموال والسِّلاح والسُّروج واللُّجم وضروب الأمْتِعة. وهي أوَّلُ غنيمة أصابها الشيعيُّ وأصحابُه، فلبسوا أثواب الحرير، وتقلَّدوا السيوف المحلاة، وركبوا بسروج الفضَّة واللُّجُم المذهَّبة، فشرُفت أنفسُهم، وتحقَّقت آمالُـهم، وصحَّ عندهم ما كان الشيعيُّ يَعِدُهم به من النصر[٤]، ووقع الوَهْيُ على

(١) «زيادة الله» ليس في ر١.

(٢) في ر١: «المثقال».

(٣) «هذين البيتين» ليس في ر١.

(٤) «من النصر» ليس في ر١.

أهل إفريقية، وداخلهم الجزعُ. وكتب أبو عبد الله الداعي إلى عُبَيْد الله الشيعيّ[1] وهو مَسْجونٌ بسِجِلْماسة يُعْلِمه بالفَتْح، ووجَّه إليه بمالٍ كثير، فأسرَّ عبيد الله ذلك ولم يُبْده إلا لمن وثقَ بكتمانِه عليه.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومئتين: خرجَ زيادةُ الله إلى الأُرْبُس؛ وأعطَى بها الأموالَ جُزافًا بالصِّحاف، كيْلًا بلا وَزْن، لكلّ رجل صحفةٌ توضَعُ له في كِسائه دنانيرَ، ثمّ يخرج الرجل، فلا يُرى بعدها، فأنفق فيها أموالًا جَسِيمة، وبذل مجهودَهُ في الإحسان إلى الرجال. والشيعيُّ مع ذلك يزيد ظُهورًا[2].

وفي هذه السنة: تغلَّب أبو عبد الله الداعي على مدينة بَلَزْمة[3] وعلى طُبْنة، ودخلهما بالأمان في آخر ذي الحجَّة، وبها أبو المقارِع والي زيادة الله وعاملُه عليهما، فأتوه بما في أيديهم من الجباية، فقال لأحدهم: من أين جمعتَ هذا المال؟ فقال له: من العُشُر. فأنكرَ ذلك عليه وردَّهُ على أربابِه، وأعلمَ النَّاسَ أنَّهم أمناءُ على ما يُـخْرِجُ اللهُ من أرضِهم، وفعلَ هذا مع غيره، فسُرَّ بذلك أهل طُبْنة، وانتشرَ صيتُه في البلاد، فأحبه النَّاسُ وداخَلُوهُ، وبلغَ ذلك زيادةَ الله فاغتم غمًّا شديدًا وأمرَ بلعنة الشيعي على المنابر.

وفي سنة أربع وتسعين ومئتين: اشتغلَ زيادةُ الله بالاستهتارِ واللَّذاتِ والـمُتَع، وهَمَّ بالفِرارِ إلى مصرَ خوفًا من الداعي، ثم انثنَى عن ذلك وخَيْلُ الداعي تغيرُ من الأربُس على باغاية.

وفي سنة خَمْس وتسعين ومئتين: خرجَ زيادةُ الله إلى تُونس في شهر مُحرم ليحاول أمورهُ فيها.

وتُوفِّي أحمد بن موسى بن مُـخَلَّد، وكان زاهدًا وَرِعًا متعبدًا فاضلًا من أصحاب سُحْنون.

---

(١) ليس في أ.

(٢) قوله: «والشيعي مع ذلك يزيد ظهورًا» ليس في أ.

(٣) ينظر الروض المعطار ١٠٣.

وفي سنة ست وتسعين ومئتين: وصلت خَيْلُ الدَّاعي إلى قَسْطِيلية، وانهزمَ أبو مُسْلم مَنْصور بن إسماعيل إلى تُوْزَر، وانبسطت الـخَيْل وأفسدت ما مَرَّت به، فقامت قيامة زيادة الله لذلك، وأمر بقتل أبي مُسْلم وصَلْبه.

ونازلَ أبو عبد الله الدَّاعي الأربُس حتى أخذَها عَنْوةً ودخلها لستٍّ بقين من جُمادى الآخرة، فهربَ إبراهيمُ بن أبي الأغلب واليها في جماعةٍ. ولجأ أهل الأربُس ومَن كان اجتمع فيها من فُلَّالٍ إلى جامعها، فقتلَهُم الشيعي أجمعين، وقيل: إنه قتل ثلاثين ألف رجل من العصر إلى آخر الليل، فلما أصبحَ وقد فرغ من القتل والنَّهْب والسَّبي انصرفَ إلى باغاية.

هروب زيادة الله من رَقَّادة

وذلك أنَّه لما اتصل به ما كان بالأُربُس، عَلِمَ أنه خارج عن مُلكه، وجعلَ ابن الصائغ يُكذِّبه له، فلم ينفعه ذلك، وعَلِمَ الناسُ صحةَ الـخَبَر وماجوا فيما بينهم، وجعلت الخاصة وأهل الـخِدْمة[1] يفرُّون من رَقَّادة، فأخذَ زيادة الله[2] في شدِّ الأحمال بما خَفَّ من الـجَوْهر والمال. فلما كان وقت صلاة العَتَمة ليلة الاثنين لأربعٍ بقينَ من جُمادى الآخرة ركبَ فرسَهُ وتقلَّدَ سيفَهُ، وقَدَّم الأحمالَ تَـمُرُّ[3] بين يديه هاربًا ومعه وجوه رجاله وفتيانه وعَبِيدة[4] حتى لحقَ بمدينة أطرابُلُس. وكان عبد الله ابن الصائغ يتقلَّد جميعَ أموره. فواطأ خُزَّانَ الأموال[5] على اقتطاع ثلاثين حِمْلًا من المال في كل حِمْل ستة عشر ألف مثقال، فواعدهم[6] موضعًا يجتمعُ فيه معهم، فأخطأوه في الليل، وخرجوا إلى مدينةِ سُوسَة، فقبضَ عليها الـهَمْداني عاملها وخَزَنها بسُوسةَ حتى صارت إلى الشِّيعة.

---

(١) في ر١: «الخدم» بدلًا من «أهل الخدمة».

(٢) «زيادة الله» ليس في أ.

(٣) ليس في ر١.

(٤) في ر١: «مع ولده وخدمه ورجاله وفتيانه».

(٥) في ر١: «المال».

(٦) في ر١: «ووعدهم».

وأصبح الناس من ليلة خروج[1] زيادة الله إلى مدينة[2] رَقّادة، فانتهبوها وأخذوا من أموال بني الأغلب وآنية الذَّهَب والفضة ما لا يحيطُ به وَصْفٌ. وانتهى زيادة الله إلى مصر[3] فكانت ولايته بإفريقية[4] خمس سنين وأحد عشر شهرًا وأربعة أيام، وكانت إمارة[5] بني الأغلب بإفريقية مئة سنة وإحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر[6].

ذكر دخول أبي عبد الله الشيعي مدينتي رَقّادة والقيروان وحاله بهما

لما بلغَهُ هروب السُّلطان أقبلَ إلى مدينة رَقَّادة في سبعةِ عساكر فيها ثلاث مئة ألف بين فارس وراجل، فوصلَ إليها يوم السَّبْت غرة رجب، فخرج إليه أهل القيروان وسلموا[7] عليه، وأظهروا الرغبة في دولته، وسألوه الأمانَ فأمَّنَهُم، ووعدهم بالإحسان والعَدْل. ثم تَقَدَّم بإنزال عساكره حوالي مدينة رَقَّادة، فدخلَها وقارئٌ يقرأُ بين يديه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ [الحشر: ٢] إلى آخر الآية، ويقرأُ: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ [الدخان: ٢٥] إلى آخر الآية. ونزلَ بالقَصْر المعروف بقَصْر الصَّحْن[8]، وبعث عَروبةَ بن يوسف إلى مدينة سُوسة، فأمَّن أهلها، وأتاهُ بالثلاثين حِمْلًا من المال التي ثقف بها، وأمَّن من أَلْفَى بالقَيْرَوان من بني الأغْلَب[9] وقوَادهم الذين تخلَّفوا عن زيادة الله؛ وأمر بقتل السودان من موالي بني الأغلب.

---

(١) في ر١: «هروب».

(٢) في ر١: «قصر».

(٣) قوله: «وانتهى زيادة الله إلى مصر» ليس في أ.

(٤) «بإفريقية» ليست في أ.

(٥) في ر١: «دولة».

(٦) «ثلاثة أشهر» من ر١.

(٧) في ر١: «ولقوه مسلمين».

(٨) في ر١: «ثم نزل بقصر رقادة».

(٩) بعد هذا وإلى نهاية الفقرة ليس في ر١.

وبعثَ أبو عبد الله الشيعيُّ إلى أطرابُلس، فأُتي منها بأخيه أبي العبَّاس الـمَخْطوم، وكان بها محبوسًا، وبأبي جعفر الـخَزَريّ وبأُمّ عُبَيْد الله الشيعيّ، وكانت هنالك مع الـخَزَري، فقدموا عليه. وكان أبو العبَّاس عَجُولًا، كثيرَ الكلام، ضعيفَ العقل، فأراد أن ينفي المالكية من القَيْرَوان فلم يُـجِبْه أخوه[1] إلى ذلك. وولَّى الشيعيُّ[2] على القَيْرَوان الـحَسَنَ بن أحمد بن أبي خِنْزير، وأمره بقَتْل مَن خرجَ ليلًا أو شَرِب مُسْكِرًا، وولَّى على مدينة القَصْر القديم خَلَف بن أحمد بن عليّ، أخا[3] ابن أبي خِنْزير، وأمره بمثل ذلك.

وأمر بأن يُزاد في الأذان «حَيَّ على خَيْر العَمَل»، وأسقط من أذان الفجر «الصلاةُ خَيْرٌ من النوم». وأمر بجمع ما انتهب من مدينة رقَّادة، وضمَّ عَبيد زيادةِ الله، ووقَّف جواريه، ووَلَّى النظر في ذلك أحمد بن فَرُّوخ الطُّبْنيَّ. ووَلَّى على السكَّة أبا بكر ابن القَمُّوديّ، ونقشَ فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وكان نقشُ خاتم أبي عبد الله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] وفي الخاتم الذي تُطبع به السِّجِلَّات: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ووسم[4] في أفخاذ الخيل: «الـمُلْكُ لله»، وكتب في بنوده: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]. ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. وأمر بالصلاة على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الـخُطَب بإثر الصلاة على النبيّ ﷺ، وولَّى على قضاء مدينة القَيْرَوان محمد بن يحيى الـمَرْوَزيَّ، وأمر القاضي بإسقاط التراويح في رمضان.

فلما كان أوّل يوم من شهر رَمَضان وجدَ القاضي في موضعِ جُلُوسه من الجامع بحائط القِبْلة مكتوبًا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ الآية [البقرة: ١١٤]، فأمرَ بمحوه، وانتقل عن الجلوس في ذلك الموضع. ووقفَ يومًا

---

(١) ليس في أ.

(٢) كذلك.

(٣) كذلك.

(٤) في ر١: «وكتب».

على القاضي المذكور رجلٌ مُـحَمَّقٌ، فقال والناسُ حوله: لقد تَلَطَّفتَ لنا، أصلحكَ اللهُ، في قطع قيام شهر رمضان، فلو احتلْتَ لنا في تَرْك صيامه لكفَيْتَنا مؤونتَهُ كُلَّها، فقال له الـمَرْوَزيُّ: اذهب عني يا مَلْعون، وأمر بدفعه.

وحمل[1] أبو عبد الله الشيعي الناسَ على التشيع، فلذلك سُمِّيت دعوتهم التشريق، لاتباعهم رجلًا من أهل[2] المشرق.

ذكر توجُّه الداعي إلى سِجِلْماسة واجتماعه بعُبيد الله الشيعي بها

كان أبو عبد الله الدَّاعي[3] يدعو إلى عُبيد الله الشيعي ويزعمُ أنه الإمامُ من آل عليٍّ، فلما كمُلَ له ما أرادَ من استيلائه على الـمُلْك استخلف على إفريقية أخاه أبا العباس، وأبا زاكي تَـمّام بن معارك الأجّانيَّ[4]، ثم خرجَ من رَقّادة يوم الخميس لنصف رمضان في جموع كثيرة ومعه وجوهُ رجاله وأهلُ دعوته، فسارَ حتّى حلَّ بمدينة[5] تِيهَرْت، فدخلها بالأمان، وقتلَ بها من الرُّسْتُمِيَّة جماعةً وبعثَ برؤوسهم إلى أخيه أبي العبَّاس، وطُوِّفَتْ بالقَيْرَوان، وانقضت[6] دولة بني رُسْتُم بتِيهَرت، وكان لها مئة وثلاثون سنة.

ثم ولَّى[7] أبو عبد الله على تِيهَرْت دَوَّاس بن صُولات اللهِيصيَّ، وإبراهيم بن محمد الـهَوَّاريّ، ثمّ نهض حتّى أقبل على سِجِلْماسة يوم السبت لستّ خَلَوْن من ذي الحجَّة، فأحاطَ بها في جموعه، وحاربها ثم فتحها[8] يوم الأحد لسبعٍ خَلَون منه،

---

(١) في أ: «وأمر».

(٢) ليست في أ.

(٣) من ر١.

(٤) في أ: «الأجّابي»، وينظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٤٧.

(٥) في ر١: «حتى وصل مدينة».

(٦) من هنا إلى نهاية الفقرة من ر١.

(٧) في ر١: «وولّى».

(٨) «ثم فتحها» من ر١.

وأخرجَ منها عُبَيْد الله الشيعيَّ وابنَهُ أبا القاسم، وكانا محبوسَيْن[1] في غُرْفة عند مَرْيَم بنت مِدْرار. فلما بصر به[2] أبو عبد الله[3] ترجَّل له، وخضعَ بين يديه، وبَكَى من إفراط سُروره. ثمّ مشَى أمامه حتّى أنزله، وسلَّم إليه الأمر[4]، وقال لمن معه: هذا هو مولايَ ومولاكم قد أنجز الله له وَعْدَه[5]، وأعطاه حقَّه، وأظهر أمره. وانتهب الشيعيُّ ورجالُه سِجِلْماسة، وأُحرقت. وهرب منها اليَسَعُ صاحبُها في جماعةٍ من بني عمّه ليلًا، فطلبه الشيعيُّ، فلم يقدر عليه.

وفي سنة سَبْعٍ وتسعين ومئتين: ظفرَ الشيعيُّ باليَسَع بن مِدْرار صاحب سِجِلْماسة؛ غدرَهُ قومٌ من البَرْبر يُعرفون ببني خالد، فاستأمنوا به إلى أبي عبد الله الشِّيعي، فأمَّنَهُم، وتحرَّكَ عُبيد الله من سِجِلْماسة إلى إفريقية واستخلفَ بسِجِلْماسة إبراهيم بنَ غالب المزاتي وتركَ معه خمس مئة فارس من كُتامة.

وقَتل أبو العباس المخطوم بعض فقهاء القَيْروان وصلحائها لكونهم لا يفضلون عليًا على أبي بكر وعُمر رضي الله عنهم، وصَلَب أولئك الصالحين والفُقهاء على باب القَيْروان، فعنَّفَهُ أخوه على ذلك حين وردَهُ ذلك.

وخالفَ محمد بن خزر الزَّناتي على الشِّيعة وأقبلَ إلى تِيْهَرْت، ووافقه على ذلك قوم من أهلها يعرفون ببني دَبُّوس، فحارب تِيْهرت وتغلَّبَ على بعض أربابها، واتصل ذلك بعُبيد الله وهو في طريقه فرجع قاصدًا ابن خَزَر، ففرّ أمامَهُ حتى دخل في الرِّمال، وكان عُبيدُ الله استصحبَ في سفره ذلك بني مِدْرار وأهليهم مُكَبَّلين، فلما كان من ابن خزر ما كان أمر بقتل اليَسَع فقُتِلَ، وقتَلَ أهلُ سِجِلماسة عاملَ عُبيدِ الله إبراهيم بن غالب ومن معه من الشِّيعة ومن كُتامة وولوا على أنفسهم واسول ابن الأمير مِدْرار.

---

(١) في ر١: «مسجونين».

(٢) في ر١: «أبصره».

(٣) بعد هذا في ر١: «الشيعي».

(٤) في ر١: «في الملك».

(٥) «قد أنجز الله له وعده» ليست في ر١.

ذكر وصول عُبيد الله الشيعي إلى رَقَّادة ونبَذٌ من أخباره وما قيل في نَسَبه

لما وصلَ إليها مع ابنه أبي القاسم تلقاهُ الفُقهاء ووجوه أهل القَيْروان داعينَ له مُـهَنئين مُظْهِرينَ السُّرورَ بأيامه، وسألوه تجديدَ الأمان لهم، فقال: أنتم آمنون على أنفُسِكم، ولم يذكر الأموالَ، فخافَ أهلُ العَقْل من ذلك الوقت، فدخل رَقّادة واحتلَّ قصرَها ونزلَ ولدُه في قصر آخر بها، وتسمّى عُبيد الله بالمهدي.

واختُلِفَ في نسبه، فادعى هو أنّه عُبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن [محمد بن][1] علي بن الـحُسين[2] بن علي بن أبي طالب، وقال سائر الناس: إنّه دَعِيٌّ وإن انتسابه للطالبيين دعوةٌ باطلة، وذكروا عن أبي القاسم بن طباطبا العَلَوي أنّه قال: والله الذي لا إله إلا هو ما عُبيد الله الشيعي منا، ولا بيننا وبينه نسب. وقال مُقاتل: هو عُبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن[3] البَصْري. وقد فَضَح القاضي أبو بكر الباقلاني نَسَبهم في كتاب «كَشْف الأسرار وهَتْك الأستار» وذكر أنّهم قَرامِطة، وأنّ أبا عبد الله الشيعيَّ أحدثَ لهم هذا الـمَذْهَب ونسبهم، وذكر بعضُ المؤرّخين أنّ جعفر بن عليّ كانت له جاريةٌ، فغَشِيَها رجلٌ من القَرامِطة، وقيل: من اليهود، دفعَتْ له مالًا، فكان يَهْواها وتَهْواهُ، وقتلت جعفرًا مولاها، فولدت جدَّ عُبَيْد الله هذا. فمن خَفِيَتْ عليه هذه القصَّة قال: إنّه عَلَويٌّ، ومَن عَلِمَها عَلِمَ دعوتَه وكَذِبَه، لعنه الله.

نَقَشَ خاتَـمَه: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] وجعل لنفسه حجّابًا وكتابًا، وعلى ديوان الـخَرَاج ابن القديم، وعلى السِّكة القَمُّودي، وعلى عَـمَالة القَيْروان الـحَسَن بن أبي خنزير، وعلى قضائها الـمَرْوَزي، وأظهرَ التشيّع والبِدْعة، وأمورًا قبيحة أضربنا عن ذكرها.

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة متعينة.

(٢) في م: «الحسن»، خطأ.

(٣) في ر ١: «عبد الرحيم».

وفيها: تحرك الدَّاعي إلى أرض الـمَغْرب فدوَّخها وافتتح الـمُدن وقتلَ وسَبَى.

وفيها: كان تغير أبي عبد الله[1] الداعي على صاحبه عُبيد الله، وذلك أنه لما وصلَ إلى تَنَس، وذلك يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة[2]، جمع إلى نفسه[3] وجوه كُتامة وتكلَّم معهم في أمر عُبيد الله وعَمِلَ معهم على خَلْعه، وقال لهم: «إن أفعاله قبيحة ليست تشبه أفعال الـمَهْدي الذي كنتُ أدعو إليه، وأخشَى أن أكون قد غلطت فيه، وعرض لي ما عرضَ لإبراهيم الخليل عليه السلام إذ رأى كوكبًا فقال: هذا رَبِّي، فيجب عليّ وعليكم امتحانه وكَشْفه عن علامات المهدي، فعقدَ مع جماعة كتامة[4] على امتحانه إذ انصرفوا إلى رَقَّادة، ودخل معهم في العقد عَرُوبة بن يوسف وتعاهدوا على ذلك[5].

وفي سنة ثمان وتسعين ومئتين: تجوَّلَ أبو عبد الله الدَّاعي في بلاد البَرْبر وحاربَ صَدِينة وزَنَاتة، وقتَلَ الرجالَ، وأخذَ الأموالَ وسَبَى الذُّرية، وأحرقَ بعض الـمُدن بالنار.

وفيها: أعلمَ عَرُوبة بن يوسف عُبيد الله الشِّيعي بما كان من قول الدَّاعي، وما تعاقدَ عليه مع أصحابه من خَلْعه، فالتزمَ عبيدُ الله الاحتراسَ منه، وقَرّب عبيدُ الله أبا جعفر البغدادي ليستعينَ به على الدَّاعي وأخيه وجماعة كُتامة، فكان له في ذلك غناء.

وفيها: حاصرَ أطرابُلس هَوّارةُ وزناتةُ ولواتة وغيرُهم من القبائل، فأخرج إليهم أبا زاكٍ تَـمّام بن مُعارك في جيش عظيم، فحاربَهم حتّى قَـتَلهم، وكان مذهبه مذهب أبي عبد الله في الغَدْر بعُبيد الله والـخَلْع له، فأرادَ أن يُبْعِدَه.

---

(١) ليس في ر١.

(٢) في ر١: «في أواخر ذي الحجة».

(٣) «إلى نفسه» ليست في ر١.

(٤) في ر١: «فعاقدهم»، بدلًا من «فعقد مع جماعة كتامة».

(٥) «وتعاهدوا على ذلك» ليست في ر١.

ذكر قَتْل عُبَيْد الله الشيعيّ[1] لأبي عبد الله الداعي وأبي زاكٍ

وذلك أنه كتبَ إلى عامِلِه بأطْرابُلُس، يأمره بقتل أبي زاكٍ، فبعث إليه العامل وكان عَمَّه، وعرض عليه كتاب عُبَيْد الله يأمره بقتله. فلما قرأه أبو زاكٍ، قال له: يا عمِّ، نَفِّذْ ما أُمِرْتَ به. فقدَّمه[2]، فضرَبَ عُنُقَه، وكتب إلى عُبيد الله بخبرِ قتله مع حَـمامٍ وصلَ إلى رَقَّادة من ساعته، غُرَّة ذي الحجَّة. فلما وصل الخبرُ إلى عُبيد الله، أمر عَرُوبةَ بن يوسف وآخر معه أن يكمنا خَلْف القَصْر فإذا قرب منهما الداعي وأخوه الـمَخْطوم، طعنوهما بالرِّماح حتى يموتا. فكَمَنا لَـهُما هناك مع جماعة من كُتامة. وبعث عُبيد الله في أبي عبد الله وأبي العبَّاس ليحضُرا طَعامَه على عادتهما، فلما مرَّا بالموضع الذي فيه الكمين، خرجَ عليهما، فصاح الداعي بعَرُوبة: لا تفْعَلْ يا ولدي. فقال عَرُوبة: أمَرَني بقتلك مَنْ أمَرْتَ الناسَ بطاعته، وانخلَعْتَ له من الـمُلْكِ بعد تَوْطِئَته[3]. ثمّ طعنه طعنةً واحدةً خَرَّ منها صَرِيعًا، ووقعت في أبي العبَّاس خمس عَشْرة[4] طعنةً، ومَكَثا صَريعَيْنِ إلى بعد الظُّهر؛ عبرةً وعظةً، ثم أمر عُبيد الله بدفنهما؛ وقال: رَحِـمَكَ الله أبا عبد الله وجازاك في الآخِرة، ولا رَحِـمكَ أبا العباس، فإنَّك صَدَدتَّه عن السبيل، وأوردتَّه مَوَارِد الهلاك، ثمّ قرأ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]

وكَتَبَ إلى الشيعة بالـمَشْرق في أمرهما: أمّا بعدُ، فقد علمنا محلَّ أبي عبد الله وأبي العبَّاس من الإسلام، فاستَزَلَّـهما الشيطانُ؛ فطَهَّرْتُهما[5] بالسيف، والسلام.

واحتجب عُبَيْد الله عن كُتامة أيّامًا، ثم أمَّنهم وأدخلهم على نفسه مُفْتَرقين على حَذَرٍ منهم، ثمّ عمل على قتل جماعة منهم، فقتَلَهُم بأصنافٍ من القَتْل. ثم عمل سفرة إلى لواتة فقتلَهُم وغَنِمَ أموالَهم، وسَبَى ذَرَاريهم.

---

(١) «الشيعي» ليست في أ.

(٢) من ر١.

(٣) قوله: «وانخلعت له من الملك بعد توطئته» ليس في أ.

(٤) في م: «تسع عشرة».

(٥) في النسختين: «فضربتهما»، ولا معنى لها.

وفي سنة تسع وتسعين ومئتين: كانت وقعة بين عساكر عُبيد الله وبين زَنَاتة قتلَ فيها من زَنَاتة خلقًا كثيرًا. وكانت أيضًا ملحمة تِيهَرْت، وذلك أن أهلَها قد ثاروا على دَوَّاس عاملِها، وأرادوا الوثوبَ به؛ فهربَ إلى تِيهَرْت القديمة، وتحصَّنَ بها، وقُتل أكثرُ أصحابه، وكانوا في نحو ألف فارس، واستدعوا محمد بن خَزَر، فأدخلوه البلد، وبرزوا إليه بأُمّ دَوَّاس وعياله وسلاحه، ثمّ خَذَلُوه وخَذَلَـهم، فزالَ عنهم، وانصرفَ إلى موضعه. ثمّ أخرجَ عُبيد الله العساكر إلى تِيهَرْت في عدد عظيم، فنزل عليها يومَ الـجُمُعة لانسلاخ الـمُحرَّم، وحورب أهلُها ثلاثةَ أيّام. ثمّ أُخِذوا بالكَيْد، ودخلت العَسَاكرُ تِيهَرْت يومَ الثلاثاء لأربعِ خَلَوْن من صَفَر، فقتلوا الرجال، وسبوا النِّساء والذُّرِّيَّة، وانتهبوا الأموال، وحَرَّقوا المدينة بالنار. وبلغ عَدَدُ القَتْلَى بها[1] ثمانية آلاف رجل. ثمّ وَلَّى عُبيد الله تِيهَرْت مَصالة بن حَبُوس بن مُنازل بن بُهْلُول الـمِكْناسيَّ، وانصرف دوَّاس بن صُولات إلى مدينة رَقَّادة، وقتلَهُ عُبَيْدُ الله بعد ذلك.

وفيها: كانت ملحمةٌ أيضًا بالقيراون؛ وذلك أنّ كُتامةَ كانوا يَسْأَلُونَ عُبيد الله أن يُطلق أيديهم على نَهْب القَيْرَوان، وكان يُسَوِّفهم في ذلك، ويُعَلِّق أطماعَهُم به، وهُمْ يتحاملون على أهل القَيْرَوان بالتطاوُل والأذَى، حتّى شَرِقَ الناسُ بهم، فقاموا عليهم في بعض الأيّام، بسبب استطالةِ رجلٍ من كُتامة على رجل من تُـجّار أهل القَيْرَوان، فلما دافعوه عنه، شهروا عليهم السلاح، وأرادوا نَهْبَ الحوانيت. فقتلوا[2] من كُتامة أكثر من ألف رجل. وركب أحمد بن أبي خنْزير، صاحبُ مدينة القَيْرَوان، فسكَّنَ الناس، وأمر بتَغْيِيب القَتْلَى؛ فطُرحوا في الـمَرَاحِيض. ولَـحِقَ مَنْ كان حَوالَـيْ رَقَّادة من كُتامة ببلادهم. فلمّا حصلوا بها، أظهروا الخلافَ، وقدَّموا على أنفسهم حَدَثًا يُعرف بالمارِطيّ، واسمُه كادو بن مُعارك، وجعلوه قِبْلَةً يُصَلُّون إليه، وزعموا أنّه الـمَهْدِيُّ الـمُنْتَظَر، وكتبوا كتابًا فيه شريعةٌ زعموا أنّها نزلت عليه، فتغلَّب على جميع الزاب، وقَوِيَ أمْرُهُ، واشتدَّتْ شوكتُه، فأخرجَ إليه عُبيد الله قوَّادًا حاربوهم. ثم أخرجَ ابنَهُ أبا القاسم فافتتحَ قَسْطِيلية من أرض كُتامة، وكانت له على المارطيّ وقائعُ.

---

(١) ليست في ر١.

(٢) في م: «فقتل».

وفيها: توفي زيادة الله الهارِب إلى مِصْرَ، وكان، لما فرَّ عن القَيْرَوان بعياله وماله وألف صِقْلَبيّ، ترك جاريةً من جواريه فغَنَّتْ له، مُحَرِّكةً على حَمْل نَفسها وهي تقول [من المنسرح]:

لم أنْسَ يومَ الوِداعِ مَوْقِفَها وجَفْنُها في دَمْعِها غَرِقُ

وقَوْلَها، والرِّكابُ واقِفةٌ تَتْرُكُني سَيِّدِي وتَنْطَلِقُ

قال المُظَفَّريُّ[١]: فحطَّ حِمْلَ مالٍ، وحملها في مكانه، وقال عَرِيب: فدمعت عيناه؛ واشتغل عنها بما هو فيه، فتركها، ووصل إلى مِصْر، فبقي عند عيسى النُّوشَريّ[٢] صاحِبِها ثمانية أيَّام، ورحل إلى الرَّقَّة، فمُنِع الدخولَ إلى بَغْدادَ، وأُمِرَ بالانصراف إلى مِصْرَ، فسَمَّه بعضُ عَبِيده؛ فمات.

وفي سنة ثلاث مئة: خالَفَ أهلُ مدينة[٣] أطرابُلُس على عُبيد الله الشيعيّ المتلقب بالمهدي كذبًا وزورًا[٤]، وقتلوا كُلَّ مَن كان بها من كُتامة، وعَدُّوا ذلك أكبرَ جهادٍ، وخرجَ والي عُبيد الله منها فلحق به وأخرج إليهم جيشًا، وحارَبَهم شهورًا.

وفيها: قفلَ أبو القاسم بن عُبيد الله إلى رقَّادة من كُتامة ومعه المارطيُّ الثائر وأصحابُه وأُدخلوا مُشَهَّرين على الجِمَال، فقتلوا برَقّادة.

وفيها: تحرك أبو القاسم لمُحاربة أهل أطْرابُلُس، وحاصرها حتى أكلوا الميتةَ، فرغِبُوا في الأمان، فأمَّنَهُم إلا ثلاثة أنفس قُتِلوا برَقَّادة.

وفيها: تحرك عُبيد الله من رَقَّادة إلى تُونس ونواحي البَحْر يرتادُ موضعًا ليتخذه دارَ مملكته، فوقعَ اختيارُه على مدينة المهدية[٥].

---

(١) في أ: «الطبري».

(٢) ترجمته في تاريخ الإسلام ٦/ ٩٩٥، وتاريخ دمشق ٤٧/ ٣٤٦-٣٤٧.

(٣) ليست في ر١.

(٤) «المتلقب بالمهدي كذبًا وزورًا» ليس في أ.

(٥) يعني: على الموضع الذي بنيت فيه المهدية.

وفي سنة إحدى وثلاث مئة: بعثَ عُبيد الله الشِّيعي حُباسةَ بن يوسف بالجيوش إلى المشرق، فدخل مدينة سُرْت[1] ومدينة أجدابية[2] بالأمان، وهربَ مَن كان فيهما من جُنود الخليفة العباسي، ودخلَ مدينة بَرْقة، فكلَّما دخلَ مدينةً قتلَ أهلَها وأخذَ أموالَـهُم وعاثَ فيهم بكلِّ نوعٍ من الفِتَنِ والقَتْل، لعنَهُ اللهُ.

ثم وردت عليه عساكر عظيمة من مصرَ لمحاربته، فدارت بينهم حربٌ عظيمة، ثم انهزمت جيوش مصرَ، وأتبعهم حُبَاسة فقتل كثيرًا منهم. ثم توجه بالعَسَاكر [نحو مصر][3] فأخذ حصونًا، فقتل أهلها وأخذ أموالهم وسَبَى ذراريهم.

وفيها: خرج أبو القاسم بن عُبيد الله من رَقَّادة لمحاربة مصر.

وفيها: أحرقَ محمد بن أحمد بن زيادة الله بن قُرْهُب أسطول عُبيد الله الشيعي بمرسى لَـمْطة، وقتل قائد الشيعي ذَبْحًا بيده، وقطعَ يديه ورجليه، وأسرَ من أصحابه ست مئة رجل، وبلغَ عُبيد الله ذلك فبعثَ جيشًا، فهُزموا وغُنموا.

وفي سنة اثنتين وثلاث مئة: دخل أبو القاسم بن عُبيد الله الشيعي مدينة الإسكندرية ومعه حُبَاسة القائد، فألفاها خالية، قد هرب أهلها في البحر بما خفّ من أموالهم، وأسلموا سائرَ أثقالهم، فاستولى أبو القاسم وحُباسة على جميع ذلك. ووصلَ أبو القاسم إلى الفَيُّوم، فعسكرَ بها حتى قَدِمَ قائدُ الخليفة مؤنس الفَتَى من العراق لمحاربتِه، فأمَّ اللَّعين أبو القاسم إفريقيةَ هاربًا أمامَ جيوش الخليفة، وضَرَبت جيوشُ مصرَ في ساقته، فأخذت مضاربَهُ وسلاحًا وأثاثًا.

وخالف على الشِّيعة أهلُ أطرابُلُس لما عَلِموا الحال التي انصرف فيها أبو القاسم من مصرَ، فعَمَدوا إلى رجالِ كُتامة فقتلوهم أجمعين، ووصلَ أبو القاسم إلى رَقَّادة مُنْصرفًا من الفَيُّوم لعَشْرٍ خَلَوْنَ من ذي القَعْدة. وكان حُباسة قد هربَ من مصرَ إلى أرض الغَرْب؛ لأنّ أبا القاسم عزلَهُ عن قيادة الـجَيْش، فكتب أبو القاسم إلى عُمال الطريق

---

(١) ينظر عنها وعن ضبطها معجم البلدان ٣/ ٢٠٦.

(٢) الروض المعطار ١١.

(٣) زيادة متعينة للتوضيح.

بارتصاده، فعُثِر عليه وعلى بعض أصحابه فحملوا إلى عُبيد الله فحبَسهُ وجميعَ أهلِهِ. وحاول عَرُوبة الهرب لـمّا اتصلَ به أمر حُباسة، فهرب بماله فظُفِرَ به فقُتِل وبُعث برأسه إلى عُبيد الله. فلما وصل إليه أمر بقَتْل حُباسة وجميع قرابته فقُطِعَت رؤوسُهم وكُتِبت أسماؤهم في بطائق وعُلِّقت من آذانهم، وأُدْخِلَت على عُبيد الله، فنظرَ إليها وإلى رأس عَرُوبة وحُبَاسة فقال: ما أعجب أمورَ هذه الدنيا، هذه الرؤوس ضاقَ بها الـمَشْرِقُ والمغربُ وحملتها هذه القُفَّة.

وفي سنة ثلاث وثلاث مئة: كان بإفريقية وباءٌ كثير، تعديدُ مَن ماتَ فيه من ذوي النباهة يَطُول.

وفيها: مات قاضي الشيعة محمد بن يحيى الـمَرْوَزي في العَذاب، وطولب أهلُ القيروان بمالِه، فامتُحِنَ بذلك جماعةٌ من فضلائهم ظُلْمًا.

وفيها: كانت فتنة بصِقِلِّـيَّة، وخَلعُوا واليهم ابن قُرْهب فصارت الفتنة بسببه، لأن طائفة كانت معه وأخرى عليه، وانتهى حال ابن قُرْهب إلى أن انتُهِبَت أموالُه وأُسِرَ مع بنيه وقاضيه وبُعِث بهم إلى عُبيد الله. وكتبَ أهلُ صقلية إلى عُبيد الله يسألونه أن يوجه إليهم قاضيًا وعاملًا، واشترطوا عليه شروطًا أغضبته عليهم وأغرته بهم وحَرَّكَت منه مضايقتهم ومحاصرتهم.

وفي سنة أربع وثلاث مئة: وصل ابن قُرْهب وأصحابُه إلى عُبيد الله، فضُرِبوا بالسياط، وقُطِعت أيديهم وأرجلُهم وصُلِبُوا على قَبْر الـحَسَن بن أبي خنزير.

وفيها: بعث عُبيد الله الجيوشَ والأساطيلَ إلى صِقِلِّيَة، فحاصرهم شهورًا وقتلَ منهم كثيرًا، وعَبَثَت كُتامة فيمن ألفوا بأرباضهم من النِّساء والذُّرية وافترَعُوا الأبكارَ، فلما رأى ذلك أهلُ صقلية رغبوا في الأمان فأمَّنَهُم وهدمَ سورَ مدينتهم ووَلَّى صقليّة سالم بن أبي راشد ومعه جماعةٌ من كُتامة.

وفي سنة خمس وثلاث مئة: افتتح مصالة بن حَبُوس قائد عُبيد الله الشيعي مدينة نكُور[1]، وقَتَل فيها صاحبها سعيد بن صالح، وذلك يوم الخميس لثلاث خَلَوْنَ من

---

(١) الروض المعطار ٥٧٦.

الـمُحرم، ثم انتهبها وسَبَى النِّساءَ والذُّرية وانصرفَ إلى تِيْهَرت، وبعثَ بالفَتْح إلى عُبيد الله، وبعثَ إليه برأس سعيد بن صالح ورؤوسِ جملةٍ من أصحابه، وطُوِّفت بالقَيْروان، ثم إنَّ بني صالح فروا بأنفسهم إلى الأندلس، فنزلوا مَرْسَى مالقة، فأمرَ الناصر بإنزالهم وإكرامهم، واستخلفَ مَصَالةُ على نكُور رجلًا يقال له: ذَلُول، وانصرفَ إلى تِيْهَرت، فافترقَ عن ذَلُول أكثر مَن كان معه، فقصد صالح بن سعيد ابن صالح من مرسى مالقة فقتَلَهُ وقتَلَ أصحابَهُ وملك بلده نكُور، وهادى الناصر الخيلَ والجمالَ وغيرَ ذلك.

تلخيص أخبار أُمراء مدينة نكُور من حين بنائها على الـجُملة إلى هذه السنة المؤرَّخة

وذلك أنّ صالح بن منصور، المعروف بالعَبْد الصالِح، كان دخل أرض المغرب في الافتتاح الأوَّل زَمَنَ الوليد بن عبد الملك، فنزل في بني تَـمْسامان(١)، وعلى يَدَيْه أسلم بَرْبَرُها؛ وهم صُنْهاجة وغُمارة. ثمّ ارتدَّ أكثرُهم لما ثَقُلَتْ عليهم شرائعُ الإسلام، وقدَّموا على أنفسهم رجلًا يسمَّى داود ويسمى بالزيدوي(٢)، وكان من نَفْزة، وأخرجوا صالحًا من بينهم. ثمّ أفاء الله بالإسلام عليهم، وتابوا من شِرْكهم، وقتلوا داود الزيدوي، وردُّوا صالحًا. فبقي كذلك إلى أن مات بتَمْسامان، وكان له من الولد ثلاثة: الـمُعْتَصم، وإدريس: أُمُّهما صُنْهاجيَّة، وعبدُ الصمد، فولَّوا المعتصم، ومكثَ فيهم يسيرًا، ومات. فولَّوا على أنفسهم إدريس، ثمّ مات. ووَلِي سعيد بن إدريس، وهو الذي بنى مدينة نَـكُور. ومنها إلى مدينة زُواغة، التي كانت للحسن بن أبي العيش، مسيرةُ خمسة أيّام. وكان لها أربعة أبواب: منها باب سُلَيْمان، وباب بني وَرْيَاغل، وباب المصلَّى، وباب اليهود. وبها جامعٌ كبيرٌ، وأكثر خشبهم الأرْز، وبها حـمَّامات كثيرة، وأسواق عامرة ممتدة(٣). وهي بين نَهْرَيْن، أحدهما اسمُه نَـكُور، وبه سُمِّيت المدينة.

---

(١) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٢: «تكسامان».

(٢) في تاريخ ابن خلدون: «الرندي».

(٣) ليست في ر١.

ودخلها الـمَجُوس سنة أربع وأربعين ومئتين وتغلَّبوا عليها، وانتهبوا مَن كان فيها إلّا من خلَّصه الله بالفرار، وأقام الـمَجُوس بها ثمانية أيّام، وخرجوا منها. وبينها وبين البحر خمسةُ أميال. وقامت البرانِس على سعيد بن إدريس، فأظفره الله عليهم، وهزمهم، وقتل رئيسهم. ثمّ رجع من بقي منهم إلى الطاعة. ومات سعيد بن إدريس بعد أن ملكهم سبعًا وثلاثين سنة[١].

ووَلِي هذه[٢] ابنُه صالح بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور. وكان لسعيد من الولد: منصور، وحـمَّاد، وصالح، وزيادة الله، والرشيد، وعبد الرحمن الشهيد، ومُعاوية، وعُثمان، وعبد الله، وإدريس. وكان عبد الرحمن فقيهًا بمذهب مالك، وحجَّ أربعًا، وعبر البحرَ إلى الأندلُس برسم الجهاد؛ فقتل الثائرُ[٣] ابن حَفْصُون كلَّ مَن كان معه، وتخلَّص هو بنفسه إلى مُرْسية، وحضر غزوة أبي العبَّاس القائد، واستشهد فيها.

وقامَ على صالح أخوه إدريس في بني وَرْيَاغَل وجَزْناية، فالتقوا بجبل جَزْناية[٤]، فانهزم صالح، وانتهب إدريس عسكره، واستمرَّ إلى مدينة نَـكُور ليدخلها، فامتنعَ أهلُها إلى أن أتاهم صالح صاحبُها في خاصَّته، فدخلها في جوف الليل ولم يعلم أخوه إدريس بذلك، وكان قد نزل عليها، وطمع فيها[٥]. فلما كان في غَدٍ، أقبل إدريس على فَرَسه، وهو لا يعلم بأمر أخيه، فأدخلوه المدينة، وأرْجَلَه فِتْيانُ صالح عن دابَّته، وأتوا به إلى أخيه، فأمر بحبسه. ثمّ أشار عليه قاسِمٌ الوَسْناني[٦] بقتله، فأمر فَتًى من فتيانه يُقال له: عَسْلون، فقتله.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٢.

(٢) ليست في أ.

(٣) في ر١: «اللعين».

(٤) قوله: «فالتقوا بجبل جزناية» ليس في ر١.

(٥) «وكان قد نزل عليها وطمع فيها» ليست في ر١.

(٦) في م: «الوشتاني»، وما أثبتناه من النسخ.

وامتنعت مِكْناسة على صالح، وحبسوا مَغارِمَهم. فكتب إليهم يتوعَّدُهم، وختم الكتاب، وأدخله في مخلاة، وشدَّها على حماره، وبعثَهُ مع ثِقَته، وقال له: إذا توسَّطتَّ مِكْناسة، فاتْرُكِ الحمار بما عليه وانْصَرِفْ، ففعل. فوجد [أهل][1] مكناسة حمارَ صالح، وقَرَؤُوا كتابَهُ، فتمادَوْا على امتناعهم عليه. ثمّ انصرف رأيُهم إلى جمع ما كان عليهم، فجمعوه، وجلَّلوا الحمار بمَلْحَفة، وأتوا صالحًا بالحمار وبمغارِمهم، واستَعْفَوه، فعافاهم. وبقي صالح بن سعيد[2] أميرًا إلى أن تُوفِّي بعد أن ملك أزيد من عشرين سنة.

ووَلِـيَ بعده ابنُه سعيد بن صالح. فلما توطَّد الأمر له، دخل عليه عَبيدُهم الصَّقالِبة، فسألوه العِتْق، فقال لهم: أنتم جُنْدُنا وعَبيدُنا، لا تدخلون في ورْثنا، فما طَلَبُكم للعِتْق؟ فألَـحُّوا عليه في ذلك، ونالَه جفاءٌ منهم، وخلعوه، وقدَّموا أخاه عُبيد الله وعَمَّه الرَّضِي المكْنِيَّ بأبي عليّ، وزحفوا بهما إلى القصر، فحاربهم سعيد[3] من أعلى القصر بمن كان معه وبالنساء. وقامت عليهم العامَّة، فأخرجوهم من البلد، وهزموهم. فتحصَّنوا بغرفةٍ[4] سبعةَ أيّام، ثمّ ظفر بهم سعيد. وكان عمُّه الرَّضِيُّ صِهْرَه، فحبسَهُ مع أخيه عُبيد الله، وقتل من خرج معهما من بني عَمِّه، منهم الأغْلَب، وأبو الأغْلَب. فقامَ سعادةُ الله بن هارون، وهو ابن عمِّ الأغْلَب، فقال: قَتل ابنَ عمِّي وأبقى عَمَّه وأخاه، فألَّب عليه بني يَصْلاتَن، وعقد أمره معهم، وسعادةُ الله مع سعيد بمدينة نَـكُور. ثمّ خذله سعادةُ الله، وانحازَ إلى بني يَصْلاتَن بمن معه، فانهزمَ سعيدٌ، وأُخِذَت بُنودُه وطُبولُه، وقُتل من مواليه نحو ألف رجل، وأتوا مع سعادة الله حتى حاصروا سعيد بن صالح بنَـكُور. ثمّ كانت الكَرَّة لسعيد عليهم، فهزمهم، وأسر مَيْمون بن هارون أخا سعادة الله، وسار إلى تَـمْسامان، فأحرقَ ديارَهُ وخرَّبها، وانصرف إلى نَـكُور. وخرج سعادة الله بعد ذلك إلى بَطُّوية وبني ورْتَدِي،

---

(١) زيادة منا للتوضيح.

(٢) ليست في ر١.

(٣) ليس في ر١.

(٤) هكذا في النسختين، وفي م: «بقرية».

وزحفَ بهم إلى زَناتة، فحاربهم وهزمهم، وانقادت له جميعُ تلك البلاد. ثمّ انصرفَ إلى مدينة نَـكُور، فأقام بها مُصافِيًا لسعيد المذكور[١].

ولما تغلَّب عُبيد الله الشيعيُّ، كتبَ إلى أهل المغرب، يدعوهم إلى الدخول في طاعته والتديُّن بإمامته. وكتبَ بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح[٢]، وفي أسفله أبياتًا كثيرة، منها [من الطويل]:

فـإن تَـسْتَقيموا أَسْـتَقِمْ لِـصَلاحِكُم ... وإن تَعْدِلُوا عنّي أرَى قَـتْلَكم عَـدْلا

وأعلـو بِـسَيْفي قـاهِرًا لـسيُوفِكم ... وأدْخُلُهـا عَفْـوًا وأمْلَؤُهـا عـدلا[٣]

فأجابه شاعرُهم، عن أميرهم[٤]، فقال:

كَذَبْتَ وبَيْـتِ الله لا تَعْـرِفُ العَـدْلا ... ولا عرَفَ الرَّحْمن مِنْ قَوْلِكَ الفَضْلا

ومـا أنـت إلّا كـافِرٌ ومُنـافِقٌ ... تَـمِيلُ مع الـجُهَّالِ في السُّنَّةِ الـمُثْلى

وهِـمَّتُنا العَلْيـا لـدِينِ مُـحمدٍ ... وقَدْ جَعَلَ الـرَّحمنُ هِـمَّتَكَ الـسُّفْلى

فكتبَ عُبيد الله الشيعيُّ إلى مصالة قائده على تِيهَرْت، يأمرُه بالنهوض إلى مدينة نَـكُور، ويأمره بمُحاربة سعيد بن صالح المذكور. فخرج مَصالة من تِيهَرْت في غُرَّة ذي الحجَّة من السنة الفارطة عن هذه المؤرَّخة. فنزل من مدينة نَـكُور على مسيرة يوم، فخرج إليه سعيد، فحاربه ثلاثةَ أيّام مُكافئًا له. وكان مع سعيد رجلٌ من أعلام البربر، يُقال له: أحمد بن العبَّاس من بني يَطُّوفَت، دَعَتْهُ نفسُه إلى أن يقصد محلَّة مصالة مَصالة في سبعة فوارس، واقتحمَ على مَصالة، فتصايح الناسُ، وأُخذ أحمد أسيرًا ومن معه، فأمر مَصالة بضرب أعناقهم، فقال له أحمد: ليس مِثْلي يُقْتَلُ. فقال مَصالة: لِـمَ؟ قال: لأنَّك لا تَطْمع في سعيد إلّا بسببي. فاستبقاه، وقَرَّبه حتّى أَنِس به، ثمّ أعطاه

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٢-٢١٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٣.

(٣) هكذا في النسخ، وفي م: «قتلا».

(٤) «عن أميرهم» ليست في أ.

جيشًا، فقصد به جانِبًا كان يَعْلَمُ الغِرَّةَ منه، حتَّى دخل عَسْكَرُ سعيد من حَيْثُ لا يُظَنُّ به. ففرَّق جَـمْعه، وغَشِيَ سعيدًا ما لم يتأهَّب له، وترادفت عليه العساكر، ونظر أمرًا لا يُستطاعُ الـمُقامُ معه، فبعثَ إلى مدينة نَـكُور، فأخرج كلَّ مَن كان في قصره وما معهم، وساروا إلى جزيرة في مرسى نَـكُور[1]، ومعهم صالح بن سعيد، وإدريس، والـمُعتصم. وقَاتَلَ سعيدٌ حتّى قُتِلَ، واستُبيح عسكرُه. ودخل مَصالة مدينةَ نَـكُور، فقتل رجالَـها، وسَبَى النساء والذَّراري[2].

وفي[3] ذلك يقول بعضُ الشعراء [رجزًا].

لَـمَّا طغَى الأرْذَلُ وابن الأرْذَلِ ... في عصبة من الطُّغاة الـجُهَّلِ
قال: نَـكُور دون ربّي مَعْقـلي! ... أتـاه محتـومُ القـضاء الفَيْـصلِ
من الإلـهِ الـمُتعالي الأعْـدَلِ ... حَطَّمَ أهْـلَ كُفرِهـا بالكلْكـلِ
وجـاء رأسُ رأسِـها الـمُبَدَّلِ ... عـلى قنـا مـن الرمـاح الـذُّبَّلِ
ذو لِـمَّةٍ شـعْثاء لم تُفَتَّـلِ ... ولحيـةٍ غـبراء لم ترجَّـلِ

وركب من نجا من ذُرِّيَّة سعيد البحرَ إلى مالَقة، فاستقَرُّوا بها لقربها من بلدهم، ورجائهم العَوْدة إليه[4]. وبقي مَصالة في نَـكُور نحو ستَّة أشهر، ثمّ استخلفَ عليها ذَلُولًا. فكان من أمره ما تقدَّم ذكرُه؛ وذلك أنّه، لما افترقَ عن ذَلُول أصحابهُ، سمع بذلك بنو سعيد بمالَقة، فعبروا البحر في مراكب مختلفة، في ليلةٍ واحدة، واتَّفقوا على أنّ مَنْ وصل إليها قَبْلُ، فالولايةُ له، ثِقَةً منهم برعيَّتهم. وكانوا إدريسٌ والمعتصمُ وصالحُ بني سعيد. فوصلَ صالح من ليلته، فتسامع البربر بقدومه، فتسارعوا إليه، وعَقَدوا له الإمْرة، ولقَّبوه باليَتِيم[5]، وزحفوا إلى ذَلُول وأصحابه، فقتلوهم أجمعين. وكتب صالح

(١) قوله: «وساروا إلى جزيرة في مرسى نكور» ليس في ر١.
(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٣.
(٣) من هنا إلى آخر الشعر ليس في ر١.
(٤) في ر١: «إليهم».
(٥) في المطبوع من تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٣: «القيم».

بالفتح والنصر إلى أمير المؤمنين الناصر، فأمر بإمداد صالح[1] بالأخبية والآلات والأسلحة والبُنود والطبول[2]، فتوطَّد الملك بالمغرب لصالح بن سعيد. وبقي إخوته في البحر شهرًا[3] يتردَّدون فيه، إلى أن وصلوا بعد ذلك إلى نَـكُور، وهي في وقتنا هذا مدينةُ الـمَزِمَّة أو قريبًا منها.

وفي سنة ست وثلاث مئة: خرج أبو القاسم بن عُبيد الله الشِّيعي إلى مصرَ في سَفْرته الثانية لها، وذلك مُستهل ذي القَعْدة، بعد أن حَشَد من كُتامة حُشُودًا كثيرةً ومن عرب إفريقية وبَرْبَرها.

وفي سنة سبع وثلاث مئة: كان دخول أبي القاسم بن عُبيد الله الشِّيعي، لعنهُ اللهُ، مدينة الإسكندرية، وذلك لأن أهلَها لما أَحَسُّوا بمقدمه أخلَوْها وتَرَكوها لهم خاليةً فانتهبوها، وأخذوا أموال أهلها، ثم دخلوا الفَيُّوم بالسَّيْف، فقتلوا أهلها وانتهبوا الأموالَ وسبوا الذُّرية، وتكاثرت العساكر على الشِّيعي من إفريقية وانجلَى الناسُ عن مصر وغَلَت الأسعارُ بها.

وفيها: كان بإفريقية الطاعون الشَّديد والغلاء العظيم والجور الشامل، وأخذوا أموالَ الناس بكلِّ وجهٍ. ووَلِـيَ إسحاق بن أبي المنهال قضاء القَيْروان. وقُتِلَ عبدوس المؤذن بعد ضَرْبه بالسياط وقُطِعَ لسانُه لأنَّه ذُكِرَ عنه أنه أذَّن ولم يَقُل: «حي على خير العمل».

وفي سنة ثمان وثلاث مئة: دخل الشيعةُ مدينةَ النَّـكُور ثانيةً؛ وذلك أنه توجه مصالةُ قائد عُبيد الله نحو الغرب بجيوشٍ كثيرةٍ فلما بلغَ قريبًا من نَـكُور خرجَ صالحُ بن سعيد عنها وتحصّن بجبل هنالك ودخل مصالة المدينة وضَبَطها.

وفيها: كان دخول الشيعة مدينة فاس؛ وذلك أنّ مصالةَ خرج من نَـكُور وسارَ إلى جهة فاس وكان بها يومئذٍ يحيى بن إدريس بن عُمر بن إدريس في أهلِه ورجالِه،

---

(١) في ر١: «فأمَدَّ صالحًا».

(٢) «البنود والطبول» ليست في ر١.

(٣) في ر١: «شهرين».

فلما قَرُب منهم أرادوا مدافعتَهُ فحاربهم أيامًا حتى هزمهم، ودخل مصالة مدينة فاس وضَبَطها، وقال شاعرهم وقد عَرّض بها [من البسيط]:

دَخَلْتُ فاسًا ولي شَوْقٌ إلى فاسِ   والحَيْن[1] يأخذُ بالعينينِ والراسِ
فلَسْتُ أدخل فاسًا ما حَييتُ ولو   أعطيتُ فاسًا بما فيها من النَّاسِ

وفيها: كان انتقال عُبيد الله الشيعي من القَيْروان بعياله وجميع مملكته الضَّخْمة إلى مدينته التي بناها وسماها بالمهدية لثمان خَلَون من شوّال بعد أن أكملَ قصرَهُ بها وقصر ولده وسور المدينة وبعض دور رجاله، ولم يكمل الكُل، وهنأه الشُّعراء بذلك واستغرقوا في مدحه حتى كانوا يكفرون بما لا ينبغي ذكره من تسوية المهدية بمكة وغير ذلك.

وفي سنة تسع وثلاث مئة: وجه عُبيد الله دُعاتَه إلى الأطراف ليُظهروا بها تحليل المُحَرَّمات، وكان ذلك من أُمنيته؛ قال ابن القطان: كان منهم شبيب بن سُليمان بجبلِ وَنْشَرِيس، أمرَهُم أن يدخل الرجل إلى حَليلةِ جارِه، فيطأها وزوجها حاضرٌ ينظر إليه، ثم يخرج فيبصق في وجهه، ويصْفَع قفاه ويقول له: تَصَبَّر، فإذا صَبَر سُمِّي من الصَّابرة. فقامَ عليهم الناس وقتلوا بعضهم فكفّوا.

ووصل أبو القاسم بن عُبيد الله إلى المَهْدية مستهل رَجَب منصرفه من الفَيُّوم بعد ما مكثَ في سفرته سنتين وثمانية أشهر.

وفيها: كان فَتْح الشيعة سِجِلْماسة، فتحها مصالةُ بن حَبُوس فانتهبَ أموالَها وقتلَ بها أحمد بن مِدْرار صاحبَها وانصرف[2].

وأمر عُبيد الله بحبسَ مئتي رَجُل أظهروا تحليل المُحرمات بالقيروان وباجة وتونس وجاهروا بها، وأكلوا الخِنْزير وشَرِبوا الخَمْر في شهر رمضان جهارًا، وكان ذلك بدسيسته، فلما ارتجَّ الناسُ سجنهم مُداراةً وكفًا للناس، وعَلِمَ بذلك

---

(١) في م: «الجبن»، وهو تحريف، والحَيْن: الهلاك.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٣١.

الخاصُّ والعام حتى عُيِّرَ به ابنُه أبو القاسم أيام كونه بالفَيُّوم، وكثر القول من الناس في ذلك، فلما عَلِمَ بذلك اللعين عُبيد الله كتب إلى عماله بهذه المواضع برفعهم إليه مقيدين، فحُبِسوا وماتَ أكثرُهم في السِّجن، وكلُّهم مشهورٌ بإفريقية، منهم: أحمد ابن البَلَوي النخاس بالرَّقيق، كان يُصَلِّي إلى رَقَّادة أيام كون عُبيد الله بها وهي منه في المغرب، فلما انتقل عُبيد الله إلى المَهْدية صلَّى إليها، وهي منه في المشرق، وكان يقول: لستُ ممن يعبُدُ مَن لا يُرى. وكان يقول في عُبيد الله لأهل القيروان: إنه يعلم سِرَّكم ونجواكم. لعنَهُ اللهُ ولعن عُبيد الله.

وأمر عُبيد الله أن يكون طريق الحاج على المَهْدية لأداء ما وَظَّفَ عليهم من المغارم، وألا يتعدى هذا الطريق أحدٌ، وجعلَ على الحجاج مغارمَ عظيمة يعجز أكثرُ الناس عنها لأنَّ الحجَّ ليسَ من مذهبهم.

وأمر، لعنَهُ الله، بقتل الفقيه أبي عليّ الحَسَن بن مُفَرِّج وغيره إذ رُفِعَ له عنه أنه يقول بتفضيل أبي بكر وعُمر على عليّ رضي الله عن جميعهم.

وفي سنة عَشْر وثلاث مئة: قَدِمَ مصالةُ بن حَبُوس المهدية فأقام بها أيامًا وانصرفَ إلى تِيْهرت، وقامَ حسن بن علي الحَسَني مع البربر فأتى إلى فاس وبها رَيْحان[1] الكُتامي قائدًا عليها من قبل عُبيد الله الشيعي، فأخرجَهُ منها واستبدَّ بها، ثم غَدَرَهُ حامدُ بن حمدان وأدخلَ ابن أبي العافية، وكان يتولى لبني أمية، فبقي بها إلى أن أرسلَ الشيعي قائديه مَسْرورًا وجَوْهرًا، ففر أمامَهُما وبقي فيها قائد الشيعي إلى أن أخرجه بنو إدريس ورجعَ لهم مُلْكها حتى حاربها عسكر الناصر الأموي صاحب الأندلس وملكها.

وفيها: توفي أبو جعفر الطَّبَري.

وفي سنة إحدى عشْرة وثلاث مئة: وَلِـيَ محمد بن عِمْران النَّفْطي قضاء القَيْروان، وكان قبل ذلك على قضاء أطرابُلُس، فجمعَ بها أموالًا كثيرةً من الرِّشا والأحْباس ورَفَعها إلى عُبيد الله، فكانت وسيلة له عنده، فولاه القَيْروان.

---

(١) في ر١: «زنجان».

ودخل عليّ بن سُليمان[1] قائد الشيعي حِصْن نُفُوسة فقتَلَ أهلَهُ وسَبَاهم وذلك في شعبان.

وفي سنة اثنتي عَشْرة وثلاث مئة: خرجَ مَصالة بن حَبُوس من تِيْهرت إلى زَنَاتة فأداخَ بلادَهُم وقتلَ وسَبَاهُم، وأخرجَ خيلًا إلى نواحي ابن خَزَر، فبلغَ ذلك ابن خزر فقصدَ نحو مصالة ودارت بين الفريقين حروبٌ عظيمة قُتِلَ فيها مصالة وانهزمَ أصحابُه.

وفيها: مات النَّفْطي قاضي القيروان ووليها ابن أبي المنهال مرة ثانية.

وفي سنة ثلاث عَشْرة وثلاث مئة: كانت غزوة أبي أحمد جعفر بن عُبيد[2] الحاجب إلى بَلَد الروم من صِقِلِّيَّة، ففتح أماكن كثيرة وقتل بها ستة آلاف مقاتل، وأخرج منها عشَرة آلاف سَبِية.

وفيها: وَلِـيَ مظالم القيروان ابن أخي[3] كرام.

وفيها: ابتدأ عبيدُ الله الشيعيُّ ببناء مدينة الـمَسِيلة[4]، وسمَّاها الـمُحَمَّديَّة، على يَدَيْ عليّ بن حَمْدون الـجُذاميّ المعروف بابن الأنْدَلُسيّ، في وسط أرض بني بِرْزال وبني كَهْلان، على قُرْب من هَوَّارة. وكانت على وادٍ؛ ولها سورانِ، تَليهما ساقيةٌ من هذا الوادي.

[وفي سنة أربع عشرة وثلاث مئة][5]: زحفَ أميرُ زناتة محمد بن خَزَر إلى تِيْهَرت فحارَبَها، ثم انهزمَ عنها، وأخرجَ عُبيد الله الشيعيُّ في أثره موسى بن محمد الكُتامي في جماعةٍ من القُواد، فدخل محمد بن خَزَر الصحراء، وأبقَى أخاه مع وجوه رجاله بوادي مِطْماطة، فدارت بينهم وبين جُند الشيعي حربٌ عظيمة كان الظَّفَر فيها والغَلَبة لابن

---

(١) في م: «ابن أبي سليمان».

(٢) في ر١: «عبد الله».

(٣) في ر١: «أبي».

(٤) الروض المعطار ٥٥٨.

(٥) في ر١: «وفيها»، وكانت ضمن سنة (٣١٣) وهو غلط ظاهر.

خزر، وخالفت على الشيعي مِطْماطة وما جاوَرَها من قبائل زناتة، واستمدوا ابن خَزَر فولّى عليهم أخاه عُبيد الله ودارت بينه وبين جنود الشيعي وقائع كثيرة.

وفي سنة خمس عَشْرة وثلاث مئة: خرجَ أبو القاسم بن عُبيد الله المهدي من المهدية يريد المغربَ يوم الخميس لتسع ليال خَلَون من صفر(١)، وكانت طريقه على القيروان. ثم صارَ إلى باغاية، ثم إلى كُتامة، وتقدم إلى جَبَلٍ فيه بنو بِرْزال(٢)، فامتنَعوا عليه، فحاربَهُم حتى فتح له عليهم(٣)، وتوجه إلى مَدْغَرة، ثم إلى سُوق إبراهيم، وأقامَ في تلك الجهة أكثر من شَهْر لكلب الشِّتاء وكثرةِ الوَحل، ومَشَى(٤) عقابًا كثيرةً راجلًا لشدَّة وعرها، وكان يقتاتُ كل يوم بَيْضة أو نحوها لكثرةِ الذُّباب في العَسْكر؛ أخبر بذلك أبوه لمجالسيه عن كتابٍ وردَ عليه منه بذلك إشفاقًا عليه.

وفيها: ظفرَ أبو القاسم عبد الرحمن بن عُبيد الله بمعلًّى الداعية بالمغرب فبعثَهُ إلى أبيه مُصَفدًا فأمر بضرب عنقه برَمْلة المهدية.

وظفر أيضًا بحَامِيم الذي كان قد تنبأ بالجَبَل المنسوب إليه بساحل طَنْجة، وكان قد آمن به بشرٌ كثير من البَرْبَر الجُهّال فشرع لهم صوم يوم الخميس ومَن أفطره غرم خمسة أثوار، وصوم الاثنين(٥) فمن أفطره غرم ثورين، ونحو هذا من الباطل والحماقات، وفيه قيل [من الطويل]:

وقالوا افْتِراءً إنّ حامِيمَ مُرْسَلٌ ... إليهمْ بدِينٍ واضِح الحقِّ باهِرِ
فقُلْتُ: كذَبْتُم بدَّد الله شَمْلَكم ... فما هو إلّا عاهِرٌ وابنُ عاهِرِ
فإن كان حامِيمُ رَسولًا فإنَّني ... بمُرْسِلِ حَامِيم لأوَّلُ كافِرِ

---

(١) في ر١: «في أوائل صفر».
(٢) في ر١: «مروان» خطأ.
(٣) في ر١: «فيهم».
(٤) في ر١: «وسار».
(٥) قوله: «ومن أفطره غرم خمسة أثوار، وصوم الاثنين» سقط من ر١.

رَوَوْا عن عجوز ذاتِ إفْكٍ بهيمةٍ تَجاوَزَ في أسحارِها كلُّ ساحِرِ
أحاديثَ إفْكٍ حاكَ إبليسُ نسْجَها بِشرّتِهِمْ واللهُ مُبدي السرائرِ

وفي سنة ست عشرة وثلاث مئة: فتحَ أبو القاسم بن عُبيد الله حصن أغْزَر، وذلك أنه نازله يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرَّم[1]، ونقبَ السُّورَ عليهم حتى سقط؛ وهلك ممَّن كان تحته وفوقه عَدَدٌ كثيرٌ. فلما نظروا إلى الغلبة، أحرقوا الأمْتِعة، وعَرْقَبوا الدوابَّ والمواشي، وقاتلوا الشيعة حتى قُتلوا، وأُسِرَ منهم من استأسر وانتُهِب ما في الحصن. وأجابت هَوَّارة ولماية إلى طاعة الشيعة، فأمَّنهم أبو القاسم، ثمّ سار إلى جهة تِيهَرْت، فأقام بها نَحْوَ شهرٍ[2]. ثمّ نكبَ أبو القاسم بالجيوش إلى طُبْنة، وانصرفَ إلى المهديَّة دون أن يلقى ابن خَزَر أمير زناتة. وقيل: إنَّ سببَ انصرافه أنّهُ سَمِعَ أن أخاه أحمد صَلَّى بالنَّاس عيد الفطر، وأنَّ الناسَ تحدثوا بمبايعته فأقلقه ذلك.

وفيها: كان ابتداءُ أمر أبي يزيد مَخْلَد بن كَيْداد الزَّناتيّ[3]، وهو رجلٌ أخذ نفسه بمذاهب النَّكَّار، يُحَلِّل دماء المسلمين وفروجَهم، ويسبُّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وكان أوَّلَ أمره بتَقْيُوس[4]، يُعلِّم الصبيان، ويعتقد الخروجَ على السُّلطان، ويحتسب على الناس في كثير من أفعالهم، وعلى جُباةِ الأموال. فغَيَّرَ في هذا العام على عامل تَقيُوس، وأمرَ بقتله، فقتله أهلُ تَقْيُوس، ففزع أبو يزيد عند ذلك، وخرجَ إلى الحجّ. فلما وصل إلى أطْرابُلُس، وصلَ كتابُ عُبيد الله في طلب قوم من البربر، فهربَ هو وصاحِبُه أبو عمّار الأعمى، وكان على مذهبه وضلاله. فكَرَّا إلى تَقْيُوس؛ فوردَ كتابُ عُبيد الله في طلبه فيها، فما زال يَفرُّ ويستَتِرُ، إلى أن ظهر أمره بعد.

وفي سنة سبع عشرة وثلاث مئة: كان بالقَيْروان وأعمالها غلاء عظيم ووباء.

---

(١) في ر١: «منتصف المحرم».

(٢) في ر١: «فأقام بها شهرًا».

(٣) ترجمته وأخباره في اتعاظ الحنفا ١/ ٧٥.

(٤) ينظر عنها الروض المعطار ١٣٩.

وفيها: تغلَّب محمد بن خَزَر الزَّناتي على الزَّاب كُلِّه، ومَلَكَه جُـمْلةً.

وفيها: بَنَى بنو محمد الأدارسة المدينة المعروفة بـحَجَر النَّسر.

وفيها: سار[1] موسى بن أبي العافية إلى مدينة نَـكُور، وصاحبُها يومئذٍ المؤيَّدُ بن عبد البَدِيع بن إدريس بن صالح بن منصور، فحاصَرَه فيها حتى تغلَّب عليها، واستباحها، وغَنِمَ ما فيها، وقتل المؤيَّدَ، وهدمَ أسوارَها[2]. ثمّ سار يريد بني محمد الأدارسة، وعَمِيدُهم يومئذٍ الحسن بن عيسى المعروف بابن أبي العَيْش، صاحبُ جَرَاوة[3]، وهي أشرف مدائن تلك الجهة يومئذٍ. فنزل عليها، وحاصر ابن أبي العَيْش فيها حتى أوفى على أخذها. فلما أحسَّ ابن أبي العَيْش بالغَلَبة، خرج في الليل، هاربًا بأهله ووَلَده ومَن تبعهُ، ونجا إلى مَرْسى جَراوة المعروف بأكّاس، وأظنه موضع تيكيساس اليوم، فدخل منه البحر، وصار[4] بجزائر مَلْوِية. ثمّ سار إلى جزيرة أَرَشْقُول[5]، وهي منيعةٌ لا تُرام، فتحصَّن فيها بأهله وولده ومواليه. وجالَ موسى بن أبي العافية بتلك الجهات، وأخذ مدينة مرينة ومدينة أَرَشْقول. وهربَ كُلُّ مَن كان بذلك الجانب من بني محمد بن سُليمان، وصارت تلك الأقطار لموسى بن أبي العافية، وأخلى منها قوَّاد بني خَزَر وعمَّالهم، وصار في ملك موسى بن أبي العافية: من أحواز تِيهَرْت إلى السُّوس الأقصى.

وفي سنة ثماني عَشْرة وثلاث مئة: خرج حُميد بن يَصَل من الـمَهْدية إلى تِيْهَرت بغير إذن عُبيد الله وبنى قَلْعة هنالك، فكتب عُبيد الله إلى يَصَل بن حَبُوس أن يوجه حُميدًا إلى المهدية[6]، ولا يؤخره ساعة واحدة، فرجع حُميدٌ إليها، ولم يَلْق من عُبيد الله سوءًا.

---

(١) في ر١: «صار»، وينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦.

(٢) في ر١: «أسوار المدينة».

(٣) ينظر عنها الروض المعطار ١٦٢.

(٤) في أ: «ووصل».

(٥) الروض المعطار ٢٦.

(٦) «إلى المهدية» ليست في ر١.

ذكر(1) مدينة جَرَاوة(2)

كانت مدينة جَرَاوة عليها سُورٌ مبنيٌّ بالطُّوب، وبخارجها عيونٌ مالحةٌ، وداخلَها آبارٌ كثيرةٌ طَـيِّبةٌ عَذْبةٌ، وحَولَـها أرباضٌ من جميع جهاتها، وفيها قَصَبةٌ مانعةٌ، وبها خمسُ حمَّامات، وجامعٌ له خمسُ بَلاطات، أَسَّسهُ أبو العَيْش عيسى بن إدريس سنة سبعٍ وخمسين ومئتين. ووليها بعده ابنُه الحسن بن أبي العَيْش في سنة إحدى وتسعين، وخرج منها إلى حصن المنصورة(3) في سنة تسع عَشْرة وثلاث مئة، ثم عادَ إليها في سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة، ثمّ انتقلَ إلى تِلِمْسان في سنة خمسٍ وعشرين وثلاث مئة. وكان لها أربعة أبواب، وحَوْلَهَا فحوصٌ للزرع والضَّرْع(4)، وحولَـها قُرَى مَدْغَرة على البحر. وفي الجبل بنو يَزْناتَن، ومن جهة الشرق بنو يَفْرَن من زَناتة، ومن جهة الغرب قبائلُ زَوَاغة وغيرُهم.

ذكر مدينة تاهَرْت(5)

وأمّا مدينة تاهرت، فأسَّسها عبدُ الرحمن بن رُسْتُم بن بَهْرام، وكان مَوْلًى لعثْمان بن عفَّان رضي الله عنه، وكان خليفةً لأبي الـخَطَّاب أيّامَ تغَلُّبه على إفريقية. ولما دخل ابنُ الأشْعَث القَيْرَوان، فرَّ عبد الرحمن إلى الغرب بما خفَّ من أهله وماله، فاجتمعت إليه الإباضيَّة، وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا بموضع تاهرت، وهي غيضةٌ بين ثلاثة أنهار، فبنوا مسجدًا من أربع بَلاطات، واختطَّ الناسُ مساكِنَهم، وذلك في سنة إحدى وستين ومئة. وكانت في الزمان الخالي مدينةً قديمةً، فأحدثها الآن عبد الرحمن ابن رُسْتُم، وبقي بها إلى أن مات في سنة ثمان وستين ومئة، وقد تقدَّم ذكرُ ذلك(6).

---

(1) في أ: «صفة».

(2) كتب أحدهم في حاشية ر1: «تقع أطلال هذه المدينة اليوم بقبيلة بني يزناس، وهي غير بعيدة عن الحدود المغربية الجزائرية».

(3) في أ: «المقصورة».

(4) في أ: «المزرع».

(5) يقال: تاهرت وتيهرت.

(6) قوله: «وقد تقدم ذكر ذلك» ليس في ر1.

ذِكْر مَن مَلَك مدينة تِيهَرْت من حين ابتدائها من بني رُسْتُم وغيرهم[١]

أوَّلُـهم[٢]: عبدُ الرحمن بن رُسْتُم: كانت مدَّتُه بها سبعة أعوام.

ثمّ وليها ابنه عبدُ الوارث، فكانت مدَّتُه بها أربعين[٣] سنة، وتوُفّي سنة ثمان ومئتين[٤].

ثمّ وليها ابنُه أبو سعيد أفْلَح بن عبد الوارث، ومات سنة خمسين ومئتين[٥].

ثمّ وليها أيضًا ابنُه أبو بكر بن أفْلَح بن عبد الوارث بن عبد الرحمن بن رُسْتُم، فاخْتَلَف عليه الأمرُ، وأخرجه أهلُها من تِيهَرْت، ثمّ أعادوه إلى أن مات فيها.

ووليها بعده أخوه أبو اليَقْظان محمَّد بن أفْلَح، فكانت مدَّتُه سبعًا وعشرين سنة، ووفاتُه في سنة إحدى وثمانين ومئتين.

ووليها بعده أبو حاتم يوسف بن أبي اليَقْظان، فأقام فيها عامًا، واختلف عليه الناسُ، واضطرب أمرُه، فخرج إلى حِصْن لَوَاتة، وقامت بينه وبين أهل تِيهَرْت حروبٌ عظيمة.

ووليها بتقديم أهلها يعقوبُ بن أفْلَح بن عبد الوارث بن عبد الرحمن بن رُسْتُم، فأقام واليًا أربعةَ أعوام، ثمّ خلعوهُ وقَدَّموا أبا حاتِم بن أبي اليَقْظان، فأقام ستَّةَ أعوام إلى أن قتله بنو أخيه سنة أربع وتسعين ومئتين.

ثمّ وليها يَقْظان بن أبي اليَقْظان، فقتله أبو عبد الله الشيعيُّ، في خبر طويل، مع جماعةٍ من أهل بيته، وذلك في شوَّال سنة ست وتسعين ومئتين. وانقطع مُلْكُ بني رُستُم من تِيهَرْت في هذا التاريخ.

---

(١) العنوان ليس في ر١.

(٢) في ر١: «فأول من وليها».

(٣) في أ: «عشرين».

(٤) في أ: «ثمان وثمانين ومئة»، وهذه التواريخ كلها فيها نظر واختلاف بيّن.

(٥) هكذا في النسختين، وفيه نظر أيضًا.

ووليها في أيّام الشيعة أبو حُمَيْد دَوَّاس اللَّهيصيُّ، ولّاه أبو عبد الله الداعي[١] حينَ خروجه منها إلى سِجِلْماسة، فأقام فيها ستَّةَ أشْهُر، حتّى أَتَتْهُ العساكر من إفريقية، فافتتحها في سنة تسع وتسعين ومئتين. ووليها مَصَالة بن حَبُوس المكْناسيُّ، إلى أن قتله محمد بن خَزَر الزَّناتيُّ في شعبان سنة اثنتي عَشْرة وثلاث مئة، فكانت ولايتُه بها ثلاث عَشْرة سنةً. ووليها بعده أخوه يَصَل بن حَبُوس إلى أن تُوفّي سنة تسع عشرة وثلاث مئة. ثمّ وليها أبو مالك بن يغْمُراسن بن أبي شَحْمة اللَّهيصيُّ، فقام عليه أهلُ البلد، وأخرجوه سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة، ووليها أبو القاسم الأحْدَب بن مَصَالة بن حَبُوس، قدَّموه على أنفسهم، فأقام عليهم سنةً واحدةً، فلما انصرف منصور[٢] من أرض المغرب إلى إفريقية، حاربَهم حتّى ظَفر بالبلد، وقتل أبا القاسم بن مَصَالة المذكور، وولّى على تِيهَرْت داود بن إبراهيم العَجِيسيَّ، فأقام واليًا عليها إلى أن أخرجه حُمَيْد بن يَصَل في جُمادى الآخرة من سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة، في أيّام أبي يزيد مَخْلَد بن كَيْداد اليَفْرنيّ، وخرج حُمَيْد بن يَصَل من تِيهَرْت، في سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة، في خبر يطول ذكرُه، وجازَ إلى الأندلس. واحتلَّ إسماعيل الشيعيُّ مدينة تِيهَرْت، وولّى عليها مَيْسُورًا الفتَى، فاضطرب عليه أهلُ البلد لأنّه سار فيهم بسيرة غير مَرْضِيَّة، فاستدعوا محمدَ بن خَزَر الزَّناتيَّ، وابنه الخَيْرَ، ومن معهم من زَناتة، فقدموا إلى تِيهَرْت في جمع عظيم، وأظهروا أنّهم ناصِرون لمَيْسُور، فخرج إليهم فغدروه وأسروه. ودخل بنو خَزَر وزَناتة مدينة تِيهَرْت، ونزلوا دار الإمارة. ثمّ اضطرب أمرُ أهْلِ تِيهَرْت، وتغلَّب عليها يَعْلَى بن محمَّد اليَفْرَنيُّ الزَّناتيُّ، إلى أن قدم جَوْهَر، قائدُ الشيعة، سنة تسع وأربعين وثلاث مئة.

وكانت حَوْل تِيهَرْت بساتينُ من أنواع الثِّمار، كثيرةُ الأشجار، وهي شديدةُ البَرْد، كثيرةُ الأمطار. قيل لبعض الظُّرَفاء من أهلها: كم الشِّتاءُ عندكم من شهر في السنة؟ قال: ثلاثة عشر شهرًا، وقال بعضُ شعراء تِيهَرْت من قصيدةٍ أوَّلُها[٣] [من الطويل]:

---

(١) ليس في أ.

(٢) في أ: «ميسور».

(٣) في ر١: «وفي ذلك يقول بعضهم».

فَرَاغُ الـهَوَى شُغْلٌ ومَـحْيا الـهَوَى قَتْـلُ ... ويَوْمُ الـهَوَى حَوْلٌ وبَعْضُ الـهَوَى كُـلُّ
وجُودُ الـهَوَى بُخْلٌ ورِسْلُ الـهَوَى عدًى ... وقُرْبُ الـهَوَى بُعْدٌ ووعدُ[1] الهوى مَطْلُ
سَـقَى اللهُ تِيهَـرْتَ الـمُنَا وسُـوَيْقَةً ... بسَاحَتِها[2] غيثًا يَطِيبُ بـه الـمَحْلُ
كـأنْ لم يكُـنْ والـدارُ جامعـةٌ لنـا ... ولم يَـجْتمِعْ وَصْلٌ لنـا ولا شَـمْلُ[3]
فلمَّـا تفانى الطِّيبُ[4] وانْشَقَّتِ العَـصَا ... تَداعَتْ أهَاضِيبُ النَّوَى وهي تَنْهَـلُّ
سَـلامٌ عـلى مـنْ لم تُطِـق يَـوْمَ بَيْنِنـا ... سَـلامًا ولكِـنْ فارَقَـتْ وبِهـا ثُـكْلُ
ومـا هِـيَ آمـاقٍ تَفِـيضُ دُموعُهـا ... ولكِنَّهـا الأرْواحُ تَجْـرِي وتَنْـسَلُّ

ومـمّا قيل حين قَضَى اللهُ بخرابها، وانتقالِ أهلِها عنها وأربابِها [من الطويل]:

خلِيلَيَّ عُوجَا بالرُّسومِ وسَـلِّما ... على طَلَلٍ أقوى وأصْبَح أغْبُرا
ألِـمّا على رَسْمٍ بتِيهـرْتَ داثِـرٍ ... عَفَتْهُ الغَوادِي الرائحاتُ فأقْفَرا
كأنْ لم تكُنْ تِيهَرْت دارًا لـمَعْشَرٍ ... فَدَمَّرها المقْـدَارُ فـيمَن تَـدَمَّرا

وتِيهَرْت القديمة هذه هي التي خربها الـخَيْرُ بن محمد بن خَزَر الزَّناتيُّ.

وفي سنة تسع عشرة وثلاث مئة: كاتب موسى بن أبي العافية عبدَ الرحمن الناصرَ صاحب الأندلس، ورَغِبَ في موالاته، والدخول في طاعته، وأن يستميلَ لطاعتِهِ[5] أهواء أهل العُدْوة الـمُجاوِرين له، فتَقَبَّلَه أحْسَنَ قَبُول، وأمدَّه بالـخِلَع والأموال، وقوَّى يَدهُ[6]

---

(١) في أ، م: «وسبق».

(٢) في أ: «بساكنها».

(٣) في أ: «وصل».

(٤) في أ: «تمادى العيش».

(٥) في أ: «له».

(٦) في أ: «أوده».

على ما كان يُحاولُه من حَرْب ابن أبي العَيْش وغيره[1]. فظهر أمْرُ موسى من ذلك الوقت وتغلَّب على مدينة جَرَاوة، وأخرج عنها[2] الحَسَن بن أبي العَيْش بن إدريس العَلَويَّ، ودارت بينهما مُحارَبات ومُواقَعات. وبَنَى الحسنُ بن أبي العَيْش حِصنًا مَنِيعًا بجَبَل، بَيْنَه وبَيْن جَرَاوة[3] أربعةُ أميال، وحَوْلَه قُرًى لـمَدْغَرة، وبنِي يَفْرن، وغيرهم من القبائل. وكان لأبي العَيْش أيضًا وبنيه مدينةُ تِلِمْسان وما والاها، يسكنها مثْلُ زُواغة ونَفْزة وغيرُ ذلك، وفي ذلك يقول بَكْر بن حَـمَّاد [من الكامل]:

سائِلْ زُواغة عن طعان سُيوفِه ... ورماحه في العارِض المتهلِّلِ
وديار نَفْزة كيف داس حريمَها ... والخيلُ تمرغ في الوشيج الذبَّلِ
غَشَّى مَغيلةَ بالسيوفِ مُذِلَّةً ... وسَقَى جَراوة من نقيع الحَنْظَلِ

ومن جَراوة إلى تِيهَرْت ثلاثُ مراحِل، وإلى حِصْن تَامْغَلْت مرحلتان، يسكنه بنو دَمَّر من زَناتة.

ذكر مدينة تِلِمْسان

ذُكِر أنّ تِلِمْسانَ قاعِدةُ الـمَغرِب الأوْسَط، قالهُ البَكْريُّ، وصَحَّحَ قَوْلَه كثيرٌ من الأخباريّين، ومن كتاب رُجَار[4]، قال: وبين مدينة تِلِمْسانَ وتِيهَرْت، يَسْكُن بنو مَرِين وجميعُ قبائل زَناتة، منهم: تُجِين، ومَغْراوة، وبنو راشِد، ووَرْتِيد، وغيرهم. قال: وأكْثَرُهم فرْسان يركبون الخيل، ولهم معرفةٌ بارعةٌ، وحذقٌ، وكياسةٌ، لاسِيّما بعِلْم الكَتِف. وهم منسوبون إلى جَانَا. قال: وزَناتة في أصل[5] مَذْهَبِهم عَرَبٌ صُرحٌ، وإنّما تَبَرْبَروا بالمجاوَرة والـمُحالَفة للبَرْبَر. وذكر أنّهم ينتسبون إلى بَرّ بن قَيْس بن إلياس بن مُضَر.

---

(١) ليست في ر١.

(٢) في ر١: «منها».

(٣) من هنا إلى قوله بعد الشعر: «ومن جراوة» سقط كله من ر١ كأنه قفز نظر.

(٤) يعني: نزهة المشتاق للإدريسي.

(٥) ليست في ر١.

ذكر سَبْتة

وفي سنة تسع عَشَرة وثلاث مئة: هذه المؤرَّخة، افتتحَ الناصِرُ لدين الله[1] الأمويُّ مدينةَ سبْتة على بحر الزُّقاق من بَرِّ العُدْوة، التي هي نظامُ باب الـمَغْرِبَيْن، ومفتاحُ باب الـمَشْرِقَيْن[2]، وهي، على ما قيل، مَـجْمَعُ البَحْرَيْن، قاعِدةُ البَرِّ والبحر، واللؤلؤةُ الحالةُ من الدُنْيا بين السَّحْرِ والنَّحْر. وفي فتحها يقول عُبَيد الله بن يحيى بن إدريس، يُخاطِبُ الناصِر [من الطويل]:

بِـسَيْفِكَ دانَـتْ عَنْـوةً وأقَـرَّتِ ... بَصائرُ كانت بُرْهَـةً قـد توَلَّـتِ
وما قَرُبَتْ أهْواؤهـا إذ تَقَرَّبَـتْ ... ولا حُلِّيَتْ بالزّي لـمّا تَـحَلَّتِ
ولكنْ أزالَتْ راسِياتِ عُقودِها ... عَزائمُ لو ترمى بها الغُصْمُ زَلَّتِ
ودَوْلـةُ منـصورِ اللِّـواء مُؤيَّـدٍ ... تُدَالُ بحَمـدِ الله مـن شَرّ دَوْلـةِ
فهذا أوانُ النَّصْرِ منهـا وهـذه ... بَشائرُهُ[3] تَـرْوِي الأنـامَ بـسَبْتةِ

فشكَّها أميرُ المؤمنين الناصرُ بالرجال، وأتْقَنَها بالبنيان، وبنى سورها بالكذّان[4]، وألزَمَ فيها من رَضِيَه من قُوَّاده وأجناده، وصارت مفتاحًا إلى العُدوة، قال عَرِيب: وبابًا إليها، وثقافًا على المراسي في ذلك الجانب، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين الناصر، وذلك يوم الجمعة لثلاث خَلَوْنَ من ربيع الأوّل من العام المؤرَّخ[5].
وورد الخبرُ على عُبَيْد الله بالمهديَّة بدخول موسى بن أبي العافية وأهْلِ سَبْتة في طاعة عبد الرحمن الناصر، وأنّ مركبًا نزل من الأندلُس بمرسى جَرَاوة لموسى بن أبي العافية، فهبط إليه الحسن بن أبي العيش، وأخذ ما كان فيه. فكاتبه موسى وكاتب قاضيَه،

---

(١) «لدين الله» ليس في ر١.
(٢) في ر١: «ومفتاح البرين».
(٣) في ر١: «تباشيره».
(٤) قوله: «وبنى سورها بالكَذّان» ليس في ر١، والكَذّان: نوع من الحجارة.
(٥) في ر١: «السنة».

فلم يصرف إليه، وأحرق ابن أبي العافية[1] بسيط جَراوة وتجول في البلاد أيامًا، ودارت[2] بين ابن أبي العَيْش [وبين ابن أبي العافيـة][3] مراسلات، ورغب ابن أبي العَيْش في مصالحته، وصَرْف ما كان أخذه له، واصطلحا. ثم عادت الحرب بينهما، وذلك شيء يطول ذكرُه هنا. وعَظُم على الشيعي ما ورده من هذا الأمر وأقلقه، وكتب إلى القبائل في الغرب يحضهم على طاعته.

ومدينةُ سبتة مدينة أزَليَّة، على ضفَّة البحر الرُّوميّ، وهو بحر الزُّقاق الداخلُ في البَحْر الـمُحيط، وهي في طَرَف من الأرض، والبحرُ مُـحيطٌ بها من كلِّ ناحية إلّا موضعًا ضَيِّقًا جِدًّا، لو شاء أهْلُها أن يَصِلُوه بالبحر الآخر[4]، لفعلوا، فتصير من جُزُر البحر. ويُـجْلَب الماءُ إلى حَـمّاماتها من البحر. وأهلُها عَرَبٌ وبَرْبَرٌ. ولم تَزَلْ دارَ عِلْمٍ. وبشرقِيِّها جَبَلٌ مُنيفٌ داخلٌ في البحر، والبحرُ مُـحيطٌ به، ويُلقَط في بعض نواحي هذا الجبل ياقُوتٌ صغيرُ الجِرْم، عَرِيقٌ في الـجَوْدة. وبحرُها يُسْتَخْرَجُ منه الـمَرْجان، وهو البُسَّذ.

واخْتُلِف في تسميتها بسبتة، فقال قومٌ: سُمِّيَتْ بذلك لانقطاعها في البحر، تقولُ العَرَب: «سَبَتَّ النَعْلَ» إذا قَطَعْتَهُ، وقال آخرَون: إنّ رجلًا من وَلَد سام بن نُوح عليه السلام اسْمُه سَبْتٌ خَرَج من الـمَشْرق لأسبابٍ عَرَضَتْ له، فتوغَّل في المغرب حتى أتى موضعها، فاختطَّ فيه موضعًا يَعْمُره. ويذكر أشياخُنا الحديثَ الـمُسْنَدَ عن وَهْب بن مَسَرَّة الـحَجَرِيّ[5]، وذلك أنّ أبا عبد الله محمد بن عليّ حَدَّثَهم عامَ أربع مئة عن وَهْب بن مَسَرَّة، عن ابن وضَّاح، عن سُحْنُون، عن ابن القاسم، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ بأقصى المغرب

---

(١) في ر١: «العيش».

(٢) من هنا إلى قوله: «وعظم» ليس في ر١.

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة متعينة.

(٤) في ر١: «الأخضر».

(٥) هو وَهْب بن مَسَرَّة بن مفرج بن حكم التميمي، من أهل وادي الحجارة والمتوفى به في سنة ٣٤٦هـ.

مدينةً تُسَمَّى سَبْتة، أسَّسها رجلٌ صالحٌ اسمُه سَبْت مَن وَلَد سام بن نُوح، واشتقَّ لها اسمًا من اسمه، ودعا لها بالبركة والنَّصر، فما رامها أحدٌ بسوء إلّا ردَّ اللهُ بأسه عليه». قال ابن حَمادُه: قال شيخُنا العالم أبو الفَضْل عِيَاض بن موسى: وهذا الحديث تَشْهَدُ بصحته التَّجْرِبة، فإنَّها ما زالت مَحْمِيَّةً عند من ولِيَها من الملوك، وقلَّ ما أحْدَث أحدٌ منهم فيها حدَثَ سُوء إلّا هَلَكَ[1].

قال العُذْريُّ: كان ملكٌ من مُلوك القُوط بالأندلُس يسمَّى نردوش[2]، فجازَ البحر إلى سَبْتة لـمُحارَبة البَرْبر، فحاصَرَهم فيها، ثمّ تألفوا عليه، فأمكنَتْه منهم غِرَّةٌ، فقتلهم[3]، ولم يَنْجُ منهم إلّا القليل. ورجع نردوش[4] إلى الأندلُس. وبقي البربر فيها إلى أن دخل الروم ثانيةً، وكان فيها يَلْيَان. وكان عُقْبة بن نافع رضي الله عنه لـمّا غزا المغرب ودوَّخه كلَّه، وصل إلى سَبْتة، فخرج إليه يَلْيان بهدايا وتُحَف، واستَلْطَفَه، وكان ذا عَقْلٍ وتَجْرِبةٍ، فأمَّنه عُقْبة، وأقرَّه على موضعه، ثمّ دخلها العَرَبُ بعد ذلك بالصُّلْح، ثمّ قام البربرُ بطَنْجة، وزحفوا إليها، فأخرجوا من كان فيها، وخرَّبوها، وبقيت مَسْكَنًا للوحوش مدَّةً. ثمّ دخلها رجلٌ من غُمارة، يُسمَّى ماجْكس، فعمَّرها، وأسلم، ورأس فيها، وانضافت له البرابِرُ، إلى أن هلك، ثمّ وليها بعده ابنُه عصامُ بن ماجْكس، ثمّ ابنُه مجبر بن عصام. ثمّ وليها الرَّضي بن عِصام، وكان يَحْكُمُ فيها برأي فُقَهاء الأندلُس. ثمّ دخلها قومٌ من قَلْشانة، فاشتروا فيها أرضًا من البربر، وبَنَوْا فيها دورًا وما تثلَّم من سورها الذي هو اليومَ السِّتارة، وكانوا مع ذلك يؤدُّون الطاعة لبني إدريس، حتّى افتتحها عبدُ الرحمن الناصرُ، ودخلها قائدُه فَرَج بن عُفَيْر يوم الجمعة لليلةٍ خَلَتْ من شعبان من سنة تسع عشرة وثلاث مئة.

---

(١) هذا حديث موضوع، لا يصح بحال عن النبي ﷺ، وكلام ابن حمادة لا قيمة له.

(٢) في أ: «بردوش»، وسيأتي بعد قليل في ر١ باسم «مردنوش»!

(٣) في أ: «فقتلوه».

(٤) في أ: «بردوش»، وفي ر١: «مردنوش»، وفي م: «تودوش».

ذِكْرُ مَن وَلِيَ سَبْتة لبني أُميَّـة

فوليها من قِبَل الناصر فَرَجُ بن عُفَيْر سنة تسع عَشْرة وثلاث مئة المذكورة. ثمّ وليها أحمد بن عبد الصَّمَد الغرناطيُّ، ثمّ وليها محمَّد بن حِزْب الله سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة، ثمّ عُزِل. ووليها محمد بن مَسْلَمة في سنة ست وعشرين وثلاث مئة، ثمّ عُزل. ووليها ابن مَسْلَمة أيضًا إلى سنة ثلاثين وثلاث مئة. ثمّ وليها ابن مُقاتِل إلى أن أُسِر في شوَّال سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة، أسره عندهم بنو محمد الأدارِسة، إلى أن لَـحِقَهم قاضِيها محمد بن أبي عيسى[1] في رمضان سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة، فجنح بنو محمد إلى السَّلْم على يدي القاضي، فأطلقوا ابن مُقاتِل، وبعثوا رَهائنَهم إلى أمير المؤمنين الناصر بقرْطُبة. ولم يزل وُلاةُ الناصر يَتَداوَلُونها إلى سنة ست وأربعين وثلاث مئة.

وفي سنة عشرين وثلاث مئة: سارَ أميرُ الغرب إلى محمد بن خَزَر أمير زَنَاتة فألفاهُ على حين غَفْلة وهَزَمه وقتلَ أصحابَهُ، ثم انصرفَ إلى جَرَاوة، ولم يُظْهر موسى بن أبي العافية الدعوة للناصر الأُموي إلا بعدما تَغَلَّب على نكُور ودخلها بالسَّيف وبعد أن حاصرَ مدينة حَجَر النَّسْر حتى صالحوه.

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة: وَلي سِجِلْماسة أبو المنصور سِمْعُون[2] بن الـمُعتز بن محمد، وهو ابن ثلاث عشْرةَ سنة، فمكثَ في ولايته شهرَيْن. وقام عليه ابن عمِّه محمد بن الفَتْح الـمُسمَّى بالأمين، فحارَبه، وتغلَّب عليه، وأخرجه من سِجِلْماسة، وتملَّكها. وكان سُنِّـيًّا يُظْهِر العدلَ، إلّا أنّه تَسَمَّى بأمير المؤمنين، وتلقَّب بالشاكِر لله، وضربَ بذلك الدنانير والدراهم، وذلك سنة اثنتين وأربعين وثلاث مئة، فمكث كذلك إلى أن قَرُبَتْ منه عساكرُ أبي تَـمِيم مَعَد العُبَيْديّ.

ذِكْر مَنْ وَلِـيَ سِجِلْماسة من حين فَتَحها الشيعيُّ

ولَّى عليها الشيعيُّ الـمَزَاتيَّ المتقدِّم ذكْرُه في سنة ثمان وتسعين ومئتين، فقتله أهل سِجِلْماسة بعد إقامته خمسين يومًا. ووليها أبو الفتح بن الأمين سنَـتَيْن وأشْهُرًا،

(١) تنظر ترجمته في جذوة المقتبس (١٠٧) والتعليق عليه.

(٢) في أ: «سمغول».

ثمّ وليها أحمد بن الأمين سنة ثلاث مئة، وبقي بها إلى أن حاصره مَصَالة بن حَبُوس، وافتتحها عنوةً، وقتله، في محرَّم سنة تسعٍ وثلاث مئة. وولَّى مَصالة على سِجِلْماسة الـمُعْتَزَّ بن محمَّد من بني مِدْرار، وبقي بها إلى سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة المؤرَّخة، وتُوفّي، فوليها(١) أبو المنصور المذكور.

وفي سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة: تُوفّي عُبيد الله الـمَهْديُّ ليلةَ الثلاثاء للنّصف من ربيع الأوّل، فكانت مُدَّتُه أربعًا وعشرين سنّة وعشرةَ أشْهُر ونِصْفًا(٢). وكان وصولُه إلى مِصْرَ في زِيّ التِّجار سنة تسع وثمانين ومئتين. وظهر بسِجِلْماسة في ذي الحجَّة سنة ست وتسعين ومئتين. وسُلِّمَ عليه بالإمامة. وانفصل إلى رَقَّادة في ربيع الآخر من سنة سبع وتسعين ومئتين. وبَنَى المهديَّة، واستقرَّ بها سنة ثمان وثلاث مئة. ولما انتقلَ إلى المهديَّة، دخل رقَّادة الوَهْنُ، وانتقل عنها ساكِنوها، فلم تَزَلْ تَـخْرَب شيئًا بعد شيء، إلى أن وَلِي معدُّ بن إسماعيل، فخرَّب ما بقي منها.

ذكر رَقّادة

وكانت رَقَّادة دارَ مُلْك بني الأغْلَب، ويذكرون أنّ من دخلها لم يزل ضاحكًا من غير سَبَبٍ، وأنّ أحدَ مُلوك بني الأغْلَب شَرَدَ عنه النَّوْم، فلما وصل إليها، نامَ، فسُمِّيَتْ رقَّادة، فاستوطنها إبراهيم بن أحمد، وانتقل إليها من القصر القديم، فبَنَى بها قُصورًا عجيبةً، وجامِعًا وحمَّامات، وغير ذلك.

وكان تأسيسها سنة ثلاث وستين ومئتين، وتأسيسُ القصر القديم سنة أربعٍ وثمانين ومئة. وكان ابن الأغْلَب مَنَعَ بَيْعَ الشراب بالقَيْرَوان، وأباحه برقَّادة، فقال بعضُهم في ذلك [من المنسرح]:

يا سَيِّدَ الناسِ وابـنَ سيِّدِهِمْ ... ومـن إليـه الرِّقـابُ مُنْقَـادَهْ
مـا حَـرَّمَ الـخَمْرَ في مَـدِينَتنا ... وهْـوَ حـلالٌ بـأرضِ رَقَّـادَهْ

---

(١) في ر١: «فولي».

(٢) الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٨٤.

ذِكْر الـمَهْدِيَّة والقَيْرَوان

وأمّا الـمَهْديَّة، فهي منسوبةٌ إلى المهديّ عُبيد الله الشيعيّ، فإنّه[1]، لما تغلب على الـمُلْك، تلقَّب بالـمَهْديّ، وسَمَّى مدينته التي بناها بلَقَبه، وبينها وبين القَيْرَوان ستُّون ميلًا. وقَوِيَتْ في أيّامه وأيّام ابنه أبي القاسم، وحفيده إسماعيل، وصَدْرًا من دولة معدّ بن إسماعيل، حتّى انتقل منها معدٌّ إلى القاهرة، لما ملك مِصْرَ وبنَى القاهرة الـمُعِزِّيَّة، نسبةً إلى لقَبِه الـمُعِزّ بالله. فضَعُفَتْ إذ ذاك المهديَّة إلى أن استوطنها الـمُعِزُّ بن باديس[2] آخر أيّامه لـمّا خَرِبَت القَيْرَوان بهزيمة الـمُعِزّ المذكور، إلى أن تُوفّي بها، ووليها بعده ابنه تَـمِيم[3] بن الـمُعِزّ، وصارت دار ملكه، وولدُه يحيى[4] بن تَـمِيم بعده، وولده عليٌّ[5] بن يحيى بعده، وولدُه[6] الحَسَنُ بن عليّ بعدَه، إلى أن تغلَّب عليها الروم سنةَ ثلاث وأربعين وخمس مئة، ومكثوا بها نحو ثماني سنين إلى أن أخرجهم منها عبدُ المؤمن[7] بن عليّ بعد الـمُحاصَرة، وبقيت للإسلام إلى الآن. وبها دارُ صَنْعة الإنشاء العجيبة: يَخرج الـجَفْنُ مغمورًا من خلف السُّور، فلا يُعلم به حتّى يَفْجأ العدوَّ القاصدَ، فيُحيطَ به، فلا يَقربُها العدوُّ لأجل ذلك.

وأمّا القَيْرَوان، فكانت أعظَم مُدُن المغرب طُرًّا، وأكْثَرَها بشَرًا، وأيْسَرَها أموالًا، وأوْسعها أحوالًا. وكان الغالِبُ على أهلها التمسُّكَ بالخير والتَخَلّي عن الشُّبُهات، واجتنابَ الـمَحارِم، إلى أن توالى الدَّمار[8] عليها بدخول العَرَب لها، على ما يأتي ذِكْرُه[9]

(١) من هنا إلى قوله: «بلقبه» ليس في أ.

(٢) ينظر عنه تاريخ الإسلام ١٠/ ٤٣.

(٣) ترجمته في تاريخ الإسلام ١١/ ٢٤.

(٤) تاريخ الإسلام ١١/ ١٣٢.

(٥) تاريخ الإسلام ١١/ ٢٤٣.

(٦) من هنا إلى قوله: «ثماني سنين» سقط من أ، م.

(٧) تاريخ الإسلام ١٢/ ١٣٩.

(٨) في أ: «توالت الجوائح».

(٩) ليست في ر١.

في موضعه، فلم يَبْقَ بها إلّا أطلالٌ دارِسة، وآثارٌ طامِسة. ويُذْكَرُ أنّها ستعودُ إلى ما كانت عليه. وهي الآنَ في وقتنا هذا، وهو[١] آخرُ المئة السابعة، قد ابتدأت بالعمارة[٢].

ومَلَكَ عُبيد الله الشيعيُّ إفريقيةَ، وجميعَ المغرب، وأطْرابُلُس، وبَرْقة، وجزيرة صِقِلِّية، وكانت عُـمّاله على ذلك كلّه[٣]. وصَيَّـرَ وَلَدَهُ وليَّ عهده إلى مِصْرَ، ففتحها، وكانت الكُتُب تنفُذ في أيّامه باسم ولده. وكان له ستّةُ أولاد: أكْبَرُهم وليُّ عهده أبو القاسم عبد الرحمن بن عُبيد الله وكان عُمُرُ عُبيد الله الشيعيّ، المتلقّب بالمهديِّ، يومَ مات، ثلاثًا وستينَ سنةً[٤].

ذكْرُ[٥] ولاية أبي القاسم بن عُبيد الله إفريقيّة

بُويع له يومَ مات أبوه منتصَفَ ربيع الأوَّل من سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة المؤرَّخة، وتلقَّب بالقائم بأمر الله. وتُوُفّي يومَ الأحد الثالثَ عشَر لشَّوال سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة. فكانت دولتُه اثنتَيْ عشْرةَ سنةً وسبعة أشْهُر[٦]، وعُمُرُهُ خمسٌ وخمسون سنةً[٧]. أولادُه الذكور سبعة. حاجِبُه: جعفر بن عليّ. ومن قُضاته: ابن أبي الـمِنْهال. ولم يركب أبو القاسم طُولَ إمارته بمِظَلَّة[٨]، فقام[٩] بسيرة أبيه، وأظهر من الـحُزْن عليه ما لم[١٠] يُعْهَد لمثلِه، وواصل[١١] الـحُزْنَ لفَقْده، وأدامَه من بعدِه؛

---

(١) في ر١: «وهي».

(٢) هذا نص مهم في إثبات الزمن الذي أُلِّف فيه الكتاب.

(٣) قوله: «وكانت عماله على ذلك كله» ليس في ر١.

(٤) في أ: «أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد الله الشيعي المتلقب بالمهدي، وعمره، أعني عبيد الله، ثلاث وستون سنة»، وما أثبتناه من ر١ وهو أجود.

(٥) لفظة «ذكر» ليست في ر١.

(٦) في ر١: «وسبعة عشر يومًا»، وهو غلط يؤكده ما ذكر من تاريخ توليه وتاريخ وفاته.

(٧) وينظر اتعاظ الحنفا ١/ ٧٤.

(٨) في ر١: «ولايته».

(٩) في أ: «قفا».

(١٠) في أ، م: «لا».

(١١) في ر١: «وأوصل»، وهو تحريف.

فما ركب دابَّةً من باب قصره مُنْذُ مات أبوه سوى مرَّتَيْن إلى أن هلَكَ[١]. وافْتُتِحَتْ في أيَّامه مَدائنُ كثيرةٌ من[٢] مدائن الرُّوم بصِقِّلية[٣]، وثار عليه عدَّةُ ثوَّار، فنُصِرَ عليهم وتمكّن منهم[٤]. وممّن ثار عليه ابن طالُوت القُرَشيُّ، فسار إلى ناحية أطْرابُلُس ليَأخذَها هو في عَدَد كثير؛ فقاتلوه وقَتلوا جملةً من أصحابه، وزعم أنّه ابن الـمَهْديّ، فقام معه البربر، واتَّبعوه. فلمّا تبيَّن لهم أمْرُه، قَتلوه وأتَوْا برأسه إلى القائم بأمر الله[٥]. وكان أوَّلُ ما بدأ به أبو القاسم الشيعيُّ أنْ أمَرَ عُـمَّالَه في سائر البُلْدان[٦] بعمل السلاح وجمع الآلات الحربيَّة، وأخرج مَيْسورًا الفتَى في عددٍ عظيمٍ إلى المغرب، فانتهى إلى فاس، وهزم ابن أبي العافية، وأخذَ أبنَهُ أسيرًا. وأخرجَ يعقوب بن إسحاق في الأُسْطُول إلى بلد الروم، فافتتح جَنَوةَ[٧]. وأقرَّ أبا جعفرٍ البغداديَّ على البريد والكتابة، وفوَّض إليه كثيرًا من أمور المملكة.

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة: بعث القائمُ بأمر الله عسكرًا إلى بَرْقة، قوَّد عليه زَيْدانَ، وبعث معه عامِرًا الـمَجْنُون، وأبا زُرارة، وجماعةً من عساكر بَرْقةَ الذين بها من كُتامة، إلى مِصْرَ، فدَخَلوا إلى الإسْكَنْدَرِيَّة، فأخرج إليهم[٨] محمدُ بن الإخْشِيد جيشًا فيه خمسةَ عشَرَ ألفًا، فأسَر منهم خَلْقًا كثيرًا.

وفي هذه السنة: مات الفَضْل بن عليّ بن ظَفَر، وكان أديبَ دَهْرِه، وظريفَ عَصْرِه، عِلْمًا وفِقْهًا وأدبًا ووَفاء[٩].

---

(١) في أ، م: «منذ مات أبوه إلى أن قبض سوى مرتين».

(٢) في ر١: «بعض» بدلًا من «مدائن كثيرة من».

(٣) ليست في أ.

(٤) في أ، م: «فأمكنه الله منهم».

(٥) في ر١: «أبي القاسم بن عبيد الله».

(٦) في ر١: «البلاد».

(٧) الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٨٥.

(٨) في أ، م: «إليه».

(٩) ينظر الوافي للصفدي ٨/ ٣١٨.

وفي هذه السنة: وصل مَيْسور الصِّقْلَبِيُّ إلى مدينة فاس، فخرجَ إليه صاحبُها أحمدُ بن أبي[1] بَكْر بن أبي سَهْل الـجُذاميُّ؛ فغَدَره وقبض عليه وبعث به إلى المهديَّة؛ فقدَّموا على أنفسهم أهلُ فاس[2] حسنَ بن قاسم اللَّوَاتيَّ، وحارَبَ أهلُ فاس مَيْسُورًا سبعة أشْهُر، فلم يَقْدِرْ عليهم، ثمّ حاصَرَ ابن أبي العافية، واستعان ببني إدريسَ عليه، واعتنى بهم، ووفَّى لهم حقَّهم، فانجلى ابن أبي العافية أمامَهم إلى الصَّحْراء، وصار كلُّ ما كان لبني العافية لبني إدريس. وكانت الرِّياسةُ فيهم لبني محمد بن القاسم، وهم: حَسَن، وقَنُّون، وإبراهيم، وكان إبراهيم[3] المعروفَ بالرَّهُونيّ، وقَنُّون اسمُه القاسِم، وكان يَلْزَم مدينة صَخْرة النّسر.

ذِكرُ أخبارِ الأدارِسة، رحمهم الله وسَبَبِ دخولهم إلى[4] المغربَ، وبنائهم مدينةَ فاس، ومَن وَلِيها منهم ومِن غيرهم إلى هذه السّنة

ذكَر العُذْريُّ وغيرُه أنّ إدريسَ وسُليمان ابنَيْ عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب[5] رضي الله عنهم فرُّوا من الوقعة التي كانت في أيّام أبي جعفر[6] المنصور، وهي وقعةُ فَخٍّ[7]، وكانوا ستّةَ إخوة: إدريسُ، وسُليمان، ومحمَّد، وإبراهيم، وعيسى، ويحيى. أمّا محمد[8]، فخرج بالحجاز، وقُتِلَ. وأمّا إبراهيم[9]، فقام بالبَصرة

---

(١) ليست في أ.

(٢) هكذا في النسختين، وفي م: «فقدم أهل فاس على أنفسهم»، وهي من صياغة الناشرين.

(٣) قوله: «وكان إبراهيم» من ر١.

(٤) ليست في ر١.

(٥) قوله: «ابن علي بن أبي طالب» ليس في ر١.

(٦) سقطت من م.

(٧) هكذا في الأصل، والمحفوظ أنّ وقعة فخ كانت في عهد الهادي لا المنصور، ينظر تاريخ الطبري ٨/ ١٩٢-٢٠٣.

(٨) هو المعروف بالنفس الزكية (تاريخ الإسلام ٣/ ٩٦٤).

(٩) تاريخ الإسلام ٣/ ٧٩٤-٨٠٠.

من العِراق، فقُتِلَ في أيّام المنصور. وأمّا يحيى[1]، فقام في الدَّيْلَم، في خلافة الرشيد، وهبَط على الأمان، ثمّ سُمَّ ومات. وأمّا إدريس، ففرَّ إلى المغرب، ودخَل إليه في أيّامه من الطالِبيّين[2] أخوه سُليمان، فاحتلَّ تِلِمْسان[3]، وداود[4] بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر أبي طالب، ثمّ رجع داودُ إلى المشرق، وبقيت ذُرِّيتُه بالمغرب. واحتلَّ إدريس بن عبد الله بالمغرب سنة سبعين ومئة، واستوطن وَلِيلَى[5]، وكانت أزَلِيَّةً. وكان وصولُه معَ مولاه راشد، ثمّ نزل على إسحاق بن عبد الحميد سنة اثنتين وسبعين ومئة، فقدَّمه قبائلُ البربر، وأطاعوه. وبلغ خَبَرُه هارونَ[6] الرشيد، فدسَّ إليه الشَّمّاخ فسمَّه[7]، وهرب إلى المشرق. ومات إدريسُ في سنة خمس وسبعين ومئة، فقامَ بأمر البربر مَوْلاه راشِدٌ. وترك إدريسُ جاريةً بربريَّةً اسْمُها كَنْزة، فولدت له غُلامًا سُمِّيَ باسْمِ أبيه. فولي إدريسُ[8] بن إدريس سنة سبع وثمانين ومئة وهو ابن إحدى عشْرةَ سنةً، وقيل: أكثر من ذلك، وبايَعَه جميعُ القبائل. وكانت عُدوةُ القَرَوِيّينَ غِيَاضًا، في أطرافها بيوتٌ من زُواغة، فأرسلوا إليه، ودَبَّرَ في البناء عندهم. فكان ابتداءُ بناء مدينة فاسَ سنة ثلاث وتسعين ومئة، وذلك عُدوةُ القرويّين[9].

وغزا إدريسُ بن إدريس نَفْزة، ووصَل إلى تِلِمْسان، ثمّ رجع، ووصَل إلى وادي نَفِّيس، فاستفتَح بلاد الـمَصَامِدة، وتُوفِّي مسمومًا سنة ثلاثَ عشْرةَ ومئتين، واخْتُلِفَ في

---

(١) تاريخ الإسلام ٤/ ١٠٠٢.
(٢) قوله: «من الطالبيين» ليس في ر١.
(٣) في م: «بتلمسان»، محرفة.
(٤) تاريخ الإسلام ٦/ ٧٩.
(٥) الروض المعطار ٦٠٩.
(٦) ليس في ر١.
(٧) في أ، م: «فدس إليه من سمه، وكان المدسوس إليه رجلًا يقال له: الشماخ فسمّه»، والعبارة التي أثبتناها من ر١ أوجز وأوضح.
(٨) ينظر عنه الوافي للصفدي ٨/ ٣١٤.
(٩) معجم البلدان ٤/ ٢٣٠.

كَيْفِيَّة موته. قال ابن حَـمّاده، والبَكْريُّ، وغيرُهما: ترَكَ من الولد اثنَيْ عشَر، وهُمْ: محمد، وأحمد، وعبدُ الله، وعيسى، وإدريس، وجعفرٌ، ويحيى، وحَـمْزة، وعبدُ الله، والقاسم، وداود، وعمر، فولي منهم محمدُ بن إدريس، ففرَّق البلادَ على إخوته بأمر جدَّته كَنْزة، فأعطى القاسم طَنْجةَ وما يليها، وأعطى عُمَر صُنْهاجةَ الـهَبْط وغُمارة، وأعطى داود هَوَّارةَ تامْلِيت، وولّى عيسى ويحيى وعبدَ الله بلادًا أُخَرَ، وبقي الصغارُ من إخوته[1]. فثارَ عليه عيسى، ونكثَ طاعَتَه، فكتب الأميرُ محمدُ بن إدريس إلى أخيه القاسم، يأمرُه بمُحارَبَته، فامتنع، وكتَبَ أيضًا[2] إلى أخيه عُمر، فأجابه وسارعَ إلى نُصرته، وكان تقدَّم بين عمرَ وعيسى تَنازُعٌ. وتُوفِّي عمر ببلد صُنْهاجة، ونُقِلَ إلى فاس، وهو جدُّ الـحَمُّوديِّين.

ثمّ توُفِّي الأميرُ محمد بن إدريس، رحمه الله، فولِيَ يحيى بن محمد بن إدريس، فولَّى يحيى أعمامَه وأخوالَه أعْمالًا؛ فولَّى حُسَيْنًا القِبْلَةَ من مدينة فاس إلى أغْمات، وولَّى داودَ المشرقَ من مدينة فاس: مِكْناسةَ، وهَوَّارة، وصَدينة، وولَّى القاسم غَرْبيَّ فاس: لماية وكُتامة. وتَشاغَلَ يحيى عمّا كان يحقُّ[3] عليه من سياسة أمرِه[4]. فمَلَكَ إخوتُه أنْفُسَهم، واستمالوا القبائل، وقالوا لهم: إنّما نحن أبناء أبٍ واحد، وقد تَرَوْنَ ما صار إليه أخونا يحيى[5] من إضاعة أمره. فقدَّمهم البربرُ على أنفسهم تقديمًا كُلِّـيًّا. وكان يحيى مُنْهَمِكًا في الشراب، مُعْجَبًا بالنساء، ذُكِرَ أنَّه دخلَ يومًا الحَمّامَ على امرأة، فتغيَّر عليه أهلُ فاس، فكان ذلك سَبَبَ هلاكه، فهرب إلى عُدوة الأنْدَلُس، فمات بها. وكانت زَوْجُه بنت[6] عليّ بن عمر جدِّ الـحَمُّوديّين.

ثمّ ولي عليُّ بن عمرَ بن إدريس، وذلك أنّه لما هلك يحيى، أتى صِهْرُه عليٌّ هذا، فدخَل عُدوةَ القَرَويّين وملكها، وانتقل الأمْرُ عن بني محمد بن إدريس إلى بني عمرَ

---

(١) قوله: «وبقي الصغار من إخوته» ليس في ر١.

(٢) ليست في ر١.

(٣) ليست في ر١.

(٤) في ر١: «الملك».

(٥) ليس في ر١.

(٦) في أ: «بنته زوج».

بن إدريس[1]. ثمّ قام عليه عبدُ الرزّاق الخارِجيُّ الصُّفْريُّ من مَدْيُونَةَ، فدارت بين عليّ وعبد الرزّاق حروبٌ كثيرة، إلى أن هزمه الخارجيُّ، واستولى على فاس. ومرَّ عليٌّ إلى أوْرَبَة، وملك عبدُ الرزّاق عُدوةَ الأنْدَلُسيِّين، ولم يملِكْ عُدوةَ القَرَويين، فبعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس الذي يُعرف بالعَدَّام[2] وقدَّمه على أنفسهم أهلُ عُدوة القَرَويّين، ثمّ ملَكَ بعدَ ذلك عُدوةَ الأنْدَلُسيّين، وأخرج منها عبدَ الرزّاق هذا[3] في خبرٍ طويل. وطالت أيّامُ يحيى هذا بفاسَ وما والاها من البلاد والأقطار والقِلاع، إلى أنْ قتَلَه رَبيعُ بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومئتين[4].

ثمّ ولي يحيى بن إدريس بن عُمرَ بن إدريسَ بن إدريس، وذلك أنّه لما مات يحيى بن القاسم تقدَّم إلى فاسَ يحيى بن إدريس، وملَكَها[5]. ورجع الأمرُ إلى بني عُمر بن إدريس خمسَ عشْرةَ سنة، إلى أن قَدِمَ مَصَالةُ بن حَبُوس في سنة سبع وثلاث مئة، وذلك أنّ مَصَالةَ قد قدِمَ الغَرْبَ في المرة[6] الأولى سنة خمس وثلاث مئة، فابتدأ بالإحسان والإكرام لموسى بن أبي العافية، وقدَّمه على ما استولى عليه من بلاد الغرب. وكان يحيى بن إدريس، صاحبُ فاس، يُغير عليه، ويقطع عنه[7] أمَلَه. فلمّا رجع مَصَالةُ في سنة سبعٍ وثلاث مئة، أقام بالغَرْب خمسة أعوام، فكان ابن أبي العافية يسعى في ضِرار[8] يحيى وحَنَقِه عند مَصَالة لِـمَا تقدَّم بين موسى ومَصَالة من الموَدَّة، ولِـمَا كان بين موسى ويحيى بن إدريسَ من العداوة. فعزم مَصَالةُ على القَبْض على يحيى، فلم يزَلْ يتحيَّلُ عليه، حتّى أقبل إلى معسكرِه، فغدَرَه وقبض عليه،

---

(١) العبارة في ر١: «وانتقل الأمر إلى بني عمر بن إدريس عن بني محمد بن إدريس».

(٢) هكذا في النسخ، وفي م: «العوام».

(٣) ليست في أ، م.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥.

(٥) تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦.

(٦) في أ: «الردة»، وفي م: «حركته»!

(٧) في ر١: «عليه».

(٨) في ر١: «ضرر».

وانتزع ما كان بيده[1]، وأمره باستجلاب مالِه؛ فأحضره، وأخرجه[2] من فاس، وولي فاسًا عامِلُ مَصَالة. وانفصل مَصَالةُ من الغرب، وبقي موسى بن أبي العافية في الغرب أميرًا.

ثمّ قام حَسن بن محمد سنة ثلاث عَشرة وثلاث مئة[3]، وهو حَسَن بن محمد بن القاسم بن إدريسَ بن إدريس، الملقَّبُ بالـحَجَّام، فأوقع بموسى بن أبي العافية. وكان بينه وبين رُؤساء القبائل وقعةٌ شنيعةٌ، لم يكن بالغَرْب بعد دخول إدريس الكبيرِ مِثْلُها، قُتِلَ فيها من البربر نحوُ أَلْفَيْ قتيل، وقُتِلَ لموسى في جُملتهم وَلَدٌ يُسَمّى مَنْهَلًا. وملَكَ حسنٌ هذا فاسًا وما يليها نحوَ سنتَيْن، ثمّ قام عليه أهْلُ فاس وغَدَروه وقدَّموا حامِدَ بن حَـمْدان الـهَمْدانيَّ، وكان يُعْرَفُ باللَّوْزيّ، وهي قريةٌ بإفريقيةَ نُسب إليها تُسمّى لَوْزة، فأخذ حامِدٌ حَسَنَ بن محمد وسجنه، وأرسل إلى موسى بن أبي العافية، فأتاه بجيوشه، ودخل فاسًا، وتغلَّب عليها، وأراد قَتْلَ حَسَنٍ لأجل ابنه مَنْهَل الذي كان السَّبَبَ في قتله، فدافعه حامِدٌ عنه، وكره الـمُجاهَرَة بقتله. ثمّ سُمَّ بعدَ ذلك، وقيل: أخرجه حامدٌ على السُّور فسقط عنه وانكسرت رِجْلُه، ووصل إلى عدوة الأنْدَلُسيّين فمات بها[4]، رحمه الله.

واستولى موسى بن أبي العافية على مُلْك فاس وبلاد الغَرْب بعد موت حَسَن الـحَّجام، وسُمِّيَ بذلك لأنّه حارَبَ بني عمِّه، فضرب رجلًا بحَرْبة صادفَ بها موضعَ الحجم؛ ثمّ صادَفَ ضربةً أُخرى لشخصٍ آخر في موضع الـمَحاجِم أيضًا، وكذلك ثالثةً، فقال ابن عمِّه أحمدُ: صار ابن عمّي حجّامًا، فسُمِّي بذلك. ومن قوله [من الطويل]:

وسُـمِّيْتُ حَجَّامًـا ولـستُ بِحـاجِمِ ... ولكنْ لِـضَرْبي في مكـانِ الـمَحاجِمِ

---

(١) في ر١: «بين يديه».

(٢) في أ: «فأحضره له».

(٣) هكذا في النسخ، وغيّرها ناشر (م) إلى «٣١٠».

(٤) في ر١: «حتى مات» بدلًا من «ووصل إلى عدوة الأندلسيين فمات بها».

ولـمّا استولى ابن أبي العافية على فاس، قَتل عبدَ الله بن ثَعْلَبة بن مُـحارِب الأزْديَّ(١)، وقَتل أخاه(٢) محمَّدًا، وهرب والدُهما ثَعْلَبةُ بن مُحارِب إلى قُرْطُبة. وأراد موسى بن أبي العافية قَتْلَ حامِد الذي كان السَّبَبَ في دخوله فاسًا، فهرب منه وحَصَلَ في المهديَّة. وأجلى موسى بني إدريسَ أجمعين عن مواضعهم، وصاروا في مدينة حَجَر النَّسْر مَقْهورين، وهو حِصْنٌ مانِعٌ بناهُ إبراهيمُ بن محمد بن القاسم بن إدريس. وعزم موسى على مُحاصَرتهم في هذا الحصن واستئصالهم(٣)، فأخذ عليه في ذلك أكابِرُ أهْلِ المغرب، وقالوا له: قد أجْلَيْتَهم، وأفْقَرْتَهم، أتُريدُ أن تقتلَ بني إدريسَ أجمعين، وأنت رجلٌ من البربر؟ فانكسر عن ذلك(٤)، ولاذ عنهم بعسكرِه، وتخلَّف لمراقبتهم(٥) قائدُه أبو(٦) قَمْح، فكانت محلَّتُه قريبًا منهم، فضيَّق عليهم، واستخلف ابن أبي العافية ابنَه مَدْيَن على فاس، فبقي بها حتّى قدم حُمَيْد بن يَصَل. ولـمّا وصَل حُـمَيْدٌ إلى بلاد الغرب(٧)، ولّى على فاسٍ حامِدَ بن حَـمْدان. وكان ولدُ موسى لـمّا سمع بقدوم حُـمَيْد وحامِد، هَرَبَ من فاس. وتظاهَرَتْ بنو إدريسَ على قائد موسى ابن أبي العافية فهزموه وغنموا أكثرَ عسكرِه، وذلك سنة سبعَ عشْرةَ وثلاث مئة(٨). ثمّ قام بفاس أحمد بن بكر بن أبي سَهْل الـجُذاميُّ(٩)، فقتل حامِدَ بن حَـمْدان، وبعث برأسه إلى موسى بن أبي العافية وبرأس ولده، فبعث بهما موسى إلى قُرْطُبَةَ معَ سعيد الزَّرّاد. وكان حُـمَيْد بن يَصَال، لـمّا رجع من بلاد المغرب إلى إفريقية، ترك

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦.
(٢) في ر١: «ابنه»، وهو خطأ، لما سيأتي بعد من قوله «والدهما».
(٣) ليست في أ.
(٤) في ر١: «فانكسر لذلك».
(٥) في ر١: «وخَلَّف لمحاصرتهم».
(٦) في ر١: «أبا».
(٧) في ر١: «المغرب».
(٨) تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦-١٧.
(٩) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٤٠.

موسى بن أبي العافية بغير عَهْدٍ من أمير إفريقية، فكان ذلك سَبَبًا لسجنه بإفريقية، إلى أن هرب إلى الأَنْدَلُس. وكان موسى يَمِيلُ لصاحب قُرْطُبَةَ من أمراء بني أُمَيَّة.

وفي سنة أربع وعشرين وثلاث مئة: خرَّب عليُّ بن حَـمْدُون المعروفُ بابن الأَنْدَلُسيّ[1] مدينةَ الـمَسِيلَة. وكان بينَها وبين طُبْنة مَرْحَلَتانِ، وكان بقرب الـمَسِيلَة مدينة للأوَل تُسَمَّى الرُّمَّانِيَّة، يطلُّ عليها جَبَلُ أَوْراس، وهو مسيرةُ سبعة أيَّام، وفيه قِلاعٌ كثيرةٌ يسكنها هَوَّارة، وهم على رأي الـخَوارِج. وفي هذا الجبل كان مُسْتَقَر الكاهِنة، وفيه ظهر أبو يزيد مَـخْلَد بن كَيْداد، وقامَ على أبي القاسم الشيعيّ.

وفي سنة خمس وعشرين وثلاث مئة: قَدَّم أبو القاسم بن عُبَيْد الله الشيعيُّ على صِقِلِّيَّةَ خليلَ بن إسحاق[2]، فعَمِل بها ما لم يعمَلْه[3] أحَدٌ قَبْلَه ولا بَعْدَه من المسلمين، أهلكهم[4] قتلًا وجوعًا، حتّى فرُّوا إلى بلاد الروم، وتنصَّر كثيرٌ منهم[5]، وبقي بصِقِلِّيَّة أربعةَ أعوام. ولـمّا قَدِم منها سنة تسع وعشرين، قال يومًا، مفتخرًا بظُلْمه، في مَـجْلِسٍ حَضَرَهُ جماعةٌ من وجوه الناس تكلَّموا فيه معه في أُمورٍ شَتَّى، ثمّ جرى ذِكْرُ خروجه إلى صِقِلِّيَّة، فقال: إني قتلتُ وأهلكت[6] ألفَ ألف، يقولُه[7] الـمُكَثِّر، والـمُقلِّل يقول: مئة ألف، في تلك السَّفرة، ثمّ قال: لا والله إلّا أكْثَرَ، فقال له أبو عبد الله المؤدِّب: يا أبا العبَّاس، لك في قَتْلِ نَفْسٍ واحدةٍ ما يكفيك، وكان خليلٌ هذا يُكْنَى أبا العبَّاس[8]، وكان عُبيد الله الشيعيُّ[9] يُصَرِّفه[10] في الأعمال وجِبايات الأموال

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ٨٢.

(٢) تنظر الحلة السيراء ١/ ٣٠٢.

(٣) في ر١: «يعمل».

(٤) في ر١: «أهلك المسلمين» بدلًا من «من المسلمين، أهلكهم».

(٥) في أ: «أكثرهم».

(٦) «وأهلكت» ليست في أ.

(٧) في ر١: «يقول».

(٨) قوله: «وكان خليل هذا يكنى أبا العباس» ليس في ر١.

(٩) ليس في ر١.

(١٠) في ر١: «يصرّف خليلًا هذا».

ومحاسبة الدواوين والعُـمَّال(١). ثمّ وقعت فيه أقوالٌ سيّئة(٢)، فكرهه عُبيدُ الله وأبغضَهُ، ولولا ابنُه أبو القاسم لأهلَكَهُ. ومن قول خليل هذا(٣) في عُبيد الله الشيعيّ، لعنهما الله(٤)، وتوَغُّلِهِ فيه(٥) [من الكامل]:

إنَّ الإمــامَ أقــامَ سُــنَّةَ جَـدِّهِ   للمسلمينَ كما حذوتَ نِعالَــها
أحيــا شَرائعَــهُ وقــوَّم كُتْبَهــا   وفُروضَها(٦) وحرَامَهـا وحَلالَــها

وكان الأميرُ أبو القاسم بن عُبيد الله أمر ببناء مدينة الـمَسِيلة سنة ثلاثَ عشْرةَ وثلاث مئة(٧)، وجعل الـمُتَوَلّـيَ لبنائها ابنَ الأنْدَلُسيّ، واستعْمَلَه بعد ذلك عليها، إلى أن هلك في فتنة أبي يزيد مَـخْلَد بن كَيْداد سنة ست وعشرين وثلاث مئة، وبقي ابنُه جعفرٌ في الـمَسِيلة، وصار أميرًا على الزَّاب كلّه، إلى أن خرج عنها في سنة ستين وثلاث مئة في فتنة زِيرِي بن مَنَاد(٨). والشيعةُ تُسَمِّي الـمَسِيلةَ: الـمُحَمَّديَّةَ، قال المروي [من الرجز]:

ثُــمّ إلى مدينــةٍ مَرْضِــيَّهْ   أُسِّتْ على التَّقْوى محمَدِّيَّـهْ

وأمّا مدينة أشير(٩)، فبناها زِيرِي بن مَناد الصُّنْهاجيُّ، والدّليلُ على ذلك ما أنشَده عبدُ الملك بن عَيْشون، وهو قوله [من السريع]:

يَا أيُّها السَّائلُ عن حربنا   وعن مَـحَلِّ الكُفْر أشِيرِ

---

(١) في م: «ومحاسبات العمال» بدلًا من «ومحاسبة الدواوين والعمال».
(٢) ليست في أ، م.
(٣) ليست في أ، م.
(٤) من ر١.
(٥) قوله: «وتوغله فيه» ليس في ر١.
(٦) في ر١: «وفروعها».
(٧) ينظر الروض المعطار ٥٥٨.
(٨) ينظر عنه الوافي للصفدي ١٥/ ٥٩.
(٩) معجم البلدان ١/ ٢٠٢.

عـن دارِ فِسْقٍ ظالِـمٍ أهْلُها   قـد شُـيِّدَتْ للكُفْـر والـزُّورِ
أسَّـسها الـمَلْعُونُ زِيرِيُّـا   فلعنَــةُ الله عـلى زِيــرِي

وخرَّبها يوسفُ بن حـمَّاد الصُّنْهاجيُّ واستباح أموالها بعد الأربعينَ والأربع مئة.

وفي سنة سبع وعشرين وثلاث مئة: قام بالمغرب الأقصى، ويُقالُ له: السُّوسُ[١] الأدنى، وهو موضِعُ تادَلا وتامَسْنا، أبو الأنصار بن أبي عُفَيْر البَرْغَواطيُّ بعد موت أبيه، وكان يَفِي بالعَهْد والوَعْد. وسأذْكُرُ بعضَ أخبارهم إن شاء اللهُ تعالى.

ومن أخبارِ أبي يزيدَ مَـخْلَدِ بن كَيْداد اليَفْرَنِيِّ الزَّناتيّ[٢]

هو مَـخْلَد بن كَيْداد بن سَعْد الله بن مُغِيث بن كَرمان بن مَـخْلَد بن عثمان بن وُرِيمَّت بن تبقراسن[٣] بن سميدان بن يَفْرَن، ويَفْرَن هو أبو الكاهنة وينتسب إلى جانا بن يحيى أبو[٤] زَناتَة كُلِّها.

قال ابن حَـمَادُه: كان أبو القاسم الشيعيُّ لـمّا مات أبوه عُبَيْد الله أظهر مَذْهَبه، وأمر بسَبِّ الغارِ والعَباء وغيرِ ذلك من الضّلالة[٥] وتكذيب كِتاب الله تعالى، فمن تكلَّم عُذِّبَ وقُتِلَ، واشتدَّ الأمْرُ على المسلمين. ثمّ إنّ أبا يزيد هَبَطَ من جبل أوْراس، يدعو إلى الحقّ بزعمه، ولم يَعلم الناسُ مَذْهَبه[٦]، فرَجَوْا فيه الخيرَ والقيام بالسُّنَّة، فخرج على الشيعة، ودخل إفريقية، وخرَّب مُدُنَها ودوَّخها، وقتل من أهلها ما لا ينحصر.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة: اشتدَّ أمرُ أبي يزيدَ بإفريقية حتّى فرَّ أمامَهُ أبو القاسم الشيعيُّ إلى الـمَهْديَّة من رَقَّادة. وكان أبو يزيدَ أحَدَ أئمَّة الإباضيَّة النُّكَّار بالمغرب، قال الرَّقيق: وقرأ على عَمَّار الأعْمَى، وكان يركبُ الـحِمارَ، وتَسَمَّى شَيْخ

---

(١) في أ: «اليوم».

(٢) ذكر خبره موسعًا المقريزي في اتعاظ الحنفا ١/ ٧٥-٨٥.

(٣) في ر١ : «تنظر س».

(٤) سقط من م.

(٥) ليست في أ، م.

(٦) «مذهبه» ليست في ر١ .

المؤمنين. قال ابن سَعْدُون: فبعث اللهُ على أبي القاسم الشيعيّ مَـخْلَدَ بن كَيْداد الخارجيَّ، فقَهَرَه وقتل جنودَه، وقام المسلمون معه، وخرج الفقهاء والعُبَّادُ مع أبي يزيدَ لحربِه. وسَمَّاهم ابن سعْدُون في كتابه رَجُلًا رَجُلًا. فركبوا معه، فنهض[1] إلى القَيْرَوان فدخلها في صَفَر العام، وأظهر لأهلها خيرًا وترحَّم على أبي بكر وعُمَر رضي الله عنهما، ودعا الناسَ إلى جهاد الشيعة، وأمرهم بقراءة مَذْهَب مالِك، فخرج معه[2] الفقهاءُ والصُّلحاءُ معلنين[3] في الأسواق بالصلاة على النبيِّ ﷺ والرِّضا عن أبي بكر وعمر وسائرِ الصّحابة[4] حتّى ركزوا بنودَهم عند الجامع. فلما كان يومُ الـجُمعة، اجتمعوا بالمسجد الجامع، وركبوا معَ أبي يزيدَ بالسلاح، ومعهم البنودُ والطبولُ، منها بَنْدانِ أصْفَران[5]، مكتوبٌ في أحدهما[6] البسملة و«محمَّد رسولُ الله»، وفي الآخر[7]: «نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قَرِيبٌ، على يدَي الشيخ أبي يَزِيد. اللَّهُمَّ انْصُرْ وليَّك على من سبَّ أولياءك»، وبَنْدٌ آخرُ مكتوبٌ عليه: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ١٢]، وبَنْدٌ آخرُ فيه مكتوب: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٤]؛ وبَنْدٌ آخر مكتوبٌ فيه بعد البسملة أيضًا: «محمد رسولُ الله، أبو بكر الصِّدِّيق، عُمَر الفارُوق»، وبَنْدٌ آخر، وهو السابع، فيه «لا إلهَ إلّا الله محمَّد رسولُ الله ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. فلمّا اجتمع الناسُ، وحضر الإمامُ، وطلع على الـمِنْبَر، خطب خطبةً أبْلَغَ فيها، وحرَّض الناسَ على جهاد الشيعة، وأعلمهم بما لـهم فيه من الثواب، ثمّ لعن عُبيدَ الله الشيعيَّ وابنَـه[8]،

---

(١) في أ، م: «ونهضوا».
(٢) ليست في أ، م.
(٣) من ر١.
(٤) في أ، م: «بالصلاة على النبي ﷺ وعلى أصحابه وأزواجه»، وما أثبتناه من ر١، وهو أبين.
(٥) في ر١: «أحمران».
(٦) في ر١: «فيهما».
(٧) في ر١: «الثاني».
(٨) في ر١: «عبيدًا وابنه».

ثمّ نزل، فخرج وخرج الناس معه لقتال الشيعة الفُجّار[١]. فلم يَزِلْ قاهرًا لهم، غالبًا عليهم، قاتلًا لجنودِهم، حتّى لم يَبْقَ لهم من بلاد إفريقيّةَ إلّا اليسيرُ.

ولما رأى أبو يزيدَ أنّه قد استولَى على الأمر، أو كادَ، وأنَّ الشيعيَّ قد كاد يَبيدُ، أو بادَ، قال لجنوده: إذا التَقيتُم مع القوم فانْكَشفوا عن أهل القَيْرَوان، حتَّى يتمكَّن أعداؤُكم من قَتْلهم، فيكونوا هُمُ الذين قتلُوهم لا نَحْنُ، فنستريحَ منهم؛ أرادَ أن يتبرَّأَ من مَعَرَّة قتلهم عند الناس، وأراد الراحةَ منهم، لأنَّه فيما ظنَّ، إذا قُتِل شيوخُ القَيْرَوان وأئِمَّةُ الدين، تَمَكَّنَ من أتْباعِهم، فيدْعُوهم إلى ما شاءَ، فيتَّبعونه. فقُتِل من صُلَحاء القَيْرَوان وفُقَهائِها مَنْ أراد اللهُ بسَعادته وشَهادته، وسُقِطَ في أيدي الناس، وقالوا: قَـتَلَ أولياءَ الله شُهَداء[٢]. ففارَقوه، واشتدَّ بُغْضُهم له، أعني لأَبي يَزيد[٣]. ومات أبو القاسم الشيعيُّ محصورًا.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة: قَتل أبو يزيد مَيْسَرةَ الفَتَى قائدَ أبي القاسم الشيعيّ[٤]؛ وكان بين أبي القاسم وأبي يزيد[٥] حروبٌ كثيرةٌ. وفيها كانت الوقعةُ المشهورةُ بينَهما في وادي المِلْح، قُتِلَ فيها من أصحاب أبي القاسم[٦] عَدَدٌ لا يُحْصَى.

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة: تُوُفِّي أبو القاسم بن عُبيد الله الشيعيُّ، المتلقِّب[٧] بالقائم بأمر الله، وذلك يومَ الأحد لثلاثَ عشْرةَ خَلَتْ من شوَّالٍ من السنة المذكورة، فكانت مدَّتُه اثنتَيْ عشْرةَ سنةً[٨].

---

(١) «الفجار» ليست في أ.

(٢) ليست في ر١.

(٣) عبارة: «أعني لأبي يزيد» ليست في ر١.

(٤) «قائد أبي الحسن الشيعي» ليست في ر١، وينظر اتعاظ الحنفا ١/ ٧٧.

(٥) في ر١: «بينه وبين أبي يزيد».

(٦) في ر١: «الشيعي» بدلًا من «أبي القاسم».

(٧) سقطت من أ.

(٨) الكامل لابن الأثير ٨/ ٤٥٥.

ولاية[1] إسماعيل بن أبي القاسم بن عُبيد الله الشِّيعيّ[2]

كُنْيَتُه: أبو الطاهِر. لَقَبُه: المنصور. وكان والدُه وَلاَّه عَهْدَه في رمضان وَدَعا له على المنابِر بإفريقية، وكان مَوْلِدُه بالمهديَّة سنة اثنتين وثلاث مئة، وَوَلِيَ وسِنُّه اثنتان وثلاثون سنةً، وكان فصيحًا بليغًا.

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة: وصل أبو يزيد إلى المهديَّة، ثمَّ نهض[3] إلى سُوسة، فناوشَهُ أهْلُها؛ فقِيلَ فيه [من الوافر]:

أَلَـمَّ بِـسُوسةَ وبَغَـى علَيْهـا ... ولكـنَّ الإلـهَ لهـا نَـصِيرُ[4]
مدينـةُ سوسـةَ الغَـرْب ثَغْـرٌ ... يَدينُ لها الـمَدائنُ والقُـصورُ[5]
لقَدْ لُعِـنَ الَّـذِينَ بَغـوْا عَلَيْهـا ... كـما لُعِنَـتْ قُرَيْظَـةُ والنَّـضِيرُ
أعَـزَّ الـدِّينَ خـالِقُ كُـلِّ شَيْءٍ ... بِسُوسةَ بَعْدَما التَوَتِ الأُمـورُ

فرفع أبو يزيد عنها، ورجعَ إلى المهديَّة. فلما وصلها، دفع حتَّى ضرب برُمحه في بابها؛ فدخل رَجُلٌ[6] القصرَ على إسماعِيل؛ فوجده يلعب بسِلْباحة في الصِّهْريج. فقال له: تلعبُ، وأبو يزيد يركُزُ رُمحه بالباب! فقال له: أوَقَدْ فَعَلَ؟ قال: نَعَمْ. قال: والله لا عاد إليها أبدًا وقد جاءَ حَتْفُه، كذا رَأيْنا في كُتُبنا. ثمَّ أمر في الحين بالركوب والخُروج إليه.

وفي سنة ست وثلاثين وثلاث مئة من الهجرة: أمر المنصور أبو الطاهر ببناءِ صَبْرة[7]، واختطَّها، وسمَّاها الـمَنْصوريَّة. قال البَكْرِيُّ: ولم تزل الـمَهْدِيَّة دارَ مُلْك

---

(١) في أ: «إمارة» وما هنا من ر١.

(٢) ليست في ر١. وتنظر الحلة السيراء لابن الأبار ٢/ ٣٨٧.

(٣) في ر١: «وصل».

(٤) في ر١: «فلا كان الإله له نصير».

(٥) هذا البيت ليس في ر١.

(٦) في أ، م: «راجل» وما هنا من ر١ وهو أوفق للمعنى.

(٧) معجم البلدان لياقوت ٣/ ٣٩١.

بني عُبيد إلى أن سار منهم أبو الطاهر إلى القَيْرَوان بعد قَتْله لأبي يزيد، وبنَى مدينة صَبْرة، واستوطنها، وخَلَتْ أكثرُ أرْباض المهديَّة وتهدَّمت. ونقل أبو الطاهر سُوقةَ القَيْرَوان إلى صَبْرة. وكان لها أربعة أبواب. وبينها وبين القَيْرَوان نَحْوَ نِصْفِ مِيل. وكان[1] من المهديَّة إلى مدينة سَلَّقْطة[2] ثمانية أميال؛ ومنها زحف أبو يزيد إلى المهديَّة أيَّامَ حصاره. وكانت محلَّةُ أبي يزيد بتَرْنُوط[3]. وفي كُتُب الحِدْثان: إذا ربط الخارِجيُّ خَيْلَه بتَرْنُوط، لم يَبْقَ لأهل السَّوَاد محلولٌ ولا مربوطُ! وَيْلٌ لأهل السَّوَاد من محلَّة ابن كَيْداد![4] وامتحن أهلُ باجة أيَّامَ أبي يزيد بالقَتْل والسَّبْي. وقيل في أبي يزيد [من الرجز]:

وبَعْـدَها باجـةَ أيـضًا أفْـسَدا ... وأهْلَهـا أخْـلَى ومنهـا شَرَّدا

ولما عزمَ المنصورُ على مُقاتَلته ومُحاربته[5]، أعطى جنوده، وحشد حشوده، وخرج إليه في عساكره. فمرَّت الهزيمة على أبي يزيد. وأمر إسماعيل الناس باتِّباعه إلى أن دخل بلادَ كُتامة. فتعلَّق بالجبل المعروف بحِصْن أبي يزيد، وأُثْخِن بالجِراح، وقُبض عليه حيًّا؛ فجُعِل في قَفْص من[6] حديد، وجيءَ به إلى المنصور[7] إلى المهديَّة[8]. فقتله، وصلبه على الباب الذي ضرب فيه برُمْحه. قال القُضاعيُّ[9]: مات أبو يزيد في محرَّم من سنة ست وثلاثين وثلاث مئة المذكورة.

قال: وأمر بسَلْخِه، وحَشْي جلده قطنًا، وصَلْبِه[10].

---

(١) من هنا إلى قوله: «حصاره» ليس في ر١.

(٢) ينظر عنها الروض المعطار ٣١٨.

(٣) الروض المعطار ١٣٣.

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) في ر١: «ولما عزم أبو الطاهر على محاربته لما قيل له قد وصل إلى الباب».

(٦) ليست في ر١.

(٧) في أ: «وجاء به».

(٨) في ر١: «أبي الطاهر».

(٩) قول القضاعي هذا كله ليس في ر١.

(١٠) في ر١: «وصُلب».

وقال ابن حَمَادَة: ولما ظفر بأبي يزيد[1]، نهض إلى القَيْرَوان؛ فدخلها في هذه السنة[2]؛ فقتل من أهلها خَلْقًا، وعذَّب آخَرين؛ ولم يزالوا معه في الامتحان إلى أن هلك.

قال القُضاعيُّ[3]: وكان انتقال المنصور إلى المنصوريَّة في سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة: تحرَّك أبو الطاهر المنصور بن أبي القاسم بن عُبيد الله الشيعيُّ[4] إلى بلاد المشرق؛ وردَّ الحَجَر الأسود إلى مكانه من الرُّكْن من بيت الله الحَرام، وذلك بعد خمسة أعوام من دولة الـمُطِيع. وكان الذي اقتلعه سُليمان بن الحسن القِرْمِطيُّ ـ لعنه الله! ـ في سنة[5] سبع عشرة وثلاث مئة، في أيَّام المقتدر العبَّاسيّ، رحمه الله، والذي تولَّى قَلْعَة بيده بأمر القَرْمَطيّ جعفر بن أبي عِلاج، لعنه الله، ولما مات القِرْمِطيُّ، وجَّه إخْوَتُه الحَجَرَ، فرُدَّ إلى موضعه في هذه السنة؛ ووَضَعَهُ بيده حُسينُ ابن الـمَرُّوذيّ الكِناني[6]. وكان غَيْبَةُ الحَجَر من يوم قَلْعِهِ إلى يوم رَدِّه اثنتين وعشرين سنةً أو نَحْوَها. ورِيَّ الحَجَرُ الأسودُ، في أيام ابن الزُّبَيْر، ناصِعَ البياض إلَّا وَجْهَه الظاهر. وكان اسْوِدادُه من لَطْخ الـمُشركين له بدَم القَرابين، ولـمَسِّهم له[7] بأيديهم، مع طُول الدهر. قال الذَّهَبيُّ[8]: حضرتُ يومَ قَلْعِه، ويومَ رَدِّه.

---

(١) في ر١: «صلب أبو يزيد» بدلًا من: «لما ظفر بأبي يزيد».

(٢) «في هذه السنة» ليست في ر١.

(٣) قول القضاعي هذا ليس في ر١.

(٤) «بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي» ليس في ر١.

(٥) «في سنة» ليست في ر١.

(٦) هكذا هذه الرواية، وفي تاريخ الإسلام للذهبي أن الذي وضعه بيده هو سنبر بن الحسن بن سنبر، نقل ذلك عن المسبحي (٧/ ٦٤٠-٦٤١).

(٧) ليست في ر١.

(٨) في أ: «الذئبي» وهو بعيد فهذه النسبة قلّما عُرف بها أحد العلماء، وعُرف بها سطيح الكاهن، والذهبي نسبة عرف بها عدد من العلماء يتعذر علينا معرفة المقصود منها، وخبر رد الحجر في هذه السنة مذكور في كتب الحوليات مثل المنتظم والكامل وتاريخ الإسلام وغيرها.

وفي سنة أربعين وثلاث مئة: وَلَّى أبو الطاهر إسماعيل العُبَيْديُّ ولدَه مَعَدًّا الـمُكَنَّى بأبي تَـمِيم عَهْدَه. وخرجَ أبو الطاهر مُتَنَزِّهًا إلى جَلُولا، ورجعَ منها مُعْتَلًّا، وصلَّى عيد الفطر مَريضًا.

وفي سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة: تُوفِّي أبو الطاهر إسماعيل، الـمُلَقَّب[1] بالمنصور، ابن أبي القاسم الملَقَّب بالقائم، ابن عُبيد الله المهديّ[2]؛ وذلك مُنْسَلَخ شَوّال من العام، وله تسعٌ وثلاثون سنة. فكانت ولايتُه سبع سنين وخمسة عشر يومًا. حاجِبُه جعفر بن عليّ[3].

ثم وَلِـيَ المملكة مَعَدُّ بن إسماعيل الـمُعِزُّ لدين الله العُبَيْديُّ

وهو مَعَدُّ بن إسماعيل بن أبي القاسم[4] بن عُبيد الله. كُنيتُه: أبو تَـمِيم. لَقَبُه: الـمُعِزُّ لدين الله. مولدُه: بالمهديَّة في رمضان من سنة تسع وعشرة وثلاث مئة. وَولِيَ، وله اثنتان وعشرون سنة[5]. وهو أوَّلُ من ملك مِصْرَ من بني عُبَيْد؛ وذلك أنَّه، لما تُوفِّي كافُور الإخْشِيديُّ أميرُ مِصْرَ، بعث الـمُعِزُّ لدين الله القائدَ[6] أبا الـحَسَن جَوْهَرًا إلى مِصْرَ. وكان جَوْهَرٌ غُلامَ والِدِه إسماعيل، وأصْلُه رُوميٌّ، جَلَبَهُ خادِمٌ اسمُه صابرٌ؛ ثمَّ انتقلَ إلى خَفِيفٍ الخادِم، فحمله إلى إسماعيل المنصور، فظهر[7] عنده، فأرسله الـمُعِزُّ بالعساكر إلى مِصْرَ، فافتتحها يومَ الثلاثاءِ لسبع عشرة ليلةٍ خَلَتْ من شعبان[8]. وهرب أعيانُ الإخْشِيديَّة من مِصْرَ إلى الشام قبل وصول جَوْهر[9]، وأُقيمت الدعوة للـمُعِزِّ،

---

(١) من هنا إلى قوله: «العام» ليس في ر١.

(٢) الكامل لابن الأثير ٨/ ٤٩٧.

(٣) «حاجبه جعفر بن علي» ليست في ر١.

(٤) قوله: «المعز لدين الله العبيدي، وهو معد بن إسماعيل بن» ليست في ر١.

(٥) الحلة السيراء ٢/ ٣٩١.

(٦) «القائد» ليست في ر١.

(٧) في ر١: «وظهر».

(٨) الحلة السيراء ٢/ ٣٩١.

(٩) «قبل وصول جوهر» ليست في أ.

يومَ الجمعة الموَفي عِشْرين لشعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة، في الجامع العتيق؛ وكان الخطيب أبو محمَّد الشِّمْشاطيُّ. ودُعِيَ له[1] بمكَّة في مَوْسِم هذه السنة، ودعا أبو مُسْلِم العَلَويُّ بالمدينة للـمُعِزّ. وسار جعفر بن فَلاح إلى الشام، وقبض على الـحُسين بن عبد الله، وأنفذه إلى جَوْهَر، فانفذ جَوْهرٌ الحسينَ المذكورَ مع جماعة من الإخْشِيدِيَّة مع هديَّةٍ إلى الـمُعِزّ؛ فوصلت إلى إفريقية مع وَلَده جعفر في رَجَب من سنة تسع وخمسين وثلاث مئة.

وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاث مئة: فُلِجَ خطيبُ القَيْرَوان على الـمِنْبَر، ومات، وتَـمَّمَ الـخُطبةَ أبو سُفيان الفقيهُ.

وفي سنة أربع وأربعين وثلاث مئة: وُلِدَ للـمُعِزّ أبي تَـمِيم وَلَدٌ سَمَّاهُ نِزارًا[2].

وفي سنة ست وأربعين وثلاث مئة: وَلِيَ مدينةَ سَبْتة والٍ من قِبَل الناصر عبد الرحمن، أميرِ[3] الأنْدَلُس، وأَمَرَهُ بتحصينها وبناء سُورها؛ فبناه بالكَذَّان[4].

وفي سنة سبع وأربعين وثلاث مئة: دخل جوْهرٌ قائدُ أبي تَـمِيم إلى الغَرْب[5]، واستولى على مدينة فاس. ثمَّ توجَّه إلى تِيطَّاوِن[6]، ووصل إلى مَضيق سَبْتة، فلم يَقْدر عليها، ورجعَ عنها، وقصدَ بعساكره إلى سِجِلْماسة، ففرَّ أمامَه صاحِبُها محمَّدُ ابن الأمير[7] الفَتْح[8]، وتَـحَصَّن في حِصْنٍ على اثني عَشَر ميلًا من سِجِلْماسة، بأهله وماله وبعض أصحابه. وكان يُلَقَّبُ الشاكِرَ لله؛ وقد تقدَّم بعضُ خبره. واستولى جَوْهَرٌ

---

(١) في ر١: «ودعا للمعز».

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ٨/ ٦٠١.

(٣) في ر١: «صاحب».

(٤) الكذّان: الحجارة التي ليست بصلبة (اللسان: كذن).

(٥) في ر١: «المغرب».

(٦) في ر١: «تطاون»، وينظر الروض المعطار ١٤٥، وهي المعروفة اليوم باسم «تطوان».

(٧) في أ: «الأمين».

(٨) في ر١: «أبي الفتح»، وسيأتي بعد قليل على الوجه.

على سِجِلْماسة؛ فملكها. وخرج محمَّدُ بن الفَتْح من الـحِصْن في نفرٍ يسيرٍ، ليتعرَّف الأخبار، مُسْتَتِرًا، فغدره قومٌ من مَدْغَرة عَرَفوه، وأتوا به إلى جَوْهَرٍ؛ فقتله في رَجَب. وبقي جَوْهَرٌ في الغَرْب نَحْوَ سنةٍ، وتوجَّه إلى إفريقية[١].

وفي هذه السنة: وصل إلى قُرْطُبة الـحَسَنُ بن قَنُّون[٢]، من بني إدريس، فارًّا بنفسه أمام جَوْهَرٍ قائدِ أبي تـمِيم المذكور. وكان بنو[٣] محمَّد بن القاسم من بني إدريس بن إدريس، رحمهم الله، أجمعوا على هَدْمِ تِيطَّاوِن[٤]؛ فهدموها[٥]، ثمَّ ندموا على ذلك، وشرعوا في بنائها، فضَجَّ أهْلُ سَبْتة لذلك، لأنَّ بِناءَها ضَرَرٌ بهم، فبعثَ إليهم عبدُ الرحمن الناصر جيشًا برَسْمِ مُحاربة بني محمَّد، وقوَّد[٦] على الجيش أحمد[٧] بن يَعْلَى. وكتب الناصِرُ إلى حُمَيْد بن يَصَل[٨]، صاحبِ تِيكيساس وتلك الجهاتِ كُلِّها، أن يُعِينَ القائدَ المذكورَ على بني محمَّد، فتخلَّى بنو محمد عن بناء تِيطَّاوِن[٩] لـمَّا اجتمع العسكران عليهم، وبعثوا أولادَهم[١٠] مَرَاهِنَ إلى قُرْطُبة.

وفي سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة: وصلَ كتابُ صاحب سَبْتة إلى أمير الأنْدَلُس[١١] عبد الرحمن الناصر، يُعَرِّفُه بما فُتِحَ عليه في عسكر جَوْهَرٍ قائدِ الشيعيِّ.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٥٢٤.

(٢) في ر١: «جعفر»، وقد ذكر ابن خلدون أخباره في تاريخه ٦/ ٢١٨-٢١٩.

(٣) في ر١: «أبو»، خطأ.

(٤) في ر١: «تطاون».

(٥) في ر١: «فهدمها».

(٦) سقطت الواو من أ، م.

(٧) في ر١: «محمد».

(٨) في ر١: «مصل».

(٩) في ر١: «تطاون»

(١٠) في ر١: «أولاده».

(١١) في ر١: «سلطانه» بدلًا من: «أمير الأندلس».

وفي سنة تسع وأربعين وثلاث مئة: وجَّه أبو تَـمِيم الـمُعِزُّ لدين الله القاضي إلى أئمَّةِ المساجد والمؤَذِّنين، يأمُرُهم إلاّ يؤَذِنوا إلّا ويقولوا فيه: «حيَّ[1] على خَيْرِ العَمَل» وأن يَقْرَؤُوا: «بسم الله الرحمن الرحيم» في أوَّلِ كُلِّ سورةٍ، ويُسَلِّموا[2] تَسْليمَتَيْنِ، ويكَبِّروا على الجنائز خمسًا[3]، ولا يؤَخِّروا العَصْرَ، ولا يُبَكِّروا بالعشاء الآخرة، ولا تَصيحَ امرأَةٌ وراءَ[4] جنازةٍ، ولا يقرأ العُمْيَانُ على القبور إلّا عند الدَّفْن.

وفي سنة خمسين وثلاث مئة: تُوفِّي حُسينُ بن أحمد بن إبراهيم بن محمَّد بن إدريس الـحَسَنيُّ بقُرْطُبة وكانَ رهينًا بها، وخَلَّفَ ابنينِ يُسَمَّيان: محمدًا وحُسينًا، فلم يزالا مستَقَرِّينَ بقُرْطُبة إلى خلافة الـحَكَم، فبَعَثَهُما إلى إخوانهما، فوصلا في رَجَب سنة تسع وخمسين وثلاث مئة، واستقرَّا ببلادهما بالغَرْب[5].

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة: أخذَ الرُّومُ مدينةَ الـمِصِّيصة ومدينةَ طَرَسُوس[6]، واستولوا عليهما[7].

وفي سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة: وفد على الـحَكَم الـمُسْتَنْصِر بالله[8] أبو صالِح زَمُّور البَرْغَواطِيُّ[9] رَسُولًا من أمير بَرْغَواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار، وذلك في شهر[10] شَوَّال من هذه[11] السنة. وكان الـمُتَرْجِم عنه باللسان

---

(١) في ر١: «إلا بالحي».

(٢) سقطت من أ.

(٣) سقطت من ر١، ولا بد منها إذ لا معنى من غيرها.

(٤) في ر١: «خلف».

(٥) في ر١: «واستقروا ببلاد الغرب».

(٦) في ر١: «مدِينتي المصيصة وطرسوس».

(٧) ذكر ابن الأثير في الكامل أن استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس كان سنة ٣٥٤ (الكامل/ ٨/ ٥٦٠)، وهو الأصح.

(٨) انظر الحلة السيراء ١/ ٢٠٠.

(٩) هو زمور بن صالح بن هاشم بن وراد، وينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٠٧.

(١٠) ليست في ر١.

(١١) ليست في ر١.

العربيّ[1] عيسى بن داود الـمَسْطَاسيُّ[2]. فسأله الحَكَمُ عن نَسَب بَرْغَوَاطة ومَذْهبهم[3]؛ فأخبره[4].

خَبَر بَرْغَوَاطة[5]

ومن أخبار بَرْغَواطة ما خَبَّرَ[6] زَمُّورٌ أنَّ طَرِيفًا كان أبا مُلوكهم. وهو من وَلَد شِمْعُون بن يعقوب بن إسحاق، عليهم السلام، قال: وكان طَرِيفٌ من أصحاب مَيْسَرَة مَلِك الـمَغْرِب الذي تقدَّم ذِكْرُه[7]؛ فلما قُتل مَيْسَرة، وافترق[8] أصحابُه، احتلَّ طَرِيف ببلاد[9] تامَسْنَا فقدَّمه[10] البَرْبَرُ على أنْفُسهم، فوَلِيَ أمْرَهم، وكان على دين الإسلام، وإليه تُنْسَبُ جزيرةُ طَرِيف[11]. فبقي أميرًا عليهم، إلى أن هلك، وترك أربعة أولاد. فوَلِيَ الأمْرَ من[12] بعده صالِحُ[13] بنُ طَرِيف، وكان مولدُه سنة عشر ومئة من الهجرة، فتنبَّأ فيهم، وشَرَعَ لهم ديانةً، وسمَّى نَفْسَه صالِحَ المؤْمِنين، وعَهِدَ إلى ابنه إلْيَاس بديانته، وأمره ألاَّ يُظْهِر ذلك إلَّا إذا قَوِيَ أمْرُه، وحِينَئِذٍ يدعو إلى مَذْهَبه، ويقتل من خالَفَه فيه من قومه. وأمَرَهُ بموالاة أمير الأَنْدَلُس. وخرج صالِحٌ إلى الـمَشْرِق، وزعم

---

(١) في ر ١: «بالعربية» بدلًا من «باللسان العربي».

(٢) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٠٧ اسمه: داود بن عمر المسطاسي.

(٣) في ر ١: «ومذاهبهم».

(٤) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٠٧.

(٥) العنوان من ر ١.

(٦) في ر ١: «فأخبر» بدلًا من: «ومن أخبار برغواطة ما خبّر».

(٧) في ر ١: «خبره».

(٨) في ر ١: «وتفرّق».

(٩) في ر ١: «ببلد».

(١٠) في ر ١: «فقلده».

(١١) الروض المعطار ٣٩٢.

(١٢) ليست في ر ١.

(١٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢١٠.

أنَّه يعود إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنَّه هو الـمَهْدِيُّ الأكْبَرُ الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدَّجَّال، وأنَّه يملأُ الأرض عدْلًا كما مُلِئَتْ جَورًا، وتكلَّم لهم في ذلك بكلام كثير نَسَبَه لموسى، عليه السلام، ولسَطِيح الكاهِن وغَيْرِهِ.

ثمَّ وَلِيَ[1] بعده إلْيَاس بن صالِح بن طَرِيف، فأظهر ديانَة الإسلام والعَفاف، وبقي أميرًا خمسين سنةً إلى أن هلك، وترك جماعةً من الأولاد. فوَلِيَ ابنُه يُونُس بن إلْيَاس، وذلك بعدما وصل من الـمَشْرِق، وحجَّ، ولم يَحُجَّ أحَدٌ من أهل بيته. فأظهر ديانةَ جَدِّه، ودعا إليها، وقتل من لم يدخل فيها، حتَّى أخلى ثمان مئة مَوْضِع من مواضع البَرْبَر، قيل: إنَّه قتلَ منهم سبعةَ آلاف ونحو السبع مئة. وهلك بعد أن ملك نَحْوَ أربعين سنةً، وخرج الأمر عن بنيه.

وقام أبو عُفَيْر محمد[2] بن مُعاذ بن اليَسَع بن صالِح بن طَرِيف؛ فاستولى على ملك تلك البلاد، ودَانَ بديانة آبائه. واشتدَّت شَوْكتُه، وعَظُمَ أمره. وكانت[3] له وقائع في البَرْبَر مشهورةٌ، منها وقعة تامَغْرا[4]، أقام القَتْلَ فيها ثمانية[5] أيَّام. ومنها وقعة بَهْت، عجز الإحصاءُ عن عَدِّ[6] من قتل فيها. وكانت لأبي عُفَيْر من الزَّوجات أربع وأربعون، وكان له من الأولاد بعَدَدِهِنَّ. ومات بعد أن ملك تسعًا[7] وعشرين سنة.

ثم وَلِيَ عبدُ الله بن أبي عُفَيْر، وهو أبو الأنصار، وذلك عند تمام المئة الثالثة، وكان شيخًا[8] ظريفًا، يَفِي بالوَعْد والعَهْد، ويحفظ الجارَ ويُكافِئ على الهَدِيَّة بأضْعافِها[9].

---

(١) في ر١ : «وولي».

(٢) في أ، م: «يحمد» وسيأتي كما أثبتنا من ر١ بعد قليل في النسختين «محمد».

(٣) في ر١ : «وكان».

(٤) في م: «تامعزا»، وفي البكري: «تِيمغَسَن».

(٥) في ر١ : «ثلاثة».

(٦) في ر١ : «عدد».

(٧) في ر١ : «سبعًا».

(٨) في أ، م: «سخيًا».

(٩) ليست في ر١.

وصِفَتُه: أفْطَسُ، شديدُ أدمة الوجه[1]، ناصِعُ بياضِ الـجِسْمِ، طويلُ اللِّحْية. وكان يلبس السَّراويلَ والـمِلْحَفَة، ولا يلبس القَمِيصَ، ولا يعتمُّ إلا في الحرب، ولا يعتمُّ أحدٌ من قومه إلَّا الغرباءَ عندهم. وكان في كلِّ عام[2] يَحْشُدُ[3] ويُظْهِرُ أنَّه يَغْزو من[4] يَلِيهِ من القبائل؛ فيُهادونه[5]، فيترك حَرَكَتَه. فملك في دَعة نحو اثنتين وأربعين سنة.

ثمَّ وَلِيَ أبو مَنْصُور عيسى بن أبي الأنصار، الذي بعث زَمُّورًا هذا إلى الـمُسْتَنْصِر بالله الأمَويِّ سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة، وهو عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي عُفَيْر محمَّد بن مُعاذ بن اليَسَع بن صالِح بن طَرِيف. وكان سِنُّهُ إذ وَلِيَ اثنتين وعشرين سنة، فسار بسيرة أبيه، ودان بديانته. واشتدَّت شَوْكَتُه، وعَظُمَ سلطانُه. وكان أبوه قد وَصّاه عند موته بموالاة أمير الأنْدَلُس، وقال له: «أنْتَ سابعُ الأُمراءِ من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك جَدُّك صالِحٌ كما وعد». انتهى ما اختصرتُه من كلام زَمُّور.

وقال أبو العبَّاس الـمَذْحِجيُّ: إنَّ يُونُسَ القائمَ بدين بَرْغَواطة أصْلُه من شَذُونة[6]، من جِهَة وادي بَرْبَاط؛ وكان قد رحلَ إلى المشرق في[7] عام أحدٍ ومئتين مع عبَّاس[8] بن ناصِح، وزيد بن سِنان[9] الزَّنـاتيِّ صاحب الواصِلِيَّة، وبَرْغُوث[10] بن سعيد[11] وَكيلِ الصُّفْرِيَّة، ومَناد صاحِبِ القلعة الـمَناديَّة، قريبًا من

(١) في أ، م: «الأدمة في الوجه».

(٢) في ر١: «سنة».

(٣) في ر١: «يجيش».

(٤) في أ، م: «لمن».

(٥) في ر١: «فينادونه»، محرفة.

(٦) الروض المعطار ٣٣٩.

(٧) ليس في ر١.

(٨) ينظر الوافي بالوفيات للصفدي ١٦/ ٦٤٤.

(٩) قوله: «بن ناصح، وزيد بن سنان» سقط من ر١.

(١٠) في ر١: «برغوت» بالتاء ثالث الحروف.

(١١) أضاف ناشر (م) بعد هذا من البكري: «التراري وجد بني عبد الرزاق ويعرفون ببني»، والنص مستقيم من غير هذه الزيادة.

سِجِلْماسة[1]، وآخَرَ ذَهَبَ عَنّي اسمُه. فأربعةٌ منهم[2] فَقُهوا في الدين. وادَّعى[3] يُونُس صاحبُ بَرْغَواطة النُّبُوَّة. قال: وكان يُونُس شَرِبَ دواءً لِلحِفْظِ، فحَفظَ كلّ ما سَمِعَهُ، وطلب عِلْمَ النجوم والكِهانة، ونَظَرَ في الجَدَل[4]، وانصرف؛ فنزل بين هؤُلاء القوم؛ فرأى جَهْلَهم. وكان يُخْبِرُهم بأشياءَ قبل كَوْنِها، ممَّا يَدُلُّ عليه التنجيم؛ فيكون كما قال[5]، أو قريبًا منه، فعظُم عندهم. فلما رأى ذلك منهم، وعلم ضَعْفَ عقولهم وكثرة جَهْلهم، أظهر ديانته، ودعا إلى نبوَّته، وسمَّى من اتَّبعه برباطيّ؛ ثمَّ أحالُوهُ بألْسِنَتهم، ورَدُّوه «بَرْغَواطيّ» بلغتهم[6]. وكان يُونُس قد قتلَ خَلْقًا كثيرًا من البَرْبَر، حتَّى أطاعوه، وعلى دينه تابَعُوه[7]. وقال سعيد بن هشام[8] المَصْمُوديُّ في وقعة بَهْت قصيدةً طويلةً، منها [من الوافر]:

قِفِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ فاخْبِرِينا   وقُولي واخبري خَبَرًا مُبِينا[9]
هُموم[10] بَرابرٍ خَسرُوا وضَلُّوا   وخَابُوا لا سُقُوا ماءً مَعِينا
يقُولون: النبيُّ أبو عُفَيْرٍ   فأخْزَى اللهُ أُمَّ الكاذِبينا
أَلَمْ تَسْمَعْ ولَمْ تَرَ يَوْمَ بَهْتٍ   على آثارِ خَيْلِهمُ رَنِينا
رَنِينَ الباكِياتِ بِهِم ثُكالَى   وعَاوِيةٍ ومُسْقِطةٍ جَنِينا

(١) في ر١: «وهي قلعة حماد» بدلًا من: «قريبًا من سجلماسة».
(٢) ليست في ر١.
(٣) الواو من ر١.
(٤) في أ، م: «الجدال»، وما هنا من ر١ وهو الأصح.
(٥) «أو كما قال» ليست في ر١.
(٦) سقطت من أ، م.
(٧) في ر١: «وتابعوه على دينه».
(٨) في ر١: «هاشم».
(٩) هذا الشطر في ر١: «بقولٍ صادقٍ لا تكذبينا».
(١٠) في ر١: «بأمر».

هُنالِكَ يُونُسٌ وبنوا أبِيهِ يُوَالُونَ البَوَارَ مَعَظِّمينا

فلَيْسَ اليَوْمَ رِدَّتُكم ولكن لَيَالِيَ كُنْتُمُ مُسْتَيْسِرِينا

يعني بقوله: «مُسْتَيْسِرِينَ» من المَيَاسَرة أصحابَ مَيْسَرَة الحقير[١]. فأمَّا الضلالُ الذي شَرَعَ لهم، فإنَّهم يَقِرُّون بنُبُوَّة صالِح بن طَرِيف، وأنَّ الكلام الذي أَلَّفَ لهم هو[٢] وَحْيٌ من الله تعالى، لا يشكُّون فيه ـ تعالى اللهُ عن قولهم ـ وفَرَضَ لهم صَوْمَ رَجَب[٣]، وأكْلَ رَمَضان، وخَمْسَ صَلَوات في اليوم، وكذلك في الليلة، والضَّحِيَّة اليَوْمَ الحادي عشر من المحرَّم، وفي الوضوء غَسْلَ السُّرَّة والخاصِرَتَيْن، ثمَّ الاستِنْجاءَ والمَضْمَضَةَ، وغَسْلَ الوجه، ومَسْحَ القَفَا، وغَسْلَ الذِّراعَيْنِ والمَنْكِبَيْنِ، ومَسْحَ الرأْس ثلاثَ مرَّات، ومَسْحَ الأُذُنَيْنِ كذلك، ثمَّ غَسْلَ الرِّجْلَيْنِ من الرُّكْبَتَيْنِ[٤]. وبعضُ صلاتهم[٥] دون سُجود، وبعضُها على كَيْفِيَّة صلاةِ المسلمين. وهُمْ[٦] يسجُدُون ثلاثَ سجدات[٧] متَّصِلات، ويرفعون وُجُوهَهم وأيديهم من الأرض مِقْدارَ نِصْفِ شِبْرٍ، ويَقْرَؤُون نِصْفَ قراءتهم[٨] في وقوفهم، ونِصْفَها في ركوعهم، ويقولون في تَسْليمهم بكلامهم: «الله فَوْقَنا، لم يَغِبْ عنه شيءٌ في الأرض، ولا في السماء» ثم يقولون: «مُقُرْ بَاكُشْ» خمسًا وعشرين مرَّة، وتفسيرُه: «الكبيرُ اللهُ» ويقولون: «ايسمن باكُش» تفسيرُه: «بسم الله» وغير ذلكَ من الباطل[٩]. ويتزوَّج الرجلُ منهم ما استطَاعَ من النساء، ويُطَلِّقُ[١٠]

---

(١) ليست في أ، م.

(٢) ليست في ر١.

(٣) في ر١: «شهر رجب».

(٤) «ثم غسل الرجلين من الركبتين» ليست في ر١.

(٥) في ر١: «صلواتهم».

(٦) ليست في ر١.

(٧) في ر١: «صلوات»، خطأ.

(٨) في أ، م: «قرآنهم»، ولا تصح.

(٩) في أ، م: «وغير هذا».

(١٠) في ر١: «ويفرق».

ويُراجِع ما أحبَّ. ويُقْتَلُ[١] السارِقُ بالإقرار والبيِّنة، ويُرْجَم الزاني، ويُنْفَى الكاذِبُ، ويُسَمُّونه الـمُغيِّر. والديَّةُ عندهم مئة رأس من البَقَر، و[رأس] كلِّ حيوانٍ[٢] عليهم حَرَامٌ؛ ولا يُؤكَلُ الحوتُ عندهم إلَّا أن يُذكَّى؛ والديكُ والبيضُ عندهم حَرَامٌ؛ والدَّجاجُ مكروهةٌ إلَّا أن يُضْطَرَّ إليها. وليس عندهم أذانٌ، ولا إقامةٌ؛ وَهُمْ يكتفون في معرفة الأوقات بصراخ الدِّيَكة، ولذلك حَرَّموها. ويتبرَّكون ببُصاقِه، أي: بُصاقُ صالح. وكانوا أعْلَمَ الناس بالنجوم.

وكانوا أجْمَلَ الناس رجالًا ونساءً. وقُرْآنهُم الذي وَضَعَ لهم صالِحٌ ثمانون سُورةً، أكْثَرُها منسوبةٌ إلى أسماءِ النبيين، أوَّلُها سورة أيُّوب، وآخِرها[٣] سورة يُونُس. وغيرُهما من أسماء الأنبياء، عليهم السلام، وفيها سورةُ فِرْعَوْن، وسورةُ الدِّيك، وسورةُ الـجَراد، وسورةُ الـجَمَل، وسورةُ هارُوت ومارُوت، وسورةُ الـحَشْر[٤]، وسورة غرائب الدُّنيا، وفيها عِلْمٌ عَظِيمٌ عندهم[٥]. ولم يزل كثيرٌ من القبائل على مَذْهَبِهم إلى عام اثنين وخمسين وثلاث مئة.

رَجْعُنا إلى نَسَق التأريخ: كان الـحَكَم أميرُ[٦] الأنْدَلُس وَلِيَ الخلافةَ بها سنة خمسين وثلاث مئة[٧]. فطاعَ له المغرب كلُّه. وتـمَّم بناءَ سُور سَبْتة في عام إحدى وخمسين وثلاث مئة.

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاث مئة: كتب الـحَكَمُ الـمُسْتَنْصِرُ بالله سِجِلًا إلى أهل سَبْتة، رَفَعَ عنهم فيه جميعَ الوَظائفِ الـمَخْزَنِيَّةِ والـمَغارِمِ السُّلْطانِيَّةِ. قال ابن حَمادُه: رأيتُ هذا السِّجِلَّ عند القاضي عِيَاض رحمه الله مؤَرَّخًا بشهر صَفَر من العام

---

(١) من هنا إلى نهاية الفقرة لم يرد في ر١.

(٢) الذي عند البكري: «ورأس كل حيوان»، وهو الصواب، لذلك زدناها بين حاصرتين.

(٣) ليست في ر١.

(٤) «وسورة الحشر» ليست في ر١.

(٥) في ر١: «وفيها عندهم علم كبير».

(٦) في ر١: «ملك».

(٧) تنظر الحلة السيراء ١/ ٢٠٠.

المذكور؛ ذكر[1] فيه: «وما وَقَعَ عليها من الـمُؤَنِ السُّلطانيَّة في التَّقْسيط، فهو مضروبٌ على شَرَفِ إشْبيلِيَة».

وفي سنة أربع وخمسين وثلاث مئة: تُوفِّي أبو الطَّيِّب الـمُتَنبِّي[2]، وكان مَوْلِدُه بالكوفة سنة ثلاث وثلاث مئة، وعُمُرُه إحدى وخمسون سنةً، وكان أشْهَرَ من أن يُذْكر[3].

وفي سنة سبع وخمسين وثلاث مئة: تُوفِّي الأُستاذ كافُور[4] بمِصْرَ.

وفي سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة: بعث الـمُعِزُّ أبو تَـمِيم مَعَدُّ ابن المنصور العُبَيْديُّ أبا الـحَسَن جَوْهَرًا إلى مِصْرَ، لـمَّا تُوفِّي كافُور الإخْشِيديُّ أميرُ مِصْرَ، فلما وصلها جَوْهَرٌ، فتحها في شعبان[5].

وفي سنة تسع وخمسين وثلاث مئة: أنفذ جَوْهَرٌ إلى الـمُعِزّ لدين الله هَدِيَّةً حَفِيلة[6] صُحْبَةَ وَلَده جَعْفَر في رَجَب.

وفي سنة ستين وثلاث مئة: وصل الـحَسَن بن أحمد القِرْمِطيُّ إلى دِمِشْق[7]، وقتل جعفر بن فَلاح[8]، وتغلَّبَتْ القَرامِطة على دِمِشْق، وصاروا إلى الرَّمْلة[9].

وفي سنة إحدى وستين وثلاث مئة: خرج أبو تَـمِيم من الـمَنْصوريَّة راحلًا إلى الـمَشْرِق، في أواخِر شوَّال، لثمانٍ بَقِين منه، واستخلف على إفريقية أبا الفُتُوح الصُّنْهاجيَّ[10].

---

(١) في ر١: «قال».

(٢) ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي ٨/ ٦٥.

(٣) «وكان أشهر من أن يذكر» ليست في ر١.

(٤) ترجمته في تاريخ الإسلام ٨/ ١٠٥.

(٥) الحلة السيراء ٢/ ٣٩٢.

(٦) في م: «جميلة»، محرفة.

(٧) أخباره في تاريخ دمشق ١٣/ ٦-٨، وتاريخ الإسلام للذهبي ٨/ ٢٥٤.

(٨) ترجمته وأخباره في وفيات الأعيان ١/ ٣٦١-٣٦٢، وتاريخ الإسلام ٨/ ١٤٢ وهو أول والٍ على دمشق لبني عُبيد.

(٩) ينظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٦١٤.

(١٠) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٢٠، ونهاية الأدب للنويري ٢٤/ ٨٥.

ابتداءُ الدولة الصُّنْهاجيَّة بإفريقية[1]

ولاية أبي الفُتوح يوسف بن زِيرِي بن مَناد الصُّنْهاجيِّ[2] إفريقية

لما خرج أبو تـمِيم المعز[3] من إفريقية إلى الـمَشْرِق[4]، استخلفَ يوسفَ المذكورَ[5] وأمر الكُتَّاب أن يكتبوا إلى العمَّـال وولاةِ الأشْغال بالسَّمْع والطاعة لأبي الفُتوح[6]. ورحل أبو تَـمِيم[7] إلى مِصْرَ، فاحتلَّها[8]، وأمَّن أهلها، وبنى القاهرةَ الـمُعزية نسبةً إليه[9]، واتَّخذها دارَ مُلْكه. وبقي أبو الفُتوح أميرًا على إفريقية والـمَغْرِب كلِّه من جهته[10]. قال القُضاعيُّ: لما وصل المعز[11] أبو تَـمِيم إلى الإسْكَنْدَرِيَّة، توجَّه إليه من مِصْرَ القاضي، والشهودُ، وأعيانُ أهل[12] البَلَد، مُهَنِّين، وداعين، ومسَلِّمين. ثمَّ استقرَّ المعز بقصره[13] في السابع لرمضان.

وفي سنة ثلاث وستين وثلاث مئة: وصل القِرْمِطيُّ إلى الطَّوَاحِين، في جُمادى الأولى، وانهزم في شعبان من هذه[14] السنة.

---

(١) هذا العنوان ليس في ر١.

(٢) «ابن مناد الصنهاجي» ليس في ر١.

(٣) من ر١ فقط.

(٤) في ر١: «إلى ملك مصر»، وما هنا أصح لأن مصر كانت قد ملكت له.

(٥) بعد هذا في ر١: «عليها».

(٦) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٩٣.

(٧) في ر١: «المعز».

(٨) هكذا في النسخ، وإنما احتلها قائده جوهر، وكذلك بناء القاهرة، إنما بناها قائده جوهر.

(٩) قوله: «وبنى القاهرة المعزية نسبة إليه» ليست في أ، م.

(١٠) «من جهته»: ليست في أ، م.

(١١) من ر١.

(١٢) ليست في ر١.

(١٣) في أ، م: «بقصر المعز»، وما هنا من ر١ وهو الأحسن.

(١٤) ليست في ر١.

وفي سنة خمس وستين وثلاث مئة: تُوفِّي أبو تَـمِيم الـمُعِزُّ لدين الله[1] العُبَيْدِيُّ، في يوم الـجمعة الحادي عشر لربيع الآخر[2]، فكانت ولايتُه ثلاثًا وعشرين سنة، وخمسة أشْهُر، وأيَّامًا، منها مُقامُه بِمِصْرَ سنتان وسبعة أشْهُر[3].

ولاية العزيز بالله نِزَار

فوَلِيَ الإمارة بِمِصْرَ العزيزُ بالله نِزَار[4]، الـمُكْنَى بأبي المنصور، ابن مَعَدّ الـمُكْنَى بأبي تَـمِيم[5]. وُلِدَ بالـمَهْدِيَّة في محرَّم سنة أربع وأربعين وثلاث مئة؛ ووَلِيَ العَهْدَ بِمِصْرَ في العاشر لربيع الأوَّل سنة خمس وستين[6]، وسُتِرَتْ وفاةُ أبيه، وسُلِّمَ عليه بأمير المؤمنين. وقد[7] ذكرنا بعض أخباره في أُمراء مِصْرَ في «أخبار الـمَشْرِق».

وفي جُمادى الآخرة من سنة خمس ستين وثلاث مئة: بعث[8] أبو الفُتوح أميرُ إفريقية إلى العزيز بالله هدِيَّةً؛ فشَيَّعَها. وعادَ أبو الفُتوح إلى رَقَّادة، فخرج إليه أهل القَيْرَوان، فتلقَّاهم بأحسنِ قَبُول، وأنزلهم أجْمَلَ نُزول وبعد ذلك عزم أبو الفُتوح

---

(١) «لدين الله» ليست في ر١.

(٢) «في يوم الجمعة الحادي عشر لربيع الآخر» ليست في ر١. وذكر ابن الأثير أن وفاته كانت في سابع عشر ربيع الآخر (الكامل ٨/ ٦٦٣) وقال ابن خلكان: «توفي يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر، وقيل: الثالث عشر، وقيل: لسبعٍ خلون منه» (وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٨).

(٣) بعد هذا في ر١: «وولي بعده ولده نزار».

(٤) «فولي الإمارة بمصر العزيز بالله نزار» ليست في ر١.

(٥) في ر١: «ابن معد بن إسماعيل بن أبي القاسم بن عُبيد الله الشيعي».

(٦) هكذا في النسختين، وهو وهم بيِّن، فأبوه توفي في ربيع الآخر فكيف يتولى هو في ربيع الأول؟! وذكر المقريزي أنه ولي العهد بمصر وبويع لسبع بقين من ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاث مئة (اتعاظ الحنفا ٩٣). وهذا يتفق مع مَن قال: إنه توفي لسبع خلون منه، كما نقلنا قبل قليل من وفيات الأعيان لابن خلكان.

(٧) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في ر١.

(٨) في ر١ بدلًا مما تقدم: «وفيها بعث».

على الانتقال إلى فَحْص أبي صالِح، فخرج لتوديعه القُضاةُ والشيوخ[١] لثلاث بقين من رجب من السنة المؤَرَّخة.

وفي ذي الحِجَّة: أمر أبو الفُتوح العامِلُ على إفريقية والِيَهُ عبدَ الله بن محمَّد الكاتِبَ أن يُقيم أُسْطُولًا بالمهديَّة مُعَدَّةً من الرجال والسلاح. فخرج عبدُ الله إلى المهديَّة، وأخذ في حَشْد البَحْرِيّين في كلّ بلدة، وأمر أن يُؤْخَذَ كلُّ مَنْ لُقِي منهم بالقَيْرَوان وغيرها وملأَ بهم السُّجون. وأدْرَكَ خاصَّةَ البلد وعامَّتَهم من الخوف ما لزموا له البيوت، وانتهى حالُهم إلى أنَّه[٢]، إذا مات أحَدٌ عندهم[٣]، لا يُخْرِجُهُ إلَّا النساء.

وفي سنة ست وسِتين[٤] وثلاث مئة: خرجَ الأُسْطُولُ من المهديَّة في أوَّل المحرَّم، فتعذَّرت الريح عليهم[٥]؛ فأقاموا حتَّى فَرَغَتْ أزوادُهم في البَحْر[٦] وعَدِمُوا الماءَ؛ فهرب جميعُ من فيها[٧] من النَّواتِيَة والبَحْرِيَّة[٨]، وصاروا إلى البَرّ؛ فنهبوا ما في المراكب من عُدَّةٍ وسِلاحٍ، وهربوا إلى كلِّ ناحية. فجعل عبد الله يطلبهم[٩]؛ فمن ظُفِر به[١٠]، قُتِلَ.

وفي[١١] هذه السنة: تُوفِّي زيادةُ الله بن القُدَيْم في سجن عبد الله بن محمَّد الكاتب؛ وقيلَ: إنَّه قتله بأنواع من العذاب[١٢].

---

(١) في ر١: «والأشياخ في آخر رجب»، وما أثبتناه من أ، وينظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٩٤.

(٢) «إلى أنه» ليست في أ.

(٣) «أحد عندهم» ليست في ر١.

(٤) في ر١: «وثلاثين»، وليس بشيء.

(٥) في م: «عليها».

(٦) «في البحر» ليست في ر١.

(٧) في ر١: «بها».

(٨) في ر١: «البحريين والنواتية».

(٩) في ر١: «الطلب عليهم».

(١٠) في ر١: «وُجِدَ منهم».

(١١) هذه الفقرة ليست في ر١.

(١٢) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٩٤.

وفي هذه السنة: نادَى عامِلُ إفريقية والقَيْرَوان، وهو عبدُ الله الكاتِب؛ فاجتمع الناسُ إليه، فأخذ من أعيانهم نحوَ الست مئة رَجُلٍ[1] وأغْرَمَهم الأموالَ بالتَّعْيين: يأخُذُ من الرجل الواحد عشرة آلاف دينار، ومن آخر دينارًا واحدًا. فاجتمعت له بالقَيْرَوان أموالٌ كثيرةٌ. وعمَّ هذا الغُرْمُ سائرَ أعمال إفريقية ما عدا الفُقَهاء والصُّلَحاءَ والأُدَباء وأولياءَ السلطان[2]. وكان الذي جَبَى من القَيْرَوان نَيِّفًا على أربع مئة ألف دينار عَيْنًا. وبقي الأمر كذلك في الطَّلَب، إلى أن وصل الأمر من مِصْرَ إلى أبي الفُتوح برَفْع الغُرْم عن الناسِ، فأطلقهم عبدُ الله الكاتبُ في أواخرِ شوَّال.

وفي سنة سبع وستين وثلاث مئة: بعثَ عبدُ الله الكاتِبُ عاملُ إفريقية هذا المال[3] إلى ملَك مِصْرَ العزيز بالله بأمر أبي الفُتوح صاحِبِ إفريقية من قِبَل العزيز بالله، وكتبَ على كلّ صُرَّة اسْمَ صاحبها. فكان خروجُ هذا المال من المنصوريَّة لخمسٍ بَقِين من جُمادى الآخرة. ولما وصل المال إلى مِصْر، ردَّ العزيز بالله بعضَ الصُّرَر لأربابها.

وفي هذه السنة: أنعم العزيزُ بالله على أبي الفُتوح بأطْرابُلُس ونواحيها[4]. فَقَدَّم عليها أبو الفُتوح يحيى بن خَلِيفة الـمِلْيَانيَّ، فأقام بها شهورًا، ثمَّ عَزَلَهُ.

وفيها: زحف خَزْرُون بن فُلْفُل[5] بن خَزَر الزَّناتيُّ إلى سِجِلْماسة، في عَدَد عظيم؛ فخرج إليه الـمُعْتَزُّ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فقُتِل الـمُعْتَزُّ، لخمس بَقِين من رمضانَ، وملك[6] خَزْرُون سِجِلْماسة، وأخذ فيها أموالًا جليلةً. وبعث خَزْرون برأس الـمُعْتَزِّ إلى الأَنْدَلُس واستحكم بها مُلْكُ زناتة وأتباعِهم[7].

---

(١) بعد هذا في أ، م: «من أغنيائهم».

(٢) قوله: «ما عدا الفقهاء والصلحاء والأدباء وأولياء السلطان» ليس في ر١.

(٣) بعد هذا في ر١: «المبارك».

(٤) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٦٥.

(٥) هكذا سماه، وفي كامل ابن الأثير ٨/ ٦٦٥، وتاريخ ابن خلدون ٧/ ١٩، وصبح الأعشى للقلقشندي ٥/ ١٦٢: «فلفول».

(٦) في أ: «وحكم».

(٧) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٦٥.

وفي هذه السنة: وصل أبو الفتوح صاحِبُ إفريقية إلى سَبْتة، فحاصَرَها. وبعثَ إليه ابنُ أبي عامِرٍ برأس جعفر بن عليّ، أراد أن يُرْضِيَهُ بذلك. وكان ابن أبي عامِرٍ قد قتل[1] جعفر بن عليّ بن حَمْدُون المعروفَ بابن الأنْدَلُسيّ. ويأتي خَبَرُ قتلِه في أخبار ابن أبي عامِرٍ من أخبار الأنْدَلُس.

وفي سنة ثمان وستين وثلاث مئة: خرجَ العزيزُ من مِصْر إلى الشام في عَدَدٍ عظيمٍ، ونزل بالرَّمْلة. وكان بين يدَيْه ألف بَنْد وخمس مئة طَبْل. وكان جَوْهَرٌ قائدُه خرج في العام الفارط إلى الشام، فهزمه أفتكين[2] التركيُّ ورجعَ إلى مِصْر مَفْلولًا. فخرج العزيزُ بالله في هذه السنة بنفسه[3]، فلما نزل الرَّمْلة، خرج إليه التُّرْكيُّ. فكانت بينهم حروبٌ عظيمةٌ؛ فانهزم التُّرْكيُّ[4]، وأُخِذَ أسيرًا؛ فسِيقَ إلى العزيز بالله بحَبْلٍ في عُنُقه، ولما وصل إلى مِصْرَ، عفا عنه، ومات بعد ذلك.

وفي هذه السنة: دخل أبو الفُتوح صاحِبُ إفريقية من قِبَل العزيز بالله[5] بلادَ الغَرْب، واستولى عليها، وهدم مدينة البَصْرة، ومحا رَسْمَها بعد طُول مُدَّتها وكثرةِ عِمارتها. وكان رحيلُ أبي الفُتوح من إفريقية إلى الغَرْب يوم الأربعاء لخمسٍ بَقين من شعبان من سنة ثمان وستين وثلاث مئة[6]؛ فوصل بجيوشه الضَّخْمة[7] إلى فاس، فاستولى عليها، وملك سِجِلْماسة وبلاد الهَبْط كلَّها، وطرد من جميعها[8] عُمَّال بني أُمَيَّة[9]. ثم رحل

---

(١) في ر١: «قتله»، ولم ترد فيها بقية الفقرة.

(٢) ويقال فيه: «هفتكين» أيضًا كما في تاريخ الإسلام ٨/ ٢٩٧ وجاء في النسختين: «أفتيكن»، خطأ.

(٣) «فخرج العزيز بالله في هذه السنة بنفسه» ليست في ر١.

(٤) في ر١: «أفتيكن صاحب الشام من قبل الخليفة العباسي»

(٥) «صاحب إفريقية من قبل العزيز بالله» ليست في ر١.

(٦) «وكان رحيل أبي الفتوح من إفريقية إلى الغرب يوم الأربعاء لخمس بقين من شعبان من سنة ثمان وستين وثلاث مئة» لم يرد في ر١.

(٧) ليست في ر١.

(٨) في ر١: «جميعهم»

(٩) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٦٥.

إلى سَبْتة في طَلَب من لجأ إليها من زَناتة. فلما أشرف عليها، تأمَّلَ الوصولَ إليها، فرأى من تحصينها[1] ومنعتها ما لا يُستطاعُ إدراكُه[2] إلَّا بالمراكِب البحرية[3]؛ فرجع عنها، ولم يُعْوِزْهُ من بلاد المغرب غيرُها. ومَضَى[4] يُريد البَصْرة؛ وكان فيها عِمارةٌ عظيمةٌ بالأَنْدَلُس والبَرْبَر. فلما دخلها، أمر بهَدْمها، ونَهَبَ ما كان فيها من الأموال والأمْتِعة وجَميعِ الأسباب. فاستحالت الجيوشُ والأُمَمُ[5] عليها، فصارت كأنْ لم تَغْنَ بالأمس، فلم[6] تكن بَصْرةٌ بالمغرب إلى الآن؛ ودثر رسمُها، وكانت قديمةً أزَلِيَّةً. وقد تقدَّم ذِكْرُها. ثمَّ صار منها إلى أَصِيلاَ.

ذِكْرُ مدينة أَصِيلاَ[7]

وأمَّا أَصِيلاَ، فهي مُحْدَثةٌ. وكان سَبَبُ بنائها أنَّ الـمَجُوسَ خرجوا بساحِلها، وزعموا أنَّ لهم بها أموالًا وكُنوزًا، تَرَكَها لهم الأوائلُ الذين كانوا يسكُنون السواحِلَ وأخرجهم منها عامَّةُ القبائل. فلما نزلوا في البرّ لأخذِ أموالهم، اجتمع البَرْبَرُ لقتالهم؛ فقالوا: «لم نأْتِ لحربٍ[8]، وإنَّما لنا كُنوزٌ في هذا الموضع. فكُونوا ناحِيةً حتَّى نستَخْرِجَها، ونُشارِكُكم فيها». فاعتزل البربرُ عنهم لما سمعوا ذلك منهم. فحفر الـمَجُوسُ مواضِعَهم، واستخرجوا دُخْنًا كثيرًا عَفِنًا. فلما رآه البربرُ، ظنُّوه ذَهبًا؛ فبدروا[9] إليهم. وهرب الرُّومُ إلى مراكِبهم، فأصاب البَرْبَرُ الدُّخْنَ، فندموا، ورغبوا إلى الـمَجُوس في الرجوع واستِخْراجِ المال، فأبوا، وقالوا: «قد نَقَضْتُم العَهْدَ» وساروا إلى الأَنْدَلُس؛ فحينئذٍ

---

(١) في ر١: «حصانتها».

(٢) في ر١: «الوصول إليها».

(٣) ليست في ر١.

(٤) في ر١، م: «فرجع»، وما أثبتناه من أ.

(٥) ليست في ر١.

(٦) من هنا إلى قوله: «ذكرها» لم يرد في ر١.

(٧) الروض المعطار ٤٢.

(٨) في ر١: «لحربهم».

(٩) في ر١: «فبرزوا».

خرجوا بإشبيلية على ما يأتي ذِكْرُه في أخبار الأَنْدَلُس[1]. فاتَّخَذَ الناسُ موضِعَ أَصِيلاَ رباطًا، وانتابوا إليه من جميع الأمصار. فكانت تَقُومُ فيه سُوقٌ جامِعةٌ ثلاث مرَّات في السنة: في رمضان، وفي العَواشِر، وفي عاشُوراءَ.

ومِـمَّا قَيَّدتُهُ واخْتَصَرْتُهُ من «كتاب الـمَسَالِك والـمَمَـالِك» لمحمَّد بن يوسف القَرَويّ، رحمه الله، قال[2]: ومن الـمُدُن القديمة على ساحِل بحر الغَرْب، أَصِيلاَ[3]؛ وهي في سَهْلةٍ من الأرض، كانت مدينةً للأُوَل. ثمَّ تغلَّب عليها البَحْرُ. ثمَّ بُنِيَتْ بعد ذلك؛ وكان سَبَبُ بنائها أنَّ الـمَجُوس خَرَجوا في مَرْساها مَرَّتَيْن:

أمّا الأُولى، فإنَّهم قصدوا إليها، زاعمين أنَّ لهم بها مالًا وكُنوزًا؛ فاجتمع البربر لقتالهم حَسْبَما ذكرتُ ذلك.

وأمَّا خروجهُم الثاني، فإنَّ الريح قَذَفَتْ بهم إليها[4] وعطَبَتْ لهم أجفانٌ كثيرةٌ عليها، حتَّى كان يُعرف ذلك الموضع بباب الـمَجُوس. وكان مَوْضِعُها مِلْكًا لقبائل لَوَاتة. فابتناها قومٌ من كُتامة، فأوَّلُ ما ابتدروا به مسجدًا. ثمَّ بَنَى لَوَاتة مسجدًا ثانيًا، وشاعَ أمرُها، فَبَنَى الناسُ شيئًا بعد شيْءٍ، فقصدها التُّجار من الأمصار بضروب الـمَتاجِر في أوقاتٍ معلوماتٍ لأسواق[5] الغُبار.

فأوَّلُ من قَدِمَ عليها من الملوك القاسمُ بن إدريس، فإنَّه ملكها، وقامت دعوتُه بها إلى أن تُوفّي، رحمه الله، ثمَّ وليها ابنُه إبراهيم بن القاسم، فجَرَتْ بينه وبين عُمر[6] بن حَفْصُون الثائر بِبُبَشْتر من الأَنْدَلُس مُراسلات ومُكاتبات في شأن النفاق على الخليفة الأمَويّ بقُرْطُبة، إلى أن هلك. ثمَّ وليها ابنُه حُسين بن إبراهيم بن القاسم، فاضطرب أمرُه، وضَعُفَتْ طاعتُه، وكانت مُدَّتُه خمسًا وعشرين سنة في قبائل لَوَاتة.

---

(١) «في أخبار الأندلس» لم ترد في ر١.

(٢) المسالك والممالك للبكري ٢/ ٧٩٠ فما بعد.

(٣) في ر١: «مدينة أصيلا».

(٤) في ر١: «بها إليهم».

(٥) في ر١: «لأوقات».

(٦) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٤.

وكان أخوه أحمد الـمُتَوَلِّي لأمر كُتامة، وكان يُعرف بأبي الأُذُنَيْن. وكان صاحبَ البَصْرة حينئذٍ أخوهما عيسى بنَ إبراهيم بن القاسم، إلى أن قتله أبو العَيْش جَـنُّون[١] من بني إدريس، رحمه الله، فتزوَّج أخوه أحمد الملقَّبُ بأبي الأُذُنَيْن زَوْجتَه، وملك مَكانَه. وقيل إنَّ زَوْجَتَه سَمَّتهُ، فقَتلَتْه. فصار أمْرُ كُتامة وأمْرُ البَصْرة إلى يحيى بن إبراهيم بن القاسم المعروف بابن بَرْهُوية؛ فاختلفت عليه كُتامة، وكان ذلك سببَ دخول بني محمَّد بَلَدَ كُتامة وهَوَّارة وتلك الناحية، واستجاشوا بحسن بن محمَّد المعروف بالحَجَّام، فقام بأمرهم، وهلك القاسم بن حَسَن بن القاسم بن إدريس صاحبُ أصِيلاَ.

ودخل بنو[٢] محمَّد من بني إدريس مدينةَ أصِيلاَ؛ فاستأْثر بها حَسَن الحجَّام دون بني عَمِّه، فولَّى عليها رجلًا من خاصَّته يُقال له: حَجَّاج بن يوسف فأحسن السيرة فيهم إلى أن هلك. فطلب ولايتَها رجلٌ من أهلها يُقال له: محمَّد بن عبد الوارث، فعدا طَوْرَهُ فيها، ويُقال: إنَّه أصاب بأصِيلاَ كَنْزًا بداره، ونُهِيَ ذلك إلى حسن المعروف بالحجَّام، فطمع في ذلك المال، وعَزَلَه عن أَصِيلاَ. ثمَّ وليها إبراهيم بن الغَلِّ الـمِكْناسيُّ؛ وكان ساكنًا بها، بعدما أعطى مالًا لحسَن الحجَّام. فلما وصل إلى أصِيلاَ، سار محمَّد بنُ عبد الوارث إلى حَسَن بمالٍ كثيرٍ، فعزل إبراهيمَ وأعاد ابن عبد الوارث. فسار إبراهيم بهديَّة إلى حَسَن، فعزل محمَّدًا وولاَّه عليها. ثمَّ عزل إبراهيمَ وولَّى محمَّد بن عبد الوارث. وكانت عَزْلَتُهما وولايَتُهما نَحْوَ سنتَيْن، إلى أن استقرَّ فيها محمَّدٌ هذا. وسُمِّيَ فَارَ الصِّهْرِيج، يَعْنُون الكَنْزَ الذي أصاب فيه. وتبيَّن لابن عبد الوارث رَغْبةُ حَسَنٍ في ماله، فأعطاه. واستقامت له معه جميعُ أحواله مُدَّةً[٣]. ثمَّ عزله، وولَّى إبراهيم بن الغَلِّ المذكورَ؛ فبقي[٤] بها إلى أن حصر ابنُ أبي العافية بني محمَّد في حصن النَّسْر، فأتاه أهلُ أصِيلاَ، وطلبوا منه واليًا من قِبَلِهِ؛ فولاَّها سعيد[٥] ابن الشيخ الإشبيليَّ. وهرب

(١) وضع تحت الجيم ثلاث نقط فقط علامة الكاف الأعجمية، وربما تكتب بالقاف أيضًا.

(٢) في ر١: «ودخلها أبو» وليس بشيء.

(٣) في ر١: «واستقامت الحال بينهما مدة».

(٤) في ر١: «وأقام».

(٥) في ر١: «فوليها سعد».

إبراهيم بن الغَلِّ إلى مَدْيَن بن موسى بن أبي العافية، فوفد عليه، وهاداه، وانقطعَ إليه، فولاَّه أصِيلاَ، فأحسن السيرة، ورفقَ بالرعية. وانصرفَ إلى تَسُول، بعدما استخلفَ على حرب بني محمَّد رجلًا من أصحابه يُعرف بأبي قَمْح، فحاصَرَهم حصارًا شديدًا. فلما ضاقَ عليهم الأمر، هجموا عليه ليلًا، فهرب أبو قَمْح، وملك بنو محمد محلَّتَه. واجتمعت قبائلُ كُتامة بقَلْعةٍ هناك، فزحف إليهم بنو محمَّد الأدارِسةُ، فحاربوهم حتَّى دخلوا القلعة، وقتلوا من كان فيها، فكان أوَّلَ فتح بني محمَّد بن إدريس الـحَسَني.

وبلغَ ذلك إلى[1] أهل أصِيلاَ؛ فكتبوا إلى ابن أبي العافية، وذلك في سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة، في حين خروجِ مَيْسُور إلى أرض الـمَغْرِب. فجاوَبَهم موسى بن أبي العافية، وأمرهم أن يتحصَّنوا في بلدهم، وكتب إلى قبائل كُتامة، ولَوَاتة، وهَوَّارة، وصُنْهاجة، يأمرهم بمَعُونتهم على البنيان، فانقسموا على سُور المدينة، وبَنَوْه في ستَّة أشْهُر. فهرب وجوهُ القبائل إلى أصِيلاَ، واجتمع بها مَلأٌ عظيمٌ منهم، فزحف إليهم بنو محمَّد الأدارِسة بعساكرهم، فكانت بينَهم حربٌ عظيمةٌ، فاستمدُّوا ابن أبي العافية، فاعتذر إليهم، وقال لهم: «اكتبوا إلى أمير المؤمنين، فأنا وأنتم رعيَّتُه وتحت طاعتِهِ»، فكتبوا إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر، وكانت مدينة[2] سَبْتة تحت طاعته. فبعثَ إليهم الرُّماةَ الأنْجادَ، واتَّصلَ ذلك ببني محمَّد، فحشدوا الأحشاد، وزحفوا إلى أصِيلاَ، فحارَبوها أربعين يومًا. فخاف وجوهُ أهلها، فجازوا إلى الأنْدَلُس. ودخل بنو محمَّد أصِيلا، وذلك سنة ست وعشرين وثلاث مئة وملكوها، فأمَّنوا من بقي بها من أهلها، وعاد من جاز إلى الأنْدَلُس إليها.

وحَوْلَها من القبائل لَوَاتة في القِبْلة، ومن هَوَّارةَ قومٌ يُعرفون ببني زِيَاد، بينهم كُدْيَةُ رَمْلٍ عاليةٌ. قال إبراهيم بن محمَّد الأصِيليُّ من قصيدة له [من الوافر]:

تُسَقِّي غَرْبِيَّ أرْضِ بنـي زِيـادٍ ... سَحَائبُ ما يَجِفُّ لها غُـرُوبُ
ولا زالَ النَّعِـيمُ يَعُـمُّ قَوْمًـا ... إزاؤُهُمْ مـن الـشَّرْقِ الكَثِيـبُ

وحوْلَـها من القبائل من جهة الغرب هَوَّارة الساحِل.

---

(١) ليست في ر١.

(٢) ليست في ر١.

ذِكْرُ مَنْ وَلِيَ مدينةَ البَصْرة[1]

أُسِّسَت البَصْرة في الوقتِ الذي أُسِّسَتْ فيه أصِيلاَ. وعلى ثمانية أميال منها جَبَلٌ يُقال له صَرْصَر، كثيرُ المياهِ والثِّمارِ، يَسْكُنه مَصْمُودة. وأوَّلُ من مَلَكها[2] إبراهيمُ بن القاسم بن إدريس نَحْوَ أربعين سنة. ثمَّ وليها ابنُه عيسى بن إبراهيم. ثمَّ أخوه أحمد بن إبراهيم[3]. ثمَّ بَرْهُون بن عيسى بن إبراهيم. ثمَّ أحمد بن القاسم بن إدريس. ثمَّ بَرْهُون بن عيسى ثانيةً. ثمَّ سعيد، غلامُ الـمُظَفَّر من قِبَلِ مَصالة بن حَبُوس. ثمَّ حسن بن محمَّد الحجَّام. ثمَّ محمَّد بن يحيى بن القاسم وَلَدُ الـجُوطيّ. ثمَّ عيسى بن أحمد المعروف بأبي العَيْش. ثمَّ أحمد بن القاسم ثانيةً. ثمَّ والٍ من قِبَل ابن أبي العافية. ثمَّ أبو العَيْش بن أحمد ثالثةً. ثمَّ أحمد بن أبي العَيْش إلى سنة سبع وأربعين وثلاث مئة.

وكانت مدينةٌ يُقال لها كُرْت، في جَبَل يُسمَّى كذلك[4] به إلى وقتنا هذا[5]، خَرَّبَها بنو محمَّد؛ وهي كانت قاعِدَة أحمد بن القاسم، الذي يقول فيه بَكْر بن حمَّاد [من الكامل]:

إنَّ السَّماحة والـمُرُوءَةَ والنَّـدَى ... جُمِعُوا لأحمدَ من بُنَـي القاسِـمِ

وإذا تَفاخَرَتِ القبائلُ وانتَمَتْ ... فافْخَرْ بفَضْلِ محمَّـدٍ وبفَـاطِمِ

وبجَعْفَر الطَّيارِ في دُرَجِ العُـلَى ... وعَلِيٍّ العَضْبِ الحُسامِ الصَّارِمِ

إنِّي لَـمُـشتاقٌ إلَيْـكَ وإنَّمـا ... يَسْمُو العُقابُ إذا سَمَا بقَـوادِمِ

فابْعَثْ إليَّ بمَرْكبٍ أسـمُو بـه ... علِّي أكُـونُ عَلَيْـكَ أوَّلَ قـادِمِ

واعْلَـمْ بأنَّـك لَـنْ تَنَـالَ مَحبَّـةً ... إلَّا بـبَعْضِ مَلابِـسٍ ودَرَاهِـمِ

---

(١) ينظر عنها: الروض المعطار ١٧٦.

(٢) في ر١: «ملك البصرة».

(٣) من قوله: «بن إدريس» إلى هنا سقط كله من ر١.

(٤) من ر١.

(٥) «إلى وقتنا هذا» ليست في ر١.

فبعث إليه ببغلةٍ سنيَّةٍ وصِلَةٍ جَزْلةٍ. وكان له فيه أمداحٌ كثيرةٌ.

وكان على وادي وَرْغَة حِصْنٌ كبيرٌ يسكُنُه البربرُ، فسكن عندهم شخصٌ من الـحَضَر، فقال في نفسه[1] [من الطويل]:

ألا هَلْ أتى أهْلُ المدينـةِ أنَّنـي ... بِوَرْغَةَ بين الأعْجَمِينَ غريـبُ
إذا قلتُ شيئًا قِيلَ: ماذا تُريـدُه؟ ... لَـهُمْ بَيْنَ أحرازِ الوُجوهِ قُطُوبُ

وكان هُناك حِصْنٌ أيضًا يُعرف بسُوق عُكَّاشة، قريبٌ من وَرْغة، لمحمَّد بن حسن من بني إدريس، رحمهم الله، وجَنْيَارة[2] حِصْنٌ كبيرٌ في جَبَل يُعرف بالجَبَل الأشْهَب؛ وهي لبني حَصِين. وفي ذلك الـجَبَل قُرًى كثيرةٌ، وهو[3] بمقربة من فاس. ومن أصِيلاَ إلى مدينة فاس خمسةُ أيَّام على طريق البَصْرة. ويَلِي أصِيلاَ من جهة الشرق مدينةُ طَنْجة. وكان صاحبُ طَنْجة القاسم بن إدريس. ومن طَنْجة إلى فاس على طريق أصِيلاَ ستَّة أيَّام.

وفي مدينة فاس عُدْوَتان، أُسِّسَتْ عُدْوة الأنْدَلُسيِّين سنة اثنتين وتسعين ومئة من الهجرة، أسَّسها[4] أهلُ رَبَض قُرْطُبة إذ فرُّوا من الحَكَم الرَّبَضِيّ. وأُسِّسَت عُدْوة القَرَوِيِّين بعدها بسنَةٍ. قال الشاعر [من البسيط]:

يا عُدْوةَ القَـرَوِيِّينَ التـي كَرُمَـتْ ... لا زالَ جانِبُكَ الـمَحْبُورُ مَـمْطُورا
لا أمْسَكَ اللهُ عنها صَوْبَ نِعْمَتِهِ ... أرْضٌ تَجَنَّبَـتِ الآثـامَ والـزُّورا

ولما خرَّب أبو الفتوح يوسف بن زِيرِي الصُّنْهاجيُّ[5] أميرُ إفريقية مدينةَ البَصْرة، رحل بعساكره إلى بلد[6] بَرْغَوَاطة. وكان مَلِكُهم صالِح بن عيسى بن أبي الأنْصار،

---

(١) «في نفسه» ليست في ر١.

(٢) الروض المعطار ٧٦.

(٣) في ر١: «وهي».

(٤) من هنا إلى قوله «عدوة» سقط من أ.

(٥) ليست في ر١.

(٦) كذلك.

وكان فصيحًا[1] شاعِرًا، فأطاعوه حتَّى جعلوه نبيًّا، وشرع لهم شريعةً، فاتَّبعوه، فضلَّ، وأضَلَّهم. فغزاهم أبو الفُتوح، فكانت بينهم حروبٌ لم يجرِ قبلَها مثلُها كان الظَّفَرُ فيها لأبي الفتوح. وقتلَ اللهُ الكافِرَ ابنَ عيسى، وانهزمت عساكرُ بَرْغَواطَةَ، فَقُتِلوا قَتْلًا ذَرِيعًا، وسُبِيَ من نسائهم وذراريهم ما لا يُحْصَى عَدَدُهم. وأرسل أبو الفُتوح سَبْيَهم إلى إفريقية، فلَقِيَهم عامِلُه عبدُ الله الكاتبُ، مع أهل القَيْرَوان والـمَنْصوريَّة. وملك أبو الفُتوح بلاد الغَرْب مع بلاد إفريقية[2]. فكانت السِّجِلاَّت تَرِدُ عليه من مِصْرَ، فتَصِلَه على البَريد إلى فاس أو غيرها، ثُمَّ يُرْجَعُ بها إلى عامِل إفريقية، فتُقْرأُ بعد مُدَّةٍ من تأريخها. وأقام أبو الفُتوح في بلاد الغَرْب، وهو قد ملكها[3]، وأهْلُ سَبْتة منه خائفون، وزَناتة مُشَرَّدون، وذلك من سنة ثمان وستين وثلاث مئة المؤَرَّخة إلى سنة ثلاث وسبعين وثلاث مئة.

وفي سنة تسع وستين وثلاث مئة: تُوفِّي أحمد بن أبي خالد، الطبيبُ الكبيرُ المعروفُ بابن الـجَزَّار[4].

وفيها: كانت الـحُمْرة التي ظَهَرَتْ في السماء ليلةَ الأربعاء لخمس خَلَوْن من ربيع الأوَّل، فخرج الناسُ إلى المساجِد للضَّجيج والتضرُّع إلى الله تعالى.

وفي غَدِ تلك الليلة، هرب كَبَّاب ومَغْنين ابنا زِيرِي بن مَنَاد من قَصْر أخيهما السلطان أبي الفُتوح الذي كانا فيه محبوسَيْن، وقد لَبِسا ثيابَ النساءِ، وخرجا في نِسْوةٍ دَخَلْنَ إليهما لزيارتهما، فوَجَدا[5] عبيدَهما قد أعدُّوا لهما خَيْلًا وسلاحًا، فركبا، ومضيا نَحْوَ الـمَشْرِق، حتَّى وصلا مِصْرَ، فأنزلهما العزيزُ بالله، وخلعَ عليهما، ووَصَلَهما، وبَقِيا هُنالِك بقيَّةَ هذه السنة.

---

(١) كذلك.

(٢) «مع بلاد إفريقية» من ر١.

(٣) «وهو قد ملكها» ليست في ر١.

(٤) تنظر ترجمته في عيون الأنباء ٤٨١.

(٥) في ر١: «فوجدوا».

وفي سنة سبعين وثلاث مئة: صرفَ العزيز بالله كبَّابًا ومغنينًا ابنَيْ زِيرِي إلى أخيهما[1] أبي الفُتوح يوسف بن زِيرِي أمير إفريقية، وأمره أن يعفو عنهما، ولا يتعرَّض لهما. ففعل ذلك.

وفيها: تمكَّنت حالُ يعقوب بن يوسف بن كِلِّس[2] مع العزيز بالله، فأذَلَّ كُتامة، وقهرَهُم، وقدَّم التُّرْكَ والإخْشيديَّة، وعزل الوزراء جَوْهَرًا وغَيْرَه.

وفي سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة: دخل سَبْيُ البَرْغَوَاطِيّين إلى المنصوريَّة يومَ السبت لثمان خَلَوْن من ربيع الأوَّل، فرأى أهْلُ إفريقية من السَّبْي ما لم يَرَهُ أحَدٌ منهم لكثرته، وطِيفَ بهم في المنصوريَّة والقَيْرَوان.

وفي هذه السنة: وصل بادِيس بن زِيرِي من مِصْرَ برسالةٍ إلى أبي الفُتوح، يأمره بتَخَيُّر ألف فارس من إخوته الأبطال صُنْهاجة، منهم حَبُوس ومَاكْسَن وزَاوِي وحَمَامة بنو زِيرِي، وبنو حَمَامة بن مَنَاد، وزَاوِي بن مَنَاد، ونُظَرائِهم. فكتب إليه من بلاد الغَرْب يُعَرِّفه بتغلُّب بني أُمَيَّة أمراء الأَنْدَلُس على بلاد الغَرْب، وأنَّ الدُّعاءَ لهم فيه على الـمَنابِر، وأنَّه قد خرج لـمُحاربتهم بهؤلاء الرجال الذين سمَّاهم أميرُ المؤمنين؛ فإن عزم على بَعْثِهم إليه، تَرَكَ الغَرْبَ، وسار بنفسه في جُمْلَتهم، فلم يُعِدْ إليه جوابًا فيهم.

وفي جُمادى الأُولى من هذه السنة: كان بالمهديَّة زَلازِلُ دامت الشهرَ كلَّه وعشرة أيَّام بعده، تُزَلْزِلُ في كلِّ يوم مرَّات، حتَّى هربَ أكثرُ أهلها، وأسلموا ديارهم وما فيها.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة: قُتِلَ أمير صِقِلِّيَّةَ أبو القاسم عليُّ بن حَسَن الـحَسَنيُّ في مُقابلته مع الإفْرَنْج. وكانت ولايتُه بها إحدى عَشرة سنةً. ثمَّ وَلِيَ ابنُه جابِرٌ سنةً واحدةً[3].

وفي سنة ثلاث وسبعين وثلاث مئة: اشترى عبدُ الله بن محمَّد الكاتِبُ عامِلُ إفريقية العَبِيدَ السُّودان، وجعل على كلّ عامِلٍ مِن ثلاثين عبدًا إلى ما دون ذلك،

---

(١) ليست في أ، م.

(٢) تنظر ترجمته في وفيات الأعيان ٧/ ٢٧-٣٤، وتاريخ الإسلام ٨/ ٤٨٦-٤٨٧.

(٣) ذكر ابن الأثير هذا الخبر بتفصيل في الكامل ٩/ ١٣-١٤، ولكن في حوادث سنة ٣٧١.

وكذلك على أصحاب الـخَرَاج ووُجوهِ رجاله. فاجتمعَ له منهم أُلُوفٌ، وأسكنهم بالمنصوريَّة.

وفيها: عمل عبد الله بَيْتَ الحديد، ومَلَأَهُ أموالًا، ثمَّ عَمِلَ بَيْتَ خَشَبٍ ومَلَأه أموالًا أيضًا. واستخلف على المنصوريَّة جَعْفَر بن حَبِيب، وخرج إلى المهديَّة على عادته في كلّ سنة.

ذِكْر وفاة أبي الفُتوح[1] يوسف بن زِيرِي بن مَنَاد الصُّنْهاجيّ

وفي هذه السنة: تُوفِّي أبو الفُتوح[2] عند قفوله من قتال بَرْغُوَاطة، وقد انفصل من سِجِلْماسة، فمات بموضع يُقال له واركنفو، يومَ الأحد لتسعٍ بَقِين من ذي الحجَّة؛ وذلك أنَّ ابن خَزْرُون الزَّناتيَّ ضربَ على سِجِلْماسة؛ فدخلها، وأخذ ما كان فيها من الأموال[3]؛ وكان بها عامِلُ أبي الفُتوح؛ فأتاه الخبرُ بذلك، فرحل إليها، فاعتلَّ في طريقه بقُولَنْج، فمات بالموضع المذكور. فأوصَى لأبي زَعْبَل بن هشام. وكان من خاصَّته، فأرسلَ إلى المنصور يُعَرِّفه بوفاة والده[4] أبي الفُتوح[5].

ولاية أبي الفَتْح[6] المنصور بن أبي الفُتوح إفريقية[7]

وَلِيَ الإمارة[8] في أوائل سنة أربع وسبعين وثلاث مئة بمدينة أشِير، وتُوفِّي يوم الخميس لخمس خلَوْنَ من ربيع الأوَّل من سنة ست وثمانين وثلاث مئة، فكانت مدَّتُه اثنتي عشرة سنة، ودُفن بالمنصوريَّة. وكان كريمًا، سَمْحًا، جَوَادًا، صارِمًا، عازِمًا.

---

(١) اقتصر العنوان في ر١ على هذا القدر.

(٢) «أبو الفتوح» ليست في ر١.

(٣) «من الأموال» ليست في ر١.

(٤) في ر١: «والدته».

(٥) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٣٤.

(٦) في ر١: «الفتوح»، خطأ.

(٧) ليست في ر١.

(٨) كذلك.

قال الرَّقِيق: وقد ذكرتُ سيرتَه، وحروبَه، وعطاياه في كتابٍ مُفْرَدٍ لأخبارِ جَدِّه وأبيه وأخبارِه. وكان لقبُه عُدّة العزيز بالله بن يوسف سيف[1] العزيز بالله.

وفي هذه السنة، وهي سنة أربع وسبعين وثلاث مئة: بعث المنصور أخاه يَطُّوفَت من مدينة أشير، لـمَّا بلغه موتُ أبيه، وأمره أن يَطْوِي المراحِل إلى القَيْروان والمنصوريَّة برَسْمِ القبض على عبد الله بن محمَّد الكاتِب، وكان بالمهديَّة، ونائباه على المنصوريَّة جَعْفَر بن حَبِيب، وعلى القَيْرَوان بَرْهُون العامِل، فصَبَّحَهم يَطُّوفَت سَحَرَ يوم الثلاثاء منتصف المحرَّم. فنظر يَطُّوفَت إلى الخزائن مُغْلَقةً وإلى بيت المال مُقْفَلًا، فأخذ المفاتيح، وفتح بيت المال وبيت السلاح، وفرَّق على أصحابه، ورَكَّب من كان مُتَرَجِّلًا من الصُّنْهاجيّين بالمنصوريَّة. ثمَّ خرج، والتقى مع عبد الله الكاتِب في بعض الطريق؛ فوثبَ عليه، وأَرْجَله عن فَرَسه، وانْتُهبت أسبابُه، واعْتُقِل بالمنصوريَّة أيَّامًا. ثمَّ أمر المنصور بإطلاقه، ورَفَعَ يَدَه عن البلد. ثمَّ عاد الأمرُ إلى عبد الله، فأمر بالقُضاة ووُجوهِ الناس من شيوخ القَيْرَوان وغيرهم، وتوجَّه معهم برسم التَّهْنِئَة والتَّعْزِيَة للمنصور، فوصلوا إليه، وسلَّموا عليه بمدينة أشير، فقال لهم المنصور: «لقد شَقَّ عليَّ تعبكم في حَرَكتكم، غَيْرَ أنَّ سُروري في رُؤْيَتِكم». ثمَّ شكرَ عبدَ الله الكاتبَ، وذَمَّ فِعْلَ أخيه به، ثمَّ أمر عبدَ الله الكاتبَ أن يدفع للوافدين عليه عشرة آلاف دينار ضيافتهم. فدَعَوْا له، وانصرفوا. ثمَّ استدعاهم بعد ذلك، وقال لهم: «إنَّ أبي وجَدِّي أخذا الناسَ بالسيف قَهْرًا، وأنا لا آخُذُهم إلَّا بالإحسان، وما أنا في هذا الـمُلْك مِـمَّن يُوَلَّى بكتاب أو يُعْزَلُ بكتاب، لأنِّي ورثتُه عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم[2] وأجدادهم حِـمْيَر!» وكلام في هذا المعنى كثير[3]؛ ثمَّ أمرهم[4] بالانصراف مع عبد الله الكاتب، فكانت مدَّة مَسِيرهم ورجوعهم خمسة وثلاثين يومًا.

---

(١) «سيف» ليست في أ، م.

(٢) ليس في ر١.

(٣) في ر١: «أو كلامًا هذا معناه».

(٤) في ر١: «أذن لهم».

وفي رجب، قَدِمَ المنصور إلى رَقَّادة، فتلقَّاه عبدُ الله الكاتب في خَلْق عظيم من أهل القَيْرَوان؛ فأظهر للناس الـخَيْرَ، ووعدهم بكلِّ جميل، وأتاه الـعُمَّال بالهدايا والأموال، وأعطاه عبد الله هدايا جليلةً. ثمَّ أخذ المنصور في جِهاز هديَّةٍ بعثها إلى مِصْرَ مع زَرْوال بن نَصْر. فقيل: إنَّ قيمة ما كان فيها من الأمْتِعة والدوابِّ والطُّرَف ألْفُ ألْفِ دينار عَيْنًا. وأقام المنصور برَقَّادة، فأمر بعمل سَرْج مكلَّل بالدُّرِّ والياقوت، فخرج به إلى العيد في أحسن زيّ؛ وخرج إليه من القَيْرَوان خلْقٌ عظيمٌ، فصلَّى بالـمُصَلَّى، وخطب القاضي ابنُ الكُوميّ، وانصرف المنصور إلى قصره. ووُلِدَ له وَلَدٌ سمَّاه بادِيس[1] ابن المنصور، ليلةَ الأحَد لثلاث عشرة خلت[2] من ربيع الأوَّل من هذه السنة.

وفيها: أعطى المنصور لأخيه يَطُّوفَت العساكِرَ، وجَّهه إلى مدينتي فاس وسِجِلْماسة، يطلب ردَّهما وردَّ تلك البلاد الغَرْبيَّة، إذ كانت خرجت عن طاعة صُنْهاجة عند وفاة أبي الفُتوح، فوصل إلى مدينة فاس. وكان بها زِيرِي بن عَطِيَّة الزناتيُّ الـمُلَقَّب بالقَرْطاس[3]. فلما أحسَّ بوفادة يَطُّوفَت بن أبي الفُتوح، عاجَلَ بالخروج إليه والهجوم عليه، فقاتله قتالًا شديدًا، حتَّى انهزم يَطُّوفَت، وظفرت زَناتة بصُنْهاجة؛ فاتَّبعوهم، وقتلوا منهم خَلْقًا كثيرًا، وأسَروا آخرين، وهرب الباقون إلى تِيهَرْت. وهزم في هذه الوقعة قائدان له، اسمُهما ابنُ شعبان وابن عامِل، فسُمِّرَ ابنُ شعبان على باب فاس؛ وقُتِلَ ابنُ عامِل شَرَّ قِتْلةٍ. وبقي زِيرِي بن عَطِيَّة مالِكًا لفاس وما حَوْلَـها. ولما بلغ المنصورَ هزيمةُ أخيه، من المنصوريَّة يوم الأربعاءِ لثلاث عشرة ليلة خَلَتْ من ذي الحجة برسم الغَرْب، وخرجَ[4] ومعه عبدُ الله الكاتِب، واستخلف عبدُ الله على القَيْرَوان ابنَه يوسف، ثمَّ رجع عبدُ الله بعد ذلك بعِمالةِ إفريقية كلِّها. وبعث المنصور إلى أخيه يَطُّوفَت بجيش آخر، فتلقَّاه بتِيهَرْت، ولم يتعرَّض المنصورُ بعد ذلك إلى بلاد زَناتة[5].

---

(١) ينظر عنه وفيات الأعيان ١/ ٢٦٥.

(٢) من ر١.

(٣) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠٦.

(٤) سقطت من م.

(٥) نهاية الأرب ٢٤/ ٩٨.

وفي سنة خمس وسبعين وثلاث مئة: أمر أبو الفَتْح المنصور أن يُعْمَلَ بجامع[1] القَيْرَوان أبوابٌ من[2] حديد، وأمر ببناء قصره الكَبِير.

وفيها[3]: كان مَوْلِدُ أبي عليّ منصور[4]، وقيل: المنصور، ابن نِزار العزيزِ بالله، بمدينة القاهرة، في يوم الخميس لسَبْع بَقِين من ربيع الأوَّل.

وفي سنة ست وسبعين وثلاث مئة: ظهر أبو الفَهْم الـخُراسانيُّ الداعِي[5]؛ واجتمع إليه خَلْقٌ كثيرٌ من كُتامة. وكان يوسف بن عبد الله بن محمد[6] الكاتب قد أعطاه مالًا وخَيْلًا، فتوجَّه بذلك لبَلَد كُتامة، فدعاهم، فأجابوه، وتقرَّرَتْ أُموره عندهم، حتَّى صار يركب الخيل[7]. ويجمع العساكر، ويعمل البُنُود، ويضرب السِّكَّة، فعظم أمرُه، وشاعَ خَبَرُه.

وفيها: جدَّ يوسف بن عبد الله الكاتِب في بناءِ قصر المنصوريَّة للمنصور أبي الفَتْح، فبلغ إنفاقُه فيه قبل تَـمامِهِ مئةَ ألف دينار.

وفي سنة سبع وسبعين وثلاث مئة: وصل المنصور أبو الفَتْح صاحِبُ إفريقية[8] إلى المنصوريَّة، فنزلَ في قصره الذي بُنِيَ له، وأتى معه عبدُ الله الكاتِب وجُموع عساكره، ووجوهُ بني عَمِّه ورجاله.

وفي هذه السنة: كان مَقْتَلُ عبد الله بن محمد[9] الكاتِب وابنه يوسف؛ وذلك أنَّ عبد الله المذكور[10] بلغ مع المنصور بن أبي الفُتوح ما لم يَبْلُغْه أَحَدٌ من قَرابته وأهلِ

---

(١) ليست في م.

(٢) ليست في ر١.

(٣) هذه الفقرة كلها ليست في ر١.

(٤) ترجمته في وفيات الأعيان ٥/ ٢٩٢-٢٩٨، وتاريخ الإسلام ٩/ ١٩٨-١٩٩.

(٥) ينظر كامل ابن الأثير ٩/ ٥٣-٥٤.

(٦) من ر١.

(٧) في ر١: «الحمار».

(٨) «صاحب إفريقية» ليست في ر١.

(٩) ليست في أ، م.

(١٠) في أ، م: «عبد الله بن محمد الكاتب» وما أثبتناه من ر١ هو الأوفق.

بيته ودولته، وانحصرَتْ أُمورُه كلُّها تحت قَبْضَته، فجمع الأموالَ، ورتَّب الأحوالَ والأعمالَ، وأعطى السياسةَ والرياسةَ حَقَّها. فحسده كُبَراء[1] أهل الدولة، وألقى عنه حَسَنٌ ابنُ خالَتِه إلى المنصور أُمورًا من القَدْح في دولته، وأنَّه كان السَّبَبَ في خروج الداعِي الثائر[2] أبي الفَهْم بكُتامة، وأنَّه كان يُصَغِّر خَبَرَه حتَّى تَفاقَمَ أمْرُه، وغير ذلك من الأسباب الـمُهْلِكات. وكان عبد الله الكاتِبُ، لثِقَتِهِ بنفسه، لا يُدَارِي أحدًا من أولاد زِيرِي ولا أكابِرِ الدَّوْلة. فلما أحَسُّوا من المنصور بَعْضَ التغيُّر عليه، أكثروا من الذَّمِّ[3] فيه والوشي به إليه، فقال له أبو الفتح المنصور: «اعتزِل عن عَمَل إفريقية، واقْتَصِرْ على الكِتابة، وكلُّ من تولَّى مُتَصَرِّفٌ بين يديك وتحت أمرك[4]» فكان جوابُه أن قال: «القَتْلة ولا العَزْلة!» فلما كان يوم الأحد لإحدى عَشرة ليلة خَلَتْ من رَجَب، غَدَا إلى دِيوانٍ كان قد بناه، فجلس فيه لانتظار رُكوب المنصور، وبيده جُزْءٌ من القُرْآن، يقرأُ فيه، حتَّى قيل له: «قد رَكِبَ» فأطلقه، وركب فَرَسَه برَسْم لقائه، وهو يقول: [من الطويل]:

ومَنْ يأمَنِ الدُّنيا يَكُنْ مِثْلَ قابِضٍ   على الماء خَانَتْهُ فُروجُ الأصَابِـعِ

فلما وصل إليه المنصور، نزل عبدُ الله إليه، وسلَّم عليه، ثمَّ وقف، فدار بينهما كلامٌ كثيرٌ، لم يقف أحَدٌ على صِحَّتِهِ، ثمَّ طَعَنَهُ المنصورُ برُمحه، فجعل أكمامَه على وَجْهه، وقال: «على مِلّة الله ومِلَّةِ رسولِه» لم يُسْمَع له غيرُ ذلك. وضربه عبدُ الله أخو المنصور برُمْح بين كَتِفَيْه، فسقط إلى الأرض مَيِّتًا. ثمَّ أُتي بابنه يوسف، فضربه المنصورُ ومَاكْسَنُ بنُ زِيرِي، فسقط مَيِّتًا. وكان عبد الله[5]، لما تنكَّر له المنصور، لا يزال يتمثَّل بهذا البيت: [من الطويل]:

---

(١) في ر١: «كبار».

(٢) «الداعي الثائر» ليست في ر١.

(٣) من هنا إلى قوله: «المنصور» سقط كله من م.

(٤) «وتحت أمرك» ليست في ر١.

(٥) ليس في ر١.

أرى أَلْـفَ بـانٍ لا يَقُـومُ لهـادمٍ   فَكَيْـفَ بِبـانٍ حَوْلَـهُ أَلْـفُ هـادِمِ

وكان يتمثَّل أيضًا[١] بقوله [من الكامل]:

لي مُـــدَّةٌ لا بُــدَّ أبْلُغُهـــا   حتَّـــى إذا قَـــضَّيْتُها مِـــتُّ

لَــوْ صـارَعَتْني الأُسْـدُ ضـارِيَةً   لَـصَـرَعْتُها مـا لَمْ يَـجِ الوَقْـتُ

ولما مات عبدُ الله وابنُه، دار العَسكرُ على الناس، فانتهبوهم وسلبوهم، وقطعوا الطُّرُقَ، فأخذوا كلَّ من وجدوا من الـمُسافِرين وغيرِهم، ومالوا إلى وادي القصَّارين وإلى باب تونُس، أحَدِ أبوابِ القَيْرَوان، فنهبوا ما كان عند القصَّارين، فذهبَتْ في ذلك اليوم أموالُ المسلمين، وقُتِل خَلْقٌ مـمَّن دافع عن نفسه وماله. ودُفن عبدُ الله في الإصْطَبْل دُونَ غَسْلٍ ولا كَفَنٍ. ووَلِيَ أعمالَ إفريقية من قِبَل أبي الفَتْح المنصورِ: يوسفُ بن أبي محمَّد، وكان عامِلًا على قَفْصة، فأعطاه البُنُودَ والطبولَ خلعَ عليه، وولاَّه إفريقية مَكانَ عبد الله، يومَ الخميس لخمس بَقِين من شعبان من السنة المؤَرَّخة[٢].

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاث مئة: تحرَّكَ أبو الفَتْح المنصورُ بعساكره إلى بلاد[٣] كُتامة. فمرَّ على مِيله[٤]، وأمر بخرابها، وهَدْم سورِها، وأمر أهلها بالـمَسير منها إلى باغاية، فاجتمعوا وساروا إليها. فلَقِيَهم ماكْسَن بن زِيرِي بعسكره، فأخذ ما كان معهم من مالٍ وغيرِه. وكان المنصورُ في هذه الـحَركَة لا يمرُّ بمَنْزِلٍ ولا قَصْرٍ ولا دارٍ إلَّا أمر بهَدْمه. ولما وصلَ المنصور إلى كُتامة، حارَبُوه، فظَفِرَ بهم، وقتلهم، واستأصلهم. وهرب الثائرُ أبو الفَهْم إلى جَبَلٍ وَعْرٍ، فأرسل إليه المنصورُ مَنْ أخذه. فلما صار بين يديه، أمر به؛ فلُطِمَ لَطْمًا شديدًا، ونُتِفَتْ لحِيَتُه، حتَّى أشرف على الموت[٥].

---

(١) «وكان يتمثل أيضًا» ليس في ر١.

(٢) الكامل لابن الأثير ٩/ ٥١ في حوادث سنة ٣٧٦.

(٣) في ر١: «بلد».

(٤) انظر عنها معجم البلدان ٥/ ٢٤٤.

(٥) الكامل لابن الأثير ٥/ ٥٣-٥٤.

وذلك أنَّه، لما صار بين يدَيْه، وعَمِلَ به ما تقدَّم ذكرُه، أمر بخروجه، وقد بقيت فيه حُشاشةٌ من الرُّوح. فأخذه بعضُ رجاله؛ فنحرَهُ، وشقَّ بَطنه، وأُخْرِجَتْ كَبِدُه، فشُوِيَتْ وأُكِلَتْ. وأخذه عبيدُ المنصور، فشرَّحوا لَـحْمَه، وأكلوه، حتَّى لم يَبْقَ إلَّا عِظامُه مُتَجَرِّدَةً؛ وذلك يومَ الثلاثاء لثلاث خَلَوْنَ من صَفَر. وقُتِلَ بسَببه وَالي مِيلة وجماعة من كُتامة، ونزل بكُتامة الذُّلُّ والهَوانُ. وبقيَتْ مِيلة خَرابًا، ثُمَّ عَمُرَتْ بعد ذلك. ورحل أبو الفَتْح المنصورُ قافِلًا إلى المنصوريَّة والقَيْرَوان.

وفي هذه السنة: دخل الوادي[١] إلى المنصوريَّة وهدم دُورَها.

وفي سنة تسع وسبعين وثلاث مئة: وصل إلى المنصور سعيدُ بن خَزْرُون الزَّناتيُّ من الغَرْب، فأعطاه وأرضاه، وقال له يومًا: يا سعيد، هل تعرف من هو أكرم مِنِّي؟ قال: نعم. قال: ومن هو؟ قال: أنا! قال له المنصور: ولِـمَ ذلك؟ قال: لأنَّك جُدتَّ عليَّ بالمال، وجُدتُ أنا عليك بنفسي. فولَّى سعيدًا هذا[٢] مدينة طُبْنة. وقَدِمَ عليه بعد ذلك جماعةٌ من الزَّناتيّين، فأكرمهم، وأعطاهم، وزوَّج المنصورُ ابنتَه من وذُو بن سعيد[٣].

وفي هذه السنة: خالَفَ أبو البَهار بن زِيري، فزحف إليه المنصورُ إلى تِيهَرْت، ففرّ أبو البَهار أمامه إلى الغَرْب. ودخل عسكرُ المنصور تِيهَرْت، فنهبوا وقتلوا، ثمَّ أمَّنهم بعد ذلك[٤]. ورجع المنصورُ عن تبع عمِّه أبي البَهار، وولَّى على تِيهَرْت أخاه يَطُّوفَت ومضى المنصورُ إلى مدينة أشِير. وكتب أبو البَهار إلى ابن أبي عامِر، يسأله الدخول في طاعته، وأن يكتب له إلى زِيري بن عَطِيَّة الزَّناتيّ[٥] صاحب فاس أن يكون عنده، وكان ابن عَطِيَّة مُوَالِيًا ومُصَافيًا لابن أبي عامِر، فكتب ابنُ أبي عامر إلى أبي البَهار:

---

(١) يعني: السيل.

(٢) في ر١: «فولاه» بدلًا من «فولى سعيدًا هذا».

(٣) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٦٧-٦٨ أن المنصور زوج ابنه بعض بنات سعيد.

(٤) الكامل لابن الأثير ٩/ ٦٨.

(٥) ليست في ر١.

إن كنتَ على نيَّةٍ فيما وصَفْتَهُ عن نفسك، فأرْسِلْ إليَّ ابنكَ، يكونُ رَهينةً عندي، وأفعلُ لك ما أحْبَبْتَهُ. فوجَّه إليه ابنَه في مَرْكَبٍ مع مَيْمون المعروف بابنِ الدَّابَّة كاتِبِه. فعُطِبَ الـمَرْكَبُ، وماتا جميعًا في البحر. فوجَّه إليه ولدَه الآخر، فوصل إليه، فوجَدَ ابنُ أبي عامِرٍ لأبي البَهار أموالًا وكُسًى، وكَتَبَ إلى زِيرِي بن عَطِيَّة في حَقِّهِ أن يُعاضِدَه، ويَنْصُرَهُ ويكونَ معه. فلما بلغَ ذلك أبا البَهار، وصلَ إلى فاس، واتَّفق مع زِيرِي بن عَطِيَّة صاحِبِها.

وأمَّا العامِلُ على إفريقية، يوسفُ بن أبي محمَّد المتقدِّم الذكر، فكان مُشْتَغلًا بالأَكْل والشُّرب، فإذا دخل الوَرْدُ، اصطبح عليه، فلا يَظْهَرُ حتَّى يفنى الوَرْدُ وينقطِعَ. وكان يجلسُ فيه، ويَنامُ عليه، فسُمِّيَ شَيْخَ الوَرْد. وأسلم الأُمورَ لابن البُونيّ، فكان أهلُ الحاضِرة معه في أمنٍ وعافيةٍ، وأهلُ البادية في عَذابٍ وغَرامةٍ. وكان جبّارًا عَنِيدًا، وسَمْحًا جَوَادًا، وكان يخرج في كلّ سنة، فيدورُ على كُوَر إفريقية، ويُجْبي الأموالَ، ويأخذ الهدايا من كلِّ بلد، ويرجع.

قال الرَّقيق: كُنَّا إذا دُرْنا مع يوسُف بن أبي محمَّد على البُلْدان، واستطاب موضِعًا، وأعجبه حُسْنُه، أقام فيه مُصْطَبِحًا الشَّهْرَ والشَّهْرَيْن، وأبو الحسن البُوني يَجْبي الأموالَ، ويقبضُ الهدايا، ويقوم بأُمور دِخْلَة[1] يوسف وعسكره. وكان يعطي لخاصَّة يوسف في كلِّ يوم خمسةَ آلاف دِرْهَم، وينفق على يوسف لـمَطْبَخَتِه وفاكِهَتِه نَحْوَ هذا المال المذكور.

وفيها: تُوفِّي عامِلُ صِقِلِّيَّة عبدُ الله بن محمَّد بن أبي الـحَسَن، ووَلِي ابنُه يوسف، فكان الناسُ في أيَّامه على أفضل ما يَشْتَهُون؛ واستقامت له الأُمورُ، وأداخَ بلادَ الرُّوم، وظهرَ من كَرَمه وجُوده وعَدْله ما هو معدومٌ في كثير من البُلْدان.

وفي سنة ثمانين وثلاث مئة: تُوفِّي الـمَرْصَديُّ[2]، صاحبُ خَراج القَيْرَوان. وأمر أبو الفَتْح المنصور بولاية محمَّد بن عبد القاهر بن خَلَف الـخَراجَ مع سَلامة بن عيسى، فجَلَسَا معًا في ديوان خَراج المنصورية.

---

(١) يعني: أسرار يوسف وعسكره.

(٢) هو حسين بن خلف المرصدي، ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ٤٩.

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاث مئة: تُوفِّي القائدُ جَوْهَر بمِصْرَ[1]، وهو الذي فتحها. فلم يَبْقَ شاعِرٌ بمِصْرَ[2] إلَّا رَثَاهُ، وذَكَرَ ما فتحه شَرْقًا وغَرْبًا.

وفيها: وصل المنصورُ إلى المنصوريَّة، ودخل قصره الجديد؛ فخرج إليه أَهْلُ القَيْرَوان، يتلقَّونه، فأدناهم، وأثنَى عليهم، ووعدهم خيرًا. ثمَّ رُفِعَ له في عَبْدٍ من عَبِيده أَنَّه قَرَفَ[3] بعض الصَّحابة، رضي الله عنهم، فأمر بقتله وصَلْبِ جُثَّته، ونُودِيَ على رأسه بمدينة القَيْرَوان.

وفي سنة اثنتين وثمانين وثلاث مئة: طُهِّرَ أبو مَناد بادِيس بن أبي الفَتْح المنصور بقصر والده، وأهدى إليه جماعةٌ من الناس على قدر أحوالهم[4].

وفيها: ترك المنصور البغايا[5] للرَّعايا.

وفيها: قَبَضَ على البُونيِّ وابنِه، وطلبَ منهما مالًا كثيرًا، فأنكراه، وكان المنصور قدَّر أنَّه يأخُذُ منهما أموالًا يفتَخِر بها على أضيافٍ كانوا عنده في يوم طَلَبها، وقال لهم: «لو أنَّ عَبْدًا من عَبيدي طُلِبَ منه بيوتُ مالٍ، لَوُجِدَ ذلك عنده»، فصادَفَ إنكارُ البُونيِّ ذلك الـمَحَلَّ؛ فأمر بذبْحِ البونيّ. وعَزَلَ يوسف بن أبي محمَّد عن عِمالة إفريقية، وولَّى مكانَهُ محمَّد بن أبي العَرَب[6] الكاتب.

وفيها: وصل سِجِلٌّ من العزيز بالله بولاية العَهْد لأبي مَناد بادِيس بن المنصور، فسُرَّ المنصورُ بذلك، وجاءتْه الهَدَايا من البُلْدان، ومن كلِّ جهة ومكان.

وفيها: كان وصولُ سعيد بن خَزْرُون من مدينةِ طُبْنة إلى الـمَنْصورية فلقِيَهُ المنصورُ وعانَقَهُ ثم دخلَ معهُ إلى قَصْره وأنزلَهُ وأجْرَى عليه الأرزاقَ الواسعةَ، فاعتَلَّ سعيد بن خَزْرون أيَّامًا، ومات في أوَّل رَجَب، فكفَّنه المنصور بسبعين ثوبًا.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٩٠.

(٢) ليست في ر١.

(٣) قرف: عاب، وتحرف في م إلى: قذف.

(٤) في ر١: «حالهم».

(٥) في م: «البقايا» بالقاف، وهو تحريف.

(٦) في ر١: «المعرف»، خطأ.

وفيها[1]: وصلت هَدِيَّةٌ من بَلَد السُّودان، فيها زرافةٌ؛ فخرج المنصور حتى دخلَتْ بين يَدَيْه.

وفيها: وصلَ إلى المنصور فُلْفُل بن سعيد بن خَزْرُون بعد موت أبيه، فأعطاه ثلاثين حِـمْلًا من المال، وثمانين تَخْتًا من أنواع الكُسَى، وخَيْلًا بسُروج مُحَلَّاة، وعَشرة من البُنود الـجُدُد الـمُذَهَّبة، ورَدَّهُ إلى مدينة طُبْنة أميرًا عليها[2].

وفي سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة: خرجَ باديس ابن المنصور إلى مدينة أشِير.

وفيها: وصل إلى المنصور كتابُ أخيه يَطُّوفَت، يُخْبِره بوصول عَمِّه أبي البَهار إليه، فكتب إليه المنصور أن يبعثه، فكان وصولُ أبي البَهار إلى المنصوريَّة ليلة الاثنين مُنْتَصَفَ شعبان؛ فأعطاه المنصور كُسًى، وجوارِيَ، وفُرُشًا، وسُرَّ به أعْظَمَ سُرورٍ، وأنزله أحْسَنَ نُزولٍ.

وفي سنة أربع وثمانين وثلاث مئة: كان دخولُ أبي مَناد باديس ابن المنصور إلى المنصوريَّة من جهة الغَرْب، وهي أوَّل حَرَكة، فتلقَّاه أبوه بالعساكر وأهل القَيْرَوان وغيرهم.

وفيها: كان وصولُ الهَدِيَّة من مِصْرَ مع جَعْفَر بن حَبِيب، ومعه فِيلٌ عظيمٌ[3].

وفي سنة خمس وثمانين وثلاث مئة: مات الأمير عبد الله بن يوسف بن زِيرِي بن مَناد[4].

وفيها: كان خروجُ القائد يوسف بن أبي محمَّد عامِلًا على مَتِّيجة.

وفي جُمادى الآخرة: وصل قاسم بن حجَّاج إلى المنصوريَّة من مِصْرَ برؤُوس الرُّوم الذين قتلهم مارِقٌ الكُتاميُّ بحَلَب.

---

(١) في أ، م: «وفي هذه السنة».

(٢) الكامل ٩/ ٦٨.

(٣) جعلها ناسخ ر١ في سنة خمس وثمانين وثلاث مئة.

(٤) هذه الفقرة ليست في ر١.

وفي سنة ست وثمانين وثلاث مئة: تُوفِّي أبو الفَتْح المنصورُ عُدَّةُ العزيز بالله ابن يوسف سيف العزيز بالله بن زِيرِي بن مَناد الصُّنْهاجيّ[1] في يوم الخميس لثلاث خَلَوْنَ من ربيع الأوَّل، ودُفِنَ بقصره الجديد الخارج عن المنصوريَّة. وكانت أيَّامُه أحْسَنَ أيَّام[2].

إمارة[3] أبي مَناد باديس بن أبي الفَتْحِ بن أبي الفُتوح يوسف بن زِيرِي بن مَناد[4]

ولما صارت الأُمور إليه، أتاه الناس من كلِّ ناحية بإفريقية للعزاء والتَّهْنِئَة. وكان بنو زِيرِي وبنو حَـمامة قد هَمُّوا بأمورٍ، وخالفوا من جاء معهم[5] على ما عقدوه؛ فما تَرَكَهم عَبِيدُ باديس وعَبِيدُ أبيه إلى شيء مِـمَّا أرادوه. ووصل أبو بيباش يَطُّوفَت بن أبي الفُتوح إلى المنصوريَّة للعزاء والتهْنِئَة، ثمَّ رجع إلى طُبْنة وجِهَةِ الغَرْب في أواخِر شعبان.

وفي هذه السنة: تُوفِّي أبو المنصور نِزار العَزِيز بالله العُبَيْديُّ صاحبُ مِصْرَ في حَوْض الحـَمَّام، وكانت به عِلَّةُ الـحَصَا، وشربَ دواءً في الحوض، وأدركَهُ أجَلُه فيه، فمات. وولي مكانَهُ أبو عليّ، وَلِـيُّ عهده، الـمُلَقَّب بالحاكِم بأمر الله[6]. وكان أبو مَناد قد هَيَّأ هديَّةً ليبعثها للعزيز، فبرزت الهديَّةُ من المنصوريَّة إلى رَقَّادة مع جعفر بن حبيب لِستّ خَلَوْنَ من رَمَضان. وكان العزيز بالله قد بعث سِجِلًّا إلى أبي مَناد، يأمره فيه برفع القاضي محمَّد بن عبد الله بن هاشِم إلى مِصْرَ، فوصل السِّجِلُّ، والقاضي مريضٌ، فأمره أبو مَناد بالخروج مع الهديَّة، فاعتذر بعِلَّته، فبعث إلى داره محمَّد بن

---

(١) قوله: «بن زيري بن مناد الصنهاجي» ليست في ر١.

(٢) الكامل لابن الأثير ٩/ ١٢٧.

(٣) في ر١: «ولاية».

(٤) «يوسف بن زيري بن مناد» ليست في ر١.

(٥) في ر١: «على من كان معهم».

(٦) الكامل لابن الأثير ٩/ ١١٦.

أبي العَرَب وجماعة رجال الدولة، وذلك لثلاث خَلَوْنَ من ذي القعدة، ووقفَ العسكرُ بباب أبي الربيع وظنُّوا أنَّ أهل القَيْرَوان يمنعه منهم، ويَحُولون بينه وبينهم؛ فهجموا عليه، وحملوه بِبِساطه الذي كان مريضًا عليه في ثيابه التي يلبسها في داره، لأنَّهم فاجَؤُوه، وخرجوا به محمولًا، وقد اجتمعَ عند داره خلقٌ عظيمٌ، ولم ينطق أحَدٌ منهم، ومشوا به إلى رَقَّادة، وخَلْفَه غُلامٌ نصرانيٌّ يُمْسِكُه، وأولادُه وقربتُه يمشون خَلْفَه، واغتمَّ بمسيره سائر الناس، وظهرَ عليهم الحزنُ والأسفُ لفقده، وكَثُرَ الدعاءُ له والثناءُ عليه. ثمَّ جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله؛ فأمر أبو مَناد برجوعه إلى داره مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا.

وفي هذه السنة: توفي[1] الفقيه أبو محمَّد بن أبي زيد، رحمه الله.

وفي سنة سبع وثمانين وثلاث مئة: تواترت الأخبار بموت العزيز بالله.

وفيها: رجع القاضي إلى داره، وهو مريضٌ، فازداد مقدارُه عند الناس.

وفي صفر: عقد أبو مَناد ولايةَ أشير لحـمَّاد بن أبي الفُتوح يوسف بن زِيرِي بن مَناد، فخرج عاملًا عليها، وأعطاه خيلًا كثيرةً وكُسًى جليلةً، ثمَّ اتَّسعت عمالتُه، وكثرت عساكرُه، وعظم شأنُه[2].

وفي ربيع الآخر: وصل القاضي الباهِريُّ من مِصرَ إلى المنصوريَّة[3]، فبرز أبو مَناد بعساكره عليه، وخرج بجميع رجاله إليه، فرأى ما لم يَرَ مثله. ووصل المذكورُ بسِجِلَّيْنِ، فَقُرِئَا بجامع القَيْرَوان والمنصوريَّة: أحَدُهما بولاية أبي مَناد، وتَلْقِيبِه نَصِير الدولة، والثاني بوفاة العزيز بالله وخلافةِ الحاكِم بأمر الله، والجواب عن وفاة المنصور عُدَّة العزيز بالله. وكان معه سِجِلٌّ ثالثٌ بأخْذ العَهْد على باديس وجماعة بني مَناد للحاكِم. فجلس أبو مَناد ودعا وجوهَ الصُّنْهاجِيّين وأخذ عليهم البيعة. ثمَّ رجعَ القاضي الشريف الباهِريُّ إلى مِصْرَ، بعد أن وصله أبو مَناد بمال جليل.

---

(١) في أ، م: «مات».

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠٢.

(٣) ذكر النويري أن الذي وصل من مصر هو الشريف الداعي علي بن عبد الله العلوي المعروف بالتيهرتي (نهاية الأرب ٢٤/ ١٠٣).

وفي هذه السنة: خرج نَصِير الدولة إلى الـمُصَلَّى بِزَيٍّ جليلٍ، وهَيْئَةٍ حَسَنةٍ، وبين يَدَيْه الفِيلُ، وزرافتانِ، وجَمَلٌ أبيض ساطعُ البياض، لم يَرَ الناس مثله قَطُّ[1].

وفي سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة: وصلت إلى نَصِير الدولة هَدِيَّةٌ من مِصْرَ تشتمل على الـجَوْهَر والأعلاق النفيسة، فتلقَّاها، ودُخِلت بين يدَيْه إلى المنصوريَّة.

وفيها: كانت وقعةٌ بمِصْرَ بين التُّرْك والكُتاميّين، وكان الظَّفَرُ للتُّرْك عليهم.

وفي سنة تسع وثمانين وثلاث مئة: زحفَ زِيرِي بن عَطِيَّة صاحبُ فاس وما والاها من بلاد الغَرْب إلى مدينة تِيهَرْت، فنزل عليها وحاصرها. وكان يَطُّوفَت بن يوسف بن زِيرِي صاحبَها، فكتب إلى ابن أخيه أمير[2] إفريقية، يستمدُّه، فبعث إليه محمَّد بن أبي العَرَب.

ذكر هزيمة عسكر إفريقية
واستيلاء زِيرِي بن عَطِيَّة عليه، وظهورِ زَناتة على صُنْهاجة

لـمَّا وصل كتابُ يَطُّوفَت إلى باديس نَصِير الدولة، أمر نَصِيرُ الدولة[3] محمَّدَ بن أبي العَرَب الكاتبَ بالخروج بالعساكر إلى[4] زَناتة؛ فكان تبريزُه في مُنْتَصَف صَفَر من هذه السنة. ونهض بالعساكر حتَّى بلغ أَشِير، وبها حَـمَّاد بن يوسف بن زِيرِي، عاملًا عليها، ومعه عسكرٌ عظيمٌ، فأقام بها يسيرًا، ثمَّ رحل، ورحل حـمَّاد معه بعسكره، حتَّى وصلا إلى تِيهَرْت، فاجتمعا بيَطُّوفَت، ومعه أيضًا عسكرٌ عظيمٌ، وكان اجتماعُهم بتِيهَرْت غُرَّةَ جُمادى الأولى. وكان بتِيهَرْت زِيرِي بن عطيَّة نازلًا بموضع يُقال له آمَسَّار[5]، على مرحلتَيْن من تِيهَرْت؛ فزحفوا إليه. فكانت بينهم حربٌ شديدةٌ وكان

---

(١) في ر١: «لم يُرَ مثله».

(٢) في ر١: «صاحب».

(٣) «نصير الدولة» ليس في ر١.

(٤) من هنا إلى قوله «بالعساكر» سقط من ر١، كأنه قفز نظر من الناسخ.

(٥) في نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠٣: «أمسان»!

مُعْظَمُ عسكر حَـمَّاد الوتُلْكاتِيِّينَ؛ وكان قد أساءَ عِشْرَتَهُم. فلما حَمَى الوَطيسُ واشتدَّ البأْسُ، وَلُّوا مُنْهَزِمين، فاتَّبعهم جميعُ العساكر الإفْرِيقيَّة. فرامَ ابن أبي العَرَب رَدَّ الناس، فلم يقدر، فولَّت الهزيمةُ على الجميع، حتَّى وصلوا إلى أشير، وقد أسلموا مَحَلَّاتِهِم ومَضارِبَهم، وكلَّ ما فيها من الأموال والسِّلاح وغير ذلك، فاحتوى زِيرِي بن عَطِيَّة وإخوانُه على جميع ما ذكرنا. وقُتل منهم خلقٌ كثيرٌ، وأُخذ أُسارَى كثيرةٌ، فوعدَهم بجميل، ثمَّ أطلقهم عند وصوله إلى تِيْهَرت، فمضوا حتَّى وصلوا إلى أَشير. وبقي ابن أبي العَرَب وحَـمَّاد ويَطُّوفَت بأشير. وبقي زِيرِي بن عَطِيَّة الزناتيُّ[1] على حصار[2] تِيهَرْت. وكانت[3] هذه الوقعة والهزيمة يومَ السبت لأربعٍ خَلَوْنَ من جمادى الأُولى من هذه السنة[4]. ووصل الخبر إلى الـمَنْصُوريَّة لعشر بَقِينَ منها[5]، فخرج نَصِيرُ الدولة صاحبُ إفريقية[6] من المنصوريَّة للقاء زِيرِي بن عَطِيَّة يوم السبت لليلتَيْن خَلَتا من جُمادى الآخِرة، ورحل[7] حتَّى وصل إلى طُبْنة، فبعث في طلب فُلْفُل بن سعيد بن خَزْرون الزَّناتيّ؛ وكان على طُبْنة، فخافَ منه، وبعثَ يعتذرُ له، ويسألُه أن يكتبَ له سِجِلًّا بولاية طُبْنة، فكتبه له، وبعثَ به إليه، ورحلَ عنه نَصِير الدولة بَادِيس[8]، وتمادى في رحيله. فلما بلغ فُلْفُلًا أنَّه قد أبعدَ عنه، ضرب على[9] جِهَةٍ من جهاته، فأكل ما حَوْلها، ونهبَ، وأفسدَ، ومضَى إلى باغاية، فحاصَرَها، وأفسد تلك الجهات كلَّها، وأكلَ ما وَالاها، ونَصيرُ الدولة في هذا كُلِّه مُتَمادٍ على سيره، حتَّى

---

(١) ليست في ر١.

(٢) ليست في أ، م.

(٣) من هنا إلى قوله: «هذه السنة» ليست في ر١.

(٤) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠٣-١٠٤.

(٥) «لعشر بقين منها» ليست في ر١.

(٦) «صاحب إفريقية» ليست في ر١.

(٧) «يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الآخرة، ورحل» ليست في ر١.

(٨) ليس في ر١.

(٩) في ر١: «في».

وصل أشِير. ولما وصل إلى الـمَسِيلة، رحلَ زِيرِي بن عطِيَّة عن تِيهَرْت[1]. فصمَّم إليه نَصِير الدولة. ثمَّ وصله الخبر أنَّه توجَّه إلى ناحية فاس، فعند ذلك رجع نَصِير الدولة إلى تِيهَرْت وأشير، واستخلف يَطُّوفَت على تِيهَرت ابْنَه أيُّوبَ في أربعة آلاف فارس. وبلغ نَصِيرَ الدولة ما فعل فُلْفُلُ بن سعيد؛ فأرسل من أشير عساكِرَ تقدَّمت إليه، ثمَّ رحل بَعْدَهم، ومعه أبو البَهار بن زِيرِي، حتَّى وصل إلى الـمَسِيلة، فعَيَّدَ بها عِيدَ الفِطْر. ووصل إلى أبي البَهار فيه الـخَبَرُ بأنَّ إخْوَتَهُ ماكْسَن وزَاوي ومَغْنين نافقوا بأشِير، وأنَّهم قد[2] قبضوا على يَطُّوفَت، فرحل أبو البَهار هاربًا في بنيه ورجاله وعياله. ورحل نَصِيرُ الدولة ثالِثَ شوَّال إلى إفريقية. فلما بلغ إلى[3] بَلَزْمة، بلغه أنَّ فُلْفُلَ بن سعيد تمادى إلى القَيْرَوان، فرحل إلى باغاية، فعرَّفوه ما قَاسَوْهُ من قتال فُلْفُل وأنَّه حاصَرَهم خمسة وأربعين يومًا. فرحل من باغاية في طلب فُلْفُل، فالتقى معه لعشرٍ خَلَوْنَ من ذي القَعْدة، فكانت بينهم حروبٌ لم يُسْمَعْ بمثلها. وكان قد اجتمع لفُلْفُل من البَرْبَر ما لا يُحصى عَدَدًا وكثرةً[4]، فانهزم فُلْفُل إلى جَبَل الحناش، حَسَبَما أذكُرُه[5]، واتَّبعته صُنْهاجة والعَبِيد. فلما رأوه تمادَىٰ مُنْهَزِمًا، رجعوا عنه، ونهبوا محلَّته. وقُتِلَ في ذلك اليوم نَحْوُ سبعة آلاف من زَناتة[6]. وأرسل نَصِير الدولة كتاب الفتح إلى مدينة القَيْرَوان.

وفي سنة تسعين وثلاث مئة: خرج نَصِيرُ الدولة في طَلَب فُلْفُل بن سعيد. فلما علم فُلْفُل أنَّه لا طاقة له بلقائه[7]، هرب إلى الرِّمال، وافترق جَمْعُه. فرجعَ نَصِيرُ الدولة

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠٤.

(٢) ليست في ر١.

(٣) كذلك.

(٤) في ر١: «ما لا يحصى عدّه».

(٥) «حسبما أذكره» ليست في ر١.

(٦) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠٥ وفيه أن عدد القتلى من زناتة تسعة آلاف.

(٧) في ر١: «به».

إلى إفريقية، ومعه أبو البَهار بن زِيرِي، وقد اعتذرَ له ممَّا فعل إخوانه[1]، فقَبِل عذره. ثمَّ رجع فُلْفُل إلى أطْرَابُلُس، وتمادى نَصِير الدولة إلى أن وصل[2] قَصْرَ الإفرِيقيِّ، فبلغه حينئذ أنَّ بني زِيرِي رجعوا إلى الغَرْب خَوْفًا منه، وأنَّه لم يَبْقَ مع فُلْفُل منهم سوى مَاكْسَن وابْنِهِ مُحْسِن، فرجع نَصِير الدولة إلى المنصوريَّةِ حضرتِهِ. وفي أوّلِ رَجَب من هذه السنة خَرَجَ نصيرُ الدَّولةِ إلى رَقَّادة، متوجِّهًا لقتال زِيرِي بن عَطِيَّة[3] الزَّناتيّ أمير الغَرْب، لما بلغه أنَّه أتى إلى أشير. ثمَّ جاءَ الخبر برحيل زِيرِي بن عَطِيَّة إلى الغَرْب، فرجع نَصِيرُ الدَّولة إلى المنصوريَّة.

وفي سنة إحدى وتسعين وثلاث مئة: خرجَ نَصِيرُ الدولة في طلب فُلْفُل ثانيةً. ووصل كتابُ يوسُف بن عامِر عامِل قَابِس، يذكر فيه أنَّ فُلْفُلًا رحل إلى أطْرابُلُس من على قابس لستٍّ بَقِينَ من رَجَب. ولما وصل فُلْفُل إلى أطْرابُلُس، خرج إليه فُتُوح بن عليّ[4] وجماعة أهلها، فتلقَّوْه، وأدخلوه البلد، فاستوطنها من ذلك الوقت[5].

وفي هذه السنة: وصل رسولُ حَمَّاد بن يوسف العزيز بالله، يذكر أنَّه زحفَ إلى عَمِّه مَاكْسَن بن زِيرِي ومَن معه، فقُتِل مَاكْسَن وَوَلَداهُ مُحْسِن وباديس بعد حروب شديدة، وذلك بعد ثلاث خَلَوْنَ لرمضان المعظَّم[6].

وفيها: تُوفِّي زِيرِي بن عَطِيَّة الزَّناتيُّ، صاحب فاس والغَرْب كلِّه، وذلك في الثاني عَشَر من رمضان المذكور من السنة المؤَرَّخة، بعد قتل ماكْسَن بتسعة أيَّام[7].

---

(١) في ر١: «إخوته».

(٢) في ر١: «بلغ».

(٣) قفز نظر ناسخ ر١ من هنا إلى «عطية» الآتي، فسقط ما بينهما.

(٤) ذكره المقريزي في اتعاظ الحنفا ٢/ ٣٤.

(٥) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠٥.

(٦) المصدر السابق.

(٧) نهاية الأرب ٢٤/ ١٠٦.

بعض أخبار زَناتة ودَوْلتهم بالغَرْب إلى حين ظهور الـمُرابِطين

وذلك أنَّ زَناتة كانت تَقُوم بدعوة الأمَوِيِّين، لِـمَا تقدَّم لهم من هِجْرة جَدِّهم خَزَر بن صُولات، وإسلامه على يد عُثمان بن عفَّان، رضي الله عنه، وكانت صُنْهاجة تقُوم بدعوة العُبَيْدِيِّين. ووقع بينهم حروبٌ كثيرةٌ[1]. وقام ببلاد الغَرْب زِيري بن عَطِيَّة الـخَزَريُّ الـمَغْراويُّ، وملكَ فاسًا وغَيْرَها، وصارَ أميرَ زَناتة كلِّها في ذلك الوقت. وكان يَدْعُو لبني أُمَيَّة في دولة هشام المؤَيَّد، إذ كان الـمُقِيمُ لها محمد[2] بن أبي عامِر حاجِبَه، وهو يُحارب أعداءَه وأضداده صُنْهاجة أُمراء إفريقية. قال ابنُ حَـمَّادُه: وكان قد وصلَ إلى قُرْطُبة، واجتمعَ مع ابن أبي عامر سنة تسع وسبعين وثلاث مئة، وكان بأرض الغَرْب في خِدْمته من تلك السنة ومُوالاتِهِ مع سَعَة مُلْكِه وبُعْد صِيتِه إلى أن فسد ما بينهما سنة سبع وثمانين وثلاث مئة، ووقعَ بينه وبين الـمُظَفَّر حُروبٌ يطولُ ذِكْرُها.

قال ابنُ حَيَّان: ثمَّ إنَّ زِيري بن عَطِيَّة الـمَغْراويَّ نكثَ على ابن أبي عامر بعد الحُبِّ الشديد، والوفاء[3] الأكيد، وطعن على ابن أبي عامر[4] سَلْبه لملك هشام، وامتعض لهشام الـمُؤَيَّد، وغلبة ابن أبي عامر عليه، فأنفذ له ابنُ أبي عامر واضِحًا فتَاهُ في جيش كثيف[5]، فقاومه بالمغرب. ودارت بينهم حروبٌ عظيمةٌ. ثمَّ أردفه ابنُ أبي عامر بولده عبد الـمَلِك، وهبط هو إلى الجزيرة الـخَضْراء يُـمِدُّهم بالقُوَّاد والأجناد[6]. وبرز[7] عبد الملك من طَنْجة إلى زِيري، ودارت بينهم حربٌ لم يُسمع بمثلِها في الحروب الغابرة[8]، أجْلَتْ عن هزيمةِ زِيري واستئصال رجالِه وحالِه. ونجا هو مُثْخَنًا بالجراح.

---

(١) في ر١: «عظيمة».

(٢) ليس في أ، م.

(٣) في ر١: «الولاء».

(٤) في ر١: «وطعن عليه»، وما هنا أبين.

(٥) في ر١: «عظيم».

(٦) في ر١: «والأنجاد».

(٧) في ر١: «وفَرّ» وما هنا أصح.

(٨) في ر١: «الغاربة»، وهو تحريف.

وانبسط مُلْكُ عبدِ الملك بن أبي عامر على الغَرْب وما والاهُ إلى سِجِلْماسة، وعلى تِلِمْسان وتِيهَرْت. وقفل إلى الأنْدَلُس سنة تسع وثمانين وثلاث مئة، واستخلف على بلاد الغَرْب واضِحًا الغازِي[1]، فأقام بفاس مُدَّةً، وانصرف[2] إلى الأنْدَلُس، وخَلَّف على فاس عبد الله بن أبي عامر، ابن أخي الـمَنْصور، ثمَّ تَلاهُ إسماعيل ابن البُوريّ[3]؛ ثمَّ تلاهُ أبو الأحْوَص مَعْن بن عبد العزيز[4]، وبقي فيها إلى أن تُوفِّي محمَّد بن أبي عامر؛ فصرفَها ابنُه عبد الملك[5] المظفَّر إلى الـمُعِزّ بن زِيرِي بن عَطِيَّة، وقد استحكمت ثِقَتُه به وحَسُنَ رأيُه فيه، فولاَّه على فاس[6] سنة سبع وتسعين وثلاث مئة، على أن يعطيه الـمُعِزُّ عِدَّةً من الـخَيْل والسلاح، يحملها كلَّ سنة إلى حضرة[7] قُرْطُبة، وقبض على ابنه المسمَّى مُعَنْصَر رهينةً[8]. فاستقامت طاعةُ الـمُعِزِّ، وأقام ابنُه بقُرْطُبة إلى أن نشأت الفِتْنة، وانقَرَضت الدولة العامِرِيَّة، فانصرف مُعَنْصَر إلى أبيه، ومَضَى[9] أبوه على رأيه في موالاة مَنْ ظهر بالأنْدَلُس من الـمَرْوانية[10]، إلى أن هلك بعد صَدْرٍ من الفِتْنة، وأورث وَلَدَه حَمامة مُلْكَ فاس وما والاها.

وقد ذكر[11] الوَرَّاق ذلك، وشرحه شرحًا كافيًا[12]، وقال: لما تُوفِّي زِيرِي بن عَطِيَّة في سنة إحدى وتسعين وثلاث مئة، أقام بنو عَمِّه ابْنَه الـمُعِزَّ مكانَه. وذكر

(١) في أ: «المغاري».

(٢) في ر١: «ثم انصرف».

(٣) ذكره القلقشندي في صبح الأعشى ٥/ ١٧٩.

(٤) صبح العشى ٥/ ٢٥٦.

(٥) المعجب للمراكشي ٨٥.

(٦) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٣٤.

(٧) من ر١.

(٨) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٣٤.

(٩) في ر١: «وبقي».

(١٠) في ر١: «الأموية».

(١١) في ر١: «شرح»

(١٢) قوله: «وشرحه شرحًا كافيًا» ليس في ر١.

استجداءَ[1] الـمُعِزِّ للـمُظفَّر بن أبي عامِر، وإرساله إليه، وتقليدَ المظفَّر له ولاية المغرب، على ما تضمَّنه من خيلٍ[2] وسلاحٍ وغيرِ ذلك؛ ورَهَنَهُ الـمُعِزُّ وَلَدَيْه حَـمامة ومُعَنْصَرًا. وذكر موت المظفَّر، وتقديمَ أخيه عبد الرحمن[3] لحجابة هشام المؤيَّد[4]، وبلغ الـمُعِزَّ بن زِيرِي ذلك، فاحتفل في هديَّة عظيمة يهديها له[5]، وذلك سبع مئة من عتاق[6] الخيلِ وأحمالٌ كثيرةٌ من دَرَق اللَّمْط وجُمْلَةٌ كبيرةٌ من المال، والسلاح، وسائر ما بالمغرب من الطُّرَف، ووصل قُرْطُبة مع هذه الهدِيَّة فِتْيانٌ من بني عمِّه وجملةٌ من شيوخ القبائل ووجوه فاس؛ فسُرَّ عبدُ الرحمن بن أبي عامر[7] بذلك، وشكر الـمُعِزَّ، وَسرَّح ابنَيْه إليه، بعد أن كساهما، وأرضاهما، وكتب للـمُعِزِّ عَهْدَه بتجديد ولاية المغرب كلِّه إلَّا مدينة سِجِلْماسة، فإنَّه كان قد عقد ولايتها لواضِح الفَتَى قبل ذلك، وولَّاها واضِحٌ وَانُودِين بن خَزْرُون اليَفْرَنِيَّ[8] وابْنَ عمِّه زِيرِي بن فُلْفُل على مالٍ ضَمِناه إليه وعدَّةٍ من الـخَيْل والدَّرَق معلومة، وجملةٍ من المال في كلِّ سنة. ورَهَنَهُ كلُّ واحد منهما ابْنَه. فامتثل الـمُعِزُّ بن زِيرِي ما أمره به عبدُ الرحمن بن أبي عامر.

وبقي الـمُعِزُّ أميرَ الـمَغْرب إلى أن انْقَرَضَت الدولة العامِريَّة، ثمَّ انْقَرَضَت الدولة المروانيَّة وانشقَّت عَصَا الأُمَّة، ومَرِجَ أَمْرُ الناس بالأَنْدَلُس، وصار المسلمون شِيَعًا مُتَفَرِّقِينَ، يقتل بعضُهم بعضًا وينهب. وفعل أهلُ المغرب مثل ذلك؛ فكثر فيه الشَّتات، وشَنُّ الغارات بعضُهم على بعض[9]. وأقام الـمُعِزُّ بن زِيرِي يُداري أمره،

(١) في ر١: «استخدام».

(٢) في ر١: «على مالٍ يعطيه وخيلٍ».

(٣) المعجب ٨٦.

(٤) ليس في ر١.

(٥) في ر١: «العبد الرحمن».

(٦) ليست في أ، م.

(٧) «بن أبي عامر» ليست في أ، م.

(٨) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٣٨.

(٩) «بعضهم على بعض» ليس في ر١.

إلى أن حانت وفاتُه سنة ست عشرة وأربع مئة. ووَلِيَ مكانَه[1] ابنُه أبو العَطَّاف حَمامة بن الـمُعِزِّ[2] بن زِيرِي بن عَطِيَّة، وكان له حَظٌّ من المعرفة والأدَب وحُسن السياسة، فكانت مدينة فاس في أيّامه هادِنةً راخيةً، وكان الشعراء يقصدونه من الأنْدَلُس. وجَرَتْ له حروبٌ كثيرةٌ إلى أن حانت وفاتُه سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة. وولي ابنُه دُوناس بن حَمامة، فقام عليه بنو عَمِّه؛ ولم يزل أمرُهم يَضْعُف، ودولَتُهم تُدْبِر، إلى أن قام بمدينة فاس أميرَانِ بالعُدْوَتَيْن، وكانت الحرب تقوم بينهما. وجَرَتْ بين ذلك أمورٌ وخطوبٌ، لا يحسن ذِكْرُها لشناعتها، إذ الدُّوَل، إذا أدبرت، كُلُّ ما يجري فيها يقبح ذكرُه[3]، إلى أن شاع خَبَرُ[4] خروج لَـمْتُونة من الصَّحْراء، واستيلائهم على بلاد الـمَصَامِدة، وخَلْعهم للوكهم وناموس عدلهم[5]، ودخل عبد الله بن ياسِين مدينة أغْمات وما يَلِيها، فخافت زَناتة، وأجفلت[6] عن جهة الشَّرْق حيث مستقرُّها. ولما قُتِل عبد الله بن ياسين، رجعت زَناتة إلى المغرب، وقتلوا كلَّ من اتَّهموه بالميل إلى أصحاب اللِّثام، فحارَبَهم الصحراويُّون. ووجَّه أبو بكر بن عُمَر[7] يوسُفَ بن تاشُفِين[8]، فحارَبَ رُؤَساء القبائل، واستفتح بلادًا كثيرةً.

وفي خلال ذلك كان الجوعُ الشديد الذي يُعْرَف «بسنة أوقِيةٍ بدِرْهَم» من الدراهم الخندوسيَّة، وذلك في سنة أربع وأربعين وأربع مئة. ورجع الفتوح بن مُعَنْصَر الزَّناتيُّ من الـمَشْرِق، وكسر عَسْكَرَ مدينة فاس سنة أربع وخمسين وأربع مئة.

---

(١) في ر١: «بعده».

(٢) ذكر ابن خلدون أن حمامة هو ابن عم المعز وليس ابنه، وقد زعم بعض المؤرخين أنه ابنه (تاريخ ابن خلدون ٧/ ٣٥).

(٣) قوله: «وجرت بين ذلك» إلى قوله: «يقبح ذكره» ليس في ر١.

(٤) ليس في ر١.

(٥) «وخلعهم للوكهم وناموس عدلهم» ليس في ر١.

(٦) من هنا إلى نهاية الفقرة لم يرد كله في ر١.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ١٣٤.

(٨) انظر عنه تاريخ الإسلام ١٠/ ٨٣٢-٨٣٩.

وفيها: كُسِرَتْ مِكْناسة ولَوَاتة: كَسَرَهُما قائدُ أبي بكر بن عُمَر اللَّمْتُونيّ.

وفي سنة أربع وخمسين وأربع مئة: وطئ بُلُجّين بن مُحَمَّد بن حَمَّاد الصُّنْهاجيُّ جميع الغَرْب ودوَّخَهُ بجيوش عظيمة.

وفي سنة تسع وخمسين وأربع مئة: دخل إبراهيم بن مَلِيح الـجَزْنائيُّ مدينةَ فاس، وأخرج منها مُعَنْصَر بن حَمَّاد إلى الشَّرْق. ثمَّ رجع إلى فاس، وقتل كلَّ من اتَّهمَهُ بالميل إلى الـمُلَثَّمِين. ثمَّ رجع يوسُف إلى الـمَغْرِب، وهرب مُعَنْصَر. وقتل يوسف سَدْرَاتة ودخل مدينة فاس، واستولى عليها وعلى أكثر الغَرْب. هكذا ذكر أبو مروان عَبْد الـمَلِك بن موسى الوَرَّاق في كتابه «الـمِقْباس في أخبار فاس».

وأمَّا يوسف الـجَزْنائيُّ، صاحبُ مِكْناسة، فتُوفِّي سنة اثنتي عشرة وأربع مئة.

وأمَّا تَوَالَى، فتُوفِّي بالقَلْعة، وولي ابنُه مَهْدي في هذه السنة.

وأمَّا ابنُ أبي العافية إبراهيم، فتُوفِّي في سنة خمسين وأربع مئة، وولى ابنُه عبد الله؛ وكان بنو أبي العافية أصحابَ تَسُول ومَلْوِيَّة ونكُور، وهي الـمَزِمَّة؛ وتُوفِّي عبد الله سنة ستين وأربع مئة، وولي ابنُه محمَّد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية.

وأمَّا تِلْمِسان والزَّاب، فكان فيها يَعْلَى الزَّناتيُّ، ومات في هذا التاريخ، أو قريبًا منه، وقام فيها بنوه. وما وراء الزاب من بلاد الغَرْب، لم يملكه العبَّاسيُّون قَطُّ، أمَّا تِلْمِسان وأنظارُها، فوليَها محمَّدُ بن سُليمان بن عبد الله بن حَسَن بن الـحَسَن بن عليّ، رضي الله عنه، ومن ولده أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمَّد المذكور.

وأمَّا فاس وأنظارُها، فكان فيها[1] شِيعةٌ؛ ثمَّ آلَ أمْرُها إلى إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ، رضي الله عنه.

وأمَّا تَامَسْنا، فكان فيها أولادُ صالح بن طَرِيف على ضلالتهم.

وأمَّا سِجِلْماسة، فنزلها عيسى بن سَمْغون، رَئيس الصُّفْرِيَّة. فهذه هي البِلادُ المتَّفَقُ عليها. وأمَّا الـمُخْتَلَفُ فيها، فإفريقية: قيل إنه كان فيها عبد الرحمن بن حبيب ثائرًا، وبالأنْدَلُس يوسف الفِهْريّ أميرًا.

---

(١) قفز نظر ناسخ ر١ إلى مثيلتها «فكان فيها» التي تليها في الفقرة التي تليها فسقط ما بينهما.

رَجْعُ الـخَبَرَ إلى نَسْق التأريخ:

وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة: تُوفِّي أبو طالب شيخ الـمُعْتَزِلة ولسانُهم، وله تسعٌ وسِتُّون سنة.

وفي هذه السنة: كان خروج يحيى بن عليّ ابن الأَنْدَلُسيّ من مِصْرَ بالعسكر، فكان وصولُه إلى أطْرابُلُس يوم الـجُمعة لتسع خَلَوْنَ من ربيع الأوَّل. وكان مُتَوَلِّي التدبير في الوقت زَيْدَان الصِّقلِّيّ، فاختلفت عليه أمور العسكر مع سُوءِ عَقْله، وضَعْفِ تدبيرِه، ووصل إلى فُلْفُل، فاستخفَّ به، واحتقره.

وفيها[1]: في رمضان المعظَّم، تُوفِّي المنصور بن أبي عامِر رحمه الله[2]، على ما يأتي في موضعه[3].

وفي سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة: وصل يحيى بن علي ابن الأَنْدَلُسيّ، ومعه فُلْفُل بن سعيد، وفُتُوح بن عليّ إلى مدينة قابِس؛ فحصروا عَطِيَّة بن جعفر. وخرج في تلك الأيَّام إلى قابِس عشرون رجلًا من الناشبة، فعُرِّف بهم فُلْفُل، فبعث في طلبهم؛ فلما أُتِـيَ بهم، ضرب أعناقهم، وكان[4] وصولُهم إليها يوم الاثنين لأربع عشرة خَلَوْنَ من شعبان من هذه السنة. ثمَّ انصرفوا راجعين إلى أطْرابُلُس. ولما رأى يحيى بن عليّ اختلال الحال عليه، ولم يَجِدْ ما يُعطي لرجاله، عاد ببقيَّتهم إلى مِصْرَ، بعدما أخذَ فُلْفُل وأصحابُه ما أحبُّوه من خيولهم، بين شراءٍ وغَصْبٍ، فلما وصلَ إلى صاحب مِصْرَ الحاكِم بأمر الله، أرادَ الإيقاع به، وبعد ذلك عفا عنه، وقَبِلَ عُذْره[5].

وفي سنة أربع وتسعين وثلاث مئة: قَتَلَ الحاكِمُ بأمر الله مُنَجِّمَهُ البَكْريَّ بمِصْرَ، وكان ضعيفَ العقل، أحمق، وكان له بصرٌ بالقضايا.

وفيها: قتل الحاكِمُ جماعةً كبيرةً من وجوه رجاله، وأحرقهم بالنار.

---

(١) ليست في ر١.

(٢) من ر١.

(٣) «على ما يأتي في موضعه» ليس في ر١.

(٤) من هنا إلى قوله: «أطرابلس» لم يرد في ر١.

(٥) الكامل لابن الأثير ٩/ ١٧٧.

وفيها: قُتِلَ المعروفُ بابن خَرِيطة.

وفيها: قُتِلَ ابن الغازِي الـمُنَجِّمُ.

وفي سنة خمس وتسعين وثلاث مئة: كانت بإفريقية شدَّةٌ عظيمةٌ، انكشفَ فيها السّتور، وهلك فيها الفقير، وذهب مالُ الغنيّ، وغَلَت الأسعار، وعُدمت الأقوات. وجَلِيَ أهْلُ البادية عن أوطانهم، وخَلَتْ أكثر المنازل، فلم يبقَ لها وارثٌ، ومع هذه الشدّة، وباءٌ وطاعونٌ، هلك فيه أكثرُ الناس من غَنِيٍّ ومُحْتاج، فلا تَرَى مُتَصَرِّفًا إلَّا في عِلاج، أو عيادةِ مريضٍ، أو آخِذًا في جِهاز مَيِّتٍ، أو تشييعِ جنازةٍ أو انصرافٍ مِنْ دَفْنٍ. وكان الضُّعَفاءُ يُجْمَعون إلى باب سالم، فتُحْفَر لهم أخادِيدُ ويُدْفَنُ المئةُ والأكْثَرُ في الأُخْدُود الواحد؛ فمات من طبقات الناس وأهل العلم والتجار والنساء والصبيان ما لا يحصِي عَدَدَهم إلَّا خالِقُهم تعالى[1]، وخَلَت المساجدُ بمدينة القَيْرَوان، وتعطّلت الأفران والحمَّامات[2]. وكان الناس يُوقدون أبوابَ بيوتهم وخُشُبَ سقوفهم. وجاء خَلْقٌ من أهل الحاضرة والبادية إلى جزيرة صِقِلِّيَّة. وكانت الرُّمَّانة بدِرْهَمَيْن للمريض في ذلك الوقت[3]، والفَرُّوج[4] بثلاثين دِرْهمًا. وقيل: إنَّ أهل البادية أكَلَ بَعْضُهم بَعْضًا. كذا ذكر أبو إسحاق الرَّقيق[5].

وفي سنة ست وتسعين وثلاث مئة: كَثُر الـخِصْبُ بإفريقية، ورخصت الأسعار، وارتفع الوباء عن الناس.

وفيها: ثار ببَرْقة الوليدُ بن هِشام، وادّعى أنَّه من بني أُمَيَّة من وَلَد الـمُغيرة، وكان ظهورُه في العام الفارط عن هذه، وكان مُعَلِّمًا ببَرْقة، فرأى في أهل بَرْقة فُرْصةً؛ فانتسب لهم وعَرَّفَهم أنَّ عنده روايات وعِلْمًا، وأنَّه هو الذي يملك مِصْرَ ويقتلُ الـجَبَابِرة، وأعانه على ذلك قومٌ من لَوَاتة وزَناتة، فنصبوه إمامًا، واجتمعوا عليه.

---

(١) في ر١: «لا يُحْصَى عَدَدُهم».

(٢) أشار ابن الأثير في الكامل إلى هذا الوباء ٩/ ١٨٥.

(٣) «في ذلك الوقت» ليست في ر١.

(٤) في ر١: «وكان الفروج».

(٥) قوله: «ذكر ذلك أبو إسحاق الرقيق» ليس في ر١.

ثمَّ أقبل البرابر من كلّ ناحية إليه، فزحف إلى بَرْقة وحاصرَها حتَّى فتحها، وذلك في رَجَب من العام الفارط، ثمَّ قَوِيَ أمره في هذه السنة، فأخرج الحاكِمُ إليه جيشًا، فكان بينهم قتالٌ شديدٌ، إلى أن هُزم عَسْكَرُ مِصْرَ وقُتل قائدُه.

وفيها: تُوفّي عامِلُ إفريقية محمَّد بن أبي العَرَب.

وفيها: قتلَ الحاكِم قاضيَه وأحرَقهُ بالنار على أكْلِه أموال الأيتام.

وفي سنة سبع وتسعين وثلاث مئة: استفحل أمْرُ الثائر ببَرْقة الوليد بن هشام، وكَثُرت جموعُه وأتباعُه. فأخذه الحاكِمُ بالحيلة، فدعا وجوه رجاله وقُوّاده، وأمرهم أن يكاتبوه ويعرِّفوه أنّهم على مَذْهَبِهِ، وأنَّه، إن قرب منهم، صاروا في جملته. فلما تواتر ذلك عليه، وَثِقَ به وزحف بكلّ من معه من قبائل البربر إلى مِصْر، فخرجت إليه عساكر مِصْرَ؛ فهزموه، ولحق بأرض السودان. ثمَّ أُخذ أسيرًا وأُدخل مِصْرَ على جَمَل، فطِيفَ به بثياب مُشَهَّرة؛ ثمَّ قُتل شَرَّ قِتْلةٍ في منتصف شوَّال.

وفيها: ولي عمالةَ إفريقية القاسم بن محمَّد بن أبي العَرَب بعد موت أبيه، فأقرَّ رجاله على مراتبهم، واستعان بهم.

وفي سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة: تُوفّي صاحب المَظالِم بإفريقية محمَّد بن عبد الله، وكانت وَطْأتُهُ قد اشتدَّت على أهل الرِّيب والفساد بالضرب والقتل وقطْع الأيدي والأرْجُل، لا تأخذُه فيهم لَوْمةُ لائمٍ.

وفي سنة تسع وتسعين وثلاث مئة: هرب أولاد محمَّد بن أبي العَرَب من المنصوريَّة، يريدون فُلْفُل بن سعيد بن خَزْرُون الزَّناتيَّ بأطْرابُلُس، فأرسل نَصير الدولة إلى صاحب قابِس، يأمره أن يَقْطع بهم، فلحق بهم المذكور، وأخذ منهم عليًّا ويوسف، فقطع رُؤُوسهما، ووجَّه بها إلى المنصوريَّة مُنْسَلَخَ المحرَّم. ووصل القاسم بعد ذلك، فعفا عنه.

وفي سنة أربع مئة: تُوفّي فُلْفُل بأطْرابُلُس بعلَّةٍ أصابَتْه، وَوَلِيَ مكانَه أخوه وَرُّو، وأطاعَتْه زَناتة[1].

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٠٦.

وفيها: رحل أبو مَناد نَصِير الدولة بعساكر عظيمة إلى أطْرابُلُس في طلب زَناتة، فكان وصولُه إلى ظاهر أطْرابُلُس يوم الاثنين لسبع خَلَوْن من شعبان، فتلقَّاه أهْلُها مسرورين، داعين، مستبشرين، فضُربت له فَسَاطِيطُ الديباج والقِبابُ الجليلة، ونزل، فأخذ الناسَ ريحٌ عظيمٌ خرَّق جميع المضارب ومَزَّقها وذهب بها. ودخل نَصِير الدولة إلى قصر فُلْفُل. وجاءت رُسُلُ وَرُّو بن سعيد أخي فُلْفُل راغبةً في الأمان والعفو، فعفا عنهم، وأشهد بذلك على نفسه، ثمَّ صدر إلى المنصوريَّة ظافِرًا[١]. ووصل النعيمُ بن كنُّون وطائفةٌ معه إلى المنصوريَّة؛ فأعطاهم نَصِيرُ الدولة، وأفضل عليهم أتمَّ الإفضال، وأمر للنعيم بالبنود والطُّبول والبَرَاذِين والسروج، وصرفه إلى البلاد التي أعطاه، وقاعِدَتُها قَصْطِيلية، فأقام بها مَلِكًا بالطبول والبنود والجيش.

وفي سنة إحدى وأربع مئة: كان موت عَزْم بن زِيرِي بن مَناد بالقَيْرَوان.

وفيها: تُوفِّي القائد[٢] جعفر بن حبيب.

وفيها: أمر الحاكِم بأمر الله بالـحُسين بن جَوْهر قائد القُوَّاد وصهرِه القاضي على مِصْرَ عبد العزيز بن محمَّد بن النعمان، فقُتلا جميعًا في وقت واحد.

وفي شوَّال من هذه السنة: خالف ابنُ جَرَّاح على الحاكم بأمر الله، وبعث رُسله إلى أمير مكَّة يستدعيه للخلاف عليه معه، فخالف؛ وتسمَّى بأمير المؤمنين، وتابعه على ذلك أهْلُ مكَّة وبنو عمِّه وغيرُهم، وتمادى أمرهم على ذلك بقيَّةَ هذه السنة.

وفيها: رجع أهْلُ مِصْرَ ومن كان معهم من المغارِبة وغيرهم برسم التوجُّه إلى مَكَّة، زادها الله تكريمًا وتشريفًا[٣]، وذلك عند وصولهم للقُلْزُم بلغهم ما فعل ابنُ جَرَّاح وأبو الفُتوح[٤] الـحَسَن بن جعفر بن محمَّد[٥]، فلم يَحُجَّ منهم أحَدٌ. ولم يَحُجَّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ليس في ر١.

(٣) في ر١: «شرفها الله».

(٤) ليس في ر١.

(٥) كذلك، والحسن بن جعفر هذا ترجمه ابن الجوزي في المنتظم ٨/ ١٠٠.

في هذه السنة أَحَدٌ من الشام، ولا العِراق، ولا خُراسان، ولا سائر الآفاق، إلَّا أهْلُ اليَمَن ونَفَرٌ يسيرٌ مـمَّن كان بمكَّة مُجاوِرًا.

وفي سنة اثنتين وأربع مئة: قدم المنصوريَّة خَزْرُونُ بن سعيد بن خَزْرُون الزَّناتيُّ، أخو فُلْفُل المتقدِّم ذِكْرُه. وكان سَبَبَ وصوله اختلافٌ جَرَى بينه وبين أخيه وَرُّو، فقصد إلى نَصِير الدولة، فقبله أحسن قبول، وكان معه نحو سبعين فارسًا من زَناتة، فأنزلهم وأحسن إليهم، ثمَّ، بعد ذلك بأيَّام، أعطاهُ مدينةً، فخرج إليها بالبُنُود والطبول[1].

وفي سنة ثلاث وأربع مئة: وصل إلى الـمَهْدِيَّة مَرْكَبٌ فيه هديَّةٌ جليلةٌ من الحاكِم إلى نَصير الدولة بادِيس صاحبِ إفريقية، وإلى ولده منصور عزيز الدولة. فتلقَّاها المنصورُ مع أهل القَيْرَوان على قَصْر الماء بالبنود والطبول، ووصلت سِجِلاَّت منه إلى نَصِير الدولة بإضافة بَرْقة وأعمالها إليه.

وفيها: تُوفِّي أبو الحسن القابِسيُّ الفقيه العالم[2].

وفيها: عزل نَصِير الدولة يوسف بن أبي حَبُوس الصُّنْهاجيّ عن أمْر الجيوش وغيرها.

وفيها: تُوفِّي مُفَرِّج بن الـجَرَّاح[3] ببلاد الشام، وبقي أولاده مكانه.

وفيها: عاد صاحبُ مكَّة إلى طاعة الحاكِم، وهو الحسن بن جعفر المتقدِّم الذِّكر، الذي قام به، ودعا لنفسه، وتسمَّى بأمير المؤمنين الراشِد بالله، ثمَّ تاب مما فعل في هذه السنة، وصعد المنبر، وتبرَّأ مما كان ادَّعاه، وكتب بذلك إلى الحاكِم بأمر الله؛ فقبِل منه، وأنفذ إليه أموالًا عظيمة، وأمر الناسَ أن يسافروا إلى مكَّة بالطعام وسائر المرافق.

وفي هذه السنة: ظهر بإفريقية ثائرٌ اسمُه عبدُ الله بن الوليد بن الـمُغِيرة؛ وكان متسترًا[4]، مُشْتَغِلًا بالتعليم، ثمَّ دعا إلى نفسه، فأُخذ وسيق إلى القَيْرَوان مع صاحبٍ له،

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ١٧٧.

(٢) هو علي بن محمد بن خلف الفقيه المالكي عالم إفريقية، ترجمته في تاريخ الإسلام ٩/ ٦١-٦٢ وغيره.

(٣) هو أمير طيـئ وسائر العرب بأرض فلسطين (تاريخ ابن خلدون ٤/ ٥٣).

(٤) في أ، م: «خاملًا».

وحُملا على جَمَلَيْن، وطِيفَ بهما، ثمَّ ضُربت أعناقُهما، ورُفعا، فصُلِبا. ووُجِدَتْ عنده خَرِيطةٌ فيها كتابٌ بخطٍّ يده لبعض أشياخ القبائل، يقول فيها: «من عبد الله أبي محمَّد الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، إلى فلان»، ثمَّ يذكر له أنَّ تمامَ أمره وظهورَه يكون بكُتامة، ويأمره أن يتلقَّاه في أوَّل صفر من سنة أربع وأربع مئة فإنَّها آخِرُ دولة صُنْهاجة، وبها تَنْقَطِعُ دولتُهم. فتمكَّن منه صُنْهاجة كما ذَكَرْنا.

وفي سنة أربع وأربع مئة: وصل سِجِلٌّ من الحاكِم إلى نَصِير الدولة، يذكر فيه أنَّه جعل ولاية العَهْد في حياته لابن عمِّه أبي القاسم عبد الرحمن[1] بن إلْياس. فقُرِئَ بجامع القَيْرَوان والمنصوريَّة، وأُثبت اسمُه مع اسم الحاكِم في البُنود[2] والسِّكَّة. فعَظُمَ ذلك على نَصِير الدولة، وقال: لولا أنَّ الإمام لا يُعْتَرَضُ على تدبيرٍ، لكاتَبْتُهُ ألاَّ يَصْرِفَ هذا الأمْرَ من ولده إلى ابن عمّه[3].

وفي سنة خمس وأربع مئة: أخرج نَصِير الدولة هديَّةً جليلةً إلى الحاكِم، وشيَّعها بالطُّبول والبنود عن المنصوريَّة، فوصلت إلى الـمَهْدِيَّة، وركب البحر بها يَعْلَى بن فَرَج. وكان فيها مئة فَرَس ولها سروجٌ مُحلاَّةٌ شُدَّتْ في ثمانية عشر حِـمْلًا أقْفاصًا، وكان فيها ثمانية وعشرون حِمْلًا من الخَزِّ والسَّمُّور والـمَتاع السُّوسِيّ الـمُذَهَّب النفيس، وعشرون وصيفةً بارعة الـجَمال[4]، وعشرةٌ من الصَّقالِبة، وغيرُ ذلك. ووَجَّهت السيّدةُ أُمُّ مَلاَّل أُخْتُ نَصِير الدولة إلى السيّدة أُخت الحاكِم هديَّةً أيضًا. ولما وصلت تلك الهدايا إلى جهة بَرْقة، أخذها العَرَب، وهربَ يَعْلَى بن فرج، وأسلمها بجميع ما فيها.

وفيها: نادَى مُنادٍ في القَيْرَوان بانتقال مَن كانَ يسكنُ فيها من الصُّنْهاجيّين إلى المنصوريَّة. ثمَّ نادَى مُنادٍ آخَرُ بعد ذلك بإغلاق الحوانيت بالقَيْرَوان وفَنادِقِها؛ فأُغْلِقَتْ،

---

(١) هكذا سَمّاه، والصواب في اسمه: «عبد الرحيم»، كما في ترجمته من تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٦/ ١٢٧-١٢٩، وتاريخ الإسلام للذهبي ٩/ ١٩٥، واتعاظ الحنفا للمقريزي ٢/ ١٠١ وغيرها.

(٢) بعد هذا في ر١: «والطبول».

(٣) اتعاظ الحنفا ٢/ ١٠١.

(٤) «بارعة الجمال» ليست في أ.

ولم يَبْقَ بها إلَّا بعض حوانيت الأحْباس. وبلغ كراءُ حانوت بالمنصوريَّة مئتي دِرْهم لبيع الكَتَّان، وما سُمع بذلك في كراءِ حانوت بالقَيْرَوان؛ فكان ذلك أوَلُ أسباب خَرابها[١].

وكان الحاكِم لقَّب المنصورَ بن نَصِير الدولة بعزيز الدولة، وقُرِئَ سِجِلُّه بذلك، فأراد نصير الدولة أن يُرَشِّحَه، ويُضيفَ إليه أعمالًا يستخدِم فيها أتباعَه وصنائعَه. وكان نَصِير الدولة اتَّصل به عن إبراهيم بن سيف العزيز بالله هَنَاتٌ أنكرها عليه، فأراد اختبارَها، فكتب كتابًا إلى حَـمَّاد يأمرُه فيه بتسليم عَمَل أبي زَعْبَل قَصْر الإفْرِيقيّ ومدينة القُسْطَنْطِينَة إلى مُسْتَخْلَف عزيز الدولة، وكان قد خلع على هشام بن جعفر، وأعطاه الطبول والبُنُود، وأمره بالخرج إلى هذا العمل، فخرج بخزائنَ وعُدَدٍ جليلة. وبعث نَصِير الدولة إلى إبراهيم بن سيف العزيز بالله يشاوِرُه فيمن[٢] يمضي بكتابه إلى حـمَّاد، فتسرَّع إبراهيم إلى المسير بالكتاب بنفسه، وقال: لا يَجِدُ مَوْلانا عَبْدًا من عَبيدِه أنْهَض بخدمته مِنِّي وتضمَّن ذلك، وأخذ على نفسه المواثيق أنَّه لا يُقِيمُ في مضيِّه وعَوْده إلَّا أقَلَّ من عشرين يومًا، فأشار على نصِير الدولة مَنْ يقرب منه بأن يعتقل إبراهيم، ولا يَدَعَهُ لِـمَا يريد من السَّفَر، حتَّى يَرَى ما يكون من طاعة أخيه حَـمَّاد ومُسارعته إلى ما يأمره[٣]، فأبى[٤] نَصِيرُ الدولة من ذلك، وقال لإبراهيم: امْضِ إلى أخيكَ حَـمَّاد، فإنْ صَدَقْتَ فيما قُلْتَ، ووَفَّيْتَ بما وعدتَ، وإلَّا فافعلا ما أرَدتُـما. وخرج إبراهيمُ بن سيف العزيز بالله بماله ورجاله وجميعِ ذخائره، ولم يَعُقْهُ في ذلك عائقٌ من نَصِير الدولة وإلَّا فَقَدْ كان خُروجُه بأثقاله وجُمْلة رجاله دليلًا على خلاف ما أظهر. وكان خروجه في شوَّال، وصَحِبَه هاشِمُ بن جعفر، ثمَّ أحسَّ هاشِم أنَّه سيغدره إذا قَرُبَ من أخيه، فاعتذر له أنَّ حاجةً بقيَتْ له بِباجةَ، وعدل إلى طريقها، ووعده أن يلحقه سريعًا. فنجَّاه الله من غدره. ومضى إبراهيم

---

(١) في أ: «سبب خرابها»، وما هنا من ر١، وهو أجود.

(٢) في أ، م: «على من».

(٣) قوله: «مسارعته إلى ما يأمره» ليس في ر١.

(٤) في أ، م: «به» وما أثبتناه من ر١ وهو الأوجه والأبين للمعنى.

حتَّى وصل تامْدِيت، وكتب إلى أخيه، فنهض إليه حَـمَّاد في عساكر عظيمة، واجتمعت كلِمَتُها، وخلعا أيديهما من الطاعة.

وانتهى ذلك إلى نَصِير الدولة، فرحل في أواخر ذي حجَّة، ونزل برقَّادة، ووضع العطاءَ لعساكره، وأخرج عياله وأثقاله وأُخْتَه السيّدة أُمَّ مَلاَّل، وأولاده، وعَبِيده إلى الـمَهْديَّة، ورحل في السابع منه. وأمر بالقبض على يوسف بن أبي حَبُوس وإخوته، فقُبِض عليه. وكان نَصِير الدولة لم يمْضِ له يومٌ من الأيَّام إلَّا جَدَّدَ عليه كرامةً وإحسانًا، ولا كان يُهْدَى إليه فَرَسٌ أو ثَوْبٌ من ثياب الخلافة إلَّا آثره بذلك على نفسه، مع ما أعطاهُ[١] من الضياع والرِّباع بكلِّ كُورة من كُوَر إفريقية، وما زال يَرْفَعُ من قدره، ويزيد في التنويه بذكره، حتَّى نال من أعلى المراتب ما لم يَنَلْهُ بعيدٌ ولا قريب، وسما[٢] من رفيع الدرجات ما لم يَسْمَ له حميمُ ولا نسيب. وكان، والله أعلم، تُسَوِّلُ له نفسُه الفَتْكَ بالأمير نَصير الدولة، وإنَّه همَّ بذلك مدَّةً من الزمان، فلم يُعِنْهُ الله عليه، بل خَيَّبَ سعيَهُ، وَرَدَّ في نحره بغيَهُ[٣]. فتقرَّر ذلك عند نَصِير الدولة، فقبض عليه. وكان في قبضه عليه ما أوْهَنَ اللهُ به كَيْدَ الأعْداءِ، وخَيَّبَ آمالهم، وأضلَّ أعمالهم[٤]. ورحل نَصِير الدولة ثانيَّ عيد الأضْحَى بعسكره[٥] لحـمَّاد المذكور.

وفي سنة ست وأربع مئة، في صَدْر المحرَّم: وصل عزمٌ وفُلْفُل ابنا حَسُّون بن سنون، وماكْسَن بن بُلُقِّين، وعَدْنان بن مُعْصَم في عدَّةٍ من الفرسان من عسكر حـمَّاد. فخلع عليهم، وأحسنَ إليهم. وما زال نَصِير الدولة يرحل مرحلةً بعد مرحلة إلى أن وصل إلى تَامْدِيت. ثمَّ وردت عليه الأخبار بوفاة وَلَده المنصور عزيز الدولة؛ وذلك أنَّه كان في حين حَرَكته إلى المهديَّة[٦] عرضَتْ له حُمَّى، وظهر به جُدَرِيٌّ؛ فأقامَ سبعة عشر يومًا،

---

(١) في أ، م: «حمل له».

(٢) من هنا إلى قوله: «نسيب» ليس في ر١.

(٣) «بل خيب سعيه، ورد في نحره بغيه» ليست في ر١.

(٤) «وخيب آمالهم وأضل أعمالهم» ليست في ر١.

(٥) في ر١: «بعساكره».

(٦) «إلى المهدية» ليست في ر١.

وتُوفِّي فكُتِم عن نَصِير الدولة أمْرُه خوفًا أن يبدو منه جَزَعٌ، يكون فيه وَهْنٌ على الدولة فيما هو بسبيله من مقابَلة عدوِّه. فبلغ خَبَرُه إبراهيمَ وحـمَّادًا، فبعثا إليه، وقالا له: إنَّ ولدك، الذي طلبتَ له ما طلبتَ، قد تُوفِّي. فما ضَعْضَعَهُ ذلك، ولا حَرَّكه[1]؛ وكتب إلى السيِّدة يسألُها عن ذلك[2]، فورد كتابُها بوفاته والتعزيةِ عنه، وتَصِفُ سلامةَ الـمُعزِّ وحُسْنَ حاله. فكان من صَبْر نَصِير الدولة وحُسْن عزائه ما كَثُرَ التعجُّبُ منه. وجَلَس مَجْلِسًا عامًّا للعزاء، فكان لا يَرَى من أحَدٍ جَزَعًا وبكاءً[3] إلَّا سَلاَّه وهَوَّن عليه، فزاد ذلك سرورًا لأوليائه، وكَمَدًا لِـحسَدَتِه وأعدائه.

ثمَّ رحلَ من تامْدِيت لستٍّ خَلَوْنَ من صَفَر، وتمادَى رحيلُه إلى أن وصلَ الـمُحَمَّدِيَّة، وهي مدينة الـمَسِيلة، فتلقَّاه أهْلُها داعِين شاكِرين على ما مَنَحهم من العَدْل والأمان، وكشفَ عنهم من الـجَوْر والعُدوان. فأقامَ بها ستَّةَ أيَّام. ثمَّ رحلَ، فعبر وادِي شَلَف، ثمَّ تمادى مَشْيُه حتَّى قرُب من عساكر حـمَّاد وحشوده من زَناتة وغيرهم في العُدْوة الأُخرى من الوادي، فباتَ على تحفُّظٍ واحتراس.

ولما كان في غَدِ نزوله، برز في عساكره ومشى عليها، ورتَّبها، وأقام كلَّ قائدٍ من قُوَّاده في مركزه. وقدْ تقارب الفريقانِ، وتَراءَى الـجَمْعانِ، فالتقيا[4] فهُزِمَ حـمَّادٌ، وانْتُهِبَ عسكرُه. فقيل: إنَّ الذي انْتُهِبَ من الدَّرَق عشرة آلاف دَرَقة. وكان اشتغالُ العساكر النَّصِيريَّة برَفْع الغنائم والأموال والأثقال سَبَبًا لنَجاةِ حَـمَّاد المذكور، لِتَرْكِهم اتِّباعه[5]. وأخذ الناس من الأموال والغنائم ما لا يُحصى عَدَدًا وكثرةً، ووُجِد رُقْعتان فيهما: إنَّ الذي عند القائد فلان صندوقٌ فيه خمسونَ ألف دينار وسبع مئة، ومن الوَرِق ألف ألف وخمس مئة ألف درهم، ومن الأمْتِعة خمسون صُندوقًا غير ما كان في بيت حَـمَّاد وخزائنه.

---

(١) في ر١: «وأوهنه».

(٢) في أ: «يعرفها بذلك»، ولا يستقيم المعنى بقوله بعد: فورد كتابها بوفاته... الخ.

(٣) ليس في ر١.

(٤) ليس في أ، م.

(٥) ينظر كامل ابن الأثير ٩/ ٢٥٤-٢٥٥.

قال أبو إسحاق: وُجِدَ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْه بَغْلٌ يسوقُه، ففتَّشه بعضُ الوُصْفان بين أيدينا، فوجد في حَشْوِ بَرْذَعَته وصُوفِها ثمانية آلاف دينار، ومثلُ هذا ما لا يُحصى كثرةً.

وعَرَضَتْ لي أبياتٌ بعد أن صعدنا من الوادي[1]، وقد لقينا به مشقَّةً شديدةً[2]، غير أنَّ حلاوةَ الظَّفَر والفَوْز بالسلامة أنْسَى ذلك، هي [من البسيط]:

لَـمْ أنْـسَ يومًـا بـشَلفٍ راعَ مَنْظَـرُهُ ... وقَـدْ تَـضايَقَ فيـه مُلْتَقـى الـحَدَقِ

والــخيل تَعْـبُرُ بالهامـاتِ خائـضةً ... من سافحِ الدَّمِ مجْـرَى قانـئ العَلَـقِ

والبيضُ[3] في ظُلُمـاتِ النَّقْع بارِقـةٌ ... مِثْلَ النُّجوم تهاوَتْ في دُجَى الغَـسَقِ

وقَـدْ بَـدا مُعْلـمًـا بـادِيسُ مُـشْتَهِرًا ... كالشمس في الجوِّ لا يَخْفَى عن الحَـدَقِ

وإنَّ راحَتَــهُ لــو فــاضَ نائلُهــا ... وبأْسُها في الوَرَى أشفوا على الغَـرَقِ

تَجْلُــو عِمــامَتُه الحمــراءُ غُرَّتَــهُ ... كأنَّــه قَمَــرٌ في حُمْــرةِ الــشَّفَقِ

لَوْ صُوِّرَ الـمَوْتُ شَخْصًا ثُمَّ قِيلَ لَـهُ ... «أبـو مَنـاد تَبـدَّى» مـاتَ مِـنْ فَـرَقِ

وأصبح نَصِير الدولة يومَ الاثنين لليلَتَيْن خَلَتا من جُمادى الأُولى، فبعث في طلب حـمَّاد بن باديس بن سيف العزيز بالله، وقد تحصَّن في القَلْعة مع أخيه، فأقاما بها ثلاثةَ أيَّام حتَّى استراحا وأراحا دوابَّهما ومن كان معهما. فعرَّفه إبراهيم بحاجته[4] إلى الازدياد من الطعام والـمِلْح؛ فخرج حـمَّاد في جميع[5] من كان معه ومع أخيه، فسار بهم حتَّى دخل مدينة دَكْمة[6]؛ وقد كان نقم على أهلها، وكان نَصِير الدولة في أثره؛ فتَصَايَحَ أهْلُ الموضع بساقته، فاعترضهم بالسيف، وقتل منهم نحو ثلاث مئة رجل.

---

(١) في أ: «بعد انصرافنا».

(٢) في ر١ : «عظيمة».

(٣) في ر١ : «والنقع».

(٤) في ر١ : «بالاحتياج».

(٥) ليست في ر١.

(٦) معجم البلدان ٢/ ٤٥٩.

فخرج إليه[1] أحمد بن أبي تَوْبة فَقِيهُ هذه المدينة وصالِحُها، فخوَّفَه بالله، ووَعَظَه، وقال له: يا حَـمَّاد إذا لاقَيتَ الجموعَ هَرَبْتَ منها، وإنْ قاوَمَتْك الجيوشُ، فَرَرْتَ عنها، وإنَّمـا قُدْرَتُك وسُلْطانُك على أسيرٍ يكون في يَدَيْك، لا ناصِرَ له عليك. فلما سمع كلامَه، أمر بضرب عُنُقه. ووقف إليه شيخٌ صالحٌ منها، فقال له: يا حـمَّاد اتَّقِ اللهَ فإنِّي حَجَجْتُ حَجَّتَيْنِ. فقال له: أنا أزيدُك عليهما الشهادةَ. وأمر به، فضربت عُنُقه. ووقف إليه جماعةٌ من التجار الـمُسافرين، فقالوا له: نحن قومٌ غُرَباءُ، ولا نَدْرِي ما جَنَى أَهْلُ هذه المدينة عليك. فقال لهم: اجتَمِعوا وأنا أُعَرِّفُكم، فاجتمعوا[2] ودخل معهم غيرُهم مـمَّن طمع في الـخَلاص معهم. فلما وصلوا إليه، أمر بهم؛ فضُربت رقابُهم أجمعين. وأخذ جميع ما كان بتلك المدينة من طعام ومِلْح، وعاد به إلى قلعته.

وأمَّا نَصِير الدولة، فيَوْمَ هزيمةِ حـمَّاد، أَخْرَجَ بَكَّارَ بن جَلالة الوَتْلَكَاتيَّ؛ وكان قد أخذه أسيرًا، وكان بَكَّار كثيرًا مَّا يَنْطَلِقُ به لسانُه. وكان يوسف بن أبي حَبُوس مُعْتَقَلًا أيضًا عند نصِير الدولة، فأُخْرِج بَكَّار بمحضر يوسف، وحُلِقَتْ لحيتُه، ويوسف ينظر إليه، ثمَّ أمر: فحُلِقَتْ لحيةُ يوسف، فصارا مُثْلةً في العالَم.

قال الرَّقيق: لـمَّا عايَنَّا يوسف، وقد حُلِقَتْ لحيتُه، تَحَدَّثْنا سِرًّا بيننا، وقُلْنا: قد كُنَّا نَرْجو ليوسف الحياة، لأنَّ الملوكَ تَعْفو بعد العقوبة! وأمَّا الـمُثْلة، فما نَرَى أنَّ بعدها إبْقاءً! فلمحَنا نَصِير الدولة وقال: ما خُضْتُما فيه؟ فصَدَقْناه سِرًّا، فقال: ما أبْعَدْتُـما. وبعد ثلاث، أمر بإحضاره؛ فعدَّد عليه مَساوِئَ أفعاله وقبائحَ أعماله، ثمَّ أمر به؛ فجُدِع أنفُه، وقُطِعَتْ أُذُنُه، ورُفِع من بين يَدَيْه. ثمَّ أُعيد إليه؛ فأمر به فقُطِعَتْ يداه جميعًا. ثمَّ أمر به إلى موضع اعتقاله؛ فبات مُشَحَّطًا في دمائه. فحكى بعضُ الـحَرَسِ أنَّه سَمِعَه يُرَغِّبُ أخاه أن يذبحه ويُريحَه، خِيفةَ أن يُخْرَج من الغَدِ ويُزاد في عَذابه أمام أعدائه، فقال له أخوه: اصْبِرْ على قضاءِ الله وقَدَرِه. فقال لبعض الـحَرَس: خُذْ بيدي

---

(١) في أ، م: «إليهم» وما أثبتناه من ر١، وهو الأوفق.

(٢) من ر١.

أخْرُج لقضاءِ الحاجة، فأخذ بيده ووقفَ، فضرب ضربةً عظيمةً بجَبْهَته في عَمودٍ، نَدَرَتْ[1] منها عَيْناه، وجَرَى دِمَاغُه، وخَرَّ إلى الأرض مَيِّتًا.

ورحل نَصِير الدولة من وادي شَلَف.

قال الرَّقِيق: ومن عجيب ما سَمِعْناهُ عن مَناخ وادي شَلَف أنَّ شيخًا كبيرًا من البَرْبَر حدَّثنا أنَّه يُعْرَفُ بِوَادِي[2] الـمِحَن، وأخذ يذكُرُ لنا مَنْ هُزِمَ فيه ومَنْ قُتِل فيه من مُلوك زَناتة. وكُنَّا على ظَهْر الطريق، فلَمْ نَكْتُبْ ذلك، إلى أن قال: آخِرُ مَنْ مات فيه زِيرِي بن عَطيَّة، وآخِرُ مَنْ هُزِمَ فيه حَـمَّاد، وبه قُتِل يوسف بن أبي حَبُوس، وحُـمِلَ منه مُعادِلًا لأخيه ورِجْلاه باديتانِ؛ ثمَّ أمر به فدُفِن هُناك.

وفي هذه السنة: مات وَرُّو بن سعيد في شوَّال، فاختلفت كَلِمةُ الزَّناتيّين، ومالت فَرْقةٌ مع خَلِيفة بن وَرُّو، وفَرْقةٌ مع خَزرُون، ابْنِ عَمِّه، وأوقع اللهُ فيهم الشَّتاتَ[3].

ذكر وفاة نَصِير الدَّولة بادِيس ابن المنصور

لما كان يوم الثلاثاء لليلةٍ بَقِيَتْ من ذي القَعْدة، أمر بالتَّمْييز؛ فبرزَ كلُّ قائد في عَسْكَرِه. وجلسَ نَصِيرُ الدولة في القُبَّة وأمر أيُّوب بن يَطُّوفَت بالطواف على العساكر وحِسابِها، وانتظره حتَّى فرغ من حسابها وَعَدِّها، فجاءَه[4]، فعرَّفه بما سَرَّه وأبهجه، وانصرف إلى قصره. ثمَّ ركب عشيَّةَ هذا اليوم، وهو قد تَناهَى إقبالًا، واستوى حُسْنًا وجَمَالًا، فلعبوا بين يَدَيْه، فكُلَّما هزَّ رُمحًا، كَسَرَهُ وأخذ غَيْرَه. ثمَّ عاد إلى قصره أفْسَحَ ما كان أمَلًا، وأشَدَّ سُرورًا وجَذَلًا، فطَعِمَ وشَرِبَ مع خاصَّته وقرابته؛ فعايَنُوا من طَرَبِه ما لم يعهدُوه منه. فلما مضَى نحو النصف من ليلة الأربعاءِ انقضاءَ[5] ذي القعدة، قضى نَحْبَه، رحمه الله[6].

---

(١) في م: «فذرت»، وهو تحريف.

(٢) في أ: «بمناخ».

(٣) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٥٥.

(٤) في ر١: «وعددها وجاءه».

(٥) في ر١: «وانقضاء».

(٦) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٥٦.

وبُعِثَ في الوَقْت إلى حبيب بن أبي سعيد، وباديس بن حَـمَامة، وأيُّوب بن يَطُّوفَت. فأُعْلِموا بوفاته خاصَّةً من بين جميع صُنْهاجة وغيرهم، فانصرفوا على أن يكتُموا أمره حتَّى يجتمع رأيُهم، وأصبح وجوهُ العساكر للسلام على عادتهم، وليس عندهم خبرٌ، وقد عزموا أن يُعَرِّفوا الناسَ أنَّه أخذ دواءً، وتقدَّموا إلى سائر[1] قُوَّاد العساكر أن يحضروا بعُدَّتِهم، فقد بَلَغَهم أنَّ حـمَّادًا يضرب في المحلَّة، فما شَعَروا أن خرجَ الخَبَرُ من مدينة المحمَّديَّة بوفاة السلطان، وأنَّهم أغلقوا أبوابهم، وصَعِدوا على أسوارهم. فظهرَ ما لم يستطيعوا إخفاءَه، فكأنَّما نُودِيَ في الناس بإشاعته، فاضطربت العساكر، وماجَ بعضُهم في بعض، وخَشَوْا من اختلاف الكَلِمة، فاجتمعَ رأْيُهم على تقديم كَرامة[2]، فأخذ عليهم العُهُود، وأمر بالكُتُب إلى بعض البلاد. فلما رأى ذلك عَبِيدُ نَصِير الدولة، ومن انضاف إليهم من سائر الـحَشَم[3]، أنكروا ذلك، وقالوا: إنَّما قدَّمناه ليحوط الرجال ويحفظ الأموال، حتَّى يدفع ذلك إلى مستَحِقِّه الـمُعِزِّ ابنِ مولانا نَصِير الدولة[4]، ومشَى ليلًا بعضُهم إلى بعض، وتحالفوا على بيعة الـمُعِزِّ. فلمّا تَمَّ لهم ما عَقَدُوه، أعلنوا به يومَ السبت لثلاث خَلَوْنَ من ذي الحجَّة. وتحالفت العساكرُ على ذلك طائفةً بعد طائفةٍ، واتَّفقت آراؤُهم على خروج كَرامة إلى أشِير ليحشد قبائل صُنْهاجة وتَلْكاتة، ويعودَ بهم إلى المحمَّديَّة. ثم رحلت العساكر بتابوت نَصِير الدولة[5].

ولاية الـمُعِزّ بن بَادِيس إفريقية ومُدَّته

كانت ولايتُه بالـمَهْديَّة في يوم السبت المذكور من سنة ست وأربع مئة، وسِنُّه ثماني سنين وأربعة[6] أشهر، وولايتُه بالـمَهْديَّة وبيعتُه بها لتسع[7] بقِينَ من ذي الحجَّة.

---

(١) في ر١: «جميع».

(٢) هو كرامة ابن المنصور أخو باديس (الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٥٦).

(٣) «ومَن انضاف إليهم من سائر الحشم» ليست في ر١.

(٤) «نصير الدولة» ليست في ر١.

(٥) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٥٦-٢٥٧.

(٦) في نهاية الأرب ٢٤/ ١١١: «وسبعة».

(٧) في نهاية الأرب: «لسبع».

وذلك لـمّا وَصَل الخبر بوفاة أبيه، والسيِّدةُ أُمّ مَلاَّل بالـمَهْديَّة، خرجَ إليها منصور بن رَشِيق، وقاضي القَيْرَوان والمنصوريَّة، وشيوخُها، ومن كان بها من الصُّنْهاجيّين، فعزَّوْها في أخيها. وخرج الـمُعِزّ بالبُنُود والطُّبول، فنزل إليه الناسُ يهنِّئونه[1] جميعًا، وبايعوه، وهنّأوه، وعَزَّوْه، وابتهلوا بالدُّعاء له. وعادَ إلى قصره. ودخلَ الناس يهنِّئون السيِّدة بولايته، فصرف أهْلَ القَيْرَوان والمنصوريَّة. وبقي الـمُعِزّ بالمهديَّة، يركب في كلّ يوم، ويعود إلى قُبَّة السَّلام، وينطعم الناسُ بين يَدَيْه، وينصرف[2] إلى قصره[3].

وفي يوم السبت بموافقة عيد الأضحى، رحلت العساكر من المحمَّديَّة بعد أن أضرمُوا النارَ في الأبنية والبيوت والزُّروب، وقدَّموا التابوتَ أمام البُنود والطُّبول. فأشرفَ حـمّادٌ على العساكر، وهي تمرُّ كالسيل بين يدي التابوت، فقال لأخيه وخاصَّته: مِثْلُ هؤلاء يخدمُ الملوكَ، وَصَلْتُ أنا إلى إفريقية في ثلاثين ألف فارس، ما منهم إلَّا مَنْ أحسنتُ إليه، وأنعمتُ عليه، فعُدتُ إلى القَلْعة، وما بقي معي منهم إلَّا أقلَّ من ست مئة، وأنا بين أظْهُرهم أُرْجَى، وهذا مَيِّتٌ أطاعه هؤُلاء كما كان حَيًّا. وكان وصولُ العسكر إلى المهديَّة لثمان بَقِينَ من ذي الحجَّة، وبرزت العساكرُ على باب المهديَّة. وركب الـمُعِزُّ، فوقفَ، ونزل الناسُ إليه فَوْجًا فَوْجًا حتَّى كمل سلامُهم[4].

وفي سنة سبع وأربع مئة: رحل الـمُعِزُّ بن باديس من المهديَّة، فكان دخولُه المنصوريَّة يوم الجمعة للنصف من محرَّم، فدخل أجْمَلَ دخول، وبين يَدَيْه البُنُود والطبول، واحتلَّ بقصره أفْضَلَ حُلول، وقد سُرَّ به الخاصُّ والعامّ[5].

وكان بمدينة القَيْرَوان قومٌ بحَوْمَةٍ تُعْرَف بدَرْب الـمُعَلّى[6]، يتستَّرون بمَذْهَب الشيعة، من شِرار الأُمَّة، فانصرفت العامَّة إليهم من فَوْرهم، فقتلوا منهم خَلْقًا رجالًا

---

(١) ليست في ر١

(٢) في ر١: «ويعود».

(٣) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١١١.

(٤) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١١١.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) هكذا في النسختين، وفي كامل ابن الأثير ٩/ ٢٩٤، ونهاية الأرب ٢٤/ ١١١: «درب المقلى».

ونساءً، وانبسطت أيدي العامَّة على الشيعة، وانتهبت دورَهم وأموالَهم. وتفاقَمَ الأمرُ، وانتهى إلى البلدان، فقُتل منهم خلقٌ كثيرٌ. وقُتل مَن لم يُعرف مذهبُه بالشُّبهة لهم. ولجأ من بقي بالمهدية منهم إلى المسجد الجامع، فقُتِلوا به عن آخرهم رجالًا ونساءً. واجتمعت العامَّة على أبي البَهار بن خَلُّوف لشدَّته عليهم وقهره لسُفَهائهم، فلجأ إلى المنصوريَّة، فانتهبوا داره. وبلغ ذلك عساكرَ ابن أخيه، فركب لينصر عمَّه أبا البَهار، فقتلَتْه العامَّة، ومثَّلوا به، وقتلوا كلَّ من كان معه، وزحفوا إلى المنصوريَّة، فهدموها. واجتمع بدار محمَّد بن عبد الرحمن نحوَ ألف وخمس مئة رجل من الشيعة، فإذا خرج أحدٌ منهم لشراءِ قُوتِهِ قُتِل، حتَّى قُتِل أكثرهم. ثمَّ أُخرجوا إلى قصر السلطان بعيالهم وأطفالهم، فسُرَّ المسلمون بما رأوه فيهم، وذلك لـمَّا ظهرت[1] الكُتُبُ التي وُجِدت[2] في ديار المسالمة، كان فيها من الكُفْر والتعطيل للشريعة وإباحة المحارم شيءٌ كثيرٌ، فتحصَّنوا في هذا القصر أواخر جمادى الأولى وجمادى الآخرة.

وفي أواخر هذه السنة: وصل الـمُعِزَّ ابنَ بادِيس سِجِلٌّ من الحاكِم، خاطَبَه فيه بشَرَف الدولة، وركب الـمُعِزُّ بالبنود والطبول.

وفي سنة ثمان وأربع مئة: كانت حروبٌ عظيمةٌ بين عساكر شَرَف الدولة الـمُعِزِّ بن باديس وبين عساكر حـمَّاد، وذلك شيءٌ يطول ذكرُه[3].

وفي سنة تسع وأربع مئة: خرجت طائفةٌ من الشيعة نحو مئتي فارس بعيالهم وأطفالهم، يريدون المهديَّة للركوب منها إلى صِقِلِّيَّة، وبُعِثَتْ معهم خيلٌ تُشَيِّعهم. فلما وصلوا إلى قَرْية كامل، وباتوا بها، تنافر أهْلُ المنازل عليهم، فقتلوهم وفضحوا بَعْضَ شَوابِّ النساءِ ومن كان لها منهنَّ جمالٌ، ثمَّ قتلوهنَّ.

وفيها: كان بإفريقية غلاءٌ كثيرٌ[4] وحروبٌ كثيرةٌ[5].

---

(١) في ر١: «وجدت».

(٢) في ر١: «وظهرت».

(٣) في أ: «أمره»، وينظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١١٤.

(٤) ليست في ر١.

(٥) كذلك.

وفي سنة عشر وأربع مئة: وصل زاوِي بن زِيرِي الصُّنْهاجيُّ[1] من الأنْدَلُس إلى إفريقية في أهْله ووَلَده وحشَمه، بعد أن اغترب بها اثنتين وعشرين سنةً، وقاسَى حُروبَها وفِتَنَها، واحتوى على نِعَم ملوكها وذخائرهم. فخرج إليه[2] يومَ صوله شَرَف الدولة الـمُعِزُّ بن باديس بِزِيّ عظيم، فترَجَّل له الشيخُ زاوِي، ونزل شَرَفُ الدولة، فسلَّم عليه، وسار معه حتى أنزله بالمنصوريَّة[3].

وفي سنة إحدى عشرة وأربع مئة: ورد على الـمُعِزِّ بن باديس أبو القاسم بن اليزيد، رسولًا من الحاكِم إليه، بسيف مكلَّل بنفيس الجوهر، وخلعةٍ من لباسه لم يَرَ الناسُ مثلها، فلقيه شَرَف الدولة[4] الـمُعِزُّ في أجمل زِيّ وأكمل هيئة. فقُرِئَ عليه سِجِلٌّ فيه من التشريف ما لم يَصِلْ لأحد قبله، فسُرَّ بذلك[5].

وفيها: ورد أيضًا محمَّد بن عبد العزيز بن أبي كُدْيَة بسِجِلٍّ آخر من الحاكِم، جوابًا للـمُعِزِّ عمَّا كان فيه من أخبار الأندلُس، وانقراضِ الدولة الأُمَوِيَّة منها، وقيام القاسم بن حَـمُّود فيها، فشكره على ذلك، وبعث إليه خمسة عشر عَلَمًـا منسوجةً بالذهب. وركب الـمُعِزُّ بن باديس، والأعلام المذكورة بين يَدَيْه، يومَ الأحد لليلتَيْن بَقِيَتا من ربيع الآخر. وجاءت سَحابةٌ شديدةُ الرعد، فأمطرتْ حَجَرًا لم يَرَ أهْلُ إفريقية مِثْلَه كِبَرًا وكثرةً، ووقعت معه صاعِقتانِ.

وفيها: وصل الخبر بوفاة الحاكِم أمير مِصْرَ، وولي الظاهِرُ بَعْدَهُ[6].

وفي سنة اثنتي عشرة وأربع مئة: تُوفِّي[7] باديس بن سَيْف العزيز بالله، وصلَّى عليه شَرَفُ الدولة، وكان له مشهدٌ عظيمٌ.

---

(١) انظر عنه الإحاطة ١/ ٥١٣ فما بعد.

(٢) في ر١: «إليهم».

(٣) ذكر ابن الخطيب أن زاوي انصرف من الأندلس سنة ٤١٦ (الإحاطة ١/ ٥١٧).

(٤) «شرف الدولة» ليست في ر١.

(٥) قوله: «فسر بذلك» ليست في ر١.

(٦) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٣١٢-٣١٧.

(٧) هذه الفقرة ليست في ر١.

وفيها: تُوفِّيت السيِّدة زوجة نَصِير الدولة، وكُفِّنَتْ فيما لم يُذْكَرْ أنَّ مَلِكًا من الملوك كُفِّنَ في مثله، فحكى من حضره من التجار أنَّ قيمته مئة ألف دينار، وجُعِلَتْ في تابوت من عود هنديّ قد رُصِّعَ بالجوهَرْ. وكانت لها جنازةٌ لم يُرَ مِثْلُها، دُفِنَتْ بالمهديَّة. وكانت مسامير التابوت بألفي دينار.

وفي سنة ثلاث عشرة وأربع مئة: تَعَرَّسَ الـمُعِزُّ شَرَف الدولة. فكان له عرسٌ ما تهيَّأ قَطُّ لأحدٍ من ملوك الإسلام. وقد شرحه الرَّقِيقُ في كتابه وتَرَكْناه اختصارًا.

وفي سنة أربع عشرة وأربع مئة: وردت الأخبار وتتابعت[1] بإفريقية بأنَّ خَلِيفَةَ بن وَرُّو ومن معه رَمَوْا في البحر مَراكِبَ كثيرةً، وأنَّهم رحلوا من أطْرابُلُس في طلب الفُتُوح بن القائد، وقد كان كاتَبَ شَرَفَ الدولة الـمُعِزَّ بن باديس في الانحياش إليه والدخول في طاعته، فأعطاه مدينة نَفْطة[2] من عمل قَصْطيلية[3]. فخرج شَرَفُ الدولة، فاجتازَ بسُوسة، ثمَّ إلى المهديَّة، وذلك يوم الخميس لأربع خَلَوْن من المحرَّم. وأمر بالنداءِ في حشد البَحْرِيّين، وكتب أن يَلْحِقَ به كلُّ من يَتَخَلَّفُ عنه من عساكره ليكونَ رحيلُه من المهديَّة إلى سَفاقُس[4]، ثمَّ إلى قابِس[5]، قاصدًا إلى أطْرابُلُس. وأمر بالاحتفاز[6] في إصلاحِ القطائع وعمارةِ دار الصناعة، وأخذ في إنشاء العُدَد الحربيَّة، فأُنْشِئَ منها في المدَّة القريبة ما لم يَتِمَّ مِثْلُه في الزمن البعيد. ثمَّ رأى الوصولَ إلى المنصوريَّة ليأخذ الناسُ عُدَدَهم وما يحتاجون إليه، فكان وصولُه يوم الاثنين لستٍّ بَقِينَ من المحرَّم من العام.

ووردت الأخبار من المشرق بأنَّ أميرَ المؤمنين الظاهِرَ لإعْزازِ دين الله أمر بإحضارِ سَيْفِ الدولة ذي الـمَجْدَيْن حُسَيْنِ بنِ علي بن دَوَّاس الكُتَاميّ. فلما دخل[7] القصر،

---

(١) في ر١: «تتابعت».

(٢) ينظر عنها معجم البلدان ٥/ ٢٩٦، والروض المعطار ٥٧٨.

(٣) في ر١: «قسنطينة»، وينظر الروض المعطار ٥٧٨ حيث قال: نفطة في قسطيلية من بلاد الجريد.

(٤) معجم البلدان ٣/ ٢٢٣.

(٥) معجم البلدان ٤/ ٢٨٩.

(٦) في ر١: «بالجد».

(٧) في ر١: «أدخل».

ولم يكن يدخله قبل ذلك حَذَرًا على نفسه، أُخْرِجَ من ساعته مقتولًا؛ فأقام ثلاثةَ أيَّام، ومُنادٍ يُنادي عليه: هذا جزاءُ من غَدَرَ مَوَالِيه، ثمَّ دُفِعَ إلى عَبيده، فدفنوه[١].

ثمَّ جاء الخبر في الوقت بوفاة السيِّدة الشريفة[٢] بنت العزيز بالله. وصلَّى عليها الظاهِر لإعزاز دين الله[٣] بمِصْرَ. وكانت قد ضَبطت المملكة، وقَوَّمت الأُمور بحسن رأي وتدبير. وكان الوزير عمَّار فُوِّضَ إليه الأمرُ في[٤] النَّظَر في الدواوين والأموال والكتابة وغير ذلك من خدمة الخلافة، فأمَرَتْ بقتله، فقُتِل. وباشَرَتْ تدبير المملكة، فلا يُنْفَذُ أمْرٌ جَلَّ أو قَلَّ إلَّا بتوقيعٍ يخرج عنها بخطّ أبي البيان الصَّقْلَبيّ عَبْدِها.

وفي هذه السنة: وصل محمَّد بن عبد العزيز، من قِبَل الظاهِر أمير مِصْرَ، بتشريف عظيم لشَرَف الدولة. فقُرِئَتْ به سِجِلاَّت ما وصل قَبْلَها مِثْلُها أجَلَّ حالًا ولا أعلى مَقالًا. وزادَهُ لَقَبًا إلى لَقَبه، فسمَّاه شَرَفَ الدولة وعَضُدَها، وبشَّره بمَوْلُودَيْنِ وُلِدا له: إسماعيل[٥] أبو الطاهر، وعبد الله أبو محمَّد، وبعث إليه مع ذلك ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسُرُوجٍ جليلة وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه، ومَنْجُوقَيْن منسوجَيْن بالذهب على قَصَبِ فِضَّةٍ، ما دخل إفريقية مِثْلُها قَطُّ، وعشرين بَنْدًا مُذَهَّبةً ومفضَّضةً. فلقيها شَرَف الدولة[٦] أجْمَلَ لقاءٍ، وأعطاها حقَّها من الإكرام والاعتناء، وقُرِئَت السِّجِلَّات بين يَدَيْه، ثمَّ قُرِئَتْ بجامع القَيْرَوان، وأمر بنسخها، وأُنْفِذَتْ إلى الآفاق، فكان لها من السرور ما لا يوصف.

وبعد ذلك، في هذه السنة، وصل سِجِلٌّ آخر بزيادة لقَبٍ آخر، تشريفًا لشَرَف الدولة، وأمر أن يُكاتَب: «من الأمير شَرَف الدولة وعَضُدِها» ويُخاطَبَ بمثل ذلك.

---

(١) ذكر ابن الأثير والمقريزي أن أخت الحاكم هي التي دبرت قتله في خبر طويل (الكامل ٩/ ٣٢٠، واتعاظ الحنفا ٢/ ١١٥-١١٧).

(٢) «الشريفة» ليست في ر١.

(٣) «لإعزاز دين الله» ليست في ر١.

(٤) «الأمر في» ليست في ر١.

(٥) ليس في أ، م.

(٦) بعد هذا في ر١: «وعضدها».

فلقيه أحسن لقاء، وخلع عليه، وحمله. وجَرَت الـمُكاتَبة من ذلك الوقت بهذا التشريف الجليل.

وفي هذه السنة: اعتلَّت السيّدة أمُّ مَلاَّل بنت عُدَّة العزيز بالله أيّامًا، والأمير شَرَف الدولة يَصِلُ إليها في كل يوم عائدًا ومفتقِدًا، فيجلس عندها، ويأذن لرجاله وعَبيده يدخلون إليها، ثمَّ ينصرفون. فلما كان ليلة الخميس مُنْسَلَخ رجب، قبضها الله، وصُلِّيَ على[1] جنازتها بالبُنُود والطبول والعَمّارِيّات، والسيّدتان الجليلتان الوالِدةُ والأُخْتُ بحال من التشريف لهذه الجنازة، لم يُرَ لـمَلِكٍ ولا لسُوقةٍ مِثْلها.

وفوَّض الأمير[2] شَرَفُ الدولة جباية الأموال، وولاية العُمَّـال، والنظر في العساكر وسائر الأشغال لأبي البهَار بن خَلُّوف يومَ الثلاثاء لخمس بَقِينَ من جمادى الأُولى[3]، فحسُنت الأُمور، وضُبِطَت الأطراف والثغور. واستقام التدبيرُ، ورأى الأمير شَرَفُ الدولة من حَزْمِه، وكفايته، وعَزْمه، وشهامته، ما لم يقم به غيره، ولا وُجِدَ عند سِواه بوَجْهٍ.

وفي سنة خمس عشرة وأربع مئة في صفر منه: وُلد للأمير شَرَف الدولة وَلَدٌ سمّاهُ كَبّابًا.

وفي شهر رجب: تزوَّجت السيدة أُمُّ العُلُوّ بنت نَصِير الدولة، أُخْتُ شَرَف الدولة. فلما كان يوم الأربعاء غُرَّةَ شعبان المكرَّم، زُيِّنَ الإيوانُ الـمُعَظَّم للسيِّدة الجليلة أُمِّ العُلُوّ، ودخل الناسُ خاصَّةً وعامَّةً، فنظروا من صُنوف الجَوْهر والأسلاك والأمْتِعة النفيسة وأواني الذهب والفضَّة ما لم يُعْمَلْ مِثْلُه، ولا سُمِع لأحدٍ من الملوك قَبْلَه؛ قال أبو إسحاق الرَّقِيق: فبَهَرَ عيونَ الخلق حالُ ما عايَنوه، وأبْهَتَهم عظيمُ ما شاهَدوه، وحُـمِلَ جميعُ ذلك إلى الموضع الذي ضُرِبَتْ فيه الأبنية والقِباب والأخبية، وحُـمِلَ الـمَهْرُ في عَشْرة أحمال على أبْغُل على كلِّ حِمْل جاريةٌ حَسْناء، وجملتُه مئة ألف دينار عَيْنًا، وذكرَ بعضُ حُذَّاق التُّجار أنّه قُوِّم ما هو لها فكانَ زائدًا على ألف ألف دينار، وهذا ما لم يُرَ قطُّ

---

(١) في ر١: «توفيت فخرج إلى».

(٢) ليست في ر١.

(٣) قوله: «يوم الثلاثاء لخمس بقين من جمادى الأولى» ليست في ر١.

لامرأة قَبْلَها بإفريقية[١]. وزُفَّت العَرُوس في يوم الخميس، ومضى بين يَدَيْها عَبيدُ أخيها شَرَف الدولة وأبيها نَصِير الدولة وجَدِّها عُدَّة العزيز بالله، ووجوهُ رجال الدولة، فكان يومًا سارت الرُّكْبانُ بمحاسن آثاره، وامتلأت البلدانُ بعجائب أخباره.

وفي هذه السنة: وقف شَرَف الدولة لهديَّة صَنْدَل والي بِسْكِرة[٢]، فعُرِضَتْ عليه، وهي ثلاث مئة حصان، ومئة فرس أُنْثَى، وبغلات منها عشرون بِسُرُوج مُحَلاَّة، ومئة حِمْل من المال. فخلع عليه وجدَّد له الولاية على بِسْكِرة.

وفي سنة ست عشرة وأربع مئة: تُوفِّي أيُّوب بن يَطُّوفَت، وحضر جنازته شَرَفُ الدولة وعَضُدُها، وهو الـمُعِزُّ بن باديس، بالبنود والطبول[٣].

وفي سنة سبع عشرة وأربع مئة: وُلِدَ للأمير شَرَف الدولة وعَضُدِها مَوْلُودٌ سمَّاه نِزارًا. وكتب إلى سائر عُمَّاله بالبشارة بذلك.

ذكْر قيام الـمُعِزّ شَرَف الدولة[٤] بالإمارة وقَطْعِه الدَّعْوة العُبَيْديَّة الشيعيَّة[٥] من إفريقية

كان الـمُعِزُّ بن باديس صغيرًا إذ ولي، وهو ابنُ ثمانية أعوام، وقيل: ابن سبعة أعوام. ورُبِّيَ في حِجْر وزيره أبي الـحَسَن بن أبي الرِّجال، وكان ورعًا زاهدًا. وكانت إفريقية كلُّها والقَيْرَوان على مَذْهَب الشيعة وعلى خِلاف السُّنَّة والجماعة، من وقت تملُّك عُبَيْد الله المهديّ لها. فحرَّض ابن أبي الرِّجال الـمُعِزَّ بن باديس على إقامة السُّنَّة[٦]، وأدَّبَه، ودلَّه على مذهب مالِك وعلى السُّنَّة والجماعة[٧]، والشيعةُ لا يعلمون ذلك،

(١) «وهذا ما لم يُر قط لامرأة قبلها بإفريقية» ليست في ر١.

(٢) معجم البلدان ١/ ٤٢٢، والروض المعطار ١١٣-١١٤، وهي بكسر الكاف.

(٣) هذه الفقرة خلت منها ر١.

(٤) «شرف الدولة» ليس في ر١.

(٥) ليست في ر١.

(٦) «على إقامة السنة» ليست في أ، م.

(٧) «وعلى السنة والجماعة» ليست في ر١.

ولا أهْلُ القَيْرَوان. فخرج الـمُعِزُّ في بعض الأعياد إلى الـمُصلَّى في زينته وحُشوده، وهو غلامٌ، فكبا به فَرَسُه، فقال عند ذلك: «أبو بكر وعُمَر رضي الله عنهما» فسَمِعَتْه الشيعةُ التي كانت في عسكره، فبادروا إليه ليقتلوه، فجاءَه[1] عَبِيدُه ورِجالُه ومن كان يَكْتُمُ السُّنَّة من أهل القَيْرَوان، ووُضِع السيفُ في الشيعة، فقُتل منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف، فسُمِّيَ ذلك الموضع بِرْكَةَ الدَّمِ إلى الآن. قال أبو الصَّلْت: وصاح بهم في ذلك الوقت صائحُ الموت، فقُتِلوا في سائر بلاد إفريقية. فوافَقَ ذلك ما قالهُ الشُّعَراء فيهم على وجه التطهير لهم، كقول القاسم بن مروان [من الوافر]:

وسَـوْفَ يُقَتَّلُـون بكُـلِّ أرْضٍ كـما قُتِلُـوا بـأرض القَـيْرَوانِ

وكقول الآخر [من الرمل]:

يا مُعِزَّ الـدينِ عِـشْ في رِفْعَـةٍ وسُرورٍ واغتبـاطٍ وجَـذَلْ
أنْتَ أرْضَيْتَ النبيَّ الـمُصْطَفَى وعَتِيقًا في الـمَلاعِينِ السِّفَلْ
وجَعَلْـتَ القَتْـل فـيهم سُـنَّةً بأقاصِي الأرْضِ في كلِّ الدُّوَلْ

وكقول الآخر [من الطويل]:

وكانتْ لهم بالشَّرْقِ نارٌ فأُطْفِئَـتْ فما مَلَكُوا بالكُفْرِ شَرْقًا ولا غَرْبـا

وحُكِيَ في قَتْل الروافِض حكاياتٌ كثيرةٌ مـمَّا رآه الـمُعِزُّ في منامه، وتأويلُ ذلك وغيره أَلْغَيْنا هنا عن ذكره خوفَ التطويل[2]. ولم يزل الـمُعِزُّ يُعمل فِكْرَه في قطع الدعوة لهم إلى أن كانت سنة أربعين وأربع مئة.

وفي سنة عشرين وأربع مئة: زحفت جموعُ زَناتة تُرِيدُ حضرة القَيْرَوان، طَمَعًا منها في الـمُلك. فلمّا بلغ ذلك الـمُعِزَّ، خرجَ إليهم بجنوده، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فانهزمت زَناتة، وقُتل منهم خَلْقٌ كثيرٌ، وفرَّ باقيهم إلى الغَرْب[3].

---

(١) في ر١: «فحماه»، ولها وجه.

(٢) في ر١: «تركنا ذكره خوف التطويل»، وعبارة: «خوف التطويل» لم ترد في أ، م.

(٣) ينظر كامل ابن الأثير ٩/ ٣٧٧.

وفي سنة إحدى وعشرين وأربع مئة: وقعت في القَيْرَوان بين الأجناد والعامَّة فتنة، فقُتل من العامَّة نحوُ المئتين.

وفي سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة: كثر الخِصْبُ والرخاءُ والأمانُ بإفريقية.

وفي سنة ثلاث وعشرين وأربع مئة: وصلت من مَلِك السودان إلى الـمُعِزِّ هديَّةٌ جليلةٌ، فيها رقيقٌ كثيرٌ، وزرافات، وأنواعٌ من الحيوان غريبةٌ.

وفي سنة خمس وعشرين وأربع مئة: كانت بإفريقية مجاعةٌ شديدةٌ[1].

وفيها: خرج الفقيه[2] أبو عِمْران الفاسيُّ إلى الحجاز[3].

وفيها: مات الظاهِر صاحبُ مصر[4] بمِصْرَ، وولي ابنه الـمُسْتَنْصِر[5].

وفي سنة ست وعشرين وأربع مئة: وصلت إلى الـمُعِزِّ بن باديس من مَلِك الرُّوم هديَّةٌ لم يُرَ مثْلُها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتِعة الديباج الفاخِر وغير ذلك.

وفي سنة سبع وعشرين وأربع مئة: زحفت زَناتة في جيوش عظيمة وجموع كثيفة، تُريد المنصوريَّة. فلقيَتْها جيوشُ الـمُعِزِّ واقتتلوا[6]، فظهرت زَناتة عليها، فانهزمتْ، ووصلت إلى ما بَيْن المنصوريَّة والقَيْرَوان. ثمَّ تلاقوا في الغَد من ذلك اليم، فثبتَتْ صُنْهاجة وثبتَتْ زَناتة[7].

وفي سنة ثمان وعشرين وأربع مئة: كسر الـمُعِزُّ زَناتة، وهزمهم وقتل منهم خَلْقًا كثيرًا.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٣٧٧.

(٢) ليست في أ، م.

(٣) هو فقيه المالكية الأشهر أبو عمران موسى بن أبي عيسى بن أبي حاج الفاسي نزيل القيروان المتوفى سنة ٤٣٠هـ (الصلة لابن بشكوال ١٣٣٧، وتاريخ الإسلام ٩/ ٤٨١-٤٨٢) وقد حج حججًا كثيرة.

(٤) من ر١.

(٥) ذكر ابن الأثير والذهبي المقريزي أن وفاة الظاهر كانت سنة ٤٢٧ (الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٤٧، وتاريخ الإسلام للذهبي ٩/ ٤٢٧، واتعاظ الحنفا ٢/ ١٢٤) فما هنا غلط محض.

(٦) ليست في أ، م.

(٧) الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٥٠.

وفي سنة تسع وعشرين وأربع مئة: خرج عسكر[1] الـمُعِزّ من القَيْرَوان إلى الزَّاب، فقتل من البربر خلقًا كثيرًا[2].

وفي سنة ثلاثين وأربع مئة: كثُر الخِصْب ببلاد إفريقية.

وفيها: مات أبو عِمْران الفاسيُّ[3] بعد عوده من المشرق.

وفي سنة إحدى وثلاثين وأربع مئة: دخلت جيوشُ مَالِطة جزيرةَ جَرْبة[4]، ففتحتْها وقَتلتْ خلقًا كثيرًا من أهلها.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة: خرج الـمُعِزُّ إلى قَلْعة حمَّاد وحاصَرَها مدَّة سنتَيْن، وأخذ بمخنق حـمَّاد فيها[5].

وفي سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة: أظهر الـمُعِزُّ الدولةَ العبَّاسيَّةَ، وورد عليه عَهْدُ القائم بأمر الله[6].

وفيها: نُكِبَ محمَّد بن محمود بن السكَّاك، وكان المتولِّي لأشغال أُمِّ الـمُعِزِّ، واستولى بها على دولته[7].

وفي هذه السنة: وصل الأميرُ نِزار بن الـمُعِزِّ إلى الحضرة، قافِلًا من سَفَره الذي هزم فيه زَناتة، فأنشده ابن شَرَف قصيدتَه التي أوَّلُها [من الكامل]:

طَلَعَتْ مـن الغَـرْبِيّ شَـمْسُ الـدِّين ... بالـسَّعْدِ والإقبـالِ والتَّمْكـينِ

---

(١) ليست في ر١.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ٤٦٠-٤٦١.

(٣) ينظر عيون الإمامة ونواظر السياسية لأبي طالب المروان ١٦٧ وتعليقنا عليه.

(٤) ينظر عنها معجم البلدان ٢/ ١١٨.

(٥) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٩٢-٤٩٣.

(٦) ذكر ابن الأثير أن المعز أظهر الدعاء للدولة العباسية سنة ٤٣٥هـ وليس في هذه السنة (الكامل ٩/ ٥٢١)، وسيأتي أن الخطبة لم تقطع لصاحب مصر إلا سنة ٤٤٠، والعجيب أن ابن الأثير ناقض نفسه وذكر في موضع آخر أن المعز بن باديس إنما خطب للقائم سنة ٤٤٠ (الكامل ٩/ ٥٦٦).

(٧) هذه الفقرة ليست في ر١.

وفي سنة ست وثلاثين وأربع مئة: مات الـجَرْجَرائيُّ[1] بمِصْرَ، وكان الحاكِم بأمر الله العُبَيْديُّ قطع يَدَيْه جميعًا، لجنْيةٍ جناها، فلم يَجْزَعْ لما أصابه. فقيل: إنَّه عَصَّب يَدَيْه إثْرَ قطعهما، وانصرف من وقته إلى ديوانه، وجلس لخدمته على عادته. فلما تُعُجِّب منه، قال: إنَّ أمير المؤمنين لم يعزلني، وإنَّما عاقبني بجنايتي! فلما بلغ ذلك الحاكِم، أقَرَّه على عمله.

وفي سنة سبع وثلاثين وأربع مئة: وردت رُسُلُ الـمُعِزِّ إلى القَيْرَوان، يُخْبِرُ أنَّه أوقع بلَوَاتة، وقَتل منهم عددًا، وغنم منهم أموالًا، فضُرِبت الطبولُ على ذلك، وفي ذلك يقولُ ابن شَرَف من قصيدةٍ أوَّلُها[2] [من المنسرح]:

بالْيُمْنِ والسعْدِ عُـدْ وبـالظَّفَرِ مُوَفَّـقَ الـوِرْدِ غـانِمَ الـصَّدَرِ

وفيها: بُني سور المنصوريَّة.

وفيها: هبَّت ريحٌ عاصفٌ بإفريقية، قَصَفتْ ما مرَّتْ به من الشجر لقوَّتها وشدَّتها.

وفي سنة ثمان وثلاثين وأربع مئة: كانت وفاة نِزار بن الـمُعِزِّ بن باديس في رَجَب، وكان عُمُره إحدى وعشرين سنة وأشهرًا.

وفيها: ولَّى الـمُعِزُّ وَلَدَه الآخر أبا القاسم، وكنَّاه العزيزَ بالله، وهو إذ ذاك ابنُ ثمانية أشهر، وتوفِّي بعد ذلك، وهو ابن سنة واحدة وثلاثة أشهر.

وفي سنة تسع وثلاثين وأربع مئة: نُكِب حبُوس بن حُمَيْد الصُّنْهاجيّ والي نَفْطة، وطُولِب بمال كثير، ونِيلَ بالمكروه والهَوَان.

وفيها: نُكِب أحمدُ بن حجَّاج قاضِي قَفْصة، فبادر بعشرة آلاف دينار، وكان مُتَصاونًا.

---

(١) هو أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي وزير الديار المصرية (الذهبي: تاريخ الإسلام ٩/ ٥٦٦، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٨٥).

(٢) «من قصيدة أولها» ليست في ر١.

وفي سنة أربعين وأربع مئة: قُطِعَت الخُطْبة لصاحب مِصْرَ[1]، وأُحْرِقَتْ بُنودُه.

قال ابن شَرَف: وأمر الـمُعِزُّ بن باديس بأن يُدْعى على منابِر إفريقية للعبَّاس بن عبد الـمُطَّلِب وتُقْطع دعوةُ الشيعة العُبَيْدِيِّين، فدعا الخطيبُ للخلفاء الأربعة، وللعبَّاس، ولبقيَّة العشرة رضي الله عنهم.

ذكر السبب في قَطْع الدعوة العُبيْديَّة من الخطبة بالقيروان وغيرها[2]

لـمّا رحل بنو عُبَيْد إلى مِصْرَ، لم يزلَ ملوكُ صُنْهاجة يخطبون[3] لهم بإفريقية، ويذكرون[4] أسماءَهم على المنابر. وتمادى الأمر على ذلك حتَّى قطع أهْلُ القَيْرَوان صلاةَ الجُمُعة فِرارًا من دعوتهم، وتبديعًا لإقامتها بأسمائهم، فكان بعضُهم، إذا بلغ إلى المسجد، قال سِرًّا: «اللَّهُمَّ اشْهَد! اللَّهُمَّ اشْهَد» ثمَّ ينصرف، فيصلّي ظُهْرًا أرْبعًا، إلى أن تناهى الحال حتَّى لم يحضر الجمعة من أهل القَيْرَوان أحدٌ. فتعطَّلت الجُمُعة دَهْرًا، وأقام ذلك مُدَّةً إلى أن رأى الـمُعِزُّ بن باديس قَطْعَ دعوتهم، فكان بالقَيْرَوان لذلك سُرورٌ عظيم.

ذِكْر وُقوع التَّصْريح بلَعْنتهم في الـخُطَب بجميع إفريقية وخَلْعهم[5]

قال ابن شَرَف: وأمر الـمُعِزُّ بِلَعْنهم في الخُطَب وخَلْعِهم. ولـمّا كان عيد الأضحى، أمر الخطيب أن يسُبَّ بني عُبَيْد، فقال: «اللَّهُمَّ وَالْعَنِ الفَسَقة الكِبار، المارقين الفُجّار، أعداءَ الدين، وأنصارَ الشيطان، المخالفين لأمرك، والناقضين لعهدك، الـمُتَّبِعين غيرَ سبيلك، المبَدِّلين لكتابك! اللَّهُمَّ وَالْعَنْهُم لَعْنًا وَبِيلًا، واخْزِهِمْ خِزيًا عريضًا طويلًا! اللَّهُمَّ وإنَّ سيِّدنَا أبا تَـمِيم الـمُعِزَّ بن بادريس ابن المنصور القائم لدينك، والناصر لسنَّة نبيِّك، والرافع للواء أوليائك، يقول مُصَدِّقًا لكتابك، وتابعًا لأمرك، مدافعًا

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٦٦، وسبق أن ذكر أن ذلك كان في سنة ٤٣٥ (الكامل ٩/ ٥٢١).

(٢) في ر١: «بأقطار إفريقية ولعنهم».

(٣) في ر١: «تخطب».

(٤) في ر١: «وتذكر».

(٥) لم يرد هذا العنوان كله في ر١.

لمن غيَّر الدين، وسلك غَيْرَ سبيل الراشدين المؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢]»، هكذا ذَكَرَ بإسقاطِ «قُلْ» وآخِرِها. قال: وأمر الأمير أبو تميم[1] الـمُعِزُّ بن باديس الخطيبَ أن يسُبَّهم على مِنْبَر القَيْرَوان بأشْنَعَ من هذا السبّ. فلما كان في الجمعة الأُخرى، أبلغ في ذلك بما فيه شفاءٌ لنفوس المؤمنين.

وفي سنة إحدى وأربعين وأربع مئة: تحرَّك الأمير أبو تَـمِيم إلى بلاد المغرب الأقصى، وترك ولده أبا الطاهر تميمًـا ابن الـمُعِزِّ على حضرة القَيْرَوان بالمنصوريَّة.

وفيها: بُنِيَت الـمُصَلَّى بالمنصوريَّة.

وفيها: ضُرب الدينار المسمَّى بالتجاريّ.

وفيها: ركب الـمُعِزُّ بن باديس المذكور[2] في أحفل جمع وأحسن[3] زيّ، وخرج إلى ظاهِر مدينة[4] القَيْرَوان. وأُخْرِجَت السِّباع بين يَدَيْه، فأُفْلِت منها سَبُعٌ، فانهزمَ الناسُ أمامه، ووقع بعضُهم على بعض، فمات منهم نحو المئتين؛ ووثب السَّبُع على رجل من كُتَّاب باب الغَنَم يُدعى بالكَراميّ، فقتله.

ذكر تبديل السكّة عن أسماءِ بني عُبَيْد

قال ابن شَرَف: وفي هذه السنة، أمر الـمُعِزُّ بن باديس بتبديل السكَّة في شهر شعبان، فنُقِشَ على الأزواج[5] في الوَجْه الواحد: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي الوَجْه الثاني: لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، وضُرب منها دنانيرُ كثيرةٌ. وأمر أيضًا بسَبْك ما كان عنده من الدنانير التي عليها أسماءُ بني عُبَيْد، فسُبِكت، وكانت أموالًا عظيمة. ثمَّ بَثَّ في الناس قَطْعَ سكَّتهم، وزوالَ أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله. وقد كان قَطَع أسماءَهم من

(١) «الأمير أبو تميم» ليست في ر١.

(٢) «بن باديس المذكور» ليست في ر١.

(٣) في ر١: «وأكمل».

(٤) ليست في ر١.

(٥) «على الأزواج» ليست في ر١.

الرايات والبنود. وكان مُبتدأ ضَرْبِ السكك بأسماء بني عُبَيْد الله ورَسْمِها في الرايات والطّرز سنة ست وتسعين ومئتين، إلى أن قطعها الـمُعِزُّ المذكور سنة إحدى وأربعين وأربع مئة المذكورة، وذلك مئة سنة وخمس وأربعون سنة.

وفي شوَّال من هذه السنة: نادى مُنادٍ بأمر السلطان أبي تميم: إنَّه مَنْ تصرَّف بمال عليه أسماءُ بني عُبَيْد نالَتْه العقوبةُ الشديدة، فضاقت الحالُ بالفقراء والضعفاء، وغلت الأسعار بالقَيْرَوان. وكان الدينارُ القديم بأربعة دنانيرَ ودرهمَيْن، وكان صَرْفُ الدينار الجديد خمسة وثلاثين درهمًا.

وفي هذه السنة: نُكِبَ القائد عبَّاد بن مروان الملقَّب بسيف الـمُلْك، وكان من الخاصَّة، ودُفع إلى أعدائه، وأُمر باستخراج أمواله، والقبض على جميع من استعمله في أعماله، وبعد ذلك، أُلْقِيَ في سِرْداب مُظْلِم حتَّى مات فيه.

وفيها: وردت الأخبار بالقَيْرَوان بموت القائد حمَّادٍ بقلعته، فقال ابنُ شَرَف من قصيدة [من الخفيف]:

لا جُنُـودٌ إلَّا جنُـود الـسُّعودِ ... مُغْنِيـاتٌ عَـنْ عُـدَّةٍ وعَدِيـدِ

وفي سنة اثنتين وأربعين وأربع مئة: اصطلح أهْلُ القَيْرَوان وأهْلُ سوسة، وقد كانت جَرَتْ بينهم وَحْشَةٌ، فصنعَ القَيْرَوانيُّون للسُّوسيّين دَعَواتٍ غُسِلَتْ فيها الأيدي بماء الورد، ومُسحت بمناديل الشرب.

وفي هذه السنة: ولَّى الأميرُ أبو تميم ولده أبا الطاهر بن الـمُعِزِّ عَهْدَه.

ذكر ولاية العَهْد لتميم ابن السلطان(١) الـمُعِزّ بن باديس

قال ابن شَرَف: وخطب الخطيبُ يومَ الجمعة على جامع القَيْرَوان، فدعا للسلطان الـمُعِزّ بن باديس لولده أبي الطاهر وَلِيّ عهده، ثم قال: «اللَّهُمَّ أصْلِحْ عبدك ووليَّك أبا الطاهر تميمَ ابن الـمُعِزّ، الطاهرَ من كُفر مَعَدّ ابن الظاهر!» يعني صاحبَ مصر.

وفيها: كان خروج الفقيه الزاهد الواعظ أبي عبد الله بن عبد الصَّمَد من القَيْرَوان في شهر رَجَب، ووَكَّلوا به رجالًا توجَّهوا معه إلى مدينة قابس، وكانت الرفقة خارجةً

(١) ليست في أ، م.

من القَيْرَوان إلى مِصْرَ، فأمر أن ينتظرَها بمدينة قابس إلى أن يصحبها. وكُوتب عاملُ قابسَ بأن لا يترك من يدخل إليه، ولا من يُسلِّم عليه، ولا يخرج من موضعِ نزوله إلَّا في[1] يوم سَفَره، فخرج وهو غير آمِنٍ على نفسه، ثمَّ قُتِلَ[2] في طريقه ذلك، وكان رجلًا واعظًا، يَعِظُ الناس، فيجتَمِعون إليه، ويسمعون كلامه، وكان له لسانٌ وحِدَّةٌ فحذَّره الـمُعِزُّ. واجتمع عليه بعضُ فقراء القَيْرَوان، واستبشعوا ألفاظًا ذكرها، فرفعوا رِقاعَهم إلى الـمُعِزِّ بذلك، فكان سَبَبَ نَفْيِه وحَتْفِه. وكان أبوه يَعِظُ بجامع مِصْر في ذلك الوَقْت، إلى أن نُعِيَ له ابنُه هذا، فحجَّ في تلك السنة، فقيل: إنَّه كان يطوفُ بالكعبة، ويصيح[3]، فيقول: «يا رَبِّ الـمُعِز عليك به! يا رَبِّ عليك بابن باديس!» فكانت الهزيمة على الـمُعِزِّ في اليوم الثاني من دُعائه، وكان ذلك سَبَبَ خَراب مُلكه ودمار القَيْرَوان حضرته[4]، فلم يشكَّ أحدٌ في إجابة دَعْوَته.

وفي سنة ثلاث وأربعين وأربع مئة: كان لباسُ السواد بالقَيْرَوان، والدعاءُ لبني العبَّاس؛ قال ابن شَرَف: وفي جُمادى الآخرة، أمر الـمُعِزُّ بن باديس بإحضار جماعة من الصبَّاغين، وأخرج لهم ثيابًا بِيضًا من فُنْدَق الكَتَّان، وأمرهم أن يصبغوها سُودًا، فصبغوها بأحْلَكِ السَّواد، وجمع الخيَّاطين، فقطعوها أثوابًا[5]، ثمَّ جمع الفقهاءَ والقُضاةَ إلى قصره، وخَطِيبَي القَيْرَوان وجميعَ الـمُؤذِّنين، وكساهم ذلك السواد، ونزلوا بأجمعهم، وركب السلطان بعدَهم حتَّى وصل إلى جامع القَيْرَوان، ثمَّ صَعِدَ الخطيبُ الـمِنْبَرَ، وخطب خُطْبَةً أتى فيها على جميع الأمر بأجزل لَفْظ وأحسن مَعْنى، ثمَّ دعا لأبي جعفر عبدِ الله القائم بأمر الله العبَّاسي، ودعا للسلطان الـمُعِزِّ بن باديس، ولولده أبي الطاهر تَـمِيمٍ[6] وَلِيِّ عهده من بعده، ثمَّ أخزى بني عُبَيْد الشيعة ولَعَنَهم.

---

(١) ليست في ر١.

(٢) في ر١: «فقتل».

(٣) ليست في ر١.

(٤) كذلك.

(٥) كذلك.

(٦) كذلك.

ذكرُ ما قيل من أخبارهم

قال أبو عبد الله محمَّد بن سَعْدُون بن عليّ في تأليفه[1] «في تعْزِية أهْل القَيْرَوان بما جرى على البُلْدان من هَيَجان الفِتَن وتَقَلُّب الأزمان»، قال فيه: بابٌ أذْكُرُ فيه أوَّلَ من وضع هذه الدعوةَ التي شرع فيها عُبَيْد الله وذُرِّيتُه، والسببَ الذي دعاهم لذلك، وبابٌ أذْكُرُ فيه تَسْيِيرَهم الرُّكْبان بدَعْوتهم ودُعاتهم إلى البلدان، وبابٌ أذْكرُ فيه عُبَيْد الله ونَسَبَه وانْتِماءَه إلى النبيِّ ﷺ كاذِبًا وسَبَبَ مِلْكِهِ الـمَغْرِبَ كلَّه[2].

قال: فأوَّلُ من نصب هذه الدعوة، جَدُّ عُبيد الله وهو عبد الله بن مَيْمون القدَّاح الأهْوازيُّ[3]، لعنه الله، وكان أبوه ميمون تنتسب إليه فرقةٌ من أصحاب أبي الخطَّاب، تُعرف بالـمَيْمُونيَّة. وذكر من جُملة كلامه قال: وكان عبدُ الله ادَّعى لنفسه النُّبُوة، فقُصِد لسفك دمه، فاختفى، ثمَّ هربَ من وطنه، وفرَّ على وجهه، متنقلًا في البلاد، مستترًا، يستر اسمَه ومذهَبه؛ لئلاَّ يُقتل إن عُرِف، إلى أن وافته منيَّتُه بأقبح علَّة في الشام، وأراحَ اللهُ منه. وأُخذ جماعةٌ من أصحابه، فقُتلوا عن آخرهم.

ثم ذكر دُعاتَهم، وما كان منهم مع غُواتهم، فقال: فمنهم رَجُلانِ، أحَدُهما يُعرف بالنجَّار الكُوفيّ، فخرجا من الشام، وتغلَّبا على اليَمَن، فأنزل الله عليه الأكِلَة، فتقطَّع قِطَعًا حتَّى مات، وخلَّف ابنًا له، فكان يكتب إلى أصحابه: «مِن ابْنِ رَبِّ العالمين» تعالى اللهُ عن قوله، فسار إليه ابنُ نُصَيْر، فأظفره الله به، فقتله، ودخل مدينته، فانتهبها، وسباها. وأمَّا الكوفيُّ، فرماه اللهُ تعالى بداء في جوفه، فكانت أمْعاؤه تخرج من دُبُره، حتَّى مات.

وأمَّا بالشام، فذكر جماعةً أبادهم اللهُ تعالى، وكذلك بالبَحْرَيْن أيضًا. ثمَّ قال: وإنَّما دعاهم لهذا الكفر عبدُ الله بن مَيْمون القدَّاح؛ لأنَّه صحب قِرْمِطًا، ودعاه إلى مذهبه، فطاوعه على ذلك، وقد اشتهرَ استخفافُهم بالدِّين، وكثرت به الأخبار والأحاديث. وكان مـمَّن أظهر مذهبهم، وأعلن به: أبو عُبَيْد الـجَنَّابِيّ، وَقْتَ تغلُّبه على البَحْرَيْن،

---

(١) بعد هذا في أ: «وتصنيفه».

(٢) ليست في ر١.

(٣) ينظر تاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ١١٤٢.

فإنَّه وضع عنهم جميعَ الفرائض، وأعلن بالزنا، واللواط[١]، والكَذِب، وشُرْب الخمر، وتَرْكِ الصلاة. وكذلك صَنَعَ الأَصْبَهانيُّ، وحرَّم على الغِلْمان[٢] الامتناع ممَّن أراد أن يفعل بهم[٣]، وجعل حَدَّ من امتنعَ منهم الذَّبْحَ، لعنه الله، وكانت له ليلةٌ تُسمَّى الإمامية، يجمع فيها نساءَه ونساءَهم، فمن وُلِدَ من تلك الليلة يسمَّى وَلَدَ الإخوان.

قال: وقد ادَّعى الحاكِمُ من بني عبيد الله الرُّبوبيَّة[٤]، وجعل رجلًا سمَّاه بالهادي يدعو الناس إلى ذلك، وادَّعى معَدٌّ منهم النبوة، وجعل من نادَى فوق صَوْمَعة جامع القَيْرَوان: «أشهدُ أنَّ مَعَدًّا رسولُ الله!» فارتجَّ البلدُ لذلك، وداخَلَ أَهْلَه الرُّعْبُ، فأرسل من سَكَّنَ الناسَ، وكلُّ مَن كانوا يرسلونه إلى بلدٍ، فإنَّما يأمرونه بإظهار الإسلام والخير، حتَّى يتمكَّن ممَّا يُريد.

وأمَّا نَسَبُ عُبَيْد الله الذي تلقَّب[٥] بالمَهْديِّ، فإنَّ اسْمَه سعيد، وإنَّما تسمَّى بعُبَيْد الله ليُخْفِي أمره؛ لأنَّه كان عليه الطلبُ من الحُسين بن أحمد بن محمَّد. وكان لمحمَّد هذا ولدٌ يُلَقَّب بأبي السلَعْلَع[٦] بن عبد الله بن مَيْمون القدَّاح، فبعث بداعِيَيْنِ أخَوَيْنِ إلى المغرب، فنزلا في قبيلة تُعرف بكُتامة، فدَعَوا أهْلَها، فاستجابوا لهما[٧]: أحدُهما حُسَيْنٌ، يُكْنَى بأبي عبد الله الشيعيّ، وسمَّوه المُعَلِّم، والآخر سمَّوه المُحْتَسِب، وهو أبو العبَّاس المخطوم[٨]، المتقدِّم ذكرُهما[٩] فأظهرا من أنفسهما الزُّهْد والوَرَع،

---

(١) ليست في ر١.

(٢) في ر١: «الصبيان».

(٣) ليست في ر١.

(٤) في هذا مبالغة، وقد ذكر الذهبي أن الحاكم أراد أن يدعي الإلهية وشرع في ذلك، فكلمه أعيان دولته وخوفوه بخروج الناس كلهم عليه، فانتهى (تاريخ الإسلام ٩/ ١٩٩).

(٥) في أ، م: «تسمى»، وما أثبتناه من ر١، هو الأوفق.

(٦) في ر١: «بالبلعلع».

(٧) ليست في أ.

(٨) ليست في أ.

(٩) «المتقدم ذكرهما» ليست في ر١.

حتَّى افتتحا بالكَذِب والخُرْبة بلادَ إفريقية. وسار أبو عبد الله إلى سِجِلْماسة، فأخرج عُبَيْدًا من حَبْسها، فلما اجتمع به، سلَّم الأمر إليه، وانسلخ[1] له منه، فلم يلبث إلَّا يسيرًا وقتله بنو أخيه.

ولـمّا وصل عُبيد الله، لعنه الله، إلى رَقَّادة، أرسل إلى القَيْرَوان من أتاه بأبي إسحاق إبراهيم بن محمَّد المعروف بابن البِرْذَوْن وبابن هُذَيْل، وكانا من العُلماء الخاشعين لله. فلمّا وصلا إليه، وجداه على سرير مُلكه جالسًا، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعيُّ الذي وَلَّاه الـمُلك وسلَّم له فيه، وعن يساره أبو العبَّاس أخوه. فقال لهما أبو عبد الله وأخوه: «اشهدا أن هذا رسولُ الله» فقالا جميعًا بلفظ واحد: «والله الذي لا إله إلَّا هو لو جاءَنا هذا، والشمسُ عن يمينه، والقمرُ عن يساره، وينطقان، فيقولان: إنَّه رسولُ الله، ما قلنا: إنَّه هو»، فأمر عُبيد الله، لعنه الله، عند ذلك بذبحهما وربطهما في أذناب الخَيل، وأن يُشَقَّ بهما سِماطُ القَيْرَوان، ففُعل ذلك بهما، رحمة الله عليهما.

وقال أبو عبد الله الشيعيُّ يومًا لأبي عثمان سعيد ابن الحدَّاد العالِمِ: «القرآن يُخبِر أنَّ محمَّدًا ليس بخاتم النبيِّين في قوله: ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فخاتمُ النبيين غيرُ رسول الله. فقال أبو عثمان: هذه الواو ليست من واوات الابتداء، وإنَّما هي من واوات العَطْف، مثلُ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. وقال له مرَّةً أُخرَى: إنَّ الله أخبر أنَّ أصحاب محمَّد ﷺ يَرْتَدُّون لقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِـلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]»، فقال أبو عثمان: هذا إنَّما هو على الاستفهام، كقوله سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَـإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ولـمّا تمكَّن عُبَيْد الله الشيعيُّ من الـمُلْك، قتل أبا عبد الله الداعيَ، وأخاه، وانتقم اللهُ منهما على يدَيْ مَنْ سَعَيَا له، وقتلا الخَلْقَ بسببه، حتَّى أخرجاه من حَبْس سِجِلْماسة، وسلَّما له في الـمُلْك، ولم يُقيما معه إلَّا سنةً أو نَحْوَها، ثمَّ سلَّطه اللهُ على كبار كُتَامَةَ الذين سَعَوْا في إقامة مُلْكه، فقتلَ جميعَهم. ثمَّ تمادت دولته ودولةُ أبنائه نحو ثلاث مئة سنة، ملكوا من مَضِيق سَبْتَة إلى مَكَّة، شرَّفها الله؛ لأنَّ[2] عُمَّـاله

(١) من هنا إلى آخر الفقرة ليست في ر١.

(٢) من هنا إلى قوله: «ويرجعون» ليست في ر١.

كانوا يَصِلُون إلى مَضِيق سبتة، فيعاينوها، ومن هناك يرجعون. وهذا دليلٌ على هَوَانِ[1] الدنيا على الله وصِغَرِ قَدْرها عنده؛ إذ مَكَّنَ فيها لهؤُلاءِ الكَفَرة الفُجَّار يَسومون أولِيَاءَ الله سُوء العَذَاب، والعمادُ القيامة، والحاكم الله[2].

وخرجَ في دولة عُبَيْد الله شيخٌ للسَّفَر، ومعه خيلٌ، فباتوا في مسجد بخيولهم. فقِيلَ لهم: كيف تُدْخِلون خيولَكم المسجدَ؟ فقال لهم الشيخ وأصحابُه: إن أرواثَها وأبوالَها طاهرةٌ؛ لأنَّها خيلُ الـمَهْديّ. فقال لهم القَيِّم بالمسجد: إنَّ الذي يَخرج من المهديّ غير طاهر[3] فكيف الذي يَخرج من خيله؟ فقالوا له: طَعَنْتَ على المهديّ. فأخذوه وذهبوا به إليه، فأخرجه عشيَّة جُمُعةٍ، فقتله. فلمّا قُرِّب للموت، دعا عليه، فأجاب الله دُعاءَه. فامْتَحَنَه بعِلَّةٍ قبيحةٍ يُقال لها: حبُّ القَرْع، وهي دُودٌ على صورة حَبِّ القَرْع في آخِرِ مَخْرَجه، تأكل أحشاءَه وما والاها، فكان يُؤْتى بأذناب الكِباش العظيمة، فيستدخلُها في نفسه، لتشتغل عنه الدُّود بها، فيَجِدُ لذلك بعضَ راحةٍ لشُغْلها بالأذناب، ثمَّ يُخرج الأذناب، وقد هَتَكَتْها الدُّود، يُدخل أُخرى في دُبُره، ثمَّ لم تزل الدُّودُ تأكل حتَّى انقطعت مَذَاكِرُهُ، وهَلَكَ. ولـمّا هلك، أُتِيَ بابن أُخْتِ الغَسَّانيّ الـمُقْرِئ ليقرأ عند رأسه، وكان من أطْيَب الناس قراءَةً، وحَوْلَ عُبَيْد الله أبناؤُه يبكون عليه، فقال البَغْدَاديُّ للغَسَّانيِّ: اقْرأ. قال: فطلبتُ ما أقرأُ من القرآن، فلم أتذكَّرْ منه إلا قَوْلَه تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، إلى آخر الآية. قال: فطلبتُ غير هذه الآية أقرأُهُ، فلم أقدر، فكنتُ أُرَدِّدُها حتَّى خشيتُ على نفسي أن يُفيقوا من بُكائهم، فيتأمَّلُون قِراءَتي، فيقتلوني، فتسلَّلْتُ وخرجتُ.

وذُكِرَ أنَّ الحَجَر الأسود أرْسَلَهُ اللعين الـجَنَابيُّ إلى عُبيد الله بالمهديَّة، فلم يلبَثْ إلَّا أيَّامًا وهلك كما ذكرنا. فلما دُفن، طَرَحَتْه الأرض، ثمَّ دُفن[4]، فطَرَحَتْه الأرض ثلاثًا.

---

(١) في أ، م: «أن هوان»، وما هنا من ر١، وهو أوفق.

(٢) «والعماد القيامة والحاكم الله» ليست في ر١.

(٣) في ر١: «نجس».

(٤) «ثم دفن» ليست في ر١.

فقيل لابنه أبي القاسم: إنَّ هذا لأجْل هذا الـحَجَر، فارْدُدْهُ حيث كان. فأمر بإخراجه وردِّه إلى موضعه، فعند ذلك استقرَّ عُبيد الله[١] في قبره.

ثمَّ ولي ولدُه أبو القاسم من بعده، فلم يزل في شُغْل وحُزْن، وبعثَ الله عليه أبا يزيدَ مَخْلَد بن كَيْدَاد، فقهرَهُ وخرجَ عليه وقتل جنودَه، وقام المسلمون معه[٢] عليه، كما تقدَّم ذكره. ولـمّا كان يومُ جُمُعةٍ، طلع الإمام على المنبر، وهو أبو إبراهيم أحمدُ بن محمَّد بن أبي الوليد، فخطب خطبةً بليغةً، وحرَّض الناسَ على جهاد الشيعة، ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ إنَّ هذا القِرْمِطيَّ الكافرَ المعروفَ بعُبيد ادَّعى الرُّبُوبيَّة من دون الله، جاحِدًا لنعمتك، كافرًا برُبُوبيَّتك فانصرنا اللَّهُمَّ عليه، وأرِحْنا منه ومن دولته، وَاصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا، بعد أن تجعلَه في دُنياه عِبْرَةً للسائلين، وأحاديثَ في الغابرين، وأهْلِكِ اللَّهُمَّ شيعتَه، وشَتِّتْ كلِـمَتَه!» ومات أبو القاسم بن عُبيدالله مَحْصُورًا، وفي نفسه مقهورًا[٣].

ثمَّ ولي بعده ابنُه إسماعيل، فأظهرَ للعامَّة الجميلَ. فلمَّـا استَفْحَلَ أمْرُه، وقويتْ شوكتُه، أرادَ أن ينتقمَ من الـمُسلمين فيما تقدَّم لهم من حَرْبه وحرب أبي القاسم والدِه، فحالَ الله، عزَّ وجلَّ، بينه وبين ما أرادَ، وأجاب دعاءَ المؤمنين فيه، فأهلكه الله بالعطش، حتَّى ماتَ.

ثمَّ وَلِيَ ابنُه مَعَدٌّ، فادَّعى النُّبُوةَ، وصوَّت المؤَذِّنُ بذلك فوق صَوْمَعة القَيْرَوان بأمره، فضجَّ المسلمون لذلك، فلمّا بلغه ذلك[٤]، داخله الرُّعْبُ، وأرسل إلى الناس يُـهَدِّؤهم إلى أن خرجَ إلى مِصْرَ، فدخلها بالـمُنْكَر والبَغْي، فابْتَلاه اللهُ بعِلَّةِ الاستِسْقاء، فكان الذي يقعد عند رأسه لا يَرَى رجلَيْه، وسالت عَيْناهُ، وسقطت أسنانُه، وأراه اللهُ العِبْرَةَ في نفسه، ثمَّ مات.

---

(١) ليست في ر١.

(٢) كذلك.

(٣) «وفي نفسه مقهورًا» ليست في ر١.

(٤) ليست في ر١.

ووليَ بعده نِزارٌ الـمُكْنَى بأبي المنصور، فحَدَثَ في أيَّامه من سَبِّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ما حَدَثَ، ثمَّ تشوَّفت نفسُه مع أحواله الدنيَّة، إلى أن يستحضر العلماءَ من أهل القَيْرَوان، ثمَّ حدث عليه بالشام ما أشغله، فخرج إليها، فلما وصل إلى بِلْبيس(1)، مات في مِرْحاض الحمَّـام.

ثمَّ ولي بعده الحاكِم، فأظهر أكْثَرَ مذهبهم، فكان مـمَّا أحدث أنَّه بنى دارًا، وجعل لها أبوابًا وطِباقًا، وجعل فيها قُيُودًا وأغلالًا، وسمَّاها جَهَنَّمَ، فمن جَنَى جِنايةً عنده، قال: أدْخِلُوهُ جَهَنَّمَ!، وأمر أن يُكتب في الشَّوَارِع والجوامِع بسبِّ الصحابة، ولعْنِهم ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين. ثمَّ أرسل داعيًا إلى مكَّة، فلمّا طلع المنبر، وذكر ما ذكر، اقتحم عليه بنو هُذَيْل، فقُطِّع قِطْعَةً قِطْعَةً، وكُسِر المنبرُ، وفُتِّتَ، حتَّى لم يجتمع منه شيءٌ. ثمَّ أرسل رجلًا خُراسانيًّا من بني عَمِّه، فضَرب الحَجَرَ الأسود بدَبُّوس، فقُتل من حينه، وأخذه الناسُ قِطْعةً قطْعةً، وأُحرق بالنار. وأرسل، لعنه الله، إلى مدينة الرسول ﷺ مَنْ يَنْبش القبر المعظَّم، فسَمِعَ الناس صائحًا يقول: «القبر يُنْبَش» ففتَّشه الناسُ، فوجدوه وأصحابَه، فقتلوهم. ثمَّ إنَّه ادَّعى الرُّبُوبيَّة من دون الله، وجعلَ داعيًا يدعو الناسَ إلى عبادته، وسمَّاه المهديَّ، فكتبَ داعيه الكتابَ، وكان اسمُه حمزة، وذلك في(2) سنة عشر وأربع مئة، وقُرِئَ بحضرة الحاكِم لعنه الله، على أهل مملكته، ذكر فيه، تعالى اللهُ عن إبطال الـمُبْطِلين علوًّا كبيرًا: «الحمدُ لمولاي الحاكِم وَحْدَهُ، باسمك اللَّهُمَّ الحاكِم بالحقِّ» ثمَّ تمادى، فقال: «توكَّلتُ على إلهي أميرِ المؤْمنين، جَلَّ ذِكْرُهُ وبه نَسْتَعينُ في جميع الأُمور»، ثم طوَّل في الكتاب بالتخليط: فمرَّةً يجعله أميرَ المؤْمنين، ومرَّةً يجعله الإِلٰهَ، وقال فيه: «وأمرني بإسقاط ما لا يلزمكم اعتقادُه من الأديان الماضية، والشرائعِ الدارسة» وذكر قبائحَ(3) يطول ذكرُها. وكانت

---

(1) في م: «السبر» وفي ر1: «المنسير» وكله تحريف صوابه ما أثبتناه من وفيات الأعيان 5/ 374، وتاريخ الإسلام 8/ 601 وغيرهما.

(2) ليست في ر1.

(3) في أ، م: «أشياء».

له رايةٌ حمراءُ تحت قصره، فاجتمع إليه خلقٌ نحو خمسة عشر ألف رَجل فيما قيل، ثمَّ إنَّ رجلًا من التُّرْك قتل كاتِبَه حَمْزة، فأظهر الحاكِمُ أنَّه أمر بقتله. وكان الحاكِمُ كثيرَ التصرُّف بالليل إلى جبل الـمُقَطَّم على حمار، فخرج ليلةً[١]؛ فقُتِلَ هو وحمارُه.

ثمَّ وَلِيَ بعده عليٌّ المتلقِّب بالظاهِر، فكان مشتغلًا بالشُّرب، منهمكًا فيه، يلبس ثياب النِّساء، حتَّى يظنَّه الناسُ إذا مشى مَعَهُنَّ امرأةً، ثمَّ أصابه الاستسقاءُ، حتَّى صار كالعَدْل، فمات.

ثمَّ ولي بعده مَعَدٌّ الملقَّب بالـمُسْتَنْصِر، فمرَّةً يُظهر السبَّ، ومرَّةً يكفُّ ويُسكِّنُ الناسَ، فإذا مشى في جنوده، كان بين يديه الشَّبَّابة ومَنْ يُنشد الشِّعر. وذُكر أنَّه أرسل مَن كتب السَّبَّ في أستار الكعبة في ليلةٍ ظَلْمَـاءَ، فأصبح الناس، فوجدوه، فضجَّ المسلمون لذلك، وأكثروا البكاءَ لسبِّ الصحابة، رضي الله عنهم.

قال ابن سَعْدُون: وعلى هذا بَنَوْا أصْل مَذْهَبهم[٢] أنَّهم يُظهرون الدِّين والخير، حتَّى يتمكَّنوا. قال المؤلِّفُ: انتهى ما لَـخَّصْتُه من كتاب ابن سَعْدُون.

وذكر ابن القَطَّان عنهم أنَّهم قومٌ من الرافِضة، يَدَّعُون النَّسَب إلى عليّ، رضي الله عنه، وأكثرُ اعتقاداتهم كُفْرٌ. ولـمّا مات الـمُسْتَنْصِر ابن الظاهِر، وَلِيَ بعده ولدُه[٣] الملقَّب بالـمُسْتَعْلِي[٤]، وكان أشْبَهَ من غيره سياسةً، لا دينًا. فلما توفِّي هو، ووزيرُه الأفْضَل، استبدَّ ولدُه وتسمَّى بالآمِر بحُكْمِ الله[٥]. وكان جبَّارًا عنيدًا ظالـمًا جائرًا، وكَثُرَ في زمانه دَعْوَى الباطل، ونَصْرُ الظالم على المظلوم، وإعانَتُه على ظلمه. واستخلص لنفسه فَتَـيَيْنِ من الفِتْيان الوضاءِ[٦] الوجوه، اتَّخذهما للفاحشة، وكان رِزْقُ كلّ واحد

---

(١) في أ، م: «ليلًا».

(٢) في أ: «أصلهم».

(٣) ليست في ر١.

(٤) المنتظم لابن الجوزي ٩/ ١٣٣.

(٥) ينظر اتعاظ الحنفا ٣/ ٢٩ وهو الآمر بأحكام الله.

(٦) في ر١: «الحسان».

منهما ألفَ دينار في كلّ يوم، وكان يعمل النزاهة[1]، ويبيح للناس فيها المحظُورات، فلا يشاءُ مُؤْمِنٌ أن يعاين مُنْكَرًا مُباحًا إلاّ عايَنَهُ.

ثمَّ ولي بعده عبدُ المجيد، الملقَّب بالحافِظ لدين الله[2]، ابن الـمُستنصِر، بويع في اليوم الذي قُتل فيه الآمِر، وخُطِب له على المنابر، ووزر له أبو عليّ أحمد[3] ابن الأفضل أمير الجيوش، ثمَّ استولى أبو عليّ على الأمِر.

وجملة الحال من سنة ست وعشرين إلى سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة، كانت لهم فيها محاولات شنيعةٌ وأمورٌ فظيعةٌ، منها[4] قَتْلُ الآمِر، وانتزاءُ قاتِله حِرْزَ الـمُلوك، وقَتْلُه، واستيلاءُ ابن الأفْضَل، وقَتْلُه، وظهورُ عبد المجيد، وما كان من الأُسْقُف من النَّفَر، والأمر بعبادة عبد المجيد وقَتْله، ثمَّ استيلاءُ حُسين بن عبد المجيد، والقيامُ عليه، إلى أن قَتَلَ نفسه بسمٍّ، ورجوعُ عبد المجيد إلى الولاية.

رَجْعُ الخَبَر: وفي سنة ثلاث وأربعين وأربع مئة: وردت الأخبار أنَّ محمَّد بن جَعْفَر الكُومِيَّ ولي القضاءَ بمصرَ، ولُقِّبَ قَاضِيَ القُضاة ودَاعِي الدُّعاة. قال ابن شَرَف: فنعوذُ بالله من سوءِ العاقِبة! لأنَّ قاضيَ القوم منهم وعلى مذهبهم، يعني الشيعة.

وفيها: وصلت إلى القَيْرَوان مُكاتَبَةٌ من الأمير جُبَارة بن مُختار العَرَبيّ[5] من بَرْقة بالسَّمْع والطاعة للمُعِزِّ بن بادِيس، وأخبر أنَّه وأهْلَ بَرْقة قد أحرقوا المنابِرَ التي كان يُدْعَى عليها للعُبَيْدِيَّة، وأحرقوا راياتِهم، وتبرَّؤوا منهم، ولعنوهم على منابرهم، ودعَوْا للقائم بأمر الله العبَّاسيّ.

وفي هذه السنة: كان أوَّلُ الفتنة بإفريقية.

---

(١) في ر١: «النزاهات».

(٢) اتعاظ الحنفا ٣/ ١٣٥.

(٣) ينظر الكامل لابن الأثير ١٠/ ٦٧٢-٦٧٣، وتاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٤٣٣-٤٤٤ في وفيات سنة ٥٢٦هـ.

(٤) بعض ما يأتي كان قبل سنة ٥٢٦ مثل قتل الآمر.

(٥) في ر١: «العز في» وليس بشيء، وجبارة بن مختار هذا أمير عرب برقة، وينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٦٦ فما بعدها.

ذِكْرُ طرَفٍ من الفِتْنة العظيمة[1] ودمارِ القَيْرَوان

قال ابن شَرَف: لـمّا آل الأمر إلى التَّصريح بلعنة بني عُبَيْد على المنابِر، وأمرِ الـمُعزِّ بن باديس بقتل أشياعهم، أباح بنو عُبَيْد للعَرَبِ مَجازَ النِّيل، وكان قَبْلَ ذلك ممنوعًا، لا يجوزُه أحَدٌ من العرَب، ثمَّ أمر لكلِّ جائزٍ منهم بدينار، فجاز منهم خَلْقٌ عظيم، من غير أن يأمرهم بشيء؛ لعلمه أنَّهم لا يحتاجون لِوَصِيَّةٍ، فجازوا أفواجًا، وأقاموا بناحية بَرْقة. ومضت الأيَّامُ على ذلك مُدَّةً. ثمَّ قدم منهم مُؤْنِس بن يحيى الرِّيَاحيُّ[2] على المعزّ، وكان الـمُعِزُّ كارهًا لإخوانه صُنْهاجة، مُحِبًّا للاستبدال بهم، حاقدًا عليهم، ولم يكن يُظهر ذلك لهم. فلَطُفَ عنده محلُّ مُؤْنس هذا، وكان سَيِّدًا في قومِه، شجاعًا، عاقلًا، فشاوره الـمُعِزُّ في اتِّخاذ بني عَمِّه رِيَاح جُندًا، فأشار عليه بأن لا يفعل ذلك، وعرَّفه بقلَّة اجتماع القوم على الكَلِمة، وعَدَمِ انقيادِهم إلى الطاعة، فألَحَّ عليه في ذلك، إلى قال له الـمُعِزُّ: إنَّما تريد انفرادَك؛ حَسَدًا منك لقومك. فعزم مؤنس على الخروج إليهم، بعدما قدَّم العُذْرَ، وأشْهَدَ بعضَ رجال السلطان، ثمَّ رحل متوجِّهًا نحوهم، فنادى في القوم، وحَشَدَهم، ووعدهم، وغبطَهم، ووصف لهم كرامةَ السلطان والإحسان لهم، ثمَّ قَدِم في رَكْبٍ منهم، لم يعهدوا نعمةً، ولا طالعوا حاضرةً، فلمَّا انتهوا إلى قَرْيةٍ، تنادَوْا: «هذه القَيْرَوان!» ونهبوها من حينها.

فلمّا ورد الخبر على القَيْرَوان، عظم الأمر على الـمُعزّ بن بادِيس وقال: إنَّما فَعَلَ مُؤْنِسٌ هذا[3] ليُصَحِّحَ قَوْلَه، ويُظْهِرَ نُصْحَهُ. فأمر بِثِقاف أولاده وعياله[4]، وختم على داره، حتَّى يعلمَ ما يكون من أمره، فلمَّا بلغ مُؤْنِسًا ما فعل بأهله وولده، اشتدَّت نِكايتُه، وعَظُمَ بلاؤُه، وقال: قَدَّمْتُ النصيحة فحَاقَ الأمْرُ بي، ونُسِبَت الخطيئَةُ إليَّ! فكان أشَدَّ إضرارًا من القوم. وكان قد علم عَوْراتِ القَيْرَوان. ثمَّ أخرج السلطانُ

---

(١) «العظيمة» ليست في ر١.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٦٢-٦٣، ١٥٩، واتعاظ الحنفا ٢/ ٢١٧.

(٣) ليست في ر١.

(٤) هكذا في النسختين، وكأنه يريد: بالتحوط على أولاده وعياله.

إليهم بَعْضَ الفُقهاء، ومعهم مكاتبات وشروطٌ ووَصَايا، وأعلموهم أنَّ السلطان قد[1] دفع عِيَالاتِهم لهم، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق بالرجوع إلى الطاعة، وأرسلوا شيوخًا منهم بذلك، ثمَّ بعد ذلك نكثوا[2] على السلطان، واستولَوْا على الفساد بكلِّ جهة ومكان.

ذكر هزيمة العَرَب للمُعِزّ بن بَادِيس[3]

لـمّا كان ثاني عيد الأضْحَى من هذه السنة، كانت الداهيةُ العُظْمَى والـمُصيبة الكُبْرَى، وذلك أنَّ السلطان عيَّد يومَ الاثنين، ومَشَى صباحَ هذا اليوم إلى ناحية قرية تُعرف ببني هِلاَل، فلما كان نصف النهار، أَتَتْه الأخبار أنَّ القومَ قد قربوا منه بأجمعهم. فأمر بالنزول في أوعارٍ وأوديةٍ، فلم يستتمَّ النزول حتَّى حَمَلَ العَرَبُ عليهم حملةَ رَجُلٍ واحدٍ، فانهزم العسكر[4]، وصبر الـمُعِزُّ صبرًا عظيمًا، إلى أن وصلت رماحُ العَرَب إليه، ومات من العَبِيد[5] بين يَدَيْه خلقٌ عظيمٌ فَدَوْه بأنفسهم. وأمَّا بنو مَنَاد وجميعُ صُنْهاجة وغيرُهم من القبائل، فإنَّهم فرُّوا وانتَهبت العرَبُ مضارِبَهم، ودخل العَرَبُ مُعَسْكَر الـمُعزّ[6]؛ فحازُوه، وفيه من الذهب والفضَّة والأمتعة والأسباب والأثاث والخفّ والكراع ما لا يعلم عَدَدَه إلَّا الله. وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف، ومن الـجِمال نحوُ خمسة عشر ألفًا، ومن البغال ما لا يُحْصيه قولٌ. فما خَلُص لأحد من الـجُند عِقَالٌ فما فَوْقَهُ، وسلك أكثرُ الناس الجبلَ المعروف بحَيْدَرَان، فافترقوا فيه. ثمَّ رجع بعضُهم على بعض، وليس عند أهل القَيْرَوان خبرٌ بذلك، إلَّا أنَّهم كانوا تحت توقُّع وتشوُّف. فلمّا كان ثالثُ العيد، قَدِم فارسان مع ابن

---

(١) ليست في ر١.

(٢) «ثم بعد ذلك نكثوا» ليست في أ.

(٣) بعد هذا في ر١ : «السلطان».

(٤) في ر١ : «جيش المعز».

(٥) في ر١ : «عبيده».

(٦) بعد هذا في أ، م: «السلطان».

البَوَّاب، وهم قد غلبَتْ عليهم الكآبةُ وكسوفُ البال، وحالُهم تُغْنِي عن السؤال، وكثر أيضًا سؤَالُ الناس عن السلطان، فذكروا أنّه في حَيِّز السلامة، فلم تَكُ إلّا ساعةٌ حتى دخل قصْرَه هو وولدُه. ثمَّ تساقَطَ الناسُ بعده آحادًا وجموعًا، وتخلَّف عن الوصول خلقٌ عظيمٌ، فمنهم من عُلِمَ خَبَرُه، ومنهم من لم يُعْلَم. ثمَّ ذُكِرَ أنَّ العَرَب أخذوا خلقًا كثيرًا من الصُّنْهاجيّين وغيرهم.

قال ابن شَرَف: وكان عَدَدُ العسكر المهزوم ثلاثين[1] ألف، ومن الرَّجَّالة ما يَلِيقُ بذلك. وكانت خيلُ العَرَب ثلاثةَ آلاف فارس، ومن الرَّجَّالة ما يَلِيقُ بذلك[2]. وفي ذلك يقولُ عليُّ بن رِزْق من قصيدة له في ذلك، أوَّلُها[3] [من الطويل]:

لقَدْ زَارَ وَهْنًا من أُمَـيْمَ خَيَـالُ وأيْدِي الـمَطَايا بالذَّميلِ عِجَـالُ

إلى أن قال[4]:

ثَلَاثُـون ألْفًـا مِـنْكُمُ هَـزَمَتْهُمُ ثلاثــةُ آلافٍ انَّ ذَا لَنَكــالُ

ووصل العَرَبُ إلى نواحي القَيْرَوان، وجعل كلُّ مَنْ سَبَقَ إلى قريةٍ يُسَمِّي نَفْسَه لهم، ويُؤَمِّنُهم، ويُعطيهم قَلَنْسُوتَه أو رُقعةً يكتبها لهم علامة[5]؛ ليُعلم غيره أنه سبقه. وبات الناسُ ليلَتَيْن بالقَيْرَوان تحت ما لا يعلمه إلا الله تعالى من الخوف. لا يدرون ما ينزل بساحتهم. وأقامَ الناسُ يومَيْن، لا يدخل إليهم داخلٌ ولا يخرجُ منهم خارجٌ، وخيلُ العَرَب تسرحُ حَوْلَ القَيْرَوان في كلِّ جهة ومكان، والناسُ يرونهم عيانًا بيانًا. وخرج السلطان سابعَ عيد الأضحى بجنوده، وخرجَ عامَّةُ القَيْرَوان معه، فلم يَتَعَدَّ بهم المصلَّى. ورجع العَرَبُ في أمانهم الذي أعطَوْا أهلَ البوادي، وانتهبوا جميعها، وانتقل أهلُها إلى القَيْرَوان. وأمر السلطان كافَّةَ الناس بانتهاب الزُّروعات المحيطة

---

(١) في أ، م: «ثمانين»، وسيأتي في الشعر ما يصحح الثلاثين.

(٢) في ر١: «بهم».

(٣) قوله: «في ذلك أولها» ليس في ر١.

(٤) في أ، م: «وفيها».

(٥) ليست في ر١.

بالقَيْرَوان وصَبْرَة، وهي المنصوريَّة، فسُرَّ المسلمون[1] بذلك. وحَسِبوها من أرزاقهم. وكان مَصِيرُها إلى ما قدَّر الله من فسادها وأكْل البهائم لها.

وفي السابع عشر لذي حجَّة: ظهرت خيلُ العَرَب على ثلاثة أميال من القَيْرَوان. فنزل السلطان يمشي فيها، ويُوصي أهلَها بالاحتفاظ والبناءِ، وأخذ الناسُ في بناءِ دُورهم. وأمر السلطان الـمُعِزُّ أن ينتقل عامَّةُ أهلِ صَبْرة وسُوقَتِها إلى القَيْرَوان، ويُخْلوا الحوانيت كلَّها بصَبْرة، وأمر جميع مَن بالقَيْرَوان من الصُّنْهاجيّين وغيرهم من العسكر، أن ينتقلوا إلى صَبْرة، وينزلوا في حوانيتها وأسواقها، فارتجَّ البلدُ لذلك، وعظُم الـخَطْبُ، واشتدَّ الكَرْبُ. ومدَّ العَبِيد ورجال صُنهاجة أيديَهم إلى خُشُب الحوانيت وسقائفها، واقتلعوها، وخربت الـعِمارةُ العظيمةُ في ساعةٍ واحدةٍ، وبات الناسُ على خوفٍ عظيم، ثمَّ أصبحوا، فعاينوا خيولَ العَرَب، فأمر السلطان ألاَّ يخرج العسكر عن[2] سور صَبْرة.

قال ابن شَرَف: أخبرني من أثِقُ به، قال: خرجتُ من القَيْرَوان وسِرْتُ ليلًا، فكنتُ أكمنُ النهار، فلم أمُرَّ بقريةٍ إلَّا وقد سُحِقَتْ وأُكِلَتْ، أهْلُها عُراةٌ أمامَ حِيطانِها، من رجل وامرأة وطفل، يبكي جميعُهم جوعًا وبردًا. وانقطع المِيرُ عن القيرَوان، وتعطَّلت الأسواق، وأمسك العَرَبُ جميعَ من أسرُوه، فلم يُطْلِقُوا أحدًا إلَّا بالفِداء مثل أُسارى الروم، وأمَّا الضُّعفاء والمساكين، فأمسكوهم لخِدْمَتِهم.

نُبَذٌ من وقعة بابِ تُونِس، أحدِ أبواب القَيْرَوَان

وذلك أنَّ العَرَبَ دَفَعتْ إلى هذا الباب، فخرج إليهم العامَّة، منهم بسلاح، ومنهم مَن بيده عصا لا يُدفع بها أضْعَفُ الكِلاب، فحَملتْ عليهم فُرسان العَرَب[3]، وتمكَّنت منهم سيوفُهم ورماحهم، فتساقطوا على وُجوهم وجُنوبهم، وسطحوهم من حدِّ أفران الآجُرّ إلى هذا الباب، ولم يَبْقَ منهم إلَّا من حَصَّنَهُ أجَلُه، ولم يتركوا

---

(١) في ر١: «الناس».

(٢) في أ، م: «على».

(٣) في ر١: «الأعراب».

على حَيٍّ ولا ميّت[1] خرقةً تُوارِيهِ. وخرج أهْلُ القَتْلى عند انصراف العَرَب، فرفعوا قَتْلاهم، فقامت النَّوائِحُ والنَّوادِبُ بكلّ جهة ومكان من أزِقَّةِ القَيْرَوان، تتصدَّع لمنظرها وسماعها الجِبالُ. وبقي خلقٌ من الغُرباء في المقتلة، وجُرح من الناس خلقٌ كثيرٌ، ورأى الناسُ ما أذهلهم من كثرة القتلى[2] وقبيح تلك الجراحات، فتفتَّتت الأكباد، وذابت القلوب والأجساد[3]، لبُنيَّاتٍ قد سَوَّدْنَ وُجوهَهُنَّ وحَلَقْنَ رؤُوسَهُنَّ على آبائهنَّ وإخوانهنَّ[4]. فكان هذا يومُ مصائبَ وأنكادٍ ونوائب[5]. ولم يَرَ الناسُ مثلَه في سائر الأمصار، فيما مضى من الأعصار. وبات[6] الناس في همٍّ وغمٍّ. تَمَّ كلام ابن شَرَف مُـخْتَصَرًا.

هزيمة صُنْهاجة أيضًا بجَبَل حَيْدَران، وهزيمة الـمُعِزّ بن بَادِيس من وَجْهٍ آخَر

قال أبو الصَّلْت: ثمَّ برز الـمُعِزُّ إلى لقاءِ العَرَب الواصلة من المشرق، وجرَّد عساكرَه، وقدَّم عليها ابنَ سَلْبُون، وزكنون بن واعلان، وزِيرِي الصُّنهاجيَّ، وعاد هو إلى القَيْرَوان. فلمّا كان عيدُ النَّحْر، انهزمتْ صُنْهاجة، وقُتل منها كثير، فخرج هو بنفسه إليهم، وانتشبت الحربُ بين العَرَب وبينه، فهزمَتْه العَرَب، وثَبَت الـمُعِزُّ في طائفة من عَبيده، ثمَّ عاد إلى المنصوريَّة، فأُحْصِيَ مَن قُتل من صُنْهاجة في هذه الوقعة، فكانوا ثلاثةَ آلاف وثلاث مئة. ثمَّ أقبلت العَرَب حتَّى نزلت على القَيْرَوان، ووقعت الحربُ هنالك، فقُتل بين رَقَّادة والمنصوريَّة خلقٌ كثيرٌ[7].

---

(١) ليست في ر١.

(٢) «كثرة القتلى و» ليست في أ، م.

(٣) في ر١: «قلوبهم وأجسادهم».

(٤) في ر١: «وإخوتهن».

(٥) «ونوائب» ليست في أ.

(٦) من هنا إلى نهاية الفقرة خلت منه ر١.

(٧) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٥.

وفي سنة أربع وأربعين وأربع مئة: ذهب الـمُعِزُّ بن بادِيس إلى رفع الـحَرْب بينه وبين العَرَب، وأباحَ لهم دخولَ القَيْرَوان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء، وبقي هو مستوطنًا المنصوريَّة مع مَن بقي من عسكره، فلمّا دخلُوها، استطالت العامّة عليهم، وأوسعَتْهم إهانةً وشَتمًا، فقتل العَرَبُ منهم خَلْقًا كثيرًا. وكان عَدَدُ العَرَب الواصلين من المشرق سبعةَ آلاف فارس وخمس مئة. وقدَّر الـمُعِزُّ أنَّ العَرَب عائدون من حيث أتَوْا، فخرج الأمرُ له بخلاف ظَنِّه.

وفي هذه السنة: بنَى الـمُعِزُّ سورَ القَيْرَوَان، وسورَ زَوِيلة[1]، وجعل السورَ مـمَّا يَلي صَبْرة كالفَصِيل: حائطانِ مُتَّصِلان إلى صَبْرة، وبينهما نحو نصفِ مِيل.

وأمَّا القَيْرَوان، فهي في بسيط من الأرض، ممدودة في الـجَوْف منها نحوَ تونس، وفي الشرق نحو سُوسة والمهديَّة، وفي القِبْلة نحو سَفَاقُس، ويقرب منها البحر الشرقيُّ؛ فبينها وبين البحر مسيرةُ يوم، وسائرُ جوانبها أرضٌ طيِّبةٌ. ولا سبيل للوارد أن يدخل القَيْرَوان إلاّ بعد جوازه على صَبْرة.

وأمَّا صَبْرة، فبناها إسماعيل بن أبي القاسم بن عُبَيْد الله الشيعيّ، المتلقِّب بالمنصور، وسمَّاها المنصوريّة، واستوطنها سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة، ثمَّ كانت منزلَ الوُلاة بالقَيْرَوَان إلى حين خرابها.

وفي سنة خمس وأربعين وأربع مئة: وَلَّى الـمُعِزُّ بن باديسَ ابنَه تَميـمًـا مدينةَ الـمَهْدِيَّة[2].

وفيها: نافق على الـمُعِزّ بن باديس أهْلُ سُوسة، وهي مدينةٌ مَنيعةٌ، حاصرها أبو يزيدَ شهورًا ثمَّ انهزم عنها، وكان عليها في ثمانين ألفًا، وفي ذلك يقول سَهْل بن إبراهيم [من الكامل]:

إنَّ الـخَوارِجَ صَدَّهَا عن سُوسةٍ ... أبَدًا طِعـانُ الـسُّمْرِ والإقـدامُ

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٦٩.

(٢) الكامل ٩/ ٥٦٩، وذكر ابن خلدون أن المعز ولَّى تميمًا المهدية سنة ٤٤٨.

وفي سنة ست وأربعين وأربع مئة: حاصرت العَرَبُ مدينةَ القَيْرَوان وضيَّقت عليها تضييقًا شديدًا يطولُ ذِكرُه[١].

وفيها: أخذ مُؤْنِس بن يحيى سلطانُ العَرَب مدينةَ باجة، وأطاعه أهْلُها[٢].

وفي سنة سبع وأربعين وأربع مئة: تولَّى بُلُقِّين[٣] الصُّنْهاجيُّ قَلْعَةَ حَـمَّاد.

وفيها: نافَقَ ابنُ أبي زمان على الـمُعِزِّ بن باديس.

وفيها: كانت بإفريقية مجاعةٌ عظيمةٌ وجَهْدٌ مُفْرِطٌ.

وفي سنة ثمان وأربعين وأربع مئة: وقعَ بين عَبِيد الـمُعزّ الساكنين بالمهديَّة وبين عَبِيد تَـمِيم ابْنِهِ مُنازَعةٌ أدّتْ إلى الاقتتال والمحاربة، فقامت عامَّةُ زَويلة وسائر مَن كان بها من البَحْرِيّين وغيرهم مُعَاضَدةً لعَبِيدِ تَـمِيم، فهزموهم، وأخرجوهم من المهديَّة، وقتلوا منهم عددًا كثيرًا. وسار الذين بقي منهم، يريدون اللحاق بالقَيْرَوان، فدسَّ تَـمِيمٌ خَبَرَهم إلى العَرَب، فقُتل منهم في الطريق خَلقٌ كثيرٌ، وسَبَبُ هذه المقاتلة قَتْلُ تميم عَبِيدَ أبيه بالمهديَّة، ويُقال: إنَّ الذي قُتِلَ منهم سبع مئة، وذُكِرَ أنَّ الـمُحَرِّك لقتلهم واستئصالهم قصيدةُ محمَّد بن حبيب، التي أوَّلُها [من البسيط]:

السَّيْفُ يسْبِقُ قَبْلَ الـحادِث العَذلَا ... لا تُغْمِدِ السَّيْفَ حتَّى تَقْتُلَ الـسَّفِلاَ

نَقِّـلْ عِـداتكَ مـن دُنْيـا لآخِـرَةٍ ... فكُلُّهمْ ظَنَّ هذا الـمُلْكَ مُنْتقِلاَ

وفي سنة تسع وأربعين وأربع مئة: خرج الـمُعِزُّ بن باديس من المنصوريَّة مُنْتَقِلًا إلى الـمَهْدِيَّة، لليلتَيْن بَقِيَتا من شعبان.

وفي أوَّل يوم من رمضانَ: انتهبت العَرَب مدينة القَيْرَوان وخرَّبتها[٤]، وكانت من أعظم مُدُن الدنيا، وذكر أبو عُبَيْد[٥] أنّه انتهى ما ذُبح بها من البقر خاصَّةٌ في

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٦٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) في ر١: «بلجين»، وذكرنا غير مرة أن الكاف الأعجمية تكتب قافًا أو جيمًا.

(٤) الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٦٩.

(٥) المغرب، ص٢٦.

اليوم الواحد سبع مئة رأس خمسين رأسًا. وقال في سنة اثنتين وخمسين: سُبِيت القَيْرَوان وأُخْلِيَتْ.

وفي سنة خمسين وأربع مئة: خَرَجَ بُلُقِّين، ومعه الأَثْبَجُ وعَدِيٌّ لحرب زَنَاتة، فكسرها وقتل منها عددًا كثيرًا[1].

وفي سنة إحدى وخمسين وأربع مئة: قُتِل منصور البَرْغَواطيُّ، صاحبُ سَفَاقُس، قَتَلَهُ غدرًا حَمُّو بن ملّيل البَرْغَواطيُّ، ووليَ مكانَه، وذلك يومَ السبت الثاني لشوَّال.

وفي سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة: وقعتْ بين العَرَب بالقَيْرَوَان وبين هوَّارة حربٌ كان الغَلَبُ فيها للعَرَب[2]. وقُتلتْ هوَّارة بباب الصَّوْم، أحدِ أبوابها.

وفي سنة ثلاث وخمسين وأربع مئة: قتل أهْلُ تَقْيُوس[3] مئتين وخمسين من العَرَب. وكان سبب ذلك: أنَّ العَرَب دخلتْ إلى تَقْيُوسَ متشوِّفةً، فسمع رَجلٌ منهم رجلًا من أهل المدينة يذكر الـمُعِزَّ بخير، ويُثني عليه، فقتله العَرَبيُّ، وكان مقدَّمًا في المدينة، فقام عليهم أهْلُ البلد، فغزَوْهم وقَتلوا من العَرَب العَدَد المذكور[4].

وفي سنة أربع وخمسين وأربع مئة: غدر الناصر بن عَلَنّاس ببُلُقِّين بن محمَّد الصُّنْهاجِيّ صاحب القَلْعة، وكان ذلك أوَّلَ يوم من رَجَب، ووليَ مكانَه[5].

وفيها: تُوُفِّي الـمُعِزُّ بن باديس[6].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٦٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ينظر عنها معجم البلدان ٢/ ٣٧.

(٤) الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٦٩-٥٧٠.

(٥) ينظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/ ٥٩٧-٥٩٨.

(٦) تاريخ الإسلام للذهبي ١٠/ ٥٤، ولكن ابن الأثير ذكر وفاته سنة ٤٥٣ (الكامل ١٠/ ١٥)، وأشار الذهبي في تاريخ الإسلام إلى وفاته سنة ٤٥٣ (١٠/ ٤٣) ولكنه أحال إلى سنة ٤٥٤ وهو الصواب.

بعض أخبار المعِز بن باديس

كُنيتُه: أبو تَمِيم، ولَقَبُه: أوَّلًا شَرَف الدولة بن أبي مَنَاد بَادِيس نَصِيرِ الدولة بن أبي الفَتْح المَنْصُور عُدَّةِ العزيز بالله بن أبي الفُتوح بُلُقِّينَ سَيْفِ العزيز بالله بن زِيرِي ابن مَنَاد بن مَنْقُوش الصُّنْهاجيّ. وفي هذه الأسماء والكُنَى، يقول ابنُ شَرَف [من الخفيف]:

شَرَفُ الدَّوْلَـةِ الـمِعِزُّ بـنُ بَادِيـ ـسَ النَّصِيرُ المُظَفَّرُ المِقْدَامُ

مَـنْ لَـهُ في العُـلَى ثَلاثَـةُ أَبَـا ءٍ: نَـصِيرٌ وعُـدَّةٌ وحُـسَامُ

وابْنُ زِيرِي أبو الفُتوح الَّذي أعْـ ـدى أعَادِيهِ في الوَرَى الإحْجَامُ

وأبـو الفَـتْحِ بَعْـدَ السَّيِّدُ المَنْـ ـصُورُ مَنْ صَوْبُ رَاحَتَيْهِ سِجَامُ

مولده: سنة تسع وتسعين وثلاث مئة، ووليَ المُلْكَ سنة سبع وأربع مئة: وسنُّه سبعة أعوان وشهران، وتُوُفِّي سنة خمس وخمسين[1]، وعُمُرُه ثماني وخمسون سنة؛ فكانت مملكتُه سبعًا وأربعين سنة. وفي سِنِّه وتأريخ ولايتِه، يقول ابن شَرَف [من الرجز]:

لَـمَّا انقضَتْ من المِئِينَ أرْبَعُ وبَعْـدَها سِـتُّ سِنِينَ تَتْبَـعُ

وأوَّلُ العـامِ الشريفِ السابِـعُ دَارَ إليهـا أيْمُـن طَوَالِـعُ

باسم المُعِزِّ المَلِكِ المَيْمُونِ مُـذِلِّ كُفْـرٍ ومُعِـزِّ الـدِّينِ

فقُلِّـد الأمـرَ الشديدَ المَنْعَهْ مُنْتَهِـضًا بحَمْلِهِ ابـنَ سَبْعَهْ

صفته: أسْمَرُ، جميلُ الوجه، جهيرُ الصوت، حَسَن الخَلْق، بعيد الغَوْر في الأُمور، قتل الشيعةَ وقَطَع دعوتَهم من إفريقية، ولعن أُمَراءَهم بني عُبَيْد على سائر مَنَابِر إفريقية، ووفَّى لكل واحد من الصحابة حقَّه، وأقام السُّنَّة، وكانت[2] متروكةً منذ مئة وأربعين سنة.

---

(١) هذا رأي ابن شرف.

(٢) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في ر١.

حكاية في ابتداءِ دولة صُنْهاجة بإفريقية[1]

لـمّا تغلَّب آلُ عُبَيْد الله على مِصْرَ، وأرادَ مَعَدُّ بن إسماعيلَ الرحيلَ إليها من إفريقية، دعا زِيرِي بنَ مَنَاد، وكان له عشرةُ أولاد؛ فقال له: ادْعُ لي بَنِيكَ، فقد عَلِمْتَ رأيي فيهم وفيك. وكان أصْغَرُهم سِنًّا بُلُقِّينَ، فدعا أولادَه ما عَدَاه، والقَدَرُ لا يُريد سِوَاهُ. وكانت عند مَعَدِّ بن إسماعيل أثارةٌ من علم الحِدْثان، قد عَرف بها بَصائر أحواله، وأهْلَ الغَناء من أعيان رجاله، وكانت عنده لخليفته على إفريقية والمغرب، إذا صار إليه مُلْكُ مِصْرَ، علامةٌ، فنظر في وجوه بني زِيرِي، فلم يَرَها، فقال لزِيرِي: هل غَادَرْتَ من بَنِيك أحدًا؟ فقال له: غلامًا صغيرًا. فقال الـمُعِزُّ: لا أراكَ حتَّى أراه، فلَسْتُ أُريد سِوَاه! فلما رآه عَرَفه، وفوَّض إليه من حينه، واستخلفه، فاستولى من وقته على الأُمور، وزاحَـمَتْ مَهَابَتُه الأهواءَ في الصُّدور، وبَعُدَتْ أسفارُه، واشتَهَرَتْ أخبارُه، وبلغ بغزواته سَبْتَة في خَبَر طويل[2]. ثمَّ أجاب صَوْتَ مُناديه، وخَلَعَها على أعطاف بنيه، حتّى انتهى أمْرُهم إلى الـمُعِزِّ بن بادِيسَ شَرَفِ العَشِيرة، وآخِرِ مُلوكها الشهيرة[3]. ومن العَجَب أنَّهما تَوَافَقَا في الاسم والكُنية، أعْني الـمُعِزَّ أبا تَـمِيم مَعَدَّ بن إسماعيل العُبَيْديَّ صاحِبَ الـحِدْثان، والـمُعِزُّ أبا تَـمِيم هَذَا.

فأوَّل ما افتتح به شأنَه، وثَبَّت به فيما زعم سلطانَه: قَتْلُ الرَّافِضة، ومُراسلةُ أمير المؤمنين العبّاسيِّ يومئذٍ ببغداد، فكتب إليه بعهده، وجاءَتْهُ الخلعة واللَّقَب من عنده، رأْيًا اغترَّ ببادِيه، وذَهَلَ عن عَوَاقِبِه وبَوَادِيه. واتَّصل ذلك بالعُبَيْديّ بـمِصْرَ، وأمْرُهُ يومئذٍ يَدُورُ على الـجَرْجَرَائيّ، فاضْطغَنَها[4] عليه، وفَوَّقَ سِهامَ مكروهه إليه. وكانت بطونٌ من عامِرِ بن صَعْصَعة: زُغْبة، وعَدِيٌّ والأَثْبج، ورِيَاح، وغيرُهم، تنزل الصَّعِيد، لا يُسمح لها بالرحيل، ولا بإجازة النِّيل، فأجازهم الـجَرْجَرَائيُّ، وأذن لهم

---

(١) «بإفريقية» من ر١.

(٢) «في خبر طويل» ليست في ر١، والخبر الآتي كله من الذخيرة لابن بسام ٤/ ٣٩٢-٣٩٤.

(٣) في أ، م: «المشهورة».

(٤) في م: «فاصطنعها»، وهو تصحيف، وهي على الصواب في الذخيرة.

في الـمُعِزِّ أُمنيةً طالَـمَا تَحَلَّبت[1] إليها أطماعُهم، وعكفت عليها أبصارُهم، فغَشَاهُ منهم[2] سَيْلُ العَرِم، ورماه بدؤلول[3] ابْنَةِ الرَّقِم، فشغل الـمُعِزُّ بَعْضَهم أوَّلًا بخدمتِه، وحمَّلهم أعباءَ نِعْمَتِه، وهم في خلال ذلك يتمرَّسون بجهاتِه، ويدبُّون إلى حماتِه، ويُطِلُّون على عَوراتِه، حتّى بانَ لهم شأْنُه، وهان عليهم سلطانُه، فجَاهَرُوه بالعداوة، حتَّى جرت بينهم تلك الحرُوب، التي تقدَّم ذكرُها مُـخْتَصَرًا[4]، فأورثَتْه[5] البَوَار، وضربَتْ عليه الحِصار.

وفي أثناء ذلك، أعطاهم الدَّنِيَّة، وناشدهم التَّقِيَّة، واشترط الـمَهْدِيَّة، وزفَّ إلى أحد زُعمائهم[6] من بناته، فأصبحوا له أصهارًا، وقاموا دونه أنصارًا. فلما استحكم بَأْسُه، وأهَمَّتْه نَفْسُه، استجاش مَنْ قِبَلَه، واحتمل أهْلَه[7] وثقلَه، وخلَّى الـمُلك لمن حَـمَاه وحَـمَلَه، وجاءَ أصهارُه يمنعونه ممَّن عسى أن يكيدَه، حتّى بلغ المهديَّة، فأقامَ بها أَسْقَطَ من الشمس بالميزان، وأهْوَنَ من الفقير على القِيَان[8]، ولم يكن أحد في زمانه أشَدَّ بأْسًا في الملاحِم، ولا أطْوَلَ يدًا بالمكارم، ولا أعْنَى بلسان العَرَب، ولا أحنى على أهل الأدب منه[9]. ومن مشهور كرمه: أنَّه أعطى الـمُنْتَصِرَ بن خَزْرُون في دُفْعَةٍ مئةَ ألف دينار، إلى ما وصله من مركب أثيل[10]، وزَيٍّ حَفِيل[11].

---

(١) في م: «تَـخَلَّت»، وهو تصحيف، وما هنا يعضده ما في الذخيرة. وتحلبت: سالت، وهي كناية عن التشوف إلى الأمر.

(٢) في أ، م: «منها» وما هنا من ر١، والذخيرة التي ينقل منها المؤلف.

(٣) في أ، م: «بذلول»، وما أثبتناه هو الصواب.

(٤) «مختصرًا» ليست في ر١.

(٥) في الذخيرة: «وأرثه».

(٦) في ر١: «عظمائهم»، وما هنا من أ ويعضده ما في الذخيرة التي ينقل منها المصنف.

(٧) في الذخيرة: «حرمه» وهي بمعنى.

(٨) في الذخيرة: «وأهون من الغفر على القَبّان».

(٩) سقطت من أ، م، وهي ثابتة في ر١ والذخيرة.

(١٠) في الذخيرة: «ثقيل».

(١١) في الذخيرة: «نبيل»، وإلى هنا انتهى النقل من الذخيرة.

وكان مُتَوَقِّدَ الذِّهْن، حاضِرَ الخاطر، حاذقًا بطرائقِ[1] الألحان، عالـمًا بالمنثور والمنظوم من الكلام. ومَدَحَهُ كثيرٌ من الشُّعَراء، فأجزل لهم العطاء، منهم: عليُّ بن يوسُفَ التونِسيُّ[2]، ويَعْلَى بن إبراهيم الأرْكُشيُّ[3]، وأبو عليّ بن رشيق[4]، والقُرَشيُّ، وابن شَرَف، وغيرُهم مـمّا[5] يطول الكتابُ بذكرهم، لا سِيَّما لو ذكرتُ مِنْ نَظْمِهم ونَثْرهم.

وذكر أبو الحسن الخَوْلانيُّ المعروف بالـحَدّاد، قال: اشتملتُ على كثير من أيَّامه ووقائعه وصِفَةِ حاله في خروجه من القَيْرَوان، وتسليمِه للعَرَب مُعْظَم مُلكه، في قصيدة أوَّلها [من الطويل]:

سَرَتْ تَتَهادَى بَعْدَما رَحَـلَ الرَّكْـبُ وقد قُلِّدَتْ جِيدَ الدُّجى الأنْجُمُ الشُّهْبُ

ومنها:

وَإنْ خَـانَنِي صَـبْري عَـلَى ثِقَتـي بِـهِ فَقَدْ خَان مَوْلَانَا العَشَائِرُ والـصَّحْبُ
وَلَـوْ شَـاءَ تـأْليفَ الجنـودِ وجَمْعَهـا لَجاءَتْهُ من أقطارِها العُجْمُ والعُـرْبُ
ولكنَّه أغـضَـى[6] الـجُفونَ لعِلْمِـهِ بـما سَطَّرَتْ فيـه الملاحِـمُ والكُتْـبُ

ولم يمكث بالمهديَّة إلَّا نحوَ سنتَيْن، وانقضَتْ أيَّامُه، ووافاهُ حِمامُه، فتُوُفِّي يومَ السبت لخمسٍ بقين من شعبان سنة أربع وخمسين وأربع مئة. هكذا ذكر أبو الصَّلْت، وقد تقدَّم قولُ ابن شَرَف أنَّه تُوُفي في سنة خمسٍ وخمسين وأربع مئة. أولادُه: تَـمِيم، ونِزار، وعبد الله، وعلوٌّ[7]، وحَـمّـادٌ، وبُلُقِّين، وحَـامة، والمنصور.

---

(١) في م: «طرائف».

(٢) ترجمته في الوافي للصفدي ٢٢/ ٣٥٤.

(٣) نهاية الأرب للنويري ١٠/ ١٧٩.

(٤) الوافي للصفدي ١٢/ ٤٢١.

(٥) سقطت من م.

(٦) في أ، م: «أغنى»، وما هنا من ر١ وهو الأصح.

(٧) في ر١: «عليّ».

دولة الأمير تَـمِيم ابن الـمُعِزّ ونُبَذٌ من أخباره

مولدُه بالمنصوريَّة في رجب سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة. وأبرزَهُ والدُه للناس ابْنَ سَنَتَيْن، وركب، والعساكرُ وراءَه، وطاف مدينتَي القَيْرَوَان والمنصوريَّة. ووُلِّيَ المهديَّةَ سنة خمس وأربعين وأربع مئة، وعُمُرُه إذ ذاك ثلاث وعشرون سنة. وأقامَ بها إلى أن خرجَ والدُه من المنصوريَّة متوجِّهًا نحوَها، فلمّا دنا منها، خرجَ إليه فيمن معه، وترجَّل عند رُؤْيَتِه لَهُ، وقبَّل الأرض بين يديه، ومشَى راجلًا أمامَه، وأظهرَ من طاعته له ما أبان كَذِبَ ما نُسب إليه، وزُوِّر من النِّفاق عليه، فدعا له والدُه، وأمَرَه بالركوب، فركبَ وسار معه إلى المهديَّة، فنزل الـمُعِزُّ القَصْرَ، وأقام ابنه تَـمِيمٌ متكفِّلًا بأمر الدولة[1].

وفي سنة خمس وخمسين وأربع مئة: فتح تَـمِيمٌ مدينةَ سُوسة، وكان أهْلُها قد نافَقوا على أبيه، فعفا عنهم.

وفي سنة ست وخمسين وأربع مئة: زحف إلى المهديَّة حَمُّو بن ومِلِّيل[2] البَرْغَوَاطيُّ الثائرُ بمدينة سَفَاقُس، بمن استعان من العَرَب، فورد خبره على تميم، فسار إليه، ومعه طائفةٌ كبيرةٌ من زُغْبة ورِيَاح. وكان مع حَـمُّو طائفةٌ من عَدِيّ والأَثْبَج، فاقتتل الفريقان، ثمَّ ولّت طائفةُ حَـمُّو أدبارها، فأخذتْها السيوف، وتولَّتْها الـحُتُوفُ[3].

وفي سنة سبع وخمسين وأربع مئة: كُسِر عَسْكَرُ الناصر بن حَـمَّاد، وكان قد خرجَ في عَدَد كثير من صُنْهاجةَ وزَنَاتة وعَدِيَّ والأَثْبَج، فلقيَتْهم رِيَاحُ وزُغْبة وسُلَيْم، فانهزم الناصر، وقُتل من أصحابه خلقٌ كثيرٌ، ونُهبت أمواله ومَضَارِبُه، وقُتل أخوه القاسم بن عَلَنَّاس. كان من أعظم الأسباب في ذلك ما أبرمه تَـمِيمٌ في أمره[4].

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/ ١٦.

(٢) في ر١: «مليل»، وفي الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٩: «مليك»، وهو تحريف ظاهر.

(٣) جعلها ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٥هـ.

(٤) ذكر ابن الأثير هذا الخبر مطولًا في الكامل ١٠/ ٤٤-٤٦.

وفي سنة ثمان وخمسين وأربع مئة: جرَّد تَـمِيمٌ عسكرًا كبيرًا إلى مدينة تُونس، فأقام محاصِرًا لها، آخِذًا بمُخَنَّقِها، أربعةَ عَشَر شهرًا، حتَّى وقع الاتِّفاقُ بينه وبين ابنِ خُرَاسَان صاحبها، على ما اقتضاه إقلاعُ العسكر عنها[١].

وفي سنة تسع وخمسين وأربع مئة: قام بالمغرب الأقصى محمَّدُ بن إدريس بن يحيى بن علي بن حَـمُّود الـحَسَنيُّ[٢]، استُدْعيَ من مَلِيلَة، فعَبر إليها، وقام به جماعةُ بني وَرْتَدي في مَلِيلة ونواحيها. وكان قد خُطِب له بالخلافة بمالَقة، وتسمَّى بالـمُسْتَعْلِي، فأقام بها إلى أن تَغَلَّب عليه بَادِيسُ بن حَبُوس الصُّنْهاجيُّ صاحِبُ غَرْناطة سنةَ سبع وأربعين وأربع مئة؛ فانقرضت دولةُ بني حَـمُّود يومئذٍ بالأنْدَلُس، واختفَى بالـمَرِيَّة إلى أن اسْتُدْعِيَ.

وفي سنة ستين وأربع مئة: حاصر الناصِرُ بن عَلَنَّاس بن حَـمَّاد مدينةَ الأُرْبُس[٣]، وكان معه الأثْبَج من العَرَب، وبقيَ عليها حتَّى افتتحها، وأمَّن أهلها[٤]، وقتل عامِلَها ابن مكراز[٥].

وفيها: وصل الناصِرُ المذكور إلى القَيْرَوان مع العَرَب، ودخلها.

وفيها: استبدَّ أميرُ لَـمْتُونة بالغَرْب، وطاعت له قبائلُ الـمَصَامِدَة وبلادُ دَرْعة وسِجِلْماسة، وتغلَّب على زَنَاتة المستوطنين هنالك.

وفي سنة إحدى وستين وأربع مئة: عاد الناصِر بن عَلَنَّاس بن حَمَّاد من القَيْرَوَان إلى قلعته، خَوْفًا من جموع العَرَب.

وفيها: شرع أبو بكر بن عُمر اللَّمْتُونيُّ في بناء مَرَّاكُش، على ما يأتي في موضعه.

وفي سنة خمس وستين وأربع مئة: وصلتْ إلى مدينة سَفَاقُس مراكبُ شرقيَّة فأخرج إليها السلطانُ تَـمِيم ابن الـمُعِزّ، أُسْطُولَه من المهديَّة، فأفسدها.

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٥٠-٥١.

(٢) ترجمته في تاريخ الإسلام ٩/ ٦٧٢.

(٣) ينظر عنها معجم البلدان ١/ ١٣٦.

(٤) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٥٨.

(٥) في ر١: «مجراز» وهو صحيح أيضًا لأن أصل الجيم كاف أعجمية.

وفي سنة ست وستين وأربع مئة وقيل: سبع: طُرِدَتْ زُغْبةُ من إفريقية، طَرَدَتْهُم رِيَاحُ منها[1]، وبَاعَت القَيْرَوَان من الناصِر بن عَلَنَّاس ابن[2] حَـمَّاد الصُّنْهاجيِّ صاحب القَلْعة.

وفي سنة ثمان وستين وأربع مئة: وصلتْ إلى إفريقية عَرَبٌ من بَرْقة، ونزلتْ حَوْلَ القَيْرَوان وما والاها.

وفي سنة تسع وستين وأربع مئة: كانت بإفريقية مجاعةٌ عظيمةٌ ووباءٌ عظيمٌ، مات فيه من الناس خَلقٌ كثيرٌ.

وفي سنة سبعين وأربع مئة: اصطلح تَـمِيمُ ابن الـمُعِزّ والناصِرُ ابن عمِّه، وزوَّجه بنته بَلَّارَة، وجهَّزها إليه من المهديَّة في عساكرَ عظيمةٍ ومالٍ[3] وأسباب[4] وذخائر.

وفي سنة أربع وسبعين وأربع مئة: حاصر تَـمِيـمٌ مدينةَ قابس[5]، وعاث عسكرُه في أجِنَّتها المعروفةِ بالغابة، وأفسدها[6]. وولَّى تَـمِيـمٌ ابنَه مُقَلَّدًا[7] مدينةَ أطْرابُلُس سنة سبعين وأربع مئة.

وفي سنة ست وسبعين وأربع مئة: حوصرت المهديَّة، نزل عليها مالِكُ بن علوي[8] في جموع عظيمة من العَرَب، فخرج إليه السلطانُ تَـمِيم ابن الـمُعز[9]، فهزمه؛ وأقلعَ عنها منهزمًا، ودخل القَيْرَوَان[10].

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٩٨.

(٢) من هنا إلى نهاية الفقرة ليست في ر١.

(٣) في ر١: «وأموال».

(٤) ليست في ر١.

(٥) في النسختين: «سفاقس»، وهو تحريف صوابه ما أثبتناه من كامل ابن الأثير ١٠/ ١٢١، ويعضده قوله: «وعاث عسكره في أجنتها المعروفة بالغابة»، فالغابة هذه معروفة بقابس وقد وصفها التجاني في رحلته ٨٦، وذكرها الحميري في الروض المعطار ٤٥٠.

(٦) في ر١: «فأفسدها».

(٧) ليس في ر١.

(٨) له ذكر في نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٢٧.

(٩) «بن المعز» من ر١.

(١٠) الكامل لابن الأثير ١٠/ ١٣٢.

وفي سنة تسع وسبعين وأربع مئة: حاصر تَـمِيمٌ مدينةَ قَابِس وسَفَاقُس معًا في زمن واحد، ممَّا لم يُسمع بمثله[1].

وفي سنة ثمانين وأربع مئة: كَسَفَتِ الشمسُ كسوفاً كُلِّيًّا[2]. وجرى فيها ما جرى من نزول الرُّوم على المهديَّة في ثلاث مئة مركبٍ حربيَّةٍ[3]، على ظهورها ثلاثون ألفَ مُقاتل.

ذكر دخول النصارى[4] مدينةَ المهديَّة

وسَبَبُ ذلك، مع قَدَر الله تعالى، غَيْبَةُ عسكر سُلطانها عنها، ومُفاجأةُ الروم قَبْل استقدامه إليها، وأخْذِ الأهبة للقائهم؛ وخُلُوُّ كافَّة الناس من الأسلحة والعُدَد، وقِصَرُ الأسوار وتَهَدُّمُها، وتكذيبُ تَـمِيم بخبرهم، وسُوء تدبيرِ عبدِ الله بن مَنْكُور مُتَوَلِّي أُمور الدولة في قَصْده مخالَفة قائد الأُسْطُول في الخروج إليهم لِلِقَائِهم في الماء ومنعهم من النزول في[5] البَرِّ، فكان ذلك[6] كلُّه سَبَبَ تغلُّبهم على المدينتَيْن المهديَّةِ وزَوِيلة، ونَهْبِهم إيَّاهما، وقتلِهم الناسَ فيهما، وإحراقهم بالنار ما هو مشهورٌ بالمهديَّة إلى الآن[7]. وقد استوعب ذلك أبو الحسن الـحَدَّادُ في قصيدته التي أوَّلها [من المنسرح]:

أَنَّـــى يُلِـــمُّ الـــخَيَالُ أو يَقِـــفُ ... وبَـــيْنَ أجفَانِنـــا ثَـــوَى الـــدَّنَفُ

غَـــزَا حِـمَـــانَا العـــدوُّ في عَـــدَدٍ ... هُـمَـــا الـــدُّمَا كثـرةً أو اللَّعـــفُ

عِـــشْـرونَ ألفًـــا ونـــصفُها ائتَلَفُـــوا ... مـــن كـــلِّ أوْبٍ ولَيْـــتَ مـــا ائتَلَفُـــوا

جـــاؤُوا عـــلى غِـــرَّةٍ إلى نَفَـــرٍ ... قد جَهِلُـوا في الـــحُروبِ مـــا عَرَفُـــوا

---

(١) الكامل ١٠/ ١٥٩.

(٢) الكامل لابن الأثير ١٠/ ١٦٢.

(٣) ليست في ر١.

(٤) في ر١: «الروم».

(٥) في ر١: «إلى».

(٦) في ر١: «هذا».

(٧) ينظر كامل ابن الأثير ١٠/ ١٦٥-١٦٦.

وهي طويلة[1].

وفي سنة إحدى وثمانين وأربع مئة: مات الناصِرُ بن عَلَّناس بن حـمَّاد الصُّنهاجيُّ، ووليَ ابنُه المنصور[2].

وفي سنة اثنتين وثمانين وأربع مئة: غزا[3] مالِك بن علوي مدينةَ سُوسة، ودخلها في طائفة من أصحابه، ولم يتمكَّن له شيءٌ من مُراده فيها، فخرج منها منهزمًا، وقُتل جماعةٌ من رجاله، وأُسر بعضُهم[4].

وفي سنة ثلاث وثمانين وأربع مئة: غَلَت الأسعار بإفريقية، وكانت بها مجاعةٌ شديدةٌ[5].

وفي سنة أربع وثمانين وأربع مئة: صَلُحت أحوال إفريقية في الخِصْب والرَّخاء[6].

وفي سنة ست وثمانين وأربع مئة: حاصرَ عسكرُ تَـمِيم مدينةَ قَابِس، وأقام عليها حتَّى فتح رَبَضها.

وفي سنة ثمان وثمانين وأربع مئة: كان ما كان من غَدْرِ شَاه مالِك[7] الغُزِّيّ ليحيى[8] ابن السلطان تَـمِيم ابن الـمُعِزّ. وسَبَبُ ذلك: أنَّ تَـمِيمًا خاف الغُزِّيَّ وأوْحَش منه نفْسَه ونفس أصحابه لكلامٍ[9] قاله، فأضْمَرَ[10] ذلك شاه مالِك في نفسه، وكان

---

(١) «وهي طويلة» ليست في ر١.

(٢) الكامل لابن الأثير ١٠/ ١٦٦.

(٣) في ر١: «غدر».

(٤) ينظر كامل ابن الأثير ١٠/ ١٧٩.

(٥) الكامل لابن الأثير ١٠/ ١٧٩.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) هكذا سماه، وفي المصادر المشرقية: «شاهملك»أو «شاه ملك»، وينظر الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٤١.

(٨) ترجمته في وفيات الأعيان ٦/ ٢١١-٢١٥، وتاريخ الإسلام ١١/ ١٣٢-١٣٣.

(٩) في ر١: «وَتَوّحش منه لكلامٍ».

(١٠) في أ: «فأضر»، وهو تحريف بيّن.

داهِيَةً مَكِرًا، وخرج يحيى بنُ تَـمِيم أثناء ذلك متصيِّدًا وفي صحبته نَفَرٌ من أهل مُؤانسته ومُنادمته[١]، وكان شاه مالِك مع كثير من أصحابه، فظَفِرَ به، وقبض عليه وعلى جُملة من أصحابه. ولـمّا بلغ تَـمِيمًا ذلك، أنفذ الخيلَ في طلبِ[٢] الغُزِّيّ، فوجدوه قد فات وسار إلى سَفَاقُسَ ودخلها. فركب صاحبُها[٣] حَـمُّو بن ملّيل[٤]، وتلقّى يحيى بنَ تميم مع الغُزِّيّ الذي قبض[٥] عليه، فأقام عنده أيَّامًا، وكتب إلى السلطان[٦] تَـمِيم ابن الـمُعز[٧] يَلْتَمِس منه عِيَالَ الغُزِّ وأولادَهم، فأمر تميمٌ بإنفاذهم إليهم، وعاد[٨] يحيى وأصحابُه إلى المهديَّة[٩].

وفي سنة تسع وثمانين وأربع مئة: فتح تَـمِيمٌ مدينةَ قابِس، وأخرج منها عُمَر[١٠] ابن الـمُعِزِّ أخاه، وقد كان ولاَّه أهْلُها[١١].

وفي سنة إحدى وتسعين وأربع مئة: كانت بإفريقية مجاعةٌ شديدةٌ[١٢].

وفي هذه السنة: فتح تَـمِيمٌ جزيرةَ قَرْقَنَّة[١٣]، ومدينةَ تونس. وخرجت عَدِيٌّ من إفريقية أمامَ رِياح.

---

(١) ليست في ر١.

(٢) سقطت من أ.

(٣) ليست في ر١.

(٤) في ر١: «مليل».

(٥) في ر١: «قبضوا».

(٦) ليست في ر١.

(٧) «ابن المعز» ليست في أ.

(٨) في م: «ودعا»، وهو تحريف.

(٩) ينظر الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٤١-٢٤٢.

(١٠) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٦٠.

(١١) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٥٧.

(١٢) ينظر الكامل لابن الأثير ١٠/ ١٧٩.

(١٣) في ر١: «قرقبة»، وهو تصحيف، وينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٣٢٩، والروض المعطار ٤٦١، والكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٧٩.

وفي سنة ثلاث وتسعين ووأربع مئة: فتح تَـمِيمٌ سَفَاقُس، وخرج منها حَـمُّو بن ومَلِّيل[1] هاربًا إلى قابِس، فقَبِلَهُ صاحبُها مَـجَّن[2] بن كامِل الدَّهْمانيُّ وآواه حتَّى مات[3].

وفي سنة ثمانٍ وتسعين وأربع مئة: مات المنصورُ ابن الناصِر بن عَلَنَّاس، صاحبُ بِجاية والقَلْعةِ وما والاهما، ووليَ ابنُه بَادِيس، وأقام قليلًا، ومات، ثمَّ وليَ أخوه العزيز بالله ابن المنصور[4].

وفيها: وصل الرُّمَانِيُّون إلى المهديَّة بأجفانٍ كثيرةً حربيةٍ، تُسَمَّى الشَّوَانِي، ومعهم ثمانيةٌ[5] وعشرون مركبًا، وكان قَصْدُهم أن يَـجِدُوا فرصةً كما وجدَها الرومُ المتقدِّم ذكرُهم، فقَصَدوا إلى باب دار الصِّناعة؛ ليمنعوا أُسطولَ المهديَّة من الخروج إليهم، فخاب ظنُّهم، وخرجت أُسطولُ المهديَّة إليهم، فهزموهم وقَتلوا كثيرًا منهم.

وفي سنة تسع وتسعين وأربع مئة: وجَّه السّلطان تَـمِيم ابن المعز[6] أبا الحسن الفِهْريَّ إلى جزيرة جَرْبة في عَدَد جمّ وأُسطول كثير، فوجد[7] أهلها قد أخذوا الأُهْبةَ له[8]، واستعدُّوا[9]، واستمدُّوا[10]، فلم يتمَّ له شيءٌ من أمْرها[11].

---

(١) في ر١: «مليل».

(٢) ويكتب: «مكن» ولأن الكاف أعجمية، فيكتب بالجيم والكاف.

(٣) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٢٩٨.

(٤) نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٣٠.

(٥) في أ: «ثلاثة».

(٦) «ابن المعز» من ر١.

(٧) في ر١: «فوجدوا».

(٨) في ر١: «لهم».

(٩) ليست في ر١.

(١٠) في ر١: «واستمروا»، وهو تحريف.

(١١) ذكر ابن الأثير في الكامل (١٠/ ٢٧٩)، والنويري في نهاية الأرب (٢٤/ ١٣٠) أن تميمًا هذا قد فتح جَرْبة سنة ٤٩١هـ.

وفي سنة خمس مئة: غُدِرَتْ مدينةُ بَاجَة، وقُتل فيها خَلقٌ كثيرٌ.

وفيها: رحل المهديُّ[1] محمَّد بن تُومَرْت[2] القائمُ بدعوة البَرْبَر الـمُسَمَّين بالـمُوَحِّدين من جَبَل هَرْغة بأقصى الـمَغْرِب[3] إلى الـمَشْرِق في طلب العِلْم، فجاز إلى الأَنْدَلُس ووصل قُرْطُبة، وسار منها إلى الـمَرِيَّة، ومنها دخل في مركب إلى المشرق، وغاب في رحلته خمسة عشر عامًا.

وفي سنة إحدى وخمس مئة: ظهر في أُفق الـمَغْرِب كَوْكَبٌ عظيمٌ من ذوات الذَّوَائب، وأقام لياليَ كثيرةً[4].

وفيها: مات السلطان تَـمِيمُ ابن الـمُعِزّ[5]، فكانت[6] مُدَّتُه نحوَ سبع وأربعين سنة.

بعض أخبار تَـمِيم ابن الـمُعِزّ

كان، رحمه الله، شَهْمًا شجاعًا حازمًا عازمًا، يَستصغر صِعابَ الأُمور، ويستسهلُ عظائِم الـخُطوب، ويغلب عليه شدَّةُ البطش والـمُبادرة. وهو أَحدُ فُحول شعراءِ الملوك، وذَوِي السَّبْق والتقدُّم في معانيه وبدائعه، حَوَى فيه الجودة والكثرة. وله ديوانٌ كبيرٌ من شِعره مشهورٌ، فمن قوله [من الوافر]:

فَإمَّــــا الـــــمُلْكُ في شَرَفٍ وعِـــزٍّ ... عــليَّ التَّـــاجُ في أعْـــلَى الــسَّـرِيرِ

وإمَّـــا الـــمَوْتُ بَـيْنَ ظُبَـا العَـوَالي ... فَلَـــسْتُ بِخالِـــدٍ أَبَـــدَ الــدُّهُورِ

---

(١) ليست في ر١.

(٢) تنظر ترجمة محمد بن تومرت في وفيات الأعيان ٧/ ١٣٦.

(٣) قوله: «بأقصى المغرب» ليست في ر١.

(٤) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٤٥٦.

(٥) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٤٤٩.

(٦) من هنا إلى نهاية الفقرة ليست في ر١، وقال ابن الأثير: «وكانت ولايته ستًّا وأربعين سنة وعشرة أشهر وعشرين يومًا»، وسيأتي بعد قليل مثل ذلك.

وله في غلام اسمُه مُدام، من قصيدة طويلة(١) [من المتقارب]:

مُـــدَامٌ يَطُـــوفُ بِكـــأسِ الـــمُدَامِ ... فَلَـــــمْ أدْرِ أيُّهُمَـــــا أشْرَبُ
فهـــذا الـــصديقُ وهـــذي الرَّحِيـــقُ ... وهـــذا الهِـــلالُ وذا الكَوْكَـــبُ
وهـــذا يَـــجُودُ بألْحَاظِـــهِ(٢) ... وهـــذا بألْبابنـــا يَلْعَـــبُ
ومـــا البَـــدْرُ والـــنَّجْمُ مـــن ذا وذاكَ ... ولكنَّـــه مَثَـــلٌ يُـــضْرَبُ

وكان تَـميم ابن الـمُعِزّ(٣) جَـمِيلًا، وَسِيمًا، مَدِيد القامة، دُرِّيَّ اللون، أشَمَّ، أبْلَجَ. وكان يكثر من استفراغ بَدَنه، ويَرَى أنَّ بذلك تِتِمُّ صِحَّتُه. وكان(٤) يَستعمل كلَّ حارٍّ من الأغْذِيَة والأدْوِيَة، ويُكْثِر الاصْطِلاءَ بالنار، ويدخل الـحَمَّام الحارَّ، ويُكْثِر الـجِماع، ويَشرب الأدويةَ القويَّة، كالـمَحْمُودة وغيرِها، ويُجاوِز في ذلك المقدارَ، حتَّى جفَّ لَـحْمُه، وفسدَتْ حَرَكاتُه الطبيعيَّة، وأُقْعِد، ثمَّ مات في مُنْتَصِفِ رجب من سنة إحدى وخمس مئة؛ فكان عُمُرُه تسعًا وسبعين سنة، وولايتُه من يومِ وفاة أبيه ستًّا وأربعين سنة وعشرةَ أشهر ونِصْفًا. وخلّفَ من الأولاد الذُّكور ما جاوز عَدَدُهم المئة. وقيل: إنَّه كان له من الوَلَد ووَلَدِ الوَلَد نحو ثلاث مئة.

دولة يحيى بن تَـمِيم ابن الـمِعِزّ ونُـبَـذٌ من أخباره وسِيَره

مولده بالمهديَّة سنة سبع وخمسين وأربع مئة(٥)، ووليَ سنة إحدى وخمس مئة، وعُمُرُه إذ ذاك ثلاث وأربعون سنة. وكان حاذقًا بتدبير دولته، ساهرًا في سياسة رعيَّته، كثيرَ الـمُطالعة لكُتُب السِّيَر والأخبار، أديبًا، شاعرًا، ذا حظٍّ صالحٍ من اللُّغة والعربيَّة. وكان حَسَن الوجه، أشْهَل العينَيْن، أجْهَر الصوت. وتُوُفِّي ثانيَ عيد النَّحر

(١) «من قصيدة طويلة» ليست في ر١.
(٢) بعده في أ: «لي» وبوجودها يختل الوزن.
(٣) «ابن المعز» ليس في ر١.
(٤) ليست في ر١.
(٥) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٤٥١.

من سنة تسع وخمس مئة فجاءةً مقتولًا في قصره بالمهديَّة، فكانت مُدَّة مُلْكه ثماني سنين وستَّةَ أشهر. وخلف من الأولاد ثلاثين ولدًا ذكورًا. وممَّا حَدَثَ في أيَّامه من الوقائع ما أذْكُرُها[1] مُلَخَّصًا، مؤرَّخةً بأوقاتها[2].

وفي سنة اثنتين وخمس مئة: فتح يحيى بنُ تَـمِيم قلعةَ أقليبية[3].

قال ابن القطَّان: كان لتميم ابن الـمُعِزِّ من الولد نحو[4] ثلاث مئة، فنفى يحيى أكبرَهم إلى المشرق والمغرب والأندلس. وكانت أيام يحيى هادنةً وادعةً. وكان يطلب عَمَل الكيمِياء، وجعل لها دارًا تَرِدُها الطَّلَبة، وأجرى عليهم الإنفاق، ومكَّنهم من الآلات.

وفي سنة ثلاث وخمس مئة: جرَّد يحيى بنُ تَـمِيم من أُسْطُوله خمسةَ عشر غُرَابًا للغزو في بلاد الرُّوم، فأُصيب منها سِتَّةٌ، وعادت الباقيةُ إلى المهديَّة[5].

وفي سنة أربع وخمس مئة: كان[6] بالمغرب زَلَازِلُ عظيمةٌ، دامت شهرَ شوَّال كلَّه. وأميرُ إفريقية يحيى بنُ تـميم ابن الـمُعِزّ.

وفي سنة خمس وخمس مئة: وصل سِوَارٌ رسولُ صاحب مِصْرَ بهديَّة إلى أمير إفريقية يحيى بنِ تَـمِيم، فتلقَّاه بغاية الإكرام والاهتمام، وأقامَ عنده حتَّى صرفَهُ، وأصحَبُه من الذّخائر والألطاف ما لا يُـحِيطُ به الوَصْفُ.

وفي سنة سبع وخمس مئة: وصلت أُسْطُولُ المهديَّة بسَبْيٍ كثير من بلاد الرُّوم في ربيع الآخِر، فسُرَّ بذلك يحيى بنُ تـميم والمسلمون.

---

(١) في ر١: «أذكره».

(٢) قوله: «مؤرخة بأوقاتها» ليست في ر١، وينظر الكامل لابن الأثير ١٠/ ٥١٢-٥١٤.

(٣) في ر١: «أقليمة»، وفي الكامل لابن الأثير ١٠/ ٤٥١: «قُلَيْبية» وكله تحريف والصواب ما أثبتنا من أ، وهي كذلك عند البكري ٤٥، والإدريسي ١٢٥، والروض المعطار ٥٢ وقال: «مدينة كبيرة على ساحل البحر بأقصى جزيرة شريك قبلي مدينة تونس، إلا أنها خربت ولم يبق منها الآن إلا قلعتها في قنة جبل، وبقية سورها القائم على الساحل ظاهر اليوم بينه وبين القلعة مسافة».

(٤) من ر١.

(٥) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٤٧٨، والغراب: نوع من السفن الحربية.

(٦) في ر١: «كانت».

وفي سنة ثمان وخمس مئة: ولَّى أمير إفريقية يحيى ابنَه عَلِيًّا[١] مدينةَ سَفَاقُس، وولَّى أخاه عيسى مدينةَ سُوسة.

وفيها: هجم الرُّومُ على مَيُورَقة، هي بيد مُبَشِّر الفَتَى مَوْلَى ابنِ مُجاهِد، ودخلوها عَنْوةً، وقتلوا رجالَهَا، وسبَوْا ذراريَها ونساءَها، وذلك بعد حصار شديد؛ ثمَّ استرجعها عليُّ بن يوسفَ صاحب الغرب والأندلس[٢] من أيدي الروم وملكها[٣].

وفي سنة تسع وخمس مئة: وصل إلى المهديَّة رَجُلانِ أو ثلاثة، ذكروا أنَّهم من طَلَبة الـمَصَامِدة، عارفين بصناعة الكيمياء، فأُبيح لهما الدخولُ إلى دار العَمَل، فلـمّا أحكما ما أرادا، استأْذنا على السلطان يحيى بنِ تَـمِيم، فقال لهما: أوْقِفاني على الطَّرْح وحقيقة السِّرِّ، فقالا: على أن لا يحضر[٤] إلَّا أنت ووزيرُك فحضر هو ووزيرُه وعبدُه أبو خنوس، فصنعا البُوط وألقيا الرَّصاص، وأحميا عليه، وجعلا كأنَّهما يُـخْرِجان الإكْسِير، فأخرجا خَنَاجيرَهما وقتلا الوزيرَ وأبا خنوس، وأكثرا في السلطان الجراحات[٥]، فبقي يُعاني جراحه[٦] حتَّى مات. وقالا له حين جرحاه: أيُّها الكَلْب! نَحْنُ أخَوَاكَ فُلان وفُلان! نَفَيْتَنا وبَقِيتَ في الـمُلْك! وثارت الصيحةُ إذ ذاك، فدخل العَبِيدُ وقُتِلَ الرجلان في الحين[٧].

ومات يحيى يومَ عيد الأضحى من سنة تسع وخمس مئة. وكان الأميرُ يحيى، مدَّةَ مرضِه[٨] إثر هذه النوبة والغدر، نفى ابنَه (أبا)[٩] الفُتوح إلى قصر زِيَاد، وأظهر

---

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي، في وفيات سنة ٥١٥هـ (١١/ ٢٤٣).

(٢) «صاحب الغرب والأندلس» من ر١.

(٣) ليست في أ.

(٤) في ر١: «يحضره».

(٥) في ر١: «الجراحة».

(٦) في ر١: «يعانيها».

(٧) في أ، م: «وقتلا الرجلان للحين»، وما أثبتناه من ر١.

(٨) «مدة مرضه» ليست في ر١.

(٩) زيادة يقتضيها صحة الاسم، وينظر كامل ابن الأثير ١٠/ ٤٧٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ١٧٥ وغيرهما.

اتِّهامَه في القضيَّة، فأقام[1] هناك إلى حين وفاة أبيه وولاية عليٍّ أخيه، ثمَّ نفاه أخوه[2] عليٌّ أيضًا إلى المشرق، فتُوُفِّي هنالك[3].

وفي هذه السنة: عقد الأميرُ يحيى نكاحَ العَزِيز بالله ابنِ المنصور، صاحبِ القلعة وبِجَاية، على بنته بَدْرِ الدُّجى، وجهَّزها إليه.

دولة الأمير عليِّ بن يحيى بن تَـمِيم ابن الـمُعِزِّ بالمهديَّة وبعض بلاد إفريقية[4]

لـمَّا تُوُفِّي الأميرُ يحيى، اجتمع أهلُ الدولة على إنفاذ[5] كتابٍ إلى عليّ على لسان أبيه؛ وكان عليٌّ[6] يلي سَفَاقُس؛ فكتبه الكاتب، وكتب عَلَامة يحيى[7] وكانت: «الحمد لله وحده»، فوصل الخبرُ إلى عليٍّ ليلًا، فخرج لوقتِه، فوصل إلى المهديَّة ثالثَ عيد النحر، فدَفن أباه في القصر، ودخل الناسُ إليه مُعَزِّين ومُهَنِّئين، وعمرُه ثلاثون سنةً، فاسْتَثْبَتَ[8] له الأمر، واستوسقَ له الـمُلك. وكان كريمًا جوادًا، يركنُ إلى الراحة واللَّذَّات، واتَّكل على قومٍ فوَّض إليهم تدبيرَ دولته، فعاجلَتْه منيَّتُه في ربيع الآخر من سنة خمس عشرة وخمس مئة[9]، فكانت دولته[10] خمسَ سنين وأربعةَ أشهر واثني عشر يومًا. وخلَّف من الولد الذكور أربعةً: الحسن، والعزيز، وباديس، وألُه.

---

(١) في ر١: «فبقي».

(٢) ليست في أ.

(٣) هذه الأخبار في مقتل يحيى بن تميم وما جرى بعدها ذكرها ابن الأثير في سياق مشابه، ولكن في سنة ٥٠٢هـ (الكامل ١٠/ ٤٧٢-٤٧٣).

(٤) جاء العنوان في ر١: «دولة الأمير علي بن يحيى بن تميم وبعض أخباره».

(٥) في م: «نفاذ».

(٦) ليس في ر١.

(٧) في ر١: «فكتب إليه كاتب أبيه بعلامته».

(٨) في ر١: «فاستتب» وكلاهما بمعنى.

(٩) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٥٨٨.

(١٠) في ر١: «مدته».

وفي سنة عشر وخمس مئة: أمر بعِمارة الأُسْطُول إلى جَرْبة، فحاصروها إلى أن أقَرَّ أهْلُها بالطاعة له[١]، ونزلوا على حُكْمِه[٢].

وفي سنة إحدى عشرة وخمس مئة: أرجف العوامُّ بأنه سيكون في رمضانَ حادِثٌ كبيرٌ، وأنَّ السلطانَ يموت فيه، وفَشَا القولُ بذلك، وانتشر، فأكْذَبَ اللهُ أحاديثَهم. وقال الشعراء في ذلك كثيرًا، فمِنْهُ [من الطويل]:

أشَاعُوا أبـاطِيلًا وبَثُّـوا زَخارِفًـا ... دَعَـتْهم لَـهَا آمـالُهُمْ والـمَطَامِعُ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ الناسُ من فـرطِ حُـبِّهم ... لـضَمَّتْك أحْـشَاءٌ لـهم وأضَـالِعُ

ومنه [من الطويل]:

وأصْبَحَ قَـوْلُ الـمُبْطِلين مُكَـذَّبًا ... ومَدَّ لـك الرحـمـن في أمَـدِ العُمْرِ
فـأينَ الـذي حَـدَّ الـمُنَجِّمُ كَوْنَـهُ ... إذا مَرَّ[٣] لِلصُّوَّامِ عَشْـرٌ مـن الـشَّهْرِ

وفيها[٤]: وصل رسولُ صاحب مِصْر بهديَّة إلى المهدية.

وفيها: حاصَرَ عليُّ بن يحيى مدينةَ قابِس، ودوَّن بعض قبائل العَرَب، فلمّا بلغ ذلك رافعًا صاحِبَها، خرج مُتَطَارِحًا على وجوه الجيش، راغبًا في الصُّلْح، فلم يجِبْهُ عليٌّ إلى ذلك، وفي أثناء ذلك، نزل على المهديَّة ببيوته، ومَن ساعده من عشيرته، فخرج مَن كان بالمهديَّة، فهَجموا على بيوته، فتصايَحْنَ نساءُ العَرَبِ، فغارَت العَرَبُ لذلك، ووقعت الحربُ بين الفريقَيْن، والأميرُ على باب زَوِيلة. ثمَّ إنَّ عليًّا دوَّن على رافع ثلاثة أخماس العَرَب من جيشه، فصمد رافعٌ نحوهم، والتقى الجمعان، ثمَّ ولَّى[٥] رافِعٌ قاصدًا إلى القَيْرَوان. واجتمعتْ شيوخُ دَهْمان، واقتَسمُوا البلادَ بينهم،

---

(١) في ر١: «حتى أذعن أهلها إلى الطاعة له».
(٢) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٥١٣-٥١٤.
(٣) في ر١: «عُدّ».
(٤) في ر١: «وفي سنة إحدى عشرة المذكورة».
(٥) في ر١: «فولّى».

فأعطوا رافعًا مدينةَ القَيْروان. ووصلت العَرَبُ المدوَّنةُ إلى الأمير عليِّ بن يحيى، فوهبها أموالًا جـمَّةً، وأمَرها بالمسير إلى القَيْروان، فوقع بينهم وبين رافِع قتالٌ شديد، كان الظهور فيه لحزب عليِّ بن يحيى، في خبرٍ طويلٍ.

وفي سنة اثنتي عشرة وخمس مئة: وصل إلى الأمير عليّ بن يحيى، من قِبَل صاحِب صِقِلِّيَة رُجَّار[1]، رَسُولٌ منه يَلْتَمِس تجديدَ العُقود، وتأكيدَ العهود، ويطلب أموالًا كانت له مُوَقَّفَةً بالمهديَّة، وذلك بعُنْف وغِلْظة، فردَّ عليٌّ رسولَه دون جواب، وجَبَهه بالقول؛ فتزايدت الوحشةُ بينه وبين رُجَّار، فأوسع شرًّا، وحاوَلَ بعد ذلك مَكْرًا[2].

قال ابن القَطَّان: وكان في هذه السنة غلاءٌ عظيمٌ، ووباءٌ، وبلغ رُبْعُ الدقيق بتِلِمْسَان عشرين درهمًا.

وفي سنة ثلاث عشرة وخمس مئة: أغزى إبراهيمُ بن يوسف أخو عليٍّ[3] بن يوسف بن تاشَفين، مَلِكِ الغَرْب، قُورِيَةَ[4] بالأنْدَلُس، ففتحها اللهُ عليه. وأميرُ إفريقية عليُّ بن يحيى بنِ تـمِيم.

وفي سنة أربع عشرة وخمس مئة: كانت وقعةٌ بالأنْدَلُس، انهزم فيها المسلمون، وهي وقعة قُتُنْدَة[5]، قال ابن القَطّان: مات فيها نحوُ عشرين ألفًا[6].

وفيها: كان حلولُ محمد[7] بن تُومَرْت الـمُتَلَقِّب بالمهديّ بأغْمات، مُـحَرِّضًا على الخروج على السلطان، وتفريق الكَلِمـة الـمُنْتَظِمَة.

---

(١) له ترجمة جيّدة في الوافي للصفدي ١٤/ ١٠٥ فما بعد، والضبط منه ومن ر١.

(٢) في ر١: «غدرًا».

(٣) ترجمة علي في وفيات سنة ٥٣٧ من تاريخ الإسلام ١١/ ٦٣٧.

(٤) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٤١٢.

(٥) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٥٨٦.

(٦) ممن استشهد فيها من العلماء المحدث المشهور القاضي أبي علي الصدفي الذي ألَّف ابن الأبار «المعجم» في أصحابه، وكان من العلماء العاملين المجاهدين.

(٧) من ر١.

وفي سنة خمس عشرة وخمس مئة: خرج عليُّ بن يوسفَ من مَرّاكُش إلى الأنْدَلُس، فوصلها في ربيع الأوَّل، وأخَّرَ ابنَ رُشْد عن القضاء، وولَّى أبا القاسم بنَ حَـمْدِين، ثمَّ رجع إلى مَرَّاكُش.

وفيها: تُوُفِّي أميرُ إفريقية عليُّ بن يحيى بن تَـمِيم ابن المعز[1].

دولة الأمير الـحَسَن بن عليّ بن يحيى بن تـمِيم ابن الـمُعِزّ بإفريقية[2]

كان أبوه فوَّض إليه الأمرَ في حياته، وعُمره اثنتا عشرة سنة وتسعة أشهر، ومولدُه بمدينة سُوسةَ في رجب سنة اثنتين وخمس مئة. فلـمّا مات أبوه، دخل الناس إليه مُهَنِّئين بالـمُلك ومُعزِّين بالوفاة[3]، وأنشدَتْه الشعراءُ، وتكفَّل بأمر دولته صنْدَلٌ الخادِمُ، لا لمعرفةٍ ولا سياسةٍ.

وفي سنة ست عشرة وخمس مئة: غزا أبو عبد الله بن مَيْمون، قائدُ عليِّ بن يوسف، مَلِكِ البَرَّيْن[4]، جزيرةَ صِقِلِّية، فافتتح بها مدينةَ سقوطره[5] من عمل رُجَّار صاحِبِ صِقِلِّيَّة[6]، وسبى نساءَها وأطفالَها، وقتل رجالها[7]، وسلب جميعَ ما وجده[8] فيها، فلم يشكَّ صاحبُ صِقِلِّيَّة أنَّ الـمُحَرِّكَ لذلك والـمُسَبِّبَ له هو أميرُ إفريقية الحسنُ بن عليّ؛ لما تقدَّم بينه وبين أبيه من الوحشة العظيمة، فاستنفر أهل[9] بلاد الرُّوم قاطبةً، فالتأم له ما لم يُعهد مثلُه كثرةً. فعَلم بذلك الحسنُ بن عليّ[10]، فأمر بتشييد الأسوار،

---

(١) «ابن المعز» من ر١.

(٢) جاء في العنوان في ر١: «دولة الأمير الحسن بن علي بن يحيى وبعض أخباره».

(٣) في أ، م: «مهنّئين ومعزين بالملك والوفاة»، وما أثبتناه من ر١ وهو أجود.

(٤) «ملك البرين» ليست في ر١.

(٥) في أ: «سقطرة»، وفي م: «نقطرة».

(٦) «من عمل رجار صاحب صقلية» ليست في ر١.

(٧) في أ: «شيوخها».

(٨) في ر١: «وجد».

(٩) ليست في ر١.

(١٠) «بن علي» ليست في ر١.

واتِّخاذ الأسلحة، وحَشْد القبائل، واستقدام[1] العَرَب، فجاءت الحشودُ من كلِّ جهة ومكان، والناسُ مُتأهِّبُونَ لما يَطرقُهم منهم[2].

وفي سنة سبع عشرة وخمس مئة: في أواخر جُمادى الأولى، وصلتْ أُسطولُ الروم[3] إلى جزيرة الأحَاسِي[4]، وخرج منهم إلى البرّ خلقٌ كثيرٌ، وانبسطوا حتَّى بَعُدوا عن البحر أميالًا. وفي اليوم الثاني، جاء إلى المهديَّة ثلاثةٌ وعشرون شِينِيًّا، فعايَنُوا العساكرَ والحشود، ثمَّ انصرفوا إلى الجزيرة، فوَجدوا العَرَبَ قد كشفوا مَن كان بها من الرُّوم عن مواضعهم، ومزَّقوا مَضارِبَهم، فقَويتْ نفوسُ المسلمين بذلك. وكان رُجّار قد أمر أُسطولَه أن يَدخل[5] تلك الجزيرة، ويأْخذ[6] قَصْر الدِّيماس، وأن يسيرَ الخَيْلُ والرَّجْلُ من هناك على تعبئَة في البَرِّ[7] إلى المهديَّة، فدخلوا القَصْر للَيْلَتَيْن خلَتَا من جُمادى الأُولى، وفي آخر ليلةٍ منه، كَبَّر المسلمون، ودخلوا الجزيرةَ، فانهزم الرُّومُ إلى أجفانهم، بعدما قَتلوا بأيديهم كثيرًا من خيولهم. وأخذ المسلمون فيما يحتاجون إليه نحو أربع مئة فرس، وآلات كثيرة، وأسلحة. وأحاطت العساكرُ بقَصْر الدِّيمَاس، تُقاتِلُه، وأهْلُ الأُسطول في البحر يعاينون ذلك، إلى أن طَلب الرُّومُ الأمانَ من السلطان الحسنِ بن عليّ بن يحيى بن تَمِيم، فلم تُساعِد العَرَبُ على ذلك، وخرجوا في مُنْتَصَف جُمادى الآخرة، فأخذتهم السيوفُ، وقُتلوا عن آخرهم. وكان عَدَدُ الأجفان نحوَ ثلاث مئة، وعَدَدُ الخيل فيها نحوَ ألفِ فرس[8].

---

(١) في ر١: «وسَوْق».

(٢) الكامل لابن الأثير ١٠/ ٦١١-٦١٢.

(٣) في أ، م: «الإفرنج».

(٤) ينظر عنها الروض المعطار ١٤.

(٥) في ر١: «بدخول».

(٦) في ر١: «وأخذ».

(٧) «في البر» ليست في ر١.

(٨) في أ، م: «فارس».

أخبر أبو الصَّلْت، قال: أخبرني عبدُ الرحمن بن عبد العزيز، قال: رأيتُ على باب رُجّار بصقِلِّـيَّة رجلًا من الإفْرَنْج، طويلَ اللحية، يتناول طَرَفَ لحيته بيده، ويُقْسِمُ بالإنْجِيل أنَّه لا يأْخذ منها شعرةً حتَّى يأخذَ ثأره من أهل المهديَّة. فسألتُ عنه، فقيل لي: إنّه، لـمّا انهزم، جُذِبَ بها حتَّى أدْمَأْتْهُ. إلى هنا انتهى كلامُ أبي الصَّلْت في أخبار المهديَّةِ وأميرِها الحسنِ بن عليّ بن يحيى بن تَـمِيم إلى سنة سبع عشرة وخمس مئة.

وبقي الحسن بن عليّ مالكًا للمهديَّة وبلاد تلك الجهات إلى سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة، ثمَّ خرج باستيلاء صاحبِ صِقِلِّـيَّة عليها.

وفي سنة ثمان عشرة وخمس مئة: استفحل أمرُ المهديّ والـمُوَحِّدِين بالغَرْب، وأميرُ إفريقية الحسنُ بن عليّ بن يحيى.

ومات في هذه السنة العزيزُ بالله، صاحبُ بِجَاية، ووَلِيَ ابنُه يحيى[1]. وكان لبني الناصرِ بن عَلَنَّاس بن حـمّاد بِبجَاية والقَلْعةِ وتلك البلادِ وُزَرَاءُ يُعْرَفون ببني حَـمْدُون، توارثوا وِزَارتَهم، منهم مَـيْمُون بن حَـمْدُون عند يحيى هذا، فنشأ ليحيى ولدٌ ولاَّه الأمرَ بعده وفوَّض الأُمورَ إليه في حياته، فجعل الولدُ يستنقص[2] الوزير مَيْمونًا، ويُقبِّح أفعالَه، ويُسَمِّيه الشيخَ الكذَّابَ، فخَافَ منه مَيْمونٌ على نفسه، وخاطَبَ أبا محمَّد عبد المؤْمِن.

وفي سنة تسع عشرة وخمس مئة: كان أميرُ إفريقية الحسنُ بن عليّ على حاله. وخرج الطاغيةُ ابن رُدْمِير إلى بلاد المسلمين بالأندلُس[3]، فدوَّخها بلدًا بلدًا، وضيَّق عليها.

وفي سنة عشرين وخمس مئة: اجتمعتْ عساكرُ المسلمين بالأَنْدَلُس، فتلاقَوْا مع عدوِّ الله ابن رُدْمِير، وكان قد أذاق الـمُسلمين شرًّا[4] مُذْ سِنين، فدارت بين الفريقَيْن حربٌ عظيمةٌ، كان الظفرُ فيها للمسلمين. ثمَّ أُخبر الناسُ أنَّ تميمًا رجع فارًّا بنفسه، فانهزم المسلمون، وركبهُم النصارى بالقَتْل، واحتووا على المحلَّة بما فيها. وسار تَـمِيمٌ إلى

(١) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٤/ ١٣٩.

(٢) في ر١: «يستنغص»، ولها وجه.

(٣) ليست في أ، م.

(٤) في ر١: «أضَرّ بالمسلمين».

غَرْناطة، وانبسطت خيلُ النصارى على الـمُسلمين، يقتلونَهم كيف شاؤُوا. وتفرَّق الناسُ أيْدي سَبَا، ولـجُّوا إلى المعاقلِ، وكانت قريبًا منهم، فوقاهم الله شرَّهُم(١).

وفي سنة إحدى وعشرين وخمس مئة، وقيل: في عشرين: نهض أبو الوليد بن رُشْد إلى مَرَّاكُش للاجتماع بعليّ بن يوسف في المصالح وعزل تميمٍ عن غَرْناطة.

وفي سنة اثنتين وعشرين وخمس مئة: أشار ابنُ رُشْد ببناء سُور مَرَّاكُش، فبناه عليٌّ بن يوسف، وأنفق فيه سبعين ألف دينار.

وفيها: بعث العزيزُ بالله ابن المنصور صاحبُ بِجَاية عسكرًا إلى المهديَّة، فوَّدَ عليه ابنَ الـمُهَلَّب، فنزل عليها، ثمَّ انصرف ناكِصًا على عقبيه.

وفيها: وصل مُطَرِّف بن عليّ بن خَزْرُون الزَّناتيُّ إلى تُونِس، وأخرج منها أحمدَ بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن خُرَاسان، وقَفَلَ إلى الـحِجاز، وبها ماتَ على ما يأتي. ووليَ تُونِسَ في هذه السنة كرامةُ ابن المنصور الصُّنْهاجيّ من قِبَل صاحب بِجَاية.

وفي سنة ثلاث وعشرين وخمس مئة: كان الأميرُ بإفريقية حَسَن بن عليّ، على ما كان عليه في السنة قبلها، وصاحبُ بِجَاية يحيى ابن العزيز بالله، ووزيرُه مَيْمُون بن حَـمْدُون.

وفي سنة أربع وعشرين وخمس مئة: قُتل أميرُ مِصْرَ الـمُلَقَّب بالآمِر، وكان جبَّارًا عنيدًا، قتله الغلامُ الذي اسمُه حِرْز الـمُلُوك، وكان استبدَّ بالوزارة له. وكان الآمِرُ وَلَّى عَهْدَه عبدَ المجيد(٢).

وفي سنة سبع وعشرين وخمس مئة: قال الوَرَّاق في «مِقْبَاسه»: بعث اللهُ قومًا تحالفوا على قتل الجبَّار العنيد بـمِصْر الملقَّب بالآمِر. قيل: إنَّهم قصدوا إليه من بلاد الشام، احتسابًا، وكانوا عشرة أُناس، فأقاموا بمِصْرَ، وعَلِموا بيوم ركوبه، وكان، إذا ركبَ، سُدَّت الحوانيت والديار في مَـمَرِّه، ولا يمرُّ في طريقه أحَدٌ سواه، ويجعل نِصْفَ عسكره أمامه، ونِصْفَه وراءَه، وفي وسط تلك المسافتَيْن التي أمامه وخلفه فارِسانِ،

---

(١) في ر١: «فسلموا» بدلًا من عبارة: «فوقاهم الله شرهم»، وينظر كامل ابن الأثير ١٠/ ٦٣١.

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ١٠/ ٦٦٤-٦٦٥.

بينهما وبينه ما بينهما وبين العسكر، وحَوْلَه أربعةٌ من عَبيده. فقصد هؤُلاء القوم إلى طريقه، وفيه فُرْن، فقصدوا إلى الفَرَّان، ومعهم دقيقٌ، وقالوا له: نريد منك أن تَخْبز لنا هذا الدقيق، فإنَّا قومٌ غُرَبَاءُ مسافِرون. فاعتذر لهم بالسلطان، فرغَّبوه، وشرط عليهم العجلة، ثمَّ أشغلوه بالحديث إلى أن مرَّ عليه مقدَّم العسكر الأوَّل، فأعنف عليهم في الخروج، فلما رأوا ذلك، أدخلوه داخِلَ الفُرْن وسدُّوا فمه بغطائه، وغلقوا باب الفُرْن عليهم، إلى أن سمعوا حوافِرَ فرسه، فأوَّلُ مَن خرج من الفُرْن كهلٌ منهم، فجعل يسجد إلى الأرض، وينادي[1]: «أنا بالله وبعدل مولانا!» ويسجد مرَّةً بعد أُخرى إلى أن ألقى بيده في شكائم الفرس، وأخرج سِكِّينًا، وضرب بها بطن الفرس، فسقط إلى الأرض، وخرج أصحابه من الفُرْن مُبادرين، فضربوه بسكاكينهم إلى أن فرغوا من قتله، وقُتِلوا في الحين أجمعين. وأراحَ اللهُ من الفاجرِ الطاغِي، وهو الذي كَثُر[2] في زمانه دَعْوَى الباطلِ ونصر الظالم[3]، وعمل جَهَنَّم يعذِّب فيها الناس، وأباح المحظورات جهارًا في النزاهات، وغير ذلك من قبائحهم ـ لعنهم الله، أعني الشيعةَ العُبَيْديَّة.

وفي سنة ثمان وعشرين وخمس مئة: كان وُلاةُ إفريقية على ما كانوا عليه في السنة قَبْلها.

وفي سنة تسع وعشرين وخمس مئة: صرخ الـمُوَحِّدون بموت الـمَهْديّ، وسمَّوا عبدَ المؤْمن بأمير المؤمنين.

وفيها: وَلِيَ قضاءَ فاسَ عبدُ الحقِّ بن عبد الله بن مَعِيشة، فأراق الخمرَ، وكسر الدِّنان، وشدَّد على أهلها، وزاد في الجامع الكبير، فكان البناءُ فيه في آخر هذه السنة.

وفي سنة ثلاثين وخمس مئة: نزل عليُّ بن حَـمُّود على المهديَّة، بعسكرٍ من قِبَل صاحِب بِجَاية العزيزِ ابن المنصور، ومالٍ برَسْم العَرَب. فنزل بظاهر زَوِيلة، وناشبَ القتالَ برًّا وبحرًا؛ فأخرج إليهم صاحِبُ المهديَّة أُسْطُوله، فأخذوا من أُسطول بِجَاية غُرابَيْن، وأمر بسجن قائدِهما، فأمَّا الواحد، فمات من سَهْمٍ أصابه. ثمَّ وصلت العَرَبُ

---

(١) سقطت من ر١.

(٢) في م: «أكثر».

(٣) من هنا إلى ثلاث صفحات قادمة سقط من ر١، وسأشير هناك إلى نهاية السقط.

لنصرة المهديَّة، فرحل عسكرُ بِجَاية عن المهديَّة بعد إقامته سبعين يومًا. وأمر الحسنُ بن عليّ قائدَه بقتل القائدَين، فقُتل أحدُهما بين يديه، ووُجدَ الآخر قد مات من سَهْمٍ كان أصابه.

وفيها: جهَّز رُجَّار صاحبُ صِقِلِّيَّة أُسطُولًا، فقصدوا جزيرةَ جَرْبَة، واستولَوْا عليها، وسبَوْا أهلها.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة: كان موتُ عبد المَجِيد صاحبِ مِصْر[1]. وكان للشيعة في تولية خليفةٍ عليهم خبرٌ طريفٌ، يُذْكَرُ في موضعه.

وفي سنة ست وثلاثين وخمس مئة: توفّي أبو عبد الله المازِرِيُّ، وأبو الصَّلْت.

وفيها: أخذ صاحب المَهْدِيَّة المركبَ الذي أنشأهُ صاحبُ بِجَاية، وبعثه بهديَّة إلى صاحب مِصْرَ؛ وسببُ ذلك: أنَّه كان في الإسْكَنْدَرِيَّة مركبٌ للحَسَن صاحبِ المهديَّة، عطَّله عن السفر صاحبُ الدِّيوان؛ لأنَّه سعَى في الشَّتات بين الحَسن وبين صاحبِ مِصْر، وقصد المواصلةَ بين صاحب مِصْر وصاحب بِجَاية، فأقلعت المراكب، وبقي هو محبوسًا. وأقلع في جملتها المركبُ البِجائيُّ ببضائعَ عظيمةٍ لها شأْنٌ، وأثمانٍ للتجار، وهديَّةٍ إلى صاحب بجاية، فعمل عليه الحسنُ، وأخذَه، وأمَرَ بتفريغه، وبقي المركبُ فارغًا حتَّى جاءت صدمةُ أُكتُوبر، فانكسر.

وفي هذه السنة: خرج جُرْجي من صِقِلِّيَّة في خمسةٍ وعشرين غُرابًا، وضرب على مَرْسى المهديَّة، فأخذ جميعَ ما كان فيه من المراكب، فيه مركبٌ جديدٌ أنشأه الحسنُ من خشب المركب الذي انكسر لصاحب مِصْرَ.

وفي سنة سبع وثلاثين وخمس مئة: خرج أُسْطُول صاحب صِقِلِّيَّة، فضرب على مدينة أطْرَابُلُس، فخيَّبه اللهُ[2].

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة: دَخَلَ مدينة سَفَاقُس، ودخلت في عمل رُجَّار صاحِبِ صِقِلِّيَّة.

---

(١) هكذا قال، وعبد المجيد هو الحافظ، وكانت وفاته سنة ٥٤٤هـ كما هو مشهور (الكامل لابن الأثير ١١/ ١٤١، واتعاظ الحنفا ٣/ ١٨٩، وغيرهما).

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ١١/ ٩١.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة: كان تغلُّبُ الرُّوم على مدينة المهديَّة، وخرج منها صاحبُها الحسنُ بن عليّ بن يحيى بن تَـمِيم ابن الـمُعِزّ بن باديس ابن المنصور بن بُلُجِّين بن زِيري بن مَنَاد بن مَنْقوش الصُّنهاجيُّ بجُملته وحاشيته، وتَبِعَه أهْلُ البلد فارِّين بأهليهم. وكان قائدُ رُجَّار صاحِبِ صِقِلِّـيَّة جُرْجي[1] بن مِيخَايِل الأنْطاكيِّ، وكان أبوه عِلْجًا من عُلُوج أبيه تَـمِيم، فكان هذا اللعينُ عارفًا بعورات المسلمين بالمهديَّة وغيرِها، فلم يزل رُجَّار وقائدُه جُرْجِي يُحيلان على المهديَّة بحِيَلهما، إلى أن استولَوْ عليها في هذه السنة. وتُعرف هذه الكائنةُ الشنعاء بكائنةِ يوم الاثنَيْن، وبَقِيَتْ بأيدي الرُّوم حتَّى افتتحها الـمُوَحِّدون، على ما أذكر في دولتهم. ولـمّا استولى صاحبُ صِقِلِّـيَّة على هذه المدينة، كانت بإفريقية مجاعةٌ عظيمةٌ، فخاف أهْلُ تُونس من أهل هذه السواحلِ من النصارى. وكان صاحبُ صِقِلِّـيَّة افتتح سَفَاقُس، ودخل بُونَة، وسَبَى أهلَها، فأخذ أهْلُ تُونس في الاستعداد والأُهبة والوقوف بجماعاتهم وقتًا بعد وقتٍ عند باب البحر، بمحضرِ واليهم مَعَدِّ ابن المنصور، وهو في الديوان الذي على الباب، فخرجوا يومًا من أيَّام عَرْضهم، فوجدوا قاربًا يوسق زرعًا، فأبكرت العامَّةُ خروجَ الزرع من بلدهم في تلك الشدَّة إلى موضع تحت مملكة الرُّوم، واجتمعوا على مَنْعه، وضجَّت العامَّة، وارتفع صياحُهم، فتعرَّض لهم رجالُ مَعَدِّ ابن المنصور، فوضعوا السلاحَ فيهم وفي عَبِيد مَعَدٍّ واليهم، وقتلوهم قتلةً شنيعةً، وأطلقوا النارَ تحت بُرْج الديوان، فنزل مَعَدّ عنه، واستسلم للعامَّة، فوقفوا عنه، فكانوا يأخذون رجالَه وعَبيده من تحت رِكابه، ويَقتلونهم. وبقي مَعَدٌّ بعد ذلك بتُونِسَ على حال قهرٍ من العامَّة، وكتب إلى بِجَاية، فجاءَه غُرابٌ منها، فطلع فيه مع بَنيه، وسار إلى بِجَاية. ورجع النظر في تونِس لقائدٍ من قُوَّاد صُنْهاجة مدَّةً يسيرةً، ثمَّ انصرف، وبقي البلدُ في حُكم العامَّة، فكانت الفتنة المشهورة فيهم، والقتال بين أهل باب السُّوَيْقة وأهل باب الـجَزيرة، ومُدَبِّرُهم في تلك المدَّة قاضِيهم أبو محمَّد عبدُ الـمُنْعِم ابن الإمام أبي الحسن، رحمه الله.

ولـمّا اشتدَّ خوفُ أهل تُونِس من صاحِب صِقِلِّـيَّة ومـمَّا سمعوه من غضبِ صاحب بِجَايةَ واستعدادِه لهم، أخذوا في تمليك محمَّدِ بن زِيَاد العَرَبيّ بإرادة قاضيهم،

---

(١) له ذكر في اتعاظ الحنفا ٣/ ١٨٨.

فلمّا عزموا على ذلك، ووصل ابنُ زِياد إلى تُونِس، وخرج القاضِي والأشياخُ إلى لقائه، صاح رجلٌ من العامَّة: «لا طاعةَ لعَربيٍّ ولا غُزِّيّ!» وقامت الفتنة، فرجع ابنُ زِيَاد إلى القَلْعة، وأراد القاضي الرجوعَ إلى المدينة، فمنعَتْه العامَّة وأخرجَتْه، فسار مع ابن زِيَاد إلى القَلْعة، وأقام بها مدَّةً طويلةً، إلى أن مات، رحمه الله، فيُقال: إنَّه كان راقدًا في الصيف في طاقِ عُلُوٍّ، فوقع منها ومات، ويُقال: إنَّه رُمِيَ منها.

ثمَّ إنَّ العامَّة وجَّهوا إلى أبي بكر بن إسماعيل بن عبد الحقِّ بن خُرَاسَان، فوصل إلى تُونِس بالليل[١]، فرُفِعَ في قُفَّةٍ من السُّور ووُلِّيَ تونِس، فأقام عليها نحو سبعة أشهر، ثمَّ غدرَ به عبدُ الله ابنُ أخيه عبد العزيز، على ما يأتي. وإذ قد وقع ذِكْرُ بني خُرَاسَان، فأذْكُرُ وِلايَتَهم مدينةَ[٢] تُونِسَ على النسق، ومن وليها من غيرهم، إلى دخول الـمُوَحِّدين إليها، بحول الله تعالى[٣].

ذكر مَن وَلِـيَ تُونِسَ من الأُمراءِ من بعد زوال مُلْك الـمعِزّ بن بادِيس منها

لـمّا انتقلَ الـمُعِزُّ بن بادِيس[٤] من القَيْرَوان والمنصوريَّة إلى مدينة المهديَّة، وأسلمها إلى العَرَب[٥]، واختلَّ مُلْكُه بفتنة العَرَب الواصِلين من الـمَشْرِق، كما تقدَّم، واستحوذوا على كثيرٍ من حواضِرِ إفريقية، وكانَ منهم في حصار تُونِس وما يَلِيها من البُلْدان ما كان، مثل بَاجَة والأُرْبُس وما يَلِيهما، وكان بنو حَـمّاد قد طمعوا في مُلْك إفريقية، وصارت عمالةُ القَيْرَوان في أيديهم مُدَّةً بمُداخلتهم العَرَب وإحسانهم إليهم، وانقطعَ مُلْك الـمُعِزّ عن تُونِس وغيرها، وضعفتْ دولتُهم بالمهديَّة عن حمايتها، مَشَى[٦]

(١) إلى هنا انتهى السقط من ر١.

(٢) من ر١.

(٣) خبر تغلب الروم على المهدية في كامل ابن الأثير ١١/ ١٢٥-١٥٩ باختلاف ملحوظ.

(٤) ليست في أ، م.

(٥) في ر١: «وأسلم ذلك للعرب».

(٦) في أ، م: «فمشى».

أشياخٌ من أهلها إلى الناصِر بن عَلَنَّاس، وهو إذ ذاك في القَلْعة دارِ مُلْكهم، وناظِمةِ سلكهم، فاستدعَوْا منه النظر إلى مدينتهم وتقديم والٍ من قِبَلِهِ عليهم، فأمَرهم أن يختاروا شيخًا منهم، يقومُ بأمرهم خلالَ ما ينظر إليهم. فيقال: إنَّهم راموا تقديمَ كبيرٍ منهم، فاستعفَى وتوقَّف. فوليها من قِبَل الناصِر عبدُ الحق بن عبد العزيز بن خُرَاسَان، فأقام بها واليًا إلى أن مات سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة، ثمَّ وليها بعده ولدُه عبد العزيز بن عبد الحقِّ، فأقامَ بها إلى أن مات في[1] سنة خمس مئة، ثمَّ وليها ولدُه أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحقِّ، فبقي واليًا عليها اثنتين وعشرين سنة، حتى أخرجه عنها[2] مُطَرِّف بن عليّ بن حَـمْدُون إلى بِجَاية، وكان قد بنى قصرًا بتُونِس، سُمِّيَ قصرَ بني خُرَاسَان، وطالت مدَّتُه كما ذكرنا، فاشتدَّت وطأتُهُ، وخرج عن سيرة الأشياخ إلى آثار جَبَابِرة الـمُلوك، وقتل عَمَّه إسماعيل بن عبد الحقّ، وكان أحقَّ منه بالإمرة. وفرَّ ولدُه أبو بكر بن إسماعيل إلى بَنْزَرْت[3]، فأقام بها خوفًا منه، وأخرج جماعةً من أهل تُونِس وأشياخها[4]، ونفاهم إلى المهديَّة وغيرها، واستبدَّ برأيه في أُمور تُونس، إلى أن وصلت أخبارُه إلى المنصور صاحبِ بِجَاية، فجهَّز إليه عسكرًا قدَّم عليه مُطَرِّفَ بن علي بن حَـمْدُون، فوصل إلى تُونِس عام اثنين وعشرين وخمس مئة، فخرجَ أحمد إليه، واستسلم في يَدَيْه، فنقله إلى بِجَاية، وولّى تُونِسَ كَرَامةَ ابن المنصور، من بني حـمَّاد، إلى أن مات في[5] سنة كذا وخمس مئة. ثمَّ وليها بعده أخوه أبو الفُتوح ابن المنصور، إلى أن مات، ثمَّ وليها بعده محمَّد بن أبي الفُتوح، فلم تُستحسن سيرتُه، فأُخرج عنها، ووليها مَعَدُّ بن المنصور، وكان آخِرَهم، فأقام عليها إلى سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة، حين استيلاءِ الرُّوم على المهديَّة، فخاف أهْلُ تُونِس من الروم[6]،

(١) ليست في ر١.

(٢) في ر١: «منها».

(٣) انظر عنها معجم البلدان ١/ ٤٩٩.

(٤) في ر١: «وأشياخهم».

(٥) ليست في ر١.

(٦) في أ، م: «منهم».

وثاروا على أميرهم مَعَدّ، كما تقدَّم، وثارت العامَّة بها، وكانت الفتنة المشهورة فيها. ثمَّ إنَّهم وجَّهوا إلى بَنْزَرْت، وقدَّموا أبا بكر بن إسماعيل بن عبد الحقّ، ثمَّ غدرَهُ عبدُ الله ابن أخيه عبدِ العزيز بعد إقامته في ولايته سبعةَ أشهر، وأخرجَهُ في قارب في البحر، فرماه البحرُ ميِّتًا عند قَلْعة ابن غَبُوش. فيُقال: غَرِقَ، ويقال: غُرِّقَ. فوليها عبد الله المذكور نحو عشر سنين، وهو الذي قتل القاضي أبا الفَضْل جَعْفَر بن حُلْوَان، وقتل معه ولدَه وولد أُخته ابن البَنَّاد؛ لَـمّا خَشِيَ أن يجمعوا عليه العَرَب.

وفي أيَّامه، وجَّه عبد المؤمن عَبْدَ الله بن سُليمان في قِطَع من أُسْطُول سَبْتة، وأمَرَه بالكشف عن تُونِس وقوَّتها والمجاورين لها من الأعراب، وبعد ذلك بعام، وصل السيِّد أبو محمَّد عبدُ الله بن عبد المؤمن إلى تُونِس، ونازَلَها وحاصَرَ عبدَ الله بن خُرَاسَان فيها مدَّةً، ثمَّ أقلع عنها إلى بِجَاية، وذلك في[1] سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة.

وفي سنة إحدى وخمسين وخمس مئة في شوَّال: كان القيام على النصارى بالمهديَّة وحصارُهم فيها.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة: استولت الرُّوم على زَوِيلة.

وفي سنة أربع وخمسين وخمس مئة: دخل عبد المؤْمن إفريقية، المرَّةَ الثانية، ونازَلَ تُونِس، ثمَّ أقلع عنها وحاصر النصارى بالمهديَّة[2].

وفي سنة خمس وخمسين وخمس مئة: دخل أبو محمَّد عبدُ المؤمن مدينةَ المهديَّة صُلْحًا، واستولى الـمُوَحِّدون عليها في العاشر من شهر محرَّم[3].

وفي سنة ثمان وخمسين وخمس مئة: كانت كائنةٌ يومَ السَّبْت بنزول الرُّوم على المهديَّة، وأخذوا مدينة سُوسة، ثمَّ خرجوا عنها.

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة: كانت كائنةٌ يومَ الجمعة بنزول النصارى على المهديَّةِ ثمَّ غَدَرَها ابنُ عبد الكريم في ربيع الآخر منها، ودخلها يحيى بن غانِيَة

---

(١) ليست في ر١.

(٢) الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٤١.

(٣) الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٤٥.

الـمَيُورقيُّ في شعبان من سنة ثمان وسبعين وخمس مئة، فلم يزل بها هو وأصحابه لَـمْتُونة ومَسُّوفَة، يُغِيرون منها على إفريقية، حتَّى تملَّكوا بعضَ بلادها، إلى أن دخلها أبو عبد الله الناصرُ مع الـمُوَحِّدين، في جُمادى الأولى من عام اثنين وست مئة.

ذكر الأُمراءِ والوُلاة بإفريقية لـخُلَفاءِ بني أُمَيَّةَ

عُقْبة بن نافِع. ثم أبو الـمُهَاجِر. ثمَّ عُقْبة ثانيةً. ثمَّ زُهَيْر بن قَيْس[١]. ثمَّ حسَّان بن النُّعْمان الغَسَّانيُّ. ثمَّ موسى بن نُصَيْر. ثمَّ محمَّد بن يزيد. ثمَّ إسماعيل بن عبد الله. ثمَّ يزيد بن أبي مُسْلِم الثَّقَفيُّ. ثمَّ محمَّد بن أَوْس الأنصاريُّ. ثمَّ بِشْرُ بن صَفْوان. ثمَّ عُبيدةُ بن عبد الرحمن السُّلَميُّ. ثمَّ عبد الله بن[٢] الـحَبْحاب. ثمَّ كُلْثُوم بن عِيَاض. ثمَّ حَنْظَلة بن صفْوان. ثمَّ عبد الرحمن بن حَبِيب القُرَشيُّ. ثمَّ الْيَاس بن حَبِيب. ثمَّ حَبيب بن عبد الرحمن. فهؤلاء الثمانية عشر هم الوُلاة عليها من بني أُمَيَّة، رحمهم الله!

ووَلِيَها للصُّفْرِيَّة:

عاصِم الوَرْفَجُوميُّ، وعبدُ الـمَلِك بن أبي الـجَعْد. وكانت مدتها[٣] سنةً واحدةً وشهرَيْن.

ووَلِيَها للإبَاضِيَّة[٤]:

أبو الـخطَّاب عبدُ الأعلى بن السَّمْح، مولى الـمَعَافِر، وكانت مُدَّتُه سنتَيْن اثنتين.

ووَلِيَها لِبَني العَبَّاس:

محمَّد بن الأشْعَث الـخُزاعيّ. ثمَّ عيسى بن يوسف القَيْسيُّ. ثمَّ الأغلب بن سالِم[٥] الـتَّمِيميّ. ثمَّ الحسن بن حَرْب الكِنْديّ. ثمَّ الأغْلَب. ثمَّ سالم ثانيةً. ثمَّ عُمَر بن حَفْص الـمُهَلَّبِيُّ. ثمَّ يَزِيدُ بن حَاتِم السُّلَمِيُّ. ثمّ داوودُ بن يزيد. ثمَّ رَوْح بن حاتِم.

---

(١) هذا الاسم ليس في ر١.

(٢) سقطت من م.

(٣) في أ، م: «مدتهم».

(٤) في ر١: «للإباضية»، من غير «ووليها».

(٥) من هنا إلى قوله: «سالم ثانية» سقط من ر١.

ثمَّ الفضل بن رَوْح بن حاتِم. ثمَّ هَرْثَمة بن أعْيَن. ثمَّ محمَّد بن مُقَاتِل العَكِّيُّ. ثمَّ تَـمَّام بن تَـمِيم الـتَّمِيميُّ. ثمَّ محمَّد بن مُقاتِل ثانيةً.

ووَلِيَها من بني الأغْلَب:

إبراهيم بن الأغْلَب، وعبد الله بن إبراهيم بن الأغْلَب، والأغْلَب بن إبراهيم بن الأغْلَب، ومحمَّد بن الأغْلَب بن إبراهيم، وأحمد بن محمَّد بن الأغْلَب بن إبراهيم، وزيادة الله بن محمَّد بن الأغْلَب بن إبراهيم، ومحمَّد بن محمَّد بن الأغْلَب بن إبراهيم، وإبراهيم بن أحمد بن محمَّد بن الأغْلَب بن إبراهيم، وعبدُ الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمَّد بن الأغْلَب، وزيادةُ الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمَّد بن الأغْلَب بن إبراهيم بن الأغْلَب، وهو آخِرُ بني الأغْلَب بإفريقية. وكان انقراضُ دولتهم سنة ست وتسعين ومئتين.

ومن الشِّيَعة العُبَيْدِيَّة[1]:

أبو عبد الله الداعي. ثمَّ عُبَيْد الله المهديِّ، وإليه تنسب العُبَيْدِيَّة بمِصْرَ. ثم ابنه أبو[2] القاسمُ بن عُبيد الله[3]. ثمَّ ابنه إسماعيل بن أبي القاسم، وهو الذي ملك مِصْرَ، ورحل إليها في آخر أيَّامه.

ومن[4] صُنْهَاجَة القائمين بدعوة العُبَيْدِيَّة ومن ولايتهم:

بُلُجِّين بن زِيري، والمنصور بن بُلُجِّين، وبَادِيس بن المنصور، والـمُعِزُّ ابن بادِيس، وتَـمِيم ابن الـمُعِزِّ. ثمَّ يحيى بن تَـمِيم. ثمَّ عليُّ بن يحيى. ثمَّ الـحَسَن بن عليٍّ، وعليه دخلها الرُّوم.

تَمَّ الـجُزْءُ الأوَّلُ من البَيَانِ الـمُغْرِبِ،
في أخْبَار الـمَغْرِب، والـحَمْدُ لله

(١) في ر١: «ووليها من الشيعة بني عُبيد».

(٢) سقط من م.

(٣) في م: «عبد الله»، خطأ.

(٤) في ر١: «وليها من».

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دار الغرب الإسلامي
تونس
لصاحبها: الحبيب اللمسي
6 نهج الدالية باللفي - تونس - فاكس: 0021671396545 - خلوي: 216-96-346567
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS

الرقم: 537/ 1000-10- 2013 تونس
التنضيد: المؤلف
الطباعة: برنت شوب - بيروت

AL-BAYAN AL-MUGHRIB

By

Abu Al-Abbas Ibn Athari

(Died after 712 AH)

Vol. 1

Edited with a Critical Introduction

By

Prof. Bashar A.Marouf & Mahmoud B.Awad

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري

المتوفى بعد سنة ٧١٢ هـ

المجلد الثاني

حققه، وضبط نصه، وعلق عليه

بشار عواد معروف   محمود بشار عواد

دار الغرب الإسلامي

تونس

الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب. 677 تونس 1035

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

المجلد الثاني

في أخبار الأندلس

ذكر صِفَة الأنْدلُس وأوَّليَّتها

أمَّا صِفة الأندلس، فإنَّها جزيرةٌ مُركَّنةٌ، ذاتُ ثلاثة أركان، قريبةٌ من شكل الـمُثلَّث: الركنُ الواحدُ منها عند صَنَم قَادِس، والركنُ الثاني في بلاد جلِّيقِيَّة[1]، وهو مُقابِل لجزيرة برطانية[2] حيث الصَّنَم المشبَّه بصَنَم قادِس، والركنُ الثالثُ بناحية الشرق، بين مدينة أرْبُونة[3] ومدينة بُرْذِيل[4] حيث هو قُرْبُ البحر الـمُحيط الغربيّ من البحر المتوسِّط الشاميّ، وكاد البَحْران هناك أن يجتمعا في ذلك الموضع، فتصير الأندلس في جزيرة لولا يسيرُ ما بقي منها، وهو مَسِيرةُ يوم كامل، وفيه مدخلٌ يقال له: الأبواب[5]، وفيه تتَّصل الأندلسُ بالأرض الكبيرة. فالأندلس كلُّها مُحْدَقةٌ بالبحر: البحر الـمُحيط الغربيّ، والبحر المتوسِّط القبليّ، ويَصْعَدُ منه قليلٌ إلى ناحية الشرق، فحدُّ الأندلس في الشرق والغرب وبعض الجوف البحرُ الـمُحيط، وحدُّها في بعض القِبْلة والشرق البحرُ المتوسِّط، لأنه[6] يتوسَّط الأرضَ كلَّها. وقيل: إنَّه في آخر الأقاليم[7] السبعة.

وقيل: إنَّ أوَّل مَن نزل الأندلسَ بعد الطوفان قومٌ يُعرَفون بالأنْدَلِش (بشين مُعْجَمة)، فسُمِّيَت بهم الأنْدَلُس (بالسين غير مُعْجَمة)[8]. وقيل: إنَّهم كانوا مَجُوسًا، فأراد اللهُ قَلْعَهم[9] منها، فحبس الـمَطَرَ عنهم حتَّى غاضت مياهُهم وعيونُهم وأنهارُهم،

---

(١) معجم البلدان ٢/ ١٥٧.

(٢) في ر٢: «قرطاجنة»، وينظر الروض المعطار ٨٩.

(٣) معجم البلدان ١/ ١٤٠.

(٤) الروض المعطار ٩٠.

(٥) في ر٢: «باب الأبواب»، وما أثبتناه هو الصواب، وينظر الروض المعطار ٦١٦.

(٦) في أ، م: «إلا أنه».

(٧) في أ: «الإقليم»، ولا يصح.

(٨) الروض المعطار ٣٣، وصبح الأعشى ٥/ ٢٠٥.

(٩) في ر٢: «خلعهم».

وخرجوا منها، وافترقوا في البلاد، وأقامت خالية مئةَ سنة[١]، من حدّ إفْرَنْجة إلى البحر، ثمَّ دخلها بعد ذلك قومٌ من الأفارِقة، أجْلاهم صاحبُ إفريقية من الجوع، فلمّا نزلوا الأندلس، وجدوا أنهارها قد جَرَتْ، فملكوها نحو مئة وخمسين سنة. وعَدَدُ ملوكهم أحدَ عشر مَلِكًا، ودارُ مُلكهم مدينة[٢] طالِقَة[٣]. ثمَّ غلبت عليهم الإشْبَانيّة حتَّى أخرجوهم عن الملك، وصار الـمُلك إليهم، وبهم سُمِّيت إشْبيلية، فبنَوْها وسكنوها، وخربت طالِقَة. وهجم عَجَمُ رُومة، فكانوا ملوكًا، حتى دخل البشترلقات[٤] على الرُّومانيِّين، وقد بعث اللهُ المسيحَ، عليه السلام، فبعث الحَوَاريِّين إلى البلدان كلِّها. وظهر دِينُ النصرانيَّة وغلب. ثمَّ كان دخول البشترلقات[٥] من رُومة، وكانوا يملكون إفْرَنْجة، ويَبعثون عُـمَّالَهم إليها. ودارُ مُلْكهم مَارِدَةُ، فكانت عِدَّة ملوكهم سبعةً وعشرين مَلِكًا[٦].

ثمَّ ظهر بإشبيلية إشْبَان، وكان رجلًا ضعيفًا حرَّاثًا، فوقف به الـخَضِرُ، عليه السلام، وهو يحرثُ، فقال له: إذا غلبتَ على إيلياء، فارْفُقْ بأولاد الأنبياء! فقال له: كيف يكون هذا، وأنا ضعيفٌ، من غير بيتِ مُلْكٍ؟ فقال له: يُقَدِّر ذلك مَنْ قَدَّرَ في عصاك ما قَدَّرَ! فلما نظر إلى عصاه، إذا بها قد أورقت، ففزع لذلك[٧]، وغاب عنه الـخَضِر. ووقع ذلك بنفس إشبان، فلم يزل يصطنع الرجال حتَّى عَلَا[٨] اسمُه وشاع[٩] ذِكْره، وتغلَّب على الأندلس، فخرج في السُّفُن إلى إيلياء، فغنمها وملكها[١٠] وقتل فيها

---

(١) ينظر الخبر في الروض المعطار ٣٣.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) معجم البلدان ٢/ ٨.

(٤) في ر٢: «البوشتولقات»، وفي الكامل لابن الأثير ٤/ ٥٥٨: «البشنوليات».

(٥) في ر٢: «ثم دخل هؤلاء البوشتولقات».

(٦) بعد هذا في أ: «منهم».

(٧) هذه اللفظة من ر٢.

(٨) في ر٢: «غلظ».

(٩) ليست في أ.

(١٠) في أ، م: «وهدمها».

مئةَ ألف من اليهود، وباع منهم مئة ألف ثم هدمها[١]، وانتقل رُخامها إلى الأندلس. وكان مُلْكه نحوَ عشرين سنة، وبعد سَنتَيْن من ملكه، غزا إيلياءَ. ويقال: إنَّ إشبانَ اسمه أصْبَهان؛ لأنَّه وُلِد بأصْبَهان، فسُمِّي بها، والله أعلم. فعِدَّةُ ملوكهم خمسة وخمسون مَلِكًا.

ثمَّ دخل القُوطُ الأندلس، وقطع الله مُلْكَ رُومةَ منها، وعِدَّةُ ملوك القُوطيّين ستَّة عشر مَلِكًا، آخِرُهم رُذْريق[٢]، الذي دخل عليه المسلمون، وجعلوا دارَ مُلْكهم طُلَيْطُلة. ووَجَدتُ في بعض كُتُب العَجَم أنَّ آخر ملوك الأندلس من القوطيين[٣] كان يسمَّى وَخْشَنْدَش، ولم يكن في النصرانيَّة أحكمُ منه ولا أحسن[٤] إصابةً لسُنَّتهم، وعلى سُنَّته أمْضَت[٥] النصرانيَّةُ أحكامها، وهي الأربعة الأنَاجيل، التي يَحْلِفون بها وينتهون إلى ما فيها. وقالوا: إنَّ رُذريق[٦] الذي دخلت عليه العربُ والبربر، وثب على وَخْشَنْدَش هذا وقَتَله، وغلب على مُلْك الأندلس، ودانت له طُلَيْطُلةُ وغيرها.

وفي كُتُب العَجَم: إنَّ رُذْرِيق هذا لم يكن من بيت المملكة، وإنَّما كان زَنيماً، وكان من عُمَّال الـمُلْك بقُرْطُبة، وقتل وَخْشَنْدَش بعدما ثارَ[٧] عليه، فغيَّر الحُكْم، وأفسد سُنَنَ الـمُلْك، وفتح البيتَ الذي كان فيه التابوت. وكان إذا مات الـمَلِكُ منهم، يُكْتَب اسمُه وكَمْ وَلِيَ، ويُوضَع في ذلك البيت مع تاجه، ولا سبيلَ بَعْدُ عندهم لفَتْحه، فلمَّا فتحه رُذْرِيق، أنكرت النصرانيَّةُ ذلك عليه، وجعلوا له مِثْله ذهباً وفضَّةً، ولا يفتحُه، فلم يقبلْ ذلك منهم، وعزم على فَتْحه، ووجد في البيت تيجانَ الملوك

(١) «ثم هدمها» ليس في أ، م.

(٢) ترجمته في الوافي للصفدي ٢٤/ ٤٠٠ وفيه وفي أ: «الذريق»، وفي ر٢: «رذريق»، وسيأتي بهذا اللفظ بعد قليل في النسختين، فظهر منه مراد المؤلف في كتابة الاسم.

(٣) قوله: «من القوطيين» من ر٢.

(٤) في ر٢: «أشد».

(٥) سقطت من أ.

(٦) في أ، م: «الذريق».

(٧) في أ، م: «خالف».

وتابوتًا فيه صُوَر العرب الذين يدخلون الجزيرة[1]، متنكِّبةً[2] قسيَّها، وفي رؤُوسها عمائمُها، وعليها مكتوبٌ: «إذا فُتِحَ هذا البيت، وأُخرجت هذه الصُّوَر، دخل الأندَلُسَ قومٌ في صُوَرِهم، فغلبوا عليها!»، فلمّا دخلت العربُ والبَرْبَرُ مع طَارِق، والتقَوْا برُذريق[3] أسلمَتْه النصرانيَّةُ، وانهزمتْ عنه حتى قُتِل. وكان دُخولُ طارِق بعد سنةٍ من ولاية رُذْريق، فقتله طارِق بقَرْطَاجَنَّة من كُوَر الجزيرة، وافتتح البلادَ حتَّى انتهى[4] إلى طُلَيْطُلة، فوجد بها مائدةَ سُلَيْمان، على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، ووجد فيها صُوَرَ العَرَب والبربر على خيولهم، وهي الصُّوَر التي وُضِعت على القَصْر بقُرْطُبة. وقيل أيضًا: إنَّها طلّسمات، كانت العرب قد نصبَتْها على مساجد الأندلُس، فنقلها عبدُ الرحمن بن مُعاوية إلى القَصْر بقُرْطُبة.

وهذا القَدْر كافٍ هُنا من صِفَة الأندلس وذِكْرِ ملوكها الأوَّلين.

ذكر دخول المسلمين إلى الأنْدَلُس وانتزاعها من أيدي الكُفَّار

أمَّا دخول المسلمين لها، فذُكِرَ فيه أربعة أقوال:

أحَدُها: أنّ الأندَلسَ أوَّلُ من[5] دخلها عبدُ الله بن نافِع بن عبد القَيْس وعبدُ الله بن الحُصَيْن الفِهْرِيَّانِ، من جهة البحر، في زمن عثمان رضي الله عنه. قال الطَّبريُّ[6]: أتَوْها من بَرِّها وبحرها[7]، ففتحها الله تعالى على المسلمين هي وإفْرَنْجة، وازداد في سلطان المسلمين مثل إفريقية[8]، ولم يزل أمرُ الأندلس لإفريقية، حتَّى كان زمنُ هشامِ بن

(١) قوله: «الذين يدخلون الجزيرة» ليس في أ، م.

(٢) من هنا إلى قوله «مكتوب» ليس في ر٢.

(٣) في أ: «بالجزيرة».

(٤) في أ، م: «انتهى طارق».

(٥) قوله: «أول من» ليس في أ.

(٦) تاريخ الطبري ٤/ ٢٥٥ باختلاف لفظي.

(٧) قوله: «وبحرها» ليس في المطبوع من تاريخ الطبري.

(٨) في ر٢: «كما ازدادت إفريقية في زمن عثمان»، وما أثبتناه من أ وهو الموافق لما في تاريخ الطبري.

عبد الـمَلِك، فمنعَ البربرَ أرضَهم، وبقي مَن في الأندلس على حاله[1]. هذا نَصُّه[2]. وإنَّ ذلك كان سنة سبع وعشرين من الهجرة الكريمة.

وثانيها: أنَّ موسى بنَ نُصَيْر افتتحها عام أحد وتسعين. وهو قولُ الطَّبَرِيّ أيضاً[3]. فيظهر منه أنَّه جاز بنَفْسه، وتولَّى هذه الغزوةَ والفتح.

وثالثُها[4]: أنَّ طَرِيفًا دخلها وفتحها في[5] عام أحد وتسعين.

ورابعُها[6]: أنَّ طارقاً أوَّلُ من دخلها، سنة أحد وتسعين، ودخل موسى بعده سنة[7] اثنتين وتسعين.

فهذا الخِلاف واقعٌ في هؤلاء الأربعة مَوَاضِعَ، قيل: إنَّ أوَّل من دخلها الفِهْرِيَّانِ، ثمَّ ابنُ نُصَيْر، ثمَّ طَرِيف، ثمَّ طارِق، فظهر من هذا أن الفِهْرِيَّيْنِ أثَّرا فيها في زمن عثمان رضي الله عنه، وغَنِما من جهة البحر، وطَرِيفًا دخلها سنة إحدى وتسعين مُغيرًا ومُحربًا، ونُسِب فعلُه إلى موسى بن نُصَيْر، نِسْبَةَ فِعْلِ المأمورِ إلى الآمِر؛ فصدَّق[8] عليه إضافته لموسى، فيكون قول الطَّبَرِيّ صادقًا، وصدَّق عليه أيضًا قولُ الرازيّ بأُخرى وأُولى، وطارق دخلها دخول الـمُسْتَفْتِح لها، الـمُكافِح، سنة اثنتين وتسعين، وموسى دخلها بعد ذلك مُتَمِّـمًا للفتح[9].

وقال عَريب: إنَّ العِلْج يُلْيَان، صاحبَ الجزيرة[10] الخضراء، دَاخَلَ موسى بنَ نُصَيْر، صاحبَ إفريقية، عام أحد وتسعين، على يد طارِق بن زِيَاد عامِلِ موسى على

---

(١) في أ، م: «حالهم»، وما أثبتناه من ر٢، وهو الذي في تاريخ الطبري.

(٢) يعني: نص الطبري.

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٤٥٤.

(٤) في ر٢: «والفتح الثالث».

(٥) ليس في ر٢.

(٦) في ر٢: «الرابع».

(٧) قوله: «ودخل موسى بعده سنة» سقط من ر٢.

(٨) من هنا إلى قوله «وطارق» سقط كله من ر٢.

(٩) قوله: «وموسى دخلها بعد ذلك متمماً للفتح» من ر٢.

(١٠) ليست في ر٢.

طَنْجَة وما والاها، فراسَلَ يُليَان موسى، يُزَيِّن عنده دخولَ الأندلس، ويُقَرِّب له أمْرَها[1]. وقيل: بل سارَ إليه بنفسه في البَحْر، حتَّى اجتمعَ به في ذلك، فاستشارَ موسى الوليدَ بنَ عبد الملك، إمَّا مراسلةً، وهو الأكثرُ الأظهر، وإمَّا بأنْ[2] نهض بنفسه إليه، فأشار الوليدُ بأنْ يختبرَها بالسرايا، ولا يُغَرِّر بالمسلمين، فبعث موسى بنُ نُصَيْر عند ذلك رجلًا من البربر، يسمَّى طَرِيفًا ويُكْنَى أبا زُرْعة، في مئة فارس وأربع مئة راجل، جاز في أربعة مراكب، حتَّى نزل ساحِلَ البحر بالأندلس فيما يُحاذِي طَنْجة، وهو المعروف اليومَ بجزيرة طَريف، سُمِّيَت باسمه؛ لنزوله هنالك، فأغارَ منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة[3] الخضراء، وأصاب سبيًا ومالًا كثيرًا، ورجع سالـمًا. وكانت إجازتُه في شهر[4] رمضان من سنة إحدى وتسعين.

وقد اتَّفق الجميعُ فيما يظهر على أنَّ مُتَوَلِّي كِبْر فَتْح الأندلس وجُلِّهِ ومُعْظَمِهِ طارِقُ بن زِيَاد. وقد اخْتُلِف في نَسَبه، فالأكثرون على أنَّه بَرْبَرِيٌّ من نَفْزة، وأنَّه مَوْلًى لموسى بنِ نُصَيْر، من سَبْي البربر. وقال آخرون: إنَّه فارِسيٌّ.

قال صالح بن أبي صالح: هو طارِقُ بن زِيَاد بن عبد الله بن رَفْهُو بن وَرْفَجُوم بن ينزغاسن بن وَلْـهاص بن يَطُّوفَتْ بن نَفْزاو، وكأنَّهم أيضاً اتَّفقوا على أنَّ طارقًا كان عامِلًا لموسى، قبل محاولة الأندلُس، على المغرب الأقصى، وتَرَكَ عنده رهائنَ برَابِر المغرب في سنة ست وثمانين من الهجرة. وقيل أيضاً: إنَّ طارِقًا جاز إلى الأندلس برهائنِ البربر سنة اثنتين وتسعين.

قال ابن القَطَّان: فالأكثرون يقولون: كان مستقَرُّه بطَنْجة، ومنهم من يقول: سِجِلْماسَة، وإنَّ سَلَا وما وراءَها من فاسَ وطَنْجة وسَبْتة كانت للنصارى، وكانت طَنْجةُ[5] ليُلْيَان منهم، فكان طارِقٌ إذًا نائبًا عن موسى بن نُصَيْر. واختلفوا أيضًا هُنا:

---

(١) ينظر صبح الأعشى ٥/ ٢٣٣.

(٢) «وإما بأن» ليست في أ.

(٣) ليست في ر٢.

(٤) كذلك.

(٥) في ر٢: «سبتة».

هَلْ إنّما سار إلى الأندلس عن أمر موسى، أو سار إليها لأمْرٍ دَهِـمَه، لم يمكنه إلّا إنفاذه؟ والقولُ الأوَّل هو المشهورُ المتَّفَقُ عليه.

قال الرَّازيُّ[١] عن الواقِديّ: إنَّ الوليد بن عبد الملك استعمل موسى بنَ نُصَيْر على إفريقية، واستعمل موسى بنُ نُصَيْر طارِقَ بن زياد على طَنْجة. وكان يُلْيانُ مجاوراً له بالجزيرة الـخَضْراء التي تَلِي طَنْجة، فداخَلَه طارِقٌ حتَّى صار معه إلى الرِّضا، ووعده يُلْيانُ بإدخاله الأندلسَ هو وجنوده. وكان اجتمع لطارِق اثنا عشر ألفًا من البربر، فأجمع طارِقٌ على غزو الأندلس، بعد أن أخذ إذْنَ موسى[٢] بنِ نُصَيْر مولاه في ذلك، فكان يُلْيانُ يحتمل أصحابَ طارِق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر أهلُ الأندلس بذلك، ويظنُّون أنَّ المراكب تختلف بالمتاجر[٣]. فحمل الناسَ فوجًا بعد فوج إلى الأندلس، فلمّا لم يبقَ إلّا فوجٌ واحدٌ ركب طارقٌ ومَن معه، حتَّى أجاز البحرَ إلى أصحابه. وتخلَّف يُلْيانُ بالجزيرة الخضراء؛ ليكون أطيبَ لنفسه ونفوسِ أصحابه. فنزل طارِق جبلًا من جبال الأندلس، يومَ الاثنين لخمسٍ خَلَوْن من رجب سنة اثنتين وتسعين، كما تقدَّم ذِكرُ ذلك[٤]. فسُمِّيَ ذلك الجبل[٥] باسمه إلى اليوم.

وذكر عيسى بنُ محمَّد، من وَلَد أبي الـمُهاجِر[٦]، في كتابه السببَ في دخول طارق الأندلس، وهو[٧] أنَّ طارقًا كان واليًا لموسى على طَنْجة، وكان يومًا جالسًا، إذ نظر إلى مراكبَ قد طلعتْ في البحر، فلما أرست، خرجوا إليها، فنزعوا أرْجُلها، وأنزلوا أهلها، فقالوا: إليكم جئْنا عامدين! وعظيمُهم معهم يُقال له: يُلْيان. فقال طارق:

---

(١) كتاب الرازي لم يصل إلينا.

(٢) من ر٢.

(٣) في م: «بالتجار».

(٤) «ذكر ذلك» ليست في ر٢.

(٥) ليست في ر٢.

(٦) قوله: «من ولد أبي المهاجر» ليس في ر٢.

(٧) في ر٢: «وذلك».

ما جاء بك؟ فقال له: إنَّ أبي[1] مات، فوثبَ على مملكتنا بِطْريقٌ يقال له: رذريق[2]، فأهانني، وأذَلَّني، وبلغني أمرُكم، فجئتُ إليكم أدعوكم إلى الأندلس، وأكون دليلًا لكم. فأجابه طارقٌ إلى ذلك، واستنفر اثني عشر ألفًا من البربر، فحملهم يُلْيانُ في المراكب فوجًا بعد فوج، كما تقدَّم ذكرُه.

وذكر غيرُ هؤلاءِ أنَّ السبب في ذلك: أنَّ طَنْجة وسَبْتة والخضراءَ وتلك النواحي كانت في مملكة صاحب الأندلس، على نحوِ ما كانت السواحل كلُّها بالعُدْوة وما قَرُبَ منها للرُّوم، يسكنونها؛ إذ كان البربرُ يرغبون عن سُكنى المُدُن والقُرَى، وإنَّما بُغيتُهم سُكْنَى الجبال والصحارى؛ إذ كانوا أصحابَ إبِلٍ وسوائم. وكان النصارى في صُلْحهم. وكانت السُّنَّة في الأندلس في ملوك النصارى أن يستخدموا بني بَطَارِقَتهم وكبار رجالهم، فالرجال منهم يخدمون خارجًا، والنساء جَوَارٍ يخدمْنَ داخلًا، وهكذا سُنَّتهم إلى اليوم في الرجال خاصَّةً، يخدمون صبيانًا يتأدَّبون بأدَبِهم، ويتعلَّمون سُنَّتهم، فإذا أدركوا وكبروا، ألحقوهم برجالهم وأهليهم. وكان مَلِك الأندلس من القُوطيِّين يُسمَّى رُذْرِيق، قد مدَّ يده إلى ابنةِ يُلْيان، وكانت عنده، فاغتصبها نَفْسَها، فأرسلتْ إلى أبيها، ودسَّت إليه، فلمّا بلغه ذلك، أحفظه[3]، وكتمه، وارتصدَ به الأيَّام، ونصب له الغوائلَ، حتى كان من دخول العَرَبِ المَغْرِبَ[4] ما كان[5]. وأرسل رُذْرِيقُ إلى يُلْيانَ في بُزاة وطيور[6] من طير عمله[7] وغيرها[8]؛ فأرسل إليه: لَأُورِدَنَّ عليك طيرًا لم تَسمع قطُّ بمثلها. وهو ينوي الغَدْر به، فحينئذٍ دعا طارقًا إلى ما كان من جواز البحر.

---

(١) في ر٢: «ملكنا».

(٢) في أ، م: «لذريق».

(٣) العبارة في ر٢ كما يأتي: «فأرسلت إلى أبيها سرًا تعلمه بذلك، فأغضبه».

(٤) في ر٢: «حتى دخل العرب المغربَ».

(٥) ينظر صبح الأعشى ٥/ ٢٣٣.

(٦) في ر٢: «وطير».

(٧) «من طير عمله» زيادة من ر٢.

(٨) ليست في ر٢.

واختلفت الرواياتُ في قتال طارِق أهْلَ الأندلس؛ فقيل: إنَّ رُذْرِيق زحف إلى طارقٍ بجميع أهل[1] القُوَّة من أهل مملكته بنفسه، وهو على سرير مُلْكه على بَغْلَيْن يـحْمِلانِهِ، وعليه تاجُه وجميعُ الحلية التي كانت تلبسها ملوك الأعاجم[2] حتَّى انتهَوْا إلى الجبل الذي فيه طارق، فخرج إليهم طارِقٌ بجميع أصحابه رَجَّالةً، ليس فيهم راكبٌ إلَّا القليل، فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتَّى ظنُّوا أنَّه الفناء، ثمَّ صرفَ اللهُ وجوهَ أعدائه، فانهزموا، وأُدرِك رُذْرِيق، فقُتل في وادي الطين. ومضى حتَّى دخل قُرْطُبَةَ، وفتح اللهُ الأندلسَ على المسلمين. هكذا ذكر عيسى في كتابه.

وذكر الواقِديُّ أنَّهم اقتتلوا من حين طلعت الشمسُ إلى أنْ غربت، فلم تكن قطُّ بالـمَغْرِب[3] مقتلةٌ أعظمَ منها، بقيتْ عِظامُهم في المعركة دهراً طويلًا لم تَذْهب.

وذكر الواقِديُّ أيضًا، عن عبد الحميد بن جعفر[4]، عن أبيه، قال: سَمعْتُ رجلًا من أهل الأندلس يُحدِّث سعيد بن الـمُسَيِّب ويذكر له قِصَّتهم، فقال: لم يرفع المسلمون السيفَ عنهم ثلاثةَ أيَّام، حتَّى أوطؤوهُم غلبةً. ثمَّ ارتحل المسلمون إلى قُرْطُبة، وهي مدينةُ الأندلس التي كان بها رُذْرِيق، وبينها وبين الساحل مسيرةُ خمسة أيَّام. وكان سلطانُ رُذْرِيق إلى أرْبُونة ثَغْرِ الأندلس، وهي إذ ذاك أقصى مملكة الأندلس، مـمّا يَلِـي إفْرَنْجة، ومن أرْبُونة إلى قُرْطُبة ألفَ مِيل. وكان الذي أصابه طارقٌ ومَن معه من السَّبي في أوّل فتح لهم عشَرةَ آلاف رأس، وكان سُهْمانَهم من الذَّهب والفضَّة لكُلّ واحد من الرجال مائتا دينار وخمسون دينارًا.

وذكر الرازيُّ أنَّه، لـمّا بلغ رُذْرِيقَ خَبَرُ طارِق ومن معه، ومكانُهم الذي هم فيه، بَعث إليهم الجيوشَ جيشاً بعد جَيْش، وكان قد قَوَّدَ على أحدهم[5] ابْنَ

---

(١) سقطت من ر٢.

(٢) في أ، م: «الملوك»، وما أثبتناه من ر٢.

(٣) في ر٢: «بالأندلس».

(٤) هو عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن الحكم بن رافع الأنصاري المدني المتوفى سنة ١٥٣هـ (تهذيب الكمال ١٦/ ٤١٦-٤٢٠، وتاريخ الإسلام ٤/ ١١٤-١١٥).

(٥) في أ: «عليه».

أُخت[1] له يُسمَّى بَنْج، وكان أكبرَ رجاله، فكانوا عند كلِّ لقاء يُهزَمون ويُقتلون، وقُتل بَنْج، وهُزم عسكره، فقَوِيَ المسلمون، وركب الرجَّالةُ الخيل، وانتشروا بناحيتهم التي جازوا[2] بها. ثمَّ زحف رُذْرِيقُ إليهم بجميع عساكره ورجاله وأهلِ مملكته وهو على سرير مُلكه كما تقدَّم، فلما انتهى إلى الموضعِ الذي فيه طارِق، خرج إليه، فاقتتلوا على وادي لَكُّه[3] من كورة شَذُونة يومهم ذلك، وهو يومُ الأحد لليلتين بَقَيتا من رمضان، من حين بزغت الشمسُ إلى أن توارت بالحِجاب، ثمَّ أصبحوا يومَ الاثنين على الحرب، حتَّى إلى المساء، وتمادت أيَّامُهم كذلك إلى يوم الأحد الثاني، فتمَّت ثمانيةُ أيَّام. وقَتل اللهُ رُذْرِيقَ ومَن معه، وفتحَ للمسلمين الأندلسَ، ولم يُعرَف لرُذْرِيق موضعٌ، ولا وُجدت له جُثَّةٌ، وإنَّما وُجد له خُفٌّ مُفَضَّضٌ، فقالوا: إنَّه غَرِقَ، وقالوا: إنَّه قُتل[4]، والله أعلم.

ثمَّ تحرَّك طارِقٌ إلى مَضِيق الجزيرة، ثمَّ نهض إلى مدينة إسْتِجَة[5]، فوجد فيها فَلَّ العسكر؛ فقاتلوه قتالًا شديدًا، حتَّى كثر القتلُ والجراح[6] في المسلمين، ثمَّ نصرَهُم اللهُ، وقَطَعَ دعوةَ العُجْمة، وقذفَ اللهُ الرُّعْب في قلوب الـمُشركين؛ إذ تُقُحِّمَ عليهم البلادُ، فهرب أكثرُهم إلى مدينة طُلَيْطُلة، وتركوا مدائنَ الأندلس وراءَهم قليلةَ الأهل.

وقدم يُلْيَانُ على طارِق من الخضراء مُسْتَقَرِّه، فقال له: قد فَتحتَ الأندلس، فخُذْ من أصحابي أدِلَّاءَ، ففَرِّق معهم جيوشَك وسِرْ أنت إلى مدينة طُلَيْطُلة. ففرَّق جيوشَه[7] من إسْتِجَة.

---

(١) في ر٢: «أخ».

(٢) في ر٢: «نزلوا».

(٣) في ر٢: «لك»، وانظر عنه الروض المعطار ٦٠٦.

(٤) في ر٢: «وقيل: قتل».

(٥) معجم البلدان ١/ ١٧٤.

(٦) في ر٢: «الجرحى».

(٧) في ر٢: «جنوده».

ذكر ما افتتح طارِق بن زِياد من بلاد الأندلس
سنة اثنتين وتسعين من الهجرة

أَوَّلُ فتوحاته جَبَل الفَتْح المسمَّى بجَبَل طارِق، وذلك لـمّا جاز المسلمون ونزلوا في المرسى، وهم عَرَبٌ وبَرْبَرٌ، حاولوا الطلوع في الجبل المذكور[1]، وهو حجارة حرش، فوَطَّؤُوا للدوابّ بالبَرَاذِع وطلعوا عليها، فلمَّا حصلوا في الجبل، بنَوْا سُورًا على أنفسهم يسمَّى سورَ العَرَب. وقيل: إنَّهم فتحوا من حينهم حِصْن قَرْطاجَنَّة، وكان في سفح هذا الجبل من نَظَرِ الجزيرة الخضراء، فلمّا بلغ ذلك ملوكَ الأندلس، نفروا إلى رُذْرِيق، وكان جَبّارًا طاغيةً، فاستنفر النصرانيَّة، فقيل: إنَّه بَعَث إلى المسلمين الجيشَ بعثًا بعد بَعْث[2]، فكانوا عند كلّ لقاء يُهزمون ويُقتلون؛ فقَوِي المسلمون، وركب رجالُهم، وانتشروا في البلاد. وبعد هذا زاحَفَهم رُذْرِيقُ بنفسه. وقال آخَرونَ: بل زاحَفَهم لأوَّل مرَّة بنفسه. ثمَّ اختلفوا أيضًا كَمْ أَيَّامُ المزاحفة التي أعقبها الفَتْحُ وانهزم آخرَها رُذْرِيق[3]؛ فقيل: يومٌ كاملٌ، وقيل: يومان، وقيل: ثلاثة، وقيل: ثمانية، واختلفوا هَلْ ظُفِرَ برأس رُذْرِيق أم لا؛ فقيل: ظُفِر به، فقيل: مات غَريقًا.

فَتْح قُرْطُبة

بعث طارِقٌ مُغيثًا، مَوْلى عبدِ الملك بن مروان، من إسْتِجَة إلى قُرْطَبَة في سبع مئة فارس، وهي من مُدنهم العظام، ولم يكن معه راجِلٌ؛ إذ كان الرجال قد رُكِّبوا. فلمّا بلغ مُغيثٌ شَقُنْدةَ[4] وقَرْيةَ طَرَسَيْل، وهي على ثلاثة أميال من قُرطبة، بعث الأدِلَّاء كَيْ يَلْقَوْا مَنْ عنده خَبَرًا، فألفَوْا راعِيَ غَنَم، فأتَوْا به إلى مُغِيث وهو في الغيضة، فسأله عن قُرْطُبة، فقال له[5]: انتقلَ عنها عظماءُ أهلها، ولم يَبْقَ فيها إلَّا بِطْرِيقُها في

---

(١) من ر٢.

(٢) في ر٢: «الجيوش جيشًا بعد جيشٍ».

(٣) قوله: «وانهزم آخرها رذريق» ليس في ر٢.

(٤) ينظر عنها الروض المعطار ٣٤٩.

(٥) ليست في ر٢.

أربع مئة فارس من حُماتهم مع ضعفاء أهلها. ثمَّ سأله عن حصانة سُورها، فأخبره أنَّه حصينٌ، إلاَّ أنَّ فيه ثُغْرةً فوق باب الصورة، وهو باب القنطرة، ووصفَ لهم الثغرة[1].

فلمَّا جنَّ الليل، تحرَّكَ مُغِيثٌ بمن معه، وعبروا النهر، وقابلوا السُّور، وراموُا التعلُّق به، فتعذَّر عليهم، فرجعوا إلى الراعي، وأتَوْا به معهم، فدلَّهم على الثغرة، فراموُا التعلُّق بها، فصَعُبَ عليهم، حتَّى صَعِدَ رجلٌ من المسلمين في ذِرْوتها، ونزع مُغيثٌ عمامتَه، فناوَلَه طرفَها، وارتقَوْا بها حتَّى كثروا بالسُّور، ثمَّ جاء مُغيثٌ إلى باب القَنْطرة، وهي يومئذ مهدومةٌ، وأمر أصحابَه بالحَوْم على أحراس السور، فكسروا الأقفال، ودخل مُغِيث بمن معه.

فلمّا بلغ الـمَلِكَ الذي بها دخولُهم، خرج في كُماة أصحابه، وهم نحو الأربع مئة، فدخلوا كنيسةً بغربيِّ المدينة، فتحصَّنوا بها، فحاصَرَهم مُغِيث، وكتب إلى طارقٍ بالفتح. وتمادى على حصار العُلُوج في الكنيسة المذكورة ثلاثةَ أشْهُر، فبَيْنا هو ذاتَ يوم جالسٌ، إذ قيل له: خرج العِلْجُ[2] (يعني الـمَلِكَ) هاربًا وَحْدَه، وهو ينوي التحصُّنَ في جبل قُرْطُبة؛ ليلحقَ به أصحابُه. فأتبعه مُغيثٌ وحدَه دون أحد من أصحابه، فلمّا برز له وأبصرَه هاربًا، وتحتَه فرسٌ أصفر، وهو يتبعُه؛ خرج من طريقه، فأتى خندقًا، فوثبَ به الفرس، وسقط في الخندق، واندقَّت عُنُقُهُ، فأقبل مُغِيث والعِلْجُ جالسٌ على تُرْسه مستأْسِرًا، فأسره. ولم يُؤْسَرْ من ملوك الأندلس غيرُه؛ لأنَّ منهم من عَقَد[3] لنفسه أمانًا، ومنهم من هرب إلى أقاصِي البلاد مثل جِلِّيقيَّة وغيرها. ورجع مُغيثٌ إلى بقيَّة العُلُوج، فاستنزلهم أسْرًا، وضُربتْ أعناقهم صَبْرًا، وسمِّيت كنيسةَ الأسرَى[4]. وأبقى العلْجَ[5] صاحبَ قُرْطُبة؛ ليقدم به على أمير المؤمنين.

---

(١) الخبر في نفح الطيب نقلًا عن الرازي ١/ ٢٦١.

(٢) في الحرب الصليبية على العراق سنة ٢٠٠٣م استسخف بعض الجهلة استعمال وزير الثقافة والإعلام يومئذٍ هذه اللفظة في وصف جنود الاحتلال، مع أنها هي اللفظة الصحيحة المتداولة في التراث العربي الإسلامي في وصف جنود الكفار وقادتهم، كما ترى في هذا الموضع وغيره.

(٣) في ر٢: «أخذ».

(٤) هكذا النص، وفي نفح الطيب نقلًا عن الرازي: «فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا عليه، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى» (١/ ٢٦٣).

(٥) في ر٢: «الملك».

فَتْح مالَقة

بعث إليها طارقٌ من إسْتِجَة جيشًا، وقوَّدَ عليه قائدًا، وجعل معه دليلًا من رجال يُلْيَان، فاستفتحها وجميعَ أعمال رَيُّه. ولجأ عُلوجُها إلى جبال رَيُّه الشامخة المنيعة(١).

فَتْح إغْرَناطة قاعِدة إلْبيرة

بعث إليها طارق الجيش من إسْتِجَة، فحاصرها حتَّى افتتحها.

فَتْح مُرْسِيَة

ثمَّ تقدَّم هذا الجيشُ بعد فتح إغْرَناطة(٢) إلى تُدْمِير، وهي مُرْسِيَة. وإنَّما سُمِّيَتْ تُدْمِيرَ باسم العِلْج صَاحِبها، وكان اسمُها أُورْيُولة، وهي كانت مدينتَها القديمة. فقاتل العِلْجُ تُدْمِيرُ المسلمين قتالًا شديدًا، وكان في قوَّة، ثمَّ انهزم في فَحْص لا يستُرُهم شيءٌ، فوضع المسلمون فيهم السلاحَ حتَّى أفنَوهم، ولجأَ مَن بقي منهم إلى مدينة أُورْيولة.

وكان تُدْمِيرُ بصيرًا بأبواب الحرب، فلمَّا رأى قِلَّة مَن مَعَهُ من أصحابه، أمر النساءَ، فنَشَرْنَ شعورَهُنَّ وأعطاهنَّ القَصَب، ووَقَفْنَ على سُور المدينة، ووقف معهُنَّ بقيَّةُ الرجال، ثمَّ قصد بنفسه إلى جيش المسلمين كهَيْئَة الرسول، واستأمن، فأُمِّنَ وانعقد له الصُّلحُ ولأهل بلده، فافتُتِحتْ مدينةُ تُدْمِير(٣) صلحًا، فلمَّا انعقد الصلح وتمَّ، أبرز لهم نفْسَه وقال: أنا تُدْمِيرُ صاحبُ المدينة، ثمَّ أدخلهم البلد، فلم يرَوْا فيه أحدًا عنده مَدْفَعٌ، فنَدِمَ المسلمون وأمْضَوْا على ما أعطَوْه من الأمان، وكتبوا بالفتح إلى الأمير طارِق، وأقام بتُدْمِير رجالٌ من أهل العسكر، وصاروا مع أهلها، وتقدَّم مُعظَمُ الجيش إلى طُلَيْطُلة، فلَحِق بطارِق، وهو عليها.

---

(١) ينظر نفح الطيب ١/ ٢٦٤.

(٢) في ر٢: «وبعد فتح غرناطة تقدم الجيش المفتتح لها»، فكأن المؤلف أعاد صياغة الجملة.

(٣) في ر٢: «مرسية»، خطأ.

فَتْح طُلَيْطُلة

وألفى طارِق طُلَيْطُلَة خاليةً، ليس فيها إلَّا اليهود في قوم قلَّة، وفرَّ عِلْجُها مع أصحابه، ولحق بمدينةٍ خَلْفَ الجبل، وتَبِعَهم طارِق[١]، بعد أن ضمَّ اليهود، وخلَّى معهم بعضَ رجاله وأصحابه بطُلَيْطُلة، فسلك إلى وادي الحِجَارة، ثمَّ استقبل الجبلَ، فقطعه من فَجٍّ يُسَمَّى به إلى اليوم[٢]، فبلغ مدينةً خَلْف الجبل، تُسَمَّى مدينةَ المائدة[٣].

ثمَّ فتح مدينةَ المائدة، فوجد فيها مائدةَ سليمانَ بن داوودَ، عليهما السلام، وكانت من زَبَرْجَدَة خضراءَ، حافاتُها وأرجُلُها منها، وأصاب بها مالًا وحَلْيًا كثيرًا، ثمَّ انصرف إلى طُلَيْطُلة[٤]. هكذا آثَرَ الناسُ هذا كلَّه، على أنَّ طارِقًا صنعه. وقال آخَرون: بل أقام طارِق حيث كانت الوقعة، وجاز إليه موسى. وقيل: بل وجده بقُرْطُبة[٥].

وفي سنة ثلاث وتسعين من الهجرة: دخل الأميرُ[٦] موسى بنُ نُصَيْر الأندلسَ في رمضان، بعد دخول طارِق بسنة، ومضى غازيًا فيها، مُفتتِحًا لحصونها بقيّة[٧] هذه السنة وسنةَ أربع وبعضَ سنة خمس، فافتتح جميعَ حصونها، وهزم جميعَ مَن لقيه من أُمرائها، فلم يَلْقَ كَيْداً من أحد، ولا انهزمتْ له رايةٌ، حتَّى انتهى إلى مدينةٍ من مُدُن إفْرَنْجة، يقال لها: لَوْطُون، وقد ملك ما سِوَاها ودونها إلى أقصى بَرْشِلُونة. فلمَّا انتهى إلى مدينة لَوْطُون، ضاق المسلمون، وخافوا أن يُحاطَ بهم، فكلَّموه في ذلك، فقفَلَ بهم راجعًا.

قال مُؤَلِّف كتاب «بَهْجة النَّفْس»: ورأيتُ في بعض كُتُب العَجَم أنَّ المسلمين انتهَوْا إلى مدينة لَوْطُون قاعدةِ الإفْرَنْج، ولم يَبْقَ لأهل الإسلام شيءٌ لم يتغلَّبوا عليه

---

(١) في ر٢: «وفر بنفسه مع أصحابه، وتبعهم طارق».

(٢) قوله: «من فج يسمى به إلى اليوم» ليس في ر٢.

(٣) الروض المعطار ٥٣٠.

(٤) نفح الطيب ١/ ٢٦٤-٢٦٥ نقلًا عن ابن حيان.

(٥) في ر٢: «بطليطلة».

(٦) من ر٢.

(٧) كذلك.

مـِمَّا وراءَ ذلك، إلَّا جبالَ قَرْقُوشة وجبالَ بَنْبَلُونة[1] وصَخْرة جِلِّيقِيَّـة، فأمّا الصخرة، فلم يَبْقَ فيها مع مَلك جِلِّيقِيَّـة سوى ثلاث مئة رَجل، تَلِفُوا بالموت والجُوع والحصار، فلمَّا لم يَبْقَ منهم إلا ثلاث مئة رجل، ورأى ذلك المرتَّبون معهم على حصارهم، استقلُّوهم، فتركوهم، فلم يزالوا يزدادون حتَّى كانوا سَبَبَ إخراج المسلمين من جِلِّيقِيَّـة، وهي قَشْتِيلة. وأمَّا قَرْقُوشة، فذكر عبدُ الملك بنُ حبيب أنَّها افتُتِحَتْ في زمن هشامِ بن عبد الملك صُلحًا. وكان الافتتاح ـ كما ذكرتُه ـ في بقيَّة سنة اثنتين وتسعين وبعض سنة ثلاث وتسعين من الهجرة.

وكان السببُ في جواز موسى بنِ نُصَيْر إلى الأندلس: أنَّه أغْرِيَ بطارِق عَبْده، وذُكِرَ له ما أفاءَ الله عليه، فكتب له موسى بأقبح السبِّ، وأمَرَه ألَّا يتجاوزَ قُرْطُبة، حتَّى يَقدُم عليه.

قال ابن القطَّان: قيل: إنَّمـا حمله على الجواز للأندلس تَعَدِّي طارِق ما أمره به ألَّا يتعدَّى قُرْطُبة، على قول، أو مَوْضِعَ هزيمة رُذْرِيق، على قول. وقيل أيضًا: إنَّمـا حَمَلَه على ذلك الحسدُ لطارِق على ما أصاب من الفتوح والغنائم. وقيل أيضًا: إنَّمـا جاز باستدعاء طارِق إيّاه، فكان جوازُه في رمضان، كما تقدَّم.

قال الرازيُّ: وحدَّث الواقِديُّ عن موسى بنِ عُلَيِّ بن رَبَاح، عن أبيه، قال: خرجَ موسى بنُ نُصَيْر في عشرة آلاف من إفريقية، مُغضَبًا على طارِق، وتقدَّم يُريد الأندلس، فدخلها، ونزل الجزيرة[2]، فقيل له: اسْلُكْ طريقَ طارِق! فقال: لا والله، أسلك طريقَه[3]! فقال له الأدلَّاء من الأعلاج: نحن نَدُلُّك على طريق هي أشرفُ من طريقه، وعلى مدائنَ هي أعظم خَطَرًا من مدائنه، لم تُفتح، يفتحُها اللهُ على يديك إن شاء الله، فامتلأ موسى سرورًا، فساروا به إلى مدينة شَذُونَة، فافتتحها عنوةً، وهي أوّل فُتوحاته[4].

---

(١) ينظر الروض المعطار ١٠٤.

(٢) وينظر تاريخ الطبري ٦/ ٤٨١ نقلًا عن الواقدي.

(٣) قوله: «اسلك طريقه» ليس في ر٢.

(٤) ينظر نفح الطيب ١/ ٢٦٩.

فَتْح قَرْمُونَة

ونهض الأميرُ[١] موسى مع أدِلَّائه من شَذُونَة إلى قَرْمُونة، ولم يكن بالأندلس أحصنُ منها ولا أبعدُ من أن تُنال بحصار أو قتال. فسأل موسى عن أمْرها، فقيل له: لا تُؤْخَذ إلا باللُّطف والـحِيَل. فقدَّم إليها عُلُوجًا كانوا من أصحاب يُلْيَانَ وغيرهم؛ فأتَوْهم في هَيئَةِ المنهزمين، ومعهم السلاح، فأدخلوهم المدينة، فلمّا علم موسى بدخولهم، بَعث الخيلَ إليهم ليلًا، ففَتحوا لهم بابَ المدينة، وهو البابُ المعروف بباب قُرْطُبة، فوثبوا على الأحراس، فقَتلوهم، ودخل المسلمون المدينةَ عَنْوةً[٢].

فَتْحُ إشْبِيلِيَة

لـَمَّا فتح موسى قَرْمُونة، تقدَّم إلى إشْبِيلِيَة، وهي من أعظم قواعد الأندلس شأْنًا، وأتقنِها بُنيانًا، وأكثرِها آثارًا، وكانت دارَ مُلْك رُوم رُومة قَبْل غلبةِ القُوطيِّين على الأندلس، فلمّا غلب القُوطيُّونَ عليها، استوطنوا طُلَيْطُلة، وأقرُّوا بها مُلْكَهم، وبقي بمدينة إشبيلِيَةَ علماءُ أهلِ رُومة وكُتَّابُهم ورؤَساؤُهم. فاحتلَّ بها موسى بنُ نُصَيْر، وحاصَرَها أشهراً، ففَتحها اللهُ عليه، وهَرب منها عُلوجُها إلى مدينة بَاجَة[٣].

فَتْحُ مارِدة

وتقدَّم موسى إلى مدينة مَاردة، وكانت دارَ مُلْكٍ في سالف الأيَّام. وكانت فيها آثار عجيبة[٤]، وقَنْطرة، وقصور، وكنائسُ، تفوقُ وصْفَ الناظرين[٥]، وهي إحدى القواعد الأربعِ بالأندلس التي ابتناها أُكْتَبيان قَيْصَر؛ وهي: قُرْطُبة، وإشبيلية، ومارِدة، وطُلَيْطُلة. فخرج أهلها إلى حَرْبه نحو الـمِيل منها، فحاربهم حتَّى صَرَفهم إلى المدينة،

---

(١) من ر٢.

(٢) ينظر نفح الطيب ١/ ٢٦٩.

(٣) كذلك.

(٤) في ر٢: «قوية».

(٥) في ر٢: «تفوق الناظر».

فلما انجلَت الحرب، وكفَّ عن القتال، طاف موسى بالمدينة، فرأى نَقْبًا كان لمقاطع الصخر، فكمنَ فيه الرجالُ ليلًا، فلمَّا أصبح، زحف إليهم، فخرجوا كخروجهم في اليوم قَبْله، فخرج عليهم الكمينُ وزحف إليهم المسلمون فركبوهم، فقُتلوا أبْرَح قَتْل، ولجأ مَن بقيَ منهم إلى المدينة، فحاصرهم أشهرًا، حتَّى عمل دبَّابةً، فدبَّ المسلمون تحتها إلى بُرْجٍ من أبراجها، فنقبوا صخرةً، فلمَّا نَزَعُوها، أفضَوْا إلى صخرةٍ صمَّاء نَبَتِ المعاوِلُ عنها ويئسوا منها[1]، فبَيْنا هم يَضرِبون عليها، إذ استثار[2] العُلُوجُ عليهم، فاستُشْهِد المسلمون تحت الدبَّابة؛ فسُمِّي ذلك البُرْج بُرْجَ الشُّهَداء، وبه يُعرف[3] إلى اليوم، فحميتْ عند ذلك نفوسُ العُلُوج، وثابت إليهم أنفسهم. ثمَّ خرجت إليهم رُسُلٌ، وتعرَّضت للصُّلح، فساروا إلى موسى، فرأوا رجلًا أبيضَ الرأس واللحية، فكلَّموه بما لم يُوافقهم عليه ولم يَرْضَهُ، فرجعوا عنه، ولم يَعقدوا شيئًا، ثمَّ عاودوه يومًا آخر، فألفَوْه قد حمَّر رأسَه ولحيته بالحِنَّاءِ، فعَجِبُوا منه، وراعهم ما رأَوْه، ولم يتمَّ لهم أمْرٌ، ثمَّ عاودوا إليه في اليوم الثالث، وذلك يوم عيد الفِطْر، فألفوه قد سوَّد رأْسَه ولحيته، فرجعوا إلى المدينة، وقالوا لمن فيها: وَيْحَكم! إنَّما تقاتلون أنبياءَ يتشَبَّبُون بعد المَشِيب! قد عاد مَلِكُهم حدَثًا بعد أن كان شيخًا! فقالوا: اذهبوا إليه وأَعْطُوه ما سأَلكم، فوصلوا إليه، وصالَحوه، وانعقد أمرُهم على أنَّ جميعَ أموال القَتْلَى يومَ الكَمِين وأموالَ الغائبين بجِلِّيقِيَّة وأموالَ الكنائس، جميع[4] ذلك كلِّه للمسلمين، ثمَّ فتحوا له الباب[5] من يومهم ذلك، وهو مستهلُّ شَوَّالٍ من سنة أربع وتسعين من الهجرة[6].

---

(١) كانت من الإسمنت (ينظر التعليق على نفح الطيب ١/ ٢٧٠).

(٢) في ر٢: «خرج».

(٣) «وبه يعرف» ليست في ر٢.

(٤) من ر٢.

(٥) في ر٢: «ثم فتحوا لهم باب المدينة».

(٦) نفح الطيب ١/ ٢٧٠-٢٧١.

فَتْح إشْبِيلِيَة ثانِيةً

وذلك لأنه[١] لـمَّا اشتغل موسى بنُ نُصَيْر[٢] بحصار مارِدةَ، ثار عَجَمُ إشبيلية، وارتدُّوا، وقاموا على مَن كان فيها من المسلمين. وتجالب فلُّهم إليهم من مدينتَيْ لَبْلَةَ وبَاجَة، فقَتلوا من المسلمين نحوَ ثمانين رجلًا. وبلغ الخبرُ بذلك إلى الأمير موسى بنِ نُصَيْر، فلمَّا استتمَّ فتحَ مارِدة، بَعث ابنَه عبد العزيز بجيشٍ إلى إشبيلية، فافتتحها، وقَتل أهلَها[٣].

فَتْحُ لَبْلة

لـمَّا استتمَّ فَتْح إشبيلية، تقدَّم عبدُ العزيز بن موسى بجيشه إلى لَبْلة، فافتتحها، وانصرفَ إلى إشبيلية، فدخلها أيضًا[٤].

ذكر اجتماع الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نُصَيْر مع مَوْلاه طارِق بن زِياد على طُلَيْطُلة[٥]

اتَّفق الأكثرون على أنَّ التقاءَهما كان على طُلَيْطُلة. وذكر الطَّبَرِيُّ أنَّه كان على قُرْطُبة[٦]. وذكر الرازيُّ أنّ طارِقًا خرج من طُلَيْطُلة لـمَّا بلغه مسيرُه إليه، فلَقِيَه بمقربة من طَلَبيرة. وكان موسى، لـمّا فرغ من أمْرِ مارِدة، نهض يريدُ طُلَيْطُلة، فخرج إليه طارِق معظِّمًا له، ومُبادرًا لطاعته، فوبَّخه موسى، وغضب عليه. وقيل: إنَّه وضع السوطَ على رأسه، وقيل: إنَّه ضربه أسواطًا كثيرةً، وحلق رأْسَه، ثمَّ سار به إلى طُلَيْطُلة، وقال له: أحضرني[٧]

---

(١) من ر٢.

(٢) «ابن نصير» ليست في ر٢.

(٣) نفح الطيب ١/ ٢٧١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) جاء العنوان في ر٢: «ذكر اجتماع موسى بن نصير مع مولاه طارق».

(٦) ليس في تاريخ الطبري ما يدل على التقائهما في موضع معين، فضلًا عن قرطبة أو طليطلة.

(٧) في ر٢: «ايتني».

بما أصَبْتَ وبالمائدة. فأتاه بها وقد اقتلع رِجلًا من أرْجُلها؛ فقال له: أين الرِّجْل؟ فقال له: هكذا وجدتُها. فأمر موسى، فعُمِل لها رِجْلٌ من ذَهَب، وأدخلها في سَفَط.

واختلفت الرواياتُ لِـمَ فعل موسى مع طارِق ما فعل من السخط عليه؟ فقيل: إنَّما فعل ذلك بَغْيًا ونَفاسةً عليه؛ واستدلُّوا على ذلك بادّعائه خِصَالَ طارِق وأخْذِ المائدة عند الخليفة[(١)]. ومنهم من عذره وقال[(٢)]: إنَّما فعل ذلك به لتقدُّمِه دون رأيه، وهو مولاه[(٣)]، وعلى توغُّله بالمسلمين، وتغريرِه بهم. واتَّصل بهذا في كتاب الرَّازي أنَّ الوليد بعث إلى موسى رسولًا، فأخذ بعِنان دابّته، وأخرجه من الأندلس، ومعه أُمراؤه[(٤)]: طارِق ومُغِيث، وخلَّف ابنَه عبدَ العزيز[(٥)] على الأندلس، وأبقى معه وزيرًا حبيبَ بن أبي عَبْدة بن عُقْبة بن نافِع.

ولـمَّا التقى موسى بطارِق، وجرى له معه ما جرى، تقدَّم من طُلَيْطُلة إلى سَرَقُسْطة، فافتتحها، وافتتحَ ما حولها من الحصون والـمَعاقِل[(٦)]. وذكروا أنَّ موسى خرج من طُلَيْطُلة غازيًا، يفتحُ المدائن، حتَّى دانت له الأندلسُ. وجاءَه وجوهُ[(٧)] أهل جِلِّيقيَّة يَطلبون الصُّلح، فصالَحهم. وفتح بلادَ البَشْكُنِش[(٨)]، وأوغل في بلادهم، حتَّى أتى قومًا كالبهائم. وغزا بلادَ الإفْرَنْج، ثمَّ مال حتَّى انتهى إلى سَرَقُسْطة، فأصاب[(٩)] فيها ما لا يُعرف قَدْره. وبين سَرَقُسْطةَ وقُرْطُبة مسيرةُ نحوِ شهر. وافتتح هنالك حصونًا كثيرة. وكانت أساقِفةُ الروم تَجِد صفةَ موسى في كُتُبهم، فإذا رأوه، قالوا: هو، والله! فأعطَوْه الـمَعْقِل. ولم يُهزم له جمعٌ قطُّ.

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٧١.

(٢) في ر٢: «ومنهم من قال».

(٣) «وهو مولاه» ليست في ر٢.

(٤) هذه اللفظة ليست في أ، م.

(٥) من ر٢.

(٦) نفح الطيب ١/ ٢٧٣.

(٧) هذه اللفظة من ر٢.

(٨) هي المعروفة اليوم بالباسك.

(٩) في ر٢: «فوجد».

وقال يوسُف بن هشام: انتهى موسى إلى صَنَم، فوجد في صدره مكتوبًا: يا بني إسماعيل، فإلى هنا مُنْتَهاكُم، وإن سألتم إلى ماذا ترجعون، أخْبَرْناكم: تَرجعون إلى اختلاف ذات بَيْنِكم، حتَّى يَضرب بعضُكم رقابَ بعض، وقد فعلتم[1].

قال اللَّيْث[2]: ولقد جاءَ رجلٌ إلى موسى بن نُصَيْر، فقال له: ابْعَثْ معي أدُلَّك على كنز، فبَعث معه رجالًا، فوقف بهم على موضع، فقال: اكْشِفوا عن هذا! فكشفوا، فإذا حوضٌ مُتْرَعٌ من الياقوت والجوهر والزَّبَرْجَد ما لم تَرَ عَيْنٌ مثلَه قطُّ، فلمّا رأوا ذلك، بُهتوا وأرسَلوا إلى موسى ليحضُرَ.

ذكر بعض[3] ما أفاءَ الله على فاتِحي الأنْدَلُس

من ذلك: مائدةُ سليمان عليه السلام، قيل: إنَّها كانت من ذهبٍ وفضَّة خليطَيْن، مطوَّقةً بثلاثة أطواق: طَوْقِ لؤلؤ، وطوقِ ياقوت، وطوقِ زَبَرْجَد، وإنَّها حُملت على بَغْلٍ عظيم لا بَغلَ أقوى منه، فما بلغ بها مرحلةً حتَّى تفتَّحتْ قوائمه. ومنها ياقوتةُ ذي القَرْنَيْن وجدها بمارِدة. ومنها البيتان اللَّتان فتح في طُلَيْطُلة، وُجد في إحداهما أربعةٌ وعشرون تاجًا عددَ ملوكهم، لا يُدرى ما قيمةُ تاجٍ منها، وعلى كلِّ تاج اسمُ صاحبه ومبلغُ سِنِّه، وفيه وُجدت المائدة. وكان السببُ في حصولها بطُليطُلة أنَّ مَلِك الرُّوم، لـمَّا زحف إلى بيت الـمَقْدِس ليقاتِلَ بني إسرائيل، أخذ بلادَهم وسَبى ما فيها، ووجد فيها مكارمَ الأنبياء، عليهم السلام، منها: عصا آدم، والتابوتُ الذي فيه بقيَّةٌ مـمَّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون، وعصا موسى ونَعْلاه، ومائدةُ سليمان، وهي من ذَهَب، قد كُلِّل أعلاها وأسفلُها بالدُّرِّ والياقوت، فحُمل جميعُ ذلك إلى رُومة، فلمَّا مرَّ مَلِكُ الرُّوم بمِصْرَ، رَغِبَ إليه أهلُها أن يجعلَها عندهم يتبرَّكون بها، وقالوا له: رُومةُ تبعُدُ عنَّا! وكانوا قد أمدُّوه، وقاتَلوا معه بني إسرائيل، فطَلبوا منه شيئًا من تلك المكارم، فدَفعَ لهم المائدة، فحملتْها الأساقفةُ إلى الإسكندريَّة. فلمَّا غزا

---

(١) «وقد فعلتم» ليست في أ.

(٢) هو الليث بن سَعْد الفقيه المشهور.

(٣) من ر٢.

عَمْرو بن العاص بِمصْرَ، هربوا إلى مدينة أطْرابُلُس، فلمَّا نزل عَمْرو بن العاص بَرْقة، هربوا بها إلى مدينة قَرْطاجَنَّة، فلمَّا دخل المسلمون طَنْجة، هَربوا بها إلى مدينة طُلَيْطُلة، ولم يكن لهم أمنعُ منها، ولا وجدوا حيثُ يهربون بها بَعْدَها.

قال أبو شبَّة الصَّدَفيُّ: لقد نظرتُ إلى رجُلَين يحملان طَنْفَسةً منسوجةً بالذهب والفضَّة واللؤلؤ، فلمَّا ثقُلتْ عليهما، أنزلاها، ثمَّ حملا عليها الفأْس، فقطعاها بنصفَيْن، فأخذا نصفًا، وتركا نصفًا، فلقد رأيتُ الناس يمرُّون على نصفها، فلا يلتفتون إليه اشتغالًا بما في أيديهم ممَّا هو أرفعُ منها.

وحدَّث عبدُ الحميد عن أبيه، قال: قدمتِ الأندلسَ امرأةٌ عطَّارةٌ، فخرجتْ منها بخمس مئةِ رأس من السبي، فأمَّا ما خَرَجتْ به من الذهب والفضَّة والجوهر والآنية، فذلك ما لا يُحاط بعِلْمه. قال: وقَدِمَ علينا شيخٌ من المدينة، جيِّدُ التجربة واللسان، فجعل يحدِّثنا عن الأندلس، فقُلْتُ له: كيف علمتَ هذا؟ قال: لأنِّي، والله، كنتُ ممَّن اشترى بها بحبَّات فُلْفُل أقلَّ من القَبْضة ما يُساوي عَدَدًا.

وأقام موسى بالأندلس سَنَتَيْن وشهرًا، ثمَّ رجع إلى إفريقية، وتحته بَغْلٌ أشْهَبُ يسمَّى الكَوْكَبَ. ولمَّا انصرف عن قُرْطُبة متوجِّهًا نحو إفريقية، حوَّلَ وجهَه إلى قُرْطُبة، فقال: واهًا لَكِ يا قُرْطُبة! ما أطْيَبَ تُرْبَتَكِ، وأشْرَفَ بُقْعَتَكِ، وأعْجَبَ أمْرَكِ، ولَعَنَكِ اللهُ بعد الثلاث مئة سنة! ثمَّ مضى حتَّى وصل الخضراءَ، وأمر بالعَجَل، فحُملت الذهبُ والفضَّة والجوهر والمتاعُ وأصنافُ متاع[1] الأندلس. وكان دخول موسى الأندلسَ سنة ثلاث وتسعين وهو ابنُ ستِّين سنة، وأقام واليًا بإفريقية ستَّ عشرة سنة، وقَفَلَ منها سنة خمس وتسعين.

ومن أخبار الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نُصَيْر رحمه الله تعالى

لمَّا دخل موسى إفريقيةَ، وجدها قد قَحَطتْ قحطًا شديدًا، فأمر الناسَ بالصِّيام والخروج إلى المُصَلَّى، الرِّجال على حِدةٍ، والنساء على حِدةٍ، والصبيان على حِدةٍ،

---

(١) في ر٢: «ثياب».

وكذلك جميعُ البهائم مع أصنافها، فاجتمعوا في موضعٍ واحد، ودعا اللهَ تعالى، ودعا الناسُ معه، وبكى، وبكَوْا، وبكى الصِّبيانُ والنساء، وصاحت البقر والعِجل والغَنَم والخرفان وأهلُ الذِّمَّة. فأقاموا كذلك حتَّى انتصف النهارُ، ثمَّ خطب الناسَ، فلم يَلْبَثْ أنْ سُقُوا سَقْيًا شافيًا.

وخرج موسى من إفريقية، واستخلف عليها عبدَ الله ابنَه. وحمل موسى معه من إفريقية من وجوه البَرْبَر مئةَ رَجل وعشرين مَلِكًا من ملوك الرُّوم، فخرجوا معه بأصنافِ ما كان في كلّ بلدٍ من طرائفها وذَهَبها وفضَّتها وجوهرها وياقوتها، ما لا يُحصى ولا سُمِع بمِثْله، حتَّى انتهى إلى مِصْر، فلم يَبْقَ بها شريفٌ، ولا فقيهٌ، ولا عظيمٌ، إلاَّ ودَفع إلى سليمانَ بن عبد الملك عشرةَ آلاف دينار. ثمَّ خرج من مِصْرَ، فتوجَّه إلى فِلَسْطين، فتلقَّاه آلُ رَوْح بن زَنْباع الجُذاميّ، فنزل بهم، فنَحَروا له خمسين جَملًا. ثمَّ خرج مِن عندهم، وترك بعضَ أصحابه وصغارَ ولده عندهم، وأفرغ على آل رَوْح بن زَنْباع كثيرًا من الكُسى والوصائف والوَصْفان، وغيرِ ذلك من الأموال.

وكان موسى، قَبْلَ خروجه من الـمَغْرِب، قدم عليه ولدُه مروان من السوس الأقْصَى وهو يجُرُّ الدنيا جَرًّا. ولـمَّا وصل رسولُه إلى أبيه، يُعلمه به وبما يأْتي به من السَّبْي، خرج إليه في وجوه الناس يتلقَّاه، فلمَّا التقَيَا، قال مروان بن موسى: مُرُوا لكلِّ مَن يلقاني مع أبي بوصيفةٍ وصيفة. فلمّا أمر بذلك، سمع موسى صياحَ الناس وضجيجَهم، ورأى حركاتِهم، فقال: ما هذا؟ فقالوا: ابنُك مروانُ أمر للناس بوصيفةٍ وصيفة. فقال لهم: مُرُوا لهم أنتم من عندي[1] بوصيفٍ وصيف. فانصرف الناسُ كلُّهم، ومع كلِّ واحد منهم وصيفٌ ووصيفةٌ.

وكان الوليدُ بن عبد الملك مَرِض مَرَضَهُ الذي مات منه، وكتب إلى موسى يأْمره بشدِّ السَّيْر إليه؛ ليدركه قبل الموت. وكتب إليه سليمانُ أن يُبطئَ في سَيْره. فعمل موسى بكتاب الوليد، ولم يعمل بكتاب سُليمان، وجدَّ في سيره، فغضب عليه سُليمانُ، وقال: والله، لئن ظَفِرْتُ به، لأُصَلِّبَنَّهُ. وكان سَبَبُ أمر الوليد لموسى بالعجلة

(١) «من عندي» من ر٢.

لِيَحْرِمَ سليمانَ ما جاءَ به، وكان أمْرُ سليمان له بترك الاستعجال لِيَحْرِمَ الوليدَ وولده ما جاءَ به. فقدم موسى قبل موت الوليد وأتاه بالطرائف من الدُّرِّ والياقوت والزَّبَرْجَد، والوُصفاء والوصائف، ومائدةِ سُليمان، والتِّيجان المكلَّلة بالدُّرّ والياقوت، فاستغربَ الوليدُ ذلك، وأمر بمائدة سُليمان، فكُسرت، وعمدَ إلى أرفع ما كان فيها من الجوهر وكلِّ ما كان في التيجان وغيرها، فجعله في بيت المال، ثمَّ لم يلبَثْ أن مات، وأفضت الخلافةُ إلى سُليمانَ أخيه، فبعث في موسى، فعنَّفه بلسانه، وقال: والله، لأَفُلَّنَّ غَرْبَك، ولَأفَرِّقَنَّ جَمْعَك، ولأُصَغِّرَنَّ مِنْ قَدْرِك! فقال موسى: أمَّا قولُك: تَفُلُّ من غَرْبي وتخفض من قَدْري، فإنَّ ذلك بيد الله، وإلى الله لا إليك، وبه أستعينُ عليك. فأمَر به سُليمان، فوُقِّف في يوم صائف شديدِ الحَرّ، وكان موسى رجلًا ضَخْمًا، بادنًا، ذا نسمة، فوَقَف حتَّى سقط مَغْشِيًّا عليه، فنظر سليمانُ إلى عمرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقال له: يا أبا حفص، ما أُراني إلاَّ وقد بَرَرْتُ في يميني وخرجتُ عنه. فقال عمرُ: أجَلْ يا أَمير المؤْمنين. فقال سليمانُ: مَنْ يضُمُّه إليه؟ فقام يزيدُ بن المُهَلَّب، فقال: أنا يا أمير المؤْمنين أضُمُّه إليَّ. قال: فضُمَّه إليك ولا تضيِّق عليه[1]، فانصرف يزيدُ، وقدَّم إليه دابَّةً، فركبها موسى، وأقام عنده أيَّامًا حتَّى حَسُنَ ما بينه وبين سُليمان. وافتدى منه موسى بمالٍ كثير، قيل: ألف ألف دينار، وقيل غير ذلك. ثمَّ إنَّ يزيدَ بن المُهَلَّب سَهِرَ ليلةً عند موسى، فقال له: يا أبا عبد الرحمن في كم كنتَ تعتدُّ من مواليك وأهل بيتك؟ فقال له موسى: في كثير! فقال يزيدُ: يكونون ألفًا؟ فقال له موسى: ألفٌ وألف وألف إلى منقطع النَّفَس! فقال له يزيدُ: كنتَ على ما وصفتَ، وألقيتَ بيدك إلى التهلكة! أفلا أقمتَ في قرار عزِّك وموضع سلطانك، وامتنعتَ بما قَدِمْتَ به؟ فإن أُعْطِيت[2] الرِّضا، وإلاَّ كنتَ على عزِّك وسلطانك! فقال له: والله، لو أردتُ ذلك، لَـمَا نالوا من أطرافي طَرَفًا! ولكني آثرتُ اللهَ ورسوله، ولم أرَ الخروج عن الطاعة والجماعة.

---

(١) هذه العبارة بدلها في ر٢: «فافعل».

(٢) في م: «أعطَيْتَ».

وذُكر أنَّ سليمانَ قال لموسى: ما الذي كنتَ تفزع إليه عند حروبك ومباشرة عدوّك؟ قال: كنتُ أفزعُ إلى التضرُّع والدعاء، والصبر عند اللقاء. قال: فأيُّ الخيل رأيتَها في تلك البلاد أسْبَقَ؟ قال: الشُّقْر، قال: فأيُّ الأُمَم كانوا أشدَّ قتالًا؟ قال: هُمْ أكثرُ من أن أصِفَهم. قال: أخبرني عن الرُّوم! قال: أُسُدٌ في حصونهم، عِقْبانٌ على خيولهم، نساءٌ في مواكبهم، إن رأوا فرصةً انتهزوها، وإن رأوا غَلبةً، فأَوْعالٌ تذهب في الجبال، لا يرَوْن الهزيمةَ عارًا. قال: فأخبِرْني عن البَرْبَر. قال: هم أشبه العَجَم بالعَرَب لقاءً ونجدةً وصبرًا وفروسيَّةً، غَيْرَ أنَّهم أغْدَرُ الناس، لا وفاءَ لهم ولا عَهْدَ. قال: فأخبرني عن الأندلس؟ قال: ملوكٌ مُترَفُون، وفرسانٌ لا يَـخِيبون. قال: فأخبرني عن الإفْرَنْج. قال: هناك العَدَدُ والعُدَّة، والجَلَد والشدَّة، والبأس والنجدة. قال: فأخبِرْني كيف كانت الحربُ بينك وبينهم: أكانت لك أو عليك؟ فقال: أمَّا هذا، فوالله، ما هُزِمَتْ لي رايةٌ قطُّ، ولا بُدِّد جَـمْعي، ولا نُكِبَ المسلمون معي، منذ اقتحمتُ الأربعين إلى أن بلغتُ الثمانين. فضحك سليمانُ، وعَجِبَ من قوله. ثمَّ دعا سليمانُ بطِسْتٍ من ذهب، فجعل يردّد بصره فيه، فقال له موسى: يا أميرَ المؤمنين، إنَّك لتعْجَب من غير عجب، والله، ما أحْسِبُ أنَّ فيه عشرةَ آلاف دينار! والله، لقد بعثتُ إلى أخيك الوليد بتَنُّور من زَبَرْجَد أخضر، كان يُصَبُّ فيه اللَّبنُ فيُخْضَر وتُرَى فيه الشَّعرة البيضاءُ، ولقد قُوِّمَ بمئة ألف مثقال[1]، وإنَّه لَـمِنْ أدنى ما بعثتُ به إليه، ولقد أصبتُ كذا وأصبتُ كذا، وجعل يعدِّد ما أصاب من الدُّرِّ والياقوت والزَّبَرْجَد، حتَّى بُهِتَ سليمانُ من قوله.

وخرجَ سُليمان يومًا يتصيَّد ومعه موسى بن نُصَيْر، فمرَّ في مُنْيَةٍ له بذَوْدِ غَنَم يكون فيها نحوُ ألفِ شاةٍ، فالتفتَ إلى موسى، وقال له: هل كان لك مثل هذا؟ فضحك موسى وقال: والله، لقد رأيتُ لأدْنَى مَواليَّ أضعافَ هذا! فقال سليمانُ: لأدْنَى مَواليك؟ فقال: نَعَمْ والله، نعَمْ والله. وردَّدها مرارًا ثمَّ قال[2]: وما هذا فيما أفاءَ اللهُ عليَّ! لقد كانت الألفُ شاة تُباع بعشرة دراهم، كلُّ مئة بدِرْهَم، ولقد كان الناسُ

---

(١) في ر٢: «دينار» وهو بمعنى.

(٢) «ثم قال» ليست في أ.

يمرُّون بالبقر والغنم، فلا يلتفتون إليها، ولقد رأيتُ الذَّوْدَ من الإبل بدينار! ولقد رأيتُ العِلْج الفارِهَ وامرأته وأولادَه يُباعون بخمسين درهمًا. قال: فعَجِبَ سُليمان.

ثمَّ حجَّ سليمانُ، وخرج موسى معه، وكان موسى من أعلم الناس بالنجوم، فلما احتلَّ بالمدينة، قال لبعض إخوانه: لَـيَمُوتَنَّ بعد غَدٍ رجلٌ قد ملأَ ذِكْرُه المشرقَ والمغرب. فظنَّ الرجلُ أنه الخليفة[1]، فمات موسى في اليوم الثاني[2]، وصلَّى عليه مَسْلمةُ بن عبد الملك. وكان مولدُ موسى سنة تسع عشرة، في خلافة عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه. قيل: إنَّه من لَخْم، وقيل: من بَكْر بن وائِل.

وقال ابن بَشْكُوَال في «كتاب الصِّلة»[3] له: إنَّه موسى بن نُصَيْر بن عبد الرحمن بن زيد.

وقال غيرُه: كان نُصَيْر والدُ موسى[4] ولَّاه معاويةُ بن أبي سُفيان على خيله، فلم يقاتِلْ معه عليًّا رضي الله عنه، فقال له معاوية[5]: ما منعك من الخروج معي على عليّ ويدي عليك، ولم تُكافئني عليها؟ فقال: لم يُمكنّي أن أشكرَك بكُفْرِ مَنْ هو أولى بشُكْري! فقال: ومن هو؟ فقال: اللهُ، عزَّ وجلَّ. قال: فأطرق معاوية مليًّا، ثمَّ قال: أستغفرُ اللهَ، وعفا عنه[6].

وقال اللَّيْثُ بن سَعْد: لـمّا قدم موسى بن نُصَيْر إفريقيةَ حين الفتح، أخرج ابنًا له يُسمَّى عبدَ الله إلى بعض نواحيها، فأتاه بمئة ألف رأْس من السَّبْي، أكثرُهنَّ وجوهٌ كالبدور، ثمَّ وجَّه ابنًا له يسمَّى مروانَ إلى ناحيةٍ أُخرى، فأتاه كذلك، ثمَّ خرج هو بنفسه، فأتى بنحو ذلك. قال اللَّيْث: فبلغ الـخُـمُس ستّين ألفًا. قال: فلم يُسمَعْ بمِثْل سَبايا موسى في الإسلام.

---

(١) «فظن الرجل أنه الخليفة» ليست في أ.

(٢) في ر٢: «في ذلك اليوم».

(٣) هكذا قال، وليس في كتاب «الصلة» مثل هذا، فلعله نقله من كتاب آخر من كتبه.

(٤) «والد موسى» ليست في أ، م.

(٥) من ر٢.

(٦) وفيات الأعيان ٥/ ٣١٩.

وفي سنة خمس وتسعين: كان خروجُ موسى من الأندلس إلى الشام، واستخلف ابنَه عبدَ العزيز عليها[1].

ولاية عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر الأندلسَ[2]

واستخلف موسى على الأندلُس ابنَه عبد العزيز، وترك معه حبيبَ بن أبي عَبْدة بن عُقْبة بن نافِع وزيرًا له، ومُعينًا. وأقام معهما بالأندلُس مَن أراد سُكناها. فلمّا وصل موسى إلى إشبيلية، أقرَّ فيها ولدَه، فارتضاها قاعدةَ مُلْكه، وتزوَّج بعد خروج أبيه أمَّ عاصِم امرأةَ رُذْريق (واسمُها أَيْلُه) وسكن معها بإشبيلية. فلمّا دخل بها، قالت له: إنَّ الملوك، إذا لم يُتَوَّجوا، فلا مُلْكَ لهم! فلو عَمِلْتُ لك ممّا بقي عندي من الجوهر والذهب تاجًا؟ فقال لها: ليس يجوز[3] ذلك في ديننا. فقالت له: ومن أين يَعرف أهْلُ دينك ما أنْتَ فيه في خَلْوتك؟ فقيل، واللهُ أعلم بصحّته: إنّها[4] لم تزل به حتَّى فعل، فبينما هو ذات يوم جالسٌ معها، والتاجُ على رأسه، إذ دخلتْ عليه امرأةٌ كان قد تزوَّجها زِيَاد بن نابِغة التَّميميُّ، من بنات مُلوكهم، فعاينَتْه، والتاجُ على رأسه، فقالت لزياد: ألا أعمل لك تاجًا؟ فقال لها: ليس في ديننا استحلالُ لباسه. فقالت له: ودينِ المسيح إنَّه على رأس مَلِككم وإمامكم. فأعلم بذلك زيادٌ حبيبَ بن أبي عَبْدة، ثمَّ تحدَّثا بذلك حتَّى عَلِمَه خيارُ الجند، فلم يكن لهم هَمٌّ إلا كَشْف ذلك، حتَّى رأوه عيانًا، فقالوا: قد تنصَّر. ثمَّ هجموا عليه، فقتلوه. وأكثرُ[5] الناس على أنَّ هذه الحكايَة لا تصحُّ، وإنَّما قتلوه بأمر سليمانَ لهم بذلك؛ إذ نكب والدَه[6].

---

(١) في ر٢: «على الأندلس»، وينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٦٦.

(٢) هذه اللفظة من ر٢.

(٣) من ر٢.

(٤) قوله: «فقيل، والله أعلم بصحته: إنها» ليس في أ، م.

(٥) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في أ.

(٦) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٢.

وقال الواقِديُّ: إنّ التي نَكح بعد خروج أبيه هي ابنةُ رُذْرِيق، فجاءَتْه من الدنيا بما لا يُوصف، فلما دخلتْ عليه، قالت له: ما لي لا أَرَى أهلَ مملكتك يعظِّمونك، ولا يَسجدون لك، كما كان أهل مملكةِ أبي يفعلون له؟ فأمر ببابٍ، فنُقب في ناحية قَصْره، وجعله قصيرًا فكان يأْذن للناس منه، فيدخل الداخل مُنكِّسًا رأسه قُبالتَه لِقِصَر الباب، وقد جعل لها مجلسًا تنظرُ منه إلى الناس إذا دخلوا عليه من حيث لا يَرَوْنها، فلمّا رأتهم على ذلك[1]، ظنَّت أنهم يسجدون له، فقالت لعبد العزيز: الآن قَوِيَ مُلْكُك. وبلغ الناسَ ما أراد بذلك الباب، فثار به حبيبُ بن أبي عَبْدة الفِهْريُّ، وزياد بن عُذْرة البَلَويُّ، وزيَاد بن نابِغة التَّميمـيُّ، ومَن معهم من الناس، فقتلوه.

وقيل أيضًا: إنَّما قتلوه لأنَّه خلع طاعةَ سُليمانَ بنِ عبد الملك؛ إذ بَلَغَه قَتْلُ أخيه وما صُنع بأبيه.

قال الرازيُّ: لـمّا قَفَل موسى بن نُصَيْر، استخلف ابنَه عبدَ العزيز على الأندلس، فضبطَ سُلطانَها، وسدَّ ثُغورها، وافتتحَ مدائنَ كثيرة، وكان من خير الوُلاة، إلاَّ أنَّ مدَّته لم تطُلْ؛ لوثوب الـجُنْد عليه وقَتْلِهم له، لأشياءَ نقموها عليه. وكان قتلُه صَدْرَ رَجَب من سنة سبع وتسعين، بمدينة إشبيلية، بمسجد رُفِينة[2]. ولـمّا دخل المحرابَ، قرأ فاتحة الكتاب، ثمَّ قرأ سورة الحاقة[3]، فعلاه من خلفِه زيادُ بن عُذْرة البَلَويُّ بالسيف، فقتله وهو يقول: قد حَقَّتْ عليك يا ابنَ الفاعِلة! فكانت ولايتُه سنةً واحدةً وعشرةَ أشهُر.

وذَكَر أيضًا أنَّ سُليمانَ بعث إلى الجُنْد يأْمرهم بقتله، عند سخطه على أبيه، وأنَّهم، لـمّا قتلوه، حَزُّوا رأْسَه، وقَدِمَ به على سُليمان بن عبد الملك[4]: حبيبُ بن أبي عَبْدة

---

(١) في ر٢: «كذلك».

(٢) في ر٢: «ربينة»، والظاهر أنها باء أعجمية (p) فتُكتب على الوجهين، كما هي عادة العرب عند تعريبها.

(٣) في أ، م: «الواقعة»، وما أثبتناه من ر٢، وهو الذي ذكره ابن الفرضي نقلًا عن الرازي (١/ ٣٦٦).

(٤) من ر٢.

الفِهْريُّ[1]. فقيل: إنَّه عرض الرأْس على والده وهو في محبسه، فتجلَّد لـحَرِّ المصيبة، وقال: هَنِيئًا له الشهادة[2]! قَتَلْتُم والله صَوَّامًا قَوَّامًا[3].

قال الرازيُّ: فكانوا يعُدُّون فِعْلَ سُليمانَ هذا بموسى وابنِه من كبار زلَّاته التي لم تزل تُنقم عليه. ومكث أهلُ الأندلُس بعد عبد العزيز[4] شهورًا لا يجمعُهم والٍ، حتَّى اجتمعوا على أيُّوبَ بن حبيب اللَّخْميِّ[5]، ابنِ أُخت موسى بن نُصَيْر.

ذِكْر ولاية أيُّوب بن حبيب الأندلُسَ

ثمَّ اجتمع أهلُ الأندلُس على تقديم أيُّوبَ هذا، يؤُمُّهم لصَلاتهم، وكان رجلًا صالحًا. وأقاموا مدَّةً دون أمير، ونقلوا دارَ السلطان إلى قُرْطُبة. فتقدَّم أيُّوبُ بن حبيب، واحتلَّ بقصر قرطبة، وكان مُغيثٌ قد اختطَّه لنفسه. فذُكِرَ أنَّ موسى بنَ نُصَيْر، حين أقلعه رسولُ الوليد، رجع في قُفوله على طريق طارِق ليختبرَ الأندلُس، فنزل قرطبةَ وقال لِـمُغيث: إنَّ هذا القصرَ لا يصلح لك، وإنَّما يصلح للعامل الذي يكون بقرطبة، فتنحَّى عنه يومئذٍ، ونَزَله بعد ذلك أيُّوبُ بن حبيب، فكانت ولايته ستَّةَ أشهُر.

ولاية الـحُرِّ بن عبد الرحمن الثَّقَفيِّ

لـمَّا ولَّى سُليمانُ بن عبد الملك محمَّدَ[6] بن يزيد، مولى ابنةِ الحكم بن العاص، إفريقيَةَ، كانت الأندلُسُ وطَنْجة إلى صاحب إفريقية. فوجَّه محمَّدُ بن يزيد الـحُرَّ بن عبد الرحمن هذا عاملًا على الأندلُس، في أربع مئة رَجلٍ من وجوه إفريقية. فبقي الـحُرُّ واليًا عليها ثلاثَ سنين، فنَقل الـحُرُّ هذا الإمارةَ من إشبيلية إلى قُرْطُبة. وكان قدومُ الـحُرِّ الأندلُسَ سنة تسع وتسعين من الهجرة.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٢٣.

(٢) في ر٢: «الجنة».

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٢.

(٤) «بعد عبد العزيز» من ر٢.

(٥) ينظر نفح الطيب ٣/ ١٤.

(٦) ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٦/ ٢٧٧، وتاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ١٦٤، ووقع في ر٢: «عبد الله» وهو تحريف.

ولاية السَّمْح بن مالِك الخَوْلانيّ

ثمَّ ولَّى أميرُ المؤمنين عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه السَّمْحَ بن مالك على الأندلُس، وأمَرَه أن يحمل الناسَ على طريق الحقِّ، ولا يعدل بهم عن منهجِ الرِّفق، وأن يخمِّس ما غلب عليه من أرضها وعقارها، ويكتب إليه بصِفة الأندلُس وأنهارها. وكان رأْيُهُ نَقْلَ المسلمين منها وإخراجَهم عنها؛ لانقطاعهم عن المسلمين واتِّصالهم بأعداء الله الكفَّار، فقيل له: إنَّ الناسَ قد كثُروا بها، وانتشروا في أقطارها، فأضْرَبَ عن ذلك، فقَدِم السَّمْحُ الأندلُسَ، وامتثل ما أمره به عمرُ رضي الله عنه، من القيام بالحقِّ، واتِّباع العدل والصدق؛ فانفرد السَّمْح بولايتها، وعزلها عمرُ عن ولاية إفريقية؛ اعتناءً بأهلها، وتهمُّمًا بشأْنها[1].

وكان المسلمون، إذ فتحوا قُرْطُبَةَ، وجدوا بها آثارَ قَنْطرةٍ فوق نهرها، على حنايا وثاقِ الأركان من تأْسيس الأُمَم الدائرة، قد هدمها مدودُ النهر على مَرّ الأزمان. فتقدَّم إلى فضيلة النظر فيها عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه عندما اتَّصل به خَبَرُها، فأمر السَّمْحَ بابتنائها، فصُنعت على أتمَّ وأعظمَ مـمَّـا بُنِي عليه جِسْرٌ من حجارة سُور المدينة.

وفي سنة إحدى ومئة: ورد كتابُ أمير المؤْمنين عمرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه، على السَّمْح بن مالك بالأندلُس، يأْمره ببناءِ القنطرة بصخر السُّور، وبناء السور باللَّبِن، ويأمره بإخراج خُـمُس قُرْطُبة[2]. فخرَّج من الـخُمُس البطحاءَ المعروفة بالرَّبَض. فأمر الخليفة عمرُ أن يتَّخذ بها مقبرةً للمسلمين، فتمَّ ذلك.

وقُتل السَّمْحُ، رحمه الله، بطَرَسُونة[3]، وذلك أنَّه غزا الروم في سنة اثنتين ومئة، فاستُشْهِد، رحمه الله، يومَ عَرَفة؛ فكانت ولايتُه سنتَيْن وأربعة أشهر. وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ثلاث سنين[4].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٨٩.

(٢) نفح الطيب ٣/ ١٥.

(٣) معجم البلدان ٤/ ٢٩.

(٤) ينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٢٦٧.

ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافِقيّ الأندلُسَ[١]

ثمَّ قَدَّم أهلُ الأندلُس على أنفسهم عبدَ الرحمن بن عبد الله الغافِقيَّ هذا، فدخلها في شهر ذي الحِجَّة سنة اثنتين ومئة[٢].

ولاية عَنْبَسة بن سُحَيْم الكَلْبيّ[٣]

ثمَّ ولَّى يزيدُ بن أبي مُسلم عاملُ إفريقية على الأندلُس عَنْبَسَةَ بن سُحَيْم[٤] هذا[٥]، فدخلها في شهر صَفَر. فلما قُتِلَ يزيدُ بن أبي مُسْلم، كان على إفريقية محمَّدُ بن يزيد، مولى الأنصار، على ما ذكره الطَّبَرِيُّ[٦]، بتقديم أهل إفريقية، وإقرارِ يزيدَ بن عبد الملك إيَّاه[٧].

وفي سنة ثلاث ومئة: كان العاملَ على إفريقية من قِبَل يزيدَ بن عبد الملك بِشْرُ بن صَفْوان، أخو حَنْظَلة، فأقرَّ عَنْبسةَ على الأندلس، فكانت ولاية عَنْبَسةَ كلُّها أربعَ سنين وثمانية أشهر، وقيل غير ذلك[٨].

وفي سنة خمس ومئة: خرجَ عَنْبَسةُ غازيًا للرُّوم بالأندلس، وأهلُها يومئذٍ خيارٌ فضلاء أهلُ نِيَّةٍ في الجهاد وحِسْبةٍ في الثواب، فألحَّ على الروم في القتال والحصار، حتَّى صالحُوه.

وتُوُفِّي عَنْبَسةُ في شعبانَ سنة سبع ومئة، فكانت ولايته كما ذكرنا[٩].

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٤٢ والتعليق عليه.

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٣٥.

(٣) أخلت ر٢ بالعنوان جملةً، وترجمة عنبسة في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٤٤١ وتعليقنا عليه.

(٤) بعد هذا في ر٢: «الكلبي».

(٥) ليست في ر٢.

(٦) تاريخ الطبري ٦/ ٦١٧.

(٧) في ر٢: «له».

(٨) نفح الطيب ١/ ٢٣٥.

(٩) «فكانت ولايته كما ذكرنا» ليست في ر٢. وينظر الكامل لابن الأثير ٥/ ١٣٦.

ولاية يَحْيَى بن سَلَمة الكَلْبيّ

وذلك أنّه، لـمّا تُوفّي عَنْبَسةُ، قدَّم أهلُ الأندلس على أنفسهم رَجلًا من العَرَب، يُقال له: عُذْرة، إلى أن ورد بعد شهرَيْن يحيى بنُ سَلَمة الكَلْبيُّ واليًا من عند أمير المؤْمنين هشامِ[1] بن عبد الملك، في آخر سنة سبع[2] ومئة؛ فكانت ولايته سنتَيْن وستَّة أشهر[3].

ومات بِشْرُ بن صفْوان بإفريقية، فولَّى هشامُ بن عبد الملك مكانَه عُبَيْدَةَ[4] ابن أبي الأعْوَر السُّلَميَّ.

ولاية حُذَيْفة بن الأحْوَص

ثمَّ وَلِيَ الأندلسَ حُذَيْفةُ بن الأحْوَص الأشْجَعيُّ، وقيل: القَيْسيُّ، ولَّاه عليها عُبَيْدةُ بن عبد الرحمن السُّلَميُّ عامِلُ إفريقية من قِبَل هشامِ بن عبد الملك، في سنة عشر ومئة؛ فكانت ولايته ستَّةَ أشهُر[5].

ولاية عثمان بن أبي نِسْعة[6]

ثمَّ ولَّى عُبَيْدةُ بن عبد الرحمن بن أبي الأعْوَر السُّلَميُّ على الأندلس عثمانَ بن أبي نِسْعة الخَثْعَميَّ، فقَدِمَها في شعبان سنة عشر ومئة، وكانت ولايتُه خمسةَ أشهر، وقيل: ستَّة أشهر، ثمَّ عُزِل وانصرف إلى القَيْرَوان، فمات بها[7].

---

(١) في ر٢: «من قبل هشام».

(٢) في أ، م: «تسع»، خطأ.

(٣) نفح الطيب ١/ ٢٣٥.

(٤) الكامل لابن الأثير ٥/ ١٤٦ وفيه: «بن أبي الأغر»، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٠.

(٥) الكامل لابن الأثير ٥/ ١٤٦.

(٦) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٩٢.

(٧) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٠.

ولاية الـهَيْثَم بن عُبَيْد الكِنانيّ[1]

ثمَّ وليَ الأندلُسَ الـهَيْثَمُ بن عُبَيْد الكِنانيُّ في صدر سنة إحدى عشرة ومئة، وكانت ولايتُه عشَرةَ أشهر، وقيل غير ذلك، وهو الذي غزا منوسة[2]. وأقام واليًا عشرة أشهر، كما ذكرنا، وقيل: وَلِيَ سنةً وشهرَيْن، ثمَّ تُوفِّي[3].

ولاية محمَّد بن عبد الله الأَشْجَعيّ

ثمَّ قدَّم أهلُ الأندلس على أنفسهم محمَّدَ بن عبد الله الأَشْجَعيَّ[4]؛ فكانت ولايته شهرَيْن، وقيل غير ذلك.

ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغَافِقيّ ثانيةً

ثمَّ وليَ الأندلسَ عبدُ الرحمن هذا ثانيةً[5]؛ فكان دخولُه إليها في صفر سنةَ اثنتي عشرة ومئة، فأقام واليًا سنتَيْن وسبعة أشهر، وقيل: وثمانية أشهر. واستُشْهِد في أرض العدوّ في رمضان سنة أربع عشرة ومئة[6].

ولاية عبد الملك بن قَطَن[7]

ثمَّ وليَ عبدُ الملك بن قَطَن[8] بن نُفَيْل بن عبد الله الفِهْريُّ، فدخلها في شهر رمضانَ المذكور الذي تُوفِّي فيه عبدُ الرحمن الغافِقيُّ، فألفاهُ قد استُشهد. وقيل: دخلها في شوَّالٍ من سنة أربع عشرة ومئة. وكانت ولايته سنتَيْن، وقيل غير ذلك[9].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/ ١١٩.

(٢) في ر٢: «سنوسة».

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٠.

(٤) من أول العنوان إلى هنا ليس في ر٢، ولكن جاء فيها: «وولي محمد بن عبد الله الأشجعي، قدّمه أهل الأندلس على أنفسهم».

(٥) من أول العبارة إلى هنا ليس في ر٢.

(٦) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٠.

(٧) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٥٨ والتعليق عليه.

(٨) من أول الفقرة إلى هنا ليس في ر٢.

(٩) «وقيل غير ذلك» ليست في ر٢.

ولاية عُقْبة بن الحَجَّاج السَّلَوليّ[1]

ثمَّ ولي عقْبةُ بن الحَجَّاج السَّلوليُّ[2] في شوَّال سنة ست عشرة ومئة[3].

وقالوا: في ولايته كان عُبَيْدُ الله بن الحَبْحاب عامِلَ مِصْر وإفريقية، فقَدِمَ عليه عُقْبةُ بن الحجَّاج، وكان مَوْلاه، فأكرمَه، وبرَّه، ورفعَ شأْنَه وقَدْرَه، وأنزله في مكانه، وخيَّره في ولاية ما شاءَ من سُلطانه. وكان الحجَّاجُ أبو عُقْبة قد أعتق الحَبْحاب أبا عُبَيد الله، فولَّى هشامُ بن عبد الملك عُبَيْدَ الله بن الحَبْحاب مِصْرَ وإفريقية والأندلس، فكان له من العَرِيش إلى طَنْجة إلى السُّوس الأقصى إلى الأندلُس وما بين ذلك، وكان أحدُ بَنيه بمصر، والثاني بالسُّوس وطَنْجة، والثالثُ بالأندلُس، وكان عبيدُ الله بإفريقية، فلمّا شَرُف عُبيدُ الله، وعلَتْ منزلته، وانتشر ذِكرُه، وَفَدَ عليه مولاه عُقْبة، فأجلسه معه على فراشه، وأدناه من نَفْسِه، وقرَّبه، حتَّى عظمت[4] منزلتُه في الناس، فكان يقصده الطالبون وذَوُو الحاجات، يتوسَّلون به إلى عُبَيْد الله. فغُصَّ به بنو عُبيد الله، وقالوا لوالدهم: اصرِفْه عنَّا؛ لئلَّا يكسرَ شَرَفَنا. فما زاده ذلك عنده إلَّا تعظيمًا وتكريمًا، وخيَّره في ولاية ما شاءَ من سُلطانه، فاختار الأندلُس، فولَّاه عليها. وكان يجاهدُ المشركين في كلِّ عام، ويَفتتح المدائن، وهو الذي فتح مدينةَ أربونة، وافتتح جِلِّيقيّة وبَنْبلونة، وأسكنها المُسلمينَ، وعمَّت فتوحاتُه جِلِّيقِيَّة كلَّها غيرَ الصَّخْرة، فإنَّه لجأ إليها مَلِكُ جِلِّيقِيَّة، وكان بها في ثلاث مئة راجل، فما زال المسلمون يضيِّقون عليهم، حتَّى صاروا ثلاثين رَجلًا، وحتَّى فنيتْ أزْوِدَتُهم، ولم يتقوَّتوا إلَّا بعسلٍ يَجِدُونه في خُروق الصخْرة. وأعيا المسلمين أمْرُهم، فتركوهم. وأقام عُقْبةُ بالأندلُس بأحسن سيرة وأجملها، وأعظم[5] طريقة وأعدلها، إلى أن غزا أرض إفْرَنْجة، فلقيَتْه

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس (٧٤٠) والتعليق عليها.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٠.

(٤) في ر٢: «علت».

(٥) في ر٢: «وأفضل».

جيوشُ الأعداء، فقُتِل هو ومَن معه ببَلَاط الشُّهَداء. وذُكِرَ عنه أنَّه كان صاحبَ بأسٍ ونَجْدةٍ، ونِكاية في العدوِّ وشدّة. وكان إذا أَسَرَ الأسير، لم يَقتلْه حتَّى يعرضَ عليه دِينَ الإسلام، ويقبِّح له عبادةَ الأصنام. فيُذْكَر أنَّه أسلم على يديه بهذا الفِعْل ألف رجل. وكانت ولايتُه خمسةَ أعوام وشهرَيْن.

وقيل: إنَّ أهلَ الأندلس ثاروا على عُقْبةَ بنِ الحجَّاج وخلَعوه.

قال ابن القَطَّان: وقيل: إنَّ عُقْبةَ بن الحجَّاج، لـمّا حانت وفاتُه، استخلف عبدَ الملك بن قَطَن. قال: وأقام عقبةُ على الأندلس واليًا إلى سنة إحدى وعشرين ومئة.

ولاية عبد الملك بن قَطَن الفِهْرِيّ ثانيةً

وفي سنة اثنتين وعشرين ومئة: وليَ عبدُ الملك بن قَطَن ثانيةً، حتَّى كان من أمر البَرْبر وبَلْجٍ[١] بن بِشْر، ابن أخي كُلثوم[٢] بن عِيَاض عامِل إفريقية، ما أذْكُرُهُ.

قال ابن القَطَّان: وذلك أنَّ هشامَ بن عبد الملك كان قد ندب كُلْثوماً لقتال البَرْبَر، وولَّاه إفريقية، وبعث معه ثلاثين ألفَ فارس: عشرةَ آلاف من صُلْب بني أُميَّة، وعشرين ألفًا من سائر[٣] العَرَب، وعَهِدَ إليه في سدِّ إفريقية وضَبْطها؛ إذْ كانوا يَجِدون في الروايات أنَّ مُلْكهم يزول، وأنَّ مُلْكَ بني العبَّاس لا يجاوزُ الزَّاب، فتوهَّمَتْه بنو أُميَّة زَابَ مِصْرَ، وإنَّما كان زَابَ إفريقية. فأمَرَه بالجِدِّ في أمر إفريقية؛ ليلجَأوا إليها إذا ذهب مُلْكُهم بالمشرق[٤]، وعَهِدَ، إنْ حَدَثَ بكُلْثوم حَدَثٌ، أن يكون ابنُ أخيه بَلْج مكانَه، فدارت بينه وبين البَرْبَر حروبٌ عظيمةٌ، هَزموا في بعضها كُلْثومًا وقَتلوه، وصار أمرُ العَرَب بإفريقية إلى بَلْج بالعهد المذكور.

ولجأ فلُّهُم إلى سَبْتة، حتَّى ضاق عليهم الأمرُ ضيقًا عظيمًا، فكاتَبَ بَلْج وأصحابُه عبدَ الملك بن قَطَن صاحبَ الأندلس، وسأله إدخالَه وإدخال مَن معه من الجُنْد، وذكروا

---

(١) ينظر عن بلج الجذوة (٣٣٧).

(٢) ترجمة كلثوم في تاريخ الإسلام ٣/ ٤٨٥.

(٣) هذه اللفظة من ر٢.

(٤) كذلك.

له ما صاروا إليه من الجَهْد، وأنَّهم قد أكلوا دوابَّهم. فأبى عبدُ الملك من إدخالهم، ولم يأْمنْهم، ومَطَلَهم بالمِيْرة والسُّفُن.

واتَّفق أن تطاولت البَرْبَرُ أيضًا بالأندلُس، وفاضحوا العَرَبَ، وظَهَروا على الساكنين منهم بجِلِّيقِيَّة وغيرِها، فقتلوهم وطردوهم، فلمّا ورد فلُّ العَرَب على عبد الملك بن قَطَن، ورأى عاديةَ البَرْبَر، اضطرَّ لأجل ذلك إلى إدخال بَلْج وأصحابه، فكاتَبَهم، وشرط عليهم مُقامَ سنةٍ بالأندلُس، ثمَّ يَخرجون عنها، فرضُوْا بذلك. فأخذ منهم رهائنَ أنزلهم بجزيرة أُمِّ حَكِيم، وهي على الخَضْراء. ثمَّ أدخل بَلْجًا وأصحابَه عُراةً، لا يُوَاريهم إلَّا دَوابُّهم، وقد بلغ بهم الجَهْدُ غايتَه. وكانوا نحوَ عشرة آلافٍ من عَرَب الشام. فلما دخلوا، كساهم عَرَبُ الأندلس على قَدْر أقدارهم، فرُبَّ رَجلٍ يكسو مئةَ رجل، وآخَرُ عشرةً، وآخَر واحدًا، إلى ما بين ذلك.

فلما حلُّوا بالخضراء، اجتمعَ بهم عبدُ الملك بن قَطَن، وكان بشَذُونة جمعٌ من البَرْبَر، عليهم رجلٌ زَنَاتيٌّ، فبدأ عبدُ الملك بمُقاتلتهم في وادِي الفَتْح من شَذُونة، فلم يكن للعَرَب فيهم إلَّا نهضةٌ، حتَّى أبادوهم، وأصابوا أمْتِعَتهم ودوابَّهم. فاكتسى أصحابُ بَلْج، وانتعشوا، وأصابوا الغنائم. ثمَّ نهضوا مع عبد الملك إلى قُرْطُبة، ثمَّ ساروا بأجمعهم إلى جهة طُلَيْطُلة، وقد اجتمع هنالك مُعْظَمُ البَرْبَر، فكانت هزيمتُهم العُظْمى هنالك بوادي سَلِيط من حَوْز طُلَيْطُلة، بعد أن زحف عبدُ الملك وبَلْجٌ إليهم بعَرَب الأندلس، حاشا عَرَبِ سَرَقُسْطة وثُغورِها. وزحف البَرْبَرُ بأجمعهم، فهزمهم العربُ، وقتلوا منهم في الهزيمة آلافًا.

ذِكْر ولاية بَلْج بن بِشْر القُشَيْريّ الأنْدَلُس

قال مَن له عنايةٌ بالأخبار: دخل بَلْجٌ الأندلسَ سنة ثلاث وعشرين ومئة، في ذي القَعْدة منها، ومَلكها بعد ذلك، وذلك أنَّه، لـمّا أباد ابنُ قَطَن البَرْبَرَ بالأندلس، بمن كان معه من العَرَب، وبأصحاب بَلْج، قال لبَلْجٍ وأصحابه: اخرجوا من الأندلس على ما شُورِطْتُمْ عليه، فقال بَلْج: احمِلْنا إلى ساحلِ إلْبيرة أو ساحل تُدْمِير. فقال لهم عبدُ الملك: ليست لنا مراكِبُ إلا بالجزيرة[1]. فقالوا له: إنَّمـا تُريد أن تردَّنا إلى البَرْبَر

---

(١) في ر٢: «بالخضراء» وكلاهما صواب.

ليَقتُلونا في بلادهم! فلما ألَحَّ عليهم في الخروج، نهضوا إليه، فأخرجوه من قصر قُرْطُبة إلى داره بالمدينة. ودخل بَلْجٌ القصرَ عشيَّة يوم الأربعاء في صدر ذي قعدة من السنة[١]. وكان بَلْج، وقتَ جوازه عن سَبْتة، قد أعطى رهائنَ لابن قَطَن، جَعَلَهم ابنُ قَطَن بجزيرة أُمِّ حَكيم[٢]، فضاعُوا مدَّةَ الفتنة بين بَلْجٍ وابنِ قَطَن، والجزيرةُ المذكورة دون ماء، فمات رَجلٌ من غَسَّان عَطَشًا، وكان من الرهائن، من أشراف دِمَشْق.

مقتل عبد الملك بن قَطَن الفِهْريّ

لما ملك بَلْجٌ الأندلُس، واستولى عليها، طلب منه الجُنْدُ أن يعطيَهم ابنَ قَطَن في الغَسَّانيّ المذكور، فتوقَّف بَلْج، فألَحَّ الجُنْدُ، وثارت اليَمَنُ كلُّها على كلمةٍ واحدة. وكان ابن قَطَن شيخًا هَرِمًا، قد بلغ التسعين، وكان قد حضر يوم الحَرَّة، ومنها فرَّ إلى إفريقية، وكان يومئذٍ بداره بقُرْطُبة، فأخرجه الجُنْدُ منها، كأنَّه فَرْخُ نَعَامةٍ من الكِبَر، وهم يُنادُونَه: أفْلَتَّ من سُيوفنا يومَ الحَرَّة، فطلبْتَنا بثأرنا في أكْل الدوابّ والجلود، ثمَّ أردتَ إخراجَنا إلى القتل! ثم قَتلوه، وصَلَبُوه، وصلبوا خِنْزيرًا عن يمينه، وكَلْبًا عن شِماله[٣].

ثمَّ إنَّ أُميَّة وقَطَنًا ابنيْ عبدِ الملك بنِ قَطَن حَشَدَا في جهة سَرَقُسْطة، وكانا قد هربا من قُرْطُبَةَ وقتَ إخراج أبيهما منها، وجاءَا إلى بَلْجٍ طالبَيْن بثأرهما، وهُمَا في نيِّفٍ على مئةِ ألفٍ من العرَب القُدَماء والحَدَث، فخرج إليهما بَلْج، وهو في أقلّ من خُمُس عددهما، فاقتتَلوا قتالًا شديدًا، ثمَّ انهزم ابنا عبدِ الملك ومَن معهما هزيمةً عظيمةً، وانصرف أصحابُ بَلْجٍ ظافرين وقد امتلأَت أيديهم وأنفُسُهم غُنْمًا ونصرًا وسرورًا، إلَّا أنَّ بَلْجًا أميرَهم وَقِيذٌ من جراحةٍ أصابَتْه في المعركة، ومات بعد أيَّام. وكانت مدَّةُ إمارته اثني عشر شهرًا، على خلافٍ[٤] في ذلك.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٥١-٢٥٢.

(٢) الروض المعطار ٢٢٣.

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٥٢.

(٤) في أ، م: «واختلف»، وذكر ابن الأثير أن ولايته كانت أحد عشر شهرًا (الكامل ٥/ ٢٥٩).

قال أبو عُمر السَّالِمِيُّ: إنَّ تلك المعركةَ انجلَتْ عن أحدَ عشر ألفَ قتيل، وإنَّ عبدَ الرحمن بن عَلْقَمة فوَّق سَهْمًا إلى بَلْج، فأصاب مَقْتله؛ قال هذا في كتاب «دُرَر القَلائد وغُرَر الفَوائد»[١]. وقال في كتاب[٢] «بَهْجة النَّفْس»: إنَّ عبدَ الرحمن بن عَلْقَمة المذكور قَتَلَه بالسيف، وإنَّ ولايتَه ستَّة أشهر. والأوَّلُ أصَحُّ.

ولاية ثَعْلَبة بن سَلَامة العامِلِيّ الأنْدَلُسَ[٣]

وفي سنة أربع وعشرين ومئة، في شوَّال: وَلِيَ الأندلسَ ثَعْلَبَةُ بن سَلَامة، ولَّاه أهْلُ الشام؛ وذلك أنَّ هشامَ بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولَّى أمْرَ الجيش، إذ جهزَّه من الشام كُلْثومُ بن عِيَاض[٤]، فإن أُصِيبَ، فابْنُ أخيه بَلْج، فإنْ أُصيب، فثَعْلَبة. فأقعد أصحابُهُ ثَعْلَبَة بن سَلَامة بما عَهِدَ به هشامٌ إليهم، وبايعوه. وثار مَن بقيَ من البَرْبَر بمَارِدَة في أيَّامه، فغزاهم، وقَتل منهم خَلْقًا كثيرًا، وأسَرَ منهم نحو الألف، وانصرفَ إلى قُرْطبة[٥]، فسار بأحسن سيرة. وكانت ولايتُه عشَرةَ أشْهُر. هذا مَسَاقُ ابنِ القَطَّان.

ومن «دُرَر القَلائد»: كان يبيع ذَرَارِيَ أهْل البلد، ويَحْمِلُهم أسْرَى، ويُرْهِقهم من أمْرِهم عُسرًا، فكان ثَعْلَبَةُ معهم على هذه الحال، إلى أن ورد أبو الخَطَّار.

ذِكْرُ ولاية أبي الخَطَّار الحُسَام[٦] بن ضِرَار الكَلْبيِّ[٧] الأنْدَلُسَ

وفي سنة خمس وعشرين ومئة: ركبَ أبو الخَطَّار البَحْرَ من ناحية تُونِسَ في المحرَّم، وحلَّ بقُرْطبة، فألفى ثَعْلَبَةَ بن سَلَامة بالمُصارَة، ومعه الأسْرَى والسَّبْيُ

---

(١) قوله: «قال هذا في كتاب درر القلائد وغرر الفوائد» ليس في ر٢.

(٢) في ر٢: «وقال صاحب كتاب».

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (٣٤٩).

(٤) «ابن عياض» من ر٢.

(٥) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٥٩.

(٦) ترجمته في جذوة المقتبس (٤٠٣) والتعليق عليه.

(٧) ليست في ر٢.

من عُرْبِ قُرْطُبة، قد اشتبك في الحبال الوَلدُ بالوالد، فأمر أبو الـخَطَّار بإطلاقهم، وحلِّهم من وَثاقهم، وجمعَ الناسَ بعد افتراقهم، وصَرَفَهم إلى معهود اتِّفاقهم، فدانت لهم جماعتهم، وفرَّق أهْلَ الشام على الكُوَر، ونظر لسواهم أيضًا بأحسن النظر، فأنزل أهْلَ دِمَشْقَ بإلْبِيرَة، وأهْلَ الأُرْدُنّ بريُّه، وأهْلَ فِلَسْطِين بشَذُونَة، وأهْلَ حِـمْص بإشبيلية، وأهْلَ قِنَّسْرِين بجَيَّان، وأهْلَ مِصْر بباجَة، وبعضَهم بتُدْمِير[١]. وكان إنزالُـهم على أموال العَجَم من أرضٍ ونَعَمٍ. ودخل في ذلك الوقتِ الصُّمَيْلُ بن حَاتِم ـ وسيأْتي ذِكْرُه ـ وتعصَّب الـمُضَرِيُّون معه، وأَتَوْا إلى قُرطبةَ، حيثُ أبو الـخَطَّار، فخرج إليهم دون عُدَّة؛ إذ وصلوا إليه من غير عِدَة[٢]، فهزمه القومُ، وقبضوا عليه، وأثقلوا بالحديد رِجْلَيْه. ثمَّ إنَّه أفلت من كَبْله، ومدَّ ما انقبض من حَبْله.

ومن كتاب «بَهْجَة النَّفْس»[٣]، قال: لـمّا هزم ثَعْلَبَةُ البَرْبَرَ، سَبَى ذَرَاريَهم، ولم يكن قبلُ بَلْجٌ ولا[٤] غيرُه يتعرَّض للذُّرِّيَّة بِسِباء، فأقبل إلى قُرْطُبَةَ بعَدَد من السَّبْي كثير، حتَّى نزل طَرَفَ الـمُصَارة من قُرْطُبة، ومعه الأسرى والسَّبْيُ من عُرْب البلد والبَرْبر، وهو يبيعُ السَّبْيَ في النّداء، ويَعْبَث ويُبْطِر، فكان يبيعُ الشيوخَ والأشراف مـمَّن ينقُص، لا مـمَّن يزيد، وكان فيهم عليُّ بن الحُصَيْن، والحارثُ بن أسَد من أهل المدينة، فابتدأ الـمُنادي عليهما بعشرة دنانير، فلم يزل يُنادي: من ينقُص؟ حتى باع أحدَهما بعَتُود[٥]، والآخر بكَلْب، فبَيْنا هو على هذه الحال من العَبَث والبغي، وقد أوقف رجالَهم، وأبرزهم للقتل، وذلك يوم جُمعة، إذ قَدِمَ أبو الـخَطَّار، فألفاهم بهذه الحال، فأمَرَ بإطلاقهم، فسُمِّيَ ذلك العَسْكَرُ[٦] عَسْكَرَ العافية. وكان أهلُ الأندلس طلبوا من صاحب إفريقية حَنْظَلَةَ بنِ صَفْوان عامِلًا يجمع كلمتَهم، إذ كانت الكَلِمةُ

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٧٣.

(٢) قوله: «إذ وصلوا إليه من غير عِدَة» سقط من أ، م.

(٣) هو لابن حيّان، ولم يصل إلينا.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «بعود» وهو تحريف، والعتود: من أولاد المعزى، ما قوي وأتى عليه حول.

(٦) قوله: «ذلك العسكر» ليس في ر٢.

مفترقةً، والقتلُ ذريعًا، ولا يأْمنون تغلُّبَ العدوِّ عليهم، فأرسل إليهم أبا الـخَطَّار هذا. واجتمع على أبي الـخَطَّار أهْلُ الشام وعُرْبُ البلد، ودانت له الأندلس. ثمَّ إنّه أَمَّنَ ابنَيْ عبدِ الملك بن قَطَن، وأنزل أهل الشام في الكُوَر، وتعصَّب لليمـانيَّة، واعتزل قَيْسًا، فكان ذلك سببَ توثُّبِ الصُّمَيْلِ بن حاتِم عليه مع مُضَر، بعد أن وليَ سنتَيْن، وقيل: وتسعةَ أشهر، وقيل: ثلاثَ سنين.

ذِكر الصُّمَيْل بن حاتِم وسَبَب الفِتْنة[1]

قال في كتاب «بَهْجة النَّفْس»: كان الصُّمَيْل بن حاتِم هذا جدُّه شَمِر قاتِلُ الـحُسين رضي الله عنه، وهو من أهل الكُوفة، فلمّا قتَله، تمكَّن منه الـمُختارُ بن أبي عُبَيْد، فقَتله، وهَدَم داره، فارتحل مع وُلدِه من الكوفة، وصاروا بالجزيرة، ثمَّ صاروا في جُنْد قِنَّسْرين، فرأَسَ الصُّمَيْل بالأندلُس، وفاق بالنَّجْدة والسخاءِ[2]. فاغتمَّ أبو الـخَطَّار به، فدخل عليه يومًا وعنده الـجُنْد، فأَحَبَّ كَسْرَه، فأمر عليه، فشُتِمَ، ولُكِزَ، فخرج عنه مُغْضِبًا، وأتى دارَه، ثمَّ بَعَثَ إلى خيار قومه، فشكا إليهم ما لقي فقالوا: نحن تَبَعٌ لك. فقال: والله[3] ما أُحِبُّ أن أُعرِّضكم للقُضاعيّة ولا لليَمانيَّة، ولكني سأَتَلَطَّف، وأدعو إلْبَ مَرْج راهِط، وأدعو لَـخْمًا وجُذامًا، ونقدِّمُ رجلًا يكون له الاسمُ ولنا الحظُّ. فكتبوا إلى ثَوَابَة[4] بن سَلَامة الـجُذاميّ من أهْل فِلَسْطِين، ثمَّ وفدوا عليه، فأجابهم، وأجابتهم لَخْمُ وجُذَام. فبلغ ذلك أبا الـخَطَّار، فغزاهم، فلقيه ثَوَابة، فهزمه ثَوَابةُ، وأَسَره. وسار ثَوَابةُ حتَّى دخل قَصْرَ قُرْطبة، وأبو الـخَطَّار معه في قيوده. ثمَّ إنَّه أفلت، كما ذكرنا.

ثمَّ وليَ ثَوَابة سنتَيْن. ولـمّا وليَ ثَوَابةُ سنة ثمان وعشرين ومئة، استجاشَ أبو الـخَطّار اليَمانيَّة، ودعاهم للنُّصْرة على الـمُضَريَّة، فاجتمع له إذ ذاك حفلٌ وعسكرٌ ضخمٌ، وأقبل إلى قُرْطُبة؛ فخرج ثَوَابةُ بن سَلَامة إلى لقائه، فافترق الناسُ عن أبي الـخَطَّار،

---

(١) ينظر الإحاطة ٣/ ٣٤٦ نقلًا من بهجة الأنفس، فكأنه نقل من هذا الكتاب لتطابق العبارة.

(٢) إلى هنا ينتهي نقل ابن الخطيب في الإحاطة.

(٣) ليس في ر٢.

(٤) في ر٢: «ثعلبة»، وينظر نفح الطيب ٣/ ٢٤.

ونفروا عن تِلْقائه[١]. وتُوفّي إثْرَ ذلك ثَوَابةُ[٢] في السنة المذكورة، وكانت ولايتُه كما ذكرنا. فلما تُوفّي ثَوَابةُ، عادت الحربُ إلى ما كانت عليه، فأرادت اليَمَنُ أن تُعيدَ أبا الـخَطَّار، فأبَتْ ذلك مُضَرُ مع الصُّمَيْل، وتشاكَسَ الفريقان. وأقامت الأندلسُ أربعةَ أشْهُر من غير والٍ، إلاَّ أنّهم قدَّموا عبدَ الرحمن بن كَثير اللَّخْميَّ للنظر في الأحكام. وصار أمْرُ الشام وملوكِه متغَيِّرَ الحال؛ بقتل الوليد بن يزيد وما صارت إليه أحوالُ بني مَرْوان[٣].

ولاية يُوسُف بن عبد الرَّحمن الفِهْريّ الأنْدَلُس[٤]

لـمّا تَفَاقَم الأمر، وكثُر الاختلاف بين أهل الأندلس، تَراضَوْا واتَّفقوا على تَوْلية يوسفَ بنِ عبد الرحمن الفِهْريّ، وعلى أن يدَعُوا ليحيى بن حُرَيْث كُورةَ رَيُّه، فتُرِكت له طُعمةً. وقد كانت قُضاعةُ اجتمعتْ قبل ذلك، وقدَّموا على أنفُسِهم عبدَ الرحمن بن نُعَيْم الكَلْبيّ؛ فجَمع مئتي راجل وأربعين فارسًا، فبَيَّتَ القصرَ بقُرطبة، وقاتل الأحراسَ، وهجمَ على السجن، فأخرج أبا الـخَطَّار، وهرب به إلى لَبْلة[٥]، فأقام في كَلْب وقبائلَ من حِمْص؛ فاكتنفوه ومَنعوه، ولم يُحْدِثْ شيئًا حتَّى اجتمعَ الناسُ على يوسفَ. فلمّا استقام له الأمر، غَدَرَ بيحيى بنِ حُرَيْث، وعزله عن كُورة رَيُّه؛ فغضب ابن حُرَيْث، وكاتَبَ أبا الـخَطَّار حينًا. فقال أبو الـخَطَّار: أنا الأميرُ المخلوع! فأنا أقوم بالأمر، وقال ابن حُرَيْث: بل أنا أقوم به؛ لأنَّ قومي أكثر من قومك. فلمّا رأت جُذامُ ما يَدْعو إليه ابنُ حُرَيْث، قدَّموه وأجابوه، فأصفَقَتْ يَمَنُ الأندلس وحِمْيَرُها وكِنْدَتُها على تقديمه والطَّوع له، وانحازت مُضَر ورَبيعة إلى يوسفَ بقُرْطُبة حضرةِ الـمُلْك. وأقبلا حتَّى نزلا شَقُنْدة[٦].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٣٩.

(٢) في ر٢: «ثم توفي ثوابة».

(٣) في أ، م: «فقتل يزيد بن الوليد وصارت إليه أحوال بني مروان»، وما هنا من ر٢ وهو أبين.

(٤) تنظر الإحالة ٤/ ٣٣٩.

(٥) في أ: «البلد»، وانظر عن لبلة معجم البلدان ٥/ ١٠.

(٦) ينظر عنها الروض المعطار ٣٤٩.

وكان الصُّمَيْلُ مع يوسفَ الفِهْريّ، وهو الذي سأله الناسُ أن ينظرَ لهم في والٍ يَلِي عليهم، لشُغْلِ أمير المؤمنين مروانَ بن محمَّد بالمشرق عنهم وبُعْدِهِ عنهم. فاختارَ لهم يوسفَ بن عبد الرحمن بنِ حبيب بن أبي عَبْدة بن عُقْبَةَ بن نافِع الفِهْريَّ، وكان يومئذٍ بإلْبيرة، فرضِيَه الناسُ كما ذكرنا. ووقع اختلافٌ بعد ذلك في أمْره بين مُضَرَ واليَمَن، فانضوَت اليَمَن إلى أبي الـخَطَّار، من جميع البلاد والأقطار، وزحف بهم إلى يوسفَ الفهريّ بقرطبة، فكَرِهَ يوسفُ الفتنة، وخاف البغضاءَ والشحناءَ. فنزل الصُّمَيْلُ بن حاتِم بالمحلَّات، وشكَّ السلاحَ والآلات، وأقبل أبو الـخَطَّار بمن معه، ونزل موضعَه، فالتقت بشَقُنْدَة الفِئَتان، وتصادمت الفرقتان، فلا تَسْمَعُ إلاَّ صَهِيلًا وصَلِيلًا، ولا ترى إلَّا قتيلًا، حتَّى تكسَّرت الخَطِّيَّةُ، وتفلَّلت الـمَشْرَفِيَّة، والتفَّت الساقُ بالساق، وانضمَّت الأعناقُ إلى الأعناق، فلم يُعْهَد حربٌ مِثْلَها في المسلمين، بعد حرب الـجَمَل وصِفِّين، إلى أن انهزمت اليَمانيَّةُ مع أبي الـخطَّار بعد حِين. وهرب أبو الـخَطَّار، وركب ظَهْرَ الفِرار، واستتر في رَحىً للصُّمَيْل هنالك، فظُفِر به وقُتل إذ ذلك. فرأَسَ الصُّمَيْل بن حاتِم في الناس، وشُهِر بالنَّجْدة والباس، وصَرف يوسفُ الفِهْريُّ إليه الأُمور، وأوقف عليه الرِّياسةَ والتدبير، فكان ليوسفَ الاسْم، وللصُّمَيْل بن حاتم(١) الرَّسْم(٢).

مَقْتَل أبي الـخَطَّار

ولـمّا أُخِذ أبو الـخَطَّار، وأرادوا قَتْلَه، قال: ليس عليَّ فَوْتٌ! ولكن دونكم ابْنَ السَّوداء! يُريد ابنَ حُرَيْث. فدَلَّ عليه، وقُتلا جميعًا. وكان ابنُ حُرَيْث يقول: لو أنَّ دماءَ أهل الشام سُقيتْ، لشَرِبْتُها في قَدَح! فلمّا استُخْرِج من تحت الرَّحَى ليُقتل، قال له أبو الـخَطَّار: يا ابنَ السَّوْداء! هل بقي في قَدَحك شيءٌ لم تشربْه؟ ثمَّ قُتِلا وأُتِيَ بالأسرى، فقعد لهم الصُّمَيْل، وضرب أعناقَهم جميعًا.

ثمَّ أتبَع اللهُ الأندلسَ بعد ذلك بالوباء والموت في السنة الثانية، حتَّى كاد الـخَلْقُ أن يَنقرض منها.

---

(١) ليس في أ، م.

(٢) الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٧٥-٣٧٦.

وَوَلِيَ يوسفُ عن رضًا من[1] عامَّة الـجُنْد من مُضَرَ ويَمَن والشام، فصَفَتْ له الأندلُسُ بعد يوم شَقُنْدة، وخلصتْ له القلوبُ والأنفس. وعاد الصُّمَيْلُ بن حاتِم قائدُه الأعلى، وقِدْحُه الـمُعَلَّى، يقرِّب منه ما شاءَه، ويدفعُ عنه ما ساءَه، إلى أن تمكَّن بالدولة، وتملَّك رِقابَ تلك الـجُملة. فشَرِقَ به يوسفُ وقَلِقَ، وخشِيَ من جانبه وأرِق، فرأى أن يُبعِدَه من مكانه، ويولِّيه بعضَ سلطانه، فولَّاه سَرَقُسْطة وبلادَها سنة اثنتين وثلاثين ومئة؛ فكان فيها إلى أن قام عليه فيها الـحُبابُ بن رَواحة من بني زُهْرةَ بن كِلاب، فحاصَرَه مُدَّةً من سبعة أشهر. وقعد يوسفُ عن إغاثتِه، واعتذر بشدَّةِ الأندلسِ في ذلك الوقت ومَجاعتِه؛ رغبةً في تلافِه وهلاكِه، وحِرْصًا على الراحة منه لاستحواذه واستملاكِه، إلى أن اجتمع قومُه بإلْبيرة وجَيَّان، وساروا إلى نُصْرته، وتفريج كُرْبته[2].

وقيل: إنَّ الذي قامَ على يوسفَ بسَرَقُسْطَة تميمُ بن مَعْبَدٍ الزُّهْريُّ وعامِرٌ العَبْدَريُّ. فغزاها يوسفُ في سنة ثمان وثلاثين ومئة؛ فكان عليها، إلى أن دخل عبدُ الرحمن الداخِل إلى الأندلس[3].

وفي سنة ثلاثين ومئة: كانت وقعةُ شَقُنْدة، واجتُمع على يوسف. وكان يومَ ولايته ابنَ خمسٍ وسبعين سنة، ومَلَك تِسْعَ سنين. وكان قبل ولايته مُعْتَزِلًا في بادية، من أهل الدِّيانة والإظهار للخير[4].

وفي سنة إحدى وثلاثين ومئة: أمْحَلت الأندَلُس، وعمَّ المحْلُ، وتمادى إلى سنة ست[5] وثلاثين ومئة. وذلك سنةُ مَحْلٍ وسنةُ غَيْث. واتَّصل المحلُ الشديدُ سنةً أو اثنتين، ثمَّ سُقِيَ الناس سنة ثلاث وثلاثين، وعادت إلى بعض الصَّلاح.

---

(١) «رضًا من» ليست في أ.

(٢) ينظر كامل ابن الأثير ٥/ ٤٦٢.

(٣) ينظر الكامل أيضًا ٥/ ٤٩٢-٤٩٣.

(٤) في ر٢: «من أهل الديانة والخير».

(٥) في ر٢: «ثلاث»، وما هنا من أ، وهو الذي في كامل ابن الأثير ٥/ ٤٩٢.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومئة: ثار أهلُ جِلِّيقِيَّة، وتردَّدت الغاراتُ عليها. ثمَّ استحكم الجوعُ والقحط في سنة أربع وثلاثين وسنة خمسٍ وبعضِ سنة ست وثلاثين ومئة، فخَرج أكثرُ الناس إلى طَنْجة وزَويلة وريفِ البحر في العُدْوة، وكانت إجازتُهم من وادي شَذُونة، وهو المعروفُ بوادي بَرْباط، وبه سُمِّيت السنة[1].

تسميةُ من ثار على يوسف بن عبد الرحمن الفِهْريّ بالأنْدَلُس[2]

منهم: عبدُ الرحمن بن عَلْقَمة اللَّخْميُّ، ثار عليه بأرْبُونة، فحارَبَه، ولم يمكث في حربه إلَّا يسيرًا حتَّى أمكنه اللهُ منه. وثار عليه عُرْوةُ ببَاجة، فوجَّه إليه يوسفُ مَنْ هزمه وقَتَلَ أصحابَه. وثار عليه تَـمِيمُ بن مَعْبَد سنة ست وثلاثين ومئة.

وفي سنة سبع وثلاثين ومئة: اجتمع تَـمِيمُ بن مَعْبَد وعامِرُ[3] بن عمرو بن وَهْب بسَرَقُسْطة، فتولَّى محاربتَهما الصُّمَيْلُ بن حاتِم.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئة: خرج يوسفُ بنفسه إلى تَـمِيم بن مَعْبَد وعامِر بن عمروٍ بسَرَقُسْطة، فحاصَرَهما، ثمَّ ظفر بهما وقَتَلَهما. وفي هذه السنة: انقَضَتْ أيَّامُ يوسفَ بنِ عبد الرحمن الفهْريّ[4].

جامِعُ أخبار بني أُميَّة بالـمَشْرِق

وذلك أنَّ جميع خُلَفائهم من لَدُن مُعاويةَ إلى آخِرهم أربعةَ عشر رجلًا. وكانت مُدَّةُ دولتهم، منذ خَلُص الأمرُ إلى مُعاويةَ إلى أن قُتِل مروانُ بن محمَّد، إحْدَى وتسعين سنةً وتسعةَ أشهر وخمسةَ أيَّام، منها أيَّامُ ابن الزُّبَيْر تسعُ سنين واثنان وعشرون يومًا. ثمَّ تفرَّقت بنو أُمية في البلاد هربًا بأنفسهم. وهرب عبدُ الرحمن بن مُعاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، فبايعه أهلُها، وتجدَّدت لهم بها دولةٌ

---

(١) «وبه سميت السنة» ليست في ر٢.

(٢) جاء العنوان في ر٢ كما يأتي: «تسمية من ثار على الفهري».

(٣) انظر الحلة السيراء ٢/ ٣٤٤.

(٤) الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٧٦.

استمرَّت إلى بعد الأربع والعشرين والأربع مئة. والناسُ يَعتقدون أنَّ دولتَهم كانت انقطعت من حينِ قَتْل مروانَ إلى أنْ جدَّدها عبدُ الرحمن الداخل سنة ست وثلاثين أو نحوها، وقيل: إنَّما كانت متَّصلةً، لم تنقطِعْ من زمن عُثْمان رضي الله عنه، إلى زمن الـمُعْتَدِّ بالله بقُرْطُبة آخِرِ خُلَفائهم سنة أربع وعشرين وأربع مئة. وهذا القول يَنْبَني على ما قاله بعضُهم: إنَّ عَهْدَ عبدِ الرحمن بن حبيب صاحبِ إفريقية من قِبَل بني أُميَّة وصل إلى يوسفَ بن عبد الرحمن الفِهْريِّ المتغلِّب على الأندلُس، الذي دخل عبدُ الرحمن بن مُعاوية وهو أميرُها. فتأمَّلْ هذا، فإنَّه، إنْ صَحَّ، نُكْتَةٌ غَريبة[1]، وفائدةٌ عجيبة.

قال أبو محمَّد بن حَزْم: وانقطعت دولةُ بني مروانَ بالمشرق بمروانَ بن محمَّد الجَعْديّ[2]. وكانت، على علَّاتها، دولةً عربيَّةً، لم يتَّخِذْ ملوكُها قاعدةً لأنفسهم، إنَّما كان سُكْنى كلِّ أمير[3] منهم في داره وضَيْعته اللَّتَيْنِ كانَتَا له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجانَ الأموال، ولا بناءَ القصور، ولا طلبوا مُخاطبةَ الناس لهم بالتَّمْويل والعبوديَّة والـمُلْك[4]، ولا تقبيلَ أرضٍ، ولا يدٍ، ولا رِجْلٍ، إنَّما كان غَرَضُهم الطاعةَ الصحيحة والتولِيَة والعَزْل في أقاصي بلاد الدنيا، فكانوا يَعزِلون العُمَّال، ويوَلُّونَ الأُخَر في السِّنْد والهند[5]، وفي خُراسان، وفي أرمينيَّة، وفي العراق، وفي اليَمن، وفي المغرب الأدنى والأقصى وبلاد السُّوس وبلاد الأندلُس، فملك بنو أُميَّة الأندلسَ، وهم افتتحوها[6]، وبعثوا إليها الجيوش، وولَّوا عليها مَنِ ارتضَوْا من العُمَّال، وملكوا أكثرَ الدنيا، فلم يملك أحدٌ من ملوك الدنيا[7] ما مَلَكوه من الأرض، إلى أن تغلَّب عليهم

(١) ليست في أ.

(٢) كذلك.

(٣) في ر٢: «امرئ».

(٤) ليست في أ.

(٥) في ر٢: «والصين».

(٦) قوله: «فملك بنو أمية الأندلس وهم افتتحوها» من ر٢.

(٧) في ر٢: «الإسلام».

بنو العبَّاس بالمشرق، وانقطع بها مُلْكُهم. فسار منهم عبدُ الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، ومَلَكها هو وبنوه، وقامت بها دولةُ بني أُميَّة نحو الثلاث مئة سنة. فلم يَكُ في دُوَل الإسلام أنبلُ منها، ولا أكثرُ نصرًا على أهل الشرك، ولا أجمعُ لخلال الخير، وبهَدْمِها انهدمت الأندلُسُ إلى الآن، وذهب بهاء الدنيا بذهابها.

قال أبو محمَّد: وانتقل الأمرُ بالمشرقِ إلى بني العبَّاس، فكانت دولتُهم أعْجَمِيَّةً: سقطتْ فيها دواوينُ العَرَب، وغلب عَجَمُ خُراسان على الأمر، وعاد الأمْرُ مُلْكاً عَضُوضًا كِسْرَويًّا، إلَّا أنَّهم لم يُعلنوا بسَبِّ أحد من الصحابة رضي الله عنهم، بخلاف[١] ما كانوا عليه بنو أُميَّة من استعمال ذلك في جانب عليّ رضي الله عنه، وكفاهم ذلك قبحًا وباطلًا، حاشا عمرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه، ويزيدَ بن الوليد، فإنَّهما لم يَستجيزا[٢] ذلك.

وافترقت في دولة بني العبَّاس كلمةُ المسلمين، فتغلَّبت في البلاد طوائفُ من الخَوارِج وشِيعةٍ ومُعْتَزِلةٍ، ومن ولدِ إدريسَ وسليمان ابنَيْ عبدِ الله بن الحَسن بن الحَسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ومنهم من بني أُميَّة تغلَّبوا على الأندلس، وكثيرٌ من غيرهم. وفي خلال هذه الأُمور من اختلاف الكلمة، تغلَّب الكفَّارُ على نحوِ نصف الأندلس، وعلى نحو نصف السِّنْد، فأمَّا ما لم يملكه العبَّاسيُّون[٣]، فهو ما وراء الزاب من بلاد المغرب وتِـلِمْسان وأنظارها، فوَلِيَها محمَّدُ بن سليمان الحَسَنيُّ، وفاسَ وأنظارها، كان فيها شيعةٌ، ثمَّ آل مُلْكُها إلى إدريس. وأمَّا تامَسْنا، ففيها أولادُ صالحِ بن طَرِيف على ضلالتهم. وأمَّا سِجِلْماسَة، فنزلها رئيسُ الصُّفْرِيَّة. هذه هي البلاد المتَّفق عليها، وأمَّا المختلَف فيها: فإفريقية، قيل: إنَّه كان فيها عبدُ الرحمن بن حبيب ثائرًا، وفي الأندلس يوسفُ بن عبد الرحمن الفِهْريُّ.

---

(١) من هنا إلى قوله: «باطلًا» جاء بدله في ر٢: «كما فعل بنو أمية في علي».

(٢) في أ، م: «يستجيزوا».

(٣) في ر٢: «بنو العباس».

ذِكْر دُخول عبد الرحمن بن مُعاوية بن هشام إلى الأندلس وهرُوبه من الشام[1]

قال الرازيُّ[2]: وفي سنة ست وثلاثين ومئة: ابتدأ عبدُ الرحمن بن معاوية بمُداخلة مَوَاليه من الأَمَوِيِّين بالأندلس.

وفي هذه السنة: تفرَّق ولدُ معاوية، وولدُ هشام، وكلُّ مَن فيه بقيَّةٌ من ولد مروانَ وأُميَّة. فخرج عبدُ الرحمن بن معاوية مختفيًا من موضعٍ إلى موضع، وهَـمُّهُ الأندلس؛ لِـما كان في نفسه من أمْرِها ومن الأثر الـمرْوِيّ عنه فيها. فوصل إلى مِصْر، ثمَّ سار منها إلى بَرْقة، فبقيَ فيها مستَتِرًا مدَّةً. ثمَّ رحل عنها، فأوغل في المغْرِب. قال بَدْرٌ مَوْلاه: فأدْرَكْتُه في الطريق، وجَّهَتْني إليه أُمُّ الأَصبغ شقيقتُه بدنانير[3] وشيء من الجوهر يستعينُ بها على النفقة والوصول، فوصل إلى إفريقية، وصاحبُها عبدُ الرحمن بن حَبِيب، ومعه يهوديٌّ قد خدم مَسْلَمَةَ بن عبد الملك، وسمعه يُحَدِّث بخبر القُرَشيّ الذي يكون من بني أُميَّةَ يتغلَّب على الأندلس، اسمه عبدُ الرحمن، ذو ضفيرتَيْن، فنظر إلى عبد الرحمن، فوجده بضفيرتَيْن، فقال لليهوديّ: وَيْحَك! هذا هو المذكور، وأنا قاتِلُه. فقال له اليهوديُّ: إن يَكُ ذلك، لم تَقْتُلْه! ثمَّ صار ابنُ حبيب يقتل الواصلين[4] إليه من بني أُميَّة، ويأْخُذ أموالهم. فهرب عبدُ الرحمن عن القَيْرَوان، ونجا يريدُ الأندلس، ويُشغل نفْسَه بها؛ لِـما كان عنده من الروايات في علم الحدْثان من قِبَل مَسْلَمةَ بن عبد الملك أخي جدِّه وغيره. فسار حتَّى أتى تَادلَا[5] من قبائل المغرب، فنالَه عندهم تضييقٌ وأخبارٌ يطول ذكرُها. ثمَّ هرب من عندهم حتَّى أتى نَفْزة، وهُمْ أخوالُه، فإنَّ أُمَّه كانت من سَبْيِهم[6]. قال بدر: فجُزْتُ إلى الأندلس، واجتمعتُ بعُبَيْد الله بن عثمان

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٨٩، والمعجب ٤٠.

(٢) في أ: «الرواة».

(٣) في أ: «بدينارين».

(٤) في ر٢: «الداخلين».

(٥) في أ: «بلادًا»، وهو تحريف.

(٦) ينظر الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٤.

بساحل إلْبِيرة، في آخر سنة ست وثلاثين ومئة، ثمَّ انصرفتُ في سنة سبعٍ بعدها، وأقمتُ عنده مدَّةً، ثمَّ كررتُ مُنصَرِفًا إلى الأندلس في مَوالي عبد الرحمن.

حدَّث عبدُ الرحمن، قال: دخلتُ الأندلس، وأنا أضْبطُ جليَّةَ مَسْلَمةَ بنِ عبد الملك، فإنَّه أتى جدِّي هشامًا يومًا، فوجدني عنده صبيًّا، فأمر جدِّي بتَنْحِيَتي عنه، فقال له مسْلَمة: دَعْهُ يا أمير المؤمنين، فإنَّه صاحبُ بني أُميَّة ومُحْيي دولتهم بعد زوالها، فلم أزَلْ أعْرِفُ لي مَزِيَّةً من جَدِّي بَعْدُ.

قال الرازيُّ: وفي سنة سبع وثلاثين ومئة: ثار الحَبْحَابُ بن رَوَاحة بجهة سَرَقُسْطة، وتظافر معه على ذلك عامِرُ بن عَمْرو العَبْدَريُّ من بني عبد الدار بن قُصَيّ، وكان قد هرب من قُرْطُبَةَ خوفًا من يوسف، وكان عامرٌ هذا أحدَ رجال مُضَر، وقد فشا بالأندلس نجدةً وشرفًا وعلمًا وأدبًا، وكان يَلي المغازيَ بالصوائف من قِبَل يوسفَ الفِهْريّ، وكان سلطانُ الفِهْريِّ يومئذٍ قد ضعُف لأجل الـمَحْل المتوالي بالأندلس. وكان الصُّمَيْلُ قد لزم الثَّغْر في تلك الأعوام؛ لأنَّه كان أشْبَهَ من غيره في الخِصْب، فلما خاف عامرٌ هذا على نفسه من الفِهْريّ والصُّمَيْل، خرج فارًّا بنفسه، وقصد الحَبْحَابَ بن رَوَاحة، واستجاشا، فأجابهما رجالٌ من اليمانيَّة وناسٌ من البَرْبَر، فحَصَرا الصُّمَيْلَ بسَرَقُسْطةَ حصارًا شديدًا، حتَّى يَئِسَ من الحياة، وهمَّ بالإلقاءِ بيده، وكتب إلى يوسفَ يسألُه الإمداد، فلم يجِدْ في الناس مُنْهِضًا.

فلمَّا أبطأ عليه مَدَدُ يوسف، واشتدَّ الحصار، كتب إلى قومه من جُنْد قِنَّسْرين ودِمَشْق، يعظِّم عليهم الخَطْب، ويُناشدهم الرَّحِم، فقام له بذلك عُبَيْدُ بن علي الكِلابيُّ، وأكثرُ كِلابَ وهَوَازِنَ وغَطَفان والأزْدِ تُقَدِّم رِجْلًا وتؤَخِّر أُخرى، ولم يكن لهم رأسٌ يجمعهم. فلمّا نهض عُبَيْدُ بنِ عليّ ومضى داعيًا في الجُنْدَيْن إلى نَصْر الصُّمَيْل، تحرَّكت جماعةُ كِلابَ ومُحارِب، إلَّا كعْبَ بن عامِر وعُقَيْلَ وقُشَيْر والحَرِيش، فإنَّهم كانوا مُنافسين لبني كِلاب؛ لأنَّ الرِّياسةَ يومئذٍ بالأندلس كانت فيهم؛ وكان بَلْجٌ قُشَيْريًّا، فضَمَّهم الصُّمَيْل.

ولم يجتمع من هذه القبائل إلَّا نحو أربع مئة فارس، فاستقلُّوا أنفسَهم، ثمَّ صَمَّموا، وخفَّ معهم يومئذٍ قومٌ من بني أُميَّة في نحو ثلاثين فارسًا، وخرج معهم

أبو عثمان عُبيدُ الله بن عثمان مولاهم، وخرج أيضًا معهم عبدُ الله بن خالد بن أبان بن أسْلَم، مولى عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه؛ وكان عبدُ الله وعُبيد الله يتوالَيانِ حَمْل لواءِ بني أُميَّة بالأندلس بَعْدُ، ويتعاقَبان في ذلك، وكان لهما ولبني أُميَّة في هذا المجتمع يومئذٍ بلاءٌ معروفٌ مشهورٌ، وإنَّما أرادا أن يُقدِّما بذلك يدًا عند الصُّمَيْل؛ لما كانا بَنَيَا عليه من اطّلاعه على أمرِ عبدِ الرحمن بن معاوية، وكانا واثقَيْن بالصُّمَيْل، وأنَّه، إن لم يُجِبْهما، كَتَمَ عليهما، وكذلك فعل، فإنَّه كتم عليهما كِتْمانًا عجيبًا. فكان هذا مما[1] دعاهم إلى إمداد الصُّمَيْل واستنقاذه لاعتداد اليدِ عليه، فخرجوا، ورأَسُوا على أنفسهم ابنَ شِهاب استئلافًا له، ومشى الجميعُ. فلمّا بلغوا وادي طُلَيْطُلة، بلغهم أنَّ الحصار اشتدَّ وأضرَّ بالصُّمَيْل، وأنَّهُ على الهلكة، فقدَّموا رسولًا من قِبَلهم، وقالوا له: ادخُلْ في جُملة المحاربين للسُّور، فإذا قربتَ منه، ارْمِ بهذه الأحجار، وفي كلِّ واحد منها بَيْتان، وهما [من الوافر]:

أَلَا ابْشِرْ بالسَّلامةِ يا جِدَارُ ... أتاكَ الغَوْثُ وانْقَطَعَ الحِصارُ
أَتَتْكَ بَنَاتُ أعْوَجَ مُلْجَمَاتٍ ... عليها الأكْرَمُونَ وهُمْ نِزارُ

ففعل الرسولُ ذلك، فلمّا وقعت الحجارة، أُتِيَ بها الصُّمَيْل أو ببعضها، فقرئَتْ عليه، وكان أُمِّيًا، فلمّا سمع ما فيها، قال: أبْشِروا يا قوم! فقد جاءَكم الغوث، ورَبِّ الكَعْبة. ومضى القومُ يَستجيشون كلَّ مَن استجاب لهم، ومعهم الأَمويُّون، وفي جملتهم بَدْرٌ رَسولُ ابن مُعاوية. وكان عبدُ الرحمن قد بعث إليهم خاتَمَه ليكتبوا به عنه إلى كلِّ مَن رجَوْا نَصْرَه، فكتبوا عنه للصُّمَيْل، يذكرون له أيادِيَ بني أُميَّة عنده، ويَعِدُه، ويمَنِّيه. فلمّا سمع العَبْدريُّ والعُذْريُّ بالمَدَد الواصل إليه، ارتفعوا عنه، وانكشف وَجْهُ الصُّمَيْل، فخرج، وتلقَّى القوم، ووصَلَهم على أقدارهم، وكساهم، وقَفَلَ معهم بماله وحَشَمه. فلمّا زال الصُّمَيْلُ عن سَرَقسطة، دخلها الحَبْحابُ ومَلَكَها.

ثمَّ أطلع الأَمويُّون الصُّمَيْلَ على قصَّة ابن مُعاوية، وعرضوا عليه بَدْرًا رسولَه، فأحسن إليه وقال لهم: أُرَوِّى في أمْره. وأقبل قافلًا حتَّى دخل قُرْطُبة. وانصرف الأَمويُّون

---

(١) في ر٢: «هو الذي».

إلى منازلهم، وبَدْرٌ معهم. وقد كان الصُّمَيْلُ اتَّفق مع الأَمويِّين على نُصْرة ابن مُعاوية، وأن يزوِّجه من ابنته، ثمَّ رجع في قوله، وقال: تأمَّلْتُ الأمر، فوجدتُه صَعْبَ المرام، فبارَكَ الله لكما في رأْيكما ومَوْلاكما، فإنْ أحبَّ غيرَ السلطان، فله عندي أن يؤاسِيَهُ يوسفُ، ويزوِّجَه ويَحْبُوَه، انطَلِقا راشدَيْن. فانقطع رجاؤُهم يومئذٍ من رَبِيعةَ ومُضَر، ورجعوا إلى اليَمَن. قال بَدْر: فلم نَمُرَّ بيَمَنِيٍّ إلَّا دَعَوْناه، فوجدْنا قومًا قد وغَرَتْ صدورُهم، يتمنَّوْن سبيلًا لطلب ثأْرهم، ثمَّ رجعْنا إلى جُنْدنا، فابتعْنا مَركبًا، ووجَّهْنا فيه أحد عَشَر رَجلًا مع بَدْر. قال: ومضى يوسفُ حتَّى أتى طُلَيْطُلة، وأمضى بعثَيْن إلى جِلِّيقِيَّة والبَشْكُنِش، وأراد القفول إلى قُرْطُبة، فلم يبعد حتَّى أدركهُ الرسولُ بهزيمة الجيش وقَتْل عامَّته. فبَيْنا هو ينظرُ في ذلك، إذ أتاه رجلٌ من عند ولده من قُرْطُبة، يُعلمه أنَّ فتًى من قُرَيْش، من وَلَد هشام بن عبد الملك، نزل بساحل الـمُنكَّب، واجتمع إليه موالي القوم والأَمويَّة، فانتشر الخبر في العسكر، وشَمِت به الناسُ لِـمَا فعل بالقُرَشيّين، فانفضَّ الناسُ من العسكر، وتنادَوْا بمَشاعِرهم، وتقدَّموا إلى كُوَرهم. فأصبح يوسفُ، وليس في عسكره غير قَيْس والصُّمَيْل، فقال للصُّمَيْل: ما الرأي؟ قال: بادِرْهُ الساعةَ، قبل أن يستعجل أمره. فساروا إلى قُرْطُبة، فكلَّما رجَوْا أن يجتمع لهم بمَنْ يخرجون لاستئصال شوكة ابنِ معاوية، لم يَتَّجِه لهم عَمَلٌ.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئة: دخل عبدُ الرحمن بن معاوية الأندلسَ في غُرَّة ربيع الأوَّل، وهو أبو الملوك. وكان خروجُه من المركب بموضع يُعرف بالـمُنكَّب، ثمَّ نزل بقَرْية طُرُّش[1] من كُورة إلْبِيرة. فأقبل إليه جماعةٌ من الأَمويِّين وقد أُعِدَّ للأَمير ما يصلحه من المركَب والمنزِل والملْبَس. فغلُظ أمرُ ابن معاوية[2]، وأقبل الناسُ من كلِّ مكان إليه. فكتب يوسفُ الفِهْريُّ إلى جماعة الأمويِّين، يحذِّرهم ويخوِّفهم، فقالوا له: إنَّما أقبل ابنُ معاوية إلينا وإلى جماعة مَواليه، يُريد المال، ليس فيما يظنُّ الأميرُ، أصلحه الله، ولا فيما رُفع إليه. واعتذروا له بما أمكنهم. وأقبل وجوهُ الناس إلى ابن معاوية، وقالوا له: خفْنا مَكْرَ الصُّمَيْل، ولم نأمن غائلتَه، فعرَّفنا الفِهْريُّ بكذا وكذا. وكان ابنُ معاوية يَبِيتُ في الجِبال.

(١) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٢٩.

(٢) في ر٢: «فغلظ أمره».

ومضى يوسفُ بن بُخْت[1] إلى جُنْد الأُرْدُنّ، فأخذ بيعةَ جميعهم، ومضى عبدُ الله بن خالد إلى جُنْد حِمْص، ومضى تَمَّامُ بن عَلْقَمة[2] إلى أهل[3] فِلَسْطِين، وأقبل الناس من كلِّ مكان. فلمّا ضاقت الأحوالُ بالفِهْريّ، ولم يأْتِهِ من الأجناد إلّا اليسير، أدار له الصُّمَيْلُ الرأْيَ، وأمَرَه بالمكر بابن معاويةَ والمخادعةِ له، ورجا ذلك منه لحداثة سنِّه، وقال له: هو قريبُ عَهْدٍ بزوال النعمة، فهو يغتنمُ ما تَدْعوه إليه، ثمَّ أنت بعد ذلك متَحَكِّمٌ فيه وفي الذين سَعَوْا له بما تُحِبُّ. فأجمع رأْيه على تأْنيسه بأَن يزوِّجه ابنته، ويسكنه في أيِّ الجندَيْن شاءَ، من دِمَشْق أو الأُرْدُنّ، أو يسكن بينهما، ويصير إليه أمْرُ الكورَتَيْن. وبَعَثَ إليه بكسوتَيْن ومَطِيَّتَيْن وخمس مئة دينار، ووجَّه إليه كاتِبَه خالدَ بن يزيد، وقال له: اعرفْ أمْرَه وأيَّ جُنْد عنده، وتأَمَّلْ أخبارَه وأخبار مَن معه. فخرج في الليل مع أصحابه، وأصبحوا على ابنِ معاوية بالمال والكسوتين[4] والمطِيَّتَيْن. ووجَّه أيضًا إلى بَدْر فرسًا ومئة دينار وكسوة. فقبل ابنُ معاوية الهديّة، وكَرِهَ التزويج، فتكلَّم خالدٌ بكلام غليظ لابن معاوية؛ إذ أبى التزويج، فأمر به، فضُمَّ إلى وَثاق، ورُدَّ غيرُه إلى يوسف، ولم يَرُدَّ عليه جوابًا.

وكان يوسفُ قد كتب إلى ابن معاوية كتابًا، وهذه بعضُ فصول منه[5]:

أمَّا بعد، فقد انتهى إلينا نزولُك بساحل المُنكَّب، وتأَبُّش مَن تأَبَّش إليك ونزع نحوَك من السُّرَّاق وأهل الخَتْر والغَدْر ونَقْض الأيمان المؤَكَّدة، التي كذبوا اللهَ فيها وكذبونا، وبه، جلَّ وعلا، نَسْتَعِينُ عليهم، ولقد كانوا معنا في ذَرَى كَنَفٍ ورفاهيَّة عَيش، حتَّى غمصوا ذلك، واستبدلوا بالأمْن خوفًا، وجنحوا إلى النَّقْض، واللهُ من ورائهم محيطٌ. فإن كُنْتَ تريد المالَ وسَعَةَ الجَناب، فأنا أَولى لك ممَّن لجأْتَ إليه، أكْنُفُكَ،

---

(١) ليوسف بن بخت هذا ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٢٠٨، ونفح الطيب ٣/ ٤٥.

(٢) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٢٠٣، ونفح الطيب ٣/ ٤٥.

(٣) في ر٢: «جند».

(٤) في أ، م: «الكسوة».

(٥) في ر٢: «وهذه بعض فصول من الكتاب الذي كتب يوسف الفهري إلى ابن معاوية».

وأصِلُ رَحِـمَك، وأُنْزلك معي إن أردتَ وبحيثُ تريد، ثمَّ لك عهدُ الله وذِمَّتُه في ألَّا أغْدِر بك، ولا أُمَكِّن منك ابن عَمِّي صاحب إفريقية ولا غيرَه. في كلامٍ كثير.

قال ابنُ عيسى: فحدَّثني تَـمَّـام بن عَلْقَمة أنَّ عبد الرحمن، لـمّا أتاه كتابُ الفِهْريّ بما فيه وبتزويجه ابنتَه، أشار عليه كلُّ مَن أتاه من العَرَب والأمويِّين ألَّا يقبل ذلك منه، إلَّا أن يعتزلَ له عن الـمُلْك ويُبايعَه، وإلَّا حاكَمه إلى الله، وقالوا له: إنَّمـا يمكر بك، ولا يَفِي لك بشيء؛ لأنَّ وزيرَه ومالِكَ أمره الصُّمَيْلُ، وهو غيرُ مأمونٍ.

قال: فلمّا انكشف أمْرُنا عنده بما أظْهَرْنا من الإباية وبحَبْس كاتِبه خالدِ بن يزيد، رأينا أن نَشْهَر أمْرَنا، فخرَجْنا إلى جِدَار بن عَمْرو وَالي جُنْد الأُرْدُنّ، واجتمَعْنا إليه، فأتيناه في ثلاث مئة فارس من جماعة الأمويِّين، وممَّن أقبل إليه من وجوه العَرَب. ثمَّ كاتَبْنا أهْلَ قِنَّسْرين وفِلَسْطين. فلما أقبلتْ إلينا رُسُلُهم بما أرَدْنا، نَهَضْنا إليهم، وكُنَّا قد وطَّنَّا على الموت، وعَزَمْنا على أن نُقْتَلَ دونه، وعَقَدْنا له لواءً، وأقمنا معه ستَّةَ أشهر، نُبرم له أُموره، ونُكاتب له الناس. وكنَّا خرجْنا إليه في زيٍّ حَسَن عند خروجنا إليه بساحل البحر، ثمَّ انتقل من إلْبيرة إلى كُورة رَيُّه، إلى شَذُونة، إلى مَوْرُور، إلى كُورة إشبيلية، والناسُ يتلقَّونه بالبِشْر والترحيب، ويُعْطُونه من الانقياد والطاعة أوفى نصيب.

قال تَـمَّام: فدخلْنا رَيُّه في ست مئة فارس، وخرجْنا منها في ألفي فارس، وخرجنا من إشبيلية إلى قُرْطبة في ثلاثة آلاف فارس. فلمّا اجتمعتْ لنا الجموع، وبَلَغَنا ما يريد الفِهْريُّ من الخروج إلينا، كتَب الأميرُ عبد الرحمن الكتائب، وعبَّأ الأجنادَ، وخَرج إليه، ودعا برَجل من الأنصار، فعقد لواءَه، وارتحل في جنوده، حتَّى احتلَّ بقَريةٍ على نهر قُرْطُبة يوم الاثنين لِستٍّ خَلَوْنَ من ذي الحجَّة.

وخرج الفِهْريُّ إلى الـمُصَارَة، وأقاما ثلاثةَ أيَّام متناظرَيْن، والنهرُ حاجزٌ بينهما بحمله، ثمَّ أصبح النهرُ يومَ الخميس، وقد حُسِرَ ماؤُه فعبَّأَ الأميرُ عبدُ الرحمن كتائبَه، وتهيَّأ للحرب، فقدَّم على قبائل العرب أحدًا من[1] قوّاده، وعلى البَرْبَر كذلك، وهو[2]

(١) قوله: «أحدًا من» ليس في ر٢.

(٢) «كذلك وهو» ليست في ر٢.

إبراهيم[1] بن شَجَرة. وترجَّل حُـمـاةُ بني أُميَّة، فحفُّوا بالأمير، والأميرُ على فرسه متنكِّبًا قَوْسَه، فجاوز النهر، واقترب من الـمُصَارة، فتجاوز العسكران، وتقارب الـمُضْطَرَبان. وأقاما بقيَّةَ يومهما في سكون وهُدوء، والرسلُ تختلفُ من قِبَل يوسف، يرجو عَقْدَ الصُّلح. فلمّا أصبح يوم الجمعة، التقى الجَمْعان، واستحرَّت الحربُ والقتال، فمشى العَلاءُ بن جابر العُقَيْليُّ إلى الصُّمَيْل، فقال له: يا أبا جَوْشَن اتَّقِ الله! فوالله ما أُشَبِّهُ هذا اليوم إلَّا بيوم الـمَرْج، وإنَّ عارَه لباقٍ علينا إلى اليوم، فإنَّ الأُمور يُهْتَدَى لها بالأقران[2] والأمثال: أُمَويٌّ وفِهْريٌّ، وقَيْسٌ واليَمَنُ! وهذا يومُ عِيد، ويوم جمعة، ويومُ الـمَرْج أيضًا يومُ جمعة، والأمرُ والله علينـا، لا شكَّ في ذلك، فاتَّقِ الله، واغتنمْ لنا الأمرَ؛ لنكونَ فيه أعِزَّاءَ لا أتباعًا، وكان العَـلاءُ هذا من وجوه قَيْس. ثمَّ انهزم الفِهْريُّ وأصحابُه، واستقبل القصر[3]، فاعترض له عبدُ الأعْلَى بن عَوْسَجة، وحال بينه وبين دخوله، وردَّه عنه، فولَّى منهزمًا إلى سفح جَبَل قُرْطُبة. واستولى الأميرُ عبدُ الرحمن يومَه ذلك على الـمُلْك، وتـمَّت له بَيْعةُ العامّة بقُرْطُبة. وتمادى يوسفُ الفِهْرِيُّ في الفِرار إلى إلْبيرة[4].

خلافة عبد الرَّحمن بن مُعَاوية بن هشام بن عبد الملك

نَسَبُه: عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أُمَيَّة بن عبد شمس[5].

كُنْيَتُه: أبو الـمُطَرِّف.

أُمُّهُ: بَرْبَرِيَّةٌ من سَبْيِ الـمَغْرب، تُسَمَّى رَاحا أو رَدَاحا. وفي عبد شَمْس بن عبد مَنَاف يلتقي نسبُه بنسب رسول الله ﷺ.

---

(١) تنظر عنه التكملة الأبارية ١/ ٢٣٩.

(٢) في ر٢: «بالأشباه».

(٣) في ر٢: «قصر قرطبة».

(٤) تنظر الحلة السيراء ٢/ ٣٤٨-٣٥٠.

(٥) من ر٢.

مَوْلِدُه: بموضع يُعرف بدَيْر حسينة[1] من دِمَشْقَ سنة ثلاث عشرة ومئة؛ مات أبوه وتركه صغيرَ السِّنِّ. وتُوُفِّي يوم الثلاثاء لستٍّ بَقِينَ من ربيع الآخر، وقيل: لعشرٍ خَلَوْنَ من جُـمادى الأولى سنة اثنتين وسبع مئة، ودُفن بقصر قرطُبة وقد بلغ تسعًا وخمسين سنة، وقيل: سِتّين سنة؛ فكانت مدَّةُ[2] خلافته ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعةَ أشهر ونصفًا، ودخل الأندلُسَ وهو ابنُ خمس وعشرين سنة أو نحوها.

بويع له بقُرْطُبَةَ يوم الأضحى من سنة ثمان وثلاثين ومئة.

وُزَراؤُه أربعةٌ: عبدُ الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بن بُخْت، وحَسَّانُ بن مالك.

حُجَّابُه خمسة: تَـمَّامُ بن عَلْقَمة، ويوسف بن بُخْت، وعبدُ الكريم بن مَهْران، وعبدُ الحميد بن مُغِيث، ومنصورٌ فَتاه[3].

قُضاتُه خمسةٌ: يحيى[4] بن يزيد التُّجِيبيُّ، ومعاوية[5] بن صالح، وعبد[6] الرحمن بن طَرِيف، وعمر[7] بن شَراحِيل، والـمُصْعَب بن عِمْران[8]. وكان له قاضٍ خامسٌ في صَوائفه يُسمَّى جِدَارَ بن مَسْلَمة بن عَمْرو الـمَذْحِجيَّ.

نَقْشُ خاتَـمه: عبدُ الرحمن بقضاءِ الله راضٍ.

صِفَتُه: طويلُ القَدّ، أصْهَب أعْوَر، خفيفُ العارضَيْن، بوجهه خالٌ، له ضَفِيرتان. وكان يُسَمَّى صَقْرَ بني أُمَيَّة.

وَلَدُه: الذكور أحد عشر، والإناث تسعٌ.

---

(١) في ر٢: «حسنة».

(٢) «فكانت مدة» ليست في ر٢.

(٣) ينظر نفح الطيب ٣/ ٤٥.

(٤) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ٢٢١.

(٥) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٤٣.

(٦) القضاة لوكيع ٣/ ٢١٦.

(٧) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٦٨.

(٨) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢٠٦.

وفي سنة تسع وثلاثين ومئة: خرج الأميرُ عبد الرحمن طالبًا للفِهْريّ والصُّمَيْل. فلمّا اتَّصل بالفِهْرِيّ قَصْدُه إليه، لَاذَ عنه، وزال عن أغْرَناطَة، فاقتفى الأميرُ عبد الرحمن أثرَه، حتَّى إذا أوفى عليه، عاد إلى إغْرَنَاطَة متحصِّنًا بها، ونزل الأمير عبدُ الرحمن عليه وحاصره. فلمّا تمادى به الحصارُ، سألَ الفهريُّ الأمانَ، وأن يُعْطِيَ ابنَيْه رَهْنًا، فأعطاه الأميرُ الأمانَ، وقَبِلَ منه ذلك، وكذلك للصُّمَيْل[1]. وانصرفا في جُمْلته إلى قُرْطُبة، على أن يسكن الفِهْرِيُّ منزلَه بالمدينة، والصُّمَيْلُ دارَه بالرَّبَض. واستوسق الأمرُ للأميرِ عبدِ الرحمن، وأمر بلَعْن الـمُسَوِّدة وقَطْعِ الدعاءِ لأبي جعفر المنصور. ودخل يوسفُ الفِهْرِيُّ في عسكر الأمير عبد الرحمن كأحد رجاله، فأنزله على ماله، وأطلق له عيَالَه.

وفي هذه السنة: وُلد هشام بن عبد الرحمن الـمُلقَّبُ بالرِّضا؛ وذلك لأربعٍ خلون من شوَّالٍ.

وفي سنة أربعين ومئة: تودَّع[2] الأميرُ عبد الرحمن بقُرْطُبة، فلم تكن له فيها حركةٌ. ودخل رجالٌ من المشرق ومن بني أُميَّة في هذه السنة، فأنزلهم الأميرُ، وأكرمهم، وأحسن جوائزَهم.

وفي سنة إحدى وأربعين ومئة: هربَ الفِهْريُّ من قُرْطُبة، ناكثًا ناقضًا للأَيمان بعد توكيدها[3]، فاجتمع إليه الناس، وبلغ جَمْعُه عشرين ألفًا من البَرْبَر وغيرِهم. فلمّا رأى كثرةَ ما اجتمع له، تحرَّك من مَارِدة، يريد الأميرَ عبد الرحمن. فلمّا بلغ الأميرَ خَبرُه، برزَ من القصر، وتقدَّم إلى الـمُدَوَّر[4]. وكان عبدُ الملك بن عمر الـمروانيُّ[5] عاملًا بإشبيلية، وابنُه بكُورة مَوْرُور[6]، فحشدا مَن كان قِبَلَهما من أهل الكورَتَيْن، وتوافى الحَشْدان، فبرز به. واتَّصل بالفِهريّ خروجُ الأمير إلى الـمُدَوَّر وتوافي الحشود

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٥.

(٢) في ر٢: «استقر».

(٣) في ر٢ بدلًا من ذلك: «ناكصًا على عقبيه».

(٤) انظر عن المدور معجم البلدان ٥/ ٧٧.

(٥) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢١، ونفح الطيب ١/ ٣٢٩.

(٦) ينظر عنها الروض المعطار ٥٦٤.

على عبدِ الملك، فتوقَّع الفِهْريُّ التشبُّكَ بين العسكرَين، فصرف راياتِه إلى عبد الملك، فالتقيا، ووقعتْ بينهما حربٌ شديدةٌ، فانهزم يوسف، وتفرَّق أصحابُه عنه، وأُتْبِعوا بالقتل. واتَّصل الفتح[1] بعبد الرحمن، وهو بالـمُدَوَّر منتظرًا لتوافي الحشود، فأغناه عاجلُ الفتح، وفرَّ الفِهْريُّ بنَفْسه مختفيًا[2].

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئة: كان هلاكُ يوسفَ الفِهْريّ ومقتلُه بناحية طُلَيْطُلة، وكان قد نهض إليها، وتردَّد بناحيتها شهورًا، فاغتاله بعضُ أصحابه، وقتَلَه، واحتزَّ رأْسَه، وتقدَّم به إلى الأمير عبد الرحمن، فشكر اللهَ على موته، وأمر بنَصْب رأسه على جَسْر قُرْطُبة، وأمر بقَتْل ابنِه المرتهن، ونَصْبِ رأْسه مع رأْس أبيه[3].

وتُوفِّي الصُّمَيْلُ في الحَبس، وقيل: إنَّه خُنِقَ، وقيل: إنَّ الذي قتل الفِهْريَّ عبدُ الله بن عَمْرو الأنصاريُّ، لَقِيَه على أميال من طُلَيْطُلة، بقريةٍ من قُراها، فلمّا عرفه، قال لمن معه: هذا الفهريّ! وفي قَتْله الراحةُ له ومنه. فتقدَّم إليه، فقتله، واحتزَّ رأْسَه، وتقدَّم به إلى الأمير عبد الرحمن، فلمّا قَرُب من قُرْطُبة، وأُعلِم الأميرُ بخبره، أمر أن يتوقَّف به دون القَنْطرة، وأمر بقَتْل ابنِه الـمُرْتَهن، وأُخرج رأْسُه إلى رأْس أبيه، ووُضِعا في قَنَاتَيْن[4]، وتُقُدِّمَ بهما إلى باب القصر.

واختُلِف في أمر يوسف الفِهْريّ، فقال بعضهم: إنه لم ينكثْ بَغْيًا، وإنّما خوفًا، فخرج هاربًا، فأخرجَ الأميرُ الخيلَ في طلبه، فأدركته بفَحْص البَلُّوط، ثمَّ أفلت، وحشدَ ولدُه البَرْبَرَ بالشَّرْق كُلِّه، وأقبل في جمعٍ عظيم يريد قُرطبة، فخرجَ إليه الأمير، فالتقَوْا بـمَخَاضة الفَتْح، فكان القتال بينهم حتَّى كاد الأميرُ عبد الرحمن أن ينهزم، وقيل: إنَّه انهزم نَحْوَ الميل، فثبت ابنُه سُليمان في آخر الناس، ثمَّ تراجع الأميرُ حتَّى انهزم يوسف، ومَضَى في طلبه إلى قَلْعة رَبَاح.

---

(١) في ر٢: «الخبر».

(٢) ذكر ابن الأثير هذه الأحداث في سنة ١٤٠هـ (الكامل ٥/ ٤٩٨-٤٩٩).

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٩.

(٤) يعني: رمحين.

وقال بعضُهم: إنَّ يوسف، لـمّا هرب إلى طُلَيْطُلة، قبض الأميرُ عبد الرحمن على أبي الأسْوَد ابنه، فسَجَنه. وقام على يوسفَ مَوَالٍ له، فقتلوه، وأَتَوْا به إلى الأمير عبد الرحمن، فقال لهم: عرفتم من هو؟ قالوا: نَعم، هو يوسفُ الفِهْريّ، قال: أنتم لم تحفظوا مَوْلاكم، فكيف تحفظونني وتنتظمون في طاعتي؟ فأمر بضرب أعناقهم، وأمر بأبي الأسْوَد إلى السجن، وكان السجنُ يومئذٍ يَخرج الناسُ[1] منه إلى النهر؛ لِـمَا يكون من الحاجة مع الموكَّلين بهم، فادَّعى وَلَدُ الفِهْريّ العَمَى، وفشا له ذلك، فكان يقول: مَن يقود الأعمى؟ يرحمه الله! وكان يختلفُ إليه مولًى اسمه مُفَرِّج يقضي حوائجه ويلقاه على النهر تحت القَنْطرة. فلما اطْمُئِنَّ إليه، ولم يُسْتَنْكَر خروجه، وشاعَ عليه العَمَى، قال لـمُفَرِّج مولاه: ابْتَعْ لي فَرَسًا أَنْجُ عليه. ففعل وأعدَّهُ له، فهرب عليه، ولحق بطُلَيْطُلة. فغزاه الأميرُ عبد الرحمن ولقِيَه مِرارًا، فكان آخِر هزيمته إيَّاه[2] بقَسْطُلُونة[3]، ومضى إلى رُكَانة[4]، ولم يزل بها حتَّى مات. فقام القاسمُ بن يوسف، أخو أبي الأسود، فأعقب على زوجته، وتولَّى ما كان أبو الأسود يتولَّاه، فخرج إليه الأمير، فأجابه على أن يردَّ إليه أموالَه، ويستوثقَ منه بالعهود، ففعل الأميرُ ذلك، وانصرف معه إلى قُرْطُبة.

وثار على الأمير عبدِ الرحمن عبدُ الغافِر اليَمـانيُّ بإشبيلية، وتغلَّب على ما جاوَرَ قُرْطُبة، فخرج إليه الأمير، فخالفه عبدُ الغافر ونهض يريد قُرْطُبة؛ رجاءَ أن يَجِدَها خاليةً، والإمام عبدُ الرحمن في الثغر يسدُّ خَلَله، ويحسمُ عِلَله، فقدم مُسرعًا حين وافاه الخبَر، ولم يَلْوِ على ما تعذَّر، ومَـحلَّةُ عبدِ الغافر على وادي قَيْس[5] قد ملأت السهلَ والوَعْر. فداخل الإمامُ عبدُ الرحمن البربرَ، وكانوا العددَ الوافر الأكبر، فنزع

---

(١) في ر٢: «يخرجون».

(٢) في ر٢: «له».

(٣) انظر عنها آثار البلاد، مادة: «قسطلونة».

(٤) معجم البلدان ٣/ ٦٣، والضبط منه.

(٥) في ر٢: «يسّر».

الأكثرُ منهم إليه، وصاروا في حزبه ولَدَيْه. والتقيا فوقعت الهزيمةُ على عبد الغافر، وأَخذ مَن معه في الفرار والنفار[1]، فلم يرفع الإمامُ عنهم سيفًا، وقتل منهم ثلاثين ألفًا. وكانت هزيمة هي مدَّ الدهر[2] مذكورة، والحُفْرةُ التي جمعت رؤُوسهم بذلك المكان مشهورة.

ومن كتاب «بَهْجَة النَّفْس» قال: لـمّا كان في الليل، تسرَّع عبدُ الغافر إلى ناحية لَقَنْت[3]، وأسرع الأميرُ القتلَ في جُملته، ولم يذكر عَدَدًا.

وثار على الأمير عبدِ الرحمن حَيْوة بن مُلَامِس، وتغلَّب على إشبيلية وإسْتِجَة وأكثر الغَرْب، وحشد جُموعًا، فخرج إليه الأمير، وقاتَلَه أيَّامًا، حتَّى همَّ الأميرُ بالهزيمة. ثم إنَّ حَيْوة انهزم ومضى إلى ناحية فِرِّيش[4]، وكتب راغبًا في العفو.

وفي سنة ست وأربعين ومئة: ثار العلاءُ بن مُغيث الجُذاميُّ[5] ببَاجَة، ودعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور، ونشَر الأعلامَ السُّود[6]، فاتَّبعه الأجناد، وتطلَّعه[7] العباد، إلى أن كادت دولةُ الأمير أن تنصرم، وخلافتُه أن تنخرم، فخرج إليه من قُرْطُبة، وصار بقَرْمُونة، فتحصَّن بها مع مواليه وثقاتِ رجاله، فنازَلَه العلاءُ بن مُغِيث مُنازلةً شديدة، وحاصَرَه بها أيَّامًا عديدة، فلمّا طال الحصارُ هنالك، وتخلخل عسكرُ العلاء لذلك، وعَلِمَ عبدُ الرحمن ما هُمْ عليه من الانزعاج، وأنَّهم قد هَـمُّوا بالإلجام والإسراج، أمر بنارٍ، فأُوقِدَتْ، ثمَّ أمر بأغمدةِ سيوف أصحابه، فأُحْرِقَتْ، وقال لهم: اخرُجوا معي لهذه الجموع، خروجَ مَن لا يحدِّث نفسه بالرجوع. وكانوا نحوَ سبع مئة من ذكور

---

(١) في ر٢: «القاطع للدابر» بدلًا من: «والنفار».

(٢) في ر٢: «وكانت وقعة مدى الدهر».

(٣) انظر عنها معجم البلدان ٥/ ٢١.

(٤) معجم البلدان ٤/ ٢٥٩.

(٥) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ١٩٩، ونفح الطيب ١/ ٣٣٢.

(٦) قوله: «ونشر الأعلام السود» من ر٢.

(٧) في ر٢: «وتطلع إليه».

الرجال، ومشاهير الأبطال، فأخذوا معه سيوفهم بأيديهم، وخرجوا مُفْحِصِين إلى أعاديهم، فدارت الحربُ بينهم طويلًا، إلى أن صنع اللهُ جميلًا، وزلزل قَدَم[1] العلاءِ وأصحابه، فولَّوا منهزمين، وصار أمرُهم آيةً للعالَـمين، وقُتل العلاءُ فيمن قُتل من أولئك الأقوام، وطِيفَت برأسه في ذلك الـمَقام[2].

وقيل: إنَّ أبا جعفرٍ المنصور كان أرسل إلى العلاءِ بن مُغيث بولاية الأندلس، فنشر الأعلامَ السُّود، وقام بالدعوة العبَّاسيَّة بالأندلس، فانحشرَ إليه الناسُ. ولـمّا ظَفِرَ به الإمامُ على ما تقدَّم، أخذ رأسَه، وفُرِّغَ وحُشِيَ مِلْحًا وصَبِرًا، وجُعِلَ معه لواءُ أبي جعفر المنصور، وأُدخل في سَفَط، وبعثه مع رجال، وأمَرَهم أن يضعوا السَّفَط بمَكَّة، فوافقوا المنصورَ بها حاجًّا في تلك السنة، فجُعل السَّفَطُ عند باب سُرَادِقِه، فلمّا فَتَحه[3] ونظر إلى ما فيه، قال: إنَّا لله! عَرَّضْنا بهذا المسكين للقتل، الحمدُ لله الذي جعل البحرَ بيننا وبين هذا الشيطان. يعني الأميرَ عبدَ الرحمن. هذا مساقُ السَّالِـميِّ في «دُرَر القلائد».

ومِن «بَهْجة النفس» قال: كانت ثورةُ العلاءِ بموضعٍ يُقال له: لَقَنْت مِن عَمَل باجَة. فأظهر سِجِلَّ المنصور ولواءَه، وجمع إلى نفسه مَن أجابه، ونهض إلى باجة، فأخذها، وتغلَّب منها على جميع الغَرْب، وخرج يريدُ الأميرَ عبد الرحمن، فسارَ حتَّى انتهى إلى الـمُدَوَّر. وكان الأميرُ يومئذٍ قد خرج غازيًا إلى شَرْق الأندلس، فرجع إذ بَلَغه أمرُ العلاءِ، فلمّا دنا من قُرْطُبة، أمَرَ مَن كان معه من أهل إشبيلية أن يَقرُّوا في الـمُدَوَّر؛ إذ كان قد اتَّهمهم لـمَيْل أهل إشبيلية إلى العلاءِ ثمَّ نهض، وكتب سرًّا إلى بَدْر مولاه، يأمُره بقتلهم، كان الظَّفَرُ له أو عليه. ومضى العلاءُ، فالتقى معه. فكانت بينهما حروبٌ وزحوفٌ. ثمَّ قُتل العلاءُ بمقربة من قَرْمُونة، وفُضَّتْ جموعُه. وقُتل مِن أصحابه نحوُ ستَّةِ آلاف. وأمر الأميرُ بحزِّ رأس العلاءِ ورؤُوس أشرافِ أصحابه، وقُرِّطت فيها صكوكٌ بأسمائهم، وجُعلت في أوعية، ونَدب الأميرُ بها قومًا توجَّهوا بها إلى القَيْرَوان، فطرحوها

---

(١) في م: «قوم»، وهو تحريف.

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ٥/ ٥٧٥.

(٣) قوله: «فتحه و» سقط من م.

في الليل في الأسواق، فتَسَمَّع الناسُ أمْرَها، واتَّصلَ الأمرُ بأَبي جعفر، فانكسرت حِدَّتُه. وقيل[1]: إنَّ الذي هزم العلاءَ بَدْرٌ مولى عبدِ الرحمن بن معاوية، والله أعلم.

وفي سنة سبع وأربعين ومئة: وجَّه الأميرُ عبد الرحمن بدرًا مولاه وتـمَّامَ بن عَلْقَمة في جيش كثيف إلى طُلَيْطُلة، وبها هشامُ بن عذرة[2] ثائرٌ، فحاصراه[3] حتَّى سَئِمَ أهلُ طُلَيْطُلة الحصار، فكاتَبُوا بَدْرًا وتـمَّامًا، وسألوهما الأمانَ على أن يُسلموا لهما ابنَ عذرة[4] وعثمان[5] بن حَـمْزة بن عُبيد الله بن عمر بن الخطَّاب، وحَيْوَة[6] بن الوليد؛ وكانوا يدًا واحدةً[7]. فأَسلموهم إليهما، وخرج بهم تـمَّامٌ إلى قُرْطُبة، فلقيَه عاصِمُ بن مُسْلِم، فقَبض منه الأسرى، وعَهِدَ إليه عن الأمير أن يَكُرَّ إلى طُلَيْطُلَة واليًا عليها، ويُقْبِلَ بَدْرٌ إلى قُرْطُبة. وأقبل عاصمٌ بالأسرى، فلما احتلَّ بقرية حَلْزة، خرج إليه ابنُ الطُّفَيْل، ومعه حجَّامٌ وجِبابُ صوف وسِلَالٌ، فحلق رؤُوسَهم ولِـحاهم، وألبسهم جِبابَ الصُّوف، وأدخلَهم في السِّلَال، وحَمَلهم على الحُمُر، فأُتي بهم على تلك الحال إلى خُشُب قد أُعدَّت لهم، فصُلبوا فيها. وكُتب إلى البلدان بفتح طُلَيْطُلة.

وفي سنة تسع وأربعين ومئة: ثار سعيدٌ اليَحْصُبيُّ المعروف بالـمَطَريّ بكُورة لَبْلَة، واجتمعت الـيَمانيَّة إليه، ولاذوا بحَقْوَيْه. ثمَّ سار إلى إشبيلية، وتغلَّب عليها قَصْرًا ولم يجد أهْلُها في مدافعته نَصْرًا؛ فكثُر عَدَدُه، وتأزَّر عَضُدُه، وعاد عسكرُه مَهُولًا،

---

(١) هذه العبارة كلها ليست في ر٢.

(٢) في أ، م: «عروة» خطأ، وما أثبتناه من ر٢، وكذلك هو في كامل ابن الأثير ٥/ ٥٨٣، ونهاية الأرب ٢٣/ ١٩٩، ونفح الطيب ٣/ ١٨.

(٣) قوله: «ثائر فحاصراه» ليس في أ.

(٤) في أ، م: «عروة»، خطأ.

(٥) في أ، م: «هشام»، وما أثبتناه من ر٢، وهو الذي في كامل ابن الأثير ٥/ ٥٨٣، وقال ابن حزم في الجمهرة (ص١٥٣-١٥٤): «وعثمان بن حمزة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر صلبه عبد الرحمن بن معاوية في الـمَرْج بقرطبة، وكان قد أدرك في الأندلس رياسة».

(٦) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢٢.

(٧) الكامل لابن الأثير ٥/ ٥٨٣.

قد أخذ وُعورًا وسهولًا. فسار إليه الأمير عبدُ الرحمن في جيوشٍ عظيمة المَدَد، مجهولة العدَد، حتَّى نزل عليه بقَلْعة زَغوان، وكان الـمَطَريُّ قد تحصَّن بها، ولاذ بجانبها، فحصره فيها حَصْرًا، وأرهقه من أمْره عُسْرًا، حتَّى خرج متعرِّضًا للحرب في جماعة من فرسانه الأكابر، ومَن اختصَّه من أولئك البرابر، فلم تنشب الحربُ بينهم إلَّا قليلًا، وقُتِلَ الـمَطَريُّ ومَن معه تقتيلًا. وجيءَ برأسه إلى الأمير عبدِ الرحمن، فأمر للحِين برَفْعه في طَرَف سِنان(١).

وفيها: قَتل الأميرُ عبد الرحمن أبا الصَّبَّاح بن يحيى اليَحْصُبيَّ، وكان قد ولَّاه إشبيلية، ثم عزلَهُ عنها، فجَمَع إليه أهْلَ الخلاف وثارَ عليه، فوجَّه إليه الأميرُ مَوْلاه تـمَّامًا مُلاطِفًا له، فقَدِم معه قُرْطُبَةَ في أربع مئة رَجل على غير عهد، فأوصله تـمَّامٌ إليه، فعاتَبَه، فأغلظ له أبو الصبَّاح في الجواب، فأمر بقَتْله، ثمَّ أمر بإخراج رأْسه والهَتْفِ عليه.

وفي سنة خمسين ومئة: هاجت فِتْنةُ البَرْبَر بشَنْت بَرِيَّة.

وفيها: غزا بَدْرٌ الثغر(٢)، وتقدَّم إلى أَلَبَة قاعدة الروم(٣)، فحاصرها(٤)، فأذعنت له، وأدَّت إليه الجِزْيَة، وأمر بامتحانِ الرجال بتلك الناحية، واختبارِ بصائرهم، فاستقدم منهم مَن اطَّلع له على سُوء سريرةٍ وشُبْهةٍ في الثغر.

وفي سنة اثنتين وخمسين ومئة: ثار رجلٌ من البَرْبَر، ادَّعى أنَّه من وَلَد الحَسَنِ بن عليّ رضي الله عنهما، وكان أصلُه من مِكْناسة العُدْوة، وكانت أُمُّه تُسمّى فاطِمة، فادَّعى أنَّه فاطِميٌّ، وتجمَّع له الغوغاء(٥)، فخرج إليه الأميرُ من قُرْطُبة، وخلَّف بها ابنَه هشامًا، فتقَحَّم الجبالَ أمامه بمن كان معه، وانصرفَ الأميرُ إلى قُرْطُبة. فأقبل

---

(١) ذكر ابن الأثير هذا الخبر في حوادث سنة ١٤٨ (الكامل ٥/ ٥٨٨).

(٢) في أ، م: «إلى الثغر».

(٣) قوله: «قاعدة الروم» من ر٢.

(٤) في أ، م: «فحاربها»، وما أثبتناه من ر٢.

(٥) «وتجمَّع له الغوغاء» ليس في أ.

الفاطميُّ، وقَتَلَ عامِلَ شَنْت بَرِيَّة، وغلُظ أمرُه، فكان الأميرُ يرسل إلى قتاله بعضَ الفيالِق، فيتعلَّق بالجبال الشواهِق.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومئة: خرجَ الأميرُ عبدُ الرحمن لغزوِ الـمُدّعي[1] الفاطِميّ، فهرب وركب الوَعْر، فانصرفَ الأميرُ، فرجع الفاطِميُّ، فغزاه بَدْرٌ بالصائفة، فوجده بجهة شُبَطْرَان[2]، فاتبعه رجاء أن يُدركه، فدخل الـمَفَاوِز، وانقطع أثَرُه. ومضى هذا الفاطميُّ[3] إلى مَدَلِّين[4]، وكان عاملَه أبو زَعْبَل الصَّدْفُوريُّ. فتمادت فتنتُه من سنة خمسين ومئة إلى سنة ستين ومئة، إلى أن اغتاله بعضُ أصحابه، فقتله، وعفَّره هناك وجدَّله.

وفي سنة أربع وخمسين ومئة: تهدَّن الإمامُ عبد الرحمن بقُرْطُبة، ولم يكن له بها حركة.

وفي سنة خمس وخمسين ومئة: خرج الإمامُ عبد الرحمن من قُرْطُبة، فحلَّ بشَنْت بَرِيَّة. وقَدِمَ عليه هِلالٌ من أبناءِ الـمَدْيُونيّ، فكتب له عَهْدًا على قومه، وأقرَّهُ على موضعه، وكان رأسَ البَرْبَر في شَرْق الأندلُس. وقلَّده أمْرَ الفاطِميّ المتقدِّم الذكر، فكان في ذلك الراحةُ منه، وتفرَّقت بفِعْله ذلك كلمةُ البَرْبَر، وانحلَّت عقدةُ الفاطميّ، وانصرف من شَنْت بَرِيَّة إلى الجَوْف.

وفي سنة ست وخمسين ومئة: ثار على الأمير عبدِ الرحمن عبدُ الغَفّار[5] اليَحْصُبيُّ، وخلع طاعتَه. وكان الأميرُ بناحية الشَّرْق، فكتب إليه بَدْرٌ من قُرْطُبة، فطوى المراحلَ إليه، ثمَّ تقدَّم إلى إشبيلية، فوضع السيفَ فيه وفي أصحابه، فقُتِلوا قتلًا ذريعًا. وأفلت عبد الغفار[6]، فركب البحرَ، ونجا إلى الـمَشْرِق[7].

---

(١) في أ، م: «الداعي»، وما أثبتناه من ر٢.

(٢) ينظر عنها معجم البلدان ٣/ ٣٢١.

(٣) «هذا الفاطمي» ليست في ر٢.

(٤) ينظر عنها معجم البلدان ٥/ ٧٧، وفيه اللام المكسورة مخففة، والضبط من النسخة الخطية.

(٥) في أ، م: «عبد الغافر»، وما أثبتناه من ر٢ وهو الذي في كامل ابن الأثير ٦/ ٩.

(٦) كذلك.

(٧) ينظر الخبر بشكل أوسع في كامل ابن الأثير ٦/ ٩-١٠.

وفي سنة سبع وخمسين ومئة: خرج الأميرُ عبد الرحمن إلى ناحية الغَرْب، واحتلَّ بإشبيلية، وقتل بها خَلْقًا كثيرًا ممَّن كان بسبيلِ عبد الغفار، وقطع آثارَهم، ووطَّد الطاعة، ثمَّ انصرف مُعْجِلًا؛ لأنَّه إنَّما قصد امتحانَ أهل إشبيلية وتمحيصَهم. وقيل[1]: كان ذلك سنة ثمان وخمسين ومئة.

وفي سنة تسع وخمسين ومئة: غزا الإمامُ عبد الرحمن قورية، وقصد في طريقه ذلك البَرْبَرَ الذين غدروا بأبي زَعْبَل ومَكَّنوه من الفاطميّ، فقتلَهُ، فدوَّخ بلدَ البَرْبَر، وقتلَ منهم خَلْقًا كثيرًا وأذلَّهم، وأخذ[2] أبا مَزْكانة المَصْمُوديَّ، وهو عبَّاسُ بن قَلْعُوش.

وفي سنة ستين ومئة: أُخرجت الصائفةُ إلى الفاطمِيِّ؛ وكان في أحوازِ شَنْت بَرِيَّة، فعُورض بالخيل، وقُطِعَتْ عاديتُه.

وفي سنة إحدى وستين ومئة، وقيل: سنة اثنتين وستين ومئة[3]: دخل إلى[4] الأندلس عبدُ الرحمن بن حَبيب الفِهْريُّ المعروف بالصِّقْلَبيّ[5]، فنزل كُورةَ تُدْمِير، فاستقرَّ بها، ولم تَبْدُ منه في تلك السنة عاديةٌ، وإنَّما لُقِّبَ بالصِّقْلَبيّ؛ لأنَّه كان طويلًا، أشْقَرَ، أزْرَقَ، أمْعَرَ.

وفيها: حمل نهرُ قُرْطُبة حملًا عظيمًا، حتَّى سدَّ حَنَايا القنطرة وهدم بعضَها وزَلْزَلها، وبقي كذلك يومَيْن[6].

وفي سنة ثلاث وستين ومئة: ثار عبدُ الرحمن بن حبيب الفِهْريُّ، المتقدِّم الذكر في السنة قبل هذه، في ناحية تُدْمِير[7]، فغزاه الأميرُ عبد الرحمن، فهرب ابنُ حبيب[8]

---

(١) من هنا إلى آخر العبارة ليس في ر٢.

(٢) سقطت من أ.

(٣) «وقيل: سنة اثنتين وستين ومئة» ليست في ر٢.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «الصقلي»، خطأ، وسيأتي تفسيره بعد قليل.

(٦) في أ: «يومئذٍ».

(٧) قوله: «في السنة قبل هذه في ناحية تدمير»، بدلها: «بناحية تدمير».

(٨) «ابن حبيب» ليست في ر٢.

وتعلَّق بالوعر، فجال العسكرُ في كُورة(١) تُدْمِير، وتقدَّم إلى كُورة بَلَنْسِيَة، بعد أن أحرق المراكبَ بساحل البحر. ثمَّ إنَّ مِشْكارًا البَرْبَريَّ فَتَكَ بابن حبيب الصِّقْلَبيِّ وقَتَلَه(٢).

وفيها: ثار ابنُ شَجَرة بمَوْرُور(٣)، فخرج إليه بَدْرٌ يومَ الأضحى، فألفاه على غِرَّة، فقتله، وكتب إلى الإمام بالفتح. وقيل(٤): بل كان ذلك في سنة اثنتين وستين ومئة.

وفي سنة أربع وستين ومئة: غزا الإمامُ عبد الرحمن الرُّمَاحِسَ بن عبد العزيز(٥)، وكان على شُرَط مروانَ بنِ محمَّد، فلحق بالأندلس، فولَّاه الإمامُ الجزيرة، فخلع طاعتَه، فخرج إليه واحتلَّ بالجزيرة، فوجد الرُّماحِسَ في الحمَّام، فلم يشعرْ إلَّا وخيل الإمامِ تَجُوس الديار، فأعجل الرُّماحِسُ عن لُبْس ثيابه، وخرج في مِلْحفة مُصْبَغة، فدخل في قارب، ونجا إلى العُدوة، ووجد الأميرُ عبدُ الرحمن في سجنه جماعةً من الأُمويِّين، فأطلقَهم.

وفي سنة خمس وستين ومئة: ثار على الأمير عبدِ الرحمن الحسينُ بن يحيى بن سَعْد بن عُبادة الأنصاريُّ بسَرَقُسْطَة، فسار إليه بالجماهير؛ والعسكر الشهير، فحاصَرَه بسَرَقُسْطة حصارًا، وقدَّم لقتاله أحزابًا وأنصارًا، إلى أن خرج طائعًا إليه، متراميًا عليه، فقبِلَ إنابتَه، ولم يُجْرِم إجابتَه، فلمّا عفا عنه، وأغضى عمّا كان منه، أبقاه بسَرَقُسْطَةَ واليًا. وقفل الأميرُ إلى قُرْطُبَةَ ساميَ اللواء، قاهرَ الأعداء.

ثمَّ إنَّ الحسينَ خفر الذِّمَّة، وكفرَ النِّعمةَ، وأعلن بالنِّفاق إعلانًا، وأرسل في الشِّقاق عِنانًا، فسار إليه الإمامُ أيضًا، ونازله نزالًا، وأذاق سَرَقُسْطةَ نكالًا، إلى أن فتحها بنَقْبِ سُورها فَتْحًا شنيعًا، وقتل الحسينَ وأصحابه قتلًا ذريعًا(٦). وولَّى عليهم عليَّ بن حَمْزة، وقفل إلى قُرْطُبة ظاهِرَ العِزَّة.

---

(١) في ر٢: «ناحية».

(٢) وذلك في سنة ١٦١هـ كما في كامل ابن الأثير ٦/ ٥٤.

(٣) ينظر عنها الروض المعطار ٥٦٤.

(٤) من هنا إلى آخر الفقرة ليس في ر٢، وينظر كامل ابن الأثير ٦/ ٥٨.

(٥) في أ: «عبد الرحمن»، خطأ، وما هنا من ر٢، وهو الذي في جمهرة ابن حزم ١٨٩.

(٦) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٦٧-٦٨.

ومِن كتاب «بَهْجَة النَّفْس» قال: **وفي سنة سبع وستين ومئة**، غزا الإمامُ سَرَقُسْطة إلى حُسَيْن بن يحيى، فحاصَرَه حتَّى أخذ المدينةَ عَنْوةً، وقَتَل حسينًا بالدمغة وجماعةً معه، وأخرج أهلَ المدينة عنها إلى قرية على ثلاثة أميال ليمينٍ لزِمَتْه فيهم، ثمَّ صرفهم إليها بعد أيَّام، وقَفَلَ إلى قُرطبة.

وفي سنة ثمان وستين ومئة: أراد الـمُغِيرةُ بن الوليد بن معاوية القيامَ على الإمام، وكان وطنُه يومئذٍ بالرُّصافة، فانكشف له يومئذٍ[1] أمرُه من قِبَل بعض مَن تعاقد معه، فأحضرهم بين يديه، وأقرُّوا، فأمَرَ بقتلهم، واستبقى الفاضِحَ لهم. وتحوَّل الإمامُ عبد الرحمن يومئذٍ من الرُّصافة إلى قَصْر قُرْطُبة[2].

وفي سنة تسع وستين ومئة: ثار على الأمير[3] عبدِ الرحمن محمَّدُ بن يوسف الفِهْريُّ، الذي كان قد تعامَى وهرب[4]، وكان قد تحرَّك من طُلَيْطُلَةَ وجِهَةِ الشَّرْق بالحشود. وبلغ الإمامَ خبرُه، فأمر بحشدِ الكُوَر، والتقى معه في مَخَاضة الفَتْح، فكان بينهم زحفٌ وقتالٌ أيَّامًا، ثمَّ انهزم محمَّدٌ[5] المذكور، فقُتل رجالُه، وأُفنيَ عَددُه. وكانت[6] هذه الوقعةُ يومَ الأربعاء مستهلَّ ربيعٍ الأوَّل من السنة.

قال الرازيُّ: قُتِل فيها أربعةُ آلاف رَجل، سوى مَن تردَّى في الوادي، وهلك في الـمَهاوِي. وهرب محمَّدُ بن يوسف هذا[7] إلى قُورية.

وفي سنة سبعين ومئة: خرجَ الأميرُ عبدُ الرحمن إلى محمَّد بن يوسف الفِهْريِّ، حتَّى بلغ قُورية وكان بها[8]، ففرَّ أمامَه، وأدركت الخيلُ عيالَه وأصحابًا له، فقُتل مَن

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) تنظر جمهرة ابن حزم ٩٣-٩٤.

(٣) في ر٢: «الإمام».

(٤) قوله: «الذي كان قد تعامى وهرب» ليس في أ.

(٥) ليس في ر٢.

(٦) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في ر٢.

(٧) ليست في ر٢.

(٨) قوله: «وكان بها» ليس في أ، م.

أُدرك، وأُحرقتْ دُورُه. وانقطع محمَّدُ بن يوسُف[1] وَحْدَه، وانحاش إلى غِيَاضٍ. وأوقع الأميرُ ببربرِ نَفْزة، فأَذلَّهم، وأذهب عادِيَتَهم. ثمَّ مات محمَّدُ بن يوسف بقرية رُكَانةَ من عملِ طُلَيْطُلة[2].

وفي سنة إحدى وسبعين ومئة: قام قاسمُ بن عبد الرحمن الفِهْريُّ، عَمُّ محمّدِ بن يوسف أخو يوسفَ الفِهْريّ، وخلع الطاعة، فلما تحرَّك أمرُه، وجَّه إليه الأميرُ عبد الرحمن الجيوش، فأذعن له بالطاعة.

وفي سنة سبعين ومئة المتقدِّمة: أمَرَ الأميرُ عبد الرحمن بتأسيس المسجد الجامع بحضرة قُرْطُبة، وكانت بموضعه[3] كنيسةٌ، فأنفق فيه مئةَ ألفٍ بالوازنة[4].

وفي سنة اثنتين وسبعين ومئة: توفي[5] الإمامُ عبد الرحمن بن معاوية، رحمه الله، وذلك يومَ الثلاثاء لستٍّ بقين من ربيعٍ الآخر من السنة المذكورة[6].

ذِكْر بعض أخباره على الجُمْلة، رحمه الله

كان الإمامُ عبد الرحمن فصيحًا، بليغًا، حسنَ التوقيع، جيِّد الفصول، مطبوع الشِّعر. وممَّا أملاه على كاتبه إلى سُليمانَ ابن الأعرابيِّ: أمَّا بعدُ، فدَعْني من مَعاريض المَعاذير، والتَّعَسُّفِ عن جادَّةِ الطريق، لَتَمُدَّنَّ يدًا إلى الطاعة، والاعتصامِ بحَبْلِ الجماعة، أو لأُلقِيَنَّ[7] بنانها[8] على رصفِ المعصية نكالًا بما قدَّمَتْ يداك! وما اللهُ بظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

وكتب عنه أُمَيَّة بن يزيد[9] كتابًا إلى بعض عُمَّاله، يَسْتَقْصره فيما فرَّط من عمله،

---

(١) في ر٢: «الفهري» بدلًا من: «محمد بن يوسف».

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٧٨-٧٩.

(٣) ليست في أ.

(٤) ينظر الكامل لابن الأثير ٦٠/ ١٠٩.

(٥) في أ، م: «مات».

(٦) ذكر ابن الأثير وفاته بخبر طويل (الكامل ٦/ ١١٠-١١١).

(٧) هكذا في النسختين، وفي نفح الطيب نقلًا عن ابن حيان: «لأزوين» (٣/ ٣٩).

(٨) في أ، م: «بنابها»، وما هنا من ر٢ ونفح الطيب.

(٩) في أ، م: «زيد» خطأ، وما أثبتناه من ر٢ وهو الصواب، وينظر نفح الطيب ٣/ ٤٦.

فأكثر وأطال الكتاب[1]، فلمّا لحظَه عبدُ الرحمن بن معاوية[2]، أمر بقَطْعِه، وكتب بخطِّ يده: أمَّا بعدُ، فإن يكن التقصيرُ لك مقدَّمًا، فَعِدِ الاكتفاءَ أن يكون[3] لك مؤَخَّرًا. وقد علمتَ بما تقدَّمتَ[4]، فاعتمِدْ على أيِّهما أحْبَبْتَ.

وثار عليه ثائرٌ، فغزاه وظفر به، فبَيْنا هو في الطريق، إذ نظر إلى الثائر، وهو على بغل في كُبوله، وتحتَ الأمير عبدِ الرحمن فَرَسٌ له، فلمّا لحقه، قنَّع رأْسَه بالقناة وقال: يا بغل! ماذا تَحْمل من الشِّقاق والنفاق! فقال الثائرُ: يا فَرَسُ! ماذا تحملُ من العفوِ والإشفاق! فقال: واللهِ، لا ذُقْتَ موتًا على يديَّ! فأطلقه.

ومِن شِعرِه البديع الرائق، ما كَتَبَ به إلى بعض مَن طرأَ عليه من قُرَيْش، وكان قد استقلَّ جرايته، واستطالَ بقرابته، وسأله الزيادةَ له والتوسِعَة، فكتب إليه بهذه الأبيات [من مخلّع البسيط]:

سِيَّانِ مَنْ قَامَ ذَا امْتِعَاضٍ ... بِمُنْتَضَى الشَّفْرَتَيْنِ نَصْلَا
فجَابَ قَفْرًا وشَقَّ بَحْرًا ... مُسَامِيًا[5] لُجَّةً ومَحْلَا
فشَدَّ[6] مُلْكًا وشَادَ عِزًّا ... ونَاثِرًا للخِطَابِ فَصْلَا
وجَنَّدَ الجُنْدَ حِينَ أَوْدَى ... ومَصَّرَ المِصْرَ حِينَ أَجْلَا
ثُمَّ دَعَا أهْلَهُ جَمِيعًا ... حَيْثُ انْتَؤوا أنْ هَلُمَّ أهْلَا
فجَاءَ هَذا طَرِيدَ جُوعٍ ... شَرِيدَ سَيْفٍ أُبِيدَ قَتْلَا
فنَالَ أمْنًا ونَالَ شِبْعًا ... ونَالَ مالًا وحَازَ أهْلَا

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) «ابن معاوية» ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «فعند الاكتفاء يكون».

(٤) في ر٢: «قدّمت».

(٥) في ر٢: «مسامتًا»، وما هنا يعضده ما في نفح الطيب حين أورد هذه الأبيات ٣/ ٣٨، وتنظر الحلة السيراء ١/ ٣٩.

(٦) في م: «فبَزَّ»، وهو تحريف، وفي نفح الطيب: «دبّر»، وفي الحلة السيراء: «فشاد مجدًا وبزّ مُلكًا».

وذُكِرَ أنَّ أبا جعفر المنصور قال يومًا لبعض جُلَسائه: أخبِروني: مَنْ صَقْرُ قُرَيْش من الملوك؟ قالوا: ذاك أميرُ المُؤمنين الذي راضَ الملوك، وسكَّن الزلازِل، وأباد الأعداءَ، وحَسَم الأدواءَ. قال: ما قلتم شيئًا. قالوا: فمُعَاوِية؟ قال: لا. قالوا: فعبدُ الملك بن مروان؟ قال: ما قلتم شيئًا. قالوا: يا أميرَ المؤْمنين فمن هو؟ قال: صَقْرُ قُرَيْش عبدُ الرحمن بن معاوية، الذي عَبَر البَحرْ، وقطع القَفْر، ودخل بلدًا أعْجَمِيًّا، مُنفردًا بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوينَ، وأقام مُلْكًا عظيمًا[١] بعد انقطاعه، بحُسْنِ تدبيره، وشدَّة شَكِيْمته. إنَّ مُعاويةَ نهض بمَرْكَب حَمَله عليه عُمَرُ وعُثْمان، وذلَّلا له صَعْبَه، وعبدَ الملك ببيعة أُبْرِم عَقْدُها، وأميرَ المؤْمنين بطَلَب عِتْرَته، واجتماعِ شِيْعته. وعبدُ الرحمن منفردٌ بنَفْسه، مُؤيَّد برأيه، مُستصحِبٌ لعزمه، وطَّد الخلافةَ بالأندلس، وافتتح الثغور، وقَتَلَ المارقين، وأذلَّ الجبابرةَ الثائرين! فقال الجميعُ: صدقتَ، والله يا أمير المؤمنين[٢].

وكان الإمام عبدُ الرحمن من أهل العلم، وعلى سيرة جميلة من العدل. ومن قوله، رحمه الله، يتذكَّر وطَنَه[٣] [من الخفيف]:

أيُّها الراكِبُ المُيَمِّم أرْضِي ... اقْرَ[٤] بَعْضَ السلامِ عَنْي لبَعْضِي

إنَّ جِسْمِي كما تَرَاهُ بأرْضٍ ... وفُؤَادِي ومَالِكِيهِ بِأَرْضِ

قُدِّرَ البَيْنُ بَيْنَنَا فافْتَرَقْنا ... وطَوَى البَيْنُ عن جُفونيَ غُمْضي

قد قَضَى اللهُ بالبِعادِ عَلَيْنا ... فعَسَى باجتماعِنا[٥] سَوْفَ يَقْضِي

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢ تقديم وتأخير في صياغة العبارة، وما هنا من أ.

(٣) قوله: «رحمه الله يتذكر وطنه» من ر٢. وفي نفح الطيب أنه كتب بهذه الأبيات إلى أخته بالشام (٣/ ٣٨) وهي في أكثر المصادر التي ترجمت لعبد الرحمن.

(٤) في م: «اقرأ»، خطأ.

(٥) في أ، م: «باقترابنا»، وما هنا من ر٢ ونفح الطيب ٣/ ٣٨، ٥٤ وغيره.

وله من الشِّعر كثيرٌ مشهورٌ. وذكر الرازيُّ أنَّ الإمام عبدَ الرحمن، أوَّلَ نزوله بمُنْيَة الرُّصَافَة واتِّخاذِه لها، نظر فيها إلى نَخْلة؛ فهاجَتْ شَجَنَه. وتذكَّر وطَنَه، فقال على البَديهة[1] [من الطويل]:

تَبَـدَّتْ لَنَـا وَسْـطَ الرُّصَـافَةِ نَخْلَـةٌ ... تَناءَت بأرْضِ الغَرْبِ عن بَلَدِ النَّخْلِ

فقُلْتُ: شَبِيهِي في التَغَـرُّبِ والنَّـوَى ... وطُولِ التَّنائي[2] عن بَنِيَّ وعن أهْـلِي

نـشَأْتِ بـأرْضٍ أنْـتِ فِيهَـا غَرِيبَـةٌ ... فمِثْلُكِ في الإقْصاءِ والـمُنْتأَى مِـثْلِي

سَقَاكِ غَوَادِي الـمُزْنِ مِنْ صَوْبِها الذي ... يـسُحُّ ويَـسْتَمْرِي الـسِّماكَيْنِ بالوَبْـلِ

وكان، رحمه الله، قد عَقَد العهدَ لابنَيْه هشامٍ وسليمان، فوليَ بعده هشام، على ما أذْكُرُه.

خلافة هشام الرِّضا بن عبد الرَّحمن الداخِل[3]

كُنْيَتُهُ: أبو الوَلِيد.

مَوْلِدُه: سنة تسع وثلاثين ومئة.

أُمُّه: تُسَمَّى جَـمَـال.

نَقْشُ خاتَـمه: «بالله يَثِقُ عَبْدُه هشامٌ وبه يَعْتَصِمُ».

صاحبُ شُرْطَته: عبدُ الغافِر بن أبي عَبْدة.

وُزَراؤُه: ثمانية.

كُتَّابُه: اثنان: فُطَيْس بن عيسى، وخَطَّاب بن زَيْد.

قاضِيه: الـمُصْعَب بن عِمْران.

صِفَتُه: أبيضُ مُشْرَبٌ بحُمْرة، بعينَيْه حَوَلٌ.

---

(١) الأبيات في الحلة السيراء ١/ ٣٧، ونفح الطيب ٣/ ٥٤.

(٢) في نفح الطيب: «اكتئابي».

(٣) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٤، وجذوة المقتبس ٢٩، وتاريخ الإسلام ٤/ ٧٦٠ والتعليق عليها.

حاجبُه: عبد الرحمن بن مُغِيث.

بنوه: الذُّكورُ ستَّة، والإناث خمسٌ.

بُويِع يَوْمَ الأحد مستهلَّ جُمادى الأُولى من السنة. وكان عند موت أبيه بمدينة مَارِدة[1]، فوفاه الخبرُ، فطرَقَ، ووصل قُرْطُبَةَ بعد ستَّة أيّام. فبايَعَه الخاصَّةُ والعامَّة. وكان أخوه بطُلَيْطُلة، وكان أكبرَ سِنًّا منه[2]، فلمّا اتَّصل به خبرُ أبيه، حَشَدَ الحشود، وجنَّد الجنودَ، يريد قُرْطُبة، مُخالِفًا لأخيه. فلمّا حصل بجَيَّان، خرج إليه هشامٌ في أجناده، والتقى معه بجهة بَلْج، فوقعتْ بينهم حربٌ شديدة، فانهزم سُليمان، وأسلم عسكَره، وفرَّ على وجهه. وقَفَلَ هشامٌ إلى قُرْطُبة ظافرًا في أجناده[3].

وتُوفِّي هشامٌ ليلةَ الخميس لثلاثٍ خلَوْن من صفر سنة ثمانين ومئة؛ فكان عُمُرُه أربعين سنة وأربعةَ أشهر وأربعة أيَّام، فكانت مدَّة دولته وخلافته[4] سبعَ سِنِين وتسعةَ أشهر وثمانية أيَّام[5].

وقيل: إنَّ عبدَ الرحمن بن مُعاوية، رحمه الله، لـمَّا حضرَتْه الوفاة، وابنُه هشامٌ بمارِدَة، وابنه الآخر سُليمانُ بطُلَيْطُلة، وكَّل ابنَه عبد الله[6] المعروف بالبَلَنْسيِّ، وقال له: مَن سَبَقَ إليك من أخَوَيْكَ، فارْمِ إليه بالخاتَم والأمر، فإنْ سبق إليك هشام، فله فَضْلُ دِيْنِه وعَفافِه واجتماعِ الكلمةِ عليه، وإنْ سبق إليك سليمان، فله فَضْلُ سِنِّه ونَجْدَتِه وحُبِّ الشّاميِّين إليه. فقَدِم هشامٌ من مارِدَة قَبْلَ سُليمان، فنزل بالرُّصَافة، وخاف من عبد الله أخيه؛ إذ صار مُتَمَكِّنًا من قُرْطُبة والقَصرِ والأموال، أن يُدافعَه. فخرج إليه أخوه عبدُ الله[7]، وسلَّم عليه بالخلافة، ودفع إليه الخاتَم، كما أوصاه أبوه، وأدخله القصر.

---

(١) الحلة السيراء ٢/ ٤٢.

(٢) «وكان أكبر سنًا منه» ليست في أ.

(٣) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٦-١١٧ باختلاف.

(٤) في ر٢ بدل هذه العبارة: «دولته» فقط.

(٥) الكامل ٦/ ١٤٨.

(٦) في ر٢: «عبد الملك» خطأ، وترجمته في الحلة السيراء ٢/ ٣٦٣.

(٧) في ر٢: «عبد الملك» خطأ.

قال الرَّازيُّ: ولـمّا صار الأمرُ إلى هشام، واتَّصل ذلك بسُليمانَ أخيه، أخذ بيعةَ أهلِ طُلَيْطُلَةَ وما جاوَرَها لنفسه، وغلب عليها. وشَغَلَه أمْرُ أخيه هشام. فثار سعيدُ بن الحُسين الأنصاريُّ بسَاغُنْت[1] من إقليم طُرْطُوشة، وأقبل إلى سَرَقُسْطَة، فأخرج منها واليَها، وضربَ بين الناس، ودعا إلى نفسه وإلى الفتنة، فأرسلها مُضَرِيَّةً ويَمَـانِيَّةً. وحشد مُوسَى بنُ فُرْتُون[2] إلى سَرَقُسْطَة، فأخذها، وكان على دعوة الـمُضَرِيَّة، فالتقى مع الـيَمَنِيِّين، وكانت بينهم حربٌ، فقَتَلَ منهم جماعة، ودخل سَرَقُسْطة. ثمَّ قَدِمَ مَطْرُوحُ بن سُليمان ابن الأعْرابيِّ[3] على دعوة أبيه من بَرْشِلُونة، فتغلَّب على وَشْقةَ وسَرَقُسْطة والثَّغْر كلِّه[4].

وفي سنة ثلاث وسبعين ومئة: طمحتْ نفسُ عبد الله البَلَنْسيِّ أخي هشام إلى الإمارة، وقد كانت في يده أوَّلًا، ولم يَرْضَ منه إلَّا بمُشاركته، وذلك بعد سبعة أشهر من وفاة والدهما. وكان هشامٌ يبرُّه، ويترضَّاه، ويفضِّله على الكثير من إخوته، فلم يُقنعْه ذلك، وخرج يريد أخاه سُليمانَ بطُلَيْطُلة. فلمّا بلغ الأمرُ إلى هشام، أشفق من ذلك، وأخرج إليه مَن يُرْضِيهِ ويَردُّه، فلم يُدْرِكه. ومضى حتَّى قَدِم طُلَيْطُلة[5].

وفي هذه السنة: خرج هشامٌ إلى أخيه سُليمانَ بطُلَيْطُلة، فلمّا نزل عليه، خرج سليمانُ مستخفيًا، وخلَّف أخاه عبدَ الله وابنه داخِلَ المدينة، ونهض يريد انتهازَ الفُرْصة، فطوَى المراحلَ، حتَّى احتلَّ بشَقُنْدة، فخرج أهلُ قُرْطبةَ مُدافعين له، وبلغ هشامًا خبرُه، فلم يَكْتَرِثْ لذلك. ووجَّه ابنَه عبد الملك يقفو أثَرَه، فلمّا قرب منه، وَلّى سُليمانُ منهزمًا، وقطع إلى غير وِجهةٍ حتَّى خرج متعسِّفًا إلى ناحية مارِدَة، وكان عامِلَها حُدَيْرٌ المعروف بالمذبوح، فخرج إليه، فهزمه. وتمادى الأميرُ هشام في حصار طُلَيْطُلَةَ شهرَيْن وأيَّامًا، ثمَّ قفل عنها[6].

---

(١) ويقال فيها: «شاغنت»، كما في كامل ابن الأثير ٦/ ١١٧.

(٢) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٥٠٢.

(٣) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢٠٧.

(٤) ينظر كامل ابن الأثير ٦/ ١١٧-١١٨.

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٦، والحلة السيراء ٢/ ٣٦٣.

(٦) الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٦، والحلة السيراء ٢/ ٣٦٣.

وفي سنة أربع وسبعين ومئة: انصرف عبدُ الله البلنسيُّ إلى أخيه هشامٍ بلا عهد ولا أمان، فأنزله الإمامُ هشام عند ابنه الحَكَم.

وفيها: أغزى هشامٌ ابنَه معاوية إلى تُدْمِير، وقائداه شُهَيْدُ[1] بن عيسى وتَـمَّام[2] بن عَلْقَمة، فدوَّخوا تُدْمِيرَ (وهي مُرْسِيَة)، وبلغوا البحر. وكان سُليمانُ، يعني أخا هشام[3]، قد حصلَ في بعض ثغور تُدْمِير، فطلب سُليمانُ الأمانَ، فاشترط عليه الأميرُ هشام الخروجَ عن الأندلس، ويُعطيه ستِّين ألفَ دينار، فركب سُليمانُ البحرَ بأهله وولده، واحتلَّ ببلاد البَرْبَر، فكفاه الله أمْرَ إخْوَته[4].

وفي سنة خمس وسبعين ومئة: أغزى هشامُ بن عبد الرحمن عُبَيْدَ الله بن عُثمان[5] إلى سَرَقُسْطة، وبها يومئذٍ مَطْرُوحٌ المذكور، فحاصَرَها عُبَيْدُ الله، ثمَّ احتلَّ بمدينة طَرَسُونة[6]، وألحَّ عليها بالمحاصرة، حتَّى ضاق ذَرْعُ أهل سَرَقُسْطة، وضجُّوا من تمادي الحصار، فخرج مَطْرُوحٌ في بعض الأيَّام متصيِّدًا، ومعه عَمْرُوسُ بن يوسف وابنُ صَلْتان، فلمّا أرسل بازيَه على طائرٍ ونزل على الصيد، تَعاوَرَاه بسيوفهما حتَّى قتلاه، واحتزَّا رأْسَه، وتقدَّما به إلى ابنِ عثمان، وهو بطَرَسُونة، فتحرَّكَ إلى سَرَقُسْطة، فلم يمتنعْ عليه أحدٌ من أهلها، ودخل المدينة، فنزلها، وبَعَثَ برأْس مَطْرُوحٍ إلى الأمير هشام.

وفي سنة ست وسبعين ومئة: أغزى الإمامُ هشام أبا عُثْمان عُبَيْدَ الله بن عُثْمان إلى أَلَبَة[7] والقِلَاع، فلقيَ بها أعداءَ الله بجموعهم متَوَافِين، فهزمهم اللهُ على يديه، وقُتِلوا في السَّهْل والوَعْر، وانتهى ما حِيْزَ من رؤُوسهم إلى تسعة آلاف رأْسٍ ونَيِّف[8].

---

(١) جذوة المقتبس (٥٠٢).

(٢) نفح الطيب ٣/ ٤٥.

(٣) «يعني أخا هشام» ليست في ر٢.

(٤) الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٧، والحلة السيراء ٢/ ٣٦٢.

(٥) «بن عثمان» من ر٢.

(٦) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٢٩.

(٧) معجم البلدان ١/ ٢٤٩.

(٨) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٢٣-١٢٤.

وفي هذه السنة: غزا يوسفُ بن بُخْت إلى جِلِّيقِيَّة. فالتقى ببَرْمُودَ الكبير، وواضعه الحربَ، فانهزمَ عدوُّ الله، وانتهب المسلمون عسكرَه، وقَتَل فيهم مقتلةً عظيمةً، وحَزَّ من رؤُوسهم عشرةَ آلاف، سوى مَن لم يَتمكَّن منه ممن قُتِلَ في الوَعْر(١). وأتى هذا الفتحُ قُرْطُبة بعد فتحِ أبي عثمان؛ ذكر ذلك الرازيُّ وغيرُه.

وفي سنة سبع وسبعين ومئة: أغزى الإمامُ هشامٌ عبدَ الملك بن عبد الواحد بن مُغِيث بالصائفة إلى أرض الرُّوم، وهي غزوةٌ شهيرةُ الخَبَر، جليلةُ الخطر، انتهى فيها إلى إفْرَنْجة، فحاصَرَها، وثَلَم بالمجانيق أسوارها، وأشرفَ على بلاد الـمَجُوس، وجال في بلاد العدوِّ، وبقي شهورًا يحرق القُرَى ويُخرب الحُصُون. وأوقع بمدينة أرْبُونَة(٢)، وكان فتحًا عظيمًا، بلغ فيه خُمُسُ السَّبْي إلى خمسةٍ وأربعين ألفًا من الذهب العَيْن(٣).

وفي سنة ثمان وسبعين ومئة: هاجت الفتنةُ بتَاكُرُنَّا(٤)، وخالف بَرْبَرُها، وغاروا على الناس، وقَتلوا وسَبَوْا، فبعث الإمامُ هشام إليهم الأجنادَ بعد الإعذار إليهم، فقُتل أكثرُهُم، وفَرَّ سائرُهم إلى طَلَبيرة(٥) وتَرْجيلة(٦). وأقامت تَاكُرُنَّا، وهي إقليم رُنْدة وبلادُها، خاليةً قَفْرًا سبعَ سنين(٧).

وفي سنة سبع وسبعين ومئة: أغزى الإمامُ هشام بن عبد الرحمن(٨) عبْدَ الكريم(٩) بن

---

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٢٤.

(٢) معجم البلدان ١/ ١٤٠.

(٣) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٣٥.

(٤) ينظر عنها الروض المعطار ١٢٩.

(٥) ينظر عنها الروض المعطار ٣٩٥.

(٦) ينظر عنها معجم البلدان ٢/ ٢٢.

(٧) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٤٤.

(٨) «ابن عبد الرحمن» ليس في ر٢.

(٩) انظر عنه تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩.

مُغِيث بالصائفة، حتّى انتهى إلى مدينة أَسْتُرِقة داخل جِلِّيقِيَّة. فبلغه أنَّ إذْفُونْش قد[1] حشدَ بلادَه، واستمدَّ البَشْكُنِش وأهْلَ تلك النواحي التي تليه من الـمَجوس وغيرِهم، وأنه عَسْكَرَهم ما بين حَيِّز جِلِّيقِيَّة والصَّخْرة، وأنَّه أذِن لسكّان السَّهْل بالتفرُّق في شواهق جبال السواحل[2]. فقدَّم عبدُ الكريم فَرَجَ بن كِنَانة[3] في أربعة آلاف فارس، ثمَّ رحل في إثْره، فألفى أعداءَ الله، فواضَعَهم الحربَ حتَّى هزمهم الله، فقتَل حُماتَهم، وأسَرَ جماعةً منهم، ثمَّ أمر بعد انحلال الحرب بقتلهم، وبثَّ الخيلَ في القُرَى، فانتسفتْ جميعَ ما ألْفَتْه من زُرُوعهم، وخرَّبت ما مرَّت عليه من عِمارتهم. وتقدَّم بعد ذلك إلى وادٍ يُقال له: كُوثيَّة، فلقيَ به غُنْدُشاره[4] وهو في ثلاثة آلاف فارس فقاتَلَه حتى انهزم عسكرُه، وأُخِذَ غُنْدُشارُه[5] أسيرًا، وقُتل من أصحابه عددٌ كثيرٌ. وأصاب العسكرُ جميعَ ما في تلك الناحية. وتقدَّم مستَنْجِزًا لإذْفُونْش، فلمّا بلغه قَصْدُه إليه، تنحَّى عن الجبل الذي كان فيه منحازًا عنه إلى حِصْنٍ له، كان قد بناه وأتقنه على وادي نَلُون، فتقرَّب منه عبدُ الكريم مُقْتَفِيًا لأثَره، لا يمرُّ بمنزل فيما بينه وبينه إلَّا حرَّقه، ولا بمالٍ إلَّا أصابه، حتَّى أطلَّ على الحصن. فانتقل منه إلى حِصْنِ مُلْكِه. واحتلّ عبدُ الكريم بالحصن الذي انتقل منه، فألفى فيه الأطعمةَ وضُرُوبَ الذُّخْر، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فَرَجَ بن كِنَانة، في عشرة آلاف فارس، يقفو أثَرَه، فلمّا قرب منه، انهزم عنه وأسلم جميعَ عُدَّته وذُخْره، فغنم المسلمون جميعَ ذلك.

وفي سنة ثمانين ومئة: تُوفِّي الإمامُ هشام بن عبد الرحمن، رحمة الله عليه، ودُفن بقصرِ قُرْطُبة، وصلَّى عليه ابنُه الحَكَم، وذلك ليلةَ الخميس، كما تقدَّم ذِكْرُه[6]. وبايع الناسُ ابنَه الحَكَم، وكان ابنُه عبدُ الملك أسنَّ منه[7].

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «في شواهق الجبال».

(٣) ترجمة فرج بن كنانة في جذوة المقتبس (٧٦٣) والتعليق عليه.

(٤) هكذا في النسختين، وغيّرها ناشرو (م) إلى: «غندماره».

(٥) كذلك.

(٦) ليست في ر٢.

(٧) خبر وفاته في كامل ابن الأثير ٣/ ١٤٨.

ذِكْر بعض أخباره على الـجُمْلة[1]

كان، رحمه الله، بَسْطَ البنان، فصيحَ اللسان[2]، وَسيع الجَناب، حاكمًا بالسُّنَّة والكتاب، قَبض الزَّكَواتِ من طُرقها، ووضعها في حقِّها، لم يأْخذْه في الله لومٌ، ولا تعلَّق به ظلمٌ. ارتفع أخوه عن مُبايعته، وامتنع عن طاعته، واستبدَّ بطُلَيْطُلة استبدادًا، واستنفر للخلاف والنِّفاق أجنادًا[3]، فما زال يشتغلُ بالفتنة بالًا، ويُذيق الناسَ وبالًا، قد عظمتْ عليه به المحنة، وعُدِمت منه الهُدْنة، حتَّى مات الأميرُ هشام، وحَكَمَتْ بخلافة ابنه الحَكَمِ الأحكام، فحاربَه في تلك الأقطار، إلى أن اختطفَتْه الأسِنَّة والشِّفار، فأُمِن بعد ذلك الجانب، ولم يكن في ذلك التأريخ هنالك مُجانِب.

وكان هشامٌ يبعث إلى الكُوَر قومًا عُدولًا يسألون الناسَ عن سِيَر العُمَّال، ثمَّ ينصرفون إليه بما عندهم، فيقع نظرُه بقدر[4] ما تَكشِفُه المحنةُ له منهم. واعترض له يومًا متظلِّمٌ من أحد عُـمَّاله، فبدر إلى الشاكي[5] من رجالِ العامِل مَنْ تَرَضّاه[6] شَفَقةً منه على العامِل، فبعث إلى الشاكي، وقال له: احْلِفْ على كلِّ ما ظَلَمك فيه، فإن كان ضَرَبَك، فاضرِبْه، أو هتك لك سِتْرًا فاهْتِكْ سِتْرَه، أو أخذ لك مالًا، فخُذْ من ماله مِثْلَه، إلَّا أن يكونَ أصاب منك حَدًّا من حدود الله. فجعل الرجلُ لا يحلف على شيءٍ إلَّا أُقيد منه. فكان زَجْرُه هكذا لعُـمَّاله، أبلغ فيهم من النكال والأدب.

وكان كريمًا، عادلًا، فاضلًا، متواضِعًا، عاقلًا، لم تُعرف منه هفوةٌ في حداثته، ولا زلَّةٌ في أيَّام صِباه.

---

(١) «على الجُملة» ليست في ر٢.

(٢) في أ: «بسيط اللسان، فسيح الجنان».

(٣) في ر٢: «أحشادًا».

(٤) في م: «بهدم».

(٥) من هنا إلى قوله: «الشاكي» سقط من أ.

(٦) في م: «ترخاه»، ولا معنى لها.

ومن كَرَمِه: أنَّه كان يَصِرُّ أموالًا في صُرَر، ويَخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقَّد المسجد، فإذا وجد واحدًا يصلِّي في مسجد أو لا يُصلِّي، وضع بين يديه صرّةً، حتَّى كثرتْ عمارةُ المساجد.

وكان، رحمه الله، قد نظر في بُنيان قَنْطرة قُرْطُبة، وأنفق في إصلاحها أموالًا عظيمةً، وتولَّى بناءَها بنفسه، وتُعْطَى الأُجْرة بين يَدَيْه. قال ابنُ وَضَّاح: لمّا بنى هشامٌ القنطرة، تكلَّم بعضُ الناس فيه، وقالوا[1]: إنَّما بناها لتصيُّده ونُزْهَته![2] فحلف حين بلغه ذلك ألَّا يجوزَ عليها إلَّا لغَزْوٍ أو مَصْلَحة.

قال القاضي أبو مُعاوية: أدركتُ صَدْرًا من الناس يحكون أنَّ أيَّامَ هشام هذا كانت من الدَّعَة والعافية والهدوء بحيث لم يُعلم لها مِثْلٌ. وكان يحضر الجنائز ويُزاحم فيها، كأنَّه أحدٌ من الناس[3]؛ تواضعًا. وكان لبعض رجال هشامٍ خصومةٌ في دارٍ عند القاضي مُصْعَبِ بن عِمْران، فسجَّل عليه القاضي فيها وأخرجه منها، فنهض الرجلُ إلى هشام، وقال له: إنَّ القاضيَ سجَّل عليَّ في داري التي كنتُ أسكنها، وأخرَجَني عنها! فقال له هشام: وماذا تُريد منِّي؟ والله لو سجَّل عليَّ القاضي في مقعدي هذا، لخرجتُ عنه! انقيادًا[4] منه للحق، رحمة الله عليه.

قِصَّة الكِنانيّ مع هشام بن عبد الرحمن، رحمه الله[5]

كان قبل خلافته يقعد في عِلِّيَّة مُطِلَّة على النهر، ينظرُ منها إلى الرَّبَض، وتَقَعُ عينُه على مَن يخطرُ، فنظرَ يومًا في الهاجِرة إلى رجلٍ من بني كِنَانة، وكان مِن صنائعه، مُقبلًا من باديته بجَيَّان، وكان أخوه سُليمانُ واليًا عليها، فدعا فتًى له وقال له: أرى الكِنانيَّ صَنِيعَنا مقبلًا في هذه الظَّهِيرة، وما أحْسِبُ ذلك إلَّا لخَطْبٍ أقلقه من أبي أيُّوبَ أخي،

---

(١) في ر٢: «قال بعض الناس».

(٢) في ر٢: «ونزاهاته».

(٣) في ر٢: «من أحد الناس».

(٤) من هنا إلى آخر الفقرة ليس في ر٢.

(٥) جاء العنوان في ر٢: «قصة الكناني مع هشام الرضا».

فإذا وصلك، فأدْخِلْه عليَّ كما هو. ففعل الفتى ما أمَرَه، وكانت مع هشام جاريةٌ له، فلما دنا الكِنانيُّ، رفع سِتْرًا كان أمامه، فدخلت الجاريةُ خلفه، ثمَّ قال له، بعد أن سلَّم عليه: يا كِنانيُّ، لا أحسبك إلَّا وقد دَهَمَك أمْرٌ! فقال له الكنانيُّ: قَتل رجلٌ من بني كِنانةَ رجلًا خَطأً، فحُمِلَت الدِّيَةُ على العاقِلة، فأُخِذتْ بنو كِنانة عامَّةً، وحِيفَ عليَّ من بينهم خاصَّةً؛ لـمَّا عرف أبو أيُّوب مكاني منك، فعُذْتُ بك من ظُلامتي! فقال له: يا كِنانيُّ، ليفرِّجْ روعُك وليسكُنْ جأشُك، لا جَرَمَ، قد تحمَّل هشامٌ عنك وعن قومك جميعَ الدِّيَة! ثمَّ مدَّ يدَه إلى خلف الستر، فأخرج عِقْدًا كان على الجارية، ثمنه ثلاثةُ آلاف دينار، فقال له: خُذْ هذا العِقْد، فأدِّ من ثَمَنِه عنك وعن قومك، وتوسَّع في الباقي. فقال الكنانيُّ: يا سيِّدي، إنِّي لم آتِكَ مُسْتَجْدِيًا ولا ضاق لي مالٌ عن أداءِ ما حُـمِّلْتُه، ولكني أتيتُك مُستجيرًا بك لِـمَا أُصِبْتُ بالعدوان والظلم، فأحببتُ أن تُظهِرَ عليَّ من عزِّ نصرك! قال له: فما وَجْهُ نصرِك؟ قال له: أن يكتب الأمير، أصلحه الله، إلى أبي أيُّوبَ في الإمساك عن أَخْذي بما لم يجب عليَّ، وأن يحملَني محملَ عامَّة أهلي. فقال له هشام: خُذ العِقْدَ لأهلك ولنفسك، إلى أن يُيَسِّر الله فيما ذهبتَ إليه من أمْرِك. ثمَّ أمر هشامٌ بإسراج دابَّته من فَوْره، وركب إلى أبيه الأمير عبدِ الرحمن، فلما مَثُل بين يدَيْه، قال له: رجلٌ من بني كِنانة، هو لي صَنيعة، عدا عليه أبو أيُّوبَ بجَيَّان في دِيَة حُـمِلَتْ على العاقِلة. قال الأمير: فما تحبُّ في أمْرِه؟ قال: الكَتْبَ إليه بالكفِّ عنه، وأن لا يُؤْخذَ بغير ما لزمه. فقال الأمير: أوَ خَيْرٌ من ذلك! تُؤَدَّى الدِّيَةُ عنه وعن قومه من بيت المال؛ إذ هو منك بهذه المنزلة، وإذ أنت له بهذه العناية! فأكثر هشامٌ الشكرَ لوالده، ثمَّ أمر الإمامُ بأداء الدِّية من بيت المال، وبالكَتْب إلى أبي أيُّوبَ بترك التعرُّض للكنانيّ. ولـمّا حان توديعُ الكِنانيِّ لهشام، قال له: يا سيِّدي، إنّي قد بلغتُ فوق الأُمنية، وجاوزتُ أقصى غايةِ العزّ والنُّصرة! وهذا العِقْدُ النفيس قد أغنَى اللهُ عنه فأنت أولى به مني[1]. فقال له هشام: يا كِنانيُّ، إنَّه لا سبيلَ إلى ردِّ شيء قد خرج عنَّا، فخُذْه مُبارَكًا لك فيه.

---

(١) قوله: «فأنت أولى به مني» من ر٢.

وهشامٌ هذا هو الذي أكمل سقائفَ المسجد الجامع بقُرْطُبة، ورفع مَنَارته القديمة، وبنى المِيْضأَة العجيبة، وعقد من الجَسْر ما كان تثلَّم بالسَّيْل، رحمه الله.

خِلافة الحَكَم بن هِشام بن عبد الرَّحمن[1]

كُنْيَتُه: أبو العاص.

أُمُّه: زُخْرُف.

مَوْلِدُه: سنة أربع وخمسين ومئة.

بويع بعد موت أبيه بليلةٍ، يومَ الخميس لثمانٍ خَلَوْنَ من صَفَر سنة ثمانين ومئة، وهو ابنُ ستٍّ وعشرين سنة؛ فكانت خلافتُه ستًّا وعشرين سنة وأحدَ عشَرَ شهرًا.

كُتَّابُه ثلاثةٌ: فُطَيْس، وخَطَّاب بن زَيْد، وحَجَّاجٌ العُقَيْليّ.

حاجِبُه: عبدُ الكريم بن عبد الواحد بن مُغِيث.

وُزَراؤُه وقُوَّادُه خمسةٌ: إسحاق بن المُنْذِر، والعبَّاس بن عبد الله، وعبدُ الكريم بن عبد الواحد المذكور، وفُطَيْس بن سليمان، وسعيد بن حسَّان.

قُضاتُه: مُصْعَب بن عِمْران، ومحمَّد بن بشير، والفَرَج بن كِنانة، وبِشْر بن قَطَن، وعُبَيْد الله بن موسى، ومحمَّد بن تَلِيد، وحامِد بن محمَّد بن يحيى.

نَقْشُ خاتَمِه: «بالله يَثِقُ الحَكَم وبه يعتصم».

صِفَتُه: آدَم شديد الأُدْمة، طويل، أشَمُّ، نحيف، لم يخضب.

بَنُوه الذكور: تسعة عشر، والبنات: إحدى وعشرون.

وفاتُه: تُوفِّي لأربعٍ بَقِين لذي الحجَّة سنة ست ومئتين؛ فكان عمره اثنتين وخمسين سنة.

ولـمّا بلغ موتُ هشام الرِّضا إلى سُليمانَ وعبدِ الله ابنَيْ عبد الرحمن بن معاوية، وهما بالعُدْوة، تقدَّم عبدُ الله، فجازَ البحرَ إلى ريف الأندلس.

---

(١) ترجمته في التواريخ المستوعبة لعصره ومصره، وينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٤، وجذوة المقتبس ٣٠، وتاريخ الإسلام ٥/ ٦٠.

ولـمّا بويع الحَكَمُ بالخلافة، واستوسق له الأمر، وجَّه عبد الكريم بن عبد الواحد غازيًا إلى دار الحرب، في جيش عظيم، فاحتلَّ عبدُ الكريم بالثغر، وتوافت عليه الجيوش. ثمَّ تقدَّم، فاحتلَّ على شاطئ البحر، وقسم الجيشَ على ثلاثة أقسام، وقدَّم على كلِّ قسم رئيسًا، وأمَرَ كلَّ واحد منهم بأن يُغير على الناحية التي قَصَدَها ووُجِّهَ إليها، فمضَوْا، وأغاروا، واستباحوا، وانصرفوا غانمين ظافرين. ثمَّ عادوا ثانيةً إلى الإغارة، وجاوزوا خُلُجًا كانت تمدُّ وتَحْصُر، وكان أهل تلك النواحي قد تحرَّزوا بها، ونقلوا إليها العيالَ والماشية والأموال، فأغاروا عليها، واحتوَوْا على جميع ما وجدوا فيها، وانصرفوا سالمين غانمين[1].

وفي سنة إحدى وثمانين ومئة: ثار على الأمير الحَكَم بَهْلُولُ[2] بن مَرْزوق المعروف بأبي الحجَّاج في ناحية الثَّغْر، ودخل سَرَقُسْطة، ومَلَكها. وحلَّ به عبدُ الله ابن الأمير عبد الرحمن بن معاوية، وكانت وجهتُه إلى إفْرَنْجة[3].

وفيها: ثار عُبَيْدةُ بن حُمَيْد بطُلَيْطُلة، فنصب الحَكَمُ عَمْرُوسَ بن يوسف لحربه من طَلَبِيرة، فكان يتردَّدُ لحربهم، ثمَّ إنَّ عَمْرُوسَ كاتَبَ رجالًا من أهل طُليطُلة، واستلطفَهُم حتَّى مالوا إليه؛ فدعاهم إلى القيام على عُبَيْدة، والفتكِ به، ووعدهم على ذلك بمَثُوبةٍ جليلة من الأمير[4]، فبَدَرُوا إليه، وقتلوه، وتوجَّهوا برأْسه إلى عَمْروس، فأنزلهم عند نفسه بطَلَبِيرة. فلمّا علم بهم بعضُ بَرْبَر طَلَبِيرة، وكانت بينهم دِماءٌ، دخلوا عليهم تلك الليلةَ الدار، فقتلوهم. فبعث عمروسُ برأْس عُبَيْدة وبرؤُوس المذكورين، وهم بنو مَخْشي، إلى الحَكَم بقُرْطُبة، وكتب إليه بخبرِهم، ثمَّ إنَّ عَمْروس أعمل جُهْدَه في استجلاب أهل طُلَيْطُلة بمكاتبتهم، حتَّى أدخلوه المدينة. فلمّا تمكَّن منها، بنَى القصرَ على باب جَسْرها، فأحكمه، وأتقن أمْرَه، ثمَّ سعى في قَتْل رجالِ طُلَيْطُلة، وقَطْعِ شرِّهم، وحَسْم دائهم؛ توطيدًا للمملكة، فأعدَّ للكيد صَنيعًا، أظهر

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ١٤٩-١٥٠.

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢١١.

(٣) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٥٨.

(٤) في ر٢: «الإمام».

أَنَّه يذبح فيه البقر، وأَمَرَ أن يكون دخولُ الناس على بابٍ، وخروجُهم على بابٍ، فكان كلُّ مَن دخل وتجاوَزَ الباب قُتِلَ، حتَّى أفنى من أشرافهم سبعَ مئة[1].

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئة: كان السيلُ العظيم بقُرْطُبة، ذَهَب برَبَض القَنْطرة، ولم يُبْقِ فيه دارًا إلَّا هدمها، حاشى غُرْفةَ عَوْنٍ العطَّار. وبلغ السيلُ شَقُنْده[2].

وفيها: دخل سُليمانُ بن عبد الرحمن بن معاوية الأندلسَ من العُدْوة، وتقدَّم متعرِّضًا لحرب الحَكَم، في شوَّالٍ منها، فانهزمَ سُليمان، بعدما دارت بينهما حربٌ[3] شديدةٌ.

وفيها: عاد سليمانُ ثانيًا للقتال، والتقى مع الحَكَم أيضًا ببنَجِيطة، فانهزم سليمان[4].

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئة: خرجَ سُليمان، ومعه برابرُ اجتمعوا إليه، إلى ناحية إسْتِجَة، فغزاه الحَكَم، والتقيا بمقربة من إسْتِجَة، فدارت بينهم حروبٌ شديدة أيَّامًا. ثمَّ انهزم سُليمانُ بمن كان معه. ثمَّ التقيا أيضًا في هذا العام، فانهزم سُليمان[5].

وفي سنة أربع وثمانين ومئة: حشد أبو أيُّوبَ سُليمانُ بن عبد الرحمن من الشَّرْق، فاحتلَّ بجَيَّان، ثمَّ بإلْبيرة. فأتْبَعه جماعةٌ من الكُورَتَيْن، والتقى معه الحَكَم، فدام القتالُ بينهم أيَّامًا، حتَّى همَّ الحَكَمُ بالهزيمة، ثمَّ انهزم سُليمانُ، وأفلت. وقُتِل في المُعترك بَشَرٌ كثير. وبعث الحَكَمُ أصْبَغ[6] بن عبد الله في طلبه، فلَحِقَه بجهةِ مَارِدة، وأخذه أسيرًا، وأتى به إلى الحَكَم؛ فأمر بقتله، وبعث برأسه إلى قُرْطُبة.

وفي سنة ست وثمانين ومئة: أخرج الحَكَمُ إلى عَمِّه عبدِ الله[7] البَلَنْسيّ أمانًا، وهو أوَّلُ خروجٍ كان إليه، وأوَّلُ مكاتبة كانت بين الحَكَم وبينه بعد حُلوله ببَلَنْسِيَة[8].

---

(١) الخبر كله في الكامل لابن الأثير ٦/ ١٥٨.

(٢) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٦٢.

(٣) في ر٢: «حروب».

(٤) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٦١-١٦٢.

(٥) ذكره ابن الأثير أيضًا (الكامل ٦/ ١٦٢).

(٦) ينظر عنه نهاية الأرب ٢٣/ ٢١٥.

(٧) في ر٢: «عبد الملك»، وتقدم الكلام عليه.

(٨) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٧٢.

وفي سنة سبع وثمانين ومئة: انعقد أمانُ عبد الله البَلَنْسيِّ وصُلْحُه بإجراء الأرزاق عليه، وذلك ألفُ دينار لكلِّ شهر، وبإجراءِ الـمَعَارِف، وذلك ألفُ دينار لكلِّ عام. وخرج إليه بهذا الأمان يحيى بنُ يحيى[1] وابن أبي عامِر، فعُقِدَ الصلحُ على ذلك وعلى أن يسكُن عبدُ الله[2] بَلَنْسية. وقدم يحيى وابنُ أبي عامر بولدِ عبد الله[3] على الحَكَم، فزوَّجه أُخْتَه شقيقتَه.

مقتل أهْل الرَّبَض أوَّلًا قَبْل هَيْجِهِ ثانيةً

وفي سنة تسع وثمانين ومئة: صَلَبَ الإمامُ الحَكَم اثنين وسبعين رجلًا بقُرْطُبة، منهم: أبو كَعْب بن عبد البَرّ، ويحيى بن مُضَر، ومسرورٌ الخادم. وكان السببُ في ذلك أنَّهم أرادوا الغَدْرَ به، وهمُّوا بالخلاف عليه، وطلبوا رئيسًا يقومون به، فوقع الخبرُ على محمَّدِ بن القاسم عَمِّ هشامِ بن حَمْزة، وأطلعوه على أمْرِهم، ودَعَوْه للقيام معهم، فخَذَلهم، وأفشى سرَّهم، وتقرَّب إلى الحكم بدمائهم، فتثبَّت الحَكَم، وسأله تصحيحَ ما رَفَعَ إليه، فقال له: هَاتِ أُمَناءكَ! فأخفاهم عنده، ووجَّه عنهم لميعاده، ثمَّ قال لهم: هذا الذي تدعُونَني إليه لا أثِقُ بمن سمَّيْتم، دون أن أسمعَ منهم كما سمعتُ منكم، فتَطِيبَ نفسي، وأدخلَ في الأمر على قوَّة وبصيرة. فأتَوْه، وسمع مقالتَهم، والأُمناءُ بحيث يَرَوْن ويَسمعون. فلمَّا صحَّ عند الحَكَم أمْرُهم بشهادة الأُمَناء عليهم، أخَذَهم وصَلَبهم جميعًا بمرَّةٍ واحدة[4]. ثمَّ أتقن سورَ قُرْطُبَةَ وحفر خَنْدَقَها، وتوجَّه غازيًا إلى بلاد الـمُشْرِكين.

ومن قوله [من الطويل]:

رأيتُ صُدُوعَ الأرْضِ بالسيفِ راقِعَا ... وقِدْمًا لأمتُ الشَّعْثَ مُذْ كُنْتُ يافِعَا
فسَائلْ ثُغـوري هَـلْ بهـا الآن ثُغْـرةٌ ... أبادرُها مستنْضِـيَ السيف[5] دارِعَـا

---

(١) هو الليثي فقيه الأندلس، وراوي «الموطأ» عن الإمام مالك.

(٢) في ر٢: «عبد الملك».

(٣) كذلك.

(٤) الخبر في كامل ابن الأثير ٦/ ١٨٨-١٨٩، لكنه ذكرها في حوادث سنة ١٨٧هـ.

(٥) في ر٢: «العزم».

وشَافِهْ علي الأرض الفضاءِ جَمَاجِمًا كأقْحاف شرْيانِ الهبيدِ لَوامِعَا
تُنبِّئْك أني لم أكُنْ عن قِراعِهم بِوانٍ وأنّي كنتُ بالسَّيْف قارِعَا
فإنّي إذا حادوا جِزاعًا عن الرَّدَى فلم أكُ ذا حَيْدٍ عن الموت جَازِعَا
حَمَيْتُ ذِماري وانتهكتُ ذِمارَهم ومَنْ لا يُحامي ظلَّ خَزْيانَ ضَارِعَا
ولمَّا تساقَيْنا سِجَالَ حُرُوبِنَا سقَيْتُهُمْ سُمًّا من الموت نَاقِعَا
وهل زِدتُ أن وفَّيتُهُمْ صاعَ قرضِهمْ فوافَوْا مَنَايَا قُدِّرَتْ ومَصَارِعَا
فهَاكَ بِلادي إنَّني قد تركتُها مِهَادًا ولم أتْرُكْ عليها مُنَازِعَا

وفي سنة تسعين ومئة: خرج الأميرُ الحَكَم غازيًا إلى مَارِدَة، فلمّا وصلها، احتلَّها[١] وحاصَرَها، وكان بها أصْبَغُ بن عبد الله بن وَانْسُوس ثائِرًا، وإذا بالخبر وصله أنَّ سوادَ أهل قُرْطُبة أعلنوا بالنِّفاق، وتداعَوْا إلى صاحب السوق بالسلاح، وكتب المخلَّفون إلى الحَكَم بما حدث بعده وبما ظهر من ضمائر السَّفِلة، فصدر قافلًا، وطوى المراحِل، وقطع الطريقَ في ثلاثة أيام، ودخل القصرَ فهدأ الناسُ وسكنت الأحوال، وصار الناسُ في هدوءٍ وسكون من سنة تسعين ومئة إلى سنة اثنتين ومئتين، والتزموا الدَّعةَ اثنتي عشرة سنة[٢].

وتردَّدت الغزواتُ سبعةَ أعوام إلى مارِدَة، وبها أصْبَغُ بن عبد الله ثائرًا متمنِّعًا. وكان سببُ ثورته أنَّ عدوًّا لأصْبَغَ طالَبَه عند الحَكَم وأغراه عليه، ثمَّ مشى إلى أصبغَ بمِثْلِ ذلك، وروّعه منه، فتوقَّع العقوبةَ والسَّطْوة به. فكان ذلك سَبَبَ دخوله مارِدَةَ وقيامِهِ بها. وتكرَّرت الغاراتُ عليه سبعةَ أعوام، فافتُتِحَتْ في العام السابع بمجاولةٍ انجلت عن طَلَبِ الأمان لأصبَغَ، فأُمِّن، وخرج من مارِدَة، وصار في مصفِّ الحَكَم، فسكن قُرْطُبة، ثمَّ فسح له في الاختلاف إلى ضياعه بمارِدَةَ حتى التاث أمْرُها، واضطربت حالُها.

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) ينظر كامل ابن الأثير ٦/ ٢٠١.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومئة: خرج رُذْرِيقُ صاحب إفْرَنْجة إلى جهة طُرْطُوشة، فأغزى الحَكَمُ ابنَه عبد الرحمن في جيشٍ كثيف، وكتب إلى عَمْرُوس وعَبْدُون عامِلَي الثَّغْر بالغزو معه بجميع أهل الثغر. فتقدَّم عبدُ الرحمن بالجنود، وتوافت عليه الحشودُ، وحفَّت به الـمُطَّوِّعة، فألفَوُا الطاغيةَ خارجًا[1] إلى بلاد المسلمين. ودارت بينهم حروبٌ[2] شديدة، ثبَّت اللهُ فيها أقدامَ المسلمين، فانهزم المشركون، وكانت فيهم مقتلةٌ عظيمة، فَنِيَ فيها[3] أكثرُهم[4].

وفي سنة أربع وتسعين ومئة: غزا الحَكَمُ أرضَ الشِّرك بنفسه[5]. وكان السببُ في هذه الغزاة أنَّ عبَّاسَ بن ناصِح الشاعِرَ[6] كان بمدينة الفَرَج، وهي وادي الحجَارة، وكان العدوُّ، بسبب اشتغال الحَكَم بمارِدَةَ وتوجيهِ الصوائف إليها مدَّةً من سبعة أعوام؛ قد عظمتْ شوكتُه، وقويَ أمْرُه؛ فشنَّ الغَاراتِ في أطراف الثغور، يَسبي ويقتل. وسمع عبَّاسُ بن ناصِح امرأةً في ناحية وادي الحِجَارة وهي تقول: واغوثاه يا حكَمَ! قد ضيَّعْتَنا وأسْلَمْتَنا واشتغلتَ عنَّا، حتَّى استأْسد العدوُّ علينا! فلمّا وفد عبَّاسٌ على الحَكَم، رَفَعَ إليه شِعرًا يستصرخُه فيه، ويذكر قول المرأة واستصراخَها به، وأنهى إليه عبَّاسٌ ما هو عليه الثغرُ من الوهن والتياثِ الحال، فرثى الحَكَمُ للمسلمين، وحمي لنصر الدِّين، وأمَرَ بالاستعداد للجهاد، وخرج غازيًا إلى أرض الشِّرْك، فأوغل في بلادهم، وافتتح الحصون، وهدم المنازل، وقتَلَ كثيرًا منهم[7]، وأسَرَ كذلك، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمَرَ لأهل تلك الناحية بمالٍ من الغنائم، يُصلحون به أحوالَهم ويَفْدُون به[8]

(١) من هنا تبدأ النسخة المحفوظة بالخزانة الملكية بالرباط رقم (١٠٣٠١) والتي رمزنا لها بالحرف (ت)، وهي في جملتها موافقة لما في ر٢ لذلك أعرضنا عن ذكرها إلا عند المخالفة.

(٢) في ر٢: «حرب».

(٣) من ت و ر٢.

(٤) الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٠٢.

(٥) ليست في أ، م.

(٦) انظر عنه الوافي للصفدي ١٦/ ٦٤٤.

(٧) من ر٢.

(٨) ليست في ت وهي من ر٢.

سباياهم، وخصَّ المرأةَ وآثرها، وأعطاهم عَدَدًا من الأسرى عونًا لهم[1]، وأمَرَ بضرب رقاب باقيهم، وقال لأهل تلك الناحية وللمرأة: هل أغاثكم الحَكَم؟ فقالوا: شفى والله الصُّدُور، ونكى في العدوّ، وما غفل عنَّا إذ بَلَغَه أمْرُنا! فأغاثه اللهُ وأعزَّ نصره![2].

وفي سنة ست وتسعين ومئة: غزا الحَكَمُ إلى بلاد المشركين، وأوغل فيها، فأوقع بهم وأنكى فيهم[3]، وقَفَل.

وفيها: مات تَـمَّام بن عَلْقَمة الثَّقَفيُّ.

وفي سنة تسع وتسعين ومئة: كانت المجاعةُ التي عمَّت الأندلسَ؛ ومات أكثرُ الخلق جَهْدًا[4].

وفي هذه السنة: أغزى الحَكَمُ عمَّه عبد الملك أو عبد الله البَلَنْسيَّ الغزوةَ الشنيعة[5] المشهورة، وكانت ببَرْشِلُونة: أَلْفَى المشركين قد حلُّوا بها يومَ احتلاله، وكان يومَ الخميس، فأراد مَن معه مُناشبةَ الحرب، وتشوَّفوا للقتال، فمَنَعَهم، حتَّى إذا كان في اليوم الثاني، وهو يوم الجُمُعة وقت الزوال، أمَرَ بتَعْبئَة الكتائب، ونَصَبَ الرُّدود، وقام، فصلَّى رَكْعتَيْن، ثمَّ نادى في الناس، وركب هو ومن معه، وناهض أهْلَ الشِّرك. وما أحْسِبُه فعل ذلك إلَّا فِقْهًا وعِلْمًا وتأسِّيًا بحديث النبي ﷺ حيث أمر بالقتال في تلك الساعة؛ فإنَّ فيها تهبُّ الأرواح، وتُفْتَح أبوابُ الجنَّة، وتُستجاب الدعوات. فمنحهم اللهُ أكتافَ المشركين، وانهزموا، وقتَلَ عامَّتَهم، وفرَّق جَمْعَهم. فلمّا أقلع عن القتال وانجَلَتْ الحرب، نَصَبَ قَناةً طويلةً، فأُثبتتْ في الأرض[6]، وأمَرَ بالرؤُوس، فجُمعت وطُرحت حَوَالَيْها حتَّى غابت القناةُ فيها ولم تَظهر[7].

---

(١) من ت.

(٢) الخبر كله في كامل ابن الأثير ٦/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) «وأنكى فيهم» ليست في أ، م.

(٤) ذكر ابن الأثير هذا الخبر في حوادث سنة ١٩٧هـ (الكامل ٦/ ٢٧٧).

(٥) ليست في ر٢، ت.

(٦) قوله: «فأثبتت في الأرض» ليس في ر٢.

(٧) قوله: «ولم تظهر» من ر٢ فقط.

ذِكْر دُخُول الحَكَم طُلَيْطُلَةَ حين خالفَتْ عليه

وذلك أنَّه أظْهَرَ الغزوَ إلى بلاد المشركين، وقَصَدَ تُدْمِير، وهو يريد في نفسه طُلَيْطُلة. فنزل تُدْمِيرَ، واضطربَ فيها، ونازَلَ بعضَ حصونها. وكتب إلى عُمَّال الثَّغْر بنزوله فيها وحَرْبه لها، فأمِنَ أهْلُ طُلَيْطُلة، وانتشروا في بَسَائطهم، ونظروا في زُروعهم، وله عليهم عُيُونٌ. فلمّا صحَّ عنده انبساطُهم، جعل يتقَرَّب[١] من أحواز تُدْمِير، وأخبارُ طُلَيْطُلة تَرِدُ عليه. فلمّا أمكنَتْه الفُرْصة فيها، جدَّ السيرَ إليها، وطَوَى المراحل، فوصل إليها ليلًا، وسُبِقَ بقَطِيع من الحَشَم. فدخل طُلَيْطُلَةَ ليلًا[٢]، ولم يُعْلَم بدخوله، وأهْلُها في غَفْلة، وأبوابها مفتَّحة. وتتابع العسكرُ عليه بمقدار قوَّة كلِّ أحد. فمَلَكها، وحَالَ بين أهلها وبينها، وقطع الخروجَ عمَّن كان بها إلى مَن كان بخارِجها، فاستوسق[٣] له مُلْكُها دون مُؤْنةٍ ولا قتال. فاستنزل أهْلَها من الجبال إلى السَّهْل، وحرَّق ديارَها، وأسكَنهم في الصحراء ثمَّ ردَّهم إليها.

وفي سنة مئتين: أغزى الحَكَمُ وزيرَه عبدَ الكريم بن مُغِيث إلى بلاد المشركين، فدخلها، وتوسَّطها، وأهلكَ معائشَها ومَرَافِقها، وحطم زُروعَها، وهدمَ مَنَازِلَها وحصونَها، حتَّى استوفى جميعَ قُرَى وادِي أرُون[٤]. فحَشَدتْ إليه الطاغيةُ، دمَّرها الله، وانْجَلبتِ النصرانيَّة] من كلِّ مكان، وأقبلت الجموعُ، ونزلت بعُدْوةِ نهر أرُون، وصار النهرُ حاجزًا بينهم وبين الـمُسلمين. فلمّا أصبح، نهض عبدُ الكريم بمن معه إلى مَخَائض الوادي، ونهَضَ أعداءُ الله إليهم، فقاتلوهم، على كلِّ مخاضة منها، فجالدَهم المسلمون عليها مجالدةَ الصابرين المحتسبين، واقتحم أعداءُ الله النهرَ إليهم، فاقتتلوا على مَخاضته. ثمَّ حمَلَ المسلمون عليهم حملةً صادقةً، فأضغطوهم في المضايق، وأدخلوهم على غير طريق، فأخذتهم السيوفُ والطَّعْنُ بالرِّماح والغرقُ في المياه[٥]، فقُتل من المشركين

(١) في م: «يتغرب».

(٢) في ر ٢: «فدخلها ليلًا».

(٣) في ر ٢: «فتمَّ».

(٤) معجم البلدان ١/ ١٦٤.

(٥) قوله: «والغرق في المياه» ليس في أ.

عددٌ عظيمٌ لا يُحصى كثرةً، ومات أكثرُهم بالتَرَدِّي، ودَرَسَ بعضُهم بعضًا، وصاروا بعد الـمُطَاعَنة والمجالَدة بالرِّماح والسيوف إلى القَذْف بالحجارة، وأكثروا الحُرَّاسَ بالمخائض، ووعَّروها بالخشب، وحفروا الحفائرَ، وخَنْدَقوا الخنادِق. ونزلت الأمطارُ. وكان قد فرغ ما كان لأعداء الله من الـمَرافق، وضاقت الحالُ أيضًا بالمسلمين؛ فقَفَلَ عبدُ الكريم ظافرًا لسبع خَلَوْنَ من ذي القعدة[١].

ولم يكن في سنة إحدى ومئتين صائفةٌ ولا حَرَكةٌ مشهورةٌ.

ذِكْر هَيْج أهْل الرَّبَض[٢] ثانيةً في سنة اثنتين ومئتين

كان من أهل رَبَض قُرْطُبَةَ في هذه السنة ما نَسْتَعيذُ بالله من الخِذْلان في مِثْله، وذهابِ التوفيق. وقد اخْتَلَفَت الرواياتُ في سبب قيامِ الناس وهَيْجهم؛ فمنهم مَن يقول: إنَّ[٣] ذلك الهَيْجَ كان أصْلُه الأشَرَ والبَطَرَ؛ إذ لم تكن ثَمَّ ضرورةٌ من إحجافٍ في مال، ولا انتهاكٍ لحُرْمة، ولا تعسُّفٍ في مَلَكةٍ، والحالُ تدلُّ على صحَّة ذلك؛ فإنَّه لم يكن على الناس وظائفُ، ولا مَغارِمُ، ولا سُخَرٌ، ولا شيءٌ يكون سببًا لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشَرًا وبَطَرًا، وملالًا للعافية[٤]، وطَبْعًا جافيًا، وعقلًا غبيًّا، وسعيًا في هلاك أنفسهم، أعاذنا اللهُ من الضَّلال والخِذْلان، وأسبابِ البوار والخُسران.

ولـمّا اهتاجوا وقاموا على السُّلطان، ناصَبَهم الحَكَمُ القتالَ، وواضَعَهم الحرب[٥]. وانحاشَ إليه حاشيتُه وجُندُه، وتألَّبَ من كلِّ وجهٍ رجالُه. وقامت الحربُ بين الجُند وعامَّةِ قُرْطُبَة على ساقٍ. ثمَّ تكاثرت العامَّةُ، وهاجت الدَّهماءُ السوداء، فلم يزيدوا على أن ظَهَرُوا في ذلك الحين ظهورًا لم يبلِّغْهم إلى أمل، فلمّا اشتغلوا بالقتال، احتِيلَ عليهم

---

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣١٧-٣١٨.

(٢) في ر٢: «ربض قرطبة».

(٣) جاءت العبارة في ر٢ كما يأتي: «اختُلِفَ في سبب ذلك الهيج، فالصحيح أنَّ».

(٤) «وملالًا للعافية» ليست في ر٢.

(٥) «وواضعهم الحرب» ليست في ر٢.

بِمِثْلِ حيلةِ يوم الحَرَّة، وهم لا يَشعرون؛ لاشتغالهم بالقتال، فخرج عُبَيْدُ الله[1] بن عبد الله البَلَنْسيُّ المعروف بصاحِب الصَّوائف، وإسحاقُ بن الـمُنْذِر القُرَشيُّ إلى باب الجَسْر، مع مَن أمكنهما من الفرسان والرَّجَّالة، والتقَوْا مع العامَّة، وجالَدُوهم حتى أزاحوهم وأدخلوهم الجَسْر، وفُتح بابُ المدينة عند الجَسْر، ودخل الذين سمَّينا على باب الحَدِيد، ثمَّ اقتحموا على الزُّقاق الكبير، وخرجوا على الرَّمْلة إلى مَخاضةٍ هناك، وجازُوا النهر، واجتمعوا مع مَن توافى عليهم من حُشود الكُوَر؛ إذ كانوا قد أُنْذِروا قبل ذلك بما كان بَدا منهم، وظَهَرَ من علاماتهم. فلمّا اجتمعوا، أقبل بَعْضُهم من وراءِ الرَّبَض، وشرعَ بعضٌ في طَرْح النار في الدُّور، ودسُّوا مَن أخبر العامَّةَ بما نزلَ بهم في دُورهم وذَراريهم وعيالهم، فلم يَبْقَ أحدٌ منهم دون أهلِه ومنزله، وانصرفوا راجعين نحوَها. فأخذتهم السيوفُ من أمامهم وورائهم، فقُتلوا قَتْلًا ذريعًا، وتتُبِّعوا في الأزِقَّة والطُّرُق يُقتَلون، ونجا منهم مَن تأخَّرَ أجَلُه، ففرَّ، فلم يَلْوِ على أهلٍ ولا وَلَدٍ. وأُخِذَ منهم ثلاث مئة رجل، فصُلِبوا على الوادي، صفًّا واحدًا من الـمَرْج إلى الـمُصَارة.

وكان الحَكَمُ قد عزم على تَتَبّعهم بالأندلُس، وقَتْلِهم حيث وُجِدوا، فكَسَرَ عليه بعضُ أصحابه، وذكَّره صُنْعَ الله له فيهم، فارْعَوَى وكَفَّ. فخرجوا أفواجًا بأهاليهم وأولادهم، ولم يَعْرِض لأحدٍ منهم في شيء من بلاد الأندلس، وهي طاعتُه ومُلْكُه، ولا نالهم ضُرٌّ بعد وقتِ المعركة وغَلَيان الحال؛ كرمًا وعفوًا من الأمير الحكم، رحمه الله[2]، وعفَّ الحَكَمُ عن الأموال والحُرَم. وتفرَّق أهلُ الرَّبَض في جميع أقطار الأندلُس، ومنهم مَن جاز البحرَ إلى العُدْوة بالأهل والولد، فاحتلُّوا بعُدْوة فاس، فهُمْ عدوةُ الأندلُس منها، فصيَّروها مدينةً. ومنهم أهل جزيرة إقْرِيطِش، فذُكِرَ أنّه لم يخرج منهم طائفةٌ بناحيةٍ من نواحي الدنيا إلّا وتغلَّبوا عليها، واستوطنوها على قهرٍ من أهلها. وأكثرُ مَن هرب من أهل العِلْم والخير مـمَّن اتُّهِم أو خافَ على نَفْسِه إلى ناحية طُلَيْطُلَة، ثمَّ أمَّنهم الحَكَم، وكتب لهم أمانًا على الأنفس والأموال، وأباحَ لهم التفسُّحَ في البُلْدان حيثُما أحبُّوا من أقطار مملكته، حاشى قُرْطُبَةَ أو ما قرب منها.

---

(١) له ذكر في نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢٢١، ٢٢٣.

(٢) قوله: «كرمًا وعفوًا من الأمير الحكم رحمه الله» ليس في ر٢.

وفي سنة ست ومئتين: اشتدَّ مرضُ الحَكَم بن هشام، فأخذ البيعةَ لابنه عبدِ الرحمن، ثمَّ للمُغِيرة مِنْ بعدِه. وانعقدت البيعةُ يومَ الأربعاء لإحدى عَشرة ليلة خلَتْ من ذي الحجَّة من السَّنة. فبُويع له ذلك اليومَ في القصر، واختلفَ الناسُ بعد ذلك اليوم إلى دار عبد الرحمن بن الحكم يُبايعونه، وبايَعُوا الـمُغِيرةَ في دار أخيه عبد الرحمن أيضًا، ثمَّ ركبَ الـمُغِيرةُ إلى الجامع، ونزل فيه يومًا بعد يوم لمبايعة الناس له، وكانوا يبايعونه عند الـمِنْبَر، ثمَّ بايعوه في داره. ولـمّا انقضت البيعةُ لعبد الرحمن والـمُغِيرة بعدَه، أمَر الحَكَمُ بن هشام بهدم الفُنْدُق الذي كان بالرَّبَض، وكان مُتَقَبِّلُه من أهل الإضرار والفِسْق، فهُدِمَ.

وتُوفِّي الأميرُ الحَكَم يومَ الخميس لأربعٍ بقين من ذي الحجَّة من السنة، وصلَّى عليه ابنُه عبدُ الرحمن، ودُفِن بالقصر[1].

بعض أخباره وسِيَره

كان الحَكَم، رحمه الله، شديدَ الـحَزْم، ماضيَ العزم، ذا صولة تُتَّقَى. وكان حَسَنَ التَّدْبير في سُلطانه، وتوليةِ أهل الفضل والعَدْل في رعيَّته، وكان مبسوطَ اليد. وكان له قاضٍ كفاه بوَرَعه وعِلْـمه وزُهْده، فمرض مرضًا شديدًا، فاغتمَّ الحَكَمُ لمرضه، فذكر بعضُ خاصَّته أنَّه أرِقَ ليلةً أرَقًا شديدًا، وجعل يَتَمَلْمَل على فِراشه، فقيل له: أصلح اللهُ الأمير! ما الذي عَرَض؟ فقال: وَيْحكم! إنِّي سمعتُ في هذه الليلة نادِبةً، وقاضِيْنا مريضٌ، وما أراه إلَّا وقد قَضَى نَحْبَه، فأين لي بمِثْله؟ ومَن يقوم بالرعيَّة مقامه؟! فمات القاضي في تلك الليلة، وهو الـمُصْعَب بن عِمْران قاضي أبيه. فولَّى بعدَه محمَّد بن بَشِير، وكان أقصدَ الناس إلى حقٍّ وأبعدَهم من جَوْرٍ، وأنفذهم بحُكْم. ورَفع إليه رجلٌ من أهل كُورة جَيَّانَ أنَّ عاملًا للحَكَم اغتصبه جاريةً، وصيَّرها إلى الحَكَم، فوقعتْ من قلب الحَكَم كلَّ مَوْقِع، فأثبت الرجلُ أمْرَه عند القاضي، وأتاه ببيِّنةٍ تشهد على معرفةِ ما تظلَّم منه وبمِلْكه للجارية وبمعرفتهم بها. فأوجبت السُّنَّةُ أن تحضرَ الجارية، فاستأذن القاضي على الحَكَم، فأذِنَ له، فلمّا دخل عليه، قال له:

---

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٧٧.

أيُّها الأمير، إنَّه لا يتِمُّ عَدْلٌ في العامَّة دون إقامَتِه في الخاصَّة. وحكى له أمْرَ الجارية، وخيَّره بين إبرازها للبيِّنة ليُشْهَد على عَيْنها، أو عَزْله. فقال له الحَكَم: أوَلا أدعوك إلى خيرٍ من ذلك: تبتاعُ الجاريةَ من صاحبها بأبلغ ما يُطلَب فيها. فقال القاضي: إنَّ الشهودَ قد شهدوا من كُورة جَيَّان، وأتى الرجلُ يطلب الحقَّ في مظانِّه، فلمّا صار ببابك، تَصْرِفه دون إنفاذ الحقِّ له! ولعلَّ قائلًا يقول: باع ما لا يَمْلِكُ بَيْعَ مقهور، فلمّا رأى عَزْمَه على ذلك، أمَرَ بإخراج الجارية من قَصْرِه، فشهد الشهودُ عنده على عَيْنها، وقَضَى بها لصاحبها. وكان هذا القاضي محمَّدُ بن بَشِير، إذا خرج للمسجد وجلسَ للأحكام، جلس في رداءٍ مُعَصْفَر، وشَعرٍ مفرَّق، فإذا طُلِبَ ما عندَه، وُجِدَ أفضلَ الناس وأورعَهم.

وكان الحَكَم يقول: ما تَحلَّى الخلفاءُ بمِثْل العدل. وكانت فيه بطالة، إلَّا أنَّه كان شُجاعَ النفس، باسطَ الكفّ، عظيمَ العفو. وكان يُسَلِّط قُضاتَه وحُكَّامَه على نفسه، فضلًا عن وَلَده وخاصَّته. وكانت للحَكَم ألفُ فَرَسٍ مُرتَبطةً بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرةٌ من العُرَفاء، تحت يَدِ كلِّ عَريف مئةُ فَرَسٍ، فإذا بلغه عن ثائرٍ ثار في أطرافه[1]، عاجَلَه قبل استحكام أمْرِه، فلا يشْعُر حتَّى يُحاطَ به. وجاءَه الخبرُ يومًا أنَّ جابرَ بن لَبيد مُحاصِرٌ لـجَـيَّان، وهو يلعب بالصَّوْلَجان في القصر، فدعا بعَرِيف من أولئك العُرَفاء، وأسرَّ إليه أن يخرج بمن تحتَ يدِه إلى جابرِ بن لَبِيد، ثمَّ فعل كذلك مع أصحابه من العُرَفاء. فلم يشعر ابنُ لبيد حتَّى تساقطوا عليه مُسَرْبَلين في الحديد، فلمّا رأى[2] ذلك، سُقِطَ في يده، وظنَّ أنَّ الدنيا قد حُشِرَتْ إليه، فولَّى بمن معه منهزمًا.

وكان الحَكَمُ فصيحًا بليغًا شاعرًا مُجيدًا. فمن شِعره، رحمه الله، يتغزَّل، وذلك أنَّه كان له خمسُ جَوارٍ قد استَخْلَصَهُنَّ لنفسه ومَلَّكَهُنَّ أمْرَه، فذهب يومًا إلى الدخول عليهنّ، فأبَيْنَ عليه، وأعرَضْنَ عنه، وكان لا يصبر عنهنَّ؛ فقال[3] [من البسيط]:

---

(١) في ر٢: «موضعه».

(٢) في أ، م: «رأى العدو»، وما هنا من ر٢، وهو أحسن.

(٣) الأبيات الأربعة في الحلة السيراء ١/ ٥٠.

قُضْبٌ من البانِ مَاسَتْ فَوْقَ كُثْبانِ ... أعْرَضْنَ عَنّي وقد أزْمَعْنَ هِجْرانِي
ناشَدتُهُنَّ بحَقِّي فاعْتَزَمْنَ على الْـ ... ـهجرانِ حتَّى خَلا مِنْهنَّ هميانِي[1]
مَلَكْنَنِي مُلْكَ مَنْ ذَلَّتْ عَزِيمَتُهُ ... للحبِّ ذُلَّ أسِيرٍ مُوثَقٍ عانِي
مَنْ لي بمُغْتَصِباتِ الرُّوح من بَدَنِي ... غَصَبْنَنِي في الهَوَى عِزِّي وسُلْطَانِي

ثمَّ إنَّهُنَّ عُدْنَ عليه بالوَصْل؛ فقال [من الخفيف]:

نِلْتُ كُلَّ الوِصَالِ بعد البِعَادِ ... فكأنِّي مَلَكْتُ كُلَّ العِبادِ
وتَناهى السُّرورُ إذْ نِلْتُ ما لم ... يُغْنِ فيه تَكَاثُفُ الأجْنَادِ

ومن مليحِ قوله فيهنَّ، رحمه الله [من الخفيف]:

ظَلَّ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ مَملوكًا ... ولقَدْ كان قَبْلَ ذاكَ مَلِيكَا
إن بَكَى أو شَكَا الهَوَى زِيدَ ظُلْمًا ... وبِعادًا يُدْنِي حِمامًا وَشِيكَا
تَرَكَتْهُ جآذِرُ القَصْرِ صَبًّا ... مُسْتَهامًا على الصَّعِيد تَرِيكَا
يَجْعَلُ الخَدَّ ماثلًا فوقَ تُرْبٍ ... وهْوَ لا يَرْتَضِي الحَرِيرَ أرِيكَا
هكذا يَحْسُنُ التَّذَلُّلُ للحُرِّ إذا كان في الهَوَى مملوكَا

وله، رحمه الله، أشعارٌ كثيرةٌ في الرَّبَضيِّين القائمين عليه، لا يُجاريهِ فيها أحَدٌ. وقد تقدَّم[2] منها ما يُستدَلُّ به على فَضْله. ولـمّا دَنَتْ وفاتُه، عتب نفْسَه فيما تقدَّم منه عِتَابًا، وتاب إلى الله مَتابًا، ورجع إلى الطريقة الـمُثلَى، وقال: إنَّ الآخرة هي الأبْقَى والأوْلى؛ فتزيَّن بالتَّقْوَى، واعتصم بالعُرْوة الوثْقَى، وأقرَّ بذنوبه واعترف، وأنِسَ إلى قولِه تَعَالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وكان من عباد الله المتَّقين، إلى أن أتاه من ربِّه اليَقين، فتُوُفِّي، رحمه الله، سنة ست ومئتين.

---

(١) في م: «هيماني»، ولا معنى لها، وفي الحلة: «عصياني»، والهميان: كيس النقود.
(٢) في ر٢: «ذكرتُ».

خِلافة عبد الرَّحمن بن الحَكَم بن هِشام[1]

كُنْيَتُه: أبو الـمُطَرِّف.

أُمُّه: تُسَمَّى حَلَاوة.

مَوْلِدُه: سنة ست وسبعين ومئة.

حاجِبُه: عبدُ الكريم بن عبد الواحد.

وُزَرَاؤُه: تسعة، رِزْقُ كلِّ واحد ثلاث مئة دينار.

كُتَّابُه ثلاثة: عبد الكريم المذكور، وسُفْيَان بن عبد رَبِّه، وعيسى بن شُهَيْد.

قُضَاتُه: أحد عشر؛ منهم: يحيى بن مَعْمَر، وقَبْلَه مَسْرور بن محمَّد بن بَشير، ثمَّ سعيد بن محمَّد بن بَشِير، ثمَّ يحيى المتقدِّم الذِّكر، وغير هؤلاء، وإنَّما كَثُر القُضَاة في أيَّامه؛ لأنَّ الـمُشَاوَرَ في عَزْلهم وولايتهم يحيى بن يحيى اللَّيْثيُّ، فكان لا يولِّي رجلًا إلَّا برأيه، فكان يحيى بنُ يحيى، إذا أنكر من القاضي شيئًا، قال له: استَعْفِ وإلَّا رفعتُ بعزلك! فكان يستعفي أو يُشير يحيى بعزله، فيُعْزَل.

نَقْشُ خاتَـمه: «عبد الرَّحمن بقضاءِ الله راضٍ»، وكان له قبلَ ذلك خاتمٌ باسمه، فتَلِفَ، وأمر بطَلَبِه، فلم يُوجد، فأعاد نَقْشَ خاتم جدِّه عبدِ الرحمن، بعد أن خرج نَصْرٌ الفَتَى من عند الأمير هذا بالخاتم للنقش، وبَعَثَ في عبد الله بن الشَّمِر الشاعر، وقال له: إنَّ الأمير أمَرَ بنقش هذا الخاتم، فقُلْ ما يُنْقَش فيه فقال: [من الرَّمل]:

خاتَمٌ للمُلْـكِ أضْـحَى ... حُكْمُه في النّاسِ مَاضِي
عابِـــدُ الـــرَّحمنِ فِيـــهِ ... بقَـــــضَاءِ الله رَاضِي

فاستحسن ذلك الأميرُ عبد الرحمن، وأمَرَ بنقشها في الخاتم.

صِفَتُه: طويل، أسمر، أقْنَى، أعْيَن، أكْحَل، عظيمُ اللحية، يخضب بالحِنّاء والكَتَم.

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٥، وجذوة المقتبس ٣٠، وتاريخ الإسلام ٥/ ٨٦٢، ونفح الطيب ١/ ٣٤٤ وغيرها.

بويع بعد موت أبيه بيومٍ واحد، وذلك يوم الخميس لثلاثٍ بقين من ذي الحجَّة سنة ست ومئتين، وهو ابنُ ثلاثٍ وعشرين سنة وتسعةِ أشهر.

وتُوفِّي ليلةَ الخميس لثلاثٍ خَلَوْن من شهر ربيعٍ الآخر سنة ثمان وثلاثين ومئتين. عمرُه: اثنتان وستون سنة. خلافتُه: إحدى وثلاثون سنة وثلاثةُ أشهر وستَّة أيَّام.

بنوه الذكور: خمسة وأربعون، وبناته: اثنتان وأربعون.

وفي سنة سبع ومئتين: ثارت بتُدْمِيرَ فتنةٌ بين مُضَرَ ويَمَن، ودامت سبعَ سنين، فأغزى إليهم الأميرُ عبد الرحمن في هذا العام يحيى بنَ عبد الله بن خَلَف، ثمَّ كان يبعث إليهم المرَّةَ بعد المرَّة بالقُوَّاد، فيفترقون، فإذا قفلوا، عادوا إلى الفتنة. وكانت بينهم وبين يحيى بنِ عبد الله وقيعةٌ تُعرف بوقعة الـمُصَارة بلَوْرَقة، انتهى مبلغُ القَتْلَى فيهم إلى ثلاثةِ آلاف[1].

وفيها: كان بالأندلس جوعٌ شديدٌ، مات به كثيرٌ من الخَلْق[2].

وفي سنة ثمان ومئتين: كانت الغزاةُ المعروفة بغزاة ألَبَةَ والقِلَاع، غزاها عبدُ الكريم بن عبد الواحد بالصائفة، واحتلَّ بالثغر، وتوافت عليه عساكرُ الإسلام، واختلفوا في الدخول على أيِّ بابٍ يكون إلى دار الشِّرك، ثمَّ اجتمعوا على أن يكون من باب ألَبَة؛ إذ كان ذلك الباب أنكى للعدوِّ وأحسمَ لدائه، فاقتحموا من فَجٍّ يُقال له: جَرْنِيق، وكان وراءَه بسيطٌ للعدوّ، فيه خزائنُه وذُخْره. فوقع أهلُ العسكر على تلك البسائط، فاستصفَوْها، وعلى ذُخرِ تلك الخزائن، فانتهبوها، واستوعبوا خَرابَ كلِّ ما مرُّوا عليه من العمران والقُرَى، وأقفروها. وانصرف المسلمون غانمين ظافرين. والحمد لله[3].

وفي سنة تسع ومئتين: توفِّي عبدُ الكريم بن عبد الواحد، وكان قد أخذ في الحركة إلى أرض العدوّ، فاعتلَّ. وعوَّض منه الأمير عبدُ الرحمن بن الحكم أُمَيَّةَ بنَ مُعاوية بن هشام، فغزا بالصائفة إلى أُورِيط[4]، فاحتلَّ بها، وهي يومئذٍ للإسلام، فأخذ

---

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٨٤.

(٢) نفسه.

(٣) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٨٤.

(٤) ينظر عنها مراصد الاطلاع ١/ ١٣١.

أهْلَ الذنوب والرِّيَب، وعفا عن الباقين، ثمَّ تقدَّم إلى شَنْتَ بَرِيَّة وتُدْمِيرَ، وكان أبو الشمَّـاخ رئيسُ اليَمـانيَّة يقوم بدعوة الأمويين[١] على الـمُضَريَّة. وكانت بينهم وقعةٌ بمُرْسية كوقعةِ يوم الـمُصَارة بلَوْرَقة، فَنِيَ فيها من المسلمين أُمَمٌ. وكان انبعاثُ هذه الفتنة وسَبَبُها بين الـمُضَريَّة واليَمانيَّة على ورقةِ داليةٍ أخَذَها مُضَريٌّ من جنان يَماني، فقتله اليمانيُّ، فكان ذلك سببَ الحروب التي دارت بين الفريقَيْن، واتَّصلت أعوامًا، وكانت الدوائرُ تدورُ أكثرُها على اليَمانيَّةِ والقَتْلَى منهم، وذلك أحدُ عجائب الدهر.

وفي سنة عشر ومئتين: أمر الأميرُ عبد الرحمن ببُنيان الجامع بمدينة جَيَّان[٢].

وفيها: كَتَبَ إلى عاملِ تُدْمِيرَ أن ينزل بمُرْسية ويتَّخذَها موطنًا، فكانت حينئذٍ موضعَ نزولهم وموضعَ قرارهم، وأمَرَ بهدم مدينة أُلُّه من تدمير، ومنها ثارت الفتنة أوَّلًا[٣].

وفيها: افتتح فَرَجُ بن مَسَرَّة[٤] في أرض العدوّ حصنَ القلعة[٥]، وكان مَسَرَّة عاملَ جَيَّان.

وفي سنة إحدى عشرة ومئتين: ثار طَوْرِيل بتَاكُرُنَّا، فأخرج إليه الأميرُ عبدُ الرحمن معاويةَ بن غانِم في حَشْدٍ، فظَفِرَ به، وقطع عادِيَتَه[٦].

وفي سنة اثنتي عشرة ومئتين: غزا عُبَيْدُ الله بن عبد الله البَلَنْسِيُّ بالصائفة إلى دار الحرب، فجال في أرض العدوِّ حتَّى بلغ بَرْشِلُونة، وتردَّد في تَدْوِيخها وانتسافها ستِّين يومًا[٧].

---

(١) في أ، م: «الأمين».

(٢) الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٠٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) في ر٢: «ميسرة».

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٠٠.

(٦) الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٠٦.

(٧) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٠٠.

وفي سنة ثلاث عشرة ومئتين: انقطعت الفتنةُ بتُدْمِير، واستُنزل أبو الشمَّاخ وغيرُه من القلاع، وانقطعت عادِيَتُهم، وصار أبو الشمّاخ من وُلاة الأمير عبدِ الرحمن ومن ثِقَاته.

وفي سنة أربع عشرة ومئتين: ثار الضَّرَّاب بطُلَيْطُلة، واسمُه هاشم، وسُمِّيَ الضرَّاب؛ لأنَّه لـمّا أحرق الحَكَمُ طُلَيْطُلة، وأنزل أهلَها منها إلى السَّهْل، أخذ رهائنَهم، فدخل حينئذٍ هاشمٌ الضرَّاب قُرْطُبة، وصار يَضرِبُ بالمِعْوَل في الحدَّادين أجيرًا؛ فعُرِف بالضرَّاب. ثمَّ خرجَ من قُرْطُبَةَ إلى طُلَيْطُلة، فاستدعى أهلَ الشرِّ والفساد، وألَّبهم، فتألَّب إليه منهم نَفَرٌ، فخرجوا يُغِيرون على العَرَب والبَرْبَر. وتسامع أهلُ الشرِّ به، فقطعوا إليه، حتَّى اجتمع له منهم جمعٌ عظيمٌ وخَلْقٌ كثيرٌ، فعلا ذِكْرُه، وانتشر صِيتُه. وأوقع بالبَرْبَر بشَنْت بَرِيَّة، ودارت له عليهم دوائرُ. فأخرج الأميرُ عبدُ الرحمن إليه محمدَ بن رُسْتُم[١]، وأمَرَه بحربه، فحاربه في هذه السَّنة[٢].

وفي سنة ست عشرة ومئتين: توافت الجنودُ لمحمَّد بن رُسْتُم عاملِ الثَّغْر، فناهضَ هاشمًا الضرَّاب. وكان قد تغلَّب على جانب الثغر. وكان الأمير عبدُ الرحمن قد استقصر محمَّدَ بن رُسْتُم في حقِّه، وكتب إليه يعنِّفه، فتقدَّم ابنُ رُسْتُم، والتقى مع هاشمٍ الضرَّاب، فوقعتْ بينهم حربٌ شديدةٌ أيَّامًا، ثمَّ انهزم هاشم، وقُتل هو ومَن كان معه، وكانوا آلافًا.

وفي سنة سبع عشرة ومئتين: حوصرت مَارِدةُ وضُيِّق عليها، حتَّى فرَّ عنها خَلْقٌ كثيرٌ، وقُتل منهم كثيرٌ.

---

(١) في النسختين: «محمد بن وسيم»، وكذلك في جميع المواضع الآتية، وهو تصحيف بيّن، والمقصود هو محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم مولى الغمر بن يزيد بن عبد الملك، دخل أبوه إلى الأندلس، وكان محمد هذا بناحية الجزيرة واصطنعه عبد الرحمن بن الحكم في إمارته على شذونة من قبل أبيه الحكم، ثم لـمّا أفضت إليه الإمارة جعله حاجبًا ووزيرًا. وترجمته في الحلة السيراء ٢/ ٣٧٢، وله أخبار في المقتبس لابن حيان ١٦٨، ٢٠٥، ٢١٩، وتوفي سنة ٢٣٥هـ.

(٢) الكامل لابن الأثير ٦/ ٤١٥- ٤١٦

وفي سنة ثمان عشرة ومئتين: كان الكسوفُ العظيم، الذي توارت معه الشمس وبدا الإظلامُ، وكان ذلك قَبْلَ زوال الشمس في أواخر رمضان.

وفيها: استوزر الأميرُ عبدُ الرحمن ابْنَ شُهَيْد واستَحْجَبه.

وفيها: قامت الزيادةُ في المسجد الجامع بقُرْطُبَةَ من الأرْجُل التي بين السواري إلى القِبْلة.

وفي سنة تسع عشرة ومئتين: غزا بالصائفة أُمَيَّةُ بن الحَكَم إلى طُلَيْطُلة وحاصرها، ثمَّ قَفَلَ العسكرُ بعد أن أتلف زروعَهم وقَطَعَ ثِمارَهم. وأبقى بقَلْعةِ رَبَاح مَيْسَرَةَ الفَتَى لـمُحاصرة طُلَيْطُلة، فخرج جمعٌ عظيمٌ من طُلَيْطُلة يريدون قَلْعةَ رَبَاح، فبلغه خبرُهم؛ فجَمَعَ الجموع، وكَمَنَ الكمائن. فلمّا قَرُبوا منها، وفرَّقوا خيلَهم في الغارة، خرجتْ عليهم الكمائنُ، فقُتلوا، وحُزَّت رؤُوسُهم، فجُمعت بين يدي مَيْسَرة، واجتمع منها جُملةٌ عظيمةٌ، فلمّا رأى ذلك، ارتاع وداخله الندمُ، فلم يلبثْ بعد ذلك إلَّا يسيرًا حتَّى مات ندمًا وأسَفًا[١].

وفي سنة عشرين ومئتين: غزا الأميرُ عبدُ الرحمن، فجعل صَدْرَ وِجهته على طُلَيْطُلة[٢]، وولَّى أبا الشمَّـاخ قَلْعةَ رَباح، وأبقى عنده خَيْلًا كثيفة ورَجْلًا كثيرة لمناهضة طُلَيْطُلة، وتقدَّم هو إلى كُوَر الغَرْب. وكان سُليمانُ بن مَرْتِينَ قد تحيَّل عليه يحيى المارِديُّ، فأخرجه من مَارِدَةَ، فكان في قُنَن الجبال حِينًا، فحلَّ عليه الأميرُ في هذه الغزاة، وحاصره حتَّى ضاقَ سليمانُ بن مَرْتِين في الحِصْن، فخرج ليلًا، فبَيْنا هو يمشي، إذ وافَقَ صخرةً ملساءَ على وجه الأرض، فزَلَقَ به الفرسُ، فسقط، ومات. ووجده رَجلٌ، فاحتزَّ رأْسَه، وادَّعى قَتْلَه، ثمَّ عُرِف أمْرُه.

وفي سنة إحدى وعشرين ومئتين: افْتُتِحت طُلَيْطُلة[٣]. وكان السببُ في ذلك أنَّ ابنَ مُهاجِر خرجَ عنها، ونزع إلى قَلْعة رَبَاح، واستدعى القُوَّاد، فخرجوا إليه،

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٤٤.

(٢) الكامل ٦/ ٤٥٤.

(٣) ذكر ابن الأثير هذا في سنة ٢٢٢ (الكامل ٦/ ٤٧٥).

فنَهضَ بهم إلى أبواب المدينة، وقطع عنهم مرافِقَهم. فكان ذلك من[1] أقوى الأسباب في افتتاحها. وكان عبدُ الواحد الإسْكَنْدَرانيُّ بعثه الأميرُ إليهم، فوجدهم قد بَلَغَ بهم الجَهْد. ثمَّ أطلَّ عليهم الأمير، فافتتحها قَهْرًا[2]، ودخلها على حُكْمه، وأمَرَ بتجديد القصر الذي كان بناه عَمْرُوس في أيام الحَكَمِ على باب الجَسْر. وقيل: إنَّ الذي افتتح طُلَيْطُلَةَ الوليدُ بن الحَكَم، وجَّهه إليها أخوه عبدُ الرحمن.

وفي سنة اثنتين وعشرين ومئتين: افتتحها عَنْوةً، ودخلها في شهر رجبٍ من هذه السنة على حُكْمه.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومئتين: أغزى الأميرُ عبدُ الرحمن بن الحكَم أخاه الوليدَ بن الحَكَم إلى جِلِّيقِيَّة، فدخلَ من باب الغَرْب مع قَطيعٍ من العسكر، فدوَّخها. وكانت له فتوحاتٌ كثيرة.

وفي سنة أربع وعشرين ومئتين: أغزى الإمامُ عبدُ الرحمن ابنَه الحَكَم إلى دار الحَرْب[3]، وأمره بالتجوُّل في جهات الثغور؛ ليتعرَّف أخبارَها ومَصالحَها. وأمَرَ بإصلاح قَنْطرة سَرَقُسْطة. ودخل الحَكَمُ بالصائفة إلى دار الحرب، فدوَّخها، وقَتَلَ من المشركين ما لا يُحصى. واجتمعَ مِنْ رؤُوسِهم أكداسٌ كالجبال، حتَّى كان الفارسُ يقف من ناحية، فلا يَرى صاحِبَه من ناحية أُخرى من عِظَمها[4].

وفيها: كانت رُجومٌ بالنجوم، في جُمادى الآخرة، وتناثرت الكواكبُ من قِبْلةٍ إلى جوفٍ، ومن شرقٍ إلى غربٍ، بجزيرة الأندلُس.

وفي سنة خمس وعشرين ومئتين: غزا الإمامُ عبدُ الرحمن بنفسه أرضَ جِلِّيقِيَّة[5]. ففتح حصونَها، وجال في أرضها. وطالت غَزاتُه، وتَعِبَ كَثيرًا، فأرِقَ في بعض الليالي،

---

(١) من ر٢.

(٢) في ر٢: «قسرًا».

(٣) ذكر ابن الأثير أن عبد الرحمن أغزى في هذه السنة عبيد الله ابن البلنسي (الكامل ٦/ ٥٠٧).

(٤) في ر٢: «لعظمها».

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ٥١٦.

فلمّا كان في بعض الليل، حضر عبدُ الله بن الشِّمْر[1] الشاعر، فوصف له أرَقَه، وأنّه تذكّر بعضَ مَن حنَّ إليه، فقال عبدُ الله بن الشِّمْر [من المتقارب]:

عَـدَانِيَ عَنْـكَ مَـزَارُ العِـدَى ... وقَـوْدِي إلـيهم لُهَامًـا مَهِيبَـا
وكَـمْ قَـدْ تَعَـسَّفْتُ مـن سَبْـسَبٍ ... وجـاوَزْتُ بعـد دُروبٍ دُرُوبَـا[2]
وأدَّرِعُ النَّقْـعَ حتَّـى لَبِـسْـ ... ـتُ مِن بَعْدِ نَضْرةِ وَجْهي شُحُوبَا
أُلاقِـي بـوَجْهِي سُـمُومَ الهَجِـيرِ ... وَقَـدْ كـادَ مِنْـه الحَـصَى أن يَـذوبَا
أنـا ابـنُ الهِـشامَيْن مِـن غالِـبٍ ... أَشِـبُّ حُرُوبًـا وأُطْفِـي كُروبَـا[3]
وبي ادَّرَكَ اللهُ دِيـنَ الهُـدى ... فأَحْيَيْتُـهُ واصْـطَلَمْتُ الـصَّلِيبَا
سَـمَوْتُ إلى الـشِّرْكِ في جَحْفَـلٍ ... مَـلأْتُ الحُـزُونَ بِـهِ والـسُّهُوبَا

وفي سنة ست وعشرين ومئتين: غزا بالصائفة إلى جِلِّيقِيَّة من بلاد العدوِّ مُطَرِّفُ بن عبد الرحمن، فتوسَّط بَسِيطَهم، وذهبَ بنَعمتِهم، وكان القائدُ عبدَ الواحد بن يزيد الإسْكَنْدَرَانيَّ.

وفي سنة سبع وعشرين ومئتين: خرجَ عُبَيْدُ الله بن عبد الله صاحبُ الصوائف، فلمّا حصلَ بين أرْبُونةَ وسَرْطَانِيَة[4]، تَجالبَ الأعداءُ من كلِّ ناحية، وأحاطوا بالعسكر ليلًا؛ فقاتلهم المسلمون الليلَ كلَّه، فلمّا انبلجَ الضوءُ، أيَّدَ اللهُ المسلمين، وهَزَمَ الأعداءَ[5].

وفي سنة ثمان وعشرين ومئتين: خرج الأميرُ عبدُ الرحمن بنفسه إلى أرض العدوّ، وخلَّفَ في القصر ولدَه الـمُنْذِر، وجعل على مَيْمنتِه ولدَه محمَّدًا، وعلى الـمَيْسَرة ولدَه

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٠٩ (٦٨٩).
(٢) في ر٢: «ولاقيت بعد دؤوب دؤوبا».
(٣) في ر٢: «حروبا».
(٤) انظر عنها الروض المعطار ١/ ٣١٥.
(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ٥٢٩.

الـمُطَرِّف. فلقيَ جيشًا كبيرًا من المشركين، فناشَبَهم الحرب، فأنزل اللهُ نَصْرَه على المسلمين، وهَزموا المشركين، وأثخنوا فيهم القتل[1]. وأفاءَ اللهُ على المسلمين من ذَراري أهلِ بَنْبَلُونة[2] وخيلِهم وأسْلِحَتِهم ما عَظُمَ به مِنَ الله سبحانه المنُّ. وقَفَلَ عزيزًا[3] في منتصف شوَّال، وكان خروجُه من قُرْطُبَةَ لتسعٍ بَقِيْن من شعبان.

وفي سنة تسع وعشرين ومئتين: خرج الأميرُ عبدُ الرحمن لمحاصرة موسى بن موسى بتَطِيلة، فدوَّخ بلادَه، ثمَّ صالحَه. ثمَّ تقدَّم إلى بَنْبَلُونة، فكانت له بها وقعةٌ عظيمةٌ على المشركين، فَنِيَ فيها أعداءُ الله، وكان معهم موسى بن موسى، فناله ورجالَه ما نالَهُم[4].

وفيها: ورد كتابُ وَهْبِ الله بن حَزْم عامِلِ الأُشْبُونة، يذكرُ أنه حلَّ بالساحِلِ قِبَلَه أربعةٌ وخمسون مَرْكَبًا من مراكِبِ الـمَجُوس[5]، معها أربعةٌ وخمسون قاربًا، فكتب إليه الأميرُ عبد الرحمن وإلى عُـمَّال السواحِل بالتحفُّظ.

دُخُول الـمَجُوس إشبِيلِيَة في سنة ثلاثين ومئتين

فخرج الـمَجُوسُ في نحوِ ثمانين مَرْكبًا، كأنَّـما ملأت البحرَ طَيْرًا جُوْنًا، كما ملأت القلوب شجْوًا وشُجُونًا، فحَلُّوا بأُشْبُونة، ثمَّ أقبَلوا إلى قادِس إلى شَذُونة، ثمَّ قدموا على إشْبِيلِيَة، فاحتلُّوا بها احتلالًا ونازلوها نِزالًا، إلى أن دخلوها قَسْرًا، واستأصلوا أهلَها قَتْلًا وأسرًا. فبقُوا بها سبعةَ أيَّام، يَسْقون أهْلَها كأْسَ الـحِمام. واتَّصل الخبرُ بالأمير عبد الرحمن، فقدَّم على الخيل عيسى بنَ شُهَيْد[6] الحاجبَ، واتَّصل

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨.

(٢) انظر عنها الروض المعطار ١٠٤.

(٣) في م: «غزيرًا».

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨.

(٥) كان المسلمون هنا يطلقون لفظة: «المجوس» على النورمان؛ لأنهم كانوا إذا أغاروا على موضع أشعلوا فيه النيران.

(٦) في ر٢: «سعيد».

المسلمون به اتّصَالَ العَيْنِ بالحاجب. وتوجَّه بالخيل عبدُ الله بن كُلَيْب وابنُ رُسْتُم[1] وغيرُهما من القُوَّاد، واحتلَّ بالشَّرَف. وكتب إلى عُمَّال الكُوَر في استنفار الناس، فحلُّوا بقُرْطُبة، ونفَّر بهم نَصْرٌ الفتَى. وتوافت للمَجُوس مَراكبُ على مَراكب، وجعلوا يَقتُلون الرِّجال، ويَسْبُون[2] النساءَ، ويأْخذون الصِّبيان، وذلك بِطُول ثلاثةَ عشر يومًا؛ ذكر ذلك في «بَهجة النَّفْس». وفي كتاب «دُرَر القَلَائِد»: سبعة أيَّام، كما تقدَّم. وكانت بينهم وبين المسلمين مَلاحِمُ. ثمَّ نهضوا إلى قَبْطِيل[3]، فأقاموا بها ثلاثةَ أيَّام، ودخلوا قُورَة[4]، على اثني عشر ميلًا من إشبيلية، فقَتلوا من المسلمين عَددًا كثيرًا، ثمَّ دَخلوا إلى طَلْيَاطَة، على ميلَيْن من إشبيلية، فنزلوها ليلًا، وظهروا بالغداة بموضعٍ يُعرف بالفَخَّارِين، ثم مَضَوْا بمراكبهم، ونزلوا جوبا من إشبيلية، فتراحَوْا عن مراكبهم[5]، واعتركوا مع الـمُسلمين، فانهزم المسلمون، وقُتل منهم ما لا يُحصى. ثمَّ عادوا إلى مراكبهم، ثمَّ نهضوا إلى شَذُونَة، ومنها إلى قادِس، وذلك بعد أن وجَّه الأميرُ عبد الرحمن قُوَّاده، فدافَعَهم ودافعوه، ونُصبت الـمَجَانِيقُ عليهم، وتوافت الأمدادُ من قُرْطُبة إليهم؛ فانهزم الـمَجُوس وقُتل منهم نحو من خمس مئة عِلْج، وأُصِيبَت لهم أربعةُ مراكبَ بما فيها، فأمر ابنُ رُسْتُم[6] بإحراقها وبَيْعِ ما فيها من الفَيْء. ثمَّ كانت الوقعةُ عليهم بقَرْية طَلْيَاطَة يومَ الثلاثاءِ لخمسٍ بقين من صَفَر من السنة، قُتل فيها منهم خَلْقٌ كثيرٌ، وأُحرق من مراكبهم ثلاثون مركبًا. وعُلِّق من الـمَجُوس بإشبيلية عددٌ كثيرٌ، ورُفع منهم في جُذُوع النَّخْل التي كانت بها. وركب سائرُهم مَراكِبَهم، وساروا إلى لَبْلَة، ثمَّ توجَّهوا منها إلى الأُشْبُونة، فانقطع خبَرُهم[7].

---

(١) في النسختين: «وسيم»، وقد تقدم الكلام عليه.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «قنطيل».

(٤) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٤١٢.

(٥) قوله: «ونزلوا جوبا» إلى هنا من ر٢.

(٦) في النسختين: «وسيم»، خطأ.

(٧) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٦ - ١٧ باختلاف.

وكان[1] احتلالُهم بإشبيلية يومَ الأربعاء لأربع عشرة ليلة خَلَتْ من المحرَّم من سنة ثلاثين ومئتين. وكان[2] بين دخولهم إلى[3] إشبيلية وخروج مَنْ بقي منهم[4] وانقطاعِهم اثنان وأربعون يومًا، فقتلهم اللهُ وأبادهم، ولـمّا قَتَلَ اللهُ أميرَهم، وأفنى عديدَهم، وفتح فيهم[5]، خرجت الكُتُب إلى الآفاق بخبرهم. وكتب الأميرُ عبد الرحمن إلى مَن بطَنْجَة من صُنْهاجة، يُعْلِمهم بما كان من صُنْع الله في الـمَجُوس، وبما أنزل فيهم من النِّقْمة والهَلَكة، وبعث إليهم برأس أميرهم وبمئتَيْ رأْس من أنجادهم[6].

وفي سنة إحدى وثلاثينَ ومئتين: غزا بالصائفة إلى[7] جِلِّيقِيَّة محمَّدُ ابن الأميرِ عبدِ الرحمن، فحصرها، وحصر مدينةَ لِيُون[8]، ورماها بالمجانيق، فلمّا أيقنوا بالهلاك، خرجوا ليلًا، ولجؤُوا إلى الجبال والغِياض، فأحرق ما فيها، وأراد هَدْمَ سُورِها، فوجدهُ سبع[9] أو ثمان عشرة ذراعًا، فتركه، وأمعن في بلاد الشِّرك قتلًا وسَبْيًا.

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئتين: قحطت الأندلُسُ قحطًا شديدًا، وكانت فيها مجاعةٌ عظيمةٌ، حتَّى هَلكت المواشي، واحترقت الكُرُوم، وكثُر الجَراد[10].

وفي سنة أربع وثلاثين ومئتين: أمر الأميرُ بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة مَيُورَقة؛ لنكايتهم، وإذلالهم، ومجاهرتهم بنقضهم العَهْدَ، وإضرارِهم بمن مَرَّ عليهم من

---

(١) من هنا إلى قوله: «ثلاثين ومئتين» ليس في ر٢.

(٢) في ر٢: «فكان».

(٣) ليست في ر٢.

(٤) في ر٢: «منها».

(٥) جاءت العبارة في ر٢ مختصرة كما يأتي: «ولما فتح الله فيهم هذا الفتح».

(٦) في ر٢: «أجنادهم».

(٧) من ر٢.

(٨) الروض المعطار ٥١٤.

(٩) في ر٢: «فوجد سعته»، وما هنا من أ، وهو الأصوب، ففي الكامل لابن الأثير: «سبع عشرة ذراعًا» (الكامل ٧/ ٢٤).

(١٠) المقتبس لابن حيان ١٤٣ (ط. محمود).

مَرَاكِبِ المسلمين. فغَزَتهم ثلاث مئة مَرْكَب، فصنع اللهُ للمسلمين جميلًا، وأظفَرَهم بهم، وفتحوا أكثرَ جَزائرهم[1].

وفي سنة أربع وثلاثين ومئتين المذكورة: توفِّي يحيى بنُ يحيى[2]، فاستراح القُضاةُ من همِّه[3].

وفي سنة خمس وثلاثين ومئتين: ورد كتابُ أهل مَيُورَقة ومِنُورَقة إلى[4] الأمير عبدِ الرحمن، يذكرون ما نالهم من نِكاية المسلمين لهم[5]، فكتب إليهم كتاباً أذْكُرُ هنا فُصولًا منه، وهو: أمَّا بَعْدُ، فقد بَلَغَنا كتابُكم، تذكرون فيه أمْرَكم، وإغارةَ المسلمين الذين وجَّهناهم إليكم لجهادكم، وإصابتَهم ما أصابوه منكم من ذَراريكم وأموالِكم، والـمَبْلَغَ الذي بلغوه منكم، وما أشْفَيْتُمْ عليه من الهلاك. وسألْتُمْ التَّدارُكَ لأمركم، وقَبولَ الجزية منكم، وتجديدَ عهدِكم على الـمُلازمة للطاعة، والنصيحةِ للمسلمين، والكفِّ عن مكروههم، والوفاءِ بما تَحْمِلونَه عن أنفسكم. ورجَوْنا أن يكون فيما عُوقِبتم به صلاحُكم، وقَمْعُكم عن العَوْد إلى مثل الذي كنتم عليه. وقد أعطيناكم عَهْدَ الله وذِمَّتَه.

وفيها: كان سيلٌ عظيمٌ بجزيرة الأندلُس[6]، حَمَل واديَ شنيل[7]، وخرَّب قَوسَيْن من حَنَايا قَنْطرة إسْتِجَة، وخرَّب السِّداد[8] والأرحاءَ. وذهب السيلُ بستَّ عشرة قَرْيةً من قُرَى إشْبِيلِيَة على النهر الأعظم. وحَمَل واديَ تاجُه، فأذهب ثمان عشرة قَرْيةً، وصار عَرْضُه ثلاثين مِيلًا[9].

---

(١) المقتبس ١٤٣ (ط. محمود).

(٢) في ر٢ بعد هذا: «الليثي رضي الله عنه!».

(٣) في أ: «سمّه»، وانظر عنه مقدمتنا لكتاب «الموطأ» بروايته.

(٤) في ر٢: «على».

(٥) المقتبس ١٤٥ (ط. محمود).

(٦) في ر٢: «بالأندلس».

(٧) في م: «شيل»، وما هنا يعضده ما في المقتبس ١٤٦.

(٨) في م: «الأسداد».

(٩) المقتبس لابن حيان ١٤٦ (ط. محمود).

وفي سنة ست وثلاثين ومئتين: ثار رَجلٌ من البَرْبَر، يُقال له: حَبِيب البُرْنُسيُّ، بجبال الجزيرة، وتأبَّش إليه جماعةٌ من أهل الشرِّ والفَساد، فأخرج إليه عبدُ الرحمن الأجنادَ، فلمّا وصلوا إليه، ألفوا البَرْبَر قد قَصَدوا حبيبًا ومَن تأبَّش إليه، فتغلَّبوا على الـمَعْقِل الذي كان انضوى إليه، وأخرجوه عنه، وقَتلوا عِدَّةً كثيرةً من أصحابه، وافترق بقيَّتُهم عنه، ودخل حبيبٌ في غِمار الناس؛ فكتب الأميرُ عبدُ الرحمن إلى عُـمَّال الكُوَر بالبحث عنه(١).

وفي سنة سبع وثلاثين ومئتين: قام رجلٌ من الـمُعَلِّمين بشَرْق الأندلُس، فادَّعى النُبوَّة، وتأوَّل القُرآنَ على غير تأْويله، فاتّبعه جماعةٌ من الغَوْغاءِ، وقامَ معه خَلْقٌ كثير. وكان من بعض شرائعه: النهيُ عن قَصِّ الشَّعرِ وتَقْلِيم الأظفار، ويقول: لا تغيير لخَلْق الله!، فبَعَثَ إليه يحيى بنُ خالد، فأُتِيَ به، فلما دخل عليه، كان أوَّلُ ما خاطَبَه به أن دَعَاهُ إلى اتِّباعه والأخْذِ بما شرع، فشاوَرَ فيه أهْلَ العِلْم، فأشاروا بأن يُستتاب، فإن تابَ، وإلَّا قُتِل، فقال: كيف أتوبُ من الحقِّ الصحيح! فأمَرَ بصَلْبه، فلمّا رُفع في الخَشَبة، قال: أتقتلون رجلًا أنْ يقولَ: ربِّي اللهُ! فصلبهُ، وكتب إلى الأمير بخبره(٢).

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئتين: تُوفِّي الأميرُ عبد الرحمن بن الحَكَم، رحمه الله، ليلةَ الخميس لثلاثٍ خَلَوْن من ربيع الآخر من السنة. وما زال يَقْتَنِي المآثِر ويبني المكارم والمفاخر، حتَّى قبضَتْه شَعُوب، وأرْداه مُرْدِي القبائل والشُّعوب(٣).

ذكر بعض أخباره على الـجُمْلة وسِيَره

لـمَّا وَلِيَ الأميرُ عبد الرحمن، بَعَثَ في إخوته وأهله ووزرائه، فبايَعُوه، وبايعَتْه العامَّة. ثمَّ صلَّى على أبيه الحَكَم، فلمّا قَضَى صلاتَه وواراه، جلسَ بالأرض متطأْطئًا، ليس تحته وِطاءٌ، وجلسَ مَن كان معه، ثمَّ افتتح القول، فقال: الحمدُ لله، الذي جعل

---

(١) المقتبس لابن حيان ١٤٨ (ط. محمود).

(٢) المقتبس ١٥٧ (ط. محمود).

(٣) المقتبس ١٥٨ (ط. محمود).

الموتَ حَتْمًا من قضائه، وعَزمًا من أمْرِه، وأجرى الأُمورَ على مشيئته، فاستأْثر بالـمَلَكُوت والبقاء، وأذلَّ خَلْقَه بالفناءِ، تبارك اسمُه وتَعَالَى جَدُّه، وصلَّى الله على محمَّدٍ نبيِّه ورسوله، وسلَّم تسليمًا. وكان مُصابُنا بالإمام، رحمه الله، ممَّا جلَّت به الـمُصيبة، وعَظُمَتْ به الرزيَّة، فعند الله نحتسبُه، وإيَّاه نسأل إلهامَ الصبر، وإليه نرغبُ في كمال الأجْر والذُّخْر[1]. وعَهِدَ إلينا فيكم بما فيه صلاحُ أحوالكم، ولسنا مـمَّن يُخالفُ عَهْدَه، بل لكم لدينا الـمَزيدُ إن شاء الله. ثمَّ قام عنهم، وخَرَجت لهم الأموالُ والكُسا على قَدْر أقدارهم.

وكان شاعرًا، أديبًا، ذا همَّة عالية. وكانت له غَزَواتٌ كثيرة، وفتوحات في دار العدوِّ شهيرة، يخرج إليها في العَدد الجَمّ، والعسكرِ الضخم، يخرِّب ديارَهم، ويُعفِي آثارَهم، ويَقفِلُ[2] ظاهرَ الاعتلاءِ، قاهر الأعداءِ. لم يَلْقَ المسلمون معه بُؤْسًا، ولم يرَوْا في مُدَّته يومًا عُبوسًا. وهو أوَّلُ مَن جرى على سَنَن الخلفاءِ في الزِّينة والشكل، وترتيبِ الخدمة، وكَسا الخلافةَ أُبَّهَةَ الجلالة؛ فشيَّد القصور، وجلبَ إليها المياه، وبنى الرَّصِيف، وعمل عليه السَّقَائف[3]، وبنى المساجدَ الجوامع بالأندلُس، وعمل السِّقاية على الرَّصيف وأحدث الطُّرُز، واستنبط عَمَلَها، واتَّخذ السِّكَّة بقُرْطُبة، وفَخُمَ مُلْكُه.

وفي أيَّامه دخل الأندلُسَ نفيسُ الوِطاءِ وغرائبُ الأشياء، وسِيقَ ذلك إليه من بَغْدادَ وغيرِها. وعندما قُتِل محمَّدٌ الأمين، ابنُ هارون الرشيد، وانتُهِب مُلْكُه، سِيْقَ إلى الأندلُس كلُّ نفيس غريب من جَوْهرٍ ومَتَاع. وقُصِد بالعِقْد المعروف بعِقْد الشِّفَاء، وكان لزُبَيْدة أمِّ جعفر.

ومن مآثرِه: أنَّه كان وَرَدَ عليه يومًا أموالٌ من بلاده، لعَطِيَّات أجناده، فأدخلت إليه وجُعلت الخرائطُ بين يديه. وكان بَعَثَ فتيانَه، فخلا مجْلِسُه إذ ذاك، ولم يَبْقَ أحدٌ

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «ويرجع».

(٣) في ر٢: «السقايات»، وسيأتي عمل السقاية على الرصيف.

هناك، حاشى فتًى كان بين يديه واقفًا، وعلى خدمته الخاصَّة عاكفًا، فغَشِيَت الأميرَ عبدَ الرحمن نَعْسة، ظنَّها الفتى نُـهْزةً وخُلْسة، فقبض على خَريطةٍ من ذلك المال، وأسدل عليها كُمَّه أسْبَغَ إسدال، والأميرُ يُلاحظه بطَرْفٍ خَفِيّ، ويصمتُ عنه صَمْتَ بَرٍّ حَفِيّ، ففازَ الفتى بماله، وناطَ به أسبابَ آماله، فلمّا رجع الفتيان، أمَرَهم الأميرُ عبد الرحمن برفع تلك الخرائط المبسوطة، فوجدوا نقصانَ تلك الخريطة، فتدافعوا فيها إذ ذاك، كلٌّ يقول لصاحبه: أنت أخذتَها من هناك، فقال لهم الأمير: اسْكُتوا عن هذا! فقد أخذها مَن لا يردُّها، وعايَنَه مَن لا يقولها. فكان هذا مـمَّـا عُدَّ من كَرَمِه وفَضْله.

وكانت له جاريةٌ تسمَّى طَرُوب[1]، كان بها دَنِفًا، فصدَّتْ عنه يومًا، وأبْدَتْ هِجْرانه، فأرسل فيها، فامتنعتْ عليه، وأغلقتْ على نَفْسِها بيتًا؛ فأمر ببنيان الباب بالخرائطِ المملوءة من الدَّراهم؛ استرضاءً لها، واستعطافًا لوَصْلها. فلمّا فتحت البابَ، تساقطت الخرائطُ من كلِّ جانب، فأخذَتها، فألْفت فيها نحوًا من عشرين ألفًا، وأمر لها بعِقْد قيمته عشرةُ آلاف دينار، فجعل بعضُ مَن حَضَر من وزرائه يعظِّم الأمرَ عليه، فقال الأمير عبدُ الرحمن: إنَّ لابسَه أنفسُ منه خَطَرًا وأرفع قَدْرًا! ولئن راق من هذه الحَصْباء منظرُها، ورصف في النفس جوهرُها، فلقد بَرَأ الله من خَلْقِه جوهرًا يَغشى الأبصار، ويَذهَبُ بالألباب. وهل على وجهِ الأرض من زَبَرْجَدها وشريفِ جَوْهرها أقَرُّ لِعَيْن، وأجْمَعُ لزَيْن، من وَجْهٍ أكملَ اللهُ فيه الحُسْنَ ونضرتَه، وألقى عليه الجمالُ بَهْجتَه؟ ثمَّ قال لعبد الله بن الشِّمْر الشاعر وكان حاضرًا: هل يَحْضُرُك شيءٌ في المعنى؟ فأنشد [من الطويل]:

أتُقْـرَنُ حَـصْباءُ اليَوَاقِيـتِ والـشَّذْرِ ... بِمَنْ يَتَعَالَى عن سَنَا الشَّمْسِ والبَـدْرِ
بِمَنْ قَدْ بَرَتْ قِـدْمًا[2] يَـدُ الله خَلْقَـهُ ... ولم يَـكُ شَـيْئًا قَبْلَـهُ أبَـدًا يَـبْرِي
فـأكْرِمْ بـه مِـنْ صَـنْعةِ الله جَـوْهَرًا ... تَـضَاءَلَ عنه جَـوْهَرُ الـبَرِّ والبَحْـرِ

---

(١) ترجمتها في التكملة الأبارية ٤/ ٢٢٣ ومصادر ترجمتها في التعليق عليها.

(٢) في ر٢: «يومًا».

فأعجبت الأميرَ الأبياتُ وطرب لها طربًا شديدًا. وأنشد الأميرُ مُرْتَجِلًا [من الطويل]:

قَرِيضُكَ يَا ابْنَ الشِّمْرِ عفَّى على الشِّعْرِ ... وجَلَّ عن الأوْهامِ والذِّهْنِ والفِكْرِ
إذا شَافَهَتْهُ الأُذْنُ أدَّى بسِحْرِها ... إلى القَلْبِ إبداعًا فجَلَّ عن السِّحْرِ
وهلْ بَرأَ الرَّحمنُ من كُلِّ ما بَرَا ... أقَرَّ لِعَيْنٍ من مُنَعَّمَةٍ بِكْرِ
تَرَى الوَرْدَ فَوْقَ اليَاسَمِينِ بخَدِّها ... كما فُوِّقَ الرَّوْضُ المُنَعَّمُ بالزَّهْرِ
فلو أنَّني مُلِّكْتُ قَلْبِي ونَاظِرِي ... نَظَمْتُهُما مِنْها على الجِيدِ والنَّحْرِ

ثمَّ أمر لابن الشِّمْر ببَدْرة فيها خمسُ مئة دينار، فخرج مع الوصيف يحملُها له تحت إبْطه، فلمّا تَوارَيا عن الأمير، قال له الوصيف: أين لذَّاتُ العُمر، يا ابن الشِّمْر؟ فقال: تحت إبطك يا سَيِّدي!

ودخل عليه الغَزَالُ الشاعرُ يومًا، فقال الأمير [من الكامل]:

جاءَ الغَزَالُ بحُسْنِهِ وجَمَالِهِ

فقال له الوزير: أجِزْ ما بدأ به الأمير، فقال الغَزَال:

قالَ الأميرُ مُدَاعِبًا بِمَقَالِهِ ... جَاءَ الغَزَالُ بحُسْنِهِ وجَمَالِهِ
أيْنَ الجَمالُ من امْرِئٍ أرْبَى عَلَى ... مُتَعَدِّدِ السَّبْعِينَ من أحْوالِهِ
وهلِ الجَمالُ لَهُ؟ الجَمالُ مِن امْرِئٍ ... ألقاهُ رَيْبُ الدَّهْرِ في أغْلالِهِ
وأعادَهُ مِن بَعْدِ جِدَّتِهِ بِلًى ... وأحالَ رَوْنَقَ وَجْهِهِ عن حالِهِ

وهي طويلة[1].

ومن قول الإمام عبدِ الرحمن[2]، رحمه الله، يَصِفُ حالَ المَعْزُول، فأبْدَعَ [من الطويل]:

---

(١) «وهي طويلة» ليست في ر٢.

(٢) بعد هذا في ر٢: «ابن الحكم».

أَرَى الـمَرْءَ بَعْدَ العَزْلِ يَرْجِـعُ عَقْلُـهُ وقَـدْ كـان في سُـلْطَانِهِ لَـيْسَ يَعْقِـلُ
فتُلْفِيـهِ جَهْـمَ الوَجْـهِ مـا كـانَ وَالِيًـا ويَــسْهُلُ عَنْــهُ ذَاكَ سَــاعَةَ يُعْــزَلُ

وكتب إليه بعضُ عُمّاله يسأله عملًا رفيعًا ليس من شاكِلته، فوقّع له في أسفل كتابه: مَنْ لم يُصِبْ وَجْهَ مَطْلَبِه، كان الحِرْمانُ أولَى به. ومثل هذا كثيرٌ مـمَّا يدلُّ على فضله.

خلافة محمَّد بن عبد الرَّحمن بن الحَكَم بن هِشام[١]

كُنْيَتُهُ: أبو عبد الله.

أُمُّهُ: بُهَيْر[٢].

مَوْلِدُه: في شهر ذي القعدة سنة سبع ومئتين.

وزراؤُه وقُوَّادُه: اثنا عشر.

حُجَّابُه: اثنان: ابن شُهَيْد وابن أبي عَبْدة.

كُتَّابُه: ثلاثة: عبدُ الملك بن أُمَيَّة، وحامِد بن محمَّـد الزَّجَّاليُّ، وموسى بن أبان.

قُضاته: أحمد[٣] بن زِيَاد، ثمَّ عمرو[٤] بن عبد الله المعروف بالقُبَعة، ثمَّ سليمان[٥] بن أسْوَد الغافِقيُّ.

نَقْشُ خاتمه: «بالله يَثِقُ مُحَمَّدٌ وَبِهِ يَعْتَصِم».

صِفَتُه: أبيضُ، مُشْرَبٌ بحُمْرةٍ، رَبْعةٌ، أوقصُ، وافرُ اللحية، يَخضِبُ بالحنَّاء والكَتَم.

بنوه: ثلاثة وثلاثون. **بناتُه**: إحدى وعشرون.

بويع يومَ الخميس لأربعٍ خلونَ لربيع الآخر سنةَ ثمان وثلاثين ومئتين، وهو ابنُ ثلاثين سنة وخمسة أشهر.

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٥، وجذوة المقتبس ٣١، والمعجب ٤٩، وتاريخ الإسلام ٦/ ٦١٢، ونفح الطيب ١/ ٣٥٠.

(٢) في الجذوة: «تهتز»، وفي الكامل ٧/ ٧٠: «بهتر».

(٣) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٧٤، وتاريخ الإسلام ٧/ ٤٥٣.

(٤) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٤١٤.

(٥) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٢٥٥.

وتوفِّي يومَ الخميس لليلةٍ بقيتْ من شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومئتين. عُمُرُه: خمس وستُّون سنة وأربعةُ أشهر. وكانت خلافتُه أربعًا وثلاثين سنة وعشرةَ أشهر وعشرين يومًا.

وفي سنة ولايته: ثار عليه أهلُ طُلَيْطُلة، وحبسوا العامِلَ عندهم، حتَّى أُطْلِقَتْ رهائنُهم من قُرْطُبة، وحينئذٍ أطلقوه.

وفي سنة تسع وثلاثين ومئتين: خرج الحَكَمُ ابن الأمير عبدِ الرحمن إلى طُلَيْطُلة بالصائفة. وكانت قَلْعة رَبَاح قد أقْفَرَت؛ خوفًا من أهل طُلَيْطُلة؛ فاحتلَّها الحَكَم، وأمر ببنيان سُورها، واسترجاع مَن فرَّ من أهلها إليها[1].

وفيها: أخرج الأميرُ محمَّد إلى شَنْدُلة قاسمَ بن العبَّاس وتـمَّـام بن أبي العَطَّاف صاحبَ الخَيْل، ومعهما الحَشَم[2]، فلَمَّا حلَّا بأنْدُوجَر، خرجتْ عليهم كمائنُ أهل طُلَيْطُلة، ووقعت الحربُ، وكَثُرَ القتلُ، فانهزمَ قاسمٌ وتـمَّام، وأُصيب ما في العسكر. وفي ذلك، يقولُ صَفْوانُ بن العبَّاس أخو قاسمِ المذكور [من مجزوء الرمل]:

ضَرَطَ القاسِـمُ يَوْمًـا ضَرْطَـةً في القَـرَمِيطِ
مَاتَ مِنْها كـلُّ حُـوتٍ كَانَ في البَحْرِ الـمُحيطِ

وكانت هذه الوقعةُ في شوَّال[3].

وفي سنة أربعين ومئتين: خرج الأميرُ محمَّدٌ بنفسه إلى طُلَيْطُلة في المحرَّم، فلمّا اتَّصل بأهلها ذلك، أرسلوا إلى أُرْدون بن أذْفُونْش صاحبِ جِلِّيقِيَّة، يُعْلِمونه بحركته ويستمدُّون به[4]، فبعث إليهم أخاه غَتُّون[5] في جمعٍ عظيم من النصارى. فلمّا اتَّصل ذلك بالأمير محمَّدٍ، وقد كان قارَبَ طُلَيْطُلة، أعمل الـحِيْلَةَ والكَيْد، واستشعر الـحَزْمَ، فعبَّأ الجيوشَ، وكَمَّن الكمائنَ بناحية وادي سَلِيط، ثمَّ نَصَبَ الرُّدُود، وطلع في أوائل

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ٧١.
(٢) «ومعهما الحشم» ليست في ر٢.
(٣) هذه الجملة ليست في ر٢.
(٤) في ر٢: «ويستمدونه».
(٥) في أ: «غثون» وهو Gaston.

العسكر في قِلَّةٍ من العَدَد. فلمّا رأى ذلك أهْلُ طُلَيْطُلة، أعلموا العِلْجَ بما عايَنُوه من قِلَّة المسلمين، فتحرَّكَ العِلْجُ فَرِحاً، وقد طَمِعَ في الظَّفَر والغنيمة وانتهازِ الفُرْصة[1]. فلمّا التقى الـجَمْعانِ، خرجت الكمائنُ عن يمينٍ وشمال، وتواترت الخيلُ أرسالاً على أرسال، حتى غَشِيَ الأعداءَ منهم ظُلَلٌ كالجبال؛ فانهزم المشركون وأهلُ طُلَيْطُلة، وأخذتهم السلاحُ، هذًّا بالسيوف، وطعنًا بالرماح، فقتل اللهُ عامَّتَهم، وأبادَ جماعتهم، وحِيزَ من رؤُوسهم ممَّا كان في المعركة وحوالَيْها[2] ثمانيةُ آلاف رأس، وجُمِعَتْ ورُصِّعَتْ، فصار منها جبلٌ علاه المسلمون، يُكبِّرون ويُهلِّلون ويحمدون ربَّهم ويشكرون. وبعث الأميرُ محمَّدٌ بأكثرها إلى قُرْطُبة، وإلى سواحل البحر، وإلى العُدوة. وانتهى عَدَدُ من فُقِدَ منهم في هذه الوقعة إلى عشرين ألفًا. وكانت في شهر محرَّم من السَّنة[3].

وفي سنة إحدى وأربعين ومئتين: شحن الأميرُ محمَّدٌ قلعةَ رَبَاح وطَلَبِيرة بالـحَشَم، ورتَّب فيها الفُرْسان، وترك فيها عاملًا حارثَ بن بَزِيع[4].

وفيها: جدَّد الأمير محمَّدٌ طُرُزَ الجامع بقُرْطُبَةَ وأتقن نُقوشَه.

وفيها: حشدَ الأميرُ محمَّد، ودخلَ إلى ألَبة والقِلَاع، وبلغَ إلى أقصاها، وافتتحَ كثيرًا من حُصون الـمُشركين.

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئتين: كتب الأميرُ محمَّدٌ إلى موسى بنِ موسى بحَشْدِ الثغور والدخولِ إلى بَرْشِلُونة، فغزا إليها، واحتلَّ بها، وافتتح في هذه الغزاة حِصْنَ طَرَّاجة، وهي من آخر أحواز بَرْشِلُونة[5]، ومن خُـمُسِ ذلك الحصن زِيدَت الزوائد في المسجد الجامع بسَرَقُسْطة، وكان الذي أسَّسه ونَصَبَ مِـحرْابَه حَنَشٌ الصَّنْعانيُّ رضي الله عنه، وهو من التابعين.

---

(١) «وانتهاز الفرصة» ليست في ر٢.

(٢) بعد هذا في ر٢: «فقط».

(٣) الكامل لابن الأثير ٧/ ٧٣-٧٤.

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨٠.

(٥) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨١-٨٢.

وفيها: وجَّه الأميرُ محمَّدٌ ابنَه الـمُنْذِرَ بالجيوش إلى طُلَيْطُلة، فحاصرها، وأقام عليها يَنْسِفُ معايشَها.

وفي سنة ثلاث وأربعين ومئتين: كانت وقعةٌ عظيمةٌ في أهل طُلَيْطُلة؛ وذلك أنَّهم خرجوا إلى طَلَبيرة، فخرج إليهم قائدُها مسعودُ بن عبد الله العَريفُ، بعد أن كَمَّن لهم الكَمائن، فقتلهم قَتْلًا ذَريعًا، وبعث إلى قُرْطُبَةَ بسبع مئة رأسٍ من رؤوس[1] أكابرهم[2].

وفي سنة أربع وأربعين ومئتين: خرج الأميرُ محمَّدٌ بنفسه إلى طُلَيْطُلة، وعَدَدُهم قد قَلَّ، وحَدُّهم قد فَلَّ، بتواتُر الوقائع عليهم، ونزولِ المصائب بهم؛ فلم تكن لهم حربٌ إلَّا بالقَنْطرة. ثمَّ أمر الأميرُ بقطع القَنْطرة[3]، وجَمَعَ العُرَفاءَ من البنَّائين والـمُهَنْدِسين، وأداروا الحيلةَ من حيثُ لا يشعر أَهْلُ طُلَيْطُلة. ثم نُوزِلوا عنها، فبينما هم مجتمعون[4] بها، إذ اندقَّت بهم، وتهدَّمت نواحيها، وانكفأت بمن كان عليها من الـحُماة والكُماة، فغَرِقُوا في النهر عن آخرهم. فكان ذلك من أعظم صُنْع الله فيهم.

وفي سنة خمس وأربعين ومئتين[5]: دعا أهلُ طُلَيْطُلةَ إلى الأمان، فعَقَدَه الأميرُ لهم، وهو الأمان الأوَّل.

وفيها: خرج الـمَجُوسُ أيضًا إلى ساحل البحر بالغَرْب، في اثنين وستِّين مركبًا، فوجدوا البحرَ محروسًا، ومَراكِبَ المسلمين معدَّةً، تجري من حائط إفْرَنْجة إلى حائط جِلِّيقِيَّة في الغرب الأقصى. فتقدَّم مركبانِ من مَراكِب الـمَجُوس، فتلاقت بهم المراكبُ المعدَّة، فوافَوْا هذَيْن المركبَيْن في بعض كُوَر باجة، فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضَّة والسَّبي والعُدَّة. ومرَّتْ سائرُ مَراكِب الـمَجُوس في الريف حتَّى انتهت إلى مَصَبِّ نَهْر إشبيلية في البحر، فأخرج الأميرُ الجيوش، ونفَّر الناسَ

---

(١) ليس في ر٢.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨٣.

(٣) قوله: «ثم أمر الأمير بقطع القنطرة» ليس في ر٢.

(٤) في ر٢: «فبينا الخائنون مجتمعون».

(٥) في ر٢: «وفي سنة أربعين ومئتين»، خطأ.

من كل أوْب. وكان قائدَهم عيسى بنُ الحسن الحاجبُ. وتقدَّمت المراكبُ من مصبِّ نهر إشبيلية حتَّى حلَّت بالجزيرةِ الخضراء، فتغلَّبوا عليها، وأحرقوا المسجدَ الجامع بها، ثمَّ جازوا إلى العُدْوة، فاستباحوا أريافها، ثمَّ عادوا إلى ريف الأندلُس، وتوافَوْا بساحل تُدْمِير، ثمَّ انتَهْوا إلى حِصْن أُورِيُولة، ثمَّ تقدَّموا إلى إفْرَنْجة، فشتَوْا بها، وأصابوا بها الذراريَ والأموال، وتغلَّبوا بها على مدينةٍ سكنوها، فهي منسوبةٌ إليهم إلى اليوم، حتَّى انصرفوا إلى ريف بحر الأنْدَلُس، وقد ذهب من مراكبهم أكثرُ من أربعين مركبًا. ولَقِيَهم مَراكِبُ الأمير محمَّد، فأصابوا منها مركبَيْن بريفِ شَذُونة، فيها كثير من[1] الأموالُ العظيمة، ومضت بقيَّةُ مَراكِب الـمَجوس[2].

وفي سنة ست وأربعين ومئتين: أغزى الأميرُ محمَّدُ بن عبد الرحمن إلى أرض بَنْبَلُونة أحَدَ قُوَّاده، فخرج في هذه الغزوة خروجًا لم يَخْرُجْ قَبْلَه مِثْلُه جمعًا وكثرةً، وكمالَ عُدَّة، وظهورَ هيبة[3]. وكان غرْسِيَةُ إذ ذاك مُتظافرًا مع أُرْدُون صاحبِ جِلِّيقِيَّة، فأقام هذا القائدُ يدوِّخ أرضَ بَنْبَلُونة[4]، مُتَرَدِّدًا فيها اثنين وثلاثين[5] يومًا، يُخرِب المنازل، وينسفُ الثمار، ويفتح القُرَى والحصون. وافتتح في الـجُملة حِصْنَ قَشْتِيل، وأخذ فيه فُرْتُونَ بنَ غَرْسِيَة المعروفَ بالأنْقَر، وقدم به إلى قُرْطُبة، فأقام بها محبوسًا نحوًا من عشرين سنة، ثمَّ ردَّه الأميرُ إلى بلده، وعُمرُ فُرْتُون مئة وستٌّ وعشرون سنة[6].

وفي سنة سبع وأربعين ومئتين، قال الرازيُّ: غزا محمَّدُ بن السَّلِيم أرضَ الحرب، وعامِلُ الثغر إذ ذاك عبدُ الله بن يحيى. وكان كَتَب موسى بنُ موسى يذكرُ ما نالَهُ ونالَ أهلَ بلدِه في إداختهم أرض الـجِلِّيقِيِّين، وما وصل إليهم من النَّصَب، وسأل أن يكونَ دخولُ العسكر على غير ناحيته، فأُسعف في ذلك، ودخلت العساكرُ على غير بلده.

---

(١) قوله: «كثير من» ليس في أ، م.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٩٠.

(٣) في ر٢: «هيئة».

(٤) في م: «بنبلوبة»، مصحفة.

(٥) في ر٢: «وأربعين».

(٦) الكامل لابن الأثير ٧/ ٩٤.

وفي سنة ثمان وأربعين ومئتين: تقدَّم موسى بنُ موسى لمقاتلة ابنِ سالم في وادي الحِجارة؛ فنالَتْه جِراحٌ منعَتْه الركوبَ بعدها، وكانت سببًا لهلاكه؛ فتوفِّي في هذه السنة.

وفي سنة تسع وأربعين ومئتين: خرج عبدُ الرحمن ابن الأميرِ محمَّدٍ إلى حصون ألبَةَ والقِلَاع، وكان القائدَ عبدُ الملك بن العبَّاس، فافتتحها، وقَتَلَ الرِّجال، وهدم البُنيان، وانتقل في بسائطها من موضعٍ إلى موضع يَحطم الزروع، ويَقطع الثمار[1]. وأخرج أُرْدُون بن إذْفُونْش أخاهُ إلى مَضِيْق الفَجِّ؛ ليقطعَ بالـمُسلمين، ويتعرَّضَهم فيه، فتقدَّم عبدُ الملك؛ فقاتَلَهم على الـمَضِيق، حتَّى هزمهم وقَتَلَهم وبدَّدهم، ثمَّ وافَتْهم بقيَّةُ العساكر، وأظلَّتْهم الـخَيْلُ من كلِّ الجهات، فصَبَرَ أعداء الله صبرًا عظيمًا، ثمَّ انهزموا. ومنحَ اللهُ المسلمين أكتافَهم، فقُتلوا قتلًا ذَريعًا، وقُتل لهم تسعة عشر قَوْمَسًا من كبار قوَّادهم.

وفي سنة خمسين ومئتين: كملتْ مَقْصُورةُ المسجد الجامع بقُرطُبة، وبنَى فيها الأميرُ محمَّدٌ بنيانًا كثيرًا في القصر الكبير والـمُنَى[2] الخارِجةِ عنه. ولم تكن في هذه السنة صائفةٌ؛ استُغْنِيَ بالغزوة المتقدِّمة، وأُرِيحَ العسكرُ فيها.

وفي سنة إحدى وخمسين ومئتين: كانت غزوةُ أَلَبَةَ والقِلَاعِ أيضًا.

هزيمة الـمَرْكَويز، أخزاه الله

خرج إلى هذه الغزاةِ عبدُ الرحمن بن محمَّد، وتقدَّم حتَّى حلَّ على نهر دُوَيْره، وتوالت عليه العساكرُ من كلِّ ناحية، فرتَّبها، ثمَّ تقدَّم، فاحتلَّ بفجِّ برذيش[3]، وكانت عليه أربعةُ حصون، فتغلَّب العسكرُ عليها، وغَنِمَ المسلمون جميعَ ما فيها وخرَّبوها، ثمَّ انتقل من موضعٍ إلى موضع، لا يمرُّ بمسكنٍ إلَّا خرَّبه، ولا موضعٍ إلَّا حرَّقه، حتَّى اتَّصل ذلك في جميع بلادهم. ولم يَبْقَ لرُذْرِيقَ صاحِبِ القِلَاع، ولا لرُذْمِير

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٢٥.
(٢) المنى، جمع مُنْية.
(٣) هكذا في النسختين ومعجم البلدان ١/ ٣٨١ وفي م: «برذنش».

صاحبِ توقة، ولا لغُنْدِشَلْب صاحب بُرجية، ولا لغُومِس صاحبِ مسانقة، حِصْن من حصونهم إلَّا وعمَّه الخرابُ. ثمَّ قصد المَلَّاحة، وكانت من أجَلِّ أعمال رُذرِيق، فحَطَمَ ما حوالَيْها وعفَّى آثارَها.

ثمَّ تقدَّم يؤمُّ الخروجَ على فجِّ الـمَرْكَويز، فصُدَّ العسكرُ عنه، وتقدَّم رُذْرِيقُ بحشوده وعسكره، فحلَّ على الخندقِ المجاور للمَرْكَويز. وكان رُذْريقُ قد عانى تَوْعيرَه أعوامًا، وسخَّر فيه أَهْلَ مملكته، وقَطَعَه من جانبِ الهضبة، فارتفع جُرْفُه، وانقطع مسلكُه، فنزل عبدُ الرحمن ابن الأمير محمَّدٍ على وادي إبْرُه بالعسكر، وعبَّأ القائدُ عبد الملك للقتال، وعبَّأ المشركون، وجعلوا الكمائنَ على ميمنة الدَّرْب وميسرته. وناهض المسلمون جموعَ المشركين بصدورهم، فوقع بينهم جلاد شديدٌ، وصدق المسلمون اللقاء، فانكشف الأعداءُ عن الـخَنْدق، وانحازوا إلى هضبةٍ كانت تَلِيهِ. ثمَّ نزل عبدُ الرحمن ابن الأمير محمَّدٍ، ونصب فُسْطاطَه، وأمَرَ الناسَ بالنزول وضَرْبِ أبْنِيَتهم، فأقامت[1] المحلَّة. ثمَّ نهض المسلمون إليهم، فصدقوهم القتالَ، وضرب اللهُ في وجوه المشركين، ومَنَحَ المسلمين أكتافَهم، فقُتلوا أبرح قَتْل، وأُسِرَ منهم جموعٌ. واستمرُّوا في الهزيمة إلى ناحية الأهْزُون، واقتحموا نهرَ إبْرُه بالاضطرار في غير مَخاضةٍ، فمات منهم خَلْقٌ كثيرٌ غَرَقًا. وكان القتلُ والأسر فيهم من ضُحى يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلةً خلت من رَجَبٍ إلى وقت الظُّهر. وسَلَّم اللهُ المسلمين ونَصَرَهم على المشركين. وكان قد لجأ منهم إلى الوَعْر والغِياض، عندما أخذتْهم السيوفُ، جموعٌ، فتُتُبِّعوا وقُتلوا، ثمَّ هُتِكَ الخندقُ وسُوِّي حتَّى سَهُلَ، وسلكه المسلمون غيرَ خائفين ولا مُضْغَطين. وأعظم اللهُ الـمِنَّة للمسلمين بالصُّنْع الجميل، والفتحِ الجليل. والحمدُ لله ربِّ العالمين. وكان مبلغُ ما حِيزَ من رؤُوس الأعداء في تلك الوقيعة عشرين ألفَ رأس وأربعَ مئة رأس واثنين وسبعين رأسًا[2].

وفي سنة اثنتين وخمسين ومئتين: خرج عبدُ الرحمن ابن الأمير محمَّدٍ غازيًا إلى أَلَبة والقِلَاع، فحارب أهلَها، وأفسد زروعَها، وغادرها هَشِيمًا. وكان أهلُ هذا الجانب

---

(١) في ر ٢: «فقامت».

(٢) في الكامل لابن الأثير: «ألفين وأربع مئة واثنين وتسعين رأسًا» ٧/ ١٦٣.

في ضَعْف ووَهْن شديدٍ ألجأهم إلى المنع من التجمُّع والاحتشَاد؛ لِـمَا نالهم في العام الفارطِ من النَّهب والقتلِ الذَّريع[1].

وفي سنة ثلاث وخمسين ومئتين: خرج الـحَكَمُ ابن الأمير محمَّدٍ غازيًا إلى جَرْنِيق، فجال في أرض الأعداء، وحلَّ على حِصْنِ جَرْنِيق، وحاصره حتَّى فتحه عَنْوةً[2].

وفيها: كانت بالأندلس مجاعةٌ عظيمةٌ متواليةٌ.

وفي سنة أربع وخمسين ومئتين: خرج الأميرُ محمَّدٌ إلى مَارِدة، وأظهر أنَّ استعدادَه لطُلَيْطُلة. وكان بمارِدةَ قومٌ من الـمُنْتَزِين[3]. فلمّا فَصَلَ من قُرْطُبة، وتقدَّم بالمحلَّات إلى طريق طُلَيْطُلة، نَكَبَ إلى مارِدة، فاحتلَّ بهم، وهُمْ في أمنٍ وعلى غَفْلة، فتحصَّنوا في المدينة أيَّامًا. ثمَّ ناهَضَ القَنْطرة، فوقع القتالُ، واشتدَّ الحرب حتَّى غلبوا عليها، فأمر الأميرُ بتخريب رِجْل منها، فكان ذلك سَبَبًا لإذعان أهل مارِدة، فطاعوا على أن يخرجَ فرسانُهم، وهم يومئذٍ: عبدُ الرحمن بن مروان، وابن شاكِر، ومكحول، وغير هؤُلاء، وكانوا أهْلَ بأسٍ ونَجْدة وبَسالة مشهورة. فخرج المذكورون ومَن هو مِثْلُهم إلى قُرْطُبَةَ بعيالهم وذَراريهم. وولَّى عليها سعيدَ بن عبَّاس القُرَشيَّ، وأمر بهَدْمِ سورها، ولم تَبْقَ إلَّا قَصَبَتُها لمن يَرِدُ من العُمَّال فكان[4] ذلك سببَ خرابها، وكانت إحدى القواعد الأربع.

وفي سنة خمس وخمسين ومئتين: خرج الـحَكَمُ ابن الأمير محمَّد، وقصد مدينةَ سُرْيَة، وكان قد تغلَّب بها سُليمانُ بن عَبْدُوس، وخالَفَ فيها، فبادَرتْه الصّائفة، وحلَّت به العساكر، وأحدقتْ بالمدينة، ورُميت بالمجانيق، حتَّى هُتِكَتْ أسوارُها؛ فقام أهلُها على سُليمانَ بن عَبْدُوس، فطاعَ، ونزل؛ فقُدِمَ به قُرْطُبة، فسكنها.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٧٧.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٨٤.

(٣) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٨٩ باختلاف.

(٤) من هنا إلى نهاية الفقرة من ر٢.

وفي سنة ست وخمسين ومئتين: غدرَ عَمْرُوسُ عامِلَ وشْقةَ وملكها، وظهرتْ عاديتُه في الثَّغْر، فأخرج الأميرُ إليه قَطيعًا من الـحَشَم والعُدَّة، وقصدَ بها لارِدةَ ابنُ مُجاهِد المعروف بالتُّدْمِيريْ، فلزمها. وحشد عبدُ الوهَّاب بن مُغِيث الحشودَ، وقدَّم عليهم عبدَ الأعلى العريفَ، وبعثه إلى وشْقة. فلمّا بلغ عَمْرُوسَ خَبَرُه، خرج عن وشْقة، وأُسِرَ بها لُبُّ بن زكريَّا بن عَمْرُوس، وكان أحَدَ قَتَلَةِ عامِل السلطان بها موسى بنِ غَلِنْدُ، فقُتل لُبٌّ وعُلِّق من السُّور.

وفي سنة سبع وخمسين ومئتين: خرج إلى الثَّغْر عبدُ الغافِر بن عبد العزيز، وكان بتَطِيلَة. فقَبَضَ على زكريَّا بنِ عَمْرُوس وعلى أولاده وجماعةٍ من أهل بيته، ونزل بهم على باب مدينة سَرَقُسْطة، وقَتَلَهم بها، وقَفَلَ إلى قُرْطبةَ بالرؤُوس.

وفي سنة ثمان وخمسين ومئتين: كانت في الثَّغْر ثَوْرات وحَركات، منها: أنَّ مُطَرِّفًا وإسماعيلَ ابنَيْ لُبّ، ويونُسَ بن زنباط غَدَروا بعبد الوهَّاب بن مُغِيث، عامِلِ تَطِيلة، وابنِه محمَّد عامِلِ سَرَقُسْطة، فتقبَّضوا عليهما، وملكوا في هذا العام الثَّغر. وكان تَوثَّب[1] مُطَرِّفٌ على عبد الوهاب[2] في صَفَر، ودخل إسماعيلُ سَرَقُسْطةَ في ربيع الأوَّل.

وفي سنة تسع وخمسين ومئتين: خرج الأميرُ محمد بنفسه إلى الثَّغر، وحلَّ في وِجهته بطُلَيْطُلة، وأخذ رهائنَهم، وعقد أمانَهم، وقاطَعَهم على قطيعٍ من العُشور يؤدُّونه في كلِّ عام، وهو الأمانُ الثّاني. واختَلَفت أهواؤهم في عُمّالهم، فطلب قومٌ منهم تَوْلية مُطَرِّف بن عبد الرّحمن، وطلب آخرون تَوْليةَ طريشة[3]، فوليَ كلُّ واحد منهما جانبًا، وتقسَّما المدينةَ وأقاليمها على حُدودٍ مفهومةٍ معلومةٍ، ثمَّ تنازعا، وأراد كلُّ واحد منهما الانفراد بمُلْك طُلَيْطلة، ثمَّ غلب الدّاعُون إلى تقديم طريشة ابنِ ماسوية، وتأخيرِ مُطَرِّفٍ المذكور.

---

(١) في م: «توفي»، وهو تحريف.

(٢) قوله: «على عبد الوهاب» من ر٢.

(٣) هكذا في النسختين والكامل لابن الأثير ونهاية الأرب، وقد غيرها ناشرو الأوربية إلى: «طربيشة» بزيادة باء موحدة.

وكان الأميرُ محمَّد تتلقَّاه في وجهته هذه، في الارتحال والاحتلال، طلائعُ الظَّفَر، وبوادرُ النُّجح والنَّصْر. وتحوَّل في الثَّغر مُحاصرًا لبني موسى، ومُضيِّقًا عليهم. ثمَّ تقدَّم إلى بَنْبَلُونة؛ فوَطِئَ أرضَها، وأذلَّ أهلَها، وخرَّبها؛ ثمَّ قفل؛ فحلَّ بقُرْطُبة، ومعه جماعةٌ من الثُّوَّار النّاكثين الـمُفسِدين. فلمّا أخذ راحتَه، أمر بقتلِ مُطرِّف بن موسى وبَنيه، وأمر بإطلاق كاتبهم، وكان لا ذَنْبَ له. فلمَّا أُخرج مُطَرِّفٌ وبنوه للقتل، وأخرج كاتبُهم للإطلاق، وكان يُعرف بالأَصْبَحيّ، قال: لا خيرَ في العيش بعد هؤُلاء! فقُدِّم للقتل قَبْلَهم، ورُفعتْ رؤُوسُهم[١].

وفي سنة ستين ومئتين: خرج الـمُنْذِرُ ابن الأمير محمَّد إلى سَرَقُسْطةَ وبَنْبَلُونة، وكان القائدَ هاشمُ بن عبد العزيز. فاحتلَّ سَرَقُسْطَة، وانتهبَ زروعَها، وأذهب ثمارَها وأشجارها، ونقل أطْعِمتَها إلى وشْقة، وتقدَّم إلى بَنْبَلُونة، فجال في أرضها، وأتلف معايشَ أهلها.

وفيها: كانت المجاعةُ التي عمَّت الأَنْدَلُس، ومات فيها أَكْثَرُ الـخَلْق[٢].

وفي سنة إحدى وستين ومئتين: هرب ابنُ مروان الـجِلِّيقيُّ من قُرْطُبةَ مع رجال مارِدةَ الـمُنْتَزين[٣] منها، واستقرُّوا بقَلْعة الـحَنَش. فغزاه الأميرُ محمَّد، وحاصَرَهُ حِصارًا قَطَعَه وضيَّق عليه مدَّةً من ثلاثة أشهر، ألجأَه فيها إلى أكْل الدَّوابِّ، وقَطَعَ عنه الماء، ورماه بالمجانيق، حتى أذعن، وطلب الأمانَ، وشكا ثِقَلَ الظَّهْر وضِيقَ الحال، فأباحَ له الأميرُ محمَّد الرحيلَ إلى بَطَلْيَوْسَ والحلولَ بها، وهي يومئذٍ قَرْيةٌ، فخرج إليها، وقفل عنه[٤].

وفي سنة اثنتين وستين ومئتين: خرج الـمُنْذِرُ ابن الأمير محمَّد إلى ابن مروان، وكان القائدَ هاشمُ بن عبد العزيز[٥]، وهو الذي كان سَبَبَ هروبِ ابن مروان؛ لأنَّه قال له من بين الوزراء: «الكَلْبُ خيرٌ منك!» وأمر بصَفْعِ قفاه، واستبلغ في خِزْيه،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٦٥.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٧٣.

(٣) في أ، م: «المنزلين».

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٨٨-٢٨٩.

(٥) تنظر عنه الحلة السيراء ١/ ١٣٧.

فهربَ مع أصحابه، وذلك في خبرٍ طويل. وكان ابنُ مروان قد ابتنى بطَلْيَوْسَ حِصْنًا، وجعله موطنًا، وأدخل فيه أهلَ مارِدةَ وغيرَهم من أهل الـمُكانفة له على الشّرِّ. فلمّا انتهى إلى ابنِ مروان تحرُّكُ العسكرِ إليه، تنقَّل عن بطَلْيَوْس، وحلَّ بحِصْن كركر[1]، واجتمع أهْلُ مارِدةَ إليه فيه، فنزل العسكرُ بمَقْرُبة من الحصن[2]. وكان هاشمٌ قد بعث إلى مُنْت شَلُوط خَيْلًا ورَجْلًا لضَبْطه. وكان سَعْدُون الرماريُّ[3] قد دخل إلى بلاد الشِّرْك مُسْتَمِدًّا، فجاء بمَدَدٍ من المشركين، وأظهر أنَّه في قِلَّة، فكتب بذلك[4] عامِلُ حِصْنِ مُنْت شَلُوط إلى هاشم، فرأى هاشمٌ أنَّ ذلك فرصةٌ في سَعْدُون، فبادَرَ بالخروج من العسكر على غير تَعْبِئَة ولا أُهْبة، في خيلٍ قليلةٍ. وأفحص هاشِمٌ، وجاوَزَ الوَعْرَ، وأبعد عن العَسْكر؛ فأُخِذت المضايقُ عليه، وناشَبُوه القتال، فأخذَتْه جراحٌ، وقُتِلَ من أصحابه جماعةٌ، وأُسرَ هاشِم المذكور. ولـمّا اتَّصل خبرُ هاشِم بالأمير محمَّد، وقع في جانبه، وقال: هذا أمْرٌ جَنَاهُ على نفسه بطَيْشه وعَجَلته. ثمَّ ردَّ ولدَه عِوَضًا منه. وحصل هاشِمٌ أسيرًا بيد ابنِ مروان الذي صفعه في أَسْره في قُرْطُبة[5]، فبرَّه ابنُ مروان، وأكرمه، وأحسن إليه[6]، ولم يُعاقِبْه بما فعل معه.

وفي سنة ثلاث وستين ومئتين: خرج الـمُنذِرُ ابن الأمير محمَّدٍ، وجعل طريقَه على مارِدة، فلمّا انتهى ذلك إلى ابنِ مروان، زال عن بَطَلْيَوْس، واحتلَّ بها قائدُ الـمُنْذِر الوليدُ بن غانِم، فخرَّب ديارَها. وتقدَّم ابنُ مروان إلى بلاد العدوِّ.

وفي سنة أربع وستين ومئتين: حارب الـمُنْذِرُ سَرَقُسْطة، وأفسد ما أَلْفَى من زروعها، ثمَّ تقدَّم إلى تُطِيلَةَ والـمَواضعِ التي صار فيها بنو موسى، فانتسفها، وأجال العسكرَ عليها[7].

---

(١) هكذا في النسختين، والكامل لابن الأثير ٧/ ٣٠٦، ومعجم البلدان ٤/ ٤٥٣، وفي م: «كركي».

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٠٦.

(٣) في ر٢: «المرماري».

(٤) في ر٢: «وهرب».

(٥) في ر٢: «الذي صفعه وسبّه بقرطبة».

(٦) «وأحسن إليه» ليست في ر٢.

(٧) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٢٠-٣٢١.

وفيها: دخل البَرَّاءُ بن مالِك من باب قُلُنْبِرية إلى جِلِّيقيَّة بحشود الغَرْب، وتردَّد هنالك حتَّى أذهب نعيمَهم.

وفيها: انطلق هاشمٌ من الأسْر.

وفي سنة خمس وستين ومئتين: ظهرت الفتنةُ وظهر[1] الشّرُّ في جانب كُورة رَيُّه والجزيرةِ وتاكُرُنَّا، وظهر يحيى المعروفُ بالـجَزيريّ، فغزاه هاشم، فأذعن له، وقُدِمَ به إلى قُرْطُبة.

وفي سنة ست وستين ومئتين: خرج عبدُ الله ابن الأمير محمَّدٍ إلى كورة رَيُّه ونواحي الجزيرة، وبنى حُصونًا في تلك النَّواحي، ثمَّ قفلَ.

وفيها: أمَرَ الأميرُ محمَّدٌ بإنشاء المراكِب بقُرْطُبَةَ؛ ليتوجَّه بها إلى البحر الـمُحِيط عبدُ الحميد الرُّعَيطيُّ المعروف بابن مُغِيث، وكان قد رفع إليه رافعٌ أنَّ جِلِّيقيَّة من ناحية البحر الـمُحِيط لا سُورَ لها، وأنَّ أهلَها لا يمتنعون من جيشٍ إنْ غَشِيَهم من تلك الناحية. فلمّا كملت الـمَرَاكِب بالإنشاء، قُدِّم عبدُ الـحَمِيد بن مُغِيث عليها، فلمّا دخل البحر، تقطَّعت المراكبُ كلُّها وتفرَّقت، ولم يجتمع بعضُها إلى بعض. ونجا ابنُ مُغِيث[2].

وفي سنة سبع وستين ومئتين: التاثت الحصونُ الـمُبتناة برَيُّه وتاكُرُنَّا وجهةِ الجزيرة.

وفيها: ابتدأ شَرُّ اللَّعين[3] عُمَرَ[4] بنِ حَفْصُون، الذي أعيا الـخُلفاءَ أمْرُه، وطالت في الدُّنيا فتنتُه، وعظم شرُّه، فقام في هذه السَّنة على الأمير محمَّدٍ بناحية رَيُّه. فتقدَّم إليه عامرُ بن عامر، فانهزم عامرٌ وأسلم قُبَّتَهُ، فأخذها ابنُ حَفْصُون، وهو أوَّلُ[5] رِواق ضَرَبَه، فاستكنَّ إليه أهلُ الشرّ. وعزل الأميرُ عامِرًا عن كُورة رَيُّه، وولَّاها

---

(١) في ر٢: «وكَثُر».

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٣٤.

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ترجمته في جذوة المقتبس (٦٨٨) والتعليق عليها.

(٥) في ر١: «وأخذ اللعين قبته فكان أول».

عبدَ العزيز بن عبَّاس، فهادَنَه ابنُ حَفْصُون، وسكنت الحالُ بينهما. ثمَّ عُزِل عبدُ العزيز، وتحرَّكَ ابنُ حَفْصُون، وعاد إلى ما كان عليه من الشرِّ. وخرج هاشِمُ بن عبد العزيز إلى كُورة رَيُّه يطلب كلَّ مَن كشف وجهَه في الفتنة وأظهر الخلافَ، وأخذَ رهائنَ أهلِ تاكُرُنَّا على إعطاءِ الطّاعة[1].

ومن العجائب في هذا العام، ما ذكره الرّازيُّ وغيرُه، قالوا[2]: زُلْزِلت الأرضُ بقُرْطُبَةَ زلزالًا شديدًا، وهاجت ريحٌ عند صلاة المغرب، فأثارت سَحابًا فيه ظُلُمات ورعدٌ وبَرْق، فصُعِقَ ستَّةُ نَفَر، وانقلبوا على ظهورهم، مات منهم[3] اثنان، وخَرَّ جميعُ الناس سُجّدًا إلّا الإمام، فإنَّه ثبتَ قائمًا، وكان الرجلانِ اللذان ماتا أقربَ الناس إلى الإمام، فاحترقَ شَعَرُ أحدهما واسودَّ وجهُه وشِقُّه الأيسر، والآخرُ ظهر بشقِّه الأيمنِ سوادٌ، والأربعةُ الصَّرْعَى مكثوا حتَّى فرغ الإمام من الصلاة[4]، فسُئِلوا عمّا أحسُّوا، فقالوا: «أحْسَسْنا نارًا كأنَّها الموجُ الثقيل[5]»، ووجد أهْلُ المسجد رائحةَ النّار، ولم يُوجَدْ للصّاعقة أثرٌ في سقفٍ ولا حائط. واهتزَّت لهذا الزلزال القصورُ والجبال، وهرب الناسُ من القصور إلى الصّحارى، ضارعين إلى الله تعالى. وعمَّ هذا الزِّلزال من البحر الشاميِّ إلى آخر الجوف وإلى آخر أرض الشِّرْك، لم يَختلِف في ذلك مُخْتَلِفٌ[6].

وفي سنة ثمان وستين ومئتين: خرج المُنْذِرُ ابن الأمير محمَّدٍ، والقائدُ هاشمُ بن عبد العزيز؛ فقصد الثَّغْرَ الأقصى، وحطَّم سَرَقُسْطة، وافتتح حصن رُوطَة، ثمَّ تقدَّم إلى أَلَبَة والقِلَاع، وافتتح حصونًا كثيرةً، وأخلى حصونًا كثيرةً[7]؛ خوفًا من مَعَرَّة العسكر، وتوقُّعًا من تغلُّبه[8].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٦١.

(٢) في أ، م: «قالا».

(٣) من ر٢.

(٤) «من الصلاة» ليست في أ، م.

(٥) في ر٢: «لوح ثقيل».

(٦) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٦١.

(٧) قوله: «وأخلى حصونًا كثيرة» ليس في ر٢.

(٨) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٦٩-٣٧٠.

وفيها: فسد ما بين الـمُنْذِرِ وبين الوزير هاشِمِ بن عبد العزيز.

وفي سنة تسع وستين ومئتين، قال الرّازي: وفي سنة تسع وستين ومئتين: غزا محمَّدُ بن أُميَّة بن شُهَيْد إلى كُورة رَيُّه وكورة إلْبِيرة، وكانوا بحالِ توحُّش ونِفار، فسكَّن أحوالَ أهلها، وهدَّن الناسَ بها، ونظر في استنزال رجالٍ بجبال رَيُّه وغيرِها من بني رِفَاعة وغيرِهم.

وفي سنة سبعين ومئتين: استتمَّ محمَّدُ بن أميَّة بن شُهَيْد استنزالَ بني رفَاعة. وأتاه في هذه الغزاة كتابُ الأمير محمَّدٍ بتولية عبدِ العزيز بن العبَّاس كُورةَ إلبيرة، فولَّاه، وقفل.

وفيها: غزا هاشمٌ كُورةَ رَيُّه، واستنزل عُمرَ بن حَفْصُون من جبلِ بَرْبُشْتر[1] وقَدِم به قُرْطُبة، فأنزله الإمامُ، وأوسع له في الإكرام.

وفي سنة إحدى وسبعين ومئتين: هرب عمرُ بن حَفْصُون من قُرْطُبة، ولجأ إلى جبل بَرْبُشْتر، فانتدب الأميرُ محمَّد إلى حربه، وحُوصِر في السنة الآتية[2].

وفي سنة اثنتين وسبعين ومئتين: خرج عبدُ الله ابن الأمير محمَّد، والقائدُ هاشمُ بن عبد العزيز، وقصد الغَرْبَ إلى ابن مروان، وهو بجبل أشْيَرَغُزَّة، فنازَله وحاربه[3].

قال حَيَّانُ بن خَلَف في عُمَر بن حَفْصُون: هو كبيرُ الثُّوَّار بالأنْدَلُس، **ونَسَبُه**: عُمَرُ بن حَفْص، المعروف بحَفْصُون، ابن عُمَر بن جعفر بن شتيم بن ذُبيان بن فَرْغَلُوش ابن إذْفُونْش، من مُسَالِـمة الذِّمَّة، من كوُرة تَاكُرُنَّا من عَمَل رُنْدة. وكان الذي أسلم منهم جعفرُ بن شتيم؛ ففشا نَسْلُه في الإسلام. وكان له من الولد الذكور: عُمَرُ وعبد الرحمن، فوَلَدَ عمرُ بن جعفر حَفْصًا، وولد حَفْصُون هذا عُمَرَ هذا الثائرَ الملعون، فعُمَرُ هذا هو الذي ثار على الأميرِ محمَّد أوَّلًا، ثم بلغ بعد ذلك في الشِّقاق والفِتَن مَبْلَغًا لم يبلغه ثائرٌ بالأندلُس. واستوطن لأوَّل نِفاقه حِصْنَ بَرْبُشْتر قاعدةً وحضرةً، وهي[4] أمنعُ قِلاع

(١) ينظر الروض المعطار ٩٠، ومراصد الاطلاع ١/ ١٧٦.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٤١٦-٤١٧.

(٣) الكامل لابن الأثير ٧/ ٤٢٠-٤٢١.

(٤) في ر٢: «وهو».

الأندلُس قاطِبةً، وذلك[1] في هذه السَّنة، وهو تاريخُ صعودِه الآخر إليها الذي توطَّد له مُلْكُهُ فيه، وخالف على السُّلطان حتَّى رضيَ عنه بالـمُتاركة. واتَّصلت أيَّامُه في ظهورٍ وعزَّة حتَّى قدَّم فيها ثلاثةً من خُلفاء المروانيِّين أئِمَّةِ الجماعة بالأندلُس، رحمهم الله، أوَّلُـهم هذا الأمير محمَّد، وتخلَّف بعدَهم إلى أن هلك على يد الرابع منهم، وهو عبدُ الرحمن النَّاصر، على ما يأتي مُفَسَّرًا.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومئتين: خرج الـمُنْذِرُ ابن الأمير محمَّد إلى كُورة رَيُّه، والقائدُ محمَّدُ بن جَهْوَر، فقصد مدينةَ الحامَّة، وفيها حارثُ بن حَمْدُون من بني رِفاعة، وكان مُظاهِرًا لعُمَرَ بنِ حَفْصُون، وكانا قد اجتمعا بالحامَّة، فنازَلَـهم، وناهَضَهم، وأحدق بهم من كلِّ ناحية، وأقامَ محاصِرًا لهم شهرَيْن. فلمّا وصل إليهم الضِّيق، برزوا إلى باب المدينة خارجًا، مُستقبِلين للحرب، وقام بها، فنالَتْه جِراحٌ، وشلَّت يدَه، ثمَّ انهزم هو وأصحابه، وصاروا بين قتيل وفَليل، ودخل باقِيْهم في الحامَّة. فبَيْنا المنذرُ في هذه الحال من السرور، إذ أتاه الـخَبَر بموت أبيه الأميرِ محمَّدِ بن عبد الرحمن، ليلةَ الخميس لليلةٍ بقيتْ من شهر صَفَرٍ من السنة، ودُفِن في القصر، وأدْرَكَه الـمُنْذِرُ قبل مُوَارَاتِه وصلَّى عليه[2].

بعض أخباره وسيره

كان الأميرُ محمَّد، رحمه الله، فصيحًا، بليغًا، عظيم الأناة، متنزِّهًا عن القَبيح، يؤثِرُ الحقَّ وأهْلَه، لا يسمعُ من باغٍ، ولا يلتفتُ إلى قولِ زائغ. وكان عاقلًا، على أخلاقٍ جميلة ومَكارِمَ حميدة، ذا بديهة ورَوِيَّة، يرى كلُّ من باشَرَه وحدَّثه أنَّ له الفضلَ الـمُسْتَبين في إدراكه، وفَهْمه، ودقَّةِ ذِهْنه، ولطيف فطنته، وجزالةِ رأيه. وكان أعلمَ النَّاس بالحساب وطُرُقِ الخدمة. وكان متى أعْضَلَ منها شيءٌ، رُجِعَ إليه فيه، وإذا أخَلَّ أحَدٌ من خُزَّانه وأهْلِ خدمة الحساب بشيءٍ من ذلك، لم يَـجُزْ عليه بأدنى لحظة أو نظرة. ولقد استدرك على بعض خُزَّانِه في صَكٍّ يشتمل على مئة ألف دينار خُمُسَ

---

(١) من هنا إلى قوله: «وخالف» كله ليس في ر٢.

(٢) خبر وفات الأمير محمد في كامل ابن الأثير ٧/ ٤٢٤.

دِرْهَم، فردَّ الصَّكَّ، وأمر بتصحيحه، فتجمَّع الـخَدَمةُ والكُتَّابُ عليه، فلم يَقَعوا على ذلك النُّقْصان؛ لدِقَّته وخَفَائه، فرجعوا إليه معترفين بالتَّقصير، وأعلموا الرَّسول، فردَّ الصكَّ إليه وأعْلَمَه باعترافهم، فعلَّم لهم على موضع الخطإ، فإذا هو خُمُسُ دِرْهم.

وقال هاشِمُ بن عبد العزيز: كان الأميرُ محمَّد، رحمه الله، أصحَّ الناس عَقْلًا، وأحسنهم تمييزًا، وأبصرَهم بوجه الرأي. وكان يستشيرُنا؛ فنَجْتَهِدُ ونَقولُ ونُحَصِّلُ، فإنْ أصَبْنا، أمضى ذلك، وإن كان في الرأي خَلَلٌ، قام فيه بالحُجَّة، وأبانَهُ بها تعجز الأوهامُ عنه تنقيحًا وتَهْذِيبًا.

ومـمَّا يُحفظ عنه: أنَّه قال لهاشم في شيء أنكره عليه من عَدَم التثبُّت: يا هاشم، مَن آثر السُّرْعةَ أفْضَتْ به إلى الـهَفْوة. ولو أنَّا أصْغَيْنا إلى نَحو[1] زلَّاتك، وأصَخْنا إلى هَفَواتك، لَكُنَّا شُرَكاءَكَ في الزَّلَّة، وقُسَماءَكَ في العَجَلة! فمَهْلًا عليك، ورُوَيْدًا بك! فإنَّك إن تَعْجَل يُعَجَّل لك. وكان، مع تثبُّتِه وأناته، وافيًا لمواليه في أنفسهم وأعقابهم، لا يكدحُ عنده كادِحٌ في شئ عن أحدهم، فيَسْمَعه أو يُسْمِعه.

ولقد وَلَّى الكتابةَ عبدَ الملك بن عبد الله بن أُمَيَّة؛ اصطناعًا له، وعائدةً عليه، فردَّ عليه يومًا جوابًا يقول فيه: قد فَهِمْنا عنك، ولم نأتِ ما أتيناه عن جَهْلٍ بك، لكن اصطناعًا لك، وعائدةً عليك. وقد أبَحْنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكُتَّاب، فتَخَيَّرْ منهم مَن تَثِقُ به وتعتمدُ[2] عليه، ونحن نُعينك على أمرك بتفقُّد كُتُبك والإصلاح عليك، إلى أن تركب الطريقةَ وتُبْصِرَ الخدمةَ، إن شاء الله تعالى. فحسده على الـخُطَّة لشَرَفها مَنْ رأى نفسه أوْلَى بها لاستكمال أدَواتها، فطُولِبَ عليها. وكان أشَدَّ النّاس في ذلك هاشِمُ بن عبد العزيز، يُثِير سَقَطاتِهِ، ويتتبَّعُ هَفَواتِهِ، ويُشنِّع عليه، والأميرُ محمَّد بفطنته يتغافل له، فلمّا طال عليه الصَّبر، دعا هاشمًا، وقال له: قد أكثر أهْلُ خِدْمتنا وأكْثَرْتَ في هذا الكاتب: تَذْكُرون جَهْلَه وفَدامته، وقد ضَمَمْنا إليه من الكُتَّاب مَن يستعين به، ويستظهرُ على خدمته بمكانه، وإنَّما نَقْفُو بخدمتنا، ونَسْلُكُ

---

(١) في م: «محو»، وما هنا من أ، م.

(٢) في م: «ونعتمد»، خطأ.

بمَرَاتبنا طريقَ مَن ابتدأها وأسَّسَها ووضع أهْلَها فيها. وإذا كُنَّا لا نُخْلِف آباءكم بكم، ولا نُخْلِفُكم بأبنائكم، فعند مَن نَصْنَعُ إحسانَنا ونَرُبُّ أيادِيَنا، أعند أبناء الفَرَّانين أو الـجَزَّارين أو أمثالهم من الـمُمْتَهِنِين؟! وأنت كنتَ أحقَّ بالـحَضِّ على هذا، وتصويب الرأي فيه، لِـما ترجو من مثله في أولادك وعَقِبك. فرجع هاشم إلى الشُّكر له وتقبيل يده ورِجْله.

وكان، رحمه الله، مأمولًا محبوبًا في جميع البُلْدان. وكان محمَّدُ بن أفْلَح صاحبُ تاهَرْت لا يُقدِّم ولا يؤخِّر في أُموره ومُعْضِلاته إلَّا عن رأيه وأمْرِه، وكذلك بنو مِدْرَار بِسِجْلماسَة(١). وكان فرذلند(٢) مَلِك إفْرَنْجَة يسترجح عَقْلَه، فيُهاديه ويُتحفه، وهو، أعني فردناند، الذي عمل صورةَ عبسي من ثلاث مئة رطل من ذهبٍ خالص، وصفَّها بالياقوت والزَّبَرْجَد، وجعل لها كُرْسيًّا من ذهب خالص مفصَّص بالياقوت والزَّبَرْجَد أيضًا، فلمَّا أكمل ذلك، سجد له وأسجد له جميعَ أهل إفْرَنْجة في ذلك التاريخ، ثمَّ دفعه إلى صاحب كَنِيسة الذَّهب برُومة.

وكان الأميرُ محمَّد، رحمه الله، مهتبِلًا بأمور رعيَّته، مُراقبًا لمصالحها. ووضع عن أهل قُرْطُبة ضَرِيبةَ الحشود والبُعوث.

وقال ابن حَيَّان: كانت عِدَّة الفرسان المستنْفَرين لغزو الصائفة المجرَّدة إلى جِلِّيقِيَّة في مدَّة الأمير محمَّدٍ مع الوَلَد عبد الرحمن ابنه على هذه التسمية المفصَّلة: من ذلك: كُورة إلبيرة: ألفان وتسع مئة، جَيَّان: ألفان ومئتان، قَبْرة: ألف وثمان مئة، باغُه: تسع مئة، تَاكُرُنَّا: مئتان وتسعة وتسعون، الجزيرة: مئتان وتسعون، إسْتِجَّة: ألف ومئتان، قَرْمُونة: مئة وخمسة وثمانون، شَذُونَة: ستَّة آلاف وسبع مئة وتسعون، رَيُّه: ألفان وست مئة، فَحْص البَلُّوط: أربع مئة، مَوْرُور: ألف وأربع مئة، تُدْمِير: مئة وستَّة وخمسون، رُبينَة: مئةٌ وستَّة، قَلْعة رَبَاح وأُورِيط: ثلاث مئة وسبعة وثمانون. قال:

---

(١) في ر٢: «أصحاب سجلماسة».

(٢) هكذا في النسختين، وهو Ferdinand، ولكن ناشري الطبعة الأوربية عَدّوا ذلك غلطًا وغيّروها إلى «قرولش»، وهو Carolus (Charles le Chauve)، وأثبتنا ما في النسخ وإن كان غلطًا.

ونُفِرَ من أهْل قُرْطُبَةَ لهذه الغزوة عَدَدٌ لم يوقَفْ على قَدْره. وكان هذا العَدَد الذي غزا به بعد أن رفع الضّريبةَ التي كانت على أهل قُرْطُبة وأقاليمِها وغيرها من البلاد، وقطع عنهم الحشودَ التي كانوا يؤخَذون بتجديدها في كلِّ سنة للصَّوائف الغازية لدار الحرب، وأسقطها عنهم[1] ووكَّلهم إلى اختيار أنفسهم في الطّواعيَّة للجهاد من غير بَعْث؛ فحَسُنَ مَوْقِعُ ذلك منهم، وتَضَاعَف حَمْدُهم له وشُكْرُهم واغتباطُهم بدولته.

وذكر جماعةٌ من المؤرِّخين، عن بَقِيّ بن مَخْلَد، أنَّه قال: ما كَلَّمْتُ أحدًا من ملوك الدُّنيا أكْمَلَ عقلًا ولا أبْلَغَ فضلًا من الأمير محمَّد، دخلتُ عليه يومًا في مجلس خلافته، فافتتح الكلامَ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبيِّ ﷺ، ثمَّ ذكر الخلفاء خليفةً خليفةً، فحلَّى كلَّ واحد منهم بتَحْلِيَته، ووَصَفه بصِفَتِه، وذكر مَآثِرَه ومناقِبه بأفصح لسان وأبلغ بيان، حتَّى انتهى إلى نفسه، فسَكَتَ.

وفي صدر دولته سُعِيَ ببَقِيِّ بن مَـخْلَد إلى الأمير محمَّد؛ وذلك أنَّه لما قدم بَقِيُّ بن مَخْلَد من المشرق عن رحلته الطويلة بما جَمَعَ من العلوم الواسعة والرواياتِ العالية والاختلافات الفِقْهيَّة، أغاظَ ذلك فُقَهاء قُرْطُبة أصحابَ الرأي والتَّقْلِيد، الزاهدين في الحديث، الفارِّين عن علوم التحقيق، الـمُقَصِّرين عن التوسع في المعرفة، فحسدوهُ، ووضعوا فيه القولَ القبيح عند الأمير، حتى ألزموه البِدْعة، وشنَّؤوهُ[2] إلى العامَّة. وتخطَّى كثيرٌ منهم برَمْيه إلى الإلحاد والزَّنْدَقة، وتشاهدوا عليه بغليظ الشهادة، داعين إلى سَفْكِ دَمِه، وخاطبوا الأميرَ محمَّدًا في شأنه، يعرِّفونه بأمره، ويُكثِرون عليه بكلِّ ما يرجون به الوصولَ إلى سَفْك دَمِه، ويسألونه تعجيلَ الـحُكْم فيه. فاشتدَّ خوف بَقِيّ بن مَـخْلَد جِدًّا، واستتر خوفًا على دمه، وعَمِلَ على الفرار عن الأنْدَلُس إن أمكنه ذلك. فأرشده اللهُ إلى التعلُّق بحَبْل هاشِم بن عبد العزيز، وسؤاله الأخْذَ بيده، وكَتَبَ إلى الأمير محمَّد، ينشدُه الله في دَمِه، ويسأله التثبُّتَ في أمره، والجمْعَ بينه وبين خصومه، وسماعَ حُجَّته، فيأتي في ذلك بما يوفِّقه اللهُ له. فألقى اللهُ في نفس هاشم الإصغاء إلى شكواه، والاعتناء بأمره، فشمَّر له عن ساعده، وأوصل كِتَابَه إلى الأمير

(١) في م: «منهم».
(٢) في ر٢: «وبغَّضوه».

محمَّد بشرح حاله، فعطف عليه، واتَّهم الساعين به إليه، فأمر بتأمين بقيٍّ بن مَخْلَد، وإحضارِه مع الطالبين له، فتناظروا بين يدَيْه، فأدلى بَقِيٌّ بحجَّته، وظهر على خُصومه، واستبان للأميرِ محمَّد حَسَدُهم إيَّاه[1]؛ لتقصيرهم عن مَدَاه، فدفعهم عنه، وتقدَّم إليه بطأطأةِ قدمه، ونَشْر علمه[2]، وأمر بإيصاله إليه في زُمْرة من الفُقهاء، والرفعِ من منزلته، فاعتلى ذروةَ العِلْم، ولم يزل عظيمَ القَدْر عند الناس وعند الأمير محمَّد إلى أن مات، رحمه الله[3].

وفي صَدْر دولته، تُوُفِّي عالِـمُ الأنْدَلُس عَبْدُ الـمَلِك بن حَبِيب[4]، وذلك في رمضان سنة تسع وثلاثين ومئتين. وهو عبد الـمَلِك بن حبيب بن سليمان بن مروان بن جَيْهَلة بن عبَّاس بن مِرْدَاس السُّلَمِيُّ، يُكْنَى أبا هارون، أُوَله من كُورة إلبِيرة، ونقله الأميرُ محمَّد إلى قُرْطُبة، بل نقله أبوه عبدُ الرحمن بن الـحَكَم. وكان محمَّدُ بن عُمَر بن لُبَابة[5] يقول: عالِـمُ الأنْدَلُس عبدُ الـمَلِك بن حَبِيب، وعاقِلُها يحيى بن يحيى، وفَقِيهُها عيسى بن دينار[6]. قال ابنُ وضَّاح وغيرُه: لم يقدم الأنْدَلسَ أحَدٌ أفْقَهُ من سَحْنُون، إلا أنَّه قدم علينا مَن هو أطْوَلُ لِسانًا منه، يعني ابنَ حبيب. وكان ابنُ حبيب أديبًا، نَحْويًّا، حافظًا، شاعرًا، متصرِّفًا في فنون العلم من الأخبار والأنساب والأشعار. وله مؤلَّفاتٌ حِسان[7] في الفقه والأدب والتواريخ كثيرة[8]. قال ابن العَرَبيّ: بضاعتُه في الحديث مُزْجاة[9]. وكانت عِلَّته التي مات منها الـحَصَى،

---

(١) في ر٢: «له».

(٢) في ر٢: «وأمره بنشر علمه».

(٣) قال بشار: ببقي بن مخلد ومحمد بن وضاح المرواني صارت بلاد الأندلس دار حديث، فجزاهما الله خيرًا عن رسول الله ﷺ.

(٤) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٥٩ والتعليق عليه.

(٥) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ٢/ ٤٩ والتعليق عليه.

(٦) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٤٢٦ وتعليقنا عليه.

(٧) ليست في ر٢.

(٨) ليست في ر٢.

(٩) قول ابن العربي من ر٢.

وتُوُفِّي[1] وسِنُّه أربع وستُّون سنة. وكتب إلى الأمير عبدِ الرحمن بن الحَكَم في ليلة عاشُوراء [من البسيط]:

لا تَنسَ، لا يَنسَكَ الرَّحمنُ، عَاشُورَا ... واذْكُرْهُ لا زلْتَ في الأخيارِ مَذْكُورَا
مَنْ بَاتَ في لَيْلِ عَاشُوراءَ ذَا سَعَةٍ ... يكُنْ بعِيشَتِهِ في الحَوْلِ مَحْبُورَا
فارْغَبْ، فَدَيْتُكَ، فِيمَا فيهِ رَغَّبَنَا ... خَيْرُ الوَرَى كُلِّهِمْ حَيًّا ومَقْبُورا

وخرج الأميرُ محمَّد بن عبد الرحمن إلى الرُّصافة يومًا مُتَنَزِّهًا، ومعه هاشمُ بن عبد العزيز، فكان بها صَدْرَ نهاره على لذَّته، فلمّا أمسى، واختلط الظلام، انصرف إلى القصر، وبه اختلاطٌ. فأخبر مَن سَمِعَهُ وهاشِمٌ يقول له: يا ابنَ الخلائف، ما أطْيَبَ الدُّنيا لولا الموتُ! فقال له الأمير محمد[2]: يا ابنَ اللَّخْناء! لَحَنْتَ في كلامك، وهَلْ مَلَكْنا هذا المُلكَ الذي نَحْنُ فيه إلَّا بالموت[3]؟ فلولا الموت، ما ملكناه أبدًا.

وكان الأميرُ محمَّد، رحمه الله، غَزّاءً لأهل الشِّرْك والاختلاف[4]، وربَّما أوغل في بلاد العدوّ الستَّة الأشْهُر والأكثر، يُحرِّق وينسف. وله وقعةُ وادي سَلِيط، وهي من أُمَّهات الوقائع، ولم يُعرف بالأنْدَلُس قَبْلَها مثلها. وفيها يقول عبَّاس بن فِرْناس[5]، وشِعرُه يكفينا من صِفَتها، وهو [من الطويل]:

ومؤتلف الأصْواتِ مختلف الزَّحْفِ ... لَهُوم الفَلاَ عَبْلِ القَنَابلِ مُلْتَفِّ
إذَا أوْمَضت فِيهِ الصَّوَارِمُ خِلْتَهَا ... بُرُوقاً تَرَاءى في الجَهَامِ[6] وتَسْتَخْفِي
كأَنَّ ذُرَى الأعْلامِ في مَيلاَنِهِ ... قَرَاقِيرُ في يَمٍّ عَجَزْنَ عن القَذْفِ

---

(1) العبارة في ر٢: «وتوفي من علة الحصا».
(2) من ر٢.
(3) العبارة في ر٢: «وهل أوصلنا إلى هذا الملك إلا الموت؟».
(4) في ر٢: «والخلاف».
(5) في ر٢: «مرداس»، وليس بشيء.
(6) ي ر٢: «الظلام».

وإن طَحَنَتْ أرحاؤُها[1] كان قُطْبُهـا حِجَـى مَلِـكٍ نَـدْبٍ شَـمائلُه عَـفِّ
سَــمِيُّ خِتَــامِ الأنْبِيَــاءِ مُـــحَمَّدٌ إذا وُصِفَ الأمْلاكُ جَلَّ عَن الوَصْـفِ
فمِـنْ أجْلِـهِ يَـوْمَ الثلاثـاءِ غُـدْوةً وقَدْ نَفَضَ الإصْبَاحُ حَليَ عُرَى السَّجْفِ
بَكَـى جَـبَلاً وادي سَـلِيطٍ فَـأعْوَلاَ على النَّفَرِ العُبْدَانِ والعُصْبَةِ الغُلْـفِ
دَعَاهُمْ صَرِيخُ الـحَيْنِ فاجتَمَعُوا لَـهُ كَما اجْتَمَعَ الجُعْلَانُ لِلبَعْرِ في وَقْـفِ
فَـما كـان إلا أنْ رَمَـاهُمْ بِبَعْـضِها فَوَلَّوا عـلى أعْقَـابِ مَهْزُولـةٍ كُـشْفِ
كَــأَنَّ مَـسَاعِيرَ الــمَوَالي عَلَـيْهِمُ شَوَاهِينُ جَادَتْ لِلْغَرانيـقِ بالنَّسْفِ
بِنَفْسِي تَنَانِينَ الوَغى حِـينَ صَـمَّمَتْ[2] إلى الجَبَلِ الـمَشْحونِ صَفًّا عَلَى صَفِّ
يَقُول ابْنُ بُولِيشٍ[3] لُموسَى وَقَد وَنَى[4]: أرى المَوْتَ قُدَّامِي وتَحْتِي ومِـنْ خَلْفـي
قَتَلْنَـا لَــهُمْ أَلْفـاً وألفـاً ومِثْلَهَـا وألفًـا وألفـاً بَعْـدَ ألـفٍ إلى ألْـفِ
سِوَى مَـنْ طَـوَاهُ النَّهْرُ في مُسْلَحِبِّهِ فـأُغْرِقَ فيـه أوْ تَـذأْذأَ مِـنْ جُـرْفِ

قال أبو عُمَر السَّالِميّ: كانت أوَّلَ غَزَواته إلى بلد العدوّ، وقد حَشَّدَ لها وجَنَّدَ، وصوَّب كيف شاء وصَعَّد، ألفى العدوَّ وقد ضاقَ بخيله الفضاءُ الواسع، والمكان الداني والشاسِع، وهو متأهِّبٌ للقائه، مُتَوجِّهٌ إلى تِلْقائه. فخامَرَ الأميرَ محمَّدًا الـجَزَعُ، وشابَهُ الروْعُ والفَزَعُ، وظنَّ أن لا منجاةَ من الكُفَّار، وأن المسلمين هناك طَعْنُ الشِّفَار، فرأى من الـحَزْم الأوْكَد، والنَّظر الأحْمَد الأرْشَد، الرجوعَ عن تلك الـحَرَكةِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩١]، فقام رَجلٌ، فقال: أيُّها الأمير، قال الله تبارَكَ وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٣]. فقال له الأميرُ محمَّد: «والله، ما جَبُنْتُ نفسي، إلَّا أنَّه لا رأيَ لِـمَنْ لا يُطَاعُ، ولسْتُ

---

(١) في ر٢: «أركانها».

(٢) في أ: «جمعت».

(٣) في ر٢: «برليس».

(٤) في ر٢: «نأى».

أستطِيعُ أن أُجاهِدَ وَحْدِي. فقال له العُتبِيُّ: والله، ما أراه قَذَف بها على لسانه إلّا مَلَكٌ، فاستَخِرِ اللهَ في ليلك هذا وفي يومك. فأراه اللهُ في مُقابلة العدوِّ الرَّشاد، وألْـهَمَه التوفيق والسَّداد. فندب الناسَ إلى لقاء أعداء الله ونَصْرِ دينه، وأن يكون كلٌّ على حُسْن ظنِّه من الظفر ويَقِينه. فلمّا انعَقَدَتْ راياتُهم، وتأكَّدتْ على الـمُقارعة نِيَّاتُهم، قَدَّمَ عليهم الأميرُ محمَّد ابنَه الـمُنْذِرَ؛ إذ كان مشهورًا بالباس، محبوبًا في الناس. فسارَ المسلمون إلى أن التقى الجمعان، والتفَّ الفريقان، فأعقب اللهُ لأوليائه ظفرًا ونصرًا، وجعل بعد عُسْرٍ يُسْرًا. قال: ولم يؤذِّنْ مُؤذِّنُ الظُّهرِ إلّا ومِنْ رؤوس الأعداء جملةُ آلافٍ مقطوعةٌ لأعداء الله، وذلك من فضل الله. وفي هذا الفتح يقول العُتْبِيُّ، يمدح الأمير محمَّدًا في قصيد طويل أذْكُرُ هنا بعضَه، وهو(١) [من الكامل]:

سَائِلْ عَنِ الثَّغْرِ الصَّوارِمَ تَصْدُقِ ... واسْتَنْطِقِ السُّمْرَ العوَالِي تَنْطِقِ
تَرَكَتْ وَقَائِعَ في الثُّغُورِ وَقَدْ غَدَتْ ... مَثَلًا بِكُلِّ مُغَرِّبٍ ومُشَرِّقِ
وأدَاخَ أرْضَ المُشْرِكِينَ بِوَقْعَةٍ ... تَرَكَتْهُمُ مِثْلَ الأشاءِ الـمُحْرَقِ
جَادَتْ عَلَيْهِمْ حَرْبُهُ بِصَوَاعِقٍ ... تَرَكَتْهُمُ مِثْلَ الرَّمَادِ الأزْرَقِ

خِلافَة الـمُنْذِر بن محمَّد بن عبد الرَّحمن بن الـحَكَم(٢)

كُنْيَتُه: أبو الـحَكَم.

مَوْلِدُه: سنة تسع وعشرين ومئتين.

أُمُّه: تُسَمَّى أثْل، وَلَدَتْه لسبعةِ أشهر.

وُزَرَاؤُه: أحد عشر.

كُتَّابُه: اثنان: سعيد بن مُبَشِّر، وعبد الملك بن عبد الله بن أُمَيَّة بن شُهَيْد.

حاجِبُه: عبد الرحمن بن أُمَيَّة بن شُهَيْد.

---

(١) في ر٢: «في قصيدة منها».

(٢) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٦، وجذوة المقتبس ٣١، والمعجب ٥٢، وتاريخ الإسلام ٦/ ٦٣١، ونفح الطيب ١/ ٣٥٢.

قوَّادُه: سبعة.

قاضِيه: أبو مُعاوِية عامِر بن مُعاوِية اللَّخْميُّ[1].

نَقْشُ خاتَـمه: «الـمُنْذِر بقضاء الله راضٍ».

صِفَتُه: أسْمَرُ، جَعْدُ الشَّعْرِ، بوجهه أثَرُ جُدَرِي، يَـخضب بالـحِنّاء والكَتَم.

أولادُه الذكور: خمسة، والإناث: ثمان.

بُويع يومَ الأحد لثمان خَلَوْنَ من ربيع الأوَّل سنة ثلاث وسبعين ومئتين وهو ابن أربع وأربعين سنة، وسبعةَ عشر يومًا.

وتُوُفِّي في غَزاةٍ له على بَرْبُشْتر يومَ السبت للنصف من صَفَر سنة خمس وسبعين ومئتين.

عُمُرهُ: ستٌّ وأربعون سنة.

خِلافَتُه: سَنَتان إلَّا سبعةَ عشر يومًا، ودُفن بقَصْر قُرْطُبة، وصلَّى عليه أخوه عبدُ الله، جدُّ الناصر.

واتَّصل به موتُ أبيه، وهو على حِصْن الحامَّة يُقاتل المرتدَّ اللعينَ عُمَرَ بن حَفْصون، فقفل إلى قُرْطُبة، وتـمَّت له البيعةُ في اليوم الثاني من وصوله، ففرَّق العطاء في الـجُند، وتحبَّب إلى أهل قُرْطُبة والرَّعايا بأن أسقط عنهم عُشَرَ ذلك[2] العام وما يلزمهم من جميع الـمَغْرَم.

وكانت أكثرُ حصون رَيُّه قد حصلتْ في طَوْع ابن حَفْصُون، فبعث إليها الإمامُ الـمُنْذِرُ الأجنادَ؛ فانصرفتْ إلى الطاعة.

ولـمّا بلغ ابنَ حفصون موتُ الأمير محمَّد، وانصرف عنه الـمُنْذِرُ على ما تقدَّم، نهضَ من فوره، فراسَلَ الحصونَ التي بينه وبين الساحِل كلَّها، فأجابَتْه وطاعت له. ونهضَ إلى بَاغُه وجَبَلِ شيبة[3]، فأخذ من الأموال ما لا يوصف، كلُّ ذلك منه بلا قوَّة، ولا كثرةٍ من مال، ولا عَدَد، ولَكِنَّه كان عَذَابًا من الله ونقمةً انتقم بها من عَبيده. وانفق له زمانُ هَرَجٍ

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٢٨٦ والتعليق عليه.

(٢) من ر٢.

(٣) ينظر عنه معجم البلدان ٣/ ٣٧٩.

وقلوبٍ قاسية فاسدة ونفوسٍ خبيثة، متطلِّعة إلى الشرّ، مُشْرَئبَّة إلى الفتنة. فلمّا ثار، وجد من الناس انقيادًا وقبولًا للمُشاكَلة والموافَقة، فتألَّبَتْ له الدنيا، ودخل إلى الناس من جِهَة الأُلْفة، وقال: طال ما عنَّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمَّلكم فوق طاقتكم، وأذَلَّتْكم العَرَب، واستعبدَتْكم! وإنَّما أُريد أن أقومَ بثأركم، وأُخْرِجَكم من عُبُودِيَّتكم. فكان ابنُ حَفْصون لا يُورِد هذا على أحدٍ إلَّا أجابه وشكره. فكانت طاعةُ أهل الحصون بهذا الوَجْه. وكان أتباعُه شُطَّارَ الناس وشِرَارَهم. فكان يمنِّيهم بفَتْح البلاد، وغنائمِ الأموال. وكان مع ذلك مُتَحَبِّبًا لأصحابه، مُتَواضِعًا لأُلافِه. وكان، مع شرِّه وفِسقه، شديدَ الغيرة، حافظًا للحُرْمة، فكان ذلك ممَّا يُميل النفوسَ إليه. ولقد كانت المرأةُ في أيَّامه تجيءُ بالمال والمتاع من بلدٍ إلى بلد منفردةً، لا يعترِضُها أحَدٌ من خَلْق الله. وكانت عقوبتُه السيف، يُصَدِّق المرأَةَ والرجُلَ والصبيَّ أو من كان على مَن كان، لا يطلبُ على ذلك شاهدًا أكثرَ من الشكوى. وكان يأخذ الحقَّ من ابنه، ويَبَرُّ الرجال، ويُكْرِم الشجعان، وإذا قَدَرَ عليهم، عفا عنهم. وكان يُسَوِّرهم بأسْوِرَة الذَّهَب إذا اختصلوا. فكانت هذه الأشياءُ كلُّها عونًا له. وانتهى ابنُ حفصون بعادِيَته إلى قَبْرة وما أمامَها إلى قَرْية الـجَالِيَة، وأغار على القَبْذِيق من إلْبيرة، وعلى أحواز جَيَّان، وأسر عبدَ الله بن سَماعة عاملَ بَاغُه.

وكان اجتمع إلى حِصْن آشَر من حَوْز رَيُّه وبمقرُبة من قَبْره جَمْعُ الشرِّ من أصحاب ابن حَفْصُون، فراعَ أهْلَ قَبْرَةَ أمْرُهم وهَابُوهم. واتَّصل بالأمير الـمُنْذِر خَبَرُهم، فأرسل أصْبَغَ بن فُطَيْس في خَيْلٍ كثيفةٍ إلى حِصْن آشَر، فحاصَرَهم حتَّى افْتَتَحَه، وقتل مَن كان فيه. وأخرج الأميرُ الـمُنْذِر عبدَ الله بن محمَّد بن مُضَر وأبْدُون الفَتى بخيلٍ إلى ناحية لجَّانَة من قَبْرة، وكان بها مسلحةٌ لابن حَفْصون، فنازلوهم وقاتلوهم حتَّى أفْنَوْهم.

قال الرازيّ: وفي سنة ولاية الإمام الـمُنْذِر، غزا محمَّد بن لُبّ[١] إلى ألبة[٢] والقِلَاع ومعه جموعُ المسلمين، ففتح اللهُ للمسلمين، وقتلوا المشركين قتلًا ذَريعًا.

---

(١) تنظر الجمهرة لابن حزم ٥٠٣.

(٢) الضبط من ر٢.

وفي هذه السنة، أعْنِي سنة ثلاث وسبعين ومئتين، في جُمادى الأولى[1]، أمر الأميرُ الـمُنْذِر بسجن هاشِم بن عبد العزيز وزيرِ أبيه وخاصَّتِه، وأمر بقتله في جُمادى الأُولى، وسَبَبُ ذلك أنَّ هاشمًا كان يُـحْسَد لمكانه من الأمير محمَّدٍ وخاصَّته به، فكانوا يَسْعَوْن به عند الـمُنْذِر، ويكرِّرُون ذلك عليه، حتى تنافرت النفوس[2]. فلمّا مات الأميرُ محمَّد، ووليَ الـمُنْذِر، أرادَ أن يَفِيَ له ويتَّبع فيه فِعْلَ أبيه، فولَّاه الحجابة. ثمَّ تَمالأوا عليه، وأكثروا، وحَرَّفوا عليه الكلام، وتأوَّلوا عليه أقبحَ التأويل، حتَّى نفذ قضاءُ الله فيه. وكان مـمّا تأوَّلوا عليه: أنَّ هاشمًا أنشد عند مُواراة الأميرِ محمَّد، رحمه الله [من الوافر]:

أُعَــزِّي يَــا مُحَمَّــدُ عَنْــكَ نَفْــسِي ... أمــينَ الله ذَا الــمِنَنِ الـجِـسَامِ
فهَــلَّا مَــاتَ قَــوْمٌ لــمْ يَمُوتُــوا ... ودُوفِـعَ عَنْـكَ لِـي كَـأسُ الحِـمَامِ

فتأوَّلُوا أنَّه يريد بقوله: «لَـمْ يَمُوتُوا» الـمُنْذِرَ.

وكتب هاشِمٌ من حَبْسِه إلى جارِيَته عَاج [من الطويل]:

وَإنّي عَــدَانِي أنْ أزُورَكِ مَطْبَــقٌ ... وبَــابٌ مَنِيــعٌ بالحدِيــدِ مُـضَبَّبُ
فـإنْ تَعْجبِي يـا عَـاجُ ممَّـا أصـابَنِي ... فَفِي رَيْبِ هـذا الـدَّهْرِ مَـا يُتَعَجَّـبُ
تَرَكْتُ رَشَـادَ الأمِـرْ إذ كُنْـتُ قـادِرًا ... عَلَيْـهِ فَلاقَيْـتُ الـذِي كُنْـتُ أرْهَـبُ
وكَمْ قَائِلٍ قَالَ: انْجُ وَيْــحكَ سَالِـماً ... فَفِي الأرْضِ عَنْهُم مستَرادٌ ومَذْهَبُ
فقُلْــتُ لــهُ: إنَّ الفِــرارَ مَذَلَّــةٌ ... ونَفْسِي علَى الأسـواء أحْـلَى وأطْيَـبُ
سَــأرْضَى بِحُكْـمِ الله فِـيمَا يَنُـوبُنِي ... ومَا مِنْ قـضَاء الله لِلْمَـرء مَهْـرَبُ[3]
فمَــنْ يَــكُ أمْـسَى شَـامِتاً بِي فإنَّــهُ ... سَـيَنْهَلُ في كَـأسِي وَشِـيكاً ويـشْرَبُ

---

(١) قوله: «أعني سنة ثلاث وسبعين ومئتين في جمادى الأولى» ليس في ر٢.

(٢) تنظر الحلة السيراء لابن الأبار ١/ ١٣٧.

(٣) في ر٢: « مذهب».

ثمَّ بعث فيه الأميرُ ليلًا، فقتَله، وسجن أولادَه وحاشيته، وانتهب مالَه، وهدم دارَهُ، وألقى أولادَه في السجن، وألزمهم غُرْمَ متَي ألف دينار، فلم يزالوا في السجن والغُرْم إلى موت الـمُنْذِر وولايةِ أخيه عبد الله، ثمَّ أطلقهم عبدُ الله، وصرف عليهم ضِيَاعَهم، وولَّى أحَدَهم الوزارةَ والقيادة.

وفيها: كانت الوقعةُ على أهل طُلَيْطُلة، وكانوا قد جيَّشوا البَرْبَر المنفيِّين من تَرْجِيلُه، فقُتل منهم ألوفٌ.

وفي سنة أربع وسبعين ومئتين: خرج الأميرُ الـمُنْذِر بجيوشه إلى عُمَر بن حَفْصُون، فافتتح حصونَه بِرَيُّه، والحصونَ التي بجهة قَبْرة، ثمَّ توجَّه إلى حضرته بَرْبُشتر؛ فحاصره فيها، وأفسد ما حوالَيْه، وضيَّق عليه، ثمَّ انتقل عنه إلى أُرْجُذُونة[1]، وبها عَيْشُون، فأقام عليها مُحاصِرًا لها ومُضَيِّقًا على أهلها[2]، إلى أن نبذوا عيشونًا وأهْلَه، وأسلموه بذَنْبه، فدخلها الأميرُ الـمُنْذِر، وقبض على عَيْشُون وأصحابِه. وظفر أيضًا ببني مَطْرُوح، وهم: حَرْبٌ، وعَوْنٌ، وطَالُوت، وافتتح حصونَهم بجَبَل بَاغُه، وأتى بهم إلى الأمير أسارى، فبعث ببني مَطْرُوح إلى قُرْطُبة، وأمر بقَتْلهم وصَلْبهم، وكانوا اثنين وعشرين رجلًا، فصُلبوا بأجمعهم، وصُلِب مع عَيْشُون في الـخَشَبة خِنْزِيرٌ وكَلْبٌ. وكان السَّبَبُ في ذلك أنَّ عَيْشُونًا كان يقول: إذا ظَفِرَ بي، فلْيَصْلُبْنِي ولْيَصْلُبْ عن يميني خِنْزيرًا وعن يساري كَلْبًا! وكان يَثِقُ بنفسه في القتال ثِقَةً شديدةً، ويأمَنُ مِنْ أن يؤخذ؛ لشِدَّته وشجاعته. فلما يَئِسَ الأميرُ منه، دسَّ إلى بعض أهل أُرْجُذُونة بأن يتحيَّل في أَخْذ عَيْشون، فأجابه، ووعده بأخذه. فلمّا كان في يعض الأيَّام، دخل بَيْتَ أحدهم بغير سلاح، وقد استُعِدَّ له بكَبْلٍ، فأُوثِقَ به وبُعِث به إلى الأمير الـمُنْذِر.

شأن عُمَر بن حَفْصُون في أيَّام الـمُنْذِر، رحمه الله[3]

ولـمّا كان في العام الثاني من ولايته، وهي هذه السنة المؤرَّخة، خرج في عَديده الأكثر، وقصد مدينةَ[4] بَرْبُشتر. فحلَّ عليها أَحْفَلَ احتلال، وقاتل ابنَ حَفْصُون بها

---

(١) معجم البلدان ١/ ١٤٤ والضبط منه.

(٢) «على أهلها» ليست في ر٢.

(٣) بعد هذا في ر٢: « وسمح له»

(٤) في ر٢.

أشدَّ قتال، وانتشرت خيلُه في تلك الأقطار، واستولت على السُّهول والأوعار. ثمَّ عطف الأميرُ إلى مدينة أُرْجُذُونة؛ ليُتَبِّرَها تَتبِيرًا، ويُولِـيَ أهلَها يومًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا؛ لدخولهم في طاعة ابنِ حَفْصون، ونزوعهم إلى ما نزع إليه أهْلُ تلك الحصون، فخرجت رُسُلُهم إلى الأمير، فتلقَّتْه بالسمع والطاعة، والدخولِ في جمهور الجماعة، فتقبَّل نزوعَهم، وأنَّس جميعهم. وتغلَّب على القَصَبة إثْرَ ذلك، وأسر عاملَ ابنِ حفصون هنالك. واستمرَّ اللعينُ ابنُ حفصون على ضلالته وغَيِّه، ولم يَثْنِ عِنانًا عن عادِيَته وبَغْيِه. فخرج إليه الأميرُ ثانيًا وحاصره حصارًا، وقد عدم ابنُ حفصون[1] أعوانًا وأنصارًا. فلمّا رأى الأميرَ أخَذَ بمَخْنَقه، وسدَّ أفواهَ طُرُقه؛ أعمل سوانِحَ الفِكْر، في الخديعة والـمَكْر؛ ليعتصم بذلك من تلك الحبال المنصوبة، والأشراكِ المعترضة المضروبة؛ فأظهر الإنابةَ إلى الطاعة، وشهرَ النصيحة جُهْدَ الاستطاعة، على أن يكون عند الأميرِ من خاصَّة جُنْده، ويسكنَ قُرْطُبَةَ بأهله وولده، وأن يُلْحِق أبناءه في الموالي، ويتابع الإحسان قِبَلَه[2] ويُوالِـي. فأجابه الأميرُ إلى مطلبه بأكيد الأيمان، وكتب له بذلك مبادرًا عَقْدَ أمان، وقطع لأولاده أرفعَ الثياب، وأُوقِرَتْ لهم الدوابّ، بالأموال والأسباب؛ إسباغًا عليهم بالإفضال، وتوسيعًا لهم في الأماني والآمال. وسأل اللعينُ[3] مئة بغل يحمل عليها جُملةَ متاعه وعِيَاله، وجعل طَلَبَها قوَّةً لمكره واحتياله. فأمر الأميرُ بالبغال أن تُحمل إليه، وتُوضعَ بين يديه، وقد جعل عليها عشرةً من العُرَفاء بمئة وخمسين فارسًا؛ إتمامًا للإكرام، وإنعامًا على إنعام. فأرسل عُمَرُ بن حَفْصُون جميعَهم إلى بَرْبُشْتر حيثُ أهْلُه ووَلَدُه، وطريفُه من المال وَمتْلَدُه. وانحلَّ العسكرُ عن الحصن[4] إذ ذاك، وقفل القاضي والفُقَهاء عن تَـمام الصُّلح من هناك، وظنُّهم قد غلب أن لا كَذِبَ ولا مَيْن، وأن قد نِيلَ من الراحة[5] من شغبه أمَلًا وقُرَّة عَيْن. فلمّا انفضَّ جمعُ ذلك[6] العسكر، وانتفض ذلك

---

(١) في ر٢: «وأباد له» بدلاً من «وقد عدم ابن حفصون».

(٢) في ر٢: «إليه».

(٣) ليست في أ.

(٤) في ر٢: « بَرْبُشتر».

(٥) «من الراحة» ليست في ر٢.

(٦) «جمع ذلك» ليست في ر٢.

الـمُعَسْكَر، ودخل الليل، وامتد للفاتِك الذَّيْل، هرب عُمَرُ بن حَفْصون من ذلك الـحِصْن، وسار إلى بَرْبُشْتر في ظِلِّ الأمْن. فلقيَ العُرَفاء، فَنَاشبهم[1] القتالَ، وأخذ تلك البغال، وعاد إلى سِيْرَته الأُولى، وقال لشيعته: «أنا ربُّكم الأعلى!»، فأقسم الأميرُ الـمُنْذِر أن يَقْصِده ويحلَّ عليه، ولا يقبل منه أو يلقي بيده إليه، فأعمل الغَزْوَ إلى بَرْبُشْتر، وجمع لها الجمعَ الأكبر. فلمّا احتلَّ عليها، أمر أن يُحْدَق بها، ويُحاط بجَوَانِبها، وأن يعتزم لقتالها اعتزامًا، ويلتزم مُحاصرتها التزامًا.

فظهر من حَزْم الأمير المنذر[2] وعزمه ما يَئِس معه ابنُ حَفْصون، من البقاء في تلك الحصون. فبقي الأمير[3] على حِصْن بَرْبُشْتر، يَرومُه رَوْمًا، مدَّةً من ثلاثة وأربعين يَوْمًا. وكان قد أصابَتْه عِلَّةٌ أكرثتْ نفْسَه، وكدَّرت أُنسه[4]، فبعث في أخيه عبدِ الله لينوب منابَه، وينتدبَ في تلك الحال انتِدابَه. فلمّا وصل إليه، وحصل في الـمِظَلَّة لَدَيْه، خرجَتْ في الحين رُوحُه، وبكاه مَن كان يَغْدُوه ويَرُوحه. فوقع الـخَرْمُ في العسكر إثْرَ موته، وتفرَّق الناسُ عند فَوْته. ولم يقدر أخوه عبدُ الله على ضَبْطهم، وعَقْدِ ما انحلَّ من رَبْطهم. واستطال عُمَرُ بن حفْصُون في المحلَّة، وانتهبها بالـجُملة. وحُمِل الأميرُ الـمُنْذِر رحمه الله[5] على جَمَل إلى قُرْطُبة، فدُفن مع أجداده[6] هنالِك، وصار عند الناس أهْوَنَ مفقود وأيْسَرَ[7] هالِك؛ إذ كان قد اضطرَّهم في ذلك المقام، وندبهم إلى الثباتِ هنالك والـمُقام.

وفي هذه السنة: كان القحطُ الشديد بالأنْدَلُس، فاستسقى الناس، فنزل ثَلْجٌ كثيرٌ في أوَّل يوم من يَنَّيْر، ولم ينزل غيثٌ. ثمَّ استسقَوْا مرارًا، فلم يُمْطَروا؛ فخامَرَ

(١) في م: «فناصبهم».

(٢) في ر٢: «فظهر من حزمه».

(٣) في ر٢: «واستمر المنذر».

(٤) في ر٢: «أكذبت نفسه وكسفت شمسه».

(٥) «رحمه الله» من ر٢.

(٦) «مع أجداده» ليست في ر٢.

(٧) «مفقود وأيسر» ليست في ر٢.

النّاسَ القنطُ. فلمّا دخل من فِبْرَيْر بعضُ أيّام، سُقِيَ النّاسُ، وارتفع الباسُ، فاستبشروا بفضل الله، وأعلنوا بشكره، فقال العَكِّيُّ في ذلك، يمدح الأميرَ الـمُنْذِر [من الكامل]:

نَزَلَ الحَيَا الـمُحْيِي وطابَتْ أنْفُسُ ... إذ كان سُوءُ الظَّنِّ فيها يَهْجِسُ

أحْيا الإلهُ عِبَادَهُ من بَعْدِ ما ... كانت من القنطِ النُّفوسُ تُوَسْوِسُ

مُتلافيًا فيه بعائدِ رَحْمَةٍ ... لولا عَوائِدُها طَوَتْنَا الأبْؤُسُ

مَلِكُ الملوكِ تَقَدَّسَتْ أسْماؤُهُ الـ ... ـحُسْنى وعَزَّ جَلالُه الـمُتَقَدِّسُ

ومنها:

بالـمُنْذِرِ الـمَيْمُونِ طَابَ زَمانُنا ... وبِطيبِ دَوْلَتِهِ تطيبُ الأنْفُسُ

إلى قوله:

خُذْها أمِينَ الله وابنَ أمِينِهِ ... من شاكِرٍ في الشُّكْرِ لَيْسَ يُدَلِّسُ

وفي سنة خمس وسبعين ومئتين: تُوفِّي الأمير الـمُنْذِر، رحمه الله، وقد ذُكر موتُه على حصن بَرْبُشْتر[(١)] مُحاصِرًا للخبيث ابن حَفْصون. وكانت وفاتُه منتصفَ شهر صَفَر من السنة المذكورة[(٢)]، وهو ابن ستٍّ وأربعينَ سنة. وملك[(٣)] سَنَتَيْن إلَّا أيّامًا[(٤)].

بعض سيره وأخباره

كان الأميرُ الـمُنْذِر، رحمه الله، يحبُّ إخْوَتَه، ويُكرمُهم، ويُدْنِي مجالسَهم، ويَصِلُهم، ويُحضرهم مجالسَ أُنْسِه. وكان يُجزل العطاء للشُّعراء، فيُنْشِدونه غازيًا وراجعًا. وكان من شُعرائه: أحمدُ بن عبد رَبِّه، والعَكِّيُّ، وغيرُهما. ولم يكن أحدٌ من الخلفاء قَبْلَه مِثْله شجاعةً وصرامةً وعزمًا وحزمًا. ولقد بلغ في سنةٍ بذلك ما لم يَبْلُغه

---

(١) قوله: «وقد ذكر موته على حصن بربشتر» ليس في ر٢.

(٢) قوله: «وكانت وفاته منتصف شهر صفر من السنة المذكورة» ليست في ر٢.

(٣) هذه الجملة ليست في ر٢.

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٤٣٥.

غيرهُ في الدَّهْر. ولقد كان أبطالُ الرجال وأنجادُهم من أهل الفتنة، يُذْعِنون إليه دون مِحْنة، ويُرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبَها. وإنَّ الخبر المستفيض عن الشُّيوخ أنَّه، لو عاش الـمُنْذِرُ عامًا واحدًا زائدًا، لم يَبْقَ برَيِّه مُنافِقٌ، وأخبارُه تدلُّ على ذلك. وأوَّلُ أخباره الدالَّة على ذلك: أنَّه، لـمّا أتاه موتُ أبيه، لم يمنعْه ذلك من التعريج عن القَصْد واختصار الطريق، ولا شَغَلَه أمرٌ مُهِمٌّ ولا أمرٌ جليلٌ عن آخر، فجعل طريقَه على رَيُّه، فهذَّب أُمورَها، وولَّى عليها سليمانَ بن عبد الملك بن أَخْطَل، وعبدَ الرحمن بن حُرَيْش، وأدخل معهما أهل الـمَعاقِل من العَرَب والـحَشَم. ثمَّ جمع في يوم واحد مبايعتَه، وإعطاء الـجُنْد، والنَّظَرَ فيما أسْقَطَ من الأزِمَّة عن الرعيَّة، وما فَعَلَهُ من الاستِحْماد إلى أهْل قُرْطُبة بإسقاط العُشور عنهم، والنظَر في النَّدْب وإخراجِ القائد. وهكذا كان فِعْلُه في جميع أسبابه(١)، وبحسب ذلك كان انقياد الأشياء له.

خِلافة الأمير(٢) عبد الله بن محمَّد بن عبد الرَّحمن بن الـحَكَم(٣)

كُنيتُه: أبو محمَّد.

مَوْلِدُه: في النصف من ربيع الآخر سنة تسع وعشرين ومئتين.

أُمُّه: تُسمَّى بهَار، وقيل: عشار.

حُجَّابُه اثنان: عبد الرحمن بن شُهَيْد، وابن السَّلِيم.

وُزَراؤُه: ستَّة وعشرون.

كُتَّابه ثلاثة: عبد الله بن محمَّد الزَّجَّاليّ، وعبد الله بن محمَّد بن أبي عَبْدة، وموسى بن زيَاد.

صِفَتُه: أبْيَض، مُشْرَبٌ بحُمْرة، أصْهَب، أزْرَق، أقْنَى الأنف، رَبْعةٌ، يَـخضِب بالسواد.

---

(١) في ر٢: «أحواله».

(٢) من ر٢.

(٣) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٦، وجذوة المقتبس ٣٢، والمعجب ٥٣، وتاريخ الإسلام ٦/ ٩٦٨، ونفح الطيب ١/ ٣٥٢.

بنوه: أحد عشر، أحدُهم محمَّد المقتولُ، والدُ عبدِ الرحمن الناصر. بناته: ثلاث عشرة.

بويع في اليوم الذي مات فيه أخوه الـمُنْذِرُ في المحلَّة على بَرْبُشْتر، وذلك يوم السبت في النصف من شهر صَفَر سنة خمس وسبعين ومئتين. ثمَّ قفل إلى قرطبة بأخيه الـمُنْذِر مَيِّتًا، فاستتمَّ البيعةَ بقُرْطُبة، ودفن أخاه بقصرها. وتُوفِّي عبدُ الله سنة ثلاث مئة، وهو ابنُ اثنتين وسبعين سنة؛ فكانت خلافتُه خمسًا وعشرين سنة، وخمسة عشر يومًا[1]. ومن قول ابن عبد رَبِّه فيه [من الطويل]:

خِلافَـةُ عَبْـدِ الله حَـجٌّ عَـلَى الـوَرَى ... فَـلا رَفَـثٌ في عَـصْرِهِ وفُـسُوقُ

تَجَلَّتْ دَيَاجِي الـحَيْفِ عَنْ نُورِ عَدْلِهِ ... كَـما ذَرَّ في جُـنْحِ الظَّـلامِ شُرُوقُ

وثَقَّفَ سَهْمَ الـدِّينِ بالعَـدْلِ والتُّقَـى ... فهـذا لَــهُ نَـصْلٌ وذَلِـكَ فُـوقُ

وأعْلَـنَ أسْـبَابَ الـهُدَى بـضَمِيرِهِ ... فلَـيْسَ لَـهُ إلَّا بِهِـنَّ عُلُـوقُ[2]

ومَـا عَاقَـهُ عَنْهـا عَوائـقُ مُلكِـهِ ... وأمْثالُهـا عَـن مِـثْلِهِنَّ تَعُـوقُ

وأفْضَت الخلافة إليه، وقد تحيَّفها النَّكْثُ، ومزَّقها الشّقاق، وحلَّ عُراها النِّفاق، والفتنةُ مستوليةٌ، والدُّجُنَّة متكاثفةٌ، والقلوبُ مختلفةٌ، وعصا الجماعة مُنْصَدِعةٌ، والباطلُ قد أُعْلِنَ، والشرُّ قد اشْتَهَرَ، وقد تمالأ على أهل الإيمان حِزْبُ الشيطان، وصار النَّاسُ من ذلك في ظَلْماءِ لَيْلٍ داجٍ، لا إشراقَ لصباحه، ولا أُفُولَ لنجومه. وتألَّبَ على أهْلِ الإسلام أهْلُ الشِّرك ومن ضَاهَاهُمْ من أهْل الفتنة، الذين جرَّدوا سيوفَهم على أهل الإسلام، فصار أهلُ الإسلام بين قتيل ومحروبٍ ومحصور، يعيش مجهودًا، ويموت هزلًا، قد انقطع الـحَرْث، وكاد ينقطع النَّسْلُ. فناضَلَ الأميرُ بجُهْده، وحمى بجِدِّه، وجاهَدَ عدوَّ الله وعدوَّه. وانقطع الجهادُ إلى دار الحرب، وصارت بلاد الإسلام بالأندلُس هي الثغرَ المخُوف، فكان قتالُ الـمُنافِقين وأشباهِهم أوْكدَ بالسُّنَّة، وألْزَمَ بالضَّرُورة.

---

(١) العبارة في ر٢ حول سنه ومدة خلافته فيها تقديم وتأخير.

(٢) هذا البيت ليس في ر٢.

فأوَّلُ ما تناوَلَه، ونظر فيه، أنْ وجَّه إبراهيمَ بن خَمِير لأخْذِ بَيْعة ابن حَفْصُون وبَيْعةِ مَن قِبَلَه. فقصد إبراهيمُ إليه، وطلب طاعَتَه، فظهر منه حُسْنُ مَذْهَب، فأخذ بَيْعتَه، وصدر عنه، وقَدِم معه حَفْصٌ ابنُه وجماعةٌ من أصحابه، فأُخِذَتْ عليهم البيعة، ورَدَّهم الأميرُ مَـحْبُوِّين بالكرامة والرعاية. فبقيَ ابنُ حَفْصُون سامِعًا مُطِيعًا مُنْتَهِيًا عمَّا نُهِيَ عنه، واقفًا عندَ ما أُمِرَ به[١]. ثمَّ تعدَّى بعد ذلك[٢] حَدَّه، ومدَّ يدَه إلى ما نُهي عنه، فلم يَدَعْ مالًا عند مَن أمكنه، واستحْوَذَ على أهل الكُوَر في أموالهم[٣]، وأمضى نفسَه على عادته الذميمةِ من الفساد وقَطْعِ السُّبُل، وذلك في سنة ولاية الأميرِ عبد الله.

وفي سنة ست وسبعين ومئتين: خرج الأميرُ عبد الله بنفسه إلى بَرْبُشْتر وحصونِ رَيُّه، فانتسف معايشَها، وقفل عنها، وقد شدَّ تلك الناحية، وأبقى بحاضرة رَيُّه محمَّدَ بن ذَنين[٤] من أهل قُرْطُبة، فخرج ابنُ حَفصون في إثره، وتألَّف إليه المفسدون، فأتوا إلى إسْتِجَّة، فاحتلُّوها، ثمَّ إلى حِصْن إسْتَبَّة، فأخذوه، فأخرج إليهم الأميرُ جيشًا، فحاصره[٥] فنزل ابنُ حفصون، واعترف بذَنْبه، فعقد له الأميرُ أمانًا.

وفي هذه السنة: ولي محمَّد ابن الأمير عبدِ الله كُورةَ إشبيلية، فخرج في أيَّامه بعضُ عَرَب إشبيلية إلى قَرْمُونة، فضبطوها.

وفيها، ثار أبو يحيى محمَّدُ بن عبد الرحمن بن عبد العزيز التُّجِيبيُّ المعروف بالأنْقر.

وفيها: نقض ابنُ حَفصون وقصد بَيَّانةَ، فحارب أهْلَها، ثمَّ أعطاهم العهد، فلمّا نزلوا إليه، غدرهم، وقتَلَهم، وأخذ أموالَـهم، وسبَى ذراريَهم.

وفيها: انتقضَ أهلُ جَيَّان، وأخرجوا عاملَها عبَّاسَ بن لَقِيط، وملكها ابن شاكِر.

---

(١) في ر٢ بدل هذه العبارة: «فبقي ابن حفصون مطيعًا».

(٢) «بعد ذلك» ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «على أموال أهل الكور».

(٤) في ر٢: قين».

(٥) من ر٢.

وفي سنة سبع وسبعين ومئتين: وُلد عبدُ الرحمن الناصِر[1].

وفيها: غزا القائدُ ابنُ أبي عَبْدة إلى جَيَّان، وبها ابنُ شاكِر مُخالِفًا، فحارَبَه، وحاصَرَه، وقتل جماعةً من أصحابه، وأحرق كثيرًا من دُور جَيَّان.

وفيها: خرج حفْصُ بن المرَّة إلى سَوَّار، وكمَّن له الكمائن، وأغار عليه، فلمّا خرج سَوَّارٌ في طلبه، خرجت عليه الكمائنُ، فقُتِل.

وفيها: قُتِلَ ابنُ شاكِر الثائر بجَيَّان. وسَبَبُ قتلِه: أنَّ ابنَ حَفْصُون أرادَ أن يُراجعَ طاعة الأمير، وأن يتقرَّب إليه بقتل ابن شاكِر، فبعث إليه خَيْلًا يُريه أن يمدَّه على عدوِّه، فأقبل الـمَدَدُ إليه، فلمّا خرج إليهم، فَتَكُوا به وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى ابن حَفْصون، فبعث به إلى الأمير عبدِ الله. وعند ذلك توجَّه ابنُ حَفْصون إلى جَيَّان، فأغْرَمَ أهْلَها الأموالَ الجسيمة. وأقامت جَيَّانُ وإلْبِيرة مُدّةً دون عاملٍ من الأمير.

وفي سنة ثمان وسبعين ومئتين: خرج الأميرُ عبد الله إلى بُلايّ من عمل قَبْرة، وبها عدوُّ الله ابنُ حَفْصون مع جماعةٍ كبيرة من أصحابه أهلِ الفساد والارتداد، وكانوا قد أضرُّوا بأقاليم قُرْطُبة، وضيَّقوا عليهم حتى أغاروا على أغنام قُرْطُبة. فخرج إليهم الأمير مستهلَّ صَفَر، واحتلَّ به، فناهَضَه وصادَقَه القتال، فانهزم هو ومَن معه، ولجأ إلى حصنِه مع ملإٍ من أصحابه، وعُوجِلَ عشيرُه عن الدخول معه، واتُّبِعوا، فلم يخلصْ منهم أحدٌ؛ فبات الأميرُ قريرَ عَيْنٍ، والمسلمون كذلك، وقد أخذوا عليه تلك اللّيلةَ البابَ رجاءَ أن يأتيَ الصّباح، فيؤخَذَ داخلَ الحصن. ثمَّ خرج منه مع بعض أصحابه، فنجا ونَجَوْا. ولـمّا أصبح، أُعلم السلطانُ بخبره، فأرسل[2] الخيلَ في أثره، فلم يُعْلَم له خبر. ودخل الأميرُ الحصنَ يومًا آخَرَ، فوجده مُتْرَعًا بالذُّخر، مَلآنَ من العُدَد، وكان عَدَدُ عسكر الأمير ثمانيةَ عشر ألف فارس. وقيل: إنَّ ابنَ حفصون أَلَّبَ أهلَ حصون الأندلُس كلِّها، وأقبل إليه في ثلاثين ألفًا. ووقعت الحربُ بينهم، فانهزم عدوُّ الله، وقُتِل أكْثَرُ مَن كان معه. ودخلت جملةٌ منهم

(١) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٧.

(٢) في ر٢: «فوجه».

في محلَّة الأمير، فأمر بالتقاطهم، فأُتي بألفِ رَجلٍ منهم، فقُتلوا صَبْرًا بين يديه. هكذا ذُكِر في «بَهْجة النَّفْس».

ثمَّ قصد الأميرُ إسْتِجَّة، فنازلهم، وحاربَهم، وقَتَلَ لهم عددًا كثيرًا. فلمّا أخذهم الـجَهْدُ، رفعوا الأطفالَ على الأيدِي في الأسوار، مستَصْرِخين، ضارعين، راغبين في العفو، فعفا عنهم.

وفي سنة تسع وسبعين ومئتين: غدر أهلُ أُرْجُذُونة بأحمدَ بنِ هاشِم. ونقض ابنُ حفصون ما كان انعقد[1] من السِّلم والطَّوع.

وفي سنة ثمانين ومئتين: توجَّه الـمُطَرِّف ابن الأمير عبدِ الله بالجيش إلى ابنِ حفصون ببَرْبُشْتر، فحاصرها، وهتك جميعَ ما حوالَيْها[2].

وفيها: أمر الأميرُ عبد الله ببُنيان[3] حِصْن لَوْشة[4]، وأبقى عليه إدريسَ بن عُبَيْد الله.

وفيها: دخل إذْفُونْش بن أُرْدُون[5] مدينةَ سَمُّورة[6] وبناها، وكانت من بنيان عَجَم طُلَيْطُلة.

وفي سنة إحدى وثمانين ومئتين: أغزى الأميرُ عبدُ الله عَبْدَ الملك بن أُمَيَّة[7]، فتقدَّم إلى حصون ابن مَسْتَنَة، ونازَلَ حصنَ آشَر، وحارَبَه، وقَتَلَ من أهلِه عددًا كثيرًا، وهدم حِصْنَ السَّهْلة، ثمَّ قفل إلى قُرْطُبة.

---

(١) في م: «عاهد عليه».

(٢) الإحاطة ٣/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) في ر٢: «ببناء».

(٤) ينظر عنها معجم البلدان ٥/ ٢٦.

(٥) هو الفونسو الثالث.

(٦) معجم البلدان ٣/ ٢٥٥ وهي Zamora.

(٧) هو عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن أمِته بن زيد بن عبد الرحمن بن أبي حوثرة، أبو مروان (الحلة السيراء لابن الأبار ٢/ ٣٧٣).

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين: غزا بالصّائفة الـمُطَرِّفُ ابن الأمير عبد الله. وقادَ الصائفةَ[1] عبدُ الملك بن أُمَيَّة. فلمّا كان بمقرُبة من إشبيلية، قبض على القائدِ عبد الملك، وقتله، وقدَّم على قيادة العسكر أحمدَ بن هاشِم[2]. وأقام العسكرُ في الموضع أربعةَ أيَّام، وكتب أمانًا لأهل إشبيلية، وأمانًا لأهل شَذُونة، فدانت له، وقبض جبايتَها، ودوخ تلك البلادَ. ثمَّ رحل إلى إشبيلية، فناشَبَهم الحربَ، فانهزم أهْلُ إشبيلية، ووقع فيهم القتلُ إلى سُور المدينة، ثمَّ أجاز الوادي، يتتبّع القُرَى بالنسف والتغيير.

وفي هذه السنة: ضمَّ الـمُطَرِّفُ ابنُ الأمير عبدِ الله[3] إبراهيمَ بن حَجَّاج وابْنَ خَلْدُون[4] وابنَ عبد الملك الشَّذُونيَّ إلى السجن، وأوثقهم في الحديد. وقطع لسانَ سَحْنُون الكاتب، وضرب ظَهْرَه.

وفيها: أتت جبايةُ إشبيلية. وعندما أتت، أطلق ابنَ حَجَّاج وابنَ خَلْدُون والشَّذُونيَّ من سجن قُرْطُبة.

ذكر ثَوْرة بني حَجَّاج بإشْبِيلِيَة

وذلك أنَّ إبراهيمَ بن حَجَّاج ترك وَلَدَه رهينةً بقُرْطُبة، ورجع إلى بلده إشبيلية، فتوزَّع كُورَتَها على نصفَيْن: خرج إبراهيمُ بالنِّصف، وابنُ خَلْدُون بالنّصف. وبَقِيَا كذلك أعوامًا. وكان الأميرُ عبد الله قد أخذ في الضَّرْب بينهما، ويكاتِبُ كلَّ واحد منهما بما يَراه من صاحبه. فلمّا كان في بعض الأيَّام، كتب إبراهيمُ بن حَجَّاج وكُرَيْبُ بن خَلْدُون إلى الأميرِ عبد الله في مصَالحهما؛ وكتب معهما خَالدُ بن خَلْدُون أخو كُرَيْب كتابًا يُغْرِي فيه بإبراهيمَ بنِ حَجَّاج عند الأمير، ويقول: إنَّه في قَبْضَتهم، فكتب له جوابَه على نصِّ كتابه، وخرج الحامِلُ بالكُتُب إليهم، فسقَطَ له كتابُ خالدٍ الذي كان بعث للأمير، فأخذه بعضُ فِتْيان القَصْر، فقرأه وعلم ما فيه، فدفعه لرسولِ

---

(١) في ر٢: «والقائد».

(٢) الحلة السيراء ٢/ ٣٧٤.

(٣) ترجمته في الحلة السيراء ٢/ ٣٧٦.

(٤) هو كريب بن عثمان بن خلدون، كما في الحلة السيراء ٢/ ٣٧٦.

إبراهيم بن حَجَّاج، وقال له[1]: «اسبِقْ به مَوْلاك[2]!»، فلمّا وصل الرسولُ والكِتابُ إلى إبراهيم، علم حقيقةَ ما يحتوي عليه ابنا خَلْدُون من سُوء الباطِن. وكان هذا في[3] سنة ست وثمانين ومئتين. فعند ذلك، تلطَّف إبراهيمُ في طعام، ودعا ابنَيْ خَلْدُون، فوَصَلا إليه، فلمّا استقرَّ المجلسُ بهم، أخذ إبراهيمُ في عِتاب كُرَيْب وأخيه خالِد، وأخرج الكتابَ الذي بعث به الأميرُ إليهما، وأوقفهما عليه، وأبلغ في عِتابهما، وأكثر في ذلك عليهما. فأخرج خالِدٌ سِكِّينًا كانت في كُمِّه، فضرب بها رأسَ إبراهيمَ بنِ حَجَّاج، فمزَّق قَلَنْسُوَتَهُ، وضربه في وجهه، فلمّا صدر منه ذلك، نهض إبراهيم، ودعا مَن حضر من رجاله، فعَلَوْهُما بالسيُّوف، حتّى قتلوهما، وألقى رأسَيْهما إلى أصحابهما ورجالهما، فتفرَّقوا. وتتبَّعهم إبراهيمُ بالقتل والنَّهْب، ودفن جَسَدي ابنَيْ خَلْدُون، وانقادَ له جميعُ أهل الكُوَر الملاصقة لإشبيلية. وخاطب عند ذلك الأميرَ عبدَ الله، يتبرَّأُ له من دَمِهما، ويقول: إنهما كانا يَحمِلانِهِ على النَّكْث، وإنَّه الآن على الطّاعة، وطلب منه ولايةَ إشبيلية، فأجابه الأميرُ إلى ذلك. وانفرد إبراهيمُ بولاية إشبيلية، فاجتبى الأموالَ، واصطنع الرِّجال، وارتقى في الأحوال، وامتدَّت لفضائله الآمال، وكان له حميدُ آثار، وجميلُ أخبار[4]، فاق[5] بها أهلَ عصره، وحسن في الآفاق طيبُ ذكره.

ولم يزل بعد ذلك إبراهيمُ بن حَجَّاج يشتطُّ[6] على الأمير عبدِ الله، إلى أن سأله إطلاقَ ولده عبدِ الرحمن الرهين عنده، فلم يُسعفه الأميرُ عبد الله في ذلك؛ فنبذ إبراهيمُ الطاعةَ عند ذلك، وظاهَرَ ابْنَ حَفْصُون، وأمدَّه بالمال والرِّجال؛ نكايةً للأمير عبدِ الله، فقويتْ شوكةُ ابنِ حَفْصون، وازداد به طماعيَةً، وفي خلال[7] ذلك، لم يزل إبراهيمُ يُدَسِّس ويُرسل مَن يُشير على الأمير بإطلاق ولده، ويتضمَّن له عَوْدَه

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «إلى مولاك».

(٣) ليست في ر٢.

(٤) في ر٢: «أفعال».

(٥) من هنا إلى نهاية الفقرة لم يرد في ر٢.

(٦) في ر٢: «يبسط»، وهو تصحيف.

(٧) في ر٢: «أثناء».

إلى الطاعة، حتَّى وافَقَ السُّلطانُ على ذلك، فأطلق عبدَ الرحمن بن إبراهيم، وأعظم الإحسانَ إليه، وجدَّد له التَّسجيلَ على بلده إشبيلية، فعاد إبراهيمُ إلى ما كان أوَّلًا عليه من[1] الطاعة، واستقامت أحوالُ تلك النواحي على يديه.

قال حَيَّان بن خَلَف[2]: لـمّا ملك إبراهيمُ بن حجَّاج إشبيليةَ وقَرْمُونة وما والاهما، ارتفعَ ذِكرُه، وبَعُدَ صيتُه، واتَّخذ لنفسه جُنْدًا، ورتَّب لهم الأرزاقَ كفِعْل السلطان، فكَمُل في مَصَافِّه خمسُ مئة فارس. وكان لإبراهيمَ بنِ حَجَّاج في بسَاط السلطان بقُرْطبة قومٌ يَقِفُون في حقِّه، ويُعْلِمونه بها عند السلطانِ من حاله، وينصحونه في أمره. فعند ذلك، أقلع عمَّا كان عليه من موافقة ابنِ حَفْصون، واعترف بحقِّ أمير الجماعة، فعامَلَه الأميرُ بما شُهِرَ له من الفضل. وكانت منزلتُه عنده أعلى منزلة[3]، إلى أن تُوُفِّي، رحمه الله.

وذكر حَيَّان أيضًا قال: كان لإبراهيم بن حَجَّاج في بلده إشبيليةَ قاضٍ يقوم بالـحُكم، وصاحِبُ مَدِينة يُقِيم الـحُدُود، جرى في ذلك كلِّه مَـجْرَى السلطان في حضرته. قال: وكان فَظًّا على أهل الرِّيَب، قامعًا لأهل الشرّ، وكان مُنْتَجَعًا على البَرّ والبحر، مقصودًا بالغرائب والطُّرَف. وكانت له بإشبيلية طُرُزٌ يُطرَزُ فيها على اسمه كفِعْل السلطان إذ ذاك، وكانت قَرْمُونة تحت مملكته، وهو الذي حصَّنها وحسَّن بنيان سورها، وفيها كان مَرْبَطُ خيله المتَّخَذة لركوبه، وبينها وبين إشبيلية كان تَرْدادُه سائرَ أوقاته. وكان جوادًا، ممدَّحًا، يرتاحُ للثناء، ويُعْطِي الشُّعراءَ، ويضاهي في فعله كبارَ الأُمراء، ويتفقَّد أهلَ البيوتات والشَّرَف بالعطاء. وكان[4] أهْلُ قُرْطُبَة متعرِّضين لسَيْبِه، فيُكرمهم ويَصِلُهم. وقد انتجعه شاعرُهم الأكْبَر أبو عُمَر أحمدُ بن عبد رَبِّهِ من بين جميعِ ثُوَّار ذلك الوقت بالأندلُس، فعرف قَدْرَه، وأفضل عليه.

ومن قوله فيه، يَصِفُ تنقُّلَه من إشبيلية إلى قَرْمُونةَ [من الطويل]:

---

(١) قوله: «ما كان أولاً عليه من» ليس في ر٢.

(٢) المقتبس ١١ فما بعدها (ط. انطونيا).

(٣) «وكانت منزلته عنده أعلى منزلة» ليست في ر٢.

(٤) من هنا إلى آخر القطعة الثانية من الشعر لم يرد كله في ر٢.

ألا إنَّ إبــــراهيمَ لُــــجَّةُ ســـاحِلِ	مِن الجودِ أرْسَت فوقَ لُـجَّةِ ســاحِلِ
فإشْــبِيلَةُ الزَّهْــراءُ تُزْهَــى بمجـدِهِ	وقَرْمُونَـــةُ الغَـــرَّاءُ ذاتُ الفَـــضَائِل
إذا مَا تجلَّــتْ تِلْـكَ مـن نُـورِ وَجْهَـهِ	غَـدَت هـذِهِ للنـاسِ في زِيّ عاطِـلِ
وإنْ حـلَّ هـذِي فهْـوَ يُـوحِشُ هـذِهِ	فتَهــدِي بُرسْــلٍ نَحْــوَه ورَسَــائلِ

وهي طويلة. ومن قوله أيضًا من قصيد طويل [من الوافر]:

كتــابُ الــشوقِ يَطْوِيــهِ الفُــؤادُ	ومــن قـبض الــدُّموعِ لَـه مِـدادُ
تخُــطُّ يَــدُ البكــاء بــه ســطوراً	عــلى كبِــدِي ويمليهــا الــسُّهادُ
وكَيْـــفَ وبي فـــؤادٌ مـــستطيرٌ	لِـــمَن لا يـــستطيرُ لـــه فُـــؤادُ
أمِـــنْ يُمْـــنٍ يكـــون الجـــودُ خلـــوًّا	وإبـــراهيمُ حاتِـــمُها الـــجَوَادُ
زيارتــــه لِـــمَن يأتيـــهِ حَـــجٌّ	ومِدْحتُــــه رِبـــاطٌ أو جِهَـــادُ
ومــا لي في التخلُّــفِ عَنْــه عــذْرٌ	ولي في الأرضِ راحِلَــــــــةٌ وزَادُ

ولأحمد بن عبْد رَبِّهِ كبير شعراء قرطبة(١) في إبراهيم بن حَجَّاج أشعارٌ كثيرةٌ، ولغيره من الشعراء. وذكر ابن أبي الفيَّاض أنَّ محمَّد بن يحيى القَلْفاط الشاعِر القُرْطُبِيَّ قصد الأميرَ إبراهيم بن حجَّاج يمدحه بقصيدة نونيَّة، أوَّلُـها [من الخفيف]:

أزِفَتْ رِحْلَتِي فَاهمَتْ جُفُونَا

ثمَّ أخذ في هجاء عشيرته أهْلِ قُرْطُبَة، وكُبَرائِها، وعُظَماء دولتها، فأفْحَش عليهم. فلمّا أنشد القصيدةَ لإبراهيمَ بن حجَّاج، زها به، وحَرَمه وأساء ذِكْرَه، فانصرفَ خائبًا من نَواله، جانيًا ثمرةَ فِعاله ومقَاله. فلمّا وصل قُرْطُبَة، أخذ يهجو إبراهيمَ بن حَجَّاج بقصيدة أوَّلها [من الكامل]:

لا تُنكِري للبَيْنِ طولَ بُكائي

---

(١) «كبير شعراء قرطبة» من ر٢.

فلمّا بلغتْ إبراهيم، أغْضَبَتْه، فأوصى مَن قال له عنه يمينًا مغلَّظةً: «إنَّه إن عاد لِـما وقع فيه، لآمُرَنَّ بأخذ رأسه بقُرْطُبة على فراشه! فارتاع القَلْفاط المذكور لذلك، وكفَّ[1]. فكان[2] هذا الفِعْلُ لإبراهيمَ في حقِّ أهل قُرْطُبة أجلَّ مكرمةٍ، وعُدَّ في جُملة فضائله. ولأجْل هذا ساقَه القاضي ابنُ أبي الفَيَّاض رحمه الله وقد قصده العُذْرِيُّ من الـحِجاز، فراعى حقَّه، وأكرم[3] مثواه، وأناله جزيلَ خيره. ورفع الناسُ ذكرَه[4]. وقد ذكر أبو عامِر السالِـميُّ في كتابه المسمى بـ«ـدُرَر القَلائد وغُرَر الفَوَائد» أن الأميرَ الرئيس الـهُمام الـجَوَاد الـحَسِيب[5] أبا إسحاق إبراهيمَ بن حَجَّاج سمع بجاريةٍ بَغْداديَّة اسْمُها قَمَر[6]، فوجَّه بأموالٍ عظيمة إلى المشرق في ابتياع هذه الجارية[7]، إلى أن استقرَّت بدار مملكته إشبيلية، وكانت كالبدرِ الـمُنير، ذاتَ بَيَان وفصاحة ومعرفة، بالألحان والغناء، فوجدها قَمَرًا عند اسْمِها، وكان لها شِعْرٌ يُسْتَحْلَى ويُسْتَحْسَن. فمن قولها تَرُدُّ على مَن عاذَلها [من البسيط]:

قـالُوا: أتَـتْ قَمَـرٌ في زِيِّ أطْـمَارِ ... مِـنْ بَعْـدِما هَتَكَـتْ قَلْبًـا بِأشْـفَارِ
تُمْسِي[8] علىَ وَحَلٍ[9] تغدو على سُبُلٍ ... تَـشُقُّ أمْـصارَ أرْضٍ بعْـدَ أمْـصَارِ
لا حُـرَّةٌ هِـيَ مِـنْ أحـرارِ مَوْضِـعِها ... ولا لَـهَـا غـيرُ تَرْسِـيلٍ وأشْـعَارِ
لـوْ يَعْقِلُـون لـمَا عَـابُوا غَـرِيبتَهمْ ... لله مِـنْ أمَـةٍ تُـزْرِي بـأحْرارِ

---

(١) الخبر في المقتبس ١٣٣، وتنظر الحلة السيراء ٢/ ٣٧٧.
(٢) من هنا إلى قوله «رحمه الله» بعد سطرين ليس في ر٢.
(٣) في ر٢: «ورفع».
(٤) قوله: «ورفع الناس ذكره» ليس في ر٢.
(٥) في ر٢ جاءت العبارة كما يأتي: «ذكر أبو عمر السالمي أن الأمير الحسيب».
(٦) ترجمتها في التكملة الأبارية ٤/ ٢٢٦.
(٧) في ر٢: «في ابتياعها».
(٨) في ر٢: «تمشي».
(٩) في ر٢: «مهل».

مـــا لابْـــنِ آدَمَ فَخْـــرٌ غَـــيْرَ هِمَّتِـــهِ بَعْــدَ الديَانَــةِ والإخــلاصِ للبَــارِي

دَعْنِي من الــجَهْلِ لا أرْضى بـصاحبِهِ لاَ يَخْلُصُ الجَهْلُ من سَبٍّ ومن عَـارِ

لـوْ لـــمْ تَكُــنْ جَنَّــةٌ إلَّا لجَاهلَــةٍ رَضِيتُ من حُكمِ رَبِّ الناسِ بالنّـارِ

ولم تزل مُدَّةُ إبراهيم تتمشَّى على أحسن حال وأجزلِه[1]، وأهذب[2] زيٍّ وأكمله، تَقَضَّتْ زينًا لعَصْرِه، وفخرًا له بها على أهل مِصْرِه، لم يلحَقْه في ذلك أحدٌ في وقته، ولا قَدَرَ على نَيْل مرتبته، إلى أن وافَتْه مَنِيَّتُه فُجاءةً، وذلك عام ثمان وثمانين ومئتين. ووليَ ابنُه عبدُ الرحمن بن إبراهيم بن حجَّاج بعد أبيه، وطالت مدَّتُه ثلاثَ عشرة سنة، وتُوُفِّي سنة إحدى وثلاث مئة. وكان أخوه محمَّدُ بن إبراهيم بن حجَّاج، رحمه الله، صاحبَ قَرْمُونة في حياة أبيه وبعد موته إلى أن مات أخوه، ولم يستقرَّ بإشبيلية[3]، ولا حَكَمَها. وقيل: إنَّه دسَّ على أخيه عبدِ الرحمن جاريةً سمَّتْه، فمات من ذلك.

قال ابنُ أبي الفَيَّاض: كان محمَّدُ بن إبراهيم بن حَجَّاج صاحبَ قَرْمُونة بعد موت أبيه، وكانت له بها دولةٌ حسنةٌ وأيَّامٌ صالحةٌ، شُهِرَ في الفضل ذِكْرُه، وانبسطَ على ألْسِنة النّاس شُكْرُه، قُصِدَ من الأقطار، ومُدِحَ بجيِّد الأشعار، فأنالَ القاصدينَ، ومَنَحَ المادحينَ. ولـمّا توفِّي أبوه، وليَ إشبيليةَ أخوه عبدُ الرحمن؛ إذ كان كبيرَه. وكان محمَّدٌ يزيد على عبدِ الرحمن بأشياءَ من المحامِد، خُصَّ بها في وقته فحُمِد، وظهر أثَرُ الإمارة[4] في فعاله فشُكِر وحُسِد. وكانت دولتُه بقَرْمُونة أضْخَمَ من دولة أخيه بإشبيلية وأطْوَلَ، وذلك أربع عشرة سنةً بعد موتِ أبيه. وتوفِّي عام اثنين وثلاث مئة.

قال الرازيّ: افتتح الناصِرُ لدين الله إشبيليةَ سنة إحدى وثلاث مئة، وكان سَبَبُ ذلك موتَ عبدِ الرحمن بن إبراهيم بن حَجَّاج الـمُنْتَزِي فيها بعدَ والده، واجتماعَ

---

(١) في ر٢: «على أجمل حال وأهدنه».

(٢) في ر٢: «وأجمل».

(٣) في ر٢: «يملك إشبيلية».

(٤) في ر٢: «السيادة».

أهلِها مِنْ[1] بعدِه على تقديم أحمدَ بنِ مَسْلَمة، ودَفْعَهم لأخي عبدِ الرحمن محمّدِ بن إبراهيم صاحبِ قَرْمُونة، ومخالفةَ محمَّدٍ ومَن معه بقَرْمُونة، ولِيَاذَه بسُلطان الجماعة. فبعث الناصرُ عسكرًا إلى إشبيلية، فجَرَتْ بينهم حروبٌ عظيمةٌ. ثمَّ بعث الأميرُ عبد الرحمن الناصرُ إلى محمَّدِ بن إبراهيم بن حَجَّاج، وأمَرَه بالتضييق على أهل إشبيلية، وعَقَدَ له على ذلك، وأشرك معه فيه قاسِمَ بن الوَلِيد صاحبَ شُرْطَته في ذلك الوَقْت، وكان بينه وبين محمَّدٍ صداقة، فخرجا معًا من قُرْطُبَةَ إلى قَرْمُونة، ومنها دَنَوَا إلى إشبيلية. فتردَّد محمَّدٌ وقاسم بالـجُموع على إشبيلية، ومَلَكا أقالِيمَ الشَّرَف، وأقالِيم طَالِقة، وإقليم إلبة وغيرها، وأخذا بمُخنّق ابنِ مَسْلَمة صاحب إشبيلية، فاستجاش ابنُ مَسْلَمة برأس النِّفاق اللعين ابنِ حَفْصون، فأتاه بنفسه، وخرج معه من مدينة إشبيلية، وجاز النهر، وكان الجيش بحصن قَبْرة، وفيه محمدُ بن إبراهيم بن حجَّاج، وقاسم بن وَلِيد، فخرجا إليهما بمن معهما من حَشم السلطان، فانهزم ابنُ حَفْصون، وفرَّ على وجهه، حتى لَـحِق بقَلْعته. فتأمَّلَ ابنُ مَسْلَمة مُنْتَشَبَه مع ابن عمِّه محمَّدِ بن حَجَّاج، ودخولَه معه في وراثة أبيه، وأنَّه لا طاقةَ له به؛ فأخذ في إصلاح ما بينه وبين السلطان الناصر، فراسَلَه بأن يُعْطيَه إشبيلية. فوصَلَهُ الحاجِبُ بَدْرٌ، وتملَّك السلطانُ إشبيليةَ دون إراقة دَم ولا قتال. فلمّا استقرَّ الحاجبُ بإشبيلية، أحضر أهلَها، ووعدهم عن السلطان بكلِّ جميل، وأن يُجْرِيَ عليهم عوائدَهم مع بني حجَّاج وزيادةً على ذلك، فرضي القوم، وتمَّ الأمرُ للحاجب وابنِ مَسْلَمة. وأخذ الحاجبُ في مخاطبة محمَّدِ بن حجَّاج، يُعَرِّفه بتملُّك السلطان إشبيلية، وأنَّ السلطان أمَرَه بالكفِّ عن حصارها. فعند وقوف محمَّدٍ على الكتاب، ساءَه ذلك، وتغيَّر له، وخرج من حصن قَبْرةَ الذي كان به مع قاسِم بن وَلِيد ناكثًا للطاعة، وسرى ليلتَهُ مع جموعه قاصدًا بلده قَرْمُونة[2]، فلقي في طريقه أغنامًا لأهل قُرْطُبة، فأغار عليها، وحملها معه إلى قَرْمُونة، فدخلها، وأظهر التمنُّعَ بها. فأخرج إليه الناصرُ لدين الله صاحِبَ الـحَشَم، فلمّا وصله وخاطبه بما أمَرَه به السلطان، ردَّ عليه الأغنامَ بجُملتها.

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) من هنا إلى قوله: «قرمونة» سقط من ر٢.

ولـمّا رجع صاحبُ الـحَشَم إلى قُرْطُبة، خرج محمَّدُ بن حَجَّاج من قَرْمُونة بجيشه، فوصل إشبيليةَ عند الصباح، فهجمَ عليها. وكان بعضُ سُورها مهدَّمًا، فطمع فيها، فخرج إليه العامِلُ عليها من قِبَل السلطان، فهزمَهُ عنها، فرجع إلى قَرْمُونة. فلمّا علم الناصرُ بذلك، وجَّه عسكرًا إلى عامِلِ إشبيلية؛ تقويةً له، فحصَّن البلدَ على نفسه، وأمِنَ من عادية محمَّد بن حَجَّاج. ولـمّا طالَ على الناصر تَـمادي محمَّدِ بن حجَّاج على العِناد، بعث إليه[1] صديقَه ابن وَلِيد، طالبًا منه العودة إلى الطاعة، فلم يزل به حتى أظهرَ الإنابةَ له، فأنفذ محمَّدُ بن حَجَّاج خاصَّته إلى الناصر، فوصلَ إليه، فألـحَقَه الناصِرُ بنفسه، وشافَهَه بما ألقاه إليه محمَّدٌ، وأعلمه أنَّه يَنْعَزِل عن قَرْمُونةَ ويسكنُ قُرْطُبة، على أن يتركَ بها[2] نائبَه، فأجابه الناصرُ لذلك كلِّه، ووَعَدَه بتتميم أغراضه. فلمّا وصل الرسولُ إلى محمَّد بما ألقاه إليه الأمير الناصر، خرج من قرْمُونةَ في شهر رمضان المعظَّم من عام أحد وثلاث مئة، ووصل قُرْطُبَةَ مع وجوه قومه وعدَّةٍ من رجال، فأمر لهم الناصرُ بالكُسَى، ووَصَلَهم على أقدارهم ومنازِلهم عند محمَّد، وأجزلَ لهم الصِّلَة، وأعطى محمَّدًا العطاء الـجَزْل، وقَرَّبه من نفسه، وولَّاه من حينه خُطَّةَ الوزارة، مُنَوَّهًا، مُرَفَّعَ الذِّكْر. ثمَّ خرج الناصرُ لدين الله غازيًا، فأغزاه معه وزيرًا.

وكان حَبِيبُ بن عُمَر الوالي على قَرْمُونة من قِبَل السلطانِ قد امتنع بقَرْمُونة. فحاصر الناصرُ قَرْمُونة، ومحمَّدُ بن حجَّاج معه[3] وزيرًا، فسَعى به عند السلطان مَن كان يَـحْسُده، وقال له: «إنَّما نَافَقَ ابنُ عُمَر مع محمَّد وبأمره!» فعزله عن الوزارة، وحبسه، وحبس معه ابْنَ وَليد صاحِبَ الشرطة. ثمَّ أُطْلِقا بعد ذلك. فلم يلبث محمَّدُ بن حَجَّاج بعد ذلك إلَّا يسيرًا، وتُوفِّي في شوَّال سنة اثنتين وثلاث مئة.

ومن أخبار عُمَر بن حَفْصُون في أيّام الأمير عبد الله

وعندما وَلِـيَ عبدُ الله الخلافة، ووافَتْه الكُتُب من البلاد، واجتمعتْ على طاعته جميعُ العباد، رأى عُمَرُ بن حَفْصُون على فَرْط عِناده، وعُتُوِّه في الأرض وفسادِه، أن يدخلَ

---

(١) في ر٢: «معه».

(٢) في ر٢: «بقرمونة».

(٣) في ر٢: «عنده».

في جماعته، ويلتزمَ بفروض طاعته. فأرسل ابنَه حَفْصًا إلى قُرْطُبة مع جماعةٍ من أصحابه، على أن يَعقدوا مع الأمير سِلْمًا مُنْتَظِمًا، وصُلْحًا مُبْرَمًا، لا يُحيله حال، ولا يلحقه مُحال، على أن يستقرَّ عُمَرُ بن حَفْصُون ببَرْبُشْتر على الطوع، ويقيمَ بها على الطاعة والسَّمْع. فقبل الأميرُ نزاعَه، وسمح بإبقائه هنالك، وأصدر ابْنَه ورُسُلَه إصدارًا جميلًا، ومنحهم برًّا جزيلًا، ووجَّه معهم عبدَ الوهَّاب بن عبد الرَّؤُوف واليًا على كُورة رَيُّه، ومشاركًا لابن حَفْصُون في عَقْدِه[1] وحَلِّه، ومُساهِمًا له في توليته وعَزْلِه. فمكثا شريكَيْن في الأمر والنَّهْي، إلى أن غلب ابنُ حَفْصُون على عبد الوهَّاب، وأخرجه من الكورة مُنْبَتَّ الأسباب. واشتدَّت مَعرَّتُه، وتأكَّدت عاديتُه ومضرَّتُه، حتَّى همَّت القُرَى بالخلاء، والناسُ بالجلاء. ولم يَبْقَ بالقَنْبانِيَة قَرْيةٌ إلَّا غَشِيَتْها الـخَيْل، وعمَّتها الذِّلَّةُ والوَيْل، قد ملك اللعينُ إسْتِجَّة وأُرْجُذُونة، وأجادهما ثِقافًا، وصيَّرَ فيهما من الآلات أصنافًا.

فلمّا رأى الأميرُ عبد الله ما أحاط بقُرْطُبَةَ من ابن حَفْصُون، ودار عليها من الحرب الزَّبُون، أمر بإخراج السُّرَادِق إلى فَحْص الرَّبَض بشَقُنْدة. فلمّا اشتدَّت[2] أطنابُه، ومُدَّت حبائلُه وأسبابُه، بعث ابنُ حفصون خَيْلًا تَرْمِي على شَقُنْدة لَعَلَّها تأخذ السُّرَادِق السُّلطانيَّ وتفوزُ به، وتَهْجم على البَلَد وتُحِيط بجانبه. فخرجتْ لهم[3] الخيلُ إثْرَ ذلك، وطردَتْهم طردًا من هنالك، ووصلت إلى ابن حفصون، فدفعَتْه عن الـجِهة، ومنعَتْه من[4] تلك الوجهة، وأوى إلى حصن بُلَيِّ بقَبْرة، فجمع له الأمير أَهْلَ قُرْطُبة، وسار إليه في نحوِ أربعة عشر ألفًا. وحشد ابنُ حفصون نحوَ ثلاثين ألفًا، فصدمه الأميرُ بمن معه، فنثر عِقْدَه وفرَّق جَمْعه، فعَملتِ السيوفُ في رقابهم، وتَبِعَتْ سبيلَ أعقابهم، حتى رَوِيَت الأرضُ من دمائهم. ودخل الأميرُ عبد الله القِلاعَ الثائرة عليه، وصارت يومئذٍ في يديه.

وفي ذلك يقول ابنُ عبد رَبِّه [من الكامل]:

رَامَ ابْنُ حَفْـصُونَ النجـاةَ فلـمْ يَـسِرْ   والـسَّيْفُ طالِبُــهُ فلــيس بِنَــاجِ

---

(١) في ر٢: «نقضه».

(٢) في ر٢: «امتدت»، وكلاهما بمعنى.

(٣) في ر٢: «عليهم».

(٤) في ر٢: «عن».

في لَيْلَــــةٍ أَسْرَتْ بِــــهِ فكَــــأنَّما ... خِيلَــتْ نَقيــضَةَ لَيْلَــةِ المِعْــراجِ
مَـا زَالَ يُلْقِـحُ كُـلَّ حَـرْبٍ حَامِـلٍ ... فــالآنَ أَنْتَجَهــا بــشَرٍّ نِتــاجِ
رَكِبُـوا الفِـرَارَ بعُـصْبةٍ قَـدْ جَرَّبـوا ... غِــبَّ الــسُّرى وخوافــتِ الإدلاجِ
وإذا سَــأَلْتَهُمُ: مَوَالِــي مَــنْ هُــمُ ... قَــالُوا: مَوَالِــي كُــلِّ لَيْــلٍ دَاجِ

ولـمّا رجع ابنُ حفصون إلى بَرْبُشْتر، حشدَ أعوانَه، وجدَّد للعَرْض ديوانَه، وخرج بجَمْعِه إلى إلْبيرة، وأدارَ بها حَرْبًا مُبيرة، إلى أن تغلَّب عليها بأيْده، وقبض على عاملها بكَيْدِه. فأخرج الأميرُ عبد الله العسكرَ إليه، وقدَّم ابنَ أبي عَبْدة عليه[1]. فلمّا تدانى الفريقان، وتراءى الجمعان، هجمتْ خيلُ ابن أبي عَبْدة على خيل ابن حَفْصون،فعكسَتْهم عسكًا، وطمستْ آثارهم طَمْسًا، وأُثقِلَ ابنُ حفصون بالجراح، وآبَ من النَّصْر صِفْرَ الراح، قد ركب الأوعار، واحتمل الـخِزْيَ والعار، وبلغَ حصنَ بَرْبُشْتر مَفْلولًا، خاسرًا ذليلًا. ثمَّ عاد إلى عاده، وسبيلِ بَغْيه وفساده. وفي كلِّ ذلك كان الأميرُ عبد الله يهزم جيشه، ويروع ببأسه جأشَه، حتَّى خمدتْ نيرانُه، وملَّت أنصارُه وأعوانُه. فلمّا توفِّي الأميرُ عبد الله، وولي الناصرُ لدين الله، بادر إلى الطاعة، والدخولِ في الجماعة[2]، ثمَّ نكث وخان، حتَّى هلكَتْه[3] الأزمان.

جُملة الثُّوَّار ببلاد الأنْدَلُس في أيَّام الأمير عبد الله، الخارجين عن الجماعة، الـمُضْرِمين لنار الفِتْنة

أوَّلهم: ابنُ حفصون، وقد تقدَّم ذكرُه. وتأتي بقيَّة أخباره بحسب السنين.

وثار سوَّارُ بن حَمْدُون[4] بحصن مُنْت شاقَر[5]، فقام إلى جَعْدٍ[6] عامل إلبيرة

(١) في ر٢: «بين يديه».
(٢) في ر٢: «في حزب الجماعة».
(٣) في ر٢: «أبادته».
(٤) ترجمته في الحلة السيراء ١/ ١٤٧.
(٥) في ر٢: «منت شافند»، وهو تحريف، وهو حص مطل على سهل غرناطة Monte Sacro.
(٦) هو جعد بن عبد الغافر.

بمن معه، فهزم جَمْعَه، وأخذه أسيرًا، وأراه يومًا عسيرًا. ثمَّ أطلقه من عِقاله، وعمَّه بإفضاله، وانصرف إلى إلبيرة بلدِه، ومَقَرِّ أهله وولده. وسار سَوَّارٌ إلى غرناطة، وأغار على حُصونِ ابن حَفْصون، فاجتمعَ أهلُ إلبيرة في نحو ثلاثة وعشرين ألفًا، فلقيهم سوَّارٌ في عدد قليل، فلاذوا بالفِرار والنُّفور، وصاروا كالـهَبَاء المنثور، ونيطَت بهم الـحُتُوف كَشْفًا، وقُتل منهم على ما ذُكر اثنا عشر ألفًا، وذلك في سنة ست وسبعين ومئتين.

وكانت بين سوَّارٍ هذا وابن حَفْصون ملاقاةٌ انقلبَ فيها ابنُ حَفْصون مهزومًا، وتولَّى مَلُومًا مَذْمومًا، قد أُثْقِلَ بالجراح، وقُتِلَ قُوّادُه في ذلك الكفاح. وكان جَعْدٌ الثائر بإلبيرة متَّفِقًا مع ابن حَفْصون على النِّفاق، مُنْعَقِدًا معه على الفَساد في تلك الآفاق، فأعملَ جَعْدٌ الـحِيلةَ في الغدرِ بسَوَّارٍ جُهْدَه، وأظهرَ في ذلك نَصَبَه وجَهْدَه، فأغارَ على جهته يومًا، وقد أكمن هنالك قومًا. وخرجَ هو بنفسِه في نفرٍ يسير، فاكتسحَ وأغارَ، وأنجدَ في الجهة وغارَ. وظَنَّ سَوَّارٌ أنْ ليس وراءَه أجنادٌ تُنْجِده، ولا أمدادٌ تُـمِدُّه، فبرزَ إليه بأهْل المكان، وقد أيقن بالظَّفر والإمكان. فلمّا انبسطَ من هنالك كالفَرْخ الأشِر، ثارت الكَمائنُ عليه كالجراد الـمُنْتَشِر، وأحدقت الخيلُ بسَوَّار، فقُتِّل تقتيلًا، وعادَ عسكرُه مهزومًا مفلولًا. وأرسل جَعْدٌ صاحبُ إلبيرة إلى ابنِ حَفْصون برأس سَوَّار، وأعلمه بالكَبْت الشامل لأعدائهم والبَوَار[1].

وثار سعيدُ بن جُودِي[2] في ذلك التاريخ بالعَرَب، وعارض ابنَ حفصون بالـحَرْب والـحَرَب، حتَّى أغصَّه بريقه، وضايقه في سبيله هناك وطريقِه، فرجع ابنُ حَفْصون إلى الحيلة فيه والكَيْدِ؛ إذ عجز عنه بالقوَّة والأيْدِ، حتَّى قبضَ عليه، وصار أسيرًا لديه، وأقام عنده بِبُبُشْتر شهورًا مكبولًا، إلى أنْ قَبِل فيه ابنُ حَفْصون مالًا جزْلًا قَبولًا، فأطلقه من وَثاقه، فجد في خِلافه على الأمير عبدِ الله وشقِاقه، إلى أن مَكَرَ به مكرًا، وقُتل في دار عشيقةٍ له يهوديَّةٍ غَدْرًا. وتولَّى أمْرَ العَرَب بجانب إلبيرة محمَّدُ بن أضْحَى، فأمسى على طاعة الأمير عبدِ الله وأضْحى، فناصَبَ ابنَ حَفْصون الحرب، وعارَضه بالطَّعْن والضرب، إلى أن ظَفِرَ به ابنُ حَفْصون في تلك

---

(١) ينظر المقتبس لابن حبان ٥٥ فما بعدها (ط. انطونيا).

(٢) ترجمته في الحلة السيراء ١/ ١٥٤ فما بعدها، وهو سعيد بن سليمان بن جودي السعدي من جند قنسرين.

المسالك، وصار عنده أسيرًا هنالك، ففداه العَرَبُ منه بمالٍ جسيم، ومَشَى من طاعة الأمير على منهاجٍ قويم.

وثار العَرَبُ بإشبيلية ثورةً، وقبضوا على عامِلِها عَنْوةً، وانتهبوا طارفه ومُتْلَدَه، ولم يتْركوا إلَّا أهلَه وولده، وقتلوا كثيرًا من أعوانه، وعاثوا ما شاؤوا في سُلطانه، فاجتمعت العساكرُ من قَرْمُونَةَ وسائرِ الأقطار، وأحاطت بإشبيليةَ إحاطةَ الفَلَكِ الدَّوَّار، فغلبوا على القائمين فيها، وقتلوا منهم فرقة، فكانت الوقعةُ المعروفة بالدَّعْقة.

وتغلَّب إبراهيمُ بن حَجَّاج على إشبيلية تغلُّبًا، ونصبَ لأحواز قُرْطُبة منها حَرْبًا وحَرَبًا، وارتبط مع ابن حَفْصون على العَبَث التامّ، والاحتلال بقُرْطُبة في ذلك العام. وتغلَّبا على الحصون والقِلاع، وجَدَّا في الكِفاح[1] والقِراع، إلى أن انتقض ما بينهما من السِّلم المنتظِم، والعهد الـمُحْكَم الـمُنْبَرِم. وصالَحَ ابنُ حَجَّاج الأميرَ عبدَ الله، فأقرَّه بإشبيلية، وصرف إليه زِمامَها، وأوقف عليه أعمالَـها وأحكامها.

وثار دَيْسَمُ بن إسحاق، وغلب على مدينتَيْ لَوْرَقَةَ ومُرْسِيَة، وما يليهما من كورة تُدْمِير. وكان مَوْدُودًا من طبقات الناس، رفيقًا برعيَّته، جَوَادًا، منتجَعًا، له إفضال على الشعراء والأُدباء.

وثار عُبَيْدُ الله بن أُمَيَّة، وملك كورةَ جَيَّان، ودخل حصنَ [ابن عُمَر][2] وغيره.

ومنهم: عبدُ الرحمن بن مَرْوان المعروف[3] بالـجِلِّيقِيّ، اقتعد مدينتَيْ بَطَلْيَوْس ومَارِدَة، ففارق الجماعة، وجاور أهلَ الشِّرْك، ووالاهم على أهل القِبْلة[4].

ومنهم: عبدُ الملك بن أبي الـجَوَاد، اقتعد مدينةَ بَاجة وملكها، وتحصَّن بحصن مارْتُلة، وله حظٌّ من الـمَنَعة تشييدًا وعُدَّةً. وكان مُعاقِدًا لابن مروان، صاحب بَطَلْيَوْس في هذا التاريخ، وابْنِ بَكْر صاحبِ أُكْشُونُبَة، فكانوا متألِّبين على مَن خالَفَهم.

---

(١) في ر٢: «المكافحة».

(٢) في ر٢: «كذا».

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٣.

وثار ابنُ السَّلِيم، وهو مُنْذِرُ بن إبراهيم بن محمَّد بن السَّليم، بمدينةِ ابن السَّلِيم، المنسوبة إلى جدِّه، من كورة شَذُونة، فاقتصدَ في سيرته، ولم يُظْهر نَبْذَ الطاعة، إلى أن قتله مملوكٌ[1] له يسمَّى غَلَنْدَه[2]. وخَلَفَه وَليدُ بن وَليد، وصار إلى الطاعة عند هبوب ريـحِها بالخليفة عبدِ الرحمن الناصر.

ومنهم: محمَّدُ بن عبد الكريم بن إلياس، امتنع بقَلْعةِ وَرْد من كورة شَذُونة، وسعَى للفتنة سَعْيَه، وتمادَى، حتَّى استنزله الناصرُ فيمن استنزل من الثُّوَّار. ومات بقُرْطُبة.

وثار خَيْرُ بن شاكِر بحصن شُوذَر من كورة جَيَّان، وظاهرَ زعيمَ الثوَّار عمرَ ابن حَفْصُون، ففتك بخَيْرٍ المذكور، وأرسل برأسه إلى الأمير عبد الله.

ومنهم: عُمَرُ بن مُضِمٍّ الـهَتْرُولي[3] المعروف بالـمَلَّاحيِّ، وكان جُنْدِيًّا متدوِّنًا عند العامل بحضرتها، فوثب عليه، فغدره، وضبط القصبةَ.

ومنهم[4]: سعيدُ بن هُذَيْل. كانت ثورتُه بحصن الـمُنْتِلُون من كورة جَيَّان، فبنَى قصبتَه، وحصَّنها، وأعلنَ بالخلاف، حتَّى استنزله الناصرُ، فلحق بقُرْطُبة إلى أن مات.

وثار سعيدُ بن مَسْتَنَّة[5] بكورة بَاغُه، واقتعد حصونَها، فاستفحل أمرُه وشرُّه، وعمَّ أذاه، واصطفىَ من حصونها التي ظهر عليها أربعةً لا مثيلَ لها في الحصانة والمنعة.

وثار بنو هابِل الأربعة: أكبرُهم مُنْذِر بن حَرِيز بن هابِل، وأخوه أبو كرامة هابِل بن حَرِيز، وأخوه عامِر، وأخوه عُمَر، ثاروا ببعض حصون جَيَّانَ في أيَّام الأمير عبد الله، وخلعوا طاعتَه، وأطلقوا الغارة، وأطلعوا[6] أهلَ الفساد. ثمَّ استُنْزِلوا، فنزلوا على حُكم الأمان، فحسُنت طاعتُهم وخدمتُهم[7].

---

(١) في ر٢: غلام.

(٢) الضبط من النسخ الخطية.

(٣) في ر٢: «الهنزوتي».

(٤) هذه الفقرة كلها ليست في ر٢.

(٥) الضيط من ر٢.

(٦) في ر٢: «وشاركوا».

(٧) «وخدمتهم» ليست في ر٢.

وثار[1] إسحاقُ بن إبراهيم بن عطَّاف العُقَيْليُّ بحصن مَنْتِيشة، فبناه وحصَّنه وامتنع به، إلى أن استنزله الخليفةُ الناصر إلى قُرْطبة، وبها تُوفِّي.

ومنهم: سعيدُ بن سُليمان بن جُودِي، أمَّرتْه عَرَبُ غَرْناطة وإلبيرة؛ فضبط أمْرَهم، حتَّى دَبَّر عليه كبيرانِ منهم بحيلة، فقتلاه بها. فلم ينتظِم للعَرَب هناك أمْرٌ بعده.

وثار محمَّدُ بن أضْحَى بن عبد اللطيف الـهَمْدَانيُّ[2]، من أكابر أبناء العَرَب بكورة إلْبِيرة، إلى أن هلك الأميرُ عبد الله، فاستنزله الناصرُ لدين الله عن حِصْنه، فيمن استنزله من الثُّوَّار. وكان ابنُ أضْحَى هذا مع رُجُوليَّته أديبًا بليغًا، يقوم بين أيدي الأُمراء في المحافِل، فيُحسِن القول، ويُطيب الثناء، وله أخبارٌ معروفة.

وثار بَكْرُ بن يحيى بن بَكْر، واقتعد مدينةَ شَنْت مَرِيَّة من كورة أُكْشُونُبة، وبناها حصنًا اتَّخذَ عليها أبوابَ حديد. وكان له ترتيبٌ وأُهْبة[3]، ورجالٌ شجعان، وعُدَّةٌ موفورة. وكان يتشبَّه ـ بزعمه ـ في سلطانه بإبراهيم بن حَجَّاج. وكان له أصحابٌ للرّأي وكُتَّاب للعمل. وكان له عهدٌ مؤكَّدٌ إلى جميع مَن في طاعته بإضافة أبناء السبيل، وقِرَاء النَّزيل، وحِفْظِ المجتازين، فكان السالكُ بناحيته كالسالك بين أهله وأقاربه.

وثار ابنا مُهَلَّب، من وجوه قبائل البَرْبَر بكورة إلْبِيرة، وهما: خليلٌ وسعيد، ثارا ثورةَ نُظرائهما بجهتهما، فأقاما على سبيلهما إلى أن استنزل الناصرُ أولادَهما بعد وفاتهما.

وثار سُليمانُ بن محمَّد بن عبد الملك الشَّذُونيُّ بشَرِيشِ شَذُونة، وهو الذي بنى نَبْرِيشَةَ وحصَّنها.

وثار[4] ابنا جُرْج بحصن بَكُور، ففسدت سيرتُهما، فأُخرجا عن الحصن. فمات عبدُ الوهَّاب، ولحق محمَّدُ بن عبد الرحمن بن جُرْج بابن الشالِيَة[5]، وكان مُصافيًا له،

(١) هذه الفقرة بتمامها ليست في ر٢.

(٢) ترجمته وخبره في الحلة السيراء ٢/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٣) في ر٢: «وأبهة».

(٤) هذه الفقرة بتمامها ليست في ر٢.

(٥) هو عُبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية، وينظر المقتبس ٩-١٠، والحلة السيراء ١/ ٢٣٠.

فتقبَّله، واستخدمه، وبنى له حصنَ مُورِينة من كورة جَيَّان، فأقام فيه إلى أن استنزله الناصرُ ونقله إلى قُرْطُبة.

وثار أبو يحيى التُّجِيبيُّ المعروف بالأَنْقَر بمدينة سَرَقُسْطةَ[1] وأعمالِـها، وقتل أحمدَ ابن البَـرَّاء القُرَشِيَّ عامِلَ الأمير على سَرَقُسْطة، واستولى عليها، وأظهر التمسُّكَ بطاعة الأمير عبد الله، وخاطبه، وهو ينسب ابْنَ البَرَّاء إلى الخلاف. فأظهر الأميرُ تصديقَه، وسجَّل له على سَرَقُسْطة. فثبتَ بها قدمُه.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئتين: أخرج الأميرُ عبد الله على العسكر هشامَ بن عبد الرحمن ابن الـحَكَم إلى كُورة تُدْمِير، في أواخر ربيع الأوَّل. وكان القائدَ معه على الجيش أحمدُ بن أبي عَبْدة. ولما احتلَّ بوادي بُلُّون، تقدَّم قطيعٌ من الـخَيْل، فافتتح هنالك حِصْنًا، وغَنِمَ ما كان فيه. وتوافت على العسكر حشودُ أهلِ الكُوَر. ثمَّ انتقل وطوى الـمَراحِل حتَّى حلَّ بمُرْسِيَة. ثمَّ انتقل إلى لَوْرَقة، فخرج إليه دَيْسَمُ بن إسحاق، فحارَبَه، فهُزِمَ دَيْسَم، ورجع إلى لَوْرَقة وأقام محاصرًا حتَّى قفل عنه العسكر. ثمَّ خرج دَيْسَمٌ بمن معه، فضرب في الساقة، فرُجع إليه، فهُزِمَ واتُّبعَ حتَّى استغاث بالوَعْر[2] ونجا راجلًا، وأُخِذَ فَرَسُه. وقفل العسكر سالـمًا. وفُقِدَ في هذه الغزاة الماءُ، ومات فيها اثنان وثلاثون رجلًا عَطَشًا، وهلكت دوابُّ كثيرةٌ.

وفي سنة أربع وثمانين ومئتين: أخرج الأميرُ عبد الله ابنَه أبانَ إلى لَبْلَة. وكان ابنُ خَصِيب بحصنِ مُنْت مَيُور، وكان قد ثار به، فحاصره، ونصب عليه المجانيق، ورماهُم بها حتَّى ضجُّوا ودَعَوْا إلى الطاعة، وانعقد أمانُهم. وفي خلال ذلك، دخل ابنُ حفصون إسْتِجَّةَ الدخلةَ الثانية، فورد كتابُ الأمير باستعجال القفول بسبب إستِجَّة؛ فقفل العسكر. وكانت مدَّةُ هذه الحركة شهرَيْن ونصفًا، وهي أوَّلُ حركةِ أبانَ.

وفي سنة خمس وثمانين ومئتين: غزا أبانُ ابن الأميرِ عبدِ الله إلى ابن حَفْصون، والقائدُ ابنُ أبي عبدة.

---

(١) من هنا إلى قوله «سرقسطة» سقط من ر٢.

(٢) في ر٢: «حتى رجع إلى الوعر».

وفيها أيضًا: غزا عبَّاسُ بن عبد العزيز إلى حصن كرَكي وجبلِ البرَانس، وقتل ابنَ يَامِين وابنَ مَوْجُول، وأخذ حصونَهُما.

وفيها: تقدَّم لُبُّ بن محمَّد بن طُلَيْطُلة إلى حيِّز جيَّان، ونازَل حصنَ قَسْطَلونة، وكان فيها نصارى يُحاربون عُبَيْدَ الله بن أُميَّة المعروف بابن الشالِيَة، فأخذ الحصنَ، وقتل العَجَم. ووافاه فيه قتلُ أبيه محمَّد بن لُبَّ في مُحاصرته لسَرَقُسْطة[1].

وفيها: كانت المجاعةُ الشديدة التي سُمِّيت السَّنةُ بها «سَنَةَ لـمْ أظُنّ».

وفي سنة ست وثمانين ومئتين: أظهر ابنُ حَفْصون النَّصرانيَّةَ، وكان قبل ذلك يُسرُّها، وانعقد مع أهل الشِّرْك وباطَنَهم[2]، ونفرَ عن أهل الإسلام، ونَابَذَهم؛ فتبرَّأَ منه خلقٌ كثير. ونابذه عَوْسَجةُ بن الـخَلِيع، وبنى حصنَ قَنِيط، وصار فيه مواليًا للأمير عبدِ الله، محاربًا لأبن حَفْصون. واتَّصلت عليه المغازِي من ذلك الوقت، ورأى جميعُ المسلمين أنَّ حَرْبَه جهادٌ، فتتابعتْ عليه الغزواتُ بالصوائف والشواتي، ولا يَني القوّادُ عنه في الحلِّ والترحال. وفي ذلك قال ابنُ قُلْزُم للقائد ابن أبي عَبْدة [من المتقارب]:

فَفِـي كُـلِّ صَـيفٍ وفي كُـلِّ مَـشْتَى غَزَاتـانِ مِنْـكَ عَـلَى كُـلِّ حـالِ
فتِلْـكَ تُبِيـدُ العَـدُوَّ وهـذِي تُفِيـدُ الإمـامَ بهـا بَيْـتَ مَـالِ

وفي سنة سبع وثمانين ومئتين: كانت الصّائفةُ مُتَجوِّلةً ما بين كُورة مَوْرُور وكورةِ شَذُونة وكورة رَيُّه.

وفيها: قَتلَ القائدُ ابن أبي عَبْدة طالبَ بن مَوْلُود الـمَوْرُوريَّ.

وفيها: صُلب إسحاقُ وصاحبُه، وكانا من رجال ابن حَفْصون، وفيهما جرى الـمَثَلُ في الناس: «غَرَرْتَني[3] يا إسحاق!»؛ وذلك أنَّ أحدهما قال هذه الكلمة لصاحبه، وهو يُرْفَع في الـخَشَبة.

---

(١) في ر٢: «وهو محاصر سرقسطة».

(٢) في ر٢: «وناظمهم».

(٣) في ر٢: «غررت بي».

وفي سنة ثمان وثمانين ومئتين: قُبضت رهائنُ ابنِ حَفْصون. وتجوَّلت الصائفةُ بشَذُونة وغيرِها من الكُوَر.

وفي سنة تسع وثمانين ومئتين[1]: خرج أبانُ ابنُ الأمير عبدِ الله إلى رَيُّه، فنهضَ حتى احتَلَّ بوادي بشقانية، واضطربَ بها محلَّتُه، وتوافت مُدود ابنِ حَفْصون. ثم التقيا، ووقعتْ بينهم حربٌ شديدةٌ انجلت عن هَزيمة اللعينِ ابن حفصون، وقُتِل من أصحابه عددٌ كثير. وعمَّ الإحراقُ جميعَ القرى التي على الوادي. وولَّى مُدبِرًا، ثم انتقل إلى حصن طُرُّش بناحية لَوْشَة، فحاربَه ونصب عليه المجانيقَ، وعلى حصن الرجل. وكانت مدّةُ هذه الغزاةِ ثلاثةَ أشهر.

وفي سنة اثنتين وتسعين ومئتين: كانت الوقعةُ العظيمة على ابن حفصون بوادي بُلُّون. وكان قد توافت عليه حشودٌ عظيمة لتوافي آجالِهم، فأُفنوا في ذلك المعترَك وقُطِعتْ دوابرُهم. وأفلتَ اللعينُ في شرذمة قليلة.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومئتين: حُوصِرَ ابنُ راشد بحصنٍ من حصون جيّان، فأُخِذَ وصُلب بقُرطبة.

وفيها: دخل أحمدُ بن أبي عَبْدة حصن قنيط بتاكُرُنّا، وأدخل فيه الحَشَمَ، ووليَه العمّال، واستَنزَل مَن كان فيه.

وفي سنة خمس وتسعين ومئتين: غزا بالصائفة أبانُ ابن الأميرِ عبد الله إلى ناحية بُبَشْتر، وقاد أبو العبّاس بن أبي عَبْدة.

وفيها: غدر ابن مَسْتنّة، وتخلَّى من حصون بلدةَ إلى ابن حفصون، وعاقَدَه، وصار إلْفًا معه.

وفي سنة ست وتسعين ومئتين: خرج أبانُ والقائدُ أبو العبّاس المذكور، فقصدا ناحيةَ بُبَشْتر، وقصد عيسى بنُ أحمد إلى حصون سعيدِ بن وليد. ولـمّا قفل أبو العبّاس نازَلَ حصنَ لُكّ من حصون ابن مَسْتنّة، وأقام عليه حتى افتتحه.

---

(١) من هنا اعتمد دوزي مخطوطة تاريخ عريب التي في كوتا، وخلطها بالبيان المغرب فتشوه نص «البيان» وزيد فيه الكثير مما ليس منه، ومن ثم كان من أهم الواجب علينا تخليص النص مما أضيف إليه من تاريخ عريب، والله الموفق للصواب إليه المرجع والمآب.

وفي سنة سبع وتسعين ومئتين: افتُتِحتْ بَيّاسة، واستُنزِل منها محمدُ بن يحيى ابن سعيد.

وفيها: كان سيلٌ عظيم غرقتْ منه أركانُ بيت الله الحرام، وفاضت بئرُ زَمْزَم، ولم يُرَ مثلُ هذا السيلِ في قديم الأزمان.

وفيها: اجتمع ابنُ حفصون، وابن مَسْتَنّة، وابن هُذيل في عسكرٍ واحد، وضَرَبُوا على ناحية جَيّان، وأخذوا المواشيَ والدوابَّ، وانضوَوْا إلى حصن جريشة بالغنائم، فتَبِعَهم القائدُ أبو العبّاس بن أبي عَبْدة حتى لحقهم، فقاتَلَهم وقتل كثيرًا منهم.

وفيها: بَنى القائدُ أبو العبّاس على ابن هُذيل حصن مرصيص. وشتى القائدُ بقلعةِ أرش بريّة.

وفي سنة ثمانٍ وتسعين ومئتين: خرج العاص ابنُ الأمير عبدِ الله بالصائفة، وقاد أبو العبّاس إلى بُبَشْتر وغيرِها من حصون الساحل وكُورتَيْ رَيُّه وإلْبيرة.

وفيها: أغار ابنُ حَفْصُون وابنُ مَسْتَنّة على قُرى قَبْرة وقُرى قُرطبة، وأخذوا الغنائمَ، فخرج عيسى بنُ أحمدَ بن أبي عَبْدة من بَيّانة[1] طالبًا لهم، فأدركهم وهزمهم، وقَتَلَ منهم مقتلةً عظيمة، وأخذ لواءَهم، وافترقوا على غير طريق.

وفيها: كَسَفت الشمسُ، وظهرت النجومُ، وعمّت الظُّلْمة، وصلَّى أكثرُ الناسِ المغربَ، ثم انجلتِ الشمسُ وأضاءت قَدْرَ نصفِ ساعة قَبْلَ المغرب، ثم توارت.

شأن محمدٍ ومُطَرِّف ابنَي الأمير عبدِ الله

كان الأميرُ عبد الله قد رشَّح ابنه محمدًا لولاية عهدِه، وآثره بما عنده، فعَظُمَ الأمرُ على أخيه مُطَرِّف، وبَعُدَ ما بينهما كلَّ البُعد، وقابل الواحدُ الثانيَ بالهجران والصدّ. فوجد مطرِّفٌ يومًا فارسًا من فُرسان محمَّد، فاغتاله وقَتَلَه، ثم فَرِقَ من أبيه وحَذِرَ سطوتَه، ولم يأمن صولتَه؛ فسار إلى السجن وفتَقَه، وحلَّ مَن شدَّه أبوه وأوثقَه، وخرج بمن فيه من أهلِ الزَّعارة والفساد، ولحق ببُرْبَشْتر قاعدةِ أهل الضلال والعناد، وصار عند

---

(١) معجم البلدان ١/ ٥١٨.

ابنِ حفصون، في حِرْز من الأمن مصون. ثم إنَّ الأميرَ عبد الله أباه خاطَبَه بالأمان، وقال: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١]، فقبِلَ من أبيه[١]، وانصرف إلى أهله وذَويه، ولم يزل بعد ذلك مُطَرِّفٌ يُغري بمحمدٍ إغراء، ويطوي له عداوةً وبغضاء، ويزعم أنه يخاطب ابنَ حفصون ويُداخلُه، ويُوافِقُه على القيام على أبيه ويواصله؛ فسجن الأميرُ عبد الله ابنَه محمدًا في دار البَنِيقة، وامتحن خلال ذلك عينَ الحقيقة، فلمّا واصل في البحث صباحَه ومساءَه، لم يَقرَعْ سَمْعَه من جهة ابنه محمدٍ ما ساءَه، فأسرع إطلاقَه، وحلَّ وَثاقَه؛ فدخل مطرِّفٌ إليه، وأجهز في الـحِين عليه، وتركه متخبِّطًا في دمِه، مُلْقًى على وجهه وفمِه. فلمّا علم ذلك الأميرُ عبد الله، أعظم ذلك منه، وهمَّ بقتلِه عنه، فلم يَعْدِم مَن كَسَرَ عليه في ذلك؛ فتركه. وقيل: قَتَلَه فيه. والله أعلم. وكان ذلك سنةَ سبع وتسعين ومئتين[٢].

شأن القاسم أخي الأمير عبد الله بن محمد

كان الأميرُ عبد الله قد اتَّهم أخاه بالقيام عليه في الـمُلْك، وإيرادِه مَوارِدَ الـهُلْك، فلمّا كثر الرفعُ بذلك إليه، وتتابع الكلامُ فيه عليه، رأى بمقتضى الرِّياسة، وحُكمِ التدبير والسياسة، أن يحبسَه في دار البَنيقة من القصر، حتى يكشفَ عن هذا الأمر، ثم نَقَلَه منها إلى حبس الدُّويرة، فمُنع النومَ[٣] هناك، فأرسلتْ له أمُّه مُرقِدًا لذاك، وأمرَتْه أن يقسمَه على ثلاثة أيام، فشرب الجميعَ في يوم واحد، فأصبح رَهْنَ الـحِمام.

وفي سنة ثلاث مئة: توفِّي الأمير عبد الله بن محمد، رحمه الله، مستهلَّ ربيع الأولِ منها، وهو ابنُ اثنتين وسبعين سنة، ومَلَكَ خمسًا وعشرين سنة وخمسة عشر يومًا.

---

(١) في ر٢: «رأسه».

(٢) في عريب: سبع وسبعين ومئتين، وفي الإحاطة ٣/ ٢٨٠: اثنين وثمانين ومئتين، وما أثبتناه من النسختين.

(٣) في ر٢: «القوم».

بعض أخبار الأمير عبد الله بن محمد، رحمه الله، على الـجُملة

كان الأميرُ عبد الله مُقتصِدًا، يظهر ذلك في مَلْبَسِه وشكلِه وجميع أحواله. وكان حافظًا للقرآن، كثيرَ التلاوة له، وكانت له صَدَقاتٌ كثيرة، ونوافلُ جَزيلة. وكان مقدَّمًا في وَرَعِهِ وفَضْله، محبًّا للخير وأهلِه، دائمَ الخشوع والذِّكر لله، كثيرَ التواضع، شديدَ الوطأةِ على ذوي الظُّلم والـجَوْر، متفنِّنًا في جميع العلوم، فصيحَ اللسان، حَسَنَ البيان. وكان قد فتح بابًا في القصر سمّاه بابَ العدل، يقعدُ فيه للناس يومًا معلومًا في الجمعة؛ ليُباشِرَ أحوالَ الناس بنفسه، ولا يجعلُ بينه وبين المظلوم سِترًا. وكان بصيرًا باللغات، حافظًا لأشعار العرب وأيّامها وسِيَرِ الـخُلفاء، راويةً للشِّعر. وكانت اللَّذَّاتُ في أيّامه مهجورةً، فإنه لم يشربْ قطُّ مُسكِرًا ولا نَبيذًا. واعتذر إليه يومًا بعضُ مَواليه، فقال: إنَّ مَخايِلَ الأمورِ لتَدُلُّ على خلاف قولك، وتُنبئُ عن باطلِ تنصُّلِك، ولو أقررتَ بذَنْبك واستغفرتَ لجُرْمِك، لَكان أجملَ بك، وأسْدلَ لسَتْرِ العفوِ عليك. فقال: قد اشتمل الذَّنْبُ عليَّ وحاق الخطأُ بي، وإنما أنا بَشَر، وما يقوم لي عُذر. فقال: مهلًا عليك! رُويدًا بك! تقدَّمتْ لك خِدْمةٌ، وتأخّرتْ لك توبة، وما للذَّنبِ بينهما مَدْخل، وقد وَسِعَك الغفران.

وأملى كتابًا إلى بعض عمّاله: أمّا بعدُ، فلو كان نظرُك فيما خصصناك به، واهتِبالُك بذلك على حسب مُواترتِك بالكُتْب واشتغالِك بذلك عن مُهِمِّ أمرِك؛ لَكُنتَ من أحسنِ رجالِنا غَناءً، وأتـمِّهم نظرًا، وأفضلِهم حَزْمًا! فأقلِلْ من الكَتْب فيما لا وجهَ له ولا نَفْعَ فيه، واصرفْ همَّتك وفكرتَك وعنايتَكَ إلى ما يبدو فيه اكتفاؤُك، ويَظهرُ فيه غَناؤك، إن شاء اللهُ تعالى.

وكتب أحدُ الوزراء إليه كتابًا في أمرٍ، فوقَّع فيه [من مجزوء الخفيف]:

أنــــتَ يــــا نَــــصْرُ آبِــــدَهْ　　لــــستَ تُرْجــــى لفائــــدَهْ

إنــــما أنــــتَ عُــــدَّةٌ　　لكَنِيــــفٍ ومائــــدَهْ

وكان، رحمه الله، تقيًّا نقيًّا، بَنى السَّاباطَ من القصر إلى الجامع؛ مُحافظةً منه على الصلوات، والتزمَ الصلاةَ مع الجماعة إلى جانب الـمِنْبر دائمًا حتى لقيَ ربَّه.

وكان، رحمة الله عليه، مع ذلك شاعرًا مطبوعًا وأديبًا ظريفًا. فمن قوله يتغزَّلُ في صِباه [من مخلّع البسيط]:

وَيْحي على شادِنٍ كَحيلِ ... في مِثْلِه يُخلَعُ العِذارُ
كأنما وَجْنتاه وَرْدٌ ... خالطه النَّوْرُ والبَهارُ
قضيبُ بانٍ إذا تثنَّى ... يُديرُ طَرْفًا به احورارُ
فصفوُ وُدّي عليه وَقْفٌ ... ما اطَّرَدَ الليلُ والنهارُ

وله - أيضًا - في مِثْلِ ذلك، رحمه الله [من السريع]:

يا مُهجةَ المشتاقِ ما أوجعَكْ! ... ويا أسيرَ الحبِّ ما أخضعَكْ!
ويا رسولَ العَيْن من لَحْظِها ... بالردِّ والتبليغ ما أسرعك!
تذهب بالسرِّ فتأتي به ... في مجلسٍ يَخْفى على مَن مَعَكْ
كم حاجةٍ أنجزتَ إسرارَها ... تبارك الرحمنُ ما أطوعَكْ!

وله في الزُّهد [من مجزوء الكامل]:

يا مَن يُراوِغُه الأجَلْ ... حَتَّامَ يُلهِيكَ الأمَلْ؟!
حتَّامَ لا تخشى الرَّدى ... وكأنه بك قد نَزَلْ؟!
أغَفَلْتَ عن طَلَبِ النَّجا ... ةِ ولا نَجاةَ لمن غَفَلْ!
هيهاتَ يَشغَلُك المُنى ... ولَمَا يدومُ لك الشَّغَلْ
فكأنَّ يومَك قد أتى ... وكأنَّ نَعْيَك قد نَزَلْ

وفيه [من الوافر]:

أرى الدُّنيا تصيرُ إلى فناءِ ... وما فيها لحيٍّ من بقاءِ
فبادِرْ بالإنابةِ غيرَ راءٍ ... إلى شيءٍ يصيرُ إلى فَناءِ
كأنكَ قد حُمِلْتَ على سَريرٍ ... وغُيِّبَ حُسْنُ وجهِك في الثَّراءِ
فنافِسْ في التُّقى واجنَحْ إليه ... لعلَّك تُرضِيَنْ رَبَّ السماءِ

ولم يزل، رحمة الله عليه، يرفعُ مَنارَ الدِّين، ويسلك سبيلَ المهتدين، لم تَمنعْه الفِتَنُ عن النظر لنفسِه، والعملِ ليوم فاقتِه وحُلولِ رَمْسِه. وكانوا يعدُّونه من أصلحِ خلفاء بني أُميّة بالأندلس، وأمثلِهم طريقة، وأتمِّهم معرفة، وأمْتنِهم دِيانةً، إلّا أنه كان مُنغَّصَ الحال بدوام الفتنة، وتضييقِ نِطاق الخطَّة، ونُقصانِ مقدارِ التزكية، حتى كان يتخلَّلُه الرِّياء تحت قِناع تَقْواه؛ والبُخل يُطوِّقه طبيعةً ليست مِن هَواه. وغُمِط لِما كان من هَوانِ الدِّماء عليه، بسبب الفتن المتكاثفة لدَيْه، آخذًا لأكثرهم بالظِّنّة. وقد صرَّح الفقيهُ أبو محمد ابن حَزْم بذمِّ هذا الأميرِ، وقال: إنه كان قتّالًا تهونُ عليه الدِّماءُ مع كثرة إقباله على الخيرات، وإعراضِه عن جميع الـمُنكَرات؛ فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره له، وواطأ عليه حَجّامَه بأنْ سَمَّ له الـمِبْضَعَ الذي فَصَدَه به، وهو نازلٌ بعسكره على ابنِ حفصون، ثم قَتَلَ ولدَيْه معًا بالسيف واحدًا بعد واحد؛ قتل محمدًا والدَ الناصرِ لدين الله، وقتل أخاه الـمُطَرِّفَ، ثم قتل أخوَيْن له معًا أيضًا؛ قتل أحدَهما ـ وهو هشامٌ ـ بالسيف، والآخر، بالسمِّ، إلى غير ذلك. واللهُ أعلم بحقيقة أمرِه.

خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله(١)

نَسَبُه: هو عبد الرحمن بن محمد، الذي قَتَلَه أخوه مطرِّف، ابن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الـحَكَم الرَّبضيِّ ابن هشام الرَّضي ابن عبد الرحمن الداخل.

كُنيتُه: أبو المطرِّف.

لَقَبُه: الناصر لدِين الله.

أمُّه: أُمُّ وَلَد تسمَّى مُزْنة.

عُمره: ثلاث وسبعون سنة وسبعة أشهر.

وليَ في اليوم الذي توفِّي فيه الأميرُ عبد الله، وبُويعَ فيه، وذلك يومَ الخميس مستهلَّ ربيع الأول سنةَ ثلاث مئة، وتوفِّي يومَ الأربعاء لليلتَيْن خَلَتا من شهرِ ربيع الـمُعظَّم سنةَ خمسين وثلاث مئة.

---

(١) ينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٧، وجذوة المقتبس ٣٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ٧/ ٨٩١ والتعليق عليها.

خِلافته: خمسون سنة وستةُ أشهر وثلاثة أيّام.

صِفَتُه: أبيضُ، رَبْعة، أشْهل، حَسَنُ الجسم، جميلٌ بهيٌّ، يخضب بالسَّواد.

قُضاته: أحمد بن محمد بن زياد[1]، ثم عَزَلَه وولَّى أسلمَ بن عبد العزيز بن هاشم[2]، ثم أحمدَ بن محمد بن زياد ثانيةً، ثم أحمد بن بقيٍّ[3]، ثم مُنذِرَ بن سعيد البَلُّوطيَّ[4].

نَقْشُ خاتَـمة: «عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ».

وكان أبوه محمدٌ وليَّ عَهْدِ أبيه عبدِ الله وأكبرَ بَنيه، فقتله أخوه مُطَرِّف، وقتله أبوه به، وكان في ذلك كلامٌ كثير.

وكان مولدُ الناصر قَبْلَ قتلِ أبيه محمد بأحدٍ وعشرين يومًا، وذلك يوم الخميس لثمانٍ بقين من رمضان سنةَ سبع وسبعين ومئتين.

وكان جدُّه الأميرُ عبد الله يُحْظِيه دون بَنِيْه، ويومئ إليه، ويُرشِّحه لأمرِه، وربّما أقعده في بعض الأيام والأعياد مقعدَ نفسِه لتسليم الـجُندِ عليه؛ فتعلَّقتْ آمالُ أهل الدولة به، ولم يَشُكُّوا في مصير الأمرِ له، فلمّا مات جدُّه أجلَسُوه في مكانه للخلافة دون ولدِه لصُلْبِه، وكان يسكنُ القصرَ مع جدِّه دونهم، فتهيّأ بإجلاسه دونهم مكانَه بغير مُنازَعة. وقيل: إنَّ جدَّه رمى بخاتَمه إليه؛ إبانةً منه لاستخلافه.

فكان أولَ مَن بايَعَه أعمامُه أولادُ الأمير عبد الله، وهم: أبان، والعاص، وعبد الرحمن، ومحمدٌ، وأحمد. وتَلاهم إخوةُ جدِّه، وهم: العاص، وسُليمان، وسعيد، وأحمد، وكان أحمدُ متكلِّمَهم، فلمّا بايَعَه أثنى عليه بكلِّ جميل.

والناصرُ هذا هو أولُ مَن تسمَّى بأمير المؤمنين، وتلقَّب بأحد الألقاب السلطانية؛ وهو الناصر، ثم تسمَّى منهم مَن كان بعدَه من خلفائهم بإمرة المؤمنين. وآثر اللَّقَبَ السلطانيَّ، وذلك حين هاجت الخلافة العبّاسيّة وضَعُفَتْ، وظهرت الدولةُ التُّركيّة والدَّيلميّة، فصارت إمْرةُ المؤمنين لائقةً بمنصبه وكلمةً باقية في عَقِبه. فاستهلَّ الخطيبُ

---

(١) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٦٩ والتعليق عليه.

(٢) جذوة المقتبس (٣٢٣) والتعليق عليه.

(٣) جذوة المقتبس (١٩٧) والتعليق عليه.

(٤) جذوة المقتبس (٨١٢) والتعليق عليه.

بجامع قُرطبة أحمدُ بن بقيٍّ بن مَـخْلَد بذِكْر هذا الاسمِ الـمُخَلَّد يومَ الجمعة من سنة ستَّ عشرة وثلاث مئة.

وفي يوم ولايته يقولُ أحمدُ بن عبد ربِّه [من المجتثّ]:

بَـــدا الهـــلالُ جَدِيـــدًا   والـــمُلْكُ غـــضٌّ جديـــدُ
يـــا نِعمـــةَ الله زيـــدي   فـــما عليـــكِ مَزِيـــدُ

ووليَ والأندلسُ جَمْرةٌ تَحْتدِم، ونارٌ تضطرم، فأخمَدَ نيرانَها، وسكَّن زلازلَـها، وغزا غزواتٍ كثيرة[1]، وكان يُشبَّه بعبد الرحمن الداخل. ومن وقتِ دخولِه الأندلسَ سنةَ ثمانٍ وثلاثين ومئة إلى ولاية عبد الرحمن الناصر مات من بني أُميّة سبعةُ خلفاءَ وعبدُ الرحمن ثامنهم، ومات في المدّة المذكورة من بني العبّاس اثنان وعشرون ملكًا.

وفي سنة ولايتِه: كانت غزاتُه إلى معَاقِل جَيّان، وهي أوَّلُ غَزَواتِه، نهض في جيوش كَثيفةٍ وعُدَّةٍ كاملة، فحَسَمَ الأدواءَ، وقَهَرَ الأعداء، وافتَتَح الحصون، وشكَّ برجاله كلَّ حصن افتتحه. وانحسم الداءُ في كُورة إلْبيرةَ، وتألَّفتْ كلمتُهم، واستقامت طاعتُهم. وقَفَلَ بعد استصلاح كُورتَيْ إلبيرةَ وجيّانَ وما والاهما، ودخل قصرَه وقد استتمَّ في غَزاته اثنين وسبعين يومًا.

وفي سنة إحدى وثلاث مئة: توفِّي بإشبيلية صاحبُها عبدُ الرحمن بن إبراهيم بن حَجَّاج، في المحرَّم؛ فاجتمع أهْلُها على تقديم أحمدَ بن مَسْلَمة مكانَه، وكان من الشُّجْعان. فأخرج النّاصرُ أحمدَ بن حُدَيْر قائدًا نحوها، وأوقع بأهلها. وكان محمَّدُ بن إبراهيم بن حَجَّاج عند ذلك بمدينة قَرْمُونة، فقصد بابَ السُّدَّة، وعرض نفسه لـمُحاربة أهل إشبيلية، فأخرجه الناصرُ إليها مع قاسم بن وليد الكَلْبيِّ، فحاصرها شهرًا. ثمَّ خرج إليها الحاجبُ بَدْرُ بن أحمد، فدخلها يومَ الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيتْ من جُمادى الأُولى من هذه السنة.

وفيها: كانت محاصرةُ لُبِّ بن محمدٍ مدينةَ سَرَقُسطة.

وفيها: توفِّي العاص ابن الأميرِ محمد.

---

(١) ينظر كامل ابن الأثير ٨/ ٧٤.

وفيها: خرج الناصر لدين الله[1] غازيًا إلى كُورة رَيُّه والجزيرةِ وقَرْمونة، وهي الثَّانية من غزواته: فكان خروجُه من قصر قُرْطُبة يومَ الخميس لثمان خلون من شهر رمضان، وفصل غازيًا لثمانٍ خلون من شوَّال. وتخلَّف في القصر موسى بن محمَّد بن حُدَيْر صاحب المدينة. وكانت الكُتُب تُنفَّذ إلى الولي هشام، وهو صغيرٌ. وكان مقصده حصنَ طُرُّش[2]، فاحتلَّ بجيوشه عليه، فحصر مَن كان فيه، وقتل مَن تظاهر منهم، وقطع ثمارَهم، وحَطَم معايشَهم ثمَّ أبقى عليه مَن يُحاصره، وتنقَّل إلى حصون رَيُّه ومعاقِلِ ابن حفصون، يتتبَّعها مَعْقِلًا معقلًا، وأوقع بابن حَفْصون ومَن انحشد إليه من النَّصرانيَّة وقيعةً ذهب فيها كثيرٌ منهم، وبعث برؤُوسهم إلى قُرْطُبة. وسارع كلُّ مَن كان في تلك الناحية من الحصون والقرى والمعاقل إلى الدخول في الطاعة والاعتصام بها من الهلكة، فقبلهم الناصرُ وأمَّنهم.

وتنقل إلى حاضِرة الجزيرة، إلى كُورة شَذونة، إلى كُورة مَوْرُور، حتَّى أوفى على مدينة قَرْمُونة، فاحتلَّها مستهلَّ ذي الـحِجَّة. وكان حَبيبُ بن سَوَادة قد أظهر الـخِلافَ فيها عند قدوم محمَّد بن إبراهيم بن حَجَّاج قُرْطُبَةَ، فنازلَتْه جيوشُ الناصر، وحُوصِر بها عشرين يومًا، حتَّى عضَّتْه النكاية، وأخذت بمُخنَّقة الـمُحاصرة، ثمَّ استأمن، فأُمِّنَ، وقَبِلَ الناصرُ منه ولم يُرْهِقْه عسرًا من أمره، وقفل الناصرُ ظافرًا إلى قُرْطُبة؛ فدخلها لليلتَيْن بقيتا[3] من ذي الحجة.

وفي سنة اثنتين وثلاث مئة: كانت ولادةُ الحكم بن عبد الرحمن الناصر في مستهلِّ رجب.

وفيها: أغزى الناصرُ عمَّه أبانَ ابن الأمير عبد الله، ففصلَ في شوال إلى كُورة رَيُّة، وتردَّد بالجيوش فيها، ونازل حصونَها، وحطَّم زروعَها، وقطع ثمارها.

وفيها: أمحل الناسُ، وتوالى القحطُ وعمَّ ببلاد الأندلس كلِّها، وغلت الأسعارُ في جميع جهاتِها.

---

(١) من ر٢.

(٢) مراصد الاطلاع ٢/ ٨٨٤.

(٣) في ر٢: «وقد بقي يومين».

وفي سنة ثلاث وثلاث مئة: كانت المجاعةُ التي شُبِّهت بسنة ستِّين، وبلغت الحاجةُ بالناس مبلغًا لا عهدَ لهم بمِثْله، ووقع الوباءُ في الناس، وكَثُر الموتُ في أهل الفاقة والحاجة حتى كاد أنْ يُعجَزَ عن دَفْنهم.

وفيها: توفِّي أبانُ ابن الإمام عبد الله في جُمادى الآخرةِ وهو ابنُ خمس وخمسين سنة.

وفيها: أُسِرَ مُطَرِّفُ بن لُبّ، أَسَرَه العدوُّ بالثغر. ووقعت بين بني لُبٍّ فُتونٌ وحروب، واختلف أمرُهم.

وفي سنة أربع وثلاث مئة: أغزى الناصرُ لدين الله أحمدَ بن أبي عَبْدة إلى دار الحرب، ودخل أرض المشركين؛ فنكى وغَنِمَ وسَبَى، وخرج بالمسلمين سالمين غانمين[1].

وفيها: خرج الحاجبُ بدرُ بن أحمد من قُرطبةَ إلى مدينة لَبْلة، فحاصَرَها وفتَحها[2].

وفيها: عزل الناصرُ عبدَ الملك بن جَهْوَر عن الكتابة، ووُلِيَها عبدُ الحميد بن بَسيل، ثم عُزل، وأُعيد إليها عبدُ الملك المذكورُ[3].

وفي سنة خمس وثلاث مئة: خرج القائدُ أحمدُ بن أبي عَبْدة إلى دار الحرب، وخرج معه طبقاتُ الناس من المجاهدين وأهل الدِّيوان، وحشدَ إليه رجالُ الثَّغر، فدخل أرضَ العدوِّ في جَمْع كبير، ونازل حصنَ قصرِ موسى، وجدَّ المسلمون في مُحاربة المشركين حتى كانوا قد أشرفوا على الظفر بمن كان في الحصن، فانحشدت النصرانيَّةُ من جميع جهاتها مُمَدِّين لكَفَرَتهم، ومُجْلِبين على المسلمين بخَيْلهم ورَجْلِهم، فتداعى أهلُ الـمُدَاهنة في الدِّين من أهل الثَّغر إلى إظهار الهزيمة، وجرُّوها على المسلمين؛ فانهزم كثيرٌ منهم، واستُشهِدَ القائدُ المذكور ومعه من المسلمين مَن آثر الشهادةَ ورَغِبَ عن خِزْي الفِرار. وانعقد سائرُ أهلِ الجيش، وصاروا يدًا واحدة، فسَلِموا وخرجوا إلى أرض المسلمين بدوابِّهم وأثقالهم.

---

(١) المقتبس ١٢٧ (شالميتا).

(٢) المصدر نفسه ١٢٨.

(٣) المصدر نفسه ١٣٣-١٣٤.

ذكر موت اللَّعين عُمر بن حَفْصون

وفي هذه السنة: هلك عمرُ بن حفصون، عميدُ الكافرين، ورأس المنافقين، ومُوقِد شُعَل الفتنة، ومَلْجأ أهل الخِلاف والمعصية.

فعُدَّ هلاكُه من أسباب الإقبال، وتباشير اليُمْن، وانقطاع عُلَقِ المكروه[1].

ولـمَّا توفّي افتتِحتْ أُبدةُ إِلْبِيرة، وكان فيها سليمانُ، فاستُنْزِل عنها، وقُدِم به قُرْطُبة.

وفيها: حشدَ أُرْدونُ وإذْفونش، وشانْجُه بن غَرْسِيَة صاحبُ النَّصرانيّة، بجلِّيقيَّة وبَنْبُلُونة، وخرجوا في جُموعهم واحتفالٍ من كَفَرَتهم، فعاثت النَّصرانيَّةُ في أطراف بلاد المسلمين. وأفسدت الزُّروعَ[2]، ثم انتقلتْ إلى تُطِيلَة. وبلغ العدوُّ واديَ طَرَسُونَة. وخلَّف شَانْجُه نهرَ إِبْرُه، وقاتل حِصْنَ بَلْتيرَّة[3]، وقهر أهلَ الرَّبَض، وأحرق المسجدَ الجامع، فكان ذلك مما أحفظَ[4] الناصرَ وحرَّكه لـمُجاهَدَتهم والانتصارِ منهم.

غزوة مُطُونية

وفي سنة ست وثلاث مئة: غزا المشركين الحاجبُ بدر بن أحمد، وذلك أنه لـمّا اتصل بالناصر لدين الله تطاوُلُ المشركين على مَن كان بإزائهم من الثغور أحفظه ذلك، وأذكى عَزْمَه، وأكَّد بصيرته في مُجاهدة أعداء الله وأعداء دِينه في هذه السنة؛ فأمر بالاحتشاد والاحتفال في جمع الرجال والتكثير من الجند والفرسان الأبطال. وعَهِدَ إلى حاجبه بالغزو في الصائفة. ونُفِّذت كُتُبُه إلى أهل الأطراف والثُّغور بالخروج إلى أعداءِ الله، والإيقاعِ بهم في أواسط بلادهم، ومجتمعِ نَصْرانيَّتهم. ففصَل الحاجبُ بالجيوش، يومَ الثلاثاء لخمسٍ بقين من المحرَّم، وانثالت عليه العساكرُ من كلِّ جهة، ودخل بهم دارَ الحرب، وقد انحشَدَ المشركون، وتجمَّعوا من أقاصي بلادهم، واعتصموا بأمنع أجبُلهم، فنازَلَهم الحاجبُ بَدْر بن أحمد بأولياء الله وأنصار دِينه، فكانت لهم على أعداء

---

(١) المقتبس ١٣٨ (شالميتا).

(٢) في ر٢: «الزرع».

(٣) في ر٢: «فلتيرة» وهو جائز لأن أصلها باء أعجمية «P».

(٤) في ر٢: «أغضب».

الله وقائعُ اشتَفَتْ فيها صدورُ المسلمين، وانتصروا على أعداء الله الكافرين. وقُتِل في هذه الغَزاة من حُماتِهم، وأبطالهم، جُملةٌ عظيمةٌ لا يأخذُها عَددٌ، ولا يُحيط بها وَصْفٌ. وكان الفتح يومَ الخميس لثلاثٍ خَلَوْنَ من ربيع الأول ويومَ السبت بعده في معاركَ جليلة، لم يكُ أعظمُ منها صُنْعًا، ولا أكثرُ من أعداء الله قتيلًا وأسيرًا. وورد الكتابُ بذلك على الناصر يومَ الجمعة لإحدى عشرة ليلةً خلَتْ منه؛ فأكثر من الشكر لله على ما منَّ به، وفتح فيه، وقُرِئ في مساجد الجماعات، وكُتِبَ به إلى الأطراف[1].

غزاة[2] الناصر لدين الله بنَفْسه

وفي شهر ذي حجّة من السنة المؤرَّخة: غزا الناصرُ بنفسه مدينةَ بلدة[3] من كُورة رَيُّه، وتخلف في القصر بقُرطُبة ابنَه الحَكَم الـمُستنصِر بالله، فلما قرب الناصرُ قدَّم من رجالِه مَنْ يَمتحن إماكنَ زَرْعها وموضِعَ المضطرَب عليها، فألقى الزرعَ متأخِّرًا، وأتَتْه الأنْباء بإمكان زروع فَحْص رُعَيْن، فرأى التعريجَ إليه بعد أن أمر بابتناء صَخْرة غوجان[4]؛ لتكون مُطلَّةً على بَسِيط بَلْدة. ثمّ ارتحل إلى حصنِ دُوش أمَانْتِش، فنازلَه وحارَبَه حتّى افتتحه. ثم نهض إلى مدينة بَلْدة؛ فاحتلَّها يومَ الثلاثاء لليلة بقيتْ من ذي الحِجَّة، وأحاطت العساكرُ بها، فتداعى مَن كان من المسلمين فيها إلى النزول بأثقالهم وذراريِّهم، وذكروا أنهم كانوا مغلوبين على أمْرِهم، فأمَّنهم الناصر، وقاتَلَ الكَفَرةَ الـمُتغلِّبين في المدينة، حتى أظفره اللهُ بهم، فقُتلوا عن آخرهم، ومُلكت المدينة. ثم انتقل إلى حصون رَيّه، يتقرَّاها مَعْقلًا معقلًا، ويفتتح ما مرَّ به منها. ونزل على مدينةِ بربُشتر، فحاصر أهلَها، وقطع ثمارَها، واستبلغ في نكاية أهلها، فسأله جعفرُ بن عمَر بن حفصون قَبْضَ رهائنه؛ نُزوعًا إلى الطاعة، فقُبضتْ رهائنُه. ثم قفل الناصرُ لدين الله ودخل القَصْرَ لليلةٍ بقيتْ من المحرَّم من سنة سبع.

---

(١) المقتبس ١٤٦-١٤٧ (شالميتا).

(٢) في ر٢: «غزوة».

(٣) معجم البلدان ١/ ٤٨٣.

(٤) في عريب: «غوزان».

وفي سنة سبع وثلاث مئة: طاع عبد الرحمن بن عمر بن حفصون وأسلم حصن طرّش إلى رجال الناصر لدين الله، ودخل قُرطبة فأُنزل ووسِّع عليه[1]، وكان غيرَ داخلٍ في الحرب والفتنة مدخل أبيه وإخوته، وإنما كان صاحب كُتُب، وكان حسن الخط ضعيف العقل، قال عريب: وقد صار بعد ذلك وراقًا.

وفيها: أمَرَ الناصرُ بقتل موسى بن زياد، وكان وَلِيَ الوزارة في أيام الأمير عبد الله، وكَثُرت مطالَبتُه للناس ورَفْعُه عليهم، وكان يجاهِرُ ببُغْض الناصر ويرفع عليه إلى جده ويغريه به، فحبَسَهُ الناصرُ يوم بيعته، ولم يزل محبوسًا إلى أن قتله في أواخر صفر؛ وقتلَ معه حبيب بن سَوَادة وولدَيْه، ومحمد بن الوليد العُقيلي، وكانت لهم ذنوب وجرائم.

وفي سنة ثمان وثلاث مئة: خرج الناصر غازيًا من قصر قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة[2] خلت من ذي الحجة سنة سبع وثلاث مئة، ثم فصل غازيًا من قصر قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمان وثلاث مئة وتخلّف في قصرِه ولي عهده الحكم.

ونهض آمًّا لوجهته، والحشودُ والعساكرُ تتلاحق به من سائر[3] أقطار الأندلس، وجميع جهاتها. ونزل، رحمه الله[4]، على مدينة طُلَيْطُلة، فخرجَ إليه صاحبها لُبُّ بن الطربيشة، مُبادرًا للغزو معه، وكان يُظْهِر طاعةً تحتها معصيةٌ. ثمّ تنقَّل، في مَناقِله، حتى لحق بمدينة الفَرَج، فنظر لأهلها، وعزلَ بني سالم عنهم؛ إذ شكوا بهم. واستوزر في هذه المحلّة سعيد بن المنذر، وقدَّمه قائدًا وضابطًا لمدينة الفَرَج، وأغزاه مع نفسه، واستعمل عليهم ابنَ غِزْلان صِهْرَه، وعمَّ الرِّضا جميعَهم، وخرج للجهاد أكثرُهم. ثم نهض، رحمه الله، في جيوشٍ كثيفة حتى احتل بثَغْر مدينة سالم، وأظهر التوجُّهَ إلى الثَّغْر الأقصى،

---

(١) المقتبس ١٥٤ (شالميتا).

(٢) من هنا إلى قوله: «من المحرم» سقط كله من ر٢.

(٣) من ر٢.

(٤) «رحمه الله» من ر٢.

ثم عرج بالجيوش إلى طريق ألبة والقلاع، وطوى من نهاره ثلاثَ مراحل، حتى احتلَّ بوادي دومَرَة، فاضطربت العساكرُ فيه وباتت عليه، ثم أخرج في ذلك الصباح جرائد الخيل وسَرَعان الفُرسان فأغاروا يمنة ويسرة والمشركون في سكون وغفلة، فغنموا نَعَمهم وسوامهم ووجدوا دوابهم سارحة مهملةً، فاكتسحوا جميع ذلك وانصرفوا إلى العسكر بالغنائم. وبعد ذلك اندفعت الجيوش في أكمل تعبئة، وأهذب ترتيب وأبرع حزم وعَزْم إلى حصن وُخْشُمة، ففر عنه الكفرة، وأخلوه، ولاذوا بالغياض الأَشِبَة[١]، والصخور المنقطعة. ودخل المسلمون الحصنَ وخَرّبوا جميع ما فيه، وحَرَّقوا القرى المجاورة له ولم يتركوا لأعداء الله في ذلك الجانب نعمة يأوون إليها.

وما زال الناصر من موضع إلى موضع يُخَرّبُ ويقتل ويسبي في بلاد المشركين ويهزم الكفرة حتى تواروا في الجبال ولاذوا بالشعاب وأيقنوا بالدمار والهلاك وحيز من رؤوس أمثال الجبال، والمسلمون ظاهرون منبسطون في قراهم ومزارعهم[٢] يعفون آثارهم ويقتلون مَن أدركوا منهم.

ثم انتقل الناصرُ[٣] إلى حُصون المسلمين يُسَكِّنُها وينظر في مَصالِح أهلها، فكلَّما ألفى بقربها مَعقِلًا للمشركين، هدمَه وأحرق بَسيطَه، حتى لقد اتَّصل الحريقُ في بلاد المشركين عشرةَ أميال في مِثْلها. واجتمع عند المسلمينَ من الأطعمةِ والخيرات[٤] ما عجزوا عن حَمْله، ولم يجدوا لها ثَمَنًا تُباع به، وكان القمحُ في العسكر ستة أقفزة بدرهم، فلا يوجد من يشتريه، فجُمعت الأطعمة وأدخلت[٥] النار إليها حتى أحرقت عن[٦] آخرها. وبعث الناصر[٧] إلى قرطبة من رؤوس الكفرة أعدادًا عظيمة حتى لقد عجزت

---

(١) الغياض الأشبة: الكثيرة الشجر.

(٢) المقتبس ١٦٥ (شالميتا).

(٣) من ر٢.

(٤) من ر٢.

(٥) في ر٢: «وأدخل».

(٦) في ر٢: «حتى احترقت من».

(٧) في ر٢.

الدواب عن حملها، ثم صدر قافلًا إلى قرطبة واحتل قصرها في عز يسرّ الإسلام ويقرّ أعين الأنام منتصف ربيع الآخر، وقد استكمل في غزاته هذه تسعين يومًا[1].

وفي هذه السنة: قُتِلَ جعفرُ بن عمر بن حفصون بجبل بُبَشتر؛ قتله أصحابُه غِيْلَةً، ودخله أخوه سليمان وضبطه[2].

غَزَاة طُرُّش

وفي سنة تسع وثلاث مئة: خرج الناصر لدين الله من قصر قرطبة يوم السبت[3] لثمان خلون من المحرم فسار في احتفالٍ من جيوشه، وطبقاتٍ من رجاله، حتى احتلَّ على حصنِ[4] طُرُّش، وكانت النَّصرانية قد احتشدت إليه، وتحصَّنت فيه، فأحدقت العساكرُ به من جميع جهاته، فأمر بمحاربتهم والتضييقِ عليهم ونَصَبَ المجانيق على مُرتقًى تَصِلُ منه حجارتُه إلى الكَفَرة. وكانوا في أول الـمُنازلة لهم[5] يَبْرزون للحرب، ويُظْهرون المدافعة، حتى مزَّقَتْهم الحرب، وقلَّلَت عددَهم، وفلَّتْ حدَّهم، فعاذُوا بالاستغلاق في داخل حِصْنهم[6]. ثم تمادى التضييقُ عليهم، والحصارُ لهم، حتى أخذهم الجَهْد، وأشفَوْا على الهلاك؛ فخاطبوا أميرَ المؤمنين[7] ضارعين إليه في تأمينهم، على أن يُسلِموا الحصن، ويَخرجوا عنه، فأجابهم إلى ذلك، وقَبِلَ إنابتهم، ودخل رجالُه الحصن، وخرج عنه جميع مَن كان به من النصرانية. وهُدمت قصبته، وأُلقيت أحجارُها في النهر، وبُني موضع الكنيسة مسجدٌ جامع. ونظر الناصرُ، رحمه الله، أيّام مُحاصرته لحصنِ طُرُّش في توجيه القُوَّاد والأجناد إلى حِصْنِ[8] بُبَشْتر وحصنِ أقُوط[9]

---

(١) جذوة المقتبس ١٦٧-١٦٨ (شالميتا).

(٢) جذوة المقتبس ١٦٨ (شالميتا).

(٣) من ت.

(٤) في ر٢: «بحصن».

(٥) في ر٢: «منازلتهم».

(٦) في ر٢: «بالتحصين بجدار حصنهم».

(٧) في ر٢: «الناصر».

(٨) في ر٢: «جبل».

(٩) في ر٢: «أقرط».

وجَبَل الحجارة، لمحاربة سليمانَ وحفصٍ ابنَيْ عُمَر بن حَفْصون، والتضييقِ عليهم، والانتقاص[١] لعَدَدهم. ثم قفل الناصرُ، من محلَّته على حصنِ طُرُّش يومَ الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول[٢]، دخل قرطُبة وقد استتمَّ في غَزاته هذه تسعةً وستِّين يومًا[٣].

غَزْوة مُنْت روي[٤]

وفي سنة عشر وثلاث مئة: خرج الناصر لهذه الغزوة يوم الخميس لثلاث خَلَونَ من ذي الحجة من سنة تسع وفصل منها إلى قرطبة يوم السبت لست خلون من ربيع الآخر من هذه السنة، وقد استكمل في غزاته هذه ستة وثمانين يومًا وتخلّف بقصر قرطبة ولي عهده الحكم، وسار حتى احتل بحصن مُنْت روي[٥] يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم، وكان جبلًا ممتنعًا بعيد المرام كثير السُّكان من عُجمةٍ، قد لاذت به، وامتنعت فيه، وهو متوسِّطٌ بين كُورة[٦] إلْبيرة وكورة جَيّان، وعلى طريق مدينة بَجّانة؛ فكان مَن سلك تلك السَّبيل من واردٍ أو صادر لا يَسلم من عاديةِ أهل[٧] ذلك الحصن. وكانوا يَسفكون الدِّماء، ويَسلُبون[٨] الأموال، فأقام عليهم أميرُ المؤمنين، خمسةً وثلاثين يومًا مُحاصِرًا، حتى أباد كثيرًا منهم، ثم أبقى على الحصن من رجاله وأجناده مَنِ استمرَّ على مُحاصرتهم، حتى كان[٩] لا يدخلُ إليهم داخلٌ، ولا يخرج عنهم خارجٌ. وتقدَّم إلى حصون كُورة إلْبيرة، فعمَّ جميعَها بالنّكاية.

---

(١) في ر٢: «والنقص».

(٢) في ر٢: «في منتصف ربيع الأول».

(٣) في ر٢: «شهرين وأيامًا» وينظر المقتبس ١٧١-١٧٢ (شالميتا).

(٤) في أ: «منت روبي»، وينظر المقتبس ١٧٩ (شالمتا).

(٥) كذلك.

(٦) في ر٢: «كورتي».

(٧) من ر٢.

(٨) في ر٢: «ويغنمون».

(٩) في ر٢: «كانوا».

ثمّ عرَّج منها إلى كُورة رَيُّه، ونزل على بُبَشْتر[1]، فحارَبَهم أشدَّ مُحاربة، ونكاهم أبلَغَ نِكاية، وقطع ما بقي في أسناد الجبل من الثمار، ورتَّب لمحاصرتهم أكابر القواد. وقصدَ كورة تاكُرُنّا فاستصلحَ أحوال أهلها، واستوثق من طاعتهم، ونقل إلى قرطبة من رأى نقلَهُ من وجوههم. وطالع في طريقه كورة إشبيلية وقَرْمونة، وقفل بعد إحكامه جميع الأمور في تلك الجهات فاحتل قصره[2] يوم السبت لست خلون من ربيع الآخر، وقد[3] استكمل في غزاته هذه خمسة وثمانين يومًا[4].

وفي سنة إحدى عشرة وثلاث مئة: خرج الناصر لدين الله إلى مدينة بُبَشْتَر وحصون رَيُّه، فسار حتى احتل على حصن بُبَشْتَر، فبادر سُليمان بن عمر بن حفصون بمكاتبته، فأعرض الناصر عن جوابه، وأخذ بالجد والعزم في محاصرته[5]، وأقام عليه سبعة أيام يصل الغدو بالرواح في التغيير والتدبير[6] والنكاية والاستبلاغ، وفعل كذلك فيما بقي من حصونه، واستنزل جميع أهل تلك الحصون، واستصلح تلك الجهات، ثم قَفَل ودخل قرطبة يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول[7]، وقد استتم تسعة وستين[8] يومًا[9].

غزاة الناصر إلى بَنْبَلُونة[10]

وفي سنة اثنتي عشرة وثلاث مئة: كان غزاة أمير المؤمنين الناصر[11] إلى دار الحرب، وهي الغزوة المعروفة ببَنْبَلُونة، وفصل من قرطبة يوم السبت لأربع عشرة

---

(١) في ر٢: «بربشتر».

(٢) في ر٢: «بعد إحكام ذلك كله إلى حضرته قرطبة فاحتل قصرها في التاريخ المتقدم».

(٣) من هنا إلى آخر الفقرة ليست في ر٢.

(٤) المقتبس ١٧٩-١٨١ (شالمتا).

(٥) في ر٢: «حصاره».

(٦) في ر٢: «التدمير».

(٧) في ر٢: «في أواخر ربيع الآخر».

(٨) في ر٢: «سبعين».

(٩) المقتبس ١٨١-١٨٢ (شالميتا).

(١٠) هذا العنوان ليس في ت.

(١١) في ر٢: «أغزى الناصر لدين الله الروم».

ليلة بقيت من المحرم[1][2]، فاحتل لأول خروجه بمَحَلَّة بَالِش، وكسر بها يومين، متلومًا على المجاهدين معه من أجناده ورعيته والمحشودين من أقطار كُوَره، وتخلّف في القصر بقرطبة وليَّ عهده الحَكَم، ومَرَّ في أول خروجه بكورتي تدمير وبلنسية فاستصلح أحوال أهلهما، واستنزل عبد الرحمن بن وَضّاح ويعقوب بن أبي خالد وعامر بن أبي جوشن وغيرهم من مواضعهم التي كانوا متأمرين فيها ومتعاصين عن النزول منها[3].

ثم نهض الناصر، في عساكرَ كعدد الحَصَى، حتى دخل ثَغْر تُطِيلة. وخرج إليه التُّجيبيُّون وغيرُهم[4]، وتلقَّاه عمَّالُ الثَّغر في جنود عظيمة، وعدَّة كاملة[5]، فدخل، رحمه الله[6]، بلادَ المشركين بأنفذِ عَزْم، وأوكد حَزْم، وأقوى نيَّة في الانتقام لله، عز وجل[7]، ولِدِيْنِهِ من الأرجاس، الكَفَرَةَ الأنجاس[8]. فحلَّ من أول بلادهم حِصْنَ قَلَهُرة[9]، وكان العِلْجُ شانْجُه قد أخلاه، فأمر بهدمِه وإحراقِ جميع ما فيه وحوَّله. وهدم المسلمون حصون الكفرة التي كانت في تلك الناحية، ولم يبق منها صخرة قائمة[10]. وانتهب المسلمون جميع ما كان فيها من الأطعمة والنَّعَم، ودأبوا في تخريب الديار وتغيير الآثار. ثم ارتحل منه إلى حصن قرقستال على وادي أَرَغُون[11]. ثم عزم الناصر، رحمه الله، على الإيغال في بلدهم والتوصّل إلى موضع قرارهم، ومجتمع كفَّارهم، ونِكايتِهم في

(١) في ر٢: «منتصف شهر محرم».
(٢) المقتبس ١٨٩ (شالميتا).
(٣) المقتبس ١٩٠ (شالميتا).
(٤) ليست في ر٢.
(٥) في ر٢: «وافرة».
(٦) «رحمه الله» ليست في أ.
(٧) «عز وجل» ليست في أ.
(٨) ليست في أ.
(٩) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٣٩٣.
(١٠) المقتبس ١٩٠-١٩١ (شالميتا).
(١١) في ر٢: «ثم انتقل إلى حصون وادي أرغون»، وما أثبتناه من أ.

عُقْر دارهم، ومكان أمنهم؛ فأخذ في الحزم[1]، وعَهِدَ بضبط مُجَنِّبات العسكر، وتقدَّم من فَجِّ الـمُرْكُوِير في أتمِّ تعبئة وأهذبِ ترتيب، فدخلت الجيوشُ مواضعَ لم تُدْخَل[2] قبل ذلك، حتى نزل بقَريَة بشكُونشة[3] التي إليها يُنسب العِلْج، ومنها أصلُه، فهُدمت مَبانيها، وأُحرق كلُّ شيء كان فيها[4].

فجمع العِلْجُ شانْجُه كَفَرَته، واستمدَّ بنصرانيَّته، حتى توافى له جمعٌ رجا أن يكافحَ المسلمين به؛ فتطلَّعت له خيلٌ على تلك الأجبُل المنيعة على العسكر، فأمر الناصرُ بتعبئة الرجال وشَدّ العسكر، وإتقان النظر، وصابح النهوض والتقدُّم لوجهته، واثِقًا بالله، عزَّ وجلَّ، ومتوكّلًا عليه، فسلكت الجيوشُ بين أجبُل شامخةٍ وشواهِقَ مُنقطعة. ورجا أعداء الله عند[5] ذلك انتهاز الفرصة واعتراض المسلمين[6] في مُجَنَّبة أو ساقة، فلمّا توسَّط الجيشُ بعض تلك المواضع الـمُتضايقة[7] وبقيت من الساقة بقية[8]، هبطتْ للمشركين خيلٌ من الأجبل، فحالت بينهم وبين أهل العسكر، فنهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود، فعبروا النهرَ إليهم، وصمَّموا بالحملة عليهم، حتى اقتلعوهم عن موضعهم، وهزموهم[9]، ووضعوا سيوفَهم ورماحهم فيهم، حتى اضطرُّوهم إلى مرتَقًى وَعْر وجبلٍ منقطع، فتفحَّم المسلمون عليهم، وسهَّل الله وَعْرَه لهم، فقَتلوا جُملةً منهم، وانبسطت على الأرض أجسادهم[10]. واستمرَّت الخيلُ

(١) في ر٢: «بالحزم».

(٢) في ر٢: «تدخلها».

(٣) في ر٢: «بنكوشة».

(٤) المقتبس ١٩١-١٩٢ (شالميتا).

(٥) في أ: «مع».

(٦) في أ: «والاعتراض للمسلمين».

(٧) في ر٢: «بعض تلك الضيقات».

(٨) «وبقيت من الساقة بقية» ليست في أ.

(٩) ليست في أ.

(١٠) في أ: «وبسطت الأرض بأجسادهم».

الـمُغيرةُ في بَسِيطهم، فأصابت الغنائم والسَّوام وضروب النّعَم، وانصرفوا سالمين، لم يُصَب منهم غيرُ يعقوبَ بن أبي خالد التوزَريِّ، ونفرٍ يسير[1] من الحشم فازوا بالشهادة، وختم اللهُ لهم بالسعادة. واجتمع من رؤوس المشركين عدد عظيم.

ثم ارتحل المسلمون من موضع إلى موضع في بلاد المشركين وحصونهم يقتلون ويخربون إلى أن وصلوا إلى موضع العلج شانجُه ومكان طمأنينته، فحلّت الجيوش بهذه المحلة يوم الأربعاء لثمان بقين من ربيع الآخر، وتظاهر الكلب على الجَبَل وقد جمع جموعه وحشدَ رجاله واستمد[2] بمدود أتته من إلْبَة والقلاع، طامعًا في معارضة المسلمين بملاقاة[3] يقيم بها عُذْرَه عند كَفَرَته، وأهل مِلَّته، فناشبهم المسلمون الحربَ، والتحم بينهم القتال، فهزم اللهُ المشركين، وتفرَّقوا في شَعْراء متصلة بها. وبات أهلُ العسكر في محلَّتهم. وانبسطت العلاقة في القُرى، فانتسفتْ ما فيها. وتظاهر العِلجُ مرةً ثانيةً؛ فانهزم أيضًا أقبحَ انهزام، وتنقَّل الناصرُ، رحمه الله، قافلًا، وجعلَ مرورَه ببني ذي النُّون؛ وكان يحيى بنُ موسى قد توقَّف عن الجهاد؛ فدارت عليه معرَّةُ الجيش، حتى أذعن مُنقادًا، وخرج خائفًا وَجِلًا، وتلقى أميرَ المؤمنين[4] مُعترفًا بذَنْبه؛ فأوسعه عَفْوَه، ودخل أميرُ المؤمنين[5] قرطُبَةَ يومَ الخميس لثمانٍ بقين من جُمادى الأولى، وقد استتمَّ في غَزاته هذه أربعةَ أشهر[6].

وفي سنة ثلاث عشرة وثلاث مئة: كانت غزوة الناصر، رحمه الله، إلى كورة إلبيرة، واستصلاحه كورة جَيّان وما والاها، وفصل من قرطبة غازيًا يوم الخميس لثمان بقين من صَفَر وتخلف في القصر بقرطبة ولي عهده الحكم ومن الوزراء أحمد بن حُدَيْر،

---

(١) في ر٢: «لم يصب منهم أحد إلا نفر يسير».

(٢) في أ: «واستجاش».

(٣) ليست في أ.

(٤) في ر٢: «الناصر».

(٥) كذلك.

(٦) المقتبس ١٩٥-١٩٦ (شالميتا).

وعهد بهدم أكثر حصون جيان وقصباتها إذ كانت منزلًا[1] لأهل الشر والخلاف، وضررًا على أهل الطاعة والاستقامة، وكذلك فعل بحصون إلبيرة حتى احتل بحصن أشتين، وكان أهله على مكايدة باطنة، وإظهار طاعة تحتها معصية[2]، فعرض عليهم الناصر النزول عن حصنهم، فاضطربوا في أمرهم، ولاذوا عن رُشدهم، فاحتلت العساكر عليهم وأحيط بهم من جميع جهاتهم وبنيت عليهم ستة حصون يقابل بعضها بعضًا حتى عادوا[3] في مثل حلقة الخاتم، وبقي الناصر على محاصرتهم خمسة وعشرين يومًا، وهو مع ذلك يدأب في استصلاح أمور[4] رعيته، وتأمين سبلهم وقطع المخاوف عنهم ويشخص بنفسه إلى كل جهة من جهاتهم[5].

وفي هذه الغزاة، استجلب الناصرُ ابنَهُ الحَكَمَ من قصرِ قُرطُبَةَ إلى معسكره، وهو في ذلك الوقت ابنُ عشرة أعوام وثمانيةِ أشهر ونصف؛ إذ استوحش له، وتاقت نفسُه الكريمة إليه، فقدم عليه، بهذه المحلَّة مع ثقاتِ رجاله وفتيانه، واستخلف في القصر أخاه[6] عبد العزيز لينَفِّذ الكتب باسمه إلى وقت مُنصرَفِه. فأنس، رحمه الله، به، وسُرَّ بقُربه. وقفل الناصرُ من هذه الغزاة لستٍّ خلون من ربيع الآخر، بعد أن رَتَّبَ الوزيرَيْن سعيدَ بن الـمُنذِر وعبدَ الحميد بن بَسِيل على حصنِ أشتين، محاصِرَيْن لأهله[7]. ودخل القصرَ يومَ الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر[8].

وفي سنة أربع عشرة وثلاث مئة: أغزى الناصر، رحمه الله، قواده بالصوائف[9]،

---

(١) في ر٢: «مستركحًا».

(٢) في ر٢: «مداهنة».

(٣) في ر٢: «صاروا».

(٤) ليست في ر٢.

(٥) المقتبس ١٩٩-٢٠١ (شالميتا).

(٦) في م: «أخوه»، خطأ.

(٧) جاءت العبارة في ر٢ مختصرة كما يأتي: «بعد أن رتب عسكرًا على حصن أشتين يحاصره».

(٨) المقتبس ٢٠١ (شالميتا).

(٩) في ر٢: «بالصائف».

ولم يكن له غزو بنفسه[1] في هذا العام، لمحلٍ كان فيه، وقحطٍ، فأخرجَ عبد الحميد بن بَسيل الوزير إلى الثغر الذي كان به بنو ذي النون، فأوقع بهم إذ كانوا قد مرقوا[2] عن الطاعة، فقتل منهم من استحق القتل. ثم صدر عبد الحميد من ذلك الثغر وقد استقامت على يديه أحوالُ أهله، فأخرجه الناصر إلى مدينة بُبَشْتَر محاصرًا لسليمان بن عمر بن حفصون[3].

ذكر قَتْل سُليمان بن عُمر[4] بن حفصون

وفي هذه السنة: قُتِلَ سُليمانُ بن عُمر بن حفصون، وكان قد خرج مغاورًا[5] لبعض الحَشَم[6] الـمُغاوِرين له من العسكر، فتبادَرَتْ إليه الخَيلُ من الجهة التي كان فيها عبدُ الحميد، فصُرِع سليمانُ عن فَرَسه، فاحتزَّ رأسَه سعيدُ بن يَعْلَى العَريف، وقُطِعت يداه ورِجْلاه[7]، وذلك يومَ الثلاثاء مستهلَّ ذي الحجَّة من سنة أربع عشرة وثلاث مئة. وبعث الوزيرُ عبدُ الحميد برأسه وجثَّته[8] ويدَيْه مُبَعَّضةً مفترقةً، فرُفعتْ على باب السُّدَّة في خشبة عالية، وكان الفتحُ فيه عظيمًا سارًّا لجميع المسلمين[9].

وكان القحطُ في هذا العام شديدًا، والمحلُ عامًّا، فاستسقى بالناس الخطيبُ[10]

---

(١) هذه اللفظة ليست في أ.

(٢) في ر٢: «خرجوا».

(٣) المقتبس ٢٠٣-٢٠٤ (شالميتا).

(٤) «بن عمر» ليست في أ.

(٥) في أ: «معارضًا».

(٦) هذه اللفظة من ر٢.

(٧) كذلك.

(٨) في ر٢: «وجسده».

(٩) المقتبس ٢٠٤-٢٠٥ (شالميتا).

(١٠) هذه اللفظة من ر٢.

أحمدُ بن بَقِيٍّ مِرارًا، فوافى نزولُ الغَيْث مع رَفْعِ جُثَّة سُليمان بن حفصون صَليبةً على باب السُّدَّة؛ فقالت في ذلك الشعراء أشعارًا كثيرةً، منها [من الطويل]:

سَحابٌ يَمُورُ الغَيْثُ فيها وَدِيمَةٌ ... دِماءُ العِدَا تَهْمِي بها وتَفُورُ
غِياثانِ فينا واكِفانِ من الحَيَا ... ولَكِنَّ ذا رِجْسٌ وذاكَ طَهُورُ
وَذَاكَ نَجِيعٌ لَيْسَ يَقْبَلُهُ الثَّرَى ... وذا ناجِعٌ يَسْرِي بِهِ ويَغُورُ
تَدَنَّسَتِ الدُّنْيَا به فتَطَهَّرَتْ ... بُطونٌ لها من رِجْسِهِ وظُهُورُ

وفي سنة خمس عشرة وثلاث مئة: كان غزو الناصر إلى مدينة بُبَشْتر[1] لمحاربة حفص بن عمر بن حفصون، وخرج معه ابنه الحكم وهو ابن ثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر ونصف، وتخلَّف في القصر أخاه عبد العزيز. فنزل الناصر على بُبَشْتَر يوم الثلاثاء[2] لسبع بقين من ربيع الآخر، وزاد عزمًا في البنيان عليها والجد في محاصرتها وأرتب بها مَن يلازمها، وتنقل منها إلى مدينة الحَنَش، فاستنزل من كان فيها وأخلاها من ساكنيها، وأمر بهدم أسوارها وتعفية آثارها وقطعَ ثمارَهم وكُرومهم، ثم تنقَّل بجيوشه إلى مدينة مالَقة، وولَّى مدينةَ مالَقة عبد الملك بن العاص، وألزم معه جُملةً من الحَشَم لـمُغاورةِ أهلِ تلك الحصون، وأمره بحملِ السيف على كلِّ داخلٍ إليهم أو خارج عنهم. ثم صدر إلى مدينةِ بُبَشْتر، فاضطرب عليها ثانيةً، ورأى أنّ البُنيان بها من أنكى الأمور للكَفَرة وأشدِّها عليهم؛ فأمر ببُنيان صَخْرةٍ للأول تُعرف بالمدينة، وأقام بمحلَّته هذه سبعةَ أيّام، لم يَدَعْ فيها للكفَرة مُرتفَقًا ولا معاشًا. ثم قفل، ودخل قُرطُبة يومَ الثلاثاء[3] لعشر بقين من جمادى الآخرة، وقد استكمل في غزاته هذه[4] خمسةً وستِّين يومًا[5].

---

(١) في ر١: «خرج الناصر لمدينة ببشتر».

(٢) قفز نظر ناسخ ر٢ من هنا إلى آخر النص: «ودخل يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى... إلخ».

(٣) إلى هنا ينتهي السقط في ر٢.

(٤) هذه اللفظة من ر٢.

(٥) المقتبس ٢١٠-٢١٢ (شالميتا).

ذكر افتتاح[1] مدينة بُبَشْتر

ولـمَّا اشتدَّت الـمُحاصرةُ على حفص بن عمر بن حفصون، وأحيط به[2] بالبنيان عليه من كلِّ جانب، ورأى من الجدِّ والعزم في أمره ما علم ألا بقاء له معه في[3] الجبل الذي تعلَّق فيه؛ كتب إلى الناصر، يَسْأَلُه تأمينَه والصَّفْح عنه، على أن يَخرج عن الجبل مُستسلِمًا لأمره، راضيًا بحُكمه، فأخرج إليه الناصرُ الوزيرَ ابن حُدَيْر، وتولَّى هو وسعيدُ بن المنذِر[4] إنزالَه من بُبَشْتر. ودخلها رجالُ أمير المؤمنين[5]، يومَ الخميس لسبعٍ بقين من ذي القَعْدة من السنة[6]. واستُنزِل حَفصٌ وجميعُ النصارى الذين كانوا معه، وقَدِمَ بهم ابن حُدَيْر قُرطُبَةَ مع أهلهم ووَلَدهم. ودخلها حفصٌ في مستهلِّ ذي الحجَّة[7]، وأوْسعَه أميرُ المؤمنين[8] صفحَه وعَفْوَه، وصار في جُملة حَشَمه وجُنْدِه. وبقي سعيدُ بن الـمُنْذِر بمدينة بُبَشْتر ضابطًا لها، وبانيًا لما عُهِدَ إليه من بنيانه فيها[9].

وفي سنة ست عشرة وثلاث مئة: كان غزاةُ الناصر[10] إلى مدينة بُبَشْتر، بعد افتتاحها[11]، لتدبير أمْرِها وإحكام ضَبْطها، واحتلَّ بحصنِ بُبَشْتر يومَ الأحد لعشر بقين من المحرَّم، فدخل المدينةَ[12]، وجال في أقطارها[13]، وعايَنَ من حصانتها، وعلوِّ

(١) في ر٢: «فتح».

(٢) من ر٢.

(٣) في ر٢: «على».

(٤) في ر٢: «بن حدير» خطأ.

(٥) في ر٢: «الناصر».

(٦) «من السنة» ليست في أ.

(٧) في ر٢: «ذي القعدة».

(٨) في ر٢: «الناصر».

(٩) في ر٢: «لما أمره ببنائه فيها»، وينظر المقتبس ٢١٢-٢١٣ (شالميتا).

(١٠) في ر٢: «خرج الناصر».

(١١) «بعد افتتاحها» ليست في ر٢.

(١٢) في ر٢: «فلما دخلها».

(١٣) «وحال في أقطارها» ليست في ر٢.

مُرتقاها، وانقطاع جَبَلها مع جميع جهاته، ما أيْقَنَ معه ألا نظيرَ لها في الأرض حَصانةً ومَنَعةً واتِّساعَ قرارة؛ فأكثر من حمدِ الله، عزَّ وجلَّ، على ما افتتح منها، ويسَّر له فيها، والتزم الصَّومَ أيَّامَ مُقامه بها. ثم دبَّر بُنيانَ قَصَبَتِها على أحسن ما دبَّره وأحكمه في غيرها، وفرَّق رجالَه على هدمِ كلِّ حصن كان حَوالَيْها، وعلى الدِّيار[1] الخارجة عنها. وأمر بنَبْش جيفتَيْ عمرَ بن حفصون وابنه، فكُشفت قبورُهما، فأُلفِيَا مدفونَيْن على ظهورهما، كما يتَدافَن النصارى، وشهد ذلك عامةُ الفقهاء الغازِين مع الناصر، رحمه الله، وأيقن مَن شهد ذلك بهلاكِهِما على دين النصرانيّة، فاسْتُخرِجا من لُحودهما المنتنة[2]، وأُتِـيَ بأعْظُمِهما إلى باب السُّدَّة بقرطبة، فرُفِعَتْ في جُذوعٍ عالية إلى جنب سُليمانَ بن عمر، وصاروا عِظَةً للناظرين، وقَرَّتْ بهم عيونُ المسلمين، وقفل الناصر قرير العين[3].

وفي هذه السنة[4]: رأى الناصر أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبة له في جميع ما يجري ذكره فيه[5] بأمير المؤمنين، فعهد إلى الخطيب أحمد بن بقي صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة بحضرة قرطبة[6] يوم الجمعة مستهل ذي الحجة، ونفذت الكتب إلى العمال بذلك[7].

نسخة الرسالة النافذة في ذلك إلى الأقطار[8]

بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعدُ، فإنّا أحقُّ مَن استوفى حقَّه، وأجدَرُ مَن استكمل حظَّه، ولَبِسَ من كرامة الله ما ألبسه[9]، للذي فضَّلَنا اللهُ به، وأظهر أثَرَتنا

(١) في م: «الديارات»، وما أثبتناه من النسختين.

(٢) من ر٢.

(٣) المقتبس ٢١٥-٢١٧ (شالميتا).

(٤) في ر٢: «وفيها».

(٥) قوله: «في جميع ما يجري ذكره فيه» ليست في ر٢.

(٦) في ر٢: «أحمد بن بقي أن يخطب بذلك بحضرة قرطبة».

(٧) ليست في أ.

(٨) قوله: «إلى الأقطار» من ر٢.

(٩) قوله: «ولبس من كرامة الله ما ألبسه» ليست في ر٢.

فيه، ورفعَ سلطانَنا إليه، ويسَّر على أيدينا إدراكَه، وسهَّل بدولتنا مَرامَه، وللذي أشاد في الآفاق من ذِكْرنا، وعُلُوِّ أمرنا، وأعلن من رجاء العالَمين بنا، وأعادَ من انحرافهم إلينا، واستبشارِهم بدَوْلتنا. والحمدُ لله وليِّ النِّعمة والإنعام بما أنعَمَ به، وأهلِ الفَضْل بما تفضَّل علينا فيه. وقد رَأَيْنا أن تكونَ الدعوةُ لنا بأمير المؤمنين، وخروجُ الكُتُب عنّا وورودُها علينا بذلك؛ إذ كلُّ مدعوٍّ بهذا الاسم غيرنا مُنْتَحَلٌ له، ودخيلٌ فيه، ومُتَّسَمٌ بما لا يستحقُّه. وعَلِمْنا أنّ التمادِيَ على تَرْكِ الواجب لنا[1] من ذلك حَقٌّ أَضَعْناهُ، واسمٌ ثابتٌ أسْقَطْناه. فأْمُرِ الخطيبَ بموضعك أن يقول به، وأجْرِ مخاطباتِك لنا عليه، إن شاء الله، والله المستعان. وكتب لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة ست عشرة وثلاث مئة.

وفي سنة سبع عشرة وثلاث مئة: كانت غزاة الناصر إلى مدينة بَطَلْيَوْس[2] لمحاربة أهلها وابن مروان المنتزي عليه فيها، ومعه ولدُه الحكم وابنُه منذرٌ، وتخلَّف في القصر ابنه عبد العزيز. وأقام عليهم الناصر بجيوشه عشرين يومًا، ثم أبقى عليهم أحمد بن إسحاق في قطيع من الجند، وانتقل إلى جهة ماردة، فأصلح الأحوال بها، ثم عاد إلى بَطَلْيَوْس ثانية، فاضطربت عساكره عليها[3]،وتولى من نكايتهم[4]، وأليم محاصرتهم[5] ما أذاقهم به وبال عصيانهم وضلالهم، ثم رَتَّب عليهم عسكرًا قَوَّد عليه[6] أحمد بن إسحاق، وأمره بالتشدد في حصرهم والاستبلاغ في مضايقتهم، وانتقل ناهضًا إلى مدينة باجة، واضطربت عساكره عليها وتقدم بالإعذار إلى عبد الرحمن بن سعيد الذي كان بها ودعاه إلى الطاعة، فلاذ والتوى، فنصبت المجانيق عليه، وحُورب أشد محاربة. ثم استأمن هو وأهل باجة لأمير المؤمنين الناصر وخضعوا لأمره ونزلوا على حكمه، فأوسعهم أمانَه

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «خرج الناصر إلى مدينة بطليوس».

(٣) قوله: «فاضطربت عساكره عليها» ليست في ر٢.

(٤) في ر٢: «نكايتها».

(٥) في ر٢: «محاصرتها».

(٦) قوله: «عسكرًا قوّد عليه» ليس في أ.

ونقلوا إلى قرطبة، ودخلها الناصر وولاها عبد الله بن عمر بن مسلمة وندب[١] معه فيها قوةً وأمره[٢] بابتناء قصبةٍ ينفرد بها العامل ويسكنها. وكان مقام الناصر على باجة[٣] خمسة عشر يومًا. وقَفَل بعدما دَوّخ تلك الجهات كلها ومدنها وأصلح أحوال أهلها، ودخل القصر لأربع عشرة ليلة خلت من رجب وقد استتم في غزاته ثلاثة وتسعين يومًا[٤].

مطالعة الناصر لبُبَشْتر في الشتاء

وفي هذه السنة: كانت للناصر خَرْجةٌ من قصر الناعورة طالعًا لمدينة[٥] بُبَشْتَر ومعاينًا لما قام من البُنيان بها، وما تَمَّ من ترتيبه فيها. وكانت مدة توجُّهه وانصرافه[٦] ثلاثة عشر يومًا[٧].

وترددت الفتوحات في هذا العام بوقائع كانت على أهلِ بَطَلْيَوْس، وبعث أحمد بن إسحاق بسبعين أسيرًا من أهلها من المخالفين[٨]، فقتلوا بين يدي قصر قرطبة[٩].

وافتتحت مدينة شاطبة من بلنسية، واستنزل عنها عامر بن أبي جوشن[١٠].

وفي سنة ثمان عشرة وثلاث مئة: كان افتتاح[١١] مدينة بَطَلْيَوس واستنزل ابنَ مروان الجِلِّيقيَّ وأهلَهُ وذوي الشوكة من صحبه[١٢]، وملكَ المدينة وولّاها عُمَّاله.

---

(١) في ر٢: «وترك».

(٢) في ر٢: «وأمر».

(٣) في ر٢: «وأقام الناصر على باجة».

(٤) في ر٢: «ودخل القصر منتصف رجب الفرد بعد ثلاثة وسبعين يومًا من خروجه منه». وينظر المقتبس ٢٤٨-٢٤٩ (شالميتا).

(٥) ليست في أ.

(٦) في ر٢: «ورجوعه».

(٧) المقتبس ٢٥٠ (شالميتا).

(٨) «من المخالفين» ليست في أ.

(٩) في ر٢: «بين يدي الناصر».

(١٠) المقتبس ٢٤٩-٢٥٠ (شالميتا).

(١١) في ر٢: «افتتح الناصر لدين الله».

(١٢) في ر٢: «رجاله».

وفيها: أخرج الناصر لدين الله أهل الثقة من خَدَمَتِهِ إلى أهل طليطلة، مُعْذِرًا إليهم وداعيًا لهم إلى الطاعة، فلاذوا بمعاذير المخادعة وجاوبوا الناصرَ بما لم يُصْغَ إليه من غِشِّهم وتمريضِهم، فاستعزم[١] على غزوهم، وشَمَّر لمناهضتهم، وقدم الوزير سعيد بن المنذر إلى مدينة طليطلة في جيش كثير وعدد جم[٢]، وأمره بالإحلال عليها والمحاصرة لها[٣] حتى يلحقه الناصر بجيوشه وصنوف[٤] حَشَمه، فخرج إليها الوزير حتى نزل بساحتها، ثم فصل أمير المؤمنين إلى طليطلة[٥]، لليلتين خلتا من جمادى الأولى[٦]، فنزل على بابها وأبلغ في نكاية العصاة بها. وأقام بهذه المحلة سبعة وثلاثين يومًا يوالي فيها نكايتهم وقَطْع ثمراتهم. ثم أمر بالبنيان في جبل جَرَنْكَش لمدينة سماها بالفتح[٧]، وأمر بنقل الأسواق إليها والتمدين لها[٨]، وترك محاصرًا لطليطلة محمد بن سعيد بن المنذر الوزير[٩]. ثم قفل إلى قرطبة ودخل القصر لأربع خلون من رجب[١٠] وقد استتم في غزاته هذه[١١] أحدًا وستين يومًا[١٢].

وفي سنة تسع عشرة وثلاث مئة: كاتَبَ صاحبُ الغرب موسى بنُ أبي العافية، أميرَ المؤمنين الناصر، ورغب في مُوالاته، والدخولِ في طاعته، وأن يستميلَ له أهواء أهل الغرب المجاورين له، فتقبَّله أحسنَ قبول، وأمدَّه بالخِلَع والأموال، وقوَّى أيْدَهُ

---

(١) في ر٢: «فعزم».

(٢) في ر٢: «في جيش كثيف وعدد كبير».

(٣) في ر٢: «وأمره بمحاصرتها».

(٤) في ر٢: «وأصناف».

(٥) في ر٢: «ثم فصل الناصر إليها».

(٦) في ر٢: «غرة جمادى الأولى من السنة بجيوشه».

(٧) في ر٢: «ثم أمر ببناء مدينة في جبل جرنكش سماه مدينة الفتح».

(٨) «والتمدين لها» ليست في ر٢.

(٩) في أ: «وأرتب محمد بن سعيد بن المنذر».

(١٠) في ر٢: «في أوائل رجب الفرد».

(١١) ليست في أ.

(١٢) المقتبس ٢٨٢-٢٨٤.

على ما كان يحاوله من حربِ ابن أبي العَيْش وغيرِه؛ فظهر أمرُ موسى في الغرب من ذلك الوقت، وتجمَّع له كثيرٌ من قبائل البَرْبَر، وتغلَّب على مدينة جُرَاوة، وأخرج عنها الحَسَنَ بن أبي العَيْش بن إدريس العَلَويَّ، وجرتْ بينهما حروبٌ عظيمة.

وفيها: افتتح الناصرُ مدينةَ سَبْتة، فشكَّها بالرِّجال، وأتقنها بالبُنيان، وبَنَى سورَها بالكذّان، وألزم فيها مَن رَضِيَهُ من قُوّاده وأجناده، وصارت مِفتاحًا للعُدْوة من الأندلُس، وبابًا إليها كما هي الجزيرة وطريف مفتاحُ الأندلُس من العُدْوة. وقامت الخطبة فيها لأمير المؤمنين الناصر، لثلاثٍ خَلَوْن لربيعٍ الأول من العام المؤرَّخ[1].

وفي سنة عشرين وثلاث مئة: خرج الناصر لدين الله من قرطبة إلى طليطلة وافتتحها[2].

وكان أهلُ طُلَيْطُلة، لـمَّا أخذهم الحصار[3]، واشتدَّ عليهم[4] التضييقُ، ولازمهم القُوَّاد، قد استجاشوا بالمشركين، واستنجدوهم، ورَجَوْا نَصْرَهم لهم، فلم يُغْنُوا عنهم فتيلًا، ولا كشفوا عنهم عذابًا، ولا جلبوا إليهم إلا خِزْيًا وهَوَانًا. وخرج القُوّاد الـمُحاصِرون لهم إلى الكَفَرة، فهزموهم، وفرَّقوا جموعَهم، وانصرفوا مُوَلِّين على أعقابهم، خاذلين لمن انتصر بهم، فلمَّا يئس أهلُ طُلَيْطُلة أن ينصرَهم أحدٌ من بأس الله الذي عاجَلَهم، وانتقامِه الذي طاوَلَهم[5]، عاذُوا بصفح أمير المؤمنين، وسألوه تأمينَهم، وضرعوا إليه في اغتفار ذنوبهم[6]، فخرج لاستنزال أهل طُلَيْطُلة، وتوطيدِ طاعته فيها، وإحكامِ نظره بها، في التاريخ الذي قدَّمنا ذِكرَه[7].

---

(١) المقتبس ٢٨٨-٢٨٩ (شالميتا).

(٢) في أ: «كان غزو الناصر إلى طليطلة».

(٣) في ر٢: «وكان أهلها لما طال عليهم الحصار».

(٤) ليست في ر٢.

(٥) قوله: «من بأس الله الذي عاجلهم وانتقامه الذي طاولهم» ليس في ر٢.

(٦) في ر٢: «والعفو عنهم وخرجوا متضرعين» بدلًا من «وضرعوا إليه في اغتفار ذنوبهم».

(٧) في ر٢: «في التاريخ المتقدم».

ثم رَكِبَ الناصرُ في اليوم الثاني من نزوله بمحلّته عليها، ودخلها(١)، وجال في أقطارها، فرأى بلدًا تصلح للخلافة، وعاينَ(٢) من حصانتها، وشَرَف قاعدتها، وانتظام الأجبُل داخلَ مدينتها، وامتناعها من كلِّ الجهات بواديها ووَعْرِها، وطِيب هَوَائها وجَوْهَرِها(٣)، وكثرة البَشَر بها، ما أكثر له(٤) من شُكر الله، سبحانه(٥)، على ما مَنَحَه فيها، وسهَّل له منها، وعَلِمَ أنَّه لولا ما أخذ به من الجدِّ والعزم في أمرها، لما مُلِكَتْ مع حصانتها(٦) ومنعتها مع اتِّساعها وانفساح أقطارها(٧)، ولِـمَا اعتاده أهلُها من مُداخلةِ الـمُشرِكين، والاستمداد على الخلفاء(٨) بهم، فكم أعيَت الملوك، وامتنعت من العساكر، وانصرفت عنها الصوائفُ بغير نُجْح، ولكنَّ فَضْلَ الله، عز وجل، الذي أعطاه أميرَ المؤمنين، وصَنَعَه له، وتأييده إيّاه، أجرى افتتاحَها على يديه.

ثم قفل الناصر عن محلته بطليطلة يوم السبت لستٍّ خَلون من شعبان، ودخل القصر بقرطبة يوم السبت لعشر بقين منه، وقد استتم في غزاته هذه(٩) ستة(١٠) وثلاثين يومًا(١١).

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة: وصل الخبرُ إلى قرطبةَ بولاية أبي المنصور بن المعتزِّ مدينةَ سِجِلْماسة، وهو غلامٌ ابنُ ثلاث عشرة سنة، فمكث في ولايته شهرين،

---

(١) في ر٢: «في اليوم الثاني من فتح طليطلة».

(٢) في ر٢: «بلدًا تصلح للخلافة، وعاينَ» ليس في أ.

(٣) في ر٢: «وطيب هوائها وجوهرها» ليس في أ.

(٤) ليست في أ.

(٥) في ر٢.

(٦) في ر٢: «لما ملكت أبدًا لشدة حصانتها».

(٧) في ر٢: «مع اتساع وانفساح أقطارها» ليس في أ.

(٨) «على الخلفاء» من ر٢.

(٩) من ر٢.

(١٠) في م: «سنة» محرفة

(١١) المقتبس ٣١٧-٣٢٠ (شالميتا) والي هنا ينتهي ما أقحمه دوزي من تاريخ عريب في «البيان المغرب»، والذي خلّصنا النسخة منه، والحمد لله رب العالمين.

وقام عليه ابنُ عمِّه محمد بن الفَتْح، وأخرجه منها، وتملَّكها، وتسمَّى بأمير المؤمنين، وتلقَّب بالشاكر لله، وذلك بعد مدَّة نحوٍ من عشرين سنة[1]، وضرب الدنانيرَ الشاكريَّة.

وفي سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة: وصل الخبرُ إلى قُرطبة بوفاة أمير إفريقية عُبيدِ الله الشيعيِّ الملقَّب[2] بالمهديِّ، وتقدُّم ولده أبي القاسم المتلقِّبِ القائمَ بأمر الله[3].

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة: وصل إلى مدينة فاس مَيْسورٌ الصِّقْلَبيُّ قائدُ أبي القاسم الشيعيِّ أمير[4] إفريقية، فحارَبَه أهلُ فاس سبعةَ أشهر، ولم يقدر عليهم، ثم حاصر ابن أبي العافية، واستعان عليه ببني إدريس، فانجلى ابنُ أبي العافية إلى الصحراء، وصار جميع[5] ما كان لابن أبي العافية لبني إدريس[6]، وقد تقدَّم خبرُ بني إدريس[7].

وفي سنة أربع وعشرين وثلاث مئة[8]: ظهر أبو يزيدَ مَخْلَدُ بن كَيْداد بإفريقية على أبي القاسم الشيعيِّ، وذلك في جبل أوْراس، وفيه قِلاعٌ كثيرةٌ يسكنها هُوَّارة وغيرُهم، وهم على رأي الخوارج.

وفي سنة خمس وعشرين وثلاث مئة: أمر الناصرُ ببناء مدينة الزَّهراء[9]، وكان يصرفُ فيها من الصخر المنجور ستةَ آلاف صخرةٍ في اليوم، سوى التبليطِ في الأساس، على ما أذكُره بَعْدُ.

---

(١) قوله: «وذلك بعد مدة نحوٍ من عشرين سنة» ليس في ر٢.

(٢) في ر٢: «المتلقب».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٥١.

(٤) في ر٢: «ملك».

(٥) ليست في ر٢.

(٦) نهاية الأرب للنويري ٢٨/ ١١٦.

(٧) هذه العبارة ليست في ر٢.

(٨) أخلت نسخة ر٢ بحوادث السنوات ٣٢٤ و٣٢٥ و٣٢٧ و٣٠٠، ثم ذكرت حوادث سنة ٣٢٩ في سنة ٣٢٤!

(٩) ينظر عنها معجم البلدان ٣/ ١٦١، ونهاية الأرب ٢٣/ ٣٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٨٥، والروض المعطار ٢٩٥.

وفي سنة سبع وعشرين وثلاث مئة: قام بالغرب الأقصى أبو الأنصار بنُ أبي عُفَيْر البَرْغَواطيُّ بعد موت أبيه، وكان يفي بالعهد والوعد، وهو الذي بعث زمُّورًا البَرْغَواطيَّ رَسولًا إلى الحَكَم الـمُستنصِر بالله، ابنِ أمير المؤمنين الناصر.

وفي سنة تسع وعشرين وثلاث مئة: استتمَّ القائدُ أحمد بن محمد بن إلياس مدينةَ سَكْتان، وشحنها بالرجال، واتَّخذ فيها الأطعمةَ والأسْلحة، فأخرج الناصرُ إليها أحمدَ بن يَعْلَى قائدًا في ضُروبٍ من الحَشَم، ضمَّهم إليه، فنفذ إليها في صَفَر من هذه السنة، فلمَّا كان في غُرَّة جُمادى الأولى منها، وافى فتحٌ من قِبَل أحمدَ بن يَعْلَى القائد بسَكْتان المحدثة بدخولٍ كان له منها إلى جهة من عمل الطاغية رُذْمِير، فقَتَلَ وسبى وأسر، وأرسل مع كِتابه إلى قرطبة مئتي عِلْج أسراء، وكان هذا أوّلَ فَتْح لابن يَعْلي أذلَّ به الطاغيةَ رُدمِير[1].

وفي سنة ثلاثين وثلاث مئة، في المحرَّم من هذه السنة: طلع كَوْكَب الزُّباني[2] في الأفق الغربيِّ بقُرْطبةَ إزاءَ العقرب، مُنحرفًا عنها، يكاد يتَّصل بالفلكة العُليا في رأي العين، وكان أول ليلةٍ لاح فيها للأبصار ليلة السبت لثلاثٍ بقين من المحرَّم منها، وهي ليلةُ ستَّ عشرة خَلَتْ من أكتوبر، وتمادى طلوعُه مُستعليًا مكبرًا في السماء حتى توارى.

وفي سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة، في يوم الخميس لخمسٍ خَلَوْن من صَفَر منها: دخل الوزير القائد أحمدُ بن إلياس إلى قرطبة قافلًا عن غَزاته إلى الثَّغْر التي خرج إليها في عَقِب[3] شوّال من[4] سنة ثلاثين وثلاث مئة قَبْلها، إلى ثلاثةِ أشهر ويومين من خروجه عنها، ودخل في سَفْرته هذه كُورةَ تُدْمِير، فأزال الالتياث[5] الواقع من أهلها[6]، وقَدِمَ برهائنِ بعضهم، وكان أثَرُه جميلًا.

---

(١) المقتبس ٤٦٥-٤٦٦ (شالميتا).

(٢) في المقتبس: «الذنبي».

(٣) هذه اللفظة ليست في ر٢.

(٤) من هنا إلى قوله: «عنها» ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «الخلل».

(٦) بعد هذا في أ: «إزالةً».

وفيها: كان المدُّ العظيم بنَهْر قرطبة، الثالِـمُ لقَنْطَرتها.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة: أغزى الناصرُ لدين الله القائدَ أحمد بن محمد بن إلياس إلى جلِّيقِيَّة، فدخل دارَ الحرب، فغنمَ، وأحرقَ جُملةً مِن حُصونهم هنالك، وقَفَلَ راجعًا.

وفيها: كانت زلزلةٌ عظيمةٌ بقرطبة، ليلةَ[1] الاثنين لتسع خَلَوْنَ من ذي القَعْدة[2]، فلم يُرَ قطُّ مثلُها ولا سُمع من قوَّتها، ووقعتْ بعد العِشاء الآخرة، فدامت ساعة، ففزع أهلُ قُرطبة لها فزعًا شديدًا، ولجأوا إلى المساجد فيها، وضجُّوا بالدعاء إلى الله تعالى في كشفها، حتى أغاثهم سُبحانه وصرفها عنهم. وفي صُبح ليلة الزلزلة، هبَّت ريحٌ عاصفٌ رَدِفتْها أخرى، فاقتلعتا كثيرًا من شجرِ الزَّيتون والتين وغيرِهما من الأشجار[3] والنخيل، وأطارتا كثيرًا من قَرمَد السُّقُف. ونزل إثْرَ ذلك مَطَرٌ وابلٌ طَبَّقَ الأرض، وبَرَدٌ غليظٌ، فقتلَ كثيرًا من الوَحْش والطير والمواشي، وأتلف ما أصابَ من الزَّرع، وأساء التأثير.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة في[4] المحرم: هبَّت بقرطبةَ ريحٌ عاصفٌ من ناحية القِبْلة ونزل بَرَدٌ غليظ.

وفيها: ظهرَ بأُشْبونة رَجُلٌ يزعم أنَّه من وَلَد عبد المطَّلب، وأنَّ أمَّه مَرْيَم ابنة فاطمة، وادَّعى مع النسب[5] أنَّه نبيٌّ، وأنَّ جبريلَ يَنزِل عليه، وسنَّ لأتْباعه سُنَنًا، وشرع لهم شرائعَ، منها: حَلْقُ الرأس، وغيرُ ذلك ممّا لا يُعْقَل، ثمّ وقعَ عليه البحث، فخَفِيَ أثَرُه.

وفيها: أخرج الناصرُ قاسم بن محمد قائدًا إلى عُدْوة الغَرْب[6] بحَرْب بني

---

(١) في ر٢: «يوم».

(٢) قوله: «لتسع خلون من ذي القعدة» ليس في ر٢.

(٣) قوله: «وغيرهما من الأشجار» ليس في ر٢.

(٤) من هنا إلى قوله: «وفيها» في الفقرة الآتية سقط من ر٢.

(٥) في ر٢: «مع ذلك».

(٦) في ر٢: «المغرب».

محمد الأدَارِسة الحَسَنِيِّين للذي[١] بدا من خِلافهم عليه في هذه السنة، ونَقْضِهم للطاعة، بعدما قَدَّم الكُتُبَ إلى محمد بن الخَيْر عظيم زَنَاته وغيرِه من وُلاته بالغَرْب، يأمرهم بالاستعداد لذلك والمعونةِ عليه[٢]. وجاز[٣] قاسمُ البَحْرَ إلى سَبْتة في النصف من ربيع الأوَّل، فلمَّا تبيَّن ذلك لكبيرِ بني محمد[٤]، وهو أبو العَيْش بن عُمر بن إدريسَ بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب[٥]، أسرع إلى تحقيق الطاعة للناصر[٦]، فعقد له الناصر[٧] الأمانَ على نفسه، وانفذ إليه ابنه محمد بن أبي العَيْش إلى قُرطبة، مؤكِّدًا لطاعته، فاحتفلَ السلطانُ لدخوله احتفالًا عظيمًا، وركب الوافِدُ محمدٌ مع مستقبله من قِبَلِ الناصر القائدِ أحمدَ بن يَعْلَى في أُهبة[٨] راقت العيونَ وملأت الصُّدور. ووصل إلى قصر الزَّهراء، وقعدَ له الناصرُ أفخمَ قُعود، فأوصلَهُ إلى نفسه، وأبلغ في تكريمه، ثم خرج عنه في مثل الهيئة التي دخل عليها[٩]. ودخلتْ بدخول محمدِ بن أبي العَيْش في هذا النهار[١٠] على الناصر رُسُلٌ لبني عمِّه الأدارِسة أمَراء الغرب. وانعقد في هذا النهار كتابُ أمان محمد بن إدريس. ودعا الناصرُ أيضًا محمدَ بن أبي العَيْش، فبالغ في تكريمه، وأقامَ بقُرطبة بقيَّة هذه السنة في تكرمة. وانصرف الوَفدُ المذكور بعد التزامهم للطاعة للناصر، وذلك في خبر طويل[١١].

---

(١) في أ: «الذي»، وما أثبتناه من ر٢، وقرأها دوزي: «الذين»!

(٢) «والمعونة عليه» ليس في ر٢.

(٣) في أ: «وأجاز».

(٤) في ر٢: «لكبير الأدارسة».

(٥) قوله: «بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب» ليس في ر٢.

(٦) في ر٢: «أسرع إلى طاعة الناصر».

(٧) من ر٢.

(٨) في ر٢: «أبهة».

(٩) في ر٢: «في مثل التبريز الذي دخل عليه».

(١٠) في ر٢: «اليوم».

(١١) «وذلك في خبر طويل» ليست في ر٢.

وفي عَقِب شوال: قدم رسولُ الخَيرِ بن محمد بن خَزَر الزَّنانيِّ أميرِ الغَرْب، ومعه رسولُ حُمَيْد بن يَصَل[1] الزَّنانيِّ، يُعرِّفانِ الناصر بما كان مِن دخولهما مدينةَ تاهَرْت، وأنَّهما أقاما فيها الدعوةَ له.

وفي مُنسلخ شوال: قَدِمَ على الناصر رسولان من أبي يزيدَ مَخْلَدِ بن كَيْداد[2] المعروف بصاحب الحمار، القائمِ بإفريقيةَ على أبي القاسم الشيعيِّ[3]، برسالةٍ منه يُخبر بتغلُّبه على القَيْروان ورَقَّادةَ وعَمَلِهما، وإيقاعِه بأصحاب أبي القاسم[4] الشيعيِّ فيها، وما يعتقده من ولاية الناصر، ويأوي إليه من اعتقاد إمامته. واتَّصلت كُتُبُ أبي يزيد ورُسُلُه على قرطبة[5] من ذلك الوقت إلى حين وفاته.

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة: جلس الناصرُ لدين الله لوَداع رُسُل أهل القَيْرَوان الواردين عليه من قِبَلهم وقِبَل أبي يزيد مَخْلَدِ بن كَيْداد[6] اليَفْرَنيِّ الناجمِ بأرض إفريقيَة في ذلك الوقت، مُحتسِبًا في جهاد مُلوك الشيعة المنتزين على إفريقيَةَ من آل عُبَيْد الله الداعي، وكان له في القيام عليهم وقائعُ شنيعةٌ، فوصلوا إلى الناصر في هذا اليوم، وهم ثلاثةُ نفر، أَوْجَهُهم تَميمُ بن أبي العَرَب التَّميميُّ، فكلَّمهم بما تقتضيه رسالتهم، ودفع إليهم أجوبةَ من أرْسَلَهم، وأذِنَ لهم في الانصراف إلى بلدهم، ووَصَلَهم وكَساهم، فانطلقوا لسبيلهم.

وفيها: وصل إلى قُرطبةَ رُسلُ مَلِك الروم الأكبر قُسطَنْطينَ بن ليون صاحبِ القُسطَنْطينة العُظْمى، بكُتُب من مَلِكهم[7] إلى الناصر، فقعد الناصرُ على سرير المُلْك بقصر قُرطبة[8] لدخولهم عليه، ولـمَن تكامَلَ بالباب من وُفُود البلاد، بعد أن أمَرَ

(١) في ر٢: «مصل».

(٢) «مخلد بن كيداد» ليست في ر٢.

(٣) «القائم بإفريقية على أبي القاسم الشيعي» ليست في ر٢.

(٤) من ر٢.

(٥) في ر٢: «الناصر».

(٦) بعد هذا إلى قوله: «فوصلوا إلى الناصر...» ليس في ر٢.

(٧) في ر٢: «بكتبهم من ملوكهم».

(٨) في ر٢: «بقصر الزهراء».

باستقبالهم بالعُدَد والأجناد. واستوى الناصرُ على سريره، وقعد على يمينه ابنُه الحَكَم، وقعد سائرُ أولاده عن يمينه ويساره[١]، وقعد الوزراء والحُجَّاب على منازلهم صُفوفًا صفوفًا[٢]. فدخل الرُّسلُ، وقد قدَّموا الهدايا بين أيديهم، وقد دَهِشُوا[٣] لـهَوْل ما عايَنوه من جَلالة الملك ووُفور الجَمْع، فصُقِعوا[٤] بين يدَي الخليفة، فأشار إليهم أن لا، فدَفَعوا إليه كتابَ مُرْسِلهم قُسْطَنْطين. وكان الكتاب مَصْبُوغًا بلون سمائيٍّ، مكتوبًا بالذهب.

وفيها: كان السيلُ العظيم بقُرطبة، وبلغَ الماءُ في البُرْج المعروف ببُرْج الأسَد، فهدم من آخر القنطرة، وثلم الرَّصِيف وغَيرَه.

وفيها: قدم على الناصر محمدُ بن محمد بن كُلَيْب من القَيْرَوان، فحكى أنَّ أبا القاسم بن عُبيد الله الشيعيَّ هلك بالمهديّة وهو محصورٌ من أبي يزيد[٥]، وأنَّ شيعتَه قدَّمتْ ولدَه إسماعيل مكانَه، وأنَّه فارِسٌ شُجاعٌ، أبِيُّ النفس، أقدم على أبي يزيدَ وجموعِه، ولاقاه بمدينة سُوسة، فانهزم أبو يزيدَ أمامَه إلى القَيْرَوان.

وفي[٦] عَقِب صَفَر منها: وُلِّـيَ خزانةَ السِّلاح عبدُ الأعلى بن هاشم المتوفَّى في المحرَّم منها.

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة: كان ابتداء بناء مدينة سالم[٧] بالثغر الأوسط من الأندلس[٨]. وفي كتاب ابن مَسْعود: في سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة: ابتنى الناصرُ

---

(١) في ر٢: «وقعد سائر أبنائه عن يساره».

(٢) سقطت من أ.

(٣) في ر٢: «وهم قد دهشوا».

(٤) في ر٢: «فصعقوا»، وما أثبتناه من أ، وكلاهما بمعنى، وصَقَع رأسه: علاه بأي شيء كان، فكأنه أريد لهم أن يجثوا أمام الخليفة، فأشار الخليفة بمنع ذلك.

(٥) في م: «زيد».

(٦) هذه الفقرة ليست في ر٢.

(٧) ينظر عنها معجم البلدان ٣/ ١٧٢.

(٨) «من الأندلس» ليست في أ.

مدينةَ سالم القديمةَ التعطيلِ بالثَّغْر الأوسط الشَّرقيّ، المواجهة لبلد قَشْتِيلة، وهي يومئذ خاليةٌ مُقْفِرة. وأرسل لذلك غالبًا مَوْلاه في جيشٍ جرَّده معه من الحضرة، وأنفذ[1] العَهْد إلى قُوَّاد الثَّغْر بالاجتماع إليه[2] لبُنيانها، فسارَعُوا إلى أمرِه، وبُنيت أحسنَ بناء[3]، ونُقِلَ إليها البنَّاءون من بلاد الثَّغْر للاختطاط لديارها والرباط بها، فتَمَّ ذلك في صَفَر من هذه السنة. واطمأنَّت الدارُ بمن نزلها من المسلمين، واكتمل بناؤها وعُمرانُها على مرور الأيَّام، فنفع الله المسلمين بها، وصيَّرها شَجًا في حُلوق الكافرين. قال: ووافى في إثر كتابِ القائد ابن حُدَيْر وابن هاشم[4] كتاب من قِبَل عامرِ بن مطرِّف بن ذي النُّون إلى الناصر بما فتحَ اللهُ له في المشركين، وقتلِه العَدَدَ الكثير منهم، وبعثِه برءوسهم، فتمَّت الفتوح، وعمَّت الفُروح[5]، وعزَّ الإسلام، واستبشر الأنام، وطابت الأيَّام، بحمدِ وليِّ الإنعام، الذي منه يُرْجى التمام، عزَّ وَجْهُه.

وفيها: كان القَحَطُ الكائن بقُرطبة.

وفيها: وصل إلى قرطبة أيُّوبُ بن أبي يزيدَ مَخْلَدِ بن كَيْدَاد اليَفْرَنيُّ الإباضيُّ رسولًا من والده أبي يزيد، فقعد له الناصرُ قعودًا، فأوصله إلى نفسه، وكرَّم لقاءَه، وأمر بإنزاله في قصر الرُّصافة، وقد أُعِدَّ له فيه من الفَرْش والوِطاء[6] والغِطاء والآنية والآلة ما يُعَدُّ لأمثاله[7]، فأقام هنالك تحت نُزُل واسع وكرامةٍ موصولة.

وفي سنة ست وثلاثين وثلاث مئة، في يوم الجمعة التاسع من[8] المحرَّم منها: ورد كتابُ قَنْدٍ مَوْلَى الناصر، القائدِ يومئذٍ بطُلَيْطُلة، بفَتْحٍ فَتَحَه اللهُ على يده في أعداء الله

---

(١) في ر٢: «وأرسل».

(٢) في ر٢: «معه».

(٣) في ر٢: «فبنيت».

(٤) قوله: «في إثر كتاب القائد ابن حدير وابن هاشم» ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «الأفراح».

(٦) هذه اللفظة ليست في أ.

(٧) في ر٢: «ما أبهته».

(٨) «يوم الجمعة التاسع من» ليست في ر٢.

أهل جِلِّيقيّة، فقُرِئ في المسجد الجامع بقُرطبة والزَّهْراء، وبُعِثَ من ذلك برءوسِ وخَيْل أُصيبت[1] لأعداء الله.

وفيها: عَزل[2] الناصرُ عبدَ الله بن محمد عن السِّكَّة، وسخط عليه لتقصيرٍ ما كان فيه[3] وأمر بسَجْنه. وقدَّم عبدَ الرحمن بن يحيى بن إدريس الأصَمَّ، ونقل السِّكَّة من مدينة قُرْطبة إلى الزَّهْراء.

وفيها: خرج الكاتبُ جعفر بن عثمان الـمُصْحَفيُّ إلى مَيُورقة وذواتِها لإصلاحِ ما فسد من حالها.

وفيها: وصل حُمَيْد بن يَصَل[4] المِكْناسيُّ[5] قائد العُبيدية[6] إلى قرطبةَ قاصدًا إلى الناصر من بلده من الغَرْب[7]، فاستُقْبِل بالجيش والزِّينة، وكرَّم الناصر مَوْرِدَه، وأجمل مَوْعِدَه.

وفي سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة، في النصف من المحرَّم: قعدَ الناصرُ بقصر الزَّهْراء قُعودًا بَهِيًّا، فدخل إليه حُميدُ بن يَصَل[8]، ثم وصل بعده منصورٌ وأبو العَيْش، ابنا ابن أبي العافية، ودخل معهما حمزةُ بن إبراهيم، صاحب جزائر بني مَزْغَنّا، فوصلهم وكَساهم، وأذِنَ لهم في الانصراف إلى بلادهم.

وفيها: صُلبَ بقرطبة عليُّ بن عَشَرة، من أهل أُشْبُونة، بعد أن قُطعت يداه ورِجْلاه، وكان من الـمُفْسدين في الأرض بقَطْع السُّبُل.

---

(١) في ر٢: «أخذت».

(٢) في ر٢: «سخط».

(٣) في ر٢: «ما كان منه فيها».

(٤) في ر٢: «مصل».

(٥) في ر٢: «الناصرَ».

(٦) «قائد العبيدية» من ر٢.

(٧) «إلى الناصر من بلده من المغرب» ليست في ر٢.

(٨) في ر٢: «مصل».

وفيها: كانت وقيعة أُرْتِقَيْرة[١] على العدوِّ دمَّره الله[٢].

وفي سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة: كان قدومُ رُسُل ملكِ الروم الأكبر صاحبِ القُسْطَنْطينة على الناصر، راغبًا منه إيقاعَ الـمُوالفة واتِّصال المكاتبة، فتأهَّب الناصرُ لورودهم[٣] عليه، وأمر بتلقِّيهم في الجيش والعُدَّة[٤]، وجلس لهم الناصرُ الجلوسَ المشهور الذي ما تهيَّأ مِثْله لـمَلِك قَبْلَه في جلالة الشأن، وعزَّة السلطان، وكثرة الجيوش وظهور القوة[٥]، ووَصْفُ ذلك يطول. ودفعوا كتابَ مَلكهم في رَقٍّ مصبوغ سمائيٍّ مكتوب بالذَّهَب، وكان على الكتاب طابعُ ذَهَب[٦]، وَزْنُه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورةُ الـمَسيح عليه السلام، وعلى الآخر صورةُ قُسْطَنْطين الـمَلِكِ وصورةُ وَلَده.

وفيها: أمر الناصرُ أحمدَ بن يَعْلَى وحُميدَ بن يَصَل[٧] المِكْناسيَّ بالخروج إلى بني محمد الأدارِسة الحَسَنيِّين[٨] أمراء الغَرْب، ففصلا بمن ضُمَّ إليهما من الجيش إلى الخَضْراء، وكان خروجُهما من قُرطبةَ للنصف من رَجَب. وفي عَقِبه: قَدِمَ على الناصر رسولٌ من بعض[٩] الحَسَنيِّين، يذكر طاعتَهم إليه[١٠]، وانقيادهم لأمرِه في هَدْمِ[١١] مدينة تِطَّاون التي أنكَر عليهم بناءَها، فعَقَدَ لهم في أول شعبان، وأمر بمحاربتهم،

(١) ينظر نزهة المشتاق للإدريسي ٢/ ٧٢٩.

(٢) «دمره الله» من ر٢.

(٣) في ر٢: «لوروده».

(٤) في ر٢: «في الجيوش والعدد».

(٥) قوله: «وكثرة الجيوش وظهور القوة» ليس في أ.

(٦) في ر٢: «عليه طابع ذهب».

(٧) في ر٢: «مصل».

(٨) ليست في ر٢.

(٩) ليست في ر٢.

(١٠) في ر٢: «له».

(١١) في ر٢: «ويعطونه هدم».

ثم وصل محمد بن أبي العَيْش الحَسَنيُّ[1] إلى الناصر من أبيه أبي العَيْش، فأقبل عليه الناصر، وأبلغ[2] في تكْرِمته، ثم ورد[3] الخبرُ بوفاة أبي العَيْش، فأوصل الناصرُ ابنَه محمدًا إلى نفسه، وعزَّاه عن والده، وعقد له على عَمَله، ووصله، وخلعَ عليه وعلى الوافِدين معه، وصرفهم. فخرج محمدٌ مبادرًا إلى عَمَله بالغَرْب. وكان، عند وفاة أبيه أبي العَيْش، قصد ابنُ عمِّه قَنُّون إلى بَلَده[4]، فاحتوى على ماله وأهله. ولـمَّا بلغ البَرَبَر إقبالُ محمد بن أبي العَيْش إلى بلده من قِبَل الناصر، رجعوا إلى عيسى بن قَنُّون، وقد خرج عن تِيكيسَاس، فقطعوا به، وكسروه، وسلبوه ما كان أَخَذَه لابن عمِّه، وقتلوا أكثرَ أصحابه، فلم يخلص إلّا في سبعة فوارس.

وفيها: وصل إلى قرطبة أحمدُ ابن الأطْرَابُلُسيِّ رسولُ البُورِيِّ بن موسى بن أبي العافية بكتابٍ يذكر أنَّه صحَّ عنده أنَّ الخَيْر بن محمد بن خَزَر الزناتيَّ وصل إلى تاهَرْت، فحاربَها، فاستنصر أهلها بمَيْسُورٍ قائد الشيعيِّ، فالتقَوْا، فدارت الدائرةُ على ابن خَزَر أوَّلَ نهارهم[5]، ثمَّ كانت الكرَّة لزَناتة، ودخل الخَيرُ أميرُهم مدينةَ تاهَرْت ومَلَكَها في غُرَّة ذي القَعْدة، وأخذ قائدَ الشيعيّ أسيرًا في عِدَّةٍ من أصحابه، ووقع في يده عبدُ الله بن بكَّار اليَفْرَنيّ[6] الذي توجَّه إلى الشيعيِّ برأس أَيُّوبَ بن أبي يزيد، فأرسل به إلى يَعْلى بن محمد بن صالح اليَفْرَنِيِّ ليقتله بوالده بعدما كان أخذ كلَّ ما عنده، فلم يَرْضَ يَعْلَى بذلك، ولا رآه كُفؤًا لعَبْده، فكيفَ لوالِده، ودفعه المذكورُ إلى رجل من البَرْبَر كان قد قَتَلَ ابنَه، فقتله به. ودخل يَعْلَى بن محمد وَهْرَان، فملكها.

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «وبالغ».

(٣) في ر٢: «وصل».

(٤) في ر٢: «وكان ابن عمه قنون عند وفاة والده قصد بلده».

(٥) في ر٢: «النهار».

(٦) قفز نظر ناسخ ر٢ من هذه اللفظة إلى مثيلتها الآتية بعد سطر فسقط ما بينهما.

وفيها: جرت قصَّةُ الوَلَد عبدِ الله ابن الناصر التي أراد الله بها ابتلاءَ أبيه فيه، فعجَّل الوثوبَ به وبأصحابه آخِرَ هذه السنة، عجَّل عليهم فيها بأفظع العقاب، فقَتَلَهم، وتأنَّى بابنه عبد الله مُدَيْدةً إلى أن طوَّقه الحُسام في آخر سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة، وكان الحَكَم أخوه ذكر عنه أنّه يريد القيامَ على أبيه، فقَبِلَ قولَه فيه. وكان عبدُ الله من أهل العِلْم والذَّكاء والنُّبْل.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة: أخرج الناصرُ قائدَه أحمد بن يَعْلَى نحو جِلِّيقيَّة، رجاءً في انتهاز فُرْصة من العدوِّ، فأعانه اللهُ عليها، واقتحم على غفلة، فافتتح ثلاثةَ حصون، وسبَى نحوًا من أَلْفِ سَبِيَّة، وانصرف آخِرَ رجب من السنة.

وفيها: ورد الخبرُ بهُلْك[1] رُذْمِير بن أُرْدُون صاحب جِلِّيقِيَّة، فمَلَّكَت الجَلالِقة ابنَه أُرْدُون، ونازَعه أخوه غَرْسِيَة، فجرى بينهم اختلافٌ أظفر اللهُ به المسلمين.

وفيها: وصل إلى قرطبة ابنا البُوريِّ بن موسى بن أبي العافية أميرِ الغَرْب. وورد رسولُ الأمير الخيرِ[2] أمير زَنَاتة وكبيرِ أمراء الغَرب إلى الناصر، يَذكر ما أتاح الله له من دخولِ مدينة تاهَرْت، وظَفَرَه بمَيْسورٍ وعبد الله بن بكَّار اليَفْرَنيِّ قُوَّاد الشيعيّ، فقُرِئ كتابُه بجامعَيْ[3] قرطبةَ والزَّهْراء. ثم ورد كتابُ عبد الرحمن بن عبد الله الزَّجَّاليِّ من جهة شَذُونة، يذكر أنَّ بني محمدٍ الأدارِسةَ بالغَرْب زحفوا إلى حُميد بن يَصَل[4] قائدِ الناصر، ونزلوا عليه، والتقَوْا به، فكانت الدائرةُ على بني محمَّد، وانصرفوا مفلولين.

وفي سنة أربعين وثلاث مئة: كانت للمسلمين غزواتٌ على الرُّوم، نصرهم الله فيها، منها: فَتْحٌ على يد قائد بَطَلْيَوْس بجِلِّيقِيَّة، هزمهم أقبحَ هزيمة، قتل جُملةً من حُماتهم ومقاتلتهم، وسَبى مِن نسائهم وذراريِّهم نَيِّفًا على ثلاث مئة رأس، ووصل ذلك

---

(١) في ر٢: «بمهلك».

(٢) في ر٢: «وورد دخول الخير»!

(٣) في ر٢: «بجامع».

(٤) في ر٢: «مصل».

السبيُ إلى قرطبة لثلاثٍ خَلَوْن من المحرَّم؛ وفَتْحٌ[1] آخَرُ على يدَيْ أحمدَ بن يَعْلَى قائد الناصر، وفتحٌ آخَرُ على يدَيْ رَشِيقٍ قائد الناصر على طَلَبِيرة، وفتحٌ آخَرُ على يدَيْ يحيى بن هاشِم التُّجيبيِّ.

وفي غُرَّة جُمادى الآخرة، وهو الثامن من أُكْتُوبر: هبَّت بقرطبة ريحٌ عاصفٌ، وتتابع البَرْق، واشتدَّ الـهَوْل، ونزلت صاعِقةٌ في دار أحمدَ بنِ هاشِم بن عبد العزيز، فقَتلت امرأةً، وأبْطَلت أُخْرَى.

وفي سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة: كان للمسلمين غَزْوٌ في الرُّوم، نصرهم الله فيه، وفتُوحاتٌ ومنُوحات.

وفي آخر جُمادى الأولى: وردت الأخبارُ[2] بأنَّ زِيرِي بن مَناد الصُّنهاجيَّ عامِلَ الشيعيِّ على تاهَرْت أسر سعيدَ بن خَزَر زعيمَ زناتةَ وكبيرَها.

وفي هذا الوقت: ورد كتابُ ابنِ يَعْلَى قائدِ الأُسْطُول بقَبْضه لرَهْن محمَّد بن إدريس الحسنيِّ كبيرِ أُمراء الأدارِسة.

وفي آخر جُمادى الآخرة: وصل إلى قُرطبة فُتُوحُ بن الـخَيْر بن محمَّد بن خَزَر كبيرُ أُمراء زَناتة بأرضِ الغَرْب، وافدًا إلى الحضرة، ومعه وجوهُ أهل تاهَرْت ووَهْران[3]، وأُدخلت بين يديه الرءوس التي احتزَّها للقُوَّاد المشارِقة ووجوهِهم من رجال إسماعيلَ الشيعيِّ العُبَيْديِّ، يَقْدُمُها رأسُ كبيرهم[4] مَيْسُورٍ الـخَصيِّ[5] ورأسُ محمَّد بن مَيْمون وغيرِهما من رءوس أعلام الشيعة، وعشرةٌ من بُنودهم، أُدخلت مُنَكَّسةً، معها عِدَّةٌ من طُبولهم، فرُفعت هذه الرؤُوسُ والبُنود والطبول على باب قصر قُرْطبة، وأُقيمت له ولمن جاء معه الكراماتُ الواسعة.

---

(١) من هنا إلى قوله «طلبيرة» سقط من ر٢.

(٢) بعد هذا إلى قوله «من ابن يعلى» في الفقرة الآتية سقط كله من ر٢.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٣٦.

(٤) هذه اللفظة من ر٢.

(٥) في ر٢: «الفتى».

وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاث مئة: قدمت رُسلُ هُوْنّو[١] مَلكِ الصَّقَالِبة على الناصر.

وفيها: خرج القائدُ أحمد بن يَعْلَى غازيًا إلى جِلِّيقيَّة، فمنحه الله في الكُفَّار القتلَ للرجال، والسَّبيَ للذُّرِّيَّة والعِيال، وإحراقَ القُرى، وانتساف النَّعَم، فقُرئ كتابُه يومَ الجمعة لليلتَيْن بقيتا من ربيعٍ الأوَّل بقُرطبة، وقُرئ معه كتابُ القائد غالِبٍ، يذكر عظيمَ ما فتح الله عليه ومَنَحَه من نِكاية المشركين، ثمَّ دخلت الرءوسُ إلى قرطبة، ومعها النَّوَاقِيسُ والصُّلْبان، فقرَّتْ عيونُ أهل الإسلام.

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة: ولَّى الناصرُ مدينةَ[٢] طُلَيْطُلة القائدَ أحمد بن يَعْلَى، وصرف عنها محمَّدَ بن عبد الله بن حُدَير.

وفيها: فصل القائدُ حُمَيْد بن يَصَل[٣]، المستأمِن إلى الناصر، بالجيش الذي ضمَّه إليه إلى بلاد الغَرْب، وخرج معه القُرَشيُّ السُّلَيْمانيُّ المستأْمِن إلى الناصر أيضًا، الذي كان أميرًا على مدينتَيْ تَنَس[٤] وأَرَشْقُول[٥] وما بينهما من أرض إفريقِيَة، فأخرجه عنها قُوّاد الشيعيّ[٦]، واسمُه عليُّ بن يحيى، ينتسب إلى عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه[٧]، فكان خروجُهما من بين يدَيِ الناصرِ بعد أن خلع عليهما خِلَع الوَداع، بعد خِلَع تقدَّمت له عليهما بيومٍ قَبْلَ وصولهما[٨]؛ من دَراريعِ الدِّيباج والخَزِّ وعمائم الشَّرْب المذهَّبة، وغيرِ ذلك. ودفع لحُمَيْد سبعةَ عشر ألفًا للنفقة على الجُند، ومن أحمال الكُسْوة سبعة أحمال[٩].

---

(١) هكذا مجود التقييد في النسختين، وهو: هُوتو ـ بالتاء ثالث الحروف ـ وينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٨٣ ونفح الطيب ١/ ٣٦٥ ويقال فيه: «أوتو» أيضًا.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «مصل».

(٤) في ر٢: «تونس»، وينظر معجم البلدان ٢/ ٤٨.

(٥) المسالك للبكري ٢/ ٧٤٧، والروض المعطار ٢٦.

(٦) في ر٢: «العبيدي».

(٧) «واسمه علي بن يحيى ينتسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه» ليس في ر٢.

(٨) «بيوم قبل وصولهما» ليست في ر٢.

(٩) في ر٢: «وسبعة أحمال من الكسوة».

وفيها: وصل إلى قرطبة وَفْدُ أَزْدَاجَة من البَرْبَر الذين انحاشوا إلى الطاعة، فكساهم الناصرُ ووصلهم[1]. وورد كتابُ فَتْحٍ من قبل[2] حُميد بن يَصَل[3] قائدِ الناصر بالعُدْوة بما فتح الله عليه[4] من مدينة آسْلان وانتشارِ الدعوة الأُمَويَّة بنواحيها.

وفيها: قَدِمَ الـحُجَّاج، فذكروا أنَّه وقع بفُسْطاط مِصْرَ حريقٌ عظيمٌ احترق فيه ستَّة عشر ألفًا بين دار ومَسْكَن.

وفي سنة أربع وأربعين وثلاث مئة: وردت قُوَّادُ الثغور لسبعٍ خلون من ربيع الآخر على الناصر، وفيهم: غالبٌ، ومُطَرِّف، ومحمَّد بن يَعْلَى، وعُبَيْد الله بن أحمدَ[5] بنِ يَعْلَى، وهُذَيْلُ بن هاشِم التُّجيبيُّ، ومروان بن رَزين، وعامر بن مُطَرِّف بن ذي النُّون، يَذكرون أنَّهم دخلوا إلى أرض العدوِّ، وقصدوا حِصْنًا من بلد[6] قَشْتِيلة، فتغلَّبوا على أرباضه، وقتلوا جماعةً من أهله، وقفلوا عنه، فوافَتْهم جموعُ النصرانيَّة، فأيَّد اللهُ المسلمين، وانهزم المشركون أمامَهم مقدارَ عشرة أميال، يقتلونهم كيف شاءوا، فأُحْصِيَ أنَّه قُتل منهم مقدارُ عشرة آلاف. وكانت هذه الوقيعةُ بينهم لليلة بقيتْ من ربيع الآخر منها، فقُرِئَ كتابُهم بهذا الفَتْح الجليل بقُرْطبة، ثمَّ وردت إلى قرطبةَ الرءوس المحتزَّة في هذه الهزيمة نحو خمسة آلاف رأس، فأمر الناصر برفعِها على الخشب حوالَيْ سُور قرطبة.

ولسبعٍ خلون من جُمادى الأُولى: كانت بقرطبة زلزلةٌ عظيمةٌ ظاهرةُ الـهزَّة، وعادت زَلزلَةٌ أُخرى مِثْلُها يومَ السبت لإحدى عشرة ليلة خلت منها[7]، وذلك عند الظُّهْر.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٩١.

(٢) من ر٢.

(٣) في ر٢: «مصل».

(٤) في ر٢: «قائد الناصر بالغرب يذكر ما فتحه الله».

(٥) «بن أحمد» ليست في ر٢.

(٦) في ر٢: «بلاد».

(٧) في ر٢: «منه».

وفيها: ثقَّف الناصرُ أُمورَ الـخِدْمة السُّلْطانيَّة، ووزَّعها بين وزرائه؛ فقلَّد الوزيرَ جَهْوَر بن أبي عَبْدة النَّظَرَ في كُتُب جميع أهل الـخِدْمة، وقلَّد الوزيرَ عيسى[1] بن فُطَيْس النظرَ في كُتُب أهْلِ الثُّغور والسواحِل والأطراف وغيرِ ذلك، وقلَّد الوزيرَ الكاتب عبد الرحمن الزَّجَّاليَّ النظرَ في تنفيذ كلِّ ما يُخرجه من العهود والتوقيعات، وينفَّذ به الأمر أو الرأي وغير ذلك، وقلَّد الوزيرَ محمَّد بن حُدَيْر النظرَ في مَطالِب الناس وحوائجهم، وتنجيزِ التوقيعات لهم. فالتزم القومُ ما أُلزموا؛ فاعتدل بهم ميزانُ الـخِدْمة، وسَهُلت مَطالِبُ الرعيَّة.

وفيها: ورد كتابُ يَعْلَى بنِ حُميد قائدِ العُدْوة من قِبَل الناصر بما فتح الله عليه في قائد الشيعيّ مَعَدِّ بن إسماعيل صاحب إفرِيقيَة من هزيمته له وقتلِه مَن قَتَلَ من رجاله، وغيرِ ذلك. ووصل إلى قرطبةَ ابنُ عمِّ حُميد بن يَصَل[2]، ومعه ستَّة وثلاثون من وجوه كُتَامَةَ وغيرِهم من القبائل المستأمِنين إليه من عسكر الشيعيِّ، فأمر الناصرُ بإنزالهم، وجلس لهم على سَريره بقصر الزَّهْراء يومَ الثلاثاء لأربع خلون منه، فوصلوا إليه، فرأوا مَقامًا جليلًا، وكلَّموه، فردَّ عليهم جميلًا، وأحسن موعدَهم، وأمر بالـخَلْع عليهم، ووُصِلُوا بِصلات جَزلات، وأُمِرُوا بالرجوع إلى القائد حُمَيْد بن يَصَل[3].

وفيها: أمر الناصرُ بإطلاق اللَّعن على مُلوك الشيعة بجميع منابر الأنْدَلُس، وإنفاذِ كُتُبِه بذلك إلى العُمَّال بسائر الأقطار[4].

وفي سنة خمس وأربعين وثلاث مئة: وَطِئَ غالبٌ، قائدُ أُسْطُول الناصر، أرضَ سَواحِل إفريقيَة من عَمَل الشيعيِّ.

وفيها: قَدِمَ محمَّدُ بن حُسَيْن رسولًا كان من الناصر إلى الطاغية أُرْدُونَ بنِ رُدْمِيرِ مَلِك جِلِّيقِيَّة، ومعه حَسْدَاي بن[5] شَبْرُوط اليهوديُّ، بكتابه إلى الناصر، راغبًا منه

---

(١) في ر٢: «موسى»، خطأ.

(٢) في ر٢: «مصل».

(٣) كذلك.

(٤) في ر٢: «أقطار العدوة».

(٥) «حسداي بن» ليست في ر٢.

في الصُّلح، فأسعفه الناصرُ في ذلك على اختيار وَلَده الـحَكَم، واشتُرط على الطاغية شروطٌ، وانصرفتْ رُسلُه بذلك.

وفيها: قُتل محمَّدُ بن أبي العَيْش الإدريسيُّ أميرُ الغَرْب.

وفيها: خرج قاسمُ بن عبد الرحمن إلى حُميد بن يَصَل[1] قائد الناصر بالغَرْب من قرطبة بأحد عشر حِمْلًا من المال وأحمال العُدَّة؛ تقويةً على الذَّبِّ عن الدولة المروانيَّة بالغَرْب، وذلك لخمسٍ خَلَوْن من صَفَر منها[2]. ولـمَّا كان يومُ النصف منه، ورد كتابُ حُمَيْد بدخوله مدينةَ تِلِمْسان.

وفي سنة ست وأربعين وثلاث مئة: قَدِمَ إلى[3] الناصر أُمراءُ بني رَزين ومَن التفَّ إليهم، فوصل إلى الناصر كبيرُهم مروانُ بن هُذَيْل بن رَزِين الثائرُ بالسَّهْلة المنسوبة إليهم، فأُدْنُوا وأُكْرِمُوا.

وفيها: برز القائدُ غالبٌ الناصريُّ إلى فَحْص السُّرَادِق غازيًا إلى دار الـحَرْب، ففُتِح عليه في بلاد الـمُشركين، وفَتَح[4] الحصونَ وقتل المقاتِلةَ واكتسح بَسِيط عدُوِّ الله غَرْسِيَة بن شَانْجُه مَلِكهم، وخرَّب قُرَاه، ورجع بالمسلمين ظاهرين. وكذلك برز القائدُ أحمدُ بن يَعْلَى للغزو إلى بلد العدوِّ تالِيًا للقائد غالب، فورد كتابُه يومَ الأحد لخمسٍ بقين من ربيع الآخر بفتحٍ عظيم تهيَّأ له في غَزْوه إلى جِلِّيقيَّة، وأنَّه أثخن في قتلهم، وحزَّ من رؤُوسهم أربع مئة، واستاق من الماشية والكُراع ما فات الإحصاءَ.

وفي سنة سبع وأربعين وثلاث مئة، أوّلَ المحرَّم: أمر الناصرُ صاحبَ الشُّرْطة القائدَ أحمد بن يَعْلَى بالخروج غازيًا في الأسْطُول إلى بلد الشيعيِّ مَعَدِّ بن إسماعيل صاحبِ إفريقية، فبرز ابنُ يَعْلَى إلى محلَّة الرَّبَض لغزَاته هذه يومَ الخميس لثمان خلون منه، وكان بُروزه فَخْمًا، خرج إليه من النَّظَّارة من أهل قُرطُبَةَ: رجالِـهم ونسائهم

---

(١) في ر٢: «مصل».

(٢) قوله: «وذلك لخمس خلون من صفر منها» ليس في ر٢.

(٣) في ر٢: «على».

(٤) في ر٢: «فملك».

وأبنائهم وولْدانهم[1] خَلْقٌ لا يُـحْصيهم إلَّا خالِقُهم، فانتشروا بأكناف الرَّبَض على عادتهم، فأخذ السِّفلة منهم والغَوْغاءُ يتقاذَفون بالـحِجَارة حاكين لِصَفَّي القِتال، فدخل في عَرْضهم قومٌ من الطَّنْجيِّين من جُنْد السلطان حَشُّوا الضرابَ بينهم، حتى حَمِيَ وَطِيسُه، وقد تكنَّف صفَّيْهم من النَّظَّارة الرجال والنساء خَلْقٌ عظيمٌ، فلم يَكُ إلَّا ساعةٌ، ودارت بينهم جَوْلةٌ ظهر فيها أَحَدُ صفَّيْهم، فمالُوا على مغلوبهم، وانبسطوا عليهم، فامتدَّ الطَّنْجيُّون بغالب شَرِّهم وجَهْلِهم إلى نَهْب مَغْلُوبهم من الرجال، وتَخَطَّوْهم إلى مَن حَوْلَـهم من النَّظَّارة، وانبسطوا على النساء، فسَلَبُوهُنَّ ثِيَابَهُنَّ، وفضحوا كثيرًا منهنَّ، فجعل الـمُجَرَّداتُ من النساء يَتوارَيْنَ في الزرع الـمُكَتَّل؛ حياءً من الناس، وترقُّبًا لوقت تفرُّقهم. وشَرْحُ ذلك يطول.

وفي جُمادى الآخرة منها: ورد كتابُ قائدِ[2] الأُسْطُول أحمدَ بنِ يَعْلَى من مدينةِ آسْلَان[3] من عَمَل تِلِمْسان، يذكر أنَّ جَوْهَرًا قائدَ مَعَدِّ بن إسماعيل العُبيدي[4] صاحبِ إفريقية قَتَلَ يَعْلَى بنَ محمَّد بن صالح اليَفْرَنيَّ صاحِبَ مدينة آفَكَّان غَدْرًا، وأنَّ ابن عمِّه انتصب مكانَه بإقامةٍ من جِلةِ[5] قومه له، ورجع القائدُ المذكور إلى قُرْطبةَ ومعه وَلَدُ ابْنِ قُرَّة، ابْنِ عمِّ يَعْلَى بن محمَّد المتقدِّمِ الذِّكر، المقدَّم بعده في قومه بني يَفْرَن، فبُولِغ في إكرامه.

وفي سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة، في أوَّل ربيع الآخر منها[6]: خرج عليُّ بن يحيى الـحَسَنيُّ إلى شَرْشَل مَكانِه من العُدْوة قائدًا، بمن انضمَّ إليه من الـحَشَم؛ لـمُكافحة أصحاب الشيعيِّ[7] صاحبِ إفريقيَة.

---

(١) هذه اللفظة ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «صاحب».

(٣) في ر٢: «أفسلان».

(٤) من ر٢.

(٥) «من جلة» ليست في أ.

(٦) «في أول ربيع الآخر منها» ليست في ر٢.

(٧) في ر٢: «معد».

وفي أوَّل ذي القَعْدة منها: أوصل الناصرُ إلى نفسه حَريزَ بن مُنْذِر في جماعةٍ من وُجوه الموالي والعُرَفاء ورجال الـجُنْد، يأمرهم جميعًا بالخروج إلى مدينة سَبْتة من أرض العُدْوة، مع بَدْرٍ الفَتى الكَبير صاحبِ السَّيْف؛ لتنفيذ العُدد فيها[1] من أجْلِ جَوَلان جَوْهَرٍ قائد مَعَدٍّ الشيعيِّ[2] صاحبِ القَيْروان[3] بأرْض العُدْوة، فنفذوا لأمره، ومكثوا كذلك إلى أن أُمِنت الحادِثةُ، فانصرفوا مع القائد بَدْر، آخرَ ذي الـحِجَّة من السنة.

وفي سنة تسع وأربعين وثلاث مئة: كان ابتداءُ عِلَّة الناصر، وذلك يومَ الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خَلَتْ من صَفَر، وذلك نصفَ النهار منه، طرقتْ أميرَ المؤمنين الناصر عِلَّتُه الصَّعبة من الريح الباردة، فأُرْجِفَ به، وخِيفَ عليه، وأكَبَّت الأطِبَّاءُ على مُعالَـجَته، إلى أن ظهر عليه تجفيفٌ، فتجشَّم القعود لخاصَّته في العشر الأُوَل لـجُمادى الأُولى. فوصل إليه الفِتْيانُ الأكابِر، وصاحِبُ الطِّراز، وخواصُّ أكابر العَبيد، كمُظَفَّرٍ وذَويه، فاستبشر أهْلُ المملكة بما بدا لهم من انحطاط مَرَضِه، وسألوا اللهَ كمالَ عافيته، والقضاءُ قد سبق بموته من عِلَّته، فلم تُفارِقْهُ، تَـخِفُّ حِينًا وتَثْقُلُ حينًا، إلى أن قَضَتْ عليه في سنة خمسين التي بعد هذه[4].

بَعْضُ أخبار الناصر، رحمه الله[5]، على الـجُمْلة

كان الناصرُ، رحمه الله، مَلِكًا أدال اللَّأواءَ، وحَسَمَ الأَدْواءَ، وقهر الأعاديَ، وعدل في الحاضر والبادي، قد أسَّس الأُسوس، وغَرَس الغُرُوس، واتَّـخذ الـمَصانعَ والقُصور، وترك أعْلامًا باقيةً إلى النَّفْخ في الصُّور. فاعْتبِرْ بالزَّهراء كَمْ بها من قَصْر مَشِيد، وآثارِ مُلُوك صِيْد، قد عادت معَاهِدُها بَعْدَهم[6] دارِسة، وآثارُها دُونَهم طامِسة،

---

(١) في ر٢: «منها».

(٢) في ر٢: «العُبيدي».

(٣) «صاحب القيروان» ليست في ر٢.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٨٥.

(٥) عبارة «رحمه الله» من ر٢.

(٦) في ر٢: «معاهدهم بعدها».

تُسْفِي الرياحُ بجَنَباتها، وتبكي الغُيومُ على عَرَصاتها. ولـمَّا ولِيَ الناصِرُ لدين الله، اعتزَّ رُكْنُ الدِّين، واحتمى ذِمَار المسلمين، وقامَ الجهادُ على ساق، وخَمَدت نارُ الخِلاف والشِّقَاق، ودخل الناسُ في طاعته أفواجًا، واستنفروا[1] إلى دعوته أفرادًا وأزواجًا. فناهِيكَ من فَضْلٍ أعطاهُم، وعَدْلٍ أكْنَفَهم به وغَطَّاهم، وتكْرِمةٍ أنالهم إيَّاها، ومَسَرَّةٍ أبدى لهم مُـحَيَّاها، قد مَلَكَ سَبْتَةَ وما يَليها من الأقطار، وطَرَدَ عنها مُلوكَ الأدارِسة طَرْدَ الليلِ النهارَ، وبثَّ عُمَّالَه وقُوَّاده فيها، وطاعت له البرَابرُ في جميع نواحيها، واعتصموا بحَبْله، ولاذُوا بفَضْله وعَدْله. وكان اصطفى مَوْلاه بَدْرًا، وجعله شَمْسًا لـمُلْكه وبَدْرًا، وقلَّده خُطَّةَ الـحِجاب، وجعل له النَّفْيَ والإيجاب، فشدَّ مُلْكه بقوَّةِ ساعِدٍ، وسَعْدٍ مُساعِدٍ[2]، ثمَّ قدَّم موسى بنَ حُدَيْر، فكمل به الـمُلْك واتَّسَق، واتَّفَقَ له من الـجِدِّ ما اتَّفق، فقاد عسكرًا مَـجْرًا، وجرَّ الدُّنيا جَرًّا.

ومن قول ابن عبد رَبِّه فيه[3] [من البسيط]:

قَـدْ أوْضَـحَ اللهُ للإسْـلامِ مِنْهـاجا ... والناسُ قَدْ دخلوا في الـدِّينِ أفْوَاجـا
وقـدْ تَزَيَّنَـت الـدُّنيا لـساكِنِها ... كـأنَّما أُلْبِـسَتْ وَشْـيًا ودِيباجَـا
يا ابْنَ الخَلائفِ إنَّ الـمُزْنَ لَوْ عَلِمَتْ ... نَـدَاكَ مـا كـان مِنْهـا المـاءُ ثجَّاجـا
والـحَرْبُ لَوْ عَلِمَتْ بَأْساً[4] تَصُولُ بـهِ ... ما هيَّجَتْ من حُمَيّـاكَ الـذي اهْتَاجـا
مَـاتَ النِّفـاقُ وأعْطَـى الكُفْـرُ ذِمَّتَـهُ ... وذَلَّـت الـخَيْلُ إلْـجاماً وإسْراجـا
وأصْـبَحَ النَّـصْرُ معقـوداً بألْوِيَـةٍ ... تَطْوِي الـمَرَاحِلَ تَهْجِـيرًا وإدْلاجـا
إنَّ الخِلافةَ لـنْ تُـرْضَى وَلا رُضِـيَتْ ... حتَّى عَقَـدتَ لهـا في رأسِـكَ التَّاجـا[5]

---

(١) في ر٢: «واستبقوا».
(٢) قوله: «وسعد مساعد» ليس في أ.
(٣) العقد لابن عبد ربه ٥/ ٢٤٠.
(٤) في ر٢: «حربًا»، وما هنا يعضده ما في «العقد».
(٥) قفز ابن عذاري هنا إلى البيت الأخير متجاوزًا تسعة أبيات. ينظر العقد ٥/ ٢٤٠-٢٤١.

ومن مناقِبه: أنَّه لم يَبْقَ في القصر الذي هو من مصَانِع أجداده ومعَالِم أوَّليَّته بُنْيةٌ إلّا وله فيها أثرٌ مُحْدَثٌ، إمَّا بتجديدٍ أو بتزييدٍ. ومن مَنَاقبه: كَثْرةُ جُوده الذي لم يُعْرَف لأحد قَبْلَه من أجواد الجاهليَّة والإسلام، حتَّى قيل فيه، رحمه الله [من الكامل]:

يـا ابْـنَ الخَلائـفِ والعُـلَى لِلْمُعْـتَلِي … والـمَجْدُ يُعْـرَفُ فَـضْلُهُ لِلْمُفْـضَلِ
نَوَّهْـتَ بالخُلفـاء بَـلْ أَخْـمَلتَهُمْ … حتَّـى كَـأنَّ نبـيلَهمْ لَـمْ يَنْبُـلِ
أذْكَرْتَ بَلْ أنْسَيْتَ مـا ذَكَـرَ الـوَرَى … مِـنْ فِعْلِهِـم فَكأنَّـهُ لَـمْ يُفْعَـلِ
وأتَيْـتَ آخِـرَهُمْ وشَـأْوُكَ فَائِـتٌ … لِلآخِـرينَ ومُـدْرِكٌ لِـلأوَّلِ
تَـأبى فِعَالُـكَ أنْ تُعَـدَّ لآخِـرٍ … مِـنْهُمْ وجُـودُكَ أنْ يُعَـدَّ لأوَّلِ

وكَمْ للناصر، رحمه الله، من غَزَوات مذكورة، وفتوحاتٍ مشهورة، يبقى في الأعقاب فخرُها، ولا يَبْلَى على مَرِّ الأحقابِ أثَرُها.

وقد نظم ابنُ عبد رَبِّه في غزواته أُرجْوزةً من سنة إحدى وثلاث مئة إلى سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة. وقد أطال الشُّعَراء في مدحه، وأطنبوا في شُكره، ولولا[1] أنَّ الناس مُكتَفُون بما في أيديهم منها، لأعْدَنا هُنا ذِكْرَها أو ذِكْرَ بعضها؛ ولكنَّ الـمَذْهَبَ هنا الاقتصار والإيجازُ والاختصار.

حكاية: ومـمّا ذُكر من إفضاله، مع بعض عُمَّـاله: قال حَيَّانُ بن خَلَف: كان محمَّدُ بن سعيد المعروف بابن السَّلِيم قد احتجن أموالًا كثيرة بتصرُّفه في كبار الولايات في المدَّة الطويلة، فعَلِمَ ذلك منه الناصر، فعرَّض له مِرارًا في أن يُساهِمَه فيه عن طِيب نَفْس منه، وهو[2] مَلِكُه، ولو شاء لأخذه منه، ولكنْ أبى ذلك كَرَمُ طبعه، فقال في مجلسه يوماً: «ما بالُ رجالٍ من خاصَّتنا توسَّعوا في دُنيانا، فطَفِقوا يحتجِنُون الأموال، ويُضيعون تَعهدنا، وهم يَرَوْنَ غليظَ مَؤونتنا في الإنفاق على شؤُوننا التي بِقُدْرَتنا عليها صلاحُ أحوالهم ورَفاهِيَةُ عَيْشهم، ويعلمون أنَّ أمير المؤمنين عُمَر بن الخطَّاب،

---

(١) في ر٢: «تركنا ذلك اختصارًا» بدلًا من مما جاء من هنا إلى نهاية الفقرة.
(٢) من هنا إلى قوله: «كرم طبعه» ليس في ر٢.

رضي الله عنه، قُسْطاسَ الـمَوَازين، قاسَمَ عُمَّالَه أرباحَهم في عمالاتهم فصيّرَها[1] في بيت المال، وهُوَ مَن هُوَ، وهُمْ من هُمْ، والأُسْوةُ في فِعْله!»، فسكت ابنُ السَّليم عنه، وغَالَطَه في تَعْرِيضه كأنَّه يعني غَيْرَه، فازداد الناصرُ حَنَقًا عليه وغيظًا[2]، فقال له يومًا في بعض مَجالِسه الخاصّة معه، وقد أخذ الشَّرابُ منه، وشقَّ تفَّاحةً بسكِّين في يده: «وَددِتُ أن أشُقَّ هكذا رأسَ مَنْ أعرِفُ له مالًا كثيرًا غلَّه دوننا، ولم يُسْهِم بيتَ المال منه!»، فطار عقلُ ابن السَّلِيم، ولم يَختلِجْه الشَّكُّ في أنَّه الـمَعْنِيُّ به، فقام بين يدَيْه، وقال: «يا أميرَ المؤمنين، طال ما عَرَّضْتَ بي، فسكتُّ، بَلَى والله، إنَّ عندي مالًا كثيرًا، وهو دون ظَنِّك فيه، حُطْتُه بالتقتير، وأعْددتُه للدَّهْر العَثُور، ولستُ والله أُعطيكَ منه دِرْهمًا، فما فَوْقَه، ورأيُك فيَّ جميلٌ إلَّا أنْ تستحلَّ، وأعوذُ بالله[3] أن تَـمُدَّ يَدَكَ إليه بغير جنايةٍ منِّي عليك، فإنَّ الأنْفُسَ مُـحْضَرة الشُّح». قال: فخجل الناصرُ، وأطرق يتلو قَوْلَ الله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ [محمد: ٣٧]، ثمَّ أقبل على ابن السَّليم يؤنِّسُه ويُسَكِّن جأشَه، إلى أن اعتدل مَـجْلِسُه، فجعل يُمْعِنُ في الشُّرْب طَلَبًا للسُّكْر الذي خَامَرَهُ من الذُّعْر، فقال له الناصر: «خَفِّضْ عليك، يا محمَّد، فلا سبيل إليك»، فلمَّا سَكِرَ ابنُ السَّليم، تهَوَّعَ، فقَذَفَ، وابتدره الوُصَفاء بالطَّسْت والـمَنَادِيل، فأقبل الناصرُ وأخذ[4] برأسه يُمسكه، ويقول له: «استفرِغْ ما في مَعِدَتِك وتَأنَّ بنفسك»، فأنكر ابنُ السَّليم كلامه بين الـخَدَم، وصرف[5] إليه رأسَه، وإذا به الناصر، فما تَـمَالَكَ أن خرَّ إلى رِجْلَيْه يُقَبِّلُهما، ويقول: «يا ابنَ الخلائف، إلى هُنا انتهيتَ من بِرِّي!» وجعل يدعو له، ويُعَظِّم شُكره، فقال له الناصر: «لَيْتني أخرجُ كَفافًا من شأني معك الليلةَ: تأنيسًا بإخافة وإلطافًا بجَفْوة». ثمَّ أمر له بكُسوة، وانقلب إلى أهله. فكان هذا مـمَّا يُعَدُّ من كَرَمه وفضله. فلمَّا مضت أيَّامٌ، أرسل ابنُ السَّليم إلى

---

(١) في ر٢: «تجاراتهم فجعلها».

(٢) ليست في ر٢.

(٣) «وأعوذ بالله» من ر٢.

(٤) في ر٢: «فأخذ الناصر».

(٥) في ر٢: «ورفع».

الناصر بمئة ألف دينار دَرَاهِم، فقبِلَها الناصر، وشكر فَضْلَه[1] وعوَّضه بكبير الولايات، وصَحِبَتْه منه النعمةُ العريضة إلى حين وفاته.

حكاية: ومازحَ الناصرُ، يومًا وزيرَه أبا القاسم لُـبًّا، فقال له: «يا لُبُّ، اهْجُ الوزيرَ عبد الملك بن جَهْوَر» فامتنع عليه، فقال لابن جَهْوَر: «فاهْجُه أنْتَ، إذ أبَى هو مِن هَجْوِك»، فقال: «يا أمير المؤمنين، أتوقَّع عِرْضي منه، وأصونُ نفسي عنه»، فقال الناصر: «فأنا أهْجُوه، فقال [من السريع]:

لُـــبٌّ أبـــو القاسِـــمِ ذُو لِـــحْيَةٍ ... طَوِيلَـــةٍ في طُولِـــها مِيـــلُ

ثم قال لابن جَهْوَر: «لا بُدَّ لك من تذييل هذا البيتِ، فَدَعِ الاعتذار». فقال: ابن جَهْوَر مُذيلًا لبيت الناصر[2]:

وعَرْضُـــها مِـــيلانِ إن كُـــسِّرَتْ ... والعَقْـــلُ مَـــأفونٌ ومَـــدْخُولُ

لَـــوْ أنَّـــه احتـــاجَ إلى غَـــسْلِها ... لم يَكْفِـــهِ في غَـــسْلِها النِّيـــلُ

فضحك الناصر، وقال للُبٍّ: «إنَّه قد سبَّب لك القَوْلَ، فَقُلْ» فقال لُبٌّ:

قَـــالَ أمِـــينُ الله في خَلْقِـــهِ: ... لي لِـــحْيَةٌ أزْرَى بهـــا الطُّـــولُ

وابـــنُ عُيَـــيْرٍ[3] قـــال قَـــوْلَ الَّـــذي ... مَأكُولُـــهُ القَرْطِيـــلُ[4] والفُـــولُ

لـــولا حَيـــائي مـــن إمـــامِ الـــهُدَى ... نَخَـــسْتُ بالـــمِنْخَسِ «شُـــو قُـــولُ»

فلمَّا بلغ لُبٌّ إلى قوله: «شُو» سكت، فقال له الناصر: «قُولُ»، فأتمَّ له على نحو ما أضْمَر، فقال له: «أنت هَجَوْتَهُ، يا موْلاي!» فضحك الناصر، وأمر له بصلَة.

---

(١) في ر٢: «شاكرًا فعله».

(٢) «ابن جهور مذيلًا لبيت الناصر» من ر٢.

(٣) في ر٢: «عمير».

(٤) في م: «القرظيل» مصحف، وفي ر٢: القرضيل، وما هنا من أ وكلاهما صحيح، وهي لفظة إسبانية تعني: الشوك Cardillo (وينظر معجم دوزي ٨/ ٢٣١).

وكان الناصرُ قد خرج[١] يومًا على فرس أبْلَق في هيئةٍ جليلة[٢] والوزراء قد حفُّوا به، فقال ابنُ عَبْد رَبِّهِ في ذلك مُرْتجِلًا من قصيدة [من السريع]:

بَـدرٌ بَـدَا مِـنْ تَـحْتِهِ أبْلَـقُ   يَحْـسُدُ فِيـهِ الـمَغْرِبَ الـمَشْرِقُ
لَـوْ يعلَـمُ الأبْلَـقُ مَـنْ تحتـه   لاخْتـالَ مـن عُجْـبٍ بـه الأبْلَـقُ
إمـامُ عَـدْلٍ باسِـطٌ كَفَّـهُ   يَـرْزُقُ منهـا اللهُ مَـنْ يَـرزُقُ
عـادَ بـه الـدَّهْرُ الَّـذي قَـدْ مَـضَى   وجَـدَّدَ اللهُ بـه الـمُخْلَقُ

وكان، لـمَّا تَرَعْرَعَ ابنُه الـحَكَمُ بن عبد الرحمن، ولَّاه العَهْد من بَعْده. وكان له أخٌ اسمُه عبد الله[٣]، فحسده على ذلك[٤]، واجتمع عليه قومٌ وأراد قَتْلَ أخيه، واتَّفق مع أصحابه أن يُبادروه، فافتَضَحُوا وقُتِلوا جميعًا، كما تقدَّم. وأمَّا الوَلَد عبد الله، فذُكِر أنَّه أخرجه أبوه الناصر[٥] ثانيَ يوم عيد الأضْحَى، فذُبِح بين يدَيْه، وكان عالـمًا فاضلًا[٦].

وكان[٧] الناصرُ أمر ببناء الصَّومْعَة العظيمة في سنة أربعين وثلاث مئة، وشرع في بنائها، وهي الشهيرة التي لا صومعةَ تَعْدِلُـها. وكان الذي دعاهُ إلى بنائها... حدث في القديمة، فهُدمت إلى قواعدها... وبُنيت بِصَخْر الحجارة المنقولة إليها على العَجَل، وجمع لها... فجاءت فائقةَ الصَّنعة. وقد كانت الأُولى ذاتَ مَطْلَع واحد، فصيَّر لهذه مَطْلَعَيْن، وفصل بينهما بالبناء، فلا يلتقي الراقُون فيها إلَّا بأعلاها. ولكلِّ مَطْلَع منها مئة درج وسبعة أدراج، وطولُـها ثمانون ذراعًا بالرَّشَّاشيِّ إلى وقوف المؤذِّن، وفي أعلى ذِرْوة المنار ثلاثُ رُمَّانات تُغْشِي النَّوَاظِر بشُعاعها، وتخطف الأبصار بالتماعها: الأُولى

---

(١) في ر٢: «وخرج الناصر».
(٢) «في هيئة جليلة» ليست في أ.
(٣) قوله: «كان له أخ اسمه عبد الله» ليس في ر٢.
(٤) في ر٢: «فحسده على ذلك أخوه عبد الله».
(٥) في ر٢: «وأخرج الناصر ابنه عبد الله».
(٦) «مكان عالـمًا فاضلًا» ليس في ر٢.
(٧) هذه الفقرة ليست في ر٢.

مفروغة من الذَّهَب، والوُسْطى من الفضَّة، والثالثة من الذَّهَب أيضًا، وفَوْقها سُوسانةٌ من الذَّهَب الـمَحْض مُسَدَّسةٌ، وفَوْقَ السُّوسانة رُمَّانةٌ صغيرةٌ من الذَّهَب، ثُمَّ طَرَفُ الزُّجِّ، وفيه تاريخٌ مكتوبٌ بالذَّهَب. وزِنَةُ كلِّ رُمَّانة من الثلاثة المذكورة قِنطارٌ واحدٌ فما دونَه، ودَوْرُ كلِّ واحدة ثلاثة أذرع ونصف. وكمل بناءُ الصَّوْمَعة في جُمادى الأُولى، فذلك ثلاثة عشر شهرًا.

وكان الناصر[١] زاد في الـمَسْجِد الجامِع بقرطبة زيادتَه المشهورة، المتَّصِلة بزيادة ابنه الـحَكَم بَعْدَه[٢]، وفيها القَبْوُ الكبير الذي يَصْطَفُّ المؤذِّنون أمامَه يومَ الـجُمُعة للأذان، وهو من أعجب البُنيان.

وإذ قد وقع ذِكْرُ المسجد الجامع بقُرطبة، فالواجبُ أن نذكر أوَّلَ مَنْ أحْدَثَه، ومَنْ تولَّى بناءه من مُلوك بني أُميَّة[٣]، على سبيل الاختصار؛ فنقول:

ذِكْر مَسْجِد قُرْطُبة الأعْظَم[٤]

ذكر الرَّازيُّ[٥] عن الفقيه محمَّدِ بن عيسى أنَّه قال: لـمَّا افتتح المسلمون الأَنْدَلُس، استدلوا بما فعل أبو عُبَيْدَةَ وخالِدٌ، رضي الله عنهما، عن رأي أمير المؤمنين عُمَرَ بنِ الخطَّاب، رضي الله عنه، من مُشاطَرة الرُّوم في كَنَائسهم مِثْل كنيسة دِمَشْق وغيرِها مـمَّا أخذوه صُلْحًا، فشاطَرَ المسلمون أعاجِمَ قُرْطُبة في كَنِيستهم العُظْمَى التي كانت بداخلها، وابتنى المسلمون في ذلك الشَّطْر مسجدًا جامعًا، وبقي الشَّطْرُ الثاني بأيدي الروم، وهُدِمَتْ عليهم سائرُ الكنائس. فلمَّا كثر المسلمون بالأَنْدَلُس، وعَمُرت قرطبةُ ونزلها أُمراءُ العَرَب بجيوشهم، ضاق عنهم ذلك المسجدُ، وجعلوا يُعَلِّقون منه سَقَائفَ، فنال الناسَ من الضيق مَشَقَّةٌ عظيمةٌ. فلمَّا دخل عبدُ الرحمن بن مُعاوية الأندلس، وسكن قرطبةَ، نظر في أمر الجامع،

---

(١) في ر٢: «والناصر هو الذي».

(٢) «المتعلقة بزيادة ابنه الحكم بعده» ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «ومن زاد في بنائه من بني أمية».

(٤) هذا العنوان ليس في ر٢.

(٥) ينظر نفح الطيب ١/ ٥٦٠-٥٦١.

وتوسيعِه، وإتقانِ بنائه، فأحضر أعاجِمَ قُرطبة، وسألهم بَيْعَ ما بقي بأيديهم من الكَنيسة المذكورة، وأوسع لهم البَذْلَ فيه؛ وفاءً بالعهد الذي صُولحوا عليه، وأباحَ لهم بناء كَنَائسهم التي كانت هُدِمَتْ عليهم في وقت الفَتْح بخارج قرطبة. وخرجوا عن الشَّطْر، فاتَّخذه[1]، وأدخله في الجامع الأعْظَم. وكان شروعُ عبد الرحمن الداخل في هَدْم الكنيسة وبناء الجامع سنة تسع وستين ومئة، وتمَّ بناؤه، وكملتْ بلاطاتُهُ، واشتملت أسوارُه في سنة سبعين ومئة، فذلك مدَّةٌ من عام كامل، فقيلَ: إنَّ النَّفَقَة التي أنفق الإمامُ عبد الرحمن بطُول هذه السنة في بناء الجامع: ثمانون ألفًا بالوَازِنة، وفي ذلك يقول البَلَويُّ، رحمه الله [من الطويل].

وَأَبْـــرَزَ في ذاتِ الإلـــهِ ووَجْهِـــهِ ... ثمانــينَ ألْفًــا مــن لُجَـيْنٍ وعَـسْجَدِ

فأنْفَقهــا في مَــسْجِدٍ أُسُّـــه التُّقَـــى ... ومَنْهَجُـــه[2] دِيــنُ النبــيِّ مُـــحَمَّدِ

ثمَّ زاد ابنهُ هشام صَوْمَعةً، كان ارتفاعُها أربعين ذِراعًا إلى موضع الأذان، وبنى بآخِرِ المسجد سَقائفَ لصلاةِ النساء، وأمر ببناء الـمِيضَأةِ بشرقيِّ الجامع. وأقام الجامعُ على هَيْئَته تلك إلى أيَّام عبدِ الرحمن بن الـحَكَم.

ثمَّ زاد عبدُ الرحمن بن الـحَكَم بن هشام بن عبدِ الرحمن الداخِلِ[3] الزيادةَ الـمُنْتَظِمة بالأرْجُل، طُولُها خمسون ذراعًا، وعَرْضُها مئة وخمسون، وعَدَدُ سَوَاريها ثمانون سارية، وكان الفراغُ من هذه الزيادة في جُمادى الأُولى سنة أربع وثلاثين ومئتين.

ثمَّ زاد الأميرُ محمَّد بن عبد الرحمن أن أمر بإتقان طُرَر الجامع، وتنميقِ نُقوشه، وبإقامة الـمَقْصُورة، وجعل لها ثلاثةَ أبواب، فلمَّا كَمُلَ ما أمَر به في الجامع، دخله وصلَّى فيه رَكَعات خَشَعَ فيها، فقال في ذلك موسى بنُ سعيد [من الطويل]:

لَعَمْري لقد أبْدَى الإمـامُ التواضُـعَا ... فأصْـبَحَ للـدُّنيا وللـدِّين جامعـا[4]

---

(١) هذه اللفظة ليست في أ.

(٢) في ر٢: «وشرعته».

(٣) «بن هشام بن عبد الرحمن الداخل» ليست في ر٢.

(٤) في ر٢: «جامعا».

بَنَى مَسْجِدًا لم يُبْنَ في الأرض مِثْلُه ... وصلَّى به شُكْرًا لذي العَرْش راكِعا
فطُوبَى لمن كان الأميرُ محمَّدٌ ... له إذْ دَعَا فيه إلى الله شافِعا

ثُمَّ زاد الأميرُ الـمُنْذِرُ بن محمَّد البَيْتَ المعروف ببَيْت المال في الجامع، فوضع فيه الأموالَ الـمُوَقَّفة لغُيَّاب المسلمين، وأمر بتجديد السِّقاية وإصلاح السَّقائف.

ثُمَّ زاد أخوه الأميرُ عبد الله بن محمَّد ساباطًا معقودًا على حَنَايَا، أوْصَلَ به ما بَيْن القصر والجامعِ من جِهَة الغَرْب، ثمَّ أمر بِستارةٍ من آخِر هذا الساباط إلى أن أوصلها بالمحراب، وفتح إلى المقصورة بابًا كان يخرجُ منه إلى الصلاة، وهو[1] أوَّلُ من اتَّخذ ذلك من أُمراء بني أُميَّة بالأندلس.

رَجْعُ الـخَبَرِ إلى ذِكْر الناصر: قيل: إنَّه أنفق في صَوْمعة المسجد وفي تعديلِ المسجد[2] وبُنيان الوَجْهِ للبلاطات الأحَدَ عشر بلاطًا سبعةَ أمْداد وكيْلَين ونصفَ كَيْل من الدراهِم القاسِميَّة. وجُمْلةُ ما أنفق عبدُ الرحمن[3] الناصر في بناء مدينة الزَّهراء وقُصورها: خمسةٌ وعشرون مُدْيًا من الدَّراهم القاسِميَّة وستَّة أقْفِزة وثلاثةُ أكْيَال ونصفٌ.

ذِكْر بناءِ مدينة الزَّهْراءِ بقُرْطبة، أعادها الله للإسلام بفَضْله[4]

ابتُدِئ بُنيانُها[5] في أيَّام الناصر من[6] أوَّل سنة خمس وعشرين وثلاث مئة. وكان يُصْرَف فيها كلَّ يوم من الصَّخْر المنجور ستَّة آلاف صَخْرة سِوَى التبليط في الأُسوس، وجُلِبَ إليها الرُّخام من قَرْطاجَنَّةِ إفريقِيَة ومن تُونُس، وكان الأُمَناءَ الذين جلبوه: عبدُ الله بن

---

(١) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في ر٢.
(٢) في ر٢: «وفي تعديله».
(٣) «عبد الرحمن» ليس في ر٢.
(٤) «أعادها الله للإسلام بفضله» ليست في ر٢.
(٥) في ر٢: «بناؤها».
(٦) «أيام الناصر من» ليست في ر٢.

يُونُس، وحَسَنٌ القُرْطُبيُّ، وعليُّ بن جعفر الإسْكَنْدَرانيُّ، وكان الناصرُ يَصِلُهم على كلِّ رُخامة بثلاثة دنانير، وعلى كلِّ سارية بثمانية دنانير سِجِلْماسيَّة. وكان فيها من السَّوارِي أربعةُ آلاف سارية وثلاث مئة سارية وثلاث عشرة سارية، المجلوبة منها من إفريقيَة ألفُ سارية وثلاث عشرة سارية. وأهدى إليه مَلِكُ الرُّوم مئةً وأربعين سارية، وسائرُ ذلك من رخام الأنْدَلُس. وأمَّا الـحَوْض الغريب المنقوش الـمُذَهَّب بالتماثيل، فلا قيمةَ له، جَلَبَهُ ربيعٌ الأُسْقُفُ من القُسْطَنْطِينة من مكان إلى مكان حتى وصل في البَحْر، ووضعه الناصرُ في بيت المَنَام في الـمَجْلِس الشرقيِّ المعروف بالـمُؤنِس، وكان عليه اثنا عشر تِـمْثالًا من الذَّهَب الأحمر المرصَّع بالدُّرِّ النفيس العالي ممَّـا صَنَعَه بدار الصَّنْعة بقصر قُرْطُبة. وكان المتولِّـيَ لهذا البُنيان المذكور ابْنُه الـحَكَم، لم يَتَّكِل الناصرُ فيه على أمينٍ غيره. وكان يُـخْبَز في أيَّامه كلَّ يوم بِرَسْم حِيْتان البُحَيْرات ثماني مئة خُبْزة، وهذا من أعْظَم الأشياء[1]، إلى ما فوقَ ذلك.

وكان الناصرُ قد قسم الجِباية على ثلاثة أثلاث: ثُلُثٌ للجُنْد، وثُلُثٌ للبناء، وثُلُثٌ مُدَّخر. وكانت جبايةُ الأنْدَلُس يومئذٍ من الكُوَر والقُرَى خمسةَ آلافِ ألْفٍ وأربع مئة ألف وثمانين ألف دينار، ومن الـمُسْتَخْلَص والأسواق سبعَ مئة ألف دينار وخمسةً وستِّين ألف دينار.

وممَّـا قيل في آثار مدينة قُرْطُبة وعِظَمها[2] حين تكامل أمْرُها في مدَّة بني أُميَّة، رحمهم الله: إنَّ عِدَّة الدُّور التي بداخلها للرعيَّة دون الوزراء وأكابر أهل الـخِدْمة: مئةُ ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، ومساجدُها ثلاثة آلاف، وعِدَّة الدُّور التي بقصرها الزَّهْراء: أربع مئة دار، وذلك لسُكْنَى السلطان وحاشيته وأهل بيته. وعَدَدُ الفِتْيان الصَّقالِبة: ثلاثة آلاف وسبع مئة وخمسون. وعِدَّة النساء بقصر الزَّهْراء الكبارِ والصغار وخَدَم الـخِدْمة: ستَّة آلاف وثلاث مئة امرأة، وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رِطْل ينقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدَّجاج والـحَجَل وصُنوفِ الطير وضُروب الحِيتان. وعَدَدُ حمَّاماتها[3]: ثلاث مئة حمَّام، وقيل: إنَّها المبْرَزة

(١) «وهذا من أعظم الأشياء» ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «وعظيمها».

(٣) في ر٢: «حمامات قرطبة».

للنساء[1]. وكان عَدَدُ أرباض قُرْطُبة في ذلك الوقت ثمانيةً وعشرين ربَضًا، منها مَدِينتانِ: الزَّهْراءُ والزاهِرة. وأمَّا اليتيمة التي كانت في الـمَجْلِس البَدِيع، فإنَّها كانت من تُحَف قَيْصَر اليُونانيِّ صاحب القُسْطَنْطينة، بعث بها للناصر مع تُحَف كثيرة سَنِيَّة. فسُبْحانَ مَن لا يبيد مُلْكُه ولا ينقطع عِزُّه[2].

وفي سنة خمسين وثلاث مئة: تُوفِّي الناصر، رحمه الله[3]، وذلك في صَدْرِ رمضان منها. ووُجِدَ بخطِّه تاريخٌ قال فيه: أيَّام السرور التي صَفَتْ لي دُونَ تكدير في مدَّة سُلْطاني[4]: يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا. فعُدَّت تلك الأيَّام، فوُجِد فيها أربعة عشر يومًا. فاعْجَبْ أيُّها الغافل[5] لهذه الدنيا، وعدَم صَفائها، وبُخْلها[6] بكمال الأحوال لأوليائها! إنَّ الخليفة الناصرَ مَلَكَ خمسين سنة وسبعةَ أشهر وثلاثة أيَّام، ولم يَصْفُ له من الدُّنيا إلَّا أربعة عشر يومًا! فسُبحانَ ذي العزَّة العالية، والمملكة الباقية، تَبارَكَ اسمُه وتَعالَى جَدُّه.

وممَّن رثاه: جعفرُ بن عثمان الـمُصْحَفيُّ[7]، فقال [من الطويل]:

ألا إنَّ أيَّامًا هَفَتْ بإمامها ... لجَائرةٌ مُشْتَطَّةٌ في احْتِكامِها
فلَمْ يُؤلِم الدُّنيا عِظامُ خُطُوبِها ... وأحْداثِها إلَّا قُلُوبَ عِظَامِها
تأمَّلْ فهَلْ من طَالِعٍ غَيْرُ آفِلٍ ... لَهُنَّ وهَلْ من قاعِدٍ لِقيَامِها
وعَايِنْ فهَلْ من عائشٍ برَضاعِها ... من الناس إلَّا مَيِّتٌ بِفطامِها
كأنَّ نفوسَ الناسِ كانت بنَفْسِهِ ... فلمَّا تَوَارَى أيْقنَتْ بِحِمامِها
فطَارَ بِها يَأْسُ الأسَى وتقَاصَرَتْ ... يَدُ الصَّبْرِ عن إعوالِها واحْتِدامِها

---

(١) في ر٢: «للناس».
(٢) في ر٢: «سلطانه».
(٣) «رحمه الله» ليست في أ.
(٤) قوله: «في مدة سلطاني» من ر٢.
(٥) في ر٢: «العاقل».
(٦) في أ: «ومحلها».
(٧) ترجمته في جذوة المقتبس (٣٥٢) والتعليق عليها.

خِلافة الـحَكَم بن عبد الرحمن الـمُسْتَنِصر بالله(١)

نَسَبُه: هو(٢) الـحَكَمُ بن عبد الرحمن بن محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن عبد الرحمن بن الـحَكَم بن هِشام بن عبد الرحمن الداخل.

كُنْيَتُه: أبو الـمُطَرِّف.

أُمُّه: اسْمُها مِهْرَجان.

عُمرُه: ثلاث وستُّون سنة وسبعة أشهر.

بُويع بعد موت أبيه لثلاث خلَوْن(٣) لرمضان سنة خمسين وثلاث مئة. وتوفِّي ليلةَ الأحد لثلاث خَلَوْن من صَفَر من سنة ست وستين وثلاث مئة؛ فكانت دولته(٤) خمس عشرة سنة، وسبعةَ أشهر، وثلاثة أيَّام.

لَقَبُه: الـمُستنصِر بالله.

صِفَتُه: أبْيَضُ مُشْرَب بحُمْرةٍ، أعْيَنُ، أقْنَى، جَهيرُ الصوت، قصيرُ الساقَيْن، ضَخْم الـجِسْم: غليظُ العُنُق، عظيمُ السَّواعِد، أفْقَمُ.

قُضَاتُه(٥): مُنْذِر(٦) بن سعيد البَلُّوطيُّ قاضي أبيه، ثمَّ أبو بكر محمَّد(٧) بن السَّلِيم.

نَقْشُ خاتَـمه: الـحَكَمُ بقضاء الله رَاضٍ.

وافتتح خلافتَه بالنَّظر في الزيادة في المسجد الجامع بقُرْطُبة، وهو أوَّل عهدٍ أنْفَذَه، وقلَّد ذلك حاجِبَه وسَيْفَ دولته جَعْفَر بن عبد الرحمن الصَّقْلَبيَّ، وذلك لأربع

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٧، وجذوة المقتبس ٣٣، وبغية الملتمس ١٨، والمعجب ٥٩، والحلة السيراء لابن الأبار ١/ ٢٠٠، وتاريخ الإسلام للذهبي ٨/ ٢٤٠، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٢٦٩، ونفح الطيب ١/ ٣٨٢ وغيرها.

(٢) من ر٢.

(٣) قفز نظر ناسخ ر٢ من هذه اللفظة إلى مثيلتها الخاصة بالوفاة فاختل النص.

(٤) في ر٢: «خلافته».

(٥) في ر٢: «قاضيه».

(٦) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٨١.

(٧) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٠٤ واسمه: محمد بن إسحاق بن منذر بن إبراهيم بن محمد بن السَّلِيم.

خَلَوْن لرمضان من السنة، وهو اليومُ الثاني من يوم[1] خلافته. فكان أوَّلَ ما عَهِدَ إليه تقديمُ النَّظَرِ في سَوْق الصُّخور التي هي أُسُّ البُنيان، فابْتُدئ بانتقالها في رمضان المذكور. وكان قُطْر[2] قُرْطُبة إذ ذاك[3] قد كثر به الناس[4]؛ فضاق الجامعُ عن حَمْلهم، ونالَـهم التَّعَبُ في ازدحامهم، فسارَعَ الـمُستنصِر إلى الزيادة فيه، فخرج لتقديرها، وتفصيلِ بُنيانها، وأحضرَ لها الأشياخَ والـمُهَنْدِسين، فحَدُّوا هذه الزيادةَ[5] من قِبْلة المسجد إلى آخِر الفضاء مادًّا بالطُّول لأحدَ عشر بلاطًا. وكان طولُ الزيادة من الشمال إلى الجنوب خمسةً وتسعين ذراعًا، وعَرْضُها من الشرق[6] إلى الغرب[7] مثلُ عَرْض[8] الجامع سواءً، وقُطع من هذا ساباطُ القصر المتَّخَذ لخروج الخليفة إلى الصلاة إلى جانب الـمِنْبَر بداخل المقصورة، فجاءت هذه الزيادةُ من أحسن ما زِيدَ في المسجد قَبْلُ وأشَدِّه وأتْقَنِه[9].

ذِكْرُ الـحُبْس الذي حبَّس الـمُستنصِر بالله على الجامع بقُرْطُبة

لـمَّا كَمُلَتْ زيادته، أحضر الفُقهاء والعُدول الشُّهَداء وأعيانَ الناس ووُجوهَهم وقُضاتَهم وأئمَّتَهم، فحَمدَ اللهَ، وأثنى عليه، وجدَّد شُكرَه على توفيقه، لإجراء هذه البِنْيَة الكريمة على يديه، وأنَّه تلقَّى هذه النِّعْمةَ العظيمة بأن حبَّس رُبعَ جميع ما جَرَّتْه إليه الوراثةُ عن أبيه أميرِ المؤمنين في جميع كُوَر الأنْدَلُس وأقاليمِها على ثُغور الأنْدَلُس كافَّةً تُفرَّقُ عليهم غَلَّاتُ هذه الضِّياع عامًا بعد عام على ضُعَفائهم، إلَّا أنْ تكونَ بقُرْطُبة مَجاعةٌ؛ فتُفَرَّق فيهم إلى أن يَجْبُرَهم الله. وجعل القَبْضَ والنَّظَرَ في هذا الـحُبْس إلى

(١) ليست في ر٢.

(٢) في أ: «قصر».

(٣) «إذ ذاك» من ر٢.

(٤) في ر٢: «الخلق».

(٥) قفز نظر ناسخ ر٢ من هذه اللفظة إلى مثيلتها الآتية فسقط ما بينهما.

(٦) في ر٢: «المشرق».

(٧) في ر٢: «المغرب».

(٨) في ر٢: «حد».

(٩) «قبل وأشده وأتقنه» من ر٢.

حاجبِه وسَيْفِ دولته جَعْفر، وجعل دَفْعَ ذلك إلى وزيره وكاتبه عيسى بنِ فُطَيْس، وأشهد الحاضرين على ذلك، وأشهد أيضًا بعَتْقِ كلِّ مملوكٍ له من الذُّكْران، وخرج غازيًا إلى بلاد الـمُشْرِكين.

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة: غزا الـحَكَمُ الـمُستنصر بالله بلادَ الرُّوم بنفسه، فشمَّر ملوك الروم أمامه فأحاط بأرض الروم[1]، ففتح بها حصونًا كثيرةً ومُدُنًا جَليلة، وسبى كثيرًا[2] وغَنِم عظيمًا[3] وانصرف غانمًا ظافرًا.

وفيها[4]: وفد عليه أبو صالح زَمُّور البَرْغَواطيُّ رسولًا من مَلِك بَرْغَواطة أبي منصور عيسى بنِ أبي الأنصار، فسأله الـحَكَمُ عن أنساب بَرْغَواطة ومَذَاهِبهم، فأخبره بما تقدَّم في الـجُزْء الأوَّل.

وكان الـحَكم[5] قد أنفذ الكُتبَ في محرَّم من سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة إلى جميع الولاة والقُوَّاد والعُمَّال بأقطار الأنْدَلُس، يأمرهم بارتباط الخيل، والقيامِ عليها، والاستعداد بالعُدَد[6] والأسْلِحة والآلاتِ برَسْم الجهاد في سبيل الله.

وفيها: عَزَلَ عبدَ الله بن بَدْر عن شُرْطة المدينة بقُرْطُبة، وولَّاها محمَّدَ بن جَهْوَر[7]، وأنفذ له سِجِلًّا بذلك بخطِّ يده.

وفيها: اسْتُحجب جَعْفَر[8] الصَّقْلبيُّ الفَتَى الكبيرُ الناصِريُّ.

وفيها: وفد على الـمُسْتَنِصر بالله أُرْدُونُ بن إذْفُونْش الأحْدَبُ، من ملوك الـجَلالِقة، الـمُنازِع لابن عمِّه شَانْجُه بن رُذْمِير سابِقِه إلى ولاية مُلْكهم، فبالغ في إكرامه، في

---

(١) لفظ الجلالة ليس في ر٢.

(٢) قوله: «بنفسه فشمر ملوك الروم أمامه فأحاط بأرض الروم» سقط من أ، م.

(٣) ليست في أ.

(٤) هذه الفقرة كلها ليست في ر٢.

(٥) ليس في ر٢.

(٦) ليست في أ.

(٧) في ر٢: «جوهر».

(٨) في ر٢: «استَعْجَبَ جعفرًا» وباقي النص بالنصب.

خَبرٍ طويل. وكان للفُصَحاء في ذلك مقامات وأشعار يطول الكتابُ بذكرها، فمن[1] قول عبدِ الملك بن سعيد من قصيدةٍ [من الكامل]:

مَلِكُ الخِلافةِ[2] آيةُ الإقْبالِ ... وسُعودُه مَوْصُولةٌ بتَوالِي

فالمُسْلمونَ بعِزَّةٍ وبرِفْعةٍ ... والمُشْرِكونَ بذِلَّةٍ وسَفالِ

ألْقتْ بأيديها الأعاجِمُ نَحْوَه ... مُتَوَقِّعينَ لصَوْلةِ الرِّئْبَالِ

هذا أميرُهُم أتاهُ آخِذاً ... مِنْه أواصِرَ ذِمَّةٍ وحِبالِ

وفيها: وصل قُرْطُبَةَ أرسالُ شَانْجُه بنِ رُدْمِير، مُنازِعِ الطاغيةِ أُرْدُون ابنِ عمِّه مَلِك الجَلالِقة، ومعهم عبدُ الرحمن[3] بن جَحَّاف قاضِي بَلَنْسِيَة، وأيُّوب بن الطَّوِيل، وغيرُهما، فتوصَّلوا كلُّهم إلى المُستنصِر في ربيع الآخِر: وأوصلوا كتابَ شانْجُه بن رُدْمِير بجوابِ ما خُوطِبَ فيه وبَيْعته التي عقدها على نفسه وجميع أهل مملكته لأمير المؤمنين المُستنصِر بالله، في خَبَر طويل.

وفيها: وُلِد للخليفة الحَكَم ولدٌ ذَكَرٌ من حَظِيَّته[4] التي سمّاها جَعْفَرَ أُمِّ وَلده، فسمّاه عبدَ الرحمن، وسُرَّ به سرورًا عظيمًا؛ إذ كان لا يُولَد له، وقالت في ذلك الشُّعَراءُ والأُدَباء، فأكثروا.

وفيها: ظهر نَكْثُ الجَلالِقة بكلِّ جهة.

وفيها: كان المَدُّ الطامِي بنَهر قُرْطُبة.

وفي سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة: كانت غزوةُ شَنْت أشْتَبِن، غَزاها الحَكَمُ المُستنصِر بالله.

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاث مئة: كانت بقُرْطُبة مجاعةٌ عظيمةٌ، فتكفَّل

---

(١) في ر٢: «فمنه» وليس فيها بقية النص.

(٢) في ر٢: «الخليفة».

(٣) ترجمته في التكملة الأبارية والتعليق عليها ٣/ ١٣٦.

(٤) «من حظيته» ليست في ر٢.

الـحَكَمُ بضُعَفائها ومساكينِها بما يُقِيمُ أرماقَهم، وأجْرَى نَفَقاتِه عليهم بكلِّ رَبَض من أرباض قُرْطُبة وبالزَّهْراء.

وفيها: قُرِئ بالجامعَيْن[1]: قُرْطُبَةَ والزَّهراء، فَتْحٌ وَرَدَ من قِبلَ سَعْد الـجَعْفَرِيِّ مَوْلَى الخليفة الـحَكَم، القائد بالـجَوْف، يذكر ما أتاحه اللهُ على يدَيْه في أهلِ جِلِّيقيَّة، وأفاءَه على المسلمين بسَعْدِ إمامهم الزَّكيِّ.

وفيها: كان ازدحامُ الناس بالمسجد الجامع بقُرْطُبة وتَضَاغُطُهم حتى كادت النفوسُ تَتْلَف؛ فأمَرَ الـمُستنصِرُ بالله بتوسعتِه والزيادةِ فيه، فأتى القاضي مُنْذِرُ بن سعيد إلى المسجد الجامع، ومعه صاحبُ الأحباس والفُقَهاء والعُدولُ بما اجتمع قِبَله[2] من أموال الأحباس، فنظروا في الزِّيادة فيه.

وفيها: أنْفَذَ الـمُستنصِرُ بالله ثقته[3] أحمدَ[4] بن نَصْر لبُنيان مدينةٍ بثَغْر طُلَيْطُلة، وتشييدِها، وتوثيقِ أُمورها، وجَعَلَ بين يدَيْه أحمالَ أموال.

وفيها: تحرَّكَ الـحَكَم من قُرْطُبة إلى الـمَرِيَّة تَوَقُّعًا لما يصدرُ من صاحب إفْرِيقيَة الـمُحادِّ لأهْلِ الأندلس: ولمعايَنةِ ما استكمله بها من الـحَصانة، ومُطالعةِ حالِ[5] رابِطة القَبْطة[6]، ومُشارفةِ حال الرعايا بتلك الجهة.

وفيها: كان خَبَرُ اللِّص الذي سرق بَيْتَ المال الذي للسبيل[7] بداخلِ المسجد الجامع بقُرْطُبة في شوَّال.

وفي سنة أربع وخمسين وثلاث مئة: نزل الغَيْثُ بقُرْطُبة؛ فرَوِيَت الأرض، وطاب الـحَرْثُ، وسُرَّت النفوس.

---

(١) في ر٢: «بجامعي».

(٢) هذه اللفظة ضبطت في ر٢: «قَبْله».

(٣) ليست في أ.

(٤) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٩٦.

(٥) ليست في أ.

(٦) في ر٢: «البقعة».

(٧) هذه اللفظة ليست في ر٢.

وفيها: وُلِد هشامُ بن الـحَكَم؛ قال ابنُ حَيَّان: كان الخليفةُ الـحَكَم شديدَ الكَلَف بطَلَب الوَلَد؛ لعُلُوِّ سِنِّه، فبُشِّر في بعض خَلَواته باشْتمال أُمِّ ولَده على حَمْل، فسُرَّ به، وبَقِيَ يترقَّبه، فأَتَتْه به أوَّلَ خلافته، ثمَّ مات طِفْلًا، فأحزنه، فلمَّا بُشِّر بهذا، فرح به، فاستَبْشَرَ جَعْفَرُ[1] بن عُثْمان وزيرُه ببُشْراه، وأرسل إليه في التهنئة بذلك أبياتًا، وهي [من الوافر]:

هَنِيئــــاً للأنــــام وللإمــــامِ ... كَــرِيمٌ يــستفيدُ عــلى كِــرامِ

مُرَجًّــى للخلافــة وهْــوَ مــاءٌ ... ومــأمولٌ لآمــالٍ عِظَــامِ

أضــاء عــلى كريمَتِــه ضِــيَاه ... فلَــمْ تَعْلَــمْ بغاشــيةِ الظَّــلامِ

وَلِــمْ لا يُسْتَــضاءُ بجانِبَيْهــا ... وبَــيْن ضُــلُوعِها بَــدْرُ التَّمَــامِ!

قال: فلمَّا وَلدتْ جاريتُه جَعْفَرُ ابْنَها هشامًا الملقَّب بالمؤيَّد، بُشِّر الخليفة[2] الـحَكَمُ بطُلوعه، وجَعْفَر بن عثمان عنده في خَلْوة، فارتاح لارتياحه، فقال على البَديهة يُهنِّئه [من مخلع البسيط]:

اطَّلَــعَ[3] البَــدْرُ مــن حِجابِــهْ ... واطَّــرَدَ الــسَّيْفُ مــن قِرابِــهْ

وجاءنــا وارِثُ الــمَعَالِي ... لِيُثْبِــتَ[4] الــمُلْكَ في نِــصَابِهْ

بَــشَّرَنا سَــيِّدُ البَرايَــا ... بنِعْمــةِ الله في كِتابِــهْ

لَــوْ كنــتُ أُعْطِــي البَــشِيرَ نَفْــسِي ... لَــمْ أقْــضِ حَقًّــا لِــما أَتَــى بِــهْ

وفيها: كَمُلت القُبَّةُ الـمُبْتناةُ على الـمِحْراب في الزيادة بالمسجد، وذلك في شهر جُمادى الآخرة منها.

---

(١) ترجمته في الحلة السيراء ١/ ٢٥٧.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «تطلع».

(٤) في ر٢: «يُثبِّت».

وفيها: شُرِع في تنزيل الفُسَيْفِساء بالمسجد الجامع، وكان مَلِكُ الرُّوم بعث بها إلى الخليفة الـحَكَم. وكان الـحَكَمُ قد كتب له في ذلك، وأمَرَه بتوجيه صانِعِها إليه؛ اقتداء بما فَعَلَهُ الوليدُ بن عبد الملك في بُنيان مسجد دِمَشْق، فرجع وَفْدُ الـحكَم بالصانع، ومعه من الفُسَيْفِساء ثلاث مئة وعشرون قنطارًا، بعث بها مَلِك الرُّوم هَدِيّةً، فأمر الـحَكَم بإنزال الصانع، والتوسيع عليه، ورتَّب معه جُملةً من مَـمَاليكه لتعلُّم الصناعة، فوضعوا أيديَهم معه في الفُسَيْفِساء المجلوبةِ، وصاروا يعملون معه؛ فأبدعوا، وأرْبَوا عليه، واستمرُّوا بعد ذلك مُنْفَرِدين دُونَ الصانع القادِم؛ إذْ صدر راجعًا عند الاستغناء عنه، بعد أن أجزل له الـمُستنصِرُ الصِّلةَ والكُسوة. وتداعى إلى هذه البِنْية كلُّ صانع حاذق من أقطار الأرض. وركب الـحَكَمُ[1] الـمُستنصر بالله في العَشْر الوُسَط لشوَّال من الزَّهْراء إلى الجامع، ودَخَلَه، ونظر إلى الزيادة وما تمَّ فيها، وأمر باقتلاع[2] السَّوارِي الأربع التي كانت في عِضادة الـمحْراب القديمِ الفائقة التي لا نظير لها، وصيانتِها إلى أن تُوضَعَ في الـمِحْراب الجديد عند إتقان إحكامه وإكماله.

وفي سنة خمس وخمسين وثلاث مئة، في المحرَّم: أمر بوضع الـمِنْبَر القديم إلى جانب الـمِحْراب، ونَصْبِ الـمَقْصورة القديمة. ونُصِب في قِبْلة هذه الزيادة مَقْصورةٌ من الـخَشَب، منقوشةُ الظاهر والباطن، مُشرَّفة الذِّرْوة، طولُـها خمسةٌ وسبعون ذِراعًا، وعَرْضُها اثنانِ وعشرون ذِراعًا، وعُلوُّها إلى الـمُشَرَّفات ثمانية أذْرُع. وكان الفراغ من هذه الزيادة[3] ونَصْبِ المقصورة في رَجَب من السنة.

وفي يوم الـجُمعة لثمانٍ خَلَوْنَ منه: قُرِئ كتابُ فَتْح من قِبَل سعادة الـجُعَيْفِرِيِّ، القائدِ بمدينة الفَرَج، يذكر ما فتح اللهُ له وأُتيح على يدَيْه من أعداء الله الـمُشْرِكين.

وفي يوم الأربعاء لأربع خَلَوْنَ من ربيع الأوَّل منها: نفِّذت الكُتُب إلى عُمَّال الثَّغْر الأدْنى والأقْصى في ارتباط الخيل، والتكثيرِ منها، وجَوْدةِ القيام عليها، لِـمَا يؤمَّل من الجهاد بعون الله.

---

(١) ليس في ر٢.

(٢) في م: «بإقلاع».

(٣) في ر٢: «الزيادات».

وفي يوم الجمعة لثلاث خَلَوْنَ منه: قُرِئَ بقُرْطُبَةَ والزَّهْراء كتابُ فَتْحٍ ورد من قِبَل الوزير يحيى بنِ هاشِم[1]، وكتابُ فَتْحٍ ورد من قِبَل سَعْد الـجَعْفَرِيِّ، وكتابُ فَتْحٍ ورد من قِبَل حَرِيزِ بن هابِل، يذكرون ما منحهم اللهُ وفَتَحَ على أيديهم من قِبَل أعداء الله الـمُشْرِكين، وأنَّ كلَّ واحد منهم نهض إلى ما قِبَله من بلادهم، فقَتَلَ وسَبى، واكتسح وأشجى، وانصرف سالـمًا غانمًا.

وفي أوَّل رَجَب منها: ورد كتابٌ من قَصْر أبي دَانِس[2] على الـمُستنِصر بالله، يَذكر فيه ظُهورَ أُسْطُول الـمَجُوس ببَحْر الغَرْب[3] بقُربٍ من هذا المكان، واضطرابَ أهل ذلك الساحل كلِّه لذلك؛ لتقدُّم عادتهم بطُروق الأندلس من قَبْلِه فيما سلف، وكانوا في ثمانية وعشرين مَرْكبًا، ثمَّ ترادفت الكُتُب من تلك[4] السواحل بأخبارهم، وأنَّهم قد أضرُّوا بها، ووصلوا إلى بَسِيطِ أُشْبُونة. فخرج إليهم المسلمون، ودارت بَيْنهم حربٌ شديدة[5]، استُشْهِد فيها من المسلمين وقُتِل فيها من الكافرين. وخرجت أُسْطُولُ إشْبيلِيَة، فاقتحموا عليهم بِوَادي شِلْب، وحطموا عِدّةً من مراكبهم، واستنقَذُوا مَن كان فيها من المسلمين، وقتلوا جُملةً من الـمُشْرِكين، وانهزموا إثْرَ ذلك خاسرين. ولم تزل أخبارُ الـمَجوس تَصِلَ إلى قُرْطُبة في كلِّ وقت من ساحِل الغَرْب، إلى أن صرفهم الله تعالى.

وفيها: أغزى الـحَكَمُ القائدَ غالِبًا، ففتح الله له في الـمُشْرِكين، وانصرف سالـمًا غانمًا.

وفيها: أمر الـحَكَم لابن فُطَيْس بإقامة الأُسْطُول بنَهْر قُرْطُبة، واتِّخاذ الـمَرَاكِب فيها على هَيْئة مَرَاكِب الـمَجُوس، تأميلًا لرُكوبهم إليها.

وفي سنة ست وخمسين وثلاث مئة: عَهِدَ الخليفةُ الـحَكَم بمُخاطبة العُمَّال بِكُوَر الأنْدَلُس، يُعنِّفهم على جُرْأتهم ويُـحذِّرهم من سَطْوَته وعقوبته؛ إذ اتَّصل به

---

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٠٩.

(٢) ينظر عن قصر أبي دانس الروض المعطار ٤٧٥.

(٣) في ر٢: «المغرب».

(٤) في ر٢: «ملك».

(٥) سقطت من أ.

أنَّ بعضَهم قد استزادوا زياداتٍ فاحِشات يُعامِلون بها الرعيَّةَ[1] ظُلْمًا لهم، فأنكر ذلك عليهم.

وفيها: كانت غَزَواتٌ للمسلمين انجلَتْ عن هزائم الـمُشركين.

وفيها: ولَّى أميرُ المؤمنين[2] الـحَكَمُ محمَّدَ[3] بن عبد الله بن أبي عامِرِ الذي رأس بَعْدُ وتلقَّب بالمنصور[4]، وكالةَ أبي الوليد هِشام بن الـحَكَم، وفوَّض إليه في جميع شؤُونه؛ فتحرَّكت حاله في الدولة.

وفي النصف من شوَّال: قعد الخليفةُ الـحَكَم على السرير بالزَّهْراء قُعودًا بهيًّا احتفل فيه، وأوصلَ إلى نفسه رسولَيْن وَصَلا من أُمراء الغَرْب الأدارِسة، فأوْصلا كِتابَهم، يذكرون أنَّهم على محبَّةٍ صادقة ومَوَدَّة مُسْتَحْكمة مع التِزامهم للطاعة واعتِقادهم للولاية، فأدنى رسولَيْهم، وألطف جوابَهما.

وفي يوم الـجُمعة لأربع بقِين من شوَّال[5]: قُرِئ كتابُ فَتْحٍ ورد من قِبَل القائد غالِبٍ، يذكر ما هَيَّأَ الله له في كَفَرةٍ قَشْتِيلة من القتل والأَسْر؛ فسُرَّ الخليفة بذلك، ودخلت الرؤُوسُ قُرْطُبة.

وفي يوم السبت بعده[6]: أنفذ الخليفةُ الـحَكَم كتُبَه إلى القُوَّاد والعُـمَّال بأقطار مملكته، بإنكارِ ما اتَّصل به من أنَّ بعضَهم يسفك دماءَ بعضٍ بلا عَهْد ولا مَشُورة، وأنَّ ذلك عَظُمَ عنده، وتبرَّأ إلى الله مـمَّن أقْدَم عليه.

وفيها: أجْرى الماء إلى سِقايات الجامِع والـمِيضأَتَيْن اللَّتَيْن مع جانبَيْه: شَرْقيِّه وغَرْبيِّه، ماءً عذْبًا جلبه من عَيْنٍ بجبل قرطبة، خرق له الأرضَ، وأجراه في قَناةٍ من حَجَر

---

(١) في ر٢: «فاحشات على الرعية».

(٢) «أمير المؤمنين» ليست في ر٢.

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (١٢١)، وبغية الملتمس (٢٤٢)، والمعجب ٧٢، والحلة السيراء ١/ ٢٦٨، وتاريخ الإسلام ٨/ ٧٣١، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٥، والوافي للصفدي ٣/ ٣١٢ وغيرها.

(٤) قوله: «الذي رأس بعد وتلقب بالمنصور» ليس في ر٢.

(٥) في ر٢ بدل هذه العبارة: «وفيها».

(٦) في ر٢: «وبعد ذلك».

مُتْقَنةِ البناء، مُحْكَمة الهندسة، أَوْدَعَ جَوْفَها أنابيبَ الرَّصاص؛ لتحفظه[1] من كلِّ دَنَس. وابْتُدِئ جَرْيُ الماء من يوم الجُمعة لعشرٍ خَلَوْنَ لصَفَر من السنة. وفي جَرْي الماء إلى قُرطبة يقول محمَّد بن شُخَيْص[2] في قصيدة له، منها [من البسيط]:

وقَدْ خَرَقْتَ بُطُونَ الأرضِ عن نُطَفٍ ... من أعْذَبِ الماءِ نحْوَ البَيْت تُجْرِيها

طُهْرٌ الجُسومِ إذا زالت طهارتُها ... رَيُّ القُلوب إذا حَرَّتْ صَوَادِيها

قَرَنْتَ فَخْراً بِأجْرٍ قَلَّما اقْتَرَنا ... في أُمَّةٍ أنْتَ راعِيها وحامِيها

وابتنى بغربيِّ الجامع دارَ الصَّدَقة، اتَّخذها[3] مَعْهدًا لتفريق صَدَقاته[4]، رحمة الله عليه. ومن مُستحسَنات أفعاله وطيِّبات أعماله[5]: اتِّخاذُه المؤدِّبين يُعَلِّمون أولادَ الضُّعَفاء والمساكين القُرْآنَ حوالَي المسجد الجامع وبكلِّ رَبَض من أرباض قُرْطُبة، وأجرى عليهم المُرَتَّبات، وعَهِدَ إليهم في الاجتهاد والنُّصْح، ابتغاء وَجْهِ الله العظيم، وعَدَدُ هذه المكاتِب سبعةٌ وعشرون مَكْتَبًا، منها حوالَي المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها[6] في كلِّ رَبَض من أرباض المدينة، وفي ذلك يقول ابن شُخَيْص [من البسيط]:

وساحَةُ المَسْجِدِ الأعْلَى مُكَلَّلَةٌ ... مَكاتِباً لليَتامى مِن نَواحِيها

لَوْ مُكِّنَتْ سُوَرُ القُرْآنِ مِنْ كَلِمٍ ... نادَتْكَ: يا خَيْرَ تالِيها ووَاعِيها

ووُجِد بخطِّ الخليفة المُستنصِر بالله: «ابْتُدِئ بُنيان الجامع، صانه الله[7]، يومَ

---

(١) في ر٢: «لحفظه».

(٢) له ذكر في كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس للكتاني ٥٦، ٥٨، ٨٧، ٢١٤... الخ ومالك الأبصار ٢٤/ ٤٨١، ٤٨٤، والروض المعطار ٥٤٨.

(٣) في ر٢: «استعدها».

(٤) في أ: «الصدقة».

(٥) في ر٢: «ومن محببات أعماله».

(٦) في ر٢: «وباقيهم».

(٧) «صانه الله» ليست في أ.

الأحد لأربع خلَوْنَ من جُمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة، وكَمُلَ سنة خمس وخمسين وثلاث مئة. وبلغت النَّفَقة فيه إلى مئتي ألف وأحدٍ وستِّين ألفًا وخمس مئة وسبعة وثلاثين دينارًا ودِرْهَم ونِصْف». (وقع «ونصف» في الأصل المنقول منه هذا، وقال: إنَّه نقله مُنْدَرِسًا، ثمَّ إنَّه تعرَّف بعد ذلك صِحَّتَه من الثِّقات أنَّه «ونِصْف» صحيح، وكذلك قال وقَعَ بخطِّ الـحَكَم، رحمه الله).

وفي سنة سبع وخمسين وثلاث مئة، في العَشْر الآخِر من رمضان: احتلَّ الوزيرانِ القائدان غالبُ[1] بن عبد الرحمن وسعيدُ بن الـحَكَم الـجَعْفَريُّ بجيوش الثَّغْر بالصائفة على حِصْن قَلَهُرَّة[2]، فأقاما بساحته مُدّةً استظهرا بها على تمكين بُنيان الـحِزام فيه والزيادةِ في ارتفاع البُرْج الثامن بذِرْوته، فانْتَهَيا من ذلك إلى الإدارة، وقفلا بالعسكر، وقد وثِقا للحصن بالأَمَنَة.

وفي سنة ستين وثلاث مئة، في محرَّم منها: قعد الخليفةُ[3] الـمُستنصر بالله على السرير بقَصْر قُرْطُبة على جَرْي العادة من الاحتفال والزِّينة، فأوصل إلى نفسه عيسى بنَ محمَّد ومحمَّد بن العالي وحسنَ بن عليّ رُسلَ بني محمَّدٍ الحسنيِّين أُمراء الغَرْب، فأوصلوا كتابَ مُرْسِلهم، وذكروا ما هم عليه من الطاعة، وطلبوا بَعْثَهُ رُمَاةً؛ تقويةً لهم لِـما يتوقَّعونه من حَرَكةِ قائد مَعَدٍّ الشيعيِّ نَحْوَهم، وتقرَّبوا بإهداء خَيْلٍ وجِمالٍ وغير ذلك، فقُبِلت منهم.

وفي صدر رمضان منها: وقع الإرجافُ بتحرُّك الـمَجُوس الأُرْدُمانيِّين، لعنهم الله، وظهورِهم في البحر، ورَوْمِهم سواحِلَ الأَنْدَلُس الغَرْبيَّة على عادتهم؛ فأزعج السلطانُ قائدَ البَحْر بالخروج إلى الـمَرِيَّة، والتأهُّبِ لركوب الأُسْطول منها إلى إشْبيلية، وجَمْعِ الأساطِيل كلِّها للركوب إلى ناحية الغَرْب[4].

---

(١) ينظر المقتبس ٢١ (ط. الحجي)، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٠٣.

(٢) معجم البلدان ٤/ ٣٩٣.

(٣) في ر٢: «الحكم».

(٤) المقتبس ٢٣-٢٤ (ط. الحجي).

ذِكْرُ مَقْتَل زِيرِي بن منَاد، قائدِ الشيعيِّ على تِيهرت

وفي يوم السبت، لاثنتَيْ عشرة ليلة بقيتْ لشهر رمضان منها: ورد الـخَبرُ على الـمُستنصِر بالله بقَتْلِ زِيري بنِ مَنَاد عامِلِ مَعَدٍّ الشيعيِّ وقائده على الغَرْب، قَتَلَهُ جعفرٌ ويحيى ابنا عليٍّ المعروفِ بابن الأنْدَلُسيِّ، المخالفانِ على مَعَدٍّ فيمن استظهرا به عليه من زَناتة، وجَدُوه بناحية الغَرْب في حربٍ دارت بينهم شَهِدَها بنو خَزَر وغيرُهم من رؤساء القبائل[١] القائمين على زِيري بدعوة الـحَكَم المستنصر بالله، ففُتِحَ لهم في قَتْلِه أعْظَمُ الفتوح. ووصل عليٌّ البَغْدادِيُّ كاتِبُ جعفرٍ المذكور بكتابه إلى الـمُستَنْصِر بالله، وذكر اهتياجَ الحربِ العظيم بين أهل الدَّعوتَيْن بالغَرْب[٢].

ذِكْرُ فراق جَعْفَر[٣] بن عليٍّ المعروف بابن الأنْدَلُسيِّ صاحبِ الـمَسيلة لـمَعَدِّ ابن إسماعيل الشيعيِّ[٤] صاحب إفرِيقيَة

وتَقَرُّبه إلى الـحَكَم الـمُستنصِرِ بانضمامه إلى زَناتةَ الـمُنحاشين إلى دَعْوة بني أُميَّة، وتألُّبِ جماعتهم على زِيري بن مَنَاد الصُّنْهاجيّ عامِلِ مَعَدٍّ الشيعيِّ[٥] على حَرْبِ بلاد الغَرْب وقَتْلِهم لزِيرِي عند انقضاضه عليهم صادًّا لهم عن طريقهم، مُتَقَرِّبين بقَتْله إلى الـحَكَم، وسَبَقَ جعفر ويحيى أخوه وذَوُوهما بالعُبور إلى الأنْدَلُس مُهْدِيَيْن[٦] رأسَ زِيري، خالعَيْن للدعوة الشيعيَّة، مُتَقَلِّدَين للدعوة الأُمويَّة الـجَماعِيَّة. فكان لهما في ذلك قَبولٌ ورِفْعةٌ عظيمةٌ من[٧] الخليفة[٨].

---

(١) في المقتبس: «البرابر».

(٢) المقتبس ٢٦-٢٧ (ط. الحجي).

(٣) ينظر الوافي للصفدي ١١/ ١١٦.

(٤) في ر٢: «العبيدي».

(٥) ليست في ر٢.

(٦) في ر٢: «مقدمين».

(٧) في ر٢: «عند».

(٨) المقتبس لابن حيان ٣٢ (ط. الحجي).

وقد ذكر محمَّدُ بن يوسف الوَرَّاق خَبَرَهما؛ قال: وهما ابنا عليٍّ[١] بن حَمْدُون، وجَدُّهما الأكبر عبدُ الحميد كان[٢] الداخلَ إلى الأندلس من الشام، ونزل بكُورة إلْبِيرة، ثمَّ تنقَّل حفيدُه حَمْدُون، جدُّ جعفر هذا، إلى بِجَاية، وصحب أبا عبد الله الشيعيَّ[٣] الداعِيَ، ودخل في مَذْهَبه. فلمَّا تغلَّب الشيعيُّ على إفريقِيَة، ظهر عليُّ بن حَمْدُون، ثمَّ ازداد ظهورًا في أيَّام عُبَيْد الله الـمَهْدِيّ وحُظْوةً، وضمَّه إلى ابنه أبي القاسم ولِـيِّ عهده؛ فازداد حُظْوةً لدَيْه، وخرج معه إلى أرض الغَرْب، فأمَرَه ببناء مدينة الـمَسِيلة، وولّاه عليها، فبقيَ بها إلى أن هَلَكَ في فتنة أبي يَزِيد؛ سقط من جُرف عالٍ، فاندقَّت يداه ورِجلاه، سنةَ أربع وثلاثين وثلاث مئة. وتولَّى جَعْفرٌ ابنُه هذا الـمَسِيلةَ مِن بعده، فلم يزل متولِّيًا لها، رفيعَ المنزلة عند سُلطانه، إلى أن قَتَلَ محمَّدَ بن الـخَيْر بن خَزَر الزَّناتيَّ القائمَ بدعوة بني أُميَّة بالغرب[٤] زيرِي بنُ مَناد، فخاف جعفرٌ من صاحِب إفْرِيقِيَة، فبادَرَ إلى الفِرار بنفسه مع أخيه يحيى وجميعِ أهله وماله سنة ستين وثلاث مئة، فصار عند بني خَزَر أُمراء زَنَاتة، فشقَّ جَعفرٌ الصحراء معهم قاصدين لِزيرِي بن مناد[٥]، فالتقَوْا معه، ودارت بينهم حربٌ صعبةٌ انجلَتْ عن قَتْل زيري وخَلْقٍ من رجاله، واحتوى الزَّناتيُّون فيها على جميع عسكر زِيرِي، وأدركوا ثأرَهم منهم[٦]. ولـمَّا أنْ تمَّ الأمرُ لأُمراء زَناتة وجعفرِ بن عليّ على ما أمَّلوه من الفَتْح في عدوِّهم زيري بن مَنَاد، بادَرَ جعفرٌ بمُراسلة الـحَكَم إلى الأندلُس، مُلْقِيًا بنفسه عليه، مُعتصِمًا بدعوته، ثمَّ أرسل إليه أخاه يحيى، ثمَّ سار إليه بنفسه، فحَظِيَ عنده.

قال ابن حَمَادُه: وفي ربيع الآخر من سنة ستين وثلاث مئة: التقى يوسفُ بن زيري[٧]

---

(١) له ذكر في معجم البلدان ٥/ ٦٥، ومسالك البكري ٢/ ٧٢٢، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٥١.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) ليست في ر٢.

(٤) من ر٢.

(٥) «بن مناد» من ر٢.

(٦) تنظر التفاصيل في المقتبس لابن حيان ٣٣-٣٦ (ط. الحجي).

(٧) قفز نظر ناسخ ر٢ من «زيري» هذه إلى «زيري» الآتية بعد سطر فاختل النص.

الصُّنْهاجِيُّ، الـمُشْتَهر اسْمُه بِبُلُقِّين، مع محمَّد بن الـخَيْر أمير زَناتة، فهزمه بُلُقِّين بن زِيرِي، وقتل جماعةً من أهله ورجاله. فلمَّا أيقن محمَّدُ بن الـخَيْر أن عدوَّه قد أحاط به، اتَّكأ على سَيْفه، فذبح به نَفْسَه، أَنَفَةً مِن أن يملكه بُلُقِّين، فأتى بأمر عظيم سار[1] ذِكْرُه بأرض الغَرْب[2]. وملك بُلُقِّين بن زِيري إثْرَ ذلك الغَرْبَ، وقتل زَناتةَ، وهدم مدينةَ البَصْرة وغيرَها من مُدُن الغَرْب[3]، ولم يَثْنِ عِنانًا عن مدينة سَبْتة، ومنها رجع، وإليها كان انْتِهاؤه، وصدر عاجِزًا عنها.

وفي ذي القَعْدة منها: خاطب الـمُستنصِرُ بالله قُوَّادَه وعُمَّاله بكُوَر الأندلُس في استقدام كِبارها وأعلامِ رجالها لـمُشاهدة دخولِ يحيى بن عليٍّ بن حَمْدون وبني خَزَر أُمَراء زناتة القادمين برأس زيري بن مَنَاد الصُّنهاجيِّ قائدِ مَعَدِّ بن إسماعيل الشيعيِّ وبرؤُوس أعيان أصحابه[4]. فلمَّا كان يومُ الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة[5] خلَتْ من ذي القعدة منها، خرج صاحبُ السِّكَّة والمواريث، وقاضي إشبيلية محمَّدُ بن أبي عامر لتَلَقِّي جعفرِ بن عليٍّ ويحيى أخيه، ومعه أربعةٌ من عِتاق الـخَيْل وبَغْلٌ أشْهَب، مُنْتَقاةٌ من دوابِّ الخليفة، بسُروجِ الخلافة ولُـجُمها، ومعه الأَخْبِيَةُ الديباجيَّة وغير ذلك. فاحتلَّ ابنُ أبي عامر بالـمَرْسَى الذي خرج فيه جَعْفَر بمقربةٍ من مالَقة. ثمَّ وصل بعد ذلك للوافدين خَيْلٌ وبِغالٌ من قِبَل الخليفة، وهوادِج وكسوات وعَمَّـاريَّات لعِيال جَعْفر، ثمَّ قدموا إلى قُرطبة ببُروز عظيم، واحتفالٍ لدخولهم جسيم، حتَّى وصلا الخليفة[6].

وقد ذكرتِ الشعراءُ شأنَ فِراق جعفر وأخيه يحيى لسُلطانِـهما مَعَدِّ بن إسماعيل

---

(١) في ر٢: «طار».

(٢) المقتبس ٣٨ (ط. الحجي).

(٣) قوله: «وغيرها من مدن الغرب» ليس في أ.

(٤) في ر٢: «برأس زيري بن مناد ورؤوس أصحابه».

(٥) ليست في ر٢.

(٦) تنظر التفاصيل في المقتبس لابن حيان ٣٣-٣٦ (ط. الحجي).

ومَسيرِهما إلى الخليفة الـحَكَم، واعترافِهما بحقِّه فيما مَدَحَتْ به الخليفةَ الـحَكَم وأكثرتْ في ذلك. وقال يوسفُ بن هارون [من الكامل]:

ولَقَـدْ عَجِبْـتُ لِغَفْلَـةِ الـمُستنـصِرِ ... إذْ أكْتَـفَ الـجَيْشَ اللُّهَـامَ لِـجعْفَرِ

ولَـوَ انَّ مَــنْ أهْـواهُ أبْـرَزَ وَجْهَـهُ ... قامَــتْ لَواحِظُـهُ مَقـامَ العَـسْكرِ

وفي يوم السبت لليلتَيْن من ذي القَعْدة منها: جلس الخليفةُ الـحَكَم فوق السرير جلوسًا بهيًّا، وأوصل إلى نفسه أجنادَ الكُوَر ووجُوهَ أهلها الذين استدعاهم لـمُشاهدة دخول[1] جعفرِ بن عليٍّ ومَن أتى معه من أُمراء زَناتة، وأمَرَهم بالانصراف إلى بلادهم، فانصرف جُنْدُ دِمَشْق، وهُم أهل إلْبيرة، وجند حِمْص، وهُمْ أهْل كُورة إشْبيلية، وجُنْدُ قِنَّسْرين، وهُم أهل جَيَّان، وجُنْدُ فِلَسْطِين، وهُم أهل شَذُونة، وغير هؤلاء[2].

وفي سنة إحدى وستين وثلاث مئة: هاجت بالغَرْب حروبٌ مع حَسَنِ بن قَنُّون الحسنيِّ وقُوَّادِ الـحَكَم الـمُستنصِر بالله.

بعضُ أخبار حَسَن بن قَنُّون الحسنيِّ أمير الغَرْب مع قُوَّاد الأنْدَلُس في هذه السنة

كان المستنصرُ بالله دعا محمَّدَ بن قاسم الناظر في الـحَشَم، وأمَرَهُ بالخروج إلى مدينة[3] سَبْتة في رمضان من هذه[4] السنة، قائدًا على مَن يضمُّه إليه من طوائف الأجناد، للذي بدا من نَقْض حَسَنِ بن قَنُّون، وانحرافِهِ إلى دعوة مَعَدٍّ صاحب إفْريقية واستدعائه مَن دَنا منه مِن أحزابه، مُستعينًا بهم فيما اعتزم عليه من نِفاقِه على الـحَكَم، وإعلانه بإيقاع الدُّعاء للشيعيِّ مَعَدٍّ[5] على منابِر عَمَلِه،

---

(١) من ر٢.

(٢) المقتبس ٣٨ (ط. الحجي).

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «وإعلانه بالدعاء لمعد المذكور».

فأوصى الـحَكَمُ قائدَه محمَّد بن قاسم باستعماله جِدَّه وجُهْده في مُغاورة[1] ابن قَنُّون، وأمَرَه، إنْ أظهره اللهُ تعالى، أنْ يأخذَ بالعَفْو والصَّفْح، وإصلاح البلاد، واستصلاح الرعيَّة، وأمرَهُ أن يستعينَ بمن دخلَ في الطاعة الأُمَويَّة. فكان عُبُورُه البَحْرَ إلى سَبْتة لإحدى عشرة بقيتْ من شوَّال منها، وتكاملت الجيوشُ والأساطيل بسَبْتة[2].

وفي يوم السبت لأربع خَلَوْنَ من ذي القَعْدة[3]: وَرَدَ كتابٌ على الـمُستنصر بالله بفَتْح طَنْجة، فتحها قائدُه على البحر عبدُ الله[4] بن رُمَاحِس[5]، يذكر أنَّه نازلَـها بالأُسْطُول غُرَّةَ ذي قَعْدة، ودعا أهلَها إلى الطاعة والعَوْد إلى الجماعة[6]، فأسَاؤُوا الردَّ عليه، وكان حَسَنُ بنُ قَنُّون داخِلَها يَشُدُّ عزائمَهم، فلمَّا كان يوم الخميس، خرج حَسَنٌ لقتال العسكر الخارج إليه من سَبْتة إلى تِطَّاوِن[7]، وأبرز من طَنْجة عَدَدًا كبيرًا من جُنده الغَرْبيِّين وأنصاره، فانهزموا أمام جيش الـحَكَم، وولَّوا مُدْبِرين، فلمَّا رأى ذلك حَسَن، فرَّ هاربًا[8] في خاصَّة من أصحابه، لا يلوي على أحد، ولم يُعرِّج على ما كان له ولأصحابه بطَنْجة من أموالٍ وأخْبية وأمتعه، فلمَّا أمعنَ في فِراره، وأسلم أهلَ طَنْجة، خرجَ شيخُهم ابن الفاضِل إلى القائد ابنِ رُماحِس[9] مع جماعةِ وجوه طَنْجة، وهم يُنادون: «الطاعةُ لله ولأمير المؤمنين الـحَكَم»، ثمَّ تقدَّم ابنُ الفاضِل إلى القائد

---

(١) في ر٢: «بأن يعمل جده وجهده في محاربة».

(٢) المقتبس لابن حيان ٧٩-٨٠ (ط. الحجي).

(٣) في ر٢: «وفي ذي القعدة».

(٤) في طبعة الحجي من المقتبس ٨٩: «عبد الرحمن»ز

(٥) في ر٢: «رياحين»، محرف.

(٦) «والعود للجماعة» ليست في ر٢.

(٧) «إلى تطوان» ليست في ر٢.

(٨) في ر٢: «وفر حسن هاربًا» بدلًا من «فلما رأى ذلك حسن فر هاربًا».

(٩) في ر٢: «رياحين».

رُماحِس[(١)] وطلب منه الأمانَ لأهل بلده، فأعطاه إيَّاه، ودخل طَنْجة، ونهبَ ما كان بها لـحَسَن بن قَنُّون وأصحابه، وأنفذ القائدُ كتابَه بالفَتْح إلى الخليفة[(٢)].

وورد كتابُ القائد محمَّد بن قاسم على الـمُستنصِر بالله لتسع بقين من ذي القَعْدة، يذكر أنَّه التقَى مع حَسَن بن قَنُّون، فدارت بينهما حَرْب شديدة، أَجْلَتْ عن هزيمته، وقَتْلِ كثير من شيعته، وفرَّ فيمن بقي معه إلى جَبَلٍ حَصِين، فتَبِعَه الجندُ، وانقضُّوا عليه، فدارت بينهم حَرْب يسيرة، ثمَّ انهزم أيضًا، وخلَّف أثقاله، وفرَّ لا يَلْوي على شيء، فصار الـجَبَلُ بأيدي الـجُند، ونهبوا ما فيه، ثمَّ نهضوا في اليوم الثاني إلى مدينة دَلُول[(٣)]، ففتحها اللهُ لهم. ولحق بهم القائدُ محمَّد بن قاسم في العسكر، فقصد مدينة آصِيلَا، فدخلها، ودخل القائدُ إلى جامِعِها، فوجد فيه مِنْبرًا جديدًا موسومًا باسْمِ الشيعيِّ مَعَدِّ بن إسماعيل، فأمر بإحراقه بالنار، بعد أن خَلَعَ من أعلاه اللوحَ المنقوش فيه اسم مَعَدٍّ، وكان فيه من الغُلُوِّ ما في ذِكْره أمْرٌ كبير، فأمر باقتلاعه، وأرْسَلَه مع كتاب الفَتْح إلى الـمُستنصِر بالله. وانصرف العسكرُ إلى مدينة دَلُول، فأمر بهدمِ أسوارها، وتضريمِ[(٤)] بيوتها نارًا، وتَرْكِها[(٥)] عِبْرةً. واستولى العسكرُ على جميع[(٦)] ما كان بها، واستوسعوا في أطْعِمَتها وما ترك فيها حَسَنٌ المذكور[(٧)].

وفي سنة اثنتين وستين وثلاث مئة: قُتِلَ القائدُ محمَّد بن قاسم بفَحْص مِهْرَان على يدَيْ حسَن بن قَنُّون، يومَ الأحد[(٨)] لسبعٍ بقين من ربيع الأوَّل، وقُتل في ذلك

---

(١) ليس في ر٢.

(٢) المقتبس لابن حيان ٨٩ (ط. الحجي).

(٣) هكذا في النسختين، وفي معجم البلدان ٣/ ١٤٦: «زلول» بالزاي في أوله.

(٤) في ر٢: «وضَرَّم».

(٥) في ر٢: «وتَرَكَها».

(٦) من ر٢.

(٧) المقتبس ٩٠-٩١ (ط. الحجي).

(٨) «يوم الأحد» ليست في ر٢.

اليوم جملةٌ من الـجُند الذين كانوا معه نحو الخمس مئة من الفُرسان[١] الأندلسيِّين الأنجاد[٢]، ومن رجَّالتِهم نحو الألف.

وفي غُرَّة جُمادى الآخرة: دخل إلى قُرْطُبة جَمْعٌ من مَصْمودة مـمَّن كان مع حَسَن بن قَنُّون، وهم سبعون رَجُلًا، نَزَعوا إلى الطاعة[٣].

وفيها: استدعى الـمُستنصِرُ بالله غالِبَ بن عبد الرحمن، وأمره بحَرْب حَسَن ابن قَنُّون الـحَسَنيِّ عندما تَفَاقَم أمرُه، وقتَلَ الـجُند. وورد على الـمُستنصر بالله كتابُ فَتْحٍ من قِبَل القُوَّاد بمدينة آصِيلَا، أنَّهم التقَوْا مع حَسَنِ بن قَنُّون، فدارت بينهم حَرْبٌ شديدة انهزم فيها حَسَنٌ، وقُتل كثيرٌ من حُماته[٤].

وقَدِمَ إلى قُرْطُبة رسولُ[٥] حنونِ بن إدريسَ صاحبِ مدينة العُدْوة الأنْدَلُسيَّة من فاس، ورَسولُ عبد الكريم صاحِبِ مدينة القَرَويِّين من فاس، يرغبان في طاعة أمير المؤمنين الـمُستنصر، والقيامِ بدعوته، فكرَّم رسولَـهما، وأجمل موعودهما[٦].

وفي شعبان منها: خوطبَ القائدُ غالبٌ بأنَّه بُعِثَ إليه بعشرة آلاف دينار لِصِلات الخارجين إليه من أصحاب حَسَن بن قَنُّون، يُوَزِّعها عليهم بحسب مقاديرهم، وقُرِنَ بها من فاخِر الكُسوة والسيوف الـمُحَلَّاة عَدَدٌ كبيرٌ للخَلْع عليهم[٧].

وفيها: أرسل الـمُستنصِرُ بالله الوزيرَ يحيى بن محمَّد التُّجِيبيِّ إلى الغَرْب بعَسْكر، مَدَدًا للقائد غالب، وجامعًا لليدِ معه على الخالع للطاعة حَسَنِ بن قَنُّون، فكان ذلك في خَبَر طويل[٨].

---

(١) في ر٢: «الفرسان الأبطال».

(٢) هذه اللفظة ليست في ر٢، وكان قد استعاض عنها قبل ذلك بلفظة الأبطال.

(٣) المقتبس ٩٦ (ط. الحجي).

(٤) المقتبس ١٠٢-١٠٣ (ط. الحجي).

(٥) سقط من م.

(٦) المقتبس ١٠٣ (ط. الحجي).

(٧) المصدر نفسه ١٠٨.

(٨) المصدر نفسه ١٢٨.

وفي أواخر ذي القعدة: ورد على الـمُستنصِر كتابُ القائدِ غالبٍ يَذْكُر صُنْعَ الله تعالى في افتتاحِه حِصْنَ الكَوْم[1]، وهَرَبِ المخذول عنه حَسَن بن قَنُّون مع صِهْره صاحب مدينة[2] البَصْرة [و][3] عليِّ بن خَلُوف وغيرِهما.

وفي منتصف ذي الحِجَّة: ورد كتابُ صاحب الشُّرْطة[4]، قاضي القُضاة بالغَرْب محمَّدِ بن أبي عامر، يذكرُ تَعْيِيدَ الناس يومَ الخميس، وقيامَ الخطبة في الـمُصَلَّيات هنالك للمُستنصِر بالله، وسرورَ المسلمين بذلك، وابتهاجَهم به[5].

وفيها: كانت حروبٌ مع الـحَسَنيِّين يطول ذِكْرُها، انْجَلَتْ عن مَقْتَل خَلْق كثير[6] من أصحاب حَسَنِ بن قَنُّون الـحَسَنيِّ، وحُزَّ مِنْ رؤُوس مشاهيرهم مئةُ رأس، وتُرِكَ أكْثَرُهم صريعًا. وقُتِل في الهزيمة محمَّدُ بن أبي العَيْش الكُتاميّ[7]، وكان من حَسَنٍ محلَّ أخيه تارةً ومحلَّ أبيه تارةً أُخرى[8].

وفي سنة ثلاث وستين وثلاث مئة: افتتح غالِبٌ، قائدُ الـحَكَم الـمُستنصر بالله، مدينةَ البَصْرة التي كان انتزى فيها محمَّدُ بن حَنُّون الـحَسَنّي؛ وذلك أنَّ أهل البلد قاموا عليه، وقتلوا نائبَه وخليفته عليهم، وابتدروا لمخاطبة القائدِ غالب، يَستجلبونه إليهم، فوصلهم، وملك المدينة، وخاطب الخليفةَ بخَبَرِها، وأدرج كتابَ أهلها طَيَّ كتابه[9].

---

(١) ينظر المسالك للبكري ٢/ ٨١١.

(٢) من ر٢.

(٣) لا وجود للواو في النسختين، ولا يستقيم النص إلا بها، فإن علي بن خلوف ليس هو صهر حسن بن قنون، قال ابن حيان: «وهرب المخذول عنه حسن بن قنون مع صهره محمد بن حنون صاحب البصرة وعلي بن خلوف» (المقتبس ١٣٤ من ط. الحجي).

(٤) «صاحب الشرطة» ليست في ر١.

(٥) المقتبس ١٣٤ (ط. الحجي).

(٦) في ر٢: «عظيم».

(٧) في أ: «الكتاني»، محرف.

(٨) المقتبس ١٣٩-١٤١ (ط. الحجي)، وفيه تفصيل.

(٩) المقتبس ١٤١-١٤٤ (ط. الحجي).

وفي يوم الخميس منتصف صَفَر: ورد كتابُ غالبٍ على الـمُستنصِر، يذكر مُنْصرَفه عن بلد البصرة وأخْذَه رَهْنَهم، ويذكر أنَّه قد صار إلى الطاعة جميعُ أهل الغَرْب وعامَّةُ قبائل البَرْبَر، ولم يَبْقَ فيه غيرُ الخائن حَسَنِ بن قَنُّون، وأنَّه قد صار من ضيق أمره في غُمَّة. ووصل أهْلُ البَصْرة إلى قُرْطُبة الدافعين لأميرهم حَسَن، الداخلين في الطاعة(١).

وفيها: ورد الـخَبَر السارُّ على الـمُستنصر بالله بإذعان الـحَسَن بن قَنُّون الـحَسَنيِّ، ودخولِه في طاعته، فشَهِد الخليفةُ(٢) صلاةَ الجمعة مُنسلخَ جُمادى الآخرة، فقعد بجامع قرطبة(٣)، وأعلم الوزراء بخضوع حَسَنِ بن قَنُّون المنْتزِي عليه بالغَرْب، وأنَّه ورد عليه كتابُ غالبٍ بذلك، وأنَّه يُوَجِّه إليه ابنَه عليَّ بن حَسَن المذكور، وأنَّ الـخُطْبة قامت بدعوته في قَلْعة حَجَر النَّسْر، فاستبشر الوزراء وهنَّؤوه، وغبَّطوه وأعلنوا بالشُّكْر لله تعالى والدعاء للخليفة، وأطالوا في ذلك(٤).

وفي سنة أربع وستين وثلاث مئة: قَدِمَ على الـمُستنصِر قائدُه غالبُ بن عبد الرحمن قافلًا من عُدْوة الغَرْب، ومعه حَسَن(٥) بن قَنُّون وشيعتُه بنو إدْريس الـحَسَنيُّون ملوكُ الغَرْب، الـمُستنزَلون من مَعَاقِلهم إلى الأندلُس، حافِّين بشيخهم الـمُشْتَهَر بحَنُّون، واسْمُه أحمدُ بن عيسى، صاحبِ مدينة الأقْلام وما والاها، ومعه إخْوَتُه وبنو عمِّه وبنوهم وأهْلوهم، فأمر باحتمال هؤُلاء الأشرافِ من المحلَّة، في ظلام ليلة الخميس لأربع خلون من المحرَّم(٦)، إلى الدُّور التي أُخْلِيَتْ لهم بقُرْطُبة، فأرسل القَوْمُ معهم ثِقاتِهم من فِتْيانهم ومَوَاليهم، حتَّى أدَّتهم إلى(٧) الدُّور الـمُعَدَّة لهم، بعد أن فُرِشَت مجالسها بشَيء يطول ذِكْرُه(٨).

---

(١) المقتبس ١٤٥-١٤٦ (ط. الحجي).

(٢) هذه اللفظة ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «بقرطبة» بدلًا من «منسلخ جمادى الآخرة، فقعد بجامع قرطبة».

(٤) المقتبس ١٥٠-١٥١ «ط. الحجي».

(٥) في ر٢: «السلطان حسن».

(٦) «لأربع خلون من المحرم» ليست في ر٢.

(٧) في ر٢: «أدنتهم من».

(٨) المقتبس ١٩٤-١٩٥ (ط. الحجي).

وفيها: كان اعتلالُ الخليفة الـحَكَم، في ربيع الأوَّل، واحتجب عن جميع مملكته إلى أن تخفَّف وصَبُه، وظهر لخاصَّته يومَ الجمعة لليلةٍ بقيتْ من ربيع الآخِر منها[1]. وفي عَقِب ربيع المذكور: أعْتَق الـحَكَمُ نحوًا من مئة رقبةٍ من عَبيد له، فيه لبعضهم[2] تدبيرٌ، ولباقيهم[3] عِتْقُ بَتْلٍ ومُؤَجَّل، خُلِّصَ به جميعُهم من الرِّقِّ، وعُقِدَتْ بذلك وثائق. فكان أوَّلَ مَن أوقع شهادتَه فيها أبو الوليد هشام بن الـحَكَم[4]، ثمَّ الفُقهاء[5] أهْلُ الشُّورَى، ثمَّ العُدولُ[6].

وفيها: حبَّس الـحَكَمُ حوانيتَ السَّرَّاجين بقُرْطُبة على الـمُعَلِّمين لأولاد الضُّعَفاء القُرآن[7].

وفيها: أسقط الـحَكَمُ[8] سُدُسَ جميع الـمَغارِم عن الرعايا بجميع كُوَر الأنْدَلُس؛ شُكْرًا لله على أنْظاره له[9].

وفيها: كان جَيَشانُ العدوِّ، خَذَلَه الله، ومُنازَلتُه بعضَ حصون المسلمين.

وفيها: كان الظَّفَر بأبي الأحْوَص مَعْنِ بن عبد العزيز التُّجِيبيِّ[10]؛ فقبض عليه رشيق، وبعثه مكبولًا إلى قُرْطبة مع عشرةٍ من أصحابه، وكان يُظاهر المشركين ويَدُلُّـهم على عَوْرات المسلمين، فأخَذَهُ الله[11].

---

(1) المصدر نفسه ٢٠٣-٢٠٤.

(2) في ر٢: «بعضهم».

(3) في ر٢: «وثانيهم».

(٤) في ر٢: «الخليفة».

(٥) في ر٢: «الفقراء»، وهو تحريف ظاهر.

(٦) المقتبس ٢٠٦ (ط. الحجي).

(٧) هذه اللفظة من ر٢، والخبر في المقتبس ٢٠٧ (ط. الحجي).

(٨) ليست في ر٢.

(٩) المقتبس ٢٠٧ (ط. الحجي).

(١٠) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٣١-٢٣٢.

(١١) المقتبس ٢٢٤-٢٢٥ (ط. الحجي).

وفي سنة خمس وستين وثلاث مئة: خرج من قرطبة جَعْفَر ويحيى، ابنا عليٍّ بن حَمْدُون ابن الأندلُسيِّ، قائدَيْن إلى الغَرْب من العُدْوة[1]، وبين أيديهما الألْوِيةُ والطبولُ مُدِيلَيْنِ[2] للوزير يحيى بن محمَّد بن هاشِم.

وفيها: كان الإعلانُ ببيعة أبي الوليد هشامِ بن الحَكَم[3]، وأنْ تُؤخَذَ له من الخاصَّة والعامَّة بقرطبة وسائر كُوَر الأندلس، وما إلى طاعته من بلاد الغَرْب، وذِكْرِه في الخُطْبة على المنابر في الجُمعة والأعياد، وذلك مستهلَّ جمادى الآخِرة؛ قعد أميرُ المؤمنين الحَكَمُ بقصره، وافتتح الكلامَ بما عزم عليه من تقليد ابْنِه عَهْدَه الخلافة من بعده، فالتزمت بيعتُه، وأُخْرِجَت نظائرُ من كُتُب البيعة ليُوْقِعَ شهادته كُلُّ مَن التزمها، وتولَّى إعطاءها للناس على مراتبهم المنصورُ محمَّد بن أبي عامر، وهو يومئذٍ صاحبُ الشُّرطة والمَوَاريث، ومَيْسُورٌ الفَتَى الجَعْفَريُّ الكاتب.

وفيها: خرج الوزير يحيى بنُ محمَّد بن هاشم قائدًا إلى سرَقُسْطة، وبين يديه الطبول والبنود.

وفيها: نَفَذَ عهدُ الحَكَم إلى الوزير صاحب المدينة جَعْفر بن عثمان المُصْحَفيِّ بإطلاق أبي الأحْوَص التُّجِيبيِّ من سجن المُطْبَق مع أصحابه، فصفح الحَكَمُ عنهم.

وفي سنة ست وستين وثلاث مئة: تُوفِّي أبو عليٍّ البَغْداديُّ[4]، صاحب «النوادر»، المعروف بالقاليِّ، منسوبٌ إلى قالِيْ قَلا: من ديار المشرق.

---

(١) «من العدوة» ليست في ر٢.

(٢) في أ: «مزيلين».

(٣) كان عمره يومئذٍ عشر سنوات، ينظر المختصر لأبي الفدا ٢/ ١١٧.

(٤) هكذا في النسختين، وهو وهم، صوابه سنة ست وخمسين وثلاث مئة، ليلة السبت لسبع خلون من جمادى الأولى، كما في مصادر ترجمته ومنها: طبقات الزبيدي ١٨٨، وتاريخ ابن الفرضي (٢٢١)، ومعجم الأدباء ٢/ ٧٢٩، ومعجم البلدان ٤/ ٣٠٠، وإنباه الرواة ١/ ٢٠٤، ووفيات الأعيان ١/ ٢٢٦، وتاريخ الإسلام ٨/ ٩٦ وغيرها.

وفيها: مات محمدُ بن يحيى النَّحْويُّ[1]، وأبو مروانَ الأديبُ الـمُراديُّ، وعبد الملك[2] بن سعيد، فكانت تُسمَّى سنةَ الأُدَباء.

وكَمُلَ بناءُ المسجد سنة خمس وستين، وكان[3] المنبر الذي صنعه الـحَكَمُ مُدْخَلًا من عُود الصَّنْدَل الأحمر والأصْفَر والأبَنُوسِ والعاج والعُود الـهِنْديِّ، قام على الـحَكَم، رحمه الله، بخمسةٍ وثلاثين ألفَ دينار وسبع مئة دينار وخمسةِ دنانير، وكان تمامُه في خمسة أعوام.

ووُجِد بخطِّ الحكم[4] الـمُستنصِر بالله تاريخُ وفاةِ قاضيه وقاضي أبيه مُنْذِرِ بن سعيد البَلوطيِّ، وأنه تُوفِّي يومَ الخميس لليلتَيْن بقيتا من ذي قعدة من سنة خمس وخمسين، وكان مولدُه سنة ثلاث وسبعين ومئتين؛ فكان عُمُرُه اثنتين وثمانين سنة. وكان في هذا القاضي مُنْذِرٍ دُعابةٌ يُعَرِّض بها ويُتَعَرَّض له بها، فكتب إليه قومٌ من أهل الـمَجانة والظَّرْف [من الخفيف]:

قُـلْ لِقـاضي الجماعـة البَلُّـوطيْ: ... مـا تَـرى في خَرِيـدةٍ كالـخُوطِ
ناكَهـا للشـواب قَـوْمٌ ظِـرافٌ؟ ... هَلْ تَرى سيِّدي بـذا مِـنْ سُقُوطِ؟

فوقَّع لهم في كِتابهم: «لا» مُفْرَدة، فقال له مَن حضر: «ما هذا؟» فقال: «أردتُ: لا أرى ذلك»، فقالوا: «لا يُفْهَم عنك إلَّا غَيْرُه»، فقال: «كُلٌّ يُـجاوبُ على مُعْتَقَدِه». فكان له، رحمه الله، نَوَادِرُ مستحسَنةٌ، وغرائبُ مُستملَحةٌ[5].

---

(١) هكذا في النسختين، وهو وهم، صوابه: سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة، كما في طبقات الزبيدي ٣١٠، وتاريخ ابن الفرضي (١٢٩٠) والتعليق عليه.

(٢) هكذا في النسختين، ونظنه وهمًا، فالصواب حذف الواو؛ ذلك أن أبا مروان الأديب المرادي هو عبد الملك بن سعيد، وذكر الكتاني في التشبيهات وفاته سنة ٣٦٦هـ وذكر أن هذه السنة تسمى سنة الأدباء (ص٣١١)، وله ترجمة في جذوة المقتبس للحميدي (٦٣٢)، ويتيمة الدهر للثعالبي ١/ ٣٦٤، وبغية الملتمس (١٠٦٧)، والمغرب لابن سعيد ١/ ٢٣٢، وينظر نفح الطيب ١/ ٣٩٣ و٣/ ١٧٨، ٥٣٧.

(٣) الواو من ر٢.

(٤) من ر٢.

(٥) «وغرائب مستملحة» ليست في ر٢.

ذِكْر اتِّصال محمَّد بن أبي عامر بخِدْمة الحَكَم الـمُستنصِر

قال بعضُ المؤرِّخين: كان اتِّصالُ ابن أبي عامر بالحَكَم، فيما حدَّثني به ابن حُسين الكاتب، والأديبُ أبو إسحاق بن محمد[1] الإفْليليُّ، وغيرُهما من الـمَشيخة: أنّ الحاجب جَعفرَ بن عثمان الـمُصحفيَّ، القائمَ بدولة الحَكَم، خلا في بعض الأيّام بالقاضي محمدِ بن إسحاق بن السَّليم، فشكا إليه ابنُ السليم شَجْوَه بمحمد بن أبي عامر، ووصف له حالَه. فلمّا طلب الحَكَمُ له وكيلًا لولده عبدِ الرحمن الدارج في حياته، ذكر له جعفرٌ ابنَ أبي عامر بخَيْر، ووصف لأمِّ عبد الرحمن جماعةً اختارَتْ منهم ابنَ أبي عامر، وذلك باختيار جعفرٍ له، فنصبه الحَكَمُ لِخِدْمتها وخَدْمةِ ابنها عبد الرحمن.

فلمّا مات عبدُ الرحمن، بَقِيَ في خِدْمة أُمِّه السيِّدة صُبْح[2]، وكانت قد وَلَدَتْ هِشامَ بن الحَكَم، فصُرِف ابن أبي عامر لوَكالته. وكان تقدُّمه[3] أولًا لوكالة الوَلَد عبدِ الرحمن يومَ السبت لتسعٍ خَلَون من ربيع الأول سنة ست وخمسين وثلاث مئة، وأجْرَى عليه في ذلك الوقتَ خمسةَ عشر دينارًا في الشهر مُرَتَّبًا بالوازنة[4]. فبدا من نُصْحه وحُسْنِ نَظَره ما عُرِف له، ثم استأثر اللهُ بعبد الرحمن؛ فصُرِفَ إلى وكالة هشام، يومَ الأربعاء لأربع خلون لرمضان سنة تسع وخمسين وثلاث مئة. وكان قد تقدَّم للنظر في أمانة دار السِّكَّة يومَ السبت لثلاث عشرة ليلة خلت لشوال من سنة ست وخمسين. كانت ولايته أولًا للوكالة، وأضاف له الخزانة، ثم قدَّمه على خطَّة المواريث يومَ الخميس لسبع خلون من المحرم سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة. واستقضاه على كُورة إشبيلية ولَبْلَة وأعمالِـها يومَ الأربعاء لاثنتَيْ عشرة ليلة خلت من ذي الحِجَّة سنة ثمان وخمسين المذكورة.

وفي سنة إحدى وستين وثلاث مئة: قدَّم الخليفة[5] الحَكَمُ الـمُستنصِرُ بالله

---

(١) في ر٢: «بن محمد» ليست في ر٢.

(٢) من ر٢.

(٣) في ر٢: «مقدمه».

(٤) ليست في ر٢.

(٥) من ر٢.

محمدَ[1] بن أبي عامر على الشُّرطة الوُسْطى في جُمادى الآخِرة، وأهاب به إلى الإعانات بالعُدْوة، فاستصلَحَها واستمال أهلَها، وجعله قاضيَ القضاة بالغرب من العُدْوة، وأمر عُمَّالَه وقُوَّاده ألا يُنَفِّذوا شيئًا دونَه[2]، إلّا بمَشورته، ثم أضاف إليه الحَكَمُ النَّظَرَ في الحَشَم، وهو في عِلَّته التي مات فيها بالفالِج.

وقيل أيضًا: إن سَبَب ظهوره كان[3] خِدْمَتَه للسيِّدة صُبْح البَشْكُنِشيَّة، أمِّ عبد الرحمن وهشام، فكانت أقْوى أسبابِه في تنقيل الـمُلْك عمّا قليلٍ إليه[4]؛ فإنه استمال هذه المرأةَ بحُسْن الخِدْمة، ومُوافَقةِ الـمَسَرَّة، وسَعةِ البَذْل في باب الإتْحاف والـمُهاداة، حتى استهواها، وغلب على قلبها، وكانت الغالبة على مَوْلاها، وابنُ أبي عامر يجتهد في برِّها والـمُثابرة على مُلاطَفتها؛ فيُبدع في ذلك، ويأتيها بأشياءَ لم يُعهَد مِثلُها، حتّى لقد صاغ لها قَصْرًا من فَضّة وقتَ ولايته السِّكَّة[5]، عَمِلَ فيه مدّةً، وأنفق فيه مالًا جسيمًا، فجاءَ بديعًا، لم تَرَ العيونُ أعْجَب منه، وحُمِلَ ظاهرًا لأعيُن الناس من دار ابن أبي عامر، وشاهَدَ الناسُ منه منظرًا بديعًا، لم تَرَ العُيونُ أعْجَبَ منه[6]، فتحدَّث الناسُ بشأنه[7] دَهْرًا، ووقع من قلب المرأة مَوْقِعًا لا شيء فوقه، فتزيَّدتْ في بِرِّه، وتكفَّلَتْ بشأنه، حتَّى تحدَّث الناس بشَغَفها به. وقال الحَكَمُ يومًا لبعض ثقاته: ما الذي استَلْطَف به هذا الفَتَى حُرمَنا حتى ملك قلوبَهُنَّ، مع اجتماع زُخْرُف الدنيا عندهنَّ، حتى صِرْنَ لا يَصِفْنَ إلا هَداياهُ، ولا يُرْضيهنَّ إلا ما آتاه؟! إنّه لساحِرٌ عليمٌ، أو خادمٌ لبيبٌ! وإنِّي لخائفٌ على ما بيده!

ثم سُعِيَ به إلى الحَكَم، وقيل عنه: إنه قد أسرع في إتْلاف[8] مال السِّكَّة الموقوف

(١) «المستنصر بالله» ليست في ر٢.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ليست في أ، وينظر المعجب ٧٤.

(٥) ليست في أ.

(٦) «لم تر العيون أعجب منه» ليست في ر٢.

(٧) في ر٢: «بشهادته».

(٨) هذه اللفظة ليست في أ.

قِبَله، فأمره الحَكَمُ بإحضاره ليشاهِدَ سلامتَه[1]، فأظهر الإسراعَ إلى ذلك، وقد استهلك جُملةً من الأموال[2]، فألقى نفسه في جَبْرها[3] على الوزيرِ ابن حُدَيْر في إسلافه إياها[4]، وكان صديقًا له، فياسَرَه فيه، وحمل المالَ إليه من وقته فتمَّم به ما قِبَله، وارتفعت الظِّنَّةُ عنه، فأكذب الحَكَمُ ما رُفِعَ[5] إليه عنه، وازداد عَجَبًا به، وأقرَّه على حاله، فردَّ ابنُ أبي عامر المالَ لابن حُدَيْر من حينه، ولَصِقَ بالحَكَم، وصار في عداد كُفاته.

واشتغل قَلْبُ الحَكَم، آخِرَ أيَّامه، بأمر العُدْوة ومن جَرَّده إليها من عساكره لحرب الأدارِسة وغيرِهم، واغتمَّ لِـمَا خرج من يده في ذلك الوجه من الأموال؛ فقلَّد ابنَ أبي عامر قضاء القُضاة بالغَرْب، وجعله عَيْنًا على العسكر، وأوعز إليه في مهمَّاته، فسار ابنُ أبي عامر إلى هنالك، فحُمِدت آثارُه[6]، وصَحِبَ حينئذٍ وجوهَ العسكر[7] وأشياخَ القبائل وملوكهم، فكانت تلك الحركةُ أوّلَ ظهورِه، وبعد رجوعه منها، لم يَزَل يزداد نُبْلًا، ويرتقي مَنزِلةً، وهو مع ذلك كلِّه يغدو إلى دار جعفر بن عُثْمان الـمُصْحفيِّ وزير الدولة ويروح، ويختصُّ به، ويدَّعي نصيحتَه[8].

وفي سنة ست وستين وثلاث مئة: تُوفِّي الحَكَمُ الـمُستنصِر بالله بعد اتِّصال عِلَّته، وجعفرُ بن عثمان يُدَبِّر سلطانَه إلى حين وفاته، ليلةَ الأحد لثلاث خلون لرمضان من السنة المؤرَّخة[9].

---

(١) في ر٢: «براءته».

(٢) في ر٢: «كثيرًا منه» بدلًا من: «جملة من الأموال».

(٣) في ر٢: «جبره».

(٤) في ر٢: «إياه».

(٥) في ر٢: «وقع»، وما أثبتناه من ر٢.

(٦) في ر٢: «سيرته».

(٧) في ر٢: «الجند».

(٨) في ر٢: «نصحه».

(٩) ينظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٧٧.

خلافة هشام[1] بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر[2]
والدولة العامريّة

نَسَبُه: تقدَّم في خلافة أبيه وجدِّه[3].

كُنْيَتُه: أبو الوليد.

لَقَبُه: المؤيَّد بالله.

أُمُّه: صُبْح البَشْكُنِشِيّة، أُمُّ وَلَدٍ، وكان سيِّدُها الحَكَمُ يُسمِّيها بجَعْفر، وكانت مُغَنِّية[4] حَظِيَّة عنده، وتُوفِّيت في خلافة ابنها هشام.

بويع له يومَ الاثنين لأربع خلون من صَفَر سنة ست وستين بعَهْدٍ من أبيه، وهو ابنُ إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر[5]، وخُلع يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، سنة تسع وتسعين وثلاث مئة؛ فكانت[6] خلافته الأولى، إلى أن قامت الفتنة: ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعةَ أشهر وعشرة أيّام، وفي الخلافة الثانية: سنتَيْن وعشرة أشهر، الجميع[7] الذي كَمُلَ له في المرَّتَيْن ستٌّ وثلاثون سنة وشهران وعشرة أيّام.

صِفَتُه: أبيضُ، أشْهَلُ، أعْين، خفيفُ العارضَيْن، لِحْيَتُه إلى الحُمْرة، حَسَنُ الجسم، قصيرُ الساقَيْن، مائلٌ إلى العبادة والانقباض، مُقبِلٌ على تلاوة القرآن ودَرْسِ العلوم، كثيرُ الصدقات على أهل السِّتْر من الضُّعفاء والمساكين.

---

(١) ينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٧، وجذوة المقتبس ٣٧، والمعجب ٧٢، وتاريخ الإسلام ٩/ ٦٦، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٢٧١، ونفح الطيب ١/ ٣٩٦ وغيرها.

(٢) «بن عبد الرحمن الناصر» ليست في ر٢.

(٣) «نسبه: تقدم في ولاية أبيه وجده» ليست في ر٢.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في كامل ابن الأثير: «ابن عشر سنين» ٨/ ٦٧٧.

(٦) ليست في ر٢.

(٧) ليست في ر٢.

قُضَاتُه: محمَّد بن السَّليم، أَلْفاه قاضيًا لأبيه فأقرَّه على ولايته، ثم أبو بكر بن زَرْب[1]، ثم محمَّد بن يحيى التَّميميُّ، عُرِف بابن بَرْطال[2]، وغَيرُهم.

نَقْشُ خاتَـمِه: «هشام بن الحَكَم، بالله يَعْتَصم».

وتولَّى عَقْدَ الشهادة على الناس في البيعة بين يديه وَكِيلُه وصاحبُ شُرْطَته الوُسْطى والسِّكَّة والمواريث أبو عامر محمَّد بن أبي عامر، بعدما كان قاضيَ الجماعة محمدُ بن إسحاق السَّليم يأخذها على مَن شهد المجلس من الأعْمام وأبنائهم والوزراء وطبقاتِ أهل الخِدْمة ورجالات قريش وأعلامِ أهل الحَضْرة.

فلمَّا كان يومُ السبت السادس من جلوس هشام، وهو العاشر لصَفَر سنة ست وستين وثلاث مئة، قلَّد الخليفةُ هشام حِجابتَه وزيرَ أبيه الأَخَصَّ به[3] أبا الحسن جعفرَ بن عثمان الـمُصْحَفيَّ. وفي هذا اليوم: أنهض الخليفةُ هشامٌ محمدَ بن أبي عامر إلى خُطَّة الوزارة، نقله إليها عن شُرْطَته الوُسطى، وأجراه رسيلًا لحاجبه جعفرٍ في تدبير دولته، فمادَّه محمدٌ[4] شأْوًا، وجرى إلى غايةٍ برَّز فيها دُونَهُ، سابقًا في الحَلْبة، وتخلَّف جعفرٌ عن مَداه[5].

ومن أخبار جعفر بن عثمان الـمُصْحَفيّ: هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نَصْر بن فَوْز بن عبد الله بن كُسَيْلة[6] القَيْسيُّ. وكان لطيفَ المنزلة من الحَكَم الـمُستنصِر بالله، قديمَ الصُّحْبة، قريب الخاصّة، وكان أوَّلُ سبب ذلك تأديبَ والده عثمانَ بن نَصْر للحَكَم في صِباه، واستَخْدَمه في أيّام والده الناصر، واستكتبه، ورقَّاه إلى خُطَّة الشُّرطة الوسطى والنظر في عدَّةٍ من الأعمال والكُوَر. فلمَّا أفْضت الخلافة إلى الحَكَم،

---

(١) هو محمد بن يبقى بن زرب (تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٢٦، وجذوة المقتبس (١٧٠)، وترتيب المدارك ٧/ ١١٤، وتاريخ الإسلام ٨/ ٥٢٩ وغيرها.

(٢) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٣٩، وترتيب المدارك ٦/ ٣٠٧، وتاريخ الإسلام ٨/ ٧٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٧.

(٣) من ر٢.

(٤) في ر٢: «فمده».

(٥) في ر٢: «هذا».

(٦) ليس في ر٢.

قلَّده، بعد ثلاثة أيام من خلافته، خُطَّةَ الوزارة، وأمضاه على الكتابة الخاصَّة، ثم جمع له الكتابةَ العُلْيا بالخاصَّة، وولَّى ابنَيْه[1] الأعمالَ الكبار.

وكان جعفرُ بن عثمان أحدَ شُعراء الأندلس الـمُحسِنين، المتصرِّفين في أنواع الشِّعْر من المديح والأوصاف والغَزَل، غايةً في كلِّ ذلك في الرِّقَّة والإبداع والحُسْن. وقد تقدَّم قولُه مُرْتَجِلًا: «هنيئًا للإمام وللأنام»، وقولُه مُرْتَجلًا: «تطَلَّع البَدْرُ من حجابه»، وغيرُ ذلك.

قال ابنُ بسام: كان جعفرُ بن عثمان رجلًا بلغَ الـمُنتهى، وسُوِّغَ بُرْهةً من دَهْرِه ما اشتهى، دون مَجْدٍ تفرَّع من دَوْحتِه، ولا فَخْرٍ نشأَ بين مَغْداه[2] ورَوْحتِه، فسَمَا دون سابقة[3]، وارتقى[4] إلى رُتبةٍ لم تكن لبَيْتَتِه[5] مُطابِقة، فلم يزل يستقلُّ ويَضطلع[6]، وينتقل من مَطْلِع إلى مطلع، حتى التاح في أُفق الخلافة، وارتاح إليها بعِطْفها[7] كنَشْوان السُّلافة، وحجب الإمام، وانسكب برأيه ذلك الغَمام، فأدرك بذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائلَ والشَّرَك، واقتنى وادَّخر[8]، وأزرى بمن سِواه وسخر. واستعطفه محمد[9] بن أبي عامر، ونَجْمُه غابرٌ لم يَلُحْ، وسِرُّه مكتومٌ لم يَبُحْ، فما أقبل عليه ولا عَطَف، ولا جَنى من رَوْضة[10] دنياه زَهْرةَ أملٍ ولا قَطَف، وأقامَ في تدبير الأندلس، وهو يَجْري من السَّعد في مَيدان رَحْب، ويكرع من العزِّ في مشرب عَذْب.

---

(١) في ر٢: «بنيه».

(٢) في ر٢: «مقداره».

(٣) في ر٢: «سابقة».

(٤) في ر٢: «وارتمى».

(٥) في ر٢: «لبنيته».

(٦) في ر٢: «ويُضلع».

(٧) في ر٢: «إليه معطفها».

(٨) في ر٢: «ودخر».

(٩) «محمد» ليس في ر٢.

(١٠) في ر٢: «زهرة».

وكان له أدَبٌ بارع، وخاطِرٌ إلى نَظْم المحاسن مُسارِع، فمن ذلك: ما بعثه عليه إيناسُ دَهْره وإسْعادُه، وقاله حين ألْـهَتْه سَلْمَاهُ وسُعادُه [من الطويل]:

لِعَيْنِـــكِ في قَلبِـــي عَـــليَّ عُيُـــونُ ... وبَـــيْنَ ضُـــلُوعِي للـــشُّجُونِ فُنُـــونُ

لَئِنْ كان جِسْمي مُخْلَقًا في يَدِ الـــهَوَى ... فحُبُّـــكِ غَـــضٌّ في الفُـــؤادِ مَـــصُونُ

وله، وقد أصبح يومًا عاكفًا على حُمَيَّاه، هاتفًا بإجابة[1] دُنْياه، مرتَشفًا ثُغُورَ الأنسِ متنسِّما[2] ريَّاه، والـمُلْكُ يُغازِله بطَرْفٍ عَلِيل، ويُبرم من أُنسه كلَّ نَحِيل، والسَّعْد قد عقد عليه أيَّ إكليل، يَصِفُ لَونَ مُدامِه[3]، وما يعرف منها دون نِدامِه، فقال [من الكامل]:

صَفْراءُ تَبْرُقُ في الزُّجاج فـإنْ سَرَتْ ... في الجـسم دبَّـتْ مِثْـلَ صِـلٍّ لادِغِ

عَبَـثَ الزمـانُ بحُـسْنِها فتـستَّرَتْ ... عـن عَيْنـه في ثَـوْبِ نُـورٍ سابِـغِ

خَفِيَـــتْ عـــلى شُرَّابِهـــا فكـــأنَّما ... يَجِـــدُونَ رِيًّـــا في إنـــاءٍ فـــارِغِ

واستمرَّ في حجابته، ومرَّ بين سَمْع الدهر وإجابتِه، والنفوس[4] العَلِيَّة من تناهي حاله متغيِّرة، وفي تكيُّف[5] سعده متحيِّرة. ولم يزل لنجاد تلك الخلافة مُعْتَقِلًا، وفي مَطالعها مُنْتَقِلًا، إلى أن تُوفِّي الحَكَم، فانفصم عِقْدُه الـمُحكَم، وانبرت إليه النوائب، وتسدَّدت[6] له الخطوب بسهامٍ صوائب، واستولى عليه الكَسَل، وأسرعتْ إليه الذوابلُ والأسَل، وتَعاوَرَه الإدبار، وساوره من المكروه ما فيه اعتبار، وانتقل إلى المنصور ذلك الأمْر، واختصَّ به كما اختصَّ بيزيدَ أخيه الغَمْر، وأنافَ في تلك الخلافة كما

---

(١) في ر٢: «بلذة».

(٢) في ر٢: «منتشقًا».

(٣) في ر٢: «شرابه».

(٤) في ر٢: «ونفوس».

(٥) في ر٢: «تكييف».

(٦) في ر٢: «وتسردت».

شبَّ قبل اليوم عن طَوْقه عَمْرو، فاعتقل بتلك[1] النِّجاد، واستبدَّ به دون أولئكَ الأمجاد، وانبرى إلى الـمُصْحَفيِّ بصَدْرٍ كان قد أوغره، وجدٍّ سامٍ طالما استقصره[2]، فأباده ونكبَه، وسلبَ جاهَه وانتهبه، واقتصَّ من تلك الإساءة، وأغصَّ حَلْقه بكلِّ مساءة، وألهب جوانحَه حَزَنًا، ونهبَ له مُدَّخَرًا ومُختزَنًا، ودمَّر عليه ما كان حاط، وأحاط به من مكروهه ما أحاط، فبقي سنين في مهوى النكبة، وجَوَى تلك الكُربة، ينقله المنصورُ معه في غَزَواته، ويعتقله بين أظفار التضييق أو في لَـهَواته، وهو يستعطفُ ويستميل، فلا يَتحقَّق له رجاءٌ ولا تأميل، إلى أن تكوَّرتْ شَمْسُه، وفاضت بين أنياب المِحَن نَفْسُه، فاغتِيلَ في الـمُطْبَق، ونفذ فيه أمرُ الله وسَبَق.

بعض أخبار المنصور محمد بن أبي عامر في ابتدائه[3]

نَسَبُه: هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبدِ الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمدِ بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الداخلِ إلى الأندلس مع طارق، وكان له في فتحها أثرٌ جميلٌ، وكان في قومه وَسِيطًا، وقد ذكره محمدُ بن حُسَيْن الشاعر العالم بأخبار الأندلس في بعض أمداحه للمنصور هذا، فقال [من الطويل]:

وكُـلُّ عَـدُوٍّ أنـت تَهْـدِمُ عَرْشَـهُ ... وكُـلُّ فُتُـوحٍ عنـك يُفْـتَحُ بابُهـا
وإنَّك من عبـد الـمَلِيك الـذي لـه ... حُـلَى فَـتْحِ قَرْطَاجَنَّـةٍ وانْتِهابُهـا
جَبَاهـا أبـو مَـروانَ جَـدُّك قابـضًا ... بكـفٍّ تَلِيـدٌ طَعْنُهـا وضِرابُهـا
فإنْ سَنَحَتْ في الشِّرْكِ من بَعْدِ فَتحِهِ ... فُتُـوحٌ فمَـصْرُوفٌ إليـك ثَوابُهـا

(١) في ر٢: «بذلك».

(٢) في ر٢: «استنصره».

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (١٢١)، وبغية الملتمس (٢٤٢)، والمعجب ٧٢، والكامل لابن الأثير ٨/ ٦٧٧، والحلة السيراء ١/ ٢٦٨، وتاريخ الإسلام ٨/ ٧٣١، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٥، والوافي بالوفيات ٣/ ٣١٢، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٤٧، ونفح الطيب ١/ ٣٩٦ و٢/ ٢٦٠ وغيرها.

وجدُّه عبدُ الملك هو الذي دخل مع طارقٍ ونزل الجزيرةَ الخضراء لأوَّل الفَتْح، فسادَ أهْلَها، وكَثُرَ عَقِبُه فيها، وتكرَّرت فيهم النَّباهةُ والوجاهة، وجاوَرَ الخلفاءَ منهم بقُرطُبة جماعةٌ أَحَدُهم أبو عامر محمد بن الوليد، الذي عُرِف آلُ عامر طُرًّا به. وساد بعده ولدُه عامر، وتقدَّم عند الخلفاء، ووُلِّيَ الأعمال، ومات بقُرطُبة، وباسمِهِ نَقَشَ محمدٌ السِّكَك، ورَقَمَ الأعلام. وكان عبدُ الله الـمَكْنيُّ بأبي حفص، والدُ محمدٍ المنصور، من أهل الدِّين والزُّهْد في الدنيا والقعودِ عن السلطان، سمع الحديثَ، وأدَّى الفريضة، ومات مُنصرفًا من حَجِّه بمدينة أطْرَابُلُس المغرب، وأصهر التَّمِيميِّين المعروفين بقُرْطُبة ببني بَرْطال، فنكح بُرَيْهَةَ بنتَ يحيى بن زَكَريّا، فولدتْ له أبا عامر المنصور، وأخاه يحيى. وكانت أُمُّ عبد الله، والدِ المنصور، بنتَ الوزير يحيى بنِ إسحاق، وزيرِ الناصر لدين الله وطبيبه.

وكان محمَّدٌ هذا حَسَنَ النشْأة، ظاهر النجابة، تُتفرَّس فيه السِّيادة، سلكَ سبيلَ القُضاة في أوَّليَّته، مُقتفيًا آثار عُمُومته وخؤولته، فطلب الحديثَ في حداثته، وقرأ الأدب، وقيَّد اللُّغاتِ على أبي عليٍّ البغدادِيّ، وعلى أبي بكر بن القُوطِيَّة. وقرأ الحديثَ على أبي بكر بن مُعاوية القُرَشِيِّ[1]، راوية النسائيِّ، وعلى[2] غيرِه من رُؤساء أهل المشرق، وبرع بُروعًا أدناه، مع نوازع سَعْدٍ وبوادِرِ حَظٍّ، من الـحَكَم الـمُستنصِر، فقرَّبه وصرَّفه في مُهِمِّ الأمانات وأصنافها، فاجتهد وبرَّز في كلِّ ما قلَّده، واضطلع بجميع ما حمَّله.

وكان الـحَكَمُ، لشدَّة نظره في الـحَدَثان، يتخيَّل في محمَّد بن أبي عامر أكثرَ الصِّفات[3] الـمُجْتَمِعة إلى النَّسَب والبلدة. وكان يَـجِدُ القائمَ عليهم[4] من الجزيرة الخضراء، أصفرَ الكفَّيْن، فيقول لخاصَّته: «ألَا تَرَوْنَ صُفْرة كفَّيْه؟» فإذا قالوا له: «أرِحْ نفسك منه» يقول: «لو كانت به شَجَّةٌ، لكانت تَكْمِلَةَ صِفاته». فكان من قَدَرِ الله أنْ حدثَت الشجَّة بمحمَّدٍ بعد موت الـحَكَم بضربةِ غالبِ الناصِريِّ له، وبها تمَّ الأثَرُ فيه، كما أنَّ الـحَكَمَ قد كان وقف في الأثَر على البُقْعة السعيدة[5] التي بُنِيَتْ فيها

(١) هو المعروف بابن الأحمر، وقد وصلت إلينا روايته للسنن الكبرى للنسائي.

(٢) من ر٢.

(٣) في ر٢: «الصفة».

(٤) من ر٢.

(٥) هذه اللفظة ليست في أ.

الزاهِرة، وكانت ملوكُ المروانيَّة تتخوَّف ذلك، وكان الـمُجْهِرَ[١] بشأنها الخليفةُ[٢] الـحَكَم، فنظر في أمرها، وهي البُقْعة المعروفة بألَش، بفتح اللام[٣]، وهي بغربِيِّ قُرْطُبة، ووجد انتقالَ الـمُلْك إليها، فأمر حاجِبَه جعفرًا بالسَّبْق إليها والشروع في بنائها؛ طمعًا في مَزيَّة سَعْدها، وأن لا يُـخْرِجَ الأمْرَ عن يد ولده، وأنفق عليها مالًا عظيمًا، فكان من غريب الأُمور أنَّ محمَّد بن أبي عامر تولَّى النظرَ في شأنها مع مَن نظر فيها، وهو يومئذٍ في حال الفُتُوَّة والاحتياج، ولا يُعْلَم يومئذٍ به. فسُبْحانَ مَن يُؤْتي مُلكه مَن يشاءُ.

ثم وَقَع[٤] إلى الـحَكَم أنَّ البُقْعة بغير ذلك الموضع، وأنَّها بشرقِيِّ مدينة قُرْطُبة، فأنفذ ثِقَتَه محمَّدَ بن نَصْر بن خالد للوقوف عليها، وانتهى إلى منزل أبي بَدْر المسمَّى بأُلُش مضمومة اللام[٥]، وأصاب[٦] هنالك عجوزًا مُسِنَّةً وافقَتْه[٧] على حدِّ الارتياد، وقالت له: «سمعنا قديمًا أنَّ مدينةً تُبْنَى هنا، ويكون على هذا البِئْر نزولُ مَلِكها». فعاد إليه محمَّدُ بن نَصْر بالـجَلِيَّة، فلم تَطُل المدَّة حتى بناها ابنُ أبي عامر، وتَبَوَّأ أرْجاء ذلك البِئْر قَرارةً. وكان المنصورُ على ثِقة[٨] من سُرْعة انتقال الـمُلْك إليه، لا يشكُّ في ذلك؛ لأنَّه تمكَّن من مُطالعة ما كان عند الـحَكَم، فوقف على الـجَلِيّة.

ولم يزل الـحَكَم يُقَدِّم محمَّدًا ويُؤْثِره، إلى أن وَلِـيَ العَهْدَ ابنُه هشامٌ، فزاد مقدارُه لخاصَّته بولـيِّ العَهْد ومكانِه من السَّيِّدة والدته، فاحتاجَ الناسُ إليه، وغَشَوْا بابَه، فأنساهم مَن سلف من أصحاب السلطان سعَةَ إسعافٍ، وكَرَمَ لقاء، وسهُولةَ حِجاب، وحُسْنَ أخلاق؛ فعَرُضَ جاهُه، وعُمِرَ بابُه، واتَّسع في بناء داره بالرُّصافة، واتَّـخذ الكُتَّاب الـجِلَّة، واستصحب سَرَاة الصحابة. وكانت مائدتُه موضوعةً لمن

---

(١) في ر٢: «ألهجهم».

(٢) ليست في ر٢.

(٣) «بفتح اللام» من ر٢.

(٤) في م: «رفع» وما أثبتناه من النسختين.

(٥) «مضموم اللام» من ر٢.

(٦) في ر٢: «ووجد».

(٧) في ر٢: «أوقفته».

(٨) في ر٢: «يقين».

يَنتاب دارَه، وهِمَّتُه تترامى إلى وراء ما ينالُه، وهو في هذا كلِّه يغدو إلى دار جعفرِ بن عثمان الـمُصْحَفيِّ ويروح، ويُصبِح ببابه ويختصُّ به.

ثمَّ اتَّصلت عِلَّة الخليفة الـحَكَم من الفالِج، وجعفرٌ يُدِير سُلطانه. ووقع إرجافٌ بموت الـحَكَم، فأشار محمَّد بن أبي عامر على جعفر بن عثمان باستِرْكاب وليِّ العَهْد هشام في ذلك اليوم في الجيش؛ إرهابًا لأهل الخلاف، ففعل وركب في الناس رَكْبَتَه المشهورة، ومحمَّد بن أبي عامر بين يديه، قد كساه الـخَزَّ، ونقله إلى أكابر أهل الـخِدْمة.

وأمر وليُّ العَهْد هشامٌ في ذلك اليوم، وهو العاشر لصفر من سنة ست وستين، بإسقاط ضريبة الزَّيْتُون المأخوذةِ في الزيت بقُرْطُبة، وكانت إلى الناس مُسْتكْرَهةً، فسُرُّوا بذلك أعظمَ سرور. ونُسِب شأنُها إلى محمَّد بن أبي عامر، وأنَّه أشار بذلك، فأحبُّوه لذلك. ولم تزل الـهِمَّة تَـحْذُوه، والجدُّ يُحظِيه، والقضاءُ يُساعِده، والسياسةُ الـحَسَنة لا تُفارِقه، حتَّى قام بتدبير الخلافة، وأقعد مَن كان له فيها إنافة، وساس الأُمورَ أحسن سياسة، وداس الخطوبَ بأخشن[١] دِياسة؛ فانتظمتْ له الممالِك، واتَّضحت به المسالِك، وانتشر الأمنُ في كلِّ طريق، واستشعر اليُمْنَ كلُّ فريق. وأسقط جعفرًا الـمُصْحفيَّ جُملةً[٢]، وعمل فيه ما أراده.

فأوَّلُ عُرْوة فَصَمَها من عُرَى المملكة: عُرْوةُ الصَّقَالِبة الـخَدَم بالقصر موضعِ الخلافة، وكانوا أبْهَى حُلَل المملكة، وأخصَّ عُدَدها، عُنِي الخلفاءُ بجمعهم والاستكثار منهم، وكانوا خاصَّةَ الناصر والـحَكَم بعده، حتَّى لقد ظهرتْ منهم في زمن الـحَكَم أُمورٌ قبيحةٌ أغْضَى عنها مع إيثاره العَدْل واطِّراح الـجَوْر بالـجُملة[٣]، وكان يقول: «هُمْ أُمَناؤُنا وثِقاتُنا على الـحُرَم، فينبغي للرعيَّة أن تَلِينَ لهم، وتَرفُقَ في مُعاملتهم، فتَسْلَم من مَعَرَّتهم؛ إذ ليس يمكننا في كلِّ وقت الإنكارُ عليهم».

ولـمَّا مات الـحَكَم، كان الصَّقَالِبة أكثرَ جَمْعًا وأحَدَّ شوكةً، يظنُّون أن لا غالبَ لهم، وأنَّ الـمُلْك بأيديهم. وكانوا نَيِّفًا على الألف مُـجْبُوب، فحَسْبُك بها يَتْبعهم، وكان رأسَهم

---

(١) في ر٢: «أحسن».

(٢) من ر٢.

(٣) قوله: «واطراح الجور بالجملة» ليس في ر٢.

فائقٌ المعروف بالنِّظاميِّ، صاحبُ البُرُد والطِّراز، ويليه صاحبه جُؤذَر صاحبُ الصاغة والبَيازِرة، وإليهما كان أمرُ الغلمان الفحول بخارج القصر. وكان قد جرى بين فائقٍ وجُؤذَر مع الحاجب جعفر الـمُصْحَفيِّ إثرَ[1] موت الـحَكَم ما أذْكُرُه: وذلك أنه لـمَّا تُوفِّي الـحَكَم، خفي موتُه على وزيره جعفرٍ وسائر أهل المملكة[2]؛ لطول تردُّده في العِلَّة، وتفرَّدَ بعِلْم ذلك في وقته خادِماه الخاصَّان به: فائقٌ وجُؤْذَر، فاستظهرا بكتمان ذلك، وتقدَّما في ضبط الدار، وخَلَوَا للتشاور، وقد عزما على ردِّ الأمر للمُغيرة بن الناصر، أخي مولاهما الـحَكَم؛ خَشْيةً من انتثاره على ابنه هشام؛ لصغر سنِّه، وإنكارِ الناس لتقديمه[3]، على أن يُقِرَّ ابنَ أخيه هشامًا على العهد بعده؛ فيَمُنَّا على الـمُغيرة بسَوْق الخلافة إليه، ويفيا لمولاهما بارتقاب كِبَر ولده، ويكون الـمُلْك في أيديهما بحاله[4]، وكان رأيًا حسنًا لو أراد الله به.

فلمَّا اتَّفقا على ذلك، قال جُؤذَر لفائق: «ينبغي أن نُحْضِر جعفرَ بن عثمان الحاجب، فنضربَ عُنقَه، فبذلك يَتِمُّ أمرُنا»، فقال له فائق: «سُبحانَ الله يا أخِي! تُشير بقتلِ حاجب[5] مولانا وشيخٍ من مشيختنا دون ذَنْب! ولعلَّه لا يُخالفنا فيما نريده، مع افتتاحنا الأمرَ بسَفْك الدم!»، فأرسلا في جعفر بن عثمان، فحضر، ونعيا إليه الـحَكَم، وعرضا عليه ما أجمعا عليه من الرأي، فقال لهما جعفر: «هذا، والله، أسَدُّ رأيٍ وأوْفَقُ عَمَل، والأمْر أمْركما، وأنا وغيري فيه تَبَعٌ لكما، فاعزما على ما أردتما، واستَعِينا بمشورة المشيخة؛ فهي أنْفَى للخلاف، وأنا أسيرُ إلى الباب، فأضبِطُه بنفسي، وأنفِذا أمْركما إليَّ بما شئتما». وخرج عنهما، فضبط بابَ القصر، وتقدَّم في إحضار أصحاب[6] الهاشِميَّة مِثْل زيادِ بن أفْلَح مولى الـحَكَم، وقاسم بن محمَّد، ومحمَّدِ بن أبي عامر، وهشام بن محمَّد بن عثمان، وأشباهِهم، واستدعى بني بِرْزال؛ إذْ كانوا بِطانتَه من سائر الـجُند، واستحضر سائرَ قُوَّاد

---

(١) في ر٢: «بعد».

(٢) في ر٢: «الدولة».

(٣) «وإنكار الناس لتقديمه» ليس في ر٢.

(٤) «ويكون الملك في أيديهما بحاله» ليس في ر٢.

(٥) في ر٢: «كاتب».

٦)) في أ: «أصحابه».

الأجناد الأحرار، فاجتمع له من هذه الطوائف ما شدَّ رُكْنَه وقوَّى أيْده، فنعى لهم الخليفة، وعرَّفهم مذهبَ الصَّقالِبة في نَكْث بَيْعة هشام، وأقبل بُثْبِّت أصحابه، وقال لهم[1]: «إن حَبَسْنا الدولة على هشام، أَمِنَّا على أنفسنا، وصارت الدُّنيا في أيدينا، وإن انتقلتْ إلى الـمُغيرة استبدَلَ بنا، وطلب شِفاء أحقاده»[2]. فأشار عليه أصحابُه بقتل الـمُغيرة قَبْل أن يَبلُغَه موت[3] أخيه، فتُمْكِنَه الحيلة. فعمل برأيهم؛ فتَوافَقُوا[4] فيما بَيْنهم النهوضَ إلى قتله، فكفُّوا وجَبُنُوا، فبَدَرَهم محمدُ بن أبي عامر وقال: «يا قوم إنِّي أخاف فسادَ أمركم[5]، ونحن تبعٌ لهذا الرئيس، وأشار إلى جعفر، فينبغي ألَّا نختلفَ عليه، وأنا أتحمَّل ذلك عنكم إن أنفذني[6]، فخَفِّضوا عليكم»، فأعجَب جعفرًا والجماعةَ ما كان منه، وولَّوه شأنَه، وقالوا له: «أنت أحقُّ بتَوَلِّي كِبْرِه؛ لخاصَّتك بالخليفة هشام ومَـحَلِّك من الدولة»، فأرسل جعفرٌ معه طائفةً من الـجُنْد الأحرار، وثِقَ بهم لذلك.

مقتل الـمُغِيرة بن عبد الرحمن الناصر، رحمه الله[7]

فركب محمَّدُ بن أبي عامر إلى الـمُغِيرة من ساعته، وركب معه بَدْرٌ القائد مَوْلى الناصر في مئة غلام من غِلْمان السلطان، ووقف لهم خارجَ باب[8] دار الـمُغِيرة، وأحاط سِوَاهُ من أصحاب محمَّدٍ بجهاتها، واقتحم محمَّد عليه، فوجده مُطمئنًّا على غير استعداد، فنعَى إليه أخاه الـحَكَم، وعرَّفه بجلوس ابنه هشام في الخلافة، وأنَّ الوزراءَ خَشُوا خلافَه، فأنفذوه لامتحان القِصَّة. فاشتدَّ ذُعْرُه، ثمَّ استرجع عليه، واستبشر بمُلْك ابن أخيه، وقال: «أعلِمْهم أنِّي سامعٌ مُطيعٌ وافٍ ببيعتي، فتوثَّقوا[9] مني كيف شئتم»،

(١) في ر٢: «ويقول».
(٢) في ر٢: «أجناده».
(٣) في ر٢: «خبر».
(٤) في أ: «فتدافعوا».
(٥) في ر٢: «رأيكم».
(٦) في ر٢: «إن اجذبني إليه».
(٧) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢٠٤.
(٨) ليس في ر٢.
(٩) في ر٢: «فاستوثقوا».

وأقبَلَ يستلطفُ ابنَ أبي عامر، ويُناشده الله في دمه، ويسأله المراجعةَ في أمره، حتَّى رقَّ له محمَّد، وكتب إلى جعفر يَصْدُقه عنه ويَصِفُ له الصورةَ التي وجده عليها من السلامة والطمأنينة، ويستأذنه في شأنه، فردَّ عليه جعفرٌ يلومه في التأخير، ويَعزِمُ عليه في التصميم، ويقول له: «غررْتَنا من نفسك، فانْفُذْ لشأنك، أو فانصرفْ، نُرسِلْ سِوَاكَ» فحميَ محمَّد لجوابه، وعرض الرُّقعةَ على الـمُغِيرة، وجعلها بيده، وزال عن وجهه، وأدخل عليه تلك الطَّبَقَة، فقتلوه خَنْقًا في مجلسه، وعلَّقوا جسده في مَـخْدع يتَّصل بمجلسه، كهَيْئَة الـمُختَنِق من تِلْقاء نفسه، وذلك كلُّه بمُعاينة حُرَمه، ثمَّ أشاعوا أنَّه خنقَ نفسَهُ، لـمَّا أكرَهُوه على الرُّكوب لابن أخيه، فطاح دَمُه على هذه الصورة. وكان سِنُّه يومَ قُتِل سبعًا وعشرين سنة. ثمَّ أمر محمد عيالَهُ[1] بإخفاء ذلك، وأمرَهم بدفنه في مجلسه، وأن يسدُّوا أبوابَهم، فيأمنوا بذلك على وَلَده ونِعْمَته.

وعاد ابنُ أبي عامر إلى جعفر بالقِصَّة، فطابت نفسُه، وصيَّر محمَّدًا إلى جانبه، وشكره.

ووصل الحادثُ على الـمُغِيرة إلى جُؤذَر وفائق، فدَهِشا، وسُقِطَ في أيديهما، وقال جؤذَر لفائق: «قد نصحتُ لك[2]، فلم تسمعْ منِّي»، وكان أكملَ دهاءً منه[3]. فانكَفَآ إلى جعفر، فأظهرا له السلامةَ والاستبشار بما أتاه، والاعتذارَ ممَّا رأياه، وقالا له: «إنَّ الـجَزَعَ أذهَلَنا عَمَّا أرشدك الله إليه، فجزاك الله عن ابن مَوْلانا خيرًا، وعن دولتنا وعن المسلمين»، فأظهر لهما بعضَ القَبُول. وانغمس جعفرٌ في الشغل بأمر البيعة أيَّامًا، وفي نفسه للصَّقالِبة ما لا تُهَنِّيه معه عِيشةٌ، وفي أنفسهم له أبْرَحُ لَوْعة.

وأجلس جعفرٌ هشامَ بن الـحَكَم للبَيْعة بالخلافة صبيحةَ يوم الاثنين لأربع خلون من صَفَر سنة ست وستين وثلاث مئة، ودعا الناسَ ابنُ أبي عامر للبيعة، فلم يختلفْ عليه اثنان. فكان لابن أبي عامر في أخْذها[4] أثَرٌ كبير، تذاكره[5] الناسُ، وعلا شأنُه ومكانه، وبَعُد في الناس صِيتُه.

---

(١) في أ، م: «ثم تقدم محمدٌ».

(٢) في ر٢: «قد نصحتك».

(٣) «وكان أكمل دهاءً منه» ليس في ر٢.

(٤) في ر٢: «ذلك».

(٥) في ر٢: «تداركه».

بعض أخبار الصَّقالِبة مع محمد[1] بن أبي عامر

وذلك أنَّه لـمَّا تمكَّنت الوَحْشةُ ما بين جعفرٍ والصقالِبة؛ انحرفوا عنه، وكرهوا ولاية هشام، فأخذ جعفرٌ حِذْرَه منهم، وأذكى العيونَ، وبلغه أنَّ جُؤذَرًا وفائقًا يُدبِّران على الدولة، ويَدسَّان في ذلك إلى بعض مَن في قيادتهما من وجوهِ الغلمان والفُحولة، وكان الدخولُ والخروج إليهما على باب الحديد، فأمَر الحاجبُ[2] جعفر الـمُصْحفيُّ[3] بسَدِّه بالـحَجَر[4]، وصيَّر دخولَ الناس على باب السُّدَّة؛ فحَسَم شرَّ الصقالبة، وصيَّرهم تحت الرِّقْبة. ونظر[5] جعفرٌ في إزالة الغلمان الفحولة عن رَسْم هذَيْن الصَّقلبيَّيْن بمواطأة محمَّدِ بن أبي عامر، ودس محمَّدًا إلى مَن طلبهم له، فتقدَّم عليهم محمَّدُ بن أبي عامر، فكان يطَأُ عَقِبَهُ منهم خمس مئة غلام، فاشتدَّ بهم أزْرُه، وفَخُمَ أمرُه، وقدَّمهم في الإنزال والعطاء، فأحبُّوه[6]، ثمَّ انقلب بنو بِرْزال إلى محمَّد بن أبي عامر، وصاروا في قيادته؛ فاعتزَّ بالطائفتَيْن، وقهر عدوَّه، وتبعه سائرُ الـجُنْد؛ فهان أمْرُ الصَّقالِبة عنده.

ثمَّ إن جُؤذَرًا الفتَى استأذن السلطانَ في الخروج إلى داره مُستعفيًا من الـخِدْمة، وهو يظُنُّ أنَّه لا يُجاب إلى ذلك، فأذن له في الخروج، فاشتدَّ وعيدُ أصحابه، وزاد كلامُهم، وكان أجسرَهم على ذلك دُرِّيٌّ الفَتى الصغير؛ لِـما فيه من التمرُّد والجهالة، فحرَّك جعفرٌ ابنَ أبي عامر لإزالته والراحة منه، وقال: «حاوِلْ عليه»[7]، فدسَّ ابنُ أبي عامر[8] إلى رعيَّته بِبَيَّاسة، وأمَرَهم بالشَّكْوى به وبعُمَّاله، ووعدهم العُدْوَى عليه والإراحة من جَوْره، فسارعوا إلى ذلك. ورفع الحاجبُ جعفر قصَّتَه إلى السلطان،

---

(١) من ر٢.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) كذلك.

(٤) كذلك.

(٥) في ر٢: «ثم نظر».

(٦) هذه اللفظة من ر٢.

(٧) قوله: «وقال: حاول عليه» ليس في أ.

(٨) من ر٢.

وقد أحكم ابنُ أبي عامر شأنَ[1] التدبير عليه، فخرج التوقيعُ بالـجَمْع بين دُرِّيٍّ وبينهم، والنظر في مَصَالحهم، فاستُدعي دُرِّيٌّ إلى بيت الوزارة، فلمَّا أشرف على الدار، ورأى مَنْ أُعِدَّ فيها، أحسَّ بالشرِّ؛ فخَنَسَ راجعًا، فمنعه ابنُ أبي عامر، وقبض عليه، فتَجَاذَبا، فبطش دُرِّيٌّ بابن أبي عامر، وقبض على لحيته، فصاح محمَّدُ بن أبي عامر بمن حضر من الـجُنْد، فاحتشم الأندلسيُّون دُرِّيًّا، وأسرع بنو بِرْزال إلى إجابته، فتقدَّموا إلى دُرِّيٍّ، فأوجعوه ضَرْبًا، ولـحِقَتْه ضربةٌ بصَفْح السيف، أزالت عقلَه، وحُمِل للوقت إلى داره، فعُوجِل من ليلته بالقَتْل. وأمَرَ في الوقت فائقًا وجماعةً من كبارهم بالخروج إلى ديارهم والتزامِها، فخرجوا إليها. وانحصدت شوكةُ الصَّقالِبة حينئذٍ، وفُلَّ حَدُّهم، وتجرَّد ابنُ أبي عامر لطلبهم، فاستَخرجَ منهم أموالًا جمَّةً. وآلَتْ حالُ فائق إلى أن صُيِّرَ إلى الجزائر الشرقيَّة، فمات هنالك.

وفي خروج الصَّقالِبة من القَصْر، يقول سعيدٌ الشَّنْتَرِينيُّ الشاعر [من السريع]:

أُخْـرِجَ مـن قَـصْرِ إمـامِ الـهُدَى ... كُـلُّ فَتًـى مُنْبَـسِطٍ جـائِرِ
فمَـنْ رَأيْنـا مِـنْهُمُ قـال: لا ... مِسَاسِ، فِعْلَ الناسِ بالسَّامري[2]
فَخَـفَّ ظَهْـرُ الـمَلِكِ الـمُرْتَضى ... قَـدْ خَـفَّ مـن ثِقْلِهِـمُ الظـاهِرِ
وسَـالَ مـاءُ العِلْـمِ مـن وَجْهِـهِ ... مُـذْ زَالَ مـن جَهْلِهِـمُ[3] الخـاثِرِ
فـلازَمَ الإقْـرَاءَ[4] في قـصره ... مَـعَ الـوزيرِ الـخَيِّرِ الطـاهِرِ

وقَلَّد جعفرٌ الـمُصْحفيُّ أمْرَ القصر والـحُرَم، بعد إخراج هؤلاء الفتيان، سُكَّرًا صاحبَهم، فسكَّن أنفسَ الصَّقالِبة، وأجْرَاهم على الطاعة، فأصغَوْا إليه[5]، إلى أن استهاجهم[6] جُؤذَرٌ الفتَى عظيمُهم عند الظهور الذي هَمَّ به.

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في أ: «بالشاكر».

(٣) في أ: «مال من خلهم».

(٤) في أ: «الميدان».

(٥) «فأصغوا إليه» ليست في ر٢.

(٦) في ر٢: «استباحهم».

فلمَّا تمَّ لابن أبي عامر تدبيُره في الصقالبة، جعل يتوصَّل إلى تقلُّد جيش المملكة[1]، والقيام بجهاد العدوِّ دون الجماعة، وكان العدوُّ جاس بلادَ المسلمين، وطمع في انتهاز الفُرْصة فيهم، فأنِف ابنُ أبي عامر من ذلك، وأشار على الحاجب جعفرٍ بتجهيز الجيش والاعتداد للجهاد، وعرضَ القيامَ به على جميع الأكابر، فكلُّهم كَعَّ عنه إلّا ابنَ أبي عامر، فإنَّه بادر إليه على أن يختار مَنْ يخرج معه من الرجال، ويتجهَّزَ لغزوه بمئة ألف دينار، فاستكثر ذلك بعضُ مَن حضر، فقال له محمَّد بن أبي عامر: «خُذْ ضِعْفَها وامْضِ، ولْيَحْسُنْ غَناؤُكَ!»، فَخَامَ الـمُعترِض عن ذلك، وسُلِّم الجيشُ والمال إلى ابن أبي عامر.

غزوة محمَّد بن أبي عامر الأُولى

فخرج[2] لثلاث خلون من رَجَب من سنة ست وستين وثلاث مئة، ودخلَ على الثَّغر الـجَوْفيِّ، فنازل حصنَ الحامَّة من جِلِّيقِيَّة، فحاصَرهُ، وأخذَ ربَضَه، وغَنِمَ وسبَى، وقَفَلَ بالسَّبْي والغنائم إلى قُرْطُبة إلى ثلاثة وخمسين يومًا، فعظُمَ السرورُ به، وأُخْلِص الجندُ له؛ لِـما رأوا من كثرة جُوده، وكرم عِشْرته، وسَعَة مائدته، فأحبُّوه والتفُّوا به، وكثر إحسانُه إليهم وإفضاله عليهم، إلى أن أدرك بهم سُوْلَه، وبلغ مأمُولَه[3].

ذكر نَكْبة الحاجب جعفر بن عُثمان[4]

وذلك أنَّه، لـمَّا سَمَت الحالُ بمحمَّد بن أبي عامر، واستتبَّ أمرُه، أعمل الحيلةَ والتدبير في إسقاط جعفر بن عثمان، والانفرادِ بالدولة، فلم يجد لذلك سببًا أقْوَى من مُظاهَرة الوزيرِ أبي تَـمّام غالِب الناصِريِّ، صاحب مدينة سَالِـم والثَّغْر الأدْنى، شيخِ الموالي قاطبةً، وفارِس الأندلُس يومئذٍ غيرَ مُدافعٍ[5]، وكان بَيْنه وبَيْن الحاجب جعفر بن عثمان عداوةٌ ومنافسَةٌ. والتاثت حالُ غالبٍ صَدْرَ دولة هشام في سنةِ ولايته لـمَّا مَلَكَ جعفرٌ أمرها، وبان

---

(١) في ر٢: «الحضرة».

(٢) في ر٢: «فخرج محمد».

(٣) الذخيرة لابن بسام ٧/ ٦٢ نقلًا عن ابن حيان.

(٤) الذخيرة ٧/ ٦٣.

(٥) في أ، م: «غير مدافع له»، وما أثبتناه من ر٢ وهو الأصح.

تقصيرُ غالبٍ في مُدافعة أعداء الله، وخاف أن يصل أمرُه إلى الخلاف والمعصية، فأشار ابنُ أبي عامر في استصلاحه ورَعْي ذِمامِه. ولم يزل ابنُ أبي عامر يقوم بشأنه، ويخدمُه داخل الدار عند السيِّدة أُمِّ هشام وسائر الـحُرَم، حتَّى تمَّ مُرادُه فيه كَيْ يستعينَ به على إهلاك الـمُصْحَفيِّ، فأنهض غالبًا إلى خُطّة الوزَارتَيْن، وأنفذ إليه كتابَ الخليفة بذلك، وأمره بالاجتماع مع ابن أبي عامر على التدبير على الصَّوائف، على أن يُدَبِّر[1] ابنُ أبي عامر جَيْشَ الـحَضْرة، ويُدَبِّرَ غالِبٌ جيشَ الثَّغْر.

غزوة ابن أبي عامر الثانية

وخرج محمَّدُ بن أبي عامر بالصائفة يومَ الفِطْر من سنة ست وستين وثلاث مئة، فاجتمعَ مع غالِبٍ بمدينة مَـجْرِيط. وأصَّلَ معه من التظافر على جعفرٍ ما أصاب به النُّكْتة من قلبه، واتَّفقا وتوافقا. وخدم ابنُ أبي عامر غالبًا في سفره هذا خِدْمةً مَلَكَ بها نَفْسَه؛ فمال إليه غالبٌ بكُلِّيَّته. واستمرَّا في غزوهما، وافتتحا[2] حِصْنَ مُولَة[3]، وظهرا فيه على سَبْيٍ كثير، وغَنِمَ المسلمون أوسعَ غَنيمة. وكان أكثرُ الأمرْ[4] فيها لغالب، فتجافى عنه لابن أبي عامر. وسار معه إلى ثَغْره، ومنه فارَقَهُ، بعد أن أبلغ في مواطأة محمَّدِ بن أبي عامر على عدوِّه جعفرٍ بما أراده، وقال غالبٌ لابن أبي عامر عند وداعه: «سيظهر لك بهذا الفَتْح اسْمٌ عظيم وذِكْرٌ جليلٌ، يُشْغِلهم السرورُ به عن الـخَوْض فيما تُحْدِثه من قصَّة. فإيَّاك أن تخرجَ عن الدار حتَّى تعزلَ ابنَ جعفر[5] عن المدينة وتتقلَّدَها دُونَه»، فاعتقد محمَّدٌ ذلك.

وخاطب غالِبٌ الخليفةَ هشامًا بحُسن مَنَاب ابن أبي عامر في هذه الغزوة، ونَسَبَ[6] السَّعْيَ والاجتهاد إليه، وشَكَرَه، وشدَّ عَضُدَه عند الخليفة، وعاد محمَّد بن

---

(١) قوله: «ابن أبي عامر على التدبير على الصوائف على أن يدبّر» سقط من ر٢.

(٢) في أ، م: «وافتُتِح».

(٣) ينظر الروض المعطار ٤٦١.

(٤) في ر٢: «الأثر».

(٥) في ر٢: «جعفرًا» خطأ، وهو محمد بن جعفر بن عثمان، وسيأتي بعد قليل على الوجه.

(٦) في ر٢: «وجعل».

أبي عامر إلى حضرة قُرْطُبة منصرفًا بالسَّبْي والغنائم. فاستمال محمَّدٌ بهذا الفتح قلوبَ العامَّة والخاصَّة، وتعرَّفوا فيه يُمْنَ النَّقيبة؛ فبَعُد صِيتُه، وهان عليه أمرُ جعفر وغيرِه، وشرعَ في هَدْمه. فخرج أمرُ الخليفة يومَ وروده بصَرْف محمَّد بن جعفر[1] بن عثمان عن المدينة وتقليدِها ابنَ أبي عامر. فخرج محمَّدٌ نحو كُرْسِيِّها في هذا اليوم، والـخِلَعُ عليه، ولا عند جعفر عِلْمٌ بذلك، وكان محمَّدُ بن جعفر جالسًا في مجلسها في أُبَّهةٍ، إذ صَعِدَ ابنُ أبي عامر نحوه، فولَّى محمَّد بن جعفر ناكصًا على عَقِبه، وأُتبع بدابَّته.

ومَلَكَ ابنُ أبي عامر البابَ بولاية الشُّرْطة، والـجَيْشَ بِقَوْدِه له، والدارَ بعناية الـحُرَم به، فملك على جعفرٍ بذلك وُجُوهَ الحيلة، وخلَّاه، وليس في يده من الأمر إلَّا أقلُّه. فضبط محمَّدٌ المدينة ضبطًا أنْسَى أهْلَ الحضرة مَنْ سَلَفَ مِن أفراد الكُفَاة وأُولِـي السياسة، وقد كانوا قَبْله في بلاء عظيم، يتَحَارَسون الليل كلَّه، ويُكابِدون من رَوْعات طُرَّاقه ما لا يُكابِد أهلُ الثُّغور من العدوِّ، فكشف الله ذلك عنهم بمحمَّد بن أبي عامر وكِفايتِه، وتَنَزُّهِهِ عمَّا كان يُنْسَب لابن جعفر. فسدَّ باب الشفاعات، وقمع أهْلَ الفِسْق والزعارات، حتى ارتفع الباس، وأمِنَ الناس، وأُمِنت عادية المتجرِّمين من حاشية السلطان، حتَّى لقد عَثَرَ على ابن عَمٍّ له يُعْرَف بعَسْقَلاجة، فاستحضره في مجلس الشُّرْطة، وجَلَده جلدًا مُبَرِّحًا كان فيه حِمامُه، فانقمع الشرُّ في أيَّامه جُمْلَةً. واستخلف ابنُ أبي عامر على المدينة ابنَ عمِّه عَمْرو[2] بن عبد الله بن أبي عامر، فسلك في أهل الشرِّ سبيلَه، بل أربَى عليه في ذلك.

وكاتبَ جعفرٌ غالبًا يستخلصُه، ويستميلُه، ويَخْطُب بنتَه لابنه، فتجدَّدَتْ بينهما أُلْفةٌ، وجرى عَقْدٌ في الـمُناكَحة. وانكشفَ ذلك لابن أبي عامر، فكاتبَ غالِبًا يُنْشِده العَهْدَ، وألقى أهْلَ الدار عليه في فَسْخ الـمُصاهَرة، فكاتبوه في ذلك، فانحرف إلى ابن أبي عامر، وحلَّ عُقْدة جعفرٍ في نكاحه، وأنكح ابنَ أبي عامر أسْماء ابْنَتَه، فكانت أحْظَى نسائه.

---

(١) في ر٢: «بصرف جعفر»، خطأ.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٤٠، والاستقصا ١/ ٢٥٩.

غزوة ابن أبي عامر الثالثة

فلمّا تمَّ هذا العَقْدُ، خرج إليها[1]، فدخل على طُلَيْطُلة غُرَّةَ صَفَر من سنة سبع وستين وثلاث مئة، فاجتمعَ مع صِهْره غالِب، فعظَّمَهُ وجرى إلى موافقته. ونهضا معًا، فافتتحا حِصْنَ المال وحصن زنبق، ودوَّخا مدينةَ شَلَمَنْقة[2] وأخذا أرْباضَها. وقفل ابنُ أبي عامر إلى قُرْطُبة بالسَّبْي والغنائم، وبعَدَدٍ عظيم من رؤُوس الـمُشركين، إلى أربعة وثلاثين يومًا من خروجه، فزاد له السلطانُ في التنويه، وأنهضَهُ إلى خُطَّة الوِزَارتَيْن، سوَّى فيها بينه وبين غالب، ورفع راتِبَه إلى ثمانين دينارًا في الشهر، وهو راتبُ الـحِجابة. واستقدم السلطانُ غالبًا لاستهداء أسْماءَ إلى زَوْجها محمَّد، فبالغ في إكرامه، ووقع زِفافُ أسْماء في مَشْهدٍ بَعُدَ العَهْدُ بمثله شُهْرةً وجَلالة، وزُفَّت إليه ليلةَ النَّيْرُوز من قَصْر الخليفة، فهو الذي تولَّى مع حُرَمه أمْرَها. وكانت أسْماءُ هذه تُوصَف بجَمالٍ بارع وأدَبٍ صالح، وحَظِيَتْ عند ابن أبي عامر، فلم يفارقْها حياته[3]. وقلَّده الخليفةُ خُطَّة الـحِجابة مع جعفرٍ مشتركًا. ثمَّ سخط الخليفةُ على جعفر بن عثمان الـمُصْحَفيِّ[4]، وصرفه عن الـحِجابة يومَ الاثنين لثلاث عشرة ليلةً خلت من شعبان سنة سبع وستين وثلاث مئة، وأمر بالقبضِ عليه وعلى ولده وأسبابه، وعلى ابن أخيه هشام، وصُرِفوا عمَّا كان بأيديهم من الأعمال، وطولبوا[5] بالأموال. فتوصَّل ابنُ أبي عامر بمُحاسَبَتهم[6] إلى استصفاء أموالهم، وانتهاكِ حُرَمهم، وتَرْديد النَّكبات عليهم، حتى مزَّقهم كلَّ مُـمَزَّق. وسارعَ إلى قتل هشام ابن أخي جعفر في الـمُطْبَق، إذ كان أشَدَّ آلِ عثمان[7] عداوةً له، وأُخْرج إلى أهله ميِّتًا. واستمرَّت النكبـةُ

---

(١) في ر٢: «خرج إلى الغزو».

(٢) ينظر نزهة المشتاق ٢/ ٧٢٥، ٧٣١-٧٣٣.

(٣) من ر٢.

(٤) «بن عثمان المصحفي» ليست في ر٢.

(٥) في م: «وطلبوا».

(٦) في ر٢: «بمخاطبتهم».

(٧) في ر٢: «جعفر»، وما هنا من أ وهو أحسن.

على جعفر سِنِينَ عِدَّة، يُحْبَس مرّةً ويُطْلَق أُخرى. ومـمَّا حُفِظ له في ابن أبي عامر، مُسْتَعطِفًا له [من المتقارب]:

عَفَـــا اللهُ عَنْـــكَ ألا رَحْمـــةً[1] ... تَجُـــودُ بعَفْـــوِكَ إن أبْعَـــدَا

لـئن جَـلَّ ذَنْـبٌ ولـــمْ أعْتَمِـدْهُ ... فأنْـــتَ أجَـــلُّ وأعْـــلَى يَـــدَا

أَلَـــمْ تَـــرَ عَبْـــداً عَـــدا طَـــوْرَه ... ومَـــولًى عَفَـــا ورَشِـــيدًا هَـــدَى

ومُفْـــسِدَ أمْـــرٍ[2] تلافيـــتَه ... فعَـــاد فَأصْـــلَحَ مـــا أفْـــسَدَا

أقِلْنـــي أقالَـــكَ مَـــن لم يَـــزَلْ ... يَقِيـــكَ ويَـــصْرِفُ عَنْـــكَ الـــرَّدَى

وكان جعفرُ بن عثمان في مِحْنته أخْوَرَ النَّاس، وأرْأمَهم للذُّلِّ، وأحبَّهم في الحياة؛ انتهى به الاستخذاء لمحمَّد بن أبي عامر، والطمعُ في الحياة، أنْ كتب إليه يعرضُ نفسه عليه لتأديب ابنَيْه عبدِ الله وعبد الملك، فقال ابنُ أبي عامر: أراد أن يَستجْهِلَني ويُسْقِطني عند الناس، وقد عَهِدوا منِّي ببابه مُؤمِّلًا، ثمَّ يَرونَه اليومَ بِدِهْليزي مُعلِّـمًا.

ثمَّ جدَّ ابنُ أبي عامر في مكروهه، وأدقَّ حسابَه، وأمر بإحضاره إلى مجلس الوزراء بقصر الـخِلافة، ليُناظر بيْنَ أيديهم فيما ادُّعِيَ عليه من الخيانة، فتردَّد إلى هذا المجلس مِرارًا، وأقبل آخر مرَّة إليه، وواثِقٌ الضاغطُ يُزعجه، والبُهْر والسِّنُّ قد هاضاه، وقصَّرا خُطاه، والموكَّل به يحذُوه ويَستحِثُّه، فيقول له جعفر: «يا بُنَيَّ رِفْقًا، فستُدْرِك ما تريد، ويا لَيْتَ أنَّ الموت بِيعَ، فأغْلَى اللهُ سومَه»، حتَّى انتهى به إلى المجلس، والوزراء جُلوس، فجلس في آخِر المجلس دون أن يسلِّم، فسرع[3] إليه الوزيرُ محمَّد بن حَفْص بن جابر، وكان من حِزْب ابن أبي عامر، فعنَّفه، واستجهله، وأنكر عليه تَرْكَ التسليم، وجعفر مُعْرِضٌ عنه، فلمّا أكثر عليه، قال له جعفر: «يا هذا جَهِلْتَ المبرَّة، فاستجهلتَ عالِـمَها، وكفرتَ اليد، فقصَّرت بمُسْدِيها»، فاضطرب ابنُ جابر من قوله، وقال: «هذا هو[4] البَهْتُ بعينه! وأيُّ أيَاديك الغَرّاءُ التي

---

(١) في ر٢: «عطفةً».

(٢) في ر٢: «من قد».

(٣) في ر٢: «فتسرع».

(٤) في ر٢: «هذا والله».

مَنَنْتَ بها؟ أيَدَ كذا أم يَدَ كذا؟»، وعدَّد أشياء، فأنكرها عليه الحاجب جعفر[1]، وقال: «هذا لا يُعْرَف، والمعروفُ دَفْعِي عن يُمْناكَ القَطْعَ، وشفاعتي فيها إلى الماضي، رحمه الله، حين استخوَنك في مال كذا»، فأصَرَّ ابنُ جابر على الـجَحْد، فقال جعفر: «أَنْشُدُ اللهَ مَنْ له عِلْمٌ بما ذكرتُ أن يتكلَّم!» فقال الوزيرُ ابن عيَّاش: «قد كان بعضُ ما ذَكَرْتَه، وغيرُ هذا أَوْلَى بك، يا أبا الحسن» فقال: «أَحْرَجَني الرَّجُل، فقُلْتُ»، ثمَّ أقبل الوزير محمَّدُ بن جَهْوَر على محمَّد بن جابر، فقال له: «أوَما عَلِمْتَ أنَّه مَن كان في سُخْط السُّلطان، تَـحَامَى السَّلامَ على أوليائه؛ لأنَّهم إنْ ردُّوا عليه، أسخطوا السلطان لتأمينهم مَنْ أخَافَه، وإن تركوا الردَّ، أسخطوا الله، وتركوا ما أمَرَ به؟ فكان الإمساكُ أوْلَى، ومِثْلُ هذا لا يخفى[2] على أبي الحسن»، فخجل ابنُ جابر، وأسْفَر وجْهُ جعفر وتهلَّل[3]. ثمَّ أخذ القومُ في مناظرته على المال، فقال: «قد والله استنفدتُ ما عندي من الطارِف والتالِد، ولا مَطْمَعَ فيَّ في درهم، ولو قُطِعْتُ إرْبًا إرْبًا»[4]، فصُرِفَ إلى محبسه في مُطْبق الزَّهْراء، فكان آخِرَ العَهْد به.

وله، رحمه الله، وقد أودعه المنصورُ الـمُطْبِق، والشجونُ تُسْرع إليه وتَسْبِق، مُعَزِّيًا لنفسه، ومُـجْتَزِيًا في يومه بإسْعاد أمْسِه؛ فقال [من المتقارب]:

أُجَـارِي الزمـانَ عـلى حالِـهِ ... مُـجاراةَ نَفْـسِي لأنفاسِـهَا
إذَا نَفَـسٌ صـاعِدٌ شَـفَّها ... تـوارَتْ بـه بَـيْنَ جُلّاسِـها
وإنْ عَكَفَـتْ نَكْبَـةٌ لِلزَّمـانِ ... عَكَفْـتُ بِـصَدْري عـلى رَاسِـهَا

ومن بديع ما حُفظ له في نكبته، قولُه، رحمه الله، يستريح من كُرْبته [من الطويل]:

صَـبَرْتُ عـلى الأيَّـامِ لَـمَّا[5] تَوَلَّـتِ ... وألْزَمْتُ نَفْسِي صَـبْرَها فاسْـتَمَرَّتِ
فيـا عَجَبـاً للقَلْـبِ كَيْـفَ اصطِبارُهُ ... وللنَّفْسِ بَعْـدَ العِـزِّ كَيْـفَ اسْـتَذَلَّتِ

---

(١) ليست في أ، م.

(٢) في ر٢: «يذهب».

(٣) ينظر سطح الأنفس ١٦٤-١٦٦.

(٤) في ر٢: «آرابا».

(٥) في ر٢: «حتى».

وما النَّفْسُ إلَّا حَيْثُ يَجْعَلُها الفَتى ... فإنْ طُمِّعَتْ تاقَتْ وإلَّا تَسَلَّتِ
وكانتْ عَلَى الأيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً ... فلَمَّا رَأتْ صَبْرِي على الذُّلِّ ذَلَّتِ
وقُلْتُ لها: يا نَفْسُ مُوتِي كَرِيمَةً ... فَقَدْ كانَتِ الدُّنْيا لَنا ثُمَّ وَلَّتِ

وكان مِنْ هلاكه في مَحْبَسه هذا على يقين، وذلك أنَّه لـمَّا أُمِرَ به إلى الـمُطْبق، ودَّع أهْلَه ووَلَدَه وَداعَ الفُرْقة، وقال: «هذا وقتُ إجابة الدعوة، وأنا أرتقبُه منذ أربعين سنة»، فسُئِل عمَّا ذَكَرَه[1]، فقال: «رُفِع على فلان أيَّامَ الناصر وسُعِيَ به إليه[2]، فأشرفتُ على أعماله، فآلَ أمْرُه إلى ضَرْبه وتَغَيُّرِ نِعْمته وإطالةِ حَبْسِه. فبَيْنا أنا نائم ذاتَ ليلةٍ، إذ أتاني آتٍ، فقال لي: «أطْلِقْ فلانًا، فقد أُجيبَتْ دعوتُه فيك، ولهذا أمْرٌ أنت لا بُدَّ لاقِيه»، فانتبهتُ مَذْعورًا، وأحْضرتُ الرَّجُلَ، وسألْتُه إحْلالي، فامتنع عليَّ، فاستحلفتُه على إعْلامي بما خصَّني به من الدُّعاء، فقال: «نَعَمْ، دعوتُ اللهَ أن يُمِيتَك في أضْيَق السجون كما أعْمَرْتَنِيهُ حِقْبَةً»، فعلمتُ أنَّه قد وجبتْ دعوتُه[3]، وندمتُ حيث لا ينفعُ الندم، وأطلقتُ الرجل، ولم أزل أرتقبُ ذلك في السجن»، فما لبث في السجن إلَّا أيَّامًا، وأُخْرِج ميِّتًا، وأُسْلِم إلى أهْله. فقيل: قُتِل خَنْقًا في البيت المعروف ببيت البراغيث في الـمُطْبِق، وقيل: دُسَّت إليه شَرْبةٌ مسمومةٌ[4].

قال محمَّد بن إسماعيل، كاتبُ المنصور[5]: سِرْتُ مع محمَّد بن مَسْلَمة إلى الزَّهْراء لتسليم جسد جعفرٍ إلى أهله وولده، والحضورِ على إنزاله في مُلْحَده، فنظرتُ إليه ولا أثَرَ فيه، وليس عليه شيءٌ يُواريهِ غيرَ كِساء خَلِقٍ لبعض البوَّابين، سَتَرَهُ به. فدعا له محمَّدُ بن مَسْلَمة بغاسل، فغسله، والله، على فَرْدِ بابٍ اقْتُلِع من ناحية الدار، وأنا أعتبر من تصرُّف الأقدار، وخَرَجْنا بنَعْشه إلى قبره، وما معنا إلَّا إمامُ المسجد الـمُسْتَدْعَى للصلاة، وما تجاسر أحَدٌ على النظر إليه. ثمَّ قال: وإنَّ لي في شأنه لَـخَبَرًا ما سمع بِمِثْله طالبُ وَعْظٍ،

(١) في ر٢: «ذكر».
(٢) في ر٢: «عليه».
(٣) في ر٢: «أن دعوته قد وجبت».
(٤) الذخيرة ٧/ ٦٨ (ط. الأولى).
(٥) في ر٢: «كاتب ابن أبي عامر».

ولا وقع في مِسْمَع ولا تصوَّرَ لِلَحْظٍ؛ وقفتُ له في طريقه، أيَّامَ نَهْيه وأمره، أرومُ أن أُناوله قِصَّةً، كانت به مختصَّة، فوالله ما تمكَّنْتُ من الدنوِّ منه[1] بحيلة؛ لكَثافة مَوْكبه، وكَثْرة مَن حفَّ به، وأخذَ الناسُ السِّكَك عليه[2] وأفواهَ الطُّرُق، يَنظرون إليه ويُسلِّمون عليه، حتَّى ناولتُ قِصَّتي بَعْضَ كُتَّابه الذين نَصَبَهُم جَناحَيْ مَوْكِبه لأخْذ القِصَص، فانصرفتُ وفي نفسي ما فيها من الشَّرَق بحاله والغَصَص، فلم تَطُل المدَّة حتَّى غضب عليه المنصورُ، واعتقله، ونقله معه في الغزوات ذليلًا وحمله. واتَّفق أنْ نزلتُ بِجلِّيقيَّة في بعض المنازل إلى جانب خِبائه في ليلةٍ نهى فيها المنصورُ عن وَقْدِ النيران؛ ليَخفى على العدوِّ أثَرُه، ولا ينكشفَ له خبَرُه، فرأيتُ، والله، ابنَه عثمان يُسِفُّه دَقيقًا قد خلطه بماءٍ يُقيم به أوَدَه، ويُمْسك به رَمَقَه، بضعف حالٍ، وعَدَمِ زادٍ ومال، وسمعتُه يقول [من الطويل]:

تأمَّلْتُ صَرْفَ الحادِثـاتِ فلَـمْ أزَلْ ... أراها تُـوافي عِنْـدَ مَقْـصَدِها الـحُرَّا
فللَّـــه أيَّـــام مَـــضَتْ لـــسبيلها ... فـــإنِّيَ لا أنْـــسَى لهـــا أبـــداً ذِكْـــرَا
تجافَـتْ بهـا عَنَّـا الحـوادِثُ بُرْهَـةً ... وأبْـدَتْ لنـا منهـا الطلاقـةَ والبِشْرَا
ليــالِيَ لَــمْ يَــدْرِ الزَّمــانُ مكانَنــا ... ولا نَظَـرَتْ منَّـا حَوادِثُـه الـشَّزْرَا
ومــا هــذِهِ الأيَّــامُ إلَّا سَــحَائبٌ ... عَلَى كُلِّ أرْضٍ تُـمْطِرُ الـخَيْرَ والشَّرَّا

وكان ممَّا أُعينَ به ابنُ أبي عامر على جعفر بن عثمان الـمُصْحَفيِّ[3] مَيْلُ حِلْية[4] الوزراء إليه، وإيثارُهم له عليه، وسَعْيُهم في تَرَقِّيه، وأخذُهم بالعَصَبيّةِ فيه، فإنَّهم، وإن لم تكن لَـهُم حَمِيَّة أعْرابيَّة، فقد كانت سَلَفِيَّة سُلْطانيَّة، يَقْتَفى القومُ فيها آثارَ سَلَفهم، ويمنعون بها ابتذالَ شَرَفهم، غادروها سِيرةً، وخلَّفوها عادةً أثيرةً، تَشاحَّ الـخَلَفُ فيها تَشَاحَّ أهْل الدِّيانة، وصانوا بها مراتبَهم أعظم صيانة، ورأوا أنَّ

---

(١) في ر٢: «إليه».

(٢) ليست في ر٢.

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ليست في أ.

أحدًا من التوابع لا يدركُ فيها غايةً، ولا يلحقَ لها رايةً. فلمَّا أحْظَى الـمُستنصِرُ بالله جعفرَ بن عثمان واصطنعه، ووضعه مِن أُثْرَته حيث وضعه؛ حسدوه وذَمُّوه، وخصُّوه بالمطالبة وعمُّوه. وكان أسْرَعَ هذه الطائفة إلى مُهاودة المنصور عليه، والانحرافِ عنه إليه، آلُ أبي عَبْدة وآلُ شُهَيْد، وآلُ جَهْوَر، وآلُ فُطَيْس، وكانوا في الوقت أزمَّةَ الـمُلْك وقُوَّام الـخِدْمة، وسُرُج الخلافة[1] ومصابيحَ الأُمَّة، فأحظَوْا محمَّد بن أبي عامر مُشايَعةً، ولأسْبابِ الـمُصْحَفيِّ مُنازَعةً، وشادوا بِناءَه، وقادوا إلى عُنْصُره سَناءَه، حتَّى بلغ الأمل، والتحف بِمُناهُ واشتمل. وعند التئام هذه الأُمورِ لابن أبي عامر، استكان جعفرُ بن عثمان للحادِثة، وأيقن بالنَّكبة، وزوال المرتبة، وكفَّ عن اعتراض محمَّدٍ وشركته في التَّدْبير، وانقبضَ الناسُ عن الرواح إليه والتبكير، وانثالوا على ابن أبي عامر؛ فخفَّ مَوْكِبُه، وغار من سماء العزَّة كَوْكَبُه، وتوالى عليه سَعْيُ ابنِ أبي عامر وطَلَبُه حتَّى محاه، وهتك ظِلالَه وأضحاه. ومن قوله [من الكامل]:

لا تَـأمَنَنَّ مِـن الزَّمـانِ تَقَلُّبـا ... إنَّ الزَّمـانَ بأهْلِـهِ يَتَقَلَّـبُ

ولَقَـدْ أراني والليـوثُ تَهـابُني ... وأخـافَني مـن بعـد ذاك الثَّعْلَـبُ

حَـسْبُ الكَـرِيمِ مَهانـةً ومَذَلَّـةً[2] ... ألَّا يـزالَ إلى لَئِـيمٍ يَطْلُـبُ

وكان قولُه هذه الأبياتَ لـمَّا سِيقَ إلى مجلس الوزارة للمُحاسبة، وواثِقٌ الضاغِط يُزْعِجه ويستحثُّه، وهو يقول له: «رِفْقًا بي يا واثِق، فستُدْرِك ما تحبُّه وتشتهيه، وترى ما كنتَ ترتجيه»، وقد تقدَّم ذلك[3].

استبداد ابن أبي عامر بالـمُلْك وتغلُّبه عليه

لـمَّا قتل ابنُ أبي عامر جعفرَ بن عثمان، انفرد بشأنه، ورمى الغَرَض الأبعد من ضَبْط السلطان والـحَجْر عليه والاستبداد بالمملكة وأُمور الدولة[4]، جرى في ذلك مَـجْرَى

(١) «وسرج الخلافة» ليست في أ، م.

(٢) في ر٢: «مذلةً ومهانة».

(٣) قوله: «وقد تقدم ذلك» ليس في ر٢.

(٤) «وأمور الدولة» ليست في ر٢.

المتغلِّبين على سُلطان بني[1] العبَّاس بالمشرق من أُمراء الدَّيْلَم، حتَّى أورث ذلك عَقِبَه. فأخذ ابنُ أبي عامر في تغيير سِيَر الـخُلَفاء الـمَرْوانيَّة في استجرار الأمر لنفسه وسَبْكِ الدولة على قالبه، فأدَّاه ذلك إلى مُضادَّةِ ما كانوا عليه، فعوَّضَ باللِّين غِلْظةً، وبالسكون حركةً، وبالأناةِ بَطْشَةً، و[2]بالـمُوادَعة مُحارَبة، فجعل أهل الرأي يعجبون[3] من مصادِرِ أُموره ومَوارِدِها يَقْصُون[4] بخروجها عن حدِّ الصواب وقَانُون التدبير لها، ورُبَّما فَاوَضَ جِلَّتَهم الرأي، فيُشيرون عليه من الوجه الذي عرفوه، والقانونِ الذي حَمِدوه، فيعدلُ عن ذلك إلى الـمَذْهَب[5] الذي شرعه، والطريقِ[6] الذي نهجه، والخطرِ[7] الذي لا يجهل اقتحامَه، فيَبْهَتُ القَوْمَ من حُسْن ما يقع له.

قال الفَتْحُ بن خَاقَان[8]: «فَرْدٌ نَابِهٌ على مَن تقدَّمه، وصَرَّفه واستخدَمَهُ، فإنَّه كان أمضاهم سِنانًا، وأذكاهم جَنانًا، وأتـمَّهم جلالًا، وأعظمهم استقلالًا، فآلَ أمْرُه إلى ما آلَ، وأوهم العقولَ بذلك المآل، فإنَّه كان آيةَ الله في اتِّفاق سَعْدِه، وقُرْبِهِ من الـمُلك بَعْدَ بُعْدِه، بهر برفعه القَدْر، واستظهر بالأناة وسَعَةِ الصدر، وتحرَّك فلاحَ نَجْمُ الـهُدُوِّ، وتملَّك فما حقق بأرضه لواءُ عدوٍّ، بعد خمولٍ كابَدَ منه غَصَصًا وشَرَقًا، وتعذُّرِ مأمولٍ طارَدَ فيه سَهَرًا وأرَقًا[9]، حتَّى أُنجز له الموعود، وفرَّ نَحْسُه أمام تلك السُّعود. فقام بتدبير الخلافة، وأقعد مَن كان له فيها إنافة، وساس الأُمورَ أحسن سياسة، وداس الـخُطوبَ بأخشن دِياسة؛ فانتظمتْ له الممالك، واتَّضحتْ به المسالك، وانتشر الأمنُ في كلِّ طريق، واستَشعر اليُمْنَ كلُّ فريق. وملك الأندلُسَ بِضْعًا وعشرين حِجّة،

---

(١) في ر٢: «ولد».

(٢) سقطت الواو من م.

(٣) ليست في أ، م.

(٤) في م: «ويقصون».

(٥) في ر٢: «إلى القانون».

(٦) في ر٢: «والمذهب».

(٧) في ر٢: «الخطأ».

(٨) هذا الخبر في المطمح، ونقله المقري في نفح الطيب ١/ ٤٠٥.

(٩) في ر٢: «وفرقا»، وما هنا يعضده ما في النفح.

لم تُدْحَض لسعادتها حُجّة، ولم تزخر لمكروه بها لُـجّة، لبستْ فيها البهاءَ والإشراق، وتنَفّستْ عن مثل أنفاس العِراق. وكانت أيّامُه أحمدَ أيّام، وسهامُ بأسه أسدَّ سهام. غزا الروم[١] شاتيًا وصائفًا، ومضى فيما يرومُ زاجرًا وعائفًا[٢]، فأوغل في تلك الشِّعاب، وتغَلْغَلَ حتَّى راع ليثَ الغاب، ومشى تحت ألْوِيته صِيدُ القبائل، واستجرَّت في ظِلِّها بِيضَ الظُّبا وسُمْرَ الذَّوابل، وهو يقتضي الأرواحَ بغير سَوْم، وينقضي الصِّفاح على كلِّ رَوم، ويُتلف مَن لا ينساق للخلافة وينقاد، ويختطف منهم كلَّ كوكب وَقَّاد، حتَّى استبدَّ وانفرد، وأنِسَ إليه من الطاعة ما نَفَرَ وشرد. وانتظمتْ له الأنْدَلُس بالعُدْوة، واجتمعتْ له اجتماعَ قُرَيْش في دار النَّدْوة، ومع هذا، فلم يخلع اسمَ الحجابة، ولم يَدَع السَّمْعَ لخليفته والإجابة، ظاهرٌ يُخالفه الباطن، واسمٌ تُنافره مواقِعُ الـحُكْم والـمَواطِن. وأذلَّ قبائلَ الأنْدَلُس بإجازة البرابر[٣]، وأخمل بهم أولئك الأعلامَ الأكابر، فإنَّه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادِهم، حتَّى تغلَّبوا على الـجُمْهور، وسلبوا منهم الظُّهور، ووثبوا عليهم الوثوبَ المشهور، الذي أعاد أكثرَ الأندلُس قَفْرًا يَبابًا، وملأها وحْشًا وذِئابًا، وأعراها من الأمان، بُرْهةً من الزمان. وعلى هذه الـهَيْئة[٤]، فهو وابنُه الـمُظَفَّر كانا آخِرَ سَعْد الأندلُس، وحدَّ السرور بها والتَّأنُّس. وغزواتُه فيها شائعة الأثَر، رائعة كالسيف ذي الأثْر، وحَسَبُه وافِر، ونَسَبُه مَعافِر؛ ولذا قال يفخَر [من الطويل]:

رَمَيْـتُ بَنفِـسي هَـوْلَ كُـلِّ كَريهـةٍ ... وخـاطَرْتُ والـحُرُّ الكَـرِيمُ مُخـاطِرُ
ومـا صـاحِبي إلَّا جَنـانٌ مُـشَيَّعٌ ... وأسْـمَرُ خَطِّـيٌّ وأبْـيَضُ بـاتِرُ
وإنِّي لَزَجَّـاءُ الجيـوشِ إلى الـوَغى ... أُسُـودٌ تُلاقِيهَـا أُسُـودٌ خَـوادِرُ
لَـسُدتُ بنفـسي أهْـلَ كُـلِّ سِيادةٍ ... وكاثَرْتُ حتَّى لـمْ أجِـدْ مَـنْ أُكـاثِرُ

---

(١) سقطت من م.
(٢) بعد هذا في النفح: «فما مر له غير سنيح، ولا فاز إلا بالمعلّى لا بالمنيح».
(٣) في أ، م: «البربر» وما هنا من ر٢ ويعضده ما في النفح، وهو الموافق للسجعة.
(٤) في ر٢: «الهنة»، وهي جيدة أيضًا.

وما شِدتُ بُنْيانًا ولكنْ زِيادةً على مَا بَنى عَبْدُ العزيز[1] وعامِرُ
رَفَعْنا المَعالِي بالعَوالِي حَدِيثةً وأوْرَثَناها في القَدِيمِ مَعافِرُ

وكانت أمُّه تَمِيميَّةً، فحاز الشَّرَفَ من طرَفَيْه، والتحَفَ بمطْرَفَيْه. قال القَسْطَلِيُّ [من الطويل]:

تَلاقَتْ عَلَيْه مِنْ تَمِيمٍ ويَعْرُبٍ شُموسٌ تَلالا في العُلَى وبُدُورُ
مِنَ الحِمْيَرِيِّينَ الذِينَ أكُفُّهُمْ سحائبُ تَهمِي بالنَّدَى وبُحورُ[2]

وتصرَّف قبل ولايته في شتَّى الولايات، وجاء من التحدُّث بمُنْتهى أمْره بآيات، حتَّى صحَّ زَجْرُه، وجاء بصُبْحه فَجْرُه، تُؤثَرُ عنه في ذلك أخبار، فيها عَجَبٌ واعتبار. وكان أديبًا مُحْسِنًا، وعالِمًا مُتَفنِّنًا، فمن ذلك: قولُه، يمنِّي نفسه بمُلْك مِصْر والحِجاز، ويستدعي صُدورَ تلك الأعجاز [من الخفيف]:

مَنَعَ العَيْنَ أن تذوقَ المَناما حُبُّها أن تَرى الصَّفا والمَقاما
لي دُيونٌ بالشَّرْقِ عِنْدَ أُناسٍ قَدْ أحَلُّوا بالمَشْعَرَيْنِ الحَرامَا
إنْ قَضَوْها نالوا الأمانِي وإلَّا جعلوا دُونَها رقابًا وهامَا
عنْ قَرِيبٍ تَرى خُيولَ هِشامٍ يَبْلُغُ النِّيلَ خَطْوها والشامَا[3]

وفي سنة ثمان وستين وثلاث مئة: أمر المنصورُ بن أبي عامر ببناء قصره المعروف بالزَّاهِرة، وذلك عندما استفحل أمْرُه، واتَّقد جَمْرُه، وظهر استبدادُه، وكثر حُسَّادُه، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السُّلطان، وخشيَ أن يقع في أشْطان[4]، فتوثَّق لنفسه، وكُشف له ما سُتِر عنه في أمْسه، من الاعتزازِ عليه، ورفعِ الاستناد إليه، وسَما إلى

(١) هكذا في النسختين، وفي م: «عبد المليك».

(٢) الأبيات في ديوان القسطلي ٣٠١.

(٣) تنظر الحلة السيراء ١/ ٢٧٥، وإلى هنا ينتهي النقل من المطمح.

(٤) قوله: «وخشي أن يقع في أشطان» ليس في ر٢.

ما سَمَتْ إليه الملوكُ من اختراع قَصْرٍ ينزل فيه، ويحُلُّه بأهله وذويه، ويضمُّ إليه رياستَه، ويُتِمُّ به تدبيرَه وسياسته، ويجمع فيه فتيانَه وغلمانه. فارتاد موضعَ مدينته المعروفة بالزاهِرة، الموصوفة[1] بالقصور الباهرة: وأقامها بطَرَف البلد على نَهر قُرْطُبة الأعظم، ونَسَقَ فيها كلَّ اقتدار مُعْجِز ونَظَم. وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرَّخة، وحشد إليها الصُّنَّاعَ والفَعَلة، وجلب إليها الآلاتِ الجليلة، وسَرْبَلها بَهاء يردُّ العيونَ كَليلة، وتوسَّع في اختطاطها، وتولَّع بانتشارها في البَسيطة وانبساطها، وبالَغَ في رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنْجادها وأغوارها. فاتَّسعت[2] هذه المدينةُ في المدَّة القريبة، وصار بناؤها[3] من الأنباء الغريبة. وبُنِـيَ مُعْظَمُها في عامَيْن.

وفي سنة سبعين وثلاث مئة: انتقل المنصورُ بن أبي عامر إليها، ونزلها بخاصَّته وعامَّته، فتبوَّأها وشَحَنَها بجميع أسلحته، وأموالِه وأمتعته، واتَّخذ فيها الدواوينَ والأعمال، وعمل داخِلَها الأهْراء[4]، وأطلق بساحتها الأرْحاء. ثُمَّ أقطع ما حَوْلَـها لوزرائه وكُتَّابه، وقُوَّاده وحُجَّابه، فاقتنَوْا بأكْنافها كِبارَ الدُّور، وجليلاتِ القصور، واتَّخذوا خلالَـها الـمُستغلَّات[5] الـمُفيدة، والـمَنَازِهَ الـمَشيدة، وقامت بها الأسواقُ، وكثرت فيها الأرْفاق، وتنافس الناسُ في النزول بأكْنافها، والـحُلولِ بأطرافها؛ للدُّنوِّ من صاحب الدَّولَة، وتناهى الغلوُّ في البناء حولَه، حتى اتَّصلت أرْباضُها بأرباض قُرْطُبة، وكثرت بحَوْزتها العِمارة، واستقرَّت في بُحْبُوحتها الإمارة. وأفرد الخليفةَ من كلِّ شيء إلَّا من الاسْم الـخِلافيْ، وصُيِّر ذلك هو الرَّسْم العافِي. ورتَّب فيها جلوسَ وزرائه، ورؤُوسِ أُمرائه، وندب إليها كلَّ ذي خُطَّة بخُطَّته، ونصب على بابها كُرْسيَّ شُرْطَته، وأجلس عليه واليًا على رسم كُرْسيِّ الخليفة، وفي صِفَة تلك الرُّتبة الـمُنيفة. وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعُدْوة بأنْ تُـحْمَل إلى مدينته تلك أموال الجِبايات، ويقصدها أصحابُ

---

(١) في ر٢: «المختصة».

(٢) في ر٢: «فاتسقت».

(٣) ليست في أ، م.

(٤) جمع هُرْي، وهو المكان الذي يجمع به الطعام.

(٥) في ر٢: «الغلات».

الولايات، وينتابها طُلَّابُ الحَوائج، وحذَّر أن يَعُوجَ عنها إلى باب الخليفة عائج. فاقْتُضِيَتْ لَدَيْها اللُّبَانات والأوطار، وانحشد الناسُ إليها من جميع الأقطار. وتَمّ لمحمَّد بن أبي عامر ما أراد، وانتظم بلَبَّةِ أمانيه الـمُراد، وعطَّل قَصْرَ الخليفة من جميعه، وصيَّره بمَعْزِلٍ من سامعه ومُطيعه، وسدَّ بابَ قصره عليه، وجدَّ في خَبَرٍ ألَّا يَصِلَ إليه، وجعل فيه ثِقَةً من صَنائعه يَضْبِط القصر، ويبسط فيه النَّهْيَ والأمر، ويُشْرِف منه على كلِّ داخل، ويمنعُ ما يَحذره من الدَّواخل، ورتَّب عليه الحُرَّاسَ والبوَّابين، والسُّمَّار والـمُنتابين، يُلازمون حِراسةَ مَن فيه ليلًا ونهارًا، ويُراقبون حركاتِهم سِرًّا وجِهارًا، وقد حَجَرَ على الخليفة كلَّ تدبير، ومَنَعَه من تملُّكِ قَبيلٍ أو دَبير. وأقام الخليفةُ هشام مهجورَ الفِناء، محجورَ الغَناء، خفيَّ الذِّكْر، عليلَ الفِكْر، مسدودَ الباب، محجوبَ الشخص عن الأحباب، لا يراه خاصٌّ ولا عامّ، ولا يُخاف له[1] بأسٌ ولا يُرْجَى منه إنعام، ولا يُعْهَد منه إلَّا الاسْمُ السلطانيُّ في السِّكَّة والدَّعْوة، وقد نَسَخَه ولَبِس أُبَّهَتَه، وطمس بَهْجَتَه. وأغْنَى الناسَ عنه، وأزال أطماعَهم منه، وصيَّرهم لا يعرفونه، وأمَرهم أنَّهم لا[2] يذكرونه.

واشتدَّ مُلْكُ محمَّدِ بن أبي عامر منذ نزل قَصْرَ الزاهِرة، وتوسَّع مع الأيَّام في تشييد أبْنِيَتِها، حتَّى كَمُلَتْ أحسنَ كمال، وجاءت في نهاية الجمال؛ نَقاوةَ بِناء، وسَعَةَ فِناء، واعتدالَ هواء رقَّ أدِيمُه، وصَقالةَ جَوٍّ اعتلَّ نَسِيمُه، ونُضرة بُستان، وبهجةً للنفوس فيها افتنان. وفيها يقولُ صاعِدٌ اللُّغَويُّ [من البسيط]:

يا أيُّها الـمَلِكُ الـمَنْصُورُ من يَمَنٍ ... والـمُبْتَني نَسَبًا غَيْرَ الذي انْتَسَبا

بِغَزْوةٍ في قُلوبِ الشِّرْكِ راتِعةٍ ... بَيْنَ المنايا تُناغي السُّمْرَ والقُضُبا

أما تَرى العَيْنَ تَجْرِي فَوْقَ مَرْمَرِها ... زَهْوًا فَتُجْري على أحسائها[3] الطَّرَبا

أجْرَيْتَها فطَما الزاهي بجِرْيَتِها ... كَما طَمَوْتَ فَسُدْتَ العُجْمَ والعَرَبا

تَخالُ فيه جُنودَ الماءِ رافِلةً ... مُسْتَلئماتٍ تُرِيكَ الدِّرْعَ واليَلَبا

---

(١) في ر٢: «منه».

(٢) في ر٢: «ألا».

(٣) في ر٢: «أحنائها»، وفي النفح: أحفافها.

تَـحُفُّها مـن فُنُـونِ الأيْـكِ زاهِـرةٌ ... قـد أورقَـتْ فِـضَّةً إذ أثْمَـرَتْ ذَهَبـا
بَدِيعـةُ الـمُلكِ مـا يَنْفَـكُّ ناظِرُهـا ... يَتْلُـو عـلى الـسَّمْعِ مِنْهـا آيـةً عَجَبـا
لا يُحْسِنُ الـدَّهرُ أن يُنْشِيْ لهـا مَثَلًا ... ولَـوْ تَعَنَّـتَ فيهـا نَفْـسَهُ طَلَبـا(١)

ودخل عليه عمرُو بن أبي الـحُبَاب(٢) في بعض قصوره من الـمُنْيَة المعروفة بالعامِريَّة، والرَّوْضُ قد تفتَّحت أنوارُه، وتوشَّحت نِجادُه(٣) وأغوارُه، وتصرَّف فيها الدهرُ متواضِعًا، ووقف بها السعدُ خاضِعًا، فقال [من البسيط]:

لا يَـوْمَ كـاليومِ في أيّامِـك الأُوَلِ ... بالعامِريَّـةِ ذَاتِ المـاء والظُّلَـلِ
هَوَاؤُهـا في جَميـعِ الـدَّهْرِ مُعْتَـدِلٌ ... طِيبـاً وإن حَـلَّ فَـصْلٌ غَـيْرُ مُعْتَـدِلِ
مـا إنْ يُبـالي الـذي يَحْتَـلُّ ساحَتَها ... بالسَّعْدِ ألّا تَـحُلَّ الشَّمْسُ بالـحَمَلِ(٤)

وما زالت هذه المدينةُ رائقة، والسعودُ بلبَّتها مُتناسقة، تُراوحها الفتوحُ وتُغاديها، وتَجلِب إليها منكسرةً أعاديها، ولا تزحف منها رايةٌ إلَّا إلى فَتْح، ولا يَصدر عنها تدبيرٌ إلَّا إلى نَجْح، إلى أن حان يَوْمُها العَصيب، وقُيِّض لها من المكروه أوفرُ نصيب، فتولَّتْ فَقيدة، وخلَتْ من بَهْجتها كلُّ عقيدة(٥).

وأشاع ابنُ أبي عامر أنَّ السلطانَ فوَّض إليه النظرَ في أمر الـمُلْك، وتخلَّى له عنه لعبادة ربِّه. وانْبَثَّ ذلك في الرعيَّة حتَّى اطمأنُّوا إليه، مع قوَّة ضَبْطه وسُرْعة بَطْشه.

---

(١) الأبيات في نفح الطيب ١/ ٥٨١.

(٢) هكذا في الأصل، قال صديقنا العلامة إحسان عباس يرحمه الله: «وهو خطأ، وأظن أن ابن أبي الحباب هو أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب النحوي (ت ٤٠٠) أحد تلامذة القالي، وقد ترجم له الحميدي في موضعين، مرة باسمه ومرة بكنيته «أبو المطرف» وكنّاه في الأولى بأبي عمر، ولعل هذا موضع اللبس والاضطراب بتسميته «عمرو» في البيان، وفي الترجمة الثانية أورد الحميدي شعره في المنية العامرية» (تعليقه على النفح ١/ ٥٨١)، وتنظر جذوة المقتبس بتحقيقنا (٩٥٦).

(٣) في م: «بجاده»، وهو تصحيف صوابه ما أثبتناه.

(٤) نقلها المقري في النفح ١/ ٥٨١، وهي في جذوة المقتبس باختلاف لفظي، ص٥٨٨.

(٥) نفح الطيب ١/ ٥٨١-٥٨٢.

فانتظم له ذلك كلُّه وأكْثَرُ منه، بعد أن حصَّن قصرَ الخليفة في هذا الوقتِ بالسُّور الذي أدار حَوْلَه، وعمل الـخَنْدَق الـمُطِيف به من جانبَيْه، والأبوابَ الوَثيقة بالأحراس والسُّمّار الذين وضعهم بأنْقابه. ومنع الخليفةَ من الظُّهور، ووكَّل بأبوابه مَن يمنع وصولَ خَبَرٍ إليه أو أمْرٍ من الأمور إلَّا عن إذْنه، فإنْ عُثِرَ على أحد من الناس في تجاوُز هذا الحدِّ، عاجَلَه ونكَّل به.

والأخبارُ عنه في هذا المعنى واسعةٌ جدًّا، غَيْرَ أنَّ الاختصارَ في ذلك: أنَّ ابن أبي عامر بلغ من ذلك مَبْلَغًا لم يبلغه قط مُتغلِّبٌ على خليفة؛ لأنَّه احتوى على الـمُلْك كُلِّه، وصيَّر الخليفةَ قُبْضةً في يده، حتَّى أنَّه لم يكن يُنْفَذ له أمْرٌ في داره ولا حُرَمِه إلَّا عن إذْنِه وعِلْمه. وجعل مُتَوَلِّيَ قصره من قِبَله مَن يَثِقُ به، وصيَّره عَيْنًا على السلطان، لا يخفى عليه شيءٌ من حركاته وأخباره.

ولـمَّا ترقَّى ابنُ أبي عامر إلى هذا القَدْر، عمل في مكروه القائد الكبير غالبٍ الناصِريِّ صِهْرِه، والتوطئة لأسبابِ هَدْمه. فرأى أن يَبْنِيَ عليه ضِدًّا له من أصحاب السُّيوف والحِرابة المشهورين؛ لأنَّ غالبًا كان يستطيلُ على ابن أبي عامر بأسباب الفُرُوسيَّة، ويُبايِنه[1] بمعاني الشجاعة، ويَعْلُوه من هذه الجهة التي لم يتقدَّم[2] لابن أبي عامر بها معرفة. فلم يجد لذلك مِثْلَ جعفر بن عليِّ بن حَمْدُون المعروف بابن الأنْدَلُسيِّ؛ شدَّةَ بأسٍ، ورَبْطَ جأش، ونَباهةَ ذِكْر، وجلالةَ قَدْر. فجدَّ في استجلابه، وهو مُقيم بالعُدْوة. وآلُ عليٍّ مـمَّن أطاع الخليفةَ هشامًا مِن زَنَاتة، فبعث ابنُ أبي عامر إليه، وتواترت كُتُبُه إليه، فأسلم العملَ إلى أخيه يحيى، وعبر إلى الأندلُس بجيشه، فنزل قَصْرَ العُقاب، بعد أن أعدَّ له ما يصلح فيه. فاستوزره ابن أبي عامر؛ فعَظُم شأنُه، وأحلَّه محلَّ الأخ في الثِّقَة، وقدَّمه على الكافّة[3]، فوجد عنده ما أحبَّه، وفَوْقَ ما قدَّره، فاعتدل بالبَرابِرة أمْرُه، وقَوِيَ ظَهْرُه، وكانت هذه القطعةُ من البَرْبَر نحو الستِّ مئة. وما زال بعد ذلك يَستدعيهم ويتضمَّن الإحسانَ إليهم، والتوسعةَ عليهم، إلى أنْ أسرعوا إلى الأنْدَلُس، وانثالوا

(١) في أ: «ويفايقه».

(٢) في ر٢: «يكن».

(٣) في أ، م: «الكفاة».

على ابن أبي عامر، وما زالوا يتلاحقون، وفُرسانُهم يتواترون، يجيءُ الرَّجلُ منهم بلباس الـخَلَق على الأعْجَف، فيُبَدَّل له بلباس الـخَزِّ الطِّرازيِّ وغيره، ويُركَب الجوادَ العَتيق، ويُسكَن قصرًا لم يَتصوَّر له في مَنامه مِثْلُه، حتَّى صاروا أكثَرَ أجنادِ الأندلُس. ولم تزل طائفةُ البَرْبَر خاصَّةَ ابنِ أبي عامر وبِطانَتَه، وهُمْ أظهرُ الـجُنْد نِعمةً، وأعلاهم مَنْزِلةً.

ولـمَّا علم غالبٌ بإدْناء جعفر، علم الغَرَضَ فيه؛ ففسد ما بينهما، ووقع بينهما مَعارِكُ وفِتَنٌ كان الظَّفَرُ فيها لابنِ أبي عامر على غالب. ومات وهو يقاتِلُه مع النصارى، وكان قد استجلبهم إليه في خَبَرٍ طويل. فوُجِدَ غالِبٌ مقتولًا في مَجال الـخَيْل، وابنُ أبي عامر كاد أن ينهزم له. فقيل: إنَّ قَرَبُوس سَرْجه قتَلَه. وقيل غير ذلك. فكان ذلك أكبرَ سَعْدِ ابنِ أبي عامر، ولم يَبْقَ له بعد ذلك مَنْ يخاف منه.

ولـمَّا فرغ ابنُ أبي عامر من غالب، دبَّر الحيلةَ في حَتْفَ[1] جعفر بن عليّ، الذي أقامه أكبرَ مُعِينٍ في أمر غالب؛ فواطأ على قَتْله أبا الأحْوَص مَعْنَ[2] بن عبد العزيز التُّجِيبيَّ فارِسَ العَرَب، في طائفة من أصحابه الأندلُسيِّين، فقتلوه غِيلةً، ثمَّ قتل ابنُ أبي عامر بعد ذلك أبا الأحْوَص، وانفرد وحدَه.

وفي سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة: تسمَّى ابنُ أبي عامر بالمنصور، ودُعِي له على المنابر به، استيفاءً لرُسوم الملوك، فكانت الكُتُب تُنْفَذ عنه: من الحاجبِ المنصور أبي عامر محمَّد بن أبي عامر إلى فلان. وأخذ الوزراءُ بتقبيل يده، ثمَّ تابعهم على ذلك وجوهُ بني أُمَيَّة، فكان مَن يدخل عليه من الوزراء وغيرِهم يُقبِّلون يدَه، ويمُوِّلونه عند كلامه ومخاطبته. فانقاد لذلك كبيرُهم وصغيرُهم، وإذا بدا لأبصارهم طِفْلٌ مِن وَلَده، قاموا إليه، فاستَبقُوا ليده تقبيلًا، وعمُّوا أطرافَه لَثْـمًا. فساوى محمَّدُ بن أبي عامر الخليفةَ في هذه المراتب، وشاركه في تلك المذاهب. ولم يجعل فَرْقًا بَيْنه وبينه إلَّا في الاسْم وحْده في تصدير الكُتُب عنه، حتَّى تنامت[3] حالُه في الجلالة، وبلغ غاية العزِّ والقُدرة.

---

(١) في ر٢: «قتل».

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٣١-٢٣٢.

(٣) في ر٢: «تناهت».

قال حَيَّان بن خَلَف: وقرأتُ في بعض الكُتُب أنَّ محمَّد بن أبي عامر، لـمَّا حَجَبَ هشامًا عن الناس واستبدَّ بالأمر دونه، ظهرتْ فيهم بقُرْطُبة أقوالٌ مُعَرِّضة أفشَوْا بينهم فيها أبياتًا فاحشةً، فمن ذلك: ما قيل على لسان هشامٍ الخليفة في شكواه لهم [من الوافر]:

أَلَـيْسَ مِـنَ العَجائـبِ أنَّ مِـثْلِي ... يَـرَى مـا قَـلَّ مُـمْتَنِعًا عَلَيْـهِ

وتُـمْلَكُ[1] باسْـمِهِ الـدُّنيا جَميعًـا ... ومـا مِـن ذاك شيءٌ في يَدَيْـهِ!

ومـمَّا قيل في تقديم هِشام، وهو صغيرٌ لم يبلغ الـحُلُم، وفي قاضيه ابنِ السَّليم [من السريع]:

اقْـتَرَبَ الوَعْـدُ وحـانَ الـهَلاكْ ... وكُـلُّ مـا تَكْرَهُـه قَـدْ أتـاكْ

خَلِيفَـةٌ يلعـبُ[2] في مَكْتَـبٍ ... وأُمُّـه حُـبْلَى وقَـاضٍ يُنـاكْ

يريد بذلك شَغَفَ أُمِّ هشام بابن أبي عامر؛ لأنَّها كانت تُتَّهَمُ به، وهي أوصلَتْه إلى حيثُ وصل من الحال التي لم يتمكَّن لأحد قَبْلَه ولا بَعْدَهُ مِثْلُها، فسَلَب هشامًا مُلْكَه وجُندَه ومالَه.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة: قُتِلَ جعفرُ بن عليٍّ بن حَمْدون المعروف بابن الأَنْدَلُسيِّ؛ وذلك أنَّ المنصورَ عزم ـ بزَعْمه ـ على إكرام جعفرٍ المذكور ليلةَ الأحد لثلاث خلون من شعبان من السنة، مَكْرًا منه، وحيلةً لقتله، فانتخبه ساقي المجلس كأسًا، فقال له ابنُ أبي عامر: «اسْقِها أعزَّ الناس عليَّ»، فأمسك الساقي حَيْرةً لكثرة مَن ضمَّ المجلسُ من العِلْية، فزجره ابنُ أبي عامر وقال: «ناوِلْـها الوزيرَ أبا أحمد، عليك لعنة الله!» فقام جعفر، فتناولها على قَدَمه، واستخفَّه الطَّرَبُ حتَّى قام يَرْقُص، فلم يَبْقَ أحَدٌ بالمجلس إلَّا فعل كفِعْله، وأُميلت إليه الكؤوسُ حتَّى ثَقُلَ وانصرف في جوف[3] الليل مع بعض غِلْمانه، فخرج إليه مَعْنٌ وأصحابه، فلم يكن فيه امتناعٌ؛ لِـما كان عليه من السُّكْر، فأخذَتْه السيوفُ حتَّى بَرَدَ، وحُزَّ رأسُه ويده اليُمنى، وحُمِلا إلى ابن أبي عامر سِرًّا. فأظهر ابن أبي عامر الـحُزْنَ عليه.

---

(١) في ر٢: «وتؤكل».

(٢) في ر٢: «يحضر».

(٣) في ر٢: «بعض».

وفي سنة خمس وسبعين وثلاث مئة: جهَّز المنصورُ جيشًا كَثيفًا، وبعثه إلى العُدْوة، فحاصر حَسَنَ بن قَنُّون الشريف الحَسَنيّ. وكان حاوَلَ الخروجَ من الدعوة المروانيَّة[١]، واجتمع إليه خَلْقٌ من أهل الغرب، وظهر أمرُه، فوصله الجيشُ العَرَمْرَم[٢]، فلم يجد ملجأً إلَّا الاستسلامَ للأمان. فأمَّنه قائدُ الجيش، وحمله إلى قُرْطُبة مرقَّبًا. فلم يُمْضِ ابنُ أبي عامر أمانَه، وأمر بقتله لَيْلًا في الطريق بَغْيًا وتَعَدِّيًا؛ لأنَّ أمانَ قائده أمانُه، فقال مَن شاهد قَتْلَه أن هبَّتْ عليهم ريحٌ عاصفٌ في تلك الليلة التي قُتِل فيها غَدْرًا ذلك الشريفُ، صَبَّتْهم على وجوههم، وسلَبَتْهم أثوابَهم، واحتملتْ رِداء حَسَنٍ المقتول، فلم يجدوه، وأظلم عليهم الأُفُق حتَّى خافوا على أنفسهم.

وفيها: تفرَّق بنو إدْريسَ في البلاد، وملك ابنُ أبي عامر الغَرْب، وأخرج منه مَن كان بقي به من الأدارِسة. فقيل في ذلك[٣] [من الكامل]:

فِـيما أرَى عَجَـبٌ لِـمَنْ يَتعجَّـبُ ... جَلَّـتْ مُـصِيبتُنا وضـاقَ الـمَذْهَبُ

إنِّي لأُكْـذِبُ مُقْلَتِـي فـيما أرى ... حتَّـى أقـولَ: غَلِطـتُ فـيما أحْـسَبُ

أيكـونُ مـن أبْنَـا[٤] أُمَيَّـةَ واحِـدٌ ... ويَسُوسُ ضَخْمَ الـمُلْكِ هذا الأحْدَبُ!

تَـمْشِي عَـساكِرُهُمْ حَـوالَيْ هَـوْدَجٍ ... أعْـوادُهُ فِـيهِنَّ قِـرْدٌ أَشْـهَبُ

أبَنـي أُمَيَّـةَ أيْـن أقـمار الـدُّجى ... مِـنْكم ومـا لوجُوهِهـا تَتَغَيَّـبُ؟

ثمَّ قام بعد ذلك في الغَرْب على ابن أبي عامر زِيري[٥] بنُ عَطِيَّة الـمَغْراويُّ، ونكث طاعتَه بعد الحُبِّ الشديد والوَلاء الأكيد، وطعن على ابنِ أبي عامر تَغلُّبَه على هشام وسَلْبَه مُلْكَه. فأنفذ له ابنُ أبي عامر واضِحًا الفَتَى في جيش كثيف، فقاوَمَه بالغَرْب،

---

(١) في ر٢: «طاعه ابن أبي عامر».

(٢) ليست في أ.

(٣) القائل هو إبراهيم بن إدريس الحسني، وترجمته في جذوة المقتبس (٢٦٥) وتعليقنا عليها، والأبيات في ترجمته من الحلة السيراء ١/ ٢٢٧.

(٤) هكذا في النسختين، وفي الحلة: «حيًا من» بدلًا من «من أبنا».

(٥) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٣٩.

ودارت بينهم حروبٌ عظيمةٌ. ثمَّ أردفه ابنُ أبي عامر بوَلَده عبدِ الملك، وهبط ابنُ أبي عامر إلى الجزيرة الخضراء، يمدُّهم بالقُوَّاد والأجناد. وسار عبدُ الملك بن أبي عامر من طَنْجَةَ إلى زِيري بن عَطِيَّة، ودارت بينهم حربٌ، لم يُسمَعْ بمثلها قطُّ. ثمَّ انهزم زِيرِي ومَن معه، ونجا مُثْخَنًا بالجِراح. وملك ابنُ أبي عامر بلادَ الغَرْب إلى سنة سبع وسبعين وثلاث مئة.

وكان أوَّلَ مَن ملك سَبْتة من بني أُمَيَّة وملك منها الغَرْب[1] عبدُ الرحمن الناصر، وسَبَبُ ذلك: أنَّه[2] وجَّه إليها أُسْطولًا، فلمَّا حلَّتْ بسَبْتة، أعلن أَهْلُها بدعوته، وبادروا إلى طاعته، يَوْمَ الجمعة صَدْرَ ربيع الأوَّل من سنة تسع عشرة وثلاث مئة، ثمَّ تتابعت البلادُ بالطاعة، ثمَّ تكاثر ورودُ وُفودها عليه وعلى الـحَكَم ابنه، ثمَّ التاثَتْ طاعتُها على ابن أبي عامر؛ فوجَّه واضِحًا فتاهُ، فسكن في جَبَل أبي حَبِيب عامًا في الأخْبِية، ثمَّ وجَّه بابنه عبدِ الملك إليها، فالتقى بزِيرِي وهزمه، وغدره[3] ابنُ عمِّه الـخَيْرُ بن مُقاتِل، فطعنه برُمح في قَفَاه وهرب، ومات بعد ذلك زِيرِي من الـجُرْح بعدما لقيَ جُموعَ صُنْهاجة، أصحاب إفْريقية، وهَزَمَهم.

وانصرف عبدُ الملك بعدما استقامت له الطاعةُ بالغَرْب، فوجد أباه في غَزاته بلاد البشاكِشة مُنصرِفًا عنها، والتقى به بسَرَقُسْطة، وهي التي تُسمَّى بغزاة البَيَاض، سنة تسع وسبعين وثلاث مئة.

وفي سنة تسع وسبعين وثلاث مئة: قَتَل المنصورُ بن أبي عامر عبدَ الرحمن بن مُطَرِّف صاحِبَ سَرَقُسْطة والثَّغْرِ الأعلى، وسبب ذلك: أنَّه، لـمَّا فكَّر عبدُ الرحمن في شأن مَنْ أتْلَفَه ابنُ أبي عامر من كبار رجال الدولة، علم أنَّه لم يَبْقَ غيرُه، وخَشِيَ أن يُلحِقَه بالجماعة، فسوَّل له القَدرُ الـمُتاحُ التدبيرَ على محمَّد، وقرَّب عليه مأخَذَه وَلَدُه عبدُ الله[4] ابن المنصور.

---

(١) في أ: «وكان سبب تملك بني أمية مغرب العدوة».

(٢) «وسبب ذلك أنه» ليست في أ.

(٣) في ر٢: «وطعنه».

(٤) له ذكر في المغرب لابن سعيد ١/ ٢١٢.

ذكر تدبير عبد الرحمن بن مُطَرِّف
مع عبد الله ابن المنصور في القيام عليه

وذلك أنَّ عبدَ الله بن محمَّد بن أبي عامر كان مُقيمًا بِسَرَقُسْطة عند عبد الرحمن، مُتغيِّرَ النفس على أبيه؛ لإحظائه عبدَ الملك أخاه. وكان عبدُ الله يرى أنَّه أشجعُ وأفهم وأرْجَلُ وأفْرس من أخيه عبدِ الملك، وأنَّ أباه عَيْنُ الظالم له في التسوية بعبد الملك، فكيف في تقديمه عليه! فكان في قلبه على أبيه سعيرُ نار، أذْكاها عبدُ الرحمن بن مُطَرِّف وأضرَمَها. فتوطَّآ على الوُثوب بالمنصور في أوَّل فُرصة، على أن يَقسِما مُلْك الأندلس: فالحضرةُ لعبد الله، والثَّغْر لعبد الرحمن. وشَرَعا في إحكام سبيل ذلك والتماسِ وجهه، وساعَدَهما عليه جماعةٌ من وجوه أهل قُرْطُبة من الجُنْد والخَدَمة وغيرهم، فيهم الوزيرُ عبد الله بن عبد العزيز المَرْوانيُّ صاحب طُلَيْطُلة. فانبثَّتْ أراجيفُ شنيعةٌ تَحقَّقَ المنصورُ صحَّتَها، ولم يشكَّ فيها، فاستدعى ابنَه عبد الله من سَرَقُسْطة، واستأنف له كثيرًا من التقديم والمَبَرَّة، خديعةً ومُغالطةً، وصرف المروانيَّ عن طُلَيْطُلة صَرْفًا جميلًا، ثمَّ صرفه عن الوزارة بعد مُدَيْدة، وألزمه دارَه. ثمَّ خرج ابنُ أبي عامر غازيًا إلى قَشْتِيلة، فتوافت إليه أمدادُ الثغور، فيهم عبدُ الرحمن بن مُطَرِّف ورجال سَرَقُسْطة، فلمَّا صاروا بوادي الحِجَارة، أطبق أهْلُ الثغور على الشكوى بعبد الرحمن، بدَسِيسةٍ من ابن أبي عامر لهم في ذلك، حيلةً منه، وذكروا أنَّه يحتبسُ أرزاقَهم، ويَحْتَجِن لنفسه؛ فصرفه المنصورُ عن سَرَقُسْطة مُنْسَلَخَ صفر من سنة تسع وسبعين المذكورة[1]، وقلَّدها مكانَه ابْنَ أخيه عبدَ الرحمن بن يحيى[2] الملقَّب بِسماجة؛ إطماعًا لقومه التُّجِيبيِّينَ في المحافظة. ولبث عبدُ الرحمن في العسكر متردِّدًا إلى أن قُبض عليه يومَ الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوَّل. وسخط عليه المنصورُ، وأمر بحسابه، ثمَّ قُتِلَ بعد ذلك بالزَّاهِرة بين يدَيِ المنصور.

---

(١) قوله: «منسلخ صفر من سنة تسع وسبعين المذكورة» ليس في ر٢.

(٢) في أ: «ابن عبد الرحمن يحيى».

واستدعى المنصورُ ابنَه عبد الله إلى عسكره خوفَ أنْ يُحْدِث حَدَثًا بأنَفته، فوافى العسكرَ، فَرَفَق به أبوه، وأمَّل استصلاحَه، وقد تباعد ذلك عليه؛ لسُقْم سَريرته وشدَّة حِقْدِه. ونازل المنصورُ أثناء ذلك مدينةَ شَنْت أشْتَبِين، فلمّا اشتغل المسلمون بالقتال، فرَّ عبدُ الله بن المنصور من العسكر في ستَّة نفر من غلمانه، فلحق بعدوِّ الله غَرْسِيَة[1] بن فرذِلَنْد صاحب ألَبَة، فقَبِلَه وأجازه على أبيه، فتحرَّك المنصورُ لغزو غَرْسِية ومُطالبتِه بإسلام ابنه إليه، وأقسم له أنَّه لا يُقلِعُ عنه حتَّى يُمْكِنه من ولَدِه، وأصرَّ غَرْسِيَةُ على الامتناع من ذلك، فهزم المنصورُ جيش[2] غَرْسِيَة، وفضَّ جَمْعَه، واشتقَّ بلدَ ألَبة، وافتتح حِصْنَ وخْشُمة عَنوةً، أسكنه المسلمين، فضرع غَرْسِيَةُ في مُسالمته على ما شاء من شُروطه في عبد الله وغيره، فعقد له المنصورُ الأمان[3] على ذلك، فوكَّل غَرْسِيَة بعبد الله جماعةً من العُلُوج، وحُمِل عبدُ الله وأصحابُه على البغال. وخرج سَعْدٌ الخادِم يستقبل عبدَ الله، فدنا من سَعْد وهو على بَغْلٍ فارِهٍ، مُرتفِع الحِلْية، عليه ثَوْبُ وَشْيٍ عجيب الصنعة، وهو مُتَطَلِّقٌ، قويُّ الرجاء في الإقالة. فقبَّل سَعْدٌ يَدَه، وآنسه، وهوَّن عليه الخَطْبَ، ثمَّ تخلَّف عنه بقُرب الوادِي الجوفِيِّ، ووكَّل به مَن قتله، فحفَّ به الموكَّلون وأعلموه بموته.

ذكر مقتل عبد الله ابن المنصور

ولـمَّا أعلموه بأنْ حلَّ به ما كان يَحذره، أمروه بالنزول، فلم يمتنع لهم، وترجَّل، ومشى إلى السيف مُتَطَلِّقًا، فظهرتْ منه عند الموت صَرامةٌ، عَجِبَ لها مَن شاهَدَه، وتقدَّم إليه ابنُ خفيف الشُّرْطيُّ، فضرب عُنقَه صَبْرًا عند غروب الشمس من يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلةً خلت من جُمادى الآخرة سنة ثمانين وثلاث مئة، وأنفذ المنصورُ رأسَ ابنه إلى الخليفة مع كِتاب الفَتْح، ودُفِن جسدُه في الموضع الذي قُتِل فيه. وكان سِنُّه يومَ قُتِل ثلاثًا وعشرين سنة، وذلك في غزوته الخامسة والأربعين. ثُمَّ إنَّ ابنَ أبي عامر استثقل سَعْدًا وابْنَ خفيف، ولم يزل حاقدًا عليهما، حتَّى قتلهما بعد الامتحان. وازداد ابنُ أبي عامر بما فَعَلَه بابنه هيبةً، ومُلِئتْ قلوبُ الناس منه ذُعرًا.

---

(١) من هنا إلى قوله «غرسية» في السطر الذي بعده قفز نظر الناسخ فسقط من ر٢.

(٢) من ر٢.

(٣) من ر٢.

ومـمَّا حُكي في أمر عبد الله المقتول: قال الوزيرُ أبو عمر بن عبد العزيز: لـمَّا قتَل المنصورُ ابنَه، ارتاع الناسُ لذلك، وأوحشهم فعلُه، فتكلَّموا في ذلك كثيرًا، ورجموا فيه الظُّنون، ولم يتوجَّه لأحدٍ فيه سَبَبٌ يقضي بقتله[1]. ثمَّ تحرَّك المنصورُ إثْرَ ذلك في بعض غزواته، فلمَّا احتلَّ بقَلْعة رَباح، قال الـمُخْبِر: دُعِينا إلى الطعام، فلمَّا كُنَّا في وسط الطعام، وقد استفاض الحديثُ في عبد الله المقتول، فقال مَن حضر على لسان واحد: أيَّدَ اللهُ المنصورَ، لقد صِرْتَ من قتلِه في غايةٍ يُعدم الصبرُ في مِثْلِها، فما سَبَب ذلك؟ قال: لا أعلم له سَبَبًا، إلَّا أنِّي لـمَّا عُرِضَتْ أمُّه، عَلِقْتُ بها، وتمكَّن من قلبي حبُّها تمكُّنًا لم أقدر أن أسلُوَ عنه. فابتعْتُها، متجاوزَ النهاية في ثمنها، وجعلتُها عند قريبةٍ لي. وكنتُ كلَّ يومٍ أخطرُ عليها أتعرَّف استبراءها، فلمَّا أحسَّتْ بحُبِّي لها، وكَلَفِي بها، تَوَخَّت رِضائي، وذكرَتْ لي أنَّها قد استبرأتْ، وهي كاذبةٌ في ذلك، تريد بذلك موافقةَ مَسارِّي واستعجالَ مُرادي، فدخلتُ بها وهي لم تستبرأ، فكنتُ شاكًّا فيه. وكان مولده سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة.

حكاية زَطَرْزُون البرَبْرَيِّ مع المنصور: وجرت للمنصور غِبَّ[2] ذلك مع رجلٍ من أعيان البربر اسمه زَطَرْزُون بن نِزار البِرْزاليُّ نادرةٌ؛ وذلك أنَّه قال يومًا، وقد بسطه في بعض المجالس: يا مولاي، لِـمَ قتلتَ عبدَ الله ابنك؟ ووصف شجاعتَه وخِصاله، فقال له المنصور: لا يَسُؤكَ ذلك، فلو لم أفعل لقَتَلَني، ما كان من ولدي! وبهذا اتَّهمْتُ أُمَّه، وكانت أمَةَ سَوْء. وقد قالوا: «إنَّ الأرحام الرديَّة تُفْسِد الذُّرِّيَّة»، فقال الجاهلُ زَطَرْزُون: «كذا يا مولاي؟» فحَرَامُ أُمِّه وحِرْمُ أبيه، فخجل المنصورُ لذلك[3] وقال: شَقِينَا بهذا الملعونِ في حياته وبعد موته! وعلم ما كان عليه زَطَرْزُون من الجهالة، فأعرض[4] عنه. وصارت كلمتُه مأثورةً في الناس مدَّة طويلة.

---

(١) قوله: «ولم يتوجه لأحد فيه سبب يقتضي بقتله».

(٢) في ر٢: «إثر».

(٣) من ر٢.

(٤) في ر٢: «فتغافل».

وكان المنصورُ آيةً من آياتِ فاطِرِه دهاءً ومَكْرًا وسياسةً[١]: عدا بالـمَصَاحِفة على الصَّقَالِبة حتَّى قتلهم[٢] وأذلَّـهم[٣]، ثمَّ عدا بغالبٍ الناصِريِّ على الـمَصَاحِفة حتَّى قتلهم وأبادهم، ثمَّ عدا بجعفرٍ ابن الأندلُسيِّ على غالبٍ حتَّى قتله، ثمَّ عدا بنفسه على جعفر وقتله، ثمَّ انفرد بنفسه وصار يُنادي صُرُوفَ الدَّهْر: «هل مِنْ مُبَارِز؟» فلمَّا لم يَـجِده، حَمَلَ الدهرَ على حُكْمه، فانقاد له وساعَدَه، فاستقام أمرُه، منفردًا بمملكةٍ لا سَلَفَ له فيها. ومن أوضَحِ الدلائل على سعده: أنَّه لم يُنْكَب قطُّ في حربٍ شَهِدَها، وما توجَّهت قطُّ عليه هزيمة، وما انصرف عن موطنٍ إلَّا قاهرًا غالبًا، على كثرة ما زاول من الحروب، ومارس من الأعْداء، وواجَهَ من الأُمَم. وإنَّها لخاصّةٌ ما أحسبُ شَرِكَه فيها أحَدٌ من الملوك الإسلاميَّة. ومن أعظم ما أُعين به، مع قوَّة سعدِه، وتمكُّن جَدِّه: سعةُ جُوده وكثرة بَذْله، فقد كان في ذلك أعجوبةَ الزمان، وأوَّلَ ما اتَّكأ على أرائكِ الـمُلْك وارتفق، وانتشر عليه لِواء السَّعد وخَفَق، حطَّ صاحِبَهُ الـمُصْحَفيَّ، وأثار له كامِنَ حِقْده الـخَفيّ، حتَّى أصاره للهموم لَبيسًا، وفي غَيابات السجون حَبيسًا، فكتب إليه يستعطفه[٤] [من البسيط]:

هَبْنِـي أسـأتُ فـأيْنَ العَفْـوُ والكَـرَمُ	إذْ قـادَني نَحْـوَكَ الإذْعـانُ والنَّـدَمُ!
يا خَيْرَ مَنْ مُـدَّت الأيْـدِي إلَيْـه أمـا	تَرْثِـي لِـشَيْخٍ نَعـاهُ عِنْـدَكَ القَلَـمُ!
بالغْتَ في السُّخْطِ فاصفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ	إنَّ الـمُلوكَ إذا مَـا اسـتُرْحِمُوا رَحِمـوا

فما زاده ذلك إلَّا حَنَقًا وحِقْدًا، ولا أفادته الأبيات إلَّا تضرُّمًا ووَقْدًا، فراجَعَه بما أيْأسَه، وأراه مَرْمَسَه، وأطبق عليه محبسَه، وضيَّق تروُّحه من المحنة وتنفُّسَه[٥] وهو قوله [من البسيط]:

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «أبادهم».

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «مخنقه ومتنفسه».

الآنَ يـا جـاهِلاً زلَّـتْ بِـك القَـدَمُ تَبْغِـي التَّكَـرُّمَ لـمَّا فاتَـكَ الكَـرَمُ!
أغْرَيْـتَ بي مَلِكًـا لَـوْلا تَثَبُّـتُهُ مـا جـازَ لي عِنْـدَه نُطْـقٌ ولا كَلِـمُ
فايْأسْ مِنَ العَيْشِ إذْ قَد صِرْتَ في طَبَقٍ إنَّ الـمُلُوكَ إذَا مَـا استُنْقِمُوا نَقَمـوا
نَفْسِي إذا سَخِطَتْ لَيْسَتْ بِراضِيَةٍ ولَـوْ تَـشَفَّعَ فِيـكَ العُـرْبُ والعَجَـمُ

وكان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البرِّ والقُرْبة: بُنيانُ المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاث مئة؛ وذلك أنَّه، لـمَّا زاد الناسُ بقُرْطُبة، وانجلب إليها قبائلُ البَرْبَر من العُدْوة وإفْرِيقيَة، وتناهى حالُـها في الجلالة؛ ضاقت الأرباضُ وغَيْرُها، وضاق المسجدُ الجامع عن حَمْل الناس؛ فشرع المنصورُ في الزيادة بشرقيِّه حيث يتمكَّن الزيادةُ لاتِّصال الجانب الغَرْبيِّ بقصر الخلافة. فبدأ ابنُ أبي عامر هذه الزيادةَ على بَلَاطات تمتدُّ طُولًا من أوَّل المسجد إلى آخِره، وقصد ابنُ أبي عامر في هذه الزيادة المبالغةَ في الإتقان والوَثاقة دون الزَّخْرَفة، ولم يقصِّر مع هذا عن سائر الزيادات جُودةً ما عدا زيادة الـحَكَم. أوَّلُ ما عمله ابنُ أبي عامر تطييبُ نُفوس أرباب الدُّور والـمُستَغَلَّات الذين اشتُرِيتْ منهم للهَدْم لهذه الزيادة، بإنصافهم من الثَّمَن أو بمُعَاوَضةٍ. وصنَع في صَحْنه الـجُبَّ العظيمَ قَدْرُه، الواسعَ فناؤُه. وابنُ أبي عامر رتَّب إحراقَ الشَّمْع في المسجد الجامع زيادةً للزيت، فتطابق بذلك النُّورانِ. وكان عَدَدُ سَوَارِي الجامع، الحاملةِ لسَمائه واللاصِقة بمبانيه وقِبابه ومَنَاره، ما بَيْنَ كبيرةٍ وصغيرةٍ، ألفَ سارية وأربع مئة سارية وسبع عشرة ساريةً، وعَدَدُ ثُرَيَّات الجامع، ما بَيْنَ كبيرة وصغيرة، مئتان وثمانون ثُرَيَّة، وعَدَدُ الكؤُوس سبعة آلاف كأس وأربع مئة كأس وخمس وعشرون كأسًا. وزِنَةُ مَشَاكِي الرَّصاص للكؤوس المذكورة[1] عشرة أرباعٍ أو نحوها، وزِنَةُ ما يحتاج إليه من الكَتَّان للفتائل في كلِّ شهر رمضان ثلاثةُ أرباعِ القنطار، وجميعُ ما يحتاج إليه الجامع من الزَّيت في السَّنة خمس مئة رُبع أو نحوها، يُصرف منه في رمضان خاصَّةً نحوُ نصف العَدَد. وممَّا كان يختصُّ برمضانَ المعظَّم ثلاثةُ قَناطِرَ من الشمع، وثلاثةُ أرباع القنطار من الكَتَّان الـمُقَصَّر، لإقامة الشمع المذكور، والكبيرةُ من الشمع تُوقَدُ بجانب الإمام يكون وَزْنُها من خمسين إلى

(١) من ر٢.

ستِّين رِطْلًا، يحترق بعضُها بطول الشهر، ويعُمُّ الـحَرْقُ لجميعها ليلة الـخَتْمة. وكان عددُ مَن[1] يخدم الجامعَ المذكور بقُرْطُبة في دولة ابن أبي عامر ويتصرَّف فيه من أئمَّة، ومُقْرِئين، وأُمَناء، ومُؤذِّنين، وسدَنَة، ومُوقِدين وغيرِهم من المتصرِّفين: مئة وتسعة وخمسين شَخْصًا. ويُوقَد من البَخور ليلةَ الـخَتْمة أربعُ أواقٍ من العَنْبَر الأَشْهب وثماني أواقٍ من العُود الرَّطْب.

ومن ذلك: بنُيانُ قنطرةٍ على نَهْر قُرْطُبة الأعْظَم. ابتدأ المنصور بُنيانَها سنة ثمان وسبعين وثلاث مئة، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وسبعين، وانتهت النفقةُ عليها إلى مئة ألف دينار وأربعين ألف دينار؛ فعظمتْ بها الـمَنْفَعة، وصارت صَدْرًا في مَناقِبه الجليلة. وكانت قطعةَ أرْضٍ لشيخٍ من العامَّة، ولم يكن للقنطرة عُدُولٌ عنها، فأمر المنصور أُمَناءه بإرضائه فيها، فحضر الشيخُ عندهم، وأخذ حَذَرَه منهم، فساوَموه بالقطعة وعرَّفوه وَجْهَ الحاجة إليها، وأنَّ المنصورَ لا يريد إلَّا إنصافه فيها، فرماهم الشيخُ بالغَرَض الأقصى عنده فيما ظنَّه[2] ألا تخرج عنه بأقَلَّ من عشرة دنانير ذهبًا، كانت عنده أقصى الأُمنيَّة، وشَرَطَها صِحاحًا. فاغتنم الأُمَناءُ غفلتَه، ونَقَدُوه الثَّمَن، وأشهدوا عليه، ثمَّ أخبروا المنصور بخَبَره، فضحك من جهالته، وأنِف من غَبْنه، وأمر أن يُعْطَى عشرةَ أمثال ما سأل، وتُدْفع له صِحاحًا كما قال. فقبض الشيخُ مئة دينار ذهبًا، فكاد أن يخرجَ عن عقلِه وأن يُـجَنَّ عند قَبْضها من الفرح، وجاء مُـحْتَفِلًا في شُكر المنصور. وصارت قصَّتُه خَبَرًا سائرًا.

ومن ذلك أيضًا: بنيانُ قنطرةٍ على نَهْر إسْتِجَّة، وهو نَهْر شَنِيل، فتجشَّم لها أعظمَ مُؤنة، وسهَّل الطُّرُقَ الوعرة والشِّعاب الصَّعْبة.

ومن ذلك: أنَّه خطَّ بيده مُصْحَفًا كان يحمله معه في أسفاره، يَدْرُسُ فيه ويتبرَّك به. ومن قوَّة رجَائه: أنه اعتنى بجَمْعِ ما عَلِقَ بوَجْهه من الغُبار في غزواته ومَواطِنِ جهاده، فكان الـخَدَمُ يأخذونه عنه بالـمَنادِيل في كلِّ منزل من منازله، حتَّى اجتمع له منه صُرَّةٌ ضخمة عَهِدَ بتصييره في حَنُوطه عند موته، وكان يحملُه حيثما سار مع أكفانه؛ توقُّعًا

---

(١) «عدد من» من ر٢.

(٢) «فيما ظنه» ليست في ر٢.

لـحُلُول منيَّته، وقد كان اتَّخذ الأكفانَ من أطْيَب مَكْسَبِه؛ من الضَّيْعة الموروثة عن أبيه، ومن[1] غَزْلِ بنَاتِه. وكان يسأل الله تعالى أن يتوفَّاه في طريق الجهاد، فكان كذلك.

وكان المنصور متَّسمًا بصحَّة باطنه، واعترافِه بذَنْبه، وخوفه من ربِّه، وكثرةِ جهاده. وإذا ذُكِّر الله ذَكَر، وإذا خُوِّف من عِقابه ازْدَجَر، ولم يزل متنزِّهًا عن كلِّ ما يَفْتَتِن به الملوكُ سوى الـخَمْر، لكنَّه أقلع عنها قبل مَوْته بسنتَيْن. وكان عَدْلُ المنصور في الخاصَّة والعامَّة، واطِّراحُه الـمُهاودة، وبَسْطُه الحقَّ على الأقرب فالأقرب من خاصَّتِه وحاشيتِه، أمْرًا مضروبًا به الـمَثَلُ.

ومن عَدْله: أنَّه وقف عليه رجلٌ من العامَّة يومًا بمجلسه، فناداه: يا ناصرَ الحقِّ، إنَّ لي مَظْلِمةً عند ذلك الوصيف الذي على رأسك! وأشار إلى الفتى صاحب الدَّرَقة، وكان له فَضْلُ محلٍّ عند ابن أبي عامر، ثمَّ قال: وقد دعوتُه إلى الحاكم، فلم يأتِ! فقال المنصور: أوَعبدُ الرحمن بن فُطَيْس بهذه الـمَنْزِلة من العَجْز والـمَهَانة، وكُنَّا نظُنُّه أمضى من ذلك؟! اذكُرْ مَظْلمَتَك، يا هذا. فذكر الرجل مُعامَلَةً كانت جاريةً بينهما قَطَعَها من غير نَصَف، فقال المنصور: ما أعْظَمَ بَلِيَّتَنا بهذه الحاشية! ثمَّ نظر إلى الصَّقْلَبِيِّ، وهو قد ذَهِلَ عَقْلُه، فقال: ادفع الدَّرَقَةَ إلى فلان، وانزل صاغرًا، وساوِ خَصْمَك في مقامه، حتَّى يرفعَك الحقُّ أو يضَعَك! ففعل، ومَثَلَ بين يَدَيْه، ثمَّ قال لصاحب شُرْطَته الخاصِّ به: خُذ بيد هذا الظالم الفاسِق، وقدِّمْه مع خَصْمه إلى صاحب الـمَظَالِـم ليُنَفِّذ عليه حُكْمَه بأغلظ ما يُوجبه الحقُّ من سجنٍ أو غيره. ففعل ذلك، وعاد الرجلُ إليه شاكرًا، فقال له المنصور: قد انتصفتَ أنْتَ، فاذهبْ لسبيلك، وبَقِيَ انتصافي أنا مِـمَّن تهاوَن بمنزِلَتي. فتناول الصَّقلبيَّ بأنواعٍ من الـمَذَلَّة، وأبعده عن الـخِدْمة.

ومن ذلك: قصَّةُ فتاه الكبير المعروف بالـمَيُورْقيِّ مع التاجر الـمَغْربيِّ، فإنَّهما تنازعا في خُصومة توجَّهت فيها اليمينُ على الفتى المذكور، وهو يومئذٍ أكبرُ خَدَم المنصور، وإليه أمْرُ داره وحُرَمه، فدافَعَ الحاكِمَ، وظنَّ أنَّ جاهَه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجرُ بالمنصور في طريقه إلى الجامع مُتظلِّمًا من الفتى، فوكَّل به في الوقت مَن حمله إلى الحاكم، فأنصفه منه، وسَخِطَ عليه المنصورُ، وقبض نِعْمتَه منه ونَفَاه.

---

(١) من ر٢.

ومن ذلك: قصَّة محمَّد، فَصَّادِ المنصور وخادمه وأمينِه على نفسه، فإنَّ المنصورَ احتاجه يومًا إلى الفَصْد، وكان كثيرَ التعهُّد له، فأنفذ رسولَه إلى محمَّد، فألفاه الرسولُ محبوسًا في سجن القاضي محمَّدِ بن زَرْب، لِـحَيْفٍ ظهر منه على امرأته، قدَّر أنَّ سبيلَه من الـخِدْمة يَـحْمِيهِ من العقوبة. فلمَّا عاد الرسولُ إلى المنصور بقصَّته، أمر بإخراجه من السجن مع رقيبٍ من رُقَباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عملِه، ثمَّ يُعيده إلى محبسه. ففعل ذلك على ما رَسَمَه، وذهب الفاصدُ إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور، وقال له: يا محمَّد، إنَّه القاضي، وهو في عَدْله، ولو أخذني الحقُّ، ما أطَقْتُ الامتناعَ منه، عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحقِّ، فهو الذي يُطْلقك. فانكسر الحاجم، وزال عنه رِيحُ العناية. وبلغتْ قصَّتُه للقاضي، فصالَـحَه مع زَوْجه، وزاد القاضي شِدَّةً في أحكامه.

ومن دَهَائه؛ قال ابنُ حَيَّان: كان جالسًا في بعض الليالي، وكانت ليلةً شديدةَ البَرْد والريح والـمَطَر، فدعا بأحَد الفُرْسان، وقال له انهَضْ إلى فَجِّ طَلْيَارِش، وأقِمْ فيه، فأوَّلُ خاطر يَخْطُرُ عليك، سُقْهُ إليَّ. قال: فنهض الفارسُ، وبقي في الفجِّ في البرد والريح والمطرِ واقفًا على فَرَسه، إذ وقف عليه قُرْبَ الفجر شيخٌ هَرِمٌ على حمار له، ومعه آلةُ الـحَطَب، فقال له الفارس: إلى أين تذهب، يا شيخُ؟ فقال: وراء حَطَب. فقال الفارسُ في نفسه: هذا شيخٌ مسكينٌ نهض إلى الجبل يسوق حطبًا، فما عسى أن يريد المنصورُ منه؟! قال: فتركتُه. فسار عنِّي قليلًا، ثمَّ فكَّرتُ في قول المنصور، وخِفتُ سَطْوتَه، فنهضتُ إلى الشيخ، وقلتُ له: ارجع إلى مولانا المنصور. فقال: وما عسى أن يريد المنصورُ من شيخ مِثْلي؟! سألتك بالله أن تتركَني لطلب معيشتي. فقال له الفارس: لا أفعل. ثمَّ قَدِمَ به على المنصور، ومثَّله بين يَدَيْه، وهو جالس، لم يَنَمْ ليلتَه تلك، فقال المنصور للصَّقالِبة: فَتِّشوه. ففُتِّش، فلم يُوجَد عنده شيءٌ، فقال: فَتِّشوا بَرْذَعة حماره. فوجدوا داخِلَها كتابًا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور، يَـحزِمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليُقبِلُوا ويضربوا في إحدى النواحي المعلومة. فلمَّا انبَلَجَ الصُّبح، أمَرَ بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضُربت أعناقُهم، وضُرِبت رَقَبةُ الشَيخ معهم.

ومن ذلك: قصَّة الجَوْهَريِّ التاجر؛ وذلك أنَّ رجلًا جَوْهَريًّا من تُجّار الـمَشْرِق قصد المنصورَ من مدينة عَدَن بجَوْهرٍ كثير، وأحجار نفيسة، فأخذ المنصورُ من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى الـجَوْهَريِّ التاجر صُرَّته، وكانت قِطْعةً يـمانيَّة. فأخذ التاجرُ في انصرافه طريقَ الرَّمْلة على شطِّ النهر، فلمّا توسَّطها، واليومُ قائظٌ، وعَرَقُه مُنْصَبٌّ، دَعَتْه نفسه إلى التبرُّد في النهر، فوضع ثيابَه وتلك الصُّرَّة على الشطِّ، فمرَّت حِدَأَةٌ، فاختطفت الصُّرَّة، تحسبها لحمًا، وصاعدتْ في الأُفق بها ذاهبةً، فقطعت الأُفقَ الذي تنظر إليه عينُ التاجر، فقامت قيامتُه، وعَلِمَ أنَّه لا يقدر أن يستدفعَ ذلك بعَدْوَى ولا بحيلة، فأسَرَّ الـحُزْنَ في نفسه، ولحقَتْه لأجل ذلك عِلَّةٌ اضطرب فيها. وحضر الدفعُ إلى التجّار، فحضر الرجلُ لذلك بنفسه، فنظر إليه المنصور[1] فاستبان له ما به من الـمَهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النَّشاط وشدَّةِ العارضة. فسأله المنصورُ عن شأنه، فأعلمه بقصَّته، فقال له: هَلَّا أَتَيْتَ إلينا بحَدَثانِ وقوع الأمر؟ فكُنَّا نستظهرُ على الحيلة، فهل هُدِيتَ إلى الناحية التي أخذ الطائرُ إليها؟ قال: مرَّ مُشَرِّقًا على سَمْت هذا الجِنان الذي يلي قَصْرَك، يعني الرَّملة، فدعا المنصورُ شُرْطِيَّه الخاصَّ به، فقال له: جِئْني بمَشْيخةِ أهل الرَّملة الساعةَ. فمضى، وجاء بهم سريعًا، فأمرهم بالبحث عمن غَيَّرَ حالَ الإقْلالِ منهم سريعًا، وانتقل عن الإضافة دون تدريج، فتناظروا في ذلك، ثمَّ قالوا: يا مولانا، ما نعلم إلَّا رجلًا من ضُعَفائنا كان يعمل هو وأولادُه بأيديهم، ويتناوبون السَّقْيَ[2] بأقدامهم؛ عجزًا عن شراء دابَّة، فابتاع اليومَ[3] دابَّةً، واكتسى هو وولدُه كُسوةً متوسِّطةً. فأمر بإحضاره من الغَد، وأمر التاجرَ بالغُدُوِّ إلى الباب، فحضر الرجل بعَيْنه بين يدي المنصور، فاستدناه، والتاجر حاضرٌ، وقال له: سَبَبٌ ضاع مِنَّا وسَقَطَ إليك: ما فعلتَ به؟ فقال: هو ذا يا مَوْلاي. وضرب بيده إلى حُجْزة سَراويله، فأخرج الصُّرَّة بعَيْنها، فصاح التاجرُ طَرَبًا، وكاد يطير فَرَحًا، فقال له المنصور: صِفْ لي حديثَها. قال: نَعَم، بَيْنا أنا أعمل في جِناني تحت نَخْلة، إذْ سقطَتْ أمامي، فأخذتُها، وراقَني منظرُها،

---

(١) قوله: «فنظر إليه المنصور».

(٢) في النسختين: «السبق»، ولا معنى لها.

٣)) في ر ٢: «الآن».

فقلت إنَّ الطائر اختلسها[1] من قَصْرك؛ لقُرْب الـجِوار، فاحترزت بها، ودَعَتْني فاقتي إلى أخذِ عشرة مثاقيل عُيُونًا كانت معها مصرورةً، وقلت: أقَلُّ ما يكون في كَرَم مَوْلايَ أنْ يسمحَ لي بها. فأعجب المنصورَ ما كان منه، وقال للتاجر: خُذْ صُرَّتَك، وانظُرْها، واصدُقْني عن عَدَدِها. ففعل وقال: وحَقِّ رأسك، يا مَوْلاي، ما ضاع منها شيءٌ سوى الدنانير التي ذَكَرها، وقد وهَبْتُها له. فقال له المنصور: نحن أولى بذلك منك، ولا نُنْقِص عليك فرحتَك، ولولا جَمْعُه بَيْن الإقرار والإنكار، لكان ثوابُه مَوْفُورًا عليه. ثمَّ أمر للتاجر بعشرة دنانير عِوَضًا من دنانيره، وللجَنَّان بعشرة دنانير ثوابًا لتأنِّيه عن إفساد ما وقع بيده، وقال: لَوْ بَدَأنا بالاعتراف قبل البَحْث، لأوسعناه جَزاء. قال: فأخذ التاجرُ في الثناء على المنصور، وقد عاوَدَه نشاطُه، وقال: والله لأبُثَّنَّ في الأقطار عظيمَ مُلكك، ولأُبَيِّنَنَّ أنك تَـمْلكُ طَيْرَ عَمَلك كما تَـمْلِكُ إنْسَها[2]، فلا تَعْتَصِم منك ولا تؤذِي جارَك! فضحك المنصور، وقال: اقصِدْ في قولك، يغْفِر الله لك! فعجب الناسُ من تلطُّف المنصور في أمره، وحيلتِه في تفريج كُرْبته.

وكان المنصورُ أشَدَّ الناس في التغيُّر على من عَلِمَ[3] عنده شيئًا من الفَلْسَفة والـجَدَل في الاعتقاد، والتكلُّم في شيء من قضايا النجوم وأدِلَّتها، والاستخفافِ بشيء من أُمور الشريعة. وأحرق ما كان في خزائن الـحَكَم من كُتُب الدَّهْرِيَّة والفَلاسِفَة، بمحضر كبار العلماء، منهم الأصِيليُّ وابنُ ذَكْوان والزُّبَيْديُّ وغيرُهم، واستولى على حَرْق جميعها بيده.

ومـمَّن أوقع به المنصور في مِثْل هذه المعاني الـمُنْكَرة: محمَّدُ بن أبي جُمعة، بلغه عنه قولٌ من الإرْجاف في القَطْع على انقراض دولته؛ فقطع لسانَه، ثمَّ قتله وصَلَبَه، فخرستْ ألْسُنُ جميعِهم لذلك؛ وكذلك أيضًا عبدُ العزيز ابن الخطيب الشاعر، وكان أرفعَ أهل هذه الطبقة منزلةً، وكان مقدَّمًا في أصحاب المنصور، حتَّى فسد ضميرُه عنده، وبقي مدَّةً يلتمس غِرَّةً منه، حتَّى قال في بعض أبيات من شِعره أفْرَطَ فيها [من الكامل]:

---

[1] في ر٢: «اختطفها».

[2] في ر٢: «بشرها».

[3] ليست في أ.

مَـا شِـئْتَ لا مـا شـاءتِ الأقْـدارُ فـاحكُمْ فَأنْـتَ الواحِـدُ القَهَّـارُ
فكَـأنَّما أنْـتَ النَّبِـيُّ مُـحَمَّدٌ وكَـأنَّما أنـصارُكَ الأنْـصَارُ

فأمَرَ بضربه خمس مئة سَوْط، ونُودِيَ عليه باستِخْفافه، ثمَّ حَبَسَه، ونفاه بعدُ عن الأندلُس.

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاث مئة: رشَّح المنصورُ وَلَدَه عبدَ المَلِك للولاية، وقدَّم أخاه عبدَ الرحمن للوزارة، وترك اسْمَ الحجابة، واقتصر على التسمِّي بالمنصور، وأن يُكتب: «من المنصور أبي عامر، وفَّقه الله، إلى فلان» بحذف اسْم الحِجابة، ويُذكر اسمُ ولده عبدِ الملك بخُطَّة الحجابة والقيادة العُلْيا وسائر خُطَط المنصور، سلَّم فيها لابنه عبد الملك، وصَحَّتْ له الحجابة من يومئذٍ. وبعد هذا، استبدل المنصور جُنْدَ الأندلُس بالبَرْبَر، فأقام لنفسه جُندًا اختصَّهم باستصناعه، واسترقَّهم بإحسانه، نَسَخَ بهم في المدَّة القريبة جُنْدَ الخليفة الحَكَم، كما فعله في سائر أُموره.

واتَّفق في ذلك الوقت أن تحرَّك بُلُقِّين بن زِيري الصُّنْهاجيُّ إلى المَغْرِب في جموعه، وأوقع بقبائل زَناتة طالبًا ثأر أبيه زِيري، فهربوا أمامه كلُّهم إلى سَبْتة، وضاقت عليهم أرض العُدْوة، فقيل لابن أبي عامر: قد أمكنك اللهُ من اصطناع فُرْسان زَناتة، واعتقادِ المِنَّة عليهم، فأرْسِلْ إليهم، يأْتُوك سِراعًا، فيَجِدُ إحسانك إليهم مكانًا. فعمل ابنُ أبي عامر على ذلك، وأنفذ كُتُبَه إلى قبائل العُدْوة يستدعيهم، ويتضمَّن الإحسانَ إليهم، والتوسعة عليهم، حتَّى كثروا بالأندلُس، فحَسُنت أحوالهم، وكَثُرت أموالُهم، وما زالوا خاصَّتَه وبِطانته إلى أن هلك، وانقرضت الدولةُ العامريَّة وقد صار بالأنْدَلُس منهم القبائلُ بأسْرِها، وكاثَروهم حتَّى نفذ قضاء[1] الله عليهم بأيديهم.

وفي سنة ست وثمانين وثلاث مئة: عَهِدَ المنصورُ أن يُخَصَّ بتسويده من بَيْن سائر الناس كافَّةً في المُخاطَبات، وأن يُرفَع ذلك عن سائر أهْل الدولة مع الاقتصاد في مراتب الأدْعِيَة، فنفَّذ الكُتُبَ بذلك، وجرى العَمَلُ عليه بقيَّةَ حياته، وخُوطِبَ هذا الوقتَ بالمَلِك الكَرِيم، واستُبْلِغ في تكريمه وتعظيمه.

---

(١) في ر٢: «أبادهم» بدلًا من «نفذ قضاء».

غزوة شَنْت يَاقُوب على سبيل الاختصار[1]

وعند تناهي المنصورِ ابن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار، والنصرِ على الملوك الطاغية، (دمَّرها الله)، سَما إلى مدينة شَنْت يَاقُوب قاصيةِ غَلِيسيَّة، وأعظمِ مَشاهِدِ النصارى الكائنة ببلاد الأَنْدَلُس وما يتَّصل بها من الأرض الكَبِيرة. وكانت كَنِيستُها عندهم بمنزلة الكَعْبَة عندنا، فبها يَحلِفون وإليها يحُجُّون من أقصى بلاد رُومة وما وراءها، ويزعمون أنَّ القَبْرَ الـمَزُورَ فيها قَبْرُ يَاقُوب الـحَوَارِيِّ أحدِ الاثْنَي عشر، (رحمهم الله)، وكان أخصَّهم بعيسى (عليه السلام)، وهُمْ يسمُّونه أخاه؛ للُزومِهِ إيَّاهُ. وقد زعم جماعةٌ منهم أنَّه ابنُ يوسف النَّجَّار. وشَنْت يَاقُوب هي مَدْفَنُ ياقُوب، فهُمْ يسمُّونه أخا الربِّ! تعالَى اللهُ عن قولهم عُلوًّا كبيرًا. ويَاقُوب بلسانهم: يَعْقُوب، وكان أُسْقُفًا ببيت الـمَقْدِس، فجعل يَستَقْرِي الأَرَضين داعيًا لمن فيها، فجاز إلى الأندلُس حتَّى انتهى إلى هذه القاصية، ثمَّ عاد إلى أرض الشام، فقُتِلَ بها، وله مئةٌ وعشرون سنة شمسيَّة. فاحتمل أصحابُه رِمَّتَه، فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثَرِه. ولم يطمع أحدٌ من ملوك الإسلام في قَصْدِها، ولا الوصولِ إليها؛ لصعوبة مَدْخَلها وخُشُونةِ مكانها، وبُعْد شُقَّتها.

فخرج المنصورُ إليها من قُرْطُبة غازيًا بالصائفة يومَ السبت لستٍّ بقين من جُمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاث مئة، وهي غزوته الثامنةُ والأربعون. ودخل على مدينة قُورِيَّة. فلمَّا وصل المنصورُ إلى مدينة غَلِيسيَّة، وافاه عَدَدٌ عظيم من القَوامس المتمسِّكين بالطاعة، في رجالهم[2]، وعلى أتمِّ احتفالهم، فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في الـمُغاورة سبيلَهم. وقد كان المنصورُ تقدَّم في إنشاء أُسطُول كبير في الموضع المعروف بقَصْرِ أبي دَانِس من ساحل غَرْب الأَنْدَلُس، وجهَّزه برجاله البَحْرِيِّين وصُنوف المترجِّلين، وحَمَلَ الأقواتَ والأطْعِمة والعُدَد والأسلحة؛ استظهارًا على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج بمَوْضِع بُرْتُقال على نهر دُوَيْرُهْ، فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل

---

١)) ذكر الحميري في الروض المعطار ٣٤٨ مدينة شنت ياقوب وشيئًا يسيرًا عن الغزوة.

٢)) في ر٢: «جموعهم».

المنصورُ على العبور منه، فعقد هناك مِن هذا الأُسْطُول جَسْرًا بقرب الـحِصْن الذي هناك. ووزَّع المنصورُ ما كان فيه من الـمِيْرة على الـجُنْد، فتوسَّعوا في التزوُّد منه إلى أرض العدوِّ.

ثمَّ نهض يريد شَنْت يَاقُوب، فقطع أرَضين متباعدةَ الأقطار، وقطع بالعُبور عدَّةَ أنهار كبارٍ وخُلْجان يمُدُّها البحرُ الأخْضَر. ثمَّ أفضى العسكرُ بعد ذلك إلى بَسائطَ جليلةٍ من بلاد فَلْطَارِش ومباسيطة[1] والدَّير وما يتَّصل بها، ثمَّ أفضى إلى جبلٍ شامخٍ شديد الوَعْر، لا مسلكَ فيه ولا طريق، لم تهتدِ الأدِلَّاءُ إلى سِوَاه، فقدَّم المنصورُ الفَعَلَةَ بالحديد لتوسِعة شِعابه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكرُ وعبروا بعده واديَ مِنْيُهْ، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائطَ عريضةٍ، وأرَضين أرِيضة، وانتهت مُغِيرتُهم إلى دَيْر قَسْطان وبسيطِ بلبنوط[2] على البحر الـمُحيط، وفتحوا حصنَ شَنْت بَلايُه، وغنموه، وعبروا سِبَاحَةً إلى جزيرةٍ من البحر الـمُحيط لجأ إليها خَلْقٌ عظيمٌ من أهل تلك النواحي، فسَبَوا مَن فيها مـمَّن لجأ إليها. وانتهى العسكرُ إلى جَبَل مراسية[3] المتَّصل من أكثرِ جهاته بالبحر الـمُحيط، فتخلَّلوا أقطارَه، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمَه. ثمَّ أجاز المسلمون بعد هذا خليجَ لورقي في معبرَيْن أرشدَ الأدِلَّاءُ إليهما، ثمَّ نهر أيلة، ثمَّ أفضَوْا إلى بسائطَ واسعة العِمارة، كثيرة الفائدة، منها بسيطُ أوْنَبَة وقَرْجِيطَة ودَيْر شنت بَريَّة. ثمَّ انتهوا إلى خليج إيلياء، وهو من مشاهِد يَاقُوب أيضًا صاحب القَبْر، تِلْوُ مَشْهَدِ قبرِه عند النصارى في الفضل، يقصد نُسَّاكُهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القِبْط والنُّوبة وغيرِها. فغادره المسلمون قارعًا. وكان النزول بعدَه على مدينة شَنْت يَاقُوب البائسة، وذلك يومَ الأربعاء لليلَتينْ خَلَتا من شعبان، فوجدها المسلمون خاليةً من أهلها، فحاز المسلمون غنائمَها، وهدموا مَصَانعَها وأسوارها وكَنِيستها، وعَفَّوا آثارَها. ووكَّل المنصورُ بقبر ياقوب مَن يحفظه ويدفع الأذَى عنه، وكانت مصانِعُها بديعةً مُـحْكَمة، فغُودِرَتْ هَشِيمًا، كأنْ لم تَغْنَ بالأمْس، وذلك يومَ الاثنين أو الثلاثاء بعده. وانتَسفَتْ

١)) في ر٢: «مَبْلَسِيطة».

٢)) في ر٢: «بنبلونة».

٣)) في ر٢: «مرامية».

بُعُوثُه بعد ذلك سائرَ البسائط، وانتهت إلى جزيرةِ شَنْت مانكش[1] مُنْقطَع هذا الصُّقع على البحر الـمُحيط، وهي غايةٌ لم يبلُغْها قَبْلَهم مُسلِمٌ، ولا وَطِئَها لغير أهلها قَدَمٌ، فلم يكن بعدَها للخيل مجالٌ، ولا وراءها انتقالٌ.

وانكفأ المنصورُ عن باب شَنْت يَاقُوب، وقد بلغ غايةً لم يبلغها مسلمٌ قبله. فجعل في طريقه القَصْدَ على عَمَل بَرْمُنْد بن أُرْذُون ليستقريَه عائثًا ومُفْسِدًا، حتَّى وقع في عملِ القَوَامِس الـمُعاهَدين الذين في عسكره، فأمر بالكفِّ عنها، ومرَّ مُجتازًا حتَّى خرج إلى حِصْن مَلِيقَه من افتتاحه. فأجاز هناك القَوَامِسَ بجُمْلتهم على أقدارهم، وكَساهم، وكسا رجالَـهم، وصَرَفهم إلى بلادهم. وكتب بالفَتْح من مَلِيقَه. وكان مَبْلَغ مَنْ أكَسَاهُ ابنُ أبي عامر في غزاته هذه من ملوك الرُّوم ولمن حَسُنَ عَناؤه من المسلمين ألفَيْن ومئتين وخمسًا وثمانين شُقَّة من صنوف الـخَزِّ الطِّرازيِّ، وإحدى وعشرين كِساءً من صوف البَحْر، وكسائَيْن عَنْبَرِيَّيْن، وأحد عشر سِقْلاطُونًا، وخمس عشرة مُرَيَّشات، وسبعة أنماط دِيباج، وثَوْبَيْ ديباج رُوميٍّ، وفَرْوَيْ فَنَك. ووافى جميعُ العسكر قافلًا إلى قُرْطُبة سالـمًا غانمًا، وعَظُمت النعمةُ والـمِنَّة على المسلمين، والحمد لله.

ولم يجد المنصور بشَنْت ياقوب إلَّا شيخًا من الرُّهْبان جالسًا على القبر، فسأله عن مُقامه، فقال: أُؤانِسُ يعقوبَ. فأمر المنصورُ بالكفِّ عنه.

قال الفَتْح بن خاقان: وتمرَّس المنصورُ ببلاد الشِّرْك أعْظَمَ تمرُّس، ومحا من طواغِيتها كلَّ تَعَجْرُف وتَغَطْرُس، وغادرهم صَرْعَى البِقاع، وتركهم أذَلَّ من وَتِد بِقاع، ووالى على بلادهم الوقائعَ، وسدَّد إلى أكبادهم سِهام الفجائع، وأغصَّ بالحِمام أرواحَهم، ونغَّص بتلك الآلام بُكورَهم ورَوَاحَهم. ومن أوضح الأُمور هنالك، وأفصحِ الأخبار في ذلك: أنَّ أحدَ رُسُله كان كثيرَ الانتياب، لذلك الـجَناب، فسار في بعض مسيراته إلى غَرْسِيَة صاحبِ البَشْكُنِش، فصادَفَه في يوم فِصْحٍ، فوالى في إكرامه، وتناهى في بِرِّه واهتمامه، فطالت مُدَّتُه، فلا متنزَّهَ إلَّا مرَّ عليه مُتَفَرِّجًا، ولا موضعَ إلَّا سار إليه مُعَرِّجًا، فحلَّ في ذلك أكثرَ الكنائس هنالك، فبَيْنا هو يجولُ في

---

[1]) في ر٢: «فانْكَشَر».

ساحتها، ويُجيل العَيْنَ في مساحتها، إذْ عرضتْ له امرأة قديمةُ الأسْر، قويمةٌ على طُول الكَسْر، فكلَّمَتْه، وعرَّفتْه بنفسها وأعلمتْه، وقالت له: أيرضى المنصورُ أن ينسى بتنعُّمه بُؤسَها، ويتمتَّعَ بلَبُوس العافية وقد قَضَتْ لَبُوسَها؟! وزعمتْ أنَّ لها عِدَّة من السِّنين بتلك الكنيسة مُـحْبَسة، وبكلِّ ذُلٍّ وصَغَارٍ مُلْبَسة، وناشَدَتْه اللهَ في إنهاءِ قصَّتها، وإبراءِ غُصَّتها، واستحلفتْه بأغْلَظ الأيمان، وأخذتْ عليه في ذلك أوكدَ مواثيق الرحمن. فلمّا وصل إلى المنصور، عرَّفه بما يجب تعريفُه به وإعلامُه، وهو مُصْغٍ إليه حتَّى تمَّ كلامُه، فلمَّا فرغ، قال له المنصور: هَلْ وقفتَ هنالك على أمْرٍ أنكرتَه، أم لم تقِفْ على غير ما ذكرتَه؟ فأعلمه بقصَّة المرأة، وما خرجتْ عنه إليه، وبالمواثيق التي أخذتْ عليه، فعَتَبه ولامَه، على أن لم يبدأ بها كلامَه، ثمَّ أخذ في الجهاد من فَوْرِه، وعرض مَنْ مِن الأجناد في نَجْده وغَوْره، وأصبح غازيًا على سَرْجِه، مُباهيًا مَرْوانَ يومَ مَرْجِه، حتَّى وافى ابنَ شانْجُه في جَمْعه، فأخذَتْ مهابتُه ببصره وسَمْعِه، فبادَرَ بالكتاب إليه يتعرَّف ما هي الـجَنِيَّة، ويحلف له بأعظم أَلِيَّة، أنَّه ما جنى ذَنْبًا، ولا نبا عن مَضْجَع الطاعة جَنْبًا. فعنَّف أرسالَه، وقال لهم: كان قد عاهَدَني ألَّا يَبْقَى بأرضِه مأسورةٌ ولا مأسُور، ولو حَمَلَتْه في حواصِلِها النُّسور، وقد بلغني بعدُ مُقامُ فُلانةٍ الـمُسْلِمَة[1] بتلك الكنيسة، ووالله، لا أنتهِي عن أرضه حتى أكتسِحَها! فأرسل إليه المرأةَ في اثنتَيْن معها، وأقسم له أنَّه ما أبصرهُنَّ، ولا سمع بهنَّ، وأعلمه أنَّ الكنيسةَ التي أشار بعِلْمها، قد بالغ في هدمِها، تحقيقًا لقوله، وتضرَّع له في الأخْذ بطَوله. فاستحيا منه، وصرف الجيوشَ عنه، وأوصل المرأةَ إلى نفسِه، وألحق توحُّشَها بأُنْسِه، وغيَّر سوء حالِـها، وعاد بسَواكب نُعْمـاهُ على جَدْبها[2] وإمحالِـها، وحملها إلى قوْمِها، وكَحَلَها بما كان شَرَدَ من نَوْمِها.

وحدَّث شُغْلَة، قال: قلتُ للمنصور ليلةً طال فيها سَهَرُه: قد أفْرَطَ مولانا في السَّهَر، وبَدَنُه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، وهو يعلم ما يُـحَرِّكه عَدَمُ النوم من عِلَّة العَصَب. فقال لي: يا شُغْلة، إنَّ الـمَلِكَ لا ينام إذا نامت الرعيَّة، ولو استوفيتُ نَوْمي، لما كان في دُور هذا البلد العظيم عَيْنٌ نائمةٌ.

---

(١) في أ: «المسبلة».

(٢) في م: «جذبها» بالذال، وما أثبتناه أصح.

وكان المنصورُ يزرع في كلِّ سنة ألفَ مُدْي[1] من الشعير قَصِيلًا[2] لدَوَابِّه الخاصَّة به، إذا قدم من كلِّ غَزْوة من غَزَواته، لا يحلُّ عن نفسه حتَّى يدعو صاحِبَ الخيل، فيُعْلِمه ما مات منها وما عاش، وصاحِبَ الأبْنِيَة، فيُعْلِمه بما وَهَى من أسواره ومبانيه وقصوره ودُوره. وكان له دَخَالةٌ في كلِّ يوم اثني عشر ألف رَطْل من اللحم، حاشا الصيدِ والطيرِ والحِيْتان. وكان يصنع في كلِّ عام اثني عشر ألف تُرْس عامريَّةٍ لقَصْرَيِ الزاهِرة والزهراء. وابتنى المنصورُ على طريق الـمُباهاة والضَّخامة مدينةَ الزاهرة ذاتَ القصور، والـمُتَنَزَّهات المخترعةَ كذات الواديَيْن، ومُنْيَة السُّرور، وأُرْطَانيَّة، وغَيْرَها من مُنشآته البَديعة.

قال أحمد[3] ابنُ حَزْم: كُنَّا مع المنصور، في يوم صَقيل الـجَوِّ، في الزَّوْرَق، في النَّهْر الذي بين يدَيِ الزاهِرة، في نَفَرٍ من وزرائه، ومَنْظَر يَفْتِن بأمامه ووَرائه، ونَحْنُ على مؤانسة قد امتدَّ طَنَبُها، وارْتُشِف بها لَعَسُ الـمَسرَّة وشَنَبُها، وانحشر إليها لَـهْوُ الدنيا ولَعِبُها، وهو يَستبْدِع ذلك النَّشيد، ويتطلَّع منها إلى الـمُزَخْرَف والـمَشِيد، ويُصَوِّب نظَرَهُ ويُصَعِّده في قصوره الـمُشْرِقة، ومصانِعِه المؤنقة، وقد قيَّدت الألحاظَ جَمالًا، وجدَّدتْ في الحياة آمالًا. فقال المنصور: «وَيْـهًا لَكِ! يا زاهِرةَ الـحُسْن، لقد حَسُنَ مَرْآكِ، وعَبِق ثَراكِ، وراق مَنْظَرُكِ، وفاقَ مَـخْبَرُكِ، وطاب تُرْبُك، وعَذُبَ شِرْبُكِ! فلَيْتَ شِعْري مَن الـمَرِيدُ الذي يُعْدِمُكِ، ويُوهِن رُكْنَكِ ويَهْدِمُكِ، ويُـخْلي مَيْدانَك، ويُضْوي قَصَبَكِ وأَفْنانَك! فبُؤْسًا له إذ لا يروقه حُسْنُكِ، فيَكُفَّ عن تَغْييرك! ألا تَسْبيهِ بَهْجةُ مَنْظَرِكِ، فكَيْف عن مَـحْو أَثَرِكِ!». قال: فاستعظَمْنا ذلك منه، وأنكَرْنا ما صدر عنه، وظَنَنَّا أنَّ الراحَ غلبتْ عليه، وخَيَّلت ذلك إليه[4]، فأفرط الكلُّ مِنَّا[5] في استنكار ما جاء به، وفَاهَ بأمره وسَبَبه، فقال: والله، كأنَّكُمْ لا تعلَمون ذلك، نَعَم، سيظهر عليها

---

(1) في أ، م «ألف أنف»، وما أثبتناه من ر٢ وهو الموافق لما في النفح ١/ ٥٨٤.

(2) القصيل: العلف الأخضر من الشعير، ويسمى كذلك قبل ظهور السنبل فيه، وهذه اللفظة مستعملة إلى يوم الناس هذا عند المزارعين في العراق.

(3) ليست في م.

(4) في أ، م: «عليه».

(5) في م: «مما».

عَدُوُّنا في أقرب مُدَّة، فيهدم هذا كلَّه ويُعْدِمه. وكأنِّي بحِجارَتِها في هذا النَّهْر! فأخذْنا به طريقَ التسكين والتهدين، وعجِبْنا لِـمَا ذكره من ذلك النبإ الـمُبين.

وعند[1] فَراغه من ابتناء الزاهِرة، غزا غزوةً أبعد فيها الإيغال، وغال فيها من عُظَماء الرُّوم مَنْ غال، وحلَّ من أرضهم ما لم يُطْرَق، وراع منهم ما لم يُرَع قَطُّ ولم يُفْرَق، وصدر صَدْرًا أسمى به على كل حَسْناء عَقِيلةٍ، وجَلا به كلَّ صفحة للحُسْن صَقِيلةٍ، ودخل قُرْطُبَةَ دخولًا لم يُعْهَد، وشُهِدَ له فيه يَوْمٌ لم يُشْهَد. وكان ابن شُهَيْد مُتخلِّفًا عن هذه الغزوة لنِقْرِس عَدَاهُ عائدُهُ، وجَفَاهُ مُنْتَجِعُه ورائدُه. وابنُ شُهيد هذا أحدُ حُجَّاب الناصر، وله على ابن أبي عامر أيَادٍ مُـحْكَمة الأواصِر. وكان كثيرًا ما يُتْحِفُه، ويَصِلُه ويُلطِفُه. فلمّا صدر المنصورُ من غَزْوَته هذه، نَسِيَ مُتاحفتَه، وأغفل مُلاطفتَه، فكتب إليه [من الخفيف]:

أنَـا شَـيْخٌ والـشَّيْخُ يَهْـوَى الـصَّبايَا ... يـا لـنفسِ[2] تَقِيـكَ صَرْفَ الرَّزايَـا
ورَسُــولُ الإلــهِ أَسْــهَمَ في الْفَــيْ ... ءِ لِــمَنْ لَــمْ يُحِبَّ فِيهَـا الــمَطايَا
فـاجعَلَنِّي، فُـدَيْتَ، أَنْكِـحُ[3] مَعْـرو ... فَــكَ وابعَــثْ بهـا عِــذابَ الثَّنايَـا
هُــوَ عُــرْفٌ فــإنْ تَــحَوَّل صِــهْراً ... كـــانَ واللهِ آيَـــةً في البَرايَـــا

فبعث إليه بعَقيلة من عقائل الروم، يَكْنُفُها ثلاثُ جَوارٍ، كأنَّهُنَّ نجومٌ سَرارٍ، وكتب إليه[4] [من الخفيف]:

قَــدْ بَعَثْنــا بِهَــا كَــشَمْسِ النَّهــارِ ... في ثَــلاثٍ مِــنَ الــمَها أَبْكــارِ
فاجْتَهِــدْ واتَّئِــدْ فإنَّــكَ شَــيْخٌ ... خَفِـيَ اللَّيْـلُ عـن بَيـاضِ النَّهـارِ
صــانَكَ اللهُ عــن كَلالِــكَ فيهــا ... فَمِــنَ العــارِ كَلَّــةُ الـمِــسْمَارِ

(١) هذا النص من المطمح لابن خاقان، ولكنه ليس في المطبوع، وقد صرّح بذلك المقري في نفح الطيب ١/ ٥٨٥.
(٢) في النفح: «يا بنفسي».
(٣) في النفح: «أشكر».
(٤) سقطت من م.

فافْتَضَّهُنَّ جميعًا في ليلة واحدة، وكتب إليه [من الخفيف]:

قَـدْ فَضَـضْنا خِتـامَ ذاكَ السِّوارِ   واصْـطَبَغْنا مـن النَّجِيـعِ الجـارِي
ونَعِمْنـا في ظِـلِّ أَنْعَـمِ لَيْـلٍ   ولَـهَوْنا بالبَـدْرِ ثُـمَّ الـدَّرارِي
وقَـضَى الـشَّيْخُ مـا قَـضَى بِحُـسامٍ   ذِي مَـضَاءٍ عَـضْبِ الظُّبـا بَتَّـارِ
فاصْـطَنِعْني فلَـسْتُ أجْزِيـكَ كُفْـراً   واتَّخِـذْني سَـيْفًا عَـلَى الكُفَّـارِ

قال حَيَّان بن خَلَف: وُجِدَ بالمنصور عَزْمٌ أزعَجَه لغَزْوِ بعض البروج الـمُهِمَّة، فأبرز أموالًا عظيمةً، وتقدَّم إلى الناس في البُكُور للزاهِرة، فاسْتَبَقوا، وقد طَرَقَه في ليلته وَجَعٌ حَمَاه عن الغَمْضَ، فلم يمنعه من إنفاذ عزيمته، وقَعَدَ للنظر في شأنه بأعلى مُنْيَته الـمُسمَّاة باللؤلؤة، وقد صحَّ على الكَيِّ عَزْمُه، وكان أقربَ أبوابِ الراحة منه، فأقبل بوَجْهه على مَن تحته، يَفْري الفَرِيَّ في شأنهم، وقد ناوَلَ الطبيب في خِلال ذلك رِجْلَيْه، فحمل عليها عِدَّةَ كَيَّات، ثمَّ أمال شِقَّه نحوه، وأمكنه من يَدَيْه معًا واحدةً بعد أُخْرَى، وما زَوَى وجْهَه، ولا فَقَدَ نصحًا له كلامُه، بل كان يتناوَل أوامِرَه من وَعْده ووَعِيده بأنفذَ من الإشْفَى[1]، ويحملهم من وُروده على الأوْفَى فالأوْفَى، وإنَّ نَتْنَ لحمِه المكويِّ ليَبْتَثُّ فيهم آخِذًا بخَواشِيمِهِم، وهُمْ لا يَعْلَمون.

وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة: تُوفِّي المنصور ابن أبي عامر[2]، رحمه الله، ليلةَ الاثنين لثلاث بَقِينَ لرمضان المعظَّم، وهو ابنُ خمس وستِّين سنة وعشرةِ أشهر، وكان له من الولد الذكور يَوْمَ وفاته اثنان؛ وهُمَا: عبدُ الـمَلِك وعبد الرحمن الناصر؛ فكانت مدَّة قيامه بالدولة منذ تقلَّد الـحِجابة إلى أن تُوفِّي خمسًا وعشرين سنة، وأربعة وأربعين يومًا. وترك من الأموال الناضَّة بالزاهِرة أربعةً وخمسين بَيْتًا. وكان عَدَدُ الفرسان الـمُرْتَزِقين بحضرته ونواحيها، الذين حارب بهم الحروب، عشرةَ آلاف وخمس مئة، وأجنادُ الثغور قريبًا من ذلك.

---

1)) الإشفى: المخرز.

2)) ذكر ابن الأثير وفاته سنة ٣٩٣ (الكامل ٩/ ١٧٦).

ولله دَرُّ القائل فيه [من الكامل]:

آثـــارُهُ تُنْبِيـــكَ عَـــنْ أخْبَـــارِهِ ... حتَّـــى كأنَّـــكَ بـــالعُيُونِ تـــرَاهُ
تـــالله مـــا مَلَـــكَ الجَزيـــرَةَ مِثْلُـــهُ ... حَقًّـــا ولا قـــادَ الجُيُـــوشَ سِـــوَاهُ

وذُكِرَ أنَّ هذَيْن البيتَيْن قد نُقِشا في رُخامةٍ على قبره، رحمه الله. وكانت عدَّة غزواته سبعًا وخمسين غزوة، باشَرَها كلَّها بنفسه، وهو في أكثرها يشكو عِلَّة النِّقْرِس. عفا اللهُ تعالى عَنَّا وعنه[1].

(١) جاء في آخر النسختين: «كمل السفر الأول بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه (الجميل) ويُمنه، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده (وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا)»، وما بين الحاصرتين الكبيرتين من ر٢ فقط، وليس فيها «نبيه وعبده». وفي ت: «تم السفر الأول والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله».

[ذكرُ تداوُل الأمراء الأمويّينَ والحجّاب العامريِّين بقُرْطُبةَ إلى وقتِ الفتْنةِ المُبيرة بالأندَلُس وتغلُّبِ الثوّارِ عليها][1]

---

(١) من هنا تبدأ النسخة المحفوظة في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط برقم (٣٣٣) والتي نشر بروفنسال المجلد الثالث لطبعته من «البيان المغرب» وهي التي عبرنا عنها بالأصل.

ذكرُ ولاية عبدِ الملك بن أبي عامرٍ[1] الحِجابةَ للخليفة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصِر

هو أبو مروان المظفَّرُ بالله ابن المنصور أبي عامر محمَّد بن أبي عامر المعافريُّ، وليَ الحجابةَ بعد موت أبيه يومَ الاثنين لثلاث بقينَ من رمضان المعظَّم سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة، ولُقِّب المظفَّرَ وسيف الدولة. ولـمَّا تمَّت له الولايةُ نُفِّذت كُتُبه إلى أقطار المملكة بالأندلس والعُدْوة يُعلِمُ بوفاة أبيه وتوليته تدبيرَ المملكة مكانَه، فاستَوْسَقَ له الأمرُ، ولم يردَّ أحدٌ منهم طاعتَه، واجتمع الناسُ على حُبِّه، وكان مع غلبة النَّبيذِ عليه واستغراقِه في لَذَّاته مُراقِبًا لربِّه، باكيًا على ذَنْبه، مُحبًّا في الصالحين، يستهدي أدعيتَهم ويُجزِلُ الثواب لمن دلَّه عليهم. وكان يُظهِرُ العدل، ويحمي الشَّرعَ، ويرفقُ بالرعيَّة، ويحطُّ عنها البقايا بعد أن أسقط عن جميع البلاد سُدسَ الجِباية. وكان أبرَّ الناسِ بأبيه، وأثبتَهم على عَهْده، وأوصلَهم لأهله وصَنائعه، وكان لوالدته كذلك؛ ما عَدَلَ بها في سُلطانه أحدًا، ولا غيَّر لها حالًا، ولا خالف لها أمْرًا. وكان من فَرْطِ الحياء مع الشجاعة في غايةٍ بعيدة.

وله في بلاد الرُّوم آثارٌ عظيمة، غزا سبعَ غَزَوات في مُدَّته، وفي السابعة تُوفِّي. قيل: إنه مات مسمومًا. وقيل: مات من علَّة الذَّبحة. وكان موتُه بمنزل أمّ هاني بمقربةٍ من أرملاط[2] ليلةَ الجمعة لأربعٍ خلون لصَفَر من سنة تسع وتسعين وثلاث مئة: فكانت مدَّةُ حِجابته ومُلْكِه مُستبدًّا ستَّ سنين وأربعةَ أشهر وسبعة أيَّام من وفاة أبيه إلى وفاته.

وفي سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاث مئة: كانت أوَّلُ غَزَواتِه إلى بلاد الإفْرَنج، وفتَحَ حِصنَ مُـمَقْصَر من ثَغرِ بَرْشَلونةَ عَنْوةً، وأسكَنَه بالمسلمين، ودوَّخَ بسيطَ بَرْشَلُونةَ وما اتَّصل به.

---

(١) ينظر المعجب ٨٥، والكامل لابن الأثير ٩/ ١٧٦.

(٢) ينظر نفح الطيب ٣/ ٢٦٠ حيث وردت في شعر.

قال ابنُ حيَّان: وأظهر عبدُ الملك الجِدَّ في أمرِ هذه الغزوة غُرَّةَ رجَبٍ من السنة، ودفَع في دَفْع الـمَعاريف والصِّلات إلى طبقات الأجناد الغازينَ معه فيها أوَّلًا. ووافت الحضرةَ لأوَّل هذا الوقتِ طوائفُ كثيرة من مُطَّوِّعة العُدْوةِ المجاهدين للحِسْبة، فيهم جماعةٌ كبيرة من أمرائهم وزُعمائهم وعِصابةٌ كثيرةٌ من فُقهائهم يَبغُونَ مشاهدةَ هذه الغزوةِ الـمُحتفَل لها في هذه السنة، فتسابقوا إلى الُورودِ قبلَ حضورِها بمُدَّة.

وتعرَّض قومٌ من أمراء هذه القبائل ورؤسائهم لصلةِ عبد الملك، فأطلق لهم عند تكامُلِهم ببابِه نحوَ خمسةَ عَشرَ ألفَ دينار عَيْنًا صِلةً لهم وَزَّعها عليهم بحَسَبِ مقاديرهم؛ معونةً على جهادهم، قَبِلُوها منه بالتأوُّل، وتَحرَّج[1] آخرون مـمَّن وافى معهم عن فِعْلهم. واتَّصل ورودُ أمداد الـمُطَّوِّعة من كلِّ قوم وكلِّ ناحية، فتكاملتِ الحشودُ بالحضرة، ودَنا وقتُ الحركة فوقع الجد وصُبَّ المالُ صبًّا، وعهِدَ عبدُ الملك إلى خُزَّانِ الأسلحة بتوزيع خمسة آلاف دِرْع وخمسةِ آلاف بَيْضة وخمسة آلاف مِغْفَر على طبقاتِ الأجناد الدَّارِعين في جيشه.

وركب عبدُ الملك إلى المسجد الجامعِ بحضرةِ قُرْطبةَ لشهود عَقْدِ الألوية لهذه الغَزاة، على عادةِ أُمراء الأندلس قَبْلَه، يومَ الجمعة لثمانٍ خلَوْنَ من شعبان من هذه السنة، ثمَّ خرج الحاجبُ عبدُ الملك يومَ الاثنين لإحدى عشْرةَ ليلةً خلت من شعبان، فكان خروجُه على باب الفتح الشرقيِّ من أبوابِ مدينة الزاهرةِ وقد اجتمع الناسُ لرؤيته، فخرَجَ عليهم شاكِيَ السِّلاح في دِرْع جديدة سابغةٍ وعلى رأسه بَيْضةُ حَديد مُثمَّنةُ الشكل مُذهَّبةٌ شديدة الشُّعاع، وقد اصطَفَّت القُوَّادُ والـمَوالي والغِلْمان الخاصَّةُ في أحسن تعبئة، فساروا أمامَه وقد تكنَّفه الوزراءُ الغازونَ معه، وسار الحاجبُ عبدُ الملك إلى أن نزل بمُنية أرملاط أوَّلِ محلَّاته، ثم رحل في جُيوشِه عن أرملاطَ غداةَ يومِ الثلاثاء بعدَه سائرًا لوِجهتِه وعساكرُه مُحدِقةٌ به، إلى أن وصل طُلَيْطُلَةَ لسبعٍ بقِينَ من شعبان، فتلوَّمَ بها يومَ الجمعة، ورحَلَ يومَ السبت إلى أن وصل مدينةَ سالِـم، فوافاه هنالك عِدَّةُ زعماءَ من وُجوهِ النصارى وفُرْسانِهم أرسل بهم مَلِكُ القُوط يومئذٍ أذفُونش بن أرْدون المعروفُ بابن البَرْبريَّة، ومعهم آخَرون

(١) في النسخة «وتخرج» وليس بشيء.

مـمَّن أرسل بهم خالُه شانجُه بن غَرْسية زعيمُ الـجَلالِقة وصاحبُ قَشْتيلةَ وألبَة، وحضر هؤلاء الأرهاطُ للغزوِ بين يدَيْ عبدِ الملك على ما تضمَّنه شرطُ سِلْمهم المنعقدِ صَدْرَ هذه الدولةِ وأوَّلَ هذه السنةِ المورَّخة، وافينَ بالعَهدِ حافظينَ للحُرْمة، فأحسن عبدُ الملك قَبُولَهم، وأوسع إنزالَهم، وأصعَدَ عن مدينة سالِـم نحوَ الثَّغر الأعلى، فاحتلَّ سَرَقُسْطةَ ثمَّ رحل عنها.

وأخرج عبدُ الملك مولاه واضحًا في نُخْبة من رجاله إلى حِصن مدنيش بمقرُبة من حِصْنِ مُـمَقصر الذي عُمِل على قَصْدِه، لانتهاز فُرْصة من أهله، فسار واضح لذلك، فصبَّح هذا الحصن مع إسفار الصبح، وأحاط بأهلِه، ورحَلَ الحاجبُ آمًّا الحصنَ المذكور، فتلَقَّتْه رُسلُ واضح فبشَّروه بالفتح، فاستَبْشَرَ بذلك، وأشرف المسلمون على حِصْنِ مُـمَقصر، فكبَّروا لـمّا نظروا إليه تكبيرًا عاليًا كادت الأرضُ ترجُفُ له، وتتابع قَرْعُ الطُّبول من جهات العسكر، وطمَّ هولُه، فذُعِر[1] الكَفَرةُ لأوَّل وقتِهم، واحتلَّ الحاجبُ وعسكرُ المسلمين بساحتهم، فأحاطوا بالحصن من جميع جهاته، وأقام مراتبَ الـحَرَس بنواحيه، وصمَّم المسلمون نحوَ أعداءِ الله صاعِدِينَ إلى الحصن لـحَرْبهم فوجًا إثْرَ فَوْج وقد بَرَزَ المشركون إلى الرَّبَض يُـمانعونَهم عنه بزَعْمهم، فنَشِبَ القتالُ بين الطائفتين، وصَبَرَ المشركون فلم يُـمهلْهم المسلمون إلَّا رَيْثَ ما كشَفوهم عن الرَّبَض بأسْرِه، وأقحموهم خلفَ السُّور، واضطرُّوهم إلى التحصُّن به. ثمَّ جَدَّ الكَفَرةُ في الدفاع، وصَدَقوا القِراع، فتجرَّعوا أكؤُسَ الـحِمام دِراكًا، وضرب الليلُ رَواقَه فحَجَزَ بين الفريقَيْن وقد ثَلَمَ المسلمون في السُّور ثُلَـمًا كثيرة. ثمَّ غدا المسلمونَ على قتالِ الكَفَرة إثْرَ صلاةِ الفجر من يوم الثلاثاءِ بعدَه، فناهضوا أعداءَ الله بأصحِّ عزيمة، وقامت الحربُ على ساق، وحَمِيَ وَطيسًا، فصبَرَ المسلمونَ على مُباشرتِها أكرمَ صَبرٍ سمُع به، حتى ولَّى الكفرةُ الأدبارَ، فاقتحموا عليهم الأسوارَ[2]، وأخذوا كثيرًا منهم، وملكوا عيالَهم وأبناءَهم، وصاروا فَيْئًا للمسلمين، واشتغل المسلمون بنَهْبِ أموالهم.

---

(١) في الأصل: «فذعن»، وهو تحريف.

(٢) غير واضحة في الأصل.

وركب الحاجبُ عَجِلًا بنفسه مع أكابرِ فتيانه وأهل مَركْبه، فارتقى إلى بابِ قَصَبتهم، واقتحم الناسُ على أعداء الله القصبةَ، فمَلَكُوها، وخَلَصتْ طائفةٌ منهم إلى محلٍّ مَنيع بهذه القَصَبة، فساوَرَهم أولياءُ الله بذرْوةِ ذلك المحلِّ، فأيقنوا بالهلاك وسألوا النزولَ على حُكم الحاجب، فأنزلهم على ذلك، وحكم فيهم بحُكْم ابنِ عمِّه سعدِ بن مُعاذ[١] رضي الله عنه؛ فقتل جميعَهم ومَلَكَ الحصنَ وحاز الغنائم، وعهد الحاجبُ وقتَ الفتح إلى المسلمين ألَّا يَحرقوا منزلًا ولا يَهدموا بناءً؛ لِما ذهب إليه من إسكان المسلمين فيه، فشرع للوقتِ في إصلاحه، ونادى في المسلمين: مَن أراد الإثباتَ في الدِّيوان بدينارَيْن في الشَّهر على أن يستوطنَ في هذا الحِصْن فَعَلَ، وله مع ذلك المنزلُ والمَحْرث. فرَغِبَ في ذلك خَلْقٌ عظيم، واستقرُّوا به في حينهم[٢].

ولـمّا استكمل الحاجبُ ما أراده من تكميل أمرِ هذا الحصن وإقامةِ كلمة الإسلام فيه بأرضٍ لم تَرَ الإسلامَ قطُّ؛ رحل عنه يريدُ السِّياحةَ في بَسيط بَرْشلونة والإثخانَ في أرضها، فدوَّخ بلادَ الكَفَرة، وانبسط المسلمون في عَرَصاتهم يَحرقون ويَهدِمون ويَحطِمون، وانبسطتْ خيلُ الـمُغيرة في بَسائطهم، وأوغل بهم قوَّادُهم إلى أن أتى بسيطًا كثيرَ العِمارة فاحتلُّوه وعَمُّوا جميعَه انتسافًا وغارة، ووقعوا على كثيرٍ من عِيال الجالية من هذه الحصونِ، فردُّوهم سَبْيًا إلى المحلَّة، وأبلغوا في النِّكاية، وأحرزوا الغنائمَ والأجْرَ الجزيل والسلامة.

وعيَّد الحاجبُ والعسكرُ عيدَ الفطر بأرض برْشلونة، ثمَّ رحل سائرًا يومَ الثلاثاء وهو يومُ عيد الفطر غرَّةَ شوَّال من السنةِ المؤرَّخة، فأدركه وقتُ صلاة العيد وهم سائرون في فِجاج سهلٍ، فنزلوا للصلاة، ولـمّا أن قضى الحاجبُ صلاتَه تبوَّأ بمصلَّاه مَقْعدًا للصلاة وتهنئتِه بما سنَّى الله له من التَّعييد في سبيل جهادِه وطاعةِ خالقِه، فتقدَّم إليه أكابرُ الناس على مَراتبهم، ثمَّ ركب فَرَسَه، فتقدَّم إليه طبقاتُ الأجناد طبقةً بعد طبقة مسلِّمين عليه ومُبتهلين بالدعاء له، وسار العسكرُ عند انقضاء ذلك كلِّه فنزل بالبَطْحاء، ثمَّ رحل من منزلٍ إلى منزل، فعمَّ ذلك كلَّه انتسافًا وغارة.

---

(١) يشير إلى حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة.

(٢) طمس أكثرها في الأصل.

قال حيَّانُ بن خلف: ورأى الحاجبُ عبد الملك أنْ قد بلغ الغايةَ من التَّدويخ لأرض العدوِّ والوطءِ لها وإبادتِها وتَرْكها بَلْقعًا خرابًا وقَفْرًا يَبابًا، فرحل بالعسكر مُنكفئًا نحو أرض الإسلام، وأمَرَ كاتبَ الرسائل أحمدَ بن بُرْد[1] أن يَكْتُبَ بالفتح نظيرَيْن أحدُهما إلى الخليفة هشام المؤيَّد بالله، والآخرُ يُقرأ على كافَّة المسلمين بقُرْطُبة، وتُنفَذ نُسختُه إلى الأقطار، فعجَّل ذلك، وأنفذه نحو حَضْرةِ قُرطبة، وكان جُمْلةُ ما تضمَّنه كِتابُ الفتح من عَدَد السَّبْي خمسةَ آلاف وخمس مئة وسبعين رأسًا، وعَدَد الـحُصونِ التي افتُتِحت عَنوةً فقُتِلت مُقاتلتها وسُبيتْ ذَراريُّهم وغُنِمتْ أموالهم ستَّة حُصونٍ، وعدَّة الحصونِ التي أخلاها العدوُّ فخُرِّبتْ ودُمِّرت خمسةٌ وثمانون حصنًا، وكلُّهم مُسمَّون في كتابه، وأذِنَ الحاجبُ لجميع الـمُطَّوِّعة في القُفول إلى بلادهم؛ إذ قد قضَوْا ما قصدوا له من جهاد عدوِّهم ووصولِـهم إلى مآمنهم، فقَفَلُوا فَرِحين مُستبشِرين.

ورحل العسكرُ من مدينة لارِدَة يومَ الثلاثاء لثمانٍ خلون من شوَّال قافلًا إلى قُرطبة، وسار في مَرْكبِه فدخل قُرطبةَ يومَ الثلاثاء لخمسٍ خلون من ذي القَعْدة من السنة، فتلقَّاه أهلُ قرطبة وعلماؤها ووُجوهها مُسلِّمين داعِينَ مُهنِّين شاكرين. ثمَّ دخل الحاجبُ إلى الخليفة هشامٍ، فرفَع مجلسَه وأعلى مكانَه وكساهُ من مَلابسه السنيَّة ثلاثَ رُزَم قَرَن بها سبعين من خاصِّ سُيوفِه، فأظهر عبدُ الملك السرورَ بذلك، وشكر الخليفةَ وقبَّل يدَه، ثمَّ رحل عنه مُنصرِفًا إلى قُصوره بالزاهرة، وجلس يومَ الأربعاء ثانيَ يوم وصوله مجلسَ التهنئة في أُبَّهة فخمة، وأذِنَ للناس في الوصول على مَراتبهم، فوصل في أوائلهم كبارُ قُرَيش من بيتِ الخليفة الـمَرْوانيُّون، ثمَّ القُضاةُ والـحُكَّام والفقهاء وأهلُ العدل، ثمَّ وجوهُ أهل الأرباضِ والأسواق من أهل قُرطبة، ووصل بعدَهم الشعراءُ والأُدباء بما صاغُوه من أشعارهم، فأنشَدَ منهم مَن رَسْمُه الإنشاد، ووضع سائرُهم الأشعارَ بين يديه، وانفضَّ الـجَمْعُ عن سرورٍ وغِبْطة وحُبور.

---

(١) ترجمه الحميدي في جذوة المقتبس (١٩٩)، وابن خاقان في المطمح ٢٧، وابن بسام في الذخيرة ١/ ٩٠-١٠٤، وابن بشكوال في الصلة (٧٤)، والضبي في بغية الملتمس (٣٨٧)، والذهبي في تاريخ الإسلام ٩/ ٢٩٠، وابن فضل الله في مسالك الأبصار ١٣/ ٥١، والصفدي في الوافي ٦/ ٢٦٣.

قال حيَّانُ بن خلف: وفي قُفولِه من هذه الغزوة يقولُ ابنُ دَرَّاج القَسْطَلِّي، رحمه الله [من الطويل]:

بَدا [لكَ] ريحُ السَّعْد واستُقبِلَ النُّجْحُ ... فبالله فاستفتِحْ فقد جاءك الفتحُ
وقد قدَّم النصرُ العزيزُ لواءَه ... وقَبْلَ طلوعِ الشمس يَنبلِجُ الصبحُ
فقُدْ في سبيل الله جيشًا كأنَّه ... من الليل قِطْعٌ طبَّقَ الأرضَ أو جُنْحُ
كتائبُ في أقدامها الحقُّ والتُّقى ... وألويةٌ في عَقْدِها اليُمنُ والنُّجْحُ

وجرت على الحاجبِ في هذه الغزوةِ محنةٌ عظيمة وَقَاه اللهُ منها وقايةً عجيبة صَنَعَ له بها خاصَّةً وللمسلمين عامَّة، وشاع حديثُها في الناس مدَّةً؛ وذلك أنه انعكس حَجَرٌ من حجارة المَنْجَنيق على مجلسِه تحت الشِّراع الذي كان يُشارِفُ الحربَ منه، ووجوهُ أهلِ الدولة بين يديه، والخدَّامُ والأكابر قيامٌ على رأسه، فأخَّره اللهُ، سبحانه، بقُدرته عن رأس عبدِ الملك قَيْدَ شِبرَيْن أو أقلَّ، وصبَّه على رأس جعفرِ الفتى الكبيرِ صاحبِ الأبنية في موقفه إزاءَه؛ فشَدَخَه لوقته وحُمل للحِين ميِّتًا مُنتشِرَ الدِّماغ، فُوورِيَ في غَيابةٍ من الأرض، واستهول عبدُ الملك والناسُ ما عايَنُوه من ذلك.

وفي سنة أربع وتسعينَ وثلاث مئة: احتكمتْ ملوكُ الروم إلى الحاجب عبد الملك بن أبي عامر.

قال محمدُ بن عَوْن الله: وانتهى المظفَّرُ عند ملوك الأعاجم في دولته إلى منزلةٍ عظيمة مِثْلِ منزلة والدِه المنصور، وأحلُّوه محلَّه في الإصغاء له والتعظيم لجلاله والهَيْبةِ من سَخَطه والطلبِ لمَرْضاته، حتى صار أعاظمُهم يَحتكِمُون إليه فيما شَجَرَ بينهم فيَفصِلُ الحُكْمَ فيهم ويَرضَوْن بما قضاه ويقفون عنده.

وفي دولة المظفَّرِ ظهرتْ فصولٌ مختلفةٌ من الآفاتِ، منها في هذه السنة: كسوفُ الشمس في الساعة السابعةِ من يوم الاثنين لليلةٍ بقيتْ من ربيعٍ الأوَّل، وبعد ذلك ظهرَ النجمُ الذُّؤابيُّ، وكانت في المنجِّمين فيه أقوالٌ عظيمة وإنذاراتٌ مرهوبة[1]... شنيعة، وسيأتي ذِكرُه.

---

(١) بعد هذا كلمة مطموسة.

وفي سنة خمس وتسعين وثلاث مئة: كانت غزوةُ عبدِ الملك بن أبي عامر الثانيةُ إلى جِلِّيقيَّة، دمَّرها الله، من عملِ بني غرمس وبني أذفونش معًا، فخرج من قصرِ الزاهرة في يوم الاثنين لستٍّ خلون من شوَّال من العام المؤرَّخ، واستخلف وزيرَه على استخراج العسكرِ غداةَ هذا اليوم، وسارت العساكرُ وقد اصطفَّ لها النَّظَّارةُ من أهل قُرطبة ومَن طرأ إليها من الجهات في خلائقَ لا يُحصيهم إلَّا الذي أحصى آجالَهم وأرزاقهم، واستقرَّ نزولُ العسكر بأرملاط، فرحل الحاجبُ عبد الملك من الغد نافذًا لوجهتِه مُتنقلًا في محلَّاته المعهودةِ، إلى أن وصل طُلَيْطُلة، فأمر الناسَ بالتزوُّد والتأهُّبِ، ثمَّ خرج عنها قاصدًا لغَزْوه، إلى أن خرج من بلاد الإسلام، وأخرج واضحًا فتاه على سَرِيَّة من خمسة آلاف فارس، سَرَوْا ليلتَهم فصبَّحوا مدينةَ سَمُّورة[1] الخراب من فتحِ المنصور بن أبي عامر غداةَ يوم السبت بعدَه، فأصابوا بها قومًا من النصارى يَأوُون إلى أبراجٍ اتَّخذوها بعد الفتح بمُدَّة، فقتلوا رجالَهم وسَبَوْا نساءَهم وذُرِّيَّتهم، وانبسطوا بالغارة على بسائِط سَمُّورةَ وذلك الصُّقْع كلِّه، فعَمُّوه غارةً، ولم يزل العسكرُ يرحل في بلاد العدوِّ يَحرِقُ ويَهدِم ويَسبي ويقتل، وبالَغَ في كلِّ نِكاية، وأتى واضحٌ في بعض تلك الأيَّام إلى مكانٍ آخرَ فيه جمعٌ عظيم من أهل هذه البسائطِ الـمُستباحة لجأ إليه، فسَرى عليهم وأوقع بهم، فقتل منهم خَلْقًا، وحاز من سَبْيهم نحو ألفَيْ رأس، واستاق من أموالهم ما ملأ الأرضَ، وسُرَّ الناسُ بذلك، والحمدُ لله.

خبرُ نزول الصاعقة بالعسكر

قال ابن حَيَّان: وركب عبدُ الملك غداةَ يوم الاثنين قبل الشروق[2] ينوي وصولَه قاصيةَ هذه البلادِ الموصوفة، وقد غيَّمت السماءُ وعصَفَت أهواؤُها واستغلَظَ سحابُها وتوالى الرَّعدُ، ثمَّ تَلَتْه قَصْفةٌ شديدة، ووقعتْ صاعقةٌ في ميسرة العسكر في ناحيةِ الأثقال أصابت دوابَّ لعبد الله بن علي، ولهشامِ بن علي، كانت مجتمعةً معها أعوانٌ لها بينَهم رجلٌ من جُملة الحشود، فأحرقتهم جميعًا، وارتاع الناسُ

(١) ينظر عنها معجم البلدان ٣/ ٢٥٥.

(٢) في الأصل: «الشروع»، وما أثبتناه أصوب إن شاء الله.

لذلك، ثمَّ إنَّ اللهَ سبحانه جلَّى ذلك بفَضْله، وسكن الرعدُ وارتفع الظلامُ بشمسٍ مُشرقة حتى استوفت العسكرُ على القلعةِ المقصودة.

وفي سنة ستٍّ وتسعين وثلاث مئة: خرج الحاجبُ عبد الملك غازيًا إلى بَنْبلونة، وهي الرابعةُ من غَزَواته في دولته، في يوم الـجُمعةِ لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شوَّال، ورحل سائرًا إلى مدينة سَرَقُسطة، ثمَّ إلى وَشْقة، ثمَّ إلى بَرْبُشْتَر، فمنها أمَرَ عبدُ الملك بالدخول إلى أرض العدوِّ، فدخل أرضَ العدوِّ لأربعَ عشرة ليلة بقيتْ من ذي القَعْدة، وابتدأ بالغارة من بَسيطِ حِصْنِ أبنيونش وقد فرَّ أهلُه وخَلَّوه، فهَدَمَه، فرحل عنه إلى شَنْت يوانش، فجالت الخيلُ في بَسائطِه، فبلغتْ من انتسافِها أبعدَ غاية. وما زال العسكرُ يجولُ في بلاد العدوِّ يَسبي ويَقتلُ ويَحرق ويهدم.

وأصاب الناسَ في هذه المحلَّة هولٌ عظيم من مَطَرٍ شديد أصابهم ببَرَدٍ كثير وبَرْقٍ مُتتابع ورَعْدٍ قاصِف ارتاع به الناسُ جدًّا، وتوالى البَرْقُ، وجاءت في أثرِه قَصَفاتٌ مُفزِعة ألبست الناسَ خُشوعًا واستكانة، وخافوا حُلولَ العذاب، فَجهَرُوا إلى الله ضارعين في كَشْفِ ما بهم وألَّا يُشمِتَ بهم عدوَّهم الذي جاهَدُوه من أجْلِه، ففعل ذلك، سبحانه، سريعًا، ورحم تضرُّعَهم، ونشر رحمتَه عليهم، وشكر الناسُ مولاهم على ما جَدَّد عندهم من فَضْلِه، وأراهم من آيات قدرته، واللهُ سبحانه لطيفٌ بعباده.

وكانت العامّةُ بقُرْطبة أزْرَتْ بغزوة عبدِ الملك هذه؛ إذ لم يُرَحْ عليهم سَبْيٌ طريٌّ يستجدّون التلذُّذَ به على عادتهم أيَّامَ والده، فتكلَّمتْ في استقصار سَعْيه بَطَرًا بقَدْر النِّعمة وسابغِ الطَّوْل والعافية، وتولَّع نخَّاسُ الرَّقيق بكلمةِ تَعْريض؛ وهي: «مات الـجَلَّاب، مات الجلَّاب» يعني المنصورَ، حتى رُفعت إلى الحاجب عبدِ الملك، فأقلقتْه على سَعَةِ صدره، وتقدَّم في زَجْر العامَّة عنها، وجرَّد عبدُ الملك في كتابِ الفتح فَصْلًا أبان فيه عن وجه إخفاقِه، وكان أهلُ قرطبة على الـجُملة من قلَّة الرِّضا عن أملاكهم العامريِّين بحالٍ من الـجَوْر عظيمةٍ، إلى أن وَثَبُوا عليهم فأهلكوا الدولةَ وبها حان حَيْنُهم، واللهُ يحكُم لا مُعقِّب لـحُكْمه.

وفي سنة سبع وتسعين وثلاث مئة: خرج الحاجبُ عبد الملك غازيًا إلى بلاد قَشْتيلة من عمل الطاغية شانجُه بن غرسية بن فرذلند، وهي غزاةُ قَلُونِيَة الخامسةُ

من غَزَواتِه المعروفةُ بغَزاة النصر التي لقيَ فيها شانْجُه بجميع النصرانيَّة على اختلافها، فهزَمَه الحاجبُ عبدُ الملك هزيمةً عظيمة رَزَق اللهُ المسلمينَ فيها النصرَ الـمُبين، وعلى إثْرِها تسمَّى عبدُ الملك بالـمُظفَّر، وشرْح هذه الغزوةِ يطول؛ ووصَلَ إلى قُرطُبَةَ كتابُ الفتح، وقُرئ على العامَّة بحسب العادة، وقد كان أهلُ الحضرة من الإرجاف بعساكر المسلمين والإشفاق عليهم؛ لِـما بَلَغَهم من زَحْفِ جميع النصرانيَّة إليهم على حالٍ غليظة سكَّنها ورودُ هذه البُشرى، فاجتمع لسماعها خَلْقٌ عظيم، وجَلَتْ عنهم الكَرْبَ ومَلأتْهم سرورًا، وأصبح أهلُ العسكر في سرورٍ لا كِفاءَ له؛ قد أقرَّ اللهُ عيونَهم، وشفى صدورَهم، وكتب أُجورَهم، وأعظم الفتحَ لهم، وتـمَّم النِّعمةَ عليهم، فانبسطوا في نَهْبِ محلَّة المشركين، ورجعوا لديارهم مُطمئنِّين، ثمَّ رحل الحاجبُ عبدُ الملك قافِلًا إلى قُرطبةَ يومَ الأربعاء لثلاثَ عشْرةَ بقيتْ لذي الـحِجَّة من السنة، وكان القِرانُ الواقعُ في الأسَد في هذه السّنة التي اجتمعتْ فيها الدَّراريُّ السَّبعة، ووصَلَ إلى السُّنْبُلة، وهي العَذْراءُ صاحبةُ قُرْطبةَ التي وضع أقادِمُ حُكمائهم صورتَها فوقَ باب مدينتها القِبْليِّ، وهُو بابُ القَنْطرة، وكان الاستعلاءُ فيه ـ زعموا ـ لزُحَل؛ فدلَّ على انتقاض الدولة، وكَثُرَ كلامُ الـمُنجِّمينَ فيه، وأنذَرُوا بأشياءَ عظيمةٍ كان الناسُ عنها في غفلة.

قال محمَّدُ بن عَوْن الله: فحكَى لي حينئذٍ صديقٌ لي ولـمَسْلمةَ الفيلسوف، أنه باحَثَه عن تأثير هذا القِران، فقال له: أهونُ ما فيه انقلابُ هذه القَصَبة بأسْرِها، وانتقالُ الدولة إلى غير أهلِها، وتسلُّطُ الخرابِ على هذه العِمارة بجُمْلتها، فينالُ هذا الخَلْقَ قتلٌ ذَريع ومجاعة لا عَهْدَ لهم بمِثْلها. فهَلَكَ هو قبلَ ذلك سنةَ ثمان وتسعين وثلاث مئة، وجاءت الفتنةُ إثرَ ذلك بأعظمَ مـمَّا ذكَرهُ وظنَّه.

ذِكرُ تسمية الحاجبِ عبدِ الملك بالمظفَّر بالله

قال ابنُ عون الله: وسمَا الحاجبُ عبد الملك آخرَ وقته مِن طلب اللَّقَب السلطانيِّ الذي أُولع الناسُ به؛ فلا حيلةَ في إزالتهم عنه، وابتغى ذلك من قِبَلِ الخليفة هشامٍ المؤيَّد بالله مخدومِه إلى الذي سما إليه أبوه المنصورُ قَبْله، وعلى سبيلِه؛ في التدريج له ورياضتِه المدَّةَ قُدَّامَه والاستطرادِ لحُلوله، إلى أن مضت لِحجابته حِجَجٌ خمس وأشهرٌ ثلاثة ارتُضِيتْ فيها

سِيرتُه في أحكامه، وحُمِدت مقاماتُه في الضَّبط لسُلطانه، وبَعُد في الناس صِيتُه، وهاب الأعداءُ حَوْزتَه، فالتمس اللَّقَبَ لدى الخليفةِ بعد نظرٍ ومشورة إثْرَ قُفوله من غزوة قَلُونِيَة التي فضَّ فيها جموعَ المشركين وجيوشَ النصرانيَّة أجمعين، وانقلب منها بفتحِ الفتوح خلالَه، وأحبَّ - مع ذلك - ترشيحَ ابنِه الغلام محمَّدٍ، وتنقيلَه في المراتب العالية، والتنويهَ باسمِه في الدولة، وهو يقدِّر فيه ما قدَّره الآباءُ في بَنِيْهم قَبْلَه من توريثِه المرتبةَ الجليلة، فداخل الخليفةَ هشامًا في ذلك، وسأله إخراجَ الأمرِ له بأن يتسمَّى بالمظفَّر اسمًا تخيَّره وآثَره، وأن يُكنى في جميع ما يجري به ذِكْرُه بأبي مروان، ولم تزل كُنْيتَه؛ وأن يُثنِّي وزارةَ ابنه محمَّدٍ فيُصيِّرَه بها ذا الوِزارتَيْن ويُعلي بذلك مرتبتَه على سائر الوزراء، فأجابه الخليفةُ إلى ما سأل من ذلك كلِّه، وزاد فيه أن يُكنى ابنُه بأبي عامر، كُنْيَةَ جدِّه، وألْحَقَه في شُهرته بمنزلة أبيه عبدِ الملك؛ إبلاغًا في مَسرَّته.

وكان الخليفةُ يومئذٍ مقيمًا عند الحاجبِ بقصر الزاهرة في النُّزهة التي أنشأها في قصوره صَدْرَ سنةِ ثمانٍ وتسعين وثلاث مئة، فلمّا كان في نصف المحرَّم منها ركب الخليفةُ نحوَ قصرِ ناصِح من الزاهرة على سبيله المعهودِ من الاستخفاء عن أعيُنِ الناس وطَرْدِهم عن وجهه بكلِّ سبيل، وحاجِبُه في الجيش سائرٌ أمامَه على العادة، حتى نَزَلا منزلَهما من القصر، واستدعى الخليفةُ حاجبَه في هذا اليوم إلى مجلسه إثْرَ نزوله، وفاوَضَه فيما احتاج إليه، فلمّا انصرف من عنده أتْبَعه رُقعتَه بالتَّكرِمة التي أناله إيَّاها من التسميةِ وما اقترن بها مُظهِرًا أنه ابتدأه بها من غير مسألة، وأنه كافأه بها عن غَنائه وحُسنِ مَنابه فيما قلَّده، فأظهرها عبدُ الملك للناس، وأوعز إليهم بامتثالها، وأمَرَ بإنفاذ الكتب إلى الآفاق بالعمل بها.

وكانت نسختُها - وزعموا أنها بخطِّ الخليفة هشام - وهي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من الخليفةِ هشام بن الحكمِ المؤيَّدِ بالله، أتمَّ اللهُ عليك نِعَمَه، وألبسك عَفْوَه وعافيته، إنَّا أريناك سلَّمك الله، من صنع الله الجسيم، وفَضْله العظيم، لنا عليك ما شفى الصدورَ وأقرَّ العيون، فاستخرْنا اللهَ سبحانه في أن سمَّيناك المظفَّرَ، فنسألُ اللهَ تعالى سؤالَ إلحافٍ وضراعة وابتهال إليه أن يُعرِّفَنا وإيَّاك بركةَ هذا الاسم، ويُحلِّيَك معناه، ويُعطيَنا وإيَّاك وكافَّةَ المسلمين فَضْلَ ما حملتَ منه، وأن يَـخِيرَ لنا ولهم في جميع أقضيته،

ويَقرِنَه بيُمْنه وسعادتِه بمَنِّه وخفيِّ لُطفِه، وكذلك أبَحْناك التكنِّيَ في مجالسنا ومحافلِنا وفي الكُتبِ الجارية منك وإليك في أعمال سلطاننا وسائرِ ما يجري فيه اسمُك معنا ودوننا؛ إناقةً بمحلِّك لدينا، ودلالةً على مكانك منَّا، وكذلك ما شرَّفنا فتاك أبا عامر محمَّدَ بن المظفَّر تلادَنا، أسعده الله، بالإنهاض إلى خُطَّة الوزارتَيْن، وجمعناه بها في التكنِّي على المشيخةِ والترتيب إثرَك في الدولة، وأنت الحقيقُ منَّا بذلك كلِّه، وبجميل المزيد عليه؛ لأنَّك تربيتُنا، وسَيفُ دولتنا، ووليُّ دعوتِنا، ونشأةُ نعمتنا، وخرِّيج أدَبِنا، فأظْهِرْ ما حدَّدناه لك في الموالي وأهلِ الخدمة، واكتبْ بها إلى أقطار المملكةِ، وتصدَّ فيه لِشُكرِ النعمة، أحسن الله توفيقَك، وأمتعَنا طويلًا بمُعافاتك، وآنسَنا مَلِيًّا بدوام سلامتك، إنَّه وليٌّ قادر عزيزٌ قاهر».

وعنوانُ ما كَتَبَ به عبدُ الملك من الحاجب المظفَّرِ سيف الدولة أبي مروان عبدِ الملك بن المنصور، فكان أوَّلَ مَن اجتمع له لَقَبانِ من مُلوكِ الأندلس، وسلك مَن جاء بَعْدَه من ملوك الفتنةِ سبيلَه في ذلك.

وكسا عبدُ الملك جميعَ الأجناد في هذا الوقت؛ ثوابًا لمسرَّةِ هذه التسمية، وكَثُرت الأشعارُ في هذه التسمية جدًّا، وأطلق لهم صِلاتٍ جَزْلة، وكان من غريبِ النَّوادر اشتراكُ أكثرِهم في ابتداءاتِ أشعارهم فيها، من ذلك ابتداءُ مروان الطليقِ في شِعرٍ في مدح المظفر [من الكامل]:

تِـهْ في الـدُّنا وافخـرْ فمِثلُـك يفخـرُ فـأبوك منـصورٌ وأنـت مُظفَّـرُ

ولقاسم ابن الشبانسي، رحمه الله، في مدحه شِعرٌ أوَّله [من الطويل]:

دعـاك أمـيرُ المـؤمنين الـمُظَفَّرا وسـمَّاك سـيفَ الدولـة الـمُتخيَّرا

ولعبدِ الله بن زِيادٍ الكاتبِ شِعرٌ أوَّلُه [من الطويل]:

تَـسمَّيتَ لـمَّا أن ظفـرتَ الـمُظفَّرا وصرتَ على الأعـداء لَيْثًـا غَـضَنْفَرا

ولهشام بن جعفر بن عثمان رحمه الله، شعرٌ أوَّله [من الطويل]:

ظَفِـرتَ فـسمَّاك الإمـامُ المظفَّـرا وما زلتَ سيفَ النصر في الشِّرْكِ مُظهرا

ولأحمدَ بنِ محمَّد، رحمه الله، شعرٌ أوَّله [من الخفيف]:

ظَفِـرَ الـدِّينُ إذ دُعِيـتَ الـمُظفَّرْ   وبَأى[1] الـمُلْكُ وازْدَهـى وتَبَختَرْ

قال حيَّانُ بنُ خَلَف: واقترح المظفَّرُ عبدُ الملك بن أبي عامر على شُعرائه في بعضِ أوقات الربيع من دَوْلتِه قِطَعًا نُوَّاريَّة في المنثور، وهو الخيريُّ، وفي الزَّهر وغيرِ ذلك من أنواع النوَّار، وكان شديدَ الإعجاب بذلك كثيرَ الطلب لأنواعه في مَظانِّه، وأحبَّ أن يُدخلَها قِيانُه في أغانيهنَّ، واكتتب الناسُ كثيرًا منه في وقتِه لحُسنِه وغرابته في معناه، وكان من مُستحسَنِه: قولُ أبي العلاء صاعدِ بن الحسين البغداديِّ النَّديم، رحمه الله، فقال في الآس [من البسيط]:

مَـن كـان في ودِّه لـلآسِ مُتَّهَـمًا   فـإنَّ عنـديَ ودًّا غـيرَ مُـتَّهَمِ
نِعْـمَ الـصديقُ فـما يُخشى تلوُّنُـه   عـلى مُعاقَبـةِ الإصـباحِ والظُّلَـمِ
أوراقُـه مِثْـلُ آذانِ الجيـاد إذا   تَـشوَّفتْ في مجـال الطَّعـنِ للـبُهُمِ
إذا رآه أبـو مـروانَ ذكَّـرهُ   تهافُـتَ الـرُّكنِ في القِيعـانِ والأكَـمِ
اللهُ صـوَّر هـذا الـخَلْقَ مـن حمـإٍ   قِـدْمًا، وصـوَّره مـن طينـةِ الكـرَمِ

وقال في التُّرُنْجان [من البسيط]:

لم أدرِ قبـلَ تُرُنْجـانٍ عبثْـتُ بـه   أنَّ الزُّمـرُّدَ قـضبانٌ وأوراقُ
مِـن طِيبِـه سَرَقَ الأُتـرُجُّ نكهتَـهُ   يا قـومِ حتـى مـن الأشـجار سُرَّاقُ!
يُـشارِكُ الخمـرَ في نَفْـيِ الهمـومِ إذا   مـا شَـمَّه مُـوثَرٌ بالـهَجْرِ مُـشْتاقُ
كـأنَّما الحاجـبُ الميمـون علَّمـه   فِعْـلَ الجميـلِ فطابـت منـه أخـلاقُ

وقال في النَّرجس [من الكامل]:

جُـمَلُ الفـضيلةِ للبَهـارِ بـسَبْقه   ولطالَمـا خَلَـفَ البهـارَ النـرجسُ

---

(١) بأى، كسعى ودعا: فَخَر بنفسه. القاموس المحيط «بأى».

أربـــى عليـــه طِيبُـــه ونـــسيمُه ... لكنـــه عــــن نَــشْرِه يَتـــنفَّسُ
كالحاجـبِ الميمـون شُـبِّه في العُـلى ... بأبيـــهِ لكـــن فِعْـــلُ هـــذا أنفَـــسُ

وقال في البنفسَج [من الكامل]:

سَـــقْيًا لأيَّـــام البَنَفْـــسَجِ إنهـــا ... لـــو أُنـــصِفتْ لم تقـــترن بنَظـــيرِ
طالـــت ولايتُـــه وطـــابَ نـــسيمُه ... وزَكـــا عـــلى الـمَعْـــسُور والميْـــسُورِ
يُزري إذا احتست الـمَعاطِسُ رِيحَـه ... بنـــسيمِ غاليـــةٍ وفَـــوْحِ عَبـــيرِ
يحكـي قمـيصَ الفَجْـرِ لـونُ أدِيمِـه ... والقَرْصَ في خَـدِّ الـمِلاح الـحُورِ
إنّي لأشـــكرُ صَـــبْرَه ووفـــاءَه ... شُـكري لـسيفِ الدَّولـةِ المنـصورِ

وقال في الخيريِّ [من الخفيف]:

قـــد نَعِمنـــا في دولـــةِ المنثـــورِ ... ووَصـــلْنا صـــغيرَنا بـــالكَبيرِ
وســـألْناه لِـــمْ تـــضوَّعتَ لـــيلًا ... قـــال: فَتْـــكُ الـــشُّجعانِ بالـدَّيجُورِ
وقَرَنّـــا احمـــرارَه باصـــفرارٍ ... فعَجِبْنـــا مـــن لُطـــفِ صُـــنعِ القَـــديرِ
مـا عَلِمْنـا اليـاقوتَ للـشمِّ حتـى ... نَفحَتْنـــا روائـــحُ المنثـــورِ
حاجـبَ الـمُلْكِ لا عَـداك بـشيرٌ ... بفُتـــوحٍ أو قـــادمٍ بـــسُرورِ

وقال في الوَرْد [من البسيط]:

ليَـصرِفَنْ قائـدُ المنثـورِ عـسكَره ... ويَنهـزِمْ إنَّ جـيشَ الـوردِ قـد وَرَدا
في معرضٍ سَجَدَ الروضُ الأنيقُ لـه ... ولو أتاه فَتِيتُ الـمِسْك مـا سَجَدا
شـبَّهتُه وسـقيطُ الطَّـلِّ تُحـدرُه ... عنـه الريـاحُ وقـد مَدَّت إليـه يَـدا
بخـدِّ ذي خَجَـلٍ أبكتْـه خَجْلتُـه ... حتـى تفـرَّق فيـه دمعُـه بَـدَدا
في غـير أيّامِـه يُـشنَى الـصَّبُوحُ وفي ... أيّامِـه فلـيكُنْ غـيُّ الهـوى رَشَـدا

وقال ابنُ درَّاج في الوَرْد أيضًا [من الكامل]:

ضَحِكَ الزمانُ لنا فهاكَ وهاتِهِ ... أوَ ما رأيتَ الوَرْدَ في شَجَراتِهِ
قد جاء بالنارَنْجِ من أغصانِه ... وبخَجْلةِ المعشوق من وجَناتِهِ
وكَساه مولانا غَلائلَ سُنْدُسٍ ... يومًا يُسربِلُه دماءَ عِدَاتِهِ

وقال ابنُ درَّاج في السَّوسن [من المنسرح]:

إن كان وجهُ الرَّبيعِ مُبتسِمًا ... فالسوسنُ المُجتلَى ثَنايَاهُ
يا حُسْنَه سِنَّ ضاحكٍ عَبِقٍ ... يطيبُ ريَّا الحبيب ريَّاهُ
خاف عليه الحسودَ عاشِقُهُ ... فاشتقَّ من ضِدِّه فسمَّاهُ
وهْوَ إذا مُغرمٌ تَنسَّمَهُ ... خلَّى على الأنْفِ منه سِيْماهُ
كما يُحلِّي الحبيبُ غاليةً ... في عارضَيْ إلْفِه لِذِكْراهُ
يا حاجبًا مُذ بَراه خالِقُهُ ... تَوَّجَه بالعُلى وحَلَّاهُ

وقيل في عبد الملك المظفَّرِ [من المتقارب]:

زمانٌ جديدٌ وصُنْعٌ جديدُ ... ودُنيا تروقُ ونُعمى تزيدُ
وغيثٌ يصوبُ وعيشٌ يطيبُ ... وعِزٌّ يدوم وعِيدٌ يعودُ
ودهرٌ ينيرُ بعبدِ المَليكِ ... كشمسِ الضُّحى ساعَدَتْها السُّعودُ

وفي سنة ثمانٍ وتسعينَ وثلاث مئة: خرج الحاجبُ المظفَّر بالشاتِيَة التي لم تكن له شاتية سواها، وهي السادسةُ من غَزَواته، من قُرطُبَةَ يومَ الاثنين لاثنتَيْ عشْرةَ ليلةً خلَت من صَفَرٍ من السنةِ المؤرَّخة، ورحَل حتى احتلَّ حصنَ شَنْت مَرْتين[1]، فأمر عبدُ الملك بحطِّ الأثقال، ونهض المسلمون نحو الحصنِ لوقتهم؛ إذ كان الكَفَرةُ سكَّانُه بَرَزُوا أمامَه يقدِّرون المنعَ منه بزعمهم والقتالَ دونه، ثمَّ لم يلبَثوا فوَلَّوا مُدبِرين، ونالت

---

(١) ينظر نزهة المشتاق ٢/ ٧٧٤، ٧٨٥، والروض المعطار ٣٤٩.

السيوفُ بعضَهم إلى أن وصَلوا إلى حَرَم حِصنِهم، فلاذُوا بسُورِهِ، وراموُا مُراماةَ المسلمين بالنَّبْل والحجارة من أعلاه، فلم يكنْ أحدٌ منهم يُخرِجُ يدَه حتى تَنتظِمَها السِّهامُ والثلاثة، فانحجَرُوا سِراعًا تحت الخشب، وظَهَرَ المسلمون لوقتهم على الرَّبض، فنَهبوا ما وجَدوا فيه، وأطلقوا النيرانَ عليه، وغدا المظفَّرُ على حربِ الحِصْن، وأرسل البنَّائينَ والنقَّابينَ مع عُرَفائهم لحَفْرِ السُّور المُحدَث، وحلِّ حجارتِه من بين نُطُقِ الخَشَب، ودَأبوا في ذلك حتى أوسعوا الثَّلْم، ثمَّ حَشَوْه حطبًا مُضرّجًا بالقَطِران، وأطلقوا فيه النارَ فاضطرمتْ تحت السطح فأحرقتْه، فَجزِعَ الكَفَرةُ لذلك، ويَئسوا من الحياة، وندموا على وقوفهم في وجهِ عبدِ الملك والمسلمين، ثمَّ عاوَدَهم عبدُ الملك بالقتال يومًا آخر، وأمر الناظرينَ على الوَقُودِ بالعسكر أن يأخذَ الناس بانتقالِ حُزَمِ الحطب إلى قُرْب الثَّلْم، فجَلَبُوا منه أكوامًا عظيمة، وتوالى على عداةِ الله قذفُ المَنْجنيقِ ورَشْقُ النِّبال، حتى ظَلَّ الرَّجلُ منهم لا يقدرُ أن يتحرَّكَ من مكانِه، فاتَّصلت الحربُ الضَّرُوس عليهم تسعةَ أيَّام، فلمّا عايَنَ الكفَرةُ الغلَبَةَ عليهم، وأضرَّ العطشُ بهم، عزَموا على إسلام الحصنِ إلى عبد الملك بأمانِ أنفسهم، فأمَر عبدُ الملك بالدنوِّ إليهم ومعرفةِ ما يبغُونَه من سؤالهم، فسَألوا أن يأخُذوا الأمانَ منه ويَخرُجوا عن الحِصْن ويَنصرفوا منه، فأبى إلَّا أن ينزلوا على حُكمِه؛ إذ لم يكنْ لهم مُناصل، فانعقَد ذلك، وفتح الكفَرةُ بابَ حِصنِهم، فأمر عبدُ الملك أخاه عبدَ الرحمن وفتاه شَفيعًا بالدُّخولِ إليهم، ففعلوا ذلك، وأمروا أهلَ الحِصن بالخروج، فخرجوا مُزعَجين قد سُقِط في أيديهم.

ولـمّا اجتمع أهلُ الحِصْن بساحتِه ولم يبقَ منهم أحدٌ داخلَه؛ أمر عبدُ الملك بتمييز المُقاتِلة والرِّجال عن الذُّرِّيَّة والعِيال، وإقامةِ كلِّ فريق منهم ناحيةً، ففُعِل ذلك، وأُعْلِم به، فركب من مجلسِه، والتفَّ به جماعةُ المسلمين يَدعُونَ له ويبتهلونَ بالشُّكر والثناءِ، فوقف بساحةِ الحصن على جَوادِه يتأمَّلُه، ثمَّ انتهى إلى الموضع الذي مُيِّز فيه أهلُ الحصن، فنهض نحوَ الرِّجال وقد استَشرَفوا له ورجَوْا عَطْفَه عليهم بأن يأسِرَهم، فنظر إليهم وحَكَمَ فيهم بحُكم سعدِ بن معاذ، رضي الله عنه، وأوْمَأ إلى مَن حوله من الأجناد، فوَضعوا فيهم الأسلحةَ، وصبَّروهم في ساعة، ثمَّ أمر بتوزيع سَبْيِهم على أهلِ الرِّباط وفُرسانِ الوفود على العادة، ففُعِل ذلك كلُّه، وأمر بالشروع

في بناءِ ما تثلَّم من السُّور، وأمر كاتبَ الرسائل أحمدَ بن بُرْد بإنفاذ كتابه بالفتح إلى الحضرة على نظيرَيْن بحسب العادة، وقَفَلَ الجيشُ راحلًا إلى قُرطُبَةَ إلى أن أشرفَ عليها، ثمَّ دخلها مستهلَّ ربيع الآخِر.

وكان من غريبِ ما جَرى له يومَ دخوله من غَزاته هذه: أن استثار غلمانُه في انتشارهم بفَحْص بدر خنزيرًا وسطَ المزارع طَرَدْته خيلُهم، فاقتحم شوارعَ قُرطُبة، وأكثرُ أهلِها يومئذٍ لا يَعرفونَ ما هو؛ لسَعَةِ عِمارتهم وعدمِ الوَحْش بباديتهم، فضلًا عن حاضرتهم، فلم يزَلْ ذلك الخِنزيرُ راكبًا وجهَه يخترقُ الناسَ وقد تسابقَت الخيلُ في طَلَبِه إلى أن لحقتْه بالشطِّ قبالةَ قصرِ الخلافة، فأطال الناسَ وقتًا في حديثه، وأكثروا الخوضَ في شأنه والتطيُّرِ منه.

قال محمَّدُ بن عبد الرحمن: وأمَّا غزاتُه المعروفةُ بغزَاة العلَّة، وهي السابعةُ من مغازيه، في صائفةِ سنة ثمانٍ وتسعينَ وثلاث مئة، فقد تقدَّم ذكرُها في صَدْرِ أخبار المظفَّر في باب العِلَل من كتابِه. وقال عن ابن حيَّان: قال: ومِن كبار عِلَل عبد الملك ومُنكراتِها على الإسلام، ومُؤذناتِها بما جرَى عليه بعدُ من الانثلام: علَّتُه الشديدةُ بمدينة سالم مخرَجَهُ إليها سنةَ ثمانٍ وتسعينَ محتفلًا، لقَصْد عدوِّ الله شانجه بن غَرْسيةَ بن فرذلند، فصدَّته عن الدّخول إليه بجموع المسلمين، واشتدَّت به مدَّةً تفرَّقَ عنه فيها أكثرُ الـمُطوِّعة، وصارت على الإسلامِ مُصيبةٌ بما أوْهَنت من بَطْش عَضُدِه ونقَصَت من حَفيل عديدِه، ورام ـ معَ ذلك كلِّه ـ الاقتحامَ على أعداء الله في حال نقوهِه طمعًا في إتمام غزوِه، فكانت آخرَ صائفة نفَذت من الحضرة، إذ هلَكَ عبدُ الملك وألقَتْ بَرْكَها الفتنة، وخبرُ هذه العلَّة وشُؤمُها مشهورٌ في الناس إلى أبعدِ غاية.

وفي هذه السنة: قُتل طَرَفةُ الفتى الصَّقْلَبي، وكانت حالُه تناهت في الجلالة، وكان عبدُ الملك، لانهماكِه في لَذَّته ومواصلتِه لشُربه ومسرَّتِه، استعان على التدبير بخواصِّ خدَمِه وأكابِر رجالِه، فسعى بعضُهم على بعضٍ عندَه، حتّى هلَكَ جميعُهم بيدِه، ومضى سريعًا خلفَهم. فأوَّلُ ذلك: مقتلُ طَرَفةَ المذكور، وكان المظفَّرُ فوَّض أمرَه أوَّلَ ولايتِه إلى أبي الأصبغ عيسى[1] بن سعيد اليَحْصُبيِّ وزير أبيه محمَّد بن أبي عامر، وَلَّاه الإشرافَ على

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٤٣٢، وجذوة المقتبس (٦٨٠)، وتاريخ الإسلام ٨/ ٦٦٧.

المملكة، وقدَّمه على كافَّة رجالِه، وصيَّر أمرَه في يدِه، وكان شَهْمًا ماهرًا بالحساب، لكنّه كان عاطلًا عن الآداب، فأسنَدَ إليه النظرَ في أشغالِه وأحوالِه، فناب فيها أحسنَ مَناب، وعرَفَ له عبدُ الملك حقَّه، فأمضاه على خاصَّتِه وعامَّتِه، فطاف الناسُ ببابِه وغَلَّقوا أسبابَه، فسارَعَ رجالُ العامريَّة إلى منافستِه وحسَدِه، وحَملوا الصَّقْلَبيَّ خادمَ عبد الملك الأكبرَ على مُناوأةِ عيسى والاعتراض عليه، ولم تزَلْ حالُ طَرَفةَ تعلو في الدّولة، ومولاه يُؤْثرُه ويزيدُه حُظوةً إلى أن غَطَّى على عيسى وزيرِه، وأخَذَ الغَرَض عنه بحَشَمِه، وخلَّاه يُدبِّرُ الدّيوان معَ أصحابِه، ثمَّ عارَضَه في كثيرٍ من أمورِها، واستبدَّ عليه بتدبيرِ ولاتِها، فكاد يُسقِطُه. ومضَى طَرَفةُ على غَلوائه، واعتلَّ مولاهُ المظفَّرُ في جُمادى الآخِرة من السنة ـ وحالُ طَرَفةَ فيها على ما وصَفْناه ـ علّتَه الطويلة، فانفرد طَرَفةُ به فيها، وأغلظ حجابتَه مدّتَها، وهاب الجندُ فيها طَرَفةَ الخادمَ في هذا الوقت، وخافوا سَطْوتَه وطلَبوا موافقتَه.

قال ابنُ حيّان: وتناهَتْ حالُ طَرَفةَ في الجلالة، فعطَّل عيسى وزيرَ الدّولة، وصار النّهيُ والأمرُ إليه والقَبْضُ والبَسْط في يدَيْه وزِمامُ الـمُلك في قبضَتِه، فتقدَّم أصحابُه، وتناولوا الأمرَ بقوَّة، وذهَبَ بطَرَفةَ العُجْبُ مذهبَه، والناسُ في ذلك كلِّه يزدَرونَه وعيونُهم تقتحمُه لِـما كان عليه من الطَّيش والذَّمامةِ والتّبذُّل للخدمة، حتى قال الناسُ فيه أهاجيَ كثيرةً.

قال: وأفاق الحاجبُ من علّتِه عَقِبَ رجبٍ وقدِ استولَى طَرَفةُ هذا على أمرِه وأنفَذَ أشياءَ بغيرِ علمِه، ولـمّا أبَلَّ الحاجبُ من مرضِه استعجَلَ الخروجَ للغَزْوِ في شهر رمضانَ من هذه السنة، ووزيرُه عيسى معَه، وعبدُ الملك[1] بنُ إدريسَ صاحبُ طَرَفةَ يكتُبُ له الرّسائلَ في وقتِه ولا يَشُكُّ أنّ حالَ طَرَفةَ باقيةٌ عندَ موْلاه.

وانفرد عيسى في طريقِه بالحاجبِ المظفَّرِ، فأحكَمَ التدبيرَ على عدوِّه طَرَفة، ومكَّن فسادَه في نفسِ المظفَّر، وقوَّى عَزْمَه على إبادتِه، وصاعَدَ الحاجبَ نحوَ سَرَقُسْطة، وواعَدَ خادمَه طَرَفةَ ومن معَهُ الالتقاءَ بها، فاتّفق دخولُ الجيشَيْنِ معًا إليها في يوم واحد،

(١) ترجمه الحميدي في جذوة المقتبس (٦٢٥)، والثعالبي في اليتيمة ١/ ٤٣٧، وابن بشكوال في الصلة (٧٦٠) وفيه مصادر ترجمته.

وكان يومَ الخميس لليلة بقِيَت من شهر رمضان، فدخَل طَرَفَةُ، وتقدَّم إلى قصرِ موْلاه في أُبَّهةٍ مُدِلًّا بحالِه وخاصَّته وقد نَفَذَ القضاءُ عليه وهُو لا يشعرُ به، فلمّا دخَل الدارَ عُدِل به عن مجلس مَوْلاه دونَ أن تقعَ عينُه عليه، فقُيِّدَ لوقتِه بقَيْدٍ ثقيل وُكِّل به جماعةٌ من وجوه الغِلمان مَضَوْا به نحوَ الساحل، وحُمل على بغل ورجلاهُ في ناحية، خُرِج به كذلك على جميع الناس، فلم يكنْ بينَ دخولِه سَرَقُسطةَ أميرًا معظَّمًا وخروجِه منها أسيرًا مُقيَّدًا مُهانًا غيرُ لمحة، فاتَّخذ الناسُ حديثَه عَجَبًا في سرعة الاستحالة، وأدّاهُ الغِلمانُ إلى الجزيرة إلى حَبْس بها، ثمَّ لم يفارقْه جميلُ ظنِّه بمولاهُ إلى يومَ أرسَلَ في قتلِه، وذلك عندَ إكمال الحاجِب لغَزاتِه وقُفولِه إلى الحضرة، ووزيرُه عيسى غالبٌ على أمرِه ومُصرِّفٌ لدولتِه، فهو لا يزالُ يُحرّكُه على طَرَفةَ هذا حتى ساقَه إلى قتلِه.

وفي هذه السنة: قَتَلَ المظفَّرُ عبدَ الملك بنَ إدريسَ الـجَزيريَّ الكاتبَ البليغ، وكان الوزيرُ عيسى مكَّن في قلبِ المظفَّر على هذا الكاتب من صحَّة مُشايعتِه للحائن طَرَفةَ على المعصية، ومظاهرتِه إيّاهُ على غِشِّ الدولة ما أوجَبَ عندَه قتلَه وإلحاقَه بصاحبِه طَرَفة.

ذكْرُ مقتلِ عيسى بن سعيدٍ وزيرِ الدّولة[1] وصاحبِه هشام بن عبد الجبَّار المتَّهم بالقيام معَه على آلِ عامر وما انبعثَتْ لذلك من الفتنة الـمُبيرة

قال حيَّانُ بن خَلَف: ولـمّا مضَى طَرَفةُ لسبيله وكُفي عيسى شأنَه، انفرد بصاحبِه المظفَّر، واشتمَلَ على دولته، ودبَّر أمرَها كما أراد، فانقاد له جميعُ أهلِ الدّولة ورَهِبوا صَوْلتَه وتدبَّروا أمرَه، فعُنيَ لأوَّلِ وقتِه واغترَّ بما تهيَّأ له من وَقْم[2] عداتِه، وألَحَّ عليهم بأذاهُ وسِعايتِه، وأعملَ في إسقاطِهم وجوهَ حيلتِه، وأعتَقَ صنائعَه، فأعلى منازلَهم واستأثَرَ عليهم بدُنياه، وابتغَى المالَ من مَبْغاه، فبَلَغَ في ذلك مَداه، حتّى ما كان أحدٌ يَلي عملًا للسُّلطان ولا يتولَّى جهةً إلَّا أسهم عيسى في فائدتِه وتناوَلَه بمرفقِه وهبتِه،

---

(١) الخبر في الذخيرة ١/ ١٠٤ فما بعد باختلاف.

(٢) الوقم، هو القهر والإذلال، والحزن أشدّ الحزن، والردّ بأقبح الردّ. وبابه وعد. القاموس المحيط (وقم).

وهُو لا يزالُ في ذلك يستَقصي على أعمالِ السّلطان وأهلِ خدمتِه، ويُدقّقُ حسابَهم، ولا يَخْلُونَ في كلِّ وقتٍ من مكروه يُجدِّدُه عليهم، فحابَوْهُ، وشارَكَهم في مجابيهم، فاستقام أمرُ عبد الملك بنظرِه، وهابَهُ كلُّ فريق من رجالِ السُّلطان من أصحابِ السُّيوفِ والأقلام، فلزِموا السّلامةَ، واستقاموا على الطاعة والطّريقة.

قال: ولـمّا نظَرَ الناسُ إلى عبد الملك وغَلَبةِ عيسى على سُلطانِه واستئثاره بدُنياه، سارَعوا إلى حَسَدِه ونَقَموا عليه اعتلاءَ منزلتِه حسبَما لا يزالُ يجتمعُ عليه أصحابُ السُّلطان من عَداوةِ مَن يعلوهم عندَه. قال: وقد كانت الدُّنيا غيَّرت من عيسى آخرَ وقتِه وعندَ تناهي حالِه، فاستخَفَّ بجميع الناس وترَكَ إسعافَهم، وزَوى وجهَه لهم، وأغلظَ حجابَه، فأحنَقَهم، وعمَّروا بشكواهُ نَجْواهم. وكان يسيرُ من دارِه إلى الزاهرة راكبًا دابَّتَه لا يقفُ على أحدٍ من الناس لتقدُّمِه لهم لا يلقَوْنَه إلّا في دارِ سُلطانِه، وكانوا يناولونَه رَقائعَهم، فربَّما أخَذ وربَّما ترَكَ، ولا يُخلصونَ في ذلك من نَجْهِه[1] وتضاجُرِه، وكان من أقبح ما فعَلَه في بعض رَكباتِه يومَئذٍ أنْ كثُرَ عليه مناولةُ الكُتبِ يومَئذ وهُو يجمَعُها في كفِّه حتى ضاقت عنها، فرَمَى بها جُملةً في الخندق والناسُ ينظرونَ إليه، فتحدَّثوا بقُبحِه. قال: فكثُرَ أعداءُ عيسى في وقتِه هذا وأحصَوْا أفعالَه وجميعَ سَقَطاتِه[2]... فذهبَ الاحتراسُ منهم جُهدَه، وسعَى في[3]... قومًا من وجوهِ أهلِ الدّولةِ استَخْلَصَهم لنفسِه وصيَّرهم من بِطانتِه واستكثَرَ بهم، وصاهَرَ منهم: آلَ حُدَيْر وآل فُطَيْس يبغي تكثيرَ عدَدِه وإعزازَ رُكنِه، فسما بجماعةٍ من رجال هذَيْن البطنَيْن في هذا الوقت إلى منازلَ عَلِيَّة.

قال: ولـمّا استراحَ عبدُ الملك إلى كفايةِ عيسى واستقلالِه، انهمَكَ في ابتغاءِ لَذّاتِه ومُواصلةِ شُربه الذي لم يكنْ يصبرُ عنه، فاغتنم عيسى ذلك منهُ وأقبل على جَمْع المال

---

(١) النّجه، قال الفيروزآبادي: هو استقبالك الرجل بما يكره، وردّك إياه عن حاجته، أو هو أقبح الرد، وبابه منع. القاموس (نجه). قلت: فهو كالوقم، الذي سبق شرحه.

(٢) بعد هذا غير مقروء.

(٣) كذلك، قدر ثلاث كلمات.

واكتساب الضِّياع، فبلَغَ من ذلك أكثرَ ما بلَغَه وزيرٌ قبلَه، وكان من أعظم الآفات على عيسى لأوَّل وقتِه: مُداخلتُه الـجُندَ وإحاطتُه بهم، حتى صيَّر أرفعَ طوائفِهم المدعوِّينَ بالموالي في قيادتِه، فاعتزُّوا على الأجنادِ بالضمِّ إليه، واعتقد هو الاستظهارَ بهم على أمرِه، على أنه في ذلك كلِّه لم يحمِل السَّيفَ ولا نَبَذَ قلمَه، وتلك حالٌ أهلَكَت الوزراءَ قديمًا، وفتحت للملوكِهم أبوابَ الاتّهام لعيوبِهم، لم يحترسْ عيسى منها، فأوْدَى كما أوْدَوْا.

قال: ولـمّا تَمالأ أصحابُ عبد الملك على عيسى ونَصَبوا لهُ العداوةَ، دَبُّوا عليه بالقَدْح والسِّعاية بكلِّ وجهٍ وحيلة، واستَظْهَروا على ذلك بالـحُرَم والحاشية، لأشياءَ استحقَّها عندَهم منَ الاعتسافِ وقلَّة الإنصاف، استَفْسَد بذلك كثيرًا منهم ولا سيَّما الذَّلْفاءَ[1] والدةَ الحاجبِ عبد الملك، وجواريَه، فإنَّهنَّ احتمَلْنَ عليه أحقادًا مَحَضْنَهُ بها العداوة، ومكَّنَّ لأعدائه في قلبِ عبد الملك عُلوقَ السِّعاية، حتى نفَذت عليه المحنةُ المكتوبة، وكان عبدُ الملك في الأغلبِ من حالِه شديدَ التمسُّك بعيسى والمعرفةِ برَجاحتِه والردِّ لـما يُنمَى إليه عنه، حتّى رُمي بالتي لا فوقَها من السعي على دمِه ودولةِ سُلطانِه، وذُكِر لهُ على ذلك أدلَّةٌ أزالت شكَّه، فلحِقَه من الإشفاقِ ما يلحَقُ مثلَه، فوَثَبَ على وزيره عيسى فقتَلَه.

قال ابنُ حيّان: ولم يُمَنَّ وزيرُ مملكةٍ علمناهُ بأعظمَ مـمّا مُنّيَ به عيسى من نُظرائه على حَسَدِه وعَداوتِه وكشْفِ جِناياتِه وبَثِّ مَساويه، وعبدُ الملك يرُدُّ أكثرَ ذلك منه ولا يقبَلُه، حتّى زاد الأمرُ عليه ورسَخَ بخَلَدِه، فأخَذَ في التغيُّرِ على عيسى بالاتّهام لهُ والـحَذَر منه، مُكاتـمًا بذلك لا يُبديه.

ولـمّا فهِم عيسى ذلك وأحسَّ بالشّر وأيسَ من إصلاح ضميرِ عبد الملك له، فسمَا عند ذلك ـ زَعَموا ـ إلى الغَدْر بالعامريِّينَ والانقلابِ إلى الـمَرْوانيِّينَ الموتورينَ دولتَهم، وإقامةِ هشام بن عبد الجبَّار بن عبد الرحمن الناصِر على الخليفة هشام بن الـحَكَم بن الناصِر، وصَرْفِ الخلافة لهشام بن عبد الجبَّار لضَعْف استقلالِ هشام

---

(١) الذَّلَف، محرّكة: صغر الأنف واستواء الأرنبة من غير حدّ غليظ. القاموس (ذلف)، وتسمى به بعض النساء.

المؤيَّد، والتدميرِ بذلك على آلِ عامر قوَّام دولتِه تدميرًا لا بقيَّةَ بعدَه، وقد كان عيسى خليطًا لهشام هذا محمولًا ما بينَهما على السّلامةِ بالجُملة، لثقةِ عيسى عندَ أصحابِه، حتّى أن هشامَ بن عبد الجبَّار لَيستنجِزُ حوائجَه في الدّولة بعيسى، فلما تغيَّر ضميرُ عيسى عليهم في هذا الوقت ورَهِبَ سطوةَ عبد الملك لإدنائه لأخيهِ عبدِ الرحمن ضدًّا عليه، قدَّر بزَعْمِه أنهُ يلجئُ الأُمَّةَ بهشام بن عبد الجبَّار إلى سَنَدٍ يضبِطُ لها شأنَها، ويَنْجو هُو معَ ذلك من النَّكبة، فدعا هشامًا إلى ما عَزَمَ عليه من ذلك سرًّا، ولقيَه خُفْيَة، وقرَّب عليه بأخْذِ ما بيدِه لمنزلتِه من أولياءِ العامريِّين، وأنّ قُوَّادَهم لا يُخالفونَه بحيلة، فاستجابَ له هشامٌ لذلك فيما زَعَموا، وأخَذَ بَيْعتَه عليه، وواطَأَه على إيقاعِه، وكشَفَ ذلك إلى خواصِّه من قُوَّادِ العامريِّينَ والاستعانة بهم على دعاءِ مَن خلفَهم إلى الدّخول، فساعدَهُ على ذلك جماعةٌ من الطائفتَيْن: الأندَلُسيِّينَ والبَرابِرة، وأعطَوْهُ بيعتَهم لهشام بن عبد الجبَّار، وقاموا معَه في التدبير على عبدِ الملك، وتأَتَّوْا لذلك تحت احتراسٍ شديد ومراقبةٍ صعبة يلتقُونَ فيها ليلًا ويتلقَّوْنَ رمزًا قد انتَصَبَ لدعاء الثِّقاتِ إليه وأخْذِ أيمانِهم، واكتَتَم أمرُهم مُدَيْدة الردِّ لعيسى التدبير فيها، فكاد يُشارِفُ التّمام لولا حارسُ المدَّة، وذلك أنّ عيسى ومن معَه دبَّروا أن يَستدعيَ عيسى عبدَ الملك ومَن معه وأخاه عبدَ الرحمن وأصحابَه إلى المنيةِ التي كان عبدُ الملك وَهَبَه إيَّاها هذه الأيَّام بالرَّملة قُربَ قصرِ الزّاهرة، بحضورِ دعوةٍ يُهيئُها له هناك عظيمةٍ لعقيقةِ مولودٍ رُزِقَه ابنُه عبدُ الملك بنُ عيسى صاحبُ السِّكَّة كانوا منهُ في أفراح متَّصلة، فالتمَسَ عيسى من أميرِه عبدِ الملك بإتيانِه لها زيادةَ التشريف وإقامةَ المنزلة، ويُقدِّرُ أنه لا يختلفُ عنه أخوه عبدُ الرحمن عدوُّه ولا أحدٌ من خاصَّتِه وهم كانوا أوكدَ عليه، ودَبَّر في تكمينِ جَمْع من الأجناد الرَّجّالة قد كان أعدَّهم للحادثة معَهم السّلاحُ والعُدَّة ببعضِ جهات تلك المنية، فإذا حصَلَ فيها عبدُ الملك وأصحابُه واطمأنُّوا خرَجَ عليهم أولئك الرَّجَّالةُ فابتَدَروهم فلم يُخرجْ منهم أحد، ومشَى بصاحبِه هشام بن عبد الجبَّار إلى قصرِ الزّاهرة من قُربٍ فأجلَسَه هناك، وأخَذ عليه البيعةَ بالخلافة من غيرِ أن يحترمَ شيئًا عن دولة العامريِّينَ، أو تَعْدُوهم القاصمةُ ثمَّ يدعو الناسَ إلى خَلْع هشام بن الحكم الظاهرِ

عجْزُه عمَّا حُمِّل من أمرِ الخلافة ويكشِفُ لهم مسَاويَه المستورة، ويُعوِّضُهم منه بابن عمِّه هشام بن عبد الجبَّار الخليق لها، ولا يخاف أن يَختلفَ عليه منهمُ اثنان لجلالةِ عيسى في نفوسِهم ورضاهم عن تدبيرِه، وتأتّى لعيسى سؤالُ عبدِ الملك مُشاهدةَ دعوتِه تلك، فأجابه عبدُ الملك إلى ذلك وارتَبطَ بموعدِه، فأشرف على حتفِه لولا حارسُ أجلِه الكاشفُ له عن التدبيرِ عليه بين يدَيْ وقوعه وتواليه عليه من جهاتٍ أزاحت شكَّه.

قال ابنُ عَوْنِ الله: بَلَغَني يومئذٍ أنّ أوّل معرفتِه ما دَبَّر عليه وزيرُه كان من جهة المعروفِ بابن القارِح أحدِ الـمَوالي صنائع ابن أبي عامرٍ الأندلسيِّين، واسمُه خَلَفُ بن سَعْد، وكان عيسى كشَفَ له عن القصَّة بعدَ التوثُّق من يمينِه وأخْذِ بَيْعتِه ودَفْع الجائزة إليه، فصار من فَوْرِه إلى نظيفٍ الخادم فخَلا به وأطْلَعَه على القصَّة وأراه الجائزةَ التي قَبَضَها وخاتَمَ عيسى عليها، فدخَلَ نظيفٌ لوقتِه إلى عبد الملك وأعلَمَه بخبرِ ابن سَعْدٍ هذا، وأوصَلَه سرًّا إليه، فخَلَا به عبدُ الملك ووَعَدَه الغَناءَ والـحُظْوةَ على نصيحتِه، وأنهى إليه من طريق صاحبِ المظالم في ذلك، وهُو أبو حاتم بنُ ذَكْوان، ما شدَّه وقوَّاه، فقلِقَ عندَ ذلك ووَثَبَ على عيسى لوقتِه فقتَلَه.

قال حيَّانُ بن خَلَف: وقد أخبرني الفقيهُ أبو الـمُطرِّف بنُ عبد الرحمن بن عَوْنِ الله أنّ أبا حاتم بنَ ذَكْوان لم يُشافِهْ عبدَ الملك بالقصَّة، وإنّما عرَّضَ له رَجُلًا متفقِّهًا عَدْلًا، فألقى إليه أبو حاتم ما سَقَطَ له من تدبيرِ عيسى، وكان عند الذَّلْفاءِ والدةِ عبدِ الملك بمحَلٍّ عظيم من الثِّقة يصلُ إليها من وراءِ حجاب، فتسمعُ منه النَّصائحَ في دولة ابنها وتنتهي إليها الرغائبُ من حوائج الناس، فلمّا سمِعَ ذلك منَ ابن ذَكْوانَ قام من وقتِه فوصَلَ إلى والدةِ عبد الملك هاميَ العَبْرة، فوَصَفَ لها الحال، فدخَلَت إلى ابنِها فصدَقَتْهُ عن تُهمة عيسى، وعزَمَتْ عليه في قَتْلِه. قال محمد بن عبد الرحمن بن عَوْن الله: ووَهِمَ ابنُ حيّان في هذه الحكايةِ التي حملها على أبي رحمه الله، فإنّي سمعتُ والدي يحدِّث بها غيرَ مرّة، أنّ الرجلَ لم يكن ممّن يُداخلُ الذَّلفاء، وإنّما كانت له والدةٌ صالحة تُعرف بالقابلة، ولها من الذّلفاء منزلة لطيفة، فأعلمها ابنُها بما ألقى إليه

أبو حاتم من خبر عيسى، فنهضت من فَوْرها وأعلمتها بما عزم عليه عيسى من الفتك بابنها، وصحّحت الخبر لديها، فأُحضِرت الذَّلفاءُ لعبد الملك وسمع الخبرَ على وجهه من هذه المرأة، فلم يشُكَّ في صحَّةِ ذلك وخرَجَ لوقتِه فأمَرَ بقتلِه.

ومـمَّا ذكر في قَتْل عيسى ـ على سبيل الاختصار ـ قال: لـمّا عزَمَ عبدُ الملك على قتلِه، شاوَرَ في ذلك أخاه عبدَ الرحمن، فقوّى عَزْمَه على ذلك، وكان مُناهُ الذي ينتظرُه، وأكثر عليه في المعنى الذي رُمي به، وحذَّره منَ التّواني في أمرِه، فأشعَلَه عليه، فعقَدَ عبدُ الملك مجلسًا للشُّربِ ليلةَ السّبت لعشْرٍ بقينَ من ربيعٍ الأوَّل من سنة سبع المتقدِّم ذكْرُها، فلمّا مضَى صَدْرٌ من الشُّرب أرسَلَ بعضَ خدَمِه الصَّقالبة يستحضرُ عيسى، فطَرَقه الرسُولُ وهُو يشربُ أيضًا في قوم من خواصِّه، منهم: أبو الحَسَن بنُ بُرد كاتبُ الرسائل، فذَكَر أبو الـحَسَنِ هذا أنه بادَرَ بالركوبِ والرُّسُلُ تحُثُّه والقضاءُ يجذِبُه، فانطلَقْنا إلى منازلِنا فلم نعلَمْ بشيءٍ من أمرِه إلَّا منَ الغد، قال ابنُ حيّان: وذلك أنه لـمّا دخَلَ على عبد الملك أظهَر له الاستبشارَ بحضورِه، وأقبَلَ عليه بوجهِه، وحثَّ السُّقاةَ عليه، فلمّا مضَتْ أدوارٌ أخَذَ عبدُ الملك في معاتبتِه واتّهامِه والتعريضِ له بغَدْرِه، وعيسى ينزعجُ لقولِه ويوكي إيكاءً من ملامتِه، إلى أن صَرَّح عبدُ الملك وألقى له بما في نفسِه، وألقى مِن يدِه القَدَح وأقبَلَ على سبِّ عيسى والإفحاش عليه، فأيْقنَ عيسى بالشّر ورابَهُ ذلك، وأقبَلَ يعتذرُ إلى عبدِ الملك مـمّا قُذِف به ويسألُه التثبُّتَ في أمرِه، فقال عبدُ الملك: الحمدُ لله الذي أمكنني منكَ أيُّها الغادر، وتناولَه أخوهُ عبدُ الرحمن والجماعةُ بالمكروه، وتوَثَّبوا عليه من كلِّ ناحية، وعلا الكلامُ إلى أن توقَّدت جمرةُ عبدِ الملك فسَلَّ سيفَه ووَثَبَ به على عيسى، فاستقبَلَ صَفْحةَ وجهِه فشَقَّه إلى ذقنِه، وكبا عيسى لِفيه ثمَّ نهَضَ متحاملًا بضربةٍ أخرى، فنثَرَ حَشوتَه، وخرَّ صريعًا، وخبَطَه أصحابُ عبد الملك بسيوفِهم حتّى هَبَّروه، وأمَرَ بحزِّ رأسِه، فوُضع جانبًا، وأمَرَ عبدُ الملك في مقامِه بقتل صاحبَيْه: يخلُفَ بنِ خليفة وحسنِ بن فَتْح، فجالت عليهما الجماعةُ فقُتلا، وأمَرَ عبدُ الملك بطَرْح أجسادِ القتلى ثلاثتِهم في غُمرةِ النَّهر في زَنابيلَ مُثقَّلةٍ بالحجارة، وقام عن الشّرابِ متغيِّرًا، ثمَّ لم يعُدْ إلى الشراب، زَعَموا، مدَّةَ حياتِه.

وأحضَرَ في اللّيل صاحبَ الزاهرةِ مُفرجًا، فقلَّده عبدُ الملك قَبْضَ نعمةِ عيسى، وأمَرَهُ بالمسيرِ إلى دارِه ودورِ ولدِه واعتقالِ ما فيها قبلَ سَوْق الخبرِ إليهم، والاحاطةِ بمنازِل كتَّابِهم ومَواليهم، وأرسَلَ معَه ثقاتِ خدَمِه الأكابرِ للهجوم على حُرَمِهم، فقام في ركائبِه وطَرَقَ القومَ ليلًا وهم في غَفْلة، فريعَ سِربُهم، وكان حديثُهم في عالم القارعةِ عِبرة، وأمَرَ عبدُ الملك بنَصْب رأس عيسى على بابِ مدينة الزّاهرة لينظُرَ الناسُ إليه، فأصبح ماثلًا للأعْيُن آيةً بيّنة ومَوْعِظةً وازِعة، فما زال هنالك إلى أن ذهبت الدّولةُ العامريَّة.

قال ابنُ حيان في كتابه: أقولُ: وقد سمِعتُ من جهات أنّ هذا المولودّ الذي شَأمَ أهلَ بيته هُو هذا الرجُلُ الضَّخمُ الـمِراس في آخرِ هذه الفتنة، الـمُرتقي بغير أسبابٍ متينةٍ إلى سماءِ العزَّة، حتى نال ساميَ ذِروة خُطَّة الوِزارة من غير أدبٍ ولا صَنْعةِ كتابة، فاغتَدى عَجَبًا من أعاجيبِ هذه الفتنة، وأمَّا هو فمُنكِرٌ لولادتِه في تلك الأيَّام، بل يقول: بعدُ.

خبرُ مقتلِ هشام بن عبد الجبَّار ابن الناصِر لدين الله المتَّهم بالقيام على المظفَّر(١)

قال: وتجسَّس المظفَّرُ غداةَ قَتْل وزيرِه عيسى على الولدِ أبي بكرٍ هشام المذكور، المتَّهم في قصَّته: هل هو في دارِه أو في مُنْيَته؟ فعرَفَ أنه في الـمُنية، فوَضَع الأرصادَ عليه لِـما يكونُ منه، فأقام هشامٌ على حالِه ثلاثةَ أيَّام بعدَ مقتلِ عيسى، ثمَّ أقبَلَ إلى دارِه والعينُ واقعةٌ عليه، وأُنهِي إلى عبدِ الملك خبرُه، فلمّا جَنَّ اللّيلُ عليه أنفَذَ أخاه عبدَ الرحمن ومَوْلاه مُفرجًا في طائفةٍ من وجوه الغِلمان للقَبْض على هشام المذكور، فأحاطوا بدارِه، فحملتْه هَشاشتُه على الظهورِ وتَرْك اللّياذِ عنهم، فاختطفوهُ للحِين وحَملوهُ إلى الزاهرة، ولم يتعرَّضوا لأهلِه بمكروه، فأمَرَ عبدُ الملك باعتقال هشام في حُجرةٍ قد كان تقدَّم بإعدادِها له بما يَصلُحُ فيها فصُبِر هنالك، فمكثَ بها يومَيْنِ ثمَّ نُقل إلى حَبْس ابتُنِيَ له فغاب عن العين، فكان آخرَ العهدِ به.

---

(١) ذكر النويري خبر مقتله (نهاية الأرب ٢٣/ ٤١٠-٤١١).

ومن أغربِ ما ورَد في الرؤيا المتعلِّقة بمحنةِ عيسى: أنّ رجُلًا من ذوي الصِّدق كان يتأمَّلُ رأسَه في المنام، فسَمِعَه فوقَ خشَبتِه يُنشدُ هذا البيتَ بصوتٍ يُغنّيه [من الكامل]:

بـانَ الخليطُ وشفَّني وَجْدي ... وبقيتُ أندُبُ ربْعَهمْ وَحدي

فأوّلتُ هذه الرؤيا يومَئذٍ على بَيْنِ آلِ عامر إثْرَ وزيرِ دولتِهم عيسى، وصحَّت إلى مُدَيْدة.

وذكَرتِ الشُّعراءُ قتْلَ عيسى، ورفَعتْ أشعارَها إلى الحاجبِ عبدِ الملك مُهنّئةً بالصُّنع فيه، فأكثرَتْ على عادتِها، فمن ذلك: قولُ أبي العلاء صاعدٍ البغداديِّ من قصيد [من البسيط]:

يا مَن أعاد لنا من عدلِه عُمَرا ... حتّى حَسِبناه من مَّلحودِه نُشِرَا

وهي طويلةٌ، ومن ذلك: قولُ أبي عُمر ابن دَرَّاج القَسْطَلِّي [من الكامل]:

شكرًا لمن أعطاك ما أعطاكا ... مَلِكٌ أذَلَّ لمُلكِك الأملاكا

ولـمّا انفرد المظفَّرُ بنفسِه بعدَ مهلِك وزيرِه، استيقَظَ من غَفْلتِه واستلَذَّ بالاستبدادِ والإشرافِ على أمورِ سُلطانِه وإحياءِ رَسْم والدِه، فأخَذَ في حَرْفٍ من ذلك وحَسَمَ أطماعَ الكُتَّاب في تدبيرِه، ووالى الجلوسَ للكشف عليهم، وأورَثَه ذلك الرغبةَ في توفيرِ المال، ودعاهُ إلى القصدِ في الإنفاق، فبلَغَ من ذلك في المدَّة القصيرة ما رُجِيَت فيه البركة، وقضَى اللهُ تعالى باختِرامِه عندَ توقّيه في ذلك أسدَّ ما كان في رأيِه وأضبَطَ ما كان لشأنِه، فمضَى حامدًا غادرَ الأسفَ عليه نَصَفةً.

واضطربَ الأمرُ بعدَه، ونَسَخت الفتنةُ دولتَه، وكان من عظيم عادِيَتِها بالأندَلُس ما يأتي الآنَ ذكرُه والحولُ والقوَّةُ لله سبحانَه.

ذكْرُ وفاةِ الحاجبِ المظفَّر عبدِ الملك بن أبي عامرٍ رحمه الله

كان قفولُ المظفَّر من غزوةِ صائفةِ ثمانٍ وتسعينَ وثلاث مئة عن بلاد عدوِّ الله شانجه بن غَرْسية، ووصولُه إلى الحضرة، مُنتصَفَ المحرَّم من سنة تسع وتسعينَ في

عقابيلِ علَّتِه التي عكَّست أملَه في وَقْم هذا الطاغية، مُجبرًا على ما أوهَنَتْ من بَطْشِه، متحدّثًا بالانكفاءِ إلى أرضِه، فلم يستقرَّ إلَّا رَيْثَ ما تراجعَتْ قوَّتُه، إلى أن صحَّ عَزْمُه على مفاجأةِ عدوِّ الله شانجه بالشّاتية، وقُدِّر أن يُصيبَ منه غِرَّة، فأمَرَ بالتأهُّب لذلك والاستعداد على حدِّ الانكماش وتخفيفِ الوطأة لسُرعة النهضة، فخرَجَ بسُرعة من قُرطُبَةَ للنِّصف من صَفَر من سنة تسع وتسعينَ وثلاث مئةٍ وقد بدأ به في السَّحَر وجَعُه الذي هلَكَ به، فصمَّم ورَكِب متحاملًا يطمَعُ أن يخُفَّ مرَضُه في أثناء سَفَرِه، وقد آذَتْه الحركةُ في يومِه فزاد مرضُه، وكان به ذَبْحةٌ تقوَى معَ الساعات حتى خنقَتْه، فوضَعَ جنبَه واشتَغَل بتدبيرِ نفسِه، وأقاموا به في منزلِه ذلك مؤمِّلينَ راحتَه، وأوعَزوا عنه إلى أهل العسكر بالمقام بمنزلهم فأنكَروا ذلك وتأوَّلوا فيه.

ووصَلَ القاضي ابنُ ذَكْوان ثانيَ يوم خروجِه، فأوقَفُوه على حالِه، فأشار عليهم بصَرْف المظفَّرِ في العمَّاريةِ إلى قصرِه، فنادَوْا بالرَّحيل إلى قُرطُبة، فأخَذوا فيه لا يَلْوي أحدٌ على أحد، وانفرد بعبدِ الملك أهلُ موكبِه الخاصوُّنَ به من الغِلمان، فحملُوهُ في العمَّارية، فزَعمَ قومٌ منهم أنّ وفاتَه كانت وهو جآءٍ في الطريق قُبالةَ دَيْر أرملاط وسِيرَ به على حالِه حتى أُدخِل القصرَ بالزاهرة ميّتًا وأقام أخوهُ عبدُ الرحمن معَ خَواصِّ أهلِ الدولة ليلتَه بقصرِ الزاهرةِ فلم يحدُثْ به حادث وأصبح في عزٍّ ومَنَعَة. قال: وما ترَكَ الناسُ لأوَّلِ وفاة عبدِ الملك وسرعة فجأتِها أنْ قالوا: إنه احتيل عليه بشَرْبة دُسَّت له مسمومةٍ من قِبَل أخيه عبدِ الرحمن بيدِ أحدِ خَدَم عبدِ الملك المظفَّر فاضَتْ نفْسُه منها، على اختلافِهم في وجهِ الحقيقة في سَقْيها واللهُ أعلم بذلك.

ولايةُ عبدِ الرحمن بن أبي عامرٍ الحِجابةَ لهشام بن الـحَكَم(١)، وإسراعُه إلى تغيير السِّيرة بالـجَهْل على نفسِه

لـمّا دُفن المظفَّرُ رحمه الله، تأهّب أخوه عبدُ الرحمن، الملقَّبُ بشنجول، اسمٌ غلَبَ عليه من قِبَل أُمِّه عَبْدةَ بنتِ شَنْجه النَّصرانيّ الملك تذكُّرًا منها لاسم أبيها فكانت

(١) ينظر المعجب ٨٦.

تدعوهُ في صِغَره بشنجول وكان أشبَه الناس بجَدِّه شانجه، ففرَّق الأموالَ وثقَّف المدينةَ الزاهرة وجلَسَ في مجلس أخيه المظفَّر، ودخَلَ الناسُ عليه من كلِّ طائفة يهنُّونه، فوعَدَهم بكلِّ جميل، ثمَّ ركِبَ إلى قصرِ الخليفة فدخَلَ إليه وأخَذ بيدِه، فعزَّاه الخليفة في أخيه، وأقام عندَه بُرْهةً ثمَّ انصرفَ وقد خَلَع عليه خِلَعًا سُلطانيَّة وقلَّده الـحِجابة، فوصَلَ إلى قصرِ الزاهرة وجلَسَ مجلسًا عامًّا، ودخَل الأعيانُ من كلِّ طبقة يُبايعونَه، وتلقَّب للحين بالناصِر ثمَّ بالمأمون، فكان يُدعى بالحاجبِ الأعلى المأمون ناصِر الدّولة، فنظَر في الأمور نظرًا غيرَ سديد، وأنفق الأموالَ في غيرِ وجهِها، وأغار على كثيرٍ من الناس، وبَسَطَ يدَه عليهم وأخَذ أموالَهم، ونَسَبَ إليهم أباطيلَ من القول والفعل حتّى قلِقَ الناسُ به وأبغَضوه في الله وابتهلوا لله تعالى في الدّعاءِ عليه.

ولـمّا مضَى لوقتِه شهرٌ ونصفٌ تصنَّع للخليفة هشام بن الـحَكَم وطلَبَ منه أن يُولِّيَه العهدَ من بعدِه، وأن يتسمَّى بوليِّ عهدِ المسلمين، ففعل ذلك هشامٌ معه، لضعفِه وسوءِ نظرِه ونُقصانِ فطرتِه، فولَّاه عهدَه، فكان ذلك سببَ انحرافِ أكابرِ الأندَلُس عن عبدِ الرحمن لِـما تبيَّن لهم من سُخفِ عقلِه وسُرعتِه إلى نقل المملكةِ عن خُلفائها إليه دونَ غَزاةٍ ولا نُصرةٍ في حرب، وأمّا الخليفةُ فخارجٌ عن تدبيرِ الناس لضَعْفه وحَجْرِه، وخاطَبَ عبدَ الرحمن الطاغيةَ بمثلِ ما خاطَبَه به أخوهُ قبلُ، فوصَلَه عنهُ أنه قال: والله لو أنّي نائم، وأقبَلَ عبدُ الرحمن بجميع جيوشِه، ما استيقَظْتُ له، فاغتاظ لذلك عبدُ الرحمن وعزَم على الغزوِ، وخاطَبَ جميعَ البلاد يَستنفِرُهم للجهاد، فأجابه جميعُ الـمُرتزَقةِ ويسيرٌ من الـمُطوِّعة، وخرَجَ من قُرطُبة، فترَكَ الطريقَ الذي كان أبوه وأخوه يسلُكانِه، وأخَذ على الطريق المدعوِّ بالعُرْيان، فتفاءل له قومٌ من الناسِ وقالوا: أُعْرِيَ هذا الفتى، فكان كذلك.

قال إبراهيمُ بن القاسم[1] في كتابِه: فافتتَح شنجولُ أمرَه بالـخَلاعة والـمَجانة، فكان يَخرُجُ من مُنيةٍ إلى مُنْية، ومن مُنتزهٍ إلى مُنتزهٍ معَ الخياليِّينَ والمغنِّينَ والـمُضحكينَ مُجاهرًا بالفَتْك وشُرب الخمر، ثمَّ إنه عاد من نُزهتِه، فدَسَّ إلى الخليفة هشام مَن

---

(١) هو الرقيق القيرواني.

خوَّفَه منه وعرَّفَه أنه عزَم على الفَتْك به إن لم يُولِّه عهدَه والخلافةَ من بعدِه، فكثُرَ الإرجافُ بذلك، فأمَرَ شنجولُ جميعَ أهل الخِدمة أن يُبكِّروا إلى الزّاهرةِ بسلاحِهم، فامتَثلوا أمرَه.

ذكْرُ تألُّفِ عبدِ الرحمن بن أبي عامر لهشام الخليفة وما جَرَّ ذلك عليهما وعلى أهل الإسلام من البَلِيّة

قال ابنُ عَوْن الله: وكان من أشدِّ ما غيَّره عبدُ الرحمن من سيرةِ سَلَفِه لأوَّلِ وقتِه: الإفراطُ في وُصْلة الخليفة هشام، واستئلافُه لهُ ولجماعته، وقضاؤه لحوائجِهم، وكان سَلَفُه على اقتصادٍ في ذلك واعتدالِ طريقة وحِذارَ وَثْبة يحملونَهم على الجادَّة ويمنعونَهُمُ المسائلَ المشتطَّة، ويؤْثرونَ تعظيمَ الخليفة معَ البعدِ عنه وإغبابِ لقائه، فاعتَدَلت بذلك الحالُ واستقامت السِّيرة، فلمّا وُلِّي عبدُ الرحمن هذا زايَلَها ضربةً واحدة، وهوى بفؤادِه إلى الجهة المتحاماة، فأكَّد وَطْأتَه على هشام، وتهافَتَ على مَرْضاتِه، وأظهر من التذلُّل بخدمتِه والحرصِ على مسَرَّتِه ما استمالَهُ به وأحظاهُ على والدِه وأخيه وخَلَطَه بنفسِه، وعبدُ الرحمن يَستخِفُّ بذلك كلِّه ولا يَؤُودُه ثِقْلُه، فكان أوَّلُ ما ظهَرَ من نتائج هذه الأُلفة: أنْ سأَلَ الخليفةَ إخراجَه للنُّزهة معَ أهلِه في قصورِ الملكِ بالـحَضْرة في جُملة الخليفة وجَواريه في احتجابٍ عن الرَّعيَّة على عادتِه، وكانت عادتُه يلبَسُ بُرْنُسًا كما يفعلُه الجواري فلا يُعرَفُ منهنَّ، فأنْعَمَ الخليفةُ بذلك، وتقدَّم بالتأهُّبِ للنهوض معَه لوقتِه، وأوعَزَ بالاحتفال في خدمتِه، وأُعِدَّت مطايا الأهل، وأُنذِر مَن رَسْمُه الركوبُ من الـجُند والغِلمان معَ الحاجبِ عبدِ الرحمن، وقدِّمت المطابخُ والثُّوّةُ[1] إلى قصرِ ارحي ناصح، فغدا الـجُندُ على عبدِ الرحمن، فأتى بهم قصرَ الخليفة فأُذِن له في الوصُول إليه، وخاطَبَه الخليفةُ بما لهُ لدَيْه وشَرَّفه في مقامِه بالتّكنية وحَلّاه بالتسمية بالمأمونِ مضافًا له إلى اسمِه الأوَّل ناصرِ الدّولة، خاطَبَه به مُشافهةً وكنّاه خلالَ ذلك في الحديث والمخاطبة، وأمَرَه بإخراج الأمرِ عنه بذلك إلى

---

(١) جمعها ثوًى، وهو قماش البيت، كما في «اللسان».

الكافَّة وإنفاذِه إلى أقطارِ المملكة بالأندَلُس والعُدوة، وخَلَع عليه من سَنِيِّ كُسوتِه وسيفًا من كرام حِليتِه، فشُهِر هذا الاسمُ بين يدَيْ ركوبِه، وانبثَّت التهنئاتُ له من أصحابِه، وبادَرَ الخليفةُ إثرَ ذلك بالركوبِ على عادتِه، فنهَضَ الحاجبُ في مقدِّمةِ خَدَمةِ القصرِ على رُتبةٍ سامية بعدَ أن أحْكم إخلاءَ الطُّرق وضَبْطِها بأكابرِ رجالِه، وسَلَكَ بها الخليفةُ خاليًا في نسائه، حتّى نزَلَ قصرَ ناصح، فتبوَّأَ منازلَه منه، واحتلَّ الحاجبُ في المُنية الموسُومة لسَلَفِه، ووَصَلَ نظرُه هنالك في أسبابِ المملكة وأمورِها تولُّعًا بالولاية، وأنفَذَ كتابًا إلى الوزير الكاتب جَهْوَر[1] بن محمَّد يأمُرُه بإثباتِ التسميةِ في الأزمَّة، والاعتمالِ عليها في المخاطبة، والإشاعةِ بها في المملكة. ولـمّا رجَعَ الحاجبُ إلى الخليفة كتَبَ له رُقعةً بالتسميةِ عنوانُها: «الحاجبُ المأمونُ ناصرُ الدّولة أبو المُطرِّف حفِظَه الله. بسم الله الرحمن الرحيم. أدام اللهُ حِفظَك وأحسَنَ على الصّلاح عَوْنَك. رأيْنا أكرَمَك اللهُ لِـما ظَهَر لنا من جميلِ طاعتِك وبدارِك إلى ما يَلزَمُك من المُناصحة والقيام بأعباءِ المملكة على أفضلِ الطُّرقِ المحمودة والمساعي المشكورة، تسميتَك في كُتُبِنا إليك، وتحليتَك بالمأمونِ في مخاطبتِك، زائدًا على أوَّلِ أسمائك، مظاهرةً لأنعُمِنا عليك، وأنت عندَنا أهلٌ لذلك ومستحِقٌّ به، فاعتمِلْ فيما ينفُذُ من الكتُبِ عنكَ وإليك على عُنوانِ كتابِنا هذا إليك، نسألُ اللهَ عَوْنًا شافيًا وتأكيدًا كافيًا إن شاء اللهُ تعالى»، فوقَفَ جَهْورٌ على كتابِ عبدِ الرحمن له يأمُرُه بإثباتِ التسمية عندَه، ونُسخةُ رُقعةِ الخليفة مُدرَجةٌ في كتُبِه، فامتثَلَ جَهْورٌ ما أمَرَه مِن ذلك، وشَهر هذا اللقبَ في الكافَّة.

قال: فأنكَرَ الناسُ على عبدِ الرحمن وخليفتِه تسميتَه بهذا الاسم الـخِلافيِّ، وهُو مُعَرًّى من علائقِ النَّجابة في الدّولة، وكرِهوا للخليفة السَّماحَ به، واعتَدُّوا ذلك من حاملِه جهلًا وجُرأةً، وذَمُّوا معَ ذلك عجَلَةَ عبدِ الرحمن في سُرعةِ ارتقائه إلى علاءِ هذه المنزلة إلى عشَرةِ أيّام من ولايتِه من غيرِ ارتياض ولا تُؤدَة، فكانت هذه أيضًا من بوادرِه المستنكَرة.

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس (٣٥٩)، ومطمح الأنفس ٢١٦، والمعجب ١٠٩-١١٢، والحلة السيراء ٢/ ٣٠، والمغرب ١/ ٥٦، وتاريخ الإسلام ٩/ ٥٤٧، والوافي بالوفيات ١١/ ٢١١.

وفي سنة تسع وتسعينَ وثلاث مئة: كان السببُ في ادّعاءِ العهدِ الباعثَ على الفتنة؛ قال ابنُ حَيَّان: ورحَل الخليفةُ هشام بنُ الـحَكَم عن قصرِ ناصح إلى مدينةِ الزّهراء مُستَخْفيًا في رَسْمِه بأهلِه يومَ السبّت لإحدى عشْرةَ ليلةً من ربيعٍ الأوَّل من هذه السنة، وحاجبُه عبدُ الرحمن في مقدّمتِه، فنزَل قصرَه بها أشأمَ منزلٍ عظُمت الفِتَنُ منهُ على الأندَلُس، ونزَلَ حاجبُه منزلَ سَلَفِه، فأقام الخليفةُ هناك يومَيْن ثمَّ تحرَّك في اليوم الثالث إلى مُنْيَة جعفرٍ بأهلِه على سبيلِه في تستُّرِه وحاجبُهُ معَه وقد اشتَدَّ به عُجْبُه وأوصَلَه إلى نفسِه هذا اليوم، فأطال الـخَلْوةَ به والتقرُّبَ منه حتى استَدْنَى نسَبَهُ منه بالـخُؤولة، إذ كانت أُمَّاهما بشْكُنَشِيَّتَيْنَ، فقدَّرها عبدُ الرحمن بجهلِه قرابةً سَما بها إلى ميراثِ الخلافة.

وخرَجَ شنجولُ إلى أصحابِه عَشِيَّ هذا اليوم يَزعُمُ أن الخليفةَ ولّاه عهدَه صُراحًا واختاره للخلافةِ دونَ بني عمِّه وأهلِه، إذ ليس له ولدٌ يؤمِّلُ خلافتَه، فتلقَّفها منهُ أصحابُه وخَدَمُه لوقتِهم، فطاروا بها كلَّ مَطارٍ وغَبَطُوهُ بأخْذِها وشدِّ اليدِ عليها، يحسَبُونَ بجهلِهم أنّ مَرامَها سهلُ المتناوَل، وأنّ فيها نَجاتَهم مـمَّن كانوا يخافونَه من بني مروانَ آخِرَ دهرِهم، فأعلنوا البُشرى بمكانِهم، ووَرَدَ من ذلك على الناس ما حيَّرَ عقولَـهم، فكثُرَ خَوْضُهم لأوَّلِ هذا الوقت، واهتبَلَ بنو مروانَ وشِيعتُهم بالبلد غِرَّةَ العامريِّينَ فيما ارتكبوه من ذلك، فدبَّت عقاربُهم إلى الناس وقاموا في قلبِ الدّولة العامريَّة بِجدٍّ وبصيرة، فلم يخذُلْـهمُ الناسُ وظَفِروا بالبُغْية.

ذكرُ عَقْد عبدِ الرحمن بن أبي عامرٍ لنفسِه ولايةَ عهدِ المسلمينَ على الخليفة هشام بن الـحَكَم جَهالةً منهُ

قد تقَدَّم القولُ في سببِ توصُّل هذا الجاهل بدعوى الخلافة عَجْرفيّةً من غيرِ تأوُّل ولا أهليّة، وكيف استهواهُ كيْدُ الشيطان، وغَرَّتْه قوَّةُ السُّلطان، إلى أن ركِبَها عمياءَ مُظلِمةً لم يشاوِرْ فيها نصيحًا ولا فكَّر في عاقبة، بل أخَذَها بالـجُملة، ولم يُمهل الخليفةَ عندَ مُنصَرفهم من نُزهتِهم التي أوقَعوا فيها هذه الوَهْلة حتّى غَدا عليه اليومُ الرابع في جيوشِه المتكاثفة وعُدَّتِه المتظاهرة، فأخَذَ عليه أنقابُ قصرِ الخلافة بعد أن أحضرَ

من شاءَ من طبقات أهل الحضرة، فأجلسَ لهم هناك، وأشهَدَهم فيما أمضاهُ من الولاية، وأخرج كتابًا قُرِئ بحضرته من إنشاءِ كاتبِ الرسائل أبي حفصٍ أحمدَ بن بُرْد رحمه اللهُ تعالى[1]:

«هذا ما عهِدَ به أميرُ المؤمنينَ هشامٌ المؤيَّدُ بالله أطال اللهُ بقاءه، إلى الناس عامَّة، وعاهَدَ اللهَ عليه من نفسِه خاصَّة، وأعطى به صفقةَ يمينِه بيعةً تامَّةً، بعدَ أن أمعَنَ النظَرَ وأطال الاستخارة، وأهمَّه ما جعَلَ الله إليه من إمامةِ المسلمين، واتَّقى حُلولَ الأجلِ بما لا يؤمَن، وخاف نزولَ القضاء بما لا يُصْرَف، وخشِيَ إنْ هجَمَ محتومُ ذلك عليه ونزَلَ مقدورُه به ولم يرفَعْ لهذه الأُمَّة عَلَمًا تأوي إليه، أن يكونَ بلقاءِ الله مُفرِّطًا فيها، ساهيًا عن أداء الحقِّ إليها، ونَظَر عندَ ذلك طبقاتِ الرِّجال من أحياءِ قُرَيْش وغيرِها ممَّن يستحقُّ أن يُسنَدَ الأمرُ إليه، ويُعوَّلَ في القيام به عليه، بعدَ اطِّراح الهَوادة، والتبرّي من الهوى، والتحرِّي للحقّ، والتزلُّفِ إلى الله جَلَّ جَلالُه بما يُرضيه، وإن قَطَعَ الأواصر وأسْخَط الأقارب، عاملًا بألَّا شفاعةَ عندَه أعلى من العمل الصّالح، وموقنًا ألَّا وسيلةَ إليه أزكى من الدِّين الخالص، فلم يجِدْ أحدًا هو أجدرُ أن يُقلِّدَه الخلافَةَ في فضل نفْسِه وكرمِ خَيْمِه وشرفِ مَوْكِبه وعلوِّ منصبه، معَ تقواهُ وعفافِه، وحَزْمِه وثِقافِه، من المأمون الغَيْب، الناصح الجَيْب، النازح عن كلِّ عَيْب، ناصرِ الدولة أبي المطرِّف عبدِ الرحمن بن المنصور أبي عامرٍ محمَّد بن أبي عامر، وفَّقه اللهُ، إذ كان أميرُ المؤمنينَ قدِ ابتلاهُ واختبَره، ونظَرَ في شأنِه واعتبَرَه، فرآهُ مُسارعًا إلى الخيرات، مستوليًا على الغايات، جامعًا للمأثُرات، وارثًا للمكرُمات، يجذِبُ بضَبْعِه إلى أرفع منازلِ الطاعة، ويسمو بعينيه إلى أعلى دُرُج النّصيحة، أبٌ منقطعُ القَرين، وصِنْوٌ معدومُ النّظير، ومن كان المنصورُ أباه، والمظفَّرُ أخاه، فلا غَرْوَ أن يبلُغَ من سُبُل البِرّ مَداه، ويحوي من خلال الخير ما حَواه، معَ أنّ أميرَ المؤمنينَ أبقاه الله، لكثرةِ ما طالَعَه من مكنونِ العلم، ووَعاهُ من مخزونِ الأثر، أمَّلَ أن يكونَ وليُّ عهدِه القَحْطانيَّ الذي جاء فيه الأثرُ عن

---

(١) نص الرسالة في الذخيرة لابن بسام ١/ ٩١-٩٢ باختلاف يسير، ومنه نقلها النويري وابن خلدون والمقري وغيرهم، وأخذنا من الذخيرة في ضبط ما انخرم من النص.

النبيِّ ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتى يَخرُجَ رجُلٌ من قَحْطانَ يَسُوقُ العربَ بعَصَاه»، فلمّا استولَى عندَه الاختيار، وتقابَلَت فيه الآثار، لم يجِدْ عنه مذهبًا ولا إلى غيرِه مَعْرَجًا، خرَجَ إليه من تدبيرِ الأمر في حياتِه، وفوَّضَ إليه النظرَ في أمورِ الخلافة بعدَ وفاتِه، طائعًا راضيًا مجتهدًا، متخيِّرًا غيرَ مُحابٍ له ولا مائلٍ بهَوادةٍ إليه، ولا مُتَّرِكٍ نُصحَ الإسلام وأهلِه فيه، وجعَلَ إليه الاختيارَ لهذه الأُمَّة بولاية عهدِه فيها إن رأى ذلك في بقاءِ أميرِ المؤمنينَ أعزّه الله وبعدَه، وأمضَى أميرُ المؤمنين أعزَّه اللهُ عهدَه هذا، وأنفَذَه وأجازه وبتَّلَه، لم يشترطْ فيه مَثْنَويَّةً ولا خِيارًا، وأعطى على الوفاءِ بذلك في سرِّه وجهرِه، وقولِه وفعلِه، عَهْدَ الله وميثاقَه وذمَّةَ نبيِّه محمَّد ﷺ وذممَ الخلفاءِ الراشِدينَ من آلِه وآبائه، وذمَّةَ نفسِه بأنْ لا يُبدِّل، ولا يغيِّر، ولا يُحوِّل، ولا يتأوَّل، وأشهَدَ اللهَ على ذلك وملائكتَه، وكفى بالله شهيدًا، وأشهَدَ مَن أوقَعَ اسمَه في هذا الكتاب، وهو، أبقاه اللهُ، جائزُ الأمرِ ماضي القولِ والفعل، بمحضَرٍ من وليِّ عهدِه المأمونِ ناصرِ الدّولة أبي الـمُطرِّف عبدِ الرحمن بن المنصور وفَّقه الله، وقبولِه لِـما قلَّده والتزامِه لِـما التزَمَه، وذلك في شهر ربيعٍ الأوَّل سنةَ تسع وتسعينَ وثلاث مئة».

وهذا الكتابُ نسختان، أوَّلُ الشّهودِ فيه قاضي الجماعة أحمدُ بن عبد الله بن ذَكْوان، ويليه من الوُزَراء أسماءُ تسعةٍ وعشرينَ رجلًا منهم، يليهم أسماءُ مئة وستّة وثمانينَ رجلًا من طبقاتِ أهلِ الـخِدمة ومن الـحُكّام والقضاةِ والفُقهاء المشاوَرينَ وغيرِهم.

قال ابنُ عَوْن الله: وصار عبدُ الرحمن في أهل المملكة إلى قصرِه بالزاهرة يَختالُ في ثوبِ الخلافة ويحسَبُ أنها له نِحْلة وأنه مستحِقٌّ لها وخليقٌ بها، فلمّا استقرَّ به مجلسُه أذِنَ لخاصَّتِه من الوُزَراء والأصحابِ وأكابرِ أهل الخِدمة بالدُّخولِ إليه، فأفاضوا في ذكْرِ تهنئتِه بما أكرَمَه اللهُ به والدُّعاءِ له يَمُدُّونَه في غَيِّه وقلوبُهم مُنكِرةٌ عليه، وهُو يُوليهم قَبولًا ويوسعُهم تكرِمة، وأمَرَ بإنفاذِ الكتُبِ عنه إلى أقطارِ المملكة بالأندَلُس والعُدوة يُخبِرُ بولايتِه العهدَ وأمرِهم بالدُّعاء له على منابرِهم بالعهدِ بعدَ الدُّعاءِ للخليفة، معَ نَسْق أسمائه المجموعةِ له.

قال: وغَدا وجوهُ الناس من أهل قُرطُبَةَ لتهنئةِ المغرور عبدِ الرحمن بهذه الـمِنْحة التي كانت عندَهم أعظَم مِحْنة، كلُّهم يُعزّي عنها نفْسَه ويُكفكفُ عَبْرَته، ثمَّ تجمَّلوا بالملَق، وجلسَ لهم عبدُ الرحمن بقصر الزّاهرة في مَرْتبة الـمُلْك لا ينقُصُه دقيقة، وصيَّر رجالَ المملكة قيامًا بينَ يدَيْه على مراتبِهم في رائق أُبَّهتِهم، وأذِنَ لمن حضرَ البابَ بالدّخول إليه لتهنئتِه، فدخلوا على منازلهم يَقدُمُهم الـمُبعَدونَ عن الخلافة من أهل بيتِ المؤيَّد هشام المروانيَّة وغيرِهم من بطون قُرَيْش تبدو عليهم في ظاهرِهم الاستكانةُ والكَبْوة، وتَتابعَ بعدَهم وجوهُ الناس من أهل الحضرة، فقَضْوا حقَّ تهنئتِه وغَبَطوه بما ارتقَى إليه من رفيع مَرْتبتِه، فأحسَنَ الردَّ عليهم، وخرَجوا من عندِه وقلوبُهم موقودةٌ ببُغْضِه.

وولّى عبدُ الرحمن ابنَه عبدَ العزيز خُطّةَ الـحِجابة مجموعةً له بسيف الدّولة لقبِ عمِّه المظفَّر، فرُسِّم هذا الطّفلُ بالحجابة بقيَّةَ مُدَّةِ أبيه، وطمَّت الحادثةُ بإسنادِها إليه.

وانهمَك عبدُ الرحمن بعدَ هذه الحادثة في غَيِّه، وأزلَّ عن الحقّ، وأقبل على بطالته، وجاهَرَ بلَذّاتِه، ومالَ إلى صُحبة الـجُند بكُلّيَّته، فأدنى إليه الفريقَيْن، ونادَمَ وجوهَ الـجِنسَيْن، أعني البرابرَ والأندَلُس، فأكثَرَ أنواعَ النُّكْر والزيادات والإسعاف بالمحالات حتى تفاقَم أمرُ النّفَقاتِ وهُو ذاهلٌ عن ذلك كلِّه مشغولٌ بشأنِه.

وقال الرّقيقُ في كتابِه: لـمّا تمَّ له ما أرادَ من ولاية العهد واستقلَّ بالـمُلْك، أخَذَ في التخليط والفُسوق والانتهاكِ والزِّنا، ثمَّ تجاوَزَ ذلك كلَّه إلى أن حَمَلَ بعضَ أصحابِه على بعض بحضرته وفي مجلِس شَرابِه وخَلْوتِه حتّى كَبا عن قريبٍ لِفِيهِ.

قال: وأقبل عبدُ الرحمن بعدَ فراغِه من عَقْد الخلافة لنفسِه على طلبِ لَذَّتِه ومواصلةِ شُربِه والخروج في نُزَهِه وصيدِه، معَ الإخوان السَّوءِ الذين اصطفاهم لذلك من رجالِه وشَرى بإرضائهم إسخاطَ ربِّه وإفسادَ مُلكِه.

خبرُ التعميم

وكان من أنْكى ما ارتكبَ به عبدُ الرحمن رجالَ المملكة وذوي الهيئاتِ من طبقَات أهل الخِدمة إثْرَ ولايتِه للعهد: أنْ أوْعَزَ إليهم بطرح قَلانِسِهمُ الطِّوالِ الـمُرقَّشةِ الـمُلوَّنة،

وكانت على قديم الدّهر تيجانَهم التي يُباهُونَ بها طبقاتِ الرّعيّة ويُباهونَ بها أهلَ المملكة، وأمَرَهم بالانتقال عنها إلى العمائم ضربةً وَعَدَهم على التفريط في ذلك بالعقوبة، فاستعان كثيرٌ منهم بجيرانِهم من البرابر وإخوانِهم حتّى لبِسُوها على أكرَهِ حالٍ وأشدِّ مشقَّة، وغدَوْا إلى قصرِ الزاهرة يومَ الـجُمعة لأربعَ عشْرةَ ليلةً خَلَت من جُمادى الأولى، فكانوا بها أقبحَ منظر وأهجنَ زِيٍّ وملبَس، لمخالفة العادة، وأصبحوا في الناس فضيحة، وتأوّل الناسُ في ذلك أراجيفَ شطَّةً صَدَّقها ظهورُ أصحاب العمائم البرابرة بعدَ مدَّة قريبة، فانتزَعوا منهم الدّولةَ وعَمُّوهم كلَّ مصيبة.

خبرُ المدِّ بنهرِ قُرطُبة

وتوالى المطرُ آخِرَ شهرِ ربيع الآخِر من سنة تسع وتسعين وثلاث مئة المذكورة، فاحتَفلَ مَدُّ النهر وطَمَا حتّى غلَبَ على بُستان... ابن أبي غالب بالزّاهرة، وحتى قارَبَ مجلسَ القاضي على السوق العظيم بأسفلِ قُرطُبَةَ إلى... حوانيتِ الصبّاغينَ وأصحاب الطرائف، وهَدَمَ بعضَها، فكان من أُمّهات السُّيول المشهورةِ بقُرطُبة، فجَرى من مُرادِ عبد الرحمن بن أبي عامرٍ في هذا المدِّ إنِ استَبدلَ منَ الاعتبار به النُّزهة، ومن الخشوع لهَوْلِه البِطالة، يعتلي على النهرِ مواصِلًا الشّربَ عليه والقلوبُ منه واجفة.

غزوةُ عبد الرحمن بن أبي عامرٍ

المشؤومةُ عليه بشاتِية سنة تسع وتسعين وثلاث مئة المذكورة، التي جَلَبت حتفَه وختَمت المغازيَ بعدَه وشَبَّت الفتنةَ ونقَضَت الدَّولة

وكان استعجالُ عبد الرحمن الخروجَ عن الحضرة لهذه الوِجهة لغيرِ سببٍ مُزعج ولا لعلّة، إذ هي بوادرُه الـمُستنكَرة ونَقْضُ آرائه الـمُخلَّطة، خرَجَ إليها في جُمادى الأولى من السنة، فكانت له ابتداءَ البوس وفاتحةَ النُّحوس، وكان فتاهُ الأكبرُ نَصَح له في تَرْك الغزو وخَوَّفه من اضطراب الناس وأبلَغَه عن بعض شِيَع الـمَرْوانيّة، نصيحةً في إرادة رجُل منهم القيامَ عليه واستجابةَ خَلْق من الجُند له، وأنّ رجلًا منهم اشترَطَ عليه دارَه، أعني هذا

الفتى، وكان اسمَه محبٌّ، وخوَّفه الفتى ذلك، فأعرَضَ عمّا ذكَرَه واستهان الأمرَ وقال: والله لو اجتمع بنو مروانَ على مَرْقَدي وأنا نائمٌ ما أيقظوني، فصمَّم لغزوتِه هذه كالـمُعينِ لكاشِحه في الوثوبِ عليه في تغييب وَجْهه وإبعادِ شُقَّتِه وحَصْد شوكةِ الجُند عن عدوِّه باستيعابِ جُملتِهم معَه وتخليفِه لطالبِه بيوتَ الأموال خَلْفَه مُعرَّضةً كيما يحوزُها فيشتريهم منه صفقةً واحدة، فعُمِي هو وغُوَاتُه من ذلك كلِّه، ولُهِيَ بالغزوِ عنه، لا لجهادٍ يصِلُه، ولا لبرٍّ يلتمسُه، بل لراحةِ قلبِه وإضرارِ رجلِه ولقضاءِ ذِمام العِلج شانْجُه على قومِه المغالبينَ على سُلطانِه.

وكان استَخلَفَ على المملكة ثلاثةَ رهطٍ من جِلّة رجالِه: أحمدَ بنَ سعيد بن حَزْم وزيرَ العامريّين، وعبدَ الله بن مَسْلمةَ صاحبَ مدينة الزّاهرة صنيعةَ آلِ عامر تِلْو أحمدَ في المنزلة، وأحمدَ بنَ بُرْد كاتبَه الأقدم، وعوَّل عبدُ الرحمن في حفظ قصره وما وراءَ بابِه لجماعة من سبع مئة مقاتل ذوي سلاح وعُدّة فيهم فرسانٌ كثيرة يُسْتَدْفَعُ بمثلِهمُ الضَّيْمُ لو ساعَدَ التوفيق، لكن غَشِيَهم من أمر الله ما غَلَّ أيديَهم وسَلَبَهم وقايتَهم فاستسلموا لعدوِّه الضّعيفِ الشوكة لأوَّل وَهْلةٍ ولم يغنِ عنهم مالٌ ولا عُدّة.

قال: وخرَجَ عبدُ الرحمن بعدَ نَظْمِه لهذا كلِّه من مدينة الزّاهرة في جماعةِ جنودِه وعساكره وعُدَدِه، وأخرَجَ معَه من نسائه ضِعفَ ما كانوا يحملونَه غيرَ هائبٍ لصعوبة وقتِه ومشتقّةِ سَفَرِه، وكان نفوذُه في النِّصف من جُمادى الأولى، وأخرج معَه القاضيَ أبا العبّاس بنَ ذَكْوان وسائرَ وُزرائه وصحابتِه... نفسه وجنوده... حاله بها أتاهُ في دعوى الخلافة واستخفافٍ عن الإمامة إلى ما بدا منه من مذموم... الطريقة واستباحةِ الأموال والإعلان بالقبائح... ما أعظَمَ طلبَ محمد بن هشام بن عبد الجبّار بِدَم والدِه وأخْذِ أهل بيتِه وشَيْع المروانيّينَ في السرِّ بالوثوب بابن أبي عامر وإنكارِ ولايتِه، والتوصُّل بذلك إلى خَلْع هشام ونَقْض دولتِه، ولذلك كانت هذه الشِّيَعُ تبُثُّ في الناس مساوئ عبد الرحمن وتُشنِّعُ أحداثَه وتكْثَرتُ في الكثير منها عليه، وأطْبَقوا على نقضِه وذمِّه، وأصْغَوا في ذلك إلى قول عدوِّه، وانقادوا لأتباعِه، وقاموا في نصرِه قيامًا أمكن الواثبَ به التدبيرُ فكان ذلك من علامةِ الإدبار.

ونفَذَ عبدُ الرحمن لسبيلِه في وقتٍ لم يُسمَعْ قطُّ أشدُّ منه قوّةَ بَرْد وكلَبَ مطر واستقلاقَ طريق وزُخورَ مُدودٍ كابَدَ الناسُ منها مشقّاتٍ هي منهم إلى الآنَ مذكورةٌ مشهورة اقتُحمَ عليها أرضُ جِلّيقيّة من قِبَل طُلَيْطُلَةَ وهو على حالِه في البِطالة والـخَلاعة.

وذَكَر الرّقيقُ في كتابِه أنه كان معَه في هذه الغَزاة رجلٌ من سُفَّال أهل قُرطُبَةَ يقال له: ابنُ الرسَّان(١)، جعَلَه صاحبَ شُرطتِه وأدناه منه، وكان إذا شرب يقول له: نادِ في الناس: يأمُرُكم أميرُ المؤمنينَ المأمونُ بكذا وكذا، فينادي بذلك، فيقول له شنجول: كيف تَرى الناس، هل أنكَرَ أحدٌ شيئًا؟ فيقول: لا، فيقول: عاوِدْ ذلك مرارًا، في مواضعَ كثيرة، ولم يزَلْ كذلك إلى أن بلَغَ طُلَيْطُلة، فاتَّصل به أنّ محمَّدَ بن هشام بن عبد الجبَّار بن عبد الرحمن الناصِر قام بقُرطُبة وهدَمَ بالِسَ والزّاهرةَ، ولـمّا وصَلَه الخبرُ بأنّ محمّد بن هشام دخَلَ القصرَ بقُرطُبَةَ وتغلّب على الزاهرة وأخَذ أموالَها ونقَلَ جميعَ ما فيها إلى قصر قُرطُبة، هالَهُ ذلك وأمَرَ بضَبْط العسكر، وأتى قلعةَ رَبَاح فأقام بها أربعةَ أيّام حائرًا لا يدري ما يصنَع، وجعَلَ يُحلِّفُ رؤساءَ الجُند وأهلَ الخدمة عندَ الـمِنبَر بأيمانِ البيعة أن يُقاتلوا معَه أهلَ قُرطُبة، وكتَبَ لهم صكوكًا بالإنزال في دورِهم وضِياعِهم، وقدَّم جميعَهم على الخُطط، وهُو معَ ذلك لا ينتهي عن شرب الخمر واللِّواط وأعمال الشرّ، ثمَّ أخَذَ في الرجوع إلى قُرطُبَةَ بعدَ أنِ استدار في الطريق سبعةَ عشَر يومًا، فلمّا وصَلَ إلى منزلِ هاني(٢) افترقَ الناسُ عنه ووَصَلوا قُرطُبة وتَركوه في نحوِ خمسينَ فارسًا، ثمَّ هبَطَ إلى أرملاط، فزال عنه مَن بقي معه فسُقِط في يدِه وباتَ بأرملاطَ يُقلّبُ كفَّيْه. وحصَّل حُرَمَه في قصر أرملاط، فأرسَل إليه محمَّدُ بن هشام يؤمِّنُه ليَدخُل في طاعتِه فلم يقبَلْ ذلك، فدخَل قصرَه بأرملاط، وصيَّر فيه حُرَمَه وقد علا نَحيبُه وغَلَب الـجَزَعُ صبرَه ثمَّ نَكَص على عَقِبَيْه هاربًا والصُّراخ يتبَعُه، وهُو يخافُ أن يُقبَضَ عليه، وفرَّ معَه ابنُ غومس القُومس وبعضُ أصاغرِ خَدَمِه، وكان أراد الفِرار نحوَ الجَوْف فأرسَل إليه ابنُ هشام ألفَ فارس في طلبِه، وكان عبدُ الرحمن قد عَدَل إلى جبلٍ للمَبيت به مُستترًا، فلم يَشْعُرْ إلّا وقد أُحيطَ به.

---

(١) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤١٧.

(٢) أقرب محلّات عبد الرحمن بن أبي عامر إلى قرطبة، كما سيأتي ذكره عند المؤلف.

دولةُ محمد بن هشام بن عبد الجبَّار(١)، وانتزاعُه الخلافةَ عن هشام بن الحَكَم، وظَفَرُه بعبدِ الرحمن بن أبي عامر

نَسَبُه: محمَّدُ بن هشام بن عبد الجَبَّار بن عبد الرحمن النَّاصر.

لقبُه: الـمَهْديّ.

كُنْيتُه: أبو الوليد.

أمُّه: أمُّ وَلَدٍ اسمُها مُزْنَةُ، ولقبُها كُبارة، وتُعرَفُ بالعَرْجاء لِخَلْع كان بها.

ولقَّب نفْسَه المهديَّ ولقّبتْه العامَّةُ الـمَنْقَش، لهشاشتِه وطَيْشِه وخِفَّته، وهو كان بابَ الفتنة وسببَ الشِّقاقِ والنِّفاق.

عُمُرُه: ثلاثٌ وثلاثونَ سنة.

خلافتُه: وَلِي مرَّتين، الأولى: يومَ خَلْع هشام بن الـحَكَم ثانيَ يوم قيامِه يومَ الخميس لأربعَ عشْرةَ ليلةً خَلت من جُمادى الأولى من سنة تسع وتسعينَ وثلاث مئة، وانخلَع لسُليمانَ بن حَكَم في النِّصف من ربيع الأوَّل سنة أربع مئة حسبما يأتي ذكْرُ ذلك إن شاء اللهُ تعالى، فكانت ثورتُه الأولى بقُرطُبَةَ تسعةَ أشهر، ودولتُه الثانية بعدَ سُليمان تسعةٌ وأربعونَ يومًا، الجميعُ: عشَرةُ أشهر وتسعةَ عشَرَ يومًا.

صفته: أبيضُ أشقر أشهَلُ تامُّ القامةِ به انحناءٌ، تَعْلوهُ صُفْرة.

قاضيه: أبو العبَّاس بنُ ذَكْوان، ألْفاهُ على القضاء لهشام فأبقاه، ولم أجِدْ له أثرًا في نَقْش خاتِـمَه، قيَّدتُ هذا من كتابِ «أخبار الرُّؤساء بالأندَلُس».

ومن كتاب الاقتضاب، قال: وهذا المهديُّ بويعَ له في دولته الأولى إذ استتمَّ له الأمرُ بقُرطُبة، فلمّا أخفَى هشامًا وأشاع أنه قد مات انصَرفت عنه نفوسُ الـمَوالي والخواصّ، واضطربت عليه بنو أُميَّة، وكان قدِ اتَّخذ جُندًا من العامَّة وأطرافِ الناس وقَرَّبهم وآثَرهم على العبيدِ العامِريَّةِ وعلى الطوائف البربريَّة، فالتفَّت منهم طائفةٌ وقاموا على المهديِّ المذكور

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس ٣٨، والكامل لابن الأثير ٨/ ٦٧٩، والمعجب ٨٨، وتاريخ الإسلام ٨/ ٨٢١.

معَ هشام بن سُليمان[1]، وكان بشقُنْدة، وهو عمُّ سُليمان[2] القائم معَهم بعدَه، وسمَّوه بالرّشيد، ورجَعوا معَه إلى القصر بقُرطُبة وحاصَروا فيه المهديَّ يومًا وليلَة، ثمَّ كانت الكَرَّةُ للمهديِّ عليهم وقُتِلَ الرّشيدُ وافترقَ ذلك الجَمْع، فأحال يومَئذٍ المهديُّ على من كان بقُرطُبَةَ من البَرْبر عامَّةَ قُرطُبَةَ فاستَحالوا عليهم قتلًا وأسرًا وغارةً حتّى استَرَقُّوا منهم طائفة، ففرَّ مَن قَدَر على الفِرار منهم والتَأموا معَ غيرِهم من المنهزمينَ على الرّشيد واجتمعوا معَ سُليمانَ بن حَكَم بن الناصِر لدِين الله، وكان بشقُنْدة أيضًا، فصار سُليمانُ من يومئذٍ إمامًا للبربر، وذلك في عَقِب شوَّال من سنة تسع المذكورة، وبايعوهُ وسمَّوهُ الـمُستعينَ بالله، ونَهضوا معَه إلى شانْجُه بن غَرْسيةَ بن فرذلند وعاقَدوهُ على أن يَدخُلَ سُليمانُ بن حَكَم قُرطُبة، فجاء معَهم شانْجُه في عسكرٍ عظيم من النّصارى واحتَلَّ قُرطُبة، فبَرَزَ إليهم المهديُّ فيمن كان معَه من الـجُند أكثرُهم العامَّة فهزَمَهم سليمانُ، وقتَل النّصارى يومَئذٍ من أهل قُرطُبة نيِّفًا على ثلاثينَ ألفًا، فكانت أوَّلَ ثاراتِ المشرِكينَ على المسلمين، وفرَّ المهديُّ من قُرطُبة مستترًا، وكان لـمّا شعر بقُرب سُليمان معَ البَرْبرِ والنّصارى ورأى تغيُّرَ الناس عليه رَدَّ هشامًا المؤيَّدَ بالله إلى القصر رجاءَ أن يتماسَكَ له الحالُ به ويأبى اللهُ إلّا ما يريد[3].

رَجْعٌ للخبر: وكان السببُ في وثوبِ محمَّد بن هشام بن عبد الجبَّار على القيام وانتزاعِه الخلافةَ عن هشام بن الـحَكَم وتظفيرِه بعبد الرحمن بن أبي عامرٍ حاجبِه وقَتْلِه له وتدميرِه على الدّولةِ العامريَّة ما أذكُرُه، وذلك أنّ الذَّلْفاءَ أُمَّ عبد الملكِ المظفَّر بن أبي عامر اتَّهمت أخاه عبدَ الرحمن بقتلِه، فحقَدَت عليه اغتيالَه له وسَعَتْ في حتفِه، على أنّ عبدَ الرحمن أجمَلَ عِشرتَها وعظَّم منزلتَها وأقرَّها معَ وَلَدِ أخيه عبد الملِك ابنِها وحُرَمِه وأسبابِه في قصرِها لم ينقُصْها شيءٌ من حالها، وتحقَّق صِدقَ عداوتِها إلّا السَّعي على دمِه عندَ بني مروانَ عُداةِ قومِها، وبعْثَهم للقيام عليه وتحريكَهم لارتجاع دولتِهم، فوصَلت ذلك ببُشرى الصَّقْلَبيّ،

---

(1) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٩٣ وغيره من المصادر.

(2) هو سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين بالله (المعجب ٩٠).

(3) الخبر في المعجب ٨٨-٨٩.

إذ كان في صباهُ لبني مروان، ثمَّ انتقل لبني أبي عامر، ولم يزَلْ يُعرَفُ بالتشيُّع لبني مروان، فدسَّته مولاتُه الذَّلفاءُ إلى معارِفِه الناصِريِّينَ يدعوهم للقيام بهذا الأمر وتُهوِّنُ عليهم الـخَطْبَ فيه وفي طلبِه، وتَعِدُ من نَشِط منهم للقيام به المعونةَ بمالها وحيلتِها، وتشترط الأَخْذَ لها بثأرِها وثأرِ وَلَدِها، فأرشدَه الأمويُّونَ إلى فاتكِهم محمَّد بن هشام بن عبد الجبَّار، ابنِ قتيل عبد الملِك بن أبي عامر، في قصَّةِ وزيرِه عيسى بن سعيد، كما قدَّمنا، وقالوا له: هو حَرَّانُ ثائرٌ جَسُورٌ مُخاطِر، وقد بَلَغَنا أنه تطلَّب هذا الأمرَ منذُ قتلتُم أباه، وتألَّف من شِرار الناس كثيرًا، وشيعتُنا تلقاه وتُؤمِّلُه فليس لكم غيرُه، فانحرَف هذا الخادمُ عندَ ذلك إلى محمَّد بن هشام هذا، ونقَلَ إليه عن الذَّلفاءِ ما قوَّى عَزْمَه، وحَمَلَ إليه من عندِها ما قَوِيَ به على أمرِه، وداخَلَه لذلك سليمانُ بن هشام، واستَظْهرَ بسائرِ وَلَدِ أبيه الناصِريِّينَ وقومِهمُ الـمَرْوانيِّين، فَجدُّوا في مَعُونتِه وكلمتُهم يومَئذٍ في بغضاءِ العامريِّينَ مُتَّفِقة، ونفوسُهم من مخافتهم مُختلَسة، فلاذوا بمحمَّد بن هشام وبايعوهُ سرًّا، وقد كان له ولأبيه قبلُ دعاةٌ من أهل قُرطُبة، فابتَعثَهم الآنَ محمَّدُ بن هشام في الاجتراءِ على عبدِ الرحمن بن أبي عامر، فاستمالوا له خَلْقًا منهم وبايعوه، وكان يلقاهُ مَن يثِقُ به من وجوهِهم بأَحْوازِ قُرطُبة وبسَفْح جبلِها في اكتتام وخُفْية، قد أعدَّهم لوقت الوَثْب، وخفِيَ على شِيعةِ السُّلطان أكثرُ ذلك، فانتظم أمرُ المشؤوم ابن عبد الجبَّار كما قدَّره اللهُ تعالى واشتعلَ بسُرعة.

قال: وأخذ محمَّدٌ معَ ذلك في الاحتراس بنفسِه والانتزاح عن منازلِه والجِدِّ في شأنِه، وطفِقَ دُعاتُه يُرْجِفونَ بوثوبِ قائم من آلِ مَروانَ ولا يُسَمُّونَه، ويُشيعونَ الأحاديثَ عن نَصْرِه، ويتكهَّنونَ بهُلْك عبدِ الرحمن، ويحضُّونَ الناسَ على الخروج عن طاعتِه، ويقطَعونَ على إدبارِ دولتِه، ويُشنِّعونَ عنه تشانيعَ قبيحةً، حتّى أطبَقَ الناسُ على بُغْض عبد الرحمن وآلِه، وأسرُّوا لهم الغائلةَ وسَقَطوا من أعيُنِهم، وسعَوْا على دولتِهم، وتهيَّأ لمحمَّدٍ ودُعاتِه هذا ومثله قبلَ سَفَر عبد الرحمن لغَزْوتِه المشؤومة عليه، فلمّا ذهبَ عبدُ الرحمن لوَجْهِه هذا، تمكَّن محمَّدُ بن هشام من وثوبِه، فأكمل أمرَه وعبّى أنصارَه وبثَّ دُعاتَه وأخفى شخصَه، وتمكَّن بالأطراف، فكان أصحابُه يلقَوْنَه ليلًا ونهارًا في أوقاتِ الغَفْلة بكهوفِ جبل قُرطُبة يُدبِّرُ معَهم ما يريدُه، والقَدَرُ يُسعِدُه والواقيةُ تدفَعُ عنه، إلى أنْ ظهَرَ وتمَّ أمرُه.

وكان المنصوبَ من قِبَلِه لدعاءِ العامَّة وأخْذِ بيعتِهم في السرّ: صاعدُ بن عبد الوهَّاب الحرَّار، وكان في الجهلِ آية، وكان لمحمَّدٍ به خاصَّة. وأرجَفَ الناسُ بظهورِ قائم من بني مروانَ، فكثُر خَوْضُهم في ذلك. وقام في المسجد الجامع بقُرطُبَةَ في أوَّلِ جُمعة من جُمادى الأولى الذي خَرَج فيه عبدُ الرحمن بن أبي عامرٍ إلى غَزاتِه وقتَ إنصاتِ الناس للخُطبة فتًى ممرورٌ من صناعة القَطَّانينَ قُبالةَ الخطيب، فاعتَرضَه لـمّا بلَغَ موضعَ الدُّعاء لعبد الرحمن بولايةِ العَهْد، فصاح بأعلى صوتِه: آشٍ هذا الدّلسُ يا شيخَ السَّوء؟ بأنكرِ صوت، فلم يلبَثْ أنِ ابتَدرَه القومُ فقبَضوا عليه وحَملوهُ إلى السِّجن وهُو يزيدُ في صياحِه وينبئُ عن اختلاطِه، فحُبِّس مقيَّدًا، وأُنهِيَ خبرُه إلى صاحبِ المدينة، فأمَرَ بصَلْبِه، فأُحضِر جِذْعٌ وأُخِذ في تهيئتِه له، واجتمَع عالَـمٌ من الناس لمشاهدتِه، فلمّا بَلَغَ خبرُه إلى الخليفة هشام، وبيَّن له خادمُه جوذرٌ الفتى أمرَه وأنه مُصابٌ في عقلِه، رَقَّ لحالِه وأمَرَ بالكفِّ عنه إلى وقتِ وصول عبد الرحمن فينظُرُ فيه بنظرِه، فقَدَّر اللهُ تعالى أنْ زُحزِحَ الفتى عن الجِذْع الذي أُعِدَّ لصَلْبِه ورُدَّ إلى محبِسِه، فكان في مقامِه ذلك يَكثُرُ القول بأنَّه لا يُصلب وأنّ المصلوبَ غيرُه وسوف يُعلَمُ أمرُه، فكان من الاتّفاق الرَّبَّانيِّ أنّ ذلك الجِذعَ لم يُنَحَّ من ذلك الموضع إلى أنْ وثَبَ محمَّدُ بن هشام على قُرطُبة، فانطلقَ الفتى الممرورُ من حبسِه، وعوجِلَ الذي رام صلبَه، وهو حاكمُ المدينة عبدُ الله بن عُمر، ثمَّ تلاه صاحبُه عبدُ الرحمن بن أبي عامر فغدا يودعُه الممرورُ بنفسِه، وصار من العجائب أنّ جِذعَه ذلك مـمّا استُعينَ به على صَلْب عبد الرحمن المذكورِ والـمُلكُ لله الواحدِ القَهّار.

وفي سنة تسع وتسعينَ وثلاثة مئة: قوِيَ أمرُ محمَّد بن هشام بقُرطُبة، وكثُر الإرجافُ به، وانكشف للناس اسمُه، فكثُر خَوْضُهم في ذلك، ووقَعَ إلى وُزراءِ عبد الرحمن بن أبي عامر خبرٌ من ذلك، فارتاعوا له وجَدُّوا في حَرْس القصر وضبطِ أبوابِه. ووافَى كتابُ المغرور ابن أبي عامر بدخولِه إلى جِلّيقيَّة، وكان ذلك ميقاتَ ابن عبد الجبَّار لدُعاتِه، ولـمّا اطمأنَّ لبُعدِه وأمِنَ من سرعة رجوعِه وثَب على بابِ السُّلطان في السادسَ عشَرَ لـجُمادى الآخِرة، اهتبَلَ فيه غِرَّة صاحبِ المدينة لإبعادِه أكثرَ مَن كان على بابِ القَصْر،

وقد كان محمَّدُ بن هشام بَثَّ رجالَه بهذه الناحية مُتَفَرِّقين كأنَّهم نظَّارةٌ يُخفُونَ أسيافَهم تحتَ بَرانِسِهم مُستعِدّينَ للوثبة مُرتقِبينَ للإشارة، وانتبَذَ هُو إلى عُدوة النهر قُبالةَ القصر يرتقبُ الميقات، إلى أن جاءه هناك مِن أصحابِه اثنا عشَرَ فتًى فيهم طَرسوس الـمَجُوسيّ، وكان أشهمَهم، فدَبَّره على الكُرور إلى الباب وإظهارِ أمرِه، فانكفَى إلى هنالك وقد بَثَّ العصابةَ أمامَه فاكتنَفُوا البابَ كأنَّهم نَظَّارةٌ إلى أن يَطلعَ عليهم، وشَرَّع سيفَه فوقَعَتِ الحادثة.

وقد وقَع الاختلافُ في وَصْف ظهورِه وموضِع مَخْرجِه، فزَعَموا أنّ رَجّالتَه هجَموا للحِين على صاحبِ المدينة عبد الله بن عُمر فوجدوهُ في غُرفته مترنّحًا من نَشْوتِه جالسًا بينَ قَيْنَتَيْنِ تُغنّيانِه، وكان زَعَموا أنّ الذي سبَقَ إليه طَرْسُوس عدوُّ آلِ عامر، فقَبَضَ عليه وقادهُ إلى محمَّد بن هشام مختبِلًا لفَرْطِ جَزَعِه، فأمَرَ بضرب عنُقِه ورفْع رأسِه على رُمح وتَرْك جسَدِه مطَّرَحًا وَسْطَ الطريق تطؤُه الأقدامُ إلى أن تمزَّق، وصار خبرُه عِبرة.

وما هُو إلَّا أن رأت العامَّةُ رأسَ عبد الله فتداعَتْ إلى محمَّد وانثالت عليه من ناحيةِ السُّوق والأرباضِ الغربيَّة، فوجَدوا بابَ الشّكال مُقفَلًا على رَسْمِه عندَ مَغيب العامريِّين، فتزاعَقُوا من هنالك، واتَّصل ضجيجُهم، فكَسَر لهم محمَّدٌ القُفْلَ ودخَلوا إليه، وفيهم من العنَّازينَ والجزَّارينَ والسِّفْلةِ وسائرِ غَوْغاءِ الأسواق ما لا يحصيهم إلَّا اللهُ تعالى، فقَوِيَت نفسُه بهم وأقْبَلَ يُخاطبُهم بوجهِ قيامِه وسبيل احتسابِه وتحرُّكِهم على ابن أبي عامر، وأطمَعَهم نَهْبَ مدينتِه، فاستهواهم وائْتَمروا له، وتسَلَّحوا بما عندَهم من رَثِّ السلاح الذي لم يكنْ عَهد بتعهيدِه.

وأرسَل محمَّدٌ للوقت مَن كَسَر سِجنَ العامَّة فانطلقَ جميعُ مَن كان فيه من اللُّصوص والذُّعّار وأصحابِ الجرائم، وسارَعوا إلى محمَّد، فاستعان بهم، وتَداعَى بنو عمِّ محمَّد الناصريُّونَ وغيرُهم إلى نَصْر محمَّد، واستَنْهضَوا الناسَ لـمَعُونتِه، ولبوْا دعوتَه.

وأغلق هشامٌ الخليفةُ أبوابَ القصرِ عليه وسكَّها بخَدَمِه الصَّقالبة، وارتقَى هشامٌ المؤيَّدُ إلى سَطح وأشرَفَ على العامَّة بين مُصحَفَيْنِ يحمِلُهما خادمانِ له، وأشار إلى مَن تحتَه منَ العامَّة بالسُّكون بيدِه، فصاحوا به: لا حاجةَ لنا بك، وليس المُلكُ من شأنِك،

وهذا أوْلى به منك، فلمّا سمع ذلك منهم وَلَّى مُنصرِفًا إلى دارِه وأمَرَ خدَمَه ألَّا يُقاتلوا أحدًا منهم ولا يَرمُوا بسَهْم ولا حَجَرٍ عليهم حتّى يقضيَ اللهُ قضاءه، ودخَل مِحرابَه فلم يتحوَّلْ عنه إلى أن نَفَذ أمرُ الله عليه، ومحمَّدُ بن هشام معَ ذلك كلِّه يقولُ لقَرابتِه وأهلِه خيرًا في هشام بن الـحَكَم ولا يَسكُتُ عن ذكرِه والدعاءِ له، وعجِبَ الـخَدَمُ من دَفْع هشام لهم عن القتال ومَنْعِه إيَّاهم من الدّفاع عنه، ووافَقَ ذلك هوى جماعة منهم لحقدِهم عليه في التفويض للعامِريَّة، وطمِعوا في ابن عمِّه، فغَلُّوا أيديَهم وخَلُّوا محمَّدَ بن هشام وشأنَه، فنفَذَ قضاءُ الله بإذلالِه.

وأمَرَ محمَّدٌ العامَّةَ بنَقْب القصر والدّقِّ لأبوابِه والاحتيال لفتحِه، ووعَدَهم على ذلك جزيلَ الصِّلات، فسارعوا الأمرَ واجتهدوا فيه، وحملوا سَلاليمَ سُوقِ الـخَشَّابينَ ووصَلوها بالحبال، وطَلَعت العامَّةُ من تلك الجهة على السُّور وعَلَوْا سقفَ القصر ومَلَكوا عُدَّةً من أدنى دورِه، وأوقَعوا النَّهبَ على بعض ما وصَلوا إليه، وغُرِّر بعضُ خَدَم القصر بعضَ التغرير بمُراماتِهم بالنُّشّابِ والقرمَد على غيرِ نيَّة، وكلَّما غشِيَت العامَّةُ ناحيةً أفْرَجوا لهم عنها وقَهقَروا إلى ما خلفَها، فظَهَروا على بعض خزائنِ الأسلحةِ الدانية من هذه الجهة فانتهبوها، فغَلُظت بها شوكتُهم، وكان محمَّدٌ أمَرَهم ببَسْط أيديهم إلى سلاح الصياقلة والتّرَّاسين، فأخَذوا ما وجَدوهُ فيها، وغلَّ اللهُ أيديَهم عن سائر الأسواق بلُطفِه.

فلمّا رأى الخليفةُ هشامٌ ظهورَهم عليه وإبطاءَ أهلِ الزّاهرة عن نُصرتِه بوصولِهم إليه، خاف الفضيحةَ على نفسِه وأهلِه، فراسَلَ محمَّدَ بن هشام يسألُه الكفَّ عنه على أن يُعينَه وبني عمِّه على ما نَقَموا عليه ويُقصيَ آلَ عامر عنه ويُقلِّدَه عهدَه ويُشرِكَه في أمرِه، فأبَى محمَّدٌ من ذلك ولم يُقنعْه إلَّا الدخولُ والتحكُّم، فحضَّ العامَّةَ على التقدُّم، وكلَّم محمَّدٌ فاتنًا الفتى صاحبَ القصر الضابطَ لأبوابِه بكلام سديدٍ أوصَلَه إلى مَوْلاهُ هشام، فأمَرَ أن يَفتحَ له الأبوابَ ويخلِّيَه والقصرَ، ففعَلَ فاتنٌ ذلك. ودخَل محمَّدُ بن هشام لوقته إلى المجلس الكامل مساء ليلة الأربعاء، فجلسَ هنالك وأصحابُه يَـحُفُّونَ به وقد ملَكَ القصرَ أجمعَه وتمكَّن من إرادتِه، وغَشِيَه اللّيلُ فأشعَلَ القصرَ بالشّمع وأمضَى قضاياه طُولَ ليلتِه وأصبح مُستوليًا على أمرِه.

واتَّصل الخبرُ بوُزراءِ الزّاهرةِ لحينه، فتحيَّروا ودَهِشوا، وبادرَ متقلِّدُ مدينتها عبدُ الله بن مَسْلمَة إلى ضبط أسوارها وأبوابِها، وعرَّض ما اجتمَع بها من صنوفِ الـمُقاتلة، فوجَدها نحوَ السبع مئة رجل معَ حصانةِ مدينتهم وتقارُبِ أقطارِها وسهولة شُرُفِها، فما نفَع اللهُ بشيء من ذلك كلِّه ولا عَمِل القومُ على مدافعة، ولا نَظَروا لخاصَّةٍ ولا عامَّة، ولا فكّروا في عاقبة، ولا كان فيهم سديدٌ يُشاوَرُ في الحادثةِ لأوَّلِ وقوعِها، بل خانوا وغَدَروا وأسلموا سُلطانَ مَوْلاهم فأصبحوا في رِبْق أسرٍ وذِلَّة.

وتعجّل للزاهرة عَشِيَّ هذا اليوم العَصِيب خَلْقٌ عظيمٌ من العامّة أنفَذَهم محمَّدُ بن هشام نحوَها معَ طائفةٍ من أصحابِه، فجاءتها العامَّةُ في جموع أضاقت فضاءها وأحاطت بها من جميع أقطارِها، فخَرَج عليهم نَظيفٌ الخادم ونَصْرٌ الـمُظفَّريُّ فيمن معَهم من الغِلمان خَرْجةً كشَفوهم فيها عن ساحة المدينة وأصابوا منهم في الصَّدمة معَ إمساكهم عن أكثرِهم، فارتدَّت العامَّةُ عنهم خاسئة، وضرَبَ اللّيل رَواقَه، فحال بينَ الجماعتَيْن، وبات أهلُ الزّاهرة ليلةَ الأربعاء بظاهرِ قصرٍ تحتَه غَدْر وفسادٌ شِرّير.

ولـمّا أنْ مَلَك محمَّدُ بن هشام قصرَ الخلافة أوَّلَ ليلة الأربعاءِ النَّحيسة، تقدَّم في طَرْد العامَّة عنهُ وعن دُورِ القصرِ وإهباطِهم عن سقفِه وكفِّهم عمَّا نَقَبوهُ بجهاتِ سُورِه وحمايةِ ما استباحوا من حُرَمِه، وأرسَلَ ثقاتِه لأخْذِهم بذلك، فسارعت العامَّةُ إلى أمرِه، وأسْنَد حِفظَه إلى ابن عمِّه محمَّد بن الـمُغيرة، فأجلَسه بكُرسيِّ الشُّرطة على بابِه، فقام له بذلك وصَلَح أمرُه، ونصَبَ عبدَ الجبَّار ابنَ عمِّه الآخرَ مكانَ الحاجب له قَلَّده حُرَمَه، واستَدْنَى سُليمانَ بن هشام فسمّاه وليَّ العهد من يومِه، فاغترَّت العامَّةُ بدعاءِ هذَيْنِ الرجُلَيْن بهاتَيْن الـخُطَّتين، وأعجبَتْهما الاستجابةُ لهما فأعقبتْهما أعظمَ بَلِيَّة.

وبعَثَ محمَّدُ بن هشام إلى مغلوبِه هشام بن الـحَكَم الخليفة فاتنًا الـخَصِيَّ مُبَكّتًا له على حبِّه لآلِ عامر وإيثارِه لهم على أهل بيتِه وتصييرِه لسفيهِهم عبد الرحمن ما لم يجعَلْه اللهُ له وإخراجِه الأمرَ عن عِتْرةِ رسُول الله ﷺ، ويُعرِّفُه بما استبانهُ الناسُ من عَجْزِه عن القيام بأمرِهم، ويدعوهُ إلى خَلْع نفسِه، إذ ليس بأهلٍ له.

ذكرُ خَلْع هشام بن الحَكَم وبَيْعةِ محمَّد بن هشام

لـمّا بلَغَ الخليفةَ هشامًا ما قالهُ محمَّدُ بن هشام، سارَعَ بجوابِه يعتذرُ له بالغَلَبة عليه ويُقرُّ بالعَجْز ويُبادرُ بالتخلّي عن الخلافة، فسُرَّ بذلك محمَّدُ بن هشام، وأرسَل خلْفَ الناس يَستحضرُهم طَوْعًا وكُرْهًا، ولم يُطبِقْ جَفْنًا طُولَ ليلتِه، واستعان فيها على قضاياهُ بما أصاب في المسجدِ من الشّمع فاستعمله ليلتَه تلك في القصرِ وفي البلد لاستحضارِ من احتاج إليه من أكابرِ أهلِه، وأصابهُ في ليلتِه تلك جُوعٌ شديد، فأُحضِرَ له من مِطبخةِ المؤيَّد بالله طعامٌ فأكَل معَ خَواصِّ بني أُميَّة، وأُحضِرت له إثْرَ ذلك هديَّةٌ من المؤيَّد بالله منها خِلَعٌ فاخرة غَيَّر بها للوقت من أحوالِه وأحوال العصابةِ التي حفَّت به من خاصَّته، وقعَدَ للبيعة، فسارَعَ إليه الـمَشْيخةُ من أهل بيتِه وعمومتِه ومَدَّ إليهم يدَه فصفَّقوا عليها، وأرسَلَ في وجوه الناس من الوُزَراء وطبقاتِ أهلِ الـخِدمة ومَن يَليهم من الـحُكَّام والقضاةِ والفُقهاءِ والعُدول بقُرطُبَةَ إلى القصر بالليل، يُنفِذُ إلى كلِّ رجلٍ منهم رجلًا من أصحابِه فيُقبِلونَ بهم على وَجْهي الكُره والطَّاعية فيُكلِّمُهم بوجهِ قيامِه واحتسابِه وتسرُّع هشام إلى خَلْع نفسِه واعترافِه بعجزِه، فلم يختلفْ عليه أحدٌ منهم.

وتقدَّم للدّخول إلى هشام أبو عُمر بنُ عبد الملك كبيرُ أهل قُرطُبَةَ معَ رجل من نُظَرائه ليسمَعا منه خَلْعَه لنفسِه ويأخُذا بيعةَ محمَّدٍ ابن عمِّه عليه، فأقرَّ لهما هشامٌ بالـخَلْع وأقرَّ لمحمَّد بالبَيْعة، وقرأ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]، فدعا له أحمدُ وخرَجَ فعقَد الـخَلْع والتأمُّر لمحمَّدٍ بإشهادِه وإشهادِ صاحبِه، فتمَّ خَلْعُ هشام في هذه اللّيلة، وهو الأوَّلُ من خَلْعَيْه الواقعَيْنِ عليه في دولتَيْه معًا بعدَ أن استكمَلَ في خلافتِه الأولى ثلاثًا وثلاثين سنةً وأربعةَ أشهرٍ ونصفًا. وصحَّت الخلافةُ لمحمَّد بن هشام صَبيحةَ تلك اللّيلة، واستمرَّت بيعتُه، وسمَّى نفسَه الـمَهْديَّ اختيارًا من عندِه، وذلك اسمٌ لم يتلَبَّسْ به أُمويٌّ قطُّ، فكان ذلك أوَّلَ مناكيرِه.

وفي كتابِ الرّقيق: كان محمَّدُ بن هشام هذا مِقْدامًا جَسُورًا على كلِّ بليّة، مُضطربَ الرأي، لم يَجسُرْ أحدٌ على القيام على آلِ عامر من المروانيَّةِ سواه، للّذي كان من بَغْي عبد الرحمن عليهم من وِلايتِه العهدَ ولطلبِ محمَّد بثأرِ أبيه هشام بن عبد الجبَّار بن الناصِر، فأصابَ فُرصةً من ذلك الآنَ.

وفي كتابِه أيضًا، قال: يقال: إنّ عِدَّة من اتَّبع الـمَهْديَّ من سِفْلة قُرطُبة خمسونَ ألفًا عمَّهم بالعطاء، فمضَت بالناس أيَّامٌ لم يوجَدْ فيها حَجَّامٌ ولا كنَّافٌ ولا ذو مهنةٍ ذُلّيَّة، وانتَهبتِ العامَّةُ المستجاشةُ على حربِ الزاهرة ما كان فيها من الأموالِ والأسلحةِ والخزائنِ والأمتِعة والآلاتِ السُّلطانيَّة، حتَّى اقتُلعت الأبوابُ الوِثاق والـخَشَبُ الضّخم وغيرُ ذلك ممَّا حوَتْه القصور، وصار يُباعُ بكلِّ جهةٍ لا ينزِعُ عنه من يشارُ إليه بصلاح أو عفَّة، إلى أنْ نزَلَ رجالُ ابن أبي عامر وخَدَمتِه على الأمان، فرُفع النَّهبُ عن الزّاهرة وملَكَها عبدُ الجبَّار ابنُ عمِّ القائم محمَّد فرَفعَ الأيديَ عن النَّهب لِـما بقي بداخلِها، وتمكَّن من بيوتِ الأموال، فأخَذ في نقلِها إلى قصر الخلافة على سبيل من النَّهب، إلى أنِ استَصْفَى كلَّ ما وَجَد بها، فيقال: إنّ الذي وصَل إلى القائم محمَّدٍ من مال الزّاهرة في ثلاثةِ أيّام: خمسةُ آلافِ ألفِ دينار وخمسُ مئة ألفِ دينار، ومن الذهب: ألفُ ألفِ دينار وخمسُ مئة ألفِ دينار، ثمَّ وَجَد فيها بعدَ ذلك خوابيَ مملوَّةً من الوَرِق مدفونةً في الأرض فيها مقدارُ مئتي ألفِ دينار. وتهافَتَ الناسُ على ابن عبد الجبَّار تهافُت الفَراش على النار، فلم يتوقَّفْ عن بيعتِه أحدٌ منهم ولا استَنْكَف عن قَبْض عطائه، وذلك بَطَرًا للنعمة ومِلالًا للعافية وجهلًا بالفتنة، لِـما سبَقَ لهم في علم الله من البلاءِ والمحنة التي طَمَّت على كلِّ بليَّة، فلم يتخلَّفْ عن أخْذِ مالِه واستحلال نَهْبِه والدّخول في فتنتِه فقيهٌ ولا عالم، ولا عَدْلٌ ولا إمام، ولا حاجٌّ ولا تاجرٌ، إلَّا قام في نُصرتِه بما قَوِي عليه من لسانِه ويدِه، وتكلَّف حمْلَ السّلاح وإن كان لا يُغني عن نفسِه فضلًا عن غيره.

خبرُ نزول أهل مدينة الزّاهرة

قال ابنُ عَوْن الله: وعزَم القائمُ ابنُ عبد الجبَّار على مُخاطبةِ أهل الزاهرة بُكرةَ يوم الأربعاءِ المؤرَّخ، فقلَّد حربَهم ابنَ عمِّه عبدَ الجبَّار بن الـمُغيرة المدعوَّ بالحاجب، وأمَرَ بإثباتِ الناس رجالًا وفُرسانًا في ملاحقِ ديوانِ الـجُند، ووُزِّعت عليهم الأسلحة السُّلطانيَّة وأُرسِلوا معَ عبد الجبَّار، والتفَّ بهم من العامَّةِ النَّهابةِ خلائقُ لا يُحصيهم إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ ومعَهم رأسُ عبد الله بن عَمْرِو بن أبي عامرٍ[1] مُعْلًى على رُمح يُرهِبونَ به

(١) تنظر الحلة السيراء ١/ ٢٧٧.

الجماعة، فوقَعت بين الفريقَيْن مُناوشةٌ أقْصَروا فيها عن الاستطالة، وغَلَبت العامَّةُ عليهم فغَلَبوا على الحاجِبيَّةِ قصرِ المظفَّرِ الذي كان فيه وَلَدُه وأُمُّه الذَّلفاء، وكان إلى جانبِ الزّاهرة بخارج سُورِها، فنَهبوهُ وما اتَّصل به، وأزعَجوا عنه الذَّلفاءَ أُمَّ المظفَّر، وأخَذوا من أمتعتها ما لا يُضبَطُ بوَصْف ولا قيمة، وهي التي أعانت القائمَ بمالها وحرَّضَتْه على أمرِه، فلمّا رأى ذلك أهلُ الزاهرة استَسْلموا، وسألوهُ أن يُنفِذَ إليهم محمَّدَ بن هشام القائمَ أمانًا ينزِلونَ عليه، وذلك وقتَ الظُّهر من يوم الأربعاء، فأنفَذَ إليهم أمانًا مؤكَّدًا كتَبَ فيه بخطِّه، وأرسَله إليهم فنزَلوا بأجمعِهم، وملَكَ عبدُ الجبَّار بنُ الـمُغيرة قصرَ الزاهرة لوقتِه والعامَّةُ منتشرةٌ بأدانيهِ قد انتَهبوا منه ما لا يُدركُه الإحصاء، وهو يعذرُ في منعِهم من غير تحقيق كيما يصلُ هو إلى اصطفاءِ ما يريدُه لنفسِه واصطفاءِ من يَكرُمُ عليه من أهلِه وهم يومَئذٍ بحال إضاقة، فأخَذوا من المال والجواهر وفاخِر الأمتعة ما استأثَر عبدُ الجبَّار بأكثرِه، ودَمَّرت العامَّةُ على أكثرِ خزائن الكُسوة والفُرُش والأمتعة والطِّيب والحِلْية والذّخائر والسّلاح والعُدَّة، فنَـهَبت من ذلك كلِّه ما لا يعلمُه إلّا اللهُ تعالى، وما قَدَرَ على قَبْض إيديهم إلَّا مساءَ ليلةِ الخميس بعدَه، وكان قُصارى عبد الجبَّار أنْ ذَبَّ عن أسرتِها التي فيها الـحُرَم وبيوتُ الأموال وخاصُّ الأمتعة، فسارَعَ القائمُ في نَقْل ما خَلُص له من ذلك كلِّه إلى قصر الخلافة بقُرطُبة غَداةَ يوم الخميس بعدَه لاثْنَيْ عشَرَ يومًا بقينَ من جُمادى الآخِرة.

وميَّز القائمُ محمَّدُ بن هشام حُرَمَ آلِ عامر لـمّا صِرْنَ في يدِه فأطلقَ حرائرَهَنَّ واصطفَى الإماءَ منهنّ لنفسِه، فوطئ أكثرَهنَّ ووَهبَ منهنَّ لوُزرائه وأصحابِه، جاء في ذلك بأدهى مـمَّا أنكَرَه على مَن قام عليه، ولم تزَلْ مَناكيرُه تزيدُ حتّى هانت أجرامُ آلِ عامرٍ عندَ الناس، وأقرُّوا بظُلمِهم لهم، وصان محمَّدٌ في خلال ذلك الذَّلفاءَ وابنَ ابنِها وأسبابَهم، وأذِنَ لها في نزول دارِها بجَوْفيِّ المدينة، فانتقلت إليها بما بقي لها، وأقامت بها محوَّطةً في أسبابِها مُطلَقةَ اليدِ على أملاكِها، وكانت قد تقدَّمت في إخراج الأموال والذّخائر وأودعَتْها قبلَ الكائنة، فمن ذلك اجتنَى ابنُ ابنِها محمَّدُ بن عبد الملك بعدَ موتِها.

خبرُ هَدْم مدينة الزّاهرة

وذلك أنه لـمّا فُرِغ للقائم محمَّد بن هشام من تحويل كلِّ ما كان بالزّاهرة أَمَرَ بهدمِها وحطِّ أسوارِها وقَلْع أبوابِها وتشعيثِ قصورِها وطمس آثارِها، والاستعجالِ في ذلك، وجَمْع الأيدي عليه، وهو معَ ذلك شديدُ الخوف من عبد الرحمن والتوقُّع لسرعةِ انكفائه إذا هو سَمِع بخبرِه، فأباح أنصارَه من العامَّة تخريبَها وسَوَّغَهم ما اقتَلَعوهُ من مَرْمرِها وأنقاضِ قصورِها ودُورِها، فبَلَغوا من تدميرِها في أيَّام قلائلَ ما لم يُقدَّرْ أنه يُبْلَغُ في مدَّة طويلة، وعفَا رسمُها فأصبحت بَلْقَعًا كأنْ لم تَغْنَ بالأمس، وأُبدِلت المدمَّرةُ من زاهرِ اسمِها وزايلَتْها سعودُها وقارَبتَها نُحوسُها، وما علم الناسُ مدينةً بالأندَلُس بل ببلادِ الإسلام كلِّه كانت أعظمَ بركةً في الجهادِ والمال منها وأبهجَ غُرَّةً وأشدَّ مملكةً وأكثرَ جيوشًا وحاشيةً وأتمَّ سعادةً وأطيبَ بُقعةً من هذه المدينة الزاهرة، حتّى أذِنَ اللهُ في خرابِها في الوقت المحدود للأمرِ المعدود.

ومـمَّا قيل في خرابِ الزّاهرةِ قبلَ كونِه: ذُكِر أنّ المنصورَ بنَ أبي عامر كان يَرى في منامِه أنّ اللهَ تعالى اطَّلع على قصر الزّاهرة، فسألَ عن ذلك ابنَ الـهَمْدانيّ، فأخبَره بخَرابِها، وتلا قولَ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فكان المنصورُ متى تذكَّر هذه الرؤيا ضاقت خُلُقُه أيَّامًا حتّى لا يستطيعُ الطعام.

وذُكِر أيضًا أنّ أحدَ وُزراءِ المنصور كان يرى في منامِه يهوديًّا يمشي في أزِقَّة الزّاهرة بخَرْجِه على عنقِه وهُو ينادي: خرُّوبش خرُّوبش، فسأل المعبِّرَ عن ذلك فأخبَرَهُ باقترابِ خَرابِها.

قال أحمدُ بن حَزْم: وكان المنصورُ يقول: وَيْهًا لكِ يا زاهرةَ الـحُسْن! لقد حَسُن مَرْآكِ وعَبَقَ ثَراك، وراقَ منظرُكِ وفاق مخبَرُك، وطاب تُربُكِ وعَذُب شِربُك، فيا ليتَ شعري، مَن الـمُريدُ الذي يهدِمُك ويوهنُ جسمَك ويعدِمُك؟ قال: فاستعظَمْنا ذلك منه، وسأله عن ذلك أبو عَمْرٍو ابنُ حُدَيْر واستنكَره عليه فقال له: كأنّك لم تسمَعْ بهذا يا أبا عَمْرو؟ هو عندَكَ وعندَ سَلَفِك من صاحبِك الـحَكَم لكنّك تتجاهل. نعم، سيظهرُ عليها عدوُّنا فيهدِمُها ويُلقي حجارَتَها في هذا النهر.

قال ابنُ حُدَيْر: كنتُ قاعدًا يومًا معَ المنصورِ إذ طَلَعَ ابنُه عبدُ الرحمن، وهو يومئذٍ ابنُ سبع سنين، خارجًا إلى الكُتَّاب، فلمّا وقعَت عينُه عليه قال لي: تأمَّلْ مَن طَلَع علينا، والذي يكونُ خَرابُ دولتِنا على يدَيْه هو عبدُ الرحمن بن محمَّد، وأنا أخشى أن يكونَ هذا لكنّه من النفْس بمنزلةٍ لا يلحَقُه معَها مكروهٌ، وأُراه كأنَّه هو بعينِه، وإنْ قضَى اللهُ شيئًا كوَّنه.

وذُكر أنّ الفقيهَ القَبْريَّ، المُبتلى بالنَّفي على يدَي المنصور، اجتازَ يومًا معَ بعض أصحابِه بالزّاهرة وعبدُ الرحمن بن أبي عامرٍ في غَزاته، فنَظَر في الزّاهرة فقال: يا دار، فيكِ مِن كلِّ دار، جعَلَ اللهُ منكِ في كلِّ دار، فكان من قَدَر الله إجابةُ هذه الدَّعوة إلى أقلَّ من تمام الشّهر.

مقتلُ عبد الرحمن بن أبي عامر، وانقراضُ الدّولة العامِريَّة[1]

قال ابنُ عَوْن الله: قد ذكَرْنا ذهابَ هذا المفتون، في سَفَرِه الملعون، الذي عقَده على اللّعبِ والبِطالة، وحمَّل المسلمينَ من كُلفتِه ما بغَّضه إليهم وعَفَوْا منه كلَّ خَصْلةٍ أجمَعَ أهلُ عسكرِه أنهم ما تجشَّموا قطُّ مثلَها في شيءٍ من شَواتي سَلَفِه. قال: وكان التِذاذُه على ذلك باسم ولايةِ العهد التي انتحَلَها أعظمَ لَذَّاتِه، وإنَّ ذكْرَها كان أشهى إلى نفسِه من تسبيح خالقِه، حتّى بلَغَ إفراطُه في حبِّها أنْ تَسمَّى بالخلافة قبلَ وقتِها. وقد زَعَموا أنّ شُرْطيَّه المعروفَ بابن الرَّسَّان نادَى عليه باسمِها في بعض الليالي على بابِ مَضرِبِه وقد اقتحَم أرضَ العدوّ. ثمَّ وافاهُ الخبرُ بقيام ابن عبد الجبَّار بقُرطُبةَ ودخولِه الزّاهرةَ فسُقِط في يدِه واختُلِط لحينِه، فصارت حالُه في استيلاءِ الـجَزَع عليه كما كانت حالُه في شدَّة إقدامِهِ على بوائقِه، ونزَلَ منزلَهُ الأشأم بقلعةِ رَباح في يومِه حائرًا في أمرِه مغترًّا بجَمْعِه، ودَعَا أهلَ العسكرِ إلى مُبايعتِه على حربِ أهل قُرطُبةَ ونَصْر الخليفة المظلوم هشام بن الـحَكَم، فلم يمتنعوا عليه وأقبلوا يحلِفونَ له أيَّامًا متواليةً وهم يخبِطُونَه العَشْواء.

وفي كتاب الرَّقيق، قال: لـمّا قام عبدُ الرحمن على مِنبرِ قلعة رَباح يَستحلِفُ الـجُندَ على نُصرتِه، دَعَا باسم محمَّد[2] بن يَعْلَى الزّناتيّ، فدَنا إليه، فقال له ابنُ الحداء: أتحلفُ

(١) ينظر نهاية الأرب ٢٣/ ٤١٤ فما بعدها.

(٢) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٤١٥.

لوليِّ العهدِ أيَّدَه اللهُ أنَّك تنصُرُه ولا تخذُلُه؟ وعبدُ الرحمن ساكتٌ وثَمِلٌ من شرابِه ليس يقدِرُ على كلمة، فقال لابن الحداء: نحن تحتَ بيعةٍ تقدَّمت له في أعناقِنا، فما بالُ تكريرِها؟ فإنْ كانت لا تنفعُه إلَّا بتجديد أيمانٍ أُخَر، فليست بالأيمانِ الأُخَر تنفعُه إلَّا بتجديد مثلِها، هذا ما لا نهايةَ له، قال: لا بدَّ أن تحلِفَ ولا تفارقَ الجماعة، فحلَفَ له حَلْفَةَ كُرْهٍ وغَمُوسٍ وخرجَ، فلقيَ ابنَ عمّ له اسمُه نكساس بنُ سيِّدِ الناس وجماعةً من وجوه زَناتة، قال ابن يَعْلَى المذكورُ: فعدَلْنا إلى خندق وتعاهَدْنا على إسلامِه وتَرْكِ القتال عنه، فكان ذلك سببَ نَفْرِ الأجنادِ عنه.

وتظاهَرَت الأخبارُ بمحَلَّةِ شنجول بتظافُرِ جميع أهل قُرطُبَةَ معَ ابن عبد الجبَّار وقوَّةِ بصائرِهم في نُصرتِه وبَذْلِـهم نفوسَهم دونَه على ما بهم من قلَّة الدُّربةِ بالحرب والجهل بعواقبِها، فرأى البربرُ أمرًا لا يَدْرونَ تأويلَه وأيقَنوا ألَّا مَدْخَلَ لهم في قتالِ أهل قُرطُبَةَ لحصول أموالهم وأهليهم بأيدي أهل البلد، فاتَّفقوا على إسلام عبد الرحمن إليهم وطلبِ السلامة من بوادرِهم.

وفي كتاب إبراهيمَ بن القاسم: قال محمَّدُ بن يَعْلى: وقد كان بلَغَنا عن القاضي أبي العبَّاس بن ذَكْوانَ أنه يتبرَّأ من عبد الرحمن ويُفسِّقُه ويَكرَهُ أمرَه ويستعظمُ ما يدعو الناسَ إليه من قتال جماعة المسلمينَ بقُرطُبة، ويُشفقُ من إقحام الجيش عليها لاستباحةِ مَن فيها وفيهم الصالحونَ ومن لا ذنْبَ له من الذَّراري والعيال، ويَنبِسُ من ذلك بالكلمة بعدَ الكلمة وهُو معَ عبد الرحمن تحتَ القبَّة. قال محمَّدُ بن يَعْلى: فأردتُّ أن أتعرَّفَ ما عندَه، فخلَوْتُ به، فبَدأني وقال لي: ما عندَكَ في هذا الأمر العظيم الذي دَهانا؟ فقلتُ له: لستُ أُجاوبُك إلَّا أن تَطِيبَ نَفْسي بيمينِك وتُخبرَني برأيِك فلا أكتُمَك ما عندي، فقد باح الخفاءُ وخَلا بي وحَلَف لي واستَنْجَزَني، فقلتُ له: لستُ واللهِ أقاتلُ عنه أنا ولا أحدٌ من زَناتةَ البتَّة، فرأيتُه قد تهلَّل لهذا وقوِيَتْ نفسُه وقال لي: قد بَلَغَني ذلك، وهُو الرأي.

قال ابنُ عَوْن الله والرقيقُ وغيرُهما: وقد بَلَغَني عن عُكاشةَ بن ناصر أنه حَلَفَ بطلاقِ نسائه أنه لا يُقاتلُ معَ شنجول؛ لأنه زِنْديقٌ مُتلاعِب ليس من الإسلام في شيء وأفعالُه دالَّة على اعتقادِه، وقد صحَّ عندي أنه سمِع مؤذّنًا يُنادي بِحَيَّ على الصَّلاة،

فقال: لو قلت: حيَّ على الكأس لكان خيرًا لك، وكثيرًا مثلَ هذا، فاتَّفقتْ كلمةُ الجماعة على إسلامِه.

قال ابنُ يَعْلى الزَّناتيُّ: ودَعاني عبدُ الرحمن في بعض مواقفِه هذه وقدِ اشتَدَّ الأمرُ عليه وبان خِذْلانُ الـجُند له، فدَنَوْتُ منه وقد يسَّرتُ سيفي بسَلِّ بعضِه، على أنه إن أرادني بسُوءٍ بَدأتُ به، فدَفَع إليَّ كتابًا فيه تقليدي خُطَّةَ الوِزارة معَ الـحَشَم، وقال لي: قد تَرى ما نحن فيه فاصدُقْني عن نفسِكَ وقومِك، فلا رأيَ لمكذوب، فقلتُ له: نعَمْ، إيَّاك أن تغترَّ، فليس والله يُقاتلُ عنكَ أحدٌ من زَناتةَ والناسُ لهم تَبعَ، فشقَّ ذلك عليه وقال لي: ما الدليلُ عليه؟ فقلتُ له: أن تأمُرَ بتقديم مِطبختِك إلى طريق طُلَيْطُلة وتُظهِرَ الرحيلَ إليها فتعلَمَ مَن يتبعُك ويتخلَّفُ عنك، فقال: صدقتَ.

وسار عبدُ الرحمن - معَ ذلك كلِّه - سادرًا في غَلوائه وغَيِّه حتّى انتهى إلى منزلِ هاني أدنى محلّاتِه إلى قُرطُبة، فلمّا نزَلَ وباتَ نزَعَ عنه عامَّةُ البربر ليلًا إلى قُرطُبة، وإنَّ منهم مَن تَركَ أثقالَه تخفُّفًا، وذلك يومَ الثلاثاء مُنسلَخَ جُمادى الآخِرة من سنة تسع وتسعينَ المذكورة، فلم يبقَ معَ عبد الرحمن إلَّا نُفَيْرٌ من غِلمانِه، وكان عبدُ الرحمن في ذلك الوقت يُنهِضُ جُندَه إلى أعلى الرُّتب والزِّيادة في الـمُرتَّب ويفتحُ لهم بابَ الإسعاف فلم يرُدَّ أحدًا عن المسألة، وضَمِن لهم على ذلك بَيْعةً مجدَّدةً أنَّ مِنَح الله عليه، وأوهَمَهم أنَّ هناك أموالًا لأبيه خافيةً لم يُظهِرْ عليها عدوَّه، فأظهَروا له الجِدَّ في نُصرتِه والحِرصَ على مالِ عدوِّه، يُبايعونَه بقولهم وتأبى قلوبُهم، وقد علموا احتواءَ عدوِّه على مالِ الزّاهرة وبَذْلَه الأُعطِيَةَ فطمِعوا فيها ويئسوا من خيرِ صاحبِهم.

قال ابنُ عَوْن الله: فلقد حدَّثني بعضُ أكابرِ كُتَّابِ عسكرِه أنّه انتهى تحصيلُه لِـما عقَدَ في تلك الأيّام من الصُّكُك في الإنهاض والتقويم والزِّيادة والتسويغ إلى خمسةِ آلافِ صَكٍّ وزيادة، حتّى لقد عُدِمَ الرَّقُّ جُملةً واستُعملت أجناسُ الأُدُم بدلًا من الصُّحُف، فكانت قصَّةً فاحشةً خلَّفها مثلًا في الناس تعرَفُ إلى اليوم بالرَّباحيَّة.

وكان أوَّلُ شيءٍ صنعَه شنجولُ حين نزَلَ بقلعةِ رَباح أنْ تبرَّأ من ولايةِ العهدِ واقتصَر على الحِجابة، وأحال في ادّعاءِ العهد على خليفتِه هشام، وأنفَذَ كتابَه في الرجوع عنهُ

إلى أهل مدينة طُلَيْطُلة، ومَن خلفَه من أهل الثغور، يَستصلحُهم باعترافِه ويَنشُدُهم اللهَ في الخليفة المظلوم ويُمسِّكُهم بطاعتِه ويصِفُ لهم ما رَكِبَه محمَّدٌ القائمُ ودهماءُ أهل قُرطُبة، فلم يُصْغِ أحدٌ من الناس إلى كتابِه، ولا وفَى له إنسان. وكان أسبقَ الناس إلى الغَدْر به واضحٌ الكبيرُ مَوْلى أبيه، وكان ابن غُومس القُومِس قد صَحِبَه يريدُ قُرطُبَةَ معَه مُعاقِداً له مُستنظِراً به على من يناوئُه من القمامِسة، فلمّا رأى اضطرابَ حالِ شنجولَ وسَمِع صحَّةَ أخبارِ ابن عبد الجبَّار وظهورِه، خَلا بشنجولَ فقال له: أرى أحوالَك منتقِضة، وأمورَك مُدْبِرة، وجُندَك مخالفينَ لك، فأخبِرْني عن هذا الرجُل الذي بقُرطُبة، أأنت أشرفُ أم هو؟ قال: بل هو، قال: الناسُ أميَلُ إليك أم إليه؟ قال: ما أراهم إلّا إليه أميَل، فقال: هذا دليلُ ردًى، قال شنجول: فما الرأيُ عندَك؟ قال: الرأي عندي أنْ ترحَلَ وأرحَلَ معَك بأصحابي اللّيلة، فإن شئتَ قصَدْنا واضحًا فكنّا معَه يدًا واحدة، وإن شئت تركتَه وتوجّهتَ معي إلى بلدي فيمَن معَنا، فأظُن أن يَلحقَك من يَرجُوك ومَن لك عليه حقٌّ وتُريكَ الأمورُ وجوهَها، فقال له شنجول: أنا أرجو إن أطلتُ[1] على قُرطُبَةَ أن تختلفَ الكلمةُ عليه وأن يكونَ لي منهم أنصارٌ يميلونَ إلى سُلطاني ويحبُّونَ ظهوري، فقال له القُومِس: خُذْ باليقين وضع الظّنَّ، فأمْرُك والله مختلٌّ وجُندُك عليكَ لا لك، فقال: لا بدَّ من الإشراف على قُرطُبة، فقال له: أنا معَك على كَراهةٍ لرأيك وعلم بخَطائك، فإن عشْتَ عشْتُ معَك وإن مِتَّ مِتُّ معَك.

ورحَلَ عبدُ الرحمن عن قلعةِ رَباح إلى قُرطُبَةَ وقد زَيَّن له غُواتُه حربَها ودخولَها عَنْوةً، فاغترَّ بهم وأقبلَ قابضاً على سَرابٍ بِقيعةٍ من موعدِ جُندِه، قال إبراهيمُ بن القاسم: فصار شنجولُ من قرية رَباح والأخبارُ تتواترُ بتظافُر أهل قُرطُبَةَ معَ ابن عبد الجبَّار، ورأى البربرُ أمورًا لا يَدْرونَ ما يقدِّمونَ فيها ولا ما يؤخِّرونَ من سُوءِ حال شنجولَ وقُبح أفعالِه وظهور العامَّة بقُرطُبة معَ ابن عبد الجبَّار على حالٍ غيرِ منتظِمة، وكان أغلبَ ظنونِهم أنّ ابنَ عبد الجبَّار لا يُقدِّم هشامًا في الخلافة ولا يصنعُ شيئًا ممَّا صنع به،

---

(١) لفظة لم يظهر منها إلا الألف والطاء، فاسترجمت قراءتها كذلك، وقرأها بروفنسال: «أكدت»، ولا معنى لها.

وأنه كالقائم دونَه والداعي له، فصاروا معَ شنجولَ حتّى أتوا منزلَ هاني، فلمّا نزَلَ به نزَعَ عنه عامَّةُ البربر كما ذكَرْنا في يوم الثلاثاء، ثمَّ وصَلَ يومَ الأربعاءِ التالي له، فسار إلى قُرطُبَةَ أبو زيدٍ بنُ دوناس اليَفْرنيُّ[١] في جماعتِه، وزِيري بن عُرابةَ المطماطيُّ[٢]، وحُباسةُ بن ماكْسن بن زِيري الصُّنهاجيُّ في جماعةٍ من إخوانِه، وتَوالَى الناسُ يتبعُ بعضُهم بعضًا يومَ الخميس والـجُمُعة، ووصَلَ أبو العبَّاس بن ذَكْوانَ القاضي ووجوهُ الصَّقالبة العامِريّينَ ووجوهُ الأندَلُسيّين، وبقي شنجولُ في نفَرٍ يسير من حُرَمِه وحَشَمِه وابن غُومِس معَه في نفرٍ من النّصارى، وتفرَّقَ القومُ أياديَ سبأ، فقال له ابنُ غُومس: ارجِعْ بنا من هنا فيلحقَ بنا بعضُ أصحابِنا ونسيرَ في السَّحَر قبلَ أن يَدهمَنا من يمنعُنا من ذلك، فأبَى له شنجولُ وقال: قد أرسلتُ القاضيَ يأخذُ لي أماناً من ابن عبد الجبَّار، وقد كان رَغِب إلى القاضي وإلى خَزْرُون بن مُحرِز ونَصْر بن أحمدَ أن يأخُذوا له أمانًا من عند ابن عبد الجبَّار، فضمِنوا إليه ذلك، فلمّا وصَلوا كان القاضي ابنُ ذَكْوان أشدَّ الناس عليه عندَ ابن عبد الجبَّار، وكذلك خَزْرُون، فلم يتم له أمان. وسار شنجولُ يَقدُمُ حُرَمَه دونَ احتجابٍ ولا رقبةٍ حتّى شارَفَ منزلَ أرملاطَ الأدنى إلى قُرطُبة، فلم يجدْ معَه بشرًا، فأبْلَسَ واستيأس، وبدا من جَزَعِه وبُكائه ما رثَى له مَن كان معَه، ودخَل إلى قصرِه بأرملاط فصيَّر فيه حُرَمَه وخرَجَ يودِّعُهنَّ والصُّراخُ يتبعُه، وقد غَلَبَ الـجَزَعُ صبرَه فلم يجدْ على البابِ كبيرَ أحد، فنكَصَ على عَقِبه هاربًا يخافُ أن يُقبَضَ عليه، فلم يتبَعْه إلَّا القُومِس شانْجُه بن غُومِس، إلى أن عدَلَ معَ العشيِّ إلى الدَّير الذي أُصيبَ فيه.

وبلغَ محمدَ بن عبد الجبار خبرُ هروبِه، فأرسَلَ إليه الحاجبَ ابنَ دُري[٣] مولى الـحَكَم في الـخَيْل فسبقَه إلى هذا الدَّير فسأل عنه فأخبروهُ أنه وصَل إليه سكرانَ جائعًا[٤]،

---

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٩٢.

(٢) في المطبوع من تاريخ ابن خلدون: «زيري بن غزانة المتيطي».

(٣) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٤١٦.

(٤) في الأصل: «جائع».

فقال للراهب[1]: أطعِمْني ما عندَك، فأتاهُ بخُبزةٍ لم يتمَّ نصفُها ودجاجةٍ مشويَّة، فأكلَ أكْلَ مجهود، وصبَّحه القومُ غداةَ يوم الـجُمُعة، فلمّا عايَنَهم قال: ما لكم عليَّ من سبيل، أنا في طاعة الـمَهْديّ، فاستُنْزِل من الدَّير هو وابنُ غُومِس ومن معَهما من الـخَيْل، وأُخِذ نساءُ شنجولَ، وهنَّ سبعونَ جاريةً، فبُعِث بهنَّ إلى قُرطُبة، ولحِقَ الحاجبُ ابنُ ذُري ومن معَه قَبْل العصر من يوم الـجُمُعة، فلمّا أشرفَ عليهم قيل لشنجول: ليس لكَ إلَّا ما تحبُّ، وهذا الحاجبُ قريبٌ منك، فلمّا قَرُب منه نزَلَ شنجولُ فقبَّل الأرضَ بين يدَي الحاجبِ مرارًا، فقيل له: قبِّلْ حافرَ دابَّتِه، فقبَّل حافرَها، فقيل له: قبِّلْ يدَه ورِجلَه، ففعَلَ وابنُ غُومِس ساكتٌ لم ينطِقْ بحرف ولم يُظهِرْ جَزَعًا ولا استكانة، وأشار الحاجبُ ابنُ ذُرى إلى بعضِ خَدَمِه، فانتـَزَعَ قَلنسُوةَ شنجولَ عن رأسِه.

قال عُمر بنُ أحمدَ في كتاب الرقيق: وسِرْنا إلى أن غَرَبتِ الشَّمس فقلتُ للحاجب: لو عدَلْنا إلى هذا الوادي وتوضأْنا وصَلَّينا؛ فقال: نعم، فنزَلْنا فيه وصَلّينا، وأشار الحاجبُ بكِتافِ شنجول فقلتُ له: أعطِ كِتافَك، فإنّ أميرَ المؤمنينَ المهديَّ أمَرَ ألَّا تُحملَ إليه إلَّا مكتوفًا، قال: فأين أمانُكم؟ قلت: لا بدَّ من تكتيفِك، فربَطْنا يدَيْه رَبْطًا شديدًا، فقال: نفِّسوا عنّي قليلًا، فنفَّسْنا عنه يسيرًا، ثمَّ قال: أطلقوا يدَيَّ استرِحْ ساعةً، وأخرَجَ من خُفِّه سِكينًا كأنَّه البرق فلَفَّ يدَه حينَئذٍ لفًّا شديدًا فسَقَطَ السِّكينُ من يدِه، ثمَّ أشار الحاجبُ بقتلِه.

قال عُمرُ بن أحمد: فضربتُهُ بالسيّفِ فلم يبرَ رأسُه، فضرَبَه الحاجبُ ضربةً أخرى فلم يصنَعْ شيئًا، فأضجعتُه وأنا أقول له: كذا قتَلَ أبوكَ لا رحمَه اللهُ أبي رضيَ اللهُ عنه، ثم ذبحْتُه ذبحًا. وقتَلْنا ابنَ غُومس بعدَه وإنه ما نطَقَ بلفظةٍ واحدة.

قال: وحمَلْنا رأسَ شنجولَ إلى محمَّدٍ في تلك اللّيلة، فرآه، ثمَّ ردَدْناهُ إلى موضعِ جسدِه وحمَلْنا جسدَه على بغل معروضًا عليه، وحمَلْنا رأسَه ورأسَ ابن غُومس ودخلْنا بهما إلى القصر بقُرطُبة، فأمَرَ محمَّدُ بن عبد الجبَّار بشَقِّ بطنِه ونَزْع ما فيه وحشْوِه بعقاقيرَ تحفَظُه، ففُعِل ذلك، ورُكِّب رأسُه على جسدِه وكُسِي قميصًا وسَراويلَ، وأُخرِج، فسُمِّر

---

(١) في الأصل: «الراهب» ولا تستقيم.

على خشَبةٍ طويلة على بابِ السُّدَّة، ونُصِب رأسُ ابن غُومس على خشَبةٍ دونَها إلى جانبِها. قال: وأمَرَ ابنُ عبد الجبَّار لابنِ الرَّسَّان صاحبِ شُرطةِ شنجولَ الذي كان يُنادي في عسكرِه: هذا أميرُ المؤمنينَ المأمون يأمُرُكم بكذا، أن يُناديَ عليه: هذا شنجولُ المأبون، ثمَّ يلعنُه ويلعنُ نفْسَه، وذلك يومَ السبت لأربع خَلَوْنَ لرجَبٍ من السنة.

وفي كتاب إبراهيمَ بن القاسم، قال: أخبرني بعضُ الأُدباء قال: إنّي لقائمٌ عندَ باب الحديد إذ أُتي بشنجولَ معروضًا على بَغْل... عاري الجثَّة[1] مصفَرَّ اليدَيْنِ والرِّجْلينِ بالحنَّاءِ نقيًّا من الشَّعر مبطوحًا على وجهِه باديًا شُوَارُه، ورأيتُ والله سِفْلَةً من أهل البادية تبصُقُ في دُبُرِه وإنّ العامَّةَ تتضاحكُ من فعلهم ولا أحدَ يُنكرُ ما يُرتكَبُ منه.

قال: ومن أعجبِ ما رأينا ما حَكَى لي مَن حضَر هذه الحادثةَ من الثِّقات، قال: ومن أعجبِ ما رأيتُ من غِيَرِ الدُّنيا أنه تمَّ من نصفِ نهارِ يوم الثلاثاء لأربعَ عشْرةَ ليلةً بقِيت من جُمادى الآخِرة المؤرّخ إلى نصفِ نهار يوم الأربعاء تتمَّة الشّهر، وفي مثل ساعته: فَتْحُ مدينة قُرطُبة وهَدْم مدينة الزّاهرة، وخَلْعُ خليفةٍ قديم الولاية وهو هشام بن الحَكَم ونَصْبُ خليفةٍ لم يتقدَّمْ له عهدٌ ولا وقَعَ عليه اختيارٌ وهو محمَّدُ بن هشام بن عبد الجبَّار، وزوالُ دولةِ آل عامر وكرورُ دولة بني أُميَّة، وإقامةُ جنودٍ من العامَّة المحشودة عورضَ بها أجنادُ السُّلطان أهلُ الدُّربة والتجرِبة، ونكوبُ وُزراءَ جِلَّة ونَصْبُ أضدادِهم تقتحمُهم العينُ هُجْنةً وقَماءة، وجَرى هذا كلُّه على يدَيْ بضعةَ عشَر رجلًا من أراذلِ العامَّة: حَجَّامينَ وخَرَّازينَ وكنَّافينَ وزبَّالينَ تَجاسَروا عليه وقد تكفَّلَ المقدورُ بوقوعه، فتمَّ منه ما لم يكنْ في حُسبان مخلوق تمامُه، فسبحانَ من هُو على كلِّ شيءٍ قدير.

وسُرَّ أهلُ قُرطُبَةَ بولاية محمَّد بن هشام سرورًا عظيمًا، وأحدَثوا برِحابِ قُرطُبَةَ وأرباضِها ولائمَ وأعراسًا، وداموا على ذلك أيّامًا تِباعًا يتقلونَ من موضِع إلى موضِع بالمزامِر والملاهي راجينَ تمامَ أملِهم وانتظامَ أمرِهم، فأتاهُمُ القَدَرُ بخلافِ ذلك وهَلَكوا

---

(١) غير واضحة في الأصل.

عن آخرِهم، فكان محمَّدُ بن هشام هذا أشْأمَ خليفةٍ على وجهِ الدُّنيا، وما عَلِم أنّ رعيَّتَه أطبقت عليه جماعة أهل قُرطُبة في عبد الرحمن بن أبي عامر، وكان على... من حُجَّابِ المهديّ... وكانوا... [1] من نَوْكَى الـخَدَم وأراذلِ الـمُتجنَّدة من العامَّة ذوي المهنة، لم ينتَقِهم ولا تخيَّرهم، فأساءوا آدابَهم على مَن دخَل إليه من مُستأمِنة أهل العسكر ووجوهِهم عندَ جلوسِه لهم، واستخفُّوا بكثيرٍ من قُوَّادِهم ووجوهِهم في مَدخلِهم ومخرجِهم للجَهْل الغالِب عليهم وسَفَه أحلامِهم، فطالبوهم بوضَعْ السِّلاح عند الدّخول، وتلقَّوْهم بالمحنة، وأسمَعوهم الـخَنَى، ولم يُميّزوا بين أعلاهُم وأدناهم، وجعَلوا يُوبّخونَهم، حتّى انبعثوا منهم حقدًا وأكسبوهم غائلةً ومقتًا وأذكَروهم سريعًا حُسنَ ما كان يعاملُهم به الـحُجَّابُ أهلُ الدُّربة في الدول المنصرِمة، وكان من أعظم ما جَرى عليه بعضُ ذلك: زاوي بن زِيري بن مناد عظيمُ صُنْهاجةَ أصحابِ إفريقية وملِكُهم وقومُه ملوكُ إفريقيَّة، يملِكونَ من أطْرابُلُسَ إلى طَنْجة، فاحتُبِس بالبابِ للازدحام مدَّةً لا يُفرَّجُ له ولا يُعرَفُ مكانُه، وكلَّما همَّ بالاستقدام رَدُّوه وقَرَعوا رأسَ فرسِه، فلمّا أكثَروا عليه جعَل يقول: هذا الرأسُ فاضرِبوا فالدابَّةُ لا ذنبَ لها، فكانوا يَرَوْنَ أن ذلك كان مبتدأ حقدِه.

وفي يوم السّبتِ المذكور نُهبت دورُ بني ماكْسن بن زِيري ودورٌ لبني زاوي بن زِيري ودورٌ كثيرةٌ بالرُّصَافة لجماعةٍ من البربر.

قال إبراهيمُ بن القاسم: وكان سببُ ذلك أنّ محمَّدَ بن عبد الجبَّار ـ برداءتِه وسُوءِ تصرُّفِه ـ قال في ذلك اليوم: لا يركبَنَّ أحدٌ من الغُزاة ولا يحملْ سلاحًا ولا يأتِ القصر، واتَّفقَ أنْ ركِبَ زاوي بن زِيري في جماعةٍ معَه فرُدُّوا عن بابِ القصر وانصَرفوا على غاية الذُّلّ، وانثال حينئذٍ جُندٌ من السفَّال على دورِ البربر، فكان منهم من النَّهب ما كان، وبلَغَ ذلك صاحبَ المدينة فضَرَبَ أرقابَ ثلاثةٍ من النَّهَّابة وطِيفَ برؤوسِهم. ودخَل زاوي بن زِيري وحَبُّوس وحُبَاسةُ ابنا ماكْسن وأبو الفتوح بنُ ناصر على محمَّدِ بن هشام فأخبَروه بما جَرى عليهم فاعتذَر لهم ووعَدَهم بخَلَفِ ما نُهبَ لهم، وقُتل بعضُ منِ اتُّهم بنَهْبِ البربر، فكان هذا من فعلِ السَّفيه ابن عبد الجبَّار ورأيِه، سببَ الفساد

(١) مواضع النقط مطموسة في الأصل.

والفتنة العظيمة الطويلة التي يُسمّيها أهلُ الأندَلُس بالفتنة البَرْبريَّة، ولو سَمَّوها بفتنة ابن عبد الجبَّار لكان الأحقَّ والأولى.

ومرِضَ الفتى فاتنٌ الكبير، فلمّا حضَرتْه الوفاةُ كتَبَ إلى محمَّدِ بن هشام يقول له: ما لي طاقةٌ بالنهوض إلى أميرِ المؤمنين، وأنا أريدُ إعلامَه بما لا تَسَعُه الـمُكاتبة، فأتاهُ ابنُ عبد الجبَّار بنفسِه، فدفَع إليه فاتنٌ كتابًا فيه جميعُ ما تَركه الخلفاءُ الأُمويُّونَ وذخائرُهم مـمَّا لم يقفْ عليه ابنُ عبد الجبَّارِ ولا اهتَدى إلى موضِعِه من بيوتِ الأموالِ وغيرِ ذلك من نَفيس الأعلاق والجواهر والأمتِعة العاليةِ والآنِيَة وما أشبَهَ ذلك، فاحتوى ابنُ عبد الجبَّار على الجميع.

وفي هذه السّنة: وصَلَ إلى قُرطُبَةَ كتابُ واضحٍ صاحبِ مدينة سالم والثَّغر الأوسط كلِّه بسَمْعِه وطاعتِه له وإظهارِ الاستبشار بقتل عبد الرحمن بن أبي عامر، فقَبِلَ محمَّدُ بن هشام رسولَه وردَّهُ إلى واضح بالشُّكرِ له، وبعَثَ له معَه مالًا وفُرُشًا وكُسًى وطرائفَ لها قَدْر وولَّاه الثَّغرَ كلَّه[1].

وفي ليلة الأحد لليلَتيْنِ بقِيَتا من رجبٍ المذكور، نفَى محمَّدُ بن هشام جماعةً من الصَّقالبة العامريّينَ، فاستَوْلَوا على أطرافِ بلادِ الأندَلُس وملَكوها من ذلك الوقت[2].

وفي يوم الخميس للنّصف من شعبانَ أمَرَ محمَّدُ بن هشام بسَدِّ أبواب القصر على هشام بن الـحَكَم المؤيَّد بالله، وأخْرَج جواريَه وصَقالبتَه وأخَذ جميعَ ذلك ولم يترُكْ له غيرَ جاريتِه شعبَ وخادمتَيْنِ معَها، وأخرَج البقرَ البُلَق والحميرَ البيضَ القِصار والكِباشَ التي كانت في القصر... [3] عن كلِّ شيء.

ولـمّا استوسَقَ الـمُلكُ لابن عبد الجبَّار وتمَّ له مُرادُه ورأى الـمُلكَ في يدِه والخلافةَ قد انتَظَمت له والمؤيَّدَ بالله في قبضتِه، أخرَجَه من قصرِه وأسكَنَه في دار الـحَسَن بن حيّ، وشَخَّص بمثلِه رجُلًا نَصْرانيًّا وقيل: يهوديًّا ميّتًا كان يُشبِهُ المؤيَّد

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤١٨.

(٢) كذلك.

(٣) طمس في الأصل.

وأدخَل الوُزراءَ والـخَدَمةَ عليه فعايَنوهُ ميّتًا ولم يشكُّوا أنه المؤيَّد، فدُفن يومَ الاثنين لثلاثٍ بقينَ من شعبانَ من السنة، وهذه الـمِيتةُ الأولى الواقعةُ عليه من مِيتاتِه[1].

وقال الرقيقُ في كتابِه: توفّي رجلٌ يهوديٌّ، فأوقفَ ابنُ عبد الجبَّار عليه رجالًا من أصحابِه فشهِدوا عندَ العامَّة أنهم رأوْا هشامًا ميّتًا لا فيه أثَرٌ من جُرْح ولا خَنْق، وأنه مات حَتْفَ أنْفِه، وأُحضِر ابنُ ذَكْوان القاضي والفقهاءُ والعدولُ وخَلْقٌ من العامَّة بالقصر، فصَلّوا على هشام المؤيَّدِ بالله بزَعْمِهم، وأحضَرَ ابنُ عبد الجبَّار هشامَ بنَ عبد الله ابن الناصِر فعزَّاهُ عن هشام ابن عمِّه وأن يُعطيَه الـمُنْيَةَ عن ميراثِه من هشام ابنِ عمِّه على أن يُحلّه من سائرِ تركتِه فلم يمتنعْ عليه في ذلك.

وفي رمضانَ من هذه السنة: سَجَن ابنُ عبد الجبَّار سُليمانَ بنَ هشام بن الناصر، وكان قد جعلَه وليَّ عهدِه، وسَجَن معَه جماعةً من قُرَيش.

وفي يوم الثلاثاء لسبعَ عشْرةَ ليلةً خَلَت من شوَّالٍ من هذه السنة: وصَل رسولانِ ذكَرا أن فُلفُلَ بن سعيد بن خَزْرُون الزَّناتيَّ أرسَلَهما إلى محمَّدٍ راغبًا في طاعتِه، ووَعَدَهُ الدعاءَ له، وسأله أن يضرِبَ الدّنانيرَ والدّراهمَ على اسمِه، فتلقَّى محمَّدٌ رسُلَ فُلفُلٍ بالقَبول، وخلَع عليهم وكتَبَ له بذلك، وبعَث له بهديَّة، فوصَلوا إلى أطْرابُلُسَ وقد مات فُلْفُلٌ وهربَ منها وَرُّو بنُ سعيد أخو فُلفُل حين وصُول نَصِير الدولة إليها، فأمرَ بالقَبْض على رجال محمَّد بن هشام وضَرْبِ أعناقِهم.

وكان محمَّدُ بن هشام بن عبد الجبَّار، لِـما أراد اللهُ من خِذْلانِه، مُظهِرًا لبُغْضِ البربر لا يقدِرُ أن يستُرَ ذلك، فكان يتكلَّمُ في مجالسِه بسُوءِ الثناء عليهم، وبَلَغَهمُ الخبرُ بذلك و... عزَم...[2] من وجوهِهم.

قال الرقيقُ أيضًا: وكان ابنُ عبد الجبَّار لـمّا استوسَقَ له الأمر أسْقَطَ من جُندِه نحوًا من سبعةِ آلاف، ولـمّا رأى هشامُ بن سُليمانَ ابن الناصِر رَداءةَ ابن عبد الجبَّار وإهانتَه رؤساءَ قبائل البربر وزُعماءهم جعَلَ يدُسُّ إليهم ويسعى في خَلْع محمَّد بن عبد الجبَّار،

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤١٨.

(٢) مكان النقط مطموس في الأصل.

فصمَّم على ذلك إلى أنْ عدَلَ الناسُ والـجُندُ كافَّةً إلى فَحْص السُّرادق وقد دَبَّر القومُ الذين يريدونَ القيامَ على ابن عبد الجبَّار أمرَهم معَ هشام بن سُليمان، فلمّا احتَفل فحصُ السُّرداق بالناسِ الذين يريدونَ القيامَ على ابن عبد الجبَّار، شَغَبَ قومٌ من أولئك المخالفينَ لهم، فالتَحمَ الأمرُ بينَهم، فبادرَ قومٌ منهم إلى خالدِ بن طَرِيفٍ فقَتلوهُ وقَتلوا محمَّدَ بن ذُرَّى وهما وزيرانِ من وُزراءِ محمَّد بن هشام، ورفَعوا رأسَيْهما، وانحازَ الناسُ كلُّ فريق في ناحية، وكان هشامُ بنُ سُليمان معَ جماعة من العبيد العامِرِيّينَ ومَن تَبِعهم في ناحيةٍ أُخرى وقد انحازَ البربرُ عن سائر الجُند وتألَّب إلى مَن كان على رأي هشام بن سُليمانَ من العامَّةِ مـمَّن كان ابنُ عبد الجبَّار أسقَطَه، فزَحَفوا إلى القصر وحصَروا ابنَ عبد الجبَّار، فأرسَل القاضيَ أبا العبَّاس بنَ ذَكْوان وأبا عُمرَ بنَ حَزْم[1] إلى هشام بن سُليمان فعَتِباهُ على خروجِه وقبَّحا ما صنَع، فقال لهما هشام: ظُلِمْتُ وأُوذيتُ وسُجِن وَلَدي على غيرِ شيء، وأخافُ على نفسِه ولا أدري ما صنَعَ به، وكان وَلَدُه سليمانُ معتقَلًا عندَ ابن حيّ، فأرسَلَ إليه ابنُ عبد الجبَّار يأمرُه أن يُطلقَ سبيلَ سليمانَ ويُرسلَه إلى دارِه، ففعَل ابنُ حيٍّ ذلك، وحصَل سليمانُ في دارِه وكان مريضًا.

ووقَع بين هشام بن سُليمان وبين القاضي ابن ذَكْوانَ وابن حَزْم محاورةٌ عظَّما عليه فيها الفتنةَ وحَذَّراه سُوءَ العاقبة، فلَجَّ في أمرِه، فقال له ابنُ حَزْم: فمَن يقومُ بهذا الأمرِ الذي تريدُه؟ قال: أنا؛ لأنّي أحقُّ به منه وأوْلى، فانصَرف الرجُلانِ عنه وقد يئسا منه.

وكان محمَّدُ بن هشام بن عبد الجبَّار قد أظهرَ من الـخَلاعة... والضَّعفِ ما لم...، واستُعمل له من الخمر مئةُ خابِية، واستُعمل له مئةُ بُوقٍ للزَّمْر ومئةُ عُودٍ للضَّرب، واشتُرِيَ له صَقْلبيٌّ كان يتعشَّقُه عند ابن الزيَّاتِ العطَّار، وبعَثَ إلى نساءٍ كان يُصاحِبُهنَّ، منهنَّ جاريةُ أبي القاسم المصريِّ الخياليِّ التي يقال لها: بُستان، وامرأةِ ابن الشَّرْح التي اسمُها واجد، فظهرَ من فِسقِه واختلال دينِه وعقلِه أمرٌ لا يظهَرُ إلَّا من أهل الدَّعارةِ المتهتّكينَ فيها، فكان هذا من جُملةِ أسباب القيام عليه وإشعال الفتنة لدَيْه، ولم يزَلْ طُولَ

(١) هو والد الفقيه الشهير أبي محمد بن حزم، وترجمته مشهورة، فتنظر الجذوة (٢١٥) والصلة البشكوالية (٤٢) وتعليقنا عليهما.

مدَّتِه مشتهرًا بالفِسق مُظهرًا للخلاعة لا يُفيقُ من سُكر ولا يَرَعُ عن مُنكرٍ بالنساءِ والصَّقالبةِ والملاهي حتّى قال بعضُهم فيه [من الوافر]:

أمـيرُ النـاس سـخْنةُ كـلِّ عَـينِ ... يبيـتِ اللّيـل بَـين مخنَّـثَينِ
يُجَـشِّمُ ذا ويلـثُمُ خـدَّ هـذا ... ويَـسكَرُ كـلَّ يـوم سـكرتَيْنِ
لقـد ولَّـوا خلافـتَهم سـفيهًا ... ضـعيفَ العقـل شَـيْنًا غـيرَ زَيْـنِ

وقيل فيه أيضًا [من مخلّع البسيط]:

أشْـأمُ خَلْـقٍ عـلى العبـادِ ... والنـاسُ مـن حـاضرٍ وبـادِ
أبـو الوليـدِ الـذي اقـشعرَّت ... لنَحْـسِه شـعرةُ الـبلادِ
كـان عـلى قومِـه جميعًـا ... قُـدارَ عـادٍ لقـوم عـادِ

وقيل فيه كثيرٌ من هذا يطولُ الكتابُ به.

ولـمّا انصرَفَ القاضي وابنُ حَزْم عن هشام بن سُليمان ويئسا منه، تحوَّلَ الـجُندُ معَه فأحرقوا سُوقَ السُّرادق وعَبَروا القَنْطرة، فلمّا توسَّطَها كَبَا به فرسُه فانقطع رِكابُه وعبَرَ القَنْطرةَ فصار بينَها وبينَ بابِ الحديد، وقامت العامَّةُ أيضًا معَ خليفتِهم ابن عبد الجبَّار، فلمّا رأى جُندُ هشام بن سُليمان قيامَ العامَّة من أهل الرَّبَض الغربيِّ معَ ابن عبد الجبَّار وسَمِعوا قومًا ينادُونَ: يقولُ لكم أميرُ المؤمنين: ما أمَرَكم به زاوي بن زِيري، فرُّوا ولا صَبَروا، فأُخِذ هشامُ بنُ سُليمانَ أسيرًا، وأُخرِج ابنُه سليمانُ من دارِه، وأُخِذ أبو بكرٍ بنُ هشام فسلَّموهم بأيديهم إلى ابن عبد الجبَّار، فقَتَل هشامًا بينَ يدَيْه صبرًا ونُهِبت دورُ جماعة من خواصِّه بالمدينة ودورُ سائرِ البربر، فلم يسلَمْ منها إلّا ما أحال اللّيلُ دونَه[1].

وانحازَ البربرُ إلى أرملاطَ عشيَّةَ يوم الـجُمُعة بعدَ مُحاربةٍ كانت بينَهم وبينَ العامَّة، واشتعلتِ الفتنةُ بقُرطُبَةَ بين البربرِ والعامَّة، وأمَرَ ابنُ عبد الجبَّار أن يُنادى في الناس: مَن أتى برأس بَرْبريٍّ فله كذا، فتسارعَ أهلُ قُرطُبَةَ في قَتْل مَن قَدَروا عليه فلم يبقَ تاجرٌ ولا

(١) ينظر كامل ابن الأثير ٨/ ٦٨٠، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤١٩.

جُنديٌّ إلَّا عمِلَ مجهودَه في ذلك، ودخَلوا على وسنار البِرْزاليّ، وكان مـمَّن له آثارٌ جميلةٌ في الجهاد، فذُبِح على فراشِه في دارِه، ودخَلوا على رجُل صالح فذُبِح في دارِه، ونُهبت ديارُ البربر وهُتِك حريمُهم وسُبِي نساؤهم وباعوهنَّ في دارِ البنات، وقَتلوا النساءَ الحوامل وقَتلوا سبعةَ عشَرَ رجلًا من أهلِ تِلْمسانَ قَدِموا للغزوِ في ساعةٍ واحدة، واستُنزِلَ مسلمُ بن عبد الله الـحُسَينيُّ من دارِه فقُتل ورُبط في رجلِه حبلٌ وجُرَّ به إلى حُفرةٍ بجوارِ دارِه تُعرَفُ بحفرةِ طالوت، فأُلقي فيها، وانتُهبت دارُه وفُضح بناتُه وعيالُه، وقُتل قومٌ من أهل خُراسانَ وأهل الشام على أنَّهم بربر، وأمعَنَ أهلُ قُرطُبَةَ في هذه القبائح حتّى أخَذَهم اللهُ بذلك عمّا قريبٍ ومحَقَهم إلى الأبد.

واختفى محمَّدُ بن يَعْلى المغْراويُّ ومصلُ بن حُمَيد في نفَرٍ من بني عمِّهما وجماعةٍ من البربر، إلى أن أمَّنَهم محمَّدُ بن هشام، ثمَّ نادى مُناديهِ: مَن آذَى بَرْبريًّا أو تعرَّضَ له بعدُ كانت عقوبتُه السيّف، فكفَّ الناسُ عنهم، وأحضَرهم محمَّدٌ إلى نفسِه، فألبَسَهم القَلانسَ والأرْدِيَة، وأمَرَهم أن يُزيلوا زِيَّهم وأن يتَزيَّوا بزِيٍّ جارٍ، ويخلَعوا العمائم، ففعَلوا ودخَلوا عليه في ذلك الزِّيّ، وذلك منه بحفاوةٍ وديانة وأمَرَ... ذلك اللِّباس ففعل.

ولما صار البربرُ إلى أرملاطَ رحَلوا متوجهِّينَ إلى الثَّغر، فأرسَلَ إليهم محمَّدٌ يؤمِّنُهم فلم يرُدُّوا عليه جوابًا وقالوا لرسُولِه: لولا أنَّك رسولٌ وتاجرٌ لقَتلناك، وسيُجازيه اللهُ بما فَعَل. ورَكِبَ البكريُّ، وهو أحدُ الوُزراء، فدار قُرطُبَةَ وأرباضَها يقولُ للناس: قد عَفا أميرُ المؤمنينَ الـمَهْديُّ عن البربرِ على أن يَرجِعوا إلى بلادِهم فيصيروا حرَّاثينَ كما كانوا، ووصَلَ البربرُ إلى قلعة رَبَاح في آخر شوَّال. وقد كان سُليمانُ بن هشام إذ قُتِل والدهُ خرَجَ من قُرطُبَةَ هاربًا بنفسِه يطلُبُ النّجاةَ بها، فصار في جملةِ البربر ودخَل في غِمارِهم، فرآهُ بعضُهم فسأله عن نفسِه فأخبرَهُ فاجتمعوا إليه ووَلَّوْه على أنفسِهم وعقَدوا له الخلافة، وتَسمَّى بالمستعين بالله على ما يأتي.

ومن كتاب الاقتضاب: كان محمَّدُ بن عبد الجبَّار قد جَنَّد جُندًا من العامَّة وأطرافِ الناس وقرَّبهم وآثَرهم على العَبيدِ العامريَّةِ وعلى الطائفة البربريَّة، وأساء إلى هاتينِ الطائفتين فاستَوْحَشوا منه، فأمَّا العبيدُ العامريَّةُ فخرَج منهم كثيرٌ إلى شرق الأندلُس، وأمَّا البربرُ

فتألَّبت منهم طائفةٌ وقاموا على محمَّد بن هشام المتلقِّبِ بالـمَهْديّ معَ هشام بن سُليمان ابن الناصر وسَمَّوهُ الرَّشيدَ وزَحَفوا معَه إلى القصر بقُرطُبة وحَصَروا فيه الـمَهْديَّ يومًا وليلةً في أوائل شوَّال، ثمَّ كانت الكرَّةُ للمَهْديِّ عليهم فهَزَمهم وقَتل الرّشيدَ، وافترقَ ذلك الجمع، فأحال حينَئذٍ الـمَهْديُّ على من كان بقُرطُبَةَ من البربرِ عامَّةَ قُرطبة فاستحالوا عليهم قتلًا وأسرًا وغارةً حتَّى استَرقّوا كثيرًا منهم، ففرَّ من قَدَر على الفِرار منهم والتأموا معَ غيرِهم من المنهزِمينَ عن الرّشيد، وأقاموا سُليمانَ بنَ حَكَم، وكان بشقُنْدة، فكان سليمانُ بن حَكَم يومَئذٍ إمامًا للبربر، وذلك في عقِبِ شوَّال من سنة تسع وتسعين. ونهَضوا معَه إلى شانْجُه بن غَرْسيّة بن فرذلند، وعاهَدوهُ على أن يدخُلَ سليمانُ بن حَكَم قُرطُبة، فجاء معَهم شانْجُه في عسكر عظيم من النّصارى واحتَلَّ قُرطُبة، فبَرَزَ إليهم الـمَهْديُّ فيمن كان معَه من عسكرِه، وجُلُّ من كان معَه العامَّةُ من فارس وراجل، فهَزَمهم سليمانُ، وقَتل النّصارى فيها يومَئذٍ من أهل قُرطُبة نيِّفًا على ثلاثينَ ألفًا من المسلمين، فكانت أوَّلَ ثاراتِ المشركينَ على المسلمين(١).

وقد كان لـمّا شعر بقُربُ سليمان معَ البربرِ والنّصارى، ورأى تغيُّرَ الناس عليه وكراهتَهم فيه، ردَّ هشامًا المؤيَّدَ بالله إلى القصر رجاءَ أن يتماسَكَ له الحال، ويأبَى اللهُ إلّا ما يريد، فكانت دولتُه الخسيسةُ هذه نحوًا من تسعة أشهر(٢).

وكان قيامُ الرّشيد معَ البربر، وهو هشامُ بن سليمان، في بروزٍ كان صنَعَه المهديُّ لرُسُل بعض ملوكِ الروم في يوم الـمِهرَجان عقِبَ شوَّالٍ من السنة، وقُتل في ذلك اليوم وزيرانِ لابن عبد الجبَّار، وأتى البربرُ معَه إلى باب الشّكال فحرَقُوه، وقد تقدَّم ذلك.

قال ابنُ حيَّان: وجَرَت بينَ الرّشيد والـمَهْديِّ مخاطبات، ومشَت الرسُلُ بينَهما في الصُّلح على أن ينخلعَ المهديُّ ويؤمّنَه الرّشيدُ في نفسِه وأهلِه لِـما رأى مَيْلَ أهل قُرطُبَة إليه. وباتا ليلتَهما على هذه النِّـيَّة إلى صَبيحة يوم الـجُمُعة بعدَه، فلمّا أصبح جهَّز المهديُّ جيشًا إلى خَلْف الوادي، وصار العسكرانِ بعُدوة الوادي القُصوى، وقام أهلُ الرَّبَض

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨٠-٦٨١.

(٢) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨١.

الغربيِّ وأهلُ قُرطُبَةَ معَ المهديِّ ونادَوْا: لا طاعةَ الآنَ، ووقَعت الحربُ بينَهم، فظَفِر عسكرُ المهديِّ بهشام هذا وابنِه وجماعةٍ من بني عمِّه، وسِيقوا إليه، فعَذَلَـهم وعاتَبَهم حينًا، ثمَّ أمَرَ بقتلِهم صَبْرًا، فلما قُتلوا سكَنت الأحوالُ بقُرطُبة. وجَدَّ البربرُ في الهزيمة يومًا وليلة، ثمَّ إنهم أقاموا ابنَ أخي الرّشيد، وهو سليمانُ بن حَكَم، بعدَ الهزيمةِ بيوم واحد، وذلك لليلتَيْنِ بقيتا لشوَّالٍ من السنةِ المذكورة، ونهَضَ معَهم إلى الثغر، وكانت مبايعتُهم له بموضع يُعرَفُ بصُلْبِ الكلب[1].

قال إبراهيمُ بن القاسم: لـمّا بايَعَ البربرُ سُليمانَ بن حَكَم حمَلوا له مالًا من عندِ كلِّ قَبيلٍ منهم، وصاروا معَه إلى قلعة رَباح في أوائل ذي قَعْدة، فبايَعَه أهلُها، وكان محمَّدُ بن هشام قد أرسَلَ عبَّاسًا البرْزاليَّ إليهم فلحِقَهم بقلعةِ رَباح وقال لهم: قد أمَّنكم أميرُ المؤمنينَ أمانًا تامًّا فارجِعوا إلى دُورِكم ومحالِّكم، فقالوا: ليس إلى رجوعِنا من سبيل؛ لأنَّه إن أمَّنَنا لم تُؤمِّنّا رعيَّتُه، وإن أمَّنَتْنا عامَّتُهُ لم يُؤمِّنّا جُندُه، فلمّا قارَبوها كاتَبَ سليمانُ أهلَها يدعوهم إلى الطاعة، فأبَوْا عليه وأرسَلوا كتابَه إلى محمَّدٍ فشكَرَ لهم ذلك.

ولـمّا قرُبَ البربرُ من مدينة سالم، وكان بها واضحٌ الفتى ومعَه نحوُ أربع مئة فارس من البربر، فأراد واضحٌ غدرَهم فخرَّقوا صفوفَه، وضارَبوهم حتّى خرَجوا فلحِقوا بإخوانِهم ودخَلوا معَهم إلى وادي الحجارة عَنْوةً فانتَهبوها واستباحوا أهلَها[2].

وقرأ محمَّدُ بن هشام بقُرطُبَةَ كتابًا يُشنِّعُ فيه على البربرِ أنهم فعَلوا بوادي الحجارة وصنَعوا، فضجَّ الناسُ لذلك، وقال لهم: نغزو البربرَ بجماعتِنا، وابتَدأ ابنُ عبد الجبَّار ببناءِ أبوابٍ بقُرطُبة، وأخَذ في حمل الدّقيق والـحَطَب والملح وغيرِ ذلك إلى القصر، وظهَرَ منه جَزَعٌ وخوف، واجترَأتْ عليه العامَّةُ فاستخَفُّوا به. ووصَل البربرُ إلى مدينة سالم، فسألوا واضحًا أن يعملَ بينَهم وبينَ ابن عبد الجبَّار صُلحًا على أن يكونَ سليمانُ وليَّ عهدِه ويتَّفِقا على أمرٍ يكونُ فيه صلاحُ الناس، فأبَى واضحٌ ودَسَّ إلى طائفة من العَبيدِ العامريّينَ كانوا معَهم

---

(١) ينظر الاستقصا للناصري ٢/ ٧٢، قال: «وكان في ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب».

(٢) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٠.

أن يحتالوا على سُليمان ويقبضوا عليه، وأمَرَ جُندَه أن يَخرُجوا لقتال البربر، فلمّا باشَروهم واشتغلوا بالحربِ معَهم عَدَلَ العبيدُ إلى سُليمان ليَبلُغوا البربرَ دونَه، فشَعَر بهم البربرُ فقَتلوهم، وبرَزَ إلى واضح مصالةُ بن حُمَيْد ووَلَدُه ورجالٌ من بني عمِّه فقَتلَهم الـجُندُ قبلَ أن يصِلوا إليه، وسار البربرُ عن مدينة سالم.

واتَّصل الخبرُ بمحمَّد بن عبد الجبَّار بقُرطُبة، فأمَرَ بقراءةِ كتابٍ مفتعَل على الناس يُخبِرُ بأنَّ البربرَ قُتِلوا قتلًا ذَريعًا، وأنه يصلُ من رؤوسِهم أكثرُ من ألفِ رأس، وكان الأمر بخلافِ ذلك، فاستبشَر أهلُ قُرطُبَةَ بالنَصر لمحمَّدٍ ودعَوْا له بدوامِه.

وكان عندَ محمَّد بقُرطُبَةَ بليق[1] غلامُ واضح، فاتَّـخَذ له محمَّدٌ جيشًا وسار به إلى واضح، ونادى منادي واضح في سائر الثغور: مَن حمَلَ شيئًا من الطّعام إلى مـحَلّةِ البربر فقد حَلَّ مالُه ودمُه، فأقاموا خمسةَ عشَرَ يومًا يعيشونَ بحَشِيش الأرض، فلمّا اشتدَّ ذلك عليهم أرسَلوا إلى ابن مامةَ النَّصرانيِّ يقولونَ له: قد علِمتَ ما بينَنا وبينَ واضح وابنِ عبد الجبَّار، فإنْ أنت رغِبتَ في صُلحِنا ومسالمتِنا فنحن معَك عليهما، فمَضَت رُسُلهم إلى ابن مامةَ دونَه، فوجَدوا عندَه رسُلَ ابن عبد الجبَّار ورُسُلَ واضح يسألانِه الصُّلحَ معَهما على أن يُعطياهُ ما أحبَّ من مدائنِ الثَّغر، وحَمَلا إليه هديَّةً منها خيلٌ وبِغالٌ وكُسًى وما لا يُحصَى من الطرائفِ والتُّحف، فأجاب ابنُ مامةَ دونَه للبربر على أن يعطيَه البربرُ إذا ظَفِروا ما أحبَّ من مدائن الثَّغر فقَبِلوا ذلك منه، ورَدَّ رسُلَ واضح وابن عبد الجبَّار دونَ شيء. ثمَّ أرسَلَ إلى البربر ألفَ عَجَلةٍ من الدّقيق والعقاقيرِ وأنواع المآكل وألفَ ثورٍ وخمسةَ آلاف شاة، وجميعَ ما يُصلحُهم، حتّى الفحمَ والعسَل[2] والسُّروجَ والشقق للباسِهم وغيرَ ذلك إلى ما دونَه من الحبال والأوتاد، فعاش البربرُ بذلك وقَوِيت نفوسُهم.

ثمَّ سار ابنُ مامةَ دونَه بنفسِه إليهم في جَمْع كثيف من النّصارى، فلمّا وَصَلوا إلى مدينة سالم أرسَلوا إلى واضح يرغَبونَ إليه في الصُّلح كَراهيَةً في القتال وإقامة الـحُجَّة

---

(١) في الأصل: نقطة الباء واضحة وأما الياء فغير منقوطة، وفي نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢١: «يلبق».

(٢) في الأصل: «حتى الفحم والعسل والفحم».

عليه وعلى [مَن أتى][1] به العَوْنُ لابن عبد الجبَّار، فأبى وامتَنع، فساروا كلُّهم يومَئذٍ إلى شرنبةَ فحشَر لهم واضحٌ أهلَ الثّغور، وأرسَل إليه ابنُ عبد الجبَّار غُلامَه قَيْصرًا بالعسكر، فنزَلَ واضحٌ وقيصرٌ على البربرِ بشرنبةَ فاقتَتلوا فانهزَم واضحٌ وأسَر البربرُ من كان معَه فقَتلوا منهم من أحَبُّوا وعفَوْا عمَّن أحَبُّوا، وكانت الوقعةُ بقُرب قلعة عبدِ السلام، فنصَبَ البربرُ الرُّءوسَ عليها، وكان وصُولُ المنهزِمينَ من أصحابِ واضح وقيصر إلى قُرطُبة يومَ الأحد في أواخِر ذي حِجَّةٍ من السنة.

ثمَّ دخَلَت سنةُ أربع مئة، فقيل: إنّ الوَقْعة كانت بينَ البربرِ وواضح وقَيْصر في محرَّم من سنة أربع مئة، ومَلَك البربرُ جميعَ ما كان في عسكر واضح من مالٍ وسلاح وغيرِ ذلك[2]، فدَعا محمَّدُ بن عبد الجبَّار القاضيَ ابنَ ذَكْوان وأمَرَه أن يسيرَ إلى البربر، فاعتذَر له، ثم دَعَا مصلَ بن حُمَيد فقال: هم أشدُّ الناس علي غضبًا لـمُفارقتي لهم فعَذَره، وقَلِق لذلك وظهَر خوفُه، وحفَر حفائرَ حولَ قُرطُبَةَ على أفواه الأرباض، وهُو معَ ذلك لا يُفيقُ من سُكر، وبعضُ الناس يَهْجُونَه ويتكلَّمونَ بقبيح أفعالِه.

قال: وأمَرَ محمَّدٌ البربرَ الذين بأرباضِ قُرطُبة أن يَخرُجوا إلى حيث شاءوا من العُدوة، فاشتدَّ الأمرُ عليهم وضاقَ، وخافوا إنْ خَرَجوا من قُرطُبة أن يُقتَلوا بكلِّ طريق، فاستتَرَ كثيرٌ منهم. وحفَر محمَّدُ بن عبد الجبَّار خندقًا حولَ فَحْص السُّرادقِ خوفًا من البربر وتحزَّب أهلُ قُرطُبة وتجمَّعوا من كلِّ رَبَض وخَرَجوا إلى القصر وهم يقولون: نَقتُل هؤلاءِ البرابرَ الذين معَنا ونساءهم وأولادَهم؛ لأنهم أضرُّ علينا من الذين يأتونَنا، والبربرُ معَ ذلك مستَتِرونَ عندَ من يأمَنُونَه من أهل قُرطُبة ومن القَرويّينَ السُّكان بها والمسافرينَ، وذلك على مُخاطرةٍ وخوف.

ثمَّ اشتغَل أهلُ قُرطُبَةَ بأنفُسِهم وخرَجوا إلى فَحْص السُّرادق، فخرَج أهلُ قُرطُبَةَ لقتال البربر على قلَّةِ غَنائهم وظهورِ عَجْزهم وكثرة اغترارِهم بأنفُسِهم.

---

(١) ما بين الحاصرتين مطموسة في الأصل.

(٢) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢١.

ورتَّب ابنُ عبد الجبَّار الرّجالَ على أفواهِ الأرباضِ والأبوابِ والأسوار، وركِبَ إلى فَحْص السُّرادق، ورَتَّب قُوَّادَه وجُندَه ومَن معَه من العامَّة على الحفائر التي حُفِرت بالأرباض، وكان مِن قُوَّادِه: القصائريُّ الطَّبيبُ وابنُ عامرٍ الوكيلُ وغيرُهما، ومعَهم قومٌ من الـحَوَّاتينَ والـجَزَّارين وأشباهِهم، قد لبِسوا الدّروعَ عليهم والبنودُ والطّبولُ بينَ أيديهم، فكانوا فضيحةً وضُحَكةً لمن رآهم، والبلدُ قد غَصَّت أرباضُه ورِحابُه ومَقابرُه بأهل البوادي والمحشودينَ من مدائنِ الأندَلُس وأقاليمِها.

وأتَى واضحٌ في أربع مئة فارس من أهل مدينة سالم ناصرًا لمحمَّد بن عبد الجبَّار ناقضًا لعهدِ البربر طمعًا في استئصالِـهم، ووَصَلَ غُلامُه في مئتي فارس[1].

ونزَلَ البربرُ يومَ الأربعاء لإحدى عشْرةَ ليلةً خَلَت من ربيعٍ الأوَّل أرملاط، فأحرَقوا فُندقَ ابن أبي الأصبَغ الوزير والـمُنْيَةَ وغيرَ وذلك والتقَت مقدِّمةُ الجيش بمقدّمة البربر في ذلك اليوم فلم تكنْ بينَهم حرب، وأصبح البربرُ يومَ الخميس بعدَه بأرملاط، ونادى مُنادي محمَّدِ بن عبد الجبَّار أن يَخرُجَ كلُّ من بلَغَ الـحُلْمَ من سائر الناس، فلم يتأخَّرْ أحد، فلا ترى إلَّا شيخًا ضعيفًا أو حدَثًا غِرًّا، فلمّا كان يومُ السبتِ برَزَ البربرُ في سَفْح الجبل وبينَهم وبينَ أهل قُرطُبَةَ وادٍ وَعِر، فعبَرَ بعضُ الـجُند إليهم الوادي، فحمَلَ عليهم نحوُ ثلاثينَ فارسًا من البربر فانهزَم الـجُند وانهزَمت العساكرُ التي كانت بعُدوةِ الوادي وسَقَطَ بعضُهم على بعض وانهزَم الناسُ أجمعون، وهرَب واضحٌ من فَوْرِه إلى الثَّغر لم يُعرِّجْ على شيء، ووضَع البربرُ السّيفَ على أهل قُرطُبَةَ فقتلوا منهم خَلْقًا عظيمًا، وغرِقَ كثيرٌ منهم في الوادي وهَلَكوا وفَنِي الجميعُ بسقوط بعضِهم على بعض، ودخَل البربرُ إلى أرباضِ قُرطُبة، وبات الناسُ على سطوح دورِهم في وجَلٍ وخوف[2].

ولـمّا رأى الخسيسُ ابنُ عبد الجبَّار ظهورَ البربرِ عليه وهزيمةَ أهل قُرطُبة، أظهرَ هشامَ بنَ الـحَكَم وأقْعدَه حيث يراهُ الناس في منظرٍ يُشرِفُ على باب الشّكالِ والقَنْطرة، وأرسَل إلى القاضي ابن ذَكْوان فأتاهُ، فبعَثَه إلى البربرِ يقولُ لهم عنه: إنّما أنا

---

(١) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢١.

(٢) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢١.

قائمٌ دونَ هشام بن الـحَكَم ونائبٌ عنه كالخليفة والحاجب، وهو أميرُ المؤمنين، فمضَى ابنُ ذَكْوان إلى البربر وأدَّى لهم رسالتَه، فقال له البربر: سبحانَ الله! يا قاضي، يموتُ هشامٌ بالأمس وتُصلِّي عليه أنت وغيرُك واليومَ يعيشُ وترجِعُ الخلافةُ إليه؟ وجعَلوا يتضاحكونَ منه، فاعتذَر ابنُ ذَكْوان لهم من ذلك.

ودخَل ابنُ عبد الجبَّار القصرَ يحتالُ للهَرَب، ثمَّ اختفى، ولما كان يومُ الاثنين خرَج أهلُ قُرطُبَةَ بأسْرِهم إلى سُليمان، فأحسَنَ لقاءهم والردَّ إليهم، ورجَعوا إلى قُرطُبة[1].

وحدَّث مَن سمِع ابنَ مامةَ النَّصرانيّ صاحبَ العسكرِ الذي كان معَ سُليمان والبربر يقولُ: كنَّا نظُنُّ أن الدِّينَ والشجاعةَ والحقَّ عندَ أهل قُرطُبة، فإذا القومُ لا دينَ لهم ولا شجاعةَ فيهم ولا عقولَ معهم، وإنَّما اتَّفقَ لهم ما اتَّفق من الظهورِ والنَّصر بفضل ملوكِهم، فلمّا ذَهبوا انكشَف أمرُهم، أمَّا العقولُ فإنَّ البربرَ قَتلوهم يومَ السبتِ والبلاءُ والخوفُ قائمٌ بهم، ثمَّ أتَوا إليهم يومَ الاثنين على البِغال مقصِّصين، فما كان يؤمِّنُهم أن يَقتُلَهم سُفهاؤهم؟ وأمَّا الشجاعةُ فانهزَم جُندُهم وملوكُهم وجميعُهم من أقلَّ من مئتي فارسٍ ليس فيهم رئيسٌ ولا مذكور. وأمَّا الدِّينُ فإنّ أصحابي هؤلاء، يعني النّصارى، يُغيِرونَ ويَسرِقونَ بغير أمرٍ، ثمَّ يأتي أهلُ قُرطُبَةَ فيشترونَ منهم نَهْبَهم وأموالَ أصحابِهم المسلمين، فلا يَرَعُ عنها أحدٌ منهم، فليس في القوم عقلٌ ولا شجاعةٌ ولا دين.

ودخَل زاوي بنُ زِيري القصرَ بقُرطُبَةَ يومَ الاثنين السادسَ عشَرَ لربيعٍ الأوّل، وركِبَ سليمانُ بعدَه فدخَل القصرَ أيضًا ثمَّ رجَع إلى عسكرِه بُكْرة، واختفى ابنُ عبد الجبَّار بقُرطُبَةَ فلم يُطْلَبْ، ووَكَّل سُليمانُ صقالبتَه بحفظِ هشام بن الـحَكَم في بعض حُجَر القصر، ونَهَبَ بعضُ عَبيد البربر دُورًا من أرباضِ قُرطُبة فضُربت رِقابُ أربعةٍ منهم فسَكَن الناسُ ولم يُجازوهم بفعلِهم معَهم، وأُنزل شنجولُ عن خشَبتِه فغُسل ودُفن في دار أبيه، ودَفَن الناسُ موتاهم، وأُحصِي مَن قُتل من أهل قُرطُبة فكانوا نحوًا من عشَرة آلاف.

وركِب القُومِس ابنُ مامةَ إلى القصر فأُكرِم وخُلع عليه وعلى أصحابِه، ثمَّ عاد إلى معسكرِه، وطلَبَ من البربر أن يعطوهُ الحصُونَ التي شَرَطَ عليهم فقالوا: ليست الآنَ

---

(١) نفسه ٢٣/ ٤٢١-٤٢٢.

بأيدينا، فإذا تمهَّد سُلطانُنا أنجَزْنا لك ما وافَقْناك عليه. ورحَل يومَ الاثنين لسبع بقينَ من ربيع الأوَّل، وبعَثَ سُليمانُ والبربرُ معَه من يُشيِّعُه حتّى أخرَجوه من أرض الإسلام، وبقيَ من أصحابِه مئةٌ أُنزِلوا في مُنْيةِ العقاب.

وكان ابنُ عبد الجبَّار دفَعَ إلى واضح خمسينَ ألفَ دينار ليُفرِّقَها في جُند مدينة سالم، فانهزَم واضحٌ وبقي المالُ في دارِه، فنزَلَها زاوي بنُ زيري فاحتَوى على ما في الدار، ووجَد هشامُ بنُ الـحَكَم المؤيَّدُ بالله جاريَتَيْنِ من جواريه قد حَبِلتا من ابن عبد الجبَّار، فقال: ما جَرى على أحدٍ مثلُ ما جَرى عليَّ من هذا الرجلُ في نفسي ومالي وأهلي، فاللهُ بيني وبينَه، ونودي في الناس بالحضور في المسجد الجامع ليبايعوا سُليمانَ بنَ حَكَم ففعَلوا، وشَرَطَ لهم شروطًا سرَّتهم، وذلك في ربيعٍ الأوَّل من سنة أربع مئة.

دولةُ سُليمانَ بن حَكَم المستعينِ بالله(١)

نسَبُه: هو سليمانُ بن حَكَم بن سليمانَ بن عبد الرحمن الناصِر.

كُنْيتُه: أبو أيوب.

لقبُه: المستعينُ بالله.

أُمُّه: أُمُّ وَلَدٍ روميَّةٌ اسمُها ظَبْيَةُ.

عُمُرُه: اثنتانِ وخمسونَ سنةً وسبعةُ أشهر وثلاثةُ أيّام.

خلافتُه: وَلِي مرّتَيْن، الأولى: يومَ الثلاثاء السابعَ عشَرَ لربيعِ الأوَّل المذكور من سنة أربع مئة ثانيَ يوم فِرار الـمَهْديّ، وانْخلع يومَ الأحد الثانيَ عشَرَ لشوَّال من السنة، فكانت دولتُه الأولى سبعةَ أشهر، والثانيةُ من يوم خَلَعِه هشامَ بن الـحَكَم إلى يوم قَتْلِه ثلاثَ سنينَ وثلاثةَ أشهرٍ ونصفًا.

مولدُه: كان يومَ وُلِد هشامُ بن الـحَكَم، وقُتل معَ أخيه عبد الرحمن وأبيهما بيد عليّ بن حَمُّود العلَويّ على حسَبِ ما يأتي ذكْرُه في موضعِه.

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس ٣٩، والمعجب ٩٠، والحلة السيراء ٢/ ٥، وتاريخ الإسلام ٩/ ١١٨، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٣٣.

صفتُه: أسمرُ أعْيَنُ تامُّ القامة أشمُّ الأنف عظيمُ الكَراديس جميلُ الوجه، حسَنُ الأدبِ والشِّعر.

قاضيه: ابنُ ذَكْوانَ في الدولة الأولى، وفي الثانية: عبدُ الله ابن الصَّفَّار[1].

نَقْشُ خاتِـمَه: سليمانُ ابن الـحَكَم.

قال إبراهيمُ بن القاسم: وفي ربيعٍ الأوَّلِ هذا فرَّقَ سليمانُ العمّال وولّى الولايات، وأمَرَ ونَهى، وابنُ عبد الجبَّار يتنقلُ بقُرطُبةَ من دارٍ إلى دار لا يَصْحو من سُكر ولا يَرَعُ عن فسِق، وعزَمَ سليمانُ على إرجال قوم من جُند ابن عبد الجبَّار عن خيلِهم فامتَنعوا وصاحوا: لا طاعةَ إلّا للمَهْديّ، فقُتل منهم كثيرٌ، وكان مقامُ البربر بالزّهراء، فكان أهلُ قُرطُبة ـ لرداءِتهم ـ لا يألُونَهم إلَّا شرًّا، وكلُّ من وجَدوه منهم في خَلْوة أو منفردًا قَتلوه غِيلةً، وكان البربرُ إذا دخَلوا أسواقَ قُرطُبَةَ تخوَّفوا من العامَّة، فإنْ صهَلَ فرسٌ على فرس قامت نَفْرةٌ لتعصُّبِ العامَّة عليهم وبُغضِهم فيهم، وهم معَ ذلك صابرونَ يَنْهَونَ سُفهاءهم وعبيدَهم أن يمُدَّ أحدٌ منهم يدَه إلى أندَلُسيّ.

وكان ابنُ عبد الجبّار قد حصَلَ عند رجُل من أصحابِه يقال له: سليمانُ بن عيسى، يشربُ معَه، فخرَجَ يومًا لحاجة ورجَع، فوجَده معَ زوجتِه، فخرَجَ إلى صاحبِ الشُّرطة فعرَّفه أنّ ابنَ عبد الجبَّار في دارِه، وفطِنَ ابنُ عبد الجبَّار فهرَبَ مع ثلاثَ عشْرةَ جاريةً كنَّ معَه، وبقيتْ له جاريةٌ لم تهربْ معَه فحُمِلَت الجاريةُ إلى سليمانَ بن الـحَكَم، وانتُهِبَ دار سليمان.

---

(١) هكذا في الأصل، وهو وهم لا ريب فيه، فإن عبد الله ابن الصفار هو عبد الله بن محمد بن مغيث أبا محمد لم يكن قاضيًا، وتوفي قبل تولي المستعين بنصف قرن سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة (تنظر الصلة البشكوالية، الترجمة ٥٤٦، وبغية الملتمس، الترجمة ٨٨٣، وتاريخ الإسلام ٨/ ٤٥، والوافي للصفدي ١٧/ ٤٨٤)، والمقصود هو ابنه أبو الوليد يونس بن عبد الله قاضي الجماعة بقرطبة والمتوفى سنة ٤٢٩هـ وترجمته معروفة في جذوة المقتبس (٩١١)، ومطمح الأنفس ٥٩، وصلة ابن بشكوال (١٥١٢)، وتاريخ الإسلام ٩/ ٤٦٦، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٦٩، والعبر ٣/ ١٦٩، ومرآة الجنان ٣/ ٥٢، والديباج المذهب ٢/ ٣٧٤ وغيرها، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والـمآب.

وخرَجَ ابن عبد الجبَّار من قُرطُبَةَ ووصَل إلى طُلَيْطُلَةَ في أوَّل جُمادى الأولى، فقَبِله أهلُها أحسنَ قَبول، وبلَغَ ذلك سُليمانَ فأنفَذَ أحمدَ بن وَداعةَ في جيش إلى طُلَيْطُلة ليُعذِر إليهم ويزيلَ[1] الفتنةَ، فرجَع ابنُ وَداعةَ يُخبِر بخلافِهم وخلاف أهل الثَّغر كلِّه وخلافِ واضح، وتمسُّكِهم بطاعة ابن عبد الجبَّار، فأرسَل سليمانُ جماعةً من الفقهاءِ والوُزراء فأعذَروا إليهم فلم يجِدوا فيهم قَبولًا للطاعة، ورجَعوا إلى سليمانَ فأخبروهُ، فتأهَّب لقَصْد طُلَيْطُلَةَ وسائرِ الثغر، وعَقَد ألويتَه في الجامع ورحَل يومَ الاثنين لإحدى عشْرةَ ليلةً خَلَت من جُمادى الآخِرة على طريق الجبل، فلمّا قَرُب من طُلَيْطُلَةَ أرسَل الفقهاءَ إلى أهلِها ليُعذِروا إليهم، فرجَعوا إليه بخلافِهم، وتجاوَزَ سليمانُ طُلَيْطُلَةَ رجاءَ أن يرجِعوا إلى الطاعةِ بغير إساءةٍ إليهم، ورحَل إلى الثَّغر فنزَلَ على مدينة سالم في وقتٍ ضيّق من البردِ والثّلج وقلّةِ الـمِيرة، فلم يمكُثْ بها ورجَع، فكان وصولُه قُرطُبَةَ لثلاثٍ بقينَ من شعبان[2].

ونزَعَ ابنُ وَداعةَ في جماعةٍ من العبيد إلى ابن عبد الجبَّار، ونزَع إليه أيضًا ابنُ مَسْلَمةَ صاحبُ الشُّرطة، وخرَجَ واضحٌ من مدينة سالم ومضَى إلى طَرْطُوشةَ، وكتَبَ إلى سُليمانَ يرغَبُ إليه في المعافاةِ من الـخِدمة وأن يأمُرَه بسُكْنى مَيُورقةَ لينقطعَ عن الناس ويتعبَّدَ بها، وذلك مكرٌ منه وخديعة، فكتَبَ إليه سليمانُ بالنّظرِ في سائرِ الثّغر وجهادِ العدوّ، وإنَّما كان ذلك من واضح تطمينًا لسليمانَ حتّى أحْكَم ما أرادَه من إخراج الإفْرَنج إليه لقتالِه، فتمَّ له ذلك، ووافق الرومَ على إدخالِـهم مدينةَ سالم وتسليمها لهم، فأخْلاها مـمَّن كان فيها من المسلمينَ وأنزَلَها للكافرينَ ليقاتِلوا معَه البربرَ حمايةً للفاجر ابن عبد الجبَّار.

فدخلَ الإفرَنجُ مدينةَ سالم قاعدةَ الثَّغر الأوسط ومَلَكوها، فأوَّلُ ما دخَلوا من المدينة جامعَها، فرشّوا حيطانَه بالخمر، وضَربوا فيه الناقوسَ وحوَّلوا قِبلتَه...، ثمَّ شَرَطوا على واضح أن يلتزمَ لكلِّ رجُل منهم دينارَيْنِ في كلِّ يوم وما يقومُ به من الشّرابِ واللَّحم وغير ذلك، ويُجريَ على القُومِس في كلِّ يوم مئةَ دينارٍ وما يقومُ به من الطّعام والشراب وغيرِ ذلك،

---

(١) هذه اللفظة مطموس أكثرها.

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٢٢.

وعلى أنَّ لهم كلَّ ما حازوهُ من عسكرِ البربر من سلاح وكُراع ومال، وأنَّ نساءَ البربرِ ودماءهم وأموالَهم حلالٌ لهم لا يَحُولُ أحدٌ بينَهم وبينَهم، وشَرطوا عليه شروطًا كثيرةً غيرَ هذه، فالتزمَ ذلك كلَّه لهم(١).

وأتَى الإفْرنجُ، فوصَلت مُقدّمتُهم إلى سَرَقُسْطة، فساموا أهلَها سُوءَ العذابِ في عبِيدهم وذَراريهم وتُجّارِهم والنّزولِ في ديارِهم، ثمَّ سار بهم واضحٌ إلى طُلَيْطُلة ليجتمعَ بها معَ ابن عبد الجبَّار، وبلَغَ ذلك سليمانَ المستعينَ بالله، فاستَنْفَر الناسَ بقُرطُبَةَ يومَ الاثنين لخمسٍ خَلَوْن من شوَّال لقتال الإفرنج، فأظهَرَ أهلُ قُرطُبَةَ العجْزَ عن ذلك وجَبُنوا عنه وطلَبوا منه معافاتَهم فعافاهم.

وخرَجَ سليمانُ من قُرطُبَةَ لقتال الإفْرنج لأربعَ عشْرةَ ليلةً مضَت من شوَّال، والتقَى القومَ يومَ جُمُعة، وقد جعَلَ القومُ في ساقتِهم سليمان، وجعَلوا معَه خيلًا من الـمَغاربةِ وقالوا له: لا تبرَحْ من موضعِك ولو وَطِئتك الخيل، ثمَّ تقدَّموا، فحمَلَ الإفْرنجُ عليهم حملةً مُنكَرة، فأخرَجَ البربرَ لهم ليتمكَّنوا منهم، فلمّا رأى سليمانُ خيلَ الإفْرَنج قد خَرَقت صفوفَ البربر قَدَّر أنّ البربرَ قدِ اصطُلِموا، فانهزَمَ لحينِه فيمَن معَه، وعطَف البربرُ على الإفْرَنج عَطْفةً وصَدَموهم صدمةً قَتلوا فيها ملكَهم أرمقند، وقَتلوا معَه خَلْقًا من وجوهِهم، وقُتل من رَجَّالة البربر نحوُ ثلاث مئة رجُل ولم يُقتَلْ لهم فارسٌ واحد.

ولـمَّا رأى البربرُ هزيمةَ سُليمان انحازوا إلى الزّهراءِ فأخرَجوا عيالَهم وأموالَهم وأولادَهم وخرَجوا عنها عشيَّةَ يوم السّبت، فلم يبْقَ فيها منهم أحد، ومضَى سليمانُ فارًّا بنفسِه فيمَن معَه إلى شاطِبة، وخرَجَ عامَّةُ قُرطُبَةَ إلى الزّهراءِ فانتـهَبوا ما وجَدوا فيها من آلاتِ البربر وقَتلوا مَن وجَدوا بها ودخَلوا الجامعَ ونَهَبوا حُصُرَه وقناديلَه ومصاحيفَه وسلاسلَ قناديلِه وصفائحَ أبوابِه، وبرَزَ محمَّدُ بن عبد الجبَّار وواضحٌ إلى قُرطُبَةَ فدخَلاها ورجع مُلكُه لها(٢).

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٢٢-٤٢٣.

(٢) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨١، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٣.

دولةُ محمَّد بن هشام بن عبد الجبَّار الثانية[1]

ولـمّا انهزَم سليمانُ في شوَّالِ المؤرَّخ، نزَلَ ابنُ عبد الجبَّار بفِناء قُرطُبَةَ بمحلَّتِه وحَلَف بأيْمانِه والـمُغلَّظة ألّا يستقرَّ ولا يحُلَّ عن نفسِه أو يَفْرَغَ من أمرِ البربر، وقد كان البربرُ أخذوا عيالَهم كما ذكَرْنا وعبَّوا عسكرَهم وتحرَّكوا إلى جهة الخضراء، فدخلَ الـمَهْديُّ قُرطُبَةَ وأخذ البَيْعةَ لنفسِه، فكان أوّلَ مَن بايَعَه هشامٌ المؤيَّدُ ثمَّ سائرُ أهل قُرطُبة على اختلافِ طبقاتِهم، وطلَبَ من أهل قُرطُبَةَ تقويةً بمال، فجمَعوهُ له على وَجْه السَّلَف، ثمَّ خرَجَ في اتّباع البربر بمن معَه من النّصارى وجميعِ عساكر الثغور وغيرِهم بعدَ أن أعطى النصارى أُعطِيَتَهم.

وذُكِر في كتابِ «الاقتضاب»، أنَّ الذي كان معَ ابن عبد الجبَّار يومَئذٍ من المسلمينَ نحوٌ من ثلاثينَ ألفَ فارس دونَ النّصارى، وكانوا في تسعة آلاف، فتوجَّه بهم في اتّباع البربرِ، فهزَمَهُم البربرُ الهزيمةَ المشهورة بوادي آرُه[2]، وانصَرف ابنُ عبد الجبَّار إلى قُرطُبَةَ مُنهزِمًا، وامتلأتْ أيدي البربر كُراعًا ومتاعًا، وانحَلَّ النّصارى عن ابن عبد الجبَّار وانصَرفوا عنه، وسار البربرُ إلى ناحية رَيُّه، وأقبَلَ سليمانُ بنُ الـحَكَم المستعينُ بالله من الشّرق بمنِ اجتمَع له، والتقَى معَ البربر، واتَّصل الخبرُ بابن عبد الجبَّار فبَنَى معَ أهل قُرطُبَةَ على الحصار وأخَذوا له أُهبتَه.

وفي تاريخ هذه الهزيمة بوادي آرُه على ابن عبد الجبَّار والنّصارى كان جَوازُ عليّ بن حُمُّود إلى سَبْتة، وانتَزَى فيها باسم سُليمان، وقال لهم: إنه ابن عبد الجبَّار، وإنَّ أميرَ المؤمنينَ هو سليمان، فمَلَكَ سَبْتَةَ من يومئِذ.

وكانت تلك الهزيمةُ عقِبَ شوَّال من سنة أربع مئة، ولم يكنِ البربرُ في هذه الهزيمة جُزءًا من أحدَ عشَرَ مـمَّن كان معَ ابن عبد الجبَّار، وقد كان وصَل إلى قُرطُبَةَ جملةٌ من العبيد العامريَّة من شاطِبةَ وغيرِها، فيهم عَنْبرٌ[3] وخَيْران[4]، ووصَل معَهم

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨١، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٤، وتاريخ ابن خلدونم ٤/ ١٩٣ فما بعدها.

(٢) مراصد الاطلاع ١/ ٣.

(٣) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٥.

(٤) له ذكر في الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٦٩، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨ وغيرها.

مُنذرُ[1] بن يحيى صاحبُ سَرَقُسطةَ بجُملتِه، فسُرَّ ابن عبد الجبَّار بهم، والعبيدُ المذكورونَ إنَّما كانوا يُسِرُّونَ على ابن عبد الجبَّار لِـما عمِلَه بهشام المؤيَّد أوَّلًا وبابن أبي عامر ثمَّ أخْذِه البيعةَ لنفسِه آخِرًا، فكلَّما قَرُب سليمانُ معَ البربرِ إلى قُرطُبة جمَحَ العبيدُ بما في أنفُسِهم من ذلك إلى أن قاموا عليه بعدَ ذلك على ما يأتي.

قال إبراهيمُ بن القاسم في كتابِه: لـمّا أتَى ابنُ عبد الجبَّار وواضحٌ إلى قُرطُبَةَ قتَلوا كلَّ متشبِّهٍ بالبربر وكلَّ عُدوي ومَن لم يَرَ العُدوةَ ولا سمِع بها إسرافًا وتحاملًا وجُرأةً على الله سبحانَه وطُغيانًا، حتّى أنَّ كلَّ مَن بينَه وبينَ أحد عَداوةٌ قال: هذا بَرْبريٌّ فقُتل ولم يُسأَلْ عنه! وقَتلوا الأطفالَ وشَقُّوا بطونَ الحوامل وأخَذوا ابنةَ رجلٍ من البادية، وكانت جميلةً حسَنة، وعرَفَ أبوها العِلجَ الذي أخَذَها فوقَفَ إلى واضح وقال له: إنّ فلانًا العِلجَ أخَذ ابنتي وليست بَرْبريَّة، فقال له: لا تتكلَّمْ في شيءٍ من هذا فما إلى ردِّها من سبيل، وعلى ذلك عاهَدْناهم، فمضَى الرجلُ باكيًا إلى العِلج ورغِبَ إليه في ردِّها عليه وبذَلَ لهُ أربع مئة دينار، فأخَذَها منه العِلجُ وقَتله، وهذا من أنكى الأمورِ وأقبحِها، أنّ هذا الرجُلَ المظلومَ سار ليفتديَ ابنتَه فأُخِذ مالُه وقتل، ذهبت نفسُه ومالُه وابنتُه ولم يُغيِّرْ ذلك أحدٌ من أهل قُرطُبَةَ ولا أنكَرَه.

وبلَغَ منَ استخفافِ أهل قُرطُبَةَ بالإسلام في هذه الفتنة: أنَّ رجلًا نَصْرانيًّا وقَفَ في أعظم شوارع قُرطُبَةَ فقال: أين محمد لا ينفعُكم؟ ـ ونال منه صلّى اللهُ عليه وسلّم وشرَّف وكرَّم ـ فلم يُكلِّمْه أحدٌ منهم بكلمة، فقال رجلٌ من المسلمينَ غَيْرةً للنبيّ: ألا تُنكرونَ ما تسمعون، أمَا أنتم مسلمون؟ فقال له جماعةٌ من أهل قُرطُبة: امْضِ لشُغلِك، وكان الإفْرَنجُ إذا سمِعوا الأذانَ للصلاة يقولونَ قولًا لا يُذكَر فلا يَعترِضُ عليهم أحدٌ بشيء.

وجمَعَ أهلُ قُرطُبَةَ مالًا كثيرًا للإفْرَنج وسألوا القاضيَ ابنَ ذَكْوان أن يدفعَ إليهم مالَ الأحباس المودَعَ في مقصورةِ الجامع فامتَنع عليهم، فكَسَروا بابَ المقصورة وأخَذوه، فدفَعوهُ إلى الإفْرَنج.

---

(١) ينظر المغرب ٢/ ٤٣٥، والإحاطة ٣/ ٢٨١.

وسأل ابنُ عبد الجبَّار وواضحٌ الإفْرَنجَ الرحيلَ إلى البربر، فتثاقَلوا، فلم يزالا يرفُقانِ بهم ويتذلَّلانِ لهم حتّى أجابوا، فسارت مُقدّمةُ القوم وفيها واضحٌ وسار ابنُ عبد الجبَّار ومعَه كلُّ مَن قَدَر على حَمْل السلاح من أهل قُرطُبَةَ والبوادي، وهم يَروْنَ أنه الجهادُ الأكبر، فساروا حتّى نزَلوا على البربر بوادي آرُه يومَ الخميس لستٍّ خَلَوْن من ذي قَعْدةٍ من السنة من سنةِ أربع مئة، فاقتَتلوا قتالًا شديدًا، فانهزَمَ واضحٌ وابنُ عبد الجبَّار والإفْرَنجُ أعظمَ هزيمة، وقُتل من الإفْرَنج أكثرُ من ثلاثةِ آلاف، وغرِقَ منهم خَلْق، واحتَوى البربرُ على ما في عسكرِهم وعسكرِ واضح وابن عبد الجبَّارِ من مضَارِبَ ومالٍ وسلاح ودوابَّ وغيرِ ذلك، وكان مـمَّن قُتل في المعركة اليهوديُّ وزيرُ ملِك الإفْرَنج فوجَد البربرُ في مَضرِبِه ثلاثينَ ألفَ مِثقال، ووَجَدوا على بطونِ الإفْرَنج مناطقَ مملوءةً دنانيرَ ودراهمَ مـمَّا يتجاوزُ الوَصْف. وقُتل من البربر يومَئذٍ أبو يَدّاس بن دُوناس اليَفْرنيُّ، وكان أقومَهم وأشجَعَهم، وقُتل من بني يَفْرنَ وبني برْزَال سبعةَ عشَرَ فارسًا، ومن سائرِ البربر خمسةَ عشَرَ فارسًا خاصَّة.

ووصَل المنهزِمونَ إلى قُرطُبَةَ في اليوم الثاني من الوَقْعة، فزاد حنَقُهم على البربر، وسأل ابنُ عبد الجبَّار وواضحٌ من الإفْرَنج الرُّجوع معهما إلى البربر، وكانوا قد قَتلوا من البربر وجوهاً، فأبَوْا عليهما وقالوا: قَتَلوا خِيارَنا ووجوهَنا، ثمَّ رحَلوا عن قُرطُبَةَ يومَ الـجُمُعة لسبع بقيتْ من ذي القَعْدة، فكان لأهل قُرطُبَةَ لِفراقهم أكبرُ همّ، حتّى كان بعضُهم يلقَى بعضاً فيُعزِّيه كما يُعزِّي من فقَدَ أهلَه ومالَه أسَفاً على رحيلِهم وجَزَعاً من وصول البربرِ إليهم.

ثمَّ فَرَض ابنُ عبد الجبَّارِ على أهل قُرطُبَةَ مالًا، وتَـهيَّأَ للخروج للبربر، وأمَرَ واضحاً بمثل ذلك، فخَرَجا في الثَّغْريّينَ والعبيدِ وأهلِ قُرطُبَةَ جميعًا ليقصِدوا البربر، وأظهرا شجاعةً وتجلُّدًا، فلمّا سارا ثلاثينَ ميلًا عن قُرطُبَة كرّا راجعَيْنِ إليها تهيُّبًا لقتال البربر ومخافةً منهم، فلمّا رجَع ابنُ عبد الجبَّار وحصَل بقُرطُبة أمَرَ بحفر خَنْدق على قُرطُبة، وأُقيم وراءَ هذا الخندق سُورٌ مـمَّا يلي قُرطُبة، والبربرُ في كلِّ يوم يُغيرونَ على نواحي قُرطُبَةَ فلا يَخرُجُ إليهم أحد، وأَخَذوا الجبلَ المعروفَ بِبُشْتَر، الذي كان يَأوي إليه ابنُ حَفْصُون،

وهو كثيرُ الماءِ والـمَرْعى والمزارع، فزاد ذلك في قُوَّتهم، وأخَذ ابنُ عبد الجبَّار ما كان بقصر قُرطُبَةَ وبالناعورةِ والرُّصافة فأمْحَقَه اللهُ على يدِه ويدِ جُندِه، وهو معَ هذا كلِّه في انهماكٍ وانهتاك، مُظاهِراً بالفِسق وشُرب الخمر ومُضيِّقًا على أهل قُرطُبَةَ ومُفترِسًا للتُّجّار، وكان واضحٌ يحقِدُ عليه ما فعَلَه بابن أبي عامر وآل عامر معَ ما يَراهُ في انهماكِه في الزِّناء والخمرِ والـجَوْر، فكان يُدبِّرُ في قتلِه معَ طائفة من العبيد إلى أنْ أمْكَنَه ذلك.

مقتلُ محمَّدِ بن هشام بن عبد الجبَّار[1]

وذلك أنَّ طائفةً من العبيد العامريِّينَ تواعَدوا معَ واضح فدخَلوا عليه يومَ الأحد الثامن لذي حِجَّة من سنة أربع مئة، وكان واضحٌ الفتى استَحْجَبَه ابنُ عبد الجبَّار، فثاروا بأجمعِهم معَه، ودخَلوا القصيرَ ومَلَكوه، ودخَلوا عليه، ثمَّ أخرَجوا هشامًا المؤيَّدَ وأقعَدوا ابنَ عبد الجبَّار بينَ يدَيْه، فجعَلَ المؤيَّدُ يعدِّدُ عليه ما أتاه في نفسِه وحُرَمه، ثم نُحِّي من بينِ يدَيْه فقُتل، وتولَّى قَتْلَه المعروفُ بالشَّفَق: عبدٌ من عَبِيد الـحَكَم، وعبيدُ العامريّينَ ذَبَحوه وحَزُّوا رأسَه ورمَوْا بجُثَّتِه إلى الرَّصيف فسَقَط في الموضع الذي كانت فيه جثَّةُ ابن عسقلاجَةَ من اليوم الذي قَتَلَه ابنُ عبد الجبَّار، وبعَثَ واضحٌ برأسِه إلى البربر، ونصَبَ جُثَّتَه أيَّامًا، ثمَّ دُفن في مِرحاض تحتَ خشَب المصلوبين، وأراح اللهُ من شرِّه وفِسْقِه.

وكان وَلَدُه بقُرطُبة فتًى حَدَثَ السِّنَ سِنُّه يومَ قَتْل أبيه ستُّ عشْرةَ سنة، فاحتال له شِيعةُ أبيه حتى وصَلوا به إلى طُلَيْطُلَةَ فقبِلَه أهلُها وأمَّروهُ على أنفُسِهم، فلم يزَلْ بها إلى أنْ دعَتْه نفسُه إلى الغارة على ما كان لمحمَّدٍ من البلد، فلقيَه مُحارِبٌ التُّجِيبيُّ فهَزَمه وأخَذه أسيرًا، وأرسَل به إلى واضح فقتَلَه.

خلافةُ هشام المؤيَّد بالله الثانية[2]

وذلك أنه لـمّا قُتل ابنُ عبد الجبَّار يومَ مِنًى من ذي حِجَّةِ سنة أربع مئة، رجَعت الخلافةُ إلى هشام بن الـحَكَم، فجلسَ للناس مجلسَ الخلافةِ وجَدَّدوا لهُ البيعة، وقدَّم لِحجابتِه واضحًا الفتى الكبيرَ، وبعَثَ برأس ابن عبد الجبَّار إلى سُليمانَ المستعين بالله،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨١-٦٨٢، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٥.

(٢) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢١٦، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٦.

وكتَبَ إلى البربر يدعوهم إلى الدّخول في طاعته، فلما عيَّد الناسُ ركِبَ هشامٌ المؤيَّدُ بالله ومشَى على الـحَفِير ورَتَّب الناسَ على مراتبِ الـحَزْم والضّبط لأمورِهم، ووَطَّنَهم على الدّفاع لعدوِّهم.

وكان هشامٌ في ذلك الوقت يَظهَرُ للناس رجاءَ أن يتّصلَ ذلك بالبربر فينتشرَ أمرُهم ويُنيبوا إليه ويَنتبِذوا من سليمان، وكان البربرُ لا يزيدونَ إلَّا نِفارًا من أهل قُرطُبَةَ لِـما فَعلوا معَهم من القبائح، وكان سليمانُ يؤنِّبُ واضحًا على قَتْل ابن عبد الجبَّار وغَدْرِه له وقلَّةِ وفائه معَه.

ونزَلَ البربرُ بشقُنْدة وفجِّ المائدة يُغيرونَ ويقتلونَ، وهشامٌ ورعيَّتُه وواضحٌ وجُندُه خلْفَ السُّورِ لا يتَجاوزونَه شبرًا واحدًا، فلم يزَلِ الأمرُ إلى أشدِّ اضطراب والطريقُ خالٍ، وأهلُ قُرطُبَةَ في أضيقِ حال من الإغرام والمبيتِ على الخندق، والحربُ كلَّ يوم قائمة والقتلُ ذَريع، فكانوا في نَقْص الأموال والأنفُس، وانضمَّ معَ ذلك الوباءُ والمرضُ وهم في حِرص على قتال البربر معَ العَجْز عنه والتقصير فيه، وواضحٌ في كلِّ ساعة يحدِّثُ الناسَ بالكذب والإرجافِ بالبربر بما لا نهايةَ له، ويُخرِجُ أهلَ قُرطُبَةَ كلَّ يوم للقتالِ فلا يتَجاوزونَ خَندقَهم ويُصابُ منهم فيرجِعونَ ويقولون: قُتل فلانٌ من البربر وانهزَموا نحوَ جهةِ كذا، ويُكثِرونَ الـمَيْنَ والكذب.

وفي سنة إحدى وأربع مئة: نزَلَ البربرُ قُرطُبة، ودخَلوا الزّهراءَ يومَ السّبت لستٍّ بقِينَ من ربيع الأوَّلِ منها، وكان بالزّهراءِ طائفةٌ من الجُند يحفظونَها، فحُكِم عليهم بقتل بعضِهم وإبقاءِ بعضِهم فأقاموا بها وليس أحدٌ من الجُند يتجاوزُ الخندق، وأطلَقَ واضحٌ بسُوءِ رأيه وخِذلانِه يدَ السُّفهاء على مُنْية الرُّصافةِ فخرَّبها وحَرَّقها وقطّع ثمارَها بعدَ حُسنِها وجَمالِـها خوفًا أن يدخُلَ البربرُ عليه من جِهاتها، ثمَّ نَدِم بعدَ ذلك عليها وعَلِم أنَّها كانت حِصنًا عليه.

ورحَلَ البربرُ من الزّهراءِ لخمسٍ بقِينَ من شعبان، وجَعلوا يُغيرونَ على أدنى البلدِ وأقصاه يَنْهَبونَ ويُخرّبونَ، يُحرّقونَ ويَقتُلون، وإنْ جَرَّدَ إليهم واضحٌ خيلًا لم يقصِدوهم خوفًا منهم ويَنْهبونَ ما أفْضَلَه البربرُ في القُرى والأقاليم ويرجِعون، وانضمَّ أهلُ البوادي

من كلِّ ناحيةٍ خوفًا من البربر، فصاروا أكثرَ من أهلِها، ومات أكثرُهم جُوعًا بها ومقتولًا بخارجِها وفَنِيت مَواشيهم. وانتهَى البربرُ إلى مالَقةَ فعاثوا في نَواحيها وقَتَلوا من أهلِها، ثمَّ مالوا إلى إلْبيرةَ فنَهَبوا وخَرَّبوا وسَبَوا النّساء، ومَن عَلِموا أنَّ عندَها منهنَّ مالًا علَّقُوهنَّ من ثُدِيِّهِنَّ، وعلَّقوا... ثمَّ عادوا إلى مالَقةَ بجَمْعِهم، فطلَبَ أهلُها الأمانَ من سُليمان فصادُّوهم عنهم على سبعينَ ألفَ دينارٍ دفَعوها إليه، ودخَلوا الجزيرةَ فقتلوا مَن وجَدوا بها وهَدَموا دورَها وسبَوا ذَراريَّها وأخَذوا الأموالَ، ثمَّ أمَرَ سليمانُ بضمّ السَّبي إلى دارِ الصِّناعة وخلَّى سبيلَهم، فلحِقَ بعضُهم بمالَقةَ وتزوَّجَ بعضَهنَّ من رجال العسكر وماتَ أكثرُهنَّ، وقطَع البربرُ الـمِيرةَ عن قُرطُبة، فاشتدَّ بها الجوعُ وعُدِمت المآكل[1].

قال إبراهيمُ بن القاسم: وكان أهلُ قُرطُبَةَ ـ على حالِ شدَّتهم وعظيم محنتِهم ـ لاجِّينَ في الفتنةِ والتعصُّبِ على البربر، ومَن ذَكَر الصُّلحَ قُتل، حتَّى أنَّ رجُلًا من وجوهِ أهل العلم قال في الجامع: اللّهمَّ أصلِحْ علينا، فقُتل في مكانِه، وقال آخَرُ في الجامع: إنَّ اللهَ أحبَّ الصُّلحَ وأمرَ به، فقُتِل في الحين، وجاءتِ امرأةٌ من الفُرن فأوقَعت قِدْرًا فانكَسَرت، فكانت سوداءَ، فقالوا: بربريَّةٌ سوداء، فقُتلت، وصَعِدت أُخرى من الوادي بجرَّة فوقَعَت عن كتِفِها فانكَسَرت فقُتلت، ومثلُ هذا كثيرٌ لا يُحصَى. قال: وظهرَ من الجُند الاستهانةُ بواضح والاستخفافُ به، فصرَّحوا بشَتْمِه وسبِّه.

وأتَى رسُلُ ابن مامةَ القُومِس زعيمَ نَصْرانيَّته يَستنجِزونَ تسليمَ الـحُصون إليه على ألَّا يغزوَهم ولا يتعرَّضَ لشيءٍ من ثغورِهم، فرَضُوا بهذا، وحضَر الفقهاءُ والعدولُ والقاضي، وكتَبوا كتابًا بذلك.

ذكْرُ تسليم الـحُصونِ للنّصارى وما جرَى على المسلمينَ في ذلك وما اتَّصل به من خَبَرِ الفتنة وغيرِ ذلك

قال: ولـمّا وصَلَ الرسُلُ إلى قُرطُبَةَ حضَر الفقهاءُ والقاضي والعدولُ وكتَبوا كتابًا بالشّروط وتسليم الحصُونِ للنّصارى، وقُرِئ على الناس بحضرة هشام وواضح، وشَهِد فيه جميعُ مَن حضَر، وخرَجَ القومُ من القصر مُستبشِرينَ بما كان، فكان الذي

(١) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٧.

صار لابن مامةَ جميعُ الحصُون التي كان أخَذها الـحَكَمُ بنُ عبد الرحمن ومحمَّدُ بن أبي عامر وابنُه المظفَّرُ، كلُّ ذلك استخفافًا من هشام، هكذا ذَكَر الرّقيقُ في كتابِه، وكان البربرُ أيضًا لـمّا طُرِدوا من قُرطُبَةَ وقُتلوا بها قد خَرَّبوا مُدُنًا كثيرةً وقَتلوا أكثرَ أهلِها ولم يَسلَمْ منها إلَّا طُلَيْطُلَةُ ومدينةُ سالم، وبلَغَت خيلُهم أقطارَهما وما وراءهما، حتى أنَّ الراكبَ يمشي شهورًا لا يرى أحدًا في طريق ولا قرية.

وسمِع اللَّعينُ ابن شانْجُه أيضًا بما سُلِّم إلى اللّعين ابن مامةَ دونَه من الحصُون، فكاتَبَ يَطلُبُ حصُونًا أُخَر، وتوعَّد وتهدَّد، فأُجيبَ إلى ما سَأل من ذلك، وكُتب بتسليمِها إليه، وهذا كلُّه لَجاجًا في ألَّا يُصَالحَ البربر[1].

ثمَّ عزَم واضحٌ على مُراسلةِ البربر لـمّا رأى اضطرابَ الـجُندِ عليه وطمعَهم فيه، وأظهَرَ أنّ ذلك عن رأي هشام لِـما فيه من الصّلاح للخاصَّةِ والعامَّة، فبعَثَ واضحٌ إلى البربر رجُلًا يُعرَفُ بابن بكر، فاجتَمع بسُليمانَ وعاد بجوابِه، فوقَعَ الـجُندُ عليه فقَتلوه، ولم يقدِرْ هشامٌ ولا واضحٌ على مَنْعِه، واحتزُّوا رأسَه وطافوا به البلدَ على رُمح.

وعزَم الـجُندُ والرعيَّةُ على قتال البربر، وجَرَّد القاضي عنايتَه في ذلك، ووعَدَ بخمس مئة فرس من مالِ الأحباس يُحمَلُ عليها مُرتجِلةُ العبِيد وهو يعلمُ أنّ القاتلَ والمقتولَ في النار، فلم يعبَأ به، فاضْطرَمَ البلدُ نارا لقلَّةِ المال والعُدَّة وجَبُن القومُ وتخاذَلوا، فجمَعَ السُّلطانُ أهلَ الأسواق إلى القصر وشَكا إليهم قلَّةَ المال وسَألهم أن يُقوُّوه بشيءٍ من المال، فقالوا: قد غَرِمْنا مرارًا جُهدَنا وطاقتَنا، والموتُ خيرٌ لنا فاخْرُج بنا إلى عدوِّنا، وهم البربر، فإنَّا لا نُقيم، فتحيَّر واضحٌ وعَزَمَ على الهروب[2].

مقتلُ واضح

لـمّا أراد واضحٌ الهروبَ وعَزَمَ عليه أُخبِر به الـجُند فزحَفَ إليه ابنُ وَداعةَ في عددٍ من الـجُند فأخرَجوهُ من دارِه وعاتَبَه على ما تكلَّف من الأموال وما عزَمَ عليه من مُصالحةِ البربر، ثمَّ قام إليه ابنُ وَداعةً فضَرَبَه بالسيّف، وحمَلَ عليه القومُ فقَتلوهُ واحتَزُّوا رأسَه وطافوا به

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٢٧.

(٢) نهاية الأرب اللنويري ٢٣/ ٤٢٧-٤٠٨.

البلد، وألقَوْا جسَدَه في الرّصيفِ بالموضع الذي أُلقي فيه ابنُ عسقلاجةَ وابنُ عبد الجبَّار، ونُهبت دورُ أصحابِه وكُتَّابِه، ووُجِد له مالٌ كثيرٌ مشدودٌ كان عزَم على الهروبِ به(١).

وأظهرَ هشامٌ المؤيَّدُ تجلُّدًا، وقال: أنا ما أريدُ حاجبًا، أنا أُباشِرُ أموري بنفسي، وجلسَ أيَّامًا للناس ثمَّ إلى طبعِه، وصار الوُزراءُ يُدبِّرونَ أمرَ البلد.

ووَلَّى هشامٌ ابنَ وَداعةَ شُرطةَ المدينة، فاشتدَّ على أهل الرِّيَب وهابَهُ الـجُندُ وغيرُهم(٢).

وسار قومٌ من البربر من جَيَّانَ إلى بَلَنْسِيَة فأغاروا عليها وحازوا منها خمسَ مئة فرسٍ كانت للسُّلطان وثلاث مئة رجُل من وجوهِ الجُندِ والكُتَّابِ والعمَّالِ الذين كانوا بها، وذلك في سنة إحدى وأربع مئة، وكان واضحٌ قد بَنَى على الخندق مجلسًا عاليًا يُشرفُ منه على البربر، وسمَّاه الدَّيْدَبَان، فكان الوُزراءُ يجلسونَ فيه معَ الفقهاء في كلِّ يوم يستشيرونَ في الأمر، فكلُّ ما دبَّروه في اليوم فَسَخوه في غد.

وفي هذه السنة: كان بنهرِ قُرطُبَةَ سَيْلٌ عظيم هَدَم في أرباضِ قُرطُبة نحوَ ألفَيْ دار وما لا يُحصَى من المساجدِ والقَناطير، ومات فيه نحوٌ من خمسة آلافِ نَفْس رَدْمًا وغَرَقًا، وذهبت فيه أمتِعةُ الناس وأموالُـهم، وهَدَم أكثَر السُّور ورَدَم كثيرًا من الخندق، وأقام هذا السَّيلُ ثلاثةَ أيَّام، هكذا ذكَرَ الرقيقُ في كتابِه.

واجتمع أهلُ البلد والعبيدُ بقُرطُبَةَ، فتحالَفوا بأيْمانِ البيعة أن تكونَ أيديهم متَّفِقةً وكلمتُهم في حربِ البربر واحدة، وأكَّدوا الأيْمانَ بينَهم في ذلك وكتبوا عَقْدًا بذلك على أنفُسِهم وأشهَدوا فيه الوُزراءَ والكُبراء، والسِّعرُ كلَّ يوم يزدادُ غلاءً، والأمرُ يتفاقمُ شدَّة، والناسُ يتوجّهونَ إلى السّواحل والبوادي، واشتدَّ حالُ أهل قُرطُبَةَ، حتّى أكَلَ الناسُ الدمَ من مَذابح البقرِ والغنم وأكَلوا الـمَيْتةَ و... (٣) الباليَة، وكان قومٌ في السِّجن، فمات منهم رجُلٌ فأكَلوهُ، ومعَ هذه الـمِحَن فشُربُ الخمرِ ظاهرٌ والزِّنا مُباحٌ واللِّواطُ غيرُ مستور، ولا ترى إلَّا مُجاهرًا بمعصية.

---

(١) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لفظة مطموسة.

وخَرجَ البربرُ من جَيَّانَ إلى أرملاطَ في جُمادى الآخِرة وقد ملأوا أيديَهم من البقرِ والغنَم حتّى عَجَزوا عن ضبطِه، فكان جِياعُ أهل قُرطُبَةَ يَسْرُونَ ليلًا على رُعاةٍ متفرِّقة فيأخذونَ منها ما قَدَروا عليه، فلا يتورَّعُ عن شرائها كبيرٌ ولا صغير، ثمَّ نَذَروا لهم البربر، فقَعَدوا لهم، فكانوا يقتُلونَ في كلِّ ليلة العشَرةَ والعشرينَ والثلاثين، وقتَلوا منهم في ليلةٍ واحدة أكثرَ من مئة، فانقطَعوا عن غَنم البربرِ جُملةً، ورجَعوا إلى ما بقيَ من مَواشي أهل البلد يسرِقونها ويذبَحونها فيأكُلُها الناسُ كالحلالِ الذي لا شكَّ فيه.

وكتَبَ سليمانُ إلى أهل قُرطُبَةَ يُحذِّرُهم الفتنة ويُعدِّدُ عليهم ما كان البربرُ يُوالونَهم من الجهل ويحتملونَ منهم من الأذى والقبيح، وأنه عافاهم من غُرور الإفْرَنج حين خرَجَ هو معَ البربرِ إليهم شفَقةً عليهم وغيرَ ذلك من الـحُجَج البالغة عليهم، فمالت طائفةٌ منهم إلى الصُّلح وأنكرَتْه طائفة، ونزَلَ البربرُ على كلِّ زَرْع حولَ قُرطُبة يحصُدونَ ويأكلونَ، ويقفونَ بقُرب الـخَنْدق فيقولون: أخْرِجوا إلينا الحصَّادينَ فإنَّا نضمَنُ لكم ألَّا نَدَع حبَّةً واحدة يستهزئون بهم ويضحَكونَ منهم، وليس أحدٌ يقدِرُ أن يخرجَ من الخندقِ إليهم من الـجُند وغيرِهم.

وجاء عيدُ الفطر، فلم يقدر أحدٌ منهم [أن](١) يخرُجَ إلى الـمُصلَّى وصَلَّوْا في الجامع جَزَعًا وخوفًا.

وعَظُم البلاءُ على أهل قُرطُبة، ووقَعت نارٌ في سُوق الخشَّابينَ فأحرَقَت أسواقًا كثيرة، ونَهَب العبيدُ ما لم تحرِقْه النار، فكان حريقًا عظيمًا، وأحرَقَ قومٌ من أهل قُرطُبَةَ جامعَ الزّهراءِ وأخَذوا ما بقي من قناديلِه وصفائح أبوابِه ومِنبَرِه وحُصُرِه.

ووصَل قومٌ من البربر إلى شفيرِ الوادي، فدعَوْا إلى الصُّلح، فَركَنَ ابنُ مُناوٍ إلى ذلك وقال: نُصالـحُكم على ما يَرضاه السّلطانُ صوابًا، وكان ابنُ مُناوٍ قد تسمَّى ذا الوِزارتَيْن فأنكرَ الفقهاءُ ذلك وقالوا: إنْ تمَّ هذا كان فيه هلاكُنا، فاجتمعوا إلى ابن مُناوٍ وقالوا: حربُ البربرِ أسلمُ لنا من صُلحِكم، فأعرَضُوا عن ذكرِ الصُّلح فرجَعت الفتنةُ على ما كانت عليه.

---

(١) ما بين الحاصرتين منا.

وكان المعروفُ بابن فَرُّوخ منقطعًا إلى هشام المؤيَّد في هذا الوقت يأنَسُ به ويُصغي إلى حديثِه، فبلَغَ ابنَ مُناوٍ أنه تكهَّن له وقال: إنّ دولتَك لا تقومُ على يدِ أحدٍ من العامريّينَ ولا تقومُ إلَّا على يدِ أحدِ عبيدِك، فقدَّمه ابنُ مُناوٍ فضَرَبَ عُنقَه ولم يلتفتْ إلى قُربِه من هشام، وكان ابنُ مناوٍ من العامريّين، وقَبَضَ ابنُ مُناوٍ على عِدَّة رجال نُسِب إليهم الميلُ إلى سُليمانَ والبربر فضَرَبَ أعناقَهم وصَلَبَهم، وأمَرَ بإطلاق الأبوابِ للناس، فلمّا حصَلوا خارجَ المدينة ومشَوْا قليلا أمَرَ بهم فأُخِذت أموالُهم وقُتل أكثرُهم معَ نساءٍ كُنَّ معَهم، وأمَرَ ببعضِهنَّ أن يُبَعْنَ كما تُباعُ السَّبْي، فكان هذا من جُملةِ محنةِ أهل قُرطُبة.

ووصَل إلى قُرطُبة كتُبٌ من أهلِ الثُّغور يقولونَ لأهل قُرطُبة: إمَّا أن تُصالحوا البربرَ وإمَّا أن تجِدُّوا في حربِهم، فإنه لا طاقةَ لنا ولا لكم بهم، وعسى أن تكتُبوا إلى ابن مامةَ دونَه يجِدُّ في النّهوض بجيوشِه ليكونَ معَنا عليهم. فحضَر الوُزراءُ والفقهاءُ وأربابُ الدّولة لدى القصرِ وتَشاوَروا وكتَبوا عن هشام إلى زاوي بن زِيري يعِدُه بإتمام كلِّ ما شَرَطَه لنفسِه ويَبذُلُ له كل ما يريدُ من مالٍ وولايةٍ وغيرِ ذلك، فعاد جوابُه يقول: أمَّا نقْضُ عهدِ سُلطاني ومخالفةُ أصحابي فلا سبيلَ إليه، وأمَّا السّعيُ في الإصلاح فإنّي مُتَمادٍ في تأليفِ كلمة المسلمين، فوالله لا قَصَّرتُ فيه حَزْمًا منّي على ما يُقرّبُني إلى الله من قَطْع الفتنة وحَقْن الدّماء وإصلاح ذات البَيْن، فاضطَربَ الأمرُ، وخافَ ابنُ مُناوٍ أن يُصيبَه مثلُ ما أصاب واضحًا، فكلّم الوُزراء والفقهاء يَحُضُّهم على الصُّلح، وأظهَرَ هو أنّه لا يجيبُ إليه إلَّا عن موافقةِ هشام بن الـحَكَم وجماعةِ العبيد، فشَكَره الفقهاءُ على ما أرادَه من قَطْع الفتنة.

فلمّا كان يومُ الثلاثاء غُرَّةِ ذي حجَّةٍ من سنة اثنتينِ وأربع مئة دخَل ابنُ مُناوٍ على هشام المؤيَّد ومعَه وجوهُ العبيد والجُند فكشَفوا له حالَ البلد وقالوا له: قد بلَغَ الأمرُ مُنتهاه ولا طاقةَ لنا بهؤلاء القوم، والناسُ مختلفونَ: منهم من يريدُ الصُّلحَ ومنهم من لا يريدُه، وليس عندَنا مال، وقد أجحَفْنا برعيَّتِنا في الـمَغارِم وسعرُنا في غايةِ الغلاء والـجُندُ فقراءُ والثّغرُ مضطرِبٌ والنّصارى يريدونَ الوصُولَ إلينا ومُؤْنتُهم عظيمةٌ علينا وما عندَنا ما يقومُ بهم. فبكى هشامٌ ـ فيما زَعَموا ـ بكاءً شديدًا وقال: اصنَعوا ما أردتُم ودَعوني بمعزِل، فلستُ أقدِرُ لكم ولا لنفسي على شيء، فانظُروا ما فيه صَلاحُكم فافعلوه وأنا تَبَعٌ لكم،

فدخَل ابنُ مُناوٍ القصرَ وأخَذ كلَّ متاع رفيع وتحمَّله ليلًا هاربًا إلى بَطَلْيَوْسَ: من قُرطُبة، وبقيتْ قُرطُبةُ يُدبِّرُ أمرَها العبيدُ وسُفَّالُ الناس.

وفي سنةِ اثنتينِ وأربع مئة: كتَبَ أهلُ قُرطُبة كتابًا عن هشام وابن مُناوٍ إلى البربرِ باستعطافٍ وترغيب في قَطْع الفتنة وتسليم الأمرِ إلى هشام المؤيَّد، فهو أوْلى به لبيعتِه التي في رقابِ الناس قبلَ بيعةِ غيرِه، وعلى أنّ سُليمانَ وليُّ عهدِه ومُدبِّرُ أمرِه والقائمُ بأعباء الخلافة عنه، وبَعثُوه معَ نفرٍ من أشياخ البلد، فمضَوْا حتّى دخَلوا على سُليمان ودفَعوا إليه كتابَ هشام وكتابًا من الوُزراء إلى جماعة وُزراء البربر، فلمّا رأى سُليمانُ عُنوانَ كتابِه: من عبدِ الله هشام بن الحَكَم أميرِ المؤمنينَ إلى سُليمانَ بن هشام، رَمَى به وتَنمَّر وقال: أنا هو أميرُ المؤمنين وأمّا هشامٌ فلا يستحقُّ ذلك، وقال جماعةُ البربر: هذا أميرُ المؤمنينَ ليس سواه ولا يكونُ غيرُ هذا ولا كَرامة، فلم يُقرَأ من الكتابَيْنِ حرفٌ، وحمَلَ سليمانُ السِّكّينَ على كتابِه وقطَّعه، ومزَّقَ البربرُ الآخَر، وقال سليمان: والله ما بايَعْتُ هشامًا قطُّ، ولقد بويعَ له وسِنّي ثماني سنين، وقد بايَعَني هو طائعًا غيرَ مُكرَه، فهو أحقُّ بأن ينصَحَ نفسَه ويلزَمَ الواجبَ عليه.

قالوا: ثمَّ ودَّعناهُ وخرَجْنا، وشيَّعَنا وُزراءُ البربرِ حتّى أتيْنا قُرطُبة، فدخَلنا على هشام، فوالله ما سألَنا عن حالِنا ولا عن حال سليمان، ولا شكَرَنا ولا ذَمَّنا ولا أحار كلامًا، وخرَجْنا من عندِه، فلمّا خرَجْنا أمَرَ هشامٌ بتجديد بيعتِه على سائر الناس.

ووصَلَ كتابٌ من أميرِ الثّغر حينئذٍ بأنه سائرٌ إلى قُرطُبة معَ ابن مامةَ دونَه بجيوشِ النّصارى لنَصْر قُرطُبَةَ على البربر، فأظهرَ أهلُ قُرطُبَةَ السّرورَ بذلك وليس له أصلٌ ولا منه شيء، لما أراد اللهُ من محنتِهم وبليَّتِهم.

قال بعضُ شُعرائهم يَبكي قُرطُبَةَ [من السريع]:

بَــكِّ عــلى قُرطُبــةِ الــزَّينِ ... فقــد دَهَتْهــا نظــرةُ العــيْنِ

أنظَرَهــا الــدهرُ بأســلافِهِ ... ثــمَّ تَقــاضَى جُملــةَ الــدَّيْنِ

كانــت عــلى الغايــةِ مــن حُــسنِها ... وعيــشِها المــستعذَبِ اللَّــيْنِ

فــانعكَس الأمــرُ فــما أن تَــرى بهـــا سرورًا بـــينَ إثنـــيْنِ
فاغْـــدُ وودِّعْهــا وسِرْ سالـــمًا إن كنــتَ أزمعْــتَ عــلى البَـيْنِ

وقال آخَرُ من قصيدةً في المعنى [من البسيط]:

أضـعتُمُ الـحَزْمَ في تـدبيرِ أمـرِكُمُ ستعلمونَ معًـا عُقْبَى البـوارِ غـدَا
فلـو رأيـتُمْ بعـينِ الفِكـر حـالَكُمُ بَكيـتُمُ بـدمٍ أنْ دُمْـتُمُ بـدَدَا
لكنّ سُبْلَ العَمَى أعْمَـتْ بـصائرَكمْ فألْبَـسْتكم ثيابًـا للـبِلَى جُـدُدَا
يـا أُمَّـةً هتكَـتْ مـستورَ سَـوْءتِها ما كلُّ مَن ذلَّ أعطـى بالـصَّغَارِ يـدَا
في سُـورةِ الحَـشْر آيـاتٌ مُفـصَّلَةٌ في شـأنِكم أُنزِلـتْ لم تَعْـدُكمْ أحـدا
نَعَمْ وفي الكَهْف في العـشرينَ خَاتمـةٌ تَقْضي علـيكمْ بـأنْ لا تُفْلِحـوا أبَـدَا
فاستشعِروا سُوء عُقْبَاكم فقـد شَـمِلَتْ جمـيعَكمْ محنـةٌ لا تنقـضي أبَـدَا

ووجَدتُ في بعض تاريخ الأندَلس، قال: كانت قُرطُبةُ في زمان الفَلّ الداخِل إلى الأندلُس قد نُسِيَ بها بغدادُ في زمانِ الرّشيد وعَظُم بها مُلكُهم، فاشتدَّ أمرُهم وضَخُم حالُهم، وأعظمُ ما كانت في زمانِ الناصر ثمَّ في زمان الـحَكَم، واتَّصل ذلك لها إلى آخِر ابن أبي عامر، فتناهَى بها كلُّ فَضْل وكمُلَ، وذلك للإدبارِ الذي يكونُ بعَقِب الإقبال، والنّقص الذي يُوافي بعدَ الكمال، فما من شيءٍ كمُل إلَّا ودَنَا نقصُه لا محَالة. وبعَثَ اللهُ محمَّدَ بن هشام ليكونَ استئصالُ شَأفِتهم وإبادةُ خَضْرائهم على يدِه لِـما أراد اللهُ سبحانه بهم، فأبادهم كما أباد طَسْمَ وجَدِيس ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ [مريم: ٩٨]؟

ولـمّا كان في آخِر ذي حجَّةٍ سنة اثنتين وأربع مئة نزَلَ البربرُ بغَرْبيّ الوادي، وتقدَّم من وُزراءِ البربر خَزْرُونُ بن محمَّد، وحُبَاسةُ بن ماكْسِن، وكان يحقِرُ أهلَ قُرطُبَةَ ولا يعبأُ بهم لشجاعتِه وبَسالتِه، وكان على فرس أصفر، فقاتَلَ قتالًا شديدًا، ثمَّ صار إلى مكانٍ ليس فيه قتال، فنزَلَ عن فرسِه ومعَه خيلٌ قليلةٌ نزَلوا معَه وسَرَّحوا دوابَّهم، فإذا جَمْعٌ عظيمٌ من أهل قُرطُبة عايَنُوهم من وراء الخَندق وهم آمِنونَ قد نَزَعوا لُـجُمَ دوابِّهم،

فانقَضُّوا عليهم، فما استوى على فرسِه وركِبَ أصحابُه إلَّا والقومُ قد غَشُوهم ـ وكانوا سبعينَ فارسًا والبربرُ خمسة ـ فقاتَلُوهم وقَتلوا من أهل قُرطُبَةَ عددًا كثيرًا، ثمّ طعَنَه أحدُهم طعنةً تَجدَّلَ منها صريعًا عن فرسِه، وهرَبَ عنه أصحابُه فأُخِذ أسيرًا، فلمّا عَرفوهُ قَتلوه وقطَّعوه قطعًا وتهادَوْا لحمَه فأكَلوهُ، لـمّا كان أكثَرَ من قتلِهم وما جَرَّبوهُ من شجاعتِه وشدَّةِ نِكايتِه، ولو أنَّهم عرَفوه قبلَ أخْذِه ما تَجاسَرَ أحدٌ عليه.

ولـمّا بلَغَ خبرُه أخاه حَبُّوسَ بن ماكْسِن وعمَّه زاويَ بنَ زِيري وأهلَ بيتِهِ جَزِعوا عليه جزَعًا شديدًا وباتوا مستعدّينَ للقتال، فلمّا أصبح قاتَلوا أهلَ قُرطُبَةَ قتالًا شديدًا لم يُسمَعْ قطُّ بمثلِه. ولـمّا كان اليومُ الذي يَليه كَمَنَ لهم البربرُ كمائنَ، فخرَجَ إليهم جُندُ قُرطُبة فناوشُوهم القتالَ وأطمَعوهم حتّى خَرَجوا عن خندقِهم وأعطَوْهم الهزيمةَ، فأسرَعوا في اتّباعِهم، فقامت الكمائنُ من ورائهم فقُتلوا، حتّى لو قال قائلٌ: إنَّه لم يُفلتْ منهم فارسٌ لَصدَق.

وفي سنة ثلاثٍ وأربع مئة: لـمَّا كان يومُ السبت لأربع بقينَ من شوَّال، وقَعت الهزيمةُ على أهل قُرطُبة كما ذكَرْنا، اجتمَع أهلُ قُرطُبَةَ وعمِلوا جُموعًا وخرَجوا يومَ الأحد ثانيَ يوم الوَقْعة لقتال البربرِ وسُليمان، فهُزِموا أيضًا وقُتلوا ذَريعًا. وتَصايَح الناسُ من كلِّ جانب وفُتحت قُرطُبة، فخرَجَ القاضي ابنُ ذَكْوان معَ بعض الفقهاء إلى سُليمان ورؤساء القبائل البربريَّةِ، وطَلَبوا منهمُ الأمان فأمَّنوهم وطلَبوا منهم أموالًا عظيمةً أُغرِم منها ابنُ الشَّرح وحدَه مئة ألفِ دينار، وأُغرِم كلُّ واحدٍ من الناس فوقَ طاقتِه، وملَكوا البلد.

دولةُ سُليمانَ المستعينِ بالله ثانيةً(١)

ودخَل سُليمانُ القصرَ بقُرطُبَةَ يومَ الاثنين لثلاثٍ بقينَ من شوَّال من سنة ثلاثٍ وأربع مئة، فلمّا استقرَّ به أحضرَ هشامًا المؤيَّدَ بالله ووَبخَّه وقال له: أما كنت تبرَّأتَ لي من الخلافة وأعطيتَني صفقةَ يمينِك، فما حمَلَكَ على أن نقَضتَّ عهدَك وحلَلْتَ عَقْدَك؟ فاعتذَر له بأنَّه مغلوبٌ عليه.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٤١-٤٤٢، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٩.

خَلْعُ هشام بن الـحَكَم المؤيَّدِ بالله ثانيةً

وذلك أنه لـمّا عاتَبَه سُليمانُ اعتذَر له وتبرّأ من الخلافة وسَلَّم الأمرَ إليه وخَلَع له نفسَه.

قال ابنُ حيَّان: وتَسمَّى سُليمانُ لوقتِه من الألقابِ السُّلطانيَّة بالمستعينِ بالله، وانتقلَ إلى مدينة الزّهراء بجُملة بَرابِرِهِ وجيشِه، فضاقت الزّهراءُ عنهم، فنزَلوا بما اتَّصل بها، ونزَلَ ابنا حَمُّود: عليٌّ والقاسمُ قائدا فِرقة العَلَويَّة بشقُنْدة، وغابَ عن الناس خبرُ هشام المؤيَّد فاختُلف في أمرِه، فقيل: إنه قضَى عليه عندَ دخولِه القصر، وقيل: إنه فرَّ بين يدَيْه.

وفي هذه السنة: قدَّم سُليمانُ المستعينُ بالله عليَّ بنَ حمُّود على سَبْتة، وقَسَم بعضَ بلادِ الأندَلُس على رؤساء قبائل البربر.

قال ابنُ حَمادُه: وكانوا ستَّةَ قبائل، فأعطى صُنْهاجةَ إلبيرة، فبقيت بيد حَبُّوسٍ وذرّيَّتِه نحو المئة سنة، وأعطى مغراوةَ الجوفَ، وأعطى منذرَ بن يحيى سَرَقُسْطة، وأعطى بني برْزال وبني يفرَن جَيَّان وذَواتِها، وأعطى بني دَمَّر وأزداجةَ شَذُونةَ ومَوْرُورَ وغيرَ ذلك من الحصُون، وذُكر أنه وَلَّى القاسمَ بنَ حَمُّود طَنْجةَ وآصيلا، وأمَّا عليُّ بن حَمُّود فولَّاه سَبْتَةَ كما ذكَرْنا.

فلـمّا بَلغَ عبدَ الله البرْزاليَّ تقديمُ ابنَيْ حمُّود دخَل على سُليمانَ فقال: يا أميرَ المؤمنين، بلَغَني أنك وَلَّيت بني حَمُّودٍ العَلَويّينَ على المغرب؟ قال: نعم، قال له: أليس العَلَويُّون طالبيِّين؟ قال: نعم، قال: تأتي إلى أحْناش[1] تُردُّهم ثعابين؟ قال: نَفَذَ الأمرُ في ذلك.

قال ابنُ حيَّان: ومن الاتّفاق الغريبِ العجيبِ على سُليمان أنه لـمّا استوْسَق له الأمرُ بعدَ فَراغِه من أمرِ هشام بن الـحَكَم أنفَذَ عَزْمَه من بين قوَّادِ جيوشِه في اختيارِه لعليّ بن حَمُّود على تقديمِه بمدينة سَبْتة رأيًا ذَهِل عنه، ونبَذَها إلى ضدٍّ له مُكاشِح، ولم يكُ في الدعوى والقَرابةِ أبعدَ منه عليّ، وهَجَم عليه وسَلَبَه مُلكَه وقتَلَه وحوَّل دولتَه ومزَّق عشيرتَه، وإذا أراد اللهُ شيئًا أمضاه والـحُكم لله وحدَه لا شريكَ له.

---

(١) الاحناش: الحيات.

وكان هشامُ بن الـحَكَم، عندَما رآهُ من اضطرابِ أمرِه، وتيقَّنَه من انصرام دولتِه، صيَّر إلى عليّ بن حَمُّود ولايةَ عهدِه وأوصَى إليه بالخلافةِ من بعدِه، وراسَلَه إلى سَبْتَةَ بذلك سرًّا، ووَلاَّه طلبَ دمِه، واستكْتَمه السرَّ فيه إلى أوانِه وبلوغ زمانِه.

ولـمّا استولَى سُليمانُ والبربرُ على قُرطُبَةَ في هذه الدّولةِ الثانية، كان منهم الحاجبُ والوزير، فكان سُليمانُ هذا أوَّلَ دولةِ البرابر بقُرطُبة وقد خُتمت دولةُ بني أُميَّةَ بالأندَلس، فكان مبلَغُها مئتي سنة وثمانيةً وستّين سنةً وثلاثةً وأربعينَ يومًا.

وعندَ دخولِه قُرطُبَةَ أتَى إلى حَبُّوس بن ماكْسِن رجُلٌ من أهل قُرطُبة، فعرَّفه بقاتل أخيه، فركِبَ في بعضِ أصحابِه ودخَل المدينةَ وأهلُها ينظُرونَ إليه نَظَر الـمَغْشيِّ عليه منَ الموت، حتّى أتَى إلى دارِ قاتل أخيه فاستخرَجَه وقتلَه وأضرَم دارَه نارًا وحرَّقَها، ووجَد له مالًا فأخَذه، ومن جُملة ما وَجَدَ له أربعَ عشْرةَ جاريةً وفُرُشٌ كثيرةً وسلاحٌ وافرة، واستخْرَجَ أخاه فما وجَد إلّا عظامَه وقد أُكِل لحمُه، فقال: والله لا كان عندي أمانٌ لعبدٍ من عبيد بني أُميَّةَ أبدًا، فخافَه الناسُ وهرَبَ كثيرٌ منهم وأسلَموا ديارَهم وأموالَهم فاحتَوى البربرُ عليها واقتسموا البلدَ بينَ أنفُسِهم ومَلكَوه لا يُنازعُهم فيه أحدٌ إلّا قتَلوه، ولا يمتنعُ عليهم موضعٌ إلّا حرَّقوه وخرَّبوه.

قال ابنُ حَمادُه: ولـمّا استَوْلى البربرُ معَ سُليمانَ على قُرطُبة خاف العبيدُ العامريُّونَ على أنفُسِهم فهَرَبوا إلى شرقِ الأندَلُس فاستولوا على بَلَنْسِيَة وشاطِبَةَ ودانيةَ وغيرهم[1] على ما سيأتي مفسَّرًا في موضعِه.

وفي سنة أربع وأربع مئة: قَتَل عليُّ بن حَمُّود قاضيَ سَبْتَةَ محمَّدَ بنَ عيسى والفقيهَ ابنَ يَرْبُوع كبيرَها، وكان سببُ قَتْلِهما أنه لـمّا همَّ بالقيام على سُليمانَ المستعينِ وخَلْع طاعتِه وَجَّه المستعينُ مَن يتطلَّعُ على أخبارِه فاتُّهم أنَّ القاضيَ خاطَبه بذلك فأمَرَ بقتلِه، ولـمّا عزَم عليُّ بن حَمُّود على الخروج من طاعة المستعين خاطَب أخاه فهرَب عن قُرطُبَةَ واحتَلَّ الخضراء.

---

(١) هكذا في الأصل.

وفي هذه السنة: كَفَّ البربرُ عن أهل قُرطُبة.

وفي سنة خمس وأربع مئة: قام ثائرٌ بشرق الأندَلس من بني أُميَّةَ اسمُه عبدُ الله ويُعَرفُ بالـمُعَيْطيّ، وكان بقُرطُبَةَ، فخرَجَ في الفتنة التي ذكَرْناها فقصَدَ إلى مجاهدٍ العامريِّ وقد كان استَحوَذَ على مدينة دانِيَة ومَعه خلقٌ كثير، وكان لا يدعو لأحد، فاجتمع مجاهدٌ ومَن معَه على أنْ أقاموا الـمُعَيْطيَّ هذا خليفةً يُصدِرون عن رأيه، فبايعوهُ وسمَّوهُ أميرَ المؤمنين في جُمادى الآخِرة من السنة[1]؛ حكاه الرقيقُ في كتابِه، قال: فأقام هذا الـمُعَيْطيُّ بدانِيَةَ مَع مجاهدٍ ومن انضَمَّ إليه نحوَ خمسة أشهر ثمَّ أقْلع مجاهدٌ معَه إلى مَيُورْقَة، ثمَّ بعَثَ الـمُعَيْطيُّ مجاهدًا إلى سَرْدانِيَةَ في مئة وعشرينَ قطعةً كبارٍ وصغار، ففتح مجاهدٌ سَرْدانِيَة.

وفي هذه السنة: خرَج عليٌّ بن حَمُّود من سَبْتَةَ إلى مالَقة.

قال الـمُظفَّريُّ في كتابِه: لـمّا خرَج عليٌّ عن طاعة المستعين أخرَج كتابًا نَسَبَه إلى هشام بن الـحَكَم يقولُ فيه: انقِذْني من أسرِ البرابرِ والمستعين وأنت وليُّ عهدي، ووَجَّه به إلى حَبُّوس الصُّنهاجيِّ وإلى خَيْرانَ العامريّ، فقال له: انهَضْ إلى مالَقة وبها يتمُّ أمرُنا، فأقبَلَ إليها بالقطائع والعساكر فقَتل قائدَها واستولَى عليها[2].

وفي سنة ستٍّ وأربع مئة: فتحَ مجاهدٌ سَرْدانِيَةَ معَ شِيعة الـمُعَيْطيِّ القائم معَه، وأسَر فيها خَلْقًا كثيرًا من الرُّوم.

وبلَغَ المستعينَ أنَّ مجاهدًا أقام عليه خليفةً، فاستَعظَم ذلك، إلى أنْ بلَغَه قيامُ عليّ بن حَمُّود عليه فسُقِط في يدِه، وجاءه عليُّ بن حَمُّود في جموعِه معَ خَيْرانَ وغيرِه فخرَج عليهم سُليمانُ فهزَموه وقَتلوا بعضَ أصحابِه وقَبَضوا عليه وعلى أخيه وسِيقوا أُسارى إلى عليِّ بن حَمُّودٍ فدخَل بهم قُرطُبة[3].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩٠.

(٢) بعض هذا الخبر في نهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٠.

(٣) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩٠.

مقتلُ سُليمانَ المستعينِ بالله

وذلك أنه لـمّا دخَلَ عليُّ بن حَمُّود قصرَ قُرطُبة طمِعَ أن يجدَ هشامًا المؤيَّدَ بالله حيًّا فلم يوجَدْ، وذُكر أنه قُتل، وعُرِض عليه قبرُه، فأخرَجه ثمَّ دفَنَه، ثمَّ أخرَجَ سليمانَ فضرَبَ عنقَه بيدِه صبرًا فظهَرَ منه جزَعٌ شديدٌ عندَ ملاحظة السّيف خارَتْ منه طِبَاعُه، ثمَّ ضُرِبت عُنقُ أخيه عبد الرحمن ثمَّ عُنقُ أبيهما الشّيخ، ثمَّ جُعلت رؤوسُهم في طَسْت وأُخرِجت يُنادَى عليها: هذا جزاءُ من قَتل هشامًا المؤيَّدَ، ثمَّ رُدَّت الرّؤوس الثلاثةُ ونُظِّفت وطُيِّبت، وقد كانت جُمِعت رؤوسُ البرابرةِ المقتولينَ في الوقعة في قُفَّة، وجُعل رأسُ أحمدَ بن الدّبِّ في أعلاها وعُلِّقت في آذانِهم رقاعٌ بأسمائهم، وكانت تُحمَلُ في المحلَّة من مضرِبٍ إلى مضرب، وعَجِب الناسُ منَ اجتماع رؤوس ضاقت عنها أرضُ الأندَلس ـ برَحْبِها وشَمِلَها شَرُّها وأذاها طُرًّا ـ في قُفَّة ضيّقة، والأمرُ لله العليِّ الكبير[1].

وحُكِي أنَّ والدَ سُليمانَ المستعين حين عايَنَ قتْلَ ابنَيْه بينَ يدَيْه قال له عليُّ بن حَمُّود: أهكذا يا شيخُ قتلتُم هشامًا؟ قال: لا والله ما قتلناه، ولا هو إلَّا حيٌّ يُرْزَق، فحينَئذٍ عجَّل علي بقتلِه وكان لم يتلبَّسْ بشيءٍ من أمور ابنِه[2].

وحَكَى الرّقيقُ في كتابِه أنَّ عليًّا حين دخَل القصرَ بعَثَ عن سليمانَ بأن يُحْضِرَ هشامًا، فقال له: إنَّ هشامًا قتَلَه ابني محمَّدٌ معَ الوزير أحمدَ بن يوسُف بن الدّبّ، ثمَّ قتَلَه بمحضَرِ البربرِ والأندَلس، وقتَلَ أباه وأخاه.

بعضُ أخبارِ المستعينِ بالله وسيره

قال ابنُ حيَّان: كان مُلكُه بقُرطُبةَ وغيرِها أوَّلًا وآخِرًا ستَّ سنينَ وعشَرةَ أيَّام كلُّها شِدَادٌ نِكراتٌ كريهاتُ المبدأ والفاتحة لم يُعدَمْ فيها حَيْف ولا أُمِنَ فيها خوف لتغيُّرِ السِّيرة واشتعال الفتنة، دولةٌ كفاها ذمًّا أنْ أنشَأها شانْجُه ووِزرُها دبٌّ فتمخَّضت عن الفاقرةِ الكبرى.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٠-٢٧١.

(٢) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧١.

وكان سليمانُ أديبًا شاعرًا ماهرًا، في ذلك قال ابنُ بسَّام رحمه الله(١): كان المستعينُ بالله ممّن مُدَّت له في الأدبِ غايةٌ وقَفَ دونَها أهلُ الآداب، ورُفعت له في الشعرِ رايةٌ مشَى تحتَها كثيرٌ من الشُّعراءِ والكُتَّاب، وهو أحدُ مَن شَرُف الشعرُ باسمِه، تَصرَّف على حُكمِه، غيرَ أنَّ أيَّام تلك الفتن ألْوَتْ بذِكرِه، وأيدي تلك الحربِ الزَّبُون طوَتْ جُملةَ أدبِه وشعرِه، معَ قعود أهل الأندلس يومَئذٍ عن البحث عن مناقبِ عظمائهم، وزُهدِهم في الإشادة لـمرَاتبِ زعمائهم، قال: ولم أظفَرْ له إلَّا بقطعةٍ عارَضَ بها هارونَ الرّشيد، فتعشَّقَتْ بها الكؤوس، وتهادَتْها الأنفاسُ والنفوس، وقد أثبتُّ لك القطعتَيْنِ لترى الحقَّ وتعرِفَ الفرق، قال الرّشيد [من الكامل]:

مَلَكَ الثلاثُ الآنِسَاتُ عِناني ... وحلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكانِ
ما لي تُطاوِعُني البريَّةُ كلُّها ... وأُطيعُهنَّ وهُنَّ في عِصْيانِ
ما ذاك إلَّا أنَّ سُلطانَ الهوى ... وبهِ قَوَيْنَ أعزُّ من سُلطاني

وقال المستعين [من الكامل]:

عجبًا يهابُ الليثُ حدَّ سِنانِ ... وأهابُ لحْظَ فواترِ الأجفانِ
وأُقارع الأهوالَ لا متهيِّبًا ... منها سوى الإعراضِ والهجرانِ
وتملَّكتْ نفسي ثلاثٌ كالدُّمَى ... زُهْرُ الوجوهِ نواعمُ الأبدانِ
ككواكبِ الظَّلماءِ لحنَ لناظرٍ ... من فوقِ أغصانٍ على كُثْبانِ
هذي الهلالُ وتلك بنتُ المشتري ... حُسْنًا وهذي أُختُ غُصْن البانِ
حاكمتُ فيهنَّ السُلوَّ إلى الصَّبَا ... فقضَى بسُلطانٍ على سلطانِ
فأبَحْنَ من قلبي الحِمَى وترَكْنَني ... في عزِّ مُلكي كالأسيرِ العاني
لا تعذِلوا مَلِكًا تذلَّلَ للهوى ... ذلُّ الهوى عزٌّ ومُلْكٌ ثانِ

---

(١) الذخيرة ١/ ٤٦-٤٧.

مـــا ضرَّ أنّي عبـــدُهُنَّ صـــبابةً وبنـــو الزمـــانِ وهـــنَّ مـــن عُبْـــداني
إن لم أُطِـعْ فـيهنَّ سـلطانَ الهـوى كَلَفًـا بهـنَّ فلسـتُ مـن مـروانِ

ذكْرُ الدّولةِ الحَسَنيَّة الحَمُّوديَّة(١)

خلافةُ عليِّ بن حَمُّودٍ الحَسَنيِّ رحمه الله

نسبُهُ: عليُّ بن حَمُّود بن مَيْمونِ بن حمُّود(٢) بن عليّ بن عُبَيد الله(٣) بن [عُمر بن](٤) إدريسَ بن إدريسَ بن عبد الله بن حَسَن بن الحَسَن بن عليّ بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه، وهُو أوَّلُ ملوكِ بني هاشم بالأندَلس.

لقَبُه: الناصرُ لدين الله.

كُنْيَتُه: أبو الحَسَن.

أُمُّه: البيضاءُ بنتُ عمٍّ أبيه.

عُمُرُه: أربعٌ وخمسونَ سنة.

خِلافتُه: سنةٌ واحدة وتسعةُ أشهرٍ وتسعةُ أيَّام، بُويعَ له بقُرطُبة يومَ الأحد لثمانٍ بقينَ من المحرَّم سنةَ سبع وأربع مئة، وقُتل لليلتَيْن خَلَتا من ذي القَعْدة سنةَ ثمانٍ وأربع مئة وكان أصغرَ من أخيه بأربعة أعوام.

صفتُه: أسمرُ أعيَنُ تنسَدُّ عيْنُه الواحدةُ المرَّةَ بعدَ المرَّة، وكان أنجلَ نحيفَ الجسم طويلَ القامة، حادَّ الذِّهن عازمًا حازمًا.

قاضيه: أبو المطرِّف الحصَّارُ، رحمه الله.

---

(١) ينظر كامل ابن الأثير ٩/ ٢٦٩، والمعجب ٩٨، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣١.

(٢) في نهاية الأرب: «أحمد» وهو صحيح أيضًا لأن حَمّودًا اسمه أحمد، كما في جمهرة ابن حزم ٥٠.

(٣) في نهاية الأرب: «عبد الله» وما هنا هو الصواب، وهو الموافق لما في جمهرة ابن حزم ٥٠.

(٤) زيادة متعينة من جمهرة ابن حزم ٥٠، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٠، ولا يستقيم النسب من غير هذا الاسم.

ولـمّا دخَل القصرَ أخرجَ هشامًا من قبرِه وشُهِد أنه هشامٌ بعينِه واسمِه وسليمانُ يتبرَّأُ له من دمِه ولم يكنْ في جسَدِه شيءٌ من أثرٍ... عليه فدُفن بجانبِ أبيه، وكان هشامٌ يقول برموزِ الملاحم وكُتُب الـحِدْثان، وخامر نفسه قائمٌ بسَبْتَةَ يملِكُ الأندَلس أوّلُ اسمِه عين، فلم يزَلْ مرتقِبًا لظهورِه إلى أن وَلِي عليُّ بن حَمُّودٍ سَبْتة، فكتَبَ إليه بعهدِه لرِفعة بيتِه وبُعدِ صِيتِه، فكان منه بالأخْذِ بثأرِه ما تقدَّم ذكرُه، فإن يكنْ ذلك كذلك فهشامٌ على مشهورِ عجْزِهِ بَذَّ من كايَدَ الأعداء بغيرِه من منكوبي الملوك بما لا شيءَ فوقَه مـمَّا أدرَكَ به ثأرَه بعدَ هلاكِه.

ولـمّا وصَل عليُّ بن حَمُّود من سَبْتَةَ إلى مالَقة أظهرَ أنه ما وصَل إلَّا لنُصرة هشام، فانحاشَ إليه جماعةٌ من الناس وأتاه خيرانُ الصَّقْلبيُّ وزاوي بن زِيري وحَبُّوسُ بن ماكْسِنَ بن زيري وإخوتُه وبنو عمِّه الصُّنهاجيُّونَ، فعَظُم شأنُه وقوِيَ أمرُه، وحاربَ بهم سليمانَ الذي كان البربرُ أقاموه خليفةً، فهَزَمه وقَفَا أثَرَه، وخرجَ إليه مَن كان بقُرطُبة، وحصَل سليمانُ في ثِقافِه، ثمَّ دخَل القصرَ وتسمَّى بأمير المؤمنين.

واستمرَّ عليُّ بن حَمُّود معَ أهل قُرطُبَةَ مدَّةً من ولايتِه، ثمَّ آنَسَ منهم الكراهيَةَ لدولته، ولـمّا صارتِ الخلافةُ له قَهَرَ البَرابرةَ، حتَّى صار أقلُّ الرعيَّة يرفَعُ أعيانَهم إلى الـحُكَّام بما شاء من وجوهِ الدَّعاوى، فتَجري عليهمُ الأحكام، فبَرِقَت يومَئذٍ للعدل بارقةُ خُلَّبٍ لم تكَدْ تقِدُ حتَّى خَبِيت. ومن بعضِ ما جرى في مجلسِه من مباشرتِه إقامةَ الحدودِ بنفسِه: أنه قُدِّم إليه عصابةٌ من البربر الأكابر في خبرِ أيِّم تجاوزَت حدَّ النَّكال، فأمَرَ بضربِ أعناقِهم وجماعةٌ من وجوه قبائلِهم وعشائرِهم ينظرونَ إليهم ولا يجسُرونَ عليه في شَفاعة، وبهذا المجلس وغيرِه ما فُتِن أهلُ قُرطُبَةَ بعليّ بن حَمُّود أشدَّ فتنة، وضَرَبَ عنُقَ أحد البرابرة على حِمْل عنبٍ قال: أخذتُه كما يأخُذُ الناس، فأمَرَ به فقُتل وطيف برأسِه بسائر البلد. وكان... السخاء والشجاعة... أخبراه في بَدْءِ أمرِه.

وفي سنة سبع وأربع مئة: قام المرتضَى بشَرْق الأندَلس، وهو: عبدُ الرحمن[1] بن محمَّد بن عبد الله ابن الناصِر، فخاف منه وانقلَبَ عن التجمُّل الذي كان يُظهِرُه لأهل

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧١.

قُرطُبة وأغْرَمَهم ضروبًا من المغارم وعزَم على إخلائها وإبادة أهلِها، ولا يكونُ فيها خليفةٌ أبدًا من الـمَرْوانيّين. وكان سببُ قيام المرتضى أنَّ خيرانَ الفتى لـمّا دخَل قُرطُبة معَ عليّ بن حَمُّود كان طامعًا أن يجدَ مَوْلاه هشامًا حيًّا، فلمّا لم يجدْه أظهَرَ خلافَه، وفهِمَ عليٌّ ذلك منه، فأراد قتلَه، ففرَّ بنفسِه إلى شرقِ الأندَلس واجتمَع عليه خَلْقٌ وقدَّم المرتضى[1].

وفي سنة ثمانٍ وأربع مئة: كان مقتلُ عليّ بن حَمُّود رحمه الله، وذلك أنَّ صَقالبتَه قتَلوه بموضع أمْنِه في حمَّام قصرِه، وكانوا ثلاثةَ صِبيانٍ أغمار، منهم: مُنَجحٌ وصاحباه[2]، وسدُّوا بابَ الحمّام عليه وتسلَّلوا، فلم يُـحِسَّ أحدٌ بهم، واستطال نساؤه بقاءه فدخَلوا عليه ودمُه يسيل، فصَحَّ خبرُ مقتلِه. وبعَثَ زَناتةُ إلى أخيه القاسم من إشبيليَةَ فخافَ أن تكونَ حِيلةً عليه، فبعَثَ مَن كشَف عنه وتحقَّقه، ثمَّ انكفَأ إليه وأعلَمه، فلحِقَ القاسمُ بقُرطُبة وأخرجَ إليه جسَدَه فصلَّى عليه وأنفَذَه إلى مدينة سَبْتة فدُفن بها، وفرَّ القاتلونَ ولم يوجَدْ منهم غير صبيَّيْنِ عُذِّبا بأنواع العذاب ثمَّ قُتلا وصُلِبا على جَسْر قُرطبةَ[3].

بعضُ أخبارِ عليِّ بن حَـمُّود وسِيَرِه

بويع عليُّ بن حَمُّود ببابِ السُّدَّة من قصرِ قُرطُبة ثانيَ اليوم الذي أُخِذ بثأرِ هشام المؤيَّد، ولم يتخلَّفْ عن بيعتِه إلى الغد، وتسمَّى من الألقابِ السُّلطانيَّة بالناصِر لدين الله، لقبٌ تقدَّمه به غيرُه. وتقَدَّم من القهر للناس والغَلَبة لهم بها خامَرَ عقولَهم من هَوْل سَطْوتِه، لا سيَّما برابرةُ العسكر، حتَّى تبيَّن أنَّهم أطوعُ الناس لمن أخافهم.

وجلسَ عليٌّ بنفسِه لمظالم الناس وهو مفتوحُ الباب مرفوعُ الـحِجاب يُقيمُ الحدودَ بنفسِه لا يُحاشي أحدًا من أكابرِ قومِه، فانتشَر أهلُ قُرطُبة في الأرض ذاتِ الطُّول والعرض فخانَهم الأملُ عمّا قليل وارتُكِسوا في المحنة ووقعوا في عظيم بليَّة.

وكان عليُّ بن حَمُّود تلقَّاعةً[4] لا يكادُ يفتحُ عينَه على شيء يَستحسنُه إلَّا أسرعتِ

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧١-٢٧٢، والمعجب ٩٨، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٠.

(٢) في الأصل: «وصاحبيه» ولا تستقيم نحوًا.

(٣) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٤) التلقاعة: الذي يلقع الناس بعينه، أي: يصيبهم بها، كما في معجمات اللغة.

الآفةُ إليه، له في ذلك نوادرُ غريبة، [وذُكر أنه][1] قال للنفيسةِ عندَه من نسائه: واري محاسنَكِ عنّي ما استطعتِ، فإنّي شاجٍ من عيني عليك، وأنا أُحبُّ الاستمتاعَ بك، وانقَلبَ سريعًا عن التجمُّل الذي كان يُظهِرُه لأهل قُرطُبة وانصرَف إلى حزبه البربريّ، فآثَره عليهم لـمّا أحسَّ منهم الميلَ إلى الخليفةِ المرتضى الذي أقام خيرانَ عليه فوقعَ أهلُ قُرطُبَةَ في حالِهم في مدَّةِ سليمانَ منَ استطالتِهم عليهم، وصَبَّ على أهل قُرطُبة ضروبًا من المغارِم وانتزَعَ السلاحَ منهم وقبَضَ دورَهم وقبَضَ أيديَ الحكّام عن إنصافِهم وأغْرم عامَّتَهم وتوصَّل إلى أعيانِهم بقوم من شِرارِهم، ففتَحوا لهم أبوابًا من البلايا أهلكوا بها الأُمَّةَ، وتقرَّبوا إليه بالسِّعاية فيهم، وصار شطرُ الناس أشراطًا على سائرِهم قلَّما تلقَى أحدًا إلَّا بوكيلَيْنِ عليه، حتّى كان... [2] بدَوْا للأبصار، وأُخِذت على الناس الأقطار، وأظلَمت الدّنيا وأبْلَسَ أهلُها وغَشِيَهم من الله ما غَشِيَهم، فلزموا البيوتَ وانطَمروا في بطونِ الأرض، حتّى قلَّ بالنهار ظهورُهم وخَلت أسواقُهم، فإذا دَنا المساءُ وكفَّ الطلبُ عنهمُ انكشَفوا إلى وقتِ الظلام لقضاء[3] حاجتِهم.

وكان معَه جماعةٌ من الكُتّاب[4]، منهم: أبو الحَزْم بنُ جَهْوَر وأحمدُ بن بُرْدٍ وغيرُهما، فهذه جملةٌ من أخبارِه في حالتَيْ صَلاحِه وفسادِه.

وقد مدَحَه جماعةٌ من الشّعراء، فمن قولِ القَسْطَلِّي فيه من قصيدة [من المتقارب]:

لعلَّكِ يا شمسُ عندَ الأصيلْ ... شَجيتِ بشَجْو الغريبِ الذليلْ
فكوني شفيعي إلى ابن الشّفيع ... وكوني رسُولي إلى ابن الرسُولْ
لعلَّ عواقبَهُ أن تَنِمْ ... فتُهْدِي الغريبَ سواءَ السبيلْ
إلى الهاشميِّ إلى الطالبيِّ ... إلى الفاطميِّ العَطوفِ الوَصولْ

---

(١) ما بين الحاصرتين فراغ في الأصل، وما بينهما منا.

(٢) فراغ في الأصل قدر ثلاث كلمات.

(٣) مطموسة في الأصل.

(٤) كذلك.

خلافةُ القاسم بن حَمُّود الـحَسَنيِّ رحمه الله[1]

نَسَبُه: قد تقدَّم في خلافة أخيه.

لقَبُه: المأمونُ.

كُنْيَتُه: أبو محمَّد.

أُمُّه: أمُّ أخيه وهي البيضاءُ القُرَشيَّة.

عُمُرُه: نيِّفٌ وسبعونَ سنة.

خلافتُه: وَلِي مرَّتين، الأولى: وَلِيَ يومَ الثلاثاء لأربع خَلَوْنَ من ذي القَعدة، وهو الثالثُ من موتِ أخيه، فبويعَ ليلةَ السبت لثمانٍ بقِينَ من شهر ربيعٍ الآخِر سنةَ اثنتي عشْرةَ وأربع مئة.

دولتُه: كانت إلى أنْ فرَّ وخَلَفَه ابنُ أخيه يحيى ثلاثَ سنين وخمسةَ أشهرٍ وعشرينَ يومًا، والدولةُ الثانية سبعةُ أشهر وثلاثةُ أيَّام بعدَ ابن أخيه يحيى، الجميعُ أربعُ سنينَ وثلاثةٌ وعشرونَ يومًا، وعندَ ذلك انقَرضت دولةُ بني حَمُّود المتَّصلةُ بقُرطُبة، وكانت سبعَ سنين وخمسةَ أشهرٍ غيرَ يومَيْن.

وتوفِّي محبوسًا عندَ ابن أخيه إدريسَ بن عليّ في شعبانَ سنةَ سبعٍ وعشرينَ وأربع مئة.

صفتُه: أسمرُ أعيَنُ مُصفرُّ اللون طويلٌ أكحلُ خفيفُ العارِضَيْن.

قاضيه: ابنُ الحصَّار قاضي أخيه عليّ.

وفي سنة تسع وأربع مئة: رحَل[2] الـمُرتضَى، القائمُ خليفةً على شرق الأندَلس، وهو: عبدُ الرحمن بن محمَّد المتقدِّمُ ذكرُه، بمَن تألَّب معَه من الموالي العامريِّينَ وغيرِهم إلى قُرطُبة وأميرُها يومَئذٍ القاسمُ بن حَمُّود، فعرَّجوا به إلى غَرْناطةَ ليبدأوا بحربِ ذلك الفريق من صُنْهاجةَ لِـما عزَموا عليه من الغدر بسُلطانِهم الـمُرتضى المذكور، فأوبَقُوا الجماعةَ وأحلُّوا بها الفاقِرةَ ورَسَا بتلك الوقعة مِلكُ الحمُّوديَّة[3].

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٤، والمعجب ١٠٢، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٤.

(٢) مطموسة في الأصل.

(٣) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٢.

مقتَلُ المرتضَى المذكور

قال ابنُ حيَّان: ولـمّا احتلُّوا غَرناطةَ وأميرُها يومَئذٍ زاوي بنُ زِيري الصُّنهاجيُّ، ارتاعتَ صُنهاجة فاحتَوَشوا بأميرِهم زاوي بن زِيري كبشِ الحروب، ومهوِّنِ الكُروب، فأحكَم لهُم التدبيرَ والدولةُ تُسعِدُه، والمقدارُ يُنجِدُه، وحُمِلت عنه في تلك الحروبِ حكاياتٌ بديعة، فذُكر أنَّ الـمُرتضَى لـمّا نازَلَهُ خاطبَه بكتابٍ يَدعوهُ فيه إلى طاعتِه، وأجْمَلَ فيه موعدَه، فلـمّا قُرِئ على زاوي قال لكاتبِه: اكتُبْ على ظهرِ رُقعتِه ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ السورةَ [الكافرون: ١-٢] لا تزِدْ، فلـمّا بلَغَت المرتضَى أعاد عليه كتابَ وَعِيد، فلـمّا قُرِئ على زاوي قال: ردُّوا عليه ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ١-٣] لا تزِدْه حَرْفًا، فازدادَ المرتضَى غَيْظًا ويئسَ منه وناوَشَه القتالَ، فاقتَتلوا أيّامًا إلى أنِ انهزَم أهلُ الأندَلس وطاروا على وجوهِهم مُسْلِموهم وإفْرَنجُهم الرّومُ لا يَلْوي أحدٌ على أحد، والخيلُ تَطرُدُهم في تلك المضائق، وصُرع الـمُرتضى في ضَنكِ ذلك المأزق ووقَع صُنهاجةُ من نَهْب محلَّتِه على ما لا كِفاءَ له اتّساعًا وكثرةً ظَلَّ الفارسُ يجيءُ منَ اتّباعِه المنهزمينَ ومعَه العشَرةُ الأبغُل فما دونَ ذلك مُوقَرةً بفاخِر النَّهب، وحِيزت فَساطيطُ الأمراءِ ومَضاربُ الرؤساء الذين كانوا في جَمْع ذلك العسكر المخذول، وسَبَق سُلطانُهم زاوي إلى سُرادِق الخائن الـمُرتضى فحازَه بما حَواه مـمّا كان الأمراءُ جَمَعوا له وحَمَلوه به، وكان أُمراؤه والوجوهُ من أهل بيتِه قد تَناغوا وجاءوا مجيءَ من لا يشُكُّ في الظَّفَر، فساقوا معَ أنفسِهم رفيعَ الحِلْية كي يتباهَوْا بذلك في قُرطُبَةَ إذا دخَلوها فخابوا وخَسِروا أموالَهم.

وأوَّلُ من انهزَم من ذلك العسكر منذرُ بن يحيى وخَيْرانُ الصَّقْلَبيُّ، وكان مُنذرٌ قد أوقَع في نفوسِ مَدَدِه رجال الإفْرَنجة الرعبَ من غَدْر الموالي العامريِّين، فشَغَل بذلك بالَهم، فلـمّا انهزَم لم يَعرِفوا السرَّ، وأجْفَل منذرٌ في أصحابه الثَّغريّين، فمرَّ بسُليمانَ بن هُودٍ وهو مُثبِتٌ للإفْرَنجة لا يَريمُ موقفَه، فصاحَ به: النجاةَ يا ابنَ الفاعلة فلستُ أقفُ عليك، فقال له سليمانُ: جئتَ بها والله صَلْعاءَ وفضَحتَ أهلَ الأندَلس، ثمَّ انقلع وراءه ببقيَّةِ عسكرِه، وانقَلع أيضًا خَيْرانُ برجالِه، وصَبَر العامريُّونَ قليلًا حولَ صاحبِهم المرتضَى

على أحرَّ من الجمر، وهو ـ مع جُبْنِه ـ حسَنُ الثّبات، حتى استَحرَّ القتلُ في أصحابِه وصُرِع منهم كثيرٌ حولَه فانكشَفوا عنه، وخافَ أن يُقبَض عليه فوَلَّى فوضَعَ عليه خَيْرانُ عيونًا لئلَّا يخفَى أثرُه، فلحِقُوه بقُرب وادي آشٍ وقد أمِنَ على نفسِه فهجَموا عليه فقتَلوه وجاءوا برأسِه إلى خَيْرانَ ومُنذرٍ وقد لحِقا بالمرِيَّة، فتحدَّث الناسُ أنّهما اصطَبَحا على رأسِه سُرورًا بمهلِكِه وتناولاهُ من قبيح الذِّكر عَبَثًا بما لم يكنْ أهلًا له، وجعَلا يقولان: يا حسَن فاعرِضْ جُندَك، كلمةً تُحُدِّثَ بها عنهما.

فمضَى الـمُرتضَى على هذه السّبيل ونَجا من تلك المحلَّة أخوه أبو بكرٍ هشامٌ ولحِقَ بالـمَوالي العامريِّينَ فزَهِدوا فيه، فاستقرَّ عندَ ابن قاسم صاحبِ حِصن ألبُنْت، وكان شيعةَ المروانيَّةِ على سوءِ ما أسلَفوه معَ سَلَفِه، فأجارَهُ وضيَّفَه، ولم يزَلْ ضيفًا عندَه إلى أن كان وقتُ تقديمِه للخلافة، فذكْرُ ذلك يأتي في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

قال ابنُ حيَّان: فحلَّ بهذه الوَقِيعة على جماعةِ الأندَلس مصيبةٌ أنْسَتْ ما قبلَها، ولم يجتمعْ لهم جَمْعٌ بعدُ، وأقرُّوا بالإدبار وباءوا بالصَّغار.

قال: وورَدَ على القاسم بقُرطُبَةَ كتابُ زاوي بشَرْحِها معَ نصيبِه من الغنيمة وفي جُملتها سُرادقُ المرتضَى، فضَرَبه القاسمُ على نهرِ قُرطُبة، وغشِيَه من النظَّارة جُملةٌ من عِلْية الناس وقلوبُهم تتقطَّعُ حسرةً منه، فركَدَت ريحُ المروانيَّةِ في ذلك الوقت وقُتل مَن نَجَم منهم بأطرافِ الأرض، وأيِس الناسُ من دولتِهم، وألْوى الـخُمولُ بجُملتِهم فتقطَّعوا في البلاد ودخَلوا في غِمارِ الناس وامتُهنوا واستُهينوا، ولـهَوْلِ ما عايَنَه زاوي منَ اقتدارِ أهل الأندَلس في أيَّام تلك الحروب وجَعاجِعِهم به وإشرافِهم على التغلُّبِ عليه هان سُلطانُه عندَه بالأندَلس، فخرَجَ عنها نظرًا في عاقبةِ أمرِه ودَعا جماعةَ قومِه لذلك فعصَوْه، وركِبَ هُو البحرَ بمالِه وأهلِه فلحِقَ بإفريقيَّةَ وطنِه.

وكان من أغربِ الأخبار في تلك الدوْلة الحمُّوديَّة انزعاجُ ذلك الشّيخ زاوي بن زِيري عن سُلطانِه بإثْرِ الفتح العظيم الذي كان لهُ على المرتضَى وعُبورُه البحرَ، فصَمَّم في الرحيل بعدَ أن استَأْذنَ ابنَ عمِّه صاحبَ إفريقيَّةَ الـمُعزَّ بنَ باديسَ في ذلك، فأذِنَ له، وحرَّض جميعَ بني عمِّه بالقَيْروان على رجوعِه إليهم بحالِ سنِّه وتقريبِهم يومَئذٍ من مثلِه

من مَشْيختِهم، لمهلكِ جميع إخوتِه وحصُولِه هو على قُعْدد بني مُنادٍ الغريبِ شأنُه في ألّا يُحجَبَ عنه من نسائهم زُهاءُ ألفِ امرأةٍ في ذلك الوقت من بناتِ إخوتهِ وبناتِهنَّ وبني بَنيهنَّ، فرحَل عن الأندَلس سنةَ ستَّ عشْرةَ وأربع مئة فاستقلَّت به سفُنُه من مَرْسَى الـمُنكَّب وفي شُحنتِها من ذخائرِ الأموال[1] ما يفوتُ الإحصاءَ كثرةً لعظيم ما حازَه أيَّامَ الفتنة، فارتفَع شأنُه بالقَيْروان وأقرَّه المعزُّ في دولتِه وكنَفِه.

قال ابنُ حيَّان: وحُدِّثتُ في السببِ الـمُزعج للذي كان لزاوي يومَئذٍ في ارتحالِه، وذلك أنه لـمّا انهزَم المرتضَى قال زاوي لقومِه: كيف رأيتُم ما قد خَلَصنا منه؟ فقالوا: عظيم، قال: فلا تتناسَوْه وتُغالِطوا أنفُسَكم، إنَّ انهزامَ مَن رأيتُموهُ لم يكنْ عن قوَّةٍ منَّا، إنَّما حدَّه معَ القضاء غدرُ ملوكِهم لسُلطانِهم ليُهلِكوهُ كما فَعلوا، فإنّي رأيتُ ذلك من يوم نزولِهم، ولذلك كنتُ أُقوّي أنفُسَكم، وقد نجَّانا اللهُ منهم ومضَى القومُ ولم يقدِّموا إلّا رئيسَهم، واستخلافُه هيّنٌ عندَهم، ولستُ آمَنُ عَوْدَهم جُملةً إليكم فيما بعد، فلا يكونَ لنا قِوامٌ بهم، فالرأيُ الخروجُ عن أرضِهم واغتنامُ السّلامة معَ إحراز الغنيمة والرّجوع إلى الجُملة التي انفصَلْنا عنها كانفينَ للعيال والذُّرّيَّة مُباعِدينَ لـِما وراءنا من زَناتةَ أعدائنا الذين لا يغفُلونَ عنَّا، لا سيَّما وقد قرَفْنا قومَهم ونبَشْنا أحقادَهم المدفونةَ بينَنا، فإنْ فَرَغوا لنا على قلَّة عددِنا أو ظاهَروا علينا الأندَلس، وقَعْنا منهم بينَ لحيَيْ أسد فاصطَلَمونا، وها أنا قد أدَّيتُ لكمُ النّصيحة، وأنا راحلٌ عن الأندَلس، فمن أطاعَني فلْيرحَلْ معي، فلم يساعدْهُ أحدٌ من أهل بيتِه، فرحَل من الـمُنكَّب واستوطَن ابنُ أخيه غَرناطةَ بعدَه وأورَثَها عِقبَة.

قال ابنُ حيَّان: وبلَغَني أنَّ زاويَ استوهَبَ من عليّ بن حَمُّود يومَ قَتْل سليمانَ بن الـحَكَم رأسَه حنَقًا على بني مروانَ الـمُهْدَى إليهم رأسُ زِيري والدِه، وأنه أسعَفَه بذلك، فصار عندَه، ونقَلَه من الأندَلس معَه في ذلك الوقت مفتخرًا به على أهل بيتِه، فإنْ يَكُ ذلك حقًّا فزاوي أحدُ مَن أخَذ بالثأر الـمُنيم ودَحَّض العارَ المقيم، وأخبارُ هذا الداهية زاوي بن زِيري كثيرة، ونوادرُ أفعالِه مأثورة.

---

(١) مطموسة في الأصل.

ومـمّا قيل في القاسم بن حَمُّودٍ حين قُتل الـمُرتضَى[1] [من الطويل]:

لـك الخـيرُ خـيرانٌ مـضَى لـسبيِله ... وأصـبح مُلـكُ الله في ابـنِ رسُـولِهِ
وقـام لـواءُ الـدَّفع فـوقَ ممنَّـعٍ ... مـن النّـصر جِبريـلٌ أمـام وعيلِـهِ
وأشرَقـت الـدّنيا بنُـور خليفـةٍ ... بـه لاحَ بـدرُ الحـقِّ بعـدَ أُفولـهِ
ولـمّا دعا الـشّيطانُ في الخيـل حِزبَـهُ ... وأقبَـلَ حـزبُ الله فـوقَ خيولِـهِ
كتائـبُ مـن صُـنهاجةٍ وزَناتـةٍ ... تضايَقْنَ في عَـرْض الفضاءِ وطولِـهِ
تقـدَّم خـيرانٌ إليهـا بزَعْمِـهِ ... ليُـدرِكَ مـا قـد فاتَـه مـن ذُحولِـهِ
فأجحَم تحتَ النَّقْـع والخيـلُ تـدَّعي ... كـما ازدَلَـف اللّيـثُ الـهِزَبْرُ لغِيلِـهِ
وولَّى وأبقَـى منـذرًا مـن ورائـهِ ... يُقـيمُ لأهـل الغـدر عُـذْرَ نكولِـهِ

قال حيَّانُ بن خَلَف: لـمّا بويعَ القاسمُ بن حَمَّود بعدَ ستٍّ ليال من مقتَل أخيه أحسَنَ تلقِّيَ الناس وأجمَلَ مواعيدَهم، وأخرَجَ النداءَ في أقطارِ البلد بأمانِ الأحمرِ والأسود وبراءةِ الذمَّة ممَّن تسَوَّر على أحد، وأقرَّ الثلاثةَ الذين فتكوا بأخيه بجريمتِهم ونفَوْا عن جميع الناس الـمُواطأةَ والتدليس، فقتَلَهم القاسمُ لوقتِه وأطفَى النائرةَ بدولتِه، وتنسَّم الناسُ رَوْح الرِّفق، وباشَروا ظِلَّ الأمن، واطمأنَّت بهم الدار، وأمَرَ بإسقاطِ التقوية وأظهرَ البراءةَ منها، وأقرَّ القاضي والحكَّامَ والـخَدَمةَ على منازِلِهم.

وزاد كَلَفُ القاسم باتِّخاذِ السُّودان وقَوَّدهم على أعمالِه إلى أن ضعُفَ أمرُه وتسلَّطَت البرابرةُ عليه حتَّى احتَقَروه، فكاتَبَ مُنذرَ بن يحيى في السرِّ يَبثُّه شأنَهم ويَستنهِضُه لتقويمِهم، فلم يكنْ فيه فَضْلٌ لذلك، وكان يحيى ابنُ أخيه عليٍّ بالعدوة وأخوه إدريسُ بمالَقة، فلما قُتل أبوهما اتَّفقا لأوَّل وقتهما على ضَبْط مالَقة، وجعَلَ يحيى أخاه بالعُدوة

---

(١) هذه القصيدة للشاعر عبادة ابن ماء السماء على ما ذكره المقري في نفح الطيب ١/ ٤٨٦. وفي الذخيرة ١/ ١/ ٣٩٦ أن القصيدة لابن الحناط قالها في أبي القاسم بن حمود يصف خيرانًا الصقلبي وقتل المرتضى المرواني.

ليقرُبَ هو من أذى عمِّه القاسم، وكانا يُظهِران مبايعةَ عمِّهما إلى حين انتقال يحيى بن عليّ إلى مالَقة، فاستخَفَّ بعمِّه وسَعَى في... وشَكا القاسمُ أمرَه إلى البرابرة فتثاقلوا عنه وأحبُّوا التضريبَ بينَهما، ولم يَزْل أمرُ يحيى يَقْوى وأمرُ القاسم يضعُف إلى أن فرَّ من قُرطُبة إلى إشبيلَية، وذلك لثمان بقين من ربيع الآخِرِ سنة اثنتَيْ عشْرةَ وأربع مئة، فضَبَط البربرُ قصرَ قُرطُبة إلى أن لـحِقَ يحيى ابن أخيه بعد خطوب كثيرة.

خلافةُ يحيى بن عليّ بن حَـمُّود رحمه الله

نسَبُه: تقدَّم في خلافة أبيه.

كُنْيته: أبو زكريَّا، وقيل: أبو محمَّد.

أُمُّه: بنتُ عمّ أبيه، اسمُها لُبُّونةُ بنت محمَّد بن الـحَسَن بن قَنُّون.

عُمرُه: اثنتان وأربعونَ سنةً ونيّف.

لقَبُه: الـمُعتلي بالله.

دولتُه: الأولى بُويع بقُرطُبة يومَ الاثنين مستهلَّ جُمادى الأولى سنة اثنتي عشْرةَ وأربع مئة بعد عمِّه بتسعة أيَّام، وفرَّ ليلةَ السبت منتصَفَ ذي قَعدة سنة ثلاثَ عشْرة، فكانت ولايتُه الأولى بقُرطُبة سنةً واحدةً وستَّة أشهر ونصفاً غيرَ يوم واحد.

قال حيَّانُ بن خَلَف: فبويع يحيى في التاريخ، واجتَمع عليه الفريقانِ: الأندَلس والبربر من أهل قُرطُبَةَ وأعمالِها خاصَّة، وكانت أمُّ يحيى بنتَ محمَّد ابن الأمير حَسَن بن القاسم المعروفِ بقَنُّون فعُرِف بكَرَم الولادة هاشميَّ الأبوَيْن رابعَ أربعةٍ من أبناءِ القُرَشيَّات من خَلائفِ الإسلام، أوَّلُـهم جدُّه الآخِرُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه وابنُه الـحَسَن بنُ عليّ ثمَّ الأمينُ محمَّدُ بن هارون.

فعَرَفَ يحيى هذه الفضيلةَ، وسلَكَ سبيلَ والدِه في التحقُّق بالفروسيَّةِ والـحُبِّ لركض الـخَيْل والخروج للقَنْص، فجانَبَ العصبيَّةَ وآثَر النَّصَفة وطلَبَ السلامة، فطاب خبرُه، إلَّا أنَّ العُجْبَ والكِبْرَ شانا خِصالَه إلى أن خلَّطَ وتبلَّد، وتمرَّست عفاريتُ زَناتة فضيَّقت عليه في التكاليفِ حتَّى اقتصَر بعدما قصَّر، وأخَذ الإعجابُ منه، فكان عاقبةُ أمرِه خُسْرًا.

وكَتَبَ له أبو العبَّاس[1] أحمدُ بن بُرْد، واستَوْزَر محمَّدَ ابن الفَرَضيِّ الكاتبَ، فكان أضرَّ شيءٍ على دولتِه، وارتقَب بأهل البيت حلولَ الجنَّة، فقديمًا استَعاذوا بالله من وِزارة السِّفْلة، ووصَل جعفرُ بن فَتْح صاحبُه الأقدمُ وإبراهيمُ ابنُ الإفليليّ كبيرُ الأدباء بقُرطُبَة إلى هذا الخليفة يحيى، وسَما في أيّامِه أبو بكرٍ بنُ ذَكْوانَ وغيرُه.

وكان عمُّه القاسمُ بن حَمُّود لـمّا رأى جَوْر البربر وقلَّةَ طاعتِهم خرَجَ من قُرطُبة إلى إشبيليَةَ فارًّا منهم وخائفًا، فاستقرَّ بإشبيلِيَة وهُو يُدعَى له بالخلافة ويتسمَّى بأميرِ المؤمنين، فخاطَبَ البربرَ من قُرطُبَةَ إلى ابن أخيه هذا يحيى بن عليّ[2]، وأدخَلوه قُرطُبَةَ وبويعَ بها كما ذكَرْنا وتسمَّى بالخلافة وإمْرةِ المؤمنين وتلقَّب بالـمُستعلي. قال ابنُ حزم: خليفتانِ تَصالحَا، وهو أمرٌ لم يُسمَعْ بأذلَّ منه ولا أدلَّ على إدبارِ الأمور: يحيى بن عليّ بن حَمود بقُرطُبة والقاسمُ بن حَمود بإشبيلِيَة.

وفي سنة اثنتَيْ عشْرةَ وأربع مئة: قام بَجيّانَ على بني يَفْرن محمَّدُ بن عبد الملك الـمُظفَّر بن أبي عامر، خرَجَ إليها بمالٍ كثير كان معَه، وكانت أُمُّه خيالُ يومَئذٍ تحتَ القاسم بن حَمُّود، فأقام فيها مُدَّةً إلى أن مات سنةَ تسعَ عشْرةَ وأربع مئة، وكان يحيى بنُ عليّ هذا الأميرُ بقُرطُبة يتحبَّبَ إلى الناس ويُقرِّبُ منازلَـهم ويرفَعُ مكانَهم ويُجزِلُ العطاءَ لهم ولمن وفَدَ عليه مِن غيرِهم أو مدَحَه بشعر.

وفي سنة ثلاثَ عشْرةَ وأربع مئة: خَلَع البربرُ بقُرطُبة يحيى بنَ عليّ بن حَمُّود بعمِّه القاسم، وفرَّ يحيى بنفسِه لاثنتي عشْرةَ ليلةً خَلَت من ذي القَعْدة، وقُتل بعدَ أن عاد إلى قُرطُبَةَ كما سيأتي خبرُه في دولتِه الثانية إن شاء اللهُ عزَّ وجَلَّ.

دولةُ القاسم بن حَـمُّود ثانيةً بقُرطُبة

دخَل قُرطُبَةَ في دولتِه الثانية يومَ الثلاثاء لاثنتي عشْرةَ ليلةً بقيَتْ من ذي القَعْدة سنةَ ثلاثَ عشْرةَ المذكورة، وسببُ ذلك أنَّ يحيى ابنَ أخيه خرَجَ منها إلى مالَقة، فطَرقَ

---

(١) هكذا في الأصل، وتقدم أنه يُكنَى أبا حفص (ص٣٢٧)، وكما سيأتي (ص٤٣٥) وهو الصواب، فتنظر الصلة البشكوالية ١/ ٧٦ وتعليقنا عليها.

(٢) ينظر كامل ابن الأثير ٩/ ٢٧٤، والمعجب ١٠٢، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٤.

عمُّه القاسمُ من إشبيلِيَةَ إلى قُرطُبة وجُدِّدت له البيعةُ بها فبقِيَ بها يتسمَّى بأميرِ المؤمنين، ولم يزَل القاسمُ مالكًا قُرطُبَةَ سبعةَ أشهرٍ وأيّامًا إلى أنْ خَلَعَه أهلُ قُرطُبَةَ بإجماع منهم وحصَروه في القصرِ أيّامًا، فخرجَ عنهم إلى الرَّبَض الغَرْبيّ معَ البربر، فحارَبَه أهلُ قُرطُبَةَ نحوَ شهرَيْن حتَّى هزَموه، فخرَج من الرَّبَض بمَن معَه من البربر منهزِمًا إلى إشبيلِيَة. نقلتُ هذا من كتابِ الاقتضاب.

وفي سنة أربعَ عشْرةَ وأربع مئة؛ قال ابنُ القطَّان: خُلِعَ القاسمُ بن حَمُّود بقُرطُبَةَ يومَ الثلاثاء لتسع بقِينَ من جُمادى الآخِرة منها، وذلك أنَّ البربرَ تسَلَّطوا على أهل قُرطُبَةَ في الأسواق وبرَزوا لقتالِهم ونَصَبوا الحربَ عليهم، فتقاتَلوا قتالًا شديدًا يومَ السّبت عاشرَ جُمادى الأُولى، ثمَّ سكَنَت الحربُ إلى يوم الخميس بعدَه، وجَرى بينَهمُ الصُّلح في هذه المدَّة، والقاسمُ في القصر يُظهِرُ لأهل قُرطُبة أنَّه معَهم، ثمَّ انتشَرت الحربُ يومَ الـجُمُعة بعدَ الصّلاة إلى عَشِيِّ النهار، فتغلَّب أهلُ قُرطُبَةَ على القصرِ ودخَلوا فيه وخرَجَ القاسمُ عنه وانْحاشَ إليه البربرُ وقاتَلوا أهلَ قُرطُبة، وغُلِّقت أبوابُ المدينة كلُّها فلم يُفتَحْ لها بابٌ مدَّةً من خمسينَ يومًا والقتالُ في كلِّ يوم يتَّصل، وكان البربرُ آلافًا، فطلَبَ أهلُ قُرطُبَةَ أن يفتَحوا لهم الطريقَ وأن يرفَعوا عنهم الاعتراضَ في أنفُسِهم وأهليهم، فأبَوْا من ذلك إلّا أن يقتُلوهم، وصبَرَ أهلُ قُرطُبَةَ على قتالِـهم، ثمَّ إنهم فتَحوا الأبوابَ وصدَموا البربرَ صدمةَ مَن عَوَّل على الموت، ففُتح لهم فيهم ومَرَّ البربرُ من قُرطُبة بهزيمةٍ عظيمة. ومرَّ القاسمُ معَهم إلى إشبيلِيَة، وكان بها ابناه: محمَّدٌ والـحَسَن، فغلَّق أهلُ إشبيلِيَة أبوابَها دونَه لكراهتِهم في البربر، وأخرَجوا له ابنَيْه من قصرِها ومَن كان معَهما من البربر، وضَبَطوا بلدَهم.

ونـهَضَ القاسمُ إلى جهة الغَرْب، ثمَّ رحَل منها إلى شَرِيش، وملَكَ إشبيلِيَةَ القاضي بها محمَّدُ بن إسماعيلَ بن عبَّاد، فحارَبَ يحيى عمَّه القاسمَ بنَ حَمُّود بشَرِيشَ وحاصَرَه بها إلى أنْ حمَلَه معَ بنيهِ مُقيَّدًا إلى مالَقة، فأقام أهلُ قُرطُبَةَ بعدَه إمامًا من بني أُميَّةَ رجاءً أن يُحيِيَ لهم دولةً أُمويَّة، ويأبَى اللهُ إلّا ما يريد، فاختاروا سُليمانَ بن عبد الرحمن ولقَّبوه الـمُرتضَى، فبينَما هم يريدونَ تقديمَه إذ هجَمَ عليهم في المسجد الجامع عبدُ الرحمن بن هشام بن عبد الجبَّار في شِرْذمةٍ من الناس يَدعو إلى نفسِه، فرجَعوا إليه بينَ مُكره وراضٍ، وهو أخو المهديِّ محمَّد بن هشام بن عبد الجبَّار.

دولةُ عبد الرحمن بن هشام الـمُستظهِرِ بالله[1]

نسَبُه: عبدُ الرحمن بن هشام بن عبد الجبَّار ابن الناصِر لدين الله.

كُنْيتُه: أبو الـمُطرِّف.

أُمُّه: رُوميَّةٌ اسمُها غاية.

عُمُرُه: ثلاثٌ وعشرونَ سنةً.

لقَبُه: الـمُستظهِرُ بالله.

خِلافتُه: بويعَ يومَ خروج القاسم والبربرِ من قُرطُبة يومَ الثلاثاء السادسَ[2] عشَرَ من رمضانَ المعظَّم سنةَ أربعَ عشْرةَ وأربع مئة، وقُتِل يومَ السّبت لثلاثٍ خَلَوْن من ذي القَعدة من السنة، فكانت خلافتُه سبعةً وأربعينَ يومًا خالصًا.

صفتُه: أبيضُ أشقرُ أعيَنُ أقْنَى، طويلٌ نحيفُ البدَن حسَنُ القدِّ والجسم، وكان أديبًا شاعرًا لبِقًا لَوْذَعيًّا، لم يكنْ في أهل بيتِه أبرعُ منه، وكان قد نقَلَتْه المخاوفُ وتقاذفَتْ به الأسفار، فتحنَّك وتخرَّج فيها.

قاضيه: أبو المطرِّف ابنُ الحصّار قاضي بني هاشم.

مولدُه: عامَ أحدٍ[3] وتسعينَ وثلاث مئة في شهر ذي قَعْدة.

قال ابنُ القطّان: وقد كان همَّ بالوثوبِ على الخِلافة عندَ انقراض سُلطان القاسم بن حَمُّودٍ بقُرطُبة، وبثَّ دعوتَه فلم يَصِحَّ له شيءٌ مـمّا أراد، وتجرَّد الوُزراءُ لطلبِ دُعاتِه وسُجِنوا ولم يَخرُجوا من السِّجن إلّا يومَ جُلوس صاحبِهم عبد الرحمن هذا للإمارة، وبقيَ هو مُستخفِيًا إلى أنْ أعلَقُوه بالشُّورى عندَ إيقاعها في ذلك الوقت لظهورِ بَراعتِه، فأجمَعوا عليه وعلى سُليمانَ المرتضَى وعلى محمَّدِ ابن العِراقيّ، وتقدَّموا في إحضار الخاصَّةِ والعامَّة في

---

(١) الذخيرة لابن بسام ١/ ٤٨ فما بعدها، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٦، والمعجب ١٠٥، والحلة السيراء ٢/ ١٢-١٧، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٥.

(٢) في الكامل والمعجب ونهاية الأرب: الثالث عشر.

(٣) في المعجب ونهاية الأرب: اثنين.

المسجد الجامع لمشاهدةِ مَن يختارونَه من هؤلاءِ الثلاثة للخلافة، فغَدا الناسُ لذلك على طبقاتِهم، وكان أوَّلَ مَن وافَى منهم سليمانُ الـمُرتضَى في أُبَّهَةٍ دلَّت على المرادِ فيه، فدخَل والسّرورُ بادٍ عليه، فقدَّمه أصحابُه إلى البَهْو، فأُجلِسَ على مَرْتَبَةٍ لا تَصلُح لِسواه، وهُو جَذْلانُ لا يُشكُّ في تتمَّةِ الأمرِ له، ثمَّ غَشِيت القومَ صَيْحةٌ وزَعْقةٌ هائلة ارتَجَّ لها الجامعُ واضطَربَ مَن بالمقصورة، وإذا عبدُ الرحمن بنُ هشام بن عبد الجبَّار قد وافَى في خَلْق عظيم من الـجُندِ والعامَّةِ وقد تكنَّفَه أميرا الدائرة: محمودٌ وعَنْبرٌ في رجالِهما شاهرَيْنِ سيوفَهما، فراعَ الوُزراءَ ذلك وألقَوْا للوقتِ بأيديهم، ودخَل عبدُ الرحمن عليهم وقَعَد في المقصورةِ فبويعَ من وقتِه، واستُدعي سليمانُ المرتضَى فجيءَ به مبهوتًا، فقبَّلَ يده وهنَّأه وبايَعَه، وانعقَدت له البيعةُ في الرابع لرمضانَ منَ السنة، وكان أحمدُ بن بُرد الكاتبُ قد تقدَّم في عَقْدِها باسم سُليمان، فبَشَرَ اسمَه وكتَبَ اسمَ عبدِ الرحمن مكانَه، وذلك من أعجبِ العجب، ثمَّ ركِبَ وحمَل معَه ابني عمِّه [سليمانَ وابنَ العراقيّ فاحتبَسهما عندَه وآنَسهما، وظهَرت][1] منه لوقتِه عَرامةٌ[2]، [كان فتًى وأيَّ][3] فتًى لو أخطأتْه الـمَتالف.

وكان شيوخُ قُرطُبَةَ الذين كانوا أرادوا تقديمَ سُليمان لـمّا كمُلَ الأمرُ لعبد الرحمن الـمُستظهِر بالله أخَذوا منه أمانًا، ثمَّ لـمّا تمَّ الأمرُ له أخَذَهم وأطبَقَهم وأغْرَمَهم أموالًا، فسَعَوْا عليه من الـمُطْبَق وكاتَبوا صاحبَ المدينة فأجابَهم، واستجابَتْ لهم جماعةٌ من الناس على مذهبِهم، فصاروا إلى الـمُطْبَق وكسَّروا أقفالَه وأخرَجوا منه الشّيوخَ وتغلَّبوا على القصرِ وأدخَلوا فيه المستكفيَ بالله، وكان قَدَّم على جميع أشغالِه وأعمالِه جماعةً من بقايا بني مروانَ وجماعةً من الأغمار، وكانوا يَذهبُ بهم العُجْبُ، قَدَّمهم على سائر رجالِه فأحقَدَهم أهلُ السياسة فانتقَضَت دولتُه سريعًا.

---

(١) ما بين الحاصرتين من الذخيرة ١/ ٤٩.

(٢) في م: «عزامة»، والعرامة: الشدة، وهي كذلك في الذخيرة.

(٣) ما بين الحاصرتين من الذخيرة ١/ ٤٩

وقد ذكَر ابنُ حَيَّانَ ذلك في كتابِه ثمَّ قال: وهذا زُخرُفٌ من التسطير وُضع على غيرِ حاصل، ومَراتبُ وُضِعتْ على غيرِ طائل، تنافَسها طالِبوها يومَئذٍ بالأمل لم يحلوا منها بطائل ولا قَبَضوا منها مُرتَّبًا ولا نالوا بها مُرتفَقًا، وغرَّهم بارقُ الطّمع وَسْطَ بلدٍ محصور وعملٍ مغصوب وخرابٍ مستَوْلٍ، ومعَ سُلطان فقير لا يقَعُ بيدِه درهمٌ إلّا من صَبابةِ مستغلِّ جَوْف المدينة أو نَهْبِ غُلول مـمَّن تغلغَل فيها يقيمُ منه رَمَقَه ويفرّق جُملتَه على من تكنَّفَه من جُندِه ودائرتِه ويتطرَّقُ إلى ما يَقبُحُ من ظُلم رعيَّته، فلم يلبَثِ الأمرُ أن تَعدَّى عليه فسُفِك دمُه وانحسَم الأملُ من دولتِه.

مقتَلُ الـمُستظهِر بالله أبي المطرِّف عبدِ الرحمن[1]

قال حيَّانُ بن خَلَف: وكان سببُ ذلك أنْ حَسُنَ رأيُه في ابن عِمرانَ أحدِ الرَّهط الذين كان سَجَنَهم فأخرَجَه، فقال له بعضُ أصحابِه: إنْ مشَى ابنُ عِمران في غير سجنِك باعًا نَتَر[2] من عُمرِك عامًا، فعصاهُ الـمُستظهِر لغالِب هواه فحاقَ به في الثالث[3] رَدَاه. وكان ورَدَ عليه قبلَ إطلاقِه بيومَيْنِ فَوارسُ من البربر، فكرَّم جانبَهم وأنزَلَهم معَه في القصر، فهاجت لذلك الدائرةُ وقالوا للعامَّة: نحن الذين قهَرْنا البرابرةَ وطرَدْناهم عن قُرطُبة، وهذا الرجُلُ يسعى في ردِّهم إلينا وتمكينِهم من نَواصينا؟ فهاجَتِ العامَّةُ فوَثَبوا عليه بالقصر وقُتل البرابرةُ حيث وُجِدوا، ولم يشعُرْ عبدُ الرحمن إلّا والرَّجّالةُ قدِ انتَشَروا على سقفِ القصر، وسمِع المسجونونَ عندَه هُتافَ الناس فاستغاثوهم، فدَقُّوا الأغلاقَ دونَهم واختُلِطَ بالـحُرَم فعَلم عبدُ الرحمن أنه مقتول، وأحيط به من كلِّ جهة، فجاء إلى بابِ الحَمّام يطمَعُ في الخروج منه، فقام في وجهِه الدائرةُ السَّوء يَسُبُّونَه، فارتدَّ على عقِبه وترجَّلَ عن فرسِه وتجرَّد عن ثيابِه حتَّى بقيَ في قميصِه،

---

(١) خبر مقتله في الذخيرة ١/ ٥١، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٦-٢٧٧، والمعجب ١٠٥، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٥.

(٢) في م: «نثر»، ولا معنى لها، وهي كما أثبتنا في نسخة من مخطوطات الذخيرة لابن بسام، وفضّل عليها محقق الذخيرة: «بتَر»، وما أثبتنا أجود (الذخيرة ١/ ٥١).

(٣) هكذا في النسخة الخطية والذخيرة، وغيرها ناشر م إلى «المثالب».

واستَخْفَى في أتُون[١] الحَمّام ففُقِد شخصُه، واستَخْفَى البرابرةُ في الحَمّام وفي أكنافِ القصر فبُحِث عليهم وقُتلوا، وفُضِح حُرَمُ عبد الرحمن وسَبَى أكثرَهنَّ الدائرةُ وحَملوهُنَّ إلى منازلِهم علانيةً، وجَرى عليهنَّ ما لم يَجْرِ على حُرَم سُلطانٍ في مدَّة تلك الفتنة.

فلـمّا فُقِد شخصُ عبد الرحمن ظَهَر ابنُ عمِّه محمَّدُ بن عبد الرحمن في المكان الذي كان مختفيًا فيه، فهتَفَ الدائرةُ باسمِه وانتَهوْا به إلى دار الـمُلك، فإذا هي بَلاقع، فأجلَسوهُ في مجلسِها القِبْليِّ مبهوتًا، وقام الدائرانِ الفاسقانِ محمودٌ وعَنْبر[٢] على رأسِه بالسّيوفِ مقامَهما بالأمس على رأسِ عبد الرحمن ابن عمِّه، وتكاثَرت الدائرةُ والعامَّةُ عليه، وافتُقِد عبدُ الرحمن الـمُستظهِرُ فُوجِد في أتُون الحَمّام قدِ انطَوى انطواءَ الحيَّة في مكانٍ حَرِجٍ في قميصٍ مسوَدّ بحالٍ قبيحة، وجيءَ به إلى محمَّد بن عبد الرحمن وقد بويعَ فبَطَش به بعضُ الرَّجّالة القائمينَ على رأسِه فقَتلوه رحمه الله.

بعضُ أخبارِ الـمُستظهِر بالله وسِيَرِه رحمه الله

قال ابنُ بسَّام[٣]: كان على حدوثِ سِنِّه فَطِنًا لَوْذَعيًا ذكيًّا يَقِظًا، لبيبًا أديبًا حَسَن الكلام جيِّدَ القَريحة مليحَ البلاغة، يتصرَّفُ فيما شاءه من الـخَطابة بديهةً ورَوِيَّة ويَصُوغُ قطعًا من الشِّعر مستجادة، وقد اقتَضَب بحضرةِ الوُزراءِ في أيّامِه عدَّةَ رسائلَ وتوقيعاتٍ لم يُقصِّرْ فيها عن الإجادة في الغاية، يَزِينُ ذلك بطهارةِ أثوابٍ وعفَّةٍ وبراءةٍ من شربِ النّبيذ سرًّا وعلانيَة. وكان في وقتِه نسيجَ وَحْدِه خُتِم به فُضَلاءُ أهل بيتِه الناصريِّين، فلم يأتِ بعدَه مثلُه.

وقد أثبَتَ ابنُ بسام في كتابِه جُملةً من شعرِه. ورفَع إليه شاعرٌ مـمّن هنَّأه يومَ بيعتِه شعرًا له كتبَه في رَقّ مبشور، واعتذَر بهذَيْنِ البيتَيْن[٤] [من الكامل]:

---

(١) في الذخيرة: «أبزن» حيثما وردت، وهو الحوض.

(٢) في الذخيرة: «عمير».

(٣) الذخيرة ١/ ٥٣.

(٤) الذخيرة ١/ ٥٥، وهما في الحلة السيراء ٢/ ١٦، ونفح الطيب ١/ ٤٩٠.

الـــرَّقُّ مبـــشورٌ وفيـــه بِـــشارةٌ ... بِبقَـا الإمـام الفاضـل الـمُـستظهِرِ
مَلِكٌ أعاد الـمُلْكَ[1] غضًّا شخصُهُ ... وكـذا يكـونُ بـه طَـوالَ الأدْهُـرِ

فأجزَلَ الـمُستظهِرُ بالله صِلتَه ووقَّع له على ظهرِ رُقعتِه بهذه الأبيات [من الوافر]:

قبِلْنـا العُـذرَ في بَـشْرِ الكتـابِ ... لِـمَا أحكَمْتَ مـن فَـصْلِ الخطـابِ
وجُـدْنا بـالجزاءِ بـما لـدينا ... عـلى قَـدْرِ الوجـودِ بـلا حـسابِ
فـنحن الـمُنعِمونَ إذا قَـدَرْنا ... ونحـن الغـافرونَ لـذي الرِّئـابِ[2]
ونحـن الـمُطلِعونَ بـلا امـتراءٍ ... شـموسَ المجـدِ في فَلَـكِ الثّـوابِ

دولةُ محمَّدُ بن عبد الرحمن الـمُستكفي بالله[3]

نسَبُه: هُو محمَّدُ بن عبد الرحمن بن عُبَيد الله[4] ابن الناصِر لدين الله.

لقَبُه: الـمُستكفي بالله.

كُنْيتُه: أبو عبدِ الرحمن.

أُمُّه: أُمُّ وَلَد اسمُها حَوْراء.

عُمُرُه: اثنتان وخمسونَ سنةً.

خِلافتُه: ولِـيَ مرَّتين، الأولى منهما: بويعَ يومَ قُتل ابنُ عمِّه الـمُستظهِرُ بالله وذلك يومَ السبت لثلاثٍ خَلَونَ من ذي القَعدة سنةَ أربعَ عشْرةَ وأربع مئة، وفَرّ يومَ خَلْعِه يومَ الثلاثاء لخمسٍ بقِينَ من ربيع الأوَّل سنةَ ستَّ عشْرةَ وأربع مئة.

مولدُه: كان سنةَ ستٍّ وستّينَ وثلاث مئة.

---

(١) في الذخيرة: «العيش».

(٢) في الذخيرة: «أذى الذئاب».

(٣) الذخيرة لابن بسام ١/ ٣٣٥، وأعمال الأعلام ١٣٥، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٧، والمعجب ١٠٧، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٥.

(٤) في نهاية الأرب: «عبد الله» خطأ.

لقبُه: ذُكِر أنه سُمَّى نفسَه الـمُستكفيَ، اختاره لنفسِه وحَكَم له به سُوءُ الاتفاق عليه لـمُشاكلتِه لعبد الله المستكفي العبَّاسيّ أوّلِ مَن تسمَّى به في لينِه ووَهْنِه وتخلُّفِه وضَعْفِه، بل كان هذا مقتصرًا عنه لخلالٍ ملوكيّة كانت في المستكفي العبَّاسيّ لم يُحسِنْها هذا لفَرْط تخلُّفِه على اشتباهِهما في سائرِ ذلك من توثُّبِهما في الفتنة واستظهارِهما بالفَسَقة واعتداءِ كلِّ واحدٍ منهما على ابن عمِّه وتوسُّطِ كلِّ واحد منهما في شأنِه امرأةً خبيثة، فلذلك: حسناءُ الشِّيرازيَّة، ولهذا: بنتُ المورورية[1]، فأصبحا لذلك على فَرْط التبايُن عِبرة، ومن[2] العجَبِ أنهما اتَّفقا في الأخلاق والعُهر واللّعب، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهما عاشَ اثنتَيْنِ وخمسينَ سنةً، وكلَّ واحد منهما ملَكَ سنةً ونحوَ خمسةِ أشهر، وكلَّ واحدٍ منهما ترَكَه أبوهُ صغيرًا، وتوافَقا في اللَّقب، وبالـجُملة فهما رَذْلي قومِهما.

ولم[3] يكنْ محمَّدٌ هذا من الأمرِ في وِرْد ولا صَدَر، وإنَّما أرسَلَه اللهُ تعالى على أهل قُرطُبَةَ الخاسرينَ بليَّةً، وكان مُنذُ عُرِف عَطِلًا مُنقطعًا إلى البِطالة، محمولًا على الـجَهالة، عاطلًا من كلِّ خَلَّةٍ تدُلُّ على فضيلةٍ وتكملة.

قال ابنُ القطَّان: إنه لم يجلسْ للإمارةِ مدَّةَ الفتنة أنقصُ منه، إذ لم يزَلْ معروفًا بالتخلُّفِ والبِطالة أسيرَ الشّهوة عاهرَ الـخَلْوة، ضدًّا لقتيلِه الـمُستظهِر بالله في الطهارةِ والمعرفة والذكاء، ثمَّ خَلَعه أهلُ قُرطُبة بأنْ دخَلوا عليه وقالوا له: قد اضطُرِرْنا إلى مُكافحة عدوِّنا، ونحن خارجونَ إليه، ولا ندري ما يحدُثُ عليك بعدَنا، فأجمَلَ الردَّ عليهم وانقادَ للدَّنيَّة واستشعَرَ الذُّلَّ، ثمَّ صَدَّهم عنه حادثٌ من حوادِث الدّهر، وكانوا قد رَشَّحوا ابنَ عمِّه العراقيَّ للخلافة، فأبقَوْهُ على حالِه، فهي الخلافةُ الثانية التي ذُكِرت له، واللهُ أعلم.

ثمَّ إنه عزَم على الـهروبِ، فخرَجَ على وجهِه ولبِسَ ثيابَ الغانياتِ مُتنقِّبًا بين امرأتين لم يُميَّزْ منهنَّ، وخرَج من قُرطُبة ومات بأُقْليجَ من الثّغر بعدَ سبعةٍ وعشرينَ يومًا

---

(١) في م: «المروزية»، وهو تصحيف بيّن، والنص لابن حيان، ذكره ابن بسام في الذخيرة ١/ ٣٣٦.

(٢) هذه العبارة الآتية لأبي محمد بن حزم ذكرها في كتاب «نقط العروس» ونقلها ابن بسام في الذخيرة ١/ ٣٣٦.

(٣) من هنا عودة إلى ابن حيان، كما ذكر ابن بسام.

من خَلْعِه مقتولًا وقيل: مسمومًا، وكان قد عاجَلَ بخَنْق ابن عمِّه العراقيّ وأمسَى ميتًا، ونعَاهُ إلى الناس، وكان يُلقَّب بالخويفيَّة، ولُقِّب أيضًا بأبي زكيرة.

وصفتُه: رَبْعةٌ أشقرُ أزرقُ أشمُّ مدوَّرُ الوَجْه واللِّحية، ضَخْمُ الوجهِ والجسم، كبيرُ البطن صاحبُ أكلٍ وشُربٍ وجِماع وتخلُّف، وقد ذُكر في مقتلِه أنه لـمّا فرَّ من قُرطُبَةَ نـهَضَ معَه بعضُ رجالِه إلى الثّغر، فاتَّهموه بمالٍ فاغتالوهُ وقَتلوه[1].

وفي سنة خمسَ عشْرةَ وأربع مئة: عاجَلَ الـمُستكفي بخَنْق ابن عمِّه العراقيّ ونَعاه للناس ووَلَّى عهدَه سُليمانَ بن هشام بن عُبَيد الله ابن الناصِر، وهو ابنُ عمِّه، وكان مؤنَّثَ اللّسان، وفي أيّامِه استؤصلت قصورُ جَدِّه الناصر بالـخَراب وطُمست أعلامُ قصرِ الزاهرة فطُوِيَ بخرابِها بِساطُ الدّنيا وبتغيُّرِها تغيَّرَ حسنُها.

وفي سنة ستَّ عشْرةَ وأربع مئة: كان خَلْعُ الـمُستكفي بالله، وذلك أنه لـمّا اتَّصل بأهل قُرطُبة تحرُّكُ يحيى بن عليٍّ بن حَمُّود نحوَهم من مالَقِة دخَلوا على المستكفي فأغْلظَوا عليه في الكلام، فأجمَلَ الردَّ عليهم وخرَج على الحالة التي تقدَّم ذكْرُها يومَ الثلاثاء لخمسٍ بقينَ من ربيع الأوَّل من السنة، وقُتل بعدَ خَلْعِه بسبعةَ عشَر يوماً.

دولةُ يحيى بن عليّ الـمُعتلي بالله ثانيةً[2]

وأُعيدَت دولةُ يحيى بن عليّ بقُرطُبة بعدَ خَلْع الـمُستكفي بالله، وكان بمالَقة، فسار إلى قُرطُبَةَ ودخَل يومَ الخميس لأربعَ عشْرةَ بقيَتْ من شهر رمضانَ المعظَّم من سنة ستَّ عشْرةَ المذكورة، وبقيَ بها إلى تمام هذه السنة المؤرَّخة.

وفي سنة سبعَ عشْرةَ وأربع مئة: خرَج يحيى بن عليّ من قُرطُبَةَ إلى مالَقة يومَ الثلاثاء لثمانٍ خَلَوْن من المحرَّم، وبقيَ بها وزيرُه وكاتبُه أبو جعفرٍ أحمدُ بن موسى إلى أن أتَى الـمُوفَّقُ مجاهدٌ وخَيْرانُ العامريَّانِ من قِبَل حَبُّوس بن ماكْسِن، فلمّا أحسَّ

---

(١) الخبر في الذخيرة ١/ ٣٣٨، والكامل ٩/ ٢٣٧ والمعجب ١٠٨، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٦ مع اختلاف في طريقة قتله.

(٢) الذخيرة ١/ ٢٤٥ فما بعدها، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٨.

أهلُ قُرطُبَةَ بقُربِها رجَعوا إلى من كان عندَهم من البربرِ بقُرطُبة فقَتلوهم يومَ الثلاثاء لعشرٍ بقينَ من ربيعٍ الأوَّل من السنة المؤرَّخة، فقيل: إنّهم قَتَلوا يومَئذٍ من البربر ألفَ رجل.

قال حَيَّان بنُ خَلَف: وفي ذلك اليوم الذي قُتل فيه البربرُ بقُرطُبة دخَلَها خَيْرانُ ومجاهدٌ الـمُوفَّقُ بعدَ أن فرَّ أحمدُ بن موسى معَ أخَوَيْنِ له من قُرطُبة، فلحِقَ أحمدُ بن موسى بمالَقةَ ولحِقَ دوناسُ بحَبُّوسٍ بغَرناطة، وبقي يحيى بنُ عليّ بمالَقة إلى أن قُتِل بعدَ ذلك بمُدَّة بمدينة قَرَمُونةَ على ما أذكُرُه بعدُ إن شاء اللهُ تعالى.

ومِن أخبارِ يحيى بن عليّ بن حَـمُّود الـمُعتلي بالله

قال حيَّانُ بن خَلَف: كان رؤساءُ البربر وثُوّارُهم قَدَّموه أميرًا عليهم لـمّا خرَجَ من قُرطُبَةَ في خلافتِه الأولى التي كانت في سنة أربعَ عشْرةَ، فاستَوْطَن مالَقةَ، وكان عمُّه القاسمُ قد خرَج أيضاً فارًّا بنفسِه منها إلى إشبيلِيَةَ، فغلَّق أهلُ إشبيلِيَةَ أبوابَها في وجهِهِ فاستقرَّ بشَرِيش، فزحَفَ إليه ابنُ أخيه يحيى هذا إلى شَرِيش فحاصَرَه بها حتَّى أخَذه أسيرًا عندَه معَ بَنيه وسَجَنَهم بمالَقة، وصارت شَرِيشُ ومالَقةُ والمريَّةُ وسَبْتةُ في طاعتِه، وخَطَبوا له بالخلافة وسمَّوه الـمُعتليَ بالله وبقي عمُّه القاسمُ أسيرًا عندَه إلى أنْ قتَلَه خَنْقًا فيما ذَكروا وبقيَ يحيى بنُ عليّ بمالَقةَ إلى أن قُتِل بقَرَمُونةَ في محرَّم من سنة سبع وعشرينَ وأربع مئة.

ولـمّا وصَلَ الخبرُ إلى أخيه إدريسَ بقَتْلِه دخَل في مركَبٍ ووصَلَ إلى مالَقة ودَعا إلى نفسِه، فنهَضَ إليه حَبُّوسُ بن ماكْسِن معَ صُنهاجةَ إلى مالَقة وبايَعوهُ، وبقي الموفَّقُ وخَيْرانُ بقُرطُبة نحوَ شهر، ثمَّ اختَلفا وخَشِي كلُّ واحدٍ منهما الغدرَ بصاحبِه، فخرَج خَيْرانُ ومَن كان معَه من قُرطُبة يومَ الأحد في أواخِر ربيع الآخِر سنةَ سبعَ عشْرةَ، وبقي الموفَّقُ بقُرطُبَةَ مدَّة ثمَّ انصَرف إلى دانِيَةَ، وبقيَ أهلُ قُرطُبَةَ في هَرْج واختلاط ومَرْج وخوفٍ عظيم من توقُّع رجوع البرابرة إليهم، فكفاهُم اللهُ ضُرَّهم، فكانت دولةُ الـمُعتلي بالله بقُرطُبَةَ هذه الثانيةُ ثلاثةَ أشهرٍ واثنينِ وعشرينَ يومًا.

دولةُ هشام بن محمَّد الـمُعتدِّ بالله الأُمويّ[1]

نسبُهُ: هشامُ بن محمَّد بن عبد المِلك بن عبد الرحمن الناصِر، وهو أخو المرتَضَى المتقدِّمِ الذِّكر.

كُنْيتُه: أبو بكر.

أُمُّه: أُمُّ وَلَد اسمُها عاتبُ.

لقَبُه: المعتدُّ بالله.

عُمُرُه: أربعٌ وستون[2] سنةً.

خِلافتُه: بالثّغر وبقُرطُبة أربعُ سنينَ وسبعةُ أشهر وسبعةَ عشَرَ يومًا، بويعَ أوَّلًا في الثّغر بحِصن البُنْت عندَ عبد الله بن قاسم الفِهْريِّ في يوم الأحد لخمسٍ بقينَ من ربيع الآخِر سنةَ ثمانِ عشْرةَ وأربع مئة، فبقيَ عندَه مدَّةً من سنتَيْنِ وسبعة أشهرٍ وثمانية أيَّام وهُو يُخطَبُ له بقُرطُبة، ثمّ أتَى إليها في سنة عشرينَ في ذي الحجَّة وخُلعَ منها يومَ الثلاثاء الثانيَ عشَرَ لذي حجَّةٍ من سنةِ اثنتينِ وعشرينَ، وتوفِّي بعدَ ذلك بمدَّة بعدَ شدائدَ دارت عليه، ودُفن بجهة لارِدَةَ في صَفَر سنةَ ثمان وعشرينَ وأربع مئة.

وكان سببُ قيامِه بالخلافة أنه كان بشَرْق الأندَلُس عندَ ابن قاسم المذكور بعدَ قَتْل أخيه المرتَضى وهزيمة جيشِه بغَرناطة، فأجمَعَ أهلُ قُرطُبة على خلع الفاطميّينَ بعدَ المقتَلة الكائنة بقُرطبةَ بسبب موفَّقٍ وخَيْرانَ المتقدّمةِ الذِّكر، فبقيَتْ قُرطبةُ دونَ خليفة، فخاطَبَ أهلُها أهلَ الثّغر والثّوارَ في إقامة خليفةٍ من بني مروان، فاجتمَع رأيُهم على هشام هذا لكوْنِ البربرِ قَتلوا أخاه وأنه قد وقَع بينَهم وبينَه ما وقَع بينَ أهل قُرطبة

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٣/ ٣٨٦ فما بعدها، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٨٢، والمعجب ١٠٩، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٦، وأعمال الأعلام ١٣٨.

(٢) هكذا في الأصل وغيّرها ناشر م إلى: «وخمسين» مع أن المؤلف ذكر بعد ذلك أنه ولد سنة ٣٦٤ وتوفي سنة ٤٢٨!

وبينَهم، فبايَعوهُ وهو بحِصن البُنْت وخَطَبوا له، ثمَّ أتَى قُرطبةَ فبايَعوهُ بيعةً تامَّة ثم خَلَعَه أهلُ قُرطُبة في التاريخ المتقدِّم الذِّكر.

وكان سببُ خَلْعِه أنَّ المتولّيَ لأمرِه والقائمَ بسُلطانِه والـمُنفردَ بمَشُورتِه وزيرٌ له لم تكنْ له سالفةٌ بشرفٍ ولا جاهٍ متقدِّم يُعرَفُ بحَكَم بن سعيد القزَّاز ويُكْنَى بأبي العاصي، وكان يُخالفُ الوُزراءَ المتقدِّمينَ بقُرطبة ويأخذ أموالَ التّجار فيتكرَّمُ بها على البربر ويُجزِلُ لهمُ العطاء، فبَغَضَه أهلُ قُرطبة لذلك فدَسُّوا إليه من مَثُل بينَ يدَيْه وقال له: عندي نصيحةٌ أُريدُ أن أُسِرَّها إليك، وكان أبو العاصي المذكورُ أطرشَ لا يسمعُ إلَّا يسيرًا، فلمّا أعطاهُ أُذُنَه رمَى به عن فرسِه في بعض أزِقَّة المدينة فقتَلَه، وكان الذي قتَلَه يُعرَفُ بابن الـحَصَّار، وخُلع المعتدُّ بالله بسببِه، إذ كان مائلًا إليه وقائلًا بقولِه.

صفةُ المعتدِّ بالله: أبيضُ أصهَبُ إلى الأُدْمة، سَبْطُ الشَّعر أخنَسُ خفيفُ العارضَيْنِ واللِّحية، حسَنُ الجسم إلى القِصَر.

مولدُه: سنةَ أربع وستّينَ وثلاث مئة، وتوفّي في صَفَر سنةَ ثمان وعشرينَ فكان عُمُرُه نحوًا من أربع وستّينَ سنة، وهو آخرُ ملوكِ بني أُميَّةَ بالأندلس، وبه انقَرضت الدّولةُ الأُمويَّة.

بعضُ أخبارِه وأخبارِ وزيرِه

قال حَيَّان بن خَلَف(١): قُلِّد هذا الأمرَ في سنّ الشّيخوخة، وكان معروفًا بالشّطارةِ في شبابِه فأقْلَع معَ شَيْبِه فرُجِيَ فلاحُه، فافتُتِحت بيعتُه بإجماع وخُتِمت بفُرقة، وعُقِدت برضًى وحُلَّت بكُرْه. وكان الوُزراءُ قد دَبَّروا في سَجيَّة أُمورِه وكيفيَّة ورودِه، فبادَرَ هو ووَفَد على البلد فسُرَّ الناسُ به وركِبَ جيشُ قُرطبةَ لاستقبالِه، فدخَل في زِيّ تقتحمُه العينُ وَهْنًا وقلَّـةً وعدَمَ رُواءٍ وبهجةٍ وعددٍ وعُدَّة، فوقَ فرس دونَ مراكبِ الملوك بحِلْية مختصَرةً سادلًا سملَ غِفارة إلى ما تحتَها من كُسوةٍ رثَّة،

---

(١) النص عن ابن حيان في الذخيرة ١/ ٣٨٦ فما بعدها.

قُدَّامَه سبعُ جنائبَ من خَيْل الـمَوالي العامريِّينَ صَيَّروها معَه للزِّينة دونَ عَلَم ولا مطرد يسيرُ هَوْنًا والناسُ يُهنُّونَه ويصيحونَ بالدُّعاءِ في وجهِه ولا يعلمونَ ما سِيق لهم من المكروهِ به، فدخَل القصرَ، وجاء معَه في جُملة الموالي حائكٌ من أبناء الزَّعانف بقُرطبةَ يُسمَّى حَكَمَ بنَ سعيد الحائكَ الذي قال فيه أبو الرَّبيع [من مخلَّع البسيط].

هَبْـكَ كـما تـدَّعي وزيـرا وزيـرَ مَـنْ أنـت يـا وزيـرُ

والله مـــا للأمـــيرِ معنًـــى فكيـــف مـــن وَزَّر الأمـــيرُ

فقلَّد هشامٌ حكمًا القزَّازَ جُملةَ تلك الأعمال، وأطلَقَ يدَه في المال، وأناطَ به الرِّجال، فجرى مجرَى أعاظم الوُزراءِ المستمرّينَ على فِتيةِ الملوك في سالف الأزمنة، فحَجَرهم على هذا الخليفة في سنِّ الشيخوخة بطبَق ومائدة كانا طِبَاقَ همَّتِه الكاسدة عَكَف عليها راضيًا بأدنى العيشة، وقد بقيَ في قصرِه ينظُرُ بعينِه ويسمَعُ بأُذُنِه، ويُدني مَن أدناه ويُقصي من أقصاه، وخلَّاهُ ومعاظمَ الأُمورِ يُدبِّرُها بجهلِه وخَرَقِه واعتسافِه وتهوُّرِه، فلم يلبَثْ أنِ انتقَضَت به، واحتاجَ حَكَمٌ إلى رجالٍ يستعينُ بهم في تدبيرِه، فلم يهتَد منهم إلَّا إلى نَغِل دَغِل أو ماجِن سَفيه أو سُوقيٍّ رَذْل سَقَطت به عليهم الـمُشاكلة، واتَّخَذهم بطانةً، فمَدُّوا له في الغِواية وجَرَوْا في هَواه طَلِقِ الـجُموحِ ما فيهم حازمٌ ولا نَصيح، فهَوي سريعًا وأصبح موعِظة، وحالُ هشام في ذلك كلِّه تزدادُ ضعفًا إلى أن انكشَف وطلَبَ الأُمناءَ والأوصياءَ على الأوقاف ومال الغَيْبة وشبهِ ذلك، فانفتحَ على الأُمَّة مَكارهُ جملة، وكان القيِّمَ بها ماردٌ من خَدَمةِ الدّولة الحمُّوديَّة.

مقتَلُ الوزير الحائكِ وخَلْع هشام

قال: وضعُفَ أمرُ هشام، وأَسَرَّ الناسُ الوثوبَ على وزيرِه، فسَقَطَ له خبرٌ من ذلك فانزَعجَ، وخافَ على نفسِه، ورحَل إلى قصرِ السُّلطان بأهلِه وسكَنَه مُختلِطًا به، وأخَذ في مداراةِ الناس، وكفَّ عن الكُلَف واعتذَر عنها، والتزَمَ جِلَّةُ الوُزراءِ طاعتَه.

وهُو رجلٌ من دُخَلاء الـجُند لا خَصْلةَ فيه، منتقِلٌ من الـحِياكة إلى الوِزارة، فبَدَر لأوَّل وقتِه بعَداوةِ الأحرارِ وتنقُّص الفُضَلاء، والـمَيْل على ذَوي البُيوتات[1] بالأذى والمطالب، وصَيَّر صنائعَه في أضدادِهم، فكانوا وُزراءه وأنصارَه، ونالوا منه المنازلَ الرفيعةَ النّبيلة، أكثرُهم صِبْية أغمارٌ من نَمَطِه مـمَّن دَيْدَنُه حثُّ الكأسِ وتنضيدُ الآسِ وطَبْخُ الترفاس والتفكُّهُ بأعراض الناس، إنْ ضجَّ مظلومٌ سَخِروا منه وحاكَوْهُ، فكان الناسُ منهم ومِن صاحِبهم في بلاءٍ عظيم وجُهدٍ مُقعدٍ مُقيم.

وعندما سوَّلت بحَكَم نفسُه الاستيلاءَ على البلد بما زَيَّن له القَدَرُ وسُوءُ النَّظر، مقَتَ جُندَه البَلَديّين، لعلمِه أنّهم صنائعُ الوُزراء، فأخَّر أُعطِياتِهم واضْطَربوا، ولـمّا لاحَ له حركةُ الهمسِ والقول فيه بنَى قَصَبةً منيعةً على ساحة المدينة استظهارًا على ما خافَه من تحرُّكِ العامَّة، فهتَكَ بها عندَهم سِرَّه ودَبَّروا القيامَ عليه، وهُو في ذلك مُصِرٌّ في غَيِّه عَهِرُ الخَلَوات، صريعُ الشَّهوات، لَـهِجٌ بالفُكاهات، كثيرُ الكذبِ والعُدوان، شنيعُ الفجورِ والعصيان، وصاحبُه أميرُ المؤمنينَ القائمُ بأمرِ الأُمَّة عالـمٌ بذلك، راضٍ من وزيرِه الحائك، بإقامةِ وظائفِه ليومِه وشهرِه، من نَقْلِه وخَنِيذِه، ومن مائه ونَبيذِه، وملأ عينَه وقلبَه بالمطعم الذي كان آثَرَ الأشياءِ عندَه، وأكثَرَ له منَ الشَّهوات، وأعدَّ له من القَيْناتِ والـمُلهيات، فَركَسَه في الصِّبا بعدَ الـمَشِيب، وعرَفَ شَغَفَه بالبِطالة فقصَدَها وأصابَ الغُرَّة، وفرَّق عنه الأصحاب، وسَدَّ دونَه الحِجاب، وخلَّاه وراءَ السِّتْر قد شَغَل بكأسٍ يُمناه وبحرٍّ أُخْراه، وأعرَضَ عمَّا كان أحاطَ به حتَّى أتاهُ من الله ما أتاه.

وأرسَلَ اللهُ على وزيره ودولتِه طائفةً من فُتَّاكِ الجُند عرَفَت مُرادَ الوُزراءِ ووجوهِ الناس في إزالة أمرِ وزيرِه فدَبَّروا قتلَه، وكان الناظمُ لهذه الجماعة ابنَ عمٍّ لهشام، وهو أُميَّةُ بنُ عبد الرحمن العراقيُّ من أبناءِ الناصِر، فتًى شديدُ التهوُّرِ والـجَهالة، فسوَّلَت له نفسُه نَيْلَ الخلافة، وأطمَعَه في ذلك بعضُ من نظمَ التدبيرَ من الـمَشْيخة،

---

(١) هكذا في الأصل ولذخيرة ٣/ ٣٩٢ وغيرها ناشر م إلى «البيتوتات»، ولم يفصح عن دليله!

علمًا بأنَّه لا ينفُذُ في الوثوبِ على هشام المعتدِّ إلَّا مَن يُنازعُه لَبُوسَه، فتهيَّأ أمرُ القوم في سَتْر، فرصَدوا حَكَمًا الوزيرَ الحائك في طريقِه، وقاموا عليه فقَتلوه وصَرَعوه في الوَحْل والقذَر، فكان من تمام محنتِه، وطافوا برأسِه ونَصَبوه تحتَ العِلِّيَّةِ التي كان أعدَّها لدفاعِه، فصار عِظةً للمتأمّلين، وأخذ القومُ سَلْبَه وغادَروه عُرْيانًا مكبوبًا لوجهِه.

وقام أُميَّةُ بنُ عبد الرحمن بقُرطُبة، وهو أُميَّةُ بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن هشام بن سُليمانَ بن عبد الرحمن الناصِر، واجتَمع عليه العامَّةُ وطُلَّابُ الفتن إلى جُندِ البلدِ للوقت، وتقدَّم بهم أميَّةُ للقصرِ وهشامٌ في بِطالتِه معَ نسائه، فبادَر الصُّعودَ إلى العلِّيَّة، فكانت سببَ حياتِه، ونَهَبَ العامَّةُ القصر، واجتَمع الوُزراءُ إلى أبي الـحَزْم بن جَهْوَر فهتَفَ على الناس بكفِّ الأيدي، وسمِع هشامٌ الـهَتْفَ باسم الوُزراء وقد أُلقِيَ... عندَ ذلك من نفسِه... وأُميَّةُ في كلِّ ذلك مقيمٌ بالقصر وَسَطَ النهَّابة قد تَبوَّأ مجلسَ البائس هشام واستوى على فراشِه، ورتَّبَ وجوهَ النهَّابة مَراتبَهم في الحفوفِ به والنفوذِ في أمورِ الإمارة لا يشُكُّ في حصولِها له مُحرِّضًا على هشام مُجتهدًا في إتلافِه.

ثمَّ اجتَمع الملأُ على خَلْعِه، وهَتفوا بإبطالِ الخلافة جُملةً لعَدَم الشاكلة ونَفْي المروانيَّة، ورَجَعت قُرطُبةُ إلى تقديم الوُزراء.

وذُكر أنَّ أهلَ قُرطُبة قالوا لأُميَّة: إنَّا نخافُ عليك في هذا اليوم القَتْلَ لِـما نَرى منَ انقلابِ الناس عليكم، فقال لهم أُميَّة: بايعوني أنتمُ اليومَ واقتُلوني غدًا، حِرصًا منه على الخلافة، فأنفَذَ أهلُ قُرطُبة إلى المعتدِّ وإلى أُميَّةَ ألَّا يبقَى واحدٌ منهما بالقصرِ ولا بقُرطبة، وأجمَعوا أمرَهم على خَلْع بني أُميَّةَ أجمعين.

ونَزلَ هشامٌ إلى ساباطِ الجامع الـمُفْضي إلى المقصورة فيمَن تألَّف إليه من وَلَدِه ونسائه طارحًا نفسَه على الجماعة يَنشُدُهم اللهَ في مُهْجتِه، فأُعلِم بكُرْهِ الناس له، فقال: ليتَني قُربَ البحر تَرْمونَ بي في لُـجَّته فيكونَ أخفَّ لشأني فافعَلوا ما شئتُم واحفَظوني في وَلَدي وأهلي، وبَدا لهم من ضعفِ نفسِه وغَثاثةِ قولِه وإلقائه بيدِه ما كان مكتومًا عن الناس، وبَقي بمكانِه بقيَّةَ يومِه وليلتِه أسيرًا ذليلًا حقيرًا خائفًا شاخصَ البصرِ إلى حيثُ

تهجُم عليه الـمَنيَّة، وحدَّث بعضُ سَدَنةِ الجامع أنَّ أوَّلَ ما سأَل الشّيوخَ الداخلينَ عليه إحضارُ كُسَيْرة من خُبز يسُدُّ بها جُوعَ طُفَيْلةٍ له كان قد احتَضَنها ساترًا لها بكُمِّه من قُرِّ ليلتِه تلك كانت تشكو الجوعَ ذاهلةً عمَّا أحاط بها فتزيدُ في همِّه، وسأل سِراجًا يأنَسُ بضَوْئه معَ نسائه، فأبكَى مَن كلَّمه اعتبارًا بعاديةِ الدّهر.

وبات الوُزراءُ والناسُ في الجامع ودبَّروا على هشام الفراغَ من شأنِه، فأُخرِج إلى حِصن ابن الشّرف دونَ أن يأخُذوا خطَّه بالـخَلْع ولا شُهِد عليه بعجزِه عن تدبير الخلافة وتحليلِه الأُمَّة مـمّا لهُ في أعناقِهم من البَيْعة على السَّبيل المعهودة، وأنساهُمُ اللهُ ذلك إمَّا تهاونًا وإمَّا نسيانًا، وأُميَّةُ ابنُ العراقيِّ معَ ذلك لم يبرَحْ من القصر، قد سَوَّلت له نفسُه نَيْلَ الخلافة، واستَدعَى وجوهَ الـجُندِ للبيعة فوُبِّخوا على الاجتماع إليه وأُزعجوا عن القصرِ وأُزعِجَ هو، فانطلقَ لسانُه على الوُزراء فخرَج عن البلد وقيل: اختفَى بقُرطُبة[1].

ونُوديَ في الأسواق والأرباض: لا يبقَى بقُرطبةَ أحدٌ من بني أُميَّة، ولا يَكنُفُهم أحدٌ، وكان القائمُ بالحال في إخراج المعتدِّ بالله أبا الـحَزْم بنَ جَهْوَر، فمِن هذا التاريخ كثُرت الفتنةُ وتمادت، وانتزَى كلُّ أحدٍ في موضعِه واستبَدَّ رؤساءُ الأندَلس وثُوّارُها بما في أيديهم من البلادِ والمعاقل، وبغَى بعضُهم على بعض، ولله الـحَوْلُ والقوَّة.

---

(١) إلى هنا انتهى ما في الذخيرة.

القسم الثاني

ذِكْرُ الثُّوّار المتغلبين على بلاد الأندلس عقب هذه الفتنة وهم المسمَّونَ بملوكِ الطوائف

قد ذكَرْنا ما كان من تداوُل الوُلاة والأُمراء والثُّوار من حينِ الفتح إلى خلافة عبدِ الرحمن الداخل، ثمَّ تداولِ الأُمراء الأُمويِّينَ من بعدِه إلى دولة ابن أبي عامر وابنَيْه، وقيام الفتنة بسببِ عبد الرحمن بن أبي عامر، وذكَرْنا مَن وَلِي الخلافةَ بقُرطبةَ في زمان الفتنة إلى سنةِ اثنتينِ وعشرينَ وأربع مئة، وهو حينَ خَلَع أهلُ قُرطبةَ بني أُميَّةَ أجمعين. فلْنذكُر الآنَ ما كان من أخبارِ المتغلِّبينَ على بلادِ الأندَلس عَقِبَ هذه الفتنة الـمُبيرة، فنبدأ بذكْرِ الشّرق وتغلُّبِ العبيدِ العامريّينَ وغيرِهم عليه بحَوْل الله سبحانَه وتعالى، فنقول:

بعضُ أخبارِ مجاهدٍ العامِريِّ الـمُنتَزي على مدينة دانِيَةَ والجزائرِ الشرقيَّة(١)

انتزَى هذا الرجُلُ مجاهدٌ على مدينة دانِيَةَ في أوَّل هذه الفتنة، وكان من فحولِ فِتيانِ بني عامر، قَدَّمه المنصورُ بنُ أبي عامرٍ عليها، وكان عندَ وقوع هذه الفتنة مُقدَّمًا على هذه الجزائرِ الثلاثة، فلمّا صحَّ عندَه وقوعُها خرَجَ إلى دانِيَـةَ وضَبَطَها وجميعَ أعمالِها المنضافةِ إليها، وتسمَّى بالموفَّق بالله، وكتَبَ بهذا اللَّقب عن نفسِه، وكُتب له به. وكان ذا نَباهةٍ ورِياسة، زاد على نُظَرائه من ملوكِ طوائفِ الأندَلس بالأنباء البديعة منها: العلمُ والمعرفةُ والأدب، وكان معَ ذلك من أهل الشّجاعةِ والتدبير والسياسة، قصَدَ هذه الجزائر: مَيُورْقَةَ ومَنُورْقةَ ويابِسةَ فانتزَى على جميعِها لنفسِه وتغلَّبَ عليها وحَماها من المشركينَ وغَزا منها جزيرةَ سَرْدانِيَةَ فغَلَب على كثيرٍ منها.

وكان مجاهدٌ هذا من أهل العفاف والعلم، فقصَدَه العلماءُ والفقهاءُ من المشرق والمغرِب، وألَّفوا له تَواليفَ مفيدةً في سائر العلوم، فأجْزَل صِلاتِهم على ذلك بآلافِ

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٣/ ٢١-٢٢، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩٠.

الدنانير، ومضَى على ذلك طُولَ عُمرِه إلى أن حانت وفاتُه بمدينة دانِيَةَ بعدَ أن مَلَكها، وكانت حضرةُ مُدُنِه وأملاكِه ستًّا وثلاثينَ سنةً جرَّها في أمرٍ ونَهْي، وجَرت فيها أمورٌ وخطوبٌ يطُولُ ذكرُها.

قال حيَّانُ بن خَلَف[١]: كان مجاهدٌ فتَى أُمراء دهرِه، وأديبَ ملوكِ عصرِه، لـمُشاركتِه في علوم اللِّسان، ونفوذِه في علوم القرآن، عُنِيَ بذلك مِن صِباه وابتداء حالِه، إلى حينِ اكتهالِه، ولم يشغَلْه عن ذلك عظيمُ ما مارَسَه من الحروبِ برًّا وبحرًا، حتَّى صار في المعرفة نسيجَ وَحْدِه وجمَعَ من دفاتِر العلوم خزائنَ جمَّةً، فكانت دولتُه أكثرَ الدُّول خاصّةً وأسراها صحابةً، على أنه كان معَ علمِه وحبِّه لـمَن طلَبَه أزهدَ الناس في الشِّعر وأحرَمَهم لأهلِه وأذكرَهم على نشيدِه[٢] لا يزالُ يتعقَّبُه عليه كلمةً كلمةً كاشفًا لِـما زاغ فيه من لفظةٍ أو سرِقة، فلا تسلَمُ على نَقْدِه قافية، ثمَّ لا يفوزُ المتخلّصُ من مِضمارِه على الجهدِ لدَيْه بطائل، ولا يحظى له بنائل، فأقصَرَ الشعراءُ عن مَدْحِه وخَلَى الشعرُ من ذكرِه[٣]، ولم يكنْ في الـجُودِ والكرم ينهمكُ فيُعزى إليه، ولا قصَّر عنه فيوصَفَ بضدِّه، أعطَى وحَرَم، وجاد وبخُل، فكأنَّه نَجا من عُهدة الذَّمّ، ثمَّ أكثَرَ التخليطَ في أمرِه، فطَوْرًا كان ناسكًا وتارَةً يعودُ خليعًا فاتكًا لا يُساترُ بلَهْو ولا لَذَّة ولا يَستفيقُ من شرابٍ وبِطالة، ولا يأنَسُ بشيءٍ من الحقيقة، له ولغيرِه من سائرِ ملوكِ الطوائف في ذلك أخبارٌ مأثورة.

دولةُ عليّ بن مجاهدٍ المسمَّى إقبالَ الدّولة[٤]

كان عليٌّ هذا أسَرَهُ الرّومُ في صِباه حينَ وقعتِهم على أبيه بجزيرة سَرْدانِيَة، ومكَثَ عندَهم سنينَ كثيرةً ومدَّةً طويلة، وقصَّتُه مذكورةٌ مشهورةٌ عندَ الرُّوم الذين نشَأ بينَهم.

---

(١) النص في الذخيرة.

(٢) في الذخيرة: «وأنكرهم على منشده».

(٣) في م: «وخَلَّى الشاكرون ذكره»، خطأ.

(٤) المغرب لابن سعيد ٢/ ٤٠١، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١١.

وقد كان أبوهُ قبلَ فِدائه من الأسر رَشَّح للإمارة بعدَه وَلَدَه الأصغرَ حَسَنًا الملقَّبَ بَسْعد الدَّولة، وصَرَّف الأمرَ بعدَه لعليٍّ هذا الطَّليق، فأورَثَهما العَداوةَ بينَهما، فلمّا فداهُ أبوه قلَّدَه الأمرَ بعدَه، فمضَى أبو الجيش والدُهما لسبيلِه وقد وَطَّد الأمرَ لعليٍّ هذا دونَ أخيه، فخيَّر عليٌّ هذا أخاه أن يَصرِفَ له الأمرَ ويتَخلَّى له عن الـمُلك فلم يَجسُرْ على إظهارِ ما في نفسِه، ولم ينصرِم الـحَوْلُ حتَّى أحدَثَ على أخيه ما نَذكُره.

وذلك أنه صار إلى الـمُعتضِد ابن عبَّاد، وكان زوجَ أُختِه، فشَكا إليه بثَّه ودبَّر معَه أمرَه، وقد وقَع في نفسِه الفَتْكُ بأخيه عليّ، فوجَّه الـمُعتضِدُ معَه إلى مدينة دانِيَةَ غلامًا من غِلمانِه شجاعًا، وجاء حسَنٌ معَه على وجهِ الزِّيارة لأخيه، فدَبَّر معَه الرأيَ في غَدْر أخيه وزيرِ أبيه في أيِّ وقتٍ ويوم يكونُ، فكان اتّفاقُهم على حين خروجِه من صَلاة الـجُمُعة، وكانت عادتُه إذا خرَج سار إلى ساحل البحر فيقفُ عليه ساعةً ثمَّ ينصرفُ، وكان إذا ركِبَ يكونُ حسَنٌ أخوهُ وراءه، فلمّا انصَرف أخَذ في زِقاق ضيّق، فعندَما دخَل فيه غَمَزَ غلامَ ابن عبَّاد لـحَسَن بن مُجاهد أن يُجرِّدَ السِّكّينَ ويضرِبَ به أخاه، فجرَّده وضَرَبه ضربةَ دَهَش، فلم يصنَعْ بها شيئًا، ثمَّ ثَنَّى عليه بضربة أُخرى فلقيَه أخوه بيدِه اليُسرى، وأراد الغلامُ أن يطعنَه بالرُّمح الذي كان بيدِه فحاوَلَ تقليبَه إليه فنَشِب في الحائط لضيق الزِّقاق، ونذر بعضُ فتيانِ عليِّ بن مجاهد فقَتلوا الغلامَ، وفرَّ حسَنٌ هذا على وجهِه راكضًا فرسُه.

ووقَعت هوشةٌ في الناس ودهشة، ولم يعرِفوا خبرَ الكائنة، وخرَجَ حسَنٌ فارًّا من بابِ المدينة يقول: غُدِرْنا يا مسلمين، إلى أن وصَل بَلَنْسِيَةَ وبها زوجُ أُختِه عبدُ الملك بن عبدِ العزيز بن أبي عامر وقد خابَ أملُه.

وحُمِل عليُّ بن مجاهدٍ إلى قصرِه على حالِه، فأقام بقيَّةَ يومِه مُطَّرَحًا لا يتكلَّمُ إلى غدِ ذلك اليوم، ثمَّ عانَى نفسَه حتَّى رجَعت قوَّتُه.

وخرَجَ هذا الغادرُ من مدينة بَلَنْسِيَةَ إلى صِهرِه المعتضِدِ ابن عبَّاد فلم يُمكِّنْه من أُمنيَّتِه، وشاعت قصَّتُه في بلاد الأندَلس فلم تكنْ له منزلةٌ عندَ الناس، ثمَّ رجَع إلى بَلَنْسِية، فكان في كنَفِ أُختِه إلى أن فارَقَ الدّنيا. وبقيَ أخوهُ في بلادِه وتقدَّم في مُعاقدةِ قُوَّادِه، واستَوى على سريرِ مُلكِه فلم يختلفْ عليه أحدٌ من أهل عسكرِه، وتصرَّفت في إمارتِه أمورٌ كثيرةٌ يطولُ شرحُها إلى أن أخرَجَه ابنُ هُودٍ منها على ما يأتي ذكرُه.

بعضُ أخبارِ مبارَكٍ ومُظفَّرٍ العامِريَّيْنِ
وانتزائهما على مدينتَيْ بَلَنْسِيَةَ وشاطِبَة

قال حَيَّانُ بن خَلَف[1]: ومِن غرائبِ اللّيالي والأيّام، اللاعبةِ بالأنام، أنَّ مُباركًا ومُظفَّرًا المذكورَيْن كانا وَلِيا أوَّلًا وِكالةَ السّاقية ببلنْسِيَة، واتَّفقا أنْ صُرِفا عنها فدخَلا على الوزيرِ عبد الرحمن بن يَسَار أيّامَ خِدمتِه بها سنةَ إحدى وأربع مئة وقد دُعيا للحساب، فكَلَّماهُ ومَسَحا أعطافَه ولثما[2] أطرافَه فكتَبَ لهما بما ينفَعُهما، وكان سببًا لردِّهما إلى عملِهما، وعندَ خروجِهما بالكتاب تعلَّق خادمٌ لابن يَسَار بهما كان مُدِلًّا عليه فسألهما بِرَّه وجزاءه على ما تهيَّأ لهما عندَ مولاه، فخَلَع لِجامَ مباركٍ عن رأسِ فرسِه وقد كان ركِبه، فخلَّاهُ فضيحةً لا يَقدِرُ على حركتِه، ثمَّ بعدَ لأي ما رَدَّه، فلم تَمضِ إلَّا مُدَيْدَةٌ وضرَبَ الدّهرُ ضَرَبانَه، فقضَى لمباركٍ بالإمارة هنالك ونالت ابنَ يَسَار المذكورَ محنةُ قُرطُبَةَ بعدَ ذلك، فجال النواحيَ وأمَّ مبارَكًا هذا لا يشُكُّ في معرفتِه بمنزلتِه وحِرصِه على مبرَّتِه، فحلَّ بَلَنْسِيةَ فما أنصَفَه في اللقاء فضلًا عن القِرى.

ثمَّ ظهَر من سياسةِ هذَيْن العبدَيْن الفدْمَيْن: مباركٍ ومُظفَّر في مدَّة إمارتِهما، إلى أن تعامَلا من صحَّة الأُلفة بينَهما فيها طُولَ حياتِهما بما فاتا في معناهُما أشقّاءَ الإخوة وعُشّاقَ الأحبَّة، نَزلا يومَئذٍ معًا في سُلطانِهما بقصر الإمارة مُختلطَيْنِ تجمَعُهما في أكثرِ أوقاتِهما مائدةٌ واحدة ولا يتميَّزُ أحدُهما عن الآخَر في عظيم ما يستعملانِه من كُسوة وحِلْية وفُرُشٍ ومركوبٍ وآلة، لا ينفردانِ إلَّا في الـحُرَم خاصَّةً، على أنَّ جماعةَ حُرَمِهما كُنَّ مُختلطاتٍ في منازِل القصر ومُستوِياتٍ في سائرِ الأمر، غيرَ أنَّ لمباركٍ كان التقدُّمُ في المخاطبة هنالك في حقيقة رسُوم الإمارة لفَضْل صَرامةٍ ونَكْراء كانتا فيه يُقصِّرُ عنها مظفَّرٌ لدَماثةِ خُلُقِه وانحطاطِه لصاحبِه في سائرِ أمرِه ورِضاهُ بكلّ فعلِه على زيادةِ مظفَّر ـ زعَموا ـ عليه ببعضِ كتابةٍ ساذَجة وفروسيَّة.

---

(١) النص في الذخيرة لابن بسام ٣/ ١٥ فما بعدها.

(٢) خمس أكثرها في الأصل واستفدناها من الذخيرة.

وبلَغَت جبايتُها لأوّل ولايتِها إلى مئة وعشرينَ ألفَ دينار في الشهر: سبعونَ بَلَنْسِيَة وخمسونَ شاطِبة، يستخرجانِها بأشدِّ العُنف من كلِّ صنف، حتّى تساقَطتِ الرّعيَّةُ وجَلّت أوّلًا فأوّلًا وخرِبت أقاليمُهم آخِرًا، فأقبلَت الدّنيا يومَئذٍ عليهما بكثرةِ الـخَراج وتبوُّؤ البَحْبوحة بحيث لا يُغاورونَ عدوًّا ولا تَطرُقُهم نائبةٌ تضمُّهم إلى نفقةٍ حادثة، فانتبشوا وكثّروا.

ولحِق بهم لأوَّل أمرِهم من مَوالي المسلمينَ ومن أجناسِ الصَّقْلَب والإفْرَنج والبَشْكُنَش عشيرتِهم، ودَرِبوا على الركوبِ حتَّى تلاحَقَ ببَلَنْسِيةَ ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارسُ برَّزوا في البَسالة والثِّقاف، وانفتَحَ على المسلمينَ ببلاد الأندَلُس أمرٌ شديدٌ في إباقة العبيد، إذ نزَعَ إليهم كلُّ شَريد طَريد وكلُّ عاقٍّ مُشاقّ، وزَهِدوا في الأحرارِ وأبنائهم ممَّن طرأ منهم عليهم، فلم يُواسُوهم، وانتمَتْ جماعةُ هذه الأخلاط الـمُمتَهنة الأصاغرِ معَهم إلى ولاء بني أبي عامر، وانتفَتْ عن نَسَبِها ابتغاء عَرَض الدّنيا فكثُروا.

وطلَبَ هذانِ العبدان لـمّا اتّسعت لهم الدّنيا فاخِرَ الأسلحة والآلات والخَيْلَ الـمُغرفات ونفائسَ الـحُليِّ والحُلَل، فصارت دولتُهم أسرى الدّول، ولحِقَ بهم عَريفُ كلِّ صناعة ورئيس، فنفَقَ سُوقُ المتاع لديهم، وجُلِبت كلُّ ذخيرةٍ إليهم، وكانا بَنَيا بَلَنْسِيَة وسدّا عورتَها بسُورٍ أحاطَ بمدينتِها تحتَ أبوابٍ حَصِينة، فارتفَع الطّمعُ عنها، ورحَل الناسُ من كلِّ قُطر بالأموالِ إليها، وطَمِحت بسُكَّانِها الآمال، واستوطَنَها طائفةٌ من جاليةِ قُرطُبة القَلِقةِ الاستقرار، فألقَوْا بها عَصا التَّسيار، وأجمَلَ عشرتَهم فتبوَّءوا بها المنازلَ والقَصور، واتَّخذوا البساتينَ الزّاهرةَ والرِّياضاتِ الناضرة، وأجْرَوْا بها المياهَ المتدفِّقة.

وسلَكَ مباركٌ ومُظفَّرٌ سبيلَ الملوكِ الجبَّارينَ في إشادة البناء والقصور والتباهي في عَليّاتِ الأمور، إلى أبعدِ الغايات، ومنتهَى النهايات، بما أبقَيا شأنَهما حديثًا لمن بعدَهما، واشتَمل هذا الرأيُ على جميع أصحابِهما ومَن تعلَّقَ بهما من وُزرائهما وكتَّابِهما، فاحتَذَوْا فعلَهما في تفخيم البناء، فهاموا منه في تُرَّهاتٍ مُضِلَّة، وتسكّعوا في أشغالٍ متَّصلة، لاهينَ عمّا كان فيه الأُمَّةُ يومَئذٍ، كأنَّهم من الله على عهدٍ لا يُخلِفُه.

واتَّسع الـخَرْقُ في عظيم ذلك الإنفاق، فمنهم من قُدّرت نفَقتُه على منزلِه مئةَ ألفِ دينار وأقلَّ منها وفوقَها حسَبَ تناهيهم في سَرْوِها، وبُعْثِرَ عن ذخائرِ الأملاك لقَصْدِهم، وضَرَبَ تُجّارُها وجوهَ الركابِ نحوَهم حتّى بلَغوا من ذلك البُغْية، فما شئْتَ من طِرْفٍ رائق، وملبَس رفيع جَليل، وخادم عجيبٍ نبيل، وآلاتٍ مُشاكلة، وأمورٍ متقابِلة تَرُوقُ الناظرينَ وتَغيظُ الحاسدين، جرَّها لهمُ المقدارُ إلى مدَّة.

وكان لـمُبارَكٍ ومظفَّرٍ جَنَّةُ ذلك النّعيم، وفازا بعُنصر الخَراج، ولم يَعرِضْ لهما عارِضُ اتّفاقٍ بتلك الآفاق فانغَمسا في النّعيم إلى قِمَم رءوسِهما، وأخْلَدا إلى الدَّعة، وسارعا في قضاء اللَّذَّةِ حتّى أرْبَيا على مَن تقدَّم وتأخَّر.

حدَّث مَن رأى مركوبَ هذَيْن العَبْدينِ الزلمتَيْنِ في بعضِ أيّام الجُمَع للمسجد الجامع ببَلَنْسِية بما أنْسَى مركَبَ المظفَّرِ عبدِ الملك بن أبي عامرٍ مَوْلاهما الـمُثير كان للنِّعمة الوارِث لِحجابةِ الخلافة في فُخورِ لباسِهما ووفورِ عددِ أصحابِهما وحُسن خِدمتِهم لهما، وأنَّ كلًّا منهما كان يُظاهرُ الوَشْيَ على الـخَزّ ويَستشعرُ الدَّيبقيَّ ويتقلَّسُ الموشيَّ ويتعطَّفُ القَسّيَّ.

قال حيَّانُ بن خَلَف: قال لي المحدِّث: وكنتُ أعرِفُهما عبدَيْ مهنة[١] لـمَوْلاهما مُفرِّج العامريّ، فكان حظّي منَ الاعتبار في الدّنيا ذلك، إذ كانا على استخدامِهما له من الـجَهْل والأفن واللّكنة من حُجَج الله تعالى في القسَم البالغة الدالَّة على هَوانِ الدّنيا عندَه، إذ أنالَهما منها بَحْبوحةً أضحَتْ أبصارُ أُولي النُّهى نحوَها شاخصة، وقلوبُهم فيها مسلِّمةٌ لـمَن له الـحَوْلُ والقوَّة، وهما عن الاعتبار عنها بمَنْحاةٍ من مندوحةِ الجهالة يحسَبانِ أنّهما نالا ذلك بالاستحقاق، وأنَّ لهما على الأيّام دَرْكًا، يحُثّانِ بسَوْق الرعيَّة الـمُضطهَدة بسُلطانِهما ولا يعبآنِ بما آذاها من كَلَفِهما، يُقلِّدانِها شِرارَ العمّال، ويَستزيدانِ عليها في الوظائفِ الثِّقال، معَ الأيّام واللّيال، حتّى لغَدَا كثيرٌ منهم يلبَسونَ الجلودَ والـحُصُر، ويأكُلونَ البَقْلَ والحشيش، وفرَّ أكثرُهم عن قُراهم، فلا يأسَفُ هذانِ

---

(١) في الذخيرة: «عبدي غَيّة».

العِلْجان ومَن تلاهما، ولا يخافانِ من مُواقعة مثلِه لمن أقام بعدَهم، بل يتَّخذانِ ما جَلا عنه أهلُه من تلك القُرى ضِياعًا مُستخلَصة، فإذا وقَع عليها اسمُ كبيرٍ منهم راجَع أهلَها راضينَ عنه بالاعتمال بالسَّهم راجِينَ في دفاعِه من الحِدْثان، وعلى هذا السبيل سلَكَ أكثرُ الثُّوار الـمُتَنزِينَ على أكنافِها الثائرينَ بأطرافِها بعدَ افتراقِ سُلطانِ الجماعة بقُرطُبَة آخِرَ دولةِ بني عامر.

قال ابنُ بسَّام[1]: كانا عبدَيْ مهنة، وأميرَيْ فتنة، قلَّ الناسُ فكثُروا، وخَلا لهم الجوُّ فباضوا وصَفَروا، وغاظُوا الجماعةَ بقُرطُبة مدَّةَ أيَّامِهم، وداسُوا أحسابَ الأحرارِ بأقدامِهم، مستمتعينَ بدُنياهم، غافلينَ عن عادةِ الله فيمَن جَرى مجراهم، سقَطتِ الفتنةُ عليهم برَغْم الأيَّام، وزُفَّت إليهم عقائلُ الكلام، فيَعكُفونَ منهنّ[2] على أصنام دِبار[3]، وأصداءِ قِفار، سواءٌ عندَهم سَجْعُ البُلبل ورُغاءُ الإبل، وسيمُرُّ في عَرْض الخبر جملةٌ من غرائبِ ضياع الأدبِ في مدَّةِ أولئك الـمَجابيب الصَّقْلَب، ممّا فيه عِظةٌ لمن اعتبَر، وكان له بصرٌ فنظَر وادَّكَر.

رجَعْنا للخبر: وكان سببُ موتِ مباركٍ أحدِهما أنَّه ركِبَ يومًا من قصرِ بَلَنْسِيَة يَبْغي الخروجَ للنُّزهة خارجَ البلد على فرس وَرْد مُطهَّم قاني الرِّكاب، وأهلُ بَلَنْسِية يستغيثونَه في أن يرفُقَ لهم في مالٍ كان افترَضَه عليهم، فقال لهم يومَئذٍ: اللَّهمَّ إن كنتُ لا أريدُ إنفاقَه فيما يعُمُّ المسلمينَ نفعُه فلا تؤخِّرْ عقوبتي الساعة، ثمَّ ركِبَ إثْرَ ذلك، فلمَّا أتى القَنْطرةَ وكانت من خشَب خرَجت رِجلُ فرسِه فرَمَى به أسفلَها واعترَضَته خشَبةٌ ناتئةٌ من القنطرة شدَخَت وجهَه وسَقَط لِفيه ويدَيْه، وسقَطَ الفرسُ عليه وكسَرَ عظامَه وفتَقَ بطنَه، ففاضَتْ نفسُه لوقتِه، وأمِنَ أهلُ البلد من مَقْتِه وكَفاهم اللهُ أمرَه، فثاروا يومَهم ذلك وانتهَبوا قصرَه.

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٤-١٩، وهو ملخص من كلام ابن حيان.

(٢) في الذخيرة: «منهم».

(٣) في الذخيرة: «رسوم ديار».

ولايةُ لبيبٍ الصَّقْلَبيِّ مدينةَ بَلَنْسِيَة(١)

وذلك أنّ أهلَ بَلَنْسِيَةَ لـمّا مات مباركٌ اتّفقوا على تقديم لبيبٍ الصَّقْلَبيّ هذا، فأحدَثَ فيهم أحداثًا مقتُوهُ بها، فلاذَ بالطاغية أميرِ الإفْرَنج يومَئذٍ واستبلَغَ في ألطافِه، حتَّى صيَّر نفسَه كبعض عُمَّالِه، فغاظَ المسلمينَ ذلك، إذ عرَّضَهم لـمُلكِ النَّصرانيَّة، فوثَبوا عليه واستَصْرَخوا ابنَ هُود فلحِقَ بهم، وأظلَمَ الأُفُقُ بينَه وبينَ مجاهدٍ المتقدِّم الذِّكر لِـما فاتَه من أمرِ طَرْطُوشَة، وجَرت بينَهما حروبٌ خافَ الناسُ وَبالَ عاقبتِها على ثغورٍ مثغورة خلالَ كلمة مختلفة وقُوًى مُنتكِثة، ثُمَّ آلَت تلك الناحيةُ إلى تأميرِ عبد العزيز بن أبي عامر.

ولايةُ عبد العزيز بن أبي عامرٍ وابنِه بَلَنْسِية(٢)

قال حيَّانُ بن خَلَف(٣): هو عبدُ العزيز بنُ عبد الرحمن ابن المنصور محمَّد بن أبي عامر، وكان لقَبُه المنصورَ، وكان الـمَوالي العامريُّونَ عند ذهابِ مُجاهدٍ عنهم قد أسنَدوا أمرَهم إلى نفَر من مشيختِهم فتشاوَروا في ارتيادِ أميرٍ من أنفسِهم يعترفونَ له، فاتَّفقوا على عبدِ العزيز ابن مَوْلاهم إيثارًا له على ابن عمِّه محمَّد بن عبد الملك، وكان مقيمًا بقُرطُبَةَ وعبدُ العزيز بسَرَقُسْطةَ في كنَفِ منذرِ بن يحيى، فأحكَمَ له التدبيرَ وخرَجَ سرًّا فلحِقَ ببَلَنْسِية، فاستقبَلَه الـمَوالي أفواجًا وقلَّدوه رياستَهم، وكان عبدُ العزيز هذا من أوصلِهم لرحِمِهِ وأحفظِهم لقرابتِه ابتعَثَه اللهُ رحمةً للممتحنَينَ من أهل بيتِه فآواهم وجبَرَ الكِسَير ونعَش العثيرَ طُولَ مدَّتِه حتَّى بلَغَ من ذلك مبلغًا أعيا ملوكُ زمانِه وخاطَب لأوَّل حينِه الخليفةَ بقُرطُبَة القاسمَ بن حمُّود معَ هديَّة حسَنة وذكَّره بذِمام سَلَفِه، فسماه المؤتمنَ ذا السابقتَيْن، فتوطَّد سُلطانُه واشتمل على خدمتِه أربعةٌ من الكُتَّاب حتَّى سمَّاهم الناسُ الطبائعَ الأربع، وهم: ابنُ طالوتَ وابنُ عبَّاس وابنُ عبد العزيز وابنُ التَّاكُرُنِّي كاتبُ رسائلِه، ولم تزَلْ حالُه تسمو حتَّى اتَّصل بوِزارته فنال جسيمًا من دُنياه، وطالت إمارة عبدُ العزيز إلى سنةِ اثنتين وخمسينَ فتوفِّي في ذي الحجَّة منها.

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٩.

(٢) الذخيرة لابن بسام ٣/ ١٨٦، والمغرب ٢/ ٣٠٠، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦١.

(٣) النص في الذخيرة ٣/ ١٨٦.

ولايةُ عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر[1]

ثمَّ تقدَّم عبدُ الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، اجتمَع أصحابُ أبيه عبدِ العزيز على تأميرِه، وقام له بأمرِه كاتبُ والدِه والمدبِّر لدولته الوزيرُ ابن عبد العزيز المشهورُ معَ معرفته بابن رَوْبَش القرطبيُّ، وكان مشهورًا بالرَّجَاحة فأحسَن هذا الكاتبُ معونتَه على شأنِه وتولَّى تمهيدَ سُلطانِه واستقرَّ أمرُه على ضَعْف رُكنِه لعَدَم المال وقلَّة الرِّجال وفساد أكثرِ الأعمال، وراعى هذا الكاتبُ الشّهم مدبِّرُ تلك الدولة في هذا المؤمّر عبد الملك مكان صِهرِه الأمير المأمون يحيى بن ذي النّون، إذ كان صِهرَ عبد الملك أبا امرأتِه المساهمَ له في مُصابِ أبيه الـمُعينَ له على سدِّ ثَلْمِه الذائدَ عنه كلَّ مَنْ طمِع فيه، فانزعج عندَ نزول الحادثة من حضرته طُلَيْطُلَةَ إلى قلعة كونْكة من طرف أعمالِه للدنوِّ من صهرِه عبد الملك، وبادر بإنفاذ قائد من خاصَّته وبالكاتبِ ابن مُثنَّى إلى بَلَنْسِيَة في جيش كثيف أمرَهم بالمقام معَ عبد الملك وشدِّ رُكنِه، فسكَنَت الدَّهماءُ عليه، ومضَى عبدُ العزيز أبوه غيرَ فقيدِ المكان ولا عديم الشأن ولا مُبْكٍ لسمائه وأرضِه ما فُجع به إلَّا ذَوو رحمة من آل أبي عامر لتناهيه في صِلتهم حتَّى صار إسرافُه في ذلك من أضرِّ الأشياء لـجُنده وأجلبِها لذمِّه، له في ذلك أخبارٌ مأثورة، وتوفِّي وهُو أطولُ أُمراء الأندلس مدَّةَ إمارة وتملَّكها أربعينَ حجَّة، فسبحان المنفردِ بالبقاء الأوَّلِ قبل الأشياء.

بعضُ أخبار خَيْرانَ الفتى الـمُنْتَزي على مدينة الـمَرِيَّة أوَّلَ هذه الفتنة[2]

هو خَيْرانُ الصَّقْلَبيُّ العامريُّ، وكان من جِلَّة فتيان ابن أبي عامر، فلمّا تخرَّبت الخلافةُ وانشقَّت عَصا الأُمَّة انتزَى خَيْرانُ هذا على مدينة الـمَرِيَّة وأعمالِـها وانضَوى إليه جميعُ فتيان محمَّد بن أبي عامر فُحولِـهم وخِصيانِـهم، ولهم في هذه الأمور حروبٌ أعرَضْنا عن ذكرِها لِـما شرَطْناه من الاختصار، فدبَّر أمرَ مدينة المريَّة إلى أنْ هلَك سنةَ تسعَ عشْرةَ وأربع مئة.

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٨٧.

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩١.

وصار الأمرُ فيها إلى صاحبِه زُهيرٍ الفتى العامِريّ، فوَلِيَها من بعدِه نحوَ عشَرة أعوام وتحرَّكَ إلى مدينة غَرْناطةَ في جيشٍ كثيف حتَّى وصَل إلى بابِها، فخرَجَ إليه جَمْع من صُنْهاجة معَ أميرهم باديسَ بن حَبُّوس، فوقَعَت بينَهم حربٌ كان الظَّفَرُ فيها لصُنْهاجة وانهزَم جيشُ الصّقالبة وقُتل زُهيرٌ أميرُهم وكثيرٌ منهم، واتَّصل خبرُ هذه الوقعة بأهل المريَّة فضَبَطوا بلدَهم وأسندوا أمرَهم إلى شيخِهم أبي بكرٍ الرُّمَيْميّ فضَبَطَ المريَّةَ أحسنَ ضبط إلى أن كاتَبوا عبدَ العزيز بنَ أبي عامر المتقدّمَ الذِّكر إلى بَلَنْسِية فجاءهم وأقام الدّعوةَ على مِنبرها لهشام المؤيَّد على أنَّه الرجلُ المنصوبُ بإشبيلِيَة على ما يأتي ذكرُه في دولة ابن عبّاد.

وحصَلَ ابنُ أبي عامر هذا من ترِكة هؤلاء الـخِصْيان على أموال جليلة، وانصَرف إلى بَلَنسيَةَ بعدَ أن ولَّى على مدينة المريَّة صِهرَه أبا يحيى معنَ بن صُمادِح التُّجِيبيَّ.

بعضُ أخبار مَعْن بن صُمَادِح التُّجِيبي(١)

لـمّا ترَكَه عبدُ العزيز بن أبي عامر واليًا عليها من قِبَلِه، غَدَره وخَلَع طاعتَه ونقَض عهدَه وانتَزى عليه فيها ودَعا لنفسه، وذلك في سنة ثلاث وثلاثينَ وأربع مئة، فمَلَك مدينةَ المريَّة وأعمالَـها، وكان من كُبراء العرب، وكان أبوه من قُوَّادِ محمَّد بن أبي عامر ولَّاه الولاياتِ وقاد له الجيوشَ، وتوفِّي بمدينة وَشْقة.

وحاربَ معنٌ هذا مَن جاوَرَه من سائر ملوك الطوائف إلى أن هلَك في شهر رمضانَ من سنة ثلاث وأربعينَ وأربع مئة.

ثمَّ وَلِي ابنُه أبو يحيى بن مَعْن بن صُمادِح، أجلَسَه بنو عمِّه التُّجِيبيُّونَ مكانَ أبيه، وكان أبوه أخَذ له بيعتَهم فتمَّت الإمارةُ له. وسمَّى نفسَه معزَّ الدولة، فلمّا تلقَّبت ملوكُ الأندَلس بالألقاب السلطانيَّة تلقَّب هو أيضًا باسَميْنِ من ألقابِها، فسمَّى نفسَه المعتصمَ بالله الواثقَ بفَضْل الله، ضاهَى في ذلك عَبَّادًا، فجرى هذا الفتى أبو يحيى معَ رجالِه مجراهُ على أحسنِ سيرةٍ في جُنده ورعيَّته، فحسُنَت أيَّامُه واطَّردت دولتُه، وكان من أهل

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩١-٢٩٢.

الأدبِ والمعارف، فاضلًا عاقلًا، كان لأهل الشِّعر عندَه سُوقٌ نافقة، فقَصَده جَمْع منهم، وأقام ملكًا بمدينة المرِيَّة وأعمالِـها مدَّةً طويلةً قَطَعها في حروبِه ولَذَّاتِه، فكانت مدتُّهُ إحدى وأربعينَ سنة، وصَدَمتْه عساكرُ لـمَتْوُنَةَ آخِرَ مدَّتِه وهو يُعالجُ الموت، فجعل يقول: نُغِّص علينا حتَّى الموت! وهلَكَ على إثْر رحيل عساكرِ لَـمْتُونَةَ عنه حسبَما يأتي ذكرُه في دولتهم إن شاء اللهُ تعالى.

وترَك ابنًا له كان قد رشَّحه للأمر من بعدِه، وأوصاه بوصيَّتِه فامتثَلها بعدَ موتِه، وكان قال له: إذا بلَغَك أنَّ ابنَ عبّاد جَرى عليه شيءٌ من قِبَل هؤلاء أصحابِ اللثام فاركَبْ هذا البحرَ إلى بلاد بني حمّاد، فما بقي بعدَه إلَّا ستَّةَ أشهر، وبلَغَه خَلْعُ المعتمد فصنَع ما أمره به أبوه على ما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى، فكاتَبَ المنصورَ ابنَ الناصر صاحبَ قلعة حمّاد: من عمل بِجَا يَةَ، واستأذَنَه في الوصول إلى بلاده فأذِنَ له وقال له: اقصِدْ إلى مدينة تنس فلم يزَلْ بها إلى آخرِ عهدِه.

وأمَّا زُهيرٌ الفتى المتقدِّمُ الذكر فكان قد امتدَّت أطنابُ مملكته من المريَّة إلى شاطِبةَ وما يليها إلى بَيَّاسةَ وما وراءها إلى الفَجّ من أوَّلِ عمل طُلَيْطُلة(1).

قال حيَّانُ بن خَلَف: وكان سببَ فساد باديسَ بن حَبُّوس على جارِه القديم الـحِلْف زُهير الفتى فتى المنصور بن أبي عامر مُوالاتُه لكاشِحِه محمَّد بن عبد الله الزَّناتيّ، ومضَى على ذلك حَبُّوسٌ من عداوتِه وخَلَّفها كلمةً باقية في عَقِبه ضَرَّم زُهيرٌ نارَها بعدُ فتمادى تمسُّكه بالمذكور، فأرسَلَ إليه باديسُ رسولَه مُعاتبًا مستدعيًا تجديدَ المحالفة، فسارع زُهيرٌ مقبِلًا نحوَ باديس وضَيَّع الحَزْم واغترَّ بالعُجْب ووثِق بالكثرة وصار أشبَه شيءٍ بمجيء الأمير الضّخم إلى العامل من عُمّالِه قد تَرك رسومَ الالتقاء بالنُّظَراء وغيرِ ذلك من وجوه الحزم، وأعرَضَ زهيرٌ عن ذلك كلِّه وأقبَلَ ضاربًا سوطَه حتَّى تجاوَزَ الحدَّ الذي جَرت عادتُه بالوقوف عندَه من عمل باديسَ دونَ إذْنِه، وصيَّر المضائقَ والأوْعارَ خلْفَ ظهرِه ولا يُفكِّر فيها، واقتَحم البلدَ حتَّى صار إلى باب غَرْناطة.

---

(1) الإحاطة 1/ 518.

هزيمةُ زهير الفتى ومقتلُه هو وكاتبُه أحمدُ بن عبَّاس(١)

لـمّا وصَل زُهيرٌ إلى غَرناطة خرَجَ إليه باديسُ بن حَبُّوس في جَمْعِه، وقد أنكر اقتحامَه عليه وعدَّه حاصلًا في قبضتِه، فبدَأه بالجميل والتكريم، وأوسَع عليه وعلى رجالِه في القرى والقَضيم بما مَكَّن اغترارَهم، وثبَّت طُمأنينتَهم، فوقَعَت الـمُناظرةُ بينَ زُهير وباديسَ ومَن حضَرهما من رجال دولتِهما، فنشأ بينَهما عارِضُ اختلاف لأوَّلِ وَهْلة وحَمَل زُهيرٌ أمرَه على التشطّط ووزيرُه أحمدُ بن عبَّاس يَفْري الفَرْيَ في تصريح ما يُعرِّض به زُهير، فعزَم باديس عندَ ذلك على القتال، ووافَقه قومُه صُنهاجةُ، فأقام مَراتبَه ونصَب كتائبَه وقطَع قنطرةً لا مَحِيدَ لزُهير عنها والحائنُ زهيرٌ لا يشعرُ، وبات تتمخَّضُ له ليلتُه عن راغيةِ البِكْر، وغاداهُ باديسُ صَبيحتَها عن تَعْبِيَة مُحكَمة فلم يَرُعْه إلَّا رَجَّةُ القوم زاحفينَ إليه بخَفْق طبولهم، فدُهِش زُهير وأصحابُه، فيا لكَ من أمرٍ شتيت وهَوْل مفاجِئ قَسَم بالَ المرء بين نفسِه ومالِه ووَزَع همَّه بينَ رُوحِه ورَحْلِه، إلَّا أنَّ أميرَهم زُهيرًا أحسَن تدبيرَ الثّبات لو استَتَمَّه، وقام ينتصبُ للحرب، فثبَتَ في قلبِ معسكرِه وقدَّم خليفتَه هُذَيلًا الصَّقْلَبي في وجوه أصحابه من الـمَوالي العامريِّينَ الفحول وعشيرتِه الصَّقْلَب وغيرِهم لاستقبال صُنهاجة، فلمّا رأوْه عَلِموا أنَّهم حُماتُه وشوكتُه، وأنَّهم متى حصَدوها لم يثبُتْ لهم مَنْ وراءهم، فاختَلطَ الفريقان واشتدَّ بينَهم القتالُ مَلِيًّا، فلم يكنْ إلَّا كلا حتَّى حَكَم اللهُ بالظّهور لأقلِّ الطائفتَيْن عددًا ليُريَ اللهُ قدرتَه، ويجدِّدَ في قلوبِ عباده عِبرتَه، فنكَص في الصّدمة قائدُهم هُذَيل وانهزَم أصحابُه، وسيقَ هُذَيل لوقتِه إلى باديسَ أسيرًا فعجَّلَ بضرب عنُقِه، فما هُو إلَّا أنْ نظَرَ زُهيرٌ لمصرعِه ففرَّ على وجهِه فلم يستصحبْ ثقةً ولا انحازَ إلى فئة، ولجَّ به الفِرارُ، وانهزَم أصحابُه خلفَه لا يَلْوونَ على شيء، وركبت صُنهاجةُ ولَفُّها مِن زَناتَة أكتافَ القوم باذِلينَ السّيفَ فيهم بصِدق العصبيَّة وإيثار الإفناء فلم يُبقوا على أحدٍ قَدَروا عليه فأساءوا الاعتداء وأبادوا أُمَّةً أَخَذوا في شِعابٍ وَعِرة وأجْبُل شامخة ألجأهم إليها السيف، فكانت حَتْفَ مَن فرَّ وتقطَّعوا،

---

(١) الإحاطة ١/ ٥١٩-٥٢٠.

وعلى هذه السبيل أودَى أميرُهم زُهير وجُهِل مصرعُه، وكان سُودانُه غدَروه أوَّلَ وهلة وانقلبوا معَ صُنهاجة، وكانوا يُقاربونَ خمسَ مئة.

وغنِم رجالُ باديسَ من المال والخزائن والأسلحة والحِلْية والعُدَّة والغِلمان والخِيام وسائرِ أنواع الأموال ما لا يُحيطُ به الوصف.

وظفِرَ باديسُ على قوم من وجوهِ رجال زُهير فعجَّل على الفُرسانِ والقُوَّاد بالقتل، وشَمِلَ الإسارُ حَمَلَةَ الأقلام وفيهم وزيرُه الكبيرُ أحمدُ بن عبَّاس الجارُّ لحرِّ هذه النائرة، فأمَرَ بحبسِه وشفاؤه الولوغُ في دمِه، وعفَّ باديسُ عن دماء حَمَلة الأقلام دونَه إلَّا مَن أُصيب منهم في الحرب، وأطلَقَ ابنَ حَزْم والباجيَّ وغيرَهما.

وكان باديسُ قد أرجأ قتْلَ ابن عبَّاس معَ جماعة من الأسْرى إلى أنْ وجَّه إليه أبو الحزم بنُ جَهْوَر رسُولًا شافعًا في جماعتهم، مؤكّدًا في شأنِ ابن عبَّاس، فكان أبعدَهم من الـخَلاص، وآثَرَ الشّفاء في قتلِه على عظيم ما كان يُعطَى في فِديتِه، فانصَرف يومًا من بعض ركَباتِه معَ أخيه بُلُقِّين، فلمّا مرَّ على الدارِ التي كان فيها ابنُ عبَّاس أمَرَ بإخراجِه إليه، فأقبَلَ يرسُفُ في قيودِه حتَّى أُقيم بين يدَيْه، فأقبَلَ على سبِّه وتبكيتِه بذنوبِه وأحمدُ يتلطَّفُ ويسألُه راحتَه ممَّا هو فيه، فقال له: اليومَ تستريحُ من هذا الأمر وتنتقلُ إلى ما هو أشدُّ منه، فبان لأحمدَ منه وجْهُ الموت فجعلَ يُكثر الضّراعةَ لباديسَ ويُضعِفُ له عددَ المال، فآثَرَ غضبَه وهزَّ مِزْراقَهُ[1] فركزَه فيه، وأمَرَ بحزِّ رأسِه فعُلِّق ووريَ جسدُه خارجَ القصر، فمضَى زُهيرٌ وابنُ عبَّاس على هذه السبيل.

وكان ابنُ عبَّاس حسَنَ الكتابة مليحَ الخطّ غزيرَ الأدب قويَّ المعرفة مشاركًا في العلوم، حاضرَ الجواب ذكيَّ الخاطر، جامعًا للأدوات، وبلَغَني أنَّ عبدَ العزيز بنَ أبي عامر سعَى على دمِه لـمّا حصَلَ على المريَّة، وخاف أن يتخلّص فيُكدِّرها عليه، وكذلك أكّد ابنُ صُمادِح صاحبُ المريَّة يومَئذ في قتلِه، فقتَلَه انصرافَ ابن صُمادِح عنه.

---

(١) المزراق: الرمح القصير.

لُـمَعٌ من أخبار ابن صُمادِح المذكور[1]

هو: أبو يحيى محمَّدُ بن مَعْن بن صُمادِح التُّجِيبيُّ، وقد ذكَر ابنُ حَيَّان بيتَه في تُجِيبَ وألـمَعَ بلُمَع من أسبابِ مُلكِه المغصوب وكيف تَبَلَّجَ نهارُه ومِن أين تصبَّبَ تيّارُه، فقال: كان جدُّه يحيى بنُ أحمد بن صُمادِح الـمُكَنَّى أيضًا بأبي يحيى، صاحبُ مدينة وشْقَةَ وعَملِها، طلَعت نباهتُه في أيّام المؤيَّد هشام، ثمَّ كان له بسُليمانَ اتّصال، فثنّى له الوزارةَ وأمضاهُ على عملِه، وكان أوَّلَ أمرِه مُجاملًا لابن عمِّه مُنذر بن يحيى يُظهرُ مُوافقَته ويُكاتمُه مِن حسدِه إيَّاه ما لا شيء فوقَه، ثمَّ خذَلَه جُملةً[2] فلم يلبَثْ أن تقبَّحت[3] الحالُ بينَهما بعدَ مُضيِّ سليمانَ، وتحارَبا على مُلْك وَشْقة، فعَجَز ابنُ صُمادِح عن منذر لكثرة جموعِه وأسلَم له البلدَ وفرَّ بنفسِه، فلم يبْقَ له بالثّغر مَعْلق، وكان أوَّلَ ساقط من الثّوار لم يتملأ سلطانَه ولا أورَثَه مَن بعدَه، وكان أبو يحيى هذا ذا رأي ولسان وعارِضة، لم يَكُ في أصحابِ السيوف من يَعدِلُه في خِلالِه هذه من رجُل محروم، يقارنُه الشُّؤم، ويقعُدُ به النَّكدُ واللُّؤم، وكان يحمِلُ قطعةً صالحة من الأدب ينالُ بها حاجتَه مخاطبًا ومذكِّرًا لا يزالُ يسمو إلى طلبِ الدنيا يَعرَضُ في حركاتِه[4] فيقعُدُ به جِدُّه ويُنكسُه زمانُه إلى أنْ جَرى عليه الدهرُ بضَرَبانِه.

وأمَّا أبوه[5] ذو الغَدْرةِ الصّلعاء فإنّه لـمّا قُتل زُهيرٌ وصارت المريَّةُ لعبد العزيز بن أبي عامر صاحبِ بَلَنسِية حسَده على ذلك مجاهدٌ صاحبُ دانِيَة، فأظلم الأُفُق بينَهما، فخرَجَ مجاهدٌ غازيًا بلادَ عبد العزيز وهو بالـمَرِيَّة مشتغلًا في تِركة زُهير، فخرَجَ مُبادرًا

---

(١) الذخيرة لابن بسام ١/ ٥٥٦ فما بعدها، ومنه ينقل المؤلف وأخباره في المعجب ١٩٦، والمغرب ٢/ ١٩٥، والمطرب ٣٤، والحلة السيراء ٢/ ٧٨-٨٨، ووفيات الأعيان ٥/ ٣٩ وغيرها.

(٢) في الذخيرة: تجمله.

(٣) في الذخيرة: تفرّجت.

(٤) في الذخيرة: «والحرص عليها في أكثر حركاته»، ويعرض: يضطرب.

(٥) في الأصل والمطبوع من الذخيرة: «ابنه» ولا يصح، على أنه ورد في نسختين من الذخيرة على الصواب «أبوه» فعدل به المحقق إلى «ابنه» وسياق الحديث واضح بيّن أن المذكور هو والد محمد بن معن.

عنها لاستصلاح مجاهد، وترَكَ واليًا عليها من قِبَلِه صِهرَه مَعْنَ بن صُمادِح المتقدِّم ذكرُه، فكان شرَّ خليفةٍ استُخلِف، لم يكد يُواري عبدُ العزيز وجهَه عنه حتَّى خانَه الأمانةَ وطَرَده عن الإمارة ونصَبَ له الحرب، فغرَّب في اللُّؤم ما شاء، وتنكَّب ابنُ أبي عامر التوفيقَ لاسترعائه الذئبَ الأزلَّ على ثُلَّته، ومسترعي الذّئب ظالم[1]. وكان من العُجب أنْ تملَّكها ابنُ صُمادِح مُدَّتَه وأورَثَها عِقبَه.

ثمَّ أفضَى الأمرُ بعدَه إلى ابنه أبي يحيى محمَّد بن مَعْن المتقدّم الذكر، فارتقَى ذِروةَ الإمارة وتلقَّب من الألقاب السُّلطانيَّة بالمعتصم والرَّشيد وهو يعلمُ أنَّ من الـجَوْر والباطل أُسَّ مُلكِه الموروث عن أبٍ لم يكرُمْ فيه فعلُه ولا طال فيه تعبُه، ثمَّ لم يَكْفِه تَغَطِّيه عن أجنحة النوائبِ بساحلِه الذي حال الحزْنُ[2] أمامَه والثَبَجُ[3] وراءه، فرعى خُضرتَه ولبِسَ فُروتَه، وآثَر شَهَواتِه مستبدًّا بها ألفاه لا يتجاوزُ به شَهَواتِه ولَذَّاتِه دونَ قضاء حقّ في جهاد عدوّ أو سدّ ثَغْر أو مَعونةٍ على صِهرِه، حتَّى ملَّ العافيةَ وقصَر[4] الدَّعةَ وطلَبَ الزيادة، وفاتَنَ ابنَ خالِه عبدَ الملك ابنَ أبي عامر، ولم يَرْعَ فيه حقَّ صِهرِه يحيى بن ذي النُّون كبيرِ ثُوّار[5] الأندلس يومئذٍ، فصَمَدَ له على حصنٍ من عمل تُدْمِير وَثَبَ فيه بعامل عبد المَلِك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وجَرت بينَهما خُطوبٌ، واستعان بحليفِه باديسَ واستمدَّه على ما ذَهب إليه من الفتنة، فوجَده مُسارعًا إلى ذلك لـِمَا كان يعتقدُه من العصَبيَّة البربريَّة ويذهبُ إليه من إرداء فرقة الأندَلسيّين، ومعَ ذلك كلِّه فانقلب ابنُ مَعْن خائبَ السعي قبيحَ الـخَجَل ضائعَ النفقة.

قال ابنُ بسَّام[6]: لم يكنْ أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة، أخْلَد إلى الدَّعة، واكتفَى عن الضِّيق بالسَّعة، واقتصَر على قَصْر يبنيه، وعِلْق يقتنيه، ومَيْدان من اللَّذَّة يستولي عليه

(١) في الذخيرة: «أظلم».

(٢) في المطبوع من الذخيرة: «الحوز»، وجاء في نسختين منها كما أثبتنا.

(٣) في الذخيرة: «اللج».

(٤) في الذخيرة: «وبطر».

(٥) في الذخيرة: «أمراء».

(٦) الذخيرة ١/ ٥٥٨.

ويُبرِّزُ فيه، غيرَ أنَّه كان رَحْبَ الفِناء، جزيلَ العَطاء، حليمًا عن الدّماء والدَّهْماء، طافَتْ به الآمال، واتَّسع في وصفِه[1] المقال، وأُعملت إلى حضرتِه الرحال، ولزِمَه فُحولٌ من شعراء الوقت كأبي عبد الله ابن الحدَّاد وابن عُبادةَ وابن الشَّهيد وغيرِهم، وقد كانت بينَه وبينَ خُلفائه بالجزيرة مِن ملوك الطوائف فُتونٌ مُبيرة غَلَبوه عليها وأخرَجوه من سَجِيَّتِه مُكْرَهًا إليها، لم يكن مكانُه منها بمَكِين، ولا فتْحُه[2] فيها بِمُبين.

بعضُ أخبار مُنذرِ بن يحيى صاحبِ سَرَقُسْطَةَ وذَواتِها[3]

كان[4] منذرُ بن يحيى رجلًا من عُرْض[5] الـجُند وترقَّى إلى القيادة آخِرَ دولة ابن أبي عامر، وتَناهى أمرُه في الفتنة إلى الإمارة. وكان أبوه يحيى منَ الفرسان غير النُّـبَهاء، فأمَّا ابنُه منذرٌ هذا فكان فارسًا لبِقَ الفروسيَّة، خارجًا عن حدِّ الجهل يتمسَّكُ بطَرَف من الكتابة الساذَجة. وأمَّا غَدْرُه فالنارُ برأس اليَفَاع، من أفحشِه: صُنْعُه بهشام المخلوع مولى نعمتِه ومُعلي رُتبتِه وباعثِه إلى الثّغر لنُصرتِه، فانقلب ناصرًا لعدوِّه وغَزاهُ في عُقْرِ دارِه وأنزَلَه عن سريرِه وأسلَمه لـحَتْفِه وباعَ دماء عشيرتِه أهل قُرطُبة من البرابرة، وعاد بمثلِها لمحمَّد بن سُليمانَ أثيرِه عندَما استجارَ به وهُو في نكبتِه، فقتَلَه وهو ضيفُه، فجاء بها صَلْعاء مشهورةً لم تغسِلْها معذرة، إلَّا أنَّه كان كريمًا وهَبَ لقُصَّادِه مالًا عظيمًا فوفَدوا عليه وعَمَرت لذلك حضرتُه سَرَقُسْطة فحسُنت أيّامُه وهتَفَ الـمُدَّاحُ بذكرِه.

وكان لأوَّل ولايتِه قد ساسَ عُظماءَ الإفْرَنج فحُفِظت أطرافُه إلى أنْ مضى بسبيلِه والثّغرُ مسدودٌ لا ثغرةَ فيه، وبلَغَ منَ استمالتِه طوائفَ النَّصرانيَّة أنْ جَرى بينَ يدَيْه

(١) في الذخيرة: «في مدحه».

(٢) في الذخيرة: «صبحه».

(٣) الذخيرة لابن بسام ١/ ٤٧ فما بعدها ومنه ينقل المؤلف. وينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٨٩، والمغرب ٢/ ٤٣٥، والإحاطة ٣/ ٢٨١، وأعمال الأعلام ١٩٦-٢٠١.

(٤) هذا كلام المؤرخ ابن حيان.

(٥) أي: عامتهم.

وبحضرتِه عَقْدُ مُصاهرةٍ بعضِهم، فقذفَتْه الألسِنةُ لسَعْيِه في نَظْم سلكِ النّصارى وقد قيل: إنَّ رأيَ منذرٍ كان في ذلك أحصَفَ مـمَّن قَدَح فيه لنظَرِه في صلاح وقتِه وعلمِه بانصداع عصا أهل كلمتِه، فآثَرَ منَ الـمُوادعة ما سَتَر به العورةَ وسدَّها بيسير الكُلفة. واختُدع به عظيمُ الـجَلالقة: ريمنده وشانْجُه المحدِّثانِ أنفُسَهما يومَئذٍ بمناهضة أهل الأندَلس، فألهاهُما عن الحرب وحَبَّب إليهما الدَّعَةَ وأغْنَم أهلَ الثّغر في ذلك الوقت عاجلَ السّلامة واستَظْهَروا به على العِمارة فحَيُوا وعاشوا في نعمةٍ ضافية وعيشة راضية إلى أنْ ألْوَتْ بمُنذرِ المنيَّة وقد اعترَف الناسُ برأيه وأقرُّوا بسياسته، ولم يأتِ بعدَه من يَسُدّ مسَدَّه ولم ينفع اللهُ الطاغيتَيْنِ بعدَه بالذي كانا عقَداه بحضرة منذر، إذ أعجَلَ عنه شانْجُه وأثيرَه ريمنده وابنَه بعدَه، فشتَّت اللهُ شملَ الطاغية يومئذ وكفَى المسلمينَ شرَّهم برحمتِه. واشتمَل منذرٌ على قُوَّادِ تلك الثغور، واستَوْسَقَت له الأمور، واستكتَبَ عِدَّةَ كتَّابٍ جِلّة: ابنَ مروس وابنَ أرزق وابنَ واجب وغيرَهم رحمهم اللهُ تعالى.

مقتلُ منذرِ بن يحيى رحمه الله[١]

قال ابنُ حيَّان: كان ذلك على يد رجُل مارِد من بني عمِّه يقال له: عبدُ الله بن حَكيم[٢]، وكان مقدَّمًا في قُوَّاد منذر، أضْمَر الفتك به دهرًا، فدخَل عليه غُرَّة ذي الحجَّة سنةَ ثلاثينَ وأربع مئة وهو غافلٌ في غُلالة وليس عندَه إلَّا نفرٌ يسير من خواصِّ خَدَمِه الصَّقْلَب وهو كابٌّ على كتاب يقرؤه، فعَلاهُ بسِكّين قد أعدَّه فقَطَع[٣] به أوْداجَه ولا مانعَ منه وهرَبَ خَدَمُ السّوء[٤] الغِلمانُ الخِصْيانُ الذين كانوا على رأسِه وخَلَّوْهُ في يدِه إلَّا خادمًا شهمًا دفَعَ عنه وهو حاسِر فضَربَه عبدُ الله بخِنجر فقضَى عليه معَ مولاه. وأخرجَ رأسَ مُنذر في الوقت من قصرِه فوقَ عصاةٍ[٥] ينادي عليه: هذا جزاءُ مَن عصَى

(١) الذخيرة ١/ ١٥٠ فما بعدها باختلاف لفظي.

(٢) في الذخيرة: «حكم».

(٣) في الذخيرة: «ففرى».

(٤) في الذخيرة: «خدام السر».

(٥) في الذخيرة: «قناة».

أميرَ المؤمنين هشامًا ودفَع حقَّه، يريد بذلك الرجلَ الذي كان منصوبًا بإشبيلِيَة يُدْعى له يومَئذٍ بها تعلُّقًا من هذا المارِد بولايته وتوطيدًا لقيامه، إذ كان هذا القتيلُ ممَّن ردَّ طاعةَ هذا الدَّعيِّ هشام تأسِّيًا بوالدِه يحيى وبخالِه إسماعيلَ بن ذي النّون، فنزَلَت بسَرَقُسْطَة يومئذٍ حادثةٌ عظيمة، وأشرَف أهلُها على فتنة شديدة، وطمِع فيهم أكثرُ من كان يُجاورُهم، وأذعَنوا لهذا العربيِّ[1] المتوثِّب عليهم ورَهَبوه حتَّى مَلَكهم.

فملَكَ سَرَقُسْطةَ عبدُ الله بن حَكيم، فسارع إليه سُليمانُ بن هُود الجُذَاميُّ صاحبُ لارِدة، إذ كان مقيمًا بتُطِيلة، في جَمْعِه، حين مجيئه الخبرُ، رجاءً في دخولها، فمنعَه هذا القاتلُ لمنذرٍ المذكور، وجاءه إسماعيلُ بن ذي النُّون خالُ منذر المذكور مُتعِضًا لِما جَرى على ابن أُختِه، فامتَنع ابنُ حَكيم[2] بالقَصَبة، واتَّصلت الفتنة.

وكان ابنُ حَكيم رِكبَ من خُطَّة التغرير ما لم يجسُرْ عليه فاتكٌ قبلَه، لوثوبه على منذرٍ جوفَ قصرِه في قَرارِ مجلسِه بينَ فِتيانِه وأهلِه وتحتَ أغلاقِه وبينَه وبينَ الباب الأقصى من قصرِه ما لا يُحصَى من حُجَّابِه وقَهارمتِه، فلم يفكِّرْ في شيءٍ من ذلك، وحمَلَ نفسَه على التصميم فيه، وهوَّن على نفسِه الموتَ دونَه، فتمَّ له ذلك، ولم يكنْ في الخِصيان الذين حضَروا فضلٌ للدّفاع عنه وإنَّهم لم يزيدوا على الهربِ أمامَه، فجاء بفَتْكةٍ أسقطَت كلَّ فتكةٍ في الإسلام قبلَه، ثمَّ أعلَق طمَعَه بالـمُلك فنالَه ولم يفكِّرْ في ابن ذي النُّون خال منذر لـمّا دَنا إليه، وفعَلَ مثلَ ذلك بابن هود وقد جاء ناشرًا أُذُنَيْه، فحارَبَه ودافَعه. وكان بقصرِ منذرٍ وقتَ فَتْكِه من حاشيتِه وغِلمانِه أزيَدُ من مئة رجل سوى نسائه، فطار الرجُل على وجوهِهم فَزِعًا ولم يكنْ منهم مَن يأخُذُ على يدِه، وقام فيهم كالأسدِ الوَرْد.

ولـمّا أُخرج رأسُ منذر للناس بُهِتوا وأبلَسوا ولم ينطِقْ أحدٌ منهم بكلمة. وأرسَل من حينِه عن قاضي البلد والمشيخة، فدخَلوا عليه وهو قاعدٌ على فراشِ قتيلِه ومنذرٌ على جانبِ الفراش مُزَمَّلٌ في دمائه مُغطًّى بثيابِه، فوصَفَ أنَّه جَرى في سبيل الإصلاح عليهم والشدِّ لسُلطانِهم، وأظهَرَ الدّعاء أوَّلًا لابن هُود، فأرَوْهُ قبولَ ما وصَفَه وتفرَّقوا

---

(١) في الذخيرة: «الغوي».

(٢) في الذخيرة: «حكم» أينما وردت.

عنه وكلمتُهم متألِّفةٌ عليه إلى أن ثاروا به وقاتَلوه فخرَجَ من بابٍ بظَهْر القصر ونَجَا بفاخِرِ ما اشتمل عليه من ذخائرِ مال منذر، ولحِقَ بحصنِ روطةَ أحدِ معاقل سَرَقُسْطةَ الـمَنِيعة وقد كان أعدَّه لنفسِه، فأقام به يَرصُدُ الفتنةَ جُهدَه، وقد كان حمَلَ معَ نفسِه أخوَيْنِ لمنذرٍ قتيلِه وأبا الـمُغيرةَ بنَ حَزْم وزيرَه وغيرَهم من رجال منذر مقيَّدينَ، فحبَسَهم عندَه يُطالبُهم بالأموال، ونَهَبت العامَّةُ قصرَ سَرَقُسْطة إثْرَ خروجِه حتَّى قَلَعوا مرمرَهُ وطمَسوا أثَره. وعجَّل ابنُ هودٍ بالإتيان، فمَلَك البلدَ في محرَّم سنةَ إحدى وثلاثينَ وأربع مئة على ما يأتي ذكرُه في دولة ابن هُود إن شاء اللهُ تعالى.

ومن أخبار أبي مروانَ ابن رَزِين الملقَّب بحُسام الدّولة

قال ابنُ حيَّان[1]: كان جَدُّه هُذَيلُ بنُ خَلَف بن لُبّ بن رَزِين المعروفُ بابن الأصلع صاحبَ السَّهلة موسَّطةً ما بينَ الثَّغر الأقصى والأدنى من قُرطُبة، فإنَّه كان من أكابرِ برابرِ الثَّغر، ورِثَ ذلك عن سَلَفِه ثمَّ سَما لأوَّل الفتنة إلى اقتطاع عملِه والإمارة لجماعتِه والتقيُّل لجارِه إسماعيلَ بن ذي النُّون في الشُّرود عن سُلطان قُرطُبة، فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيرُه من جميع من انتَزَى في الأطراف شرقًا وغربًا وقِبْلةً وجَوْفًا، إلَّا أنَّ هُذَيْلًا هذا معَ تعزُّرِه[2] على المخلوع هشام لم يَخرُجْ عن طاعتِه ولا وافَقَ الحاجبَ منذرًا ولا جماعةَ الـمُتمالئينَ على هشام في شأن سليمانَ عدوِّه إلى أنْ ظفِرَ بهشام فسَلَك هُذَيْلٌ مسلكَهم فرضِيَ منه سُليمانُ بذلك وعَقَد له على ما في يدِه هنالك لعجزِه عنه، فزادَه ذلك بِعادًا منه، وتمرَّس به الحاجبُ منذرُ بن يحيى مُدرِجًا له في طيٍّ من استعمله واشتمل عليه من أصاغر[3] أُمراء الثَّغر النازلينَ في ضَبْنه[4] فأبَتْ له نفسُه البخُوعَ[5] له والانضمامَ إليه، فردَّ أمرَه وحادَّه وصار ضدَّه، وأجاره منَعةُ

(١) ينقل المؤلف من الذخيرة لابن بسام ٣/ ٨٤ فما بعدها بتصرف.

(٢) في الذخيرة: «تعززه».

(٣) هكذا في الذخيرة، وهو الصواب.

(٤) الضبن: الناحية والكنف، وصوّبها ناشر م إلى: «ضمنه».

(٥) البخوع: المناصحة في الطاعة.

مَعْقلِه، وظاهَرَ أعداء منذر، حتَّى حالَفَ المواليَ العامريّينَ واستمرَّ معَهم على دعوة هشام المخلوع وقَطْع دعوةِ سُليمان، وكانت واقيةَ الله عليه كونُه بِسِطةِ[1] الثَّغر، فصار ذلك أردَّ الأشياء إلى البرابرة عنه، فسلِمَ من مَعرَّة الفتنة أكثرَ وقتِه وتخطَّته الحوادثُ لقوَّة سَعْدِه، واقتصَر معَ ذلك على ضَبْط بلدِه المرسوم بولاية عهدِه وتَرْك التجاوزِ لحدِّه والامتدادِ إلى شيءٍ من ولاية غيره، فاستقام أمرُه وعَمَر بلدُه وأُنظِر بعدَ جُمهورِ الثوَّار بالأندَلُس شأوَ الحياة.

وليس في بلد الثغر أخصبُ بقعةً من سَهْلتِه المنسوبة إلى بني رَزِين سَلَفِه في اتّصال عِمارتِها، فكثُر مالُه، إذ ناغَى جارَه وشبيهَهُ في جَمْع المال إسماعيلَ بن ذي النُّونِ ونافَسَه في خِلال البُخل وفَرْطِ القسوة. وكان مع ذلك شابًّا جميلَ الوجه حاميَ الأنف غليظَ العقاب، صار إليه أمرُ والدِه منبَعَثَ الفتنة وهُو فتًى لـمَّا يجتمعْ ولم يبلُغ العشرينَ من سنِّه، فأنجَده الصِّباءُ على الجهالة، وقوَّاه الشبابُ على البِطالة، فبعُد في الشرود شأوه، فلم يُخالفْ أحدًا من الأُمراء على أداء الإتاوة، ولا حَظِي أُمراءُ الفتنة منه بسوى إقامة الدّعوة فقط دونَ مَعونةٍ بدرهم ولا إمداد بفارس، ولا شارَكَ الجماعةَ في حُلْوٍ ولا مُرّ على كثرةِ ما طَرَقَ الحضرةَ من خُطوب دُهْم استخَفَّت البِطاء وقرَّبت البُعَداء فضلًا عن الأولياء، إلَّا ما كان من هذه الحيَّة الصّمّاء، فإنَّه لم يزَلْ على تَصامِّهِ عن كلِّ نداء إلى أن مضَى لسبيله، والأخبارُ متتابعةٌ عن جهلِه وفَظاظتِه حتَّى زَعَموا أنَّه سَطا بوالدتِه وتولَّى قتلَها بيدِه.

وكان هُذَيلٌ هذا بارعَ الجمال، حسَنَ الخُلق، جميلَ العشرة، ظاهرَ المروءة، لم يُرَ في الأُمراء أبهى منه منظرًا، معَ طلاقة لسانِه وحُسن توصُّلِه بالكلام إلى حاجتِه دونَ معرفة، وكان معَ ذلك أرفعَ الملوك همَّةً في اكتسابِ الآلات، وهو أوَّلُ مَن بالَغ الثمنَ بالأندَلس في شراء القَيْنات، اشترى جاريةَ ابن[2] عبد الله المتطبِّب بعدَ أن أحجَمَت الملوكُ عنها لغلاء سَوْمِها بثلاثةِ آلاف دينار فمَلكَها، وكانت واحدةَ القِيان في وقتِها لا نَظيرَ لها في معناها، لم يُرَ أخفُّ روحًا منها ولا أملحُ حركةً في جميع أمورِها كلِّها

---

(١) السطة: الوسط.

(٢) في الذخيرة: «أبي».

من الأمورِ المستحسَنات، وابتاع معَها كثيرًا من القَيْنات المشهورات، فكانت سِتارتُه أرفعَ سِتارات الملوك بالأندلس.

قال ابنُ بسَّام[١]: وأمَّا حسامُ الدّولة أبو مروانَ المذكورُ، فكان له طبعٌ يدعوهُ فيُجيب، ويَرمي بغُرَّة[٢] الصواب عن قوسِه فيصيب، على ازدراءٍ كان منه بالأُمَّة، وقلَّة استجداءٍ[٣] لمن عُني بالأخْذ عنه من الأئمة، وربَّما جالَسَهم[٤] مُباحثًا بينَ مُغالطةٍ وأَنَفة. وبالجُملة، فلو جَرى ذو الرِّياستَيْن على عفوِه وعرفَ منتهَى شأوِه، وكان شاعرًا مُجيدًا، ومن شعره [من البسيط]:

يـا ربَّ ليـلٌ أطـال الهجـرُ مدَّتَـهُ ... فايْـأَسَ القلـبَ عـن إدراكِ منتـصَفِهْ

ليـلٌ تطـاوَلَ حتَّـى قـد تبـيَّنَ لي ... عند التأمُّلِ أنَّ الـدهرَ مـن سَـدَفِهْ[٥]

رَجْعُ الخبرِ لذكرِ ملوك قُرطُبَةَ وإشبيلِيَةَ وما يُصاقِبُهما من بلادٍ موسَّطةِ الأندَلس وغَرْبِها

قد تقدَّم القولُ في دولة هشام المعتدِّ بالله بقُرطُبَةَ، وأنَّ بيعتَه بها كانت في سنة عشرينَ وأربع مئة في ذي الحجَّة منها وافتُتِحت بيعتُه بإجماع وخُتِمت بفُرقة وعُقِدت برِضًى وحُلَّت بكُرْه، وخُلِعَ منها يومَ الثلاثاء الثانيَ عشَر لشهرِ ذي حجَّة من سنة اثنتين وعشرينَ وأربع مئة، واجتَمع الناسُ بقُرطُبَةَ على تقديم الوزير أبي الـحَزْم بن جَهْوَر[٦].

---

(١) الذخيرة ٣/ ٨٧.

(٢) في الذخيرة: «ثغرة».

(٣) في الذخيرة: «استخذاء».

(٤) في الذخيرة: «خالسهم».

(٥) السَّدَف: الظلام.

(٦) الجمهرة لابن حزم ١٠٢، وجذوة المقتبس (٣٥٩)، والمطمح ٢١٦، والذخيرة ١/ ٤٦١، والمعجب ١١١-١١٢، والحلة السيراء ٢/ ٣٠، والمغرب ١/ ٥٦، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٩، وتاريخ الإسلام ٩/ ٥٤٧ وغيرها.

دولةُ الـجَهاورةِ بقُرطُبة

ثمَّ قام بقُرطُبة ابنُ جَهْوَر، وهو: جَهْورُ بن محمد بن جَهْوَر بن عبد الملك بن جَهْوَر بن عبد الله بن أحمدَ بن محمد بن الغَمْر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسُفَ بن بخْتَ بن أبي عَبْدةَ[١]، وكان بمدخَل جدِّهم أبي عَبْدةَ إلى الأندلس أثرٌ عظيم ظهَرَ له فيها من جميل الذِّراع وسَعة الباع وحُسن الامتناع ما لم يظهَرْ لأحدٍ من النُّظَراء من حين الفتح إلى وفاة أبي الحَزْم هذا، وذُكر أنَّ جَدَّه بخْتَ بن أبي عَبْدة كان من الفُرْس مولًى لعبد الملك بن مروان، ودخَل يوسُف بن بخْت إلى الأندلس قبلَ دخول عبد الرحمن بمدَّة، وكان أحدَ كبار الموالي بقُرطُبة.

قال ابنُ حيَّان[٢]: واجتمَع الملأُ من أهل قُرطُبَةَ على تفويض أمرِهم لأبي الحَزْم جَهْور، وعدَّدوا من خِصالِه ما لم يختلفوا فيه فأعطَوْا منه قوسَ السياسة باريَها، وولَّوا أمرَ الجماعة أمينَها، فاختَرَع لهم لأوَّل وقتِه نوعًا من التدبير حَمَلهم عليه وأجادوا السياسةَ فيه، فانسدَل السِّترُ على أهل قرطُبة مدّتَه، وحصَّل كلَّ ما يرتفعُ من البلد بعدَ إعطاء مُقاتلتِه، وصيَّر ذلك في أيدي ثقاتٍ من الـخَدَمة مُشارفًا لهم بضَبْطه، فإنْ فَضَل شيءٌ تَركَه بأيديهم مثقَّفًا مشهودًا عليه لا يتلبَّسُ لهم بشيءٍ منه، ومتى سُئِل قال: ليس لي عطاءٌ ولا منع هو للجماعة وأنا أمينُهم، وإذا رابَهُ أمرٌ أو عَزَم على تدبيرٍ أحضَرهم وشاوَرَهم، وإذا خُوطبَ بكتابٍ لا ينظرُ فيه إلَّا أن يكونَ باسم الوُزراء، فأعطى السّلطانَ حظَّه من النّظر، ولم يَخْلُ معَ ذلك من نظرِه لمعيشتِه حتَّى تضاعف ثراؤه وصار لا تقعُ عينُه على أغنى منه، حاطَ ذلك كلَّه بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذَيْنِ لولاهما ما وجَد عائبُه فيه مَطْعَنًا ولكَمُلَ لو أنَّ بشرًا يكمُل.

وكان معَ براعتِه ورِفعة قَدْرِه من أشدِّ الناس تواضعًا وعفَّة، وأشْبهِهم ظاهرًا بباطن وأوَّلًا بآخِر، لم يختلفْ له حالٌ من الفَتاء إلى الكُهولة.

واستمرَّ في تدبيرِه بقُرطبة فأنْجَح سعيُه بصلاحِها ولـمِّ شَعَثِها في المدَّة القريبة، وأثمر الثمرةَ الزكيَّة، ودبَّ دَبيبُ الشّفاء في السَّقام فنعَش منها الرُّفات، وألْحَفَها رداء

---

(١) في هذا النسب اختلاف بين المصادر.

(٢) النص في الذخيرة ١/ ٤٦١-٤٦٣ باختلاف لفظي، والمؤلف ينقل من الذخيرة.

الأمن ومانَعَ عنها مَن كان يَطلُبُها من البرابرةِ الـمُتوزِّعين أسلابَها بخفض الجناح والرِّفق في المسائل، حتَّى حصَلَ على سِلمِهم واستدرارِ مرافقِ بلادِهم ودارَأ القاسطِينَ من ملوكِ الفتنة حتَّى حَفِظوا حضرتَه وأوجَبوا لها حُرمةً بمُكابدةِ الشدائد حتَّى ألانَها بضروب احتيالِه فرَخَت الأسعار وصاح الرَّخاءُ بالناس أنْ يعلَموا فلبَّوه من كلِّ صُقْع، فظهَر تزيُّدُ الناس بقُرطُبة من أوَّل تدبيرِه لها وغَلت الدُّور وتحرَّكت الأسواق، وتعجَّب ذو التحصيل للذي أرأى الله في صلاح الناس من القوَّة ولـمّا تعتدلْ حالٌ أو يهلِكْ عدوٌّ أو تَقْوَ جِباية وأمرُ الله بين الكاف والنّون.

وتوفِّي أبو الحزم ليلةَ الـجُمُعة السادس لمحرَّم سنةَ خمس وثلاثينَ وأربع مئة. انتهى كلامُ ابن حَيَّان.

وفي سنة خمس وعشرينَ وأربع مئة: قُتل أُميَّةُ بنُ عبد الرحمن في جُمادى الآخِرة، أخرجَ إليه شيوخُ قُرطُبة مَن قتَله قبلَ أن يدخُل قُرطبة وكان منصرِفًا إليها من الثّغر طامعًا في سُكْناها فقُتل بموضع يُعرَف بقرية راشد، وخَفِي قتْلُه وسُتِر شخصُه ورأسُه.

وفيها: توفِّي أبو عمرٍو بنُ شُهَيْد القُرطبيُّ شيخُ قرطُبة وفتاها، ومبدأُ الغاية القُصوى ومُنتهاها.

وفي سنة ستٍّ وعشرين وأربع مئة: قُتل يحيى بن عليّ بن حَمُّود[1] رحمه الله، وأنا أشرح في هذا الموضع كيفيَّةَ مقتلِه، إذ كان خاتمةَ آثارِه ومميَّزًا في عيون أخبارِه، وقد تقدَّم في أخبار عمِّه القاسم لُـمعٌ من أخباره وكيف نَجَم مُلكُه وعلى يدَيْ مَن نُظم سِلكُه.

مقتَلُ يحيى بن عليٍّ بن حَمُّود الـحَسَنيِّ رحمه الله

قال حيَّانُ بن خَلَف[2]: حكى لي أبو الفتح البِرْزاليُّ قال: لـمّا كان عيدُ أضحى سنةِ ستٍّ وعشرين وأربع مئة، وانغَمس يحيى في شُربِه ولهوِه، سِرتُ ومعي أحدٌ من بني عمّي إلى اللَّحاق بإشبيلِيَةَ للاجتماع بابن عمِّنا محمَّد بن عبد الله البِرْزاليّ والقاضي

(١) ذكر الحميدي في الجذوة (ص: ٤٥) أنَّ مقتله كان يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة سبع وعشرين وأربع مئة، وسيأتي بعد قليل أنّ ما ذكره الحميدي هو الصواب.

(٢) النص في الذخيرة لابن بسام ١/ ٢٤٥.

ابن عبَّاد، فوصَلْنا وأنبأناهُما من خبرِ يحيى بن حمود وهوِه، فرَأيا أنْ يوجِّها إليه بجيش لقتاله، فخرَجَ إسماعيلُ بن عبَّاد معَ ابن عمِّنا في المحرَّم من سنة سبع وعشرينَ وأربع مئة وهما في بيعة هشام بن الـحَكَم المنصوبِ عندَهما بإشبيلِيَةَ تلك الأيَّام، فجئنا إلى باب قَرْمُونَةَ بالجيش كي نَغِيظَ يحيى فيخرُجَ أو يُخرجَ أحدَ مَن قِبَلَه[1]، وقدَّمنا سريّة وكمَنَ الجيشُ بناحيةٍ أخرى، وقد كنَّا وجَّهنا فوارسَ ليلًا للسامرة بسُور قَرمُونة، فطار الخبرُ إلى يحيى وهو تلك الليلةَ على شرابٍ وقد أخَذ منه، فنعَرَه نَعْرةً ووَثَب قائمًا يقول: وابياضَ بَخْتي[2] الليلةَ وابنُ عبَّاد زائرُه! وأمَرَ بالإسراج وتقدَّم إلى أصحابِه وغِلمانِه، وبادَرَ الخروجَ ليلًا على بابِ قَرْمُونة وأصحابُه يتَلاحقونَ فالتأمت عُدَّتُه في نحوٍ من ثلاث مئة فارس، فمضَى على وجهِه مغترًّا يضربُ إبطَيْ أهْجَنِ خيلِه فألقَى نفسَه علينا في أوائل خيلِه وأنشَبَ الحربَ بينَنا وبينَه، ووَالى علينا الشدَّاتِ الصِّعابَ بنفسِه، فعلمنا أنَّه لا يُنجينا منه إلَّا الصِّدق، واستقبلناهُ بوجوهِنا ثمَّ ردَدْنا عليه الكَرَّةَ، وطاوَلْناه بالكثرة[3] فحمَلَ علينا حملةً ثالثةً مع أصحابٍ له، وكنَّا في جبل منيعِ الصُّعود إلينا نَذودُ منه ونَنالُ من أصحابِه، فإذا ردَدْنا عليهم استعنَّا بفضل الانحدار من عَلٍ فنخطَفُهم خَطْفَةَ الأجادل فصدَقْنا هذه الحملةَ، فساقَنا حتَّى رَمانا على إسماعيلَ بن عبَّادٍ ومَن معَه من الأندَلسيِّين، فثاروا في وجهِه، فتوقَّف الفريقان، وظهرَ كمينُ ابن عبَّاد وجاد صبرُه وحرَّض غِلمانَه العجَم فشَدَّت الجماعةُ على يحيى شدَّةً مُنكرة وانحَدروا من ذلك التلِّ الذي تسنَّموه فانكَسروا، وصُرِع في ذلك قومٌ، وتمادَى الطَّلبُ وراءهم بعدَ مُواقفةٍ عظيمة فصرع يحيى وحُزَّ رأسُه وطُيِّر به إلى ابن عبَّادٍ بإشبيلِيَةَ، فخرَّ ساجدًا، وعجِبَ[4] مَن حضَر لسجودهِ وانطَبق البلدُ فرحًا، واستمرَّت على أصحاب يحيى حتَّى ساء ذلك ابنَ عبد الله البِرْزاليَّ وبدَت عصبيَّتُه لقومِه وكلَّم ابنَ عبَّاد في رَفْع السيّف عنهم فأطاعه

---

(١) في الذخيرة: «أو يَخرج أحدٌ مِن قِبَلِه»، وما هنا أجود أي: يُخْرِجَ أحدًا من الذين هم قبله، فتكون «مَن» بمعنى «الذين».

(٢) في م: «يحيى»، وما أثبتناه يعضده ما في الذخيرة.

(٣) في الذخيرة: «بالقوة».

(٤) في الذخيرة: «وسجد».

في ذلك، وتَمّ لابن عبد الله ما أراد من حَقْن الدّماء، إذ لم يأتِ الذي أتاه إلَّا عن ضرورة، ولم يتلعثَمْ أن أسرَع إلى قَرْمُونَة دونَ إسماعيلَ بن عبَّاد، فجاءها لوقتِه وقد ملَكَ سُودانُ يحيى أبوابَها على أهلِها، فدَنا إلى مكانٍ عَرَفَه في سُورِها فدخَل منه إلى دار يحيى فحاز جميعَ ما ألفاهُ[١] بها من مال أو متاع، واشتمل على نسائه وأباح حُرَمَه لبَنيه، واستحَلَّ خُدّامَهنَّ[٢]، واستوى على مجلسِه، ونُصر نصرًا لاكفاء له، وسَقَط الخبرُ على أهل قُرطُبة فما صدَّقوه من الفرح.

وفي سنة سبع وعشرينَ وأربع مئة: أظهرَ القاضي محمدُ[٣] بن إسماعيلَ بن عبَّاد المؤيَّدَ هشامَ بنَ الحَكَم واستَجْلَبَه من قرية كان بها، وقام به وبايَعَ له ودَعا الناسَ إلى الدّخولِ في طاعته، واستَحْجَبَه ابنَه إسماعيلَ[٤] بن محمد، ولَهَجَ بعضُ رُؤَساء الأندلسَ بذلك منهم: عبدُ العزيز بنُ أبي عامر صاحبُ بَلَنْسِيَةَ وأعمالِها والموفَّقُ صاحبُ دانِيَةَ والجزائرِ الشرقيَّة وصاحبُ طَرْطُوشةَ والوزيرُ أبو الحزم بنُ جَهْوَر بالإقرار بخلافته، وسارعوا إلى الدخول في طاعته، ووردَت كتبُهم بذلك عليه وانعقد تجديدُ البيعة له بقُرطُبة، وذلك في أوائل المحرَّم من السنة، وكانت البيعةُ من إنشاء الوزير الكاتبِ أبي حفص أحمدَ بن بُرْد، وكتَبَ أيضًا عن نفسِه مهنئًا بالظهور والعودة إلى الخلافة[٥].

واختُلِف في هذا المؤيَّد اختلافًا كثيرًا وهل هو أم لا؟ والأكثرونَ اتَّفقوا أنَّه مُشبَّهٌ له، وأنَّ ابنَ عبَّاد أوقَفه لينالَ به مُرادَه، وآخَرونَ ذكَروا أنَّه المؤيَّدُ بعينِه واسمِه، فذُكر ـ واللهُ أعلم ـ أنَّه كان مختفيًا بمالَقةَ حين تَوثَّب عليُّ بنُ حمُّودٍ على الخلافة بقُرطُبة وخفَى أمرَه، ثمَّ مرَّ من مالَقةَ إلى المريَّة رغبةً في الاختفاء إلى أن أنهى خبرَه إلى صاحبِها زُهير الفتى فأمَرَ بإخراجِه من المَرِيَّة فخرَجَ منها، وأوى إلى قلعة رَباح من طاعة

---

(١) في م: «ألقاه».

(٢) في الذخيرة: «حرامهن».

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (١٢٦)، والذخيرة ٢/ ١٤، والمطمح ١٠، وصلة ابن بشكوال (١١٤٥)، والحلة السيراء ٢/ ٣٤ وغيرها.

(٤) ترجمته في صلة ابن بشكوال (٢٣٥)، وتاريخ الإسلام ٩/ ١٤٩.

(٥) الخبر في الذخيرة ٢/ ١٧-١٨.

ابن ذي النّون ثمَّ استَجْلَبَه القاضي حسبَما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى عندَ ذكْرِ دولة ابن عبَّاد.

وفي هذه السّنة في شعبانَ: توفّي القاسمُ بنُ حمُّود وحُمِل إلى ابنَيْهِ وكانا بالجزيرة فدُفن بها، وذلك لخمس خَلَوْنَ من شعبانَ المذكور[1].

وفيها اجتمَع زُهيرٌ وحَبُّوسٌ معَ محمد بن عبد الله زعيم زَناتةَ بجهة إسْتِجَةَ في يوم الأربعاء لخمس خَلَوْن من ذي القَعدة من السنة واحتلُّوا يومَ السبت بعدَه بقَرَمُونَةَ، ونهضوا إلى جهة إشبيلِيَةَ واحتلُّوا قريةَ طشتانةَ وقاتَلوا حِصنَ زَعْبُوقةَ يومَ الأحد، واحتلُّوا بالقلعة يومَ الاثنين، وقَرُبوا من إشبيلِيَةَ يومَ الثلاثاء، وأحرَقوا طريانةَ[2] يومَ الأربعاء بعدَه، ثمَّ احتلُّوا بحِصن القصر، وفيه انعَقدت البيعةُ بينَهم لإدريسَ بن عليّ بن حمُّود وانصَرفوا إلى قَرَمُونَةَ وقد تحالَفوا وتعاقَدوا على القيام بدعوتِه، وانصَرف زُهيرٌ إلى المرِيَّة وأخْطَبَ لإدريسَ فيها في منتصَف شهر ذي حجَّةٍ من السنة.

وفي سنة ثمانٍ وعشرينَ وأربع مئة: توفّي حَبُّوس بغَرناطَةَ، وصارت رياستُه إلى ابنِه باديسَ فذهبَ هو وأخوه بُلُقّينُ إلى مُخالفة زُهير على ما كان أبوهما معَه، فاجتمع زُهيرٌ معَهما بقرية البُونْت بمقرُبة من غَرناطة، فعزَّاهما في أبيهما وتشطَّط في مرغوبِهما، ثمَّ حملَتْها الحَمِيَّةُ إلى الغدر به والمكاشَفة له، فلمّا أخذ في الانصراف ووَجَّه محلَّتَه للذهاب قَطَعوا له الطريقَ وأرصَدوا له الخيلَ بكلِّ مضيق، فكان هو وجَمْعُه كأمسِ الذاهب، ولم يوقَعْ لزُهير على أثر، وقُتل صاحبُه هُذَيْلٌ بعدَ كرّاتٍ كرَّها وأُخِذ كاتبُه ابنُ عبَّاس وسيق إلى غَرْناطة ثمَّ قَتَلاه برماحِهما في سنة تسع وعشرينَ.

وفي سنة تسع وعشرينَ وأربع مئة: كانت ولايةُ عبد العزيز بن أبي عامر المتلقِّب بالمنصور صاحبِ كورتَي تُدْمِير وبَلَنْسِيَةَ على المريَّة إثْرَ مقتل زُهير في هذه السنة، وولايتُه أيضًا مُرْسِيَة، فبقيَ ذلك في يد المنصور المذكور إلى أن مات إلَّا المريَّةَ فغَدَره فيها ابنُ صُمادِح إذ ولَّاه عليها وانتزى فيها عليها كما تقدَّم[3].

---

(١) ذكر المراكشي أن وفاته كانت في سنة ٤٣١ (المعجب ١٠٠).

(٢) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٣٤.

(٣) ذكر ابن بسام خبر إمارته في الذخيرة ٣/ ١٨٦ فما بعدها.

وفي هذه السنة: كان مولدُ المعتصم أبي يحيى محمَّد بن مَعْن أبي الأحوَص بن صُمادِح رئيس المريَّة، وتوفِّي بها في شهر ربيعٍ الأوَّل من سنة أربع وثمانينَ وأربع مئة.

وفي سنة ثلاثينَ وأربع مئة: وَجَّه المنصورُ عبدُ العزيز بنُ أبي عامر عن ابنِه عبد الله وقدَّمَه على المريَّة وتسمَّى بالناصر وخُطِب في طاعتِه كلِّها للمؤيَّد هشام المنصوبِ بإشبيلِيَةَ، فبقي هذا الناصرُ فيها مُدَيْدةً ثمَّ مات، فقدَّم إليها المنصورُ عاملًا صِهرَه ابنَ صُمادِح فانتَزى عليه فيها حسبَما تقدَّم.

وفيها: قَتل الحاجبُ منذرُ بن يحيى بسَرَقُسْطَةَ عبدَ الله بنَ حَكيم التُّجيبيَّ وملَكَ سَرَقُسْطَة بعدَه ثلاثينَ يومًا ثمَّ تصيَّر مُلكُ سَرَقُسْطةَ ولاردة إلى المستعين بالله ابن هُود[1].

وفي سنة إحدى وثلاثينَ وأربع مئة: كان ابتداءُ الدّولة الـهُوديَّة غُرَّةَ المحرَّم منها.

وفيها: توفِّي إدريسُ[2] بن عليّ بن حمُّود صاحبُ سَبْتَةَ ومالَقَةَ وغيرِهما، فبويع أخوه حسَنُ بن عليّ بسَبْتة وتسمَّى بالـمُستنصرِ بالله.

وفي سنة اثنتين وثلاثينَ وأربع مئة: توفِّي الحاجبُ عيسى بنُ محمَّد صاحبُ مدينة شِلْب وذَواتِها، ووَلي بعدَه محمَّدُ بن عيسى الملقَّبُ عميدَ الدولة، فلم يزَلْ مالكًا ما كان بيد أبيه إلَّا أنَّه تخلَّى عن مدينة باجَةَ لابن عبَّاد وضَبطَ مدينةَ شِلْب إلى أن مات في ربيع الآخِر سنةَ أربعينَ وأربع مئة.

وفي سنة ثلاثٍ وثلاثينَ وأربع مئة: كان انتزاءُ أبي الأحوَص ابن صُمادِح على الـمَريَّة، وكانت زمنَ الفتنة في يدِ خَيْرانَ العامريِّ إلى أن مات فانتقلت إلى يد زُهير العامريِّ إلى أن مات، فضَبَطَها شيخُهم أبو بكرٍ الرميميُّ إلى أن أرسَلوا إلى عبد العزيز بن أبي عامر، فوصَل إليها وقدَّم عاملَه ابنَ صُمادِح عليها فانتَزى عليه في هذه السنة[3].

---

(١) ينظر المغرب لابن سعيد ٢/ ٤٣٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٤١.

(٣) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩١.

وفيها: قام بمدينة لَبْلَةَ يحيى بنُ أحمدَ اليَحْصُبيُّ إثْرَ هلاكِ أبيه بعدَما كان تقلَّدها أبوه منذُ عشرينَ سنة، فلم تزَلْ في يد يحيى هذا إلى سنة ثلاث وأربعينَ وأربع مئة.

ذكْرُ ابتداء الدّولة العَبَّاديَّة على الـجُملة إلى آخِر أيَّام محمد بن إسماعيلَ بن عبَّاد[1]

قال ابنُ حَيَّان: جاز إلى الأندَلس بعدَ افتتاحِها رهطٌ من لَـخْم تفرَّقوا في أقطار الأندَلس، فانحازَ منهم إلى غربِها أخَوانِ اسماهما: نُعَيْم وعَطَّاف، فنزَلَ أحدُهما بقريةٍ يقال لها: يَوْمين تَناسَل ولَدُه بها مدَّةً من الزّمان، ثمَّ انتقل بعضُهم منها إلى مدينة حِمص وهي إشبيلِيَة، فتناسَل بها ولدُه وتصَدَّوْا لخدمة الملوك من بني أُميَّةَ فصرَّفوهم في الأمورِ العَلِيَّة فكثُرت فيهم الوَجاهةُ والنَّباهةُ إلى دولة الـحَكَم الـمُستنصرِ بالله ودولة ابنِه هشام المؤيَّد بالله وحاجبِه المنصور محمَّد بن أبي عامر.

وكان قد نشأ فيهم إسماعيلُ بن عبَّاد، فقدَّمه ابنُ أبي عامر على خُطَّة القضاء بإشبيليَةَ، فدام له ذلك إلى أن انقرَضَت دولةُ الإمامة من قُرطُبة ونزولِ الفتنة الـمُبيرة، فأقام على خُطَّة القضاء والأمانة بإشبيلِيَةَ معَ مَن نَجَم في هذه الفتنة مـمَّن يَدَّعي خُطَّةَ الأمانة وتحمَّل رسْمَ الخلافة فنَظَر في صَلاح أمورِها وتصريفِها على السَّداد إلى أن نزَلَ الماءُ في عينَيْه سنةَ أربعَ عشْرةَ، فقَدَحه ورجَع شيءٌ من بصرِه، فلم يستَجِز الـحُكمَ بينَ الناس به، فولَّى ولدَه أبا القاسم القضاء واقتَصر هو على شاخَة البلد وتدبيرِ الرأي. وكان آيةً من آياتِ الله علمًا ومعرفةً وأدبًا وحِكمة، فحمَى مدينةَ إشبيلِيَةَ من سَطْوة البرابر النازِلينَ حولَها بالتدبير الصّحيح والرأي الرّجيح والنّظر في الأمورِ السُّلطانيَّة إلى أن أتاه أجَلُه سنةَ أربعَ عشْرةَ وأربع مئة.

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٢/ ١٤ فما بعدها، وهي معتمد المؤلف الرئيس. وترجمة أبي القاسم محمد بن عباد مشهورة مذكورة في العديد من المصادر التاريخية والأدبية منها: جذوة المقتبس (١٢٦)، والمطمح ١٠، وصلة ابن بشكوال (١١٤٥)، والحلة السيراء ٢/ ٣٤، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٢، وتاريخ الإسلام ٩/ ٥٣١، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٢٧، والوافي بالوفيات ٢/ ٢١٢، ونفح الطيب ٤/ ٢٢٦ وغيرها.

ذكْرُ مدَّة القاضي أبي القاسم محمَّد بن عبَّاد
ونُبَذ من أخبارِه وسِيَرِه وتغلُّبِه على مدينة إشبيلِيَةَ

هو: أبو القاسم محمَّدُ ابن ذي الوِزارتَيْن أبي الوليد إسماعيلَ بن محمَّد بن إسماعيلَ بن قُرَيْش بن عبَّادِ بن عَمْرِو بن أسلَمَ بن عَمْرِو بن عَطَّاف بن نُعَيْم، وعطَّافٌ هو الداخلُ منهم للأندَلس في طالعة بَلْج بن بِشْر القُشَيْرِيِّ، وكان عطَّافٌ من أهل حمص من عربِ الشام لَخْميَّ النّسب صريحًا، وموضعُه من حمصَ: العريشُ، والعريشُ في آخرِ الجفار بينَ مصرَ والشام، وكان نزولُ جَدِّه عطَّافٍ بقرية يَوْمينَ من عمِلِ إشبيلِيَةَ كما ذكرنا.

فأمَّا ذو الوِزارتَيْن أبو القاسم هذا فأدرَك مُتمهِّلًا وسَما بعدُ إلى بلوغ الغاية، وكان القاسمُ بن حمُّود قد اصطَنَعه بعدَ مهلِك أبيه إسماعيلَ ورَدَّ عليه قضاء بلدِه وحصَّل منه بمنزلةِ الثِّقة الأمين عندَه، فخانَه بخَوْن الأيَّام عندَ إدبارِها عنه إيثارًا للحَزْم واعتلاقًا بالولاية التي كان مضَى لهُ ولأبيه فيها أثرٌ رَقارِق، فصَدَّه عن إشبيلِيَةَ بلدِه لـمّا قصَدَه من قُرطُبةَ مفلولًا، وكان الذي وَطَّد له ذلك نفرٌ من أكابِرِها الـمُرتسِمينَ بالوِزارة مُناغِينَ في ذلك لوُزراء قُرطُبة على تحميلِهم لابن عبَّاد كِبْرَ ذلك لإنافتِه عليهم في الحال وسَعة الهمَّة وإحصائهم عليه مُلكَ ثُلُث إشبيليَة ضَيْعةً وغَلَّة يُخادعونَه بذلك عن نَشَبِه، إبقاءً منهم على نعيمِهم، وهو يشتري بذلك أنفسَهم وهم لا يشعرون إلى أنْ وقَعوا في الهُوَّة، وكانوا جماعةً منهم: بنو أبي بكرٍ الزَّبِيديِّ النَّحْويِّ وبنو يريم وبنو العربيِّ وغيرُهم من نُظَرائهم، راضَ بهم الأمورَ واستمال العامَّةَ حتَّى حصَّلَ على مُلك البلد وأورَثَها عِقِبَه.

فلمَّا خاطَبَهم القاسمُ بن حمود بأنْ تُـخْلى له الدّيارُ لمن يرِدُ معَه من البرابرة إليها للهَيْج الذي كان بقُرطُبة وقَتْل من قُتِل من أصحابِه فيها، وكانت وقعةٌ ظهرَ فيها أهلُ قُرطبةَ على شِيعة القاسم، فاغتلَّت أيديهم وفَرَّ القاسمُ أمامَهم من قُرطبةَ إلى إشبيليَة، فوقَع الاتّفاقُ من شيوخ البلد والقاضي ابن عبَّاد على إغلاق أبوابِ البلد في وَجْه القاسم بن حمُّود الـحَسَنيّ، وأن يُخْرَجَ إليه ولدُه وأهلُه، ففعَلوا ذلك. وضَبطَ الناسَ على كثرة الشيوخ فيه إلى أن انفردَ بالأمرِ دونَهم، وسمَا بنفسِه فأسقَط جماعتَهم، وجَرت له في تدبيرِهم أمورٌ يشُقُّ إحصاؤها ركِبَ فيها أحزمَ طُرُقِ طُلَّابِ الدُّول، حتَّى انفرد

بسابقتِه ومهَّد لدولتِه وأجمَعَ أهلُ عملِه على طاعتِه، فدانُوا له، وسلَكَ سَيْرَه أصحابُ الممالك بالأندَلس لأوَّل وقتِه، وقام بأيقظِ جِدّ وأصحّ عَزْم، واختَرع في الرياسة وجوهًا تقدَّم فيها كثيرٌ منهم، وامتَثل رسمَ ابن يَعيش صاحبِ طُلَيْطُلة من بينهم في تمسُّكِه بخُطَّة القضاء، وارتسامِه ـ باسمِه وأفعالِه في ذلك ـ أفعالَ الجبابرة، وأقبَلَ لأوَّل وقتِه على ضمِّ الرِّجال الأحرار من كلِّ صنف، وشراء العبيد، والجِدُّ يُساعدُه والأمورُ تنقادُ له، إلى أن ساوَى ملوكَ الطّوائف وزاد على أكثرِهم بكثافةِ سُلطانه وكثرة غِلمانِه، وتدرَّج في تدبير ذلك شيئًا فشيئًا ومارَسَه شأنًا شأنًا إلى أن استَوْلى على أمَدِه ومهَّد سلطانَه واستقلَّ به.

خبرُ هشام المؤيَّد بالله بإشبيلِيَة

قال ابنُ حيَّان(١): ومِن أشهر أخبارِ ابن عبَّاد: أنَّه نظَر في شأن مَن بقي يومَئِذٍ من فِتيان بني مروان، فسقَطَ إليه خبرُ الدَّعِيّ الـمُشبَّه بهشام بن الـحَكَم، وكان قد تُحُدِّثَ أنَّه أفْلَت من يدَيْ سُليمانَ قاهِرِه، وأنَّه غاب ببلاد المشرِق مدَّتَه الطّويلةَ ثمَّ عاد إلى الأندَلس، فأثّر ذلك في قلوب الناس لمقدِّماتٍ سَلَفت في الشكّ في موته، إذ كان سليمانُ قاتِلُه قد تَركَ إبداءه للناس حسبَما فعلَتْه حَزَمةُ الملوك قبلُ فيمَن خَلَعوه إمَّا استخفافًا من سليمانَ يومئذٍ بمن ملَكَ نواصيَهم بالقهر، أو ما شاء اللهُ من غَلَطٍ أصاب المقدارُ قصدَه لقضاءٍ سَبق في أُمّ الكتاب، فلم تزَلْ طائفةٌ من شِيعتِه تنفي موتَه وتَروي في ذلك رواياتٍ تبعُدُ عن الحقيقة وتَصدُر عن نِسوان وخِصْيان من أهل القصر بقُرطُبَةَ إلى أن عَلِقَ ذلك بمَن فوقَهم من شِيعَ المروانيَّة فشَدُّوا أواخيَ خَلاصِه وقَطَعوا على حياتِه ووصَفوا أنَّه اضطَرب بقُرطبةَ في دولة البرابرة ممهنًا نفسَه في طلبِ المعيشة، ثمَّ زَعَموا بعدَ حين أنَّه عبَرَ إلى أرض المشرق وساحَ في ذلك الأُفق وقضَى كل المناسك هنالك ثمَّ كرَّ راجعًا إلى ديارِه لأمدٍ محدود ولكرَّة الدّولة المروانيَّة، ولو تحدُثُ على يدَيْه الأنباءُ البديعة، فدانوا كما تسمَّع بالرَّجعة دَيْنُونَةَ الشِّيعة، وتاهوا في ذلك بتضليل، سَخِر منهم أهلُ التحصيل، إلى أن ظَهَر ـ على زعمِهم ـ بالمريَّة سنةَ ستٍّ وعشرينَ في أيَّام زُهير الصَّقْلَبيّ.

---

(١) الخبر في الذخيرة ٢/ ١٧ ومنه نقل المؤلف.

ولم تزَلْ قصَّةُ هذا الـمُشبَّه بهشام تَدِبُّ على قلوب الناس دبيبَ النار في الفحم، فدبَّر ابنُ عبَّاد أمرَه واهتَبلَ الغِرَّةَ في ذلك، وأنَّه أقلُّ ما يجيءُ له منه دَفْعُ مكروهِ ابن حمُّود ونَظْم الناس على حربِه، فأخبرَ أنَّه حصَلَ هشامٌ عندَه وجَمَعَ له مَن بقي بإشبيلِيَة من نساء القصر والـخَدَم، فاعترفَ به أكثرُهم ووقَفوا على عينِه، وأومَأ إلى ثقاتِهم عندَه بما يريدُ فيه فاجتَنَبوا خلافَه واتّبعوا موافقتَه، فوجَد ابنُ عبَّاد بذلك سبيلًا إلى ما دبَّره من حرب ابن حمُّود وحَجْبِه عن أعيُن الناس، وبَثَّ كتبُه بذلك إلى سائر الرؤساء واستَنْهَضَهم للاجتماع على دعوة هذا الخليفة المخبوِّ بفكِّ الرقاب وكَرّة الأيَّام والجهاد دونَه، فكثُر الخوضُ بالأندَلس في ذلك ومالت نفوسُ أهل قُرطبةَ في نَصْبِه إمامًا للجماعة، وأشخَصوا الرسُلَ للوقوف على عينِه وتثبيت الشهادة فيه، وزوَّر ابنُ جَهْوَر وغيرُه في ذلك شهاداتٍ على علم منهم ابتغاء عَرَض الدّنيا وإذعانًا منَ ابن جَهْوَر أيضًا لِـما رَآه من دَفْع ابن حمُّود الفاغِر فاهُ على قُرطُبة، فرجَع منه سريعًا إلى الاعتراف بالخطإ بقيَّةَ عمُرِه بعدَ عظيم ما انبعثَت في ذلك من الفتن وجَرت من الـمِحن، وصُرع من الجبابرة، ونُقِل من الدّول. انتهى كلامُ ابن حيَّان.

وقال ابنُ القطَّان: كان لأبي القاسم بن عبّاد هذا ولَدٌ اسمُه إسماعيلُ[1] نشَأ في مُعرَّس مُلكٍ شامل إلى أن طلَبَ الـمُلكَ، فخاضَ هذا الفتى في بحور الحروب وقَوْد العساكر والانغماس في الفتنة العمياء إلى أن وقَعت له وقعةٌ معَ يحيى بن عليّ بن حَمُّود صاحبِ قَرْمُونة، فهزَم يحيى وحزَّ رأسَه وحمَلَه إلى أبيه بإشبيلِيَة في سنة سبع وعشرينَ وأربع مئة، وصار محمَّدُ بن عبد الله البِرْزاليُّ من جيش ابن عبَّاد إلى قَرْمُونَةَ فدخَلها ومَلكَها على ما كان عليه بها يحيى قبلُ وقُتل إسماعيلُ هذا في المحرَّم من سنة إحدى وثلاثينَ في حربٍ كانت بينَه وبينَ باديسَ بن حَبُّوس والقاضي أبوه حي[2].

ووُجد رأسُ يحيى بن عليّ بن حمُّود في خزائن المعتمدِ بن عبَّاد بعدَ مدَّةٍ طويلة، فطلبَتْه حفيدتُه سُبَيْعةُ من الأمير سير، وكان بَعْلَها، فدفنَتْه في المسجد الذي قُتل فيه عبدُ العزيز بن موسى بن نُصَيْر، وكان في أُذُن الرأس براءةٌ فيها اسمُ يحيى بن عليّ.

---

(١) ترجمته في صلة ابن بشكوال (٢٣٥)، وتاريخ الإسلام ٩/ ١٤٩.

(٢) ينظر كامل ابن الأثير ٩/ ٢٨٦.

قال ابنُ القطَّان: وكان قد ذُكر أنَّ هشامًا فرَّ من الفتنة ورَفَض الـمُلْك وكَتَم أمرَه وأخفَى نفسَه في مدَّةٍ طويلة، واستقرَّ في قرية من قُرى إشبيلِيَةَ يؤذِّنُ في مسجدِها ويَعمُرُه ويتقوَّتُ من العمل في الـحَلْفاء، فخرَجَ إليه القاضي أبو القاسم محمَّدُ بن إسماعيلَ بن عبَّادٍ هذا ووَلَدُه إسماعيلُ وجميعُ خاصَّتِه وعبيدِه ومعَه أثوابُ الـخُلفاء وملابسُهم وزِيُّهم ومَراكبُهم، فلم يشعُر الرجُلُ وهو خارجَ المسجد يعملُ في حَلْفائه أنْ غَشِيَه القومُ وأحاطوا به، فترجَّل القاضي وابنُه وجميعُ من جاء معَه وقبَّلوا الأرضَ بينَ يدَيْه، وتَرامى القاضي وابنُه إلى رجلَيْه يُقبِّلانِها، فبُهِت الرجلُ مـمَّا عايَنَ من ذلك وجعَل يقولُ: لستُ بالذي تعنُون ولا بالذي تطلُبون، وهم لا يَردُّونَ عليه شيئًا سوى التضرُّع والرغبة إلى أن أقاموهُ من مكانِه وجَرَّدوه من خلقانِه، وألبسوه الكُسوةَ الخلافيّة ووَضَعوا القَلانسَ على رأسِه وأركَبوه، ومشَى القاضي وجميعُ من جاء معَه أمامَه، وكان هذا الرجُلُ يقال له: خَلَفٌ الـحُصْريّ، وكان يُشبِهُ هشامًا إلى أنْ أتَوْا به إلى إشبيلِيَة وصائحٌ يصيح: يا أهل إشبيلِيَة، اشكروا اللهَ على ما أنعمَ به عليكم، فهذا مَوْلاكم أميرُ المؤمنينَ هشامٌ قد صرَّفه اللهُ عليكم وجعَلَ الخلافةَ ببلدِكم لمكانِه فيكم، ونقَلَها من قُرطُبة إليكم، فاشكروا اللهَ على ذلك[1].

ودخَل البلدَ على هذه الصَّورة واستقرَّ بالقصر بقيَّةَ يومِه، فلمّا كان من الغدِ بُرِّح في الناس وحُشِروا للدخول على المؤيَّد هشام بزَعْمِهم، فبادَرَ الناسُ وتسابقوا لذلك، فدخلَ عليه الخاصُّ والعامُّ لبيعتِه، وقعَدَ لهم هذا الرجُلُ وبينَهم وبينَه سَتْرٌ مسدولٌ يتكلَّمُ لهم من ورائه ويقول: إنَّه قد صيَّرَ حِجابتَه إلى إسماعيلَ بن محمَّد بن عبَّاد، وشَهِد عليه بذلك الشهودُ والخاصَّةُ وأربابُ الدّولة، ومَن أبَى أن يشهَدَ حاطَ به البلاءُ، فمنهم مَن يصبحُ مقتولًا في دارِه ومنهم من يُفرقُ من بلدِه.

وكتبَ إسماعيلُ بن محمَّد بن عبَّادٍ الحاجبُ إلى أبي الـحَزْم بن جَهْوَر يدعوهُ إلى طاعتِه وأن يُبقيَه على ما هُو عليه من النَّظر في أمرِ قُرطُبة، فلمَّا وصَل كتابُه إلى ابن جَهْوَر تبرَّأ من ذلك الرجُل وسبَّه وسَبَّ من سبَّبه، وأنشأ ابنُ عبَّاد كُتبًا كثيرةً وجَّهها إلى سائر

---

(١) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٤٥.

ملوك الأندَلس بهذا الاسم يُرغِّبُهم في طاعة هذا الرجُل والدّخول في دعوتِه، فأنْكَره جميعُهم وضَعَّفوا ذلك من دعوى ابن عبَّاد، ووجَّه بعضُهم أرسالًا من عندِه ليقفوا على حقيقة أمرِه، فأُدخِلوا على هذا الرجُل في بيتٍ مُظلم زَعَموا أنَّه يشكو مرَضَ عينَيْه، فكلَّمهم وكلَّموه، غيرَ أنَّهم لم يتَبيَّنوا صفتَه وانصرفوا على هذا الوَجْه، فمنهم مَن أنكَر إنكارًا شديدًا، ومنهم من استَرابَ، غيرَ أنَّه لم يُظهِرْ أحدٌ منهم لهذا الرجل طاعةً ولا خاطَبَه ولا وقَفَ له عندَ أمرٍ ولا نهي.

فخرَجَ ابنُ عبَّاد بجيشِه معَ هذا الرجُل إلى قُرطُبة، فوقفَ على بابِها هادرًا طبولَه ناشرًا أعلامَه، فأمَرَ أبو الحَزْم بنُ جَهْوَر صاحبَها بسدِّ أبوابِها وألَّا يصعَدَ أحدٌ على سورِها ولا يُخاطبَه أحدٌ ولا يرُدَّ عليه جوابًا، وسب هذا الرجُلَ وأنكَره وسبَّ مَن سبَّبه، فأقام ابنُ عبَّاد على قُرطبةَ بقيَّةَ يومِه وانصَرف في غدِه إلى إشبيلِيَةَ وجعَل يُسبِّبُ لأهل قُرطبةَ بعدَ ذلك أسبابًا بالأذى والفساد ويُظهِرُ لهم العداوةَ والشَّنآنَ لردِّهم دعوةَ هذا الرجُل، حتَّى ضاقت قُرطبةُ بقاطنِها، ونازَلَ حصونَها حتَّى أطاعه بعضُها فضاقت قُرطبةُ، وارتفَع بها السعرُ، ووقَفَ على بابِها ابنُ عبَّاد وظَنَّ ألَّا غالبَ له، فأدركَتْ باديسَ بن حَبُّوس الحَمِيَّة وخرَجَ إليه في جَمْع من بني عمِّه ومنِ انضافَ إليهم من فِرَق البرابرة، فوقَعت بينَهم حربٌ عظيمة، وكان معَ ابن عبَّادٍ جَمْع من البربر فرُّوا عنه وأسلَموه، فاستولت عليه الهزيمةُ بسببِهم، إذ لم ينصَحوه في قتال البربر مثلَهم ولم يبْقَ معَه إلَّا طائفةٌ يسيرةٌ من فِتيانِه وعبيدِه، فكرُم صبرُه والحَملاتُ تَتوالَى عليه والسّيوفُ تأخُذ مآخِذَها، وهو يحمِلُ عليهم يَمْنةً ويَسْرة إلى أن أثخنتْه الجِراحاتُ وأكَلَت السّيوفُ جميعَ عسكرِه إلَّا مَن فرَّ من البرابر قبلَ ذلك، فلمَّا رأى ما لا طاقةَ له به أراد أن ينحازَ إلى موضع يتمنَّعُ فيه، فركَضَ الفرسُ ركضًا ولم ينظُرْ إلى أمامِه فسقَطَ في هُوَّة وسقَط الفرسُ عليه والظّلامُ قد انسَدَل، فلمَّا رأى صُنهاجةُ ذلك نزَلَ إليه بعضُهم وهو عقيرٌ فحزَّ رأسَه وأخرَجَ خاتمَه من أُصبعِه وسار بذلك نحوَ أميرِه باديس، وبلَغ ذلك ابنَ عبَّادٍ أباه فقامت قيامتُه وعظُمت هَيْعتُه، وكان عُمرُه يومَ قُتل نحوَ ثلاثينَ سنة.

وقال ابنُ مُزَيِّن: إنَّ هزيمةَ باديسَ لابن عبَّاد كانت في صَدْر سنة إحدى وثلاثينَ وأربع مئة، فسدَّ مكانَه بابنِه الثاني عبَّاد، فانفرد بالتدبير دونَه واستَولَى على الأمر

واستَظْهَر على ذلك بهَدْم البُيُوتات وتشتيت ذوي الهيئات، وأوّلُ ما بَدأ به من ذلك نَكْبةُ الزَّبيديّ وابن مريمَ وغيرِهما من نُظرائهما.

وقد كان لإسماعيلَ ابن ذي الوِزارتَيْن أبي القاسم القاضي معَ ابن الأفطس وقائعُ وحروبٌ استعان فيها بابن عبد الله البِرْزاليِّ صاحبِ قَرَمُونة قُطب رَحى الفتنة، فحاصَر ابنَ الأفطس بِباجَةَ وقَتل أكثرَ رجالِه وبعَث بالأسرى إلى أبيه، وأسرَ وَلَدَ ابن الأفطس وحبَسَه ابنُ عبد الله بقَرَمُونةَ، وبلَغَت هذه الغزوةُ منَ ابن الأفطس الغايةَ... لطلاق وَلَد ابن الأفطس مِن يدِ ابن عبد الله البِرْزاليّ سنةَ إحدى وعشرينَ، وذلك في خبر طويل، وعرَضَ عليه ابنُ عبد الله أن يجتازَ على القاضي ابن عبَّاد ليُشرِكَه في المنِّ عليه بفكِّه فأبَى من ذلك وقال: مقامي في أسْرِك أشرفُ عندي من تحمُّلِ مِنَّته عليَّ، فأكرَمَ تشييعَه إليه وهو يومَئذٍ ببَطَلْيَوْس وقد هذَّبتْه مِحنتُه وتمّت أدواتُه، فرجعَ إلى مقاومة ابن عبَّاد، وكان عندَ ابن الأفطس طائفةٌ من قبائل البربر يستعينُ بهم على ابن عبَّاد، وكان في كلِّ بلدٍ جُملةٌ منهم اقتَسموا قواعدَ الأرض مُضرِّبينَ بين ملوكِها فلا يقاتِلُ الأعداء إلَّا بهم ولا تسكُنُ الأرضُ إلَّا بجِوارِهم، فسبحان الذي أظهرَهم ومكَّن في الأرض لهم إلى وقتٍ وميعاد[1].

فلمَّا كان في سنة خمس وعشرينَ وأربع مئة خرَج إسماعيلُ بالعسكر إلى أرض العدوِّ تحت مُعاقدةٍ بينَه وبينَ ابن الأفطس، فلمّا أوْغَلَ ابنُ عبَّاد ببلد ابن الأفطس في طريق قُفولِه خرَجَ عليه ابنُ الأفطس، ففرَّ إسماعيلُ يطلُب النّجاةَ بنفسِه وأسلَم جميعَ عسكرِه، وجَرت عليه في مهرَبِه معَ جُملة من أصحابِه شدَّةٌ لجأ فيها إلى ذبح خيلِه والاغتذاء بلحومِها، ونَجا إلى مدينة الأشبُونَةَ آخِرَ عملِه من ساحل البحر المحيط فاصْطَلَم ابنُ الأفطس عسكرَه اصطلامًا لم يُسمَعْ بمثلِه ووقَعَ سُرْعانُ العدوِّ من النّصارى على كثيرٍ منهم فاقتنَصوهم اقتناصًا وقَتلوا منهم أُمَّةً، وكانت حادثةً شنيعةً بقيت بها عداوتُهما إلى آخِر وقتِهما[2].

---

(١) الخبر في الذخيرة ٢/ ٢٠-٢١.

(٢) الذخيرة ٢/ ٢١.

ولما كان في سنة إحدى وثلاثينَ كانت هزيمةُ باديسَ عليه وقَتْلُه، ثمَّ توفِّي والدُه القاضي محمَّدُ بن إسماعيلَ بن عبَّاد سنةَ إحدى وثلاثينَ وأربع مئة[1].

دولةُ أبي عَمْرٍو عبَّادِ بن إسماعيلَ بن عبَّاد اللَّخْميّ[2]

نسَبُه: تقدَّم عند ذكرِ أبيه.

كُنْيَتُه: أبو عَمْرٍو كما ذكرنا.

لقَبُه: الـمُعتضِدُ بالله.

ولايتُه: وَلِي الأمرَ بعدَ وفاة أبيه القاضي في مُنسلَخِ جُمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ واستَوْلى على غرب الأندَلس مثل: شِلْب وشَنْتَ بِرية ولَبْلة وشَلْطيش وجبل العُيون وغيرِها وصارت تلك الجهاتُ بكلِّها في طاعتِه وقَدَّم عليها عُمَّالَه سنةَ ثلاثٍ وأربعين وأربع مئة، وتوفِّي سنةَ إحدى وستِّينَ وأربع مئة من علّة الذَّبحة شبيهًا بالفُجاءة.

قال ابنُ حيَّان[3]: وعَشِيَّ الأربعاء لستٍّ خَلَوْن من جُمادى الآخِرة سنةَ إحدى وستِّين طَرَق قُرطبةَ نَعْيُ الـمُعتضِد عبَّاد زعيمِ ثُوَّار الأندَلس في وقتِه أسَدِ الملوك وشهابِ الفتنة، ذي الأنباء البديعة، والحوادث الشّنيعة، والوقائع الـمُبيرة، والهمم العَليَّة، والسَّطوة الأبيَّة، فرماه اللهُ بسهم من مَراميه الـمُصْمِيَة، أجَدَّ[4] ما كان في اعتلائه، وأرقَى ما كان إلى سمائه، وأطمعَ ما كان في الاحتواء على الجزيرة الأندَلسيَّة محتقرًا لها عند تشميرِه الذّيل بفتنة لا كَفاء لها، فتوفَّاه اللهُ على فراشِه من علَّة ذَبْحة قصيرةِ الأمد.

---

(١) هكذا في النسخة، وسيأتي أنه سنة ثلاث وثلاثين، وكذلك هو في الذخيرة ٢/ ٢٢ وتاريخ ابن الأثير ٩/ ٢٨٦ وغيرهما.

(٢) الذخيرة لابن بسام ٢/ ٢٢، والمعجب ١٥١، والحلة السيراء ٢/ ٣٩، والوافي بالوفيات ١٦/ ٦١٥، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٤٨.

(٣) النص في الذخيرة ٢/ ٢٢-٢٤ ومنه ينقل المؤلف.

(٤) في الذخيرة «أجل»، وفي الحلة السيراء: «أمد».

وكان يحاكي سيرةَ أحمدَ بن أبي أحمدَ ابن المتوكّل[1] أحدِ أشدَّاء خُلفاء العبَّاسيّينَ، الذي ضمَّ نَشْزَ[2] المملكة بالمشرق وسَطا بالـمُنتزِينَ عليها، وبفَقْدِه انهدَنت[3] الدّولة، فتحمَّل عبَّادُ سِمتَه الـمُعتضِديَّةَ، وطالَعَ بفضل نظَرِه أخبارَه السياسيَّة التي أضحَتْ عندَ أهل النّظر أمثلةً هاديةً للاحتواء على أمدِ الرّياسة في صَلابة العصا وشَناعة السَّطا، فجاء منها بمُهوَّلاتٍ تذعَّر مَن سمع بها فضلًا عمَّن عايَنَها، ولم يُقصِّرْ معَ ذلك عن الهمم العليَّة والرُّتب الـمُلوكيَّة فابتَنَى القصورَ السامية واعتَمر العماراتِ الـمُغِلَّة، واقتنَى الأعلاقَ النفيسة، وارتَبطَ الـخُيول واقتنَى الغِلمانَ واتَّخذ الرّجالَ وانتقاهم من كلِّ فرقة، فساس طبقاتِهم ما بينَ إدرار الأُعْطِية وضَمان الزّيادة، على صِدق الصِّيالِ والوفاء بالوعيد على النُّكول من العدوِّ، سياسةً أعيَتْ أندادَهُ من أُمراء الأندَلُس فخرَّجَ منهم رجالًا مساعيرَ حروبٍ أباد بهم أقتالَه.

ومن نوادِر أخبارِه أنْ نال بُغيتَه وأهلَكَ تلك الأُممَ العاتية، وإنَّه لغائبٌ عن مشاهدتِها مُترَفِّهٌ عن مُكابدتِها مُدبِّرٌ فوقَ أريكتِه منفِّذٌ لِـحيَلِها من جَوْف قصرِه، يُدبِّرُ داخلًا أمورَه، جرَّد نهارَه لإبرام التدبير وأخلص ليلَه لتملّي السرور، فلا يزالُ تُدار عليه كؤوسُ الراح، ويُحيًّا عليها بقبض الأرواح، التي لأناسِيِّها عن أعدائه، ببابِ قصرِه حديقةٌ تُطلع كلَّ وقت ثمرًا من رؤوسِهم الـمُهداة إليه مُقرَّطةَ الآذان برِقاع الأسماء المنوِّهة لحاملِها، ترتاحُ نفسُه لـمُعاينتها والـخَلْق يُذعَرونَ منَ التماحِها، وهو واصلٌ نعيمَ ليلِه بإجالةِ فكرِه، ومُستدعٍ نشاطَ لـهْوِه بقوَّة أيديه.

وقد كانت لعبَّادٍ وراء هذه الحديقة المائلة قلوبَ البشَر ذعرًا مباهاةً بخِزانة بَلْوى أكرمَ لديه من خِزانة جَوْهر مكنونة جوفَ قصرِه أودَعَها هامَ الـمُلوك الذين أبادهم بسيفِهِ منها: رأسُ محمَّد بن عبد الله البِرْزاليِّ شِهاب الفتنة، ورؤوسُ الـحُجَّاب: ابن خَزْرُون وابن نُوح وغيرِهم، الذين قَرَن رأسَهم برأس إمامِهم الخليفة يحيى بن عليّ بن

---

(١) هو المعروف بالمعتضد.

(٢) في الذخيرة: «نشر».

(٣) في الذخيرة: «انهدمت».

حمُّود الـحَسَنيّ سابقِهم إلى تلك الوقعة، فخَصَّ رؤوسَهم بالصَّون وبالَغَ في تطييبِها وتنظيفها للثَّواء لا للكرامة، وأودَعَها الـمَصاوِنَ الحافظةَ لها، فبقيت عندَه ثاوية تُجيبُ سائلَها اعتبارًا، ولـمّا خُلع ابنُه المعتمِدُ وُجِد في جَوالقَ له تلك الرؤوس.

قال ابنُ بسَّام(١): لـمّا افتتح الـمُرابطونَ إشبيلِيةَ وخُلع الـمُعتمِد حُدِّثت أنَّه وُجد له جوالقُ مطبوعٌ عليها، فظُنَّ أنَّ ذلك مالٌ وذَخِيرة، فإذا هو مملوءٌ رؤوسًا، فأُعظِم ذلك وهال أمرُه، ودُفع كلُّ رأس منها إلى مَن كان بقي من عَقِبهم بالحضرة، أخبَرني مَن رأى رأسَ يحيى بن عليّ بن حمُّود يومَئذٍ ثابتَ الرَّسم مُتغيِّرَ الشّكل فدُفع إلى بعض وَلَدِه فدَفَنَه.

قال ابنُ حيَّان(٢): وكان عبَّادٌ قد أُوتيَ من جمَال الصُّورة وتمام الخِلْقة وفخامة الهيئة وسَبَاطة البَنَان وثقوب الذِّهن وحضور الخاطِر وصِدق الـحِسّ ما فاق به أيضًا نُظَراءه. ونَظَرَ في الأدب معَ ذلك قبلَ مَيْل الهوى به إلى طلبِ السُّلطان أدنَى نظَر بأذكى طبع حصَلَ منه لثقوبِ ذِهنه على قطعةٍ وافرة علَّقها من غير تعهُّدٍ لها ولا إمعان في غِمارِها ولا إكثار من مُطالعتها، أعطَتْه نتيجتُها على ذلك ما شاء من تحبيرِ الكلام وقَرْض قِطَعٍ من الشّعر ذاتِ طَلاوة في معانٍ أمدَّتْه فيها الطبيعةُ وبلَغَ فيها الإرادة واكتَتَبها الأدباءُ للإفادة، فجمَعَ هذه الخلالَ الظاهرةَ والباطنة إلى جُود كفٍّ بارَى بها السَّحاب. وأخبارُ عبَّاد في جميع أفعالِه وضروبِ أنحائه عالياتِه وسافلاتِه(٣) غريبةٌ بعيدة.

وكان على جُرأته(٤) في إحكام التدبير لسُلطانِه ذا كَلَف بالنِّساء، فاستوسَعَ في اتّخاذِهنّ وخَلَّط في أجناسِهنَّ، فانتهى في ذلك إلى مدًى لم يبلُغْه أحدٌ من نُظَرائه، فقيل: إنَّه خلَّف من صنوف السَّريَّات(٥) منهنَّ خاصَّةً نحوًا من سبعينَ جاريةً إلى حُرَّتِه

---

(١) الذخيرة ٢/ ٢٥.

(٢) النص في الذخيرة ٢/ ٢٥-٢٦.

(٣) في الذخيرة: «عالناته وخافياته».

(٤) في الذخيرة: «تجرده».

(٥) في الذخيرة: «السريريات».

الـحَظيَّة لدَيْه الفَذَّة في حلائلِه بنت مجاهدٍ العامريِّ أُخت عليّ بن مجاهد صاحبِ دانِيَةَ والـجُزُر الشرقيَّة، ففَشا نَسْلُ عبّاد لتوسُّعِه في النّكاح وقوَّتِه عليه، فذُكر أنَّه كان له من ذكورِ الوَلَد نحوٌ من عشرين، ومن الإناث مثلُ ذلك.

ومن شعرِه[1] [من الطويل]:

شرِبْنا وجفنُ اللّيل يغسلُ كُحْلَه ... بماء صباح والنّسيمُ رقيقُ

مُعتَّقةً كالتِّبرِ أمَّا نِجارُها ... فضخمٌ وأمَّا جسمُها فدقيقُ

ومن شعرِه أيضًا يخاطبُ صِهرَه عليَّ بنَ مجاهد صاحبَ دانِيَةَ وذَواتِها [من البسيط]:

خِلّي أبا الجيش هل يُقضَى اللِّقاءُ لنا ... فيَشْتَفي منك طَرْفٌ أنت ناظرُهُ

شطَّ المزارُ بنا والدارُ دانيةٌ ... يا حبَّذا الفأْلُ لم صحَّتْ زواجرُهُ

وكان كثيرًا ما يرتاحُ في شعرِه إلى ذكر الطائفة التي كانت يومَئذٍ تُحاربُه، فمن ذلك قولُه فيهم، وذكَر فتحَ رُنْدةَ [من مجزوء الوافر]:

لقد حُصِّلْتِ يا رُنْدَهْ ... فصِرت لمُلكِنا عِقدَهْ

إلى قولِه فيه:

فكم من عِدَّة قتَّلْتُ ... منهم بعدَها عِدَّهْ

نظمتُ رؤوسَهمْ عِقْدًا ... فحلَّت لبَّةُ السُّدَّهْ

وأُعْجِب الـمُعتضِدُ يومَئذٍ بهذه القصيدة الرُّنْديَّة، وأخَذ الناسُ بحفظِها، وحمَلَهم على ضبطِها.

وعلى ذكرِه وذكرِهم، فلنُلمِعْ[2] بشيءٍ من أمرِهم على الجُملة، ثمَّ نذكُرْ بعدَ ذلك لُـمَعًا منه على تَوالي السنينَ إن شاء اللهُ تعالى.

---

(١) الذخيرة ٢/ ٢٧-٢٩.

(٢) الكلام لابن بسام في الذخيرة ٢/ ٢٩.

فنبدأُ الآنَ برؤساء غَرْب إشبيلِيَة، إذ كانوا دُخَانَ نارِه، وجِرْيَةَ تيّارِه، إلَّا ما كان من ثبوت قِرّيعِه الـمُظفَّر بن الأفطس، فإنَّه نازَعَه لَبُوسَها، وعاطاه إلى آخِر أيَّامِه كؤوسَها، لهما في ذلك غيرُ ما مجالٍ وميدان، وقد سَرَدَ قصصَهما أبو مروان بنُ حيَّان، وسأُلمعُ بعيونِها، وأقلّبُ ظهورَها لبطونها، حسبَما ذكرَه ابنُ بسَّام رحمه الله.

بعضُ حروبِ الـمُعتضِد بن عبَّاد معَ الـمُظفَّر بن الأفطس وغيرِه

قال ابنُ حيَّان(١): أوَّلُ ما ظهرَ من تفاسُد عبَّاد والمظفَّر بن الأفطس أنَّ ابنَ يحيى صاحبَ لَبْلَةَ عندَ هجوم عبَّادٍ عليه استجارَ بالـمُظفَّر فأجارَه وانزَعَج له ووصَل يدَه وجمَعَ جيشَه وأقبلَ إلى لَبْلَةَ ناصرًا لابن يحيى مُضيّعًا لـمَن خلَّفه يوقدُ نارَ فتنة كان في غِنًى عنها، حتَّى نزَلَ بنفسِه على ابن يحيى ودافَع ابنَ عبَّادٍ عنه، وحرَّك في ذلك من حُلفائه البرابرة جماعةً فسارعوا إليه غيرَ ناظرينَ في عاقبةِ أمرِهم، وتقدَّم بهم إلى إشبيلِيَةَ ورحاهم تدورُ على قِرّيعِهم باديسَ بن حَبُّوس يُسْلِمونَ لرأيه ويزحمونَ برُكنِه، فأشفَق الوزيرُ ابنُ جَهْوَر من حركتِهم تلك على عادته في التغلغل لأمثالِها، وجَهِد جُهدَه في صرفِهم، وأرسَل ثقاتِ رُسلِه إلى عامَّتهم إلَّا ما كان من الدائلينَ، منهم: عبَّادٌ داعيةُ المروانيَّة ومحمَّدُ بن إدريسَ صاحبُ مالَقة دائلُ الـحمُّوديَّة، فإنَّه تنكَّبها بعادًا من الظِّنَّة، إذ كان هو وجماعةُ قُرطبةَ يومَئذٍ مترفِّعينَ عن كلِّ دعوة، فلمَّا وصَلت رسُلُه إليهم ما زادهم لذلك إلَّا لجَاجًا، ولم يزَل ابنُ جَهْوَر يضربُ لهم الأمثالَ ويُخوّفُهم من سوء العاقبةِ والمآل حتَّى صار فيهم كموسى آلِ فرعونَ وعظًا وتذكِرة، واستنَّ القومُ في ميدان الغَيّ.

فلمَّا صحَّ عندَ ابن عبَّاد خروجُه للَبْلَةَ بجيشِه دفْعًا عن ابن يحيى، جرَّد خيلًا فضربَتْ على بلاد ابن الأفطس، فغارت وأنجدَت وفعَلت فِعلاتٍ نكَأت القلوب، وقرَّبت النُّدوب، ثمَّ نَهض ابنُ عبَّادٍ بنفسِه إلى لَبْلَة للقائه، فجرت بينَهما وقعةٌ صعبةٌ على بابِها اسْتَهما فيها النَّصْرَ، وكانت الدائرةُ أوَّلًا على ابن الأفطس فولَّى الدُّبُر وخاضَ واديَها دونَ مخاضة، فقُتل من رجاله عددٌ كثير، ثمَّ رجَعت له على ابن عبَّاد فكشَفَ رجالَه

---

(١) النص في الذخيرة ٢/ ٢٩ فما بعدها.

وأصابَ منهم نفرًا، ثمَّ افترقوا ولحِقَ بعدُ باديسُ بجمعِه وخاضَ واديَ قُرطبةَ وجاز إلى الشّرق، وتجمَّع بحُلفائه وعاثوا في نَظَر إشبيلِيَة، وانقَطعت السُّبلُ جُملةً وكثُر القتلُ والـهَرْج والسَّلب، وأمسى الناسُ في مثل عصرِ الجاهليَّة، ثمَّ والى ابنُ يحيى بعدَ ذلك المعتضِدَ لضرورةٍ دعَتْه إلى ذلك، فكاشَفَه الـمُظفَّرُ وخانَه فيما كان ائتمنَه من مالِه وأودَعَه عندَه أيَّامَ تورُّطِه في حرب الـمُعتضِد فانبتّت بينَهم العصمة، وضَرَبت خيلُ المظفَّر على صاحبِ لَبْلَةَ فاستغاث المعتضدَ، فلحِقَت به خيلُه واقتتلت معَ خيل الـمُظفَّر، وكان ابنُ جَهْوَر كثيرًا ما يُوالي رسُلَه إلى الإصلاح بينَهما.

ومن النّوادِر المحفوظة بينَهما: أنَّ المعتضدَ والى حربَ ابن الأفطس في شهورِ سنة اثنتين وأربعينَ وأربع مئة، فغيرَّ بلدَه وفتحَ عِدَّةَ حصونٍ ضمَّها إلى عملِه وشدَّها برجالِه، ودمَّر عِماراتٍ واسعةً وأفسد غلَّاتِها، وأوقَع رعيَّتَه في المجاعةِ الطويلة، وعجَزَ الـمُظفَّرُ ابنُ الأفطس عن دفاعِه شبرًا واحدًا فما دونَه لاستكانة الحادثة التي هدَّت رُكنَه وأفنَتْ حُماةَ رجالِه، فاعتَصم ببلدِه بَطَلْيَوْس ولم يُخرِجْ منها فارسًا واحدًا، وجعَل يشكو به إلى حُلفائه فلا يجدُ ظهيرًا ولا نصيرًا.

فلمَّا قضَى الـمُعتضِدُ من تدويخ بلادِه وطرِّه وكرَّ راجعًا إلى إشبيلِيَةَ في شوَّال العام، وردَتْ علينا بقُرطبةَ غريبة يومئذٍ، وذلك أنَّ رسُولَ المظفَّر ابن الأفطس ورَدَ قُرطبةَ إثْرَ هذه الوقائع عليه يلتمسُ شراء وصائفَ مُلهِيات يأنَسُ بهنَّ، نافيًا بذلك الشَّماتةَ عن نفسِه، ولم تكن له عادةٌ بمثلِه، فنقَّب له رسولُه عن ذلك، وكنَّ قد عُدِمْنَ بقُرطبةَ يومئذ، فوجَد له صبيَّتَين مُلهِيتَيْنِ عندَ بعض التجَّار لا طائلَ فيهما، فاشتراهما له، وأقام رسولُه يلتمسُ الخروجَ بهما فلم يستطع لقَطْع خيل المعتضِد جميعَ الطُّرق، فأقام مدَّةً بقُرطبةَ إلى أن أُرسِل بخيل كثيفة ومضَى بهما وأولو النهى يعجَبونَ مـمَّا شَهَر به نفسَه من البِطالة أيَّامَ الحروبِ المحرِّمة لأطهارِ النساء على فحول الرجال العاقدة الآزِرة على ما كان يَدَّعيه لنفسِه من الأدب والمعرفة.

قال: وبحثتُ على هذه الأُعجوبة، فإذا هو مُعانِدٌ في ذلك لكاشِحِه المعتضِد المرتاح بعدَ الظَّفر لاجتلابِ قَيْنةِ ابن الرميميّ الوزير من قُرطبة بعدَ وفاتِه حينَئذ، وقد استدعاها

لِـما وُصِفت له بالـحَذْق في صنعتِها، فوجِّهت نحوَه، فتقبَّلَه المظفَّرُ في إظهارِ الفراغ وطلبِ الـمُلهِيات وقد علم العالـمُ إنَّه لفي شُغل عنهنَّ[١].

فامتدَّ شأوُ هذينِ الأميرَيْنِ يومَئذٍ في الغيِّ، وتبارَيا في القطيعة حتَّى أفنيا العالَـمِين، إلى أن سنى اللهُ الصُّلحَ بينَهما في ربيع الأوَّل سنةَ ثلاث وأربعينَ بسعي ابن جَهْوَر أميرِ قُرطبة.

فلمَّا سكنَتَ الحربُ بينَهما فَرَغ الـمُعتضِدُ إلى حرب الأُمراء الأصاغر بالغرب كابن يحيى وابن هارونَ وابن مُزَيَّن والبكريّ، فأُتيح له من الظَّفر عليهم ما حاز به أملاكَهم وضمَّها جُملةً إلى عملِه، ثمَّ مَدَّ يدَه بعدُ إلى القاسم بن حمُّود صاحب الجزيرةِ الخضراء، وذلك أنَّه لـمَّا وجَد هذا الفتى على نَباهتِه وجلالةِ عملِه أضعَفَ أُمراء البرابرِ شوكةً وأقلَّهم رجالًا، صمَدَ له وحصَرَه، فاستغاث حُلفاءه بالأندَلس وصاحبَ سَبْتَةَ سقُّوتًا البرغواطيَّ مولى ابن حمُّود، فأبطَأ عليه حتَّى سُقِط في يدِه وعَجز عن تلافي أمرِه، فنزَلَ على أمانٍ وآلَ أمرُه إلى أن لحِق بقُرطبة وسكنَها تحتَ كنَف ابن جَهْوَر معَ نُظرائه من المخلوعين، فلمَّا أُتيح له من الظَّفر بالخضراء وأعمالِـها ما أُتيحَ اتَّصلت الأنباءُ بالأندَلس بصُموتِ منابرِه في جميع أعمالِه عن ذكرِ إمامِه هشام بن الـحَكَم صاحبِ الرَّجْعة، الذي اتَّصل الدعاءُ له على منابرِه من عهدِ قيام والدِه إلى آخِر هذه السنة، وهي سنةُ إحدى وخمسينَ، يُومَأُ إليه بالحياة في غياهبِ الـحُجُب من غير ظهورٍ لخاصَّة ولا عامَّة، عاقَهُ يومَئذٍ عن البوح بوفاةِ هذا الإمام والشّهرة لدفنِه إعطاء الـحَزْم بِقسطِه، فلمَّا سكَنَت الحالُ وجَبَ التصريحُ بالحقّ[٢].

وذكر ابنُ بسَّام[٣]، رحمه الله، ابنَ عبَّاد المعتضِدَ فقال: ثمَّ غَمَس المعتضدُ يدَه بعدُ فيمن كان يَليه من أُمراء البربر، فصَدَم شَرَّهم بشرّهم، وضرَب زيدَهم بعَمْرِهم، وكان عندَما تسعرت نارُ الحرب، بينَه وبينَ رؤساء الغرب، هادَنَهم على دَخَن، ومنَح لهم حتَّى ضَربوا حولَه بعَطَن، ليقتُلَهم بسيوفِهم، ويستدرِجَهم إلى حتوفِهم، فلمَّا استقرَّت قدَمُه

---

(١) الذخيرة ٢/ ٣١.

(٢) الذخيرة ٢/ ٣١-٣٢.

(٣) الذخيرة ٢/ ٣٣ فما بعد.

بشِلْبَ، قاصيةِ قواعدِ الغرب، كان أوَّلَ ما بدأ من حربهم هجومُه على الحاجب محمَّد بن نُوح الدَّمريّ الـمُنتَزي منهم بكُورةِ مَوْرُورَ في غير كتيبةٍ نَظَمها، ولا مقدّمة إليه قدَّمها، فخَلَص إلى ابن نُوح هذا من رجُل لا يُبالي دمَ من تَجرَّع، ولا يحفلُ بأيّ شيءٍ يصنع، فبالَغَ ابنُ نوح في بِرِّه، وتضاءل لأمرِه، وحَمَلَ ذلك مِن فعلِه على آكَدِ أسبابِ السَّلامة، وأتمِّ وجوهِ الاستقامة.

وفَضَّ الـمُعتضِدُ يومًا من صميم مالِه، في أوجُهِ حُماةِ ابن نُوح ورؤوس رجالِه، ما استمال به قلوبَهم، واستَنْصَح به جُنوبَهم، ثمَّ سار إلى ابن أبي قرَّةَ بِرُنْدةَ فسامَهُ مثلَها، وحَذَا له نعلَها، فتلك اعتَدّ عليهم يدًا، وجعَلَها لِـما أراد من مكروهِهم أمدًا، وقد كان أحدُ أجنادِهم أشار بالرأي في أمرِه، وأراد أن يَطْلُعَ عليه من ثَنِيّة مكرِه، ففهِمَها الـمُعتضِد، وجعَل تلك الكلمةَ دُبرَ أُذُنِه، وأثبتَها في ديوانِ إحَنِه، وجاجأ بالحاجبَيْنِ المذكورَيْنِ لأوَّل تمكُّنِه من الغِرَّة، وسَعة صدرِه إلى مركزِه من الحضرة، فتهافتا تهافُتَ الفَراش على الجمرة، وجاءا مجيء الخائن إلى الشعرة[1]، وتطفَّل عليهما الخائنُ ابنُ خَزْرون الـمُنتَزي كان وقتَه بأركُش، فللَّه أبوهُ من وافدٍ لم تُجزه الوِفادة، وواهًا له من قتيل لم يَحْلَ بطائل الشهادة، فجرَّع الكل الحتوف، وحكَّم في عامَّتِهم السّيوف، واستمرَ بعدَ ذلك على حربِ بقاياهم، وتتبُّع أُخْراهم، حتَّى تغلَّب على بلادِهم، وألوى بِطارِفِهم وتِلادِهم.

وفي سنة أربع وثلاثينَ وأربع مئة: توفّي يُمنُ الدّولة صاحبُ مدينة البِنْت من كورةِ شنْتَ بِرية، وهو: محمَّدُ بن عبد الله بن قاسم الفِهريُّ[2]، ولم تزَلْ بأيدي بني قاسم من أوَّل الفتنة، وأوَّلُ من مَلَكَها منهم نظامُ الدّولة عبدُ الله بنُ قاسم إلى أنْ هلَك سنةَ إحدى وعشرينَ وأربع مئة، ثمَّ وليها محمَّدٌ هذا يُمنُ الدّولة إلى أنْ هلَكَ في هذا العام، فلم يزالوا يتعاقبونَ فيها إلى سنة خمس مئة.

---

(١) في الذخيرة: «الشفرة».

(٢) ترجمته في التكملة لابن الأبار (١١٠١)، وابن عبد الملك في الذيل ٦/ ٢٦١، والذهبي في المستملح (٢٠)، والمقري في نفح الطيب ٣/ ١٦٠، وانفرد المؤلف بذكر وفاته.

وفيها: توفِّي سعيدُ بن هارونَ صاحبُ مدينة أُكشُونبة[1]، فأورَثَ مُلكَه وَلَدَه المتلقَّبَ بالمعتصم، فلم يزَلْ فيها إلى أن أخرَجَه منها عبَّادُ بن محمَّد سنة تسع وأربعينَ وأربع مئة، وكان بشِلبَ أحمدُ بن جَرّاح فعظُم فيها طُغْيانُه وانتشَرت في الرعيَّة أعباثُه، وكان يُدْعَى الحاجبَ مؤيَّدَ الدّولة، فلمّا طغا وتجبَّر وبغَى ذَكَروا أنَّه تسمَّى بملِك الملوك، قاطع الشُّكوك، تعالى اللهُ عن قول الظالمينَ عُلوًّا كبيرًا، فأنزَلَ عليه أهلُ بلدِه فقَتلوه وأراح اللهُ منه.

بقيَّةُ أخبار الحمُّوديّينَ ووِلاياتِهم إلى انقضاء مُدَّتِهم

قد تقدَّم القولُ في سنة إحدى وثلاثينَ بمبايعة الـمُستنصِر بسَبْتة، ولـمَّا توفِّي المستنصرُ المذكور، وهو: حسَنُ بن عليّ، قام بعدَه وَلَدُه يحيى، فبويعَ وملَكَ سنتَيْن، ثمَّ قام عليه ابنُ عمِّه حسَنُ بن يحيى بن عليّ فخَلَعه وقتَلَه بسَبْتة، وقيل: إنَّ والدَه يحيى بنَ عليّ كان ولَّاه عهدَهُ، فسبقَه عمُّه إدريسُ بن عليّ وجاز حسَنُ بن يحيى بن عليّ إلى مالَقةَ، وكان معَه أخوهُ إدريسُ بن يحيى، فوَشَى لديه وأمَرَ بثِقافِه في القصر.

ثمَّ توفِّي حسَنٌ بمالَقةَ مسمومًا، وترَكَ وَلدًا صغيرًا بسَبْتةَ، فقام به أبو الفَوْز نَجاءٌ العَلَويُّ قائدُ حسَن على سَبْتة، وجاز البحرَ لِثقافِ البلاد، فأتَى الجزيرةَ الخضراءَ وفيها ابنا القاسم بن حمُّود، فأراد إخراجَهما منها، فخرَجَت إليه سَبيعةُ أُمُّهما وقالت له: يا أبا الفوز، أتقطَعُ أيتامَ مَواليك وتكشِفُهم عن البلاد؟ ما هذا بحسن، فاستَحْيا منها وانصَرف إلى مالَقةَ، فلمّا كان ببعضِ الطريق اجتَمعت برغواطةُ الذين كانوا معَه على قتلِه، وكانوا أخوالَ حسَن بن يحيى ومَواليَه، فقالوا: أنترُكُ مواليَنا ونتبعُ عبدًا مملوكًا خَصِيًّا؟ فتعرَّض إليه أحدُهم فقال له: الراتب، فقال له: بمالَقةَ إن شاء الله، فقال له: كبرت، فقال: أنا؟ ورفَعَ يدَه بالرُّمح فإذا هو حاسرٌ ليس بذي درع، فرجَع خلفَه حتَّى أمكنَتْه طعنتُه فطعنَه بين كتِفَيْه طعنةً خرَجَت من صدرِه فهلَكَ أبو الفَوْز نَجاءٌ وقطَعوا رأسَه وعلَّقوه من شجرة.

---

(١) ينظر عنها معجم البلدان ١/ ٢٤٠.

ثمَّ نَهَضَ قومٌ منهم إلى مالَقةَ، ونَهَضوا إلى الوزير أبي جعفرٍ بن موسى فقَتلوه، وأخرَجوا إدريسَ بنَ يحيى من سِجنِه وبايَعُوه، وتسمَّى بالعالي، وبايَعَه أُمراءُ البربر وخَطَبوا باسمِه، وذلك سنة أربع وثلاثينَ وأربع مئة.

وقدِمَ على العالي ابنُ عمّه محمَّدُ بن إدريسَ بن عليّ بن حمُّود وخَلَعه في شعبانَ من عام ثمانيةٍ وثلاثينَ وأربع مئة، فخرَجَ إدريسُ بن يحيى من مالَقةَ إلى حِصنِ بُبُشْتَرَ معَ عبيدِه ومَن تبِعه من الجُند فغَزا مالَقةَ معَ باديسَ بن حَبُّوس فلم يقدِرْ على شيء، فرجَع إلى حصنِ بُبُشْتَر وأخرَج عيالَه وجاز إلى سَبْتة فبقيَ عندَ سواجّاتَ البرغُواطيّ. هكذا ذكَر ابنُ القطّان.

قال ابنُ حيَّان: وفي شعبانَ من سنة ثمانٍ وثلاثينَ خرَجَ إدريسُ بنُ يحيى بن عليّ بن حمُّود من مالَقةَ مُتنزِّهًا للصَّيد، فغلَّق البابَ في وجهِه أهلُ البلد ووَجَّهوا إلى ابن عمِّه محمَّد بن إدريسَ وبايَعوهُ بالخلافة، وتلقَّب بالـمَهْديّ، وتوطَّد أمرُه بمالَقةَ مُدَّةَ حياتِه، وانصرَف إدريسُ بن عليّ العالي إلى العُدْوة، ثمَّ رجَع بعدَ ذلك إلى الأندَلُس واستقرَّ عندَ أبي نُور بن أبي قُرَّةَ اليَفْرَنيّ صاحبِ رُنْدةَ شهورًا ودَعَا له بالخلافة.

رَجْعُ الكلام: وبويع محمَّدُ بن إدريسَ، وخَطَبَ له الـحُجَّابُ على اختلافٍ بينَهم وبينَه وبينَ ابن عمِّه إدريسَ العالي وبينَه وبينَ محمَّد بن القاسم بن حَمُّود، وكان بالجزيرةِ الخضراء.

قال: وكان هذا محمَّدُ بن إدريسَ سَفَّاكًا للدّماء، فامتدَّت يدُه إلى قَتْل البرابر، ولـمّا رأى الـحُجّابُ ذلك، وهم أُمراءُ القبائل، عمِلوا الحِيلةَ في قتلِه، فوجَّه له باديسُ بنُ حَبُّوس بكأس عراقيّ مسموم معَ رجُل من الكُتاميّينَ، فلـمّا وصَل إليه قال له: هذا كأسٌ جُلِب للحاجِب الـمُظفَّر باديس، فلم يَرَهُ يَصلُحُ إلّا للخلافة، فاختصَّك به، فأُعجِب به محمَّدُ بن إدريس وملأه خمرًا وضمَّه إلى فمِه، فأحسَّ في نفسِه رِيبةً منه فأمَرَ الكُتاميّ فشَرِبَه فتهَرأ جلدُه عن عظمِه من حينِه، وبقي هو ثلاثةَ أيّام ومات من رائحتِه في أواخِر سنة أربع وأربعينَ وأربع مئة.

ثمَّ قام بالأمر وَلَدُ أخيه، وهو إدريسُ بن يحيى بن إدريسَ بن عليّ بن حَمُّود، وتسمَّى بالسامي، ثمَّ أخمَلَ نفْسَه وخرَجَ كأنّه تاجر، وخرَجَ في رِيف غُمارةَ فقُبِض

عليه وسيقَ إلى سَبْتَةَ فقتَلَه سواجاتُ البرغُواطيُّ، وبقي عندَه العالي إلى أنْ مات سنةَ أربع وأربعينَ وأربع مئة.

ووَلِي وَلَدُه محمَّد، وتسمَّى بالـمُستعلي، فاتَّفق أُمراءُ البربر على مُبايعة محمَّد بن القاسم بن حَمُّود وخَلْع الـمُستعلي، وذلك في سنة تسع وأربعينَ على ما يأتي ذكرُه إن شاء الله.

ومات محمَّدُ بن القاسم، فبايَعوا ابنَه القاسمَ، وتغلَّب باديسُ على مالَقةَ وأخرَجَ الـمُستعليَ منها، فكان خروجُ المستعلي من مالَقةَ سنةَ خمسٍ وستّين. وتغلَّب ابنُ عبَّاد على الجزيرة الخضراء، وأخرَجَ منها القاسمَ بن محمَّد بن القاسم بن حَمُّود، وفَنِيت ذُرِّيَّتُهم من بلادِ الأندَلس، فكانت مُدَّتُهم بها ثمانيَ وخمسينَ سنة.

رجْعُ الخبر إلى نسق التاريخ.

وفي سنة خمس وثلاثينَ وأربع مئة: تميَّزَ أُمراءُ الأندَلس ومُلوكُهم من قبائلِ البربرِ وغيرِهم، وصاروا فريقَيْنِ ما منهم مَن يحذَرُ الدارَ الآخرة. قال ابنُ حيَّان: أحدُ الفريقَيْن فيه عظيمُهم سليمانُ بن هُود الجُذَاميُّ صاحبُ الثَّغر الأعلى، وكان معَه مقاتِلٌ الصَّقْلَبيُّ صاحبُ طَرْطُوشة وعبدُ العزيز بنُ أبي عامر صاحبُ بَلَنْسِية ومَن تحتَهما من أصحابِ الأعمال بالـمُوسَّطة، وكان ابنُ مَعْن صاحبُ المرِيَّة وسعيدُ بن رفيل صاحبُ شَقُورةَ وغيرُهما من الرّؤساء إلى الوزير محمَّد بن جَهْوَر صاحبِ قُرطُبة، كان هؤلاء الأندَلسيُّون نمَطًا واحدًا، متظاهرينَ على عظيم البرابرة يومَئذٍ باديَس بن حَبُّوس الصُّنهاجيّ صاحبِ غَرْناطةَ ومَن تميَّزَ معَه من البربر ومَن يدعو إليه من إدريسَ بن يحيى صاحبِ مالَقةَ، وكانوا مُتعاضدينَ متناصِرينَ على مَن يُباينُهم من الأُمراء سواهم على اختلافِهم في الرأي والدّعوة، وكان هؤلاء الثَّغريُّونَ المذكورونَ يَدْعونَ لهشام المنصوبِ بإشبيلِيَةَ، وكان باديسُ ومن والاهُ من أُمراء البرابرة يَدْعونَ لإمامِهم بمالَقةَ، وهو إدريسُ بن يحيى بن عليّ بن حَمُّود الـحَسَنيُّ، وكان أبو نُور بنُ أبي قُرَّةَ صاحبُ رُنْدة وكُورة تاكُرُنَّا يدعو بابن عبَّاد ورَضِيَ ابنُ عبَّاد منه بذلك.

وفريقٌ آخَرُ من أملاك الأندَلس الـمُسارِعينَ في التمايز، كمجاهدٍ العامريِّ صاحبِ دانِيَةَ، وكابن الأفطس صاحبِ بَطَلْيَوْسَ أيضًا ومَن يتَّصلُ به من الرؤساءِ بالغَرْب، ويحيى بن

ذي النُّون صاحبِ طُلَيْطُلة، وإسحاقَ بن محمَّد البِرْزاليّ صاحبِ قَرْمُونةَ ومَن والاهُ من الأُمراء الأصاغرِ مثلَ: ابن نُوح وابن خَزْرُونَ وغيرِهما، يلتفتُ جميعُ هؤلاءِ النَّمطِ لعبَّادٍ الـمُعتضِد صاحب إشبيلِيَةَ، وكلُّهم على دعوتِه الـهِشاميَّة ما خلا يحيى بنَ ذي النّون فإنَّه كان في هذا الوقت ساكتًا عن الدّعاء لأحدٍ على رَسْم والدِه ورَسْم أهل قُرطُبَة إلى أنْ دخَل في دعوة ابن عبَّاد سنةَ ستٍّ وثلاثينَ لـمّا التحَم ما بينَهما.

وتظاهَر كلٌّ من هؤلاء الأُمراء على ضدِّه في الظاهر أتمَّ مُظاهرة، يتداخَلونَ ويتعاونونَ على دَفْع الحوادثِ الطارِقة لهم ولا يثربُ بعضُهم على بعض بخلافِ رأيٍ أو دعوة.

وفي سنة ستٍّ وثلاثينَ: دخَلَ أهلُ طُلَيْطُلَةَ وصاحبُها يحيى بنُ ذي النّون في دعوة الـمُشبَّه بهشام المؤيَّد المنصوبِ خليفةً بإشبيلِيَةَ، والتحَم يحيى بنُ ذي النّون معَ ابن عبَّاد.

قال ابنُ حيَّان: إنَّ أصلَ الفتنة في هذه السنة والتي قبلَها من أحمدَ بن سُليمانَ بن هُود ويحيى بن ذي النّون ومَن تميَّز في حربِ كلٍّ واحدٍ منهما من أُمراء الأندَلس، وإنَّ رعيَّتَهما كانت معَهما في أمرٍ عظيم.

وفي سنة سبع وثلاثينَ: كان عَيْثُ النّصارى بالثَّغر الأعلى والأدنى بأشلاءِ ابن هُود وابن ذي النّون لهم عليهما.

وفيها: مَلَكَ محمَّدُ بن نُوح الدَّمَّريُّ كُورةَ مَوْرُور لهلاكِ أبيه المالك بعدَ قسمة المستعين الأُمويِّ البلادَ على رؤساء القبائل.

وفيها: صار مُلكُ بَطَلْيَوْس لمحمَّد بن عبد الله بن مَسْلَمة المعروف بابن الأفطس، وله التأليفُ الكبير العجيبُ الشهيرُ بالـمُظفَّريّ يكونُ في خمسينَ مجلّدًا.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثينَ: كان مهلِكُ سُليمانَ بن هُودٍ الـجُذَاميّ.

ذكرُ ابتداء الدّولة الـهُوديَّة[1]

قد تقدَّم القولُ: إنَّ ابتداءَها كان سنةَ إحدى وثلاثينَ وأربع مئة، ونحن الآن نذكرُه قولًا جُمْليًّا مختصَرًا فنقول: إنَّ أوَّلَ ملوكِهم هو سُليمانُ بنُ هود الـجُذَاميُّ.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٠٩، وصبح الأعشى ٥/ ٢٤٦.

بعضُ أخبارِ سُليمانَ بن هُود الـمُستعينِ بالله(١)

كان هذا الرجُل، سليمانُ بن محمد بن هود، في مدَّة الجماعة بالأندَلس، من كبار الـجُند بالثَّغر الأعلى إلى حين وقوع الفتنة الشاملة، فغَلَب على مدينة لارِدةَ وسائر أنظارِها وقتَل القائمَ بها يومَئذٍ وهو أبو الـمُطرِّف التُّجِيبيُّ، وكان معروفًا بالنَّجدة والرياسة، فاستَغْلب عليه ابنُ هودٍ هذا وقتَلَه في خبرٍ طويل، واستولى على لارِدةَ ومنتشونَ وأنظارِهما، إلى أن جَرت قصَّةُ سَرَقُسْطة، وذلك أنَّ أمرَ سَرَقُسْطَة وذَواتِها كان إلى رجُل من التُّجِيبيّينَ يقال له: منذرُ بن يحيى، وقد تقدَّم ذكرُه، وكان من قُوَّادِ الدولة العامريَّة، ومات في أمدِ الفتنة فورِثَ مُلكَه ابنُه يحيى بنُ منذرٍ وسنُّه فيما ذُكر تسعَ عشْرةَ سنة، فتسمَّى بالحاجبِ معزِّ الدَّولة، وكانت أُمُّه بنتُ عبد الرحمن بن ذي النُّون أختَ المأمون يحيى بن ذي النُّون، فاحتَقَره بنو عمِّه وتواطأوا على قتلِه معَ كبير منهم خرَج يومًا للسلام عليه، فترامى إليه كأنَّه يُقبِّلُ يدَيْه، فضربه بسِكّين في صدرِه كان في ذلك مَنِيَّتُه، وخرَج هذا القاتلُ منَ القصر، فاجتمَع عليه بنو عمِّه وولَّوْه لأمرِهم، وكان عاهرَ الفَرْج، ذُكر أنَّه كان يدخُل على النِّساء الحمّام، فعَظُم ذلك وأنكروا فعلَه ولم يحمِلوا مثلَ هذا منه، واسمُه: عبدُ الله بنُ حَكيم، فقام أهلُ سَرَقُسْطةَ وهمُّوا بقتلِه، فخرَج فارًّا بنفسه، فبقي أهلُ سَرَقُسْطةَ دونَ أمير يُدبّرُ أمرَهم، فبعثوا إلى سليمانَ بن هُود وهو بمدينة لارِدة، واجتمَع الملأُ منهم على تقديمه، فوصَل إليهم فولَّوْه على أنفسِهم، ونزَل دارَ الإمارة بسَرَقُسْطة، وبقي عليهمْ أميرًا إلى أن مات في هذه السنة، وهي سنةُ ثمانٍ وثلاثينَ وأربع مئة، وكان استيلاؤه على لارِدةَ سنةَ إحدى وثلاثينَ وأربع مئة.

ولما مات ابنُ هود ترَك خمسةَ أولاد ذُكور، كان قد قَسّم عليهم في حياتِه بلادَه التي كانت تحتَ نظرِه، فوَلِي أحمدُ بن سُليمانَ مدينةَ سَرَقُسطةَ بعدَ أبيه، ووَلّى يوسُفَ مدينةَ لارِدة، وولَّى محمَّدًا قلعةَ أيوب، وولَّى لُبًّا ابنَه مدينةَ وَشْقة، وكانت تحت نظرِ أخيه، ووَلّى المنذرَ بنَ سُليمان مدينةَ تُطِيلة. واستبدَّ هؤلاء الإخوةُ كلُّهم بأعمالِهم بعدَ أبيهم، ودَعَا كلُّ

(١) تراجع المصادر المذكورة في الهامش السابق.

واحد منهم إلى حَوْزتِه، فلم يزَلْ أحمدُ بن سليمانَ يحتالُ على إخوتِه حتَّى أخرج بعضهم من مَواضعِهم، واحتال عليهم وسَجَنَهم وكحَلَ بالنار بعضَهم، غيرَ أنَّ الواليَ على مدينة لارِدة يوسُفَ كان أكبرَهم، وهو المسمَّى بحسام الدّولة، حَمَى حَوْزتَه منه. ولـمّا رأى أهلُ الثّغر ما صنَعه أحمدُ بن سليمانَ بإخوتِه كرِهوهُ لذلك وخَلَعوا طاعتَه وصيَّروا أمرَهم إلى أخيه يوسُفَ وقاموا بدعوتِه، ولم يبقَ لأحمدَ إلَّا سَرَقُسْطة.

وكان يوسُفُ بن سُليمانَ بن هود بطلًا شَهْمًا، وتلقَّب بالـمُظفَّر لكنّه كان غيرَ مُبخَّت، وكان أخوهُ أحمدُ أسعدَ منه في أمورِه.

ولـمّا رأى أحمدُ تألُّفَ الناس على أخيه وَجَّه رسولَه في السّرِّ إلى الطاغية ابن رُذْمير صاحبِ بلاد النَّصرانيَّة المجاورِة له يَستعطفُه ويقولُ له: اعلِمْني بما أعطاك أخي من المال على أن يشقَّ بلادَك بالـمِيرَ إلى تُطِيلة وأنا أُعطيك أضعافَه واترُكْني وإيَّاهم، فأعلَمَه بذلك وأضعَفَ له المالَ وتَركَهم عندَ ذلك، فلمَّا بعَث أخوه إلى بلادِ ابن رُذْمير برَسْم الـمِيرة لبلادِه خيلًا ورجالًا بدوابَّ كثيرة سَرى إليهم مِن سَرَقُسطة فأخَذهم وقتَلَهم، وكانوا قد توسَّطوا بلادَ الرّوم، فامتلأت أيدي الرّوم من أسلابِهم، وكان بينَهم وبين بلاد المسلمينَ مسافةُ أيّام، فلم ينْجُ منهم إلَّا اليسير، وكانوا آلافًا، فأخَذ النّصارى أكثرَهم أسْرى وافتكَّ بعضَهم فلم يتمَّ للمظفَّرِ مُرادُه، وكان ضدَّ لقَبه، واستُطير به أهلُ طاعتِه ورجَعوا إلى أخيه، ولم يبقَ ليوسُفَ بن سليمانَ سوى عملِه المتقدِّم له قبلَ ذلك.

وسببُ تلك الوقعة التي فَنِي فيها المسلمونَ على أيدي أحمدَ بن سُليمان بن هود: أنَّه وافَقَ أنْ كان بتُطِيلةَ وذَواتِها في ذلك الوقت غلاءٌ شديد، فاستغاثَ أهلُها بالـمُظفَّر الذين هم تحت طاعتِه، فنَدَب جميعَ أهل تلك الثُّغور بمير يحمِلونَه إلى تُطِيلة، فاجتمع في ذلك طعامٌ كثير، فنَظر في توصيلِه وليس لذلك سبيلٌ إلَّا على سَرَقُسطةَ أو على وَسَط بلاد ابن رُذْمير، فجعَل له الـمُظفَّرُ مالًا على نفسِه ويترُكُ هذا المِيرَ يشُقُّ على بلادِه، فأنْعَم له ابنُ رُذميرَ بذلك. ولم يَخْفَ هذا التدبيرُ على الفاجرِ أحمدَ بن سُليمان، فوَجَّه بأضعافِ المال إلى ابن رُذْمير، فلمَّا توسَّطوا بلادَ النّصارى بالـمِيرة خرَج عليهم فأهلَكَهم أجمعينَ قتلًا وأسرًا، فكانت تلك الوقعةُ الشّنعاءُ بالثّغر الأعلى على يدَيْه.

ومن أخبارِ أحمدَ بن سُليمان بن هُود الـجُذَاميّ(١)

لـمَّا فعَل هذه الوقعةَ ضعُفَ أمرُ أخيه وخافته الرعيَّةُ فانصرفت طاعتُهم إلى أحمد، فعَظُمت مملكتُه واشتدَّت شوكتُه وتسمَّى بالـمُقتدِر بالله، وكان على طَرْطُوشةَ أميرٌ فتًى من فتيان ابن أبي عامر اسمه لبِيب، وكان قد ضَبَطها لنفسِه وساسَ أمورَه بها معَ رعيّتِه ومعَ مَن يجاورُه من الأمراء، وهي مدينة ساميةُ الذُّرى متَّسعةُ الساحة مشرقةُ البهجة كثيرةُ المرافق والنعمة، فأقام بها لبيبٌ مَلِكًا على قلَّة نظرِه إلى أن حانت مَنيَّتُه، فوَلِي أمرَها من بعدِه فتًى آخَرُ من فتيان ابن أبي عامر اسمُه مُقاتِل، وكانت له همَّةٌ ورياسة، وتسمَّى أيضًا بسيف الـمِلَّة، لقبٌ اختَرعه لنفسه، فكان يُكتَبُ به إليه وعنه، وكان عندَه من العمّالِ والكتَّاب ما لم يكنْ عندَ غيره في وقتِه مـمَّن هو أكبرُ مُلكًا منه، إلى أن هلَكَ هذا الـخَصِيُّ.

واستحوذَ أحمدُ بن سُليمانَ على طَرْطُوشةَ وذَواتِها، وكانت له حروبٌ كثيرةٌ معَ الرُّوم الـمُجاورينَ لها. وخرَجت طائفةٌ من الرّوم في مدَّتِه في نحو عشَرةِ آلاف فارسٍ من الروم إلى بِلاد المسلمين، فنازَلوا مدينةَ وَشْقةَ من هذا الثّغر الأعلى وأقاموا عليها أيّامًا ثمّ رحَلوا عنها وساروا في بلاد المسلمينَ بالثّغر إلى أن نَزَلوا على مدينة بربُشْتر.

ذكْرُ أخْذِ النّصارى مدينةَ بربُشْتر، من عملِ ابن هُود واسترجاعِها من أيديهم بعدَ أسرِ جميع أهلِها وقَتْلِهم رحمهم الله(٢)

وذلك أنَّ جيشَ الأردامانيّينَ نَزلوا عليها وجَدُّوا في قتالِـها وحصارِها جِدًّا عظيمًا، فكان أهلُها يُقاتلونَهم خارجَ مدينتهم، وذلك في سنة ستٍّ وخمسينَ وأربع مئة، وكان الماءُ يأتيها في سِرْب تحت الأرض من النّهر حتّى يدخُلَ إليها فيخترقُها، فخرَج رجلٌ من القَصَبة إلى الرّوم ودلَّـهم عليه، فساروا إليه وهدموهُ وحالوا بينَه وبينَ الاتّصال بفم السِّرب، فعَدِمَ أهلُها الماء، ولم يكن لهم صبرٌ على العطش، فراسَلوا الرّومَ في أن يُسلِموهم في أنفسِهم وذَراريهم ويُسلِموا إليهم البلد، فأبَى الرّومُ من ذلك، فجالَدَهم المسلمونَ إلى

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٣/ ٣١٧، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٨٩، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٦٧.

(٢) الذخيرة لابن بسام ٣/ ١٣٧ فما بعدها، ونفح الطيب ٤/ ٤٤٩.

أن دخَل الرّومُ عليهم عَنْوةً فقَتلوا الـمُقاتِلةَ وسبَوا الـحَريمَ والذُّرّيَّةَ وحصَلوا منها على أموالٍ جليلة، فكان أشدَّ الرّزايا بهذه الجزيرة، وحصَل بأيدي الروم من نساء أهل برِبُشْتر وذُرّيَّتهم قُربَ المئة ألف، حصَل من ذلك في سهم رئيسِهم اللّعين أربعةُ آلافٍ قسمةً اختارَهم أبكارًا من الثمانيةِ أعوام إلى العشَرة، فأهدَى منهم لملِكِه ما شاء، وكان هذا اللّعينُ يسمَّى بالبيطبين، وذُكر أنّه حصَل في سهمِه أخزاهُ الله من أوقارِ الأطعمة والـحُليِّ والكُسوة خمسُ مئة حِمْل، وكان الخطبُ في هذه المدينة أعظمَ من أن يوصَف؛ لأنَّ الحالَ كان آلَ بهم إلى أنْ ألقَوْا بأيديهم بسبب الظَّماء وخرَجوا من المدينة وانتشروا في بسيطٍ من الأرض، فلمّا رأى الطاغيةُ ضاعَفَ اللهُ عذابَه كثرتَهم وانتشارَهم خاف أن تُدركَهم حَمِيَّةٌ في استنقاذِ أنفُسِهم، فأمر ببَذْل السّيفِ فيهم وبعضُهم ينظُر إلى بعض من رجالٍ ونساء، فقيل: إنّه قُتل منهم يومَئذٍ نحوُ ستّةِ آلاف، ثمَّ نادى برَفْع السّيف عنهم وأمَرَ بخروجِهم عن المدينة بالأهل والذُّرّيّة، فبادَروا الخروجَ منها مُزدحِمينَ على أبوابها، فمات في ازدحامِهم خلقٌ كثير.

ولـمّا عُرِضَ جميعُ مَن خرَج عن المدينة بفِناء بابِها بعدَ قَتْل مَن قُتِل منهم ضمُّوا قيامًا ذاهلينَ منتظرينَ نزولَ القضاء فيهم، ثمَّ نوديَ فيهم بأنْ يرجِعَ كلُّ ذي دار إلى دارِه بأهلِه ووَلَده، وأُزعِجوا لذلك، ولـمّا استقرُّوا بالدورِ معَ عيالاتِهم وذُرّيّاتهم اقتَسَمهم المشركونَ، فكلُّ من صارت في حِصَّتِه دارٌ حازها وما فيها من أهل ووَلَدٍ ومال، فحَكَم كلُّ عِلج منهم فيمن سُلِّط عليه من أربابِ الدّور بحسَب ما يبتليه اللهُ به منه يأخُذ كلَّما أظهَرَ له ويُعذِّبُه فيما أخفَى عنه، وربَّما زَهِقت نفْسُ المسلم دونَ ذلك فاستراح، وربَّما أخَّره أجَلُه إلى أسوإِ مِن مقامِه ذلك؛ لأنَّ عُداةَ الله كانوا يتولَّعون حينَئذٍ بهتْكِ حُرَم أسْراهم وبناتِهم بحضرتِهم إبلاغًا في نِكايتهم ويعبَثونَ في الثيِّب وَيفتَضُّونَ البِكر وزوجُ تلك وأبو هذه موثَّقٌ في الحديد، ومن لم يرضَ منهم أن يفعلَ ذلك أعطاهنَّ لغِلمانِه يعبَثونَ فيهنَّ، فبلَغ الكفَرةُ يومَئذٍ منهم ما لا تلحَقُه الصِّفة والحولُ والقوّةُ لله العظيم.

فلمّا استَولى الرّومُ على هذه المدينة الـمَشْومة تَركَ فيها اللّعينُ ألفَ فارس وأربعةَ آلاف راجِل ورحَل منها إلى بلادِه، ولم يكن للنصارى قبلَ هذه الفعلة مثلُها في بلاد المسلمين.

فلمّا رأى ابنُ هود هذا الأمرَ نادَى بالنَّفر للجهاد في سائر بلاد المسلمين، فحمِيَت نفوسُ أهل الإسلام وجاءه منهم خلقٌ عظيم لا يُحصى عددُه ذُكر أنّه وصَل من سائر بلاد الأندلس ستّةُ آلاف من الرُّماة العَقّارة، فنازَلوا مدينةَ بربُشْتر وتأهَّبوا لقتال مَن ورَدَ عليهم من الكفَّار، فلمّا عايَنَ الكفَّارُ قوّةَ المسلمين وكثرة حُماتِهم ورُماتِهم أغْلقوا أبوابَهم وتركوا حربَهم، وعظُم عليهم أمرُهم، فأمَرَ ابنُ هود المقتدرُ بالله بالنَّقْب لسُورِها، وأمَرَ الرَماةَ أن يَقْتفُوا السُّورَ لئلّا يمنَعَ الكفرةُ النقَّابةَ من النَّقْب، فكان الرّومُ لا يُخرِجونَ أيديَهم من فوق السُّور، فنَقَبوا شُقّةً كبيرةً ودعَّموا السُّور وأطلقوا النارَ في الدعائم فوقعت تلك الشُّقّةُ بهم واقتحم المسلمونَ عليهم البلد، ولـمّا عايَنَ الرّومُ ذلك خرَجوا من ناحيةٍ أخرى على بابٍ آخَرَ وحَملوا حملةَ رجُلٍ أحَدٍ في محلَّة المسلمين فأتْبَعهم المسلمونَ يقتلونَهم كيف شاؤوا ولم يَنْجُ منهم إلّا أهلُ اليسير مـمَّن تأخَّر أجلُه، وسَبَوْا كلَّ من كان فيها من عيالِهم وأبنائهم وقُتل من أعداء الله نحوُ ألفِ فارس وخمسة آلاف راجِل، ولم يُصَبْ من جماعة المسلمينَ إلّا نحوُ الخمسينَ، فاستولَى المسلمونَ على المدينة وغَسَلوها من رِجسْ الشرك، وجَلَوْها من صداء الإفك.

قال البَكْريُّ: أدخَلَ منها سَرَقُسطة نحوَ ألف سبيَّة ونحوَ ألف فرس ونحوَ ألف درع وأموالًا وأثاثًا، وكان أخذَها في جُمادى الأولى من سنة سبع وخمسين وأربع مئة، فكان بينَ دخول الرّوم إليها وعَوْدِها للمسلمينَ سنةٌ كاملة، وشاع لابن هود صَنيعٌ في بلاد المسلمينَ لهذا الفتح الذي اتَّفق على يديه.

واتَّفق أيضًا معَ ابن مجاهدٍ إقبالِ الدّولة أخبارٌ يطولُ شرحُها حتَّى أخرجَه من بلادِه واستَولى عليها ثمَّ حاصَرَه بمدينة دانِيَة وضيَّق عليه فيها حتَّى بادَرَ إليه بإرسالِه في أن يُسلِمَه في نفسِه وأهلِه ووَلَدِه ويُسلِمَ إليه مُلكَه وينزلَ عن قصرِه ويترُكَه له بفرشِه، فخرَجَت الرسُلُ إلى المقتدرِ بذلك فقَبِل منه وأمَرَ برَفْع القتال عنه، فكان خروجُ ابن مُجاهدٍ من دانِيَة في سنة ثمان وستّينَ، فحمَلَه إلى سَرَقُسْطة وأقطَعَ له فيها أقطاعًا لـمُؤْنة عيشِه، فكان آخرَ العهد به.

قال الورَّاقُ: وقد كان عليُّ بن مجاهدٍ هذا وَجَّه بمركَبٍ كبير مملوٍّ طعامًا إلى بلاد مصرَ سنةَ الجُوع العظيم الذي كان بها، وذلك في عام سبعة وأربعينَ وأربع مئة، فرجَع

إليه المركَبُ مملوًّا ياقوتًا وجوهرًا وذهبًا وذخائرَ، فكان ذلك كلُّه عندَ ابن مجاهدٍ المذكور في خَزائنه ظَفِر بذلك ابنُ هود. ونوديَ في الناس بدانِيَةَ بالوصُول إلى ابن هود والدّخول عليه والبَيْعة له، فبايَعَه الخاصَّةُ ثمَّ العامَّة، ودانت له مدينةُ دانِيَة وأنظارُها، فاتَّسع عمَلُه وارتفعت همَّتُه وزادت مملكتُه، وأقام ابنُ هود بمدينة دانِيَة رَيْثما نظَر في أمرِهما وأتقَن ما رأى إتقانَه منها، ورحَل منها إلى حضرته سَرَقُسْطة وفي عسكرِه ابنُ مجاهد في زِيٍّ خشِن إلى أنْ دخَلها.

ثمَّ إنَّ الرّومَ دمَّرهم اللهُ استطالت أيديهم في مدَّة ابن هود على بلاد المسلمينَ بالثَّغر الأعلى، فأخَذ معَهم ابنُ هود في إعطاء الجِزية وصالَحهم، فأخَذ الطاغيةُ ما الذي رتَّبه عليه وقسَمَه على رعيَّته وعلى أهل عسكرِه، وكان رجلٌ... من العابدينَ بقرية من نَظَر ابن هود معروفًا بالخير والصّلاح قصَدَه أهلُ القرية وأعلَموه بما يجبُ عليهم من مال الجِزية، فقال لهم: معاذَ الله، هذا لا يكونُ وأنا حيٌّ في الدّنيا أبدًا، ثمَّ ركِبَ ومعَه جماعةٌ من أهل القرية حتَّى وصَل سَرَقُسْطةَ، فدخَل على المقتدرِ ووَعَظَه بما جاء في الشَّرع، فاغتاظ ابنُ هود لقولِه وقال في نفسِه: احتقَرَنا هذا حتَّى خاطَبَنا بمثل هذه المخاطبة، فإن تركناه ولم نُعاقبْه تَجاسَرَ علينا غيرُه، فأمَرَ بقتلِه فقُتل هذا الرجلُ الصّالح رحمه الله، واستمرَّت الجِزيةُ على سائرِ مُدن الثَّغر وأعمالِه، ولم يزَل المقتدرُ بالله ابنُ هود يَضعُفُ والرّومُ يتقوَّوْنَ عليه إلى أن رماهُ اللهُ بعلَّة في جسَده أذهبت حِسَّه وعقلَه فيقال: إنَّه ما مات حتَّى كان ينبَحُ كما تنبحُ الكلابُ لدعوة ذلك الرجُل الصالح عليه، نعوذُ بالله من سُوء العاقبة، وتوفِّي في سنة خمس وسبعينَ وأربع مئة، وأذكرُ بقيَّةَ الدّولة الـهُوديَّة في مدَّة الـمُرابطينَ إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة تسع وثلاثينَ وأربع مئة، قال ابنُ حَيَّان: فيها تجمَّع رؤساءُ القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمّد بن القاسم بن حَمُّود الـحَسَنيّ وقدَّموه للخلافة بالجزيرة الخضراء، وهم أربعةُ أُمراء: إسحاقُ بن محمَّد بن عبد الله البِرْزاليُّ صاحبُ قَرمُونة، ومحمَّدُ بن نُوح الدُّمَّريُّ صاحبُ مَوْرُور، وعبدونُ بن خَزْرُون صاحبُ أركُش، وكبيرُهم باديسُ بن حَبُّوس صاحبُ غَرْناطةَ وأعمالِها وإسْتِجةَ وغيرِها، فبايَعَ جميعُهم له بالخلافة وتسمَّى من الألقاب الخلافيَّة بالـمَهْديّ، وخطَب له جميعُ هؤلاء الأمراء في بلادِهم على

المنابر، ثمَّ نَهضوا معَ إمامِهم وساروا إلى المعتضِد عبَّاد بن محمَّد صاحب إشبيلِيَة ونزَلوا عليها، ودخَل معَهم ابنُ الأفطس صاحبُ بَطَلْيَوْس، وكانت عِدَّةُ هؤلاء الرؤساء معَ إمامِهم محمَّد بن القاسم على عبَّاد بن محمَّد سبعةَ ملوك، ثمَّ انصَرفوا معَ خليفتهم ولم يَقْضِ اللهُ لهم أربًا، فلم يكنْ لهم بعدَ ذلك اجتماعٌ ولا اتّفاق، وأخَذ اللهُ أكثرَ هؤلاءِ الرؤساء الذين حاصَروا ابنَ عبَّاد بسُوء فعلهم في هذه الحركة من ظُلم المسلمين وأخْذِ أموالِهم بغير حقّ وتغييرِهم لنعمِهم وقَطْعِهم لثمارِهم ونكْثِهم لِـما كانوا تعاقَدوا عليه معَ ابن عبَّاد، فخلَّصه اللهُ منهم.

وأمَّا باديسُ بن حَبُّوس فأخَذه اللهُ بأصعبِ الخليقة عندَه وهم السُّودان، وذلك بحصن قُمارش على يدِ إمامِه محمَّد بن إدريسَ صاحب مالَقة على ما أذكرُه بعدَ هذا في بعض أخبارِه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة أربعينَ وأربع مئة: توفِّي محمَّدُ بن القاسم بن حَمُّود رحمه الله، فكانت مدَّتُه منذُ بايَعَه هؤلاء الأُمراء الأربعةُ سنةً واحدة وثمانيةَ أشهر، وكان له جُملةٌ من الأولاد، فتقدَّم منهم بعدَه القاسمُ بن محمَّد، اجتمع عليه أصحابُ والدِه ولم يختلفوا في بَيْعتِه، فضَبَطَ أمرَه واتَّصلت ولايتُه إلى ستَّة أعوام بعدَما طلَبَ السلامةَ مـمَّن حولَه واقتصر على حالِه.

قال ابنُ حيان... وأمَّا عبَّادُ بن محمَّد بن عبَّاد الـمُعتضدُ بالله أميرُ إشبيلِيَةَ عندَما أتيح له من الظَّفَر ما أُتيح على من كان يُجاورُه من أُمراء الأندَلس الذين غلَبَهم على مملكتِهم وجَلاهم عن أوطانِهم وحازَها مُلكًا لنفسِه، وما كان من غَدْرِه لأخلَّائه ابن أبي قُرَّةَ أمير بني يَفرن وابن نُوح وابن خَزْرُون أمير زَناتةَ لـمَّا أتَوْه بحضرته إشبيلِيَةَ على تدبيرٍ أسرُّوه معَه، فأمَرَ بالقبض عليهم وعلى كلِّ من وافَى معَهم، ودَعَتْه طماعيتُه فيهم والاحتراسُ بحَوْزَتِهم فبدَأهم بالأقربِ منه، وهو القاسمُ بن محمَّد المذكورُ أميرُ الجزيرة الخضراء... على عملِه وجملةِ أحواله، وإنَّه أضعفُ شوكةً منَ ابن عبَّاد، فلم يكنْ إلَّا في نحوِ مئتي فارس من خيلِه، فبدَأ ابنُ عبَّاد يتطلب العلَّاتِ عليه حتَّى كاشَفَه بمعاملتِه وتَبدَّى إليه بحربِه، وأطمَعَه في الجزيرة قوَّتُه على ركوب البحر بما اجتمَع عندَه من الأساطيل، واكتمل إليه من العُدَّة بتلك البلاد التي افتتحها، فأرسَلَ

عندَ ذلك جيشَه نحوَ الجزيرة الخضراء برًّا وبحرًا، وأخرج على الجيش وزيرَه عبدَ الله بنَ سلَّام فحاصَرَها، ورحَل القاسمُ في سفينة معَ أهل بيتِه إلى سَبْتَة، وكان صاحبَها سواجَّاتُ البرغواطيُّ، وقيل: اسمُه سُقُّوت، فاستولى ابنُ عبَّاد على الخضراء في سنة ستٍّ وأربعينَ وأربع مئة.

وفي هذه السّنة: كان القيامُ على اليهود بغَرْناطةَ، وقُتل منهم نحوُ ثلاثة آلاف، واستؤصلت أموالُهم، وقُتل ابنُ نغرالةَ معَهم.

وفيها: كان مهلِكُ الطاغية فرذلندَ صاحبِ قَشْتِيلةَ، وترَكَ ولدَيْه: شانشه وأذفونْش فبعَثَ شانشه لأذفونْش وأسَرَه عندَه ثمَّ أطلَقه فلحِقَ بابن ذي النُّون بطُلَيْطُلة، ثمَّ قام قائمٌ باسم أذفونْش بسمُّورةَ وضَبَطَها ووَجَّه إليه، فأتى إليها، واجتَمعت النّصارى بها عليه، وكان قد عايَنَ أمرَ طُلَيْطُلَةَ وعملِها، وتكشَّف عليها، فكان ذلك سببَ طمَعِه فيها إلى أنْ دخَلها على المسلمينَ ومَلكَها وأميرُها يومَئذٍ حفيدُ ابن ذي النُّون.

وفي هذه السنة: استعمل أبو الوليد بنُ جَهْور على قُرطُبَةَ ابنَ السقَّاء، فاستمرَّ نظَرُه إلى أن قَتَله ولدُه في رمضانَ سنةَ خمس وخمسينَ على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة إحدى وأربعين وأربع مئة: عزَلَ أبو الوليد بنُ جَهْور أميرُ قُرطبةَ يومَئذٍ القاضيَ ابنَ ذَكْوان، رحمه اللهُ تعالى.

نُبَذٌ من أخبارِ بني جَهْوَر أُمراء قُرطُبَة(١)

كان تقديمُ أهل قُرطبةَ لأبي الوليد محمَّد بن جَهْوَر وبيعتُهم له فيها بعدَ وفاة أبيه كما تقدَّم ذكرُ ذلك في سنة خمس وثلاثين، وسمَّوه الرّشيد، فلم يقُمْ بالأمر بمثل ما قام به أبوه، بل قدَّم ولَدَه عبدَ الملك على الناس وأخَذ عليهم العهدَ والبَيْعةَ لابنِه المذكور، فكان ابنُه قد اعتَدى وصَحِبَ الأرْذالَ واستباح أموالَ المسلمين وسلَّط عليهم أهلَ الفساد وأهملَ الأمورَ الشرعيَّةَ وأخاف الطُّرقَ، وشَرعَ في المعاصي والفسوق، وأظهرَ الـخَنَا،

---

(١) الذخيرة لابن بسام ١/ ٤٦١. أما أبو الوليد محمد بن جهور فترجمته في بغية الملتمس (٧٦)، وصلة ابن بشكوال (١١٩٥)، وكامل ابن الأثير ٩/ ٢٥٨، والمغرب ١/ ٥٦، وتاريخ الإسلام ١٠/ ١٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٤٠، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥٩.

فكثُر الدّعاءُ عليه من أهل قُرطبة، وكان هذا السَّفيهُ الغَوِيُّ قد تَعاظَم وتعاطى حتَّى سمَّى نفسَه ذا السِّيادتَيْن المنصورَ بالله الظافرَ بفضل الله، وخُطب له على الـمِنبر بذلك، ولم يكنْ أبوه ولا جَدُّه أطلقا في إمارتِهما اسمَ رياسة ولا انتقلا عن رسم الوِزارة ولا قَعدا بالمقصورة مُصلَّى الخلفاء، فتنكَّب هذا الغَوِيُّ ذلك كلَّه وخالَف فيه سَلَفَه، فسلَّط اللهُ عليه نِكايةَ ابنِ ذي النون له وتضييقَه عليه حتَّى ملَكَ حصنَ الـمُدوَّر وبعَثَ إليه بمحلَّاتِه فحاصَره بقُرطبة فاستغاثَ بابن عبَّاد، فكان من أمرِهم ما أذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

وقال ابنُ زَيْدون في بني جَهْوَر[1] [من البسيط]:

لـولا بنـو جَهْـورٍ مـا أشرقَـتْ بهـمُ ... غِيـدُ الـسّوالف في أجيادِهـا تَلَـعُ
قومٌ متى تحتفلْ في وصف سؤدُدِهمْ ... لا يأخُذ الوصفُ إلَّا بعضَ ما يـدَعُ
أبـو الوليـد قـدِ استَوفَى مناقبَهمْ ... فللتفـاريق منهـا فيـه مجتمـعُ
مهـذَّبٌ أخلـصَتْه أوّليّتُـهُ ... كالسّيف بالَغَ في إخلاصه الصَّنَعُ
إنَّ السّيوفَ إذا ما طـاب جوهرُهـا ... في أوَّل الطّبـع لم يَعْلَـقْ بهـا الطَّبَـعُ

قال ابنُ بسَّام[2]: كان ابنُ حيَّانَ بقُرطبةَ خاتمةَ المتكلِّمين، ونُخبةَ المحسنين، على ما تراه رَكِب من إثم، واحتَقَب من ظُلم، لكنّه سَلِم من لسانِه، أميرُ بلدِه وأكبرُ زمانِه، أبو الـحَزْم بن جَهْور وابنُه بعدَه أبو الوليد، فجرى لهما بأيمَن طَيْر ولم يُعرِّض لذكرهما إلا بخير، وقد أثبت من ذلك ما دلّ على الإحسان، وفى بشرط الديوان وقد تقدَّم في هذا وما تعرَّض من... بني جَهْوَر... فقال[3]: ووَلِي بعدَه ابنُه أبو الوليد محمَّدُ بن جَهْوَر بن محمَّد بن جَهْوَر من آل عُبيدة[4] غايةِ[5] بيوت الشّرف الأثيل بقُرطبةَ على مـمَرِّ الدّهر

---

(١) ينظر ديوانه ٣٦.
(٢) الذخيرة ١/ ٤٦١.
(٣) الذخيرة ١/ ٤٦٣.
(٤) في الذخيرة: «عبدة».
(٥) في الذخيرة: «نهاية».

تَناقلوا الرياسةَ إلى أنْ وَرِثها تِرْبُها، هذا الوليُّ(١) الفاضلُ أبو الوليد ولـمّا يعرِف البؤسَ يومًا، فأعانَهُ ذلك على الحسَب والمروءة، وأقرَّ لوقتِه الحكّام وذوي الـمَراتب على ما كانوا عليه أيّامَ أبيه.

ثمَّ اقتفَى أبو الوليد آثارَ أبيه في السياسة من ذَرْء الحدِّ بالشُّبهة ما وجَد إلى ذلك سبيلًا، والتأوُّل في تعطيل الإقادة بالحديد البتَّةَ لعدم الإمام المجتمَع عليه في الوقت، والتربُّص لإدبارِ الفتنة، فأصبح من العَجَب العُجاب يُكافئُ الناسَ في الأعمّ من المظالم والتسافُه بخلافِ ما كانوا عليه تحتَ الضّبط الشّديد من تجاوُز الحدِّ بأيدي جَبابرةِ أصحاب الشّرطة أيّامَ الجماعة، فلا تكادُ تسمعُ لِشرارِهم من معهود ذلك إلّا النادرةَ الفذَّة.

وفي سنة اثنتين وأربعينَ وأربع مئة: أوقَع ابنُ عبَّاد بابن الأفطس على جهة يابُرةَ، وكان سببُ تلك الحرب أنَّ ابنَ يحيى صاحبَ لَبْلَةَ يومئذٍ حليفَ ابن الأفطس وألَّ عبَّادًا للضرورة، فقابَحَه ابنُ الأفطس وخانَه فيما كان ائتمنَه عليه من مالِه الصامت عندَ حملِه إليه وديعةً أيّامَ تورُّطِه في حرب ابن عبّاد قبلُ، فانبتَّت بينَهما الصحبة، وضَربت عليه خيلُ ابن الأفطس فاستغاثَ عبّادًا، فبادر بنفسِه، فلم تشعُرْ تلك الخيلُ الأفطسيَّةُ حتَّى خَرج في وجهِها فكَسَرهم وحِيزَت رؤوسُهم وكانت نحوَ مئة وخمسينَ رأسًا، فقصَّ وأفنى حُماةَ رجالِه(٢).

ثمّ إنَّ عَبّادًا إثْرَ ذلك جمَعَ خيلَ حُلفائه وقوّدَ عليها ابنَه إسماعيلَ معَ وزيرةِ ابن سلّام، وخَرج إلى يابُرة، واستَدعى أيضًا ابنُ الأفطس حليفَه إسحاقَ بنَ عبد الله البِرْزاليَّ، فلحِقت به خيلُه عليها العزُّ ابنُه بعدَ أن جمَعَ ابنُ الأفطس بقايا جيشِه من كلِّ بلد، وبادَرَ إلى ابن عبَّاد بجَمْعِه المنخوب فالتقَى الفريقانِ من غير أُهبة ولا تعبِية، فانهزَمت خيلُ ابن الأفطس واستأصَلَهم القتلُ، وقُتل العزُّ بنُ إسحاق وحُزَّ رأسُه وبُعث به إلى إشبيليَةَ معَ رأسٍ لعمٍّ لابن الأفطس، وكان صاحبَ يابرة يُدعى عُبيدَ الله الخرَّاز، ولجأ ابنُ الأفطس في قطعة من خيلِه إلى يابُرة. وأقلُّ ما سمعتُ في مثل تلك الوقعة من ثلاثةِ آلاف إلى أزيَدَ،

---

(١) في الذخيرة: «الوالي».

(٢) الذخيرة ١/ ٢٩٨.

وجَزِع إسحاقُ بن عبد الله البِرْزاليُّ المصابُ ابنُه ولم يخضَعْ لضدِّه عبَّاد في طلب رأسِه، فإنَّ عبَّادًا أضافه إلى رأس جَدِّه محمَّد بن عبد الله الـمُختزَنِ عندَه[1].

ابتداءُ دولة بني الأفطس، وهم بنو مَسْلَمة[2]

كان جَدُّهم أبو محمَّد عبدُ الله بن محمَّد بن مَسْلمةَ المعروفُ بابن الأفطس أصلُه من فَحْص البَلُّوط[3]، من قوم لا يدَّعونَ نباهةً غيرَ أنَّ هذا الرجل عبدُ الله كان من أهل المعرفة التامَّة والدّهاء والسياسة، وكان بهذا الصُّقْع: بَطَلْيَوْس وشَنْتَرينَ والأُشْبونة وجميع الثّغر الـجَوْفيّ في أمدِ الجماعة، رجلٌ من عَبيد الـحَكَم الـمُستنصِر بالله يسمَّى سابُور، فلمّا وقَعت الفتنةُ وتفرَّقت الجماعة وانشقَّت عصا الأُمَّة انتزى سابورُ المذكور على ما كان بيدِه كما فعَلَ غيرُه من الثوَّار، وكان سابورُ غُفْلًا عَطِلًا من سائر أنواع المعارف، وكان هذا الرجلُ عبدُ الله بن محمَّد بن مَسْلمةَ يُدبِّرُ له أمرَه ويخدُمُ دولتَه خدمةَ سياسة إلى أن هلَكَ سابورُ وتَرك ولدَيْنِ لم يبلُغا الـحُلُم، فاشتمل هذا الوزيرُ ابنُ مَسْلمةَ على أمر سابور كلِّه واستأثر به على ولدَيْه، وحصَل على مُلك بلاد غرب الأندَلس، واستقام له أمرُه بعدَ اعتساف وظُلم إلى أن مضَى لسبيلِه، وكان مَهلِكُه لإحدى عشْرةَ ليلَةً بقيت لـجُمادى الأولى من سنة سبع وثلاثينَ وأربع مئة وأعقبَه ابنُه محمَّد.

دولةُ المظفَّرِ محمَّد بن عبد الله بن مَسْلَمةَ ابن الأفطس[4]

وَلِـي بعدَ أبيه واستَولى على ما كان بيده فاستقامت أمورُه، وكان شاعرًا أديبًا وعالمًا لبيبًا، وبطلًا شُجاعًا، وله التأليفُ الأكبرُ المسمَّى بالـمُظفَّريّ، أَلَّفه بخاصَّة نفسِه ولم يستعِنْ فيه بأحد من العلماء إلَّا بكاتبِه أبي عثمان سعيد بن خِيَرةَ، واحتوى هذا الكتابُ

---

(١) الذخيرة ١/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) المغرب ١/ ٣٦٤.

(٣) معجم البلدان ١/ ٤٩٢.

(٤) الذخيرة ٢/ ٤٧٨، والمعجب ١٢٧، والتكملة لابن الأبار ١/ ٥٨، والحلة السيراء ٢/ ٩٧ في ترجمة ولده، والمستملح للذهبي (٢٦)، وتاريخ الإسلام ١٠/ ١٢٢، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٩٤، والوافي ٣/ ٣٢٣.

على الأخبار والسِّيَر والآداب الـمُتخيَّرة والطُّرَف الـمُستملَحة والنُّكَت البديعة والغرائب الـمُلوكيَّة واللُّغات الغريبة، قيل: إنَّه اختصر فيه خزانته الفائقةَ لا يكاد يوجَدُ له نظير، يكونُ في نحو خمسينَ مجلَّدًا، فتصرَّف فيه تصرُّفًا بديعًا، ولكِبَرِه لا يتمكَّنُ كلُّ الناس منَ اكتسابِه، فإنَّه لا يَصلحُ إلَّا لخزائن الملوك.

وأقام هذا الرجلُ مُلكًا عظيمًا بهذا الثّغرِ الـجَوْفيّ ضاهَى فيه مُصاقبَيْه: ابنَ عبَّاد وابنَ ذي النُّون، وكانت بينَهم حروبٌ وغاراتٌ ومُهادَناتٌ وغيرُ ذلك من الأخبار تَركْنا ذكرَها للاختصارِ الذي شرَطْناه. وقد كان والدُه عبدُ الله الهالكُ الذي ذكرنا مخدومَه سابورَ غَلَب على ولدَيْه: عبد الملك وعبد العزيز واهتضَمهما فهَبَطا إلى مدينة الأشبُونة، وانتزَى فيها أحدُهما على ابن الأفطس ولم تطُلْ مدَّتُه إلى أنْ هلَكَ وقام أخوه بمُلكِ الأشبُونة مكانَه، ولم يكنْ يَصلُح للمُلكِ لضعف نفسِه وقلَّة قيامِه بالأمور، فكتَبَ أهلُ الأشبُونة إلى عبد الله بن مَسْلمةَ في السرِّ أنْ يُرسلَ إليهم واليًا من عنده يكونُ أميرًا عليهم، فوجَّه إليهم بولده، ولم يشعُرْ عبدُ الملك بن سابورَ حتَّى امتلأ البلدُ من العسكريَّة، فلم يكنْ له بدٌّ من طلبِ السلامة لنفسِه وأهلِه ومالِه، فأُعطي ما سَأل وسَلِم على ما شَرَطَه، وكان هذا الداخلُ زوجَ أُخته، فأجمَلَ معَه إجمالًا كثيرًا، وخَرَّج هذا الفتى عبدَ الملك بنَ سابورَ من مدينة الأشبُونة وترَكَه يسيرُ حيث شاء، فاختار القصْدَ إلى مدينة قُرطُبة، فلمّا قَرُب منها استَأْذن الوزيرَ ابنَ جَهْوَر في الدخول، فأذِنَ له في ذلك، فدخَل قُرطبةَ ونزَلَ بدار أبيه سابور، فكانت قُرطبةُ مستقرَّة إلى آخرِ عُمُره.

ولم يزَلْ أمرُ العدوِّ يقوَى ويظهَرُ على ملوك ثغور الأندَلس إلى أن خَرج الطاغيةُ فرذلند بن شانْجُه ملِكُ الـجَلالقة بأرض الأندَلس بجيوشِه النّصرانيَّة إلى ثغرِ المسلمين بأرض الـجَوْفِ قاصدًا، وضمَّ محمَّدَ بنَ مَسْلمةَ بن الأفطس لـمّا منَعَه الإتاوةَ من بين جميع أُمراء الثغور، فعاث في بلاد المسلمينَ وفتح حصُونًا كثيرةً، وكانت خيلُه تزيدُ على عشَرة آلاف فارس معَهم من الرجال أكثرُ من مثلَيْهم، واتَّصل خلالَ ذلك بالأمير ابن الأفطس أنَّ عدوَّ الله جرَّد من خيلِه سريَّةً ثقيلة أمَرَهم بقَصْد مدينة شَنْتَرين، إذ كانت مدينةُ شَنْتَرينَ أفضلَ ذلك الثغر، فقضَى اللهُ أنْ لحِقَ بشَنْتَرينَ أميرُهم الـمُظفَّر بن الأفطس

قبلَ أن يأتيَهم عدوُّ الله، وقد كان خامَرَهم الـجَزَعُ فقالوا لأميرهم: لقد هممنا أن نستسلمَ للعدوّ، ولو لم تأتِنا لضعُفْنا عن دفاعِه.

وقصَدَ هذا القُومِسُ لعنَه الله إلى شَنْتَرين للوِجهة التي وَجَّهه لها أميرُه فرذلند أميرُ الـجَلالقة، فأرسَل ابنُ الأفطس إليه ليجتمعَ معَه فيُكلِّمَه في أمرِه، فالتقيا في الماء بنهر شَنْتَرين: ابنُ الأفطس في زَوْرق والعِلجُ راكبٌ فرسَه في الماء إلى صدرِ فرسِه، وتكلَّما طويلًا فيما عرَضَه من السِّلم والإتاوة فامتنع المظفَّرُ من ذلك إلى أن وافَقَه بعدَ جُهد ومشقة على خمسةِ آلاف دينار يؤدِّيها إليه في كلِّ عام من أوَّل هذه الهدنة.

ولم يزَلْ عدوُّ الله فرذلند يَقْوَى والمسلمونَ يضعُفون بغُرم الجِزية للنّصارى إلى أنْ نزَلَ اللّعينُ على مدينة قامريَّة[1]، وكان الذي فتَحها المنصورُ ابن أبي عامر سنةَ خمس وسبعينَ وثلاث مئة، فحاصرَها الآنَ اللّعينُ فرذلند حتَّى فتحها، وذلك أنَّ قائدَها في هذا الوقت كان عبدًا من عبيدِ ابن الأفطس يسمَّى رانْدُه، فخاطَبَ فرذلندَ في السرّ أن يؤمِّنه في نفسِه وأهلِه ويَخرُجَ إليه من البلد ليلًا، فأعطاه اللّعينُ الأمان، فخرَج اللّعينُ سرًّا إلى عسكر النّصارى، وأصبح أهلُ البلد وقد أخَذوا أُهْبَةَ القتال، فقال لهم النصارى: كيف تقاتلونَنا وأميرُكم عندَنا؟ ولم يكنْ لأهل المدينة عِلمٌ بذلك، فلمَّا لم يجدوه وعَلِموا صحَّةَ خبرِه طلَبوا من العِلج الأمانَ فلم يُجِبْهم إليه، ونَفِدَت أقْواتُهم، وعَلِم عدوُّ الله ذلك منهم، فجدَّ في حربِهم حتَّى دخَلها عَنْوة، فقُتل الرجُل وسُبِي الحريمُ والذُّرّيَّة، وذلك في سنة ستٍّ وخمسينَ وأربع مئة، وانصَرف رانْدُه غلامُ ابن الأفطس إلى مَوْلاه فوبَّخه على فعله الذّميم ثمَّ أمَرَ بضربِ عُنقِه، فكانت مدَّةُ بقاء هذه المدينة للمسلمينَ بضعًا وسبعينَ سنة.

ولم يزَلْ ثَغْرُ الأندَلس يضعُفُ والعدوُّ يقوَى والفتنةُ بينَ أمراء الأندَلس قبَّحهم الله تستعِرُ إلى أن كلبَ العدوُّ على جميعهم وملَّ من أخذِ الجِزية ولم يقنَعْ إلَّا بأخْذِ البلاد وانتزاعِها عن أيدي المسلمين.

---

(١) معجم البلدان ٤/ ٣٩١، والروض المعطار ٤٧١.

وهلَكَ هذا اللّعينُ فرذلند سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وأربع مئة، ووَلِي بعدَه أذفونْش ولدُه، فجرت له معَ ابن عبَّاد خطوبٌ عظيمة اضطرَّتْه للجَواز إلى أمير المسلمينَ يوسُفَ بن تاشْفين فجاز إليه وهزَم اللّعين وارتفَعت الجِزيةُ وأصلح اللهُ الجزيرةَ على يدَيْه رحمه الله.

وفي هذه السنة: مات عبدُ العزيز بن أبي عامر الملقَّبُ بالمنصور صاحبُ بَلَنْسِيَة ومُرْسِيَة وشاطِبة وجزيرةِ شُقر وأعمالِـهم، وضعُف أمرُ ولدِه المظفَّرِ ببَلَنْسِية، فملَكَ ابنُ طاهر مُرْسِية، واستبدَّ بها إلى أن مات فوَرِثَ مُلكَه بها ابنُه محمَّد بن طاهر.

رَجْعُ الخبر إلى نسق السِّنين.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعينَ وأربع مئة: توفِّي صاحبُ المرِيَّة مَعْنُ بن صُمادِح بقصَبتِها، وقد تقدَّمت أخبارُه وأخبارُ ولدِه وبَدْءُ أمرِهم إلى انقضاء مدَّتِهم.

بعضُ أخبارِ البكريّيَن من أُمراء غَرْبِ الأندَلس[1]

قال حيَّانُ بن خَلَف[2]: لـمّا تولّى الوزيرُ ابن جَهْوَر الإصلاحَ بين ابن الأفطس والمعتضِد بن عبَّاد بعدَ امتداد شأوِهما في الفتنة وسنى اللهُ السِّلَم بينَهما في ربيع الأوَّل من سنة ثلاثٍ وأربعين، اعتَدى المعتضِدُ بعدَ ذلك على جارَيْه: ابن يحيى أميرِ لَبْلة وأبي زيد البَكْريّ أمير شَلْطيش[3] ووَلْبة[4] فأخرَجهما عن سُلطانِهما الموروث لهما، وحصَل له عملُهما بلا كبيرِ مُؤْنة، وضمَّه إلى سائر عملِه العريض، فازداد بذلك سُلطانًا وقوَّةً، وذلك أنَّه لـمّا خَلّى وجهَه من المظفَّر بن الأفطس فَرَغَ لابن يحيى بلَبْلةَ وصمَّم في قَصْدِه بنفسِه، فنزَلَ ابنُ يحيى له وخرَج عن البلد وانزَعج إلى قُرطُبة ووَرَدَها مسلوبَ الإمارة لائذًا بكنَفِ ابن جَهْوَر سادِّ الـخُلَّة ومُؤْوي الطّريد، وكان من الغريب النادِر أنْ شارَكه الـمُعتضِد بقطعة من خيله أوصلَتْه إلى مَأْمنِه بقُرطُبة.

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٢/ ١٨٣ فما بعدها.

(٢) النص في الذخيرة.

(٣) معجم البلدان ٣/ ٣٥٩، والروض المعطار ٣٤٣.

(٤) نزهة المشتاق ٢/ ٥٤١.

ثمَّ مدَّ يدَه بعدُ إلى البكريِّ بوَلْبَة وشَلْطيش، وكان هذا الفتى أبو زيد البكريُّ وارثَ ذلك العمل لأبيه، وكان أبوه من بيت السّروِّ والحسَبِ والجاه والنِّعمة والاتّصال القديم بسُلطان الجماعة، وكان له ولسَلَفِه قبلَ إسماعيلَ بن عبَّاد جَدِّ المعتضِد وسائلُ وأذمَّةٌ خلفا ما في الأعقاب اغترَّ بها عبدُ العزيز البكريُّ، فبادر بالبعثة إلى المعتضِد عندَ دخوله لَبْلَةَ يُهنِّئُه بما تهيَّأَ له منها وذكّره بالذِّمام الموصول بينَهما واعتَرف بطاعته وعرَضَ عليه التخلّيَ عن وَلْبة وإقرارَه بشَلْطيشَ إن شاء، فوقَعَ له ذلك من المعتضِد موقعَ إرادة، ووَرَدَ له الأمرُ فيما يعزمُ عليه، وأظهَرَ الرغبةَ في لقائه، وخرَج نحوَه يبغي ذلك، فلم يطمئنّ عبدُ العزيز إلى لقائه وتحمَّل بسُفنِه بجميعِ مالِه إلى جزيرةِ شَلْطيش، وتخلَّى للمُعتضِد عبَّاد عن وَلْبة فحازَها حوزَهُ للبْلة وبَسَطَ الأمانَ لأهلها، واستعمل عليها ثقةً من رجاله، ورسَم له القَطْعَ بالبكريّ ومَنَعَ الناسَ طُرًّا من الدخول إليه، فترَكَه محصورًا في وَسَط الماء إلى أن ألقَى بيدِه من قُرب ولم يغرُبْ عنه الحزم، فسأل المعتضدَ أن ينطلقَ انطلاقَ صاحبِه ابن يحيى إلى مأمَنِه، فكان ذلك، ولحِقَ بقُرطبةَ فبوشرَ منه رجلًا سَرِيًّا عاقلًا عفيفًا أديبًا يفُوتُ صاحبَه ابنَ يحيى جلالًا وخصالًا إلى زيادة عليه ببيت السروِّ والشّرف وبابن له من الفتيان بَذَّ الأقرانَ جمالًا وبهاءً وسُرْورًا وأدبًا ومعرفةً يُكْنَى أبا عُبَيد.

وتحدَّث الناسُ من حَزْم عبد العزيز يومئذٍ أنَّه لـمّا احتَلَّ بشَلْطيشَ علِم أنّه لا يقاومُ عبَّادًا، فأخَذ بالحزم وتخلَّى له عنها بشروطٍ وَفَى له بها فباع منه سفُنَه وأثقالَه بعشَرة آلاف مثقال، واحتلَّ قُرطبةَ في كنَف ابن جَهْوَر المأمون على الأموال والأنفس، وصَفَتْ لعبَّاد تلك البلادُ لو أنَّ شيئًا يدومُ صفاؤه.

وفي سنة أربع وأربعينَ وأربع مئة: كانت الـمُهادنةُ بين المعتضِد عبَّاد والـمُظفَّر ابن الأفطس.

وفيها: حجَّ يحيى بنُ إبراهيمَ أميرُ جدالة، واجتَمع في منصرَفِه من حجِّه معَ الفقيه أبي عمرانَ الفاسيّ، فدلَّه على عبد الله بن ياسين الداعي بدعوة الـمُرابطينَ حسبَما أذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ عزَّ وجلَّ مبيَّنًا.

وفي سنة خمس وأربعينَ وأربع مئة: كان افتتاحُ أُمراء اللَّمْتُونيّينَ في صحرائهم لـمّا وصَل يحيى بنُ إبراهيم الجداليُّ إليهم على ما يأتي ذكرُه.

وفي سنة ستٍّ وأربعينَ وأربع مئة: نظَر المعتضدُ عبَّادٌ في حُسن الجزيرة الخضراء وأميرُها القاسم بنُ محمَّد العَلَويُّ، فضيَّق عليه إلى أنْ نزَلَ عن بلده بأمان على نفسِه وخرج، فكان الذي حصَرَها له قائدُه عبدُ الله بن سلَّام، فأعدَّ عبدُ الله للقاسم مركَبًا يسيرُ فيه حيث شاء، وكان أميرَ سَبْتَةَ يومَئذٍ سوَّاجَّاتُ البرغوطيُّ، وكان القاسمُ هذا استَنْصَره فلم يَنصُرْه، فنكَب عن سَبْتَةَ إلى المرِيَّة وبقي بها إلى أن توفِّي، واحتَوى قائدُ ابن عبَّاد على الخضراء، ثمَّ خرَج منها بالعسكر تَهْفو بهم ريحُ النّصر وقد قَدَّروا ألَّا غالبَ لهم فلقُوا جماعةً من قبائل بني يرنيَّان، فوقَعت بينَهم حربٌ انهزَم لها خيلُ ابن عبَّاد وقُتل قائدُهم عبد الله بنُ سلَّام وانصَرف الجيشُ لابن عبَّاد مهزومًا.

وفي سنة سبع وأربعينَ وأربع مئة: ظهرَ أمرُ اللَّمْتونيّين، وهم الـمُسَمَّونَ بالـمُرابِطين، وخَرجوا من الصّحراء إلى سِجِلْماسةَ وأميرُها مسعودُ بن وانودين المغراويُّ، فخاطَبوهُ وأهلَها فلم يُجيبوهم فغزَوْهم وقَتلوا كثيرًا منهم ومَلَكوا سِجِلْماسةَ على ما يأتي في دولتهم[١].

وفي سنة ثمانٍ وأربعينَ وأربع مئة: حارب يوسُفُ بن تاشْفينَ في الغَرْب ملوكَ زَناتة والـمَصامدة، وكانت قبائلُ بني يَفْرَن أقوى قبائل الغَرْب وأكثَرهم وأشدَّهم بأسًا، وبلادُهم من آخِر هَسْكُورةَ إلى قُرب تِلِمْسان، فجرت لهم معَهم وقائعُ وحروبٌ يطولُ ذكرُها، وكان يوسُف من تقديم عمِّه أبي بكر بن عُمر.

وفيها: كان دخولُ العرب بلادَ إفريقيَّةَ وغَلَبتُهم على أكثرِها.

قال أبو محمَّد بنُ حزم[٢]: واجتمع عندَنا في صُقْع الأندَلس أربعةُ خُلفاء، كلُّ واحد منهم يخطَبُ له بالخلافة بالموضع الذي هو فيه، وذلك فضيحةٌ لم يُرَ مثلُها دَلَّت على الإدبار المؤبَّد، أربعةُ خُلفاءَ في مسافة ثلاثة أيَّام في مثلِها كلُّهم يُدعى بأمير المؤمنين وهم: خَلَفٌ الـحُصْريُّ بإشبيلية على أنَّه هشامٌ المؤيَّد وذلك أُخلوقةٌ لم يُسمَعْ بمثلها،

---

(١) المسالك والممالك للبكري ٢/ ٨٦١، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٣.

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٤٧ نقلًا عن ابن حزم في كتابه «نقط العروس».

ظهَرَ رجلٌ... بعدَ اثنين وعشرينَ عامًا من موت هشام فادَّعى أنَّه هشام، وشَهِد له أنَّه هو قومٌ خِسَاسٌ من خِصيانٍ ونساء فبويعَ وخُطبَ له على أكثرِ منابر الأندَلس وسُفِكت الدّماءُ به وتصادَمت الجيوشُ في أمرِه، وكانَ محمَّدُ بن القاسم الحَسَنيُّ خليفةً بالجزيرة، ومحمَّدُ بن إدريسَ بمالَقة، وإدريسُ بن يحيى بِبُبَشْتُر.

وفي سنة تسع وأربعينَ وأربع مئة: قَتَل عبَّادٌ المعتضِدُ بالله ابنَه إسماعيل، وكان خليفتَه المرشَّحَ لمكانه، بعدَ أن كان همَّ بغَدْرِه، فأخذه أبوه وثقَّفه في قصرِه، فذهبَ إلى التدبير عليه ثانيةً من مكان اعتقاله، فقال ابنُ عبَّاد: «لا يُلدَغُ المؤمنُ من جُحْر مرَّتَيْن»، فقتَلَه بيده وقَتل الوزيرَ الذي واطأه على ذلك، وأهلَكَ جميعَ خاصَّتِه وعبيدِه وتجاوَزَ الحدَّ في العقوبة، ثمَّ استدعى ولَدَه محمَّدًا من مدينة شِلْب، وكان واليًا عليها، فنصَّبه لحجابتِه مكانَ ابنِه الهالك، فلمَّا انقضَى قَتْلُه كتَبَ بذلك كتابًا إلى رؤساء الأندَلس، فمِن ذلك فصولٌ من كتابٍ كتبَه إلى المقتدِر بالله أحمدَ بن سُليمان بن هُود أنشأه ابنُ عبد البرّ رحمه اللهُ ارتجالًا بين يدَي المعتضِد بمحضَر الجلساء من الرؤساء والكُتَّاب وغيرِهم.

قال ابنُ بسَّام(١)، رحمه الله: أخبَرَني مَن لا أرُدُّ خبرَه من وُزراء إشبيلِيَةَ قالوا: إنَّهم دخَلوا على المعتضِد بعدَ ثلاثةٍ من قتلِه لابنِه، فرأوْا وجهَه قد اربَدّ، ووَدَّ كلُّ واحد أنَّه لم يَشهَدْ، فلم يقدِروا على بَدئه بالسلام، وأُرْتِجَ عليهم الكلام، فصوَّبَ فيهم وصعَّد، وزأرَ كالأسد، وقال: يا شامتين، ما لي أراكم ساكتين؟ اخرُجوا عنّي، فلمَّا صاروا بالباب أمَرَ برجوعِهم إليه، ثمَّ أمرَ بإحضار الكاتب ابن عبد البرّ فدخَل، والمجلسُ قد احتفل، فقال له: اكتُبْ إلى ابن أبي عامر، وحلِّل دمَ الخائن الغادر، فجاءه الغلامُ بالدَّواةِ والكاغد وشَرع في الكَتْب في المجلس، فقال الحاضرون في أنفسِهم: ما عسى أن يتَّجهَ لابن عبد البِّر من كلام على هذه الحال، لا سيَّما على الارتجال؟ فجعل يستمدُّ ويكتب، وعينُ المعتضِد فيه تُصعِّدُ وتُصوِّب، فلمَّا فَرَغَ منه قرأه عليه إلى آخرِه، فخرَج الناسُ عنه معتمِدينَ أنَّ ابنَ عبد البرّ آيةٌ من آيات فاطِره.

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٠٦ فما بعدها.

يقول في فصل منه[1]: وذلك، أيّدك الله، أنَّ الغَوِيَّ اللّعينَ العاقَّ الشاقَّ[2] إسماعيلَ ابني بالوِلاد لا بالوِداد، ونَجْلي بالمكاسب لا بالمذاهب، كنتُ قد مِلْتُ بهوايَ إليه وقدَّمتُه على مَن هو أسنُّ منه، وحبُّك الشيء يُعمي ويُصِمّ، والهوى يطمِسُ عينَ الرّائي[3] إذ[4] يُلمّ، فآثرتُه بأرفع الأسماء والأحوال، وخصَّصتُه بما بيدي من القواعدِ والأعمال[5]، ووسَّعتُ عليه في خَطيرات الذّخائر والأموال، وأخضَعتُ له رِقابَ أكابر الـجُند ووجوهِ الرجال[6]، وما كنتُ خصَّصتُه بالإيثار، واستعملتُه في المكافحة والغوار، إلَّا لجَزالةٍ كنتُ أتوسَّمُها فيه كانت عيني بها قريرة، وشهامة كنتُ أتوهَّمُها له[7] كانت نَفْسي بها مسرورة، فإذا الـجَزالةُ جهالة، والشّهامةُ شِرَّةٌ وكَهامة، وقد يُفتَنُ الآباءُ بالأبناء، وينطوي عليهم[8] ما ينطوونَ عليه من الأسواء، معَ أنَّ الآراءَ قد تنشأُ وتحدُث، والنفوسُ قد تَطيبُ وتخبُث[9]، لقرينٍ يُصْلِحُ أو يُفْسِد، وخَليط يُغْوي أو يُرشد، ومن اتَّخذ الغاويَ خَدينًا، عاد غاويًا ظَنينًا، ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء: ٣٨].

ولـمَّا[10] وثَبَ هذا اللّعينُ من المهد، إلى سرير الـمَجْد[11]، ودرَجَ من الأذرع إلى المحلِّ الأرفع، استغنى وأثرى، وتَـمَلَّى من النِّعم الكبرى[12]، فأشَرَه ذلك وأبطَرَه،

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٠٧.

(٢) في الذخيرة: «المشاق».

(٣) في الذخيرة: «الرأي».

(٤) في الذخيرة: «أو».

(٥) قوله: «وخصصته بما بيدي من القواعد والأعمال» ليس في الذخيرة.

(٦) بعد هذا في الذخيرة قدر سطرين تركهما المؤلف.

(٧) في الذخيرة: «منه».

(٨) في الذخيرة: «عنهم».

(٩) في الذخيرة: «ثم تخبث».

(١٠) لو قال: «ومنها» لكان أحسن لأنه ترك جملةً منها وقفز إلى هذا الموضع.

(١١) في م: «الجد»، وما أثبتناه من الذخيرة وهو الأولى.

(١٢) قوله: «وتملى من النعم الكبرى» ليس في الذخيرة.

وأطغاه وأكفَره، وطلَبَ الازدياد، وأحبَّ الانفرادَ والاستبداد، وقُيِّضَ له قُرناءُ سُوء أعْدَوْه وأرْدَوْه، وأُتيحَ له جلساءُ مكرٍ أغرَوْهُ وأغْوَوْه، وأشعروه الاستيحاشَ والنِّفار، وزيَّنوا له العقوقَ والفِرار، لينفردوا معَه في بلد، ولا تكونَ عليهم يدُ أحد، فخرَج ليلًا بأهلِه ووَلَدِه خروجًا شنيعًا فتَقَ به قَصْري، وخَرقَ حجابَ سَتري، يؤمُّ الجزيرةَ الخضراءَ وما يليها، ليتمكَّنَ منها ويَعيثَ فيها، وكنتُ غائبًا على مقرُبة، فأرسلتُ في الحين إلى تلك الجهة من يصُدُّه عنها، ويمنَعُه عمّا أراد منها، فسبقَه الخبر، وفاتَه نَيْلُ الوطَر، وأوى إلى قلعة القائد أبي أيُّوب، فوجَّهْتُ إلى اللّعين أعرِضُ عليه قَبولَ غَدْرِه، وسرَّبتُ الخيلَ معَ ذلك للإحاطة به وحَصْرِه، حتَّى ألجأهُ ذلك من[1] التنصُّل والاعتذار، وأجاءه إلى الاستغاثة والاستغفار، فأقْلتُه[2] وعفَوْتُ عنه، وأغفَوْت[3] عمَّا كان منه، وصرفْتُه إلى جميع حالِه، ورَدَدْتُّ عليه جميعَ مالِه[4]، ولم أؤدِّبْه إلَّا بالإعراضِ والـهِجْران، وإن كنتُ قد أنَّستُه معَ ذلك بمزيد الإنعام والإحسان، فإذا به كالحيَّة لا تُغني مُدارتُها، والعقربِ لا تُسالمُ شباتُـها، وكأنَّه قد استَصغَر ما جَنى، واستَحقَر ما ألـمَّ به واقتنَى، فزَرى وَسَرى[5]، ما صارت به الصُّغرى، التي كانت الكبرى، فلم أشعرْ به إلَّا وقد ألَّف أوباشًا[6] وسَقاهم الخمر، ليستوليَ معَهم بزَعْمِه على الأمر، وطَرَقَ القصرَ ليلًا في بضعةَ عشَرَ منهم، فشعرت[7] بالحركة وخرجتُ إليهم، فلمّا وقعَتْ عليَّ أعينُهم تَساقَطوا هاربين، وتَطارَحوا خائفينَ خائبين، فالتقطتُّهم لَقْطَ حَبِّ السِّمسم وقتلتُهم، وعجَّل اللهُ حَيْنَهم وحتفَهم، وإنَّما كان رجاؤهم أن يجدوني في غَمْرةِ الكَرى، وعلى غَفْلةٍ من أن أسمعَ وأرى، ففالت بحمد الله أراجِيهم، وضلَّت أعمالُهم ومساعِيهم، وأعقبَتْهم عواقبَ كفرِهم وتعدِّيهم.

---

(١) في الذخيرة: «إلى».

(٢) في الذخيرة: «فأقبله» وهو تحريف.

(٣) في الذخيرة: «وأغضيتُ».

(٤) في الذخيرة: «وصرفته إلى جميع حاله وماله»، وما هنا أتم وأحسن.

(٥) في الذخيرة: «فردى وسَدّى».

(٦) ترك المؤلف بعد هذا قدر سطرين من النص تصرفًا منه.

(٧) قبل هذا كلام مختلف عند ابن بسام في الذخيرة.

ومنها: فاعتبر في ورودِ الـمَساءة من طريق المسرَّة، وطلوع المحنة من أُفُق المنحة، وانعكاس[1] بعض الهبات[2] خبالًا، والأعطيات وبَالًا. وقد استجلَبْتُ ابني محمَّدًا ملتزمَ شُكرِك، ومعظِّمَ قَدْرِك، لأُقعِدَه مقعدَه، وأسُدَّ به مسدَّه، والله َأسألُه الـخِيرَة.

قال ابنُ بسَّام[3]: وخاطَبَ المعتضِدَ يومًا جماعةٌ من خُلفائه وقصَّ عليهم نبأه معَ ابنِه، فكلًّا جاوَبَه على ذلك.

وفي سنة خمسينَ وأربع مئة: تَواتَر الإرجافُ بقُرطبةَ أنَّ عبَّادًا المعتضِدَ حاول النّزولَ بزَهرائها الـمُعطَّلة التي منها أبدًا كان يصابُ مقتَلُها، وسبَقَ الخبرُ أنَّه قد أنهَض نحوَها ابنَه إسماعيل وهو كالنار في أحجارِها مُستكِنّة، ولا يُشَكُّ أنَّه أُرسِل منه على قُرطبةَ شُوَاظَ نار ولا يَذَرُ منها باقية، فنفَّس اللهُ مُخَنَّقَ أهلِها بما نقَضَ تدبيرَه وثنَى عَزْمَه فأقْصَرَ صاغرًا، وكان من قُدرةِ الله أنْ كرِهَ هذا الفتى ما حَمَّله أبوه من ذلك، وهاجَ منه حقودًا كانت له بنفسِه كامنةٌ جَسَّرتْه على معصية أبيه، وانصرَف من طريقِه إذ صَعُب عليه أمرُ الهجوم على مثل قُرطبةَ معَ قُرب حليفِهم باديسَ بن حَبُّوس الذي لا يُشَكُّ في إسراعِه إليهم، فعرَضَ ذلك على أبيه فاستَجْبَنَه وأغْلظَ وعيدَه، فدبَّر الفِرارَ عنه، فكان منه إليهم من تقدَّم ذكرُه من قتلِه، طمسُ أثرِ وَلَدِه وقَطْعُ دابِره، فكأنه قطُّ لم يكنْ أميرًا ولا أنفَذ حكمًا ولا قاد جيشًا، وقد ذكَر جماعةٌ من المؤرِّخينَ أنَّ مقتَلَ إسماعيلَ كان سنة تسع وأربعينَ، وقال ابنُ حيَّان: إنَّه في سنة خمسينَ، فاللهُ أعلم.

وفي سنة إحدى وخمسينَ وأربع مئة: قَطَعَ المعتضِدُ عبَّادٌ الدعوةَ الهشاميَّةَ وأظهرَ موتَ هشام بزَعْمِه[4].

قال الورَّاقُ في «مِقْباسِه»، وابنُ القطَّان في كتابه «نَظْم الـجُمان»، وابنُ حيَّانَ، وغيرُهم من المؤرِّخين: صارت هذه الـمِيتةُ لحامل هذا الاسم الـمِيتةَ الثالثة، وعساها

(١) ما بين الحاصرتين مطموس في الأصل استفدناه من الذخيرة.

(٢) في م: «أهبات»، ولا معنى لها.

(٣) الذخيرة ٣/ ١١٤.

(٤) ذكر المراكشي هذا الخبر في سنة ٤٥٥ (المعجب ١٥٢).

تكونُ إن شاء اللهُ الصادقة، وكم قُتل وكم مات ثمَّ انتفَضَ عنه التراب، قال بعضُهم فيه [من الرجز]:

ذا الـــذي مـــات مِـــرارًا ودُفِـــنْ فـــانتفَضَ الـــتُّربُ ومُـــزِّق الكفَـــنْ

فقد مات في يد أوّل خالعيه، وهو: محمَّدُ بن هشام بن عبد الجبّار، ودُفنَ علانيَةً، ثمَّ نُشِر بيد واضح الفتى مولى محمَّد بن أبي عامر ومَلَكَ مُدَّة، ثُمَّ مات مرَّةً ثانيةً بيد خالعِه الثاني سُليمانَ بن حَكَم صاحب البرابرة ودفَنَه خُفْية، ثمَّ أبرَزَ صداهُ عليُّ بنُ حمُّود الـحَسَنيُّ الـمُنتَزي بذكرِه الطالبُ بثأرِه على الدّولة، ودفَنَه الدَّفنةَ التي خِلناها حقيقةً إلى أن وقعَتْ عليه هذه الـمِيتةُ الثالثة، وقد كانت هذه المدَّةُ التي عكفت عليه آخرًا خمسًا وعشرينَ سنةً ذاكرةً له وداعيةً بمدينة إشبيلِيَة من وقتِ أنْ سِيقَ من القرية التي وُجد فيها يفتُلُ الـحَلْفاءَ سنةَ ستٍّ وعشرينَ وأربع مئة.

وفي سنة اثنتين وخمسينَ وأربع مئة: خرَجَ الفتى نبيلٌ من طَرْطُوشة، وكان قد تولَّاها بعدَ صاحبِها الفتى مُقاتِل سَيْفِ الملك فأصاب نبيلًا فيها فتنةٌ فخرَجَ عنها وأسلَمَها للمقتدِر بن هُود.

وفي سنة ثلاث وخمسينَ وأربع مئة: هجَمَ سوَّاجَّاتُ البرغُواطيُّ على رِزق الله مستخلَفِ الحمُّوديِّينَ معَه على سَبْتَةَ فقتَلَه، وتسمَّى بالمنصور واستبدَّ بالأمرِ بعدَه، وهو والدُ الحاجب، واسمُ الحاجب: العزُّ بن سوَّاجَّات، ويقالُ له أيضًا: سَقُّوت، وعلى العزّ بن سقوتَ دخَلها الـمُرابِطون، وكان سوَّاجَّاتُ مولًى ليحيى بن عليّ بن حَمُّود، اشتراه من رجل حدَّاد من سَبْي بَرْغُواطةَ وهُو دونَ البُلوغ، فحظِيَ عندَه، فلمَّا سار يحيى إلى الأندَلُس وخلَّف سوَّاجَّات مَوْلاه بسَبْتة وجعَلَ معَه ناصرًا عليه مَوْلاه رزق الله، فكان منه معه ما تقدم قتلُه، واستبدّ بملك سبتةَ ثائرًا دون مولاه، وأورَثَها ابنَه الحاجبَ بعدَه.

وذُكِر عن أبي الوليد بن جَهْوَر صاحبِ قُرطُبَةَ أنّه قال: وردَتْ عليَّ من الكتُب في يوم واحد كتابٌ من ابنَ صُمادِح صاحب المرِيَّة يطلُبُ جاريةً عوَّادة، وكتابٌ من ابن عبَّاد يطلُبُ جاريةً زامِرة، وكتابٌ من سوَّاجَّاتَ صاحبِ سَبْتَةَ يطلُبُ قارئًا يقرأُ القرآن، فوجَّه

إليه من طلبة قُرطُبَةَ رجلًا يُعرَف بعَوْن الله بن نُوح، وعجِبَ أبو الوليد من ذلك وقال: جاهلٌ يطلُبُ قارئًا وعلماءُ يطلُبونَ الأباطيل!

وفي سنة أربع وخمسينَ وأربع مئة: كان مهلِكُ ابن السقَّاء بقُرطُبة مُدبِّرالدولة الـجَهْوَرِيَّة، وقيل: بل كان ذلك في سنة خمسٍ بعدَه.

وفي سنة خمس وخمسينَ وأربع مئة؛ قال ابنُ القطَّان: في هذه السنة كان مهلِكُ ابن السقَّاء إبراهيم، وكان أبو الوليد بن جَهْوَر قدَّمه على أمورِه كلِّها فضَبَطَها أحسنَ ضَبْط وساسَها أحسنَ سياسة، فغُصَّ به عبَّادٌ صاحبُ إشبيلِيَةَ وضَعُفَ طمعُه - بسببِه - في قُرطُبة، فحرَّض عليه عبدَ الملك بنَ أبي الوليد بن جَهْوَر وأغراهُ بقتلِه لينفردَ بالحال مكانَه، وكان عبدُ الملك ضعيفَ العقل سيِّئ الرأي، فعَلِم ابنُ عبَّاد أنَّه إن قُتل ابنُ السقَّاء واستولى عبدُ الملك كانت قُرطُبةُ في يدِه، فسعَى عليه عند عبد الملك وحرَّضه على قتلِه، فضمَّ عبدُ الملك رجالَه وأدخَلَهم في بعض الغرف من دار أبيه وأعطاهم السّلاحَ، وأخَذ هو سِكّينًا بيدِه وبقي ينتظرُ ابنَ السقَّاء؛ لأنَّه كان يأتي أباه في كلِّ يوم ويُفاوضُه بالأمور، فلمَّا صار في بعض الفُصْلان استقبله المذكور وضربه بالسِّكّين وصاح بالرَّجّالة فخَرجوا مُسرعينَ فقطَعوا رأسَه وجُعل في رُمح وخُرج به إلى الأسواق، ففرَّ كلُّ من كان من حاشيتِه وقُتل مَن وُجد منهم، ودخَل الناسُ إلى ابن جَهْوَر يُهنُّونَه وقد كان له علمٌ عندَه، ونَسَبَ إلى المقتول أنَّه كان يريدُ القيامَ عليهم والغدرَ بهم، ورَأَسَ عبدُ الملك بن جَهْوَر بعدَه وسمَّى نفسَه بالظافر و ضمَّ الـجُندَ إليه ورام أن يَسلُكَ مسلَكَ غيرِه فلم يقدِرْ عليه، فكان ذلك سببَ فساد مُلكِ بني جَهْوَر على ما يأتي.

وَقْعةُ بَطَرْنَة(١)

وفي هذه السنة: كانت وقعةُ بَطَرْنَةَ؛ من نظرِ بَلَنْسِية، وذلك أنَّ قطعةً منَ الرُّوم دَلَفَت إلى بَلَنْسِيَة فأناخَت عليها وأهلُها يومئذ جاهلٌ غِرّ أو مُترَفٌ مغترّ، قد خلَوْا بشَهَواتِهم، وانخَدعوا بإغفاءِ الدّهر عن عثَراتِهم، مُغْفلينَ للتدبير، غافلينَ عمَّا يتعاوَرُ أطرافَهم من التغيير، فطار بهم الذُّعرُ كلَّ مطار، وسارت من زعمائهم في استقبالِ محنتِهم تلك أعجبُ

---

(١) الذخيرة ٣/ ٦٤٤، ونفح الطيب ٤/ ٤٤٨-٤٤٩.

أخبار، ثمَّ كايَدَهم العدوُّ بإظهار الاضطراب، والاستتار عن عيونهم ببعض تلك الـهِضَاب، استدراجًا لهم واستطرادًا، وجَدًّا في طلبِ مكروهِهم واجتهادًا، فهاجَ رعاعُهم، وتنادى بالنفير مَهَنَتُهم وصُنَّاعُهم، حتَّى قيل: إنَّ مخنَّثَيْنِ تَنادَيا إلى الخروج وقد أيقَنا بسَبْي العلوج، فهما يتنازعانِ الـمُنى، ويقولانِ: نحن أعلمُ بفعلاتِ القَنا، وهيهاتِ! تلك أقصفُ للظهور، وهذه أشفى لبُغْضِ الصدُّور، وخرَجا ولا سلاحَ إلَّا رشَأٌ يتجاذبانِه، ثمَّ اصطلَحا بعدُ فاقتَسماه، لا يستهيبانِ ضِيقَ المنهاج، ولا يُشكَّانِ في اقتيادِ الأعلاج، وساعَدَ أولئك الرعاعَ الحائنينَ أميرُهم يومَئذٍ الـمُترَفُ عبدُ العزيز بن أبي عامر، فخرَجَ بالعير والنّفير، والـجَمّ الغفير، يحسَبُ الطَّعنَ كالقُبَل، ويظُنُّ السّيوفَ كالـمُقَل، ويتخيَّلُ صَليلَ الحسام، بين القصرتَيْنِ والهام، ما كان اتَّسع له ذَرْعُه، ومَرَنَ عليه سمعُه، من نغَم الأوتار، وترنُّم الأطيار، فلم يَرُع العدوَّ يومَئذٍ إلَّا خروجُ أهل بَلَنْسِيَة الأغمارِ والأغفال، إلى تلك الـمَصارعِ والأجبال، [من الكامل]:

يمشينَ مشيَ قَطا البِطاح تأوُّدًا ... هِيفَ الخُصورِ رواجحَ الأكفالِ

فظفِر العدوُّ يومَئذٍ بهم، أتاهم من ظُهورِهم، فحكَّم السيفَ في جُمهورِهم، ولم يَبْقَ إلَّا من أحرَزَه أجلُه، وخفِيَ على سهم المنيَّة مقتلُه.

أخبر ابنُ بسَّام، قال(١): أخبرَني مَن رأى ابنَ أبي عامر يومَئذٍ متحصِّنًا برَبْوة بين لـمَّة من فُرسانِه، يُنشدُ وقد عقَدَ الذّعرُ عذَبَةَ لسانِه [من الطويل]:

خليليَّ ليس الرأيُ في صَدْرِ واحدٍ ... أشيرا عليَّ اليومَ ما تريَانِ

فنَجا منها مَنْجَى أبي نَصْر، بعدَ أن أعطى على قَسْر، ولم يحفَظْ ما أحاط بأصحابِه من قتل وأسر.

قال ابنُ بسَّام(٢): لم يقَعْ إليَّ خبرُ وقعة بطَرْنةَ في كتاب ابن حيَّان، فكنْتُ أُولّيه حُكمَه، واعتمدُ فيه وَصْفَه الرائقَ ونظمَه.

---

(١) الذخيرة ٣/ ٦٤٦.

(٢) الذخيرة ٣/ ٦٤٤.

وفي سنة ستٍّ وخمسينَ وأربع مئة: نازَلَ العدوُّ مدينةَ قَلْمَرِيَّةَ وتغلَّبَ عليها وانتزَعها من يدِ ابن الأفطس، وكانت من فتوحاتِ المنصور، فتَحَها في سنة خمس وسبعينَ وثلاثِ مئة، وكانت للمسلمينَ سبعينَ سنةً كما تقدم.

وفيها: تغلَّبَ العدوُّ أيضًا على مدينة بَرْبُشْتَر، وهي من أُمَّهات مدُنِ الثَّغر الفائتة في الـحَصانةِ والامتناع، فحاصَرَها الرّومُ نحوَ أربعينَ يومًا حتَّى افتتحوها عَنْوة كما تقدَّم.

قال البكريُّ: وكان عددُ الرّوم المحاصِرينَ لها نحوَ أربعينَ ألفًا بين فارس وراجِل، فقَتلوا عامَّةَ أهلها وسبَوْا ما فيها من حُرَم المسلمين وذَراريهم مـمَّا لا يُحصَى كثرة، وذَكَروا أنَّهم اختاروا من أبكارِ سَبْيِها وأهل الـحُسن فيهنَّ خمسةَ آلافِ جارية أهدُوهُنَّ إلى صاحبِ القسطنطينة، وهُو ملِكُهم الأكبر، ووجَدوا فيها من الأموال والأمتعة ما يُعجِزُ عن وَصْفِه كثرة، والأمرُ لله من قبلُ ومن بعد.

قال ابنُ حيَّان: وطَرق الناعي بها قُرطُبَةَ في شهر رمضانَ، فصكَّ الأسماعَ وأطار الأفئدة وزَلْزلَ أرضَ الأندَلس قاطبةً وصار للناس شُغلًا، وتسكّع الناسُ في التحدُّث به والسؤال عنه والتصوُّرِ والحلولِ لوقوع مثلِه أيَّامًا لم يفارقْ فيها عادتَهم من استبعاد الوَجَل، والاغترارِ بالأمل، والاستنادِ إلى أُمراءِ الفُرقة الهمَّل، الذين هم منهم ما بينَ فَشِل ووَكِل، يَصدُّونَهم عن سَواء السبيل، ويُلبِسُونَ عليهم واضحَ الدّليل، ولم تزلْ آفةُ الناس منذُ خُلقوا في صِنْفينِ منهم هم كالملِح فيهم: الأمراءُ والفقهاء، قَلَّما تتنافرُ أشكالُهم، بصلاحِهم يَصلُحون وبفسادِهم يَرْدَوْن، فقد خَصَّ اللهُ سبحانه هذا القرنَ الذي نحن فيه منَ اعوجاج هذَيْن الصِّنفين لدينا بما لا كَفاء له ولا مَخْلَصَ منه، فالأمراءُ القاسطونَ قد نكَبوا بهم عن نهج الطريق ذِيادًا عن الجماعة وجَرْيًا إلى الفُرقة، والفقهاء أئمَّتُهم صُموتٌ عنهم صُدُفٌ عمَّا أكَّده اللهُ عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكِلٍ من حَلوائهم وخابط في أهوائهم وبين مُستشعر مخافتَهم آخِذٍ بالتَّقيَّة في صِدقهم، فما القولُ في أرضٍ فَسَد مِلحُها الذي هو الـمُصلِحُ لجميع أغذيتها وقد أصبحت في مَدَدٍ من خَبالِها، هل هي إلَّا مُشفيةٌ على بَوارِها واستئصالها؟

ولقد طمَّ العجبُ لهؤلاء الأمراء أنْ لم يكنْ عندَهم لهذه الحادثة الشّنعاءِ في بَرْبُشْترَ إلَّا الفَزعُ إلى حَفْر الخنادق وتعلية الأسوار وسدِّ الأركان وتوثيق البُنيان، كاشفينَ لعدوِّهم عن السَّوأةِ السوداء من إلقائهم يومَئذ بأيديهم إليهم، أمورٌ قبيحاتُ الصور، مؤذناتُ الصُّدور، بأعجازٍ تُحِلُّ الغِيَر، [من الوافر].

أمـــورٌ لـــو تـــدبَّرها حكـــيمٌ إذًا لَنهـــى وسَـــبَّ بـــها اسـتطاعَهْ

فدهرُنا هذا قد غَربَلَ أهليهِ أشدَّ غَرْبلة، وسَفْسفَ أخلاقَهم، وأخْبَثَ أعراقَهم، وسَفَّه أحلامَهم، وخَبَّث ضمائرَهم، واحتوى عليهم الجهل، فلَبِثوا في غير سبيل الرُّشد يُعلّلونَ أنفُسَهم بالباطل، وذلك من أدلِّ الدّلائل على فَرْط جهلِهم، واغترارِهم بزمانِهم، وبِعادهم عن طاعة خالقِهم، وغَفْلتهم عن سدِّ ثغرِهم، حتَّى ظَلَّ عدوُّهم الساعي لإطفاءِ نورِهم، يتبحبَحُ عِراصَ دُورِهم، ويَستقري بسائطَ بقاعِهم، يقطَعُ كلَّ يوم منهم طرفًا ويبيدُ أُمَّة، ومن لدينا وحوالَيْنا صُموتٌ عن ذكرِهم، لُهاةٌ عن بثِّهم، ما أنْ يُسمعَ بمسجد من مساجدِنا أو محفِل من محافلِنا مذكِّرٌ لهم أو داعٍ لهم فضلًا عن نافرٍ إليهم أو مُواسٍ لهم، حتَّى كأنَّهم ليسوا منَّا أو كأنَّ فَتْقَهم ليس بمُفضٍ إلينا، قد بخلنا عليهم بالدّعاء فبُؤْنا بالعناء، عجائبُ مفرجةٌ، فاتت التقدير، وعرَّضت للتغيير، ولله عاقبةُ الأمور، وإليه المصير.

بقيَّةُ أخبارِ بني جَهْوَر وخَلْعُهم(١)

قال ابنُ حيّان: وفي سنة ستٍّ وخمسينَ وأربع مئة: كثُر خوضُ أهل قُرطُبةَ في الذي رأَوْه من تنافُس ولدَيْ أبي الوليد بن جَهْوَر في الانتصاف بالإمارة(٢): ابنُه عبدُ الرحمن كبيرُ جماعتهم وأخوه عبدُ الملك أشهمُهم فؤادًا وأصلبُهم عُودًا الذي كشَف عن وجوهِهم غُمّةَ مُركِسِهم ابنِ السقَّاء، فاستَدركَ لهم ما كان تولَّى من سلطانِهم بفتكتِه به الفتكةَ التي أثبتَت أوتادَ مُلكِهم، ثمَّ نازَعَ أخاه كبيرَه عبدَ الرحمن فيما ذهبَ إليه من التفرُّد به، وقد كان أشار على أبيهما بعضُ خُلفائه بإيثار عبد الرحمن منهما فتمسَّك الشّيخُ بحظِّه

---

(١) الذخيرة ١/ ٤٦٥.

(٢) في المطبوع من الذخيرة: «الانتصاب لخلافته»، وما هنا ورد أيضًا في نسخة من الذخيرة.

من إرضاء ولَدِه الصّغير عبد الملك، فمال إلى قسمة الرِّياسة بينَهما مُدَّةَ حياتِه غيرَ ناصبٍ أحدَهما للأمر، يقضي اللهُ أمرَه لمن يشاء، وأنشَد قولَ الـجَزيريّ[1] [من الكامل].

وإذا امـرُؤٌ فَقَـدَ الـشباب سَـما لــهُ | حُـبُّ البنـينَ ولا كحـبِّ الأصـغرِ

ثمَّ نظَر لعبد الرحمن فقدَّمه في الإشراف والجباية، وجعَلَ إلى عبدِ الملك النظرَ في الـجُند والتولّيَ لِعرضِهم والإشرافَ على أُعطِيتهم، فرَضِيا منه هذا التقسيم، وأقامهما به على الصّراط المستقيم.

قال ابن بسَّام[2]: إلى هنا انتهى ما وجدتُّه في كتابِ ابن حيَّان من أخبار الدولة الجَهْوَرِيَّة.

قال المؤلّف: وها أنا أذكرُ من كلام ابن بسَّام وغيره ما أمكَنَ من بقيَّة أخبارِهم إن شاء الله، فأقولُ أوَّلًا[3]: كان عبَّادٌ الـمُعتضدُ خامَرَ قلبَه من شأنِ ابن السقَّاء مدبِّر دولة بني جَهْوَر ما لا يسَعُه بَوْحٌ ولا كَتْم، وما لا يُودِعُهُ سَفَهٌ ولا حِلم، شَرَقًا بحُسن سِيرتِه، وفَرَقًا من استمرارِ مَرِيرتِه، وحسدًا لآل جَهْوَر، فقد كان ابنُ السقَّاء هذا من الاستقلال بمكانِه، والضّبط لسُلطانِه، بحيث يُخيفُ الأنداد، ويَغِيظُ الـحُسَّاد، فدسَّ عبَّادٌ إلى عبد الملك بن جَهْوَر مَن جَسَّره على الفتك، وإلى ابن السقَّاء مَن ألقَى في روعِه حب الـمُلك، راشَ وبَرى، حتَّى جَرى القدرُ بينَهما بما جرى، وقد شرح ابنُ بسّام خبرَ ابنِ السقّاء في القسم الرابع من كتابِه.

ولـمَّا خلا لعبد الملك الجوُّ بعدَ ابن السقَّاء أعرضَ وأطال، وطلبَ الطَّعنَ والنِّزال، ووجَد عبَّادٌ السبيلَ إلى شيء طالما كان شَرَّدَ[4] كَرَاه، ونغَّص عليه كثيرًا من دُنياه[5]، من

(١) في م: «الحريري» مصحفة، وهو عبد الملك بن إدريس الجزيري والبيت من قصيدة له في الآداب والسنة كتب بها إلى بنيه وتنظر جذوة المقتبس (٦٢٥)، وإعتاب الكتاب ١٩٣، وتعليقنا على الجذوة.

(٢) الذخيرة ١/ ٤٦٦.

(٣) تنظر الذخيرة أيضًا ١/ ٤٦٦ فما بعدها.

(٤) في م: «شر ذكراه» ثم أصلحها محققه في المستدرك إلى «جَرّد كراره» والصواب ما أثبتنا، وهو الذي في الذخيرة.

(٥) في الذخيرة: «من لذة دنياه»، وهو أحسن.

أشعارِ بني جَهْوَر إلى نصرِه، وتصرُّفِهم بين يدي[1] نَهْيه وأمرِه، وانقبضَ عن عبد الملك لأوّل استبدادِه بالأمر حُماتُه الذين كان ابنُ السقّاء يُرفِّهُهم برِفْقِه[2]، ويَصطنعُهم بحَذْقِه، وخامَرَ نفسَ ابن ذي النُّون من الشَّغَف بقُرطُبَةَ ما هوَّنَ عليه إنفاقَ المال، واحتمالَ الأثقال، وتكلُّفَ الحِلِّ والتَّرحال.

ومضَت السِّنُون، وغالت عبَّادًا المَنُون، وصار الأمرُ إلى ابنِه المعتمِد سنةَ إحدى وستّين، فلمّا كان سنةُ اثنتين بعدَها دَلَفَ ابنُ ذي النّون إلى قُرطبة، وكان لا يُغبُّها شرُّه، ولا ينامُ عنها مكْرُه، فاحتاج عبدُ الملك بنُ جَهْوَر إلى استمداد المعتمِد لانفضاضِ مَنْ لديه، وعَجْزِه عمّا كان أسندَ من تدبيرِ قُرطبةَ إليه، فأمدَّه المعتمِدُ بجُمهورِ أجنادِه، على أكابرِ قُوَّادِه، وقد تقدَّم إليهم بمرادِه، ونهَجَ لهم سبيلَ إصدارِه وإيراده، فوافَوْا قُرطبةَ ونَزلوا برَبَضِها الشرقيّ، وأقاموا بها أيّامًا يَحْمُونَ حِماها وأعيُنُهم تزدحمُ عليه ويَذُبُّونَ عن جَناها، وأفواهُهم تنجذبُ إليه، فلمّا كمَّل ابنُ ذي النُّون سفَرَه، واحتواه، وقضَى من غزوِ قُرطبةَ وَطَرَه وما قضاه، أخَذ في الرحيل عنها، فما انقشَعت سَدَفةُ ليلِه، ولا تمزَّق غُبار سنابكِ خيلِه، حتّى هتَكَ العبَّاديُّونَ الحريم، ورَكِبوا الأمرَ العظيم، باتوا متحدِّثينَ بالقفول، ثمّ غَلَّسوا مُظهِرينَ للرحيل، وعبدُ الملك متأهِّبٌ لتشييعِهم، عازمٌ على البكرةِ إلى توديعِهم، وشُكرِهم على حُسن صنيعهم، فلم يَرُعْه إلّا إحداقُهم بقصرِه، وارتفاعُ أصواتهم بالبراءة من أمرِه، وقد تمخَّضت له ليلتُه عن يوم عقيم، وافترَّ ناجذُ صُبحِها عن ليل له بهيم، ومشَى من أنصارِه هنالك بين أسودَ مسموم وأسدٍ شتيم، [من الطويل]:

ومَنْ يجعلِ الضِّرغامَ للصّيدِ بازَهُ تَصيَّدَه الضِّرغامُ فيمن تصيَّدا

فقُبِض للحين على عبد الملك وإخوته[3]، وجميع أهل بيتِه، وبالَغوا لوقتهم في الانتهاك لحُرَمِه، وإزالة نِعمِه وإخفارِ ذِممِه، وأُخرج الشّيخُ أبو الوليد بقيَّةُ أشراف الأندلس، وكان إذ ذاك مائلَ الشِّقّ، مفلوجَ الشِّدق، مغلوبَ الباطل والحقّ، لم تُحفَظْ له

---

(١) هذه اللفظة ليست في الذخيرة.

(٢) في الذخيرة: «يرفعهم برفعه»، وما في الأصل أصوب.

(٣) في م: «وإخواته»، ولا معنى لها.

حُرمة، ولا رُعي فيه إلٌّ ولا ذمَّة، بلَغني أنَّه لـمَّا وُسِّط به قنطرةُ قُرطبةَ خارجًا منها على مركَبٍ هجين، وحالُه تُقرُّ عيونَ الحاسدين، رفَعَ يديه إلى السماء وأخَذ يبتهلُ في الدعاء، فكان ممَّا حُفِظ عنه قولُه: اللَّهمَّ كما أجَبْتَ فينا الدّعاءَ علينا فأجِبْه لنا، ثمَّ مات بعد أربعينَ يومًا من نكبتِه بجزيرة شلطيش مُزالَ النِّعمة، مُدالَ الحُرمة، وأُمِرَّت ساقتُه بها أقاموا هنالك بقيَّةَ أيَّام المعتمِد يأخُذُهم الحِدْثانُ ويدَعُهم، ويَخفِضُهم الزمانُ أكثرَ ممَّا يرفَعُهم. انتهى كلامُ ابن بسَّام رحمه الله.

وقال الورَّاقُ: **وفي سنة ستٍّ وخمسينَ**: نَوَّه أبو الوليد بنُ جَهْوَر بابنَيْه: عبدِ الرحمن وعبدِ الملك، واستعان بهما دونَ تفويض منه إليهما، فلم يلبَثْ عبدُ الملِك أن أثَّلَ مجدَه لأوَّل ظهورِه بالاقتراب إلى المعتضِد عبَّاد، فكاتَبَه بما كان من أمرِه، وبعدَ ذلك زارَه بإشبيلِيَةَ، فأكرَمَه المعتضِد إكرامًا كثيرًا، وانصرَف إلى قُرطبةَ وقد زادت همَّته وبعُدت آمالُه حتَّى فاق أخاه وغلَبَه على الأمر واستبدَّ بالأمر دونَه إلى أن جعَلَ سجنَه منزلَه، وكان له بِطانةُ سُوءٍ من السُّفَّال وسُقَّاط الناس ومَن لا خَلاقَ له، فكان لهم تسلُّطٌ على الناس بالأذى، يَهيمُ بهم في كلِّ وادٍ من الدَّناءة، إلى أنْ غزا قُرطُبَةَ البائسةَ المأمونُ يحيى بنُ ذي النّون صاحبُ طُلَيْطُلة، فاستَجاشَ عند ذلك عبدُ الملك بن جَهْوَر حليفَه المعتمدَ بنَ عبَّاد، فأمدَّه بجنودِه وحُشودِه حتَّى امتلأت منهم قُرطبة، فوقَع القتالُ بينَ أهل قُرطبة وابن ذي النون أيَّامًا إلى أنْ أقلعَ عنهم.

خَلْعُ ابن جَهْوَر وتغلُّبُ ابن عبَّاد على قُرطُبة

لـمَّا أقلَعَ ابنُ ذي النّون عن قُرطُبة اجتمع أهلُها في السِّرِّ على أنْ يخلعوا ابنَ جَهْوَر ويُولّوا ابنَ عبَّاد، فأبرَموا أمرَهم وأحكموه، وقاموا بأجمعِهم لـمّا ضجِروا من جَوْر ابن جَهْوَر وتعدّيه هو وحاشيتِه السِّفلة على الناس، وثاروا في صَبيحة اليوم الذي اتَّفقوا فيه معَ قُوَّاد ابن عبَّاد، وقام أصحابُ ابن جَهْوَر دونَه، وكانوا طائفةً قليلة، فغَلَب عليهم أهلُ قُرطبة، واستوى الحائنُ عبدُ الملِك بن جَهْوَر في يد ابن مرتينَ قائد ابن عبَّاد، وانقَرضَ مُلكُ بني جَهْوَر، فكانت دولةُ أبي الوليد بن جَهْوَر بقرطبة ستًّا وعشرينَ سنةً وستَّة أشهر ونصفًا.

ومن كتاب «الأنباء في سياسة الرؤساء»، قال: لـمَّا أخذ أبو الوليد بن جَهْوَر العهدَ على أهل قُرطُبة لوليِّ عهدِه ابنه عبد الملك ووَلَّاه على قُرطبة، جار واعتَدى، وتعاظَمَ، حتَّى سمَّى نفسَه ذا السيادتَيْن المنصورَ بالله الظافرَ بفضل الله، وخُطب له في مِنبر قُرطُبَةَ بهذا كلِّه، فسَلَّط اللهُ عليه نكايةَ ابن ذي النُّون له وتضييقَه عليه حتَّى مَلَك حصنَ الـمُدوَّر[1] وحاصَره بقُرطُبة، فاستغاث بالمعتمِد محمَّد بن عبَّاد، فوَجَّه إليه مقدّمةً في ثلاث مئة فارس، ثمَّ جدَّد في أثَرِهم ألفَ فارس معَ قائدَيْه: خَلَف بن نَجاح ومحمَّد بن مرتين[2]، فدخَلوا قُرطبةَ فانصَرفَ ابنُ ذي النّون منحوبًا مُغتاظًا، واستبان رجالُ ابن عبَّاد حالَ عبد الملك وضَعْفَ عقلِه وقلَّةَ رجالِه وشَنَآن رعيَّتِه تُلحِقُهم الطّمعَ فيه، فكان زوالُ مُلكِه أسرعَ من لحسة الكلبِ أنفَه.

وثوى العسكرُ العبَّاديُّ بقُرطبة بعدَ رَحْل ابن ذي النُّون عنها أكرمَ ثَواءً وأهلُها يبثُّونَهم شَجْوَهم ويُطالعونَهم على ما هم فيه ويُناشدونَهم اللهَ ألَّا يبرَحوا حتَّى يقبِضوا على الغَويِّ الظالم أميرهم عبد الملِك بن جَهْوَر ويحبِسوا البلدَ على سُلطانِهم ابنِ عبَّاد، فأصبحوا عشِيَّ يومَ الأحد المؤرَّخ على تعبئة سَفَرِهم، ثمَّ قدَّم القائدانِ على الباب مَنْ ضَبَطَه وأسرعا التقدُّمَ في الـجُند والعامَّة إلى دار عبد الملِك بن جَهْوَر فاستَوى هو وخُوَيصَّتُه فوقَ غرفةِ دارِه، وتكاثَرَ الـجُندُ عليهم فأتَوْه من كلِّ جهة وتوصَّلوا إلى دارِه من السّقف المتَّصل به، ونزَلوا منه إلى قعرِها، وغَشِيَها جموعٌ من الناس أعلاها وأسفلَها كالـجَراد المنتشِر، فتقدَّمت العامَّةُ على النَّهب، فصيَّروا جميعَ ما احتوى عليه قصرُه كحريق سريع، وفَضُّوا أقاصيَ مخازنِه على نفيس أعلاقِها.

وأمَّا الشّيخُ أبو الوليد والدُه رَبُّ القصر فأوى إلى المقصورة ببناتِه وكرائمِه، فاقتحَمها عليه قومٌ من النّصارى فجرَّدوهم ونهبوا ما عندَهم، فأصبح أميرًا وأضحى أسيرًا، وآلَ الحالُ بالغَوِيّ ابنِه إلى أن صَعِد إلى عليَّة أغلَقَها على نفسِه وعلى نسائه، فارتقَى الـجُندُ إليه ليقبِضوا فيها عليه فطلَب الأمانَ ونزَلَ طائعًا للقائدَيْن، وبادَر ابنُ مرتينَ بالمنع عن

---

(١) معجم البلدان ٥/ ٧٧.

(٢) المغرب ١/ ٢٤٨.

أن يُخطَّى إلى أحد من الناس، وأعلنَ بالنّداء بالسّيف في ذلك، فكفَّ الفَسَقةُ وارتفَع النّهب، وأسرعَ ابنُ مرتينَ الرجوعَ إلى دارِ المخلوع وقد حاصَرَه ابنُ نَجاح، وقدَّما النظرَ في إخراج الغَوِيّ ليومِهما إلى حضرة إشبيلِيَةَ فوكَّلا به مَن أخرَجَه على أعيُن الناس معَ أخيه وطائفتِه، ثمَّ عَطَفا على النظرِ في شأن الشّيخ الضِّلّيل والدِهم ومن معَه من بناتِه ونسائه، فصُيِّر جميعُهم في دار صُغرى، والتزَم القائدانِ الجلوسَ للنظر في الأمور إلى أن وَصَل ابنُ عبَّاد قُرطبةَ فملَكَها، وسأذكرُ بقيَّةَ خبرِه في موضعِه، وأمَرَ ابنُ عبَّاد بإخراج الشّيخ أبي الوليد وبناتِه عن قُرطبة، فخرَج بهم رجالُه، واستقرَّ جُملةُ بني جَهْوَر بجزيرة شَلْطِيشَ فأقاموا هنالك أكثرَ أيّام المعتمِد.

وفي سنة سبع وخمسينَ وأربع مئة: افتتح المسلمونَ مدينةَ بَرْبُشْتَر معَ أحمدَ بن سُليمان بن هُود، وقد تقدَّم ذكرُ ذلك.

وفيها: مات سيفُ الدّولة ابنُ باديسَ بن حَبُّوس الصُّنْهاجيُّ(١) أميرُ غَرناطة بسُمِّ ابن نغرالةَ اليهوديّ، واسمُ سيف الدّولة ابن باديسَ: بُلُقِّين، وسأذكرُ طرفًا مختصَرًا من دولتِهم.

بعضُ أخبارِ باديسَ بن حَبُّوس وقومِه صُنْهاجةَ وانتزائهم على غَرناطةَ، ومهلِك اليهوديِّ وزيرِه(٢)

نسَبُه: هو باديسُ بن حَبُّوس بن ماكْسِن بن زِيري بن مناد الصُّنهاجيُّ التلكاتيُّ. وكان زِيري بن مناد ممَّن ظَهَر في حرب أبي يزيدَ مخلد بن كيداد المتقدّم ذكرُه، وكانت صُنهاجةُ في ذلك الوقت تتقلَّد مذهبَ الشِّيعة العُبَيْديَّة، وكانت زَناتةُ بنو مغراو ضدًّا لهم في انحياشِهم إلى ملوك الأندَلس بني مروان لتحقُّق جَدِّ ملوكهم خزر وذرّيَّتِه بولاية أمير المؤمنينَ عثمانَ بن عفّانَ رضي اللهُ عنه، فكانت زَناتةُ تُوالي بني مروان لقَرابتِهم من عثمان، وتَفِدُ عليهم ملوكُهم إلى الأندَلس فيُجهّزونَهم بالأموال والكُسى ويعودونَ إلى مَواطِنهم

(١) الإحاطة ١/ ٤٣١.

(٢) المغرب ٢/ ١٠٧، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٩٠، والإحاطة ١/ ٤٣٥، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٣٩.

بالغرب، وكانت بينَهم مخاطباتٌ ومراسَلاتٌ في قديم الزّمان أوجَبَت تنقُّلَهم من بلادِهم إلى الأندَلس على ما يأتي ذكرُه.

فلمَّا دخَلت صُنهاجةُ في الدعوة العُبَيْديَّة وتقلَّدتها وأبَتْ من ذلك زَناتة، صارت صُنهاجةُ حربًا لزَناتة، فكانت زَناتةُ تُغِيرُ على ثَغر الشِّيعة العُبَيْديَّة وتُفسدُ فيه بأشدِّ ما يكونُ من العَيْثِ والفساد، حتَّى بَنى معَدُّ بنُ إسماعيل العُبَيْديُّ مِلكُ الشِّيعة بآخِر إفريقيَّةَ من جهة الغرب مدينةَ آشير ليُغاورَ منها بلادَ زَناتة، ورام أن يُبيدَهم لإبايتهم من الدّخول في دولته العُبَيْديَّة وانحياشِهم إلى الدولة المروانيَّة.

وكان معدُّ بنُ إسماعيل لـمَّا استخلَفَ بُلُقِّينَ بنَ زِيري بن مناد الصُّنهاجيَّ على إفريقيَّةَ ورحَل إلى مُلك مصر، خَلا به ووصَّاه بما يفعلُه بعدَه من أمور المملكة، فمن ذلك: ألَّا يرفَعَ السّيفَ عن قبائل البربر، ولا الـحَزْمَ عن الرعيَّة، ولا تُوَلِّ أحدًا من بني عمِّك، فإنَّهم يَروْنَ أنَّهم أحقُّ بالأمر منك، فامتَثَل بُلُقِّينُ وصيَّتَه، وأوصَى بذلك وَلَدَه منصورَ بن بُلُقِّين.

ثمَّ وَلِي بعدَ منصور ابنُه باديسُ بن منصور، فأراد أعمامُه وأعمامُ أبيه أن يَستهضموهُ فلم يُعْطِهم ذلك من نفسِه، وقعَت بينَهم حربٌ قُتل في أثنائها عمُّ أبيه ماكِسن بن زيري بن مناد، فرهِبَ الباقونَ صَوْلَةَ باديس وخافوا عاديتَه، فكتَبَ شيخُهم زاوي بنُ زيري إلى الـمُظفَّر بن أبي عامر ليجوزوا له إلى الأندَلس رغبةً في الجهاد، فأذِنَ لهم في ذلك، فدخَل منهم إلى الأندَلس جماعةٌ معَ شيخِهم وأميرهم زاوي بن زيري بن مناد ومعَه ابنا أخيه ماكْسِن: حُباسةُ وحَبُّوس، فأكرَمَهم ابنُ أبي عامر المظفَّرُ وأنزَلَهم، وكانوا من ذلك في أمرٍ عظيم، إذ أصارهُم الدّهرُ يَخدُمونَ تحت يدِ أعدائهم وأضدادِهم، فكانوا يتكلَّمونَ بأشياءَ في جانب المظفَّر فيُغضي لهم عنها ولا يُغضي لهم على شيء مـمَّا يلزَمُهم من أمور الشريعة، فإنَّهم كانوا في بلاد إفريقيَّةَ لا تأخُذُهم أحكامُ الشّرع، وكانوا بها يَستطيلونَ على الناس بما شاءوا من الشَّتم والعَيْث، فلم يُطيقوا ذلك بالأندَلس، بل أخَذَتْهم فيها أحكامُ الشّرع فأسرُّوا لذلك الحقدَ، وأقاموا على ذلك مدَّةً يخدُمونَ معَ العساكر كسائر القبائل من البرابر إلى آخِر الدولة الفاضلة الـمَرْوانيَّة، فلمَّا انهدَمت الإمامةُ وانشقَّت عصَا الجماعة

سَعَوْا في الفتنة كفعل غيرِهم من سائرِ قبائل البرابرة، وكان الأصلُ في هذه الفتنة ابنَ عبد الجبَّار، فإنَّه استَفْسَد إلى البربر وكان يُصرِّحُ نكبتَهم ولا يقدِرُ على كَتْم ذلك وإذا جاء أكابرُهم إلى بابِه مُنعوا ووُبِّخوا وضُربَ رأسُ خيلِهم، حتَّى كان زاوي بن زيري يقول: رأسي فاضرِبوا وأمَّا الدابَّةُ فلا ذنبَ لها، إلى غير ذلك من استفساد أهل قُرطُبَةَ إليهم، حتَّى هَلَكوا بأيديهم ونُصروا عليهم.

وانحاز صُنهاجةُ هؤلاء معَ شيخِهم ورئيسِهم حَبُّوس بن ماكْسِن، وقد كان أخوه حُبَاسةُ هلَكَ في هذه الفتنة، وانصرَف زاوي بنُ زيري إلى إفريقيَّةَ في دولة الـمُعزِّ بن باديس، وقد تقدَّم سببُ انصرافِه عندَ مقتل الـمُرتضَى المروانيِّ القائم بشرق الأندَلس.

وبقي منهم معَ حَبُّوس بن ماكْسِن جماعةٌ عظيمة، فانحازوا إلى مدينة غَرناطة، وأقام حَبُّوسٌ بها ملكًا وغلَبَ على نظَرِها من مدينة قبرة ومدينة جَيَّان واتَّسع نظَرُه وحَمَى رعيَّتَه مـمَّن جاوَرَه من سائر الأمراءِ الـمُنتَزِينَ حولَه، فدامت رياسةُ حبُّوس إلى أنْ هَلَك سنةَ ثمان وعشرينَ وأربع مئة.

فولِيَ بعدَه ابنُه باديسُ بنُ حَبُّوس، وسلَّم له أخوهُ شقيقُه بُلُقِّينُ بن حَبُّوس، فأمضَى باديسُ وزيرًا له وكاتبًا وزيرَ أبيه إسماعيلَ بن نغرالَة اليهوديَّ(١) على وِزارته وكتابته وسائر أعماله، ورفعَه فوقَ كلِّ منزلة، فاتَّخذ هذا اليهوديُّ عُمّالا ومتصرِّفينَ في الأشغال واكتَسَبوا الجاهَ والمالَ في أيَّامِه واستطالوا على المسلمين، وكان هذا اليهوديُّ من أهل الأدبِ والشِّعر، فدام أمرُه كذلك إلى أنْ هلَكَ وترَكَ ابنًا له اسمُه يوسُف لم يَعرِفْ ذِلَّةَ الذمَّة ولا قَذَر اليهوديَّة، وكان جميلَ الوجه حادَّ الذِّهن، فأخَذ نفسَه بالاجتهاد في الأحوال واستخراج الأموال، واستعمل اليهودَ إخوانَه على الأعمال، فزادت منزلتُه عند أميرِه باديس، وكانت له عيونٌ عليه في قصرِه من نساءٍ وفتيان شغَلَهم الملعونُ بالإحسان إليهم والإنعام عليهم، فكان لا يَخفَى عليه شيءٌ من أمورِ باديسَ من كلِّ ما يجري في منزلِه من شرابٍ أو لهو أو جَدّ أو هَزْلٍ إلَّا ويعلَمه ويُعلمُ اليهودَ به، فلا يكادُ باديسُ يتنفَّسُ إلَّا ويعلَمُ اليهوديُّ ذلك.

---

(١) تنظر الإحاطة ١/ ٤٣٩-٤٤٠.

وكان لباديسَ ولَدٌ اسمُهُ بُلُقِّين، وكان عاقلًا نبيلًا، فرشَّحه للأمر من بعدِه ولقَّبه سيفَ الدّولة، وكان له خاصَّةٌ من المسلمينَ يَخدُمونَه، وكان مُبغِضًا في هذا اليهوديّ، فبلَغَه أنَّه تكلَّم فيه عندَ أبيه فبلَغَ ذلك من اليهوديِّ كلَّ مبلغ، ودبَّر الحيلةَ عليه، فدخَل اللّعين يومًا على الفتى وقبَّلَ الأرضَ بين يدَيْه، فقال له: ما تريد؟ فقال له: يرغبُ عبدُك منك أن تدخُلَ دارَه معَ من أحببتَ من رجالِك يَستشرفُ العبدُ بذلك، فدخَل إليه، فقدَّم له ولرجالِه طعامًا وشرابًا وجعَلَ السُّمَّ في الكأس لابن باديس، فرام القيءَ فلم يقدِرْ عليه، فحُمل إلى قصرِه فقَضَى نحبَه في غدِ يومِه، ولم يعلَمْ أبوه سببَ موتِه، فقرَّر اللّعينُ عندَه أنَّ أصحابَه وبعضَ جَواريه سَمُّوه وتفرَّق أمرُه، فقَتلَ باديسُ من جواري ولَدِه ومن فتيانِه وبني عمِّه جماعةً كبيرة وخافَهُ سائرُهم ففرُّوا عنه، وأقبلَ باديسُ على شرابِه ليتسلَّى به عن مصابِه.

وصارت لليهود صَوْلةٌ على المسلمينَ في دولتِه، إلى أن حدَّثته نفسُه الفاجرةُ بأشياءَ أخرجَتْه لضربِ رقَبتِه وقَتْل جُملة عظيمة من أهل ملَّتِه. وذلك أنَّ هذا اللّعينَ طلَبَ أن يُقيمَ لليهود دولة، فدَسَّ إلى ابن صُمادِح صاحبِ المرِيَّة في السِّرّ أن يُدخلَه غَرناطةَ ويكونَ اليهوديُّ في الـمَرِيَّة، فنَمَى هذا التدبيرُ إلى صُنهاجة، فدَخَلوا إلى دار اليهوديِّ معَ جُملة من العامَّة فاختفَى في بيتِ فحم وسَوَّدَ وجهَه وتنكَّر، فعَرفوه وقَتلوه وصَلَبوه على باب المدينة، وقُتل في هذا اليوم من اليهود جُملةٌ عظيمة ونُهِبت دورُهم، وذلك سنةَ تسع وخمسينَ وأربع مئة.

واتَّصلت الحروبُ والوقائعُ بينَ ابن عبَّاد وباديسَ إلى أنْ قَوِي ابنُ عبَّاد عليه وضَعُف أمرُ الأدارسةِ بمالَقة وانهدَّت دولتُهم وتمَّت أيَّامُهم، وكان آخرَهم غلامٌ منهم اسمُه يحيى بنُ إدريسَ بن عليّ، ترَكَه أبوه صغيرًا فقام بأمرِه وزيرُ أبيه، وتسمَّى هذا الفتى بأميرِ المؤمنينَ وتلقَّب بالـمَهْديّ وخُطِب له على المنابر، فدَسَّ باديسُ إلى وزيرِه وبعضِ رجالِه واستمالَـهم بالعطاء إلى أنْ غَزا مالَقةَ بجُندِه فدَخَلَها وخَلَعَ هذا الغلامَ وخيَّره في المسير والبقاء بمالَقة، فاختار المسيرَ إلى الـمَرِيَّة، ثمَّ سار منها إلى قُرطُبةَ فاستوطَـنَها، وملَكَ باديسُ مالَقةَ ووَلَّى عليها ابنَه المعزَّ، وجَرت له حروبٌ وخطوبٌ إلى أن هَلَك.

وفي سنة ثمانٍ وخمسينَ وأربع مئة: نهضَ صاحبُ طُلَيْطُلة يحيى بنُ ذي النُّون إلى صاحبِ بَلَنْسِيةَ عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد العزيز بن أبي عامر، وكان صهرَه تزوَّج بنتَه بعدَ وفاة أخيه عليها، فأساء عِشرتَها وأهانَها، فاتَّصل ذلك بأبيها فحقَد عليه وعمِلَ معَ وزيرِه ابن عبد العزيز على الغَدْر به وصَرْف البلد إليه، وكان ابنُ أبي عامر هذا خليعًا مائلًا إلى الفتيان والغِلْمة معَ خَدَر كان به، فقَدِم عليه من طُلَيْطُلَةَ على سبيل الزيارة، وكانت بنتُه قد تُوفِّيت عنه قبلَ ذلك فنزَلَ خارجَ البلد بعسكرِه، فخرَج إليه المذكورُ وأدخَله قصرَه ليُبالغَ في إكرامِه وترفيعِه ولا عِلمَ عندَه بما ينطوي عليه، وكان أدخَلَ معَه فتيانَه وعبيدَه، فأقام عندَه أيّامًا ثمَّ قَبَضَ عليه وعلى ابنِه وأُخْرِجا معًا ليلًا إلى مدينة شَنْت برية من بلدِ ابن ذي النّون، فأقام بها يسيرًا ثمَّ هَلَك، ولحِقَ ابنُه بسَرَقُسْطةَ فمات بها، وانقطع بموته اسمُ آل عامر من الأندَلس، وحصَل شرقُ الأندَلس لابن ذي النّون على هذا الوجه دونَ كُلفةٍ ولا مشقَّةٍ ولا نَفَقةِ دينارٍ ولا درهم، فحسَدَه على ذلك أُمراءُ الأندَلس وعابوا عليه غدرَه به.

وفي هذه السنة: وَفَد على المعتضِد عبَّادِ بن محمَّد أشياخُ بني يرنيَّان[1] ووجوهُهم وخاصَّتُهم بعدَما احتال في ذلك عليهم بضروب من الـحِيَل، حتّى وصَلوا إليه ووَفَدوا عليه بإشبيلِيَةَ، فبالَغَ في إكرامِهم ثمَّ غَدَر بهم فأدخَلهم حمَّامًا وبناه عليهم حتَّى هَلَكوا فيه على ما يأتي ذكرُه.

ومن أخبارِ بني بِرْزال الزَّناتيّينَ الـمُنتَزينَ على قَرمُونةَ وما حولَـها وسببِ جَوازِهم للأندَلس[2]

هؤلاءِ ـ بني بِرْزال ـ رهطٌ من زَناتةَ كانوا قاطنينَ بأرض الـمَسِيلة والزّاب الأسفل مدينة سطيف وطُبنة وميلةَ، والـمَسِيلةُ هي التي بناها عُبيدُ الله الشيعيُّ وجعَلَها سَدًّا بينَه وبينَ زَناتة ليكُفَّ عاديتَهم عن هذه الجهة، وكانوا بني مغراو الزَّناتيّينَ بجهة مدينة تاهَرْت، وكان الذي تولَّى بناءَ الـمَسِيلة لعُبيد الله الشِّيعيّ عليُّ بنُ حَمْدون، وكان قائدًا من قُوَّاده، وكان أبوه حَمْدونُ من أهل الأندَلس، وكان بنو بِرْزال ساكنينَ حولَ هذا البلد يخدُمونَ

---

(١) عن بني يرنيّان، ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٦٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٧٢ فما بعدها.

عليَّ بنَ حمدون إلى أن مات عليٌّ هذا وترَكَ ولدَيْن: جعفرًا ويحيى، فوَلِي جعفرٌ مكانَ أبيه وكان زِيري بن مناد مناوئَه في أمورِ المملكة والتنافس في الرياسة.

فلمَّا جرى مِن قَتْل زيري ما جَرى، قتلَتْه زَناتةُ، خَلَع جعفرٌ هذا طاعةَ المشارقة وسار إلى الأندَلس، فاستطالت أيدي صُنهاجةَ على مَن كان من حاشية جعفر بن عليّ الأندَلسيّ ولم تكنْ لبني بُرْزال طاقةٌ بصُنْهاجة، فكتَبوا إلى جعفرٍ بما نالَـهم من صُنْهاجة، فاستأذَنَ جعفرٌ لهم أميرَ المؤمنين الـحَكَم ووصَفَهم له بالشّجاعة والانقياد إلى الطاعة، فأذِن له في جَوازِهم فجازوا إلى الأندَلس ورجَعوا تحتَ يد جعفر بن عليّ، فأقام بنو برْزالَ جُندًا على عادتِهم إلى حين وقوع الفتنة الـمُبِيرة، فكشَفوا وجوهَهم في الحروب كفعل سائرِ البربر إلى أن استقرَّ قرارُهم بمدينة قَرمُونةَ وإسْتِجة وحصن الـمُدوَّر وذَواتِها وغَلَبوا على هذه البلاد، وجاوَرَهم محمَّدُ بنُ إسماعيلَ بن عبَّاد من ناحية إشبيلِيَةَ، وجاوَرَهم بَنو يَفْرَن من ناحية تَاكُرُنَّا، وجاوَرَهم ابنُ جَهْوَر من ناحية قُرطُبة، وجاوَرَهم باديسُ بنُ حَبُّوس من ناحية غَرناطةَ، وجاوَرَهم بنو دَمَّر الـمُتَتزونَ على مَوْرورَ وذَواتِها وأميرُهم محمَّدُ بن نُوح.

وقال أبو مروان بنُ حيَّان: إنَّ هذه القبائلَ تحالَفت وتعاضَدت على غزوِ بلاد بني دُمَّر، ودخَل معَهم في ذلك ابنُ جَهْوَر ولم يدخُلْ بينَهم ابنُ عبَّاد؛ لأنَّه كانت بينَه وبينَهم الحرب. وقصَدت هذه القبائلُ بعدَما حشَدت رعيَّتَها معَ زعيمِهم باديسَ ومعَ أبي نُور ومعَهم جمْعٌ من عسكر ابن جَهْوَر حصنًا من حصُونِ بني دُمر، ونازَلَتْه منازلَةَ بلاد الروم، وأقام هذا العسكرُ على هذا الحصن أيَّامًا يقاتلونَهم مقاتلةَ الكفَّار حتَّى دخَلوه عَنْوةً فقتَلوا رجالَه عن آخِرهم وهتكوا الأستارَ وفتَكوا بالأبكار حتَّى كانت دماؤهنَّ تسيلُ على أقدامِهنَّ عارياتٍ باكيات، واستَحْوذَ السُّودانُ وسُفَّالُ العسكر على النّساء، فكانت أخبيتُهم مملوَّةً منهنَّ، إلى أن برَّحَ باديسُ بعدَ ثلاثة أيَّام عليهنَّ فطردوهنَّ عارياتٍ حافيات، وخرَجَ نساءُ هذا الحصن إلى سائر القرى والحصُون على ما ذكَرْنا، وانصَرف بنو برْزالَ يضربونَ على إشبيلِيَةَ من قَرمُونةَ وخيلُ ابن عبَّاد تضربُ عليهم، ولم تزل الحربُ تأكلُ فُرسانَهم وأبطالَهم إلى أنْ كتَبَ رئيسُهم العزُّ بن إسحاقَ بن محمَّد بن عبد الله البِرْزاليُّ إلى ابن ذي النّون أن يُعطيَه قَرمُونةَ وما حولَـها ويُعطيَه ابنُ ذي النّون من بلادِه حصنًا يكونُ فيه ويستريحُ من حربِ ابن عبَّاد، فأنعَمَ له بذلك على ما يأتي ذكرُه.

ومن أخبارِ بني يَفْرَن الزَّناتيِّنَ وأميرِهم أبي نُور بن أبي قُرَّةَ وانتزائهم على بلادِ تاكُرُنَّا[1]

وسببُ جَوازِهم أنَّه لـمَّا هلَكَ أميرُهم بالغرب يَدَّرُ بن عليّ بن محمَّد اليَفْرَنيُّ اجتمع رأيُهم على تأمير ابنِه محمَّد بن يدَّر، فحسَدَه على ذلك ابنُ عمّه أبو يدّاس فغَدَره وقتَلَه وتأمَّر مكانَه، فاختلفت عليه بَنو يَفْرَن وصاروا طريقَين، فكان هذا سببَ جَوازِهم إلى ابن أبي عامر، فكانوا يَخدُمونَه كسائِرهم، فلمَّا وقَعَت الفتنةُ وتفرَّقت الجماعة تَسكَّعوا في الحروب كغيرهم، إلى أنْ ظَهَروا على صُقْع تاكُرُنّا وقلعتِهم رُندة.

وكان أبو نورٍ هذا مُحالفًا لابن عبَّاد لم تقَعْ بينَهم قط حرب، وكانوا تَحالَفوا على التناصُر والصّداقةِ والتعاضُد، وكان ابنُ عبَّاد يَصِلُهم بالصِّلات الـجَزِلة سياسةً لهم وطمعًا في استئصالهم إلى أنْ وجَّه إليهم في الزيارة له ليتجمَّلَ بهم زَعَمَ في إعذار أولادِه، وذلك منه مكرٌ بهم وخديعةٌ لهم، فأتَوْه في أحسن زِيّ وأبهى ملبَس وأفخَم عُدَّة، وقد كانت زيارتُهم له قبلَ ذلك متردّدة، فجاءوا إليه يُباهُونَ عليه في نحو مئتي فارس من رؤساءِ قبائلِهم، فلمَّا وصَلوهُ أنزَلَ أُمراءهم في قصرٍ من قصوره، وبقي يُدبِّرُ فيهم أمرَه فأذِنَ لهم في اليوم الثالث من وصُولهم في الدّخول عليه فدخَلوا إليه وأخَذوا مجالسَهم عندَه فأفضَى به الحديثُ إلى عتابِهم في قلَّة جَدِّهم معَه في حرب أعدائه، فخاطَبَهم في ذلك بكلام خَشِن فبجهلِهم أرادوا الـمُناصفةَ لأنفسِهم، فردَّ عليه محمَّدُ بن نوح الدُّمَّريُّ صاحبُ مَوْرُور، فوكَزَه المعتضِدُ عبَّادٌ بيدِه وصاحَ بعبيدِه، وقد كان قدَّم ذلك إليهم، فدخَل العبيدُ إليهم فأقاموهم أسوأ قيام من الشَّتم والـهَوان يَنتِفُونَ لِحاهم لانخداعِهم حتَّى حصَلوا في يدِ عدوِّهم، فأمَرَ عبَّادٌ في الحين بتكبيلِهم وتنكيلِهم وسجنِهم في مواضعَ شتَّى لا يَلتقي أحدٌ منهم بغيره.

وكان أُمراءَ هذه القبائل التي غَدَر بهم عبَّادٌ: أبو نور بن أبي قُرَّةَ صاحبُ رُندةَ حليفُه وصديقُه، ومحمَّدُ بن نُوح الدُّمَّريُّ صاحبُ مَوْرُور، وعبدون بن خَزْرون أميرُ بني يرنيَّان صاحبُ أركُش وذواتِها، وأمَرَ بأخْذ جميع خيلِهم وسلاحِهم وأخبيتِهم وجميع ما

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٤ فما بعدها.

احتوَوْا عليه، وقد كان أكثرُهم تَدايَنوا واستعاروا للأُبَّهة والفخامة على ابن عبَّادٍ وأصحابِه، فحصَلَ من ذلك على مالٍ كثير، وأقاموا أسْرى في يدِه مُدَّةً كبيرة، ثمَّ أمَرَ بهم فأُخرجوا من محابسِهم وصَرَفَ عليهم جميعَ ما أَخَذه لهم، ثمَّ صَنَع لأُمرائهم طعامًا وأُدخِلوا عليه فأكرَمَهم، وأمَرَ بتطييبِ الحمَّام لهم، وسار عَبيدُه إليه معَهم، وكانوا ثلاثةَ أُمراء: أبو نور وابنُ نُوح وابنُ خَزْرون، فلمَّا دخَلوا الحمَّامَ وجلَسوا بإزاءِ الحوض خرَجَ العبيدُ عنهم وقد أعدُّوا الـجَيَّارَ والآجُرَّ فبُني عليهم على دفَّة بيت الحمَّام، وأمَرَ السخَّانَ أن يُكثرَ الوَقْدَ، فالتَهفَ الحمَّامُ فقاموا من موضعِهم يرومونَ الخروج فلم يجدوا مخرجًا، فكان آخرَ العهد بهم، وأقام ذلك الحمَّامُ عاطلًا إلى آخرِ أيَّام العبَّاديّينَ ودخول الـمُرابطين.

فرهِبَ البربرُ صَوْلةَ عبَّاد وكيدَه بكلِّ ناحية، ووَجَّه العساكرَ إلى بلادِهم فاحتَوى عليها، ونزَلَ باقيهم إلى إشبيلِيَةَ وصاروا من رجالِه، ولم يبقَ له مُعاندٌ منهم سوى بني يرنيَّان أصحاب شَذُونة وأركُش، فإنَّ أميرَهم محمَّدَ بنَ خَزْرون الـمُتخلِّفَ عن الوصُول إلى ابن عبَّاد قام فيهم مقامَ أخيه عبدونَ بن خَزْرون الهالِك في الحمَّام.

واتَّصل نظَرُ ابن عبَّادٍ بكل ناحية، وزاد همُّه في استئصال البرابرة، فجدَّ في طلبِ بني يرنيَّانَ وبَنَى حصنًا قريبًا منهم وشدَّهُ بالخيل والرّجال حتَّى منَعهم التصرُّفَ فلم يَقدِروا على مقاومة ابن عبَّاد، وضاق عليهم أمرُهم، فقصَدَ جماعةٌ منهم معَ أميرهم إلى باديسَ بن حَبُّوس صاحبِ غَرْناطةَ ومالَقةَ وأعمالِها، واتَّفقوا معَه على أن يُعطوه الحصنَ متخلِّينَ له عن تمام الـمُختزَن فيه بثمن معلوم ويُعطيَهم باديسُ بلدًا يسكُنونَه فيكونوا تحت كنَفِه، وبعَثَ معَهم عسكرًا ضخمًا فخرَجوا من غَرناطةَ قاصدينَ قلعةَ أركُش، ثمَّ خَرَجوا منها بمتاعهم وأموالهم وعيالهم. ولم يَخْفَ هذا التدبيرُ على عبَّاد، فانزعَج لهم وجلَس على طريقهم بعسكرِه حتَّى وصَلوا إلى الحصن وسلَّموه إلى قائدِ باديسَ وأخرَجوا أموالَهم وعيالَهم.

قال أبو مروانَ الورَّاق: فخرَج بنو يرنيَّانَ بأموالهم وحَريمهم وما جمعوه من أوَّل الفتنة، فكانت جملةُ دوابِّهم التي عليها أحمالُهم وأثقالُهم نحوَ الخمس مئة دابَّة بغالٌ كلُّها، وكان معَهم قطعةٌ كبيرةٌ من بني بُرْزَال أعداءِ المعتضِد، فلمَّا أبعَدوا عن

القلعة بنحو عشرينَ ميلًا تعرَّض لهمُ ابنُ عبَّاد بفَحْص شِلْب فوقَعت الحربُ بينَهم، ولجأَ البربرُ إلى ربوةٍ كانت قريبًا منهم وحَطُّوا أثقالَهم إلى الصباح، ثمَّ وقَعت الحربُ بينَهم، وكان عبَّادٌ قد كَمَنَ لهم كمينًا، فلمَّا حَمِيت الحربُ خَرج عليهم الكمينُ وطُبولُه هادرةٌ وأعلامُه خافقةٌ وخيلُه متناسقة، فلمَّا رأوْا ذلك سُقِط في أيديهم وضَعُفت قلوبُهم، وثابَ الظّفرُ إلى ابن عبَّاد فهزَمَهم ولم يُمعِنْ في اتّباعِهم، ولاقَى بنو يرنيَّانَ في هذه الحربِ شدَّةً عظيمة؛ لأنَّهم قاتَلوا على حَريمهم وأموالهم حتَّى أُبيد أكثرُهم، وقُتل محمَّدُ بن خَزْرون أميرُهم في أوَّلهم بعدَ أنْ أمَرَ غلامَه بقَتْل امرأتِه لأنَّها كانت لطيفةَ المحلّ من قلبِه، فطَعنَها برُمح وهي راكبةٌ فسَقَطت، وأمَرَ أن يُفعلَ بأُختِه كذلك، وقُتل قائدُ باديسَ الذي كان معَهم، ورَكِب السّيفُ المنهزمينَ، وذلك آخِرَ يوم من سنة ثمانٍ وخمسينَ وأربع مئة.

وملَكَ ابنُ عبَّاد قلعةَ أركُش وسائرَ بلاد شَذُونةَ وخُطِب له فيها واتَّصل نظَرُه إلى أوَّل بلادِ شَرْق الأندَلس، ولم يزَلْ أمرُه يعلو ودولتُه تزدادُ نموًّا وظُهورًا إلى أن قُطِع دابرُ أُمراءِ البرابرة ولم يبْقَ منهم سوى باديسَ بن حَبُّوس، فجيَّش الجيوشَ وعَمَّر الأُسطولَ إلى مالَقةَ فحلَّ بَمْرساها وجَعْجعَ بأهلِها وأقام عليها أيَّامًا برًّا وبحرًا إلى أنِ انصرَف الجيشُ إلى غَرناطة، فبرَزَ عليها فلم يَخرجْ إليه أحدٌ من جُندِها، فانصَرف إلى حضرته إشبيليةَ يَرفُلُ في ثوبِ العزَّة.

ذكْرُ دخول الظافر محمَّد بن عبَّادٍ مالَقةَ وخروجِه مفلولًا منها بعدَ تقلُّص الظِّلال الحمُّوديَّة الـحَسَنيَّة عنها(١)

كان أهلُ مالَقةَ إذا جَرى ذكْرُ عبَّاد المعتضِد أُرتِجوا إليه، ورفَعوا أصواتَهم بالثناء عليه، هذا على ما كانت أعينُهم تَقْذَى من قُبح آثارِه، ويُصَكُّ سمعُهم من هولِ أخبارِه، ويَلْفَحُ وجوهَهم من شَرَر نارِه، تشيُّعًا لم يكنْ له أصلٌ إلَّا شومُ الحميَّة، ولومُ العصبيَّة، فاهتَبلوا غِرَّةً من باديسَ أميرِهم، وناجَوْا عبَّادًا بذواتِ صدورِهم، وألقَوْا إليه بأيدي تأميلهم وتأميرِهم، فجأْجأوا الظَّمآنَ لا يَرْوَى على طولِ الشِّرب، وهزُّوا سيفًا يكادُ يهتِكُ

(١) الذخيرة لابن بسام ٢/ ٤١ فما بعدها.

الضّريبةَ قبلَ الضَّرب، فجدَّ فيها وشمَّر، ونادى أهلَها وحَشَر، وكان المعتضِدُ إذا طَوَّل اختَصَر، وإذا تُحدِّث عنه على البعدِ حَضَر، فلبَّى دعاءَ أهل مالَقةَ وأنفَذَ إليهم شوكتَه، وأطلَعَ عليهم كتيبتَه، مُعصبَّةً بابنَيْه: جابر ومحمَّدٍ الظافر، فأوَّلَ إطلالِه عليها، هبَّت له ريحُ فَتْحِها، وضَحِك في وجهِه بِشرُ صُبحِها، فخلا لأوَّل وقتِه بحريمها، وتحكَّم في ظالِـمها ومظلومِها، إلَّا فرقةً من السُّودانِ الـمَغاربة لاذوا بذُروة قصَبتِها، وهي بحيث ينشأُ تحتَها الدَّجْن، ويعجِزُ دونَ مرامِها الظنّ، إنافةَ مكان، وإطالةَ بُنيان، وقد كان أهلُ مالَقةَ أشاروا على ابنَي المعتضِد حين خَلَّوا بينَها وبينَ البلد بإذكاء العيون، وإساءة الظّنون، وضَبْط ما حولَها من المعاقل والحصُون، فغَفَلا، واستَصرَخَ السُّودانُ الـمَغاربةُ أميرَهم باديسَ فلبَّاهم بزَخْرة من تيّارِه، وأقبَسَهم شرارةً من نارِه، فلم يَرُع ابنَيْ عبَّاد، إلَّا تداعي الجهاد، وصَليلُ الجِياد، فلم تَرَ من العبَّاديّينَ إلَّا أسيرًا وقتيلًا، أو فازعًا إلى الفِرار ما وجَد إليه سبيلًا، وامتلأت أيدي الباديسيّينَ من السِّلاح والكُراع، ورَفَلوا بين خِيار البزِّ وفاخِر المتاع، ولجأ ابنا عبَّاد إلى رُندةَ وقد انغَمسا في عارِها، وصَلِيا بنارِها، ورأَيا وجهَ الموتِ في لَـمعان أسنَّتِها وشِفارِها.

ثمَّ خاطَبَ الظافرُ، وهو المتلقِّبُ بعدُ بالمعتمِد، أباه عبَّادًا بالشِّعر يستعطفُه ويُسلِّيه عن مُصابِه في هزيمته، فمنه [من البسيط]:

سَكِّنْ فؤادكَ لا تـذهبْ بـك الفِكَـرُ ... مـاذا يُعيـد عَلَيـكَ البَـثُّ والحـذَرُ

فإن يكن قَـدَرٌ قـد عـاق عـن وطـر ... فـلا مَـرَدَّ لمـا يـأتي بـه القـدرُ

وإن تكـن خيبـةٌ في الـدهر واحـدة ... فكم غزَوْتَ ومـن أشياعك الظفـرُ

ومنها [من البسيط]:

قد أخلَقَتْني صُروفٌ أنت تعلَمُهـا ... وعـاد مـورِدُ آمـالي بهـا كَـدَرُ

وحُلْتُ لونًا وما بالجسم مـن سَقَمٍ ... وشِـبْتُ رأسًـا ولم يبلُغْنـيَ الكِـبَرُ

لم يـأتِ عبـدُك ذنبًـا يـستحقُّ بـهِ ... عَتْبًـا وهـا هُـو قـد وافـاك يعتـذرُ

ما الـذّنبُ إلَّا عـلى قـوم ذوي دَغَـلٍ ... وَفَى لهـم عهـدُك المعهـودُ إذ غـدَرُوا

لم أُوتَ مِـن زَمنـي شـيئًا ألَـذُّ بـهِ فلـستُ أعـرفُ لا كـاسٌ ولا وتَـرُ
ولا تملَّكنـــــي دَلٌّ ولا خَفَـــــرٌ ولا سَـبَى خَلَـدي غَـنْجٌ ولا حَـوَرُ
رضـاكَ راحـةُ نَفْسي لا فُجِعْتُ بـهِ فهْـو العِتـادُ الـذي للـدهرِ يُـدَّخَرُ
وهْو الـمُدامُ التـي أسـلو بهـا فـإذا عَـدِمتُها عَبَثَـتْ في قلبـيَ الفِكَـرُ

فلمَّا بلَغت الأبياتُ والدَه عفَا عنهما واستدعاهما إلى حضرته وأيِسَ من مُلكِ مالَقة.

وفي سنة تسع وخمسينَ وأربع مئة: كان القيامُ على اليهود بغَرناطة ومقتَلُ ابن نغرالةَ، وقُتل من اليهود أكثرُ من ثلاثة آلاف، واستؤصلت أموالُهم، ووُجِدت لابن نغرالةَ فيما وُجد له خِزانةٌ جليلةٌ من كُتبِ أشتاتِ العلوم الإسلاميَّة، وكان له ورَّاقونَ ينسخونَ له الكتُبَ بالنَفقاتِ والـمُرتَّبات[1].

ذكرُ ابتداءِ الدّولة الذَّنُّونيَّةِ بالأندَلس
واحتوائهم على مدينة طُلَيْطُلة

ذكَرَ أصحابُ التاريخ أنَّ بني ذي النُّون هم من قَبِيل من البربر الذين كانوا يخدُمونَ الدّولةَ العامريَّة، وأنَّ اسمَ جَدِّهم، وهو الحاملُ لهذا الاسم، إنَّما هو زَنُّون فتصحَّف بطُول المدَّة فصار ذا النون، وهو اسمٌ شائعٌ في قبائل البربر.

ولم يكنْ لهؤلاءِ القوم نَباهةٌ قديمًا ولا ذكرٌ إلَّا في دولة ابن أبي عامر، فإنَّهم تقدَّموا في دولته واشتُهروا، فكان منهم مَن يقودُ الجيوشَ ويَلِي الأعمالَ والبلاد، وكان منهم في آخِر أمَدِ الجماعة والٍ بكُورة شَنْت بِرْية، فلمَّا وقَعت الفتنةُ بالأندَلس كان الواليَ بمدينة طُلَيْطُلة وذَواتِها عبدُ الرحمن بن منيوه، وأدركَتْه مَنِيَّتُه في خلال ذلك فورِث نَظَره عبدُ الملِك بن عبد الرحمن بن منيوه، فأساء السيرةَ في الرعيَّة.

وكان أهلُ طُلَيْطُلةَ على قديم الدّهر أهلَ فتنةٍ وقيام على الملوك، فلم يرضَوْا سيرةَ هذا الفتى، فخَلَعوه ووَلَّوا على أنفُسِهم من يَنظُر في أمرِهم، ثمَّ إنَّهم نَقَموا عليه شيئًا

(١) خبر مقتل ابن نغرالة في الإحاطة ١/ ٤٣٩، كما تقدم.

فعزَلوه ووَلَّوا غيرَه، ثمَّ خَلَعوهُ، ثمَّ رأَوْا أن يُرسِلوا إلى ابن ذي النُّون لشَنْت بِرْيَةَ، فوجَّه إليهم ابنَه إسماعيلَ[1] بن عبد الرحمن بن ذي النُّون، فاستَولَى هذا الفتى على مُلك طُلَيْطُلَة وبلادِها، فساس أهلَ مملكتِه السياسةَ الـحَسَنة ورضُوا عليها.

وكان أكبرُ أهل طُلَيْطُلَةَ رجلًا يسمَّى أبا بكر ابنَ الحديديّ، وكان شيخَها والمنظورَ إليه بها من أهل العلم والعقل والدّهاءِ وحُسن النّظرِ في صَلاح البلد، وكانت العامَّةُ تعضُدُه وتقومُ دونَه، فكان هذا الفتى إسماعيلُ بنُ ذي النّون لا يقطَعُ أمرًا دونَه، ويشاورُه في مُهمّات أمورِه، فحسَدَه قومٌ من أهل طُلَيْطُلَةَ على منزلتِه عندَ أميرِهم فناقشوه وعادَوْهُ، وحضَرت منيَّةُ إسماعيلَ بن ذي النّون فوَلِي بعدَه ابنُه يحيى بنُ إسماعيل.

دولةُ يحيى بن إسماعيلَ بن ذي النُّون الملقَّبِ بالمأمون بمدينة طُلَيْطُلَةَ وذَواتِها[2]

لـمَّا ملَكَ يحيى بنُ ذي النُّون طُلَيْطُلَةَ جَرى على سيرةِ أبيه في استعمال قانون العدل، وجَرى معَ ابن الحديديِّ على سَنَن أبيه، فاستقامت طاعتُه وضَخُم مُلكُه، وكان يَلي نظَرَه من ناحية سُليمانَ بن محمَّد بن هود مدينةَ وادي الحجارة، فعارَضَه ابنُ هود فيها، وكان بعضُ أهلِها يَميلونَ إلى ابن هود وبعضُهم إلى ابن ذي النّون، فبعَثَ سُليمانُ بن هود جيشًا إليها أمَّر عليه ابنَه أحمدَ وليَّ عهدِه، فنازَلَـها وقاتَلَها، واستجاب له بعضُ أهلِها فأدخَلوه البلد.

وبلَغَ ذلك يحيى بنَ ذي النّون، فقامت قيامتُه وأسرعَ نحوَ وادي الحجارة ليُباشرَ ما جَرى من أمرِها، فجَرت بينَه وبينَ ابن هُود حروبٌ ووقائعُ كان الغَلَبُ فيها لابن هود، إلى أنْ فرَّ ابنُ ذي النّون أمامَه وانحصَر في مدينة طَلَبيرةَ بجيشِه، فنازَلَه أحمدُ بن هود وضيَّق عليه وكتَبَ إلى أبيه يُعلمُه بما تهيَّأ له عليه، فجاوَبَه أبوهُ بالرّجوع عنه، فرجَع ابنُ هود إلى سَرَقُسْطةَ، فلَجَّ ابنُ ذي النُّون في الفتنة ومُطالبةِ سُليمانَ بن هود، فأدّاه اللَّجَجُ

(١) المغرب ٢/ ١١.

(٢) المغرب ٢/ ١٢، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٠، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٤١.

والـجُنوحُ إلى الغَلَبة والإباية من الاهتضام إلى مُظاهرةِ النّصارى والتناصُر بهم، فاستمال القومسينِ الأشبينِ من وَلَد الطاغية شانْجُه بن غَرْسيّه، وبذَل لهما مالًا وذخائر وأخرجهما إلى نظرِ سليمانَ بن هودٍ ورعيّتِه من المسلمين بالثَّغر الأعلى قاصدينَ مكروهَ ابن هودٍ لإرضاء ابن ذي النّون، فانبَسطوا هنالك آمنينَ وجرَت خيولُهم كيف شاءت في بلاد المسلمينَ مطمئنِّين، ولاذَ منهم ابنُ هود ووَلَدُه بحصُونِهم وتَركَهم يَجُولونَ في الأرض، فلا أحدَ يصُدُّهم عن ذلك، وكان أوانُ الحصاد، فنزَلَ الـمُشركونَ بساحتِها نزولَ إقامة وحشَروا لها عُلوجَهم للحصاد والنُّـقْلان مدَّةً من شهرَيْنِ كاملَيْن، حتَّى استوعَبوا جميعَ ما فيها حصادًا ودَرْسًا ونُقلانًا إلى بلادِهم، والمسلمونَ ينظُرونَ إليهم لا يملِكونَ دفاعًا، ثمَّ انصرَف العدوُّ عنهم إلى أرضِه بعدَما قَتل وأسَر ودَمَّر، فقَوِي طمعُه فيهم وامتدَّت آمالُه إلى التغلُّب على بلاد المسلمين، إذ لم يقفْ أحدٌ في وجهه، وتمكَّن خلال ذلك يحيى بنُ ذي النُّون من العَبَث فيما يَليه من بلاد ابن هُود ولم يقصِّرْ في إفساد ما وَطِئ من أرض المسلمين.

ثمَّ دعَت الضرورةُ لابن ذي النُّون إلى محالفة الـمُعتضِد بن عبَّاد والدّخول في دعوتِه الهشاميَّة التي أنكرَها أبوه قديمًا من الدّخول في دعوة الـمُشبَّه بهشام، فاستحالت نيَّتُه عن ذلك، واستجابَ الآنَ لها ودَعا رعيَّتَه إلى الدّخول فيها، كلُّ ذلك طمعًا في نُصرتِه على مُعاداةِ سُليمانَ بن هُود، فوعَدَه ابنُ عبَّاد بالتناصُر والتظافُر، وأظهَرَ يحيى بنُ ذي النّون الدّخولَ في هذه الدّعوة الهشاميَّة وعَقَدَ البيعةَ على نفسِه وأجنادِه وأهل عملِه وأعلَنَ بالدعاءِ على منابرِه لهذا الموضوع بإشبيلِيَةَ، فذهب به الطمعُ الخائبُ كلَّ مذهب، وغَرَّه الأملُ واتّبَعَ الباطلَ. واشتَغل ابنُ عبَّاد عنه بما فُتح عليه من حربِ جارِه ابن الأفطَس من التعرُّض لبلادِه والطلب لثَغرِه، وزلَّت قَدمُ يحيى بن ذي النُّون في ذلك ولم يبلُغْ أملَه، وقد كان قرَّر عندَه مشيخةُ طُلَيْطُلة كابن مُغيث وابن الحديديّ بما لهم في ذلك من الصّلاح لبلادِهم، فصرَّفوا رأيَه في ذلك ورَدُّوا الأمرَ إليه فيه، وكان المتمِّمَ لذلك من قِبَل ابن عبَّاد وزيرُه أبو عَمْرٍو ابنُ الدّبّ الإشبيلي، ومن قبل يحيى بن ذي النون أبو عَمْرو ابن الحدَى، فعَقَد ابنُ الدُّبّ وابنُ الـحِدَى هذا الأمر، ورجَع الدعاءُ لهشام بطُلَيْطُلة

بحضرة ابن الدُّبّ، وسار ابنُ الدُّبَ إثْرَ ذلك إلى إشبيلِيَةَ ومعَه وفدُ طُلَيْطُلة، فجاءوا ابنَ عبَّاد بمجدِ الدّهر فيما ظنَّه، واستطار بذلك فرحًا وقدَّر أنّه لم يبْقَ عليه بعدَ طُلَيْطُلَةَ أحد.

وظاهَرَ سليمانُ بن هود النّصارى أيضًا: فرذلندَ بن غَرْسِيّة ورُدْمير بن شانْجُه بن غَرْسِيّة، وكان بين هؤلاء الإخوة من التنافس والتباعد والعداوة والحرب أشدَّ ما بين اثنيْنِ فراسَلَ ابنُ هودٍ فرذلندَ الطاغيةَ وبعَثَ إليه بأموالٍ جمَّةٍ وهدايا جليلة، وسألَه الخروجَ إلى بلدِ ابن ذي النُّون بجيشه، فخَرجَ بعددٍ عظيم إلى ثغرِ طُلَيْطُلة فأفْنَى حُماتَه ورجالَه وعاث في بلادِهم، وصبَّ اللهُ تعالى على أهل الثّغور من الجُبْن عن العدوِّ ما لا كَفاءَ له، فلا يكادُ أحدٌ منهم يَلقَى نَصرانيًّا في قرار من الأرض إلّا ويُولّيه الدُّبُرَ غيرَ مستحيي من الله سبحانه من الفِرار أمامَه، حتَّى تعوَّد أعداءُ الله ذلك منهم فلا يَعُدُّونَ حَبْلَهم شيئًا، فذهبت أكثرُ أموال أهل طُلَيْطُلة بتكرُّر الغاراتِ عليهم وفشَت جَوائحُهم وجَلا كثيرٌ من أهل ضِياعهم وأطرافهم إلى قاعدتهم.

واضْطُرَّ أهلُ طُلَيْطُلة أن يبعَثوا إلى سليمانَ بن هود يطلُبونَ منه الـمُصالحَةَ والـمُهادنة، ووَصَلوه إلى سَرَقُسْطة فدخَلوا عليه ووعَظُوه وذكَّروه اللهَ سبحانه، وعرَّفوه بما تهيَّأ للعدوِّ من النّصر والظّفَر على المسلمينَ وما أفسَدَ من بلادهم وما ظَفِرت به أيديهم من أموال المسلمين، وعزَموا عليه في الصُّلح الذي يُزيلُ طمعَ العدوِّ فيهم، فأظهرَ لهم قَبولَ ما دعوه إليه، ورجَعوا إلى أميرهم يحيى بن ذي النّون وهو مُترَدِّدٌ في الـمَيْل إلى وِفاق النصارى، فنَهَوهُ عن ذلك، فلاقوا منه انقيادًا، ورَدَّ العدوَّ الذي كان معَه إلى بلادِه.

ثمَّ إنَّ ابنَ هود مكَرَ بابن ذي النّون واستَخرجَ طائفةً من النّصارى الـمُظاهرينَ له الذين يَستطيلُ بهم وركِبَ بجيشِه فيهم مُنتهزًا فُرصتَه، فأتى بابَ مدينة سالم المستضافة إلى ابن ذي النّون باسطًا الغارةَ مستطيلًا بجمعِه، فخرَجَت خيلُهم لدفاعِه فهزَم جميعَهم وقَتل منهم جُملة، ومال سُليمانُ إلى الحصون التي كان انتزَعَها ابنُ ذي النّون من يدَيْه فاستردَّها وأثَّر في أعمال ابن النُّون آثارًا قبيحة، وكان معَ سُليمانَ بن هود عبدُ الرحمن بنُ إسماعيل بن ذي النّون أخو يحيى الذي نازَعَه سُلطانَه، فدلَّه على عَوَراتِه وبالَغَ في إذايتِه، ويحيى في هذا كلِّه قد ذهبَ به اللَّجَجُ كلَّ مذهب، فأبرزَ أموالَه وانحنَى على ذخائرِه،

فوجَّه بكثير منها إلى الطاغية غَرْسية، فخرج غَرْسِيّةُ الـمُظاهرُ لابن ذي النّون في جُموع جمَّة من الكَفَرة إلى الثّغر الأعلى من عمل ابن هود، وجَرت خيلُه وسراياه بكلِّ سبيل وإلى كلِّ جهة مُناغيًا لأخيه فرذلندَ فيما فعَلَه في عمل ابن ذي النّون، فأخلَّ بأعمال ابن هود ما بين تُطيلَةَ ووَشْقةَ، وجَعْجَعَ بأهل الثّغر الأعلى فحشَى قلوبَهم رُعبًا وخوفًا، ثمَّ أتَى قلعةَ قَلَهُرّة ـ من ثغرِ تُطِيلة ـ بجَمْعِه، فلم يزُلْ عنها حتَّى فتحَها، وذلك في صدر عام سبعةٍ وثلاثين، وابنُ هود في هذا كلِّه قد حاد عن لقائه على ما كان عندَه في ذلك الوقت من الجموع ووفورِ الأعداد، واقتصَر على ضَبْط الحصون والقلاع وشَحْنِها بالأطعمة والرّجال، وخَلّى بين عُداة الله والبسائط يُسعِّرونَها نارًا.

وخَرج فرذلندُ الطاغيةُ أيضًا الـمُظاهرُ لسُليمانَ بن هود، وهو فرذلندُ بن شانْجُه أميرُ جِلِّيقيَّةَ، إلى ثغرِ طُلَيْطُلة في خَلْق كثير، وجاءه ابنُ عمّ ابن ذي النون ليَدُلَّه على عَوراتِ البلاد، وتهارَبَ الناسُ أمامَه من كلّ جهةٍ إلى طُلَيْطُلَةَ حتَّى غُصَّت بهم واضْطَرَبت أحوالُ أهلِها، كلُّ ذلك وأميرُهم يحيى بنُ ذي النّون غائبٌ عنهم بجيشِه في مدينة سالم مُقيمٌ بها لئلَّا يدخُلَها ابنُ هود، فلمّا تيقَّن بخروج هذا اللّعين إلى عمله وضجَّت رعيَّتُه إليه، جاء في جموعه، فلم يصنَعْ شيئًا ولا قَدَرَ على لقائه.

واضْطَربت أحوالُ الناس بطُلَيْطُلَةَ خلالَ ذلك وغَلَت، فلمّا رأى ذلك أهلُ طُلَيْطُلة أرسَلوا إلى الطاغية فرذلندَ المظاهر(١) لابن هود ليعقِدوا معَه صُلحًا على بلدِهم طُلَيْطُلَةَ وما حولَها على مالٍ يؤدُّونَه إليه ويرحَلُ عنهم، فقال لهم: ما أُجيبُكم إلى سِلم ولا أُعفيكم من حرب حتَّى تفعلوا كذا وكذا، واشتَرطَ عليهم شروطًا لا يقدِرونَ عليها، فقالوا: لو كنَّا نقدِرُ على هذه الأشياء وهذه الأموال لَنفَقْناها على البرابرة واستدعَيْناهم لكشْفِ هذه الـمُعضلة، فقال لهم فرذلند: أمَّا قولُكم: لا تَقْدِرونَ على هذه الأموال فذلك مُحال، فلو كُسِفَ سقوفُ بيوتكم لَبَرِقَ ذهبًا لكثرتِه، وأمَّا استدعاؤكم البرابرةَ فأمرٌ تكثُرونَ به علينا وتهدِّدونَنا به ولا تقدِرونَ عليه معَ عداوتِهم لكم، ونحن قد صَمَدْنا إليكم ما نُبالي مَن أتانا منكم، فإنَّما نطلُب بلادَنا التي غلبتُمونا عليها قديمًا في أوَّل أمرِكم، فقد سكنتُموها ما

---

(١) في م: «الظاهر»، ولا معنى لها.

قُضِيَ لكم وقد نُصِرنا الآنَ عليكم برداءِتِكم فارحَلوا إلى عدوِتِكم واترُكوا لنا بلادَنا فلا خيرَ لكم في سُكناكم معَنا بعدَ اليوم ولن نرجعَ عنكم أو يَحكُمَ اللهُ بيننَا وبينكم، فلم يجدْ رسُلُ أهل طُلَيْطُلة عندَ فرذلندَ وأصحابِه النّصارى قَبولًا لِـما عَرَضوه عليهم من الصُّلح.

وكان أخو هذا العِلج صاحبَ يحيى بن ذي النّون مُظاهرًا له، فخَرجَ في هذه السنة إلى بلاد ابن هُود فوطئها وأغلَظَ في إهلاكِها وأخلَّ بالثّغر الأعلى وفعَلَ فعْلَ أخيه فرذلندَ في نظرَ ابن ذي النّون.

ودامت الفتنةُ ما بينَ هذَيْن الأميرَيْن: ابن هُود وابن ذي النُّون على هذه الحال من سنة خمسٍ وثلاثينَ إلى آخِر سنة ثمانٍ وثلاثين وأربع مئة، وانقطعت بموتِ سُليمان بن هود في السنة المذكورة.

ولـمَّا تنفَّس مخنَّقُ ابن ذي النُّونِ بموت سُليمانَ المذكور، جعَل يَطلُبُ جارَه ابنَ الأفْطس صاحبَ بَطَلْيَوْس، فجرت له معَه حروبٌ كثيرة.

ولـمَّا اشتدَّت أمورُ بني برْزال أصحابِ قَرَمُونَةَ معَ عبَّادٍ المعتضِد وضاقت أحوالُهم، خاطَب رئيسُهم العزُّ بنُ إسحاق المأمون يحيى بنَ ذي النُّون يَستغيثُه منَ ابن عبَّادٍ وألَحَّ عليه ووَالَى كتُبَه على أن يُعطيَه قَرَمُونةَ وسائرَ نظَرِها ويُعطيَه المأمونُ من بلادِه عِوضًا، فاتَّفقا على ذلك. وخرَجَ العزُّ بنُ إسحاق من قَرَمُونةَ إلى حِصنِ الـمُدوَّر، وكان من جُملة بلادِ ابن ذي النُّون فأخْلاهُ له وحصَّل بقَرَمُونةَ رجالَ ابن ذي النُّون.

ولـمَّا بلَغَ ذلك ابنَ عبَّاد كتَبَ إلى ابن ذي النُّون في السّرّ يقولُ له: إنَّ قَرَمُونَةَ قريبةٌ من بلدي، وهي أليَقُ بي لأنَّها بعيدةٌ من بلادِك، فاصرِفْها إليَّ وتكونُ يدي ويدُك واحدةً على مدينة قُرطُبَةَ حتَّى تكونَ لك، وكانت مدينةُ قُرطُبَةَ أُمنيَّةَ ابن ذي النُّون، فأجابَه ابنُ ذي النُّون إلى ذلك وتوثَّقَ منه بالأيمان، وأخْلى له قَرَمُونةَ فرجَعت لابن عبَّاد، فشَحَنَها بالأطعمة وقوَّاها بالرّجال.

وغدَر ابنُ عبَّاد بابن ذي النُّون ولم يفِ له بشيء، فاغتاظَ ابنُ ذي النُّون، ووَجَّه إلى قُرطُبَةَ عسكرًا عظيمًا، فجَرت لأهل قُرطُبَة معَه حروبٌ عظيمة وضاقت قُرطُبَةُ بأهلِها وانقطعت عنهم الـمَرافق، فحينئذٍ استغاثوا بمحمَّدِ بن عبَّاد وهو المعتمِد، وكان لَقَبُه الظافر، فأتاهم مُغيثًا لهم، فقاموا على أميرِهم عبد الملك بن جَهْوَر ومَلَكَها جيشُ المعتمِدِ كما تقدَّم.

وفي سنة ستّينَ وأربع مئة: توفّي المعتضِدُ بالله عبَّادُ بن محمَّد بن عبَّاد صاحبُ إشبيلِيَة في جُمادى الآخِرة وسنُّه إذ ذاك سبعٌ وخمسونَ سنة[١].

قال ابنُ القطَّان: كان ذا سَطوةٍ كالمعتضِدِ العبَّاسيِّ ببغداد، وكان ذا سياسةٍ ورأي، يُدبِّرُ مُلكَه من دارِه، وكان يغلِبُ عليه الجُود، فلم يُعلَمْ في نُظرائه أبذلُ منه المالَ، وكان لأهلِ الأدب عندَه سوقٌ نافقة، وله في ذلك همَّةٌ عالية، ألَّفَ له الأعْلَم أديبُ عصرِه ولُغَويُّ زمانِه شَرْح الأشعارِ الستَّة وشَرْح الـحَماسة، وألَّف له غيرُه دواوينَ وتصانيفَ لم تخرُجْ إلى الناس.

قال أبو نَصْر[٢]: وهذه بقيّةٌ مُنتماها في لَـخْم، ومُرتَماها إلى مَفْخَر ضَخْم، وجَدُّهم المنذرُ ابنُ ماءِ السّماء، ومطلعُهم من جوّ تلك السماء، وبنو عبَّادٍ ملوكٌ أنِسَ بهمُ الدّهر، ولِبسَ بقُربِهم الفخر، وعَمَروا رَبْعَ الـمُلك، وأمَروا بالحياةِ والـهُلك، ومعتضِدُهم هذا مَلِكٌ جرَّد سيفَه، وأورَدَ العِدى حتفَه، لم يبرَحْ من قصرٍ ولا رَوْضٍ نضير، ولم يُسرِعْ له غيرُ رأي وتدبير، وجيوشُه تفتِكُ فتكاتِ الآساد، وتنتزِعُ الأرواحَ من الأجساد، وتُثمرُ بالجماجم ذوابلَه، وتقتنصُ العربُ والعجَمُ حبائلَه، والبلادُ باسمه تُفتحُ مغالقُها، والعِدى بحُكمِه تنثالُ بين يدَيْه مفارقُها، حتَّى استقرَّ مُلكُه أعظمَ استقرار، وأقرَّ معانِدُه بالرِّقِّ لذلك الحدِّ الـمرهفِ المعار.

وقال الـحُمَيديُّ في كتابه[٣]: كان أبو عَمْرٍو عبَّادٌ صاحبُ إشبيلِيَةَ من أهل الأدبِ البارع والشِّعر الرائع، وقد رأيتُ له سِفْرًا صغيرًا في نحوَ ستّين ورقةً من شعرِ نفسِه، فمِن قولِه [من المنسرح]:

كــأنَّما ياسَــمينُنا الغَــضُّ ... كواكــبٌ في الــسماء تبــيَضُّ
والطَّــرقُ الــحُمرُ في جوانبِــهِ ... كخــدِّ عــذراءَ مــسَّه عــضُّ[٤]

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٥١.

(٢) هو الفتح بن خاقان، والنص في كتابه «مطمح الأنفس»، ص٧٠ باختلاف لفظي.

(٣) جذوة المقتبس (٦٧٢).

(٤) هذا آخر ما وجد من أخبار الأندلس، ولا شك أن نقصًا في النسخ الخطية قد وقع بعد هذا، فقد وعد المؤلف بإتمام ذلك إلى سنة ٤٧٨هـ كما ذكر في مقدمة كتابه.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دار الغرب الإسلامي
تـونـس
لصاحبها : الحبيب اللمسي
6 نهج الدالية بالفي - تونس - فاكس: 0021671396545 - خلوي: 216-96-346567
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS

الرقم: 537/ 1000-10- 2013 تونس
التنضيد: المؤلف
الطباعة: برنت شوب - بيروت

AL-BAYAN AL-MUGHRIB

By

Abu Al-Abbas Ibn Athari

(Died after 712 AH)

Vol. 2

Edited with a Critical Introduction

By

Prof. Bashar A.Marouf & Mahmoud B.Awad

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري

المتوفى بعد سنة ٧١٢ هـ

المجلد الثالث

حققه، وضبط نصه، وعلق عليه

بشار عواد معروف

محمود بشار عواد

دار الغرب الإسلامي

تونس

الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب. 677 تونس 1035

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

المجلد الثالث

[ابتداءُ أمرِ اللَّمتُونيِّين][1][2]

[والـمُوجِبُ لخروجهم عن الصّحراءِ إلى وطن المغرب، أنّ أحدَ بني جدالةَ[3]، ويُعرَفُ بيحيى بن إبراهيمَ من جدالة، كان قد توجَّه لأداءِ فريضة الحجّ واجتاز في إيابه على مدينة القَيْروان، وذلك سنة أربعين وأربع مئة، فحضَر بها مجلسَ الفقيه المدرِّس أبي عِمرانَ الفاسيّ، فسأله عن قبيلتِه ووطَنِه، فذَكَر أنه من الصّحراءِ من قبيلة جدالة، إحدى قبائل صُنْهاجة، فقال له الفقيهُ: ما مذهبُكم؟ فقال له: ما لنا عِلمٌ من العلوم ولا مذهبٌ من المذاهب، لأننا في الصّحراءِ منقطِعين لا يصلُ إلينا إلّا بعضُ التُّجّار الجُهّال، حِرفتُهم الاشتغالُ بالبيع والشِّراء ولا عِلمَ عندَهم...][4].

... ويُشتَهرون، وفينا أقوامٌ على تعليم العلوم يحرِصون، وعلى التفقُّه في الدِّين من الله يرغَبون، فعَسى يا سيِّدَنا تنظُر في مَن يتوجَّهُ معي إلى بلادنا ليعلِّمَنا دينَنا، فقال له الفقيه: سوف أجتهدُ لك في ذلك إن شاء اللهُ تعالى؛ فعَرَضَ الفقيهُ الأمرَ على الطلَبة هنالك، فلم يجدْ أحدًا يوافقُه على ذلك، لأجْل مشقّة السَّفَر البعيد، والانقطاع في

---

(١) هذه القطعة التي تنتهي في أوائل حوادث سنة ٥٤١هـ كانت في أصلها أوراقًا عثر عليها الأستاذ ليفي بروفنسال، ونشر منها القسم الخاص باستيلاء السيد الكَنْبيطور على بلنسية. ثم قام الأستاذ هويسي ميراندا بنشر سائرها في مجلة «Hesperes» سنة ١٩٦٠م، ثم أعاد نشرها صديقنا العلامة الأستاذ إحسان عباس، يرحمه الله، في دار الثقافة استنادًا إلى نشرة ميراندا وعلق عليها بعض تعليقات مفيدة أفدنا منها، كما أصلحَ بعضَ أخطائها، وقد أصلحنا بعض ما فيه من غلط الطبع، ثم قيدناه بالشكل، فإن مثل هذه النصوص لا تُفهم ولا تُضبط إلا بذلك.

(٢) كل ما بين حاصرتين فهو من زيادات الناشرين للتوضيح حسبما يأتي التعليق عليه.

(٣) وتكتب «كدالة» فهي كاف أعجمية، وهي إحدى قبائل صنهاجة.

(٤) هذا النص من الحلل السندسية، وهو أيضًا باختلاف لفظي في الروض ٨٠، والبكري ٢/ ٨٥٨-٨٥٩، وترجمة أبي عمران الفاسي في عيون «الإمامة ونواظر السياسة» لأبي طالب المرواني، ص١٦٧ وفيه مصادر ترجمته واسمه موسى بن عيسى بن أبي حاج. والتاريخ المزعوم حول هذا اللقاء لا يصح البتة فإن أبا عمران الفاسي توفي سنة ٤٣٠هـ كما هو مشهور، فإن كان مثل هذا اللقاء قد تم فإنه قبل هذا التاريخ.

الصَّحارى، فدُلَّ الفقيهُ على رجُل من فقهاءِ الغَرْب الأقصى اسمُه واجاج[1]، فأعطاه كتابًا يوصلُه إليه يؤكِّدُ في الاجتهاد في ذلك عليه. فلمّا وصَل يحيى بنُ إبراهيمَ إلى أقصى المغرب وجَدَه في موضع يقال له: «ملكوس»، واجتَمع معَه فيه، وأعطاه كتابَ الفقيه أبي عمران، فرحَّب به وأكرَمَه، وكلَّمه يحيى بما أراد أن يُكلِّمَه، وأعلَمَه بوصيّة الفقيه أبي عِمرانَ إليه، وتوكيدِه عليه، فاختار له شخصًا يقال له: عبدُ الله بنُ ياسين، فسار معَه إلى قبيلة جدالة، فاجتَمع عليه عندَهم نحوُ سبعينَ شخصًا ما بينَ كبيرٍ وصغيرٍ من فقهائهم ليُعلِّمَهم ويُفقِّهَهم في دينِهم، فانقادوا له انقيادًا عظيمًا، ووالَوْه في ابتداءِ الأمر تكريمًا، وأقاموا معَه على ذلك مدةً كبيرة، واجتَمع عليه منهم أعدادٌ كثيرة، إلى أنْ أمَر عبدُ الله المذكورُ لقبائل جدالةَ بغَزْو قبائل لَـمْتُونة، فحارَبَهم جدالةُ حتّى غَلَبوهم ودخَلوا في دعوة عبد الله بن ياسين، وغزَوْا معَهم سائرَ قبائلِ الصّحراء وحارَبوهم، فقَوِي أمرُ جدالةَ وظهورُهم إلى أن مات يحيى بنُ إبراهيم.

وبقيَ فيهم عبدُ الله بن ياسين يمتثلونَ كلَّ ما به يَأمُرُهم مُنقادِينَ لأمرِه ونهيِه، إلى أنْ نَقَضَ عليه شخصٌ منهم، اسمُه: الجوهرُ بن سُحَيْم[2]، شيئًا من أحكامِه وجَدَ فيها تناقضًا، فتوافَقَ معَ بعض رجالٍ من كُبرائهم فعزَلوه من الرأي والـمَشُورة، وقَطَعوا منه مالَهم، وانتَهَبوا دارَه وهدَموها، وأخَذوا ما كان فيها، وخَرج عبدُ الله بنُ ياسين عنهم خائفًا منهم.

وكان أميرَ لَـمْتُونةَ يومَئذٍ يحيى بنُ عُمرَ بن بولنكاينَ[3] اللَّمْتُونيُّ، فرحَل إليه عبدُ الله المذكور، فتلقَّاه يحيى بنُ عُمرَ بأحسنِ قَبول من إقباله، وأخَذ معَه في أمورِه وأحوالِه، فتوجَّه عبدُ الله بن ياسين إلى شيخِه واجاجَ الذي دخَل يحيى بنُ إبراهيمَ الجداليُّ عليه، وقيل: إنه كتَبَ ولم يتوجَّه بنفسِه إليه، فأعلَمَه بما جَرى في جدالَة، وبيَّنَ له

---

(١) ويكتب «واكاك» لأن الجيم فيه كاف أعجمية، وفي المسالك للبكري ٢/ ٨٥٩: «وجّاج بن زلوي».

(٢) في المسالك للبكري ٢/ ٨٥٩: «سكّم».

(٣) سماه البكري: «يحيى بن عمر بن تلاجاجين» (المسالك ٢/ ٨٥٩)، وسماه القلقشندي: «يحيى بن عمر بن واركوت بن ورتنطق بن منصور بن مرصالة (صبح الأعشى ٥/ ١٨٤).

أمرَه معهم وحالَه، فشَقّ على الشّيخ واجاجَ المذكور ما أعلَمَه من ذلك، فكتَبَ إلى بعض أشياخ جدالةَ يُعاتبُهم على ما صَدَر لعبد الله بن ياسين منهم وما بَلَغَه من فعل المشغِّبينَ عليه وهو مقيمٌ بينَهم، وأخَذ في ذلك أخْذًا كُلِّيًا عليهم، وعاتَبَ عتابًا شافيًا إليهم، لكونهِم كانوا قدِ انقادوا إليه، ثم انتَقَدوا ما شيَّعه عدوُّه عليه، فلمّا وصَل جوابُ الشّيخ واجاجَ من أشياخ الجداليِّينَ المذكورين، مستعذِرينَ له على تقصيرهم في حقِّ عبدِ الله بن ياسين، أمَرَه بالرّجوع إلى تلك القبائلِ الصَّحراوية، وكتَبَ لأشياخِهم يُعلمُهم أن مَن خالَفَه قد خالَفَ الجماعة.

بعضُ أخبارِ عبد الله بن ياسين معَ لَـمْتُونةَ في ابتداءِ أمرِهم

وذلك أنه لـمّا استقرَّ عبدُ الله بن ياسين عندَ لَـمْتُونة، انقادوا له وأطاعوه، واحتال على الذين شاغَبوا عليه في جدالةَ فقتَّلهم، وأمَرَ بقتل منِ استوجَب القتلَ عندَهم، فأجابتْه بعضُ القبائل الصَّحراوية ودخَلوا في دعوتِه والتَزَموا السُّنّةَ به، وكان أشدَّهم انقيادًا له أميرُ لَـمْتُونةَ يحيى بنُ عمر، فكان يَخرُجُ معَه معَ قبائل لَـمْتُونة لمحاربة بعض القبائل الذين لم يَخرُجوا تحتَ طاعتِه، إلى أن نَهَضوا إلى قبيلة لَـمطةَ فسألوهم ثُلُثَ أموالِـهم ليَطِيبَ لهم الثُّلُثانِ الباقيان ـ كذا سنَّ لهم عبدُ الله بنُ ياسين في الأموالِ المختلَطة ـ فأجابوه إلى ذلك ودخَلوا معَهم في دعوتِه مدةً كبيرة، وتقدَّم يحيى بنُ عُمرَ اللَّمْتُونيُّ على قبيلة مَسُوفةَ وغيرِها.

وكان عبدُ الله بنُ ياسين قد دخَل بلادَ الأندَلس في دولة ملوك الطوائف، فأقام بها سبعةَ أعوام، وحصَل فيها على علوم كثيرة، ثم رجَع إلى المغرب الأقصى فمرَّ بتامَسْنا فوجَد فيها أُممًا لا تُحصَى أكثرُهم تحتَ أُمراءِ البَرْغَواطة[1]، وكان عسكرُ أمراءِ بَرْغواطة أكثرَ من ثلاثةِ آلاف، وانضاف إليهم من سائر القبائل، ما بينَ فارس وراجِل، أزيدُ من عشرينَ ألفًا من جُراوةَ وزغاوةَ ومَطْغَرةَ والبَرانِس وركُونةَ وغيرِها.

وكان أهلُ المغرب يتولَّوْنَ أمورَ بلادِهم، وأمراؤهم يتولَّوْنَ الإمارةَ بينَهم، إلى أن تغلَّب كلُّ شخصٍ منهم على موضعِه، كما فعَل ملوكُ طوائفِ الأندَلس. فمرَّ عبدُ الله بنُ

---

(١) حول ضبط «برغواطة» ينظر تاريخ الإسلام ١٠/ ٥٤٤.

ياسين ببلاد الـمَصامِدة بعدَ مُنصَرَفِه من الأندَلس فوجَدهم يُغِيرونَ بعضُهم على بعض، يغنَمونَ الأموال ويقتُلونَ الرجال ويَسبُونَ الحَريم، ولا يرجِعونَ إلى طاعة إمام. فكان من عبد الله بن ياسين بعضُ الإلهام أن قال لبعضِهم: ألا تعرِفونَ الله ربّكم ومحمدًا رسُولَكم عليه أفضلُ الصّلاة وأزكى السلام؟ فقالوا له: نعَمْ، عرَفْنا اللهَ ربَّنا ومحمدًا نبيَّنا ﷺ، فقال لهم عبدُ الله: فما لكم بدَّلتُم وغيَّرتُم؟ هلّا قدَّمتُم عليكم إمامًا يَحكُمُ بينكم بشريعة الإسلام وبسُنّة النبيِّ عليه السلام؟ فقال له بعضُ أشياخ المصامدة: لا يرضى أحدٌ منّا ينقادُ إلى حُكم أحد من غير قبيلِه، فترَكَهم ورحَل عنهم إلى بلاد جُزولة، فكان من أمرِه معَ يحيى بن إبراهيم وجدالةَ ما تقدَّم ذكْرُه. ثُم رحَل من جدالةَ إلى لَـمْتُونة، فانقادوا له، وكان أميرُهم يحيى بنُ عُمر أشدَّ انقيادًا له كما تقدَّم ذكرُه. قال بعضُ المؤرِّخينَ في «المجموع المفترق» وفي كتُبِ غيرِ ذلك، إنّ بعدَ الأربعينَ والأربع مئة قامت قبائلُ في الصَّحراء من صُنْهاجةَ يُعرَفونَ ببني وارِث وخلفَهم لَـمْتُونةُ وجدالة، وهم يُجاورونَ البحرَ، ليس بينَهم وبينَه قَبِيلٌ غيرُهم، وهذه الثلاثةُ قبائلَ في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوةِ الحقّ ورَدِّ المظالم وقَطْع الـمَغارم، وهم متمسِّكونَ بالسُّنة.

وكان الذي شَرع فيهم ذلك، ودلَّهم على أرشدِ المسالك، عبدُ الله بنُ ياسين، وأولُ ما أخَذت لـمتُونةُ من البلاد بلادَ دَرْعة.

قال أبو عُبيد رحمه الله(١): وكان للمتُونةَ في قتالهم في ابتداءِ أمرِهم شدّةٌ وجَلَد، وليس كذلك لغيرهم، وكانوا يختارونَ الموتَ على الانهزام ولا يُحفَظُ لهم فِرارٌ مِن زَحْف، وكان قتالُهم على النُّجُب أكثرَ من الخَيْل وأكثرُهم مترجِّلونَ على أقدامِهم صفوفًا صفًّا بعدَ صفّ، يكونُ بأيدي رجال الصفِّ الأول القَنا الطِّوال، وكانت لهم رايةٌ يقدِّمونَها أمامَ الصُّفوف، فهم يقِفونَ ما وقَفت منتصبة، وإن أمالَها إلى الأرض جَلَسوا، فكانوا في ذلك أثبتَ من الهضاب، فمَن فَرَّ أمامَهم سَلَبوه ولم يقتُلوه، ويقتُلونَ الكلاب، ولا يَستصحِبُونَ شيئًا منها في سَكَناتِهم ولا في حَرَكاتِهم، وكان يحيى بنُ عُمر يمتثلُ أمرَ عبد الله بن ياسين امتثالًا عظيمًا، ولقد أخبَرَ جماعةٌ عنهما أنّ عبدَ الله قال له في بعض الحروب: أيُّها الأمير، إنّ عليك أدبًا، فقال له يحيى: وما الذي أوجَبَه عليّ؟ فقال له

(١) هو أبو عبيد البكري صاحب كتاب المسالك، والخبر فيه ٢/ ٨٦٠.

عبدُ الله: لا أخبرُك حتى آخُذَ حقَّ الله بك، فحكَّمه في نفسِه وضَرَبه بالسّوط ضَرَباتٍ في رجلِه ثم قال له: إنّ الأميرَ لا يدخُل القتالَ بنفسِه؛ لأنّ حياتَه حياةُ عسكرِه وهلاكَه هو هلاكُهم.

بعضُ أخبارِ الأمير أبي زكريّا يحيى بن عُمر أمير اللَّمتُونيِّين وسببُ تسميتِهم بالـمُرابِطين وخروجِهم منَ الصَّحراء إلى سِجِلْماسة ودَرْعة

كان هذا أبو زكريّا مُنقادًا في جميع أمورِه لإمامة عبد الله بن ياسين، فقدَّمه بعسكرِه وعبدُ الله في مقدِّمته، وهو في الحقيقة الأميرُ الذي يَأمُرُ وينهى. وكان يَلي لَـمْتُونةَ جبلٌ فيه قبائلُ من البربر على غيرِ دين الإسلام، فدَعاهم عبدُ الله بنُ ياسين إلى الدِّين فامتَنَعوا له، فأمَرَ يحيى بنَ عُمر بغَزْوِهم فغَزاهم لمتُونةُ، وسَبَوْهم وقسموا سبيَهم بينَهم، وأخَذ أميرُهم خُمسَهم، وهُو أولُ خُمس قَسَمه اللَّمتونيونَ في صَحرائهم، وكان قد فُقِد في ذلك الوقت من عسكرِهم أكثرُ من نصفِ عددِهم، وكان إمامُهم عبدُ الله بنُ ياسين يُصبِّرُهم إلى أنْ ظَهَروا بأعدائهم، فسمّاهم عبدُ الله بالـمُرابِطين، وسمّى أميرَهم يحيى بنَ عُمر أميرَ الحق. ووَقَفْتُ على كتابٍ قديم... لـمّا بعَثَ الفقيهُ أبو محمد عبدُ الله بن ياسين لأهل هذا الجبل الـمُوالي لبلاد لَـمتُونةَ يُدعوهم للدخول في الإسلام وشريعة محمد عليه السلام وأن يُؤدُّوا ما فَرَضَ اللهُ عليهم من الزّكاة فامتَنعوا وقَتلوا رسُلَه، فأمَرَ لمتُونةَ بغَزْوِهم، فخَرج إليهم وصَعِد عليهم الجبلَ وقاتَلَهم ثلاثةَ أيام قتالًا...[1] مات من لـمتُونةَ فيه عددٌ كثير، وصبرَ الفريقانِ صبرًا عظيمًا، فلمّا كان في اليوم الرابع جَمَعَ عبدُ الله بنُ ياسين أصحابَه لمتُونةَ وقال لهم: إذا احتسَبْنا أنفُسَنا في حقِّ الله وسُنّة نبيِّنا محمد ﷺ، وأراكم قد أعياكم حربُ هؤلاءِ المشركين ولم يأمُرْنا اللهُ أن نترُكَهم إذ...[2] فاستعينوا بالله ربِّكم ينصُرْكم عليهم، فخَرَجت لـمتُونةُ في اليوم الرابع، وكان...[3] أسبغ...[4]

---

(١) فراغ في الأصل.

(٢) كذلك.

(٣) كذلك.

(٤) كذلك.

وعَزَم على الحرب، فحَمِي الوَطِيسُ بين الفريقَيْن، واشتدّت الحربُ إلى أنِ انهزَم أعداؤهم وقَتلوهم قتلًا ذَريعًا وسَلَبوا أموالَهم وسَبَوْا نساءَهم وأبناءهم...[1] وعادوا إلى بلادِهم، فأمَرَهم إمامُهم عبدُ الله بنُ ياسين بإعطاء الخُمس لأميرِهم يحيى بن عمر...[2] وأخَذوه.

ولـمّا ظَهَر لعبد الله بن ياسين استقامةُ لمتُونَةَ وجِدُّهم واجتهادُهم، أراد أن يُظهِرَهم ويملِّكَهم بلادَ المغرب، فقال لهم: إنّكم قد غَزوتُم ونَصرتُم دينَ محمد ﷺ، وقد فتَحتُم ما كان أمامَكم وستفتحونَ إن شاء اللهُ ما وراءكم، فأمَرَهم بالخروج من الصّحراءِ إلى سِجِلْماسة ودَرْعة وأهلِها يومَئذٍ تحتَ طاعة زَناتة الـمَغْراويِّين وأميرِهم مسعودِ بن وانُودين وذلك بعدَما خاطَبوهم فلم يُجيبوهم إلى ما طَلَبوا منهم، فغَزَوْهم في جيش كثيف وأكثرُهم على النُّجُب رُكبانًا[3] ومنهم رِجالًا وفُرسانًا، فقاتَلَهم لمتُونةُ إلى أن غَلَبوهم، فطَلَبوا العفوَ منهم وأدخَلوهم سِجِلْماسة، فقيل: إنّهم قَتلوا مسعودَ بن وانُودين أميرَهم، وقيل: بل فرّ أمامَهم وأقام بها الأميرُ يحيى بنُ عُمرَ مدةَ أشهرٍ معَ إخوانِه اللَّمتُونيِّين.

ثم تَخلَّف جماعةٌ منهم ورحَل منها معَ إخوانِه إلى الصّحراء لأجْل جدالةَ أعدائهم، وبعدَ ذلك زَحفت زَناتةُ الـمَغْراويّونَ على سِجِلْماسة، فدخَلوها وقَتلوا مَن كان بها من اللَّمتُونيِّين في المسجد الجامع، فقيل: إنّ ذلك كان في السنة ستٍّ وأربعين وأربع مئة[4]، وقيل: في سنة ثمان وأربعين.

ثم بعدَ ذلك نَدِم أهلُ سِجِلْماسةَ على ما فُعِل معَ لمتُونة، وتَواتَرت رُسُلُهم على عبد الله بن ياسين يَذكُرونَ أنّ زَناتةَ الـمَغْراويِّينَ [زحفت إليهم][5]، وأنهم هم الذين فَعلوا ما فَعلوا وقَتلوا مَن قَتلوا وطَلَبوا الوصُولَ إليهم والقدومَ عليهم ليأخُذوا ثأرَهم منهم، فنَدَب عبدُ الله بنُ ياسين اللَّمتُونيِّين وغيرَهم [إلى غزوِ زَناتةَ ثانيةً][6]، فخالَفَه

---

(١) فراغ في الأصل.

(٢) كذلك.

(٣) ذكر البكري أن عدد الجمال المستعملة في الجيش كانت (٣٠) ألف جمل (المسالك ٢/ ٨٦٠).

(٤) ينظر البكري ٢/ ٨٦٠.

(٥) ما بين الحاصرتين من المسالك للبكري ٢/ ٨٦١.

(٦) كذلك.

قبائلُ جدالة وذهبوا إلى الساحل، فأمَرَ عبدُ الله بنُ ياسين أميرَ لمتُونةَ يحيى أن يتحصَّن في جبلِهم، وهو جبَلٌ غزيرُ الماء والكلأ.

قال أبو عبيد رحمه الله[1]: كان في طُولِه مسيرةَ ستّة أيام، وفي عرضه مسيرةَ يوم واحد، وفيه حصنٌ يُسمّى أزكي[2]، حولَه نحوٌ من عشرينَ ألفَ نخلة، فصار يحيى بنُ عُمر في ذلك الحصن، قيل: بسببِ مَرَضٍ أصابه، وقيل غيرُ ذلك.

وكان أبو بكر بنُ عُمر قد ترَكَه أخوه يحيى بنُ عُمر أميرًا على بلاد دَرْعة، فاجتَمع لعبد الله بن ياسين جيشٌ كثيفٌ من لـمتُونة ومَسُوفة ولمطةَ ومزجَة[3]، وصار بهم إلى دَرعة. ثم بعدَ ذلك رجَعَت جيوشُ جدالةَ إلى يحيى بن عُمر، قيل: إنّهم كانوا نحوَ ثلاثينَ ألفًا وأقلُّ منهم رُكبانٌ على النُّجُب وبعضُهم على الخيل، وذلك في سنة ثمانٍ وأربعين، وقيل: سنةَ تسع؛ وكان التقاؤهم معَ لـمتُونةَ في موضع معروف عندَهم، قُتل فيه يحيى بنُ عُمر وقُتل فيه بشَرٌ كثير، وهم يَذكُرونَ بزَعْمهم أنّهم يسمَعونَ في ذلك الموضع أصواتَ المؤذِّنين عندَ أوقات الصَّلوات، والآنَ يحترمونَه ولا يدخُلُه أحدٌ منهم[4].

ذكرُ دولة الأميرِ أبي بكر بن عُمرَ اللَّمتُونيِّ رحمه الله

وذلك أنه لـمّا بلَغَ الخبرُ بوفاة أخيه أبي زكريّا ببلاد الصّحراء، قدَّمه أمامَه عبدُ الله بنُ ياسين في دَرْعة، وتوجَّه إلى سِجِلْماسةَ وأخَذ له البيعةَ من أهلِها، ثم وصَلَها الأميرُ أبو بكر فبويعَ بها في أوائل شهر محرَّم مفتتَح عام خمسينَ وأربع مئة، وقيل غيرُ ذلك، وبايَعَه فيها بعضُ الزَّناتيِّين عل يدَيْ عبدِ الله بن ياسين، وخَرج الأميرُ أبو بكر من سِجِلْماسة بعسكرِه في الثالثَ عشَرَ إلى دَرعة ليأخُذَ منهم ما أوجَبَ له عليهم من الزّكاة والفِطرة، وكان بدَرعةَ قومٌ من زَناتة فامتَنعوا له فقاتَلَهم الأميرُ أبو بكر وهزَمَهم وغَنِم إبِلَهم ومواشيَهم، ووَلّى الأميرُ أبو بكر على بلادِ دَرعةَ رجُلًا من خِيار لـمتُونة، وترَكَ معَه جَمْعًا

---

(١) المسالك ٢/ ٨٦١.

(٢) في مسالك البكري: «أركى» بالراء.

(٣) في مسالك البكري ٢/ ٨٦٢: «ترجة».

(٤) ينظر مسالك البكري ٢/ ٨٦٢.

كبيرًا وعاد إلى سِجِلْماسة، وانصَرف أبو محمد عبدُ الله بنُ ياسين عنه إلى بلاد الـمَصامدةِ وغيرِها حين تذَكَّر ما عايَنَه من تلك القبائل وأحوالِـهم، فخَرج من سِجِلْماسةَ قاصدًا إلى أغمات، فاجتَمع بوَرِيكةَ وهيلانةَ وهزميرةَ، وطاف على قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامَسْنا فوجَدهم على ما كان ترَكَهم من الفتنة الفَهَّاء[1] فقال لهم: ألا تعرفونَ أنه مَن مات منكم في هذه الحروب الجاهلية فإنه من أهل النار؟ فوعَظَهم وقال لهم: اتَّقوا اللهَ وارتَدِعوا عمّا أنتم عليه من فتنتِكم وقدِّموا على أنفسِكم من يؤلِّفُكم، فقالوا له: ما هو فينا، ولا في قبائلنا إلّا كلُّ قبيلة منّا ترى أن يكونَ الأميرُ منها، فقال لهم: إن أنتم سمِعتُم منّي أدُلُّكم على رأي صالح يُصلحُ اللهُ به أحوالَكم: هذا أميرُ لمَتُونةِ الصَّحراء أهل الزُّهد والوَرَع، وقد كانوا سَمِعوا به، وما أصلحَ اللهُ من البلاد على يدَيْه، فأنعِموا له. وأخَذ عليهمُ العهودَ والمواثيقَ بذلك.

ثم رحَل عنهم ورجَع إلى سِجِلْماسةَ فتلَقّاه الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر على مسيرةِ يوم منها، وسُرَّ بقدومِه عليه، فبشَّره عبدُ الله بنُ ياسين بما أفاء اللهُ له على يدَيْه، فشكَرَه الأميرُ أبو بكر على ذلك ودَعا له بامتدادِ عُمُرِه، فقال له أبو محمد عبدُ الله: تأهَّب للحركة إليهم وقدومِك المباركِ إليهم، فأخَذ في غد ذلك اليوم في حرَكته ووَلّى على سِجِلْماسةَ أحدَ إخوانِه معَ جمعٍ وافر من لَـمتُونة، وخَرج من سِجِلْماسةَ في السابعَ عشَرَ لربيع الآخِر من السنة خمسينَ المذكورة، وذلك في عسكرٍ فيه أربعُ مئة فارس وثمان مئة راكب على النُّجُب وألف راجِل، وكان وصولُهم إلى أغماتِ وَرِيكةَ في الثاني لجُمادى الأولى من السنة، فتلقَّتهم بعضُ أشياخ قبائل المصامدة على مرحلتَيْن من أغمات، فاحتلّ الأميرُ أبو بكر مدينةَ أغماتَ واستوكن معَ إمامِه عبد الله بن ياسين فبايَعَه بعضُ القبائل بها.

ثم وفَدت عليه وفودُها فبايَعوه، وأقام بأغماتَ معَ إمامِه مدةً من ستة أشهر؛ فلمّا كان أولُ شهر ذي قَعْدةٍ من العام المؤرَّخ: انصَرف عنه إمامُه أبو محمد إلى بلاد تامَسْنا فقتَلَه بَرْغواطةُ في أوائل سنة إحدى وخمسينَ وأربع مئة، وقال بعضُ المؤرِّخينَ لدولتهم: إنه توجَّه في بلاد السُّوس ليُصلحَ بين إخوتِه جدولةَ في فتنة، فأصابَه مرَضٌ فقضَى نحبَه

---

(١) هكذا قرأناها، ولعل هذه القراءة هي الصواب، والفهاء: الجهلاء.

ووصَل نَعْيُه إلى أغمات، وأمّا ما صحَّ عنه فإنه قتَله بَرْغواطةُ كما تقدَّم ذكرُه[1]. ولم يُقتَلْ عبدُ الله بنُ ياسين حتى استَولَى على سِجِلْماسة وأعمالِـها وأغماتَ وبلادِ السُّوس وغيرِها.

ومما يُذكَرُ من أحوال عبد الله بن ياسين[2] أنه سافَر معَ قوم كانوا معَه فعَطِش جميعُهم فشكَوْا ذلك إليه فقال: عسى اللهُ أن يجعلَ لنا من أمرِنا فَرَجًا ومخرجًا. ثم سار بهم ساعة وقال احفِروا، فحفَروا فوجَدوا الماءَ بأدنَى حَفْر، فعَدُّوا ذلك كرامةً له، فشربوا جميعًا وسَقَوْا دوابَّهم وانصَرفوا. وكانت لـمتُونةُ لا تقدِّمُ أحدًا منهم للصلاة إلّا من صلّى خلفَ عبد الله بن ياسين، وقيل: كان عبدُ الله نكّاحًا للنِّساء يتزوَّجُ في الشهر عددًا منهنّ ثم يُطلِّقُهنّ، فكان لا يسمَعُ بامرأةٍ حسناءَ إلّا خَطَبها، ولا يُجاوزُ بصَداقِهنّ أربعةَ مثاقيل.

وأمّا ما شذّ فيه عبدُ الله من الأحكام[3] فأخْذُه الثُّلُثَ من الأموال المختلَطة، وزَعَم أنها بذلك تَطِيب، وأنّ الرجُلَ إذا دخَل في دعوتهم وتابَ عن سالِف ذنوبه قالوا له: قد أذنَبْتَ ذنوبًا كثيرةً فيجبُ أن يُقامَ عليك حدودُها، فيضربوه حدَّ الزِّنا وحدَّ الافتراء، وإن عَلِموا أنه قتَل قَتلوه سواءً أتاهم تائبًا طائعًا أو غَلَبوا عليه. ومَن يتخلَّفْ من مشاهدةِ الصّلاة معَ الجماعة ضُرِب عشرينَ سوطًا، ومَن فاتَتْه ركعةٌ ضُرِب خمسةَ أسواط، فكان أكثرُهم يصَلُّونَ بغير وضوءٍ إذا حان الوقتُ وأعجَلَهم الأمرُ من أجل الضّرب.

وممّا يُحفَظُ من جهل عبدِ الله بن ياسين أنّ رجُلًا اختَصم إليه معَ تاجر غريب، فقال له التاجرُ في جوابِه: حاشا لله أن يكونَ ذلك، فأمَرَ بضربِه.

ولـمّا مات ابنُ ياسين وقتَله بَرْغواطةُ كان الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر قد توَلّى أمرَ صُنْهاجةَ وغيرِها وطاعت له قبائلُ المصامدة بأسرِها، فقام معَهم لقتال بَرْغواطةَ حتّى أخَذ الثأرَ منهم. وفي ابتداءِ هذه الدّولة اللَّمتُونيّة اختلافٌ اختصَرْنا منه ما وقَع الاتفاقُ عليه.

---

(١) ذكر صاحب «روض القرطاس» حروبه مع برغواطة ومقتله في إحدى المعارك متأثرًا بجراحه يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤١، وذكر في أنه دفن في موضع يقال له كريفلت (ص٩٦).

(٢) النقل من مسالك البكري ٢/ ٨٦٣.

(٣) عنون البكري لهذا النص في كتابه ٢/ ٨٦٤.

ذكرُ نَسَب أُمراءِ الدّولة الـمُرابِطيّة

قال ذَوو العلم بأخبارِهم: إنّ الجَدَّ الذي ينتهي إليه نَسَبُ جميعِهم هو منصور، والجَدُّ الذي يفترقُ منه أفخاذُهم: ترجوت بنُ ورتاسن بن منصور بن مَصَالةَ بن أُميّةَ بن وانمالي الصُّنهاجيُّ ثم اللَّمتُونيّ. وكانت لترجوتَ ثلاثةُ بنين: محمدٌ وحُمَيْد وإبراهيم، فتفرَّقت منهم بُطونٌ كثيرة، وكان القائمَ بالـمُلك في الصّحراء بعدَ أبيه إبراهيم، وهو جَدُّ يحيى بن عُمرَ الأمير المتقدِّم ذكرُه، وكان يقال له: أميرُ الحقّ، وهو: يحيى بنُ عُمر بن إبراهيمَ بن ترجوت، وكان لأمير الحقِّ يحيى المذكور من الوَلَد أربعة بل ثلاثة: محمدٌ وعليٌّ وعيسى، وكان لأُمِّ محمد نبأٌ ظَريف يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

واستَصحَبَ يحيى بنُ عُمر الأمرَ بقيّةَ عمُرِه، فلمّا قضَى نحْبَه وَلِـيَ الأمرَ بعدَه أخوه أبو بكر بنُ عمر، وكان يَرى في منامِه بقرتَيْنِ يُخيّرُ فيهما فيضَعُ يدَه على إحداهما فيقال له: هذا الذي أخذتَ هُو الملك، والذي تركتَ هو الوَلَد وكان له ابنان: إبراهيمُ ويحيى، فأمّا يحيى فيُعرَفُ بابنِ عائشة، وهي بنتُ يارانَ بن تايغشت أُختُ إسحاقَ بن ياران، وأمّا إبراهيمُ فلم تَعرَفْ أُمُّه، وكان أسودَ الجِلدة، وهو إبراهيمُ ابنُ الأمير أبي بكر بن عُمر. وأمّا فخِذُ يوسُف بن تاشْفينَ ومن ذُكِر معَهم فهم بنو إبراهيم، فهو يوسُفُ بن تاشْفين بن إبراهيمَ بن تورجوت.

وفي سنة ستينَ وأربع مئة: استقامت الأمورُ للأمير أبي بكر بن عُمر وطاعَتْ له البلادُ ووَجَّه عُمّالَه إليها، وكان مستوطنًا بمدينة أغمات، وكانت بها امرأةٌ جميلةٌ تُعرَفُ بزَيْنبَ النَّفْزاويّة: قد شاع ذكرُها وأمرُها في قبائل المصامدة وغيرِها، فكان يخطُبُها أشياخُهم وأمراؤهم فتمتنعُ لهم وتقول: لا يتزوَّجُني إلا مَن يَحكُم المغربَ كلَّه، فكانوا يَرمُونَها بالحُمق، وكان لها أخبارٌ مُستطرَفةٌ غريبة كمِثل أخبارِ الكَهَنة، فبعضٌ يقولون: إنّ الجنَّ يُكلِّمُها، وبعضٌ يقولون: هي ساحرة، وبعضٌ يقولون: كاهنة، فأُعلِم بجمالها الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر فخَطَبَها وتزوَّجها فوعدَتْه بمالٍ كبير تُخرجُه له، ثم أدخلتْه في دار تحتَ الأرض معصَّبَ العينَيْن، ثم أزالتِ العِصابةَ ففتَح عينَيْه فرأى بيوتًا فيها ذهبٌ كثير وفضةٌ وجواهرُ ويواقيت، فعَجِب من ذلك أبو بكر بنُ عُمر كلَّ العَجَب لِـما عايَنَ من الذّخائر والذّهب والفضّة، فقالت له زوجُه زَيْنبُ: هذا كلُّه مالُك ومتاعُك أعطاك اللهُ

إياه على يدَيْ، فصرَفْتُه الآنَ عليك، وكان رؤيتُه له بضوءِ الشَّمع، ثم أخرجَتْه معصَّب العينَيْن من ذلك الموضع كما أدخلَتْه فيه، فلا عَلِم من أين دخَل ولا من أين خَرج، وكان دخولُه معرِّسًا بزَيْنبَ المذكورة في شهر ذي القَعْدة من عام ستينَ وأربع مئة. وكانت هذه المرأةُ موسومةً بالجمال والمال، وكان لها محاسنُ وخِصالٌ محمودة ورَوِيّة مُستطرَفة، فقيل ـ واللهُ أعلم ـ: إنّ الجِنَّ كانت تخدُمُها، وقيل غيرُ ذلك كما تقدَّم.

وفي سنة إحدى وستينَ وأربع مئة: بعَثَ الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر عسكرًا كبيرًا قدَّم عليه ابنَ عمِّه يوسُفَ بن تاشْفين، وبعَثَ معَه جُملةً كبيرة من أشياخ لـمتُونةَ ومن قبائل البَرْبر الـمَصامِدة وغيرِهم، وذلك برَسْم قتال رؤساءِ القبائل القاطنينَ بأرض المغرب، وكان أكبرُهم شوكةً بني يَفْرن الزَّناتيِّين المستوطنينَ في قلعة مَهْدي بن تبالا[1]. فحارَبَهم يوسُفُ بن تاشْفينَ بمن كان معَه من القبائل التي دخَلت في طاعة الأمير أبي بكر بن عُمر، وفرَّ مُعَنْصَرُ بن حمّاد إلى مدينة فاس، وقَتل منِ اتُّهم بالقيام بأمرِ لمتُونة، وقَتل يوسُفُ بن تاشْفين أناسًا من سِدْراتَة.

وفي هذه السنة: ضاق المجمَعُ بمدينة أغماتِ وَرِيكةَ عن الخَلْق فيها، فشكا أشياخُ وَرِيكةَ وهيلانةَ بذلك إلى الأمير أبي بكر بن عُمر مرّةً بعدَ أخرى إلى أن قال لهم: عيِّنوا لنا موضعًا أبني فيه مدينةً إن شاء اللهُ تعالى، وكان سُكناهُ معَ إخوانِه في الأخْبِية، حتَى ابتَنَى بزَوْجِه زَيْنبَ النَّفْزاويّة في هذا العام؛ فزاد الخَلْقُ بأغماتَ من أجل... هيلانةَ وهزميرةَ على أن يُعيِّنوا موضعًا حيث يكونُ بناءُ المدينة، فوقَعَ التنازُعُ بينَ المذكورينَ في ذلك، وطلَب كلُّ واحد أن يكونَ بناءُ المدينة في بلادِهم ليُنسَبَ بناؤها إليهم، وذلك لأجْل ما تقدَّم بينَهما من الفتنة ومُداولة الإمارة إلى أنِ اجتَمعت أشياخُ قبائلِ الـمَصامدة وغيرِهم، فوقع تدبيرُهم أن يكونَ موضعُ تلك المدينة بينَ بلاد هيلانة وبينَ بلاد هزميرة، فعرَّفوا بذلك أميرَهم أبا بكر بنَ عُمرَ وقالوا له: قد نظَرْنا لك موضعَ صحراءَ لا أنيسَ به إلا الغِزلانُ والنَّعام ولا تُنبتُ إلا السِّدرَ والحنظل. ثم كان أراد بعضُهم أن تكونَ المدينةُ على وادي تانسيفت، فامتَنَع لهم من ذلك وقال: نحن من أهل الصَّحراء، ومَواشينا معَنا لا يَصلُح لنا السُّكنى على الوادي، فنَظَروا له ذلك الموضعَ لكي يكونَ وادي نفيس

---

(١) هي قلعة فازاز، وهذا الرجل سماه ابن خلدون: «مهدي بن توالى» (تاريخه ٦/ ٢٤٥).

جِنانَها، ودَكّالة فُدّانَها، وزِمامُ جَبَل دَرَنَ بيدِ أميرِها طولَ زمانِها، فركِب الأميرُ أبو بكر في عسكرِه معَ أشياخ القبائل فمشَوْا معَه إلى فَحْص مَرّاكُش وهو خَلاءٌ لا أنيسَ به فقالوا له: ابنِ هنا مدينةً تكونُ متوسِّطةً بينَ هيلانةَ وهزميرة.

وفي سنة اثنتَيْنِ وستينَ وأربع مئة في الثالث والعشرينَ لرجَب: ابتُدِئَ بأساس مَرّاكُش، وذلك قصرُ الحَجَر، وشَرَعَ الناسُ في بناءِ الدُّور دونَ سُور.

وفي ذلك اليوم بعينِه: كان ركوبُ الأميرِ أبي بكر بن عُمر وإخوتِه وجميع محَلّتِه معَ أشياخ المصامدة والفَعَلة من البَنّائينَ وغيرِهم، فابتَدأَ العمَلُ في الأساس بمشاركة الأشياخ وحسَبَ عَوْنِهم، فأعانوا على البناءِ بالمال والرِّجال، فقام سُورُ قصرِ الحَجَر في نحو ثلاثةِ أشهر على نحوِ ما ذكَرَه ذوو المعرفة والأخبار، واشتَغل الناسُ فيها ببناءِ الدِّيار كلٌّ واحدٍ على قَدْر جُهدِه واستطاعتِه. فذَكَروا أنّ أوّل دار بُنِيت بمَرّاكُش من ديارِ لمَتُونةَ: دارُ تورزجين بن الحَسَن الكائنةُ بموضع أسدال، بناها بالطُّوب وجَدَّدها، وهي الآنَ ظاهرةٌ على المقرِّ بالموضع المذكور إلى وقتِنا هذا سنةَ ستٍّ وسبع مئة، وذَكَروا أنّ اللَّمتُونيِّينَ حين طلَبوا موضعًا صحراءَ يبنُونَ فيه مدينتَهم ليبعدوا من مواضع الوادي والغِيَاض على أنفسِهم ومواشيهم لعادتهم في بلادِهم فوقَع بحثُهم وجِدُّهم واجتهادُهم على موضع مدينة مَرّاكُش، واللهُ أعلم بذلك.

وفي سنة ثلاث وستينَ وأربع مئة: كان الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر قاعدًا على السُّور والفَعَلةُ أمامَه يعمَلونَ في السُّورِ وفي غيرِه، إلى أنْ وقَف عليه رجلٌ راكب على فَرَس أشعثُ الرأس فسَلَّم عليه وقال: أيّد اللهُ الأمير، إنّ جدالةَ أغارت على إخوتِك فقَتلوا الرجال وسَلَبوا الأموال وهزَموهم. فلمّا استوفَى كلامَه قال الأميرُ أبو بكر: إنّا لله وإنا إليه راجِعون، وبعَثَ إلى أشياخِ لـمتُونةَ وكُبَرائهم وعُظمائهم، وقال لهم: إنّ إخوانَكم قد أغارت جدالةُ عليهم وقَتلوهم، وأنا مسافر إن شاء اللهُ إليهم لآخُذَ بثأرِهم، فانظُروا منكم رجُلًا أستخلِفُه عليكم. فأطرَقَ الجميعُ رؤوسَهم وصَمَتوا ثم رَفَعوا وبُهِتوا فلم يكنْ إجماعٌ على ذلك، فقال لهم: لا بدَّ أن تُدبِّروا مَن ترَوْنَه يَصلُحُ لذلك، ثم انصرفوا، فلمّا كان في... (١) أبو بكر صَلّى ودَعا اللهَ أن يُسمِّيَ له رجلًا صالحًا يَستخلِفُه، فهتَفَ به

(١) فراغ في الأصل.

هاتفٌ مرعوبًا فقال: مَن هو هذا الغائب؟ فأنساه اللهُ ذكْرَ يوسُفَ بن تاشْفين إلى أنْ وصَل من بلاد المغرب في تلك الأيام وحضَر بين يدَيْ أبي بكر بن عُمر وهُو يُعيدُ القولَ على إخوتِه، وهي الثالثةُ، فقال له يوسُفُ بن تاشْفين: أنا أكونُ خليفتَك إن شاء اللهُ عزَّ وجَلّ، فقال له الأميرُ أبو بكر: صدَقْتَ يا يوسُف، أنت والله خليفتي، وتذكَّر قولَ الهاتف له فوَلّاه الأمرَ بعدَه[1].

ذكرُ حركة الأمير أبي بكرٍ بن عُمر إلى الصَّحراء[2]

لـمّا أخَذ الأميرُ أبو بكر في الحركة إلى الصَّحراء وَلَّى يوسُفَ مكانَه وقَسَم الجيشَ بينَ يوسُف وبينَه، فقيل: إنّ الذي تَرَك مع يوسُفَ بنِ تاشْفين من اللَّمتُونيِّين الثُّلُثُ ورحَل معَه الثُّلُثان[3]، وذلك في غُرّة ربيع الآخِر من سنة ثلاث وستّين، فشَيَّعه يوسُفُ وودَعَه، وأوصَاهُ أبو بكر فطاوَعَه. وكان أبو بكر بنُ عُمرَ لـمّا عزَم على حركتِه تلك قال لزوجِه زَيْنب: إنّي مسافرٌ منكِ برَسْم الفتن والحروب ولا يمكنُني أن أمشيَ عنكِ وأنتِ في عصمتي، فإنْ أنا مِتّ كنتُ مسؤولًا عنك، والرأيُ أن أُطلِّقَك، فقالت له: الرأيُ السَّديدُ ما تراه، فطلَّقها، فذَكَروا أنه قال لابن عمِّه يوسُفَ بن تاشْفين: تزوَّجْها، فإنّها امرأةٌ مسعودة، وقيل: إنها هي التي طلَبَتْ منه طلاقَها فأسعَفَها بذلك.

ذكرُ ولاية يوسُفَ بن تاشْفين ونُـبَذٍ من أخبارِه[4]

لـمّا توجَّه الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر إلى الصَّحراء وَلّاه مكانَه وترَكَ معَه الثُّلُثَ من لمتُونةَ إخوانِه، فاشتَغل ببناءِ مَرّاكُش وتحصنِها، وحصَل منها تحتَ سُورٍ وأبواب في قَصْر الحَجَر، وأعانه القبائلُ في جميع أمورِه وأحوالِه، وحبَّب نفسَه إليهم، وأفاضَ إحسانَه

---

(١) هكذا جاء النص، وذهب ابن أبي زرع إلى أن أبا بكر بن عمر هو الذي استدعى يوسف وعقد له على المغرب، وأن أشياخ المرابطين اتفقوا على تقديمه لما علموا من دينه وفضله وشجاعته (الروض ٩٨).

(٢) ينظر الاستقصا ٢/ ٢٠-٢١.

(٣) في الروض: «نصف الجيش».

(٤) ينظر وفيات الأعيان ٧/ ١١٢-١١٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٥ فما بعد.

عليهم، وكان يُكاتبُ الأميرَ أبا بكر بكلِّ ما يصنَع، فيَشكُرُه على ذلك، وأبو بكرٍ بنُ عُمر في الصَّحراء يحاربُ جدالةَ حتى أخَذ ثأرَه منهم في خبرٍ طويل.

وتزوَّج يوسُفُ بن تاشْفينَ زَيْنبَ النَّفْزاويّةَ في شهر شعبانَ المكرَّم من سنة ثلاثٍ وستّين بعدَ تمام عِدّتِها، ودخَل بها، فسُرَّت به وسُرَّ بها، وأخبرتْه أنه يملِكُ المغربَ كلَّه فبَسَطت آمالَه وأصلَحت أحوالَه وأعطَتْه الأموالَ الغزيرة، فأركبَ الرّجالَ الكثيرة، وجمَعَ له القبائلُ أموالًا عظيمة، فجنَّد الأجناد وأخَذ في جَمْع الجيوش من البَرْبر والاحتشاد... بنفسِه، وبتدبير زَوْجِه زَيْنب في كلِّ يوم معَ أمسِه، حتى... سلَكَ أهلُ المغرب في قانونِ الضغط فتأتّى من مُلكِه ما لم يتأتَّ...

وفي سنة أربع وستّينَ وأربع مئة: تحرَّك الأميرُ يوسُف بن تاشْفينَ بعسكر جَرّار إلى بلاد المغرب... ورجَع إلى وطاط إلى ملويّةَ[1] إلى ناحية جُراوةَ ودوَّخ ما مرَّ عليه من القبائل، ودخَلت كلُّها في طاعتِه، هكذا ذكَرَ ابنُ القطّان في «نَظْم الجُمان».

وفي هذه السنة: صَنع الأميرُ يوسُفُ بن تاشْفينَ دارَ السِّكّة بمَرّاكُش، وضَرب فيها السِّكةَ بدراهمَ مدوَّرة زِنةُ الدِّرهم منها درهمٌ وربعٌ، سَكَّهُ من حساب عشرينَ درهمًا للأُوقيَة، وهو الدّرهم الجَوْهريُّ المعلوم في وقتِنا هذا، وضَرب الدينارَ الذّهبيّ باسم الأمير أبي بكر بن عُمر في هذا العام.

وفيها: ارتدَّت قبائلُ في القبلة في جهة سِجِلْماسةَ من زَناتة وغيرِهم، فجهَّز إليهم يوسُف بن تاشْفينَ عسكرًا قوَّد عليه محمدَ بن إبراهيم اللَّمتُونيَّ، فخَرج في شهر ربيعٍ الآخِر وغَنِم تلك القبائل وقَتل المرتدّينَ ورجَع بغنائمَ كثيرة.

فدوَّن يوسُفُ الدّواوينَ ورتَّب الأجناد وطاعَتْه البلاد، وكتَبَ إلى بعض إخوانِه في السرِّ من أبي بكر بن عُمر يحُضُّهم على الوصُولِ إليه، والقدوم عليه ويَعِدُهم بالخيرِ الجزيل الحَفيل، فوصَل منهم جماعةٌ كبيرة.

وفي هذه السنة: وُلد ليوسُفَ بن تاشْفين مولودٌ ذَكَر سمّاه المُعزَّ بالله من زَوْجه زَيْنب النَّفْزاويّة.

---

(١) نهر ملوية قرب طنجة (ينظر الروض المعطار ٥٤٥).

وفيها: قَوِي أمرُ الأمير يوسُف وعَظُمت شوكتُه، فاشتَرى جملةً من العبيد السُّودان وبعَثَ إلى الأندَلس فابتيعَ له بها جملةٌ من الأعلاج فأركَبَ الجميعَ وانتَهى عندَه منهم شراءَ مالِه مائتانِ وأربعونَ فارسًا، ومن العَبِيد شراءَ مالِه نحوُ الألفَيْن، وأركَبَ الجميعَ فغلُظ حُجّابُه وعَظُم مُلكُه.

وفيها: افتَرَض على اليهود فريضةً ثقيلة في جميع طاعتِه اجتَمع له فيها مئةُ ألف دينار عَشْريّة ونيِّفٌ على ثلاثةَ عشَرَ ألفَ دينار.

وفي هذه السنة: اتّصل الخبرُ بالأمير يوسُف أنّ ابنَ عمِّه الأميرَ أبا بكر بنَ عُمر قد أخَذ في الرُّجوع من الصَّحراء إلى بلاد المغرب، فاغتَمَّ لذلك غمًا شديدًا وحزِنَ حُزنًا عظيمًا، وصَعُب عليه مفارقةُ الـمُلك بعدَ أنْ ذاق حلاوتَه ورتَّب فيه ما رَتَّب من الأجنادِ والضَّخامة، فعرَفت زَيْنبُ ذلك في وجهِه فقالت له: أراك مهمومًا مكروبًا من وصُول ابن عمِّك إلى مُلكِه الذي وَلّاك عليه، والله لا ذاقَ أبو بكر طعمَها أبدًا، فطِبْ نَفْسًا وقَرَّ عَيْنًا، فقال لها: إنه... استخلافُه إليّ من بين كلِّ بَنيه ويثقُ عليَّ في هذه المملكة، ولو كان غيرَ ابن عمِّي لقاتلتُه، فقالت له: أنا أدُلُّك... الله، فقال: ما ذلك يا زَيْنب، فإنّي والله أعرِفُك ميمونة، قالت له: إذا قَدِم عليك وبعَثَ مقدِّماتِ رجالِه إليك فلا تخرُجْ إليه، ولكنْ بادِرْه بهديّة جليلة... فلا يُقاتِلْك على الدُّنيا، فإنّ الرجُلَ خيِّرٌ لا يستحِلُّ سفكَ دماء... على أمرِك وتفوزُ بمُلكِك إن شاء الله، فقال لها: والله لا خالَفتُكِ في أمرٍ تُشيرينَ به أبدًا(١).

وفي سنة خمس وستينَ وأربع مئة: كان وصُولُ الأمير أبي بكر بن عُمر من صَحرائه إلى مَرّاكُش، فوجَد يوسُفَ قدِ استبَدَّ بالمملكة وأعجبَتْه الإمرة وطاعت له جميعُ البلادِ الغَرْبية، فعَلِم أنه مغلوبٌ عليه، وعزَم على تسليم الأمرِ إليه.

ذكرُ خَلْع الأمير أبي بكرِ بن عُمر نفْسَه عن الـمُلك وإسلامِه ليوسُفَ بن تاشْفين

كان وصولُ أبي بكرِ بن عُمر من الصَّحراء إلى أغماتَ في الخامس لشهرِ ربيع الأوّل المبارَك في السّنة المؤرَّخة، قادمًا إلى مَرّاكُش، فنزَل بخارج أغماتَ في مضاربِه، وتسابَقَ

(١) ينظر روض القرطاس ٩٨.

أكثرُ أصحابِه إلى مَرّاكُش برَسْم رؤيتِها ورؤيةِ بنائها والسلام على أميرِها يوسُف، وكانوا قد سَمِعوا عن ضخامةِ مُلكِه وجميل كرامتِه وجزيل إحسانِه وإنعامِه على إخوانِه وقَرابتِه، فاجتَمع إليه من القادمينَ عليه خَلْقٌ كثير، فوصَلَهم على قَدْر منازلِهم ومَراتبِهم، وأمَرَ لهم بالكُسَى الفاخرة والخُيول العتيقة وغير ذلك من المَبرّة والمكرُمة؛ فلمّا عايَنَ الأميرُ أبو بكر أحوالَ يوسُف وما هو عليه من المَيْل إلى نَخْوة المُلك وعزِّ السُّلطان، عزَم على تسليم الأمرِ له، وعَلِم أيضًا يوسُفُ أحوالَ الأمير أبي بكر من اللِّين في أمرِه لتَقْواه وديانتِه، [كما أنّ يوسُفَ][1] استمالَ نفوسَ إخوانِه بإحسانِه وإنعامِه، وزاد طمعُه في الانفرادِ والاستبداد.

وانقَطع رجاءُ الأمير أبي بكر من المُلك، فبعَثَ إلى يوسُفَ يُعلِمُه بوصُولِه إليه، وعيَّن له يومًا معلومًا يكونُ فيه اجتماعُه به، فخَرج يوسُفُ من مَرّاكُش في جُندِه وعبيدِه، وتلقَّاه في نصف الطّريق، فسَلَّم عليه راكبًا على دابّتِه ولم تكنْ قبلُ عادتَه، ثم نزَلَ إلى الأرض وقَعَدا على بُرنُس بُسِط لهما في ذلك المكان، فسُمِّي ذلك الموضعُ فَحْصَ البُرنُس إلى الآن، وأبو بكر معَ ذلك متعجِّبٌ من كثرة عساكرِه واحتفال هيئتِه، يُطيلُ النَّظَر في ذلك كلِّه، فتكلَّم الأميرُ أبو بكر معَ يوسُفَ في مصالح المسلمينَ ثم قال له: يا يوسُف، أنت ابنُ عمِّي ومحلَّ أخي، وأنا لا غِنى لي عن معاونةِ إخوانِنا بالصَّحراء، ولم أرَ مَن يقومُ بأمر المغربِ غيرُك، ولا أحقَّ به منك، وقد خَلعتُ نَفْسي لك وولَّيتُك عليه، فاستمِرَّ على تدبيرِ مُلكِك وأنت حقيقٌ به وخَليقٌ له، وما وصَلتُ إليك إلا لأأمرك[2] في بلادك وأُسلِّمَ لك [وأعودَ][3] في مقرِّ إخوانِنا وموضع استيطانِنا. فدَعَا له الأميرُ يوسُفُ وشكر [وقال له: لك عليّ][4] ألا أقطعَ أمرًا دونَك، ولا أستأثرَ إن شاء اللهُ بشيءٍ عليك، وأحضَر [أشياخَ لمتُونةَ][5] الصَّحراويِّين، وخَلَع له أبو بكر نفْسَه، وشَهِد بذلك بعضُ

(١) ما بين الحاصرتين زيادة لتوضيح المعنى.

(٢) في الحلل: «لأهدّنك» وهي بمعنى.

(٣) زيادة متعينة.

(٤) كذلك.

(٥) كذلك.

العدول وأعيان القبائل، وعاد الأميرُ أبو بكر إلى أغماتَ موضع نزولِه ورجَع يوسُفُ إلى مَرّاكُش دارِ مملكتِه، فكان هذا التدبيرُ برأي زَيْنبَ النَّفزاوية زوجتِه، فهي التي جَسَّرتْه على ذلك كلِّه حتى ملَكَ المغربَ أسعدَ مُلكٍ وأتمَّه نَصْرًا على العدوّ، ولم يُهزَمْ له قطُّ جيشٌ ولا رُدَّت له رايةٌ بمُلك، واللهُ يؤتي مُلكَه من يشاء.

ذكرُ الهديّة التي أهداها الأميرُ يوسُف بنُ تاشْفين إلى ابن عمِّه أبي بكرٍ بن عُمر[1]

لـمّا وصَل الأميرُ أبو يعقوبَ إلى مَرّاكُش بعدَ اجتماعِه بالأمير أبي بكر بن عُمر وخَلْعتِه له نفْسَه وتقديمِه ليوسُفَ وبيعتِه، شَرع يوسُفُ في توجيهِ الهديّةَ المذكورة، وذلك خمسةٌ وعشرونَ ألفَ دينار من الذّهب، وسبعونَ فرسًا منها خمسةٌ وعشرونَ مجهَّزةٌ بفاخر الجِهازات، وسبعونَ سيفًا مُـحَلّاة، وعشرونَ من الأشابر[2] المذهَّبة، ومئة وخمسونَ من البِغال والذّكور والإناث، وخدورٌ كثيرةٌ بنفيس الأمتعة والكُسَى الفاخرة، وبعَثَ له عشرينَ جاريةً أبكارًا وجُملةً من خَدَم الخِدمة ووجَّه له بمئتين من البقر وخمس مئة رأس من الغنم وألفِ رُبع من دقيق الدّرْمَق واثنَيْ عشَرَ ألفَ خُبزة وسبع مئة مُدّ من الشّعير، وبعَث إليه وزنًا صالحًا من العُودِ والعَنْبر والمِسك.

وكتَبَ يعتذرُ له من ذلك ويَحلِفُ أنه ما بقيَ له شيءٌ ممّا ادَّخَره واقتَناه، فطابَتْ نفْسُ الأمير أبي بكر وقال: خيرٌ كثيرٌ هذا من يوسُف. ثم انصَرف بهديّتِه بعدَما أعطَى منها بعضَ إخوانِه وخاصّتِه؛ وأقام بصَحرائه ثلاثةَ أعوام والأميرُ أبو يعقوبَ يُمدُّه بالتُّحَف والهدايا إلى أنْ قتَلَه السُّودانُ الـمُجاورونَ للمتُونةَ في الصّحراء لأنه كان يُحاربُهم، حتى قضَى اللهُ بوفاتِه بسَهْم أصابه كان فيه مَنِيّتُه، وذلك في سنة ثمانٍ وستينَ وأربع مئة.

وفي سنة ستٍّ وستينَ وأربع مئة: بعَثَ الأميرُ أبو يعقوبَ مَزْدَلي بنَ بانلونكا بعسكرٍ ضَخْم إلى ناحية سَلَا، فافتَتَح تلك القبائلَ من غير قتال ولا نزال، فأمَّنَهم وانصَرف

---

(١) ينظر الحلل الموشية ١٦-١٧ وفيه تفصيل أكثر.

(٢) الأشابر: المهامز.

عنهم في الخامس والعشرينَ لشهر ربيع الآخِر، وكان خروجُه من مَرّاكُش في الثاني لشهر صَفَر، فكانت غَيْبتُه هذه نحوَ ثلاثةِ أشهر.

وفيها: بعَثَ أيضًا يوسُفُ بنُ تاشْفين عسكرًا إلى الغرب قَوَّد عليه يطيَّ بنَ إسماعيل، ولـمّا وصَل إلى وادي بهت بعَثَ رَقّاصًا إلى أمير مِكْناسةَ الخيِّر بن خَزَر الزَّناتيِّ بأنه قد عَفَا عنه، وبعَثَ كتابَه إليه بذلك، فقرأ كتابَه على زَناتةَ وشاوَرَهم في أمرِه فقالوا: نُقاتلُه بأجمعِنا حتّى نُخرجَه من بلادِنا، فقال لهم: لا سبيلَ لذلك ولا أفعلُه حتّى أبعثَ له فبعَثَ إليه منخفاد بنَ عبد العزيز الزَّناتيَّ، فلمّا وصَل إلى يطيِّ بن إسماعيلَ رحَّب به وأكرَمَه ولمن كان معَه فقال له منخفاد: نحن رجالُ الأمير أبي يعقوبَ، وبلادُنا بلادُه، غيرَ أنّا لا بدَّ لنا منَ الاجتماع به وشروطٍ نشترطُها عليه، وحينَئذٍ نُسلِّمُ البلادَ إليه ونَخرُجُ له عنها، وضمِنَ له اللَّمتُونيُّ ابنُ إسماعيل تلك الشروطَ عنه وتعاهَدَ على ذلك معَه، ودخَل مِكْناسةَ وخَرج الخيرُ منها أميرُها ومَن كان معَه من زَناتةَ إلى موضع القَناطير، ووَلِـيَ مِكْناسةَ بعدَ الخيِّر بن خَزَر الزَّناتيِّ الأفضالُ اللَّمتُوني، ورحَل ابنُ إسماعيلَ بعسكرِه معَ الخيِّر المذكورِ إلى مَرّاكُش، وأنعَمَ عليه الأميرُ يوسُف بكلِّ ما أراد، ثم صَرفَه، فبقي الخيِّرُ مستوطنًا بخارج مِكْناسةَ إلى أن مات رحمه الله.

ذكرُ تسمية يوسُفَ بن تاشْفينَ رحمه الله بأميرِ المسلمين

وفي هذه السنة: اجتَمع أشياخُ القبائل على الأمير أبي يعقوبَ يوسُفَ بن تاشفين وقالوا له: أنت خليفةُ الله في المغرب، وحقُّك أكبرُ من أن تُدعى بالأمير إلّا بأميرِ المؤمنين، فقال لهم: حاشا لله أن أتسمَّى بهذا الاسم، إنما يتَسمَّى به الخلفاءُ، وأنا راجل[1] الخليفة العباسي والقائم بدعوتِه في بلاد الغرب، فقالوا له: لا بدَّ منَ اسم تمتازُ به فقال لهم: يكونُ أميرَ المسلمين، فقيل: إنه هو الذي اختاره لنفسِه، فأمَرَ الكُتّابَ أن يَكتُبوا بهذا الاسم إذا كتبَوا عنه أو إليه.

وفي سنة سبع وستّينَ وأربع مئة: افتَتح أميرُ المسلمينَ يوسُفُ مدينةَ فاس، وذلك لـمّا افتَتح مدينةَ مِكْناسة، ووصَلَه أميرُها الخيِّر وأحسَنَ إليه وأكرَمَه وخيَّره حيث يريدُ

---

(١) هكذا في الأصل، وهي كذلك في الحلل، والوجه: «رجل».

السُّكْنى وأسعَفَه في كلِّ مطلب، جهَّز أميرُ المسلمينَ عسكرًا جرّارًا وقدَّم عليه ابنَ عمِّه يحيى بنَ واسينوا اللَّمتُونيَّ، وأمَرَه بمنازلة فاس فكان وصُولُه إليها عَقِبَ رجَب الفَرْد من هذه السنة. وكان أمراء فاسَ يومَئذٍ أبناءَ حَمامة، فقاتَلَهم يحيى قتالًا شديدًا سبعةَ أيام، وفي الثامن دخَلها عَنْوة، ماتَ فيها من أهل فاسَ بشَرٌ كثير وسُلِبت ديارُهم ثم عَفَا عنهم وانحصَر ابنا حَمامةَ: الفتوحُ ودوناسُ في قَصْرِهما، ثم طَلَبوا[1] الأمانَ فعُفِي عنهما في نَفْسيْهما، فكتَبَ بفتح فاس وبأخبارِ الفتوح بن حَمامة وأخيه إلى الأمير يوسُفَ بن تاشْفين، فأمَرَ بتوجيهِهما حيث شاؤوا[2]، فاستوصَى الفتوحُ مَغِيلة[3]، واستولَتْ لـمتُونةُ على مدينة فاسَ حرَسَها الله.

وفي هذه السنة: وصَل الخبرُ إلى يوسُفَ بن تاشْفين بوفاة الخليفة العباسيِّ القائم بأمرِ الله وبَيْعة الخليفة المقتدِر بالله في الثالثَ عشَرَ لشعبان[4].

فتحُ مدينة تِلِمْسان

وفي سنة ثمانٍ وستّين وأربع مئة: جهَّز أميرُ المسلمينَ يوسُف بن تاشْفين عسكرًا ضخمًا وقَدَّم عليه ابنَ عمِّه مَزْدَلي اللَّمتُونيّ، وبعَثَه إلى مدينة تِلِمْسان[5]، وكان أميرها يومَئذ العباسُ بن يحيى أميرُ زَناتة، فكتَبَ أميرُ المسلمينَ إليه كتابًا بالعفوِ عنه إن نَزَلَ دونَ قتال فخَرج هذا العسكرُ من مَرّاكُش في أوائل شهر محرَّم ووصَل إلى مدينة تِلِمْسانَ عقِبَ شهر صَفَر، فقدَّم مَزْدَلي الكُتُبَ إلى العباس بكتابِ أمير المسلمينَ، فعندَ وصُول الرّقّاصِ بالكتاب إليه وقَف عليه، فخَرج من تِلِمْسانَ، فأنعَمَ عليه الأميرُ مَزْدَلي بمطلَبه ووافَقَه في مذهبِه، ورحَل الأميرُ مَزْدَلي إلى تِلِمْسان ودخَلَها في مُهلةٍ وحالِ هُدنة، ثم وَلّى عليها ابنَه يحيى بنَ مَزْدَلي ورجَع إلى مَرّاكُش، فكان وصُولُه إليها في نصف ربيع الآخِر

(١) هكذا في الأصل، وهو جائز، والأحسن: «طلبا».
(٢) هكذا في الأصل، وهو جائز، والأحسن: «شاءا».
(٣) كأن المراد: فطلب فتوح الذهاب إلى مغيلة.
(٤) ينظر تاريخ الإسلام ١٠/ ١٤٩-١٥٠، ٢٤٨.
(٥) جعل ابن خلدون هذه الحركة سنة ٤٧٢هـ (تاريخه ٦/ ٢٤٧).

من هذه السنة ومعَه العباسُ صاحبُ تِلِمْسان، فأنعَمَ عليه أميرُ المسلمينَ بكلّ خير، وأمَرَ له بظهائرَ كريمة وانصَرف إلى وطنه.

وفي سنة تسع وستّينَ وأربع مئة: وصَل إبراهيمُ بن أبي بكر بن عُمرَ من الصَّحراء يَطلُب مُلكَ أبيه، فنزَلَ بخارج أغماتَ في خَلْق كثير من إخوانِه لـمتُونة، فسَمِع بذلك أميرُ المسملين، فبعَثَ إليه الأميرَ مَزْدَلي فقال له: ما الذي تريدُ يا إبراهيم؟ قال: أطالبُ مُلكَ أبي الذي غَصَبَنا فيه عمِّي يوسُف، قال مَزْدَلي: إنّ الـمُلكَ بيد الله يؤتيه من يشاء، واللهُ تعالى قد خَصّ هذا الرجُلَ بالـمُلك دونَنا، فإن كنتَ عاقلًا فاطلُب منه أن يُعينَك بمال وخَيْل ترجعُ بهما إلى بلدِك، وإن طلبتَ غيرَ هذا أخافُ أن يجعَلَ على رجلِك قيدًا ويحبِسَك عندَه عبدًا، وما قلتُ لك ذلك إلا بوَجْه الشَّفقة عليك، فقال له: يا عمِّي مَزْدَلي رضي اللهُ عنك، عسى أن تجتمعَ معَه في أمري وتُبيِّنَ له حالي، وكان الأميرُ مَزْدَلي حسَنَ السِّياسة صحيحَ المذهب عارفًا بخدمةِ الملوك، فهَدَّن إبراهيمَ المذكورَ وقال له: أقم في موضعِك حتّى آتيَك بكلِّ ما يُرضيك، فانصَرف عنه ووصَل إلى الأمير يوسُفَ بن تاشْفين فحَسَّن كلامَه إليه، وأنعَم الأميرُ يوسُفُ عليه بمال وخَيْل وكُسًى وغيرِ ذلك بعدَما بولغَ في كرامتِه وضيافتِه، واحتَمل له ذلك مَزْدَلي، فشَكَره الولَدُ على ذلك وانصَرف عنه من هنالك، ولم يجتمعْ بالأميرِ يوسُف ولا رَآه، وانصَرف إلى الصَّحراء وبقيَ بها إلى أن مات.

وجَرَت لأمير المسلمينَ معَ أمير تازَا في هذه السنة ـ وقيل: في سنة سبع وستّين ـ حروبٌ شديدةٌ بفَحْص الوادي هزَمَه أميرُ تازَى، وهو: أبو يَعْلَى، وكان معَه القاسمُ بنُ عبد الرحمن بن أبي العافية على لـمتُونة، وذلك بموضع (أجرسيف)[1].

وفي هذه السنة: وُلد للأمير يوسُف بن تاشْفين ولَدُه الفضلُ من زوجِه زَيْنبَ النَّفْزاويّة، وكانت أحبَّ ما لديه، امرأةً غالبةً عليه، ليس... ولا كان أمرٌ إلّا أمرَها، وكان يقولُ لبني عمِّه إذا خلا بهم ووردَ ذكرُها: إنّما فتَحَ البلادَ برأيها...

---

(١) ينظر الروض المعطار ١٢.

الكَبْيَطُورُ في بَلَنْسِيَة

وكان الطاغيةُ لُذْريقُ النَّصراني، الملقَّبُ بالكَبْيَطُور، قد أخَذ بمُخنَّق بَلَنْسِية وألقَى زوْرَه عليها، يَجبي رعّيتَها ويَستغلُّها حاضرةً وبادية. وقد استَضعَفَ حفيدَ ابن ذي النّون، مَلِكَها المشئوم، وكان اجتَلَبه ليُحتَرَمَ به فرَمى بسَهْمِه إلى نحرِه، فخَلَعه اللّعينُ وبقي حتى أراد الله بها أراد من حتفِه، وكان أيضًا صاحبُ سَرَقُسطةَ ابنُ هُود يَمِيرُ لُذْريق وأصحابَه النّصارى، ويَعضُدُه بالسلفة، ويوجِّه المغيرةَ يَمْنة ويَسْرة، فكان ما يأتي به الذِّكرُ.

قال محمدُ بن علقَمة: وفي شعبانَ من العام خمسٍ وثمانين وأربع مئة: انتقل الكَبْيَطُورُ إلى سَرَقُسطة، واستَخْلَف على أطعمتِه المختزَنة وضرائبِه المفترَضة ببَلَنْسِيَة، فتنفَّس مُخنَّقُ أهلِها، وانفَرجت الضِّيقةُ عنها.

ثورةُ القاضي ابن جَحّاف ببَلَنْسِيَة[1]

ولـمّا ظَهر ابنُ عائشةَ بمُرْسِيَة، وتَوالى ظفَرُه بها وبذواتِها، وقَعَ الإصفاقُ من القاضي أبي أحمدَ جعفر بن عبد الله بن جَحّاف، وصاحبِ الأحكام ابن واجب، وأهل العَقْد والحَلّ من أهل بَلَنْسِيَة، على استدعاءِ محمد بن عائشة، فانفَذَ إليهم لـمّةً من المرابطين تحتَ نظَر ابن نَصْر، واتّصل النظَرُ بمَن ببَلَنْسِيَة، فنظَر أحبّاءُ سُلطانِهم ابنِ ذي النُّون في إنفاذ عِيالِـهم وذخائرِهم وأموالِـهم إلى المعاقل والقِلاع، وأخرَجَ حفيدُ ابن ذي النُّون بعضَ عيالِه إلى ابن ياسين قائدِه على حِصن شُبرُب، وإلى ابن حُدَيْدة بحصن العِقاب، وفَرّ على وجهِه مَن فيها منَ الرّوم من رجال لُذْريق. وخَرج القاضي والفقهاءُ لتلقِّي ابن نصر، رسُولِ ابن عائشةَ وإدخالِه البلد، وفَرَّ القادرُ عن البلد إلى دار هجينة، ففَحَص ابنُ جَحّافٍ عنه إلى أن ظَفِر عليه ليلةَ الـجُمُعة لسبع بقينَ من رمضان.

نقل القادرِ حفيدِ ابن ذي النُّون

لـمّا حصَل بيد ابن جَحّاف، أمَرَ بقتلِه، فتَولّى ذلك فتى من بني الحَدِيدي[2] زعيم طُلَيطُلة، فقتَلَه بيده كفعلِه بوَليِّه أبي بكر ابن الحَدِيدي، وحُمل رأسُه على عصًا يُطافُ به

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) الضبط من خطّ الذهبي في تاريخ الإسلام ٩/ ٤٤٨.

الأسواقُ والسِّكك. واحتَوى ابنُ جَحّاف على ما كان معَه، وطُرِحت جثّتُه في سَبْخة، فواراه رجلٌ من التجّار: اجتاز به على بابٍ مُغطًّى بحصير خَلِق، ودفَنَه دون كفَن.

وتبوّأ ابنُ جحّاف تبوُّؤَ الرِّياسة، ورتَّب أرزاقَ الجُند والخِدمة، واستشعرَ غِلْظةَ الرؤساء، وأظهرَ أُبَّهَةَ الـمُلك، وطَمِح بصَرُه إلى قضيّة القاضي محمد بن إسماعيلَ بن عَبّاد، فما حَسَّن النظَر، ولا ساعدَه القَدَر، فكان يجلسُ مكتنفًا بالوُزراءِ والفقهاءِ والزُّعماء، والغِلَمةُ أمامَه، ويركبُ فيتقدَّمُه العبيدُ والطُّرُد، ويتأخَّر عنه الجُند، وتستقبلُه الـمُصانِعةُ بالدّعاءِ والثناء.

وكتَب لُذْريقُ الكَبْيَطُورُ إلى ابن جَحّاف المذكور يهنّئُه على تلك الأمور، ويـ... بالحَسَنة التي اكتَسَبها في رمضانِه بقَتْل سُلطانِه، ويَطلُب منه أطعمتَه المختزنَة عندَه ببَلَنْسِيَة. فراجَعَه الكَبْيطُور، يُقسم بمغلَّظات الأيمان ألا يبرَحَ من بَلَنْسِيَة حتى يظفَرَ به، ويأخُذ ثأرَ ابن ذي النُّون منه، وأنفَذَ إلى الحصون المجاورة يستمِدُّ الأقواتَ، فأمَدَّه منِ اتَّقى شرَّه، وأقبَلَت المِيرةُ إلى محلّته، واتّصل الضّربُ منها إلى بَلَنْسِيَة، فأضرَّ بها، وقَتَل مَن ظفِرَ به من أهلها. وكان معَه جملةٌ من رجال ابن ذي النُّون.

وفي خلال ذلك، ألحَقَ ابنُ جَحّاف من الجُند عددًا، وأنفَذَ إليه ابنَ عائشةَ بعدَ ذلك المددِ مدَدًا، واجتَمع له ببَلَنْسية زُهاءُ ثلاث مئة فارس، وابنُ جَحّاف يزدادُ غِلظةً وحَجَبةً، وجيشُ الروم يُراوحُهم ويُغاديهم، والحربُ تَدورُ عليهم، فمنهمُ القتلى والجرحى. وأمَّل الكَبْيَطُورُ إزعاجَ الـمُرابِطين من بَلَنْسِية، وكان ابنُ جَحّاف قد استثقَلَهم، لكنه يستعملُهم، واستشعَروا ذلك منه. وداخَل الكَبْيَطُورُ ابنَ جَحّاف في إخراجِهم واستبدادِه بالـمُلك لنفسِه ليُقيمَه معَه مقامَ ابن ذي النُّون، يَحمي حَوْزتَه، ويُقاتلُ عنه، فطمِعَ في ذلك.

وفي سنة ست وثمانينَ وأربع مئة: عَظُم بلاءُ الطاغية على بَلَنْسِية، واشتدَّ حالُهم، وعظمُ أمرُهم. فاستَصْرَخوا أميرَ المسلمينَ يوسُف، وبَسَطوا عندَه القولَ فيما نزَلَ بهم. فجَدّ في أمرِهم، وأمَرَ قُوّادَه وعُمّالَه على بلاد الأندَلس بنَصْرِهم، فتلاحَقَت جموعُ المسلمينَ بشاطبة، واتّصل النبأُ بالعدوّ، فما بَرِحَ، ولا تزَحْزَحَ. فوصَلت الجيوشُ ومعَها من المطَوِّعة خَلْق كثيرٌ خيلًا ورَجْلًا، فاستقبَلَت بَلَنْسِية سيرًا حثيثًا حتى أشرَفَت عليها، واستشرَفَ أهلُها عليهم، واستبشَروا بنَصْرهم والانتقام من عدوِّهم، واستنشَقُوا رِيحَ

الحياة. وخَرج العدوُّ إلى طرف محلّتِه؛ فعبَّأ الجيشَ فرقتَيْن وأمَرَ كلَّ فرقة، فلزِمَت مَصافَّها. وأوقَعَ اللهُ لِـما قضاهُ في قلوب المسلمينَ النُّكولَ عنهم؛ فرجَعوا عَوْدَهم فبُهِت أهلُ المدينة، وسُقِط في أيديهم ويَئسوا من الحياة. واستأسَدَ العدوُّ، واشتدَّ كَلَبُه، وأقام يَجْبي الرَّعيةَ ويوجِّهُ الـمُغِيرة، ويمنَعُ الدّخولَ إلى المدينة، ويَعِيثُ في فَلِّ الفارِّ عنها، ومَن تحرَّكَ من قريتِه، أو شُعِر بحركتِه، يُستبعَدُ أهلُه ووَلَدُه. فلم يُقدِمْ أحدٌ على التحرُّك ولا حدَّث نفسَه بالتحوُّل. ولـمّا صَدَرت جيوشُ المسلمينَ إلى شاطبة، بادَرَ الأميرُ أبو بكر بنُ إبراهيم إعلامَ أميرِ المسلمين.

وفي سنة سبع وثمانين وأربع مئة: لـمّا انصَرف جيشُ الأمير أبي بكر بن إبراهيم اللَّمتُونيِّ بحُكم القَدَر السابق عن بَلَنْسِية، أيقَنَ مَن فيها بالـهَلَكة، وغَلَب على الناس اليأس، وضاقَت النفوس، وزاد حِقدُ العدوّ، وقَسا قلبُه، وهلَكَ أكثرُ الناس جوعًا، وأكَلَت الجُلودَ والدوابَّ وغيرَ ذلك، ومَن فَرَّ إلى الـمَحلّة فُقئت عيناه، أو قُطِعت يداه، أو دُقَّت ساقاه، أو قُتل. فرضِيَ الناسُ بالموت في المدينة، وزادت هذه الأزمةُ على أزمةِ طُلَيْطُلة أضعافًا لانفساح مدّةِ الحصار، وتضاعَفَ حِقدُ العدوِّ لصبرِهم وطلبِهم النُّصرة.

ذكرُ تغلُّب العدوِّ على بَلَنْسِيةَ في هذه السنة

لـمّا بلَغَ بأهل بَلَنْسية الماءُ الزُّبَى، وانتهَوْا من الصّبر إلى الغاية القُصوى، ولا نصرَ ولا غَوْث، ألجَأتْهم الحالُ إلى دخول العدوِّ بحُكم الاضطرار، لا بحُكم الاختيار. فتجمَّعوا إلى قاضيهم أبي الـمُطرِّف ابن جَحّاف، وسَفَروا إلى الطاغية الكَنْبَيْطُور لعنَه الله مَن يتوسَّطُ لهم معَه أخْذَ الأمان. فأجابَ في هذا الشأن، وعقَدَ نيّتَه على الختْر، ونَقْض العهد، وإعطاءِ أمانٍ مثلِه من الأنجاس. فخَرج إليه القاضي، وعقَد عليه العقود، وأخَذ المواثيقَ والعهود، وحزَم في كلِّ ذلك، وبلَغَ الغايةَ التي ما بعدَها غاية، ولا وراءها لمجتهد نهاية، فلمّا كمُل الأمرُ فُتحت له الأبواب، ودخَل المدينةَ بجُملته، وذلك في جُمادى الأولى من هذه السنة، فلم يعمَلْ هو وأصحابُه لعنَهم اللهُ ما يَسُوءُ المدينةَ وأهلَها بحال من الأحوال، فانتَشَطت الأنفُس من عِقال، وانبَسَطت الآمال، وأمِنَ الناس. وهو معَ ذلك يُراعي أمرَهم ويمنَعُهم من الخروج من المدينة، وحصَل لعنَه اللهُ على هذه الحضرة، ورَمَى على ما هي عليه من النِّعمة والنَّضرة والحُسن والبهجة.

واشتدَّ جزَعُ المسلمينَ بدانِيةَ وما اتّصل بها من ذلك الصُّقع من القلاع والقواعد، وكثُر شرُّ الغارات من بَلَنْسيةَ عليها، وتَوالى الضّربُ وعَظُم الضَّرَر، وانقَطَعت السابِلة، وخافت الطُّرق، وصار أهلُ تلك الجهات في أضيقَ منَ العزق، وقد حَمِيت الفتنة. فخاطَبَ الناسُ أميرَ المسلمين مُستصرِخينَ مُعلِمين بفساد الشّرق، وإشرافِ الأُمّة على الـهَلَكة. فتحرَّكَ إلى مدينة سَبْتة، وتقدَّم أمرُه إلى القبائل باللَّحاق بها، وأقام هنالك يُجَنِّدُ الأجناد، ويُسرِّبُ الأمداد، وجعَلَ تلك الجيوشَ وأمرَها إلى نَظَر ابن أخيه الأمير أبي عبد الله ابن أخي يوسُفَ لأُمِّه، والأميرُ أبو بكر هو أيضًا ابنُ أخي يوسُفَ بن تاشْفين لأُمِّه وابنُ عمِّه. وأوعَزَ أميرُ المسلمينَ إلى صاحبِ غَرْناطةَ وما والاها أن يُمدُّوه بأنفُسِهم ورجالهم، وكتَبَ إلى صاحب شَنْت برية ابن رَزِين الملقَّب بالحاجب، وإلى الشَّنياطي ـ وكان من أنجادِ الفُرسان ودُهاة الحرب ـ ليجتمِعوا معَ ابن أخيه لاجتماع الكلمة واتّصال الـمُعاضَدة والـمُظاهرة على منازلة العدوِّ ببَلَنْسية.

ولحِقَ الجيشَ بالأندَلس عَقِبَ شعبانَ المكرَّم ما يَنيفُ على أربعةِ آلاف فارس، وأضعافِها مرّات من الرّجال. وتحرَّكَ من أُمِرَ بالحركة إلى الاجتماع به. وأقبَلَت دوابُّ المِيرة من كلِّ صُقْع، ونزَلَت المحلاتُ على فرسَخ من بَلَنْسية. فصارت مِصرًا عظيمًا. ورأى الرّومُ بحرًا محيطًا، وهَمُّوا بالفِرار وإخلاءِ بَلَنْسيةَ إلّا اللّعينَ زعيمَهم الكَبْيطُور، فلم يَرُعْه في ظاهر الأمر ذلك الجَمْع ولا عبِئَ به، وكانت له في الطّير عِيافةٌ وزَجْر، يُضيفُ إلى ذلك مَخْرقةً من كذبِه، يقوّي بها نفوسَ أصحابِه، وفي ذلك يقولُ أحدُ أهل بَلَنْسية [من البسيط]:

قولوا للُذْريقَ إنّ الحقَّ قد ظَهَرا ... أو نقِّدوه إذا ما طيرَهُ زَجَرا
سيوفُ صُنْهاجةٍ في كلِّ معتركٍ ... تأبَى لأطيارِه أن تصدُقَ الخبرا

وعمَدَ اللّعينُ، عندَ نزولِ المحلّات عليه، إلى الضَّعَفة من النّساء والوِلْدان من المسلمين فأزعَجَهم إلى المحَلّة، وقال: الحَقوا بأهل ملّتِكم! فوقَعْن إلى أيدي السُّودان وخَدَمة الدّوابِّ والسِّفلة من الباعة فغلَبوا عليهنّ وفَسَقوا بهنّ، ولم يُرفَعْ ذلك إلى صاحب الجيش، فيقَعَ التغييرُ والنهيُ عن المنكر.

ثم رحَلت المحَلّةُ إلى دانِيَةَ وغيرِها، فضاعَ الحَزْم وانتقَضَ العزم، وظهَر العَجْز، واختَلّ الجيش، وصاحبُه في غفلة عنه، مغترٌّ بكثرته، يقدِّرُ أنّ الجيشَ بوفره، ويتهاونُ بعدوِّه، ويحسَبُ أنه مثلُه على مثلِه. فبَدَت العورة، وأمكَنَت الفُرصة. وكان الكَبْيَطُورُ قد ضاقت نفسُه من مقاومةِ هذا الجمع؛ فاستجاشَ الأذْفُونْش، وشاع ذلك في محلّاتِ المسلمين، فتوجَّست النفوس، وأُشرِبَت خوفَه القلوب، وكانت هذه الأمور، دواعيَ لِـما جرَّه المقدور.

ذكرُ غَدْر لُذْريقَ اللَّعين لمحَلّة المسلمين

ولـمّا رأى لُذْريقُ ـ لعنَه الله ـ ضياعَ المحَلّة، وتفرُّقَ الناس عنها في كلِّ وِجهة، اعتبَر الغِرّة وأعملَ الحِيلة ولم ينتظرِ النُّصرة. فركِبَ في بعض خِيْله، وكمَنَ البعضَ ليلًا على مقرُبة من المحَلّة، وخَرج صُبحَ تلك اللّيلة بمن معَه في أُهبة وعلى تعبئة، والناسُ في طُمأنينة وعلى غفلة. فلمّا اشتُهر مَن في المحَلّة، وقَعَت الرجّة وعَلَت الصَّيحة. وركِبَ مَن بقيَ من الـمُرتزِقة والمطَّوِّعة، ولم يبقَ في المحَلّة إلا الغِلمة ومَن لا يَدفَعُ عن نفسِه. وصمَّمت الخيلُ إلى لُذْريقَ المذكور، فاستَطرَدَ لهم إلى المدينة، ونشِطوا في أثرِه، فاستدرَأَ بالسُّور، ولازمته الجيوشُ تُصيبُ منه وتَظهَرُ عليه فخَرجت كائنةٌ إلى المحَلّة، فدوَّختها. وكان الأميرُ محمدٌ ابنُ أخي أميرِ المسلمين شاكِيًا متخلِّفًا بها، فبادَرَ بالخروج عنها. واتّصلت بالمسلمينَ الصَّيحةُ بدخول المحَلّة، فبُهت الناس، ولم يشُكّوا، لِـما كان في أنفسِهم، أنّ الأذفُونْشَ طرَقَها. فهامَ كلٌّ على وجهه، وأخَذوا في غير طريق، ومَن صمَدَ إلى المحَلّة، فرأى النَّهبَ فيها، والخيلَ تخترقُها، تنكَّب عنها، فلم يرجعْ أحدٌ إليها. وأقبَلَ العدوُّ على النَّهب، ولم يَتْبَع الفَلّ، ورَفّه عن الخَيْل لسقوطِها من عندِه بالضَّيعة لِـما لحِقَها ببَلَنْسِية. فلم يُعمَلْ سيفٌ، ولا أُريقَ دمٌ إلّا أفذاذ رَزَقَهم اللهُ الشهادة.

واتّصل النبأ بإذفُونْش وَقمه الله وقد تجاوَزَ في نصف طريقِه لنُصرة لُذْريق، وبلَغتْه هديّتُه من نَهْب المحَلّة، فكَرِه أن يُفرِّق جمْعَه ويخفقَ جيشَه، فقصَدَ أرضَ وادي آش مِن نَظَر غَرْناطة، فتردَّد في جهاتِها، واكتَسح ما ألفاه بها، وحمَل جُملةً من رعيّتِها الـمُعاهِدة لعِمارة أرضِ طُلَيطُلَة.

واتّصل النبأُ أيضًا بأميرِ المسلمينَ يوسُف، فبلَغَ منه كلَّ مبلغ، واشتدَّ غضَبُه على ابن أخيه لتضييع الحَزْم وإسلام المحَلّة دونَ حربٍ يقومُ به عُذر، وانتقَلَت جيوشُ المسلمينَ إلى دانِيَة، ثم إلى شاطِبة، فابتَدروا بمخاطبة أمير المسلمينَ مُعتذِرين، فأعرَضَ عن كَتْبِهم وأضرَبَ عن جوابِهم. ولـمّا طال إعراضُ أمير المسلمينَ عن ابن أخيه ومن معَه، استَلطَفَه ورجَع في أمرِه إلى القضاء والقَدَر، فسَلَّم الأمرَ لله فيما قضَى، وعاد من العَتْب والسَّخَط إلى الرِّضى، وخاطَبَه بلزوم شاطِبةَ لتشميرِ العادية، عن تلك الناحية، وقَطْع الطُّرقِ إلى بَلَنْسية، وحضَّه على الضّرب عليها. فبلَغَ من ذلك ما في وُسعِه وبَذَل غايةَ جُهدِه. ولم يزَلْ أميرُ المسلمين يُمِدُّ ابنَ أخيه بالأموال والرّجال إلى أنْ عَظُم الجيشُ وكثُف، وضَخُم أيضًا أمرُ الفتنة والتَّعب. وبعدَ ذلك كتَبَ إليه، يَأمُرُه بالقدوم عليه. وبعَث عِوَضَه أبا الحَسَن عليَّ بن الحاجّ، فلَحِق بشاطِبة وانضمَّت الجيوشُ عليه. وكانت هُدنةً على دَخَن!

ذكرُ حَرْق القاضي أبي أحمدَ ابن جَحّاف وفتنةِ أهلِه وقَرابتِه ومحنةِ أهل بَلَنْسِيَة[1]

ولـمّا تمهَّدت بَلَنْسيةُ للكَنْبِيطُور لعنَه الله بدَأَ بثِقاف قاضيها ابن جَحّاف وثقافِ أهلِه وقَرابتِه، فعمَّهم الثِّقاف، وبلَغَتهم المِحنة، وجعَل يَطلُبُهم بمال حفيد ابن ذي النّون. ولم يزَلْ يَستخرجُ ما عندَهم حتى استصفَى أموالَهم واستنفَدَ أحوالَهم. فلمّا لم يترُكْ لهم ظاهرًا ولا باطنًا، أمَرَ بإضرام النار، وسيق القاضي أبو المطرِّف، يَرسُفُ في قيودِه، وأهلُه وبنوه حولَه، وقد حُشِر الناس من المسلمينَ والرّوم. ثم قال للملإِ من المسلمين: ما جزاءُ من قتَل أميرَه عندكم في شَرْعِكم؟ فصَمَتوا، فقال لهم: جزاؤه عندَنا الإحراقُ بالنار! وأمَرَ به وبجُملتِه إلى ذلك الضّرم، وقد لَفَح الوجوهَ على المسافة البعيدة. فضَجَّ المسلمونَ والرُّوم، وتَضرَّعوا إليه في تَرْك الأطفالِ والعِيال، إذْ لا ذنبَ لهم، ولا عِلمَ بتلك الأمورِ عندَهم، فأسعَفَ الرعيّةَ في رغبتِهم بعدَ جَهْدٍ ومدّة، وترَكَ النّساءَ والصِّبية.

---

(١) تنظر الحلة السيراء لابن الأبار ٢/ ١٢٥-١٢٦، والتكملة له أيضًا ١/ ٣٧٥، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٥٩٤، وتنظر الذخيرة ٣/ ٧٣ فما بعدها.

وحُفِر للقاضي حُفرة، وأُدخل فيها إلى حُجْزته، وسُوّي الترابُ حولَه، وضُمَّت النارُ إليه. فلمّا دنَتْ منه، ولفَحَت وجهَه، قال: بسم الله الرحمن الرحيم ثم ضمَّها إلى جسَدِه. فاحترَق رحمه اللهُ تعالى.

ولم يُكَفَّ غضَبُ الطاغية عليه إلّا لشدة صبرِه على تلك الأزمة، واجتهادِه في طلبِ النُّصرة، ودَفْعِه إياه بالمطاولة، رجاءً في استمساكِ البلدة وإبقاءِ الكلمة.

وعَمَد الطّاغيةُ لعنَه اللهُ بعدَ إحراق القاضي رحمه الله إلى الجِلّة من أهل بَلَنْسية، فثقَّفَهم وأغْرَمَهم حتى استأصَل جميعَ ما عندَهم وجعَل الناسَ في المحنة أُسوة، يأخُذُهم على طبقاتهم، حتى عمَّتهم المحنة، وهلَكَ في ذلك الثِّقات كثيرٌ منهم رحمهم الله وجعَلَها كفّارةً لهم.

وممّا امتُحن به أهلُ بلَنْسِيَة في هذه السَّنة المؤرَّخة: الغلاءُ، قال محمدُ بن علقَمة: بلَغَ رَطلُ القمح في ربيع الأوّل بمثقالٍ ونصف، ورطلُ الشّعير بمثقال، ورَطلُ زَرِّيعة الكَتّان ستةَ أثمان مثقال، وأوقيةُ الجُبْن ثلاثةَ دراهم، وأُوقيةُ البصَل بدرهم، ورَطلُ البَقْل بخمسة دراهم، وبيضةُ دجاجةٍ بثلاثةِ دراهم، ورَطلُ اللُّحم البَغْليِّ بستة دنانير، ورَطلُ الجِلد البقَريِّ بخمسة دراهم.

وفي ربيع الثاني: عَظُم البلاء، وتَضاعَفَ الغلاء، واستَوى في عُدْم القوتِ الفقراءُ والأغنياء. فأمَرَ ابنُ جَحّاف اقتحامَ الدُّور فحصًا عن القُوت. وأعاد ابنُ جَحّاف استصراخَ ابن هُود ورغَّبه في المالِ والبلد، معَ الأجر في استنقاذِ المسلمينَ من القتل والأسر.

وانسَلَخ هذا الشّهر، ورطلُ القمح بثلاثة مثاقيلَ غيرَ رُبع، وما سواه تابعٌ له. ولا يصلُ إلى إدراك شيءٍ من الموجود إلّا أهلُ الجاه، وترَمَّق سائرُ الناسِ بالجلودِ والأصماغ وعروق السُّوس، ومن دونَ هؤلاءِ بالفِئَرة والقِطَط وجِيَف بني آدم. وهُجِم على نَصْرانيٍّ وقَع في الحَفِير، فأُخِذ باليد، ووُزِّع لحمه.

وجَدّ الطاغيةُ في حَرْق مَن خَرج من المدينة إلى المحَلّة، لئلّا يَخْرُجَ الضُّعفاء ويتوفَّر القوتُ على الأغنياء. فهانَ على الناس الإحراقُ بالنار، فعَبَث فيهم بالقَتْل، وعُلِّقت جثثُهم في صوامعِ الأرباض وبَواسق الأشجار.

ودخَل جمادى الأُولى، وعُدِمت الأقواتُ بالجُملة، وهلَكَ الناس. ولم يبقَ من ذلك الجَمِّ إلّا نَزْرٌ يسير. وتَوالَى اليَبَس، واستَحكَم الوباء، وبينَما الرجلُ يمشي، سَقطَ ميّتًا. ولم يبقَ ما يَدِبُّ على أربع إلا اثنانِ لابن جَحّاف وابنِه، واثنان لابن رُتْبَيْر. وباعَ ابنُ رُتْبَيْر فرسَه من الجزّارينَ بمئتي مثقال، واستَثنى منه عشَرةَ أرطال، فبيعَ الرطلُ منه أولُه بعشَرة دنانير، وآخرُه باثنَيْ عشَرَ دينارًا، ورأسُه بخمسةَ عشَرَ مثقالًا.

ولـمّا بلَغَ الأمرُ إلى هذا القَدْر، وابنُ هود يُخاطِبُ بالتسويف والـمَطْل، اجتَمع الناسُ إلى الفقيه ابن الوليد الوَقَّشيِّ في التكلُّم لابن جَحّاف. فأخَذوا الأمانَ بشرطِ التوقُّف ريْثَما يُستصرَخُ مَن بمُرسِيَة وصاحبُ سَرَقُسطة، وعلى بقاء ابن جَحّاف على حالِه آمنًا في نفسِه ومالِه وجميع أهلِه، ويُخَلِّي اللّعينُ عن المدينة بعدَما قدَّم عليها ابنَ عُدَيس مُشرِفًا، وتكونُ الأبوابُ بأيدي الرّوم البَلَديِّينَ إلى آخِر الشّهر المؤجَّل. وخَرج الأرسالُ في منتصَفِه، وهو جُمادى الأُولى.

وفي هذا اليوم: وصَل القمحُ ثلاثةَ مثاقيلَ للرَّطل، ورطلُ الشّعير مثقالَيْنِ ونصفًا، وأُوقيّةُ الجُبن بعشَرة دراهم، وبيضةُ دجاجة بثمانيةِ دراهم. وبعدَما نفَذَتِ الأرسال، ارتَفَعت الحرب، ولان السِّعرُ، والحمدُ لله. وذلك لـمّا انصَرم الأجَل، خَرج القاضي إلى الكَبْيطُور يومَ الخميس منسَلَخ الشّهر المذكور. ثم صار وفُتح الباب، ودخَل اللّعينُ إلى المدينة معَ جُملة من رجالِه. وصَعِد جماعةٌ منهم، فمَلَكوا الأبراجَ والأبواب، وتسابَقَ الباعَةُ من موضع المحَلّة بالخُبز والفواكه إلى المدينة. وخَرج أهلُ البلد إليها لابتياع القُوت منها، فتهلَّلت الوجوه، وانبَسَطت النفوس، إلا أهلَ العقولِ والنظَرِ في العواقب.

واستمرَّت المحنةُ عليهم إلى أنْ دخَل شهرُ شعبان، فاتّصلتِ الأنباءُ أنّ عساكرَ المسلمينَ بمُرْسِيَة. فأشاع الرّوم: أنه متى نزَلَت علينا محَلّةُ المسلمين، أمضَيْنا السَّيفَ على أهل بَلَنْسِية، ومشَى بريحِه: مَن وُجِد عندَه شيءٌ من آلاتِ الحديد، فمالُه ودمُه حلال. فبَرِئ الناسُ منه حتّى من الإبَر والمسامير، ووضَعوا ذلك بباب القَصْر، وقد تضاعَفَ الجَزَعُ والخوف. ثم مشَى بريحِه منَ الغَدِ بالخروج إلى البحر لجَرّ القِطع التي فيه إلى البَرِّ، فلمّا تكامَلَ الناسُ، لحِقَ بهم الـمُترجِمُ معَ زعماءِ الرُّوم، فميَّزهم، فمَن كان من أهل اليسار صُرِفَ إلى المدينة، ومَن كان من أهلِ النّجدة جُرِّد ونُفِي، وغَلَب على الظنِّ أنهم قُتلوا،

فكان الحُزنُ في دورِهم. واستمرَّتِ الحالُ على ذلك شهرَ رمضان ومحلّةُ الأمير محمدِ بن تاشْفين ابن أخي أميرِ المسلمين بقُرب المدينة، واجتَمع على الأميرِ محمد جميعُ عساكرِ الـمُرابِطينَ المغربيّة والصَّحراوية، وجميعُ عساكر الأندَلس. فلَحِق به تأييدُ الدّولة صاحبُ لارِدة، وسيِّدُ الدّولة من طَرْطُوشة، وحسامُ الدّولة من شَنْت برية، ونظامُ الدّولة من البُونْت، فكانت أفعالُهم ضدَّ ألقابِهم، ولِحَقَ الشَّنياطيُّ من الثّغر، وابنُ ياسين صاحبُ شبرب، وابنُ يَمْلُول صاحبُ حصن الأشرف، وغيرُ هؤلاءِ المذكورين.

واستَهلَّ هلالُ شوّال، وصَلّى الناسُ بمنزِل عطاءٍ على ساقية هَوّارة، ومَن كان بالمدينة من النّصارى الـمُعاهِدين يتصنَّعُ لـمَن بها من المسلمين، ولا شكَّ عندَهم في غَلَبتِهم لهم.

وفي الثامن من شوّال: أشاع اللَّعينُ أنّ ابنَ رُدْمير مِلكَ أرغُون لِحَق بجُملتِه لنُصرته، فأعمَلَ الحِيلةَ وأخرَجَ جمعًا من الرّوم، وأمَرَهم أن يشغَلوا المسلمينَ بالتناوش ليظُنُّوا أنّه الكَبْيَطُورُ، وخَرج هو من حَوْمة أخرى، فأجْفَلوا أمامَه، فأُخِذ إلى المحَلّة، فدوَّخَتْها خيلُه، واتّصل الصُّراخُ بالأمير محمد، فكَرَّ إليها، ومتى انفَضّ الناسُ عنه والمحلةُ تُنهَب، فتوقَّف العدوُّ عن الاتّباع وأقبَلَ على النَّهب. ثم رجَعَ إلى المدينة، فمشَى بريحِه باجتماع المسلمينَ إلى القصر، ثم خَرج عليهم ونَظَر إليهم وعرَّضَ بذكْرِ الـمُرابِطين وكثرتِهم وأنّ ذلك ما أغنَى عنهم، وجعَلَ يَنظُر في عِطفِه، ويشمَخُ بأنفِه. ثم قال: انظُروا إليّ في سبع مئة ألف مثقال، وإلّا هَلَكتُم، وأحَلْتُ السّيوفَ عليكم، ثم خَرج وبقيَ المسلمونَ في القصر، وأُغلِق عليهم الباب، فصاروا في سِجن، والرومُ تحُفُّهم بالأسلحة، فرأَوا الموتَ، ووَقَع البَهْت، وخَرِست الألسنة. ثم رجَع اليهوديُّ وزيرُه إليهم، وقال لهم: لم أزلْ أُلاطفُه حتى قاطعتُه عليكم بمئتي ألف مثقال، فبادِروا بتوزيعِها، وافدُوا أنفُسَكم منه، فتوزَّعَ العددُ على الأحوال واشتَدّ ثِقافُ الأغنياء.

وبلَغَ اليهوديُّ لعنَه اللهُ من المسلمينَ مبلغَ الغاية في العذاب وسَلَّط اليهودَ على الإسلام، فبلَغوا النّهايـةَ في النَّكالِ والنِّكاية، ومنهم الأُمناءُ الموكَّلون، والمتصرِّفون، وأصحابُ الرّسوم، وخُدّامُ البَرِّ والبحر. وجلس اليهوديُّ للقَبْض بصاحبِ المدينة من

الضّرب بالعَصَا والسَّوط، وقَيَّض لكلٍّ منهم شيطانًا يخرُج معَه كلُّ عدوّ، فإن جاء بشيءٍ وإلّا أُخِذ بالسَّوط والعذاب، وتمادَت هذه المحنةُ مدّة، فلا قوّةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

... رجلَيْن من أجنادِ رجالِه وبقيَ المستعينُ بنُ هود المذكورُ في مُحاربة معَ الرُّوم، إلى أن وصَل ابنه... ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ فتح بَلَنْسِية وعَوْدِها للمسلمين

قال أبو بكر يحيى بنُ محمد الأنصاري: أخبرني أبو عبد الله البُونيُّ قال: لـمّا لحِقَ الأميرُ مَزْدَلي... صدرَ ذي القَعْدة من السنة الفارِطة نزَلَ بمقرُبة منها، كما تقدَّم ذكرُه، وكان الرّومُ الذين بالمدينة قدِ استَصرَخوا مَلِكَهم الأكبر أذفُونْش فتحرَّك إليها بجيش أخشَنَ، فلمّا كان على فرسخَيْن منها أفرَجَ الأميرُ مَزْدَلي عنها وصار بمحَلّتِه إلى قَلبيرة[1]، فأقام الأذفُونْشُ ببَلَنْسية نحوَ شهر والروم ترومُه على التمسُّك بها ويُرغِّبونَه فيها ويهوِّنونَ عليه أمرَ جيوش المسلمين، فلمّا ألحُّوا عليه خَرج بجيوشِه لقَصْد قلبيرةَ وهو يُظهِرُ القَصْدَ لأكل الزَّرع وفسادِه يَستُر استطلاعَ جيشَ الأمير مَزْدلي في باطن أمرِه، فتحرَّك الأميرُ مَزْدَلي لـمّا اتّصل به ذلك من هنالك وكتَّبَ الكتائبَ وعبَّأَ المواكبَ في وَجْه الأذفُونْش، فظَهَر لأذْفُونْش من عَزْمِه وصَرامتِه وقوّة جأشِه ما ظَهَر. فكانت بين الفريقَيْن مُكافحةٌ عظيمة عامّةَ النّهار، [وعندَ] المغرب [أخذ] الأذفُونْش في الصَّدرِ إلى بَلَنْسيةَ وجَدَّ في إخلائها وخَرَج بجميع مَن كان فيها من الرّوم، وأُضرِمت النارُ في الجامع والقَصْر وبعض الدُور، وصَدَر الأميرُ مَزْدَلي إلى بَلَنْسِية في شهر رجَب، فأنقَذَ اللهُ بلَنْسِيَةَ من يدِ الشِّرك ومَلَكة الرّوم وطهَّرها وصَرف إليها نورَ الإسلام ودينَ محمد عليه السلام بعدَ ثمانية أعوام وشهرٍ ونصف وبعدَ نفوذِ القَدَر السابق في عِلم الله تعالى... وهَلَك مَن هَلَك بها، جعَلَ اللهُ ذلك تمحيصًا لهم وتطهيرًا بعزّتِه[2].

ووَلِيَها في هلّ ذي الحجة القائدُ أبو محمد عبدُ الله ابن فاطمة، ثم استَناب فيها ونهَض إلى سَرَقُسْطة فوافاها ثانيَ عيد النَّحر معَ ألفٍ وخمس مئة فارس، وذلك لـمّا وصَل

---

(١) هي: Cullera، مدينة تقع إلى الجنوب من بلنسية.

(٢) ذكر ابن بسام في الذخيرة ٥/ ١٠١ أنّ استرداد بلنسية كان في شهر رمضان سنة ٤٩٥هـ.

وَلَدُ ابن هُود من العُدوة بكتابٍ من أميرِ المسلمين، وبعدَ وصُول هذا الكتاب توجَّه القائدُ أبو محمد عبدُ الله ابنُ فاطمةَ إليها بجيش كثيف من ألف وخمس مئة فارس فوَفّاه ثانيَ عيد النَّحر من السنة المؤرَّخة.

وفي هذه السنة: أخذ أميرُ المسلمينَ في الحركة من حضرتِه مَرّاكُش برَسْم الجَواز إلى الأندَلس... المرسوم بالأنوار الجليلة، فلمّا جاز... ثم صَدَرَ إلى غَرْناطة [وعقَدَ عليها] للقائد عليِّ بن الحاجّ، وجَمَع أعلامَ الـمُرابِطينَ والرّؤساءِ الأندَلسيِّين في حال البيعة [لابنِه عليّ]. ووَجَّه أحمدُ بنُ هود الـمُقتدرُ بالله[1] ابنَه عبدَ المِلك المدعوَّ عمادَ الدّولة من رُوْطةَ[2] إلى قُرطبة بهديّة جَليلة منها: أربعةَ عشَرَ رُبعًا من آنِية الفضّة مطرَّزةٌ باسم المقتدِر بن هود، فأمَرَ يوسُفُ بنُ تاشفين بضَرْبها قَراريطَ وفرَّقها ليلةَ عيد النَّحر في طبقاتِ الـمُرابطين، [وفي ذلك الوقت: عقَدَ البيعةَ لوَلَدِه عليِّ بن يوسُف][3] وحضَر العهدَ عبدُ الملك ابنُ المستعين بن هود، وكتبَه أبو بكر ابنُ القصيرة[4].

وفي هذه السنة: توفِّي مِلكُ شَنْتَمَريّة من ثغرِ الأندَلس الملقَّبُ بذي الرِّياستَيْن حسامُ الدّولة[5]، وكانت رياستُهم في هذا القُطر من سنة إحدى وأربعينَ وأربع مئة، أولُهم: مؤيَّدُ الدّولة هُذَيْل بن خَلَف بن أزحن، ثار بها ودام مُلكُه فيها إلى أن مات، ثم قام بعدَه أخوه عبدُ المِلك إلى أن مات، [ثم وَلِـي ابنُه هُذَيْل][6]، ثم ثار بعدَه ابنُه ذو الرِّياستَيْن هذا حسامُ الدّولة، وتَمادَى مُلكُه بها إلى أن مات في هذه السَّنة، ووَلِـي بعدَه ابنُه[7] مدةً يسيرةً وصار أمرُه إلى أمرِ الأمير يوسُف.

---

(١) الصواب: المستعين بالله، وهو حفيد المقتدر بالله، وينظر أعمال الأعلام (١٧٤)، والحلة السيراء ٢/ ٢٤٨.

(٢) Rueda، وهي من مدن الثغر الأعلى كانت تابعة لسرقسطة، ينظر معجم البلدان ٣/ ٩٦.

(٣) زيادة من أعمال الأعلام (١٧٤).

(٤) نص هذا العهد في «الحلل الموشية» ص٦٣، وفيه أن الذي كتبه هو الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور.

(٥) هو عبد الملك بن هذيل بن رزين أبو مروان، تنظر ترجمته في الحلة السيراء ٢/ ١٠٨-١١٥.

(٦) زيادة من الحلة السيراء لا يصحّ النص بدونها.

(٧) سمّاه ابن الأبار يحيى، وقال: «وعليه انقرض ملكهم» (الحلة السيراء ٢/ ١٠٩).

وفي سنة سبع وتسعينَ وأربع مئة: أخَذ يوسُفُ بن تاشْفين في الحركة إلى حضرة مَرّاكُش من بلاد الأندلس لـمّا كمّل أمرَ البيعة لابنِه عليٍّ وضَبَطَ أحوالَها وتقديمَ عُمّال للنّظر في أشغال التحرّك، صار إلى العُدوة، وأوعَزَ إلى أبي الحَسَن عليّ بن الحاجّ عاملِه على غَرْناطةَ في النّهوض إلى شرق الأندَلس، واستحَثَّه في السَّير، فلَحِق به كتابُه وهُو على مقرُبة من الجزيرة الخضراء... بامتثال أمرِه، ووصَل عليُّ بنُ الحاجِّ إلى بَلَنْسِية في شهر صَفَر... الأمير يوسُف في... كتَبَ إليه جوابَه في محلّة مضاربِه، وأقام عليٌّ ابن الحاجِّ ببَلَنْسِية إلى شهر رمضان فورَدَه... الخبرُ عن منازلة أذْفُونْش بن فرذلند مدينةَ سالم، فتوجَّه بجُملةٍ وافرة من الخَيْل والرِّجال... فلمّا احتلَّ بقلعة أيوبَ استمَدَّ القائدَ الأعلى أبا محمد عبدَ الله ابنَ فاطمةَ فبادَرَ إليه... تَفاوَضَ فاجتَمع الرأيُ على غزوِ بلاد العدوّ، فلحِقَا مدينةَ طُلَيطُلةَ من... سَرَقُسْطة... المحَلّة، واتّصل بالحِلِّ والتَّرحال، فوافَوْا مدينةَ طَلَبِيرة، فخَرج منها... والحربُ تدورُ على الدّوام وبأخَرةٍ أحَلّت... الأمير عليّ بن الحاجّ رحمه الله... فيه طرفُ المعتَرك ميّتًا بدِرعِه وسلاحِه... ولا ضربة... إلى تُطِيلة فدُفن في قِبْلي جامعِها وانصَرف... قاهرًا ومالًا وافرًا، فاقتفَى أثرَ أبيه وسلَكَ سبيلَه في عَضُد الحقِّ وإنصاف المظلوم... الظالم وأمْن الخائف وسدِّ الثُّغور ونِكاية العدوّ، فلم يَرُم السَّدادَ في أعمالِه، والتوفيقَ في حُسن أفعالِه، وكان أخصَّ الناس به أبو محمد عبدُ الله بن أسباط، فجعَلَه المترجمَ عن بيانِه، وأقامَه في الأوصية مقامَ لسانِه، وناطَ به الآمال، وأوطَأَ عَقِبَه جماهيرَ الرِّجال.

وفي سنة ثمانٍ وتسعين: شاع الخبرُ بالأندَلس بمرَض الأمير يوسُفَ واستيلاءِ الآلام عليه، وخاضَ فيه أهلُ الدّولة الذين يَستنبِطونَ الغوائل، ويُشعلونَ نيرانَ الشِّقاق والنِّفاق، واتّصلت الأخبارُ بالطاغية أذْفُونْش على غيرِ صورتِها، وجُلِبت لدَيْه في غير معرِضِها، وصوِّرَ عندَه أنّ بلادَ المسلمين من الرّجال قد خلَت، ومن الحُماة وذوي النّجدة قد تفرَّغت، وظنَّ أنه من هذا الحادث قدِ اضطَرَبت الأمور، وانحَلّ نظامُ التدبير، فخَرج الأعداءُ في زُهاءِ ثلاثة آلاف وخمس مئة، فتوغَّلوا في نَظَر إشبيلِيَةَ حتى وصَلوا إلى موضع يُعرَفُ بمقاطع، فغَنِم من تلك القرى الغنائمَ الموفورة والأسلابَ الكثيرة، وخَرج أبو محمد سير مِن إشبيلِيَة وتحصَّن في حصن هنالك، وتلاحَقَت به أجنادُه وأمدادُه،

وبقيَ هناك مُرتقبًا لورود أبي عبد الله ابن الحاجِّ بعسكرِ غَرْناطةَ إلى أن استوفَتِ العساكر، فهَرَب جميعُ الكفَرة وولَّوْا أمامَهم فارِّينَ مهزومين، وبلَغَ المسلمونَ الشّفاءَ من القتل فيهم، وكاد السّيفُ يَستأصلُهم ويُفنيهم، وصَحَّ بعدَ هذا الفتح الجليل أنّ الذي قُتل منهم ألفٌ وخمس مئة.

وفي هذه السنة: تَناهَى القَحْطُ في بلاد الأندَلس والعُدوة، حتى أيقَنَ الناسُ بالهلاك.

وفي سنة تسع وتسعين: تزيَّدت بالأمير يوسُف عِلّتُه التي قُبض منها.

وفيها: صَدَر الأميرُ تميمٌ عائدًا من شَرْق الأندَلس ووصَل مَرّاكُش بسبب ذلك.

وفيها: عُزِل موسى ابنُ الحاجِّ عن غَرْناطة، ووَلِيَها أبو بكر بن إبراهيم اللَّمتُونيّ.

وفيها: قُرئ بإشبيلِيَةَ كتابٌ نفَذَ من وليِّ العهد بتأخير القاضي ابن [منظور].

وفي هذه السَّنة: خَرجت سبعونَ قطعةً من البحر الغَرْبيِّ وقَصَدت بيتَ المقدس، فلمّا توسَّطتِ البحرَ [هبَّت] عليها ريحٌ فرَّقتها وأغرقَتْها فلم يرجِعْ شيءٌ منها وكفَى اللهُ المسلمينَ شرَّها.

وفيها: ظَهَر نجمٌ منظورُ الضَّوء طويلُ الذُّؤابة... كأنها طيرةُ المجرّة تمادى نحو ثلاثةِ أشهر.

وفي سنة خمس مئة: استأْثَر اللهُ أميرَ المسلمين يوسُفَ بنَ تاشْفين رحمه اللهُ تعالى، وذلك يومَ الاثنين مستهلَّ شهر المحرَّم من السنة(1).

بعضُ أخبارِه على الـجُملة

... كان خائفًا لربِّه كتومًا لسرِّه، كثيرَ الدُّعاءِ والاستخارة، مُقبِلًا على الصّلاة، [يأكُلُ من عمل](2) يدِه... أكثرُ عقابِه كان الاعتقالَ الطّويل إلّا من انتزَى وشقَّ العَصَا فالسّيفُ أحسمُ لانتشارِ الداء.

---

(1) ذكر ابن الأثير (الكامل ١٠/ ٤١٧) وابن خلكان (وفيات ٧/ ١٢٥) والذهبي في تاريخ الإسلام (١٠/ ٨٣٨) أنه توفي في ثالث المحرّم، وفي الحلل الموشية (٦٧) أنه مات في شهر ربيع الآخر من السنة.

(2) زيادة من الحلل الموشية.

كُنْيتُه: أبو يعقوب.

دينارُه: تِبرٌ في إحدى صَفْحتَيْه: «لا إلهَ إلّا الله محمدٌ رسُولُ الله» وتحتَ ذلك: «أميرُ المسلمين يوسُفُ بن تاشْفين». وفي الدائر: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية [آل عمران: ٨٥]. وفي الصّفحة الأخرى اسمُ أمير المؤمنينَ العبّاسيّ.

عُنوانُ كتُبه: من أميرِ المسلمين وناصِر الدِّين إلى فلان.

وكان يُفضِّلُ الفقهاء ويُعظِّمُ العلماء ويَصرِفُ الأمورَ إليهم، ويأخُذُ فيها برأيهم، ويَقضي على نفسِه بفُتْياهم، ووَلِع بالاختصار في ملبَسِه، وما زال إلى أنْ لقيَ اللهَ مجِدًّا في الأمور، مُلقَّنًا للصواب فيها، مستصحِبًا حالَ الجَدّ، مؤدِّيًا إلى الرّعيّة حقَّها من الذّبِّ عنها والغِلظة على عدوِّها، وإفاضةٍ للأمن والعدل فيها، ويَرى صُوَرَ الأمور على حقيقتِها، وكان معظَّمًا مَهُوبًا لا يَخلُد إلى راتبة، ولا يَسكُنُ إلى دَعَة.

نسَبُه: هو يوسُفُ بن تاشْفينَ بن ترجوتَ بن ورتانطنَ بن منصُور بن مَصَالةَ بن أمينةَ بن وانمالي الصُّنْهاجيّ، وقد ذكَرَ الهَمْدانيُّ في كتاب «الإكليل» أنّ صُنهاجةَ من وَلَد عبدِ شمس بن وائل بن حِمْيَر، واجتَمعت الرّواياتُ أنّ صُنهاجةَ من حِمْيَر.

وطَوى الدّهرُ أميرَ المسلمين يوسُف، فاسترجَعَ ما وَهَبَ وقَبَض، وهُو على أوّلِه في الحَزْم والعَزْم لنَصْر الدِّين وإظهار الكلمة وعَضُد الإسلام، وقد امتَدَحه الشّعراءُ في حرَكاته وغَزَواتِه، وصُدورِه وورودِه، فأجْزَلَ لهم العطاء، ورَثاه جماعةٌ، منهم: أبو بكر بن سِوَار[1] من جُملة مَراثيه وأنشَدَها على قبرِه [من الكامل]:

مَلِكَ الملوكِ وما تركْتَ لعاملٍ ... عملًا من التّقوى يشاركُ فيهِ

يا يوسفُ ما أنتَ إلا يوسفٌ ... والكلُّ يعقوبٌ بما نَطويهِ

اسمَعْ أميرَ المؤمنينَ وناصرَ الدّين الذي بنفوسِنا نفديهِ

جُوزيتَ خيرًا عن رعيّتِك التي ... لم تَرْضَ فيها غيرَ ما يُرضيهِ

---

(١) ترجمته في المغرب لابن سعيد ١/ ٤١١، وهو محمد بن سوار الأُشبوني، والقصيدة مذكورة في الذخيرة لابن بسام ٤/ ٨٣١.

أمّـا مـساعيك الكـرامُ فإنّهـا	خرَجَتْ عن التكييفِ[1] والتشبيهِ
في كـلِّ عـام غـزوةٌ مـبرورةٌ	تُـردي عديـدَ الـرّوم أو تُفنيـهِ
تـصلُ الجهـادَ إلى الجهـادِ موفَّقًا	حَـتمُ القـضاءِ بكـلِّ مـا تقـضيهِ
ونَجـيُّ مـا دبَّرتَـه كنجيِّـهِ	فكـأنَّ كـلَّ مُغيَّـبٍ تَدريـهِ
متواضِـعًا لله تُظهـرُ دينَـهُ	في كـلِّ مـا تُبديـه أو تُخفيـهِ
ولقد ملَكْـتَ بحقِّـك الـدّنيا وكـم	مَلَـك الملـوكُ الأمـرَ بالتمويـهِ
لو رامـتِ الأيـامُ أن تحـصي الـذي	فعَلَـت سيوفُكَ لم تكـنْ تُحـصيهِ
إنـا لَـمفجوعونَ منـك بواحـدٍ	جُمِعت خِـصالُ الخَلْـق أجمَـعَ فيـهِ
وإذا سَـمِعتَ حمامـةً في أيكـةٍ	تَبكـي الهـديلَ فإنهـا تَرثيـهِ
ومضَى قدِ استرعَى رعيَّـتَه ابنَـهُ	فأقـام فـيهم حـقَّ مُـسترعيهِ
وإذا هِزَبْـرُ الغـاب صَرَّى شِـبلَهُ	في الغاب كان الـشِّبلُ شبلَ أبيـهِ
وإذا عـليٌّ كـان وارثَ مُلكِـهِ	فالـسهمُ ملقًـى في يَـدَيْ باريـهِ

ذكرُ دولة أميرِ المسلمينَ عليِّ بن يوسُف

ولـمّا استأثَرَ اللهُ بأمير المسلمين يوسُفَ بن تاشْفين وَصّى الأمرَ إلى وَلَدِه وليِّ عهدِه عليٍّ أمير المسلمين، فاضْطَلَع أبرَعَ اضْطلاع، وقام أحمدَ مقام، وألبَسه اللهُ الـمَهابة، وقَذَف له في القلوبِ المحبّة، فاجتمَعت عليه الأُمّة، واتَّفقَت الكلمة، وبعدَ مُواراة أبيه خَرج ويدُه في يدِ أخيه أبي الطاهر تَميم [على] قبائل الـمُرابطين والـمَصْموديِّينَ وغيرِهم من زُعماءِ القبائل ورؤسائهم، فنَعَياه إليهم، وجدَّد أبو الطاهر بيعةَ أخيه وأخَذ الحاضرينَ بذلك فاستتَبَّ الأمر، وبادَرَ الأميرُ أبو الطاهر إلى مِكْناسةَ بالجيش والأميرُ يحيى ابنُ أبي بكر بفاس والأميرُ مَزْدَلي بتِلِمْسان، وكان الأميرُ سَيْر ابنُ أبي بكر في طاعة إشبيليَة،

---

(١) في الذخيرة: «التحديد».

ولحِقَ الأميرُ أبو بكر بنُ إبراهيم بغَرْناطةَ في ربيع الأول من هذه السنة. وقصَده زُعماءُ الأقطار مهنِّئةً وامتَدَحتْه الشّعراءُ فوَهَب الهباتِ لهم؛ وكان خروجُه من غَرْناطةَ في رجَبِ العام المذكور.

ذكرُ حركة أميرِ المسلمينَ عليٍّ بن يوسُف من مَرّاكُش إلى الأندَلس

وتحرَّكَ أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف من حضرة مَرّاكُش معَ جيوش الـمُرابطين والـمَصْموديِّين والجنودِ والحشود يومَ الجَواز إلى بلاد الأندَلس لتفقُّد أهلِها وسدِّ خَلَلِها، وأغذَّ السَّيرَ إلى أنْ وصَل إلى مدينة سَبْتة وجاز البحرَ منها إلى الجزيرة الخضراء، فبادَرَ إليه قضاةُ الأندلس وفقهاؤها وزُعماؤها ورؤساؤها، وأدباؤها وشُعراؤها، فامتَدَحَتْه الشّعراءُ فأجزَلَ لهمُ العطاء، وقضَى لمن كان ذا أرَبٍ أرَبَه، وسنَّى لكلِّ ذي مطلبٍ مطلبَه، فوَلَّى أخاه أبا الطاهر تميمًا غَرْناطة، ووَلَّى أبا عبد الله محمدَ بن أبي بكر اللَّمتُونيَّ قُرطُبة، وبقيَ محمدُ بنُ الحاجِّ تحتَ الخمول[1] إلى أن وَلّاه بعدَ ذلك مدينةَ فاسَ ثم نقَلَه إلى بَلَنْسِية في سنة ثلاث.

قال ابنُ الصَّيرفي: وجَرت في هذا العام أحداث، ذَكَر في كتاب «تقَصّي الأنباء في سياسةِ الرؤساء»: وفي هذا العام: انبَرى أبو العلاء بن زُهْر[2] إلى مطالبة القاضي ابن منظور بإشبيلِيَة، وخبرُ ذلك أنّ ابنَ زُهْر اعتَلّ، فذُكِر ذلك للقاضي فقال: وطبيبٌ ماهر يمرَض! فنُهِيَ ذلك إلى الوزير أبي العلاء ابن زُهر فحرَّكَ منه وقال [من الكامل]:

إنّ ابــنَ منظــورٍ تعجَّــب هــازلًا ... لـمّا مرِضتُ فقلت: يَعثُر مَـن مـشى
قـد كـان جـالينوسُ يمـرَضُ دائـمًا ... فمـن الفقيـه المرتـضَى أكـل الرَّشـا

فأنفَذَ أميرُ المسلمينَ عليٌّ إليه كتابَ عَزلِته.

ولـمّا كمُلت أشغالٌ حاز بها للأندلس... أمورَها وعمَّت البيعةُ دانيَها وقاصيَها، صَدَر الأميرُ عليٌّ بن يوسُف إلى سَبْتة، وأدّى مشيُه في... إلى حضرتِه مَرّاكش.

---

(١) ينظر المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ص١٧٥-١٧٦، بتحقيقنا.

(٢) هو أبو العلاء زهر بن عبد الملك الطبيب المشهور، ترجمته في تاريخ الإسلام ١١/ ٤٣١.

وفي سنة إحدى وخمس مئة: ورَدَ الأميرُ أبو الطاهر تميمُ بن يوسُف بغَرْناطةَ واليًا عليها، فاطمأنّتِ النفوس وهَجَدتِ العيون... بمملكتِه، وظَهر به جَمالُ دولتِه، ونظرَ الأميرُ أبو الطاهر في أسبابِ الغَزْو وأحسَنَ إلى الجُند، وخَرج منسلَخَ شعبانَ المكرَّم من العام، فلمّا احتلَّ الجيشُ مدينةَ جَيّان تلوَّم بها الأميرُ أبو الطاهرِ أيامًا حتى وَفَدت عليه الجيوشُ والعساكر من قُرطُبَةَ وغيرِها، واستقبَلَ على حصن أُقليش[1]، فاضطَرَبت المحَلّاتُ بإزائه وانتشَرَت الحروبُ عليه إلى أن دخَله عَنْوة وامتَنع أهلُه في قَصَبته والحروبُ مُحدِقةٌ به، وفي خلال ذلك وصَل إليه وَلَدُ أذفُونْش شانْجُه من زَوْج المأمون التي كانت تنَصَّرت بنحو سبعة آلاف فارس، فكانت بينَه وبينَ جيوش المسلمينَ حروبٌ يَطُولُ ذكرُها كانت الدائرةُ فيها على الرُّوم، مات فيها شانْجُه بن ألفُنْش أخزاهما الله، ورجَع الأميرُ أبو الطاهر إلى غَرْناطة.

قال ابنُ الصَّيْرفي: فكان ذلك دليلَ اليُمن والبركة بولاية عليٍّ بن يوسُف في أوّل دولتِه، وكانت الوقعةُ على الرُّوم وموتُ شانْجُه المذكورِ في... شوّال.

وفي آخِر هذا العام: مات أذْفُونْش لعنَه اللهُ تعالى.

بعضُ أخبارِ الأذْفُونْش مِلك قَشْتالةَ أخزاه الله

قال الراوية: هلَكَ طاغيةُ الرُّوم الأعظمُ أذْفُونْش بنُ فرذلند بطُلَيطُلة في شهر ذي الحجة من عام اثنين وخمس مئة، وكان مُلكُه نيِّفًا على خمسينَ سنةً بأشهر. وهو: أذْفُونْش بنُ فرذلند بن غَرْسيّةَ بن شانْجُه بَرْكَه[2]، وكان لغَرْسيّة بن شانْجُه بَرْكَه ثلاثةُ أولاد: غَرْسيّة، وفرذلند، وردمير.

قال أبو بكر بنُ عبد الرحمن: كان غَرْسيّةُ أشجعَ إخوتِه وقَتَله أخوه فرذلندُ في حرب كان بينَهما وترَكَ ابنَيْنِ قام أحدُهما بالـمُلك، وهو شانْجُه، وخَرج الآخَرُ إلى بلاد الإسلام، وهو إلفَنْتُ[3] الذي أحرَقَ جامعَ إلبيرة وقُتل لعنَه اللهُ بروطةَ بسببٍ يَطُولُ

---

(١) معجم البلدان ١/ ٢٣٧.

(٢) Abarca.

(٣) Infante.

شرحُه هنا، ويقولونَ في اسم إلفَنْت: إلـهَنْت يَصرِفونَ الفاءَ هاءً في النُّطق، ومعناه عندَهم: ابنُ الملِك، كما عندَ الفرس: سابور، وهلَكَ غَرْسيّةُ بن شانْجُه بركه وقد قَسَم البلادَ بينَ بَنيه واختَصَّ فرذلند ورُدْميرُ بمَلكِه مناصَفةً، ولم يكنْ لرُدميرَ من الوَلَد إلّا شانْجُه، فلمّا قَتَلَه المقتدرُ بالله بن هود في الحربِ التي كانت بينَهما، قام بالـمُلك بعدَه شانْجُه وحدَه، فلمّا هلَكَ ترَكَ ابنَيْن: بطرةُ وأذفُونْشُ المصروعُ على أفراغه بها أفضَى إلى هُلكِه.

ولـمّا أشرف فرذلندُ على الـهُلْك أيضًا قَسَم بلادَه بينَ أولادِه شانْجُه وأذْفُونْش وغَرْسيّة[1]، فخَصَّ شانْجُه بمُلك بُرْغُوش[2] وقَشْتالةَ وما حولَها من الـمُدن، وخَصَّ أذْفُونْش بليونَ وما حولَها من الـمُدُن، وخصَّ غَرْسيّةَ بغليسيةَ وبُرتغال، ففَسَد ما بين شانْجُه وأذْفُونْش، وكانت بينَهما حربٌ أتت على أكبرِ رجالهما، ثم ظَفِر شانجُه بأخيه أذْفُونْش فأسَرَه وحبَسَه مصفَّدًا عندَه في قَشْتالةَ مدّة، ثم حَلَّ اعتقالَه ونَفاه عن بلادِه فلحِقَ بالمأمون بن ذي النُّون بطُلَيطُلة وبقيَ عندَه مدّةً كانت سببًا لتطلُّعِه على أحوالِـها حتّى استَولَى بعدَ ذلك عليها، وقد تقدَّم ذكرُه فيه.

وكانت لشانْجُه وأذْفُونْش أختٌ يقال لها: أُرّاكة[3] تميلُ إلى أخيها أذْفُونْش، فداخَلَت بعضَ رجال أخيها شانْجُه على قتلِه، وخَرج شانْجُه يتصيَّدُ في [الـمّةٍ] من خيلِه وفي جُملتِه الداخلُ في قَتْلِه، وتسابَقَت تلك الخَيلُ الجَرْيَ، فأجرى ذلك الفارسُ وبيدِه رُمحٌ مُعَدّة، فلمّا قَرُب من شانْجُه طَعَنَه فقَتَله، ومرَّ على غَلوائه إلى حصن سَمّورة[4] وبه أُرّاكةُ أُختُها فاعتَصَم بها... الدّعوة بالأذْفُونْش وأنفَذَ فيه، فلحِقَ للحين، وانفَرد بالملك. فلمّا استَوْسَق أمرُه قَتل قاتلَ أخيه وقال بلغتِه: «عملٌ جيِّد وعادةُ سُوء». ويُذكَر أنّ أذْفُونْشَ بن فرذلند لعنَه الله زنَى بأُختِه أُرّاكة فجَمَع بين النَّصرانية والـمَجُوسيّة، ثم طلَبَ إلى أحبار دينِه المغفرة ممّا واقَعَه، فحَمَلوه على قصدِ الكنائس الفاضلةِ والتعبُّد أخزاهم اللهُ ولعنَهم؛ ثم فَسَد ما بينَ أذْفُونْش وغَرْسيّة، فكانت بينَهما حربٌ أُسِر فيها

---

(١) ينظر في ذلك أعمال الأعلام (٣٢٩).

(٢) Burgos.

(٣) Urraca.

(٤) معجم البلدان ٣/ ٢٥٥.

أذْفُونْش لأخيه غَرْسِيّة فحبَسَه ثم دَسَّ عليه مَن قتَله... في محبِسِه وانفرَد في مملكتِه إلى أن توفِّي هذه السنةَ المؤرَّخة.

وفي هذه السّنة: فَسَد صُلحُ المستعينِ بالله أحمدَ بن هود معَ الرّوم، وعادت الفتنةُ بينَه وبينَهم على ما أذكُرُ بعضَه.

وفي سنة ثلاث وخمس مئة: تحرَّك أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف من مَرّاكُش إلى الأندلس برَسْم الغَزْو والجهاد وفَتْح مدينة طَلَبيرة، وذلك أنه لـمّا تمهّدت المملكةُ لعليِّ بن يوسُف ببلاد المغرب تحرَّك إلى الأندَلس فأجاز البحرَ ويمَّم غَرْناطةَ وتَلوّم بها ريْثما أجازت العساكرُ العُدْويّة والحشودُ والـمُطَّوِّعةُ وتأهَّبتِ الجيوشُ الأندَلسيّة، ثم تحرَّك إلى قُرطُبة وأقام بها أيامًا ومشَى البريحُ باعياد، ولحِقتْه الجيوشُ والأجناد، وتحرَّك منها إلى مدينة طَلَبيرة فنزَلَ عليها ثم دخَلها، ووقَع النَّهبُ والسَّبيُ فيها، واعتَصم الرّومُ في قَصَبتها، وأجارَهم اللّيلُ فرَمَوْا بأنفسِهم في النّهر وتسَرَّبوا بينَ الـمَحلات فأفْلَتوا، وامتلأت أيدي المسلمين بالسَّقْطِ والثّياب والماشية والأسلحة، وطُهِّر الجامع ورُدّ على الهيئة الـمُسلِمة ورجَع به حَرامُه وإقامةُ الصّلوات ومَحا اللهُ منه الكُفر، ونَدَب لها أميرُ المسلمينَ الخيلَ والرِّجالَ والرُّماة، وقوَّد عليهم أحدَ الـمُرابِطين[1]، ورحَل الأميرُ عليٌّ عن طَلَبيرة، فاستقبَلَ طُلَيطُلة فأناخَت محلّتُه عليها ثلاثةَ أيام... الضِّيقة... وساءت ظُنونُ أهلها معَ ما هي عليه طُلَيطُلة منَ الحصانة والـمَنَعة، ودامَت عليها الحربُ يومَ الخميس والجُمُعةِ والسّبت، وأخَذت الجيوشُ في القُفول يومَ الجُمُعة، وانقضَى أمرُ هذه الحركة في أربعينَ يومًا، فصَدَرَ عليُّ بن يوسُف وقد دوَّخ تلك البلاد، ولم يُعهَدْ في ذلك الوقت مثلُ هذه الغزوة قوّةً وظهورًا وعُدّة ووفورًا ونِكايةً في العدوِّ، وبقي رُعبُه في الرّوم.

ومن أخبارِ المستعينِ ابن هُود في هذه السنة

قال الراوية: نزَلَ المستعينُ أحمدُ بن هود حِصنَ روطةَ إلى مدينة سَرَقُسْطة، فجدَّد البيعةَ عن أهلِها لنفسِه ولابنِه بولاية عهدِه، فلمّا كمُل له من تجديد البيعة أملُه، عَزَم على الغزوِ على بلاد الرُّوم المجاورِينَ له، فجَمَع وحَشَد وسار في جيش دَهْمٍ، وتحرَّك في

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان، ص١٣-١٤.

شهر جُمادى الآخِرة فاجتاز بمدينة تُطِيلةَ ودخَل منها على أرنية[1] فغَلَب على أرباضِها، واعتَصم أهلُها منه بكنيسةٍ منيعة، ثم صالَحَ على مال يؤدّونَ إليه أخَذ به رهائنَ منهم، ثم انصَرف قافلًا عنهم، وشَنَّ في صَدَرِه الغارات على مَن بذلك الصُّقع من الرُّوم وهَدَم وحرَّق وقتَل وسَبَى وعاد إلى بلادِه، فلمّا شارَفَ بلادَ الإسلام لحِقتْه خيلُ الرّوم المتألِّفة من البلاد في أول يوم من رَجَبٍ الفَرْد فاجتَلدوا أحرَّ جَلَد، وصبَرَ الفريقان وطال الضّرب، واستُشهِد المستعينُ بن هود وانفَضَّ الجَمْعُ وألحَمَ السّيف... على كثير منَ المسلمين، كرمَهم اللهُ بالشّهادة أجمعين.

ووَلِـي عبدُ الملِك الملقَّب عمادَ الدّولة بعدَ استشهادِ أبيه، وبايَعَه الناسُ بسَرَقُسطةَ بعدَما اشتَرطوا عليه ألّا يَستخدمَ الرّوم ولا يتلبَّسَ بشيء من أمرِهم، واتّصل بعبد الله ابن فاطمةَ موتُ المستعين، فطَمِع في سَرَقُسْطة وتحرَّك إليها، وذلك على نحو شهرٍ واحد من الوقعة، فلمّا انتهى إلى مقرُبة منها وجَّه إليه أهلُها أن ينصرفَ عنهم ولا يبدأَ الفتنةَ معَ الـمُبايَع له خَشْيةَ استصراخِه بالرُّوم فيعودَ الحَربُ على الأول، ثم بعدَ ذلك لم يَفِ عمادُ الدّولة ابنُ المستعين بالشَّرط الذي ألزَمَه نفسَه من طَرْح الروم وتَرْكِهم، فعزَم على مُداخلِتهم، وفَهِم منه ذلك أهلُ سَرَقُسطة، فاستدعَوا الأميرَ محمدَ بن الحاجِّ صاحبَ بَلَنْسية من قِبَل أمير الـمُرابِطين معوَّضًا به من الأمير عبد الله ابن فاطمة الوالي على غَرْناطة، فوافاها صَبيحةَ يوم السّبت العاشر من ذي القَعْدة ففُتحت له الأبواب، ففَتَحها، واضْطَربت المحَلّة في الشّريعة منها، ودخَل الـمُرابِطونَ سَرَقُسطة، وتقدَّم أهلُها لمحمد بن الحاجّ، فدخَل الجَعْفريّة، وصار القصرُ المذكور في مُلكِه تحتَ ثِقافِه، فجَرى ابنُ المستعين على سيرةِ أبيه وصانَعَ أذْفُونْش ابن رُدْميرَ فاستجابَه ووافاه بحصن تُطِيلة، ومحمدُ بن الحاجّ بالجيش في تلك الناحية. ثم انصَرف إلى سَرَقُسطة، وتقدَّم ابنُ رُدْمير حتى كان منها على فَرْسخَيْن، فابتَدر ابنُ الحاجِّ إلى حَرَمِه وأمَرَ الناسَ بالخروج إليه للمَحْرَبة، ورتَّب الناسَ على هيئة الأُهْبة والرُّتبة عامةَ يومهم، وبآخِره أخلَوْا مراكزَهم وتسَلَّلوا إلى المدينة، فظَهَر الخلَلُ والتسلُّل، وانتَهز ابنُ رُدْميرَ الفُرصة وقَسَم جيشَه فرقتَيْن وصَدَمت

---

(١) في أعمال الأعلام: «أرنيط».

إحداهما ابنَ الحاجّ وصَدَمت الأخرى ابنَه أبا يحيى، فتفرَّق الناسُ عنه واستُشهد هناك[١]، وفُقد في تلك الواقعة جُملةٌ منَ المسلمين، وذلك عشِيّةَ يوم الأحد منتصَف شهرِ ذي الحجة من السنة المؤرَّخة.

تلخيصُ التعريف بتاريخ مَن مَلَك سَرَقُسطة وبعضُ أخبارِ البلاد الشَّرقية من بني هُود رحمهم اللهُ إلى هذه السنة

كان استيلاءُ المستعينِ سُليمانَ بن هُود الجُذاميِّ على طاعة مُنذِر بن يحيى وتغلّبُه على شَرْق الأندَلس في ذي الحجة من سنة ستٍّ وثلاثينَ وأربع مئة، وكان هذا المستعينُ صاحبَ مدينة لارِدةَ وبَلَغي[٢]، واجتَمع [له] ذلك الثّغرُ كلُّه: سَرَقُسطة وتُطِيلة وقلعةُ أيّوب ودَرَوْقة[٣] ووَشْقة وبَرْبُشْتَر ولارِدة وبَلغي ومدينةُ سالم ووادي الحجارة إلى أن توفّي في سنة ثمانٍ وثلاثينَ وأربع مئة، فوَلِـيَ ابنُه الـمُقتدرُ بالله أحمدُ بن سُليمانَ بن هُود في سنة ثمانٍ المذكورة، وتوفّي سنة أربع وسبعين وأربع مئة وكانت مدةُ ولايتِه ستًا وثلاثينَ سنة، ووَلِـيَ ابنُه المؤتمِن سنةَ أربع المذكورة، وتوفّي سنةَ ثمان وسبعينَ وأربع مئة، وكانت مدّتُه أربعةَ أعوام. ووَلِـي بعدَه المستعينُ بن هُود المقتولُ في ملحمة يوم الاثنين مستهَلِّ رَجَب من السنة ثلاث وخمس مئة المؤرَّخة. ووَلِـيَ عمادُ الدّولة أحمدُ بن أحمدَ المستعين ابن المؤتمِن ابن أحمدَ المقتدِر ابن سُليمان المستعينِ بالله ابن هُود الجُذَاميُّ في غُرّة رَجَب من هذه السنة، وأخرَجَه أهلُ سَرَقُسْطة كما تقدَّم ذكرُه في يوم السّبت العاشرِ من ذي القَعدة، ودخَلها عاملُ عليِّ بن يوسُف.

وفي سنة أربع وخمس مئة: استقرَّ محمدُ ابنُ الحاجِّ بسَرَقُسطةَ وابنُ رُدْميرَ يُساجلُه الحربَ والظهورَ عليه، وعبدُ الملك ابنُ المستعين معَه في جيوش تعضلُ بها الأرض، فنزَلَ على نحو فرسخ من المدينة ومحمدُ ابنُ الحاجِّ يُناوشُه الحربَ صباحًا ومساءً إلى أن لحِقَ أبو عبد الله بن عائشةَ الوالي على مُرْسِيَة من قِبَل أمير المسلمين عليِّ بن يوسُف بعسكريّةِ

---

(١) المقصود أبو يحيى.

(٢) Balaguer، وينظر معجم البلدان ١/ ٤٨٨.

(٣) الضبط من معجم البلدان ٢/ ٤٥٣.

مُرْسِيَة والطاغيةُ ابنُ رُدمير صادرٌ إلى بلادِه والعساكرُ المسلمةُ في أثَرِه، ولم تزَلْ بعدَ ذلك الحربُ متّصلة والمضاربُ متردِّدة وغَزَواتُ محمد بن الحاجِّ متواليةً إلى أن توجَّه عليُّ بن كنفاطَ اللّمتُونيُّ بعسكرٍ منَ الـمُرابطينَ في جِهة قلعة أيّوب، فنازَلَ حِصنًا من حُصون ابن المستعين وضَيَّق عليه وأخَذ بمُخَنَّقِه، فلمّا نال منه الضَّغطةَ استَصْرخَ أهلُه بابن المستعين صاحبِهم، فوجَّه إليه مدَدًا منَ الرّوم شَفَى أمرَه حتى دخَل الحصنَ وخرج منه ليلًا على المحَلّة والناسُ على طُمَأْنينة، فتغلَّب العدوُّ على المحَلّة وأسَرَ أميرَهم ابنَ كنفاط، وصَدَر المدَدُ الرُّوميُّ به إلى روطةَ، فبقي في اعتقال ابن المستعين مدةً ثم خَلَّى سبيلَه، فكان مُهادنةٌ ثم كانت حرب، والحربُ سِجال والنفوسُ آجال.

وفي هذه السنة: خَرج الأميرُ أبو الطاهر تميمُ بن يوسُف بن تاشْفين عن غَرْناطةَ، ووَلِـي مدينةَ تِلِمْسان واستقرَّ بها.

وفي سنة خمس وخمس مئة: وَلّى أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف الأميرَ مَزْدَلي على مدينة قُرطُبة وغَرْناطةَ والـمَرية وما انتَظم معَها من الحصُون والقُرى.

وفي شهر صَفَرٍ منها: قام المنصورُ بن سَيْر بن مَسْلمةَ، الشّهيرُ بابن الأفطَس، من أرض النَّصرانية إلى مدينة إشبيلِيَة فصمَّم منها إلى حضرة أمير المسلمين، فكانت له منزلةٌ لطيفة ومكانةٌ رفيعة.

وفيها: خَرج عمادُ الدّولة من مدينة روطةَ برَسْم محُاربة سَرَقُسْطة، فخَرج إليه وإليها محمدُ بن الحاجّ بعسكرِها فحارَبَه ثم بَعُدَ منه.

وفي سنة ستٍّ وخمس مئة: غَزا الأميرُ مَزْدَلي بعساكرِه ومنِ انضافَ إليه قاعدةَ وادي الحجارة بأرض الرُّوم واكتَسح ما حولَها وضيَّق عليها ثم صَدَر إلى قُرطُبة بغنائِمه.

وفيها: أُغري بالأمير مَزْدَلي عندَ أمير المسلمين فاقتضَى نظَرُه إيفادَ مشيختِه من الـمُرابِطين لثِقاف... ما إلى نَظَر الأمير مَزْدَلي من بلاد الأندَلس، وكان لأبي عليّ بن... حثيثُ المسعَى والقِدحُ الـمُعلَّى، واتّصل النبأُ به فبادَرَ إلى أمير المسلمين، ولما اجتَمع به جَلا عن نفسِه فارتفَع الظنُّ وحَصْحَص الحق... إلى طاعته على أكرمِ حال وأتمِّ آمال.

وفي سنة سبع وخمس مئة: توفِّي الأميرُ سَيْرُ بن أبي بكر الوالي على مدينة إشبيلِيَة بتقديم أميرِ المسلمينَ يوسُفَ بن تاشْفين، وذلك في شهر رجَب من عام أربعةٍ وثمانين، وكانت وفاتُه في شهر جُمادى الأولى من هذه السنة بموضع يُعرَفُ باغرنات على مقرُبة من إشبيلِيَة، خَرج زافًّا لنفسِه فاطمةَ إلى أميرِ المسلمين عليِّ بن يوسُف ومشيِّعًا لزوجِه حواءَ بنتِ تاشفين، وكان هذا تاشْفينُ أخا يوسُف بن تاشفين لأُمِّه وابنَ عمِّه؛ لأنه لـمّا مات تاشْفينُ والدُ يوسُف دخَل مكانَه أخوه عليّ. فخَرجت حوّاءُ وأختُها من إشبيلِيَة فلم يُعهَدْ مثلُ ذلك اليوم لهوًا وكثرةً ونِعَمًا، خَرج فيه الجمُّ الغفيرُ إلى مَضاربِ المحَلّة بعين العلُوّ، فلما جَنّ اللّيلُ نزَلَ بالأمير سَيْرِ بن أبي بكر بن تاشْفين مَغصٌ تزيَّد عليه حتى قضَى رحمه اللهُ عندَ انصداع الفجر فشهِدَ جنازتَه بشَرٌ عظيم.

وكانت هذه الحُرّةُ حواءُ[1] أديبةً شاعرة جَليلةً ماهرة: أخبر أبو عبد الله محمدُ بن سَعيد الخَزْرَجيُّ في كتابه، قال: حدّثني أبو محمد بن جَلّون، عن شيخِه أبي عبد الله بن زَرْقون، وكان شيخَه مالكُ بنُ وُهَيْب، قال: أمَرت الحُرّةُ حواءُ اللَّمتُونيّة بمَرّاكُش بمجلس الكَتَبة والشُّعراء كانت تُحاضرُهم فيه وكانت ذاتَ نباهة وخَطَر، فاجتَمع يومًا في ذلك المجلس جماعةٌ منهم: ابنُ القَصِيرة وابن الـمَرْخِي، وهذا لقبٌ له لأنه يقال: كان له فُتورٌ على فصاحتِه، وحضَر غيرُهما، فلما غُصَّ المجلسُ أقبَلت الحُرّةُ تُريدُهم وهم يتحادثونَ ويأخُذون في الشِّعر، وكان ابنُ الـمَرْخيِّ قد قال صدرَ بيت وهو: «أنا للبدرِ أخُ» ولم يجُزْه أحدٌ منهم، إذْ أقبَلَت الحُرّةُ فسلَّمت عليهم، وبادَرَها ابنُ الـمَرْخيِّ وقال لها: حيّاكِ الله يا قمري ويا زَهَري، فقالت: وصَفْتَني والله بآفِلٍ وذابِل، ففرِح بفطنتِها، فقالت له: فيمَ كنتُم؟ قال لها: كنّا قد قُلنا صدرَ بيت ولم يَقدِرْ أحدٌ على عجُزِه، فقالت: أنشِدنيه، فقال: «أنا للبدرِ أخُ»، فقالت على البديهة: «على ذا سَنِخُ»، فتعجَّب الحاضرونَ من بَراعتِها.

وفي هذه السنة: خَرج الأميرُ مَزْدَلي من حضرة مَرّاكُش إلى الأندَلس ووَلّاه عليُّ بن يوسُف على مدينة قُرطُبة وغَرناطة، فأجاز البحرَ للأندَلس إلى مدينة إشبيلِيَة فاستمدَّ... الأميرَ سَيْرَ ابنَ أبي بكر اللَّمتُونيَّ فأمَدَّه بعسكر ضَخْم من الـمُرابِطين والحَشَم وغيرِهم، وانضَمّ إليهم عسكرُ قُرطُبة وغَرْناطة ولمةٌ من العُدوة ولفيفٌ من الـمُطَّوِّعة خيلًا ورَجْلًا،

---

(١) ترجمتها في الذيل والتكملة لابن عبد الملك ٥/ ٤٢٩، بتحقيقنا.

فعظُم الجيش، وأمَّ به الأميرُ مَزْدَلي أرضَ طُلَيطُلة فدوَّخَها واكتَسح به أوديتَها وأبلَغَ في نِكايتها، وصَدَر إلى قُرطُبة ظافرًا ظاهرًا على عدوِّه.

وفي هذه السنة: خَرج لروم الأرض الكبيرة نحوُ خمس مئة قطعةٍ تحمِلُ مئةَ ألف مقاتل فيهم ألفٌ وخمس مئة فارس وخمسونَ ألفًا من الرُّماة، فأرسَلَ اللهُ عليهم ريحًا صَرْصَرًا عاتيةً أغرقَتْهم فلم تُبقِ منهم باقية وأتَتْ معَ ذلك مراكبُ الحاجِّ وجُملةٌ مشحونةٌ بالأطعمة.

وفي هذه السنة: صُرِف القاضي أبو مروانَ الباجِيُّ عن قضاءِ إشبيلِيَة، وقُدِّم أبو عبد الله بن داود، ثم نُقل إلى فاس، ووَلِـيَ القضاءَ أبو مروان الباجيُّ ثم صُرِف، ووَلِـيَ أبو محمد عبدُ الله بن سَمَجُون فنُقل إلى غَرْناطة، ووَلِـيَ بعدَه أبو القاسم بنُ وَرْد ثم صُرِف، ووَلِـي بعدَه الفقيهُ الخطيبُ الـمُقرئ أبو الحَسَن شُرَيْح بن شُرَيْح ثم صُرِف، ووَلِـيَ الفقيهُ أبو بكر ابنُ العَربيّ رحمهم اللهُ أجمعين، وكانت ولايةُ ابن العربيِّ المتأخِّر منهم في سنة ثمانٍ وعشرينَ وخمس مئة.

قال ابن حماده: وكان يوسُفُ بن تاشْفينَ أمَرَ القاضيَ محمدَ بن عيسى ببُنْيان جامع سَبْتة، وزادَ فيه حتى أشرَفَ على البحر، وكان بُنيانُه عامَ أحد وتسعين، وقبلَ بناء الجامع بأعوام أمَرَ يوسُف بن تاشْفينَ ببناءِ سُور الميناء السُّفْليِّ بسَبْتة على يدِ القاضي إبراهيمَ بن أحمد.

وقام على يوسُف بن تاشْفينَ في هذه السنة رجُلٌ يُعرَفُ بابن الزّنر بحارى وادَّعى أنه ابنُ مُعَنْصر الزَّناتيُّ الذي كان صاحبَ فاسَ ببلاد غُمارة، فتوجَّه إليه يوسُف وقَتل خَلْقًا من أصحابِه، ثم أعطى غُمارةَ مالًا فغَدَروه وأتَوْا إليه برأسِه. وقام عليه أيضًا ماخوخٌ الزَّناتيّ بناحية تِلِمْسان، واختطَّ بلدًا لنفسِه فخَرج إليه يوسُف وفَرَّ أمامَه وخَرج من بلادِه.

ذكرُ حرق «الإحياء» وما قال أبو حامدٍ حين بلَغَه ذلك

قال ابنُ القَطّان في «نَظْم الجُمان»(١): أمَرَ عليُّ بن يوسُف بإجماع قاضي قُرطُبة ابن حَمْدين وفُقهائها على حَرْق كتاب «الإحياء» فأُحرِق على الباب الغَرْبيّ من رحبةِ المسجد بجلودِه بعدَ إشباعِه زيتًا بمحضَر جماعة من أعيان الناس، ووَجَّه إلى جميع بلادِه يأمُر

(١) نظم الجمان، ص١٤ فما بعدها.

بإحراقه، وتَوالى الإحراقُ على ما اشتُري منه ببلاد الغَرْب في ذلك الوقت، فكان إحراقُه له سببًا لزَوال مُلكِهم وانتشار سِلكِهم، وكان المتلقِّبُ بالـمَهْديِّ في بلاد المشرِق يومَئذٍ، فذَكَر ابنُ القَطّان في السِّفر الثالثَ عشَرَ من كتابِ «نَظْم الجُمان»: ورحَل المهديُّ من بلاد أقصى المغرب إلى الأندَلس في سنة خمس مئة فدخَل قُرطُبة ثم وصَل إلى المرية فدخل في مركَب إلى الشرق، فغاب فيه إلى أن وصَل مَرّاكُش سنةَ أربعَ عشْرة. وذَكَر ابنُ القَطّان أيضًا عن عبد الله بن عبد الرّحمن العراقيِّ، شيخٌ مُسنٌّ من سُكّان فاس، مَن أُثبت في مدرسة أبي حامد، فجاء رجُلٌ كثُّ اللِّحية على رأسِه كرزيةُ صُوف ودخَل للمدرسة وحيّاها بالركعتَيْن، ثم دخَل إلى الشّيخ أبي حامد فسلَّم عليه فقال: ممّن الرجُل؟ فقال: من أهل المغربِ الأقصى، فقال له: دخَلتَ قُرطُبة؟ قال: نعم، قال: فما فعَل فقهاؤها؟ قال: في خير، قال: هل انتهى إليهم كتابُ الإحياء؟ قال: نعم، قال: فماذا قالوا فيه؟ فلزَم الرجُلُ الصَّمتَ حياءً منه فعزَم عليه ليَقولَنَّ ما طرَأ، فأخبَره بإحراقِه وبالقصّة كما جرَت. قال: فتغيَّر وجهُ الشّيخ أبي حامد ومَدَّ يدَه إلى الدّعاءِ والطّلبةُ يؤمِّنونَ، فقال: اللهم مزِّقْ مُلكَهم كما مزَّقوه، وأذهِبْ دعوتَهم كما حَرَّقوه، فقام المهديُّ فقال: أيُّها الإمام، ادعُ اللهَ تعالى أن يجعلَ ذلك على يديّ، فتغافَلَ عنه أبو حامد، فلما كان بعدَ وقت إذا بشيخ آخرَ على شكل الأول فقال له أبو حامد فأخبَرَه بالخبر المتقدِّم، فتغيَّر ودَعا بمثل دُعائه الأول فقال له المهديّ: على يدَيّ، فقال له: على يديك، فقَبِل اللهُ دعاءه.

وفي سنة ثمان وخمس مئة: توفِّي الأميرُ مَزْدَلي الوالي على قُرطُبة في شوّال غازيًا على مقرُبة من حصن مسطاسةَ صُرِف به إلى قُرطُبة فوصَل به يومَ الأربعاء ثاني يوم وفاتِه وصَلّى عليه إثْرَ صلاةِ العصر الفقيهُ القاضي أبو القاسم بنُ حَمْدين.

نسَبُه: هو مَزْدَلي بن بوبلنكانَ بن حَسَن بن محمد بن تورجوت، قال ابنُ الصَّيرَفي: لم أزَلْ أطلُبُ نسَبَ لـمتُونةَ حتى لم أجدْ منه إلا أنّ الجَدَّ الذي تفترقُ منه أفخاذُهم ترجوت.

وفي هذه السنة: توفِّي الكاتبُ الجليل أبو بكر ابنُ القَصيرة، الذي اشتَمَلت عليه الدُّولُ الثلاث: العَبّاديةُ الـمُعتمِدية، والدّولةُ اليُوسُفيّة، وهذه الدّولةُ العَلَويّة، بعدَ خُطوب أصارَتْه طَريدًا وقَطَعت منهُ وَريدًا[1].

---

(١) العبارة بنصّها في قلائد العقيان لابن خاقان، ص١٠٤.

وفي هذه السنة: اتّصل الخبرُ بأميرِ المسلمين عليِّ بن يوسُف وهو بحضرتِه مَرّاكُش عن وفاة الأمير مَزْدَلي، فسَدَّ خَلَلًا من مُصابِه ودَفَع رُزْءَ فَقْدِه بابنَيْه، فولّى الأميرَ عبدَ الله بنَ مَزْدَلي من مَرّاكُش، ووَرَد غَرْناطة آخِر ذي القَعدة، وتحرَّك الأميرُ محمدٌ فاحتَلّ أيضًا بقُرطُبَة واستقرَّ بها وضبَطَ أمورَها وأحوالَها.

وفي سنة تسع وخمس مئة: ضَرب العدوُّ على نَظَر قُرطُبة، فخَرج إليه محمدُ بن مَزْدَلي بعسكرِه، وبادَرَ في الاستعجالِ لأثَرِه، فلحِقَ بالعدوِّ، ونشِبَت الحربُ، وصبَرَ المسلمون، فاستُشهِد محمدُ بن مَزْدَلي والأميرُ محمدُ بنُ الحاجّ والأميرُ أبو إسحاقَ بن دانِيَة والأميرُ أبو بكر بن واسينو، ومات من الأمراء نحوُ الثمانينَ من وجوهِ الـمُرابِطين وجملةٌ كبيرةٌ من الحَشَم وأهلِ الأندَلس، وذلك يومَ الخميس مستهلِّ صَفَر من السنة المؤرَّخة، فكان مصابًا عظيمًا وخَطْبًا جسيمًا. واتّصل الخبرُ بأمير المسلمينَ عليّ، فوَلّى قُرطُبَةَ الأميرَ أبا بكر يحيى بنَ تاشْفين، وهو ابنُ عمِّه شقيق أبيه لأُمِّه، فنفَذَ إليها وقَدِم عليها، ولأيامٍ من وصُوله اكتَسحَ العدوُّ الأولُ صاحبُ الجَوْلة على قُرطُبة، فلحِقَه بجهة بَيّاسة، ولَحِقَ الصّريخُ بالأمير عبد الله بن مَزْدَلي صاحبِ غَرْناطة، فبادَرَ في أثَرِه وتتابَعَ الجيشُ مُغِذًّا، فلحِقَ به على مقرُبة، فكانت للرُّوم أيضًا، واستُشهِد خَلْقٌ من المسلمين كرَّمهم اللهُ بالشّهادة في أعلى عِلِّيِّين، وذلك يومَ الأربعاء الثامن والعشرينَ من جُمادى الآخِرة من هذه السنة.

وفي هذه السنة: توفِّي محمدُ ابنُ الحاجِّ صاحبُ سَرَقُسطةَ شهيدًا، واتّصل الخبرُ بأميرِ المسلمين، فأنفَذ ولايةَ سَرَقُسطة للأمير أبي بكر ابن أبي يحيى إبراهيم[1] وكان مقيمًا بها، فتولَّى الأمرَ فيه وأخَذ بالعَزْم والحَزْم، وثَقِفَ أمورَ المملكة ونَظَر في مصالح الرعية.

وفي هذه السنة: عُوِّض عبدُ الله ابنُ فاطمةَ عن ولاية فاسَ بولاية مدينة إشبيلِيَة فاستقرَّ بها في أول السّنة المؤرَّخة.

وفي سنة عَشْر وخمس مئة: تحرَّك الأميرُ أبو بكر صاحبُ سَرَقُسطةَ إلى الغَزْو فقصَدَ حِصنَ روطةَ فأحرَقَ وبالَغَ في النّكاية، ثم تحرَّك إلى برجة، وبها عمادُ الدّولة ابنُ المستعين بن هُود، فضيَّق عليها وبالَغَ في نِكايتها حتّى صالَحَه أهلُها ورجَع عنها إلى مدينة سَرَقُسطة.

---

(١) هو المعروف بابن تيفوليت، تزوج بأخت علي بن يوسف وولاه غرناطة ثم سرقسطة، وتوفي سنة ٥١٠هـ (الإحاطة ١/ ٤١٢-٤١٧).

وفي هذه السنة: قدَّم أميرُ المسلمين محمدَ بنَ ميمون قائدَ الأسطولِ البحريّ، فكان له غَزَواتٌ مشهورة وأمورٌ مذكورة.

وفي هذه السنة: أمَرَ صاحبُ الـمَهْديّة عليُّ بن يَحيى بن تميم بإعدادِ الأساطيل وعِمارتِها إلى جزيرةِ جَرْبَةَ، فساروا في جُمادى الأولى وحاصَرها وأخَذوا بمُخنَّق أهلِها إلى أنْ أقَرُّوا بالطّاعة له وسَلَّموا لأمرِه ونزَلوا على حُكمِه، فانصَرف الأُسطولُ عنها وصَلَح أمرُ البحر في هذه السنة(١).

وفيها: أرجَفَ العوامُّ بأنه سيكونُ في شهر رمضانَ خَطْبٌ عظيم وحادثٌ كبير، وقَطْعٌ على الدّولة شديد، وأنّ السُّلطان سيموتُ فيه، وفشَا القولُ بذلك فيهم وانتشَر، فأكذَبَ اللهُ قولَهم وعطَّل إرجافَهم، وعمِلت الشّعراءُ في ذلك، وقد تكونُ أصابَتْهم فيها أيضًا كما حدَّثنا أبو الصَّلت، قال: حدّثني أبو محمد عبدُ العزيز ابنُ الإمام أحد خَواصِّ الأمير أبي القاسم محمد بن عَبّاد، قال: كنتُ في عسكر الأمير أبي القاسم عندَ وَجْهِه معَ أميرِ المسلمين يوسُفَ بن تاشْفين مِلك المغرب الأقصى إلى لقاءِ أذْفُونْشَ بن فرذلند ملِك جِلِّيقيّةَ أولَ غزوةٍ غَزاها الـمُرابِطونَ بالأندَلس، وكان الناسُ ينزِلونَ بنزولِه ويرحَلونَ برحيلِه تقريبًا ورَعْيًا لمكانِه من السِّن وعِظَم القَدْر ووفور العدَد وجَوْدة الرأي، قال: فسَمِعنا طبولَه تُضرَب وقيل: أميرُ المسلمين يتقدَّم إلى العدوِّ، فأمَرَ الأميرُ أبو القاسم منجِّمَه بتحقيق طالع الوقت والنظرِ فيه، قال: فوجَده بحسَب ما تقتضيه أصُولُ هذه الصِّناعة دالًا على أنّ الدائرةَ تكونُ على المسلمين وأنّ النّصر والغَلَب للمشركين، قال: فأشفَقَ من ذلك وكرِهَ إعلامَ يوسُفَ لنِفارِه من الاستدلال بالنجوم والعمل بها، ولم يُمكنْه غيرُ مساعدته والانتقال معَه، فبينَما هو يحاولُ ذلك إذْ خَفَتت الأصوات وهدَأت الضَّجّة وجاء مَن أخبَرَ أنّ يوسُفَ قد بَدَا له في الانتقال مِن هنا، فلمّا كان بعدَ ساعات من ذلك اليوم بعينِه عادت الأصواتُ وضُرِبت الطُّبول، فأمَرَ الأميرُ أبو القاسم منجِّمَه بأخْذِ طالع الوقت والنّظر فيه فوجَده أوفقَ طالع وأسعدَ نَصْبة وأدلَّها على أنّ الظّفَرَ للمسلمينَ والدائرةَ للمشركين حسَبَ ما جَرى الأمرُ عليه، قال: فتعجَّب من ذلك ومن قوّة سعادةِ

---

(١) انظر رحلة التجاني (١٢٥).

يوسُف، وقال: وهذا من المصنوع لهم الـمُعتَنى بأمرِهم الملثَّمين إلى رُشدهم الذين... لهم التوفيق، ويَخدُمُهم السَّعد، وذلك كلُّه بمشيئة الله تعالى وسابقِ علمِه ونافذِ حُكمِه.

وكتَبَ أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف من مَرّاكُش في هذه السنة إلى أبي محمد ابن فاطمةَ كتابًا يحضُّه فيه على إقامة الحق، أذكُرُ الآنَ منه بعضَ فصول: وقد رأينا واللهُ وليُّ التوفيق، والهادي إلى سَواء الطريق، أن نجدِّد عهدَنا إلى عُمّالنا بالتزام أحكام الحقّ وإيثار أسباب الرِّفق، لِـما نَرجوه في ذلك من الصّلاح الشامل والخير العاجِل، واللهُ تعالى يُيسِّرُنا لما يُرضيه في قول وعمل بقوّته. وأنتَ، أعزّك الله، ممّن يَستغني بإشارة التذكِرة، ويكتفي بلمحتِها التبصِرة، لِـما تَأوي إليه من السِّياسة والتجرِبة، فاتّخِذ الحقَّ إمامَك، وملِّكْ يدَه زمامَك، وأجْرِ عليه في القويِّ والضّعيف أحكامَك، وارفَعْ لدعوة المظلوم حجابَك، ولا تسُدَّ في وجهِ الـمُضطرِّ المظلوم بابَك، ووطِّئ للرعيّة ـ حاطَها الله ـ أكنافَك، وابذُلْ لها إنصافَك، واستعمِلْ عليها من يَرفُق بها ويعدِلُ فيها، واطرَحْ كلَّ من يَحيفُ عليها ويؤذيها، ومن تَثبُت عليه من عُمّالِك زيادة، أو خَرْقٌ في أمرِها عادة، أو غيَّر رَسْمًا، أو بدَّل حُكمًا، أو أخَذ لنفسِه درهمًا ظلمًا، فاعزِلْه عن عملِه، وعاقِبْه في بدنِه، وألزِمْه ردَّ ما أخَذ تعدِّيًا إلى أهلِه، واجعَلْه نكالًا لغيرِه، حتّى لا يُقدِمَ أحدٌ منهم على مثل فعلِه، إن شاء اللهُ تعالى، وهو وليُّ تسديدِك، والمليُّ بعَضُدِك وتأييدِك، لا إلهَ إلّا هو عليه توكَّلت. وهو من إنشاءِ ابن الجَدّ رحمه الله.

وفي سنة إحدى عشْرةَ وخمس مئة: تحرَّك أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف من حضرتِه مَرّاكُش إلى بلاد الأندَلس، فأجاز البحرَ في أواخِر محرَّم ويمَّم إشبيلِيَةَ رَيْثَما استتَبَّ أمرُ الغزوِ ولحِقَت العساكرُ العُدْويّة، وتأهّبت العساكرُ الأندَلُسيّة ولحِقَت من قُرطُبَةَ لمةٌ من الفقهاءِ والعُلَماء ولَفيفٌ من المجاهِدينَ الزُّعماء خَيْلًا ورَجْلًا، وتأهَّب فقهاءُ إشبيلِيَة ومجاهدوها، واستوفَت مطَّوِّعةُ غَرْناطةَ ومرتَّبوها، ثم تحرَّك أميرُ المسلمينَ بجميع العساكر من إشبيلِيَة لغزوِ قُلُمرية[1]، فحاصَرها عشرينَ يومًا وضيَّق بها ثم انصَرف عنها إلى إشبيلِيَة، ومشَى عبدُ الله ابنُ فاطمةَ والمنصورُ ابن الأفطس فقابَلا أرْوامًا في بلاد الرُّوم، ثم وَرَدا إلى إشبيلِيَة واستاقَا غنيمةً عظيمة وأسرى كثيرةً، وانصَرف الناسُ إلى بلادهم.

---

(١) ويقال فيها: «قُلُمْريّة»، كما في معجم البلدان ٤/ ٣٩١.

وأنفَذ أميرُ المسلمينَ عليٌّ بولاية أبي الوليد بن رُشْد خُطةَ القضاء بقُرطُبة.

ومَدَح الشّعراءُ لأمير المسلمين، فمن ذلك لأبي العبّاس التُّطيلي[1] من قصيدة طويلة، [من الرجز]:

اركَـبْ إذا دارَت رَحاهـا وانـزِلِ ... وقُـل إذا صَـمَّ صـداها وافعَـلِ

واقتصَّ واستوفِ وهب فاحتفِلِ ... وابلُغْ بأدنى السَّعي أقصى الأملِ

في عُمُـرِ الشِّعر وسَيْر المَثَـلِ ... ورُتبة الوُسطى من العِقد العَلي

وجهُك بالإحسان والحُسن مَلي ... وأنـت للدّنيا وللدِّين وَلي

نِيطت بكَ الآمالُ فاقطَعْ وصِلِ ... وهـذه الدّنيا فوَلِّ واعزِلِ

وفي هذه السنة: ورَدَ كتابُ عليِّ بن يوسُف بولاية موسى بن حمّاد قضاءَ غَرْناطة.

وفيها: قُدِّم بإشبيلِيَة لخُطّة القضاء أبو الحَسَن شُرَيْح بن محمد بن شُرَيح الرُّعَيْني عن إصفاق من أهل بلدِه.

وفيها: وَلي محمدُ بن سعيد قضاءَ المَرية.

وفيها: فسَد ما بينَ الزُّهريِّ وابنِ زُهر، منَ الصداقة والصِّهر، ورَمَى كلُّ واحدٍ صاحبَه بقاصِمة الظّهر، وبادَرَ ابنُ زُهر بمخاطبة عليِّ بن يوسُف، فبادر إليه الزُّهريُّ إثْرَ ذلك بنفسِه، فتكلَّم في ابن زُهر ملءَ فيه، فأمَرَ الزُّهريَّ بسُكنى مَرّاكُش، ثم ورَدَ ابنُ زُهر بعدَ ذلك إليها وقد أظلَم له النيِّر وصَعُب عليه الليِّن، فتلقَّى من أمرِه ما أصدَرَه... ولم يسمَحْ له بالوصُول، وكان قبلُ في غاية الجاه والعزّة والتمكين من الدّولة، يُولَّى من قِبَلِه حاكمٌ يحكُم من حاشيته، وصاحبُ المدينة من توليتِه، وشهودُ البلد بحُكمِه، وأمرُ المستخلص وأملاكُ السُّلطان جاريةٌ على نَهْيِه وأمرِه بمدينة إشبيلِيَة، والزُّهريُّ في كلِّ ذلك تِلوُه ومُقتدٍ به، فما راعوا حق الحُرمة، ولا أدَّوا شُكرَ النعمة[2].

---

(١) ينظر ديوانه ١٤٧.

(٢) ينظر الذيل والتكملة لابن عبد الملك ٣/ ١٣، بتحقيقنا.

ذكرُ ولاية أبي حفص عُمرَ بن يوسُف بن تاشْفين

وفي هذه السنة: صَرف عليُّ بن يوسُف أميرُ المسلمينَ الأميرَ أبا زكريّا يحيى بنَ عليّ عن إشبيلِيَة، وقدَّم أخاه أبا حَفْص واليًا عليها، ولـمّا وصَل الأميرُ أبو حفص إلى إشبيلِيَة برَزَ إليه أهلُها وخَرج الأميرُ أبو مروان بن أبي العلاء زُهر، وكان أبوه أبو العلاء مستوطِنًا بفاسَ بالأمر، فلمّا رآه أصغَرَه وقصَّر به، وترجَّل صاحبُ المدينة خالصةُ ابن زهُر فأخَذ بيدِه مُسلِّمًا عليه، فلمّا أُعلِم به أمَرَ عليه فأُلقِيت عِمامتُه في عنُقِه وجُرَّ إلى السِّجن، فتقَلْقَت نفوسُ الحاشية واستشعَروا الشّرّ. وجلسَ الأميرُ أبو حفص عشيّةَ ذلك اليوم في رَحْبة القصر فاستحضَر من حاشية ابن زُهر رجلَيْن متلبِّسيْنِ بأمرِه، فأمَرَ بضَرب أعناقِهما وطِيفَ برُمحِه على أسواق المدينة، وذَهب أدبُ ابن نُهيّةَ العتاد وأقبَلَ أدبُ... الحجّاج...؛ فتثقَّف البلدُ وتمهَّد وسكَن الإرجاف وفَرّ الـمُريب وجاء البَرِيء، وأقبَل الأميرُ أبو حفص على تتبُّع هذه الحاشية وجعَلَ غرضَه الانتقامَ فيهم والتشريدَ لهم.

وفي هذه السنة: نفَذَ عهدُ أمير المسلمينَ عليِّ بن يوسُف إلى... محمد بن مَيْمون قائد الأسطول بتعمير جُملتِه وغَزْو بلاد الرُّوم بها فعمر خمسةً وعشرين... الدُّربة والنَّجدة فاستفتَحَ مدينةَ قطرون، وهي على مسافة يوم من مدينة... فيها، وامتنَعت جُملةٌ من أهلِها بقَصَبتها وهي وَعِرة المرتقَى باسقةُ الذُّرى فتعلقت...، وأشرَفوا على استفتاحِها فحَماها اللّيل... دونَها وصدَرَ المسلمونَ إلى الأسطول وعدّها... وخمسونَ رأسًا من السَّبي وكثير... وانصَرف عنها القائدُ إلى الـمَرية.

قال... أبو بكر: ونهَض عليُّ بن يوسُف إلى مدينة إشبيلِيَة... في الإقبال، وأثبَتَ ابنَ روّادةَ ريثَما يلحَقُ بقُرطُبة، فلمّا تمهَّدت مدينةُ قُرطُبة واستتبَّ أمرُه أخَذ في الصَّدَر منها، فلقي أبا الطاهر بجزيرة طَرِيف مقبِلًا وصادرًا، ولحِقَ أبو الطاهر غَرْناطةَ في رمضانَ المعظَّم(١).

وفي هذه السنة: وَلِـي مُرْسِيَةَ أبو زكريّا يحيى ابنُ غانِيَةَ اللَّمتُونيّ.

وفيها: وَلِـي قضاءَ الـمَرية أبو الحَسَن بنُ أضحى.

---

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان ٣٢، والحلل الموشية ٧٠-٧١.

وفيها: نهَضَ ينالُه إلى شرق الأندلس فلم يزَلْ به إلى جُمادى الأولى من العام المقبل.

وفي سنة ستَّ عشْرةَ وخمس مئة: أغزَى أبو عبد الله محمدُ بن مَيْمون قائدَ الأسطول عليَّ بن يوسُف مدينةَ نقوطَرة من عمل رُجّار، صاحبِ صِقِلّيّة، ففتَحَها وسَبَى نساءها وأطفالَها... فيها، وكان عليُّ بن يحيى صاحبُ المهديّة كتَبَ كتابًا إلى رُجّارَ عندَما وقَع بينَهما وَحْشة يضمِّنُ تهديدَه فيه بإدخال الملثَّمينَ والعَرَب إلى صِقِلِّيّة، فلمّا كان من غَزْو أبي عبد الله ما كان لم يشكَّ رُجّارُ صاحبُ صِقِلِّيّة أنّ السببَ الباعثَ على ذلك والمحرِّكَ له صاحبُ الـمَهْدية، فاستنفَرَ أهلَ بلاد الروم قاطبةً وأكثرَ الاستنصار واستجاشَ وحشَد، كأنّما في ذلك كلِّه لأمرِه، فمنَع السَّفَر إلى سواحل المسلمين، والتأَمَ له ما لم يُعهَدْ مثلُه.

وفي هذه السنة: وَلِـي الأميرُ تميمُ بن يوسُف إشبيلِيَة من بعدِ ولايتِه غَرْناطة، فورَدَها في جُمادى الثانية.

وفي سنة سبعَ عشْرةَ وخمس مئة: صُرِف الأميرُ تميمٌ عن ولاية إشبيلِيَةَ ووَلِيَها أبو بكر بنُ عليِّ بن يوسُف.

وفيها: حاصَر أسطولُ صاحبِ صِقِلِّية مدينةَ الـمَهْديّة ونزَلَ عليها في جُمادى الأولى في نحو ثلاث مئة مركَب حمَلَ على ظهورِها ثلاثينَ ألفَ راكب وزُهاءَ ألف فارس، فأرسَل اللهُ عليهم ريحًا صَيَّرت جميعَهم إلى الانتشار، وأصْلَتْهم معَ بَرْد الماء حرَّ النار، فلمّا عايَنوا ما نزَل بهم أنزَلوا عن ظهورِ مَراكِبهم ما كان أنجاه الغَرَقُ من أفراسِهم فصَدَموا بها جيوشَ المسلمين، فخيَّب اللهُ آمالَهم وجعَلَ الدائرةَ عليهم لا لهم، وأقلَعَ جميعُ الأُسطول خاسِرينَ إلى بلادِهم، وبعدَ ذلك لم تجلِبْ صقِلِّيّةُ بخيل على الـمَهْديّة، إلى أنِ استوَلَى عليها بعدَ ذلك وأخرَج الرومَ منها الموحِّدونَ على ما يأتي[1].

وفي سنة ثمانِ عشْرةَ وخمس مئة: تسَمَّى محمدُ بن تومَرت السُّوسيُّ بالـمَهْديّ، وكان لـمّا اشتُهر صِيتُه في قبائل الجبال ووصَلوا إليه رحَل معَهم إلى جبل إيجليز لهرغةَ، فلمّا صار في منَعة الجبل وحماية عشيرتِه خاطَب القبائلَ ومدَّ يدَه للبَيْعة، وذلك في سنة ستَّ عشْرةَ على ما أذكُره في موضعه.

---

(١) تنظر التفاصيل في الكامل لابن الأثير ١٠/ ٦١١-٦١٣.

قال اليَسَعُ بن عيسى الغافقيُّ[1]: ولـمّا صَعِد الإمامُ بالجبل أمَرَ بتحصين موضعِه لأنه ما كان له إلّا طريقٌ واحد، وذلك الطريقُ لا يمشي فيه إلا راكبٌ بعدَ راكب من كثرة توعُّره، وأخَذ يحرِّضُ أصحابَه على قتال الملثَّمين ويقولُ لهم: اقتُلوا المجسِّمينَ والبَرابرَ المفسدين والفقهاءَ الـمَكّارِين.

قال ابنُ القَطّان[2]: ولـمّا ارتقى جبَلَ إيجليز أقام فيه ثلاثةَ أعوام: من سنة خمسَ عشْرةَ إلى هذه السنة المؤرَّخة.

وفي سنة تسعَ عشْرةَ وخمس مئة: أمَرَ الـمَهْديُّ بتمييز الموحِّدين، ونُوديَ في جبل الـمَصامِدة من هرغةَ وجنفيسةَ: من كان مُطيعًا لله ولرسُوله وللمَهْديّ فلْيصل، وكانوا يُعرِّضونَ إلى أبي محمد البشير فيُخرجُ قومًا على يمينِه وقومًا على يسارِه، فكلُّ مَن أخرجَه على يمينه يَزعُم أنه من أهل الجنّة، وكلُّ مَن أخرجَه على يسارِه يزعُم أنه من أهل النّار، ولا يَخرُج على اليسار إلّا من كان شاكًّا في أنّ الإمامَ هو الـمَهْديُّ المعلوم... الله ممّن خَرج على اليسارِ آلافًا، ذكَرَ ذلك ابنُ القَطّان وغيرُه[3].

وأخبَرني أبو علي صَالحٌ قال: لـمّا قتَل محمدُ بن تومَرت هزميرةَ تينمَل، قال له الفقيهُ الإفريقيُّ أحَدُ عشيرتِه: كيف تقتُلُ أقوامًا بايَعوك ودخَلوا في طاعتِك وتقسِمُ أموالَهم؟ فأمَرَ به فقُتل وصُلب لأنه كان شكَّ في عصمتِه، وكان قَتْله لهزميرةَ تينمَل سنةَ ثمانِ عشْرةَ، جَمَع الـمَهْديُّ عليهم أهل تلك الجبال فقام بهم وقَتل منهم فيما ذَكَروا خمسةَ عشَرَ ألفًا، فلمّا استأصَلَهم وسبَى أموالَهم بنَى حصنَ تينمَل، فلمّا ملَكَ الـمَهْديُّ تلك الجبالَ وما حولَها ضاقَ الأمرُ على عليِّ بن يوسُف فبعَثَ إليها عسكرًا فهُزِم.

وفي هذه السنة[4]: خاطَبَ أهلُ نَظَر غَرْناطةَ من جبل دور... والبِشارات لابن رُدْمير، وتَوالَت عليه كتُبُهم وتَواتَرت رسُلُهم مُلِحّةً عليه في الاستدعاءِ مُطمِعةً له بدخُول غَرْناطة، ووَجَّهوا له زِمامًا يشتملُ على اثنَيْ عشَرَ ألفًا من مُقاتلتِهم، وأعلَموه أنّ هؤلاءِ ممّن

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان ٧٥.

(٢) نظم الجمان ٢٣.

(٣) نظم الجمان، ص١٠٢-١٠٤.

(٤) تنظر الإحاطة ١/ ١١٤، والحلل الموشية ص٧٥-٨٠.

شهِدت أعيُنُهم لقُرب مواضعِهم وبالبُعد مَن يَخفَى أمرُه، ويَظهَرُ عندَ ورودِك شخصُه، وهذه الجملةُ كافية، وعَورَاتُ البلاد بادية، وعندَنا رُتَب ونُظُر نَخرُجُ لك عنها بالمسانية. فاستزادَ طمَعُه وابتَعَثَ جشَعُه واستفَزُّوه بأوصافِ غَرْناطةَ وما لها من الفضل على سائرِ البلاد بتحصينها وكثرة عيونِها وأنهارِها ومنَعة قَصَبتها وانطباع رعيّتِها وأنها المبارَكةُ التي يَملِكُ منها غيرَها، وهي الـمُسمّاةُ سنامَ الأندلس عندَ الملوك في تواريخِها، وأشْخَصوا بكتابِهم وزِمامهم كهولًا منهم تكلَّموا بين يدَيْه ملءَ أفواهِهم ورمَوْا على ذلك الغَرَض حتّى عزَم وجَدَّ في الحَشْد وانتَخَب من مُحتشَدِه خمسةَ آلاف فارس وخمسةَ عشَرَ ألفَ راجل.

وتحرَّك بهم أولَ شعبان وقد أخفَى مذهبَه وكتَمَ أَرَبَه إلى أن وصَل بَلَنْسِية في يوم الثلاثاء الموفي عشرينَ من رمضانَ، فأمَرَ بضَرْب محلّتِه، ومشَى في أُهبة، فمرَّ عليها وزاحَمَها ثم رحَل عنها من موضع إلى موضع إلى أن وصَل مدينةَ وادي آش، فاضطرَبَ محلّتُه بموضع يُعرَفُ بالقَصْر من باديتِها على فَرْسَخ منها، وذلك لعَشْر بقِينَ من شوّال، فبَدا نجيثُ المعاهدة[1] في استدعائه، وافتُضح سِرُّهم في اجتلابِه، وهمَّ الأميرُ أبو الطاهر بجَمْعِهم وثِقافهم، فأعياه ذلك بكثرتِهم وبُعد أقطارِهم، وأقبَلوا يتسلَّلونَ إلى ابن رُدْمير على كلِّ طريق ومن كلّ فجٍّ عميق... فكثُرت رَجْلتُه وضَخُمت جُملتُه وضايَقَ مدينةَ وادي آش بالحربِ من جهة القِبلة، فرأى... فجَدَّ في حربِها من الغد، فأتَت عليها السُّهم وفقَد جُملةً من... أقام بمُضْطَرَب محلّتِه نحوَ النّهر وأهلُ وادي آش في حصارٍ صَعْب قد أخَذوا المنازلَ وسَكَنوا... أرباضَ... المتجلِّدة من السُّترة تنتقلُ إليها الأحجار، وكانت تَبرُزُ المخدَّرةُ من خِدرِها ومنهتكٌ من سِترِها.

ولـمّا اتّصل بأمير المسلمينَ نبأُ ابن رُدْميرَ اللَّعين، أنفذَ أمرَه إلى أقطارِ العُدوة بتسريب الجيوش إلى الأندلس، فأجازَتِ البحرَ وجَدَّت في السَّير حتى أحدَقَت بغَرْناطة، وأقبَلَت عسكريّةُ مُرْسِيَة وبَلَنْسية، وتحرَّك ابنُ رُدْميرَ من وادي آش، وأخَذ على بربيطةَ[2] يومَ

---

(١) يعني: ظهر ما كان مكتومًا في أنفسهم.

(٢) في الإحاطة والحلل: «وتحرّك من وادي آش فنزل بقرية دجمة»، وقرية دجمة هذه تقع غربيّ وادي آش في منتصف الطريق بينها وبين غرناطة. (ينظر التعليق على الإحاطة).

النّحر، فصَلّى الناسُ بالـمُصلّى صلاةَ الخوف وهم في الأسلحة، وتحرَّك الأميرُ أبو الطاهر من غَرْناطةَ بالجيوش للقاءِ العدوّ، فمشَى مسافةَ أميال ثم صَدَر إلى المدينة، وظَهرت أخبِيةُ العدوّ في غدِ صدورِه إليها على فرسخَيْنِ منها، وجاءت الطلائعُ مُنبئةً بها فعَمِيت... وانقَطعت السابلةُ والواردة وقَلَّت الـمَرافق وتَزاحَم الناسُ في المدينة وسَكَنت المساجدُ والـمَصاطبُ والرِّحاب والخَراب، وكثُر الجَزَعُ والإرجاف والـمَوَجانُ بالنّهار واللّيل... والأسوارُ معمورةٌ بأهل البلدة وما نُسِي في الدّور غيرُ الصِّبية والنِّسوة، وتَوالت الأمطار وسالت الطُّرق وضاقت النفوسُ أشدَّ ضِيقة.

وأقام ابن رُذْميرَ بمُضطَرب محلّتِه بضعَ عشْرةَ ليلةً لم تَسرَحْ له سارحةٌ ولا شُنَّت غزوةٌ ولا انفَصَل بعضُ جيشِه عن بعض، والمعاهِدةُ تَجتلِبُ إليه الأقواتَ والعُلوفات، وخيلُ المسلمينَ تُراوحُه وتُغاديه دونَ مُناوشة، وفي خلال ذلك سَفَر إلى رأس من رؤوس الـمُعاهِدة بالحضرة يُعرَف بابن القَلّاس يوبِّخُه على استدعائه ويَلُومُه على تضمُّنِه بما لا يَفي به ولا يقدِرُ عليه، فاحتجَّ له بتلوُّمه وتباطُؤِه في إقبالِه حتّى أقبلَت الجيوشُ من الشّرقِ والغرب والعُدوة، وقال له: قد أوبَقْتَنا وأوقَعْتَنا في الهَلَكة إلى المسلمين، وساق نفسَه إلى الخِزي، فلمّا انصَرف السّفيرُ بهذا المقالة تحرَّك ابنُ رُذْميرَ بمحَلّتِه من موضع إلى موضع إلى الجبل الذي بجَوْفيّ... قَبْرة[1]، فبَدَت للمسلمينَ جملةُ محلّتِه، وكانت قبلُ مُكْمِنةً بالجبال والشَّعْراء.

وبعدَ حركتِه من خارج غَرْناطةَ لحِقَ الأميرُ أبو بكر أميرُ المسلمين بمحَلّتِه من إشبيلِيَة، فأقام يومًا، ثم تحرَّكت الجيوشُ في أثَر العدوّ، وأقام ابنُ رُذْمير بجبل قَبْرةَ أيامًا ثم تحرَّك منه، وعساكرُ المسلمينَ تتبَعُه وتنتقلُ بانتقالِه... عن يمينِه وشمالِه، إلى حصن أرنيسول[2]، فصبَّحته الجيوشُ يومَ الأربعاء الثالثَ عشَرَ من صَفَر، فكانت عامّةُ النّهار مُكافحة وفي أثنائها مُناوشة والظهورُ عليه. فلمّا طَفَلَت الشّمسُ أمَرَ الأميرُ تميمٌ برَفْع خِبائه من وَهْدةٍ كان فيها إلى رَبْوة عالية...، فاختلّ الأمرُ وانتُكِثت تعبئةُ الجيوش وساء به الظُّنون،

---

(١) Cabra، وهي في الشمال الغربي من غرناطة، وينظر معجم البلدان ٤/ ٣٠٥.

(٢) حصن يقع في الجنوب من غرناطة. (ينظر التعليق على الإحاطة، والكامل لابن الأثير ١٠/ ٦٣١).

وأخَذ الناسُ في الفِرار وجعَلوا أوجهَهم إلى الساقة، وتَهيَّب العدوُّ الأمرَ فلم يَدخُل المحَلّةَ إلا بعدَ هَدْأةٍ من الليل، ثم أخَذ إلى جهة السّاحل، ثم عاد إلى غَرْناطة فضَرب محَلّتَه على ثلاثةِ فَراسخَ منها، فأقام بها ثلاثةَ أيام، وفي الرابع... العساكر وسَرَعان خَيْلِه بقُربٍ من الزّاوية صمَدَ أبو حفص بن تُوزْجين بجيش مِكْناسة... ووقَع الضّربُ والحَرْب فأخْرَجَهم عنها، وصار المسلمونَ إلى المدينة وانْجَلَت الجيوشُ عن هذا الفَحْص... استشهاد رجالٍ من الموحِّدين... وانتقَل ابنُ رُدْميرَ إلى الـمَرْج مضيَّقًا عليه والخيلُ تُحرِجُه، فاضطَرَبَ محَلّتُه مضْطَرًّا ثم رحَل منه ورجَع إلى وادي آش وقد بادَرَه ينالُه اللَّمتُونيُّ بعسكر فاس، فحارَبَه من جهة واديها، ففَقَد عددًا كثيرًا في ذلك اليوم وأُصيبَ له زعيمٌ كبير، فرُفِع أخزَى رَفْع، ودُفِع شرَّ دَفْع، فأخَذ الجيوشُ تُضيِّقُ عليه إلى فَحْص قَرباقةَ[1] من أنظار مُرْسِيَة، فاجتازَ بجيوشِه وأخَذ على حصُون شاطِبةَ والعساكرُ في كلِّ ذلك تطَأُ أذيالَه وتُناوِشُه وتصيبُ منه، فكان يَترُكُ في كلِّ منزل هَلْكَى ومرضَى لا تُرجَى، حتّى لحِق بلادَه مختَرَم الجَمْع مفلولًا بلا حَرْب، ومن خَلَص من حَمْلتِه إلى موضعِه استَولت عليه الأمراض... الأغراض فكاد الحَيْنُ والموت يُواصلُهم. وصَدَرت العساكرُ... واستقرَّ المختصُّ منها بالأندَلس في مواضع أرزاقِها، وأخَذ المدَدُ في الإجازة إلى العُدوة.

وفي هذه السنة: احتُسِب الفقيهُ القاضي أبو الوليد بنُ رُشد آجَرَه الله، وتجشَّم النهوضَ إلى حضرة مَرّاكش، فتلقّاه أميرُ المسلمينَ بالمكرُمة والمبَرّة، وبيَّن له القاضي أمرَ الأندلس وما بُلِيت به من مُعاهِدتها وما جَرُّوه إليها وجنَوْه عليها منَ استدعاءِ ابن رُدْمير، وما في ذلك من نَقْض العهد والخروج عن الذِّمة، وأصغَى إليه الأميرُ عليٌّ وتلَقّى قولَه بالقَبول، فوقَع نظَرُه على تغريبِهم وإجلائهم من أوطانِهم، وهُو أخفُّ ما يؤخَذُ به من عقابِهم، ونفَذَ عهدُه إلى جميع بلاد الأندَلس بإجلاء الـمُعاهِدين إلى العُدوة، فنُفي منهم في رمضانَ عددٌ جَمٌّ أنكرَتْهم الأهواء وأكلتْهم الطُّرق ونَسَفتْهم الأسفار ونزَل فيهم الوباء، وفرَّقهم اللهُ شذَرَ مَذَر، وأحلَّ بهم عاقبةَ مكرِهم وأذاقَهم وَبالَ أمرِهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

---

(١) Caravaca، وتقع شمالي مرسية. (ينظر معجم البلدان ٤/ ٣١٩).

ونبَّه القاضي على بناءِ الأسوار، فشَرع الأميرُ عليُّ بن يوسُف في بناءِ سُور مُحدِقٍ بمَرّاكُش في هذه السنة، فكمُل في أقرب وقت وأعجَلِه، وورَدَ كتابُ الأمير عليِّ بن يوسُف إلى الأندلس بالنّظر في الأسوار بجميع البلاد، فتلوَّم ذلك النَّظرُ فيه، حتّى صُرِف الأميرُ أبو الطاهر عن غَرْناطةَ وقُرطُبة في رمضان ونَهَضَ إلى مَرّاكُش، وقدَّم أبا عُمر ينالُه على غَرْناطة، وقدَّم أبا حفص عُمَر بنَ سَيْر على قُرطُبة، وخرَجَ ينالُه من غَرْناطةَ بالجيش متحمِّلًا مِيرةَ أُقْليش، فلمّا احتَلّ... اعترضَه جُملةٌ وافرةٌ من الرُّوم ووقَعَ الضّربُ بينَهم، وثَبَت المسلمونَ فهزَم اللهُ الكَفَرة، وأورَد ينالُه المِيرةَ وصَدَر ظافرًا. ولـمّا استقرَّ ينالُه بغَرْناطة بعدَ انفصال المِيرة وقد تُهيِّب أمرُه وانتُهج أمرُ السُّور. ثم أغزَى الأميرُ أبو... ابن يوسُف بن تاشْفين أرضَ طُلَيطُلة في جيشِه وجيش قُرطُبة فغنَّمهما وصَدَر منها غانمًا ظافرًا إلى غَرْناطة.

ذكرُ التعتيب بالأندَلس وبناءِ الأسوار في هذه السنة

فلمّا صدَرَ حَدٌّ في تعتيبِ البلد وقُلِّد ذلك مَن وقَع الاتّفاقُ عليه من قاضي القُطر أبي القاسم بن وَرْد وصاحبِ الـمُستخلَص أبي عليّ بن هُذْبة، وقَدِم لقَبْض الـمُعتَّب رجلٌ من بني نَجَبة، لم يكنْ من الحَزَمةِ ولا من الخَدَمة، فمزَّق المالَ كلَّ ممزَّق، وعاثَ فيه كلَّ مخرَق، وذمَّ ينالُه جميعَ البنّائين، وشدَّ على الناس في دَفْع المال، فكانت الآلاتُ متمكِّنة والموردةُ متّصلة، وتُهُيِّبَ ينالُه، فكان الناسُ يخافونَه لضغطِه وشدّتِه، وكمُل السُّور في أقرب وقت، وكان حاطبَ ليل، وبعضُ البنّائين غُثاءَ سَيْل، لا وفَوا التأسيس ولا قوَّموا الترصيص، ولأقرب مدّة وَهَى وسَقَط كثيرٌ منه على المجاورة بجهة بابِ الرَّملة وبابِ إلبِيرة، فأهلَكَ جُملةً لا تُحصَى، وكثُر الدّعاءُ على بانيهِ ومُموِّنيه.

وتَولَّى النّظرَ في أسوار الـمَرِية رجلٌ منهم يُعرَفُ بابن العَجَميّ من أصحاب ابن مَيْمون، فأخَذ بالحَزْم، واستكثَر بالسِّياسة والعَزْم، ولم ينفقْ شيئًا من المال إلا في موضعِه، ولا استعانَ إلا بمَن جدَّ في نُصحِه، ورأى الناسُ ذلك فتساهَلوا في الأداء وتواصَلوا حمَلَ تلك الأعباء، فكمُل السُّورُ على واجبِه من التحصين والتحسين، بيسير من الـمُؤنة دونَ ضَرْب ولا سَجْن. وتَولّى أهلُ قُرطُبَةَ رمَّ أسوارِها على سالفِ عادتِهم، فعزَم أهلُ

كلِّ مسجد إقامةَ ما يَليهم فكمَّلَ الأمر دونَ تشعيبٍ ولا تعتيب، وكذلك أهلُ إشبيلِيَة بوَسَط الحال دون إسرافٍ ولا إجحاف.

وفي ليلة الأحد الحاديَ عشَرَ لذي القَعْدة: توفِّي بقُرطُبة الفقيهُ القاضي أبو الوليد ابنُ رُشد[1] رحمه الله، وهو: محمدُ بن أحمد بن رُشد، وله «شَرْحُ المستخرَجة» تأليفٌ لم يسبِقْ أحدٌ من العلماءِ إلى مثلِه يَنيفُ على المئة جُزء[2]، هكذا ذكَرَ صاحبُ كتاب «الأنوار الجليلة في محاسن الدّولةِ الـمُرابطية»[3]، وله مقدِّماتٌ في الفقه فسَّر فيها مذهبَ مالكٍ رحمه اللهُ بأبلغ حُجّة وأوضح معنى، إلى غير ذلك من التواليف. وصَلّى عليه ابنُه ودُفِن بمقبُرة بني العبّاس فلم يُعهَدْ مثلُ ذلك اليوم في الحَفْل وكثرةِ المخلوقِ فيه.

وفي سنة عشرينَ وخمس مئة: قال ابنُ حماده: قام رجلٌ في ريفِ سَبْتَةَ في كركالَ وادَّعى أنه الخَضِر، فقُبِض عليه في العَشْر الأُوَل من جُمادى الآخِرة ووصَل إلى سَبْتَةَ يومَ الثلاثاء لثلاثَ عشْرةَ من الشهرِ المذكور فحُمل منها إلى حضرة مَرّاكُش فقُتل وصُلب.

وفي هذه السنة: تَواتَرت أخبارُ الـمَهْديِّ بمَرّاكُش وطاعَتْ له الجبالُ كلُّها... فأكمَلَ البشيرُ الوَنْشَريسيُّ الـمَيْزَ في العام الفارِط، أمَرَه المهديُّ بالتقديم على الباقين... فغَزَا بهم في هذه السّنة كبك، ووصَل إلى أغماتَ وحَوْز مَرّاكُش ورجَع إلى الجبل، فأخذ الأميرُ عليُّ بن يوسُف يَبني المراصِد بقُرب مَرّاكُش ويسُدُّ الطُّرق التي يَنزلُ منها أتباعُ الـمَهْديِّ إلى الأوطئة.

وذكَروا أنه في هذه السنة: كان وصُولُ ابن رُشد إلى مَرّاكُش ووفاتُه بقُرطُبة، واللهُ أعلم.

وفي هذه السنة: نَهَض ينالُه اللَّمتُونيُّ الوالي على غَرْناطةَ إلى شرق الأندلس، فلم يزَلْ به إلى أن عُزِل عن غَرْناطةَ في جُمادى الأولى من عام اثنين وعشرين، فكانت ولايتُه

---

(١) ترجمته مشهورة وسيرته مذكورة، وقد ترجمه الجمّ الغفير من المؤرّخين، فتنظر الصلة البشكوالية ٢/ ٢١١ (١٢٧٠)، وتعليقنا عليها.

(٢) هو المسمّى بـ«البيان والتحصيل، والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل العتبية» طبعته دار الغرب الإسلامي، وهو منتشر مشهور.

(٣) لأبي بكر الصيرفي.

سنةً وتسعةَ أشهر، وكان أبو عُمر يَنالُه استدَعى فقهاءَ وعلماءَ من أهل جَيّان، فلمّا حضَروه أمَرَ بسَجْنِهم ظُلْمًا واعتداءً، ثم نَهَض للغزوِ إلى الشّرق فلم يزَلْ في تلك الوِجهة وهم في العُقْلة إلى أن عُزِل بالأمير أبي حفص عُمرَ ابن أمير المسلمين عليِّ بن يوسُف، فلمّا ورَدَ غَرْناطةَ بادَرَ بإخراجِهم وإصدارِهم إلى بلدهم على غايةِ المَبَرَّة والكرامة، وفرَّج اللهُ بعَزْلة ينالُه عن المسلمينَ الغُمّة وانفرَجَت الضِّيقةُ بالأندلس.

وفي سنة إحدى وعشرين وخمس مئة: قال ابنُ القَطّان[1]: وجَمَع الإمامُ الـمَهْديُّ في هذه السنة نحوَ أربعينَ ألفًا من الرّجال ونحوَ أربع مئة فارس، فنزَلوا على مَرّاكُش، فخَرج إليهم لمَتُونةُ في أكثرَ من عددِهم معَ أميرهم عليِّ بن يوسُف فهزَموه، ومات عسكرُ عليِّ بن يوسُف على باب أغمات، وطال حصارُ مَرّاكُش نحوَ أربعينَ يومًا يلتقونَ فيه ويتقاتلون، وخَرج عليُّ بن يوسُفَ أيضًا بعساكرِه وانهزَم، وماتَ من عسكرِه خَلْقٌ كثير بالزِّحام عندَ بابِ دَكّالة، وفَرّ أقوامٌ من عسكرِه حين لم يَجِدوا مِن أين يَدخُلون إلى مَرّاكش حتى وصَلوا إلى وادي أمِّ ربيع، فلمّا رجَعوا بعدَ ذلك إلى المدينة أمَر عليُّ بن يوسُف بحَلْق لِـحاهم ومثَّل بهم. ولـمّا مكَثَ أصحابُ الـمَهْديِّ بحشودِهم في البُحيرة المدّةَ المذكورة، وصَلت الحشودُ والعساكر من كلِّ مكان إلى عليِّ بن يوسُف، فخَرج بهم إليهم فهزَمَهم وقَتَلهم قتلًا ذَريعًا، وفُقِد في هذه الهزيمة أبو محمد البشيرُ ولم يجِدْه الموحِّدونَ ولا الـمُرابِطون لا حيًّا ولا ميّتًا[2]. وذَكَروا أنه كان لطائفةِ الـمَهْديِّ على عليٍّ بمَرّاكُش أربعونَ هزيمة، وعليهم هذه الهزيمةُ المعروفةُ بهزيمة البُحيرة قُتِلوا فيها أجمعين حتّى لم يبقَ منهم إلا نفَرٌ يسيرٌ معَ عبدِ المؤمن، وقَدِم عبدُ المؤمن مرةً أخرى وباتَ على هيلانةَ فحشَدَهم ورجَع بهم إلى مَرّاكُش فهُزِموا أيضًا، فمات في تلك الهزيمة نحوُ اثنَيْ عشَرَ ألفًا، وتوجَّه عبدُ المؤمن معَ خمسينَ رجُلًا إلى تينمَل ووجَد الـمَهْديَّ فقال لهم: بقي الأمر[3].

---

(١) سقط هذا النص من المطبوع من نظم الجمان لابن القطان.

(٢) ينظر البيذق ٢٨.

(٣) تفاصيل وقعة البحيرة في البيذق ٧٨-٨١، ومعنى: «بقي الأمر» أي بقي عبد المؤمن حيًا، يقول راوي الخبر: «فأسرعت حتى وصلت المعصوم (أي المهدي) فأعلمته فقال لي: عبد المؤمن في الحياة؟ قلت: نعم. قال لي: الحمد لله رب العالمين قد بقي أمركم».

وفي سنة اثنتَيْن وعشرينَ وخمس مئة: وَلّى أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف وَلَدَه عُمرَ في مدينة غَرْناطةَ واحتلّها في شهر جُمادى الأولى، وكان في جُملته رجلٌ زِيُّه التلثيم نشَأ بمدينة طَنْجة وتأدَّب بإشبيلِيَة يُعرَفُ بموسى بن مَفْروح له خَطٌّ بارع وأدَبٌ صالح ونفوذٌ في الحساب، وكانت له نفسٌ ذكيّة وهمّةٌ عالية، ألقَى إليه الأميرُ أبو حفص جميعَ الأعمال وأوطَأَه عَقِبَ الرّجال، فاستبدّ بالأمرِ واستقلّ... فدُسّ إليه يهوديٌّ يَنتحِلُ الطبَّ سقاه يومَ أربعاءَ ودُفن يومَ جُمُعة.

ولحِقَ الأميرُ أبو بكر والي إشبيلِيَةَ بغَرْناطة متوجِّهًا إلى شرق الأندلس فسار إليه الأميرُ أبو حفص أخوه، فدَخلوا المدينةَ في أجمل هيئة وأتقن زينة... فاجتَمع بأخيه وأقبَلا مقترنَيْنِ والجيوشُ تحفُّهما، وكان مضطربُ محلّةِ الأمير أبي بكر بالـمُصلّى، فتلوَّم أيامًا ثم تحرَّك إلى وِجهتِه فقصَدَ حِصنًا كان للروم قد تملَّكوه غَدْرًا فنَصَب عليه الحربَ ودخَله عَنْوة، وامتلأت أيدي المسلمينَ بكثير من الأسلحة والآلات والزّي والمتاع، وثَقَّفَ الأميرُ أبو بكر الحِصنَ بالرّجال والرُّماة وصَدَر، فبُرِّزَ له بغَرناطة أحفلُ تبريز، ثم أغذَّ السَّيرَ إلى إشبيلِيَة.

وقد نفَذ كتابُ أمير المسلمينَ إلى وَلَدِه صاحبِ غَرْناطةَ بوصُوله إليه، وأقام واجدى[1] بنُ سَيْر معَ أخيه عُمرَ والي إشبيلِيَة وعبدِ الرحمن بن أبي بكر والي قُرطُبة، وصَدَر أبو عُمرَ ينالُه عن الشّرق إلى غَرْناطة ثم توجَّه إلى الجزيرة وجاوَزَ البحر، فلمّا وصَل إلى حضرة أمير المسلمينَ عليِّ بن يوسُف أشار بذكرِه إليه مُعاهِدةَ غَرْناطة، فأمَرَ بمحضَرِه معَهم في مجلس نَظَرِه، فأَدْلَوا بحُجَج في ظُلمِه فسَجَنه لهم حتى أنصَفَهم من ظُلامتِهم، ثم بعدَ ذلك أصابه طاعونٌ كان سبَبَ حَتْفِه، وكان هذا ينالُه إذا عاقَبَ الجانيَ اعتَدى عليه، وإذا أُتي بالبريء لم يَسمَعْ منه، وكان له كاتبٌ يهوديُّ الأعراق والأخلاق يُبغِضُ الناسَ ويُبغِضونَه، أشأمُ قسمةً على نفسِه ورئيسِه ومنِ اتّصل به، فبَدَا بشؤمِه أميرَه ينالُه، فجَرَّ إليه العَزْلَ وأورَدَه السِّجن وأدّاه إلى الهَلَكة، وغدا شُؤمُه عليه فاستُؤصل مالُه ونُهبت دارُه وطُلب ليوقَعَ به ففَرَّ وهَلَك بعدَ ذلك، وكان أشقرَ أزرق دميمَ الخَلْقَ في وجهِه خال.

---

(١) هو المعروف باسم «أجداي» عند ابن القطان ١٠٦ (وينظر تعليق الدكتور محمود مكي عليه).

وفي رمضانَ المعظَّم من هذه السنة: صُرِفَ الأميرُ أبو حفص عُمرُ ابنُ أمير المسلمينَ عليِّ بن يوسُف عن غَرْناطةَ، وكانت ولايتُه بها أربعةَ أشهر، ووَلِيَها عبدُ الله بن أبي بكر اللَّمتُونيُّ، وكان في شَرْق الأندلس بجيش العُدوة، فلمّا وصَلتْه الولايةُ أورَدَ كتابًا على أبي يحيى بن روَّادَة يَستنيبُه في الأمور المختصّة فتَولّى ذلك.

وفي هذه السنة: استمرَّت عَزْمةُ عليِّ بن يوسُف اقتداءً بأبيه في إشارتِهم إلى مَن يقومُ بالأمر من بعدِه، فاستَدعَى مِن نُوّاب القبائل مَن وَثِق بدينِه ونَظَرِه، وفاوَضَهم في مذهبِه، فكلُّ شيخ ورَدَ على تهمُّمِه، وأشار بالأمير أبي محمد سَيْرٍ ابنِه، فأمَرَ كتبَتَه بإنشاء البيعةِ له، فنَزَع كلّ سهمَه إلى غَرَض طبعِه وعلمِه، فلمّا وقَف عليه أعرَضَ عنه وأمَرَ بنَقْل البيعة المتعهَّدة في قُرطُبَةَ باسمِه، فألزَم نفسَه ما التزَم وقلَّده ما تقَلَّده، وأنفَذَ الكتُبَ إلى عُمّالِه وقُضاته بالأندَلس حتى أخَذ البيعةَ في كلِّ بلدة، فانعَقَدت في كلِّ قاعدة بيعة يومَ الجُمُعة الرابعَ عشَرَ من جُمادى الأولى... أمير أبي حفص، ثم دَنَا بهما واستَدعَى الزّعماءَ والأعيان من جميع جهات غَرْناطة، فلمّا... فيها أنفَذَ إلى أمير المسلمينَ بها وتَساجَل في هذا الشأن أهلُ البلاد، هكذا ذكَرَ الصَّيرفيُّ في كتابِه.

قال الورّاقُ في «المِقْباس»: لـمّا عزَم عليُّ بن يوسُف على أن يَخلَعَ عهدَه على ابنِه سَيْر الذي مِن أمَتِه قَمَر[1]، وجَّه إلى عقدِ ذلك... أهلَ العَقْد والحَلّ من الفقهاءِ والقُضاة، وجَمَع لذلك بني عمِّه وأخوَيْه: الأميرَ تميمًا كبيرَه وأخاه إبراهيمَ صغيرَه المشتَهَر بابن تاغيشت، وهي أمَةٌ سوداء، فسَلَّم الأمرَ لابنِه سَيْر وشهَّد الشّهودَ عليه بذلك، وكمُلت البيعةُ له وأرسَل بها إلى سائر الأقطار والأنظار، فاستقرَّت البيعةُ للمذكور والتزَم قَبولَها، واستقَلّ بالأمر ونَظَر في سائرِ ما تَدْعوه الضّرورةُ من أمور الجيوش والأحكام والولايات والعَزْل ورَدِّ المظالم، وقَعَد للناس قُعودًا فَخْمًا، وكان تامَّ الخِلقة حَسَنَ الخُلُق كاملَ الأدوات من الفُروسيّة وغيرِها جميلَ الهيئة، ولم يكنْ له وَلَد؛ لأنه كان عقيمًا، ولم تَطُلْ مدّتُه، فهلَكَ في حِجر أبيه، وتكلَّم الناسُ في سببِ موتِه بأحاديثَ شنيعة.

---

(١) تنظر الإحاطة ١/ ٤٥٥.

ذكرُ ولاية تاشْفينَ بن عليّ بن يوسُف الأندَلس ونُبَذٍ من أخبارِه

لـمّا وَلّى عليُّ بن يوسُف ابنَه سَيْرًا ولايةَ عهدِه، وجعَلَ له الأمرَ من بعدِه، رأى أنْ يُولِّيَ ابنَه تاشْفينَ الأندَلس فوَلّاه إمارةَ غَرْناطةَ والـمَرية، إلى أن عَزَل عن قُرطُبة ابنَ عمِّه عبدَ الله بن جنونة، فوَلّاه مدينةَ قُرطُبَةَ مضافةً إلى ما بيدِه لـمّا حَسُن مَنابُه، وذلك بعدَ سنتينِ من ولايته، فدخَل قُرطُبة سنةَ أربع وعشرينَ واستقرَّ بها ونَظَر في مصالح أمورِها. وكان بطلًا شُجاعًا حسَنَ الرَّكبة والهيئة لولا بُخلٌ أخَلَّ به، وكان يَسلُكُ طريقَ ناموس الشّريعة ويَميلُ إلى طريقةِ المستقيمينَ وقراءة كتُب الـمُريدين، وقيل: إنه لم يشرَبْ قطُّ مُسكِرًا ولا استَمع إلى قَيْنة ولا اشتَغل بلَذّةِ صَيْد ولا غيرِ ذلك ممّا يلهو به الملوكُ من سائر اللَّهو، وظَهَرت له بارقةٌ في النَّصر على النّصارى الضّارِّين ببلاد الأندَلس، فإنه كان يؤثِّر فيهم ويَهزِمُهم في أكثرِ الأوقات، فأحبَّه أهلُ قُرطُبة خواصُّها وعوامُّها، فبَعُد صِيتُه وعلا ذكرُه، وساسَ أهلَ الأندَلس سياسةً طار بها ذكرُه من الاستقامة واتّباع لأمورِ الشّريعة[1].

ولـمّا بَعُد صِيتُ تاشْفين في أمر الغزوِ والجهاد، وشاعَ ذكرُه في سائر البلاد، كبُر ذلك على أخيه وَلِـيِّ عهد أبيه سَيْر، وفاوَض أباه في ذلك وقال له: إنّ الأمرَ الذي أهَّلتَني له لا يَحسُنُ لي معَ تاشْفين، فإنه قد حَمَل الذِّكرَ والثناءَ دوني وغَطّى على اسمي وأمال إليه جميعَ المملكة، فليس ليَ اسمٌ معَه ولا ذكر، فحينئذٍ عزَلَه أبوه عن الأندَلس وأمَرَه بالوصُول إلى حضرتِه، فوصَل تاشْفينُ مَرّاكُش وصار في جُملة مَن يتصرَّفُ بينَ يدَيْ أخيه سَيْر، فكان يحضُر مجلسَه في جُملة كبارِ لـمتُونة ويقِفُ على بابِه، ولم تَطُل الـمُدّةُ إلى أنْ جَرى من أمر سَيْر ما جرى، ومات حسبَما أذكُر في موضعِه، وذلك في سنة ثلاثٍ وثلاثين، هكذا ذكَرَ الورّاق.

وكانت ولايتُه بالأندَلس سنةَ ثلاث وعشرينَ وخمس مئة، قال أبو بكر الأنصاري: وَلِـي غَرْناطةَ الأميرُ تاشْفين فوَافاها في السابع والعشرين لذي حِجّة سنة ثلاث وعشرين،

---

(١) تنظر الإحاطة ١/ ٤٥٦.

فقوَّى الحصُونَ وسدَّ الثُّغور وأذكى العيُونَ على العدوّ وآثَرَ الجُند، ولم يُكبِرْ إلّا الجَدّ، ولم تُنَلْ عندَه الحُظوة إلا بالغَناء والنَّجدة، ولذلك حَمَل على الخيل وقلَّد الأسلحةَ وأوسَع الأرزاق واستكثَر من الرُّماة وأركَبَهم وأقام هِمَمَهم، وعُني بالغَزْو ومباشرة الحرب، فهزَم الجيوشَ وفتَح الحصُون، وتهيَّبه العدوّ، ولم ينهَضْ إلا ظاهراً ولا صَدَر إلا ظافراً، ومهَّد الـمُلك بالحَزْم وتملَّك نفوسَ الرّعية بالـمَعدَلة وقلوبَ الجُند بالنَّصَفة. قال: ولولا الاختصار لأورَدْنا من خلالِه السَّنيّة ما يَضيقُ عنه الرَّحبُ ولا يسَعَه الكَتْب.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ثلاث وعشرين: أغزَى واجدى[1] بنُ عُمر بن سَيْر اللَّمتُونيُّ على طَلَبيرة بجيش إشبيلِيَةَ، فاكتَسَح ما بها وبالَغَ في النِّكاية، وصَدَر بالسيقة، فتَبِعه زُهاءُ خمسينَ فارسًا للعدوّ فحُضَّ على صَرْف عدَد يُصيبُ منهم أو يُشرِّدُهم، فتهاوَنَ بهم، فلحِقَه عددٌ آخَر؛ فقيل له: بدِّدْهُم قبلَ تجمُّعِهم، فأعرَض عن ذلك حتّى تكامَلَ للعدوِّ زهاءُ ثلاث مئة فارس حَمَلَ على جيش المسلمين فانهزَم لهم وأصابوا من الـمُرابِطينَ جُملةً وافرة وأسَروا عِدّة، ورُفِع الأمرُ إلى عليِّ بن يوسُف فألزَمَ واجدى فِديةَ مَن أُسِر وأنفَذَ عَزْلَته وولايةَ الأمير أبي زكريّا يحيى بن عليّ ابن الحاجّ ومُجُوز[2]، وكانت ولايةُ عبد الله بن تينغمرَ مدينةَ قُرطُبة في السنة الفارِطة عن هذه، وهو ابنُ أُخت عليِّ بن يوسُف.

وفي سنة أربع وعشرينَ وخمس مئة: استَصْرخَ صاحبُ قُرطُبَةَ الأميرَ تاشْفين، والعدوُّ مصمِّم نحوَها، فبادَرَ إليها فارتَدع العدوُّ عنها ورجَع عَوْدَه على بَدْئه، فلم تكنْ له نِكاية، فثَنَى الأميرُ تاشْفينُ أعِنّتَه إلى مدينة جَيّان وأقام يَستطلعُ الأنباء ثم صَدَر إلى غَرْناطة.

وفي هذه السنة: توفِّي صاحبُ بَلَنْسِية محمدُ بن يوسُف يَدَّر وتَولّاها يَنْتان بن عليّ اللَّمتُوني[3]، فقَرَن اللهُ بذلك... وظَهَر بالرّوم وسِيق رأسُ زعيمِهم غَشْتونَ إلى غَرْناطة

---

(١) قد تقدم أن واجدى هذا هو ابن سير، فهل هذا قد سمّي على اسم عمه؟

(٢) هو لقب لابن الحاجّ، ويكتب: «مقور» بالقاف والجيم والكاف هما بدل من الكاف الأعجمية.

(٣) هو أصغر أبناء علي بن يوسف.

في شهر جُمادى الآخِرة، فنُصِب على ذَروة رُمح وطِيف به الأسواقُ والسِّكَك وشُهِر بضَرْب الطّبول[1]، وأغذَّ به البشيرُ إلى أمير المسلمين عليِّ بن يوسُف وهو بمَرّاكُش؛ فأنشَدَ الأميرَ تاشْفين أبو بكر محمدُ بن يوسُف شعرًا ارتجالًا، وهو [من الطويل]:

بِسَعْدِكَ شبَّتْ في الأعادي لظى الحربِ ... فجاءك ما تَهوى من الشرقِ والغربِ
وقد كنتَ بشَّرْتَ الأميرَ بأنّها ... بَعيدُ مسَرّاتٍ تجيءُ على قُربِ
فقد أنجزَ الرّحمنُ بالنّصرِ وعدَهُ ... وسهَّلَ أمرًا كان في غابةِ الصّعبِ
فخَيلُك قد ألقَت بإيلانَ بَرْكَها ... وأمضتْ على غشْتُونَ بالطّعن والضّربِ
وجاءك منها رأسُ غشْتُونَ مُخبِرًا ... على جسَدٍ للرُّمح كفًّا على...
صوتًا احر المسى في لسانِه... ... ولكنه في الحال من أفصح العُربِ
وما هذه من تلك أعظمُ نعمةً ... ولكنّه تِربٌ أُضيف إلى تِربِ
.... على البرى وقرب إلى الحبِّ

وقيل في ذلك [من البسيط]:

يا تاشَفينُ وقطبُ الحربِ عاطشةٌ ... وليس إلا دمُ الأعداءِ يُرويها
قد راسلَتْكَ ملوكُ الرّوم صاغرةً ... في السِّلم إذ كادت الهيجاءُ تُفنِّيها
فخيلُها الكُمْتُ مُلقَى البِيد وادعةٌ ... وكُمْتُك الخيلُ تعدو في مغانيها
تَخشى عقابَك في أقصى منازِلها ... وتطلُبُ العفوَ من أعلى صياصيها
إذا أتَتْ رُسْلُها جاءتك مُقبلةً ... والسيفُ من غِمدِه سرًّا يُناجيها
تخافُ بحرَ نَداك الغمْرَ يُغرِقُها ... وتتّقي الشَّزْرَ من مَرآكَ يَعشيها

---

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان ١٨١، وفيه الإشارة إلى أن رأسه حمل إلى مراكش وطيف به هناك، لا في غرناطة كما ذكر هنا.

لا تَــسمعُ القــولَ إلّا أن يُحرِّكَهــا ... ولا تــرى الــشخصَ إلا أنْ يُناديهــا

تملَّــكَ الرُّعــبُ منهــا كــلَّ جارحــةٍ ... فــما لأعـــضائها فعـــلٌ يُواتيهـــا

فاهنَـــأْ فـــإنّ بـــلادَ الله أجمَعَهـــا ... إليــك تكفُــلُ مَــن فيهــا وتَكفيهــا

ولـمّا ورَدَت رسُلُ الرّوم راغبةً في السِّلم أحسَنَ إليهم وصَرَفَهم إلى مَلكِهم، وأمَر بتشييعِهم إلى مأمنِهم، ثم أخَذ في الحَزْم والعَزْم، ونظَر في حَسْم العِلَل، وحَدَّ لهمُ التأهُّب، وأمَرَ الأدِلّة بالفَحْص عن الأنباءِ وأخْذِ الألسنة.

وبأثَرِ ذلك ورَدَ النبأُ الصّادق أنّ القُمطَ احتفَل في الحَشْد وخَرج إلى بلاد الإسلام، وعزَم الأمير تاشْفينُ على الخروج إلى طَرَف نظَرِه فتَواترت الأنباءُ بتعريج العدوِّ إلى طريق إشبيلِيَة يومَ النِّصْف من رَجَب، وكان واليَها أبو حفص عُمرُ بن الحاجّ اللَّمتُونيّ الملقَّب ومُجوز[1]، فلم يَشعُرْ إلّا والخيلُ جائلة بالشَّرَف[2]، فخَرج بمَن كان معَه فوقَف على ضفّة الوادي ببعض خيلِه ورَجْلِه، وأجاز البعضَ ليَكُفَّ عاديةَ الخيل الغادية عليهم، فظَفِروا ببعض الرّوم وكَرُّوا بهم إلى الأمير عُمر، فاستَخبَرَهم وأمَرَ بضَرْبِ أعناقِهم، ومَن بالضّفة الأخرى مِن خَيْل الروم ينظُرونَ إليهم، فاحتلَّتهم الحَمِيّة، واقتَحموا النّهر فحاصَ المسلمونَ حَيْصةً أجْلَت عن الأمير عُمر صاحبِ إشبيلِيَة قرب المسلمينَ كرم... بشهادة، فقيل: إنّ حَجَرًا كان يُلقى على الظَّهر، فلمّا أهَبَ الفَرَسَ بالجَرْي سَقَط وأثقَلَه عن القيام الدِّرع، فداسَتْه الخيلُ وبُطَّت بطنُه بالطَّعن. وفي صَبيحة تلك اللّيلة اضْطَربَ الرّومُ بالمحَلّة على فرسخَيْن من مدينة إشبيلِيَة، فقَتلوا عظيمًا وسَبَوا عظيمًا بمرأى عَيْن ومسمَع أُذُن، واستاقوا من الأسرى والمواشي والآراب ما لا يُحصيه عَدّ ولا يَحصُرُه حَدّ، فلم... عن إحراق الزَّرع وقَطْع الشّجر، وأسرَعوا في الصَّدَر، ولـمّا عَلِم تاشفينُ بأخْذ العدوِّ إلى جهة إشبيلِيَة خَرَج بالجيش إلى سَمْت قُرطُبة، فتلقّاه كتابُ

---

(١) هذا لقب ابن الحاج، كما تقدم، وأبو حفص عمر هذا هو أخو يحيى بن علي ابن الحاج مجور المتقدم قبل قليل.

(٢) هي منطقة التلال المحيطة بإشبيلية.

القاضي بها محمد بن أصبَغ مُعلِمًا له باكتساح العدوِّ مدينةَ إشبيلِيّة، وعَرَّفه باستشهادِ صاحبِها، فجَدَّ السّيرَ في الوصُول إليها وقد قُتل رئيسُها وفُضّ جمعُها[1]... من أهل الحاضِر المتصرِّفينَ أسعارها، وكثُر... والتأدّب من إشبيلِيّة وأمَرَ بتنكيلِه وسَوْقِه إلى جزيرة...

وكان تميمُ بن يوسُف بن تاشفينَ واليًا على فاسَ فيها، فعَزَله أخوه في سنة ثلاث وعشرينَ بعدَ ولاية العَهْد لسَيْر بن عليَ، فوَلَّى بعدَه محمدَ بن يَزُول.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ أربع وعشرينَ: عُزِل يزولُ عن المغرب ووَلِـي حازمُ بن داود بن عَمْرو بن يحيى.

وفي هذه السنة: هبَطَ الموحِّدونَ إلى مَرّاكُش وحَصَروها وبَقِيت أيامًا لا يَدخُلُها أحد، ثم وقَعت الـمُلاقاةُ، فحصَل من اللَّمتُونيِّين خَلْقٌ كثير لم يُحصَ لهم عدد، وهَرَب باقيهم إلى مَرّاكُش، واتّبَعهم الموحِّدونَ إلى بابِها فترامَوْا في الحَفِير وطَلَع فيه الناسُ على الناس حتّى امتلأ منهم، ثم رجَع الموحِّدونَ عنهم إلى محلّتِهم وبقُوا عليهم أيامًا، فوقَعت بينَهم وقعةٌ مات فيها من الموحِّدينَ مَن قضَى اللهُ له بذلك. انتهى كلامُ ابن حماده.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ أربع وعشرينَ المذكورة: نزَلَت طائفةٌ من قبائل الموحِّدينَ إلى كيك، فهزَموا عسكرًا لعليِّ بن يوسُف وأخَذوا أموالَهم وسلاحَهم وأخبِيتَهم[2].

ثم نزَل بهم عبدُ المؤمن بن عليّ إلى أغماتَ فحصَروها وقَتلوا في يوم واحد نحوَ ثلاثة آلاف أكثرُهم سُودان، فاتّصلت الهزيمةُ بموضع أفراك، وفي اليوم الثاني أصبحوا على باب الشّريعة فخَرج إليهم عليُّ بن يوسُف من مَرّاكُش فهزَموه حتّى دخَل بابَ المخزن[3].

---

(1) ذكر ابن القطان هذه الحادثة ومنها استشهاد أمير إشبيلِيَةَ عمر بن مجور في سنة ٥٢٦هـ. (نظم الجمان ١٩٧)، وذكر أن عبد الملك في ترجمة سليمان بن جعفر بن سليمان الحضرمي أنه هو الذي خاطب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين عن أهل إشبيلِيَةَ يعلمه باستشهاد أميرها عمر بن مقور بقتل الروم إياه في رجب ست وعشرين وخمس مئة. (الذيل والتكملة ٢/ ٦٠، بتحقيقنا). أما ابن الخطيب فذكر هذه الحادثة في رجب من سنة ٥٢٥هـ. (الإحاطة ١/ ٤٥١-٤٥٢).

(٢) ينظر نظم الجمان لابن القطان ١١٤.

(٣) نظم الجمان لابن القطان ١١٦-١١٧.

وفي هذه السنة: توفِّي الـمَهْديُّ، لـمّا رجَع عبدُ المؤمن من حركتِه وجَده مريضًا فخَرج إلى الناس فوَعَدَهم وكلَّمهم، ثم رجَع إلى دارِه فتوفِّي، وكتَمَ أصحابُه وفاتَه، وكان عُمُرُ الـمَهْديِّ نحوًا من خمسينَ سنة. هكذا ذكَر ابنُ القَطّان رحمه الله[1].

وفي سنة خمس وعشرينَ وخمس مئة: ورَدَ كتابُ عليِّ بن يوسُف على الأمير أبي محمد عبد الله بن أبي بكر بولاية قُرطُبة، فلمّا استقرَّ بها أمَرَ بالنّظر في المِيرة إلى أرنيه[2] وقد انتَدَبت النّصرانيةُ لهذا الحِصن خَيْلًا ورَجْلًا وأحدَقَت به لتمنَعَ وصُولَ المِيرة إليه وقد نفَذَت الأموالُ عليه وطَمِعوا به لكونِه شَجًى في حلوقِهم وقَذًى في عينِهم، فاستمدَّ الأميرُ عبدُ الله الأميرَ تاشفينَ من غَرْناطةَ فأمَدَّه بنفسِه، واجتَمع بهما في سَمْت مُرْسِيَة واليها ورئيسُها يحيى بنُ عليّ ابن غانِية، وتَسامَعَت الرّومُ بذلك، فأرسَلت أمدادَها من البلاد النازِحة والأقطار الشاسعة، فأحدَقَت بالحِصن، وأمدَّ المِيرةَ، فحال بينَ اتّصال الروم، وأمَرَ الأميرُ تاشْفين يحيى بنَ عليّ ابن غانِية بأخْذِ مَخاضَة النّهر على مَن بتلك الضّفة من الـمَدَد، فلمّا رأى الرومُ ذلك استمرُّوا إلى سَفْح الجبل فقَلّ الطَّمعُ فيهم، وأمَرَ الأميرُ تاشْفينُ بضَرْب المحلّة، فلمّا حَلّ بالمغرب صَدَر الناسُ إلى الأخبِية وترَكَ يحيى ابنُ غانِية الـمَخاضةَ التي وقَفَ عليها، فبادَرَ الرومُ الخَوْضَ منها رَجْلًا وخيلًا... فأخَذهم الطَّعنُ في النّهر، وذَهب المسلمونَ أكثرُهم غرَقًا وطَعْنًا وفي... أمَدَّ الأميرُ تاشْفينُ الحصنَ بالرُّماة والرّجلة وصَدَر... أظهَرَ اللهُ المسلمين... وأخَذ تاشْفينُ في... من هناك الـمَرِيّة، ثم وصَل غَرْناطةَ في ربيع الأول سنةَ ستٍّ وعشرينَ وخمس مئة.

وفي هذه السنة، أعني سنةَ خمس وعشرين: توفِّي بمدينة قُرطُبة أبو العلاء زُهر بن عبد المِلك بن زُهر رحمه الله.

ولم يزَلْ أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف يُوالي الحروبَ من قِبَلِه على الموحِّدين ويَأمُرُ عساكرَه بمُلازمةِ السُّكنى حيث بَقِيت لهمُ الطاعة من أهل الجبال... مطاولة الحَرْب والنِّزال، ووَجَّه إليهم أخاه إبراهيمَ الشهيرَ بابن تاغيشت، فانكسَرَت محلّته من غيرِ قتال،

---

(١) نظم الجمان لابن القطان ١٢٦ فما بعدها.

(٢) تقدم ذكرها، وهي «أرنيط».

فأخَذ الموحِّدونَ أخبيتَهم وأسلحتَهم وألويتَهم، فلمّا جَرَت هذه الكائنة وشاعَ ذكرُ هذه الهزيمة ببلاد الـمَصامِدة كثُرَ الوافدونَ إليهم، وقامت الفتنةُ بينَ قبائل الـمَصامِدة يقاتلُ الرجلُ أباه وأخاه في دارِه إذا تخلَّف عن اتّباع الـمَهْدي ويُكفِّرُ بعضُهم بعضًا، أمّا مَصامدةُ الجَبَل فاتّبعوه أجمعين، وأمّا مصامدةُ الفَحْص فقليل.

وفي سنة ستٍّ وعشرينَ وخمس مئة[1]: اتّصل الخبرُ بالأمير تاشْفين بن عليّ بن يوسُف أنّ العدوَّ خَرج من طُلَيطُلَةَ إلى جهة قُرطُبَة، فاستمدَّ الأمداد واستعَدَّ غايةَ الاستعداد، وخَرج إلى الجهاد، فدارت الحربُ على الرّوم، وأخَذ السّيفُ مأخَذَه منهم، وقُبِض على قائدِهم وعلى عشرينَ من زُعمائهم، وامتَلأت أيدي المسلمينَ من أسلحتِهم وزِيِّهم ودوابِّهم. فأمَرَ الأميرُ تاشفين بثِقافِ الأسرى والغنائم، ونَهَض بهم إلى قلعة رَباح لقُربِها من المعتَرك، فألفَى أحوالَهم مختلّة، وأمورَهم معتلّة، فأصلَح ما فَسَد، وسدَّ ما اختَلّ، وترَكَ الأسرى عندَهم ليُفادوا بها مَن في دار الحرب من أسراهم، وصَدَر إلى غَرْناطةَ ظاهرًا وظافرًا، فأنشَدَه الشّعراء، فمِن ذلك ما قيل فيه من قصيدة [من الخفيف]:

ركبتْ رَدْعَها جيوشُ الضلالِ ... وسَرَتْ من رماحِها بذُبالِ
مُلقياتٍ دروعَها لا لوقتٍ ... فيه تقض... الجلود وغشى الصلالِ
حثّ في إثْرِها الأميرُ بعُقْبا ... نِ جِيادٍ هوَتْ بأُسْد رجالِ

ومنها:

أنت يا تاشَفينُ والله واقٍ ... لكَ نفسُ العُلى وشخصُ الكمالِ
ليس آمالُ مَن على الأرضِ إلّا ... أن تُرى أنت غايةَ الأعمالِ
وهنيئًا بأنْ نهَضْتَ وأقبلـ ... ـتَ حميدَ النّهوض والإقبالِ

ومنها:

رُبَّ أشياءَ ليس يُبلَغُ منها ... كُنْهُ ما في النفوس بالأقوالِ
غيرَ أنّ الكلامَ أنْ جَلَّ قَدْرًا ... ... وعاينت فوقَه بالفِعالِ

---

(١) خبر هذه الغزوة في الإحاطة ١/ ٤٥٢.

وفي هذه السنة: خاطَب الأميرُ تاشفينُ رذْريقَ صاحبَ طُليطُلة أخزاه الله، وكان معروفًا عندَهم بالماء الحدة فوَلّاه... السُّلَيْطينُ[1] بنُ رُدمير حفيدُ أذْفُونْش ملكِ قَشتالة... من الأمير تاشفين... ونَظَر من خلال ذلك في... بها إلى أنِ استبشَرَ أهلُها بقدوم تاشفينَ عليها، فقَويت أنفُسُهم برؤيتِه وتأنَّسوا به وانضَمَّ إلى جيشِه بقيّةُ جيشِها، وتألَّف إليه عددٌ جَمّ من مُطَّوِّعتِهم وأذمّاء أهل باديتِها، فأخَذ بهم في أثَرِ العدوِّ حتى يسيرَ من لحَاقِه لحلولِه ببلاده فكَرَّ راجعًا إلى قُرطُبة.

وفي هذه السنة: انضافَت ولايةُ قُرطُبَةَ إلى تاشفين، وكتَبَ له بذلك ابنُ أبي الخِصال عن أبيه:

من أمير المسلمين وناصِر الدِّين عليِّ بن يوسُف بن تاشفين، أعزَّه اللهُ بتقواه، وأمَدَّه بتوفيقِه وهُداه، كتابُنا، كتَبَ اللهُ لك معانيَ ومَبانيَ الخيرات، ومهَّد لك مَراقي الأعمال الصّالحات، من مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى، لعشَرة بقِينَ من رَجَب الفَرْد سنةَ ستٍّ وعشرينَ وخمس مئة، وقد رأينا واللهَ نسألُه الخِيَرة فيما نُرتِّبُه والتوفيقَ في كلِّ ما نصنَعُه، أن نجمَعَ لك قُرطُبَة وأعمالَها إلى ذلك العمل الذي أنت فيه. فإذا وقَفْتَ على كتابِنا هذا، فانهَضْ بنفسِك على بركة الله إلى هناك. واجعَلْ قُرطُبَةَ دارَ سُكناك وقرارةَ مَثْواك. وعلى مقدارِ ما زِدناك من العمَل فازدَدْ من التيقُّظ لاتّساع ذَرْعِك وامتداد مَسْعاك. واستعنْ بالله في إعلانِك وإسرارِك. وخُذْ من أوقاتِ ليلِك لأوقات نهارِك، واجعَلْ لنظَرِك حظًّا من سَهَرِك ولفِكرِك مستمنَحًا من تدبُّرِك، واستظهِرْ بحُسن الـمَشُورة في مَواطن الاشتباه، فإنّ اللهَ سبحانه يقول لرسُوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. واستَخْلِفْ على غَرْناطة عندَ انفصالِك عنها أبا محمد الزُّبيرَ بن عُمر، أعزّه الله بتقواه، وألزِمْه منَ استشعارِك مراقبةَ الله تعالى من الذي نُلزِمُك إياه، واعهَدْ إليه بشاكِلة ما نعهَدُ إليك والمستعانُ الله لا ربَّ سواه.

ومنها: وأولُ ما نوصيكَ به تقوى الله، فاجعَلْها بُردةَ شعارك وعُقدة إضمارِك، وعُهدةَ إيرادِك وإصدارِك، ثم اعتمد الـمَعْدَلة في عباد الله، فإنّما أنت واحدٌ منهم وكلُّنا

---

(١) السليطين: تصغير السلطان، وهو المعروف عندهم Emperador، وهو ابن أراكة بنت ألفونسو السادس، فهو ألفونسو السابع الذي حكم بين ٥٢٠ و٥٣١هـ.

عبيدُ الله إلى تراب انتسابِنا وإلى الحساب مآبِنا، والناسُ كلُّهم سَواءٌ في أولِ النّشأة والحال، وإنّما يتميَّزونَ بالمساعي والأعمال، فهي التي رَفَع اللهُ منها بعضَهم فوق بعضٍ درجات... على مجازاة المحسن بإحسانِه والـمُسيء بإساءتِه بحُكم باتّ، وحُقَّ على مَن آتاه الله حظًّا من ولاية لأدائه وقلّده قسطًا من وقاية عبادِه، أن يقومَ بينَهم بالقِسط كما أمَرَه الله ويخشَى يومًا حُقّ لمن يوصي، اليوم الآخِر أن يخشاه، وإنّ مِن عَزْم الأمور وحزامة التدبير أن يلحظَوا بعَيْن الكلاءة... بكلِّ سُوءٍ ومساءة واللهُ المستعان وعليه التُّكلان لا ربَّ غيرُه.

وفي سنة سبع وعشرينَ وخمس مئة: وصَل العدوُّ دمَّره الله إلى حَوْمة مدينة شَرِيش والبحيرة، ولم يلقَه أحد من المسلمين وصَدَر إلى بلاده، هكذا ذكر ابنُ حماده[1].

وفي سنة ثمانٍ وعشرين: غَزا تاشفينُ بن عليٍّ بن يوسُف الرُّومَ وهزَمَهم وأخَذ الأسرى من...، وذلك أنه اتّصل بالأمير تاشفينَ أنّ عُظماءَ الروم وزعماءَهم تألّف لهم جيش... يحتوي على الآلاف من زُعمائهم ومشهوري أبطالِـهم، وقَصَدوا ناحيةَ بَطَلْيَوْس وباجةَ ويابُرةَ وما بذلك الصُّقع من بلاد الإسلام، فشَنُّوا الغارةَ عليها واستحوَذوا جميعَ ما ألْفَوْا بها، وانتهَوا إلى مواضعَ كانت لا تُروَّعُ بعدو، لبُعدِها ومنَعتها وتعذُّر الوصُول إليها، فجاسُوا خلالَها ودوَّخوا أرضَها واختَرقوا طولَها وعرضَها، فاجتَمع من المسلمين ضِعفُ شيعة العدوّ الـمُجحِف بإشبيلِيَة، وانثنَوا على مَهْل لِثقْل السِّيقة وثقتِهم ببُعد الصّارخ منهم، فثَنى الأميرُ تاشفينُ الأعِنّة وأمَرَ الأدِلةَ أن يتجشَّموا به كلَّ ذَرْوة وثَنِيّة، رجاءً في لَحاقِهم، فأفضَى الإغذاذُ به إلى فدّانٍ بقُرب زَلّاقة موضع المعترَك الذي أوقع فيه جَدُّه بالطاغية أذفُونْش بن فرذلند أخزاه الله، ولم يكنْ إلّا كلا ولا حتّى أقبلَت الطلائعُ مُنذِرةً بهم، فلمّا تَراءى الجَمْعان اضطَربتِ المحَلّتان وترتَّبت المواكب، فأخَذت مصافَّها،

---

(١) أرّخ ابن القطان لهذه الغزوة في سنة ٥٢٧هـ أيضًا، وقال بأن السليطين صاحب قشتالة وابن هود قد اشتركا فيها. (نظم الجمان ٢٠٠). على أن الأستاذ محمود مكي أشار في تعليق له إلى أن المراجع المسيحية والمراجع العربية الأخرى غير ابن القطان لم تذكر اشتراك ألفونسو السابع بنفسه في تلك الغزوة. (ينظر تعليقه على نظم الجمان).

ولزمت الرّجالُ مراكزَها، فكان في القلبِ معَ الأمير تاشفينَ وجوهُ الـمُرابِطين وأصحاب الطاعات، وعليه البنودُ البِيض الباسِقاتُ مكتَّبةً بالآيات، وفي الجانبَيْنِ كُفاةُ الدّولة وحُماة الدّعوة، من أبطال الأندَلس عليهم الرايات بالصُّور الهائلات، وفي الجناحَيْن من أهل الثّغر وذَوي الجَلادة والصّبر، وفي المقدِّمة مشاهيرُ زَناتة ولفيفُ الحَشَم أهل العزائم الماضية والبصائر الثابتة بالرايات المصنَّفة والأعلام الـمُنيفة، فأنقَذَ الأسرى من أيدي الطاغية، وأخَذ الغنيمةَ وقتَل جُملةً كبيرة، وصَدَر إلى قُرطُبة ثم إلى غَرْناطة، وذلك في جُمادى الأولى من سنة ثمانٍ وعشرين، فأنشَده الشعراءُ مهنِّئةً بقدومِه من غزوِه ووصَفَت هزيمتَه للروم، فمن ذلك من قصيدة طويلة، نُبذةٌ اقتصرتُ عليها [من الكامل]:

أمّـا وبـيضُ الهنـدِ عنـك خـصومُ ... فـالرومُ تبـذُل مـا ظُبـاك تَـرومُ
تمـضي سـيوفُك في العِـدى ويرُدُّهـا ... عن نفسِه حيث الكلامُ رحيمُ(١)
دارٌ جعلـتَ بيوتَهـا قُطبًـا لهـا ... أبـدًا عـلى قِمـم الملـوكِ تحـومُ
وكـأنّما الفُرسـانُ قـد عرِقـت بهـا ... فطَفَـت وغاصَـت أرؤسٌ وجسومُ
جاسَـتْ خـلال ديـارِهمْ وحُماتُهـا ... في كـلِّ واد بـالفرارِ تَهـيمُ
لله يـا يـومَ العروبـة إنـه ... يـومٌ عـلى الـدِّين الكـريم كـريمُ
فـتحٌ عظـيمُ القَـدْر يُمـنٌ بِـشرُهُ ... فـتحٌ يقِـلُّ لقـدره التعظـيمُ
يـستفتح البلـدان سَـعْدُك طالعًـا ... مـن بعـدِ إقلـيم عنـا إقلـيمُ
خـضَعت ملـوكُ الـروم في بلـدانِها ... لأغـرَّ قـام بتاجِـه التعمـيمُ
... الكتائـب بعـدَ سـيرٍ والتـي ... فَنِيـت بـصارم تاشَـفينَ الـرّومُ
هـذي سـماءُ الـمُلك الجمـه ... . النفـاق ......
وأنت أميرَ المسلمين ....

(١) هكذا في الأصل، وفي الإحاطة ١/ ٤٥٣: «وخيمُ». وقد اقتصر ابن الخطيب من القصيدة على هذين البيتين.

وفي هذا الشِّعر طولُ اقتصرتُ منه على هذا، وقد ورَدَ في كتابِ «الإنباء في سياسة الرؤساء»، وإنما هذه نُبَذٌ مقتصَرٌ عليها.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ثمان وعشرين: أَغْزَى تاشَفينُ الرّوم، وهي غزوةُ البَكار[1]، كانت على المسلمينَ، قال أبو بكر يحيى بنُ محمد الأنصاري: خَرج الأميرُ تاشفينُ في إثْر عيد النّحر بجيش غَرْناطةَ وقُرطُبة ولَفيف من المجاهدين خَيْلًا ورَجْلًا ليَقطعَ بالعدوِّ المغزوِّ وقد اكتَسح ما بتلك الجهة، وأوعَزَ تاشفينُ إلى أبي يعقوبَ يَنْتان بن عليّ فخَرج بجيش تلك الجهة، أعني إشبيلِيَة، فاجتَمع به بفَحْص الرَّيحانة في شهر ذي الحجة، فنَهضَت الحَمْلتانِ إلى موضع يُعرَفُ بالبكار طريقَ العدوِّ التي لا محيصَ له عنها، فلمّا اشتَدّوا في طلبه تمكَّن العدوُّ من رؤيتهم، واستشعَر أنّ الأميرَ تاشفينَ في طلبِه، فخامَرَهم الجزَع، فصَدَر المسلمونَ إلى البكار، فاضْطَرَبت المحَلّة وانبثّت الأدِلّة، ولـمّا تحقَّق العدوُّ صَدَرَ الأميرُ تاشَفين إلى البكار حَملوا الحملةَ في انتهاز الفُرصة فانتَدب مِن أنجادِهم ألفانِ وأردَفوا عددَهم من الرّجلة وصمَدوا صَمْدَ المحَلّة، وقد تهوَّر اللّيل وضيّع الحَزْم، فاقتَحموها من فُرَج كثيرة فثار الصِّياحُ وعَلا الصَّهيل واختَلَطت الأصواتُ ونَفَرت الدّوابّ وقطَعت مَقاودَها وقيودَها فوَقَعت على الأخبِية فوقَع النّهب، وفَرّ الناسُ وتُسلِّمت المحَلّة وقصَد العدوُّ مضرِبَ خباءِ الأمير تاشَفين وقد قرّب فرسَه لينجوَ عليه، فانتَهز ناصيتَه ونَجا من حظِّه وقال: لا أَسْلَم وأُسلِّمُ الأُمّة ولا أبرَحُ أو تُنجليَ عمّا انجَلَت عليه هذه الكَرّة، فأحدَقَ به رجالٌ من أهل الأندَلس وأفذاذٌ من الـمُرابِطين، لم يلتئم الجمعُ أربعينَ، فاعتَرضوا بينَه وبينَ الروم فوقَع الضّرب واشتدّت الحرب وعَظُم الخَطْب، والأميرُ تاشَفينُ في دِرعِه متّشحًا بسيفِه، ودُرقتُه بيدِه، يشُدُّ حملتَه، ويُبدي صفحتَه، فلم يُرَ أربطُ جأشًا ولا أشهمُ نَفْسًا ولا تحدِّث عن أحد قبلَه بما ظَهَر منه في مطلع ذلك الهول، وتَفاقَم الأمر وقد هُتِكت خِباؤه بالطّعن، وجُذّت أواخيها بالضّربِ فعانَقَت الأرض، وبأَخرةٍ طَعَن أحدُ العبيد قومِسَ الرّوم فأخرَج

---

(1) Albacar، شمال قرطبة، إذ لا يبعد عنها سوى ٢٠كم، وهو قائم إلى يوم الناس هذا بالاسم نفسه. (نظم الجمان ٢١٥).

الرُّمحَ من وراءِ ظهرِه؛ فكانت الـمُحاجَزة، وانصَدع الفجرُ فانجَلَت الظُّلمةُ والحربُ على أفذاذٍ قتلى وأعدادٍ جَرحى... مبطوحة ودماءٍ مسفوحة، ولولا قَدَرُ الله السابق بثبوت الأمير الأجلّ تاشَفين لحَلّت الفضيحة، والآزِفةُ التي ليست لها كاذبة. ورجَع العدوُّ في أُخْرَيات اللّيل إلى مضرِب محلّته، فأقام إلى الضُّحى معَ أخْذِ آل بلدِه وركِبَ الأميرُ تاشَفين في الصُّبح إلى قشرش[1]... طبله، وكرَّ إلى حصن قشرشَ بالمحَلّة، ثم رحَل صَدَرًا إلى قُرطُبة.

ولـمّا استقرَّ الأمير تاشَفين بقُرطُبة أنشَده الشّعراءُ، فقال الفقيهُ أبو بكر يحيى بن يوسُف الأنصاري من قصيدة طويلة يمدَحُه ويُعظِّمُه ويذكُرُ بلاءه في الحروب وفعلَه بما يَجني في ذلك [من الرجز]:

.... كـم يبكـي الـهُمامُ الأروعُ

وأخَذوا كلَّ طريق. ولـمّا سكَنت الثائرة عاد إلى إقامة رَسْمِه، والتزام حُكمِه، وجاء رجُلٌ يَستعديه، ويَذكُرُ موضعًا سُلِب فيه، فقال له: وأنا أيضًا سُلِبت أنا وذَهب مالي ومالُك... وصار أيدي سَبأ.

قال أبو بكر يحيى بنُ محمد الأنصاريّ: وفي هذه السنة: خَرج يحيى بن عليٍّ ابن غانِية عاملُ بَلَنْسِية ومُرْسِيَة إلى حماية الزّرع بالثَّغر وبثِّ الطلائع أثناءَ ذلك، فانتَهى إليه تقدُّم عسكر العدوّ يَرومُ الضّربَ على بلادِ الإسلام، فأخَذ في أثَرِهم حتى لحِقَهم، فاستأصَلَهم اللهُ واستنقذَ الأسرى وصَرف السِّيقة.

وفي هذه السنة: هلَكَ الطاغيةُ أذْفُونْش، ولـمّا هلَكَ أخزاه الله أفضَت القومسةُ إلى رُدميرَ أخيه باجتماع الرّوم عليه بعدَ أمور مشتَّتة وشؤون مضْطَرِبة، فأقرَّ كلَّ عامل على عملِه ببلاد شرق الأندَلس من بلادِه، وانصَرف إلى قَشتالة حضرةِ مُلكِهم عجَّل اللهُ بهُلْكِهم، فاتّفقت الـمُوادعة في حين ذلك بينَ أبي بكر يحيى بن عليّ ابن غانِية عامل بَلَنْسِية ومُرْسِية وبينَ رُدميرَ بن رُدْمير لعنهما الله، إلى انقضاء عام ثلاثينَ الآتي بعدَ هذه السنة المؤرَّخة.

---

(١) في نظم الجمان ٢١٦: «قصرش»، وهي Caceres.

وبعدَ ذلك قطَع أهلُ أرغُون برِفقةٍ خَرَجت من افراغُه ناهضةً إلى وَشْقة، فبادَرَ صاحبُ افراغُه سعدُ بن مُرْدنيش إعلامَ رُدمير، فأحضَر الملأَ من القسِّيسينَ والرُّهبان وزعماءِ الروم وقال لهم: ما منزلةُ آبائي ومَن درَج من أجدادي عندَكم وما تعتقدونَه في أنفسِكم؟ قالوا: على سواء، واجتماعُ ملوكٍ وأبناءِ ملوك، لهم السمعُ والطاعة وعندَهم العزّةُ والقوّة على قَدَم الدّهر كابرًا عن كابر وأورَثه الأولُ للآخِر. قال: فأين أنا منهم؟ قالوا: أنت أحدُهم والـمُفضي إليه مُلكُهم وشأنُك شأنُهم ومكانُك مكانُهم. قال: فما جزاءُ مَن حلَّ أمرًا أبرَمتُه، وفَسَخ ما كنتُ أحكمتُه، وهم: فلانٌ وفلان؟ وعدّ سبعةً من عظمائهم وزُعمائهم، قالوا: حُكمُك ولا اعتراضَ عليك، فأمَرَ أولئك إحضارَ سَلَب الرُّفقة، فلمّا كمُل أمَرَ بضربِ أعناقِهم وصَرَف ذلك السَّلَب إلى أربابِهم.

وفي هذه السنة: تيمَّم فاسَ القاضي ابنُ الملجوم، كتَبَ أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف إلى أهل مدينة فاس يُنبئُهم بذمِّ قاضيهم ابن الملجوم وعَزْلِه عنهم.

فصولٌ منه(١): أبقاكم الله وأكرَمَكم بتقواه ويسَّركم لما يَرضاه، وقد أُنهي إلينا وتحقَّق لدينا أنّ الجهُولَ ابنَ الملجوم، أجهلُ بأحكام القضاءِ من الملجوم. وأنه أظهرَ فيكم أحكامًا يُترحَّمُ من مثلِها على سَدوم، فقد ولَّيناه خُطّة الـمَلُوم. ونبَذْناه بالعراءِ وهُو مذموم. وجعَلْنا شُهُب العُزلة لشياطينِه كالرُّجوم. ولعل متعسِّفًا يتعسَّف أو متكلِّفًا يتكلَّف... يَلومُنا في تقديمِه وينالُنا من العَتْب بأليمِه ولا قَدْح... فقد اختار رسُولُ الله عليه السلام لوَحْي الله... لِعِينَ بني سَرْح، وقد اغترَّ عثمانُ بحُمْران... إلخ.

وفي هذه السنة: ولِـيَ قضاءَ إشبيليَة القاضي أبو بكر ابنُ العَرَبيّ رحمه الله، ووصَل كتابُ ولايتِه من مَرّاكُش إلى إشبيلِيَة عن عليِّ بن يوسُف رحمه اللهُ بتاريخ يوم الخميس منسَلَخ جُمادى الآخِرة سنة ثمانٍ وعشرينَ وخمس مئة.

---

(١) أورد السلفي في ترجمة أبي الخطاب عمر بن محمد بن يعمر المريّي هذه الرسالة في «معجم السفر» (ص٢٢٨ من ط. زمان) باختلاف لفظي، ولكنه ذكر أنها في مناسبة عزل أبي الحسن بن أضحى، لا ابن الملجوم.

وفي هذه السنة: خَرج العدوُّ ابنُ رُدمير بشرق الأندَلس فكَسَره جيشُ ابن غانِيَةَ صاحبِ مُرْسِية ولم يَسلَمْ منه إلّا بشَرٌ يسير، وصدَرَ ابنُ غانِيةَ ظافرًا بالغنائم، وأمّا الطاغيةُ فبقي أيامًا ومات من مَرَض أصابه.

وفي سنة تسع وعشرينَ وخمس مئة: قال أبو بكر يحيى بن محمد الأنصاريّ: وقُتل في هذه السنة قاضي قُرطُبة أحمدُ بن خَلَف التُّجِيبيُّ رحمه الله، أكبَّ رجلٌ عليه وهو في المسجد الجامع وهو في السَّجدة الأولى من ركعتَي الجُمُعة فضَرَبه بخِنجر فصَرَخ وقُطِعت الصّلاة وبُطِش بالضارب وحُزَّ رأسُه فرُفِع في عَصًا وشَهَر رجلٌ آخرُ سيفًا فقُتل به وأُلحِق بصاحبِه، وهَرَج الناسُ في الجامع لا يَعلَمُ أكثرُهم ما حدَث فيه، ثم انزعجوا إلى المقصورة فسُدَّت أبوابُها ومُنِعوا منها، وشَهَرَ الـمُرابطونَ أسلحتَهم وأخرَجوا أميرَهم تاشَفينَ على بابِ الساباط، وحُمل القاضي في نَعْش فقضَى عندَ العصر، والتَطَخت قُرطُبة بما لم يشتملْ عليه ديوان، ولا بَدَر في زمان، منَ اغتيال قاضٍ عَدْل فقيه خيِّر جامع لأعمال البِرّ، قُتل مظلومًا ساجدًا في صلاة الجُمُعة، وقد تقدَّم ما كان من تحذيرِ الوالي خَشيتَه على ابن رُشد، فكان الأمرُ الذي أصيبَ هذا به.

وثارت العامةُ أيضًا بقُرطُبة في هذه السنة في رجَب على اليهود لعَنَهم الله بسبب قَتْل وُجِد بين أظهُرِهم، ففُتحت منازلُهم وانتُهِبت أموالُهم وقُتل نفرٌ منهم.

وثارت السِّفلةُ أيضًا بإشبيلِيَة على قاضيهم أبي بكر ابن العَرَبي، وذلك أنه كان له في عِقاب الجُناة اختراعاتٌ مُهلِكاتٌ ومُضحِكات، فانتَدَب أنفُسًا جَمّة صَلْبًا وضربًا، وسيق إليه أحدُ الزَّمرةِ فأمر بضَرْب يدَيْه وثَقْب شِدْقَيْه فانبطَلَت الحِكمةُ عليه، وعثَر أعوانُه على حامل خمر لم تُنَمَّ عليه، فباغَتَه وتحفَّى بسؤاله وتلمَّس طريقًا يُخرجُه إلى ثقاتِه، فطَمَس ذلك الرجُلَ وأبهَم الأمر، وقال: عندي خادمٌ روميّة... والخمرُ قِوامُ شرعِها، فابتعتُها وحملتُه لها، ثم عثَر عليَّ هؤلاء، فأطرَقَ ابنُ العَرَبيّ وقال: «لعَنَ اللهُ بائعَها ومُبتاعَها وعاصِرَها وحاملَها»،... اللعنُ عليها. فأمَرَ بلعنِه وعَرْضِه على الحامل ثم خلَّى سبيلَه، فانطلق عليه اللّعنُ في كلِّ مكان ومن كلِّ إنسان ولا... ذلك أمرٌ من العقاب وأشدّ من العذاب، فلمّا طال على الرجُل الأمر انتَقل عن البلد، وظَلّ ابنُ العَرَبيّ يُوالي التشدُّد والتسلُّط حتى ثَقُل على الفُسّاق والأشرارِ فهاجوا.

... عبد المؤمن بخليفتِه، وتحرَّكَ عبدُ المؤمن لتاوررتَ فدَخلَها واستَولَى على بلاد السُّوس كلِّها وقَتل مَن لم يَتْبَعْه من أهلِها وهزَم قائدَها عليَّ بنَ يوسُفَ وعسكرَه وحصَل بعسكرِه في تيونوين. هكذا ذَكَر ابنُ القَطّان[1].

وفي هذه السنة: هلَكَ الطاغيةُ أذْفُونْش أخزاه اللهُ تعالى.

وفي سنة ثلاثينَ وخمس مئة[2]: أغْزَى تاشَفينُ بنُ عليّ بن يوسُف الرُّومَ في شعبانَ المكرَّم بعدَما استَحضَر زعماءَ الـمُرابِطين ونَظَر ما عندَهم في لقاءِ عدوِّهم قالوا: الدّولةُ لنا فإمّا ترْكُها أو حمايتُها لا يتقدَّمنا أحدٌ إلى لقاء عدوِّنا، فإذِ استُشهِدنا فالأمرُ لـمَن شاء اللهُ بعدَنا، ثم دَعَا العربَ فقالوا: ارْمِ العدوَّ بنا ولا تُشرِكْ أحدًا معَنا، وسيَرى اللهُ عملَنا. ثم استَدعى زَناتةَ والحشَم فقالوا: لا جوابَ إلا الفعل، وشَرْطُنا أن تَعُولَ أيتامَنا، فجَزَى كلًّا خيرًا وأجابَهم بما أطاب أنفسَهم وقوّى عَزْمَهم. وكرَّ إلى الأمير تاشَفين مَن أعلَمَه أنّ الرومَ مالت إلى التحصُّن في جبل القَصْر، فأخَذ إلى الجبل، فتعلَّقت الخيلُ به تُرهِقُه وتُصيبُ منه، وقد شَرع القتلَ في الروم، فهالَهم الأمر وتردَّوْا أخذًا في غير طريق، وأخَذ الرّومَ الضّربُ إلى عدّة أميال، فأتَى على جُلِّهم القَتْل وأفلَتَ النَّزرُ وامتَلأت أيدي المسلمين من دوابِّهم وأسلحتِهم، وفُكَّت أغلالُ الأُسارى وصُرِفت الأغنام إلى البلاد النازِحة والأقطارِ الشّاسعة، وكاد هذا يُرْبِي على ما تقدَّم من نُظرائه لاستئصالِ هذه الشّوكة المؤلَّفة والحيّة القاتلة، وصدَر تاشَفينُ إلى قُرطُبة وقد صنَع اللهُ له كأفضلِ ما عوَّده.

وأقبَلَ عيدُ الفطر، فأنشدَتْه الشّعراء، فقال الفقيهُ أبو بكر يحيى بنُ محمد بن يوسُف من قصيدةٍ طويلة [من البسيط]:

عرَفتُ والليلُ مُزوَرٌّ على الأُفُقِ ... خَفيَّ مَسْراكِ في الظَّلْماءِ والغَسَقِ
يا بانةً كلّما افترَّ الصّباحُ لنا ... ألقى النّسيمُ عليها نفَسَ مُعتبِقِ

ومنها:

لا تعدِلنْ تاشَفينَ... ملكًا ... طِعانُه وعطاياه على نَسَقِ

---

(1) نظم الجمان ٢١٠.

(2) تنظر الحلل الموشية ١٠١.

ومنها:

يا أكرمَ الناس عفوًا عندَ مقدرةٍ وأجمَلَ الناس في خَلْق وفي خُلُقِ
قد نافَسَ العيدُ أعيادًا لك اطّردت على الفتوح اطّرادَ الخيل في الطَّلَقِ
فاهنَأْ بعيدِك من أعيادِ ذي ظَفَرٍ له نظائرُ تأتي بعدُ في نَسَقِ
لا زال مُلكُك يعلو كعبُهُ أبدًا هامَ الملوك كما تعلو على السُّوَقِ

وكانت في هذه السنة أحداثٌ أعرَضْنا عنها لئلّا يطولَ الكتابُ بها.

وفي هذه السنة: أغْزَى الرّومَ سعدُ بن مُرْدنيش صاحبُ افراغه وابنُ غانِيةَ صاحبُ بَلَنْسِية ومُرْسِيَة، وذلك أنه أحسَّ بنفادِ القُوت في مِكْناسة أحدِ حصون شرق الأندَلس، استَدعى مِن طَرْطُوشة ولارِدةَ والحصون المجاورة لهم، فنازَلَ مِكْناسةَ وصار بذلك إلى يحيى بن عليٍّ بن غانِية، ونَظَر رومُ سَرَقُسطة في توصيل المِيرة إلى مِكْناسة، فلمّا شارَفُوها دبَّ الرُّعب في قلوبهم فتَركوا المِيرةَ وفَرّوا بأنفسِهم، ولحِقَ أبو زكريّا يحيى بنُ عليّ ابن غانِيةَ ففرَّق مَن بمِكْناسة وتشَوَّف صاحبُها لنبهته وحماية الأمان فنزَل عنها، فوَفَى لهم أبو زكريّا وأصحَبَهم شيعةً إلى مأمنِهم، وانتقَل من فَوْرِه إلى تلك الحصُون المجاورة لِمكْناسة فافتَتَحها بفعل أهلِ مِكناسة وانقَضَت غَزْوتُه بفتح عدّة حصُون منيعةِ المعاقل.

وفي سنة إحدى وثلاثين: أخَذ الأميرُ تاشَفين في الحركة عن الأندَلس إلى حضرة أبيه، وذلك بعدَما ما وصَلَه خطابُ والده مستأذِنًا له في تجديد العَهْد به، وكان عليُّ بن يوسُف اعتَلَّ في السنة الفارِطة وارتبَك في مرَضِه حتى أُرجِف به فساءت الظُّنون وتمكَّن الجَزَعُ ببلاد الأندَلس، فلمّا وصَلَه الخطابُ المذكور تلقَّى ذلك بالقَبول ونَزَع في القُفول إلى مَرّاكُش، فكان من أمرِه ما يُذكَر في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى؛ هكذا ذكَر أبو بكر بن محمد. وقال ابنُ حماده: أغْزَى تاشَفينُ الرومَ في ربيع من عام أحد وثلاثين، وفتَح حصُونًا للروم.

وفي سنة اثنتينِ وثلاثينَ وخمس مئة، قال ابنُ حماده: كان السَّيلُ العظيم بطَنْجة، حَمَلَ الدّيارَ والجُدُر، ومات فيه خَلْقٌ عظيمٌ من الناس والدّوابّ.

وفي سنة ثلاث وثلاثينَ وخمس مئة: اجتَمع عسكرُ الـمُرابِطين معَ أميرهم تاشَفين بن عليٍّ معَ عسكرِ عبد المؤمن بن عليّ ببلد منانةَ بموضع بني مَلُول، فكانت بينَهم محاربةٌ عظيمة شهرًا كاملًا وثلاثةَ أيام انجَلَت عن هزيمةِ تاشَفين فاتَّبعه عبدُ المؤمن إلى ايمى تانورت وأخَذ عبدُ المؤمن بلادَ منانة، وكان تاشَفينُ قد أرسَل إلى جُزولةَ ليُغيثوه، فلمّا وصَلوا إليه وجَدوا الهزيمةَ عليه فضَرَبت جُزولةُ على آخِر عسكرِ عبد المؤمن طَمَعًا أن تكونَ له، فكرَّت عليهم عساكرُ عبد المؤمن فقتَلت جُزولةَ عن آخِرهم وأُخِذ دوابُّهم وأسلحتُهم، وكانوا آلافًا من الفُرسان والرَّجالة، ولم يبقَ منهم إلا الأقل[(١)].

ذكرُ وفاة سَيْر

وفي هذه السنة: توفِّي الأميرُ أبو محمد سَيْرٌ ابن أمير المسلمينَ عليِّ بن يوسُف وليُّ عهد أبيه. وقد تقدَّم القولُ في ولاية تاشَفين الأندَلسَ أنه لـمّا شاع ذكرُه فيها كبُر ذلك على أخيه سَيْر فتسبَّب في عُزْلَتِه عنها، فوصَل تاشَفينُ مَرّاكُش وصار يتصرَّفُ بأمر أخيه ويقفُ على بابِه كأحدِ حُجّابِه. وكان سَيْرٌ يركَنُ للراحة ويَصطحبُ أهلَ الفُكاهة، فاقتَحم ليلًا على أخيه عُمرَ[(٢)] في دارِه فضَرَبه وقضَى عليه فمات رحمه الله، وقيل غيرُ هذا، واللهُ أعلمُ بذلك.

وذَكَروا أنّ والدةَ سَيْر هي التي غارت بأخيه تاشَفين لئلّا يَكبُر على ابنِها ويتملَّك في بلاد الأندَلس، فكانت سببَ عَزْلِته ووصُولِه.

قال الورّاق في «المقباس»: فكان الذي خافَت... من تاشَفين... ولـمّا مات سَيْرُ ابن عليّ فاوَضَت أُمُّه قمرُ أباه فيمَن يُولِّيه عهدَه دون تاشَفين، فقالت له: ابنُكَ إسحاق، وكانت أُمُّه قد ماتت وتركَتْه صغيرًا فرَبَّته قمرُ أُمُّ سَيْر، فكان لها كابنها، فقال عليُّ بن يوسُف: هو صغيرُ السِّن لم يبلُغِ الحُلُم ولكنّي أجمعُ الناسَ في المسجد الجامع من أهل مَرّاكُش خاصّةً وعامّة وأُخبرُهم في ذلك. فإنْ صَرَفوا الخيارَ إليَّ فعَلْتُ ما أشرتِ إليه.

---

(١) نظم الجمان ٢٤١.

(٢) كانت في الأصل: تاشفين، وقد أصلحه العلّامة إحسان عباس يرحمه الله وقال: «وهو خطأ واضح، وقد صرّح ابن القطان بالحادثة على نحو أوضح فقال: ودخل متسوّرًا على أخيه عمر يريد زوجته، فجرح جراحة عجّلت منيّته». (نظم الجمان ٢٤٥).

ذكرُ ولاية العَهْد لتاشَفين ابن أميرِ المسلمينَ
عليِّ بن يوسُف بن تاشَفين

ولـمّا مات سَيْرُ بن عليّ وليُّ عهد أبيه، طلَبَ أشياخُ الـمُرابِطين من عليِّ بن يوسُف في أن يُولِّي وليَّ عهد، فقال لهم: اجتمِعوا واختاروا لأنفسِكم واتّفقوا على مَن ترضَوْنه، وقَصَد بذلك التوثيقَ في أمر تاشَفين، فلمّا اجتَمع الناسُ في المسجد الجامع الكبير بالسَّقّاية بمَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى خاصّةً وعامّة، وتشاوَروا في مَن يختارونَ ومَن عليه يجتمعون، فقالوا كلُّهم بصوت واحد: تاشَفين. تاشَفين، فلم تُعطِ السّياسةُ لأبيه مخالفتَهم فيه، فعَقَد له الولايَة بعهدِه، ونقَشَ اسمَه في الدّنانير والدّراهم معَ اسمِه، وقلَّده النظَرَ في الأمور السُّلطانية فاستقَلّ بذلك، وكتَبَ إلى العُدوة والأندَلس وبلاد المغرب في بيعتِه فبايَعوه، ووصَلت البَيْعات من كلِّ الجهات مؤرَّخةً برجَبِ الفَرد عامَ ثلاثة وثلاثينَ وخمس مئة.

وفي سنة أربع وثلاثينَ وخمس مئة: خَرج تاشَفينُ بعسكرٍ كبير من لمتُونةَ والحشَم وزَناتة لقتالِ الموحِّدين ومعَه جمعٌ من النّصارى معَ قائدهم الربرتير[1]، فبقي يُحاربُهم نحوَ شهرَيْن ثم رجَع إلى مَرّاكُش ورجَع الموحِّدونَ إلى تينمَل وانجلَت الحربُ على قَتْلى من الفريقَيْن، وقال ابن حماده: يومَ الأربعاء لثمان خلَوْنَ من شوّال التقَى تاشَفينُ معَ الموحِّدين وقُتل له خَلْقٌ كثير وحينَئذٍ رجَع إلى مَرّاكُش.

وفي سنة خمس وثلاثينَ وخمس مئة: خَرج جيشُ اللَّمتُونيِّين من مَرّاكُش معَ الحشَم والرُّوم فالتقَى معَ الموحِّدين بجبَل جذميرةَ فهزَمَهم واتّبعهم حتى وصَل فَجَّ طرودنتَ، فالتقَى الجَمْعانِ وتحارب الفريقان، فكانت للموحِّدينَ على اللَّمتُونيِّين، ورجَعوا إلى مَرّاكُش خاسِرين وقائدُ الروم اللّعين مجروحٌ، ورجَع الموحِّدونَ مع عبد المؤمن إلى تينمَل. ثُم خَرج جيشُ اللَّمتُونيِّين معَ قائد الروم المذكور فالتقَى معَ الموحِّدين فحارَبَهم، ودخَل الموحِّدونَ إلى السُّوس فبنَوْا إسنجرو بالحَجَر والطِّين، ورجَع عنه جيشُ اللَّمتُونيِّين، وغَنِم الموحِّدون بعضَ بلاد السُّوس ورجَعوا إلى تينمَل.

---

(١) هو قائد الفرقة الرومية في جيش المرابطين.

وفي هذه السنة: انجَلى أهلُ المغرب انجلاءً عظيمًا إلى الأندلس، ذَكَر ذلك ابنُ حماده. وذَكروا أيضًا أنّ محاربةَ اللَّمتُونيِّين معَ الموحِّدين إنما كانت في سنة أربع وثلاثين.

وفيها: تحرَّكَ عبدُ المؤمن من بلاد الـمَصامِدة إلى الغرب، وطالت غَيْبتُه إلى سنة إحدى وأربعينَ على ما نَذكُر إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة ستٍّ وثلاثينَ وخمس مئة: قال ابن حماده: وصَل الموحِّدونَ إلى رِيف سَبْتة، ثم إلى تيطاونَ، ثم رجَعوا إلى غُمارة.

وفي هذه السنة: خَرج تاشَفينُ بعساكرِه لتتبُّع الموحِّدين.

قال البيذَقُ[1] وغيرُه: رحَل عبدُ المؤمن بن عليّ بن تينمَل برَسْم التوجُّه إلى بلاد الغرب سنةَ خمس وثلاثين، وقيل: في أواخر أربع، فما زال يرحَلُ من موضع إلى موضع والقومُ تَرِدُ عليه والقبائلُ من كلِّ جهة تَصلُ إليه إلى أن وصَل تاجررت بني وابوط، فصُرف الإمامُ... ابنُ زجو بجيش فغَنِم صفروي في منتصف محرَّم من سنة ستٍّ وثلاثين.

قال: **وفي هذه السنة**[2]: أكَلَ وادي فاس بابَ السِّلسلة وفُتِقت جزيرةُ مليلة، وأكَلَ البحرُ طَنْجةَ إلى الجامع الكبير، وأكَلَ وادي سَبو أخبِيةَ لمتُونة، وكان عبدُ المؤمن إذ ذاك في غيّاته، وبلَغَ الشّعيرُ في ذلك الوقت ثلاثةَ دنانير للسَّطل، وكان تاشَفينُ بمحَلّته على فاس.

قال أبو مروانَ الورّاق[3]: وقد كان أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف أمَّل في ابنه تاشَفين ما لم تكن الأقدارُ تُساعدُه. وجاءت الأيامُ بخلاف ما أمَّل فيه، فتشاءَمَ به وعزَم على خَلْعِه وصَرْفِ عهدِه إلى ولده الأصغر إسحاق، ووجَّه إلى عاملِه على إشبيليَة عُمرَ[4] أن يصِلَ إليه ليجعَلَه شيخَ ابنه ومدبِّرَ أمرِه، وأخَذ في العَزْم على ذلك إلى أن وافاه خبرٌ أمضَّه وأقلَقَه ولم يُمهلْه إلى أن يستتمَّ تدبيرُه، فأمَرَ عند ذلك تاشَفينَ أن ينزعجَ لذلك

---

(١) البيذق ٩١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ينظر هذا النص في الإحاطة ١/ ٤٤٧.

(٤) في المطبوع من الإحاطة: «أغماو»، والتحريف والتصحيف في هذه الطبعة قد تجاوز الحد من كثرته.

فانزَعَج على غير أُهبة للضّرورة وأتْبعه والدُه بمدَدِه وما لم يمكن الخروجُ به من عَجَلتِه، وذلك في هذه السنة المؤرَّخة.

ولـمّا وصَل تاشَفينُ في حركته هذه إلى فاس ضَرَب محلّتَه بظاهرِها، وكان وصُولُه إليها في أول زمن المشتَى، فرَوَت الأرضُ بنزول الغَيْث وتَوالت الأمطارُ والغيوم وحَمَلت الوديان، واشتدَّ البردُ إلى أن هلَكَ كثيرٌ من عساكرِ تاشَفين بردًا وجُوعًا لانقطاع الطُّرُق عنهم. وكان إقامةُ تاشَفين بظاهر فاسَ أيامًا، ثم رحَل عنها ونزَل بالنّواظر: من ناحية تازا، وانتهى حالُ عسكر تاشَفينَ حتّى أحرَقوا السُّرُجَ وصِحافَ العُود، ولم تتمسَّكْ أوتادُ الأخبِية لرَخاوة الأرض، وغَرِقت الدّوابُّ في مَرابِطها، إلى بطنِها، وكثُر الموتَى في الضّعفاء، فكانت شَرائطُ الأخبِية مربوطةً في جِيَفِ الموتى، وتَوالى عليها المطرُ نحو خمسةَ عشَرَ يومًا بلياليها، ثم رفَعَ اللهُ ذلك عنهم بعدَ يأس من الدّنيا، ولم يزَلْ تاشَفينُ يتنقلُ في أرض المغرب من موضع إلى موضع إلى آخِر هذه السنة.

وقال البَيْذَق: دخَل عبدُ المؤمن مدينةَ المزمّة فأخَذه بها المطرُ ثمانيةَ أيام فسمّاها ناغروت ان والوط[1]، فقلَعْنا منها إلى جبل تمساماني[2]. فخَرج ابنُ زَجّو بالعسكر فغَنِم مليلةَ وأخَذ فيها مئةَ بِكر فقَسَمها عبدُ المؤمن على الموحِّدين نفَعَهم اللهُ بذلك، وكانت فيهم بنتُ ماكْسِن بن المعزِّ صاحبِ مليلة وفاطمةُ بنتُ يوسُف، فأخَذ عبدُ المؤمن بنتَ ماكْسِن وأخَذ أبو إبراهيمَ فاطمةَ، فعَمِلوا آسماس[3] ورحَلوا إلى ندرومةَ بلاد كوميّة، ورحَل إلى موضع تاجرا وميَّز بها عسكرَه وهو قد تقَوّى أمرُه وعَظُم شأنُه وذكرُه، فبعَثَ ابنُ زَجّو إلى جهة الساحل فأتَى بغنائمِ وهران، وتَرادَفَت الفتوحاتُ من كلِّ مكان، ووصَل إلى عبد المؤمن زِيري ابن ماخُوخ الزّناتيُّ مطيعًا، فبعَثَه إلى غيّاته فقَبَضوا عليه بَنو مكّود وقَتلوه وحَزُّوا رأسَه وحمَلوه إلى فاس وعُلِّق على باب السّلسلة.

---

(١) كذلك عند البيذق ٩٧.

(٢) في البيذق: «تمس آمان»، وينظر المسالك والممالك للبكري ٢/ ٧٦٣، ٧٦٥، وهو اختلاف في الرسم حسب، واللفظ واحد.

(٣) نوع من الطعام، إذ عبارة البيذق: «فأكلنا آسماس».

وفي سنة سبع وثلاثين وخمس مئة: توفِّي أميرُ المسلمين عليُّ بن يوسُف بن تاشَفين رحمه الله باتّفاق، قيل: توفِّي لسبع خَلَوْن من رجَب ولا شُهِر موتُه إلّا لخمس خلَوْن من شوّال، فكانت مُدّتُه من حينَ قدَّمه أبوه سبعًا وثلاثينَ سنة وسبعةَ أشهر، وقيل: وتسعةَ أشهر بتقريب على خلاف في ذلك. وأمّا حقيقةُ مُدّته بعدَ وفاة أبيه فستٌّ وثلاثونَ سنة والأشهرُ المذكورة. وكان مولدُه يومَ الخميس لأربع خلَوْنَ من شهر ربيع الأوّل سنةَ ستٍّ وسبعينَ وأربع مئة: فكان عمُرُه إحدى وستينَ سنةً تقريبًا.

أُمُّه: رُوميّة، وهي فاضَ الحُسن، وقيل: قمر.

صفتُه: معتدلُ القامة أسِيلُ الوجه.

وقال أبو مروانَ الوَرّاق: كان مهلِكُ عليِّ بن يوسُف بمَرّاكشَ سنةَ سبع وثلاثينَ بعدَما بلَغَتْه أخبارٌ أمرضَتْه وأورثَتْه همًّا وغمًّا أثَّر في جسمه فالتزَم فراشَه، ولـمّا يئسَ من نفسِه، أمَرَ عندَ ذلك بإخراج ابنِه أبي بكر من مَرّاكُش وحَمْلِه إلى الجزيرة الخضراء ليُسجَنَ بها؛ لأنه خاف من خوضِه في أمور، فأصاب أبا بكر في سَفَرِه مرَضٌ، فكان الرّجالُ يحمِلونَه على أعناقِهم، ووصَل المذكورُ إلى الجزيرة فسُجن بهاولم تَطُلْ مُدّتُه في محبِسِه هذا إلى أن هلَك[1].

ولـمّا اشتدَّ ألـمُ عليِّ بن يوسُف وزادَت عِلّتُه عُهِد أن يُدفَن معَ قُبور عامّة المسلمين فدُفن بها في جُملتهم، وجُدِّدت البيعاتُ لوليِّ عهدِه تاشَفين، وهو في أمرِه المتقدِّم ذكرُه ومتابعتِه لعبد المؤمن.

حكايةٌ طريفة[2]

واستَوْزَر عليُّ بن يوسُف في آخِر أيامِه إسحاقَ بن يَنْتان بن عُمر بن يَنْتان وما بلَغَ عمُرُه ثمانيةَ عشَرَ عامًا، وكان يتوقَّدُ ذكاءً وعقلًا وفَهْمًا، فأُعجبَ به إعجابًا كثيرًا وجعَلَ إليه النّظرَ في المظالم والشَّكايا، فاتَّبع الناسَ في أمورِهم وكافة شؤونِهم، وكان معَ ذلك في

(١) كان أبو بكر هذا هو أكبر أبناء علي بن يوسف، وقد حقد بسبب تحويل ولاية العهد إلى غيره من إخوته فاضطرب أمره.

(٢) تنظر الحلل الموشية ٦٨-٦٩.

طبعِه ومولدِه مثلَ كاهن: يأتي بغرائبَ من الأخبار، ومما يُؤْثَرُ عن هذا الفتى أنّ تاشَفين بنَ عليّ بن يوسُف قال له: يا إسحاق، إنّ الناسَ تكلّموا في أمرِك وخاضُوا في حديثِك وفي الذي يؤْثَرُ من الـمُغيَّبات، فمنهم مَن صدَّقك، ومنهم من كذَّبك، فقال الفتى: اختبِرْني واسألْني عمّا شئتَ مما صنعتُه. قال تاشَفين: قد غِبتَ من أمسِك، أخبِرْني بما فعلتُهُ أمسِ بعدَما قمتُ من مجلسي هذا وفارقتُك ودخَلتُ داري؟ قال له: دَخلْت دارَك وجلستَ في مجلسِك فقدِّم لك طبقٌ فيه خَوْخ فتناولتَ واحدةً وأكلتَها حتى انتهَيْتَ على آخِرها، ثم تناولتَ أخرى فعضَضْتَ فيها عضّةً وصرفتَها إلى الطّبق، ثم قمتَ، أفتحبُّ أن أُخبِرَك بما فعلتَ؟ قال له تاشَفين: اقطع الكلامَ ها هنا.

وجَرى ذكرُه يومًا في مجلس عليٍّ بن يوسُف فقال لهم: قد عزمتُ على أن أختبِرَه، ولم يكن حاضرًا في ذلك الخبر، ثم قام عليُّ بن يوسُف ودخَل... فأخبَرَه القومُ اليومَ تُفتَضَحُ فيما تدَّعيه من علمِك معَ أمير المسلمين. فقال لأهل...: أخبرُكم؟ فقالوا: أخبِرْنا، فقال لهم: قام بنفسِه يريدُ أن يَكتُبَ بطائقَ فيها اسمي واسمُ أُمِّي فكتبَها ووضَعَها في ثَنْي الوِسادة إلى أن يحينَ خروجُه، فإذا حان ويريدُ أن يَخرُج خَرج... فيجعلُها... ويسألُني عما خَبَّأ لي فينساها عندَ خروجِه ويَخرُج إليكم دونَها، فإذا رآني تذكَّر فيدعو بأحدِ عَبيده ويُسارُّهُ في أُذُنِه أن يُخرجَها إليه ويُناولَه إياها مِن كمِّه لئلا يُطَّلَعَ على ذلك، فما لبِثَ أنْ خَرج عليُّ بن يوسُف من دارِه ودخَل مجلسَه، فلمّا وقعَتْ عينُه عليه دَعَا بالغلام فسارَّه في الأُذُن ودخَل الغلامُ الدارَ ثم خَرج مُسرِعًا بالبِطاقة فناوَلَه إياها من كمِّه إلى كمِّه، فابتَدر القومُ وقالوا لعليٍّ بن يوسُف: يا أميرَ المسلمين! قد أعلَمَنا بجميع ما أردتَ، وقَصُّوا عليه الحديثَ كما كان حدَّثهم، وقالوا له: قد علِمْنا صدقَه في كلِّ ما يدَّعيه ويؤْثَرُ عنه، فعجِبَ عليُّ بن يوسُف من ذلك.

وكان عليُّ بن يوسُف في آخِر أمرِه امتَنع الإعطاءَ لأجنادِه حتّى رجَع أكثرُهم يُكْرُونَ دوابَّهم، وهو أولُ من استعمَل الرومَ وأركَبهم في المغرب وجعَلَهم يحقِدونَ على المسلمين في مُغامرتِهم، ويأخُذونَ منهم في نفقاتِهم، وأكثرَ ما يجبُ عليهم، واضْطَربت عليه الأمور مِن لدُن ظهورِ المهدي فلم يستقمْ له حالٌ حتى مات، رحمه الله، في هذه السنة.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين: وصَلت قَراقرُ الـمَجُوس في مئة وخمسينَ مركَبًا بينَ كبارٍ وصِغار إلى سَبْتَة، فخَرجت إليه أجفانُها، فتقاتلوا فقُتل من الفريقَيْنِ خَلْقٌ كثير.

وفيها: دخَل الموحِّدونَ وَجْدة.

وفيها: ظَهر ليلةً نجمٌ عظيم في أقصى المغرب في ليلة سادسَ عشَرَ لرمضان.

وانتَقل تاشَفينُ بمحَلّتِه إلى تِلِمْسان ونزَل عبدُ المؤمن بمحَلّتِه بينَ الصَّخرتَيْن بمقرُبة منه، وكانت بينَهم حروبٌ كثيرة يطولُ ذكرُها.

وبعَثَ عبدُ المؤمن يوسُف بن وانُودين بعسكرٍ إلى مديونةَ، فتلاقَى معَ جيش لمتُونة، خَرج عليه من تِلِمْسان أبو بكر بنُ الجوهر ومحمدُ بن يحيى بن فانو فتلاقَى العسكرانِ بوادي الزّيتون، وتقابَلَ الجَمْعان، فقُتل من الفريقَيْن خَلْقٌ كثير، وفي أثناءِ ذلك وصَلت محلّةٌ من بِجَاية لنَصْر تاشَفين، وذلك في سنة تسع وثلاثينَ، برَسْم قتال الموحِّدين وقائدُها ميمونُ بن الـمُنتصر، فهزَمهم الموحِّدونَ من الصَّخرتَيْن إلى باب تِلِمْسان وبعَثَ القائدُ المذكور إلى عبد المؤمن يُعلِمُه بتوحيدِه سرًّا ويُعلِمُه بفتح إفريقيّةَ إذا فتَح المغرب، فكان ذلك كذلك على ما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى[1].

وفي سنة تسع وثلاثين: خَرج قائدُ الرّوم الربرتيرُ بعسكرِه ومعَه عسكرُ لمتُونةَ والحشَم، فهزَمَهم الموحِّدون، وقُتل القائدُ المذكور وتبدَّد عسكرُه[2]. وكان تاشَفينُ في سطسيف بمحَلّته، فزادت الحربُ بينَه وبينَ الموحِّدين مدةً من شهرَيْن إلى أنْ وصَل ابنُ المنتصِر مِن بِجَاية كما ذكَرْنا، وهزَمَه الموحِّدونَ ووَحَّد سِرًّا ووَعَد بفَتْح بجاية.

وفي هذه السنة: قُتل ابنُ زجو، ورحَل تاشَفينُ من سطسيف، ونزَلَ على وَهْران، فهرَبَ ينجمارُ[3] اللَّمتُونيُّ بجَمْع إلى الصّحراء، وهَرَب ابنُ زَنْجي[4] إلى الغرب وبقي تاشَفينُ بعسكرٍ مشتَّت، والقائدُ ابنُ ميمون في الأسطول في البحر برَسْم أن يطَّلعَ تاشَفينُ

---

(١) البيذق ٩٤، ٩٧.

(٢) البيذق ٩٦.

(٣) في البيذق: «أنكمار»، والجيم والكاف في اللفظين كاف أعجمية، والهمزة فيها مسهّلة إلى ياء، فكلا اللفظين عندئذ صحيح.

(٤) في البيذق: «ونكي»، والجيم والكاف كاف أعجمية.

فيها إن رأى ما لا طاقةَ له من قتال الموحِّدين فلم يُقدِّر الله. وخرج عسكرٌ من الموحِّدين وأتباعِهم لقتال تاشَفين، قوَّد عليه عبدُ المؤمن أبا حفص، فهزَم عسكرَ تاشَفين وتَبعه وأحاط به وحصَرَه، فخَرج تاشَفينُ فارًّا بنفسِه يريدُ الدُّخولَ في القطائع، فبينَما هو سائرٌ على فرسِه في اللّيل إذ صادفَ حافَةً خاف منها ومات[1]، رحمه الله، فلمّا أصبحَ وجَدَه الموحِّدونَ ميّتًا في تلك الحافَة، فقَطَعوا رأسَه وبعَثوا به إلى عبد المؤمن فصيَّره ووَجَّهه إلى تينمَل. وقُتل من أصحابِ تاشَفين خَلْقٌ كثير، وفَرّ منهم جَمْعٌ كبير، ولم يبقَ منهم بعدَ ذلك إلّا سيدُ الملوك السّدراتي... تقدَّم له فعفَا عنه.

وذكَر ابنُ حماده في مقتَل تاشَفين أيضًا قال: إنه لـمّا كان ليلةُ سبع وعشرينَ من رمضان من سنة تسع وثلاثينَ المذكورة وصَل تاشَفينُ بن عليٍّ من تِلِمْسانَ إلى قُرب وَهْران، فاتّبعه عسكرُ الموحِّدين وحصَروه وضيَّقوا عليه وأطلَقوا النِّيرانَ في محلّتِه، فلمّا رأى ما لا طاقةَ له به وعَلِم أنه مأخوذ، خَرج هو وبعضُ أصحابِه على فرسِه ففَرّ كلُّ واحدٍ منهم على طريقِه، فمنهم مَن قُتل ومنهم مَن حصَل في القطائع، وخاف تاشَفينُ من حافَةٍ عظيمة وهلَك، ووُجِد ميّتًا، وذلك ليلةَ سبع وعشرينَ المذكورة.

ثم وَلِـي إسحاقُ بن عليٍّ بن يوسُف، وذلك أنه لـمّا مات تاشَفينُ على ما ذَكَر بعضُ المؤرِّخين بُويع لابنِه إبراهيمَ بن تاشَفين، فطَلَع عليه إسحاق إلى مَرّاكُش فنقَضَ بيعتَه ودَعا لنفسِه ووقَع الخلافُ والتدابرُ بينَهم إلى انقطاع دولتِهم ودخول الموحِّدينَ عليهم على ما أذكُره إن شاء اللهُ ملخَّصًا في موضعِه[2].

وفي هذه السنة: ظهَرت في الأندَلس دعوةُ الموحِّدين، فأولُ مَن قام بدعوتهم فيها أهلُ مارتُلة[3] في السابعَ عشَرَ من ربيع الأول، ثم خالَفت بعدَ ذلك طَلْياطةُ[4] على الـمُرابِطين ودخَلت في دعوة الموحِّدين.

---

(١) في البيذق: «فبينما هو سائر على فرسه إذا بحافة فتركته فرسه في تلك الحافة»، وتنظر الحلل الموشية ١١٠.

(٢) الحلل الموشية ١١٠-١١٥.

(٣) Mertola، وهي على نهر وادي آنا من كورة باجة في البرتغال الحالية، وينظر الروض المعطار ٥٢١.

(٤) Tejada، تبعد عن إشبيلِيَةَ إلى الشمال الغربي منها مسافة ٣٠كم، وينظر معجم البلدان ٤/ ٣٩.

تلخيصُ التعريف بتواريخِ مَن وَلِـيَ إشبيلِيَة من مشاهيرِ اللَّمتُونيِّين الـمُرابِطين مِن حينِ استيلائهم عليها إلى انقراض دولتِهم[1]

فأولُ مَن وَلِيَها بعدَ خَلْع المعتمِد بن عَبّاد عنها بتقديم أمير المسلمينَ يوسُفَ بن تاشَفين: الأميرُ سَيْرٌ رحمه الله، فوَلِيها سَيْرٌ المذكورُ في رجَب الفَرْد من سنة أربع وثمانينَ وأربع مئة، وتوفِّي على مقرُبة من إشبيلِيَة وهو زافًّا بنتَه فاطمةَ ومُشيِّعًا لزوجِه حوّاءَ بنت تاشَفين، وقد تقدَّم خبرُها في السنة المذكورة، فكانت وفاتُه فُجاءة في ذي القَعْدة من سنة سبع وخمس مئة، فكانت مدةُ ولايتِه بها ثلاثًا وعشرينَ سنة.

ثم وَلِيَها يحيى بنُ سَيْر بن أبي بكر في ذي الحجة من عام سبعة وخمس مئة، وعُزِل عنها في ذي الحجة أيضًا عامَ ثمانية وخمس مئة، فكانت ولايتُه سنةً واحدة.

ثم وَلِيَها عبدُ الله ابن فاطمةَ الشّهيرُ بالنيولان في محرَّم سنة تسع وخمس مئة، وتوفِّي بها في رمضانَ المعظَّم من عام أحد عشَرَ وخمس مئة، فكانت ولايتُه [عامين وتسعةَ أشهر][2].

ثم وَلِيَها إبراهيمُ بن يوسُف بن تاشَفين بعدَ ولايتِه سَبْتة ووَلِيَها في شوّال عام أحدَ عشَرَ وخمس مئة، وعُزل عنها في جمادى الأولى عام ستةَ عشَرَ وخمس مئة، فكانت ولايتُه لها أربعةَ أعوام وتسعةَ أشهر.

ثم وَلِيَها تميمُ بن يوسُف بن تاشَفين، فوَلِيَها الأميرُ تميمٌ بعدَ ولايتِه غَرْناطةَ في جُمادى الثانية عامَ ستةَ عشَرَ وخمس مئة، وعُزِل عنها في ذي الحجة عام سبعةَ عشَرَ وخمس مئة، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزِل سنةً واحدةً وأربعةَ أشهر.

ثم وَلِيَها أبو بكر بن عليِّ بن يوسُف، فكانت ولايتُه إلى أن عُزِل أربعةَ أعوام وخمسةَ أشهر أولُها محرَّمٌ عامَ ثمانيةَ عشَرَ وخمس مئة وآخرُها رجَبٌ عامَ اثنينِ وعشرينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها عمرُ بن سَيْر، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزِل خمسةَ أشهر أوّلُها شعبانُ وآخِرُها ذو الحجة عامَ اثنينِ وعشرينَ وخمس مئة.

---

(١) ينظر كتاب «مفاخر البربر» ص٨١، حيث أورد أسماء الولاة، وبين ما أورده وما هنا اختلاف واضح.

(٢) بياض في الأصل، وما بين الحاصرتين مستفاد من بدء ولايته إلى حين وفاته.

ثم وَلِيَها يحيى بنُ مُقور، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزل عامًا واحدًا وشهرَيْنِ اثنين أولُها محرَّم عامَ ثلاثة وعشرين وخمس مئة وآخرُها صَفَرٌ عامَ أربعة وعشرين وخمس مئة.

ثم وَلِيَها عمرُ بن مُقور، فكانت ولايتُه إلى أن قُتل عامَيْنِ وثلاثةَ أشهر أولُها ربيعٌ الأول عامَ أربعةٍ وعشرينَ وخمس مئة وآخرُها رجَبٌ عامَ ستة وعشرينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها عبدُ الله بن أبي بكر بن تاشَفين، فكانت ولايتُه إلى أن قُبض عليه وحُبس في القَصْر شهرَيْنِ اثنينِ أولُها شعبانُ المكرَّم وآخرُها شوّالٌ المعظَّم، وكلاهما في عام ستة وعشرينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها الأميرُ تاشَفينُ بن عليّ بن يوسُف، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزِل سنةً واحدة أوّلُها شوّالٌ عامَ ستةٍ وعشرينَ وخمس مئة وآخِرُها رمضانُ عامَ سبعة وعشرين وخمس مئة.

ثم وَلِيَها يَنْتانُ بن عليّ الذي كان واليَ بَلَنْسِية، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزِل سنةً واحدةً وستةَ أشهر أولُها شوّالٌ عامَ سبعة وعشرينَ وخمس مئة وآخرُها صَفَرٌ عامَ تسعة وعشرينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها أبو زكريّا يحيى بنُ إسحاق، فكانت ولايتُه إلى أن عُزل تسعةَ أعوام وعشَرةَ أشهر أولُها ربيعٌ الأول عامَ تسعةٍ وعشرينَ وخمس مئة وآخرُها ذو حجة عامَ ثمانية وثلاثينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها أبو بكر بن مَرْدَلي في شهر محرَّم عام تسعةٍ وثلاثينَ وخمس مئة، فظَهَرت في الأندَلس دعوةُ الموحِّدينَ بالعام المذكور، وقام أهلُ مارتُلة بدعوة الـمَهْديِّ في السابعَ عشَرَ لربيع الأول عامَ تسعة وثلاثينَ وخمس مئة، وخالَفَت بعدَ ذلك طلياطةُ على الـمُرابِطين، وكذلك جميعُ الغَرْب، إلى أن صارت أكثرُ بلاد الأندَلس في طاعة الموحِّدين.

وفي سنة أربعينَ وخمس مئة: تغلَّب الموحِّدون على اللَّمتُونيِّين الـمُرابِطين وأخرَجوهم من بعض البلاد الـمَغْربيّة على ما أذكُر في دولتِهم إن شاء اللهُ تعالى.

ثم في سنة إحدى وأربعينَ: وصَل أبو محمد عبدُ المؤمن... ودخَل أغماتَ دونَ قتال.

وفي سنة إحدى وأربعينَ وخمس مئة: دخَل الموحِّدونَ مَرّاكُش وقُتل إسحاقُ بن عليّ بن يوسُف ومَن كان معَه[1].

---

(١) إلى هنا تنتهي القطعة التي نشرها ميرندا ثم إحسان عباس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صلّى اللهُ على سيّدِنا ومولانا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه وسلَّم تسليمًا

اختصارُ الخبر بحركة تاشْفِين إلى الجبل برَسْم قتال الموحِّدين

فخَرَجَ تاشْفينُ[1] من مَرّاكُش في جُمادى الأُولى من عام ثلاثة وثلاثين وخمس مئة في جمع كثير من الفرسان والرّجال فيهم جُملةٌ وافرة من قبائل جُزُولةَ وهو يعتقد أنه يهزِمُ كلَّ من ناهضه ويغلِبُ كلَّ من عارضه، فوصَل بجَمْعه المجموع، وعسكره المسموع، إلى مقرُبة من جمع الموحِّدين، فخَرج إليه عبد المؤمن، واجتمعا بين مضائقَ وجبال لا يكاد الفارسُ يتصرَّف فيها بقتال، فكثُرت الحربُ بينَهم في تلك المضائق، وبين تلك الجبال الشواهق، ثم أمَرَ تاشْفينُ بالرّحيل فانصَرفوا مُبادرينَ، ورغِب إليه جُزولةُ في الرجوع إلى بلادهم فأذِنَ لهم في ذلك وقال لهم تاشْفين: لا تسلُكوا تلك المسالك. وكان عبدُ المؤمن قد علم أنّ جُزُولةَ لا بدّ لهم من تلك الأوعار والمضائق الكبار، فأرصَد لهم عسكرًا من الموحِّدين في تلك المضائق كامنين، ثم إنّ جُزُولةَ لم يسمعوا وصيةَ تاشْفين فسلكوا بينَ تلك الأوعار والجبال[2]، فخَرج عليهم عسكرُ الموحِّدينَ بأعداد من الفرسان والرّجال فهزَموهم وقتلوهم واستاقوا خيلَهم ونساءهم إلى تِينْمَل[3]، ولم يلقَ حربًا معَ تاشْفين، وبعد ذلك رغب أشياخُ جُزولةَ في التوبة والدخول في طاعة الموحِّدين، فكتَب لهم بذلك ظهيرًا حسنًا.

---

(١) هو تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، انظر ترجمته في الإحاطة ١/ ٤٦٦، والاستقصا ٢/ ٦٨.

(٢) في م: «والأجبال»، وما أثبتناه من النسخ الخطية.

(٣) قيّدها ياقوت بفتح الميم واللام وتشديدها ولام أخرى «تِينْملّل»، معجم البلدان ٢/ ٦٩.

اختصارُ الخبر بحركة عبد المؤمن[1] الطويلةِ الأعوام، ومقتل تاشْفين أمير أهل اللِّثام من سنة أربع وثلاثينَ إلى سنة أربعين

ولـمّا رجَع عبدُ المؤمن من محاربة تاشْفين عزَم أن يخرُجَ بجَمْعه إلى جهة فاسَ وتِلِمْسان لِـما قدَّر اللهُ له من فتح البُلدان، فحشَد أهلَ طاعته وجلَبَهم من كلِّ مكان فانجَلبُوا من كلِّ قَبِيل موحِّد، واستركَبوا كلَّ[2] صعبٍ وذلولٍ منجرّ[3]، وقَدِم على تِينْمَلَ نائبًا عنه صهرُه موسى بنُ سليمان، وتحرَّك على طُرُقات الجبل بخيل كثيرة العدد ورجال.

ولـمّا وصَل خبرُه إلى تاشْفين بمَرّاكُش جنَّد جنودَه وحشَد حشودَه وخرَج في طلبه، فكان آخرَ عهدِه بأبيه على ما يأتي ذكره.

فمشى عبدُ المؤمن في تلك الجبال، وعدّةُ عسكرِه آلافُ الرجال، يغزو بهم يمينًا وشمالًا، ويُقبلُ عليه أهلُها بالطاعة إقبالًا، فكان الموحِّدونَ يمشُون في الجبال المانعة حيثُ الأرزاقُ الواسعة، وكان تاشْفينُ ينزلُ البسائط بعساكره، فما يجدُ من البرابر مَن يُداخلُه ولا من يَستعينُ به فيواصلُه، وذلك بسبب إدباره، إلى أن استقرَّ عبدُ المؤمن بالجبال المجاورة لجهة فاسَ المعروفة بكراندة، ونزَلَ تاشْفينُ بحصن الموضع المذكور فأقام فيه شهورًا دونَ حَطَب ولا فَحْم، حتى ألجَأتْهم الضّرورةُ لحرق أوتاد أخبيتِهم وخشَب أبنيتِهم، والمطرُ معَ ذلك مستصحَبٌ دائم.

ولقد أخبر ابنُ صاحب الصلاة بسَنَد ذكَرَه عمّن أخبره، أن امرأةً بعثَت لتاشْفينَ بطبق كبير عليه سبنية، فظنّ أنه بفاكهة[4] وإذا فيه فحم، فسُرَّ به، وانتقَل عبدُ المؤمن إلى جبل غُمارةَ فتبِعه تاشْفين، ثم انتقَل من جبل غُمارةَ إلى جهة تِلِمْسان

---

(١) المعجب ٢٦٢ فما بعد، ونهاية الأرب ٢٤/ ٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٥، والاستقصا ٢/ ٩٩.

(٢) سقطت من م.

(٣) في م: «منجرد» ولا معنى لها، وقوله: منجرّ، أي: جرّار.

(٤) في م: «فاكهة».

فانتقَل تاشْفينُ بمحَلّتِه إليها، ونزَل عبدُ المؤمن بين الصَّخرتَيْن على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى[(١)].

وفي أثناء هذه الحركة الطويلةِ الأعوام[(٢)] اتّصلت الحروبُ ببلاد أهل اللِّثام وغَلَت الأسعارُ بمَرّاكُش حتى وصَل فيها الرُّبُع من الدَّقيق بمثقال حشميّ ذهبي، وتَوالى هذا[(٣)] الجَدْبُ حتى جَفّت في الأرض مذانبُها واغبرَّتْ جوانبُها، وقَلَّت الـمَجابي بهذه الفتن وكثُرت اللّوازمُ على الرعايا بالعُدْوتَيْن. وألَحَّ العدوُّ النَّصْرانيُّ بالضَّرَبات على جميع جهات الأندَلس حين علموا عَجْزَ الإمارة بالمغرب واشتغالَها بحرب الثائرينَ المهيِّجينَ للفتن أخَذ اللهُ الحقَّ منهم. واستولى الرُّومُ في هذا الوقت على كثير من البلاد والحُصون وكثيرُ الجدب بالثَّغر[(٤)].

ثم تُوفِّي عليُّ بن يوسُف في سنة سبع وثلاثين[(٥)]، وقد تقدَّم ذكرُه.

وفي خلال ذلك حدَثَت الشَّحناءُ والمقاطعةُ بين قَبِيل لَـمْتُونةَ ومسوفة، فخاف على نفسِه يحيى بنُ تاكغت وبَرَّان[(٦)] بنُ محمد، فوصَلا إلى عبد المؤمن، ثم تَبِعَهما يحيى بنُ إسحاق، وهو ابنُ عمِّهما المعروفُ بأنجمار، الذي كان صاحبَ تِلِمْسان، بجميع إخوانِه ورجالِه، فزاد الخَلَل في أمر تاشْفين وفَسَدت نيّاتُ اللَّمتُونيِّين لقَبِيل مسوفة[(٧)]، وترقَّبوا لهم الوقائعَ الـمَخُوفة[(٨)]، وتَباغضوا بُغضًا وقتَلَ بعضُهم بعضًا، وضَرب يحيى بنُ تاكغتَ المسوفيُّ على موضع مِن نَظَر تِلِمسان فخَرج إليه منها محمدُ بن زجو اللَّمْتُوني فقَتل يحيى

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥٢.

(٢) في ك: «وفي أثناء هذه المدة الحركة»، وفي م: «وفي أثناء مدة هذه الحركة...»، وما أثبتناه من ر٣.

(٣) في م: «وتوالاها الجدب».

(٤) في ر٣: «وكثير الجهر الثغر» ولا معنى لها، وفي م: «وكثير من الثّغر» ولا معنى لها أيضًا وهو تصرّف من الناشرين عجيب، وما أثبتناه من ك، وهو الصواب، فقوله: «وكثير»: مبتدأ، والعطف هنا ممتنع.

(٥) انظر خبر وفاة علي بن يوسف في المعجب ٢٧١، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥١.

(٦) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢، ٣١٤، ووقع فيه: «براز» وبه أخذ ناشرو (م).

(٧) في ك: «لمتونة».

(٨) في ر٣: «المخافة».

وابنَه واحتزَّ رأسَيْهما ووَجَّه بهما إلى تاشْفين، فأمَرَ بحملِهما إلى سِجِلْماسةَ حيث كانت أختُ يحيى المذكور، فقالت: إن كان لنا رجالٌ فسيأخُذونَ بثأرِنا إن شاء اللهُ تعالى، فبَلَغ الكلامُ عبدَ المؤمن فانتصَر لها ووافَقَها على رأس تاشْفين، فكان ذلك كذلك.

قال الكاتبُ أبو عليٍّ ابنُ الأشِيريِّ التِّلمسانيُّ(١): لـمّا كان الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن نازلًا على تِلِمْسانَ بالجبل المعروف بالصَّخرتَيْن في شهر المحرَّم مفتتَح عام تسعة وثلاثين، كان أولَ افتتاحِه على أيدي الموحِّدين فتحًا عظيمًا بشرقيِّ تِلِمسان، هزَمَ فيه الموحِّدون عساكرَ من عساكرِ تاشْفين كان خرَجت لبلاد زَناتة، فكانت الوقيعةُ فيهم من أكبر الوقائع استأصَلت أكثرَهم، فضَرب عبدُ المؤمن الطُّبولَ في مجلسِه بأعلى الجبل، وكان الواليَ على تِلِمْسان أبو بكر ابنُ مَزْدَلي(٢) اللَّمْتُونيُّ.

قال أبو عليٍّ الأشِيري: ووصَلت إلى تاشْفينَ محَلّةُ صُنْهاجة من بِجَاية، وكان المقدَّمَ عليها طاهرُ بن كباب الصُّنهاجيّ، وكانوا عندما قَدِموا عليها برَزَ لهم بجموعِه وملأَ فَحْصَ تِلِمْسانَ خيلًا ورجالًا إلا أنّ الإدبارَ كان لهم مُحاديًا، وبانقضاءِ دولتهم مُناديًا، فنزَلَ الصُّنهاجيّونَ بمحَلّتِهم فأكرَمهم تاشْفينُ وأحسَن إليهم ولقائدِهم، والموحِّدون عند ذلك ينظُرون ما يصنَعون من بروزٍ واحتفال وكثرةِ خيل(٣) ورجال، فما هالَهم أمرُهم ولا هابَهم كثرتُهم.

ولـمّا استقرَّ الصُّنهاجيّونَ ورأَوا سكونَ تاشْفينَ على قتال الموحِّدين، خَرجوا في بعض الأيام وطلَعوا من جهة العباد مُقْدِمينَ غيرَ مهيبين، فهبط عليهم الموحِّدونَ فهزَموهم وقَتلوهم.

قال البيذَقُ في كتابِه: لـمّا وصَلت محَلّةُ بِجَاية هزَمهم الموحِّدونَ من الصَّخرتَيْن إلى باب المدينة، وبعَث قائدُهم لعبد المؤمن يُعلمُه بتوحيدِه سرًّا ويعِدُه بفتح بِجَايةَ وغيرِها، فكان كذلك(٤).

---

(١) هو أبو علي حسن بن عبد الله الأشيري صاحب كتاب «نظم اللآلي في فتوح الأمر العالي» انظر الحلة السيراء ٢/ ٩٢.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥٢، ٣٠٨.

(٣) في ك: «خيلهم»، ولا يصحّ.

(٤) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٧-٣٠٨.

وقال ابنُ بُجَيْر: لـمّا صَحّ موتُ عليٍّ بن يوسُف عند أشياخ لَـمْتُونة ومُسوفة الذين كانوا معَ تاشْفين مثل: بَرّان وأنجمار قبل ذلك والي تِلِمسان ووصَلَ إلى[1] الموحِّدينَ بَرَّان اللَّمْتُونيُّ ويحيى بن تاكغت، ثم وصَل أنجمارُ بعدَ ذلك عند حصار فاس، وكان الموحِّدونَ في سنة سبع وثلاثينَ حين مات عليُّ بن يوسُف اقتسموا على ثلاث فِرق: فرقةٌ منهم بجبل غياثة، وفرقةٌ بجبل الريف بطويةَ ومليلة وغُمارة، وفرقةٌ معَ يوسُف بن وانودين وابن زجو وابن يومور، وتوجَّهوا إلى جبل مديونةَ وجهه تِلِمْسان، فخَرج إليهم الوالي على تِلِمسانَ حينَئذٍ محمدُ بن يحيى بن فانو بعسكر من زَناتة وغيرِهم، فالتقى معَهم، وقُتل محمدُ بن يحيى المذكورُ في (وادٍ)[2] هنالك وانهزَم عسكرُه وافترقت زَناتةُ إلى بلادِها، ووَلّى تاشْفينُ أبا بكر ابنَ مزدلي، وطاع بنو ومانو[3] من زَناتة لعبد المؤمن ووصل[4] إليه أشياخُهم[5] بالريف منهم بنو ماخوخ ويوسُف بن يَدّر وغيرُهم، فأرسَلَهم معَ بعض الموحِّدينَ إلى ابن يومور وابن زجو فتوجَّهوا بعسكرٍ إلى بلادِهم فطاع جميعُ إخوانِهم.

ولـمّا اتّصل بتاشْفينَ خلافُ بني ومانو وَجَّه عسكرًا إليهم ومعهم قائدُ الروم المسمَّى بالربرتير، واتّصل ذلك بالموحِّدين فأَدْلَجوا إلى غياثِهم فأدلَجَ سيرَه القائدُ المذكور بالعسكر إلى موضع بني ومانو، فوجَدهم قد تحصَّنوا بجبلٍ عندَهم، ونزَلَ عسكرُ اللَّمْتُونيِّين بموضعِهم فهدَموه وحرقوه وطلَعوا إليهم بالجبل في يوم ريحٍ عاصف، فهبَطَ عليهم بنو ومانو فهزَموهم، وكان معَهم بعضُ قبائل زَناتة، وبعدَ تلك الهزيمة أغار ابنُ وانودين وابن زجو وابن يومورَ ومَن كان معَهم من الموحِّدينَ وبني ومانو على بلاد بني عبد الواد وبني يلومي فقَتلوا وغَنِموا ووَجَّهوا بالغنائم إلى الأمير عبد المؤمن، فخَرج عليهم الزَّناتيّونَ وأخَذوا الغنائمَ المتوجِّهةَ إلى الأمير عبد المؤمن

(١) سقطت من م.

(٢) بياض في الأصول، وما بين الحاصرتين منّا.

(٣) رسمها في النسخ: «لقرو ماتو»، وستأتي على الوجه بعد قليل.

(٤) في ر٣، م: «ووصلوا».

(٥) سقطت من م.

وقَتلوا كلَّ من كان معَهما[1]، وكانوا نحوَ ست مئة رجل من بني ومانو وغيرِهم وفيهم أبو بكرٍ بنُ ماخوخ من بني ومانو، وتحصّن ابنُ وانودينَ معَ من كان معَه من الموحِّدينَ بجبل هنالك، ورحَلَ عسكرُ اللَّمْتُونيِّينَ إلى موضع منداس: بلد بني يلومي من زَناتة، فاجتمعت عليهم قبائلُ بني يلومي برحائلهم معَ حمامةَ بن مطهّر وبني ينجاسن وبني ورسيفن وبني توجين، وجميعُهم دونَ رحائلَ معَهم.

ولـمّا قُتل مَن قُتل من بني ومانو وصَل الأميرُ عبدُ المؤمن إلى جهة تِلِمْسانَ فنزَلَ بين الصَّخرتَيْن، وهناك وصَلَه بنو ومانو فأقلَع معَهم إلى سيرت، فاجتَمع عليه بنو ومانو أجمعونَ ومعَهم تاشْفين بن ماخوخ، وفي ذلك المنزل اجتمع عبدُ المؤمن بابن زجو وابن يومور ومَن كان معَهم، وهناك وصَلتْه هديّةُ بني ومانو فصَرفها عليهم.

ثم رحَل عبدُ المؤمن من موضع سيرتَ إلى بلاد بني يلومي من زَناتة، فلمّا حقَّق الأميرُ تاشْفينُ وصُولَ عبد المؤمن إلى تلك الجِهات واجتماعَه بزَناتة دخَل تِلِمْسان وجنَّد فيها عسكرًا وبعَثَه إليه، فاجتمع معَه بموضع منداس، فتوجَّه عبدُ المؤمن بعسكره قاصدًا محلّةَ الربرتير قائدِ الروم ومَن كان معَهم من الجنود والحشود، فقاتَلَهم ثلاثةَ أيام، وفي اليوم الرابع هزَمَهم واحتوى على محلّتِهم وعلى مَن كان معهم من زَناتة بني يلومي وغيرِهم.

ثم رحَل الأميرُ عبدُ المؤمن عازمًا على النزول بينَ الصَّخرتَيْن، فرحَل معَ بني ومانو، وكانت الغنائمُ التي استاقوها كثيرةً زَعَموا أنها كانت نحوَ ثلاثينَ ألفًا من الغنم واثنَيْ عشَرَ ألفًا من البقر، فاعترَضَهم قائدُ الروم الربرتيرُ المذكورُ بالعسكر فاستنقَذَ من الغنائم أكثرَها وقَتل من كوميةَ نحوَ أربع مئة رجل، ووصَل العسكرُ معَ قائد الروم لتِلِمسان فاجتمع معَ الأمير تاشْفينَ فيها.

وكتَب تاشْفينُ منها إلى البلاد يستدعيهم لنُصرته، فوصَلَه عسكرُ سِجِلماسَةَ وعسكرُ بِجَاية صحبةَ طاهر بن كباب، وهو قائدٌ من قُوّاد صُنْهاجةِ بني حماد، فاجتمعت تلك العساكرُ بتِلِمسان، ووصَل من[2] الأندَلُس إبراهيمُ[3] بن تاشْفين بعسكر فولّاه

(١) في م: «معها».

(٢) ليست في ك.

(٣) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥٢، ٣٠٨.

أبوه عقدَه[1]، وقد كان وصَلَه قبلَ ذلك بموضع كراندُه حين مات جَدُّه، فبعَثَه والدُه إلى قُرطُبَةَ برسم القراءة فيها، ثم استدعاه منها، ووصَلَه إلى تِلِمسانَ في آخر سنة ثمانٍ وثلاثين وخمس مئة.

ولـمّا وصَل إبراهيمُ بن تاشْفينَ من الأندَلس وأبوه يَمِيزُ العساكرَ من الحشود والجنود والوفود فميزوا وبَرَزوا، وعجِبَ الناسُ من كثرة عَدَدِهم وعُدَدِهم واحتفالهم بالزّينة، حتى زَعَموا أنهم لم يرَوْا مثلَ تلك الجموع حُسنًا وجمالًا وعُدّةً وكمالًا، وما من شيءٍ كمُل إلّا ودَنا نقصُه. واصطُفَّت العساكرُ من باب القرماديِّينَ إلى الجهة المتّصلة بأصل الجبل، وذلك كان آخرَ كمالِه.

ذكرُ مقتل الربرتيرِ وأكثرِ أصحابِه[2]

قال ابنُ صاحب الصّلاة: كان هذا الروميُّ الربرتيرُ من أكبر الطُّغاة بالأندَلس نَجْدةً وظهورًا متّصلة فتردَّى من حافَةٍ عظيمة... وتغلَّب الموحِّدونَ على... من قدَّر الله بوفاتِه من اللَّمْتُونيِّين، فلمّا أصبح اللهُ بالصباح هَبَطوا في الحافَةِ المذكورة، فوجَدوا تاشْفينَ بها على تلك الصّورة في ليلة سبع وعشرينَ لرمضان من عام تسعة وثلاثينَ وخمس مئة، فقَطَعوا رأسَه، ووجَّهه الأميرُ عبدُ المؤمن إلى تينمل فعُلِّق في غُصن الشجرة التي عندَ مسجد المهديّ.

وقال ابنُ بُجَير: كان تاشْفينُ قد ضاقت حالُه، وكثُرت بخارج وَهْرانَ أوجالُه، حتى بقي عسكرُه أيامًا دونَ عَلَف في الحصن الذي بناه من أجل الحصار، وكان عبدُ المؤمن وجَّه أبا حفص[3] عمرَ بن يحيى الـهَنْتاتيَّ معَ بني ومانو الزَّناتيّينَ إلى بلاد بني ومانو وبني توجينَ وبني ورسيفن، فحشَدوا، وغَنِموا غنائمَ كثيرةً ورجَعوا بها إلى جهة وَهْرانَ، فاجتمعوا ذاتَ يوم في الجبل الـمُطلِّ على وَهْران فصاحوا صَيْحةً عظيمة بلسان واحد: «أصبح والحمدُ لله»، ولم يكن اللَّمتُونيونَ يصيحونَ بذلك، فلمّا سَمِعهم

(١) في م: «عهده».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٨ وقد ذكر أن اسمه الزبرتير في أكثر من موضع.

(٣) له ذكر في سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٤٦، وتاريخ ابن خلدون ٧/ ٥٠٦.

أهلُ عسكر تاشْفينَ وقَعت رَهْجةٌ[1] عظيمة، فأمَرَ ألا يُخرَج إليهم خيفةَ الكمين، وأقام الموحِّدونَ على مضاربِهم إلى الظهر ثم توجَّهوا إلى جهة عين الماء الذي يشرب منه أهلُ وَهْران فسقَوْا دوابَّهم فيه ورجَعوا دَفْعة واحدة حتى وصَلوا إلى خِباء تاشْفين، وكانت خباؤه بإزاء الحصن الذي بناه، فترامى فيه معَ من كان معه، منهم ابنُ مزدلي وبشيرٌ الرّوميّ، ووقَع القتلُ في أهل العسكر فلجأوا إلى حِمى سور وَهْران، فأخَذ الموحِّدونَ النوائلَ التي كانت في محلّة تاشْفينَ والحَطَبَ وغيرَه وقرَّبوها إلى باب الحصن وشَعَلوا فيها النارَ فاحترقت أبوابُه وهو على أعلى ذلك الحصن إلى العَتَمة ولهيبُ النار في الزّيادة، فلمّا رأى تاشْفينُ ذلك أيقَن بالهلاك، فخَرج معَ ابن مزدلي والعِلج بشير وصَنْدلٍ الفتى، أمّا بشيرٌ فاحترقت لحيتُه وعَرْفُ فرسِه وذيلُه، وأمّا صَنْدلٌ الفتى فسقَط في النار وصار فحمةً، وأمّا ابنُ مزدلي فدخَل بين الأموات حولَ الحصن ثم تسلَّل خُفْيةً حتى لحِق بسُور وَهْران مبهوتَ العقل، فبقي مبهوتًا ثلاثةَ أيام ومات.

ومشى تاشْفينُ والعِلجُ بشيرٌ إلى الرَّحى التي على الوادي هناك، فعارضَه أهلُ الرَّحى فعرَّجا إلى سِبَاخ ورحَلا فنَجا بشيرٌ وزَهَقت رِجلُ فرس تاشْفينَ التي كان يسمِّيها رَيْحانةَ وسقَطت في حافَةٍ عظيمة فاندقّ عُنق الفرس ومات تاشفينُ من ذلك في ليلة سبعٍ وعشرين لشعبانَ عامَ التاريخ.

وأمّا أهلُ دار تاشْفين التي سمَّوها حصنًا فتحصَّنوا فيه، وكانوا نحوَ ثلاث مئة رجل من حَشَم وحشد وروم فقُتلوا أجمعينَ إلا سبعةً منهم فيهم ابنا مزدلي[2]، وطُلِب تاشفينُ فوجد ميتًا، وصُلبت جثّتُه على حصنِه ووجِّه رأسُه إلى تينمَل[3].

وقال الكاتبُ الأَشِيريُّ التِّلِمْسانيّ: لـمّا انحصَر تاشْفينُ في الحصن الذي بناه معَ نفَر من أعيان لَـمْتُونَةَ، يئس من الحياة؛ لأنه عايَنَ عَزْم الموحِّدينَ عليه وما جَلَبوه من الحَطَب لإشعال النيران من كلِّ جانب إليه، فكان يأخُذ ذخائرَه وأثوابَه ويرمي

(١) في ر٣، م: «رجفة».

(٢) سقطت من م.

(٣) تنظر وفاة تاشفين في الكامل ١١/ ١٠٢، والمعجب ٢٧١، ونهاية الأرب ٢٤/ ٢٩٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٨.

بها في النار بيدِه، وودَّع أصحابَه واقتَحم الخروجَ على النار من بابِه والليلُ قد أرخَى سُدولَه، والجيشُ قد شمَّر للقتال ذيولَه، فوُجِد في صبيحة تلك الليلة ميتًا لم يوجَدْ فيه أثرُ طعنة ولا ضربة، فقيل: إنّ فرسَه صرَعَه في أحد تلك الأجراف، وسيق إلى الموحِّدينَ فأصعَدوه الصَّدع[١]، وتَمّ لله فيه الصُّنع، وذلك الليلةَ[٢] المتقدِّم ذكرُها.

اختصارُ الخبر عن فتح وَهْران
وما فتَحَ اللهُ للموحِّدين بعدَ قتال تاشْفين

ولـمّا قُتل تاشْفينُ لـجَأَ في تلك الليلة مَن سَلِم من تلك الوقعة إلى حصن وَهْران، فانحصَروا فيه، وقد كان لأهلِه[٣] في الحصار[٤] نحوَ شهرين، فقُطع عنهم الماء، فلمّا رأَوْا أنهم عاطشونَ[٥] طلَبوا التأمينَ من الموحِّدينَ فلم يُجيبوهم إلى ذلك إلا على حُكم الأمير فامتَنعوا من ذلك حتى أجهَدَهم العطشُ فنزَلوا بعدَ قَتْل تاشْفينَ بثلاثة أيام.

قال الكاتبُ الأَشِيري: أخبرني أبو الحَسن الطّرازُ، وكان ممّن حُصِر بوَهْران، أنّ العطشَ انتهى بالناس إلى[٦] أن مات في اليوم الواحد الثلاثونَ والأربعون بين نساءٍ ورجال، ولـمّا خَرجوا انطَرحوا على الماء حتى مات بعضُهم لـمّا رَوِي، وبعد ذلك حَكَم عبدُ المؤمن قبَّحه اللهُ بقتلهم فاستُؤصلوا عن آخرِهم.

وقال ابنُ بُجَير: لـمّا اشتدَّ القتالُ على أهل وَهْران مات أكثرُهم بالعطش، إلى أنْ خَرجوا على حُكم البرابرِ الذين يسمَّون بالموحِّدينَ فقَتلوهم أجمعين كبارًا وصغارًا بعدَ ثلاثة أيام من قَتْل تاشْفين، وذلك يومَ عيد الفطر من سنة تسع وثلاثينَ وخمس مئة.

---

(١) هكذا في النسخ، وفي م: «المصرع»، ولا تستقيم سجعًا مع اللفظة الآتية بعدها.
(٢) في م: «للّيلة».
(٣) في م: «أهلُه».
(٤) في م: «انحصار».
(٥) في م: «عطشوا».
(٦) ليست في ك.

ذكرُ مُنازلة تِلِمْسانَ وفتح تاجررتَ منها وما اتّصل بذلك[1]

وذلك أنه لـمّا قُتل تاشْفينُ ووصَلَ خبرُه إلى[2] تِلِمسانَ، خَرج مَن كان بها من لَـمْتُونة، وخلت تاجررتُ[3] منهم، وبقي فيها العامةُ من الحَضَر والسُّوقة، فلمّا بلَغَهم خبرُ وَهْران خرج جماعةٌ من أهل تِلِمْسانَ للقاءِ أبي محمد عبد المؤمن، وكانوا في نحو ستينَ رجلًا من أعيانهم، فقدَّر اللهُ عليهم أنْ لقِيَهم يصلاتن الزَّناتيُّ بجَمْع عند وادي تافنا فأفناهم فيه وقَتلهم عن آخرِهم، ووصَل إلى تِلِمسان ما كان من قَتْلهم فزاد خوفُ أهل تِلِمْسان من عبد المؤمن؛ لأنّ يصلاتنَ كان تحتَ طاعتِه بجملتِه وجماعتِه.

قال الأَشِيري: وكان قدومُ أبي محمد عبد المؤمن على تِلِمْسانَ بعدَ فتح وَهْران يومَ الجُمعة الموفي ثلاثينَ لرمضانَ المعظَّم من عام تسعة وثلاثين، فنزَل بالـمُنْية، ونفَذَ حُكمُ الله في أهل تاجررت، وذلك غُدوةَ يوم الفطر، ودخَلها الموحِّدونَ فرتَّبوا مروسَها وقَسَموا دورَها، ثم وافاهم فتحُ سِجِلماسةَ والقلعةِ وغيرِها.

وقال ابنُ بُجَير: لـمّا وصَل إلى أهل تِلِمسانَ ما جرى لأهل وَهْران خافوا خوفًا شديدًا، وفَرَّ جميعُ مَن كان فيها من لَـمْتُونة وخُدّامُهم معَ الصّحراويِّ إلى فاس، وذلك قبلَ وصول عبد المؤمن إلى تِلِمْسان؛ لأن الصَّحراويَّ كان قد نزَلَ بخارجِها عازمًا أن يَلحَقَ تاشْفينَ، فبَلغَه خبرُه، فتوجَّه إلى فاسَ، فوقعت في أهل البلد ضجّةٌ عظيمة وضَجُّوا خائفينَ على أنفسِهم، فلمّا سمعوا بإقبال عبد المؤمن إليهم تخيَّروا من أعيانِهم ستينَ رجلًا كما تقدَّم ذكرُه، وبعَثوا بهم يَطلُبونَ العفوَ منهم، فوقعوا في جَمْع كبير فقَتلوهم أجمعينَ ولم يَنْجُ منهم إلا اثنان، فزاد خوفُهم وعَظُم أمرُهم، فلمّا قرُبَ عبدُ المؤمن من تِلِمسان خَرج إليه الطلبةُ والأعيانُ والألواح والصِّبيانُ يرغَبونَ في العفو عنهم، فجرَّدهم الموحِّدونَ من أثوابِهم وقَتل يصلاتنُ جماعةً منهم يومَئذٍ والأميرُ عبدُ المؤمن واقفٌ ومعَه أبو إبراهيمَ من أصحاب مَهْديِّهم، ودخَل عبدُ المؤمن تِلِمسانَ

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩، والاستقصا ٢/ ١٠٦.

(٢) سقطت من م.

(٣) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩، والاستقصا ٢/ ١٠٦: تاكرارت.

وقَتل فيها خَلْقًا في فندق كليلا، وأقام سبعةَ أشهر، ثم وَلَّى عليها سُليمانَ بن محمد بن وانودين الـهَنْتَاتيَّ، ورحَل إلى مُنازلة فاسَ في ربيع الآخر[١] من عام أربعين.

وقال ابنُ صاحب الصلاة: لـمّا استقرَّ عبدُ المؤمن بتِلِمْسانَ بعد استشهادِ منِ استُشهد امتَنعت قصَبتُها عنه[٢] بمَن فيها ممّن خاف على نفسِه، فأقام مدةً عليها ثم رحَل إلى فاسَ وترَكَ عسكرًا يُحاصرُها.

ذكرُ فتح مدينة فاسَ حرَسَها اللهُ تعالى[٣]

ولـمّا رحَل عبدُ المؤمن والموحِّدونَ من تِلِمْسان اجتمعت عليه الوفودُ والحشود من كلِّ جهةٍ ومكان، فتوجَّه إلى مدينة فاسَ في ربيع الآخر[٤] من السنة المذكورة، فقدَّم بين يديه إليها[٥] جَمْعًا من الرجال للحربِ والنِّزال ليَعلمَ ما عندَ الصَّحراويِّ صاحبِها من خيل ورجال، فصَعِدوا ليلًا في الجبل، فخَرجَ إليه منها نحوُ ألف وخمس مئة فارس فرجَعوا إلى عبد المؤمن وقد نزَل بمحَلّتِه عقبةِ البقر وعساكرُه قد ملأت السهلَ والوعر، فميَّزَهم هنالك، وكانوا في ثمانينَ ساقةً على عدد القبائل والوفود، فنَشَروا ما معَهم من البنود وجازوا الواديَ ساقةً بعدَ ساقة، والصَّحراويُّ بجبل العرض ينظرُ إليهم. ثم رحَل عبدُ المؤمن من ذلك المنزل ونزَل بالجبل المذكور، فنشَر عليه علَمَه المنصور، وقطع بعضَ الأشجار وعمل بها الزُّروبَ على الدوابِّ احتياطًا على أهل محَلّتِه واتقاءً من الحرب وخُدعتِه، ثم بعَثَ عسكرًا منها لحصار مِكْناسة، فخَرج لهم منها ابنُ وجلوط اللَّمْتُونيُّ فهزَمهم، وكان بمِكناسةَ نحوُ ثلاثة آلاف فارس من الحَشَم والروم وغيرِهم، وانضاف لهم خَلْقٌ من القبائل القريبة منها، فتوجَّه الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن لها برَسْم إغاثة عسكرِه، وترَكَ على حصار مدينة فاسَ أبا بكر بنَ الخيِّر معَ جُملة[٦] من الموحِّدين،

---

(١) في م: «الأخير»، خطأ.

(٢) في م: «منه».

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩، والاستقصا ٢/ ١٠٧.

(٤) في م: «الأخير»، خطأ.

(٥) سقطت من م.

(٦) في ر٣، م: «جماعة».

فيهم أبو إبراهيمَ وغيرُه، ولـمّا وصَل إلى مِكْناسة برَزَ عليها وجَدَّ في حصارِها، ثم وجَّه منها أبا حفص عمرَ بنَ يحيى الـهَنْتاتيَّ ليكونَ معَ أبي إبراهيمَ على حصار فاسَ ومحاولتها، إلى أنْ جَرى ما جَرى بين الصَّحراويِّ صاحبِها وبين الجَيّانيِّ مُشرِفِها، وذلك أنه طلبه بمال وضيَّق عليه، فلم يكنْ في وُسْعِه إعطاؤه إليه، فكتَب إلى أحد قوّاد الموحِّدين ووَعَده أن يُمكِّنَه من البلد، فإنّ مَفاتحَها كانت تَبيتُ عنده، ودبَّر[1] وجْهَ الحيلة في ذلك فلم يشعُر الصَّحراويُّ حتى عايَنَ رجالَ الموحِّدينَ على السُّور فكسَرَ قُفْل باب الفتوح وخَرج منه، واستولى الموحِّدونَ على مدينة فاسَ بعدَ حصارِها سبعةَ أشهر، وذلك في شهر ذي القَعْدة من عام أربعينَ، فأقام بها عبدُ المؤمن أربعةَ أيام ثم رحَل عنها وتُرِكَ واليًا عليها أبو[2] إسحاق بنُ جامع ومُشرِفُها أبو[3] محمد عبد الله بن خِيار الجَيَّانيُّ المذكور، وتُرِكَ على حصار مِكْناسةَ أبو زكريا بن يومور وتوجَّه إلى سَلا.

وذكَر ابنُ صاحب الصّلاة أنّ الصَّحراويَّ كان تعَرَّس بامرأةٍ من قبيلة في ليلة الثانيَ عشَرَ لذي قَعْدة، فتمكَّن الجَيّانيُّ من مالِه وبعَث إليه بطعام وشراب ليشغَلَه به تلك الليلة، فلمّا كان صبيحةُ اليوم المذكور أدخَل الموحِّدين المدينةَ، وفرَّ الصَّحراويُّ إلى طَنْجة، ثم جاز إلى الأندَلس، واتّصل فتحُ فاس بالأمير عبد المؤمن وهو بمِكناسة، فوصَل إليها، وأقرَّ أهلُها إبقاءَ الجَيَّاني على إشرافِها، وذلك في[4] سنةِ أربعين.

وفي هذه السنة: وصَلت كتُب أهل سَبْتَةَ بالسمع والطاعة والدُّخول في حزب الجماعة، ووصَل لعبد المؤمن يحيى بنُ أنجمار في جُملةٍ من إخوانِه مَسُوفة، وكلُّهم مُلثَّمونَ، ثم أزالوه بظاهر فاسَ وصاروا في زِيِّ الموحِّدين، ثم وصَلَه عمرُ بن ينتان فارًّا من أمير لَـمْتُونَةَ إسحاقَ[5] بن عليِّ بن يوسُف من مَرّاكُش، فلقي من الكرامة ما لا مزيدَ عليه، ثم ارتدَّ ودخَل فاس، فلمّا يسَّرَ اللهُ فتحَها حصَل في يد الموحِّدينَ معَ جُملة من الناس، فأمَرَ بقتلِهم وبقي هو مَعْفوًّا عنه لِـما تقدَّم من وصيّة الـمَهْديّ على ذُرِّية ينتان.

---

(١) في ك: «ودبَّروا».

(٢) هكذا في الأصول، وفي م: «أبا» على المفعولية.

(٣) هكذا في الأصول، وفي م: «أبا» على المفعولية.

(٤) سقط من م.

(٥) الوافي بالوفيات ٨/ ٤١٨.

ذكرُ مُنازلة الأمير أبي محمدٍ عبدِ المؤمن مدينةَ مَرّاكُش وفتح مدينة سَلا في طريقِه[1]

ولـمّا فَرَغ أبو محمد عبدُ المؤمن من أشغال فاسَ وترتيبِها ورتَّب على حصار مِكْناسةَ عسكرًا يقيمُ عليها، أخَذ في الحركة على تؤدةٍ[2] واستعداد وعُدّة إلى مُنازلة مَرّاكُش، فلمّا وصَل مدينةَ سَلا امتنَع أهلُها منه، وحين وقَف على مجازِ هذا[3] الوادي ألفاه بسَعْدِه في آخر مَدِّه، فأمَرَ عسكرَه أن يعبُروه بأجمَعِهم، وتغَلَّب على سَلا من ساعته وفتَحَها قبلَ إراحتِه، وأمَّنَ أهلَها ورتَّب أحوالَها وانضافت قصَبتُها التي كان تاشْفينُ بناها في الرِّباط، وكان دخولُه لها في السابع من ذي الحجة من سنة أربعين، ونزَل بها بدار ابن عشَرةَ وأقام بها أربعةَ أيام، وتوجَّه في الحاديَ عشَرَ من الشهر المذكور إلى مُنازلة مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى.

وقال ابنُ بُجَيْر: كان فتْحُها على يد رجُل يسمَّى يبورك وابنَيْه: محمد وعليّ، وذلك أنهم أرسَلوا إلى الموحِّدينَ فوصَلوهم ليلًا وصنَعوا السلاليمَ فصَعِدوا بها على السُّور وقَتلوا كلَّ مَن وجَدوه على السُّور، ودخَلوا سَلا ووجَدوا فيها أُناسًا وهرَبَ آخَرون في حَلْق الوادي فرجَع عليهم البحرُ فغرِقوا، فعيَّدَ فيها عبدُ المؤمن عيدَ الأضحى، ووَلّى عليها عبدَ الواحد الشرقيَّ، وأقامت سَلا على طاعة الموحِّدينَ إلى أنْ ظهر الماسي المعروفُ بابن هُود ببلاد السُّوس فقَتل أهلُ سَلا عاملَهم وقَدَّموا وَلَدَه هودًا، فبقي بها إلى أن قُتل أبوهُ[4]، ودخَلت البلدُ وعادت إلى طاعة الموحِّدينَ إلى انقضاء دولتهم[5].

---

(١) نهايةِ الأرب ٢٤/ ٢٩٦، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٠، والاستقصا ٢/ ١٠٨.

(٢) في م: «تودية».

(٣) ليس في ك.

(٤) غيّر ناشرو (م) العبارة إلى: «وقدّموا والده هودًا فبقي بها إلى أن قتل ابنه...»، وهو غلط محض سببه أنهم ظنوا أن ابن هود هو اسمه في حين أن المقصود اسم القبيل بني هود، وما أثبتناه في النسخ كافة وهو الصواب الذي ليس فيه ارتياب.

(٥) في م: «دولهم»، وهو تحريف.

وكان الصَّحراويُّ لـمّا فَرَّ من فاسَ توجَّه إلى طَنْجةَ معَ مَن كان معَه من[1] لَـمْتُونةَ وغيرِهم، قيل: إنهم كانوا في ثلاث مئة رجلٍ فأقاموا بها خمسةَ أشهر في أسوإ حال من شدّة الضِّيق وغلاءِ السِّعر، ثم إنّ قائدَ الأُسطول عليّ[2] بن عيسى وصَل إلى طَنْجَةَ بالقطائع من باديس[3] فاجتَمع معَ الصَّحراويِّ وأظهر له النُّصحَ ولأصحابِه وأن يُجوِّزَهم إلى الأندَلس برَسْم يحيى[4] بن غانيةَ، فتعاقَدوا معَه على ذلك، فقَذَف بهم إلى مَرْسَى شريشَ وغدَرَهم، فكان من أمرِ الصَّحراويِّ ما يُذكرُ إن شاء اللهُ تعالى.

قال: وكان وَلِـي سَبْتةَ حينَئذٍ يوسُفُ[5] بن مخلوف التينمليُّ من قِبَل عبد المؤمن؛ لأنّ أهلَها بايَعوا عبدَ المؤمن من قَبلِ فَتْح سَلا، ثم إنّ الجنودَ الذين ترَكَ الصَّحراويُّ بطَنْجة بادَروا إلى ابن الجَبْر بمصْمُودة[6]، فزَحَف بهم إلى طَنْجة فدخَلها وقَتل قاضيَها في جُملةِ مَن قَتل فيها، ولـمّا وصَل الخبرُ إلى سَبْتَةَ صَرَخ صارخٌ أنّ واليَهم عزَم على قَتْل قاضيهم، وكان قاضيهِم الإمامُ العالمُ أبا[7] الفضل عِيَاضًا[8] رحمه الله، فقَتلوا واليَهم ومَن كان معَه.

قال: وكان الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن قد بعَث أبا حفص عمرَ بنَ يحيى الـهَنْتاتيَّ بعسكرٍ إلى بَرَغْواطةَ، فغَزاهم ثم غَنِمهم ثم عاد إلى عبد المؤمن، فتلاقى[9] معه[10] على إيجليز[11]، فقَسَم الغنائمَ على الموحِّدينَ ورحَل بعساكرِه حتّى وصَل قريبًا من مَرّاكُش، فخَرج إليه جَمْعٌ كبيرٌ من لَـمْتُونة، لكنْ قَذَف اللهُ الرُّعبَ في قلوبِهم ومَرُّوا

(١) في م: «في»، وهو تحريف.
(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢.
(٣) في م: «بادس».
(٤) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٠، ٥/ ٣٣٦، ٦/ ٢٩، ٣٢، ٣٧، ٤٥، ٢٢٤.
(٥) له ذكر في المغرب لابن سعيد ٢/ ١٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩، ٣١١، ٣١٢.
(٦) في م: «بقصر مصمودة»، وليست في الأصول.
(٧) في م: «أبو... عياض».
(٨) في ر٣، م: «عياض».
(٩) في م: «فتلاقيا».
(١٠) سقط من م.
(١١) جبل له ذكر في الروض المعطار ٥٤٠، وتحرّفت العبارة في م إلى: «فتلاقيا على الخيل»! وهي قراءة عجيبة.

لائذينَ بسُورِهم بعدَما قُتل منهم خلقٌ كثير. واتّصلت بعبد المؤمن الأخبارُ أنّ لَـمطةَ في فُحوص مَرّاكُش بحشودِهم قد أمَرَهم أميرُهم إسحاقُ أن يَقرُبوا إلى المدينة، فتَبِعهم الموحِّدونَ فأدركوهم وقَتلوهم قتلًا ذريعًا وغَنِموا لهم من الجِمال عددًا كثيرًا قيل: ثمانينَ ألفًا، ذكَرَه الأشِيري، ووصَل إثْرَ هذا الفتح كتابٌ من أبي عبد الله الجَيَّانيّ وأدرَجَ فيه شعرًا أولُه [من الطويل]:

أضاءت لنـا الأيـامُ واتّـصل الـنُّجْحُ ... وكانت وجوهُ الـدّهرِ مُـسْودَّةً كُلْـحُ

فأجابه عبدُ المؤمن بنُ عليّ رحمه الله:

هُو الفتحُ لا يَـجْلو غرائبَـهُ الـشَّرحُ ... أصاب بني التجسيم من يأسِـه تَـرْحُ
أَتَتْنـا بـه البُـشرى عـلى حـينِ غفلـةٍ ... بمهلِك قـوم كـان وَعْـدُهمُ الـصُّبحُ

وفي سنة إحدى وأربعينَ وخمس مئة: كان نزولُ عبد المؤمن بجبل إيجليز، ولازَمَ حصارَ مَرّاكُشَ في أوّل يوم المحرَّم من سنة إحدى وأربعينَ وخمس مئة، فأقام عليها تسعةَ أشهر وثمانيةَ عشَرَ يومًا، وكثُرتِ العساكرُ لديه، ووَفَد كبارُ الرجال من البلاد عليه مثلَ: أبي الغَمْر[1] ابن غَزُّون الثائر بشَرِيش وابن حَمْدِين[2] وغيرِهما، وكان اللَّمْتُونيّونَ بداخل مَرّاكُشَ في عِدّة من كبارِهم وبقيةٍ من أحشادِهم وأميرُهم إسحاقُ بن عليِّ بن يوسُف، وكان صَبِيًّا صغيرًا، فأمَرَهم بالخروج إلى حرب النازِلينَ عليهم، فعزَموا على قتالِـهم وخَرجوا إليهم بخَيْلِهم ورَجْلِهم في نحو خمسة آلاف وخمس مئة من الفرسان ومن الرجال ما لا يُحصَى عددُهم كثرةً، ووصَلوا بجَمْعهم إلى محلّة الموحِّدين، وكان عبدُ المؤمن أمَرَ أصحابَه أن يَكمُنوا لهم ولا يظهرَ أحدٌ منهم، فلمّا استحَرَّ النهار وعَمّ عسكرَ اللَّمتُونيِّينَ الاغترار، خَرَجت عليهم الكمائنُ فانهزَموا في الحين وولَّوْا أدبارَهم والسَّيفُ يصفَحُ رقابَهم ويمحو آثارَهم، واتَّبعهم عسكرُ الموحِّدينَ إلى باب دكالةَ، وأخَذوا من خَيْلِهم نحوَ ثلاثة آلاف، وقَتلوا من فُرسانِهم ورِجالِهم ما لا يُحصَى كثرةً، هكذا ذكَرَ ابنُ صاحبِ الصلاة.

---

(١) له ذكر في ابن خلدون ٦/ ٣١٧.

(٢) بغية الملتمس (٦٨٥)، وتاريخ الإسلام ١١/ ٩٢٦، والوافي ١٣/ ١٦٧، المرقبة العليا ١٠٣.

قال: فلمّا طال عليهم الحصارُ تسعةَ أشهر وثمانيةَ عشَرَ يومًا هلَكوا جوعًا طولَ هذه المدّة وضاقوا حتى أكَلوا الجِيَفَ وأكَل أهلُ السِّجن بعضُهم بعضًا وعُدِمت الحيَوانات كلُّها وعُدِمت الحِنطة بأسرِها، وطلَبَ إسحاقُ مخازنَ أبيه فلم يجدْ فيها شيئًا، قال أبو عبد الله بنُ عُبَيدة كاتبُ إسحاقَ المذكور: فعجَزت عساكرُ اللَّمتُونيِّينَ عن الدِّفاع والامتناع بضَعْف العدَد والعُدّة وكثرة الضِّيق والشِّدة، وفُتحت مَرّاكُش حينَئذٍ.

ذكرُ فَتْح مَرّاكُش حرَسَها الله ودخولِ الموحِّدينَ إليها واستيلائهم عليها وقتلِ إسحاقَ أمير لَـمْتُونةَ، وغيرِ ذلك(١)

وفي يوم السبت الثامنَ عشَرَ لشوّال من عام أحدٍ وأربعينَ وخمس مئة أمَرَ عبدُ المؤمن بالدّنوِّ من المدينة فأحْدَقوا حوالَيْها ورفَعوا سلاليمَهم إلى السُّور وطَلَعوا عليها فدخَلوا المدينةَ عَنْوةً من باب إيلان، وقَتلوا جميعَ من أدرَكوا من اللَّمتُونيِّين، وانحصَر إسحاقُ أميرُهم معَ أشياخِهم، منهم: سيرُ(٢) بنُ الحاجّ وسيرُ بن ينتان وجُملةٌ من أعيانِهم بداخِل قصَبتِهم المعروفة بقصر الحَجَر، ومَلَكَها أبو محمد عبدُ المؤمن في ذلك اليوم، ثم استولى بالغَلَبة على قَصَبتِها وعلى مَن تحصَّن بها، فامتَنعَ الباقي منهم في غرفةٍ كانت على بابِ دار عليِّ بن يوسُف وطلَبوا العَفْوَ والأمانَ فلم يُسعَفوا، ونزَلوا على حُكم الأمير والموحِّدين، فقَتل منهم من حضَر أجَلُه واستَحْيَا منهم مَن أراد الله بحياتِه، وسَلِم من القتل أولادُ ينتانَ لأنه كان قد قال خيرًا في الـمَهْديّ فأوصَى عليه وعلى بَنيهِ خيرًا، وأمّا أميرُهم إسحاقُ البائس فوُجِد مُستَخْفيًا في كدس فحم في إحدى غرف الدار المذكورة، فسيقَ إلى الأمير عبد المؤمن فأشفق عليه وحَنَّ لصِغَر سنِّه وهو ابنُ ستةَ عشَرَ عامًا وهمَّ أن يعفوَ عنه ويسجنَه، لكنّ بعضَ أشياخ الموحِّدينَ عزَموا عليه في قَتْلِه فضَربوا رقبتَه رحمه اللهُ تعالى، وباد أمرُ أُمراءِ اللِّثام، وأُبيحت مَرّاكُش لقَتْل من وُجِد فيها من اللَّمتُونيِّينَ ثلاثةَ أيام، ثم عَفَا عنهم أبو محمد عبدُ المؤمن واشتراهم من الموحِّدينَ وأعتقَهم ومَنّ عليهم وأطلَقَهم، واستولى عبدُ المؤمن على

---

(١) ينظر نهاية الأرب ٢٤/ ٢٩٦، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٠، والاستقصا ٢/ ١٠٨.

(٢) له ذكر في نهاية الأرب ٤/ ٢٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩.

ذخائرِ عليٍّ بن يوسُف وعلى ذخائر[1] تاشْفينَ وجميع أُمراءِ لَـمْتُونة ممّا يقصُر عن شرحه اللِّسان، ولا يأتي على وَصْفِه مُبِينُ البيان.

وذكَرَ ابنُ الأَشِيريِّ هذا الفتحَ المذكورَ مختصرًا عنه، قال: وكان في صدر مُحاصَرة مَرّاكُش فتحُ أغْمات، وإنّ الحُثالَة الباقيةَ بعدَ[2] إسحاقَ بمَرّاكُش بعدَ أيام من النزول عليهم اغترّوا وخَرجوا معَ أهل مَرّاكُش، ورَتَّبوا ساقتَهم بفَحْص باب دكالةَ، فدفَعَ عليهم الموحِّدون مِن كلِّ جهة فقَتلوهم وهزَموهم، وأمَرَ الأميرُ عبدُ المؤمن بقطع رؤوس القَتْلى منهم، وبعَدِّ الخَيْل التي غُنِمت لهم، فكانت ثمان مئة فرس، ومن الدّروع والسِّلاح ما لا يُحصيه أحد، فذَلّ لذلك أهلُ مَرّاكُش وأيقَنوا بالهلاك، وانتقَلت الـمَحلةُ الموحِّديةُ إلى دار الفتح وسَط البُحيرة في صدر شوّال من سنة إحدى وأربعين، فلم تزَلْ هنالك، وأمرُ المدينة في كلِّ يوم يزيدُ ضعفًا وأحوالُها ترِقّ، إلى أن كان يومُ السبت السابعَ عشَرَ من شوّال ففُتِحت مَرّاكُش ودخَلَها الموحِّدون.

وقال البَيْذق: وأمَرَ أبو محمد عبدُ المؤمن بعمل السَّلالم للسُّور وقَسَمَها على القبائل فدخَلت هَنْتاتةُ وتينملُ من جهة باب دَكّالة ودخَلت صُنْهاجةُ وعَبِيدُ المخزن من باب الدَّبّاغين، ودخَلت هسكُورةُ معَ القبائل من جهة باب ينتان، فدخَلوا البلدَ بالسيف، وبقيَ القتالُ على قصر الحَجَر من بُكرةٍ إلى وقت الزوال. ولم يدخُل القصرَ حتى ماتت فانو بنتُ عمر بن ينتان؛ لأنها كانت تَخرُج للقتال في هيئة رجل، وكان الموحِّدونَ يتعجَّبون من قتالها، وكانت بِكْرًا عذراء، فلمّا دخَل القصرَ أُخرج أولادُ السَّلاطين الذين كانوا به من ذُرِّية عليٍّ بن يوسُف إلى موضع المحَلّة بجبل إيجليز وهم معَ جُملة من قَراباتِهم وخَدَمتِهم وأهل دِخْلتِهم، فقَتلهم ابن واجاج[3] عن آخرِهم ولم يبقَ منهم إلا إسحاقُ بن عليٍّ بن يوسُف السلطان... وبعض الأصاغر، فكان إسحاقُ يتضرَّعُ لأبي محمد عبد المؤمن فيقول له: ما لي في الرأي شيء، فيقول له غلامُه: اصمُت، أرأيتَ مَلِكًا يتضرَّعُ لملكٍ غيرِه؟ فأراد عبدُ المؤمن ترْكَه وتركَ الأصاغر منهم فاغتاظ

(١) «علي بن يوسف وعلى ذخائر» سقطت من م.

(٢) في م: «مع».

(٣) له ذكر في الاستقصا ٢/ ١٠٩.

ابنُ واجاج وصاح بالموحِّدين وقال لهم: ارتَدَّ عبدُ المؤمن علينا؛ لأنه يريدُ أن يربِّيَ أفراخَ السَّبُع[1] إلينا، فغضِب عبدُ المؤمن لقوله وقام من مجلسِه فتبِعه الموحِّدونَ إلا أبا الحَسَن بنَ واجاج وأبا حفص، فأخَذ ابنُ واجاج إسحاقَ وضَرَب عُنقَه، ثم جَبَذَ طلحةَ ليقتلَه، فكانت بيده سكّين، فضَرب بها ابنَ واجاج ضربةً قتَلَه بها، ثم قُتل طلحةُ من بعده في الحين، فأُخِذ أبو بكر ابن تيزمت وحُمِل إلى عبد المؤمن فقال له: ألم تعلَمْ أنّي خصمٌ لعليِّ بن يوسُف؟ فقال له: أعلمُ ذلك، فقال له: فلأيِّ شيء تقتُلُني؟ فقال له: لأنك رمَيْتَ يدَك في الإمام المهديِّ وحمَلْتَه إلى السِّجن فقتلَتْك السُّنةُ لأجل ذلك، فقال لهم: إذا[2] عزَمتُم على قتلي فأُخبِرُكم أنّ عندي بَرْمتَيْنِ ثِنتَيْنِ[3] مملوّتَيْنِ ذهبًا أخافُ أن أُحاسَبَ عليها إن تركتُها، فاختار له عبدُ المؤمن أُمناءَ يمشُونَ معَه، وذلك اثنانِ من كلِّ قبيل الموحِّدين، فسار معَهم إلى دارِه فأدخَلَهم إليها وأغلَقَها على نفسِه وعليهم، وكان بيده عُكّازٌ فيه سكّينُ غَدْر، فلمّا استأمَنوا له وظَنّوا أنه يُخرِجُ لهم ما ارتَهَن فيه أخرجَ سِكّينَ الغَدْر من عُكّازِه فغَدَرهم به وقتَلَهم فلم يَخرُجْ منهم إلا رجلٌ واحد، وقَتل أحدَ عشَرَ رجلًا، فدُخِلت عليه الدارُ وهو قد تحصَّن في غرفة فحارَبَهم حتى هَدَموا عليه وقتلوه وجَرُّوه إلى جبل إيجليز، وبقيت مَرّاكُش ثلاثةَ أيام لا يدخُلُها داخِل ولا يَخرُج منها خارج، وتأبّى الموحِّدونَ دخولَها؛ لأنّ المهديَّ كان يقول: حتى تُطَهِّروها، فسُئل الفقهاءُ عن ذلك فقالوا لهم: تَبْنونَ مساجدَ أنتم وتجدِّدونَ أُخَر، ففَعَلوا ذلك.

وكان لعليِّ بن يوسُف جماعةٌ من الولد، منهم أبو بكر، وهو أوّل وَلَد وُلد[4] له وهو ابنُ ستَّ عشْرةَ سنة، وأبو بكر هذا يُعرَفُ ببكور، وكان ذا مِرّة ونَجْدة، وهو الذي أكْبلَه أبوه وسَجَنه بالجزيرة إلى أن مات، وعمرُ الكبير، وسير، كان وليَّ عهدِه، مات في حياته، وتاشْفين، وتميم، وإبراهيمُ الذي حجَّ، وإسحاقُ الذي قُتل حين دخولِ عبد المؤمن مَرّاكُش، ومحمدٌ، وباران، وداود، وعمرُ الصغير، ومَزْدَلي، وينتان، وهو أصغرُهم.

---

(١) في م: «فراخ السُّبوعة».

(٢) في م: «وإذ».

(٣) سقطت من م.

(٤) في م: «نُخلق».

رَجْع الخبر؛ قال ابنُ صاحب الصّلاة: لـمّا كان فتحُ مَرّاكُش ودخَلَها أبو محمد عبدُ المؤمن رجَع منها إلى محلّتِه وجعَل الأمناءَ على أبوابها مدةَ شهرينِ اثنين، فاجتمع فَيْؤها ومالُها، ثم قَسَم ديارَها على الموحِّدين، وتوالت الفتوحُ إثْرَ ذلك من كلِّ مكان، منها: دخولُ قصَبة تِلِمْسان، وذلك في الخامسَ عشَرَ لشوّال من السنة المؤرَّخة في الشّهر الذي دُخِلت فيه مَرّاكُش، كان بينَهما ثلاثة أيام، وحضَر في المحَلّة معَ جماعة الموحِّدينَ يحيى بنُ إسحاق الـمَسُوفيُّ المعروف بأنجمار، وكان قد وحّد وهاجر معَ إخوانه من تِلِمسان أيامَ كونِه أميرَها، فاحتُرِمت زوجُه زينبُ بنتُ عليِّ بن يوسُف عن البيع وجميعُ عيال أصحابِه وأخَواتُه، واحتُرمت دارُه عن الفَيْء، فلمّا استوطَن عبدُ المؤمن بمَرّاكُش جمَعَت زينبُ المذكورةُ جميعَ مالِـها وذخائرِها ورفَعت ذلك إلى[1] الخليفة أبي محمد عبد المؤمن، فشكر الخليفةُ[2] فعلَها ونفّذوا[3] أمرَه ألا يُباعَ من بنات عليِّ بن يوسف واحدة[4]، لكنّ أخوَي المهديِّ: عيسى وعبدَ العزيز أخَذا منهنّ ابنتَيْن كُرهًا على الخليفة. ولـمّا تَوالى هذا الفتحُ العظيم واستَوْسَق الأمرُ العزيزُ الكريم، قام ثائرٌ ببلاد السُّوس اختصَرْنا خبرَه بحول الله تعالى.

وفي هذه السّنة: ثار الدَّعيُّ الماسِيُّ ببلاد السُّوس وتَسمَّى بالهادي[5] وهو محمدُ بن عبد الله بن هود، قام في الشهر الذي دُخِلت فيه مَرّاكُش. وكان هذا الدعيُّ الشَّقيُّ قَصّارًا على ضفة بحر سَلا، وكان أبوه دلّالًا بالسوق فادَّعى الهدايةَ وسمَّى نفسَه بالهادي، واستقَرَّ بِرباط ماسةَ في غُرّة شوّال من السنة المؤرَّخة، فأقبَلَ الناسُ الـمُغترُّونَ به من كلِّ مكان وقَبِيل إليه، فاجتمعوا بشقاوتهم عليه اجتماعًا طار له الذِّكر في الآفاق وتحدّثت به الرِّفاق، وكثُروا عندَه واشتدّوا[6] له، فقامت بدعوتِه جموعٌ لا تُحصَى أبادَهم

---

(١) سقط من م.

(٢) قوله: «أبي محمد عبد المؤمن فشكر الخليفة» سقط من م، والسقط في هذه المطبوعة والتحريف كثير.

(٣) في م: «ونفذ».

(٤) قوله: «علي بن يوسف واحدة» سقط من م.

(٥) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٠، والاستقصا ٢/ ٣١٠.

(٦) في م: «واستندوا».

سيفُ الحقّ وسبَقَ لهم الحَتْفُ بغاية السَّبْق، وأتته دعوتُه الكاذبة الغارّة في جميع العُدْوة، حتّى لم يبقَ منها إلا مَرّاكُش وفاس، وارتدّت سائرُ البلاد كلِّها، فوجَّه الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن إليه عسكرًا قوَّد عليهم أبا زكريا المعروفَ بأنجمار، فهزَمه الشّقيُّ الدَّعيُّ الماسِيُّ المذكور، و[1]رجَع إلى الخليفة خاسرًا، ثم خرَج إليه[2] الشيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى وأشياخُ الموحِّدينَ معَ طائفة من الروم والرُّماة وغيرِهم من الأجناد واستعَدّوا غايةَ الاستعداد، وخَرج في هذا العسكر المذكور مُستخفِيًا في جُملة الرُّماة الكاتبُ الجليلُ أبو جعفرِ بن عَطِيّة، وقد كان كاتبًا لإسحاقَ بن عليٍّ بن يوسُف، فالتفَّ في جُملة الناس لا يعلَمُه أحدٌ منهم، واتّصل سَيْرُ الموحِّدينَ حتى وصَلوا رِباطَ ماسَةَ حيث القائمُ الدَّعي، وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة، وكان جملةُ عسكر الموحِّدين نحوَ ستة آلاف فارس ومن الرَّجّالة مثلُ ذلك، وكان جمعُ الدَّعيِّ الشّقيِّ سبعَ مئة فارس ومن الرَّجّالة نحوُ الستينَ ألفًا، فالتقَيا يومَ الخميس السادسَ عشَرَ من الشهر المذكور، فهُزِم الدّعيُّ المذكورُ وعسكرُه المغرور وقُتل في المعركة هو وأكثرُ عسكرِه.

ذكرُ السبب في تقريبِ ابن عَطِيّة[3]

وطلَب الشّيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى كاتبًا يكتُب عنه بهذا الفتح إلى عبد المؤمن، إذ لم يكنْ عندَه كاتب، فعُرِّف بابن عَطِيّةَ فأمَرَ بحضورِه فحضَر وكتَبَ عنه فأجاد، وأتقنَ ما أراد، فقرَّبَه أبو حفص وأحسن إليه وحصَلَ في جُملته. وبعَثَ الرسالةَ بالفتح إلى الخليفة عبد المؤمن، فلمّا وصَلت هذه الرسالةُ وقُرئت في مجلس الخليفة استغرَبَها الحاضرونَ من الطَّلَبة والفقهاءِ والكُتّاب والنُّبهاءِ والشّعراء، واستحسَنَها الخليفةُ لِما فيها من وَصْف الحال بغاية الإبداع وأنها أخَذت من الفصاحة والبلاغة والتشبيه الغريب بالقلوب والأسماع، وأجمَعَ البُلغاءُ على إبداعِها غايةَ الإبداع، فكانت سببًا

(١) سقطت الواو من م.

(٢) سقط من م.

(٣) تنظر الإحاطة ١/ ٢٦٣.

لسَعْدِه ورِفعة قَدْرِه وجَدِّه، فاستكتبَه عبدُ المؤمن إثْر ذلك. ثم علا قَدْرُه وذكرُه... وحُسن التوسُّط للموحِّدين وبالرعايا والجنودِ على ما لم يَسْبقْه فيه... ولا أدرك خالدٌ ولا جعفرٌ من الفضائل[1] ما أدرك. ثم إنّ الدهرَ عَدا عليه بعُدوانِه، وطولِبَ عند الخليفة فأمضَى عليه حُكمَ ما رَآه من الرأي في سُلطانِه، بحيثُ لم يُجب استغاثتَه إلا عُواءُ الذئاب أو صدًى تتسعَّرُ عليه نارُ الاكتئاب، فرَوِيَت الأرضُ من دمِه، وبعدَه لم يُرتسَمْ برسمِه بل وُجِد فَقْدُ قَدَمِه وفَقْدُ الناسِ حُسنَ وَساطتِه، ويُمْنَ مُلاطفتِه. وسأذكُر سببَ موته في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ حركة الشّيخ أبي حفص الـهَنْتاتيِّ من حضرة عبد المؤمن لمحاربة المنافقينَ والقبائل الذين قاموا بدعوة الماسِيِّ المعروف بابن هُود بعدَ ظفَرِه به وقَتْلِه[2]

لـمّا انصَرف الشّيخُ أبو حفص من غَزْوة الماسِيِّ وأراح بمَرّاكُشَ أيامًا، خَرج غازيًا إلى أهل نفيس فغَلَب عليهم وعلى هيلانةَ وقَتَلَ كثيرًا منهم حتى أذعَنوا بالطاعة، فانصَرف إلى مَرّاكُشَ فأراح بها، وخَرج إلى هسكورةَ وفتَحَها، ثم نهَضَ إلى سِجِلْماسةَ فدخَلها واستولى عليها وأمَّن أهلَها، ثم انصَرف إلى مَرّاكُشَ ظافرًا غانمًا، ثم أراح بمَرّاكُش، وخَرج غازيًا إلى بَرْغَواطة فنهَضَ إليهم فقاتَلوه مُدافعينَ لأهل عبد المؤمن متمسِّكينَ بطاعة الماسيّ، فدام على قتالهم مدةً، ثم عزَموا على مقاتلته، فدارت بينَهم دفاعٌ وحروبٌ ومُدافعاتٌ وحَمَلات، فانهزَم مَن كان معَه وانصَرف خائبًا عنهم، ودامتِ الفتنةُ منهم وممّن يُجاورُهم. وفي أثناء هذه الفتن قام مِن أهل سَبْتَةَ قومٌ على مَن بالقَصَبة حتى غَلَبوهم، وأوقَدوا النارَ عليهم بالبُرج الذي احتصنوا[3] فيه حتى قَتَلوهم وصَلَبوهم، وجازَ البحرَ عياضٌ القاضي إلى يحيى بن عليٍّ ابن غانِيةَ وهو بالخَضْراء، وطلَبَ منه واليًا، فأرسَل معَه يحيى بنَ أبي بكر الصَّحراوي، فأجازَه البحرَ

(١) المقصود: خالد البرمكي وابنه جعفر.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١١، والاستقصا ٢/ ١١٣.

(٣) في م: «تحصَّنوا».

إلى سَبْتة، فاستَوْلى عليها وخَلعوا طاعةَ عبد المؤمن. وقام أهلُ المدينة على الموحِّدينَ فيها وقَتَلوا الحافظَ بها يوسُفَ بن مخلوف، وكان قد غزا معَ القاضي عِيَاض الرُّومَ في البحر.

ولـمّا فتَح الموحِّدونَ مدينةَ فاس واستقَرُّوا بها، فرَّ يحيى الصَّحراويُّ صاحبُها واستقرَّ بطَنْجة، ثم جاز البحرَ إلى الأندَلُس برغبته إلى قائد البحر عليِّ بن عيسى بجزيرة قادِس، فأجازَه القائدُ المذكور وأجاز أصحابَه اللَّمْتُونيِّينَ والرومَ الذين كانوا معَه إلى جزيرة قادِس، فاشترَطَ القائدُ عليٌّ[1] على يحيى هذا أنه إذا وصَل قُرطُبَةَ إلى ابن غانِية أن يشفَعَ عندَه[2] في عيسى والدِه ويُخرجَه من سِجنِه بقَرْمُونة ويسرِّحَه إليه، فضَمِن له ابنُ الصَّحراويِّ ذلك. فلمّا أجازه عليٌّ عزَم على أن يأخُذَ خيلَهم وما بقي عندَهم من مالٍ ورجال، وقد كان أعطاه مالًا كثيرًا، ففهِمَ يحيى عنه ذلك، ففَرَّ إلى ابن غانِيةَ بقُرطُبة فاستقَرَّ عندَه، وأطلَق والدَ عليٍّ المذكور، ووَفَى له. ثم إنّ ابنَ الصّحراويِّ لـمّا حصَل بسَبْتةَ تحيَّلَ على القائد عليِّ بن عيسى المذكور واستدعاه إليها وخَدَعه وقَتَله، ثم إنّ ابنَ الصحراويِّ أيضًا كثُرت فتنتُه، ودام تخليطُه، ورام أن يُحيِيَ ما مضَى من أيام آبائه، فلم تُعِنْه الأيام... أخذًا في العفو عندَ بُعدِ وصولِه إلى بَرْغَواطةَ حسبَما أذكُره.

ذكرُ الوَفْد الناهض مِن إشبيليَةَ إلى عبد المؤمن وهُو أوّلُ وفد نهَضَ من الأندَلس إليه في أواخِر سنة إحدى وأربعين[3]

أمّا فتحُ إشبيليَةَ وطاعةُ أهلِها فكان ذلك في الثانيَ عشَرَ من شعبانَ من هذه السنة. وكان وصُولُ هذا الوَفْد بالبيعة إلى عبد المؤمن ودخولُهم مَرّاكُشَ في شهر ذي الحِجة من العام المؤرَّخ. فأوّلُهم: القاضي أبو بكرٍ[4] ابنُ العَرَبي، والخطيبُ أبو عَمْرو بن

---

(١) سقط من م.

(٢) سقط من م.

(٣) الاستقصا ٢/ ١١٧.

(٤) المرقبة العليا ١٠٥.

حَجّاج، وأبو[1] بكر بن الجدّ، وأبو[2] الحَسَن الزُّهْري، وأبو الحَسَن ابنُ صاحب الصّلاة، وأبو بكر بنُ شَجَرة، ووَلَدُ الباجِيّ، والهَوْزنيُّ، ومحمدٌ ابنُ الزاهد، ومحمدٌ[3] ابنُ القاضي شُرَيْح، وعبدُ العزيز الصَّدَفي، وعليُّ بن طالب، وعليُّ بن سيّد، وغيرُ هؤلاء. فلمّا كان عيدُ الأضحى أذِنَ لهم في السلام، وجاوَبَهم بالتأمين والتسكين، والوَعْد الجميل المؤْذِن بالفتح المبين، ثم بعدَ ذلك أذِنَ لهم بالدّخول عليه في مجلسِه العالي[4] بقصر الحَجَر، فتقدَّم القاضي أبو بكر ابنُ العَرَبيِّ بالكلام، وخطَبَ خُطبةً بليغةً استحسَنَها الخليفة، ثم تَلاه أبو بكر بن الجدّ بخُطبة ثانية فأحسَنَها وأجاد، ودفَعوا له بيعةَ أهل إشبيلِيَةَ بخطوطِ أيديهم فيها، فأمَرَ بقَبولها منهم. ثم إنّ الخليفةَ سأل ابنَ العَرَبي عن الـمَهْديّ: هل رآه ولِقيَه في مجلس أبي حامدٍ الغزّاليِّ أم لا؟ فقال له: لم ألقَهُ، وإنّما سمِعتُ به، وأنه كان يقول: لا بدَّ من ظهورِه، ثم انفَصَلوا من عندِه بخيرٍ كثير وإنعام كبير.

قال أبو العباس بنُ مِقْدام: لـمّا وصَلَ هذا الوفدُ مَرّاكُش وارتدَّت القبائلُ بسبب قيام الماسِيّ، وَشَى واشٍ إلى الخليفة أنّ إشبيلِيَةَ ارتدَّت بمَن فيها، وشاع الخبرُ بذلك ولا عِلمَ عند الوفدِ بهم، فلم يَشعُروا إلا والموحِّدونَ قد أحاطوا بالدار التي كانوا بها على الأسقاف بالرّماح والسُّيوف، فمنهم من غُشِي عليه، ومنهم من بُهِت وظَهَر الموتُ لديه، ورقبَ عليهم الرُّقباءُ ليلًا ونهارًا، ورأوا الموتَ عِيانًا وجِهارًا، ودام ذلك ثلاثةَ أيام إلى أنْ وصَل الحقُّ ببراءةِ أهل إشبيلِيَةَ بكتاب الشّيخ أبي يعقوبَ بن سُليمان من إشبيلِيَة، فاستَدْركَ الأميرُ أرواحَهم، وعجَّل سَراحَهم، فوجَّه إليهم أبا إسحاقَ بنَ جامع وعبدَ الله بن سليمانَ مؤنسَيْنِ[5] لهم، فقالا لهم: إنّما وَجَّه لكم الرّجالَ

---

(١) بغية الملتمس (١٨١).

(٢) التكملة لابن الأبار (٢٧٥٣)، والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (٢٦٨)، والذيل لابن عبد الملك ٥/ ١٦٢، وصلة الصلة لابن الزبير ٤/ الترجمة ٢١٦، والمستملح للذهبي (٦٦٥)، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٣٧٥.

(٣) التكملة لابن الأبار (١٤٠٥)، والذيل لابن عبد الملك ٦/ ٢٢٩، و المستملح (١٢٥).

(٤) في م: «العام»، وهو تحريف.

(٥) في م: «معتذرين».

إشفاقًا عليكم ونظرًا حسَنًا إليكم؛ لأنّ الأميرَ رضي اللهُ عنه قال: إنْ وصَلَهم خبرُ ارتدادِهم يفِرُّونَ على وجوهِهم فتأكلُهم الطريقُ[1] بمن فيها من الثائرين، فثابَتْ إليهم نفوسُهم، وكان لهم بعدَ ذلك السَّراحُ والإنعام، وأمَرَ لهم بالزاد الوافر على أوفَى الكمال والتّمام، فأُمِرَ للقاضي ابن العَرَبيِّ بمئة مثقال ذهبيّةٍ حَشَميّة، ولابن حَجّاج الخطيب بمثل ذلك، ولسائر الوفد[2] على قَدْر منازلهم، وانصَرفوا بظهائرِهم من كُتب ابن عَطِيّةَ بالإنعام عليهم بصَرْف أموالهم وضِيَاعهم إليهم. وكان انصرافُهم من مَرّاكُش في جُمادى الآخِرة من سنة اثنتين وأربعينَ وخمس مئة. وتوفِّي القاضي ابنُ العَرَبيّ وهو على دابّتِه في الشهر المذكور عندَ وصُوله إلى مدينة فاس، ودَفَنوه في رَوْضة الجَيّانيِّ وعمُرُه خمسٌ وسبعونَ سنة. وسببُ وصُولهم إلى فاسَ أنّهم أخَذوا على طريق الجبل بسبب فتنة القبائل.

تلخيصُ دخول الموحِّدينَ للأندَلسِ أوّلًا[3]

لـمّا اتّصَل بالأندَلُس موتُ عليِّ بن يوسُف ومَقْتَلُ تاشْفينَ بن عليّ وليِّ عهدِه [واستيلاءُ الموحِّدينَ على][4] مدينة فاس، طاع عليُّ بن عيسى بن مَيْمون قائدُ البحر الـمُنتزي على الملثَّمينَ بقادِس، [وقصَد عبدَ][5] المؤمن، فوصَل إليه وهو بجبل العرض، فأمَرَ عبدُ المؤمن القائدَ المذكور أن يتوجَّه إلى الجزيرة المذكورة وأن يَهدِمَ الصَّنمَ الذي فيها، فانصَرف. وشاع خبَرُه بجزيرة الأندَلس، وخطَبَ له عليٌّ المذكورُ بجامع قادِس، وهي أولُ خُطبة خُطبت له بجزيرة الأندَلس، وذلك في أوّل عام أربعينَ وخمس مئة. ثم طاع أحمدُ[6] بن قِسِيّ من موضع قيامِه من حِصن مَرْتُلةَ عندَ غَلَبة سِدْراي[7] بن وزيرٍ

(١) في م: «الطرق»، وهو تحريف.

(٢) في م: «الوفد»، وهو تحريف.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢.

(٤) ما بين الحاصرتين فراغ في النسخ.

(٥) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ.

(٦) الوافي بالوفيات ٧/ ٢٩٧.

(٧) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢.

عليه، وكانت طاعتُه على يد عليٍّ بن عيسى المذكور، أجازَهُ في غراب هو وأصحابُه المختصُّونَ به من مَرْتُلَةَ إلى سَبْتة، وكانت سبتةُ إذ ذاك في طاعة الموحِّدينَ تحت نَظَر الشّيخ أبي يعقوبَ يوسُفَ بن مخلوف، فأعان ابنُ مَخْلوف ابن قِسِيّ في الـمَشْي لعبد المؤمن حتّى وصَله بجبل العرض في شعبانَ من العام المذكور، ثم بعَثَه صُحبةَ الشّيخ أبي إسحاقَ بَرَّان بن محمد الـمَسُوفيّ إلى الأندلس لحرب مَن فيها من الثوّار الملثَّمينَ بعسكرٍ من الموحِّدينَ تنويهًا به، وبعَثَ معَه أبا عِمران موسى[1] بنَ سعيد من جبل العرضِ أيضًا، وعُمرَ[2] بن صالح بعسكر آخر.

وقد ذكَرَ ابنُ صاحب الصّلاة إجازةَ أبي إسحاقَ بَرَّان بن محمد الـمَسُوفيّ، وعُمرَ بن صالح الصُّنْهاجيِّ، وأحمدَ بن قِسِيّ معَ البعوث معَهم إلى الأندَلس في تاريخ المرتدّينَ[3] الثوّارِ بها، فقال من جُملة كلامِه: لـمّا جاز العسكرانِ إلى الأندَلس قَصَدا مدينةَ شَرِيشَ أوّلًا، وكانت تحت الطاعة، ثم جازوا واديَ إشبيلِيَةَ وساروا إلى لَبْلة، ثم تحرَّكوا منها إلى مَرْتُلة وهي تحتَ الطاعة، ثم تحرَّكوا منها إلى شِلْب ونزَلوا على أنظارِها ثم فتَحوها ونهَضُوا منها إلى باجَة، فأطاع سِدْرَاي بنُ وزير وخَرج إلى الموحِّدينَ فأدخَلهم باجَةَ إلى أيمن حال، وطاع جميعُ أهل الغرب والجَوْف من الأندَلس. ثم رحَل أبو إسحاقَ بَرَّان من باجةَ إلى مَرْتُلة، وأقام بها زمنَ الشتاء، ثم أمَرَ سِدْراي بنَ وزير أن يصلَ إليه إلى مَرْتُلةَ بجميع العسكر الذي إلى نَظَره، فوصَلَه بجميع ذلك من الفُرسان والرِّجال، وتحرَّكوا منها إلى لَبْلة، فتلقَّاهم يوسُفُ[4] بن أحمدَ البِطْرَوْجيُّ صاحبُها، ومشَى الجميعُ بعدَما طاعَ أهلُ طلياطةَ[5] وحِصن القصر، ووصَل الجميعُ إلى إشبيلِيَةَ فحصَروها بَرًّا وبحرًا ففتَحَها اللهُ تعالى.

---

(١) نفح الطيب ١/ ١٨٢.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢.

(٣) في م: «المريدين» وهو تصحيف ظاهر.

(٤) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤.

(٥) في ر٣: «طليطلة» وهو خطأ، وطلياطة قريبة من إشبيلِيَةَ تبعد عنها عشرين ميلًا (الروض المعطار: ٣٩٥).

ذكرُ ما حدَث على أهل إشبيلِيَةَ من الحوادثِ عندَ فتح الموحِّدينَ لها على جهة الإيجاز[1] والاختصار[2]

كان[3] فَتْحُها يومَ الأربعاء الثانيَ عشَرَ من شعبانَ المكرَّم من سنة إحدى وأربعين، ذكَرَ ذلك ابنُ صاحب الصّلاة في كتابِه فقال: فُتحت عند أوانِ العصر، وفَرَّ لَـمْتُونةُ منها إلى قَرْمُونة، وقُتل من أُدرِك منهم ومن أتباعِهم، وقُتل أبو عمرَ اليَناقيُّ الفقيه، وعبدُ الله[4] ابنُ القاضي أبي بكرٍ ابن العَرَبيّ عن غير قَصْد في بابِ المسجد، وملَكَ الموحِّدونَ المدينةَ وقصَبَتَها التي كانت قَصْرَ ابن عَبّاد.

وكان شَيْخُ الموحِّدين الذي يرجِعونَ إليه أبا إسحاقَ بنَ محمد الـمَسُوفيّ. وحضَر هذا الفتحَ من رُؤساءِ الأندَلس وثُوّارِها أبو محمد سِدْرَاي بن وزير شيخُ أهل الغرب بالأندَلس، ويوسُفُ بن محمد البِطْرَوجيُّ الثائرُ بلَبْلة، ولَبِيدُ بن عبد الله قائدُ شَنْتَرين، وجميعُ أهل الغرب بعسكرهم ورجالهم، ودخَلَ أبو إسحاق[5] الـمَسُوفي، ووحَّدَ أهلَ طلياطةَ[6] وحصنِ القَصْر وأهلَ الشَّرَف، وحين... إشبيلِيَةَ أعلَمَ بذلك عبدَ المؤمن فسُرَّ به، وأمَرَ بوصُول الشّيخ أبي يحيى بن الجَبْر إليها مُعينًا لمن فيها من الموحِّدين، فوصَلَها، وسَدَّ خلَلَها، وثَقِفَ أعمالَها. واجتمع معَ أبي إسحاق بَرَّان، عن رأيٍ واحد، وسَعْدِ مُساعد، ناظرًا في الـمَجَابي، شريكًا في التدبير والنظر للموحِّدين، ناصحًا لهم، ثم وَفَد عليه وَفْد أهل الغَرْب طائعينَ مُنيبين، ثم ترادَفَت الفتوحُ من قِبَل الخليفة بمَرّاكُش، فتوجَّه وفدُ إشبيلِيَةَ إليه كما تقدَّم، فأمَرَ لهم بصَرْف أموالهم وضِياعهم، وبعدَ ذلك اعترَضَهم أبو إسحاقَ في رجوعِهم، فرجَعوا إلى عبد المؤمن شاكِينَ به وبفِعْلِه، فأمَرَ بإطلاق أيديهم، وأمَرَ أن يَشتغلَ يوسُف بن أحمدَ بالاحتسابِ بها،

---

(١) في ر٣: «الإنجاز»، وهو تصحيف.

(٢) ينظر ابن خلدون ٦/ ٣١٣.

(٣) في ر٣: «لـمّا كان» وليس بشيء.

(٤) التكملة لابن الأبار (٢٠٧٣)، والمستملح (٤٣٣).

(٥) سقطت الكنية من م.

(٦) في ر٣: «طليطلة»، وهو تحريف.

ودامَت الحالُ شهورًا على خيراتٍ وبرَكات إلى أن وصَل عبدُ العزيز وعيسى أخَوا الـمَهْديّ ومعَهما يَصْلاتنُ ابنُ عمِّهما.

قال أبو عبد الله محمدُ بن عبد الملك[(١)]: لـمّا وصَلَ عبدُ العزيز وعيسى إلى إشبيلِيَةَ معَ عسكر من الموحِّدينَ الغازِين، نَظَر الناسُ حيث يُنزلونَهم للسُّكنى، فاتّفق الرأيُ على حَوْمة الجَبّانة من داخِل إشبيلِيَةَ ليكونوا قريبًا من قَصْر ابن عَبّادٍ حيث سكنُ[(٢)] أشياخ الموحِّدينَ: أبي يحيى بن الجَبْر وأبي إسحاقَ بَرّان الناظرِ في المخزَن بالأمر العالي ليتوصّلَ[(٣)] الموحِّدونَ بعضُهم ببعض. فنزَلوا فيها، فلم يحفَظوا سُكْناها، وابتدروا[(٤)] بحَرْق سُقُفها، وعَمَل أصاطبَ من بيوتِها لدوابِّهم، وكانوا قومَ سَوْء، ففَسَدت الدِّيارُ في أقربِ مدة، واستطالت أيدي أتباعِهم على الأندَلسيِّينَ المجاوِرينَ لهم، ففَرُّوا أمامَهم، وساءت حالُ أهل إشبيلِيَةَ بهم، وعبدُ المؤمن لا يعلَمُ ذلك حتى رُفِع له به، فأمَرَ بالكَتْب لبلاد الأندَلس كلِّها التي كانت تحتَ طاعة الموحِّدينَ بتمشِية العَدْل، ورَفْع المظالم والجَوْر.

وفي سنة اثنتين وأربعينَ وخمس مئة: خَرج أميرُ المؤمنينَ أبو محمد عبدُ المؤمن بنُ عليّ لغَزْو القبائل الثائرين[(٥)]، وذلك لـمّا تفاقَمَ نفاقُ بَرْغَواطةَ ودكالةَ ويحيى الصَّحراويُّ عندَهم، فدوَّخَ عبدُ المؤمن أرضَهم وبلادَهم، واستأْصَل طُغاتَهم، وهزَمَهم في كلِّ موقف، وسَباهم وفرَّقهم أياديَ سَبا، وصيَّرهم أحاديثَ وأنْبا، حتى أذعَنوا بالطاعة ودخَلوا في حِزب الجماعة، وفَرّ يحيى الصَّحراويُّ عنهم، وتبرَّأَ من الشّيطان ومنهم، وانتلَفَ[(٦)] بحيثُ لا يُعلم، وجعَلَ يتضرَّعُ إلى الأمير[(٧)] في أن يُعفَى عنه ويَسلَم. فرجَع

---

(١) هذا في القسم المفقود من الذيل.

(٢) في م: «سكنه».

(٣) في م: «ليتّصل».

(٤) في م: «وابتدأوا»، وهو تحريف.

(٥) في م: «الثائرة».

(٦) في م: «واختفى».

(٧) في م: «الأمر»، وهو تحريف.

أميرُ المؤمنينَ إلى حضرة مَرّاكُش منصورًا ظافرًا بعدَ ستة أشهر من خروجِه منها. وبعدَ انصرافه توسَّط الأشياخُ إليه في يحيى الصَّحراويّ، فعفَا عنه. وبعدَ هذه الحركة المباركة كان الخيرُ إليه من كلِّ جهةٍ يصِل، والوُدُّ بطاعتِه يتّصل، وأتَتْه الـمُخاطَبَاتُ في السنة بعدَها من الأندَلس بالرّغبة في الدخول إلى الطاعة، وطاعت سَبْتة، ووصَل وَفْدُها، وكذلك وصَل إليه أهلُ سَلا، فأمَرَهم بهَدْم سُورِها، فهُدِم، وصَفَح عن دمائهم.

وفي سنة ثلاث وأربعينَ وخمس مئة: أمَرَ أبو محمد عبدُ المؤمن بالكَتْب للبلدان لـمّا استقرَّ بمَرّاكُش مُريحًا للنّظر في مصالح المسلمين، وقِوَام أمر الموحِّدين. وكان رُفِع له أنّ المظالـمَ قد ظَهَرت، والقِبالاتِ في الأسواق اشتُهرت، فكتَبَ أبو جعفرٍ بخطِّه عنه كتابًا إلى الطلبة والأشياخ... يأمُرُهم فيه بالمعروف ويَنْهى عن المنكرِ... عن سَفْك الدّماء، فأجاد فيه، وكانت... في معانيه، وذلك بتاريخ الخامسَ عشَرَ من ربيع الأوّل من هذه السنةِ المذكورة، ووَجَّه منها نُسخًا كثيرةً لبلاد الأندَلس والعُدوة، فجَمَعت هذه الرسالةُ قوانينَ العدل والفَضْل، والسياسة والرِّياسة، فكانت حُجّةً بأيدي الناس، ومؤمِّنةً لهم من الباس. ولـمّا وصلت هذه الرسالةُ إلى إشبيلِيَةَ بحَثوا على أهل الأشغال، المتصرِّفينَ في الأعمال، وأخَذوهم بالإقرار والاعتراف، وبالَغوا في البحث عليهم والإنصاف، فقَتلوا منهم رجُلَيْن ظهَرَ عليهما الفسقُ[1] والظلم، والفسادُ والإثمُ والجُرم، فوُجِد أحدُهما غيرَ مختون، والآخرُ استرابَتْ فيه[2] الظُّنون، وكانا يشتغلانِ بقَبْض الفِطرة، فظَهَر منهما الغِشُّ للخلافة والإمرة[3].

ذكرُ سبب كَتْب هذه الرسالة إلى البلدان وبقيّةِ ما جَرى بإشبيلِيَةَ وغيرِها من الحوادثِ والأكوان

وذلك أنه لـمّا رُفِع إلى عبد المؤمن ما فَعَل عبدُ العزيز وعيسى أخوا الـمَهْديِّ بإشبيلِيَةَ منَ استطالةِ أيديهما على أهلِها وعلى الأندَلسيِّينَ الـمُجاوِرينَ لها، وظَهَر من

(١) في م: «الفسوق».

(٢) في م: «عليه».

(٣) في م: «والإمارة».

أخوَي الـمَهْديِّ بإشبيلِيَةَ مذهبٌ في قَتْل الناس وإباحة الدّماء، وأخْذ الأموال واتّصال الاعتداء، ثم تَغيَّرا على البِطْرَوْجيِّ صاحبِ لَبْلَةَ وعَزَما على الإيقاع به، ففَهِم ذلك منهما، ففَرَّ بنفسِه عنهما، فخَرج من إشبيلِيَةَ عندَ مغيبِ الشمس من اليوم الذي عَزَم على الفِرار فيه، فسَرى ليلتَه وحصَل في لَبْلَةَ معَ جملة[1] من أصحابه، فثار بها وأمَّن مَن كان بها من الموحِّدينَ وأخرَجَهم منها، ووَجَّه في الحين إلى طلياطةَ وحصن القَصْر مَن ثَقِفهما وملَكَهما، وأعلن بنفاقِه، وأعاد بين لَبْلَةَ وإشبيلِيَة قبيحَ فتنتِه. واتّصلت الفتنةُ منه ومن لَـمْتُونةَ أهلِ قُرطُبَةَ على إشبيلِيَةَ أعظمَ اتصال، على تكرير الأيام بالغُدوِّ والآصال، مدةَ سنةِ اثنتين وثلاثٍ وأربعينَ إلى سنة أربع، واتّصلت الفتنُ بالعُدوة والأندَلس. ثم خالَفَ ابنُ قِسِيٍّ في مدينة شِلْب، ونشأت الفتنةُ بين محمد بن عليّ بن الحَجّام وبين أمير الغرب بمدينة بَطليوس، بسبب تغلُّب ابن الحَجّام على ابن وزيرٍ وإخراجِه من مدينة بَطليوس، ثم تغلَّب ابنُ غانِيَةَ على الجزيرة الخَضْراء، وقام أهلُ سَبْتَةَ على الموحِّدينَ فقَتلوا والِيَهم وأخرَجوهم، وثَبَتَ أبو الغَمْر بن غَرُّون بشَرِيشَ ورُنْدة على طاعة الموحِّدين، وارتفَع السعرُ بإشبيلِيَة[2] وعَظُمت المجاعةُ بها، باتّصال الفتن والتحامِها. وامتَنع عليُّ بن عيسى بن مَيْمون القائد من توصيل الأطعمة والأقواتِ إلى إشبيلِيَةَ في البحر، إذ كان قائدُ البحر مالكًا له، لا تَجري جاريةٌ فيه خوفًا منه، لاستباحتِه أموالَ التُّجار ودماءَهم الذين يسوقونَ الأقواتَ ويتصرَّفون في مصالح المسلمين، فقَتَلهم[3] بسيفِه، وسقاهم[4] الموتَ من خوفِه. وبقِيت إشبيلِيَةُ محصورةً برًّا وبحرًا والناسُ بها في شدّة عظيمة من عَدَم القُوت حتى بِيعت خبزةٌ بدرهم ونصف، وبيع قَدَحُ القمح بستةٍ وثلاثينَ درهمًا، وباع الناسُ أموالَـهم بإشبيلِيَةَ بأيسرِ يسير[5]، واستوى الغنيُّ بها والفقير، وبِيع أصلُ زيتونٍ بالشَّرف بنصف درهم، ودارٌ تساوي مئة دينار بعشَرة دراهم.

---

(١) في م: «جماعة»، وهو تحريف.

(٢) في م: «بها».

(٣) في م: «يقتلهم».

(٤) في م: «ويسقيهم».

(٥) في م: «بالأيسر اليسير».

ولـمّا اتّصلت هذه الأحوالُ القبيحات، واشتدّت الكربات... المجرمونَ عيسى وعبدُ العزيز ويَصْلاتنُ ابنُ عمِّهما بمَن كان معَهما من إشبيلِيَةَ... وجميع بلاده بما عندَه من الفرسان والرجال، مُعينًا لهم... على جهةِ مالَقة... جرير ضرًا ولازَموها شهورًا، ووصَلَهم في البحر بالقطائع أبو محمد عبدُ الله بن سليمانَ مُعينًا لهم، حتّى فتَحَ اللهُ الجزيرةَ على يد أبي الغَمْر بن غَرُّون المذكور، وأخرَج لَـمْتُونَةَ عنها، وقتَل أتباعَهم، واستأْصَل أشياعَهم، واتّصل حالُ أهل إشبيلِيَة على ما ذكرتُه من الشِّدة. ثم رجَع أخوا الـمَهْديِّ ويَصْلاتنُ إلى مَرّاكُش، فبَعثَ عبدُ المؤمن واليًا على إشبيلِيَةَ أبا يعقوبَ يوسُفَ بن سليمان بعسكرٍ من الموحِّدين، وبقي أبو إسحاق بَرّانُ على شُغل المخزن، فألفاها في غايةٍ من الشِّدة في كلِّ نوع، وقد اجتمعت عليها الفتنُ بكلِّ جمع. فسكَّن روعةَ أهلِها بعَدْلِه، وساسَ أعاديَه بدهائه وعقلِه، واجتمع ببَرّانَ الناظر في المخزن، ففَتَح عليه أبوابَ السياسة، وأعانه اللهُ على نُصْح الخليفة في الرِّياسة، واتّفق رأيُهم على بِناء قَصَبةٍ بإشبيلِيَةَ، وعلى ترحيل الموحِّدينَ الساكنينَ بالجَبّانة إلى القَصَبة بسبب تشكِّي الناس من ضُرِّهم[1]، فعزَموا على ذلك، وحازوا موضعَها الذي هي الآنَ فيه، وأخرَجوا أهلَها عن ديارِهم، وعوَّضُوهم في المدينة أعواضًا من ديار المخزن مما لا يُرضيهم، وكان هذا على الناس أشدَّ من قَتْل نفوسِهم، وزيادةً في كثرة همومهم وبوسِهم، وهَدَموا سُورَ ابن عَبّاد وبَنَوْا بأحجارِه هذه القَصَبة، ولم يزَل الناسُ يتشكَّوْنَ من هذا العِوَض مدةَ الخليفة الأوّل والثاني والثالث وهم ينظرونَ لهم، إلى أنْ طال الزّمان، وأرضاهمُ الإحسان.

وخَرج أبو يعقوبَ بنُ سليمانَ المذكورُ إلى لَبْلة، ففَرَّ البِطْرَوْجيُّ من الغربِ وِجهةِ شِلْب، مقرِّ ابن قِسِيّ، فعسكَرَ الموحِّدونَ ومن تَبِعهم من الرؤساءِ الأندَلسيِّينَ في فَصْل الشتاء والبرد، فدوَّخ نظرَ يوسُفَ البِطْرَوْجيِّ بطلياطةَ[2] ونظرِها، ثم انتَقل إلى لَبْلة وأقطارِها، ثم انتَقل إلى جهة الغرب وأغار على طبيرةَ[3] ونظرِها، وتلقَّاهُ أهلُ

---

(١) في م: «ضررهم».

(٢) في م: «بألياطة».

(٣) معجم البلدان ٤/ ٢١.

مدينة العَلْياءِ بالتوحيد، وكان بمدينة شَنْتَمَرِيّةَ القائدُ عيسى بنُ مَيْمون والدُ القائد عليٍّ المذكور قبلَ هذا واليًا عليها، فاتّصل بعسكرِ الموحِّدين وغَزَا معهم جهةَ شِلْب، فتعرَّضت لهم جماعةٌ من أصحاب يوسُفَ البِطْرَوْجيِّ ليدافعوهم عن جهة شِلْب، فهزَموهم واستأْصَلوهم.

وتَمادى غَزْوُ الموحِّدينَ تلك الجهةَ حتى أنكَروا بلادَ العدوِّ غربَ الأندَلس، وألزَموهم عظيمَ الحربِ والكَرْب، وألحَّ المطرُ عليهم فلم يُمكنْهم الرجوعُ على[1] الطريق الأول لامتلاءِ الأودية وحَمْلِها، وثِقَل الأرض ووَحْلِها. فانصَرف الموحِّدونَ على جهة بَطليوس.

ولـمّا فهِم[2] محمدُ بن عليّ بن الحَجّام صاحبُ بَطليوسَ في تلك الأيام، وأوصَلَهم بالقواربِ وأجازَهم على الوادي، وحيّاهم بالتضييفِ الحافل من كلِّ جانب، فرُعِيَ له ذلك، وعُدَّ له أنه عهد، وسالَـموهُ في طريقِهم، ولم يُروِّعوا له سِربًا لأجْل توفِية حقوقِهم، ووصَلوا إشبيلِيَةَ موفورينَ منصورين.

ووصَل كتابٌ من الخليفة عبد المؤمن لأبي يعقوب، يَشكُرُه على غَزْوته هذه، جوابًا على خطابِه، يَذكُر له فيه: وَصَل كتابُكم الأَثِيل مضمَّنًا من الإعلانِ بما شاء[3] اللهُ للموحِّدينَ من الفَتْح الجليل، والصُّنع الجميل، في الجملةِ أتى، فكانت شلبُ عجّل اللهُ الفتح إليهم و... وفي أثناءِ هذا الحال... أذْفُونْش خزاه الله...[4] قُرطُبة، فتغَلَّب على يحيى بن عليّ بن غانِيةَ حربتِه[5] وشوكتِه حتى أعطاه بَيّاسةَ وأُبَّدة، وبعَثَ الرُّومُ على مدينة أَشْبُونَةَ وطَرْطُوشةَ ولارِدةَ وافراغةَ وشَنْتَمَرِيّة، واستولَوْا على جملة من بلاد الأندَلس، فداخَلَ ابنُ غانِية صاحبُ قُرطُبة بَرّان بنَ محمد صاحبَ إشبيلِيَةَ أعادها اللهُ للإسلام.

---

(١) في م: «إلى».

(٢) في م: «وعلم بهم» مكان: «ولـمّا فهم».

(٣) في م: «بما سنّى»، وهو تحريف.

(٤) قوله: «أتى فكانت شلب عجّل الله الفتح إليهم، و... وفي أثناء هذا الحال... أذْفُونْش خزاه الله...» سقط كله من م.

(٥) في م: «بقوته»، وهو تحريف.

ذِكْرُ دخول الموحِّدين قُرطُبَةَ وقَرْمُونة
وخروج ابن غانِيةَ عنهما ووفاتِه في هذه السَّنة[1]

لـمّا وقَعَت الـمُداخلةُ والـمُواصَلةُ بين الموحِّدينَ وبين يحيى بن غانِية برأي أبي إسحاق بَرّان بن محمد ونُصْحِه واجتماعِه معَه بإستِجَة، وذلك أنه لـمّا تَسلَّط أذْفُونْش على ابن غانِية ولم يرْضَ منه بما اتّفق معَه من الإتاوة التي كان يعطيه كلَّ عام، طلَبَ منه قُرطُبَةَ أن يُعطيَها له، وقال له: إنّما أنت عاملي عليها وأنا ملَّكتُك إياها يومَ إخراجي ابنَ حَمْدينَ عنها، فأنِفَ من ذلك ابنُ غانِيةَ أنفَةَ المؤمن وراجَعَ نفسَه إلى حماية الدِّين[2]، فوَجَّه إلى أبي إسحاق بَرّان بن محمد[3] أن يجتمعَ معَه، فحين وَصَل الخبرُ إلى بَرّانَ المذكور، سار إليه واجتَمع معَه بإستِجَة، وانفَردا في المناجاة بينَهما مدةَ يومِهما، فبيَّنَ عليه أبو إسحاقَ فَضْلَ الخليفة عبدِ المؤمن ومذهبَه في نَصْر الدِّين بهذه الجزيرة الـمُنقطعة وقَمْع الكفّار عنها، واتّفق الصُّلحُ بينَهما، وضَمِن له أبو إسحاقَ بَرّانُ أنه يوجِدُ له عساكرَ تَحمي بلادَه ويكونوا أعوانَه وأجنادَه على أن يُمكِّنَ أبو زكريّا المذكورُ الموحِّدينَ من قُرطُبة وقَرْمُونة ويَسكُنَ ابنُ غانِيةَ مدينةَ جَيّانَ عِوَضًا عن قُرطُبَةَ وقَرْمُونة. فاتّفقا على ذلك، وانفَصَلا على هذا الصُّلح والعهد، والرَّبْطِ على الوفاءِ والعَقْد. وعندَ انفصالِـهما خاطَبَ أبو إسحاقَ بَرّان عبدَ المؤمن بوَصْف الحال، وبتأدِّي أبي زكريا ابن غانِيةَ إلى الطاعة، وصفاءِ مذهبِه في الدُّخول في هذا الأمرِ السعيد، واستأذَنَ أبو إسحاقَ في الـمَشْي إلى الحضرة ليشرحَ[4] الحالَ مُشافهةً، فأذِنَ له في الوصول، فوَصَل مستعجِلًا، ثم صرَفَه عبدُ المؤمن مُعجَلًا، وخاطَبَ معه أبا زكريّا المذكورَ مُستَدْنِيًا ومُواصِلًا، ومُنجِزًا له من العِدات والخَيْراتِ فوقَ ما كان آمِلًا.

---

(١) انظر بعض هذه الأخبار في ترجمة يحيى بن علي بن غانية في الإحاطة ٤/ ٣٤٣-٣٤٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٤-٣١٥، والاستقصا ٢/ ١١٨.

(٢) في م: «الموحّدين»، وهو غلط محض.

(٣) في ر٣: «فوجّه أبا إسحاق وبَرّان بن محمد»، وهو تحريف بيّن.

(٤) في ك: «بشرح»، وفي م: «يشرح» وما أثبتناه من ر٣ وهو الأولى.

ولـمّا وصَلَ كتابُ أبي محمد عبد المؤمن إلى ابن غانِيةَ الـمَسُوفيِّ صاحبِ قُرطُبَةَ وما يَليها من البُلدان، ابتَهجَ وزاد سرورُه، وقَوِي في ذات الله عَزْمُه وظهورُه، فتخَلَّى له الموحِّدونَ عن مدينة جَيّان، وشاع الخبرُ عند أذْفُونْش والنَّصارى بذلك، فجَمَع عسكرَه الذَّميمَ وخرَجَ به مُحارِبًا لأبي زكريّا المذكور، وطلَبَ منه أن يُعطيَه جَيّان، وإلّا أغار عليه فيها ونازَلَـها بأعدادِه، فلم يمكن ابنَ غانِيةَ إلا أن يُنعِمَ له بها وهو يُظهرُ خلافَ ما يُبطِن، ولم يطَّلعْ أحدٌ على سرِّ الله عزّ وجل، فاستعجَلَ أذْفُونْشُ بجَمْعِه الذَّميم ونزَل على ستة أميال من جَيّان، وطلَبَه بإنجازِ وعدِه، فعزَمَ يحيى رحمةُ الله عليه على الوفاءِ لله تعالى في الذَّبِّ عن حريمِه وحُرَمِه، فرتَّبَ[1] الفرسانَ والرجالَ والحماةَ[2] الأبطال على أبوابِ المدينة وحصن القَصَبة بالثِّقات[3] وأكمل عزمَه... أذفُونْش أن يوجِّهَ... وبعدَ ذلك يصلُ هو بعده... مئة من... وقَصَدوا الموضعَ الذي كان فيه ابنُ غانِيةَ واقفًا بباب القَصَبة، فقَبَضَ على جميعِهم حينَ[4] تقبُّضَ مِلكٍ مِقدام، فارس شَهْم هُمَام، وقيَّد جميعَهم في الحديدِ والكُبول، واحتُملوا إلى سجن القَصَبة المانعة على أسوإِ محمول، وجاهَدَ في الله جهادًا مبرورًا، ولقيَ بذلك من ربِّه نَضْرةً وسُرورًا.

واتّصل خبرُ هذه البَطْشة في الحين، بأذْفُونْشَ اللَّعين، فأقلَعَ مُرتاعًا فَزِعًا، وانصَرف على طريق بَيّاسةَ ومنها إلى بلادِه بقَشْتالة[5]، وانتقَضَ بينَه وبينَ ابن غانِيةَ العهدُ[6]، ولم يكنْ بينَهما اجتماعٌ أبدًا بعدُ.

ولـمّا كَمُل له بعَوْن الله مرادُه، ورجَح[7] له عندَ الله جِهادُه، احتَمَلَهم مكبولينَ

---

(١) في م: «فوثب»، وهو تحريف لا معنى له.

(٢) في م: «والمشاة»، وهو تحريف.

(٣) في م: «بالثقاب»، وهو تصحيف.

(٤) سقطت من ر٣، م.

(٥) في م: «قشتالة».

(٦) العبارة في م: «وانتقض ما بينه وبين ابن غانية من عهد»، ولا ندري من أين أتوا بها، فضلًا عن أن الأسلوب يقتضي رفع العهد.

(٧) في م: «ورجع» بالعين المهملة، ولا معنى لها، وهي قراءة سيئة.

إلى قلعة ابن[1] سَعيد وفي نيّتِه ما ارتَبط عليه من الوفاءِ للموحِّدين، وطاعةِ أمير المؤمنين، وسار منها إلى غَرْناطةَ ليجتمعَ معَ مَن بها من اللَّمْتُونيِّين، ويَربِطَهم لِـما[2] ارتَبط، ويَشترِطَ عليهم ما اشترَط، فأقام بغَرْناطةَ نحوَ شهرَيْن، وتوفِّي بها عصرَ يوم الجُمُعة الرابعَ عشَرَ من شعبانَ المكرَّم من سنة ثلاث وأربعينَ وخمس مئة، ودُفن بالمسجد الصّغير المتّصل بقَصْر بادِيس، وأُلْصِقَ قبرُه بقبر بادِيسَ بن حَبُّوس.

ولـمّا وَصَلَ خبرُ موتِه لصاحبِ[3] القلعة أبي مروانَ بن سعيد قائدِ ابن غانِيةَ وأمينِه، دخَلَ إلى الأقماطِ المسجونينَ عندَه، وأعلَمَهم بموتِ ابن غانِية، وارتَبط معَهم على أنه إنْ حَلَّهم تكونُ القلعةُ بيدِه كإحدى بلادِ النَّصارى، فضَمِنوا له ذلك.

وخاطَبَ أبو إسحاقَ بَرّان بن محمد الأميرَ عبدَ المؤمن بما كان من هذه الحوادث، فجاوَبَه على ذلك.

ولـمّا عَلِم أذْفُونْش بموتِ ابن غانِيةَ، زاد طمَعُه في قُرطُبَةَ وأنظارِها، فحشَدَ جميعَ الكفّار ببلادِه لـمُنازلتِها، وأعلَمَ الموحِّدونَ حضرةَ أميرِهم بذلك واستغاثوا بالله تعالى وبه، فوَجَّه لهم عسكرًا معَ أبي محمد عبد الله بن أبي بكرٍ رحمه اللهُ تعالى، ثم والَى نظَرُه بعدَ هذا بتوجيه عسكرٍ في[4] إثرِ عسكر، واجتمع رأيُ الموحِّدينَ بإشبيلِيَةَ لـمّا تحقَّقوا احتشادَ الطاغية أذْفُونْش لـمُنازلة قُرطُبَةَ أن يوجِّهوا إليها أبا الغَمْر بنَ غَرُّون لعلمِهم بنَجْدتِه وشهامتِه[5]، فتوَجَّه إليها.

ولـمّا عَلِم بهذه الشِّدة يوسُفُ بن أحمد البِطْرَوْجيُّ بلَبْلة، رغَّبَ إلى الموحِّدينَ أن يُعينَهم بجُملة من فُرسانِه يمشُونَ معَ ابن غَرُّون إلى قُرطُبة لحرب الرّوم ومدافعتِهم، فقُبِل ذلك منه، فوجَّه أربع مئة فارس من أنجاد أصحابِه، فكان له ذلك عُنوانَ قَبول، في رجعتِه إلى الطاعة ومأمول.

---

(١) في م: «بني».

(٢) في م: «بها».

(٣) في م: «إلى صاحب».

(٤) سقط من م.

(٥) في م: «وشجاعته».

وأعلَمَ الموحِّدون الذين بإشبيلِيَةَ أميرَهم بمُنازلة أذْفُونْش قُرطُبة، فأزعَجَ عسكرًا صُحبةَ أبي زكريّا بن يومُور[1]. ولـمّا وصل أبو زكريّا بن يومُورَ بعسكرِ الموحِّدينَ إلى إشبيلِيَةَ، اجتَمع معَ إخوانِه الذين كانوا بها، وتشاوروا كيف يكونُ السلوكُ إلى قُرطُبة، إذِ العدوُّ مُنازِلٌ جوانبَها، فرأَوْا أن يكونَ السلوكُ إليها على الجبل كي لا[2] يكونَ عند الطاغية خبرٌ منهم حتّى يدخلوها[3]، فاستَجازوا على ذلك وسَلَكوا الطريقَ الكبير، فلم يَعلم العدوُّ بخبرِهم حتّى دخَلوها ليلًا، ثم بَرَّزوا من الغدِ عليه تبريزًا أذهَلَه، وأذهبَ طمعَه فيها وهاله، وأقام قليلًا من الأيام وأقلَعَ خائبًا لم يحظَ بنيّلِ مرام. وكان بقُرطُبَةَ مدةَ حصارِها مجاعةٌ عظيمةٌ أكَلوا... بعدَ إقلاع العدوِّ عنها وأقْفرت، ثم... في أوّل[4]...

ولـمّا فَرغَ أبو زكريّا بن يومُورَ من محاربةِ العدوِّ المذكور وَصَله خطابُ يوسُف بن أحمد البِطْرَوْجي راغبًا، ثم وَصَّل بنفسِه إلى إشبيلِيَةَ مُتطارحًا طالبًا أن يشفَعَ له عند خليفته[5]، وأن يرجعَ تحت طاعتِه، وأن يعفوَ عنه فيما جَناهُ من الفتنة، وكذلك رَغِب في أحمدَ بن قِسيّ خليله، وفي محمد بن عبد العزيز خَدينِه، فخاطَبَ فيه أبو زكريا المذكورُ بما رَغِب فيه، وأوصَلَ الأمانةَ عنه بما طلَب، فوصَلَ الأمرُ بالعفوِ عنه وعن صاحبَيْه. وكان سِدْراي بن وزير قد قَبَض يدَه مدّةَ ارتدادِ الثوّار عن فتنة الموحِّدين وأمسَكَ نفسَه عن مُقابحتِهم واشتَغل بمحاربة ابن قِسيّ ودفاع البِطْرَوْجيّ ومُغالبة محمد بن الحَجّام، فلم يكنْ للموحِّدينَ قبلَه حِقد، ولا ثَبَتَ منهم عليه نَقْد، فلمّا وصَلَ أبو زكريّا بن يومُورَ بالعساكر بادَرَ بخطابه[6] إليه وإلى أبي إسحاقَ بَرّان بن محمد بالاعتذار عن توقُّفِه والاستغفار عن تخلُّفِه، فسَعَيَا له أحسَنَ السّعي في ذلك كلِّه.

(١) له ذكر في نهاية الأرب ٢٤/ ٣٠١.

(٢) في م: «لكيلا».

(٣) في م: «بدخولها».

(٤) قوله: «في أول...» سقط من م.

(٥) في م: «الخليفة»، وهو تحريف لا يتسق سجعًا مع الذي بعده.

(٦) في م: «بالخطاب».

وفي سنة أربع وأربعينَ وخمس مئة، في آخرها: نهض[1] سِدْراي بن وزير إلى إشبيلِيَة، فبادَرَ إليها بنفسِه، فاجتَمع بهما فيها. ثم توجَّه منها بنفسِه وأهلِه ومالِه إلى حضرة مَرّاكُش، ولـمّا وصَلَ إليها قَبلَه أميرُ المؤمنين أبو محمد عبدُ المؤمن، وتَخَدَّم له الوزيرُ أبو جعفر[2] ابنُ عِطِيّة حتى خَفَّ جانبُه وشكَرَ له بِدارَه، ثم تلاه أبو الغَمْر بن غَرُّون، ثم تابَعَهما يوسُفُ البِطْرَوْجيّ مُلقيًا بنفسِه، تائبًا عمّا جَناه من قبيح الفتنة في أمسِه، واجتَمع الكلُّ بحضرة مَرّاكُش. ثم نَظَر الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن في الحركة إلى مدينة سَلا[3].

وفي سنة خمس وأربعينَ وخمس مئة: تحرَّك أبو محمد عبدُ المؤمن من مَرّاكُش إلى مدينة سَلا ليتطلّعَ منها على أخبار الأندَلس، فلمّا وصَل إليها رأى أنْ يُجريَ ماءَ عينِ غبولةَ إلى مدينة الـمَهْديّة، وهي رِباطُ الفتح مِن سَلا، فأمَرَ بإحضار الفَعَلة، وأجرَى الماءَ حتى أوصَلَه إليها في شهرينِ اثنَيْن، وأمَرَ باستدعاء شيوخ جميع الأندَلس الذين تحتَ طاعته، فوصَل كتابُه إلى أهل إشبيلِيَة، فخاطَبوا أهلَ قُرطُبَةَ وأهلَ بلاد ابن وزير والغرب وبلادِ الجَوْف وبلاد ابن قِسِيّ والبِطْرَوْجي، فوصَلوا إلى إشبيلِيَةَ مُسارعينَ[4] مُبادرين، واجتمع الجميعُ بإشبيلِيَة، وتحرَّكوا منها في الخامسَ عشَرَ من ذي الحجّة، وسَلَكوا طريقًا إلى شَريش ومنها إلى طَريف، وتلك النواحي كلُّها مُقْفِرةٌ لا سُكنَى بها ولا عِمارة لقُرب الفتنة الـمُهلِكة لأهل الأندَلس، فأجازوا البحرَ وأخَذوا الطريقَ إلى سَلَا[5].

قال ابنُ صاحبِ الصّلاة: فمرَرْنا في طريقنا على قَصْر عبد الكريم وليس فيه إلا قليلٌ[6] من الناس في خَيْماتٍ وحانوتٍ[7] واحد كان سوقُهم به، والأُسودُ تَزْأَرُ حوالَيْه والأرضُ مُوحِشةٌ قَفْرة، أخلاها تَهارُجُ الفتن. فوصَلوا إليها في السابع والعشرينَ

(١) في م: «قام».
(٢) سقطت الكنية من م.
(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٤-٣١٥.
(٤) في م: «مسرعين».
(٥) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٥، والاستقصا ٢/ ١١٩-١٢٠.
(٦) في م: «القليل».
(٧) الضبط في الكلمتين من ك.

من ذي الحجة، وهم في نحو خمس مئة فارس بينَ[1] الشيوخ والأجناد والقُوّاد ومَن تَبِعهم من رجالهم. فأمَرَ الأميرُ عبدُ المؤمن... على ميلَيْن من سَلَا، فنزَلُوا إليهم وسَلَّموا... الأندلس ما وجب... [2] والدعاء لهم ولخليفتِهم بما حضَر من الكلام. وبعدَ هذا نزَل جميعُ الوَفْد في الدِّيار وأُدِرَّت عليهم الضِّيافاتُ أتمَّ إدرار.

وفي سنة ستٍّ وأربعين وخمس مئة في أوّل يوم من هذا العام المؤرَّخ: أمَرَ أميرُ المؤمنين الوافدينَ بدخولهم إليه وسلامِهم عليه في رَحْبة دار ابن عشَرةَ وهو جالسٌ على حصيرٍ في الرَّحبة المذكورة وعليه غِفَارةٌ زَبِيبيّة، وعلى رأسِه عِمامةُ صُوف، والوزيرُ ابن عَطِيّة يُقدِّمُ الدّاخلينَ من الوفدِ ويعرِّف بهم و[3] يُسمِّيهم. فأشار ابنُ عَطِيّة بالتقدُّم في الكلام، فتقدَّم قاضيهم أبو القاسم بنُ حَجّاج[4]، فقال في أثناء كلامِه: إنّ أذْفُونْشَ لعنَه الله بعدَ ما تنَحْنَح وسَعَل، ودبَر وبهَر، فغَلِط في مقالِه عِوَضًا من[5] اللّعنة بالتأييد، ثم قال: إنه أضعَفَ بلادَنا وأقفرها[6]. فعلم الخليفةُ أنه أخطأ، فسَكَت وأعرَضَ عنه، وخَجِل جميعُ الوفد من مقالِه، وبُهِتَ من حالِه، فتلافَى الناسَ في المجلس الفقيهُ أبو بكر ابنُ الجدّ، فخَطَب في الحين خُطبةً بليغةً ذكَرَ فيها أولي[7] الأمرِ العزيز والدعاءَ للخليفة وما يجبُ من البِدار إلى طاعته، والدخول في جماعتِه، وتكلَّم رؤساءُ المجلس واحدًا بعد واحد[8]، ثم انفصَل المجلسُ في ذلك اليوم، ووَعَد الناسَ بالرجوعِ إلى المجلس والتَّكرارِ في اليوم الثاني للمبايعة، فحضَر جميعُ الوَفْد، ودخَلوا على سبيل الدّخول[9].

---

(١) في م: «من».

(٢) قوله: «الأندلس ما وجب...» سقط من م جملةً.

(٣) قوله: «الداخلين من الوفد ويعرِّف بهم و» سقط كلّه من م وأخلّت به، فهو أمر عجيب.

(٤) في م: «حجّام» بالميم، وهو تحريف.

(٥) في م: «عن».

(٦) في م: «وأفقرها» بتقديم الفاء، وهو تصحيف.

(٧) في م: «أولاد»، وهو تحريف لا معنى له!

(٨) في م: «واحدًا واحدًا»، خطأ.

(٩) ينظر الاستقصا ٢/ ١١٩.

ذكْرُ بيعة رؤساءِ الأندَلس الوافدينَ على عبد المؤمن بمدينةِ سَلَا وانخلاعِهم له[1]

لـمّا دخَلوا على أبي محمد عبد المؤمن بادَرَ أبو محمد سِدْرايُ بن وزير أولًا وبايَعَ على الانخلاعِ من بلادِه باجَةَ ويابُورةَ وأنظارِهما، فشُكِر على فعلِه ذلك. وأراد البِطْرَوْجيُّ أن يتكلَّم فلم يقدِرْ على النُّطق، ولا شَرَح بيانَ الحق، فنفِدَ عليه توقُّفُه، وتبيَّن تحرُّجُه، لكنّ أميرَ المؤمنين رفَع رأسَه للناس وقال مشيرًا إليه: هذا أبو الحَجّاج صاحبُنا بالشَّرف. فلم يَشكُرْه على ذلك، ولا قبّل يدَه. ثم قام ابنُ غَزُّون وبايَعَ على الانخلاع من بلاده، وكذلك محمدُ بن الحَجّام، وكذلك عامرُ بن مَهيب صاحبُ طبيرة، وكذلك بايَعَ جميعُ مَن حضَر من الثوّار، وتخلّف ابنُ قِسِيّ وأشياخُ بلدِه شِلْب عن هذا الجَمْع، ولم يحضُرْ مَن ينُوبُ عنه، فظهَر للخليفة فسادُ مذهبِه وارتدادُه. ثم دخَل سائرُ الناس من الوافدينَ واحدًا بعدَ واحد حتى كمُلوا[2]، وكان السَّبقُ لأهل إشبيلِيَة. وتكلَّم في هذا[3] المجلس كلُّ مَن أراد أن يتكلَّمَ من الأشياخ والأجناد ومن سائرهم، ولم يُثرِّب[4] أحد عليهم ولو تكلَّم بكلام سخيف، أو تظَلَّم بطلبٍ ضعيف، وأنشَدَ من الشعراء مَن أراد. وأمَرَ جميعَ الوفد بالانصراف إلى بلادهم بعدَ إقامتهم خمسةَ عشَرَ يومًا.

وخاطَبَ أبو محمد عبدُ المؤمن الأشياخَ والطَّلبةَ الذين بإشبيلِيَة بوَصْف الحال، وبما يُبلِّغُ الآمِلَ للآمال. وبعدَ انصراف هذا الوفد تحرَّكَ الأميرُ أبو محمد[5] المؤمنين راحلًا إلى مَرّاكُش حضرتِه، وانصَرف معَه ابنُ وزير على أملٍ وجَذَلٍ وعدّةٍ كريمة مبرورة، وخاطَبَ أخاه أن يُمكِّنَ الموحِّدينَ من بلاده، فامتَثل ذلك وفعَلَ. وأُمِرَ البِطْرَوْجي

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٥، والاستقصا ٢/ ١١٩.

(٢) في م: «أتـمّوا»، وهو تحريف.

(٣) في م: «بهذا».

(٤) في م: «يعتب»، وهو تحريف قبيح، وثرَّب فلانٌ عليه: لامه وعيّره بذنبه، وفي التنزيل العزيز: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [يوسف: ٩٢]. يقال: ثرّب عليهم فعلَهم: قبّحه.

(٥) في م: «أمير المؤمنين».

فصُرِف مهجورًا إلى مَرّاكُش... لَبْلة من التّمادي على الارتداد ما أوجَبَ سجنَه... الغَلَبة عليهم... بن عيسى.

وفي هذه السنة: حاصَرت العربُ سيروان[١]... وضيَّقت عليها[٢].

وفيها: أَخَذ مؤنسُ بن يحيى العَرَبيُّ مدينةَ باجَةَ وأطاعه أهلُها[٣].

وفي سنة سبع وأربعينَ وخمس مئة: شَرعَ أميرُ المؤمنين عبدُ المؤمن في الحركة إلى بِجَايةَ وأنظارِها على ما أذكُره إن شاء اللهُ تعالى.

ذكْرُ حركة عبد المؤمن إلى بِجَاية واستيلائه على مملكة بني حَمّاد وبلاد متيجةَ وتيسير ذلك[٤] بالعَجَب[٥] العجيب

لـمّا أراد الخليفةُ عبدُ المؤمن غَزْوَ بني حمّاد استَسَرَّ ذلك معَ خاصّتِه ووُزرائه، منهم: أبو إبراهيم وأبو حفص وغيرُهما، وأظهَر لهم ما في طيِّ نفسِه من ذلك، فاشتغل باحتشاد قبائل الموحِّدينَ من جبالهم، وخَرج من مَرّاكُشَ في أواخِر سنة ستٍّ الفارطة مُظهِرًا للناس غَزْوَ الرّوم بجزيرة الأندَلس. فلمّا وصَل إلى سَلا، أقام بها شهرَيْن يُردِّدُ الرأيَ في نفسِه، ثم وصَل[٦] منها إلى سَبْتَةَ مظهرًا للناس الإجازةَ إلى الأندَلس. واستَدعى مَن له من العمّال بإشبيلِيَةَ وأنظارِها، فوصَلوا إليه، واستوضَحَ مسائلَهم. ثم رحَل منها راجِعًا مُظهِرًا الانصرافَ إلى مَرّاكُش، وأشاع الذِّكرَ بذلك للناس، ومَقصِدُه في نفسِه ونفسِ خاصّتِه بِجَايةُ وبلادُ إفريقيّة. وكان حينَ حركتِه هذه من مَرّاكُش خاطَبَ عاملَه على تِلِمْسان وهو ابنُ وانودين يأمُرُه بمنع التُّجار المسافرينَ من التصرّف والتحرُّك إلى إفريقيّةَ برًّا وبحرًا لأجل الإخبار، بانتقال المسافرينَ

---

(١) سقطت من م، ولم نقف عليها.

(٢) في م: «عليهم».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٨٠ والمقصود هنا سنة ست وأربعين وخمس مئة.

(٤) ينظر الكامل ١١/ ١٥٨-١٥٩، والمعجب ٢٧٢ فما بعد، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٠٢ فما بعد، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٣٥-٢٣٦، والاستقصا ٢/ ١٢٠-١٢١.

(٥) في م: «فالعجب».

(٦) في م: «توصل».

والتُّجار. فامتَثل ذلك والتزَم الأمرَ في فعلِه هنالك[1]. ولـمّا فصَل من طَنْجةَ أخَذ على قَصْر عبد الكريم على طريق جَعَل فيه فاسًا على يمينِه، وأخَذ قاطعًا إلى الشرق، ونادى منادي المحَلّة عن أمرِه: أيُّها الناس، مَن تكلَّم منكم بكلمةٍ معناها إلى[2] أينَ هو المشيُ هل إلى الشرق أو إلى الغرب أو إلى[3] القِبلة؟ فجزاؤه السَّيف... ثم تحرَّك إلى جهة بِجَايةَ مُستعجِلًا في الرحيل، على أول غرَضِه من التأميل، فما شَعر ابنُ حمّاد صاحبُ بِجَاية، المعروفُ بالعزيز، حتى وصَل عاملُه بالجزائر بعدَما خَرج منها، ودخَلَها الموحِّدون، فصَبَّحَ بِجَايةَ في إثْرِ ذلك. وعَلِم بوصولِه أبو عبد الله بنُ ميمون المعروفُ بابن حَمْدون، وقد كان بينَه وبينَ أبي محمد عبد المؤمن عهدٌ على ذلك ومُوافقة، ففَتَح له بابَ مدينة بِجَاية، وقد كان ابنُ حمّاد حين وصَله مُسْتَنابُهُ من الجزائر نَظَر في قطعة من قطع البحر وركبها لفَوْره[4]، ورآها مُفزِعةً لذُعرِه، وأضاف إلى القطعة المذكورة قطعتين اثنتين ملأهما بجميع ذخائرِه من الجوهر والياقوت والذهبِ الصامت والآنية والثيابِ وغير ذلك، وأدخَل فيها عِيالَه، وقَذَفت في حينِه بذلك إلى مدينة[5]... وكان فيها أخوه شقيقُه، فأحَسَّ منه غَدْرَه، فرحَل عنه في البحر، ووصَل إلى مقرُبة من القُسنطِينة[6][7] في آخر مراسيها، وقد كان حصَّنها برجال من عنده، فنزل في البرِّ منها على ثلاثينَ ميلًا وأخرج من القطائع جميعَ ماله المشحون فيها وأوقَرَه على الدواب واحتمله إلى القُسنطينة وأقام بها حتى نازَلَه الموحِّدونَ وحاصَروه بها مدة، فرغِبَ في الأمان بجميع[8]... لعَدْلِه، واثقًا بفضلِه، فلقيَ من التأنيس ما أنساه... مظنّة تركه[9]،

(١) في م: «هناك».

(٢) سقط من م.

(٣) سقط من م.

(٤) في م: «العبوره»، وهو تحريف.

(٥) سقطت من م.

(٦) في م: «قسنطينة».

(٧) من هنا إلى قوله: «القسنطينة» بعد سطرين سقط كله من م.

(٨) سقطت من م.

(٩) قوله: «مظنة تركه» سقط من م.

وانتَقل بأثقالِه، وأحمال مالِه، وجميع أهلِه وعِيالِه، معَ المحَلّة إلى مَرّاكُش، فأعطاه الدِّيارَ والأموال، وتمّم له الآمال، ودام هو وبَنوه تحتَ إنعام وإكرام، حتى انقَرضوا بعدَ هذا بسنين. وبعدَ استقرارِه بمَرّاكُش، وتوالي إسبال[1] النِّعم عليه من الخليفة بآلاف الدنانيرِ والهِبات الجَزلة، وإحضارِه للمُذاكَرة في مجلسِه العالي، أشغل نفسَه[2] بالطِّراد والصَّيد، وتخامَلَ وتجاهَل، واستَعمل شِبَاكَ الحديد لصَيْد الأسود الضَّواري، فكان يتحيَّلُ عليها ويصيدُها ويُدخِلُها في أقفاصِ حديد ويَسُوقُها إلى عبد المؤمن ويُتحِفُه بها، فتُعقَرُ بحضرتِه على معنى الملاعبة والمطاردة بينَ يدَي الملوك، وكان يُعطيه على كلِّ أسَد يصيدُه ألفَ مثقال.

واستاقَ ابنُ حمّاد المذكورُ في بعض الأيام شِبْلَ أسدٍ صغير وأدخَله إلى الخليفة في مجلسِه، فأمَرَ بحلِّ الشِّبل من عِقاله، فمشَى الشِّبلُ بينَ الناس يخترقُ الصُّفوفَ حتى وصَل إلى الخليفة فرَبَض بينَ يدَيْه، وسَكَن لا يتحرَّكُ من موضعِه، فعَجِب الناسُ من ذلك. وكان قد سَبَقَ إليه في ذلك المجلس زَرْزور، فتكلَّم بين يدَيْه بأنواع من الكلام، فارتَجل أبو عليٍّ الأَشِيريُّ أبياتًا من الشعر في صفة الحال بالمجلس المذكور، وهي [من الرمل]:

أنِسَ الشِّبلُ ابتهاجًا بالأسَدْ ... ورأى شِبهَ أبيهِ فقَصَدْ
ودَعا الطائرُ بالنّصرِ لهُ ... فقضَى حقَّكمُ لمّا وَرَدْ
أنطَقَ الخالقُ مخلوقاتِهِ ... بالشّهاداتِ فكلٌّ قد شَهِدْ
أنكَ القائمُ بالأمرِ لهُ ... بعدَ ما طال على الناسِ الأمَدْ

رَجْعُ الخَبر: ولـمّا استولَى أبو محمد عبدُ المؤمن على بِجَايةَ وأنظارِها، وجَميع[3] أقطارِها، كان مَيْمونٌ وزيرُ ابن حمّاد قد فَرَّ إلى قبائل العرب بني سُليم، فكتَبَ إليه بالأمان، والعَدْل والامتنان، فوصَل من فَوْرِه ولقِيَ ما وَعَد له[4] وسَعِد بمذهبِه.

---

(١) في م: «سيل».

(٢) في م: «اشتغل» مكان «أشغل نفسه»، وهو تحريف وسقط في آن.

(٣) في م: «وجمع»، وهو تحريف.

(٤) في م: «به»، وهو تحريف.

وكتَبَ أبو محمدٍ عبدُ المؤمن رسالةً فصيحةً إلى أهل العُدْوة والأندَلس، بوَصْف[1] فَتْح بِجَاية بخطِّ أبي جعفرٍ بن عَطِيّة أبدَعَ فيها غايةَ الإبداع، ووفَى شرحَ هذا الفتح بما أبهَجَ القلوبَ والأسماع، وبعَثَ بها إلى سائرِ الأقطاع و[2] الأصقاع.

ذكرُ سببِ هجر عبد العزيز وعيسى أخوَي الـمَهْديّ ومَقْتلِ يَصْلاتنَ صِهرِهما وصَلْبِه[3]

وذلك أنّ الأميرَ[4] عبدَ المؤمن لم يزَلْ من وفاة الـمَهْدي يكنُفُ[5] عبدَ العزيز وعيسى ويُحسنُ إليهما وإلى يَصْلاتنَ معَهما بالإحسان التامّ، والإنعام العامّ. وهذا يَصْلاتنُ يُغويهِما[6]، ويوقدُ نارَ الحسَد في جوانحِهما، ويجعلُ نَقْضَ العهد وخَلْعَ الطاعة غذاءً بجوارحِهما، فإذا[7] دخَل مجلسَ الأمر العالي دخَل قاطبًا، وإذا خَرج خَرج غاضبًا، فيستريحُ بذمِّ الأمر بالتصريح، وينسُبُ إليه كلَّ فعلٍ[8] قبيح، حتى فشَا[9] سرُّه وسرُّ أصحابِه، ووَضُحَ وضوحَ الشمس غدرُه وغدرُ أترابِه، وتبيَّنَ مكرُه في طلابِه، فأخذه[10] بعدَ[11] طول إذاية وسَجَنَه[12]... فلمّا كان إيابُه من الغزوة المذكورة... عليه بإمضاءِ حدِّ الحسام على جِذْع بمَرْأى من جميع الأنام. ولـمّا كان... خذ[13]

(١) في م: «فوصف»، محرَّفة.

(٢) سقط من م.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦، والاستقصا ٢/ ١٢٤.

(٤) في م: «أمير المؤمنين».

(٥) في م: «يأتلف».

(٦) في م: «يغريهما» محرَّفة.

(٧) في م: «وإذا».

(٨) سقط من م.

(٩) في ك، ر٣: «مشى».

(١٠) قوله: «في طلابه فأخذه»، سقط من م.

(١١) في ر٣: «بعض».

(١٢) في م: «وسجن».

(١٣) هكذا في ك، ر٣، وكأنه عجُز كلمة، ووقع في م: «هذا»، وهو تحريف بيّن.

ليصلاتن[1] أظهرت نفوسُهم الخبيثةُ ما في طَيِّها من إرادة النِّفاق والانتكاث، وأطمعَتْهم فيما لم يستحقُّوه أحلامُ الأضغاث[2]، فبَسَطت بهم بعدَ ذلك حوادثُ الأحداث[3]، إنصافًا على ما كانوا طُبِعوا عليه من دَبِيب عقاربِ الحسَد، وكمُنت[4] للأمر العالي أفاعيهم بكلِّ رَصَد، فاعتُقلوا بعدَ الهجر، ثم سُرِّحوا، ووَصَلوا إلى فاس، وأُعطُوا ومُنِحوا فلم يقنَعوا، فكان من حديثِهم ما يَطُولُ فيه البيان، فقُتلا وصُلبا في جِذْعَيْنِ في ذي القَعدة من[5] عام ثمانية وأربعينَ وخمس مئة على ما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى[6].

وفي سنة سبع وأربعينَ وخمس مئة: كان وصولُ أبي محمد عبد المؤمن إلى مَرّاكُش حضرتِه من حركة بِجَاية، فلمّا استقرَّ بها وَفَد الناسُ إليه من جميع بلادِه مهنِّئينَ له بإيابه، وبما منَحه اللهُ من الظَّفَر بأعدائه، ويسَّر له من طِلابِه، مُستبشِرينَ بيُمن سلامتِه، وعَوْدتِه إلى مقرِّ خلافتِه[7].

ووَفَد وَفْدُ إشبيلِيَةَ في جملةِ مَن وَفَد ووَرَد، وفيهم القاضي أبو موسى عيسى بنُ عِمران رحمه اللهُ تعالى، فأنشَد في معنى التحريض على البيعة للسيِّد أبي عبد الله ابن الخليفة عبد المؤمن، وهي [من الكامل]:

طـــال انتظـــارُ العالَـــمينَ لبيعـــةٍ ... فقلـــوبُهمْ كالنـــار مـــا لم تُعْقَـــدِ
فلَيُورِيَنْـــكَ اللهُ بعـــدَ تمامِهـــا ... عُمْـــرًا يَطـــولُ بنَـــصْر ديـــن محمـــدِ
إنْ قيل مَن للأمـر واحتَفـل الـوَرى ... لَأجـابَ كـلٌّ بـالجوابِ الأقـصدِ

---

(١) في م: «اليصلاتن»، وهو تحريف.

(٢) في م: «أضغاث الأحلام» ولا ندري من أين أتوا بها.

(٣) في م: «الأحاديث»، وهو تحريف ظاهر لا يتفق مع الانتكاث والأضغاث!

(٤) في م: «وكشّ»، وهو تحريف.

(٥) سقط من م.

(٦) قوله: «إن شاء الله تعالى» سقط من م.

(٧) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦.

أنّ الخلافــةَ قــد تبــيَّن نورُهــا		للنــاظرينَ عــلى جَبــين محمــدِ
ذاك الــذي أعْطَتْـك كُنيـةَ إسـمِه[1]		ليَحُــوزَ أكــرمَ غايــةٍ للــسُّؤدَدِ
فَـرْعٌ غَــذاهُ العلــمُ مــن لَــدُ نـشأةٍ		حتى استَوى وغدا منـارَ المهتَـدي[2]
ما عُذرُ مَن فـوقَ الكواكـبِ أصلُهُ		ألا ينــالَ العلــمَ أخــذًا باليــدِ

فاستحسَنَها أميرُ المؤمنين، وكانت حاجةً في نفس يعقوب، فأعربَتْ له عن ضمائر القلوب، وشاعَ قَبولُ هذه الأبيات عندَ أشياخ الموحِّدين؛ فتكلَّموا في ذلك بإجماع وإصفاق، وقالوا: إنّ القولَ قولُهم على أصحِّ الاتّفاق[3]، وبادَرَ الناسُ من طَلَبة الحَضَر والأشياخ بالرغبة في تنجيم[4] هذا الخبر، وتَوالت الرغَبات[5] يومًا بعدَ يوم وصَرَّحوا أنّ السعدَ لهم في انتظام[6] الأمرِ العزيز بالعهد الكريم. فقَبِل أميرُ المؤمنين منهم، واستحسَن القولَ عنهم.

ووَفَدت الشعراءُ للتهنئة بفتح بِجَاية، فمنهم: أبو عمر بنُ حَرْبون[7]، قال من قصيدةٍ طويلة يمدَحُه ويذكُر وقعتَه في العرب [من الطويل]:

إلى هــذه كــان انتهــاء المطالــبِ		فـسَقْيًا ورَعْيًـا بعـدَها للرَّكائـبِ[8]
فيــا نعمــةً كانــت مــن الله نقمــةً		على كلِّ مُـزْورٍّ[9] عـن الحـقِّ ناكـبِ

---

(١) في م: «أعطته كنيتُك اسمَه».
(٢) في م: «مهنَّد».
(٣) في م: «اتفاق».
(٤) سقط اللفظ من م.
(٥) في م: «الرعيّة»، وهو تحريف عجيب!.
(٦) في م: «انتظامهم».
(٧) في ك، ر٣: «حزمون» مصحف، وهو أبو عمر أحمد بن عبد الله بن حربون الشلبي الشاعر المعروف.
(٨) في م: «للمراكبِ».
(٩) في م: «مغرور»، وهو تحريف.

جـلا الـسعدُ .... والترائـب[1]

وصَيَّرْنَ[2] بِيضَ الهندِ حُمرًا كأنّما[3] سَفَرْنَ إلينا عن خدودِ الكواعبِ

وقائعُ غارَتْ في البلاد وأنجَدتْ فمَدَّ يدًا للسِّلم كلُّ محاربِ

فأيقَنَ مُرتابٌ وآمَنَ كافرٌ وثابَتْ إلى العاصي بصيرةُ تائبِ

فكيف يُطيقُ الناسُ شُكرَ جَنابِكمْ وأعمارُهمْ[4] من بعض تلك المواهبِ

وفي سنة ثمانٍ وأربعينَ وخمس مئة: تحرَّك أبو محمد عبدُ المؤمن من حضرته[5] مَرّاكُشَ إلى مدينة سَلا لتشييع[6] كُبراءِ العرب الوافدينَ عليه بالطاعة معَ بعض أُمرائهم من إفريقيّة، وفي نفسِه أن يربِطَ فيها[7] العهدَ الميمون، و[8] الطاهر المَصُون، فلمّا وصَل سَلا انعقَدت البيعةُ لابنه محمد على أوفَى شروطها ورُبوطها[9]. وأمَرَ بالكَتْب في وَصْف الحال ورغبة بالموحِّدين في البيعة المذكورة المؤْذِنة لهم ببَسْط الآمال، وذلك من إنشاء ابن عَطِية، فوصَلت البَيْعاتُ من كلِّ الجهات[10]، ووَفَدت الشعراءُ من الأندَلس للتهنئة على هذه البيعة السعيدة، فمنهم: أبو الوليد إسماعيلُ بن محمد الشَّوّاش، فقال من[11] قصيدة [من الطويل]:

أجابَ به داعي الحياة مُثوِّبا فبادَرَه واستنجَدَ الريحَ مَرْكبا[12]

---

(١) كذا في النسختين، لم يبقَ من البيت سوء ما أثبتنا، وسقط البيت جُملة من م.

(٢) في م: «وصيَّر».

(٣) في م: «كأنّها».

(٤) في م: «وأمرهم».

(٥) في ر٣، م: «حضرة».

(٦) في ر٣، م: «ليشيع».

(٧) سقط من م.

(٨) في: «والعهد الطاهر» وفي م: «الطاهر» من غير الواو.

(٩) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦، والاستقصا.

(١٠) في ك: «من كل جهاتٍ».

(١١) في م: «في».

(١٢) قدم البيت الأول على الثاني في ك.

إمـامُ هُـدًى يـدعو إلى الحـقِّ معلنًـا ... فيا فوزَ من لبَّـى ويـا ويـلَ مـن أبَـى
خليفــةُ مهــديِّ الــورى وأمينُــهُ ... تــولّاه في المحيــا[1] ووالاه مُعقِبـا
حـــواهُ أمـــينٌ للإمامـــة حـــافظٌ ... وأدى حقـــوقَ الله فيـــه وأوجَبـــا
وأنجَــزَه في الفــتح صــادقَ وعــدِه ... فمكَّنَــه في الأرض شرقًــا ومغربــا
لقد رَضِيَتْ فيـك الخلافـةُ مُرتـضًى ... لها[2] أوجَبَت فيـك الدِّيانـةُ مُجتبـى
وبالأمن والإيــمان والفــوز والرِّضـا ... ولايــةُ عهـد تُطلـعُ الـسَّعدَ كوكبـا
ونوجِيتَ بالسعدِ[3] الذي قُدِّرتْ له[4] ... فأمــضَيْتَ أمـرًا كــان أولى وأوْجَبــا
هو الـمَلِكُ الميمونُ في مطلع الرِّضـا ... أنــار وفي حُجْــر المعــالي تَرَبَّبــا[5]
فأُنــشئ مــن صَــفْو الحيــاةِ وسرِّهــا ... وبــوِّئ مــن مَغْنــاك غَــيْلًا مؤشَّــبا[6]
ويكفيه فخرًا يضمَنُ الفضلَ والنُّهى ... بــأنْ كــان منـكَ ابنًـا وكنـتَ لـه أبـا

ومدَحَه جماعةٌ من الشعراءِ القُصّاد، فهنؤوه بالبيعة المذكورة، وغَلَبتِه على بني حماد.

ولـمّا كمُلت رغبةُ الموحِّدينَ في البيعة[7] للابن أبي عبد الله، وأخَذوا بيده، وارتَبطوا لمعاهدة عهدِه[8]، رأَوْا أنّ العزّةَ تابعةٌ لهم في تولية الساداتِ البَنِين، وأنّ الخيرَ لهم في ذلك وللمؤمنين، يُوالُونَ الرغَباتِ في تولية هاتِه الولايات، فقَبِل منهم ما باشَروا به من رغباتِهم، وأسعَفَهم في طَلَباتِهم.

---

(١) في م: «للمحيا».
(٢) في م: «لما».
(٣) في م: «بالأمر».
(٤) في م: «قرّ علمُه».
(٥) في م: «تربَّبا».
(٦) زعم ناشرو (م) أنّ مكان البيت بياض في الأصل، مع أنه ثابت في ك، ر٣، كما ترى.
(٧) في م: «بالبيعة».
(٨) في م: «وارتبطوا بالمعاهدة»، وهو تحريف وسقط.

ذكرُ[1] ولاية السّاداتِ الأكرمين أولادِ الخليفة أميرِ المؤمنين عبدِ المؤمن بن عليّ[2]

وَلِـيَ السيِّدُ الأعلى أبو حفص مدينةَ تِلِمْسان، وتوجَّه معَه أبو محمد برو[3].... عليها، وصِهرًا للخليفة[4]، وعبدُ العزيز بن عباس... فاله[5]، ووَلِـي السيِّد أبو سعيد[6] غَرْناطة، فمشَى معَه الشيخُ أبو عبد الله بنُ سليمان وأبو سعيد عثمانُ بن مَيْمون الصُّنْهاجي، ثم انضاف إليها[7] بغَرناطةَ عندَ مَشْي السيِّد إليها أبو يحيى بنُ بخيت، ومنَ الكتّاب: أبو الحَسَن بن هردوس[8]، ثم ابنُ طُفَيل، ثم أبو بكر بنُ حُبَيْش الباجِي، وتوجَّه السيِّدُ الأسنى أبو محمد عبدُ الله إلى بِجَاية، وسار معَه على معنى التدريب الشيخُ أبو سعيد يَخلُفُ بن الحُسَين. ووَلِـي السيِّد أبو الحَسَن على مدينة فاس، فسار معَه وزيرًا يدرِّبُه أبو يعقوبَ يوسُفُ بن سليمان، ومنَ الكتّاب أبو العباس بن مَضَاء يُعلِّمُه ويقرأُ عليه.

رَجْع الخَبر لسبب مقتَل أخوَي المَهْدي رحمه الله تعالى: لـمّا كمُلت البيعةُ لوليِّ العهد أبي عبد الله واتّصلت بها الولاياتُ للسادات، دَبَّت عقاربُ الحسَد في قلوب عبد العزيز وعيسى وأصحابِهما بمكان مقرِّهم بمدينة فاس، واشتعلت نارُ الحسد في نفوسِهم، وكسَتْهم ثيابَ الحقد عِوَضًا من لَبُوسِهم، معَ ما كانوا طُبِعوا عليه من سُوء

---

(١) في م: «ذكرى».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦، والاستقصا ٢/ ١٢٤، وذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ٥٥١ من الكامل ١١/ ٢١١-٢١٢.

(٣) في م: «بدو»، ولم يُنبّهوا إلى الفراغ الذي بعده.

(٤) في م: «وصهر الخليفة».

(٥) في م: «باله».

(٦) في ك: «أبو عثمان سعيد» وهو غلط.

(٧) سقط من م.

(٨) في م: «العردوس». وينظر تعليقنا في الصفحة ٢٣٨ من هذا المجلد.

الاعتقاد وكاس الأحقاد، يتنكّرونَ[1] للفتوح والأفراح، ويحسُدون الأمرَ على الماء القُراح. فسَرَوْا[2] في الحين ليلًا ونهارًا إلى مَرّاكُش لينتقضوا ما عقَدَه اللهُ في محلِّه وأمّله لأهلِه، وتواعَدوا معَ أصحابهم أن يجتمعوا في جامع عليٍّ بن يوسُف فأخْلَفوهم وأفرَدوهم وتحَيَّلوا[3] بسُوءِ تدبيرِهم ورأيِهم الفُرصةَ في حلِّهم أنّ في اللّيل والنهار تكمن[4] الآجال، وأنّ الأدواءَ تتشعَّبُ بسبب الاستعجال، فلم يعلَموا ذلك، بل استعجَلوا لأنفسِهم[5] أقدارَ المهالك.

وحين بَلَغ الخليفةَ خروجُهم من فاسَ على غير طريق ساءَ ظنُّه بهم، فوجَّه في الحين ابنَ عَطِيّة ليصُدَّهم عن تعدِّيهم ويردَّهم عن التغيير الذي يُرْديهم، فوصَل ابنُ عَطِيّة إلى مَرّاكُشَ في يومين، فوجَدَهم قد أحدَثوا أحداثًا وقَتلوا واليَها ابنَ يفراخن[6] الـمُستنابَ بها، فنفَذَ لهم من الله القضا، وحقَّ فيهم من الحسام الاقتضا، فقُتلوا وصُلبوا بأعلى جِذْع، وقُتل عيسى قُربَ باب الدَّبّاغين، وعبدُ العزيز ببابِ أغمات، ثم بعدَ توجُّه الوزير ابن عَطِيّة خَرج الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن من سَلا قافلًا إلى حضرتِه مُستطلعًا ما حدَث وكان[7] مستمعًا، حتّى توسَّط الطريقَ فتلقّاه الثَّفَج[8]، وأدركَه الفتحُ والفَرَج، في وادي كسس، فوَصَل مَرّاكُشَ ودخَل دارَه، وقرَّ قرارُه، فأخَذ في قطع دابِرِهم، وتحَكَّم السّيفُ في أوّلهم وآخِرِهم، فلمّا أكمَل غرَضَه وأهلَك اللهُ من بغَى عليه، وتفرَّغ ذهنُه، وظَهر له من الله عَوْنُه، أمَرَ الوزيرَ الكاتبَ أبا جعفرٍ ابنَ عَطِيّة بالكَتْب إلى جميع البلدان، فكتَبَ بها لا يُجالُ معَه من الفصاحة والبلاغة في ميدان، وشَرَحَ حالَهم.

---

(١) في م: «يتكّدرون».

(٢) في م: «فشدّوا».

(٣) في م: «وتحيّنوا»، وما أثبتناه من النسخ.

(٤) هكذا في النسخ وفي ك، م: «تكمن».

(٥) في م: «أنفسهم».

(٦) هكذا في النسخ، وفي م: «تفراجين».

(٧) في م: «وما كان»، وما أثبتناه من النسخ.

(٨) في م: «الثبج»، وهو تحريف.

ذكرُ مقتل الناكثينَ معَها من الموحِّدينَ وأصحابِها

ولـمّا وصَلَ الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن إلى مَرّاكُش لم يزَلْ يتَّبَعُ[1] الإيقاع بأصحابِ الناكثينَ المذكورين، فألفاهم في جَمْعِهم أكثرَ من كلِّ قَبيل وقد خالَطَهم من أهل التخليط من سائر القبائل بعضُ نَفَر قليل، فقَبَض عليهم وسُجنوا، ونفَذَ الأمرُ بعدَ إحضارِهم وإقرارِهم لإخوانِهم من كلِّ قَبِيل أن يتولَّوا قَتْلَ إخوانِهم بأيديهم ويكونوا... للأمر العالي ثارَه، وقَطعوا من العدوِّ مِفصَلَه وفِقارَه. وطلَع عبدُ المؤمن في أعلى البُرج الذي على قَصْر الحَجَر للجلوس وهو حَقِدٌ[2] عليهم وعَبُوس، وأحضَر أولئك الغادرينَ المنافقين المسجونين، فامتَثل الموحِّدونَ ما أُمِروا به من قَتْلِهم في أيام، وذلك يومًا بعدَ يوم، فنشَأت من الموحِّدينَ إثْرَ ذلك بعضِهم في بعض من كلِّ مَشّاءٍ بنميمة، وسَمّاع في فتنة مُلِيمة، فطَرقت للموحِّدينَ في هذا الوقت وَحْشةٌ من الخَجَل والوَجَل، ودهشةٌ من قبيح ما ظهر من الغادرينَ المذكورينَ من نكوثِ العهد في السَّهل والجَبل، فترامَوْا على خليفتِهم راغبينَ في العفوِ وإزالة الكَدَر، وجَلْب ما تعوَّدوه من الخُلوص والظَّفر، فقَبِل منهم ما أمَّلوا وتعطَّف عليهم على عادتِه بما سألوا، وكتَبَ إلى البلدان رسالةً بتغافُر الموحِّدينَ، من أفصح الرسائل، تبيِّنُ عن الأحوال المذكورة لكلِّ مُستفهِم وسائل، من إنشاء ابن عَطِية، بتاريخ سنة ثمانٍ وأربعينَ وخمس مئة.

وأقام عبدُ المؤمن بعدَ ذلك شهورًا مُواليًا إحسانَه وإنعامَه على جميع الموحِّدينَ الـمُتَظافرين[3] حتى أحْمَدوا ما كان من تلك الهيجا، ورأَوْا بإدرار البركات والمَسَرّات أنها خيرٌ من الدَّعَة في الأرجا، فضلًا منه وإجمالًا، وطَوْلًا تابَعه تألُّفٌ في القلوبِ واشتَمَلت عليه اشتمالًا. ونَظَر فيما استخار اللهَ فيه من البعوثِ إلى الأندَلس.

وفي سنة تسع وأربعينَ وخمس مئة: نَظَر أبو محمد عبدُ المؤمن في توجيه البعوث إلى حماية الأندَلس، وكان أبو زكريا يحيى بنُ يُومور[4] متردِّدًا بالنظرِ والحماية بما أمَرَ

---

(١) في م: «يتتبّع»، وما أثبتناه من النسخ.

(٢) في م: «حاقد»، وهو تحريف.

(٣) في م: «المتغافرين»، وهو تحريف.

(٤) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦، والاستقصا ٢/ ١٢٥: «يغمور».

به من الولاية بقُرطُبَةَ وإشبيلِيَة، فطرأ عليه أنّ الشقيَّ الغادرَ عليًّا الوُهيبيَّ غَدَر مدينةَ لَبْلة ليلًا، وجَرَّ إلى أهلِها عِصيانًا وويلًا، أتاها ليلًا وأهلُها نيام، فلم يَشعروا إلا وقد حَلَّ بهم الدّاءُ الهيام، فكان منهم قومٌ سَبَقوا إلى قَصَبة الموحِّدينَ ودخَلوا فيها، فأَمِنوا من عادية الحادثة ودعاويها، وأنّ الجميعَ ذُهلوا فلم يقدِروا على الوصُول، وحصَلوا في حالة الذُّهول. فحين وصَل الخبرُ إلى أبي زكريّا وهو بقُرطُبة خَرج من فَوْره بعسكره، وسَرى ليلًا ونهارًا إلى لَبْلة، فلما قارَبَها تقدّم سَرَعانُ الموحِّدين فدَخَلوا القَصَبةَ إلى إخوانِهم فتقوَّوْا بهم وأبو زكريّا على أثَرِهم، فهرَبَ الشّقيُّ المذكور، وخَرج أهلُ لَبْلَةَ إلى أبي زكريا في صَبيحة فِرار الغادر معتذَرينَ طائعين، فلم يَعذُرْهم فيما جنَى لديهم بل ظلَمَهم وتعَدَّى ببَغْيه عليهم فقَتَلهم أجمعين، واستَبَدَّ في ذلك برأيِه الخسيس اللّعين، ولم يستأْذن الأمير[1] في حديثِهم، وكان معَه أبو الغَمْر بن غَزُّون[2] فصَوَّب له إنفاذَ السّيف في بَرِّهم وخبيثِهم، ولم يُصْغِ إلى صوت مُستغيثِهم، وكان هذا الثَّكْلُ على أهل لَبْلَةَ يومَ الخميس الرابعَ عشَرَ من شعبانَ سنة تسع وأربعين وخمس مئة.

ولـمّا وصَل عبدَ المؤمن ما فَعل يحيى بنُ يوموَر في أهل لَبْلَةَ بانفراده واستبدادِه بعَث أبا محمد عبدَ الله إلى إشبيلِيَةَ يأمُرُه بأخْذِه واعتقالِه بمشاركة بَرّان بن محمد، فأخَذاه يومَ الفِطر من عام تسعة وأربعينَ، وجَداه بالـمُصلَّى فاجتمعا به وأنْهَيا إليه ما أُمِرا به، فامتَثَله، فاعتقلاه في الحديد وأدخَلاه في قطعه[3] في...[4]

ونهَضَ عبدُ الله بن سُليمان به، وبقيَ أبو إسحاق واليًا على[5] إشبيلِيَةَ لتثقيف أموال لَبْلة في المخزن، فلمّا وصَل ابنُ يوموَرَ الـمَعْمَرة[6]... فأُخِّر فدام على ذلك إلى أن زار أميرُ المؤمنين قبرَ الـمَهْدي، وسار المذكورُ في جُملة الناس فعَفَا عنه وأمَّنه وبقيَ

---

(١) في م: «الأمر»، وهو تحريف.

(٢) في م: «عزّون»، وهو تصحيف.

(٣) الاستقصا ٢/ ١٢٥.

(٤) سقطت من م.

(٥) قوله: «واليًا على» جعل بياضًا في م مع وجوده في النسخ الخطية!

(٦) هكذا في النسخ، واستبدلها ميرندا بالحضرة، وتبعه ناشرو (م)، والمعمرة هنا بمعنى الحضرة.

عليه حسابُ الآخِرة. ثم إنه وجَّهه أميرُ المؤمنين إلى تِلِمْسانَ معَ ابنه[1] السيِّد أبي حفص في جُملة أشياخ الموحِّدينَ الماشِينَ صُحبتَه، وفي آخِر هذه السنة وصَل ابنُ وزير إلى أمير المؤمنين وهنَّأه على ظهورِه وغَلَبتِه، وأخبره بتسلُّط العدوِّ ابن الرَّنك على الثغور وملازمتِه لهم لقَطْع زروعِهم والإغارة عليهم في بَسائطِهم وشتِّ شَمْل جميعِهم، فأمَرَ بالكَتْب لهم بتأنيسِهم وعِدتِهم[2] بالنّصر الذي كان يؤمِّلُه قِبَلَهم ويستعدُّه لغزوِ أعدائهم ويَعِدُ برفع ضرائرهم ونَيْل سَرائرهم[3]، وخاطَبَ بذلك أهلَ باجَة وأهلَ يابُرة، وكان الكَتْبُ لهم بتاريخ الثالث والعشرين من محرَّم عام خمسينَ وخمس مئة.

وفي سنة خمسينَ وخمس مئة: بعَثَ عبدُ المؤمن إلى إشبيلِيَةَ وقُرطُبة واليَبْنِ، وكانا[4] دونَ أمير من الموحِّدينَ في هذه المدّة التي أوقِع فيها بابن يومور دونَ مَن يُدافعُ عليهما.

ذكرُ ولاية عبد الله بن أبي حَفْص بن عليّ على إشبيلية وأبي زَيْد عبد الرحمن بن بخيت[5] قُرطُبة

كان وصولُهما إلى الأندلس في هذه السنة المؤرَّخة، فأقام أبو محمد بإشبيلِيَةَ ونَهَض أبو زيد إلى قُرطُبة، فعندَما وصَل إليها خَرج معَ الموحِّدينَ إلى حصن البِطْرَوْج وما يَليه من الحصُون التي فيها النّصارى دمَّرَهم اللهُ تعالى، وفَتَح اللهُ به عليهم بهزائمَ شتّى، وصَحِبَه النّصرُ على ما يُراد ويأتي[6]، وهزَم القمطَ اللّعين صاحبُ بِطْرَوْج، ثم تغلَّب على الحِصن المذكور بعدَ ذلك وأخَذ فيه القمطَ المذكور وبعَثَ به إلى مَرّاكُش.

ولـمّا وصَل هذا الفتحُ والنُّجحُ إلى أبي محمد بن أبي حَفْص بإشبيلِيَةَ، أمَرَ بضرب الطُّبول عليه سُرورًا بذلك، ودخَل أهلُ إشبيلِيَةَ عليه مهنِّين، فتكلَّم له أحدُ أشياخ

---

(١) من ك فقط.

(٢) في م: «وعدته».

(٣) في م: «ضرّائهم ونيل سرّائهم»، وما أثبتناه من النسخ كافة.

(٤) لو قال: وكانتا، لكان أحسن.

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «بكيت» (٦/ ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣)، وفي تاريخ ابن صاحب الصلاة (ص١٢٠): «تيجيت».

(٦) في م: «ويتأتى».

إشبيلِيَةَ بعدَ السّلام عليه وقال له: لم تَجْر العادةُ بضَرْب الطُّبول بإشبيلِيَة على فتوح أهل قُرطُبة، فتغيَّر لونُ أبي محمد المذكور وفَهِم ما أشار إليه، فنَظَر في الأحشاد ونصَب الأجناد وتفاوَضَ في أمرِه معَ أبي إسحاق بَرّان صاحبِ المخزن فيما عزَم عليه من الجهاد، فصوَّب مُرادَه وقوَّى اجتهادَه، وكتَبَ إلى صاحب بَطليوسَ يُعلِمُه بما في نفسه، وأمَرَه بجمع أجناد الثَّغر الذي إليه، وأن يكونوا على استعداد وعلى وَعْد صحيح بالمرصاد. وخَرج أبو محمد المذكورُ بعسكرٍ وافر، والتَفَّ بالعسكر المذكور من أهل إشبيلِيَةَ وأقطارِها قومٌ كثير من المجاهدينَ المحتسِبينَ، إلى أنْ وصَل بطليوسَ، فاتّفق رأيُ الجميع على غزو جهة من جهات ابن الرَّنك أهلَكَه الله، وعزَموا على ذلك، فلمّا أجازوا قَنْطرةَ السَّيف أسْرَوْا إلى حصن أطرونكس، وكان حديثَ الإسكان للنَّصارى والبُنْيان، فأغاروا على جهاتِه وجَنَباتِه، وامتلأت أيدي المسلمينَ من نسائهم وأبنائهم ومَواشيهم، وأباحوا السّيفَ في رِقاب رجالِهم، وتقبَّضوا على جميع أموالِـهم، ثم إنّهم وصَلوا إلى الحصن المذكور فقاتَلوهُ ساعةً من النهار، وتغَلَّبوا على الكَفَرة الفُجّار، وقَتلوا جميعَ الرجال وسَبَوا[1] النساءَ[2]... والأموال. واتّصل الخبرُ بالنّصارى الـمُجاوِرينَ لهم، فاحتَشَدوا وجاؤوا مُسرِعينَ راغبينَ لنَصْر[3]... وغَوْث أبنائهم وصُلبانِهم، فلمّا تراءى الجَمْعان أكثَر المسلمونَ من الصّبر وتلاوة القرآن فانهزَم الكُفّارُ ووَلَّوا الأدبار مُستصحِبينَ الخَسار والدمار. فترادَفَت للغنائم[4]، ونفَّل[5] اللهُ المسلمينَ[6] خيرًا من جزيل المغانم.

ثم رجَع أبو محمد إلى إشبيلِيَةَ بنفسِه، وقَسَم عسكرَه والخُمُس من الفَيْء المذكور. وخاطَبَ الحضرةَ بصورة الفتح، وخاطَبَ ابنَ بخيتَ من قُرطُبَةَ لِـما اتّفق من الفتح،

---

(١) في ق: «وأسروا».

(٢) بعد هذا فراغ قدر كلمة.

(٣) فراغ قدر كلمة.

(٤) سقطت من م.

(٥) في م: «وفعل»، وهو تحريف.

(٦) في م: «للمسلمين»، خطأ.

ثم تَوالى غزوُ ابن بخيتَ من قُرطُبَةَ لبعض الحصُون، ونازَلَـها وتغلَّب عليها، منها: حصنُ منتُور، وحصنُ المدوَّر، وغيرُهما، وخاطَبَ الحضرةَ بجميع هذا الفتح مفسِّرًا مبشِّرًا، فنفَذَ الأمرُ العالي لأبي محمد بن أبي حفص والي إشبيلِيَةَ وإلى أبي زَيْد عبد الرحمن بن بخيتَ بالـمَشْي إلى الحضرة وزيارتها، فمشَيا.

ولـمّا وصَل الواليانِ المذكوران[1] من قُرطُبَةَ وإشبيلِيَةَ إلى الحضرة بايَعَا خليفتَهما وعرَّفاه بما فتَح اللهُ لهما بيُمن نَظَرِه وجِدِّ عسكرِه، وبرعاية أحوال الأندَلس ودعاء أهلِها له بالتأييد على نَصْرِه المديد. واتّصل توحيدُ أهل غَرْناطة وفتْحُها، فتوالت على الحضرة البشائر، ورَغِبا من الحضرة أن يُشرِّفَهما بسيِّد يصلُ معَهما إلى إشبيلِيَةَ وقُرطُبة يستنداَنِ إليه ويخدِمانِه[2]، وحضَر أبو بكر بنُ الجَدّ، فرغِبَ مثلَهما وصرَّح في رغبته باسم السيِّد أبي يعقوب، فقَبِل رغبتَهم وبعَثَه معَهم بعسكرٍ منصور، غَرْناطة معَ جُملة من أبناء الموحِّدينَ أُولي النَّجابة والظهور.

اختصارُ الخبر بفَتْح غَرْناطةَ وأخْذِها من اللَّمْتُونيِّين وتمكينِ ابن يدّر منها للموحِّدينَ، وولايتِها السيِّدَ أبا سعيد ابنَ أمير المؤمنين[3]

ولـمّا اتّصل خبرُ هذه الفتوح المذكورة بمَيْمون بن يَدَّر[4] اللَّمْتُونيِّ الوالي على غَرْناطةَ، وصَحَّ عندَ اللَّمتُونيِّينَ الذين بها ما ذكرتُه، جَزِعوا منَ انفرادِهم وقلّة أعدادِهم، فخاطَبوا الحضرةَ راغبينَ في الصُّلح، وأن يُعفَى عنهم، فقَبِل منهم وأمَرَ عبدَ الله بن سُليمان صاحبَ الأُسطول بسَبْتَةَ وأبا سعيدٍ ابنَ[5] أمير المؤمنين بها أن يكونَ لجوانبِهم[6]، فأجازَ البحرَ إلى الجزيرة الخضراء ونَهَض منها إلى غَرْناطةَ المذكورة، فتلقّاه[7] ميمونُ بن

(١) في النسخ: «الواليين المذكورين»، ومثل هذا كثير في هذا الكتاب فأصلح لبشاعته.

(٢) في م: «ويحترمان به»، وهو تحريف.

(٣) الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٢٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٧، والاستقصا ٢/ ١٢٥.

(٤) في المصادر السابقة: «بدر» وهو تصحيف.

(٥) سقط من ق.

(٦) في م: «جوابهم»، وهو تحريف.

(٧) في ق، ر٣: «فتلقى».

يدَر المذكور وإخوتُه الملثَّمونَ[1] بأوفَى برّ وإكرام، وأحفَى بِشر واهتمام، وقال: ادخُلوها بتحيّة وسلام، وخَرج الجميعُ من الملثَّمين راجِعينَ معَ أبي محمد المذكور إلى العُدوة آمنينَ في نفوسِهم وأهليهم وأموالِهم وبَنيهم، ووَصَلوا في صُحبتِه إلى الحضرة، وأُنجِز لهم ما وُعِدوا به من الخيراتِ والإسكان في الدِّيار، والآمال في الاستقرار.

وكتَبَ أميرُ المؤمنينَ إلى ابنِه أبي سعيد بالإجازة إلى الأندَلس وبإضافة ولاية غَرْناطةَ إلى ما بيدِه من عمل سَبْتة، فأجاز البحرَ بجَمْع من الموحِّدينَ والجُند الـمُسترزِقين، فوصَل إليها وملَكَها، وبادَرَ إليه من سَعِد من الثوّار الـمُجاوِرينَ لها، كأبي مروانَ بن سعيد وبَنيه، وكأبي جعفرِ بن مِلْحانَ وغيرِهم، ولـمّا استقرَّ السيِّدُ الأسنى بغَرناطة بعَث عسكرَه إلى الـمَرِيّة[2]... وليتطلّعَ أحوالَ النَّصارى،...[3] فنَهَض العسكرُ وكمَنَ على مقرُبة منها إلى نصف النهار، ثم خَرج، وأغاروا على بابِ الـمَرِيّة وقَتلوا من النّصارى عددًا كثيرًا ورجَعوا من غارتِهم إلى حصن بَرْجة[4]، فبادَرَ أهلُ الحِصن للقاءِ الموحِّدينَ وقالوا لهم: إنّ النَّصارى بقَصَبة الـمَرِيّة في عددٍ قليل فنزَلوا برجةَ وخاطَبوا السيِّدَ بغَرْناطةَ بمقالة أهل برجة، ونَصَحهم، فاحتفل السيِّدُ في الأحشاد وجَمَع الأجناد، ونَهَض من[5] غَرْناطةَ، فوصَل الـمَرِيّةَ ونازَلَـها ونَصَبَ المجانيقَ عليها، فاستغاث الكَفَرةُ الذين في القَصَبة بغَوِيِّهم أذْفُونْش فوصَلهم بعسكره الذّميم ووصَل معَه حليفُه ابنُ مُرْدنيش مُعينًا له، فلم يجدوا سبيلًا للقَصَبة ولا للدخول عليهم، فنزَلوا على بُعد وعلى حالِ خِزْي لا يُقدَرُ لهم على شيء.

وكان في جُملة عسكرِ الموحِّدينَ: أحمدُ بن مِلحان[6] الثائرُ بوادي آش معَ مَن

(١) في النسخ: «الملثّمين»، ولا يصحّ، وقد سبق أنْ نوّهنا غير مرة أن هذا يقع في الكتاب بكثرة فأصلح.

(٢) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٣) فراغ قدر كلمة.

(٤) معجم البلدان ١/ ٣٧٤.

(٥) في م: «أهل»، خطأ.

(٦) له ذكر في كامل ابن الأثير ١١/ ٥٦.

وصَل من الثوّار المجاوِرينَ لأهل غَرْناطة[1] مُعينًا برجالِه وفُرسانِه، فجَرى بينه وبينَ أبي محمد بن سُليمان منازعة، فأنِفَ من ذلك وارتدَّ إلى ابن مُرْدنيش وإلى أذْفُونْش ولحِقَ بعسكرِهما، ولـمّا عجز أذْفُونْش وابنُ مُرْدنيشَ عن نَصْر النَّصارى أقلَعا وافترَقا ولم يجتمعا أبدًا ولا ارتَفَقا، ورجَع أذْفُونْش خاسرًا، فعَظُم عليه الأمرُ ومات في السنة المؤرَّخة، وخاطَبَ السيِّدُ أبو سعيد أباه بذلك، فأمَرَ أن يَتوجَّه أبو جعفرٍ الوزيرُ صُحبةَ السيِّد أبي يعقوبَ يوسُف ابن الخليفة إلى الأندَلس، ويسيرَ إلى الـمَرِيّة، ويُنزِلَ النَّصارى من قَصَبتها على الأمان، فكان ذلك، وإذا كمُل هذا يرجعُ أبو جعفر معَ السيِّد أبي يعقوبَ إلى إشبيلِيَة.

ذكرُ ولاية السيِّد أبي يعقوبَ يوسُف بن عبد المؤمن مدينةَ إشبيليَة وأنظارِها أعادَها الله[2]

لـمّا وصَل أشياخُ إشبيلِيَةَ إلى الحضرة العَلِيّة في سنة إحدى وخمسين وخمس مئة رَغِبوا في سيِّد يرجِعُ معَهم إليها ويستندونَ إليه في مصالحها[3]، وصَرَّح ابنُ الجَدِّ بطلَب السيّد أبي يعقوبَ فقال لهم عبدُ المؤمن: إنه صغير، فقالوا: بل هو كبير، فأسعَفَهم في ذلك وبعَثَه معَهم أميرًا، فلمّا وصَل إلى إشبيلِيَةَ بدأ أولًا بغزو طبيرةَ والثائرُ فيها عليٌّ الوُهَيْبي، فحصَرها في البرِّ والبحر، وذلك لـمّا رجَع الوزيرُ ابنُ عَطِيّة من مدينة الـمَرِية، وأنزَلَ النّصارى من قَصَبتها على الأمان، فخَرج معَ السيّد أبي يعقوبَ بعسكر الموحِّدين فنازَلوا طبيرةَ وعليٌّ الوُهيبيُّ بداخلها، فأقام الموحِّدونَ عليها شهرَيْن من أول عام اثنين وخمسينَ وخمس مئة، وكان ابنُ عَطِيّة وصَله خبرُ المطالَبة له في مجلس عبد المؤمن، فتقلَّق للانصراف إلى الحضرة حين بلَغَه الوقوعُ في جانبِه هناك، فرأى الرأي في المصالحة والقنوع من الوُهَيبيِّ المذكور[4] باللَّفظ في الخُطبة، فصولحَ على اختيارِه، وقَنَع

(١) في م: «لغرناطة».

(٢) الإحاطة ١/ ٢٦٥.

(٣) في ق: «مصالحهم».

(٤) ليست في ق.

منه بإقرارِه. وعندَ ذلك أقلَعَ السيّدُ بعسكرِه منصرفًا إلى إشبيلِيَةَ بعدَ ما استَولى على بلادِ ابن وزير، وقَدِم على شِلْبَ وبلاد الغرب يعقوبُ بن حَيُّونَ الهزرجيُّ والحُفّاظُ المتوجِّهونَ[1] معَه من الموحِّدين، فكمُلَ القَبْضُ من بلاد ابن وزير والعَزْلُ بأبدع تدبير، وفي هذه الحركة خَرج تاشْفينُ اللَّمْتُونيُّ من مَرْتُلةَ وضَمِن له عن الأمر... [2] بصناعِه...[3] فمَلَكها الموحِّدونَ، وكان تـمَلَّكها، وصُرف تاشْفينُ... [4] يومَ الخميس الثامنَ عشَرَ من جُمادى الأولى من سنة اثنتين وخمسينَ المذكورة، وهذه البلدةُ، أعني مَرْتُلَةَ، أولُ مدينة خَرج عنها الـمُلثَّمون[5] وآخِرُ بلدة ثار فيها الـمُرتَدّونَ على الموحِّدين، وكان لـمّا وصَل السيّدُ إلى طبيرةَ ونازَلَها وَفَد عليه أشياخُ بلاد بني وزير وفي جُملتهم الشاعرُ الأديبُ أبو بكرٍ بن الـمُنخَّل[6]، فقال يمدَحُه ويتغزّلُ في قصيدة طويلة أولُها [من الطويل]:

أقَـدُّكِ أم غُـصنٌ مـن البـانِ أهيَـفُ ... ولَحْظُكِ أم سيفٌ من الهنـد مرهَـفُ

ومنها:

فقالوا: أغـزوٌ؟ قلـت: لا شـكَّ أنـهُ ... فقالوا: فمن يغزو العِدى؟ قلت: يوسفُ

سـليلُ أمـيرِ المـؤمنينَ وكفُّـهُ ... وصـارمُهُ العَـضْبُ الـذي يُتخـوَّفُ

---

(١) في النسخ: «المتوجهين» وأصلحت.

(٢) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٣) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٤) بياض قدر كلمة واحدة.

(٥) في النسخ: «الملثمين» وأصلحت.

(٦) هو أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن المنخَّل المهري الشلبي الأديب، كان أحد الأدباء المتقدمين والشعراء المجوّدين، له ديوان شعر لم يصل إلينا. وتوفي في حدود الستين وخمس مئة. ترجمه ابن الأبار في التكملة (١٣٩٩)، وابن سعيد في المغرب ١/ ٣٨٧، وابن عبد الملك في الذيل ٤/ ١٠٤ بتحقيقنا، والذهبي في المستملح (١٢١) وتاريخ الإسلام ١٢/ ٢٠٢، والصفدي في الوافي ٢/ ٧ وغيرهم.

ذكرُ نكبة الوزير الكاتبِ أبي جعفرٍ أحمدَ ابن عِطِيّة ومقتلِه رحمه اللهُ ونُبَذٍ من آثارِه ولُـمَع من أخبارِه[1]

أخبرَنا أبو عبد الله محمدُ بن عبد الملك، قال: كان أبو جعفر لـمّا غابَ هذه الغَيْبَةَ تمكَّن أعداؤه منه وقالوا ما شاءوه عنه من قَبيح المطالبة وصريح المكاتبة، فلمّا وصَل الحضرةَ وجَد حالَه قد[2] تغيَّرت والمطالبَ في جانبِه قد أثَّرت، وعبدُ السلام الكُوميُّ قد استكفَى بالحال، وانتضَى سيفَه لمطالبتِه بأعظم نِصال[3]، فلمّا كان بعدَ أيام من وصُولِه جَمَع الناسَ في الجامع الذي بجَنْب دارِ الحَجَر، وسُئلوا عن ابن عَطِيّةَ وأحوالِه وهو حاضرٌ قد أزال عِمامتَه بالأمر عن رأسِه، وبقي حاسرًا بعد التعميم، خَمِلًا[4] بعدَ التقدُّم في الأمر الكريم، دَهِشًا في نفسِه، مُكدَّرًا في حسِّه، وجميعُ أشياخ الموحِّدين والطلبة وأهل الأندَلُس حضور، فقال ابنُ عُمرَ للحاضرين: يقولُ لكم سيِّدُنا: من أعطى منكم شيئًا لابن عَطِية أو صانَعَه أو عَلِم منه شيئًا من قبيح فلْيقُلْه، فقال كلُّ إنسان بحسَب دينِه وعقلِه، حتّى وصَل السؤالُ إلى ابن وزير فقال: أعطاني فوقَ ما أعطيتَه أضعافًا، وسيّدُنا رضي اللهُ عنه لو جَعَل بينَه وبينَ عَبيدِه وأجنادِه وعُمّالِه ورعيّتِه عبدًا حَبَشيًّا يوصلُ له عنّا كلامَنا ومسائلَنا لعظَّمناه وأمَّلناه وهادَيْناه، ويا ليتَهُ لو رضيَ إلينا بالقَبول، فاستحسَنَ الخليفةُ كلامَ ابن وزير، وكان كلامُه سببًا لرَفْع السؤال عنه في هذا المجلس، فخَرج ابنُ عَطِيّةَ إلى الموضع الذي أُمِرَ باعتقالِه به، فكان آخرَ العهد به، وذلك في سنة اثنتين وخمسينَ المذكورة.

ثم[5] بعدَ هذا المجلس أنفَذَ فيه وفي أخيه حُكمَ الله تعالى، فأُخرِجا من سجنِهما

---

(١) الإحاطة ١/ ٢٦٤-٢٦٧، والاستقصا ٢/ ١٣١ فما بعدها، ونفح الطيب ٥/ ١٨٣ فما بعدها.

(٢) ليست في ق.

(٣) في م: «نضال».

(٤) في م: «خاملًا»، وما أثبتناه من النسخ.

(٥) ليست في ق.

وحُمِلا إلى جبل دَرْن[1] وقُتلا بموضع تاجْمُوتَ[2] قُربَ الملّاحة، وذلك في التاسع والعشرينَ لصَفَر من سنة ثلاث وخمسينَ وخمس مئة.

وندِمَ أميرُ المؤمنينَ بعدَ ذلك[3] على قتلِه، وبَكى عليه بالدموع، وذكَرَ الرُّواةُ الثِّقات أنه لم يَبلُغْ مبلغَ ابن عَطِيّةَ أحدٌ من الكُتّاب ولا الوُزراءِ المتقدِّمينَ في جَدِّه ومَجْدِه، وكتابتِه وفصاحتِه، ونُصحِه وخِدمتِه، وسلوكِه طُرقَ المكارم، واجتنابِه للمحارم، والتذاذِه بقضاءِ المسائل، وتلطُّفِه في توصيل الرَّغْباءِ من مضْطَرٍّ وسائل، وإحسانِهِ بالتلطُّف للوفود وخدمتِه... [4]، حريز[5] والجنود، لكنّ الدهرَ العَثِر فوَّقَ سِهامَ[6] الحسَد بالمنايا إليه، فغدَره من أحسَنَ إليه، ولم يَرْعَ الفضلَ الذي يحبِّب[7]... يده[8] بالبُهتان، ونَبذوا ما كان له عليهم من الإحسان، ونَسَبوا إليه كشفَ السِّرّ، وصُحبةَ أعداءِ الأمر[9]، وأعظَمُهم له مطالبةً مروانُ بن عبد العزيز[10] الذي كان ثائرًا ببَلَنْسِيَةَ على حُسن ما سَعَى له ابنُ عَطِيّة حتى خَلَّصه من سِجن ميورقةَ، فكان هو في هذا المجلس أكبرَ أعدائه وسببًا في موتِه وفنائه، فإنه قال فيه شعرًا رماهُ في المجلس يُحرِّضُ فيه على قتلِه والإيقاع به، وهو [من البسيط]:

قُـــلْ للإمــــام أدام اللهُ مدّتَـــــهُ ... قــولًا تَبِـينُ لــذي لُـبٍّ حقائقُـهُ

---

(١) الضبط من ق.

(٢) له ذكر في المسالك والممالك للبكري ٢/ ٧٢٣، ٧٤٤. والجيم أصلها كاف أعجمية، ولذلك كتبت في هامش ق بكاف تحتها نقط ثلاث.

(٣) قوله: «بعد ذلك» ليس في ق.

(٤) فراغ قدر كلمة.

(٥) قوله: «وخدمته... حريز» سقط من م.

(٦) في ر٣: «سهم».

(٧) سقطت من م.

(٨) سقطت من م.

(٩) هكذا في النسخ كافّة، وغيّرها ناشرو (م) إلى: «الأمير» وما أحسنوا في ذلك صنعًا ولم يتنبهوا إلى أنّ السجعة تقتضي صحة ما أثبتناه بين: «السرّ» و«الأمر».

(١٠) له ذكر في نفح الطيب ٣/ ٤٠٨ و٤/ ٤٥٦.

إنّ الــزّراجينَ قــومٌ قــد وتَــرْتهمُ وطالــبُ الثــأر لم تــؤمَنْ بوائقُــهُ
وللـــوزير إلى آرائهـــمْ مَيَـــلٌ لــذاك مــا كثُــرت فــيهمْ علائقُــهُ
فبــادرِ الحَــزْمَ في إطفــاءِ نــورِهمُ فــربَّما عــاق عــن أمــرٍ عوائقُــهُ
اللهُ يعلَـــمُ أنّي ناصــحٌ لكـــمُ والحــقُّ أبلــجُ لا تَخفَــى طرائقُــهُ
هــمُ العــدوُّ ومَــن والاهُــم كهُــمُ فاحذَرْ عدوَّك واحـذَرْ مـن يـصادقُهُ

وكان هذا من أكبر الطالبينَ[1] له غدرًا ومَكْرًا.

قال محمد بنُ عبد الملك: حدّثني القاضي أبو العباس ابنُ الصَّقر بحضرة مَرّاكُش قال: كان الناسُ يَزورونَ ابنَ عَطِيّةَ لمعنى المنفعة به فينفَعُهم ولم يطلُبوا له. وكنت ممن يختصُّ به، فكتبتُ له أبياتًا فيها مخادعةُ الزائرين، منها [من البسيط]:

وعـــامَلُوكَ بـــزَوْراتٍ مـــزوَّرةٍ فالوُدُّ في الصَّدر لا في المشي بالقدمِ

ويرحَمُ الله أبا الحسن المسعوديَّ حيث قال: لو لم يكن لأبي العتاهِيَة إلا هذه الأبياتُ التي أبان فيها عن صِدق الأخوّةِ والوفاء لكان مُبرِّزًا على غيرِه ممّن كان في عصرِه، وهي[2] [من الرجز]:

إنّ أخاكَ الصِّدقَ مَن يـسعى معَـكْ ومـــن يـــضُرُّ نفـــسَهُ لينفعَـــكْ
ومــن إذا رَيْــبُ زمــانٍ صــدَعَكْ شــتَّت شــملَ نفــسِه ليجمَعَــكْ

قال: وهذا في زماننا معدومٌ ومستحيلٌ وجودُه، ومتعذِّرٌ[3] كونُه، فكيف بزماننا اليوم؟

وحَكى أبو عبد الله بنُ داودوش، قال: سُئل أبو العباس الجُراويُّ عن الوزير الكاتب أبي جعفرٍ ابن عَطِيّةَ فقال: كان من الخليفة بحيث عُلِم من الاختصاص ولُطْفِ المحَلّ، فتذاكَرْنا سببَ الإيقاع به، فقال: اختلَف الناسُ في ذلك، والأشهرُ أنه خَرج بسرٍّ

---

(١) في ق: «الظالمين».
(٢) البيتان في زهر الآداب ٢/ ١٧٣.
(٣) في ق: «معتبر»، وفي ك، ر٣: «معتذر» وما أثبتناه هو الأصوب.

أوثرَ به، فحُبس مدةً ثم دُفع إلى رجُل من كومية يُعرَف بيوسُف بن عبد المؤمن، فحَمَله معَ أخيه إلى موضع يُعرَف بتينيسكت: من طريق تينمل، فقَتَلهما بذلك الموضع بأشياءَ غير محصَّلة. ثُم أخبَرني أنه كتَبَ قبلَ قتلِه إلى الخليفة وهو محبوسٌ كتابًا[1] يتضمَّنُ نظمًا ونثرًا ودَفَعه إلى المقرَّب عبد السلام فأمسَك الكتابَ[2] عندَ نفسِه ولم يدفَعْه إلى الخليفة بَغْيًا منه عليه حتى جَرى القدَرُ بما جَرى، والنَّظمُ هذا [من البسيط]:

عطفًا عليَّ أميرَ المؤمنينَ فقد ... بانَ العزاءُ لفَرْط البثِّ والحزَنِ
قد أغرقَتْنا ذنوبٌ كلُّها لُجَجٌ ... ورحمةٌ منكم أنجَى من السُّفُنِ
وصادفَتْنا سهامُ الدّهر عن[3] غَرَضٍ ... وعطفةٌ منكمُ أوقَى من الجُنَنِ
هيهاتِ للخَطْب أن تسطو حوادثُهُ ... بمَن أجارتْه رُحماكم من المِحَنِ
فالثَّوبُ يَطهُرُ بعدَ الغَسْل من دَرَنٍ ... والطَّرفُ ينهَضُ بعدَ الركض في سَنَنِ
أنتم بذلتُمْ حياةَ الخَلق كلِّهمُ ... من دون منٍّ عليهم لا ولا ثمنِ
وصِبيةٌ كفِراخ الوَرْقِ من صِغَرٍ ... لم يألَفوا النَّوحَ في فَرْع ولا فَنَنِ
قد أوجدتْهم أيادٍ منك[4] سابقةٌ ... والكلُّ لولاك لم يوجَدْ ولم يكنِ

والنّثر منها: تالله لو أحاطَت بي كلُّ خطيئة، ولم تنفكَّ نفسي عن الخيراتِ بطيئة، حتى سَحَرتُ مَن بالوجود، وأنِفتُ لآدمَ من السجود، وأبرَمتُ لحطبِ نار الخليل حبلًا، وأبرَيْتُ[5] بعدَه إلى[6] ثمودَ نَبْلًا، وحطَطْتُ عن يونُس شجرةَ اليقطين، وأوقدتُ معَ هامانَ على الطِّين، وافترَيْتُ على العذراءِ البَتول، وقذَفْتُها

(١) في ك، م: «كتبًا» وما أثبتناه من النسخ الأخرى.

(٢) في ك، م: «الكتاب».

(٣) في م: «في».

(٤) في النسخ: «منكم» ولا يستقيم عروضًا.

(٥) في م: «وبريت» وما أثبتناه من النسخ.

(٦) في م: «وبريت لقدار ثمود»، وهو تحريف.

وقَبَضْتُ قبضةً من أثَر الرسُول فنبَذتُها، وكتبتُ صحيفةَ القطيعة بدار النَّدوة، وظاهَرتُ الأحزابَ القُصوى[1] من العُدوة، ثم جئتُ بطَوْلِه وحِلمِه لائذًا، وبه رضيَ اللهُ عنه عائذًا، لقد آنَ لمقالتي أن تُسمع، وتَغفرَ لي هذه الخطيئاتِ أجمع[2] [من الطويل].

فعفـوًا أمـيرَ المـؤمنينَ ومَـن[3] لنـا بجِمـل قلـوبٍ هَـدَّها الخفَقـانُ

وفي سنة اثنتينِ وخمسينَ وخمس مئة: كانت وقعةُ زغبولةَ على مقرُبة من إشبيلِيَة، على السيِّد أبي يعقوبَ يوسُفَ ابن الخليفة، وذلك أنّ النّصارى أهلَكَهم اللهُ غَنِموا نظَرَ إشبيلِيَة، فأمَرَ السيّدُ أبو يعقوبَ بوصول مَيْمون بن حَمْدونَ الوالي على شِلْبَ والبلاد التي كانت بيد ابن وزير، ويَستعجلُ بعسكر الغَرْب، فوصَل إليه، فاستعجَل السيّدُ إلى حربهم ومُقارعتِهم، وبرَزَ إليهم بعسكر إشبيلِيَة، فلقيَ النّصارى بحِصن زغبولة، فدارت الحربُ بين الكَفَرة والمسلمين، فمال الناسُ وأجْفَلوا عن مواقفِهم وانهزَموا عن السيِّد بجَمْعهم، واستُشهِد في المعركة ابنُ غَزُّون ومحمدُ بن عليّ الحَجّام وجُملةٌ من أشياخ الموحِّدين، واستُشهِد الحافظُ ميمونٌ صاحبُ الغَرْب، واستَخْلَص أبو يعقوبَ يوسُف بن عبد المؤمن بدليل من الأدِلة، أخرَجَه من الملحمة في الغُبار وطار به أيَّ مطار، وفرَّ ابنُ وزير بجَواد مُعار من أحد قَراباته، وأُسِر من عامة إشبيلِيَةَ بَشَرٌ كثير، وذلك في ربيع الأوّل من السنة، فوصَل الخبرُ إلى عبد المؤمن فنَظر في استجلابِ العرب وحماية الجزيرة من الحَرَب والنُّوَب[4].

وفي سنة ثلاثٍ وخمسينَ وخمس مئة: تحرَّك أبو محمد عبدُ المؤمن من حَضْرة مَرّاكُش في أوّل شوّال من هذه السنة المؤرَّخة إلى رِبَاط الفتح المسَمَّى بالـمَهْديّة عُدوةَ سَلَا، وكان قد استوْزَر بعدَ ابن عَطِيّةَ عبدَ السلام بنَ محمد الكُوميَّ، واستكتَب عبدَ الملك بنَ عيّاش القُرطبيّ[5]، فأمَرَ بالكَتْب إلى قبائل الموحِّدينَ بالنَّفْر للجهاد،

---

(١) سقطت من م.

(٢) نفح الطيب ٥/ ١٨٤-١٨٥.

(٣) في م: «فمن».

(٤) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٧ باختصار.

(٥) ترجمته في الوافي ١٩/ ١٨٥.

والاستعدادِ في الزّادِ، وأمَرَ أهلَ البلاد البحريّة بإنشاء الأساطيل والأجفان لحَمْل جميع...[1] وأمنيتِه من ذلك، وسالت العساكرُ تابعةً...[2] الموحِّدين وسائر العساكر بالإنعام وأسبَلَ عليهم مُلاءاتِ العطاء التامّ، واستَخْلف مكانَه على بسائطِ العُدوة الشّيخ المذكور المرحومَ أبا حفص عُمرَ بن يحيى ليتطلّع أمرَ البلاد الغربية، ونظَر في الحركة إلى إفريقيّةَ برَسْم مُنازلة الـمَهْدية في سنة أربع وخمسين وخمس مئة حسبَما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ حركة أمير المؤمنينَ أبي محمد عبد المؤمن إلى بلاد إفريقيَة ومُنازلتِه مدينةَ الـمَهْديّة وتملُّكِها[3]

لـمّا استوفَت العساكرُ من سائر البلاد برَسْم الجهاد واستَخْلفَ أبا حفص كما ذكَرْنا، واستَخْلَف يوسُفَ بنَ سليمانَ على مدينة فاسَ وأنظارِها، وأمَّرَ بحضرة مَرّاكُشَ ابنَه أبا الحَسَن عليًّا، وأمَّر بإشبيلِيَةَ ابنَه السيّدَ الأسنى أبا يعقوبَ على أول ولايتِه لها. وترَكَ عبدَ الله بنَ أبي حفص بإشبيلِيَةَ، وترَكَ ابنَ بخيتَ بقُرطُبَةَ، وأمَّرَ بغَرناطةَ ابنَه السيِّد أبا عثمان، فلمّا تحقَّق كمالُ بُغيتِه وأُمنيتِه تحرَّكَ من موضع معسكرِه بمدينة سَلا، فكان خروجُه منها في العاشر من شهر صَفَر من عام أربعةٍ وخمسينَ وخمس مئة، فاستَصْحبَ السَّيرَ والنّصرُ أمامَه والظَّفَرُ مُلازمٌ أعلامَه، حتّى وصَل مدينةَ الـمَهْدية مقرِّ النّصارى من أهل صِقلِّيّة، ونازَلَـها، وتلاحَقَ الأُسطولُ إليه فيها بالآلات والمجانيق والعُدَد وغيرِها، وحضَرَ الفَعَلةُ لها، فأمَرَ[4] بقتال الكفَرة ورَماهم بالحجارة نهارًا وليلًا، وأرسَل عليهم من سحائبِ السِّهام وَبْلًا[5]، وأسال عليهمُ المنايا من كلِّ جانب سَيْلًا، ودام حصارُه لهذه المدينة المنيعة في المعاقل الرفيعة، فدام حصارُ الموحِّدين لها سبعةَ أشهر حتى يسَّر اللهُ فتحَها على صُلح من النّصارى وطَلَبوا الخُروجَ بأمان إلى

(١) فراغ قدر كلمة.

(٢) فراغ قدر خمس كلمات.

(٣) الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٤١، والمعجب ٢٩٨، والاستقصا ٢/ ١٣٥.

(٤) بعد هذا في م: «لها» وليست في النسخ ولا معنى لها.

(٥) في م: «وابلًا» وما هنا من النسخ.

بلادِهم فمَنَّ عليهم بمُرادِهم وأخرَجَهم منها وطهَّر اللهُ بها صُقْعَ إفريقيّةَ والزّاب، وتخَلَّد له عندَه جزيلُ الأجر والثواب.

وفي أثناء هذا ظهَرَ من العربِ بني سُلَيْم القائمينَ بتعدِّيهم على مدينة قابِس ما أوجَبَ استدعاءهم واستدناءهم، فخاطَبَهم أبو محمد عبدُ المؤمن بشعرٍ طويل من قول القاضي ابن عِمران يستدعيهم فيه ويَسْتدنيهم، فمنه هذا [من الكامل]:

أسُلَيْمُ دعوةَ ذي إخاءٍ مُرشِدِ ... هادٍ إلى الحقِّ المبين المُسعدِ

ومُذكِّرٍ ما كان أسلافٌ لكمْ ... فَضَلوا به أفعالَ كلِّ مسدَّدِ

بجهادِ أعداء الإلهِ ونَصْرِهمْ ... لرسول ربِّهمُ النبيِّ محمدِ

وتعرَّفوا أنّا عليكمْ صُبَّرٌ ... حتى يعودَ جوابُ هذا المنشدِ

وكتَبَ أيضًا شعرًا ثانيًا من قول ابن طُفَيل معيدًا عليهم بالاستدعاء، وتوجَّهت هذه الأشعارُ إلى شيوخ العرب إلى جميع إفريقيّةَ، وصَبَرَ عليهم في ردِّ جوابِهم على هذا النظم، وقد كانوا تغلَّبوا على مدينة قابِس، فجرَّد إليهم عسكرًا وأقام هو على مدينة المَهْديّة، فلم تكنْ إلا أيامٌ ووصَل الفتحُ بهزيمتِهم وبقَتْلِهم... [1] يوسُف الوالي على إشبيليَةَ يعرِّفُه بالهزيمة المذكورة ويشرَحُ له أمورَها[2]، فقال في نصِّ الكتاب[3]: أعزَّكم الله، وجعَلَنا وإياكم من الشاكرينَ لنُعماه، إنّ من الواجب المُحتَّم والمفرض، الحَزْمَ على مَن لزِمَه شُكرُ النِّعم لمُسديها، أن يقرِّرَ أولًا النِّعمةَ بكمالِها، ويَعمُرَ خاطرَه بتفصيل إجمالِها، ويُحضِرَ في ذهنه بهجةَ جمالِها حتى يَفيضَ على باطنِه نورُ إشراقِها، ويَهمي بباقع[4] مِقوَلِه هاطلُ غيداقِها، وتتبارى له نفَحاتُ الشّكر في ميدان استباقِها، وهو الفتحُ الذي برَّزَ في الإعجاز والإغراب، وأضحَى نسيجَ وحدِه في الأشباه والأتراب، يتأكَّدُ بمحَلِّه وجوبُ الاعتبار، ولا يزال موقعُه يَعظُمُ بزيادة الاستيضاح والاختبار. وهي طويلةٌ نظمًا ونَثْرًا أضرَبْنا عنها للاختصار.

---

(١) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٢) في ر٣: «أمرها».

(٣) في م: «كتابه» وما أثبتناه من النسخ.

(٤) في م: «ببادع»، وهو تحريف.

ولـمّا وصَل هذا الكتابُ انشرَحَت صدورُ الموحِّدين، وتحقَّقوا نصرَ الله بأوفَى اليقين، وقُرِئ على المنابِر، وتكرَّرت المسارُّ في الرعايا والعشائر.

وفي سنة أربع وخمسينَ وخمس مئة: خَرج محمدُ بن مُرْدنيشَ من مدينة مُرْسِيَةَ بعسكره معَ أصحابِه النّصارى وبجَمْعه الـمُفسِد منتهزًا الفرصةَ في ظنِّه، ومتخيِّلًا بما أفسدَتْه الخمرُ من ذهنِه، أنه بمَغيب أمير المؤمنينَ يتغلَّبُ على الموحِّدين، حتّى نزَلَ مدينةَ جَيّانَ وفيها محمدُ بن عليٍّ الكُوميّ، فصادَفَ عندَه من النَّكث للبيعة قَبولًا لـمُرادِه، وأعجَلَه الشُّؤمُ في رأيه بارتدادِه، فظنَّ ابنُ مُرْدنيشَ أنّ سائرَ الموحِّدينَ يجدُ عندَها وعندَ أهلها ما وَجَد عند الكُوميِّ المذكور من العِناد والفساد، فوصَل قُرطُبَةَ ونازَلَـها ودمَّر زرعَها وعفَّى ربعَها، وكان بها أبو زيد ابنُ بخيت واليًا عليها، فدافَعَه مدافعةَ الأبطال، وأهل الوفاءِ في كلِّ حال، ودام حصارُه إلى أنِ اجتمع القاضي أحمدُ بن إدريسَ معَ أبي زيد المذكور وتحيَّلا بحيلة من حِيَل الحرب على لسان ابن وَزير من إشبيلِيَةَ إلى ابن مُرْدنيشَ وهو يقولُ له: عَجِّلْ بالإقلاع عن قُرطُبة وسِرْ إلى إشبيلِيَةَ وأنا ضامنٌ لك دخولَـها، فحينَ قرأَ الكتابَ أمَرَ بالإقلاع والإسراع، فوصَل ابنُ مُرْدنيشَ بجَمْعِه إليها ونزَلَ على مِيل منها، فبقيَ عليها ولم يرَ شيئًا من أمر الكتاب، فعلم أنها خُدعة، فأقلَعَ خاسرًا عنها، ولقيت إشبيلِيَةُ عظيمَ الخَطْب وعميمَ الرُّعب، وحَلَّ بأهلِها كَرَبٌ وحَرَب، وضَبَطَها السيّدُ أبو يعقوبَ بحَزْمِه وجِدِّه وبمَن كان معَه من الموحِّدين وأشياخ إشبيلِيَةَ وأعيانِها[1] المخلصين يَسمُرونَ طُولَ ليلِهم على الأسوار، ويقفونَ بأبوابِ المدينة طُولَ النهار، ويتعوَّذُ الجارُ من الجار[2]، وساء ظنُّ الموحِّدينَ بالناس، فسَجَن منهم من اتَّهَم، وأمضَى السَّيفَ على مَن صحَّ عنه أنه غَشّ الأمرَ وأجرَم، وسَلِم مَن لازَمَ الطاعةَ واستسلم. وتَمادى ذلك كلُّه حتّى ورَدَ الكتابُ المبشِّرُ بالفتح المؤرَّخ بالثاني من ذي الحجة من السنة المذكورة من ظاهر الـمَهْديّة[3].

---

(١) في ر٣: «وأعيان».

(٢) في ق: «البحار من البحار»، وهو تحريف ظاهر، وفي م: «الجار من شرّ الجار» ولفظة «شرّ» لا أصل لها في النسخ ولا معنى لها في مثل هذا الموضع.

(٣) المن بالإمامة ١١١ فما بعدها، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٨، والاستقصا ٢/ ١٤١.

وفي سنة خمس وخمسينَ وخمس مئة: فتَحَ اللهُ تعالى مدينةَ الـمَهْديّة، ونَزلَ النّصارى عنها، ومَلَكَها المسلمونَ، فجلسَ عبدُ المؤمن مجلسَ التهنئة والشُّكر لله على ذلك، وأمَرَ بالكَتْب بوَصْف الفتوح والجَذَل الممنوح[1] شَرَح فيه...[2] ثم تيسير الفتح في هذه...[3] [من الطويل]:

ولـمّا قـضَيْنا بالمشارقِ أمرَنا ... وتـمَّ مـرادُ الله في كـلِّ مطلـبِ[4]
وأشرقَـت الـشمسُ المنـيرةُ فوقَنا ... وأصـبح وجـهُ الحـقِّ غـيرَ محجَّـبِ
وطُهِّـر هـذا الـصُّقعُ مـن كـلِّ كـافرٍ ... وعـاد بـه الإسـلامُ بعـد تغلُّـبِ[5]
وكُسِّرت الـصُّلبانُ في كـلِّ بيعـةٍ ... ونادى منادي الحـقِّ في كـلِّ مرقَـبِ
أشَرْنـا بأعنـاقِ المطـيِّ إلـيكمُ ... فطـار بهـا شـأْوُ الـسرورِ بمغـربِ
فأبـشِرْ أبـا حفـص بنَـصْرٍ مـؤزَّرٍ ... كفيـلٍ بـما تَبْغيـه في كـلِّ مـذهبِ
ولا بـدَّ مـن يـوم أغـرَّ محجَّـلٍ ... يُـسيلُ دمـاءَ الكُفـر في كـلِّ مـذنبِ
وتـشفي صـدورَ المـؤمنينَ بغـزوةٍ ... تكـونُ عـلى حُكـم الحسام المـذرَّبِ
ويغـزو بـلادَ الـروم جـيشٌ عَرَمْـرَمٌ ... تُـخيِّرُ[6] مـن قـيس وأبنـاءِ يَعـرُبِ
يصولُ بـه مـن عُـصبة الحـقِّ معشرٌ ... بجُملـةِ مـا يلقـاهُ خـيرُ مجـرَّبِ[7]

---

(١) في ق، ر٣: «الموضوح» وما هنا من ك، وهو الذي في المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف.
(٢) بياض بمقدار نصف سطر.
(٣) قوله: «ثم تيسير الفتح في هذه...» سقطت من م.
(٤) لم يبق في النسخ من هذا البيت سوى قوله: «وتم مراد»، واقتبسناه من المنّ بالإمامة، ص١١٧، والمؤلف ينقل منه.
(٥) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «تغيُّبِ»، وفي م: «تقلُّبِ»، وهو تحريف.
(٦) في النسخ: «بخيل» وبه يكسر الوزن، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة، ويذكر بعض النسّابة أن البربر ينحدرون من قيس بن عيلان، فالمراد هنا أن الجيش يتكون من البربر والعرب. على أنّ المحقّقين من النسابين لا يصححون هذه النسبة.
(٧) في المنّ بالإمامة: «نخيلة ما أبقاه أمير مجرّب».

فيَــدمَغُ بالصَّمــصام كــلَّ مجــاهرٍ ويقطَــعُ بالبرهــانِ كــلَّ مــشغِّبِ
فطُـوبى لأهـل الغـربِ مـاذا يرَونَـهُ من النّصر والفـتح الـمُبين المقـرَّبِ

فأمَرَ السيّدُ أبو يعقوبَ أن يكتُبَها الطلبةُ بإشبيلِيَةَ ويحفظونَها[1]، وذكَرَ لهم أنها من إنشاءِ أبيه، فامتَثل الناسُ ذلك. وأمَرَ السيّدُ بقَرْعِ الطّبول على هذه المسارِّ التي استَلَذّت بها النفوس، وكان قَرْعُ الطّبول معَ الإطعام متّصلًا[2]، واليُسرُ مستمرًا مشتملًا، والشّعراءُ يُنشِدونَ أشعارَهم بالتّهاني ويتمنَّونَ الثّلجَ بصحيح الأماني، فلمّا وصَل السيّدُ من أبيه ما ذكرتُه من المسَرّات، جاوَبَه على كتابِه بما يوجبُ الحالَ من التهنئة والدعاء والتأميل، وطلَبَ منه إغاثةَ[3] الأندَلس، وجاوَبَه أيضًا بشعر على معنى الواصل إليه ذُكر أنه من قول أبي العبّاس بن سيِّد المالَقيّ[4] يَذكُر فيه حالَ الفتنة وأحوالَ ابن مُرْدنيشَ وغيرِه، فقال من قصيدة أولُها[5] [من الطويل]:

هــو الأمــرُ أمــرُ الله لــيس لــهُ ردُّ يؤيِّــدُه أيــدٍ ويَــسمو بــه جَــدُّ
وقــد وضَــحت آياتُــه وأناتُــهُ وقد أُفحِمت[6] رَغْمًا[7] به أَلْسُنٌ لُــدُّ
ومـا اشـتبهت مُـذْ حُـمَّ إلا لزائـغٍ عقيدتُــه كفــرٌ وإقــرارُه جَحْــدُ
فمَن يبـغِ فيهـا الغـيَّ بعـدَ اجتلائـه فـإنّ حـسامَ الهنـد فيـه لـه رشْـدُ
وهـذي ريـاحٌ ريحـهُ عـصَفَت بهِـمْ فعادوا[8] كعادٍ حـين جلَّلها الرمدُ
ولم يُنجِهِمْ حصنٌ حصينٌ إذا انْـزَوَوْا ولم يُغنِهِمْ ذاك العديـدُ ولا العــدُّ

---

(١) هكذا في الأصل والجادة: «ويحفظوها».
(٢) المن بالإمامة ١١٩.
(٣) في م: «إغاثته»، وما أثبتناه من النسخ كافة.
(٤) هو أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي، المتوفى بعد الستين وخمس مئة.
(٥) القصيدة في كتاب المن بالإمامة ١٢١ باختلاف لفظي.
(٦) في ق، ر٣: «أعجمت»، وما أثبتناه من ك وهو الموافق لما في المنّ بالإمامة.
(٧) في المنّ بالإمامة: «رعبًا».
(٨) في م: «فصاروا»، وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ وهو الموافق لما في المنّ بالإمامة.

ولم يَجِدوا النصرَ العتيدَ بزَعْمِهِمْ — من اللّات بل رُدُّوا حديثًا كما أردوا
وكانت سبيلُ الرُّشد واضحةً لهمْ — فما منهمُ فيها رَصِيمٌ[1] ولا وَخْدُ
ولا سلَكُوا فيها سلوكَ تعذّرٍ — ولا انتضَحت فيها الشكائمُ واللُّثْدُ[2]
ولكنّهم مالوا إلى الكُفر مَيْلةً — فصالت بهمْ منكمْ يَدٌ ولها الأيدُ[3]
إليكمْ أميرَ المؤمنينَ توجَّهتْ — بنا[4] الرَّغَباتُ الجُمُّ يحتثُّها جَهدُ
لعلّ عِيانًا منكمُ لعبيدِكمْ — وقُربًا لكمْ منهم يُدالُ به البُعدُ
فقد عضَّهم نابٌ من الكُفر مُنغِصٌ — ودانوا لكمْ دهرًا وأنيابُهُ دردُ
بكمْ يعصِمُ اللهُ العليُّ جميعَهمْ — بكمْ تعظُمُ الآمالُ بل يكثُر الرِّفْدُ
بكمْ يعتلي الإسلامُ شرقًا ومغربًا — فلله فيها دائبًا ولك الحمدُ

ونهَضَ الرقّاصُ بالجواب بهذا الشعر، وابنُ مُرْدنيشَ يُلحُّ بالفتنة والضُّرّ، ويستعينُ بالنّصارى أهل الكُفر، وإشبيلِيَةُ في مثل الحَلْقة من الفِتن إلى أن سَنَّى اللهُ وصُولَ الجواب من ظاهرِ قُسَنطينة بتاريخ ربيع الأول من العام المؤرَّخ يُعرِّفُ به بصحيح الإياب، [وما ثَنَى من أعِنَّةِ خيل الله لهذه الأسقاع][5] وحماية ذلك الجواب[6]، ويَذكُرُ فيه فتْحَ قَفْصة.

وركِبَ الرقّاصُ بالجواب من بِجَاية، فساعدَتْه الرِّيحُ، وخَرج في المَرِيّة. ووصَل إشبيلِيَةَ في أقربِ وقت من تاريخِه، ثم وصَل كتابٌ آخَرُ مُبشِّرٌ[7] بتمادي

---

(١) الرصيم: البطيء، وهو ضدّ الوخد الذي معناه سريع الخطو. وفي م: «رسيم»، وهو تحريف، وفي المنّ بالإمامة: «وسيم» وهو تحريف أيضًا لا معنى له.

(٢) في م، والمنّ بالإمامة: «واللبد» وهو تصحيف، وما أثبتناه من النسخ كافة، واللثد، القوم المقيمون لا يظعنون.

(٣) لم يبقَ من هذا الشطر في النسخ سوى قوله: «فصالت»، واستدركنا باقيه من المنّ بالإمامة.

(٤) في ر٣: «به»، وما أثبتناه من بقية النسخ والمن بالإمامة.

(٥) ما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ١٢٢.

(٦) في المنّ بالإمامة: «الجناب»، وهو أحسن.

(٧) في ك، م: «مبشّرًا» وما أثبتناه من بقية النسخ وهو الأفصح.

السَّير والانصراف، فارتفَعت المسارُّ المؤْذِنةُ ببَسْط الأرجاءِ والأكناف، يَأمُرُ فيه ببناءِ مدينة بجبل طارق في التاريخ المذكور، فتوجَّه السيِّدُ أبو سعيد من غَرناطةَ بنفسِه وعسكرِه إلى الجبل المذكور، فنزَلوا فيه وابتَدأوا البناءَ في الموضع الذي وقَع عليه الوَفْقُ والاتّفاقُ من نواحيه، فزادَت به آمالُ الأندَلس وتحقَّقوا نَيْلَ الأمل، وأيقَنوا بالفتح والنُّجْح ببُنْيانِ هذا الجبل[1]. وكان السيِّد أبو إسحاق[2] بإشبيلِيَةَ يُزعِجُ الفَعَلَةَ والرجالَ للبناء المذكور، ويرتقبُ وصولَ الأخبار بقُرب والدِه من هذه الأقطار، فوصَلَه الخبرُ بالتحقيق من إيابِه، والتحقُّق برجعتِه وانقلابِه، وأنه في القُرب من أَحْواز فاسَ وقدِ استاقَ من العَرب ما لا يُحصى، فعزَم السيّدُ أن يَخرُجَ من إشبيلِيَةَ إلى التبرُّك بلُقْياه، فلمّا كان يومُ عَزْمِه وَصَله الخبرُ بغَدْر أصحابِ ابن هَمُشْك مدينةَ قَرْمُونةَ وأنّ الموحِّدينَ الذين فيها احتَصَنوا بقَصَبتِها، فكان باقي ذلك اليوم يومًا عصيبًا أحدَثَ هذا الخبرُ فيه حوادثَ سَوْءٍ وخُطوبًا، فامتَنع السيّدُ من سَفَرِه ورجَعَ إلى مقرِّه، ووجَّه عسكرًا إليها وتكدَّرت الأحوالُ من حينها[3].

ذكرُ أخبار عبد السلام في وِزارتِه إلى حين الإيقاع به فيها ومَنِيَّتِه[4]

لـمّا خَرج عبدُ المؤمن من مَرّاكُشَ إلى غَزْوة الـمَهْديّة في شوّال سنةَ ثلاث وخمسين استوْزَر هذا عبدَ السلام الكوميَّ، فعندَ وصُوله إلى تِلِمْسان أمَرَ ابنَه السيّدَ أبا حفص أن يَصحَبَه في غَزاتِه، وكان واليًا عليها، فامتَثل ذلك، ولـمّا وصَل بِجَايةَ كان ابنُه السيّدُ أبو محمد عبدُ الله واليًا عليها، فتغلَّب عبدُ السلام المذكورُ على جميع الأمور في هذه الغَزاة وطالَبَ الساداتِ ونَسَب إليهم عندَ أبيهم قبائحَ الأفعال من الراحات والبَطالات وأنّهم يشربونَ الخمر، وقرَّر عندَه ذلك وكرَّر المطالبةَ لهم هنالك، فتأثَّر الخليفةُ لقولِه وبحَث عليهم وبعَث شيوخَ الموحِّدينَ إليهم، فدخَلوا موضعَهم

(١) ذكر ابن صاحب الصلاة خبر بناء المدينة مفصلًا (المن بالإمامة ١٢٩ فما بعدها).

(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المنّ بالإمامة وم: «وكان من اشتغال السيد أبي يعقوب»، وهو الصّواب لما سيأتي بعده من كلام.

(٣) ينظر المن بالإمامة ١٣٧-١٣٨.

(٤) المن بالإمامة ١٧٠ فما بعدها، والمعجب ٢٦٧، والحلة السيراء ٢/ ٢٣٨-٢٣٩.

ومجتمَعَهم دونَ إذْن ولا مَشُورة، فوجَدوهم يأكُلونَ طعامًا[1] وبينَ أيديهم مشروبٌ مطبوخ من رُبٍّ حلال، فرَجَعوا إليه وشَهِدوا بالحال وزوَّروا كلامَ كلِّ طالبٍ مُحتال، فتيقَّن والدُهم تحامُلَه عليهم ولم يُظهِرْ له شيئًا، فلمّا نازَلَ[2] الـمَهْديّةَ وأقام عليها المدةَ المذكورة وخاطَبَه أهلُ قابِسَ بالتوحيد، بعَثَ عبدَ السلام المذكورَ بعسكر من الموحِّدين مقدَّمًا عليهم فأعْجَلوا السَّيرَ إلى المدينة المذكورة فانهزَم مَن كان في جوانبِها من العرب القاطنينَ بها وقُتلوا واستُؤْصلوا، واستَبدَّ عبدُ السلام بجَمْع الغنائم والأموال وتنفيل ما شاءه من الأنفال، فنُسِب إليه الاحتجانُ في الأموال والإنكارُ لها والكِتمان، كما نَسَب هو لابن عَطِيّةَ الباطلَ والبُهتان، وكما تدينُ تُدان، وفي مدّة مَغِيبه تكلَّم أشياخُ الموحِّدين في حالِه واستعلائه عليهم وتقصيرِه بأولاد أميرِ المؤمنينَ ومطالبتِه لهم بعدَ تشكِّيهم بحالهم إليهم، فاجتَمَعوا معَ الخليفة ورَغِبوا أن يكونَ ابنُه أبو حفص يوصِلُ كلامَه إليهم، فأجابَهم إلى ذلك، واستَوْزَر أبا حفص في ذلك اليوم، فاستَبْشَر الموحِّدونَ بذلك، فلمّا استقامت للموحِّدينَ الأمورُ ووَصَل عبدُ السلام المذكورُ وفتَح اللهُ الـمَهْديّةَ ورحَل الموحِّدونَ عنها إلى إفريقيّة وهُزِم العرب واستاقَهم أميرُ الموحِّدينَ معَه، كان عبدُ السلام المذكورُ يُماشَى على ظاهرٍ من حالِه إلى أنْ وصَل عبدُ المؤمن إلى تِلِمْسانَ، فتشكَّى أهلُ العُدوة بعُمّال عبد السلام من حَمْلِهم على الرعيّة وظُلمِهم وتعدِّيهم ومِن كوميّةَ إخوانِه ووصَفَوهم باحتجانِ الأموال والجِباية في جميع الأعمال، وأطنَبوا في التشكِّي والتبكِّي، وأضافوا ذلك كلَّه إلى عبد السلام، فأمَرَ عبدُ المؤمن بجَمْع المشتكين، وحضور أشياخ الموحِّدين، وطَلَبة الحضَر والقاضي لسَماع أقوالِـهم وتبيُّن أحوالِـهم وتشكِّيهم بما كُلِّفوا من أثقالِـهم، فبيَّنوا أمرَهم وقالوا فيه القليلَ والكثير، ووصَل كلامُهم على أبيَنِ التوصيل، فتغيَّر عبدُ المؤمن وتأثَّر وقال: عجبًا من هذا الأمر وسَعَتِه وقلّةِ ما عندَنا من المال على كثرة جَمْعتِه! كانت لَـمْتُونةُ إنّما يَملِكونَ إلى تِلِمْسانَ هذه، وكانوا يُنصِفونَ أجنادَهم، ونحن الآنَ قد ملَكْنا ذلك وزائدًا وليس عندَنا ما نُعطي الموحِّدين؟ هذا من أعجبِ العجَب! وكان عبدُ السلام واقفًا يسمعُ كلامَه، فقال له عبدُ الحق بنُ وانودين: يا أميرَ المؤمنين، ذلك لتضييع المخازن والدِّين، فقال له عبدُ المؤمن: ما معنى والدّين؟ فكرَّر عليه

---

(١) في م: «الطعام» وما أثبتناه من النسخ.

(٢) في م: «نزل»، وهو تحريف يدلّ عليه قوله: «وأقام عليها».

الدِّينَ مرةً بعدَ مرة، فقام أميرُ المؤمنينَ من مجلسِه ذلك مُغضَبًا، فبادَرَ عبدُ السلام لتقويم نعلِه فتركَها له ولم يَلبَسْها ودخَل حافيًا إلى موضعِه، فلمّا كان ظهرُ[1] ذلك اليوم قُبِض على عبد السلام وسُجِن في موضع مجلسِه، ووصَلَ الساداتُ والموحِّدونَ أربَهم فيه، فلمّا أقلَعَ عبدُ المؤمن من تِلِمْسانَ تركَه مسجونًا بها فتحيَّل في قَتْله بأنْ أمَرَ السجّانَ فعَمِل له ثَرْدةً مسمومةً فأكَلَها ومات في حينِه. وكان السببُ الذي كثَّر إدلالَ عبد السلام الكوميِّ على الأمر، أنْ كان والدُ عبد المؤمن تزوَّج والدةَ عبد السلام، فوَلَدت له ابنةً تُسمّى نَبْذة[2]، فكان يَرى لنفسِه حقًّا ولم يعلَمْ أنّ الـمُلكَ عقيم وأن مسرّاتِه هموم.

رَجْعُ الخبر: ولـمّا وصَل الخبرُ إلى إشبيلِيَةَ بغَدْر قَرْمُونَةَ تكدَّرت الأحوالُ بها وببلاد الأندَلس الموحِّديّة إلى أنْ وصَل الخليفةُ من إفريقيّة وعبَر البحرَ إليها، وفي تلك الأيام... [3] بإشبيلِيَةَ ورَدَ من قُرطُبَةَ خبرٌ كاذب أنّ ابنَ هَمُشْك صِهرَ ابن مُرْدنيشَ نازَلَ قُرطُبَةَ ودمَّر زروعَها، وأنّ أبا زيد بنَ بخيتَ استُشهِد عليها، وذلك أنّ ابنَ هَمُشْك لـمّا أقلَعَ من مُنازلتِها أكمَنَ بخيلِه ورَجْلِه على مقرُبة منها، فخَرج أبو زيد المذكورُ ليتطلَّعَ على تلك الأمور، فخَرجَ عليه الكمينُ فقُتل رحمه اللهُ تعالى.

ذكرُ جَواز عبد المؤمن إلى الأندَلس من سَبْتَةَ بعدَ إيابِه من غَزْوة الـمَهْديّة وفَتْح إفريقيّة[4]

كان جَوازُه في شهر ذي القَعدة من عام خمسة وخمسينَ وخمس مئة ليجتمعَ بالموحِّدينَ بالأندَلس وبرُؤسائها ويَنظُرَ كيف يكونُ غَزْوُ الرّوم الـمُحارِبينَ لها، فبَرَز إليه يومَ جاز البحرَ من النَّظّارة عالَـمٌ لا يُحصيهم إلا خالقُهم، وكان يومًا مذكورًا مشهورًا، وكان السيِّدُ أبو يعقوبَ قد وصَل من إشبيلِيَةَ بجُملةِ أصحابه من الموحِّدينَ ومن الرؤساءِ الأندَلسيِّين، ونَفَرَ الناسُ[5] عندَ مَشْي هذا السيِّد من إشبيلِيَةَ

---

(١) في ك، م: «في ظهر».

(٢) هكذا في النسخ مجوَّدة، وفي م: «بنذة»! وهو تصحيف.

(٣) فراغ قدر كلمة.

(٤) المن بالإمامة ١٣٨ فما بعدها.

(٥) سقطت من م.

من شيوخِها وطلَبتها وأعيانها وقاضيها[1] أبي بكر الغافقيِّ[2]، وأبي بكرٍ ابن الجَدّ[3] وسائرِ أهل النَّباهة بإشبيلِيَةَ من الكُبَراءِ والشّعراء، وكذلك من أهل قُرطُبة وجميع الأقطار والأنظارِ التي تحتَ طاعة الموحِّدين، ووَصَل هذا الجَمْعُ إلى الجبل المذكور جبلِ طارق فأمَرَ الوزيرُ السيِّد أبو حفص أن يُجمَعَ الوفودُ للسّلام، فدخَلوا وسَلَّموا سلامَ جماعة وأقَرُّوا له بالسّمع والطاعة، وأُذِن للشّعراءِ في الإنشاد، فأورَدوا ما نَظَموه من أفكارِهم بمحضَر الورّاد[4]، فقال أبو بكرٍ بنُ الـمُنَخَّل[5] من قصيدة طويلة[6] [من الطويل]:

فتحتُمْ بلادَ الشّرق فاعتَمَدوا الغَرْبـا ... فـإنّ نـسيمَ النّـصر بـالفتح قـد هَبّـا
أصَرتُـمْ إليـه الخيـلَ وهْـي أجـادلٌ ... فسالت بكمْ بحرًا وطارت بكـمْ شُـهْبا

وأنشَد القُرشيُّ المعروفُ بالطَّليق قصيدةً أولُـها[7] [من البسيط]:

ما لِلعدى جُنّـةٌ أوقَـى مـن الـهَرَبِ ... كيـف المَفَـرُّ وخيـلُ الله في الطلـبِ
لـو بـدَّلوا قَـدَمًا[8] زَلّـتْ بقادمـةٍ ... لأصـبح الكـلُّ طيّـارًا مـن الرُّعُـبِ

---

(١) في م: «وقضاتها»، غيّرها ناشرو (م) عن عمد ظنًّا منهم أنه الصواب الذي ليس فيه ارتياب، باعتبار أن في إشبيلِيَةَ عدة قضاة أو قاضيين كما نوّهوا في تعليقهم، وكل ذلك وهم، فالقاضي هو أبو بكر الغافقي، وأما أبو بكر ابن الجدّ فلم يكن يومئذ قاضيًا، والعبارة في المنّ بالإمامة واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار حيث قال: «وقاضيها أبي بكر الغافقي والشيخ الحافظ أبي بكر ابن الجد».

(٢) ترجمه ابن الأبار في التكملة (٥٩٢) وذكر أنه توفي في نحو السبعين وخمس مئة.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن يحيى الفهري، أبو بكر ابن الجد، ترجمته في تكملة المنذري ١/ الترجمة ١٢٣، وتكملة ابن الأبار (١٤٩٥) والتعليق عليهما، وتوفي بإشبيلية سنة ٥٨٦هـ.

(٤) في م: «الوارد»، وهو تحريف.

(٥) في النسخ: «النحل»، وهو تحريف، وقد سبق التعريف به.

(٦) القصيدة بطولها في المنّ بالإمامة ١٤٢ فما بعدها.

(٧) القصيدة بتمامها في المنّ بالإمامة ١٥٣ فما بعدها.

(٨) في المنّ بالإمامة: «قومًا».

وأنشَد أبو عبد الله[1] ابنُ صاحبِ الصّلاة من قصيدةٍ أولُـها[2] [من الطويل]:

تــلألأَ مــن نُــور الخلافــة بــارقُ ... أضاءت بـه الآفاقُ والليـلُ غاسـقُ

وأشرقَــت الــدّنيا بــه فكأنّهــا ... من البِشرِ في كلِّ الجهاتِ مَشارقُ

بسَعْدِك يَبري السّيفُ مـا عَزَّ قطْعُـهُ ... وينفُـذُ حـدُّ السَّهم مـا هـو راتـقُ

ولا زال أمــرُ الله للــدِّين هاديًــا ... وأنـت لـدين الكُفـر مـاحٍ ومـاحقُ

قال أبو القاسم ابنُ أبي هارون[3]: كنتُ واحدًا من جميع الوَفْد، فأقَمْنا بجبل طارق نحوَ عشرينَ يومًا تحتَ إنعام وإكرام إلى أن عيَّدْنا عيدَ الأضحى، فرتَّب أمورَه وجهَّز عساكرَه وحصَّن ما حصَّن من البلاد الأندَلسيّة، وحينَئذٍ أُذِن للناس بالانصراف إلى مواطِنِهم فانصَرَفوا.

وفي سنة ستٍّ وخمسينَ وخمس مئة: كان صدورُ أمير المؤمنينَ من...[4]، وذلك بعدَ أن أقام بجبل الفتح وبعَثَ منه عسكرًا جَرّارًا إلى بلاد العدوِّ برَسْم الغَزْو، وتقَدَّم بينَ يدَيْه، وقدَّم على القبائل ابنَ الشرقي، وعلى الأندَلسيِّينَ ابنَ صَناديد، فوصَلوا إلى فَحْص بلقون، فوجَدوا طاغيةَ الرُّوم قد استعَدّ للقائهم، فالتقى معَهم، فكان بينَ الفريقَيْنِ حَرْبٌ شديدٌ نصَرَ اللهُ فيه المسلمينَ على أعدائهم الكافرين، وكانت هزيمةً لم يُعهَدْ مثلُها، وقَفَلوا إلى الأمير عبد المؤمن فوجَدوه قد قَفَل إلى حضرتِه لأمورٍ حدَثت بعدَه في حِيَالِـها، ولم ينفصلْ من الأندَلس حتى مَهَدَها ورَفَقَ برعيّتِها، فاستقامت بذلك الأمورُ للموحِّدين وقَمَعَ اللهُ المعتدين. ومن قول أبي العبّاس الجُراويِّ في ذلك مادحًا لأمير المؤمنينَ عبد المؤمن [من الكامل]:

أعلَيْــتَ ديــنَ الواحــدِ القهّــارِ ... بالمَــشْرَفيّة والقَنــا الخَطّــارِ

---

(١) وكذا كناه ابن الخطيب في أعمال الأعلام، ص٣٠٦، وفي المنّ بالإمامة: هو أبو الحسين عبيد الله بن محمد ابن صاحب الصلاة.

(٢) القصيدة بطولها في المنّ بالإمامة ١٥٩ فما بعدها.

(٣) قال ابن صاحب الصلاة: «حدثني الأستاذ أبو القاسم بن أبي هارون» ثم ذكر هذا الخبر (المن بالإمامة ١٦٧).

(٤) فراغ في الأصل بقدر كلمتين.

ورأى بكَ الإسلامُ قُرَّة عينِهِ   وغدَتْ بك الغَرّاءُ دارَ قرارِ
وسلَكْتَ من طُرُق الهداية لاحبًا   طُوبى لـمَن يمشي على الآثارِ
وجرَت معاليكُمْ إلى الأمَدِ الذي   بعُدت مسافتُه على الأسفارِ
وقَفتْ على ما قد أردتَ سعادةً   وقَفت عليها خدمةُ الأقدارِ
لا تُخلِقُ الأيامُ جِدّةَ مُلكِكمْ   أبدًا ولا تَبلى على الأعصارِ
لا غَرْوَ أنْ كنتَ الأخيرَ زمانَهُ   فالفضلُ للآصالِ والأسحارِ
وافَيْتَ أندَلُسًا فأُمِّنَ خائفٌ   وسَما لأخْذ الثأرِ ربُّ الثارِ
وحلَلْتمُ جبلَ الهُدى فحللتُمُ   منهُ عُقودَ عزائم الكفّارِ
جبلُ الهُدى والفتحُ والنّصرُ الذي   سبَقَتْ بشائرُهُ إلى الأمصارِ
لو بَدَّلوا أقدامَهمْ بقوادمٍ   طاروا عن الأوطانِ كلَّ مطارِ
لو راءَ موسى ما فعلتَ وطارقٌ   زَرِيَا بما لهما من الآثارِ
أتمَمْتَ ما قد أمَّلوهُ ففاتَهمْ   من نَصْرِ دينِ الواحدِ القهارِ
بعرابِ خيلٍ فوقَهنّ أعاربٌ   من كلِّ مُقتحِمٍ على الأخطارِ
أكرمْ بهنَّ قبائلًا إقلالُها   في الحربِ يُغنيها عنِ الإكثارِ
وانظُرْ إذا اصطُفَّت كتائبُها إلى   ما تَحمَدُ الكُتّابُ في الأسطارِ
لو أنّها نَصَرت عليًّا لم ترِدْ   خيلُ ابن حَرْب ساحةَ الأنبارِ
هم أظهَروهُ معَ النبيِّ وواجِبٌ   أن يُتْبِعوا الإظهارَ بالإظهارِ
ملِكَ الملوك لقد أنِفْتَ إلى العُلى   ونظَرتَ من فوقٍ إلى الأقدارِ
أنتَ السّبيلُ إلى النّجاة فكلُّنا   لولاك كان على شَفيرٍ هارِ
وجرَيْتَ في نَصْرِ الإله إلى مدًى   يكبو وراءك فيه كلُّ مُجارِ
قد ضاق ذَرْعُ الكفرِ منك وأهلُهُ   بموفَّقِ الإيرادِ والإصدارِ

متأهِّـــبٌ للأمـــرِ قبـــلَ أوانِـــهِ　　مُطلِّـــعٌ عـــلى..........[1] رارِ
متحمِّـــلٌ أعبـــاءَ كُـــلِّ عظيمـــةٍ　　.........[2] بـالنَّـفْـع والإضـرارِ
مُلئـتْ بـهِ الـدّنيا صـفاءً بعـدَما　　مُلئـتْ مـن الأقـذارِ والأكـدارِ
أخليفـةَ الـمَهْديِّ دُمـتَ مؤيَّـدًا　　بـالله منـتقمًا مـن الكفّـارِ
ترمي شياطينَ الأعـادي في الـوَغَى　　برُجـوم خيـل مـن سـماءِ غُبـارِ
رَوَّعـتَ[3] كـلَّ مُـروَّع وحفِظـت كُـلَّ مـضيَّع وحـمَيْت كـلَّ ذِمـارِ

ومن قولِه أيضًا رحمه اللهُ يمدَحُه ويذكُرُ إفريقيّةَ حين كان بها على الـمَهْدية [من البسيط]:

كانـت مـحَلَّ أُنـاس قبلَنـا فخَلَـوْا　　عنهـا وآثـارُهمْ فيهـا مُقـيماتُ
تـالله لـو عَلِمـتْ مقـدارَ وارثِهـا　　هبَّـت إليـك رُباهـا والقَـراراتُ
قالوا العَطِيّـاتُ أحياهـا فقلـتُ لهـمْ　　بـل لم تكـنْ قبـلَ أنْ كـان العَطِيّـاتُ
أمـا سـمعتُمْ جَريـرًا عـن هُنَيْدتِـهِ　　يُثنـي يَـرى أنهـا في الجُـودِ غايـاتُ
وأين مِن حبسه الآلافَ مـن ذهـبٍ　　هُنَيـدةٌ مـن سـواه أو هُنَيْـداتُ
وإنّ مـن قَـيْس عَـيْلانٍ أرُومتُـهُ　　وقـيسُ عَـيْلانَ أمـلاكٌ وسـاداتُ
ومن يكـنْ مـن أميرِ المـؤمنينَ فقـد　　قامـت عـلى فـضلهِ منـه الـشّهاداتُ
اهنَـأْ إمـامَ الهُـدى فالعـدلُ مُنبسِطٌ　　والـدِّينُ منـتظمٌ والكفـرُ أشـتاتُ
أعيَـتْ مـآثرُكمْ مـن أن تُنـالَ وكـم　　شُـنَّت عليهـا مـن الأقـوالِ غـاراتُ
وكم أرادت وُلاةُ الـشِّعر تَـحصُرُها　　فأخفَقَـت دونَهـا مـنهمْ إراداتُ
هـذي أُبيَّـاتُ عبـد مُـخلِص لكـمُ　　مَـحْضَ اعتقادٍ ومـا تُغنـي الأُبيّـاتُ

(١) بياض في الأصل.
(٢) بياض في الأصل.
(٣) هكذا في النسخ كافّة، ولو قال: «أمَّنت كلّ مروّع» لكان أحسن.

الأمـرُ أعظـمُ مقـدارًا وأرفـعُ مِـن أنْ قــد تُــحيطُ بــه منّــا مقامــاتُ
دمــتُمْ ودام لكــمْ إســعادُ ســعدِكمُ ما دامت الأرضُ والسبعُ الـسّماواتُ

ومن قولِه أيضًا رحمه اللهُ في فَتْحِ الـمَهْديّة ويمدَحُ الخليفةَ عبدَ المؤمن [من الكامل]:

لــمَن الخُيــولُ كــأنّهن سُــيولُ غُــصَّت بهــنَّ سَباسِــبٌ وهجــولُ
طُوِيت لها الـدّنيا فأبعَـدُ مـا انتحَـتْ دانٍ وأبطــأُ ســيرِها تعجيــلُ
يَغزو أديـمَ الأرض مـن صَهَلانِــها مثـلُ اسـمِها حتـى تكـادُ تـزولُ
فصَهيلُها مَــحْضُ الثنـاءِ وإن يكـنْ لا يَفهَــمُ المــستمتعونَ صــهيلُ
تُثنــي عــلى الملِــكِ الــذي أيّامُــهُ سَــتْرٌ عــلى هــذا الـورى مـسدولُ
عـــمَّ البـــسيطةَ مُلكُـــهُ فكأنّـــهُ سَــيْلٌ عــلى كــلِّ الــبلاد يَــسيلُ
جَهِـلَ النّـصارى أنـه الملِـكُ الـذي يــرِثُ الــبلادَ وعُــذرُهمْ مقبــولُ
أهـلُ الجَهالـة هـمْ فكيـفَ ألـومُهمْ وعلِمـتُ أنّ الطبـعَ لـيس يَـحُولُ
لم ينزِلـوا طَوْعًـا ولا كُرهًـا(١) ولــ ــكنّ وراءَ الــصِّين منــهُ مَهُــولُ
ودَرَتْ نفوسُــهمُ بأنــك ظــافرٌ فأتــت تُقـدِّمُ [مـا](٢) إليـه تـؤولُ
فعفَــوْتَ عفــوَ القــادرينَ تكرُّمًــا عــنهمْ وعفــوُ القــادرينَ جميــلُ
شَــكَرَ الـبلادُ مـعَ العبـاد خليفـةً هــو بــالبلادِ وبالعبــاد كفيــلُ
لــو تنطِــقُ الــمَهْديّتانِ لَقالَتــا في الـشّكر مـالا يُـدرِكُ التحـصيلُ
بــالأمسِ يمــلأُ ســمعَها ناقوسُــهمْ واليــومَ يمــلأُ ســمعَها التهليــلُ

وكان وصُولُ أبي محمد عبد المؤمن إلى مدينة مَرّاكُش من هذه الغَزواتِ المتقدِّمةِ الذِّكْر في شهر ربيعٍ الأوّل من سنة ستٍّ وخمسينَ المذكورة.

(١) لم يبق منها إلّا الكاف، وما بعدها بياض.
(٢) ما بين الحاصرتين ليس في النسخ، ولا يستطيع الوزن بغيره.

ذكرُ فَتْح قَرْمُونَة وأخْذِها من يدِ ابن هَمُشْك[1]

لـمّا وصَل السيّدُ أبو يعقوبَ بنُ عبد المؤمن إلى إشبيلِيَةَ من وداع أبيه في أول عام ستة وخمسينَ وخمس مئة، رتَّب السّرايا على[2] حَرْبِ أهل قَرْمُونَةَ يُغادونَهم ويُراوِحونَهم، فعمَّ جهاتِهم الحصار، ومَن ظهَرَ منهم الإسار، ومنَّ اللهُ أن أمْكنَ الموحَّدين من الغادر الذي غَدَر قَرْمُونة، ومكَّن منها ابنَ هَمُشْك، وهو: عبدُ الله بن شَراحيل، وسيق أسيرًا مكبولًا إلى السيّد أبي يعقوبَ بإشبيلِيَةَ، فقَتَله وقَتل أتباعَه وأشياعَه. وفي أثناء هذا وصَل يوسُف بن سُليمان بعسكرٍ ضَخْم إلى إشبيلِيَةَ جهَّزه عبدُ المؤمن حين وصُوله إلى مَرّاكُش، فاتّصلت آمالُ الناس عندَ وصُولِـهم واتّصلت المسرَّة[3] بحُلولِـهم، وقَوِيت بهم إشبيلِيَةُ، ودخَلت الأقواتُ والـمِيرةُ إلى قُرطُبة، وتوجَّه السيّدُ أبو يعقوبَ إلى مَرّاكُش لزيارة أبيه، واستَخْلَف على حرب قَرْمُونَةَ أبا محمد عبدَ الله بن أبي حَفْص، فسار إليها ونزَل عليها حتّى ضاق مَن في داخلِها من الرَّعيّة، والشِّرْذِمة الشّرقيّة، ويئسوا من نُصرة ابن مُرْدنيشَ لهم، وقيَّضَ اللهُ لهم رجلًا من المسلمينَ فداخَلَ الموحِّدينَ وطلَبَ منهم الأمانَ في نفسِه وماله ورعيّةِ بلدِه، فأجابوهُ لذلك، فأجْمَعَ أصحابَه وفتَح بابَ المدينة ودخَلَها الموحِّدون بعدَما طال حصارُها مدّةً من سنة، وكان فتحُها يومَ الجُمُعة الخامسَ عشَرَ لمحرم من عام سبعة وخمسينَ وخمس مئة، وكان تغلُّبُ ابن هَمُشْك عليها يومَ الجُمُعة الخامسَ عشَرَ لربيع الأوّل من عام خمسة وخمسينَ وخمس مئة.

وفي سنة سبع وخمسينَ وخمس مئة: رحَلَ السيّدُ أبو يعقوبَ من مدينة إشبيلِيَةَ إلى حضرة أبيه برَسْم زيارتِه، وكذلك توجَّه أيضًا السيّدُ أبو سعيد ابنُ الخليفة لزيارة أبيه، فغَدَر ابنُ هَمُشْك بعدَه مدينةَ غَرْناطة حسبَما أذكرُه.

---

(١) الضبط من ق. وانظر: المن بالإمامة ١٧٧ فما بعدها.

(٢) في م: «رتّب السيد أبو يعقوب حرب...» ولا ندري من أين أتوا بها، ففي جميع النسخ ما أثبتنا.

(٣) في ك، م: «المسرّات».

ذكرُ غَدْر ابن هَمُشْك مدينةَ غَرْناطةَ ومُلكِه لها[1]

وذلك أنّ ابنَ إبراهيمَ بن هَمُشْك لم يزَلْ في كلِّ صائفة يُفسدُ زروعَ قُرطُبة ويُضِرُّ بجنَباتِها وربوعِها مدةَ الأعوام التي كان عبدُ المؤمن بإفريقيّة، وأنه استَوْلى بغَدْره على قَرْمُونةَ وغيرِها، ولم يبقَ من البلاد المجاورة لإشبيلِيَةَ إلا قليلٌ منها، فلمّا كان إيابُ عبد المؤمن وعبورُه البحرَ إلى جبل الفَتْح ثم انصرافُه إلى مَرّاكُش، لازَمَت [العساكرُ من الموحِّدينَ][2] حصارَ قَرْمُونةَ حتى فتَحَها اللهُ كما ذكَرْنا، [فأسِفَ][3] عليها ابنُ هَمُشْك وهو على مدينة جَيّان، [فاضْطَرَمت الفتنةُ في قلبِه][4] وجَنَّ في خاطِرِه الفاسد أن يغدِرَ مدينةَ غَرْناطة، إذ هي بمقرُبة منه، فداخَلَ مَن بها من اليهود لعَنَهم الله وارتَبطَ معَهم على أن يجتمعوا باللّيل ويَعِدُوهُ بليلةٍ معيّنة يَصِلُهم فيها إلى باب الرَّبَض[5] فيكسرونَ البابَ ويدخُلونَه، فكان ذلك[6] كذلك، ودخَلَها في هذه السنة، وكان واليها السيّدُ أبو سعيد قد نَهَض لزيارة أبيه بالحضرة الـمَرّاكُشيّة كما تقدَّم ذكرُه، فمشَى ابنُ هود سرًّا من ابن هَمُشْك إلى اليهود وارتَبطَ معَهم على دخولِه المدينة، وكانت القَصَبةُ محُصَّنةً بالرجال الأبطال مملوءةً بالأقواتِ والآلات، فوصَل الغادرُ في اللّيلة الموعودة وقدِ اجتمَعت الكَفَرةُ اليهود فكسَروا قُفلَ الباب وبادَروا بالصِّياح للأصحاب، فلمّا تسامَعَ الناسُ بذلك بادَرَ مَن كان هنالك ممّن له ولاءٌ واعتقادٌ في الدِّين، فلمّا أصبح الصَّباحُ من تلك اللّيلة وقد ملَكَ ابنُ هَمُشْك المدينةَ، خاطَبَ أميرَه ابنَ مُرْدنيش بمُرْسِيَةَ يُعلِمُه بما اتّفق له، وأطمَعَه أنه إذا وصَل بعسكرِه يُنزِلُ طوعًا مَن في القَصَبة من الموحِّدين، فاحتشَد ابنُ مُرْدنيش مَن ببلادِه واستدعى النّصارى أصحابَه، ووَصَلوا إليه، وخَرج في جَمْعِه الذَّميم طامعًا فيما ضَمِنَ له ابنُ هَمُشْك، وكان ابنُ هَمُشْك

---

(١) المن بالإمامة ١٨١، والكامل لابن الأثير ١١/ ٢٨٣-٢٨٤، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٩.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة، ص١٨٢.

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ، وهو من المنّ بالإمامة أيضًا.

(٤) بياض في النسخ، وهو من المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف.

(٥) في ق، ر٣: «الروض»، وباب الربض: أحد أبواب غرناطة، ولعله ربض البيازين.

(٦) سقطت من ك.

عندَ دخولِه شَرَع في قتال مَن بالقَصَبة وعذَّب من حصَل في يدِه منهم، وعبَثَ فيهم ورَماهم بالـمَنجَنيق، وأعان اللهُ المحصورينَ بالقَصَبة بما كان عندَهم من الأقوات والآلات فأعدُّوها معَ عَوْن الله عدَّهم، وشاع خبرُ تجلُّدِهم وتثبُّتِهم، وبلَغَ الخبرُ أميرَ المؤمنينَ عبدَ المؤمن فتحرَّكَ من حضرتِه لـجَواز البحرِ إلى الأندَلس.

ذكرُ حركةِ أميرِ المؤمنينَ برَسْم الـجَواز إلى الأندَلس حين بلَغَه غَدْرُ ابن هَمُشْك غَرْناطةَ[1]

لـمّا خَرج أبو محمد عبدُ المؤمن من مَرّاكُش على عادتِه من فَخامةِ هيئته وضَخامة جيوشِه برَسْم الغزوِ لبلاد الأندَلس، تَمادى مَشْيُه على تلك الهيئة المعهودة، فلمّا كان في بعض الطريق وصَله الخبرُ بغَدْر غَرْناطةَ، فساءه ذلك وتأثَّر له، فلمّا وصَل سَلا تقدَّم منها السيّدُ أبو سعيد ابنُه بمَن كان معَه، وأسرَعَ السَّيرَ إلى الأندَلس لعلّه يَدخُلُ قَصَبةَ غَرْناطةَ ويفرّ[2] ابن هَمُشْك، وكان السيّدُ قد قرّر له أنّ ابنَ هَمُشْك في جُملتِه المعلومة له، وإذا بابن مُرْدنيشَ قد وجَّه عسكرًا من الرّوم في ألفَيْ فارس ورَجّالة كثيرة، فلمّا وصَل السيّدُ مالَقةَ استَدعى منها أبا محمد عبدَ الله بن أبي حفص الواليَ على إشبيلِيَةَ أن يَصِلَه بعسكرِها، فنَهَض أبو محمد المذكورُ والتقى بالسيّد أبي سعيد، وتجمَّعوا بأجمعِهم، وتقَدَّم السيّدُ بالموحِّدينَ والجُند الأندَلسيِّين ونَزَلوا فَحْصَ غَرْناطة حيث السواقي الجارية، فخَرجَ إليهم ابنُ هَمُشْك بالنّصارى وأصحابه، ودارت الحربُ بينَهم في الموضع المذكور، فانـهَزَمت جموعُ الموحِّدين وفَرُّوا أجمعين، فقُطِعت بهم تلك السواقي عندَ فِرارِهم فسَقَطوا فيها بخيلِهم، وكانت من أقوى أسباب انهزامِهم وقَتْلهم، واستُشهِد في ذلك اليوم الشيخُ أبو محمد بنُ أبي حفص المذكور، وتخَلّص السيّدُ أبو سعيد، [ووصَل][3] مدينةَ مالَقةَ، [واستُشهِد في ذلك اليوم العصيبِ كثيرٌ من][4] الموحِّدينَ والأندلسيِّين، وكان رُزْءًا عظيمًا وخَطبًا جسيمًا، وثبَّت اللهُ الموحِّدينَ المحصورينَ

---

(١) المن بالإمامة ١٨٥ فما بعدها.

(٢) في م: «مقرّ» وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ والمنّ بالإمامة ١٨٦.

(٣) بياض في الأصل، وهي مستفادة من المنّ بالإمامة ١٨٨.

(٤) بياض في الأصل، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة.

بقَصَبة غَرْناطة، إذ كان الخَطْبُ بمَرأى منهم ينظُرونَ من أعلى القَصَبة لقَتْل إخوانِهم، وانصَرف ابن هَمُشْك من هذه الوقيعة معَ أصحابِه النّصارى إلى القَصَبة الحمراء بغَرْناطة، وأسرى الموحِّدينَ بينَ يدَيْه يَقتُلُهم ويعبَثُ فيهم على مَرْأى من إخوانِهم.

ولـمّا وصَل خبرُ هذه الوقعة إلى رِباط الفتح، وكانت العساكرُ قد تَلاحَقت بأمير المؤمنينَ على نيّة ما تحرَّكوا إليه من الغَزْو لبلاد الأندَلس، واختار منهم عسكرًا ضخمًا من أعيان كلِّ قَبيل من أهل الشّهامة والنَّجْدة وأمَّر عليهم ابنَه السيّدَ أبا يعقوبَ، فتحرَّكوا من رِباط الفتح إلى أن وصَلوا بحرَ الزُّقاق فجازوا منه إلى الجزيرة الخضراء، واستوفَت العساكرُ وتلاحَقَت وتبادَرَت في الإجازة وتسابَقَت، وتحرَّكوا منها إلى مالَقَة فاجتَمَعوا بالسيّد أبي سعيد وتحرَّك الجميع.

ذكرُ حركة السيِّدَيْن ابنَي الأمير عبد المؤمن من مالَقَة إلى غَرْناطة وهزيمةِ ابن هَمُشْك[1]

فتحرَّك السيّدانِ أبو يعقوبَ وأبو سعيد من مدينة مالَقة إلى غَرْناطة وابنُ مُرْدَنيش قد وصَل بمحَلّتِه من المسلمينَ والنّصارى طَمَعًا في مُلك غَرْناطة، فنزَلَ في الجبل المتّصل بقَصَبة غَرْناطةَ وابنُ هَمُشْك بالحمراء معَه نحوَ ثمانية آلاف فارس من النّصارى دونَ عسكريّتِه وابنُ مُرْدَنيش في أكثرَ من هذا العدد وهم يَنتظرونَ كلَّ يوم وصُولَ العساكر ويَظُنّونَ ظنونَهم، والموحِّدونَ[2] يمشُونَ في طريقهم على تَؤُدة حتى وصَلوا واديَ شنيل[3]، فلمّا كان يومُ الخميس الخامس والعشرينَ لرجَب رَكِب السيّدانِ ورَكِب جميعُ العساكر بعدَما عَلَفوا خيولَهم بعدَ صَلاة العصر من يومِهم وعَزَموا أن يسيروا ليلَهم، وقَدَّموا الأدلّاء أمامَهم وتسَنَّموا الجبلَ إلى أعلاه الذي على وادي شنيل المتّصلَ بالقَصَبة الحمراء حيث محَلّةُ النّصارى وصاحبُهم ابنُ هَمُشْك، ومشَوْا طولَ ليلتِهم على تُؤدةٍ في الجبل المذكور على شَواهقِه وأحجارِه وقد سَهَّله اللهُ عليهم على وَعرِه، وكانت ليلةً مُقمِرةً، فلمّا بَرِقَ ضَوْءُ الفجر اطَّلعوا على محَلّة الكَفَرة فبدَرُوهم

(١) المن بالإمامة ١٨٩.

(٢) في النسخ: «والموحّدين» ولا تستقيم فأصلحت.

(٣) ينظر مسالك الأبصار ٤/ ٢٢٧.

بالكفاح في مضاجعِهم[1] وأعجَلوهم عن ركوبِهم، فما قَدَروا أن يركَبوا خيلَهم إلا وقد أحان اللهُ حَيْنَهم، ثم كانت منهم بعدَ مُواقعاتٍ وحَملات ومُدافَعات، ثم أذهَلَهم اللهُ وأعماهم، فظَنُّوا أنّ الأرضَ متّصلةٌ إلى محلّة ابن مُرْدَنيش، وكانت بِوادي حداره[2] منفصلةً عنهم، فولَّوا أدبارَهم عندَ الدّفاع والانهزام وترَدَّوْا في وادي حداره عندَ إظلام الظلام، فتقطَّعت في حافاتِ ذلك الوادي أجسامُهم وحان في ذلك الصّباح السعيد حِمَامُهم، وقُتل في تلك المعركة قائدُ النّصارى وحُزّ رأسُه وسِيقَ إلى قُرطُبَةَ بعدَ أيام وعُلِّق بباب القصر، وترَدَّى في الوادي صِهرُ ابن مُرْدنيش وقُوّادُه الأكابر وفُرسانُه المشاهير، وكان ابنُ مُرْدنيشَ في الجبل المتّصل بغَرْناطةَ يَرى قَتْلَ إخوتِه فيتفطَّرُ كبِدُه بحسرتِه. ودخَل الموحِّدونَ مدينةَ غَرْناطةَ وَسَطَ النّهار، على أتمِّ النَّصر والإظهار، وخرجَ الموحِّدونَ المحصُورونَ بالقَصَبة في الحين قاتلينَ لـمَن في المدينة من الأشقياءِ القاطِنين، وأقلَعَ ابنُ مُرْدنيش منهزِمًا [من موضع محلّتِه][3] بباقي شِرْذمتِه وتَركَ أخبِيتَه وأسلابَه، كما أفْرَدَ في ذلك اليوم [أصحابَه][4]، فاقتفَى الموحِّدونَ أثَرَه وقَتلوا من أدركوه من قومِه، وانتَسب هذا الفتحُ بالعُدوة الأندَلسيّة إلى سعد السيِّد أبي يعقوبَ، واستقَرَّ في النفوس ذلك وعندَ أشياخ الموحِّدين، وكان ذلك سببًا في نَيْلِه الأمرَ العزيز، وأعلَمَ السيِّدان المذكوران حضرةَ الخليفة بالفتح فسُرَّ بذلك سُرورًا تامًّا وشكَرَ اللهَ تعالى شكرًا عامًّا.

---

(١) غيّرها ناشرو (م) إلى: «مضابعهم» وقالوا في تعليق لهم: «من ضابع المقاتل خصمه: إذا استلّ كلّ منهما سيفه فمدّه إليه» وهو تغيير فاسد وتعليل أفسد منه؛ لأنه لا يدل على المعنى المراد، والمحقق لا يغيّر ما في النسخ من غير تعليل صحيح، فلفظة «مضاجعهم» جاءت في جميع النسخ، فضلًا عن أنها كذلك في المورد الذي ينقل منه المصنف وهو المنّ بالإمامة، حيث قال: «فلمّا فرق ضوء الفجر بالصباح من يوم الجمعة الثامن والعشرين المؤرخ المذكور، أطلّوا على محلات الكفرة في ذلك الصباح، فبدأوهم في مضاجعهم بالكفاح، وخلطوا أحشاءهم بالسيوف والرماح، فلم يلحقوا أن يركبوا خيلهم». (المنّ بالإمامة ١٩٢).

(٢) معجم البلدان ٢/ ٢٢٧.

(٣) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف ١٩٣.

(٤) بياض في النسخ، وهي مستفادة من المنّ بالإمامة ١٩٤.

ولـمّا أكمَلَ اللهُ هذا الفتحَ العظيمَ الشأن تحرَّكَ العسكرُ لحصارِ ابن هَمُشْك بمدينة جَيّان، وأن يَستأصلَ في جميع جنَباتِه مَن فيها من أهل النِّفاق والعصيان، وأن يُخَصَّ هو بالنِّكاية والانتقام منه بأوفَى الخُسران، فنزَلَ الموحِّدونَ بساحل قريتِه[1] المذكورة الظالِمِ أهلُها السابق أخذُها بما اقتَضاه جَهْلُها، فلاذ هو ومَن فيها من الأشقياءِ والكُفّار بالجُدُراتِ والآكام، وأصبحوا بأسوارِهم راضِين بحالة الضَّيم والاهتضام، ظانِّينَ بأنّهم مانِعتُهم حصونُهم وأنّى لهم من الامتناع والاعتصام؟ فانتسَفَ ما حَوالَيْها فخرِبَ عامرُها، ودام ذلك إلى أن وصَل الأمرُ إلى السادات باستيطانِ قُرطُبة.

ذكرُ حركة السيِّدَيْن من غَرْناطةَ وقدومِهما على قُرطُبة وذلك في شوّال من السنة المؤرَّخة[2]

ولـمّا وصَل السيّدانِ: أبو يعقوبَ وأخوه أبو سعيد إلى قُرطُبة خَرج أهلُ قُرطُبة للقائهما بجهة بابِ القَنْطرة، وكان أعيانُ قُرطُبة الذين أبقَتْهم الفتنةُ على أقدامِهم بارزينَ معَ النَّظّارة من العامّة، وذلك في نحو ثمانينَ رجلًا خاصّةً بجَلائهم من الفتنة على البلاد وما كان حَلَّ ببلادِهم من القَفْر بثغورِها وإنجاد، وقد ظهر على هيئاتِهم وصُوَرِهم البُؤس، واستمرَّ على بلدِهم وعليهم من الفتنة الدرسُ، فلقد ذاقَتْ قُرطُبةُ وأهلُها من سوء هذه الفتنة الأندَلسيّة ما لم يذُقْه أحدٌ من أوائلِهم في الفتنة الحَمُّوديّة بإلحاح ابن هَمُشْك وقَساوتِه العَجَميّة.

ولـمّا استقرَّ السيّدانِ بقُرطُبة أمَرا ببناءِ قصورِها وحماية ثغورِها، وانجَلَب إليها أهلُها في أقربِ مدّة، وتجدَّدت آمالُهم وصَلَحت أحوالُهم، وكان مقامُ السيّدَيْنِ بقُرطُبة نحوًا من أربعة أشهر.

وفي سنة ثمانٍ وخمسينَ وخمس مئة: وصَل الأمرُ إلى السيّد أبي يعقوبَ بالحركة إلى الحضرة، فتوجَّه إلى إشبيلِيَةَ ولم يُقمْ بها إلّا ستةَ أيام، وواصَلَ سيرَه إلى الحضرة تأميلًا أن يصيرَ له الأمرُ وولايةُ العهد بخَلْع أخيه المخلوع واتّفاق الموحِّدينَ على تقديمِه للإمامة.

---

(١) في م: «كديته»، وما أثبتناه من النسخ والمنّ بالإمامة الذي ينقل منه المصنف.

(٢) المن بالإمامة ١٩٧ فما بعدها.

وأقام السيّدُ أبو سعيد بغَرْناطةَ على الحالة التي أمَرَ بها فزادَها تمصيرًا ويسَّر خيراتِها تيسيرًا وانضافت إشبيلِيَةُ ونظَرُها في الأشغال إليه.

ذكرُ سبب خَلْع السيِّد أبي عبد الله ابن أمير المؤمنينَ عبد المؤمن من[1] ولاية عهدِ أبيه[2]

لـمّا تحرَّك عبدُ المؤمن في هذه السنة إلى زيارة الإمام الـمَهْديّ، كان ذلك في فصل الشتاءِ والبَرْد، فزارَ ووَدَّع وانصَرف، وقد ظَهَر في تلك الحركة من جَرْحة محمد المخلوع ما أوجَبَ[3] عليه إثْرَ ذلك الخَلْعَ من شُرب الخمر وظهور السُّكر عليه، [وذلك][4] أنه [كان][5] يتقيّأُ يومًا على ثيابِه وأطنابِه وهو راكبٌ على فرسِه في المحَلّة على مَرْأى من أشياخ الموحِّدين والعامِّ من الناس الزائرين، فصَحَّ عند أبيه نُكْرُه وتخليطُه وسُكرُه، فأسقَطَ هو بفعلِه من الأمر نفسَه وكسَفَ بالنهار شمسَه، وتكلَّم الناسُ بعدَ ذلك بأقاويلَ شنيعة أنبأت عن خَلْعِه وحَتْفِه على ما يُذكَر إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ حركة أمير المؤمنينَ عبد المؤمن من حضرة مَرّاكُش إلى رِباط الفتح بسَلا[6]

كان خروجُه من مَرّاكُش يومَ الخميس الخامسَ عشَرَ من ربيع الأول من السنة المؤرَّخة على نيّةِ الغَزْو والجهاد، والنظرِ في الآلاتِ والاستعداد، فاتّصل سَيْرُه وعَزْمُه على عادتِه من المشي الرفيق، ومراحلِه إلى منازلِه الـمَبْنيّة في الطريق، والعساكر المتقدِّمة

---

(١) في م: «في».

(٢) المن بالإمامة ٢١٢-٢١٣.

(٣) في النسخ: «من جرحة محمد المخلوع [......] الطريق ما أوجب»، وهي غير مستقيمة، وأصل العبارة في المنّ بالإمامة التي ينقل منها المؤلف: «ثم أقلع ووصل المنسك الكريم، وزار وودّع وانصرف وقد نالِ الأجر العظيم، وعند الانصراف منها في الطريق ظهر من جرحة محمد المخلوع بما وجب...»، ص٢١٣.

(٤) ما بين الحاصرتين منّا للتوضيح.

(٥) بياض في الأصل، وما بين الحاصرتين منّا.

(٦) المن بالإمامة ٢١٤ فما بعدها.

معَه على الوفور والكمال، والظهور والإقبال، حتّى وصَل إلى رِباط الفتح من سَلا فأراح بها منتظرًا لاستيفاءِ المتأخِّرينَ من العساكر، فتلاحَقوا واستوفَوْا بجموعِهم وتسابَقوا مُبادرينَ بحُسن الطَّوع الذي بينَ ضُلوعِهم، وبعدَ ذلك مَرِضَ أبو محمد عبدُ المؤمن.

ذكرُ وفاة عبد المؤمن رحمَه الله تعالى(١)

لـمّا مَرِضَ وأخَذَه وجَعُه الذي توفِّي منه دام به أيامًا والناسُ ينتظرونَ شفاءه والأطباءُ كلَّ يوم يدخُلونَ عليه، فلمّا تمادَى الـمَرَضُ به أمَرَ بإسقاطِ اسم ابنِه محمد من الخُطبة، الذي كان وليَّ عهدِه، وفَهِم الناسُ أنّ الجَرْحةَ الموصُوفةَ قد مُضي بها وأُسقِطَ اسمُه بسببِها، وقيل: إنه أمَرَ بقتلِه ودخَل عليه الشّيخُ أبو حفص وأوصاهُ(٢) ووَعَى منه السّرَّ الذي وَعاه واستوثَقَ بوصيّتِه أيضًا لابنِه أبي حفص بتقديم أخيه شقيقِه يوسُف، وكان أبو حفص المذكورُ قد ملَكَ جميعَ الأمور، جعَل له أبوه ذلك.

ولم يزَل الوجَعُ يشتدُّ به وهو يذكُرُ اللهَ تعالى والأطباءُ يدخُلونَ عليه، فلمّا كان ليلةُ الخميس العاشر من جُمادى الآخِرة من السنة توفِّي رحمه الله، فحُمل إلى تينملَ ودُفن بجانبِ قبرِ الـمَهْديّ، وكان له من السنينَ، على ما رواه أبو عبد الله بنُ عبد الملك برواية أبي يحيى زكريا بن يحيى بن سِنان: ثلاثٌ وستونَ سنة، وقيل: أربعةٌ وسبعون.

ذكرُ(٣) بعضِ أخبارِه على الـجُملة وسِيَرِه رحمه الله(٤)

نسَبُه: هو عبدُ المؤمن بنُ عليِّ بن علويٍّ بن يملي بن مروانَ بن نَصْر بن عليّ بن عامر بن الأمْتر بن موسى بن عَوْن الله بن يحيى بن ورجايع بن سطفُور بن يَعْفُور بن ملطاط بن هُود بن قَيْس بن غَيْلان، بالغَيْن المعجَمة، وعَيْلان: اسمُ رمكة سمِّي بها،

---

(١) المن بالإمامة ٢١٧-٢١٨، والكامل لابن الأثير ١١/ ٢٩١-٢٩٢، والمعجب ٣٠٦-٣٠٧، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣١٨.

(٢) سقط من ر٣.

(٣) ليست في ك.

(٤) المن بالإمامة ٢١٩-٢٢٠.

فعبدُ المؤمن من قَيْس عَيْلان بن مُضَر، هكذا أثبَتَ نسَبَه جماعةٌ من المتقدِّمينَ له، وأصلُه منقولٌ من خطِّ أبي محمد عبد الواحد حفيدِه، وفي ذلك خلاف.

وكانت خلافتُه ثلاثًا وثلاثينَ سنةً وثمانيةَ أشهر وخمسةً وعشرين يومًا، أولُها يومَ الخميس الرابعَ عشَرَ لرمضانَ سنة أربع وعشرينَ وخمس مئة، وآخرُها يومَ الثلاثاء ثامن جُمادى الآخِرة سنة ثمانٍ وخمسينَ وخمس مئة.

عمُرُه: ثلاثٌ وستون، وقيل غيرُ ذلك كما تقدَّم، وكان الذي تولّى حَمْلَه إلى تينملَ السيّدُ عليٌّ ابنُه.

كُتّابُه أيامَ خلافتِه: ميمونٌ الهَوّاريُّ، [وأبو محمد عبدُ الله بن جَبَل][1]، وأبو جعفر ابنُ عَطِيّة، وعطيّةُ[2] بن عَطِيّة، وأبو الحَسَن بن عيّاش.

وُزراؤه: ابنُ عَطِيّةَ، وعبدُ السلام الكوميُّ، وأبو حفص ابنُه، وأبو العُلى إدريسُ بينَ يدي ابنِه أبي حفص.

قُضاتُه: أبو موسى صِهرُه من أهل تينمل وحَجّاجُ بن يوسُف.

بَنُوه: الخليفةُ بعدَه يوسُف، شقيقُه أبو حفص، أبو عبد الله المخلوع، أبو محمد عبدُ الله صاحبُ بِجَاية، أبو سعيد عثمانُ صاحبُ غَرْناطة، أبو عليٍّ الحَسَن، أبو الرَّبيع سُليمانُ، أبو زكريّا يحيى، أبو إبراهيمَ إسماعيل، أبو إسحاقَ إبراهيم، أبو يوسُف يعقوب، أبو الحَسَن عليّ، أبو زَيْد عبدُ الرحمن، أبو سُليمانَ داود، أبو موسى عيسى، أبو العبّاس أحمد. البناتُ: صَفِيّةُ، وعائشةُ.

ومن مكارِمه وإنصافِه من نفسِه وانبساطِه في مجلسِه ما حدَّث الثقةُ أنه سَمِعه يحدِّثُ الشيوخَ من أهل الجماعة وأهل خمسين وبعضَ الطّلبة من الحَضَر، قال في بعض كلامِه: كنتُ في تِلِمْسانَ طالبًا أقرأُ أُصُولَ الدِّين، وكان لي صاحبٌ بها فرحَلَ عنّي من تِلِمْسان يريدُ الشّرق، فوصَل بِجَايةَ، فخاطَبَني منها يعرِّفُني في كتابِه أنه

---

(١) فراغ في النسخ، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة ٢١٩.

(٢) في م: «وعقيل»، ولا ندري من أين أتوا بها، وما أثبتناه من النسخ كافة، وهو: أبو عقيل عطية بن عطية أخو أبي جعفر القضاعي المراكشي، ينظر رسائل موحدية، ص٢٢، ٧١، والتعليق على المنّ بالإمامة ٢٢٠.

وصَل إلى هذه المدينة فقيهٌ عالِـمٌ بالعلم الذي تطلُبُه فلْتنتقِلْ إليه، فعندَ وصُول كتابِه إليّ رحَلتُ إلى بِجَاية فلقيتُ الـمَهْدي. وحدّث أبو الحَسَن ابنُ حَمْدين قال: حضرتُ معَه في غزوة بِجَاية، فلمّا توسَّطْنا نظَرَ تِلِمْسانَ نظَرَ في طريقه إلى قرية كثيرة الدُّور، فأمَرَ بوقوف العساكر وحَثَّ السَّيرَ منفردًا على فرسِه حتى وصَل القرية، فوقَف عندَ أحد أبواب دُورِها ساعةً يسألُ أهلَ الدار ثم انصَرف إلى العسكر، فلمّا نَزلت المحَلاتُ ونزَل هو في مضاربِه أمَرَ بإحضار أهل الدار المذكورة فسألَهم عن أبيهم فقالوا: إنه توفِّي وترَك أولادًا أربعة، فأسهَمَهم أرضًا واسعةً لاحترائهم، وأعطَى كلَّ واحد منهم ألفَ رأس من الغنم ومثلَها من البقر، وأربعةَ آلاف دينار، وكتَبَ إليهم ظَهِيرًا بالعزِّ والأمان والبرِّ والإحسان، وأن يكونوا حكّامًا على قَبيلِهم.

وذكَرَ ابنُ صاحب الصلاة أنه كان ساكنًا بتينملَ أيامَ الـمَهْديّ، وكانت له جارة، فأهدَتْ له عَنزًا عندَ إيابِه من إحدى حركاتِه فقَبِلها منها، وانصَرفت الأيامُ له بالسُّعود والظهور حتّى مَلَّكه اللهُ عزَّ وجَلّ، فوجَّه للمرأة ألفَ دينار وقال لها: هذا جزاءٌ على هديّتِك العَنْز.

ولـمّا استقرَّ بعدَ الفتح بمدينة مَرّاكُش وَفَد إليه من كان يُواليه من طلبةِ الحضر[1] واستقَرّوا عندَه، فدخَل عليه يومًا أبو محمد المالَقيُّ فرآه دونَ ثياب تُرضيه، فقال لأشياخ الموحِّدين: هؤلاءِ الطلبةُ عَرايا ضُعفاء، فنرى أن ندفعَ لهم مالًا نُقارضُهم به ويتَّجرونَ فيه، فقالوا: نعم، فأسلَفَ من مال المخزن لكلِّ واحد منهم ألفَ مثقال فاكتَسَوْا منها وأصلَحوا بها على أنفسِهم ولم يأخُذْها منهم أبدًا.

ومن جِدِّه وظهور سَعْدِه ما أخبَرني أبو عبد الله بنُ عبد الملك قال: حدَّثني أحدُ أشياخ الموحِّدينَ بحضرة مَرّاكُش قال: كان عبدُ المؤمن في أيام طلَبِه قد سافَر من تِلِمْسانَ إلى مدينة فاسَ يريد الإقامةَ بها لطلبِ العلم ولقاءِ أهل الفضل، فصَحِب في طريقِه تلك تاجرًا من أهل الإسكندريّة ذا رَحْل كبيرٍ ومال، قال التاجر: فرأيتُ فتًى حَسَن الوَجْه فاستدعَيْتُه للصُّحبة معي فأبَى، فلم أزَلْ أُرغِّبُه حتى أجاب، فتمادى السَّيرُ معَه إلى فاس، فطلب الكَرِيُّ من التاجر أُجرةَ دوابِّه فدفَعَ له ما حضَره ونقَصه

(١) غيّرها ناشرو (م) إلى: «الحضرة»، وما أصابوا في ذلك، وهذا المصطلح تكرر في الكتاب وهو معروف.

خمسةَ عشَرَ درهمًا فأسلَفَها له عبدُ المؤمن. ثم إنّ التاجرَ طلَبَه بفاسَ فلم يجِدْه ولا وجَد لمن يعطي الدراهم، فكتَبَ اسمَه في زِمامِه، وارتحل التاجرُ إلى الإسكندريّة وبلاد الشرق فغاب نحوَ ثلاثينَ سنة، وكان طُولَ تجارتِه يشتري بتلك الخمسةَ عشَرَ درهمًا سلعةً بناحية ويجعَلُها معَ رَحْلِه ثم يبيعُها، وجعَلَ اللهُ فيها البركةَ بقوّة سَعْدِه حتى نَمَت. ثم إنه بعدَ طُول السنينَ المذكورة وزوال الفتنة رجَع إلى بِجَاية بجميع رَحْلِه فوجَد عبدَ بن سُليمان قد وَلِـيَ إمارةَ البحر بها من قِبَل عبد المؤمن، وأمَرَه أن يُثقِّفَ أموالَ التُّجار الواصِلين من الإسكندَريّة حتى يَستعلمَ أحوالَـهم، فثقَّفَ مالَ التاجر المذكور وأخَذ أزِمَّته بجميع المكتوب فيها، ووَجَّهها لعبد المؤمن، وسَجَن التاجر، فلم يزَلْ يرغبُ حتى أُخرج من السِّجن، فاستعجَل بنفسِه بالوصُول إلى الحضرة، فالتزَم لقاءَ عبد المؤمن وتعرَّض له وذكَرَ له مسألتَه معَه، فأحضَر عبدُ المؤمن زِمامَ التاجر وفتَّش ما ذكَرَه فوجَد مالًا غيرَ مكتوب وعددَ الدراهم الخمسَ عشْرةَ وأنّ المجتمِعَ في الرِّبح ألفُ دينار، فجزاه على أمانتِه وما ادَّعاه من رَوِيّتِه[1] خيرًا وكتَبَ له ظَهيرًا بالأمان في أهلِه ونفسِه ومالِه وأمَرَ بصرف رَحْلِه ومتى شاء ينصرفُ إلى محلِّه.

أخبرني أبو الحَسَن بنُ أبي محمد قال: وفي صَدْر من دولته جاز إلى الأندَلس ونزَلَ بجبل الفتح فشَرع في بناء الحِصن الكائن فيه الآن، وبعَث ثمانيةَ عشَرَ ألفَ فارس إلى بلاد العدوِّ برَسْم الغزْو وتقدِمةً بينَ يدَيْه، وقَدَّم على أصناف القبائل ابنَ الشَّرقيّ وعلى الأندَلسيِّينَ ابنَ صَناديد. فوصَلوا إلى فَحْص بلقون فوجَدوا طاغيةَ الروم قد استعَدَّ للقائهم والتقَى معَهم، فكان بينَ الفريقَيْن حَرْبٌ شديدٌ نصَرَ اللهُ فيه المسلمين، وكانت على الكُفّار هزيمةٌ لم يعهَدْ مثلُها. وقَفلوا راجعينَ، فوجَدوا عبدَ المؤمن قد رجَع إلى حضرتِه لأمور حدثت بعدَه في جباها ولم ينفصلْ من الأندَلس حتى مَهَدَها ورفَق برعيّتِها، فاستقامت بذلك الأمورُ للموحِّدينَ ومَلَكوا الأندَلس ما عدا مُرْسِيَةَ وبَلَنْسِيَةَ وأنظارَهما فإنّهما لابن مُرْدنيش معَ تلك الجهات كلِّها إلى أن رجَعت بعدَ ذلك لطاعة الموحِّدين على ما يأتي.

انتهى ما اختُصر من أخبارِ عبد المؤمن رحمَه الله تعالى.

---

(١) في م: «عن رؤيته»، ولا معنى لها.

خلافةُ أمير المؤمنينَ أبي يعقوبَ يوسُفَ
ابن الخليفة عبد المؤمن رحمَهما اللهُ تعالى(١)

نَسَبُه: قد تقدَّم في خلافة أبيه.

بُويع في اللّيلة التي توفِّي فيها أبوه بتقديم أخيه أبي حفص شقيقِه إليه في ولايته وحمايته، وخَلَع ابنُه محمدٌ الآخَرَ فرضيَ بخَلْعِه وتسليم الأمر لأخيه، فانبسَطَت الآمالُ في أيّامِه، بسعادة أعلامِه، وكثُرت البركاتُ منه للموحِّدينَ والأجناد في أُعطِياتِه، واتّصل الإحسانُ منه بمواساتِه. وقد كان توقَّف الأخَوان: أبو محمد وأبو سعيد عن بيعتِه وعن البِدار لحضرتِه، واستبَدَّ السيِّدُ الأعلى أبو حفص بالأوامر السُّلطانية على ما كان معَ أبيه والشيخ أبي حفص وجميع الموحِّدينَ وأشياخ القبائل على الرِّضى به والتّيامُن بمَقْدَمِه [والاستسعاد بفضائله، الصادرة عنه، الظاهرة عليه برتبه فنفَذَ](٢) الأمرُ منه بكلِّ تأنيس للناس، وبهداياتٍ من العَدْل باديات الأنوارِ والاقتباس، ثم نفَذَ الأمرُ بانصراف العساكر المجتمِعة إلى مواضعِهم وتأخير العَزْم إلى وقتٍ يأذَنُ اللهُ فيه باجتماعِهم. وكمُلَت البيعةُ بأكمل خُلوص السرائر وطِيب الوفاء في الضمائر، وتسَمَّى لنفسِه باسم الأمير واستقَلَّ بما صار إليه من التأمير. وبعدَ إكمال هذا الترتيبِ انصرَف من سَلا إلى مدينة مَرّاكُش معَ أخيه والموحِّدين، فمَلَك دارَ الخلافة، وأنافَتْ به السعادةُ أكرمَ إنافة.

ووَعَظ الشيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى الناسَ، أعني الموحِّدينَ على طبقاتِهم ومَراتبِهم، وذكَّرهم بما يجبُ عليهم في دينهم وصَلاح يقينِهم، ولما يجبُ عليهم من فروضِهم ومَسْنونِهم، وبحقِّ البيعة، وذلك قبلَ أن يُعلِمَ الناسَ بالوفاة، ولـمّا توفِّي الخليفةُ أظهرَ الشيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى من فطانة(٣) النُّصح والوفاء، والدِّفاع

---

(١) المن بالإمامة ٢٢٨ فما بعدها، والكامل لابن الأثير ١١/ ٢٩١-٢٩٢، والمعجب ٣٠٨، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٢١، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٢/ ٦٤٦، والإحاطة ٤/ ٣٥٤، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٩، ونفح الطيب ٤/ ٣٧٨، والاستقصا ٢/ ١٤٦ وغيرها.

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استدركناه من المنّ بالإمامة ٢٢٨.

(٣) في م: «بطانة»، وهو تحريف.

بالحماية على أكمل الاستيفاء، ما وَطّأ[1] الأحوال ومهّد الآمال، برأيه السَّديد وسَعْيه الحميد، ولازَمَ الحضورَ بنفسِه، واقتدَى الموحِّدونَ به في حَدْسِه[2]، فاستقامتِ الأحوال وتحقَّقتِ الآمال، وتَوالَى استبدادُ السيِّد أبي حفص على معنى الوِزارةِ والإمارة بإنفاذِ الأوامر السلطانية عن أمرِه على ما كان عليه عندَ أبيه على رِضًى من الأمير أبي يعقوبَ أخيه واتّفاق، وإجماع من شيوخ الموحِّدين وإصفاق، فكانت بينَهما أُخوّةٌ مبرورة، وكان ابنُ جامع بينَ أيديهما يتصرَّف في رَفْع الرُّفوعاتِ والمسائل وتوصيل رغبة الوافدِ ومسألة السائل، وكان هذا إدريسُ نشأةَ دار أمير المؤمنين وابنَ أميرِهم الأمين.

ذكرُ الإخوة[3]

كان السيِّدُ أبو الحَسَن عليُّ بن عبد المؤمن حاضرًا ليلةَ وفاة أبيه والبيعةِ لأخيه، فسار إلى تينملَ وحَمَل أباه ودَفَنَه ورجَع من مَشْيه وفي نفسِه عِلّةٌ من دخول الحسَد، مؤْذنةٌ له في الدارَيْن بطول الكمَد، فأقام مكمودًا فريدًا يُظهرُ إخاءً في طيِّه حُقودًا، فلم تمهلْه عِلّتُه ولا طالت به مدّتُه حتى فاضت نفْسُه في تلك الأيام وغابت شمسُه بليل الحِمام.

وأمّا السيّدُ أبو محمد فأقام ببِجَاية بعدَ الحال يُقدِّمُ رجلًا ويؤخِّرُ أخرى، ويرى الرأيَ ويكرِّرُه معَ مَن يختصُّ به، ولم تزَلْ مخاطبةُ الأمير إليه بالاستعطاف والاستدعاء، والجواب منه بالعِدَة في الرحيل إلى تلك الأرجاء، فمَطَل نحوَ سنة ونصف، واعتَذر عن الوُصول، ثم عزَمَ وتحرَّك من بِجَاية وظاهرُه جَمْعُ الشَّمل الموصول، فلمّا استقلّت به المراحل أدركتْه منيّتُه وفاتَتْه أُمنيّتُه، وذلك في عام ستين، فوصَل خبرُ نَعْيه إلى أخيه أبي يعقوبَ بمَرّاكُش فتفجّع له وآوى جُملتَه وأهلَه، ونظَر في تثقيف بِجَاية وأنظارِها، ريثما وَجّه لها من اختاره لحماية أقطارِها.

وأمّا السيّدُ أبو سعيد فتوجَّه إليه إلى قُرطُبة أبو عبد الله بن أبي إبراهيمَ وأبو يحيى بن أبي حفص، فتمارَضَ عندَ وصولِهما واعتَلَّ، وارتَبط لهما ثم انحَلَّ، فرجَعا من

---

(١) في ك، م: «وطّد» وما أثبتناه من ق وهو الأصحّ.

(٢) في م: «حسّه»، وهو تحريف.

(٣) المن بالإمامة ٢٣٥-٢٣٦.

عندِه بمواعيدِه، فلمّا استقرَّ بمَرّاكُش تكلَّم الناسُ الـمُرجِفون، وزَخْرَفَ في حديثِه الـمُزخرِفون. ثم ثبَّت اللهُ الحقّ، وذلك أنه لـمّا التَوَت حالُ السيِّد المذكور في الاعتذار، وتَلوَّمَ له بالانتظار، عزَمَ السيّدُ أبو[1] حفص على الـمَشْي إليه واستدعائه [بالتأنيس][2] والقدوم إلى جبل الفتح يَبْغُونَ اجتماعَهما عليه، فكان خروجُ هذا السيّد من مَرّاكُش في ربيع الأوّل من سنة ستين.

وتحرَّك هذا السيّدُ أبو حفص إلى أخيه السيّد أبي سعيد في جُملة من أعيان الموحِّدين، كأبي يحيى بن أبي حفص، وأبي يعقوبَ بن بخيت، وإسحاقَ بن جامع، ويوسُفَ بن وانودين، ومن أشياخ ثوّار الأندَلس المتخصَّينَ به، كأبي محمد سِدْرَاي بن وزير، وصاحبِ لبْلة عليٍّ[3] ابن الفَخّار، ومن أشياخ لَـمْتُونَةَ ومَسُوفةَ جماعةٌ منهم: عليُّ بن مُحرِز بن زياد، فوصَل السيّدُ المذكورُ بعسكرٍ موفور إلى طَنْجة وركِبَ منها البحرَ إلى سَبْتَةَ منفردًا معَ خاصّتِه الخاصِّينَ به، وكاتبِه عبدِ الملك بن عيّاش وأمَرَ بمشي الناس على البَرِّ إلى القصر ومنه إلى سَبْتة. فلمّا كان في اليوم الثاني من وصُوله إلى سَبْتة عبرَ غُرابٌ إلى الجزيرة الخضراءِ ليُعلِم مَن فيها بوصُول السيِّد أبي حفص إلى سَبْتَةَ وعبورِه في أثَرِه، وكان السيّدُ أبو سعيد قدِ احتَلّ بجبل الفتح معَ خاصّته وخَدَمتِه. وعبَرَ السيّدُ أبو حفص البحرَ في[4] ذلك اليوم في عُدّة عظيمة من نَشْر البنود وقَرْع الطُّبول والسُّرور بالوفود، واتّصل الشَّملُ بذلك الوصُول، وكان يومًا شهيرًا، كلُّه سرور. وبرَزَ أيضًا السيّدُ أبو سعيد بجبل الفتح براياتِه وببِشْر مُلاقاتِه ما أبهتَ الحاضرين وسَرَّ الناظرين. واجتَمَعا خيرَ اجتماع، وارتفَع الإرجافُ أجمَلَ ارتفاع، وعمَّ الخيرُ جميعَ الجهاتِ والأصقاع.

---

(١) قوله: «السيد أبو» فراغ في ك، وهو ثابت في ق، وقد أضاف ناشرو (م) ألفاظًا أخرى إلى النصّ هنا ليست منه، معَ أنّ النصّ من غيرها مستقيم.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٢٣٦، وهو المورد الذي ينقل منه المؤلف.

(٣) سقط من م.

(٤) سقط من م.

ووَفَد أهلُ الأندَلس من أشياخ إشبيلِيَةَ وقُرطُبة وغَرْناطة معَ الشعراء[1] للتّهاني[2]، باتّصال المَسَرّاتِ والأماني، ودامت الإقامةُ بالجبل مدةً من خمسةَ عشَرَ يومًا في مسَرّة متّصلة ومبَرّة مشتملة، وأنشَد الشُّعراءُ أشعارَهم، وقضَوْا فيها وَرَدوا به أوطارَهم، فمن قول أبي عَمْرو[3] ابن حَرْبون [من البسيط]:

قد حَصْحَص الحقُّ لا ريبٌ ولا فَنَدُ ... هذي الفتوحُ التي كانوا بها وُعِدوا
خُذوا بحظِّكمُ يا أهلَ أندَلسٍ ... فما لِغاوٍ نَبا من بعدِها رشَدُ
واستمسِكوا بعُرى الأمرِ الذي بهَرَتْ ... آياتُهُ كلَّ مَن يَعْلو ويقتصدُ
اليومَ صُمَّ صدى الغاوي بأرضِكُم ... والكلبُ ينبَحُ ما لم يزأَرِ الأسَدُ
هو الذي وَعَد اللهُ العبادَ بهِ ... قد أنجَز الوعدَ حقًّا وانتهى الأمدُ
هذا سليلُ إمام الحقِّ بينَكمُ ... لا المالُ مدَّخرٌ عنكمْ ولا الولدُ
فقد ظفِرتُمْ بفيّاضٍ مَواهبُهُ ... تُحصَى الحصَى قبلَ أن يُحصَى لها العَددُ
انظُرْ إلى مجمَع البحرَيْن كيف حَوى ... من الفضائل ما لم يحوِه بلدُ
لاقَى الكليمُ على الشاطي به خَضِرًا ... وفيه لاقَى [أخاه][4] السيِّدُ الصمدُ
صِنْوَيْنِ ما اجتمَعا في أرض أندَلسٍ ... إلا ليَحميَ فيها دينَهُ الأحدُ

وقال أيضًا عندَ جَوازِه البحر [من الطويل]:

تجشَّمتُ هَوْلَ البحر في طلب البحرِ ... ولم أشْكُ صَرْفَ الدهر إلا إلى الدهرِ

---

(١) في ك، م: «الشعر»! وهو تحريف.

(٢) في ق، ر٣ كتبت: «للتهنّي» إمّا بحذف الألف الوسطية كما يصنع بعض الكتاب، أو هي كذلك، وما أثبتناه من ك، وهو المطابق للسجعة.

(٣) هكذا في النسخ جميعًا، وفي المنّ بالإمامة: «أبو عمر»، وهو أبو عمر أحمد بن عبد الله بن حربون (وينظر تحفة القادم لابن الأبّار ٦٣). والقصيدة بتمامها في المنّ بالإمامة ٢٥٤-٢٥٨).

(٤) بياض في النسخ استفدناه من المنّ بالإمامة ٢٥٦.

فقُلْ للدَّياجي إغـربي[1] أو تكـشَّفي | فهـا أنـا قـد أمسَيْتُ في ذمّـةِ البـدرِ
لعَمْرُكَ ما ألقى أبـا حفـص الـرِّضَى | وأشكو اللّيالي [ما تَطاوَلَ من عُمْـرِ][2]
هُـــمَامٌ إذا مــا هــمَّ نــالَ مــرادَهُ | ولــو أنــه أمـسى عـلى قُنَّـةِ النَّـسرِ
هُــو ابــنُ أمــيرِ المــؤمنينَ وشِـبـهُهُ | وناهيك[3] من فَرْع وحسبُك من بحـرِ

فاستحسَنَ هذه الأبياتَ معَ تقدُّم القصيد وما ذُكِر فيها من المقصود.

ثم نفَذَ أمرُه بالانصراف وعبورِ البحر إلى العُدْوة والانعطاف، وسَرَّح أشياخَ بلاد الأندَلس الوافدين، والعمّالَ والأجنادَ القاصدين، وجاز السيِّدُ أبو حفص والسيّدُ أبو سعيد وأكثرُ الجِلّة الخاصِّينَ به، ولم يقُم السيدُ بسَبْتة إلا ثلاثة أيام إلى أن عادت المراكبُ والقطائعُ بالعبور إليهم، فأجاز الجميعُ إليه، واستقرُّوا بينَ يدَيْه، وتحرَّك السيدُ الأعلى من سَبْتة واجتاز في سَيْرِه على فاس، ثم أعجَلَ الطريقَ إلى حضرة مَرّاكُش ومعَه أبو سعيد، إلى أن وصَل فتلقّاه الأميرُ أبو يعقوبَ خارجَ مَرّاكُش على أوفى الاستبشار، والسرور باجتماعِهم والاستظهار.

ووصَل السيّدُ مَرّاكُشَ في أوّل رجَبٍ الفَرْد من عام ستينَ وخمس مئة، وأنشَد الشعراءُ أشعارَهم بالتّهاني والمدائح فأجادوا وأحسَنوا، وخَطَب الخُطباءُ فأفصَحوا في ذلك بالسِّحر الحلال وبيَّنوا، فقال الأستاذُ أبو الوليد الشَّوّاشُ الشِّلْبيُّ في ذلك المجلس مهنِّئًا للأمير أبي يعقوبَ بالقدوم الـمَيْمون الـمُطْلى[4] بالأُلْفة والنِّظام من قصيدة أولُها[5] [من الكامل]:

---

(١) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «أغدقي»، وقرأها ناشرو (م): «أغدفي» وهي قراءة سقيمة.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة ٢٥٩.

(٣) غيّرها ناشرو (م) إلى: «وحسبك» كما في المنّ بالإمامة، بحجة أنّ المؤلف ينقل منه، وما أثبتناه ثابت في النسخ كافة، فلا يجوز تغييره، وما الذي أدراهم بأن ناسخ المن بالإمامة لم يخطئ؟

(٤) في ك، م: «المعلن»، وفي ر٣: «المطلق» وفي المنّ بالإمامة: «المعلى»، وما أثبتناه من ق، ولعلّه الأصوب.

(٥) القصيدة بتمامها في المنّ بالإمامة ٢٦٢-٢٦٥.

وَضَحت بأنوار الهُدى نَسَماتُهُ وأبانت الهَدْيَ القديمَ سِماتُهُ
مِلكُ الملوك مؤيَّدٌ لكنّهُ غَلَبت عليه من التُّقى ملَكاتُهُ
دانت له الدّنيا وكافةُ أهلِها فعَفَا وعَفَّ وسامَحَت عَطَفاتُهُ
أبدى لنا بسَنائه وهَنائهِ عجَبًا وظاهَرَ[1] حُسنَه حَسناتُهُ
كثُرت فضائلُهُ فكاثَرتِ الحصى عدًّا وقد قلَّت له سقواتُهُ[2]
ومضَتْ ببَرْق غُيُومِهِ صَفَحاتُهُ ومضَت مضاءَ صِفاحِه عزَماتُهُ
وأفاده دهرًا بعيدًا[3] مُنعمًا وُصِلت بباهِرِ خيرِه خَيْراتُهُ
نَجْلُ الخليفة يُقتدَى برَشادِهِ وسَدادِهِ وتبينُ فيه سِماتُهُ
ورَدَ الزُّلالَ العَذْبَ في يَنبوعِهِ صَفْوًا مَعِينًا لم تَشُبْهُ قَذاتُهُ
فهناك أُسِّس بالتُّقَى بُنيانُهُ وهناك شُيِّد بالهُدى حُجُراتُهُ
وتقَيَّل الخُلُقَ الرضيَّ فأينَعَتْ أضحاؤه وتيسَّرت طَلَباتُهُ
يا خيرَ مَن ملَكَ الوَرى ودعاهمُ لله فابتَدرت له دعَواتُهُ
جُوزيتَ بالحُسنى إذا ما مُحسنٌ في فعلِهِ جُزيت له فَعَلاتُهُ
من يُصْفِ حبَّك أسعَدت أحوالُهُ ومآلُهُ وتُقُبِّلَتْ قُرُباتُهُ
من يَقتدِي[4] بسَناكَ يُهْدَ ومَن يَرُمْ سُبُلَ النّجاة فأنتمُ مَنْجاتُهُ
نَجْلُ الهدى وأخوك عزَّت نسبةً والمجدُ تَقصُرُ دونَها غاياتُهُ[5]
في الله أعمَلَ سعْيَهُ فحَوَتْ لهُ جَمْعَ الفضائل والعُلى مَسْعاتُهُ

---

(١) في ق: «وأظهر»، وما أثبتناه من ك، وهو الموافق لما في المنّ بالإمامة.
(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المنّ بالإمامة: «قلّت به سنواته».
(٣) في م: «مفيدًا»، غيّرها ناشرو (م) استنادًا إلى ورودها كذلك في المنّ بالإمامة مع أنها على ما أثبتناها في النسخ كافة، وقد تكرر مثل هذا منهم وهو أمر لا يجوز في علم تحقيق النصوص.
(٤) كذا، بإثبات الياء، والقياس حذفها لأنه فعل شرط مجزوم، ولكن الوزن يمنعه.
(٥) هذا البيت بياض في النسخ لم يبق منه إلا لفظة «غاياتُه»، فاستدركناه من المنّ بالإمامة.

أنـتمْ لأهـل الأرض أوثـقُ عـصمةٍ ... وبـأمرِكمْ عُطِفـت عليـه حياتُـهُ

لا زِلـتمُ للمَكرُمـاتِ وللعُـلى ... شـملًا ولا يُقـضَى عليـه شَـتاتُهُ

واسـتقبِلوا في الـدّهر عُمْـرًا باقيًـا ... مـا واصَـلت غَدَواتِـهِ رَوْحاتُـهُ

وفي سنة ستينَ وخمس مئة: تحرَّك السيّدُ أبو حفص بأمرِ أخيه إلى قتال ابن مُرْدنيش؛ قال ابنُ صاحبِ الصّلاة[1]: وأقام السيّدُ أبو حفص بمَرّاكُش بعدَ انصرافِه من جبل الفتح ومعَه أخوه أبو سعيد بقيّةَ شهرِ رجَب الفَرْد وشعبانَ المكرَّم، وكان أبو سعيد بن الحُسَين وأبو عبد الله بن يوسُف قد تقدَّما بعسكر العرب وبعَثوا منهم عندَ وصولِهم إشبيلِيَةَ نحوَ خمس مئة فارس إلى مدينة بطليوسَ لحمايةِ صيفتِها[2]، فيسَّر اللهُ تعالى غزْوَ شِرْذمةٍ كبيرة من النّصارى أهل شَنْتَرين فهزَمَهم المسلمونَ وغنِموهم واستأْصَلوهم قتلًا وسَبْيًا، فكان ذلك عُنوانَ الفتح.

ثم إنّ أبا سعيد وأبا عبد الله خَرَجا من إشبيلِيَةَ بالعسكر إلى مدينة قُرطُبة لدَفْع المحارِبينَ الأشقياء عن جِهاتها، فالتقَوا على غير ميعاد ولا معرفة بعسكر مجتمِع معَدّ من عسكر ابن مُرْدنيش بحِصن لك[3]، فكانت بينَهم مُدافَعات وكَرّاتٌ عظيمةٌ ظهَر فيها من إقدام أبي عبد الله بن يوسُف ومن أعيان العرب وصَبرْ أهل العسكر ودفاعِهم ما لم يظهَرْ مثلُه في الزّمان الأوّل، اتّصلت الحربُ بينَهم بطُول يوم كامل على شِرْب الماء بوادي لك المذكور، وانفَصَلت الحربُ بينَهم مكافأة، فوصَل كتابُ أبي سعيد وأبي عبد الله إلى الأمير أبي يعقوبَ بمَرّاكُش مستغيثينَ ومعرِّفين بهيئة حربهم وطُول مواقفتهم[4]، وذلك في أول يوم من رمضانَ من السنة المؤرَّخة، فغار السيّدُ أبو حفص وعسكرٌ في يومه ذلك، وأمر الموحِّدينَ والعرب بالإسراع والنفوذ إليه بما لديهم، وخَرج من مَرّاكُش في العَشْر الأُوَل من شهر رمضان المذكور من العام،

---

(١) المن بالإمامة ٢٧٥ فما بعدها.

(٢) في م: «صيفيّتها» وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ وهو الذي في المنّ بالإمامة.

(٣) معجم البلدان ٥/ ٢٢.

(٤) في م: «مواقفهم»، وفي المنّ: «موافقتهم»، وكلاهما تحريف، والمقصود مواقفة الأعداء.

وخَرج معَه أبو سعيد عثمانُ، وهي غَزْوتُه الأُولى إلى ابن مُرْدنيش الفاتحةُ للموحِّدينَ في عدوِّهم، فأزعَجَهم السَّيرُ حتى أجاز البحر، ووصَل إشبيلِيَةَ واجتمع بالموحِّدينَ المذكورين، وتَذاكَروا وتشاوَروا وخَرجوا من إشبيلِيَةَ مصمِّمينَ إلى بلاد ابن مُرْدنيش، وذلك في أوّل ذي القَعْدة من العام، فأوّلُ حصن نازَلوه: [أندوجَر][1] لقُربِه من قُرطُبة، ففتَحوه في يوم نزولِهم عليه، وبادر أهلُ الحصون المجاوِرينَ له بدخولِهم في الطاعة وشنِّ الغارة بالعساكر المنصورة على نواحيها، فاستاقوا الغنائمَ وامتلأت أيدي الموحِّدينَ من السَّبي والفَيْء، وازدادوا نِعَمًا إلى نِعَمِهم، وشَفِيت قلوبُهم، وأنعم السيدُ عندَ كمال هذا الفتح الميسَّر على الموحِّدينَ بزادٍ وبركة زادها لهم.

ولـمّا كان الفراغُ من فتح الحِصن المذكور وثَقَّف مَن وجَبَ تثقيفُه وسَبَى مَن سَبَى، وتحكَّمت في ذلك [رماحُه وسيوفُه واصطفى][2] فيها [من رآه، واستحسن مرآه، أقلَعَ منها قا][3]صدًا إلى بلاد ابن مُرْدنيش، وتسامَعَ ابنُ مُرْدنيشَ أنّ العَزْمَ عليه، فاحتشَد جميعُ أهل شرق الأندَلس وكلُّ من له عليه طاعة، واستَدعَى أحلافَه النّصارى من طُلَيْطُلَةَ وأنظارِها، فوصَلوا إليه بجَمْع كبير ذَميم حقير تسابقوا لإجابته وحماية غِوايته، فخَرج بهم من مُرْسِيَةَ مقرِّه، واعترَض الموحِّدينَ وهم بمدينة لُورَقة، وأقبَلَ بجَمْعِه إليهم وجلسَ مُضيِّقًا في الطريق عليهم لا يُمكنُهم النفوذُ إلا بعدَ مقارعة، فعَدَل الموحِّدونَ عن ذلك المضيق، إلى حصن واسع في أفسح طريق، وأتَوْا لُورَقَة من غربِها والشقيُّ مع عسكرِه بقُربِها، ثم إنّهم رحَلوا من نحوِها وتوجَّهوا في طريقِهم قاصدينَ مُرْسِيَةَ، فأقلَعَ ابنُ مُرْدنيش من موضعِه بجَمْعِها وتَماشى يومَهم ذلك عسكرُ الموحِّدين في جانبِ الجبل عن سَمْت الطريق، وعسكرُ ابنِ مُرْدنيش على يَسْرة الطريق في الجبل الآخَر، داما على ذلك يومَهم كلَّه، فلمّا كان يومُ الجُمُعة السابعُ من ذي الحجة من عام ستينَ المذكور وصَلوا أولَ فَحْص مُرْسِيَة على عشَرة أميال منها ألَحَّ عسكرُ ابن مُرْدنيش بالدّفاع والقِراع، فعبَّأَ الموحِّدونَ عساكرَهم

(١) بياض في النسخ وما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٢٧٧.

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه من المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف ٢٧٧.

(٣) بياض في النسخ استدركناه من المنّ بالإمامة.

ورَفَعوا راياتِهم ونَـهَوْا قبائلَ العرب الذين معَهم وقبائلَهم وتعاهَدوا على الثبات والصبر على أعدائهم، فدفَع ابنُ مُرْدنيش بعسكره فيهم وبأصحابه النّصارى ثلاثَ دَفْعات: الأولى في العرب، والاثنتَيْنِ في الموحِّدين، فثبّتَهم الله وأنجَدهم وقوَّى قلوبَهم، فعَظُم الغبارُ والقَتام، ورجَع شمسُ النهار في إظلام، وتماشت الرُّكَبُ بالركب، وعَظُم الطّعنُ والضرب، إلى أن فتحَ اللهُ للموحِّدين ووَلّى الكَفَرةُ مُدبِرين فقُتلوا قتلًا ذَريعًا، وخَرَّ أكثرُهم صريعًا، وفرّ ابنُ مُرْدنيش مهزومًا وقد عايَنَ مصارعَ أصحابه وأحزابِه، واستَنَد إلى جبل قريب من المعركة، فضرب فيها قُبّةً خِباءً على معنى خُدعة الحرب معَ فَلِّه المهزوم في ذلك ساعةً من بقيّة اليوم إلى أن ستَرَه اللّيلُ وقد أحدَقَ به الثُّكْل والوَيْل، وركِبَ من حينِه وفرَّ إلى مُرْسِيَة مهزومًا ذليلًا مَلُومًا.

ثم إنّ الموحِّدينَ أقلعوا في بُكرة غدِهم في اتّباعِه فنزَلوا ساحةَ مُرْسِيَة وأقاموا بها وعَيَّدوا بظاهِرِها وتتبَّعوا تلك الأصقاعَ بالتدمير والغارة على جنَباتها، فاستاقوا نَعَم أهلِها وتحكَّموا بالتطاول في وَعْرها وسهلِها مدةَ أيام كثيرة بالأمن لهم في الإقامة والتعقيب بالغارات في كلِّ نَظَر واجتلاب الغنائم على أوفَى السلامة، وخاطَبوا الخليفةَ أبا يعقوبَ بوَصْف هذا الفتح وشَرْح الحال، فورَدَت البُشْرى بحضرة مَرّاكُش في الثالث وعشرين من ذي حجة من العام، ودخَل الفرسانُ للموحِّدين وبأيديهم علاماتُ ابن مُرْدنيش منكوسة، وضُرِبت الطّبول، واتّصل السرورُ والمأمول، وأمَرَ الأميرُ في الحين بقراءة الكَتْب، فقرأهُ الفقيهُ أبو محمد ابنُ المالَقيِّ، وكان من إنشاء الكاتب أبي الحَسَن بن عبد الملك بن عيّاش، وقد ذكَرَ نصَّه ابنُ صاحب الصلاة في تاريخه(١)، أغنى ذلك عن ذكرِه هنا، وبعَث السيّدُ في طيِّ هذا الكتاب مدرَجًا فيه قصيدةً طويلة أولُـها [من الوافر]:

لقـد بلَغَـتْ جِيـادُكمُ مـداها ... ونالَـتْ مـا أرادت مـن عِـداها

وها هي فاسألوا الإصباحَ [عنها](٢) ... بحمـد الله [قـد حَمِـدت سُر](٣)اهـا

---

(١) المن بالإمامة ٢٨٢ فما بعدها.

(٢) بياض في النسخ مستدرك من المنّ بالإمامة ٢٨٩.

(٣) بياض في النسخ مستدرك من المنّ بالإمامة ٢٨٩.

تعُـــدُّ رضـــاكمُ عِـــزًّا وجاهًـــا		فـــما تـــشكو عـــلى حـــال وجاهـــا
تَهـــيمُ بحـــبِّ طـــاعتِكمْ فتَطـــوي		بـــساطَ القَفْـــر حتـــى قـــد طواهـــا
كـــأنّ قَطَـــا الـــمَفاوزِ حـــين ثـــارت		تعلَّمـــتِ الهدايـــةَ مـــن قَطاهـــا
لقـــد شُـــنَّت بـــأرض الـــشرقِ حتـــى		أباحـــت بعـــدَ مَنْعتِهـــا حِماهـــا
فبـــورُك للخليفـــة في رجـــالٍ		أطـــاعوا اللهَ فـــيمن قـــد عَـــصَاها
هـــو النـــورُ الـــذي بَهَـــرت ولاحـــت		بـــه شـــمسُ الهدايـــة في ضُـــحاها
حَبـــاهُ بـــه الخليفـــةُ عـــن إمـــامٍ		قـــدِ انتـــاشَ البرِيّـــةَ مـــن عَماهـــا
أبـــا يعقـــوبَ إنّ بِنـــا إلـــيكمْ		كـــما بالحـــائماتِ يُـــرى صـــداها
ودونَكـــمُ تحيّـــةُ مُـــستهام		يَطيـــبُ الجـــوُّ مـــن مـــسرى شَـــذاها
ولا عَـــدِمتْكمُ العَلْيـــا فمهـــما		رعـــاكمْ ذو الجـــلالِ فقـــد رعاهـــا

وفي هذه السنة المؤرَّخة: اختَصَّ الأميرُ أبو يعقوبَ بوزارته أبا العُلى إدريسَ بن جامع وقَرَّبه وأحبَّه، فظَهَرت في هذه المدة للناس في أحوالِـهم منه وبه دلائلُ اليُمن واتّصال العَدْل والفضل والأمن، يسيرُ الراكبُ حيث شاء من بلاد العُدوة في طُرُقِها من جبلها وسهلها آمنًا في نفسِه ومالِه لا يخافُ إلا اللهَ تعالى، وأحسَنَ لـمَن وفَد إليه واستغاث به من أجناد الأندَلس الـمُضاعِينَ والمأسورين، ففَداهم بمالِه وأعطاهم الخيولَ [بسروجها ولجها، وآلاتِ الحرب][(١)] والكساءةِ[(٢)] الرفيعة وأوصَل البركةَ للموحِّدينَ وللناس المقيمين معَه وطلَبة الحضر[(٣)] الوافدينَ عليه في كلِّ شهرٍ على التوالي والاستمرار، واستبانَ فضلُه وعَدْلُه في كلِّ الأقطار[(٤)].

(١) بياض في النسخ، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة ٢٩٣.
(٢) في م: «الكسوة» وما أثبتناه من النسخ.
(٣) في م: «الحضرة» وهو تحريف عجيب وفهم غريب، وإذا هم كانوا بالحضر فكيف يفدون عليه؟
(٤) في م: «وعدله في الأقطار نورًا من الأنوار»، وهذه العبارة ليس في شيء من النسخ اقتبسها (المحقّقون) من المنّ بالإمامة من غير إشارة، وهو أمر عجيب.

وفي سنة إحدى وستِّين: عيَّد السيّدان: أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنينَ عبد المؤمن بظاهر مُرْسِيَةَ عيدَ الأضحى على أثَرِ التعييد بالنّصر والظَّفَر بعدوِّهم، ثم انعطفا آخِذَيْنِ في الانصراف إلى الحضرة، فلمّا وصَلا إلى قُرطُبَةَ أقام أبو سعيد فيها برأي مقدَّم من الأمير واتّفاق على حالتِه الأُولى، وانفَصَل السيّد أبو حفص عنه إلى إشبيلِيَةَ منصرِفًا إلى الحضرة، وأجاز البحرَ مستعجِلًا للدّخول حتى وصَل قريةَ مكول[1]، فكتَبَ إلى أخيه شعرًا من إنشاء ابن حَرْبونَ، فمنه[2] [من الخفيف]:

علِّلـوا العَـيْشَ بـاقتراب الـدِّيارِ　　　وانظُـروا هـل بـدا لهـا مـن مَـزارِ
هــذه حــضرةُ الإمــام فحُطُّــوا　　　عنــدَها الرَّحْــلَ فهْــي دارُ قــرارِ
فاشــكُروا للركــابِ أنْ جَمعــتْكمْ　　　بــالأمير الأجَــلِّ فــرعِ نِــزارِ
بمليــكٍ عنــدَ المليــك مكــينٌ　　　قــد كــساه ثــوبَ التُّقــى والفخــارِ
نــصَرَ اللهُ دينَــه مــن لــدُنْكمْ　　　بجيــوش جاسَــتْ خــلال الــدّيارِ

واعتَملَ السَّيرَ متشوِّقًا، فكان ورودُه حضرةَ مَرّاكُش في الثانيَ عشَرَ من ربيع الآخِر من السنة المؤرَّخة، ثم نزَلَ الأميرُ عن فرسِه والتَقَيا فتصافَحا وتسالمَا، ثم سلَّم الناسُ على الأمير وعلى مَن حضَر، ورَكِبوا ودخَلوا القصرَ بعدَ صلاة العصر، واجتمعا [خيرَ][3] اجتماع، وكان من السرور ما أبهَجَ الناظرينَ بغاية الاختراع. وفي اليوم الثاني من هذا الوصول صَنَع للواصِلينَ والمقيمينَ الأطعمةَ والأشربةَ الحلال الـمُدارةَ على المسارِّ السارّةَ مدةَ خمسةَ عشَرَ يومًا، ثم أنعَمَ عليهم بالكُسوة التامّة والعطاء الجزيل، فاجتمَع لجميع الناس السرورُ والمالُ الحاضرُ الموفور. وبعدَ هذا الإنعام والاتّصال العامّ رجَع الناسُ إلى قبائلهم للاستقرار، بعدَ نَيْل الغَزْو والأَجْر في هذه الأسفار، وخَمَدت نارُ الفتنة منَ ابن مُرْدنيش مدةً من خمسة أعوام إلى أن حدَث بينَه وبينَ صِهره ابن هَمُشْك الشَّنَآنُ الذي أذكُرُه بعدُ إن شاء اللهُ تعالى، فنَظَر أميرُ المؤمنينَ في غزوِه[4].

---

(١) الروض المعطار ٥٤٤.
(٢) القصيدة بتمامها في سبعة وعشرين بيتًا في المن بالإمامة باختلاف لفظي ٢٩٤-٢٩٦.
(٣) بياض في النسخ، واللفظة مستفادة من المنّ بالإمامة ٢٩٩.
(٤) تفاصيل ذلك في المن والإمامة ٢٩٧-٣٠١.

ذكرُ ابتداءِ الولايات من الأمير أبي يعقوبَ لإخوتِه السّادات والـحُفّاظ من أشياخ الجماعات[1]

قال الراوية: ولـمّا كَمُل الإطعامُ والإنعام، ميَّزَ الناسَ على جميع طبقاتهم بهيئاتهم وخَيْلهم ورَجْلهم، فكُتبت أسماؤهم على الاستيفاء وخَرجت لهم البركاتُ على الذي كتَبوه ورتَّبوه، ونَظَر الأميرُ أولًا مَشُورةَ أخيه أبي حفص في ولاية بِجَايةَ وأقطارِها وجميع جهاتِها وأقطارِها، إذ كانت دونَ وال، وعلى حالة إغفال، فاختاروا لها من الإخوة السيّدَ أبا زكريّا يحيى بنَ عبد المؤمن فتوجَّه إليها من الحضرة غُرّةَ جُمادى الأولى من سنة إحدى وستينَ في جملةٍ متعيِّنة من أبناء الحُفّاظ والموحِّدين.

ونَظَر أيضًا في حديث إشبيلِيَةَ، إذ كانت تحتاجُ إلى والٍ، فاختار لها الشّيخَ أبا عبد الله بنَ أبي إبراهيم وعقَد له الأميرُ رايتَيْن في مجلسِه الكريم، واختار جُملةً وافرة من أهل النَّجدة والتقديم، وعيَّن له وزيرًا يَسُوسُ أحوالَه وينظُر أعمالَه وأشغالَه، وهو: أبو زكريّا ابنُ سِنَان، وأمَرَ له بأربعة من الطّبول فضُرِبت يومَ خروجِه اهتبالًا به وإعلامًا برِفعتِه ورُتبتِه. فتحرَّكَ من مَرّاكُش غُرّةَ جُمادى الآخِرة من سنة إحدى وستينَ المذكورة.

قال ابنُ صاحبِ الصلاة[2]: فخَرج برِاياتِه[3] الاثنتَيْن من دار الخلافة على وَسَط مَرّاكُشَ ودِيارِها إلى باب فاس مستقبِلًا طريقَ الأندَلس، فتمادى مشيُه إلى سَبْتة وعبَرَ البحرَ في قطعتَيْن إلى طريف ثم سار إلى مدينة إشبيلِيَةَ، فخَرج إليه الحُفّاظُ والأجنادُ والأشياخُ منها والأعيانُ والتقَوْه ودخَلوا معَه مسرورينَ لقدومِه، فوجَدوه فوفّوهُ سَلامَه، ودخَل إشبيلِيَةَ في رجَب من عام أحدٍ وستين المذكور. وبعدَ ثلاثة أيام من وصُولِه إلى إشبيلِيَةَ سافَر معَ الحُفّاظ الواصلينَ معَه إلى قُرطُبَةَ للقاءِ السيِّد الأسنى أبي سعيد بها والسلام، فوصَل إليه وأقام عندَه ثمانيةَ أيام تحت بِرٍّ وإكرام، ورَحَل[4] إلى إشبيلِيَةَ، وضَرَبت جُملةٌ ذَميمةٌ من نَصارى شَنْتَرِينَ على جهة إشبيلِيَةَ،

---

(١) المن بالإمامة ٣٠١ فما بعدها.

(٢) المن بالإمامة ٣٠٢-٣٠٤.

(٣) هكذا في النسخ كافة، وهو جائز، ولو قال: «برايتيه» لكان أحسن.

(٤) في م: «ووصل».

فخَرج في اتّباعِهم عسكرُ إشبيلِيَةَ، فأدرَكوهم وأنقَذوا الغنائمَ منهم وهزَموهم وساقوا من سَبْيِهم مئة فارس وجُملةَ أعلاج، وعُرِّف الأميرُ أبو يعقوبَ بهذا الفتح فشَكر اجتهادَه وجهادَه. وأقام على شُغلِه منفردًا بأشغال إشبيلِيَةَ وأنظارِها إلى أن وصَل السيّدُ أبو إبراهيمَ حسبَما أذكُرُه.

ووُلِّي السيّدُ أبو إبراهيمَ ابنُ الخليفة عبد المؤمن إشبيلِيَةَ[1]، فكان وصُولُه إليها وقدومُه عليها في ذي الحجة من سنة إحدى وستين، وكان [أُمِرَ][2] في هذه الأيام للسيِّد أبي سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن بالارتحال عن قُرطُبة والمشي إلى الحضرة، فخَرجَ مُبادرًا للأمرِ الذي أُمِر به، وخَطَر على إشبيلِيَةَ في الثامن من ذي القَعدة، والتقَى بأخيه أبي إبراهيمَ بقَصْر مصمودةَ، وخَرَج الشّيخُ الحافظُ أبو عبد الله بنُ أبي إبراهيم للقاءِ السيِّد أبي إبراهيم، فالتقَى به في جزيرة طَرِيف وانصَرف في صُحبتِه إلى إشبيلِيَةَ وقد وصَل له الأمرُ أن يُقيمَ معَه شيخًا له على ما كان يشتغلُ به فيها، وشُغلُ العسكريّة على يدَيْه والأمورُ كلُّها راجعةٌ إليه، والسيّدُ المذكورُ يختصُّ به غايةَ الاختصاص ويشتملُ عليه بالوُدِّ والإخلاص، إلى أن وصَله الأمرُ بولاية غَرْناطة.

وفي سنة اثنتين وستينَ وخمس مئة: وصَل الأمرُ إلى السيِّد أبي سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن بولاية غَرْناطةَ في شعبانَ العامَ، فنَظَر في الحركة إليها من إشبيلِيَةَ في أوّل رمضان، وأقام بغَرْناطةَ واليًا مُعدًّا مجتهدًا إلى جُمادى الأولى من عام أربعة وستينَ على ما سيأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى. ونَهَض بالاستدعاءِ هو وجميعُ الوُلاة بالأندَلس والسيّدانِ: أبو إبراهيمَ وأبو إسحاقَ صاحبُ إشبيلِيَةَ وقُرطُبة إلى حضرة مَرّاكُش، وأقام بها بقيّةَ عام أربعةٍ وستّينَ على ما سيأتي ذكرُه. ونَهَض وأصْهَر إلى السيِّد الأعلى أبي جعفرٍ على ابنته. وتَمادت إقامتُه بمَرّاكُش إلى أوّل شهر ذي القَعْدة من عام خمسة وستّين، وسافَر في صُحبتِه السيِّد أبو حفص غازيًا معَه إلى ابن مُرْدنيش بمُرْسِيَة وجميع شرق الأندَلس، ثم بعثَه السيّدُ المذكورُ إلى مدينة بَسْطةَ[3] بعسكرٍ موفور،

---

(١) في م: «من إشبيلية».

(٢) بياض في النسخ، وهي مستفادة من المنّ بالإمامة ٣٠٤.

(٣) في ك: «قسطة».

ففتَحَها اللهُ على يدَيْه، وانصَرف إلى السيِّد ظافرًا، وأقام معَه في هذه الغزوة إلى أنِ انصَرف السيّدُ المذكور وانصَرف بانصرافِه إلى إشبيلِيَةَ واستقرَّ بها في حضرة الخليفة أميرِ المؤمنينَ أبي يعقوبَ، كما جازَ إلى الأندَلس في سنة ستٍّ وستينَ وغَرْناطةُ في هذه المدة كلِّها تحت حُكمِه وبيدِه، وفيها رِجالُه وعيالُه، وحين استقرارِه بإشبيلِيَةَ نَهَض السيّدُ أبو سعيد إلى غَرْناطةَ واليًا عليها بالأمر عِوَضَه، ووَصَله رجالُه وعيالُه منها إلى إشبيلِيَةَ، ثم قدَّمه أبو يعقوبَ على تمييز الحُفّاظ أجمَعَ في أول ربيع الأوّل عامَ سبعة وستين، وحضَر الحضرةَ[1] الكُبرى معَ أميرِ المؤمنينَ ببلادِ الرُوم، وحضَر غزوةَ الطاغية أبي بردع[2] المسمَّى[3] [بسان مَنُوش][4] وناب في هذه الغَزَوات الـمَنابَ الحميد، ثم لازَمَه الاعتلالُ نحوَ سنة ونصف، فتوفِّي في السابع والعشرينَ لرمضانَ من عام تسعة وستينَ وخمس مئة وله من العمُر ستٌّ وثلاثون سنة. رَجْعُ الخبَر[5].

ذكرُ الاتّفاق على كَتْب الأمير أبي يعقوبَ العلَامةَ بخطِّ يدِه[6]

ثم وقَعَ الاتّفاقُ على أن يَكتُبَ أميرُ المؤمنينَ العلَامةَ بيدِه، التي هي: «الحمدُ لله وحدَه»، وتَنفُذَ الأوامرُ العَلِيّةُ على أمرِه وحدَه، فلمّا كمُل ذلك أمَرَ بكَتْب رسالة إلى جميع بلادِه يأمُرُ فيها بالعَدْل والنّهي عن المنكر، وكتَبَ بها أولًا إلى أخيه السيِّد أبي سعيد، وكان بقُرطُبة، في الثالث من رمضانَ المعظَّم من عام أحد وستّين، وأمَرَ أن يُكثِرَ منها نُسَخًا إلى البلاد، فوصَلت نُسخةٌ منها إلى إشبيلِيَةَ، وهي أولُ أوامرِه العَلِيّة من إنشاءِ الكاتب أبي الحَسَن ابن عيّاش، أمَرَ فيها بالعدل والنّهي عن المنكر.

---

(١) هكذا في النسخ كافة، وفي المنّ بالإمامة: «وحضر الغزوة الكبرى مع أمير المؤمنين إلى وبذة ببلاد النصارى».

(٢) في م: «البرذع» ولا ندري من أين أتوا بالألف واللام.

(٣) في م: «المسنّ» وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ كافة والمنّ بالإمامة ٣٠٨.

(٤) زيادة متعيّنة من المنّ بالإمامة.

(٥) المن بالإمامة ٣٠٧-٣٠٩.

(٦) المن بالإمامة ٣١٢ فما بعدها.

وفي هذه السنة: وهي سنة اثنتين وستينَ: تحرَّكت في جبال غُمارةَ وغيرِها فتنةٌ بضُلّال جُهّال من البربر مُفسِدينَ ناعقينَ بالفتنة، وأعظمُهم في جبال غُمارةَ المتّصلة بسَبْتة، فإنه نَعَق فيها مُفسِدٌ غَوِيٌّ اسمُه سَبُع بن منغفاد[1]، فإنه شَقَّ عصا الطاعة وفارَقَ الجماعة، وقَطَع الطُّرق[2] وفرَّق الفُرُق[3]، وسَبَا الرِّفاق، وأدخَل في قلوب القاطِنِينَ بقصر كُتامةَ وتلك الجهات الرُّوعَ والفَزَع، وتفاقَم أمرُه وتعاظَمَ شرُّه، وامتَنَع في جبل الكواكب، واستفحَل فيه بالإذاية وتمادي الغِواية في بَشَر كثيرٍ من قولِه: هم من عَدَم الفهم كسائمة البُهْم، صَحِبَتهم الجَهالة واستهوَتْهم الضَّلالة، وفَشا ضُرُّهم وساء أثَرُهم. فاتّفق أمرُ[4] الموحِّدينَ أن يحسِموا شرَّ هؤلاء المارِقين، فنَظَروا في تجهيزِ عسكر، ووجَّه أبو سعيد يَخلُفُ بن الحُسين إلى بلادِ صُنْهاجةَ من جهة القلعة، وقد كان الشيخُ المرحومُ أبو حفص تقدَّم قبلَه بمَن كان معَه في جهةٍ أخرى، فلمّا عَظُم شرُّ هذا الشقيِّ سَبُع بن منغفاد أهلَكَه اللهُ بحركة الأمير إليه[5].

ذكرُ حركة الأمير أبي يعقوبَ ابن الخليفة عبد المؤمن رحمهما الله ومقتَلِ سَبُع بن منغفاد المذكور[6]

لـمّا عَظُم أمرُ هذا الشقيِّ تحرَّك إليه الخليفةُ: بنفسِه وعساكرِه وأخيه أبي حفص وأبي سعيد، ونهَضُوا إلى جبل غُمارةَ فنازَلوا فيها الشقيَّ الغَويَّ في أعلاها، وأحاطوا على أعدائهم في ذُراها وسَبَوْهم واستأْصَلوهم وأجلَوْهم وغَزَوْهم غزوًا شافيًا، وفتح اللهُ لهم أرضَهم، وملَّكهم عقارَهم وعِرضَهم، وقَتلوا الشقيَّ المذكور، واتّصل لهم الفتحُ في جبال[7] غُمارةَ وصُنْهاجة بالمناب، وكان الانصرافُ من الجميع

---

(١) في المن بالإمامة ٣١٨: «منخفاد» أينما ورد، والمؤلف ينقل منه. ووقع في م: «منعقاد» وهو تحريف تأتي من سوء القراءة.

(٢) في م: «الطريق»، وهو تحريف.

(٣) الضبط من ق، حيث جوّد الضمة على الراء.

(٤) في ك، م: «رأي».

(٥) المن بالإمامة ٣١٨-٣٢٠.

(٦) سقط من م.

(٧) في م: «جبل» وما أثبتناه من النسخ.

بالنُّجح وحُسن الانقلاب[1]. ولـمّا كان الإيابُ من هذه الغزوة المذكورة أمَرَ الأميرُ أبو يعقوبَ بإعلام الفتح الشامل ومقتَل الشقيِّ وصَلْبِه.

ولـمّا انصَرف الأميرُ أبو يعقوبَ من فتح جبال غُمارةَ غالبًا منصورًا إلى حضرة مَرّاكُش، أنشَده الشّعراءُ يُهنُّونَه باستيلائه على أعدائه، فقال أبو عُمر[2] بنُ حَرْبونَ من قصيدة[3] [من الكامل]:

بلَغَتْ بكـمْ حُجَجُ الكتابِ المنزَلِ ... ونُـصِرتمُ نَـصْرَ النبـيِّ المرسَـلِ
وجلَـوْتُمُ غَمَـراتِ كـلِّ دُجُنّـةٍ ... لـو أنّ صُـبْحًا رامَهـا لم تَنْجَـلِ
فـرَقِيتُمُ منهـا مَراقـيَ لم تكـنْ ... تَرقَـى بهـا قـدَمُ الـصَّبا والـشَّمألِ
ووطِئـتُمُ جبـلَ الكواكـبِ وطْـأةً ... خَـرَّتْ لـصعقتِها مناكـبُ يَـذبُلِ
والتـاجُ نـورُ الله يُـشرقُ فوقَـهُ ... من غُـرّةِ الـمَلِكِ الأجـلِّ الأفـضلِ
فتـبرَّأت تلـك المعاقـلُ مـنهمُ ... والعقـلُ لـو رُزِقـوهُ أمنـعُ معقـلِ
مـا غَـرَّهم بخليفـة الله الـذي ... مـا لامـرئ عـن أمـرِه مـن معـدِلِ
ضرَبَ الـشقاءُ وجـوهَهم بـضلالةٍ ... تاهَـتْ بهـمْ في حَـوْزِ ليـل أليـلِ
واستعجَلوا أمرَ الإله [فجاءهمْ][4] ... والويـلُ كـلُّ الويـل للمـستعجِلِ
عجبًـا لهـا مـن فتنـةٍ قـد سـوَّلت ... لـمُطوَّقاتِ الأيْـكِ صَـيْدَ الأجـدَلِ
فسَطَت بهـم كـفُّ الـرَّدى لـمّا أبَـوْا ... أن يقبَلـوا عفـوَ الـصَّفوح المفـصلِ
وغـدا غَـويُّهمُ بـرأس مُنيفـةٍ ... يَـهوِي إلى دَرْكِ الجحـيم الأسـفلِ
رضيَ الإلـهُ عـن الإمـام المجتبَـى ... وسـقَتْه أنـواءُ الـسحابِ الـهُطَّلِ

---

(١) زاد ناشرو (م) بعد هذا: «وسعيد الإياب» وليس في النسخ، وهي عبارة وردت في المنّ بالإمامة ٣٢٠.

(٢) في النسخ: «عَمْرو» وهو خطأ.

(٣) القصيدة بتمامها في المن بالإمامة ٣٣٦-٣٤١ وهي أطول مما هنا.

(٤) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة.

ألقَى لسيّدِنا الخليفةِ عهدَهُ فَزَعَ الهُمام إلى الحسام المفصلِ[1]
وقضَى لنَجْلِهِمُ الكريم بحفظِها حتّى إلى اليوم العَماس[2] الأهولِ
فالآنَ قد هدَأت وقَرَّ قرارُها عند التقيِّ الزاهدِ المتبتّلِ
قَرَّت به عَيْنُ الخلافة إذ رأَتْ قِسْطاسَها بيد الإمام الأعدلِ
إنّ الخليفةَ إن تأخّر عصرُهُ فقدِ احتَوى خَلْقَ الزمانِ الأوّلِ
شَرْخُ الشّبابِ ودولةٌ قد أقبَلَتْ يا حُسنَهُ من مُقبِلٍ في مُقبلِ
مَلِكٌ تسُحُّ على الورى برَكاتُهُ فتعُمُّ سائلَها ومن لم يسألِ
هُنِّيتَ مولانا أبا يعقوبَ ما خُوِّلتَ من فَتْح أغرَّ محجَّلِ
قُلِّدت جِيدَ المُلك منه تميمةً ما أن يَبيتَ لها بليل الأوجَلِ
قد جاءت الدُّنيا إليكَ بوَفْدِها واستقبلتْك بوجهِها المتهلِّلِ
والحضرةُ العلياءُ يَرقُبُ طَرْفُها منكمْ سَنا البدرِ المُنيرِ الأكملِ
حُصِر اللّسانُ وتاه في أوصافِكمْ فإليكموها[3] عُذرةَ المتجمِّلِ

وفي هذه السنة بعدَ غزوة جبال غُمارةَ: كان الشّيخُ أبو سعيد يَخلُفُ قد توجَّه بعسكر من الموحِّدينَ إلى جهة المرتدّينَ من صُنْهاجة، وكان الشّيخُ أبو حفص الهَنْتَاتيُّ بمَن معَه من عساكر الموحِّدين بجهة أخرى من بلاد صُنْهاجةَ المذكورين، ورَسَم لهم من العمَل ما وُدِّعوا عليه، فنهَضوا واجتَمعوا وجَدُّوا في غَزْوِهم وسَعِدوا، فلمّا فتَحَ اللهُ جبالَ غُمارة واتّصل خبرُ هذا الفتح بصُنْهاجةَ ومَن جاوَرَهم من أهل الجبال، سُقِط ما في أيديهم ورَغبوا بأجمَعِهم وتطارَحوا على الموحِّدينَ في قَبول التّوبة، فقبِل أبو حفص رغبتَهم وأعلمَ الأميرَ بذلك فصَفَح عنهم، فحين انصَرف الأميرُ أبو يعقوبَ من

---

(١) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «المقصل» ولعله الصواب.

(٢) «اليوم العماس»، كسحاب، أي: الشديد الحرب (القاموس).

(٣) لم يبق من هذه اللفظة في النسخ غير الفاء والألف من أولها ثم الهاء والألف من آخرها، واستفدناها من المنّ بالإمامة ٣٤١.

غُمارة انصَرف الشّيخُ أبو حفص وأبو سعيد بمَن كان معَهما من العساكر وأُعلِموا بما اتّفق من الطَّوع وما كان من الظَّفر فقال أبو عمر بن حَرْبون[1] من قصيدة[2] [من الكامل]:

وجَـد النّسيمُ ثنـاءكمْ فتعطَّـرا ... ورأى الوَشيجُ مضاءكم فتفَطَّـرا

وتبسَّمتْ أيـامُكم عـن أنعُـمٍ ... سَمِعَ الغَمامُ بذكرِها فاستَعْبَرا

وجَرى لها فلكُ السعادةُ بالتي ... حَمِيت على كسرى وفَلَّت قَيْصرا

فالدِّينُ والدنيا معًا قد رَدَّيا ... برِدائه الفاروقَ والإسكندرا

جمَعَ الإلهُ به [الوَرى في واحدٍ ... فتبارَكَ الرّحمنُ ماذا قَدَّرا][3]

وأتى به الزَّمنُ الأخيرُ مقدَّمًا ... فكأنّما الفلَكُ المُدارُ تَقَهْقَرا

مِلكٌ تضَعضَعت الملوكُ لبأسِهِ ... وغَدا له الزّمنُ العَنُودُ مسَخَّرا

أبشِرْ فكلُّ صباح يوم إنّما ... يأتيكَ بالفتح المُبين مبشِّرا

وأصِخْ لذكرِ اليوسُفيّة إنّها ... منَعت مغاني الشّعب من أن تُذكرا

جلَّت عُلاكُمْ أن يُحاطَ بوَصْفِها ... حتى تَساوى مَن أطال وقَصَّرا

وفي هذه السنة: تحرَّك السيِّدُ الأعلى أبو حفص بعسكر من الموحِّدينَ إلى غَزْو المنافقينَ المرتدِّين، فسهَّل اللهُ له وفتَحَ عليه وانصَرف منصورًا ظافرًا[4].

وفي هذه الغزوة: أمَرَ السيِّدُ أبو حفص أبا عمرَ ابنَ حَرْبون أن يصنَع قصيدةَ شعرٍ على لسانِه يتشوقُ فيها إلى أخيه أبي يعقوب، فقال أبو عمرَ المذكورُ في ذلك[5] [من الوافر]:

سلامٌ أيها المِلكُ الهُمَامُ ... على ناديك دام لك السّلامُ

---

(١) في النسخ كافة: «أبو بكر بن حزمون»، وفي المنّ بالإمامة: «أبو عمر بن حربون»، ولعله هو الصّواب، إذ لا نعرف من الشعراء من يكنى أبا بكر وممن يعرف بابن حزمون.

(٢) القصيدة في المن بالإمامة في ثلاثة وأربعين بيتًا (ص٣٤٢-٣٤٧).

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه من المنّ بالإمامة ٣٤٣.

(٤) المن بالإمامة ٣٤٧.

(٥) القصيدة في المن بالإمامة في ستة وثلاثين بيتًا (ص٣٥٠-٣٥٤).

ولا زالــت لــك الأيــامُ سِــلْمًا ... وصُــبَّ عــلى أعاديــك الــسّلامُ
فأنــت إمــامُ هــذا الخلــقِ طُــرًّا ... متــى مــا زال لا زال الإمــامُ
برأيِــكَ تكــشِفُ الغــمّاءَ عــنهمْ ... وينقَــعُ غُلّــةَ الأرض الغَــمامُ
ولــولا دولــةٌ أيّــدتمُوها ... لَــما عُــرِف الحــلالُ ولا الحــرامُ
ولا هطَلَــت عــلى الأرض الغَــوادي ... ولا سَجَعت عــلى الدَّوح الــحَمامُ
ســهِرتَ اللّيــلَ في طلــبِ المعــالي ... وقــام بــيُمن دَعْوتِــك الأنــامُ

إلى قوله[١]:

يطــولُ بنــا الزمــانُ فكــلُّ يــومٍ ... يمُــرُّ ولا نَــراكم فهْــوَ عــامُ
فتبــسِمُ عــنكُمُ هــذي اللّيــالي ... كــما ابتــسمت عــن الزهــرِ الكــمامُ

أخبَر أبو مروانَ عبدُ الملك بن محمد، قال[٢]: حدَّثني مَن حضَر مجلسَ الخليفة أبي يعقوبَ قال: لـمّا أُنشدت هذه القصيدةُ المعلِنةُ عن صفاءِ الضمائر، وخُلوص الإخاء في السرائر، منَ السيِّد أبي حفص إلى حضرة أخيه، رأينا وجهَه قد انشَرح وتهلَّل سرورًا وبِشرًا، وتخيَّلناه لنُورِه بدرًا، فقام كلُّ مَن حضَر المجلسَ فبايَعه ودَعا له بأجزل العطاء لقائلها وانصَرف السيّد أبو حفص ظافرًا.

وفي سنة ثلاث وستينَ وخمس مئة: تسَمَّى الخليفةُ أبو يعقوبَ بأمير المؤمنين[٣] وجُدِّدت له البيعةُ، أجمَعَ الموحِّدونَ على تجديدِها فجُدِّدت بخُلوص الضمائر وطيبِ السرائر، ونفَذَ الأمرُ بذلك إلى السيِّد أبي إبراهيمَ بن عبد المؤمن بإشبيلِيَةَ مُعلِمًا بتجديد البيعة والاسميّة الإماميّة، فأُخِذت البيعةُ له بإشبيلِيَةَ وسائر بلاد الأندَلس التي كانت تحتَ طاعتِه كمدينة: قُرطُبة وغَرناطة ومالَقةَ وغَرْب الأندَلس، وكُتبت البَيْعاتُ من كلِّ بلد وبُعِثت إلى حضرة مَرّاكُش.

---

(١) سقط شبه الجملة من م.
(٢) المن بالإمامة ٣٥٤.
(٣) المن بالإمامة ٣٥٤ فما بعدها.

ولـمّا[1] كمُلت هذه البَيْعات، وسَرَت البشائرُ في البلاد، وتيمَّن بارتباطِهم بالأندلس والعُدوة، فجميع العباد، عَفَا أميرُ المؤمنين عن جميع المسجونين، وحَطّ البقايا عن العُمّال الخائفين، وأمَّنَهم من الخوف[2] فيما تقيَّد عليهم من الدّواوين، فزادَ الانبساطُ والنشاطُ عندَ الناس بفضلِه وصَفْحِه وعدلِه، فنَمَتِ الأرزاق وعَمُرت الأسواق، وزادت المخازنُ وُفورًا، ودُرَّت الخيراتُ على الناس دُرورًا، وابتنَوْا بمَرّاكُش الدِّيارَ العتيقة، واغتَرسوا خارجَها أينَعَ حديقة، واتّصل فضلُه في جميع العُدوة: الغَرْبيّة والأندَلس، واجتمع الحُبُّ له في جميع القلوب والأنفس، فمَدَحه الشعراءُ وأطْنبوا، فأجزَلَ لهم العطاءَ فوق ما رَغِبوا، فمِن ذلك قولُ أبي عَمْرو بن حَرْبون[3] من قصيدةٍ[4] [من الكامل]:

جاءتـك تـسحَبُ ذيلَهـا للموعـدِ ... زهـراءُ طالعـةٌ بـسَعْدِ الأسـعدِ
فاصـدَعْ أمـيرَ المـؤمنينَ بـدعوةٍ ... لم تَـتَّرِكْ صـممًا لـسمع الـجَلْمدِ
يُهنـي الخلافـةَ أن لبِـسْتَ رداءهـا ... وقعَـدتَ منهـا اليـومَ أشرفَ مقعـدِ
ومـنِ ارتقَـى في سُـلَّم التقـوى رأى ... زُهرَ الكواكب بالحـضيض الأوهـدِ
ألقَـتْ أزِمّتَهـا إلى مـن هـمُّهُ ... في مُرهَـفٍ أو مُـصحفٍ أو مـسجدِ
عَلِقَتْـهُ ميمـونَ النَّقيبـةِ زاهـدًا ... لم يـشتغلْ بـدَدٍ ولا هـو مـن دَدِ
انظُـرْ إليـه فـإنّ غُـرّةَ وجهِـهِ ... تَجْلو الصَّدى عن قلـب كـلِّ موحِّـدِ
فأقـام قَيّـامَ الـسماواتِ العُـلى ... عـن شـأن قَـوّامٍ لـه متهجِّـدِ

---

(١) المن بالإمامة ٣٦٣ فما بعدها.
(٢) وضع ناشرو (م) عنوانًا من المنّ بالإمامة من غير إشارة إليه، بل قالوا في تعليق لهم: إنّ العنوان سقط من بعض النسخ دون بعض، وهو لا وجود له في النسخ الخطية كافة، بل أدهى من ذلك أنهم تركوا النصّ الذي أجمعت عليه المخطوطات وراحوا ينقلون من المنّ بالإمامة، وهو أمر في (تحقيقهم) غريب! ومن ثم لم نعد نرى فائدة في تتبع المخالفات الكثيرة الواقعة في هذا النصّ، وما قدمنا فيه كفاية لكلّ ذي بصر واطّلاع، والله الموفق للصواب، إليه المرجع والمآب.
(٣) وقع في ر٣: «حزمون»، وهو تحريف.
(٤) القصيدة في المن بالإمامة ٣٦٥-٣٦٩ ومنه ينقل المؤلف.

الحـقُّ حقُّـك مـا لـه مـن دافـعٍ ... واستَشهِدِ البِيضَ الـصَّوارمَ تـشهَدِ
إنّ الـذي قـد قُمـتَ تَنـصُرُ دينَـهُ ... أعطـاك مـيراثَ النبـيِّ محمـدِ
لله مـشهدُ بيعـةٍ بويعتَهـا ... فالـدِّينُ والـدنيا بـذاك المـشهدِ
إنّ الـشريعةَ أُيِّـدت أركانُهـا ... بموفَّـق للـصالحاتِ مؤيَّـدِ
يَـجْلو خفِيّـاتِ الأمـور بفِطنـةٍ ... قـد أنبأَتْـه اليـومَ عـمّا في الغـدِ
عمَـرتْ قلـوبَ المـؤمنينَ بحبِّـهِ ... واستمسَكوا بعُرى الـمُهنِّ[1] المحـصدِ
فاسـلَمْ أمـيرَ المـؤمنينَ لأُمّـةٍ ... مـا سرتهـا[2] إذ سُسْتَها بمُـصَّردِ
أمَّنْتَهـا أهـوالَ كـلِّ مَـخُوفةٍ ... شَرَّدن سِرْبَ الأمـن كـلَّ مـشرَّدِ
لـولا مقامُـكَ زُلزِلـت زَلزالُـها ... وتَضَعْضَعت صُمُّ[3] الهضابِ الصُّخَّدِ
لـولا الـذي بـسَط الإلـهُ بفـضلِهِ ... في الأرض من سُلطانِهم لم يُعهَـدِ[4]
حـطَّ الأنـامُ إلى ذُراكَ وأصـبحوا ... من ظلِّ عدلِك في النّعيم الأمـردِ[5]
صَـفَت النفـوسُ إليـكَ حتـى أنّهـا ... لـو سُـمتَها الأغـمارَ[6] لم تـتردَّدِ
غـارت معطَّـرةَ الثنـاءِ وأنجَـدتْ ... أهلًا وسهلًا بالـمُعينِ الـمُنجِدِ[7]

---

(١) في م: «المتين» وهو الذي في المطبوع من المنّ بالإمامة، وما أثبتناه من النسخ كافة وهو الأولى.
(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المنّ بالإمامة: «شربها».
(٣) في ق، ك: «لهم»، وبها يحصل الإقواء في البيت، وما أثبتناه من ر٣، وفي المنّ بالإمامة: «شمّ»، ولعل «صمّ» أفضل هنا من «شم» للفظة «تضعضعت».
(٤) في المنّ بالإمامة: «من سلطانكم لم يُعبدِ».
(٥) في م: «الأفردِ» وهو تحريف، وفي المنّ بالإمامة: «الأبردِ».
(٦) في م، والمنّ بالإمامة: «الأعمار»، وما أثبتناه من النسخ، وهو الصّواب.
(٧) جاء العجز في م: «فرمت إليك بمتهم وبمنجدِ»، وهو منقول من المنّ بالإمامة ٣٦٨، وقد ترك (المحقّقون) النسخ الخطية التي اتفقت على ما أثبتنا وراحوا ينقلون من مصدر آخر غيرها، بل علّقوا بقولهم: «في ط: أهلًا وسهلًا بالأمير المنجد، ولا معنى له ولا ارتباط بما قبله»، وهي قراءة سقيمة، إذ لا وجود للفظ الأمير في جميع النسخ الخطية. نعم، جاء في واحدة منها: «المغير»، ولعله تحريف من «المعين».

فاهْنَأْ برضوانيّةٍ ميمونةٍ رَمَت الأعادي بالنّعيم[1] المُقعِدِ
فهْي المُعدَّةُ للمَعادِ ورَيْبِهِ وهْي العَتادُ[2] بحَسْم داءِ المعتدي
وإليكها تبقي[3] رضاك ذخيرةً سَندًا ألُوذُ به طُوالَ المسندِ
لم تنتهجْ سَنَنَ المديح وإنّما قامت بفَرْضٍ في عُلاك مؤكَّدِ
أخَذَتْ بأطرافِ الثناء ولم تُطِقْ إحصاءَ أوصافِ الجميع المفرَدِ
أنباءُ فضلِك لا يقامُ بحقِّها ولوَ انها كُتِبت بذَوْب العسجَدِ

وأمَرَ أن يكتُبَ الصُّناع في سفيه: «لأمير المؤمنينَ ابن أمير المؤمنين» فكُتِب فيه ذلك، فقال ابنُ حَرْبونَ مُرتجِلًا فيه على لسان السيف [من مجزوء الرمل]:

أنا إن جرِّدتُ يومًا كنتُ بالنصرِ ضَمِينا[4]
لأمير المؤمنينَ ابنِ أمير المؤمنينا[5]

ولمّا[6] كُمل البِشرُ العامّ، واليُسرُ التامّ، بتجديد البيعة الميمونة، أمَرَ أبو يعقوبَ ببركةٍ عامّة لجميع الموحِّدينَ والعربِ القاطنين، والأجنادِ الأندَلسيِّين بحضرة مَرّاكُش إيصالًا للعفو الذي تقدَّم وإفضالًا، فنَفَذَ أمرُه إلى الساداتِ إخوتِه بالبلاد الغربيّة والأندَلسيّة بالإنعام بالبركة. فعَمَّ الناسَ فضلُه ورِفدُه، واستَولَى بهذا الإنعامُ المبارك سعدُه، ونَمَت الجِباياتُ والخراجات، وعَزمت النفوسُ على الغزوِ في الحَضَر والبدو، واتّصلت القطيعة[7] بالبيعة والأمان.

---

(١) هكذا في النسخ كافة، وغيّرها ناشرو (م) إلى: «بالمقيم» اعمادًا على ما جاء في المنّ بالإمامة.
(٢) في م: «المعاد»، ولا ندري من أين أتوا بها، فالذي في المنّ بالإمامة كما أثبتنا أيضًا.
(٣) في م، والمنّ بالإمامة: «تبغي»، وما أثبتناه من النسخ كافة.
(٤) في م، والمنّ بالإمامة: «قمينا».
(٥) المن بالإمامة ٣٧٠-٣٧١.
(٦) النص من المن بالإمامة ٣٧١-٣٧٢.
(٧) هكذا في جميع النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «الغبطة» وهي الأصحّ.

وقدَّم أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ في هذه السّنة أخاه السيِّدَ أبا إسحاقَ إلى قُرطُبَةَ واليًا عليها، فوصَل بعسكر ضَخْم من الموحِّدينَ إليها، واتّفق الرأيُ المباركُ على النظر السّعيد والاهتبال الحميد، بالتوجُّه إلى جزيرة الأندَلس حَماها الله، بصَرْف عِنان الغزوِ إلى أعدائها على قُربِهم وبُعدِهم من أرجائها، وخاطَبَ الخليفةَ بهذا الرأي المتَّفَق عليه، بعدَ استخارة الله تعالى لديه، إلى أهل الأندَلس بالنَّظر في الاستعداد لذلك برَسْم الجهاد.

وفي تاريخ وصُول هذه الرِّسالة[١] إلى والي غَرْناطةَ المذكور، خَرَجت من جهة وادي آش جُملةٌ ذَميمةٌ من خيل جراندُه[٢] من المحارِبين، وأصحابِهم النّصارى الكافرين، أهلَكَهم اللهُ تعالى، فأسرَوْا ليلتَهم ونهارَهم حتى وصَلوا نظَرَ مدينة رُنْده كَلأَها اللهُ تعالى، فغَنِموا بعضَه واكتَسَحوا سائمتَه وماشيتَه، وعَلِم بذلك الشيخُ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم بغَرْناطة، فحزم في أمرهم وفي حَسْم شرِّهم، وبعَثَ في اتّباعِهم ودفاعِهم عسكرًا كبيرًا، فالتقَى بالأشقياء وهم بالغنائم منصرفونَ إلى وادي آش، مجتمعين، فحينَ عايَنوا عسكرَ الموحِّدين أوَوْا إلى جبل شاهق، فحَمَل الموحِّدون أنجَدَهم اللهُ على الكافرين حملةً صادقة طارَدوهم فيها من أوّل صلاة الظّهر إلى أن هَبَّت عليهم ريحُ النّصر، خلالَ وقت العصر، ووَلّى الكافرونَ أدبارَهم وهزَموهم في أعلى الجبل المذكور، وأزعَجوهم فيه حتى تردَّوْا من حافَاتِه، وتكسَّرت أعضاؤهم، وتمزَّقت أجسادُهم[٣]، واستولى الموحِّدونَ عليهم بالقتل والأسر والسَّبي، وأنفَذوا الغنائم، وحازوا أسلابَهم ودوابَّهم، وسَبَوا من أعلاج النَّصارى ثلاثةً وخمسينَ عِلجًا استاقوهم إلى غَرناطة، فضُرِبت أعناقُهم، وكان فتحًا جَسيمًا، فعرَّف به أبو عبد الله بنُ أبي إبراهيم إلى أمير المؤمنين أبي يعقوبَ رحمه الله، فجاوَبَه على ذلك بالشُّكر الحَفيل والثناءِ الجميل، ومن قول أبي عَمْرو بن حَرْبونَ من قصيدة طويلة[٤] [من الطويل]:

---

(١) نص الرسالة في المن بالإمامة ٣٧٣-٣٧٤، والمؤلف ينقل منه ص٣٧٤ فما بعدها.

(٢) هو Giraldo .

(٣) في م: «أجسامهم».

(٤) القصيدة في المن بالإمامة ٤٠٨-٤١٢.

أليس من الآياتِ أنْ بِتَّ وادعًا ... وقيصرُ قد أمسى لأمرِكَ خادما
وما هُو إلّا أنْ دعا بشعارِكمْ ... فجَدَّل مَن قد كان قَرْنًا مُقاوما
بحِلفِكمُ الميمونِ أضحى مؤيَّدًا ... على كلِّ مَن عاداك بالبَسْطِ قائما
ورِثتُمْ عن المَهديِّ نورًا وحكمةً ... بها اختارك الرّحمنُ للناس حاكما
فلا زالتِ الآمالُ من كلِّ معشَرٍ ... تحثُّ إليك الواخِداتِ الرَّواسما
ولا زِلتُمُ تلقَوْنَ في كلِّ شارقٍ ... بشيرًا عليكمْ بالفتوحاتِ قادما

وفي هذه السنة: استدعَى العرَبَ وخاطَبَهم برسالة وقصيدة يحرِّضُهم فيها على الجهاد ويَستدعيهم إلى الغزو، وعلى الاستعداد، ويصِفُهم فيها بما هم فيه من الزّعامة والشّهامة، ويُستدنيهم غايةَ استدناء.

وفي هذه السنة: شَغَب قومٌ من البربرِ المنافقينَ في جبل تاسررت، وحين صَحَّ خبرُ تشغيبِهم وعِنادِهم عسكرَ إليهم السيّد أبو حفص بجَمْع وافر من الموحِّدين، فغَزاهم وأجلاهم عن ذلك الجبل وقتَلهم فيه شرَّ مقتَل، واستأصَلَهم سَبْيًا ونفيًا، ولم يدَعْ في حيِّهم حيًّا، وانصَرف فقال ابنُ حَرْبون من قصيدة طويلة(1) [من المتقارب]:

بيُمنِكمُ نجَحَ المطلبُ ... وأعطَى مقادتَهُ المُصعَبُ
وأشرَقَت الأرضُ عن نُورِكمْ ... فلم يبقَ في أفُقٍ غيهَبُ
تركتُمْ ديارَهمُ(2) بَلْقَعًا ... فتندُبُ من جاءها يَندُبُ
ولا غروَ أنْ صال ليثُ الشَّرى ... فراغ مخافتَه الثّعلبُ
فمزَّقتُمُ شملَهم في البلادِ ... كأنّهمُ(3) جمَلٌ أجربُ
فيُهني الخلافةَ أن أصبحت ... بصارمِ سيفِكمُ تضربُ

---

(1) القصيدة في المن بالإمامة ٣٧٩-٣٨٢.

(2) في ك: «دياركم»، وهو تحريف.

(3) في المنّ بالإمامة: «ففَلُّهم».

ووصَل إلى الخليفة أبي يعقوب فتحُ وقعةٍ كانت على المخالفينَ المرتدِّينَ بالمغرب، وأمَرَ أن يَبدأَ الشّعراءُ فيها بالحمد لله على طريق الكناية، فقال ابنُ حَرْبونَ من قصيدة[1] [من البسيط]:

الحمـــدُ لله مُـــدْني شاســـع الأمـــلِ ... وناظمِ الشّمل في سِلك من الـــجَذَلِ
ثـم الـصلاةُ مـعَ التـسليم يـشفَعُها ... على الرسُولِ الذي استوفَى مدى الرسُلِ
عـلى الـذي تـــمَّمتْ أحكـامُ مِلّتِـه ... مكارمًـا لم تكـنْ في سـالفِ الـمِللِ
ومَـن رضـاهُ عـن الـمَهْديِّ أحفَلَـهُ ... كـما هَـدى بـسَناه أرشـدَ الـسُّبُلِ
ثـــم الـــدعاءُ لمولانـــا وســـيِّدِنا ... خليفـةِ الله عبـد المـؤمن بـن عـلي
وللإمـــام أبي يعقـــوبَ شِـــبْهِهمُ ... ومـــن تَقَـــيَّلهم في القـــول والعمـــلِ
مَلْـكٌ تظـلُّ ملـوكُ الأرض تتبَعُـهُ ... مستبشرينَ بأنْ عُـدُّوا مـن الـخَوَلِ
وقائعًـا حـدَقت فيهـا القنـا مُقَـلًا ... بـلا جفـونٍ وأجفانًـا بـلا مُقَـلِ
فإنْ عَمُوا عن سبيل الرُّشد وَيْـحَهمُ ... . في المهابـــة الـــدُّولِ[2]
شَرَوْا[3] بعاقبـــة الإنعـــام عاقبـــةً ... نفوسَهمْ[4] بينَ سهل الأرض والجبـلِ
فأصـــبحوا عِـــبرةً تبـدو لـمعتبِـــرٍ ... مجـــدَّلينَ بـــما رامـــوهُ مـــن جَـــدَلِ

وفي هذه السنة: لازَمَ الموحِّدون حصارَ طَبيرةَ حتى افتتَحوها، وقد كان الأميرُ أبو يعقوبَ أيام إمارتِه بإشبيلِيَةَ نازَلَها مرَّتينِ فعَصَت عليه وامتَنعت بمَن فيها لديه، حتى فتَحَها اللهُ في خلافتِه عقِبَ شهر ذي القَعدة، وكان فيها أصنافٌ من أهل الشَّرّ ينهَبُونَ أموالَ المسلمين فسُرَّ أميرُ المؤمنينَ بانقطاع نفاقِها الطائل

(١) القصيدة في المن بالإمامة ٣٨٣-٣٨٧ والمؤلف يختار منه دائمًا.
(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المن بالإمامة جاء العجز: «يا ضُلّ من ضَلّ في مهديّة الدولِ».
(٣) في المنّ بالإمامة: «سروا».
(٤) في المنّ بالإمامة: «تنوسهم».

السِّنين، إذ كان فيها من أول عام ستة وأربعينَ إلى آخِر هذه السنة، وهي ثلاثٌ وستون(١).

وفي هذه السنة: وصَل فِرْنانْدُه النَّصرانيُّ صِهرُ أذْفُونْش(٢) صاحب طُلَيْطُلَة فتَحَها الله إلى إشبيلِيَةَ حرَسَها الله معَ إخوتِه راغبًا أن يكونَ خَدِيمًا لأمير المؤمنين مُنابِذًا لشيعةِ الكافرين، فسار منها معَ أصحابِه إلى حضرة مَرّاكُش مَهَدَها الله وبقيَ فيها خمسةَ أشهر تحتَ إنعام وامتنان، وعطاءٍ جزيل وإسكان، حتى كاد أن يُسلِم وعاهَدَ في نُصح الخليفة بالخدمة الـمُجِدّة، فانصرَف تحتَ هذا الإحسان والصُّلح التامّ، وأُمِر بإثباتِ إخوتِه وأصحابِه معَ الموحِّدين في كلِّ شهر، فكان ذلك، وبايَعَه بالصُّلح صِهرُه البيبوج بن أذْفُونْش صاحب السّبطاط(٣)، ورغِبَ في الـمُهادنة وأن يكونَ يدًا واحدة معَ الموحِّدين وعونًا لهم على من عاداهم، وكان من أمره ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى(٤).

ذكرُ غَدْر العِلج جراندُه الجِلِّيقيِّ أخزاه الله لبعض بلاد غرب الأندَلس وحُصونها(٥)

كان هذا الكلبُ جراندُه صاحبَ جُرأةٍ ونَجْدة، فلمّا عايَنَ ابنُ الرَّنك نَجْدتَه وتيقُّظَه لغَدْر البلاد والحصون أعانه على ذلك برجاله، وسَلَّطه على المسلمين، فكان الكلبُ يتسلَّل في اللّيالي الـمَطِرة الحالِكة الـمُظلمة وقد أعدَّ الآلاتِ من السّلاليم التي تعلو سورَ المدينة التي يَرُوم، فإذا نام السامرُ المسلم في بُرج المدينة ألقَى تلك السّلاليم إلى جانب البُرج ورَقَا عليها بنفسِه أولًا ويقبِضُ على السامرِ ويُهدِّدُه ثم يقول له: تكلَّمْ على عادتِك لئلا يشعرَ الناسُ بنا، فإذا استوفَى طلوعَ جُملتِه الرّومية في أعلى سُور المدينة صاحوا صَيْحةً واحدةً عظيمة مُنكَرة، ودخَلوا المدينةَ وقَتلوا مَن

(١) المن بالإمامة ٣٨٧-٣٨٨. ووقع في النسخ: «ثلاث سنين»، وهو تحريف لا ريب فيه، لذلك أصلحناه من المنّ بالإمامة.

(٢) هو الفونسو السابع.

(٣) في ك: «السفاط»، وهو تحريف.

(٤) المن بالإمامة ٣٩٠-٣٩٥.

(٥) المن بالإمامة ٣٩٥-٣٩٧.

وجَدوه وأخَذوا مَن فيها سَبْيًا وفيئًا، فغدَر جراندُه العِلجُ المذكورُ لعنه الله أولًا من غَدَراتِه مدينةَ ترجالَة سنةَ ستّين، ثم مدينةَ يابُرةَ في ذي القَعدة من السنة، وباعَها من النّصارى، ثم غَدَر مدينةَ قاصرش في صَفَر سنةَ إحدى وستين، ثم غدَر حِصنَ مُنْتانجش في جُمادى الآخِرة من السنة، ثم غَدَر حصنَ شيربةَ في جُمادى أيضًا من السنة، ثم غدَر حصنَ جلمانية: على مَقرُبة من بَطَلْيَوْس وسكَنَه بجُملته الذّميمة يُفاتنُ منه بَطَلْيَوْس ويؤذي المسلمينَ فيها حتى مكَّن اللهُ سيفَ الخليفة منه.

وفي سنة أربع وستينَ وخمس مئة في أوّلِـها: هدَأَت الفتنُ في المغرب وصَلَحت البُلدان وارتفَعت الحروبُ، ورَخُصت الأسعار ودانتِ الأوطار، وانقَطَعت فتنةُ [الضُّلّال الجُهّال أهل الجبال، وتابوا وأنابوا، و][1] دُعوا للجهاد فأجابوا، وعايَنوا الآياتِ البيِّنات من لطائف الله بنَصْره الـمُبين ووصُول النَّصارى راغبينَ في الصلح والخِدمة صاغِرينَ طائعين. وذلك لـمّا صَفَت لأميرِ المؤمنينَ مشاربُ هذه الجبال من الفتن نَظَر في توجيه العساكر.

ذكرُ غَيْرة الخليفة أبي يعقوبَ بن عبد المؤمن لله وللدِّين بتجهيز عساكرِ الموحِّدين وبَعْثِهم لحماية الأندَلس من الكفّارِ والمنافقين[2]

قال الراوية: إنّ أميرَ المؤمنينَ جَرّد[3] نَظَرَه لغَرْب[4] الأندَلس ونُصرتِها وحمايتِها، وقَصَد العمَلَ في ذلك بنّية الجهاد لله عزَّ وجَل وإشفاقًا على المسلمين ودفاعًا عن الدِّين حين رأى العدوَّ قد فَغَر عليها فمًا، وأسالَ الدّموعَ أهلُها دمًا. فنَظَر في عسكرٍ ضَخْم مبارَك شَهْم اختارهُ من الموحِّدين ووجَّهه صُحبةَ الشّيخ المرحوم أبي حفص عمرَ بن يحيى إلى قُرطُبة تقدِمةً منه لِـما أمَّله في نفسِه من جَواز الموحِّدينَ معه، فكان هذا الجيشُ أيمنَ جيش، أظهَرَ على قلوب المنافقينَ والكافرين من الرَّوع أعظمَ طيش، وتيمَّن أهلُ الأندَلس بوصُولِه وحُلولِه، وكتَبَ إلى أهل الأندَلس رسالةً كريمة معرِّفةً عنه بوَعْد نَصْرِه ونظَرِه العزيزِ وأمرِه.

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه من المنّ بالإمامة ٣٩٧.

(٢) المن بالإمامة ٣٩٧ فما بعدها ومنه ينقل المؤلف دائمًا.

(٣) في م: «أجد» محرفة.

(٤) في المنّ بالإمامة: «لغوث».

قال مؤلِّفُه: أخبَرَ أبو مروانَ بن محمد ابن صاحبِ الصّلاة، قال[1]: حدّثني أبو محمد سِدْراي بنُ وزير، قال: كان السببَ في تعجيل حركة الشّيخ المرحوم أبي حفص إلى الأندَلس بالعسكرِ من مَرّاكُش وصُولُ الخبر بغَدْر اللّعين جراندُه الجِلِّيقي مدينةَ بَطَلْيَوْسَ وتملُّكُ ابن الرَّنك الغادر صاحب قلمريةَ[2] لها وحصارُ الموحِّدينَ الذين بها في قَصَبتها معَ حافظِهم أبي عليٍّ عمرَ بن تيمصليت[3]، وذلك في شهر رجَب الفَرْد من عام أربعة المؤرَّخ وأنّهم في ضيقة من الحصار وتحتَ ضغط من الكفّار، فأمَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ بضرب الطّبول والخروج، ورَكِب من فَوْره فخَرج من مَرّاكُشَ ونزَلَ وادي تنسيفت عازمًا على الغَزْو إلى الأندَلس، فأقام به ثلاثةَ أيام على هذه النِّية، فاجتمع رأيُ الموحِّدين أن يتقدَّم أبو حفص المذكورُ بالعسكر. وخاطَبَ أهلَ الأندَلس برسالة كريمة من إنشاءِ أبي الحَسَن ابن عيّاش شَرَحَ فيها الأحوال الـمُعرِبةَ عن الآمال، فكان أبو حفص على ما ذكَرْناه وكانت حركتُه في شهر ربيع الآخِر من سنة أربع وستينَ، وهو تاريخُ الكَتْب المذكور.

وكان من يُمن هذا العسكر أنه لـمّا وصَل إلى إشبيلِيَةَ صُحبةَ أبي حفص بينَما هو عازمٌ على الحركة لدفاع العدوِّ الغادر ابن الرَّنك لعنه الله عن مدينة بَطَلْيَوْس وحماية الموحِّدينَ المحصُورين بقَصَبتها، وهو قد أعَدَّ واستعَدّ، وإذا البشيرُ قد وصَل مُعلِمًا بأنّ البيبوجَ بن أذْفُونْش المعروفَ بالسُّلَيْطِن صاحبَ مدينة السبطاط وآبله وليّونَ وسمورة، قد وصَل بخيلِه ورَجْلِه حاميًا للمسلمين دافعًا لضيقةِ الكافرين عن مدينة بَطَلْيَوْس طاعةً منه إلى الخليفة، وقيل: إنه لـمّا وصَل إلى مقرُبة من بَطَلْيَوْس وجَّه منها رسولَه إلى الحافظ أبي عليٍّ عُمرَ بن تيمصليت المحصُور بالقَصَبة معَ الموحِّدين وأهل المدينة الأندَلسيِّين يقول لهم: اثبُتوا فإنّي واصلٌ إليكم لدفاع عدوِّكم عنكم، وانظُروا في معاونتي كيف أدخُلُ إليكم بنَقْب الحائط بابًا في قَصَبة بَطَلْيَوْس من جهة خفيّة، فلمّا تحقَّقوا وصُولَ البيبوجَ المذكور ومُناشبةَ الحرب بينَه وبينَ ابن الرَّنك فتَحوا ذلك

---

(١) المن بالإمامة ٣٩٨.

(٢) معجم البلدان ٤/ ٣٩١.

(٣) في المن بالإمامة: «تمصيلت».

النَّقْبَ وخَرجوا بجَمْعهم منه إلى باب قريب من أبواب المدينة [وفتَحوه][1] وأدخَلوا منه العسكرَ المذكور فتقاتَلوا بداخل المدينة معَ أصحاب ابن الرَّنك والموحِّدونَ المحصُورونَ يُعينونَ أصحابَ البيبوجَ وهم قد سَوَّوا الصُّفوفَ ولبِسوا الدّروع، فرأى ابنُ الرَّنك من تصميم الموحِّدينَ وأصحابِهم في قَصْدِهم والإقدام عليهم وأصحابُ البيبوجَ يَجِدُّونَ معَ المسلمين على عسكر ابن الرَّنك حتى انهزَم وفَرّ ابنُ الرَّنك مهزومًا، فلمّا أراد الخروجَ من باب بَطَلْيَوْس وهو مزعوج، وفي شدائد الحرب مدروج، كان عَمُودُ باب المدينة ممدودًا، أعدَّه اللهُ من جُندِه معدودًا، فانضَغَط اللّعينُ ابنُ الرَّنك في الخروج، فكسَرَ عَمُودُ الباب فخِذَه اليمنى، فسَقَط مَغْشيًّا عليه، فاحتمله أصحابُه، فاتّبعه قُوّادُ البيبوجَ المذكور واستاقوه أسيرًا إليه، فقيَّدَه في الحديد، ثم بعدَ ذلك أطلقَه برغبةِ النصارى له وسَرَّحَه إلى بلده مهزومًا ذميمًا، ولم يركَبْ بعد ذلك إلى أن هلَكَ لعنه الله، وفَرّ جراندُه الجِلِّيقيُّ إلى موضعِه حتى مكَّن اللهُ منه بعدَ ذلك وفتَحَ اللهُ مدينةَ بَطَلْيَوْس، ووفَى البيبوجُ ما عاهَدَ عليه، فرأى بعدَ ذلك كثيرًا من الإحسان والإنعام، وكان خروجُ النّصارى عنها في شعبانَ من العام المؤرَّخ والحمدُ لله على ذلك. وانصَرف البيبوجُ بنُ أذْفُونْش إلى بلاده سالـمًا بأجنادِه موصوفًا عندَ المسلمينَ والنّصارى بالوفاءِ والانحياش إلى هذا الأمر العزيز والولاء، وألقى اللهُ بينَه وبينَ ابن الرَّنك العَداوةَ والبغضاء، والفتنةَ المتّصلةَ الشّنعاء، وأورَثَها الإخوةَ منهم والأبناء.

وكتَبَ الشّيخُ أبو حفص بوَصْف هذا الفتح الإلهي والنّصر المتناهي، فسُرَّ بذلك أميرُ المؤمنين وشَكرَ اللهَ كثيرًا على لُطفِه وصُنعِه، فامتَدَحه الشعراءُ على ذلك الصُّنع الأجمل واللُّطف الأكمل، فقال أبو العباس الجُراويُّ من قصيدة [من الكامل]:

نظَــرٌ بكـــلِّ ســـعادةٍ مقـــرونُ — نالــت بــه الــدّنيا المنــى والــدِّينُ
تقــديمُ مــن شَــهِد الوجــودُ بأنــه — مــا زال بالتقــديم فيــه قَمــينُ
عِلْــقٌ ثمــينٌ زِينــت الــدُّنيا بــهِ — وافــاه عِلــقُ الــمُلكِ وهْــو ثمــينُ
تَغــزو المهابــةُ عنــه كــلَّ مُعانــدٍ — ولــوَ انــهُ اشــتَمَلت عليــه الــصِّينُ

---

(١) بياض في النسخ.

وتَـشِبُّ حيـث توجَّهـت عزَماتُـهُ حَرْبًـا كـما وُصِـفَت لنـا صِـفِّينُ
إن أصـبحت وهْـي البَرامـكُ أُمّـةً ظُلْـمًا فـإنّ حـسامَهُ هـارونُ
مـن قَـيْس عَـيْلانَ الـذين سيوفُهمْ أبـدًا تَـصُولُ ظُباتُهـا وتـصونُ
دامـت لهـم في الفخـرِ كـلُّ قبيلـةٍ مـن شـأنِها أن لا تكـونَ تَـدينُ
وكفـاهمُ أنْ كـان مـنهمْ مفخَـرًا معنـى الوجـود وسرُّهـا المكنـونُ
مِلـكٌ إذا اضـطَربَ الزمـانُ مخافـةً لم يُغْنِـه التـسكينُ والتـأمينُ
ألقَـى عـلى أهـل الـضّلالة كَلْكـلًا فلهـمْ أليـلٌ تحتَـه وأنـينُ
وجَـرى إلى الأمـدِ الـذي لم يُجـرِهِ مَلِـكٌ ولم تـصعَدْ إليـه ظنـونُ
عُـذرًا أبـا يعقـوبَ إنّ عُلاكـمُ قـد أفنَـت الأمـداحَ وهـي فنـونُ
لا يبلُـغُ المنثـورُ بعـضَ مـآثرٍ صـانَتْ لـك العليـا ولا المـوزونُ
كـم مِدحـةٍ لـك بعـدَها مـذخورةٍ تـزِنُ المـدائحَ كلَّهـا وتَـزينُ
لـو لم يـسُدْ إلا نظـيرُك لم يَـحُزْ فيـه الأمـينُ مـدًى ولا المـأمونُ
قد كـان مـا قـد قلـتَ يُرقَـبُ حِينُـهُ حتّـى أتـى ولكـلِّ شيءٍ حـينُ
ما[1] زال أمرُكمُ الـذي هـو عـصمةٌ والعـزُّ لا يَعـدوه والتمكـينُ

وقال أبو عمر ابنُ حَرْبون[2] من قصيدة طويلة[3] ثُبِّتت[4] في موضع غيرِ هذا أوّلُها [من الطويل]:

بِسَعْدِك أضحَى الدِّينُ جَذْلانَ باسما وباسمِكَ أمسى الشِّركُ للشِّرك هادما
ألا إنّـهـا فـيما وعـدتَ لآيـةٌ يَـدينُ بهـا مَـن كـان بـالله عالمـا
بـراهينُ صِـدق مـا تـزالُ ولم تـزَلْ تُثبِّـتُ يقظانًـا وتُـوقظُ نـائما

(١) في ك: «وما»، وبه ينكسر الوزن.
(٢) في النسخ: «أبو بكر بن حزبون»، تحريف.
(٣) المن بالإمامة ٤٠٧ فما بعدها، وفيها أنّ القصيدة لأبي عمر بن حربون.
(٤) في ك: «أثبتت».

ذكرُ حركة الشّيخ أبي حفص عُمرَ بن يحيى من إشبيلِيَةَ إلى قُرطُبَة بعدَ قَصَبة بَطَلْيَوْس بها وصَل معه مُنتدِبًا في مَعُونة السيد أبي إسحاقَ ابن الخليفة على جهادِ المحارِبين

قال الراوي[١]: لـمّا وصَل أبو حفص إلى قُرطُبَةَ زادت به فلاحًا ونجاحًا واغتباطًا وصلاحًا، ورَوّع اللهُ قلوبَ المحارِبين، وقَدَح في نفوسِهم[٢] من زِناد الغَلَبة عليهم قداحًا، وتجَلَّى لإبراهيمَ بن هَمُشْك في هذه المدة من نُور الـهُدى ما أسرَجَ له مصباحًا، وأبصرَ به التوحيدَ صُراحًا، ووحَّد ابنُ هَمُشْك المذكور، وكانت قد نشَأت الفتنةُ بينَه وبينَ صِهرِه محمد بن سَعْد بن مُرْدنيش والعداوةُ والبغضاء، سرًّا وإعلانًا، وخافَه ابنُ هَمُشْك على نفسِه، فانقَطع من مُواصلتِه وزيارتِه أزمانًا، وزاده رُوْعًا وفَزَعًا قَتْلُه لوزيرَيْه ابنَي الجذع وبَناهما في الخريط بمَرأى منه، وقَتْلُه لابن صاحب الصلاة الغَرْناطيِّ[٣] وغيرِه بالجُوع، وكانت ابنةُ إبراهيمَ بن هَمُشْك زوجتَه، فطلَّقَها ابنُ مُرْدنيش في هذه المدة وطرَدَها إلى أبيها مُهانة، فعندَ ذلك تطارَحَ ابنُ هَمُشْك على الشّيخ أبي حفص في الطاعة والتوبة، وأن يَصدُقَ متابَه بظهور النُّصح منه بتمكين الموحِّدينَ من بلادِه بأوفَى وُدّ وطاعة ومحبة، فوصَل قُرطُبَةَ في رمضان، فقُبِل أحسَنَ القَبول ورُحِّب به وأُنيلَ كلَّ المأمول، وكتَبَ إلى الخليفة مُعلِمًا بمَتابِه، فجاوَبَه بتقريبه واستجلابِه، واتّصلت البلادُ التي كانت بيده ببلاد الموحِّدين، وأَمِنت من الفتنة الطّرقُ والرِّفاق، وارتفع في تلك النواحي المَرقُ والنِّفاق. وعندَما اتّصل توحيدُ ابن هَمُشْك بمحمد بن مُرْدنيش أميره سُقِط في يدِه، وتحقّق أنّ ساعدَه قد كُسِر من عَضُدِه، فحمَلَتْه الأنَفةُ والعَجَلة أن يأمُرَ قُوّادَه وأجنادَه أن يُفاتِنوا بلادَ ابن هَمُشْك ويُحاربوهم ويُضيِّقوا عليهم، فامتَثلوا ذلك، فدامت الفتنةُ بينَهم أكثرَ من سنة كاملة، ودارت بينَهم الشّحناءُ على الاستدامة، وألقَى اللهُ بينَهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة، ولم يزَلِ ابنُ هَمُشْك يستغيثُ بالموحِّدين من عدوِّه ويستنصرُ بهم عليه ويَستصرخُهم إلى غزوِه.

---

(١) المن بالإمامة ٤١٢ فما بعدها ومنه ينقل.

(٢) في ق: «قلوبهم».

(٣) أبو عبد الله ابن صاحب الصلاة الغرناطي هذا ممن أجاز لأبي محمد عبد الله بن باديس اليحصبي المتوفى سنة ٦٢٢هـ (التكملة لابن الأبار ٣/ ٩٨).

وفي هذه السنة مدةَ إقامة أبي حفص بقُرطُبة: توجَّه ابنُه أبو يحيى واليًا على بَطَلْيَوْس، و[اشتَغل](١) الخليفةُ بحَفْر بئر في داخِل قَصَبتها يسيرُ إليها ماءُ الوادي استعدادًا لِـما يُخاف من المنازَلات، فسار إليها في سنةٍ جُملةٌ موفورةٌ من الموحِّدينَ والأجناد الأندَلسيِّين واستوطَنَها، وآنَسَ أهلَها وسكَّنَها، وجَدَّ في حفر البئر المذكور وجَلَب إليها الماءَ، فتحصَّنت القَصَبةُ وقويت بها النفوسُ آمنة.

وفي مدة إقامتِه فيها: دارت بينَه وبينَ جرانده النَّصرانيِّ حروبٌ صَبَر فيها أبو يحيى واستَبَدَّ بدفاع اللعين، ودام على جهادِه شهورًا إلى أنِ احتال العِلجُ في خُدعة من الحَرْب صَنَعَها وأوقَعَها، واستدعى جُملةً ذميمةً من النّصارى أهل شَنْتَرِين، ووصَل بهم إلى موضع كَمَنَهم فيه، ومشَى هو في جُملتِه المعلومة له، وأغار على جهة بَطَلْيَوْس فركِبَ الحافظُ(٢) أبو يحيى وأصحابُه والأجنادُ معَه مُسرعينَ في اتّباعِه، وفَرَّ أمامَهم العِلجُ مُظهرًا الرُّوع، وطلَبَ النّجاةَ في إسراعِه حتى وصَل موضعَ الكمين، فخَرج على المسلمينَ فأَسَروا جماعةً منهم إلى أن فَدى أكثرَهم بماله. وبعدَ هذا انصَرف عن بَطَلْيَوْس(٣).

وفي هذه السنة: استدعَى أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ أخوَيْه السيِّدَيْن: أبا إبراهيمَ الواليَ بإشبيلِيَةَ وأبا إسحاقَ الواليَ بقُرطُبة، واستدعَى معَهما الشّيخَ أبا عبد الله بنَ أبي إبراهيم الواليَ بغَرْناطةَ معَ حافظهم وعُمّال البلاد ليصِلوا إلى حضرة مَرّاكُش، فأسرَعوا إلى استدعائه وتحرَّكوا من الأندَلس في جُمادى الأولى من السنة المؤرَّخة، وأقاموا بالحضرة إلى أوّل سنة خمس وستينَ، وانصَرف السيّدانِ المذكورانِ وصُحبتَهما أخوهما أبو عليّ الحَسَنُ واليًا على سَبْتة، وأقام الحافظُ أبو عبد الله بنُ أبي إبراهيم بالحضرة، وبقيت غَرْناطةُ تحتَ حُكمِه حتى جاز صُحبةَ السيّد أبي حفص على ما يأتي(٤).

وفي سنة خمس وستينَ وخمس مئة، في أوّل صَفَر منها: وَلَّى أميرُ المؤمنينَ أخاه أبا عليّ الحَسَن بمدينة سَبْتةَ وأنظارِها وجميع أقطارِها وجبال غُمارة، فتحرَّك إليها من

---

(١) بياض في النسخ.

(٢) سقطت من ق.

(٣) المن بالإمامة ٤١٧-٤١٩.

(٤) المن بالإمامة ٤١٩-٤٢٠.

الحضرة، وانصَرف السيّدانِ الأجَلّان معَه: أخوه أبو إبراهيمُ إلى إشبيلِيَة، وأبو إسحاقَ إلى قُرطُبَةَ على أوّلِـهما[1].

وفي هذه السنة: خَرج العدوُّ النَّصرانيُّ القمطُ نونُه من طُلَيْطُلَةَ بعسكرِه الذّميم وأغار على رُندَةَ وجبالِـها وفَحْص الجزيرة الخضراء وجبالِـها أيضًا، حتى وصَل البحرَ وقَتل المسلمينَ في تلك الأقطار وأسَرَهم فيها واكتَسح سائمتَهم.

وفيها: حدَثت زلازلُ عظيمةٌ عندَ طلوع الشّمس وعندَ زوالِـها في جُمادى الأولى في بعض بلاد الأندَلس، فكان الرائي يَرى الحيطانَ تضطربُ وتميلُ إلى الأرض ثم ترتفعُ وترجِعُ إلى حالِـها بلُطف الله تعالى، وتهدَّمت من ذلك ديارٌ كثيرة وصَوامعُ مساجدَ بمدينة قُرطُبة وغَرْناطةَ وإشبيلِيَةَ.

وفي هذه السنة في رجَب: زاد ضَعْفُ مدينة بَطَلْيَوْسَ من عَدَم القُوت، فنزَلَ الرومُ عليها وقَطَعوا جميعَ المرافق الداخلة إليها، فنَظَر إليها الموحِّدون الذين كانوا بإشبيلِيَةَ في مبرّة موفورة من الطّعام والآلات والمحَلات لتُحمَلَ إليها، فاجتَمعَ في ذلك نحوُ خمسة آلافِ دابّة موفورة بما ذُكِر، وتقدَّم عليها الحافظُ أبو يحيى زكريا بنُ عليّ بعسكر إشبيلِيَةَ فوصَل بالـمِيرة المذكورة والعسكر إلى مقرُبة من بَطَلْيَوْس فخَرج عليهمُ اللّعينُ جراندُه بأهل شَنْتَرِينَ وغيرِهم فانهزَم المسلمونَ وقُتلوا وأُسِروا وانتُهبت الـمِيرةُ وذهبت [بكُلِّيتِها][2]، وذلك في السادس والعشرين من شعبان، وفي هذا اليوم استُشهِد الحافظُ المذكور. ووصَلَ الخبرُ إلى أبي حفص بقُرطُبة وإلى الموحِّدينَ بإشبيلِيَةَ، فساءهم ذلك وعرَّفوا به الحضرة[3].

وفي هذه السنة: ألَحَّ ابنُ مُرْدنيش بالفتنة على بلاد ابن هَمُشْك واستكفَى عليه بعسكره الشرقيِّ وحُلفائه النّصارى، فاستغاثَ ابنُ هَمُشْك بالموحِّدين وكثُر صُراخُه وشكا حالَه وأوجالَه، وكتَبَ بذلك الشّيخُ أبو حفص إلى الحضرة مُعينًا لابن هَمُشْك بكتابِه ومصدِّقًا له فيما استغاثَ به من عدوِّه، فاجتمع الرأيُ أن يتقدَّم إليه السيِّدُ أبو

---

(١) المن بالإمامة ٤٢٠-٤٢١.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة ٤٢٣.

(٣) المن بالإمامة ٤٢٢-٤٢٣.

حفص من مَرّاكُش بعسكر لغزوِ ابن مُرْدنيش وحُلفائه النّصارى الذين كانوا معَه أهلَكَهم اللهُ تعالى[1].

ذكرُ حركة السيِّد أبي حفص ابن الخليفة عبد المؤمن لغزوِ ابن مُرْدنيش وحصارِه حتى فَتْح أكثرِ بلادِه[2]

فخَرج السيّدُ المذكورُ من حضرة مَرّاكُش في أوّل ذي القَعدة من سنة خمس وستينَ وخمس مئة مُسارعًا لنَصْر جزيرة الأندَلس، وصَحِبَه في هذه الغزوة أخوه أبو سعيد وجماعةٌ من أبناءِ أشياخ الجماعة وأهل خمسينَ واختَصَّ من الصِّنف الأندَلسيِّ أبا محمد سِدْراي بنَ وزير وأخاه أبا الحَسَن وأشياخًا فرسانًا من الأجناد الساكنينَ بمَرّاكُش من الأندَلس، انتخَبَهم واستَصْرَخَهم لمعرفتهم بالحروب في بلادهم ومُذاكرتهم في مشاورتهم، فنَهَض السيّدُ بعساكره وجيوشِه[3] والسَّعدُ أمامَه يَقدُمُ أعلامَه، حتى أجاز البحرَ ووصَل إشبيلِيَةَ في آخِر عام خمسة وستين، فأراح بها للنظر في الأمور إلى أنْ وصَل الشيخُ أبو حفص من قُرطُبَةَ وصَحِبَه إبراهيمُ ابن هَمُشْك بأصحابه المتخصِّينَ به، واجتمع خيرَ مجتمَع وأحسَنَ مرأًى ومَسْمَع، وتشاوَروا في الرأي أن يتوجَّه السيّدُ أبو سعيد أولًا إلى مدينة بَطَلْيَوْس.

وفي سنة ستٍّ وستينَ وخمس مئة: توجَّه السيِّد أبو سعيد إلى بَطَلْيَوْس لإحياءِ رَسْمِها بعدَ مَماتِها، وإخراج النّصارى عن جَنَباتِها، بعسكر من الموحِّدين ومن أهل الأندَلس والعرب، فوصَلَها في أيمنِ طالع، وكان من[4] الاتّفاق الحَسَن أنْ وافَقَ وصُولُه خروجَ البيبوجَ بن أذْفُونْش السُّلَيْطِنِ بعسكرِه قاصدًا بَطَلْيَوْسَ ليسترجعَها للمسلمينَ لـمّا رأى عدوَّه ابنَ الرَّنك قد قارَبَ التغلُّب عليها بإلحاح جراندُه على أسوارِها، وصَحَّ خروجُه عندَ[5] السيّد وأنه قد وصَل بعسكره إلى الفَحْص المعروف

(١) المن بالإمامة ٤٢٤.

(٢) المن بالإمامة ٤٢٤ فما بعدها.

(٣) سقطت من ق.

(٤) سقط من ق.

(٥) في ق: «عن».

بالزَّلّاقة، على مقرُبة بَطَلْيَوْس، فوَجَّه إليه السيّدَ أبا محمد ابنَ وزير وأبا العلاء ابن غَرُّون وأشياخَ الأجناد العُقلاء الألِبّاء للقائه واستفهامِه عن خروجه، وهل[1] هو[2] باقٍ على الصُّلح المربوط معَه أم لا؟ فوصَلوا إليه فرحَّبَ بهم وقال: إنّما خرجتُ لحِماية بَطَلْيَوْسَ وإمساكِها لأميرِ المؤمنين، فشكروه على ذلك وعرَضُوا عليه تجديدَ الصُّلح، فأجاب إلى ذلك حتى كمُلَ الغرَضُ المراد، واتّصل العهدُ والسَّداد، وانصَرف البيبوجُ بعسكره إلى بلاده، وكان تيسيرًا من الله تعالى. وتحرَّكَ السيّدُ من موضع اجتماعِه بالبيبوجَ وصُلحِه إلى حصن جلمانيةَ[3] فافتتَحَه عَنْوةً وهَدَمَه وانصَرف إلى إشبيلِيَةَ في ربيع الأول من السنة المؤرَّخة[4].

ذكرُ تغلُّبِ السيِّد أبي حفص بن عبد المؤمن رحمه الله على بلادِ محمد بن سَعْد بن مُرْدنيش[5]

وفي هذه السنة: تحرَّكَ السيّدُ أبو حفص من إشبيلِيَةَ إلى ابن مُرْدنيش، وذلك بعدَ انصراف أخيه أبي سعيد من مدينة بَطَلْيَوْسَ، على السير الذي صَنَع اللهُ له، ولـمّا اجتمع السيّدُ أبو حفص معَ أخيه أعادوا نيّتَهما على غَزْو عدوِّهم ابن مُرْدنيش، فتحرَّكوا من إشبيلِيَةَ إلى قُرطُبَةَ، وصَحِبَهم ابنُ هَمُشْك، وذلك في رجَب، فلمّا وصَلوا قُرطُبَةَ أقاموا بها أيامًا ثم رحَلوا عنها، فأوّلُ مدينةٍ نازَلوها: مدينةُ قيجاطه[6]، فافتتَحوها بعدَ قتال ونِزال، ثم أقلعوا منها مُغيرينَ على بسائطِ بلاد ابن مُرْدنيش في طريقِهم مُستصحِبينَ الظَّفرَ في عدوِّهم حتى وصَلوا مدينةَ مُرْسِيَةَ فنزَلوها وتغلَّبوا على حصن الفَرَج الذي كان مُنتزَهَ ابن مُرْدنيش، واستباحوا الرِّياضاتِ والبساتينَ وما اتّصل بها[7] من البسائطِ

(١) سقطت الواو من ق.

(٢) سقطت من ق.

(٣) له ذكر في المغرب لابن سعيد ١/ ٣٧٨.

(٤) المن بالإمامة ٤٢٥-٤٢٧.

(٥) المن بالإمامة ٤٢٧ فما بعد.

(٦) الروض المعطار ٤٨٨.

(٧) سقطت من ق.

والقُرى، وابنُ هَمُشْك يدُلُّ الموحِّدينَ على عَوَراتِ عدوِّهم وعدوِّه ويُنكيه في رَواحِه وغدوِّه، وظَهَرت الغَلَبةُ على ابن مُرْدنيشَ وعلى عسكرِه بالحصار، وفَشَا الخَوَرُ في أحلافِه الكفّار، وكلُّ من استدعَى من النّصارى أفردوه وأسلموهُ وأخْلَفوا وعدَه، واستقَلُّوا رِفْدَه، فلم يصِلْ إليه منهم إلا نحوُ أربع مئة فارس، فوجَّهَهم إلى مدينة لُورَقَةَ لضبطِ قَصَبتها معَ قائدِه ابن عيسى، فضَبَطَها وحِصنَها، فلمّا طالت هذه النازلةُ ودخَل الخلَلُ في حال ابن مُرْدنيش واعتلَّت نفْسُه بالفِكر والـمَرَض، ورأى الناسُ أنّ حالَه قد حالت وزالت، قامتِ العامّةُ من أهل مدينة لورقةَ بدعوة الموحِّدين، فاحتَصَنَ مَن كان بها من رجال ابن مُرْدنيشَ والنصارى بقَصَبتها ووَثِقوا بمَنَعتِها، فخاطب أهلُ لورقةَ السيِّدَ أبا حفص يُعلِمونَه بقيامِهم بدعوة الموحِّدين ويَستصرِخونَه بنصرِه لهم على عدوِّهم، فأقلَعَ السيِّدُ عن مُرْسِيَةَ قاصدًا لهم، فاحتَلَّ بمدينة لورقةَ ومَلَكَها واستوطَنَ أرباضَها وبسائطَها، وبقيَت القَصَبةُ بمَن فيها وعليها القائدُ ابن عيسى، فكان من قضاء الله أنْ خَرجت سَرِيّةٌ من مـحَلّةِ الموحِّدين للغزوِ في بسائطِها، واتّفق لهم أنْ أخَذوا محمدًا ابنَ القائد ابن عيسى واستاقوهُ إلى السيِّد فأمَرَ أن يُحمَلَ إلى أبيه بقُرب من القَصَبة عساه يتَخلَّى عن القَصَبة، فامتَنَع من الإجابة إلى ذلك، وطال الحصارُ على القَصَبة حتى نفِدَ لهم القُوت وتغَلَّبوا على ابن عيسى بالقول والكلام حتى أذعَنَ لهم في رأيِهم، فنَزَلَ ابنُ عيسى المذكورُ عن القَصَبة معَ النّصارى وأصحابِه وأخْلَوْها، ودخَلَها الموحِّدونَ، ودُفِع الابنُ إلى أبيه ورَجَعا إلى ابن مُرْدنيشَ بمُرْسِيَة، وانصَرف الرّومُ إلى بلادِهم طالبينَ النّجاةَ بأنفسِهم، وانصَرف أبو حفص والموحِّدونَ بمحَلّتِهم لحصار مُرْسِيَة واستَوْلَوْا على ما جاوَرَها من البلاد.

ولـمّا انصَرف السيِّدُ المذكورُ من فتح لورقةَ إلى حصار مُرْسِيَة، طاع له أهل(١) حِصن ألْش(٢)، ووصَلوا إليه، ثم وصَل أهلُ الحصون المجاوِرينَ لهم، ثم افتُتِحت مدينةُ بَسْطة، ودخَلت في طاعة الموحِّدين وأمِنَ أهلُها، واتّصل عندَ أهل الشّرق هذا الفتح وهذا الأمانُ والصَّفح، فبادَروا بالطاعة والدخول في حِزب الجماعة. ولم يزَلِ

---

(١) في م: «جهل»، ولا معنى لها.

(٢) Elche وينظر عنه الروض المعطار ٣٠، وفي المن بالإمامة: ألج بالجيم.

ابنُ مُرْدنيشَ في حصارٍ في عُقْر دارِه، ونَكَباتٍ تَترادفُ عليه منَ انقلابِ إخوانِه وأصهارِه، وتحوُّلِـهم عن طاعتِه وهو مكمودٌ مفئود، قد أسلَمَه القريبُ والبعيد، وظهَر له من أخيه يوسُفَ التقصير، وتحقَّق منه الانحرافَ والـمَيْلَ للموحِّدين، فزادت كبِدُه ألـمًا، واتّصلت نفسُه سَقَمًا، فلازمَتْه العِلّةُ الـمُزمِنة ومنها كانت مَنِيّتُه.

وقام بالـمَرِيّة محمدُ بن مُرْدنيش المعروفُ بصاحبِ البسيط ابنُ عمٍّ صاحبِ مُرْسِيَة وصِهرُه على أختِه بدعوة الموحِّدين، وأعانه على قيامِه محمدُ بن هلال[1] صاحبُه، وتقَبَّضا على الوالي بها من قِبَل صاحبِ مُرْسِيَة، وخاطَبوا بذلك السيّدَ أبا حفص، فوجَّه إليهم عسكرًا من الموحِّدينَ مُعينًا لهم، واتّصل الخبرُ بابن مُرْدنيش بمُرْسِيَة، فأمَرَ بقتل أُختِه وقَتْل بَنيه منها، وأمَر الموكَّل بعذابِ الناس أن يَحمِلَهم إلى البحيرة، وكانت متّصلةً بالبحر، فأدخَلهم في قاربٍ منها ودخَل معَهم فيه وغرَّقهم في البحيرة على أشنع حال وأقبح مقال، واختَلَّ ذهنُ ابن مُرْدنيش في إثْرِ ذلك، وقَلَّ عَوْنُه من الله ومن الناس هنالك، وعاد صُبحُه كاللَّيل الحالك، وفزِعَ من إذايتِه جميعُ قرابتِه، وسائرُ أهلِه وشيعتِه.

وعند اتّصال هذا الفتح والنُّجح واليُمن الشامل، والجهاد المتَواصل، جاز الخليفةُ أبو يعقوبَ إلى جزيرة الأندَلس في السابع والعشرينَ لرمضانَ من سنة ستٍّ وستينَ المؤرَّخة، ووصَل إشبيلِيَةَ في اليوم الثانيَ عشَرَ لشوّال.

اختصارُ الخبر عن حركة أمير المؤمنينَ أبي يعقوبَ بن عبد المؤمن من حضرة مَرّاكُشَ وجَوازِه إلى الأندَلس[2]

لـمّا تقدَّم أخوه أبو حَفْص بالعسكر [المؤيَّد][3] إلى الأندَلس، كان هو مريضًا بمَرّاكُش، وكان معَ مرَضِه وضَعْفِه ونيّتِه في الجهاد، والنَّظرِ في مصالح العباد، فاستدعَى العربَ من إفريقيَة، وقدَّم لهذه الغزوة الحافلةِ الصَّدَقات وفعلَ الخَيْرات، ولم يزَلْ ينظُر في

(١) له ذكر في الحلة السيراء ٢/ ٢٦٨.

(٢) المن بالإمامة ٤٣٤ فما بعدها.

(٣) بياض في النسخ، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة ٤٣٤.

الغزوة التي وَعَد بها الموحِّدين معَ شدّة مرَضِه وطُولِه، فإنّ مرَضَه كان من أول سنة خمس وستينَ، وا[ستَقلَّ و][1] خَرَج إلى صلاة الجُمُعة في السادسَ عشَرَ لربيع الأوّل من عام ستة وستين، فكانت عِلّتُه أربعةَ عشَرَ شهرًا وخمسةَ عشَرَ يومًا، لكنّه كان يدخُل إليه وزيرُه أبو العُلى إدريسُ بن أبي إسحاقَ بن جامِع يُعلِمُه بالـمُخاطَبات الواصِلة، والأخبار الـمُسلِّيةِ السارّة المتجاملة، وإذا وصَلت مسَرّةٌ [شَرَح له ما اتّصل][2] جَمالُه، وغيرُ ذلك يقعُ منه السكوتُ عليه، حتى وصَلت مخاطبةٌ من السيِّد أبي حفص أخيه في معنى الغَزْو فعرَّفه بها وأمَرَه بالجواب عليها واستدعاءِ العرَب من إفريقيّة، وخاطَبَهم بهذه القصيدة من قول ابن طُفَيل، وهي[3] [من الطويل]:

أقيموا صُدورَ الخيلِ نحوَ المغاربِ ... لغزوِ الأعادي واقتناءِ الرغائبِ
وأذْكوا الـمَذاكي الغادياتِ على العِدى ... وقد عَرَضت للحرب جُردُ السلاهبِ
فلا تُقْتَنَى الآمالُ إلا من القَنَا ... ولا تُكتَبُ العليا بغير الكتائبِ
ولا يَبلُغ الغاياتِ إلا مصمِّمٌ ... على الجدِّ رَكّابٌ ظُهورَ المصاعبِ
يَرى غَمْرةَ الهيجاءِ أعذَبَ مشربٍ ... وإن أعرَضَت زُرقًا جِمامُ المشاربِ
وما الفخْرُ إلا مكسَبًا من حُسامِهِ ... ويُعرِضُ عِزًّا عن جميع المكاسبِ
ألا فابعَثوها همّةً عربيّةً ... تُحَفُّ [بأطراف القَنا][4] والقَواضبِ
أفرسانَ قَيْسٍ مِن هلالِ بنِ عامرٍ ... وما جَمَعتْ من طاعنٍ ومُضاربِ
لكُمْ قبّةٌ للمجد شُدُّوا عِمادَها ... بطاعةِ أمرِ الله من كلِّ جانبِ
دعَوْناكمُ نَبْغي خلاصَ جميعِكمْ ... دعاءَ بريءٍ من جميع الشواغبِ
نريدُ لكمْ ما نبتغي لنفوسِنا ... ونؤْثِرُكمْ زُلْفى بأعلى المراتبِ

(١) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة ٤٣٤.
(٢) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ، وهو مستفاد من المنّ بالإمامة ٤٣٦.
(٣) القصيدة بتمامها في المن بالإمامة ٤٣٧-٤٤١ ومنه ينقل المؤلف دائمًا.
(٤) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ مستفاد من المنّ بالإمامة.

فلا تزهَدوا في نَيْل حظِّكمُ الذي … لكمْ فيه فوزٌ من جميع المطالبِ

بكمْ نُصِر الإسلامُ بدءًا فنَصْرُهُ … عليكمْ وهذا عَوْدُه جِدٌّ واجبُ[1]

فقوموا بها قامت أوائلُكمْ بهِ … ولا تُغفِلوا إحياءَ تلك المناقبِ

ومَن ذا الذي يَسْمو ليبلُغَ شَأْوَكمْ … إذا كنتمُ فوقَ النُّجوم الثواقبِ

نَصحْناكمُ والنُّصحُ في الدِّين واجبٌ … بها لكمُ فيه صلاحُ العواقبِ

وأنتُمْ على التخصيص أجدرُ مَن بَنى … بذُروتِه بيتًا رفيعَ الذوائبِ

فإنّكمُ قيسٌ وفرسانُ ربِّنا … على الأرض من قَيْسٍ بغيرِ مُغالِبِ

خُذوا حِذرَكمْ فالأمرُ جَدٌّ وإنّما … يكونُ بقَدْر الجَدِّ قدرُ المناصبِ

وقد فاز بالتقديم منكمْ معاشرٌ … بما قدَّموه من جميع المذاهبِ

تحُثُّ بهمْ نحوَ البِدار إلى العِدى … عِتَاقُ جوادٍ[2] أو عِتاقُ نجائبِ

فصاروا إلى الداعي سراعًا كأنّهمْ … قداحُ [تَلقَّى الفوزَ من][3] رَمْي ضاربِ

فخُصُّوا من التكريم والبِرِّ بالذي … يكونُ جديرًا بالوليِّ المُصاقبِ

فنالوا محَلَّ السَّبْقِ فانفَسَحت [لهمْ … رياضُ][4] الأماني سائحاتِ المراتبِ

وقد شاهدوا من حُرمة الأمر ما قضَى … لهمْ بأمانٍ من جميع النوائبِ

وقد كان من أقوالِكمْ ما علِمتُمُ … فإن كان [فعلٌ][5] فالرجا غيرُ خائبِ

وليس خطيبُ الصِّدق من قال فالهدى … ولكنّ فعلَ الحرِّ أصدقُ خاطبِ

وما خُلُقُ الأعرابِ إخلافُ موعدٍ … ولكنّ صِدقَ الوعدِ خُلْقُ الأعاربِ

---

(١) في هذا البيت إقواء.

(٢) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «جياد»، وهو أجود.

(٣) بياض في النسخ مستدرك من المنّ بالإمامة.

(٤) بياض في النسخ مستفاد من المنّ بالإمامة.

(٥) بياض في النسخ مستفاد من المنّ بالإمامة.

سيعلَمُ مَن أوفَى ومَن خانَ عهدُهُ ... ومن كان مِن آتٍ إلينا وذاهبِ
وتظهَرُ أحوالٌ يَروقُ سَماعُها ... فيرغَبُ في أمثالِها كلُّ راغبِ

وأنّ العربَ تأخَّروا قليلًا، فخاطَبَهم بقصيدة من قول ابن عيّاش يستعجِلُهم، وهي[1] [من الطويل]:

أقيموا إلى العلياءِ عُوجَ الرّواحلِ ... وقودوا إلى الهيجاءِ جُرَد الصّواعلِ[2]
وقوموا لنصرِ الدين قَيْمةَ ثائرٍ ... وشُدّوا على الأعداءِ شدّةَ صائلِ
وأسْروا بني قيسٍ إلى نَيْل غايةٍ ... من المجدِ تُجنَى عند بَرْدِ الأصائلِ
تعالَوْا فقد شُدّت إلى الغزوِ نيّةٌ ... عواقبُها مقصورةٌ بالأوائلِ
هي الغزوةُ الغَرّاءُ والموعدُ الذي ... تنَجَّز في أُفْق الهُدى بدلائلِ
فطيروا إليها يا هلالَ بنَ عامرٍ ... ثِقالًا خِفافًا بينَ خافٍ وناعلِ
ولا تُخدَعوا من حظِّكمْ بإجابةٍ ... تُبوِّئُكمْ في المجدِ أسنَى المنازلِ
فما همُّنا إلا صلاحُ جميعِكمْ ... وتسريحُكم في ظلِّ أخضرَ هاطلِ
وتسويغُكمْ نُعمى ترِفُّ ظِلالُها ... عليكمْ بخيرٍ عاجلٍ غيرِ آجلِ
فلا تتوانَوْا فالبِدارُ غنيمةٌ ... وللمُدلجِ الساريِّ صفاءُ المناهلِ

ولـمّا[3] وصَلت إلى العربِ هاتان القصيدتانِ وأوضَحوا قراءتَها وتبيَّنت لهم معانيها وفصاحتُها وما فيها من التحريض على جهادِ الكفّار، أجابوا إلى الطاعة بأجمل البِدار، ووصَلوا بجَمْعِهم إلى السيِّد الأسنى أبي زكريّا يحيى بن عبد المؤمن ببِجَاية فتحرَّك معَهم إلى مَرّاكُش، ووصَل أيضًا العُمّالُ والأُمناء: أبو محمد عبدُ الواحد[4]

(١) القصيدة في المن بالإمامة ٤٤١-٤٤٣، وهي في المعجب ٢٩٤-٢٩٥ منسوبة إلى الخليفة نفسه.
(٢) هكذا في النسخ، والجرد الصواعل: السيوف المنجردة الطويلة، ووقعت الكلمة في المعجب والمنّ بالإمامة: «الصواهل»، وما هنا أحسن.
(٣) ينقل المؤلف من المن بالإمامة ٤٤٣ فما بعدها.
(٤) في المن بالإمامة: «عبد الوهاب».

صاحبُ تونُس وأنظارِها، وأبو زكريّا يحيى الـهَنْتاتيّانِ، ومعَهما النُّعمانُ وغيرُه، بهؤلاءِ العرب والخيل والأموال، ولـمّا وصَلوا تِلِمْسانَ صَحِبَهم السيّدُ أبو عمرانَ موسى ابنُ الخليفة أيضًا بما عندَه من العساكر والأموالِ والعُمّال، وكان عددَ الخيل الواصلةِ من إفريقيّة أربعةُ آلاف فرس ومئة وخمسون حِمْلًا من المال الصامت، وكان الذي وصَل من تِلِمْسانَ ونظَرِها ألفُ فرس وخمسونَ حِمْلًا من المال الصامت. وبَلَغ الخبرُ السارُّ بوصُول السيّدين والعرب، وكان [أميرُ المؤمنين][1] أبو يعقوبَ قدِ استقَلَّ فتمكّن سرورُه واستقلالُه، وخَرج إلى المسجد الجامع يومَ الجُمُعة الثامنَ عشَرَ لربيع الآخِر، وخَطَب أبو محمد المالَقيُّ الخُطبةَ المعلومةَ فاستبشَرَ الناسُ وشَكَروا اللهَ على [شفائه][2]، وبعدَ ذلك بيومَيْن دخَل عليه أشياخُ الموحِّدين وطلَبةُ الحضَر وسَلَّموا عليه ودَعَوا له وهَنَّوه على عافيتِه، وخَطَب الفقيهُ القاضي أبو يوسُف حَجّاجُ بن يوسُف[3] خُطبةً بليغةً في معنى الشُّكر لله والدّعاءِ [بالنصرِ والتأييد لأمير المؤمنينَ][4]، وتلاه الفقيهُ أبو محمد المالَقيُّ بمثلِ ذلك، ثم أمَرَ بعدَ ذلك بالصَّدقة والحَنان، والإنعام والإحسان، وأمَرَ رحمه اللهُ لكلِّ واحد من الخُدّام بما أمَّله من الإنعام، فجزاه اللهُ من خليفة خيرًا.

ونفَذَ الأمرُ بلقاءِ السيّدَيْن والعربِ الوافدينَ من إفريقيّة بالتبريزِ الكامل ضَحْوةَ يوم السبت الثاني لشهر ربيع الآخِر من السنة، فخَرج أميرُ المؤمنينَ للقائهم وخَرجت معَه الجيوشُ والعساكر في زينتهم، وفي ساقته على قُربٍ أخوه أبو عبد الله المخلوعُ، وإلى جانب أبي عبد الله المذكور سائرُ الإخوة الصِّغار، وأمامَ العسكريّة ستةَ عشَرَ عَلَمًا كبارٌ من البنود الـمُذَهَّبة. فلمّا وصَل الفَحْصَ العريضَ فوقَ باب الشريعة والطُّبولُ قاصفة والجيوشُ متكاثفة أمَرَ بضربِ قُبّة ونزَلَ بها معَ إخوتِه وبَنيه، ونزَلت العساكرُ الواصلةُ من العرب معَ أهل إفريقيّة والسيِّدينِ المذكورين أشار إليهم أن تَحمِلَ العساكرُ الوافدة والبارزةُ بعضُها على بعض جَرْيًا ولَعِبًا وفَرحًا وطَربًا، ورأى النَّظّارةُ فيهم عجَبًا،

---

(١) بياض في النسخ.

(٢) بياض في النسخ.

(٣) ترجمته في التكملة الأبارية (٧٦٢)، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٥٠٩.

(٤) بياض في النسخ.

وأمَرَ الوافِدينَ بالنزول والسلام، وتقدَّم الأخَوانِ السيِّدان أبو زكريّا وأبو عِمرانَ ثم أشياخُ الموحِّدين ثم أشياخُ العرب، ثم أمَرَهم بالانصرافِ إلى المدينة والعربَ إلى مضرِب محَلّتِهم.

ولـمّا كان اليومُ الثاني من البروزِ المذكور بايَعَه أشياخُ العرب وعامتُهم، وأخذ العهودَ عليهم، وخَرج أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ إلى البُحيرة [لمعنى إطعامِهم][1] والترحيب بإلمامِهم بعدَ صَلاة يوم الجُمُعة الثاني والعشرينَ من ربيع الآخِر من السنة، فأطعَمَ العربَ وغيرَهم مدّةَ خمسةَ عشَرَ يومًا يدخُل كلَّ يوم في البُحيرة أكثرُ من ثلاثة آلاف رجُل وقد صَنَع ما تقدَّمت به العادة، وهو نَهَرٌ من رُبٍّ ممزوج بالماء، كلّما أكَلَتْ طائفةٌ سلَّمت على الخليفة ونَهَضت إلى ساقية الرُّبِّ تشربُ وتَطرب، ورأى الناسُ في هذا الإطعام ما لم يُرَ قطُّ من الإكرام والاهتمام.

ولـمّا كان في آخِر الأيام المذكورة حدَثَ بينَ صِبْيان الموحِّدين وبينَ أتباع العربِ الوافدين نزاعٌ ودفاع بهَوْشة وقَعَت بين الفريقين أدَّت إلى اختطافِ ثيابِ الناس في الطريق من كلِّ فريق، فمات فيها بعضُ العبيد، فعُتِبَ العربُ بسببِ جُرأتِهم على سُوء الأدب، ثم إنّهم تَطارَحوا على العفو من قبيح ما جَنَوْا أتباعُهم وعَبيدُهم وأشياعُهم واعتَذروا من فعل مَن لا خَلاقَ له، فقُبِلَ منهم عُذرُهم وأُمِرَ بجَرْي إطعامِهم والتمادي على إكرامِهم مدةَ أيام، ثم أُمِرَ بتمييزِهم وتمييز الموحِّدينَ وغيرِهم.

ولـمّا كان يومُ الأحد الثامنُ من جُمادى الأولى أمَرَ بتمييز العرَبِ الوافِدين ومَن وصَل معَهم وأن يَحضُروا بين يدَيْه في رَحْبة قصره بدار الحَجَر بداخل حضرتِه، وأُمِروا أن يدخُلوا كلَّ يوم بعدد معلوم من القَبيل المأمور به، وكان الذي ابتَدأ أولَ يوم قَبيلةُ زغبةَ، فتمادى التمييزُ خمسةَ عشَرَ يومًا، ولـمّا كان غُرَّةُ جُمادى الآخِرة مُيِّز الموحِّدون على عدد قبائلِهم وتسمية منازلِهم وتَمادى تمييزُهم خمسةَ عشَرَ يومًا أيضًا، ثم أَمَر بإخراج البركة للعرَب الوافدين ولجميع عساكرِه الموحِّدين.

وكان خروجُه من مَرّاكُش يومَ السّبت الرابع من شهرِ رجَب الفَرْد من سنة ستٍّ وستينَ على باب دَكّالةَ في أحسن هيئة وتعبئة وقد قُدِّم أمامَه مصحفُ عثمانَ بن

---

(1) بياض في النسخ.

عفان رضيَ اللهُ عنه على جَمَل [مرتفع][1] عليه قُبّةٌ حمراء لتَصُونَه وهو منظَّمٌ بالجوهر والياقوتِ الأحمرِ والأصفر، فسار على أحسن هيئة وتعبئة والعساكرُ وراءه قد مَلَأوا الأرض بالطّول والعرض، حتى وصَل رِباطَ الفتح فميَّز بها العساكرَ والجيوش، فاجتمع في عسكر الموحِّدينَ عشَرةُ آلاف فارس، وفي عسكر العرَب عشَرةُ آلاف فارس دون الـمُطَّوِّعةِ والناس، وكان أكثرُ الجيش معَ السيِّد الوزير أبي حفص بالأندلس محاصِرًا ابنَ مُرْدنيش.

واتّصل سيرُ أمير المؤمنينَ حتى وصَل قصرَ مَصْمودة، وابتَدأت العساكرُ بالإجازة في أول شهر رمضان، وأجاز البحرَ هُو معَ خاصّتِه في السابع والعشرينَ منه، فتلقّاه أشياخُ إشبيلِيَةَ وأهلُ الأندَلس بجزيرة طَرِيف.

ثم تحرَّك إلى إشبيلِيَةَ فوصَلَها يومَ الجُمُعة الثانيَ عشَرَ من شوّال بالتبريز الحَفيل، وخَرج الناسُ إليه من الإسراع بها دَلَّ على حُسن طاعتِهم أدلَّ دليل، فأقام بها عشَرةَ أيام، ثم رحَل إلى قُرطُبَةَ فوَصَلَها في غُرّة ذي القَعدة ووَجَّه عسكرًا منها إلى طُلَيْطُلَةَ، وقَدَّم عليه ابنُ يفراجين[2] وأشياخًا من الموحِّدين، وانصَرف إلى قُرطُبة فعيَّد بها عيدَ الأضحى، فخَرج يومَ العيد على عادتِه إلى الصلاة وصَلّى به الخطيبُ أبو محمد المالَقيّ، وانصَرف إلى دار الإمارة، وجلس في اليوم الثاني في مجلس قَصْره للسلام عليه والتهنئة إليه، وأدخَلَ الوزيرُ أبو العُلى ابنُ جامع مَن تقدَّمت عادتُه بالدّخول من أشياخ الموحِّدين الكُبَراء وطَلَبة الحَضَر والقُضاة والفقهاء والوُلاة[3] والأولياء، ودخَل معهم الشعراء والأُدباء بما صاغوه من أشعارهم في المديح والتهنئة، فقام أبو محمد عبد الله بن محمد الشِّلْبيُّ فأنشَد[4] [من الكامل]:

شرَفُ الخلافـة أنْ مَلَكْـتَ زِمامَهـا ... وغدَوْتَ مـن عَقِـب الإمـام أمامَهـا

طَبَـعَ الإلـهُ لهـا حـسامًا صـارمًا ... يَـحمي جوانبَهـا فكنـتَ حـسامَها

---

(١) بياض في النسخ.

(٢) هكذا في النسخ، بالياء آخر الحروف في أوله، وفي المن بالإمامة ٤٨٤: «تفريجين»، وهو أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن تفريجين.

(٣) لم يبقَ من هذه اللفظة إلا الألف واللام والواو من أولها والتاء المربوطة من آخرها.

(٤) القصيدة في المن بالإمامة ٤٩١-٤٩٦، وما ذكره المؤلف هو قسم منها.

ورأت عُـــــداةُ الله أنّ حِمَامَهــــا — مـن قَـيْس عَـيْلانٍ فكنـتَ حِـمامَها
فعـلى رماحِـك أن تـشقَّ صـدورَها — وعـلى سـيوفك أن تفلِّـق هامَهـا
وعـلى جيوشـك أن تـدوِّخ أرضَـها — وتـدوسَ في عَرَصـاتها[١] أصـنامَها
وعـلى الخلافــة أن تلـوذَ بـسيّدٍ — يُجري على سُبل الهـدى أحكامَهـا[٢]
قِـسْطاس عَـدْل لا يميـلُ فـإنْ رأى — مَيَــلَ الــشريعة أمَّهـا فأقامهـا
يَطفي الحـروبَ إذا تـوهَّج جـمرُها — ولـربّما خَــمَدت فـشَبَّ ضِرامَهـا
وإذا أسـودُ الحـرب هـاج غرامُهـا — عـانَى بحـدِّ الـمَـشْرَفـيِّ غرامَهـا
مـا البـأسُ إلا مـا تـضمَّن سـيفُهُ — لا مـا تـضمَّن بعـضُها صمـصامَها
مـا الـسعدُ إلّا مـا تنـالُ وفـودُهُ — وذَوو السّعودَ فقد غَدَت طُوّامَهـا[٣]
فاهنَـأْ أمـيرَ المـؤمنين بـدعوةٍ — عَقَـدَ الإلـهُ ذمـامَكمْ وذمامَهـا
وتكفَّـل الـرحمنُ نـصرةَ مُلكِكـمْ — [وأمـدَّ مـدةَ][٤] عُمْـرِكم وأدامَهـا

وأقام الخليفةُ أبو يعقوبَ [بقُرطُبَةَ إلى آخر ذي الحجة من السنة][٥]، وانصَرف إلى إشبيلِيَةَ.

ولـمّا دخَل إشبيلِيَةَ على الهيئة المعلومة [من السّرور والتبريز الذي][٦] لم يَرَ الناسُ مثلَه بالأندَلس في الحديث والقديم، امتدحه الشعراءُ بما جَزَل لهم العطاء، فمنهم: أبو العباس بن سيد، والجُراويُّ، وغيرُهما، فقال أبو العباس الجُراويُّ من قصيدة طويلة يمدحه فيها ويذكر ابنَ مُرْدنيش [من الوافر]:

حلَلْـتَ مـن العُـلى أسـمى ذُراهـا — وجارَيْـتَ النجـومَ إلى مَـداها

---

(١) في ك: «عرصات» محرّفة.
(٢) سقط هذا البيت برمته من ق.
(٣) في المنّ بالإمامة: «خُدّامَها» وما أثبتناه من النسخ وهو الأجود، والطومة: المنيّة.
(٤) بياض في النسخ.
(٥) بياض في النسخ.
(٦) بياض في النسخ.

ووالَيْـــتَ الـــسَّماحَ فقـــد تَناهـــتْ أمــــانٍ للعُفــــاة ومــــا تناهــــا
وجـــــودُك نعمــــــةٌ لله عمَّـــــت وجــــودُك نعمــــةٌ أُخــــرى ســــواها
أرى ذاك الزمـــــانَ وشــــــاء ألّا تُقـــارَنَ في الأمـــور ولا تُـــضاهى
وصَــلتَ وصَــلت فــالأمواهُ تجــري وغُلــبُ الأُسْــد تُـــحذَرُ في شَراهــا
وعُــذرُ الــشمس لــو حــسَدتْك بــادٍ لأنّ ســـناك أشـــهرُ مـــن ســـناها
تَنـــــالُ المـــــارقينَ بكـــــلِّ أرضٍ ولا طـــارت ولا نقَلـــت خُطاهـــا
لقد أخْـزى الزّمـانُ عـلى النّـصارى بـــوطءِ مؤيَّـــد صَـــدَعت صَـــفاها
وأنــصَفَ بعــضَها الإســلامُ منهــا وأدرك في العقوبــــة منتهاهــــا
خطــوبٌ أذهَلَــت عــلى ابــن ســعدٍ وذادت عـــن لواحظِـــه كَراهـــا
وقـــد كانـــت تُـــشَدُّ بهـــا قِـــواهُ فـــما لغَبَـــت قِـــواهُ ولا قِواهـــا
يــــردِّدُ آهَ مــــن أســــفٍ وحُــــزنٍ ومـــا تُنجـــي مـــن الغَمَـــراتِ آهـــا
وهــل يبقــى وقــد فَغَــرت إليــه منيّتُــــه المريحــــةُ منــــهُ فاهــــا
لقــد وَلّى عــن الخــير اختيــارًا ووالَى الـــلّاتِ والعُـــزّى سَـــفاها
وآثَـــرَ معـــشرًا ضَـــلّوا ســـبيلًا فـــما عرَفـــوا النبـــيَّ ولا الإلـــها

وقال أيضًا من قصيدة أولُها [من الكامل]:

ضرَبَـــت عليـــك لواءَهـــا العليـــاءُ وتحـــيَّرت في وَصْـــفِك الـــشعراءُ(١)
وقضَى الــذي أعطــاك ســعدًا مقبِلًا ألّا يفــــارقَ حاســــديك شــــقاءُ
ما شكّ ذو النظر الصّحيح ولا امترَى أنّ الـــورى أرضٌ وأنـــت ســـماءُ
الأمـــرُ أمـــرُ الله لـــيس يـــضُرُّهُ مـــا حاوَلَـــت مـــن كيْـــدِه الأعـــداءُ
والحـــقُّ أبلـــجُ والـــمُعاندُ عينُـــهُ عميــــاءُ عنــــه وأذْنُــــه صــــمّاءُ

---

(١) سقط هذا البيت من ك.

لـو كانـت الجـوزاءُ مـن أعدائـهِ ... لم تَـنْجُ عـن غاراتِـه الجـوزاءُ
سـاءِلْ إذا ركَـدَ الـدُّجى وتحـيَّرتْ ... زُهـرَ النّجـوم ونامـت الرُّقَبـاءُ
يَـهدي ويَـهدي مـنعمًا ومعلِّـمًا ... لا زال منـه الـهَدْيُ والإهـداءُ
أوفَى بـما تـرَك النبـيُّ محمـدٌ ... والقـائمُ الـمَهْديُّ والخلفـاءُ
وجَلَى الحقـائقَ للـورى ....[1] الأمـواتُ والأحيـاءُ
أولـيَّ عهـدِ المـؤمنينَ ومَـن بـهِ ... كمُـل الـسرورُ وتـمَّت الـنَّعماءُ
العيـدُ أولى أن أُهنِّيـه بكـمْ ... فعليـه مـنكمْ بهجـةٌ وبهـاءُ
أنـتمْ سَـنَا الـدّنيا فلـولا أنـتمُ ... مـا فارقَـت آفاقَهـا الظلـماءُ

وعندَما احتَلّ أميرُ المؤمنين بإشبيلِيَةَ عزَلَ ابنَ المعلِّم عاملَها وأمَرَ بمحاسبتِه والوقوف على عمله، وقدَّم على عملها ابنَ جلداسن.

وفي سنة سبع وستينَ وخمس مئة: وصَل السيّدُ أبو حفص من غَزاته المذكورة إلى إشبيلِيَةَ منصورًا على أعدائه، واجتمع بالخليفة بها على سرور كامل وظهور حافل وبروز لم يُعهَدْ في الأزمان الأوائل، وذلك في شهر محرَّم من هذه السنة[2].

وفي هذه السنة: كمُلت القَنْطرةُ بإشبيلِيَةَ، فظَهر له فيها من الأَجْر الجزيل والأثَر الجميل ما لم يتقدَّم مثلُه قبلَه لأميرٍ من الأُمراءِ الخلائف ولا لـمَلِكٍ من أهل الطوائف[3].

وفي هذه السنة: أَمَرَ ببناءِ قصورِه المعروفة بالبُحيرة خارجَ باب جَهْور من إشبيلِيَةَ، وكان قد وصَل معَ السيِّد أبي حفص أعيانٌ وفُرسان راغبينَ في التوبة والبيعة، فالتزَموها على أتمِّ حقوقها، وأمَرَ لهم بظهائرَ بتحرير أموالِـهم وتقرير آمالِـهم، فتسامَعَ أهلُ الشّرق بما فَعَل معَهم فجاءوا عندَ ذلك أفواجًا، أفرادًا وأزواجًا، حتّى انفَرد صاحبُهم ابنُ سَعْد، وتمَادى به فكرُه إلى القبرِ واللَّحد[4].

---

(١) بياض في النسخ.
(٢) المن بالإمامة ٤٩٦.
(٣) المن بالإمامة ٤٩٦.
(٤) المن بالإمامة ٤٩٨ فما بعدها.

ذكرُ العِلّة التي لازَمَت ابنَ مُرْدنيش إلى أن توفِّي(١)

لـمّا طال الحصارُ على محمد بن سَعْد بن مُرْدنيش وقَلّ من أصحابِه عونُه، اختَلَّ ذهنُه، وأوقَعَ بوزيرَيْه ابني الجَذع وقَيّاهما وبَناهُما في حائط بموضع يَراهما حتى ماتا جوعًا، وكذلك فَعَل بابن صاحب الصلاة الغَرْناطيِّ: عذَّبه وجعَلَه في بُرج دون طعام ولا ماء حتى أكَلَ ثيابَه التي كانت عليه، فلأجل ذلك أفردَه أخوه وأصهارُه ومَن ظَنَّ أنهم أنصارُه. وكان أخوه أبو الحَجّاج بادر إلى الطاعة والدّخول في حزب الجماعة، فلمّا تحقَّق محمدٌ طاعةَ أخيه زاد عليه الذّبول، وفسَد عقلُه بالذّهول، فاشتدّت عِلّتُه وحضَرت منيّتُه، فتوفِّي في رجَب من السنة، فانقَرضَت أيّامُه وبادَرَ إلى الطاعة قُوّادُه، وخاطَبَ ابنُه هلالٌ مُبادرًا بالطاعة والدّخول معَ الجماعة، فقُبِل أحسَنَ قَبول وأخَذ في الحركة والوصول، ونهَض أبو حفص إلى مُرْسِيَة لثقافِها وتأنيسِ أهلِها عندَ طاعة هلال بن مُرْدنيش صاحبِها.

ذكرُ طاعة هلال بن مُرْدنيشَ بعدَ موت أبيه ووصولِه إلى حضرة الخليفة أبي يعقوبَ بإشبيلِيَة(٢)

وذلك أنه لـمّا ماتَ محمدُ بن سَعْد بن مُرْدنيش بادَرَ ابنُه هلالٌ بالوصول إلى الخليفة بعدَ استقرار أبي حفص بمُرْسِيَة، وكان وصُوله بجميع إخوته وأصحاب أبيه من قُوّادِه وكُبَراء أجنادِه عَقِبَ شعبان من السنة، فخَرج إليه السيّد أبو زكريّا وأخوه أبو إبراهيمَ أخوا الخليفة معَ جماعة من الموحِّدين، ودخَل في صُحبتِهم إلى مجلس الخليفة قُر[بَ صلاة المغرب](٣) من يوم وصُوله، فطَلَع في الحين هلالُ رمضان فسَلَّم على الخليفة وبايَعَه فقال [أبو موسى عيسى بن عِمران](٤): يا سيّدَنا، طلَعَ علينا في هذه الليلة هلالان: هلالُ شهر رمضان وهلالٌ هذا، فتبسَّم لذلك الخليفة، وانصَرف هلالٌ معَ أصحابِه فأُنزِل في قصر ابن عَبّاد وأُنزِل أصحابُه في الدار المتّصلة [به](٥)

(١) المن بالإمامة ٥٠٥ فما بعدها.

(٢) المن بالإمامة ٥٠٧ فما بعدها.

(٣) بياض في النسخ.

(٤) بياض في النسخ.

(٥) بياض في النسخ.

وقد أعدت لهمُ الفُرُش والمطاعم والمشارب، وأُفهِموا أنهم الأقاربُ والأصاحب، ورحَّبت بهم المملكةُ والدّولة.

وفي هذه السنة: أمَرَ أبو يعقوبَ الخليفةُ بابتداءِ بناء الجامع بإشبيلِيَة، وكان يتطلَّعُ على بنائه بنفسِه، فكانت مدةُ بنائه ثلاثةَ أعوام آخرُها عامَ واحد وسبعين، وأمّا بناءُ صَوْمعةِ الجامع، فلا صَوْمعةَ تعدِلُها في مساجد الأندَلس تَظهرَ للعين على مرحلة من إشبيلِيَة، أمَرَ ببنائها هذا الخليفةُ في عام ثمانين، وكان تمامُها على يدِ ابنِه المنصور على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى(١).

ذكرُ غزوة الخليفة أبي يعقوبَ إلى مدينة وبذة(٢) وهي الأُولى من غَزَواته وما كان فيها من الأحداث

كان خروجُه من إشبيلِيَةَ في الحاديَ عشَرَ من شوّال من سنة سبع وستينَ، ووصَل إلى وبدة ونازَلَها يومَ الثلاثاء السابعَ عشَرَ من ذي القَعدة، فكانت له فيها حربٌ يطول ذكرُها بعدَ ما فتَح في طريقِه المعقِلَ الأشهَبَ حِصنَ بَلج القُشَيريِّ وحصن «أَلْكَرَس».

ولـمّا كان يومُ الأحد الثاني والعشرين من الشهر المذكور هبَّت ريحٌ عاصف مزَّقت أكثرَ الأخْبِية، وكان تقدَّم أيضًا ريح أكثرَ من هذا ومزَّقت أكثر من هذا، ثم جادت بمَطر وابِل، وكان زمنُ الحَرّ، فكان للروم في ذلك سَقْيٌ وإملاء، شربوا منهُ ومواشيهم.

ولـمّا كان يومُ الاثنين عَزَم الأمير أبو يعقوبَ على قتالهم في سُورِهم، وأن يجتهدَ الناسُ في ذلك بنهاية مقدورِهم، فركِبَ وركبت العساكر كالبحر الزاخِر لا أولَ لها ولا آخِر، فجاء المطرُ الوابِل وجادت السماء بهتّانٍ هاطل، ففَزِع الناسُ وتعجَّبوا ورَغِبوا في التوبة إلى الله تعالى وانقَلبوا وعَجَزوا عن القتال على كثرة العَدَدِ والعُدّة، والعَزْم على شدّة الصبر والجَلَد، وانصَرف الأميرُ والناسُ أجمَع، فقام فيهم الشيخُ أبو محمد ابن عُمر خطيبًا باللّسان العرَبيّ تارَةً وباللّسانِ البربَريِّ أخرى يُعرِّفهم بما أوجَب الله عليهم من

---

(١) المن بالإمامة ٥٠٩ فما بعدها.

(٢) هو Huete حصن قديم في مقاطعة كونكة، ينظر الحلل السندسية ١/ ٤٠٤.

الجهاد ويقول لهم: قد كنتُم بمَرّاكُش تقولون: لو كنّا غزَوْنا لجَاهدنا واجتهدنا، فلمّا حضَرتم قَصَّرتم وجَبُنْتم وخُنْتُم اللهَ عزَّ وجل وما نصحتهم، فبَكى الناسُ عند ذلك وتابوا.

فلمّا أصبح الصّباح من يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القَعدة تكلَّم بعضُ الناس بالرّحيل، وضُرِب الطّبْلُ الكبير إشعارًا للناس بذلك، فكأنّ القيامةَ قد قامت، فمِن رجُل حائر لا يدري ما يصنَع وآخَرَ حازم قد أُخِذ بما يَسمَع. وعندما عايَنَ النّصارى أهلَكَهم اللهُ حركةَ الناس وإقلاعَهم عنهم خَرجوا في الحين بخيلهم ورَجْلهم ووصَلوا إلى الوادي الذي كانوا قد مُنِعوا الشّربَ منه من يوم حصارهم، واشتَغلوا معَ الناس بالقتال واشتَعلت في البيوت والدّروب النِّيران، وصار الناسُ في حرب وانزعاج إلى الرّحيل، [ولا أخَ يسأل][1] عن أخيه من حال الذّهول. ووصَل الرومُ إلى السّوق فوجَدوا فيه الضُّعفاءَ والـمَرْضى، [والتَحَم القتالُ بينَ النّصارى][2] والمسلمين، وأمَرَ الأميرُ بجميع العساكر بالوقوف حتى تُرفَعَ الأخْبِية فرُفعت وتقدَّمت، [وبقيت قُبّتُه واقفةً على حالها][3] حتى رُفِع جميعُ الناس، ثم أمَرَ بضَرْب الطّبل والحركة والناسُ على ترتيبِهم والنّصارى يقرُبونَ ثم يَهرُبون إلى حين نزول المحَلّة، ثم تمادى مَشْيُ العسكر بعدَ ذلك حتى وصَل إلى مُرْسِيَة فدخَلها يومَ الخميس من ذي الحجة من السنة[4].

وفي سنة ثمانٍ وستينَ وخمس مئة في أوّل يوم منه: رغِبَ أكثرُ الموحِّدين والعساكر في السَّراح إلى بلادهم وأوطانهم عندَ ضِيقة مُرْسِيَةَ بهم وغلاءِ السّعر فيها بسببِهم، فأذِن لهم في ذلك، وارتَحل أكثرُهم، وأقام أشياخُهم وكبراؤُهُم، ودامت الإقامةُ بمُرْسِيَة حتى أهَلّ شهر صَفَر وخَرجت البركةُ إلى الموحِّدين والمرتزِقين، وأحضَر الخليفةُ هلالَ بن مُرْدنيشَ وإخوتَه وعمَّه، وآنَسهم وأولاهُم كلَّ مُستحسَن سَهْل، ووعَدَهم من بِشره وسَيْره ما لم يبلُغْه معَ المأمون الحَسنُ بن سَهْل، وأشار إليهم أنهم سيكونونَ من جُملة أهله، وأمَرَهم بالارتحال معَه إلى حضرته، فأخَذوا في النّظَر

(١) بياض في النسخ، وما أثبتناه بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٥٤١.

(٢) بياض في النسخ، وما أثبتناه بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٥٤١.

(٣) بياض في النسخ، وما أثبتناه بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٥٤١.

(٤) المن بالإمامة ٥٢٣ فما بعدها.

لذلك والعَزْم إلى هنالك، وأمَّرَ العمَّ أبا الحَجّاج يوسُفَ بن مُرْدنيش ببَلَنْسِيَة وأنظارِها، وعندَ ذلك أخَذ في الانصراف.

وفي أوّل ربيع الأوّل تحرَّك منها وأجاز على غَرْناطة وترَكَ فيها أخاه أبا سعيد، ووصَل إشبيلِيَةَ في الثانيَ عشَرَ لربيع الأوّل، ووصَل معَه أبو حفص وجُملةُ الموحِّدين ووجوهُ دولتِه وسائر إخوتِه، فخَرج أهلُ إشبيلِيَة إلى لقائه ومعَهم شيخُهم أبو بكر ابنُ الجَدّ، ودخَل إشبيلِيَة أوفرَ دخول، وعندَ وصُوله أمَرَ ببناءِ الجامع المذكور، وببناءِ البُحيرة والقصور[1].

وفي هذه السنة المؤرَّخة: وصَل وَفْدُ أهل القَيْرون وفقهاءُ تونُسَ وإفريقيّةَ إلى مدينة إشبيلِيَة، فرحَّب بهم أميرُ المؤمنين أبو يعقوبَ وأنزَلَهم وأكرَمَهم حتّى انصَرفوا[2].

وفي شعبانَ من هذه السنة[3]: خَرج من مدينة آبلة القُومِسُ المسنُّ الضالُّ المعروفُ بالأحدب، مديرُ الحرب في الفتنة على المسلمينَ بالأندَلس، فكم من فَتْكة له في الإسلام في شنِّ الغارات شرقًا وغربًا بجموع الكَفَرة إخوتِه يصِلُ بهم إلى طَرِيفَ والخضراء، ويَسقي المسلمينَ كأسًا مُرًّا، إلى أن أَذِن الله بهلاكِه وفناء شِرذِمتِه أهل آبلةَ في هذا التاريخ. فخَرج من آبلةَ يريدُ نظَرَ إشبيلِيَة على ما عَهِد في زمانه وحالة طُغْيانه، ووصَل بجَمْعه إلى الوادي الكبير وجازَه على جهة إستجَةَ مارًّا بها على تلك الجهات كلِّها، فغَنِم فيها نحوَ خمسينَ ألفَ رأس من الغنم، ومن البقر نحوَ ألفَيْ رأس، وأسَرَ خلقًا من المسلمين، وأجاز غنائمَه وأَسْراهُ مكتوفينَ مُستغيثين. وكان الأميرُ أبو يعقوبَ قد تقدَّم عندَه خبرُ هذا الطاغية وخروجِه، فأمَرَ عساكرَه بالتأهُّب إليه، فلمّا كان ما ذكرتُه عنه خَرج إليه العسكر من إشبيلِيَة معَ السيّدَيْنِ الأخوَيْن: أبي زكريّا وأبي سعيد، فجَدّوا في اتّباعِه مُسرعين، وصَفَت نفوسُ المسلمين، فلمّا كان صَبيحةُ يوم الأربعاء التاسعَ عشَرَ لشعبان تأخَّر النّصارى عن شيخِهم الضالّ عن الرّحيل من موضع مَبِيتهم، وذلك بمقرُبة من قلعة رَبَاح، فتأهَّب الناسُ بأجمَعهم

(١) المن بالإمامة ٥٥٣-٥٥٦.

(٢) المن بالإمامة ٥٥٦.

(٣) المؤلف ينقل من المن بالإمامة ٥٥٧ فما بعدها على عادته.

والعدوُّ الكافر يظُنُّ أنْ لا مُقارعَ له ولا مُدافع، فاستعجَل الكافر حين ذلك بالرّحيل، وقد تَراءى الجَمْعان بكلِّ فَجّ ومِيْل، فسَلّ الله عليهم سيفَه، و[حَلّ](١) في قلوبهم منه رُوعُه وخوفُه، فانحازوا إلى جبل شاهق واعتقَدوا أنه مَنْجاهم ولم يَعلَموا أنّ [بها](٢) حادثتَهم ومثواهم، فانضَمَّ عساكرُ المسلمين إليهم، وصَعِدوا الجبلَ غَلَبةً عليهم، فابتَدأوا معَهم في ذلك الجبل الوَعِر في طعنٍ وضرب، ومُقارعةٍ وحرب، فهزَم اللهُ المشركين، ووصَل المسلمونَ إلى اللّعين الأحدب فقَتلوه واحتَزّوا رأسَه، وقَتلوا جميعَ مَن كان معَه، ولم يَنْجُ من جَمْعه إلّا القليل، وأُنقِذَ الأسرى من المسلمين بأجمَعهم والغنائمُ كلُّها، وانصَرفت إلى أربابِها وامتلأت أيدي الموحِّدين من الدّروع والخَيْل والبِغال، ونالوا في ذلك الجهادَ المبرور، الغنيمةَ والأُجور، وجُمِعت رؤوسُ النّصارى معَ رأس الأحدب المذكور، وحُمِلت إلى إشبيلِيَة، فضُرِبت الطّبولُ على ذلك، ووصَل وَصْفُ مقتلِه في كتابٍ من الخليفة أبي يعقوبَ إلى أخيه السيِّد أبي عمران، فكانت إحدى الـمَسرّات وباكورةَ الفتوحات.

وكان هذا السيِّدُ أبو عمرانَ من أولاد الخُلفاء النُّجباء الطّلبة الأُدباء، والخُطباءِ الشّعراء، وجرَتْ بينَه وبينَ قاضي مَرّاكُش حَجّاج بن يوسُف في هذه المدة مُخاطبةٌ شُهِد له فيها بالسَّبق حتى كَلِف بها جميعُ أهل العصر، وذلك أنه أصابه ضَعْف فغابَ عن الموحِّدينَ ثلاثةَ أيام، فكتَبَ إليه القاضي بيتَيْنِ من الشعر يتشوَّقُ فيهما إليه، وهما [من الوافر]:

يغيـبُ البـدرُ يومًـا ثـم يبـدو ... وأنـت تغيـبُ عـن عينـي ثلاثـا
لـئن بلَغـتْ ثلاثًـا لا أراكُـمْ ... فلـستُ بمُـدركٍ يـومَ الثُّلاثـا

فجاوَبَه في الحين وما رَوَّى، ولا بَيَّض قِرطاسًا ولا سَوّى [من الوافر]:

أتَتْنـا مـنكمُ دُررٌ فحلَّـتْ ... محَـلًّا أوجَبَـت منـا انبعاثـا
ولـولا العُـذرُ مـن سببٍ قـويٍّ ... لسِرْنا نحـوَكمْ حـتمًا حثاثـا
ولكنّـا نـسيرُ بحـالِ وُدٍّ ... إلـيكمْ مُـصبِحًا يـومَ الثُّلاثـا

(١) بياض في النسخ.
(٢) بياض في النسخ.

وفي مدة إقامته بحضرة مَرّاكُش أميرًا تَوالَى القَحْط وامتَنع الغَيْثُ مدةَ شهرَيْن، ثم مَنَّ الله بالغَيْث وتدارَكَ سبحانَه بالغَوْث، فقال [من المتقارب]:

وغَيْثٍ هَمَى فوقَ مَتْنِ الرُّبَى ... فشبَّهتُه جُودَ أهلِ السيادهْ
أتانا على رغبةٍ فانثنَى ... وقد بَلَغ الكلُّ منّا مُرادَهْ

ومن شعرِه أيضًا وكتَبَ به إلى أخيه السيّد الأسنَى أبي زكريّا يحيى ابن الخليفة الذي كان صاحبَ بِجَاية، وهو [من البسيط]:

مَن ساد وهْو صغيرٌ كيف تحسَبُهُ ... يُبقيه ربِّي إذا ما كان في الكِبَرِ
ومن يقولُ أميرُ المؤمنينَ أبي ... فتِلكمُ الغايةُ القصوى لمفتخرِ
أضحَتْ بِجَايةُ في التمثيل هالتَهُ ... وظلَّ يطلُعُ فيها مُشبِهَ القمرِ
بدرٌ بلا كُلَفٍ، درٌّ بلا صَدَفٍ ... ماءٌ بلا كدرٍ نارٌ بلا شرَرِ

ومن الشعراء المُجِيدينَ من أحفاد أمير المؤمنين عبد المؤمن: السيّد أبو الرّبيع بن أبي عبد الله بن عبد المؤمن، له أشعار كثيرة موجودة تدُلُّ على حَذْقِه[١]... الفقيه رحمه اللهُ وعفَا عنه.

وفي هذه السنة: غَدَر النّصارى أهلَكَهم اللهُ مدينةَ باجَة، واتّفق غَدْرُها من البُرج المستقبَل ببابِ قَصَبتها المسمَّى عندَ أهلها ببُرج الحَمام، وذلك لتضييع عُمرَ بن سُحْنونَ لها، وإهمالِه أمرَها وحالَها، وقلّةِ جَدِّه على السُّمّار، وأكلِه مواساتَهم المرَتَّبةَ لهم على سُكناهم في أبراج القَصَبة والمدينة، وكان البُرجُ[٢] المذكورُ فيه سامرٌ يأخُذ في الليلة على سَمَره قيراطًا من قطع، فأخَذه له وترَكَ البُرج مُضاعًا دونَ سامر، فوصَل النّصارى إلى السُّور في ليلة مُظلمة وهم يتسلَّلونَ على أيديهم وأرجُلِهم، فلم يشعُرْ أحَدٌ بهم من السُّمّار إلى أن جَعلوا السلالمَ في لَصْق البُرج المذكور، فصاحوا بأعلى أصواتِهم ولُغاتِهم، فاستَيْقَظَ الطالبُ عمرُ بن سُحنون من سَكْرتِه فوصَل إلى باب

(١) بياض في النسخ بقدر كلمتين.

(٢) من هنا إلى قوله: «البرج» مرة أخرى سقط كله من ك، لقفز نظر الناسخ من هذا اللفظ إلى مثيله.

القَصَبة فوجَد النّصارى قد تـمَلَّكوه وفتَحوه وأدخَلوا عسكرَهم في القَصَبة المذكورة، فتردَّى من أعلى البُرج إلى المدينة فارًّا بنفسِه، ثُم تدَلَّى من سُور المدينة إلى الفَحْص، وفَرّ إلى مَرْبلة على قدمَيْه، واتّصل الصِّياحُ وضَجيجُ الرّوم بالقَصَبة والمدينة، ففَرّ النّاسُ على وجوههم من أبوابِه فقُتلوا في الأبواب، وأُسِروا في كلِّ جَناب، وأُسر عِيالُ الطالب الـمُضيَّع وبَنُوه وأُخِذ مالُه وعيالُ القاضي ابن زرقاج وجُملةٌ من أصحابِه ومن نساءِ البلد إلّا منِ استعجَل بالخروج، واستُشهِد فيها عندَ باب الجامع[1] الفقيهُ أبو جعفرِ بنُ إسماعيلَ ابن صاحبِ الصّلاة[2]، وعاقَبَ اللهُ تعالى كلَّ من بَغَى فيها وسَعى في شهادة الزُّور وشَهِد بها، واجتَمع عندَ النّصارى فيها من المال شيءٌ كثير، وحَلّ بأهلِها مصابٌ كبير، وكانت مدينةُ باجَة من الـمُدن القديمةِ البناء وأسوارُها قد قامت وارتَفَعت في الهواء، ثم هَدَمها الإمامُ عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ الداخِل بعدَ هزيمة العلاءِ بن مُغيث.

ذكرُ سبب غَدْر النَّصارى مدينةَ باجَة

وذلك أنه لـمّا كان خَلْعُ سِدْراي بن وزير عن باجَةَ وجميع بلاد غَرْب الأندَلس، ولِـيَ بعدَه مدينةَ باجَة حُفّاظٌ من الموحِّدين، فنظَر كلُّ واحد منهم بحسَب اجتهاده، وكان أشبَهَهم عُمرُ بن تيمصليت التينمليُّ، فحدَث مدةَ مقامِه بها بينَ أعيانِها وسِفالِـها نزاعٌ واختلاف بما طُبِعوا عليه في القديم والحديث من الماءِ والهواء، فطالَبَ بعضُهم بعضًا وأظهروا لهم عَداوةً وبُغضًا، أدّى ذلك إلى إمساك بعض أشياخِهم بإشبيلِيَة، وعَزْل ابن تيمصليت المذكور، المتحرّي عن تلك الأمور، ووَلِيَ عليهم طالبٌ بَرْبَريٌّ سخيفُ العقل اسمُه عُمرُ بن سُحنون، وكان قصيرَ القامة صغيرَ الهامة كَوْسَجًا أعرَجَ لا يفهَمُ ولا يُفهَم، فدخَلَها في أشأَم طالع وأعظم محنةٍ لسامع، واتّصل به سِفالُـها فقرَّبهم لنفسِه وأدناهم من مـحَلِّ أُنسه، فنَزا التباغُضُ بينَ عامتها وخاصّتها بذلك السبب، وتَقاطعوا في الـمُواصَلة والنَّسَب، فقال في ذلك أبو بكر بن حُبَيش وخَرج فارًّا منها بنفسِه [من الكامل]:

---

(١) في م: «البرج»، وما هنا يعضده ما في التكملة لابن الأبار (١٧٦).

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إسماعيل ابن صاحب الصلاة، قال ابن الأبار: «استشهد عند باب الجامع في غدر العدو بلده، وذلك ليلة السبت الثاني والعشرين لذي حجة سنة سبع وخمسين وخمس مئة» (التكملة، الترجمة ١٧٦).

إن الفِـــرارَ غنيمـــةٌ مـــن باجـــةٍ فاعمَـــلْ...... [1] ذميـــل الأيْنُـــقِ
واحمَـــدْ لفُرقتِهـــا لـــئلا تهلكـــا ...... [2] عـــن قلـــب التَّـــقي
وإذا رجَـــوْتَ لهمِّهـــا فرجًـــا[3] ...... [4] بـــالعَقُوق الأبلـــقِ
هيهـــاتِ لا فـــرجٌ لـــديها يُرتَجـــى ولئن حـذِرتَ بها الخُطوبَ فاقْلقِ
إنّ الغريـــبَ إلى الغريـــب مـــنغِّصٌ ايـــود لهـــا الرَّزايـــا مـــا بقِـــي[5]

واستخلَص عُمرُ بن سُحنونَ المذكورُ وزيرًا لنفسِه وسَميرًا لأُنسِه رجُلًا بدَويًّا من سِفال باجَة فجرَّأه على سَفْك الدّماء وأخْذ أموالِ الناس بالباطل وضَرْبهم بالسِّياط على أقلِّ الأشياء، وأعان معَه على ذلك قاضيَ البلد عمرَ بن زرقاج، وكان رجلًا كثيرَ الحركة والطَّيش، فصوَّب له إذاية الناس بالظلم والبطش، وانضافَ إلى هذا القاضي قومٌ أراذلُ من شهود الزُّور، يشهَدونَ له بغَرَضِه السيِّئ المغرور، فكانوا يعقِدونَ العقود بالكذب والـمَيْن، ويُثبِتُ الحقوقَ البواطل بشهادة وَغْدَيْن، ويخاطبُ بذلك أميرَ المؤمنين، يقول: إنّ فلانًا وفلانًا يخاطبُ المنافقين، لولا عَدْلُ الخليفة رحمه الله.

ثم إنّ عمرَ بن سُحنون المذكورَ استبَدَّ معَ أصحابه في تلك الأمور، وأخَذ برأي الفُجّار، والسِّفْلةِ الأشرار، وقَتل الفقيهَ الفاضلَ أبا جعفرٍ ابنَ الأنصاريِّ ظلمًا وعُدوانًا، وقَتل معَه جماعةً من أهل البلد سهوةً وخِذْلانًا، وعقَد عقودَ زُور في أمره أنه أراد القيامَ وخَلْعَ الإمام، ووَصَلت العقودُ الـمُدَلَّسة إلى الخليفة بإشبيليَة، وكان قد وصَل إلى الخليفة قَرابةُ الفقيه ابن الأنصاريِّ المظلوم، فسأل الخليفةُ الفقيهَ أبا بكر ابنَ الجَدّ عن أهل باجَة وأحوالِهم فعرَّفه بما عَلِم من أفعالِـهم وبرَّأَ ابنَ الأنصاريِّ المذكورَ فيما نُسِب إليه، وقال: مَعاذَ الله أن يكونَ ذلك الذي رُفِع عليه، وتكلَّم بكلام في تبرِئة أهل باجَة يجِدُه

(١) بياض في النسخ.
(٢) بياض في النسخ.
(٣) هكذا في النسخ ولا يستقيم به الوزن.
(٤) بياض في النسخ.
(٥) هكذا العجز في النسخ، ولا يستقيم عروضًا.

عند الله مدَّخَرًا، ويلقاه به مطهَّرًا، وفي أثَرِ هذا المجلس وصَل أهلُ الصِّدق والحق فسُئلوا عن ذلك فأكذَبوا القاضيَ وشهودَه، فعفَا عنهم الإمام، وارتفع الباطلُ والـمَلام.

ورَفع أبو محمد ابنُ وزير بعدَ ذلك رَفْعًا إلى الخليفة وقال: إنّ لي بباجَةَ أصهارًا وهم بَنو صاحبِ الصلاة وبنو الأنصاريّ، ورَغِبَ أن يَأذَنَ لهم في الخروج عن باجَة إلى إشبيلِيَة، فخَرجوا عنها بما خَفَّ من أموالِـهم وأحوالِـهم ودَخلوا إشبيلِيَة يومَ الخميس الخامس وعشرينَ لجُمادى الآخِرة من عام سبعة وستينَ وخمس مئة، فلم تدُم الحالُ إلا ستةَ أشهر وسبعةَ أيام، وعاقَبَ اللهُ ابن سُحنونَ المذكور، والقاضيَ وشهودَ الزُّور، وكان غَدْرُها في محرَّم من عام ثمانية وستين.

ولـمّا اتّصل خبرُ غَدْرِها بأمير المؤمنينَ قال له سِدْراي بنُ وزير: بِيعت باجَةُ بقيراط، فقال له: ما معنى هذا؟ فوَصَف له حالَ ابن سُحنون وكيف أخَذ أجرةَ السامر في البُرج وما كان من فعلِه، فأمَرَ أميرُ المؤمنينَ بقتله، ففَرَّ فلم يوجَدْ ولم يمُتْ حتّى عاقَبَه الله بالجُذام.

ولـمّا أخَذ ابنُ الرَّنك اللّعينُ باجةَ ودخَلَها عايَنَ كِبَرَها وأنها لا يمكنُ امتناعُها لاتّساعها، فأخلاها وحَرَّقَها وهَدَم سُورَها وأسَرَ أهلَها إلى أن أنقذَهم اللهُ من الأسر بالفداء ومشَى كثيرٌ إلى مَرّاكُش وغيرِها يَطلُبونَ من[1] الناس، فوَجَدوا عندَهم الحنانَ بالعطاء والإيناس، فانجَبروا بعدَ تفرُّقِهم أيديَ سبا، وبعدَ أن أورَثَتْهم الحوادثُ وصَبَا.

وفي سنة تسع وستينَ وخمس مئة: كان وصُولُ العِلج الطاغي جرانِدُه الذي غَدَر مدينةَ باجَة وغَدَر الحُصونَ والـمُدن وأفْقَر المعمورَ والمسكون، وكان قائدَ ابن الرَّنك وصاحبَ جيوشِه، فوصَل [معَ أصحا][2]به الأدِلّاء إلى إشبيلِيَة حضرة الخليفة [سامعًا طائعًا ليكون عبدًا خديمًا، وليُنكِيَ إخوتَه النّصارى بما يكونُ تصديقًا له عند الخليفة][3] وتقديمًا، فقَبِل منه القولَ وأنزَلَه وأمَر له بالإحسان والكرامات،

---

(١) سقط من ك.

(٢) بياض في النسخ.

(٣) ما بين الحاصرتين ليس في النسخ الأربع التي بين أيدينا، استدركناها من م.

فساء وصُولُه ابنَ الرَّنك صاحبَ قلمريةَ لعنه الله ولم يزَلْ يُرسل إليه سرًّا في أن يتحيَّلَ في الارتداد والغَدْر والمكر، فظَهَر بعدَ أشهر عليه ذلك، فتقبَّض عليه هنالك، ومكَّن اللهُ منه أعزَّ تمكين، وقُيِّد هو وأصحابُه في الحديد، فسُرَّ بذلك القريبُ والبعيد، وبُعثوا بجُملتِهم إلى سِجِلْماسةَ فأقاموا بها تحتَ سجن وترقيب، ونكالٍ مُريب، ثم همَّت نفسُه فيها بالفِرار ليجوزَ من أحد المَراسي فظَهَر منه ذلك فقُتل وحُزَّ رأسُه، وانكفَّ عن الإسلام بأسُه.

وفي هذه السنة، في أول شهر صَفَر: خَرج الخليفةُ أبو يعقوبَ من إشبيلِيَة بجيشِه ونزَلَ بحصن القلعة وهو خَرابٌ مهدومٌ منذُ إمارة عبد الله بن محمد الأُمويّ، هَدَمَه بسبب ثورة ابن حَجّاج فيه عليه، ومَلَك منه إشبيلِيَة وقَرْمُونة، فأمَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ ببنائه وعِمارته نظرًا[1] وصَلاحًا لفَحْص إشبيلِيَة فصَلَحت إشبيلِيَة ببنائه وعِمارته.

وفي هذه السنة: وصَل ابنُ مثنّى مُشرف تونُسَ والقَيْروان بأموالِ خراجِهما.

وفي سنة سبعينَ وخمس مئة: أمَرَ أبو يعقوبَ بغَزْو البيبوجَ بن أذْفُونْش، وكان قد بادَرَ بالصُّلح وطلَبَ الاستعانةَ بعسكر الموحِّدين على القمط نونُه صاحب طُلَيْطُلة، فأُعين على ذلك، ثم ظَهَر جَدُّه وكمُل عهدُه في حماية بَطَلْيَوْس وإنقاذِها من يد ابن الرَّنك الغادرِ لها، وذكَرَ أنه أنفَقَ على عسكرِه في ذلك مالًا كثيرًا، فوجَّه إليه الخليفةُ هديّةً فيها منتٌ منظومٌ بالجوهر وحَمَلَها له أبو محمد بنُ جامع وابنُ غَرُّون وأبو زكريّا الكُوميُّ فقَبِل الهديّةَ بأوفَى السرور، وأبهَتَهُ ما عايَنَه فيها ممّا لم يعهَدْه في ذلك الوقت، وبعَثَ معَهم أرسالَه بهديتِه وشهودًا عليه باستمرار الصُّلح، وتمادت على ذلك حالُه إلى آخِر سنة تسع وستينَ، فنَكَث ونقَضَ العهدَ وكفَر بالنِّعمة فعاقَبَه اللهُ سريعًا بالنِّقمة، فنَظَر الأميرُ أبو يعقوبَ في غزوِه في عُقْر داره ومُنازلةِ جهاتِه وأقطارِه، فكتَبَ إلى العرَب والأجنادِ بالوصُول إلى إشبيلِيَة والتأهُّبِ للغزو، فوصَلوا بجَمْعِهم وحشودِهم، فتجهَّز السيّد أبو حفص للنّهوض إليه بالعساكر عِوَضًا من أخيه أمير المؤمنين، فخَرج أبو حفص من إشبيلِيَةَ في الثالث من صَفَر إلى

---

(١) من هنا إلى آخر الفقرة سقط من ك.

الغادر البيبوجَ بمدينة السبطاط قاعدته، فغَزاه وافتَتح قَنْطرةَ السّيف وناضوشَ في خبر طويل. فقال الشعراءُ في ذلك وأطْنَبوا، فمنهم: أبو العبّاس الجُراويُّ قال من قصيدة أولُـها [من الكامل]:

عن امـرِكم يتـصرَّفُ [الثَّـقَلانِ][1] وبنَــصْرِكم يتعاقَــبُ الــمَلَوانِ
وبــما يَـسُوءُ عــدوَّكم ويـسُرُّكمْ تتحــرّكُ الأفــلاكُ في الــدَّورانِ
جاهــدتُمُ في الله حــقَّ جهــادِه ونهــضتُمُ لحمايـــة الإيـــمانِ
وتــركتُمُ أرضَ العِـدى وقلـوبَهمْ في غايـــة الرَّجَفـــانِ والـــخَفَقانِ
وغــزاهمُ الـدِّينُ الحَنيفـيُّ الـذي كُتِـب الظهـورُ لـه عـلى الأديـانِ
كتَبَ الإلـهُ لكمْ فتوحًـا في العِدى هـــذا لهـــا وســـواه كـــالعُنوانِ
هـذا مقـامُ المـصطفى يـا فـوزَ مَـن حـازَ النِّيابـةَ فيـه عــن حـسّانِ
مـن يعـرفِ الـرّحمنَ حقًـا يعـترفْ بحقوقِـــه لخليفـــةِ الـــرّحمنِ

وله أيضًا من قصيدة أولُـها [من الطويل]:

بسيفِك صال الدِّينُ في الشّرق والغربِ ودارت على الأعـداءِ دائـرةُ الحـربِ
وأذعَـــنَ نـــاءٍ واســـتقام مُعانـــدٌ ولان قيـــادًا كـــلُّ ممتنـــع صَـــعْبِ

وعندَما يسَّر اللهُ هذا الفتح لأمير المؤمنينَ في هذه السنة على يد أخيه السيِّد أبي حفص وهَزَم النّصارى في عُقْر دارِهم حتى انْجَحَروا تحت جدارِهم، رغِبَ ابن الرَّنك اللّعين، في الصُّلح من أمير المؤمنين، وكان أميرُ المؤمنين قد علِم قِدَمَ باجَة وأنها قاعدةُ الغَرْب وبما جَرى فيها من النوائب والكَرْب، فنَظَر بنُور الله في إسكانِها وإسكان الحصُون المجاورة لها، فأمَرَ بإنفاذ الكُتُب إلى جميع بلادِه في استدعاء أهل باجَة ووصُولِـهم إلى حضرتِه إشبيلِيَة، فأُزعِجوا منها ووصَلوا إلى إشبيلِيَة، واجتَمعوا بها، وأُعلِم أميرُ المؤمنين بوصُولهم فأمَرَ بدخولِـهم عليه.

---

(١) ما بين الحاصرتين ليس من النسخ التي بين أيدينا ولا يستقيم المعنى ولا الوزن من غيرها.

اختصارُ الخبر عن دخول أهل باجَةَ مجلسَ أمير المؤمنين أبي يعقوب وما دار بينَهم من الكلام

كان دخولُهم إليه يومَ السّبت السابع لربيع الآخِر سنةَ سبعينَ وخمس مئة، وقد احتَفل في حضور الوجوه من إخوته السّادات، ووجوه أشياخ الموحِّدين وملوك الأندَلسيِّينَ من بني غَزُّون، وبني مُرْدنيش، وبني همُشْك، ووجوه طلَبة الحَضَر، منهم: أبو محمد المالَقيُّ وأبو بكر ابن الجدّ وأبو موسى بن عِمران، وكان الوزيرُ الكبير أبو العُلى إدريسُ بن أبي إسحاق بن جامع يُعرِّفُ باسم مَن دخَل من أعيان باجَة ويشرِّفُهم، فلمّا دخَلوا وسلَّموا بما وجَب عليهم، نظَر أمير المؤمنين إليهم وقال: كيف حالُكم؟ فقالوا: تحت خيراتٍ وأمن وبركات في أيام سيِّدِنا أمير المؤمنين، وخطَبَ أحدُهم خُطبةً بليغة أبدع فيها غايةَ الإبداع وأبهج بها القلوبَ والأسماع، فلمّا أكمَلها تبسَّم أميرُ المؤمنينَ فقال للقاضي: أحسَنت أيّها الطالبُ الخطيب، ثم قال أميرُ المؤمنين: تمشُونَ إن شاء اللهُ إلى بلدكم وتسكنونَها بعدَ نظَرِنا لكم في زوال رُوعِكم والتئام صَدْعِكم، ويرجِعُ جُندُ أهل بلدتكم ورَعيّتُها، وأهلُ تلك الحصون المجاورة لكم للاستيطان بها كما كنتُم، ونتبِعُكم إثْرَ هذا بقَبيل من الموحِّدين الـمُنجِدين بفُرسانِهم ورجالهم يَسكنونَ معَكم بأولادهم وعِيالهم، فقالوا: سمِعْنا وأطَعْنا يا سيّدَنا ومولانا، وذكَروا مصالحَهم كلَّها قليلَها وجليلَها، فأنعَمَ عليهم بما سألوه وانصَرفوا شاكرينَ بعدَما ولَّى عليهم حافظًا أبا بكر ابنَ وزير.

اختصارُ الخبر برجوع أهل باجَةَ إلى بلدِهم

تقدَّم الحافظُ أبو عليٍّ ابن تيمصليت بالخُروج إلى شِلْب وجميع الغرب، فحشَدَ الرجال وأعطى الأموال في الخامس لربيعٍ الآخر من السنة، ثم خَرج أبو بكر ابنُ وزيرٍ من بعدِه في السادس من الشهر المذكور بجميع الجُند والفُرسان، وخَرج أهلُ باجَةَ في الحادي والعشرينَ من الشهر المذكور ووصَلوا باجةَ يومَ الخميس غُرّةَ جُمادى الأولى، فعايَنوا منها الدّمار وأنكروا الأوطانَ والدِّيار، كما قال لَبيد[1] [من الخفيف]:

ذهبــت عــامرٌ فلـم يبـقَ منهــا ... بريــاض الأعــرافِ إلا الــدّيارُ

وكــذاك الزّمــانُ يــذهبُ بالنــا ... سِ وتَبقــى الطّلــولُ والآثــارُ

---

(١) ينظر معجم البلدان لياقوت ٣/ ٨٦.

بل والله تهَدَّمت بتداوُل الأيام وعُدوانِها، وتفرُّق أهلها وسُكّانها، وتحكُّم الكفَرة في أوطانِها.

وعندَ دخولهم إليها مشَى كلُّ واحد منهم إلى دارِه وموضع قرارِه، فأبصَروا ما يَشِيبُ له الوليدُ أسفًا ويَبكي عليه الجمادُ لَـهَفًا، قد حُرِّق منها الدّور ومُزِّقَ المعمور، ونزَلَ الناسُ في قَصَبتِها على ما كانت عليه من هَدْم سُورِها وخَرابِها، وكانت جُملتُهم يومَ خَرابِها نحوَ مئتي رجل بين شيوخ وشُبّان ورجالٍ وفُرسان، فكثُر عليهم الرُّوع، وبُهِت الجَمْعُ فصَنَعوا بابًا في الحين للقَصَبة من جهة المدينة، وبنَوا البابَ الذي من جهة الفَحْص، وسَكَنوا في القَصَبة المذكورة، ونقَلَ كلُّ واحدٍ منهم خشَبَ دارِه وجعَلَه معه بالقَصَبة، وخاطَبوا الخليفةَ بدخولهم فجاوَبَهم بما أرضاهم.

ولـمّا كان يومُ الأربعاء السابع من جُمادى الأولى من سنة سبعينَ المؤرَّخة، وصَل عمرُ بن تيمصليت من شِلْبَ وغيرِها بخمس مئة رجل من الحَشْد والبَنّائين، واستاقوا أقواتَهم في شهر كامل وجميعَ ما يُحتاج إليه من آلة البناء، واتّصل العملُ والاجتهاد في بناءِ السُّور إلى آخِر الشهرِ المذكور، وعاد ابنُ تيمصليت أيضًا إلى شِلْب وبلاد الغَرْب برَسْم حَشْدٍ آخَرَ للبناء، وتَمادى العملُ في البناء المذكور إلى شهر رمضانَ الـمُعظَّم وقد كمُل سورُ القَصَبة، وشُرِع في بناء سُور المدينة على كِبَرِه وخَرابِه، ووصَل الأمرُ بوصُول الحافظ ابن تيمصليت إلى الحضرة العَلِيّة فوصَلَها أوّل ليلة من شوّال، فدخَل إلى الخليفة وأعلَمَه بما صنَع، فشَكر له مَنابَه وأجزَلَ ثوابَه.

ثم حدَثَت بين أهل باجَةَ وبينَ أبي بكر ابن وزير مُطالباتٌ وشَهَوات فعَقَد عقودًا على أعيانِها بشهادة أهل الزُّور، والأراذل وأهل الفجور، فرَمَى بها القاضي في وجوهِهم ونَجَهَهم فيما ادَّعَوْه بأفواهِهم. ثم إنّ أعيانَ باجَةَ رفَعوا إلى حضرة أمير المؤمنين بأحوالِـهم وما هم عليه مع ابن وَزير من سُوءِ السّياسة والتدبير، فأمَرَ بعَزْله عنهم ووَلّى عليهم أبا عليٍّ عُمرَ بن تيمصليت، فاتّصلت الغِبطةُ بباجَة وتمكّن الناسُ بقَصَبتها وفي ديارِها الحديثةِ البُنْيان، وتَبايَعَ الناسُ أرضَها بينَهم في خارجها وداخلها، وحَرَثوا الأرضَ وعمَروها وبَنَوا الحَوانيتَ والرِّباع، ورُفِعت إلى دار الأشراف بإشبيلِيَةَ الأزِمّةُ بأعشارِها وكِراءِ رِباعِها، وسُرَّ أميرُ المؤمنين بذلك.

وتَمادى سُكنى باجَةَ على ما ذكَرتُه إلى أن رحَل الخليفةُ عن الأندَلس وترَك واليًا على إشبيلِيَةَ أخاه أبا عليّ الحَسَنَ، فمشَى النظَرُ على بعض ما تقدَّم إلى أن نكَث العهدَ اللّعينُ ابنُ الرَّنك وخَرج بجَمْعِه إلى باجَة ونازَلَها عامَ ثلاثة وسبعين، وبقي عليها أيامًا وأفسَدَ زروعَها حتى كاد أن يَغْلِبَ عليها. ثم أقلَعَ عنها ووصَل إلى جهة إشبيلِيَة ودخَل قريةَ طريانة، وتغلَّب وحرَّق القطائعَ في وادي إشبيلِيَة، وانصَرف فوجَد باجَةَ البائسةَ قد أقْفرها أهلُها وخَرجوا منها بأولادِهم وعِيالهم وتفرَّقت جميعُ أموالهم وفَرُّوا على وجوهِهم إلى مَرْتُلة، وذلك في شهر محرَّم من عام أربعة وسبعينَ وخمس مئة.

وكان السببُ في ذلك أنّ عمرَ بن تيمصليت واليَ باجَةَ خَرج منها بجُندها وفرسانها وصَحِبَه عليُّ بن وزير من حِصن شيربة[١]، وأغاروا على فَحْص قصر أبي دانِس، فخَرج إليهم جَمْعٌ من النّصارى فتقاتَلوا معَهم، فبينَما هم في القتال كذلك إذ خَرجت عليهم جُملةٌ من نصارى أهل شَنْتَرِين في فَحْص القَصْر على غير مِيعاد فانهزَم ابنُ تيمصليت وابنُ وزير، ووصَل الخبرُ إلى أهل باجَة ففَرُّوا أجمعين، وأُسِر ابنُ تيمصليت وابنُ وَزير وبعضُ مَن كان معهما من الرّجال والفُرسان وقُتل الباقون.

أخبرَ أبو عبد الله بنُ عبد الملك قال: حدَّثني أبو الحَسَن ابنُ وزير قال: لـمّا كان نفوذُ القضاءِ عليّ وعلى ابن تيمصليت حَمَلَنا ابنُ الرَّنك لعنَه الله إلى قلمريةَ، فعُمل لنا تبريزٌ عظيم وأُكبِلْنا، فأمّا ابنُ تيمصليت فجَعَلَ في عُنقِه سلسلةً من حديد، وعَذَّبه حتى مات رحمه الله. وأمّا أنا ففَداني منه أميرُ المؤمنينَ رضي اللهُ عنه بأربعة آلاف دينار حَشَميّة.

رَجْعُ الخبر: وفي هذه السنة تَعرَّس أمير المؤمنين بابنة ابن مُرْدنيش، وكان ابتناؤه بها ليلةَ السّبت الخامِس لربيع الأول، أخبر أبو عبد الله بنُ عبد الملك قال: وَجَّه إليها ألفَ دينار عَيْنًا وقال: إنّما وجَّهتُ لها بهذا العدد تأنيسًا، وإنّما الصَّداقُ الذي أُمِرْنا به خمسونَ دينارًا. ولـمّا وصَلتْ إليه معَ نسائها وخَدَمِها أعطَى كلَّ واحدة منهنَّ بركةً كبيرة ووَهَب للزّوجة جميعَ ما أهدَى إليه إخوتُها عندَ فَتْحِه لـمُرْسِيَة من الكُسَى والحَلْي والخَدَم، وزادها من عنده ما أبهَتَها. وهمَّ مَن وصَل معَها من النّساء بالدّخول معَها، فقال الخليفة: تَدخُل المباركةُ منفردة، فدخَلت وقبَّلت يدَه، فدَعا لها بخير وجامَعَها.

(١) هي مدينة Senpa التي في البرتغال.

فاتّفق لبني مُرْدنيش بها سَعْدٌ ما اتَّفق لأحد من ثُوّار الأندَلس، فإنّهم أُخرِجوا عمّا كان بينَ أيديهم ثم صاروا أحماءَ لأمير المؤمنين، وهذا غريب وشيءٌ عجيب.

وفي سنة إحدى وسبعينَ وخمس مئة: أمَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ بنكْبة محمد بن عيسى مشرف إشبيلِيَة في جُمادى الآخِرة وتولّى تثقيفَ حالِه ومالِه للمخزن يلولُ بن جلداسن، واستَصْفى ما كان عندَه من المال والعَقَار بأنواع العذابِ وأسوإِ العقاب، حتى ضَرَب نفْسَه بسِكّين كان في يدِه فلم يمُتْ من ذلك، ثم عُذِّب وضُرب حتى مات، فلُفّ في حَصِير ورُبِط في وَسَطه حبلٌ ورُمي به في وادي إشبيلِيَة فقَذَفه الوادي بعدَ أيام في بابِ إشبيلِيَة فأصبح عِبرةً لأولي الألباب، نعوذُ بالله من سُوءِ العاقبة.

ذكرُ حركة الخليفة أبي يعقوبَ من إشبيلِيَة منصرِفًا عن الأندَلس إلى حضرة مَرّاكُش

كانت حركتُه يومَ الخميس الرابعَ عشَرَ من شهر رمضانَ المعظَّم، وقيل: في شعبانَ من العام المؤرَّخ، ودخَل في غُرابٍ في الوادي من مَرْسَى طلياطةَ ولم يُسلِّمْ عليه أحدٌ من أشياخ إشبيلِيَة ولا رأَوْه لاستعجالِه، وكان قد جاز البحرَ إلى الأندَلس في الرابع والعشرينَ من رمضانَ من عام ستة وستينَ، ووصَلَ إلى إشبيلِيَة في الثانيَ عشَرَ من شوّال ورحَل منها يومَ الخميس المذكور، فكان طُولَ إقامته بالأندَلس أربعةُ أعوام وعشَرةُ أشهر ونصفٌ. ولـمّا كان سَفَرُه إلى الحضرة في اليوم المذكور خَرج جميعُ الموحِّدونَ في اتّباعِه بعِيالهم وأبنائهم، وكذلك بَنو مُرْدنيش وبنو هَمُشْك والعُمّالُ والكُتّابُ وغيرُهم، وجاز الأميرُ أبو يعقوبَ البحرَ إلى طَنْجة وتربَّص بها منتظرًا للناس حتى استوفَوْا عليه، وكان دخولُه مَرّاكُش في منتصَف رمضانَ المعظَّم من السنة.

وفي هذه السنة، وهي سنة إحدى وسبعين: نزَلَ الوباءُ والطّاعونُ بمدينة مَرّاكُش في أول شهر ذي القَعْدة، ولم يُعهَدْ مثلُه فيما تقدَّم من الأزمنة قبلَه، انتهى عَددُ الأموات في كلِّ يوم مئة إلى مئة وتسعينَ شخصًا وأكثرَ من ذلك، حتّى إنّ الناسَ لا يستطيعونَ حَمْلَهم إلى الجامع للصّلاة عليهم، فأمَرَ الخليفةُ أن يُصلَّى عليهم في سائر المساجد رِفقًا بالناس في ذلك.

فأوّلُ مَن مات من الأشراف السادات: السيّدُ أبو عمرانَ ابنُ الخليفة عبد المؤمن، ثم أخوه أبو سعيد، ثم أخوهما أبو عبد الله، ثم أخوهم أبو زكريّا الذي كان صاحبَ بِجَاية. ومن أشياخ الموحِّدين: أبو سعيد يخلُفُ بنُ الحُسَين، وكان الشيخ أبو حَفْص بن يحيى الـهَنْتَاتيُّ بقُرطُبة فخَرج منها مسافرًا إلى الحضرة العَلِيّة مَرّاكُش فمات في الطريق ودُفن برِباط الفَتْح من سَلَا، واتّصل رُوعُ الناس بالحضرة المذكورة حتى كاد لم يخرُجْ منها أحدٌ ولا يدخُلْها أحد، وكلُّ مَن خَرج منها فارًّا بنفسِه مات في الطريق، ومَرِض الخليفةُ أبو يعقوبَ وأخوه أبو حَفْص مَرَضًا طويلًا حتى كاد أن يُرْجَفَ بهما ثم استقَلّا بعدَ ذلك، وأمّا ما كان في دُورِهم وقصورِهم من الخَدَم والعبيد وغيرِهم فأخبَرَ أبو مروانُ ابنُ صاحبِ الصّلاة قال: حدّثني الشيخ الحافظ أبو بكر ابنُ الجَدّ قال: حدّثني السيّدُ أبو عليٍّ الحَسَنُ ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله، أنه كان يموتُ في كلِّ يوم في دورِهم ثلاثونَ شخصًا حتى فَنِي أكثرُ مَن كان في قصورِهم ودُورهم، ودام هذا الطاعونُ بقيّةَ سنة إحدى وسبعين ونصفَ سنة اثنتَيْن وسبعين، وذلك مدةَ سنةٍ كاملة.

وفي هذه السنة: مات القاضي أبو يوسُف حَجّاجُ بن يوسُف بمَرّاكُش، وكان فريدَ زمانه في الفَضْل والزُّهد والعدل، وكان له باعٌ واسع في الأدب. وكذلك الكاتبُ أبو الحَكَم بن هردوش[1] المالَقيُّ وأخوه المشرفُ أبو الحَسَن، وكان من الطلبة الجِلّة. وكذلك توفِّي الكاتبُ أبو الحَسَن عليُّ بن زيد الإشبيليّ[2] ومشرفُ غَرْناطةَ أبو عَمْرو ابن أفلحَ وجُملةٌ من أعيان الطلبة والموحِّدينَ، رحمهم اللهُ تعالى.

---

(١) هكذا جاء، وفي تكملة ابن الأبار: «هرودس»، قال: «إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الكاتب، سكن مالقة، وأصله من وادي آش، يكنى أبا الحكم ويعرف بابن هرودس... وتوفي أول سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة» (التكملة، الترجمة ٣٩٦).

(٢) لعله هو الذي ذكره ابن الأبار في التكملة، فقال: «علي بن زيد الأنصاري من أهل إشبيلية، يكنى أبا الحسن. له رواية، وأجاز له أبو طاهر السلفي ولجماعة معه منهم أبو بكر بن خير سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة» (الترجمة ٢٧٣٤) ولم يعرف وفاته، ولخّص ابن عبد الملك ترجمته في الذيل ٣/ ١٨٠.

وفي سنة اثنتين وسبعينَ وخمس مئة: خَرج أميرُ المؤمنين أبو يعقوبَ من مَرّاكُش معَ الموحِّدينَ في الرابع من شهر ذي القَعدة برَسْم الغَزْو لصُنْهاجةِ القبلة، وترَكَ بها أخاه أبا حَفْص واليًا عليها وأميرًا على الناس، فلمّا وصَل رباطَ هسكورةَ أمَرَ الناسَ ببناءِ بيوتٍ ودُور للسُّكْنى ورَجَع إلى مَرّاكُش بخاصّتِه، وقَدَّم على العسكر المقيم بها ابنَه السيّدُ أبا يوسُف وجعَل شيخَه أبا عبد الله بن يوسُف بن وانودين، فكان دخولُه مَرّاكُشَ في الحادي والعشرينَ لذي القَعدة، وبعدَ ذلك أذْعَن جبلُ صُنْهاجة بالطاعة وانصَرف جميعُ الأجناد.

وممّا وقَع من الأحداث بالأندَلس في هذه السنة: وذلك لـمّا عزَمَ أميرُ المؤمنين أبو يعقوبَ على الانصراف من الأندَلس إلى حضرته الـمَرّاكُشِيّة، تَرك على قُرطُبة أخاه الحُسَين، وعلى إشبيلِيَة أخاه أبا الحَسَن، فالتزما في ذلك الجِدَّ الألزم، ومَشَّيا في الثغورِ نظَرَهما الأقدم، وعندَما تحقَّق العِلجُ الغادر نونُه صاحبُ طُلَيْطُلَةَ ظهيرُ أذْفُونْشَ أخزاه الله رحلةَ الخليفة أبي يعقوبَ عن الأندَلس[1]، نقَضَ العهدَ ورفَضَ السِّلمَ والعقْد، فخَرج بجَمْعه الذَّميم ونازَلَ مدينة كونكة[2]، فاستغاث أهلُها بأمير المؤمنين، وكان الناسُ من ضَعْف الـمَرَض والطاعونِ على الحركة لا يقدِرونَ، فوصَل الأمرُ إلى السيّدَيْن المذكورَيْن يؤكِّد عليهما أن يتحرَّكا لغزوِ جهات طُلَيْطُلة وطَبيرة[3] لعل العدوَّ يُقلعُ عن كونكةَ المذكورة.

فخَرج عسكرُ قُرطُبة معَ السيّد أبي الحَسَن يومَ الاثنين السادس من شوّال، وأغار على جهة[4] طُلَيْطُلَةَ وانصَرف سالـمًا غانمًا، وخَرج بعسكر إشبيلِيَة السيّد أبو عليّ الحُسَين في أربعةِ آلاف فارس وأربعة آلاف راجِل إلى جهة طَبيرة وفتحَ حصنًا

---

(١) قوله: «عن الأندلس» سقط من ق.

(٢) هكذا تكتب، وتكتب بالقاف أيضًا، وهي كاف أعجمية.

(٣) هكذا في النسخ جميعًا، ولعله يقصد: طلبيرة، إذ هي من أعمال طليطلة (معجم البلدان ٤/ ٣٧)، والملاحظ أنّ صاحب الروض المعطار شكّ فيها إذا كانت طبيرة هي طلبيرة (ص٣٨٧)، وذكر الإدريسي أن طبيرة: قرية على مقربة من الساحل بالبرتغال Tavira (ص١٧٩)، ومن ثم فالأصوب أنها: طلبيرة.

(٤) سقطت من ق.

على ضفّة الوادي إشبيلية من طَبيرة[1]، فسَبى جميعَ مَن وجَد فيها من النّساء والصِّبيان وقتَل الرِّجال، وكان قد حَلَف أن يجوزَ واديَ باجة[2] نكايةً للنّصارى أهلَكَهم اللهُ فبرَّ بيمينه، وجازه في قارب كان قدِ استاقَه من إشبيلِيَة على الظَّهر لهذا المعنى، ثم إنه أقلَعَ بمحَلّتِه مُغِيرًا على ضفّة وادي باجة[3] ثم انصَرف إلى إشبيلِيَة بالغنائم والأسرى سالـمًا غانمًا.

ثم خَرج بعدَ ذلك اللّعينُ صاحبُ السبطاط الملقَّب بالبيبوجَ بجَمْعه الذّميم فجاز في إغارته واديَ إشبيلِيَة ووصَل إلى نظرِ أرْكُش وشَرِيش، فخَرج إليه عسكر المسلمين من إشبيلِيَة فتَبِعهم فلَحِق جُملةٌ من أهل طَبِيرة النّصارى مُنصرِفينَ إلى بلدهم[4] فما شَعَروا حتّى أحدَق بهم عسكرُ الموحِّدين فقُتلوا فيها أجمعين وأُنقِذت الغنائمُ التي كانت بأيديهم من البقرِ والغنم وثمانينَ عِلجًا من أدِلّائهم، فرَحَل العسكرُ المذكور [إلى][5] إشبيلِيَة بالتبريز إليهم والعلامات والطّبول والنَّظّارة من العامّة مسرورينَ، فصُفَّت الأعلاجُ بينَ يدَي السيِّد أبي عليٍّ الحُسَين ابن أميرِ المؤمنين ثم أمَرَ بضَرْب رقابِهم فقُتلوا أجمعينَ بمحضَر الموحِّدين، وبقي السيِّدان ببلدَيْهما ظاهرَيْنِ ظافرَيْنِ في حركتِهما إلى أنِ استدعاهُما الخليفةُ أبو يعقوب.

وفي سنة ثلاثٍ وسبعينَ وخمس مئة: كان استدعاءُ أميرِ المؤمنين أبي يعقوبَ أخوَيْه: أبا عليّ الحُسَين وأبا الحَسَن عليًّا إلى حضرته مَرّاكُش، وكان خروجُهما من إشبيلِيَةَ يومَ الثلاثاء الثامن من شهرِ رمضانَ المعظَّم، ومشَى في صُحبتِهما أبو داود ملول ابن جلداسن ليتبيَّنَ أعمالَ إشبيلِيَة، وصَحِبَهما أبو عليّ بن غَرُّون وجُملةٌ من أشياخ الموحِّدينَ الإشبيليِّين، وجَدّوا في السَّير إلى أنْ وصَلا حضرةَ مَرّاكُش وعَيَّدا فيها عيد الفطر مع أخيهما وأقاما معه بحضرة مراكش شهر شوّال وذا القعدة وذا الحجة في

(١) هكذا في النسخ، وهو نصّ مضطرب، فلعل المقصود وادي تاجة، حيث تقع عليه طلبيرة.

(٢) هكذا في النسخ ولعل الصواب «تاجه».

(٣) كذلك.

(٤) في ك: «بلادهم».

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة متعينة.

المفاوضة في مصالح المسلمينَ ومحاربة أعداءِ الله الكافرين، وأمَرَهما بالانصراف إلى بلدَيْهما: قُرطُبَةَ وإشبيلِيَةَ، فوصَلا إليهما في شهر محرَّم من عام أربعةٍ وسبعينَ وخمس مئة.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ثلاث وسبعين: كانت السَّطوةُ بالوُزراء والعُمّال الخُدَماء، فمنهم: ابنُ جامع وبَنُوه وغيرُهم، وكان لهم في الوِزارة خمسَ عشْرةَ سنة، وأقاموا بمدينة مارِدَة مغرَّبينَ مهجورينَ ستةَ أعوام إلى أن مات أبو يعقوبَ في غَزْوة شَنْتَرين. ثم لـمّا استُخلِفَ أبو يوسُفَ عَفَا عنهم وعن سِواهم، وممّن انتُقِمَ منه أبو عبد الله محمدُ ابنُ الـمُعلِّم، وكان مشرفَ إشبيلِيَة، انتُقِدت عليه أخبارٌ شَنيعة وأحوالٌ فظيعة، فأمَرَ بسَجْنِه وأخْذ ما بيدِه، فلم يبقَ له سَبَدٌ ولا لَبَد(١)، وتفرَّقت جميعُ أحوالِه شذَرَ مذَر، وضُربت بعدَ محنةٍ عظيمة عنُقُه رحمه الله. وكذلك ابنُ فاخر مشرفُ سِجِلْماسَة وأبو الحَسَن عليُّ بن حَنّون، رحمَهم اللهُ تعالى.

وفي سنة أربع وسبعينَ وخمس مئة: بعَث الخليفةُ أبو يعقوبَ ابنَيْ أخيه أبي الحَسَن إلى بلاد الأندَلس، فوَلِـي أبو زيدٍ غَرْناطةَ، ووَلِـي أبو محمد عبدُ الله مالَقة.

وفيها: توفِّي أبو عليٍّ الحُسَين ابن الخليفة عبد المؤمن، وكان الواليَ على إشبيلِيَة.

وفيها: كانت وفاةُ أبي العبّاس ابن الخليفة عبد المؤمن بمدينة سِجِلْماسَة، وكان واليًا عليها.

وفيها: توفِّي أبو علي ابنُ غَزُّون، والقاضي أبو القاسم فُضَيل، وأبو محمد المالَقيُّ شيخُ طلَبة الحَضَر بمَرّاكُش، وكان من أهل العلم والدِّين والحِفظ لحديث رسول الله ﷺ ولم يزَلْ عندَ الخليفة أبي محمد عبد المؤمن في حُظْوة مكينة، وكذلك عندَ الخليفة أبي يعقوب، وكان يرفَعُ له المسائل ويتناولُ توصيلَ الوسائل ويَرفَعُ أشعارُ الشُّعراء وإخراجَ الجزاء وتقدَّم للخَطابة والصلاة بأمير المؤمنين، وإذا وصَل كتابُ فتح أو غيرِه قرَأَهُ، إلى غير ذلك، وكان له أدبٌ غَضّ وشعرٌ في الزّهد ومكفرات، ولم يزَلْ في عزٍّ وتمكين إلى أن تُوفِّي رحمه الله.

وفي هذه السنة: كان سَيْلٌ كثيرٌ بوادي إشبيلِيَةَ خَرج على جنبات طرقاته.

---

(١) أي: ماله قليل ولا كثير.

وفيها كثُر طلَبُ العدوِّ ابنِ الرَّنك في البَرّ والبحر، فدوَّخ بعضَ القُرى في الشَّرَف وغيرِه، فنظَر الخليفةُ في بَعْث ابنِه أبي إسحاقَ واليًا على إشبيلِيَة في عسكر ضَخْم.

وفي سنة خمس وسبعينَ وخمس مئة: اشتدَّت فتنةُ النّصارى في البرِّ والبحر، فوَلَّى أميرُ المؤمنين غانمَ[1] بن مُرْدنيش على الأُسطول بسَبْتَة، فعبَرَ البحرَ أولًا غازيًا مدينةَ أُشْبُونَة فتغلَّب فيها على قطعتَيْن من قطائع الرُّوم وانصَرف إلى سَبْتة، ثم عبَرَت بعد ذلك جُملةٌ ذميمةٌ من الشّياطين إلى شلطيش[2] فتغلَّبوا عليها وأسَروا فيها من المسلمينَ خَلْقًا كثيرًا وفَكّ اللهُ أسرَهم بالفِداء منهم.

وفيها: كانت وفاةُ السيِّد أبي حَفْص ابن الخليفة عبد المؤمن في ربيع الأول، وهو الذي كرَّر غَزَواتِه في المنافقين حتى أَذْعَنوا طائعين، وأنقَذَ الثّغورَ من أيدي الكافرين.

وفيها: ارتَحل السيِّدُ أبو عليٍّ الحُسَين ابن الخليفة عن قُرطُبَةَ بجميع أهلِه ووَلَده ورجالِه، ثم تَبِعه أبناءُ أخيه المتوفَّى أبي حَفْص وساروا بأجمَعهم إلى مدينة مَرّاكُش، وكان اجتماعُهم بها ممّا جدَّد الأُنْس وأبهَجَ النفْس، ثم سألَهم عن أحوال الأندَلس فأخبَروه أنّ صاحبَ طُلَيْطُلَةَ أظهَرَ نَقْضَ الصُّلح وبالَغَ في الغارةِ والقُبح، فغار أميرُ المؤمنين لذلك وجمَعَ أشياخَ الموحِّدين فأعلَمَهم بهذا الخبر، فغاروا لغَيْرتِه وتألَّموا من شُغُل بالِه وفكرتِه، وأخَذوا في الاستعداد وخُلوص نيّتِهم في الجهاد، ونظَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ في استجلاب العَرب من إفريقيّة وعَزَم على الغَزْوِ إلى مدينة قَفْصة لأن يَحسِم عِلَلَها ويسُدَّ خَلَلَها.

ذكرُ حركة الخليفة إلى إفريقيَّةَ وغزوتِه إلى مدينة قَفْصة[3]

قال الراويةُ الثِّقة: كان خُروجُه من مَرّاكُش يومَ الخميس خامسَ عشَرَ من شوّال من سنة خمس وسبعينَ وخمس مئة، وذكَرَ ابنُ صاحب الصلاة قال: حدّثني أبو الحَسَن الـهَوْزَنيُّ أنه كان يُعطي في البركةِ لعساكره في غَزْوتِه إلى قَفْصة ألفَ ألفِ دينار،

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٧.

(٢) وقع في بعض النسخ: «شلطين»، وهو تحريف، وينظر معجم البلدان ٣/ ٣٥٩.

(٣) ينظر كامل ابن الأثير ١١/ ٤٦٧-٤٦٨، والمعجب ٣٢٥، والاستقصا ٢/ ١٥٢.

تمادى ذلك مدةَ غَزْوتِه إلى أنِ انصَرف، سوى العُلُوفات والمواسات والـمَرافق في كلِّ منزل، وكتَبَ رحمه اللهُ إلى الطَّلبة الذين بجزيرة الأندلس معرِّفًا لهم بغَزْوته وحركته، فلمّا عيَّدَ عيدَ الأضحى من السنة حَضَّ على البِدَار إلى ما عَزَم عليه من الجهاد، والسُّلوك في الآكام والمِهاد، وقَدَّم ابنَه المنصورَ أبا يوسُف، فوصَل تِلِمْسانَ في هذه السنة المؤرَّخة.

وفي سنة ستٍّ وسبعينَ وخمس مئة في أولِّها: استكْمِلَتِ العساكرُ الموحِّديةُ بتِلِمْسان، وعبَّأ أميرُ المؤمنينَ جيوشَه بأحسن التعبية في الثانيَ عشَرَ من شهر صَفَر برَسْم الغَزْو إلى قَفْصةَ وبلاد القَيْرَوان، حتّى وصَل بِجَاية، فلمّا احتَلّها تحقَّق عندَه أنّ ابنَ المنتصِر يحرِّض العَرَب على الفتنة وأنه يواصلُ الممتنعَ بقَفْصةَ ويُواليه على الشِّقَاق والنِّفاق، فقُبِضَ عليه ودُخِلت دارُه فوُجِد فيها مخاطَباتُ العَرَب إليه بجَوابه بما يشهَدُ عليه ويحقِّق ما نُسِب إليه من ذلك، فأُخِذ ما كان بيده من الأموال والذَّخائر وغير ذلك.

وسار أميرُ المؤمنين من بِجَايةَ حتى كان بقُرب من قَفْصة وصَل إليه جميعُ أشياخ العَرَب من قَبِيل رِيَاح بالبِدار والمسارعة إلى الطاعة طالبينَ الأمان في دُورِهم وأنفُسِهم، فأُسعِفُوا فيما طَلَبوا، وأُسعِدوا على ما فيه رَغِبوا، ونازَلَ أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ قَفْصةَ مُحاصرًا، ولم يزَلْ يُقاتلُهم بالـمَنجَنيق وغيرِه إلى أن رَغِبوا في العَفْو فأُعفُوا، وافتُتِحت قَفْصةُ وأسكَنَها بعسكر من الموحِّدينَ ونزَلَ عنها الشّقيُّ المعروفُ بالطّويل، وذلك في شهر رمضانَ من عام ستة وسبعين.

ولـمّا افتَتحها رحَلَ عنها إلى تونُس وخاطَبَ أهلَ حضرة مَرّاكُش وأهل الأندلس وبعَث معَ الرسالة بقصيدةٍ أولها [من الطويل]:

ولـمّا انقضَى الفتحُ الذي كان يُرتجَى　　وأصبح حزبُ الله أغلبَ غالبِ
وأنجزنا وَعْدٌ من الله صادقٌ　　كفيلٌ بإبطال الظّنون الكواذبِ
وهَبُّوا كما هَبَّ النّسيمُ إذا سَرى　　ولم يترُكوا بالشرقِ عَلْقةَ آيبِ
يَغَصُّ بهم عَرْضُ الفيافي وطولُها　　وقد زاحَموا الآفاقَ من كلِّ جانبِ
كأنّ بسيط الأرض حلْقةُ خاتَمٍ　　بهِمْ ويعم البحر بعضُ المذانبِ

وَمَــدَّ عــلى رَغْــم الـصَّغار لـسِلْمِنا يدَيْه عظيمُ الرّوم في حال راغبِ
يُـصرِّح بــالرُّغْبى وبــينَ ضـلوعِهِ تــنفُّس مــذعورٍ وزفــرةُ راهــبِ
وَعَى من لسانِ الحال أفـصحَ خُطبـةٍ وما صمَتَتْ عنه فِصَاحُ القواضبِ
وأصـبحَ منحـوت الفـؤاد يــحُثُّهُ إلى المقصدِ المطلوب صورةُ طالـبِ
فأُسـعِف والمطلـوبُ مـا لا يَظُنُّــه ولله سِرٌّ في هُــــدونِ المحــــاربِ
أشَرْنــا بأعنــاقِ الجِيــاد إلــيكُمُ وعُجْنا عليكمْ من صُدور الركائبِ
إلى بُقعــة قــد يمَّـــن اللهُ فــضلَها بمَن حَلّ فيهـا مـن إمـام وصـاحبِ
سـنَطوي إليهـا بالـذّميل مَـراحلًا ونَثْني إليها العَزْم مـن كـلِّ جانـبِ

وهي طويلةٌ من قول الكاتبِ المتطبّب أبي بكر ابن طُفَيْل الوادي آشيّ، وعظيمُ الرّوم الذي ذُكِر فيها هو صاحبُ صِقِلِّيَةَ والجزائرِ الشرقية.

ولـمّا وصَل هذا الشعرُ في طيِّ الرسالة المذكورة إلى مدينة إشبيلِيَةَ استَبْشَر الناسُ بما يسَّر اللهُ لأمير المؤمنين من الفتح وكريم النُّجح، وقابَلَت منها العيونُ لذيذَ الوسَن والكَرى، واجتمَعت أشياخُ إشبيلِيَةَ برسم التّهنية للسيِّد أبي إسحاقَ فهنّوه على ذلك، وقام ابنُ الجَدّ خطيبًا بينَ يدَيْه، وأنشد أبو مروانَ عبدُ الملك بن محمد في المعنى قصيدةً أولُها [من الكامل]:

فــتحٌ يَفُــوتُ مــداركَ الأوهــامِ ويُعجِّـــزُ الإحــصاءَ بـــالأقلامِ
صَدَع الـدُّجى صَـدْعُ الـرِّداءِ بنُـورِهِ فــأرى الغُــواةَ تقـضِّيَ الأحــلامِ
خيرُ البشائرِ صُوِّغت حَـمْلَ الـمُنى بقفــول خــير خليفــة وإمــامِ
وافَـتْ كـما ابتـسم الأمـانُ لخـائفٍ وانــهَلَّ إثْـرَ الـمَحْل سَـكْبُ غَـمامِ
لــمّا طَـوى طـيَّ الـسِّجِلِّ مـشارقًا أمَّ المغــاربَ نــاصرُ الإســلامِ
يــا أيهــا المِلــكُ الــذي في ظلِّــهِ أمِــنَ الــمَرُوعُ حــوادثَ الأيــامِ
وسَــطا وجَــادَ ومــا تَباطَــا شــأوَهُ أسَــدُ العَــرِين ولا الغَــمامُ الهــامي

وجَرى علـى نَــهْج الخلافـة تابِعًـا آثارَهـــا في الـــنَّقض والإبـــرامِ
هنَّأتَنـا نُعمـى تَــجِلُّ عــن الــمُنى قـــدرًا وقِـــسمًا لــيس كالأقـــسامِ

ولـمّا أنفَذَ الخليفةُ أبو يعقوبَ عساكرَ العَرَب إلى الغَرْب على ما ذكَرَه في رسالته التي بعَثَها إلى الأندَلس، أخَذ قافلًا من إفريقيّةَ إلى مَرّاكُش وتَرَكَ مُستنابًا على إفريقيّةَ أخاه أبا عليّ الحَسَنَ بمدينة تونُس، ووَلّى أخاه أبا موسى بِجَايةَ وأنظارَها، وحينَئذٍ أخَذ في الانصراف والقُفول إلى حضرته، وكان وصُولُه إلى فاس في شهر صَفَر من عام سبعة وسبعين.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ستٍّ وسبعين: أُسِر غانمُ بن مُرْدنيشَ قائدُ الأُسطولِ بسَبْتة وأخوه أبو العُلَى وجُملةٌ من أصحابِه، واستُشهِد باقي إخوته وجماعةٌ من المسلمينَ رحَمَهم اللهُ تعالى، واحتَوى النّصارى على كثير من القطائع وعلى مَن كان فيها من المسلمينَ، وانصَرفوا إلى أُشْبُونةَ، وذلك في منتصَف محرَّم، فتقاطَعَ غانمٌ بمال عظيم وكتَبَ لأمير المؤمنينَ من موضع اعتقاله بوَصْف أسرِه وسُوءِ حاله، فوصَل كتابُه إلى تِلِمْسانَ في أول صَفَر، فأمَرَ في الحين لأبي القمر هلال بن محمد بن مُرْدَنيش أخي غانم أن ينصرفَ إلى حضرة مَرّاكُش لينظُرَ في فداءِ أخيه، وأمَرَ بإنشاء الأُسطول بإشبيلِيَة، فلمّا وصَل أبو القمر إلى مَرّاكُش حضَرَ المالُ وبعَثَ به إلى إشبيلِيَة، فانصَرف الفِكاكُ به ودَفَعه إلى العدو، وانطلق غانمٌ المذكور من الأسر وأخوه ومَن كان بقيَ من أصحابه.

ثم كثُر كَلَبُ العدوِّ في هذه السنة في البحر، وكان النّصارى من أهل طُلَيْطُلَة وشَنْتَرِينَ طولَ مدة مَغِيب أمير المؤمنينَ قد ألحُّوا على جهات الأندَلس بالنِّـكاية وشنِّ الغارات على القُرب والبعد من بلاد الإسلام، فلمّا وصَلتِ البشائرُ بوِفادة أمير المؤمنين نَشِطت النفوسُ لجهاد أعداءِ الله الكفّار، فأبْلَوْا فيهم بلاءَ مَن أخَذ بالثار.

وفي هذه السنة: توفِّي أبو يعقوبَ ابن بخيت بغَرْناطة، والقاضي أبو عبد الله ابن القاضي عِيَاض، وأبو الحَسَن ابن يَرْبوع قاضي مالَقةَ رحَمَهم اللهُ تعالى.

وفي سنة سبع وسبعينَ وخمس مئة: وصَل البشيرُ إلى إشبيلِيَة بوصُول الخليفة إلى حضرته، فمشَى السيِّدُ أبو إسحاقَ منها للقاءِ أبيه وتهنئتِه ومشَى صُحبتَه ابنُ وانودينَ

وغيرُه من الموحِّدين وأشياخُ إشبيلِيَة، وعندَما عَلِم أشياخُ قُرطُبَةَ وغَرْناطةَ ومُرْسِيَة بِدار أهل إشبيلِيَة أخَذوا في الـمَشْي إليه والوفودِ عليه، فوصَلوا معَ السيِّد أبي عبد الرحمن يعقوبَ بن عبد المؤمن الوالي على مُرْسِيَة، ثم إنّ هذا الوَفْدَ المذكورَ أقام بمَرّاكُش إلى أوّل شهر ذي القَعدة ثم انصَرفوا إلى بلادهم.

وفي هذه السنة: عسكَرَ أبو عبد الله محمدُ بن وانودينَ الـهَنْتاتيُّ بجميع الموحِّدين من أهل إشبيلِيَةَ وجميع مَن كان فيها من الأجناد، وحشَدِ أهل الحصُون من الخَيْل والرُّماة، وخَرج من إشبيلِيَةَ في غاية منَ الاستعداد، فغَنِم المسلمونَ جميعَ ما وجَدوه بخارج يابُرةَ من الغَنَم والبقر، ونازَلَهم في يوم عاشُوراء، وأمَرَ بقَطْع ثمارِها وأشجارِها وكرومِها وإعفاءِ رسُومها، وابنُ وانودينَ يَقدُمُ المسلمينَ كاللّيثِ الضاري، ويستعينُ في جهادِه بالخالق الباري ـ والكفَرةُ أهلَكَهم الله قدِ انْجَحَرُوا خلْفَ سُورِهم انْجحارَ الثعالبِ العاوية إذا سَمِعت زئيرَ الأسودِ العادية ـ ولقد كان يومًا في خِبائه نائمًا في القائلة والمسلمونَ يُغيرونَ في كلِّ جهة، فخَرجَتِ النّصارى من يابُرةَ في حين غَفْلة، فاستيقَظَ من نومِه، وركِب من فَوْرِه، فهزَمهم أجمعينَ حتّى تَساقَطوا في حَفير السُّور رجالًا دون دوابّ، فأُخِذت دوابُّهم وأسلابُهم وقُتل منهم خَلقٌ كثير ولم يَخرُجْ منهم بعدَ ذلك قليلٌ ولا كثير. وأقام ابنُ وانْودينَ عليها يومَيْن وانصَرف عنها بالعسكر فصَبَّحوا حِصنًا آخرَ للنّصارى يُسمَّى حِصنَ فنج[1] فساء صباحُهم ولم يستيقظوا من سَكْرتهم إلا واللّيلُ قد أحاطَ بهم من كلِّ جانب فتغلَّبَ على الحصن، وفتَحَه ومنَحَه اللهُ من المغنَم ما مَنحَه فسَبى من النّساء أربعَ مئة بينَ كبيرة وصغيرة، ومن الرّجال مئة وعشرينَ وقتَل منهم خَلقًا كثيرًا، ودخَل إشبيلِيَةَ في داخِل الـمُحَرَّم في تبريزٍ وحَفْل عظيم، وباعَ السَّبيَ بها فكثُر عندَ الناس الخَدَم، وامتدّت النِّعَم.

وفي هذه السنة: كانت وَقْعةٌ أيضًا على النّصارى في البحر، وذلك أنّ قائدَ سَبْتَة عبدَ الله بن جامع، وهُو الـمُوَلَّى عليها، حين أُسِر غانمُ بن مُرْدنيش، خَرج منها بالأُسطول، وخَرج القائدُ أبو العبّاس الصِّقِلِّيُّ من إشبيلِيَةَ بأساطيلِها، واجتَمَعوا جميعًا

---

(١) هكذا في النسخ كافة وقد ترسم «بنج» لأن أصلها باء أعجمية P، ونبه هويسي ميرندا إلى أن الصواب فيه قليج.

بجزيرة قادِسَ وقدِ استكمَلوا أربعينَ قطعةً، فنَهَضوا منها بجَمْعهم إلى جهة شِلْب، فالتقَوْا بأُسطول أهل أُشْبُونَةَ بالموضع الذي أُسِر فيه غانمُ بن مُرْدنيشَ في البحر، وعكس فيه في مُنتصَف محرَّم من العام الفارِط فالتقوا الآنَ في الخامسَ عشَرَ من محرَّم أيضًا، وهذا من أغربِ الأشياء، فنَصَر اللهُ المسلمينَ في هذا اليوم نَصْرًا مؤزَّرًا وقَتَل من النّصارى كثيرًا وأَسَر منهم نحوَ الألف وثماني مئة، ولم يمُتْ فيه من المسلمينَ[1] إلا رجلٌ واحد وأُخِذت لهم من القطائع نحوُ العشرينَ معَ أسلابِهم وأسلحتِهم واقتَسَموا الغنيمةَ منَ الأسرى وغيرِهم وانصَرفوا ظاهرينَ ظافرينَ إلى موضعِهم، وبادر القائدانِ المذكوران: ابنُ جامع والصِّقِلِّيُّ بغنيمتَيْهما من الأسرى إلى أمير المؤمنين فأعطَى منهم البعضَ في فداءِ غانم من مُرْدنيش وضُربت أعناقُ الباقين.

وألَـحَّت خيلُ النّصارى أهلَكَهم الله من أهل شَنْتَرينَ بالضَّرب على بعض بلاد المسلمينَ بالشَّرَفِ وغيرِه، فخَرج إليهم عسكرُ المسلمين من إشبيلِيَة فتقاتَلوا قتالًا شديدًا، وقُتل فيه من النّصارى نحوُ مئةٍ وسبعين، ثم خَرج كمينُهم فانهزَم المسلمونَ واستُشهِد منهم جماعة. ثم توالَت خيلُ طُلَيْطُلة بالضَّرب على إستِجَة وجِهة قُرطُبة فخوطب بذلك الخليفةُ بالحضرة.

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة: وقَعَت بالأندَلس أحداثٌ قبيحة، فمن ذلك: أنّ خيلَ النّصارى من جهة شَنْتَرِينَ وإشبُونَة وصَلوا إلى قرية شُلَوْقَة[2] من الشَّرف، فضَربوا عليها في ألفِ فارس وألفِ راجِل وقَتلوا مَن وَجَدوا من المسلمين وأَسَروا وغَنِموا وأغاروا على حِصن القَصْر وغيرِه، وانصَرف هذا العدوُّ دمَّره اللهُ على طريق لَبْلة موفورون، والمسلمونَ بين أيديهم مأسورون.

وحادثٌ أيضًا، وهو خروجُ الطاغية العدوِّ أذْفُونْشُ الصّغيرُ أهلَكَه اللهُ إلى بلادِ المسلمين بجَمْعه الذّميم زاعمًا أنه يحتوي على الأندَلس، ووصَل وَفْدٌ إلى إشبيلِيَةَ من قُرطُبة يعرِّفونَ أنّ الطاغيةَ أذْفُونْش ابن شانجُهْ ملك قَشْتالةَ وطُلَيْطُلة قد وصَل بجُموعِه لحصارِ قُرطُبة، فارتفعَ السعرُ بها ارتفاعًا عظيمًا، ثم تَرادَف الخبرُ بنزولِه

---

(١) قوله: «من المسلمين» سقط من ك.

(٢) معجم البلدان ٣/ ٣٥٩.

عليها وانتقالِه بعساكرِه الذّميمة إليها في الرابع من صَفَر، فنزَلَ بمقرُبة منها وشَنَّ غاراتِه إلى جهة مالَقة ورُنْدة وغَرْناطة، فغلا السعرُ لذلك وعَظُمت الضِّيقةُ، ونظَر ابنُ وانودين في توجيه الموحِّدين لضبط البلاد المجاوِرة لإشبيلِيَةَ وشدِّها بالرِّجال، ودَفَعوا بعضَ ضَرَر النّصارى بفَحْص قَرْمُونة وأبو عبد الله ابنُ وانْودين شديدُ العَزْم والحَزْم في النّظر حولَ إشبيلِيَة وخيلُ العدوِّ تَجُولُ يمينًا وشمالًا في اكتساح وتدمير. ثم نازَلَ إستِجَةَ ولازَمَها حتى نَقَب سُورَها وكاد يتغلَّبُ عليها، وكان حافظَها أبو محمد ابنُ طاع الله الكوميُّ[1]، فثبَّتَه اللهُ فيها وثبَّت أقدامَ المسلمين. ولـمّا كان يومُ الخميس الثالثَ عشَرَ لصَفَر أقلعَ من إستِجَةَ يريدُ إشبيلِيَة، فأقام العدوُّ في فسادٍ وتدمير، وفي خلال ذلك دخَل حصنًا من عَمَل رُنْدة بغَدْر يهوديٍّ دَلَّهم على عوراته، وأخَذوا فيه ألفَ نَسَمة وأربع مئة ما بينَ رجل وامرأة، وأحرَقوا الزّروعَ بنَظَر الجزيرة ورُنْدة حتّى اجتَمع عندَهم من المغنَم من كلِّ قُطرٍ وجِهة ما لا يُحيطُ به الوَصْف.

وحادثٌ أيضًا، وهو تغلُّبُ العدوِّ على حِصن شنتفيلةَ[2] والمنار على ما كان عليه منَ الامتناع والارتفاع، فطَمِع العدوُّ في غيرِه، وقال لأقماطِه حين أخَذ شنتفيلةَ: الآنَ آخُذُ قُرطُبَةَ وإشبيلِيَةَ، وكان تغلُّبُه عليها في السابعَ عشَرَ من صَفَر، فأَسَر فيه منَ الرّجال والنساء سبعَ مئة ففَداهم أهلُ إشبيلِيَة بألفَيْن وسبع مئة دينار وخمسة وسبعينَ دينارًا ذهبًا، دَفَع منها ابنُ زُهر من مالِه مئةَ دينار عَيْنًا والباقي جَمَعه الناسُ بالمسجد.

وحادثٌ مروِّعٌ أيضًا، وهو تحصينُ العدوِّ بشنتفيلةَ وإسكانُها بالنّصارى وجَلْبُ الأقوات إليها وتقويتُها بالعُدَد والآلات، فلمّا أكمَلَ مُرادَه أسكَنَ فيها خمسَ مئة فارس وألفَ راجِل وعاهَدَهم على حمايتِهم وإعانتِهم، وأقلَعَ لعنه اللهُ إلى بلاده في الثالثَ عشَرَ لشهر ربيع الأول من السنة، وكان تدويخُه أقطارَ الأندَلس خمسةً وأربعين يومًا. ولـمّا تُحقِّق انصرافُ العدوِّ إلى بلاده اجتَمع رأيُ الموحِّدين على مُنازلة شنتفيلةَ ودَفْع دائها العُضال.

---

(١) اسمه عبد الله، وينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٢، والاستقصا ٢/ ٢١٧.

(٢) وتكتب «شنت فيلة» كما في معجم البلدان ٣/ ٣٦٧.

ذكرُ مُنازلة شنتفيلةَ التي غدَرَها اللَّعينُ في هذه السنة

فاستَنْفَر السيِّدُ أبو إسحاقَ ابنُ الخليفة أبي يعقوبَ صاحبُ إشبيلِيَة جميعَ الأجنادِ والحشود من بلادِ الأندلس برَسْم الجهاد، فوصَلوا أجمعين، فتحرَّك من إشبيلِيَة غُرَّةَ ربيع الآخِر من سنة ثمانٍ المؤرَّخة، واتَّفق في هذا اليوم فتحٌ استَبْشَر الناسُ به، وذلك أنّ أكثرَ النّصارى الذين كانوا بشنتفيلةَ خَرجوا منها وأغاروا على بعض الجِهات، فخَرج المسلمونَ في اتّباعِهم من قَرْمُونةَ وغيرِها فالتقَوْا معَهم وهزَموهم وقَتلوا منهم سبعينَ فارسًا وأَسَروا آخَرينَ واستاقُوهم مكبولينَ إلى السيِّد أبي إسحاق، فضَرَب أعناقهم في الطريق.

ولـمّا وصَلتِ العساكرُ إلى شنتفيلة أحدَقوا بها من كلِّ جانب، فضاقَت حالُ الكَفَرة وعَدِموا الشّعيرَ لعَلَف دوابِّهم فعَلَفوها القمحَ فمات أكثرُها، فأقام المسلمونَ عليهم ستةً وأربعينَ يومًا، فلمّا كان السادسُ لجُمادى الأُولى وصَل الخبرُ أن أذْفُونْش خَرج من طُلَيْطُلَةَ قاصدًا لنَصْر إخوتِه الملعونين، فأقلَعَ السيِّدُ والموحِّدون وانصَرفوا إلى إشبيلِيَة، ثم وصَل العدوُّ بعدَ أربعة أيام من إقلاع المسلمين، فخَرج إليه من شنتفيلة إخوتُه الكَفَرة فميَّزهم فلم يجِدْ من الخمس مئة فارس إلا خمسينَ فارسًا ومات الباقونَ بالقَتْل والوباءِ وعَلْفِ القمح للدوابّ، ولم يجدْ من الرّجال إلا ست مئة من ألف، فأمَرَ لهم بالرّحيل عنها والإخلاءِ منها في الخامسَ عشَرَ لجُمادى الأولى من السنة.

اختصارُ الخبر عن حركة الخليفة أبي يعقوبَ إلى بلاد السُّوس لقَطْع المنافقينَ عن المعدِن

وذلك أنه لـمّا صَحَّ عند أمير المؤمنينَ أنّ المعدِن الذي بجَبَل السُّوس على مقرُبة من بلاد هرغةَ قد أُخرِج منه شيءٌ لم يُعهَدْ في قديم الزّمان ولا سَلَّه قطُّ أهلُ ذلك المكان، وظَهَر أهلُ هذا الجَبل بما تحصَّل في أيديهم منه واغتَصَبوه لأنفسِهم دونَ حقّ منه للخليفة، فعسكَرَ في أوّل صَفَر من سنة ثمانٍ وسبعينَ وخمس مئة وخَرج من حضرة مَرّاكُش لتحصينِه وتحصيلِه، فوصَل إلى المعدِن المذكور، فنظَر الخليفةُ في بناء حِصن عليه وأسكَنَه بالأجناد واستعَدَّ لتحصينِه غايةَ الاستعداد. فلمّا أكمَلَ غرَضه أقلَع بمحَلّاتِه

عنه وسلَكَ على مسالكِ الـمَهْديِّ وزارَ قبرَه وقبرَ أبيه عبد المؤمن وأظهَر الإيحاشَ إليهما وأسكَبَ عبَراتِه عليهما، وأمَرَ وفودَ الأندَلس أن يسيروا من مَرّاكُشَ إلى زيارتهما.

قال أبو مروان عبدُ الملك بن محمد في تاريخِه: وكنتُ في وَفْد إشبيلِيَة، فزُرتُ القبرَيْنِ المكرَّميْنِ بتينملَ معَ أبي بكر بن زُهْر وأبي الوليد بن رُشْد، وأمَرَ طلبةَ[1] الحضَر أن يَرْثُوهما ويَذكروا غُرَّ فضائلِهما ومآثرِهما، فقال الناسُ في ذلك وأطْنبوا، فحَباهم عليه بالعطاءِ الكثيرَ، فمِن ذلك قولُ أبي مروانَ بن خالد [من الطويل]:

مجَـاري عيـونِ المـسلمينَ تَـسيلُ ... دمًـا ونَجيعًـا والـدموعُ هَــمُولُ
ألم تَـرَ أنّ الـدّهرَ قـد عـمَّ صَرْفُـهُ ... ففــي كــلِّ دار أنّــةٌ وعَويــلُ
وإنْ طـال في الـدُّنيا مقـامٌ لإمـرئ ... فـلا بـدَّ يومًـا أن يكـونَ رحيـلُ
فيا رَوْضةَ الـمَهْديِّ حَلّ بكِ الـهُدى ... وسِرٌّ مـعَ الأيـام لـيسَ يَـحُولُ
أحقًّـا أمـيرُ المـؤمنينَ إمامُنـا ... مَـحَا القمـرَ الـدِّينيَّ منـه أُفـولُ
أحقًّـا مـضَى المنـصورُ واختـار ربَّـهُ ... فلـيس مـدى الأيـام منـه قُفـولُ
مـضَى بعـدَ مـا أحيـا الأنـامَ بـهَدْيِهِ ... وقــام بــأمرِ الله وهْــو كفيــلُ
وطَهَّـر ديـنَ الله مـن دَنَـسٍ بـهِ ... وأظهَـر هَـدْيًا جـاء فيـه رسـولُ
أقــام بــأعلى تيـنملَ وإنّـما ... إلى جانـب الـمَهْديِّ منـه نـزولُ
هما في جِنان الخُلد في صَفْوة الـرِّضَى ... مَقِــيلُهما عنــدَ الإلــه مَقِيــلُ
مـعَ المـصطفى خـيرِ الأنـام محمـدٍ ... وظِلُّهــما عنــدَ الإلــه ظَليــلُ
فطُـوبى لأرضٍ حَـلّ فيهـا إمامُـهُ ... ولله مَهْــديٌّ بهــا وخليــلُ
ويـا عجَبًـا للقـبرِ كيـف أحُلُّـه ... وقـد كانـت الـدّنيا إليـه حَلـولُ
فحُقَّ لأهل الدِّين سَكْبُ دموعِهمْ ... وحُـقَّ لكـلِّ المـؤمنينَ ثُـكولُ
فتبكي عليه الخيـلُ في حالـة الـوَغَى ... إذا كـان ضربٌ والبكـاءُ صَـهيلُ

---

(١) في ك: «بطلبة».

ويَبكيه أهلُ الغَـرْب والـشّرق دائـمًا | وتَنـــدُبُهم شُــبّانُهمْ وكهـــولُ
كــأنّ الغــواني الباكيــاتِ حمــائمٌ | يُــهيِّجُها عنــدَ العَــشِيِّ هَــديلُ
لئن كان أصلُ الحقِّ في التُّرب قد ذَوَى | فــإنّ لفَــرْع الحــقِّ منــهُ أُصــولُ
فــألقَى إلى خــيرِ الخلائــفِ عهــدَهُ | أجــلِّ بَنيــه وهْــو منــهُ سَــليلُ
إلى مَــن لــهُ في العِلــم أكثــرُ مــذهبٍ | وكـــلُّ كثـــيرٍ في عُـــلاهُ قليـــلُ
إلى شِبْهِهِ في الخَلْـق والخُلْـقِ والـرِّضَى | لــه الخُلفــاءُ الكــافِحونَ قَبيــلُ
هــو الطــاهرُ الــصَّوّامُ كــلَّ زمانِــهِ | رؤوفٌ بحــالاتِ الأنــام مُقيــلُ
فــلا زال منــصورًا بــأمرٍ مظفَّــرٍ | وأســيافُهُ في الكــافرينَ تَــصُولُ

وأما الرابِطتانِ اللّتان بقُرب الغار الذي في جَبل إيجليزَ حيث كان المَهْديُّ رضيَ اللهُ عنه، فالواحدةُ(١) منهما تُسمَّى: رابطةَ وانسري، والأخرى: رابطةَ الغار، فكان الناسُ يأخُذونَ التّرابَ منهما فيتبرَّكونَ به ويجعَلونَه على المرضى. ولـمّا انقَضت هذه الزيارةُ انصَرف الخليفةُ إلى مَرّاكُش وانصَرف الناسُ معَه.

وفي مدة هذه الحركة المباركة، كان خروجُ الطاغية أذْفُونْش، لعنه الله كما تقدَّم ذكرُه، إلى نَظَر قُرطُبَةَ وإشبيلِيَة، وأحدَث فيهما مَن العَيْث ما أحدَث، فرأى الخليفةُ أن يَنظُر للموحِّدين بالأندَلس بتقوِية عَزْمِهم وإعمال جَدِّهم وحَزْمِهم وأمرِهم بالصبر، فيسَّر اللهُ سبحانَه حديثَ شنتفيلةَ على ما ذكَرْنا، ونظَرَ ابنُ وانُودينَ الآنَ في الغزوِ على ما أذكرُه.

ذكرُ غَزْوة ابن وانْودينَ إلى طَبِيرةَ(٢)

ونظَرَ أبو عبد الله ابنُ وانْودين في الجهاد، فاشتَغَلَ بحَشْد الأجناد، فاجتَمعوا بإشبِلِيَة على أكمل المراد، فتحرَّك بالعسكر في الثامن لجُمادى الآخِرة سنةَ ثمانٍ وسبعينَ ومعَه الموحِّدونَ وأشياخُ الأندَلس، وسلَكَ بهم على طريق قُرطُبة، ثم تَرَك طريقَها

---

(١) يعني: الأولى، أو إحداهما.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٤. وفيه: «طلبيرة»، وأثبتنا ما في النسخ، وسبق أن علّقنا على هذا الأمر، فالمراد: طلبيرة.

وسلَكَ على غير طريق، حتّى خَرج إلى حِصن بثةَ[1] المنسوب لابن سعيد الخَيْر، ولـمّا وصَل إليه ميَّزَ العسكرَ عليه فألفَى فيهم عَددًا وافرًا فسَرَّه ذلك، وتَشاوَرَ معَ الأشياخ فاتّفق رأيُ الجميع أن يَضرِبوا على مدينة طَبِيرة، فتحرَّك بالجميع المذكور من حِصن بثةَ وسار سيرًا مُرتفِقًا بالناس مدةً من ثلاثة أيام وقد ستَرَه اللهُ بالضَّباب والغَيْم حتى خَفِيَ على النّصارى وصولُه، فلمّا كان بمقرُبةٍ منها التقَوْا بسَرِيّة من النّصارى نحوٍ من عشرينَ فارسًا فأحدَقوا بهم وأخَذوهم إلا دليلَهم، فإنه فَرّ، ولـمّا قرُبَ المسلمونَ من وادي تاجُه[2] لم يجِدوا مغنمًا[3]، فعَلِموا أنّ ذلك الفارَّ قد أُعْلِمَ بخبرِهم وكشَفَ عن أثَرِهم فأَزْعَجوا في السَّير إلى قُرب طَبِيرة فأغاروا على ما وجَدوا من المغنَم في فَحْصِها وساروا على تعبِيةٍ وترتيب وحَنَق على عَبَدة الصّليب حتّى وصَلوا طَبِيرةَ المذكورةَ في منتصَف جُمادى الآخِرة من السنة المؤرَّخة.

وفي غدِه كانت الغَزْوةُ في الكَفَرة والحمدُ لله، فنزَلَ المسلمونَ في رَبْوةٍ مرتفعة مجاوِرة للمدينة بنَحْو مِيل وضَرَبوا أخبِيتَهم ونشَروا ألوِيتَهم وباتوا بها ليلتَهم أحسَنَ مَبيت، فأنكَر النّصارى ما عايَنوهُ من الإقدام عليهم والثّبوت لدَيْهم، وكانوا منذُ سبعينَ سنةً لم يَرَوْا مسلمًا في تلك الأرض إلّا إن كان مأسورًا عندَهم، فحَشَدوا جميعَ من في بلدِهم وبَعَثوا عن أهل الحصُون المجاوِرة لهم، واجتَمعوا كلُّهم وخَرجوا إلى الرَّبوة المذكورة، فقلَّلهم اللهُ في أعيُنِهم والمسلمونَ قد أقلَعوا مُنصرِفينَ بعدَ ما امتلأَتْ أيديهم من المغانم والأَسرى، فجَدّ الكَفَرةُ في اتّباعِهم، وعزَموا على مقاتلتِهم ودفاعِهم، إلى أنِ اتّبَعوهم نحوَ ثمانيةِ أميال ولم يبقَ في طَبيرةَ شيخٌ ولا صَبِيٌّ إلا خَرج، ومعَهم القِسِّيسُ يُحرِّضُهم على القتال ويَضمَنُ لهم الظَّفَر، وابنُ وانودين يَقدُمُ أصحابه ويَعِظُهم بما لهم عندَ الله من الأجر والثّواب على الجهاد، وهو معَ ذلك يُطاولُ معَ النّصارى الـمُقاتلة ويقطَعُ الأرضَ باعًا باعًا ليَخرُجَ من قُرب بلادهم، إلى أن أشرَفوا على جَبل يَستُرُهم فنزَل العسكرُ وراءه وقال لهم: هذا موضعُ الحرب إن شاء الله،

(١) في ك: «ثبة».

(٢) في النسخ: «باجة» وهو تصحيف ظاهر.

(٣) في ك: «غنمًا»، وهو تحريف.

واعلَموا يا إخوانَنا أنّ أرضَكم بعيدة وأنّ الفِرارَ يُدخِلُ النار فتثبَّتوا يَنْصرْكُم الله، فتوادَعَ النّاسُ وعَزَموا على الجهاد، فتقدَّم أبو عبد الله ابنُ وانودين والمسلمونَ معَه للدّفاع فحَمَلوا على الكَفَرة حملةً أهلَكَهم اللهُ فيها فانهزَموا وولَّوا أدبارَهم وقطَعَ اللهُ آثارَهم، ومات منهم في الموضع المذكور أزيَدُ من عشَرة آلاف بينَ فارس وراجِل وقُتل فيها من اليهود نحوُ الألف، وامتلأت أيدي المسلمينَ من أسلابِهم ودوابِّهم.

ودخَل ابنُ وانودين والمسلمونَ إلى إشبيلِيَة شاكرينَ مسرورينَ بما فتَح الله عليهم، وعُرِّف أميرُ المؤمنينَ بصُورة هذا الفتح فسُرَّ به غايةَ السّرور، وخاطَبَ بذلك ابنَ وانودين وقال في خطابِه له: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فبقيَ أبو عبد الله من ذلك في وَجَل وتحتَ كَسَل. وتغيَّر الخليفةُ على السيِّد أبي إسحاقَ في كونه لم يحضُرْ تلك الغزوةَ التي نُسِبت لابن وانودين وهُو من[1] جُملة قُوّادِه، وعاقَبَ كلَّ مَن تخلَّف عن الأجناد وهَجَر، وحُرِم من العطاء حتى تابَ واستغفَر.

بعضُ أخبار يوسُفَ بن وانودين الـهَنْتاتيِّ
وما كان لابنه محمدٍ من المآثر

وذلك أنه لم يتقدَّمْ أحدٌ من الموحِّدين بالدّخول في هذا الأمر وهو أميرٌ على قبيلة إلا أبا يعقوبَ يوسُفَ بن وانودين، فإنه وصَل معسكرًا في قبيلته ومَن طاوَعَه من إخوانِه الـهَنْتاتيِّين فضَخُم به التوحيد وعَظُم به التمهيد، وهو الذي استاق قبيلةَ جزولةَ وجَلَبَهم وأدناهم لهذا الأمرِ العالي وقرَّبهم، وكان عندَ الخليفة أمير المؤمنينَ من كبار أهل خمسينَ، ونشَأ أبو عبد الله هذا أحسَنَ مَنْشَأ على الطّهارة الدِّينية وتلاوة كتابِ الله تعالى معَ العقائد الـمَهْديّة وعَرَض «الموطّأ» في المجلس السامي بمحضرِ أمير المؤمنينَ عبد المؤمن وعِلْية الناس، وقَرَّبه كثيرًا معَ صِغَر سنِّه فزادت نَجابتُه وعَلَت مكانتُه، وقَدَّمه قائدًا على العسكر، وأصحبَه معَ نفسِه في الغَزَواتِ والحَركات، وحضَر معَه فتحَ بِجَايةَ والـمَهْديّة وسائرَ الفتوحات، وكان بطلًا شُجاعًا ذا نَجْدة وشَهامة،

---

(١) وقع سقط كبير في ق، ك، ر٣، ب من هنا إلى قوله في العنوان الثاني «الحافلة الاستعداد»، وهو عنوان الخبر المبتدئ بقوله: «اختصار الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوب من مراكش إلى غزوته الحافلة الاستعداد... إلخ».

وله الوقائعُ المشهورة والمشاهدُ المذكورة، من ذلك: معَ عسكر ابن مُرْدنيش وأهل شَرْق الأندَلس، وحَرْبُه معَهم في سنة سبعين، وهزيمتُه أيضًا للنّصارى أهل شَنْتَرين، وفَتْحُه لِحصن بنج وسَبْيُه أهلَه، وهزيمتُه أيضًا للنّصارى الذين أغاروا على حِصن برجانةَ وقَرْمُونة، وتوصيلُه المِيرةَ العظيمة إلى مدينة بَطَلْيَوْس، ومواقفُه لأذْفُونْش في اليوم المشهور في حِصن الغلال، وتغلُّبُ المسلمينَ من الفرسان والرِّجال على أخبية محَلّة الطاغية أذْفُونْش لعنَه الله، وإنقاذُهمُ الأسرى والـمَغانمَ من أيدي النصارى، وإقلاعُ أذفُونْش باللّيل من ذلك الموضع فارًّا أمامَه، إلى غير ذلك من مَناقِبه. ثم بعدَ ذلك عَدَا عليه الزّمان وطولبَ وأُدِّب بسُكناه حِصنَ غافِق: من ثغور الأندَلس، ثم بعدَ ذلك استقرَّ بتونُسَ على ما يأتي.

وفي هذه السنة، وهي سنة ثمان(١) **وسبعين**: غَلَتِ الأسعارُ بمَرّاكُش والأندَلس، واعتَلَّ الخليفةُ فوَفَدت عليه الأطباءُ من الأندَلس للمعالجة إلى أن وجَد الراحةَ فامتَدحَه الشعراء، وعمَّهم منه النَّيلُ والإعطاء، فمنهم: أبو العباس بنُ عبد السلام، قال من قصيدة يمدَحُه ويهنِّيه ببُرئه [من الوافر]:

ستملِكُ أرضَ مصرٍ والعراقـا ... وتَـجري نحوَك الأُممُ استباقا
إذا لم يتفـــــقْ رأيٌ ورأيٌ ... أفـــادا في محبّتِـــك اتّفاقـــا
صَفَا لك كلُّ قلبٍ غيرِ صافٍ ... وزَحْزَح عن ضمائره النِّـفاقا
وحقِّكــمُ وحقُّكــمُ عظــيمٌ ... لقد حَسُن الزمانُ بكم وراقـا
وقد بَلَـغ الوجـودُ بكـمْ مُنـاهُ ... وقد أمِنَت عصا الـدِّين انـشقاقا
تبادَرَت الفتوحُ إليـه تَـجري ... غرائبُهــا وتَــستبقُ اسـتباقا
أمـيرَ المـؤمنين ومَـن عليـهِ ... سَـنَا الإسـلام يـأتلقُ ائتلاقـا
ويـا ملكًـا أحَنَّـت كـلُّ أرضٍ ... إلى أرضٍ أقــام بهــا اشـتياقا
يــحِنُّ إليــك يــومٌ غــيرُ آتٍ ... ويشكو الذاهبُ الماضي الفراقـا

(١) في م: «ثلاث» ولا يستقيم.

شكوتَ فأيُّ قلب غير شاكٍ   وأيُّ العيش لم يَمرُرْ مذاقا
ولولا عَطْفَةُ الإبلالِ كنّا   بنار الوَجْد نحترقُ احتراقا

وقال أيضًا يمدَحُه ويهنِّيه بالعيد [من المحدث]:

شَمِلت ببقائكمُ النِّعَمُ   وسَمت برجائكمُ الهممُ
وهَمَت دِيَمٌ من راحتِكمْ   هيهاتِ تُساجِلُها الدِّيَمُ
وعنَتْ لعزائمِكمْ عرَبٌ   تَشقَى بصوارمِها العجَمُ
أُسْدٌ تنقادُ الأُسْدُ لها   بُهَمٌ تنقادُ لها البُهَمُ
حُمِدت شِيَمُ الأيام بكمْ   ولكَمْ ذُمَّت منها الشِّيَمُ
بهَرت أنوارُ خِلافتِكمْ   وسماءُ العلم بها عَلَمُ
فرَأى مَن ليس له بَصَرٌ   ووَعَى من كان به صَمَمُ
وأناف المجدُ على زُحَلٍ   وأتَى بغرائبِه الكرمُ
أعيَا البُلغاءَ مَقامُكمُ   ولوَ أنّ مقالَهمُ حِكَمُ
العيدُ أحقُّ بتهنئةٍ   فله بكمُ فخرٌ عمَمُ
دُمتُمْ والكلُّ يَلوذُ بكمْ   من صَرْف الدّهرِ ويَعتصمُ

وفي هذه السنة: توفِّي قاضي الجماعة بمَرّاكُشَ أبو موسى بنُ عِمران في الخامس وعشرينَ لشعبان، وكان فريدَ زمانِه دِينًا وعِلمًا وأدبًا، فمِن قوله عند وفاتِه رحمه الله تعالى [من الكامل]:

دَعْ ذكْرَ دارٍ قَصْدُها أن تَخرَبا   واعمَلْ لدار مُلكُها لن يذهبا
فالله مولانا يصُونُ جميعَكمْ   لا أرتجي أَرَبًا سواه ومطلَبا
وهْو الكفيلُ برحمتي وسعادتي   هذا وإن كنتُ المسيءَ المُذنِبا

وفي اليوم الذي توفِّي فيه أبو موسى بنُ عمران وَلِي مكانَه القضاءَ أبو العباس ابنُ مضاء.

وفي سنة تسع وسبعينَ وخمس مئة: أمَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ رحمه الله بتَوْسِعة مدينة مَرّاكُش وهَدْم سورِها الأوّل وإقامة سُورٍ آخَر.

ذكرُ السببِ في توسِعة مَرّاكُش حرَسَها الله

وذلك لـمّا دانَتْ لأمير المؤمنين المغربُ والأندَلس وإفريقيّة وملَكَ ملوكَها، وهَتك شركَها وشريكَها، واجتَمع في طاعتِه جميعُ أهل العُدوتَيْن طُرًّا، إلى أحواز طَرابُلُسَ برًّا وبحرًا، انْجَلى الناسُ إلى مَرّاكُش مِن كلِّ مكان، وتفاخَروا في سُكناها بحسَبِ القُدرة منهم والإمكان، فصارت أوسعَ البلاد معاشًا وأكثرَها خَلْقًا وأربحَها تجارة، فضاقت بالناس، فلم يَجِدوا موضِعًا للبناء ولا محَلًّا للسُّكنى، وكان الأميرُ أبو يعقوبَ أمَرَ القبائلَ هسكورةَ وصُنْهاجةَ أن يَرتحلوا من بلادهم إلى سُكناها بأهلهم وبَنِيهم فامتَثلوا ذلك ووصَلوا ولم يجِدوا حيث ينزلون، فشَكَوْا ضيقتَهم وحَيْرتَهم فنظَر أميرُ المؤمنينَ في ذلك، فركِبَ السيِّدُ المنصورُ ابنُه أولَ يوم ربيعِ الآخِر ومعَه شيوخُ الموحِّدين وعُرَفاءُ البنّائين ينظُرونَ تحتَ نظَرِه حيث يكونُ هذا الاتّساع، والأمرُ المطاع، فاتّفق رأيُهم على زيادة مدينةٍ متّصلة من جهة القِبلة، فرجَعوا إلى الخليفة وأعلَموه بذلك، فرأى رأيَهم وأمضَى سعيَهم، وأمَرَ العبيدَ والرّجالَ بهَدْم السُّور القديم بجهة بابِ الشريعة، وكان الابتداءُ في بناء الأساس المذكور صبيحةَ يوم الاثنين الخامس والعشرينَ من ربيع الآخِر من السنة المؤرَّخة، واتّصل بناءُ السُّور المذكور وبناءُ باب الشريعة مدةً من أربعينَ يومًا حتى كُمِّل، وجاء على ما قُدِّر فيه وأُمِّل.

وفي هذه السنة: كان الحادثُ الواصلُ من إفريقيّةَ إلى السيِّد أبي الحَسَن ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله، كان بينه وبين العرب بني سُلَيْم حرب بمقربة من قابِس، وأنّ الموحِّدين لـمّا دامت الحربُ بينَهم أمَروا لفُرسانهم أهل الرّايات أن يَنتقلوا من موضعِهم ويَأْووا إلى الجبل المسمَّى هنالك بجبل كِسرى يَقفوا فيه ويَمتنعوا من العَرَب في نواحيه، فظنَّ الناسُ في العسكر أنّ ذلك الانتقالَ عن انهزام فتَركوا أثقالَهم وانكَسَروا مهزومينَ دونَ قتال ومالوا عن السيِّد، فلَجَأ إلى الجبل المذكور بمَن معَه ولم يجِدوا فيه ماءً فعَطِشوا عَطَشًا شديدًا فدفَعوا على العَرَب دَفْعةً واحدةً فأحْدَق العَرَبُ بهم وتقَبَّضوا على السيِّد وعلى أصحابه.

وحين وصَل هذا الحادثُ اشتَغل بالُ الخليفة وخاطِرُه، وغار بذلك غَيْرةً عُلِم بها باديهِ وحاضرُه، وبَعث عن الموحِّدين وأعلَمَهم بالخَبر، واتّفق الجميعُ على غَزْو بني سُلَيْم وجهادِهم وأخْذِ الثأر منهم. وكان ورودُ الخبر بذلك في العاشر من جُمادى الأولى من سنة تسع المذكورة. ثم بعدَ ذلك بأيام، وصَل الخبرُ السارُّ بالإعلام، عن إطلاق السيِّد من أيدي العَرَب بمال أعطاهم في نفسِه وأصحابِه، وأنه وصَل إلى تونُسَ في الثاني من ربيع الآخِر، فانبسَطَت النفوس، وأُضحِكت الأيامُ بعدَ العبوس.

وفي هذه السنة: خَرج النّصارى إلى بعض حُصون المسلمينَ فقَطَعوا كرومَها وأشجارَها وحرَّقوا زروعَها وخرَّبوا ديارَها، فبادَرَ أهلُها وأشياخُها إلى حضرة مَرّاكُش متضرِّعينَ إلى الله تعالى في نَظَر الخليفة لهم، ووَصَفوا إليه أحوالَـهم وما نالَهم من ضُرِّ العدوّ، فأمَرَ الموحِّدينَ بإشبيلِيَة أن يَحمِلوا إليهمُ المِيرةَ من الطّعام والآلات وغير ذلك، ووُعِدوا بالنّصر على أعدائهم وطبِّ دائهم، فانصَرفوا عنه راضينَ إلى إشبيلِيَة، وعندَما وصَلوا إليها استَظْهروا بالأمر على الموحِّدين، فجهَزّوا أربعةَ آلاف دابّة بالمِيرة أوصَلَها إليهم أبو عبد الله ابنُ وانُودينَ بعسكر من الموحِّدينَ والأجناد إلى بَلدتِهم، فحَيُوا بعدَ مماتِهم ونُشِروا بعد وفاتِهم.

وفيها: كانتِ السَّطوةُ بأبي زكريّا ابن حَيُّون شيخ كوميّةَ وبابنِه عليٍّ الذي كان مشرفَ تِلِمْسان وغيرِه، وكان كلَّ يوم يُخرَجُ مكبولًا للحساب على عملِه، ثُم أُخرج ابنُ حَيّونَ المذكورُ مَنْفيًّا من الحضرة إلى بَطَلْيَوْس، وبقيَ عليٌّ ابنُه في السِّجن إلى خروج أمير المؤمنينَ في غَزْوته إلى شَنْتَرِين.

وفيها: هرَبَ من مَرّاكُش عليُّ بن محمد بن رَزِين المعروفُ بالجَزِيري، وكان على مذهب الخَوارج الأزارِقة في تكفير جميع المسلمين، واجتَمع إليه قومٌ من البَرْبر يقرَؤونَ عليه مذهبَه، فأغْواهُم، وشاعَ خبرُه ومذهبُه، وسأذكُرُ مقتلَه في أيام المنصور إن شاء الله.

وفي هذه السنة: توفِّي بمَرّاكُشَ أبو بكر محمدُ بن عليٍّ الحَصّارُ الإشبيليّ.

وفيها: توفِّي بسَبْتَةَ القاضي أبو عبد الله ابنُ الحَدّاد والمشرفُ بإفريقيّةَ ابنُ مثَنّى.

وفيها: أمَرَ أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ بتمييز الموحِّدين والعَرَب والقبائل للغَزْو، وذلك في يوم السّبت الخامس لجُمادى الآخِرة من سنة تسع وسبعينَ وخمس مئة.

اختصارُ الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوبَ من مَرّاكُش إلى غَزْوته[1] الحافلةِ الاستعداد، الكاملة الحشودِ والأجناد وما اندرَجَ فيها من سَطْوته بالعُمّال، وما حدَث فيها من الخطوبِ والأهوال، وهي آخرُ غَزَواتِه رحمَه الله تعالى بمنِّه

ابتَدأَ بتمييز القبائل والأجناد في الخامس من شهرِ جُمادى الآخِرة كما ذكرتُه، فميَّزهم قَبِيلًا بعدَ قَبِيل، وأمَرَ بعمَل عشَرة مَجانيقَ فصُنعت ورَمى الرّجالُ بالحجارة قُدّامَه، والسّعدُ يعلو خلفَه وأمامَه، وذلك التبريزُ بالبحيرة بخارج مَرّاكُش والناسُ ينظُرونَ في ذلك كلَّ يوم. دام هذا الحالُ شهرَ جُمادى كلَّه.

وفي شهرِ رجَب: ارتَحل الخليفةُ عن البُحيرة المذكورة إلى قَصْره بمَرّاكُش ودخَل على الباب الجديد بابِ الشريعة، وهو أولُ دخوله عليه، وتقدَّم أمامَه على قدمَيْه ابنُه أبو يوسُف المنصور[2] وجميعُ البنِينَ، وأقام بقصره يُفكِّر في أمرِ الغَزْو وشأنِه.

وكان السيّدُ أبو يوسُف ابنُ الخليفة عبد المؤمن واليًا على مُرْسِيَة فوصَل إلى حضرة مَرّاكُشَ في شهر رجَب ووصَل معَه جماعةٌ من أعيانِها، فلم يؤمَرْ بالدّخول على أخيه أمير المؤمنين لِـما وصَله عنه وصَحَّ عندَه، ثم أمَرَه بعدَ ذلك بالدّخول معَ الساداتِ والموحِّدين.

وفي يوم الجُمُعة الحادي والعشرينَ من شعبانَ المكرَّم: وَلّى أميرُ المؤمنين أبو يعقوبَ يوسُفُ بَنيه الأربعةَ قواعدَ بلاد الأندَلس، صَرَف أبا إسحاقَ إلى إشبيلِيَةَ واليًا عليها كما كان أولًا، ووَلَّى أبا يحيى قُرطُبَةَ برغبة أبي الوليد ابن رُشْد، ووَلَّى أبا زيد الحرضانيَّ غَرْناطةَ، ووَلّى أبا عبد الله مدينةَ مُرْسِيَة، وأمَرَهم بالحركة إليها مقدِّمةً لحركته الحافلة[3] ووَلّى قضاءَ إشبيلِيَة أبا المكارم ابنَ الحُسَين المِصريَّ وعزَل قاضيَها أحمدَ بن محمد الحُوفيّ، ووَلّى أبا الوليد ابنَ رُشد قضاءَ قُرطُبة، ووَلَّى أبا عبد الله ابنَ

(١) إلى هنا ينتهي السقط الطويل.

(٢) سقط من ك.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٤.

الصقر قضاءَ غَرْناطةَ، وأمَرَ لجميع الموحِّدينَ المعيَّنينَ للسَّفَر معَ السادات المسمَّيْنَ بالكُسْوة والزّاد على مَراتِبهم وأقدارِهم. وتحرَّك الجميعُ إلى الأندَلس في السابع والعشرينَ من شعبانَ بعدَ ما أُمِروا بالرِّفق، والجَرْي على سَنَن الحقّ.

وكانت قسمةُ السِّلاح والخَيْل في الخامسَ عشَرَ من شهر رمضان، فحضَر الموحِّدونَ والعَرَبُ والمتجنِّدون، فقَسَمَها على قَدْر طَبَقاتِهم، وأمَرَ لطلَبَة الحضر بأربعة وعشرينَ فرسًا، وأعطَى خِباءً لكلِّ عشَرة من الفرسان، وتمادى هذا الإنعامُ والإحسان إلى شوال.

وفي الحادي والعشرين منه: أخرَجَ البركةَ لجميع العساكر من الفرسان والرُّجّال.

وفي يوم السّبت الخامس والعشرينَ لشوّالٍ المذكور: أمَرَ الناسَ بالحركة، فصَلّى أميرُ المؤمنينَ صلاةَ الصُّبح وقُرئ الحِزبُ على العادة، واجتَمع الناسُ على ما أُمِروا ووُعِدوا، ورَكِب أميرُ المؤمنينَ على عادة ركوبه من السَّكينة والوَقار، والهيئة له في الإعلان والإسرار، ودَعا الناسُ له بالتأييد والنَّصر على جميع الكفّار، وقد تقدَّم أمامَه عَلَمُه الأبيض معَ الرَّجّالة على العادة من الترتيب ومعَه مصحفُ عثمانَ بن عفّان رضيَ اللهُ عنه على جَمَل أبيضَ مرتفع وعليه كِلَّةٌ[1] حمراءُ تَصُونُه، وهو مرصَّعٌ بنفيس الجَوْهرِ والياقوت، ويليه مصحفُ المَهْديِّ على بَغْل، وبَنوه معَ إخوته السّادات خلفَه، وعليه راياتٌ مختلفةُ الألوان، وكان خروجُه على باب دَكّالةَ: من أبوابِ مَرّاكُش، وأمَرَ بإخراج عليِّ بن حَيُّون الكُوميِّ، فأُخرج مصفَّدًا في الحديد وعليه رُقَباءُ يحرسونَه في اللّيل والنهار، فلمّا كان بتيجطين تحيَّل على رُقَبائه[2] وسَقاهُم الخمرَ وأسكَرَهم وكسَرَ حديدَه وفَرَّ على فرس أعطاهُ له أحدُ بني عمِّه، وأُعلِم أميرُ المؤمنين بخبرِه فأمَرَ بضربِ رقابِ الرُّقَباءِ الذي كانوا يحرُسونَه وسَجْن منِ اتُّهم.

---

(١) ستر رقيق مثقَّب يتوقّى به من البعوض وغيره، وهو مستعمل إلى اليوم في العامية العراقية بهذا المعنى، والمقصود هنا: الغطاء الذي يحفظ هذا المصحف على شكل قبة، ولذلك جاء في بعض النسخ: «قبة» بدلًا من «كلّة».

(٢) في ك، ق، ر٣، ب: «تجمل على رفقائه».

ثم إنه أقلَعَ أميرُ المؤمنينَ من هذا المنزل إلى أنْ وصَل إلى رِباط الفتح سَلا، فدخَلَها يومَ الاثنين الثالثَ عشَرَ من ذي القَعدة، وكان دخولُه فيها من أغربِ الهيئات وأتمِّ الآلات، ونزَلَ بمدينة الـمَهْديّة التي تقدَّم ذكرُها.

ولـمّا كان يومُ الاثنين الموفي عشرينَ من ذي القَعدة وصَل أبو محمد بنُ أبي إسحاق بن جامع من بلاد إفريقيّةَ والقَيْرَوان، بجُملة من الفُرسان، فدخَل على أمير المؤمنين، وأقام يسألُه عن الأحوال، ويستفهمُه عن أحوالِ العَرَب المنافقينَ الجُهّال، فعرَّفه أنّ إفريقيّةَ في نهاية العافية وأنّ العَرَب قد سَمِعوا بالحركة المباركة ففَرُّوا بأهليهم[1] فلا يُتَّقَى بأسُهم ولا يُفارقُهم نكْسُهم.

ثم أمَرَ الخليفةُ بعدَ ذلك بإجماع شيوخ الموحِّدين وشيوخ العَرَب والقُوّاد بالحضور، فحضَر الجميع، وخَرج إليهم ابنُه السيِّدُ أبو يوسُف المنصورُ وشيوخُ الموحِّدين، وقالوا لجميع مَن حضَر: إنّ سيّدَنا أميرَ المؤمنين يقول لكم: أنتم قد وصَلتُم واجتمعتُم، وهو يَستشيرُكم في هذه الحركة: إمّا لإفريقيّةَ وإمّا للأندَلس، فلْيتكلَّمْ كلُّ واحد منكم بمُرادِه، فقالوا بلسانٍ واحد: ليس أمَلُنا إلّا في غزوِ الكفّار بجزيرة الأندَلس. وأُعلِم أميرُ المؤمنينَ بما وقَع من كلام، فقال: الحمدُ لله على نِعَمِه الكاملة وآلائه الشاملة.

وقد كان الخبرُ وصَل بأيام أنّ العدوَّ الغادرَ نَكَث العهدَ وحَلَّ العَقْدَ ونازَلَ بعضَ حصُون الإسلام، فزادت غِبطةُ المسلمينَ في جهادِ الكافرين، وعزَموا على ذلك بنيّةٍ صادقة، وعزيمةٍ بالله واثقة، وتقدَّمتِ العساكرُ للجَواز على القَنْطرة ببحر سَلَا في الثامن والعشرينَ لذي القَعدة، وجازَ أميرُ المؤمنينَ في الموفي ثلاثينَ منه، وتَمادى مَشْيُه إلى مدينة مِكْناسةَ فوصَلَها في السادس لذي الحجة، وعيَّد عيدَ الأضحى في بُحيرته الكبرى، ورحَلَ منها في الحاديَ عشَرَ لذي الحجة ووصَل مدينةَ فاس يومَ الأربعاء الثالثَ عشَرَ من الشّهر المذكور، فنزَل بالبُحيرة وارتاح بها ثلاثةَ أيام يَستفهِمُ الأحوال ويختبرُ العُمّال، فكان من الإيقاع بهم ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

---

(١) في ب: «بأولادهم».

سَطْوةُ الخليفة أبي يعقوبَ بعُمّال مدينةِ فاسَ وأنظارِها

ولـمّا كان يومُ السّبت الثالثَ عشَرَ لذي الحِجّة أوقَعَ بعبد الرّحمن بن يحيى المشرف بمدينة فاسَ لِـما صَحّ عندَه من خيانتِه، وحَمْلِه على الرعيّة وإذايتِه، فألحَقَه هو وأصحابَه وألحَقَ به في هذه السّطوة والعقاب إبراهيمَ بن عبد الله الجَيّانيَّ الجاهلَ قَدْرَ نفسِه، وقَبَض في الحين على دُورِهم أجمَع في كلِّ بلدٍ ومكان، وأكبَلَهم وسَجَنَهم في موضع أليم النَّكال، ثم قَبَض على سائر العُمّال وكان عدَدُهم ثمانيةَ عشَرَ عاملًا أوّلُهم: مشرفُ فاسَ المذكور وخازنُه على المال الذهبيُّ وخازنُه أيضًا على الطّعام الطرسوقيُّ(١) وابنُ عاصم مشرفُ مِكْناسة وابنُ هود عاملُها وابنُ عُمرَ صاحبُ المدينة بها والمشرفُ برباط تازا وعليُّ بن مرزبن صاحبُ مَلَوِيّة وقاضي المعدِن وغيرُ هؤلاء، فاستَأْصَل أموالَهم ورَدَّ للمخزن ضِياعَهم ورِباعَهم وترَكَ لكلِّ رجُل منهم دارًا واحدةً، وكان الذي قاطَعوه على أنفسِهم أن يُعطوه ويَدفَعوه أربع مئة ألف دينار وستينَ ألفًا يُقسِّطونَها على أنفسِهم، وشَهِد العدولُ بذلك عليهم فجَعَل(٢) عليهمُ الرُّقَباءَ حتى دَفَعوا المالَ المذكور.

ولـمّا كان يومُ الاثنين الثامنَ عشَرَ من ذي الحِجّة أمَرَ الخليفةُ بتقدُّم قَبيل هَنْتاتةَ وتينملَ وحركتِهم من فاسَ إلى قصر الـمَجَاز برَسْم الجَواز إلى الأندَلس، وكان شيوخُ العَرَب بجميع قبائلهم قد وصَلوا إلى الـمَهْديّة برِباط الفتح سَلَا أيامَ إقامة أمير المؤمنينَ فيها، فأنعَمَ عليهم بالكُسواتِ العجيبة والبركات الجَزيلة، واشتَرطوا على أنفسِهم أن يحضُروا لهذه الغزوة في مئة وثلاثينَ ألفًا بينَ فارسٍ وراجِل، وأمَر الخليفةُ ابنَه أبا حفص بالـمَشْي إليهم والتقدُّم عليهم وأن يحضُرَ معَهم الجَوازَ لبَرِّ الأندَلس، فخَرج من فاسَ في الحادي والعشرينَ من ذي الحجة، وقَدَّم أيضًا على بعض قبائل الموحِّدين بعضَ السادات ليتقدَّموا إلى الجَواز، وكتَبَ إلى مَن بالأندَلس منَ الوُلاة أن يكونوا على هيئةٍ للجهاد، وأن يَستعدّوا لهذا الجَمْع الحَفيل غايةَ الاستعداد.

---

(١) في ك: «الطرهوقي»، وسقطت اللفظة من ب.

(٢) في ك: «فعمل».

ثم كانت سنةُ ثمانينَ وخمس مئة: ففي يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرَّم تحرَّك الخليفة أبو يعقوبَ من مدينة فاسَ على الهيئة المذكورة إلى أن وصَل مدينةَ سَبْتة فأقام بها شهرَ المحرَّم، ثم عَبَر البحرَ يومَ الخميس الخامس لصَفَر فحَلّ بجبل الفتح، ثم سار من جبل الفتح إلى الجزيرة الخضراءِ إلى أن برزَ بعساكرِه على إشبيلِيَة في يوم الجُمُعة الثالثَ عشَرَ لصَفَر، وخَرج جميعُ أهل إشبيلِيَة إلى لقائه والتبرُّك برؤيته، فمِن تواضُعِه وشَرَفِه واعتنائه بالعلم أنه لـمّا أبصَر ابنَ الجَدّ رحمه الله وهو يُسرِعُ في مَشْيِه ليُسلِّمَ عليه ترَجَّل عن فرسِه وتلاقَيا فترامَى ابنُ الجَدِّ على يدِ أمير المؤمنين وقبَّلَها ومسَح بها وجهَه وقال: الحمدُ لله الذي جمَعَني بكَ يا حبيبي وحبيبَ الناس، فتبسَّم الخليفةُ من قوله، وهذا من تواضُعِه وفضلِه[1].

قال أبو مروان ابنُ صاحب الصّلاة: وكنتُ حاضرًا في يوم هذا اللّقاء، فسَلَّمتُ عليه، معَ مَن تقدَّم من الطّلبة إليه، وتزاحَم الناسُ للسلام، فلم أقوَ لهُ على الكلام، ونزَلَ رضيَ الله عنه داخلَ البُحيرة التي له بخارج باب قَرْمُونة، فلمّا كان في اليوم الثاني أمَرَ بإخراج السِّلاح والعُدَد وأمَرَ بتمييز العساكر والعَدَد، وقَسَم عليهم جميعَ الأسلحة المذكورة وقَسَم ألفَ فَرَس من العِتاق الجِيَاد على أشياخ الموحِّدين والعَرَب والأجناد، وتلاحَقَت هذه الأيامَ عساكرُ أهل الأندلس من أقطارِهم وأمصارِهم، وأتَى القائدُ أبو العبّاس الصَّقِلِّيُّ بأجفانٍ غزوانيات وآلاتٍ للحرب مُعَدّات.

وفي هذه السنة[2]**، في التاسعَ عشَرَ لصَفَر**: نَكَل الخليفةُ أبو يعقوبَ بأبي عبد الله ابن وانُودين، وسببُ ذلك أنه لـمّا وصَل إلى حضرته إشبيلِيَةَ كان ابنُ وانُودينَ أصابه شيءٌ من الـمَرَض فلم يقدِرْ على الخروج للّقاء فضُرِب فيه عند الخليفة وقيل عنه ما كان وما لم يكنْ، فأمَرَ بخروجه أسوَأَ خروج، فخَرَج وقَعَد يومَيْن فأُمِرَ أن يَمشيَ إلى غافِقَ ليَسكُنَها على وَجْه التغريبِ والتأديب، فنهَضَ هو وأبو زكريّا يحيى ابنُ الشّيخ أبي...[3] لتخلُّفِه عن الـمَبيت بالمحَلّة ليلتَيْن، فكانا خليلَيْنِ ابتُلِيَا ببَلِيّتَـيْن.

---

(١) ينقل المؤلف من كتاب «المن بالإمامة» على عادته، ولم يصل إلينا هذا القسم منه، والخبر باختلاف في المعجب ٣٣٠، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٥، والاستقصا ٢/ ١٥٤.

(٢) قوله: «وفي هذه السنة» سقط من ك.

(٣) بياض في النسخ.

وأقام أميرُ المؤمنينَ بإشبيلِيَة على ما ذكَرتُه من تنفيذ الأوامر والنَّظر فيما يَصلُحُ له ولجميع العساكر، إلى أن تحرَّكَ غازِيًا إلى مدينة شَنْتَرِين صَبيحةَ يوم الخميس السادس والعشرينَ لصَفَر على ما عُهِد في حركاتِه وترتيب هيئاتِه، وتَمادى الـمَشْيُ من منزلٍ إلى منزل إلى حِصن العرجة، فوصَلَه يومَ الجُمُعة الرابع لربيع الأوّل، ورحَل منها وقدِ استُكمِلَت عليه العساكرُ من كلِّ أُفُق وقد تزَيّا الجميعُ بأحسن الزِّيّ وتبختَروا في الـمَشْي وتوشَّحوا بالسُّيوف الهِنْديّة والدُّرق اللَّمطيّة والقِسِيِّ الخَطِّية، وسالوا في بِطاح الأرض بتبريزٍ يُسخِطُ الكُفّارَ حتى وصَلوا مدينةَ بَطَلْيَوْس، فأمَرَ بالنّزول عليها وميَّز العساكرَ وأمَرَهم بلِباس السِّلاح فامتَثلوا ذلك وجدَّدوا ما نقَصَهم من الزّاد، وكان إدريسُ بن جامع مُغرَّبًا معَ بَنيه بمارِدةَ وابنُ حَيّونَ الكُوميُّ كذلك ببَطَلْيَوْس، فرغِبوا من الخليفة أن يَأذَنَ لهم في حضور هذه الغَزْوة فأَذِن لهم في الحين ومشَوْا في جملة المجاهدين.

ورحَل يومَ الخميس العاشرِ لربيع الأوّل من بَطَلْيَوْس، ولـمّا وصَل إلى وادي تاجُه أمَرَ الموحِّدينَ أن يتقدَّموا حتى يقفوا على باب شَنْتَرِين، ونهَض معَهم السيّدُ أبو إسحاقَ الوالي على إشبيلِيَةَ حتى وقَفوا على باب شَنْتَرِين يومَ الأربعاء السادسَ عشَرَ لربيعِ الأوّل إلى وقتِ الظّهر ولم يَشتغلْ أحدٌ بقتالٍ ولا رَمْي بنِبال، إنّما كان الغَرَضُ في رؤية أسوارِها وفَهْم حال كفّارِها، ونزَلَ أميرُ المؤمنينَ بجميع عساكره بالجبل الـمُطلِّ على شَنْتَرِين القريب إليها، وأمَرَ العساكرَ أن يَبرُزوا على الكفّار فتأهَّبوا للتبريز والـمُجالَدة والدِّفاع، ثم وقَفوا على بابِها والكفّارُ أهلُها قدِ انجَحَروا داخلَها بجموعِهم وحشودِهم وقد مُلئت قلوبُهم ذُعرًا وحَسْرةً، وأميرُ المؤمنين يأمُرُ الناسَ بالتكبير والتهليل وقد ضُرِبت له القُبّةُ الحمراء، وهم فرِحُونَ مُستبشِرونَ والخيراتُ كثيرةٌ بكلِّ جهةٍ ومكان، واتّسع الناسُ في أقواتِهم، ووصَل مُدُّ الشّعيرُ اثني عشَرَ مُدًّا بدرهم، والقمحُ خمسةَ عشَرَ مُدًّا بدرهم.

قال أبو مروان ابنُ صاحبِ الصّلاة: لقد رأيتُ في هذا اليوم ثورًا بيدِ عربيّ باعَه بدرهم واحد، وقد اشترَيْتُ معَ أصحابي بقرةً سمينةً بثلاثة دراهم، وامتلأتِ المحلاتُ على كثرتِها وكِبَرِها من البقرِ والغنم.

وانحصَر الكفّارُ في هذا اليوم حصرًا شديدًا حتى لم يَخْرُجْ أحدٌ منهم، وهُدِم رَبَضُهم المتّصلُ بالسُّور وأوقِدت النِّيرانُ فيه، وطَمِع الناسُ في دخول المدينة، وأمَرَ النَّجّارينَ بعمَل السّلاليم، وبات الناسُ أحسنَ مَبيت في ليلة الجُمُعة الثامنَ عشَرَ لربيع الأوّل.

ولـمّا صَلّى الناسُ الصُّبحَ يومَ الجُمُعة المذكورة أمَرَ الناسَ بالتأهُّب لقتال الكفّار في الأسوار، فتقاتَلوا حينًا حتّى تـمَكّنوا من الرَّبَض المذكور، ومَن خَرج من جيش النّصارى هُزِم، حتى كانوا يتَرجَّلُونَ عن خيولهم ويُطلِعُهم إخوانُهم بالحبال من أعلى سُور القَصَبة، وعايَنَ الكفّارُ في هذا اليوم ما أذهَلَهم وهالَهم، وقرَّت أعيُنُ الإسلام بما نالَهم، وهُدِمتِ الكنيستانِ اللّتانِ بالمدينة البَرّانيّة وخُرِّبت دُورُها وأقْفَر معمورُها. ولله دَرُّ الرجُل الصّالح محمد بن إبراهيمَ حيث يَدعو على شَنْتَرِينَ في عِلّتِه التي توفِّي منها فقال [من الكامل]:

يـا شَـنْتَرِينُ ولا أُنـادي سـامعًا ... ألقَـتْ عليـكَ بلاءهـا الأقـدارُ
ورُمِيـتِ عنـدَ دعائنـا بحـوادثٍ ... تـذَرُ الـدّيارَ ومـا بهـا دَيّـارُ
وتبـدَّلت فيـك العِمـارةُ وَحْـشةً ... والأمـنُ خـوفٌ والغِنَـى إقتـارُ
وتعَبَّثَـت بجهاتِهـا أعـداؤها ... ومَـحَا محاسـنَها الـبِلى والقـارُ
حتّـى أقـولَ بنَغْمـةٍ يـا بلـدةً ... «لا أنـتِ أنـتِ ولا الـدّيارُ دِيَـارُ»

ورحم اللهُ قائلَها، فلو كان حيًّا لرأى دعوةً قد أُجيبت في هذا اليوم.

وبات الناسُ ليلةَ السّبت على الحالة المرغوبة من الأمل في فتح شَنْتَرِينَ خَرَّبها الله.

وفي صَبيحة يوم السَبت تأهَّب الناسُ للقتال، ودام القتالُ بينَهم إلى يوم الاثنين الحادي والعشرينَ لربيع الأول(١)، فكانت بينَ المسلمينَ والنّصارى حروبٌ وخطوب، فأمَرَ الخليفةُ في هذا اليوم أن يَرفَعَ الناسُ أيديَهم عن القتال، وكان قد أمَرَهم أن يَرحَلوا من منزلِهم وينزِلوا في منزلٍ آخَر فتعجَّب الناسُ من هذا الرأي في الانتقال والارتحال، وتعطَّلت في النفوس جميعُ الآمال، وظهَر الخَلَلُ في جميع الأحوال.

---

(١) في ك، ب: «الآخر» ولا يصحّ.

وكَبَا بابن الخليفة أبي إسحاقَ فَرَسُه واعتَلّت قدَمُه وتورَّمت في الحين، وكان يتصرّفُ في أوامر أبيه على سرير من خشب ويُحمَلُ على الأعناق. وحدَثَ في هذا اليوم على عسكر أهل مُرْسِيَةَ حدَثٌ مُروِّع، وذلك أنهم خَرجوا للإغارة في بسائط النّصارى، فخَرجوا عليهم وهزَموهم بعدَ حروب شديدة، ووصَلوا للمحَلّة مهزومينَ مَفْلولينَ، وأُخِذت من دوابِّ المسلمينَ خمسونَ دابّةً خرَجَت برَسْم العَلَف، وبات الناسُ في المحَلّة على حَذَر، ومن الوَجَل في ألمٍ وضَرَر.

وحدَث في هذه الغَزْوة حدَثٌ أبْهَتَ العقول، وأذْهَلَ غايةَ الذُّهول، وذلك أنّ خطيبَ الجماعة الذي كان يُصلّي بالخليفة الجُمُعة في حضرته وفي غَزْوته هذه اختَلّ عقلُه عندَ رؤيتِه شدّةَ الحرب، فركِبَ فرسَه ودخَل في عسكر النّصارى مُستجيرًا بهم! فيا لهُ من حَدَث مُبْكٍ في الإسلام، مُنْكٍ للأنام، ونقيصةٍ في الدِّين، ووقعة بصنفِه من أرض الأندَلس إلى أرض الصِّين، وعندَ وصُوله إليهم عَرَفوهُ وفَهِموا مذهبَه فاتّهموه وقَتلوه، واستُشهِد في هذه الغزوة جماعةٌ من أعيان الموحِّدين وجماعةٌ من أشياخ رؤساءِ الأندَلس وغيرِهم، وكان في هذه الغزوة بينَ المسلمينَ والكافرينَ قتالٌ ونزال يَطُولُ شرحُه ووَصْفُه، إلى أنِ اعتَلّ أميرُ المؤمنين فأمَرَ بالرّحيل على ما أصِفُه.

إيضاحُ الخبر عن وفاة أمير المؤمنينَ أبي يعقوبَ بن عبد المؤمن في غَزْوته هذه رحمَه الله[1]

قال أبو الحَجّاج يوسُفُ بن عُمر رحمَه الله: لـمّا قَصَد أميرُ المؤمنينَ في هذه الحركة التي توفّي فيها إلى عدوِّ الغرب ابن الرَّنك اللّعين، لسُوءِ مُجاورتِه وشدّة إضرارِه بالمسلمين، عزَم على قَصْد مدينة شَنْتَرِين أمدِّ بلادِ ابن الرَّنك سورًا، وأكثرِها حُبورًا، وأكثرِ بلاده أجنادًا، وأقواهم استعدادًا، فبرَّزَ عليهم تبريزًا أذهَلَ حلومَ الكافرين، وفَتّ أفئدةَ الدانِينَ منهم والقاصِين، في أُمَم لا تُحصَى، ولا تُكاثَر بالرَّمل ولا الحصَى، والبلدُ، لحُسن عِمارته والتفافِ أشجارِه واتّصال جَنّاته وإيناع ثمَراتِه، ليس له مَسْلكٌ إلّا من خلال تلك الأغصان، وفي أثناءِ مُنعرَجاتِ ما أحدَقَ به منَ اشتباك الكروم والتفافِ

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٠٥، والمعجب ٣٣٤-٣٣٥.

الغِيطان، فكانت أشخاصُ الفرسان عندَ رؤيتِهم تتَوارى بالظِّلال، ويَستُر ظهورَ حُسنِ هيئتها فروعُ الأشجار وأسنمةُ الجبال، فأمَرَ الخليفةُ الجيشَ: خيلًا ورَجْلًا وبعضًا وكُلًّا بنَشْر بِيض تلك الرايات، التي كانت قد أُعِدّت لهم تلك الأوقات، وكان القَصْدُ محاصرتَها وإظهارَ القُدرة في مُضايقتِها.

قال يوسُف بن عُمر: فلمّا استراثَتْ من جِهاتها الأنباء، وطال لغير طائل الثَّواء، عزَم أميرُ المؤمنينَ على الارتحال، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكَلال، فأمَرَ بالرّحيل ليلًا فاضْطَرب إقلاعُ الناس اضطرابًا شَنيعًا وكثُر الضَّجيجُ واختلاطُ الأصوات، وتهوَّلت المحَلّات، وأخَذ العمومُ على شتّى المسالك، فلا تَرى سميعًا ولا مُطيعًا. وقد كان ثقاتُ الخليفة يطَوِّفونَ أوّلَ اللّيلِ على الرؤوس والجموع، وأوعَزوا إليهم ترتيبَ التحرُّك وكيفيةَ القُلوع، وأن يكونَ كلُّ قَبيل من جِهتِهم ثابتينَ مُرصِدين، حتّى ترحَلَ الحُمولةُ والأثقال، وتتخلَّص إلى السَّعة من المضائق والأوحال، فلم يوقَفْ عندَ مَعاقِد هذا الاعتزام، ونُثِر ما عُقِد من ذلك النظام، ولم يُهتَدَ لشيءٍ من هذه الأحكام، وتوَهَّم الناسُ أنّ الأميرَ قد أقلَعَ سَحَرًا واحتاطَ لإجازة النّهر مُبكِّرًا، فبادَروا للتقدُّم وما تهَيَّبوا عواقبَ التحكُّم. ولـمّا اتّضحَ الفجرُ وانقَشَع الظّلام، ولم تصحَّ أضغاثُ تلك الأحلام، وبَطَلتِ الظُّنونُ والأوهام بمضاربِ الأمير في منزلِه ولم يُقوَّضْ لها طُنُبٌ ولا أوتاد ولا خُلع من مركَزِه عماد، فبُهِت مَن بُهِت، وحَمِد رأيَه مَن لزِم الصبرَ وثبَت، فركِبَ الخليفةُ وليس بساقتِه إلا القليلُ غيرَ مستعدِّينَ ولا شاكِين، أكثرُهم في ثياب السِّلم وكما أفاقوا من سَكَر النَّوم فالتأَمَ من كلِّ صِنف من الناس مَن حضَر، وأقبَلَ مَن سَمِع طبلَ الإقلاع، وتبصَّر، وانحَدَر الأميرُ من هذا المنزل وبقيَ ابنُه المنصورُ في الموضع المذكور يُرتِّبُ مَن يُظاهرُ الرّومَ عندَ ظهورِهم ويقاومُ ردعَهم وما تدَلَّوْا به من جرورِهم، وهو يمُدُّ الحاضرينَ بشهامتِه ويقوّيهم بصَرامتِه، وانحفَزَ المنصورُ باللَّحاق بأبيه وقد توالَتْ منه عليه الرُّسُل واستَوحَش مِن تأخُّرِه، ووجَد إشفاقَ الأبِ على بَنيه. وعندَما تنفَّس تخَنُّقُ الكفّار، ووجَدوا السبيلَ إلى التفلُّتِ من الأوكار، تسَرَّبوا بين تلك الأشجار، وانحَدروا من جنَباتِ الأوعار كالسِّباع الجِيَاع، فحافوا على ما تطَرَّف من الحُمولة، وانتهزوا الفرصةَ في أولئك الفرسانِ والأتباع.

واستُشهِد في أثناء هذا الموقف جُملةٌ من أعيان الموحِّدين ورؤساءِ الأندَلسيِّين وبعضُ بني مُرْدنيش والخطيبُ ابنُ المالَقيّ.

قال يوسُفُ بن عُمر المؤرِّخ: حضَرتُ يومَ هذا الإقلاع وليلَه، فما رأيتُه في تاريخ تقدَّم قبلَه، ولا يَحصُرُ واصفٌ هولَه.

ولـمّا عرَفَ الخليفةُ بدُنوِّ الرّوم من ساقتِه واجترائهم على الافتراس بأكنافِ ساحتِه، أمَرَ بضرب الطُّبول وإشراع الألوِية في النُّصُول، فأقبَلوا لأصواتِ الطّبول مُهطِعين، ودَفَع مَن كان بجناحَي الساقة على مَن وُجِدوا منَ الرّوم مُنبسِطين، وغادَروهم في مَصارِعِهم مُجدَّلِين، وحانَ لهم شرُّ يوم ما ظَنُّوا أنه يَحين، وأُخِذ ثارُ الشُّهداء في الحين، ونزَلَ أميرُ المؤمنينَ بعُدوة الوادي، وقد بَدَت من جَرْحِه البوادي، وأمَرَ بتفرُّق الجموع ورجوع كلِّ واحدٍ منهم إلى قَبِيله منَ العموم، واستقبَلَ موسطةَ البلاد، وأباح فيها مبالغةَ الفساد، وأمَرَ بتخريبِ ما وُجِد من المباني وتغويرِ المياه واستئصال الأشجار وانتهابِ الزُّروع وتحريق كلِّ ما يُمكنُ تغييرُه وإزالةُ عَيْنِه بالنار، وتَمادى المشيُ على هذا النّحو إلى حِصن طرش، فأقام بذَروة جبلِه وأمَرَ بشَنِّ الغارات عليه وتقسيم السّرايا على الجَنَباتِ إلى جَلْب الأقوات، وأمَّرَ السيِّدَ أبا زيد ابنَ الأخ أبي حَفْص على مُعظم البُعوث، فاستاق منَ الغنائم ما وقَفَ العجزُ عن سَوْقِها ووصَلوا والخليفةُ مُلتزمٌ الفراشَ، وكان له أيامٌ لم يَخرُجْ لأحد، ثُم أمَرَ بالرّحيل وخَرج على مطيّتِه مُضطَجِعًا على فراشِه وتَمادى القفولُ وضَعْفُه يتزايد والأطباءُ حاضِرون وابنُ زُهر وابنُ مُقبِل وابنُ قاسم مُلازِمونَ له حتّى جاوزوا واديَ تاجُه وضَعُف عن الجلوس على الدابّة، فصُنع له سريرٌ ورِواقٌ عليه يَحجُبُه من الهواء. والخَدَمةُ مُطِيفونَ به يتفقَّدونَه فيما يحتاجُ إليه من صَلاح شأنِه، فذُكر أنه تُفقِّد بعدَ أميال فوُجِد قد توفِّي رحمه الله، وذلك في الثامنَ عشَرَ لربيع الآخِر من سنة ثمانينَ وخمس مئة.

بعضُ أخباره على الـجُملة وسِيَرِه رحمَه اللهُ تعالى

قال ابنُ صاحب الصّلاة: كان أبو يعقوبَ فاضلًا كاملًا عَدْلاً وَرِعًا جَزْلًا، حافظًا للقرآن بشَرْحِه وناسخِه ومنسوخِه، عالـمًا بحديث رسول الله ﷺ حسَنِه وصحيحِه، متفنِّنًا في العلوم الشّرعيّة والأُصوليّة، وكان صادقًا رأيَه للموحِّدينَ بالمواساة في كلِّ

شهر، وبالبركاتِ مدى الدّهر، وكان راغبًا في العِمارة مُثابِرًا على الجهاد مُشِيعًا للعَدْل مُقسِطًا فيه، أصلَحَ العُدوةَ وأمَّنها وآنَسَ شارِدَها وسَكَّنها، وخَصَّ جزيرةَ الأندَلس ببعوثِه لها فقَمَعوا عاصيَها وافترَعوا بالفتح قاصيَها، وأحسَن لأجنادِها وأمَدَّهم بالخَيْل لغَزْوِ الكفّار بائسينَ من أعدائها.

ولـمّا عُقِدت البيعةُ له بإجماعٍ وإصفاق في سنة ثلاث وستينَ تحرَّك غازيًا بعسكرِه الضَّخْم الشَّهم مُرادِفًا لأخيه أبي حفص، وهو الذي مَصَّر إشبيلِيَةَ وأمَرَ ببناء سُورِها من جهة الوادي من مالِه بعدَ هَدْم السَّيل له الخارج عن جَنَباتِها وجِهاتها عامَ أربعة وستّين.

ولـمّا استقرَّ بإشبيلِيَة في عام ستة وستّينَ عَقَد جَسْرًا على واديها بالقَنْطرة العظيمة المؤسَّسة لعُبور الناس عليها من أهلِها وأهل الشَّرف إليها ولإجازة العساكر للغَزْو عليها، وسَبَّلَها للمسلمينَ للعبور في مصالِحِهم دونَ قبالةٍ ولا إجارةِ عمالة، وجَلَب الماءَ في الساقية لمشرَب أهلِها وابتنَى فيها الجامعَ الكبير لاتّساع الناس فيه، فكمُل في مدّة قليلة من الأعوام على عِظَمِه وسَعة جُرْمِه، وابتنَى الصَّومعةَ إلى نصفها، وابتنى الزِّلاقَ لأبوابِ إشبيلِيَة من جهة الوادي احتياطًا من السَّيل الخارج عليها، وابتنى قَصَبَتها البَرّانيّةَ والداخليّة، وأسكَنَ الثُّغورَ القَفِرة، وابتنَى جميعَ أسوارِها وأعادها للإسلام بعدَ إقفارِها، وفَدَى من الأسر مَن وُجِد عندَ الرّوم من أهلها، وفَدى عليَّ بنَ وزير وغانمَ بن مُرْدنيش بمالٍ كثير، وغزا الكفَرةَ ببُعوثِه وعساكرِه المؤيَّدة برًّا وبحرًا، وأذاقَهم عيشًا مرًّا، انتهى كلامُه.

وقال غيرُه: مات على ظهرِ دابّتِه على طريق يابُرة، افتَقَده مَن كان يَخدُمُه فوجَدَه ميتًا، وقيل: إنّ سببَ وفاته كان من سَهْم أصابه وهُو في خِبائه على شَنْتَرِينَ من قوس اللَّولَب، ذكَرَ ذلك بعضُ المؤرِّخينَ، منهم: أبو الحُسَين بن أبي محمد الشَّرِيشيّ وغيرُه.

وكانت بيعتُه برِباط الفتح حيث توفِّي والدُه أبو محمد عبدُ المؤمن، ووَافَقَت بيعتُه انقراضَ الدّولة العُبَيْديّة بالمشرِق، فكانت خِلافتُه اثنينِ وعشرينَ عامًا وعشَرةَ أشهر وعشَرةَ أيام، أوّلُها يومُ الثلاثاء ثامنُ جُمادى الآخِرة سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وخمس مئة، وآخِرُها يومُ السبت ثامنَ عشَرَ ربيعِ الآخِر سنةَ ثمانين، فكان عمُرُه سبعًا وأربعينَ سنة،

وكان مولدُه بتينملَ سنةَ ثلاث وثلاثينَ وخمس مئة، وكانت أُمُّه بنتَ القاضي أبي عِمران، وقيل: إنه صَلّى عليه ابنُه أبو يوسُف معَ أصحابِه وأشياخ الموحِّدين.

وكان يومَ حركتِه لهذه الغَزاةِ التي توفِّي فيها قد حدَث له فيها حدَثٌ غريبٌ من الفَأْل عندَما خَرج بالعَلَم الأبيض على باب القَصَبة انكَسَر له الرُّمحُ بالراية نصفَيْن، فتَمادى الخروجُ بالرايات الباقيات، ولـمّا وصَل إلى باب دَكّالةَ عندَ طلوع الشمس وإذا بمُنادٍ يُنادي على جَنازةٍ وهو يقول: الصّلاةُ على الغريب، فكَرِه ذلك وتفاءَلَ به وقطّبَ له وجهَه.

وكان عدَدُ أولادِه ثمانيةَ عشَرَ ولدًا ذكورًا، أسماؤهم: يعقوبُ المنصور، وإسحاقُ شقيقُه، ويحيى، وإبراهيم، وعبدُ العزيز، وإدريس، وأبو بكر، وعبدُ الله، وأحمد، ويحيى الصّغير، ومحمد، وعُمر، وعبدُ الواحد، وعبدُ الحقّ، وإسحاق، وطلحة، وعبدُ الرّحمن. وقاد له الجيوشَ من إخوتِه أخوه أبو حفص وأخوه أبو سعيدٍ وأخوه أبو عليٍّ الحَسَن، وأخوه أبو زكريّا صاحبُ بِجَاية.

وكان حاجبَه أبو حفص شقيقُه.

وُزراؤه: إدريسُ بن إبراهيم ابن جامع إلى أن أوقَعَ به آخرَ أيامِه، ثُم أبو بكر بنُ يوسُف الكُوميُّ بينَ يدَي ابنِه أبي يوسُف.

قُضاتُه: حَجّاجُ بن يوسُف وأبو موسى عيسى بنُ عمران وأبو جعفرٍ بنُ مَضَاء، وكان وزيرَه في أيام إمارته، وعيسى بنُ مخلوف.

كُتّابُه في أيام خلافته: أبو الحَسَن ابن عيّاش القُرطبي، وسببُ اتّصاله به أنه لـمّا كانت الفتنةُ الملَثَّميّة الـمُهلِكةُ للطائفة القُرطُبيّة، خَرج ابنُ عيّاش هذا في جُملة مَن خَرج منها وفَرَّ عنها ورحَل إلى إشبيلِيَة فقَرَّبه أبو بكر الـمُراديُّ شيخُ كُتّاب بيتِ الإشراف، ثم انتقل لكتابة السيِّد أبي حفص وسار معَه إلى تِلِمْسان، ولم يزَلْ في صُحبتِه وكتابتِه إلى أن كان الإيقاعُ بأبي جعفرٍ ابن عَطِيّة، فاستدعاهُ الخليفةُ إلى حضرته وأمَرَه بكتابتِه، وكانت وفاتُه عامَ ثمانيةٍ وستّين. وكتَبَ له أيضًا أبو العباس طاهرٌ المعروفُ بابن مَحْشُوّة.

تـمّت أخباره.

ذكرُ بيعة أمير المؤمنينَ يعقوبَ المنصور وخلافتِه وضَخامة دولتِه ومَهابة سَطْوتِه رحمَه الله[1]

نَسَبُه: هو يعقوبُ بن يوسُفَ بن عبد المؤمن، وتقدَّم[2] نسَبُ عبد المؤمن.

مولدُه: في العَشْر الأواخر[3] من ذي الحِجّة سنةَ أربع وخمسينَ وخمس مئة، فكان عمُرُه إحدى وأربعينَ سنةً وشهرَيْن وأيامًا قلائل.

وكانت خلافتُه أربعَ عشْرةَ سنةً وأحَدَ عشَرَ شهرًا وأربعةَ أيام[4]. وكان بينَ بيعة العامّة إياه وبينَ وفاة أبيه تأخُّرٌ بسبب كَتْم الوفاة.

صفتُه: كان مربوعًا آدمَ اللّون ضَخْمَ الهامة بوَفْرة إلى شَحْمةِ أُذُنَيْه أعْيَنَ حتّى لا يَرى مَن كان في عصرِه أملحَ عَيْنًا منه، وكان أشمَّ وسَط اللِّحية قد غَلب الشَّيبُ على مُقدَّمِها، وكان معتدلَ الجسم متناسِب الأعضاء سَبْطَ الأنامل، بليغَ اللّسان حاضرَ الجواب، مُشرِفًا على أجزاءِ مملكتِه في القُرب والبُعد، وكان شجاعًا مِقْدامًا عظيمَ الصَّريمة على أعدائه لا تضيعُ عندَه فضيلةُ أحدٍ من رجاله ولا يَغيبُ عنه شيءٌ من أحوال رعيّتِه[5] ولا يجترئُ أحدٌ على مخادعتِه. وكان يحبُّ الصّالحينَ ويُدني مجالسَهم ويَستدنيهم من أقاصي طاعته.

وُزراؤه: استَوْزَر أخاه أبا عبد الله ثم أبا عليّ عُمرَ بنَ أبي زَيْد الـهَنْتاتيَّ ثم أبا يحيى بنَ أبي محمد بن أبي حفص ثم أبا زيد بن يوجان. وحجَبَه فُضَيْلٌ وعنبرٌ فَتَياه[6].

---

(١) الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٠٥، والمعجب ٣٣٦ فما بعدها، وتاريخ الإسلام ١٢/ ١٠٥١-١٠٦٤ وهي ترجمة رائقة، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٥، والاستقصا ٢/ ١٥٨ فما بعدها.

(٢) في م: «وقد تقدم»، وما أثبتناه من النسخ.

(٣) في م: «الآخرة»، وما أثبتناه من النسخ.

(٤) في المعجب مدة ولايته ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأيامًا. قلنا: ولا يصح.

(٥) في ب: «الرعية».

(٦) ينظر المعجب ٣٣٧-٣٣٨ وفيه تفصيل.

قُضاته: أبو العباس بن مضاء، ثم أبو عبد الله بن مروان، ثم أبو القاسم بن بَقِيّ[1].

كُتّابُه: أبو الفَضْل بن أبي الطاهر، ثم أبو عبد الله بن عيّاش، وأبو الحَسَن الـهَوْزَنيُّ على الـمَجَابي وديوانِ العسكريّة، ثم أبو محمد ابنُ الكاتب، ثم أبو محمد الكباشي[2].

نَقْشُ خاتَمِه: أميرُ المؤمنين ابنُ أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين. وكانت بيعتُه أولًا بعدَ وفاة أبيه يومَ الأحد التاسعَ عشَر لربيعٍ الآخِر سنة ثمانين.

اختصارُ الخبر عن بيعتِه رحمَه الله تعالى

لـمّا توفِّي والدُهُ كما تقدَّم ذكْرُه أُخفِيَ خبرُه ومشَت الدابّةُ به على حالِـها حتى كان النزولُ بالمنزل فضَرَبت أخبيتَه على جَرْي عادتِه وأحْدَق الخَدَمةُ والفِتيانُ به على عادتِهم في سُكونهم وهيئاتهم، فلمّا تـمَهَّد النزولُ وتكاملَ الناسُ بالوصُول بعَثَ السيّدُ أبو زيد من حينه عن بعض البَنِينَ الأكابر ووجوه الموحِّدين والأشياخ الـمَزاور وذكَّرهم وعرَضَ عليهم مُبايعةَ الأمير أبي يوسُف، وعايَنوا الأميرَ أبا يعقوبَ مسَجًّى بينَهم فبايَعوه من وقتِ الزّوال إلى عشِيّة اليوم بعَيْنه، وأضرَبَ عن تعريف من اتُّهم في صفائه وشُكَّ في وفائه. وتَمادى الـمَشْيُ بعدَ هذا والـمَطِيّةُ على حالها يَظهَرُ الاعتناءُ بها وتنزِلُ المضاربَ والألويةَ على حالها، وكُتِمَ موتُه عن الإشاعة والتصريح، وكُفِّن وصُلِّي عليه، وأُدرِج في تابوت وتُقدِّم به إلى إشبيلِيَة، ولـمّا كان الوصُولُ إلى إشبيلِيَة رَوَّح أبو يوسُف يعقوبُ المنصورُ بها ثلاثةَ أيام حتى تلاحَقت الناسُ وتكامَلت المحَلّات واستوفَتْ جميع العَرَب وسائرُ أصناف الجيوش، واتَّسقَ الجميعُ بإشبيلِيَة وأكنافِها، فلمّا كان يومُ الجُمُعة غُرّةِ جُمادى الأولى ندَبَ الناسَ على الخصوصِ والعموم للمُبايعة، وحضَر من يجبُ حضورُه ومَن وسِعتْه القَصَبةُ، في اليوم المذكور وفي يوم السبت بعدَه، على طبقاتهم، فأفاضَ على قَرابتِه وأهل بيتِه غامرَ الإحسان وخَصَّ السيِّدَ أبا زيد بعشَرة آلافٍ دون أهل بيتِه لتقدُّمِه لخِدمتِه[3].

---

(١) المعجب ٣٣٩ وفيه تفصيل.

(٢) المعجب ٣٣٨-٣٣٩ وفيه تفصيل.

(٣) المعجب ٣٤٠.

ذكرُ حركة المنصور من إشبيلِيَةَ إلى الحضرة وما نفَذ من أوامرِه العَلِيّة إلى يوم جَوازِه إلى العُدوة

لـمّا كمُلت أشغالُ جزيرة الأندَلس وعَمَّ أخْذُ البيعة قاصيَها ودانيَها، أمَرَ يومَ الأحد الرابع والعشرينَ من جُمادى الأُولى بحضور أشياخ الموحِّدين والعَرَب وشيوخ الوفود من كلِّ بلد، وصَرَّح بالحركة وانقضاءِ الغَزْو والتأهُّب لسَمْع نَقْر طَبْل الرّحيل[1]، فخَرج أهلُ المجلس وعرَّفوا العموم، وكتَبَ لسائر البلاد والقبائل من المجاهدينَ والمسافرين، وقدَّم القائدَ أبا العباس الصِّقِلّيَّ إلى طَرِيفَ في ثلاثَ عشْرةَ قطعةً، وتقدَّمت قطعتانِ بالأثقال إلى رِبَاط الفتح بسَلَا، وأمَرَ جميعَ الناس من أهل الأندَلس من كلِّ طبقة أن يُبكِّروا إلى بُحيرة الوادي[2] فأسحَروا في اليوم المذكور في أُمَم لا يُحصَى عدَدُهم ولا ينقطعُ مدَدُهم، وزُيِّنت قطعةٌ بإزاءِ قُبّة الجلوس على شاطئ النّهر وكمُل سَلامُ الجميع، وقُدِّم المصحفُ الكريم، ودخَل ضُحى اليومِ المذكور وقد أعَدَّ له آفراك، فنزَلَ بقرية طريانةَ وتَمادى مشيُ العساكر معَه إلى شَرِيشَ وأقلَعَ منها يومَ الثلاثاء، وتلاقَى على مدينة ابن السّليم بالسيِّد أبي زكريّا ابن السيِّد أبي حفص قادمًا من تِلِمْسان معَ أعيان زُغْبة ومنِ انضافَ إليهم من العَرَب وفي صُحبته سبعُ مئة فرس مَعُونةً لأهل الأندَلس، وكان قد ترَك منها مئتين بطَنْجة حسبَما أُمِر له به. ثم أسرَى المنصورُ ليلةَ الجُمُعة من عين الشّمس فأصبح بحجر الإبل وقدِ انضَمّ بشاطئ البحر الأُسطول، وقامتِ التهاليلُ[3] والطُّبول، فراقَ المنظر وراعَ المخبَر، ونزَلَ الدارَ المباركة بالشريعة والسّعدُ مُصاحبٌ والهواءُ مُوافق، فشُحِنت من ساعتِها الأجفانُ بالأثقال وشُدَّت الرِّحال، وأسفَرَ عن حُسن وجهِه اليُمنُ والإقبال.

ولـمّا كان يومُ السبت السابع لجُمادى الآخِرة من سنة ثمانينَ المؤرَّخة جلسَ بمضرِب الساقة لـمُوادعة أهل الأندَلس ووداعِه الوُلاةَ بها من إخوتِه الذين كان قدّمهم...

---

(١) ليست في ب.

(٢) في ب: «البحيرة التي بالوادي».

(٣) في ق، ر٣: «التآليل»، ولا معنى لها. والتهاليل هي الهتافات أو التسبيحات. معجم دوزي ١١/ ٤٨-٤٩.

وإسحاقُ وأبو يحيى وأبو زيد، ودخَل البحرَ ضُحى اليوم المذكور، وقُدِّم مصحفُ عثمانَ بن عفّان رضيَ اللهُ عنه بأروابِه على مَهْلِهم إلى قصر مصمودة، فأقام به بقيّةَ يومَ الجُمُعة حتى استوفَى الجوازَ الجميعُ، حتّى جناح السّلامة[1].

ولـمّا استقرَّ برِباط الفتح تسمَّى بأميرِ المؤمنين وكتَبَ إلى بلاد الأندَلس بذلك، إذ كانت كُتُبه تنفُذُ مذ بُويع من الأمير يعقوب، وتلقَّى به هناك أبو عبد الله بن واجاج معَ وفود العَرَب وأهل فاس ومِكْناسةَ وعُمّالهما، وأخَّر إبراهيمَ بن إسماعيل عن عَمَل فاس، وأمَرَ سائرَ العُمّال بالوصُول إلى الحضرة، ودُفن أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ بالرِّباط المذكور بدارِ الخليفة.

ولـمّا وصَل الناسُ إلى مَرّاكُش أقبَلوا على التودُّع مِن نَصَبِهم، والانغماسِ في راحاتهم، وتبسَّطوا بالإدلال، واتّصل الإغبابُ عن ملازمة الأشغال، فأنكر الخليفةُ تلك الأحوال، وأخَذ في تشميرِ ما انسَحَب من الأذيال، ورَفْع ذلك المنكرِ والإهمال.

اختصارُ الـخَبر عن تورُّع المنصور في قَطْع الـمَناكر وبَسْط العدل ومباشرة الأحكام لتحقيق شرائع الإسلام

لـمّا رأى التّساويَ في الانهماك والاغترار، وسَمِع المجاهرةَ بالاستهتار، والتنافُسَ في الشَّهَوات ونَفاقَ سُوق الغانيات الـمُلهيات، تنكَّر وغضِبَ في الله لذلك النّكير، وأضرَبَ عن القالِ والقيل، وجعَل الإنذارَ والإعذار مكانَ السّيفِ الصَّقيل، فأمَرَ بإراقة المسكِرات وقطعِها، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها، وأنفَذَ الـمُخاطَباتِ بذلك إلى كافّة وُلاتِه بالأمصار، فأُريقَ منها في البلاد ما يُساوي أموالًا جَمّة، وضُمِّنت الكتُبُ النافذةُ بذلك فصولًا في بَسْط العدل والتأكيد على العُمّال والولاة بتأنيس الرَّعيّة وتوخِّي رِضاهم في اقتضاءِ حقوقهم وكفِّ أيدي الظالمينَ عنهم وإباحة جَواز البحر إلى المشتكينَ والمتظلِّمين، فانبسَطَتِ الآمال وحَسُنَتِ الأحوال وتوالَتْ له الأدعِيةُ الجميلة.

---

(١) قوله: «الجميع حتى جناح السلامة» ليس في ب.

وفي إراقة الخمرِ يقول ابنُ بُجَيْر [من الطويل]:

رضيعُ ثُدِيِّ العِلم طال رَضاعُهُ ... لها وهْي ليست تستطيعُ فِصالَهُ
إذا شئتَ تدري في العلوم مقامَهُ ... فسَلْ عن دقيق العلم واسمَعْ مقالَهُ
أقام حدودَ الله في كلِّ موطِنٍ ... وأعمَل فيه رعْيَهُ واهتبالَهُ
فأنهَلَ بطنَ الأرض منهُ وعَلَّهُ ... وقد مُنِعت أيدي الورى أن تَنالَهُ
وبدَّد منهُ كلَّ ما فيه شُبهةٌ ... ولم يُبقِ إلا حُلْوَهُ وحَلالَهُ
إمامٌ جميعُ الخيرِ بعضُ صفاتِهِ ... فلا خيرَ إلا وهْو ممّا أنالَهُ
يُؤمِّمُه مَن سدَّد اللهُ قصدَهُ ... وأنجَحَ مسعاه وأنعَمَ بالَهُ
ويسبِقُ بالجُود السؤالَ لأنه ... يَرى وجهَ راجيه فيأبَى ابتذالَهُ

ذكرُ جلوسِه للأحكام بنفسِه

كان ابتداءُ جلوسه غُرّةَ رجَب سنةَ ثمانينَ المذكورة في المسجد الجامع المجاوِر لقَصْر الحَجَرِ أيامًا من صلاة الضُّحى إلى قُرب الزَّوال، معَ تأنيس الخصوم لاستدعاءِ ما لديهِم من الأموال، فارتاعَ الأعيانُ من حضورِ ذلك المقام، لِـما فيه من هجوم خَجِل وضِيق مجالِ المقال، وتطرَّق إليهم السِّفال، وأغرَموهم جُملةَ أموال، وكلُّ منِ ادَّعى شيئًا بشُبهة أو دَعْوى صُولِحَ بما يُرضيه دفعًا للبَلْوى. قال يوسُفُ بن عمر: ولقد حضَرتُ لأُناس من السُّوقة والتُّجار ادَّعَوا على السيِّد أبي زيد، فمنهم من قال: أهدَيْتُ له فرسًا وآخَرُ جاريةً وشتَّى دَعاوى، فكلٌّ أرضاه ووفَّى له ما ادَّعاه، فلمّا كثُر تزاحُم الغَوْغاء، وقلَّت فوائدُ الخُصَماء ـ وكانوا يقصِدونَ إلى مجلس في أدنى المطالب، وربّما كانوا يقصِدونَ رؤيةَ السُّلطان لا للوصُول لحقٍّ واجب ـ فقَطَع العامة ذلك الجلوس، بعدَ ما توطَّأت به بعدَ شِماسِها النفوس.

وفي أيام الجلوس للأحكام وصَل إلى الحضرة مئة وخمسونَ من أُسارى الرُّوم كان قد أسَرَهم القائدُ الصِّقِلِّيُّ حين عكَس أجفانَهم بساحل بحر إشبيلِيَة، فأمَرَ المنصورُ بغَزْو جميعِهم. ثُم أمَرَ بقَطْع لِباس الغالي من الحرير، والاجتزاءِ منه بالرَّسم

الرقيق الصَّغير، ومنَعَ النساءَ من الطَّرْز الحَفيل، وأمَرَ بالاكتفاء منه بالسّاذَج القليل، وأمَرَ بإخراج ما كان في المخازن من ضروب ثيابِ الحرير والدِّيباج المذهَّب، فبِيعت منه ذخائرُ لا تُحصَى بأثمانٍ لم تُوفَ ولم تُستَقْصَ، ثم أمَرَ أصحابَ الشُّرطة بقطع الـمُلهين والقَبْض على مَن شُهِر من المغنِّين، فثُقِّف من وُجد منهم بكلِّ مكان، فغَيَّروا هيئاتِهم وتفرَّقوا على الأوطان، وبارت سُوقُ القِيان، وزُهِد كلَّ الزهد في هذا الشان.

ذكرُ اختطاطِ حَوْمة الصّالحة وإدخالِـها في الحضرة العالية

ولـمّا استَوْفَت هِمّتُه وجوهَ المحاسن وضروبَ الفضائل، وفخُمت المملكة وأَمَّها كلُّ قاصد وسائل، ضاقت عنها مساكنُ سَلفِه بقصر الحَجَر، فأمَرَ باختطاطِ الصّالحة، وحُشِد لها العُرَفاءُ والصُّنّاع، وكلُّ مَن شُهِر بالإتقان والأطباع، وحُدِقت مساكنُها بالتكسير، وأُرضيَ بالتعويض مَن كان له بها شيءٌ صغيرٌ أو كبير، وقُسِمت مساكنُها، وعيِّنت لِـما تحتاجُ إليه من المنافع أوضاعُها وأماكنُها، وجُمِعت لها الآلات، وخوطبَ بإمدادِها الجهات، ورَتَّب لإشغالها مِن حُفّازها[1] وحُفّاظِها وعُرَفائها ونُظّارِها، وأوعَزَ إليهم وأكَّد عليهم ألا يُنشئوا شيئًا من البُنيان إلّا فوقَ الغاية من الوِثاقة والإتقان، فأقبَلوا على العمَل من غير مَلَل ولا كَلَل مُواصِلينَ مساءَهم بصباحِهم، ومُوالين غدوَّهم برَواحِهم، حتى كمُلت على أحسن الهيئات وفوقَ ما أمَّل فيها من الإرادات، فصارت بها حضرةُ مَرّاكُش مصرَ الأمصار وغايةً في الفَخامة وارتفاع المقدار.

وبينَما الناسُ وادِعونَ في ظلِّ الأمان، نائمونَ ملءَ الأجفان، إذ طرَأَ خبرُ بِجَاية وما دار فيها من النِّكاية.

ثم كانت سنةُ إحدى وثمانينَ وخمس مئة، ففيها: كان دخولُ ابن غانِية[2] معَ الـمَيارِقة مدينةَ بِجَاية، وتحرُّكُ السيِّد أبي زيد ابن عمِّ الخليفة المنصور بالجيوش مِن حضرته مَرّاكُش ورجوعُها له على أحسنِ حالاتِها وما اندَرَج في أثناء ذلك من الحوادث والـمِحَن وغيرِ ذلك.

---

(١) جمع حافز، وهو الشرطي عند أهل الأندلس، ينظر معجم دوزي ٣/ ٢٤٢ من الطبعة الفرنسية.

(٢) هو علي بن إسحاق المعروف بابن غانية (المعجب ٣٤٥).

اختصارُ الخبر عن دخول ابنِ غانِيةَ بِجَاية(1)

كان أبو يعقوبَ رحمه اللهُ وَجَّه القائدَ أبا الحَسَن عليَّ بن الدبرتير إلى جزيرة مَيُورقة بعدَ هلاكِ إسحاق بن غانِية(2) ليَعرِضَ الطاعةَ على مَن بها من بني إسحاقَ المذكور، وليقدِّم الإعذارَ والإنذار، على جَرْي العادة فيمَن خالَفَ الجماعة من الثوّار، فركِبَ أبو الحَسَن المذكورُ ظهرَ البحر من سَبْتةَ على ما اقتَضَتْه صَريمتُه من الجَدّ، ولـمّا وصَلَها وسَّعَ نزُلَه وأكرَمَ في الظاهر مثواه، ووصَل بالدّوام على الخير قُواه، وقد أضمَروا ما كانوا بَنَوْا عليه [من نيّة خرو](3)جِهم وغَدْرِهم، وبَدَا من محاولتهم ما لم يَخْفَ على أبي الحَسَن في سرِّهم وجهرِهم، وكان عندَ حلولِه بساحتِهم واشتغاله بمجادلِتهم، بَعَثوا إلى مراكبِه مَن أنزَلَها من الرِّكاب والعمائرِ البحريّة، وطلَعَ فيها العمائرُ الـمَيُورقيّة، وجَرَّدوها إلى دارِ عُددِهم، فلم يكنْ لأبي الحَسَن مَحِيد عن الاستسلام، والصبرِ على ما فَجَأه منَ الآلام.

وتَمادى إمساكُهم للقائد المذكور ومُطاولتُهم له ومُواعَدتُه حتى اتّصل بهم وفاةُ أمير المؤمنينَ أبي يعقوب، فتحرَّكت أحلامُهمُ الضّعيفة إلى التدبير الذّميم، واستَهْواهم تَسويلُ شيطانِهم الرّجيم، وأغواهم غَوِيُّهم الـمَريد، وضالُّهم الرُّوميُّ رَشِيد، فاعتَقَلوا أبا الحَسَن في دار إنزالِه، ووكَّلوا به من الحَرَس والرُّقَباء ما أَمِنوا به من مكرِه واحتيالِه، وخَرج المذكورُ رَشِيد بقطائعِهم إلى بِجَاية، وقد بَلَغوا منَ احتفالهمُ الغاية، وظِلُّ الـهُدنةِ في تلك البلاد ممدود، وماءُ العافية بها مسكوبٌ ومورود، والعيشُ كالأحلام والدُّنيا تحيّةٌ وسلام، فوصَل الأعداءُ إلى بحرِها، وقدَّموا زَوْرقًا إلى حَريم أسوارِها، واستَوْثَقوا بالاستفهام من جَلِيّة أخبارِها، فأشرَفَ عليهم مِن أهل البلد مَن سألَهم عن شانِهم، وما اضْطَرَّهم إلى الهجوم من غير استئذانِهم، فأخبَروا أنهم غُزاةٌ يَطلُبونَ مَرافقَ السواحل، وهم بينَ مُخادع ومُخاتل.

---

(1) الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٠٧-٥٠٨، والمعجب ٣٤٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٥.

(2) المعجب ٣٤٤.

(3) ما بين الحاصرتين فراغ في النسخ.

وكان السيِّدُ أبو موسى قد حَلَّها من إفريقيّةَ مُجتازًا بها معَ أصحابِه، والسيِّد أبو الربيع على مقرُبة منها راحلًا إلى الحضرة، والكلُّ من هؤلاءِ غيرُ مستعدِّين، وعلى بُعدٍ منَ الفتنة منذ سِنين، وأقبَلَ العدوُّ من الغَد على تعبية واستعداد، وتأهُّب وامتداد، قد تكفَّنوا في ضُروب أسلحتِهم، وتعلَّقوا من الغِربانِ بصدورِهم وأجنحتِهم، وانضَمُّوا إلى السواحل والأسوار انضمامَ الطّير إلى الأوكار، وجَنَحوا إلى إحدى الجهات، بأسرارٍ تقدَّمت قبلُ من الـمُكاتَبات، فتدَلَّى لهم قومٌ من السُّوقة والفُسّاق وأسَرُّوا إليهم بعَوَراتِ البلد وغفلة أهلِه وقلّةِ الـمُقاتِلة من أهل النَّجدة به، فقَوِيت بذلك آمالُهم وامتدَّت أطماعُهم، وهَبَطَ لمحاربتِهم أخلاطٌ من الناس من غير قائد يجمَعُهم، كُشُفٌ من العُدّة، كُسالى من الضَّعف والوَحْدة.

وقد كان في البلد من أرباب الأمر ما لو شاء اللهُ لَـمنَعوهم منَ الاستيلاء، ولا مُدافعةَ معَ محتوم القضاء. وعندَما اجتَمَعت تلك الـمُقاتِلةُ في البَرّ، ورَأَت القِطَع كالـمُضرِبة عنهم، والـمُبدِيةِ النَّهبَ منهم، ثُم أوجَفَت إليهم إيجافًا، وتساوَتْ في احتماءِ الـمُقاذفِ والإسراع نحوَهم ثقالًا وخِفافًا، وأرسَلوا عليهم سَحابًا من القِسِيِّ العاقرة، وحِرابًا كالمنايا الماطرة، فشقَّتهم عن آخِرهم وتفرَّقوا كالفَراش المبثوث لا ينظُرُ أوّلُهم إلى آخِرهم، فمَدَّ الأعداءُ مطالعَ الطرائدِ وولايتَها، وخَرج الفرسانُ مستلئمينَ كأنّ اللُّجّةَ كانت طريقَها، وحين تكامَلت أعدادُ خيلِهم ورَجْلِهم، وارتفَع ما أَوْجَسوا في نفوسِهم من خِيفتِهم ووَجَلِهم، طلَعوا إلى ثَلْم السُّور قاصدين، بتجسيسٍ تقدَّم من أولئك الفاسقين، فسَهَّلوا بالحديد توعُّرَهم، ورأَوْا في الحين تيسُّرَهم، فاستولَوْا على البلد بأسرِه، وقَبَضوا على السيِّد أبي موسى وذويه وأهلِه، وثُقِفَ مَن يتعيَّنُ من الخَدَمة والموحِّدين، وصُيِّروا في ديار مُرْقَبين.

وكان دخولُ البلد في التاسعَ عشَر لصَفَر من سنة إحدى وثمانين وخمس مئة، وتَرك يحيى بنُ غانِيةَ[1] أخاه، بالبلد معَ رَشِيد الرُّوميِّ مولاه، وخَرج من فَوْرِه ليَلحَقَ بالسيِّد أبي الرّبيع، فالتقَى معَه بموضع يُعرَفُ بياميلول، فانخَزَلت العَرَبُ إلى العدوِّ وانطَوَت إلى حِزبِه، ورجَعت معَه على السيِّد وحربِه، فخُلِع عن محلّتِه، واستَوْلَى

(١) المعجب ٣٤٢.

العدوُّ على ما كان فيها من أموالِه وعِياله وثِقْلتِه، ووَجَّه بالجميع إلى بِجاية لنظَر رَشِيد وثقافِه، وانهزَم السيِّدُ أبو الرّبيع واستُشهِد بعضُ رجالِه، وتخَلَّى إلى الجزائر فوجَدَها غيرَ حصينة، فانحدَر منها إلى تِلِمْسان واستقَرَّ بها معَ السيِّد أبي الحَسَن فريدًا من جُندِه، عاريًا إلا من أدبه ومَجْدِه.

واقتفَى الشّقيُّ آثارَه، فأخَذ الجزائر وقدّم عليها يحيى ابن أخيه طلحة، وانتهَى إلى مليانةَ فأخَذَها وقدَّم عليها يدرَ ابنَ عائشة، ووقَفَ بها فنكَص على عَقِبَيْه ورأى أنّ الذي حصَل له فوقَ قَدْرِه ومطلبِه، فرجَع إلى بِجَاية، ووقَفَ معَ مسجدِها الجامع وأخَذ الناسُ بمُبايعتِه والدّخول تحتَ طاعتِه، ونَشَر رايتَه السَّوداء، وانحَشر إليه الغَوْغاء، فبايَعَه منِ اقتادَه الشّقاءُ بأَزِمّتِه، وتوقَّف من توكَّل على الله وأخَذ بسُنّتِه، ثم أخَذ ما أخَذ من مخازن بِجَايةَ من المال والثِّياب والعُدَد وكَسَا أوباشَ العَرَب ومنِ انضافَ إليهم ولاذَ به من أتباعِه، وضَمَّ جَمْعَه من أولئك الأخلاط المؤلَّفين، وتَرَك ببِجَايةَ أخاه يحيى ورَشِيدًا، وتحرَّكَ إلى قُسَنْطِينةَ ونازَلَها في جَمْع من المؤلَّفة لا يُحصى عَدِيدُه، وعنها كان تفريقُه وتبديدُه.

قال أبو الحَجّاج يوسُفُ بن عُمر: أخبَرني القاضي أبو عبد الله بنُ إبراهيم، قال: لـمّا أُقِيمت رايتُه المذكورة بإزاء المِنبر اشتَغلوا عنها بما كانوا فيه من النظر، خَرَّت على وجهِها، واندَقَّ من القناة قائمُها، فتفاءل الناسُ بإنذارها، بقِصَر مدّتِه وزوالِ دولتِه.

ذكرُ حركة السيِّد أبي زَيْد إلى بِجَاية[1]

ولـمّا وصَلَت هذه الكائنةُ إلى حضرة مَرّاكُش على كيفيّتِها، وبيانِ ما انطَوَت عليه النفوسُ في مُوالاةِ العدوِّ من خُبث سرائرِها ونفاقِها وفساد طَوِيّتِها، فاهتزّ المنصورُ اهتزازَ أمثالِه، وصبرَ صبرَ المتوكِّل على صالح أعمالِه، وشَرع في تكثيف كتائبه وتكشيفِ عُمّالِه[2]، وانتقاءِ رجالِه وشُجعانِه وأبطالِه، وأباح التمكُّنَ منَ الآلات، وأعطَى

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٧، والاستقصا ٢/ ١٦٠.

(٢) قوله: «وتكشيف عماله» ليس في ب، ق.

الجزيلَ من البركات، وأمَّرَ[1] السيّدَ أبا زيد ابنَ السيِّد أبي حفص على الجيوش، وفوَّض إليه التفويضَ التام، فخَرج في أعداد وافرة، وجُموع وعُدَد متكاثرة.

وتحرَّكت الأساطيلُ من سَبْتةَ على احتفال من أشكالها وانتقاءٍ من قُوّادِها ورجالِـها، وعليها أبو محمد بنُ أبي إسحاقَ بن جامع وأبو محمد بنُ عَطّوش الكُوميّ والقائدُ أبو العباس الصِّقِلِّي ومَن دونَهم من الرؤساءِ الأعيان، والأنجادِ الشُّجعان، والكلُّ تحت رَعْي الشّيخ أبي محمد ابن جامع وإلى نظَرِه وتحت ما يَراه من نَهْيِه وأمرِه، ومشَى[2] الجميعُ على تواعُد من تضافُر البرِّ والبحر، وتلاقي الفريقَيْن على الفتح والنّصر، فارتَـجَّت الأرضُ برًّا وبحرًا، ومَلأت الأنباءُ مسامعَ الخافقَيْنِ خبالًا وذُعرًا.

ووصَل الموحِّدونَ بمحلّتهم إلى مدينة فاس، فأمسَكهم بها ترادُفُ الأمطار، وتعذُّرُ الطريق بالوَحْل ومدودِ الأنهار، حتّى صَحَت السّماء وجَفّت الأنواء، ورحَل السيِّدُ من فاسَ وتدَرَّج بالجيش إلى تِلِمسان، والسيِّدُ أبو الحَسَن ابنُ السيِّد أبي حفص واليها، وقد شَيَّد أسوارَها وشدَّ بالرجالِ أنظارَها، والسيِّد أبو الربيع قد استقَرَّ بها من هزيمته، مُستوحِشَ النفسِ كاسفَ البال، حليفَ أفكارٍ وأوْجال، يتنسَّمُ ريحَ النّصر، ويستوهبُ الدعاءَ في استنقاذِ أهلِه من قَبْضة الأسر.

وخيلُ يدر ابن عائشةَ صاحبِ مليانةَ تضرِبُ إلى مازونةَ ونواحيها، وقد أضرَمَ نارَ الفتنة في بطونِ تلك الجبال وأعاليها، فأخَذ الناسُ من تِلِمسانَ أُهبتَهم، واستوفَوْا منها أقواتَهم وأزوِدتَهم.

وقد كان أبو يوسُف المنصورُ أتْبَعَ أُمراءَ الجيوش: البرِّية والبحرية كتُبًا لأهل سائر البلاد المغلوبِ عليها بالأمن والأمان والصَّفح والإحسان، ولـمّا دَنَت من البلاد دَسُّوا بالكتُب جواسيسَها دخَلوا بها ليلًا إلى البلاد واجتمعوا بها معَ من يوثَق به للأمن، فلمّا وقَفوا عليها ورأَوْا أنهم قد أَمِنوا غوائلَ العذاب، وأن العفوَ والرحمة لهم مفتَّحةُ الأبواب، وَثَبوا على مَن كان عندَهم من الأعداء، وأرصَدوا لِفرارهم بالمضائق

---

(١) في ق: «وأمدّ» ولا معنى لها.

(٢) من هنا إلى قوله: «برًّا وبحرًا» سقط كله من ب.

وقُبض على أكثرهم بتلك الـمَخانق، وسَبَقتِ الأساطيلُ ففتَحت الجزائرَ قبلَ وصُول أهل البَرّ، وضُرِبت الطّبولُ في يوم واحد على فتح الجزائر ومِلْيانة، وقُبِض على يحيى صاحبِ الجزائر وحواشيه، وأتْباعِه وغَواشيه.

وكان يدر ابنُ عائشةَ صاحبُ مِلْيانةَ قد أسرَى منها فاقتفَى أهلُها أثَره، فلَحِق بالقرية المعروفة بأُمِّ العلو وعُرِض عليه النزولُ على وَجْه التضييف، ثم قُبض عليه بأطراف النهار بعدَ مُعاركة ومُحاربة، وسيقَ جَمْعُهم مُصفَّدين، وأمَرَ السيّدُ أبو زيد على وادي شلف بغَزْو الباقين، وتقدَّم القائدُ أبو العبّاس الصِّقِليُّ بقطعة واحدة معَ بعض أهل البلد ودَسُّوا لهم كتُبًا بما وراءهم من الأُسطول والجيوش الواصلة، فلمّا وصَلت الأُسطولُ(١) إلى بِجَاية ضَجَّت العامّة وفتَحت الأبواب، ودخَلت عمائرُ الأساطيل فانتَهَبَتْ كثيرًا من البلد، فتلافَى الحالَ الشيخُ أبو محمد ابنُ جامع بالاشتداد والاجتهاد، ووضَعَ السّيفَ على مَن عُثِر عليه من أهل الاعتداء والفساد، فحَمِيت نارُ الالتهاب وسَكَن العمومُ عما كانوا فيه منَ الانتهاب، وخَرج السيّدُ أبو موسى ومَن كان معَه من الموحِّدين تحتَ الثِّقاف، وخَرج يحيى بنُ غانِية في عَدَد قليل عن بِجَاية ولحِقَ بأخيه بقُسَنْطينةَ وهُو محاصِرٌ لها، وقد كان بَلَغ أهلُها من الحصار، إلى حال مؤْذِنة بالدَّمار، وانتَهَوْا من الجَهدِ والتضييق إلى ما أغَصَّهم بالرِّيق، وضاقَ بهم من كلِّ طريق، فجاءهم من الفَرَج والتنفيس ما وجَدوا بركتَه في الحين، واللهُ معَ الصابرين.

وعندَ وصُول ابن غانِيةَ أضرَمَ النِّيرانَ في الآلات المنصوبة عليها، وتَركَ الأعداءُ أثقالَهم وكُراعَهم من غيرِ اختيار، وخاب سعيُهم وما بنَوْا عليه من التأميل، وتفرَّقوا أيديَ سبإٍ بكلِّ سبيل.

ووصَل السيّدُ أبو زيد بالمحَلّات إلى منزل تيكلات بعدَ إقلاع العدوِّ عن قُسَنْطينةَ بثلاثة أيام، فوقَع الاتّفاق، وتلاقَى الإجماعُ والإصفاق، ممّن تعيَّن من أشياخ الموحِّدين، وحضَر تلك الحركة من أهل البصائرِ والدِّين، وأجمَعَ رأيُهم على الترويح

---

(١) كذا في النسخ، والمراد: وصلت سفن الأسطول.

بالمجلس المذكور رَيْثما يُجرِّدُ الناسُ أثقالَهم ويجدِّدونَ أزودِتَهم ويتأهَّبونَ إلى اتّباع الأعداء إلى ما لا نهايةَ له، فأقاموا به يومَهم ذلك وثانيَه، ولحِقَ طلَبةُ بِجَايةَ ووجوهُ أهلِها صُحبةَ السيِّد أبي موسى فتهانَوْا بالسلامة، وشكروا اللهَ على ما خوَّلَهم من النِّعمة السابِغة والكرامة، واتّصل سَلامُهم بوَداعِهم وانصَرفوا على أدراجِهم.

وسيقَ كلُّ من قُبِض عليه ببِجَاية ونَظَرِها ممّن مُيِّز من المرتدِّين، وقُبِض عليه ممّن جازَ من مَيُورقةَ من المتجنِّدين، فأُمِّن مَن جاز من مَيُورقةَ من الأجناد، وقُتل كلُّ مَن نَزَع عن هذا الأمر وأظهَر نفسَه في الارتداد، ووزِّع على الموحِّدين كلُّ ما كان بدار الشّقيِّ من الإماء، احتياطًا لضِياعِهم بطُول الثَّواء.

ورحَل الموحِّدونَ في اليوم الثالث في اتّباع الأعداء يتقصَّوْنَ أنباءه ويَقْفُونَ آثارَه، ويَطوُونَ عليه المراحل، ويعَضُّونَ على فَوْتِه الأنامل، والعدوُّ قد ألقى أعباءه وخفَّف رَحْلَه وفرَّق رَجْلَه وشمَّر للفِرار ذيلَه، واتَّخَذ اللّيلَ جَمَلًا، وإن رأى غيرَ شيءٍ ظنّه رَجُلًا، فتعذَّر على الموحِّدينَ لَحاقُه، وارتفع عنه في هذا الوقت مَحاقُه، لكثافة الجيش واتّساع أثقالِه، وأنْ لا مَحِيدَ عن رحيل الإنسان بمرافقِه وجمالِه، فرجَع الجميعُ إلى بِجَاية بعدَ ستة أشهر لم يَكتحلوا تحت جِدار بمنام، ولا برَحوا عن الإسراج والإلجام، والجيشُ وافرُ العُدّة ظاهرُ الصَّلاح، غيرُ مفلول ولا مقصُوصِ الجناح.

وعُرِّفَ المنصورُ أبو يوسُفَ بتيسيرِ هذه الحركة وما كان من أمرِ الأُسطول في فتح بِجَاية، فهنِئ بالحضرة بمَرّاكُش، فقال أبو العباس ابنُ عبد السلام في ذلك [من الطويل]:

لـواؤك منـصورٌ وسَـعْدُك غالـبُ ... وحزبُـك للأعـداء عنـكَ محـاربُ
لقـد ثَكِلـت أُمُّ الـمُناوي وغُـرِّرتْ ... مَبـادئُ مـن أحوالِـه وعواقـبُ
سَمَا لاستـراقِ الـسَّمع مـن وَهَداتِـهِ ... ودون سماءِ الـمُلك شُـهبٌ ثواقـبُ
تلاقَـى عليـه الـبَرُّ والبحـرُ ترتمـي ... سَـفينٌ إلى استئـصاله وكتائـبُ
غريـقٌ بغرقَـى مثلِـه متمـسِّكٌ ... ومـوجُ المنايـا مـثلَهم متراكـبُ
هوَتْ بهـمُ الأطـماعُ في هُـوّة الـرَّدى ... وغَـرَّتهمُ جهـلًا بُـروقٌ خَوالـبُ

أطاعوا غَوِيًّا لم تقيِّدْه شِرعةٌ ... ولم تُرِهِ وجهَ الصّواب التجارِبُ
مغيَّبُ وجهِ الرأي والوجهُ حائرٌ ... يَرى حاضرًا في أمرِه وهْو غائبُ
دعاهُم إلى آجالِهِمْ فتهافَتوا ... كما جَمَعَ الأعوادَ للنار حاطبُ
تصامَمَ عن وَعْظ الزّمان بقلبِهِ ... وأعرَضَ عن وجهِ الهُدى وهْو لاحبُ
تخيَّل أنّ الناصريّةَ دارُهُ ... يُطاعنُ عن ساحاتِها ويُضاربُ
وفي الغيب من إنجاد طائفةِ الهدى ... ونَصْرِ أميرِ المؤمنينَ غرائبُ
هو الأمرُ أمرُ الله ليس يَفوتُهُ ... مُناوٍ ولا يَنْأى عليه مُناصبُ
وما هاربٌ منه ولو بَلَغ السُّها ... بناجٍ وهل يَنْجو من الله هاربُ
بناصرِها المنصور تاهت خلافةٌ ... تُناسبُهُ في حُسنِه ويناسبُ
إمامٌ له فضلٌ على الخلق باهرٌ ... ومرتبةٌ تنحطُّ عنها المراتبُ
مناقبُه مثلُ الكواكب كثرةً ... ونورًا ألا لله تلك المناقبُ
له نسبةٌ قَيْسيّةٌ قُدُسيّةٌ ... تُقِرُّ لها بالمعلواتِ المناسبُ
هي الدّوحةُ الشّماءُ في الأرض أصلُها ... وقد زاحمَت منها السماءَ الذوائبُ
حقيقٌ بميراث النبوّة والهُدى ... ولا عَجَبٌ إنّ المزايا مواهبُ
بِقيمِ أميرَ المؤمنينَ وسعدِكمْ ... تُهزُّ قنًا منه وتَنضَى قواضبُ

ذكرُ استقرار السيِّد أبي زيد ببِجَاية وما جَرى مدّةَ إقامته بها من الأحداث إلى حينِ انفصالِه

لـمّا وقَعت الفتنةُ ببجَايَة وأقطارِها، وخَفّ قَطينُها وعُمّارُها، وانتُهبت زروعُها وغَلاتُها، وقَلّت خيراتُها وعُدِمت مَرافقُها وأقواتُها، وألَـمَّ بالرعيّة الحَيْف، وتقسَّمَهم الجلاءُ والسَّيف، اعتَصم مَن نَجا منهم بقُنن الجبال والأوعار، واحتمَى مَن رَكَن منهم إلى أحياءِ العَرَب بالجِوار، فأقفَرت من بِجَايةَ بسائطُها، وقلت مادّتُها، وغَلَت أسعارُها، وتعذَّرتِ الجِبابة، وجاوَزَ تقتيرُها النّهاية، فتسلَّل من القبائل خيلًا ورَجْلًا

معظمُ سوادِهم، وتسرَّبوا معَ الأيام فِرارًا من الإعدام إلى أقطارِهم وبلادِهم، ولم يبقَ إلّا مَن يُعرَفُ بعينِه واسمِه، ولا ساغَ له الرحيلُ عن قومِه، وكلُّ مَن كان يصلُ إلى الحضرة يُلقي في جانبِ السيِّد الأقوالَ الخبيثة، والأحوالَ السيئة الرَّثيثة، فأُوغِرَ صدرُ أمير المؤمنينَ على السيِّد المذكور، وصَرَفَه صبرُه وتُقاه عن معاقبتِه، فخاطَبَه معاتبًا على ما قيل فيه وزُوِّر، وبَسَط له من العَذْل والـمَحْض ما خَفَّ على ما نُقِل عنه وصُوِّر.

فأقام السيِّدُ على هذه الحال والمجاعةُ تشتَدّ والوباءُ يزيدُ حتّى عَمَّ الـمَوَتان، وبَطِرت معيشتَها الرخمُ والعُقْبان، وانحصَر المسلوبونَ والمغنومونَ إلى البلد في أُمم لا يُحصَى عديدُهم ولا يُنادى من الإقتار وليدُهم، وعَجَز أهلُ البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحونَ في الخُرَب وفي سِكك المدينة زُمَرًا أمواتًا ذكورًا وإناثًا.

وانفصَل الأسطولُ إلى المغرب وساءت حالُ المنافقين، ووصَل غزيٌّ الصُّنهاجيُّ من قِبَل الشقيِّ ابن غانِية بجُملة من جُندِه ووَفْر من عُدَدِه، فحصرَ مدينةَ أشِير وتغلَّب عليها وقَتل حافظَها، فاقتضَى نظَرُ مَن ببِجَاية توجيهَ أبي حفص عُمرَ ابن السيِّد المذكور بجماعة من الموحِّدين وأبي الظَّفَر ابن مُرْدنيش بمَن كان معَه من الأجناد، فالتقَوْا بغزيٍّ وأصحابه ودار بينَهم أمَضُّ القتال، وتسنَّموا لهم ظهورَ الجبال، فترجَّل العسكرُ بجملتِهم، واقتَحَم عليهم في منَعتِهم، وأوقَعوا بهم أيَّ إيقاع، وانزعجَ فَلُّهم إلى أطراف تلك البقاع.

وأُسْرِعَ برأس غزيٍّ إلى بِجَاية أيَّما إسراع، واستَولى أبو الظَّفَر ابنُ مُرْدنيش على منازِلهم وحريمِهم وحواشمهم ومَواشيهم وسَباها، وانصَرف من غَزاته وجَعَل ذلك الغُنْم زادَه وثوابَه، وشَغَّب عبدُ الله بمكان غزيٍّ أخيه، فاستهواه القاضي أبو العبّاس ابنُ الخطيب واستَنْزَلَه فصُلب ببِجَاية بإزاءِ رأس أخيه[(١)].

وفي هذه السنة: قُتل ابنا القائد ابن حملة، وكان تغريبُ بني حَمْدونَ عن بِجَاية إلى سَلَا وجَبْرُهم على بيع أموالِهم وديارِهم بثمن بَخْس[(٢)].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

وفيها: قُتل بعضُ مَن شارَكَ في تلك الفتنة من أهل بِجَاية ممّن خَلَع طاعةَ المنصور ولزِم خدمةَ ابن غانِية.

وفيها: قُتل رَشِيدٌ الرُّوميُّ ونِزارٌ ابن الزميلي الحكيمُ.

وفيها: حُمِل على بقيّة بني القائد وأصهارِهم وذَويهم في بيع أملاكِهم وديارِهم، وكان أهلُ البلد بعَقِب فتنةٍ مُبيرة وجائحة من المجاعة مُغيرة، فبِيعت بثمن بَخْس أكثرُه غيرُ مقبوض، وخَرَجوا على وجوهِهم وما منهم إلّا مُنطوٍ على فؤاد مرضوض وجَمْع مفضوض، واستقَرَّ جميعُهم بمدينة سَلَا حائرين، وبأثوابِ الضَّيعة مشتملين.

وبعدَ هذا وصَل إلى السيِّد أبي زيد كتابٌ كريم ببَسْط نفسِه، واسترجاع نافِر أُنسِه، وتزوير ما نُسِب إليه من الغفلة، وقدومِه على الخليفة بكلِّ ما أَلِف وعَهِد من الأَثَرة، وقَدِم على البلد السيِّدُ أبو عبد الله بعدَ تأخُّرِه على الوِزارة، وانصَرف السيّدُ في جمرةِ الشتاء وصِدق الأنواء. ووصَل السيّدُ بمَن معَه على مشقّة من الأهواء إلى الحضرة، فلقيَ من الخليفة أكرمَ ما وَعَدَه، والبرَّ الذي أَلِفَه منه وتعوَّده.

ولم تزَلْ همّةُ المنصور تتبَعُ جُزْئيّاتِ المملكة بالتفخيم، ويُجيلُ النظرَ فيما بقيَ منها للتكميل والتتميم، فرأى أنّ الدينارَ القديم يَصغُرُ عن مَرْأى ما ظَهَر بالمملكة من الـمَنازع العالية، وأنّ جِرمَه يقِلُّ عمّا عارَضَه من الـمَناظر الفخمة الجارية، فعَظَّم جِرمَه ورفَعَ قدرَه بالتضعيف وسَوْمَه، فجاء من النتائج الملوكيّة والاختراعاتِ السَّرية، جامعًا بينَ الضّخامة والنَّماء، والطِّيب وشَرَف الانتماء. فتكلَّمت في ذلك الشّعراء، فقال أبو العباس الجُراويُّ من قصيدة [من البسيط]:

بجِدِّ عِزْمِك نال الدِّينُ ما طَلَبا ... وأحجَمَ الشِّركُ عن إقدامه رَهَبا

وأيقنت ملّةُ الإسلامِ أنّ لها ... بكَ الظهورَ على الإعداء والغَلَبا

وأنّ كلَّ بعيد عندَها كثَبٌ ... ولو تطالب في أفلاكها الشُّهُبا

وأنّ أمرَك مُستَوْلٍ على أمدٍ ... من السعادة فات العُجْمَ والعَرَبا

إنّ الخلافةَ نالت من محاسِنِكم ... أوفى الحظوظ فأبدَت منظرًا عَجَبا

أعلى المراتبِ من بعدِ النبوّة قد ... حَبا بها اللهُ أعلى الخَلْق وانتَخَبا

سـينظِمُ الـسعدُ مـصرًا في ممالكِـهِ حتـى تـدوِّخَ منهـا خيلُـهُ حَلَبـا
إلى العـراق إلى أقـصى الحجـاز إلى أقصى خراسـانَ يتلـو جيشُه الرُّعُبـا
هـو الـذي كانـت الـدّنيا تؤمِّلُـهُ وكـلُّ عـصر لـه مـا زال مُرتقبـا
هل ابنُ إسـحاقَ إلا كالـذين جَـرَوْا إلى مـصارعِهم مـن قبلـهِ خَبَبـا
عـن شرٍّ منقلـبٍ تُجلَـى عواقبُـهُ وقَـلّ مـا حَمِـد المغـرورُ منقَلَبـا
راق النُّضارُ عيـونَ الناظرينَ وقـد غـدا اسـمُك المعتلي أعـلاه مُكتَتَبـا
قد جاز في وصـفِها في كـفٍّ ذاك وذا أنّ النجومَ استحالت للورى ذهبا[١]
نَـداك عـمَّ بنـي الـدّنيا وألبَـسَهم في الشرق والغرب أثوابَ الغِنى القُشُبا
خليفـةَ الله رُحمـاكم لمغـتربٍ نـاء ومـا إنْ نَـأى دارًا ولا اغتَرَبـا

وفي هذه السنة: كان استبدادُ القائد أبي الحَسَن ابن الدبرتير بقَصَبة مَيُورقة وتغلُّبُه عليها وتتبُّعُه بالقتل مَن وَجَد بها من لَـمْتُونَةَ وحواشي زَناتة، وتملُّكُه لأحوالِـهم وديارِهم وأموالِـهم.

ذكرُ تغلُّب القائد أبي الحَسَن على قَصَبة مَيُورْقة المذكورة

قد تقدَّم خبرُ وصُولِه إليها وتثقيف ابن غانِيةَ له عندَ عَزْمِه على الخروج إلى بِجَاية واستيلائه عليها، وذلك أنه لـمّا خَلَت الجزيرةُ منهم وخَرج معَه شوكةُ أجنادِهم ورجالِـهم وأنجادِهم، خلا لأبي الحَسَن المذكور وجهُ نَظَرِه، وأمكنَتْه الفُرصةُ في إعمالِ الحيلة في تخلُّصِه من ثِقافِه وتبصُّرِه، وكان الأعلاجُ جلَّ حاشيتِهم وناشئتِهم والمتطلّعينَ على أسرارِهم، وكان أكثرُهم على أديانِهم يرومونَ الانتقالَ إلى أوطانِهم، فاستمالَهم القائدُ المذكور مدةَ اعتقالِه استمالًا مُواليًا، أخَذ بعقولهم واستهواهم، وبَسَط لهم في المواعيد ومَنّاهم، وعَهِد إليهم عندَ تمكينِه من مُرادِه، وإعانتِهم له على ما يَرومُه منَ استيلائه واستبدادِه، أن يُجهِّزَهم إلى بلادِهم ويُخلي سبيلَهم بأهليهم وأولادِهم.

---

(١) هكذا في النسخ التي بين أيدينا، وهو الصواب إن شاء الله تعالى.

ولـمّا تمَّ له تدبيرُه، وتحصَّل له من خُلوصِهم ما تيقَّنه ضميرُه، وَعَدوهُ بأنّ ذلك يكونُ في جُمُعةٍ عندَ افتراق الناس إلى طهارتِهم واشتغالِـهم بالتأهب لفَرْض صَلاتِهم، فوصَلوا الميعاد وخَرجوا معَه من فَوْرِهم وغَلّقوا أبوابَ القَصَبة وتعلَّقوا بالأسوار، وفتَحوا بيوتَ الأسلحة وأخَذوا منها فوقَ المقدار، وأحالوا على رجالِ القَصَبة من لَـمْتُونةَ ومَسُوفةَ وحواشيهم واستَأْصَلوهم بالقَتْل إلى آخرِهم، فما اجتمعَ أهلُ البلد إلا وقد أعضَلَ داؤهم وأعيا دواؤهم، وغَلَب الاستيلاءُ على القَصَبة فانحشَر إليهم أهلُ البلد والجزيرة ونَصَبوا عليهمُ المجانيقَ والآلات، وأحاطوا بقتال القَصَبة من كلِّ الجهات، فكلّما سدَّدوا إليهم سِهامًا، وأرسَلوا عليهم حجارةً أو أشرعوا لهم سِنانًا، رفَعَ أبو الحَسَن على السُّورِ شخصًا من ذُرِّية إسحاقَ بن غانِية يُعارِضُ به ويتّقي السِّهامَ والأحجار، وأكثر ما كان يعملُ ذلك بأُمِّ عليّ ابن غانِية وأبنائه وخاصّتِه وإخوانِه، فكان أهلُ البلد يكُفُّونَ عن القتال ويرغَبون في الاستنزال، وتَمادت الـمُمانعةُ أيامًا، وصَرَفوا بينَهم في أثناءِ ذلك اليوم عهودًا مؤكَّدةً وأيْمانًا.

وكان أبو عبد الله بن إسحاقَ بن غانِية تحصَّن بأقصى الجزيرة من سِجن إخوتِه، على ما كان أراده منَ الخروج من الجزيرة إلى الأمرِ وتقدُّم هجرتِه، فوصَلَت المصالحةُ والـمُهادنة بينَ أهل البلد وبينَ القائد أبي الحَسَن على وصُول أبي عبد الله وارتباطِه معَه ونزوله وتخلِّيه عن البلد له، فسيقَ أبو عبد الله المذكورُ، فنزَلَ أبو الحَسَن له بعدَ ما استصفَى كلَّ ما أراد من ديارِهم وما فَدَوْا به أنفسَهم من ذخائرِهم، وسرَّح كلَّ مَن كان بالبلد من الروم المجنَّدين والمتملِّكينَ بأموالِـهم وأهليهم وأولادِهم، وجَهَّز جميع ما وَعَدَهم إلى بلادِهم. وخَرج أبو الحَسَن المذكور ولحِق بالحضرة معَ أبي عبد الله بن إسحاق مُبادرًا بالطاعة، فبَلَغ من الكرامة أملَه ورأى من الإحسان فوقَ ما أمَّلَه، وبقِيتِ الجزيرةُ في حُكم الموحِّدين، والخُطبةُ باسم المنصور أمير المؤمنين، حتّى يقعَ نظَرُه فيمن يوجِّهُه إليها واليًا عليها.

وفي أثناءِ النظَر لها ركِبَ عبدُ الله بن غانِية من إفريقيّةَ إلى صِقِلِّيّة، وأُعينَ منها بجَفْن تجَهَّز فيه إلى مَيُورقة، وانضَمّ إلى بعض قُرًى في أطرافِها وخَدَع بعضَ الرعيّة

باستمالِتها واستلطافِها، فخَرج عندَهم وأعانوه بدوابَّ ورجال، وسار إلى البلد فدخَله بتلطُّف واحتيال.

ولم يزَلْ عليُّ بن إسحاقَ بعدَ إقلاعِه من قُسَنْطينةَ وخَلْعِه عن البلاد التي كان أخَذها وانقطاعِه بأطرافِ طَرابُلُسَ وما وراءها يَألَفُ ذُؤْبانَ العَرَب وأوباشَهم، ويستميلُ هَمَجهم وفراشَهم، ويُناهشُ الأطرافَ القَصِيّة، وينتهزُ بسَرِيّة وبغير سَرِيّة، والشيخُ أبو محمد ابنُ واسجور بمدينة تونُس مُطِلٌّ عليه إطلالَ العُقاب الكامن والأسد الهاصر، والمنصورُ بحضرته يَستقرئُ أخبارَه، ويتربَّصُ به الدوائرَ التي أحَلَّها به فحسَمَت عِلَلَه، ومحَت آثارَه.

وفي سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة تَـحَرُّك المنصورِ إلى قَفْصة، وذكرُ ما كان فيها من الأنباءِ والحوادث

لـمّا دخَلت السنةُ المذكورة وتَوالَت على الحضرة الأنباءُ الشَّنيعة بتضييق الـمَيارِقة على بلاد الجريد، وتغلُّبهم على ما تَطرَّف منها في الثَّغر الأقصى والشأوِ البعيد، شَرَع في الحركة إليها، وألقَى كَلْكلَ[1] التصميم عليها، واستنفَرَ القبائلَ من البسائط والجبال، وكاثَرَ بها أعدادَ الحَصْباءِ والرِّمال.

وفي هذه الحركة اختَرع افراكَ المعَدّ لنزوله في غاية الحُسن والجمال، وقدَّم الارتقاءَ إلى تينملَ لزيارة قبرِ الـمَهْديّ على جَرْي عوائدِ سَلَفِه في تيمُّنِهم بتقديمِه، وقضاء حقِّه وتعظيمِه.

وشَرَع في أثناء زيارة قبرِ إمامِه في نَظَرِ مصالح البلاد، فشَدَّها بالوُلاة والأجناد، ثم جاء عيدُ الفِطر بعدَ هذه الزيارة، فلمّا قضَى فرضَ الصلاة، خَرج من مَرّاكُش في الثالث من شوّال، واستَخْلفَ على مَرّاكُش السيّدَ أبا الحَسَن شيخَ بني العمّ وكبيرَهم، وجعَلَ له النظَرَ في تتميم ما بقيَ من بناءِ الصالحة، ووَكَّلها إلى إعمال خاطِره والاستبدادِ برأيه ودقيق نظَرِه، وتَمادى المشيُ بعدَ الخروج من الحضرة من غير ترويح إلى رِباط الفتح، فجدَّد العَزْمَ بها وقدَّم ما يجبُ من المخاطَبات وودَّع مَن كان حَضَر من أهل

---

(1) في ق، ر٣: «كلكل».

الأندَلس وجهاتِ الحضرة من الوُلاة، فقالت الشّعراءُ في ذلك الوداع، فقال أبو بكر بن مُجبَّر[1] [من الكامل]:

لَيتَ الحوادثَ عن عِياني تغفُلُ ... فأُشاهدَ الفتحَ الذي يُستقبَلُ

وأضرَبَ المنصورُ عنِ استصحاب عَرَب المغرب وتجنيدِهم في حركته تلك إلا بعضًا من أشياخ رِيَاح كبني زَيّان رَعْيًا لِقِدَم هجرتِهم، وتيقُّنًا بنصيحتِهم، وأكَّد على سائر العُمّال الذين بالمنازل وأُمّهات الطُّرُقات بتبليغ المكاتَبات ووضوح المخاطَبات بإصلاح المسالك وتوطئة السُّبُل وتمهيدِها، ونَصْب الجُسور في أماكنِها وإعداد الأقواتِ وترغيدِها، وتيسير المرافق وتوفير العُلُوفات، وأنْ لا عُذرَ لهم فيما يَحتاجُ إليه الجيشُ من الموجودات. وكان الناسُ يمشُونَ كأنهم في أحسن مساكنِهم، وينتقلونَ من الترفُّه والتمتُّع بما لم يعهَدوه في معايِشهم ولا اقتَدَروا عليه في أماكنِهم.

ولـمّا وصَل المنصورُ إلى مدينة فاس رَوَّح بها أيامًا عديدة، وبُرهةً من الزمان مَدِيدة، لكونِها قاعدةَ المغرب وأُمَّ القُرى، وعاملُها إذ ذاك أبو موسى بنُ وامازين[2]، فأقام الناسُ بها في تضييف خَرَقَ العوائد، يتنافسُ الرعايا في ذلك على الأعياد، يأتونَ بجِفان تحمِلُ الواحدةَ منها عدّةٌ من الرجال، عليها عِدّةُ جُزُر يأكُلُ منها جموعٌ فلا يأتونَ لها على انتهاء، فجدَّد الناسُ بها أزوِدتَهم، وتفَقَّدوا أسلحتَهم وعُدّتَهم، وبساطُ العدل مبسوط، ونظامُ الأحكام حيث ما حَلّ الإمام مُحكَمٌ مربوط.

فرُفِعَ إلى المنصور أنّ أبا القاسم ابنَ الملجوم بنَى غُرفةً في دارِه يُشرِفُ منها على بعض جيرانِه، وجعَلَها متنزَّهًا له ولإخوانِه، فأمَرَ بوقوفِ أهل البصَر عليها، فلم تُشرِفْ إلّا على صحن حَمّام وسطح بعض أقوام، فأمَرَ المنصورُ بهَدْمِها وتغيير رَسْمِها، وتتَبَّع بالعدل قضايا العباد، ومشَى البحثُ عن المتظلِّمينَ بكلِّ منزلٍ وبكلِّ واد، ووقَعَ الرحيلُ بعدَ هذا الاجتهاد والنظَرِ في الاستعداد.

---

(١) في م: «محمد»، وهو تحريف، وهو شاعر مشهور، سيأتي الكثير من قصائده.

(٢) هكذا مجوّدة في النسخ كافة.

ولـمّا كان النزولُ برِباط تازَى التفتَ المنصورُ إلى ساقَتِه فرأى أكثرَ القَرابة من الإخوةِ والعمومة قدِ اصْطَفُّوا واختَصُّوا بلباس الغفائر الزَّبيبيّة والبَرانيس المِسْكيّة، فأنكَرَ عليهم مُلازمةَ ذلك الزِّي، لكونه من زِيِّ الخليفة في حالتَيْ ركوبِه وجلوسِه في كلِّ موطِن، فجَمَعهم السيّدُ أبو زيد، إذ كان أقربَهم إلى الخليفتَيْن: أبي يعقوبَ وأبي يوسف بالإيثار والتقديم، والمؤمَّرَ عليهم في الحديث والقديم، فجمَعَهم وذكَّرهم بعوائد الأمر والمحافظة على آدابِه وأن يتَجنَّبوا أفعالَ الخليفة المختصّةَ به، فلم يعُدْ أحَدٌ منهم بعدَ ذلك للِباس تلك الألوان، المختصّةِ بالسُّلطان.

وتَمادى السّيرُ، واليُسر يُسهِّلُ كلَّ عسيرٍ ولُطفُ الله يُدني كلَّ قَصِيّ ويُنيلُ كلَّ خطير. ولـمّا أطلَّ الموحِّدونَ على أرض قُسَنْطِينةَ وما اتّصل بها من الصحراء، تبادَرَ الأشقياءُ من الـمَيارِقة والأغزاز، وتألَّفوا وضَمُّوا جموعَهمُ الذّميمةَ وتحزَّبوا واستَهوَوْا شِرْذِمةً من سُليم لصوصًا وأوباشًا وكلابًا هِراشًا، فبَرَزوا بفضاءِ القَيْرَوان، وتَراءت طلائعُهم للعِيان، فعَزَم المنصورُ على الهجوم عليهم قبلَ تمكُّن استعدادِهم وأخْذِهم في تدبيرِهم ومُرادِهم، فتفاوَضَ معَ أشياخ المجلس والوُزراء، وبرَزَت نتائجُ الآراء، فصوَّب الجلوسَ بتونُس وأن يُجدِّد منها العَزْمَ للأعداء، فاتّصل المشيُ إليها ورَوّح الناسُ بها، والعدوُّ أثناءَ ذلك قد أخَذ أُهبتَه، وشدَّ للشرِّ حوبتَه، وتَراخَى تهيُّبُه ورُوعُه، وقوِيت شوكتُه وجَمْعُه.

وفي هذه السنة: توفِّي أبو الحَجّاج ابنُ مُرْدنيش بمدينة بَلَنْسِيَة.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانينَ وخمس مئة: كانت وقعةُ عمرة، وكيفيّةُ الخُدعة فيها على الموحِّدينَ وانهزامُهم وقَتْلُهم واستيلاءُ ابن غانِيةَ على خيلهم ورَجْلِهم، على ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ وقعةِ عمرةَ وهزيمةِ الموحِّدين

وذاك أنه لـمّا وضَع الناسُ بمدينة تونُس أثقالَهم وأخَذوا من البلد منازلَهم ورتَّبوا لـمَن نَصَبوا من الخيل والحَشَم مُؤنتَهم ولوازمَهم، أمَّرَ أبو يوسُف المنصور السيِّدَ أبا يوسُف بنَ أبي حفص على عسكر الموحِّدين، وخَرج من تونُسَ في جمع حَفِيل،

وجيش من كلِّ قَبِيل، فقَصَدوا إلى العدوِّ بجُملتِهم وأثقالِـهم حتى أشرَفوا على أرضِه، فرمَوا بنافلةِ العَزْم وفَرْضِه[1]، ولـمّا كان ليلةُ البَيات، وعَوَّلوا على اللّقاءِ والثبات، أسحَروا من الغدِ كما كانوا بجملتِهم وحُمولتِهم وأثقالِـهم، وذلك يومَ الجُمُعة منتصَفَ ربيع الآخِر سنةَ ثلاث وثمانينَ المذكورة.

ولـمّا تَراءى الجَمْعان، وتقاسَما مساحةَ الميدان، وكاد يتنازلُ الفريقان، تشتَّتِ الآراء، وكثُر التواكُلُ والالتواء، وأُعجِلَ الناسُ عن استعدادِهم... ولم يُمكَّنوا من مرادِهم، وأسْرَوْا وساروا على ريقِهم، معظمَ طريقِهم، مُعيينَ غيرَ شاكِين، والحُمولةُ ناحيةٌ منهم موسَقةٌ بأثقالِـهم لم يُحطَّ بها حزام، ولم يُرخْ لراحلةٍ منها زِمام، وعمومُ القبائل قد وَقَفوا بالأطراف بحيث لا تَطيشُ لهمُ السِّهام، وناشَبَ الأغزازُ القتال، وحَمِيت حفائظُ الرجال، فدفَعَ القائدُ أبو الحَسَن ابن الدّبرتير بجُملتِه، وأهلِ الجَدِّ والثِّقة من شِيعتِه، فغَشِيَه وأصحابَه سحائبُ سِهام، أكَبَّت منهم جماعةً لوجوهِهم كسقوطِ الأنعام، وقُبِض على أبي الحَسَن بعدَ إرجالِه عن مركوبِه وصُرِع أصحابُه من مطعونٍ ومضروب، واقتفَى أثَرَه أبو عليّ ابنُ يُومور[2] بحَشْدِ العَرَب وهم غيرُ محاربين، ولا بالنّجدة مرتسِمين، فنكَلوا لأول حملة عن دفاعِه، وخَلَّوا بينَه وبينَ أعدائه، ولم يصبِروا على ارتجاعِه، فقُبِض عليه وقد أثخنَتْه الجِراح.

وكشَفَت الحربُ عن ساقِها وكثُر الضّجيجُ والصُّراخ، والتَحَم نَسْجُ الفريقَيْن، واستحَرَّ القتلُ بين الفئتَيْن[3]، وحَمِي الوَطِيس وجُهِدت النفوس، وفَلّ الحُسام وكَلَّ السِّنان، وأُصيبت جملةٌ من الأعيان، وعَظُم الكربُ وتخاذَلت جموعُ العوام، ودَنا اللّيلُ وغشِيَ وَحْشُ الظّلام، وانضمَّت الأطنابُ على قلب الساقة، وخَرج الاحتمالُ عن وُسع الطاقة، وكانت تَغْشاهم سحائبُ السهام كسحاب الغَمام، وهم في مثل الحَلْقة منَ الازدحام، وفي ليل بَهِيم من ظُلَم القَتام[4]، يتوقَّعونَ المنايا من كلِّ الجهات،

---

(١) في ق، ر٣، ب: «نابلة العزم وفرضها»، وما أثبتناه هو الأصوب.

(٢) في الروض المعطار ٤١٤: «مومور».

(٣) في ب: «الفريقين».

(٤) في ر: «القتال».

ويتدافَعونَ على مثل ظَهْر القُنفُذ من قَصَد القَنا وأشلاءِ الأموات، فحينَئِذٍ ألقَى اليقينُ من صبر الناس بيدِ التسليم، وأفلَتوا من غَمَرات الـمَنُون، وفي حُنَين أُسوةٌ للمسلمين(١).

وأخَذ السيِّدُ وأصحابُه في الفِرار على كلِّ طريق، وسَرَوْا ليلتَهم بكلِّ فَجٍّ عميق، واشتَغل العدوُّ بالسَّلب والنَّهب، فلم يُقدِموا على الاتّباع، ولا أمِنوا غوائلَ الأرباع، وبقيَ بالـمُعترَك أكثرُ الرَّجّالة ممّن لم يَقدِرْ على الفِرار من جَريح وظَمْآن، وانضَمُّوا إلى قَفْصةَ ودخَلوا البلدَ وغُصَّت بهم سِكَكُه، فتغافَلَ عنهم قَراقشُ وأصحابُه وخُلِّي سبيلُهم، فنادَى عليهمُ ابنُ غانية وأشاعَ بمُخادعةِ الاستدعاء، ووَرّى لهم بإظهار وَجْهِ الاعتناء، فاجتَمع جميعُهم بنفوس سليمة، فأمَّر عليهم ابنَ غانية فقُتلوا أجمعين.

وجلسَ ابنُ غانيةَ بخِباء الساقَة المأخوذ للسيِّد أبي حفص وجَمَع أثاثَ المنهزِمين وأسلابَ الموحِّدين وقَسَمَها على شِيعته، واغترّ بخَيالاتِ الدّهر وخُدعتِه، وكان أبو الحَسَن ابنُ الدبرتير قد حصَل في أسرِ العدوّ وطَمِع في النّجاة والفَوْز، وسَقَطَ الخبرُ إلى ابن غانِيةَ المذكور فبعَث عن الذين ارتَبطَ معَهم على إفلاتِه فأعطاهُم مالًا على أن يَغدِروه، فأسلَموهُ إليه وخانُوا فيما كانوا وَعَدوه، ولـمّا مثُلَ بينَ يدَيْه أمَرَ بتعذيبه نفَعَه اللهُ بشهادته، وكذلك أبو عليّ ابن يُومور قَتَله وعَلَّقه على بابِ قَفْصة، وفُقِد في هذه الحركة كثيرٌ من أعيان الموحِّدين وأشياخِهم وأتباعِهم، وأصبح من بقيَ منهم يومَ الوقيعة حيث هَوى به عِنانُه وزِمامُه، وطاوعته نهضةُ جوادِه واعتزامُه، وضَلّوا بأقطار تونُس وهم طُلَحاءُ موكوعون، وإلى الوصُول إلى البلد راهبون، وبادَرَ إلى تونُس سَرَعانُ المنهزِمة وأكثرُ عبيدِ الخَدَمة.

وكثُر التحدُّث وفشَت الأنباء، وكثُر بالمنصور قلقُه وطار(٢) أرقُه، وحرَّض الناسَ على تجديد نيّتِهم وضاعَفَ لهم جَبْرَ ما تَلِف في حربِهم من أسلحتِهم، فاهتزَّت الجيوشُ من كلِّ مكان، وترادَفَ عليهم الإفضالُ والإحسان، فتضاعَفَت الأعداد وتَوالَت الأمداد، وخَرج من تونُسَ بجيشِه ليباشرَ الحرب بنفسِه.

---

(١) الروض المعطار ٤١٤-٤١٥.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وقد قال صاحب القاموس: «وطال، كطار».

ذكرُ حركة المنصور أبي يوسُفَ من مدينة تونُس لـحَرْب الـمَيارِقةِ والعَرَب وأشياعِهم[1] والأغزازِ وأتباعِهم وهزيمةِ يوم الـحَمَةِ عليهم وما ظَهَر في ذلك اليوم من جَزالتِه وصَرامتِه واستفتاحه ما غُصِب له من البلاد في التاسع من شعبانَ سنةَ ثلاث وثمانينَ وخمس مئة

وذاك أنه لـمّا جَرى على الموحِّدينَ ما جَرى بفتح عمرةَ من نَظَر قَفْصة على ما تقَدَّم منَ اختصارِ خبرِه، وإيرادِ أثَرِه، لم يَلبَثِ المنصورُ بعدَ الكائنة بتونُس إلا ريثما استنفَرَ عساكرَه وميَّز رجالَه واستوفَى أشغالَه، وتحرَّكَ من تونُس في صَدْر رجَب فنَفَر الناسُ خِفافًا وثِقالًا، وترادَف الوصُول خيلًا ورِجالًا، وهال منظرُ العساكر بانتظام الساحات، وتقدَّم رُوعُها إلى كلِّ الجهات، والعدوُّ في أثناء ذلك يحشُد حشودَه، ويجمَع من كلِّ سحيق جنودَه، حتى صَلُبت شوكتُه، وثَقُلت على البلاد وطأتُه.

ولـمّا انتهى المشيُ إلى مدينة القَيْرَوان، ونوافحُ الفتح تهُبُّ من كلّ مكان، قدَّم المنصور الإعذار والإنذار، فخاطَب الأعداء بعَرْض الدخول في الطاعة، والانضواء إلى حزب الجماعة، فلم يَرْعَوا سَمْعًا لهذه المخاطبة، ولا أظهروا لها مَخِيلةَ إنابة ولا مُجاوبة.

ولـمّا وصَل المنصورُ إلى مدينة القَيْرَوان تشوَّق إلى رؤية ما أبقت منها حوادثُ صُروف الأزمان، فوصَل المدينةَ ونظَر إليها والحوادثُ قد أخْلقت جِدّتَها ومحَت بهجتَها، فاخترَق سِكَكَها يلتفتُ تعجُّبًا واعتبارًا، ويتأوهُ تفكُّرًا وتَذكارًا، حتّى انتهى إلى الجامع العتيق البِناء، الأنيق الصّنعة في كلِّ الأجزاء، فنظَر إليه وقد طمَسَ التقادمُ مَرْآه، ومَحا الجديدان نورَه وضِياه، فطيَّر إلى شرق الأندلس، بنَسْج كُساه، والاستعجال في توجيه فُرُشِه وحُلاه.

ثم استمرَّ المشيُ أيامًا حتّى تراءى الجَمْعان، وتلاقَى من الطلائع سَرَعان، وكاد يتميَّز العِيانُ بالعِيان، فنزَلَ الناسُ على فَرْسخَيْن من الحمة والعدوُّ بأكنافها لم يُرَعْ له سِرب ولا هالَهُ من النزول قُرب، فانحفزَ الناسُ تلك اللّيلة في الاجتماع والوصُول،

(١) في ر٣، ق: «لحرب الميارقة الأغزاز وأتباعهم والعرب وأشياعهم».

وضَرْب الفساطيط والأبنية موصُولًا بموصول، وأمَرَ المنصورُ منَ الغد بالإقلاع والنِّداء بالتوكُّل على الله والاستعانة به، وأن يَلتمسَ الناسُ أسلحتَهم ويأخُذوا للِقاء العدوِّ أُهبتَهم.

فاجتَمع أشياخُ مملكته، ونُصَحاءُ خِدمتِه وأربابُ دولتِه، وعَرَضوا عليه فداءه بنفوسِهم وصونَه عن مشاهدة الحرب ببَذْل مُهَجِهم وأن يُقيمَ بالمحَلّة سنَدًا وراء ظهورِهم يلجَأونَ إليه ويَأوونَ لديه، فكلُّ مَن أخَذ معَه في ذلك زَجَره، وسَفَّه رأيَه وضعَّف نظَرَه.

وقدَّم على القبائل أشياخَ قَرابته وأشِدّاءَ عشيرته، وتجَلّى بينَ يدَيْ جيشه ومشّى الـمَزاورةَ المتقدِّمينَ ومشَى إثْرَهم[1] على ما أحكَمَ من النظام، ـ ومَن طلَبَ الأعداءَ بالجَدِّ والسَّعد لم يبعُدْ عليه مَرام ـ والأعداءُ متشوِّفون، ولأوّل نبأِهِ مُصيخون، وقد نَسَج الضّبابُ ذلك اليومَ على الأرض كثيفَ شِباكِه، وحالَ بين الناظرِ وبينَ ما يَروم من إدراكِه.

ولـمّا خَرَقَ شروقُ الشمس جَيْبَ الضّباب، وتراءت[2] بُحورُ الجيوش يركَبُ الموجُ فيها وَدْعَ الموج[3] ويَقْفو العُبابُ منها أثَرَ العُباب، نَفَخ في وجوه الأعداء طمَعُهم، وأكذبتْهم ظنونُهم، ورمَوْا أثقالَهم وأسلحتَهم، وصَفّقوا للفِرار أجنحتَهم، والتَحق المتقدِّمونَ بأواخِرهم، فاستَأْصلوهم في معرَكٍ واحد عن آخِرهم، وسيقَ من قُبِض في المعترَك من أعيانهم فقُتل بين يدَيْ أمير المؤمنين المنصور، وأفلَتَ قراقشُ الغزيُّ وابنُ غانيَةَ تحت غَسَق الضَّباب وبينَ ناب السِّنان وحدِّ الذُّباب، وقُبِض بساقتِه على أعلاج من حاشيتِه وخاصّة خَدَمتِه، والمنصورُ على أثَرِهم من غير عَجَل، والرؤوسُ تُداسُ بين يدَيْه كرؤوس الحَنْظل، وأذّن مؤذِّنُ الظهر والناسُ على سُروجِهم، لم يَبرَحوا من حين خروجِهم، وصَلّى الناسُ متمِّمينَ غيرَ مقصِّرين، ونُصِبت القُبّة الحمراءُ مدةَ

(١) في ق: «آثارهم» ولها وجه، إذ هي منصوبة على نزع الخافض.

(٢) من هنا إلى قوله: «نفخ في وجوه الأعداء» سقط من ر٣، ق.

(٣) أي: الموج بعد الموج.

الصّلاة فدخَلها المنصورُ وخَرج بثيابِ السِّلم وشعار الأمن، فهُنِّي بالفتح وما تيسَّر من النُّجح، ووضَعَت الحربُ أوزارَها، وصَلِي مَن صَلِي نارَها.

وأمَرَ المنصورُ بالركوب، وأغَذَّ السيرَ إلى جهة قابِس، فغَشِيَ اللّيلُ على مقرُبة منها وباتَ الناسُ آمنين، وببُرْد النّصر والعافية مرتَدِين، وبالأثقال والحُمولة بموضع النزول بالأمس، وأنفَذَ المنصورُ عندَ وصوله إلى قابِس جُملةً من خَيل ورِجال ورُماة وأبطال يَحرُسونَ مَن فيها من الأعداء عن الفِرار، ويَطوفونَ بها إلى حين لحوق العساكر معَ طلوع النهار.

وفي هذه السنة، بعدَ هذه الوقعة: فتَحَ المنصورُ بلاد الجريد بأسرِها، وقضى التَّطوافَ عليها قُطرًا بعدَ قُطر، وما كان على أربابها البَلَديِّينَ القُدماء، من الإبقاء واستئصال مَن كان فيها من شِيَع الأشقياء، والقَبْض على الذين بها من الأغزاز، وإسباغ العفو عليهم وتصييرهم في جُملة الأجناد، وما تخَلَّل هذه الأحوال من الحوادث الغريبة والاتّفاقات البديعة في مدّة هذا التَّطوافِ والـمُحاصرة، إلى انقضاء الإياب إلى تونُس، وذلك في شوّال من العام.

وأكثَرت الشّعراءُ في هذا الفتح، فقال أبو بكر بن مُجبَّر في فتح يوم الحَمَة [من الوافر]:

أُســائلُكم لـــمَن جـيشٌ لــهامُ ... طلائعُــــه الملائكــــةُ الكـــرامُ
أتــت كتُـبُ البـشائر عنـه تَـتْرى ... كـــما يتحمَّـــل الزهـــرَ الكُـــمامُ
تَـــنُمُّ ولم تُفَـــضَّ ولا عجيـــبٌ ... أيحجُـــبُ نفحـــةَ البـــدر الخِتـــامُ
كــأنّ النــصرَ أضــحكها ثغــورًا ... فللأيـــــام عـــــنهنّ ابتـــــسامُ
ويــا لَلنّــاس يُرغَــبُ عــن أنــاسٍ ... لهـــمْ بالـــدِّين والـــدنيا قِـــوامُ
أمـــامَهمُ إذا ســـلكوا ســـبيلًا ... كتـــابُ الله يتبَعُـــه الإمـــامُ
يُـــصاحبُه فيَـــصحَبُه الأمـــاني ... ويَتبَعُـــه فيَتبَعُـــه الأنـــامُ
هــو الــمَلِكُ الكـريمُ ومـا أصـبنا ... إذا قلنـــا هـــو الـــمَلِكُ الـــهُمامُ

فسَلْ ما حَلّ بالأعداء منهُ ... وكيف استؤصلَ الداءُ العقامُ
لقد برَزَت إلى هَوْن المنايا ... وجوهٌ كان يَحجُبُها اللِّثامُ
وما أغنَت قِسِيُّ الغِزِّ عنها ... فليست تَدفَعُ القدَرَ السِّهامُ
غَدَوْا فوق الجيادِ وهم شخوصٌ ... وأمسَوْا بالصّعيد وهم رمامُ
هو الأمرُ الرِّضَى طُوبى لنفسٍ ... يكونُ لها بعصمتِه اعتصامُ
حياةُ الدِّين دولتُه فدامت ... لأمر قد أُتيح له الدّوامُ
سلامُ الله من قُربٍ وبُعدٍ ... عليه وحَسْبُ مَن نزَل السلامُ

وقال أيضًا يمدَحُه ويذكُر هزيمةَ ابن غانِية والأغزازِ من قصيدة [من البسيط]:

عدوُّكمْ بخطوب الدّهر مقصودُ ... وأمرُكمْ باتّصال النّصر موعودُ
رأى الشّقاءَ ابنُ إسحاقٍ أحقَّ بهِ ... من السِّيادةِ والمجدود محدودُ
وكيفَ يحظى بدُنيا أو بآخرةٍ ... مُحَلأٌ عن طريق الحقِّ مطرودُ
أمَا دَرى لا دَرى عُقبى عِداتِكمُ ... كلٌّ بحدِّ حسام الحقِّ محصودُ
ألقى السّلاحَ وولّى يبتغي أمدًا ... يُنجيه وهْو مَرُوعُ القلبِ مودودُ
ما مرَّ يومًا ببابٍ ظنَّهُ سببًا ... إلى التخلُّص إلا وهْو مسدودُ
وهَبْه عاشَ أليس الموتُ أهونَ من ... عيش يُخالطُه همٌّ وتنكيدُ
أنحى الزمانُ على الأغزازِ واجتهدت ... في قطع دابرِهم أحداثُه السُّودُ
أنتم سليمانُ في المُلك العظيم وفي ... طُول التهجُّد في المحراب داوودُ
قد أبهَجَ الدِّينَ والدنيا مَقامُكمُ ... وكيف لا وهْو عندَ الله محمودُ
جارَى مناقبَكمْ شِعري فقصَّر عن ... بلوغ أدنى مداها وهْوَ مجهودُ
مَن ليس معتقدًا إيجابَ طاعتِكمْ ... فليس يُغنيه إيمانٌ وتوحيدُ
رضاكمُ الدِّينُ والدّنيا وعدْلُكمُ ... ظلٌّ ظليلٌ على الأيام ممدودُ
دمتُم حياةَ مدى الدّنيا ودامَ لكمْ ... نصرٌ وفتحٌ وتمكينٌ وتأييدُ

وفي هذه السنة: حاصَرَ المنصورُ أبو يوسُف قَفْصةَ وفتَحَها في شعبانَ من السنة، وذلك أنه لـمّا فَرَغ من التبريز عليها والاستطلاع لِـما لدَيْها نزَلَ بمحَلّتِه عليها حيث نزَل أبوه في محاصرتِه أيضًا لها، ولم يَعرِضْ أولًا لقتالها [حتّى][1] انحَلّ قُفلٌ من أقفالِـها.

فلمّا استَوْسَقَتِ الموادُّ بالوصُول من البلاد، وكمُلت العُدَد بالضرب والاستعداد، وحرَّكَ ما لَـجُّوا فيه وأظهَروه من العصيانِ والارتدادِ قلوبَ الجهاد، حوَّل المنصورُ أماكنَه، ونقَلَ مساكنَه، ونُصِبت له هناك بمقرُبة من البلد مُرتقَبةٌ من الخشب يُشرِفُ منها على مواضع القتال، وعلى المتصرِّفينَ في الأشغال[2].

ثم قُسِمت على البلد جميعُ الـمَجانيق والآلات، وأحاطت بهم من كلِّ الجهات، ودام عليهم حَرَجُ القتال والنَّكال، يأخُذهم باليمين والشمال، وضمَّ من المجانيق أرفعَها أثقالًا، وأشدَّها خدمةً ورِجالًا، وجُعلت سُموتُ أحجارِها على السُّور حتى أعادته هباءً منبَثًّا[3]، وصيَّرته معَ سِتارته السُّفلى قاعًا صَفْصَفًا مُجتثًّا، وأقيم بُرجٌ على سَبْع طِباق، مُزاحِمًا بذَروتِه مراقيَ السَّبع الطِّباق، فشُحِن بالرُّماة والآلات، رجالٌ بصفوف الأسلحة والرايات، تُحرَّك بالهمز ولطيف الرَّكز، فانسابَ انسيابَ الحيّة الرَّقْطاء، ومرَّ على سَمْتِه مرَّ الحُبابِ على صفحةِ الماء، من غير توعُّر ولا تغوُّرٍ ولا التواء، ونُفخ بداخِله البوقاتُ وصَكَّت الطّبول، وقام بأقطار المحَلّة التكبيرُ والتهليل، ودَنا منَ السُّور حتى أطلَّ على جَفْن المدينة إطلالَ الأهوام، وتـحَكَّم من أهلِها بسوءِ الانتقام، وكمُل رَدْمُ الحَفير المقابل لثَلْم السُّور حتى ساوَى وجهَ الأرض وصار مَهْيَعًا للبلد، بحيث لا يمنَعُ فارسًا ولا راجلًا، ولا خارجًا ولا داخلًا.

ولـمّا كان من الغَدِ من وقوف البُرج المذكور أخَذ الموحِّدونَ أسلحتَهم وأبرَموا عَزْمتَهم، وأعَدُّوا للقتال أُهبتَهم، وصَعِدوا على الرَّدْم للبلد قاصدينَ إلى الثَّلم، وكان المسلكُ صعبَ الـمُرتقَى لِـما تَراكَم في صدرِه من رَدْم الأسوار وسحيقِ ما قَذَفت به

(١) ما بين الحاصرتين زيادة مقتضاة.

(٢) ذكر المراكشي استرجاع قفصة في خبر قصير (المعجب ٣٤٩-٣٥٠).

(٣) في ق، ر٣، ب: «منثورًا»، وما أثبتناه أوفق للسجع.

المجانيقُ من جميع الأحجار، فزَلّت فيه الأقدام، ولم يتمكَّن بوَحْلِه عليهم الاقتحام، وكمَن لهم رَجّالةُ الأشقياء معَ معارج الرُّدوم، ودَرَّقوا ببقايا السُّور واستكَنّوا للوثوبِ والهجوم، فهَبُّوا عليهم من مكامن الأحجار، واستغاثوا بما كان منَ ارتفاعِهم من ذلك الانحدار، فواقفُوهم بعِظَم النهار، وانصَرف الموحِّدونَ ليجدِّدوا لهم من الغَدِ عَزْمةً تذهَبُ بمواقفتِهم وتكُبُّ أُولاهم على أُخراهم.

ولـمّا رأَوْا أنّ البلدَ مكسوح، وأنّ دَمَ مَن فيه مسفوح، تفاوَضَ الملأُ منهم بقيّةَ يومِهم في إعمال رسالتهم والاحتيال لنَجاتهم، وكيفيّةِ التوصُّل لحياتِهم، فراجَعوا بصائرَهم، وظهَّروا بالنّدم سرائرَهم، فأجمَعوا على توجيه أعيانِ البلد وأربابِه وأهل الحلِّ والعقد من كلِّ فريق من أصحابه. فلمّا جَنّ اللّيل وسَكَن ما بالمحَلّة من تموُّج الحركات، وأمِنوا منَ انبساط العامّة عليهم وامتدادِهم إليهم بالاستطالات، خَرجوا من ثَلْم السُّور بعدَ الإذْن إليهم في الوصُول، والإباحة لهم بالهبوط والنزول، فوصَلوا بمقرُبة من خِباء الساقة بعدَ ما تحقَّقوه على ما تقدَّم ذكرُه.

وجلَسَ المنصورُ لتنفيذ رسالتِهم والنظر فيما يكونُ من إجابتِهم، فبعَثَ في وجوه القَرابة وأهل الـمَشْورة والمناصحة، وتكلَّموا في شروطِهم ورَغِبوا في تتميم رُبوطِهم، فلم يُستَعْفَوْا في تأمين الـمَيُورقيِّينَ والأوباش المنضافين، فعاد القَفْصِيُّونَ المذكورون إلى بلدِهم في ذلك الأمان، ونفَذَ لهم التوقيعُ على تأمين الأغزاز في أنفسِهم وما مَلَكت أيمانُهم وتأمين أهل البلد في أنفسِهم خاصّة وأملاكِهم، ويأتي مَن كان في البلد من الحشود ينزِلونَ على الحُكم، فقَنِعوا بهذا الالتزام وما أشار الخليفةُ من الأحكام، وصَدَر لهم من ذلك النظام، ورأَوْا أنّ ذلك نعمةٌ عليهم بعدَما كانوا في قَبْضة الهلاك ولـهَواتِ الحِمام، وانفَصَلوا بعدَ هَدْءٍ من اللّيل إلى أصحابِهم بعدَما رَغِبوا في ترويح القتال عنهم تلك اللّيلة تطمينًا لنفوسِهم وتصديقًا لِـما عقَدَه من أمانِهم، فسَكّنَت تلك اللّيلةُ اضطرابَ الحركات، وباتَ الناسُ ملءَ عيونِهم من السِّنات، بأبدانٍ رائحات وأنفاس خافتات.

ولـمّا كانت من الغَدِ لم يبقَ بالبلد من الشّيخ الـهَرِم إلى الغلام المحتلم مِن غزيٍّ ومَيُورقيٍّ، وبَلَديٍّ وأجنبيّ، إلا وبادَروا بالسلام مُسرعين، وعلى شقاءٍ أو نعيم

مُقدِمين، وحين كمُل استيفاؤهم، ولم تبقَ بالبلد ما ظَهَر إلا نساؤهم، وهم وقوفٌ يهلِّلونَ ويكبِّرون، ولِما يكونُ من حال رجالِـهم مرتقبين[1]، ثم مُيِّز كلُّ صنف من صنفِه وعُزِلَ منهم جميعُ البلديِّين، وعُرِّفوا بما شمِلَهم من العفوِ والجُود الـمُعين، ونَجَوْا منه من الهلاك الـمُبير والعذاب الـمُبين، وخُلِّي سبيلُهم، وسابقَوا إلى بلدهم يُعلنونَ بدعائهم ويتضرَّعون بشكرهم، وعُزِل أشتاتُ الجنود وأصنافُ الحشود الغَوْغاء ومَن نزَل على الحُكم وغَلَبت عليه حُكمُ الشَّقاوة وثُقِّفوا في البُرج الـمُقام المذكور، وقد حان لهم الحَيْنُ المقدور، وانصَرف أميرُ المؤمنينَ والجمهور.

فلمّا فَرَغ من صَلاة ظُهر اليوم المذكور جلسَ في الـمَرْقَبة التي تقدَّم ذكرُها الـمسَمّاة بالدَّيْدَبان، وأمَر بإخراج المثقَّفين[2]، وأمَرَ بذَبْحِهم أجمعين، فكانوا يُساقونَ إلى مَصارعِهم زُمَرًا زُمَرًا ويُكَبُّونَ على وجوههم وجُنوبهم وظهورِهم، وبُدئ بابن شقيِّهم، ذَبَحه أبو يحيى الوزير، حتّى إذا أتَى الذَّبحُ على آخِرهم جُعل من خندقِهم وحَفيرِهم بقيعَ قبورِهم، وأهلُ البلد ينظُرونَ إلى مَصارعِهم، وتمكُّن الحديدِ في أوداجِهم وأخادعِهم، فنُهكَت الجهةُ من دَفْن جيفتِهم، وثَقُلت من وَحْشة جثَثِهم، فحوَّل المنصورُ مضاربَه، ورحَل إلى البقعة التي نزَلَها أوّلًا، وقَسَم سورَ قَفْصة على جميع مَن بالمحلّة فتوزَّعه الجمهورُ من كلِّ قَبيل، فأُعيدَ في يومَيْن هباءً منبَثًّا، وأُضرِمتِ النارُ في جميع الـمَجانيقِ والآلات، ورحَل الناسُ عنها، وبقِيت سوداءَ كاللّيل البَهيم، وكديار عادٍ بعدَ الرِّيح العقيم، وطالما كانت جنةً تُزهِر.

ودخَل المنصورُ تونُسَ في العَشْر الأواخر من شوّال من السنة، فوصَلت الوفودُ مُهنِّية، وأكثَرت الشّعراءُ في ذلك. قال أبو العباس الجُراويُّ يمدَحُهم ويَذكُر فتحَ مدينة قَفْصة [من الكامل]:

فــتحٌ يُطــاول فتحُـــه الأحقابــا ... خــضَعَت لــه فِـرَقُ الـضَّلال رِقابـا

واستـــشعر الــــمُرّاقُ منـــه مخافـــةً ... مَلَكـــت علـــيهمْ جيئـــةً وذهابـــا

(١) هكذا في النسخ، والجادة: «مرتقبون»، والذي ألجأه إلى ذلك هو ضرورة السجع.

(٢) في ق، ر٣، ب: «المنافقين».

وغَدا بـه مـا قـد صَـفا مـن عيشِهمْ كـدَرًا ومـا فيـه الحـلاوةُ صَـابَا
لله يــــومُ الأربعـــــاء فإنـــــهُ أحيـا النفـوسَ وتــمَّمَ الآرابـا
شرُف الزّمـانُ بـأن تكـونَ أبًـا لـهُ مـــــــا إن... ان حابـــــــا
وسِع الـمُواليَ والـمُعاديَ حُكمُـهُ في كـــلِّ أرض رحمـــةً وعـــذابا
وُسم ابـنُ إسـحاق عـلى خُرطومِهِ خِزْيًـا ينـالُ حديثَـه الأحقابـا
طمِحَ الشقاءُ بأهـل قَفْصةَ وارتقَـى بهـمُ شـواهقَ صـعبةٍ وعُقابـا
وأبَـى لهـم إصرارُهـمْ مـن قبـلِ أن رأَوُا العـذابَ إنابـةً ومَتابـا
لم يغـنِ عـنهم إذ أتـاهم مـن عـلٍ أن يحرسُـوا الأسـوارَ والأبوابـا
طلبـتْهمُ تحـتَ الـتّرابِ وفوقَهـا آجالُـهم فتولَّـجوا الأسرابـا
نـالتْهمُ رُحمـى الخليفـة بعـدَما نـادى الـرَّدى بنفوسِهم وأَهابـا
آيـاتُ نـصر بيِّنـاتٌ كلُّهـا بَـهَرت بـما جـاءت بـه الألبابـا
وسعادةٌ عجَبٌ تـهُدُّ قِوى العـدا هـدًّا وتقـصمُ مـنهمُ الأصـلابا
خـصَّت إمامًـا للبريّـة مُجتبًـى بَـرًّا تقِيًـا خاشـعًا أَوّابـا
ملِـكٌ عليـه مـسحةٌ ملكيّـةٌ لـبِسَ الزّمـانُ جمالَـها جِلبابـا
بـهَجوا على الأبصار بهجةَ يوسُفٍ ويـضيءُ داوودٌ بـه المحرابـا
مـدحُ الإمـام عبـادةٌ نرجـو بهـا عـزَّ الحيـاة وأن نفـوزَ مآبـا
مـا سـافرَتْ أذهانُنـا في مدحِـه إلا وكـان لهـا القـصورُ إيابـا
لم يـدرِ حـقَّ مقامِـهِ مَـن لا يَـرى مـن دون حـقِّ مقامـه الإطنابـا[1]

وفي هذه السنة: كان استقرارُ المنصور بتونُس بعدَ إيابه من حركة الحمة وقَفْصة وغيرِهما وما طرَأَ مدةَ إقامتِه بها من الحوادث الشاردة والأنباء الواردة وتقديم السيِّد أبي زيد على إفريقيّة وحركةِ المنصور إلى الـمَهْديّة وانفصالِه منها إلى المغرب بعدَ رَبْط

(١) وقع في النسخة (ب) تقديم وتأخير في النصوص، ثم عاد بعد هذا الأمرُ متسقًا.

أشغال البلاد وتأنيس مَن بها من العباد، وذلك أنه عرَّف الناسَ بعدَ أيام بأن يكونوا للحركة مستعدِّين ولم يعيِّنْ لها زمانًا[1] ولا خصَّص للوِجهة مكانًا، وشَرع في أشغال الحركة وأحوالِـها، وتثقيف البلاد والفَحْص عن أعمالِـها، وتقديم حُكّامها وعُمّالِـها.

وفي هذه السنة، وهي سنة ثلاثٍ وثمانينَ المذكورة: كانت حركةُ القائد أبي العباس الصِّقِلِّي بالأساطيل المنصورة وهجَموا على يابِسةَ ودخَلوها واستولَوْا عليها وقبَضوا فيها على ابن نَجاح القائد المايورقيِّ الذي هَرَب عن ابن غانِية للموحِّدين ثم نكَثَ عليهم، وقد كان خَدَع أهلَ يابِسةَ ودخَلَها.

وفي هذه السنة: كان استيلاءُ يوسُف بن أيوبَ على ما كان بيدِ الرّوم من بلاد الشام وغَلَبتُه على بيتِ المقدِس وصَرْفُه للمسلمين وضَبْطُه على ما كان به من النّصارى حتى فادَوْه بعشَرة دنانيرَ للذّكر وخمسةٍ للأُنثى وترْكِهم له جميعَ ما كان عندَهم من الأسلحة وتأمينِهم في أموالِـهم وأنفسِهم على تأدية هذه الضّريبة من العِدى[2].

وفي سنة أربع وثمانينَ وخمس مئة: تحرَّكَ المنصورُ من تونُسَ إلى الـمَهْديّة في المحرَّم وقد عزَم على الإياب إلى المغرب، فقدَّم المخاطَباتِ والرسائلَ تتضمَّنُ تتميمَ الحركة الشّرقية والاعتناءَ بالبلاد المغربيّة والأندَلسيّة، وأقام المنصورُ بالـمَهْديّة ريثَما رَبَطَ أشغالَ العَرَب إلى قوانينَ يوقَفُ عليها، وتحرَّكَ المنصورُ من الـمَهْدية على مُواصلة من التأويبِ والسُّرى آيبًا على طريق تاهَرْت لا يَعرُج على معقِل ولا يتلوَّمُ في منزل، والعباسُ بن عَطِيّة الزَّناتيُّ يَطوي له المراحل وينتقي له المنازل، حتّى أطَلَّ على تِلِمسانَ في مدةٍ قريبة من الزّمان، معَ راحلةِ العساكر وتيسُّر المرافق بكلِّ مكان.

ولـمّا وصَل المنصورُ إليها وقدِمَ عليها، وكان قد تقرَّر عندَه مدةَ مغيبه في غَزاتِه هذه تواترُ الأنباء وأحوالُ كلِّ مَن تردَّد في بيعتِه واستهواه الشّيطانُ في نكث عقيدتِه والتزحزُح عن طاعته، وأعوذُ بالله من عَمى البصائر، وتتبُّع الحسَد المؤدِّي إلى هلاك الرجال الأكابر وتَلَف العشائر.

---

(١) في ب: «زمنًا»، وما أثبتناه أوفق للسجعة.

(٢) تنظر التفاصيل في الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٢٩-٥٥٨، وتاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٨٣هـ.

نكبةُ السيِّد أبي إسحاقَ بن عبد المؤمن

كان ابتداءُ سَطْوة المنصور في أَوْبتِه قبلَ وصُوله إلى حضرتِه ببعض قَرابتِه الحاسِدينَ لبيعتِه، فأولُ مَن تلقّاه بتِلِمسانَ السيِّدُ أبو إسحاق أحدُ الأعمام، وممّن كان غُمِر بالإحسان والإنعام، وكان تأخُّرُه بهذا القُطر لاعتلال لزِمَه، فذُكر عنه أنه كان يطعنُ في آراءِ المنصور في تلك الحركة ويُضعِّفُها بحُجَج ضعيفة سخيفة، فجاء ليسلِّم عليه وقَعَد بينَ يدَيْه، وسأل أبو إسحاقَ الخليفةَ عن حاله، وكيفيّة كونِه في حلولِه وارتحالِه، فقال له: حالُنا على ما يسُرُّ المسلمين ويَسُوء الحاسِدين. ثم أمَرَ بقيامه فأُخرج على وَجْهه وطُرِدت دابّةُ مركوبِه ومشَى على قدَمَيْه إلى منزِله والعامةُ تطأُ أثوابَه، ولم يلبَثْ إلا يسيرًا وتوفِّي.

نكبةُ أبي حفص الملقَّب بالرَّشِيد والي مُرْسِيَة وأبي الرّبيع والي تادْلا وما وَرَد على المنصور من قَتْلِهما وكيفيّةُ مقتلِهما[1]

لـمّا جَرى بفَحْص عمرةَ ما جَرى من قَتْل الموحِّدين، وصَرَخَ الشيطانُ بظهور المارِقين، خبُثت سرائرُ الحاسدين، وبدَا على ألسنتِهم ما أصَرُّوا عليه من النِّفاق على تراخي السِّنين، وفَشَا على ألسِنة الرُّكبان شَنيعُ الكلام وسَرى ذلك ببلاد المسلمين. فلمّا ردَّ اللهُ الكرَّةَ على الأشقياء، واجتَثَّ الفتحُ أصلَهم من جميع ما كانوا أخَذوه من تلك الجهات والأنحاء، استَحالت الأضغاث، وسَكَنت الزَّعازِعُ والأحداث، وقد كانت الأنباءُ تصلُ إلى تونُس فيَطوي للأعداء عليها كَشْحَ الحليم، ويُعِدُّها ليوم عظيم.

فكان ممّن وصَل إلى إفريقيّةَ في أثناء تلك الحال، وتموُّج تلك الأهوال: العاملُ ابنُ اللَّحّاف، منشئُ الإرجاف، ومسعِّرُ الشّتاتِ والخلاف. فذكَرَ عن الرّشِيد أشياءَ تُنافرُ التوفيقَ والرّشاد، وتُحرِّكُ لمنكَرِها الجهاد، وتُنتجُ الخلافَ والارتداد، وتُصَكُّ منها المسامع، ولا يمكنُ مدافعةَ قُبحِها الـمُدافع، وأنه مُذ أشهُر يُضمِرُ حِيلَه ويقطعُ بالأرجاف الشّنيعة ليلَه ونهارَه، وأنّ الواصِلينَ من الأندَلس تحدَّثوا بمُوالاتِه أذفُونْش ومُحالفتِه معَه بأكيد المخاطَبات والمكاتَبات على التعاضُد في النِّفاق، والتآلف على ذلك والاتّفاق.

---

(١) المعجب ٣٥٢ فما بعدها.

وكان هذا الرَّشيدُ قدِ استَولَى على الناس بضروب العُدوان، وتسبَّب إلى أخْذ أموال التُّجار وإذاية الجِيران وغالَبَ العُمال على بيوت الأموال، وكلَّفَهم الـمُؤَنَ الثِّقال، ثم قَبَضَ على ابن رَجا مُشرف مُرْسِيَة وثقَّفه وطلَبَ منه إحضارَ تقييدات الـمَجابي وأزِمّتِها المجتمع فيها بجُملتها، فعَجَز الرجلُ عن تكليف الـمُحال، وما لا يُستطاعُ من الأعمال، فضَرَبَه بالسَّوط حتى قَتَلَه رحمه الله. وفَرّ ابنُ سليمانَ إلى بَلَنْسِيَة، وكان صاحبَ العمَل بمُرْسِية، وكذلك الكاتبُ حَكَم بن محمد فارَقَه فِرارًا بحياتِه وطمعًا في نَجاتِه، فخاطَبَه الرَّشيدُ يُريه الرَّغبةَ فيه، ويَعِدُه ويُرجِّيه، فتحرَّكَ الحائنُ يسعى برجلِه إلى أجلِه منقادًا إلى ما زَوَّر له من أملِه، وقد دَسَّ الرَّشيدُ إلى أحد حُفّاظِه أن يُنزِله عندَه، ويبطِشَ به ويودعَه ليلًا في مَلْحَدِه، فامتَثل الفاجرُ أمرَه، وقَتَلَه ولم يُمهلْه، وانكشَفت أحوالُ الرَّشيد للناس فأوقعَتْه غَدَراتُه، وأوبقَتْه سيئاتُه[1].

وفي أثناءِ هذه الأحوال وصَله من الحضرة الاستدعاء، وارتفَع عن أهل الأندَلس البلاء، وارتَحل فشيَّعه الناسُ بقبيح الثناء.

وتقرَّر أيضًا عن ابن أبي الرَّبيع صاحبِ تادلا عمِّ المنصور ما كان تسبَّب فيه مِن كشف رأسِه في النِّفاق وخَلْعِه للطاعة ومُجاهرتِه بالشِّقاق، وارتهانِه في مُخاطباته لمن جاوَرَه من القبائل على إجابتِه والارتباط معَه على ذلك الاتِّفاق، فسَوَّفوه تسويفَ المستهزئين، ورأَوْا أنه من الضالّينَ الهالكين، ثم مشَى السيّدُ أبو زكريّا في سَرِيّةٍ وافرة فأحاط بجهاته، وأخَذ بمُخنَّقِه على المألوف من عزَماته.

ولـمّا لم يجدْ سليمانُ المذكورُ إلى متنفَّسٍ سبيلًا، ولم يرَ منَ الإعانة كثيرًا ولا قليلًا، ألقَى بيد الاستسلام، وهَدَم ما بنَى عليه من أضغاثِ تلك الأحلام، وبقي غريقًا في وَرْطته، نادمًا على ما فَرَّط من فعلتِه الذميمة وغَلْطته، فأُذكِيت عليه عيونُ الرُّقَباء، وأُكِّد عليه في القدوم واللِّقاء، فسار يُقدِّمُ رِجلًا ويؤخِّرُ أخرى حتى لَحِق بالمحَلّة المنصورة، حاصلًا في قَبْضةِ ما جَناه من النوائبِ المحذورة. ولـمّا وصَل الرّشيدُ أيضًا من مُرْسِيَة أمَرَ بنزوله منفردًا في نَفَر من خاصّتِه وخَدَمته، ثم قَبَض عليه وعلى أبي الربيع المذكور، وتحمَّلتْهما الثِّقاتُ إلى رِباط الفتح خيلًا ورَجْلًا، وصارا تحتَ الثِّقاف والإشراف حتى أتاهما اليقين.

---

(١) سقطت من ب.

ذكرُ موتِ السيِّدينِ المذكورَيْن

ولـمّا وصَل المنصورُ حضرةَ مَرّاكُش وتمهَّد نزولُه، وقَفَل كلُّ مَن كان يُنتظَر قفولُه، وتفرَّغ من سَلام القاطنين، ومن تضييف الوارِدين، اجتَمع بالسيِّد أبي الحَسَن المستخلَف بمَرّاكُش ومن كان معَه من الموحِّدين، فباحَثَهم عن أحوال أولئك المنافقين، فقرَّر لديه من خبيث[1] أقوالِـهم وكيفيّة أفعالِـهم ما أوجَبَ عندَه شرعًا سفْكَ دمائهم، بنفاقهم واعتدائهم، فلمّا أوضح ذلك عندَ المنصور خاطَبَ عثمانَ بن عبد العزيز الكُوميَّ صاحبَ قَصَبة رِباط الفتح أن يُعفِّيَ آثارَهم ويصيِّرَهم في الهالكين، فقدَّمهما فضَرَب رقابَهما عفا اللهُ عنهما، وقُتل في نكبتِهما من تُحقِّق[2] اشتراكُه في المعصية معَهما، وورَدَ الشاعرُ الـمُحسن أبو بكر بن مُجبَّر في جُملة الوافدينَ للتهنئة بهذا القول السعيد فقال [من الرمل]:

بعلاكُـمْ وهْـو حـسْبُ الـمطنبِ ... عَـرَف المـشرقُ فـضلَ المغـربِ
فـسَحَ الـدّهرُ لـه حتـى رأى ... سِـيَرَ ابـنٍ وأبٍ بعـدَ أبِ
فرعاهـا بفـؤادٍ فَطِـنٍ ... وتلاهـا بلـسانٍ مُعـرِبِ
قـد لعَمْـري أبـصَر النـورَ الـذي ... مـذ بَـدَا أعـشَى عيـونَ النُّـوَبِ
ورأى مـا لم يكـنْ يعهَـدُهُ ... فهْـو مـشغولٌ بطُـول العجَـبِ
أيُّهـا المنـصورُ إنّ الـدِّينَ قـد ... حَـلَّ مِـن عـزِّك أعـلى الرُّتَـبِ
هُـو أمـرُ الله في أيـديكُمُ ... فاجـذِبوا الأرضَ بـه تنجـذبِ
رُفِعـت قبّتُـهُ مـضروبةً ... مـا لَـها غـيرَكمُ مـن طنُـبِ
عـارضٌ أبـدى بُروقًـا جَـمّةً ... وهْـو لم يـأتِ بـبرقٍ خُلَّـبِ
يقتـضونَ الوعـدَ بالنّـصر لكـمْ ... وهْـو قـد خُـطَّ لكـمْ في الكتُـبِ
غـيرَ أنّ الـسعيَ محمـودٌ ولا ... يقطـعُ الـسّيفُ إذا لم يَـضرِبِ

---

(١) سقطت من ب.

(٢) الضبط من ب.

مَـن يكُـنْ مطلَبُـهُ نـصرَ الـهُدى | نـالَ عنـد الله نُجـحَ الـمطلبِ
قـد تـلافَى اللهُ إفريقيّـةً | وهْـي نَـهْبٌ في يـدَيْ مُنتهِـبِ
أنـتمُ أحيَيْـتُم الـدِّينَ وقـد | مـات فيهـا مـوتَ مَـن لم يُعْقِـبِ
أحجَـمَ الأعـداءُ عـنكمْ رهبـةً | مَـن رأى المـوتَ عِيانًـا يَرهَـبِ
اهنئـي يـا حـضرةَ القُـدْس فقـد | رُحْتِ في ثـوب البهـاء الـمعجِبِ
يـا لـهـا مـن أَوْبـةٍ محمـودةٍ | سَـقَت الـدهرَ حيـاءَ الطـربِ

ولـمّا تفرَّغ المنصورُ من بعد الحُلول بحضرة مَرّاكُش من حركته وبَلَغ المرغوبَ في أعدائه والمطلوبَ من أُمنيتِه، نَظر في إنجاز ما وَعَد به في مُخاطباته، وضمَّنه في مُكاتباته، من مصالح البلاد الغربيّة، وإعانة الثّغور الأندَلسيّة، فاستعدَّ لذلك كلِّه بعدَ الفراغ من نَصَبِه، وبُلوغ الغاية من أرَبِه، بقيّةَ سنة أربع وثمانينَ المذكورة.

وفي سنة خمس وثمانينَ وخمس مئة: قدِمَ السيِّد أبو الحَسَن ابنُ العمِّ أبي حفص على تِلِمْسان، ومكَّن يدَه في المخازن بوجوه الإمكان، وقَدِم على إشبيلِيَةَ أبو حفص يعقوبُ ابن العمِّ أبي حفص لتمهيدِها لمثل هذه الحركات، وأطلَقَ الـمُخاطبات بالتأكيد على العُمّال في ضَرْب الآلات، وما تحتاجُ إليه الجيوشُ من العُدَد والأقوات، ثم أُشيعَ في الجبال القِبْليّة والبلاد الغربيّة النّداءُ بالجهاد من غير تكليف على حُكْم التطوُّع وتأتِّي الإرادات، فترادَفَت الأُممُ من الجبال والبسائط طامعينَ متطوِّعين، وأَتَتْ أُناسٌ كثيرةٌ من حَبَش غانِية وعمرةِ الصَّحارى مبادِرين، فاجتَمع بالحضرة، من الأحمر والأسود وشتَّى اللّغات من الحشود والمطَّوِّعة وعموم الأعراب من الجنود من معدودٍ وغيرِ معدود، ما ضاق بهم رَحيبُ الفضاء، وتكاثَرَ عن العدِّ والإحصاء.

والعدوُّ بالأندَلس في أثناءِ ذلك يشُنُّ الغارات، ويُبالغُ في النّكايات، حتّى أخذ بمخنَّق غَرْب الأندَلس برًّا وبحرًا، واستعانَ بقراقيرِ[1] الإفْرَنج فأذاق المسلمينَ ضُرًّا.

(١) في ق، ر٣، ب: «قراقر» والمحفوظ ما أثبتناه إذ هو جمع القرقور: وهي السفينة الطويلة الغظيمة، كما في معجمات اللغة، وستأتي على الوجه بعد قليل.

وفي هذه السنة: كانت غَلَبَةُ ابنِ الرَّنك اللَّعين على قاعدة شِلْبَ وإخراجُ أهلِها عنها إلى أنْ فتَحها المنصورُ عَنْوةً وجَبَرها للإسلام بحدِّ الحسام[1]. وكان من مُوافقة قَدَر الله وصولُ جُملة من القَراقير[2] الرُّومية مُجتازِينَ على عادتِهم إلى بيت المقدِس مذ انتُزع من أهل ملَّتِهم فيصَلُّونَ أبدًا في كلِّ سنة إليه ليُزيلوا عن أعناقِهم بزَعْمِهم عهدًا في أديانِهم ويَخرُجوا عن عهدِ ما شُرِط عليهم ونَفَذ إليهم معَ رُهبانهم، فعقَلَت الأنواءُ القراقيرَ[3] المذكورةَ بجهة الأُشبونة، فألفَى الكافرُ ابنُ الرَّنك مادةً لعَوْنِه على كفرِه، وجيشًا ميسَّرًا لِـما دبَّره من خَتَلِه وغَدْرِه، ووجَد منهم قَبولًا لجهاد المسلمين، فأحدَقوا بشِلْبَ من كلِّ الجهات، وبالَغوا في حصارِها إلى أنْ تملَّكوها وأخرَجوا أهلَها عن...[4] بعدَ إشرافِهم على الهلاك من الظَّمإ والجوع وعَدَم الهجوع، وكان حافظُها حينَئذ عيسى بن أبي حفص بن عليّ لم تُحنِّـكْه التجارِب ولا ابتُلي بسدِّ الثغور، فاستَولَى عليه الجَزَع ولفَّه الـهَلَع ودخَل في غِمار المؤمَّنين، وسلِموا في أنفسِهم وخَرجوا مسلوبين، واستَأصَل العدوُّ حِصنًا من نظَرِها يُعرَفُ بالبور، وأتَى القتلُ على كلِّ مَن كان فيه من صغير أو كبير وإناث وذكور، نفَعَهم اللهُ بشهادتهم يومَ النشور.

وفي هذه السنة: كانت وقعةُ حِصن المنار[5] وتغلُّبُ أذْفُونْشَ عليه، وذلك أنّ أذْفُونْش قَصَمه الله بثَّ سراياه على أكثرِ بلاد المسلمين فضَرَبت على قُطر قُرطُبة، ومال جُلُّ شوكتِهم على جهة إشبيلِيَة فتهرَّجت أقطارُها وأقلعت بسائطُها وأغوارُها، ووصَلوا إلى قُرى الوادي واكتَسَحوا ما اتّصل بتلك البوادي، وأسرع الرُّعاةُ إلى إشبيلِيَة يَستصرِخونَ بالغَوْث، فخَرج جميعُ عسكر إشبيلِيَة من غير أُهبة وبادَروا إلى مُصادمة العدوِّ وقد تَراءى الجَمْعانِ من غير تعبيةٍ تحفَظُ نظامَهم، ولا أُهبة ترتِّبُ خواصَّهم وعوامَّهم، وقدِ انتَشروا كالسائمة بتلك البسائط والفُحوص، واختَلط منهمُ العمومُ بالخصوص، ولم يتذكَّروا فَضْلَ المقاتلين في سبيل الله كأنّهم بنيانٌ مرصوص.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/ ٥٧-٥٨.

(٢) ينظر الهامش في الصفحة السابقة.

(٣) هنا جاءت على الوجه.

(٤) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٥) الروض المعطار ٢٠٢.

ولـمّا رأى العدوُّ أمرَهم بدَدًا، وأنّهم لم يَملِكوا من غَيِّهم رَشَدًا، أضرَبوا عمّا حصَل بأيديهم من غنائِمهم ومواشيهم وصَعِدوا على رَبْوة أشرَفوا منها على عَوَرات المسلمين، وعَلِموا المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين، فأخَذوا عَزْمَهم ولبِسوا لَأْمَهم على ما كان من ضَعْف عدَدِهم، وبُعد مَدَدِهم، وانصَبُّوا على نشَزِهم كقطعة ليل، أو كجلمودٍ حطَّه السَّيلُ من علٍ، ووالَوْا عليهم الكَرَّ والإقدام، وأشرعوا فيهم السِّنانَ والحسام، فتخاذَلت جموعُ الناس أجمعين ووَلَّوا للحين منهزمين، وأوى بعضُ الفَلِّ إلى دفءِ حصن المنار، فخَرج عليهم صغارُ الوِلدان وعقائلُ النِّسوان، يَضرِبونَ في وجوهِهم بكلِّ عار، ويَثلُبونَهم بقبيح الفِرار، وقد كان حضَرَها أعيانُ الموحِّدين، ووجوهُ الأجناد الأندَلسيِّين، واستَولَى العدوُّ على مَن ضمَّه الـمُعترَك من أسيرٍ وقتيل، وكثير من السّلبِ وقليل، وانقَلب بغنيمة باردة، وفائدة يا لها عندَهم فائدة.

ووصَلت سرِيّةُ الـمُغيرة إلى حَريم البَحائر بشَرَف إشبيلِيَة، وخَرج السيِّد أبو حفص صاحبُ إشبيلِيَةَ في جُملة خَيْل فلم يجاوِزْ سُورَ باب الفَرَج، وخيلُ العدوِّ معَ حيطان البحائر يُدِلُّون دلالَ الآمنين، ويعبَثونَ كما يشتهون، فعادت الأندَلسُ في تهارُشٍ واختلاط، والناسُ من الشدائد والضِّيقة في مثل سَمِّ الخِيَاط.

وكان نزولُ ابن الرَّنك اللَّعين على شِلْبَ في ربيع الآخِر من السنة المؤرَّخة، وحاصَرَها بقيّةَ ربيع الآخِر وجُمادى الأولى والآخِرة وتسعةَ عشَرَ يومًا من رجَب، ودخَلها يومَ الاثنين الـمُوفي عشرينَ منه.

وفي جُمادى الأُولى من السنة: خَرج أذفُونْشُ ملكُ قَشْتالةَ إلى أُمِّ غَزَّالة[١]، فنازَلَها وخَلَت قبلَ وصُولِه إليها. وفي أوائل جُمادى الآخِرة أقلَعَ عنها ونزَل ربينةَ ودخَلها عَنْوةً وقَتل فيها كلَّ منِ اعترَضه وأسَر الباقيَ وسَبَى كلَّ مَن كان بها، وتَمادى إلى قلعة جابرٍ إلى حِصن شُلَيْر[٢] وانصَرف إلى طُلَيْطُلة، وذلك في جُمادى الآخِرة من السنة، فأقلق المنصورَ ما وصَله من هذه الأنباء، وانحفَز في الحركة لدَفْع هذه الأدواء.

---

(١) معجم البلدان ١/ ٢٥٤ والضبط منه.

(٢) معجم البلدان ٣/ ٣٦٠ والضبط منه.

ذكرُ حركة المنصور الأُولى إلى الأندَلس من حركاته وما ظهَر فيها من قدرتِه وغلَبتِه

كان خروجُه من مَرّاكُشَ في الرابعَ عشَرَ من شهر ذي الحجة من السنة المؤرَّخة، فأنفذَ الـمُخاطبات إلى إشبيلِيَة وإلى سائر الجهات، فتضمَّن التيسيرَ باستقبال جيوش تلك البلاد وانحفازَها لنَصْر أهلِها على عدوِّهم، وكشْفَ ما هم فيه من الأوصابِ الشّداد، وتَمادى السّيرُ إلى رِباط الفتح، فتلوَّم به نحوَ الأربعينَ يومًا حتى استوفَتِ الحشود، وكمُلت أعدادُ القبائل والجنود، وتَمَّ في كلِّ جهة من البلاد النظرُ المحمود.

وفي سنة ستٍّ وثمانينَ وخمس مئة: تحرَّك المنصورُ من رِباط الفتح في أواخِر محرَّم، وتَمادى السّيرُ إلى قصر مصمودة، وجدَّد منها المخاطباتِ إلى إشبيلِيَة تتضمَّنُ قُربَه الميمونَ إليهم، ووفودَه في أقربِ وقتٍ عليهم، وفي أثناءِ هذا بَدَرَ من بَواكر الفتوحات تعكيسُ أجفان الرّوم فقُتِل منهم خَلْق وأُسِر آخَرون فهُنِئ بذلك المنصور، وامتدحَه الشّعراءُ، فمنهم ابنُ مُجبَّر، فإنه قال من قصيدة طويلة أولُها [من الطويل]:

دلائـلُ فـتح كـان يَـذْخَرُها الـدّهرُ ... فلـمّا أردتَ الغَـزْوَ أبرَزَهـا النّـصرُ
فها هي مُـذْ جـدتْ ركابُـك تَنْـبري ... سِراعًا فمن أفراحِها الـشَّفعُ والـوترُ
فـدونَكها منـسوقةً فلـشدَّ مـا ... تـسابَقَ فيهـا نحـوَك الـبَرُّ والبحـرُ
هو الفـتحُ يـا مـولايَ مـا فيـه مِرْيـةٌ ... ولا للّيـالي في تعـذُّرِه عُـذرُ

ومنها [من الطويل]:

أفي الـصبح شـكٌّ إنـه لَـمُـصبِّحٌ ... وقد غاضَت الظّلماءُ وانفَجر الفجـرُ
أتتـك أُسـارى الـرّوم وهْـي أقلُّهـا ... فمِن فَـضَلات القتـل ينتجعُ الأسرُ
وما كـان قبـلَ اليـوم سـهلًا مَرامُهـا ... ولكنْ علا الإسلامُ ما تـضع الكفـرُ
ومـا زلـتَ تَـدنو كـلَّ يـوم مـسافةً ... إلـيهم ويَهـوي في نفوسِـهمُ الـذُّعرُ

ومنها [من الطويل]:

لقـد كـان في الأحـوال عُـسرٌ فكلَّـما ... دنَوتَ استمرَّ اليُسرُ فـارتفع العُـسرُ
لعَمْـري لقـد سـنَّى بـك اللهُ غـزوةً ... قد افترَّ عن ثغـرِ الـسرور لهـا الثّغـرُ

ومنها [من الطويل]:

إلى غَــزَواتٍ مــن قريــب تتابَعــتْ ... ففـي كـلِّ قُطـر مـن سـحائبِها قُطـرُ
لقــد أيقنَــتْ هــذي الجزيــرةُ أنهــا ... ســيَجبُرُها مَــن لا يُهـاضُ لـه جـبرُ
لئن كـان مـاتَ الأمـنُ في جنَباتِــها ... فقُــربُ أمــير المــؤمنينَ لــه نَــشْرُ

وتربَّص المنصورُ بقصر مصمودةَ وقدَّم بين يدَيْه الجيوشَ للجَواز، فكان ابتداؤها في الخامسَ عشَرَ من ربيع الآخر من السنة المؤرَّخة. ولـمّا انحفَز الناسُ في جَوازِهم تحرَّك المنصورُ من قصر الـمَجاز وركِبَ البحرَ ضُحى يوم الأحد الثالث والعشرينَ لربيع، وروَّح بطَرِيفَ رَيْثما استنفَذَ الجَواز، ووصَل بعضُ وفود البلاد المجاورة للبحر للسّلام، وضَجُّوا بالتشكّي بالوُلاة والحُكّام، ورفَعوا فيهم شنيعَ الأرفاع بما لا تَسَعُه شرائعُ الإسلام، فأضرَبَ المنصورُ عن شنيع ذلك الكلام، وقال: إنّما نبدَأُ بغَزْو المفتَرِين والمشغِّبينَ من أطراف الأنام، ثم غَلَبه تُقاه، فأضرَبَ عمّا كان نَواه، وأمَرَ بطردِهم وعصرِهم تحتَ الوعيد، وإن لم يتوبوا عن أعراض المسلمينَ فالموتُ أقربُ لهم من حبل الوريد(١).

وتحرَّكَ المنصورُ من طَرِيف غُرَّةَ جُمادى الأولى، وتَمادى مَشْيُه إلى ظاهرِ أركش، فوادعَ الناسَ منها وركِبَ إلى قُرطُبة نهجَ السبيل، وعرَّج عن نظَر إشبيلِيَةَ بالرّحيل، وأخَذ بتجديد العَزْم للحرب وتقديم الحَزْم، وأمَرَ السيِّد يعقوبَ ابنَ العمِّ الأكبر أبي حفص بالحركة من إشبيلِيَة بعساكرِه من أجنادِها وأعرابِها وما انضَوى من أهل البوادي من غَرناطةَ والحُشود والمطَّوِّعة إلى آخِرها ومَن تأخَّر من صُنهاجةَ وهسكورةَ من كلِّ الجهات والمجاهدينَ من سائرِ الأشتات. فتحرَّكَ هذا السيِّدُ وجميعُ مَن ذُكر من

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٩.

هذه العساكر بعدَ انتظام السابق منهم بالآخِر غُرّةَ جُمادى الأُولى، وتَمادى مشيُهم حتى نزَلوا بظاهر شِلْب.

وفي آخِر الشّهر المذكور وصَلتِ الأساطيلُ إليهم فالتَأم غُزاةُ الرَّجّالة: البرِّية والبحرية، ونُصِبت الـمَجانيقُ والآلاتُ الحربية، ودَنا من السُّور الحُماةُ والكُماة، واضْطَرُّوهم من التضييق، إلى ما أغَصَّهم بالرِّيق، وبقِيَت تحتَ الحصار يَنشُرُ عليها القتالَ تارَةً ويَطوي أخرى.

ولـمّا كان وداعُ الناس من منزِل أركش على ما تقدَّم ذكرُه وأُحصر خبرُه، تَمادى مشيُ المنصور أمير المؤمنينَ إلى قُرطُبة، فنزَلَ بالقصر الذي كان الأخُ أبو يحيى تأنَّق في بنائه، ومشَى أثناءَ ذلك للزّهراءِ بنيّة الاعتبار بآثار القرون الذاهبة والأُمم السالفة، فأمَرَ بقَلع الصُّورة التي كانت على بابِها، وكان من الاتّفاق أنْ هبَّت ريحٌ عاصفٌ بأصيل ذلك اليوم أثَّرت في خِباء الساقة بعضَ التأثير وقَطَعت في طُنُبِه كالقطع اليسير، فأرجَفَ جُهّالٌ من عوامِّ قُرطُبة أنّ ذلك بسبب صُورة الزّهراء وأنها كانت طَلْسَمًا لِـما ارتدَعَها من الأشياء، واتّصل ذلك بالمنصور فجعَلَه من علوم أهل قُرطُبَة القديم ومن غَيايِتِهم[1] وتقليدِهمُ الذّميم، وأخَذ في مهمّات الجهاد، وما يليقُ بالحالِ الحاضرة من التأهُّبِ والاجتهاد، فصَرفَ أرسالَ أذْفُونْش إلى بلادِهم، ووجَّه السيّدَ أبا زكريّا ابنَ أبي حفص إلى إشبيلِيَة بمَن تحتَ نظَرِه من العَرَب وزَناته وأهل تِلِمْسانَ ومنِ انضافَ إليهم وأوى لديهم وأمَرَه بالتجهُّز من إشبيلِيَة رِفقًا ونظَرًا سديدًا للتمكين من الأزواد، وأمَرَه باللَّحاق به والاجتماع معَ إخوتِه بعدَ ما حَدَّ له ما حَدّ من الاستعداد. ثم إنّ المنصورَ حقَّق تمييزَ الجيوش الـمُسترزِقة، ومنِ افترَقَ من الأعدادِ الواصلة من برِّ العُدوة أخذوا باقيَهم المسمَّى بالبركة، وأمَرَ بسَوْق الرايات وعَقْدِها، وخَرج من حينه والنّصرُ والسَّعدُ مُحالِفان له في حالتَيْ حركته وسكونِه، فقال أبو بكر ابنُ مُجبر من قصيدة [من البسيط]:

بُشرايَ هـذا لـواءٌ قـلَّ مـا عُقِـدا ... إلّا ومَـدَّ لـه الـرُّوحُ الأمـينُ يـدا

وأقبَـلَ النّـصرُ لا يعـدو مناحيَـهُ ... فحيـث مـا قـصَدَت أربابُـه قَـصَدا

---

(١) في م: «غبايتهم» ولا معنى لها.

واستقبلَتْه تباشيرُ الفتوح فقد ... كادت تكونُ على أكنافِه لَبَدا
وقرَّب الفلَكُ الدوّارُ بُغيتَهُ ... فلو تناول بعضَ الشُّهْب ما بَعُدا
إمامُ جيش أراد اللهُ نُصرتَهُ ... فأرسَلَ الملأَ الأعلى له مدَدا
إنّي لأحكُمُ بالنّصر العزيز لهُ ... وإنْ سكتُّ فإنّ الوحيَ قد شَهِدا

فوصَل السيِّدُ أبو زكريّا إلى إشبيلِيَةَ وتلوَّم بها رَيْثما تـمَّم أشغالَه وخفَّف أثقالَه ورتَّب أدلّتَه ورجالَه، وتحرَّك منها فجَدَّ سيرَه حتى لَحِق بالمنصور حيث أمَر، وذلك بوادي تاجُه وبه تلاقت العساكر والأعداد، وتكاملت الحشود والأمداد.

اختصارُ الخبر عن فتح طُرُّش(١) ومُحاصرة حِصن المنار والإقلاع عنه

وتحرَّك المنصورُ من الوادي المذكور قاصدًا إلى حِصن طرش، فنَشَر عليه مُمِضَّ القتال، واشتدَّ على مَن فيها مضايقةُ النَّكال، وغَلَب عليهم انقطاعُ الآمال، ولـمّا رأَوْا أنفُسَهم في قَبْضة الهلاك وأنّ قيامَ المسلمين عنهم عينُ الـمُحال، ألقَوْا بيد الاستسلام وبَسَطوا رغبتَهم في الأمان، وأن ينفَّسَ عنهم رَيْثما يصِلونَ إلى طاغيتِهم ابن الرَّنك في الاستئذان، فتوجَّه قائدُهم معَ صُحبة وجوه العرب فوصَّلَهم إلى مَأْمَنِهم.

ورحَل المنصورُ بعدَ فتح هذا الحصن إلى حصن طمّان، فسلَكَ فيه ذلك المسلكَ من الحصار، وأخَذَتْه الجيوشُ بالتضييق عليه من كلِّ النواحي والأقطار، ووافَت رسُلُ ابن الرَّنك راغبًا في السِّلم وعَقْدِه، ومتلطِّفًا فيما تعجَّله من رَبْطِه وشدِّه، فأمَرَ المنصورُ بترويح القتال عن الحِصن المذكور، رَيْثما ينعقدُ هذا السِّلمُ وتنضبطُ تلك الأمور، وكان المنصورُ عَزَم في هذه الغَزاة أن يدوِّخ بلادَ ابن الرَّنك وينتهيَ فيها إلى أقطار قلمريةَ فُوعِك، وتَمادى وَعَكُه، ورأى جيشُه قد أثَّر فيه الغلاءُ ونَهَكَه، فأخَذ إلى إشبيلِيَة قافلًا، وكتَبَ إلى جميع مَن كان بالعساكر بشِلْبَ بالإقلاع منها عاجلًا، وتَمادى المشيُ والأسعارُ ترتفع، والموادُّ من جهة البلاد تنقطع، حتى كان الوصُولُ إلى

(١) معجم البلدان ٤/ ٢٩ والضبط منه.

إشبيلِيَة في الحاديَ عشَرَ لجُمادى الآخِرة من السنة. وفي يوم هذا الوصول نزَلَ على إشبيلِيَة في غاية الحَفْل، وركِبَ السُّودانُ على النُّجُب البيض بأيديهم الدّرقُ وعلى رؤوسِهم طَراطيرُ الطيلقان الشديد الحُمرة وصدورُ النُّجُب منظومةٌ بجلاجيلَ على شكل السَّفَرْجَل، والأغزازُ بضروب الحُلَل، فظَهَر مَرأًى تَحارُ فيه الأبصار وتذهَلُ الخواطرُ والأفكار، والـمُلكُ لله الواحِد القهّار. وكانت مدةُ هذه الغَيْبة ثلاثةً وأربعين يومًا، ووصَل المنصورُ على أتمِّ الأمور.

ذكرُ وصول المنصور لإشبيلِيَة وما طَرأَ من الأنباءِ مدةَ هذا الاستقرار ومشَى فيها من الحوادثِ والأخبار

ولما استقرَّ المنصورُ بهذا القَرار، وخَرج من ذلك الوَعْك خروجَ البدرِ من السِّرار، أخَذ في الفَحْص عن شؤونِ الناس وأحوالِـهم وكيفيّة كونِهم معَ وُلاتِهم وعُمّالِـهم، فاستُبرِئت السُّجون، وقُتل كلُّ مستوجِب القتلَ فيها منذ سنين، بعدَ عَرْض أزِمّتِهم على أمير المؤمنين، واشتدَّ في قطع الـمَناكِر والـمُلهِين، وأمَرَ بالقبض على ابن سِنان لِـما رُفعَ عنه في وَقْعة المنار أنه أولُ مَن بادَرَ بالفِرار، وأنّ الخَوَر حمَلَه على النزول عن فَرَسِه واللِّياذ بالأوعار، والتعلُّق بأهدابِ الأشجار، وأعوذُ بالله من التهالُؤ في أوقات الإدبار، فأمَرَ المنصورُ إذ ذاك باستصفاءِ أحوالِه وضمِّ أموالِه.

وفي هذه السنة ظهر الغوي الشقي علي الجزيري.

ذكرُ قيام الثائرِ الـجَزيري

وصَل خبرُه وأمرُه إلى المنصور بإشبيلِيَةَ في رجَب، بظهورِه بحضرة مَرّاكُش وانتشارِ الإرجاف به ببَرِّ العُدوة، وكان هذا اللّعينُ في أوليّتِه يتعلّق بأذيال الطّلب ويلهَجُ منه بحِفظِ المتشابِهات وما يؤوَّلُ منه إلى الروايات، فأمَرَ الخليفةُ بطردِه، فمشَى ملفوظًا يتغرَّبُ ويتجوَّلُ في الأقطار، ويسعَى في الفساد بالتكتُّم والاستتار، ويلتمسُ أبدًا جُهّالًا منَ العوامّ يُحادِثُهم ويُطابقُهم ويُلابِسُهم ويُرافقُهم، إلى أنْ ظهَرَ بمَرّاكُش الخبيث، وشَنُعت عنه الأحاديث، فأمَرَ السيِّد أبو الحَسَن بن أبي حفص بالبحث عليه في أقطار المدينة، فاختفَى وخَرج فارًّا بنفسِه، لا يَعرِفُ يومَه من أمسِه، ثم ظَهَرَ أيضًا

بمدينة فاس، وامتَزج بأوباشٍ منَ الناس، فسَقَط الخبرُ عندَ واليها ابن وَمَازير فلفَّهم بغُبارِهم وقَبَض على مَن عثَر عليه منهم عندَ انتشارِ أخبارِهم فاستَأْصَلهم قتلًا ونفيًا، وأفلَتَ اللّعينُ ولاذَ بأوعار تلك السّواحل، وانغَمَس فيها انغماسَ اللصِّ الخاتل، ثم تواتَرت الأخبارُ بأنه جازَ إلى الأندَلس، فأمَرَ المنصورُ بالكُتْب إلى جميع الجهات بصفتِه وأمارته وهيئته، واستقرَّت الكتُب بيد الحُكّام والعُمّال، والمتصرِّفينَ في الأشغال، وقد كان ذُكِر عنه أنه يتَصوَّرُ في صورة الحيَوان الذي لا يعقِلُ مثلَ الحمير والكلاب والسَّنانير، وأُلقي في ذلك من الأخبار المستحيلة ما نُسِي به أخبارُ أبي دُلامة الكذّاب فصَحّ عندَ المستضعَفين من العوامِّ تصحيحُ ذلك الكلام، وكانوا متَى رأَوْا سِنَّورًا مُنكَرًا في منازلهم لم يشكُّوا أنه الجَزِيريُّ طالبًا للاختفاءِ والفِرار، فيتلقَّوْنَ ذلك الحيَوان الذي يرَوْنَه حيث كان بالإنكار.

وتمادَى الناسُ على ذلك أيامًا إلى أنْ قيلَ: عُثر عليه بمالَقة وعلى أوْباش من سِفْلة الأسواق فمُلِئت منهم السُّجون، وفيهم أخو الفاجِر الملعون، وأمَرَ المنصورُ بسَوْقِهم إلى إشبيلِيَة، فذُكِر أنّ هذا الثائرَ كان في جُملة المسجونين، وأنّ القاضيَ المعروفَ بالواني أطلَقَه بِرشوةِ أولئك المفسِدين، فقَتَل جميعَهم وكانوا تسعةً وتسعين رجلًا، وأمَرَ على القاضي فضُرب بالسِّياط على عددِ الدّنانير التي تصيَّرت مِن قِبَل اللعين إليه فهلَكَ المذكورُ قبلَ إكمالِـها ولحِقَ بالآخِرة وأعمالِـها، وقُتل بسبب هذا اللعين خَلْقٌ كثير من الناس، ووقَع عليه البحثُ في كلِّ مكان، وجَعَل الرُّقباءُ يتصفَّحون الصِّفاتِ بالعِيان، حتّى قُبِض عليه بنَظَر مُرْسِية وسِيق إلى إشبيلِيَة فأُخرج إلى موضع جلوس الموحِّدين وطِيف به على جموع الحاضِرين، فأكذَبَ نفسَه فيما نُسِب إليه وفيما كان يدَّعي ويحُضُّ عليه، فصحَّح خِذلانَه وتمَّم حِرمانَه، ثم عُذِّب بعد هذا وصُلِب وقُطع به أرجافُ المفسِدين، وامتَدحه الشّعراء فقال الجُراويُّ يمدح المنصورَ ويَذكُر الثائرَ المذكور المعروفَ بالجَزِيريِّ من قصيدة طويلة [من البسيط]:

قضى لكَ اللهُ بالتأييد والظَّفرِ ... وبالسّعادة في وِرْدٍ وفي صَدَرِ

آثرتَ في نُصرة الدِّين المسيرَ على ... طِيب المقام وبِعتَ النّومَ بالسّهرِ

مُظفَّـــرٌ مـــا المغـــرور يطالبُـــهُ في الأرض مـن ملجأٍ عنه ولا وزرِ

جـدَّ الجزيـريُّ في إتـلافِ مُهجتِـهِ حتـى تـورَّط في وِرْد بـلا صَـدَرِ

نـارٌ مـن الفتنـة العميـاءِ أطفأهـا سعدُ الإمـام وحـدُّ الـصارم الـذّكَرِ

مـا زال إبلـيسُ في الأقطـار يوقـدُها وتَرتمـي مـن شِرار الخلـق بالـشّررِ

زاد الـشقيُّ عـلى الخُفّـاش مـشبِهِهِ ضَعْفَ البصيرة إذا ساواه في البـصرِ

جـارى إلى سَـقَر أصـحابَه فهـوَوْا فيهـا سِراعًـا وأوفـاهُم عـلى الأثـرِ

إنّ الـذي اتّـخَذ الأهـواءَ آلـهةً عـلى الـضّلال مُـصِرٌّ غـيرُ مزدجـرِ

والوعظُ في النـاس مقبـولٌ ومطَّـرَحٌ كالخطِّ في الماء أو كالنَّقش في الحَجَـرِ

وقال أيضًا [من البسيط]:

مـا في الحيـاة لـمَن نـاواكُمُ طمَـعُ إن نَـدّ خوفًـا ففـي أُحبولـةٍ يَقـعُ

عن كلِّ قوس صُروفُ الدهر ترشُقُهُ فـما لـهُ في سـوى التـسليم منتفَـعُ

مـا للعُـداةِ بـما أعددتَـه قِبَـلٌ ولا بغـير انقيـاد منـه تمتنـعُ

غَزاهمُ الرّعبُ في جيش بلا لَـجَبٍ فأحجَموا من وراءِ الدّرب وانقَمعوا

دارت عليهم كـؤوسُ الـذلِّ مُترَعـةً تَـسقيهمُ جُرَعًـا مـن بَعـدِها جُـرَعُ

كـلُّ الـممالك مُلـكٌ خـالصٌ لكـمُ وكـلُّ ممتنـع طوعًـا لكـمْ تبَـعُ

والبحـرُ تعتمـدُ الأنهـارُ موضـعَهُ فتلتقـي في نواحيـه وتجتمـعُ

والـشِّعر إن لم يكـنْ في نفسِه حـسَنًا فـما تحـسِّنُه الأصـحابُ والـشِّيَعُ

مَـن رام وَصْـفَك مـستوفًى فغفلتُـهُ يُبدي ومن فهمِه عندَ الـوَرى يـضَعُ

أضحَت عُلاك مكانَ النَّجم عن مِدَحي مـا حِيلتـي وبلـوغُ الـنّجم ممتنـعُ

وفي هذه السنة: وصَل ابنُ مُنقذ رسُولًا عن صاحب الشّام والدِّيار المصرية يوسُفَ بن أيوبَ الملقَّب بصلاح الدِّين، وكان وصُولُه أولًا إلى إفريقيّة.

وفي رجَب الفَرْد: وصَل إلى المنصور أمير المؤمنين مُخاطَباتُ السيِّد أبي زيد من إفريقيّةَ والسيِّد أبي الحَسَن من بِجَاية بوصُول المذكور إلىٰ تلك البلاد، وما قابلوه به من الـمَبرّة وتوطئة المِهاد، والتعريف منهم بكِتمانه لسببِ وصُوله.

ولِـما جاء فيه من أشغاله، فروجعَ السّاداتُ بالشّكر على ما قابَلوه به من الإكرام، وأنْ لا يُبحَثَ عنه بشيءٍ من الاستفهام، ثم قدِّمت المخاطباتُ إلى مَن بالمغرب من الولاة والعُمّال، بالتوسِعة له في نزُلِه والاحتفال به، وأن يستقرَّ بمدينة فاس، فأقام بها إلى أنِ انقَضت حركةُ المنصور، فاستدعَى الرسُولَ المذكور، فوصَل إليه، وقَعد بين يدَيْه، وخَلا به على اختصاص وانفراد، وأمَرَ قبلَ دخوله بقَصْدهِ إلى المراد، فتلقَّى الجوابَ من المنصور مجمَلًا، وأُحيل على ما يوضِّحُه له الوُزراءُ مفسَّرًا ومكمَّلًا، ولـمّا دنا إيابُه، وحصَل على ما تمكَّن جوابُه، أُفيض عليه من النَّوال الغَمْر والإحسان، وضروب من النِّعم السابغة والامتنان، وقوبِلت هداياه من العِوَض في نَفاسة الأشخاص والأثمان، وانصَرف إلى بلاده وقد رأى ووعَى في طريقه وفي مدة إقامته ما عَلِم أنّ بالمغرب مُلكَ الإسلام ومقرَّ الإيمان.

وفي سنة سبع وثمانينَ وخمس مئة: تأهَّب المنصورُ لحركة شِلْب، وعزَم على غزوِ بلادِ الغرب[1]، ثم جدَّد المنصورُ عزمَه وقدّم حزمَه بعدَما سَقَطت جمرةُ الـمَصِيف وتمكَّن فصلُ الخريف، شَرع في التأهُّب للحركات والنظَر في الآلات، وانضمَّت ما تحتاجُ إليه منازلةُ البلاد، من العُدَد الحربيّةِ والاستعداد، ولـمّا استوفَى بالعمل تكملةَ الآلات، وانضمَّتِ الحشودُ من كلِّ الجهات، تحرَّك من إشبيلِيَةَ غُرّةَ ربيع الآخِر على حالةٍ من الاستقدار، وهيئة عظيمة من الاستظهار، وترتيبٍ رائق لم يدوَّنْ مثلُه في عيون الأخبار، آيةً للأفكار ونُزهةً للأبصار.

وتَمادى المشيُ من إشبيلِيَة على الإحكام العجيب، والضّبط لأحوال العساكر وحُسن النِّظام والترتيب، حتّى كان الحُلولُ على قَصْر أبي دانِس وتقسَّمت الحشودُ وترتَّبتِ الجُنود، وأهلُ الخِدمة من العبيد يَردُمونَ خندقَ المدينة من جهاتها الأربع،

---

(١) ينظر الروض المعطار ٣٤٣، والاستقصا ٢/ ١٨٤.

وطوائفُ من المقاتلة الأنجاد قد زَحَفوا إلى السُّور يَستعذِبونَ طعمَ المنايا، ويبيعونَ من الله أنفسَهم بالرَّزايا.

ولـمّا عايَنَ المنصورُ صبرَ المسلمينَ على القتال، وقد كثُرت فيهم الجِراحاتُ بالحجارة والنِّبال، روَّح القتالَ ثلاثةَ أيام، وقصَد تجديدَ الفِكر والاعتزام، وانتظارَ ما كان أعَدَّه لذلك المقام، إلى أنْ وصَلت الأجفانُ البحريّة بالعُدَد الحربيّة، وقد تسابَقَت لدخول الوادي بتيسير تعجِزُ العقولُ عن تكييفه، ويُشكَرُ القديرُ سبحانَه على إحكامِه وتصريفِه، فبُهِت الذي كَفر، وسُقِط في أيدي المشركينَ من كلِّ مَن ألقَى السمعَ وأبصرَ، فنُصِبت في يوم وليلة أربعةَ عشَرَ مِنجَنيقًا، إذ كانت معَدّةً بعدَ الفراغ من عملِها، فأحدَقَ منها بالبلد منايا زاحفة وصواعقُ قاصفة.

ولـمّا كان الخامسَ عشَرَ لجُمادى الأولى، أمَرَ الجيشَ بأسرِه بأخْذِ الأسلحة ونَشْر القتال عليهم من كلِّ الجهات، ورَمَى المجانيقَ مرةً واحدةً على مرِّ الأوقات، فاشتدّ القتال، وتضاعَفَ عليهمُ النَّكال، ولـمّا رأَوْا أنفُسَهم في لَـهَواتِ الـمَنُون، وأنهم معَ ما لديهم من أهل ومال في بحر الفَوات مُغرَقون، تَطارَحوا كالفَراش على الأسوار، ورضُوا بالفِرار من الرَّمضاءِ إلى النار، ونزَلوا على الحُكم مُستسلمينَ لائذين بما للخليفة من الإجمال والإفضال، وهَبَطوا من البلد صاغرين، وانسَلَخوا عنه أجمعين، فأُودِعوا بطونَ الجَوارِ المنشآت، وضَحِكت لمناجاتِهم كتُبُ البِشارات، وحُمِلوا إلى إشبيلِيَة فكانوا عُنوانَ الفتوحات.

وشَرَع المنصورُ في النظر في أمور الحِصن وأحوالِه، وصَلاح ما ظَهَر منَ اختلاله، وثَقَّله بأنْجادِ رجالِه، ورَسَم لسُكّانِه رسومًا: مُشاهرةً ومُسانَهةً في مخازن إشبيلِيَة وسَبْتة على الاستمرار والدّوام، والتيسير والتّمام، وقَدَّم على الحصن المذكور ابنَ وزير.

ثم رحَل عنه ونزَل حصنَ قلمالة[1]، وهُو من القلاع السامية الارتفاع، الغريبة الارتفاق والانتفاع، لا يتمكَّنُ لـمُنازلتِه جيش، ولا يَحسُنُ بغيره بمجاورتِه عَيْش، وقد ملأَه الكافرُ ابنُ الرَّنك بأنجادِ رجالِه وكُماة أبطالِه، ولـمّا رأوا من جنود الله ما لا

---

(١) في الروض المعطار ٣٤٣: «بلمالة» Palmella.

قِبَلَ لهم به ألقَوْا بيد الاستسلام صاغرين، وأن يتَخلَّوْا عن جَفْن الحصن مجرَّدين، فأسعَفَهم المنصورُ وقَبِلَ رغبتَهم لمكان انقيادهم وطاعتهم وخَلّى سبيلَهم إلى بلادهم، وسُمُّ الرُّعب قد تغلغَلَ صميمَ أكبادِهم، وأتَى النّهبُ على ما كان في الحصن من أثاثٍ وأقوات وأسلحةٍ وآلات، ثم أمَرَ المنصورُ بهَدْمِه، وإزالة عينِه ورَسْمِه، فصبَّحه من الجيش قبائلُ العبيد، سوداءَ مُقفِرةً كظهرِ البِيد، يُنكِرُها العِيان، وتَعمُرُها الغِربان.

ثم استمرَّ القصْدُ إلى حصن المعدِن ففتَحَه وأمَرَ بهَدْمِه وتَعْفية رَسْمِه، فاستُؤصِل بالتخريب والدّمار، ومَضَت بهجتُه ورَوْنقُه ساعةً من نهار.

ثم كان الإقلاعُ والمسير، واستخارةُ اللّطيفِ الخبير، إلى مدينة شِلْب، فكان الوصولُ إليها يومَ الخميس الثاني من جُمادى الآخِرة، فأحدَقَت المحلاتُ بأكنافِها، وأخَذت بفُرُجِها وأطرافِها، حتى لا يتنفّسونَ إلا من الهواء، ولا يصلُ إليهم من مِلّتِهم طارقٌ من الأنباء، فسُوِّيت خَنادقُهم بالرُّدوم، وقُرِعت أسوارُهم بالرُّجوم، والبلاءُ يَطرُقُهم بالصّواعق سحابُه، ويُراوِحُهم ويُغاديهم بضروبِ المنايا عذابُه.

ولـمّا كان يوم الأربعاء الخامسَ عشَرَ من الشّهر المذكور سَها الكفّارُ معَ الصّباح عن الاحتراسِ والانبهال، واطمأنّوا أنّ ذلك الوقتَ ليس من أوقات القتال، والمسلمونَ يَرقُبونَ خُدَعَ الحرب ارتقابَ هلال شوّال، فتحسَّس بغفلتِهم وبما كانوا فيه من سهوِهم ونَوْمتِهم دليلٌ منَ الأدِلّاء، فتسلَّل حتّى وثَب في ثَلْم السُّور، وشدَّ ظهرَه جماعةٌ من الرّجال الذُّكور، ورَفَعوا به الرايات، وصُكَّت الطّبول وملأ الجوَّ ضجيجُ التكبير والصَّيحات، فلم يستيقظِ الكافرونَ إلّا وهم في قَبْضة الـمَنُون بينَ مطعون ومضروب، ولا وقَفوا إلّا في نَجِيع من دمائهم مصبوب، فبادَروا يُنادونَ بشعار الأمان، فضُرِب لهم أجلُ عشَرةِ أيام، فانقَلبوا وقد أجاز لهم طاغيتُهم طلبَ الأمان، وشَكَر لهم ثبوتَهم على عظيم الامتحان، وخَرجوا من قَصَبة شِلْبَ يومَ الخميس الخامس والعشرين لجُمادى الآخِرة، ورحَل المنصورُ عن شِلْب يومَ الثلاثاء الثامن والعشرينَ من الشّهر المذكور، ووصَل إشبيلِيَةَ في الرابع لرجَب من السنة المؤرَّخة، فانقَضَت هذه الغَزاةُ الكريمة في ثلاثة أشهر.

ذكرُ حركة المنصور من الأندَلس إلى مَرّاكُش بعدَ انقضاء غَزاتِه على مرغوبِه وما أظهرَه اللهُ تعالى من نصرِه والظَّفر بمطلوبِه

ولـمّا أكمَل المنصورُ غَزاتَه المشهورةَ وفتَح ما فتَح من بلاد ابن الرّنك اللّعين وألقَتْ له ملوكُ الرّوم بيد الاستسلام، وارتَبَطت مُهادنتُهم على عزِّ كلمة الإسلام، ورُتِّبت أشغالُ البلاد، وسُدَّت الثّغورُ بثقات القُوّاد ووجوه الأجناد، وقَدَّم بعضَ القَرابة في أُمّهات البلاد، وفَوَّض إليهم النظرَ فيما يرَوْنَه من مصالحِها والأخْذَ في ذلك بالحَزْم والاجتهاد، واستوفَى ذلك على ما يمكنُ من النَّظرِ السّديد في بقية رجَبٍ الفَرْد وشعبانَ المكرَّم من السنة، ووَعَد الناسَ بالـمُوادعة ببُحيرة الوادي أولَ يوم من رمضان، وعندَ كمال مُوادعة الناس رحَل من إشبيلِيَة، وتَمادى المشيُ إلى البحر، وكان الجَوازُ بنصف الشّهر المذكور، واستمرَّ مشيُه أيامًا إلى حضرته، وبعدَ وصُولِه إليها وتمهُّدِ استقرارِه من أوْبتِه أنشَده الشّعراءُ، فقال الجُراوي [من المتقارب]:

إيـابُ الإمـام حيـاةُ الأُمـمْ ... تَـوالى الـسرورُ بـه وانـتَظمْ
وجـاد بـه الأرضَ صـوبُ الحيـا ... وجَـلّى الظـلامَ بـه بـدرُ تَـمّ
فـشكرًا لخيـل وفُلـكٍ دنَـتْ ... بمُستأصِل الظُّلم ماحي الظُّلَـمْ
إذا حـلَّ في بلـدةٍ أمرَعَـتْ ... فطـابَ جَناهـا وفـاح الـمِشَمّ
وقـام بأقطارِهـا عدلُـهُ ... وصـوبُ نَـداهُ مقـامَ الـدِّيَمْ
إذا الخَطـبُ جـيَّش نحـوَ الـوَرى ... تـصدَّى لـه عزمُـهُ فـانهزمْ
سـلِ الـدّهرَ عـن بطـشِه بالعِـدى ... تُـجِبْ مـن وراءِ الـدُّوربِ العَجَـمْ
فتـوحٌ عِظـامٌ حَباهـا الزّمـانُ ... لِـذي هِـمَم دونَهـنَّ الـهِممْ
نـصَحْتُكمُ يـا ملـوكَ الزّمـانِ ... نـصيحةَ مَـن لـيس بـالمتّهمْ
أنيبـوا إليـه ولُـوذوا بـهِ ... تَفـوزوا وألقُـوا إليـه الـسَّلَمْ

وبعدَ هذا الوصُول إلى الحضرة وُعِك المنصورُ الوَعْكَ الـمُفضي إلى طول الدَّنَف، الـمُشرِف به لولا لطفُ الله على التَّلَف، فاحتاطَ بحُسن بقيّته للمسلمين، ونظَر نظَرَ أمثالِه

للدُّنيا والدِّين، فعقَدَ البيعةَ لابنه أبي عبد الله على ما رَآه من السَّداد، وكتَبَ بذلك معرِّفًا إلى مَن كان من وجوه القَرابة في أُمّهات البلاد، كالسيِّد أبي زيد ابن السيِّد أبي حفص بإفريقيّة، والسيِّد أبي يحيى ابن أمير المؤمنينَ بإشبيلِيَة، فبادَروا إلى ما نُدِبوا إليه من توجيه عهودِهم، ودخَلوا تحتَ ما يجِبُ عليهم من ربوطِهم وعقودِهم، ثم بعَثَ عنه من إفريقيّةَ والأندَلس فسبَقَ أهلُ الأندَلس لقربِ بلادهم، وتأتّي الإسراع لهم على مرادِهم.

ووصَل صُحبةَ أهل الأندَلس يوسُفُ بن الفَخّار اليهوديُّ رسولًا عن مَلِك قَشْتالة في تثبيت المهادنة، فألفَوا المنصورَ قد مَنّ اللهُ باستقلاله، وتبيَّن النُّجحُ من استبلالِه، فامتَدحَه الشّعراءُ بالتهنئة على بُرْئِه، فقال أبو العباس بن عبد السلام يمدَحُه ويهنِّئه [من البسيط]:

بُرءُ الإمام حياةُ الخَلْقِ كلِّهِمُ ... عمَّ السرورُ به وانثالَتِ النِّعمُ
شكا فلا مُقلةٌ إلا أضرَّ بها ... سُهدٌ ولا قلبَ إلّا شفَّه ألَمُ
تجهَّم الدّهرُ لـمّا أنْ شَكا وبَدا ... ببُرئه وهْو طَلْقُ الوجهِ مبتسمُ
صحَّت بصحتِه الآمالُ وانتعشَتْ ... وزاحمَتْ زُحْلًا في أُفْقِه الهممُ
أفاض عدلًا على الدُّنيا وألبَسَها ... نُورًا فلم يبقَ لا ظُلمٌ ولا ظُلَمُ
وبثَّ في كلِّ إقليم هُدًى ونَدًى ... فليس يوجَدُ لا جهلٌ ولا عَدَمُ
لولا سياستُه ما كان ملتئمًا ... شَعْثٌ ولا كانت الأسبابُ تنتظمُ
واللهُ يختَصُّ أقوامًا برحمتِه ... تجري بحكمتِه الأرزاقُ والقِسَمُ
حاطَ الإلهُ لنصر الدِّين مهجتَهُ ... وعوفيت تلكمُ الأخلاقُ والشِّيمُ

وفي سنة ثمانٍ وثمانينَ وخمس مئة: انفصَلت الوفودُ الأندَلسيّة عن الحضرة، ووصَل السيّدُ أبو زيد من إفريقيّةَ بهديّة جليلة فيها التُّحَفُ الملوكية والألطافُ السُّلطانية، وصَحِبه مَن كان أمَرَ بوِفادتِه من عرب سُلَيم ورِيَاح في جماعة وافرة من أعيانهم ووجوه أنجادِهم، ولقي الجميعُ المنصورَ يومَ خروجه من مَرّاكُش بمنزل تانسيفتَ[1]

---

(١) الروض المعطار ١٢٧.

في الحركة المقصودِ بها جهةُ فاس، فمشَى الجميعُ واستَوْفَوْا سلامَهم، وأمَرَ بقيّةَ النهار بدخولهم مرّاكُشَ وإكرامهم، وليُعاينوا أمكانَ الخليفة واستبصارهم في قدرة الأمر وعظيمِ ما بها منَ الآثار والبناء، فأقاموا بها ثمانيةَ أيام وانحفَزوا لاحِقينَ بأمير المؤمنين وناشرينَ شُكرَه بما يُبقي ذكرَه معَ الدّهورِ والسِّنين.

ورحَل الخليفةُ إلى رِباط الفتح ومنها إلى مدينة فاس، وفي أثناء الإقامة بفاسَ قدَّم النظَرَ في أشغال إفريقيّة وما يجبُ لها منَ الاعتناء والتقديم، وإعمال الفِكر في قطع دائها الجسيم، فصَرَف كلَّ مَن وصَل معَ السيِّد أبي زيد معَ العَرَب: السُّلَيْميِّينَ والرِّياحيِّين، ورُفِّهوا بضروب الإنعام، وأُدخِلوا تحتَ شروط الالتزام، ووُعِدوا بمقابلة البِرِّ على وفائهم والإكرام، وانقَلب هذا الوفدُ الإفريقيُّ على غاية ما أمَّل، وأضعافِ ما طلَبَ وسأل.

ثم تمكَّنت صحتُه، واستقامت راحتُه، فتروَّح إلى رِباط الفتح فاغتبَطَ بسُكناه وعزَم على الانتقال الكُليِّ إليه، فأمَرَ بتجديد القَصَبة المسمّاة بالـمَهْديّة الـمُشبَّهة بمَهْديّة بني عُبَيد بإفريقيّةَ لإحاطة البحر بها من جميع جهاتها.

ولـمّا قامت شخوصُ مَبانيها وتصوَّرت هيئاتُها، رتَّب قوانينَ أشغالِـها.

ورحَل إلى مَرّاكُش في منتصَف العام المذكور، وأقام بمَرّاكشَ جاريًا على حَزْمِه، آخذًا بتصميمه وعَزْمِه في تثقيفِ البلاد وتجديد العُدَد والاستعداد.

وفي هذه المدة: وصَلت أرسالُ ملوك الرّوم في تجديد عهد المسلمين والـمُهادنة، فاشتَطُّوا في شروطِهم وابتغَوا الزّيادةَ على عوائدِهم في عَقْد رُبوطِهم، وأنِفَ المنصورُ لقولِـهم وخَلا بأهل العَزْم والـمَشُورة في أحوالهم، وحَمَّلَهم على الصَّريمة في العَزْم على غزوِ بلادهم في عُقْر دارِهم، وأزعَجَ مَن كان بمَرّاكُش من أرسال الرُّوم دون غَرَض مَقْضيٍّ لهم، وانحفَز النظرُ في أسبابِ الحركة.

ثم كانت سنةُ تسع وثمانينَ وخمس مئة، ففيها: أمَرَ المنصورُ باختطاطِ منزل بخارج إشبيلِيَةَ يكونُ برَسْم نزول المجاهدين، ورهبةً في نفوس الكافرين، وأمَرَ أن يكونَ بتاج الشَّرَف ليأخُذ بمخنَّق بَحْرها ويكونَ كالطالع بينَ سَحْرِها ونَحْرِها، فقامت في أدنى مدّة أشخاصُ الأسوار، ومَثُلت مواضعُ الدِّيار، وكمُل القصرُ الكبير

بمجالسه المشرِفة على إشبيلِيَةَ وما وَالاها من البِطاح والأنظار، إلى مُنتهى نظَر الأبصار، وكان بناؤه ذلك كلُّه من أضخم ما عُمِل وفوقَ ما أُمِّل، والمنصورُ بالحضرة يتشوَّفُ إلى أنبائه ويُوالي السؤالَ عمّا يتزيَّدُ في بنائه، حتّى بَرَّح به الشّوقُ إلى التشفِّي من صفاته، وإلى معاينة كيفيّة الوَضْع ببيانِه، فوجَّه عن الناظر فيه فوصَل إليه وعرَّفه بكيفيته، فزاد شوقُ المنصور له وسمَّاه بحصن الفَرَج[1]. ولقد كان قبلَه بنظَر إشبيلِيَة حصنٌ يسمَّى بهذا الاسم، قال صالحُ بن سيِّد: وفي سنة اثنتين وسبعينَ وأربع مئة جدَّد المعتمِدُ على الله حِصنَ الفَرَج.

وفي هذه السنة: كان ظهورُ الأشَلِّ ببلد الزّاب، وذلك أنّ هذا الأشَلَّ قام ببلد الزّاب ودَعَا لنفسِه واجتمع له شِرْذِمةٌ من العَرَب، وبايَعَه كثيرٌ من أهل تلك الجهات والتأَمَ عليه أشتاتٌ من الناس من الجبال المجاورة له ومن كلِّ صنف من الغَوْغاء والسِّفلة والغُرباء، فاستعجَل أمرَه واشتعل جَمْرُه، وشاع في تلك البلاد ذكرُه، وكان يُلقي لأصحابِه بالغايات لزَعْمِه من الحِدْثان وضروب غير معقولة من الـهَذَيان، بأنه موعودٌ بأمرِه، وأنّ الأراجيزَ نَصَّت على خبرِه.

وتوالَتْ على المنصور أنباؤه، وكثُر في تلك البلاد ضَرَرُه واعتداؤه، فخوطِب السيِّدُ أبو زكريّا صاحبُ بِجَاية بالتوصُّل في كل حال إليه، والاحتيال بكلِّ وَجْه يسَعُه الإمكانُ عليه، فعَقَد السيِّدُ عسكرَ بِجاية وجهاتِها وخَرج مُتَحسِّسًا لأخبارِه ومتقصِّيًا لآثارِه.

واجتمعت أخلاطٌ من عَرَب تلك الجهات ومُنافقيها، وهَمُّوا بمحاربة السيِّد أبي زكريّا وأكلِه، وطمِعوا في انتهاب عسكره وفَلِّه، وهو يُداريهم بحزامته وشهامتِه، ويَصُولُ عليهم بنَجْدتِه وصَرامتِه، وقَلِق مَن كان معَه من الموحِّدينَ والأجناد، فتعِبَ من التوغُّل في تلك الصَّحارى والبلاد، ودَسَّ السيِّدُ أثناءَ ذلك عيونًا يتجسَّسونَ أخبارَ الأشَلِّ المذكور ومكانَ استقرارِه، ومن استَند من أنجاد القبائل في جوارِه، فتفرَّقوا في تلك الجهات وضَرَب لهم بالإياب إلى ميقات، وبقيَ معَ مجموع العَرَب يُراودُهم في التمكين من الأشَلّ المذكور ويَعِدُهم بالثّواب على ذلك معَ الأجرِ المذخور، وهم يمحُلونَ له أمرَه ويُنكِرونَ كونَه، وقد طمِعوا في أكل عسكره والغَدْر به وكشْفِ

---

(1) المعجم ٣٦٩-٣٧٠.

وجوهِهم في محاربته، والناسُ قد وجَدوا في أنفُسِهم خِيفةً منهم وتوقَّعوا غدرَهم المذكورَ عنهم.

وفي أثناء ذلك قَفَلت ثقاتُ السيِّد الموجَّهونَ بخبرِ الأشَلّ وتعيين مكانه، وبصفتِه والوقوف على عيانِه، وكيف يختصُّ أحَد الرّسُل حتّى توصَّلَ إليه وهو في مجلسه، على هيئتِه من لُبْس ثياب فاخرة، معتَمٌّ بعمامةٍ خضراء وسيف محَلًّى موضوع بينَ يدَيْه، وقد طاف به قومٌ من شِيعتِه وهو يحدِّثُهم بلسان حضَريّ.

ولـمّا استوفَى السيّدُ ما نَصَّ الرُّسُل من أخبارِه، وعَلِم موضعَ استقراره، أعمَلَ الحيلةَ في ذلك، وجمَع بعضَ العرَب وقال لهم: قدِ امتثلنا ما أُمِرنا به من البحث عن هذا الشّقيّ، والاجتهادِ في التقصّي عن موضعِه الخَفِيّ، وقد أبْلَيْنا عُذرًا في ذلك، وشهادتُكم كافيةٌ إنِ احتيجَ إليها هنالك، وقد ظهَرَ من قبائِلكم جموعٌ وافرة، ووجوهٌ في النَّجابة ظاهرة، لو عَلِم الأميرُ بمكانِكم، لَزاد في إحسانِكم، واستَجلبَ كثيرًا من أعيانِكم، ولكنْ نحن قد شرَعْنا في الإياب، وسُرعةِ الانقلاب. فمَن وصَلَنا منكم عرَّفْنا بمكانه، ونبَّهْنا عن عظيم شانِه، فأظهَروا على هذا الكلام شُكرَه وأعظموه قدرَه، وهم قد نوَوْا غَدْرَه، فأخَذ السيّدُ بالحَزْم، ووَعَد جميعَهم للحضور للرحلة معَه من الغد.

ولـمّا جَنَّ اللّيل أسرى السيّدُ ليلتَه حتّى أصبح على مقرُبة من قلعة بني حَمّاد من عمَل بِجاية، ثم أغذَّ السّيرَ حتى دخَل القلعةَ بجُملتِه، وسائر محَلّتِه، وأصبح العَرَبُ نادمينَ على فَواتِه طامعينَ في إنجاز ما مَنّاهم به من عِداتِه.

وبعدَ استقرارِ السيّد بالقلعة وأخْذِ مَأْمنِه من عاديتِهم، وبُعدِ عسكرِه من غارتِهم، خاطَبَ أعيانَهم، ووجوهَ أنجادِهم، والمترعرِعينَ من أولادِهم، لإنجاز وَعْدِه لهم على زَعْمِهم في إرادتهم.

ولـمّا وَصَلوا إلى القلعة احتَفل في إطعامِهم، فلمّا تمكَّنوا أُغلِقت أبوابُ المدينة وقَبَض على جماعة من أولادِهم واعتُقلوا بالحديد، ثم جمَعَ السيّدُ آباءهم وعشائرَهم وأقسم لهم بالأَيْمان الـمُغلَّظة أنه لا يحُلّ وِثاقَهم إلا بإحضار الأشَلّ أو رأسِه أو تُحملُ رؤوسُهم مكانَ رأس المذكور، إلى أمير المؤمنين المنصور، فقالت العرب: ما نُسلِّمُ جارَنا ولا نغدِرُ دخيلَنا ولو أتَى القَتْلُ على جميعِنا، ومَضَوْا لسبيلهم، فقام نساءُ العرب

المذكورين من أُمّهات الأولادِ المسجونين وقالوا لآباء أبنائهم وعشائرهم: أيُقتَلُ أبناؤنا برجُل منافق ذي حِيَل سارق؟ تبًّا لِـما رأيتُموه وبئس ما فعلتُموه، وطَردوا آباءهم من بيوتهم، فاختلفتِ القبائلُ على الأشَلّ وأراد الفِرارَ فهجَمَت طائفةٌ من عشائر المتّفقينَ عليه وعلى وزيرِه وأسرَوْا به حتّى أوصَلوه إلى القلعة، فأحسَنَ السيّدُ إلى الواصِلينَ به وأخلَى سبيلَ المعتقَلينَ من أجلِه وضَرَب عنُقَه وعُنقَ صاحبِه واحتَمل رأسَه إلى بِجَاية فعُلِّق على بابِها معَ ذراعِه وعَضُدِه وطَهُرت تلك النواحي من عاديته، والأمرُ لله سبحانَه في خليقتِه.

وفي سنة تسعين وخمس مئة: ورَدَ على المنصور مخاطَباتُ الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص من إفريقيّة باستفحال العدوِّ بها وانبساط العَرَب معَه وفسادِها، فانحفَزَ في الحركة إلى رِباط الفتح مصمِّمًا على قَصْد إفريقيّة، وقَوِي الرأيُ والتأهُّبُ إلى العَوْد إليها والقدوم عليها، ووَجَّه من رِباط الفتح عن وُلاة الأندَلس ليُوادعوا على أشغالهم وكافّة أعمالهم، فلمّا وصَلوا إليه وقدِ انصَرمت مدةُ صُلح ملك قَشْتالةَ فبعَثَ المذكورُ اللَّعين إلى جميع ثغور المسلمينَ المجاورة له ليُنذِرَهم ويُحذِّرَهم، وقد كان وَجَّه رُسُلَه إلى عَقْد المهادنة، وأظهَرَ بعدَه الـمَكيدةَ، فأعقبَه اللهُ سُوءَ غَدْرِه وأحاق به وبالَ أمرِه نُكرًا.

واغترَّ الكافرُ وتأنَّس بإشاعة الحركة إلى إفريقيّة، فجَمَع اللّعينُ أنجادَه وأقماطَه وقُوّادَه، وضَرَب لهم ميقاتًا ارتَبطوا عليه في شنِّ الغارات، فضَربوا بلادَ المسلمينَ شرقًا وغربًا، وعمَّت الفُرقة العاديةُ الواصلةُ إلى إشبيلِيَة جميعَ جهاتها، وانتشَرت على أنظارها وجنَباتها، فورَدَت هذه الأنباءُ الشّنيعة والأحوالُ الفظيعة على المنصور وهو على قَدَم الحركة فأنفَذَ وُلاةَ الأندَلس عندَ جَوازِه إلى عُدوةِ سَلا وتصميمِه على طريق الشرق، ووصَل مِكْناسةَ وأخبارُ عَيْث العدوِّ في الأندَلس تشنُع، ومُخاطَباتُ أهل ثغورِها تُجمَع، فأمَرَ المنصورُ ولاةَ إفريقيّةَ بمدود الأموال وكتُبه الكافيةِ عن الكتائب والأبطال، وصَرفَ وجْهَ الحركة من مِكْناسةَ إلى بلاد الأندَلس، فاهتزَّت الجبال وتلك الجهات ونَشِط الناسُ وقَوِي حِرصُهم على الغزو لقُرب بلاد الأندَلس وتأتّي الـمُؤَن بها والأقوات.

وفي سنة إحدى وتسعينَ وخمس مئة: كان إجازةُ أمير المؤمنينَ أبي يوسُف يعقوبَ المنصور البحرَ إلى الأندَلس، وذلك في يوم الخميس الـمُوفي عشرينَ من جُمادى الآخِرة، ولـمّا دَنا من البحرِ تسابَقَ سَرَعانُ الناس بالجَواز إلى لقائه من المتشوِّفينَ والمستبشرين.

اختصارُ الخبر: من يوم إجازة أمير المؤمنينَ المنصور إلى يوم خروجِه من إشبيلِيَة إلى غَزاتِه[1]

كان إجازةُ البحر في اليوم المذكور، ورَوَّح بطَرِيفَ يومًا واحدًا، وواصَل المشيَ من طَرِيفَ، ولقِيَه والي إشبيلِيَة معَ وجوه الناس من أهلها، ثم قَفَا متقدِّمًا برَسْم إعداد ديار النّزول، وما يجبُ النظرُ فيه للوصُول. ولـمّا وصَل المنصورُ إلى إشبيلِيَة نزَلَ بظاهر بُحيرة بابِ[2] جَهْوَر، فخَرج الملأُ من أهل البلد إليه، برَسْم السّلام عليه، من الصّبي الـمُحتلم إلى الشّيخ الهَرِم، وغُصَّ بهم الفضاء وضاق بهمُ المتّسَع، ثم أُمِرَ الشّيخُ أبو بكر ابنُ زُهر ومَن كان يستعينُ به من أشياخ البلد لتنفيذ البراءات في الدّيار المنزَلة، ثم أذِنَ بعدَ الظهر بالدّخول للسادات والمتغيِّب من سائر الطبقات، وذلك يومَ الخميس السابع والعشرين من السنة، وركِبَ من الغدِ ومشَى إلى حصن الفَرَج فأُعجِب بصُورة وَصْفه واحتفال بنائه، ورجَع من حينِه فمشَى إلى الجامع الكبير، وخَطَب الخطيب أبو عليّ ابنُ حَجّاج بسُورة (ق)، وهي أولُ جُمُعة قُرئ بها في الأندَلس من السّنة.

ثُم خَرج يومَ السّبت وأمَرَ بالتمييز فركِبَ جميعُ العساكر بالعُدَد الكاملة والزِّيِّ الفاخر. ولـمّا كمُلت مَراكبُهم واستوفَى بالانتظام راجلُهم وراكبُهم، ركِبَ المنصورُ ومشَى معَ الكُتّاب والوُزراء ومَن حضَر من القَرابةِ والأبناء، وطاف عليهم في مواضعِهم صفًّا صفًّا وقَبِيلًا قبيلًا، وشكَر استيفاءهم واستعدادَهم شُكرًا جزيلًا، وخَرجت الـمُرتَّباتُ والبركات، وانتفَرت الحشودُ المعتادة، وسائرُ الجيوش المنقادة.

---

(١) في ب: «غزواته»، وما أثبتناه من النسخ الأخرى.

(٢) سقطت الكلمة من ب.

ذكرُ غَزْوة المنصور والتأهُّب للعدوِّ يومَ الفتح المشهور بموضع الأرك[1] المذكور ووَصْفُ الحال في الحربِ والقتال[2]

وذلك أنه لـمّا استوفَى المنصورُ من أشغاله ما أمَّله، وأتمَّ في كلِّ غَرَض من مذاهبِهِ ومقاصدِ عملِه، خَرج لهذه الغَزْوة الميمونة بالأرك صَبيحةَ يوم الخميس الحاديَ عشَرَ من رجَب من سنة إحدى المذكورة، وتَمادى مسيرُه على طريق النّهر الأعظَم، ووصَل قُرطُبة يومَ الجُمُعة التاسعَ عشَرَ من الشّهر المذكور، وروَّح ثلاثًا، وخَرج يومَ الثلاثاء الثالث والعشرين منه، فضَربت سَرِيّةُ خَيْل من النّصارى على قلعة رَبَاح وما جاوَرَها ليتجسَّسوا الأخبار، فخَرج إليهم مَن كان بالحِصن فاقتفَوْا آثارَ أعداءِ الله والتحقوا بهم، فكانوا عندَهم كأكلة جائع أو شَرْبة ظمآن، وتركوهم بتلك البِطاح ولائمَ للنُّسور والعُقْبان، فكانت هذه السَّرِيةُ باكورةَ الفتح وتُحفتَه، وتَمادى المشيُ وفي كلِّ يوم بِشارةٌ ومسَرّةٌ من أنبائهم ورَوْعِهم تَتْرى، وأحاديثُ منَ ارتكاسِهم وانتكاسِهم تُتلى وتُقرا، إلى أن تَراءى الجَمْعان، وتظاهَرت النِّيران، ووقَع العِيانُ بالعيان.

ولـمّا نزَل المنصورُ بهذا المنزل الذي أطَلَّ منه على جُموع الكافرينَ ومحَلّاتهم، وعوَّل على غزوِهم من الغدِ ومصارعتِهم، وتوكَّل على الحيِّ الذي قضَى بهلاكهم وإماتتِهم، أمَرَ باجتماع الملأِ من الناس من كلِّ فريق، فأجابوا مُهطِعين على كلِّ طريق.

فلمّا كمُلت جُموعُهم واستقرَّت بهم مجالسُهم، قام في صَدْرِهم الوزيرُ أبو يحيى بن أبي محمد ابن الشّيخ أبي حَفْص وقال بصوت مُسمِع لكلِّ مَن حضَر: يقولُ لكم أميرُ المؤمنين: اغفِروا له، فإنّ هذا موضعُ غُفران، وتَغافَروا فيما بينكم، وطيِّبوا نفوسَكم وأخلِصوا لله نيّاتِكم، فبكى الناسُ وأعظموا ما سَمِعوه من سُلطانهم، وما جَرى إليه من حُسن معاملتهم، ثم قال الجميع: مِن خليفة الله نطلبُ العفوَ والغُفران، وبيُمن نيّتِه وصِدق طَويّتِه نرجو الخيرَ من الرّحمن، وقام أبو عليٍّ القاضي ابنُ حَجّاج وخَطَب خُطبةً

(١) الروض المعطار ٢٧.

(٢) ينظر عن وقعة الأرك: الكامل لابن الأثير ١٢/ ١١٣، والمعجب ٣٥٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٩-٣٣٠، والاستقصا ٢/ ١٨٩.

بليغةً في التحريض على الجهاد وفضله، والتنبيه على مكانِه وقدرِه، ومَدَّ القولَ في ذلك بما وَسِعه من بيانه. وانفَصَل الناسُ وقد تنوَّرت بصائرُهم، وخَلَصت لله ضمائرُهم وسرائرُهم، وقَوِيت أنفسُهم واعتزامُهم، وتضاعَفَت نَجْدتُهم وإقدامُهم، وأمَرَهم الوزيرُ بلباس أسلحتهم والاستعداد من الغُدوِّ والبكور للقاء عدوِّهم، فتَركوا بالمحَلّة الحُمولةَ والأثقال، ومشَى جميعُ العساكر على مُهلتِهم ودنَوْا حتى صاروا من العدوِّ بأوضح مَرْأى، وكانوا منه قابَ قوسَيْن أو أدنى، وأخَذوا مراكزَهم وقدَّموا رجالَهم وترتَّبوا بالصفوف ووقَفوا كالبُنيان المرصوص، والمنصورُ معَ أهل بيته ومَن جَرت عادتُه من القبائل بالتزام ساقتِه من وراء الجميع يشُدُّ ظهورَهم، ويرى ويسمعُ شهودَهم وحضورَهم.

ولـمّا رأى الكفّارُ ما دهَمَهم من جنودِ الله تعالى لم يكنْ لهم بدٌّ من الإبلاء والمدافعة، فهَبَطوا من مركزِهم كاللّيل الدامس والبحرِ الزاخر، أسرابًا تتلو أسرابًا وأمواجًا تعقُبُ أمواجًا، ليس إلّا الصَّهيلُ والضجيج، والحديدُ على وقَع الفجيج، فدُفِعوا حتى انتهَوْا إلى الأعلام، فتوقَّفت كالجبال الراسِيات، فمالوا على الميسَرة فتزحْزَحَ قومٌ من المطَّوِّعة وأخلاطٌ من السُّوقة والرجرجة، فصَعِد غُبارُهم إلى الجوّ، فقال المنصورُ لخاصّته ومَن طاف به: جدِّدوا نيّاتِكم وأحضِروا قلوبَكم، ثم تحرَّكَ وحدَه وتركَ ساقتَه على حالها وسار منفردًا من خاصّته مُقدِمًا بشهامتِه ونَجْدته، ومرَّ على الصفوف والقبائل وألقَى إليهم بنفسِه كلامًا وَجيزًا في الهجوم على عدوِّهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقتِه.

ولـمّا وقَعت أعيُنُ الناس عليه ورأَوْا عظيمَ ما وصَل إليه، حَمِيت نفوسُهم وتحرَّكت هِمَمُهم، فحَمَل كلُّ قَبِيل على مَن يليه، ودَفَع كلُّ موكب على مَن يقابلُه من العدوِّ ويلتقيه، وانضمَّت على الكفّارِ الأطناب، وسُدَّت عليهمُ الأبواب، فلم يجدْ أحدٌ منهم حيث يُعرِّج، ولا وجَدوا بابًا للخَلاص يُفرِّج، فالتحَم الجَمْعان، واعتَركَ الفريقان، وحَمِيَ الوَطِيس، والتفّت الأقدامُ والرؤوس، واستُعجمت الأصوات وارتفعَ التميزُ والالتفات، وخُلِع الكفّارُ عن مراكزِهم، ونَسَخ اللهُ ما أراهم من اغترارِهم فولَّوا الأدبار، وشمِلَهم الإدبار، ورَكِبهم السّيف، وتقسَّمَهم النّهبُ والحَيْف، من ضُحى يوم الأربعاء التاسع من شعبان إلى الزّوال، فانتُهبت محَلّةُ اللّعين على الفَوْر، فلم يُلْفَ لمضاربِها

ولا لشيءٍ من أثاثها خبرٌ على اتساعها وكثرة كُراعِها وحافِرِها، ولله الحمدُ والشّكر، وأجْلَت الحربُ عن حصيد من القتلى كالزّرع المحصود والصَّخر[1] المنضود، كابِينَ على الوجوه لغير سُجود، ومُستَلْقينَ على الجُنوب دون هُجود، وكما يُحشَرونَ يومَ النّشور إذا بُعثِر ما في القبور، مسافةَ فَرْسَخ في فَرْسَخ لا يَكفيهم حَدّ، ولا يَحصُرُهم عَدّ.

قال يوسفُ بن عُمرَ الكاتبُ في تاريخه: كان عدَدُ القَتلى في هذه الغَزاة زُهاءَ ثلاثينَ ألفًا عبرةً للناظرين وآيةً للسائلين، قال: واستُشهد من المسلمينَ نحوُ الخمس مئة، وأفلَتَ أذْفُونْشُ اللّعين تحتَ حدِّ السِّنان واجتازَ على طُلَيْطُلَةَ لا يَعرُجُ على مكان في نحو عشرينَ فارسًا قد اتَّخذوا اللّيلَ جَمَلًا، وإن رأَوْا غيرَ شيء ظنُّوه رجُلًا، واعتَصم معظمُ الفَلّ وكلُّ مَن نَجا من المعترَك بحِصن الأرك، فأحدَقَ بهم المسلمون حتى أشرَفوا على الهلاك، فصالَحَ عليهم بيطره بن فراندس اللّعين الـمُوالي للمسلمين بفداء عدَدِهم أُسارى من المسلمين وإخراجِهم من دار الحرب، وبلَغَ عددُ حُصَراء الأرك المذكورينَ خمسةَ آلاف شخص بين صغيرٍ وكبيرٍ ذكرًا وأنثى، فأسعَفَ في ذلك المنصورُ إشفاقًا وحرصًا على استنقاذِ أُسارى المسلمين، وأُخِذت منهم رهائنُ وجَّه بهم إلى إشبيلِيَة ثم إلى رِباط الفتح وسَرَّح الجميعَ منهم، فكانت أعظمَ مكائد الكافرين وخُدَع المشركين.

وكان الناسُ يضربونَ الأمثالَ بوقعة الزَّلّاقة ويُعظِّمونَ أمرَها، ولا يَذكُرونَ غيرَها، وفُجِع أكثرُ المسلمين من أهل الأندَلس في الزَّلّاقة لأنّ الحربَ دارت عليهم فيها على ابن عَبّاد وأهل الأندلس من قَبْل الفجر إلى أوّل الزَّوال، لأنّ لَـمْتُونَةَ خافوا منَ الامتزاج بأهل الأندَلس لكلام قيل أُلقِيَ إليهم في حقِّ ابن عَبّاد، فنزَلوا على نحو الميلَيْن من مُسْلمي الأندَلس.

وغَدَر أذْفُونْشُ اللّعين وتحرَّك في اللّيل وقَصَد محَلّةَ ابن عَبّاد فأتَى القتلُ على المسلمينَ حتى ضُحى النهار، ويوسُف بن تاشفينَ بمنزلِه لم يتحرَّك حتى وجَّه إليه المعتمدُ كاتبَه أبا بكر ابنَ القصيرة يُعرِّفُه بهلاك المسلمين، فحينَئذٍ تحرَّك إلى محَلّة أذْفُونْش فأضرَمَها نارًا وقَتل كلَّ من كان بها، وأضرَم الناسُ في أبنيته وساقتِه وهَبَطَ في ظهرِه وهو يقتحمُ معَ

---

(١) من هنا إلى قوله: «وكما يحشرون» سقط من ب.

أهل الأندَلس، واستحيا ابنَ عَبّاد وهو مُثخَنٌ بالجراح، وانضمَّت على أذْفُونْش الأطراف وأعيد في مثل الحَلْقة، وخَدَّم السّيفَ فيهم حتّى وقَع اللّيل.

وقيل: إنه كان في ستّينَ ألفًا بينَ فارس وراجل، وذلك في يوم الجُمُعة الثانيَ عشَرَ لرجَب سنةَ تسع وسبعينَ وأربع مئة، ولم يَنْجُ أذْفُونْش إلا في ثلاثةَ عشَرَ فارسًا، وكان لـمّا أخَذ طُلَيْطُلَةَ في سنة ثمانٍ وسبعينَ وأربع مئة اشتدّ أملُه وعَزَم على الهبوط إلى قُرطُبة، حينَ رأى منامةَ الفيل وجَسُر بذلك على الـمُلاقاة فأخْزاه اللهُ وأهلَكَه ومن كان معَه، فكانت غزوةُ الزَّلّاقة مقسومةَ الثّكل مكدَّرة الصفو. وجاءت هذه الواقعةُ هنيئةَ الموقع عامةَ المسَرّة، كأكلة جائع أو شَرْبة عاطش، فأنسَتْ كلَّ فتح بالأندَلس تقدَّمها، وبقي بأفواه المسلمينَ إلى الممات ذكرُها.

ولـمّا كان هذا الفتحُ الجليل أخَذَ رحمه الله قافلًا إلى إشبيلِيَة والنّصرُ يتهلَّلُ فوقَ جبينِه، والظّفرُ يضحَكُ معَ شِماله ويمينِه، فدخَلها يومَ الثلاثاء السابع والعشرين من شعبانَ المكرَّم سنة إحدى وتسعين وخمس مئة.

ذكرُ استقرارِ المنصور بإشبيلِيَة من حركة غَزْوة الأرك وبعضُ ما كان منَ الأحداث مدّةَ إقامته بها إلى يوم خروجِه عنها إلى حركة الـجَوْف

ولـمّا وصَل المنصورُ إشبيلِيَة ووصَل وفودٌ من سائر بلاده ومُنتهَى طاعتِه بالتّهاني من النَّظم والنّثر، فقال المنصور: الفتحُ أعظمُ من الإطناب في وصفِه، وأمَرَ الكاتبَ أبا الفضل ابنَ أبي الطاهر وأكَّد عليه أن يوجزَ الكَتْبَ في هذا الفتح غايةَ الإيجاز ولا يسلُكَ في العبارة عنه مسلكَ شيءٍ مما تقدَّم من أوصافِ الفتوحات، وأن ينحوَ فيه منحى كَتْب الصحابة رضيَ اللهُ عنهم في فتوحاتهم، فخاطَبَ على ما أُمِر به وطَوى بساطَ الشّعر، ولم يُحفَظْ عن الشعراءِ فيه مقالٌ إلا الكاتبَ الأريب الشاعرَ الـمُجيد أبا العباس الجُراويَّ، فإنه قال فأحسَن ولم تصلْ إليه [من الطويل]:

هُو الفتحُ أعيا وصفُه الـنّظمَ والنّثـرا ... وعمَّت جميعَ المسلمينَ بـه البُـشرى
وأنجَـدَ في الـدنيا وغـار حديثُـهُ ... فراقَتْ بـه حُـسنًا وطابـت بـه نَـشْرا

تـــميَّز بالأحجــال والغُــرَر التــي ... أقلُّ سـناها يَبهَـرُ الـشمسَ والبَـدْرا
لقد أورَدَ الأذْفـونَشُ شِـيعتَه الـرَّدى ... وساقَهمُ جهلًا إلى البطشة الكـبرى
حَكـى فعـلَ إبلـيسٍ بأصـحابِه الأُلى ... تــبرَّأ مــنهم حــينَ أورَدَهــم بــدرا
أطارَتْـــه شَـــدّاتٌ تَـــولّى أمامَهـــا ... شريـدًا وأنـسَتْه التعـاظُمَ والكفـرا
رأى الموتَ للأبطـال حولَيْـه ينتقـي ... فطــار إلى أقــصى مــصارِعِه ذُعــرا
وقــد أوردَتْــه المــوتَ طعنــةُ ثــائرٍ ... وإن لم يفــارِقْ مــن شــقاوتِه العُمْــرا
ولم يبــقَ مَــن أفنــى الزّمــانُ حماتَــهُ ... وجرَّعــه مِــن فَقْــد أنــصارِه صــبرا
أُلــوفٌ غــدَت مأهولــةً بهِـمُ الفَــلا ... وأمسَتْ خـلاءً مـنهمُ دورُهـمْ قَفْـرا
ودارَتْ رحَى الهيجا عليهمْ فأصبَحوا ... هَشِيمًا طَحِينًا في مهبِّ الـصَّبا يُـذرى
يطــيرُ بأشــلاءٍ لــهُم كــلُّ قَــشْعمٍ ... فما شئتَ مـن نَـسْرٍ غـدا بطنُـه قـبرا
فكيف رأى الـمغترُّ عُقبـى اغـترارِهِ ... وكيـف رأى الغـدّارُ في غَيِّـه الغَـدْرا
وكــان يَــرى أقطــارَ أنــدَلسٍ لــهُ ... متــى يَــرْمِ لم يخطــئْ بأسـهُمِه قُطـرا
فــسلّاه يــومَ الأربعــاء عــن الــمُنى ... فــما يَرتجــي مــمّا تملَّكــه شِــبرا
إذا عزلَتْــه الــرّومُ كانــت نَجاتُــهُ ... وقـد أحـدقت جمرُ المنايـا بـه غَـدْرا
فتعــسًا لــه مــا دام حيًّــا ولا مُنًّــى ... وكــسرًا لــه مــا دام حيًّــا ولا جَـبْرا
بيُمن الإمام الصالح الـمُصلح الـرِّضَى ... نَضَى سيفَه الإسلامُ فاستأصـلَ الكُفـرا
فــلا زالَ بالنّــصر الإلهــيِّ يقتــضي ... بشائرَ تُحصي قبـل إحـصائها القَطْـرا

وانبسَط المنصورُ(١) انبساطَ مَن بلَغَ آمالَه وشفَى نفسَه واستأصَلَ أعداءه، وتوسَّع في أعمال البرّ شكرًا لله تعالى، فأكّد العَزْمَ في بناء الجامع الكبير وتتميم مناره، وسرَّح الجموعَ والقبائل والأجنادَ ونبَّههم على أن يكونوا على أُهبةٍ واستعداد لمعاودة الجهاد، وتفرَّغ أثناءَ ذلك للمذاكرة والمناظرة.

---

(١) سقطت من ب.

وفي سنة اثنتين وتسعين وخمس مئة: انتقل المنصورُ إلى حصن الفَرَج بتاج الشَّرف، وكمُل غَرْسُ البُحيرة المحدَثة تحتَه، وأمَرَ بعمَل نواعيرَ على شطِّ النهر تحتَ الحصن لتكونَ تتميمًا لحُسنِه وجمالِه. وفي أثناء ذلك انصرمت مدةُ الشتاء، وأطَلَّ زمنُ الحركة لـمُعاودة جهادِ الأعداء، واستنفَرَ العمومَ من القبائل من مَنازلها المعلومة لترويحِها، وعُرِّفوا بالاستعداد لتمييز الجموع وتصحيحِها، ووصَل الجميعُ وميِّزت الجيوش فانضمَّت أطرافُ الأشغال، وانصَرم شهرُ آذارَ ونيسان، وحُصِد الزَّرعُ بكل مكان، وحَسُن إلى الغزوِ التَّرحال.

ذكرُ غَزْوةِ المنصورِ المعروفة بسنة طُلَيْطُلَة[١]

ولـمّا أكمل المنصورُ أشغالَه وحشَد جنودَه وميَّز رجالَه، تفاوَضَ معَ من يجبُ من أهل البصائر بالحروب من حيث يكونُ الدّخولُ إلى الكافر أذْفُونْش في صميم أكبادِه، واستئصال الباقي من طارفِه وتلادِه، فوقَع النظرُ على تقديم بلاد الجَوْف وتأميل استرجاع ما كان غَلَب عليه اللَّعينُ من بلاد المسلمين، فكانت حركتُه من إشبيلِيَة إلى هذه الغَزاة المذكورة يومَ الاثنين منصَف رجَب الفَرْد سنةَ اثنتين وتسعين المؤرَّخة والسَّعدُ يمهَدُ بينَ يدَيْه مناهجَ التيسير، ويفتحُ له كلَّ مُبهَم ويقرِّبُ كل عسير.

وقدَّم إلى حصن منتانجشَ جماعةً من الأندلسيِّين وهو من المعاقل الشاهقة الارتفاع، المشهورة بالتوعُّر والامتناع، فأحاطت به الجماعةُ المذكورة، ونشَروا عليه الحربَ[٢] يومَهم ذلك، ولـمّا كان من الغدِ وصَل المنصورُ إلى الحصن المذكور، فعندَما عايَنَ الأعلاجُ جيوشَه المنصورة، وجموعَه المظفَّرةَ المذكورة، ألقَوْا بيد الاستسلام واعتَلَقوا بحَبْل الإمام، فأُسعِفوا فيما سألوه من الأمان، وأمَرَ القائدَ أبا عبد الله بنَ صَناديدَ[٣] بتوصيلهم إلى حيثُ يَأمَنونَ من أنحائهم، وعندَما سار بهم فَرْسخًا من المحَلّة غَشِيهم أوباشٌ من العَرَب فوضَعوا فيهم الحديد واستأْصَلوهم قتلًا إلى آخِرهم وسَبَوْا

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٢/ ١١٥.

(٢) سقطت من ب.

(٣) له ذكر في الاستقصا ٢/ ١٨٧.

ما كان معَهم من النِّساء والذُّرِّية، فغَضِب أميرُ المؤمنين لاجتراءِ أولئك الأَرْذَلين وجهلِهم بعهود المسلمين، فسَجَن منهم مَن عثَر عليه، وجمَعَ النِّساءَ والذُّرِّية وأوصَلَهم القائدُ المذكورُ إلى أوائل بلادهم، وخَلَت أيضًا مدينةُ تَرْجَالةَ[1] دون مُنازلة، وهبَّت ريحُ الفتح في تلك الكُوَر المأخوذة والأقطار، وبلَغَ الرُّعبُ فيهم ما لا تَبلُغُه سُمُر الأَسَل وبِيضُ الشِّفار، وأتَى عليهم الاستئصالُ والجلاءُ بالاضطرار، وقَنِعوا من السلامة بالفِرار.

واصْطكَّت في هذه الحصون المذكورة دعوةُ الإسلام، وتعوَّضت في أسبوع واحد من مِلّة الكُفر بشريعة محمدٍ عليه السلام. وتَمادى العملُ في الاستئصال والتخريب على هذا الترتيب، إلى مدينة طَلَبِيرةَ أكبرِ قواعد طُلَيْطُلة وأسراها، وأعظمِها منَعةً وأعلاها، فأمَرَ المنصورُ باستئصالها، وأُلحقت من التخريبِ والانتهاب بأمثالِـها.

ومرَّ كالسَّيل الجاري والبحر الزاخر حتّى حَلَّ بساحة طُلَيْطُلة فَساءَ صباحُ المنذَرين، فبرَّز عليها تبريزًا أذهَلَ عقولَ الكافرين، ولم يُعهَدْ ظهورُه عليها في مدة الملوك المتقدِّمين، وتقسَّمت الجيوشُ على جنَباتها، وشُنَّت الغاراتُ على سائر جِهاتها، وأقام عليها أسبوعًا وأذْفُونْش اللّعينُ بأطراف بلاده يتأوَّهُ تأوُّهَ المفؤود، ما تنقضي عَبَراتُه، ولا تتمُّ زَفَراتُه.

ولـمّا قضَت نفسُ المنصور من هذه الوِجهة أوطارَها، وطوى هذه الأقاليمَ طيَّ السِّجِلِّ ومحَى آثارَها، ووفَّى حقوقَ الجهاد حقَّها وادّخارَها، أخَذ في القفول والإياب، وسُرعة الرَّجعة وحُسن الانقلاب، منصورَ الأعلام، ناصرَ الإسلام، فقال أبو العباس الجُراويُّ من قصيدة طويلة أولُها [من مخلّع البسيط]:

قـد أصـلِيَتْ نارَهـا العُـداةُ ... وأُنجِـزَتْ فـيهمُ العِـداتُ
وعمَّهـم بالـدمارِ يـومٌ ... تقـصرُ عـن وصـفِه الـرُّواةُ
في مـشهدٍ لا تـزالُ تُـتْلى ... آياتُـه وهْـي بيِّنـاتُ
فـتحٌ مفاتيحُـهُ الـمَواضي ... والعزَمـاتُ المؤيَّـداتُ

(١) الروض المعطار ١٣٣، وفي معجم البلدان: «تُرجيلة».

رَدَّت حِمى الفـنْش مُـستباحًا | بِـيضٌ مـن الهنـدِ مُرهَفـاتُ
ذَلُّـوا لأمـر الإلـه قـسرًا | وهـم أُولـو نَجْـدةٍ أُبـاةُ
وغرَّقـت جمعَهـم بحـارٌ | أمواجُهـا الخيـلُ والكُـماةُ
رأَوْا لحـزب الإلـه صـبرًا | والـموتُ حَفَّت بـه الجهـاتُ
فحـاولوا مـنهمُ انفلاتـًا[1] | ولـيس للخـائن انفـلاتُ
فـلا تـسَلْ عـن بنـاتِ مـاءٍ | إن صَرْصَرت حَولَـها البُـزاةُ

وفي سنة ثلاثٍ وتسعينَ وخمس مئة: استقرَّ المنصورُ بحضرة إشبيلِيَة لتفقُّد أشغاله، وتكشُّفه عن خُدّامِه وعُمّالِه، وعهدُ الخروج عنها إلى الغَزاة الثالثة، وذلك أنه لـمّا وصَلَ المنصورُ من هذه الغَزاة الثانية وتدويخ البلدان، وكمَّل التضييفَ للجيوش والإحسان، تفرَّغ لتفقُّد أشغالِه وعُمّاله، وربّما كان قد أُشعِر بتفريط ومُداهنة فأمَرَ بالكشفِ عن الأشغال والبحث عن دقائق الأعمال، فبدَأَ بمُحاسبة أبي سُليمانَ داود بن أبي داود وتأخيرِه، وكان أميرُ المؤمنين المنصورُ قد رُمِي له في طريق الغَزْو بشعرٍ في المذكور [من الطويل]:

تنبَّـهْ أمـيرَ المـؤمنينَ لحـادثٍ | فأنت إمامُ العدل فينا وقدوتُهْ
بلادُك لا ترجو سواكَ لنظـرةٍ | وداودُ قد أفنى البلادَ وإخوتُهْ

ذكرُ نَكْبة داودَ بن أبي داود

فأبرَزَ لمحاسبته أبا محمد عبدَ الله بن يحيى وأبا عبد الله ابنَ الكاتب، وقد كان تحتَ نظرِهما من كُتّاب الجهات نحوَ خمسينَ كاتبًا، فأقاموا في نَسْخ وتقييد وتبييض وتسويد، وإكبابٍ على بحث وتنقيب، وتصديق بعض وتكذيب، وفي كلِّ حين يَسأَلُ المنصورُ عن كيفيّة الأشغال، وعمّا يُبرِزُه الحقُّ من وجوه الأعمال، وتَمادى العملُ على هذا الأسلوب مدةً من ستة أشهر حتى تمحَّضتِ الأعمال، وثبَتَ الحقُّ وارتفع المحال، وبُسِط لأبي سُليمانَ وجْهُ العُذر وأُبيحَ له إثباتُ ما شاء في عمَلِه بما يصحُّ في كلِّ

(١) في ب: «انقلابًا»، وهو بمعنى.

الأحوال، فتعيَّن عليه بعدَ الرِّفق والألطاف، والتمشية على طريق الإنصاف، جملةٌ من المال في خاصّتِه ومئة وخمسونَ ألفًا أو نحوُها في عملِه، فاستُصفيَتْ أحوالُه وأموالُه، ولم يُكشَفْ له سَتْرٌ ولا امتُحن أهلُه ولا عِيالُه، حتى عُفيَ عنه.

وفي هذه المدّة أيضًا حُوسبَ أبو عليٍّ عُمرُ بن أيوبَ على ما كان تحتَ نظَرِه وفي اختزانِه من أموال النَّفقات والموقَفِ عندَه من سائر المرتَّبات، فوقَفَ عليه مالٌ جَسِيم واستُفهِمَ عنه فلم يوجَدْ له جواب، فضُمَّ ديونُه وجُمع أطرافُه وجُمع نحوُ الخمسةَ عشَرَ ألفَ دينار فقُبِضت منه وطُلب باستيفاءِ الباقي فعجَزَ عنه فاعتُقل معَ أبي سليمان حتى تدارَكَهما عفوُ أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة: قُلِّد أبو زيد بن يُوجَّان[1] أشغالَ البَرَّيْنِ من الأعمال العَلِيّة والأشغال السُّلطانية والوِزارة وما يتعلَّق بها من أشغال الموحِّدين ومُلازمة الخِدمة، فاستقلَّ بذلك كلِّه استقلالًا ظهَرَ به صَلاحُ الأحوال وترتيبُ الأشغال وتوفيرُ الـمَجابي واجتماعُ الأموال، وقدَّم أبا القاسم ابن نُصَيْر على الإشراف على عمَل إشبيلِيَة.

وفي هذه السنة: قُدِّم يوسُفُ بن عُمرَ الكاتب المؤرِّخ بعدَ انسلاخه عن خدمة السادات بني السيِّد أبي حفص بن عبد المؤمن لتصيير ما كان يشتغلُ لهم به ويَنطوي عليه وعلى المستخلَص بالشَّرف ومدينة لَبْلة وعلى السِّهام المنزوعة من أيدي الناس، وتقييد ما يَراه من مصالِحها.

ذكرُ حركة المنصور إلى الغَزاة الثالثة وهي آخِرُ غَزواتِه من عمُرِه وآخِرُ جهاد استوفَى فيه عظيمَ أجرِه

ولـمّا استوفَى بإشبيلِيَة من أشغالِه وانجَلَتْ غَمْرةُ الشتاء وتمكَّن فصلُ الربيع، عيَّن الخليفةُ شهرَ الوِجهة وصرَّح بالحركة، فترادَفَ الناسُ بالوصُول من البلاد، واستوفَتِ العساكرُ والأجناد، حتّى ضاقَ بإشبيلِيَة متّسعُها وعجَزت عن تحمُّل الـمُؤَن والأعباء، فضُرِب طبلُ الرّحيل، ونَفَر كافّة الناس من كلِّ قبيل، فكان خُروجُ المنصور

---

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يُوجان الهنتاتي (المعجب ٣٨٨).

من إشبيلِيَة ضُحى يوم الاثنين الرابع والعشرينَ من شهر... [١] من السنة، فنزَلَ بالكَرْم آخِذًا على طريق قُرطُبة، وكانت سنةَ خِصب، فمشَى الناسُ في أطيب عَيْش حتى كان الوصُول إلى قُرطُبة، فدخَلها المنصورُ للاستيطان، وقسَّم الجيوش لانتجاع الخِصب حيث كان ريثما يقرُب أوانُ التحطُّم[٢]، وتمكينِ وجود الأقوات في بلاد الروم.

وفي هذه السنة: نُكب القاضي أبو الوليد ابنُ رُشد الحفيدُ[٣]، وذلك أنه كان نشَأَ بينَه وبينَ أهل قُرطُبَةَ قديمًا وَحْشةٌ أحدثتها أسبابُ المحاسَدة، فانتَدب الطالبونَ لسَعيٍ أشياءَ عليه في تواليفِه تأوَّلوا الخروجَ فيها عن سَنَن الشّريعة وإيثارَه فيها لحُكم الطبيعة، وحشَروا منها ألفاظًا عديدة، وفصُولًا ربّما كانت غيرَ سديدة، فجُمعت في أوراق، وقيل: إنّ بعضَها أُلفِيَ بخطِّه، ومشَى الرافعونَ إلى مَرّاكُش سنةَ إحدى وتسعين، فشُغِل عن الوقوف عليها والالتفات إليها لِـما كان الحالُ بسببِه منَ الاستعداد، والنظر في مَهمّاتِ الجهاد، فنكَص الطالبونَ على أعقابِهم، وقَنِعوا بسُرعة إيابِهم.

ولـمّا كان هذا التلوُّم من المنصور بقُرطُبة وامتدّ بها أمدُ الإقامة وأنِسَ الناسُ لمجالس المذاكرة، تجدَّدت للطالبينَ آمالُهم، وقوِيَ تألُّفُهم واسترسالُـهم، فأدلَوْا بتلك الأُلْقِيات، وأوضَحوا ما احتَجَنوه من شَنيع الـهَفَوات، الماحية لأبي الوليد كثيرًا من الحَسَنات، فلمّا نُظِرت وتؤوِّلت خَرجت بما دَلّت عليه أسوأَ مخرج، وأعرَبت عن سُوءِ كلِّ منهج، فلم يمكنِ المنصورَ عندَ اتّفاق الطلبة إلا المدافعةُ عن شريعة الإسلام، والقصدُ لسنّة الرسُول عليه السلام، فأمَرَ المنصورُ بحَبْس أبي الوليد، وتفرَّق تلاميذُه أيدي سبا، وطَلَبوا نفقًا في الأرض أو سُلّمًا في السما، وبعدَ ذلك غُفِر لأبي الوليد واستُدعي إلى الحضرة وتوفِّي بها.

ولـمّا بلَغَ المنصورُ بقُرطُبةَ مرادَه، وأحكَمَ تدبيرَه وأكمل استعدادَه، تحرَّك رحمه الله على أيمَن الأقدار، ومساعدة من خدمة اللّيل والنهار، وأخَذ على طريق طَلَبيرة

---

(١) بياض في النسخ بقدر كلمة.

(٢) التحطم: يباس المزروعات بحيث تصبح جاهزة للحصّاد.

(٣) تنظر نكبته في المعجب ٣٨٤-٣٨٥ وتاريخ الإسلام ١٢/ ١٠٦٠-١٠٦١، وهي مذكورة في مصادر ترجمته، وينظر سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٠٧ بتحقيقنا.

وقد كان أذْفُونْشُ اللَّعين، عندَ إشراف المنصور على بلادِه بعساكر المسلمين، قدَّم رُسُلَه في طلب الـمُهادنة والاستسلام، والوقوف عندَ الأمر العليِّ والالتزام، فنَظَر المنصورُ بنُور التوفيق والرّشاد ألّا يحُلَّ ما انعقَد عليه العزمُ من صريمةِ الغَزْو والجهاد، فأصرَفَ رسُلَه من غير جواب، إلا انتظارَ سِنان وصارم قضاب.

وتَمادى المشيُ على هذا الأسلوب، وعلى ما أمَّل من المرغوب، حتّى كان الإلمامُ بطُلَيْطُلة فغَشِيَها أعظمُ ممّا تقدَّم منَ الانتهاك والانتهاب، بالاستئصال والإتلاف والإذهاب، ثم اتّصلت الأنباء أنّ الكافرَ البَرْشَلونيَّ أمدَّ أذْفُونْشَ برجالِه وأبطالِه، وهم بحِصن مَجْرِيط يقدِّمونَ ويؤخِّرون، ويخوضُونَ فيما لا يفعلون، فقَصَد المنصورُ إليهم وصمَّم نحوَهم تصميمَ الواثق بالعليِّ الكبير رجاءَ أن تزِلَّ أقدامُهم، وعسى أن يحرِّكَهم حِمامُهم، وعندَما أشرَفَ المسلمونَ على الحِصن المذكور، وأحدَقوا به إحداقَ الهالاتِ بالبدور، وأكثَروا التهليلَ والتكبير والتعظيمَ للعليِّ الكبير، فكادت تنصدعُ لصيحتِهم أكبادُ الصخور، ويهتزُّ لصَكّتها رميمُ أهل القبور، فعند ذلك انصَدعت جموعُ أذْفُونْش وأسلَمَه أحلافُه وجَعل يتعلّق بجباله، لـحُرَقِه وأوجالِه.

ولـمّا بلَغَ المنصورُ على حصن مَجْرِيط فوقَ ما أمَّل من القصود، وضَعْضَعت صكّةُ وَطْئه قاسياتِ القلوب ومزَّقت فَلَّ الكافرين من الحشودِ والجنود، وعَلِم الكافرُ أنه لا يَملِك من أمرِه فتيلًا، ولا يحاولُ في كشف ما أنزَلَ اللهُ سبحانه متصرَّفًا ولا تحويلًا، استقبَل المنصورُ بحركته وَجْهَ الشّرق فأخَذ من حصن مَجْرِيطَ على وادي الحِجارة في منازلَ وربوع، وأشجارٍ وزروع، فمشَى العملُ فيها على ما تقدَّم من الترتيب في الاستئصال والتخريب.

ولـمّا حلَّت العساكر بساحتِها وانبسَطوا على جنَباتها، تَسابقَ بعضُ الناس إلى البلد، وقد كان الكافرُ شحَنَها بجملة رجالِه وكُماتِه، وأهل الثِّقة عندَه من حُماتِه، فخَرجوا إلى الطائشة من أتباع المحَلّة وسوادِهم، فظَهَروا عليهم في طرادِهم، حتّى تَوالى السابقونَ فأكبُّوهم على أذقانِهم وأورَدوهم بينَ قتيل وجَريح في أنقابِهم وأكنافِهم.

ولـمّا كان من الغدِ أخَذ الناسُ أُهبتَهم للتبريز، ووقَفوا عليهم بالقبائل على مراتبِ التمييز، فبهت الكافر من ذلك الملأ الحضور، ويئسوا من السّلامة كما يئس الكفّارُ

من أصحابِ القبور، فروَّح بالوادي المذكور ريثما خاطَبَ البلاد وبشَّر بكيفية هذه الغزوة جميعَ العباد، ثم رحَل حتّى وصَل قُرطُبة فختَم الجهادَ بالحضور بجامع قُرطُبة لخَتْم كتابِ الله ليلةَ سبع وعشرينَ لرمضان، ثم رحَل منها ودخَل إشبيلِيَة صَدْرَ شوّال[1] من العام.

ولـمّا استقرَّ المنصورُ بإشبيلِيَة بعدَ هذه الغَزْوة الثالثة أخَذ في تجديد أعمال البِرّ وبث الصَّدَقات في السرِّ، وأكّد النظرَ في تتميم ما بقيَ بالجامع المكرَّم من الأطراف وإكمال فحل المنار، وانتقل إلى حصن الفَرَج بقيّةَ فصل الـمَصِيف فتمادى سُكناه به ورأى حُسنَ إشرافه واعتلائه ورِقّةَ هوائه، ثم انتَقل منه إلى مدينة إشبيلِيَة وبينَ يدَيْه أكثرُ أهل الدولة وحِمَاءِ القَرابة، ولم يُقِمْ بعدَ هذا الانتقال إلّا نحوَ أربعين يومًا ثم تحرَّك إلى حضرته.

ثم كانت سنةُ أربع وتسعينَ وخمس مئة، ففيها: تحرَّك المنصورُ من الأندَلس إلى بَرِّ العُدوة، وهي كانت آخرَ حركاتِه رحمه الله.

ولـمّا رأت ملوكُ الرّوم أنّ بلادَها ورجالَها قد أتَى عليها الاستئصالُ والاصطلام، وأنْ لا نَجاةَ لها إلّا الرغبةُ في الاستسلام، وجَّهوا أرسالَهم في طلب الصُّلح على ما عُهِد من شروط الأحكام، فأُسعِفوا فيه على حُكم شريعة الإسلام[2].

ثم شَرعَ في تثقيف البلاد، وشدَّها بثقات الأنجاد، وقدَّم عليها الوُلاةَ والعُمّال، فقدَّم على إشبيلِيَة أبا زيد ابنَ الخليفة، وعلى بَطَلْيَوْس وجهاتِها السيِّدَ أبا الربيع بنَ أبي حفص بن عبد المؤمن، وعلى الغرب أبا عبد الله ابنَ السيِّد أبي حفص بن عبد المؤمن، وقدَّم على الـمَجابي في تلك البلاد، وأمَرَهم بالنصيحة والاجتهاد، وكان خروجُه من إشبيلِيَة في العَشْر الوُسَط من جُمادى الأولى وجَوازُه غُرّةَ جُمادى الأخرى، وأخَذ على طريق فاس وروَّح بها نحوَ عشرين يومًا، واستمرَّت حركتُه إلى الحضرة مَرّاكُش.

وفي هذه السنة: شَرِك أبو مروانَ الباجيُّ معَ أبي الحَكَم بن حَجّاج رحمه الله في الخُطبة.

---

(١) في ب: «شعبان»، وهو غلطٌ بيّن.

(٢) الكامل لابن الأثير ١٢/ ١١٦.

وفي سنة خمس وتسعينَ وخمس مئة: أمَرَ المنصورُ بإعذار الأطفال بمَرّاكُش، وأن يُجعل في يدِ كلِّ واحد منهم دينارٌ من الذهب ودرهمٌ من الفضة وحبّةٌ من الفاكهة الخضراء ليشتغلَ بها الطّفلُ عن ألـمِه، ويُصرَفُ الدِّينارُ في مداواته، فكان يذهبُ في ذلك كلِّه فوقَ الألف ألف ما بينَ ذهبٍ وفضّة، فكان هذا من مكارمِه التي لم يسبِقْه أحدٌ إليها من الملوك المتقدِّمين.

ومن فضائله المشهورة في الوجود: ما أمَرَ به من شكلة اليهود، وذلك أنّهم كانوا قد عَلَوْا على زِيِّ المسلمين وتشبَّهوا في ملابسِهم بعَيْشِهم وشاركوا الناسَ في الظاهر من أحوالهم، فلا يتميّزونَ من عباد الله المؤمنين، فجَعل لهم صفةً كحدادِ ثَكْلى المسلمين: أردانُ قُمُصِهم طولَ ذراع في عرض ذراع زُرْق وبَرانيسُ زُرق وقَلانسُ زُرق، وذلك في سنة خمس وتسعينَ المؤرَّخة(١).

ولـمّا اتّصل الخبرُ بابن نغرالةَ اللّعين عمل أرجوزتَه التي أولُها [من الرجز]:

لُبسُ ذا الأزرق ليس فيه خسارا فافهَموا يا قوم هذي الإشارا

يَذكُر فيها نُبَذًا ونُكتًا من الحِدْثان، ويتعرَّضُ فيها للتفاؤل والتطيُّر بهذا الأزرق للسُّلطان.

وفي أثناء ذلك وُعِك المنصورُ وَعكَه الذي توفِّي منه رحمه الله، وربّما قال اللّعينُ اليهوديُّ أرجوزتَه بعدَ وفاة المنصور، وهو الصّحيح.

بعضُ أخبار أميرِ المؤمنينَ المنصور على الـجُملة ووصيّتُه وما ذكَرَ الناسُ في موتِه

كان رحمه الله فاضلًا(٢) عاقلًا، حازمًا عازمًا، لا تأخُذُه في الله لَوْمةُ لائم، متواضعًا لله مجاهدًا في سبيل الله، وذُكر عنه أنه لـمّا قَتل أخوَيْه بمدينة سَلَا رأى بعدَ ذلك أباه في منامِه وهما عن يمينِه وشمالِه فقال له: يا يعقوب، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ

(١) المعجب ٣٨٣.

(٢) سقطت من ب.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١]، وذَكَر أبو عبد الله بن هاودوشَ في تأليفه، أنّ أبا العباس الجُراويَّ قال للمنصور لـمّا ذَكَر أنّ أخاه كان طامعًا في ولاية إمرة المؤمنين وأن قومًا كانوا يحدِّثونَه ويؤمِّلونَ ذلك له، فقال أبو العباس: يا سيِّدَنا، قد كان عبدُكم، يعني نفسَه، قد أنشَدَكم على جهة التفاؤل لكم بذلك قصيدةً أولُها [من الكامل]:

الـدّهرُ منّـا في مـديحِك أفـصحُ ... فعـلى مَ يُتعِـبُ نفـسَه مـن يمـدَحُ
أنـت المرشَّـحُ للّتـي لا فوقَهـا ... إنّ العظـيمَ لمثلِهـا يترشَّـحُ

فقال له: صدقت، كذلك كان، وأمَرَ له بصلة جَزِلة في ذلك اليوم.

وأنشَد أبو عبد الله بن هاودوش أبياتًا لنفسِه قالها في ابن قاسم حين وَرَد على المنصور، فلم يُقِمْ أكثرَ من جُمُعة إلا وقُبِض المنصورُ رحمه الله تعالى، وهي [من الطويل]:

إذا أهمَـل الـدّهرُ الفتـى كـان جَـدُّهُ ... لينجـوَ مـمّا نالـهُ غـيرُ عاصـمِ
ومن كـابَرَ الـدّهرَ استعَدّ إلى الـذي ... يجيءُ بـه للحيـن شؤمُ ابـن قاسـمِ
أتـى زائـرًا دارَ الإمـام كـأنّما ... زيارتُـه والـرُّزءُ ضربـةُ لازمِ
أتاهـا فألفاهـا ديـارَ مـسرّةٍ ... فغادَرَهـا المـشؤومُ دارَ مـآتمِ

أخبَرني الشّيخُ الصّالح أبو عليّ صالح بن أبي صالح، قال: حدّثني الفقيهُ أبو محمد عبدُ الرّزاق بن عُمر الساكنُ بموضع أبي خِراش، أنّ جَدَّه أبا عُمر كان من طلبة يعقوبَ المنصور، وحضَر معَه غزوةَ الأرك، قال: لـمّا رجَع المنصورُ من تلك الغزوة ونزَلَ بإيجليز، استدَعى أشياخَ الـمَصامِدة، فقال لهم: لـمَن كان هذا الموضعُ الذي بُنيت فيه مَرّاكُش؟ فقالوا له: نصفُه لهيلانةَ ونصفُه لهزميرة، قال: فاطلبوا لي أصحابَه، فأتَوْه بأقوام، فأعطاهم ثمنَه وحينَئذٍ دخَل مَرّاكُش.

ولـمّا وُعِك رحمه الله الوَعْكَ الذي توفِّي منه منَ اختلاف أهوِية الأقاليم ـ فقد كان بارزًا لهواجِرِها وأمطارِها أزمنةً متَوالية، فخاف على نفسِه الفَوات، وعَلِم أنّ الكلَّ إلى المَمات ـ أمَرَ بإحضارِ شيوخ الموحِّدين ووجوه أهل بيتِه من صغارِهم وكبارهم والأعيان

من أهل خَدَمتِه، ودخَل الجميعُ إليه في مجلس مَرَضِه بحَوْمة الصّالحة التي اختَطَّها لنفسِه ولغيرِه، فأخَذ يُذكِّرُهم بعوائد الأمر وفضائل جماعته، ويؤكِّد عليهم التزامَ ما كانوا عليه من طاعته، والعملَ في ذلك كلِّه بكتاب الله وسُنّتِه، والوفاءَ بعهودِه ومواثيقه، وأبلَغَ في الوصيّة والتنبيه والتذكير والاستسلام لقُدرة الله العليِّ الكبير، وما شابَه ذلك من الوصايا النافعة في حقِّ الدِّين والدنيا، والقيام بالأمر والعمَل بما يُخلِّصُ في الأولى والأخرى، وأورَدَ في ذلك من الكلام البليغ ما لم تُورِدْه على الرَّوِيّة الخُطباء ولا بلَغَت كُنهَه الأُدباء، حتّى أجهَش الحاضرونَ بالبكاء، وكادت تنفطرُ لوصاياه أكبادُ الأولياء، ولم يترُكْ ذا فضيلة من رجالِه ولا من أهل الدّولة إلّا أشار إليه، ولا صاحبَ مَزِيّة إلّا نبَّه عليه، وانفصَل هذا المجلسُ وقلوبُ مَن حضَرَه قد مُلئت خشوعًا ووفاء، وحمايةً وإبقاء.

وها أنا أذكرُ وصيّتَه على نحوِ ما وقَعَتْ وصحَّحها قرابتُه والمؤرِّخونَ لدولته، وهي هذه، لـمّا أمَرَ رحمةُ الله عليه بدخول أشياخ الموحِّدينَ عليه واستقرَّ بهمُ المجلس، سَكَن بعضَ سُكون وشَخَص ببصَرِه في الناس وعيناه قد تَغَرغَرتا بالدّموع، فسأل الناسَ عن أحوالِـهم وأشغالِـهم ثم قال: أيُّها الناسُ رحِمكم الله، إنّ هذه العِلَلَ والأمراض قد توالَتْ علينا وهدَّت قُوانا وهَتكت جَوارحَنا، وأظنُّ واللهُ أعلمُ بغَيْبِه أنّ هذه العلّةَ آخرُ عهدِنا بهذه الدُّنيا، وأنها القاضيةُ علينا، فانظُروا رحِمكم اللهُ وأعانكم على طاعته مَن تقدِّمونَ على أنفُسِكم وعلى رِقاب المسلمين، فخَنَقَت الناسَ العَبْرة وتشاغَلوا بالبكاء، فتكلَّم الشيخُ أبو موسى بنُ محمد ابن الشّيخ أبي حفص بن عليّ وقال: كأنّكم يا أميرَ المؤمنين يا سيّدَنا تُخرِسُنا بهذا القول: أبعدَ قول قولان، أو فعل فعلان؟ أنتم أميرُ المؤمنين، فإن تُوفِّيتُم فإلى رحمة الله تعالى، والجميعُ صائرونَ ومنقلبونَ إلى ما تصيرونَ إليه، وكنتُم قلَّدتمُونا عهدَكمُ الكريم لسيّدِنا الأميرِ الأجَلّ أبي عبد الله ابنِكم، وما رَبَطْناه في حياتِكم فنحن باقونَ عليه إلى أن تَلحَق نفوسُنا بنفوسِكم، وهو خليفتُكم علينا بعدَكم.

ولـمّا فتحَ الكلامَ الشيخُ أبو موسى وجَدَ الحاضرونَ للكلام فصلًا، فتكلَّم كلُّ واحد على قَدْرِ وُسعِه في الكلام ومعرفتِه في الخطاب، فقال لهم رضي الله عنه: كلُّ ما

ذكرتُم سَمِعنا، ولكنْ ما شغَلَ نفوسَنا شيءٌ سوى صِغَرِ سنِّه، ولله ما خَفِي وللناس ما ظَهَر، وإذا وافقتُم على ما ذكرتُم فادعوا اللهَ تعالى باليُمن والإقبال والتوفيق فيما ادَّعيتُم وعليه عوَّلتُم، واللهُ تعالى يُعينكم ويُعينُه بكم لا ربَّ سواه، وإذا كان بعَوْن الله تعالى فلا تترُكوهُ لرأيِه حتى يتنبَّهَ ويَظهَرَ ويَكمُلَ عقلُه ويفعلُ اللهُ بعدَ هذا ما يشاء. ثم التفَتَ إلى السيِّد أبي الحَسَن وأخيه السيِّد أبي زَيْد ابنَي السيِّد أبي حفص وقال: إنّ هذَيْن الرجُلَيْن لَخيرُ هذه البيتة، كنا قدَّمناهما على إخوانِنا وعلى بلادِنا فلْيكونا على ما عهدِناهما عليه وما رَبَطْنا لهما في حياتِنا.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهؤلاءِ الطّلبةُ، يعني السادات، إنْ أمكنَكم ألّا تصرفوا أحدًا منهم فهو الأحقُّ لهم ولكم، وإن أحوجَتْكم الضّرورةُ إلى تصريفِهم فإيّاكم والطَّبل، إيّاكم والطّبل، فإنه مـمّا يُخِفُّ الأدمِغة ويحوِّلُ العقول، ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاءِ الأشياخ، يعني أبا زكريّا وأبا محمد عبدَ الواحد، لا تتخيَّلوا أنّ دخولَهم علينا وخروجَهم من عندنا كان غايتُه هذا اليوم، فإنّا لهذا الوقت ادّخَرْناهما، فلْيكونا شيخَيْ محمد وعَوْنًا له على الطاعة والخير، ولا يصدُرْ أمرٌ إلّا عن مَشُورتِهما ورأيِهما.

ثم قال رضي اللهُ عنه: هذا الرجُلُ أبو الغَمْر هو من عُقَلاء الناس وأتـمِّهم صيانةً وعَفافًا، وقدِ انقَطع إلينا وعوَّل علينا، فلْتكونوا له أعوانًا وأنصارًا، وكذلك الرجُلُ الغائبُ عنّا الحاضرُ في نفوسِنا محمدُ بن إسحاق، غَرَضُنا فيه أن تُجْرُوه على السَّنَن الذي أجرَيْناه، وتحفَظوا جانبَه وتوَفُوه حقَّ انقطاعِه إلينا حتّى يَظهَرَ عليه بركةُ انحياشِه إلى هذا الأمر. وإيّاكم والتفريطَ، وإيّاكم والتفريطَ في هذَيْن الرجُلين.

ثم قال رضي اللهُ عنه بعدَ أنْ أطرَقَ ساعةً وعيناه تَذْرِفان دموعًا، وقال: أُوصيكم بتقوى الله تعالى، وبالأيتام واليتيمة، فقال له الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد: يا سيِّدنا يا أميرَ المؤمنين، ومنِ الأيتامُ واليتيمة؟ قال: اليتيمةُ جزيرةُ الأندَلس، والأيتامُ سُكّانُها المسلمون. وإيّاكم والغفلةَ فيما يَصلُح بها من تشييدِ أسوارِها وحماية ثُغورِها وتربية أجنادِها وتوفير رِعْيتِها، ولْتَعْلموا، أعزّكمُ الله، أنه ليس في نفوسِنا أعظمُ من همِّها، ونحن الآنَ قدِ استودَعْناها اللهَ تعالى وحُسنَ نظَرِكم فيها، فانظُروا أمنَ المسلمين وأجْروا الشرائعَ على منهاجِها.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهؤلاءِ الأغزاز أمَرْنا لهم بهذه البركة يأخُذونَها، فاترُكوها على ما رتَّبْنا ورَبَطْنا؛ لأنّ الموحِّدينَ لهم سِهام يرجِعونَ إليها، وليس للأغزاز سهام.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهؤلاءِ العَرَب تُدارونَهم وتُلاطفونَهم وتُحسِنوا إليهم، ومَن وفَدَ عليكم منهم تعطونه وتحسنون[1] إليه غايةَ الإحسان وتَشغَلونَهم بالحركات ولا تتركونَهم للعُطلةِ والراحات.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهؤلاءِ الطَّلبة ـ يعني طَلَبةَ الحَضَر ـ تجعَلونَ لهم موضِعًا يكونُون بخاصّتِهم يشتغلونَ فيه بالـمُذاكرة حتى يَشِبَّ محمدٌ ويَكمُلَ عقلُه بعقولهم.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهذا الرجُل، أبو القاسم ابنُ بقيّ، كنّا قدَّمناه على القضاء لعِلمنا بعَفافِه وطهارتِه ولضَعْف مَؤُونتِه وقلّة طمَعِه، فلْتترُكوه على أمرِه حتى يقضيَ اللهُ ما يشاء.

ثم قال رضيَ اللهُ عنه: وهذا عبدُ الرحمن بن يُوجَّان، كنّا قد أشغَلْناه بأشغالِنا وصَرَفْناه في أعمالِـنا، فوالله ما رأينا في شُغْله وخِدمته ما يغيِّرُ نفوسَنا عليه، ولا ظَهَر لنا منه طمع، ولم تكنْ عادةَ غيرِه، كذلك، فلْتتركوه على شُغْلِه حتى ينفُذَ أمرُ الله.

وذكَر رضي اللهُ عنه قبائلَ الموحِّدينَ قَبِيلًا بعدَ قَبِيل، وأوصَى بهم قَبِيلًا بعدَ قَبِيل، وبمُزاوَرتِهم، ثم حوَّل وجهَه[2] إلى الحُكّام والأشياخ وقال لهم: تُرانا نذهبُ عنكم إلى دار البقاء ونترُكُكم في دار الفناء، وقد أزَلْنا من أعناقِنا وجعَلْنا في أعناقِكم هذه القِلادة نُطلُبُكم بها بينَ يدَي الله تعالى، فانظُروا من المسلمين وأجرُوا الشرائعَ على منهاجِها وأمْشوا أوامرَ الله سبحانَه وسُنّةَ نبيِّه محمد ﷺ على ما يجب، وإيّاكم والباطل، وإيّاكم والباطل، واللهُ تعالى يُعينُكم ويُعينُ بكم ويُلهِمُكم لِـما فيه صَلاحُكم، ثُم دَعَا للناس، وخَرج الموحِّدونَ عنه، فلم يرَهُ أحدٌ بعدَ ذلك اليوم رحمةُ الله تعالى عليه.

---

(١) في ب: «تعطوه، وتحسنوا»، واحتساب «مَن» هنا موصولة أفضل، لرفعه الأفعال المضارعة بعده.

(٢) سقطت من ب.

حدّثني الشّيخُ أبو الوفاء عَدَل[١]، قال: حدّثني السيِّد أبو عليّ ابنُ السيِّد أبي موسى ابن المنصور، قال: خَرج سيِّدُنا أميرُ المؤمنينَ المنصور ذاتَ يوم إلى رياضِ الكبير وبينَ يدَيْه جميعُ أولادِهِ الكبيرُ منهم والصغير، وهم في نحو خمسةَ عشَرَ ولدًا، فنَظَر نظرةً إليهم ثم التفَتَ مِرارًا يُكرِّرُهُ عليهم إلى أن قال لهم ولـمَن حضَر معهم: رأيتُ البارحةَ في منامي سيّدَنا أميرَ المؤمنين أبي وهو في هيئتي وعلى شِبه صُورتي هذه التي نحن فيها معَكم وأولادُه معَه كلُّهم كما أنتم أولادي معي، وكلَّمني كيف أُكلِّمُكم فقال لي: يا يعقوب، لـمَ قتلتَ أخاك وعمَّك؟ فما كنت... [٢] عليَّ مِرارًا، كأنه يُعتِبُني عِتابًا، ثم قال لي: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، ثُم بَكى المنصورُ حتّى بَلَّت دموعُه لحيتَه، ولـمّا... [٣] يوم بعَثَ عجائزَ كنَّ عندَه صالحاتٍ مقرَّباتٍ إلى أُمِّ أخيه وإلى أُمِّ عمِّه ـ وقيل: إلى زَوْجةِ... [٤] أمُّ ... [٥] وزوجته، بذكْرِ العجائز المرسَلين إليها بالاعتذار في شأن ابنِها، أو زوجِها، ... [٦]،وحَشَمَها أن يَنالوا منهنّ ويُنكِّلوا بهنّ، فتَركَها العجائزُ ولم يرَوْها وتوجَّهوا إلى أُمِّ السيِّد أبي زيد أخي المنصور، فعندَما سمِعتْ بهنّ أدخلَتْهنّ عليها فسلَّموا عليها فأكرمتهم وسألتهم عن أميرِ المؤمنين فأبلَغوها سلامَه وعرَّفوها بكلامِه وأنه يرغَبُ منها أن تجعَلَه في حِلٍّ من دَمِ ابنِها، فذكَرتْ خيرًا وقالت: إن كان ابني فهو أخوه، وهُو أعلمُ بما عَمِل في حقِّ المسلمين منّي، وقد وهَبْتُ له مالي في دمِه وغفَرتُ له.

ولـمّا وصَل العجائزُ إلى المنصور عرَّفوه بكلامِها فشَكرَها، وقال: والله لئن أفجَعْناها في ابنِها لَنُرِيَنَّها الأملَ في أخيها، ثُم وَلَّى أخاها ولايةَ فاسَ وأعمالِـها والنظرَ في

---

(١) الضبط من ب، ق.

(٢) بياض في النسخ بقدر أربع كلمات.

(٣) بياض في النسخ قدر نصف سطر.

(٤) بياض في النسخ قدر كلمتين.

(٥) بياض في النسخ قدر كلمة.

(٦) بياض في النسخ قدر كلمتين، لعلهما: «وأمرت خدمها».

أشغالِـها، وبعدَ ذلك أخّره عنها ونقَلَه إلى ولاية مالَقة فبقيَ واليًا على مالَقَةَ مدةً من ثلاثينَ سنة؛ لأنّ المنصورَ أوصَى عليه ابنَه الناصرَ وأمَرَه أن يُوصيَ عليه لبنيه، فما عُزِل عن تلك الولاية ولا انتقل عن مالَقَةَ إلى أن توفِّي بها رحِمَهم اللهُ تعالى.

وذكَروا ـ واللهُ أعلم ـ أنه مِن وقتِ تلك الرؤيا التي رَآها المنصورُ، قام بنفسِه أن يَختلعَ عن الـمُلك ويبقَى يَعبُدُ اللهَ حتّى يموت، فقدَّم ابنَه الناصرَ وأوصَى وصَاياه وغاب، وأخبرَ الناسَ بموتِه واللهُ أعلمُ بحقيقة أمرِه.

وأمّا ما ذُكِر عنه من قَتْل أخيه وعمِّه فقد تَضْطرُّ الملوكُ إلى هذا: المأمونُ عبدُ الله العبّاسيُّ: قَتل أخاه محمدًا الأمين، المعتزُّ: قَتل أخاه، عبدُ الله بنُ محمد الأُمَويُّ: قَتل أَخَوَيْه، ابنُ طُولون صاحبُ مِصرَ قَتل أخاه، ابنُ حمدان: قَتل أخاه، إبراهيمُ بن زِيادة الله: قَتل جميعَ إخوتِه، صاحبُ خُراسان نَصْرُ بن أحمد: قَتل أخاه، إبراهيمُ بن حَجّاج صاحبُ إشبيلِيَة: قَتل أخاه محمدًا، عَبّاد بن محمد: قَتل أخاه عبدَ الله ثُم قَتل ابنَه إسماعيلَ الملقَّبَ بالمنصور وكان خليفتَه المرشَّح لمكانِه، سُليمان بن عبد الملِك: قَتل ابنَه سرًّا، عبدُ الله بن محمد الأُمَويُّ بالأندَلس: قَتل ابنَيْه: الـمُطرِّفَ ومحمدًا، عبدُ الرحمن الناصرُ الأُمَويُّ: قَتل ابنَه عبدَ الله بسِعاية الحَكَم وَلَدِه الآخَر ذَبَحه يومَ عيد الأضحى، المنصورُ بن أبي عامر: قَتل وَلَدَه عبدَ الله، أبو جعفرٍ المنصور: قَتل عمَّه عبدَ الله بن علي، الـمُعتضِدُ العبّاسيّ: غَرَّق عمَّه أبا عيسى، الـمُعتضدُ المذكور: قَتل عمَّه الآخَر المعتمِد فقيل: سَمَّه وقيل: بل فتَح فاه عندَ رُقادِه فأفرَغَ في حَلْقِه رصاصًا مُذابًا، عبدُ الله بن الموفَّق: قَتل ابنَ عمِّه الـمُكتفي، الحَكَمُ الربضي قتل عمه سليمان ـ عبد الرحمن الناصر قَتل عمه العاصي، يحيى بن علي بن حَمّود: قَتل [ابنَ][1] أخيه إدريس، زيادةُ الله بنُ الأغلَب: قَتل جميعَ أعمامِه، المنصورُ بن أبي عامر: قَتل ابنَ عمِّه عسكلاجةَ وقَتل أخاه وقَتل ابنَه، وغيرُ هؤلاء.

وسياساتُ الملوك لا تُعرَضُ للامتحان ولا تحتملُ التمحيص والـ...

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيها السياق؛ لأنه ابن عمِّه لا عمَّه، كما هو معروف.

...[1] الخبر لوفاة المنصورِ وما ذُكر فيها

قيل: توفِّي، رحمه الله، ليلةَ الجُمُعة الثانيَ عشَرَ لربيع الأوّل سنةَ خمس وتسعينَ وخمس مئة[2] ودُفن بمجلس سُكناه[3] حضرة مَرّاكُش ثم نُقِل منها إلى تينملَ بعد ترتيبِ القُرّاءِ عليه يومًا كاملًا، فتصدَّعت لفَقْدِه الجَمادات، وتفَطَّرت لـمُصابِه القلوبُ القاسيات، وكذّب [الكافّةُ][4] من العامة بوفاته وصارت تَصرُخُ حيث سارت بحياتِه، فآونةً يجعَلونَه مُرابِطًا ببلاد الأندَلس[5] على استكتام، وتارَةً يُثبتونَه حاجًّا إلى بيت الله الحرام، تمسُّكًا بحبِّه... [6] لقدرِه، واتّباعًا لهوى النفْس في التلذُّذ بذكْرِه.

أخبرني الحاجُّ ابنُ مَرِينةَ قال: أخبرني بعضُ المشارقة في بلادِهم أنّ قبرَ المنصور ملِكِ المغرب في بلاد الشام[7]، وكانت ولا رَيْبَ ولا اختلافَ أنّ المنصورَ رحمه الله، كان رجُلًا صالحًا عالـمًا فاضلًا، وثَبَتَ عندَ قَرابتِه وأهل بيتِه أنّ قبرَه بتينملَ، وقال بعضُهم: إنه هو الذي أخرَجَه الملياniُّ من قبرِه وزَعَم أنه الـمَهْديّ، وذلك في سنة أربع وسبعينَ وست مئة، وهذا ما بَلَغَنا من وفاتِه.

تـمّت أخبارُه.

---

(١) بياض في النسخ قدر كلمة.

(٢) اختلف في وفاته، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي أنه توفي في غرة صفر (المعجب ٣٨٥)، وذكر النويري أن وفاته كانت في سابع عشر ربيع الآخر (نهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٨). أما ابن الأثير فذكر أن وفاته في ثامن عشر ربيع الآخر، وقيل: جمادى الأولى (الكامل ١٢/ ١٤٥).

(٣) من هنا إلى قوله: «وتفطّرت» سقط من ق، ب.

(٤) ما بين الحاصرتين فراغ في ق، ب.

(٥) قوله: «مرابطًا ببلاد الأندلس» فراغ في ق، ب.

(٦) فراغ في النسخ قدر كلمتين.

(٧) قال ابن خلكان: «ثم حكى لي جمع كبير في سنة ثمانين وست مئة بأن بالقرب من المجدل البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي قرية يقال لها حمارة وإلى جانبها مشهد يُعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين» (وفيات الأعيان ٧/ ١٠)، وقال الذهبي بعد نقله لهذا الخبر: قلت: الأصح موته بالمغرب (تاريخ الإسلام ١٢/ ١٠٦٤).

ذكرُ بيعة أبي عبد الله الناصِر لدين الله
وضَخامةِ دولته ومَهابة سَطْوتِه

نَسَبُه: هو أبو عبد الله محمدُ بن يعقوبَ بن يوسُف بن عبد المؤمن.

بويعَ بيعةَ العامّة بعد أسبوع من وفاة أبيه، وذلك في العَشْر الآخِر من ربيع الأوّل سنةَ خمس وتسعين، واستوسَقت له الخلافةُ بهذه البيعة، وقد كان بويعَ في خلافة أبيه كما تقدَّم ذكرُه، فكانت خلافتُه خمسَ عشْرةَ سنة وأربعةَ أشهر وثمانيةَ عشَرَ يومًا أولُها يومَ الجُمُعة الثالثِ والعشرين لربيع الأوّل من سنة خمس وتسعينَ المذكورة، وآخرُها يومُ الثلاثاء العاشر لشعبانَ المكرَّم سنةَ عشْرٍ وست مئة(١).

ولـمّا استَوْسَقت القبائلُ بالقدوم للمبايعة، وبَلَغت واجبَها من المبادرةِ والمسارعة، وكمُل الوارِدونَ والوفودُ بالوصُول، وقضَى من تمشية السياسة وتهدين المملكة وتطييب النفوس كلَّ مأمول، ووصَلت البيعاتُ من البلاد، وخَرَجت البركاتُ للموحِّدينَ والأجناد، أنشَدَت الشعراءُ في التهنئة بتجديدِ البيعة، فمن ذلك ما قاله أبو العبّاس الجُراويُّ من قصيدة [من الكامل]:

لـهَجَت بـذِكرِك ألسُنُ الـمُدّاحِ ... وسمَت بـذِكرِك رُتبةُ الأمـداحِ
أزْرى نَـداك بكـلِّ بحـرٍ زاخِـرٍ ... هبَّـت عليـه عواصـفُ الأرواحِ
بمحمـد وزرَ الـوَرى وبـما لهـم ... في كـلِّ يـومِ نَـدى ويـوم كفـاحِ
فَـرْعٌ سيحكي أصلَه ولقـد حَكـى ... بمقاصـدٍ قـد سُـدِّدت وسـلاحِ
تـأبَى الخلافـةُ مـن سـوى أكفائهـا ... والـجَدُّ غـيرُ مقابَـل بمُـزاحِ
غَـشِيَتْ بنـورِكُم الـبلادُ فمَـن بهـا ... أغنـى عـن الإصـباح والمـصباحِ
سـكَنَت ببيعتِـه القلـوبُ ولم تـزَلْ ... تهفـو مـن الإشـفاق دون جَنـاحِ

---

(١) المعجب ٣٨٦، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٩، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٢٥٠، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣١.

عَــمَّ الــسرورُ بهــا البــسيطةَ كلَّهــا كالــصُّبحِ فــاضَ عــلى رُبــى وبِطــاحِ
لا زِلْــتَ للأعيــاد تمــنَحُ بهجــةً يُعيــي سَــناها أعيُــنَ اللمّــاحِ
مــستوفيًا مــدَدًا إلى مــددٍ بهــا رَبِــدًا طِــوالٍ لا تُعَــدُّ فِــساحِ
مُتــسربِلاً بالــسّعدِ متّــشحًا بــهِ مــستفتحًا بالواحــد الفَتّــاحِ

وقال أيضًا في هذه البيعة من قصيدة طويلة منها [من الكامل]:

صنعٌ جميلٌ جَلّ عن أن يُوصَفا[1] يوجــد بــه كــمالًا واكتفــا

ومنها:

هــي بيعــةٌ أحيــا الإلــهُ بهــا الــوَرى وحَــمَى بهــا ديــنَ النبــيِّ المــصطفى
ســبقَت قلــوبُ الخلــقِ أيــديَهمْ بهــا ورَجَــا زمــانُهمُ بهــا أن يُــسعِفا
كــلٌّ يمُــدُّ يــدَ الــضَّراعة راغبًــا في نَيْلِهــا مــسترحمًا مــستعطفا
جــمَعت صلاحَ الدِّين والــدُّنيا معًــا وغــدًا بهــا شــملُ العُــلا متألِّفــا
مــا مــن تقــيٍّ مــؤمن إلّا وقــد سُرَّت لــهُ نَفْــسًا وهــزَّت معطفــا
لبَّــى مناديهــا بقلــب مخلــصٍ متبرِّكًــا بحــضورِها مستــشرفا
أنْــسَت مــآثرُهُ مــآثرَ يعــرُبٍ وسَــمَت بقيس في العــلاءِ وخِنــدِفا
فُــتَّ المــدائحَ فــالبليغُ مقــصِّرٌ ولــوَ انــه نَظَــم الكواكــبَ أحرُفــا
لازلــتَ بــالملإِ العــليِّ مؤيَّــدًا ولِصَرْف دهرِك كيف شئتَ مصرِّفا

واستوزَر أبا زيد بنَ يُوجّان وشَرع في مصالح البلاد، وما يجبُ من النظَر الصالح لحماية العباد[2]، فقدَّم السيّدَ أبا زيد الحَسَن ابن السيِّد أبي حفص على بِجَاية وجهاتها

(١) لم يبق في النسخ الخطية من الكلمة سوى الياء والواو، والبيت على كل الأحوال غير موزون لنقص فيه واختلال.
(٢) المعجب ٣٨٧.

وسائرِ أنظارِها وأقطارِها، وأمَدّه بالرِّجال وبَسَط يدَه على الأموال، وقدَّم أخاه السيّدَ أبا محمد بن المنصور على إشبيلِيَة وأخَّر عنها السيِّد أبا زيد ابنَ الخليفة.

وفي سنة ستٍّ وتسعينَ في أوّلها: توالَت عليه الأنباءُ من إفريقيّةَ بإجحاف العدوِّ بأطرافِها وانبساط العَرَب على بسائطِها، والتئامِها معَ مَن بها من الأشقياء وتغلُّبِهم على بعض معاقلِها، فتحرَّك إليه السيِّدُ أبو الحَسَن ابن السيِّد أبي حفص من بِجَاية في عسكر مشتَّت الآراء عديم النُّصَحاء، قليل أهل الغَناء، ملفَّق من أعراب حُثالة أطماع، وكلاب جِياع، وبقايا مكْر وخداع، فنزَلَ بظاهر قُسَنْطينة وترَك مضاربَه مشتملةً على حشيشِها، خاويةً على عروشِها، والعدوُّ قد عَرَف من جهة العَرَب بواطنَ أحوالها، وأرصَد كمائنَه عن يمين السيِّد وشماله.

وعندما تراءى الجَمْعان، وتقارَبَ الفريقان، نكَص أوباشُ العَرَب عن السيّد وما كان من خِذلانِهم على أعقابِهم وكَرُّوا كالمنهزِمينَ إلى محلّة السيِّد لأخْذ المال والأثاث على زَعْمِهم، فأخفَقَ مسعاهم، وخانَهم ظنُّهمُ الكَذُوبُ ورجاهم، وخَسِروا دُنياهم وأُخراهم، وعندَ انخزال العَرَب المذكورين عن السيِّد وما كان من خِذلانِهم وغَدْرِهم وعُدوانِهم، ثَبتَ السيِّدُ معَ أهل الحفيظة من جماعة الموحِّدين وأبلَوْا بلاءَ أمثالهمُ الصّابرين، حتى تلاحَقت كمائنُ الأعداء فصار السيِّدُ وأصحابُه بينَ أنياب المَنُون وأخَذتهم كمائنُه بالشمال واليمين، فلم يجدْ أكْفاءً لمدافعتهم ولا أعوانًا لمصادرتهم، فاستَسْلموا إلى الانحدار، منهم على مُدافعة ومنهم مَن بادر بالفِرار، وانجَرَّت الهزيمةُ على الموحِّدينَ أميالًا وفَقَدوا فيها رجالًا وأموالًا، وانسَلخ السيِّدُ أبو الحَسَن من غُمارةِ الهزْمة ووصَل إلى حِصن قُسَنْطينة معَ اللّيل عاريًا من كلِّ شيء، واتّصل بالناصِر ما كان... [1] هذه المعركة واستيلاءُ العدوِّ على تلك الجهة، فوقَع النظرُ على تجديد والٍ لإفريقيّة[2].

وفي هذه السنة: أنفَذ الناصرُ لدين الله السيِّدَ أبا زَيْد إلى تونُس واليًا عليها معَ جماعةٍ من الموحِّدينَ والأجناد ليتلافَى بالإمساك أرماقَ أهلها، ويسُدَّ ما وقَع من خَللِها، ويُداويَ ما أمكنَ من عِلَلها، فخَرج من مَرّاكُش وأغَذّ السيرَ حتى وصَلَها على طريق

---

(١) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣١.

الساحل ودخَلَها تحت غَرَر من انتشار العدوِّ بجنَباتها فلم يَغْنَ بها غَناء، ولا رفَعَ عن أهلها عناء، وأنِسَ العدوُّ بضعفِه وقلّة دفاعِه، واتّصل عمَلُه بأطماعِه. وتملَّك الغوِيُّ حصنَ الـمَهْديّة، واتّصل بأحواز قُسَنْطينة، واستفحَل ضرَرُه وقَوِي شرُّه، واشتعل بتلك البلاد جَمْرُه.

وتَوالت هذه الأنباءُ على حضرة الناصِر واتّسعت بذلك الأراجيفُ وشَنُعت الزّخاريف، فتجرَّد للنظر وأبرَمَ العَزْم وقدَّم الحَزْم في إصراخ تلك الجهات وإمدادِها بعسكر وافرِ الأعداد، شامل الاستعداد، فتقدَّم لتمهيد ما بها من التغلغل والاضطراب، والإشراف على ما بِنظَر بِجَاية من أوباش الأعراب، وأمَّر على هذا الجيش الوزيرَ ابنَ يُوجّان فخَرج معتمِدًا على حُسن عقيدته، ومُستندًا لله تعالى وكريم عادتِه، واستقرَّ بتِلِمْسان، ثم تدرَّج إلى بِجَاية ثم إلى قُسَنْطينة ثم عاد إلى تِلِمسان فوصَله الأمرُ بالنظر في أعمالها وجميع أشغالها، ثم وصَله الأمرُ بالانتقال إلى فاسَ لعمالتِها وأقام بها إلى أنْ مشَى في خِدمة الناصِر إلى إفريقيّة.

وفي سنة سبع وتسعين وخمس مئة: عزَل الناصرُ لدين الله أخاه عن إشبيلِيَة ثم بعدَ ذلك فَهِم عنه الرّغبةَ في ولايتها فأسعَفَه في رغبتِه.

وفيها: كان السّيلُ الشّنيع بوادي إشبيلِيَة هلك فيه أممٌ لا يحصيهم إلا الله، وذلك بجَفْن إشبيلِيَة وبكلِّ من كان بضفتي الوادي من قُرطُبة إلى جزيرة قادس. وقيل: إن الذي ذهب من دور إشبيلِيَة بهذا السيل ستة آلافِ دار، وذكر التجارُ الواصلون من غرب الأندَلس أنهم عثَروا بالرمال الكبار على سبع مئة شخص من الغَرْقى، قال ذلك يوسُف بن عُمر في تاريخه، وقال الراوي: إن هذا السّيلَ بإشبيلِيَة تقدّمته سيول كثيرة حتى قال الشاعر [من السريع]:

لله حمصٌ أيُّما بلدةٍ ... لو أنّنا نأمنُ ثُعبانَها

طاف بها والرِّيحُ روحٌ له ... فابتلع الأرضَ وسكانَها

وفي سنة ثمانٍ وتسعينَ وخمس مئة: تحرَّكت أنباءُ الثائر الجُزُوليِّ المعروف بأبي قَصَبة واتّصل ببلاد السُّوس وشاع أمرُه وسَرى شرُّه وتأجّج جَمْرُه، فتحرَّك الناصرُ لدين الله

إلى رَجْراجة ونَظر في أمرِه وأنفَذ عسكرًا برَسْمه، فأخَذه الله بسُوء مكرِه فهُزِم عسكرُه وحُزَّ رأسُه وسِيق إلى الحضرة، وكان أبو قَصَبة هذا لـمّا وصَلته العساكرُ إلى السُّوس وأخَذتْه بالشمال واليمين، وقَف وقوفًا لم يُذكَر عن شَبيب[1] بن يَزيد ولا غيرِه من المتقدِّمين حتّى طحنَتْه وأصحابَهُ بَطْشةُ الموحِّدين فقُتلوا عن آخِرهم ورُفع رأسُ أبي قَصَبة في عصا[2]. والتحَقَ بهذا الفتح في أسبوع واحد بمُوافقة الأحكام فتحُ مَيُورقة.

ذكرُ فتح مَيُورقةَ ثانيةً وأخْذِها من يدِ ابن غانِية وذكرُ مَن وَلِيَها من لَـمْتُونة ومَسُوفة

كان دخولُ النّصارى مَيُورقةَ على ناصِر الدولة مُبَشِّر الصِّقِلّي مولى ابن مجاهد في سنة ثمانٍ وخمس مئة، ثم استفتَحها المرابِطون ودخَلها وانودينُ بن سير من قِبَل أمير المسلمين عليِّ بن يوسُف بن تاشفين، فبقيَ بها ثلاثةَ أشهر، ثم وَلِيَها من بعده أبو بكر بن تكرطات، ثم وَلِيَها من بعده بايور بن محمد، فقامت عليه الرعيّةُ وقَتلوه. ثم وَلِيَها أبو بكر بنُ عليِّ بن ورقا فمات بها، ثم وَلِيَها محمدُ بن غانِية الـمَسُوفي حتى مات بها مقتولًا، ثم وَلِيَها ابنُه إسحاق فأقام بها ثلاثينَ سنةً أولُها سنةَ خمسين وآخِرها سنة ثمانينَ وخمس مئة، ثم وَلِيَها عليُّ بن إسحاق بن محمد بن غانِية وخَرج عنها، ثم وَلِيَها عبدُ الله أخوه إلى أن مات في هذه السّنة وهي سنةُ تسع وتسعين وخمس مئة.

رَجْعُ الخبر: كان هذا الثائرُ بإفريقيّةَ عبدُ الله بن إسحاقَ بن محمد ابن غانِية الـمَسُوفيُّ قد اغترَّ بما اتَّفق له في أوقات وحركات من موافقة أقدارٍ وأغاليطِ الزمان من مشْيِه إلى صِقلِّيّة ودخولِه منها إلى مَيُورقةَ بعدَ خروج أبي عبد الله بن إسحاقَ والقائد أبي الحَسَن بن الدبرتير عنها وافتراصِه الجزائرَ ودخُوله إياها ونَيْله كلَّ الـمُستنال منها وفلِّه للشّيخ أبي زكريّا بساحل مَيُورقة، فأَنِس بما كان من هذه الأحوال المقدَّرة والاتّفاقات المتصوَّرة.

---

(١) شبيب بن يزيد أحد فرسان الخوارج الأشداء (ينظر تاريخ الإسلام ٢/ ٨٢٠، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٤٦).

(٢) ينظر المعجب ٣٩٥ حيث ذكره في سنة سبع وتسعين.

ولـمّا تمكَّن فصلُ الشتاء وارتَجَّ البحرُ ومُنِع ركوبُه، وتعذَّر على كل متصرِّف فيه مطلوبُه، تحرَّك ابنُ غانِية المذكور في أُسطوله إلى جزيرة يابِسة ليكيدَها بفُرَصِه، ويُجريَها على ما تقدَّم له من تلصُّصِه، فلم يصرِفْ أهلُها بالًا لما أمَّل لديهم، ولا أرعَوْا سمعًا لندائه إليهم، وظَفِر ابن مَيْمون له بطريدتَيْن فأضرَمَهما نارًا، ورجَع ابنُ غانِيَةَ خائبَ الوِجهة، ثم جدَّد حالًا ولجَّ ضلالًا، ونازَلَ مَنُورقة والأنواءُ قد صَدَقت بأمطارها، ومَنَعت عن التصرُّف حتى الطّير في أوكارِها، وحاصَرَها اللّعينُ حتّى لجَأ أهلُها إلى أكل الـمَيْتة وضَعُفوا عن كلِّ مدافعة وحَمِيّة وأسلموا له البلد وتـمَلَّكه وثقَّفه وترَكَ فيه رجُلًا منهم يُعرَف بابن نَجاح[1]، ولـمّا خَفَّت الأنواء وحَسُن الهواء أسرَى إليه السيِّد أبو العُلى في أسطولِ سَبْتة، وصبَّحهم فساء صَباحُهم وبَطَش بهم الأُسطول قبلَ التئام أحوالِـهم وترتيبِ قتالِـهم، فدخَل البلدَ عَنْوة وقَبَض على ابن نَجاح وصُيِّر معَ أصحابِه إلى الحضرة فهلَك بها.

وأكثَرت الشّعراءُ في هذا الفتح، فقال الجُراويُّ من قصيدة طويلةٍ أولُها [من الطويل]:

لكَ النّصرُ حزبٌ والمقاديرُ أعوانُ ... فحسبُ أعاديك انقيادٌ وإذعانُ

فبعدًا وسُحقًا لابن إسحاقَ إنهُ ... مُطيعٌ لأحلامِ الكَرى وهْو يَقْظانُ

سواءٌ لدَيْه من غَباوةِ طبعِهِ ... هلاكٌ ومنجاةٌ وربحٌ وخُسرانُ

فمن حيثُ رام العزَّ جاءته ذِلّةٌ ... ومن حيثُ رام الحظَّ لاقاه حرمانُ

وهل هُو إلا من أُناس تهافَتوا ... فَراشًا على أسنانِكم وهْي نيرانُ

عَصَوا دعوةَ الـمَهْديِّ وهْي سفينةٌ ... فأغرَقَهم طُغيانُهم وهو طُوفانُ

لقد ألبَسَ اللهُ الخلافةَ بهجةً ... بمُلك به يزهَى الوجودُ ويزدانُ

سعودُك مَن يرتابُ فيها وللوَرى ... عليها دليلٌ كلَّ يوم وبرهانُ

---

(١) هو الزبير بن نجاح كما في المعجب ٣٩٧.

وقال أيضًا يهنِّئه بفتح مَيُورقة المذكورة [من الكامل]:

شـــاءَ الإلـــهُ حمايـــةَ الإسـلامِ ... فـــأعَزَّ نُـــصرتَه بخـــير إمـــامِ
بسَميِّ خير الـخَلْق والنّـورِ الـذي ... كفَلَـــت بدايتُـــه إلى الإتمـــامِ
جُـمِعت ببَيْعتِه القلوبُ على الرِّضى ... واستَبْـشَرت بمنـال كـلِّ مـرامِ
وسَرى السرورُ بها وصـار مُواصِـلًا ... للجَـــدِّ في الإنجـــادِ والإتهـــامِ
واعتـــزَّ ديـــنُ محمـــد بمؤيَّـــدٍ ... مـاضي العـزائم للـشريعة حـامِ
لـــولا انتظـــامُ أمورِنـــا بوجـــودِه ... لَغَـــدت مبـــدَّدةً بغـــير نظـــامِ
أضـحَتْ خلافتُـه الـسعيدةُ للـورى ... وِزْرًا مـــن الأعـــداءِ والأعـــلامِ
ذَخَـر الزمـانُ مـن الفتـوح غرائبًـا ... لزمانِـــه الـــمتهلِّل البـــسّامِ
لا مثـلَ فـتحِ ميورقـة فهْـو الـذي ... أهـدى الـسّرورَ لـمُنجدٍ وتِـهامِ
مطَلَت بـه الأيـامُ حتـى استُنجِزَتْ ... بـسِنان خطـيٍّ وحـدِّ حـسامِ
وبعَزْمـــة منـــصورة وعـــصابةٍ ... مـــشهورة التـــصميم والإقـــدامِ
جَـمَح ابـنُ غانِيـة فكَـفَّ جماحَـهُ ... يـومٌ أدار عليـــهِ كـــأسَ حِمـــامِ
ناهيـكَ مـن يـوم أغـرَّ محجَّـلٍ ... متميِّـــز عـــن ســـائر الأيـــامِ
وعَظَـت بمـصرعِه الحـوادثُ عَنْـوةً ... ناهيـكَ مـن وَعْـظ بغـير كـلامِ
فلْيُهنِـئِ الـدّنيا وجـودُ خليفـةٍ ... جَـزْل المواهـب سـابغ الإنعـامِ
تُغنيـه عـن قَـوَد الجيـوش سـعادةٌ ... تقتـادُ مـا شـاءت بغـير زمـامِ
نِيطـت أمـورُ الـخَلْق عنـه بحـازمٍ ... متكفِّـــل بـــالنّقض والإبـــرامِ
سـامٍ إلى الرُّتَـب التـي لا فوقَهـا ... نَجْـل الأكـابر مـن سـلالة سـامِ
وَرِث الخلافـةَ عـن خلائـفَ كلُّهـم ... عَلَـمُ الهـدى الهـادي إلى العـلّامِ

لِبِست بـه الـدّنيا جَمـالًا كُنهَـهُ أعيـا عـلى الأفكـار والأوهـامِ
فكأنّهـا دارُ الـسلامِ نعيمُهـا متأبّـدٌ ودخولُـها بـسلامِ
يـا عـصمةَ الـدّنيا نـداءُ مؤمِّـلٍ صـبحًا يُروِّحُـه مـن الأيـامِ
فارقـتَ مـا قـد كنـتَ فيـه كأنّـهُ طَيْـفٌ رأتْـه العـينُ في الأحـلامِ
فعسى أرى وجهَ الرِّضى فلطال ما أمّلـتُ رؤيتَـه مـعَ الأعـوامِ
بـالطّبع حاجتُنـا إليـك وهـل غِنًـى يُلفَـى عـن الأرواح للأجـسامِ
لا زال سـعدُك مـسعدًا متـصرِّفًا فـيما تريـدُ تـصرُّفَ الـخُدّامِ

وقال أيضًا يمدَحُه ويذكُر فتحَ مَنُورقةَ في التاريخ المذكور [من الطويل]:

أطاعَكَ صَرْفُ الدّهر في مُهَج العِدَا وأصـدَر عـمّا شـئتَ فـيهم وأورَدا
بعَثْـتَ أمـامَ الجيش جـيشَ مهابـةٍ أقـامَهمُ في كـلِّ أرض وأقعـدا
سعودُك نَبْلٌ لو قصدتَ بهـا الـسُّهى لكـان عـلى بُعـد المسافة مقـصِدا
تركتَ بقايا السّيف خَلْـفَ حـصارِهِ رمـادًا تَـهادَتْه العواصـفُ رمـددا
جَـرى بهـمُ الإمهـالُ شـأوًا مغرَّبـا وأعمَتْهمُ عن رُشدِهمُ فسحةُ المدى
هُـو الفـتحُ أعيـا مـن أطـال مرجِّـزًا وفـات مـداهُ مـن أطـال مقـصّدا
قضَى اللهُ أن يَـحظى به أسعدُ الورى فكـان أمـيرَ المـؤمنين محمّـدا

وفي هذه السنة، وهي سنةُ تسع وتسعين: وصَلت الأنباءُ بالفتنة المشتعلة بأكثرِ جهات إفريقيّة وكثُر عن العَرَب إشاعةُ المكروه والـمُجاهرةُ من السيّئات، فأنِفَ الناصرُ من سَماعِها وإشاعتِها فخَرج من مَرّاكُش في الرابع من جُمادى الآخِرة من هذه السنة وتَمادى مشيُه إلى مدينة فاس، فأقام بها ثلاثةَ أشهر يعقدُ مصالحَ البلاد وما يجبُ من حماية العباد، وتأمينِ الطُّرقات وحَسْم عِلَل المفسِدينَ بها من الأشتات.

وفي أثناء ذلك تجدَّد ما تقدَّم من ظهور استطالة العَرَب على الأطراف، وجَوْرهم على ما والاهُم من النواحي والأكناف، فجهَّز إليهم عسكرًا من الموحِّدين وشوكةً من

أنجاد المجاهدين، وقَصَدوا إلى موضع اجتماعِهم وقرارة سُلطانِهم، فتقدَّمت لهم الرُّماة، ودُفِع عليهم الحُماة، فكانت على هلاكِهم أنجدَ مُعين وأجدَّ نَصِير فأغزوا جميعًا بموضع قرارِهم، وجَرى السيفُ على آثارِهم.

وفي سنة ست مئة: استقرَّ الناصرُ بحضرته وأراح من حركته، فنَظَر في تفقُّد بلاده والإشرافِ على جُزْئيات مملكتِه، فنَفَذت أوامرُه السُّلطانية إلى سائر الأقطار الأندَلسيّة بالحَفْز الأكيد على عُمّالِـها بالنّظر في الآلاتِ الحربيّة.

قال يوسُفُ الكاتب: ففي شهر المحرَّم وصَل الأمرُ إلى إشبيلِيَة بضَرْب الآلات وشراءِ الدّروع الـمُحكَمة، وفي ربيع الأول وُلِّـيَ إشبيلِيَة السيِّدُ أبو إسحاقَ ابنُ أمير المؤمنين أبي يعقوب وأُخِّر عنها أبو عبد الله بن أبي يحيى وقُدِّم على بَسْطة ووُلِّي أيضًا السيّدُ أبو محمد عبدُ الواحد ابن أبي يعقوبَ مدينةَ شِلْب وبلادَ غَرْب الأندَلس. وفيها وُلِّـيَ أبو عبد الله بنُ عبد السلام الكُوميُّ قيادةَ أُسطول سَبْتة وأُمِر له بما كان يأخُذه أبو محمد بن طاعَ الله، ووُلِّـيَ أبو يحيى بن أبي سِنَان مدينةَ بطليقَ وجِهاتها، وأُمِر بالحَفْز في حِياطتها ورَفْع مُلمّاتِها، ووصَل إبراهيمُ ابن الفَخّار وزيرُ أذْفُونْش ملكِ قَشْتالة الخاصُّ برسالته في رُبوط الـمُهادنة والمصالحة.

وفي هذه السّنة: كانت سطوةُ الناصر بعَرَب المغرب واستئصالِـهم وقَتلِهم، وغرَّب بعضَ أشياخِهم إلى الأندَلس.

وفيها: أمَر بابتداء بناءِ الرّصيف بمدينة مَرّاكُش.

وفيها: كان الهَرْجُ ببلاد إفريقيّةَ وما والاها من بلاد الجَريد، وتملُّكُ ابن غانِيَةَ لحصُونها وأنظارِها وتغلُّبُه على أقطارِها ومحاصرتُه مدينةَ تونُس ودخولُه إياها عَنْوةً على ما سيأتي.

وفي سنة إحدى وست مئة: تحرَّك الناصرُ إلى بلاد إفريقيّةَ على هيئةٍ شامخة من البهاءِ والظهور(١). كان خروجُه من مَرّاكُشَ على الهيئة المذكورة في العَشْر الوُسَط من جُمادى الآخِرة، فعندَ وصُوله إلى رِباط الفتح اتّصل به ما كان بإشبيلِيَةَ من فُتور الأحكام

---

(١) ينظر المعجب ٣٩٧-٣٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٢، والاستقصا ٢/ ٢١٤.

وتبسُّط حَواشي السيِّد أبي إسحاق بالمظالم وإغضائه لهم وتغافُله عنهم، ومشَى ذلك على ألسنة الخواصِّ والعوامّ، فنفَذَ الأمرُ بتأخير السيِّد المذكور عن إشبيلِيَة وتقديم السيِّد أبي موسى ابن الخليفة.

ورحَل الناصرُ من رِباط الفتح وتَمادى المشيُ والبشائرُ تَتوالى وتطَّرد، وأنباءُ العدوِّ تستحيلُ وتبعُد. ولـمّا أشرف الناصرُ على بلاد إفريقيّة تخاذَلت حشودُ ابن غانِية فشمَّر أذيالَه عن أُمّهات الأقطار، ورأى أنْ لا معقِلَ له سوى الفِرار، فأخلَى الأشقياءُ مدينةَ تونُس لأوّل وَهْلة دونَ قتالٍ ولا محاربةٍ ولا نِزال، ودخَلَها أبو إسحاقَ صاحبُ الأسطول، إذ كان تقدَّم إليها فأكَبَّ في الحين عليها فأنَّس أهلَها وسكَّن نافرَها وثقَّف ما يجبُ تثقيفُه فيها، وعَرَّف الناصرَ بدخولِها وهروب الأشقياءِ منها، فوجَّه الناصرُ لأشغالها وضمِّ أعمالها داودَ بنَ أبي داود معَ جماعة من الموحِّدين.

ولـمّا وصَل الموحِّدون المذكورونَ تونُس خَرج أبو يحيى بالأسطول ولَحِق بالـمَهْديّة نفَذَ له الأمرُ بذلك، واقتفَى الناصرُ أثرَ الأشقياء، وأزعَجَهم إلى أطراف الصّحراء. ولـمّا أيقَنوا بالتصميم إليهم، وألّا معرَّجَ إلّا عليهم، انزَعَج ابنُ غانية بجُملته ومنَ معَه من أتباعِه وشِرذِمتِه وحصَّن حِصنَ الـمَهْديّة وشدَّها بأنجادِ رجاله وشحَنَها بالعُدَد الحربية وترَك بها أثقالَه ورحَل إلى نواحي بلاد الجَريد متمسِّكًا بطَمَعه مغترًّا بخياله، والناصرُ لدين الله جامعٌ بينَ استفتاح البلاد واقتفاءِ أثرِه ومُستَقِرٍ لأخبارِه بقيّةَ سنة إحدى وست مئة.

وفي سنة اثنتين وست مئة: في شهر محرَّم نزَلَ الناصرُ بجهة سَفاقُس وهو على صريمتِه في استرجاع البلاد، وتسديد ما أورَثَها الأعداءُ من الجلاءِ والفساد، وتَمادى التتبُّعُ لتلك الأقطار، وتأنيس المستوحِش من أهلِها من جَوْر أولئك الفُجّار، وانزعاج[1] ابن غانِية بجُملته عن ذلك[2] الإقليم، وطهَّر أرضَها من أثرِه الذّميم، وقد كان القائدُ أبو يحيى نازَلَ الـمَهْديّةَ بمجموعِه وانتشَروا ببسائطِها، والأشقياءُ قد نزَلوا بساحتهم يُعمِلون الحِيلة في افتراسِهم، إلى أن خَرجوا عليهم خروجَ الحيّات من أجحارِهم فأوقَعوا

---

(١) في ب: «وانزعج».

(٢) في ب: «تلك».

بهم في تلك البسائط، فاستُشهِد من الغَزاة جماعةٌ ولاذَ أكثرُهم بالبحر، واكتَسح الأشقياءُ ما وجَدوا من أسلحتِهم وعُدّتِهم ورفَعوا رؤوسَهم في شُرُفات الحِصن، واتّصل هذا النبأُ بأمير المؤمنينَ الناصر فتحرَّكَ إلى المَهْدية.

ذكرُ مُنازلة الناصرِ مدينةَ المَهْديّة

ولـمّا قضَى الناصرُ من وِجهته غَرَضَه ومذهبَه خفَّف رِكابَه إلى المَهْدية ومُنازلتِها والتصميم على فتحِها وحَسْم عِلّتها، فنزَلَت المحَلّاتُ عليها من جهاتها، واستَوْفت بالوصُول إمدادَ تلك الجهات، وأخَذ الناسُ بحظوظهم من أكنافِها على ضِيقها، ورَبَطوا مضاربَهم في تلك المسافات، وشَرعَ الناصرُ في إقامة العُدَد والآلات على جهة الجَدِّ والاجتهاد، فقامت في أيسرِ مدّة على أوفرِ عُدّة، ورتَّب لها من الخَدَمَةِ مَن يقومُ بخِدمتِها ويستقلُّ بحراستِها، والأشقياءُ قد تَطمَّعوا طِيبَ الفُرصة ولذيذَ الخُدعة والموحِّدون بتكاثُر أعدادِهم توقَّفوا عن مُدافعتِهم وجِلادِهم، واستَوطنوا السُّكونَ والقرار، وأبعَدوا أن يجترئَ عليهم مارِد في ذلك المِضمار، وربّما انبعَثَت الأشقياءُ أثناءَ ذلك إلى المَجانيق والآلات انبعاثَ الطّير من الأوكار، فأضرَموها نارًا، فكان ذلك إغراءً بالتشديد في مُحاربتهم وحَمْيًا للنفوس على قتالِهم ومجالدتِهم، فاشتدَّ عَزْمُ الناصِر لدين الله على جَبْر الآلات وإقامة أضعافِها، فَجُبِرت المَجانيقُ والأكبُشُ والسّلاليمُ على أضعافِ ما كانت، وتضاعَفَ العذابُ بتضعيفِها على المَهْديّة، وأقيمت خلالَها أبراجٌ ساميةُ المراقب، مُشرِفةٌ على ظاهر الحِصن وباطنِه إشرافَ النّجوم الثواقب، مُنذرةً بروعتِها لِـما صادمَتْه بحُلول المصائب، وتكامَلَت أعدادُ الحشود، واستنفَرَ مَن بالجهات من أهل الطاعة والجنود، وعُمِّرت الآلاتُ بأنجادَ الرجال، وطال المقام، وقَوِي الالتزام، وصـ... (١) والأشقياءُ قد قَسَت قلوبُهم عن الانقياد، وصَمّت آذانُهم عن... (٢) [وفي] أثناء هذه المحاصرة وامتداد هذه المدارعة، تحرَّك للأشقياء... (٣) المؤدِّية إلى مصارع آجالِـهم،

---

(١) فراغ في النسخ قدر أربع كلمات.

(٢) كذلك.

(٣) فراغ في النسخ قدر كلمتين.

وأرادوا تقويةَ نفوس المحصُورين...[1] لهم فالتفُّوا وتوافَقوا معَ أخلاط من سُلَيْم والمرتدِّين من رِيَاح... ومن الـمـ ...[2] وأتباعِهم - ووافقَهم غَوِيُّهم على الارتحال بقَضِّهم وقَضِيضِهم، وخفّهم...[3] وكُراعِهم إلى موضع يكونُ قتالُهم وحَربُهم بين حريمِهم ليكونَ دفاعُهم أحمى عن الحريم ولا يوَلُّونَ[4] عنهم، وجَرَوْا في ذلك على سَنَن الجاهليّةِ الجَهْلاء، وعلى ما كانت عليه حربُ [داحسَ والغبراء][5]، أسبابًا أحكَمَها الباري تعالى لأرزاق الموحِّدين، ونَصْرًا ادّخَره لأميرِ المؤمنين، ووصَل الخائبونَ أحوازَ قابِسَ على هذا الاعتزام، ووصَلت هذه الأنباءُ للناصر لدين الله، فأمَر بتجهيز عسكر كثيف يقتطعُ سَوادَ المحَلّات يكونُ مُقتفِيًا لآثارِها، وأهلَ الغَناء والإقدام من حُماتِها وأنصارِها[6].

ذكرُ ابتداءِ ظهور أبي محمد عبد الواحد بن أبي حَفْص الـهَنْتاتيّ[7]

لـمّا أمَر الناصرُ بتجهيز هذا العسكر قدَّم عليه أميرًا الشّيخَ أبا محمد عبدَ الواحد ابن الشّيخ أبي حفص لمكانِ غَنائه وصحّة دينِه وحُسن يقينِه، وتهيُّبِ الموحِّدينَ قَدْرَه ومسارعتِهم إلى برِّه، فخَرج من ظاهر الـمَهْديّة على هيئة رائقة من الاقتدار، وجَدٍّ حاكم بمساعدة الأقدار، والعدوُّ بأقطار قابِسَ قد تكامَلَت أعدادُه، واستوفَتْ حشودُه وأمدادُه، وجاءوا بخفِّهم وأثقالِـهم، والنَّفيسِ من أثاثِهم وأموالِـهم، وعَقَلوا الإبلَ بأوقارِها، وأوقَفوا الظعائنَ بكُراعِهم بإزائها، وجَعلوها كالتماثيل يقاتلونَ دونَها وكالحصون يَلجأونَ إليها.

ولـمّا رأى الموحِّدونَ ما مَثَلوهُ من الإشكال، وراعَوْه من الاحتفال، وأنّ ذلك من خُدع حروب القتال، الـمُطمِعة لعقول الرّجال، سار الموحِّدونَ إليهم على تعبئة

---

(١) كذلك.

(٢) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٣) كذلك.

(٤) في النسخ: «ولا يو» فأكملنا اللفظة على ما قدّرنا.

(٥) فراغ في النسخ، ولعل ما بين الحاصرتين هو المراد.

(٦) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٣، والاستقصا ٢/ ٢١٥.

(٧) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٤، والاستقصا ٢/ ٢١٥ فما بعدها.

وصَدَقوا عليهمُ الدِّفاع، وكشَفت الحربُ عن ساقها القِناع، ودارت زَبُونًا عمياءَ بينَ الفريقَيْن، فأجْلَت عن انسلاخ الأعداء عن محلّتِهم وأهليهم وأموالهم وسائرِ حُمولتِهم وأمتعتِهم وأثقالِـهم، ورَكِبَ السّيفُ أدبارَهم إلى الأصيل، وغادَرَهم ولائمَ للطّير بكلّ سبيل. واستَولَى الموحِّدون على تلك الأموال الفاخرة والأحوال الضّخمة الواسعة، وامتلأت أيدي الجماعة من سَواد المحَلّة من الغطاء والوِطاء وما غَصَبوه وسَلَبوه من أحواز أطْرابُلُس إلى أنظارِ بِجَاية منذُ عشرينَ سنة.

وقَفَل الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد بسَبْيِه ونَفْلِه وخَيْلِه، وكثيرِ المغنَم وقُلِّه، منصورَ الأعلام، مُظفَّرًا في كلِّ قصدٍ ومَرام، وبين يدَيْه رايةٌ سوداءُ من زِيِّ المسوِّدة مرفوعةٌ للأبصار، ورتَّب ذلك كلَّه على صفوف، وتأهَّب للتبريز...[1] بهم على المَهْدِيّة على مَرْأَى مِن حُصَرائها، واصْطَكّت الطّبول وبَلَغ [الغايةَ][2] والسُّول، فأكثَرت الشّعراءُ في هذه الوقيعة، فقال [أبو عَمْرٍو وزيرُ][3] بن خالد اللَّخْميُّ من قصيدة له أولُها [من الطويل]:

... عُـــرى الـــمُلكِ والـــدِّينِ ... أصاخت لها من بَعـدِها أُذُنُ الـصِّينِ
... ســـــلامها كماـــــها ... ترائـب منًّا مـنكم غـيرَ ممنـونِ
فكيـف بمـصرٍ والعـراق وعنـدَها ... حديثٌ منَ استيلائكمْ غـيرُ مظنـونِ
ومـا هُـو إلّا أنْ تَعـيَّنَ موقـفٌ ... يقـدِّمُ مـا أخَّرتُمـوه إلى حـينِ
وتُطـوى بأيـديكمْ تـلادٌ عريـضةٌ ... غَـدَت نـشرًا مـا بـينَ غـاوٍ ومفتـونِ

ومنها:

وأنّـستُمُ بالعـدلِ وَحْـشةَ تـونُسٍ ... وأمّنـتُمُ مـن خَوْفِهـا أيَّ تـأمينِ
وألبَـسْتُمُ أرضَ الجريـدِ مَلابـسًا ... بهـا جَـرَّدت ثـوبَ المذَلّـة والهُـونِ

---

(١) بياض في النسخ قدر ثلاث كلمات.

(٢) بياض في النسخ قدر كلمة، ولعلّ ما أثبتناه بين الحاصرتين هو المراد.

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه مما سيأتي بعد قليل.

وأقبَسْتُمُ نـارَ الـهُدى خَلْفَ قـابِسٍ وغِبـتُمْ فـسَلْهم حُوريّاتِهـا العِـينِ[١]
وأبـرَقَ مـنكمْ عـارضٌ نحـوَ بَرْقـةٍ إذا صاب لم يَخـصُصْ مكانًـا بتعيـينِ
ويـا طِيـبَ مـا أهدَتْـه مَهْديّـةُ الـمُنى لكمْ من سَـلام دونَـه مـسكُ دارِيـنِ
ووالَيْـتُمُ الأيـام فانقـاد صَـعبُها على شدّةٍ من حُكمِكم أو على لينِ[٢]
فـدام لـهُ فخـرٌ بحُـسنِ صـفاتِهِ على كـلِّ منـصورٍ سـواكمْ ومـأمونِ

وكمَّل التبريزَ بالغنائم، وفَرَغ من تضييف الـمُقيم والقادم، ومَن بداخِل المدينةِ يتجلَّدونَ على استئصال البلاء، ويُبدونَ التهاونَ بالهلاك منهم والماضي وقد يَئسوا من طُول البقاء، ويُسرِّحونَ بالكذبِ في كلِّ ما يسمَعونَ في حقِّ طاغيتِهم من الأنباء، لا يملُّونَ حربًا ولا قتالًا، ولا يزدادونَ معَ الشِّدة والتضييق عليهم إلا صبرًا واحتمالًا، والموحِّدونَ قد هَجَروا لَذّاتِهم، وامتَنعوا من سِناتِهم، ورأَوْا أنّ ابتذالَ نفوسِهم وطِيبَ مَماتِهم في ذات الله زيادةٌ في حياتهم، ورأَوْا ألا مَحالةَ لهم ولا راحةَ عن هذا الحصارِ والالتزام، وأنّ رحيلَهم عن الحِصن من غير استفتاحِه وأخْذِه مُحالٌ وحرام.

وأمَر الناصرُ لدين الله بجميع الآلات الحَرْبيّة من الـمَجانيق وغيرِها على جانبٍ واحدٍ من السُّور، وأمال الحَفْرَ والعملَ على الجانب المذكور. ولـمّا تحقَّقوا هزيمةَ أنصارِهم، ورأَوْا تهدُّمَ أسوارِهم، وأنهم صائرونَ إلى قبضة الهلاك والحَيْف، أو راجعونَ إلى النّزول على حُكم السَّيف، نادَوْا بشعار الأمان، ورَغِبوا في الإبقاءِ عليهم والامتنان، فأُسعِفت رغبتُهم، ونزَلَ الحاجُّ ومَن كان معَه من ذَوِيه وأشياعِه وبَنيه على ما اشتُرِطَ من الاقتراح، وأن يترُكَ سبيلَه إلى السَّراح، وذلك يومَ السبت التاسع والعشرينَ من جُمادى الأولى من السنة.

ودخَل الموحِّدونَ الـمَهْديّة، وكمَّل ما كان من فتح هذا القطر الشريف، والمعقِل السامي الـمُنيف، فتحَ جميع إفريقيّةَ وما اتّصل بها وانضاف إليها من بلاد الجَريد وغيرِها، وتمهَّد استيطانُ من كان بها من التقلُّع والتشريد، وانحَلّ عنهم ما كانوا فيه من الضَّنَكِ

---

(١) هكذا في النسخ، وقد وضع النسّاخ فوق لفظة: «فسلهم» من العجز حرف طاء، والبيت مضطرب غير موزون.

(٢) سقط البيت بجملته من «م».

الشديد، وأكثَرت الشّعراءُ في هذا الفتح، فقال أبو عمرٍو وزيرُ[1] بن خالد من قصيدةٍ طويلة [من الكامل]:

هـــذا أمـــيرُ المـــؤمنينَ محمـــدٌ ... غيـثُ العبـاد وعـصمةُ المستـسلمِ
قـد قادهـا كاللّيـل دُهـمَ كتائـبٍ ... في قـادة مـن قومِـه كـالأنجُمِ
زانـوا سـماءَ المعلُـواتِ وزانَهـمْ ... بكـمال بـدرٍ في الـسماءِ مـتمَّمِ
يُبـدي بهـا الـبَرَّ العـريضَ تـدافُعًا ... كـالبحر في أمواجـه إذ يرتمـي
وتَخالُـها رَوْضًـا بـدَت أعلامُهـا ... زهـرًا تفـتّح مـشرقًا في مُظلـمِ
بُـشراك سـيّدَنا بمُلـك الأرض لا ... يبقـى بهـا داعٍ لـمُلك مُجـسَمِ
قـد قابلَتْـك أكُفُّهـا بـضَراعةٍ ... واسـتقبلَتْك وجوهُهـا بتبـسُّمِ
وتغَلغَلـت بلقـائكمْ آمالُـها ... وغَدا صريحُ الفتح غيرَ مُـجَمَّمِ[2]
هـذي مَباديـه الكريمـةُ قـدِّمت ... حُيِّـتُمُ منهـا بـأكرم أكـرمِ
وبكـمْ بهـاءُ الـدّين والـدّنيا معًـا ... دامـا لكـمْ في غِبطـة وتـنعُّمِ

وأقام الناصرُ على حِصن الـمَهْديِّ ريثَما رتَّب أحوالَه ورَبَط أشغالَه، ورحَل في الـمُوفي من جُمادى الثانية من السنة، فاستقرَّ بمدينة تونُس غُرّةَ رجَبٍ الفَرْد من العام المؤرَّخ.

اختصارُ الخَبر عن استقرار الناصر بمدينة تونُسَ بعدَ هذه الأَوْبة إلى حين قُفولِه منها وانفصالِه

لـمّا وصَل الناصرُ إلى تونُس واستقرَّ بها، أمَر بتضييف المسافرينَ، فهنَّوه على أَوْبتِه القاطِنونَ، وصَرف الحشودَ إلى مَواضعِها وأماكن مَصِيفِها ومربَعِها ليستريحوا من نَصَبِهم وتَعبِهم، وتُودِّع الناصرُ إذ ذاك تَودُّعَ مِن استَأْصلَ الأعداء، واستنفَرَ الأولياء،

(١) في ب: «يزيد»، محرّف.
(٢) في ب: «مجسَّمِ».

واسترجَع البلادَ وأمَّن السُّبلَ وحقَن الدّماء، فكان استقرارُه وإقامتُه بها بقيّةَ سنة اثنتين وست مئة وأكثرَ سنة ثلاث وست مئة.

وفي سنة ثلاث وست مئة: شَرَع الناصرُ في تفقُّد البلاد، وأسهَم الدانيَ والقاصيَ منها من النّظَر الموفَّق ما تستقيمُ به أحوالُها من الصّلاح والسّداد، ثُم صَرف نظَرَه إلى إفريقيّة وقصَد إزعاجَ الأشقياء من أطرافِها، وتَهْدِينَ ما بقيَ من تقَلقُلِها وخلافِها، وأمَر بتجهيز عسكرٍ كثيف قدَّم عليه السيِّد[1] أبا إسحاقَ بنَ المنصور، فخَرج من تونُس[2] في شهر صَفَر من العام، وصاروا يضربونَ في أرض تلك الأقاليم غربًا وشرقًا، ويتقصَّوْنَ آثارَ الـمُفسِدينَ بها قُطرًا قطرًا وأُفقًا أُفقًا، حتّى دوَّخوا ما وراء طَرابُلُسَ واستَأْصَلوا بني دَمَّر ومطماطةَ وما والاها، ووقَفوا على آخِر جبال نَفُّوسةَ وجاوَزوا حدَّ عُمرانِها المحدود، وشارَفوا أرضَ سُويقةِ بني مكّود، يَقدُمهم النّصرُ والتأييد إلى كلِّ سبيل، ويسبِقُهم النُّجحُ والتيسير إلى كلِّ معرَّس ومَقِيل، يتَفيَّأُونَ مطارحَ الظّلال، تحتَ تنعُّم بالغُدوِّ والآصال، لم يَعرِضْ لهم مُنازع ولا اجترَأ عليهم عدوّ، وانقَلبوا بنعمة من الله وفَضْل لم يمسَسْهم سُوء.

وبعدَ إياب هذا البعثِ واستقرارِه، وقضاء المرغوبِ من أوطارِه، أضمَر الناصرُ الحركةَ إلى المغرب في نفسِه، ولم يَخْلُ النظرُ لها في الباطن من فكرِه وحسِّه، وأمَر بإشاعة الاستقرار بتونُس، والنّظرِ في اتّخاذ الـمَحارث والاتّساع في المزارع، وأشغَلَ بالَه بالنّظر فيمَن يُولِّي إفريقيّة[3].

ذكرُ ولاية أبي محمد عبد الواحد بن أبي حَفْص إفريقيّة

فلـمّا فَرغَ الناصرُ من جميع الأشغال نَظَر فيمَن يُولِّي على جميع إفريقيّة، ويقومُ بأعبائها ويُقاومُ بنَجْدتِه ومَهابتِه الطاري عليها، فنَثَر كِنانتَه وعجَم أعوادَها، وأجال بصيرتَه في سائر قبائل الموحِّدين، وعَرَض عليها واحدًا بعدَ واحد أنجادَها وخِيارَها وأجوادَها، فأجمَعَ فكرَه وأوقَفَ نظَرَه الموفَّقَ وذِكرَه على شيخ الموحِّدين وأكبر أنجادِ جماعتهم أجمعين

---

(١) سقط من ب.

(٢) العبارة في ب: «قدم عليه أبا إسحاق بن المنصور من تونس فخرج».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٤.

أبي[1] محمد عبد الواحد ابن الشّيخ أبي حفص عُمر الهَنْتاتيّ، فأصفَقَ على هذا النّظر السَّديد العقلاءُ والألباب، وأعان عليه الصُّلحاء، فبُسِطت يدُه على ما شاء، وأُبيحَ لهُ في الجيش الانتقاء، وشَدَّ ظهرَه بتسريب الأموال والخيل والرّجال، فاستقرَّ على حالة فخمة مَقْضيٍّ لها بالاستيلاءِ والظّهور، والظَّفَر الدائم معَ تَوالي الدّهور.

ذكرُ حركة الناصِر من تونُس حَرَسَها اللهُ إلى بلاد المغرب

وتحرَّكَ الناصرُ لدين الله قافلًا إلى بلاد المغرب بعدَ قضاء هذه الأوطار، وتخليد ما لها من كريم الآثار، في السابع من شوّال العام، ونزَلَ بمقرُبة من باجَةَ في التاسع منه، وتَمادى المشيُ إلى تِلِمسانَ فاستقرَّ بها في ذي الحجة، فنفَذَ الأمرُ منها إلى عامل قُرطُبة وعامل غَرْناطةَ وعامل بَسْطة وعامل إشبيلِيَةَ والـمَرِيّة ومُرْسِيَة بالنّظر في الأشغال وإحضار الرِّجال والتنبيه على التأهُّب، والنّظر في الأعمال، ورَوَّح الناصرُ ريثَما قضَى السنةَ في أيام النَّحر من شهر ذي الحجة ثم رحَل عن[2] تِلِمْسان.

وفي سنة أربع وست مئة، ففي صدر المحرَّم منها: نزَلَ ظاهرَ مدينة فاسَ.

وفيها: تجدَّد النظرُ في أشغال العُمّال، ووقَعَ البحثُ عمّا إلى نظرِهم من الأعمال، وازدحَمت على باب الخليفة قبائلُ من أقطارِ المدينة وأخلاطٌ من الناس مُشتَـكِينَ بعامل فاس، وكان أبا[3] الحَسَن ابن أبي بكر، وبعامل مِكْناسةَ أبي الربيع ابن أبي عِمران، فنُكِبا جميعًا واستُصفي ما وُجِد لهما من أحوال وأثاثٍ وأموال، وبقيَ كلُّ واحدٍ منهما محبوسًا في بلد عملِه، وتجدَّد الخطابُ إلى عُمّال الأندَلس المذكورينَ قبلَ هذا بنصِّ ما أُمِروا به أولًا. ورحَل الناصرُ من مدينة فاسَ ونزَلَ مِكْناسةَ في صَفَر، فوُعِك وَعْكًا اقتضَى الإقامةَ بمِكْناسةَ بقيّةَ صَفَر.

وفشَا خبرُ هذا الوَعْك ببلاد الأندَلس فتوجَّعت قلوبُ الـمُخلِصين لـمَرَض أمير المؤمنين، إلى أن طَلَع البشيرُ بما مَنَّ اللهُ تعالى به منَ استقلاله، وحَلّ برِباط الفتح في

---

(١) في م: «أبا» ولا يستقيم.

(٢) في ب: «على تلمسان».

(٣) في م: «أبو» ولا يستقيم، وأصلها: «وكان العامل أبا الحسن»، فهو خبر كان.

ربيع الأوّل، ثم رحَل منه فلم يتلوَّمْ[1] في منزل ولا آوى إلى معقل والعافيةُ في كلِّ يوم تُرِدُّ عليه، حتّى دخَل مَرّاكُش وافرَ الصِّحة شديدَ القوة، فقال أبو العباس الجُراويُّ يمدَحُه ويُهنِّئه [من الخفيف]:

أطلَعَ الدّهرُ منكَ بدرًا مُنيرا ... ملأَ السبعةَ الأقاليمِ نُورا
وأتانا الزّمانُ منكَ كمالًا ... لم تُشاهِدْ له العصورُ نظيرا
أوّلٌ أنتَ في التقدُّم والسَّبْـ ... ـقِ وإن كنتَ في الزّمانِ أخيرا
ملأَ اللهُ كلَّ قلبٍ وعَيْنٍ ... نظرةً من كمالِكم وسرورا

ومنها [من الخفيف]:

أين منكَ الملوكُ عَزْمًا وحَزْمًا ... ونَدًى فائضًا وخيرًا وخِيرا
كنتَ في الغَيْبِ للخلافةِ أهلًا ... وخليقًا بنَيْلِها وجَديرا
شاءَ إسعادَنا الإلهُ تعالى ... يومَ تفويضِه إليك الأُمورا
إنّما أنتَ رحمةُ الله عمَّتْ ... ساكني الأرض مُنجِدًا ومُغيرا
أوجَدَ اللهُ منك للدِّين عزًّا ... ومُعِينًا وناصرًا وظَهيرا

ومنها [من الخفيف]:

يا إمامَ الهُدى مَلأتْ جَمالًا ... وجَلالًا عيونَنا والصُّدورا
كلُّ نُور للشمس والبدر يبدو ... أنتَ أصلٌ له ومنك استُعيرا
دُمتَ للدِّين عصمةً ومَلاذًا ... ولإعدائه مُبِيدًا مُبِيرا

وقال أبو عبد الله ابن يَخْلَفْتَن الفازازيّ[2] [من البسيط]:

شمسُ الضُّحى من سَنا مَرْآهُ يَقتبِسُ ... فأيُّ قصدٍ عليك اليومَ يَلتبِسُ

---

(١) في ب: «ينزل».

(٢) في ب: «الفازاي»، خطأ.

وقال الجُراويُّ من قصيدة طويلة أوّلُها [من الوافر]:

أضـــاء لنـــا بغُرّتِـــك الزّمـــانُ | وألبَـــسَنا تغلُّبُـــك الأمـــانُ
وجاءتنـــا الـــمُنى مُتَواليـــاتٍ | عـــلى نَـــسَقٍ كـــما انـــتَظم الجُـــمانُ

وقال أيضًا من قصيدة طويلةٍ أولُها [من البسيط]:

شـــدَّ الإلـــهُ بكُـــمْ للـــدِّين أركانـــا | وأذعَنَـــت لكـــمُ الأيـــامُ إذعانـــا
وارتاضَ كلُّ جَمُوحٍ[1] في عِنـانِكمُ | من بعدِ مـا أعجَـز الـروّاضَ أزمانـا

وقال مرتجلًا أيضًا في مجلسِه [من الكامل]:

كانت من الشمس الصِّعابُ فَراضَها | عَـــزْمٌ فـــرَّضَ الرّاســـياتِ وذَلَّـــلا
لبِسَت حِدادًا من دُخَـانِ حريقِهـا[2] | لـــمّا تـــخرَّم جَـــمْعُها واستُؤصِـــلا

ولـمّا قضَى الناصرُ لدين الله منَ الاستراحة مِن نَصَبِ الأسفار ما قَضاه، وأمضَى أثناءَ ذلك من الأوامر والأحكام ما أمضَاه، شَرَع في الإشراف على الوجوه السُّلطانية والأشغال العمليّة، فقدَّم أبا محمد عبدَ العزيز بن عُمرَ بن أبي زيد[3] على إشراف البَرَّيْن، وضَمَّ الأعمال وتفقّد الأشغال، ونظَر في وصول العُمّال إلى الحضرة بأعمالِهم وكُتّابِهم الـمُقيِّدينَ لأشغالهم، فبادَرَ مَن عَيَّن الوصُول لِـما أُمِر به، ووصَلوا مستعدِّين على ما جَدّ به، فشَرع في تصفُّح بعضِها تصفُّحًا لم يَقصِدْ فيه إلى تحقيق، ولا سلَكَ فيه نهجَ الطريق، ووصَل في جُملة مَن وصَل من مشتغلي[4] الأندَلس: يوسُفُ بن عُمر الكاتبُ المؤرِّخُ لدولة المنصور رحمه الله، وكان بإشبيلِيَةَ ينظُر في بعض الأشغال الـمَخْزَنية والسِّهام السُّلطانية، فأولُ ما صُرِف بأبي الحَسَن بن واجَاج عن ولاية إشبيلِيَة إلى ولاية مُرْسِية، وأمَرَ لمحمد بن عبد الله بالهبوط إلى إشبيلِيَة رجاءَ أن يكونَ أشدَّ من أبي الحَسَن شكيمةً

(١) في ق، ب: «جموع» ولا معنى لها.
(٢) في ب: «خريقها»، ولها وجه.
(٣) الذي في تاريخ ابن خلدون هو عبد العزيز بن أبي زيد الهنتاتي (تاريخه ٦/ ٣٣٤)، نسبه إلى جده.
(٤) في م: «مشتغلين» ولا تستقيم.

في امتحان يوسُفَ بن عُمر الكاتب، وأشدَّ نِكايةً في جانبِه، وكان أوّلُ من قُلِّد النّظَرَ في أعمالِه لم يزَلْ متعطِّشًا للإيقاع به وحاشدًا للأسباب التي يَعلَمُ أنها تَقْدَح عندَ الخليفة في جانبِه، فجَعل يرتادُ الأنباءَ ممّن يصِل إلى الحضرة مِن باغ يَبغي شيئًا عليه من سِفلة الأسواق أو خَوَنة العُمّال الفارّينَ بالحقوق المُرتَّبة عليهم أو المؤدَّبينَ على ما اقترفوه وجَنَوْه، تؤخَذُ منهم الأرقام، وتُقبَلُ منهم الأقوالُ التي تجري مجرى الأحلام، وتَشنُعُ وتقامُ مقامَ اليقين، ومشَى ذلك كلُّه، فوصَل وذُكِر.

وممّا قال فيه من يُغري به [من الكامل]:

يا رابعَ الخُلفاء أنت الأوّلُ ... والكلُّ منكمْ في الفضيلة أكملُ
أمِنَ السَّويّةِ أنّ عدلَك مشرقٌ ... والظُّلمُ عندي منه ليلٌ أليَلُ
ويدا[1] ابن عَمْرٍو أصبحت لعَليّةٍ ... تَرمي وبيتُ المال بئس المعتلُ
وله أمورٌ ليس يُمكنُ شرحُها ... أنت الحسامُ لها وهذا المَفصِلُ

قال يوسُفُ بن عُمَرَ المذكورُ عن نفسِه: لـمّا وصَلتُ إلى موضع تيقطين لقيني أحدُ ثقاتِ الأمير بجُملة من خَيْل ورَجْل، وأُحيط بي وبكلِّ مَن كان معي من كلِّ الجهات، وقُيِّد جميعُ ما وصَل من الأحمال للسّلطان، وقُيِّد ما كان لي رجاءَ أن يكونَ فيها شيءٌ يُنكَرُ عليّ من أسباب تدُلُّ على مُصانعةٍ أو مالٍ أو غير ذلك ممّا يُخالِفُ ما هو بسبيلي، وأُخِذ ما وُجد لي، وثُقِف ما كان بيدي وما رَكِب عليه عيالي من أوعية وكتُب وظروف وغير ذلك، ووصَلْتُ مترقِّبًا بذلك كلِّه إلى دار الأشراف، وبقيتُ محبوسًا بها، ولـمّا كان ثالثُ وصُولي أُحضِر الشّهود وفُتحت الشّدود، وكتَبَ الشّهودُ ذلك كلَّه مفسَّرًا، وعُرِض على المقام الإماميِّ، فنَظَرَ بنُور الله وما جُبِل عليه من العَدْل والامتنان، وطبيعة الفضل والإحسان، فأمَرَ بصَرْف ذلك كلِّه عليّ وإسلامِه إليّ، وذلك بسبب تأليفِه الذي أُلِّف في محاسنِ والدِه المنصور.

وفي سنة خمس وست مئة: وصَلتْ كتُبُ السيِّد أبي الحَسَن والي تِلِمسانَ بثِقَل مَرَضِه وتوالي اعتلالِه وخوفِ ضَياع ما لديه من الأشغال، واضطراب قبائل زَناته واختلافِهم

(١) كذا في النسخ بالتثنية، والجادة الإفراد.

وقَطْعِهِمُ السبيل، وقطع الرِّفاق، عن الضرب في الآفاق، فأُعفي عن ولاية البلد، وأُذِن له في الوصُول، وعوملَ بالبرِّ الموصول.

ذكرُ ولاية السيِّد أبي عِمران مدينةَ تِلِمسان وحركتِه منها لحرب ابن غانِية وهزيمةِ عسكرِه ومقتلِه رحمه الله

فرحَل من تِلِمْسانَ بمَن معَه من عسكره وخَدَمته وشهوده وقاضيه وأكبرِ ثقاته، ومَشَوْا عن رَحْلهم آمنينَ غيرَ محترِسين، والمتجسِّسونَ من زَناتة المستوطِنونَ بتلك الجهات لا يَرقُبونَ في مؤمن إلًّا ولا ذِمّة، ولا يَرْعَوْنَ شريعةً ولا ذمة، فتسلَّلوا إلى ابن غانِيةَ وقومِه وأطلعوهم على عَوَراتِ العسكر وما هو فيه من إضاعة الحَزْم وقلّة الحذَر، وتسابَقوا إلى السيِّد من جهة أخرى... [1] ويُبعِدونَ له نواحيَ العدوّ ويُهوِّنونَ عليه أمرَه، ويحذِّرونَه إلى جهته، وتارَةً يحرِّضونَه على لقائه والزَّحف له، فتحيَّر السيِّدُ بُرهة ثم تأهَّب بعضَ تأهُّب، ولم يكنْ إلّا قبلَ أن يلتئمَ جَمْعُه وتكمُلَ تعبئتُه ويأخُذَ أُهبتَه ويستحذرَ عُدّتَه، إذ غَشِيتْه أسرابُ العدوِّ كالجرادِ المنتشر، وطلَعت عليه ساقاتُ ابن غانِية، وكان له كالمنتظِر، فثبَتَ السيّدُ معَ مَن كان في موكبِه من خاصّته، ومضَت الهزيمةُ على جناحَيْ ساقتِه، واصْطَلَمتْهم العَرَبُ قتلًا وأسرًا، وفَرَّ مَن أفلتَتْه الرِّماحُ خيالًا وذُعرًا، واستُشهِد السيِّدُ أبو عمرانَ معَ مَن صبرَ معَه من خاصّته، وصاروا إلى فضل الله ورحمتِه، وأُسِر بعضُ بَنيه والكاتبُ أبو الحَسَن ابنُ عيّاش[2] معَهم وبعضُ طَلَبة تِلِمْسان.

واستَولَى العدوُّ على المحَلّة وأثقالِـها وخَيْلِها وبِغالها وسائرِ أحوالِـها، وتبسَّطت جُموعُه على تلك الجهات، وعاثُوا بها عَيْثَ السِّباع الضارِيات، فارتاع أهلُ تِلِمسان وغلَّقوا أبوابَ المدينة وأذهَلَهم فَجْأَةُ هذا الأمر بروعتِه، ووقَفَ كلُّ قَبيل من جهات البلد برَبْوته مانعًا عن حَوْزتِه، وأرسَلت العَرَبُ في تلك النواحي جموعَها، وأخذوا ينتهكونَ عِمرانَها وينتهبونَ زروعَها، ودامت على قُطر تِلِمْسان مضَرّتُهم وبلَغَت الـمُخنَّق

(١) وقع في ق، ر٣، ب نقص استمرّ إلى قوله: «وتوهّم الأعداء هزيمة أصحابهم» بعد ثلاث صفحات.

(٢) هو أبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك بن عياش، كما في المعجب ٣٩١.

نِكايتُهم وإذايتُهم، فأسرعَ السيّدُ أبو زكريّا من فاسَ إليها وسكَّن ضجَّتَها ووطَّأَ نفوسَ أهلِها وهوَّن روعتَها.

ووصَلت الناصرَ كيفيةُ هذه الوقيعة، فتألَّم لـمُصاب المسلمين، وأشجاهُ فَقْدُ رجالِه الأقرَبين، فأمَر بتجهيز عسكر وافر من أهل النَّجدة واليَسَار والقوّة، وقَوّاهم بالأَزْوِدة الواسعة فأمدَّهم بالعُدَد الفاخرة، وأمَّر عليهم الوزيرَ أبا زيد ابنَ يُوجّان رحمه اللهُ تعالى(١).

ذكرُ ولاية أبي زَيْد ابن يُوجّان مدينةَ تِلِمْسان

لـمّا كمُلت أشغالُ وِجهته، وعَزَم على حركته وخروجِه من الحضرة، صبَّح الجيشُ بابَ السّلطانِ على سُروجِهم، على المعتاد من رُتبتِهم في خروجِهم، ودخَل الشيخ أبو زيد لـمُوادعة الخليفة وما يتَلقّاه من وَصاياهُ وأوامرِه. فلمّا استوفَى ذلك من خليفتِه وأراد الانفصالَ عن مُوادعتِه، تَرامى عليه في استوهاب عفوِ العُمّال، وبثِّ الغُفران لهم في العاجِل والـمَآل، فوجَد الناصرَ منبسِطَ النفس لقَبول ما ألقَى له منشرحَ الصّدر للعفو سريعَ الاشتمال عليه، فأمَرَ في الحين بسَراحِهم وحلِّهم من موضع اعتقالِـهم.

وسَقَط الخبرُ في أقطارِ المدينة على قبائلهم وذَويهم وأوليائهم، فبادَروا إلى باب السُّلطان وغُصَّت بهم الأبوابُ والرِّحاب، فكان خروجُ ابن يُوجّان من مُوادعة الناصر وركوبه معَ خروجِهم من معتقَلِهم وسَراحِهم، ونَهَض ابنُ يوجّانَ بعسكرِه وقد حَفَّ به جميعُهم مشيعينَ له بأدعية مؤكَّدة، وأصوات مردَّدة، فكان يومَ سرور، يبقَى ذكرُه إلى يوم النُّشور.

ووصَل الأمرُ إلى إشبيلِيَة ومَن كان بها من المعتقَلين على غاية اليأس من الرّجاء لِـما كانوا فيه من الوعيدِ والالتواء، فكان وصُولُ البشير أجرى إليهم من فَرَج أيّوب، وألذُّ مُؤَنِها في نفوسِهم من قميص يعقوب، فازدحَمت بباب المعتقَلينَ جموعٌ من المسلمين وأصْفَقوا بالحمد والشُّكر لله ربِّ العالَمين.

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥.

ووصَل ابنُ يوجّانَ إلى تِلِمسان منصورَ الرايات مَقْضيَّ الأُمنيات، فقَدِمت إلى العدوِّ مَهابتُه وغَشِيته كاللّيل روعتُه، وانسَلخَ عن أقطار تاهَرت وما والاها وانزَعج إلى جهة طَرابُلُسَ فلاذَ بصَحرائها فأمَّن الناسَ بجهة تِلِمْسانَ وتلك الأقطار[1].

وفي هذه السنة: قَدَّم الناصرُ بعضَ الوُلاة على أعمالِه وأخَّر آخَرينَ عن أشغالِه، فأخَّر أبا يحيى بنَ أبي الحَسَن بن أبي عِمران[2] عن الوِزارة وألزَمَه في دارِه، وقدَّم للوِزارة أبا سعيد بنَ أبي إسحاق بن جامع[3].

وبعدَ أيام من ترتيبِ ما رتَّب لخَدَمتِه ووُزرائه جدَّد نظَرَه في أمورِ البلاد، وما يجبُ لها من التفقُّد بالصّلاح والسَّداد، فقدَّم بإشبيلِيَة أخاه السيّدَ أبا إسحاق، وقدَّم أخاه السيّدَ أبا محمد بشَرْق الأندَلس ومعَه الوزيرُ أبو محمد المذكور، فحسُنت بهما البلاد وسَكَنت ظلَّ عَدْلِـهما العباد.

وبعدَ وصُول هذا السيِّد أبي محمد إلى مُرْسِيَة وتمكُّن استقرارِه، وتعرُّفِه كيفيةَ أحوالِ البلاد وأنظارِه، أنهَضَ أبا يحيى إلى بَلَنْسِيَةَ وثقَّف أشغالَها وأصلَح أحوالَها، وقدم الكاتبينِ النَّبيهَيْن: أبا محمد الحَسَن وأبا عبد الله بن مَنِيع، وكلاهما فيما انفَردا به من الإحسان وصَنْعة الإنشاءِ والدِّيوان فَرَسا رِهان ومالِكا رايةِ الإتقانِ والبيان، واقتَصر أبو محمد بنُ الحَسَن بن عبد العزيز على كَتْب التوقيعاتِ والظهائر، وكلِّ ما ترتَّب عليه وقوعُ العلَامة من وجوهِ الأوامر، وانفَرد أبو عبد الله بنُ مَنِيع بديوان العسكر وما انضاف إليه من التنفيذات السُّلطانية وتقييد الجزْياتِ العامّة في أنواع النفَقات.

وفيها: وصَل الأمرُ إلى إشبيلِيَة بتأخُّر القاضي أبي عبد الله الباجيِّ وولاية أبي محمد عبد الحقِّ بن عبد الحقّ (كذا) قضاءَ إشبيلِيَة.

وفي سنة ستٍّ وست مئة: هزَم الشّيخُ أبو محمد بن أبي حفص صاحبُ إفريقيّة مَن كان بها من الـمَيارِقة معَ ابن غانِية ومَن تَبِعَهم من الـمُخالفين واستَوْلى على جميع محلّتِهم على ما يأتي.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥ باختصار.

(٢) هو محمد بن علي بن أبي عمران.

(٣) المعجب ٣٨٩.

ذكرُ السّببِ في حركة أبي محمد بن أبي حَفْص إلى ابن غانِية

قد تقدَّم ما كان منَ انتهاز ابن غانِيةَ من الفُرصة في عسكر تِلِمسان وأنه حَمَله الاغترار وأزعَجَتْه الأقدار على الحركة إلى جِوار إفريقيّة ومُعاودة حَرْبها وخَيَّلت لهم ظنونُهم أنّ البلادَ قد تقلقَلت بسَماع تلك الوقعة وسَرى فيهم أثَرُ تلك الرَّوعة وأنّ الشّيخَ أبا محمد صاحبَ إفريقيّةَ ضَجِر بجَمْعِهم وسَرى إلى رجالِه نفسُ رُوعِه، والشّيخ أبو محمد لم يُخْلِ نفسَه عن استعداد واعتزام، ولا عطَّل رِكابَه عن إسراج وإلجام، وأنّ الـمَيارقةَ تألَّفت لهم من سَوادِ العَرَب جموعٌ جَمّة وضُلّال، وفُرسانٌ من تلك الجبال ورجال، فأتَوْا على تعبئة مَهُولة رَتَّبوها على تدبيرِهم، وخَيَّلوها من أسباب الظَّفر على تقديرِهم، خَلَطوا إبِلَهم وحُمولتَهم وأثقالَهم، وقَرنوا بها هوادجَهم ورحالَهم، وتمثَّلوا بالبسيط كالجبل الشاهق والهيكل الباسق.

فزَحَف إليهم الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد والموحِّدونَ ومنِ انضافَ إليهم من سائر الطبقات والجموع وقد لَبِسوا قلوبَهم فوقَ الدّروع، فتقابَلَ الجَمْعان، والتحَمَ الفريقان، وشَدَّ عَرَبُ الأشقياء على يسارِ طاقة الموحِّدين، فانكشَف مَن كان بها من الأغزاز وبعضُ الأعراب ووَلَّوا الأدبارَ منهزمين، وثَبَت الشّيخُ أبو محمد بمركَزِه بقلب الساقة معَ مَن كان معَه من أهل الحِفاظ الصّابرين[1]، وتوهَّم الأعداءُ هزيمةَ أصحابِهم فسَوَّوا للفِرار أجنحتَهم وسَرَّحوا إلى كلِّ سَحيق أعِنّتَهم، وتخَلَّفوا على أهاليهم وحُمولتِهم، فأوقَعَ فيهم السّيفُ حدَّه وأعمَلَ فيهم ما أمضاه الكِتابُ وحدَه، واستَوْلى الموحِّدونَ على جميع محلّة الضالّينَ بحشمها وأثقالها وخفِّها وسائر أحوالها.

وانصَرف أبو محمد وراياتُه تضحَكُ في وجوه الرِّماح، وجِيادُه تتسابقُ بينَ مَراح وارتياح، وكان معظمَ مَن هلَكَ في هذه الوقعة وجوهُ رِيَاح وأنجادُها ورؤساؤها الـمُشغِّبةُ وأجوادُها، ورغَّد إفريق إفريقيّةَ وديارها وجميع جهاتِها وأنظارها ما سَبى وكَسَح من غنائمهم وحيَوانهم وأثاثِهم وخَدَمِهم، وأتَتْ هذه الوقعةُ على أشتاتِ الـمُفسِدين ولم تُلمَحْ لهم بعدُ بارقةٌ ولا تلوحُ إلى يوم الدِّين[2].

---

(١) إلى هنا ينتهي السقط في ق، ر٣، ب.

(٢) هو باختصار في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥.

ووصَل البشيرُ إلى الحضرة الـمَرّاكُشيّة بهذه البِشارة، وقُرئت بجامعِها الكتُبُ السارّة، وجلَسَ الناصرُ للتهنئات وأُفيضَتْ على الواصِلينَ بالنبإِ سَوابغُ البركات، وقالت الشعراءُ في ذلك، فقال أبو عبد الله ابنُ يَخْلَفْتَن الفازازيُّ من قصيدة(١) [من الكامل]:

هــذي الفتــوحُ تفتَّحــت أزهارُهــا ... وتــدفَّقت مِــلءَ المــلا أنهارُهــا
وتأرَّجَــت نَفَحاتُهــا وتبرَّجــتْ ... صــفَحاتُها وتبلَّجــت أنوارُهــا
وأتَــتْ بــشائرُها إليــكَ سَــوافرا ... عــن أوجُــهٍ يــا حبّــذا إسـفارُها
تَطــوي المراحــلَ لا يُفــتَّرُ ليلُهــا ... شــوقًا إليــك ولا يغــبُّ نهارُهــا
إنّ الــدُّنا مهــضوبةٌ آذانُهــا ... لِـسماعِها مرفوعــةٌ أبــصارُها(٢)
شَهِدت بسَعْدِك في الورى وتمحَّضت ... سـندًا ومثنــى عنــدَهم آثارُهــا
مــا زلــتَ تُعنــى بالدِّيانــة جاهــدًا ... ومجاهــدًا حتّــى اسـتقلَّ منارُهــا
واعتــزَّ جانبُهــا وأيِّــد ركنُهــا ... واشــتدّ ســاعدُها وأُدرِك ثارُهــا
ظنَّــت لــشِقوتِها بأنــك نــازحٌ ... تَنْـأى عليـك إذا سـمعتَ ديارُهـا
فرميتَهــا بكتائــبٍ ملمومــةٍ ... كاللّيــل لكــنّ النجــومَ شِـفارُها
لم يُــنجِ ناجيَهــا غــداةَ أفْلِهــا ... إلّا الفِــرارُ وأيــن عنــك فِرارُهــا
تركَــتْ رؤوسَ رؤوسِــها مبثوثــةً ... وطَفَــت عــلى بحــرٍ بــه أشـفارُها
ومـضَى الـشقيُّ وقـد تلـبَّس رُوعُـه ... يَــضْفو عليــه ذُلُّــها وصَــغارُها
عـصَفَت رِيـاحُ جنـودِكمْ برياحِـهِ ... فهَفَـت جوانحُهـا وخـفَّ مَطارُهـا

ومنها:

مولايَ وصْـفُك لـيس يَحْـوي كُنْهَـه ... خُطَــبُ المــدائح لا ولا أشــعارُها
لكــنْ نهايتُهــا وإن طــال المــدى ... في عَجْزِهــا وقــصارُها أقــصارُها

---

(١) في ب: «من قصيدة أولها»، ولفظة «أولها» لا معنى لها ولم ترد في النسخ الأخرى.
(٢) سقط هذا البيت من ق، ر٣، ب.

لا زال للإسلام يُمنُك باقيًا — وعِداك باقٍ شؤمُها وبَوارُها
وصَفَتْ ليوسُف نَجْلِك الزاكي الرِّضى — أيامُه وتباعَدت أكدارُها
صَفْوُ الأئمة لُبُّها مرجوُّها — مرهوبُها مأمولُها مختارُها
حتى يُقلِّدَه الخليفةُ عقدَها — ويُرى عليه تاجُها وسِوارُها
وبقيتَ أقصى مدةٍ مَقْضيّةً — أوطارُها مَرْضيّةً أطوارُها
في عزّة موصولةٍ وسعادةٍ — لا تنقضي أبدَ الدُّنا أعصارُها
ما لاحَ بَرْقٌ في متُون غَمامةٍ — وترنَّمت في أيْكةٍ أطيارُها

وفي سنة سبع وست مئة: وصَل سَيْرُ بن إسحاقَ ابن غانية إلى حضرة مَرّاكُش وكان متبرِّئًا من نِفاق إخوتِه مُنطوِيًا على حِزب الأمير وفئتِه، فخَرج معَ إخوته في حركتِهم إلى تِلِمسان، فلمّا استوثَقَ من بعدِهم عن مقرِّه وأمِنَ غائلتَهم في اقتفاءِ أثَرِه، وكان الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد قد خَرج إلى التّطوُّف بأقطار إفريقيّة على عادتِه فأسرَى سيرٌ حتّى التحَقَ به بجُملتِه بعدَ ما عرَّفه بخبَرِه وقصّتِه، فلمّا وصَل سيرٌ إليه أكرَمَ مثواه ووسَّع نزُلَه وقوّاه واستأْذن له في الوصُول إلى الحضرة فأُذِن له فيه، فبَلَغ مقصودَه ومرغوبَه[1].

وفي هذه السنة: قدَّم الناصرُ على جزيرة مَيُورقة أبا يحيى بنَ أبي الحَسَن بن أبي عِمران وأخَّر عنها السيّدَ أبا عبد الله بنَ أبي حفص.

وفيها: قدَّم السيِّدَ أبا عبد الله بنَ أبي حفص المذكورَ على بَلَنْسِيَة ثانية.

وفيها: قدَّم على مُرْسِيَةَ أبا عِمران بن ياسين الـهَنْتاتيَّ وأخَّر عنها أبا الحَسَن بن واجاج وتوجَّه إلى مَرّاكُش.

وفيها: أخَّر الناصرُ لدين الله أبا محمد بنَ حَوْط الله[2] عن قضاء مُرْسِيَة، وقدَّم عليها قاضيًا أبا الحَسَن القَسْطليَّ ثانيةً، وقدَّم ابنَ حَوْط الله على قضاءِ قُرطُبة، وأُخِّر عنها

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥ باختصار.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله الأنصاري المالقي (المرقبة العليا ١١٢).

أبو عليّ بنُ أبي محمد المالَقيُّ واستُدعِي إلى الحضرة، وقدَّم بها على طَلَبة الحَضَر خُطّةَ أبيه وإخوتِه.

وفيها: قُدِّم أبو إبراهيمَ ابن يَغْمور[1] على قضاءِ بَلَنْسِية.

وفيها: قَدَّم الشّيخُ أبو محمد بنُ أبي حفص صاحبُ إفريقيّةَ أبا سُليمانَ داودَ بن أبي داود على عمَل تَوزَرَ وجِهاتها من بلاد الجَريد، وقدَّم أخاه ابنَ أبي داود على قابِسَ وجهاتِها.

وفيها: قُدِّم القائدُ أبو عبد الله بن عيسى الـمُرسيُّ على قيادة شِلْب.

وفيها: قُدِّم أبو الجيش مُحاربٌ على التقديم إلى أرسال ملوكِ الرّوم والاشتغالِ بإنزالِـهم وتضييفِهم والتّرجمة عنهم، وأُخِّر عن ذلك ابنُ عوبيل.

وفيها: قُدِّم السيّد أبو زيد على كُورة جَيّان وأُخِّر عن سِجِلْماسة، وعن جَيّانَ: أبو موسى بنُ أبي حفص.

وفيها: صُرِف السيّدُ أبو إسحاقَ ابن المنصور عن إشبيلِيَة بعدَ استعفائه عنها.

وفيها: نُقل عن غَرناطَة السيّدُ إبراهيمُ ابنُ الخليفة أبي يعقوبَ إلى إشبيلِيَة، وقُدِّم على غَرْناطة: أبو عبد الله بن أبي يحيى بن أبي حفص، وفي هذه الولاياتِ أخبارٌ يطُولُ ذكرُها أضرَبْنا عنها.

وفي هذه السنة: كان مهلِكُ ابن عَطِيّةَ الزَّناتي، بعَثَ إليه ابنُ يُوجّان صاحبُ تِلِمْسان من اغتالَه في وَطَنِه وأتاه من مَأْمنِه.

وفيها: استَولَى العدوُّ البرجلونيُّ على حصُونٍ مِن نَظَر بَلَنْسِيةَ وغَلَب عليها بينَ حصار وقتال، ونزَلَ له أكثرُ أهلِها على الأمان فمنهم منِ احتَملَه إلى بلدِه ومنهم من وصَل إلى بلاد الأندَلس.

وفيها: تحرَّك السيِّدُ أبو العُلى الكبير قائدُ أساطيل البَرَّيْن إلى بلاد بَرْشَلونةَ بجميع أجفان العُدوة والأندَلس على معاندة ومُنافسة من أهل البلاد في الاحتفال، وتمكُّن من العُدَد الوافرة والأموال، فكانت أحسَنَ حركةٍ للمسلمين وأوحشَ فجيعةٍ وأعمَّ وقيعةٍ

---

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن يغمور الجابري (التكملة الأبارية، الترجمة ٥١٧).

جَرت على الغُزاة البحريِّين، وأوقعَ حَسْرةٍ كانت بقلوبِ الكافرين، وفي إثْر تلك المفسَدة كان استيلاءُ البرجلونيِّ على حصُون بَلَنْسِية في هذه السنة المؤرَّخة.

وفي هذه السنة: وصَلتِ الأنباءُ إلى الحضرة بتغليب المسلمينَ على كثير ممّا في أيدي الرّوم من معاقل صِقِلِّيَّة ووصُولِ أعيانهم ووجوهِهم إلى مدينة تونُس إلى الشّيخ أبي محمد بن أبي حفص، وإطلاقِ الخُطبة في بلادِهم بالدّعوة الـمَهْديّة الموحِّديّة، وإنكارِهم ما سواها من المقصورة على العبّاسية.

وفيها: تحرَّكَ وأغار أبو محمد عبدُ الواحد على المنافقينَ والـمُفسدينَ من قبائل سُلَيْم، واستاقَ أشياخَهم بأموالهم واسترهَنَهم بتونُسَ في حَسْم ما يتُّونَه من فسادِهم وفي التبرِّي ممّا يُوالونَ به ابنَ غانية من مُضايقتهم وإمدادِهم، فشرَّد بحبس هؤلاءِ الأشرار مَن خَلْفَهم، وضَرَبَ محمدُ بن عبد السلام حافظُ أطْرابُلُسَ على أنظارِ نَفُّوسةَ وسَلَب قصرًا ألفَى فيه أثاثًا وأسبابًا وأثقالًا للمارِقينَ المنافقين، فتهذَّنت في هذه المدّة جهاتُ إفريقيّة وسَكَن رُوعُها والتأم تشعُّبُها وصَدْعُها.

وفي هذه السنة: كان الحريقُ الشائعُ الضَّرَر الجاري بقَيْساريّة مَرّاكُش وما اتّصل بها، وذلك ليلةَ الخميس الثالثَ عشَرَ لجُمادى الأولى والناسُ كما أوَوْا إلى مَضاجعِهم وسَكَنوا إلى هدوئهم وهُجوعِهم، فتمكَّنت النارُ بيابِس العِيدان وشُفوف الثياب، وأسرعت كالشِّهاب في سُقُف الأسواق، فما هَبَّ الأقربونَ إليهم من نَوْمهم ولا تَلافاهُم الصَّريخ من قومِهم إلّا وقد شَبَّ لهبُها بينَ الآفاق وعَلَتْ ضجّتُه المدينةَ وهتكت العامةَ بها والاها من الدروبِ الـمُقفَلة.

واتّصل الصُّراخُ والضّجيجُ بالناصر لدين الله فخَرج مسرعًا من قصرِه وتخَطّى إلى الصُّعود بصَوْمعة الجامع المتّصل به، فعايَنَ أمرًا لا مردَّ له ولا حيلةَ لمحتال إلا التسليمُ للكبير المتَعال. واقتَحَمت النارَ سِفلَةُ الغوغاء وضُروبُ الغُرباء فسَلَبوا بعضَ ما ألفَوْه ممّا سَلِم من الحريق وتسَلَّلوا به على كلِّ طريق، وأمدَّ النارَ احتدامُ الهواء وموافقةُ زمنِ الصّيفِ، فما طَلَع الصّباحُ وبقي من أمتعةِ مَرّاكُش ذُبالةُ مصباح.

وأمَرَ الناصرُ بالبحث على مَن وُجِدَ بشيءٍ يُذكَرُ عليه من أمتعة التُّجّار، وعُثِر عليه بالتجسُّس والاختبار، فلُقِط من أخلاطِ الناس قومٌ قلائل، ومن بعض المتعلِّقينَ بالقبائل، فقُتلوا عن آخِرهم، وبقيَ البحثُ على سائرهم.

وذهَبَ في هذه الكائنة للتُّجار الواردينَ والقاطنين والقاصينَ والدّانين من الأموال الجَسِيمة ما لا يُحصَى، وافتقَر فيها أمّةٌ من ذَوي اليَسَار وأصبحوا يتكفَّفونَ الناسَ حَيارى على الأقطار، وأكّد الناصرُ في جَبْر هذه الأسواق وإقامتِها وإعادتها إلى ما كانت عليه من أحسن هيأتِها، فإنها كانت كالمرآة في وَجْه القصر تُضيءُ به من أكنافِه، وكالوِرْدِ العَذْب والمادّة لتأتّي مُؤَنِه وجميع لُباناتِه.

وفي هذه السنة: وصَل إلى الناصر جماعةٌ من وجوه بلاد شرق الأندَلس معرِّضينَ بآثارِ العدوِّ البَرْشَلونيِّ في بلادِهم وانتهاكِه لطارِفِهم وتِلادِهم، فقَوِي عزْمُ الناصر على نَصْرِهم والحركة إليهم وإلى غيرِهم، فشَرَعَ في توطئة ما يُحتاجُ إليه بما تقومُ به الحركاتُ الثِّقال، والتكشّفُ عمّا أحدَثَه الوُلاةُ والعُمّال، وخوطبت عُمّالُ قُرطُبة وإشبيلِيَةَ بتجديد العساكر السُّلطانيات، وقُدِّم بعضُ الخَدَمة لتوطئة السُّبُل وإعداد العُلوفات والتضييفات، وذلك في جميع المراحل والمناهل على العادة الجارية قبلَ ذلك.

ذكرُ حركة أميرِ المؤمنينَ الناصر إلى الأندَلس

لـمّا رتَّب الأشغالَ وسهَّل أمرَها، خَرج من مَرّاكُش يومَ السّبت الـمُوفي عشرينَ من شهر شعبانَ المكرَّم، وتَمادى مَشْيُه إلى رِباط الفتح في كَنف السلامة والنُّجح، فتلَوَّم بها ريثَما أكمل مُهمّاتِ الأشغال، وأجرى أمورَه على أصلح الأحوال، ونفَّذَ ما يجبُ تنفيذُه من شُغل البرَّيْن على ما رَآه واختارَه من الاستيفاءِ والكمال، وانصَرف شهرُ آذار وقرُبَ نَيْسان وطابَ الزّمان، وحَسُن التَّرحالُ والنُّزول بكلِّ مكان.

تحرَّكَ من رِباط الفتح يومَ الاثنين الثامنَ عشَرَ[1] من شوّال، ونفَّذ من المنزل المعروف بمَرْج الحمام الـمُخاطباتِ إلى الأندَلس بتحريض المسلمينَ على الجهاد، والتفرُّغ لِـما يجبُ من التأهُّب والاستعداد، فامتَثَل ولاةُ الأندَلس ما أُمِروا به وأعَدّوا الوظائفَ التي عُرِّفوا بها وامتَحَضوا النصيحةَ وأعمَلوا الجَدَّ فيما كانوا بسبيلِه.

وتَمادتِ الحركةُ إلى قصرِ كُتَامة والأسعارُ قائمةُ النَّفاق، والبلادُ قد تضيَّقَت في كلِّ ما يَؤُولُ إلى الارتفاق.

---

(١) في ق، ر٣، ب: «الثامن» ولا يصحّ؛ لأنه كان يوم جمعة، والثامن عشر هو يوم الاثنين.

وسببُ سَطْوتِه بعُمّالِه في هذه السّنة: أنْ لقِيَ الناسُ في هذه الحركة من تنوُّع الـمَسْغَبة وانتشار المجاعة وتعذُّر الأوطار وعَدَم الأقوات ما لم يعهَدْه الناسُ ولا عَلِموه في أسفارِهم القاصيات، ولا عارَضَهم مثلُها فيما تردَّدوا فيه من زمن الفتن الـمُبيرات، والناصرُ يتربَّصُ بانتقال المراحل لثِقَل الحالات، ويُغضي عمّا سَمِع من الهَنَوات إلى أنِ استقبَلَ المنازلَ التي كانت تستمِدُّ منها الرِّفاق وتَحتَقِبُ منها الحقائب، ويَدَّخِرُ منها الأزوِدةَ المقيمُ والذاهب، فألْفاها وقد جَفَّ مَعِينُها وخفَّ بتوالي العُدوان قَطينُها، ولم يبقَ منها لمخازنِ السُّلطان الوافرة أثر ولا يتّضحُ لخازنِها دليلٌ ولا نظر.

واستَوْلَى على عموم المحَلّة الإقتار، وبلَغَ منهم مبلغَ الهزيمة الـمُبيرة الإضرار، وجاوَزَ الحدَّ بالناس وُسعُ الاحتمال، ووقَفَ لهم العَجْزُ عن إدراك الحِيلة في مَعايشِهم على غاية الاضمحلال، وأحفَظَ الناصرَ ما رأى من هذا الإهمال وشدّة إغفال المكلَّفينَ بالأعمال، فبَسَطَ السَّطوةَ على مَن كان منهم بمَدارج الضَّرر أجمعين، وأوقَعَ العقابَ منهم بالـمُستهزِئين، وأنفَذ أمرَه إلى الشّيخ أبي محمد ابن أبي عليّ بن مُثنَّى صاحبِ الأعمال الـمَخْزَنية والمفوَّض إليه الأشغالُ العمَليّة إلى القَبْض على عامل فاس، وهو: عبدُ الحقِّ بن أبي داود، أكبرِ عُمّالِه عندَه والأخَصِّين، وألطفِهم منزلةً كان لديه في كلِّ حين، فتروَّح بعدَ وصُوله إلى المدينة ثلاثًا ليبُثَّ في نفوس المشتغلينَ الطُّمأْنينةَ والأمان وليُصلح ظنونَهم في وصُول أبي محمد إليهم في ذلك الأوان، ثم فُجِئَ عبدُ الحق بالقَبْض عليه بدارِ الأشراف وأرسَل إلى منزلِه مَن ألحقَه بالثِّقاف وبالَغَ في استصفاءِ أحوالِه، وتبسيط اليدِ بالقبض على كافّة أصحابه وعُمّالِه، ونفَّذ الكتُبَ إلى سائر الجهات بتثقيفِ مَن خدَم في مُدّته وغَمَس يدَه في أشغالِه، فغَشِيَهم الامتحان، بكلِّ قُطر[1] شاسع ومكان.

ولـمّا وصَل الناصرُ إلى قصر كُتَامةَ كما تقدَّم، كان إنذارُه يتضاعفُ ويَزداد لمخالفة المعتاد، وتغييرُه يتأكَّد لِـما أشرَفَ عليه منَ الإهمال والفساد، وكان عاملُ القصرِ المذكور

---

(١) سقطت من ب.

محمدُ بن يحيى بن تاكغت الـمَسُوفيُّ عامل سَبْتة، وقد طابَقت أحوالُه أحوالَ أمثاله، فقُبِض عليه وعلى أصحابه، ووُجِّهوا مصفَّدِينَ لرئيس الأعمال بفاس، وكان الناصرُ في هذه الحركة يَقصُرُ المراحل ويتلوَّمُ بالمنازل ليَخِفَّ الناسُ من ساحل الـمَجاز.

وحُشِرت الـمَراكبُ من سائر السّواحل إلى ساحلِه، فانتهَض للجَواز وتوالي الانحفاز، فوصَل إليه والجيشُ قد جاز معظمُه ولم يبقَ إلا أقلُّه، فروَّح بالقصر بقيّةَ ذي القَعْدة ريثَما جازَت ساقتُه وأثقالُه، وحاشيتُه ورجالُه، وركِبَ السُّفنَ يومَ الاثنين أولَ يوم من ذي حجة من السّنة المذكورة[1]، ورحَلَ يومَ السّبت إلى فَجِّ إبراهيم، وتَمادى مَشْيُه حتّى وصَل إلى فَجِّ إشبيلِيَة وحَلّ بقصور بُحيرة باب جَهْوَر يومَ الاثنين منتصَفَ ذي حجة من السنة المذكورة. ولـمّا استقرَّ الناصرُ بمدينة إشبيلِيَة أمَرَ بدخول الجيش على طبقاتِهم وترتيبِ جماعتِهم، واستقرَّ الجميعُ بمدينة إشبيلِيَة آخرَ هذه السنة.

وفي سنة ثمان وست مئة: أمَر الناصرُ لدين الله باستنفار الحُشود الأندَلسيّة وبعمَل الآلاتِ الحَرْبية وبالحَفْز على أهل الكُوَر والجِهات في الحضور بما لديهم من وظائفِ الغُزاة ووصُولهم معَ مَن لهم من المشتغلينَ والوُلاة، حتّى اتّسَقَ نظامُهم وتَقوَّى اعتزامُهم.

ولـمّا استَوْفَت العساكرُ من سائر البلاد واستكْمَلت الحشودَ والأمداد، شَرَع الناصرُ في التأهُّب للحركة برَسْم الغزوِ والجهاد، فتحرَّك من إشبيلِيَةَ في أحسن زِيٍّ وهيئة، وقدرةٍ واستعداد، بعساكرَ وافرة من الموحِّدينَ والعَرَب والأجناد وغيرِهم من الـمُقاتلة والأنجاد، فتَمادى مَشْيُه على نيّة غَزْو الكفّار وحماية الذِّمار، فقصَدَ قلعةَ شلبطَّرةَ[2] ففتَحَها وأخَذَها، بعدَ قتال شديد وانتزَعَها، وهو حصنٌ عظيمٌ نَفْعُه شديدٌ أذاهُ وضُرُّه، وكتَبَ بفتحِه إلى البلاد بتاريخ ثاني شهرِ ربيع الآخِر من هذه السنة المؤرَّخة[3].

---

(١) قوله: «من السنة المذكورة» سقط من ب.

(٢) الروض المعطار ٣٤٤.

(٣) المعجب ٣٩٩، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥.

فصلٌ من الرّسالة التي وجَّهها الناصرُ لدين الله مُعلِمًا بفتح حِصن شلبطَّرةَ من إنشاء ابن عيّاش

وإلى هذا وفَّقكم الله وأوزَعكم شُكرَ نُعماه، فإنّ النَّصرانيّةَ لـمّا طال بالقتال عهدُها، وكاد ينسَى وَطْءَ الخيولِ غَوْرُها ونَجْدُها، وأنّ السِّلم الذي كان بينَ الموحِّدين وبينَ صاحب قَشْتالةَ حان أن ينقضيَ أجلُه وحَدُّه، بلَغَ إلينا أنّها همَّت بأنْ توقدَ نارَ الحرب التي كم أحرَقَها وَقْدُه، وكان الموحِّدونَ بعد قُفولهم من الشّرق لا يزالونَ على النِّيَة للغَزْو والجهادِ في سبيل الله بالأعراب ومَن يليهم قاصيهم ودانيهم، فأتَتْ منهم أُممٌ لا يَعلَمُهم إلّا اللهُ ولا يُحصيهم، وجاءوا كأمواج البحار في جيوش لا يُطِلُّ على مصباحِها الساري، واللهُ مُجازيهم بتظافُرِهم وتَواصيهم، وكان أئمةُ الكُفّار الذين لا أَيْمانَ لهم ولا إيمان، ولا حُجّةَ على ما يدَّعونَه ولا بُرهان، قد وافاهُم من رومةَ رسُولُ إلههمُ الأرضيِّ الذي له يَسجُدون وإياه يعبُدون يأمُرُ باتّفاقهم، وخَلْع بعضِهم ما بقيَ من شروطِ الموحِّدين في أعناقِهم، ومَن نكَث فإنّما يَنكُثُ على نَفْسِه، وشَرْطُ الله أوثَق، وسيفُ الخليفة أمضَى وأصدق، فبينَا هم يَجْرُونَ بالخَلاء، ويجُرُّونَ فُضولَ الخُيَلاء، ويُدبِّرونَ ما لا يَتِمّ، ويُريدونَ ما لا يَعصِم من أمر الله ولا يرُمّ، إذ سَمِعوا بإجازتِنا التي كانوا يرَوْنَها بعيدًا ويراها اللهُ قريبًا، وحلولِنا بالأندلس التي نَصَر اللهُ بها الدِّينَ الحنيفَ نازحَ الدار غريبًا، فرأَوْا أنّ الحربَ قد كشَفَت لهم عن ساقِها، وأجلَبَت لهم من آفاقِها.

ولـمّا كان صاحبُ قَشْتالةَ أقربَ مَن تعيَّنت حربُه دارًا، وأكثرَهم ممّا استطاع نكايةً وإضرارًا، كان أوّلَ مَن نَوَيْنا ووجَبَ تقديمُ حربِه علينا، وإن كنّا لم نحُلَّ بالأندلس إلا وفصلُ الغَزْو قد ذهب جُلُّه، ولم يبقَ إلا أقلُّه، ذلكُم ممّا لقِيَ الناسُ في طريقهم من المطرِ المتدارَك، والوَحْل الـمُقيِّد للأخامص والسَّنابك، والسُّيول الخارقة بكلِّ أرض جَلَد، أنهارًا تَرمي غَواربُها الغديرَ بالزَّبَد، حتّى ذهب بالجسور، وامتَنع أكثرُها من العبور، وفي النِّية منَ العَزْم أثناءَ هذه المحاولاتِ والأمور، ما لا يَعلَمُه إلّا اللهُ العليمُ بذات الصُّدور، ولكنْ وفَّقكم اللهُ معَ ضِيق الآناء، وكون الفصل لم تبقَ منه إلّا صَبابةٌ كصَبابة الإناء، رأَيْنا أنْ لا نُخلِيَ العامَ من غَزْو يُذلُّ الكافرينَ في أرجائهم، ويجدِّدُ عهدَهم بالسّيف الذي لم يجفَّ بعدُ من دمائهم.

وكان المعقِلُ المعروفُ بشلبطَّرةَ قد عَلِقت به حبائلُ الصُّلبان، وتألَّـم ببقائه وسَطُ البلاد قلبُ الإيمان، قد جَعَلَتْه النَّصرانيةُ إلى كلِّ غايةٍ جَناحًا، وأعدَّته لأبواب المدائن مِفتاحًا، تُهانُ شعائرُ الله في سَنامِه وبَطْحائه، ودينُ الحقِّ عن يمينِه وشمالِه وأمامِه ووَرائه، تعتقدُه الكفّارُ حجَّها وجهادَها، وتخدُمه ملوكُها ورُهبانُها وبلدانُها، وتُسرِّبُ إليه درهَمها وديناَرها، وتَزعُمُ أنه يَعصِمُ دارَها ويحُطُّ أوزارَها.

ومنَ الاتّفاق أنّ الموحِّدينَ كانوا قد جَعَلوه في غَزْوة من الغَزَوات مُعرَّجَ ركابِهم ومستوقَفَ إيابِهم، وما عسى أن يبلُغَ العَزْم وهم بسببِ انقلابِهم وقد قضَوْا من الغَزْو نُهمتَهم فأقلَعوا عنه لضَرْبٍ من النّظر، وأمَّلوهُ إلى حين وكلُّ شيءٍ بحُكم القضاءِ والقَدَر، فازدادت فيه فتنةُ الكفّار، ولولا عادتُهم في التشيُّد مدى الأعصار لاستغنَوْا فيه بمجرَّد الوَهْم عن السِّلاح والأسوار.

وما عَلِم القومُ أنّ أمرَ الله في مَزِيد، وأنّ سعدَه من جديدٍ إلى جديد، وأنّهم يُنازَلونَ في وقتٍ تكذِبُ فيه ظنونُهم وتَرى ما لم تعهَدْه عيونُهم، فاستخَرْنا اللهَ في مُنازلتِه، وشَرَعْنا في الضّرورة من أسبابِ محاولتِه، وقُلنا: هُو يمينُ صاحب قَشْتالة إن قُطعت قُصِد منه هذا الدّليل، ومَظِنّتُه عن غَيْرتِه إن لم يتحرَّكْ لها فقد قام على ضَعْفِه أدلُّ دليل.

ثم إنّا قدَّمنا إليه الأعرابَ رَعيلًا فرعيلًا وأطلَقْناهم عليه قبيلًا فقبيلًا، وظَهَر في بسيطِه زهاءُ أربع مئة فارس فقتَّلوهم تقتيلًا، ثم إنّا تحرَّكنا على الأثَر في جيوشِنا فقَبْلَ النزولِ من السُّروج، ووضْعِ المهنَّدِ والوشيج، حَيّاهم الناسُ بكلِّ ضَرْب وَجيع، وموتٍ وَحِيٍّ سريع، ومَلَكوا عليهم أرباضَهم، وكانت من الذَّروة إلى البَطحاء، وأضرَمُوها نارًا من جميع الأنحاء. ثم أمَرْنا بالـمَجانيق فزُحِف بها إليه تقذِفُ حجارةً كالجبال عليه، وأُنشِئَ عليهم سَحابٌ مُكفَهِرٌّ من النَّبال تتكسَّرُ منه النِّصالُ على النِّصال، فمَن نَجا من الحجارة أمثال الجبال، لم يَنْجُ من السِّهام أمثالِ الغَمام الـمُنثال.

والسّرايا معَ الأيام تجُوس طُلَيْطُلة وأحوازَها، والرُّعبُ يملأُ أطرافَ البلاد وأحوازَها، والنَّصرانيةُ قد ضاقت على الرَّحْب ساحتُها، وودَّت لو يكونُ في الموت راحتُها.

فخَرج أهلُ المعقِل المذكور وفارَقوه لـمَن له عُقبى الدار، وعلى أثَرِهم طهَّرَ اللهُ المعقِل من الأقذار، وبدَّل اللهُ فيه الناقوسَ بالأذان، وعادتِ الكنيسةُ مسجدًا على تقوى منَ الله ورِضوان، ورأى المسلمون قُرَّةَ عَيْن لم يرَوْا مثلَها مُذ أزمان، وخَلَصت القلعةُ للموحِّدين في التاريخ المذكورِ قبلُ.

وفي سنة تسع وست مئة: شاع الخبرُ بالأندَلس عندَ أشياخ الموحِّدين بمهلِك المستغلَبَيْنِ المعتقَلَيْنِ بفاسَ: والي مدينة سَبْتة ووالي مدينة فاس، ووصَل ابنَ مُثنَّى الأمرُ بقتلِهما في أواخِر السّنة الفارطة، وقيل: إنّ مقتلَهما كان في أواخِر ذي الحجة، وقيل: في أوائل محرَّم من هذه السّنة، فأُخرج المذكورونَ يومَ جُمُعة بعدَ الصّلاة بحضور الآلاف من الناس، فضُرِبت أعناقُهما صَبْرًا، عبرةً للمعتبِرين وذكرى للغافلين.

وفي هذه السنة: كانت وقعةُ العِقاب[1] التي كانت السببَ في هلاك الأندَلس إلى الآنَ، وذلك أنّ أميرَ المؤمنين الناصرَ قَصَد بلادَ العدوِّ أذْفُونْشَ اللّعين في جيش عظيم من المسلمين، فاستَعدَّ له الطاغيةُ وجمَعَ أهلَ قَشْتالةَ أجمعينَ وغيرَهم من سائر جموع ملوكِ النَّصرانية الذين هم للجزيرة مكتنِفُون، فالتقَى الجَمْعانِ بالموضع المعروف بالعِقاب، فكان الظّهورُ أولًا للمسلمين، على أنّ الموحِّدينَ لم يَجِدُّوا في تلك الغَزْوة ولا نَصَحوا فيها لأجْل نكبةِ أميرِهم الناصر لأشياخِهم، وقتلِه واستئصالِه لهم على يد المفوَّض ذلك إليه ابنِ مثنًّى، فلمّا وَرَدَ على أذْفُونْشَ البَرْشلونيُّ أخزاهُما اللهُ تعالى بثلاثةِ آلاف فارس ولَّت جموعُ المسلمين، فمشَت الهزيمةُ عليهم وثَبَت الناصرُ لدين الله ثُبوتًا كاد يُردي به ويُمكِّنُ العدوَّ منه، حتّى وصَلت رِماحُهم إليه، ثم انحازَ راجعًا فسَلِم، وذلك يومَ الاثنين الثامن من صَفَر من السنة[2]، فذكروا أنّ بعضَ الناس كان يقول: مُدَّها قلْ لابن المثنَّى يَرُدَّها، يعْنُونَ بذلك صاحبَ الأشغال الذي نكَبَ أشياخَ الموحِّدين، ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم. وكتَبَ الناصرُ بالاعتذار عن هذه الوقعة إلى الحضرة وغيرِها أذكُر هنا منها بعضَ فصُول:

---

(١) بكسر العين، كما في الروض المعطار ٤١٦.

(٢) ينظر عن وقعة العقاب: المعجب ٤٠١-٤٠٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥-٣٣٦، والاستقصا ٢/ ٢٢٠-٢٢٥.

فصلٌ من ذلك، وهي من إنشاءِ ابن عيّاش رحمه الله

وإلى هذا ـ وفَّقكم اللهُ وأعانكم على ما يحبُّه ويرضاه ـ فإنّ صاحبَ قَشتالةَ لـمّا كان في العام السالف قد ضَعُف عن الانتصار، وكاد يَخفَى في بلادِه حتّى عن الأبصار، رأى أنْ يَضرَعَ للملوكِ أهل مِلّتِه ضراعةَ الأَسِيف، ويُصانعَهم على مَعُونتِه بالتالد والطَّريف، ويَسترحِمَهم عسى أن يجدَ عندَهم رِقّةَ القويِّ على الضّعيف، فبَثَّ القِسّيسينَ والرُّهبان من بُرتقالَ إلى القُسطَنْطينةِ العُظمى، يُنادونَ في البلاد من البحر الروميِّ إلى البحر الأخضر: غَوْثًا غوثًا ورُحْمى رُحْمى، فجاءه عُبّادُ الصّليب من كل فَجٍّ عميق، ومكانٍ سَحِيق، وأقبَلوا إليه إقبالَ اللّيل والنهار، من رؤوس الجبال وأسياف البحار، فكان أوّلَهم سَبْقًا(١) الإفْرَنجُ المتوغِّلونَ في الشّرق والشّمال، ثم تابَعَهم البرجلونيُّ بما عندَه من العُدَد والرّجال. وكان صاحبَ نبرةَ متعلِّقًا من الموحِّدين بذِمام، ومنقادًا إليهم أبدًا في أسمح زِمام، فسَخِط عليه صاحبُ رُومةَ إن لم يكنْ لقومِه مُعسكِرًا ولسواد أهل مِلّتِه مكثِّرًا، فلحِقَ بتلك الجموع مُرهِجًا، وتوسَّط بحرِّهم الـمُزبِد مُلجِّجًا، كلٌّ ينادي الصّليب، ونحن نُنادي بالسميع الـمُجيب، وكنّا لـمّا تحرَّكنا بالموحِّدينَ، ومَن معَهم من سائر المسلمين، رأَيْنا أنّ الأُمةَ قد جَدَّ جَدُّها، وأرهَفَ في ذات الله حدُّها، وعَلِمنا أنّ الأمةَ التي ليس لها في الأرض نَظير، والعصابةَ التي وَلِيُّها اللهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعدَ ذلك ظَهِير، حِزبُ الله الذي شَرَّف به منقطعَ التّراب، وأعزَّ به الدِّينَ الغريبَ في زمان الوَحْدة والاغتراب، فسألنا اللهَ أن يوفِّقَنا إلى الرّشاد، وأن يحملَنا على جادّة صَلاح العباد، وضرَعْنا إليه في الإلهام، لِـما فيه الخيرُ والخِيَرةُ للإسلام.

ووصَلْنا إلى ظاهر جَيّان وأقَمْنا هنالك أيامًا ننتظرُ عُبورَ الوادي الكبير، إذ كان قد طَما تيّارُه، وأمدَّتْه من كلِّ شِمالٍ ويمينٍ آثارُه، معَ ما كنّا فيه منَ النّظر في رعاية الأصلح، والمحافظة على رأس المال الذي هُو التجرُ الأربح، والكُفّار طولَ هذا يَنْثالُونَ على طُلَيْطُلَةَ انثيالَ الجَراد في الكثرةِ والإفساد، وصاحبُ قَشتالةَ يتودَّدُ إليهم بالصّبر على انتسافِ بلادِه، ويتجدَّد إلى تابِعِهم ومتبوعِهم بأموال رعيّتِه وأجنادِه، ونحن نعلَمُ على القطع واليقين، أنه جَمْعٌ لا يتأتّى للكفّار إلّا بعدَ الـمِئينَ من السِّنين.

---

(١) في ق: «فكان أسبقهم».

فحين نَضَب الوادي الكبير زَحَفْنا بالجيوش وتحرَّكت جماهيرُ الكُفر فأرهَبوا مَن كان في طريقهم من حصونِ الثَّغر، ثم إنّ الفئتَيْنِ قُضِيَ بتلاقيهما في الموضع المعروف بالمرشة، فكان بينَ المسلمينَ وبينَ أعدائهم يومٌ ذو كواكبَ نازَعت فيه المواكبُ المواكبَ، وموقفٌ نرجو أن يَراهُ اللهُ لنا وأن يَقبَلَ فيه عملَنا، اشتدَّ فيه الكِفاح، وأُرخِصت فيه الأرواح، لكنْ أرادَ اللهُ أن يُمحِّصَ المؤمنين ويَبْلُوَ فيه الكافرين، فكانت عاقبةُ اليوم على الخصُوص لأهل الصُّلبان، والعاقبةُ المطلقة هي لأهل الإسلام والإيمان.

وتعاجَزَ الفريقانِ والمسلمونَ عزيزةٌ جوانبُهم، محروسةٌ بقُدرة الله كتائبُهم، لم تُصِبِ الحربُ منهم أحدًا، ولا نقَصَت لهم عددًا، وهي الحروبُ قضَى الله أن تكونَ سِجَالًا، وأن يجعلَ اللهُ فيها لكلِّ قوم مجالًا، كذلك كانت في زمن النبيِّ ﷺ والوحيُ غَضٌّ نَضِير، وجبريلُ منَ السماءِ إلى الأرض في كلِّ وقت سفير، وكذلك كانت في زمن الخُلفاء[1] رضيَ اللهُ عنهم، كلُّ ذلك ليَعلمَ الشاكرَ والصابرَ منهم.

وإذا كانت، وفَّقكم اللهُ، الجيوشُ موفورةً والرايات منشورةً، والعزائمُ باقيةً وكفاياتُ الله واقيةً، فلا تَهِنوا، فإنّا لا نَهِن، وانتظروا الكرَّةَ على الكفّار، والإمدادَ عليهم بجُند الله الذين هم خيرُ الأنصار، فما كان اللهُ ليترُكَ المؤمنينَ حتّى يأخُذَ أعداءهم أخْذًا وَبِيلًا، ولن يجعَلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سَبِيلًا.

وعرَّفْناكم لتكونَ عندَكم هذه الوقيعةُ على وجهِها، والنازلةُ على كُنهِها، ولتعلَموا أنه لم يُدرَ للموحِّدين قتيل، ولا أصيبَ منهم كثيرٌ ولا قليل، والسلام. وكُتِبَ أواخِرَ صَفَر سنة تسع وست مئة.

وفي سنة عَشْر وست مئة: توفِّي أبو عبد الله الناصرُ رحمه الله، وذلك أنه لـمّا كانت هذه الوقعةُ الشّنيعة أخَذ في الجَواز إلى العُدوة واستقرَّ بحضرتِه الـمَرّاكُشيّة، لم تكنْ له بعدَ ذلك حركةٌ منها إلى أن توفِّي بها يومَ الثلاثاء العاشرِ لشعبانَ المكرَّم من السنة المؤرَّخة، وذُكِر أنّ بعضَ وُزرائه أغْرَوْا به من سَمَّه لأنهم خافوا منه أن يقتلَهم فيما جنَوْه معه جزاءً على قبيح فعلِهم، والله العالـمُ بحقيقة ذلك[2].

(١) في ق، ب: «الصّحابة».

(٢) خبر وفاته في المعجب ٤٠٣ وغيره.

ذكرُ دولة المستنصِر بالله ونُبَذ من أخبارِه[1]

نسَبُه: هو أبو يعقوبَ يوسُفُ بن محمد بن يعقوبَ بن يوسُف بن عبد المؤمن.

بُويعَ يومَ الأربعاء الحاديَ عشَرَ لشعبانَ من السنة، وسنُّه عشَرةُ أعوام أو نحوها[2]، ولقِّب المستنصرَ بالله، وتوفِّي سنةَ عشرين، فكانت دولتُه نحوَ عشَرة أعوام، وكان أبوه قد أوصَى عليه بعضَ أشياخ الموحِّدين بحضرته فتغلَّبوا عليه في أيام دولته، فلم تكنْ له حركةٌ تُشهَر ولا غزوةٌ تُذكَر لكنّ أيامَه كانت هادنةً ليس فيها مُفاتنة.

ووَلَّى أعمامَه وقَرابتَه البلادَ الغربيّةَ والأندَلسيةَ بعدَما وصَلتْه البَيْعات من كلِّ الجهات.

وكانت وفاتُه يومَ السبت الثانيَ عشَرَ لذي الحجة سنةَ عشرينَ وست مئة، فكانت خلافتُه على ما حقَّقه ابنُ رَشِيق وغيرُه عشْرَ سنين وأربعةَ أشهر ويومين.

وفي سنة إحدى عشْرةَ وست مئة: ولَّى المستنصِرُ بالله على مدينة فاسَ السيّد أبا إبراهيمَ إسحاقَ الملقَّب بالأمير الظاهر ابن الخليفة يوسُف بن عبد المؤمن، ونقَلَه من غَرْناطةَ إليها، وهو أبو الـمُرتَضى رحمه اللهُ تعالى، ووَلَّى على إشبيلِيَةَ وجِهاتها السيّدَ أبا إسحاقَ بنَ أبي يوسُفَ يعقوبَ المنصور، وهو السيّد أبو إسحاقَ الأحول.

وفي سنة اثنتي عشْرةَ وست مئة: قام دَعِيٌّ ببلاد جَزُولة يدَّعي في مذهبه بدَواعي الـمُحال، وتَبِعه ناسٌ كثيرةٌ من الضُّلّال والجُهّال، وذكَرَ لهم بزَعْمِه أنه فاطميّ، وشاع الخبرُ عنه في البلاد أنه عُبَيْديٌّ من ذُرِّية عُبَيد الله الشِّيعي، والموحِّدونَ في ذلك يَعلَمونَ ثقةً بالله تعالى أنّ مآلَه مآلُ أمثالِه من كلِّ منِ ادَّعى دعواه ونَحَى في الباطل مَنْحاه، إلى أنْ مكَّن اللهُ منه فقُتِل وعُلِّق رأسُه على باب فاسَ حرَسَها اللهُ تعالى[3].

---

(١) المعجب ٤٠٤، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/٣٤٣-٣٤٤، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٣/٦٢٤-٦٢٦.

(٢) هكذا في النسخ، وهو غلط بَيّن صوابه ستة عشر عامًا، لأنه ولد سنة ٥٩٤هـ، وتولى الأمر سنة ٦١٠هـ وتوفي سنة ٦٢٠، كما في مصادر ترجمته.

(٣) المعجب ٤١٠.

وفي هذه السنة المؤرَّخة: وصَل إبراهيمُ ابن الفَخّار(١) الإسلاميُّ وزيرُ ملِكِ قَشْتالةَ رسُولًا من عنده في شأن عَقْد السِّلم، فأنعَمَ المستنصرُ بالله بذلك ووجَّه كتابَيْنِ اثنين، أحدُهما: إلى السيِّد أبي الربيع صاحب جَيّان، والثاني: للشّيخ أبي العبّاس بن أبي حفص والي قُرطُبة، ومقتضاهُما عَقْدُ السِّلم والـمُوادعة معَ ملِك قَشْتالةَ أخْزاه اللهُ على جميع بلاد الموحِّدين بالأندَلس على الشّروط التي حَدُّوها والعهود التي عقَدوها، فالتَزم اليهوديُّ لعنَه اللهُ ما لُزِم، وأنعَمَ بما عُقِد من الأمر وأُبرِم، فصَلَحت البلادُ الأندَلسيّة في هذه السنة من جهة الـمُهادنة ووَلِيها كُبَراءُ السادة وأشياخُ الموحِّدين وأميرُهم يوسُف المستنصرُ بالله بحضرتِه مقيم، وأوامرُه نافذةٌ في بلادِه وأيام دولتِه، وليست له حركةٌ تُشهَر ولا غزوةٌ غَزاها بنفسِه فتُذكَر، ولم أتعرَّفْ له خبرًا في أيام دولته إلّا ما كان من ظهورِ بني مَرِين أعزَّهم الله.

وفي سنة ثلاثَ عشْرةَ وست مئة: وصَل عسكرٌ من بني مَرِين إلى جهة مدينة فاس، فخَرج إليهم والِيها السيِّدُ أبو إبراهيمَ بمن كان معَه من الأجناد بفاس، فهَزَمه بنو مَرِين وقبَضُوه واحتَملوه معَهم إلى أن عُرِّفوه فأطلقوه، فتأكَّدت بينَهم مودّة إثرَ ذلك، وسمِّي هذا العامُ بمدينة فاسَ عامَ المشغَلة؛ لأنّ الناسَ جرّدوا في تلك الهزيمة ودخَلوا مستترينَ بالمشغَلة(٢).

وكان ابتداءُ ظهور بني مَرِين أعزَّهم اللهُ تعالى في سنة عشْرٍ وست مئة بعدَ مولدِ أبي يوسُف يعقوبَ بن عبد الحقِّ رحمه اللهُ تعالى بسنةٍ واحدة، وكان دخولُهم إلى بلاد الغَرْب سنةَ إحدى وست مئة، وسأذكُر إن شاء اللهُ بعضَ مآثرِهم ومَفاخرِهم في أيام مُدّتِهم وأعوام دولتِهم إن شاء اللهُ تعالى.

ولم أتحقَّقْ خبرًا أذكُرُه في سنة أربعَ عشْرةَ وخمسَ عشْرة.

وفي سنة ستَّ عشْرةَ وست مئة: كان المحْلُ العظيم، والمجاعةُ التي شكاها الظاعنُ والمقيم، وتَناهى الحالُ في مَزِيد السِّعر إلى ما لا نهايةَ له، وكان ابتداءُ الحال فيه في السنتَيْن

---

(١) ترجمته في المغرب لابن سعيد ٢/ ٢٣، ونفح الطيب ٢/ ٣٥٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.

المتقدمتَيْن لهذه السنة المؤرَّخة، وأمّا السَّنةُ[1] الفارِطةُ عنها فكانت قبائلُ المصامدة تسمِّيها سنة وقليل.

وكان للمستنصر بالله في هذه السنة فعلٌ جميلٌ وخيرٌ جزيل، وذلك أنه لـمّا عَلِم ما حَلّ بالمسلمينَ في بلادِه من المجاهدة في غلاءِ السِّعر والشّدّة أمَر بفتح المخازن المعَدَّة لاختزان الطعام، ففُتحت للعامّة وفُرِّقت عليهم، فذُكر أنها كانت بثمن للأقوياء، وبغير ثمن للضُّعفاء، وبالجُملة فإنه صدَّق منها شيئًا كثيرًا وأعطَى من الأموال عطاءً جَزيلًا فحَسُنت أحوالُ الناس بذلك.

وفي سنة سبعَ عشْرةَ وست مئة، في أوائلِها: اشتدّت الحالُ في تناهي غلاءِ الأسعار بالبلاد الغربيّة والأندَلسيّة إلى أنْ فرَّج اللهُ سبحانَه عن المسلمينَ بالرّخاءِ والعافية[2].

وفيها: أمَر أميرُ الموحِّدين المستنصرُ بالله يوسُفُ ابن الناصر بالكَتْب إلى البلاد الغَرْبية والأندَلسيّة بأخْذ الناس بإقامة الدِّين والحَفْز في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حَذَا في ذلك ما فعَلَه جَدُّه عبدُ المؤمن في الرّسالة التي أنشَأَها له أبو جعفر ابنُ عَطِيّة وبعَثَ منها نُسَخًا إلى قواعدِ بلادِه، وكذلك أيضًا فعَلَه خليفتُه يوسُف أمَرَ بإنشاء رسالةٍ أخرى في معنى ذلك.

فصلٌ منها

وإلى هذا وصَل اللهُ توفيقَكم، فقد علِمتُم أنّ الدِّينَ هو الأساسُ الوثيق والبناءُ العتيق، والفُسطاطُ المضروب، والعَلَمُ المنصوب، والتَّجرُ الذي لا يَبُور، والطريقُ الذي لا يَجُور، منِ استمسَكَ به فقدِ استمسَك بالعُروة الوُثقى، ومن تحصَّنَ به فقد تحصَّن بالمعقِل الأحصَن الأرقَى.

فإذا وَقفتُم على كتابِنا هذا فجدِّدوا للناس به الذِّكرى، وعرِّفوهم أنّ الدُّنيا مَطِيّةُ الدارِ الأخرى، وحضُّوهم على العمل الصالح، والتَّجر الرابح، عسى أن يجعلَهمُ اللهُ تعالى في الدارَيْن من الذين لهم البُشرى، وبُثُّوا في جهاتِكم كلِّها الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن

---

(١) قوله: «المؤرّخة، وأما السنة» سقط من ق.

(٢) سقطت من ب.

المنكر تطهَرْ من الأرجاس وتَـتَنَقَّ الحواضرُ والبوادي من الأدناس، وتسلم القلوبُ والجوارح من الوَسْواس الخَنّاس، واستحفِظوا الكافّةَ صَلواتِهم، فإنّها الكتابُ الموقوف على المؤمنين، وخُذوهم باعتيادِ المساجد، فإنّها الشاهدُ الأزكى بشهادة خاتَم النبيئين وسيِّد المرسَلين، واطلُبوهم بقراءة الحِزب والتوحيد بالمساجد والأسواق، فإنه الخيرُ المألوف والشِّعارُ المعروف والرَّسْم الذي عليه العمل، والعهدُ الذي لا يجبُ فيه التغييرُ والخَلَل، وتتبَّعوا شعائرَ الدِّين كلَّها بالإقامة، ولا يعرِضْ لكم في الأمر بها والحضِّ عليها عارضُ سَآمة، وتخَوَّلوا الناسَ على الدّوام بالوصايا النافعة، والمواعظِ الجامعة، وأعلِموهم أنه قد جاء في الأثر: إذا أصلَحَ المرءُ جُوانيَّهُ أصلح اللهُ بَرانيَّه[1]. فليُصلِح الناسُ سرائرَهم، وليُخلِصوا ضمائرَهم، وليوقِنوا بأنّهم مسؤولون، وأنهم تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعمَلون.

ونحن قد قلَّدنا اللهُ قلادةً نعلمُ لوازمَها، ونحفَظُ مراسمَها، ومن جُملتها: التذكيرُ بالدِّين، فهو الشافعُ الذي يُقبَل، والوسيلةُ التي لا تُضاعُ ولا تُهمَل.

فاعلَموا أعزَّكم الله هذا المقصودَ علمًا، وكونوا في القيام به لا تخالفونَ يقَظةً ولا نَوْمًا، وللناس عليكم ما نأمُركم به من العدل التامّ، والإنصاف العامّ، وكفِّ الأيدي، وقَبْضِها عن التعدِّي. وهذا خطابٌ قد أرشَدْنا فيه إلى مناهجَ سَوِيّة، وحضَضْنا فيه على أمورٍ ضروريّة، وأتَيْنا فيه بما يجبُ البِدارُ إليه، وخيرُ العمل ما دوومَ عليه، واللهُ مُعينُـكم، والسلامُ عليكم. وكُتِبَ في عاشرِ ربيع الأول سنة سبعَ عشْرةَ وست مئة.

وفي سنة ثمانِ عشْرةَ وست مئة: تجدَّدت الـمُهادنةُ والـمُصالحة بينَ وُلاة الأندَلس من الساداتِ والموحِّدين، بأمر أمير المؤمنين المستنصر بالله، وبينَ النّصارى دمَّرهم الله، وكتَبَ الوزيرُ أبو يحيى زكريّا بن أبي زكريّا لمِلكة قَشْتالَة بنت ملِك قَشْتالة وطُلَيْطُلَة كتابًا من إنشاء ابن عيّاش يُخبرُها بالسِّلم الذي انعقَد بينَه وبينَ رسولِـهم أخزاهمُ الله أجمعين.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٢/ ١٧، وأبو داود في الزهد أيضًا (٢٠٣٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء من حديث أبي البختري سعيد بن فيروز عن سلمان. وأبو البختري وإن كان من الثقات الأثبات لكنه كان كثير الإرسال يروي عن أصحاب رسول الله ﷺ ولم يسمع من كبير أحد منهم، فما كان من حديثه سماعًا فهو حسن، وما كان معنعنًا فهو ضعيف، وقد عنعنه في هذا الحديث. ينظر تحرير التقريب ٢/ ٤١.

فصلٌ من ذلك

وقدِ انقَلب إليكم رسولًا منكم بما تتعرَّفونَه في السِّلم المنعقد، النيِّر شِهابُه المتَّقد، بينَ الموحِّدينَ وبينكم، بالمخاطبة الكريمة التي حَمَلَها إليكم وحمَل نحوَكم من الإتحاف ما يُبلِّغُكم على يدَيْه، الذي هو عُنوانُ الـمُخالصة وثمرةُ الـمُواصلة، وكلُّ ما يكونُ من هذا بينَنا وبينكم ينبغي أن يكونَ متقبَّلًا، وعلى أحسن المتأوَّلاتِ متأوَّلًا إن شاء الله، وأنتم بحَوْل الله تقِفُونَ عندَ حدود السِّلم وتحافظونَ عليها وتعاقبونَ كلَّ مَن هَمَّ بإذاية المسلمين، فإنّ الوفاءَ شعارُ الملوك، وعليهم فيه يجبُ السُّلوك. وكُتب سادسَ رمضان سنةَ ثمانِ عشْرةَ وست مئة.

وفي سنة تسعَ عشْرةَ وست مئة: قدَّم أميرُ المؤمنينَ المستنصِرُ بالله أبا محمد ابنَ المنصور، وهو العادل، على مُرْسِيَة وأخَّره عن ولايةِ غَرْناطة.

وفي سنة عشرينَ وست مئة: كانت وفاةُ المستنصِر بالله بمَرّاكُش يومَ السّبت الثانيَ عشَرَ لذي الحجّة من عام عشرينَ المذكور[1]. وفي أيامِه كان ابتداءُ ظهور بني مَرِين أعزَّهم الله، فضَربوا على مدينة فاس، وكانوا في نحو أربع مئة فارس، فخَرج للقائهم وحربِهم واليها السيّدُ أبو إبراهيمَ والدُ المرتَضى فهزَموا جمعَه وأسروه عندَهم ثلاثةَ أيام، ثم أطلقوه وبَعَثوا به إلى فاسَ معَ بعض عجائزِهم مكرَّمًا معظَّمًا بعدَما سَلَبوا كلَّ مَن كان خَرج معَهم إليهم من ثيابِهم وأخَذوا دوابَّهم وبالَغوا في تجريدِهم حتّى كانوا يَستُرونَ عوراتِهم بالمشغَلة، فسمِّي ذلك العامُ عامَ المشغَلة، وهو عام ثلاثَ عشْرةَ وست مئة، فلم يَزلِ السيِّدُ المذكور يُواليهم بالإكرام والبِرِّ والاحترام ويعطيهم ويُرضيهم في كلِّ عام، ويقرِّبُهم ويُدْنيهم من هذا العام إلى عام سبعةَ عشَرَ حين ظهورِ الأمير أبي سعيد عثمانَ بن عبد الحقّ[2]، فإنه استبدَّ برأيِه دونَ غيرِه إلّا ما كان من مراسَلات بينَهما ومُهادَنات إلى آخِر دولة المستنصِر بالله في عام عشرين.

---

(١) المعجب ٤١٠-٤١١، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٤٥.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٩٧ و٧/ ٢٢٣ فما بعدها.

وفي أيام المستنصِر بالله وصَلَ القاضي أبو محمد عبدُ الله بن عبد الحقِّ[1] من إشبيليَة إلى مَرّاكُش حرَسَها اللهُ باستدعائه إياه واعتنائه به ولم يزَلْ عندَه وعندَ مَن وَلِـي بعدَه من خُلفاء بني عبد المؤمن مكرَّمًا معظَّمًا إلى أن توفِّي رحمه اللهُ تعالى. ولم تكنْ للمستنصِر بالله حركةٌ ولا غَزْوة ولا خَرَج من حضرتِه إلا لمدينة تينملَ على العادة في التبرُّك بالـمَهْدي، فما وقَفْتُ له على خبرٍ أذكُرُه إلا ما رأيتُ في بعض الرسائل واللهُ يؤتي مُلكَه من يشاء.

ذكرُ بيعة أبي محمد عبد الواحِد المخلوع[2]

هو عبدُ الواحد بن يوسُف بن عبد المؤمن، بُويعَ بمدينة مَرّاكُش يومَ الأحد الثالثَ عشَرَ لذي حجّةٍ من سنة عشرينَ وست مئة، وخُلع يومَ السّبت الـمُوفي عشرينَ لشعبان وخُنق بعدَ ثلاثة أيام من خَلْعِه، وذلك يومَ الاثنين الثاني والعشرين لشعبانَ المكرَّم من سنة إحدى وعشرينَ وست مئة، فكانت مدّةُ خلافتِه بمَرّاكُش ثمانيةَ أشهر وتسعةَ أيام، وخالَفَ عليه[3] عبدُ الله[4] ابنُ أخيه يعقوبَ المنصور الملقَّب بالعادل بمُرْسِيَة ونازَعَه في اسم الخلافة بعدَ شهرَيْن اثنينِ من بيعتِه إلى أن خُلع وتخَلَّص الأمرُ للعادل بالعُدوتَيْن بعدَ ستة أشهر منَ استبدادِه، أولُها يومَ الثلاثاء الثالثَ عشَرَ من صَفَر من سنة عشرين، وآخِرُها يومَ السّبت آخِرَ دولة أبي محمد لكونِه دُخِل عليه القصرُ في هذا اليوم بمَرّاكُش وفي يوم الأحد بعدَه أشهَدَ على نفسِه بالخَلْع وتوفِّي ليلةَ[5] الأربعاء الخامس والعشرين لشعبانَ من عام إحدى وعشرينَ وست مئة[6].

وفي سنة إحدى وعشرينَ وست مئة: قام أبو محمد العادلُ بمُرْسِيَة وبويعَ بها، وطاعَت له بعضُ بلاد الأندَلس، وناب إليه بعضُ الموحِّدين، وبقي آخَرونَ[7] إلى أن

---

(١) ترجمته في التكملة الأبارية (٢٢٠٣)، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٨٣٣.

(٢) المعجب ٤١١، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٤٥، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٦٧٤.

(٣) شبه الجملة ليس في ق، ك.

(٤) المعجب ٤١٦، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٧٦٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٩.

(٥) في ق: «يوم»، وما أثبتناه من النسخ الأخرى.

(٦) المعجب ٤١١، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٦٧٤، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٨.

(٧) في ق: «الآخرون».

خَلُص الأمرُ له ووصَلتْه بيعةُ الموحِّدينَ من مَرّاكُش، وكتَبَ أبو محمد العادلُ من مُرْسِيَة، إلى أبي محمد ابن السيِّد أبي عبد الله ابن السيِّد أبي محمد البَيّاسيِّ حين انخلاعِه عن دعوة ابن أخي جَدِّه أبي محمد عبد الواحد ودخوله تحتَ دعوة العادل، كتابًا بالشُّكرِ والاعتناء، وكان أبو محمد عبدُ الواحد حين خَلَعه الموحِّدونَ في سنٍّ الشّيخوخة فنَسَخَ الخَلْعُ أمرَه قبلَ التمكُّن فعُدَّ في الأوامر المنسوخة، فما كان إلا القتلُ حتى تحوَّلت إلى غيرِه أجنادُه ومواكبُه.

ذكرُ دولة العادل ابن المنصور ابن الخليفة يوسُفَ بن عبد المؤمن

بُويعَ بمُرْسِيَةَ يومَ الثلاثاء الثالثَ عشَرَ لصَفَر من عام أحدٍ وعشرين وست مئة، وتوفِّيَ يوم السبت الحادي والعشرينَ لشوّال سنة أربع وعشرين، فكانت دولتُه ثلاثةَ أعوام وثمانيةَ أشهر وتسعةَ أيام، منها إلى أن خُلع أبو محمد عبدُ الواحد ستةُ أشهر وتسعةُ أيام، ولـمّا أصفَقَ الناسُ على بيعة العادل بمُرْسِيَة توجَّه منها إلى إشبيلِيَة، وكان أخوه أبو العُلى المأمونُ[1] واليًا على قُرطُبة وعبدُ الله البَيّاسيُّ واليًا على إشبيلِيَة، فبايعاه[2] بها، واجتَمع ثلاثتُهم فيها، وبها وصَلَه البيعاتُ من أهل الأندَلس ما عدا بَلَنْسِيَةَ ودانِيَة وشاطِبَة وجزيرة شُقر، فإنهم كانوا إلى نظَر السيِّد أبي زيد أخي البَيّاسيِّ المذكور وأخي أبي دبّوس، ثم وصَلَه بإشبيلِيَة بيعةُ أهل مَرّاكُش وبلاد الغَرْب. ولـمّا استقرَّ العادلُ بمَرّاكُش وَلّى أخاه أبا العُلى مدينةَ إشبيلِيَة ووَلّى البَيّاسيَّ قُرطُبَةَ، وذلك في سنة اثنتين وعشرينَ وست مئة[3].

وفي سنة اثنتين وعشرينَ وست مئة: استقامتِ الأمورُ والأحوال لأمير المؤمنينَ العادل بمدينة مَرّاكُش، فأقرَّ عُمّالَه على أعمالِهم وخُدّامَه على طبقاتِهم في أمورِهم وأحوالِهم وجميع أشغالِهم في البلاد الغَرْبية والأندَلسيّة، وكتَبَ عندَ وصُوله إلى الحضرة للأندَلس:

---

(١) ليست في ق، ك.

(٢) في ق: «فبايعه».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٩.

فصلٌ من ذلك

وأن تعلَموا رضيَ اللهُ عنكم أنّ الموحِّدينَ أعزَّهم الله لم يَزالوا يتعرَّفونَ في أوْبتِهم هذه من التيسير والتسهيل، واستصحابِ الصُّنع الجميل، ما قرَّب لهم كلّ قاصٍ، وذلّل لهم كلَّ عاص، ويسَّر كلَّ عسير وجَبَر كلَّ كسير، إنجازًا منه سبحانَه للمواعيد الصادقة، وصِلةً لأسباب العناياتِ اللاحقة، تنثالُ عليهمُ الخيراتُ انثيالًا، وتُوافيهم المسَرّاتُ بُكَرًا وآصالًا، وتتلقّاهم وفودُ الموحِّدين من كلِّ جهة أرسالًا يتسابقونَ إلى لقائهم تسابُقَ الطّير إلى الأوكار، ويتبارَوْنَ في حِفظ ما أُخِذ عليهم من الوفاء بما التزَموه من العقود تباريَ السُّراة الأحرار، وها هم بحمد الله قدِ انتَظَم شَمْلُهم واتّصل حَبْلُهم واجتَمعت أهواؤهم واتّفقت على إعزاز كلمة الحقِّ آراؤهم، وحَلُّوا بدارِ الموحِّدين ومطلَع الخُلفاء الراشدينَ الـمُهتدَين، حيث الجموعُ وافرة، والأعدادُ متكاثرة، وطائفةُ الحق متعاضدةٌ متظاهرة، وذلك حلولَ استدعاءٍ واستنفار، لا حلولَ إقامة واستقرار، عازمينَ على الجهاد، واللهُ تعالى يُمضي عزائمَهم، ويَجبُرُهم على جميل معتقداتِهم على جهاد أعداءِ الله الكفّار، فاعلموا وفَّقكم اللهُ ذلكم واللهُ يُبلِّغُكم آمالَكم والسلامُ عليكم.

وفي سنة ثلاث وعشرينَ وست مئة: قام عبدُ الله البَيَّاسيُّ بالأندَلس، وكان العادل وَلّاه قُرطُبة، فخلَع دعوةَ العادل وخَرج عن طاعة الموحِّدين واستعانَ بالنّصارى عليهم ودلَّهم على عَوَراتِ تلك البلاد، وأدخَلهم قيجاطةَ وغيرَها من بلاد المسلمين، فتمَلّكوا الأموالَ وقتلوا الرجال وسَبَوا الحَريمَ والأولاد. ثم دخَل بهم حِصنَ باجَة ولُوشَةَ وغيرِهما من الحصُون الإسلاميّة. وذُكِر عن هذا البَيّاسيِّ أمورٌ شنيعة، منها: أنه دخَل في دين النَّصرانية وكان شيخًا مُسِنًّا فنسأَلُ اللهَ العافيةَ وحُسنَ العاقبة[1].

ثُم نزَلَ البَيَّاسيُّ المذكورُ لعنه الله على إشبيلِيَة مُحاصِرًا لها وأبو العُلى أخو العادل فيها مُحاصَرًا بها، فخرَج إليه بعسكر المسلمين فهَزَمه اللهُ معَ مَن كان معَه من الكافرين في الخامس والعشرينَ لصَفَر من السّنةِ المؤرَّخة، وكتَبَ أبو[2] العُلى إلى أخيه العادل من إشبيلِيَة يخبره بهزيمة البَيّاسيِّ، فمن ذلك:

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٩.

(٢) سقطت من ق، ك.

الحضرةُ الإماميّةُ الظاهرةُ العَلِيّة، مقامَ الفضل الباهر، ومقرَّ العدل المشتهَر في البادي والحاضِر، حضرةَ سيِّدِنا الخليفة الإمام العادل أمير المؤمنين ابن الأئمة الخلفاء أمراءِ المؤمنين أدام اللهُ لها اتّصالَ البشائر وخلَّد في صُحُف اللّيالي والأيام ما لا يزالُ يجدِّدُه برحمتِه لها من قهر الـمُنافر ونَصْر المظاهر. عبدَها الباذلُ في خِدمتها العَلِيّة نفسَه ونفائسَه، وفي الذَّبِّ عن خلافتِها السعيدة وإمامتها الحميدة راجلَه وفارسَه، المشمِّرُ عن ساعدِ جَدِّه في مقارعةِ الصّادِّينَ عن قصدِه، بهمّةٍ في العمل المبرور منافسة، وعزمةٍ من النّصر الموعود غير آيسة، لِـما أحلَّه اللهُ من الـمُلِمّات بعدوِّه البائس وطائفتِه البائسة، عبدَها إدريس، سلامٌ كريم على المقام الإماميِّ ورحمةُ الله وبركاتُه، وبعدَ حمدِ الله الذي أَبَى إلا أن يُتِمَّ نُورَه، ويصلَ الخليفةُ العادل الفاضلُ اعتلاءه وظهورَه، والصّلاةُ على سيّدِنا محمد رسولِه المصطفى الكريم ذي الدعوة المنجزة والوسيلة المذكورة، وسيِّد الأوّلينَ والآخِرين، صَفْوة الصّفوة وخِيرة الخِيَرة، فكتَبَ العبدُ المسترَقُّ شخصُه وفؤادُه، المستحقُّ بغمر الأيادي والفضل المتمادي جَدُّه واجتهادُه، كتَبَ اللهُ للمقام العالي من أنباءِ المسارِّ ما يقترنُ به التواتر، ويرتفعُ به التشاجُر من إشبيلِيَة.

ومنها: ولـمّا كان يومُ كتابه نزَل العدوُّ المذكور فكانت بينَنا وبينَه مُواقفاتٌ غُلِب فيها باطلُه، ومُحي بعَوْن الله أملُه، وهو قَصَمه اللهُ يُحاولُ الانتهاض ويَرُومُ الاحتمال وبناؤه[1] قد مال، فوَلَّى أمامَ حزبِ الله الموحِّدين ما ابتَلَع ريقًا ولا وجَّه إلى غير الفِرار طريقًا، تكتنفُ السِّهامُ أذُنَيْه وتسبِقُ الشِّفارُ إليه، وتكادُ عُقبانُ المنايا الواقعةُ على جُزَعائه وجُرَحائه تقعُ عليه، فكم خلَّف خلفَه من قَتيل مضرَّج بدمِه وجريح عضَّ بنانَ ندَمِه، أردَتْه مواعيدُه الكاذبة وتمويهاتُه العائدةُ عليهم وعليه بسُوء العاقبة، وتَبِعتْهم أجنادُ الله إلى مَضاربِهْ فألفَوْها حُرَمًا مُصفِقةً بالرِّياح، لا بل خِلَقًا ممزَّقةً بالرِّماح، فد أخلاها جَزَعًا وخلَّاها فَزَعًا، وأوَى إلى رَبْوة ليست ذاتَ قَرارٍ ولا مَعِين، واستمسَكَ بعُروة لا تَثبُتُ معَ شمالٍ ولا يمين، وكانت الشمسُ قد وجَبَت وأسحَبَت، والظُّلمة قد أزِفت وأزلَفَت، فمَحَت الأشخاصَ من النّواظر، وعمَّت تلك الرَّبوةَ على الأقدام والحوافر، ولولا سوادُ اللّيل خامَرَه السِّنان المؤلَّل، وغادَرَه بالأثلاث لحمًا لا يُظلَّل.

---

(١) في ب، ق، ك: «وبقاؤه»، ولا معنى لها.

ومنها: وإنّ المحنةَ بهذا البائس قد بَلَغت مَداها، وانقَبَضت بعدَ البَسْط يداها، وانتهى إلى غايةٍ لا يتعدّاها، والحمدُ لله الذي أذَلَّ للخلافة العادلية أحدَ عُداتِها، وأنصَفَها من مُنازعِها بأداتِها، فكافرُ النِّعم تستحيلُ عليه نِقَمًا، وحاجبُ الشمس ضوءَها حافظًا بينَ ظلام وعَمَى، والموحِّدون عازمونَ على اتّباع هذا العدوِّ إلى أن يَدَعُوهُ عقيرًا أو يَستثبِلوهُ[1] أسيرًا إن شاء اللهُ تعالى. وكُتب في ربيع الأوّل من عام ثلاثة وعشرينَ وست مئة.

وكتَبَ أيضًا أبو العُلى لأخيه العادل يُخبرُه برجوع بلد طليطلة إليه[2] وانتزاعِها من يدِ البَيّاسيِّ المذكورِ بعدَما هَزَمَه.

وفي هذه السَّنة: رجَع أهلُ حصن القَصْر إلى والي إشبيلِيَةَ أبي العُلى وخَرجوا عن طاعة البَيّاسيِّ الذي مَحَى اللهُ أثَرَه عندَ جَوْلتِه الخائبة ودعوته الكاذبة، قدِ استمال جُملةً من حُصون الشَّرَف أتباعًا خَفَّت أحلامُهم وما رجَحَت، وخَفِيت عنهم سبيلُ الحقِّ فما وَضَحت، وتلقَّوه تلقِّيَ البِدار، وتطارَحوا عليه تطارُحَ الفراش على النار، وإذا أراد اللهُ بقوم سُوءًا أعمى بصائرَهم[3]، وطَوى على كُفر النِّعم سرائرَهم، وكان لـمّا فَتَح أبو العُلى حصنَ القَصْر المذكور واستمرَّ فتحُه لغيره من حصون الشَّرَف ولم يبقَ للبَيَّاسيِّ منها إلا الأقلّ.

وفي هذه السَّنة: قامتِ العامّةُ من أهل قُرطُبة على البَيّاسيِّ المذكور وقَتَلوه وبَعثوا برأسِه إلى إشبيلِيَة فبعَثَه السيّد أبو العُلى إلى حضرة مَرّاكُش إلى العادل، وكتَبَ عن أميرِ المؤمنين العادل جوابًا لأخيه أبي العُلى بعدَما ورَدَ إليه كتابُه معَ رأس البَيّاسيِّ يتضمَّنُ تقديمَ أخيه أبي العُلى المذكور[4] على قُرطُبة مضافةً له لإشبيلِيَة.

وفي سنة أربع وعشرينَ وست مئة: خالَفَت عَرَبُ الخلطِ على العادل، فجهَّز إليهم عسكرًا فهزَمتْه الخلطُ، وكان أوّلَ جيش جهَّزه العادلُ من عساكر الموحِّدين[5].

---

(١) أي: يبقوه، مأخوذ من الثبل، بالضم والتحريك، وهو البقية في أسفل الإناء وغيره، كما في معجمات اللغة.

(٢) شبه الجملة سقط من ق.

(٣) في ق، ك: «أبصارهم» وما أثبتناه أوفق للسجع.

(٤) سقطت من ق.

(٥) الاستقصا ٢/ ٢٣٢.

وفيها: قام بعضُ أشياخ الموحِّدين على العادل بمدينة مَرّاكُش حَرَسَها الله، ثم بعدَ ذلك قَتلوه، وكان السببُ في قَتْل العادل على ما ذَكَره بعضُ العارِفينَ بذلك أنّ الموحِّدينَ استعَدّوا لقتال الخلط وهسكورةَ، ووصَلت الحِصَصُ من جباهم برَسْم قتالهم، فاستأذَنوا في ورودِهم إليه وقدومِهم عليه، فوعَدَهم ليوم الخميس الآتي، ثم بعدَ ذلك بَلَغَهم عنه ما أغاظَهم من القول الذّميم لهم، فبينَما العادلُ قاعدٌ في القُبّة معَ كُبَراءِ الدولة، إذ أقبَلوا قاصِدينَ إليه، فعندَما عايَنَهم وفَهِم الشرَّ منهم، قام عن[1] مجلسِه ودخَل القصر، فاتّبعوه ودخَلوا عليه مسرعينَ لقتله، فتعرَّض لهم بعضُ الفِتيان فقَتلوا أحدَهم وقَتلوا للعادل ابنًا صغيرًا، واختفَى العادلُ حينَئذٍ، ثم بعدَ ذلك ظَفِروا به وقَتلوه وكتَبوا بيعتَهم لأخيه أبي العُلى المأمونِ وبعَثوا[2] بها إليه، ثم نَكَثوا إثْرَ ذلك عليه[3].

وفي هذه السَّنة: قام بإشبيلِيَةَ أبو العُلى المأمونُ ودَعا لنفسِه وخَلَع طاعةَ أخيه لتغلُّب الموحِّدينَ عليه، وبويعَ بها في الثاني لشهر شوّال على ما أذكر بعدُ إن شاء الله تعالى[4]. وكان من أوّل تخلُّص الأمر للعادل إلى أنْ دَعا أخوه[5] لنفسِه مُنازِعًا له ثلاثةُ أعوام وشهرٌ واحد وعشَرةُ أيام، أولُها الثاني والعشرون لشعبان من سنة إحدى وعشرين، وآخِرُها مفتَتَحُ شوّال لكونِ أبي العُلى بويعَ في الثاني منه ودخَل القصر على العادل بمَرّاكُش، وقيل: في الثاني والعشرينَ منه، فكانت مدةُ تنازُعِهما عشرينَ يومًا، وكان دخولُ الموحِّدينَ عليه القَصْرَ وقَبْضُهم عليه غُدوةَ يوم الأربعاء الثاني والعشرينَ المذكور، وقَتلوه بعدَ أربعةَ عشَرَ يومًا من خَلْعِه وعَزَموا على بيعةِ أخيه أبي العُلى. وقيل: إنهم بايَعوه بكَتْبِهم له ثُم نَدِموا على ذلك ونكَثوا عليه لكونِهم خَلَعوا عمَّه ثم قَتلوه ثم قَبَضوا على أخيه العادل وقَتلوه وقدَّموا ابنَ أخيه يحيى وتَركوا أبا العُلى لخَوْفِهم منه من فعلهم بعمِّه وأخيه إلى أن أمكَنَه اللهُ منهم.

---

(١) من هنا إلى قوله: «بعضُ الفتيان» سقط كلّه من م، والسقط والتحريف والتصحيف فيها كثير، وقد أضربنا عن تتبُّع ذلك في تعليقاتنا لكثرته، كما نوّهنا إلى ذلك قبلُ.

(٢) من هنا إلى قوله: «ودعا لنفسه» في الفقرة الآتية سقط من ب، ق، ك.

(٣) ينظر هلاك العادل في المعجب ٤١٦، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٩.

(٤) المعجب ٤١٦.

(٥) في النسخ: «أخاه» ولا يصح نحوًا.

ذكرُ بيعة يحيى ابن الناصر(١)

بُويعَ يومَ الأربعاء الثاني والعشرينَ لشوّال على الرِّواية المتقدِّمة، وتوفِّي يومَ الأحد منسلَخَ شوّال من سنة ثلاث وثلاثينَ وست مئة، فكانت دولتُه تسعةَ أعوام وتسعةَ أيام أولُها يومُ الأربعاء المذكور، منها من أول بيعتِه إثْرَ القَبْضِ على العادل إلى أوّل دولةِ الرّشيد إلى وفاة(٢) المُبايَع له بعدَ أخيه أبي العُلى خمسةُ أعوام وشهرانِ اثنان، ومنها من أوّل دولة الرّشيد إلى وفاة أبي زكريّا المذكور ثلاثةُ أعوام وعشَرةُ أشهر، أولُها يومُ الأحد مفتَتح شوّال وآخِرُها يومُ الأحد أيضًا منسَلَخ شوّال من سنة ثلاث وثلاثينَ وست مئة، وهو يومُ وفاة أبي زكريّا على ما سيأتي ذكرُه معَ بعض أخبارِه في دولة الرّشيد إن شاء اللهُ تعالى.

وكانت دولةُ يحيى نَكِدة كلُّها لم يستقرَّ له الأمرُ إلا نحوَ سنتَيْن، فلمّا وصَل عمُّه أبو العُلى هزَمَه وفَرَّ أمامَه وسار يَخوضُ في البلاد معَ بعض الموحِّدين إلى أن تحرَّك أبو العُلى إلى سَبْتَةَ وحاصَرَها، ودخَل يحيى مَرّاكُشَ أيضًا ثانيةً، ثم سَمِع عن وصُول عمِّه فخَرج منها وتَبِعَه الرّشيدُ بعدَ موتِ أبيه فهزَمه، ودخَل الرّشيدُ مَرّاكُشَ ثم بعدَ ذلك فَرَّ الرّشيدُ هاربًا أمامَ الخلطِ وهسكورة، ودخَلها أيضًا أبو زكريّا معَهم إلى أنْ جدَّد الرّشيدُ حركتَه من سِجِلماسَة والغَرْب ووصَل مَرّاكُشَ فهزَمه وفَرّ أمامَه، فما زال بعدَ ذلك يخوضُ في البلاد إلى أن غَدَره بعضُ عَرَب المعقِل وبَعثوا رأسَه إلى الرّشيد في أوائل شهرِ ذي القَعْدة من عام ثلاثة وثلاثينَ حسبَ ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ بيعة أبي العُلَى المأمون ومدّتِه وبعضِ أخبارِه معَ الموحِّدين في دولتِه(٣)

هو أبو العُلَى(٤) إدريسُ بن أبي يوسُف يعقوبَ المنصورِ بن أبي يعقوبَ يوسُف بن عبد المؤمن، بُويعَ بإشبيلِيَةَ يومَ الخميس ثاني شهرِ شوّال من سنة أربع وعشرينَ وست مئة،

(١) المعجب ٤١٦.

(٢) قوله: «إلى وفاة» سقط من ب، ق، ك.

(٣) المعجب ٤١٦، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٨٧٦، والإحاطة ١/ ١٤٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٠، والاستقصا ٢/ ٢٣٦.

(٤) الكنية مجودة بخط الذهبي في تاريخ الإسلام، ووقع في بعض المصادر: «العلاء» وهو خطأ.

وتوفِّي يومَ السبت منسَلَخ ذي الحجة من سنة تسع وعشرينَ وست مئة، فكانت دولته خمسةَ أعوام وثلاثةَ أشهر، منها، من أوّل تنازُعِه معَ أخيه العادل إلى يوم دخول القَصْر عليه بمَرّاكُش وبَيْعة أبي زكريّا بن الناصر، عشرون يومًا، ومنها من أول دولة أبي زكريّا إلى يوم وفاة المأمون المذكور خمسةُ أعوام وشهرانِ اثنان وتسعةُ أيام، أوّلُها يومُ الأربعاء الثاني والعشرين لشوّال من سنة أربع وعشرين المؤرَّخة، وآخِرُها يومُ السّبت منسَلَخ ذي الحجة من سنة تسع وعشرينَ وست مئة، فكانت دولةُ المأمون مزدِحمةً كلُّها مع العادل ومعَ أبي زكريّا.

وسببُ بيعة أبي العُلى المأمونِ بإشبيلِيَة أنه لـمّا قام أخوه العادلُ بمُرسِيَة ودَعا لنفسِه بها وبُويع فيها وخَلَع الموحِّدون عمَّه عبدَ الواحد بمَرّاكُش وبعَثوا إليه بيعتهم واستقامت له الأمور، تحرَّكت نفْسُ أخيه أبي العُلى المذكور لطلب الإمرةِ والخلافة، فما زال يشغَلُ نفسَه بذلك ويستميلُ نفوسَ الموحِّدينَ المستوطِنين هنالك.

وكان معَه بإشبيلِيَةَ المذكورة جُملةٌ من وجوه الموحّدين وأشياخِهم، فلم يُمكنْهُ إظهارُ ذلك لهم؛ لأنه لا يَعلَمُ ما يَصدُرُ له منهم ولا يَعلَمُ ما في نفوسِهم له من القَبول على مرادِه أو الإضراب عنه، فأخَذ في ذلك معَ القاضي أبي الوليد بن أبي الأصبَغ بن حجّاج، وذلك في شهر رمضانَ المعظَّم من عام أربعة وعشرينَ المذكور، وأمَرَه أن يُنشئَ[1] خُطبةً بليغة، فذكَرَها يومَ عيد الفطر، وكان قريبًا من هذا التدبير ليَستروِحَ في ذلك لذكرِه وليَعلَمَ ما في نفوس الموحِّدينَ من أمرِه، فشَرعَ القاضي في إنشاءِ الخُطبة المذكورة وخَطَب يومَ العيد، وكان مساقُه لها أنْ بدَأ بخَلْق السَّمواتِ والأرض ثم ذكَر قولَ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم ذكَر ما معنى الخليفة، إلى أنْ ذكَر الـمَهْديَّ ثم ذكَر عبدَ المؤمن إلى أنْ وصَل لذكر العادل، فأخَذ فيه مأخَذًا حسَنًا وتسلَّل منه بلُطف وتسبَّب لذكرِ أخيه أبي العُلى، ورقَّق وعرَّض، ثم أخَذ بعد ذلك بأنْ أشار بالتّصريح لذكره والتلويحِ بالقيام بأمره، ومعَ ذلك كان الخطيبُ المذكور وأبو العُلى في غاية من الخوف والحَذَر، إذ لم يكنْ عَلِم أحدٌ بذلك غيرُهما ولا دبَّر ذلك الأمرَ أحدٌ معَهما.

---

(١) من هنا إلى قوله: «لذكره» سقط من ب.

ولقد عرَّفني من أثِقُ به أنه شاهَدَ رِعدةَ الخطيب في وقوفه، بحيث أنه كان قريبًا من السقوطِ إلى الأرض، وكلُّ ذلك من شدّة الخوف من عاقبة الأمر.

فلمّا كان ثاني يوم الفِطر حضَر في مجلس أبي العُلى أشياخُ الموحِّدين وأشياخُ إشبيلِيَةَ أجمعين، ووقَعَ ذكْرُ الخُطبة وإجادتِها، وأمَرَ القاضي الخطيبَ بإعادتِها ليسمَعَها مَن لم يعلَم القصدَ بها، فأعاد الدعاءَ للخُلفاء، فلمّا وصَل لذكر أبي العُلى أطنَبَ فيه، فقام الحاضِرون بجَمْعهم إليه وأخَذوا بيده وأقعَدوه مقعدَ الخلافة وبايَعوه.

ولـمّا اتّصل ذلك بالموحِّدينَ بمَرّاكُش فَعَلوا ما فَعلوه معَ العادل بعدَما كتَبوا إليه وعوَّلوا في الخلافة عليه، ثم نَدِموا وقدَّموا ابنَ أخيه كما تقدَّم ذكرُه، فهاجت نفسُه لذلك واتَّقدت جَمْرتُه لهم هنالك، فبقيَ بإشبيلِيَةَ يحاولُ أمرَه، ليأخُذَ منهم ثأرَه، إلى أن كان ذلك على ما سيأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

أبناؤه: أبو محمد عبدُ الواحد وعبدُ العزيز وعثمان وأبو الحَسَن عليّ. **بناتُه:** أمَةُ العزيز وصفيّة وعائشةُ ونَجْمة وفَتْحُونة؛ وأُمّهاتُ الذكورِ والإناث رُوميّات وسَرِيّات.

وُزراؤه: أبو زكريّا ابنُ أبي الغَمْر وغيرُه.

وكتَبَ له جملةٌ من الكُتّاب منهم: أبو زكريّا الفازازيُّ وابنُ عَميرة، وأبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ، وأبو عبد الله بنُ عيّاش، وأبو العبّاس بن عِمران، وغيرُ هؤلاء من الكُتّاب.

ولـمّا بويعَ أبو العُلَى المأمونُ بإشبيلِيَةَ طاعت له بعضُ بلاد الأندَلس وبايَعه بها السيِّد أبو زيد صاحبُ بَلَنْسِيَة وكتَبوا بيعتَهم إليه.

وفي سنة خمس وعشرينَ وست مئة: كان ابتداءُ ظهور أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن هُود الجُذاميِّ[1] بشَرْق الأندَلس على ما أذكُره، وذلك أنّ السببَ في ابتداءِ ظهورِه ونُجح أمورِه في رجَب من هذه السنة المؤرَّخة هو القائدُ الغشتيّ، وكان هذا الغشتيُّ رجلًا حوّاسًا[2] وتحتَ يدِه جماعةٌ كبيرة من أراذلِ الناس السِّفْلة الخِسَاس، وصاروا له أعوانًا وجُسّاسًا، فكان يقطعُ بهم الطُّرُقات في تلك النواحي والجهات، كأنّهم

(١) المغرب لابن سعيد ٢/ ٢٥١، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠، والإحاطة ٢/ ١٢٨.

(٢) أي: لصًا.

مُغاوِرونَ فيها للرُّوم المجاوِرينَ إليها، حتى اشتدّ ضَرَرُه هنالك بالأرض ومَن عليها، ولحِقَ أذاه المسلمينَ المتردِّدينَ في طُرُقاتهم لتجاراتهم. وكان هذا محمدُ بن يوسُف رجلًا من أصناف الجُند بمُرْسِيَةَ وغيرِها لكنّه كان لأسلافِه القُدماءِ تقدُّمُ مُلك تلك البلاد الشّرقية الأندَلسيّة تقلَّدوا حُكمَها قديمًا وأمرَها، فقيل: إنّ بعضَ المنجِّمينَ كان يقول لبعض أُمراء بني عبد المؤمن: إنّ قائمًا يقومُ عليكم بتلك البلاد يكونُ من صِنف الأجناد اسمُه محمد بن يوسُف، فقَتلوا بسبب ذلك شخصًا بجَيّان يُسمَّى بذلك الاسم، وظَنُّوا امتحاءَ[1] ذلك الرَّسم، فوقَع في النفوس من ذلك ما وقَع إلى أنْ خَرج ابنُ يوسُفَ هذا من مُرْسِيَة إلى مَرّاكُش في خِدمةٍ بمخاطبةٍ إلى أميرِ المؤمنين المستنصِر بالله فوصَل بالـمُخاطبة إليها واسمُه مكتوبٌ فيها، فصُرف بعدَ أيام من مَرّاكُش إلى بلادِه فقيل: إنه لم يُعطَ كتابًا ولا جوابًا وإنّما خَرج فارًّا بنفسِه خائفًا على رأسِه.

فلمّا كان في بعضِ الأيام لقِيَه شخصٌ منجِّم يدَّعي ذلك العِلمَ بزَعْمِه ويَحكُم بما يراه في نَجْمِه، وذلك كلُّه بحُكم الله سبحانه الذي سبَق في علمِه، فنَظَر إليه وقال له: يا أبا عبد الله، أنت هو سلطانُ الأندَلس، فانظُرْ لنفسِك وانْجُ برأسِك، فإنّي رأيتُ فيك علامةَ الـمُلك وتصييرِه إليك، وأنا أدُلُّك على مَن يقيمُ لك مُلكَك وأشيرُ به عليك، فانهضِ الآنَ إلى المقدَّم الغشتيِّ، ومعَه يقومُ أمرُك وحالُك، وتكونُ جماعتُه خُدّامَك ورجالَك، فنهضَ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُفَ المذكورُ إلى تلك الجماعة ومقدَّمِها الغشتيِّ المشارِ إليه[2].

فلمّا وصَل إليه وقَصَّ خبَره عليه سُرَّ الغشتيُّ بذلك سُرورًا عظيمًا، وكان محمدُ بن يوسُفَ هذا على فَرَس ذكرٍ أشهَب، وبه استدَلّ الـمُخبِرُ له فيما زَعَم من عِلمِه، وذلك من العَجَب، فكان هذا الحصانُ عندَ ابن هود ذا شأنٍ وعزّة، فقال المقدَّم لابن هود: ما بيني وبينَك كلامٌ في شيء منَ الأشياء حتّى نخرجوا معَك للمغاورة ونجتمعوا عليك ونَنْسوا خروجَنا إليك، فخَرجوا على سَعْدِه إلى جهة من جهات الرُّوم فاكتَسَحوا ما فيها

---

(١) في ك: «محو»، وهو بمعنى.

(٢) تنظر الإحاطة ٢/ ١٢٨.

من البَقَر والأَسرى، وكان قدِ انضافَ إلى ابن هود أُناسٌ آخَرونَ اتّبعوه ثم زادوا إثْرَ تلك الوِجهة طائفةً أخرى وانضافوا جميعًا معَ طائفة الغشتيِّ فنهَضوا إلى موضعٍ يُعرَف بالصُّخَيْرات[1]: بمقرُبة من مُرْسِية، فبايَعوه هنالك، فتسامَعَ الناسُ بذلك فبادَروا إليه خِفافًا وثِقالًا فُرسانًا ورجالًا، لعلمِهم بما وقَعَ بينَ الموحِّدين وأُمرائهم من خَلْعِهم لمخلوعِهم وقَتْلهم لعادلِـهم الذي كان واليَ مُرْسِية. ثم وَلِـي بعدَه مُرْسِيَةَ السيّدُ أبو العباس بنُ أبي موسى بن عبد المؤمن، وهو الذي خَرج عليه ابنُ هود في هذه السنة فخَرج إليه بعسكر من مُرْسِيَة فهَزَمه، ثم خَرج إليه والي بَلَنْسِيَةَ السيّدُ أبو زيد فهزَمه واستَولى على محلّته، وعاد إلى مُرْسِيَة فزَحَف بجَمْعِه إليها برايةٍ سوداءَ يدَّعي أنه قائمٌ بدعوة بني العباس، فبايَعَه فيها لَفيفُ الناس، ونَبَذوا طاعةَ الموحِّدين وارتفَع عنهم بذلك الشكُّ والالتباس، وشاع ذكرُ ابن هُود في الأندلس وأقطارِها، إلى أنْ ملَكَ البلاد وجنَّد الأجناد، وعاهَدَ لصاحبِه الغشتيِّ أنه إنْ ملَكَ مُلكَ البلاد الأندلسيّة أن يُعطيَه القيادةَ البحريّة، فكان ذلك كما عاهَدَه وواعَدَه، فلمّا ملَك إشبيلِيَةَ أعطاه قيادةَ أساطيلِها والنظرَ في أحوالِـها، إلى أن طاعت له سَبْتةُ فأعطاه إيّاها قيادةً وعملًا تنويهًا به، فلمّا علا سَعدُه وكمُل، قام عليه أهلُ سَبْتَةَ وأرادوا قتلَه، ففَرَّ أمامَهم وخَفِي أثرُه إلى أن تُحقِّق بعدَ ذلك خبرُه، فقيل: إنه دخَل في زَوْرق صغير ليهرُبَ فيه إلى الأندَلس أمامَ أهل سَبْتة، فحُمِل في أيدي العدوِّ أسيرًا فحُمل إلى جبهة غَرْب الأندَلس ودام في الأسر أعوامًا كثيرة وشهورًا، ولو عَلِموا أنه الغشتيُّ لقَتلوه أو طَلَبوا منه مالًا كثيرًا، لأنه كان قد أضرَّ بهم في البحر وله فيهم جُملةُ غَزَوات قتَلَهم فيها واستَأْصلَهم، وشاع ذكرُه في الآفاق حتى ضُرِب به المثلُ لزعامتِه وشهامته، وخَرج من الأندَلس في شيخوخته، وله أخبارٌ يطولُ ذكرُها، ومات برِباط أَسَفي رحمه اللهُ تعالى.

رَجْع الخبر إلى ابنِ هود[2].

---

(١) الروض المعطار ٣٥٥ وفيه: الضخور.

(٢) الإحاطة ٢/ ١٢٩.

ذكرُ بعض أخبار الدّولة الـهُوديّة الـمُتوكِّليّة
وقيامِها بالدّعوة العباسيّة في البلاد الأندَلسيّة

بُويعَ ابنُ هود بمُرْسِيَة غُرّةَ رمضانَ المعظَّم من سنة خمس وعشرينَ المؤرَّخة، وتسمَّى بأمير المسلمينَ ومعزِّ الدِّين، وتلقَّب بالمتَوكِّل على الله، وقام بدعوة الخليفة أبي جعفرِ المنتصِر بالله[١]، فسمّاه مجاهدَ الدِّين سيفَ أميرِ المؤمنين عبدَ الله المتوكِّلَ عليه أميرَ المسلمين، وهكذا كان يُكتَبُ عن ابن هود في أوائل كُتُبه، **علامتُه**: توكَّلتُ على الله الواحد القهّار، وعلامةُ أخيه أبي النّجا: وثِقتُ بالله وحدَه. وكان لسائر إخوتِه علاماتٌ في كَتْبِهم وألقابٌ يمتازونَ بها في رعيّتِهم، فسُمِّي أبو النّجا سالـمٌ عمادَ الدّولة، وأبو الحَسَن عَضُدَ الدّولة، وأبو إسحاقَ شرَفَ الدّولة، فكان يُكتَبُ عنهم: من الأمير فلان. وتوفِّي المتوكِّلُ على الله في سنة خمس وثلاثين، فكانت دولتُه عشَرة أعوام أو نحوَها، قتَلَه ابنُ الرميميِّ بقصر المرنة، قيل: بالسُّم وقيل: بمِخَدّة، وذكَرَ الناسُ في سبب قتلِه أقوالًا، وسأذكُر بعضَ أخبارِه على مرور السِّنين[٢].

وفي هذه السنة، وهي سنةُ خمس وعشرين: تحرَّكَ المأمونُ بعساكره من مدينة إشبيلِيَة إلى مُقاتَلة ابن هود، فالتقَيا فهَزَم المأمونُ لابن هود أشنعَ انهزام وكتَبَ إلى أهل إشبيلِيَة بشَرْح الأحوال لهم فيها والإعلام، وامتَدَحت المأمونَ أبا العُلَى جماعةٌ من الشعراء، فقابَلَهم بأجزلِ العطاء على هذه الهزيمة وغيرِها، فمنهم: الكاتبُ أبو زيد عبدُ الرّحمن الجُزُولي، قال يمدَحُه في قصيدة طويلة منها [من الكامل]:

كـــلٌّ يقـــولُ ونَـــصْرُكمْ مـــأمونُ ... والـيُمنُ منـه عـلى الفتـوح ضمينُ
في كـلِّ محمَـدةٍ عـلى المـأمونِ عبـــ ... ـــدِ الله زاد أبـــو العُـــلَى المـــأمونُ
معنـــى الخلافـــة سرُّهـــا مختارُهـــا ... مأمونُـــــها ميمونُـــــها الميمـــــونُ
نـصرُ الإمـام أبي العُـلَى جـارٍ عـلى ... حُكـم القـضاء وإنــه لَـــمكينُ
اللهُ أيَّـــد أمـــرَه وقـــضَى لـــهُ ... بـــالظَّفْر بالأعـــداءِ وهـــو جَنـــينُ

---

(١) هكذا لقّبه، وهو المستنصر بالله، أبو جعفر منصور بن محمد بن أحمد.
(٢) الإحاطة ٢/ ١٣٢.

نطَـق الزّمــانُ بــه وقــال محقِّقًـا ... إذ ذاك أمـــرُ الله فهْـــو مُبـــينُ

رَفَعـت لـه أيـدي الـسعودِ مَبانيًـا ... مـن فوقِهـا حِـصنٌ عليـه حـصينُ

قامت عـلى أُسسِ الهداية فاعتَلَـتْ ... ومَنارُهــا للمتقــدِّمينَ[1] الــدِّينُ

وسـماؤها النّـصرُ العزيـزُ وأرضُـها ... تقــوى الإلـــه وإنـــه لَـــمُعينُ

أضــواءُ أسرار الخلافــة كلُّهـــا ... بيـــد الخليفـــة حـــبْلُهنَّ متـــينُ

اهنَـــأْ أمـــيرَ المـــؤمنينَ أبـــا العُـــلَى ... اهنَـــأْ فـــأمرُك في العُـــلَى مكنـــونُ

ومنهم: الكاتبُ أبو جعفرٍ ابنُ الكاتب أبي عبد الله بن عيّاش، قال من قصيدة أولُها [من الطويل]:

فــؤادي بأمــداح الخليفــة هَـيْمانُ ... ففيــه اعتــزازٌ والتغــزُّلُ إذعــانُ

علَوْتُ ومقصودي الإمامُ أبو العُـلى ... وفي مَـن أياديـه عـلى المدح سـلطانُ

قـصدتُ أمـيرَ المـؤمنين بمدحِـه ... فأمداحُــه للمــرءِ يُمــنٌ وإيــمانُ

هُـــو المِلِـــكُ المـــأمونُ لله درُّه ... نَــماه إلى بيــت النبــوّة عــدنانُ

فــما الأصــلُ إلّا للنبــوّة ينتمــي ... ومن طِيب ذاك الأصل تنعُمُ أغصانُ

فطاعتُـه فـرضٌ عـلى النـاس كلِّهـمْ ... وعـــصيانُه لا شـــكّ لله عـــصيانُ

بقِيــتَ أمــيرَ المــؤمنين مؤيَّـــدًا ... فإنـــك رُوحٌ والبريّـــةُ أبـــدانُ

ولا زال أمـــرُ الله يقـــصُدُ أمـــرَكمْ ... ويحرُسُـه طَـرْفٌ مـن النّـصر يقظـانُ

ومنهم: أبو الحَسَن عليُّ بن الفَضل، قال من قصيدة طويلة يمدَحُه [من مجزوء الرمل]:

ملَـــكَ العُليـــا إمـــامٌ ... مالـــكٌ دُنيـــا ودينـــا

---

(١) كذا في النسخ، ولا يقوم للعجز وزن على البحر الكامل، بحر هذه القصيدة، بهذه الكلمة، وقد جعلها ناشرو (م): «للمتّقين».

وأتـــى الجـــامعَ زُهـــدًا　　مـــعَ جَمْـــعِ الزّاهـــدينا[1]
عقَـــدوا الرايـــاتِ فيـــهِ　　عَقْـــدَ عَـــزْمِ مُجْبتينـــا
وإلـــهُ النـــاسِ يقـــضي　　لهـــمُ الفـــتحَ الـــمُبينا
أيُّهـــا المـــأمونُ صـــمِّمْ　　تَـــصْطَليهمْ أجمعينـــا
وجـــزَاكَ اللهُ عنّـــا　　بجـــزاءِ الـمُحـــسِنينا

ومنهم: أبو أُميةَ إسماعيلُ بن سَعْد السُّعود بن عُفَير، فمن ذلك قولُه من قصيدة أولُها [من الكامل]:

حـــسْبُ الإمامـــةِ أنّـــك المـــأمونُ　　لاقـــاكَ طـــالعُ ســـعدِك الميمـــونُ
حسَمَت خلافتُك الخلافَ كما بدا　　بـــسَناك نـــورُ الحـــقِّ فهْـــو مُبـــينُ
فعـساكَ عيـسى تَـنجلي بـك فتنـةٌ　　دجّالُـــــها بـــــسفالةٍ مفتـــــونُ
سيَرى مُطيعُ هواه كيف يخونُ مَن　　رُوحُ الإلـــه عـــلى حِمـــاه أمـــينُ
لكـــنّ أمـــرَ الله فـــيهمْ والـــذي　　أرجـــاه مـــن ميعـــادِه سِـــجِّينُ
مَـــن رام يـــا مـــأمونُ كيـــدَكَ إنّـــما　　كـــاد الإلـــه وذاك كيـــف يكـــونُ
يا ابـنَ الخلائـف يـا خليفتَنـا الـذي　　نَـــسَقُ الفتـــوح بـــسعدِه مـــضمونُ
يُهنيـك بـل يُهنـي الأنـامَ بـشائرٌ　　يُـــصغي العـــراقُ لـــذكرِها والـــصِّينُ
ودعاؤنـا عنـدَ الأصـائل والـضُّحى　　كلأتْـــك عـــينُ اللهِ يـــا مـــأمونُ

ولم تزَلِ الشّعراء تمدَحُه في كلِّ وقت، فيقابلُهم بالبَذْل لا بالـمَقْت.

ولـمّا صدَر أبو العُلَى المأمونُ من حركتِه بعدَ مقابلةِ ابن هود وهزيمتِه واستقرَّ بإشبيلِيَة حضرتِه، وصَلتْه بعضُ البيعات من بلاد المغرب ووصَلتْه بيعةُ هلال بن مُقدَّم الخلطيّ وأنه تحت طاعتِه وداخِلٌ في سِلكِه وجماعتِه، وأنه لا يتبَعُ يحيى ولو سقاه بكأس

(١) سقط قوله: «جمع» من ك، والعجز مكسور بها أو بدونها. ولعل ما يرمّ الوزن أن يقول: «مع جميع الزاهدينا».

الـمَحْيَا، فكتَبَ له أبو زيد الفازازيُّ عن إذْن المأمون شعرًا يَشكُرُه على فعلِه، ويعِدُه فيه بأقصى أملِه، وهو [من البسيط]:

الطَّعنُ والضّربُ منسوبانِ للعَـرَبِ ... بالـسَّمهريّة والـهِنديّة القُـضُبِ
والحـربُ تبعَـثُ منهـا كـلَّ معـتَرَكٍ ... حفائظًـا تـترُكُ الأعـداءَ في حـرَبِ
حازوا الوفـاءَ إلى الإقـدام وانتَـسَبوا ... إلى خـلال المعـالي كـلَّ منتـسَبِ
تجـشَّمت جُـشَمٌ نـصرَ المعِـدِّ لهـا ... أسنى الجوائز من مـال ومـن نـشَبِ
وجـاءت الخلـطُ المـشكورُ مقـدَمُها ... كالأُسْدِ تبدو عليها سَوْرَةُ الغـضبِ
خَفُّوا إلى نصر حـزبِ الله واحتَفَلـوا ... في عسكر صَخِبٍ أو جَحْفَل لَـجِبِ
كتائبٌ ضاقت الأرضُ الفـضاءُ بهـا ... في ظـلِّ ألويـة منـشورةِ العـذبِ
فمـن صـوارمَ مثـلَ النّـار في صُـعُدٍ ... ومـن سـوابقَ مثـلَ المـاءِ في صَـبَبِ
بحـرٌ عـلى الـبرِّ مـرتجٌّ غواربُـهُ ... من فوقِـه قِطـع الرايـات كالـسُّحُبِ
شـواهدٌ صَـدَقت فـيهمْ مخايلُهـا ... بها لهمْ من صـميم الـدِّين والحـسَبِ
تـذكَّروا مِـنَنَ المنـصور فـاعترَفوا ... لنَجْلِـه بعـدَ كـرّات مـن الحِقَـبِ
والفضلُ يبدو عـلى الأحـرار رَوْنقُـه ... وليس يخفى على الباقي مـن الحقـبِ(١)
أمّـا هـلالٌ فقـد أوفَى بذمّتِـه ... وفـاءَ راعٍ لحـقِّ الـدِّين والأدبِ
رأى الخلافـةَ حَلّـت غـيرَ موضـعِها ... فأدركتْـه عليهـا غَـيْرةُ العـربِ
وقـال لا سِـلمَ حتـى يُـستقادَ لهـا ... من ظُلم مستلبٍ أو جَـوْر مغتـصِبِ
وسـلَّم الأمـرَ لـلأوْلى الأحـقِّ بـهِ ... بالرّغم من أنْف أهل الغَـدْر والكـذبِ
وافَـتْ مـصرِّحةً بـالوُدِّ بيعتُـهُ ... طليعـةً بجزيـل النّـصر والغَلَـبِ
جمعًـا لفـضلَيْن يلقَـى الحُـسنَيَيْن بـهِ ... نصرِ الكتائـب في الهيجـاءِ والكتُـبِ

---

(١) سقط البيت كلّه من ك.

صبرًا أبا النّجم صبرًا إنها ظُلَمٌ ... تُجلَى وتُمحى بفضل الله عن كثَبِ
ودُمْ على حالةٍ تُجنَى عواقبُها ... أذكى من المسكِ في أحلى من الضَّرَبِ(1)
فعندَ ذلك إيثارٌ ومَرْتَبةٌ ... تنحَطُّ عنها مزايا سائر الرتَبِ
وسوف تلقَى بعَوْن الله مأثُرةً ... تحظَى براحتها من سائر التعبِ

ولـمّا تحصَّلت هذه القصيدةُ بيد يحيى بن الناصر، ورأى ما فيها من التحميد لهلال بن مقدَّم الخلطيِّ، أمَرَ الأُستاذَ أبا عبد الله ابنَ الصّفّار المعروفَ بالبرنامَج، أن يجاوبَه عليها وينهَجَ في هلالٍ غيرَ تلك المناهج، فقال الأستاذ [من البسيط]:

نسبتَ شرَّ عَبِيد العُجْم للعَرَبِ ... جهلًا بفضل رسُول الله والنَّسَبِ
أَصِخْ لتسمَعَ أنسابَ الذين همُ ... شعارُكمْ في الخطوبِ السُّود والنُّوَبِ
كانت عَبيدُ العصا للقُرمطيِّ فإذْ ... وافَى الموفَّقُ لاذت منهُ بالهَرَبِ
حلّت محَلّاةَ بتراءٍ فقد رحَلتْ ... عنها بنو جُشَم من مائها الأَشِبِ
خانَتْهم الخيلُ رَيْعان الشياهِ لها ... فلم تضرْها وجَدّت بعدُ في الطلبِ
لو أُعلِمت وائلٌ يومًا بدعوتِها ... فيها لَـما شرِبت ماءً من الغضبِ
ونيطت الخُلَّطُ الرُّدّى بهم نسبًا ... كأنها القَبَسُ الصّيفيُّ بالذنبِ
فإن تكنْ في الوغَى من طلحةٍ سَلِمت ... فذا الموفَّقُ وصفًا ليس باللقبِ
وليس من رَهَب يُنجيهمُ هربٌ ... ما يَبعُدوا يقرُبوا للحين والشّجبِ
أمّا هلالٌ فقد حاق المحاقُ بهِ ... لاقَى الوَبالَيْنِ من حَرْب ومن حَرَبِ
حَلّ الحضيضَ سقوطًا وهْو محترقٌ ... تحتَ الشُّعاع بشُهب الهند لا الشُّهُبِ
وغرَّه خُلَّبٌ من شاعرٍ ملقٍ ... فنال صاعقةً لا واكفَ السُّحُبِ
وظلَّ من رُتَب العليا على عدةٍ ... فالتُّربُ يَعلوه ما يرقَى على الرُّتَبِ
وصار يطمَعُ في مالٍ وفي نشَبِ ... وصار منتشبًا في بَرْثَن النشبِ

---

(1) الضرب، بسكون الراء: العسل الأبيض، وبالتحريك أشهر، كما في معجمات اللغة.

فقـــل لـــهُ لـــو أرادَ الخـــيرَ فـــاز بـــهِ الصّيفِ ضيَّعتَ جهلًا حافلَ الحَلَبِ
لـمّا أوَتْ عاصمٌ للدِّين واعتـصَمتْ بحبلِـه نالـت الـدّنيا بـلا نـصَبِ
فـإن يكـنْ مهتـدٍ منهـا بكـمْ فكـما تُلقـى خـلال رمـادٍ قطعـةُ الـذّهبِ
ومَـن عَـصَا مـنكمُ فـالموتُ يَطلُبُـه يُمسي ويُصبحُ معـدودًا مـن النّهـبِ
والحقُّ شـمسٌ سَـناها لـيس يَحجُبُـهُ وإن تَـراكم غَـيْمُ الـزُّور والكـذبِ
يحيـى خليفــةُ ربِّ العالَـــمينَ ومَـن يجهَلْه يُعلِمْه حظُّ الـسُّمرِ والقُـضُبِ
نـال الخلافـةَ عـن خُـبْرٍ وعـن خَـبَرٍ محقَّـــقٍ وبـــإرثٍ عـــن أخٍ وأبِ
اختـــاره اللهُ فاختارتـــه صـــفوتُه مـن البريّـة أهـل الـدِّين والحسَبِ
لم يذخُروا نُصحَهم للدّين واجتهدوا ما كان عن رَهَـب مـنهمْ ولا رَغَـبِ
ليست بنَـكْث ولا كُتْب قد اختَلَفت ولا كتائـبِ أهـل البَغْـي والـصُّلُبِ
لم ينتصرْ بالنَّصارى والبُغاة عـلى الــ ـــمُطهَّرينَ مـن الأدنـاس والرِّيَـبِ
خليفـــةٌ مرتـــضَى أنـــصارُ دولتِـــهِ أنصارُ أمرِ الـهُدى الباقي على الحِقَـبِ
طعنُ الصُّدور وضربُ الهام عنـدَهمُ مـاءُ الحيـا شَـبِمًا قـد شُـجَّ بالـضَّرَبِ
قُبحُ الوغَى عندَهمْ حُسنٌ وراحـتُهمْ ما نالَـهم في اعتلاءِ الدِّين مـن تعـبِ
وحـــرُّ جاحِمِهـــا بَـــرْدُ العـــشيّةِ في رَوْض عليـل نـسيمًا غِـبَّ منـسكِبِ
أيـا إمـامَ الــهُدى إنّ الـبلادَ لكـمْ شرقًـا وغربًـا فنائيهـا كمقـتربِ
وإن يُجادلْـك في المنـصور ذو جَـدَلٍ فنَجْلُ نُوح ثَـوى في قـسمة العَطَـبِ
وإن يقــلْ أنــا عـــمٌّ فـــالجوابُ لـــه عــمُّ النبــيِّ بــلا شــكٍّ أبــو لهــبِ
وهـــل يمُـــتُّ بـــشيءٍ لا تـــمُتُّ بـــهِ بل زدتَ فخرًا، ملأتَ الدّلوَ للكَرَبِ
إذا عـــصاك مطيـــعٌ لـــيس منتفعًـــا يــومَ القيامــة بالطاعــات والقُــرَبِ
ويُرتـجَى العفوُ للعـاصي بطـاعتِكمْ فإنّهـــا ســـببٌ ناهيـــكَ مـــن ســـببِ

أيُمــــنَحُ المــــرءُ والقهّـــارُ يمنَعُـــهُ ... ويوهَــبُ المرءُ والوهّــابُ لم يَـــهَبِ

فَـــدُمتَ للــدِّين تحميــه وتحفَظُــه ... مـن كـلِّ بـاغ وعـادٍ عابـدِ الـصُّلُبِ

وكتَبَ يحيى ابنُ الناصر حين ذلك يَستجلبُ الناسَ لطاعته ويُرغِّبُهم في حزبِه وجماعتِه من إنشاء كاتبِه أبي الحَسَن السَّرَقُسْطيّ، وذلك بعدَ الصَّدَر:

والذي نوصيكُم[1] به تقوى الله والاستعانةُ به والتوكُّل عليه، وأن تَعلَموا أنّ أمورَ الرعيّة لا بدَّ لها من حافظ يحفَظُها ويراعي حقَّ الله فيها ويجهَدُ في صَلاح أحوالها وتلافيها، فإنّها لا تَصلُح إلّا بسُلطان يَزَع، وعامل يَسُوس ويردَع، بهذا يكونُ قِوام العالِـم، ويَنتصِفُ المظلومُ من الظالم، وبه تكونُ الدَّعةُ والأمان، وقد جاء في الشّرع: «يزَعُ اللهُ بالسّلطان ما لا يزَعُ بالقرآن».

ولـمّا كانت هذه القِلادة لم تزَلْ من لدُن سيِّدنا الإمام تنتقلُ من يدِ إمام إلى نَجْله، وكان الأمرُ من مستحقِّيه وفي أهلِه، إلى أنْ بلَغَ الأمرُ إلى المستنصِر بالله أمير المؤمنين والناسُ في أَمَنةٍ وفي تهدين، ولو أجَّله الأجَل، وساعَدَه الأمل، لألقَى هذه القِلادةَ إلينا، وتلا قولَ سميِّه: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِىۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾ [يوسف: ٩٠]، إلّا أنّ الأمورَ اختَلّتِ اختلالًا، واكتَسَت من بعدِ قوّة وصحّة وَهْنًا واعتلالًا، واسترسَل الشّرُّ وأهلُه استرسالًا، وفي أثناءِ ذلك كادت قواعدُ هذا الأمر الـمَهْديِّ لولا تدارُكُ الله أن تتزعْزَع، ومَبانيه الوثيقةُ أن تَتضَعْضَع، فتلافاه الأشياخُ والجِلّة بها شدَّ أركانَه، وأسَّس بُنيانَه، وأعطاه بحمد الله من كيدِ كائدِه أمانَه. واقتضَى نظَرُهم بعدَ استخارة الله تعالى لهذا الأمر المؤسَّس على التقوى بُنيانُه، وبعدَ شَحْذ العزائم، والطّيرانِ إلى الحقِّ بعمل خفاق الخَوافي والقوادم، تحميلَنا هذه الأمانةَ العُظمى، والقِلادةَ الجُسمى، فأعطَوْنا صفقةَ أيديهم، وعقَدوا بيعتَنا بنيّاتِهم الصادقة وأيمانِهم، حرصًا منهم على لـمِّ شَعْث المسلمين، وعنايةً بأمور الدُّنيا والدِّين، ورَدْعًا لـمَن ظنَّ أنّ الفتنةَ أمكَنَت وصُولًا، وأنّ الاعتداءَ أوجَد إلى الاعتداءِ سبيلًا، وما عَلِم أنّ أمرَ الله محروسُ الجانب، ومحروبَ المجانب، وأنّ الشيطانَ مقذوفٌ

---

(١) في ك: «يوصيكم».

من سماءِ سعادة هذه الدّعوة بشِهابٍ ثاقب، وأنّ الدُّولَ تَدوَى وتُبِلّ، ويُعتريها ما يَعتري الأبدانَ من الأدواءِ ثم تَستقلّ.

ونحن قد أخَذْنا رايةَ هذا الأمر باليمين، وتلقَّيناها تلقِّيَ الحازِمين، فكونوا من ذلك على بيّنةٍ ويقين، واعلَموا أنّ اللهَ قد جاءكم بمَن يَسهَرُ في مصالِحِكم وأنتم نائمون، ويقومُ بما يعودُ الأصلحَ عليكم وأنتم قاعدون، ويقضي لقاصِيكم ودانيكم بالدَّعة والـهُدون. فاستقبِلوا زمنًا جديدًا، وتفيَّئوا ظلَّ الدَّعةِ مديدًا، واعلَموا أننا نستقبلُ المسلمينَ بنظرٍ يزيدُنا محبّةً لهم، ويعرِّفُهم ما لنا من الرِّفق والحُنوِّ عليهم، فإنّ مقصودَنا في الأُمة جميل، ورأيُنا في تأليف موجِبات الاستئصال أصيل، فنحن نصفَحُ عن الجانب، ونحُلُّ قيدَ الجاني، ونَصرفُ عن الوعيدِ إلى الوعد، ونؤْثِرُ العفوَ على المؤاخَذة والقُربَ على البُعد، فكونوا على صحّة من أنّ الأحقادَ قد ذهبت رسُومُها، وزالت منَ الأجياد وسُومُها، وأنّ الناسَ معَنا في زمن شَبَّ واقتَبل، وأنّ الآمِلَ بفضل الله مُدرِكٌ الأمل، فادخُلوا وفَّقكم اللهُ فيما دخَل فيه الجمهور، وابعَثوا بيعتكم بعدَ أخْذِها وثيقةَ الأساس، مُحكمةَ الأمراس، في طاعة سَعْد ويُمن إلى حضرة الموحِّدين، واللهُ الـمُنجِدُ الـمُعين.

وقد عرَّفناكم بما انعَقَد علينا من الموحِّدين ومَن إليهم منَ المسلمين، فتيمَّنوا، ودعَوْنا اللهَ في الخِيَرة والإنجاد والعَوْن فأمَّنوا. اللهمَّ إنك قلَّدتَنا أمورَ المسلمين، وارتضَيْتَنا للنّظر في مَصالح الدِّين، واختَرتَنا للمِلّة الحنيفيّة خُدَماء، وأسبَغْتَ علينا النَّعماء، فاجعَلْنا لأنعُمِك منَ الشاكرين، ولآلائك من الذّاكرين، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه.

ولـمّا سَمع أبو العُلى بذلك كلِّه أقلقَتْه مُبايعة يحيى ابن الناصر، ونَكْثُ الناكث عليه من الموحِّدينَ وغَدْرُ الغادر، فنَظَر في الجَواز لبرِّ العُدوة، وعَمَر بذلك باطنَه رواحَه وغُدوَّه، فحَشَدَ الحشود وزمَّم الجنود، وجمَع نحوَ خمس مئة فارس من الرّوم، لِـما كان يَبغي من الحركة ويَروم، فلمّا عَلِم بذلك ابنُ هود قَرَع الطّبولَ ونشَرَ البنود، وقَوِيت شوكتُه وتألَّفت شِرذِمتُه، وأطاعته بعضُ تلك الأماكن، وتحرَّكت أرياحُه السّواكن، والمأمونُ إذ ذاك لم يشغَلْ فكرَه إلّا بما عَمَر، ولا انـهَلَّ سَحابُ بأسِه ولا انهمَر، فركِبَ طِرفَه، وغَمَض طَرْفَه، وأمَر بالرّحيل فرحَل في سنة خمس وعشرينَ وست مئة.

وفي سنة ستٍّ وعشرينَ وست مئة: استقرَّ أبو العُلى بحضرة[1] مَرّاكُش، ولـمّا وصَل إليها ونزَل عليها خَرج إليه ابنُ أخيه يحيى بن الناصر بمَن كان معَه من العَرَب والموحِّدين وسائر الجُنودِ والحشود، وضُربت قبّتُه الحمراءُ على جبل إيجليز واستعَدّ لمقابلتِه ومحاربتِه، وكان المأمونُ قد وصَل من الأندَلس بنحو خمس مئة فارس من الرُّوم وبمَن كان معَه من العَرَبِ والموحِّدين والجنودِ والحشود، فقصَدَ الرُّومُ إلى القُبّة الحمراء فمزَّقوها ووقَعَت الهزيمةُ على عساكر يحيى بن الناصر وهرَبَ فارًّا بنفسِه، لا يَعلَمُ يومَه من أمسِه، وهزَمَه عمُّه هزيمةً عظيمة قَتل فيها من الموحِّدينَ وأتباعِهم ومن العَرَب وأشياعِهم أُممًا لا تُحصى، ولا تُكاثَرَ بالحَصَى، وأمَرَ بتعليق رؤوسِهم معَ كلِّ شرافة من سُور مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى حتّى ملأت الرؤوسُ أكثرَ شرافات السُّور، وفَرّ يحيى بنُ الناصر يتعلّق بالجبال الشّواهق معَ كلِّ منافق إلى أنِ استقرَّ معَ الموحِّدين في جبالِـهم، وتعذَّرت عليهم جميعُ أمورِهم وأحوالهم.

واستقرَّ أبو العُلى المأمونُ بحَضْرته ونَظَر في أمورِ مملكتِه وأخَذ في ذلك معَ خاصّتِه وأرباب دولتِه، فأولُ ما شَرَع فيه وبثَّه ملءَ فيه: مسألةُ النّاكِثِينَ عليه من الموحِّدين الـهَنْتاتيِّين والتنمليِّينَ بعدَ تأمينِهم والنِّداء عليهم بذلك بمَرّاكُش، فخَرج مَن كان فيها من الموحِّدينَ إليه وطَلَعوا بالسلام عليه. فأجمَع على مسألتِهم بعضُ الفقهاء، وعرَّفهم بتوجيه مُبايعتِهم إليه ثم ما كان من خديعتِهم ونَـكْثهم عليه، وقال للفقيه القاضي المكيديِّ: ما تقولُ يا فقيهُ في قوم بايَعوا شخصًا ثم نَـكَثوا عليه وخَلَعوه ثم قَتلوه، ثم بايَعوا شخصًا آخَر فنَـكَثوا عليه وقَتلوه، ثم بَعَثوا بيعتَهم هذه إليّ، ثم نَكَثوا أيضًا عليّ؟ فقال له القاضي: وجَب عليهمُ القتلُ أجمعين يا أميرَ المؤمنين، وقرأ سورةَ المنافقين إلى قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]، فأمَرَ أبو العُلى المأمونُ بضَرْب رِقابِهم فقُتل منهم في ذلك اليوم نحوُ مئة شخص من أعيانِهم، وخُرِق لهم حَفِيرٌ كبير خارجَ باب السّادة ودُفنوا هنالك، ووقَع البحثُ والطّلبُ على مَن بقيَ منهم بمَرّاكُش فمَن حصَل سُلِك به تلك المسالك حتى أُخِذ بعضُ أصاغرِهم من محاضرِهم وقُتلوا عن آخرِهم[2].

---

(١) في ب: «بمدينة».

(٢) الاستقصا ٢/ ٢٣٧-٢٣٩.

ومن قول أبي العُلى المأمون في قَتْلهم عَفَا اللهُ عنهم [من الكامل]:

أهلُ الـحَرابة والفسادِ مـن الـوَرى ... يُعـــزَوْنَ في التـــشبيه للـــذُّكّارِ
ففـــسادُه فيـــه الـــصّلاحُ لغـــيرِه ... بـــالقطع والتعليـــق في الأشـــجارِ
ذُكّـــارُهم ذكـــرى إذا مـــا أُبـــصِروا ... فـوقَ الــجُذوع وفي ذُرى الأسـوارِ
لـــو عـــمَّ حِلـــمُ الله كافّـــةَ خَلقِـــه ... مـا كـان أكثـرُهم مـنَ اهـلِ النـارِ

ومن كَتْبه بخطِّ يده رسالةٌ لأهل أندوجر يَزجُرُهم عمّا فَعلوه من القبيح ويُصرِّح بقتلِهم إن لم يَنتهوا أيَّ تصريح، فمن ذلك بعدَ الخُطبة والصَّدَر:

إلى الجماعة والكافّة من فُلانة، وَقَاهم اللهُ عثَراتِ الألسنة وأرشَدَهم إلى مَحْو السيّئة بالحَسَنة، أمّا بعد، فإنّه وصَل من قِبَلِكم كتابٌ جدَّد لكم أسهُم الانتقاد، ورَماكم من العِناد بالداهية والنّآد، أتعتذرونَ من الـمُحال بضعف الحال، وبقلّةِ الرّجال، فأُلحَقكم برَبّات الحِجال؟ كأنّا لا نعرفُ مناحيَ أقوالِكم، ولا نَعلَمُ بتقلُّبكم في أحوالكم، لا جَرَمَ مغرارًا أنكم سمِعتُم بالعدوِّ قَصَمه الله، وقصْدِه ذلك الموضعَ عصَمَه الله، فطاشَت قلوبُكم خَوَرًا، وعاد صَفْوُكم كدَرًا، وشمَمتُم ريحَ الموت وِرْدًا وصَدَرًا، وظننتُم أنكم أُحيطَ بكم من كلِّ الجوانب، وأنّ الفضاءَ قد غُصَّ بالتفافِ القَنا واصطفافِ المقانب[1]، ورأيتُم غيرَ شيء فحسِبتُموه طلائعَ الكتائب. تبًّا لِهمَمِكم الـمُنحطّة، وشِيَمِكم الراضية بأدونِ خُطّة، حين نُدِبتُم إلى حماية إخوانِكم، والذبِّ بالكلمة من مقتضَى أيْمانِكم، نَسَقتُم الأقوالَ وهي مكذوبة، ولفّقتُم الأعذار وهي بالباطل مَشُوبة، لقد آنَ لكم أن تَـمُدُّوا ذيلَ الحِرمان إلى مغازِل النِّسوان، وما لكم ولصَهَواتِ الخيول، وإنّما على الغانجاتِ جَرُّ الذّيول، أتُظهرونَ العِناد تصريحًا وتلويحًا، وتظنُّونَ أنكم إذا تفرَّقتُم لا نجمَعُ لكم شتاتًا ولا نُدني منكم نُزوحًا؟ أين المفرُّ وأمرُ الله يُدرِكُكم، وطلبُنا الحثيثُ لا يَترُكُكم؟ فأميطوا هذه النَّزعةَ النِّفاقيةَ عن خواطِركم قبلَ أن نمحوَ بالسّيف أقوالَكم وأفعالَكم، ونستبدلَ قومًا غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالَكم، ونحن نُقسمُ بالله،

(١) جمع مقنب، وهي الخيل والفرسان.

لوِ اعتَسفْتُم كلَّ بَيْداءَ سَمْلَق[1]، واعتصمتُم بأمنع معقِل وأحفَل فَيْلَق، ما وَنَيْنا عنكم زمانًا، ولا ثنَيْنا عن استئصال العَزْم عنكم عِنانًا، فلا يُغرَّنَّكمُ الإمهال أيها الجُهّال، ولا يعودنَّكمُ الاجتراء إلا لنَبْذِكم بالعراء، وأدواءُ الأهواء بالسّيف تنحسم.

[من البسيط]:

إذا رأيتُم نُيوبَ اللّيثِ بارزةً فلا تَظنُّونَ أنّ اللّيثَ مُبتسمُ

فإن كفاكُم صَريرُ الأقلام، وإلّا جَفاكُم ضَريرُ الحسام، والسّلامُ على منِ استقام، ورحمةُ الله وبركاتُه.

وكتَبَ أيضًا أبو العُلَى المأمونُ بخطِّ يدِه إلى بلادِه كلِّها بزَوال اسم الـمَهْديِّ من السِّكة والخُطبة، وذلك أنه لـمّا قَتل الموحِّدينَ أمَر بقطع ذكرِ إمامِهم الـمَهْديِّ من الخُطبة في جميع بلادِه ومَحا اسمَه من الـمُخاطَبات ومن النَّقْش في السِّكة، وقَطَع النِّداء بعدَ الصّلاة والنداءِ عليها بتاصليت الإسلام، وهي إقامةُ الصّلاة باللّسان البَرْبريّ، وكذلك سؤدوت ونارد، وأصبح ولله الحمد وما أشبَهَ ذلك ممّا كان العملُ عليه من أوّل دولة الموحِّدين إلى هذه السنة المؤرَّخة[2].

وهذه هي الرسالةُ المذكورة: من عبد الله إدريس أميرِ المؤمنين ابن أميرِ المؤمنين ابن أميرِ المؤمنين، إلى الطَّلَبة والأعيانِ والكافّة ومَن معَهم من المؤمنين والمسلمين أوزَعَهم اللهُ شُكرَ أنعُمِه الجِسَام، ولا أعدَمَهم طلاقةَ أوجُه الأيّام الوِسام. وإنّا كتبناه إليكم، كتَبَ اللهُ لكم عملًا منقادًا، وسَعْدًا وَقّادًا، وخاطرًا سليمًا، لا يزالُ على الطاعة قائمًا مقيمًا، من مَرّاكُش كلأَها اللهُ تعالى، وللحقِّ لسانٌ ساطع، وحسامٌ قاطع، وقضاءٌ لا يُرَدّ، وبابٌ لا يُسَدّ، وظِلالٌ على الآفاق لـمَحْو النّفاق يُعَدّ. والذي نُوصيكم به تقوى الله والاستعانةُ به والتوكّلُ عليه، ولِتَعلَموا أنّا نَبَذْنا الباطل وأظهَرنا الحقّ، وأنْ لا مَهْديَّ إلا عيسى ابنُ مريم، وما سُمِّي مَهْديًّا إلّا أنه تكلَّم في المهد، وتلك بِدعةٌ قد أزلْناها، والله يُعينُنا على القِلادة التي تقلَّدْناها، وقد أزَلْنا لفظَ العصمة عمّن لا تَثْبُتُ له عصمة، فلذلك أزَلْنا

---

(١) السملق، كجعفر، القاع الصفصف، كما في القاموس المحيط.

(٢) الاستقصا ٢/ ٢٣٨.

عنه رَسْمَه، فتَسقُطُ وتُبَتّ وتُمحى ولا تُثبَت، وقد كان سيّدُنا المنصورُ رضي اللهُ عنه هَمَّ أن يَصدَعَ بما بِهِ الآنَ صدَعْنا، وأن يرقَعَ للأُمة الخَرْقَ الذي رقَعْنا، فلم يُساعدْه لذلك أملُه، ولا أجَّلَه إليه أجَلُه، فقَدِم على ربِّه بصِدق نيّة وخالصِ طَوِيّة. وإذا كانت العصمةُ لم تثبُتْ عندَ العلماءِ للصّحابة، فما الظنُّ بمَن لم يَدْرِ بأيِّ يد يأخُذ كتابَه، أُفٍّ لهم! قد ضَلّوا وأضَلّوا، ولذلك وَلَّوْا وذَلُّوا، ما تكونُ لهم الحُجّة على تلك المحَجَّة، اللهمّ اشهَدْ، اللهمّ اشهَدْ أنّا قد تبرَّأْنا منهم تبرُّؤَ أهل الجنّة من أهل النار، ونعوذُ بك يا جبّار من فعلِهمُ الرَّثيث، وأمرِهمُ الخَبيث، إنّهم في المعتقَد من الكفّار، وإنّا فيهم كما قال نبيُّك عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] والسلامُ على منِ اتّبع الهُدى واستقام.

وامتدحَتْه الشّعراءُ حينَ ذلك بما يتنسَّمُ نَدًا ومِسكًا، وتَجعَلُه بعِقد نحرِك سِلكًا، فمِن ذلك الكاتبُ الأجَلُّ أبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ قال يمدَحُه [من الطويل]:

تَتيهُ[1] بك الدّنيا ويَزهو بك الـمُلكُ ... ويُعزَى إليك الفضلُ والدِّينُ والنُّسْكُ
وتتَّسقُ الأمداحُ فيك تتابُعًا ... يباهِر أوصافٍ كما انتَظم السِّلكُ
وتشهدُ أملاكُ الزّمان إذا رأَوْا ... سَناك الذي يجلو الدُّجا أنك الـمَلْكُ
وما ذاك إلّا أنْ سبَقْتَ وقَصَّروا ... وأدْلَجت إذ باتوا وحقَّقت إذ شَكّوا
أنالَ بك الإسلامُ أقصَى مرادِهِ ... وقد سَعِد التوحيدُ إذْ شقيَ الشِّركُ
وأظهَرَك الجَدُّ السّعيدُ على العِدا ... فكان لك الـمَنْجى وكان لها الـهُلْكُ
أيا ابنَ أميرِ المؤمنين أبا العُلَى ... أصِخْ سمْعَ إحسانٍ لعبدِك إذ يشكو

ومنها:

وأرجو لدى مولايَ لمحةَ رحمةٍ ... فإنعامُه ينمو وإحسانُه يزكو

(١) وقع في النسخ: ق، ك، ب، ر٣ بياض قدر أربع صفحات، والظاهر أنه كان كذلك في الأصل المنتسخ منه، وقد استدرك في ر٣ بخطّ مغاير، وسنشير إلى موضع نهاية البياض.

وقال محمدُ بن إبراهيمَ الذرة يمدَحُ أيضًا أبا العُلَى المأمونَ [من الطويل]:

ألا وضُح التحقيقُ وارتفَع الشكُّ ... بأنك مَلْكٌ لا يقاس به مَلْكُ
جبينُك إصباحٌ وكفُّك مُزنةٌ ... وبأسُك طُوفانٌ ورايتُك الفُلْكُ
ويُمناك مَحْيًا للأنام ورحمةٌ ... إذا حاقَ من مَحْل الزّمان بهم هُلكُ
تُنيل من الأفراس ما بان عِتقُهُ ... وتُعطي من الإبريز ما أخلَص السَّبكُ
فأنتمْ أميرَ المؤمنين بعدلِكمْ ... تعزَّزَ دينُ الله وارتفَع الشكُّ

وقال آخَرُ في هذا المعنى [من الطويل]:

لكَ اللهُ من مَلِكٍ إلى مَلِكٍ يُعزَى ... يَحُوطُ العُلى حفظًا ويكنُفُها حِرْزا
سَما واحدًا من جانبَيْهِ إلى العُلى ... فلا يَعتزي جمعٌ إليها ولا يُعزى
بعثتُ ثناءً في نظامِك عاطرًا ... هزَزتُ لهُ من عِطف مجدِك ما اهتزّا
إذا كنتُمُ لي ساعدًا أنا كفُّهُ ... فيا ليتَ شِعري بالفضيلة من يُجزى
وأنتم بني المنصور أوْلى بخُطّةٍ ... هيَ المُلكُ إذ طرَزْتُمُ مجدَها طَرْزا
إلا إنّما في كلِّ حال لك العُلى ... فدُمْ يا أباها تكسِبُ المجدَ والعِزّا
فأنتَ لها ما دمتَ في الأرض إنّما ... نَراك عليها من نوائبِها حِرزا

وإنّ أمداحَه لَكثيرةٌ جدًّا لا أُحصي لها عددًا والكفايةُ منها ما ذكرتُه، ولاختصار الكُتْبِ اختصرتُه.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ستٍّ وعشرينَ: قَوِي أمرُ الأمير أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن هُود بالأندَلس، فأولُ مَن طاع له من بلادِها أهلُ مُرسِية، فخَرج إليه المأمونُ في السّنة الفارِطة كما تقدَّم فقابَلَه وقاتَلَه فوقَعَت الهزيمةُ على ابن هود، وبعدَ انصراف المأمون عنه إلى إشبيلِيَة قام بدعوته ابنُ الرّميميِّ[1] بمدينة المَرِيّة، ثم طاعَتْ له غَرْناطةُ ومالَقة، فضَعُف المأمونُ عن مصادمتِه لِما كان قد أهمَّه من أمر الموحِّدينَ بمَرّاكش، فلمّا

(1) هو عبد الله بن محمد المعروف بابن الرميمي (المعجب ٢٧٩).

استقرَّ المأمونُ بمَرّاكُش واشتَغل فيها بما اشتَغل اتّقد نارُ الفتنة بالأندَلس واشتَعل وطاعَتْ لابن هودٍ أكثرُ بلادِها ورؤسائها وأنجادِها، وخَلَعوا طاعةَ الموحِّدينَ عنها وقَتلوهم في كلِّ بلد منها وأجْلَوْهم واستَأْصَلوهم إلّا مَن سَتَرَه اللهُ منهم وأخفاه في ذلك الوقتِ عنهم.

واجتَمع أهلُ إشبيلِيَة في يوم الخميس ثاني عيدِ الأضحى من هذه السنة بموضع يُعرَفُ بالنَّخيل، فتكاثَرَ فيه القالُ والقيل، إلى أنْ خَلَعوا طاعةَ الدّولة الموحِّدية والتزَموا طاعةَ الدّولة الـهُوديّة، وكتَبَ عنهم أبو بكر ابنُ البنّاء كتابًا يُعلِمُه بذلك، وأنّ اللهَ أرشَدَهم إلى أقوم المسالك، فجاوَبَهم على ذلك أخو المتوكِّل على الله وهو أبو الحَسَن عَضُد الدّولة مهنِّئًا لهم على اجتماعِهم على الطاعة، ودخولِـهم في حزبِ الجماعة، وعلى قيامِهم بالدّعوة العبّاسية وخَلْعِهم للدّولة الموحِّدية وبما لهم عندَ أخيه من الأَثَرة والتقديم، والبرِّ والتكريم، وذلك بتاريخ السابعَ عشَرَ لذي الحجة من السنة المؤرَّخة.

وفي هذه السنة: فارق زيّانُ[1] بن مُرْدنيش السيّدَ أبا زيد البَياسيَّ وقاطَعَه وضَبَطَ بلدَه بَلَنْسِيَة، ولحِقَ السيِّدُ المذكورُ بالنَّصارى وانقَطع إليهم حتى مات فيهم، وأمّا أخوه عبدُ الله فكان من أمرِه ما تقدَّم ممّا هو مشهورٌ مذكور نسألُ اللهَ العافيةَ وحُسنَ العاقبة.

ومنَ الاتّفاق الغريب أنّ نَصْرانيَّيْنِ وَصَلاهُ قبلَ ذلك بأمدٍ قريب، أعني للسيّد أبي زيد، فقالا له: نراك تصلُ إلينا وتدخُل في دينِنا، فكرِهَ ما قالاه وقتَلَهما صبرًا، فلم يكنْ بعدَ ذلك إلّا قليلاً ولحِقَ بالنّصارى مرتدًّا وفارَقَ أهلَه ووَلَدَه واستَوطَن بينَهم، ثم سَقَط من أعيُنِهم فرفَضوه واطَّرحُوه ولم يعِشْ بعدَ ذلك إلا يسيرًا ومات.

وفي سنة سبع وعشرينَ وست مئة: تحرَّكَ المتوكِّلُ على الله ابنُ هود بجيوش عظيمة من المسلمينَ إلى غَزْو أعداءِ الله الكافرين، فالتقَى معَ عساكر الرّوم على مارِدة، فدَفَع فيهم بنفسِه بنَجْدته وعَزْمِه، ثم انهزَم إلى ساقتِه فوجد قد ولَّوْا منهزمينَ هنالك من أجل ذلك، وكان من طبعِه مَلولًا عَجولًا، وكانت هذه الغزوةُ أولَ غَزَواتِه وأضخمَها فلم يُنصَرْ فيها[2].

---

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٦-٢١٨.

(٢) الإحاطة ٢/ ١٣٠.

وفي هذه السنة: كانت المقابلةُ بينَ يحيى ابن الناصر والمأمونِ بمقرُبة من مَرّاكُش في يوم السّبت الخامس والعشرينَ لشهر ربيع الأوّل، فانهزَم يحيى وفَرَّ إلى الجبل وقَبَض المأمونُ على قاضيه أبي محمد ابن عبد الحقّ ودفَعَه إلى هلال بن مقدَّم الخُلْطيِّ وحبَسَه حتى افتُديَ منه بخمسة آلاف دينار، وقيل غيرُ ذلك[1].

وفي شهر رمضانَ المعظَّم منها: خَرج المأمونُ من مَرّاكُش وهزَم يحيى ابنَ الناصر والموحِّدين بفَحْص واونْزَرْت إلى لجاغةَ، فقَتل المأمونُ في تلك الهزيمة من أهل الجبال أعدادًا كثيرةً، وعلَّق على سُور مَرّاكُش من رؤوسِهم نحوَ أربعةِ آلاف رأس، وكان زمنَ القَيْظ فشَكا الناسُ روائحَها للمأمون فجاوَبَ مَن أخبره بذلك بأنْ قال: إنّ هاماتِ الـمُحارِبين هي أحرازٌ لهم وروائحُها عطِرةٌ عند المحبِّين مُنتِنةٌ عندَ الـمُبغِضين. وكتَبَ المأمونُ بعد ذلك بتغيير سَيْر الموحِّدين حسبَما تقدَّم[2].

تلخيصُ الخبر بابتداءِ الدّولة الموحِّدية الحَفْصيّة واستيلاءِ الأمير أبي زكريّا على تونُس وتلك البلاد الإفريقيّة

وهو: أبو زكريّا يحيى ابنُ الشّيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حَفْص عُمرَ بن يحيى الـهَنْتاتيّ. وذلك لـمّا كان من أمرِ ابن غانِيةَ في تلك البلاد ما كان وتغلُّبِه عليها، استطالت أيدي المعتَدينَ والـمُفسِدينَ فيها بكلِّ مكان، واستيلائه على بلاد الجَريد وأقطارِها وعلى تونُسَ وأنظارِها، ودخولِه إياها عَنْوةً وأخْذِه للسيّد أبي زَيْد صاحب تونُس معَ ابنِه أسيرين وحبسِهما في ثِقافِه أشهُرًا وأيامًا، وكان مدّةُ تغلُّب ابن غانِيةَ على تلك البلاد وإقامتِه فيها بالعَيْث والفساد نحوَ عشرينَ سنة، إلى أنْ وصَل أبو عبد الله الناصرُ إليها واستَولى بعساكرِه عليها، ففَرَّ ابنُ غانِية أمامَه من تونُس من غيرِ قتال ولا حَرْبٍ ولا نِزال، فبَعَث الناصرُ لها مَن هَدَّن أهلَها وتوجَّه إلى الـمَهْديّة فحصَرَها، وكان ابنُ غانية قد شَحَنَها بالرُّماةِ والرّجال، والعُدَد والأموال.

---

(١) وقيل: إن فداءه كان ستة آلاف دينار (الاستقصا ٢/ ٢٣٧-٢٣٩).

(٢) الاستقصا ٢/ ٢٣٩-٢٤٠.

وفي أثناءِ تلك الأحوال والفتنِ والأهوال، ألّف ابنُ غانِية أخلاطًا من الأعراب ووافَقهم عل الارتحال معَه بالأهل والوَلَدِ والمالِ والعيال، ثقةً منه أنّهم لا يُولُّونَ الأدبار، وأنّ الهزيمةَ عليهم عار، فقدَّم الناصرُ الشّيخَ أبا محمد عبدَ الواحد على عسكرٍ كبير من حُماة الموحِّدين وأنجادِهم منتخَبِينَ من رؤسائهم وكبارِهم، فخَرج بالعسكر من ظاهرِ الـمَهْديّة، باعتقادٍ صادقِ الطَّوِّية، وكان ابنُ غانِيةَ بأحوازِ قابِس قد تكامَلت أمدادُه، واستَوْفت عليه أعدادُه، ووصَلوا إليه بخيلهم ورَجْلِهم، فقصَدَ أبو محمد إليهم ودفَع بجُملتِه عليهم، وأجْلَت الحربُ عن انسلاخ العَرَب عن أموالِـهم وأثقالِـهم، واستَولَى[1] عسكرُ الموحِّدينَ على رجالِـهم وكُراعِهم بعدَ قَتْل مَن قُتل وأسْر من أُسر منهم وخَتَل، وقَفَل أبو محمد عبدُ الواحد بالعسكر إلى الناصر منصورًا ظافرًا، فكان ذلك ابتداءَ السُّعود لبني أبي حَفْص في تلك البلاد وإنجاز القَدَر لهم بمُلك إفريقيّةَ إلى الآنَ، وذلك في آخِر سنة اثنتينِ وست مئة[2].

فلمّا كان في آخِر سنة ثلاث وست مئة حين أخَذ الناصرُ في القُفول من تلك البلاد، وأعمَلَ نظرَه فيما يُحتاجُ إليه من الصّلاح والسَّداد، وأجالَ بصرَه وبصيرتَه فيمن يَستخلفُه فيها من كبارِ الموحِّدينَ وأنجادِها، فأجمَع نظَرَه على تقديم أبي محمد عبد الواحد لعلمِه بأنه يقومُ بأعبائها، ويقاومُ بنَجْدته ومَهابته جميعَ أعدائها، فقدَّمه عليها تقديمًا لم يُعهَدْ في الولاياتِ قبلَه مثلُه، وأسنَدَ أمرَ إفريقيّةَ كلِّها إليه، واعتَمد في صلاحِها وسَدادها وصَلاح حالِ أهلِها بالجُملة عليه، وأباح له التخييرَ في قبائل الموحِّدينَ وغيرِهم مَن يريدُ البقاءَ معه من أولاد الموحِّدينَ وأنجادِهم، فاختار جُملةً كبيرةً من أولادِهم وأجوادِهم، فصار تحتَ يدِه جموعٌ وافرة، وجيوشٌ مُتكاثرة، فاستقرَّ بتونُس في حالة فَخْمة وولايةٍ ضَخْمة اقتَرن بها السَّعد، وانتُجِز لها بالفتوح الوعد[3].

ثم أيضًا ما كان من تغلُّبِه على عسكر ابن غانِيةَ في سنة خمس وست مئة واستيلائه على جميع ما كان بمحَلّتِه وقَتْلِه لأكثرِ أصحابِه وجُملته وتشتُّتِ شِرذِمته. ثم ما كان أيضًا

(١) إلى هنا ينتهي البياض الواقع في النسخ: ق، ك، ب، ر٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٦٠.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٦٠، والاستقصا ٢/ ٢١٦.

من خروجِه بعسكرٍ من تونُس معَ الموحِّدين، وبغارتِه معَهم على المعتَدينَ والـمُفسِدين، ثم خروجِه أيضًا من تونُس معَ الموحِّدين بعسكره الجَرّار حين حَمَل ابنَ غانيةَ الاغترار، وأزعَجَتْه الأقدار إلى بعض أحوازِ إفريقيّة ومعاودة حربِها والانحدار إلى عِمرانِها وقُربِها.

وكان ابنُ غانية قد ألَّف من العَرَب جُموعًا جَمّة فزحَف إليهم أبو محمد والموحِّدونَ فتقابَلَ الجَمْعانِ والتَحم الفريقان، فانهزَم بعضُ الموحِّدينَ والأغزازِ والمتجنِّدين، وثَبَت أبو محمد بمركزِه في قلب ساقتِه معَ مَن كان معَه من الصّابرينَ بنَجْدتِه وشجاعته، ورجَع على الأعداء وأوقَع فيهم السّيف، واستَولى الموحِّدونَ على أثقالِـهم، وانصَرف أبو محمد إلى تونُس سالـمًا غانمًا، وبقي يتطوَّفُ على تلك البلاد في كلِّ سنة على عادتِه إلى أن توفِّي أبو عبد الله الناصرُ عام عشَرة، وبُويعَ ابنُه المستنصِرُ فتلكَّأَ عن توجيه المبايعة إليه من تونُس، فساءت ظنونُ السّادة وبعض الموحِّدينَ في ذلك عليه، ثم وصَلت بيعتُه بعدَ ذلك إلى الحضرة الـمَرّاكُشيّة فتخالَفت الظّنونُ في الشيء المظنون، وكان كاتبُه النُّخَيليُّ الكاتبَ الجليل، ونال معَه بتونُسَ من الخير العميم الجزيل، إلى أنْ نَـكَبَه أبو العُلى الكبير واستَصْفَى أموالَه وأحوالَه وأعطى كاتبَه الفتى جميعَ ذلك.

ولـمّا توطَّدت المملكةُ للمستنصر ابن الناصر، وتمهَّدت له البلادُ البادي منها والحاضر، من البلاد الغَرْبية والأندَلسيّة والإفريقيّة، فقدَّم أعمامَه وبني أعمامِه السّادات وبعثَهم لقواعدِ البلاد وُلاة، وقدَّم عمَّ أبيه أبا العُلى الكبيرَ على مدينة تونُس ليستَوطِنَ قَصَبتَها ويكونَ أميرَها وأن يتفقَّد أحوالَها وأمورَها، وكان ذا نَظَر سديد، ورأي مباركٍ رشيد، وهُو الذي بنَى بإشبيليَة حين وَلِيَها بُرجَ الذّهب، وبنَى بسَبْتَةَ بابَها الجديد، فلمّا وصَل إلى تونُسَ في الأجفان(١)، واستقرَّ بقَصَبتِها معَ من كان معَه من الأهل والوَلَد والخُدّام والأعوان، وبقيَ الشّيخُ أبو محمد على أعمالِه، ناظرًا في أشغالِه وعُمّالِه، لكنّه على ما ذُكر ضاقت بوصُول السيِّد أحوالُه، وأوّلُ ما فَعل السيّدُ من أفعالِه أنه بعَثَ إلى مَرّاكُش ببعض أولادِه وهما: أبو زكريّا وأبو عبد الله يتصرَّفانِ بين يدَي الخليفة المستنصِر بالله في ولاياتِه وأعمالِه، فولّاهما البلادَ، وظهَرَ منهما في ذلك الجَدُّ والاجتهاد.

---

(١) قوله: «في الأجفان» سقط من ق.

فلمّا توفّي الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد بتونُسَ آخرَ دولة المستنصِر، تقدَّم وَلَدُه عبدُ الله على عَمالةِ تلك البلاد الإفريقيّة تحتَ نظَر السيّد أبي العُلى المذكور، من غير استبدادٍ منه بالأمور، إلى أنْ توفّي أبو العُلى ووَلِـي ابنُه أبو زيد الملقَّبُ بالأسمر، على عادة أبيه في الأحوال، وأبو محمد عبدُ الله بن أبي محمد عبد الواحد ناظرٌ في الأشغال وجابي الأموال.

وقيل: إنّ وفاةَ أبي العُلى كانت بجزيرة مَيُورقة. واستمرَّ حالُ أبي محمد عبد الله بتونُسَ على أشغالِه وأعمالِه إلى سنة سبع وعشرين، فكان من أمرِه ما أذكُرُه، وذلك أنه لـمّا بُويعَ بإشبيلِيَةَ أبو العُلَى المأمونُ نَكَثوا عليه الموحِّدونَ بمَرّاكُش وبايَعوا يحيى ابنَ الناصر، فكان أبو العُلى الكبيرُ عمَّ أبي العُلَى المأمون وأخا أبي محمد الـمَخْلوع وعمَّ العادل المقتول، والمأمونُ عمَّ يحيى ابن الناصر.

فلمّا وصَل المأمونُ إلى مَرّاكُش وأخَذ ثارَ عمِّه وأخيه وقَتل مَن قَتل من الموحِّدين فيهما وبسببِهما وبسببِ نَكْثِهم عليه ومُبايعتِهم لابن أخيه وقامتِ الفتَنُ بينَهم كما تقدَّم، وكان المأمون تَرك ابنَ عمِّه السيّد أبا الرّبيع بقُرطُبة، فقُتل بها حين خالَفَ عليه أهلُ الأندَلس وقَتلوا الموحِّدين، وكان بعَثَ السيّدَ أبا عِمران ابنَ عمِّه أبي عبد الله الحرضني إلى بِجَاية معَ أبي عبد الله اللِّحيانيّ وهو ابنُ أبي محمد ابن أبي حفص، وتوجَّه أخوه أبو زكريّا بنُ أبي محمد المذكورُ إلى تونُس.

فلمّا استقرَّ بها قرارَه، وتعرَّف الموحِّدونَ ما كان من قتل إخوانِهم بمَرّاكُش وعرَّفَهم أبو زكريّا ابنُ أبي محمد عبد الواحد بذلك كلِّه، وراوَدَ أخاه عبدَ الله المذكورَ على خَلْع بني عبد المؤمن والاستبداد بالأمرِ دونَهم والاحتواءِ على مُلك إفريقيّة، فأبَى له من ذلك وامتَنع كلَّ الامتناع، وأطال في ذلك الكلام معَه ومعَ بعض الموحِّدين حتى صَكّتْه الآذانُ والأسماع في تلك البِقاع والأسقاع، فأمَرَه أخوه أنْ لا يَخرجَ من دارِه، حيث كان استقرارُه، فاغتاظَ لذلك وعَظُم عليه وزاد نِفارُه، ودبّر في خروجِه من تونُس وفِرارِه، فخَرج من تونُسَ إلى قابِس واجتَمع معَ ابن بَكّيّ شيخِها ومُدبِّر أمرِها، فأقبَلَ عليه حينَ وصُوله إليه وشارَكَه في أحوالِه، وعظَّم شأنَه بما يجبُ عليه من التعظيم، وكرَّم مَثْواه، ووافَقَه على مطلبِه ومُناه، إلى أنْ كان من أمرِه ما أذكُره.

وفي سنة سبع وعشرين وست مئة: كان استيلاءُ الأمير أبي زكريّا على بلاد إفريقيّة[1]، وذلك لـمّا استقرَّ بمدينة قابِس وشَرَع معَ ابن بَكّيّ في الرأي والتدبير، خاطَبَه الموحِّدونَ من تونُس، الصغيرُ منهم والكبير، بالسَّمع والطاعة إليه، وباجتماع كلمتِهم عليه، ووافَقُوه على ذلك إذا خَرج أخوه عبدُ الله من تونُس برَسْم الحركة إلى جهة القَيْرَوان، فلمّا خَرجوا معَه ونَزلت محلَّتُه بظاهر تونُس، طَلَبوا منه عادتَهم التي هي البركةُ والإحسان، فتلكَّأَ لهم في ذلك، والأميرُ أبو زكريّا بمن كان معَه بمقرُبة من هنالك، وأخوه عبدُ الله مُستأمِنٌ في خِبائه، مؤمَّنٌ من أعدائه، فبادَروا إليه للخِبا، ورَمَوْه بالحجارة حتى أيقَن بالهلاك والفَنا، ففرَّ أمامَهم أسوأَ فِرار، لا يستقرُّ به موطنُ قرار، فعفَوْا عن قتلِه بسببِ أخيه وأهلِه إلى أن قُتل بمَرّاكُش على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

فقَعَد الأميرُ أبو زكريّا من حينِه مقعدَ الأمراء، وبايَعَه أشياخُ الموحِّدينَ الكُبَراء، ورحَل إلى تونُس فبُويعَ بها بيعةَ الخُلفاءِ العظماء، وأقعَدَ الكُتّابَ والوُزراء، وأنفَذَ الكتُبَ للبلدان، ولكلِّ جهة ومكان، فوصَلتْه البيعات، من كلِّ الجهات، وطاعت له جميعُ تلك البلاد، واستقامتِ الأحوالُ على أكمل البُغية والمراد، وكتَبَ علامتَه بخطِّ يدِه «الشُّكر لله وحدَه»، وأبقى اسمَ الإمام الـمَهْديِّ في الخُطَب وغيرِها، وسيَّر الموحِّدينَ بأسرِها، وقَبَض على السيِّد الذي كان بقَصَبة تونُس فانقضَى أمرُه وانقطع خبرُه، وكان قَبَض أهلُ بِجايةَ على السيِّد أبي زكريّا عِمران، وطَلّعوه في أحدِ الأجفان فغرِق في البحر، ووصَل أبو عبد الله اللِّحيانيُّ إلى تونُس، فكان بها معَ أخيه عظيمَ القَدْر، في النَّهي والأمر.

ولـمّا وصَل خبرُ هؤلاءِ السيِّدَيْنِ إلى مَرّاكُش قُتل فيها أخو الأمير أبي زكريّا عبد الله، وكان حين وَصَل إليها مكرَّمًا معظَّمًا، لكنْ جرَت عليه الأقدار، بمشيئة الله الذي لا يقفُ تحتَ قهرِه الاختيار، واستبَدَّ أخوه في تلك البلاد، غايةَ الاستبداد، وتلقَّاه أهلُها مسارِعينَ للطاعة بأحسن قَبول، ونُشِرت عليه الألويةُ وقَرْعُ الطّبول، وبلَّغَه اللهُ البُغْية والمأمول، إلى أن توفِّي في سنة ستٍّ وأربعين، فكانت مدّتُه نحوًا من عشرينَ سنة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤١، والاستقصا ٢/ ٢١٨.

وخالَفَ على المأمون أخوه السيِّدُ أبو موسى بسَبْتة، ودَعا لنفسِه فيها وبايَعَه أهلُها، وتسَمَّى بالمؤيَّد إلى أن حصَرَه فيها أخوه المأمونُ على ما يأتي ذكرُه في سنة تسع وعشرين، فخاف منه وفرَّ إلى الأندَلس، ودخَل في دعوة ابن هُود وبايَع أهلُ سَبْتةَ حينَئذٍ لابن هود، فوجَّه إليهم واليًا قائدَه الغشتيَّ فبقيَ بها أشهرًا وأخرَجه أهلُها وبايَعوا الحاجَّ أبا العباس أحمدَ بن محمد اليانِشْتيَّ وخَلَعوا طاعةَ ابن هود، فاستبدَّ الحاجُّ أبو العباس المذكورُ فيها وتسَمَّى بالموفَّق بالله، وكان من أكابرِ التُّجّار وذوي المروءةِ واليسار، وذلك في سنة ثلاثينَ وست مئة.

وفي سنة تسع وعشرينَ وست مئة: كان وصُول أرسال الخليفة العباسيِّ المستنصر[(١)] بالله من بغدادَ إلى ابن هُود المتوكِّل على الله، وكتَبَ له كتابًا يأمُرُه فيه بإقامة الدِّين والاجتهاد في أمورِ الجهاد، وسمّاه مجاهدَ الدِّين سيفَ أميرِ المؤمنين، فمِن ذلك فصولٌ منه بعدَ الاستفتاح والصَّدر والخُطبة والدُّعاء: والحمدُ لله الذي اختار من هذه الدّولة العبّاسيَة الشَّمّاء، والشّجرة التي أصلُها ثابتٌ وفَرعُها في السّماء، إمامًا للمسلمين، وخليفةَ لله تعالى في الأرَضِين، والمفترَض طاعتُه على الخَلْق أجمَعين، سيّدَنا ومولانا أبا[(٢)] جعفرٍ المستنصر[(٣)] بالله أميرَ المؤمنين، صَلَواتُ الله عليه وعلى آبائه الطاهرين. ثم قال: ولـمّا انتهى إلى علومِه الشريفة ما هو عليه مجاهدُ الدِّين محمدُ بن يوسُف بن هُود من سلوكِ سَنَن الطاعة المؤسَّس بُنيانُها على تَقوى من الله ورضوان، والتزَم شروطَ الولاء الذي هو علامةُ متانةِ الدِّين وكمال الإيمان، اقتَضَت آراؤه الشّريفة المقدَّسة النبويّة الإماميّة، الطاهرةُ الزكيّة، المكرَّمةُ المعظَّمة، المستنصرةُ بالله زادَها اللهُ جَلالًا متألِّقَ الأنوار، وشرفًا رفيعَ المنار، واقتدارًا يَفُوقُ حدُّه حدودَ[(٤)] الآفاقِ والأقطار، أن يُقلَّد أمرَ جزيرة

---

(١) في النسخ: «المستظهر» وهو خطأ محض، فإنه منصور بن محمد الظاهر وقد بويع له في رجب سنة ٦٢٣هـ، وتوفي سنة ٦٤٠هـ (تاريخ الإسلام ١٤/ ٣٣٠).

(٢) في النسخ: «أبو» ولا يصح.

(٣) في النسخ: «المستظهر»، وهو خطأ بيِّن.

(٤) قوله: «حد حدود» سقط من ق، ك، ب.

الأندَلس وما يَجري معَها من الولايات إلى البلاد، ويُسوِّغَه ما يفتتحُه من ممالكِ أهل الشِّرك والعناد، تقليدًا صحيحًا شرعيًّا، وتشريفًا صريحًا إماميًّا، وقد أمَرَ رضيَ اللهُ عنه بأوامرَ تَهدي إلى سبيل الرَّشاد، وتُحظيه بِرضى الله الذي هو نِعمَ الذخائرُ يومَ يقومُ الأشهاد، أمَرَه أن يتدرَّع شعارَ التقوى الذي هو خيرُ لباس، ويستشعرَ خيفتَه التي يجعَلُ لها كما قال اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وأمَرَه أن يجعلَ كتابَ الله تعالى منارًا يرجِعُ إليه في كلِّ المشكلات، ومِصباحًا يَستضيءُ بمَراشدِه في الأحكام الشرعيّة الـمُشبهات، وأمَرَه أن يعملَ بسُنّة النبيِّ ﷺ في مصادر أمورِه ومواردِه، وبإجماع المسلمينَ في جميع مَناحيه ومقاصدِه، وأمَرَه بمُجالسة الفقهاءِ والعلماءِ والفضلاء، وأمَرَه أن يُحسنَ السَّير في رعيّته، ويُسكِنَهم أرحبَ كنَف من حُنوِّه وشفقتِه، ويساويَ بينَهم في مجالس نظرِه وحكومتِه، وأمَرَه أن يقتديَ في جميع أمورِه بما أمَرَه اللهُ به، وأن يعتقدَ في مجاهدة الكافرينَ المشركين ما أمَرَه اللهُ به في قولِه عزَّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، فليكنْ مجاهدُ الدِّين بهذه الـمَراشد مُقتديًا، ولمناهج أوامرِها المطاعة مُقتفيًا، فإنه إذا اتّبع هُداها، وامتَثل مَراسمَها واحتذاها، وتمسَّك بعِصَم طاعةِ مَن أوجَبَ اللهُ عليه وعلى الخلائق اعتقادَ مفروض طاعتِه، وطوَّق أعناقَهم بالتزام شروطِ مُوالاتهم وعبوديّة سيّدِنا ومَولانا خليفة الله في أرضِه، والقائم بسُنَن دينِه وفرضِه: أبي جعفرٍ المنصور المستنصر(١) بالله أميرِ المؤمنين، فازَت قِداحُه، وتضاعَفَت من أقسام السعادة مَتاجرُه وأرباحُه، فإنّ ذلك عندَ ذوي الدِّيانات المتينة أحكمُ الأواصر وأوثقُ العُرى، والذُّخرُ النافعُ الذي يجدُه كلَّ موفق مسعود: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] والسلام.

وكُتِبَ في العَشْر الأواسِط من ذي القَعدة سنة تسع وعشرينَ وست مئة ـ وقيل: بل كان في السنة التي قبلَها ـ ختامُه: الحمدُ لله وصَلَواتُه على سيّدِنا محمد وآلِه وسلامُه، عُنوانُه: إلى مجاهِدِ الدِّين وأشرف الأمراء، تاج الخواصِّ الأمير الاسفهصلار الكبيرِ الأجلّ، الـمُرابط الـمُثاغِر الغازي، مجاهِدِ الدِّين، جمال الأنام، نَجْم الدولة، عزِّ المِلّة،

---

(١) في النسخ: «المستظهر»، وهو خطأ ظاهر.

مُعينِ الأُمّة، فَخْر الملوك، قامع المشركين، مذلِّ الخَوارج والمتمرِّدين، زعيم الجيوش، أبي عبد الله محمد بن يوسُفَ بن هود سَيْفِ أمير المؤمنين.

ولـمّا صدَرَ كتابُ أمير المؤمنين العباسيِّ إلى الأندَلس لابن هُود، قُرِئَ بمُصَلَّى غَرْناطةَ القديم، وكانتِ الرايةُ السوداءُ بإزاءِ المِنبَر وابنُ هود قائمٌ، وزِيُّه السوادُ، في نَخْوة بني العبّاس يتبختر[1]، وما قُرِئَ من الكتاب إلا يسيرُ أسطار؛ لأنّ الناسَ كانوا قد خَرجوا للاستسقاءِ والاستمطار، وأمَرَ ابنُ هُود أن يُكتَبَ عنه في كُتُبِه للبلاد: من مجاهدِ الدِّين سَيْفِ أمير المؤمنين عبدِ الله المتوكِّل على الله أمير المسلمين محمد بن يوسُف بن هود.

ولـمّا استقامَتْ لابن هُود أحوالُه، وساعدَتْه أمانيُّه وآمالُه، وَلَّى العهدَ لابنه أبي بكر ولقَّبه بالواثق بالله، فوفَدَت عليه البَيْعاتُ من كلِّ البلاد من جزيرة شُقْر إلى الجزيرة الخضراء، مورَّخةً بعام تسعةٍ وعشرينَ وست مئة.

وفي هذه السنة: قامتِ العامّةُ من أهل إشبيلِيَة على عمادِ الدّولة أبي النَّجاء سالم بن هود الوالي على إشبيلِيَةَ وأنظارِها من قِبَل أخيه المتوكِّل، فأخرَجوه من إشبيلِيَة، وبقيَ أمرُهم شورى بينَهم يرجِعونَ فيه لأمرِ الباجيِّ ورأيه، وكانوا أرادوا مبايعتَه فامتَنع لهم إلى أنْ وصَلته بيعةُ قَرْمونةَ في السنة الآتية بعدَ هذه فقبِلَها، وحينَئذٍ مدَّ يدَه إلى مُبايعة أهل إشبيلِيَة فبايَعوه وبقيَ أميرَهم بها[2] إلى أن قُتل في سنة ثلاثٍ وثلاثين[3].

وفي هذه السّنة: كانت ابتداءُ ظهور أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن الأحمر[4] ببرِّ الأندَلس، بُويعَ بأَرجونةَ وهي بلدُه، إذ كان فيها منشَأُه ومولدُه. وكان بطلًا شُجاعًا، فأورَثَه ذلك سموًّا وارتفاعًا، وكان هذا محمد بن يوسُف مطابقًا لابن هود في اسمه واسم أبيه، مفارقًا له في اللَّقب، فهذا لقبُه: الغالبُ بالله، وذلك: المتوكِّلُ على الله،

---

(١) في ق، ك: «يتبخترون».

(٢) سقط شبه الجملة من ق.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

(٤) تاريخ الإسلام ١٥/ ٢٥٣، والوافي بالوفيات ٥/ ٢٥٥.

وابنُ هود خَرج على الموحِّدين وابنُ الأحمر خَرج على ابن هود، وما أكثَرَ ما أثَّر فيه اشتهارُ أبيه الأحمر، فاستعمَلَه في كلِّ شيء، وعليه في الشُّهرة والعلامة اقتَصر، رَكِب عليه وكتَبَ فيه وتزَيّا به في اللِّباس، كتزيِّي ابن هودٍ بالسَّواد لقيامِه بدعوة بني العبّاس[1].

ومن أرجونةَ ملَكَ ابنُ الأحمر جَيّان، وبُويعَ له بها سنةَ ثلاثين، واشتُهر ظهورُه في كلِّ مكان، ولقد جاء بها على قَدَر، فقَبِلتْه وعلى حمايتِها اقتدَر، وأيُّ عَيْش لـمَن بجَيّانَ يَطِيب، وعهدُ جارتِها أبدة بأخْذِ النّصارى لها كجلسة خَطيب؟ ومِن جَيّانَ ملَكَ قُرطُبة، ولا أعرفُ كيف كان ذلك، ولكنّه أسلَكَ أهلَها أضيَقَ المسالك، فعاجَلوه بالإخراج كارهًا، فخَرج وقد رَكِب من حزمِه فارهًا، وهو من جَأْشِه في أعظم جيش، والمسلمونَ بتلك الجزيرة من شدّةِ الاضطراب وكثرة الفتن في أعظم طَيْش، وأخرَجَه أيضًا أهلُ إشبيلِيَةَ وأنكَروا أمرَه، لـمّا غَدَر الباجيَّ وقَتَلَه، وسأذكرُ بعضَ أخبارِه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي هذه السّنة المؤرَّخة: حاصَر بعضُ القبائل مِكناسةَ الزّيتون، فعرَّف بذلك أهلُها أبا العُلَى المأمون، برسالة من إنشاء ابن عَبْدون، فنَسَقَ فيها الحالَ نَسَقًا، وأعلمَه أنهم في أمرٍ صيَّر صُبحَهم غَسَقًا.

فصلٌ منها

فالعبيدُ أيَّدكم الله هالكونَ لا مَحالة، وحياتُهم في حيِّز الاستحالة، إلّا أنْ يَتدارَكَ اللهُ تعالى بلُطفِه، ويتلافَى الجميعَ بجزيل عَطْفِه. ومعروفٌ أنّ هذا القُطرَ حَماه اللهُ قُفلُ الغَرْب، والبلادُ معتمِدةٌ عليه اعتمادَ الحسام على الضَّرب، فإغاثتُه واجبة، وحمايتُه حاجِبة، فالعَجَلَ العَجَلَ! قبلَ بلوغ الأجل، والغِياثَ الغِياثَ! قبلَ تمكُّن الفسادِ والإعباث. وله شعرٌ في المعنى طويل، فمنه [من الطويل]:

إمامَ الـهُدى سمعًا لـدعوة شـاكِ ... ثَـوى بـينَ هـلّاكٍ رَهـينَ هَـلاكِ
وأوشَكَ أن يَغتالَ مِكْناسـةَ الـرَّدى ... وتَبكـي عـلى مَـن تحتويـهِ بَـواكي

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

أحاطت بها الأعداءُ من كـلِّ جانـبٍ فقــد قَعَــدت منهــا بكــلِّ شِراكِ
وقد زارَها من أهـلِ زَرْهـونَ هَوْنُهـا وبَثُّــوا لهــا التطليــقَ بعــدَ مــلاكِ
وأبنــاءُ فــازازٍ لهــا مُـــستفزّةٌ فهــا هــي تــشكو كــلَّ أروعَ شــاكِ

وكتَبَ معها: رفَعَ هذه الشَّكوى إلى المكان الإماميِّ الأعلى ـ أدام اللهُ أيامَه، ونصَرَ ألويتَه وأعلامَه ـ عَبيدُه المستجيرونَ بعدلِه، أهلُ مِكْناسةَ تَلافَى اللهُ برحمته تلافَها، وتَدارَكَ بلُطفِه قُطّانَها وأُلّافَها، مستصرِخينَ جلالَه، مُسترقِبينَ إقبالَه، فالعبيدُ في حُكم الفَوات وعددِ الأموات، وعدلُ المقام الأعلى كفيلٌ بتدارُك أرماقِهم، وحَلِّهم من وَثاقِهم. كُتِب في شهر كذا من عام تسعة وعشرينَ وست مئة.

وفي هذه السنة وهي سنة تسع وعشرين وست مئة: كانت وفاةُ أبي العُلى المأمون رحمه اللهُ في آخِرِها، وذلك أنه لـمّا تَوالت عليه أخبارُ تلك الجهاتِ الغَرْبية، وما فعلَتْه بمِكناسةَ تلك القبائلُ الفازازيّةُ والـمكلاتيّة من حصارِهم إليها، ونزولِـهم عليها، وما فَعَله أيضًا أهلُ سَبْتَةَ من خلافِهم إليه وذمِّهم في كلِّ وقت عليه، شَرَع في حركة تلك البلاد، برَسْم حَسْم ما فيها من الضَّرَرِ والفساد، فخَرج من مَرّاكُش بعساكرَ وافرة، وجيوش مُتكاثرة، بعدَما تيقَّن أنّ يحيى بنَ الناصر، لم يبقَ له وَليٌّ ولا ناصر، وأنه أخَذ في الفِرار، فلا يستقرُّ له قَرار، وأنّ الموحِّدينَ تَركوه واستقَرّوا بجبالهم، والذين كانوا معَه من فُرسانهم ورجالِـهم، وأنه قد توجَّه إلى جهة دَرْعةَ وسِجِلْماسة.

وحينَئذٍ توجَّه المأمونُ بعساكرِه إلى جهة مِكْناسة، ولـمّا قَرُب منها، هَرَبت تلك القبائلُ المذكورةُ عنها، فاستمرَّ مشيُه إلى مدينة سَبْتَةَ فحاصَرَها من جهة البَرّ، وأكثرُ عيشِهم إنّما هو من جهةِ البحر، فكانوا في نِعمة شاملة، لم يَرِدوا مواردَ الحرب ولا نالَهم ولا هالَهم تضييقُ المأمون ولا حصارُه، وإن تَكاثَرت أعدادُه وأنصارُه، وقد نصَبَ عليها ثلاثَ مَنجَنيقات تَرمي كلَّ يوم عدةَ أحجار، فما ثَلَمت شيئًا من السُّور، ولا هَدَمت دارًا من الدُّور، فأقام عليها ثلاثةَ أشهر مُتَوالية، وأهلُها في بلدِهم كما كانوا في الأيام الخالية، لم يَعدَموا فيها طعامًا ولا إدامًا، ولو حاصَرَهم كذلك أعوامًا، إلى أنْ

وصَلَه خبرٌ أقلَقَه، وأسهَرَ جَفْنَه وأرَّقَه، فأحرَقَ الـمَجانيقَ وأشعَلَ في محلّةِ السُّوق نارًا، وأقلَعَ عنها اضطرارًا لا اختيارًا، وهُو أنّ يحيى بنَ الناصر دخَل مَرّاكُش عَنْوة فقَتل فيها وسَبَى، وأحرَقَ الكنيسةَ وأورَثَ أهلَها وَصَبًا، فجَدَّ في السَّير للقاءِ يحيى ليُعدِمَه بزَعْمِه الـمَحْيَا، وبلَغَ حرقُ الكنيسة للنّصارى أجنادِه، وكانوا عُمدتَه في إصدارِه وإيرادِه، فتشتتتْ أحوالُهم، وتكاثَرت أوجالُـهم، فزادوا ونَقَصوا وعزَموا على مقابلة يحيى وحَرَصوا، وأقسَم المأمونُ أن يُطلِقَهم على البلد ثلاثةَ أيام حتى يَنتصِفوا، ولا يتأخَّروا عمّا يَشفي صدورَهم ولا يتوقَّفوا. فلمّا وصَل المأمونُ معَ أجنادِه إلى وادي أُمِّ الربيع جُرِّع كأسَ المنيّة قبلَ بُلوغ الأُمنيّة، فشرِبَ المسلمونَ الخائفونَ من الروم سَلسَبيلًا، ولن يجعَلَ اللهُ للكافرين على المؤمنينَ سبيلًا(١).

ولـمّا توفِّي المأمون كتَمتْ زوجتُه حَبّابةُ الرُّوميّةُ أُمُّ الرشيد وفاتَه إلّا منَ القُوّاد، وأظهَرت أنه في قَيْد الحياة إلى جميع الأجناد، وكانت أُمُّ الرّشيد رُوميّةً، فأولُ مَن عرَّفت بموتِه قُوّادُ الرُّوم، ثم عرَّفت أشياخَ الـخُلَّط وبعضَ القَرابة والخاصّة، وبقيَ الأمرُ مكتومًا عن العموم، فأجمعوا على بَيْعة ابنِها عبد الواحد الرَّشيد بيعةً خاصّةً لا عامّة، وذلك ثانيَ يوم وفاة أبيه وهُو يومُ الأحد مفتتَحُ شهرِ محرَّم من عام ثلاثينَ وست مئة.

وشاع الخبرُ في المحَلّة أنّ أميرَ المؤمنينَ مريضٌ لا يستطيعُ أن يركَبَ على مركوب مُسرَج، ثم أدخَلوه في تابوت وجُعِل في هَوْدج والجيوشُ أمامَه وخلفَه وقد تأهَّبوا للقاءِ يحيى، وكتَم القُوّادُ حتْفَه وأغَذُّوا السَّيرَ إلى أنْ وصَلوا حضرةَ مَرّاكُش، فخَرج منها يحيى بجيوش الموحِّدين وبمَن كان معَه من العَرَب والمتجنِّدين، فالتقَى الجَمْعان، ودارت بينَهم كأسُ الحربِ والطِّعان، فانجَلَت عن هزيمة يحيى ابن الناصر، وقَتْل أكثرِ مَن كان معَه من العساكر، ودخَل الرّشيدُ حضرةَ مَرّاكُش سالـمًا ظافرًا، ووَلَّى يحيى بنُ الناصر منهزِمًا خاسرًا، وسأُورد كيفيّةَ دخولِه إن شاء اللهُ تعالى(٢).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤١-٣٤٢، والاستقصا ٢٤٠-٢٤١.

(٢) الإحاطة ١/ ٤١٧.

ذكرُ بيعةِ الرّشيد وخلافتِه وما جَرى من الأحداث والأخبارِ في دولتِه[1]

نسَبُه: هو أبو محمد عبدُ الواحد بنُ أبي العُلى إدريسَ المأمون ابن أبي يوسُف يعقوبَ المنصور بن أبي يعقوبَ يوسُفَ بن أبي محمد عبد المؤمن.

أُمُّه: أُمُّ وَلَد رُوميّةٌ تسمَّى حَبابة.

أبناؤه: محمدٌ وعثمانُ دَرَجا، ولمحمد هذا أنباءٌ في وفاتِه بمدينةَ فاس وهو في كَفالة عمِّه أبي الحَسَن السّعيد، وذلك في عام اثنينِ وأربعين وست مئة.

إخوتُه أشِقّاؤه: أَمَةُ العزيز، وهي الحُرّةُ عزّونة[2]، وغيرُ أشقّائه: أبو الحَسَن السّعيد وأُمُّه أيضًا أُمُّ وَلَد، وعبدُ الله وعبدُ العزيز أبناءُ طَيْف أُمِّ وَلَد أيضًا، ولهذا عبدِ العزيز نبأٌ ظَريف في جِنايتِه الشَّنعاء وقُتل بسَبْتَةَ في عام سبعةٍ[3] وأربعينَ وست مئة، وعثمانُ أُمُّه ظَريفُ، أيضًا أُمُّ وَلَد، وصفيّةُ أُمُّها أُمُّ وَلَد، وعائشةُ كذلك ونَجْمةُ أُمُّها أيضًا رُوميّةٌ، وفَتْحونةُ أُمُّها أُمُّ وَلَد.

صفتُه: أزهرُ اللّون أشقر، كثُّ اللِّحية، حَسَنُ القَدّ، في وجهِه يسيرُ نَمَش.

عمُرُه: أربعٌ وعشرونَ سنة.

دولتُه: عشَرةُ أعوام ونحوُ أربعةِ أشهر.

وفاتُه: يومَ الجُمُعة عاشرِ جُمادى الآخِرة من عام أربعين وست مئة.

وُزراؤه: السيِّدُ أبو محمد عبدُ الله بن أبي سعد بن المنصور، وأبو زكريّا بنُ أبي الغَمْر، وأبو عبد الله محمدُ بن عبد الله الجنفيسيّ، وأبو محمد عبدُ الله بنُ أبي زكريّا، وأبو عليّ السيِّدُ ابن أبي محمد عبد العزيز ثم أبو عبد الله الجنفيسيُّ المذكورُ مرةً ثانية بعدَ تأخيرٍ له.

---

(١) المعجب ٤١٧، وتاريخ الإسلام ١٤/ ٣٢٤، والوافي بالوفيات ١٩/ ٢٥٠، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

(٢) الضبط من ق.

(٣) سقطت من ق.

أصحابُ أشغالِه: عبدُ الرحمن بن عُمر بن وين الخيرِ القَبائليّ، ثم انضاف ذلك للسيِّد أبي محمد الوزير الكبير عند استيلائه على المملكة، ثم أبو موسى بن عَطّوش بعدَ وفاة أخيه.

كُتّابُه: أبو زكريّا الفازازي، وأبو عبد الله القُبّاجيُّ، وأبو عبد الله الحُسَينُ ابن أبي عَشَرة، وأبو عبد الله الفازازيّ، وأبو عبد الله بن سُليمان، وأبو العلا ابنُ حَسّان، وأبو المُطرِّف ابن عُمَيْرة، وأبو الحَسَن الرُّعَيْنيّ، وأبو القاسم القباجيُّ، وأبو عبد الله التِّلِمْسانيّ[1]. وهؤلاء الكُتّابُ الذين ذكَرْنا منهم مَن كتَبَ قبلَه لأبيه المأمون ومنهم مَن أضافَه الرّشيدُ إليهم، ومنهم أبناءٌ كتَبوا يسيرًا، ومنهم من مُدَّت له الحياةُ إلى انقضاءِ مدّةِ الرَّشيد.

مُشارفُه في حضرته: أبو محمد سعدُ المَكْنيُّ بأبي البركات، ثم أبو إسحاقَ السَّبْتيّ، ثم أبو عبد الله بن طَراوة، ثم أبو العبّاس بن هشام، ثم أبو عبد الله بن أبي البركات.

حاجبُه: أبو الفَضْل مبارَكٌ التكروتيّ.

أصحابُ شُرطتِه: أبو موسى بن عَطّوش قبلَ اشتغاله، ثم أبو محمد بن ماكْسن، ثم أبو زكريّا بنُ عَطّوش، ثم أبو الحَجّاج بن مَلِيح، ثم عاصمٌ الهسكوري، ثم أبو الحَسَن أزلماط.

وكانت مُبايعتُه خاصةً لا عامّة ثانيَ يوم وفاة أبيه كما تقدَّم ذكرُه، وهو يومُ الأحد مُنسلَخِ[2] عام تسعة وعشرينَ وست مئة.

وفي سنة ثلاثينَ وست مئة: كان استقبالُ الرّشيد مَرّاكُشَ حرَسَها الله، لـمّا أتاح اللهُ النّصرَ على يحيى ابن الناصر أميرِ المؤمنينَ وعلى طوائفِ الموحِّدين وعَرَب سُفيان،

---

(١) وقع النص في ق، ك، ب كما يأتي: كتّابه: أبو زكريّا الفازازي، وأبو عبد الله بن سليمان، وأبو العلى بن حسّان، وأبو المطرِّف بن عميرة، وأبو الحسن الرعيني، وأبو القاسم القُبّاجي، وأبو عبد الله التلمساني». والقُبّاجي قيّده ابن عبد الملك في الذيل والتكملة بضمّ القاف ولكنه لم يُشر إلى تشديد الباء، وهو مجوّد في النسخ الخطية من البيان (الذيل ٤/ ٢٥٩ الترجمة: ٦٨٩).

(٢) في ق، ك، ب: «مفتتح» ولا يصح.

وكان شيخَهم يومَئذٍ جَرْمونُ بن عيسى، وانتُهِب له من الأموال والذّخائر ما لا يُحيطُ به حَصْرٌ ولا حساب، وفرَّت أعداؤه خاسرينَ مهزومين، واستقبَلَ مَرّاكُش وكان واليَها السيِّدُ أبو الفضل جعفرٌ ابن السيِّد أبي سعيد ابن الخليفتَيْن أميرَي المؤمنينَ قدَّمه عليها أهلُها[1]، فإنّهم ترَكَهم المقدَّمُ عليها من قِبَل يحيى، وهو أبو سعيد بن وانُودين بغير والٍ ولا ناظر، فاختاروا السيّدَ أبا الفَضْل لشياختِه ودينِه، وكان يجلسُ في حانوتٍ للشهود بإزاء باب القَصْر، وكانت سِيرتُه في الناس حسَنةً وفي تسديدِ أحوالِـهم، ضبَطَ ذلك بكلِّ مستجاد من العمَل ومُلاحظةٍ للمصالح من غيرِ خَلَل، فكتَبَ عَقْدًا شهِدَ له فيه جمهورُ الناس من الطّلبة والأُمناء يتضمَّنُ أنّ تقديمَه لم يكن باختيارِه، وأنه أُكرِه عليه، واجتَمع الجُمهورُ على تقديمِه لمصلحةِ الوقت لئلّا تمتدَّ أيدي الناس إلى آخَرين، كلُّ ذلك احتياطٌ مما يَتَوقَّعُ من أمير المؤمنينَ المأمون، فكفاه اللهُ ما كان يَخشاه[2].

ولـمّا دَنا الرّشيدُ إلى مدينة مَرّاكُش كتَبَ لأهلِها ظَهيرًا بتأمين كافّتِهم والعَفْوِ عن عامّتهم وعمّن كان معَهم من الموحِّدين، ورفَعَ عنهم الـمَغارم وجدَّد لهم أحوالًا سَنِيّة وآمالًا رَضِيّة، ووَجَّه بهذا الظَّهير الفقيهَ القاضيَ أبا محمد عبدَ الحقّ في أُناس معَه، فلمّا دنَوْا من السُّور أنكرَ الناسُ صُورَهم فاستعدُّوا لهم وظَنُّوهم مقدَّمةً لجيش المأمون، وازدحَم الناسُ في السُّور لقتالِـهم، فإنّهم كانوا ثابتينَ على قتال المأمون مُلازِمينَ طاعةَ يحيى بن الناصر[3] لِـما كانوا تحقَّقوا منَ الذي عزَمَت عليه النّصارى منَ استئصالهم وفَيْئِهم، فتعرَّض أبو محمد عبدُ الحقِّ لهم فما أنكَروه، وتكلَّم معَ بعض الطّلبة والأُمناءِ من جهةِ باب السّادة فحَمِدوه وشَكَروه، ولم يكنْ عندَ أهل مَرّاكُش خبرٌ بموتِ المأمون وولايةِ ابنِه الرَّشيد ولا بهزيمة يحيى ابن الناصر بعدَ حلولِه من الـمُلك في قصر مَشِيد، فبيَّن لهمُ الفقيهُ أبو محمد عبدُ الحقِّ كيفيّةَ ذلك وشَرَحه لهم وعرَّفَهم بالظَّفَر والنِّعم عليهم، فوَثِقوا بقوله وسكَنَت إليه نفوسُهم واطمأنّتِ الخواطر، وهَبَّ عليهم من المَسَرّة ريحٌ عاطر،

---

(١) سقطت من ق.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

(٣) من هنا إلى قوله: «يحيى ابن الناصر» الآتي بعد أسطر قفز ناسخ الأصل الذي نسخ منه نسّاخ ق، ك، ب، ر٣ فسقط من هذه النسخ ما بينهما.

وارتفَع عن الناس الالتباس، بعدَما كانوا في أمر جَلَّ عن القياس، وأعلَنوا بالسَّمع والطاعة والدُّخول في حزب الجماعة لخليفتِهم الرّشيد أميرِ المؤمنين، وأضحَوْا به مسرورين ومنهُ آمِنين، وأذِنوا للفقيه أبي محمد ومَن معَه بالدُّخولِ للبلد فدخَلوا من باب النّصْر جميعًا، وتوجَّه هو ومَن معَه معَ السيِّد أبي الفضل ووجوه البلد سريعًا، حتّى وصَلوا دارَ الخليفة[1]، فأدار عليهم من السرور رَحيقَهُ وسُلافَه، وقُرئَ الظَّهيرُ الكريم على الناس فسُرُّوا بمقتضاه، ولا أحدَ منهم إلّا قَرَّ عينُه به وارتضاه، وكتَبوا لخليفتِهم بسَمعِهم وطاعتِهم، وعاد أبو محمد وأصحابُه ذا مُحيًا طَلْق، وتوجَّه معَهم من كُبَراء أهل مَرّاكُش مَن أراد التوسُّل بالسَّبْق.

ولـمّا قَدِم الفقيهُ القاضي على الرّشيد، وعرَّفه بما كان من أمرِه الحميد، تلقّاه من البرِّ بأحفلِه، ومنَ الاعتناء بأتـمِّه وأكملِه، ولـمّا كان المأمونُ اتّفق معَ النّصارى بما اتّفق، انحَلّ ذلك الأمرُ المنتظِم بوفاتِه وافترَق، وقيل: إنّ أُمَّ الرّشيد حَبّابة، أرْضَتْهم بمالٍ بعدَ المأمون فحادوا عن سبيل الحرب وأغلَقوا بابَه، وسَلَّم اللهُ المسلمينَ من الرُّوم، فقد كانت تَبغي إمحاقَهم وتَرُوم، ودخَل الرّشيدُ مَرّاكُش والنّصرُ يخدُمُه، والسعدُ يصحَبُه ويَلزَمُه.

دخولُ أمير المؤمنينَ الرّشيد مَرّاكُشَ حَرَسها الله

ودخَل أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ مدينةَ مَرّاكُش منتصَفَ شهر محرَّم من سنة ثلاثينَ كما تقدَّم ذكرُه، واستقرَّ بها واطمأنّت نفوسُ المسلمين، وتجدَّدت الأحوالُ والآمال، واستقَلَّ بالـمُلك أيَّ استقلال، وحَسَم العِلَل، ورفَعَ الداءَ والخَلَل، وعادتِ البلد في أسنى حُلًى وأبهى حُلَل، وكان ألفَى البلدَ قدِ استولَتْ عليها أيدي العرب، واستطالت بكلِّ نوع من العَبَث والفسادِ والخَراب، عندَ دخول يحيى إليها، وجَمْع حشَمِه وعَرَبِه عليها، ووصَل في خدمة الرّشيد من العَرَب الخُلّط شيءٌ كبير، واستقرَّ جميعُهم بالجهات والأنحاء وكلُّ عين قَرير، وامتلأت أيديهم من أموال عَرَب سُفيانَ ومَواشيهم، وسُرُّوا بما أفاء اللهُ عليهم من الظَّفر بأعاديهم، ووصَل معَ الرّشيد عمُّه السيِّدُ أبو محمد سَعْد، وهو به كثيرُ البرِّ والاعتناء، فكتَبَ له ظهائرَ برِباع وكثيرٍ من العقَار، ولم يُبدِ له إلا التعزُّزَ والوَقار، وكان قد ترَكَ

---

(١) في ك: «الخلافة».

أبو محمد سعدٌ أولادَه بقصر عبد الكريم معَ جماعة من خاصّتِه تحتَ كفالة أبي زكريّا بن عَطُّوش، ثم توجَّه عنهم عندَ استقرارِه بمَرّاكُش آمِنًا من أحوالِه، مُبلَّغًا جميعَ أمانيِّه وآمالِه.

وفي أثناءِ ذلك وَرَد على السيِّد أبي محمد سعد كتابٌ من يحيى بن الناصر وهو يُعتِبُه في عُدولِه عن بيعتِه إلى بيعة ابن عمِّه بألفاظٍ لا يَليقُ ذكرُها، فإنّ كاتبَه أقذَعَ فيها، وجاءه بالكتاب رَقّاصٌ فاعتقَله ورَفَع الكتابَ إلى أمير المؤمنينَ الرّشيد وفاءً بعهد طاعتِه وحقِّ خِدمته.

وكان السيِّدُ أبو محمد سعدٌ إذا وصَل إلى دار الخليفة يقعُد في القُبّة التي يجلسُ فيها الرّشيدُ أميرُ المؤمنين تكريمًا لجانبِه وتوقيرًا، فنهَض على عادته واجتَمع معَ الرّشيد وبعض خاصّتِه، وتفاوَض معَه في كَتْب جواب يحيى بن الناصر، فوقَع النظرُ أن يَكتُبَ له بأشنَعَ ممّا كتَب، وكان كاتبُ أبي محمد سعد لم يحضُر، وهو أبو القاسم ابن عِمران، فأمَرَ أبا عبد الله التِّلِمْسانيَّ أن يَكتُبَ له، وكان صغيرَ السِّن، فكتَب، وكان في أوّل الكتابِ المذكور بعدَ البسمَلة والتّصلية: من سعدٍ ابن الخُلفاءِ الرّاشدين إلى السيِّئ النظَر القاصر، الذي لم يَصرِفِ اللهُ له من التوفيق والتسديد لـمْحةَ باصر، يحيى بن الناصر، سلامٌ على مَن خالَف عقلَه وحالَف جهلَه، ورحمةُ الله وبركاتُه، ثم نَحا هذا الـمَنْحى إلى آخِر الكتاب.

ولـمّا استقرَّ الرّشيدُ بحضرتِه، واجتَمع الناسُ على طاعته، وصَلتْه البيعاتُ من كلِّ الجهات، وتجدَّدتِ البشائرُ والمسَرّات، فمِن ذلك: بيعةٌ من بعض القبائل مختصرة:

بيعةٌ مختصَرة لأبي محمد عبد الواحِد الرّشيد أميرِ المؤمنين

الحمدُ لله الذي شيَّد بالإمامة أركانَ الإسلام، وحَفِظ بها دينَ محمدٍ عليه السّلام، وجعَل طاعةَ منِ استحَقَّها، وأدَّى حقَّها، من فروض الأعيان، ونَظَم بتقليد بَيْعة منِ اختارَه لخلافتِه في أرضِه، وارتضاه لإقامةِ سُنّتِه وفَرْضِه، عقودَ الاعتقاد وتـمَّم به شرائطَ الإيمان، والصّلاةُ على سيِّدنا محمد رسُولِه المبعوث لخير أُمّة في خير زمان، وعلى آلِه الطيِّبينَ وصَحابتِه الأكرَمين والتابعينَ لهم بإحسان، والرِّضى عن الخلفاءِ الرّاشدينَ الذين كانوا يَقْضُونَ بالحقِّ وبه يَعدِلونَ في الإسرارِ والإعلان، اللهمَّ ارضَ عن خليفتِك في بَرايَاك، الكفيل عدلُه بإقامة دينِك القيِّم ورعاية رعاياك، الإمام المؤيَّد المبارَك الأسعد

أميرِ المؤمنينَ أبي محمد عبدِ الواحد ابن سيِّدِنا الخليفة الإمام المأمون أميرِ المؤمنين أبي العُلى ابن الخُلفاء الراشدين، اللهمّ كما انتخبتَه من خير نِصاب، وأعدتَّ به الدولةَ المأمونيّةَ إلى عُنفُوان الشّباب، وجمَعتَ بعدلِه ضروبَ الأشتاتِ كما جمَعتَ بفضلِه جميعَ الأسباب، وحسَمتَ بحُسامِه موادَّ الشِّرك والارتياب، اللهمّ اجعَلْ[1] كلمتَه العُليا، وامنَحْه من قسم السّعادة والنِّعم المستزادة ما يجمَعُ له بينَ سَعادتَي الآخِرة والدّنيا، إنك[2] كفيلٌ بكلِّ خير جميل.

وبعدُ، فهذا ما أجمَعَ عليه الكافّةُ من بني فلان، خصوصُهم وعمومُهم، من عَقْد بيعتِهم الموطَّدةِ الأركان، المؤسَّسِ بُنيانُها على تقوى من الله ورِضوان، لسيِّدنا الخليفة الإمام[3] أميرِ المؤمنين ابن الخُلفاءِ الرّاشدين، أعلى اللهُ كعبَه، ونَصَر حزبَه، أَبْرَموا عَقْدَها، والتزموا عهدَها، وقلَّدوا أعناقَهم أمانتَها، وتكفَّلوا حِياطتَها وصيانتَها، واعتصَموا بمَتْن حَبْلِها، واهتدَوْا بيُمن سُبُلِها، وأوجَبوا بها على أنفسِهم طاعتَه، واعتقَدوا بعَقْدِها موالاتَه ومشايعتَه، وفاءوا إلى فئتِه المباركة، والتزَموا مواصلةَ مَن واصَله ومُتاركةَ مَن تارَكَه، سرورًا بسعدِ أيامِه، وشكرًا لجزيل إحسانِه وإنعامِه، وامتثالًا لماضي أوامرِه ولحُكم أحكامِه، طائعينَ غيرَ مكرَهين، بارعينَ غيرَ نازِعين، بضمائرَ خالصة، وعزائمَ ماضيةٍ غيرِ ناكصة، يُوالُونَ مَن والاه، ويُعادونَ من عاداه، ويوادُّونَ مَن وادَّاه، وفاءً بعهده وميثاقِه، وابتغاءً لـمَرْضاتِه ووفاقِه، مبايعةً موثَّقةَ الإحكام، سَنِيّةَ الأحكام، أعطَوْا عليها صفقةَ أيْمانِهم وأكيدَ أليّاتِهم، واعتَقَدوا الوفاءَ بها والتمسُّكَ بسببِها بصفاءٍ من سرائرِهم، وخُلوص من نيّاتِهم وضمائرِهم، وأشهَدوا اللهَ تعالى وملائكتَه على أنفسِهم بذلك، وهم بحدودِه عالمون ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقيَّدوا بذلك شهادتَهم في شهر محرَّم سنةَ ثلاثينَ وست مئة.

وفي صَدْر سنةِ ثلاثينَ المذكورة: وصَل ابنُ وقاريطَ الهسكوريُّ من جبلِه بمَن معَه من أولادِ أميرِ المؤمنين المأمون رحمه الله، فوصَل السيِّدُ أبو الحَسَن المعتضِدُ بالله وإخوتُه

---

(١) سقطت من ق. والعبارة في ك: «فاجعل اللهم كلمته».

(٢) في ق، ك: «إنه».

(٣) سقطت من ق.

إلى أخيهم الرَّشيد، وكان هذا أبو الحَسَن ترَكَه أبوه بإشبيلِيَةَ فقيم عليه فيها ثم أخرَجَه أهلُها فحصَل عند عمِّه بسَبْتة.

وفي هذه السنة: بايَعَ أهلُ إشبيلِيَةَ للباجيِّ وأهل قُرطُبة لابن الأحمر، وعقَدَ ابنُ هُود السِّلمَ معَ العدوّ بسببِ اشتغالِه بمحاربتِهما على أن يُعطيَ ابنُ هود لأذْفُونْش ألفَ دينار في كلِّ يوم[1].

وفيها: أخَذ العدوُّ قَصَبةَ مدينة أُبَّدَةَ أعادها اللهُ للإسلام.

اختصارُ الخبر عن وصُول ابن وقاريطَ وسببِه وذكرُ ما تعلَّق به منَ الأخبارِ به

كان ابنُ وقاريطَ هذا عازمًا ألّا يعودَ إلى المأمون ولا يُدْخِلَ يده بوَجْه من الوجوه لخَوْف خامَرَ عقلَه منهُ، إلى أن وصَل الرَّشيدَ بوسيلة من استَصحَبَه من إخوتِه أولادِ المأمون، فانبسَطَ خاطرُه بعضَ انبساط، وقام من الكَسَل إلى النّشاط، ومال بكُلِّيته إلى جانب السيِّد أبي محمد سَعْد عمِّ الرّشيد، وصار في الظاهر يَخْدُمُه، فثبتَت به تلك الـمُدَةَ قَدمُه، وكان ابنُ وقاريطَ أيضًا مُعتنيًا بالفقيه أبي إسحاق ابن الحَجَر غُرّةِ مصرِه، ونادرةِ عصرِه، العِلمُ والأدبُ والطِّبُّ يُعزَى إليه، فما زال مشتملًا عليه، وكان الفقيهُ أبو إسحاقَ خفيفًا على النفوس تميلُ قلوبُ الملوك لمداعبتِه، وحُسن حديثِه ودِرايته، واحتوائه على أخبارِ الدُّول وإحاطتِه، وكان للسيِّد أبي محمد سَعْد به اعتناءٌ كثيرٌ أيضًا ويَخلو معَه في أكثرِ أوقاتِه، فكان أبو إسحاقَ المذكورُ يؤكِّدُ الوصلةَ بينَ السيِّد أبي محمد سَعْد وبينَ ابن وقاريطَ، ووثَّق ذلك كما يجبُ وكما أراد في حقِّ صاحبَيْه، وعمِل في ذلك ما زاد اشتمالَةَ نَفْس ابن وقاريطَ عليه. ثم استقامَت الأحوالُ في هذه السّنة على السُّكون والدَّعة وابنُ وقاريطَ مصِرٌّ صُحبةَ مسعود الخَلَّطي ومتودِّدٌ له ومستكثرٌ به، إلى أن حصَل على مقصودِه من مُصافاته، وتمَّ له التدبيرُ في مُوالاتِه، وهو في الظاهر متمسِّكٌ بالسيِّد أبي محمد سعد، فلمّا كمُل مرادُه فيهما سعَى سعيًا آخَرَ في الأمور، وتحرَّك لأشياءَ كان لها ساكنًا، وربّما

---

(١) في ق، ك، ب: «عام» ولا يصحّ.

كانت مُعاوِناتٍ في الباطن في تأخير السيِّد أبي محمد عن الوِزارة لأمورٍ قُدِّرت، ثم مَرِض أبو محمد سَعدٌ وانفَرد بالوِزارة للرّشيد أبو زكريّا ابنُ أبي الغَمْر، وقدَّم ابنَ وين الخَيْر على الأشغال، ووافَت المنيّةُ أبا محمد سعدًا ولا بدَّ من وقوع الآجال[1].

ذكرُ وفاة السيِّد أبي محمد سَعْد وحِمامِه وحضورِ أبي محمد الرّشيد لدفنِه وبني أعمامِه

لـمّا وافَت المنيّةُ أبا محمد دُفِن بدارِه في دُوَيْرةٍ منها تُسمَّى دارَ العُقبان في أحدِ أُسطواناتِها، وحضَر جنازتَه أميرُ المؤمنين الرَّشيدُ وأعمامُه وإخوتُه وأبناؤه، وقَعَدوا على القبر حتى كمُل بناؤه، وتكلَّم الناسُ في موتِه بما اللهُ يعلَمُ حقيقتَه، فهو الذي يَعلَمُ السرَّ ودقيقتَه.

ذكرُ السببِ في انتزاءِ ابن وَقاريطَ وعِنادِه

لـمّا توفِّي أبو محمد سعدٌ رحمَه الله اختَلَّ على ابن وقاريطَ أحدُ عاقديّتِه واضطَرب، وهجَسَت في نفسِه الظّنونُ الكاذبةُ وكثُرتِ الأوهام، ومال في كلِّ وادٍ وهام، فلم يقدِرْ على القيام بالحضرة، وصار ذا شحوبٍ وكان ذا نَضْرة، وطلَبَ مطالبَ شنيعةً أسعف فيها منها محاشاة هسكورة، وأن يُنعَمَ عليه بمَجْبَى هزرجةَ وأغماتِ وَرِيكة، فكتب له بذلك ظهائر، ولم يزدْ معَ ذلك إلّا تنافُرًا، وألقَى يدَه على هاتَيْن الجهتَيْن، وكأنّه في لظًى وهو ما بينَ جنّتَيْن، فخَرج ذاتَ يوم يريدُ تفقُّدَ إخوانِه، وإصلاحَ أمرِه وشأنِه، فكان آخرَ العهد به وبعِيانِه، وعندَ انفصال ابن وقاريطَ وعِناده، أخَذ ابنُ وين الخَيْر في اللَّحاق به لاستصلاحِه واستردادِه، فأعوَزَ الداءُ الدواء، وتمكَّنت في نفسِه الشَّحناء، وكان هذا آخرَ سنة ثلاثين.

وفي سنة إحدى وثلاثينَ وست مئة: استقرَّت أحوالُ الرّشيد، وهو يعالجُ الأمورَ وينظر الرأيَ السَّديد، وعاد ابنُ عمِّه أبو محمد إلى الوِزارة وأقرَّ عُمّالَه على أعمالِـهم، وخُدّامَه على طبقاتِهم وأحوالِـهم، وأظهَر ابنُ وقاريطَ عِنادَه وارتدادَه، وأعلنَ بطاعة يحيى واتّبع

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

مرادَه، وأصَرَّ على الفساد، والعَبَث في البلاد، ثم توجَّه نحوَ يحيى وهو ببلادِ مزالة، فقرَنَ به أمانيَّه وآمالَه، ولـمّا عَلِم الموحِّدونَ ميْلَ يحيى إلى ابن وقاريطَ واغترارَه بمشايعتِه وإصغائه إليه، نَبَذه أكثرُهم بالعراء، واطّرحوا عهودَ الوفاء.

حركةُ الرَّشيد إلى تادِلا

وفي هذه السنة: شَرع الرّشيدُ في حركتِه لبلاد هسكورةَ وما والاها، وأبدَى حالةَ الحَزْم وأجلاها، وتحرَّكَ في جُموع جنودِه وحاشيتِه، وخَلّف على حضرتِه واليًا صِهرَه السيّدَ أبا العُلى إدريس، فضَبَطَ البلدَ وأحسَن السِّيرةَ في العامّة وأهل التدريس، وباشَرَ الأمورَ بنفسِه، وطلَعَ ببدرِ الفضل وشمسِه، وكان يَسكُنُ بزوجتِه ابنة المأمون بدار من ديار القَصْر، وكان جلوسُه غُدوًّا وعَشِيًّا في مَرْبعةِ الدار للنهي والأمر، وسكَنَت الأحوالُ بهذه الحركة، وانقَطع الإرجافُ وارتفَع الفساد، واستمرَّتِ الحالُ على هذا قَدْرَ شهرٍ أو أزيَد، ثم توارَدَت الأخبار بانقطاع يحيى ومَن معَه بابن وقاريطَ وجموعِه، وأنهمُ استنفَروا هسكورةَ القَبِيلةَ ومزالةَ وجلاوةَ ومَن في هذه الجبال من خيل ورَجْل لقصودِ مَرّاكُش والحصُول عليها، فهاجَت النفوسُ واضْطَربتِ الأحوال، وكانت بالقصر الحُرّةُ أمُّ الرّشيد، فهالَها هذا الأمرُ الشديد، واشتدَّ السيِّدُ أبو العُلى في الضَّبط والترتيبِ للأمور، والمباشرةِ لقليلها، وكثيرها بينَ الجُمهور، وتوجَّهت كتُبُ الحرّة لابنِها تَستعطفُه وتستحِثُّه لتدارُكِ الحال قبلَ انخراقِ الفتن وتعذُّر الرَّتْق، فثنَى عِنانَه بعَزْم صادق، وقصَدَ بلادَ هزرجة، وكان المرورُ إليها حينَ قفولِه على بلاد هسكورة، فأعاد في طريقه الإيقاعَ بهم والتخريب لبلادِهم، وانسحابِ الجيوش على طارفِهم وتِلادِهم، ولـمّا أحسَّ أبو زكريّا يحيى بنُ الناصر وأشياعُه بحَزْمِه، وقدومِه بصادق عَزْمِه، لجَأوا إلى جبل يُعرَفُ هنالك، واستنفَروا تابعَهم ومتبوعَهم، وجمَعوا جموعَهم، واستعدّوا للقتال، وأخَذوا أُهْبةَ النِّزال، والرّشيدُ يتقدَّمُ له النصر، وتبدو له مَخايلُ الظَّفَر، لِـما تبيَّن له انكماشُ أعدائه بالجبل المشار إليه، وتعويلُهم حقيقةً عليه، وجيوشُ الرَّشيد في استعداد، وقوّةٍ بالله تعالى واستنجاد[1].

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

هزيمةُ الرّشيد ليحيى ومَن معَه على هزرجة

ولـمّا دَنا الرّشيدُ من يحيى ومَن معَه حَمَل عليهم فلم يَلبَثوا أنْ وَلّوا الأدبار، ولاذوا بالفِرار، واعتصَموا بشواهقِ تلك الجبال ومضائق تلك الأوعار، وتَركوا محَلّاتِهم بمواضعِها، وأسلَموا جميعَ ما فيها، وكان توجُّهُهم في هذه الهزيمة نحوَ بلاد القِبلة، حليفُهم الخَسار، وشعارُهم الذُّلّ والصَّغار.

وخيَّم أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ في موضع الفتح ومستقرِّ النُّجح، ليأخُذَ بحظٍّ من الرّاحة، والشّكرِ لنِعَم الله المتاحة، وليعودَ أهلُ العسكر إلى النظَر في مصالِـحهم وأمورِهم وتجديدِ ما يحتاجونَ إليه من مقابلة عدوِّهم، واتّسعت بها حصَلوا عليه أحوالُهم وانبسَطَت آمالُهم، كلُّ ذلك بمشيئة الله الواحد، ومصائبُ قوم عندَ قوم فوائد[1].

إيابُ الرّشيد لحضرتِه سالـمًا بجميع عسكريّتِه

واستقبَلَ أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ حضرتَه والسّعدُ جديد، والنّصرُ في كلِّ ظَعْن ومقام يزيد، فتلقّاه أهلُها بالتهنئة والسرور، وكان له في يومَ دخولِه احتفالٌ مشهور، شُفِيت به الصُّدور، واستقامَت الأحوالُ والأمور، واستمرَّت العافيةُ للمسلمين واستَشْعَروا ما أراد شاردُ قومِهم لتقديراتٍ قدَّروها، وأمورٍ توقَّعوها، فإنّهم أجْحَفَت بهم زلازلُ الداخِلينَ عليهم مرّات، فما كان منهم صغيرٌ ولا كبير إلّا وهو يتقطَّعُ حَسَرات، فكانت الهُدنةُ عامّةً متّصلة، والعافيةُ مستمرّةً مشتملة، ولله سبحانَه الـمَنُّ والفضل، والقوةُ والحَوْل[2].

وفي هذه السَّنة: وصَل الزّعيمُ غنصالُه أخو شانْجُه بعدَ فتكةٍ فتكها عندَ جزيرة قادِس وأَسَرَ جميعَ مَن فيها بعدَ قَتْل ذريع لأهلِها، وذلك أنه لـمّا استُقبِلَ من بلادِه اجتاز على جزيرة قادِس وأعمَل الحيلةَ في الإيقاع بأهلِها والغَدْر بهم، فأمكنَتْه الحالُ من كمالِ مكرِه وتمام غَدْرِه، فغَدَر الجزيرةَ ومَن فيها من المسلمين، واستباح كلَّ مَن بها، واستاق مِن أهلِها جماعةً إلى رِباط أسَفي فانتَدبَ المسلمونَ لافتكاكِهم بالفِداء، فلم يبقَ بأيدي الرّوم أحدٌ من المسلمين.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢-٣٤٣.

وهذه الفَتْكَةُ الشّنعاء كانت سببًا لخَراب جزيرة قادِس، حتّى لم يبقَ لها رسم، واستمرَّ خَلاؤها إلى حين تملُّك النّصارى مدينةَ إشبيلِيَة وسائرَ بلاد الأندَلس إلا أقلَّها فملَكوا قادسَ وغيرَها.

وصولُ بعض الموحِّدينَ إلى الحضرة

وفي هذه السنة: كان وصولُ أبي عثمانَ سعيد بن زكريّا الجدميويِّ مُبادرًا من صنفه الموحِّدين. وسببُ ذلك أنه تردَّد إلى جهة جدميوةَ بعضُ تُجّار النّصارى في منافعِهم ومَتاجرِهم، وربّما اجتَمع أبو عثمانَ بشخص روميٍّ خاصٍّ بالرُّومي جوان كيس، وكان وكيلَ شانْجُه زعيم النّصارى، وصار الشخصُ يُتحِفُه بتُحَف من مَرّاكُش قصدًا في تيسير أمورِه في تجارتِه وغيرِها، فأظهَرَ أبو عثمان للرُّوميِّ ما ازداد به حرصًا إلى خدمتِه، فشَرحَ حالَه وفعلَه لموجِّهه الوكيل المشارِ إليه، فتحرَّكت نفسُه إلى مُضايفة أبي عثمانَ والتودُّد له وتوجيه رسُلِه إليه بأشياءَ غيرِ واحدة، واستمرَّ الحالُ على هذا مدةً، فاطمأنّ الوكيلُ من أبي عثمان وقَدِم عليه ليجتمعَ معَه ويُشاهدَ شخصَه ويُوفيَه مِن بِرِّه وقصدِه لِـما أولاهُ من ظهرِ الغَيْب بعدَما استَأْذنَ الوكيلُ المذكورُ لضيفِه وأسعَفَه في مطلبِه، وأمَرَه بإبلاغِه سلامَه، وأنّ حوائجَه عندَه مقضيّة.

ولـمّا وفَدَ على أبي عثمان تلقّاه بأحسنِ القَبولِ والترحيب، وأحَلَّه منَ اعتنائه بالمحلِّ الخَصيب، وأقبَلَ كلُّ واحد على صاحبِه يَعِدُه ويمَنِّيه، ويؤكِّدُ غرضَه الجميلَ فيه، فأجزَلَ له أبو عثمان أجزَلَ إحسان، وفاوَضَه في الدّخول في الطاعة على عهدٍ من شانْجُه، وسعَى منه في حقِّه ووثِق بوفائه، فأظهَرَ له الوكيلُ المذكور، من الفَرَح بذلك والسرور، والضمانِ لكمال هذا المقصود، ما سَكَنَ له أبو عثمانَ وجعَلَه معوَّلًا فيما رامَه من السَّبق إلى الطاعة ليكونَ له الشّرفُ بذلك والـمَزِيّةُ على إخوانِه الموحِّدين، وقد كانوا في أثناءِ هذا الحال تقَلَّصت مِن يحيى أموالُهم وانقَطَعت منه أطماعُهم لاستحواذِ ابن وقاريطَ عليه، وهو عدوُّهم الأكبر الساعي في تفريق جماعتِهم وانتساخ دولتِهم، ثم عاد الوكيلُ الرُّوميُّ إلى زعيمِه وقصَّ عليه ما جَرى بينَه وبينَ أبي عثمان وأطنَبَ عليه. وكان شانْجُه المذكورُ ذا عقل ورأي وإداراتٍ مَصْلَحيّة، فجرَّد في خدمة أبي عثمانَ

عن ساعدِه، وتولّاها بأحسنِ مساعيه ومقاصدِه، ورفَع القضيّةَ على وجهِها، وأوضَحَ المصلحةَ فيها، وأشار بقَبوله وإجابتِه، وإسعافِه في وِفادتِه، ليقتديَ بفعلِه سواه، ويهتديَ بهَدْيِه مَن جاوَرَه ووالاه، فألفَى عندَ الخليفة الرّشيد قَبولًا، وخيرًا في حقِّه مبذولًا، وقد كانت النفوسُ متشوِّفةً إلى استجلابِ عصابةِ التوحيد، وإيصال القريبِ منهم والبعيد، فكتَبَ لأبي عثمانَ عهدًا وثيقًا، وأراه وَجْهًا طليقًا، ونَصَبَ له من المَسرّة والمَبرّة منهجًا وطريقًا.

ولـمّا كمُل[1] هذا المرامُ وتيسَّر، توجَّه الزّعيمُ المذكور له وما تأخَّر، فسُرَّ أبو عثمانَ بوفود ذلك عليه وقدومِه، وأيقَن بتكميل أملِه وتتميمِه، ووجَّه من ساعتِه معرِّفًا بوِفادتِه مُعلنًا بإخلاصِه وطاعتِه، ثُم لم يلبَثْ إلّا مقدارَ ما استعَدّ للوِفادة، واستقبَلَ الحُسنى وزيادة، وأخَذ في الوصول بإخوانِه وأقاربه، ومن اتّبَعه في الحال من قَبيلِه بجميع مضاربِه، وخَرج للقائه الزّعيمُ المذكور، ووصَل معَه إلى الدار المكرَّمة فتُلقِّيَ بالاعتناءِ والاهتمام، على أوفَى التكميل والإتمام، وتلقَّى من الخليفة الرَّشيد من جميل الوَعْد وطلاقةِ البِشر وجزيل البِرِّ والخير ما أعاد انتعاشَه، وأذهبَ إيحاشَه، وانفَصَل إلى ما أعَدَّ له من أنواع القِرى، وانبسَطَت آمالُه أيَّ انبساط، وانتقل من الكَسَل إلى النّشاط، وظَفِر هو ومَن وَفَد[2] معَه بإنعام الخليفة وإحسانِه، والفوز بعطفِه وحَنانِه، واستَبْشَر الناسُ بعودة الموحِّدينَ إلى الطاعة أيَّ استبشار، وعَظُمت في نفوسِهم هذه المِنّةُ التي استَشْعَروا بها أيَّ استشعار، وصار أبو عثمانَ يغدو إلى الخليفة ويَروح، وأدِلّةُ المسرّة المستقرّةِ في خَلَدِه تبدو عليه وتَلوح، وهُو في أثناء ذلك يُدبِّرُ مصالحَه ويستوضحُ الأحوال، ويختبرُ الرجال، واشتغل بمُهاداتِه جميعُ الخُدّام، وتَوالَى الفرَحُ والبَسْطُ ودام، وتـمَّت له الإرادةُ على اختيارِه، وجَرى طَلِقًا في مجال السَّعدِ ومضمارِه، وتراخَت له المدّة، وساعدَتْه الأيامُ المعَدّة، إلى أن جَرى عليه القَدَرُ المحتومُ ووافاه، ولا يَسلَمُ منه أحدٌ وإن طال مداه.

---

(١) سقطت من ق.

(٢) سقطت من ق، ك.

محاولةُ أبي عثمانَ سعيد بن زكريّا الجدميويِّ في استجلابِ الموحِّدينَ إلى حضرة أميرِ المؤمنين

لـمّا استقرَّت حالُ أبي عثمان وتصوَّر له مرادُه منَ اصطناع رجال الدّولة واستعمال ما يتحبَّبُ به إليهم، واستمال نفوسَهم بنَدى يدِه وسماحتِه وإعانتِه لهم بمعروفِه وإهابتِه، تهيَّأَ له الولوجُ في الأمور والمفاوَضةُ في الأشياءِ التي عليها النّجاحُ يدور، صَنَع معَ الموحِّدين والاعتقاد بأَوْبتِهم إلى طاعة الخليفة الرَّشيد، وأخَذَ في التحدُّث معَ مَن يثق به ويَركَنُ إلى حُسن رأيِه ليكشفَ عن البواطن في حقِّ الموحِّدين، ويَستوضحَ فيهم بالخبرِ اليقين، فانجَلَت عنه غمّاءُ الالتباس، ولاحَ له من إيضاح أصحابِه ما ازداد به الإيناس، فسَلَك في تقرير أحوالِـهم وتقريب مَرامِهم مسلكًا أورَدَه موردَ القَبول، وأتحَفَه بالمرادِ والمأمول، فحَسُنت في شأنِهم مآخذُه، وتلقَّى الإسعافَ المطلَق في إباحة العفوِ عنهم ووصُولهم إلى عوائدِهم وردِّ قوانينِهم وإجرائهم في الأحوالِ إلى معتادِهم، فخاطَبَهم وقَرَّر عندَهم ما هاجَت به نفوسُهم، ومال الكثيرُ منهم إلى الدّخول في الطاعة والاتّصاف باتّباع الجماعة، وشاعَ الخبرُ بذلك في الحواضِر والبوادي، وسار بهذه المسرّة الرّائحُ والغادي، وعندَ ذلك ارتفَع الحَرَجُ عنهم، واستعمَل الإغضاءَ عمّن يشاءُ التودُّد[1] منهم.

وفي هذه السنة: وصَلت الهدِيّةُ العبّاسية لابن هُود.

وفيها: رجَعت قُرطُبةُ لابن هود بعدَما أخْرَجوا منها ابنَ الأحمر.

وفيها: وقَعَتِ المقابلةُ بينَ ابن الأحمر وابن هُود فهزَمَه ابنُ الأحمر[2].

وفي سنة اثنتين وثلاثينَ وست مئة: استمرَّتِ الأحوالُ على ما كانت عليه من الهُدنة، واستقرَّت أمورُ ابن وقاريطَ على غَلْوائه وسرايا فسادِه تسري إلى الخُلَّط، وشيخُهم وشوكتُهم في هذا الوقت أحَدُّ شوكة، والإملاءُ منَ الله سبحانه يزيدُهم طُغيانًا وكفرًا بنَعمائه وجُحودًا لآلائه، واستئصالًا للبلاد، وتسلُّطًا على العباد، ليقيمَ عليهم حجّتَه في

(١) في ك: «التردُّد».

(٢) الاستقصا ٢/ ٣٣٦.

أخذِهم أخْذةً رابية، وشيخُهم إذ ذاك مسعود، وهو يظنُّ أنّ إغضاءَ الخليفة الرّشيد من هَناتِه وصبرِه على غُصَص عتوِّه من وَهْن وضَعْف يظنُّ أنه غافلٌ عنه وعَزْمتُه متيقِّظةٌ تتزيَّدُ له وقوعًا في شَرَك الرَّدى، وحصُولًا في يد البَطْش والاستيلاءِ عليه وإن طال المدى، والخليفةُ يتلقّاه ببِشرِه، ويُعاملُه ببِرِّه، ولم يشعُرْ بها في طيِّ ذلك من المسالك، ولم يعلَمْ إشارةَ المتنبي في ذلك [من البسيط]:

إذا رأيــتَ نُيــوبَ اللّيــثِ بــارزةً　　　فــلا تظُــنَّنَّ أنّ اللَّيــثَ يبتــسمُ

ولقد كان له وكيلٌ يسمَّى موسى الكافرَ، وكان من الفجور بحيث لا يُجارَى، وكانت له استطالةٌ بلسانِه على خُدّام أميرِ المؤمنينَ ورجالِه وصِبيانِه، لا يَنهاهُ دينٌ ولا فضل، ولا يمنَعُه حياءٌ ولا عقل، وحصَلت في نفوس جميعِهم أمورٌ مُزعِجة لا تُطفَى لواعجُها ولا تَخمُدُ جمَراتُها، وكان رجلٌ آخرُ كاتبَ مسعودًا الخُلْطي ذو جهل وعتُوّ، وزيادةٍ في الفسادِ ونموّ.

ولـمّا سَرَتْ سمومُ ابن وقاريطَ إلى العدوِّ الخُلْطيِّ بأنواع فسادِه، وتحكَّم فيه داءُ عِنادِه، أظهَرَ العَرَبيُّ تجبُّنًا وتثاقُلًا عن الوِفادة على عادتِه تحرِفُ عن الطاعة المستقيمة، وحُقَّ لمنِ اغترَّ مثلَ غُرورِه أن يختلَّ عقلُه، فإنّ الأرضَ كادت أن تهتزَّ لوطْأتِه، والجبالَ تَميدُ لسَطوتِه، فإنّ إخوانَه الخُلّط كانوا أزيَدَ منَ اثنَيْ عشَرَ ألفًا من الفُرسان ومعَهم من الأتباع المنقادينَ والحشُود مثلُهم، وأما رَجْلُهم فالجَرادُ المنتشِر لا يحصي عددَهم إلا خالقُهم الذي أبادَهم بقُدرتِه، وما منهم فارسٌ إلا له جملةٌ من الخَيْل وأعدادٌ من كامل السِّلاح على أنواعِه، وأمّا الثيابُ والمال العَيْن والآنيةُ من الذّهبِ والفضّة والإبل والمواشي شيءٌ يقفُ دونَ حصْرِه الأوهام، وتكِلُّ عنه الخواطرُ والأفهام، ولقد نظَر صُعلوكٌ منهم مِن فُتّاكِهمُ المشاهير وقد خامرَتْه أريحيّةٌ إلى البحر، فامتطَى جوادَه، وأخَذ سلاحَه، وقصَدَ البحرَ، فدُفع عليه وقال له: إن كانت لك يا بحرُ طاقةٌ فبارِزْني، ونعوذُ بالله من هذا الاغترار، وأمّا الفَتْكُ بالأحرار الأبكار(١) واسترقاقُ العَبيد الأحرار فأمرٌ شائع وحُكمٌ واقع، ما له من دافع عنهم ولا وازع.

---

(١) سقطت من ق، ك.

وعندَ تَناهيهم وانتهائهم إلى هذه الغايات منَ الاستكبار في الأرض والبَغْي فيها بغير الحقّ دَنا دمارُهم وحان إدبارُهم وأمسَى سِلكُهم نَثِيرًا ورَسْمُهم مُحِيلًا، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وفي أثناءِ ذلك كلِّه اشتغَل الرّشيدُ باستجلابِ الموحِّدين وبَسْط آمالِـهم واستمالة قاصيهم ودانيهم، واستدعائهم للفَوْز برأيِه الجميل فيهم، فورَدَت مُخاطبتُهم بشُكر نعمةِ الله عليهم بالانضواءِ إليه والدّخُول في طاعته، ولأبي عثمانَ سعيد بن زكريّا الجدمِيوِيِّ في هذا أثرٌ محمود وسعيٌ مشكور، وما زال في أوقاتِه دائبًا على كلِّ ما فيه استصلاحُهم إلى أن توقَّدت عزائمُهم على أن يَفِدوا على حضرة الخلافة ودار الإمامة مَرّاكُش، وأخَذوا لذلك أُهبتَهم، واستدعَوْا من كلِّ جبل شاهق إخوتَهم، وانتَدبَ للوصُول معَهم موسى ابنُ أميرِ المؤمنينَ الناصر أخو يحيى وكبيرُه سنًّا، فإنه كان في هذا الجانب عازمًا على الطاعة والاتّصال بالجماعة.

وانتهى الموحِّدونَ المذكورونَ إلى شجاعتهم فيما أمَرَهم، وشاعَ خبَرُهم واتّصل ذلك بمسعود ابن حميدان شيخ الخُلَّط فشَمَخ بأنْفِه، وأنِفَ منَ انتظام الموحِّدينَ في تلك الطاعة وكان ذلك سببَ حَتْفِه، واختلَجت في صدرِه أمورٌ توقَّعها، فرأى حَسْمَ العِلّة بقَطْع ما بين أميرِ المؤمنينَ وبينَهم، وتمكُّنِ أسبابِ القطيعة بقَتْلهم، فعيَّن لذلك جَمْعًا من عَرَبه الخُلَّط وبعَثَهم للقَبْض على جميعِهم والفَتْك بهم، فسَبَقَ إليهم سابقُ الاعتناء الرَّبّانيّ وسابقُ الخبرِ الذي أنقذَهم من لَهَواتِ المنيّة، فرجَعوا من هنالك إلى جبلِهم سالمين، واستقَرُّوا به بعدَ الرُّوع والذُّعر آمنين.

ولـمّا اتّصل هذا النبأُ الفظيعُ بأمير المؤمنين الرَّشيد توَقَّدت عَزَماتُه وهاجَت وَثَباتُه، وعَلِم أنّ أمورَه تتعذَّر بمخالفة الخُلَطيِّ له في إرادتِه، فأسهَرَ في الحِيلة أجفانَه، وهجَر مضاجعَه وأوطانَه، وساهَمَ وُزراؤه وأهلُ مَشُورتِه في تلافي الأمور قبلَ التفاقُم وحَسْم العِلَل قبلَ تمكينِها، فأبرَزَت الحِيلةُ وجْهَ المكيدة بعدَ التفاوضِ أيامًا، وانتبَهَت لهم أعيُنُ المصلحة بعدَ أن كانت نِيامًا، واجتمع الرأيُ الذي أحكَمَه الترجيح، وأسفَرَ لهم عن وَجْه أمرٍ نَجيح، إعمالِ حركة السيِّد أبي محمد الوزير الكبير بالجُنْد كلِّه، واستدعاءِ الخُلَطيِّ والبَطْش به، فإنه كان تخَوَّفَ من القَبْض عليه تحوُّلَ الجيش بالحضرة، فلمّا استحْكَم التدبيرُ

لذلك شَرعَ فيه بعد استخارة الله سبحانه، ولـمّا كمُل هذا التدبير في الحركة المذكورة بالجيش شَرعَ فيها السيِّدُ أبو محمد الوزيرُ المذكور على غاية التأهُّب والاستعداد، وتحرَّك السيِّدُ بمَن معَه منَ الأجناد، إلى حاحةَ برَسْم جِبايتِها وحياطتِها، ولم يبقَ من الجُند أحدٌ، وتحرَّكَ معَه والدُ الـمُشرف أبي البركات خاصّة الرّشيد إظهارًا للاعتناءِ بهذه الحركة.

ذكرُ استدعاءِ مسعود بن حميدان الـخُلَّطيِّ إلى حضرة مَرّاكُش واستدنائه لـحَيْنِه وحتْفِه

ولـمّا توجَّه الوزيرُ المذكور بالجيش إلى حاحة، شَرع أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ في التوجيه عن مسعودٍ الخُلَّطيّ، فأجاب بعدَ لأْي إلى الوصُول، وهو يظُنُّ أنْ قد خَلا له الجوّ ولم يبقَ له ما يَرُوعُه، وأنّ سعدَه موصول، فعزَم على الوِفادة بعدَ أنْ قال له أحدُ خاصّته: أجِبْ هذا المسكينَ الذي استدعاك، فإنه أراد الاستظهارَ بعُلاك، ولم يعلَمْ أنه صائرٌ إلى رَداه، وأنّ حتفَه حان وقَرُبَ مداه، ولـمّا وَصل إلى الحضرة وبحرُه يزخَر، وأسودُ خَلْطِه تزأَر، تُلُقِّي بالبرّ والقِرى الواسع، ودان له كلُّ أربِ شاسع، وصار يتردَّدُ إلى باب الخليفة في جموعِه، وتَظهَرُ حركاتٌ في النفوس لأولِ طلوعِه، وكان بالحضرة مُعاويةُ عمُّ عُمر بن وقاريطَ يُظهر الإنابةَ والتبرُّؤ منَ ابن أخيه وفعلِه، والقَدْحَ عليه في جميع أمرِه، فلمّا وصَل الخُلَّطيُّ صار يُعلنُ بمودّتِه ومُوالاتِه فزاد اغترارُ معاويةَ بما تسنَّى له منه.

وهذه الأخبارُ تردُ على الخليفة الرّشيد ويأتيه بها مِن خواصِّ رجالِه من يوضِّحُها على وجهِها، فأعَدَّ لها عُدتَها وأخَذ لها بالاحتياط والعَزْم، وقد كان معاويةُ أعَدَّ طعامًا كثيرًا في دار ابن تلاتيياسَ بالصّالحة من الحضرة ليصلَ مسعودٌ الخُلَّطيُّ إليه برَسْم المحالفة والـمُصافحة، وعيَّن لذلك يومًا أصبح في بُكْرتِه الطعامُ مُعَدًّا حاضرًا، وكان لقدوم الخُلَّطيِّ عليه مُرتقِبًا ناظرًا، وأحضَر مِن وجوهِ إخوانِه من يثقُ به، فلمّا كان في صُبح اليوم المذكور أشخَصَ أميرُ المؤمنين الرَّشيدُ صاحبَ شُرطته في ذلك الوقت، وهو الشّيخُ أبو محمد بن ماكْسِن، وأمَرَه بالنّهوض بأعوانِه إلى دار معاويةَ والقَبْض عليه وتوصيلِه إلى دار الأشراف حتى يَنفُذَ فيه حُكمُه، وقد كان العَرَبيُّ بدار الخلافة يَقْضي أشغالَه بها ويتوجَّه

معَ إخوانِه لدار الهسكوريِّ معاوية، فتوجَّه أبو محمد بنُ ماكْسِن لِـما أُمِر به، وكان في نفسِه خَوَر، فوصَل إلى الدار التي بها معاويةُ واضْطَرب، وما اتّصل به إلا بعدَ حين، وقد كاد أن يُفلتَ، وفي أثناء ذلك استُبطِئَ فوَجَّه[1] عن الشّيخ أبي موسى بن عَطّوش ليتداركَ هذا الهمّ ويُنفِّذَ ما أُمِر به قبلَ انفصال الخُلَطيِّ من دارِ الخلافة توقِّيًا من أن يَلقَاه فينزِعَه ويَعضُدَه، فتوجَّه الشّيخُ أبو موسى معَ جماعة من كوميّة إخوانِه وغيرِهم، ولقِيَ أبا محمد بنَ ماكْسِن ومعَه معاويةُ على رمكةٍ له من عِتاق الخيل شهيرة السَّبق، فحين عايَنَه الشّيخ أبو موسى أشار على مَن معَه بإنزالِه والمبالغة في تعنيفِه، وعُمِلت عِمامتُه في عُنقِه، وأوصَلَه إلى دار الأشراف. ونَما الخبرُ في الحال إلى الرّشيد، فنَفَذَ أمرُه بضَرْب عُنقِه، وذلك وقتَ الضُّحى، فرَوِيَت الأرضُ من دمِه، واستراحت النفوسُ من ألـمِه.

وسَمِع مسعودٌ الخبر فلم يَرُعْه، وقال: أفسَدَ الشّيخُ أبو موسى غداءَ الخُلَّط وطعامَهم، وألزَمَه القيامَ بهم في ذلك الوقت، فقام خيرَ قيام بما أرضاهم وأرضاهُ فيهم، ومضَى معاويةُ كأمسٍ الغابر، والطَّلَلِ الداثر[2].

مهلِكُ مسعودِ بن حميدان وكيفيّةُ قَتْله معَ قومِه في ذلك الميدان[3]

لـمّا استَحكَمَ الرّشيدُ التدبيرَ المتقدِّمَ ذكرُه، ووصَل مسعودٌ المذكورُ، فاوَضَ أهلَ مشورتِه في كيفيّة القَبْض عليه، وتمَّ له القصدُ في ذلك بما أشار إليه، وعيَّن الرشيدُ يومًا لذلك وأعَدَّ بالقَصَبة برياض الحِزب يحيى بنَ عبد الرحيم رضيعَ والدِه ومعَه منَ الفتيان أعدادٌ أُهِّلوا لقتال مسعود بن حميدان وتَجالُدِه، وجعَلَ معَهم أيضًا من العَبيد الجَنّانينَ أعدادًا كثارًا في مواضعَ خفِيّةٍ عن الأبصار، وعُيِّن صاحبُ الشُّرطة أبو محمد ابنُ ماكْسِن للجلوس بأعوانِه وحرَسِه بمَرْبَعة أهل الدار لإصلاح البابَيْن اللّذَيْن عليهما، أحدُهما: بابُ الرّحبةِ الكبرى والثاني: رحبةُ القِبَاب، واستعدَّ لهذا كلِّه بما اقتضَتْه الحالُ، وعرَّف الذين برِياض الحِزب بأن يُماشيَ بعضُهم العَرَبيَّ إذا دخَل مُستدعًى وحدَه على

---

(١) في ق، ك، ب: «موجيه»، ولا معنى لها.

(٢) ينظر الاستقصا ٢/ ٢٤٣.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣، والاستقصا ٢/ ٢٤٣.

العادة للمُثول بين يدَي الخليفة الرّشيد إلى موضع محدودٍ يكتَنِفونَه فيه عن يمينٍ وشمال ويَخْرُجَ الباقونَ من جَنّانينَ وغيرِهم من مواضعِ مكامنِهم لاستئصالِه والبطش به، فلمّا وقَر في النفوس ذلك أُشعِر الناسُ بقعودِ أميرِ المؤمنين، وخَرج الإذْنُ لمسعود بن حميدان بالدّخول إلى السُّلطان، فقام من موضع جلوسِه ومعَه جماعةٌ من إخوانِه أبطالٌ رجال يسحَبُونَ الزَّهو، ويستعملونَ في مسيرِهم معَه الـهُزءَ واللَّهو، ولـمّا أفضَوْا إلى باب الرِّياض المذكور حيث الترتيبُ المشارُ إليه، نفَذَ له الأمرُ بأنْ لا يدخُلَ معه سواه، فتردَّد في ذلك متلوِّمًا وقال: إنه لا يدخُلُ إلّا معَ أصحابِه ولا يتّجهُ له أن يُفارقَهم، وتوقَّف هنالك عن الإجابة إلّا إن كان معَ عُصبتِه، فقيل له: إنّك تَعلَمُ العادةَ في أنْ لا يَدخُلَ أحدٌ لأوّل وَهْلة إلّا بعدَ استئذان، ولا بدَّ من سَلامِهم بعدَ حُلولِه بالمجلس واستئذانِهم على ذلك بحُكم العادة الجارية، وبعدَ لأْيٍ أنفَذَ أصحابَه معَ جانبَي الباب ودخَلَ وحدَه، وسُدَّ في ظهرِه، فظَهَرَ له ابنُ عبد الرحيم في نَفَر قليل يمشُونَ معَه، فلمّا كان متوسِّطًا بالمكان المحدود لإلقاءِ اليد فيه والفَتْك به بَصُر بجُملة من الجَنّانينَ العبيد وغيرِهم وأحسَّ بالشّرّ وبمُسايرة ابن عبد الرحيم وغيرِه له على غيرِ عادة، ثم ألقَى الملأُ المذكورونَ أيديَهم فيه وانخَرطَ ابنُ عبد الرحيم في سيفِه والعَرَبيُّ في أيدي الناس وبيدِه سِكّينٌ في ذراعِه، فراعَه ما رأى، ورأى الموتَ قد فَغَر نحوَه فاه، واستقبَلَه من جهاتِه كلِّها رَداه، فانتفَضَ من أيديهم كما ينتفضُ العُقاب، وظهَرَ منه للذين اكتَنفوه ما اضْطَرَبوا له أشدَّ الاضطراب، فأفلَتَ من أيديهم، وضَرَبَه ابنُ عبد الرحيم بالسّيف فلم يُصِبْه إلّا بذُبابِها، ثم خَرَّ على وجهِه صَريعًا دَهِشًا قدِ استَولَى عليه الجَزَع، وخامَرَه إفراطُ الفَزَع، وظَهَر من عَدَم الانتفاع به في ذلك المحَلِّ الشّنيع وقلّة الاصطناع ما لم يكنْ فيه مقدَّرًا بحال، ثم جَذَب العَرَبيُّ سكِّينَه وقصَد البابَ الذي دخَل منه، ولو أراد قَتْلَ ابن عبد الرحيم لَـما منَعَه منه مانع، ولكنْ حَماه الأجَل في بقائه، واشتَغل العَرَبيُّ بالنَّجاة بنفسِه والإفلات من الشَّرَك الذي كان يتخبَّطُ في مَهاويه.

ولـمّا استقبَلَ البابَ أعلَن بصوتِه ليَسمَعَ مَن وراءَ الباب، فكلُّ مَن كان داخلَ الباب فَرَّ أمامَه هَيْبةً وفَرَقًا، ففتَح الباب، وخَرج إلى جماعتِه في زِيِّ المحارب الذابّ عن

نفسِه، فأشهَروا حديدَهم وصاروا برجُل واحد وقد وَسَّطوا بينَهم شيخَهم وقصَدوا بابَ الرَّحبة الكبرى ليَخرُجوا من هنالك، فاتَّبَعَهم في مدى هذه الرَّحبة كلُّ مَن كان مُختفيًا بالرِّياض وهم يشتدّونَ في أعقابِهم، فعايَنَهم كلُّ مَن كان في الرَّحبة من القَرابة والكُتّاب والخَدَمة والبوعديِّين، فتحقَّقوا أنّ العَرَبَ همُ المطلوبون، فانْجَحَر كثيرٌ من الناس في بيوتٍ هنالك ولم يبقَ إلّا بعضُ البوعديِّينَ، والذين في أعقابِ العَرَب من فِتيانٍ وغيرهم، ينادونَهم بأخْذِهم من أمامِهم[1]، فكان من البوعديِّينَ[2] في ذلك عناءٌ وانتهاض، إلّا أنّ العَرَبَ أشدُّ قتالًا وبأسًا وهم يشتدّونَ نحوَ الباب الكبير الذي يُفضي بالخارج إلى مَرْبَعة أهل الدار، فألفَوْه مسدودًا في وجوهِهم، فأعطَوْا بعضَهم لقتال الذين يَلُونَهم وبعضَهم لكسرِ الأعمدة وفتح الباب، واستَصعَبَ ذلك عليهم مدةً لوِثاقةِ الباب وأعمدتِه، وفي أثناءِ ذلك تسَوَّرَ البوعديُّونَ من جهة طريق باب القَرابة على الجُدُرات واستَعْلَوْا على العَرَب، وأتاهُمُ العذابُ من فوقِهم ومن تحت أرجُلِهم والأمرُ يشتدُّ، والنفوسُ من إفلاتِهم تُضرِمُ نارًا، ثم تيسَّر للعَرَب فتحُ ذلك الباب على فخامته، وقد نِيلَ منهمُ النَّيلَ الشّديد ودونَه جُملةُ أبواب لا قِبَلَ لهم بها ولا لغيرِهم، فأفضَوْا إلى مَرْبَعة أهل الدّار وبها أبو محمد بنُ ماكْسِن بأعوانِه على مقتضَى الترتيبِ الأوّل، ففَرَّ هو وأعوانُه إلى جهة وليس لهم وِرْد ولا صَدَر، ولا عينٌ ولا أثَر، قد غُلَّت أيديهم لإفراط الخَوَر، وانْجَحر ابنُ ماكْسِن في تلك السقائف واستتَرَ، وهو يشاهدُ الحَمَلاتِ ويُعاينُ الـمَنايا كيف تَخترِمُ النفوسَ وتختطفُ الأرواح، فلمّا أفْضَت العَرَبُ إلى الباب الثاني، وهُو الذي يُفضي بالخارج منه إلى رَحْبة القِباب، ألفَوْه أيضًا مسدودًا في وجوهِهم، وخالَطَهم في تلك الـمَرْبَعة مَن كان يُقاتلُهم من باب الرِّياض إلى هذا المكان والبوعديُّونَ وغيرُهم قد تسوَّروا الجُدران وهم يُقاتلونَهم من السُّقُفِ بالحجارة، فلمّا عايَنَ العَرَبُ ما لا قِبَلَ لهم به وأيقَنوا بالهلاك وأنه لا نَجاةَ ولا فِرار تَوسَّطوا شيخَهم وصاروا يموتونَ دونَه واحدًا واحدًا، وكان هُو آخِرَهم قتلًا.

---

(١) قوله: «من أمامهم» سقط من ق.

(٢) في ق، ك: «العدويِّين».

وعندَ ذلك آبَتِ العقول وقد شَرَدت، وعادت النفوسُ وقد كادت أن تَزهَق أو زَهِقت، والـمُنادي ينادي بقطع رأس العَرَبيِّ المذكور فقُطع مِن فَوْرِه وحُمل إلى أمير المؤمنينَ وهو بباب الحِزب فشَكرَ اللهَ تعالى على ما تـمَّم له من صُنعِه الجميل، بالشُّكر العريض الطويل.

وفي أثناءِ انفلاتِ العَرَبيِّ من الرّياض حيثُ كان ابتداءُ أخْذِه فخِيف من خروجِه وإفلاتِه، ولو أخَّره الأجَلُ وأمهَلَه وألهَمَه الخروجَ على باب القَرّاقِين لتوصَّل إلى مرغوبه، ولكنّ قضاءَ الله تعالى لا يُرَدُّ بأسُه عن القوم الـمُجرمين. فبعَثَ أميرُ المؤمنينَ إلى كنيسةِ النّصارى ليستصرخَ مَن فيها على قلّتِهم(١) من تُجّارِهم وضُعفائهم وأُولي الأعذارِ منهم، وكان المتوجِّهَ إليهم عَنْبرٌ الذي أفضَتْ إليه الحِجَابةُ بعدَ سنين.

قال الفقيهُ الكاتبُ أبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ رحمه الله: ولقد كنتُ في أحد المساجد بالقَشّاشِين للقراءة هنالك، فدخَل ناسٌ أخبَروا بالقضيّة على غير وجهِها، فخَرج جميعُ مَن كان به، فلِقيتُ بسُوق البَرْذَعيِّينَ الفتى المذكورَ وهو على فرس حالي الرِّكاب أشهَبِ اللّون مِن خَيْل الخليفة، وليس على الفتى رداءٌ ولا في قدمَيْه إلا جِلدُها، وكان المطرُ في ذلك اليوم، وفيما قبلَه من الأيام، متواليًا شديدًا لا يفتُرُ، والأزِقّةُ والسِّكَكُ قد غُصَّت بالناس، وهو قد أطلَقَ عِنانَ فرسِه ووراءه نحوُ ثلاثينَ من فُرسان النّصارى وتُجّارِهم وهو يستحِثُّهم والطِّينُ قد عَلاه حتّى لا يتبيّنُ لونُ فرسِه ولا لونُ ثيابِه وقد تشَوَّه بما تلوَّث به لا يَلوي على أحد، ثم قصَدَ بابَ القَرّاقِين بمَن معَه فألفَوا العَرَبيَّ وأصحابَه في مَصارعِهم وأبرَزَهمُ القَتلُ إلى مضاجعِهم، فعندَ ذلك أعطَى الرّشيدُ لجميع الناس برَكةً شاملةً واسعة، وأمَرَ بإلقاءِ اليد فيمَن كان بالبلد من الخُلّط وفي خَيْل الطائفة الهالكة ومَتاعِها وأثاثِها، وطِيفَ بجُثثِها في المدينة، فاستبشَرَ الناس ووقَع الإيناس.

وقد كانت الأراجيفُ قد تنوَّعت في فنون من التشنيع والتبشيع، فارتفَع بذلك في الوقتِ الـهَرَج، وأقبَلَ الفتحُ وجاء الفَرَج، وحسِبَ الرّشيدُ ذلك فتحًا عظيمًا لا تُحيطُ به الأفكار، ولا يأتي بمثلِه اللّيلُ والنّهار، وغُنمٌ تفتخرُ به أيامُ دولتِه على الأعصار،

---

(١) في ق، ك: «قتلهم»، ولا معنى لها.

وتسمو به حضرتُه تِيهًا على جميع الأمصار، وحُقّ لذلك أن يكون، فإنّ الأمورَ قد كانت أخذت في الاختلال، وتعطَّلتِ الـمَجابي وساءت الأحوال، فاقتَحم بهذه العَزْمة ما كان في آخرِها جميلَ العاقبة وإن كان قد ارتكَب خطرًا كبيرًا من الأخطار، ولكنّه اقتدَى بقول البغداديّ [من الوافر]:

سأُعطي النفسَ ما طلَبتْ فإمّا ... تَـهونُ فتَحمِـلُ البَلْـوى وإمّـا

ولله تعالى القُدرةُ وبه النُّصرة.

توجيهُ الرّشيد عن وزيرِه وجيشِه من حاحَةَ

ولـمّا فرَغَ من هذه الغَزْوة في أعدائه، واحتوائه على أملِه في ذلك واستيلائه، أنفَذَ فرسانًا ثقاتٍ كُفاةً أنجادًا بمكتوبٍ منه بخطِّه لم يطّلعْ عليه أحدٌ إلّا وزيرُه السيِّد أبو محمد، وأغلَقَ أبوابَ البلد ليُخفيَ خبرَ الهالكين ويتأخَّرَ عِلمُه عن جموعِهم وقبائلهم تَوقِّيًا من اتّصال ذلك بهم، فيأتونَ على الوزير المذكور وجيشِه، وحَدَّ للفرسان حَدًّا يصِلونَ فيه بكتابِه، وحذَّرهم مِن تجاوُزِه، وجَشَّمَهم الجَهْدَ في احتماله، فلم يَسَعْهم إلّا هلاكُ نفوسِهم دونَ ما حذَّرهم منه، فأتَوْا من ذلك بالعَجَب، ووَرَدوا على السيِّد أبي محمد بالأمر، فعندَ وقوفِه عليه أخَذَ في الرّحيل يَستقبِلُ الحضرة، وقد كانت عندَه مقدِّماتُ ذلك لاطّلاعِه على خَفِيّاتِ الأمور ومُضمَرِ التدبير ومَواقيتِ المحاولات وتردُّد الـمُخاطَبات عليه معَ الساعات ظاهِرُها في الأشغال وباطنُها وَجْهٌ آخر، فما كان إلّا انقضاءُ أربعة أيام من مهلِك مسعود، وكان وصُولُ السيِّد والجيش، فعظُم الاستبشارُ بذلك، وانتَظَم ما كان يُخافُ انتثارُه، وأنِسَت النفوسُ بالعافية، فاستمرَّت الحالُ في ذلك على الكمال ببلوغ الأماني والآمال.

وعندَ تمام هذه الأغراض الخَطيرة وكمال المحاولاتِ الكبيرة، شَرعَ الرّشيدُ أميرُ المؤمنين في التوجيه عن الموحِّدين، فتيسَّر له من ذلك ما كان قدِ استَصْعَب عليه بمخالفة العَرَبيِّ وانحرافِه عن جميل رأيِه في هذا الـمَرام الذي قصَدَ به الائتلاف، ورفْعَ الشّتاتِ والاختلاف، ونفَذَت كُتُبُه لهم ولسائر البلاد بهذا الفتح الجَسِيم والصُّنع الكريم، فأخَذ الموحِّدونَ في الوِفادة عليه وهم يحسَبونَ أنّ ذلك كلَّه بسببِهم ومن شدّة برِّه بهم.

ذكرُ وصول جُملة من الموحِّدين إلى حضرة الرَّشيد وإعادةِ ما أزالَه أبوه المأمونُ من ذكرِ الـمَهْدي

ولـمّا أخَذ الموحِّدونَ في الوصُول وبنَوْا عليه وعلى المثُول بين يدَي الرّشيد قدَّموا شخصَيْنِ منهم، وهما: أبو بكر بنُ يعزى التينمليُّ ومحمدُ بن يرزيجنَ[1] الـهَنْتاتيُّ رسولُ أبي عليّ بن عَزّوز، وابنُ يعزى رسُولُ يوسُفَ بن عليّ بن يوسُف ومَن معَه من أهل تينمل، فتلقَّيا ببرٍّ واعتناء، وأُعيدا إلى موجِّهِها باستدعائهم، فكان ذلك، وخَرج الناسُ إلى لقائهم وعايَنوا ما طالَ به عهدُهم، وتمكَّن في نفوس الناس من الفَرَح بهم ما لا تكِلُّ عن شرحِه الأقلامُ والأفهام، وعايَنَ الموحِّدونَ المذكورونَ من أميرِهم الرّشيد بِرًّا واسعًا وخيرًا متتابِعاً، وأُنزِلوا خيرَ إنزال، وتُلُقُّوا بما شاءوا وأمَّلوا منَ احتفالٍ واهتبال.

وكانت لهم شروطٌ قبلَ دخولِهم وهي إعادةُ ذكرِ اسم الإمام الـمَهْديِّ في الخُطبة واسمِه في الـمُخاطَبات ونَقْشِه في السِّكّة من الذّهب والفضّة، وإعادةُ الدّعاء بعدَ الصلاة والنّداء عليها بتاصليت الإسلام، وهي إقامةُ الصَّلَوات وما أشبَهَ هذا مثلَ: سودوت ونارديّ[2]، وأصبح ولله الحمد، فهذا كلُّه كان العملُ عليه في جميع دولة الموحِّدينَ إلى أنْ جاء المأمونُ من الأندَلس، فكان ما كان من تغيير تلك المعالم الفاسدةِ والرسُوم، فاستمرَّ ابنُه الرّشيدُ على رَسْم أبيه، وجَرى على قانونِه، فلمّا كان من الموحِّدينَ انتدابٌ إلى الطاعة اشتَرطوا إعادةَ ما وقَع النصُّ عليه فأُسعِفوا فيه، وسُمِعت موجباتُ وصُولِـهم وانتظامِهم.

ولـمّا احتَلُّوا منازلَهم وبقُوا بها أيامًا ولم يُعِدْ شيئًا من تلك العوائد، ساءت ظنونُهم، وكانوا في أمر مُريِّح من توقُّع القطع بهم فيما هو عُمدتُهمُ التي عليها يعتمِدون وبهَدْيِها يهتَدون، ونَما خبرُ تأثُّرِهم وتحدُّثِهم بذلك إلى الرّشيد أميرِهم، فسكَّن نفوسَهم وجدَّد تأنيسَهم بإعادة تلك العادة وإجرائها على القوانين المعلومة المستقيمة، فيالله! ماذا بلَغَ من سرورِهم وما كانوا فيه من الارتياح عندَ سَماعِهم وانطلاق ألسنتِهم بالدُّعاء إلى الله تعالى

---

(١) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣: «يوزيكن».

(٢) في ق: ك: «بارديّ».

في نَصْر خليفتِهم وتأييدِه، وإعلاءِ أمرِه وتجديدِه، وشَمَلت الأفراحُ الكبيرَ منهم والصّغير، وعَمَّ الجَذَلُ الحاضرَ والبادي، وعندَ ذلك تمهَّدت قواعدُ الموحِّدين، وتبيَّنوا القَصْدَ الجميلَ فيهم وأشاعوه عندَ قاصيهم ودانيهم، وبولغَ في إدنائهم وتكريمِهم، وأُحِلّ أشياخُهم مـحَلَّ أشياخ الموحِّدينَ على قِدَم الزّمان، واستَبْشَروا بنعمة من الله ورضوان.

واستقرَّ الموحِّدونَ بحضرة الخلافة في أحسن مستقَرّ، ووَفَد على أثَرِهم أبو محمد ابنُ أبي زكريّا، فلقِيَ بِرًّا جزيلًا، واعتناءً حَفيلًا، وصُرِفت على جميع الموحِّدينَ ديارُهم وعَقارُهم وأملاكُهم وسِهامُهم، فعادوا إلى أحسنِ عادة، واستشعَروا النموَّ في أحوالهم والزّيادة.

ولـمّا ساغَ للرّشيد مقصَدُه في هلاكِ عدوِّه ووصُولِ جيشِه معَ وزيرِه أبي محمد من حاحَةَ، وانقادَ له أكثرُ الموحِّدين ودخَلوا في إيالتِه، وأعلَنوا في بلادهم بطاعتِه، أخَذ في استصلاح الأمور، وسدِّ الثُّغور، وحَسْم الأدواءِ قبلَ إعيائها وانخراقِ الفَتْق عليه منها، وشَرَع في ذلك بوجوهٍ توفَّرت عليها دواعي رجالِه وطائفتِه[١].

ذكرُ فتنة الـخُلَّط وعِنادِهم وحِصارِهم مَرّاكُش وفِرارِ الرَّشيد منها أمامَهم ودخولِهم إليها معَ يحيى بن الناصر

لـمّا نُمِي إلى الخُلَّط خبرُ شيخِهم وإخوانِهم، جَالوا في أنواع الفساد، وأظهروا الشِّقاقَ والعِناد، وخاطَبوا شيخَ الضُّلّال، ورأسَ الفجورِ والضَّلال ابنَ وَقاريطَ المتفنِّنَ في الفتن، الناشئَ في المكائدِ على قديم الزّمن، واستكثَروا بمُداراتِه وآرائه، ولم يَجِدوا مُعِينًا إلا الاستمدادَ به، فأجابَهم إلى مطلوبِهم، وأقبَلَ على مساعدتِهم وإسعافِهم، وقد كان في هذه الـمُدّةِ السالفة مُنْتزِياً مُوالياً ليحيى مشتغلاً بتجديد طَلَلَ دارِس، أخنَى عليه الذي أخنَى على لُبد، يَحضُّهم على الإعلان بدعوة يحيى والاستنادِ إلى بيعتِه والذبِّ عنه والانضواءِ إليه، ووَجَد ابنُ وقاريطَ بذلك ما كانتِ الأيامُ تُقصِّرُ عنه عندَه من مرادِه، فانتعَشَ وقد كان أشفَق لانقطاع الأمل من تجديد مُحال يَرُومُه ورَسْم يُقيمُه، فانتَدبَ الخُلَّطَ لمساعدتِه واتّباع رأيِه والاقتداءِ به، ووَجَّهوا أرسالَهم وكُتبَهم بذلك ليحيى بن الناصِر،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣.

وقَدَّموا على أنفسِهم لعَقْد أمورِهم وإحكام رُبوطهم يحيى بنَ هلال بن حميدان، وأضرَموا للفتنة[1] نارًا وأظهَروا الخلافَ والعناد، واشتَغلوا بتخريبِ القبائل وفساد البلاد، وحشَدوا حشودَهم واجتَمعوا من كلِّ أَوْبٍ وفَجّ، واستقبَلوا الحضرةَ مُعلِنينَ بطلب ثأرِهم، فأحدَقوا بجَنَباتِها، وخيَّموا بأحوازِها وجِهاتها، وشَرَعوا في تدمير البحائر وقطع مياهِها وشجراتِها، وقد خَلَت أمامَهم الـمَجاشرُ والقُرى إلّا مَن كان لهم عليه سُلطانٌ من الرَّعية، فإنه استقرَّ بمكانِه، وعَظَهم انتقامُهم وعَيْثُهم في الحَوْز، فضاقتِ الأرضُ بما رَحُبت على الناس لانقطاع المرافق والموادّ، وارتفَعت الأسعارُ وعُدِمتِ الأقوات، وقَلَّ كلُّ مرفَق وأعوَزَ وُجدانُ ما يَنتفعُ به الناسُ من الحَطَب والتِّبْن والفواكِه والخُضَر وما يُجلَبُ من البوادي، واقشعرَّت الجُلود من هَوْل المكابَدة في طلبِ شيء من أنواع الحِنطة، وبَلَغت مبلَغًا لا عَهْدَ بمثلِه حتّى انتهى الرُّبع الواحدُ من الدّقيق اللّطيفِ الفاسد إلى ثلاثةِ دنانير، والناسُ في ازدحام على مَن يَشعُرونَ عندَه زِنةُ الخَرْدلة منه أو مِن سواه، وما أهمَّهم إلّا إقامةُ الأَوَد بما ينطلقُ عليه اسمُ الحِنطة، وتَمامُ الشّرح لهذه المجاعة يأتي بعدَ ذلك إن شاء اللهُ تعالى بعدَ ذكرِ خروج الرّشيد[2].

ذكرُ فِرار الرَّشيد من حضرتِه أمامَ الـخُلَّط

ولـمّا انتَهت هذه الأحوالُ إلى هذه الغاية المشروح بعضُها، وضاقَ على الخليفة مجالُ النَّظَر وتقَلَّصت أحوالُه وأحوالُ أجنادِه وحاشيتِه، أخَذ في الحركة ليَضرِبَ يمينًا وشمالًا والأجنادُ تفنَى في هذه الشدة وتنثالُ على أعدائه الخُلَّط، فاتَّخَذوها سببَ الانتقام، وانتهزَوها فرصةً في الوصُول بجُموعِهمُ الكثيفة المتَراكمة تَراكُمَ السَّحاب، فأنِفَ زعيمُ النّصارى حينَئذٍ غنصالُه منَ الانحصار للعرَب، فجَمَع جموعَه ورتَّب أمورَه وتأهَّب للقائهم بخارج الحضرة، واستعَدَّ لذلك بأقصَى ما في إمكانِه من العُدّة، وخَرج معَه بعضُ المسلمين وقَصَدوا نحوَ وادي تانسيفت[3] حيث كان جموعُ الخُلَّط ومخيَّمُهم، فلمّا

---

(١) في ق، ك: «وأضرموا الفتنة».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣، والاستقصا ٢/ ٢٤٣.

(٣) الروض المعطار ١٢٧.

أحسَّ العَرَبُ بهم تداعَوْا إلى قتالِـهم وأقبَلوا من كلِّ جهة بفُرسانِهم ورجالِـهم، واجتَمعوا في أُمَم لا يُحصيها إلّا باريُ النَّسَم سبحانَه، فكان بينَ الفريقَيْنِ يومٌ عَصِيب، واحتَدمَ القتالُ طويلًا وأمدادُ الخُلَّط تتَزايد، ومَن كان منهم بعيدًا ناداه صَريخُهم فأتَى من وقتِه ورَأَت النّصارى موقِعًا شَنيعًا، ووَرَدوا من عَدَم الرأي في حربِهم مَورِدًا فَظيعًا، وكان فيهم عبدُ الصَّمد بن يلولانَ الـهَسْكُوريُّ الذي كان يُضاهي ابنَ وقاريطَ ويُكابِرُه، وكان من شُجعان الفُرسان، في نَفَرٍ يسير من إخوانه.

ولـمّا عايَنَ الجُندُ الخارجُ من مَرّاكُش ذلك الأمرَ نَظَروا طريقًا ليلتمِسوا منه سبيلًا، فلم يرَوْا أوقَى جُنّةً من قَنْطرةِ تانسيفتَ، فاقتحَموا عليها ومَن معَهم، وضاق هنالك مجالُهم، وتسابَقَ بعضُ الخُلَّط إلى طَرَفِه الأدنى ليمنَعوهم من الخروج عليه، فكان هنالك خَطْبٌ شَنيع ورحَى الحربِ تَدورُ على زُعماءَ مِن فُرسان النّصارى، فاستحَرَّ القَتلُ فيهم وعُدِم منهم عددٌ، ثم حَمَلوا حملةً صادقة على الذين أمسَكوا عليهم طَرَفَ القَنْطرة واللّيلُ قدِ انسَدل ظلامُه، فخَرجوا من القَنْطرة وسَمُّ الخِيَاط أفسَحُ منها مجالًا، وسَتَرَهم اللّيلُ بجِلبابِه ودخَلوا المدينةَ ليلًا منهزِمينَ خامِدين.

وبات الناسُ في اضطرابٍ لِـما عايَنوا من سُوءِ الحال وانقلابِ الأجناد، وقد قُتل عددٌ كثيرٌ من زُعمائهم، وعُدِم أكثرُهم في هذه الكائنة بسلاحِهم، وأصبح الناسُ يَمُوجُ بعضُهم في بعض، وارتفعَتِ الهَيْبةُ من السّلطان وجُندِه، وعُدِمت الأقواتُ البتّـةَ، وكاد الناسُ يأكُلُ بعضُهم بعضًا، والعَرَبُ الخُلَّط في خَفْض من العَيْش، والزَّرعُ عندَهم يُداسُ بالأقدام، فامتَدّوا بالفساد، واستَدرَجوا بوصُولِـهم من مكانٍ إلى مكان، وأيقَنوا أنّهم آمِنونَ من خُروج الجَيْش لهم ثانيةً لقَتْلِهم أبطالَهم واستيلائهم على أسلحتِهم وجميع ما كان لهم، والأحوالُ تزيدُ ضِيقًا بكلِّ وَجْه ولا مدَدَ يُرتقَب ولا فَرَجَ إلّا من تحت ظِلال السُّيوفِ يُنتظَر.

ولقد وصَل الخُلَّطُ في أحد الأيّام إلى الحضرة من جهة القِبلة وتَركوا الـمُصَلّى في الأعياد وراءهم، واقتَربوا من السُّور في أُمَم لا تُحصَى، فخَرجَ العسكرُ كلُّه حينَئذٍ إلى خارج المدينة، وكان سَطْرًا واحدًا من غَرْبيِّ الصِّهرِيج الذي بينَ باب النَّصر وبابِ الشّريعة

إلى مَقرُبة من موضع مَبيع البقَر والغَنَم، فعايَنَ الناسُ مِن قتلهم ما راعَهم وأضعَفَ قُواهم وأوهَنَ نفوسَهم، وربّما انضاف إليهم في ذلك الصَّف عبدُ الصّمد الهسكوريُّ وإخوانُه، والناسُ على الأسوار لا ينطِقونَ[1]، واستمرَّتِ الحال في هذا اليوم على ما ذُكِر منَ اصطفافِ خاصّة دونَ قتال إلى العَصْر، وانفَصَل الخُلَّطُ من هنالك، ودخَلَت الأجنادُ إلى البلد، وما مَرَّ يومٌ إلّا وله شأنٌ من الشّدّةِ وعَدَم الأقوات.

فلمّا انتهَتِ الأمورُ إلى أبعدِ غايةٍ تـمُرُّ بالأوهام منَ الاختلال، توقعت المحاصرة حقيقةً، وانتَظَم الخُلَّط بابن وَقاريطَ وأشياعِه، وتفاقَم الأمرُ واشتدَّ الحال، فاقتضَتِ المصلحةُ النّظرَ في وَجْهٍ يكونُ فيه مخرَجٌ إلى الفَرج، وحضَر لذلك الموحِّدونَ وغيرُهم، وانبعَثَتِ الخَواطرُ بما فيها، وأُعمِلت الأفكارُ في أسباب النَّجاةِ ودواعيها، وتفاوَضَتِ الأقوالُ وترجَّحَتِ الآراء، واستمدَّ الكبيرُ من الصَّغير، ونَظَروا في عاقبةِ الأمر، فرأى الجمهورُ أنّ الخروجَ أحقُّ وأَوْلى، قالوا: إنّما نَحْيَا بخروجِنا فتكونُ لنا الكَرّةُ أو نموتُ فنستريح، وأَثَروا قولَ القائل [من الخفيف]:

عِشْ عزيزًا أو مُتْ وأنت كريمٌ بينَ طعنِ القَنا وخَفْق البُنودِ

فلمّا اجتَمعوا على هذا الرأي الناجح والقَصْد الصّالح، تَفاوَضوا في جهةٍ يقصِدونَها وناحية يعتمدونَها، فانتَدَب لهم الموحِّدونَ وقالوا: إنّ الموطأ ما إليه من سبيل وقد أحدَقت به الأعداء، وهذه بلادُنا تُنجيكم، ونحن بأنفُسِنا وإخوانِنا نَفْديكم ونَقِيكم، وجبالُنا المتَّسعةُ تحمِلُكم دهرًا وتُؤويكم، وإذا حلَلْتُم بعَرَصاتِها وشواهقِها وأمِنتُم من المكارِهِ وبوائقِها، وأتيتُمُ الأمورَ من وجوهِها وطرائقِها، وتوسَّعتُم في معرفة الأحوال وحقائقِها، وكنتُم قد مَلَكتُم قِيادَ آرائكم، وأمنتُم من كلِّ جهة حتّى من عدوِّكمُ الذي مِن ورائكم، وعند ذلك يتأتّى لكمُ المراد، وتأتي الأيامُ بالموافقة والإسعاد. ولـمّا قرَّروا ذلك استَبْشَر الرّشيدُ ومَن معَه بمَقالهم، ورَكَنوا إلى رأيِهم واستَخاروا اللهَ سبحانَه في الحركة معَهم إلى جهة الجبل لارتقابِ الفَرَج المؤمَّل والنَّصر المنزَّل، وأخذ الرّشيدُ

---

(١) في ق، ك: «ينظرون».

ورجالُ دولتِه والموحِّدونَ في حركتِهم، وخفَّف الناسُ أثقالَهم ببَيْع ما لا يحتاجونَ إليه، وعندَ ذلك ظَهَرت الحِنطةُ في البلد ممّا باعَه المتحرِّكون، ولقد كان عندَهم منها ما تتمشَّى به أحوالُ الناس مدةً طويلة، ولكنّ حُبَّ النفْس منَعَهم عن إخراجِه والتمسُّكِ به.

وشاعَ في الناس خبرُ الحركة والأبوابُ مُغلقةٌ إلا أحدَها عندَ الضّرورة يُفتَح، وانتَعَش الناسُ بظهور الزَّرع بعضَ أيام، وبالبيع والشِّراء ومعاملة المتحرِّكينَ فيما يحتاجونَ إليه، ولم يتهيَّأْ لهم الخروجُ من الحضرة حتى بَعُدتِ العَرَبُ يسيرًا عنها(١).

ذكرُ السببِ في بُعد العَرَب عن الـحَضْرة وتهيؤ الخروج منها للرّشيد بجُملتِه وأجنادِه

لـمّا عَزم الرّشيدُ على خروجِه من حضرته، توقَّع أن تَجلِبَ العَرَبُ عليه بخَيْلِهم ورَجْلِهم فلا يجدَ وصولًا إلى الجبل ولا غيرِه، فأجْمَعَ رجالُه على أن يبعَثَ رَقّاصِين بكتُب مُفتعَلة تتضمَّنُ نُصرةَ الرّشيد على أعدائِه الخُلَّط، كأنّهم وصَلوا بها من عند جرمونَ شيخ عَرَب سُفيان، وبطاعتِهم له وحرصِهم على الاتّصال به والدّخول في سُلطانِه، وأجزَلوا العَطِيّةَ للرقّاصِين وأمَروهم بالانتماءِ إلى جهةٍ معيَّنة ثم يأتونَ منها قاصِدينَ الحضرةَ مارِّينَ على الخُلَّط متعرِّضينَ لهم لكي يأخُذوهم ويَستعجِلوا أخبارَهم ويأخُذوا كُتبَهم ويستفهمونَهم عن مَأمِّهم ومُتوَجَّهِهم فيُخبرونَهم بأنّهم قاصدونَ الحضرةَ من عندِ عدوِّهم جرمون، وأنه مُستقبِلُهم بعَرَب سُفيانَ أعدائهم، وأنهم تَركوه على وادي أُمِّ رَبيع. ثم كمُل لهم هذا الغَرَض، وجَرَت به الإرادةُ على أحسنِ ما قُدِّر فيها، وأنّ الرَّقّاصِينَ عَمَدوا بالكتُب ناحيةَ الخُلَّط فأخَذوهم وكتبَهم وألَـحُّوا عليهم حتى أقَرُّوا لهم بأنّهم أرسالُ جرمون، فأجمَعوا على أن يقصِدوه وقد كانوا في أمنٍ من جهتِه بأنه لا يُقاومُهم ولا يستطيعُ كِفاحَهم، ولكنّهم لـمّا وقَفوا على الكُتُب واستَخْبَروا الرقّاصِينَ، ظَنُّوا أنَ الأمرَ حقّ، واقتَضَت الـمَصْلحةُ عندَهم أن يُبدِّدوا جمعَهم قبلَ انتظامِهم بالرّشيد واجتماعِهم به، فأخَذوا في الحركة نحوَ وادي أُمِّ رَبيع(٢).

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣ باختصار.

(٢) الروض المعطار ٦٠٥.

ذكرُ كيفيّة خروج الرّشيدِ من حضرتِه بجميع جُندِه

لـمّا أحسَّ الرّشيدُ ببُعد العَرَب الخُلَّط والهَساكرةِ الذين كانوا معَهم عن مَرّاكُش، خَرج قاصدًا إلى الجبل، وكان لـمّا عزَم على ذلك عيَّن يومًا له، فلمّا كان في صُبحِه اشتَغل بالتجهُّز، واشتَغلت خُدّامُه بحركتهم وأثقالهم وعيالهم ولم يترُكوا لأنفسِهم بمدينة مَرّاكُش قليلًا ولا كثيرًا ولا جَليلًا ولا حقيرًا، وكان اجتماعُ الذين يخرُجون خارجَ البلد لم يَبعُدوا عن سُورِه بوَجْهٍ من الوجوه، وجلسَ الرّشيدُ بقُبّته معَ خاصّته، وكلُّ ما يخُصُّه من أثقال وأحمال وحَشَم وعِيال قدِ اشتَغل به الموكَّلون، فلم يتِمَّ ذلك إلّا في الساعة الثالثة من النّهار، فلمّا استوفَى كلُّ واحد خدِمتَه أُشعِر بذلك، وأُدنِيَ إليه فرسُه والقلوبُ تخشَع والعيونُ تدمَع والأصواتُ بالدّعاءِ إلى الله سبحانه ترتفعُ بنصرِه، والألسِنةُ ناطقةٌ بشُكرِه. وتقَدَّم للخروج على باب الكُحْل ووراءَه أثقالُه وعيالُه، وكان عِذارهُ لم يُستكمَلْ في خدِّه والدّموعُ باديةٌ في عَيْنَيه، والنهارُ بهذه المصيبة حالِك، ووقَفَ خارجَ الباب للدُّعاءِ على العادة هنالك، والناسُ يؤمِّنونَ على الدّعاء، ويَرجُونَ الإجابةَ من ربِّ السماء.

واستَخْلفَ إذ ذاك على مَرّاكُش أبا محمد عبدَ الله بن زكريّا. وقصَدَ الرّشيدُ نحوَ الـمُصَلّى متوجِّهًا لجهة الجَبل فسُدّ بابُ الكُحْل وسائرُ الأبواب، وتمشّى الناسُ معَه بعيالِـهم وأثقالِـهم في الساقة، وانسَدَل عليه حجابُ الاعتناء الرَّبّانيّ فلم يصِلْ إليه أحدٌ في ذلك اليوم من أعدائه، ونزَلَت المحَلّةُ بمقرُبة من أَغْمات، واستَشْعَروا مِن ألطافِ الله تعالى ما استدَلُّوا به على كلِّ فتح آت، ومَن كان تلوَّم متأخِّرًا عن وقتِ خروجِه وأخَذ في اتّباعِه لحِقَ به العَرَبُ فاستأصَلوه ومن جُملتِهم: أبو زيد المكّاديُّ قاضي الجماعة وابنُه عبدُ العزيز، فأمّا الوَلَدُ فإنه خَرج سبقًا على فرسِه إلى نحوِ المدينة ونَجا، وأمّا الشّيخُ فلم يُبقِ العَرَبُ له ولا لعياله ما يَستُرُهم فضلًا عن سِواه، ولو عَلِموا أنه القاضي لَقَتلوه، ولكنّهم جَهِلوه فتَركوه لُطفًا منَ الله تعالى فقَصَد على حالتِه تلك المحَلّةَ فأعانَه كلُّ من كان بها بكلِّ ما يَحتاجُ إليه فحَسُنت حالُه بذلك.

وأقام الرَّشيدُ بمحَلّتِه هنالك[1] يومًا، فاتّصل بالعَرَب خبرُ خروجِه من حضرتِه، فجاءوا متحسِّرينَ يتلهَّفونَ على ما فاتَهم، فضَيَّقوا على محَلّتِه أشدَّ تضييق، وبالَغوا في

(١) في ق، ك، ب: «وأقام الرشيد هنالك بمحلته»، وهي بمعنى.

قتالِه بكلِّ مَضِيق وفَجٍّ عميق، فاجتَمع أهلُ مَشُورتِه على الرّحيل من هنالك ليلًا إلى أَغْماتِ برَسْم التحصُّن بها، ومنها يكونُ طريقُهم حيث يَمَّموا، فلمّا أرخَى اللّيلُ عليهمُ سُرادقَه اغتنَموها فرصةً وأقلعوا من حينِهم إلى أَغْماتَ المذكورة، فلَقُوا من المشاقِّ في تلك الأوعارِ والمضائق ومَجاري المياه والتفافِ الأشجار وازدحام النّاس والدّوابِّ وشدّة الخَوْف وامتدادِ أيدي بعضٍ إلى بعض ما لا يوصَف، وما اتّصل الناسُ بالبلد إلّا معَ الصُّبح وقد أخَذ منهمُ التّعبُ والمشَقّةُ ما أشْرَفوا منه على الهلاك.

ولـمّا كان من الغدِ أقبَلَ الخُلَّطُ في الجموع الوافرة والأعدادِ المتكاثرة وهم يظُنُّونَ أنّهم ظَفِروا بمطلوبِهم وحصَلوا على أرَبِهم، فألفَوا الأثَرَ بَلْقَعًا ولم يَجِدوا لهم موضعًا، فشَقَّ ذلك عليهم وكبُرَ في نفوسِهم وأقبَلوا يَتلاوَمونَ على تَرْكِهم ثأرَهم وأنْ لم يُقيموا عليهم مُخيِّمينَ ليلَهم ونهارَهم، ثم إنهم[1] لم يَلبَثوا إلّا ساعةَ لومِهم لأنفسِهم وأخَذوا في التضييق على أَغْماتَ والانتهاءِ إلى سُورِها، وأقاموا لها مُحاصِرينَ يومَيْن لم يَجِدْ أحدٌ فيها شيئًا يَبتاعُه، واحتيجَ إلى طعام برَسْم زادٍ لدارِ الخليفة الرّشيد، فتطوَّف خاصّتُه الـمُشرفُ أبو البركات على الأسواق ثم على أهل الدِّيار ثُم اقتحَم بعضَها فلم يجتمعْ له إلّا قَدْرُ تسعينَ مُدًّا من قمح. فلم يمكنِ الاستقرارُ هنالك على الجُوع، فأجمَعوا أمرَهم على الخُروج إلى جهة تالمقت، ومنها يصعَدونَ الجبلَ مأمنَهم من عدوِّهم، فكان ذلك، وعَمِيت أخبارُهم عن عدوِّهم، وطَبَع اللهُ تعالى على قلوبِهم وسَمْعِهم فما أحسُّوا بالخروج إلّا بعدَ حصُول الناس بأطرافِ الجبَل.

وهنالك استَأْذَن شيخُ تينملَ أبو يعقوبَ يوسُف بن عليٍّ بن يوسُف على التوجُّه بالجُند إلى جهة ويرجّان: من أعمال مدينة تينمل، للقَبْض هنالك على السيِّد المعروف بأبي حافة[2]، وهو أبو إبراهيمَ ابنُ أبي حفص، فأسعَفَه الرّشيدُ إلى التوجُّه لذلك بالجُند، وكان السيِّدُ المذكورُ من أشياخ يحيى ومنَ الذين يتولَّونَ الذبَّ عنه بلسانِه وقلبِه ويدِه، فلمّا توجَّه أبو يعقوبَ بالجُند لم يبقَ بمحَلّة الرَّشيد أحدٌ منهم.

---

(١) سقطت من ك.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٤: «حاقة».

وشاع الخبرُ عندَ العَرَب فاجتَمعوا بقَضِّهم وقَضِيضهم وكبيرِهم وصغيرِهم وجَرَّدوا العَزْمَ على الـمُصادمة والـمُكافحة لينالوا ما يَحُومونَ عليه واللهُ تعالى يُذهبُ كيدَهم ويُخيِّبُ سعيَهم، ثُم أقبَلوا نحوَ المحَلّة وليس لها مانعٌ ولا دافع، ولـجَأَ الناسُ إلى التوعُّر في مكانٍ ضيِّق وقدِ اشتَدّت أحوالُهم وانقطَعت آمالُهم وبعضُهم يَنظُر إلى بعض، والأمرُ يؤُولُ بالتقدير وقرائنِ الأحوال إلى اختلال ونَقْض، فبينَما هم كذلك وعدوُّهم فيهم طامع، وبَرقُ رعودِه لامع، وعذابُه بالقوم لولا دفاعُ الله واقع، إذ أقبلَت مقدِّماتٌ لجيشِهم كأنّها العُقْبان، وترادَفَ العسكرُ من كلِّ جهةٍ ومكان، فعاد التَّرَحُ فَرَحًا، وجُرِّرت أذيالُ المسَرّة مَرَحًا، فعندَما عايَنَ الخُلّطُ تكامُلَ الجيش من تلك الفُجوج، أيقَنوا بخَسارٍ وفساد، لِـما ظَنّوا أنه عائدٌ بنُجْح وسَداد، ثم انقَلَبوا من هنالك ناكِصين، ووَلَّوْا على أدبارِهم خاسِرين، واستمرَّ الرّشيدُ على مسيرٍ في الجَبل وأشياخُ الموحِّدينَ يأتُونَ بالـمَرافق والتضييفِ ويوسِّعونَ على الناس في عُلوفاتِهم، وأظهَروا كلَّ جميل من طَوِيّاتِهم، وتقَدَّموا بين يدَيْ خليفتِهم في بلادِهم وطُرُقاتِهم، ولم يَثْنِ عِنانًا عن موضع يُعرَف بأدّار[1]: من بلادِ هَرْغة[2]، وكان مخزنَ مالٍ وذخائرَ لأبي إسحاقَ بن أمغار، ولم يكنْ ألقَى بيدِ الانقياد أنَفةً ممّا كان بينَه وبينَ يوسُفَ بن عليٍّ التينمليّ، وكان في ذلك التاريخ مُؤازِرًا ليحيى ومُشايعًا له في جُملة من الموحِّدينَ كانوا تمَسَّكوا به ولم يُـخِلُّوا بشيء من خدمتِه وطاعتِه، فضَبَطَ حِصنَ أدّار الحاجُّ أبو محمد ابنُ الشّيخ، وكان ترَكَه عمُّه أبو إسحاقَ به فقام خيرَ قيام بمَنْعِه فحاصَرَه الرَّشيدُ فيه واستمرَّ القتالُ عليه إلى أن ألقَى بيدِه وطلَبَ أمانًا فخَرجَ منه، وكان في الحِصن إذ ذاك أبو زيد بنُ عبد الكريم الجدميويُّ، وهو شابٌّ يقرأ، وكان أبو إسحاقَ بنُ أمغارَ خالَه، ثم إنّ الرَّشيدَ ومَن معَه من الموحِّدينَ استقبَلوا بلادَ القبلة وقالوا: هذه سِجِلْماسةَ أمامَنا، وبها تتِمُّ آمالُنا وتتَّسعُ أحوالُنا، وننْسَى ما كابَدْناهُ منَ الأهوال، ونستجدُّ عزمًا ونَظَرًا في المقارعة والنِّزال، وإذا ملَكْناها ملَكْنا كلَّ البلاد، ويتيسَّرُ لنا فيها نَرُومُه المراد، وكان بها

---

(١) الضبط من ق.

(٢) هذا الحصن جوَّد تقييده ناسخ ق، فشدّد الدال.

أرقمُ بنُ يحيى بن شُجاع بن مُرْدَنيش، فسَمِع بقَصْد الرّشيد إليه فارتَعدت فَرائصُه وهاجَتْ خَواطرُه ولم يرَ أنجَحَ رأيًا من قتالِه، فرتَّب لذلك وأخَذ له أُهبتَه وبالَغَ في حَسْم كلِّ علّة وأحسَنَ لرجالِه، وكان عندَه جماعةٌ من النَّصارى يُعوِّلُ عليهم ويَسكُنُ إليهم، فوسَّع لهمُ العطاء وأقام ببلدِه متمنِّعًا به، والرّشيدُ يَطوي إليه الـمَراحلَ وزاعِجُ الاضْطِرار يستحِثُّه. فلمّا نزَلَ بخارج سِجِلْماسةَ وهو يظُنُّ خيرًا بمَن فيها ظَهَر له من أحوال ابن مُرْدنيش ما دلَّه على شِقاقِه وعِنادِه، فاشتدَّتِ الحالُ على الجُند وعلى كافّة أهل المحَلّة، ولم يَجِدوا مَرْفَقًا ولا عَلَفًا ولا قُوتًا، وهم في صحراءَ فَغَرت فاها إن زَلَّت بهمُ الأقدام أو آثَروا الإحجامَ على الإقدام، فعندَ ذلك شَرَعوا في الـمُنازَلة وأخَذوا في الـمُقاتلة، وعيَّن أرقمُ بن مُرْدنيش قريبَه أحمدَ بنَ أبي النَّجم لقتال الرّشيد، فأظهَرَ في ذلك عناءً وبلاءً، وحَجَز اللّيلُ بينَ الفريقَيْن والناسُ من عُدْم الأقوات في اضْطِرام، ومِن غَلَبةِ اليأس عليها في استعارٍ واحتدام، وأصبحَ الناسُ في اليوم الثاني ولا قُوتَ في خِباءِ أحدٍ منهم، حتّى أن الصِّغارَ من الأولاد كانوا يَبكُونَ من شدّة الجُوع، فما يجدُ آباؤهم ما يُسكِّتونَهم به.

ثُم إنّ النّصارى الذين كانوا بالبلد معَ أرقم ابن مُرْدنيش مالَت نفوسُهم إلى إغاثة إخوانِهم، وعَلِموا أنّ ذلك لا يتَّجهُ إلا بالغَلَبة على شيطانِهم، ففتَحوا البابَ مُعلِنينَ بالطاعة ولم يكنْ عندَ أرقمَ نبأٌ منهم، فجاءه الخبيرُ بذلك[1]، فتدارَكَ أمرَه بطلب الأمان فأُمِّنَ، ودخَل الناسُ سِجِلماسةَ وقد كاد الجُوعُ أن يُبيدَهم فحصَلوا في خَفْض من العَيْش وبلد خَصيب، متّسع الخَيْراتِ رَحيب، فاستقام الحال، واستَقرَّ الناسُ في دَعَةٍ وأمن وصَلَحتِ الأحوال، وبها بقيَ إلى أنْ جدَّد حركتَه إلى مَرّاكُش على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

رجْعُ الخبرِ إلى أحوالِ مَرّاكُش بعدَ حركة الرّشيد منها وإقبال الخُلَّط إليها[2].

---

(١) في ق: «فجاء الخبر بذلك».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣-٣٤٤.

ذكرُ المجاعةِ التي كانت بمَرّاكُش عَصَم اللهُ المسلمينَ من مِثلِها

لـمّا توجَّه الرَّشيدُ في حركتِه المذكورة وخَرج أمامَ الخُلَّط من الحضرة[1]، تحيَّر الناسُ وكثُر فيهم الرَّهج، وعَظُمت عليهمُ المصيبةُ بإسلامِهم وعُدْم الأقواتِ والـمَرافق، ولم يبقَ لأحدٍ سَبَدٌ ولا لَبَد ولا طارفٌ ولا تالد ولا ذخيرةٌ ولا مالٌ ولا عَقار، واستَوْلَتِ المجاعةُ على جُمهور الناس ورأَوْا مِحَنًا يُستعاذُ بالله منها، وانتهَى الـمُدُّ الواحدُ من القمح الفَحْصيِّ إلى سبعة دراهمَ كِبارًا[2] من طَبْع... السِّكّة، وأمّا الدّرهمُ الفضّةُ فكان يُصرَفُ في نصف درهم، وكان هذا عُرفًا بين السُّوقة بالسّبعة الدّراهم السِّكّة، إنّما تُخرَجُ من مِثْلَيْ عددِها، وأمّا أسواقُ المدينة في هذه الـمَجاعة فلم يكنْ بها ما ينطلقُ عليه اسمُ شيءٍ بوَجْهٍ من الوجوه، والحَوانيتُ مُغلَقة وما بقيَ بها مَن يَلبَسُ ثوبًا يُساوي عشَرةَ دراهمَ إلا الأطمارُ المتغيِّرةُ الخَلِقة، وتغيَّرت الصُّورُ الجميلة، وتَنكَّرت الدّنيا باستيلاءِ المجاعة، وإذا ظَهرَ في السُّوق بعدَ أيام كثيرةٍ شيءٌ من خُبزِ الشّعير يُحشَرُ الناسُ عليه وإنهم لَقيامٌ ينظُرون، وما يَصِلُ إليه إلّا الكُفاةُ الذين لهم تجلُّدٌ على الاقتحام وصبر، ثم لا يَعدَمُ الذي يتوصَّلُ إليه أن يجتمعَ عليه العشرونَ وأكثرُ من الضُّعَفاء والمساكين حتى ينتزِعوهُ منه قهرًا، وأمّا شيخٌ أو عجوزٌ أو طفلٌ أو ضعيفٌ فإنه لا يصلُ إلى شيء، ولا على لُقمة منه، وسائرَ الأيام إنّما يَظهَرُ في الأسواق ما يكرَّرُ طحنُه من فيتورِ الزّيتونِ وغيرِه، فهو كان غذاءَ الناس؛ لأنه كان كثيرًا بالبوادي الخالية فتجتلبُه الضُّعَفاء ويَقتاتُونَ منه ويَبِيعونَ فَضَلاتِهم، وكذلك النارنجُ كان موجودًا كثيرًا، فصار الناسُ يَميلونَ إلى شرائه وما يَدْرونَ حامضًا هو أم حُلوًا من سُوءِ ما حَلّ بهم، وكان يُباعُ في الأسواق خُبزٌ يُعمَلُ من تابودا[3] التي تَنبُتُ في الصّهاريج وفي الأنهارِ والسواقي، وهو شِبهٌ من القَصَب، سُمٌّ من السُّموم يُتخيَّرُ منه ما جَفّ ويُطحَن كما تُطحَن الحِنطة ويُعمَلُ منه خُبزٌ يُخيَّلُ لـمَن يَراه فإذا التمَس شيئًا منه باستعماله ومَذاقه لم يَجِدْ شيئًا.

---

(١) شبه الجملة ليس في ق.

(٢) من هنا إلى قوله: «وكان هذا» سقط من ق، ك، ب، ر٣.

(٣) لفظة مستعملة في البوادي الشمالية إلى الآن.

ومن جُملة ما اقْتاتَ الناسُ به في ذلك الوقت: عصائدُ تُصنَعُ من نُوّار الخَرّوب، وما عدا هذا ليس له وجودٌ البتّةَ، حتى لقد هلَكَت أُمَمٌ لا تُحصى وأبوابُ البلد كلُّها مُغلَقة والـمُصايفةُ قد قَرُب أوانُها، وكانت طيّبةَ الزَّرع جِدًا، وظَهَر في الزّرع باكورٌ لو وجَده الناسُ لأغناهم، ولكن حالَتْ بينَهم وبينَه العُربانُ والعساكر.

ولـمّا انتهت هذه الشِّدةُ بالناس إلى كلِّ غاية، نزَلَ عليهم عدوُّهمُ الشّديدُ الباس، فاشتدَّ الحصار، وتمنّى الناسُ الإسار، وبَلَغت القلوبُ الحناجر، وما للناس غيرَ الله سبحانَه من وَليٍّ ولا ناصر، وأحدَقَ العَرَبُ بالبلد من كلِّ جهةٍ ومكان، وكان معظَمُهم وزعيمُهم من جهة القِبلة عندَ الـمُصَلَّى وحيث سوقُ الدّوابِّ وهم يُقاتلونَ أهلَ[1] السُّور مُداوَلةً في كلِّ يوم.

قال أبو عبد الله التِّلِمْسانيّ: ولقد عايَنْتُ من بُرجٍ مرتفع بباب دار الأشراف، وليس في أبراج القَصَبة أعلى منه، قتالَ العَرَب معَ أهل السُّور، فكانتِ الرِّجالُ من العَرَب يقِفونَ على القَنْطرة التي تُعرَف بتُوف المطرح ويَرمُونَ حجارةً على بُرج بابِ الشّريعة[2]، فما يَمُرُّ مارٌّ بالرّصيف وتنتهي حِجارتُهم إلى فُندق السُّكّر هناك وإلى الممرِّ المرورِ عليه ببابِ نفيس، وهذه مسافةٌ لا يقطَعُها إلا شدّةُ الساعد، ولقد كان الناسُ يَرمُونَ بالحجارة من السُّور، فما كانت تنتهي بوَجْهٍ إلا للسّتارة؛ لأنّ الناسَ في ضَعْف أنهكَ القُوى وأخَلَّ بالعظام والعَرَبُ في قوّة وخَفْض من العيش، والفَحْصُ وزرعُه في حُكمِهم، وهم يُخوِّفون ويُهدِّدون.

واستمرَّتِ الحالُ على ذلك، فكان الضُّعفاءُ يَخرُجونَ على الأبواب، فإنّ البلدَ ضاقَ بهم فآثَروا الفِرارَ بأنفُسِهم، ولم يَبْقَ بالبلد إلّا الأقلّ ممّن لا يستطيعُ خروجًا، وبَقِيت هذه الحالُ مدةً والخُلَّط وحشودُهم يَستحِثُّونَ يحيى وأشياعَه. فتقدَّم منهم السيِّدُ أبو إبراهيم بنُ أبي حافةَ فنزَلَ بمقرُبة من البلد، وعايَنَ الناسُ مِن نزولِه هناك ما راعَهم، ولم يبقَ في الناس قوةٌ لحمايةِ بلدِهم، فمالت نفوسُ الناس إلى السيِّد المذكور لعلّه يمنَعُهم من عَبَثِ العَرَب فيهم، ثم تسَوَّر السُّور وتمكَّن من البلد، وفَرَّ الوالي أبو محمد بنُ أبي

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) في ق: «الشريفة»، وليس بشيء.

زكريّا ومعَه يحيى بنُ عبد الرحيم، فإنه كان الرّشيدُ ترَكَه على مَن كان تخَلَّفه بالقصر من خَدَم وإخوةٍ صغار، وكان فِرارُهما من سِرب بابِ الصّالحة، وتوجَّها نحوَ تاماروتَ: من بلاد هَنْتاتةَ، واستقَرّا في أمنٍ هنالك إلى أن عادا بعَوْدةِ الرّشيد إلى حضرتِه على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ فتح مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى ليحيى ابن الناصر على يدِ السيِّد المذكور عبد الله بن أبي حافة

لـمّا نزَلَ السيّدُ، كما تقدَّم ذكرُه، بباب الشّريعة[1]، سَكَنتْ إليه نفوسُ الناس ليحميَهم من عَبَث العَرَب وفَتْكِهم، وقد كانوا تأخَّروا في ذلك الوقت عنها يسيرًا، فتمكَّن السيّدُ من البلد ووَجَّه كتُبَه بذلك ليحيى وضَبَطَ البلد واكتَسَح لنفسِه كثيرًا، وأخَذ من وجوه البلد وتُجّارِه ما أراد، واصطَنَعه الناسُ خوفًا على أنفُسِهم وأموالِـهم، وكان له وَلَدٌ اسمُه عمرُ تسبَّب لناس بأشياءَ استَولَى بها على كثيرٍ من أموالِـهم، وكان أثَرُه في ذلك شنيعًا، وما كان لأبيه مطيعًا في الكفِّ عن الناس معَ طمَع أيضًا كان في والدِه توصَّل به هو وابنُه إلى ما راما. وفي أثناءِ هذه الحال وجَد الناسُ سبيلًا إلى الزَّرع الأخضَر، فخَرج لحَصْدِه الضُّعفاء وأكثَرَ الناسُ منه في البلد، فانتَعَشوا وعادتْ إليهم أرواحُ الحياة، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعد. وقتَل السيِّدُ هنالك شخصًا عِلْجًا في الأصل كان من خاصّة الرّشيد، وكان طالَبَ بقتلِه صبرًا، ثم اتّصلتِ الأخبارُ بوصُول يحيى وابن وَقاريطَ والخُلَّط، ووصُول جماعة من الموحِّدين مستقبِلينَ المدينةَ الخائفَ أهلُها، فاشتَغَلت الخَواطرُ من الذين يعلَمونَ عواقبَ الأمور ومارَسوا الفِتنَ والأهوال في الدّخول عليهم مرّات، ومَرَّ آخَرونَ ممّن هُو من جانبِ يحيى ومِن قوم لا يعقِلونَ من السُّوقةِ الذين يأخُذون أموالَ الناس ويدخُلون الدِّيار ويقتحمونَ على أهل الـمُروءات ويَحمِلون العَرَب إلى قوم لهمُ اشتهار بمال، أو بينَ أحدٍ منهم وبينَهم على متاع قليل تنافُس، فيُدركُ أملَه في الإيقاع به والنَّيل منه [من الطويل]:

بِـذا قـضَت الأيـامُ مـا بـينَ أهلِهـا مـصائبُ قـومٍ عنـدَ قـومٍ فوائـدُ

(١) في ق: «الشرقية».

ذكرُ وصُول يحيى ابن الناصِر لـمَرّاكُش
ومَن معَه من الـخُلَّط وهَسْكُورةَ معَ ابن وَقاريط

لـمّا وصَل يحيى إلى مَرّاكُش واحتَلَّ بها، وصَل معَه أشياخُ العَرَب وعامّتُهم وكبيرُهم وصغيرُهم واستَوْلَوا على كلِّ سُوق وجهة، واقتَحَموا الدِّيارَ ووالَوا الإضرار، واختاروا من الدِّيار ما شاءوا فأخَذوه ولا مانعَ يمنَعُهم ولا زاجرَ يَزجُرُهم، ووصَلَ أبو إسحاقَ ابنُ الشّيخ، وكان كالوزير إلّا أنّ رَوْنَقَ الوِزارة قد دَثَر ودَرَس وتغيَّر، وكان أيضًا وزيرًا له أبو محمد بنُ وانُودين وأبو يحيى زكريّا بن يجلد. ووصَل ابنُ وقاريطَ في أشياعِه ونزَل دارَ أبي سعيد بن جامع، ونزَل عليّ بن هلال في جميع ديارِ دار[1] نفيس هو وإخوانُه، واقتَسَموا الدِّيارَ والقصورَ العجيبةَ التي لا يأتي الزّمانُ بنظائرِها ولا بأمثالِـها، وبعدَ أيام انقَبَضتِ الأيدي على امتداد وكُفَّت أكُفُّ الفساد، ولم يكنْ للموحِّدينَ كبيرُ أثَر في هذا الوقت، فأمّا أبو إسحاقَ ابنُ الشّيخ فلم يكنْ همُّه قبلَ احتلال يحيى بأيامٍ ثلاثةٍ أو أربعة إلّا في القَبْض على مَن بقِيَ في القَصْر من أولادِ المأمون ليُمسِكَهم فيما أخذَتْه الأيدي وانهبَتْه، واحتَمل إلى الجبل مَن حصَل منهم في يدِه، ثم لَحِق بموضعِه لغَلَبة العَرَب وابن وقاريطَ على يحيى، حتّى إنه كان إذا جلسَ[2] في القُبّة المعروفة لجلوس العلماء ما بقيَ أحدٌ من العَرَب إلّا وهُو يَقتحِمُ عليه فيها بغير إذْن، وما كان جلوسُ عامّتِهم مدّةَ إقامته بالقُبّة إلّا بمقرُبةٍ منه في الرَّحبةِ الكبرى، وتغيَّرتِ الأحوالُ كلُّها.

وفي أثناءِ ذلك التاريخ: أطلقَ ابنُ وقاريطَ ذُؤابةً من عِمامتِه يقولُ له الناس: الفشتال. قال الكاتبُ أبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ رحمه الله: ولقد عايَنْتُ عِمامةَ ابن وقاريطَ وطَرَفُها معَ رُكبتِه، وفيه من التِّيه والزَّهْو والعُجْب والاغترار ما لا يَصِفُه الواصفون، وقد تحصَّل له كلُّ مطلوب من حُلول يحيى مَرّاكُش واحتوائه على سُلطانِه ولعِبه بعقول العَرَب كيف شاء واستيلائه على القبائل والبلاد، وتوجيه رجالِه إلى كلِّ جهة عن الأموال، وإقبالِ الرِّضى عليه بالمساعدة، فظَنَّ أنّ ذلك شيءٌ لا يَفسُدُ ولا ينقَضي والأقدارُ منه تضحَك والأيامُ تأتي بكبيرِ عادتِها من الكَسْرِ لكلِّ جبّارٍ عنيد منَ الإملاءِ له والإمهال.

---

(١) سقطت من ق.

(٢) في ق: «حتى إنه إذا جلس»، وفي ك: «حتى إذا جلس».

ولـمّا حالَت أحوالُ الموحِّدينَ المذكورينَ وعَلِموا أنّهم في قَبْضةِ ابن وقاريطَ أخذوا في التكاسُل عن الخِدمة والتثاقُل، واستمرُّوا على ذلك صَدْرًا من تلك الأيام، حتى اضْطُرَّ يحيى إلى تقديم الحَسَن ابن السيِّد أبي عليّ بن أبي عَبد الله ابن السيِّد أبي حَفْص وزيرًا، فاستمرَّ في الوِزارة يسيرًا، ثم أصابه مَرَضٌ شديد، فاستأذَنَ على أخيه أبي إبراهيمَ الأصغر، وكان مُخالطًا لبعض الطَّلَبة ومُلابِسًا لهم، فقام مقامَ أخيه في التصرُّف ليحيى، ونفَقت سُوقُه وتغيَّر زِيُّه الذي كان يُعرَفُ به، ثم لم يلبَثْ إلّا يسيرًا وحُمَّ حِمامُه، وأخوه الحَسَنُ على أثَرِه، وبقِيتِ الأحوالُ على هَرَج وسُكون تارَةً سِلمًا وتارَة هَيْجًا، وكان المتَولِّيَ على باطن يحيى والحاجبَ له والناظرَ عليه والكافلَ لأمورِه والضابطَ لنفقاتِه والمرجوعَ إليه في مَصالحِه ودارِه وحَرَمِه ومملكتِه على تقلُّصِها: فتًى اسمُه بلالٌ يُكنَى أبا حَمامة، وكان شيخًا متطلِّبًا قرأ في زمن[1] شبيبتِه، وكان متوقِّدَ الخاطر مُتَنمِّسًا[2]، وعليه كانت تُدورُ أحوالُ يحيى إلى أنْ صار يكتُبُ بخطٍّ مَشْرِقيٍّ العلَامة في ظهائرِ التي هي الحمدُ لله وحدَه، وأمّا غيرُه قبلَ هذه المدة فلا يرتابُ في أنه كان يكتُب العلامةَ عِوَضًا منه، حتى لقد قيل عن امرأة: إنّها كانت تكتُبُها فإنّ يحيى كان في يدِه اليمنى شلَلٌ، وكان هذا يَظهَرُ فيه، فإنه كان لا يرفَعُ به طِنابَ برنوسِه ولا يُمسكُ قضيبًا بيدِه على عادةِ الخُلفاء، ولقد كانت مسائلُ الناس برغَباتِهم يُرفَعُ إليه منها ما لا يُحصى وكلُّها يَكتُبُ عليه الفتى أبو حَمامةَ بلالٌ المذكورُ بما شاء وما أجراه اللهُ تعالى على قلبِه ويدِه، وذلك بمِداد يَميلُ إلى البياض وبقلم رقيق وبينَ الحروف فُسْحة فيُعيدُ يحيى على تلك الحروفِ بخطٍّ ضعيف، وربّما نَسِي بعضَ تلك التواقيع فلا يمُرُّ عليها بشيء إلى أنِ اطَّلع الفتى على هذا الأمرِ الشَّنيع فستَرَه، وصار يَكتُبُ التواقيعَ بالمِداد الأحمر المعروفِ للخلفاء.

ولقد اضْطُرَّ يحيى حينَ دخولِه القصرَ إلى ما يُنفقُه، فوجَّه في ذلك لابن وقاريطَ والعَرَب فاكتَرَثوا لحالِه وشَرَعوا في توزيع المال عليهم وعلى هَسْكُورةَ، ثم لم يتِمَّ ذلك الـمُحاوَل وبقيَ على اضْطِرارِه واحتياجِه وتقلُّصِ مادّتِه، ثم تسلَّلَ الموحِّدونَ الذين كانوا بمَرّاكُشَ وتوصَّلوا بذلك إلى أسبابٍ دبَّروها وتوصَّلوا بها إلى غاية مرغوبِهم.

---

(١) سقطت من ك.

(٢) المتنمِّس: الحاذق، كالناموس. (قاموس).

وأوقَعَ إذ ذاك الفتى بلالٌ بعليٍّ ابن الناصر أخي يحيى، وقال ليحيى: إنه عازم على الفِرار كما فـرَّت إخوتُه: موسى وزكريا ليَلحَقَ بهما عندَ الرّشيد، فاقتضَى نظَرُه القبضَ عليه، فبعَثَ عنه غُلامًا من عَبيد البحايرينَ الفُتّاك الفُجّار، فتوجَّه الغلامُ إليه معَ جماعة من أشباهِه، فلم يُلفِهِ بدارِه وألفاه بحَمّام يُعرَفُ بحمّام الفَهْميّ، ووافَقَه خارجًا ليَركبَ دابّتَه فاحتَمَله مرقبًا إلى الدار الـمَكْرِيّة وثُقِّف ليلتَه هناك، وكان فتًى صغيرَ السنّ نحيفَ الجِسم أصفرَ اللّون. وشاعَ الخبرُ تلك الليلةَ عندَ الناس، ورَقَّت له النفوسُ لسكونِه وعقلِه وأنه لم يَصدُرْ عنه ما كان يصدُرُ عن أحد من إخوتِه ولا غيرِهم، فتَطارَحَ الناسُ على العَرَب في شأنِه ليُسلِمَه. ثم جلسَ يحيى في اليوم الثاني لتلك اللّيلة على عادته بقُبّته، فدخَل عليه العَرَبُ وابنُ وقاريطَ، ودخَل من الخُلْط شيخٌ عالي السِّنّ رفيعُ القَدْر عندَ إخوتِه مُطاعًا فيهم، فشَفَع عندَ يحيى في أخيه وأتى بكلام حَسَن في استعطافِه عليه ورَعْي وجهِه وأخوّتِه فلم يَعطِفْ عليه ولا رَقَّ له لِـما وقَرَ في نفسِه من طريق حاجبِه ومدبِّرِه، وقرأ العَرَبيُّ المذكورُ في ذلك المجلس في أثناءِ كلامِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية [الحجرات: ٦]، فلمّا انقضَى المجلسُ أمَرَ بقتلِه، فقُتل رحمه اللهُ صَبْرًا، فكانت في القلوبِ منه فَجْعة. وأمّا ابنُ وقاريطَ وغيرُه فلم يكنْ همُّه إنكارًا لذلك، فإنّ مرادَه كان إبادةَ العالَمِ عساه أن ينفردَ وحدَه بالدُّنيا، ولا بقاءَ إلا لله سبحانَه.

وكان دخولُ يحيى مَرّاكُشَ في آخِر سنة اثْنتينِ المذكورة، وأقام بها إلى صَدْرٍ من عام ثلاثةٍ وثلاثينَ وست مئة، والرّشيدُ في هذه الـمُدّة بسِجِلماسَة وقبلَها ببلاد القِبلة، وبسِجِلْماسةَ أقام هُو أيضًا صَدْرًا من عام ثلاثةٍ وثلاثينَ المذكور، وكان ابنُ وقاريطَ في هذه المدّة كلِّها يَصطنعُ العَرَبَ الخُلْط ويُصافيهم ويَستميلُ نفوسَهم ويتحبَّبُ إليهم ويُحالفُهم على أنه واحدٌ منهم لا يُخالفُهم ولا يُفارقُهم في حركة ولا سكون، فتهيَّأ له بذلك مُرادُه وتمكَّن ممّا شاء وقَدَّم وأخَّر ونَهى وأمَر، ولم يكنْ[1] عندَه وعندَ العرب ليحيى ممّا يعوِّلونَ عليه وِرْدٌ ولا صَدَر، واتّخذ العَرَبَ ليكونوا له وُزراءَ ورُكنًا، ويكونَ هو مدبِّرًا لأمورِهم وقائمًا على أحوالِـهم، فإنّهم كانوا في قوّة لم يظُنَّ أحدٌ أنهم يَبيدونَ لكثرة

(١) سقطت من ك.

جُموعِهم وقوّة نفوسِهم وحدّة شوكتِهم، فما كان ببلاد المغرب أقصاها وأدناها مَن يُقاومُهم، فتمهَّدت له الدُّنيا وخافَهمُ القبائلُ حتّى جاءَهم منَ الله ما كانوا يوعَدون.

ولـمّا حالَفَهم على ذلك ووَثِقت به نفسُه، رَفَض بلادَه وهجَر إخوانَه وانقَطَع إلى العَرَب، إلّا أنّ أمورَ جميعِهم كانت في إدبارٍ وخَسار، إلى أنْ شَرَعوا في الحركة من مَرّاكُش عندَ سماعِهم بحركة أميرِ المؤمنينَ الرشيد من سِجِلْماسةَ في عام ثلاثة وثلاثين وست مئة على ما يأتي.

بعضُ أخبارِ الأندَلس

وفي هذه السَّنة، وهي سنةُ اثنتين وثلاثينَ وست مئة: كان توجُّه الأمير أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن نَصْر إلى مدينة إشبيلِيَة، فدخَلَها بحِيلة دبَّرها وعَمِلَها وقتَل شيخَها[1] الباجيَّ غَدْرًا ومَكْرًا، وحصَل في القَصَبة فسَكَنها شهرًا، فاجتمعَ أهلُ إشبيلِيَةَ في ليلة عيَّنوها لاجتماعِهم ورَجَعوا إليه بأجمعِهم فأخرَجوه من القَصَبة وأذاقوه نكالًا وشرًّا وطَرَدوه بالجُملة حتّى رحَل عنهم، وجدَّدوا للأميرِ أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن هود بيعةً أُخرى، فبعَثَ إليهم أخاه أبا النَّجاء سالـمًا واليًا عليهم كما كان قبلَ ذلك.

وفي هذه السنة: حاصَرَ المتوكِّلُ على الله محمدُ بن يوسُف بن هُود مدينةَ لَبْلة، وكانت للإسلام، وثار عليه بها قائدُها ابنُ محفوظ، فطال مقامُه عليها وضيَّقَ بأهلِها ولم يَقدِرْ عليها، فرحَلَ عنها ولم يعُدْ بعدَ ذلك إليها.

ذكرُ ما وقَع عليه السِّلمُ بينَ المسلمينَ والنّصارى في هذه السَّنة

لـمّا اتّصَل بابن هُود خروجُ الطّاغية أذفُونْش الأحولِ ملكِ قَشْتالةَ بعساكره الذّميمة إليه، وصَحَّ عندَه أنه ما عَزَم في حركتِه إلّا عليه، أقلَعَ عن حصار لَبْلةَ بجُنده وعاد بهم إلى بلادِه، فوصَلَه رُسُلُ أذْفونْش، فعقَد معَه الصُّلحَ لمدة من ثلاثة أعوام على مئة ألف دينار وثلاثةٍ وثلاثينَ ألفَ دينار، فقبَضَ منها خمسينَ ألفًا معجَّلة وباقي العدَد على الأعوام المذكورة مُقسَّطةٌ مؤجَّلة. وحينَئذٍ انصرف أذْفُونْش إلى بلادِه صادرًا، وبقيَ ابنُ محفوظ

---

(١) في ق، ك، ب: «شيخهم».

لابن هود مُنافِرًا، ووزَّع ابنُ هود المالَ المتَّفَق عليه معَ أذْفُونْشَ على البلاد الأندَلسيّة الإسلاميّة، ثم فَسَد الصُّلحُ بعدَ سنةٍ واحدة.

وفي سنة ثلاث وثلاثينَ وست مئة: كان دخُولُ النّصارى مدينةَ قُرطُبَةَ أعادها اللهُ للإسلام: نزَلَ أذْفُونْشُ أخزاه الله بعساكرِه الذّميمة على مدينة قُرطُبَةَ فحاصَرَها وضيَّقَ عليها، وأقبَلَت نحوَه الحشُودُ من البلاد القاصِية والدّانية، إلى أنْ ملَكَها وأخرَج المسلمينَ منها، وهذا من أجلِّ مُصابٍ وأعظَمِه، ولكنّ الرِّضى بما قَدَّره اللهُ وأحكَم، إذ هي أُمُّ المدائن، وقرّةُ عَيْن الوارِد والقاطِن، فلقد حَلّ بالأندَلس من الرُّوم ما يَلِينُ له القاسي، وتنهَدُّ له الجبالُ الرّواسي، ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

وكان أوّلَ ما أخَذ العدوُّ قَصَمه الله شرقيُّها، ثم لازَمَها حتّى استَولَى عليها في الثالث والعشرين لشوّال من السّنة، فكان بينَ الحادث في طُلَيْطُلَةَ والحادثِ في قُرطُبة مئة سنة وستٌّ وخمسونَ سنة(١).

رَجْع الـخَبَر إلى أمورِ الرّشيد وأحوالِه وكيفيّةِ قفولِه من سِجِلْماسةَ وانتقالِه

وفي هذه السَّنة: شاع الخبرُ بحركة أميرِ المؤمنينَ الرَّشيد من سِجِلْماسةَ وقُصودِه إلى مَرّاكُش، ومُخاطبتِه إلى جرمونَ بن عيسى وإلى عَرَب سُفيانَ ومَن والاهُم واستنصارِه بهم على أعداءِ جميعِهم الخُلَّط، فكانت بمَرّاكُشَ أهوالٌ، واضْطَرَبت بها أحوالٌ، وشَرَع يحيى في حركته منها بجموع الخُلَّط ومَن بقيَ معَه من خُدّامه، وكان نزولُه بالمخالص وخروجُه إليه من غيرِ احتفال، وخيَّم هنالك أيّامًا، واستعَدَّ هو ورجالُه وحاشيتُه لها والأخبارُ تَرِدُ باستقبال أميرِ المؤمنينَ الرّشيد والتئامِه معَ جرمونَ وسُفيان وعَزْمِهم على الـمُصادمة والـمُكافحة. فتحرَّكَ يحيى ابنُ الناصر ومعَه ابنُ وقاريطَ وهسكورةُ والخُلَّط، وبَحرُهم زاخر ومَوْجُهم مُتلاطِمٌ وافر، فقَصَدوا أنجذام(٢) ولهم صولةٌ على الأيّام، وتصريحٌ بأنْ لا غالبَ لهم منَ الأنام، فإنّهم كانوا في قوّةٍ عظيمة وشدّةٍ لا تُرام(٣).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وستأتي بعد قليل برسم: «أوجذام»، ولم نقف عليها.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٤، والاستقصا ٢/ ٢٤٤.

ذكرُ مقابلةِ الرَّشيد ليحيى ابن الناصِر وانهزامِ يحيى معَ الـخُلَّط وجميع أنصارِه

لـمّا قطَع أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ واديَ أُمِّ ربيع، استقبَلَهم للحرب بالعَزْم والحَزْم فألقاهم بمكانِهم بأوجذام، فكان بينَهم وبينَه قتالٌ شديد، وصبَرَ الفريقانِ صبرًا يَذُوبُ له الحديد، ثم كانت الحَرْبُ آخرَ النّهارِ سِجالًا، ولم يُجِل للخُلَّط فيه مجالًا، وعاد كلُّ فريق إلى مخيَّمِه، فهاجَت هنالك نفوسُ الشُّجعان، والتفَّت مقدِّماتُ الفريقَيْنِ وطلائعُهم بذلك المكان، والظّهورُ في تلك المواطِنِ للرّشيد ويحيى في إنكار وقد بَدَا له ما لم يكنْ يَحتسب، وبدَتْ منه أحوالُ الـمُضْطَرِب، لم يستقرَّ على حال ولم يزَلْ حليفَ أوجال، في كلِّ يوم بينَ الفريقَيْن جِلَادٌ وجِدال، فلمّا انقَضَت عشَرةُ أيام منَ اليوم الأول الذي كانت فيه الخُلَّطُ بصُورة المنهزِم، تجدَّد لِلقاءِ الأقران شوقُ الفريقَيْن، وانبعَثَتِ النفوسُ لهيجاءَ طال العهدُ بها تُصِمُّ الـمَسْمعَيْنِ وتُعمي العينَيْن، وكان بينَهم من القتال ما يَشِيبُ له الوِلدان، وشَبَّت الحربُ نارَها بكلِّ جهة ومكان، وصافَحَت الصِّفاحُ أبطالَ الشُّجعان، وتكسَّرت في النُّحور والصُّدور الذّوابلُ والسِّنان.

فبينَما هم كذلك والحربُ بينَ الفريقَيْن تضْطَرِم، والمنايا للنفوس تَخترِم، إذْ قصدَ النّصارى أقوى جهة من جهاتِ العدوِّ فدفعوا عليه دَفْعةً شَنِيعة قَتلوا فيها خَلْقًا كثيرًا، فولَّوا الخُلَّط وأميرُهم أدبارَهم، وآثَروا على الثّبات فِرارَهم، فاتّبَعهم الأجنادُ يقتُلونَ ويأسِرون، وأخرَجوهم قَهْرًا عن كلِّ ما كانوا يَملِكون، وأسلَموا مُهجاتِهم وأبناءَهم وأموالَهم ونساءهم، وما انثنَوْا عن فِرار متّصل ليلًا ولا نهارًا، وخَرَجوا عن كلِّ نعمةٍ كانت بأيديهمُ اضْطِرارًا، وحَصَل أميرُ المؤمنين وأجنادُه وعَرَبُه على أشياءَ لا يُحيطُ بها الوَصْف، ولو أتَى كلُّ آتٍ في هذا بما عسى أن يأتيَ من الشّرح لكان مُقصِّرًا، وعن مدى البلاغة في شرح هذا النبأ العظيم متأخِّرًا، وفَرَّ الخُلَّطُ على وجوهِهم خاسِرين ولم يُفلِتوا إلّا بما خَفَّ من أهلِهم وأولادِهم، وتركوا جميعَ طارِفِهم وتالِدِهم. فسبحانَ الذي أخَذَهم أخْذةً رابية، وأوقَع بهم ما لم يُبقِ لهم من باقية. وأقام الرّشيدُ بتلك المعالِمِ الفَسيحةِ الأرجاء المتّسعةِ النَّعماء والنَّصرُ يَكنُفُه من جميع أكنافِه وأرجائه، والفتحُ العظيمُ الجَسيمُ يُبشِّرُه بما يستقبِلُه من الفُتوح الدالّة على فَضْل الله تعالى واعتنائه.

وانبسَطَت بهذا الصُّنع الكريم نفوسُ المسلمين، وانقبَضت أيَّ[1] انقباض نفوسُ الأعداءِ الخاسِرين، ووَثِقوا بارتفاع الفِتن التي غيَّرت آثارَهم، وأعادت ليلًا نهارَهم، وأعدَمتْهم دَهْرًا مَرافقَهم وأسعارَهم.

وقد كان الخُلَّطُ استَوْلَوا على البلاد والرَّعية وما كان في جهةٍ من الجِهات كلِّها عاملٌ لأمير المؤمنين ولا مُشتغلٌ بمَجْبَى من الـمَجابي، حتى انطَمَس رَسْمُ الخَراج بالكُلِّية وتعطَّل بكلِّ مكان، ودَعَت لهذه العِلّة ضرورةُ الاحتياج في أوقاتٍ تقَدَّمت هذا إلى توظيفِ مال، وتعيَّنَت رجالٌ لشدّة الحاجة وتبيين أحوال الأجناد، وافتقارِهم إلى إقامة الأوَد الذي عليه الاعتماد.

ولـمّا كانوا دخَلوا معَ أمير المؤمنينَ المأمون بَلَغوا منَ الترفُّه والقُوّة والظُّهور والحصُول على الأموالِ والذّخائر ونَفِيس الوِطاءِ والغطاء ما هُو شائعٌ في العالَمِ ذكرُه، فاقتضَى نظَرُ الرّشيد أن يُقدِّم عُمّالًا على البلاد التي كان الخُلَّطُ أشدَّ استيلاءً عليها، وهي: صُنْهاجةُ تاسغرت ودكالةُ ورجراجة، فتَخيَّر مِن كُفاة رجالِه وخِيار عُمّالِه منِ ارتَضاه ووَثِق بكفايتِه في ضمِّ الرعيّة، وطَلَبَها بالواجبات واستخراج ما كان بأيدي الخُلَّط أعدائه، فكان في ذلك ما لا تُحيطُ به الأوهام، وأشغَلَ طلبَه عن طلبِ الجباية في ذلك الأوان، ولله تعالى وحدَه الإحاطة.

وكانت إقامتُه لذلك أيامًا حتّى كَمُل عمَلُه في هذا المهمِّ من إنفاذ عُمّالِه للبلاد وترتيبِ منازلِ عَرَب سُفيان وتحسين أحوالِـهم بمُسامحتِهم في جميع ما تحصَّل بأيديهم، وقد كانوا في ضِيق من العَيْش فاتّسعت أحوالُهم وتجدَّدت آمالُهم وكثُرت جموعُهم وانضافَ إليهم كثيرٌ من الأصناف التي كانت من إمدادِ الخُلَّط، وامتلأتِ الأرضُ بهم وهم فَرِحونَ بما آتاهم اللهُ تعالى، مستبشِرون، متيمِّنُونَ بخليفتِهم وله داعُون.

وأخذ أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ في الوصُول إلى حضرتِه ودارِ خلافتِه، فبادَرَ الناسُ باللِّقاء وأعلَنوا له بالدّعاء، وكان لدخولِه يومٌ شهير وحفلٌ عظيمٌ خَطير، وحَلّ بقصرِه في عزّةٍ سامية، وسعادةٍ بركاتُها نامية، قد بَلَغ أملُه في الأخْذِ بثارِه، وعاد إلى وطنٍ طال العهدُ بالحُلول بقرارِه، فأغضَى عن كلِّ أحد وصَفَح وعفَا وأحسَنَ وسَمَح.

---

(١) في ق، ك: «إلى» ولا تتجه.

واستمرَّت هُدنةُ البلاد، وعافيةُ العباد، وانحَسَمت دَواعي الفساد وأسبابُ العِناد، وعادتِ الرَّعيّةُ إلى الطاعة والوصُول إلى المشتغِلينَ وأداءِ الواجبات، وعَمُرت الـمَداشر، وارتفَعت عن الأُمة أمورٌ من المظالم التي كانت العَرَبُ يتنوَّعونَ فيها، ومُطِرت البلادُ مَطَرًا استشعَر الناسُ به الانتعاش، وحَرَثوا بنسبة الوقتِ وعُدْم الزَّرع، فإنه كان في صَدْر هذه المدّة من صَدْر عام ثلاثةٍ وثلاثين معدومًا، وما كان سببُ وُجدانِه إلا استخراجَ ما كان للخُلَّط مخزونًا في الحضرة وحَوْزِها وجهاتِها.

ووصَل في هذه السّنة جماعةٌ منَ الموحِّدينَ وأشياخِهم، وأنِسُوا بطاعة أميرِ المؤمنين، وقد كان ترَكَ أبا يعقوبَ يوسُفَ بن عليٍّ بن يوسُف واليًا بِسجِلْماسةَ، وأقام الشّيخُ أبو عليّ ابنُ الشّيخ أبي محمد عبد العزيز وإخوانُهم هنالك برَسْم الأَوْبة إلى بلادِهم، وتوَجَّه موسى ابنُ الناصِر أميرُ المؤمنينَ إلى دَرْعةَ، ولم يتحرَّك من سِجِلْماسةَ أحدٌ من صِنف الموحِّدين معَ أميرِ المؤمنين، فأمّا أبو يعقوبَ يوسُفُ بن عليّ فإنه لـمّا ثارَ بمقرُبة من سِجِلْماسةَ شخَصَ من صُنْهاجةَ ما زال يُضايقُه حتّى اقتَحَمها عليه برأي من أهلِها ومساعدةٍ له، فقُتِل واليها من قِبَل الرَّشيد ودُفِن في فرناج الحَمّام، وفَرَّ الموحِّدون من هنالك ولَحِقوا ببلادِهم، وقُتل بدَرْعةَ موسى ابنُ الناصر. ولـمّا وصَل الموحِّدونَ إلى الرَّشيد وتمكَّنوا من بلادِهم وسِهامِهم وأملاكِهم وبانَ صَلاحُهم، اقتَضَتِ الحالُ إعمالَ الحركة إلى الغَرْب في طلبِ يحيى والخُلَّط، وقد كان الخُلَّطُ لـمّا انهَزَموا أخَذوا في تدبير مَصالِحهم وأجمَعوا أمرَهم على نظَرِ الـمَصْلحة في نَكْث بَيْعة يحيى ورَفْضِه، وما زالوا يتَحيَّلونَ في إخراجِه من بين أظهُرِهم إلى أن وصَلَه بعضُ عَرَب المعقِل فأوَى إليهم طَرِيدًا شَريدًا لا يملِكُ نَقيرًا ولا فَتيلًا، فبقيَ عندَهم يتردَّدُ بينَهم إلى أنْ جَرى عليه حُكمُ الله السابقُ في عِلمِه فقُتل على ما يأتي ذكرُه.

ولـمّا تَشاوَرَ عَرَبُ الخُلَّط في مَصالِحهم وأجمَعوا رأيَهم على أمرٍ لا بدَّ لهم مِن إتْيانِه، نَدَبَهم ابنُ وَقاريطَ بفُجورِه وغَدْرِه، وزَيَّن لهم قبيحَ رأيه، وحضَّهم على الاستنصارِ بابن هُود داعي الأندَلس والاستصراخ به ليَمُدَّهم بعسكرٍ من عندِه ويكونوا من حزبِه وجُندِه، ويقوموا في هذه البلاد بخِدمتِه ويُعلِنوا بطاعتِه، فاستَصْوبَ العَرَبُ رأيَه واستَجادوا سَعْيَه، وأخَذوا في تعيين من يتوجَّه بكتُبِهم إليه، فانتَدَبَ ابنُ وقاريطَ إلى التوجُّه بنفسِه

معَ أحدِ أولاد هلال وجماعة من وجوهِ الخُلَّط، فكلُّهم شَكَروا بِدارَه، وأظهَروا برَّه وإيثارَه، وابنُ وقاريطَ بما اشتَمل عليه من المكرِ الذي لا يُدرَكُ فيه مداه، إنّما اشتَغل بالتمهيد لنفسِه، والنّجاة برأسِه، فإنه لا يستقرُّ في الغَرْب ولا يمكِنُه استيطانُ بلادِه بمقرُبة من دارِ الأمر، فيكونَ نِصْبَ العَيْن، فاختار البعدَ والانقطاعَ في جزيرة الأندَلس على صُورةِ طلبِ الاقتصادِ والاستمداد منَ ابن هود، فتَمّ له في ذلك الوقت تدبيرُه، فتوجَّه معَ جماعة من الخُلَّط واتّصل بابن هود، فأقبَلَ عليهم إقبالًا عظيمًا وأعطاهم[1] وأنزَلَهم، واستمرَّت إقامتُهم هنالك إلى أمدِ القَبْض على ابن وقاريطَ في عام خمسةٍ وثلاثينَ وست مئة على ما يُذكَرُ في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

وبقيَ العَرَبُ الخُلَّط في اختلال واضطِرابِ أحوال ومُلاقاةِ أهوال إلى أن تحرَّك الرّشيدُ في هذه السَّنة إلى الغَرْب ففَرُّوا أمامَه وهابوا قدومَه وإقدامَه، فافتَرقوا في البلاد وتفرَّقوا في القبائل عبرةً لمن يَعتبِر وعِظةً لـمُزدجَر.

ذكرُ حركة الرّشيد إلى الغَرْب وهي الأُولى

لـمّا اجتَمع رأيُه على الحركة إلى الغَرْب، بذَلَ العطاءَ الواسعَ للأجناد، وأمَر الموحِّدينَ أن يُعيِّنوا له حِصّةً منهم على قبائلِهم، فكتَبوا له بعضًا منهم لقُرب عهدِهم بالوصُول لـمَرّاكُش، فأعطاهم برَكاتٍ وأزوِدةً وأحسَنَ لأشياخِهم إحسانًا كثيرًا، واستعَدّ لهذه الحركة استعدادًا ضخمًا، واستقبَلَهمُ استقبالًا فَخْمًا، وأظهرَ من القوّة والعُدّة والأَخبية ما يَرُوقُ منظَرُه، وتَركَ بحضرته واليًا الشّيخَ أبا عليّ ابنَ الشّيخ أبي محمد عبد العزيز برَسْم القيادة وصاحبُ الأشغال بها: أبو عبد الله بنُ أبي زيد بن عليّ بن يوسُف التينمليُّ وقاضي الجماعة: أبو زيد المكاديُّ، وصاحبُ الشُّرطة حينَئذٍ: يوسُفُ بن عثمان الـهَنْتاتيُّ[2]، فلم يُقصِّر الشّيخُ أبو محمد في ضَبْط المدينة وحِياطتِها ومباشرةِ أمورِها واستقَلّ بذلك استقلالَ مثلِه ذاتًا ومنصِبًا، والناسُ في دَعَة وسُكون والسُّبُلُ آمنةٌ والخيراتُ آتيةٌ والنفوسُ وادعةٌ مطمئنّة.

---

(١) سقطت هذه الكلمة من ق، ك.

(٢) سقطت من ق، ك.

واستقبَلَ الرّشيدُ الغَرْب وكلُّ تيسير يُياسرُه وكلُّ صُنع جميل يأتيه ويُبادرُه، تتلقّاه البلادُ والقبائل، وتَحميه القَنا والقَنابل، فقَصَد مدينةَ فاس فخيَّم بها مُقيمًا، وحَلّ منها جَنّةً ونعيمًا، ونفوسُ أهلِها شائقةٌ إلى لقائه، وقلوبُهم مجبولةٌ على حبِّه، وجَوانحُهم مُنطوِيةٌ على طاعتِه، لا تَلقَى إلا داعيًا بنَصْرِه، وضارعًا في إعلاءِ ذكرِه، ووافَقَ وصُولُه قُربَ الصائفة والبلادُ تقشعرُّ الجلودُ منَ ارتفاع السِّعر بها، فانجَلَت تلك الغَمّاءُ على عهدٍ قريب وأمدٍ يسير.

ولـمّا ألقَى بفاسَ عصَا التَّسْيار، واستقرَّ بعَرَصاتِها القَرار، ولم يكنْ بُدّ من النظَر للأجناد، وطلَبِ الـمَجابي التي في البلاد، نَظَر في الوجوه التي يَكمُل بها هذا المراد، ورجَّح من الأقوال ما فيه مَخيلَةُ الإسعاد، فاقتضى العَزْم، واستجَدَّ الحَزْم، ورأى أنّ الذي يَشفي النفوسَ من صَدإِ غُلّتِها ويُريحُ عاجِلًا من عِلّتِها، تقديمُ مَن لهُ قولٌ مُطاع، وقوةٌ واضْطِلاع، وحُكمٌ يُتَلقَّى بالامتثال، وأمرٌ يَرِدُ فلا يُردُّ بتأوّلٍ واعتلال.

واستمرَّت المفاوضةُ في ذلك وفي النفْس ما قد تخَلَّص ترجيحُه منَ الاقتصار بهذا الخَطْب الكبير على وزيرِه السيِّد أبي محمد، ثُم خَرج له بمقصودِه، وألقَى له بجميع عهودِه، وحَمْلِه[1] هذه الأمانةَ بحُسن ظنِّه فيه وتقديرِه، وتصديق ما هَجَس في خاطرِه في حال تدبيرِه.

ذكرُ حركة السيِّد أبي محمد إلى غُمارةَ ومَقْتلِ يحيى ابن الناصِر رحمه اللهُ تعالى

توجَّه السيِّدُ أبو محمد ابنُ السيِّد أبي سعيد ابن الخليفة المنصور، وتوجَّه معَه جميعُ الجُند منَ المسلمينَ والنّصارى، واستَخْلفَ على الوِزارة الشّيخَ أبا موسى بنَ عَطّوش، وأقام الأشياخُ منَ الموحِّدين بحضرة فاس، وتوجَّه معَ الشيخ أبي محمد مشتغِلًا له الشّيخُ أبو زكريّا ابن عَطّوش ومقيِّدُ أشغاله أبو العبّاس ابن هشام من خواصِّ العُمّال ونُبهائهم، وجُبيت القبائلُ الغُماريّة والفَازازيةُ جِبايةً عظيمة حصَل الأجنادُ منها على مالٍ عظيم وكلُّ مُشتغِلٍ كذلك.

(١) في ق، ك: «وحملته».

وفي أثناءِ هذه الحركة سِيقَ إلى حضرة فاسَ رأسُ يحيى ابن الناصر أميرِ المؤمنين، وكان لـمّا انهزَم معَ الخُلْط صار إلى العرب في عدّةٍ قليلة ثم رَفَضوه وتَركوه وتشاءَموا باتّباعِه، فقَذَفت به الأيامُ إلى بعض عَرَب المعقِل، فأوَى إليهم فاحتَوَوْا عليه ووعَدُوه بنُصرتِه، وطلَبوا منه ظهائرَ بإعطاءِ ما لا يملِك، وتبسَّطوا في المطالب طَمَاعِيَةً في أن تعودَ له الدّنيا الـمُدبِرةُ عنه، فحَمَله سُوءُ النظَر على التوقف في تلك المطالب، فامتَلأت صُدورُ ناس منهم غَيْظًا عليه، فانتَدبَ شخصٌ لغَدْرِه وقَتْلِه، فلمّا كان يومٌ من أيام رحيلِه اغتالَه شيطانٌ منهم فخَرَّ صَريعًا، ودُفن في قلعةٍ في فَحْص يُعرَفُ بفَحْص الزّاد، وهو بينَ وادي أبي حُلو ومخاض النِّساء، وهذه المواضعُ بينَ مدينة فاس ورِباط تازَا، ويُعرَفُ الفَحْصُ المذكورُ أيضًا بمقتَلةِ عامر، وهذا عامرٌ هو: ابنُ صغير، من المعقل، قُتل هنالك في فتنة.

ولـمّا سِيق رأسُه إلى حضرة فاس وَجَّه به الرَّشيدُ إلى مَرّاكُشَ في زِقٍّ عسَل وصَل به إلى مَرّاكُشَ عبدُ الرحمن بن محمد الفَكّاك المعروفُ بابن التُّرجُمان، ولم يكنْ أبو محمد المذكورُ يُعرَفُ قديمًا سوى بالفَكّاك لقبًا، ولـمّا ورَد بذلك وبكَتْب الخليفة الرَّشيد على الشّيخ أبي محمد عبد العزيز المقدَّم على مَرّاكُش جمَعَ الناسَ على طبقاتهم ومَراتبِهم وقَرَأ عليهم الكتابَ الإماميَّ والرأسُ في طَسْت، ثم أمَرَ بتعليقِه على باب الشّريعة: من أبوابِ مَرّاكُش، فسبحانَ مَن لا يَحُولُ سلطانُه ولا يُرَدُّ حُكمُه ولا يتغيَّر شانُه! فلقد كان لهذا الرجُل في الدُّنيا من التغلُّب والتملُّك والتخلِّي ما لا يُحيطُ به الأفكار، ولله سبحانَه القوةُ والاقتدار.

وفي أثناء ذلك ورَدَ الأمرُ من حضرة فاسَ على الشّيخ أبي عليٍّ المذكور بقَتْل(١) حَسَن بن زَيْد العاصِميّ وفائد بن عامر، وهؤلاءِ كان القَبْضُ عليهم بسِعاية أبي الحَسَن جرمونَ رئيس العَرَب وشيخِهم، والأخوانِ المذكوران: فائدٌ وقائد، من رُؤساء العَرَب بني جابر، وأما العاصِميُّ فرئيسُ إخوانِه وهم شوكةُ سُفيان ولهمُ الرِّياسةُ في القديم، ولكنّها انتقَلت إلى قُرّةَ لانتقال الرِّياسة إلى جرمونَ في قديم الزمان.

---

(١) في ق، ك: «القتال»، ويأتي بعد قليل ما يعضد اختيارنا.

ولـمّا وَرَدَ على الشّيخ أبي عليٍّ الأمرُ بقتل هؤلاءِ العَرَب، وكانوا معتقَلينَ في مخزنٍ هو سِجنُ أمثالهم بالرَّحبة الكُبرى من دار الخلافة، فأُخرجَ عشِيَّ اليوم الذي وَرَد عليه الأمرُ فيه بضَرْب أعناقِ هؤلاءِ المذكورينَ، فضَرَب أعناقَهم بإزاءِ قوس يَجلِسُ فيه الوُزراءُ للخلافة، وأدخَلوا شهودًا عايَنوهم قَتْلى، وكتَبَ عَقْدًا بإنفاذِ ما أُمِر به ووجَّهه إلى أميرِ المؤمنينَ الرّشيد[1].

وفي أثناءِ هذه المدّة أمَرَ الرّشيدُ للشّيخ أبي موسى مُستخلَف الوزير السيِّد أبي محمد سَعْدٍ باستدعاءِ أشياخ الموحِّدينَ ليَأخُذَ معَهم في ردِّ ما تَصيَّر إلى رحالِـهم وذَويهم من خَيْلِ المعقِلِ الذين كانوا وَفَدوا على الحضرة واعتَدَوْا على دوابِّ الناس وانتهَبُوها بخارج فاس، فوصَل إليها الأشياخُ من الموحِّدين إلا أبا إسحاقَ ابنَ الشّيخ لأنَفةٍ أدرَكتْه تَغلَّظ بها عن إجابتِه وتكلَّم بقَدْح فيه واستحقَرَه لكونِه من عامّة الموحِّدينَ من كوميّة، وهو من صِبيانِ أهل الجَماعة من هرغة.

ولـمّا نُمِي الخبرُ إلى الرَّشيد بتوقُّف ابن أمغارَ المذكور عن الوصُول للوزير نفَذَ أمرُه بسَجْن أشياخ الموحِّدينَ بموضع جلوسِهم، ثم عطَفَتْه الرّحمةُ عليهم فسَرَّحَهم وأحسَنَ إليهم، فعرَّفَهم ـ في حالٍ واحدة ـ ببطشِه وسَطْوتِه وبإحسانِه ورحمتِه، وعلى أثَرِ ذلك عاد الوزيرُ أبو محمد من غُمارةَ بالجيش الكثيف والمالِ الواسع.

وفي أثناءِ ذلك عادَ الرَّشيدُ إلى حضرته مَرّاكُش أُمِّ القرى بهذا الإقليم ومـحَلِّ الخُلفاء ودارِهم، وموضع قَرارِهم، ووصَل إلى هذه الحضرة على اثنينِ وعشرينَ يومًا من مدينة فاس، وكان لهذا اليوم شأنٌ مشهور، وذكرٌ معروفٌ في الآفاقِ منثور، وعادَتِ الأحوالُ كلُّها إلى نِظامها وقَوانينِها، واستقامَتِ الأيام، وشُفِيَ الإمام، واستَخْلَفَ على قواعدِ البلاد كلِّها رجالَه وعُمّالَه، وكان دخولُه إلى مَرّاكُش في صدرِ عام أربعةٍ وثلاثينَ وست مئة بعدَما قدَّم على الأمور السُّلطانية طائفةً من قَرابتِه.

وفي هذه السنة: كان أبو محمد بنُ وانُودين مقدَّمًا على دَرعةَ، وكان السيِّد أبو محمد بنُ عبد العزيز بسِجِلْماسةَ، تحيَّلَ عليها إلى أنْ حصَل بها بعدَ تمكُّن أشرارٍ فيها عندَ

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٤ باختصار.

الفتنة الناشئة بها إثْرَ خروج الرّشيد منها وقَتْل أبي يعقوبَ يوسُفَ بن عليّ بها، وقد تقَدَّم شرحُ ذلك، فما زالَ الشّيخُ أبو محمد يتحيَّلُ ويَنظُرُ وجوهَ التمكُّن منها إلى أنِ انتَهزَ فُرصةً فيها ودخَلَها الشّيخ أبو محمد بن وانودين، وخَرج عنها السيّدُ أبو محمد المذكور، ولقد كانت له فيها آثارٌ سلَكَ فيها مسالكَ الخلفاء في أمورٍ يَطُولُ ذكرُها وقام بالدّعوة الرَّشيديّة بها أبو محمد بن وانودين.

وفي سنة أربع وثلاثينَ وست مئة: عَمَر الموحِّدونَ بلادَهم ومجاشرَهم، وضَمُّوا شركاءهم وأقبَلوا على أشغالِهم وصَلاح أحوالِهم في خدمة بَواديهم وإطلاق سَواقيهم، واتّسَعت أحوالُهم وتوفَّرت آمالُهم، وقَدَّم منهم حُفّاظًا على الجهات وظَهَرت أمورُهم باديةَ الصّلاح دالّةً على النّجاح، وترتيبِ أمورِهم أيَّ ترتيب، وجَرَتِ الأحوالُ كلُّها على الاستقامةِ: أحوالُ البعيد منهم والقريب.

وفي هذه السّنة: كانت حركةُ الرّشيد إلى حضرة فاسَ أيضًا، ولـمّا اتّصَل بها وأقام وصَلتْه أرسالُ بني مَرِين، فقام بها خيرَ قيام، وضَيَّفَهم بخارج فاس، ووَصَلَهم بإحسان كثير وكُسُواتٍ فاخرة، ولم يكنْ له كبيرُ أثَر في المغربِ في هذا العام، وكانتِ الجِبايةُ بنسبتِها إلى ما كان في العام الفارِط قليلة، واستَخْلفَ على مَرّاكُشَ في هذه السّنة الشيخَ أبا محمد ابنَ الشيخ بن أبي إبراهيم وعاملُه عليها أبو يعقوبَ يوسُفُ الـهَنْتاتي.

وفي هذه السّنة: توفِّي الكاتبُ الجَليل أبو عبد الله محمدُ بن أبي عَشَرةَ السلاويُّ رحمه اللهُ تعالى، ودُفن بفاس.

وفيها: كان الغلاءُ الـمُفرِط الذي انتهى فيه الرُّبعُ الواحدُ من الدّقيق إلى سبعةٍ وثلاثينَ درهمًا، ولكنّ الناسَ كانت أحوالُهم تُقاومُ هذا الغلاء، فإنّ السِّلعَ كلَّها نَفَقت أسواقُها ودَرَّت أرزاقُها، وكان الدّرهمُ الواحدُ أفضلُه عشرونَ درهمًا أو نحوَ ذلك، والمَردُّ هكذا في كلِّ سوق، فما كان أحدٌ من التُّجّار ولا من السُّوقة يُبالي بتضاعُف نفقتِه معَ جزيل الفائدة العائدة عليه في تجاراته، وأربابُ الدّولة قدِ امتلأت أيديهم بالخَيْر الكثير، وكلُّ نفسٍ مستعدّةٌ للحَرث إذا أفاء اللهُ تعالى على العباد بنعمتِه وأعانَهم بوابل رحمتِه، فإنه مِفتاحُ الأرزاق والسببُ الـمُوصِل إلى الخير، واستمرَّت حركةُ الرّشيد بقيّةَ هذه السنة المؤرَّخة.

رَجْعُ الخبرِ إلى بعض أخبارِ الأندَلس

وفي هذه السنة: امتدّت آمالُ المتوكِّل على الله ابن هُود في سَلْطنتِه بالأندَلس، وكتَبَ إلى وُلاة البلاد يأمُرُهم بالاجتهاد في مصالح العباد، أذكُرُ منها هنا بعضَ فصولِـها لكثرة فروعِها وأصُولِـها، فمنها بعدَ البسملة والصّلاة والدّعاء:

فصولٌ من ذلك[١]

أمّا بعدُ، حمدًا لله الذي أوضَحَ للحقِّ سبيلًا، ومَدَّ ظلَّ رحمتِه على الخَلْق ظليلًا، وجَعَل العدلَ بحفظ نظام الإسلام كفيلًا، ونزَّل الأحكامَ على قَدْر المصالح تنزيلًا، ونَصَب على معلَم الهُدى عَلَمًا لمن اقتَدى ودليلًا، وألهَمَ إلى ما يَرضاه عملًا ومعقِدًا وقيلًا، وصَلَواتُه الطيّبةُ وبركاتُه الصيِّبة على سيِّد العالَمِين وخاتَم النبيِّين محمد رسُولِه الذي فضَّله بخَلّتِه واصطفائه تفضيلًا، وبعَثَه بالحنيفيّة السَّمْحة فبيَّنَها تبيينًا وفصَّلَها تفصيلًا، ورتَّبها كما أمَرَه ربُّه إباحةً ونَدْبًا وتحريمًا وتحليلًا، حتّى ثبتَت سُنّةُ الله فلن تجِدَ لها تبديلًا ولا تحويلًا، وعلى آلِه وصَحْبه الذين فَهِموا ما جاءهم به عليه السّلامُ نصًّا وتأويلًا، وأبقَوْا من سِيَرِهم الفاضلة وأحكامِهم العادلة أثَرًا للمقتَفِينَ جميلًا، ومآثرَ تَسبَحُ الأفهامُ والأقلامُ في مَجاريها سَبْحًا طويلًا[٢]، وأمضَوْا عزائمَهم فيما نَسَخ[٣] لهم بالحقِّ باطلًا وبالهُدى تضليلًا، ورضوانُ الله يتوالَى على خليفتِه وحامل أمانتِه[٤] الذي كمَّل اللهُ به[٥] مُوجِباتِ الإمامة تكميلًا، وأنالَه من هَدْي النبوّة أفضلَ ما كان للهُداة مُنيلًا، سيّدِنا ومَوْلانا الإمام المستنصر[٦] بالله

---

(١) أوردها المقري في نفح الطيب ٧/ ٤٠٧ فما بعدها.

(٢) في نفح الطيب: «أساسًا للمتقين جليلًا، ومآثر للمقتفين تسبح الأفهام والأقلام في بحارها سبحًا طويلًا».

(٣) في النفح: «تنسخ».

(٤) بعد هذا في النفح: «إلى خليقته».

(٥) في النفح: «له».

(٦) في م: «المستظهر»، وفي النفح: «المنتصر» وكله تحريف صوابه ما أثبتناه، وهو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله الخليفة العباسي المشهور الذي تولى بعد الظاهر سنة ٦٢٣هـ وتوفي سنة ٦٤٠هـ كما هو مشهور في ترجمته.

أبي[1] جعفرٍ المنصورِ أميرِ المؤمنين، الـمُتبوِّئ من راحةِ[2] الشَّرف والجلالة [محلًا شريفًا][3] جليلًا، والمنتخَبِ من بُحْبوحة بيتِ الرّسالة الذي وَجَد الوحيُ عندَه مُعرَّسًا ومَقِيلًا، والدّعاءُ لديوانِه العزيز النبويِّ[4] بنَصْرٍ يأتي لإمدادِه بمَدَد الملائكة قبيلًا، وفَتْح يأتي الإيمان من الظهور بغيةً وتأميلًا.

ومنها[5]: فأوّلُ ما نُوصيكم به وأنفُسَنا: تَقْوى الله العظيم وخَشْيتُه في كلِّ حال، ومراقبةُ أمرِه ونَهْيه عندَ كلِّ انتحاءٍ وانتحال، والوقوفُ عندَ حدودِ الله التي حَدَّها وأرصَدَها بإزاءِ موجِباتِه وأعدَّها، فإنه لا يتَعدّاها إلّا مَن رامَ تعفِيَةَ رَسْمِها وطَمْسَه، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، والمحافظةُ على ما تُتحفَّظُ به الشّريعة، والملاحظةُ لِـما تضُمُّ الرعايا به حَوْزَةَ الحِيَاطة المنيعة، والـمُثابرةُ على ما تُكَفُّ به أكُفُّ الاعتداء، والمبادرةُ إلى الائتمام[6] بالسَّلَف الصّالح والاقتداء، والطريقةُ الـمُثلى، وآياتُ الله التي تُتلَى، وهدايتُه التي لأبصارِ البصائر تُجْلَى، وخَفْضُ الجناح والأخْذُ بالرِّفق والإنجاح[7]، وتوخِّي الحقِّ الذي هو أوضحُ انبلاجًا من فَلَقِ الصّباح[8]، والحِلمُ والأناة، والمذاهبُ الـمُستحسَنات[9]، واللهَ اللهَ في الدِّماء، فإنّها أولُ ما يُقضى بينَ الناس يومَ القيامة فيها، ولا سبيلَ إلى استحلالِـها إلا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعدَ إيمان، أو زنًا بعدَ إحصان، أو قتلُ المسلم لأخيه، وقد قال مالكُ الخَلْقِ والأمر: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فتثبَّتوا فيها فأمرُها جليل، وتحريمُها لا يَدخُله تحليل.

---

(١) في الأصل: «أبو» لا تستقيم نحوًا.

(٢) في النفح: «ساحة»، وهو الأوجه.

(٣) زيادة متعينة من النفح.

(٤) في النفح: «والدعاء له من لدن العزيز القوي»، وما هنا أحسن.

(٥) النفح ٧/ ٤٠٩.

(٦) في النفح: «الاهتمام»، وما هنا أوجه.

(٧) في م: «الإسجاح»، وما هنا يعضده ما في النفح.

(٨) في النفح: «الإصباح»، وهو الأولى للسجعة.

(٩) بعد هذا في النفح: «والأمور البينات».

ومنها[1]: ومما نأمُركم به: أن تَبحَثوا على العُمّال، ولا تُشغِّلوا[2] منهم إلا الحَسَنَ الطريقة الـمَرْضيَّ الأعمال، ومَن لم يكنْ منهم جاريًا على القوانين الـمَرْعيّة، ناصحًا لبيت المال رفيقًا بالرَّعية، وكان في أمانتِه حائدًا عن الجادّةِ السَّويّة، قائلًا كما قال قبلَه ابنُ اللّتبيّة[3]، فلْيُعوَّضْ منه غيرُه، ولْيُدفَعْ عن الجانبَيْنِ ضَيْرُه، فإنه ما كانتِ الخيانةُ في بشرٍ[4] قطُّ إلا أهلكَتْه، وما وُضِعت في شيءٍ طبيعةُ سُوءٍ إلا مَلَكتْه، وإنّما هو مالُ الله تُرزقُ[5] منه الحُماة، وبه تُسَدُّ الثغورُ الـمُهمّات، فينبغي أن يُختارَ له مُحتاطٌ في اقتضائه وقَبْضِه، حافظٌ لدينِه ومروءتِه في كلِّه وبعضِه، فخُذوا في انتقاءِ هذه الأصناف المسمَّيْن، واطلُبوا بهذه الأوصافِ المتصرِّفينَ والمولَّيْن، واجمَعوا منَ الاجتهادِ الحميد والقصدِ والاعتماد: الأثَر والعَيْن، وأنصِفوا منهم إنْ تظلَّم متظلِّم، واشْفُوا شكوى كلِّ مشْتَكٍ وألَـمَ كلِّ متألِّم، واعلَموا أنّ حُرمةَ الأموال بحُرمة الدِّماءِ لاحقة، وأنّ إحدى القضيتَيْنِ للأخرى مساويةٌ ومُساوِقة، ومنِ أكبرِ ما وَرَد في ذلك وأعظمِه قولُ رسُول الله ﷺ: «حُرمة مال المسلم كحُرمة دمِه». ولكنِ الناسُ في الحقِّ سواءٌ لا مُحاباةَ ولا مُفاضلة، ولا مُجاوَزةَ في تغليبِ قويٍّ على ضعيف ولا محاولة، ولا يؤاخَذُ أحدٌ بجريمةِ[6] أحد، ولا يَجْني وَلَدٌ على والدٍ ولا والدٌ على وَلَد، وكتابُ الله أوْلى بالاتّباع وأحرَى، يقولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وإذا[7] وصَلَكم كتابُنا هذا فقُصُّوه على الناس مُفصَّلًا ومُجمَلًا، وأظهِروا لهم

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٤١١.

(٢) في النفح: «تولوا».

(٣) إشارة إلى حديث أبي حميد الساعدي، قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلًا على صدقات بني سُليم يدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه، قال: هذا مالكم وهذا هدية، فقال رسول الله ﷺ: «فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا...» الحديث في البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢)، وقد وقعت العبارة في م: «قابلًا لما قبل» وهو تصحيف جد ظاهر، وما أثبتناه يعضده ما في نفح الطيب.

(٤) في النفح: «في شيء».

(٥) في ك: «الذي ترتزق».

(٦) في النفح: «بجريرة».

(٧) لو قال هنا «ومنها» لكان أحسن، فما بين ما تقدم وهنا كلام كثير، وينظر النفح ٧/ ٤١٤.

مَضامينَه قولًا وعَمَلًا، إن شاء اللهُ تعالى، وهو سبحانَه يُديمُ علاءكم ويصلُ إعادتَكم في كلِّ محمَدة وإبداءَكم، ويُجزِلُ حظوظَكم من السّعادة وأنصِباءَكم بمَنِّه وكرَمِه لا ربَّ سواه، والسلامُ. وكُتِب في الرابع والعشرينَ لجُمادى الأُولى عامَ أربعةٍ وثلاثينَ وست مئة.

وفي سنة خمس وثلاثين وست مئة: توفِّي الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن هُود، كان مقتلُه عل يدِ عاملِه ابن الرّميميِّ[١] الوالي من قِبَلِه على مدينة الـمَرِيّة في الرابع والعشرينَ لجُمادى الأُولى، فكانت دولتُه تسعةَ أعوام وثلاثةَ أشهر وأيامًا. وسببُ ذلك: أنه كان في ابتداءِ أمرِه عاهَدَ زوجتَه ألّا يتَّخذَ عليها امرأةً طُولَ عمُرِه، فلمّا مَلَكَ البلادَ الأندَلسيّة وعَظُم فيها أمرُه، حصَلت بيدِه رُوميّةٌ من أبناءِ زُعمائهم ومن أجمل نسائهم، وقد كان عاهَدَ زوجتَه ألّا يتزوَّجَ عليها ولا يَسُوقَ رُوميّةً إليها، فأودَعَها عندَ ابن الرّميميِّ صاحب الـمَرِية، فكانت له في ذلك الـمَنيّة، فاستحسَنَ ابنُ الرّميميِّ الرُّوميّةَ ومدَّ يدَه إليها وضبَطَها لنفسِه، ودبَّر وَجْهَ الحِيلة في الخَلاص من ذلك برأسِه، ثم إنّ[٢] ابنَ هُود سَمِع بخبرِ رُوميّتِه فاستعمَلَ حركتَه إلى الـمَرِية على عادتِه لينظُرَ منها في أمورِ القائم عليه بغَرْناطة، وهو الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن نَصْر؛ لأنه كان قد مَلَكَها في هذه السَّنة.

ولـمّا وصَل ابنُ هود إلى الـمَرِيّة بمحَلّتِه، نزَلَ خارجَها، فدبَّر ابنُ الرَّميميِّ في أمرِه وعَمِل على أن يَحلِفَ عليه ليدخُلَ معَه إلى دارِه ليقومَ بحقِّه فيها خيرَ قيام، وليَخلُوَ برُوميّتِه بعضَ أيام، فدخَل ابنُ هُود معَه فعرَّفه بأنّ الرُّوميّةَ في الحَمّام، ولـمّا جَنّ الظّلامُ عليه أدخَل أربعةً منَ الرّجال إليه فقتَلوه مطفيًا، وبقيَ أمرُه في تلك الليلة خَفيًّا[٣].

قال أبو محمد البَسْطيّ: كان ابنُ هُود من أسلم الملوكِ صَدْرًا، وغلَب عليه في أكثر بلادِه مَن جعَلَه في أهلِها صَدْرًا، فبالـمَرِيّة: أبو عبد الله الرّميميُّ المدعوُّ بذي الوِزارتَيْن، قضَى عليه ذاتَ ليلة بمِخَدّتَيْن أقعَدَهما على أنْفِه وفيه، وأراه بالغدِ كأنه مات فجأةً ولا أثَرَ فيه، وبمالَقة: عبدُ الله ابن زَنّون، أضرَّ بها حتى الضَّبَّ والنّون، وبغَرناطة: عُتبةُ بن يحيى

(١) هو محمد بن عبد الله بن أبي يحيى المعروف بابن الرميمي، وقد تقدم التنبيه عليه، وينظر المغرب لابن سعيد ٢/ ١٩٩.

(٢) سقط هذا الحرف من ق، ك.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

الـمَغِيليُّ الخَطيبُ على ابن الأحمر بالمساوئ، ومِن أجلِه أخرَجَ منها شمسَها في الحَمَل والميزان، على مقتضًى لا ينتطحُ فيها عَنْزان، العالِـمَ العَلَم سهلَ بنَ مالك، ونَفاهُ إلى مُرْسِيَةَ في اللّيل الحالك، وآثَرَ هواهُ على حِلمِه، وأثَّر فيه على خلاف معرفتِه وعِلمِه، وبضَرْب الجَيّانيِّ ولم يَجْن، وبترْكِه مَنْسِيًّا في السِّجن، حتى أغاظَ أمرُه أهلَ غَرْناطة وأضجَر، فتهيَّأ محمدٌ وأبو محمد ابنا خَلَف ابن ولجر في أربعينَ رجُلًا من أهل النَّجدة، وتواعَدوا أن يُصبِّحوا على باب القَصَبة أوّل يوم من رمضانَ من السنة المذكورة، وهم بسيوفِهم مشهورة، وما ارتفَع الضُّحى إلّا وهم في القصور يَعبَثُون، وأفلَتَ حافظُها البغيِّل من رؤساءِ بني هُود، وقُتِل عُتبةُ واليها، ووجَّهوا لابن الأحمرِ ليصلَ إليها.

ذكرُ وصول الأمير أبي عبد الله بن الأحمرِ إلى غَرْناطةَ واستيلائه عليها

وذلك أنه لـمّا جَرى بغَرْناطة مِن قَتْل واليها عُتبةَ بن يحيى ما جَرى، أجمَعَ أهلُها على خَلْع ابن هُود وبيعة ابن نَصْر، فأنشَأَ البيعةَ له أبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ وأبدَعَ فيما كتَب وأنشَأ، ووجَّهوها معَ أبي بكر ابن الكاتب وأبي جعفرٍ النمزوليّ[1]، وذلك في العَشْر الأُخَر لرمضانَ المعظَّم، فأقبَلَ ابنُ الأحمر إلى غَرْناطةَ وما زيُّه بفاخر، ونزَلَ بخارج غَرْناطةَ على أن يَدخُلَها من الغدِ غُدوًّا، ثم بَدَا له غيرُ ذلك، فدخَلَها معَ غروبِ الشمس يومَ نزولِه.

قال أبو محمد البَسْطيّ: فعايَنْتُه يومَ دخُولِه بِشايةٍ[2] مُطَّلعة، أكتافُها مقطَّعة. وعندما نزَلَ بباب جامع القَصَبة وحِلِّه، وكان مؤذِّنُ المغرب في الحَيْعلة والإمامُ به أبو المجدِ الـمُراديّ، فغاب، فدَفَع الأشياخُ السُّلطانَ إلى المِحراب، فصَلّى بهم على هيئة سَفَرِه، بفاتحة الكتاب و﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ الآية و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الآية، وهو بسيفِه مقلَّد، ثُم خَرج إلى قصر بادِيسَ ابن حَبُوس والشّمعُ بينَ الأبواب يتَّقِد، فدخَل في خاصّتِه كأنه العَرُوسُ في مِشيتِه، وفي أثناءِ ذلك بَلَغَه الخبرُ أنّ ابنَ هُود أعجَلَتْه الـمَنيّة بعد وصولِه إلى الـمَرِيّة، وأنّ ابنَ الرميميِّ قاتلَه قام بها وضَبَطَها لنفسِه، فزَحَف إليه الأميرُ ابنُ الأحمر من غَرْناطةَ فحاصَرَه فيها حتّى ضاقت حالُه، وانقَطَعت آمالُه، فخَرج منها ودخَل في

---

(١) في ك: «وأبي حفص».

(٢) هو لباس حربي محشو بالقطن لوقاية المحارب (معجم دوزي).

مركَبٍ في البحر بأهلِه ومالِه، واستقرَّ بمدينة تونُس تحتَ كَنف الأمير أبي زكريّا، ومَلَكَ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن الأحمر مدينةَ الـمَرِيّة في هذه السنة، هذا ما ذكَرَه البَسْطي.

ذكرُ مُبايعة أبي بكر محمد بن محمد بن يوسُف بن هُود[1]

وذلك أنه لـمّا بَلَغَ الخبرُ إلى مُرْسِيَةَ بموت المتوكِّل على الله محمد بن يُوسف بن هُودٍ بالـمَرِيّة، وشاع ذلك في تلك البلاد الشّرقية، اجتَمع أهلُ مُرْسِيَةَ على مُبايعة وَلَدِه إذ كان وليَّ عهدِه، وتَسَمَّى في الخلافة بالواثقِ بالله، وطاعت له تلك الجهات، فما قام بأمورٍ ولا قَعَد، ولا صَدَرَ فيها ولا وَرَد، فعافَتْه النفوس، وشَمَخت عن طاعتِه الرؤوس، فأقام كذلك سبعةَ أشهر وخَلَعوه وقدَّموا فقيهَهم[2] عزيزَ بن خَطّاب وبايَعوه، وذلك في السنة الآتية بعدَ هذه.

وفي هذه السنة: بايَعَ أهلُ إشبيلِيَةَ أميرَ المؤمنين الرَّشيدَ في شوّالٍ منها بعدَما قدَّموا على أنفُسِهم واليًا السيّدَ أبا عبد الله ابنَ السيِّد أبي عِمران، فإنه كان مدّةَ ابن هُود بإشبيلِيَةَ معَ أخوَيْه: أبي زَيْد وأبي موسى، وذلك من حين أوْبتِهم في كَفالة أُمِّهم من بِجَاية بعدَ أنِ استُشهِد فيها والدُهم في الدّولة المأمونيّة حين قيام أبي زكريّا بن أبي حفص الهَنْتاتيِّ ببلاد إفريقيّةَ واستيلائه عليها.

ووصَل إلى الحضرة الـمَرّاكُشيّة وَفْدُ أهل إشبيلِيَة، ورُفِضت بها الدّولةُ الهُوديّة وعادت إليها الدّولةُ الموحِّديّة، وكان لأبي عَمْرٍو ابن الجَدّ أثرٌ كبير في تقديم السيِّد عليهم، فولّاه الرَّشيدُ من غيرِ استبداد بنَقْض ولا تدبير، وإنّما كان الأمرُ لابن الجَدِّ المذكور الذي أخَذ بالحَزْم والعَزْم في تلك الأمور، لينالَ باستبدادِه غايةَ مرادِه، فأخرَج بني حَجّاج اللَّخْميِّينَ الإشبيليِّينَ عن إشبيلِيَةَ إلى سَبْتة.

وكان أهلُ سَبْتَةَ أيضًا قد خَلَعوا دعوةَ الموحِّدين في سنة ثلاثينَ كما تقدَّم ذكرُه، وقدَّموا على أنفُسِهم شيخًا من أشياخِهم وهو الحاجُّ أبو العبّاس اليانشتيُّ، فقام بأمرِهم خيرَ قيام إلى هذه الأيام، فهجَسَت في نفوسِهم هَواجسُ الاستبصار، لـمّا أحسُّوا بوصول

(١) في ق: «أبي بكر محمد بن يوسف بن هود»، وك: «أبي بكر بن يوسف بن هود».

(٢) سقطت من ق، ك.

الأجفانِ بالوفدِ والبيعة من إشبيلِيَةَ إلى الرّشيد، فاتّفقوا على عودتِهم وتجديد بيعتِهم له في هذه السَّنة، وكان وصُولُ الوَفْد من إشبيلِيَةَ إلى مَرْسَى مازيغانَ في جَفْنَيْنِ كبيرَيْن من أُسطول إشبيلِيَةَ، ووصَل معَهم أصنافٌ من الناس، فلمّا وصَلوا حضرةَ مَرّاكُش وقَدِموا على الرّشيد، كان لقدومِهم شأنٌ عظيم ونالوا به التفضيلَ والتكريم، وامتلأت النفوسُ مسَرّةً بانتظام الدّعوة بالعُدوتَيْن، وشاعَ الخبرُ بما كان في سَبْتَةَ أيضًا، وقُرِئتِ البَيْعةُ الإشبيليّةُ وأُنشِدتِ الأشعار، وكثُر الفَرَحُ والاستبشار، وخَطَب الخُطباء وأفصَحَ الأُدباءُ النّثرَ والنَّظم، وعمَّتِ المَسَرّةُ نفوسَ الوافدين وأُنزِلوا منازلَ الترحيبِ والتقريب ووَرَدوا مواردَ الإحسان، وضُيِّفوا بأنواع التضييف على مَراتبِهم ومَنازلِهم، وفُرِشَتِ الدّيارُ لهم، والبِرُّ يجمَعُهم ويشمُلُهم، وقد كان الناسُ طال عهدُهم بهذا الفتح الأندَلسيِّ الذي تَصغُر عنه الفتوحات، فشَمَلت المَسَرّاتُ كبيرَهم وصغيرَهم، ولم يبقَ سوقٌ من الأسواق إلّا جَمَع أهلَها للنّزاهات، وابتاعوا رؤوسَ البقرِ والغَنم والفواكه، وخَرَجوا إلى بحائرِ الحضرة، وذلك على ترتيبِ الأسواق وأهل الصنائع، وجاء الخبرُ بقَبْض أهل إشبيلِيَةَ على ابن وقاريطَ المُنتَزي إليهم حسبَما تقَدَّم ذكرُه، قصَدَ بذلك أهلُ إشبيلِيَةَ إظهارَ خِدمتِهم وتكفيرَ ما كان من خروجِهم عن الدّعوة وتقريرَ حبِّهم في الطاعة التي قادَهم إليها الاستبصارُ والاهتداء، فكان أخْذُ ابن وقاريطَ من الفتح الذي أربَى على فتح إشبيلِيَةَ، لعَداوتِه القديمة وفتنتِه التي كان فيها كلُّ الإمعان، وكان أخْذُ[1] عُمر[2] بن وقاريطَ في سنة أربع وثلاثينَ حين كان بإشبيلِيَةَ.

خبرُ غَدْر ابن وقاريطَ لمدينة سَلَا في هذه السّنة

ولقد كان عُمر بن وقاريطَ في سنة أربع وثلاثينَ حين كان بإشبيلِيَةَ معَ ابن هُود والرّشيدُ إذْ ذاك بفاسَ، وصِهرُه الفقيهُ المكرَّم أبو العُلى بِسَلَا معَ زَوْجِه الحُرّة فاطمةَ بنت أميرِ المؤمنين المأمون أُختِ الرَّشيد، فلاحَت لابن وقاريطَ فُرصةٌ في الهجوم على سَلَا وأخْذِ السيِّد أبي العُلى وزَوْجِه الحُرّةِ فاطمة، والاستحواذِ على البلد من رِباط الفتح، وقرَّب

---

(١) سقطت من ق، ك.

(٢) في ق، م: «عمرو»، وهو تحريف، وينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤... إلخ.

هذا الـمَرامُ البعيدَ في نَفْس ابن هُود، وطلَبَ منه إعانتَه بجَفْنَيْنِ مُعدَّيْن ليدخُلَ بهما وادِيَ سَلَا ويتمكَّن بمَن معَه من الغَزاة من مُرادِه، لعلمِه بخَلاء البلدَيْن من صِنف الأجناد وخصوصًا رِباطَ الفتح، حيث القَصَبةُ العظيمةُ واستقرارُ الوالي، فأعانَه ابنُ هُود بما أرادَ وأمَدَّه بما شاء، فقَصَد ابنُ وقاريطَ سَلَا، وتصَوَّر لهُ بعضُ مرادِه، وحصَل في الوادي، وكاد أن يَملِكَ رِباطَ الفتح، ولو ملَكَه لَحصَل على معقِلِ الدُّنيا ارتفاعًا ووَثاقةً ومَنَعة، فاشتدَّ الناسُ إليه وتكاثَروا من البلدَيْن عليه إلى أنِ اضْطُرَّ إلى الخروج عن الحِلَق[1] والتخلِّي عن البلدَيْنِ وقد أثَّر بعضَ التأثير.

فلمّا سَمِع الرّشيدُ هذا الخبرَ وطارت إليه طَيّاراتُ الاستعجال به، قام وقَعَد، وعيَّن مِن فِتيانِه وخاصّتِه وعُلوجِه وبعض رجالِه أعدادًا لتدارُكِ رِباط الفتح لإيصال أُختِه وأُمِّه إليه في جَزَع شديد وأمرٍ كبير، فيسَّر اللهُ مقصِدَهم بتوجُّه الحُرّة فاطمةَ إلى فاس، فكان هذا السببُ الحديثُ عهدُه من أشدِّ الأُمور على ابن وَقاريطَ حين أخْذِه، فعَظُمت المسَرّةُ بالقَبْض عليه للانتقام منه، وكان في هذا كلِّه من التيسير ما فيه دليلٌ على عناية الله تعالى وما أراد من المسلمينَ من الخيْر والاتّصال والانتظام، فكلٌّ[2] ذلك يسيرٌ في قُدرتِه، فإنه يفعلُ ما يشاء.

وبعدَ أيام وصَلت[3] بيعةُ أهل سَبْتَةَ[4] أيضًا، وصَل بها وجوهُ أهل سَبْتَةَ وأعيانُهم لمدينة مَرّاكُشَ للرّشيد، فتكامَلَتِ المسَرّات[5] وترادَفَتِ الفتوحات، وقَبَض أهلُ سَبْتَةَ على اليانشتيِّ وابنِه، وأدخَل أهلُ سَبْتَةَ السيِّدَ أبا العبّاس ابنَ السيِّد أبي سعيد، وكان معَ ابن عبد الله بن أبي يالول بأحوازِ غُمارة ووصَل معَ ابن أبي يالول، وأُدخِلَ البلدَ أيضًا إبراهيمُ بنُ مسعود الكُوميُّ، وأعلَن أهلُها بدعوةِ التوحيد.

---

(١) في ق، ك: «الخلق».

(٢) في ق، ك: «فكان».

(٣) في ق، ك: «حصلت».

(٤) من هنا إلى قوله: «وأعيانهم» سقط من ق.

(٥) في ق، ك: «المسرّة».

ولـمّا وصَل وَفْدُ سَبْتَةَ بالبيعة، استُحضِر كافّةُ الناس لقراءتِها، وتكلَّم الناسُ على طبقاتهم في علومِهم وآدابِهم وأشعارِهم، وكان أيضًا منَ الاعتناءِ بهؤلاء الوافِدينَ ما حقَّق رجاءهم ووسَّع آمالَهم، واجتَمعتِ الوفودُ من أهل إشبيلِيَةَ وسَبْتَةَ وغُمارةِ البحر منَ البلدَيْن، ووافَقوا الصَّيفَ بمَرّاكُش ومِزاجُها الانحراف وهواؤها رديءٌ بكثرة الأمطارِ من الجَدْب الذي كان تقَدَّم أعوامًا، فكثُرتِ الرُّطوبةُ وحَدَث الوباء، فتغيَّرت أحوالُ أهلِها فضلًا عمّن سِواهم لا سيّما أهلُ البحر، فنزَلَ الوباءُ بهم وقَتَل منهم عددًا كثيرًا، ومَرِض الأشياخُ الوافدونَ كلُّهم من أهل سَبْتَةَ وإشبيلِيَةَ، فأوسَعَ لهمُ الرَّشيدُ في العطاء، وربّما زادَ في المال والكُسَى على عشرينَ ألفًا من الدّنانير، واشتَدّ الـمَرَضُ على الأشياخ حتى لَقد فَرَّ من السَّبتيِّينَ البَطَرْنيُّ شيخُ سَبْتة ونظائرُه خوفَ الموت، فماتوا في الطريق بمقرُبة من الحضرة، ولم يرجِعْ من غَزاة البلدَيْن العُشرُ الواحد، فكان ذلك عبرةً للمعتبِرين وعِظةً للمزدجَرين.

ذكرُ القَبْض على عُمرَ بن وقاريطَ المذكور وحَمْلِه من إشبيلِيَةَ إلى أزمور

ولـمّا انقَضَت هذه المحاولاتُ وانتَظَمتِ المسَرّات، وعادتِ الأجوِبةُ بشُكر المقاصد، وسعادةِ المصادرِ والـمَوارد، سِيق ابنُ وقاريطَ من إشبيلِيَةَ في قطعة، وكان أكبرَ أسبابِ القَبْض عليه: أبو عبد الله المومنانيُّ[1] من أهل فاس، من الفقهاءِ الأذكياء الذين لهم أخبارٌ وأحوال، وكان بإشبيلِيَةَ وله خدمةٌ للدّولة المأمونيّة بها، فتحرَّك من إشبيلِيَةَ إلى تحريض أهلِها على توجيهِه، وأنّهم ما يُتحَفُونَ بتُحفة أطرفَ منها، ووصَلتِ القطعةُ بابن وقاريطَ إلى أزمورَ فقَبَضَه الشّيخُ أبو زكريّا ابن عَطّوش المشتغلُ هنالك، وكان قبلَه

(١) هو محمد بن عيسى بن مع النصر بن إبراهيم بن دوناس، أبو عبد الله، نزل بعض سلفه بني مومنان من حوز فندلاوة فنسب إليه، وسيأتي بعد قليل تلفه مع أبي حفص، وله ترجمة في أعلام مالقة (٥١)، والتكملة لابن الأبار (١٧٤٨)، وصلة ابن الزبير ٣/ الترجمة (٢٣)، والذيل لابن عبد الملك ٥/ ٢٤٩، والمستملح للذهبي (٣٥٣)، وتاريخ الإسلام، له ١٤/ ٣٠٣، وابن القاضي في جذوة الاقتباس ١/ ٢٥١ وغيرها.

بأزمورَ الشيخُ أبو محمد بن ماكْسِن، ولكنّه وُجِّه إلى سَبْتَةَ وديوانِها وأعمالِـها عند وصول بيعتِها لِقِدَم له في الخدمة ووسائلَ كان بها مبرورًا محفوظًا.

وكان بأزمورَ جماعةٌ من الخُلَّط مساجِن، منهم: عليُّ بن هلال ووِشَاحُ بن هلال وجماعةٌ من أعيانِهم قَبَضَ عليهم أميرُ المؤمنين عندَ قُفوله من فاس في صَدْر هذه السّنة على أنهم مَراهن، واشتَغَلَ بالتحيُّل على سائرِهم والقَبْض عليهم، فإنّهم ضاقت ببُغيتِهم الأرض فلجَأوا إلى عفوِه، ولكنّه عزَمَ على استصفائهم فألحَقَ ابنَ وقاريطَ بهم وبَنَى عليه في موضع سجنِهم وسَجَنَه ببيت صغير ليس له فيه تَزحزُح من مكانِه، واستوثَقَ منه الحديدَ الثّقيل وبقيَ هنالك أيامًا.

وفي أثناءِ هذه السّنة استَجْلبَ أميرُ المؤمنين الخُلَّطَ وأنَّسَهم وبَسَطَ آمالَهم واستَدْناهم وأنزَلَهم بتانسيفت، فكان بذلك مخيَّمُهم إلى أن أحكَمَ التدبيرَ في أخْذِهم، فلمّا عزَمَ على ذلك وأمضَى رأيَه فيهم استَدعَى أشياخَهم عن آخِرهم، وسَجَنَهم، ووجَّه الأجنادَ إلى دواويرِهم فأتَوْا على ما فيها وما بقيَ لهم مالٌ ولا نفْس، وامتلأت أيدي الأجنادِ والناس من أموالِـهم، وسِيقَ النِّساءُ والذُّرِّية إلى حضرة مَرّاكُش فامتلأت منهم الأسواقُ والسِّكَك من كلِّ[1] عذراءَ ما تجاوَزَت قطُّ خِدْرَها وما كان في ذلك من الشّناعة ما رَقَّت النفوسُ به إليهم، وتساوَت الحُرّةُ العربيّةُ الصَّريحة والأَمَةُ في العبوديّة، ثم نَادَى الـمُنادي بأنْ لا يُمَدَّ يدٌ إلى امرأةٍ ولا طفل ولا صغير، وحُشر النّساءُ والذُّرِّيّةُ بدار الأشراف، فضاقت عليهم وامتلأت رِحابُ الجامع، وتعطَّف الناسُ عليهم وأحسَنوا إليهم، وأُذِن لأعدائهم من سُفيانَ وبني جابرٍ في سِتْر بناتِ الخُلَّط كبيرِهم وصغيرِهم، وهذه من أكبرِ النِّكايات وأعظم الـمُصيبات[2].

ذكرُ مقتَل عُمرَ بن وقاريطَ رحمه اللهُ تعالى

ولـمّا فَعَل أميرُ المؤمنينَ الرَّشيدُ ما فَعَل بالعَرَب، أَمَرَ بقَتْل مَن في أزمورَ من أشياخِهم، وأن يُعجَّل بأمساخِهم، فحُزَّت رؤوسُهم، وفُقِدت نفوسُهم، وحُملت جملةُ

(١) سقطت من ك.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

الرؤوس في خُرْج على جَمَل ورُكِبَ عليها ابنُ وقاريطَ عِوَضَ فرسٍ وسَرْج، وحُمِل إلى مَرّاكُش على هذه الحالة، فوصَل إليها وقد قرَّب اللهُ إلى الأخرى ارتحالَه، فبقيَ ساعةً بخارج المدينة والناسُ ينظُرونَ إليه، ويصُبُّونَ اللّعنةَ عليه، ثم أُدخِل إلى السِّجن فبقيَ به أيامًا، ثم أمَرَ الرَّشيدُ بقَتْله وتعليقِه على باب الشّريعة أحد أبوابِ مَرّاكُش، فسبحانَ مَن لا يفنَى دوامُه! فلقد كان ليثًا يزأر، وبحرًا يزخَر، فجَرَع كأسَ حِمامِه، ورَماه الدّهرُ بسهامِه، فتوطَّدت للرَّشيد المملكةُ وتَرادَفَت المسَرّات، وأتَتْه من كلِّ جهة البِشارات، بما شاء اللهُ من الفتح وأراه من النُّجح، وكانت هذه السّنةُ سنةَ خِصب وخَيْرات وتتابُع مسَرّات، انتهى القمحُ بمَرّاكُش إلى ثلاثة أمدادٍ حَفْصيّة بدرهم، وتنافَسَ الناسُ في شراءِ الأسباب والثِّياب، حتّى لقد بيعت شُقّةٌ بثمانينَ دينارًا من هذه الدّراهم، وذلك لاتّساع الأحوال والآمال، فقد كان الناسُ تَوالَت عليهم أمورٌ وأحوال يَطُولُ أمرُها ويثقُلُ ذكرُها، ولكنّ اللهَ سبحانه مَنَّ بالفضل وامتدادِه، والله لطيفٌ بعبادِه[١].

وفي سنة ستٍّ وثلاثينَ وست مئة: وصَلت بيعةُ أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن نَصْر للخليفة الرَّشيد، وكان يَذكُرُ اسمَه في كتُبِه ويدعو له في خُطَبِه، فقَنِع منه بذلك، وبقيَ على هذه الحالة إلى سنة أربعينَ حين وفاةِ الرَّشيد. ووَلَّى الرَّشيدُ على سَبْتَةَ أبا عليّ بنَ خلاص، فكان ذا وفاءٍ وإخلاص[٢].

وفي هذه السنة: ثار ببلادِ السُّوس ثائرٌ يُدعَى بابن ياوجي، في حِصن تيوينوين، واستَدعَى الناسَ إليه فأجابه كثيرٌ منهم، فسَمِعت به عَرَبُ المعقِل فأقبَلوا إليه وطلَبوا منه الاجتماعَ به ووَعَدوه بالنّصرِ والإعانةِ على ما أخَذ فيه، فخاف منَ الخروج إليهم واستدعاهم ليجتمِعوا به في الحِصن المذكور، وكان صاحبَ البلاد السُّوسيّة أبو محمد ابن أبي زكريّا بن أبي إبراهيم، فما زال يَبذُلُ العطاءَ عليه إلى أنِ اغتالَه جُزوليٌّ بدَسِيسةٍ إليه، وذلك أنه لـمّا دخَل عَرَبُ المعقِل إلى الحِصن نَعَق ناعقٌ بأنه يريدُ بإدخالِهم التغلُّبَ على الحِصن والتمكُّنَ من أهله وإخراجَهم منه، فتقدَّم إليه شيخٌ من جُزولةَ وضَرَبَه فقتَلَه

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

فسَمِع بمصرَعِه هلالٌ فرغَّب ناسًا في قَطْع يدِ الثائر المقتول، فقطع له واحتَمَلَه سريعًا إلى أبي محمد بن أبي زكريّا وأخبره الخبرَ، فضُرِبتِ الطّبولُ على قتلِه، فتحرَّك خاطرُ أهله، وكانوا يظُنّونَ أنه غيرُ ملتفِت، فقَطَع رأسَه الجُزوليُّ قاتلُه وجعَلَه في قُفّة وتوجَّه به معَ بعض أصحابِه إلى مَرّاكُش، ولم يمرَّ هذا الفريقُ على تارودانتَ لقديم عِصيانِهم ووَفَدوا على أميرِ المؤمنينَ الرَّشيد فهنَّأوه بقَتْله. فنُظِمت الأشعار وقُرِعَت الطُّبول وعمَّ السُّرور، وعُلِّق رأسُه على باب الشّريعة معَ رؤوس الثوّار المتقدِّم ذكرُهم، واستَدعَى الرَّشيدُ القُفّةَ التي سِيق فيها رأسُ الشّقيِّ المذكور، فأخرَجَها مملوءةً دراهمَ لسائقِه جزاءً وثوابًا، وانصَرَفوا بخيرٍ كثير واسع، فإنّ الدراهمَ لم تكنْ في أوعِيَة، إنّما صُبَّت في القُفّة المذكورةِ صَبًّا.

والحديثُ شجون، وذلك أنّ هذا الحِصنَ على قديم الزّمان مجبولٌ مَن فيه من أهله على الشِّقاق والارتداد، وقد كان في الفتح الأوّل في عهدِ الخليفة عبد المؤمن ما اشتُهر خبَرُه، فإنه أقام عليه زمانًا وهم على طُغيانهم وعِصيانهم، ولفَتْحِه خبرٌ مشهور ذكَرَه البَيْذَقُ وغيرُه، ثم لم يزَلْ مخيِّمَ كلِّ مَن في نفسِه شِقاق أو نفاق. وفيه خَرَج على الموحِّدينَ المشهورُ بأبي قَصَبةَ، وكان مُولَعًا بالسِّحر، ولم يبقَ من الموحِّدين أحدٌ في حال ثورتِه إلا استقرَّ بهذه البلاد في قتالِه، ولقَتْله بعدَ الـمُدّة الطائلة نبأٌ معروف، وعُلِّق رأسُه على باب الشّريعة. وبعدَ ذلك التاريخ: وصَل مَرّاكُشَ رجلٌ يقال له: عبدُ الرّحيم ابن الفَرَس من أهل الأندلس، فقيهٌ عالِـم، ذكَرَه ابنُ عبد الملك الـمَرّاكُشيُّ في «التكملةِ والذَّيل» له، ولكنْ جَرى عليه القدَرُ الذي لا يُرَدّ وترَكَ الناسُ حينَئذٍ الرّوايةَ والأخْذَ عنه، فكان يمُرُّ على رأس أبي قَصَبة وهُو معلَّقٌ فيَندُبُه ويتحسَّرُ عليه، ثم حَمَلتْه الأقدارُ إلى هذه البلاد السُّوسيّة، فثار في هذا الحِصن، واجتَمع إليه الناسُ وامتنَع به وأعانَه أهلُه بأموالهم، فأُعمِلَت الحِيلةُ أيضًا في حَسْم عِلّته إلى أنِ اغتيلَ وقُتل، فسيقَ رأسُه وعلِّق بإزاءِ رأس أبي قَصَبة، وفي هذه عبرةٌ ودِلالة على نفوذِ إرادة الله بإلهام ابن فَرَس للوقوف على رأس أبي قَصَبة وإدامة النّظَر إليه إلى أن جمَعَت القُدرةُ بينَهما. فشأنُ هذا الحِصن في الضّلال والارتداد قديمٌ وحديث، وسيأتي بعضُ خبرِه أيضًا وخبرِ عليِّ ابن يدّرَ في أواخِر هذه الدّولة الموحِّدية إن شاء اللهُ تعالى.

وفي هذه السنة: نازَلَ العدوُّ مَلِكُ أرغونَ مدينةَ بَلَنْسِيَة، وكان صاحبَها زَيّانُ بن مُرْدنيش[١]، ثم وصَلت الأجفانُ من تونُس بالإغاثة لأهل بَلَنْسِيَة، فوجَدوهم محصورين، فكتَبوا بذلك للأمير أبي زكريّا رابعَ محرَّم من عام ستة وثلاثينَ وست مئة.

وفي ذلك اليوم بعينِه: بايَعَ أهلُ مُرْسِيَةَ لابن خَطّاب وتلقَّب بضياءِ السُّنّة، وكان فقيهًا عالِـمًا. وكان وصَل من تونُس في الأساطيلِ المذكورة أبو يحيى ابنُ الشّهيد الهَنْتاتي بمالٍ ناضٍّ ليدفعَه لأبي جميل، فلم يجدْ مَن يقبِضُه منه لكوْن أبي جميل[٢] كان محصُورًا، فرجَعَت الأساطيلُ المذكورةُ في الثانيَ عشَرَ من محرَّم من السّنة، وتَركوا ما سوى المال الناضِّ من الأطعمة والأسلحة وغيرِ ذلك بدانِيَة.

وفي هذه السنة، في يوم الـجُمُعةِ السابعَ عشَرَ من صَفَر: خَرج أبو جميل زَيّانُ بن مُرْدنيشَ من بَلَنْسِيَةَ بجُمهور المسلمين، واستَولَى العدوُّ عليها ودخَلَها ولا حولَ ولا قوّة إلّا بالله العليِّ العظيم. وحدَّثَ مَن شاهَد حِصارَها أنّ القمحَ كان يُباعُ بها ستةُ أواقٍ بدرهم والشّعيرُ اثنتا عشْرةَ[٣] أوقيةً بدرهم، ولـمّا أخَذ المسلمونَ في الخُروج منها بِيعَ الدّقيقُ بها أحَدَ عشَرَ رِطلًا بدرهم، ووقَعَ الصُّلحُ على دانِيَة وقليرةَ إلى مدّة من خمسة أعوام، وقيل: سبعة أعوم.

وفيها: ركِبَ أبو عبد الله بنُ الأحمر من غَرْناطةَ إلى موضع الحَمْراء وأجالَ فيها نظَرَه وخطَّ أساسَ الحِصن وجَعَل فيه مَن حفَرَه، وما تمّت السّنةُ إلّا والحِصنُ مشيَّدُ البناء حصينُه، وقد جاءه من ماءِ الوادي برَفْع سدٍّ وحَفْر ساقية معينُه.

وفيها: وَفَد على[٤] ابنِ الأحمر وجوهُ أهل مالَقة ببَيْعتِهم إليه، فقَدِموا بها غَرْناطةَ عليه، وكانت البيعةُ من إنشاء ابن عَسْكر[٥]، وكان في العِلم والأدب مشهورًا يُذكَر،

---

(١) ينظر نفح الطيب ١/ ٣٠١ و٢/ ٥٩٠ و٣/ ٤٨٨.

(٢) في م: «ابن جميل»، وهو تحريف، و«أبو جميل» هي كنية زيان، كما سيصرح به المؤلف بعد سطرين!

(٣) في م: «اثنا عشر»، وهو تحريف.

(٤) في م: «علي»، وهو تحريف.

(٥) هو محمد بن علي بن عبيد الله الخضر بن هارون الغساني المعروف بابن عسكر المتوفى في هذه السنة، وهي سنة ٦٣٦هـ وترجمته في أدباء مالقة (٥٠) وهي ترجمة رائقة، والتكملة لابن الأبار (١٦٨١)، والمغرب لابن سعيد ١/ ٤٣١، والذيل لابن عبد الملك ٤/ ٤٩٢ وتعليقنا عليها.

فقلَّده ابنُ الأحمر قضاءَ مالَقة، وسِيق إليه وإليها ابنُ زَنّون أشرَّ سَوْق، فأذاقَه من العذابِ أمرَّ ذَوْق، وكان قَدَّمه عليها ابنُ هُود، ثم أُعيد إليها بعدَ عذابِه ونَكاله فسُجن بها واستُصفيَت أحوالُه فذَبَحَ نفسَه في سِجنِه نسألُ اللهَ العافية من شرِّ هذه الدنيا ومِحَنِها، وأولُ مُشرفٍ قتَله في حمرائه إثْرَ بنائه: أبا محمد بنَ عَرُوس مُشرفَ المَرِية، ضَرَبَه بالسِّياط حتى وافَتْه المَنيّة، وذلك تحتَ الأصبحيّة، وكم من مُشرفٍ قُتلَ بعدَه لم يُحرِّكْه للإبقاءِ عليه ريحُ الأريحيّة، عَفَا اللهُ عنّا(١) وعن جميعِهم بمنِّه.

وفي هذه السنة، يومَ الثلاثاء مُنسلَخ رجَبٍ الفَرْد: رفَعَ أبو عبد الله ابنُ الأبّار قصيدتَه السِّينيّةَ التي أولُها [من البسيط]:

أدرِكْ بخيلِك خَيْلَ الله أندَلُسا ... إنّ السّبيلَ إلى مَنْجاتِها دَرَسا

رَفَعَها إلى حضرة الأمير أبي زكريّا يَستصرِخُه فيها لنُصرة الأندَلس ويصفُ سُوءَ الأمرِ بها(٢).

اختصارُ الخبر عن كيفيّة رُوْم جَنْوَة
الذين راموا دخولَ مدينة سَبْتَةَ عَنْوة

وذلك أنّهم لـمّا وصَلوا إلى سَبْتَةَ في مَراكبهم برَسْم محاولاتِ تجاراتِهم، فاجتَمع منهم في ديوانِها ورَبَضِها عددٌ كثير، فرامُوا التغلُّب عليها بتحيُّلاتهم وإراداتهم، فخيَّب اللهُ سَعْيَهم فيما رامُوه من التحيُّلات، وأكذبَتْهم نفوسُهم بما خَيَّلت لهم من التخيُّلات، وذلك أنه لـمّا عَلِم بذلك صاحبُها الحاجُّ أبو العباس اليانشتيُّ كتَبَ إلى القبائل الساكنة عليها، والراجعة في الحُكم إليها، فعرَّفهم بتلك الأمور، وأمَرَهم بالوصُول إليه، والقدوم بجُملتهم عليه، في يوم معيَّن معلوم، وهذا الأمرُ عندَه منَ الجُمهور مكتوم، فلمّا كان في اليوم المذكور خَرج لِلقائهم أبو الحَسَن ابنُ اليانشتيِّ فألفاهُم في جموع لا يُستطاعُ إحصاؤُهم.

---

(١) قوله: «عنّا و» سقط من ق، ك.

(٢) تنظر مقدمتنا للتكملة الأبارية.

وعندَ خروج وَلَد صاحب سَبْتَةَ إليهم، فَهِم النّصارى أنّ الدائرةَ عليهم، فأبْرَموا أمرَهم طامِعينَ فيما أمَّلوه، وزَحَفوا بجموعهم إلى الباب لعلّهم يَملِكوه[1]، فبينَما هم بمقرُبة منَ الباب يحاولونَ إليه المسير، إذ لم يبقَ بينَهم وبينَه إلا شيءٌ يسير، إذ أقبلَت عليهم عساكرُ البَرْبر داخِلينَ على الباب، فكسَروهم وقتَل كلُّ واحد منهم مَن قتَل منَ الرُّوم وما صبَرَ ولا دَبَر، فقُتل النّصارى في ذلك اليوم قتلًا ذَريعًا وقُطِّعوا تقطيعًا، وتحَكّمتِ السّيوفُ والرِّماح من كلِّ مفرِق لهم ونَحْر، ومَن سَلِم من القَتْل رمَى بنفسِه عائمًا إلى الأجفانِ في البحر، وانتُهِبت أموالُهُمُ التي في فنادقهم أيَّ انتهاب، والتَهَبتِ النارُ في سِلَعِهم وسلاحِهم كلَّ التهاب، واحتَوت البَرْبرُ والسُّوقةُ وغُزاةُ البحر وغيرُهم على جميع ما كان في الفنادق من أسبابهم، وما خَلَص للنِّيران من أموالِـهم، وأخَذَت كلُّ يدٍ ما ملَكَت من أيِّ شيء وَجَدت أو عليه سَلَكت، وعَلِم مَن كان في تلك الـمَراكب مِن أهل مِلَّتِهم أنّ المنيّةَ قد نزَلَت بجُملتهم فأخَذوا في الإقلاع من مَرْسَى سَبْتَةَ يُنادُونَ: الفِرارَ الفِرار! فلمّا وصَلوا إلى إخوانهم أعلَموهم بقصّتِهم وشأنِهم، فاجتَمعوا في نحو مئة مركَب ويمَّموا سَبْتَةَ لحصارِها، والمبالغةِ في إضرارِها، فلمّا وصَلوا إليها نَصَبوا الـمَجانيقَ عليها فنصَرَها اللهُ وعصَمَها منهم، ثم وقَع الصُّلحُ بينَهم على أن يُعطيَ أهلُ سَبْتَة للرُّوم مالًا معلومًا من جُملة ما مضَى لهم، فدَفَعه لهمُ اليانشتيُّ من مال المخزَن، وأقلعوا عنهم وأراح اللهُ بفضله منهم.

وكان عامُ جَنْوةَ عندَ أهل سَبْتَةَ مشهورًا، وفي تواريخِهم مذكورًا، وكان ذلك عامَ ثلاثةٍ وثلاثينَ وست مئة، وقيل: في سنة ستٍّ وثلاثين[2].

وفي هذه السنة، في يوم الجُمُعة السادسَ عشَرَ لشهر رمضانَ المعظَّم: دخَل الأميرُ أبو جميل مُرْسِيَةَ على رِضًى من أهلها، وخَطَب بها للأمير أبي زكريّا صاحب تونُس، وقَبَض على عزيز بن خَطّاب وقتَلَه ليلةَ الثلاثاء الـمُوفي عشرينَ من شهر رمضانَ المعظَّم المذكور، وانتَظَمت البلادُ الشَّرقية[3] برِّ الأندَلس للأمير أبي زكريّا: من جزيرة شُقْرَ إلى مُرْسِيَة.

---

(١) هكذا في الأصل، والجادة: «يملكونه».

(٢) ينظر الاستقصا ٢/ ٢٤٤.

(٣) في ق، ك: «المشرقيّة».

وفي سنة سبع وثلاثينَ وست مئة: كان الغلاءُ الـمُفرِط والـمَجاعةُ العظيمةُ بمدينة سَبْتة، حتّى عُدِم فيها الطّعامُ بالكُلِّية في هذا العام، وكانوا يسمُّونَه بعام سبعة، وهو مشهورٌ عندَهم يتَمثَّلونَ به بينَهم، ومن هذا العام صار أهلُ سَبْتَةَ يختزِنونَ الطّعامَ في الـمَطامير في كلِّ عام حيطةً على أنفُسِهم من مِثل هذه الـمَجاعة التي لم يُعهَدْ مثلُها في الأعوام الفارِطة قبلَها عصَمَنا اللهُ من مثلِها بفَضْله. وكانت أكثرُ بلاد الغَرْب غاليةَ الأسعار، بسبب كثرة الفتن وقلّة الأمطار، في تلك الأقطار، وبسبب عُدْم الحُماةِ والأنصار، لتلك الجهاتِ والأمصار، فقد كان أهل تلك البلاد اشتَعَلت بالفتن نارُهم وقلَّت حُماتُهم وأنصارُهم، حتّى اشتدَّت حالُهم وتكاثَرت أوجالُهم بسببِ ما كان بينَ أُمراءِ الموحِّدينَ من الحروب والوقائع، والفتن والزَّعازع، واشتغالِـهم عنهم بأمورهم وأحوالهم في حَضْرتهم الـمَرّاكُشيّة في الدّولة المأمونيّة وفي أوائل الدّولة الرَّشِيديّة، فكثُر الغلاءُ والجَلاء في البلاد الغَرْبيّة من أجل النِّفاق واختلاف الكلمة في السنينّ الماضية، حتى انقطَع السّبيل وعُدَم فيه الدّليل.

وكان أشدَّ ضَرَرًا في تلك الجِهات على الناس، عَرَبُ رِيَاح بالاختلاس والافتراس، لا سيّما بأَحْوازِ مِكْناسةَ وفاس، وتقدَّم بينَهم وبينَ زَناتة حروبٌ كثيرة، ونشَأَت بينَهم وبينَ بني مَرِين عَداوةٌ كبيرة، فكانوا يُحاربونَهم ويُقاتلونَهم بجهة القَصْر، وشيخُهم إذ ذاك عثمانُ بن نَصْر، إلى أن ظَفِر بهم بنو مَرِين ونَهَضوا إليهم سريعًا، وقَتَلوهم قتلًا ذَريعًا، واستوَلَوْا على دواويرِ عَرَب رِيَاح واكتَسَحوا ما كان بها من دوابَّ وأسبابٍ وأثاثٍ وسلاح، وفرَّقوهم أيديَ سبا، ولم يترُكوا لهم سَبَدًا ولا لبدًا ولا سببًا، وأوقَعوا فيهم سُيوفَهم، وأنزَلَ اللهُ عليهم حُتوفَهم. وانصَرف عثمانُ بن عبد الحَقِّ وإخوتُه وعشيرتُه وجِيَادُهم تتسابقُ في مَراحٍ وارتياح، ووجوهُهم تتهلَّلُ تهلُّلَ الإصباح. ولم يَزالوا في بلاد الغَرْب ظاهرين، وبأعدائهم ظافرين، وكانوا في أثناءِ تلك الأحوال، التي كانت بينَ الموحِّدينَ والأهوال، خيولُهم في بلاد الغَرْب رائحةٌ غادية تستأصلُ ما ألفَتْه بسيوفِها من المعتَدِينَ على كلِّ حاضرة وبادية، وذلك أنه لـمّا نوَّر اللهُ بصائرَ بني عبد الحَقِّ وبني حَمَامة، وأنجَزَ لهم ما وعَدَهم من الكرامة، فأخلَصوا لله نيّاتِهمُ التي هي رأسُ أعمالِـهم، ونوَوْا للمسلمينَ خيرًا في أفعالهم، وقد قال عليه السلام: «إنّما الأعمالُ بالنِّيات، وإنّما لكلِّ

امرئ ما نَوَى»، فما قَدَّموا عملًا من الأعمال قبلَ تمهيد تلك البلاد، والضّرب على أيدي أهل الضَّررِ والفساد، فأمَّنوا السُّبُل وسَدُّوا الخَلَل، فاتّسعت أحوالُهم وانبسَطَت آمالُهم، فصار أهلُ تلك البلاد يُعظِمونَهم غايةَ الإعظام، ويعاملونَهم بالبِرّ والإكرام، ويُعطونَهم مالًا معلومًا في العام، فكانتِ السُّبُل آمنة، والحاضرةُ والباديةُ هادنة، ونفوسُ أهلها بالعافية ساكنة، إلى أن وصَل ابنُ وانودينَ واليًا على تلك البلاد، فأشعَلَ نارَ الفتنة بعدَ الإخماد، وأشغَلَ بالَه بالقتال معَهم والجِلاد.

اختصارُ الخبرَ بولاية أبي محمد عبد الله بن وانودينَ بلادَ الغرب، وما كان يُطوِّلُ مقامَه بها منَ الـحَرْب

وذلك أنّ هذا عبدَ الله بن وانودينَ كان من خِيار الموحِّدين، وكان ترْكُه الناصرَ لدين الله بتونُس معَ الشّيخ أبي محمد بن أبي حَفْص في جُملة مَن تَرَك معَه من أولاد الموحِّدين وهُو إذا ذاك في حال الشَّبيبة إلى أن توفِّي أبو محمد عبدُ الواحد المذكور، وتبدَّلَت الأحوالُ والأمور، ووصَل إلى مَرّاكُش ونزَلَ بدارِه بالسَّبْتيِّين، وقعَدَ معَ إخوانِه الـهَنْتاتيِّين، ثم جُعِل معَ الوقّافِين، ثم نُقِل إلى مزورة العزّ، ثم نُقل إلى الوِزارة، فاستَوْزَرَه أميرُ الموحِّدين المعتصمُ بدين الله أبو زكريّا يحيى ابن الناصر، وكان جارَه بالسَّبْتيِّينَ الكاتبُ الجَليل أبو الحَسَن السَّرَقُسْطي، فعرَّفَه به واسكتبَه أبو زكريّا المذكورُ فحضَر معَه في تلك الأحوال التي كانت بينَه وبينَ عمِّه المأمون، وتلك الأمور، وتزوَّج ابنُ وانودينَ السيِّدةَ بنت يوسُف المستنصِر بالله، فسادَ بسببِها وزاد حُظوةً بها إلى ما كان من حُظوته ومكانتِه، فدخَل معَ يحيى مَرّاكُشَ ثلاثَ مرّاتٍ بالحروب، ورحَل معَه منها[1] كذلك بالهزيمةِ والهروب، واستقرَّ بجَبَله مِرارًا، وفَرَّ إليه فِرارًا، معتصمًا بالله وبه موطنًا وقَرارًا، ثم نَظَر بنظَرِه السّديد، وبادَرَ بنفسه إلى خدمة الرَّشيد، فوَلّاه بلادَ دَرْعةَ سنةَ اثنتين وثلاثين، وأعطاه الأجناد، فظَهَرت خِدمتُه في تلك البلاد، وحاوَلَ محاولةً عظيمة في أمرِ السيِّد القائم بسِجِلْماسةَ أبي محمد عبد العزيز حتّى أخرجَه منها بعدَما ثارَ فيها وجنَّد الأجناد وألَّف

(١) العبارة في ق، ك: «ودخل معه فيها».

من العَرَب أعداد[1]، ودخَل ابن وانودينَ إليها فوَلّاه الرَّشيدُ عليها إلى أن وصَل منها إلى مَرّاكُش في سنة أربع وثلاثين.

فلمّا كان في **أواخر سنة خمسٍ وثلاثينَ**، حين[2] استَقامت الأحوالُ للإمارةِ الرَّشِيديّة، وطاعت له سَبْتةُ وطَنْجةُ، وَلّاه الرَّشيدُ البلادَ الغَرْبية وجَعَل له النظَر فيها والتفقُّد لأحوالها ولأمور وُلاتها وعُمّالها، ووَلّاه قبائلَ غُمارةَ كلِّها سَهلِها وجَبَلها، فخَرج من مَرّاكُش بعسكر كبير من الموحِّدين وجُموع من المتجنِّدين وحِصَص من العَرَب وغيرهم، وفوَّض له الرَّشيدُ النظَر في أحوال تلك البلاد وفي إصلاح حالهم وأمرهم، وأعطاهُ طُبولًا وعلامات، وكتَبَ له بخطِّ يدِه في جُملة أوراقٍ بعدَ البَسْمَلة علاماتٍ ليُنفِذَ بها الأوامر ويَكتُبَ لـمَن شاء الظّهائر، وارتَهنَ أن يَستجلبَ عَرَبَ إفريقيّة، فكتَبَ لهم عنه بأشعارٍ وعدّةِ رسائل، وكان كاتبَه الفقيهُ الجَليل أبو الحَسَن السَّرَقُسْطيّ، وكان عندَه معظَّمًا مبرورًا مكرَّمًا مشكورًا، وتوجَّه صُحبتَه واليًا على سَبْتَةَ أبو علي ابن خِلَاص البَلَنْسِيّ وعلى دارِ الصناعة، بها، أبو زكريّا بن مُزاحِم الكُوميُّ، فوصَل بالمحَلّة إليها ونزَلَ أيامًا عليها، ثم رحَل إلى بلاد غُمارةَ لينظُرَ في أعمالِـها وأشغالِـها، فنفَرَت منه بعضُ قبائلها وتحصَّنت في موانعِ جبالها، وكان معَ بعضِ تلك القبائل الغُماريِّين قد طاعوا للأمير أبي سعيد عثمانَ بن عبد الحقّ ودخَلوا في حُرمة بني مَرِين وتحتَ طاعتهم وانقادوا لهم للمَغْرَم وغيرِه[3].

وكان الرَّشيدُ أعطى لابن وانودينَ جُملةَ أحمال بالكُسَا الشَّرقيّة البَدِيعة من كلِّ نوع برَسْم الإعطاء لبني عبد الحقّ ولأشياخ بني مَرين ولـمَن يجبُ إعطاؤه، فلمّا وصَل ابنُ وانودينَ إلى مقرُبة من بلادِهم أشغَلَ نفسَه بقتالهم وجِلادهم، فأوّلُ فعْل فعَلَه معَهم أنه وصَل إلى مقرُبة من مَواضعِهم ليطلُبَ الفارِّينَ من غُمارة، فوقَع النِّزاعُ في ذلك، وعامَلَ بني عبد الحقِّ بمُعاملةٍ غيرِ صالحة، وحاوَلَ أمرَهم بمحاولة غير ناجحة، ووافَقَهم على أشياءَ لم يفِ لهم بها، فكانت الحربُ بينَه وبينَهم بسببها على ما أذكرُه بحَوْل الله تعالى،

(١) كذا في الأصل، والجادة: «أعدادًا».

(٢) سقط الظرف من ق، ك.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

وذلك أنه لـمّا خَرج ابنُ وانودينَ على بني مَرين الطريقَ فيما كانوا تَوافَقوا عليه وأغاروا على محلّته وقتَلوا جُملة كبيرة من أجنادِه وجُملتِه، فتشتَّت حالُه وتكاثَرت أوجالُه، ووصَل الخبرُ إلى الرَّشيد بحالهم وأمرِهم، فاغتاظ لذلك عليه وأمَرَه بالسُّكْنى في تلك البلاد، فسَكَنَها وهو كئيبُ القلبِ والفؤاد.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ سبع وثلاثين وست مئة: استُشهِد الأميرُ عثمانُ بن عبد الحقِّ رحمه اللهُ تعالى، قيل: إنّ عِلجًا من أعلاجِه غَدَره وضَرَبه ضَرْبةً بخِنجر قَطَع به أوْداجَه فمات من حينِه وهرَبَ العِلجُ إلى ابن وانودينَ فعرَّفه بالأمر فأعطاهُ وأرضاه، وقيل: إنّ ابنَ وانودينَ هو الذي حرَّضَه على ذلك واتّفق معَه عليه ثم صَرَفَه ابنُ وانودينَ بعدَ ذلك من عندِه، فلم يُعلَمْ بعدَ ذلك صحةُ خبر(١).

ولـمّا توفِّي هذا الأميرُ أبو سعيد كتَبَ ابنُ وانودينَ مُعلِمًا بخبره الرَّشيدَ، وبعَثَ إليه كاتبَه أبا الحَسَن السَّرَقُسْطيَّ، وما كان عندَه أكبرُ منه ليعرِّفه بالحال مشافهةً ولينُوبَ في شَرْح ذلك عنه.

وتقدَّم الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن عبد الحقِّ على قبائل بني مَرين ومنِ انضافَ إليهم من زَناتةَ وبني ورا وغيرِهم، فأطاعوه وطاوعوه، غيرَ أنّ بني عسكرٍ خالَفَت بني حَمامةَ في الانقياد التامّ، فكثُرت بينَهم الشَّحناء وحَقَنوا الدِّماء، واغترّ ابن وانودينَ بمُنافرتهم وطَمِع فيهم لأجْل مُعاقرتِهم، وذلك أنه لـمّا اتّصل به ما كان بينَ بني حَمامةَ وبني عسكر منَ الـمُكابرة والـمُظاهرة والـمُنافسة والـمُنافرة، استَخْلَص بني عسكرٍ لنفسِه استخلاصًا وأخلَصَ لهم نيّتَه فيما زَعَم إخلاصًا، واستعطَفَهم واستلطَفَهم، ووعَدَهم بأموال يُعطيهم، وأحوال تُرضيهم، على أنْ يُقابلَ بهم إخوانَهم، ويَطرُقَ بهم أوطانَهم، فارتَبطَ معَهم على ذلك ارتباطًا ونهَضَ معَهم إلى مقابلة بني عبد الحقِّ وبني حَمامةَ، فألفاهم بمقرُبة من سلفات، فقابَلَهم في تلك الجهات، فوسَّع بنو حَمامةَ ومَن كان معَهم إلى مواضعِهم بعدَ مقابلة ومقاتلة وفَقْدِ مَن فُقِد من الفريقَيْن، وعاد ابنُ وانودينَ معَ الموحِّدين وبني عسكر، وكان غَرَض بني مَرين أن يتبَعَهم ابنُ وانودين بمَن معَه

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٦.

ليكمُنوا لهم فيتمكَّنوا منهم، فترَكَهم ورحَل معَهم ونزَلَ بظاهر مِكْناسةَ فألزَمَ أهلها وظائفًا[1] وتكالفًا، وابتلاهم بأنواع من الـمَغَارم والـمَلازم، ثم رحَل ابنُ وانودين بمحَلّتِه إلى مدينة فاسَ ليُوفِّي للعسكريِّين ما لهم فيها، فأغْرَمَ بالتعيين جُملةً من الناس، ثم عادَ أيضًا إلى جهة مِكْناسةِ الزّيتون، فنزَلَ بمقرُبة من زرهون، ففَرَّ أهلُ تلك الجهات أمامَه وتَركوا مواضعَهم ورُبوعَهم وأسلَموا للنَّهب مواشيَهم وزروعَهم.

ذكرُ هزيمة بني مَرين لابن وانودين وعسكرِ الموحِّدين

وذلك أنه لـمّا اشتَغل بفاسَ ومِكْناسةَ بما اشتَغل منَ المظالم، وفعَلَ بأهلها ما فَعَل من تأديةِ الـمَغارم، اجتَمع بنو مَرين ومنِ انضافَ إليهم من زَناتةَ وغيرِهم على أميرِهم أبي معرّف محمد بن عبد الحقّ ورحَلوا معَه بجُملتهم، ونزَلوا بمقرُبة من مِكْناسةَ بمحَلّتِهم، إلى أن وقَعَت شَوَّافتُهم في أجنادِ الرُّوم وقائدِهم اللّعين فقَتلوهم أجمعين، إلّا مَن فَرَّ منهم بعدَ قَتْل قائدهم الزَّعيم، أبي ضَرْبةَ الذّميم، ووصَل فَلُّهم الـمُنهزِم إلى ابن وانودين، فعرَّفوه بقَتْل قائدِهم فتفجَّع عليه وعلى مَن قُتل من جماعتِه التي كانوا تحتَ يدِه، وكان قد بعَثَهم لتلك الجهات يحرُسونَها ويتفقَّدونَها، وقيل: إنّ قاتلَ أبي ضَرْبةَ هو أبو عبد الله محمدُ بن إدريسَ بن عبد الحقّ، وكان موضعُ نزول بني مَرِينَ أعزَّهم الله بمحَلّتِهم على نحو ثمانية أميال من مِكْناسة، فدبَّر ابنُ وانودينَ وَجْه الحِيلة في الوصُول إليهم والهجوم في ذلك الموضع عليهم معَ بعض أُناس من ناسِه، فأسرَعَ فيما دبَّر وشَرَع، فنهَض مُسرعًا مع العسكريِّينَ والموحِّدينَ والعَرَب والمتجنِّدين، فتأهَّب بنو عبد الحقّ وبنو مَرين لقتالهم، واستعَدّوا لحربِهم ونزالِـهم، فلمّا اصْطَفَّت الصَّفّان، واجتَمَعت الجَمْعان، للضّرب والطِّعان، دُفِعت الأجنادُ في خَيْل بني حَمامةَ لتقديرِهم أنّ بني عسكر والعَرَبَ يُدفَعونَ معَهم عليهم، فأسلَمَهم بنو عسكرٍ إليهم، فصَدَقَ لبني حَمامةَ الدّفاع، وكشَفَت الحربُ القِناع، فتحكَّموا فيهم بالأسِنّة والـمَشْرفيّة كيف شاءوا وكما أرادوا، وقَتَلوا منَ الموحِّدينَ وغيرِهم جُملةً كبيرة، وأكثرُ من قُتل في المعركة أجنادُ النّصارى، الذين خَلَصوا منَ القتل معَ أبي ضَرْبةَ وانهزَموا، ثم الآنَ للقتال عادوا، فأهلَكَهم اللهُ وبادوا، ووقَعَت

(١) هكذا في الأصل مع أن الجادة «وظائف» لأنها ممنوعة من الصرف.

الهزيمةُ على ابن وانودينَ ومَن بقِيَ معَه من الموحِّدين، وتفرَّق جميعُ أهل العسكر، منَ العَرَب وبني عسكر، ودخَل ابنُ وانودين إلى مِكْناسةَ مطرودًا إليها، ووصَل بنو مَرِين إلى محلَّتِه فاستولَوْا عليها واحتوَوْا على جميع ما كان بها من دوابَّ وأسبابٍ وأخبِية وأمتِعةٍ وغيرِ ذلك منَ الأشياء الخِفَاف والثِّقال، ولم يترُكوا لأحد فيها ما يُساوي العِقال، ثم خَرج ابنُ وانودين من مِكْناسةَ في اللّيل معَ جُملة من الخَيْل ومعَ ابنه أبي زكريّا يحيى، فقصَدَ إلى قصر عبد الكريم حيث كان أولادُه وعِيالُه، فانحصَر فيه معَ أهله ورجالِه، وكان معَه أيضًا محصورًا في القصر، أبو عثمانَ سعيدُ بن نَصْر (١).

وكانت مدّةُ إقامة ابن وانودينَ في الغَرْب في ولايتِه فيه سنتَيْن اثنتَيْن أو نحوَ ذلك، وكان وُلاةُ أهل تلك البلاد وعُمّالُهم يُخاطبونَ الرَّشيد ويَشرَحُونَ له أمورَهم معَه وأحوالَهم حتّى أسنَدوا عنه أنه يقومُ في تلك البلاد الغَرْبية لِـما ظَهَرَ له فيها من الاستعدادِ والاستبداد وأنه يفعَلُ مثلَ ما فعَلَ أبو زكريّا الحَفْصيُّ في البلاد الإفريقيّة. وقيل: إنّ الرَّشيدَ اتّهمَه بذلك؛ لأنه كان يترُكُ عِيالَه بعضَ الأشهُر بسَبْتةَ مُستوطِنينَ، وكان بينَه وبينَ عَرَب إفريقيّةَ مُكاتَباتٌ كان الرَّشيدُ أمَرَ له بها، فما كان من أحد يُخفيها، فلمّا قيل له: إنّ الرَّشيدَ صَدَّق ما قيل له عليه وما كُتِب فيه إليه، خَرج من القَصْر في نحو خمسينَ فارسًا معَ رجالِه وبَنيه وعِياله آخِذًا على طريق المعدِن قاصدًا إلى جبالِه فتَبِعه بعضُ خيل من بني مَرِين فحارَبَهم وتخَلَّص منهم، فما زال يجُدُّ السَّيرَ ليلَه ونهارَه، إلى أنْ وصَل جبلَه، وحينَئذٍ استقرَّ قرارَه.

فزاد بنو مَرين بهزيمتِه وبما كان منَ استيلائهم على محلَّتِه في الغَرْب عُلوًّا وظُهورًا، إذ ما زالوا فيه ظاهرينَ وبأعدائهم ظافرين، واستَولَى أيضًا بنو مَرِينَ بعدَ تلك الكائنة على ما كان بجهة القَصْر من عَرَب رِيَاح إثْرَ تلك الهزيمة، وغنِموهم غنيمةً عظيمة. والأميرُ المعظَّم أبو معرّف ابن عبد الحقِّ انقاد له جميعُ القبائل الـمَرينيّة وبعضُ الغُماريّة وبعضُ القبائل الـمَغربيّة، فكان بنو مَرِين يجُولونَ في تلك البلاد ولا مدافعَ لهم لقتالٍ ولا جِلاد، ثم كانت بينَهم وبينَ الرَّشيد مُهادَنات ومُراسَلات. وأمّا ابنُ وانودين فبقِيَ في جَبَله حتى بَرِئت ساحتُه ممّا ذُكِر عنه وقُبِل العُذرُ منه وعاد إلى مَرّاكُش مكرَّمًا معظَّمًا، وسأذكُر أخبارَه في دولة الإمارة الـمُعتضِديّة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٦.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ سبع وثلاثينَ، في أوائل ربيع الآخِرِ منها: وصَل الأُسطولُ من تونُس إلى مَرْسَى قَرْطاجَنّة، وصَل فيها وُفودُ أهل شرق الأندَلس المتوجِّهونَ بالبَيْعات، وصَادَف وصُولُها اضطرابَ الأمور على الأمير أبي جميل زَيّانَ بن مُرْدنيش والألسِنةُ قائلة والخَواطر جائلة، فسكَّن بعضَ التسكين وهدَّنَ بعضَ التهدين، ووصَلتِ المخاطبةُ منَ الأمير أبي زكريّا إلى مُرْسِيَة وشاطِبة وأورِيُولةَ ولُورْقَة وجزيرة شُقْر وفيها ذكرُ ولاية الأمير أبي جميل على شرقِ الأندَلس، وتواريخُها: عاشرُ صَفَر من سنة سبع المذكورة[١].

وفي السابعَ عشَرَ لـجُمادى الأولى من السنة: خَرج أبو جميل زَيّانُ من مُرْسِيَةَ لـمّا استَشعرَ من أهلها الـمَيْل منهم إلى بهاءِ الدّولة ابن هُود، ودخَلها ابنُ هود مُجاولةَ ابن عصام[٢] صاحب أُورِيُولة. وكان لـمّا قام أهلُ مُرسِيَة على سُلطانهم ابن خَطّاب ونكَثوا عليه وقَتلوه خاطَبوا الأميرَ أبا زكريّا صاحبَ تونُس وكتَبوا له ببيعتِهم.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ سبع وثلاثين: كانت مبايعةُ الأمير أبي عبد الله ابنِ الأحمر للرَّشيد، وأخْذُ البيعةِ له على أهل غَرْناطةَ ومالَقة وجَيَّان وسائرِ البلاد التي كانت تحتَ طاعته، فوصلَتْه الـمُخاطباتُ الرَّشيديّة بالشُّكر له على مُبادرته[٣].

وفي سنة ثمانٍ وثلاثينَ وست مئة: توسَّعتِ الأحوال وامتدّتِ الآمال، ونزَلَت الأمطار في تلك الأقطار، وظَهَرت الخَيْراتُ في كل الجِهات، وحُرِثتِ البلاد، وأفاضَ اللهُ على عبادِه خيرَه المعتاد، وذهَب ما كان من بقايا الجُوع وأُمِن الـمَرُوع، ورَخُصت الأسعار وبُنِيت الدِّيار، فإنّها كانت قد خَرِبت ودَثَرت بالأزمنة آثارُها، وامتَحَت من بعض الجهات رسومُها وقَرارُها، لا سيّما بمَرّاكُش، فقد كانت خَرِبت بكثرة الدّخلات ديارُها، فصارت في هذه السَّنة عامرةً مَبْنيّةَ الدُّور، وأميرُ المؤمنينَ بها في دَعَة وسرور، وخَراج موفور، وكانت البلادُ الغَرْبيّةُ أيضًا قد خَمَدت نيرانُها، إلى أنْ وصَل جميعُ بني عسكرٍ إلى مِكْناسةَ ونواحيها على ما أذكُرُه.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٥.

(٢) في ك: «عاصم».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

وفي هذه السنة: وصَل إلى مِكناسةَ وجهاتها كافّة بني عَسْكر، مُستمِدِّين من عَرَب المعقِل أعظمَ عسكر، فأحْدَقوا بها من كلِّ ناحية، وخُيولُهم عليها رائحةٌ وغادية، وذلك بسبب فتنةٍ كانت بينَهم وبينَ بني حَمَامةَ، أُولي التقدُّم[1] عليهم والزَّعامة، وكان أهلُ مِكْناسةَ قد وَثِقوا منهم، لِـما كان يصدُر لهم من الخَيْر عنهم، منَ الصِّدق والوفاء، والاحترام لتلك الجهاتِ والأنحاء، وقد كانوا وافقوهم بمالٍ معلوم في العام يُعطونَهم عليها، فوصَل الآنَ العسكريُّونَ إليها، فضاقَ أهلُها بهم ذَرْعًا، وتيقَّنوا استئصالَ أموالهم زَرْعًا وضَرْعًا، فبَعَثوا إليهم علماءهم وصُلحاءهم، راغبينَ في كفِّ عاديتهم عن أنحائهم، فما قَبِلوا لهم رغبة، ولا استشعَروا منَ الله سبحانَه فيهم مخافةً ولا رهبة، بل ألزَموهم أربعةَ آلاف دينار خِفارة، وكلٌّ منهم سَرَدَ سِنانَه وجرَّد شِفارَه، ولولا والي مِكْناسَة الذي أخَذَهم بالإرادة لأُضرِمت نيرانُهم، وتَوالى اضطرارُهم، وقَوِي بتلك الجهاتِ شيطانُهم، لكنْ بَنو حَمَامةَ بوفائهم وصَفائهم عَظُم سُلطانُهم.

وفي سنة تسع وثلاثين وست مئة: قَوِي أمرُ الأمير محمد بن يوسُف بن نَصْر ببَرِّ الأندَلس، وطاعت له أيضًا بعضُ بلادِها، وانقادَ له أكثرُ رؤسائها وأنجادِها، فقَوِيت شوكتُه بها، ولكنه يُظهِرُ أنه تحتَ طاعة الرَّشيد ومن ولايتِه، وأنه المجدِّدُ للدّولة الموحِّديّة بالأندَلس، وذلك من كفايتِه ودهائه ونَباهتِه، وكان وافرَ العقل والدّهاء، فقَنِع منه الرَّشيدُ بذكرِه إيّاه في الخُطَب والدّعاء.

ولـمّا توفِّيَ الرَّشيدُ في السنة الآتية بعدَ هذه المؤرَّخة ووَلِـيَ السّعيد، قَطَع دعوتَه وبايَعَ أبا زكريّا بن أبي حَفْص بتونُس، وتوجَّه ببيعتِه التونُسيّة أبو بكر ابنُ عيّاش شيخُ مالَقة وأبو جعفرٍ التنزوليّ، وبعَثَ إليه الأميرُ أبو زكريّا أموالًا كثيرةً برَسْم أن يستعينَ بها المسلمونَ على الجهاد، وكان قدِ انتقَلت حالتُه بغَرْناطةَ عمّا كانت عليه، فلم يقفْ على عَيْن ما وَجَّه الحَفْصيُّ إليه، وقَوِيت عِمارةُ غَرْناطة، فأراد أن يُكبِّرَ جامعَها ويزيدَ فيه، فحلَفَ للقاضي محمدِ بن عِياض أنّ مالَ صاحبِ تونُس باق، إشارةً إلى التوفية، وكان يَكتُبُ بخطِّ يدِه الـمَجَابي، ولا يَسرِقُ في الإنفاق ولا يُحابي.

---

(١) في ق، ك: «التقديم».

وفي هذه السنة: كان مقتَلُ السيِّد أبي حَفْص معَ الموماني بمَرّاكُش[1]، وذلك أنّ الخليفةَ الرّشيدَ كان قد وَلّاه ولايةً عظيمة وأمَرَه بالخروج بالعَسْكر إلى جهة هسكورةَ وغيرِها، وكان الموماني من أجلِّ الكُتّاب وله مَرتَبةٌ عندَ الرَّشيد وحُظوة، يأمُرُ له في المواسِم والأعياد بجَزيل الخيرِ والإحسان، وكان يَنظُرُ بزَعْمِه في عِلم الـحَدَثان[2]، فحدَّثَتْه نفسُه الكاذبةُ بما آلَ أمرُه فيه إلى السّيفِ وسُوءِ العاقبة، فمِن حِرمانه وفُجور حَدَثانِه: أنه كتَبَ براءةً بخطِّ يدِه يُهنِّئُ فيها السيِّدَ أبا حفص بولايته، وأنّها إن شاء اللهُ ابتداءٌ لخلافة تكون، أو كلامٌ يدُلُّ على هذا، وأمَرَ رسُولَه أن يدفَعَ تلك البراءةَ بباب السَّرّاجِين القديم الذي كان بمقرُبة من جامع الكتُبِيِّينَ من سُور الحَجَر، فغَلِط الرسُولُ المذكور ودفَعَ البراءةَ المذكورةَ بباب السَّرّاجِين الذي هو الآنَ يُعرَفُ بباب القَرّاقِين، فأخَذها القائدُ أبو المِسْك ودَفَعها من حينه للرَّشيد، فكان في الحين مشغولًا فلم يقرَأْها ولم ينظُرْ إليها، وظَنَّ أنه يطلُبُ منه عادتَه معَه في المواسِم، وكان ذلك ليلةَ سبع وعشرينَ من رمضان، وقد بعَثَ له العادةَ فاستشغَلَه ولم يُعرِّجْ على بطاقتِه، فلمّا وصَله رسُولُه وأخبرَه أنه دفعَها بذلك الباب قامت قيامتُه واستعجلَتْه منيّتُه، فكتَبَ براءةً ثانيةً يستعذرُ له ويَستعطِفُه فيها، فلمّا وصَلت إلى الرَّشيد قرأَها وعَلِم ما فيها، فطلَبَ البراءةَ الأُولى، فلمّا قرأها أمَرَ بقتل الموماني البائس والسيِّد أبي حَفْص من حينِهما، فذُكِر أنّ السيّدَ المذكور حين استدعاه الموكَّلُ به خَرج إليه في دَرّاعة فطلَّعه بها إلى القَصَبة ولم يُمهِلْه يرجِعُ إلى داره ليَلبَسَ ثيابَه، فعندَ وصُوله كان آخرَ العهد به، وكذلك الموماني حين حُمِل أمَرَ الزَّمّالةَ أن يَضرِبوه بالـمَياجِم على الرأس، فكان ذلك واللهُ يَقِي ويعصِمُ بمنِّه، ولم أتحقَّقْ تاريخَ هذه المسألة هل كانت في هذه السنة أو في التي قبلَها[3].

---

(1) تفاصيل ذلك في الذيل لابن عبد الملك ٥/ ٢٥٠-٢٥١ وتعليقنا هناك.

(2) الحدثان، كهذيان: مصطلح يستعمل على معنى التنبؤ بالمستقبل يتنبأه العرّاف أو الفلكي أو الكاهن، كما في معجمات اللغة.

(3) في أعلام مالقة: «ووصل مالقة خبر موته في أوائل ذي قعدة عام ثمانية وثلاثين وست مئة» (الترجمة ٥١).

وفي سنة أربعينَ وست مئة: توفِّي الرشيدُ رحمه الله، وذلك أنه لـمّا استقامَتِ الأحوالُ للرَّشيد، بعدَما جَدَّد دولةَ الموحِّدين ووصَلَه منهم القريبُ والبعيد، وأجلَى جميعَ الخُلَّط إلى السُّوس، وتهدَّنتِ النفوس، وتمهَّدتِ البلاد، واشتَغل الناسُ بمَرّاكُش في الرِّياضات بالنَّزاهات، استَعمل الرّشيدُ سُكناه برِياض تدفق وبنَى حولَه سَقائفَ للموحِّدينَ والمشتغلين والوَقّافِين والرُّقّاب والـحُجّاب، وأمَرَ ببناءِ الدِّيار هنالك للمقرَّبين من خَدَمتِه وأرباب دولتِه، فلمّا قدَّر اللهُ بحَيْن وفاتِه وانقضاءِ مدّة حياتِه دخَل في زَوْرَق في الصِّهريج في الرِّياض الكبير المذكور معَ بعض جَواريه برَسْم التنزُّه، فانقَلَب بهم الزَّورَق، فقيل: إنه مات من حينه، وقيل: إنه طَلَعَ منه محمومًا فنُقل إلى قصره، وذلك في يوم الثلاثاء السابع من جُمادى الآخِرة من هذه السَّنة المؤرَّخة، وبعدَ ثلاثة أيام توفِّي.

وأخبَرني أيضًا بوفاته أبو عِمرانَ ابنُ تيجا، قال: أخبَرني أبو وكيل ميمونُ بن سَعادةَ حاجبُه قال: حضرتُ لوفاة سيِّدنا الرَّشيد، وذلك أنه دخَل في الزَّورق في الصِّهريج برَسْم التفريج في ليلةٍ باردة، فأصابَتْه فيها نَزْلةٌ عظيمة، وكان على راحة معتَمًّا بعمامةٍ فلمّا أزالَها حُمَّ من حينِه فأُخرج من الزَّورَق ورُفع إلى قصرِه فانقضَى أمدُه في يوم الجُمُعة العاشرِ لجُمادى الأُولى من سنة أربعينَ المذكورة(١).

ذكرُ بيعة أبي الـحَسَن المعتضِد بالله المدعوِّ بالسَّعيد ونُـبَذٍ من أخبارِه(٢)

هو: أبو الحَسَن عليُّ بن أبي العُلى إدريسَ بن أبي يوسُف يعقوبَ المنصور ابن أبي يعقوبَ يوسُفَ بن عبد المؤمن.

بُويعَ يومَ وفاة أخيه في العاشرِ لجُمادى الآخِرة، وتوفِّي يومَ الثلاثاء مُنسَلَخ صَفَر من عام ستة وأربعينَ، فكانت خلافتُه خمسةَ أعوام وثمانيةَ أشهر وخمسينَ يومًا.

ولقِّب لقبَيْن(٣): المعتضدَ والسَّعيد.

وُزَراؤه: أبو زكريّا ابن عَطّوش، والسيِّد أبو إسحاقَ ابنُ السيِّد أبي إبراهيم.

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٤.

(٢) ترجمته في تاريخ الإسلام ١٤/ ٥٥٢، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠٩.

(٣) في م: «لقبان» ولا تستقيم.

وكتَبَ له: أبو الحَسَن الرُّعَيْنيّ، وأبو عبد الله التِّلِمْسانيّ.

ومن خواصِّه: أبو محمد العراقيُّ والقيجاطيُّ وأبو زَيْد ابن البَقّة ناظرٌ في أشغالِه وأحوالِه.

ولـمّا اجتمعَ أهلُ العَقْد والحَلّ من أشياخ الموحِّدين يتفاوَضُونَ في تقديم مَن يجبُ تقديمُه للخلافة من بعدِ الرَّشيد، واجتَمع أيضًا السادةُ من بني عبد المؤمن في بيت القَرابة وفي جُملتِهم السيِّد أبو الحَسَن المذكور، وكان أسمرَ اللّون ذا سَطْوة ومَهابة، فلم يَذكُرْه أحدٌ منهم، فأراد بعضُهم تقديمَ وَلَد الرَّشيد كما قُدِّم أبوه صغيرًا، وقال آخَرون: قد أُعيينا من تقدُّم الصِّبيان علينا، يَعْنُونَ يوسُفَ المستنصِرَ ويحيى أخاه[1] والرَّشيد، وكان أبو الحَسَن المذكورُ في أثناءِ ذلك في قَلَق عظيم من ذلك حتى قال لـمَن قال: لئن لم يُبرِموا هذا الأمرَ وإلّا أبرَموه بغيرِ اختيارِهم، فقيل: إنّ أبا محمد عبدَ الله بن وانودين ترَكَ مفاوضةَ أشياخ الموحِّدين وقام إلى السيِّد أبي الحَسَن فأخَذ بيدِه وأقعَدَه في موضع قُعود الخُلفاءِ أسلافِه، وبايَعه ابنُ وانودينَ المذكور، ثم تَتَابَعت بيعةُ القَرابة والموحِّدينَ إليه، وبعدَ ذلك استَوفَت البيعاتُ عليه.

ولـمّا أقعَدَته الخلافة في محلِّها وزيَّنته بحُلَلِها وحَلْيِها، قَبَض على جُملة من الموحِّدين أهل رَبْطِها وحَلِّها، الكارهينَ لخلافته، الخائفينَ من سَطْوته ومَهابته، فسَجَنَهم وأغْرَمَهم أموالًا، وحبَس أُمَّ الرَّشيد وأغْرَمَها مالًا، وضَرَبَ ابنَ سعادةَ شيخَ العَبيد في أيام الرَّشيد نحوَ ألفِ سَوْط على كلام قاله في جانبِه قَبْلَ ذلك ووصَلَه، فلم يُقدِّر اللهُ بموتِه في ذلك الحال، وقيل: إنه على ما ذُكِر قال: لا بدَّ أجعَلُه يمشي قُدّام أخيه بأوصال.

وكان جُلُّ عَرَب السّعيد عَرَبَ الخُلَّط استَخلَصَهم لنفسِه، وقَرَّبهم بعدَما استَدعاهم من السُّوس وغيرِه وجَلَبَهم، وكان له من أجنادِ النّصارى الذين جَلَبَ أبوه جَمْعٌ كبير، وتَرَكَهم بمَرّاكُش في كنيستِهم وناقوسِهم وأمضَى ذلك لهم.

وخالَفَ عليه بسَبْتَةَ أبو عليٍّ ابن خِلَاص البَلَنْسيُّ، وبايَعَ للأمير أبي زكريّا الحَفْصي، وخالَفَ عليه بسِجِلْماسةَ عبدُ الله بن زكريّا الهزرجيُّ، وكتَبَ بيعتَه للأمير أبي زكريّا المذكور،

---

(١) في م: «أخيه» ولا تستقيم.

فأطلَقَ يدَه هنالك على جميع الأمور، فضَرَبَ السِّكَكَ الأميريَّةَ السِّجِلماسيّة، وأعطى المالَ للعُربان، فأتَتْه من كلِّ مكان، وسأذكُر خبرَه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

وسببُ نِفاق عبد الله بن زكريّا الـهَزْرَجيِّ على السَّعيد أنه كان واليًا على سِجِلْماسَة من قِبَل الرَّشيد، فبَلَغ السّعيدَ عنه حينَ وفاة أخيه أنه قال: كيف أُبايِعُ أسودَ حبَشيًّا؟ فسَرَّها السَّعيدُ في نفسِه إلى أنْ خاطَبَه عبدُ الله المذكور بخِطابه يَستعطِفُه فيه ويُبدي له خلافَ ما ذُكِر عنه أنه خَرج على فيه، فكان الجوابُ على ظهر الكتاب: قد وعَتْها أُذُنٌ واعية، وخَرج في توقيعِه للكتاب: فلْيُمزَّقْ كتابُه تمزيقًا ويُبعَثْ به إليه سريعًا، فلمّا وصَل ذلك إلى ابن زكريّا حينَئذٍ خَطَب للأمير ابن زكريّا كما ذكرتُه[1].

وفي هذه السنة: بعَثَ أبو يحيى يَغْمراسَن بجُملة من الفُرسان إلى أبي الحَسَن السَّعيد بهديّة من عندِه فيها جُملةٌ من الخُيول العِتاق، وفي جُملة من الدَّرق، وعاهَدَه على قتال بني مَرِين وأن يأخُذهم بعساكرِهم من الجانبَيْن، فأبَى اللهُ ذلك بل مكَّن لهم في الأرض، وأهَّلَهم لإقامة السُّنّة والفَرْض، وكان الأميرُ أبو زكريّا لـمّا سَمِع بموت الرَّشيد وتقديم السَّعيد ومخالفة مَن خالَفَ عليه وبالهديّة التي بَعَثَ يَغْمراسَن إليه، طَمِع في بلاد الغَرْب فأخَذ في الحركة إلى تِلِمْسانَ على ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

اختصارُ الـخَبَر عن حركة الأمير أبي زكريّا إلى تِلِمْسانَ لمحاربة يَغمراسَن بن زَيّان وفَتْحِه إيّاها حينَ وصُوله إليها ثم تقديمِه ليَغْمراسَن بعدَ ذلك عليها

وذلك أنه لـمّا اتّصَل بالأمير أبي زكريّا بتونُس مصالحةُ السَّعيد معَ أبي يحيى يَغْمراسَن صاحبِ تِلِمْسان، خاف أن يصالحَ أيضًا للأمير أبي يحيى بن عبد الحقّ ويتحرَّكَ معَهم إلى بلاد إفريقيّة. وكان السّعيدُ بزَعامتِه وشَهامتِه يُحدِّثُ نفسَه وناسَه بذلك، فأخَذ الأميرُ أبو زكريّا بالعَزْم والحَزْم وجَمَعَ الأجناد وحشَدَ الأحشاد واستَوْفَت عليه العُربان من كلِّ جهةٍ ومكان مِن أقاصي بلاد إفريقيّة، فوصَلَه منها كلُّ قاصٍ ودان، وخَرج من تونُس بجيوش وافرة وجُموع عظيمةٍ متكاثِرة في أواخرِ سنة أربعينَ المؤرَّخة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

وذُكِر أنه اجتَمع في تلك المحَلّة المنصورة من الرُّماة الأندَلسيِّين والإفريقيِّينَ والغربيِّينَ ما نَيَّف على عشَرة آلاف بين فُرسان ورجال يَرمُونَ كلُّهم بالنِّبال، وكانت محلّةُ العَرَب مقسَّمةً كلُّ أمير بمَحَلّتِه وجماعتِه وجُملتِه يرحَلونَ قومًا بعدَ قوم ويومًا بعدَ يوم لأجْل قلّة الماء في تلك الجهات والأنحاء، وتَمادَى المشيُ هكذا إلى أن وصَل إلى تِلِمْسانَ بعساكرَ كالطُّوفان، فلمّا وصَل إليها ونزَلَ بمحَلّاتِه عليها أمَرَ لكلِّ مَن يَرمي بالنِّبال، أن يُذيقَ أهلَها بالرّمي أشدَّ وَبال، فلم يَخرُج أحدٌ إليهم من أهل تِلِمْسان لقتالٍ ولا غيرِه من إدبارٍ وإقبال، من كثرة النَّبْل[١] المرسلة عليهم الوابِلة إليهم، حتى لقد قيل: إنّ فرُّوجًا حصَل فيه جُملةٌ منَ النِّبال، فلقد كانت مثلَ سحائب الأمطار، ولم يطُلْ عليهم ذلك الحصارُ إلا ثمانيةَ أيام وما اشتدَّ فيها القتالُ والرّميُ بالنِّبال إلّا يومٌ واحدٌ من تلك الأيام تأهَّب الناسُ فيه بجُموعِهم ولبِسوا دروعَهم، فكانت تلك الدّروع، كالشّمس في الشّروق واللُّموع.

ويَغْمراسَنُ إذ ذاك محصورٌ في المدينة يُبصِرُ من داخلها لأهل المحَلّة وخَيْلها ورَجْلها، وكان يظُنُّ أنْ لا مُنازعَ له ولا من يقفُ قِبَلَه إلى أنْ رأى ما لا طاقةَ له به من كثرة المحَلّاتِ النازلة عليه الواصِلة[٢] برَسْم القتال عليه فدبَّر في نفسِه حِيلةً يعمَلُها، فعمِلَها لـمّا دبَّرها. وذلك أنه خَرج من تِلِمْسان معَ أهله وعِياله وبعضِ خَيْله ورِجاله، وشَقَّ ما بينَ تلك الجُموع والعساكر، وفعَلَ في ذلك بزعامتِه وشَهامته فَعْلةً ما يقدِرُ أحدٌ أن يفعلَها، وذُكر عنه أنه ترَكَ بتِلِمْسانَ امرأةً له فعاد بسببِها إليها وأخرَجها منها بنفسِه على بغلة، وقيل: إنه أردَفَها وخَرج بها.

ولـمّا سَمِع الأميرُ أبو زكريّا عن خروجِه من تِلِمْسان عَفَا عن أهلها ودخَلها واستَولَى عليها، ودخَلوا ثِقاتُه وأربابُ دولتِه إليها، فأقام الأميرُ أبو زكريّا بمحَلّته على تِلِمْسانَ على ما ذُكِر سبعةَ عشَرَ يومًا إلى أنْ رأى أبا يحيى يَغْمراسَنَ معَ جماعة كبيرة من إخوانه في أعلى الجَبَل فقال: هؤلاءِ نسورٌ على صُخور، ولـمّا تَفاوَضَ معَ أشياخ الموحِّدينَ

---

(١) في ق: «النِّبال».

(٢) سقطت من ق.

بعدَ ذلك في شخصٍ يولِّيه تِلِمْسان ويَترُكُه أميرًا هناكَ إلى أنْ وقَعَ رأيُه على تقديم صاحبِها عليها ورجوعِه معَ إخوانه إليها ليكونَ سَدًّا بينَ البلاد الإفريقيّة والغَرْبيّة، فوَلّاه الأميرُ أبو زكريّا مدينةَ تِلِمْسان وأقطارَها وجميعَ أنظارِها، فعاد يَغْمراسَنُ إلى تِلِمْسانَ معَ بني عبد الوادي إخوانِه وحَكَم تلك البلادَ كلَّها وَعْرَها وسَهْلَها بعدَ معاهدة ومعاقدة معَ الأمير أبي زكريّا وشروطٍ مشروطة ورُبوطٍ مربوطة، وعاد الأميرُ أبو زكريّا إلى بلاده معَ عساكرِه وأجنادِه وحصَلَ بمدينة تونُس حضرتِه بعدَ ثلاثة أشهر أو نحوِها في حركته إلى حين أَوْبتِه، فلمّا شاعَ خبرُ هذا الفتح بادَروا ببيعتِهم بعضَ بلاد الأندَلس وسَبْتَةَ ودخَلوا في طاعتِه.

وفي سنة إحدى وأربعينَ وست مئة: قَتل السَّعيدُ السيِّدَ عزوزًا زوجَ أُختِه عزّونةَ، وهي كانت سببًا في تجرُّعِه كأسَ مَنُونِه، فذُكر عنها أنها وجَدت عندَه براءةً أوقَفَت عليها أخاها فشكَرَها على ذلك وأرضاها، ولم يعلَمْ أحدٌ ما كان فيها غيرُها وأخيها، فلمّا وقَف على البراءةِ المذكورة أمَرَها بردِّها إلى الموضع الذي فيه أصابَتْها، فما عَلِم زوجُها أنها رأَتْها، ثُم أمَرَ بعدَ ذلك بثِقافِه بدار الإمارة، فلم يَعلَمْ أحدٌ أيَّ وقتٍ لقيَ حِمامَه.

ومن أخبار عبد الله بن زكريّا الـهَزْرَجيِّ الثائرِ بسِجِلماسَة

لـمّا استبَدَّ فيها بأمرِه وانقادَ له أهلُ تلك الجهات والأنحاء، ووصَلتْه العَرَبُ من جهة الصّحراء، وفَوَّض له الأمورَ في تلك الجهاتِ الأميرُ أبو زكريّا الحَفصيُّ الـهَنْتاتيُّ وأطمَعَه في استمدادِه بأموالٍ وزيادة، ودَعا له في الخُطبة بسِجِلماسةَ المذكورة، فلمّا شاعَتْ في البلاد أخبارُه ونِفاقُه، وصَحَّ عندَ السَّعيد والموحِّدينَ خلافُه وشِقاقُه، هَجَست نفوسُ بعض الموحِّدينَ للفِرار إليه والقدوم عليه لأجْل خوفِهم الشّديد من سَطْوة السَّعيد، القريب منهم والبعيد، فلمّا ظَهَر لأبي زَيْد عبدِ الرّحمن بن أبي زكريّا الجدميويِّ ولأخيه أبي عثمانَ ما ظَهَرَ لهما من تغيُّر السُّلطان السَّعيد عليهما، أشارَ عليه أبو زيد، أعني على أخيه أبي عثمان، بالفِرار من مَرّاكُش والانتقال، وقال له أشياءَ كانت خَفِيّةً عنه، فما سُمِع له مقال، فتوافَقَ أبو زيدٍ المذكورُ معَ ابن واجاج وأبي سعيد العُود الرَّطب الـهَنْتاتيّ على الفِرار من مَرّاكُش إلى سِجِلماسَة وتَواعَدوا ليوم معلوم، ووافَقَ أبو زيد لقاعد معَ

جماعة من الرُّوم، وكان السَّعيدُ شَرعَ في الحركة إلى بلاد الغَرْب برَسْم حربِ بني مَرِين وكانت محلَّتُه على تانسيفت[1].

فلمّا خَرج السّعيدُ من مَرّاكُش إلى محلّتِه برَسْم حركتِه قَبَض هنالك على سعيد بن زكريّا واعتَقَلَه، وإلى مدينة فاسَ حمَلَه، وفيها قتَلَه بعدَما استصفَى بمَرّاكُش جميعَ أموالِه وأحوالِه[2]، وفرَّ أخوه أبو زَيْد معَ أصحابِه وأخَذوا طريقَ دَرْعةَ، فخَرجَ عليهم في طريقِهم بنو يُعَزّ[3] وأكَلوهم بتعجيل وسرعة، ولم يترُكوا لهم سببًا من الأسباب، لا دوابَّ ولا سلاحًا ولا قماشًا إلا ما ستَرَهم من الأثواب، ثم فَرَّ ثلاثتُهم من بني يُعَزّ ومعَهم دابّةٌ واحدة يتداولونَها وجماعةٌ منَ النّصارى، فتوجَّهوا باللّيل حَيارى، فضَلّوا الطريقَ وجَهِلوه، وقَعَدوا ذاتَ يوم في موضع وصَلوا إليه فنزَلوه، فبينَا هم كذلك ليس فيهم من كثرة الخَوْف والجَزَع من يَفهَم ولا يَعقِل، إذْ أقبَلَت عليهم جموعٌ من عَرَب المعقِل، فبادَرَ إليهم أبو زيد بنُ زكريّا بالسلام، فرَدّوا عليه ووقَعَ بينَهمُ الكلام، فقال لهم: يا معشَرَ العَرَب، قد بلَغتُمُ الأرَب، احبِسونا في عشَرة آلاف دينار نؤدّوها، وفي أقربِ وقت إليكم نَعُدُّوها، وكان غَرَضُ العَرَب في الرُّوم يقتلونَهم ولا يتركونَهم، حتى سَمِعوا كلامَ أبي زَيْد، فيما ارتَبطَ معَهم واشتَرط لهم من المال، فحَملوهم إلى خيامِهم وبالَغوا في إطعامِهم وإكرامِهم، وقالوا بلسان حالِـهم: هذه غنيمةٌ باردة، وأُمنيةٌ علينا واردة، وكانوا وافَقوهم على ثلاثة أيام عدَدًا. فلمّا نفَذَ الأمد، وطلَبوا أبا زيد فيما به وعَد، فقال لهم: إيتوني بشُقَف أو عَظْم، فأتَوْه بكَتِف بعير كتَبَ فيه لخازن المال بسِجِلماسةَ اليهوديِّ المسَمّى بابن شلوخةَ أنْ يدفَع لحامل الأحرف إليه عشَرةَ آلاف دينار من الدّنانير العَشْريّة السِّجِلماسيّة ساعةَ وقوفِه عليها، وكتَبَ عبدُ الرّحمن بن زكريّا.

فلمّا وصَل العَرَبيُّ بالبراءة إلى سِجِلْماسةَ سأَلَ عن اليهوديِّ المذكور فعُرِّف له فدفَعَ له البراءة، وقال له: أعطِني ما فيها قبلَ أن تُتمَّها بالقراءة، فقال له: نعَمْ، أهلًا وسهلًا

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

(٣) الضبط من ق.

بك يا أخا العَرَب، وتوجَّه معَه إلى صاحبِ سِجِلْماسةَ فعرَّفه بما طلَب، فمَثُل بين يديه، وأخبَره بما جاء فيه وإليه، فقابَلَه بالإكرام وأمَرَ له بالطّعام، وقال لليهوديّ: أحضِرْ له مالَه، وبقيَ عبدُ الله بنُ زكريّا يسألُه ويَختبرُ مقالَه، إلى أنْ قال له: أنا راجِل فلان ابن فلان، فقال له: ما يأخُذ المالَ إلّا من يستحقُّه من أشياخ العُربان، فصرَفه وراءَ شيوخِه، وقصْدُه أن يحصُلوا في فُخوخِه، فانصَرفَ العَرَبيُّ ووصَلَهم، وعرَّفهم منَ القول بما عَرَّفهم، وقال لهم: إنْ أردتُم مالَكم فتمشُونَ إلى سِجِلْماسةَ، فيها تَبلُغون آمالَكم، فتوجَّهوا لسجِلْماسةَ قاصدين، وعلى ابن زكريّا وارِدين، فعندَ وصُولهم إليه وإقبالِـهم عليه، قال لهم: أخذتُم إخوانَنا وأجنادَنا وكانوا قاصِدين إلينا ووافدين علينا، لن تَبرَحوا من هنا حتّى يَصِلوا إلينا[1]، فما كان إلّا أيامٌ قلائل حتّى وَصَلوا إليه فأكرَمَهم ورفَعَ شأنَهم ومكانَهم حين وَفَدوا عليه، ثم توجَّه منهم أبو سعيد إلى تونُس فتلقَّاه أميرُها أبو زكريّا بالبِرِّ والتكريم، ونال عندَه الخيرَ العميم، وبقيَ أبو زيد بسِجِلْماسةَ إلى أن كان من أمرِه ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ حركة السَّعيد إلى سِجِلْماسَة وظَفَرِه بالثائرِ عليه فيها عبد الله بن زكريّا الـهَزْرَجيّ

وذلك أنه لـمّا تفاقَم حالُ ابن زكريّا المذكور في تلك الجِهات ونِفاقُه على السَّعيدَ وشِقاقُه، وأظهَرَ الخلافَ والعِناد، وكتَّبَ الكتائبَ وجنَّد الأجناد، تحرَّك السَّعيدُ إليه وخَرج من مَرّاكُش باستعجالٍ وسرعة، وأخَذ على طريق دَرْعة، بعدَما قدَّم خيلًا ورَجْلًا لسدِّ تلك المسالك، لئلا يَسلُكَها سالك، ويتعرَّفَ ابنُ زكريّا بحركته، فيأخُذَ في حال أُهبتِه. وكان عبدُ الله بن وانودينَ أمَرَ إخوانَه بني يعز بقَطْع الطّريق هنالك، فما كان يَجُوزُه إلّا مَن رَمى بنفسِه في المهالك، وقدَّم السعيدُ مخاطباتِه إلى أشياخ سِجِلْماسةَ وظَهيرًا كريمًا بالاعتناءِ التامِّ والتكريم، فأظهرَ جَدَّه ونُصحَه أبو زيد بنُ أبي زكريّا الجدميويُّ في

(١) في ق، ك، ب: «لن تبرحون من هنا حتّى يصلون إلينا»، وقد كتبناها على الوجه، ومثل هذا كثير في هذا الكتاب ممّا لم نشر إليه.

تلك الأمور، وحاوَل محاولةً عظيمة معَ قُوّاد الرُّوم في أمر ابن زكريّا المذكور. فاستعمَل النّصارى شرًّا معَ بعض العَرَب بإزاءِ باب القَصَبة داخلًا وخارجًا ودخَلوا في السِّلاح، وقام الضّجيجُ في البلد والصِّياح، فعَلِم عبدُ الله المذكورُ أنها عليه أدارَه، فخَرَج على بابِ الغَدْر من القَصَبة ودخَلها أبو زيد الجدميويُّ معَ أشياخ سِجِلْماسةَ وشحَنوها بالرُّماة والرِّجال الحُماة، وخاطَبَ أبو زيد السَّعيدَ مُعلِمًا بالحال، وأنّ الطالبَ للمُحال، اضمَحلَّ حالُه وحال، وتوغَّل في الأوحال، فشَكَر السعيدُ لأبي زيد خِدمتَه ونصيحتَه، ونال عندَه خيرًا عظيمًا وعَفَا عنه فيما جَرى قبلَ ذلك منه.

وفي أثناءِ ذلك: قُبِضَ على عبد الله بن زكريّا واستاقَه بعضُ العَرَب إلى السّعيد مصفَّدًا في الحديد، فمثُل بينَ يدَيْه وقرَّر فعلَه عليه، فتكلَّم فيه أشياخُ الموحِّدين إلى أميرِهم، وذكَّروه ما كان من وصيّة الـمَهْديِّ إمامِهم على سَلَفِه لعبد المؤمن وبَنيه، وأن دماءهم حرامٌ عليهم، ولو وصَلوا بالضَّرر إليهم، فما سَمِع من مقالِـهم الذي قالوه، بل أمَرَ عليه بالقتل[1] فقَتلوه، وحُمِل رأسُه فعُلِّق على باب الكُحول، وقُرِعت بسببِه الطُّبول[2].

ورجَع السّعيدُ قبلَ وصُوله إلى سِجِلْماسةَ، ودخَل مَرّاكُشَ مع خاصّتِه وترَكَ أهلَ محلّته وجُملتِه يقفونَ على مَهَلٍ إثْرَه، ولم يَعلَمْ أحدٌ من الحضَر رجوعَه وصدرَه، لأنه دخَل قصرَه على غير أُهبةٍ للقائه، ولا معرِفة للناس بأنبائه، وذلك في سنة اثنتينِ وأربعينَ وست مئة.

وفي سنة اثنتين وأربعينَ وست مئة: توفِّي الأميرُ أبو معرّف محمدُ بن عبد الحقِّ رحمه الله، فكانت إمارتُه نحوَ ستة أعوام، وتقَدَّم بعدَه أخوه الأميرُ المعظَّم أبو يحيى بن عبد الحقّ، فبايَعه القبائلُ الـمَرينيّة وبعضُ الزَّناتيّةِ وبَنو وَرا وغيرُهم من القبائل الغَرْبيّة، وانقادوا لأمرِه بالسَّمع والطاعة، وبايَعُوه وشايَعُوه بالقُدرة منهم والاستطاعة، فعَظُم في الغَرْب وشاع فيه ذكرُه[3].

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٩٦.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٧، والاستقصا ٣/ ١٠.

وفي هذه السَّنة: تحرَّكَ السّعيدُ من حضرة مَرّاكُش قاصدًا البلادَ الغَرْبيّة ومتفقِّدًا لأشغالها وأعمالِـها ومستعدًّا لحَرْب العساكر الـمَرِينيّة وقتالِـها، فتمادَى مشيُه من حضرتِه على العادة المعهودة لأَسْلافِه وأحلافِه في مَراحلِها المعلومة ومَنازِلها، إلى أنِ استقرَّ بمدينة فاسَ فتلوَّم بها أيامًا، فعزَلَ عن الأشغالِ أقوامًا، ووَلَّى آخرينَ على أشغالِـها، ونظَر في أمورِها وأحوالِـها، إلى أن تخلَّصت أشغالُه بكمالِـها، وقيل: إنه قَتَل سعيدَ بن زكريّا فيها.

وكان هذا أبو عثمان أحدَ أشياخ الموحِّدين الكُبَراءِ في طبقات الوُزراء، وقيل: إنّ قَتْلَه كان في السّنة الفارِطة قبلَ قَتْل عبد الله بن زكريّا، ورحَل من فاسَ بعساكرِه الموحِّدية إلى جهة الـمُقَرْمَديّة[1]، فنزَلَ بمحَلّتِه في أنحائها متعرِّفًا لأحوال بني مَرِينَ ولأنبائها، فكانت بينَه وبينَ الأمير أبي يحيى بن عبد الحقِّ مُهادنةٌ وأرسال، في مصالح الأحوال، فعاد من ذلك المنزلِ من غيرِ قتال، وقَفَل راحلًا إلى مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى[2].

وفي هذه السنة: أمَرَ السّعيدُ بسَجْن أبي محمد ابن وانودينَ أحدِ أشياخ الموحِّدينَ وعُظَمائها المتصرِّفينَ في الولاياتِ الكِبار والأعمال، فأمَرَ عليه واعتُقِل بأزمورَ بأعظم اعتقال، وسُجِن معه أبو زكريّا بنُ مُزاحم وأبو زكريّا بن عَطّوش، فسُجِنوا بها، وعُمِل عليهم عشَرةٌ من الرّجال إلى أنْ كان من أمرِهم ما أذكُرُه في السنة الآتية إن شاء اللهُ تعالى[3].

وفي سنة ثلاثٍ وأربعينَ وست مئة: صالَحَ الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن نَصْر ملِكَ قَشْتالةَ أذْفُونْشَ الأحوَلَ أخزاه اللهُ تعالى على بلاد المسلمينَ التي تحتَ طاعتِه وفي حِزبِه وجماعتِه مدةً من عشرينَ سنة، وأعطاهم في هذا السِّلم المذكور مدينةَ جَيّانَ وما والاها من الحصُون والمعاقل، وخَرج منها كلُّ مسلم عاقل، وسَكَن فيها آخرونَ معَ النَّصارى مُدجِّنين[4]، وكان أهلُ إشبيلِيَةَ لم يدخُلوا في هذا السِّلم المعقود، وكان

---

(١) الضبط من ق.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦، والاستقصا ٢/ ٢٤٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

(٤) في ق، ك: «مدخَلين» ولها وجه، أي: داخلين في السلم المعقود، على أنّ «مدجّنين» استعملت بكثرة في هذه الأعصر على المسلمين الذين عاشوا تحت سيطرة النّصارى يدفعون لهم ضريبة، كما في معجم دوزي وغيره.

أيضًا أهلُ شَرِيش لم يدخُلوا في هذا الصُّلح المنعقِد في هذا العام، لكنّهم صالَحُوهم على أنفسِهم بمالٍ معلوم في العام إلى أن أعطَوْهم القَصَبةَ وأشرَكوا المدينةَ معَهم ثم أخرَجوهم منها ووقَع النِّفاقُ بينَهم على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

وأمّا أهلُ شَرْق الأندَلس فسالَموهم بمالٍ معلوم أيضًا، وبعضُهم تدجَّنوا وأسكَنوا معَهم الرُّوم، وكان أيضًا أهلُ مُرْسِيَةَ لـمّا خَلَعوا أبا بكر ابنَ هود خليفتَهم وأخرَجوه من مدينتِهم، بادَرَ إلى الرُّوم الـمُجاوِرين إليها فأعطَوْه حِصنًا أسكَنوه فيه، فكان أشدَّ ضَرَرًا من الرُّوم على أهل مُرْسِيَة، حتّى نزَلوا بمحَلّتهم عليها إلى أن دخَلوها على ما أختَصِرُه إن شاء اللهُ عامَ اثنينِ وستينَ وست مئة حين وقَع النِّفاق بينَ المسلمينَ والنّصارى في أواخِر هذا الصُّلح المنعقِد في هذه السنة.

ذكرُ أخبار ابن وانودينَ وما كان من أمرِه وحالِه وفِرارِه من السِّجن بأزَمّورَ إلى جبالِه

وذلك أنّ هذا أبا محمد ابنَ وانودينَ كان من كبار الموحِّدين، وهُو الذي قدَّم السعيدَ بساعدِ جِدِّه، وأقعَدَه مقعدَ أبيه وجَدِّه، بعدَما جرَّد بعضُهم سيفَه من غِمدِه، إلى أن صارتِ الخلافةُ إليه، واجتَمَعت كلمةُ الموحِّدينَ عليه، فبَذَلَ أيضًا جِدَّه في توفِيَة خِدمتِه وتبليغ نصيحتِه، فلمّا كان في السّنة الفارِطة سَطَا عليه السعيدُ بسَطْوتِه، وامتحَنَه بأعظم محنتِه، وغَرَّبه في أَزَمُّور ليذوقَ مرارةَ غُربتِه، وفراقَ أهلِه وشيعتِه، فكان ذلك عندَه أعظمَ نكالِه، ولم يَعلَمْ أحدٌ من الوُزراءِ والكُبراءِ السببَ في اعتقالِه، فسَجَنَه ابنُ ماكْسِن بدُوَيْرة بإزائه، وجعَلَ عليه عشَرةً من رجالِه يحرُسُونَه في ليله ونهارِه، ويتسمَّعونَ من أخبارِه ومقالِه، وكان عليه كَبْلٌ ثقيل لا يَقدِرُ أن يتحرَّك من أجلِه لثِقَله، فدبَّر وجهَ الحِيلة في أمرِه وحالِه، ونظَر في كيفيّة فِرارِه إلى جبالِه، فاستَخلَصَ لنفسِه شخصًا من أولئك العشَرة المعيَّنِينَ للحَفْز عليه في ذلك المكان، وأفاضَ عليه وعليهم الإنعامَ والإحسان، حتّى تمكَّن منهم غايةَ الإمكان، وكان معَه بتلك الدُّوَيْرة أبو زكريّا ابنُ مُزاحم وأبو زكريّا ابنُ عَطّوش وكلُّ واحدٍ منهم في بيتِه.

وكان صاحبَ ابنِ وانودينَ الذي اتَّفق معَه ليدبِّر الحِيلةَ شخصٌ يقال له: ابنُ الـمُعَلِّمة، يتصرَّفُ إليه. ثم إنّ ابنَ وانودينَ بَلَغَه أنّ أبا الحَسَن يَعلُوَ يصلُ إلى أَزَمُّور، فخاف أن يكونَ وصُولُه برَسْم قتلِه أو حَمْلِه، فأعطَى لابن المعلمة خمسينَ دينارًا عَشْرِيّة فأعطَى منها لصاحبٍ له خُمَسَها برَسْم أن ييسِّرَ له في الوادي لبطيرةَ ينتظِرُه بها واشترى ببعضِها جَلّابيّةً، وكان عندَه أُخرى يَلبَسُها، وأشاع لأصحابِه أنّ يَعْلُوَ ما يصلُ إلّا بسَراح ابن وانودين، وجعَلَهم يطلُبونَ له البِشارةَ فأعطاهم من الدّنانير التي كانت عندَه أكثرَها ووعَدَهم بالإحسانِ إليهم والإنعام عليهم إذا مَنَّ اللهُ بسَراحِه، فاشتَغَلوا طولَ يومِهم بالأكل والشُّرب واللَّهوِ والطَّربِ إلى الليل، وكانت تلك اللّيلةُ مُظلمة، والمتصرِّفُ فيها ابنَ المعلمة، وكان مِفتاحُ بيتِ ابن وانودينَ بيدِه، وقد جَعَلَ فيه قُلّةً خاويةً وجَلّابيّةً وعليه الجَلّابيةُ الأُخرى قد لَبِسَها، وهو يدخُل ويَخرُج في التصرُّف مرةً بعدَ أخرى.

فلمّا نفِدَ لهمُ الزّيتُ وغيرُه قال لهم: أنا أسُوقُه إليكم، فدخَل البيتَ وألبَسَ ابنَ وانودين الجَلّابيةَ وأعطاه القُلّة، وقال له: اخرُجْ سريعًا، فخَرَج عليهم في الظّلام كأنه صاحبُهم وأكثرُهم رُقود، فخَرج ابنُ المعلمة في أثَرِه بجَلّابيّته وقُلّةٍ أخرى وقال لهم: كنتُ نسيتُ آنيةَ الزيت فرجَعْتُ برَسْمها وخرجتُ ودخَلتُ عليكم وأنتم رُقودٌ كلُّكم، فكنت مجرِّبًا لكم. وانصَرفَ، فلحِق بابن وانُودين فأطلَعَه اللبطيرة وأجاز به الوادي صاحبُه المتقدِّم ذكْرُه، وسترَ اللهُ ابنَ وانُودين تلك الليلةَ، وفي غدِها ظَهَر أمرُه، فخَرج ابنُ عَطّوش من بيته فلم يجدْ أحدًا، فعلم أنّ ابنَ وانُودين قد هرَبَ وعدا، فصَاح على الناس فأخبَرَهم بخبرِه وأنبَهَهم ما تعَدَّى، فكان ذلك سببًا في خروجه ونَيْله من أمرِه رَشَدًا.

وقيل: إنّ بعضَ الصُّلحاء الأخيار نفَعَ الله بهم أشاروا على ابن وانُودين أن يتصدَّق بدِيَتِه ألفَ دينار، وحينَئذٍ يشرَعُ في الفِرار.

ولـمّا حصَل ابنُ وانُودين في ضفّة الوادي مشَى مع صاحبَيْه، فكانا في بعض الطريق يرفَعانِه في أصلابِهما من مكان إلى مكان، إلى أن أصبح الصّباحُ وقد حصَلوا في الأمان، ثم وصَلوا إلى دواويرِ سفيان، فسألوا عن كانون، فقيل لهم: بالله لو كان ابنُ وانُودين فما كان يَخرُج الآن إليه، فكيف أن يَخرُجَ إليكم أو يسلِّم عليكم؟ لعلمِهم بمحبته في ابن وانُودين وصُحبته، فعرَّفوهم أنه هو المذكور، فخَرج إليه كانونُ وسُرَّ به غايةَ السرور، وكان

بينَهما مودّةٌ عظيمة وصحبةٌ قديمة، فأكرَمَه وأعطاه في الحين مئةً وخمسين من الفرسان متخيَّرة من عَرَب سُفيان فتوجَّهوا معه إلى مَرّاكُش، فوصَلَها ليلًا وضَربَ برُمْحِه في أحد أبوابها، وعرَّف بنفسِه للبوّاب الساكن على الباب وقال له: قل للسلطان ابن العَنْبر: ترى ابن وانُودين وصَل إلى جبله وقَرَّ في أمنع مكان، فيعمل ما شاءه من أعمالَه.

وحصَل ابنُ وانُودين مستقِرًّا في جباله، بعدَما خطَر على لجاغةَ وغيرِها وعرَّفهم بأمرِه وحاله، وأنذر من في تلك الجهات والأوطية من إخوانه الهنتاتيين ورجاله، وكان كانونُ قد أعطاه فرسًا لكونه من عِتاق خيله، وسلاحًا له ولصاحبيه في جُملةِ ما فَعَل من جميل فعلِه، فصَرف ابنُ وانُودين أيضًا أرسالَه بخير جزيل وبفعل جميل.

ولـمّا وصَل أبو الحسن يَعْلو إلى أزَمُّور ضَرب أرقابَ الرجال التسعة الحارسينَ له وعلَّق رؤوسَهم على السور، وأمَر السعيدَ بسَراح ابن عَطّوش وابن مُزاحم وأحسَن لابن عَطّوش واستوزَرَه بعد ذلك.

وفي أثناء ذلك بعَثَ السعيدُ لابن وانُودين عشَرةً من وجوه الموحِّدينَ معَ خاصّتِه مِزْوارَ الطَّلبة أبي محمد العراقيّ، فاجتَمعوا معَه بتامزاورتَ وبَلَّغوا له ما أمَرَهم به السَّعيدُ من القول الحَسَن وبزَوالِ ما كان في خاطرِه عليه، ونَقَلوا ذلك كلَّه إليه، فشَكَرَ ابنَ وانودين على ذلك وطلَبَ منه أن يكونَ سُكناه هنالك، يعني في جبالِه، بأولادِه وعِياله، فأسعَفَه السّعيدُ في مطلبِه ومذهبِه، وسَكَن بتيفنوتَ طُولَ حياته إلى حين[1] مماتِه.

ومن العجَب العجيب والاتّفاقِ الغريب أنه قَتَلَ السَّعيدَ وكانونَ وابنَ عطّوش في يوم واحد، ووَرَّخ موتَ ابن وانودينَ فوجَد موتَه قبلَهم بيوم واحد، وكان غَرَضُ السّعيد قَتْلَهم الثلاثة فقُتل السّعيدُ وكان ثالثَهم. وذكَرَ بعضُ العارفين بأخبار السَّعيدِ وأمرِه، مثلَ: الشّيخ الفقيه أبي عبد الله السَّرَقُسْطيِّ وغيرِه، أنه كان قد هَمَّ بقتل ابن وانودينَ مرارًا فكان ينهاه عبدُ العزيز الـمُنجِّمُ سرًّا وجَهارًا، فإنه كان ينظُر في علمِه ويقول: إنّ يومَك يكونُ بعدَ يومِه، فكان ذلك كذلك. وكان مولِدُ الفقيه أبي عبد الله السَّرَقُسْطيِّ بتيفنوتَ في عام أربعة وثلاثينَ وست مئة حين كان أبوه كاتبًا ليحيى ابن الناصِر ثم بعدَ ذلك لابن وانودين.

---

(١) سقطت من ق، ك.

اختصارُ الخبر عن حركة السَّعيد والموحِّدين إلى قتال الأمير أبي يحيى وبني مَرِين

وذلك أنه لـمّا اتَّصل بأبي الحَسَن السَّعيد خلافُ كانونَ عليه واتّفاقُه معَ الأمير أبي يحيى أن يكونَ مسيرُهما بكبيرِهما برَسْم القتالِ إليه، وأنّ بني مَرِين حَشَدوا حشودًا كثيرة في الغَرْب برَسْم القتال معَه والحَرْب، فخَرَج السّعيدُ من مدينة مَرّاكُش حضرتِه، على ما عُهِد من هيئتِه بعدَما أعطَى للموحِّدينَ بَرَكاتِهم، وللمتجنِّدين أُعطِياتِهم على جَرْي عادتِهم، وحشَدَ حشودًا من العُربان من بني جابِر والخُلْط وغيرِهم من الفُرسان. ولـمّا اجتَمَعت الحشُودُ عليه من كلِّ جهةٍ ومكان، تحرَّكَ بجيوشِه وعساكرِه على العادة المعروفة لأسلافِه الأُمراءِ من بني عبد المؤمن وترتيب الأشياخ والوُزراءِ والساداتِ الكُبَراء، وكان وزيراه يومَئذٍ: أبا زكريّا ابنَ عَطّوش الكُوميَّ والسيّدَ أبا إسحاقَ ابنَ الأمير الطّاهر أبي إبراهيم، وترَكَ أخاه أبا زَيْد بنَ أبي إبراهيم بمَرّاكُش نائبًا عنه وعِوَضًا منه، وكان أخوهما ثالثُهما أبو حَفْص عُمرُ الملقَّب حينَ خلافتِه الـمُرتضَى[1] واليًا على أغمات، وحضَر معَه في هذه الحركة كُتّابُه الجِلّة أبو الحَسَن الرُّعَيْنيّ وأبو زكريّا الفَازَازيُّ وأبو عبد الله التِّلِمْسانيّ، ومِزوارُ الطلبة أبو محمد العراقي، وأبو محمد القيجاطيّ[2].

وتَمادى مشْيُ الجميع إلى تامَسْنا، والأميرُ المعظَّم أبو يحيى هنالك بمقرُبة من واسنات، وبَنو مَرِين أعزَّهم اللهُ قدِ اجتَمَعت عليهم جموعٌ من بني راشِد الزَّناتيِّينَ والوراويِّين والسُّفيانيِّين، ونَزلوا بجموعِهم في تلك الجهاتِ والجَنَبات، واستعَدّوا للقتال معَ السّعيد والنِّزال، وتخيَّروا من فُرسانِهم الأبطالِ مَن يتشوَّفُ في تلك النواحي والأقطار، ويَطَّوَّفُ عليها لسَماع الأخبار. فلمّا وصَل السّعيدُ بمحَلّتِه إلى تلك الجهات بقُربٍ من واسنات، بادَرَ أكثرُ أهل العَسْكر للماءِ عندَ وصُولهم لشُرب دوابِّهم، فمنَعَهم بنو مَرِين من شُربِه فتَجالَدوا بالسُّيوف والرِّماح عليه، والأميرُ أبو يحيى على رَبْوةٍ ناشرٌ أعلامَه، والقتالُ على الماء بينَ الفريقَيْنِ أمامَه، إذ دفعَ قائدُ الرُّوم بجهلِهِ عليه، وأقبَلَ جَمْعُه الذّميمُ

---

(١) في ق، ك: «بالمرتضى».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦-٣٤٧، والاستقصا ٢/ ٢٤٧.

إليه، فأسرَع بنو مَرين إليهم، وانقضّوا عليهم، فقَتلوا أكثرَ جماعتِه الذّميمة، ورُفِعت على مَن خَلَص منَ القتال(1) منهم الهزيمة، وأخَذ بنو مَرِين علامَهم، وفَرَّ قائدُهم المهزومُ إلى مضاربِ السّعيد فِرارًا أمامَهم.

فلمّا اتَّصل الخبرُ بالسّعيد، أمَرَ بحضور القريب والبعيد، منَ الموحِّدينَ والعَرَب والأجناد، وأمَرَهم بالتأهُّب للقتال والجِلاد، فقاتَلوا قتالًا شديدًا، وصبَرَ الفريقانِ للضَّربِ والطِّعان، إلى أن جُنَّ اللّيل وافترَق الجَمْعان، وبعدَ ذلك حصَلَ بيدِ الموحِّدين عبدٌ من عَبيد بني مَرين عارفًا(2) بأمورِهم وأحوالِـهم، فأرادوا أن يقتُلوه، فقال لهمُ السَّعيد: اسألوه عن أمرِهم وحالِـهم واعتَقِلوه، فإنْ صَدَق في مقالِه وإلّا فبعدَ ذلك تقتُلوه، فأُحضِر بينَ يدَي السَّعيد، فقال: إنّ الأميرَ أبا يحيى اجتَمع معَ أبي حديد، وخَرَجا عن المحَلّة بنحو ميلَيْن اثنين، فقيل: إنهما اتَّفَقا على القتال في اليوم الفُلانيّ خاصّة ويفترِقان، فلمّا كان صَبيحةُ اليوم المذكور أمَرَ السّعيدُ بركوبِ الناس مستعدِّينَ للقتال، فرَكِبوا وتأهَّبوا للجِلاد معَهم والنِّزال، وأمَرَهم السَّعيدُ أن يدفَعوا بجُملتِهم دَفْعةً واحدة فدَفَعوا، فحارَبَهم بنو مَرِين ومَن كان معَهم ساعاتٍ من ذلك اليوم، ثم رَفَعوا أيديَهم عن القتال ووسَّعوا قاصدينَ إلى جهة الغَرْب، وذلك خُدعةٌ من خُدَع الحرب، فطَمِع فيهم السَّعيدُ لـمّا وَسَّعوا أمامَه.

ورجَع كانونُ إلى جهة مَرّاكُش ناشرًا أعلامَه، وتَبِعه عَرَبُ سُفيانَ بجُموعِهم، وتابِعِهم ومتبوعِهم، وتَبع السَّعيدُ بني مَرين وجَدَّ في اتّباعِهم، فما وقَفوا إليه ولا عَرَّجوا عليه، إلى أنْ صَحَّ عندَه أنّ كانونَ كرَّ راجعًا من الـمَيْدان معَ إخوانِه عرَب سُفيان، فخافَ أن يدخُل مَرّاكُش كما دخلَتْها الخُلَّطُ قبل ذلك وأنّ على ذلك كان اتّفاقُه معَ الأمير أبي يحيى واجتماعُه. فأمَرَ أهلَ محلّتِه بإقلاعِهم من هنالك ورحيلِه، وجَدّ في اتّباع كانونَ يُقفِّي أثَرَه على طريق مَرّاكُش إلى أنْ سَمِع خبرَه، ورَجَع إلى جهة دَكّالة فلقِيَه، وكان من أمره ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

---

(1) في ق، ك: «القتل».

(2) هكذا في الأصل، والجادة: «عارفٌ».

ذكرُ دخولِ كانونَ مدينةَ أَزَمُّور[1]

وذلك أنه لـمّا كرَّ كانونُ بن جرمونَ راجِعًا عن السَّعيد وترَكَه مُستغرِقًا في الحروبِ معَ بني مَرِينَ التي ليس لهم فيها نَظيرٌ ولا قريب، قَصَدَ إلى أَزَمُّور فأدخَله عليُّ بن يزيمرَ التامرديُّ إليها فاستَولَى معَ عَرَبِه عليها، فاستطالت أيديهم فيها على بعض حَضَرِها الغُرَباء بأنواع الظُّلم والاعتداء، وأغْرَمَهم أموالًا وأغْرَمَ اليهودَ الساكنينَ بها كذلك مالًا، واستأصلَتْهم العَرَبُ استئصالًا، وكان واليَها حينَئذٍ ابنُ معنصر الكُوميُّ، تَرَكَه ابنُ ماكْسِن عِوَضًا منه ونائبًا فيها عنه، فقد كان تَوجَّه المذكورُ معَ الشّيخ أبي عبد الرّحمن القاسم بن زكريّا الهنائيِّ معَ جُملة من بني هناءَ لِلقاء السَّعيد بالتضييفِ له إلى تامَسْنا، ولو حضَرَ القاسمُ بن زكريّا بأَزَمُّور، لَـما كان أحدٌ يَجسُرُ على شيءٍ من تلك الأمور.

ولـمّا اتَّصل بكانونَ خبرُ رجوع السَّعيد خَرج من أزَمُّور وقصَدَ إلى جهة جَبَلِ الحديد وأخَذ على دكّالةَ قاصدًا إليه، فسَمِع بخبره السّعيد، فانقَضّ بعسكره عليه، وكان السّعيدُ قَدَّر على ما ذُكِر أنه تَوافَقَ معَ ابن وانودينَ على دخُول مَرّاكُش، فأسرَع في طلبِ كانونَ المذكور، حتّى قطع في وجهِه حين خَرج من أَزَمُّورَ وأوقَعَ السَّيفَ على مَن كان معَه من العَرَب الـمُعتَدِين والـمُفسِدين، وقضَى فيهم أَرَبه ومطلبَه، وفَرَّ كانونُ معَ مَن خَلَص من عَرَبِه إلى الغرب[2].

ولـمّا ظَفِر السّعيدُ بالعَرَب المذكورين وقتَلهم واستَأْصَلهم، أمَرَ بحزِّ رؤوسهم وبعَثَ بها إلى مَرّاكُش، فعُلِّقوا بها على السُّور، وتوجَّه بعسكرِه إلى أَزَمُّور، وقيل: إنه كان حَلَفَ أن يدخُلَها بسيفِه، وكان أهلُها في أمرٍ عظيم من خوفِه، فخَرج إليه الصُّلَحاءُ نفَع اللهُ بهم وأخبَروه بأفعال العَرَب وأعمالِـهم، وبمَن كان السببَ في دخولِـهم، فوقَعَ البحثُ في كلِّ الجهاتِ على عليِّ بن يزيمر، فقُبِض عليه، ودخَل السّعيدُ على يمينِه إلى أَزَمُّور، وسيفُه كما ذُكِر مشهور، وعَفَا اللهُ عن أهلها فيما سَلَف إلّا على الجاني ابن يزيمر لأجْل ما اقترَف، فسيقَ إلى مَرّاكُش مصفَّدًا في الحديد، فأمَرَ فيها بقَتْلِه السَّعيد، بعدَما عايَنَه القريبُ والبعيد.

---

(١) ينظر عن أزمّور: الروض المعطار ٥.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٧، والاستقصا ٢/ ٢٤٧.

ولـمّا وصَل الأميرُ أبو يحيى إلى جهة مِكْناسةَ وتلك الجهات، من مقابَلة السّعيد على واسنات، وراياتُه منصورة وجيوشُه مَوْفورة، قامَت هُوشةٌ بمِكْناسة وقَتَل العامّةُ واليَها راجلَ السّعيد، وقال بعضُهم: هو مِجْرازٌ بكلام بني مَرِين سَمَّوه بأسماءِ العبيد، فخافَ خاصّتُهم وخاطَبوا الأميرَ أبا يحيى ووافَقُوه بأموالٍ معلومة ليَحُولَ بينَهم وبينَه، وكان أهلُ الغَرْب مُرتقِبينَ لوصُول الأمير أبي زكريّا من تونُس، وبايَعَه أهلُ سَبْتة وطَنْجة، فاقتضَى نظَرُ قاضي مِكْناسةَ ابنِ عَمِيرة أن يَكتُبَ إليه هذه البيعة[1].

ذكرُ نصِّ البَيْعة المِكْناسيّة لأمير الحضرة التُونُسيّة

الحمدُ لله العليِّ الكبير، اللّطيفِ الخَبير، خالقِ الخَلْق غنيًّا عن المثالِ والنَّظير، ومقدِّرِ الأشياء على ما اقتضَتْه حِكمتُه من التدبير، يدبِّرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرض ولا اضطرارَ في الأمرِ ولا اضطرابَ في التقدير، مُكوِّرِ اللّيل على النّهار ومُكوِّر النهارِ على اللّيل فتاهتِ العقولُ وفَنِي الـمَقُول في الشاهِدِ من أسباب التكوين والتكوير، وصَلّى اللهُ على سيّدِنا ونبيِّنا[2] محمد المبعوثِ بالكتابِ الـمُنير، المنعوتِ بالبشيرِ النّذير، طَلَعَ بَدْرًا باهرَ الطّالع هاديًا بنورِه الساطع والأرجاءُ مُدلَـهِمّةٌ بالدَّياجير، والجاهليةُ في غَلوائها من احتقابِ مَذَمّة الجَوْر والاحتقار لذمّة الـمُجير[3]، فثَنَى[4] الخَلْقَ عن شرودِهم، وسَفَر بينَ العبادِ ومعبودِهم، فكان شَرَفُ السِّفارة على قَدْر شَرَف السَّفير، ومكانُه عندَ الله كما اختارَه من الرَّفيق الأعلى حينَ[5] أَتَتْه رسالةُ التخيير، صَلّى اللهُ عليه وعلى آلِه المنتخَبينَ من معدِن التقديس والتطهير، وأصحابِه المهاجِرينَ الفائزين بثوابِ صُحبتِه بالمقام الشّهير والحظِّ الجَليل الخطير[6]، والأنصار الذين قاموا بنُصرته عندَ عُدْم النّصير، واستَأْثَروا به حين رجَع الناسُ بالشّاء والبعير، صلاةً تَتوالَى عليه وعليهم ما لاحَ الصّباحُ باهرَ

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٧.

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

(٣) في ق، ك، ب: «الأجير»، ولا معنى لها.

(٤) في ق، ك، ب: «فنهى»، وهي بمعنى.

(٥) من هنا إلى قوله: «من معدن...» سقط من ق، ك.

(٦) عبارة ق، ك، ب: «صحبته بالحظ الجزيل الخطير».

التباشير، ونَثَرتِ الرِّياحُ جواهرَ الغُصن الـمَطِير، ورضيَ[١] اللهُ عن الـمَهْديِّ المعلوم مجدِّد رَسْم الهداية، وقد كان على خطرٍ من التغيير، وعلى خِيَرةِ أوليائه وأصحابِه الذين استعمَرَهمُ اللهُ أرضَه فأقاموا سُنَّة الله وفَرْضَه مختارينَ من أَروم الكَرَم والخير، متواصينَ في إظهار أمر الله بغاية الجِدِّ ونهاية التشمير، ونرفَعُ الدّعاءَ في مَظانِّ قَبولِه، ومواقفِ الرّجاء في وصُولِه، لـمَولانا الإمام الأعظم والملاذِ الأعصَم الأمير الأجَلِّ الـهُمَام الطاهرِ الأسعدِ الأشرف الأعلى المؤيَّد المنصور ناصر الدِّين وكافلِ الإسلام والمسلمين أبي زكريّا ابن الشّيخ المعظَّم المقدَّس المجاهد الأرضيِّ أبي محمد عبد الواحد ابن أبي حَفْص، ولوَليِّ عهدِه الكريم وسَليل مَجْدِه الصَّميم الأمير الأجَلِّ الـهُمَام المؤيَّد أبي يحيى.

أمّا بعد، فإنّ اللهَ سبحانَه خَلَق الخلقَ بالفِطَر والصُّور مُتفاوتين، وعلى عَرَض هذا الأدنى مُتَهافتين، وجَعَل السُّنّة التي أعلى أعلامَها، وبيَّن أكرمُ خَلْقِه[٢] عليه السلامُ[٣] أحكامَها، لأمر مصالِحهم ناظمة، وعلى أخْذِهم بالتناصُف والتعاطُف قائمة، لا يَصلُحُ الناسُ فَوْضى[٤]، ولا يترُكُ الغُواةُ إذا أهمَلَهمُ الوُلاةُ تقحُّمًا في الباطل وخوضًا، ومن نِعَم الله على الرعيَّة هدايةُ رُعاتِها، واستقامةُ قادتِها إلى سبيل النّجاة ودُعاتِها، وأن يكونَ أهلُ الفضل والوَرَع بطانتَهم، ويتَولّى الأخيارُ والصُّلحاءُ إنجادَهم وإعانتَهم، فبهذا تتِمُّ النَّعماء وتسكُنُ الدَّهماء، وتُحقَنُ في أهبِها[٥] الدِّماء، كما أنّ ضدَّ هذه الحال مُؤْذنٌ بخَراب العِمران وتسلُّط حزب[٦] الشّيطان، ومن الـمَقُول المقبول: «يزَعُ اللهُ بالسُّلطان ما لا يزَعُ بالقرآن»، والمشاهدُ في هذه المدّة كان قد أحالَ[٧] أوجُهَ الأيام وأشْمَت[٨] الكُفرَ

(١) من هنا إلى قوله: «ونرفع الدعاء» سقط كلّه من ق، ك، ب.

(٢) سقط من ق، ك، ب.

(٣) سقط من ق، ك، ب.

(٤) عبارة ق، ك، ب: «لا يضاع الناسُ مرضى».

(٥) قوله: «في أهبها» سقط من ق، ك، ب.

(٦) سقط من ق، ك، ب.

(٧) في ق، ك، ب: «حال».

(٨) في ق، ك، ب: «واشتمل».

بأهل الإسلام، وما زال عدوُّ الدِّين يَشفي منه صدرَه، ويُركِبُ أهلَه بها يتَعاظمُ أحدُنا ذكرَه، إلى أنِ انقَضَت بحمد الله مدّةُ الإملاء، وأَذِن كسُوفُ الأحوال بالانجلاء، فطَلَع الفجرُ على الغرب من ثَنِيّتِه، ورأى بعدَ الشكِّ بُرهانَ بُرئه من شَكيّتِه، يُنادي به الجِدّ الذي استقال من عِثارِه، وخَرج قمرُه من سِرارِه، قد أمكَنَت الفُرصةَ من يَبتدِرُها من بلادِك، واصطَفَت[1] الحَلَبة فأعِدَّ لها الـمُقْرَب[2] من جيادِك، وهذا موقفُ الخبرة قد بَدا، وإنّما يفوزُ بالخصل السبّاقُ إلى المدى.

ومِكْناسةُ هي التي وَلَـجَت من هذا الباب، وأسْرَجَت وليلُ الخَطْب مُرخِي الجِلباب، ورأت فُرجةَ الفُرصة فنَصَّت، وقِيدَ إليها في يد القهر[3]، وأبرأها من عوارضِ الدّهر فأقصَّت[4]، وعَلِم أهلُها أنه لا يَصلُح معَ[5] التقصير غَيْرة، ولا تُقبَلُ بعدَ[6] الفتح هجرة، وأنّ دعوةَ الإمارة التي تُزَفُّ[7] بناتُ الآمال بساحتها، ويَخِفُّ ثباتُ الجبال عندَ رَجاحتِها، وهِي الدّعوةُ الواقعة، مواقعَ سُحبِها اللامعةُ[8] في مطالع شُهُبِها، المبنيُّ على ضَرْب العِدا وقسمة البأس والنَّدى حسابُ كتائبِها وكتُبِها، هي مَطمَحُ الهِمَم ومَرْقاها، ومجتمَعُ الأمانيِّ ومُلتقاها، والـمَفزَعُ من متسلِّطٍ تنصرُ البِيضُ منه صيدَها، فتودُّ أنّ حدَّها منه سَقاها، وتَصْبو[9] لأن تُصيبَ مصيبَه بأسعدِها كما كان مصيبُ سمِيِّها أشقاها، لا جَرَمَ أنّهم خَلَعوا طاعتَه خَلْعَ النِّجاد، وضرَبوا بينَهم وبينَها بأوثق

---

(١) في ق، ك، ب: «واختطفت».

(٢) المقرب والـمُقربة: الفرس التي تدنى وتقرب، وتكرم ولا تترك، كما في معجمات اللغة. ووردت اللفظة في ق، ك: «المغرب» وليست بشيء.

(٣) في ك: «القصر».

(٤) في ق، ك، ب: «فاقتصّت».

(٥) في ق: «لا يقصد على»، في ك، ب: «لا يقصد مع».

(٦) في ق، ك، ب: «ولا يقبل بهذا».

(٧) سقطت من ق، ك، ب.

(٨) من هنا إلى قوله: «مطمح الهمم» سقط كله من ق، ك، ب.

(٩) من هنا إلى قوله: «لا جرم» سقط من ق، ك، ب.

الأسداد، وولَّوا وجوهَهم قِبلةً تَرْضاها عبادةُ الوفود ووفادةُ العباد، وأبصَروا فجرَ الحقيقة وقد أذهَبَ اللهُ بخَيْط البَياض منه خَيْطَ السَّواد، حيث مياهُ الكرم مفجَّرة(١) وجِباهُ الأُمم معفَّرة، وأعاظمُ الرِّجال أمثلةٌ مصغَّرة وضراغمُ الأغيال في حَوْمة(٢) النِّزال حـمُرٌ مُستنفِرة.

وعندَما أُخرج الحقُّ(٣) من تلك العُهدة، وتـمَخَّض الرأيُ عن صَريح الزُّبدة، اتَّفق منهمُ العلماءُ والصُّلحاء، والأشياخُ والأعيانُ والنُّصَحاء، ووجوهُ القبائل والعساكر، وكافّةُ طبقاتِ الناس منَ البادي والحاضِر، على أنْ بايَعوا الإمامَ الهاديَ الأميرَ الأجَلّ أبا زكريّا ابنَ الشّيخ المجاهد أبي محمد عبد الواحد ابن الشّيخ المعظَّم أبي حَفْص بيعةً رَفَعت بالعدلِ معالـمَها، ووضَعَت على التقوى قواعدَها، وصادَفَ وقتَ الحاجة بيانُها، وأُسِّس على تقوًى من الله ورضوانٍ بُنيانُها، ابيَضَّت بها وجوهُ الـمُنى وكم تغيَّرت ألوانُها، وطَلَعت لها شمسُ الهداية من مَشرِقها فنفَع الناسَ إيمانُها، ورَفَع البؤسَ قِرانُها الأسعدُ وزمانُها، أعطَوْا بها صفقةَ أيْمانِهم مُبادِرين، وشكروا اللهَ على نعمة القيام بها وسيَجزي اللهُ الشاكرين، على السَّمع والطاعة، والارتباطِ بلُزوم الجماعة، والانقياد للأوامرِ والزَّواجِر بمبلَغ الوُسْع ومجهودِ الاستطاعة، في اليُسر والعُسر والقُلِّ والكُثْر، والسَّرّاءِ والضَّرّاء والشِّدة والرَّخاء، وعلى ما بايَعَ عليه سَلَفُ هذه الأُمة أئمتَهم، وأعطَوْا بها عن بصيرة ونقاءِ سَريرةٍ عهودَهم وأذِمّتَهم، النيّاتُ في الوفاءِ بها صادقة، والألسِنةُ بشُكر الله عليها ناطقة، والظّواهرُ معَ البواطِن في التزام أحكامِها والانقياد بزِمامِها متوافِقةٌ متطابِقة، طَوْقُها لهم ألزَمُ من طَوْق الحَمام، ورِبقتُها منعقِدةٌ في أعناقهم برِبقة الإسلام، وبعدَ أن أبرَزَوا عمَلَها في أبهى صُوَر الأعمال، واستوفَوْا عقدَها بشروط الصّحةِ والكمال، أتْبَعوها بأُخرى تتنزّلُ منها منزلةَ السُّورة من الفاتحة، وتُدِلُّ على رَوْضِها النّضير بنواسِمِها النافحة، وهي البيعةُ للأمير أبي يحيى، وفَرْع الدّوحةِ العُليا، ونظام أمرِ الدِّين

---

(١) في ق، ك، ب: «متفجّرة».

(٢) في ق، ك، ب: «خدمة» وليس بشيء.

(٣) في ق، ك، ب: «الخلق».

والدّنيا، نَصَر اللهُ أعلامَه، وأسعَدَ أيامَه، وأمضَى في عدوِّه الماضيَيْنِ القاضيَيْنِ رأيَه وحُسامَه، على سُنّة البيعةِ لوُلاة العهود، وما مضَى العمَلُ عليه في مثلِها[1] من مَهمّاتِ الأمورِ ومُبرَماتِ العقود، وكلتا البيعتَيْنِ أمضَوْها على أساليبِها الـمَرْعيّة، وقوانينها الشّرعيّة، بنيّاتٍ كريمة وغيوبٍ سَليمة وبصائرَ وجَدَت منهم أمضَى عزيمة[2]، أشهَدوا عليها اللهَ الذي قولُه بالوفاءِ مرتبطٌ بإيجابه، وأمرُه الذي لا تقومُ السماءُ والأرض إلا به، وكفَى بالله شهيدًا، وكفى بالله عليمًا، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. وكتَبَ الملأُ المذكورونَ بكلِّ ما ذُكِر فوقَ هذا بخطوطِهم شاهدينَ على أنفُسِهم بنصِّه كلِّه، وعاقدينَ منه ما لا رُخصةَ لأحد من الأحدين في حلِّه، وذلك في يوم الجُمُعة الـمُوفي عشرينَ لربيع الأوّل من سنة ثلاث وأربعينَ وست مئة.

ولـمّا اتّصل خبرُ أهل مِكْناسةَ بالسّعيد وبما فَعَلوه من قَتْل عاملِه ومُبايعتِهم لصاحب تونُس، شَرَع في الحركة إليهم بحَنَق عظيم، ثم إنّ أهلَ مِكْناسةَ بعَثوا صُلَحاءهم وعُلَماءهم راغبينَ في العَفْو الأتمّ، مستغفرينَ اللهَ ممّا اقتَرفوا من الإثم، مُقسِمينَ أنهم لم يُوافقوا قاضيَهم على كَتْب تلك البيعة المذكورة، وخاطَبَه خاصّتُهم وعامّتُهم بمُخاطباتٍ يَطلُبونَ منه العفوَ والرِّضى، ويُجرُونَ السَّهوَ فيما سَلَفَ ومضَى، وكتَبوا مُخاطبتَهم ببيعتِهم من إنشاءِ ابن عَبْدون، فقُرئت عليه، فعَفَا عمّا ذُكِر من تلك الأمور.

تجديدُ بيعة أهلِ مِكْناسَةَ للسَّعيد
من إنشاءِ ابن عَبْدونَ الكاتبِ الـمُجيد

الحمدُ لله مقدِّر الأمور، ومصرِّف المقدور، ومُخرج عبادِه من الظُّلُمات إلى النُّور، عالمِ السرائر، ومنوِّر البصائر، ورافع الدرَجات وواضع الخَطيّات، وهُو الذي يَقبَلُ التّوبةَ عن عبادِه ويَعْفو عن السيِّئات، وَسِع كلَّ عاصٍ حلمُه، وأحاط بكلِّ شيء علمُه،

---

(١) قوله: «في مثلها» سقطت من ق، ك، ب.

(٢) قوله: «وبصائر وجدت منهم أمضى عزيمة» سقط من ق، ك، ب.

ونفَذَ في كلِّ موجودٍ حُكمُه، لا رادَّ لِـما به حَكَمَ وأمَر، ولا ناقضَ لِـما أحكَمَ وأمرّ، قدَّر الأشياء وأتقنَ الإنشاء، وآتى مُلكَه مَن شاء، وأسَّس بالإمامة مبانيَ الدِّيانة، ووصَل بها للرّعايا أسبابَ الرعاية، وأمدَّ من أهلِه لوراثةِ مقامِه الأسمى، واختاره لأمانتِه العُظمى، بالإنجادِ والإعانة.

ومنها: بعدَ تَمام الدّعاءِ والصّلاة والرِّضى، اللهمَّ ارْضَ عن خليفتِك في عبادِك، المرتسِم في ديوان أوليائك وعبادِك، الإمام المؤيَّد، والحُسام المهنَّد، الأتقى الأطهر الأعلى، المعتضِد بالله أميرِ المؤمنين أبي الحَسَن ابن سيِّدِنا الخليفة الإمام المأمون أميرِ المؤمنين ابن الخُلفاءِ الرّاشدين رضًى يُبلِّغُه أملَه في الدُّنيا والدِّين، ويَحكُمُ لدولته السّعيدة ومدّتِه الحميدة بالتمهيدِ والتمكين، ويجعَلُ كلمتَه الباقيةَ إلى يوم الدِّين. اللهُمّ كما انتقَيْتَه من أكرم جُرثومة، وسدَّدتَه لإقامة حدودِ الله المرسومة، فضاعِفِ اللهمَّ في قلوبِ رعاياه حبَّه، وأيِّدْ بالملائكة والرُّوح عِصابتَه وحزبَه.

ومنها: ومَن[1] شُكِرت في الخِدمة آثارُه، فحقيقٌ أنْ تُغفَرَ زلّتُه وتُمحى آثارُه، وأنّ العبيدَ من أهل مِكْناسَة قدِ اجتَمعوا ووقَفوا موقفَ الاستكانة والمذَلّة، وقَرَعوا سنَّ النَّدَم على ما صَدَر عنهم من زلّة، واستَشْعَروا لِباسَ الإنابة، وبادَروا لهذه الدّولة الـمُعتصميّة بالإجابة، واتّفقوا جميعًا على أن جَدَّدوا بيعتَهم لسيِّدِنا ومَولانا الخليفة الإمام المعتضِد بالله أميرِ المؤمنينَ أبي الحَسَن ابن الأئمّةِ الرّاشدين، أعلى اللهُ يدَه، ونصَرَه وأيّدَه، حسبَما تقدَّم مُستوعبةَ الشروط، مستوفاةَ العقودِ والرُّبوط، لم يَستثنوا فيها فصلًا، ولا أغفَلوا من عقودِها فَرْعًا ولا أصلًا، بنفوس مغتبِطة، ونيّاتٍ على الوفاءِ بما التزَموه من عقودِها مرتبِطة، وأشهَدوا اللهَ وملائكتَه على أنفسُهِم بذلك وهم به عالمون، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقَيَّدوا عليه شهادتَهم في تاسعَ عشَرَ شهرِ ذي الحجّة من عام ثلاثة وأربعينَ وست مئة.

وفي هذه السنة: بايَعَ أهلُ إشبيليَةَ وأهلُ سَبْتَةَ للأمير أبي زكريّا، وبعَثَ ابنُ خِلاص صاحبُ سَبْتَةَ هديّةً إليه معَ وَلَدِه في غُراب جديد فغَرِق الغُرابُ بها وبالوَلَد، ولم يخرجْ

---

(١) في ق، ك، ب: «وقد»، وما أثبتناه أوفق لقوله بعد «فحقيقٌ».

منه أحد، وفيه كان الكاتبُ أبو إسحاق بنُ سَهْل، وبعَثَ أهلُ إشبيلِيَةَ بيعتَهم معَ بعض وزرائهم وكُبرائهم، وكان شيخَنا إذ ذاك وصاحبَها أبو عَمْرو ابنُ الجَدّ[1].

وفي سنة أربع وأربعينَ وست مئة: وصَلَت الأجفانُ التونُسيّة إلى سَبْتَةَ وإشبيلِيَة، فوصَل واليًا على سَبْتة ابنُ الشّهيد الـهَنْتاتيُّ ومشغلًا بها ابن أبي خالد البَلَنْسي، ووصَل إلى إشبيلِيَةَ أبو فارس برَسْم أن يَسكُنَ قَصَبتَها. وكتَبَ الأميرُ أبو زكريّا إلى أهل إشبيلِيَةَ هذه الرسالةَ التي أذكُرُها هنا مُختصَرةً، إن شاء اللهُ تعالى:

فصلٌ من ذلك بعدَ الدُّعاءِ والصَّدَر

وإلى هذا وَالَى اللهُ من صُنعه الجميل ما يعُمُّ مُرادَكم ويَعصِمُ مَرادَكم، فإنه وَفَد وفْدُكمُ المبارَكُ ببيعتِكم التي أُسِّست على الرِّضوان قواعدُها، وأجاب بكم إلينا داعي السعادة فلم تُبطِ في إنجازِ الإجابة مواعدُها، وثوَّبَ بكُم إلى تفيُّؤِ الوارفِ من ظلِّها فلم تَنْبُ عن الإصغاءِ مواقعُ ندائه، ويسَّرتْكمُ اليُسرى لاقتفاءِ سُبُلِها وبُشرى لـمَن يسَّرتْه لاقتفائها واقتفارِها، وبشَّرتْه بحُلول مَمادحَ تلقَّته من رَحْبِها وسُبُلها بسُفور أهل السعادة وأسفارِها، حيثُ النّجاحُ للساعي أصدقُ رائدٍ لا يكذِبُ أهلَه، والإسجاحُ على كلِّ مَلَكة عائدٌ بها لم يعُدْ فيه إلى الحسن سهلَه، والإفصاحُ بها يُجمجِم عنه الانتصارُ لدين الله وسُنّةِ نبيِّه عليه السلام، والإيضاح لمناهج الإدراع والاستشعار بكلِّ عزيمةٍ ماضية في إعلاءِ شعارِ الإسلام.

ومنها: فقد مهَّدنا لكُم من النّظَر الصّالح أوْثَرَ مِهاد، تَنامونَ ملءَ الجُفون في ذُرى الأمنِ ونامِيًا بأمنياتِكم في أكنافِ الامتداد، وعقَدْنا لكم ذمّةَ استنصارٍ أُمِرَّتْ بيدِ العَوْن الرَّبّاني موامرُها، وأُقِرَّتْ من الإبرام والإقرار على ما تَساوت فيه بواطنُها وظواهرُها، فلْتوقِنْ تلك الجَنَباتُ المكلوءة أنّ سَمْعَنا بحول الله نَصير، ولتشعُرَنّ من العزَمات المنصورة لأيةِ حالة حالِيَة تَصير، لا يَبرَحُ يرأَبُ ثَأَى ثغورِكم ويَرتُقُ فتقَها ويلُمُّ شَعْثَها، ويدأَبُ على سلكِ أمورِكم أسهلَ مسالك الانتظام وأوعثَها، ويدرَأُ عن أكنافِكم كلَّ حادثة تُرغَمُ فيها أنوفُ النّوائب، ويَحسُمُ عنكُم من كلِّ خَطْب مباعثُه بأعجازِ كتُبِه

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٧.

أو ببدورِ كتائب، فلْتثِقوا بنَصْر الله سبحانَه وإمدادِه والنّظرِ الصالح الذي لا يغُبُّكم تعاقُبُه، والاهتمام لا يَبرَحُ بمَراصدِه الذي يُراعي تعرُّفَ أحوالِكم ويُراقبُه، فتِلكم القاعدةُ منّا بالمحَلِّ الذي لم نُخْلِه من كلِّ نَظَر جميل يوجدُها، اقترابـها وانضوائها، ويُسعِدُها بالطاعة التي سَلَكت فيها أوضحَ سبيل وجَرَت من مناهج إخلاصِها على سَوائها، فشايَعتُم الحقَّ وتابعتُم أنصارَه، ودافَعتُم عن حَوْزِه وبقَّيتُم على الجادّة منارَه، فاللهُ سبحانَه يُعينُنا وإيّاكم على كلِّ عمل يُزلِفُ لـمَراضِيه، ويُجزِلُ الحظَّ من ثوابِه ويُوفِرُه، ويشفَعُ لكم مؤتنفُ[1] الإسعاد بماضيه، ويَنصُر حزبَكم الـمُفلح ويُظفِرُه، بمنِّه ويُمنِه والسلامُ عليكم. كُتِب في العاشر لمحرَّم من عام أربعة وأربعين وست مئة.

ولـمّا قَفَل وَفْدُ إشبيلِيَة من تونُس بعدَما بايَعوا الأميرَ أبا زكريّا، وجَّه معَهم مشتغلًا وعاملًا وبعضَ رجالِه فوصَلوا بجُملة من القطائع إلى مدينة إشبيلِيَة فاشتَغلوا بما لا يَصلُح من الفساد، وجَرَت لهم فيها أمورٌ شنيعاتٌ لا يمكنُ ذكرُها، فأخرَجَهم أهلُ إشبيلِيَةَ وقَتلوا ابنَ الجَدّ الذي كان سببًا في وصُولهم إليهم، ولـمّا قُتل ابنُ الجَدِّ رحمه الله كان قتلُه سببًا في نزول النّصارى مدينةَ إشبيلِيَة؛ لأنّ أذْفُونْش اللَّعينَ كان مُصافيًا لابن الجَدِّ ومُصالحًا له على المسلمين، فلما مات فَسَد الصُّلحُ بينَهم فحاصَروهم.

وفي سنة خمس وأربعينَ وست مئة: أحدَقَت النّصارى بمدينة إشبيلِيَة وحاصَروهم برًّا وبحرًا، وأذاقوا أهلَها شرًّا، وكان نزولُهم عليها ووصُولُ جُموعهم إليها في شهر جُمادى الأُولى من العام المذكور، فاشتدَّ في هذه السَّنة حصارُها، وتملّأت منهم أنظارُها وأقطارُها، وأخَذوا خَلْقًا كثيرًا من أهلِها واختَطفوا في الأجفان بعضَ أطفالِها وضيَّقوا بها غايةَ التضييق، ورَمَوا الحجارةَ بالـمَنجنيق، وعَدِموا المرافقَ كلَّها قليلَها وجليلَها إلّا ما كان في بعض ديارِ الأغنياء، فإنّهم كانوا يحتاطونَ في تلك الأمور، مثلَ: الفقيه القاضي ابن منظور، فإنه كان يطمَعُ في إقلاع النّصارى عن المدينة فيأمُرُ الناسَ بالقتال والرَّمي بالنِّبال، والناسُ معَ ذلك حَيارى، يمشُونَ سُكارى وما هم بِسكارى، ومات بالجُوع خَلْقٌ كثير، وعُدِمت الأطعمةُ من القمح والشّعير، وأكَلَ الناسُ الجُلود، وفَنِيت الـمُقاتِلةُ من العامّةِ وأصناف الجنود.

---

(١) وقع في بعض النسخ: «مواثيق» وما أثبتناه من ق، ك، ب، وهو أليق.

ولـمّا انتهى بإشبيلِيَةَ شدّةُ الحصار، وعَدِموا الأنصارَ من الأمصار، وصَاروا قَبْضةً في يد أعداءِ الله الكفّار، خاطَبوا أميرَ المؤمنين المعتضِدَ بالله السّعيد وكافّةَ المسلمينَ من أهل عُدوة الغَرْب يستصرخونَهم ويُعرِّفونَهم بما نالَهم من الجَهْد العظيم والكَرْبِ الشّديد الأليم، ويُرغِّبونَهم في نُصرتهم، ويَحُضُّونَهم على جهاد أعداء الله الكافرين، فمِن ذلك قصيدةٌ يرِقُّ لها القلبُ القاسي، وتأمُرُ لها الجبالُ الرواسي، وهي [من البسيط]:

ذكرُ القصيدة التي نَظَمَها أبو موسى هارونُ بن هارونُ رحمه اللهُ تعالى يَرثي أهلَ إشبيلِيَةَ ويصفُ ما نالَهَا من الكُرَب الشِّداد ويُحرِّضُ المسلمينَ فيها على الجهاد

يا حمصُ أقصدَكِ المقدورُ حين رمَى ... لم يَرْعَ فيكِ الرّدى إلّا ولا ذِمَما
جرتْ عليكِ يدٌ للدهر ظالمةٌ ... لا يعدلُ الدّهر في شيء إذا حَكَما
ما كنتُ أحسَبُ أنّ الحادثاتِ إذا ... همَّت بكِ السّوءَ لا تُلقي لكِ السَّلَما[1]
ولا توهَّمتُ ذاكَ الحُسنَ يطمِسُهُ ... رَيْبُ الزّمان ويكسو نورُه الظُّلَما
قد كان حسنُكِ فتّانَ الشبابِ فمُذ ... أُصِبت عوِّضتِ منه القُبحَ والهرَما
يا جنّةً زحزحَتْنا عن زخارفِها ... ذنوبُنا فلزِمنا البثَّ والنّدما
يا سائلي عن مصابِ المسلمينَ بها ... أصِخْ لتسمَعَ أمرًا يورثُ الصّمما
لـمّا تفرَّقت الأهواءُ واضْطَرمت ... نارُ البُغاة فقامت للردى عَلَما
ونوزعَ الأمرُ أهلوهُ وقام بهِ ... مَن لم يجدْ قِدَمًا فيه ولا قَدَما
ثارت حفائظُ للتثليث فابتَدروا ... وأيقظوا من سِنات الغفلة البهَمَا
وأنشَروا ميِّتَ الأحقاد بينَهمُ ... ولو أطاقوا لعَمْري أنشَروا الرِّمما
ويمّموا حمصَ في جَمْع يضيقُ بهِ ... ذرعُ الفضاء فسوّى الوهدَ والأكَما

---

(١) سقط هذا البيت من ق، ك، ب، ر٣.

فالبحرُ بالمنشآت ارتجّ من ذُعرٍ   والبرُّ بالمرهَفات ارتاع فاكتَتما
واستوطَنوا القبرَ في الوادي وقام لهمْ   جَسرٌ من الفُلك لا تشكو به السَّأما
فكم أُسارى غَدت في القيد موثقةً   تشكو من الذّل أقدامًا لها حُطَما
وكم صريع رضيع ظلّ مختطَفًا   عن أُمِّه فهْو بالأمواج قد فُطِما
يدعو الوليدُ أباه وهْو في شغُلٍ   عن الجواب بدمع سال وانسَجَما
فكم ترى والهًا فيهمْ ووالهةً   لا يرجِعُ الطّرفَ إن حاورتَه الكَلِما
لَهْفي عليهمْ وما لهفي بمغنيةٍ   عمّن تبَدَّل بعدَ النِّعمة النِّقَما
إنا إلى الله قد حَلّ المصابُ وما   من حيلة في الذي أمضى وما حتَما
في كلِّ حين تَرى صرعَى مجدَّلةً   وآخرينَ أُسارى خَطبُهمْ عظُما
وقد أحاطت بنا الأعداءُ فاغرةً   أفواهَها تبتغي أرواحَنا طُعَما
عادت سِوارًا على سُور المدينة قد   أفناه عضًّا وكم من مِعصَم قَصَما
عَفَت يدُ الشِّرك ما شاد الخلائفُ من   قصر ومن مصنع ضخم حَكى إرَما
من يبصرِ المنزلَ الأعلى يقُلْ ولهًا   ما خُطّ قَطُّ لذا أُسٌّ ولا رُسِما
أين القِبابُ التي كانت محجَّبةً   فيها الملوكُ تُفيض الجودَ والكرما
تُمضي العزائمَ والأقدارُ تُسعدها   فلا ترُدُّ لها الأيام معتزَما
وكم بطِريانةٍ أبقى الأسى نُدَبا   في القلب يبعثُ وجدًا كلّما كُلِما
يا حسنَها غُرُفًا للحُسن جامعةً   ما طاب قطُّ لها إلا النّعيمُ حِمى
كانت معاهدَ للّذات نَعمُرُها   فلا نُراع إذا ما هاجمٌ هَجَما
أيامَ غَضُّ التصافي محضَ طاعتِها   ولا تُبالي إذا ما لائمٌ لَوما
كم ليلةٍ قصَرتْها القاصراتُ فما   تزالُ تستنطقُ الأوتارَ والنّغما
سقَى عشيّتَها الغَرا التي انصَرمت   صوبُ الغَمام إذا ما أسبَلَ الدِّيَما
عيشٌ تقَضّى وأبقَى بعدَه أسفًا   كأنّ ما كان منه في الكرى حُلُما

يا عينُ فابكي على حمصٍ وقولي لها ... منكِ البكاءُ إذا ما تُرسليهِ دما
فقد أصيبت بها الدّنيا وساكنُها ... حقًّا وأصبح ركنُ الدِّين قد ثُلِما
سَطَا بها الكُفرُ إذ قَلّ النّصيرُ بها ... فمن معزّ بها الإسلام ما سَلِما
يا أهلَ وادي الحِما بالعُدوة انتعِشوا ... هذا الذّماءُ فقد أشفى به سَقَما
ماذا يُبطِّئكمْ عنّا وحُقّ لكمْ ... أن تُبصِروا دارَ قوم أصبحت رِمَما
وحقُّنا واجب فالدِّين يجمَعُنا ... معَ الجِوار الذي ما زال مُنتظِما
وقد دعَوْنا فأسمَعْنا على كثَبٍ ... بما قدِ استنفَدَ القرطاسَ والقلما
فزعمُ أذفونَشْ أنّ الحصرَ يُهلِكُها ... والله يكذِبُ ما رَوّى وما زَعَما
إن تنصرونا فإنّا منشدونَ لهُ ... لا يُرغِمُ اللهُ إلّا أنفَ من رَغِما
فتحُ الجزيرة ممّا سَنّ أولُكمْ ... فلْتُثبِتوا للهُدى في أرضِنا قَدَما
كونوا لها خَلَفًا منهمْ وإن نفُذُوا ... ولا تُبالوا أطال العهدُ أم قَدُما
لا عذرَ في تركِها للكفر مسلمةً ... إنّ الزمانَ وأنتمْ فيه ما عَقِما
كم صارخ فَزِع كان الصّراخُ لهُ ... قرعُ الظنابيب حتى لم يدَعْ ألما
هل من مُجيب لداعينا فيُركبَنا ... فُلكَ النّجاة فبحرُ الحادثاتِ طَمَا
لم يبقَ فينا سوى الأنفاس خافتةً ... فكلُّنا في وجود يشبهُ العَدَما
كم نستغيثُ ولا إنسانَ[1] يُصرِخُنا ... ونستطبُّ لداء طال ما حُسِما
وقد شَقِينا وأُشقِينا وحُقّ لنا ... بما به الكفرُ والإسلامُ قد نَعُما
يا حسرةَ الدِّين والدنيا لأندَلُسٍ ... مهما استطال بها التثليثُ واجتَرَما
لم يبقَ للحقِّ في شتّى مطالعِها ... نورٌ فأصبحَ ليلُ الكفرِ مرتكِما
يا نفسُ لا تذهبي للحادثات أسًى ... وجامِلي الصّبرَ وارضَيْ بالذي قُسِما

---

(١) في ق، ك، ب: «أنصار».

وإن دهَتْكَ من الأحداث داهيةٌ ... دَهْياء تترُكُ وجهَ الدّهر مبتسما

فالمفزَعُ اللهُ والذُّخرُ العتادُ أميـ ... ـرُ المؤمنينَ وحسبي في النّجاة هُما

نِعْم المَلاذُ ونِعم الذُّخرُ قد ضُمِنت ... نَجاةُ مَن بهما في الحادث اعتَصَما

مَن مُبلِغٌ أمرَه إنّي شقيتُ بما ... لقيتُ من جَوْر دهر طال ما ظَلَما

خليفةَ الله لولا النّأيُ عنكَ لَما ... أجزْتَ بيّ لدهرٍ كلَّ ما حَكَما

وكنتَ كاشفَ كَرْب لا انكشافَ لهُ ... وقمتَ دوني من الأعداءِ منتقِما

وكنتَ تشفي صدورَ الأولياءِ فلا ... عدوَّ إلا بما يُرضيه قد وَقِما

أقسمتُ في حَلِفي بالله مجتهدًا ... وحسبُ ذي حَلِف برٌّ بما قَسَما

ما السّعدُ واليُمنُ إلا خادمانِ لكمْ ... إنّ العظيمَ لمن فات[1] الورى عَظُما

فلا مبالاةَ بالأيام إن مطَلَت ... فربّما ضنَّ قَطرُ السُّحبِ ثم هَمى

فاصدَعْ بحقِّك إنّ الدهرَ ممتثِلٌ ... فربَّ دهرٍ عَبُوس[2] عاد مبتسما

وفي سنة ستٍّ وأربعينَ وست مئة: كان استيلاءُ الطاغية أذْفُونْشَ اللّعين على مدينة إشبيلِيَةَ أعادها اللهُ للإسلام، بعدَما جرَّعوا أهلَها كأسَ الحِمام، من كثرة المجاعة وعُدْم الطعام، فكلٌّ منهم في بحر المنايا غاصَ وعام، ممّا حلَّ بهم من الأوجالِ والآلام، ما يَطُولُ في وصفِه وشرحِه الكلام، ويُستنفدُ فيه القراطيسُ والأقلام، فسلَّموا لهم في المدينة وخَرج منها الخاصُّ من أهلِها والعامّ، وكان ذلك في يوم سبع وعشرينَ من شهر[3] رمضانَ المعظَّم من هذا العام، وكان نزولُ الطاغية عليها في شهر جُمادى الأولى من العام الفارِط، فكان حصارُهم لها مدّةً من عام وخمسة أشهر بعدَما كانوا يجدونَها قبلَ ذلك بعام، وقد كانوا خاطَبوا السّعيدَ بمُخاطبات ومُكاتبات يحِنُّ لسَماعِها الجَماد، يستصرخونَه ويرغِّبونَه في سبيل الجهاد، وبيَّنوا له أحوالَهم، وتوغُّلَهم في أوحالِهم، وكان عازمًا بزَعْمِه

---

(١) في ق، ك، ب: «مات».

(٢) في ق، ك، ب: «غيور».

(٣) سقط من ق، ك، ب.

على الحركة إلى البلاد الشَّرقية: التُونُسيّة والإفريقيّة، التي لم يبلُغْ فيها ما أمَّله من الأُمنيّة، فما عرَّج على كتُبهم ولا خطابِهم، ولا رثَى لحالهم ولِـما نَابَهم وأصابَهم، بلِ اشتَغل بحركتِه المذكورة، وعساكرِه الموفورة، التي كانت غيرَ مؤيَّدة ولا منصورة(١).

اختصارُ الخبر عن حركة السَّعيد من حضرتِه الـمَرّاكُشيّة إلى جهة البلاد التِّلِمْسانيّة وكيفيّةِ مقتلِه بها وأكْلِ محلّتِه هنالك ونهبِها

وذلك أنّ هذا الأميرَ المعتضِدَ أبا الحَسَن السّعيدَ لم يزَلْ يحدِّث نفسَه من حينَ وَلِـيَ الخلافةَ بعدَ أخيه أبي محمد الرَّشيد بالحركة إلى البلاد الإفريقيّة، وكان أميرُها أبو زكريّا من حينِ دخولِه تِلِمْسانَ طَمِع في دخولِه إلى البلاد الغربية، ومنَ الاتّفاق في الأمور أنْ وصَلت هديّةٌ إلى الرَّشيد من صاحبِ صِقِلِّيّة النادون، فوجَده أرسالُه قد مات، ووَلِـيَ الخلافةَ السّعيد، فدفَعوها إليه، ووَجَّه له السّعيدُ أيضًا هديّةً من عندِه معَ أرسالِه وطلبَ منه الإعانةَ بالأجفان الصِّقِلِّية إذا وصَل إلى البلاد الإفريقيّة، فكان ذلك مطلبَه ومذهبَه. وكذلك كان الأميرُ أبو زكريّا يؤمِّلُ الوصُولَ إلى البلاد الغربيّة في مذاهبِه ومقاصدِه، فماتا جميعًا في سنةٍ واحدة ولم يقضِ اللهُ لهما أَرَبًا، فيما أمّلا وطَلَبا، فاستعدَّ السَّعيدُ لهذه الحركة استعدادًا عظيمًا لم يُعهَدْ له قبلَه فيما تحرَّك من الحركات مثلُه، فقد كان يستعدُّ لها من حينَ وَلِـي الإمارة إلى هذه السَّنة المؤرَّخة، فتحرَّك لها، فما وصَلَها ولا رآها، وكان له منجِّمٌ اسمُه عَزّوز بن عَمْرون نَهاه عن هذه الحركة يومَ خروجِه عن حضرتِه إليها.

وكان خروجُه في غُرّة شهر ذي حجة من سنة خمس الفارِطة عن السنة المؤرَّخة إلى تانسيفت، فنزَلَ بمحَلّتِه عليها، وكان منجِّمُه يَرى في عِلمِه ونَجْمِه حُمُراتٍ كثيرةً تدُلُّ على وقيعةٍ كبيرة، وكان السّعيدُ وصَلَه كانونُ الـمَكْنيُّ بأبي حديد، فنزَلَ بمحَلّة عَرَب سُفيان على تانسيفت في جملة مَن كان بها منَ العُربان، وكان السّعيدُ وكانونُ يقال لهما: الأحمران لكونِهما كانا في لونِهما أسمرَيْن، وكان بينَهما فيما تقدَّم منازعةٌ حين خالَفَ كانونُ المذكور عليه ثم عاد في هذه السنة إليه، واجتَمع معَ السّعيد بمحَلّتِه بتانسيفتَ

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٧.

من العَرَب عساكرُ وأمداد، ومن قبائل الموحِّدينَ والمتجنِّدينَ وعبيد المخزن آلافًا[1] مؤلفة وأعدادًا[2]، فأمَرَ ببناء المصَلّى وعيَّد هنالك عيدَ الأضحى، وكثُرت الدّماءُ في المحَلّة من الضَّحايا، فقال المنجِّم: هذه الحُمرةُ التي ظهَرت لك والمنايا، فانبسَطَت آمالُه وانشَرحت للحركة حالُه، وتحرَّكَ هناك في الخامسَ عشَرَ من شهر ذي الحجة من عام خمسة وأربعينَ وست مئة، وفي تلك المحَلّة في أيام العيد توفِّي أبو زكريا الفازَازيُّ رحمه اللهُ تعالى، وتوجَّه السّعيدُ بمحَلّاته وطُبولِه وعلاماتِه إلى أنِ استقرَّ برِباط تازًا ومنها عقَد صُلحَه معَ الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقّ على أن يُعطيَه حظَّه حِصةً من بني مَرِين يَخدُمونَ معَه إلى بلاد إفريقيّة ويَستعينُ بهم على أعدائه ويَستأمنُ ممّن تَرَكَ منهم وراءه، فوقَع الإصفاقُ والاتّفاق أن يتوجَّه معَه جماعةُ بني عسكر؛ فترَكوا المراهينَ منهم بتازا وساروا معَه في جُملة العسكر، فلمّا وصَل السَّعيدُ إلى مَقرُبة من تِلِمْسان بعَثَ إلى أبي يحيى يَغْمراسنَ يأمُرُه بلقائه، وبالدّخول تحتَ لوائه، فوصَلَه جوابُه يُعرِّفُه أنه تحتَ طاعتِه، وداخلٌ في جملة جماعتِه، غيرَ أنه لا يصلُ إليه ولا يَلقاه، لأجْل ما كان معَه من بني مَرِينَ أعدائه، لكنْ يبعَثُ معَه جُملةً وافرة من بني عبد الوادي إخوانِه وجماعتِه يكونونَ تحت رايتِه، فأقسَمَ السّعيدُ أنه إن لم يصلْ بنفسِه إليه وإلّا نزَلَ بمحَلّتِه عليه، فوقَعَت بينَهما منازعةٌ في ذلك ومُنافرة، انجلَت عن مُقاتلةٍ ومحاصَرة، فرحَل السّعيدُ بمحَلّتِه إلى جهته، فوسَّع أمامَه، حين تحقَّق إلمامَه، وطَلَع إلى تامجردتَ جبَلِه بعساكرِه وأهله، فلمّا حصَل أبو يحيى يَغْمراسنُ بجِباله، معَ خَيْله ورِجاله، بعَثَ إلى السَّعيد أيضًا أرسالَه يطلُب منه الـمُهادنةَ والمصالحة، فامتَنع وقال: ليس إلا المكافحة، فتبِعَه بالطّلوع إلى تلك الجبال، التي ليست في مسالكِها للحرب في الحِيَل مجال، وقد ضبَطَ تلك المضائقَ من بني عبد الوادي أنجادُ الرجال، فاجتَمع أشياخُ الخُلَّط في نحو ألف فارس مدَّرِعين، وتأخَّروا عن الطلوع معَه مُمتنِعينَ ومجتمِعين، وقد كانوا أشاروا عليه بالرجوع حين رام الطّلوع، وقال له وزيرُه ابنُ عَطّوش مثلَ ذلك حين عايَنَ تلك المضائقَ في المسالك ومنَعه فما امتَنَع، وبادَرَ

(١) هكذا في الأصل، والجادة: آلافٌ.

(٢) هكذا في الأصل، والجادة: أعدادٌ.

لنفسِه بالطلوع وما ارتَـجَع، وقال له حين صَدَّه عن ذلك بكلامِه: ادخُلْ هنا إن أنت ظننتَ، وأشار له بإحدى أكمامِه، فترجَّل الوزيرُ وتقدَّم أمامَه وقد جَرَّد حسامَه، فرمَى بنفسِه في المهالك، في مواضعَ لا يقدِرُ أن يسلُكَها سالك، والسّعيدُ يَقْفو أثَرَه غاضبًا، على بغلِه راكبًا، وأمامَه عَلَمُه المنصور، بل كان في الحين مهزومٌ ومكسور، وذلك أنه لـمّا حصَل في تلك المضائق وبينَ تلك الجبال الشّواهق، أقبلَت عليه خَيْلٌ ورِجالٌ وانصبّت عليه كالصّواعق، فأولُ مَن مات: الوزيرُ المذكور وصاحبُ العَلَم، وقُتل السّعيدُ في الحين وجَرَعَ كأسَ الحِمام، وانهزَم جيشُه أعظمَ انهزام، وتفرَّقت عساكرُه كلَّ التفريق، وتمزَّقت أحوالُه كلَّ التمزيق، واستَولَى الخُلَّطُ في محلّتِه في أول الحال، معَ بني عسكرٍ ونهَبوا فيها جُملةَ أموال، وذلك قبلَ أن يصلَ بنو عبد الوادي إليها، وقيل: إنهم كانوا تَوافَقوا معَ الخُلَّط عليها وباعوها منهم، هكذا ذُكِرَ عنهم، وتفرَّق أهلُ محلّة السّعيد أيديَ سبا، وقد أكلَتْهم الأرضُ نُـهَبًا، ولا عاد منهم أحدٌ إلا منهوبًا مفلولًا مسلوبًا، وكان مقتلُ السّعيد يومَ الثلاثاء مُنسلَخَ صَفَر من عام ستة وأربعين، عَفَا اللهُ عنهم أجمعين.

وقتلُ كانونَ كان قبلَ السّعيد بيوم، وقيل: في يوم واحد، وتقدَّم على العَرَب أخوه يعقوبُ بن جرمون، وبقيَ في خِدمة المرتضَى أيامًا عديدةً في المنزلة الرفيعة، فدخَل بينَه وبينَ ابن أخيه محمد بن كانون وُشاةٌ حتَى قَتلَه، وحكايتُه طويلة، فطلَبَ أخواه: مسعودٌ وعليّ أخْذَ ثأرِه بالغرب فلم يُمكنْهما ذلك، حتّى احتالا عليه فرحَلوا كلُّهم يومًا من الأيام واشتَغل الناسُ بأخذِ المنازل فطلَبا أخْذَ الثأر ذلك اليومَ لإمكانِه إيّاهما لتفرُّق الناس للصَّيد والنّزول، فانصَرفا عن عمِّهما وبَعُدا عنه حتّى رأياه نزَلَ على بئر ليتوضّأَ، فجاءاه مُسرعَيْن معَ عبدٍ لهما يسمَّى مُساعدًا وبعضِ رجالِه، فتقدَّم مسعودٌ أمامَه لأنه كان يَأمَنُ غائلتَه ويَعرِفُ حِلمَه وصَفحَه، وكان قد خَلَع خفَّه الواحدَ ليتوضّأ، فحَمَل عليه وقال: ثأرُك اليوم يا محمد، فقَتَلوه ودخَلوا دَخِيلًا على العَرَب ألّا يُعينوا عليهم، فغفَروهم ومنَعوهم، وتقَدَّم بعدَ ذلك وَلَدُه عبدُ الرحمن فلم يَنجَحْ، ثم بعدَ ذلك عمُّه عُبيدُ الله ثم مسعودٌ، وذلك على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى(١).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٤٥٠-٤٥٣.

ذكرُ خلافة أبي حَفْص الـمُرتضَى رحمَه الله(١)

نسَبُه: هو أبو حَفْص عُمرُ ابن السيِّد أبي إبراهيمَ ابن أميرِ المؤمنينَ أبي يعقوبَ يوسُفَ ابن الخليفة عبدِ المؤمن.

مدةُ خلافتِه: ثمانِ عشْرةَ سنةً وتسعةُ أشهر واثنانِ وعشرونَ يومًا أولُها يومُ الأربعاء غُرّةُ ربيع الأول من عام ستة وأربعين، وآخِرُها يومُ السّبت الثاني والعشرينَ لمحرَّم سنة خمس وستين، وقُتل بدَكّالةَ في الثاني والعشرينَ من شهر صَفَرٍ بعدَه.

وُزراؤه: منهم أبو محمد بنُ يونُس وأبو عبد الله محمدُ بن عبد الله الجنفيسيُّ وأبو زيد ابن عَزّوز وأخوه السيِّد أبو إسحاقَ وأبو زَيْد بن بَخِيت التينمليُّ وأبو زيد بن عبد الكريم الجدميويُّ وأبو يوسُفَ بن تيجا الجدميويُّ وأبو موسى بن عَزّوز الـهَنْتاتيُّ وأبو زيد بن يَعْلُو الكوميُّ وأبو محمد بن أصناج، ولم يجتمِعوا في وقت واحد إلا بعضُهم، واختارَ لهم لـمُصاهرته أبا سعيد بنَ تيجا وأبا موسى بنَ عَزّوز فأعطاهم بناتِه.

كُتّابُه: أبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ وأبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ وغيرُهما.

وحُجّابُه: القائدُ سعدٌ وغيره.

صفتُه، على ما أخبرَ به أبو عِمران بنُ تيجا وغيرُه: معتدِلُ القامة ساطعُ البياض عالي الأنف أسيلُ الخَدِّ ألحَى، أشيبُ لا يخضِبُ بحِنّاء ولا غيرِه.

ذكرُ السببِ في بيعتِه

لـمّا تحرَّك الخليفةُ السّعيدُ إلى تِلِمْسان ترَك أبا حفص الـمُرتَضى واليًا على مدينة سَلَا بعدَما كان على أَغْماتَ واليًا، وترَكَ أخاه السيِّد أبا زيد واليًا على مدينة مَرّاكُش، وكان أبو حفص رحمَه اللهُ شديدَ الوَرَع قليلَ الطّمع، فلمّا وصَل الخبرُ إلى مَرّاكُش بوفاة السّعيد وهزيمةِ عساكرِه وطائفتِه ونَهْب محلّتِه وتفرُّق الموحِّدين، اجتَمع السيّدُ أبو زيد المذكورُ معَ مَن حضَر من أشياخ الموحِّدين يتفاوَضُونَ في مصالح الأمور، فأراد بعضُهم أن يقدِّم السيّدَ أبا زيد المذكور، فامتَنَع وتورَّع، وأراد آخَرونَ تقديمَ غيرِه من بني عبد المؤمن،

---

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام ١٥/ ١١٩، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨.

وكان في الوقت جماعةٌ منهم حاضرون، فقام أبو عبد الله محمدُ بن عبد الله الجنفيسيُّ قائمًا وقال: غَفَلتُم يا جماعةَ الموحِّدين عن السيِّد التَّقيِّ العالِـم الزَّكيّ أبي حفص في رغبتِكم له في الولاية عليكم أمرَ الخلافة، وتُبايعونَه لطهارته وصِيانته، فضَجَّ الموحِّدونَ بالتَّلبية سَمْعًا وطاعةً مُغتبِطينَ مُرتبِطينَ طائعينَ مُسرِعين، فبايَعَ مَن حضَر منَ الموحِّدين لأخيه أبي زيد نيابةً عن أخيه، وتوقَّف عبدُ الله بن يونُس عن بيعته حتى ذَكَر شُروطًا أوجَبَت بعدَ ذلك قتلَه، وكُتِبت البيعةُ لأبي حفص الـمُرتضَى بمَرّاكُش، وتوجَّه بها الحاكمُ ابنُ أصلماطَ فلقيَ السيّد أبا حفص مُقبِلًا من سَلَا معَ بعض الموحِّدين وأشياخ العَرَب بتامَسْنا، فعندَ وصُوله إليه بادَرَ لمبايعته وأخرَجَ بيعةَ أهل مَرّاكُش، فضُرِبت خِباءٌ لاجتماع الناس على قراءة البيعة المذكورة إذ لم يكنْ هناك غيرُها، فقُرئت البيعةُ وانتشَر أمرُها، وبايَعَه مَن حضَر، فمن حينِه نَهى وأمَر، ثم وصَله ابنُ يونُسَ في الطريق ولم يكنْ عالـمًا بمقالِه، فقدَّمه وزيرًا وقدَّم يعقوبَ بن كانونَ على عَرَب بني جابر وأقرَّ له ببلادِه على بُغيتِه ومُرادِه، وكان يعقوبُ بن جرمونَ قد تقدَّم على عَرَب سُفيانَ كما تقدَّم.

ثم استمرَّ مشْيُه على هيئة المملكة بوُزراءَ وأُمراءَ من العَرَب وبعض المتجنِّدين والقَرابة والخُدّام، غيرَ أنه لم يكنْ بطُبول ولا أعلام، فلمّا قرُبَ من حضرة مَرّاكُش خَرج إليه أشياخُ الموحِّدين بجِهازاتٍ جميلة وكُسًى حَفِيلة وخُيول وطُبول وبُنود وجُنود، فنزَل بموضعِه ببُحيرة الطَّلبة ورياضِها المختصّ به على القِدَم وجميعُ الخَدَمة واقفين[1] على قَدَم، حتى[2] استوْفَت أغراضُه، ودخَل حضرتَه في أجمل زِيّ وأبهى حَلْي.

ولـمّا استقرَّ المرتضَى رحمه اللهُ بحضرتِه واجتَمع الناسُ على طاعته، والدخولِ في جماعتِه، نَظَر أشغالَه وتفقَّد أحوالَه وعُمّالَه، فأمَرَ بالقبض على بعض خُدّام السَّعيد فقُبِض على حاجبِه القائد أبي المِسْك وعلى خاصّتِه أبي زيد ابن البَقّة، ووقَعَ البحثُ على غيرِهما فعُثِر على مَن قدَّر اللهُ عليه بمحنتِه ونَكْبتِه، وسَجَنَ الحُرَّةَ عزونةَ أُختَ السّعيد وأَغْرَمَها مالًا كثيرًا وحَلْيًا خطيرًا، ثم وصَل السيِّدُ أبو إسحاقَ أخو المرتضى من سِجِلْماسةَ إلى

(١) هكذا في الأصل، والجادة: «واقفون».

(٢) في ق، ك، ب: «ثم».

مَرّاكُش، إذ كان استقرارُه بها من بعدِ الهزيمة، بعدَما رأى في طريقه مشقّةً عظيمة، فأكرَمَه أخوه بما يجبُ له من الإكرام، وعظَّمه غايةَ الإعظام، فقد كان أكبرَ سنًّا منه فوجَب له عليه التكريمُ والتعظيم، وقدَّمه على الوِزارة والنّظَر في الأمور، وأمَرَ قارئَ العُشْر[1] أن يقرأَ يومَ الجُمُعة: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي (٢٥) وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي (٢٦) وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي (٢٨) وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي (٣١) وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٥-٣٢]. وكان ابنُ يونُس وزيرُه حينَئذٍ قد قال لأشياخ الموحِّدين حين شَرَعوا في كَتْب البيعة: تشترطوا على أبي حفص ألا يُقدِّم أخاه وزيرًا، فكان ذلك وغيرُه سببًا من أسباب تأخيرِ ابن يونُسَ عن الوِزارة، وخروجِه من دارِ الإمارة، بحُسن التدبير والإدارة، إلى حين مقتلِه على ما أذكُرُه في موضع خبرِه وأمرِه إن شاء اللهُ تعالى[2].

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ستٍّ وأربعينَ وست مئة: استَولَى الأميرُ المعظَّم أبو يحيى بنُ عبد الحقِّ على رِباط تازَا، وهُو أولُ فتحِ بني عبد الحقّ أعزَّهم اللهُ تعالى في تملُّك قواعدِ البُلدان، وكان فتحُها واستيلاءُ بني مَرِينَ عليها ودخولُهم إليها على يد الأمير المعظَّم الأعلى أبي يوسُف بن عبد الحقّ، فهو الذي تعاهَدَ معَ أهلها وأعطاهمُ الأمنَ والأمان، وأفاضَ عليهمُ العدلَ والإحسان، وذلك لـمّا توجَّه السَّعيدُ بعساكره إلى جهة مدينة تِلِمْسان واستعمَلَ صُلحًا معَ الأمير أبي يحيى ابن عبد الحقّ، وطلَب منه الإعانةَ بحِصّة من بني مَرِينَ يتوجَّهونَ معَه تحتَ لوائه ليستعينَ بهم على أعدائهم بني عبد الوادي وأعدائه، فتوجَّه معَه جماعةُ بني عسكر على ما ذُكِر وتَركوا بِرباط تازَا مَراهنَهم، وبقيَ بَنو عبد الحقِّ مستوطِنينَ بجهة بلاد الرِّيف حيث كانت مواضعُهم ومساكنُهم، فاستأمَنَ منهم السعيدُ، وانصَرف راحلًا إلى تِلِمْسان، فكان مِن أمرِه معَ يَغْمراسنَ بن زَيّان ما تقدَّم ذكرُه وكان.

فلمّا وصَل إلى الأمير أبي يحيى الخبرُ بهلاكِه وقَتْله وتبدُّد أحوالِه وخَيْله ورَجْله، وأكْلِ العَرَب وغيرهم لمحَلّتِه وتبديد أموال أهلِه وجُملتِه، وتفريقِهم وتمزيقِهم حين وقَعَت

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٢٥٢-٢٥٣.

الهزيمةُ عليهم، رحَل معَ إخوانِه بني عبد الحقِّ وبني مَرِين ومنِ انضافَ إليهم وتعرَّض لهم بجُموعِه على شوارع الطريق، وقد فرَّق اللهُ عسكرَ السّعيد أيَّ تفريق، فكانت لهم الغنيمةُ الباردةُ العظيمةُ الفائدة، من غيرِ طَعْن ولا ضَرْب، ولا قتالٍ ولا حرب، وهكذا جَرَت العوائد، مصائبُ قوم عندَ قوم فوائد، فكانوا يَصِلونَ إلى أيديهم قومًا بعدَ قوم ويومًا بعدَ يوم، فيأخُذونَ أثقالَهم ودوابَّهم، ويَستأصِلونَ أموالَهم وأسبابَهم، حتّى امتلأت أيديهم من أموال الموحِّدينَ وأجنادِهم، ووصَل بنو عسكرٍ أيضًا إلى بلادِهم، فاجتَمع بنو مَرِين على أميرِهم كبيرِهم وتوجَّهوا إلى تازَا حيث كان مَراهنُ أولاد بني عسكرٍ وغيرِهم، فنزَلُوا بجموعِهم عليها وأرسَلوا أرسالَهم إليها، وكان واليَها السيّدُ أبو عليّ أخو السيِّد أبي العُلى إدريسَ الشهيرُ بأبي دَبّوس، فبعَثَ إليهم الرجُلَ الصّالح أبا عليّ سالـمًا، وطلبَ الاجتماعَ بأبي يوسُف، وكان به وبمذهبِه عالـمًا، فاجتَمع معَ الأمير المعظَّم أبي يوسُف وتعاهَدَ معَه على أنه لا سبيلَ أن يتعرَّض مَرِينيٌّ لتازِيّ بمَضَرّة، فارتَهنَ الأميرُ أبو يوسُفَ له في ذلك ووافَقَ عليه فكان كذلك، وعاد إلى البلد أبو عليّ سالم، وخَرَج السيّدُ منها بأهلِه سالم، ودخَل بنو مَرِين وبنو عبد الحقِّ إليه، وبايَعوا للأمير أبي يحيى واجتَمعوا عليه، وطاع له قبائلُ تلك الجهات كلِّها، وبايَعَه أهلُ رَبْطِها وحَلِّها، ويسَّر اللهُ فتحَ تازَا لبني عبدِ الحقّ الكرام، على يدِ الأمير أبي يوسُفَ بتيسيرٍ[1] مُرام، فهو كان قُفلَ البلاد الغَرْبية فصار مِفتاحَها وأولَ فتوحها لهذه الدّولة الـمَرِينية[2].

ولـمّا استقرَّ الأميرُ أبو يحيى برِباط تازَا قَرَع الطّبول ونشَر البُنود وسارت إليه من كلِّ الجهات أشياخُ القبائل بالوفودِ والورود، وقد كان قبلَ ذلك أميرًا على بني مَرِين منذ أربعة أعوام، دونَ طُبول ولا أعلام، وكان قد وَعَد أخاه أبا يوسُف أن يُعطيَه ذلك البلد، فلمّا يسَّر اللهُ فتحَه على يدَيْه أنجزَ له فيما وعَد، فكان رِباطُ تازَا بلدَ أبي يوسُف من حينئذٍ، وقد كان أعطى للصّالح عهدَه، فسَلَّم له فيها أخوه أبو يحيى وتحرَّك بعساكره إلى مدينة فاسَ فنزَلَها، وبعدَ مدّةِ أشهُر من فتح تازَا استوَلَى عليها ودخَلها في الثامنَ عشَرَ

(١) سقط شبه الجملة من ق، ك، ب.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٢٥٣.

لربيعٍ الآخِرِ منَ السّنة، وطاعت له جميعُ أقطارِها وأنظارِها، وقدَّم عليها المسعودَ بن خَرْبش الحَشَميَّ فاستَوطنَ قَصَبتَها معَ جُملته وأهلِه إلى أن كان ما كان فيها من حتفِه وقَتْله على ما أختصِرُه في السّنة الآتية إن شاء اللهُ تعالى.

اختصارُ الخبر عن وفاة أبي زكريّا الـحَفْصيّ(١)

وذلك أنه لـمّا اتّصل به عن أبي الحَسَن السّعيد أنه يَرُومُ الحركةَ إليه والقُدومَ بعساكرِه إليه، قاصدًا من حضرتِه الـمَرّاكُشيّة إلى تلك البلاد الإفريقيّة، خَرج من حضرتِه التونُسيّة في سنة سبع وأربعينَ قاصدًا أيضًا إلى جهة البلاد الغَرْبية، فقد كان يحدِّث نفسَه بالورودِ عليها(٢) والقدوم بعساكرِه إليها، فتوجَّه بالعَزْم والحَزْم من حضرته في غاية الاستعداد، بعدما استَوفَت عليه الحشودُ من العَرَب والأمداد، وتألَّفَت عليه آلافٌ من الأعداد، فقد كانت عَرَبُ تلك البلاد، انقادَت له أعظمَ انقياد، فتَمادَى مشْيُه بتلك العَرَب المتكاثرة إلى جهة بلد العُنّاب وبها أصابَه من الألمِ ما أصابَه، ونابَه منه ما نابَه، وكان وَلَدُه الكبيرُ أبو يحيى، قد عَدِم ببِجَاية الـمَحْيَا، فزاد تألُّـمُه منه وارتيابُه، وأضرَبَ عن الحركة كلَّ الإضراب، وصَرف أكثر ما كان معَه منَ الأعراب، وبقيَ بألـمِه بتلك الجهات، متلوِّمًا في السُّكونِ والحركات، وللظَّفَر أوقات وللقَدَر تصرُّفات، إلى أن قدَّر اللهُ عليه بعدَ ذلك بالمَمات، وذلك بعدَ نحو أربعة أشهر من موتِ ابنه أبي يحيى الفقيد، فخيَّبَ اللهُ ظنَّه وظنَّ السّعيد، وماتا في طريقهما ولم يبلُغا أرَبَهما، وقيل: إنه كان بينَ موت السّعيد وموت الأمير أبي زكريّا سنةٌ واحدة وأشهر(٣).

ومن الاتّفاق الغريب أنه لـمّا مات ببلد العُنّاب كان أولادُه بتونُس، فأمَرَ أن يُنادَى على قبرِه: الصَّلاةُ على الغريب، وكان لهذا الأمير أبي زكريّا من الأولاد الذكور أربعة، منهم: كبيرُهم أبو يحيى الذي كان وليَّ عهدِه توفِّي في حياته كما تقدَّم ذكرُه، فلم يتمالَكْ صبرًا من بعدِه على فَقْدِه، فقد كان قَدَّر أنه وارثُ فَخارِه ومجدِه، وكان وَلَدُه أبو عبد الله

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٤٠٠.

(٢) في ق، ك، ب: «إليها».

(٣) في ق، ك، ب: «وشهرًا».

وأخوه أبو حَفْص بتونُسَ وأُمُّهما رُوميّة وأخوهما أبو إسحاقَ معَهما وأُمُّه عربية ريَاحيّة، فلم يحضُرْ أحدٌ منهم وفاتَه، بل كلٌّ منهم غاب عندَ وفاته. وكان حينَ توفِّي وَلَدُه أبو يحيى حَزِن عليه حُزنًا شديدًا، وجَزِع على فَقْدِه إلى أن صار في أثرِه فقيدًا، فوجَّه له هذا الرثاءَ فيه [من الطويل]:

ألا جـازعٌ يبكـي لفَقْـد حبيبِـهِ ... فـإنّي لعَمْـري قـد أضرَّ بيَ الثَّكْـلُ
لقـد كـان لي مـالٌ وأهـلٌ فقـدتُهمْ ... فأصـبحتُ لا مـالٌ لـديّ ولا أهـلُ
فلَهْفـي لقـوم فـرَّق الـدهرُ شـملَهم ... ألا راحـةٌ تُرجَـى فينـتظمُ الـشّملُ
سـأبكي وأبكـي حـسرةً لِفـراقِهمْ ... بكـاءَ قَـريح لا يمَـلُّ ولا يَـسْلو
وإنّي لَأرضى بالقــضاءِ وحُكمِــه ... وأعلــمُ ربّي أنــه حــاكمٌ عــدْلُ

وكان الأميرُ أبو زكريّا رحمه الله مَلِكًا مُطاعًا وبطلًا شُجاعًا مُشاركًا في العلم للعلماء، ومدبِّرًا للأمورِ بالمعرفة والدّهاء، مُطابِقًا للأُدباء النُّبهاء، فذًّا في البلاغة والبراعة بارعَ النّظم والنّثر حسَنَ الألفاظ في البُلغاء، كثيرَ الأدب واللّغة في طبقات الشّعراء، وقد أثبَتُّ هذه الرّسالةَ النبويّة ليُستدَلَّ بها على فضلِه وبديع قولِه رحمه الله تعالى:

ذكرُ الرِّسالة النبويّة التي أنشأَها الأميرُ أبو زكريّا إلى الحضرة الشريفة حضرة خيرِ البرِيّة ﷺ

إلى سيِّد المرسَلين، وسنَدِ المُبْسلين، الرؤوفِ بالمؤمنين، الموصُول من سببِه متين، الآخِذ بالحُجَزِ عن النار، الباني من طُرُق النّجاة أرفعَ منار، العاقبِ الحاشر الطاوي الناشر، الكالئ الحافظ، المُعْرَض عليه الجنة والنار في عرض الحائط، المنعوتِ في التوراة والإنجيل، المحميّةِ ذُراه بحجارة من سِجِّيل، مَطلَع المعجزات غُرًّا ساميةً كبنات بَخْر، سيِّدِ ولدِ آدمَ ولا فَخْر، الذي نبَذَ الدنيا وفلَّ شَباها، وشدَّ على بطنِه الحجرَ ولو شاء لتَبِعَه ذهبًا وفضّةً أخشباها، فصالَ بالشِّرك وسَطًا، وجعَلَنا اللهُ به أُمةً وسَطًا، ذو[1] الخُلُق العظيم، والقلبِ السَّليم، المُلقَّى القرآنَ من لَدُن حكيم عليم، أشدِّ مَن رامى، وأسدِّ الناس مَراما،

---

(١) هكذا في الأصل، والوجه: «ذي».

وأصدَعَ عندَ الألباس، وأشجَعَ على حين يحمَرُّ الباس، وأثبَتَ والمقامُ دَحْض والموتُ عَضّ، وأبرَّ من حمَلتْه ناقة، وأوفى من شَدَّ إليه راحلٌ شِناقَه، أرْوَى من عَجْفاءِ أُمِّ معبَد، وترَكَ نُورَ الإسلام وهو معبَّد، فجدع مَن خدع، وحنَّ إليه الجِذعُ وختم به الأزلم الجدع، النبيِّ لا كذِب، محمدِ بن عبد الله بن عبد المطّلب: من عبد الله يحيى بن عبد الواحد بن عُمر، سلامٌ عليك أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبرَكاتُه.

وعلى أنورِ[1] وأكرم خليليْنِ في الـمَحْيَا والمَمات، الثاني في الغار، المتعلِّق منَ التصديق بالسببِ المغار، الثابتِ حين جَفَّ الرِّيقُ والوريق، الهاجِدِ وكلٌّ نائمٌ وناظره أريق، والمؤنَس في العريش يومَ النفْخ المهتدي حين جارَ هادي الطّريق، فجعَلَها بينَ الفجر والبُجْر، الذي عُرِض عليه الإسلامُ فلم يتلعثَمْ، وسَفَر عنه وجهُ الإيمان فلم يتنقَّبْ بعدُ ولا تلثَّم، وشَرى الباقي فشار معسولَه، وأنفَق مالَه فلم يترُكْ لنفسِه إلا اللهَ ورسولَه، والـمُغضي عن العاجِلة وقد حَدَّقت إليه كلَّ التحديق، أبو[2] بكر عتيقٌ الصِّدِّيق.

وعلى مُحلِّي الأعصار ومُجلِّي الإعصار، وممصِّر الأمصار، مُبيد العدوِّ الأزرق بمُزَعْفَرِيِّ الأُسُود، وبني الأصفر بالكتائب السُّود، مُنشي عمائم الفتوح كأيمن الصّوب على قَطَن، الذي لم يُرَ مَن يَفْري فَرْيَه حتّى ضَرب الناسُ بعَطَن، الساعي بغَيْرته على منازلِ عترتِه واللّيلُ بهيم، الـمُنزَلِ القرآنُ بمُوافقته في أسرى بدرٍ والحِجاب وتحريم الخمر ومقام إبراهيم، جُعِل الحقُّ على لسانِه، ونورُ الـمُحَدَّثينَ في جَنانِه وإنسانِه، فرُدَّ عن مُنافقةِ الخطاب، وأصفَى خطابَ الإيمان وأطاب، أبو[3] حفص الفاروقُ عمرُ بن الخَطّاب [من الطويل]:

سلامٌ كعَرْف الرَّوض بـاكَرَه القَطـرُ ... إذا مـا خَطَـا قُطـرٌ تَداوَلَـه قُطـرُ

تحيّـةَ مـن قـد قـسَّم الـشوقُ قلبَـه ... ففـي طِيبـةٍ شـطرٌ وفي تـونُسٍ شـطرُ

أطارت قسِيُّ الـشوق أفـلاذَ صـدرِه ... فللّـه مـا أودَى بـه ذلـك الأُطـرُ

كأنّ النَّـوى لم تُـصْمِ غـيرَ جَـوانحي ... فـوا كبِـدي لـو دَرَّ لي ذلـك الـشّطرُ

---

(١) بعد هذا في ق، ك، ب: «سمات بسمات نسمات».

(٢) هكذا في الأصل، والوجه: «أبي».

(٣) هكذا في الأصل، والوجه: «أبي».

وكـــلٌّ يـــزِفُّ المجـــدُ آمالَـــه لـــهُ   ومـــا ليَ منـــه لا عَـــروسٌ ولا عِطـــرُ
أيُقعِـدُني يـــا خـــاتَمَ الرُّســـل خـــاتَمٌ   مـــن البُعـــد في قلبـــي لـــهُ أبـــدًا فطـــرُ
ومَن لا يـذُدْ بـالعزم يقـصُرْ بعجـزِهِ   لقـد بَسَـقَ العيـدانُ واتّـضع الفطـرُ
ولـــو كنـــتُ مختـــارًا لنفـــسي منيّـــةً   لَـما ناب في تَرحاليَ الطِّرسُ والـسَّطرُ
جِيادي جِيادي لا تصومي على عمًى   أمالَـــكِ إهـــلالٌ بطيبـــةَ أو فِطـــرُ
فكـم ضـامرٍ نـادى الغـرابُ غرابَـهُ   ألَا في سـبيل الله مـا غـيَّر الخطـرُ
وكـم سـاربٍ يَسري لهـا سرُّ بالِـهِ   مخافـةَ أن يـضحي وسِربالُـه فطـرُ

تحيّةَ توّاق وإن أنهضَتْه آمالُه بَهظَتْه أعمالُه، أو دعاه بالُه عَداه وَبالُه، أو جُدّت عقائقُه، جُذّت حقائقُه، فهو ذو فؤاد منخوب من الحُوب، مُقفِر من العزائم إقفارَ ملحوب، نادمٌ نادبٌ على الأحيان، مؤمِّلٌ خُلوصَه تخلُّصَ ثابتٍ من لِحيان، فلو سَما به العَزْم، عن وَهدْة الأَزْم، لأظلّته التّوبة، ونضَحَت ثوبَه، ولو أعرَقَت مطاياه، لَـما أغرَقَت خطاياه، فالراغبُ إذا طام ضامَ الإهضام، وشمَخَ عنه أنفُ الطّنف، وثبَت له أيد الريد.

وبعدُ، أيُّها المبعوثُ للعباد من أنفَسِهم، الأَوْلى بالمؤمنينَ من أنفسِهم، فإنّا نَدعوك لتدفَع عنّا عائدَ هذا الخَوْض، إذ كنتَ فَرَطَنا على الحَوْض، ونستشفعُ بكَ يومَ الـمَساق والكشفِ عن الساق، ونستجيرُ بك من مناقشة الحساب يومَ لا أنساب، وندرأُ بكَ هولَ العَرْض، يومَ تُبدَّلُ الأرضُ(١) غيرَ الأرض، أُناديك بشَرَفِ ناديك وأياديك، لعلّ سِجْلًا من أياديك [من الطويل]:

مُعفَّـرَ ليـث الغَيْـث وهْـو مزعفَـرٌ   مقلِّـم أظفـار الـشّكوك الخَـوالجِ
ومُنقـذَ مـن قـد أوبقَتـه ذنوبُـهُ   ولـو كـان يُملهـنّ مـن رمـل عـالجِ
إلى كم يُـصيبُ الـسَّهمُ غـيرَ مـسدَّدٍ   فيا ليتَ شعري هل يُرى غـيرَ زالـجِ
أأظمـأُ والـسُّقيا إليـك دوالـحٌ   تطلَّـعُ عـن غُـرٍّ سـوار دوالـجِ

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

وإنّ أحــقَّ النــاس بــالفوز قاصــدٌ | يُعالجُ أسبابَ السُّرى فـوقَ عـالجِ
فإن خَلَجت تلك الـذنوبُ فـلا تـنَمْ | لعلـك تنجـو قبـلَ إظـلال خـالجِ
وتنـسُبني الأيـامُ للعجـزِ جهـدَها | وما ليَ من ذنـب سـوى ذنـبِ فـالجِ
ألا عزمـةٌ يـا خـاتَم الرسْـل تَنْبري | ألا نهـضةٌ تعتـادُني دونَ خـالجِ
ومـن بعـدِ ذاك العـدِّ يـصدا مُحلِّيًـا | فـأُلقي بـدلو بـين دالٍ ودالـجِ
لقد خـاب قِـدْحًا مـن تـأخَّر قِدحُـهُ | فمَـن لي بقِـدحٍ يـا محمـدُ فـالجِ

على أنّي يا رسولَ الله لم آلُ جُهدًا في طاعتِك التي بها نهتدي، ولا أغفَلتُ فريضةَ جهاد أرُوحُ عليه وأغتدي، فمتى أحسَستُ نَباةً بادرتُ إليها، فقد قلتَ صّلى الله عليك: «جهادُ يوم خيرٌ من الدّنيا وما عليها»، فإن تأخَّرتُ عن زيارتِك إقدامًا فقد أعملتُ في عَضُد سُنّتِك أقدامًا، وإن لم أنتبِهْ، فإنّي يقِظٌ لِـما جئتَ أنت به، وإن لم أرد من تلك الشريعة، فإنّي بانٍ دفاعي عن شريعتِك بكلِّ ذريعة، في بلاد تَجادعُ أفاعيها، ويَصَمُّ واعيها، ولا يُجابُ إلى شِقاق واختلاقٍ داعيها، فقد صارت الـمَواسطُ تَغورُ فتنتُها وتُنجِد، وتركعُ فيها المواضي إلى محاريبِ السّنابكِ وتسجُد، وقد أوَى كثيرٌ من بلاد الإسلام إلى ذمّة الصَّليب، ولم يأخُذْ أهلُها من الرأي والأَناة بنصيب، فوقَفْتُ دونَها لا رغبةً عن مهوَى أفئدة العباد، ورعَيْتُ هدونَها لا تثاقلًا عن بيتٍ سواءٌ العاكفُ فيه والباد، ورابطتُ أطرافَها لا عَجْزًا عن البيتِ العتيق، وبقيتُ أخبِطُ في غَسَقِها وإنّي لَفقيرٌ إلى نُور ذلك الفتيق، مدّخرًا ذلك تجارةً لن تَبور، مجيِّرةً بك عندَ الله تعالى يوم يُدعى الثُّبور، ويُبعَثُ مَن في القبور، ثم السلامُ عليكَ وعلى آلِك وحالي جلالِك ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه.

*   *   *

ولما توفِّي الأميرُ أبو زكريّا ببلد العُنّاب[١] وبويعَ وَلَدُه أبو عبد الله بتونُس وتسَمَّى بأمير المؤمنين المستنصِر بالله، وكان والدُه يُدعى بالأمير وعُمرُ أبي عبد الله إذ ذاك إحدى وعشرونَ سنةً أو نحوَها، وتوفِّي سنةَ أربع وسبعين، فكانت ولايتُه في خلافته سبعًا

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٦٨ و٦/ ٣٢ وهو من بلاد إفريقية.

وعشرين سنةً أو نحوَها، وبعدَ سنة وأشهر من ولايته أراد بعضُ الموحِّدين أن يخلَعوه واجتَمعوا على عمِّه أبي عبد الله اللِّحيانيِّ وبايَعُوه بيعةَ الخاصّة وهو قاعدٌ في دارِه والموحِّدونَ معَه يتفاوَضونَ في أمرِه، إلى أن دخَل على المستنصِر عِلجُه ظافرٌ الكبير وأعلَمَه بما وقَع في دار عمِّه من التدبير، فأمَرَه باستدعاءِ بعض الفُرسان، وحضر ابنُ أبي الحسين خاصّته، وأبي جميل[1] زَيّان بن مُرْدنيش وغيره من رؤساءِ الأندَلسيِّين، واجتَمع مَن كان في القَصَبة من أهل الدّخلة وخَرجوا على باب الغَدْر ودخَلوا على باب البلد الـمُوالي لدار أبي عبد الله المذكور، فدخَلوا عليه بعدَما كان الأمرُ عندَهم في المبايعة مشهورًا مذكورًا فقَبَضوا عليه وقَتلوه وقَتلوا كلَّ مَن كان حضَر في تلك القضيّة، واجتَمَعت من رؤوس تلك الجماعة سبعٌ وأربعونَ رأسًا وحُمِلت إلى القَصَبة، وعايَنَ المستنصِرُ رأسَ عمِّه فتأسَّف عليه حينَ سِيق إليه ثم أمَرَ بدفنِه وبتعليق تلك الرؤوس على السُّور، فتمهَّدت مملكتُه واستقامت له الأمور.

وفي سنة سبع وأربعينَ وست مئة: كان استيلاءُ الأمير أبي يحيى ابن عبد الحقِّ على حضرة فاسَ بعدَ حِصارها مدةً من السّنة الفارِطة وقتالِـها، وكان لـمّا ملَكَها وملَكَ أقطارَ سهالِـها وجبالِـها وَلّى عليها السعود[2] بنَ خَرْبَش الحَشَميَّ، فاستَوطَن قَصَبتَها بأهلِه ومالِه ووَلَدِه وعيالِه، وكان الأميرُ أبو يحيى ترَكَ معه فيها زوجَه التي اسمُها فَتّوحةُ بحَشَمِها وخَدَمِها، وكان بفاسَ حينَئذٍ نحوُ مئتي فارس من النّصارى الأجناد، كانوا قد وصَلوا إليها في العام الفارِط حين موتِ السَّعيد، فأقاموا بها معَ قائدهم المسَمَّى شديد[3]، إلى أنِ انحصَروا فيها وقُتل منهم في القتال أعداد، وكان أهلُ فاسَ استعدَّ بهم لقتال بني مَرين أعزَّهم اللهُ أيَّ استعداد[4].

فلمّا دخَل فاسَ الأميرُ أبو يحيى حَبَسَهم وحَسَمَهم من أجنادِه وتَركهم فيها معَ السعود بن خَرْبش فجاهَرَ القائدُ المذكور عليه بخلافِه وعِناده، وذلك أنّ هذا القائدَ

---

(١) يعني: باستدعاء أبي جميل، وإلا فلا تستقيم.

(٢) في م: «المسعود»، وما أثبتناه يعضده ما في تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣١.

(٣) هكذا في الأصل، والجادة: «شديدًا».

(٤) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣١.

استدَلَّ على السعود وصار يدخُل الدارَ عليه ويتردَّدُ كلَّ حينٍ إليه، فاجتَمع جماعةٌ من أشياخ البلد معَه ووافَقوه على أن يَقتُلَه، فدخَل عليه يومًا فغَدَره وقَتلَه، فلمّا اجتَمعت على قتلِه أشياخُ فاس أهلُ رَبْطِه وحَلِّه، خاطَبوا المرتَضى مجدِّدينَ بيعتَهم إليه، ومعتمدينَ في نُصرتِهم على الله تعالى وعليه، فخاطَبَهم وجاوَبَهم ووعَدَهم بإطلالِه عليهم ووصُولِه برايتِه المنصورة وعساكرِه الموفورة إليهم، وقال لهم: كونوا مرتَقِبينَ لرايتِنا ومتأهِّبينَ لإطلالِنا، فما أطلَّ عليهم ولا وصَل إليهم، فبَقُوا في انتظارِه نحوَ تسعة أشهر من حينَ قُتِل المسعود، ينتظرونَ منه الورود، حتى ضاقت أحوالُهم بالجُوع والحصار، واشتدَّ أمرُهم بطُول الأضرار، فطلَبوا العفوَ من الأمير أبي يحيى، فعَفَا عن عامّتِهم، وأغْرَم أموالًا لخاصّتِهم، وذلك أنه لـمّا دخَل إلى مدينة فاسَ جمَعَ من أهلِها ثلاثَ مئة رجُلٍ من وجوه الناس، وأغرَمَهم في الخطإ ثلاث مئة ألف دينار عَشْريّة، وضرَبَ أرقابَ ستة أُناس من أعيانِ أشياخِهم، وقيل: إنّ ذلك كان في يوم الأحد السادسَ عشَرَ لرجَب من سنة سبع وأربعينَ وست مئة المذكورة[1].

وفي هذه السنة، وهي سنةُ سبع وأربعين: قام بسَبْتَةَ الفقيهُ العالِـم، أبو القاسم ابنُ الفقيه العالِـم أبي العبّاس العَزَفيّ رحمَه اللهُ تعالى ليلةَ سبع وعشرينَ لرمضان، وكان الـمُعينَ له في ذلك والمدبِّرَ له في الأمرِ هنالك القائدُ للبحر حينَئذٍ وهو أبو العباس الرنداحيُّ، فقد كان بينَهما مودّةٌ عظيمة، وصُحبةٌ حديثةٌ لا قديمة، وذلك من حينَ وَلِـي قيادةَ البحر، وكان له فيه على الغُزاة النهيُ والأمر، وذلك أنه لـمّا خالَفت سَبْتةُ على السّعيد، ووصَلَها من تونُسَ ابنُ أبي خالد وابنُ الشَّهيد، فاستَوطَنا قَصَبتَها وأضرَّ ابنُ أبي خالد بأهلِها، وكان بينَه وبينَ القائد المذكور تغيُّرٌ في بعض الأمور، وكان بسَبْتَةَ قائدُ الفَحْص شقافٌ المشهور، الذي كان السببَ معَ قضاءِ الله تعالى في دخول النّصارى مدينةَ إشبيلِيَة، ووصَلَ منها إلى سَبْتَةَ معَ جُملة من الأجنادِ والقُوّاد، فلمّا توفِّي الأميرُ أبو زكريّا في السنة الفارِطة وتوفِّي السَّعيد، وضاق أهلُ سَبْتَةَ غايةَ التضييق من جَوْر ابن أبي خالد وتغافُل ابن الشَّهيد، اجتَمع القائدُ الرنداحيُّ معَ الفقيه المعظَّم أبي القاسم العزَفيِّ فحرَّضَه على القيام بأمرِ بلدِه وأن يُعينَه على ذلك بعَدِّه وعُددِه، والتزَم له أن يقوم بالأمر حتى يُخلِّصَه،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣١-٢٣٢.

فوافَقَه الفقيهُ على ذلك، وأمَرَه بإنجازِه في الليلة المذكورة، فاستعمَل القائدُ المذكورُ طعامًا في دارِه وعرَضَه على بعض عَمائر الأجفانِ منَ الرؤساء والقُوّاد والرُّماة والغُزاة، واستَدعاهُم لمنزِله كأنّها وليمةٌ مشهورة، ولا عَلِم أحدٌ منهم بسرِّه ولا كيفيّة أمرِه، فاشتَغل الناسُ عندَه بالسَّماع والشَّطح في الدار، وهو معَ ذلك لا يستقرُّ له معَهم قرار، وهو قد بعَثَ زعماءَ رجالِه باللّيل بعدَما كشَفَ لهم عن الحال وأمَرَهم أن يَسُوقوا له رأسَ شقافٍ وفلان وفلان، فأولُ ابتدائهم بشقافٍ المذكور فإنّهم صَاحوا في دارِه وقالوا له: الوالي بعَثَنا إليكَ يريدُ أن يجتمعَ بك في بعض الأُمور، فلمّا خَرج إليهم قَطَعوا رأسَه، وقَتلوا كلَّ مَن أمَرَهم بقتلِه، ورجَعوا إليه آخرَ اللّيل فأعلَموه بأنّهُم امتَثَلوا كلَّ ما أمَرَهم به.

فاجتَمع معَ الفقيه المعظَّم وعرَّفه بكلِّ ما كان من الأمر وما فعَلَه من قَتْل القُوّادِ والأجناد والأندلسيِّينَ وغيرِهم، وأنه أمَرَ رجالَه بقتلِهم فأخرجوهم بالحِيلة من ديارِهم وقَتَلوهم، فلمّا أعلَمَه بذلك ترَكَه قاعدًا في أُسطُوانِه بشمعةٍ أمامَه معَ بعض إخوانِه وخُدّامِه وهو يتَطايَرُ خوفًا مما يتوقَّعُ من عاقبة الأمر، ورجَع القائدُ إلى دارِه والعمائر بها يَشطَحونَ ويفرَحون ولا يعرِفونَ ما وقَع، وهم لا يشعُرون، فخَرج بهم من دارِه وتقدَّم إلى القَصَبة بعدَما ضرَب النَّفير، فاجتَمع من عَمائر الأجفانِ الكبيرُ والصغير، وشاع الخبرُ عندَ أهل البلد، فخَرجَ السُّوقُة والتُّجّار، واجتَمعوا أجمعينَ على القائد والفقيه بأُسطُوانِه مرتقبًا[1] لما يتزَيَّدُ من الأخبار، ومتخوِّفًا[2] مما يتَوقَّعُ من تصرُّف الأقدار، والرجالُ يسيرونَ إليه مرةً بعدَ أخرى، وأهلُ سبتةَ مجتمِعونَ على قائدِهم يطلُبونَ رأسَ ابن أبي خالد دونَ غيرِه؛ لأنه كان أضَرَّ بهم بظُلمِه وجَوْرِه، وابنُ الشَّهيد معه خائفٌ[3] أيضًا من حالِه وعاقبة أمرِه، إلى أن صَعِد الرَّجُلُ على سُور القَصَبة وظَفِروا بابن أبي خالد فقَتلوه وقطَعوا رأسَه وعلَّقوه على السُّور، وأُخرِج ابنُ الشّهيد المذكور ونُفي إلى الأندَلس في زَوْرق إلى أنْ وصَل بعدَ ذلك إلى تونُسَ بشهور، واستبدَّ أبو القاسم العزَفيُّ بمُلكِ سَبْتة وبقيَ بها مسرورًا، معظَّمًا مبرورًا، ولم يزَلْ أهلُ بلده يعظِّمونَه بغاية الإعظام،

(١) في م: «مرتقب» ولا تستقيم.

(٢) في م: «متخوف» ولا تستقيم.

(٣) في م: «خائفًا» ولا تستقيم.

والتوقير لجانبِه والاحترام، فهو من جِلّة الفقهاءِ الأعلام، ومن مآثرِه العظام، قيامُه بمولدِ النبيِّ عليه السلام من هذا العام، فيُطعمُ فيه أهلَ بلدِه ألوانَ الطّعام، ويؤثرُ على أولادِهم ليلةَ يوم المولدِ السّعيد بالصَّرْف الجديد من جُملة الإحسانِ عليهم والإنعام، وذلك لأجْل ما يُطلقونَ المحاضرَ والصّنائعَ والحَوانيت يمشُونَ في الأزِقّة يُصلُّونَ على النبيِّ عليه السلام، وفي طول اليوم المذكور يسمِّعُ الـمُسمِّعون لجميع أهلِ البلد مَدْحَ النبيِّ عليه السلام، بالفَرَح والسّرورِ والإطعام للخاصِّ والعام، جار ذلك على الدّوام، في كلِّ عام من الأعوام، وتوفِّي رحمه اللهُ عامَ سبعة وسبعين، فكانت مدّتُه نحوَ ثلاثينَ سنةً على ما يأتي ذكرُه في صِلة هذا الكتاب إن شاء اللهُ تعالى(١).

وفي سنة ثمان وأربعينَ وست مئة: وفَد على الـمُرتضَى بمَرّاكُش أبو عِمران موسى بنُ زَيّان الوَنْجاسيُّ(٢) من بني مَرِين، أحدُ الفُرسان الأعيان، أرسَله إليه أخوه عليُّ بن زَيّان، فأكرمَه وعظّمه، ثم انصَرف عنه مقضيَّ المآرب، مرضيَّ المطالبِ والمذاهب، ثم ورَدَ عليه أبو الحَسَن عليُّ بن زَيّان المذكور، وأخَذ معَه في بعض الأمور، فأكرَمَه غايةَ الإكرام، وأنعَمَ عليه بجزيل الإنعام، وعيَّن له مالًا معلومًا في كلِّ عام، وكان قد وصَل معَه جُملةٌ من بني وَنْجاسن، فخَرَّج لهم ما لهم على صُنهاجةَ في هذا العام، وسأله المرتضَى عن أمورِ بني مَرينَ وأحوالِـهم فهوَّن عليه الخروجَ إلى قتالهم، فأمَرَه بالتقدُّم إلى سَلَا، وكان واليَها ابنُ أبي يَعْلَى ليكونَ معَه هناك معَ مَن بها من الموحِّدينَ والأنجاد ليمنَعوا بني مَرين عبورَ الوادي إلى جهة تامَسْنا من تلك البلاد، وكان المرتضَى نظَرَ في ضمِّ عساكرِه ودبَّر في أمرِه بنواهيه وأوامرِه، ووَجَّه إلى الأندَلُس برَسْم أن يصِلَه جمعٌ منَ النّصارى ليُركبَهم معَه ويكونوا له أعوانًا وأنصارًا، فوصَلوا إليه في هذه السنة(٣).

وفي سنة تسع وأربعينَ وست مئة: تحرَّكَ المرتضَى بعساكرِ الموحِّدينَ والأجناد، والعَرَبِ والأحشاد، على ترتيبِ سَلَفِه المعتاد، من التأهُّب والاستعداد، والاستخارة لله

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٤٠١.

(٢) ويكتب «الونكاسي» أيضًا، كما في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، وهي كاف أعجمية فيكتبها بعضهم جيمًا وبعضهم كافًا وآخرون قافًا.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٢٥٣.

تعالى في تبليغ القصدِ والـمُراد، وتقديم الزِّيارة، للأحداثِ بتينملَ على عادة سَلَفِه بني عبد المؤمن، فأمضى العَزْمَ في الابتداءِ صَدْرَ هذه الحركة بالزيارة المذكورة، والافتتاح منها بالأعمال المبرورة، والاهتداءِ بمَن تقدَّمه فيما كانوا يعقِدونَه في بيت معاهدِهم من الرّايات المنصورة، فكان خروجُه من حضرة مَرّاكُش في أوّل يوم من شهر رمضانَ المعظَّم إلى زيارة قبر إمامِه، تبرُّكًا بلَثْم ثَراه واستلامِه، وتوسَّل هنالك بأكرم الوسائل، وتمثَّل في تعظيم ذلك المكان بقولِ القائل [من الطويل]:

نُعظِّمُـــه أن حَـــلَّ فيـــه معظَّـــمٌ ونُكرِمُــه أنْ كــان مثــوَى المكــارمِ

ونقــضي حقوقًــا للهُــدى في زيــارةٍ تقــدَّمها أُولى الحقــوق اللّــوازمِ

فلمّا فَرغ من الزِّيارة على أكمل ما أمَّلَه وقصَدَه، قَفَل مستقبِلًا إلى الحركة التي أمضَى عليها عزمَه وعقدَه، فرحَل عن مَرّاكُش في الخامس من شهر رمضانَ من السنة المذكورة، في أبهَى زِيّ وأحسن صُورة، بعدَما استَوْهَب جميلَ الدُّعاء من الصُّلحاء، وتمادى مشيُه على الهيئة الموصُوفة والأُهبة المعروفة إلى جهة سَلَا، فتلوَّم بها أيامًا قلائل، إلى أن تعرَّف أخبارَ بني مَرِين وغيرِهم ببراهينَ ودلائل، فعزَم على مقابلتِهم ومقاتلتِهم، فتحرَّك من سَلَا بعساكرَ وافرة وجيوشٍ متكاثِرة من قبائل الموحِّدين ومن أصناف المتجنِّدين، فكان من أمرِه ما أذكُـرُه إن شاء اللهُ عزَّ وجَلّ.

اختصارُ الخبر بظهورِ الأمير أبي يحيى وبني مَرِين على عساكرِ المرتضَى والموحِّدين في الموضع المعروف بأمن مَلُولين

وذلك أنه لـمّا بلَغَ الأميرَ أبا يحيى وبني عبدِ الحق أعزَّهم اللهُ تعالى استقبالُ المرتضَى بعساكرِه إليهم، اجتَمع قبائلُ بني مَرِين وبني وَرَا وبعضُ زَناتةَ والعَرَب ومنِ انضافَ إليهم من قبائل الغَرْب، فرأى بنو عبد الحقّ بسديد رأيِهم ونُجح سعيِهم أنْ يُخاطبوه ويُكاتبوه، فخاطَبَ الأميرُ أبو يحيى المرتضَى طالبًا منه المهادنةَ والـمُصالحة، فأراد المرتضَى أن يُصالحَهم ويُسامحَهم لأنه كان مائلًا إلى الراحة وعَدَم التصرُّف، فأبَى وُزراؤه من ذلك وقالوا: لا يَصلُحُ في إقليم واحد مَلِكان، فرحَل إلى لقائهم بالحلّ والتَّرحال، وكانت الثِّقْلةُ وأحمالُ المال، على نحو أربع مئة من البغال، على قول مَن قال: إنّ بعضَها أحمالُ

بالمال وبعضَها بالأثقال، إذ كان المالُ كلُّه دراهم ليس فيها مثقال، وكانت الثِّقلةُ فيها مضاربُه وأسبابُه وأفراجُ المختصِّ به، لسُكناه على عادة خلائفِه وأسلافِه في حركاتهم، وغير ذلك مما يُدَّخر من أسباب الحركات لـمَهمّاتِهم، وكانت أثقالُ الموحِّدينَ بالنسبة إلى ذلك المحالّ آلافًا من الجِمال، وكانت محَلّةً كبيرة، واستعَدَّ المرتضَى لهذه الحركة[1] استعدادًا عظيمًا بطُبول وعلاماتٍ كثيرة، فتمادَى المشيُ على أحسن بهاءٍ وأتـمِّه، وأعظم استعدادٍ وأعمِّه، حتّى وصَلَت المحَلّةُ الموحِّديةُ إلى مقرُبة من العساكر الـمَرينيّة، ونزَلَت بموضع أمن مَلُولين.

وكان الأميرُ أبو يحيى ابن عبد الحقّ قدِ استعدَّ لقتالهم وأعَدَّ بني مَرين لحربِهم ونزالِـهم، فقصَدَ عليُّ بنُ زَيّان معَ جماعته إلى جهة من جهتِهم ودفَع عليها وعليهم، ثم دَفَعت عساكرُ الموحِّدين من جهة أخرى بالقتال إليهم، فأعطَى بنو مَرين لهم ظهورَهم لأن يَقْفُوَ الموحِّدونَ آثارَهم، فقد كانوا كمَنوا لهم ودبَّروا أمورَهم، وذلك خُدعةٌ من خُدَع الحروب، فتعرَّف الموحِّدونَ أنهم كمَنوا لهم في الخنادق فتوقَّفوا عن دفاعهم واتّباعِهم، فلم يتبِّعْ أحدٌ لبني مَرين خيفةَ الكمين.

وقيل بعدَ ذلك: إنّ الأميرَ أبا يحيى كان تَوافَقَ في ذلك اليوم معَ يعقوبَ بن جرمونَ فبقيتِ المحَلّةُ بذلك الموضع ساكنةً آمنة إلى أنِ استَظهَر يعقوبُ بن جرمونَ المذكورُ بكتاب وصَلَه من قِبَل الأمير أبي يحيى ليوقِفَ عليه المرتضَى ويتكلَّمَ معَه في صَلاح الأمور، فقَنِع منه بذلك المقال، وأمَرَ في الحين[2] بالرَّحيل من ذلك الموضع والانتقال، وأقلَعَ من غير عهدٍ معهود ولا عَقْدٍ معقود، وشاع في المحَلّة من يعقوبَ بن جرمونَ ورجالِه، انعقادُ الصُّلح وكمالِه، وكان إقلاعُ المحَلّة من هنالك في ليلتهم حينَ ذلك فأصبحوا على ظهرِ راحِلينَ وإلى مَرّاكُش قافِلين، وأوقَعَ اللهُ الرُّعبَ في قلوبِهم فرحَلوا وتَركوا بعضَ مضاربِهم وأسبابِهم وقَفَلوا جميعًا في الرُّوع بالقلوب، وكان فيه لبني مَرينَ المقصودُ والمطلوب، وذلك بما وَهَبَه اللهُ لهم من القوة والشّجاعة، والأخْذِ في الأمورِ بالعَزْم والـحَزْم جُهدَ الاستطاعة.

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) في ق، ك، ب: «الجيش».

ولـمّا قذَفَ اللهُ الرعبَ في قلوب الموحِّدينَ وأجنادِهم، ورحَلوا قافلينَ إلى بلادِهم، تفرَّقت جموعُهم وخارَتْ طِباعُهم، فتبِعَتْهم جيوشُ بني مَرِين وجَدُّوا في اتّباعِهم، فاستولَوْا على جُملة مضاربِهم وأسبابِهم، وتمكَّنوا من أحمالِـهم وأثقالهم، وأخَذوا بغال السّلطان وأثقالَه، وخيلَه المقادةَ وأبغالَه، وكان بعضُ فُرسانِه ورجالِه إذا ضاقَ حالُه يرتجِلُ عن فرسِه خيفةً على رأسِه، ومَن تقدَّم لا يشتغِلُ إلا بخَلاص نفسِه، وتمادَى مشيُهم إلى أَزَمُّور، وكؤوسُ الخوف عليهم تَدور، فلمّا وصَل المرتضَى إليها ونزَل عليها جدَّد حركتَه منها، ثم رحَل قافلًا إلى حضرته، فكانت عليه هذه الهزيمةُ من غير قتال هزيمةً عظيمة، وكان الوزيرُ القائمُ فيها بالتدبير عبدَ الله بنَ يونُس إلى أن كان من أمرِه ما أذكرُه إن شاء اللهُ تعالى(١).

وفي سنة خمسينَ وست مئة: أخَّر المرتضَى وزيرَه ابنَ يونُس عن وِزارته حينَ وصَل له منه ما أوجَبَ قتلَه بعد ذلك بحُسن الإدارة، فاستَوطَنَ ابنُ يونُس تامصلحتَ موضعَه، وكان يَدخُل مَرّاكُش في كلِّ يوم جُمُعة، وكان يدخُل للخليفة معَ الموحِّدين برَسْم السّلام لكنْ لا بدَّ له أن يُكلِّم بما شاء من الكلام، واستقرَّ بذلك الموضع معَ أولادِه وعِيالِه وخُدّامِه ورجالِه، وكان من جُملة رجالِه وخُدّامه ومن قبيلةِ بني... (٢) عليُّ بن يَدّر، فهرَب إلى السُّوس حين عُزِل ابنُ يونُس عن الوِزارة واستقرَّ به، وكانت بينَه وبينَ يونُس مراسَلاتٌ ومداخَلات(٣).

وفي سنة إحدى وخمسينَ وست مئة: جاهَرَ عليُّ بن يَدّر بعِنادِه، فبعَثَ إليه المرتضَى عسكرًا من الموحِّدين أجنادِه فحارَبوه فلم يَقدِروا عليه بشيء، فقفَلوا راحلينَ إلى مَرّاكُش، وكان بتارودانتَ أحدُ أشياخ الموحِّدين معَ جماعة من أجنادِ المسلمينَ والنَّصارى ساكنينَ هنالك.

وفيها: كانت زَلْزلةٌ عظيمة في بلاد الغرب اهتزَّت الأرضُ بها بمَن عليها(٤).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٢٥٣.

(٢) فراغ قدر كلمة.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨.

وفي هذه السنة: كانت كائنةُ أجناد النّصارى الذين أرادوا أن يقوموا على الأمير أبي يحيى يَغْمراسنَ ببلد تِلِمْسان، وذلك أنه لـمّا أراد أبو يحيى يَغْمراسنُ بنُ زَيّان أن يظهَر بما عندَه من العساكرِ والأجناد على تجينَ ومَغْراوة وبني عبد الواد، فأمَرَ بخروج أجنادِ المسلمينَ والنّصارى مدَّرِعين، فخَرجوا على باب القَرْمادِينَ كلُّهم أجمعين، وكان قد اجتَمع عندَه بتِلِمسانَ على ما ذكَرَه الثِّقاتُ من أهلِها نحوُ ألفَيْن من الرّجال والفُرسان، وقال بعضُهم: ثلاثةُ آلاف، ووقَع بينَهم في ذلك الخلاف. فلمّا خَرَج يَغْمراسنُ برَسْم الـمَيْز من تِلِمْسان واجتَمع عليه الأنجادُ من بني عبد الواد والأجنادِ والقُوّاد، فوقَف هناك بمقرُبة من موضع كان يُعرَفُ بقَصْر الشّعراء، ووقَف تجينُ ومَغْراوةُ قريبًا منه بحَوْمة أخرى، ووقَف أجنادُ المسلمينَ ناحية وأجنادُ الرّوم ناحيةً أخرى وقوفًا، قد عَمِلوا صفوفًا صفوفًا، إلى أن كان آخرُ وقوفهم وصفوفِهم، فأرادوا غَدْرَ المسلمين، فعجَّل اللهُ مَنُونَهم وحُتوفَهم، وذلك أنه لـمّا وقَفَ أبو يحيى للمَيْز قدَّم المسلمينَ وميَّزهم، وإلى جانبِه الأيمن جوَّزَهم، وأمَرَ بمَيْز الرّوم وكانوا مدَّرعينَ مجتمِعين، وكان[1] المسلمونَ متفرِّقين غيرَ مجتمِعينَ ولا مدَّرعين، ولم يتأهَّبوا القتال، ولا خطَر لهم ذلك ببال، فلمّا شَرعَ في تمييزِهم وقَف قُوّادُهم أمامَه وكانوا عشَرةً إلى أن ميَّز أكثَرهم فارسًا بعدَ فارس وقائدُهم الكبيرُ المسمَّى بدنجيلَ مجتهدٌ في تمييزِهم وتجويزِهم واقفٌ بعلامِه إلى أنْ أقبَلَ إلى الأمير يَغْمراسن وهو مدَّرعٌ بدِرعِه معَ جماعة من جَمْعِه برَسْم لقائه له واجتماعِه، فجاء يعانقُه بذراعِه، فأدخَل رأسَه تحتَ ذراعِه، فهَمَز أبو يحيى فرسَه، وأخرَج من تحت ذراعِه رأسَه، بعدَما ترَكَ بيدِه عِمامتَه وجَدّ في اتّباعِه، حينَ افتراقِه منه وانتزاعِه، فدخَل الـمَخْزيُّ الكافر، الغادرُ الماكر[2]، في جُملة أصحابِه الرّوم، وحَرَمَه اللهُ ما كان[3] من الغَدْر يَروم، وقامت هُوشةٌ عظيمةٌ في ذلك اليوم المعلوم، وعمِل أبو يحيى المذكورُ إحرامَه على عَصاه وصَاح في الناس: يا آلَ عبدِ الوادي غدرتُم يا زَناتة، إلى أن ميَّزوا كلامَه، فقد كان الناسُ أشاعوا أنه قُتل وذاق حِمامَه، وكان في ذلك اليوم هولُ يوم القيامة، وفَرَّ تجينُ ومَغْراوةُ حين رأَوْا

(١) من هنا إلى قوله: «ولا مدّرعين» سقط من ق، ك، ب.

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

(٣) قوله: «ما كان» سقط من ق، ك، ب.

ذلك إلى أنْ وصَلَهم الخبرُ بكلامِه وحياتِه فكَرُّوا راجعين، وتراجَعت الناسُ إليه من كلِّ مكان فحَفُّوا به خلفَه وأمامَه، وانعَقَدت الساقةُ عليه حينَئذٍ بعساكرِه وطبولِه وأعلامِه، وكان تجينُ ومَغْراوة قد قَدَّروا حين قامت تلك الأهوال، والتحَمَ بينَ المسلمينَ والرّوم القتال، أنها حِيلةٌ عليهم، حتّى بعَثَ أبو يحيى يَغْمراسنُ مَن أعلَمَه بالخبر إليهم، وكان ظنُّ النّصارى دمَّرهم اللهُ أنّ الفتنةَ تقومُ بينَهم، فدبَّروا غدرَهم ومكرَهم سببًا لحَيْنِهم، فلمّا اجتَمعت الفُرسان على أبي يحيى يَغْمراسنَ بن زَيّان، أمَرَ بغَلْق بابِ تِلِمْسان، وأطلَقَ أيدي الفُرسان الأحرار على قَتْل الأعداءِ الكفّار، فروَّى من دمائهم غُلَلَ الأسنّة والشِّفار، واستَأْصلُوهم بالقَتْل طولَ النّهار، ولم يَتأتَّ للكفَرة في ذلك اليوم الفِرار، بل حصَروهم في موضع وداروا عليهم دورَ السِّوار، وقَتل الحضَرُ في البلد عِيالَهم وأطفالَهم الكبارَ منهم والصِّغار، واستَأْصَلوهم بالقَتْل والنَّهب والسَّلب في دواخل الدِّيار، واستغنَى في ذلك بعضُهم، ولم يبقَ من الكفَرة في ذلك اليوم في داخِل البلد وخارجِه ديّار، واستُشهد في ذلك اليوم جُملةٌ[1] من المسلمينَ الفُرسان أوّلُهم أخو يَغْمراسن محمدُ بن زَيّان، وقُتل كاتبُ أبي محمد ابنُ غالب عن غَلَط، ولم يُقتَلْ من الحضَر إلا هو فقط[2].

وفي سنة اثنتين وخمسينَ وست مئة: تفاقَمَ أمرُ عليِّ بن يدّر بالخلاف في بلاد السُّوس، وانقادت له بعضُ عرب الشّبانات وبني حَسّان، واجتَمع عليه أعدادٌ من الفرسان، وطاع له بعضُ أهل تلك البلادِ يَغرِمُهم، وكان يُعطي بعضَ العرب ويُكرمُهم، وكان العاملَ بتارودانتَ من قِبَل المرتضَى، وهي كانت حاضرةَ تلك البلاد فيما تقدَّم ومضَى، فخَرج إليه في هذا العام عسكرٌ من الموحِّدين، فوسَّع أمامَهم حينَ قدِموا عليه، ثم رجَع بعدَ انفصالِـهم منها إلى حالِه وتغريمِه[3].

وكان بين المرتضَى وبينَ الأمير أبي يحيى بن عبد الحقِّ في هذه السّنة مُخاطباتٌ ومُجاوَبات، فكان للموحِّدينَ في ذلك بعضُ التسكين والتّهدين، وكان عازِمًا على الحركة فأضرَبَ عنها.

(١) في ق، ك، ب: «جماعةٌ».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ١١٣ وفيه أن هذا كان في سنة ٦٥٢هـ.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٦٧.

وفي هذه السنة: كان مقتلُ ابن يونُس الذي كان وزيرًا للمرتضَى قبلَ ذلك، وسببُ قتلِه على ما ذكَرَ العارِفون بأمرِه سُوءُ معاملتِه معَ خليفتِه في أعمالِه، فأولُ فعل فَعَلَه أنه اشتَرطَ عليه شروطًا حين كُتِبت البيعةُ، منها: ألا يقدِّم أخاه وزيرًا، فكان هذا وأمثالُه من ضَعْف عقلِه وتدبيرِه أن يترُكَ السُّلطانُ أخاه ويُسنِدَ أمرَه إليه، فلمّا وصَل السيِّدُ أبو إسحاقَ من سِجِلْماسةَ بعدَ أشهُر من خلافة أخيه، قدَّمه وزيرَه وأسنَدَ إليه أمورَه، فكان في كلِّ أمر يُمضيه، وكان ابنُ يونُسَ معَه وزيرًا يقعُد معَه في جُملة الوُزراءِ والموحِّدينَ الكُبَراء، فكان السيِّدُ يَختبرُ في كلِّ وقت أفعالَه وأعمالَه إلى أنْ قال يومًا في جملةِ مقالِه: فعَلَ المخلوعُ كذا، وصَنَع المخلوعُ كذا، وهو عمُّ السيِّد المذكور وعمُّ الخليفة، فانزعَجَ السيِّدُ لمقالِه وقال: خَلَع اللهُ عَيْنَ الذي خَلَعه، وخَرج عن موضعِه ذلك وكان سببًا لتأخيرِه عن الوِزارة.

ولقد قال يومًا بمحضَر خليفتِه المرتضَى حينَ وقَع ذكرُ سكِّينٍ مفلول أخرَجَه من كُمِّه مسلولًا وقال: والله ما خَرجتُ يومًا قطُّ إلا بهذا هكذا، وأشار به إليه، فتعجَّب الحاضرونَ من أمرِه وقام المرتضَى في الحين مغضَبًا ودخَل إلى قصرِه، فكان ذلك أيضًا مما انتُقِد عليه. وكان معَ ذلك المرتضَى، يُعاملُه بالقَبول والرِّضى، إلى أن قيل عنه: إنه يُكاتبُ عليَّ بنَ يدّر ويُراسلُه، ويشاركُه في بعض الأمورِ ويُداخلُه، ويكتفلُ له شراءَ السلاح وغيرِها، وثبَتَ عندَ السيّد أمرُها، إلى أنْ حصَلت كتُبُه بخطِّ يدِه لعليِّ بن يدّرَ المذكور، يُعرِّفُه فيها بالأحوال والأمور، فانكشَف سرُّه وحالُه، وأمَرَ المرتضَى باعتقالِه، فاعتُقل بداخل القَصَبة بدار الحُكماء، وخَرج الحاكمُ بن آصلماطَ إلى موضعِه برَسْم ثِقافِ مالِه وحالِه معَ الخَيْل والرِّجال والأُمناء، فاستاقَ إلى مَرّاكُش أولادَه فسُجِنوا بها وعُمِل عليهم وعلى أبيهم جُملةٌ من العُدوتَيْن والرُّقَباء، وخَرجت من المرتضَى بطاقةٌ بالتوقيع عليها فيها مكتوبٌ جميعُ ما انتَقَد عليه، فحُمِلت إليه ووقَفَ على ما فيها ورَماها حين نظَر إليها، وسيقت له الكُتب التي بعَثَها لعليِّ بن يدّر، فحَلَفَ بأيْمانٍ مغَلَّظة أنه ما كتبَها، فما صُدِّق في أيْمانِه ولا مقالِه، بل حَقَّق عليه جميعَ ما ذُكر عنه، فأمَرَ بقتلِه في موضع سِجنِه واعتقالِه، وبقيَ أولادُه مسجونينَ في هذه السنة إلى أن أُخرِجوا بعدَ ذلك[1].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٦٧.

اختصارُ الخبر عن مقتَل أشياخ الـخُلَّط

وذلك لـمّا أراد اللهُ بقَتْل السّعيد في عام ستة وأربعين، وتفرَّق أهلُ عساكرِه أجمعين، كان أشياخُ الخُلَّط أحدَ أسبابِ تلك الوقيعة، ولهم فيها أخبارٌ شنيعة؛ لأنهم في أول الحال تأخَّروا عنه حينَ عَزَم على القتال واجتَمعوا بجَمْعِهم حين سَمِعوا بقتلِه ورجَعوا لمحلَّتِه، فأكَلوا وقَتلوا، ونَهَبوا وسَلَبوا لجُملته وأهل دِخلتِه وبعضِ أهله، وقَبَضوا على أُختِ السَّعيد الحُرّة نَجْمةَ زوجةِ الوزير السيّد أبي إسحاق، واستولَوْا على مالِـها وحالِـها، وكان قد حصَل بأيديهم في تلك الكائنة شيءٌ كثير من السقطِ العظيم الخَطَر الكبيرِ القَدْر، فقد كان احتواؤهم على تلك المحَلّة واستيلاؤهم معَ بني عسكر عليها قبلَ وصُول بني عبد الوادي إليها. وقيل: إنّهم كانوا متّفقينَ معَهم على بيعِها منهم على ما ذُكِر في ذلك عنهم، فحَبَسَ ذلك الفعلَ الذّميمَ المنسوبَ إليهم، إلى أنِ احتيلَ بالحِيلة بعدَ ذلك عليهم، فلمّا وصَلوا إلى مَرّاكُش أذِن لهم في الدّخول إلى القَصَبة حين وصولِهم، وكان عَبيدُ المخزَن وبعضُ المتجنِّدين مستعدّينَ لهم عند دخولهم، فأُدخِلوا لدار الكرامة برَسْم الإكرام والإنعام، فحاق بهمُ الانتقام بالقَتْل لهم والإعدام، وقيل: بالسُّمِّ في الطّعام فماتوا في الحين أجمعين، وكان عددُهم سبعين(١).

وفي أثناءِ ذلك اعتُقل يعقوبُ بن محمد بن قَيطونَ الجابِريُّ، فقد كان الشّيطانُ استَهواهُ لعصيان خِدمة السُّلطان، وكان المرتضَى رحمه اللهُ أنعَم عليه بجزيل الإنعام، وأعطاه بحُوَز مَرّاكَش الأملاكَ والأسهام، وأعطى يعقوبَ بن جرمونَ السُّفيانيَّ مثلَ ذلك، فظهَر منه النُّصحُ والاجتهاد، وظهَر منَ ابن قَيْطونَ البغيُ والفساد، فبعَثَ المرتضَى عسكرًا إلى تامَسْنا معَ أبي الحَسَن يَعْلى ليتشوَّفَ منها متزيِّداتِ الأخبار من البلاد الغربية وغيرِها، وليتعرَّف أحوالَ العربِ هنالك وأمرَها، وليدبِّر معَ يعقوبَ بن جرمونَ في أمرِ يعقوبَ بن قَيْطون كيف يكونُ القبضُ عليه، ويَنظرَ وجهَ الحِيلة في ذلك إذا وصَلَ إليه.

فلمّا وصَل ابنُ قَيطونَ إلى أبي الحَسَن المذكور واجتَمع معَه في جُملة أشياخ العرب وغيرِهم، وتكلَّموا معَه في حالِـهم وأمرِهم، أخرَج يَعْلى ليعقوبَ بن جرمونَ ظَهيرًا كريمًا

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩.

بالتنويه له والتكريم، وقدَّمه على جميع العرب بأنْوَه التقديم، فسُقِطَ في يدِ ابن قَيْطون حينَ سمِع التقديمَ والتعظيم، وتكلَّم بما معَه من الكلام، وأراد الانفصالَ عنه بسلام، فتكلَّم يَعْلَى معَ ابن جرمونَ سرًّا بما تكلَّم، ثم أمَرَ بالقَبْض على المذكور وعلى وزيرِه ابن مُسلم، فأُكبِلا بكَبْلَيْنِ ثقيلَيْن، وقَفَل أبو الحَسَن يَعْلَى إلى مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى بهما معتقلان[1].

وفي هذه السنة، وهي سنةُ اثنتين وخمسين: كان أبو عبد الله المستنصِرُ بالله مستوطِنًا بحضرتِه التّونُسيّة قد طاعَتْ له تلك البلادُ الإفريقيّة وعُمّالُه ورجالُه بمدينة مَليانةَ والجَزائر وغيرِها من تلك البلاد الراجِعة الآنَ إلى تِلِمسان، وكان ليَغْمراسنَ في هذا العام وبعدَه بحُوَز تونُس أملاكٌ وأسهام، إحسان[2] عليه من المستنصِر بالله وإنعام[3].

وفي هذه السّنة: كان الأميرُ أبو عبد الله ابنُ الأحمر أميرُ البلاد الأندَلسيّة في غاية الهُدنة معَ أمير المِلّة النَّصْرانية أذْفُونْش بسبب صُلحِهما المنعقِد بينَهما في سنة ثلاث وأربعين، فتوجَّه إليه في هذه السّنة واجتَمع معَه بخارج مدينة إشبيلِيَة بجَمْعِه ووافَقَه على ما كان وافَقَه عليه ودفَع هديّتَه إليه، وانصَرفَ إلى غَرْناطةَ بعدَ موافقتِه إياه ورِباطِه معَه، وما زال من هذا العام يجتمعُ معَه في كلِّ عام أو في بعض الأعوام إلى أن أراد أن يغدِرَه حين وصَل إليه في عام اثنينِ وستينَ على ما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة ثلاثٍ وخمسينَ وست مئة: كان الأميرُ أبو يحيى بن عبد الحقِّ مستقرًّا بمدينة فاسَ، وصَلَحت ببلاد الغَرْب أحوالُ الناس، وتهدَّنت الأحوالُ من الفتن والأهوال، وصار مُلكُ تلك البلاد إليه، واجتَمع جميعُ مَن فيها من القبائل عليه، فغُصَّ المرتضَى بأمرِه وحالِه حين بلَغَه من خُدّامِه ورجالِه جميعُ أمورِه وأحوالِه، وهوَّنوا عليه تجديدَ الحركة إليه، فقدَّم الـمَواعد، وأخَّر العزائمَ والمقاصد، وتأهَّب لها بالاستعدادِ والاستكثار من العُدَدِ والأعداد، والفُرسانِ الأنجاد، من العربِ والأجناد، برَسْم الاستقبال إلى تلك البلاد.

---

(١) هكذا في الأصل، والجادة: «معتقلين».

(٢) هكذا الأصل، والجادة: «إحسانًا» فهو مفعول لأجله.

(٣) كذلك، فالوجه: «إنعامًا».

ذكرُ حركة المرتضَى إلى الغَرْب برَسْم القتال معَ بني مَرِينَ في تلك البلادِ والحرب

وذلك أنه لـمّا شَرَعَ المرتضَى في الحركة إلى البلادِ الغَرْبية برَسْم مقابلةِ الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقّ وقبائلِه الـمَرِينيّة، خَرجَ من مَرّاكُش معَ خاصّتِه على عادتِه إلى مدينة تينملَ بعدَ الاستخارة وتقديم النيّة في زيارة قبرِ إمامِه، وعَقْدِه فيه لبنودِه وأعلامِه، استفتاحًا بعوائدِ أسلافِه، واستنجاحًا بمقاصدِ أحلافِه، بتسديد رأيه في مقاصدِه السَّنيّة وسَعْيه، فلمّا كمَّل الزيارةَ تحرَّك من مَرّاكُش في أبهَى زِيّ وأكمل صورة بما تأهَّب لهذه الحركة منَ استعدادِه، واستكثارِه من عُدَدِه وأعدادِه، وحشودِه وأمدادِه، واجتَمع من قبائل الموحِّدين قبائلُ وافرة، وجموعٌ من العربِ متكاثرة، وتمادى مشيُ العساكرِ على المنازل المعلومة، والمراحِل المعهودةِ المعروفة إلى جهة مدينة سَلَا، ومنها جدَّد الحركةَ لِلقاءِ بني مَرِين والحروبِ معَهم، وكانوا مستعدِّينَ للقائه.

ذكْرُ هزيمة المرتضَى بموضع بني بُهلول وقفولِه إلى مدينة مَرّاكُشَ مهزوم مفلول(١)

ولـمّا ورَدَ المرتضَى إلى تلك الجِهات بعساكرِه وجنودِه، وعربِه وحشودِه، كان الأميرُ أبو يحيى ابنُ عبد الحقّ قدِ استعَدَّ أيضًا باستعدادِه بقبائلِه الـمَرينيّة ومنِ انضافَ إليهم من القبائل الغَرْبية، وبجيادِه وأنجادِه، فتأهَّب لقتالهم ونِزالهم بجموعِه المتكاثرة وأجنادِه، فوقَعَت بينَه وبينَ المرتضَى رحمَهما الله مراسَلاتٌ ومرادَدات في أحوالِـهما وأحوال المسلمينَ المتعلِّقينَ بهما، فلم يقدِّر اللهُ صُلحًا بينَهما إلى أنْ كانت مقاتلتُهما ومقابلتُهما بموضع يُعرَفُ ببني بُهلول، فكان سيفُ أبي يحيى عليه بالنّصر مسلولًا، فالتقى الجمعانِ بالضَّرب والطِّعان، فنَصَر اللهُ بني مَرِين على عساكر الموحِّدين، فهزَموهم وقَتلوهم واستَأْصَلوهم أعظمَ استئصال، بعدَما دام بينَهم القتال، فلم يكُ إلا لمحةُ لامح أو صَيْحةُ صائح، إلّا وقدِ انهزَمت جيوشُهمُ المتكاثرة، وصَارت بعدَ انتظامِها متناثرة، واستولَت بَنو مَرِين

---

(١) هكذا الأصل، والجادة: «مهزومًا مفلولًا».

على أثقالِ عساكر الموحِّدينَ وعلى مضاربِ المرتضَى وجماعته، وعلى ما كان من الأطعمة وغيرِها في خَزائنِه، وعلى الأحمال والبِغال والجِمال، ومنَ الأموالِ ما تخالَفَت في كثرتِه الأقوال، فقيل: إنّ جُملةَ ما أُخِذ له في تلك الحركةِ المذكورة والوقيعةِ المشهورة من الدّنانيرِ الفِضّية العَشْريّة سبعُ مئة ألفِ مثقال، وأمّا من الخَيْل والبِغال فكثُرَ فيه المقال، وكذلك من المضاربِ والأسباب، وأكثرُ الأثاثِ انتَهبَها المنتَهِبون أيَّ انتهاب، فحصَل بأيدي بني مَرِين ومَن كان معَهم من أشيائهم ومَتاعِهم شيءٌ كثير، وكان أمرُ هذه الهزيمة أمر كبير[1]، ليست كهزيمة أمن مَلُولين، التي خَرج الناسُ منها من غير كِسرةٍ مفلولين، بسُوءِ التدبير من الوزير، والرأي الفاسدِ والتدبير، نسألُ اللهَ العافيةَ من الإدبار، وحُسنَ العاقبة في دارِ القرار.

وكانت هذه الهزيمةُ الشّنيعةُ من بعض قبائل العرب، فقيل: إنّهمُ اتّفَقوا معَ بني مَرِين وباعُوا المحَلّةَ منهم، فلمّا اصْطُفّتِ الصَّفّان ووقَعَت الحربُ بينَ الفريقَيْن، أعطى العربُ ظهورَهم منهزِمين، فتَبِعهم بنو مَرِين، وانكسَرت عساكرُ الموحِّدين، فانهزَموا بجُملتِهم أجمعين، وفرَّ المرتضَى رحمه اللهُ بنفسِه، وقُتل مَن قدَّر اللهُ له بحُلول رَمْسِه، وقصَد الفارّينَ معَ خليفتهم مدينةَ أَزَمُّور، ومنها نظَر في تجديد الأُمور، فقد كانوا بنو مَرِين حَمَلوا ساقتَه وعلامتَه وطبولَه، فبعَثَ إلى مَرّاكُش، وكان ترَكَ بها أبا سعيد بنَ تيجا معَ مَن كان ترَكَ بها من السّادة وأشياخ الموحِّدين، وأمَرَهم أن يَلقَوْه بطُبول وعلاماتٍ برَسْم قُفولِه إلى مَرّاكُش ودخولِه، فخَرجوا منها بذلك للقائه، وحَمِدوا اللهَ على سلامتِه وبقائه، فلقَوْه بموضع راط بجهة دَكّالةَ بالخَيْل والبغال والطَّبّالة والبَنّادة، فانعقَدت عليه الساقةُ هنالك، وتَمادى مشيُه إلى حضرتِه كذلك، فدخَلَها بزِيِّه المعلوم، وقلبُه ممّا دهاه مكلوم، ولـمّا حصَل في حضرته، واستقرَّ بموضع خلافتِه، حَمِد اللهَ تعالى على ما مَنَّ به عليه من سلامتِه، وألزَم نفسَه أنه لا يعودُ إلى حركة أبدًا، فما خَرج بحركة بعدَها[2] حتّى خَرج فارًّا بنفسِه وحصَلَ في شِراك الرَّدى.

---

(١) هكذا الأصل، والجادة: «أمرًا كبيرًا».

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

وممّا أُنكِر عليه ونُسِب من الأمرِ إليه من ذلك: ما أخبرني به أبو عِمرانَ بنُ تيجا أنه قال: كتَبَ لابنه من أَزَمُّورَ حين وصَل إليها من كِسرة بني بُهلول وهو مهزومٌ مفلول، يُوصيه أن يعمَلَ له مِرحاضًا في حمّام المخالص، ويجدِّد بناءَ الحمّام ويُزيلَ منه الرُّخامَ لأجْل الزَّلْق الذي كان فيه، ويجدِّدَ فيه حتى يستوفيَه ليجدَه خالصًا حين يَبيتُ في المخالص.

وكتَبَ له أيضًا أن يصرِفَ له صَرْفًا من جُملة أرطال من الفضّة برَسْم التفريق على الأولادِ والأصاغر وخَدَم قصرِه، فامتثَلَ في ذلك أمرَه، وكتَبَ أيضًا من حضرته حينَ وصُوله إليها وقدومِه عليها إلى الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقّ راغبًا إليه أن يَجبُرَ عليه خادمًا كانت قد أُخِذت له حينَ هزيمته، واستيلاءِ بني مَرين على محلّتِه، فأمَرَ الأميرُ أبو يحيى بالبَحْث عليها في دَواوير العَرَب، وزَناتةَ وغيرِها بغاية البحث والطّلب، إلى أن وجدَها في بعض أحياءِ العرب، فدفَعَها للواصِل إليه بسببِها، وهو أبو محمد جابرٌ، فقبضَها منه مقضيَّ الأرَب، فيما رغِبَ وطلَب، فتوجَّه بها إلى الفقيه المعظَّم أبي القاسم العزَفيِّ صاحبِ سَبْتةَ برَسْم مآربَ أيضًا يستقضيها له، فقضاها، وكَسَا الخادمَ المذكورةَ بكُسوةٍ عظيمة وأعطاها دابّةً وأكرمَها وأرضاها، وصَرَفَها معَ مُوصلِها إليه إلى أنْ وصّلَها لسيّدها المرتضَى فقَبِلَها وارتضاها، وكانت حاجةٌ في نفسِه قضاها، فوَلَدت منه الأولادَ بعدَ ذلك بعدَما رَآها من كلِّ فريق مَن رآها.

وفي سنة أربع وخمسينَ وست مئة: شَرع المرتضَى في بناءِ الدِّيار لأولادِه الكبار، مثلَ: دار العرائش ودارِ البلار، وما جاوَرَها من القصور بأبي دانِس، وبنى داخلَ القَصَبة ديارًا كثيرة، وأنفَق فيها أموالًا خطيرة، ولم يزَلْ من هذه السّنة وقبلَها وبعدَها يشتغلُ بالبناءِ والتسديد والإصلاح، فأوّلُ ما ابتَدأَ ببناءِ جامع عليِّ بن يوسُف، وآخرُ بناءٍ بناه الموضعُ الذي سمّاه بالفاتحة، التي كانت لأمورِه غيرَ ناجحة.

وكانت البلادُ في هذه السّنة هادنةً ومهدَّنة، أمّا المرتضَى فكان بينَه وبينَ الأمير أبي يحيى مُهادنةٌ ومصالحة، فتهدَّن الموحِّدونَ في بلادِهم والـمَرينيُّونَ كذلك، وأمّا ابنُ الأحمر فكان في مُصالحةٍ معَ الرُّوم، لكنّه فُجع في موتِ وَلَدِه وليِّ عهدِه يوسُف. وأمّا الفقيهُ أبو القاسم العَزَفيُّ فاستبدَّ ببلدِه، وضَبطَها لنفسِه باشتدادِه وجِدِّه، في مصالح أهلها بغاية جِدِّه واجتهادِه، فبلّغَه اللهُ غايةَ قصدِه ومُرادِه، لكنه كان يخاطبُ المرتضَى في كلِّ الأوقات،

ويُخطِّطُ بما يجبُ له من التخطيطات، والبِرِّ والكرامات، ويُعرِّفُه بجميع الأمورِ المتزيِّدات، وكان في أول حالِه وأمرِه طلَبَ منه أن يبعثَ له شخصًا من الموحِّدين أو سيدًا من السادات، فبعَثَ إليه ابنَ أشرقيّ فأخرَجَه بعدَ أشهر وكتَبَ للمرتضَى بما كان من أفعالِه وأعمالِه، فصدَّق المرتضَى في ذلك مقالَه، وبقي الفقيهُ مستبدًّا بأحوالِه.

وأمّا أبو الحَجّاج يوسُفُ ابنُ الأمين فاستبَدَّ أيضًا بطَنْجة، وقد كان تَرَكَه أبو الفَضْل بقَصَبتها مقدَّمًا على الزّماميين المرتَّبين فيها ساكنًا مثلَ أمين، وذلك أنّ أهلَ طَنْجةَ لـمّا رأَتْ أنّ المرتضَى ضَعُفت أحوالُه عن الحركات إلى تلك الجهات، وقَوِيت أحوالُ بني مَرِينَ فيها بالظهور والبَرَكات، في السُّكونِ والحركات، دخَلوا تحتَ طاعة الفقيه العالِـم أبي القاسم العزَفيّ، فبعَثَ إليهم القائدَ أبا الفَضْل العبّاس، وكان شيخًا من فُضَلاءِ الناس، فتوجَّه صُحبةَ هذا يوسُفُ بن محمد ابن الأمين في جُملة مَن توجَّه معَه إليها، فقَدِم أبو الفضل المذكورُ[1] من سَبْتة معَ جماعةٍ كبيرة من الرُّماة والرّجال عليها، فاستوطَنَ مدةً قَصَبتَها ثم ترَكَ فيها ابنَ الأمين المذكورَ عِوَضًا منه ونائبًا فيها عنه، بخِلال ما يُغرِمُ بعضَ القبائل الغُمارية ويجتمعُ بالفقيه بسَبْتة ويقضي أشغالًا فيها، ويعودُ إلى طَنْجةَ بعدَما يُخلِّصُ أشغالَه كلَّها ويستوفيها، فلمّا طالت غَيْبةُ أبي الفَضْل المذكور عنها واستَأْنَس أهلُها بابن الأمين المذكور، وقد كان بسَبْتةَ مقدَّمًا على جماعةٍ كبيرة منَ الرِّجال، فكانوا يسمَعونَ من قوله ويَرجِعونَ لفعلِه، فدبَّر معَهم أن يقومَ بطَنْجةَ، فوافَقوه على ذلك ورافَقُوه، فقام فيها وضَبَطَها لنفسِه إلى أنْ قتَلَه أولادُ الأمير أبي يحيى وأدخَلوه في رَمسِه فقتَلَهم رجالُه معَ مَن كان معَهم أجمعين على ما يأتي.

وفي سنة خمس وخمسينَ وست مئة: بعَثَ أميرُ المؤمنينَ أبو حَفْص عمرُ المرتضَى عسكرًا منَ الأجنادِ والموحِّدين قُدِّم عليه أبو محمد بنُ أصناج، وأمَرَه أن يتوجَّه إلى بلاد السُّوس لينظُرَ في مَصالِحِها وحَسْمِ عِلَلها الطارئة عليها من أهل الضّلال والفساد والخلافِ والعِناد، فلمّا وصَل إليها استَوطَنَ بتارودانتَ منها، وكان القائمُ بتلك البلاد عليُّ بن يدّر قد تحصَّن بتيونوينَ معَ مَن كان معَه من المفسِدين والمعتَدين منَ العربِ

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

وغيرِهم، مدبِّرينَ في حالهم وأمرِهم، فخَرج إليه بالعسكر أصناجُ فقابَلَه عليُّ بن يدّر وقاتَلَه وقَتل منَ الأجنادِ جُملةً كبيرة، وعاد ابن أصناج إلى مَرّاكُش وقد نقَصَ من عسكرِه ناسٌ كثير، وبقيَ ابنُ يدّر في سُوسِه، بشديد بأسِه فيه ودروسِه[1].

وفي هذه السنة: وَلَّى الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن نَصْر ولايةَ عهدِه لأبي عبد الله وَلَدِه، وكان يسمَّى بالفقيه، وكان التقديمُ قبلَه لأخيه إلى أن توفِّي كما تقدَّم ذكرُه.

وفي هذه السنة: استَولَى الأميرُ المعظَّم أبو يحيى بنُ عبد الحقِّ على مدينة سِجِلْماسَةَ ودخَلَها وقبَضَ على واليها حسبَما يأتي ذكرُه مختصَرًا، وذلك أنّ الواليَ بسِجِلْماسَةَ في هذه السنة كان الشّيخَ أبا محمد عبدَ الحقّ الجنفيسيَّ، وكان رجُلًا مُقعَدًا، لكنّه يركَبُ على الدابّة وينزِلُ عنها برجالٍ مستبِدِّينَ لذلك وعبيد، وكان قَدَّمه عليها المرتَضى وأسنَدَ له أمرَها وأمرَ دَرعةَ وغيرِها، فاستَوطنَ قَصَبتَها معَ مَن كان معَه فيها من الخَيْل والرُّماة والرِّجال، فنظَر بنظرِه وأمَرَ بأمرِه في جميع الأشغال والأعمال، غيرَ أنه كان يصرِفُ المقال ويتصرَّفُ بالانتقال إن كان بالاستعجال فيُنقَلُ على ظهورِ الرّجال، وإن كان على مَهَل واستمهال فعلى الخَيْل والبغال.

وكان السببَ في دخُول الأمير أبي يحيى إليها واستيلائه في هذه السّنةِ عليها رجلٌ يقال له: محمدٌ القَطِرانيّ، كان أبوه شخصًا حَيْرانًا يَبيعُ في زمن شبيبتِه وكُهولتِه القَطِران، لكنّه كان أبوه يَعرِفُ مقدارَه، ليس كابنِه هذا الذي عدا طورَه وطلَبَ الثّارة، وكانت له نفْسٌ خبيثةٌ غدّارة، وذلك أنه كان عندَ ابن زجو[2] مقرَّبًا من بين رجالِه يُصرِّفُه في أشغالِه، ويُفيضُ عليه من إحسانِه ونَوالِه، فصار أكبرَ خُدّامِه ورجالِه، فعَرَف أشياخَ عربِ المعقِل وغيرَهم، وأدخَل نفسَه معَهم في جميع حالِهم وأمرِهم، وجعَل مخدومَه ابنَ زجو إذا وصَلوا إليه يُقبِلُ عليهم، ويُعطي العطاءَ الجَزْلَ إليهم، ويُكرِمُهم بغاية إكرامِه، وجزيل إحسانِه لهم وإنعامِه، حتّى مالوا بكُلِّيتِهم إليه، ونالوا الخيرَ عندَ مخدومِه

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩.

(٢) جاء رسم هذه الكلمة في ق، ك، ب: «زكوا»، وهي في أصلها كاف أعجمية، فتكتب بالجيم المصرية والكاف.

باعتمادِهم عليه، فكانت أمورُهم وأحوالُهم تنقضي كلُّها على يدَيْه، إلى أنْ حدَّث نفسَه بالثِّيارة وبطلبِ الإمارة، فلم يَتأتَّ له ذلك إلا بالحِيَل والإدارة[١].

فخاطَبَ إلى الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقّ، وفي طيِّ مخاطبتِه إياه غيرُ الحقّ، الذي هو محضُ الباطل، بتزيين الفُجور والبواطل، لكنّ الأميرَ المذكور لـمّا وصَل خِطابُه إليه أخَذ بالحَزْم والعَزْم، فكان جوابَه قدومُه بالعسكر إليه، بعدَما قدَّم جُملةً من بني مَرِينَ إليهم، كأنّهم إلى ابن زجو أرسالًا، فأدخَلهم القَطِرانيُّ عليه إعظامًا وإجلالًا، وكان معَه حينَئذٍ جملةٌ خيلًا ورِجالًا، فما استقرَّ قَرارُهم معَ ابن زجو المذكور، وتكلَّموا معَه في بعض الأمور، إلّا والأميرُ أبو يحيى قد وصَل إلى سِجِلْماسةَ، فقَبَض القَطِرانيُّ على ابن زجو معَ مَن كان معَه من ناسِه، وأخرَجَه على باب الغَدْرِ إلى الأمير أبي يحيى، بعَثَه القَطِرانيُّ إليه، وبقيَ بالقَصَبة واجتَمع جميعُ مَن كان فيها عليه، فلمّا وصَل ابنُ زجو للأمير أبي يحيى ومثُل بينَ يدَيْه، بقي متعجِّبًا من حالِه وبطلانِه، ومن حال القَطِرانيِّ الغَدّار وخِذلانِه، فقال في جُملة كلامِه لفرسانِه ورجالِه: كيف يتَولَّى أمرَ البلاد والعباد عجوزةٌ مبطولة، تُرفَعُ وتوضَعُ على الأعناقِ منقولة؟

وكان القَطِرانيُّ لـمّا عزَم على الغَدْر والمكر، عاهَدَ الأميرَ أبا يحيى أن يترُكَه بسِجِلْماسةَ واليًا من قِبَلِه للنّهي فيها والأمر، فوفَّى له بالعهد وأنجزَ له في الوعد، وجعَل معَه شخصًا من بني مَرِينَ يَسكُن في القَصَبة معَ جُملة من الرِّجال والفُرسان، لكنّ القَطِرانيَّ أكثرُ منه[٢] جُملةً وعُصْبة، وأمَرَ الأميرُ أبو يحيى للقَطِرانيِّ كما كان الوَفْقُ معَه أن يدفَعَ له المالَ المختزَن بالقَصَبة، فدفَعَه له، واستصفَى حالَ ابن زجو ومالَه. وتَلوَّم الأميرُ أبو يحيى هنالك أيامًا، وعاد إلى حضرة فاسَ بعدَما ارتَبطَ معَ القَطِرانيِّ المذكور، واشتَرطَ عليه بعضَ الأُمور، وجعَلَ معَه ثقتَه يُشاركُه في التدبير، والقليلِ من أمرِه والكثير.

ولـمّا وصَل الأميرُ أبو يحيى إلى حضرتِه حَبَسَ ابنَ زجو في مالٍ كان قاطَعَه به على نفسِه خيفةَ أن يُدخِلَه في رَمْسِه، فبعَثَ إلى أهلِه وأولادِه وعِيالِه لينظُروا منه وليعرِّفوا للمرتضَى بذلك وبأمرِه وحالِه، فبلَغَه خبرُه وأمرُه وما كان فَعَل القَطِرانيُّ وغيرُه، فاغتاظَ

---

(١) يعني: المداراة.

(٢) في ق، ك، ب: «منهم».

على ابن زجو ووَلَدِه، ونَسَبه للتفريطِ حتى أخَذ البلدَ من يدِه، فانحرفَ غايةَ الانحراف على هذا الأمر، وأقسَم أنه لا يَفْديه من ذلك الأَسْر، إلّا أن يَفديَ نفسَه من مالِه، فكتَبَ ابنُ زجو إلى أهلِه وعِياله، ليدبِّروا في أمرِه وحالِه، فبعَثُوا إليه بعضَ ما كان عليه وأعطَى حفيدَهُ رهينةً في الباقي، وخَرج من السِّجن يُدبِّرُ فيه، وخَلَّص ما كان بقيَ عليه، ووصَل حفيدُه إليه(١).

اختصارُ الخبر بقيام القَطِرانيِّ بسِجِلْماسةَ بالدّعوة الـمَرينيّة ثم نكْثِه عليها وقيامِه فيها لنفسِه بالدّعوة الموحِّدية بعدَ خروجِه عنها ونُبذٍ من أحوالِه إلى أنْ مكَّن اللهُ منه

وذلك أنه لـمّا قام فيها بالدّعوة الـمَرينيّة كما تقدَّم ذكرُه، وخاطَبَ الأميرَ أبا يحيى مُعلِمًا له بحالِه وأنه يدخُل في حزبِه وطاعتِه، وغَدَر ابنَ زجو وأخرَجَه من القَصَبة إليه، فاجتَمع مَن كان بها من الأجنادِ والعربِ عليه، وأسكَنَ معَه الأميرُ أبو يحيى في القَصَبة مَن يشارِكُه في الأمور الـمَخْزنيّة، فقد كان الأميرُ المذكور ترَكَه على حالِه ناظرًا في أشغالِه معَ خُدّامِه ورجالِه وجعَل معَه قائدًا من أعيان بني مَرين معَ رجالِه أيضًا وخُدّامِه، والقَطِرانيُّ المذكور يتصرَّفُ في الأمور بينَ يدَيْه ويُعرِّفُ بجميعِها إليه، حتّى لا يخفَى منها شيءٌ عليه، واستمرَّ ذلك الحالُ بقيّةَ هذه السنةِ المؤرَّخة، إلى أنِ اشتُهر أمرُه وكبُرت دائرتُه ومرحلتُه، وكثُرت خَيلُه وجُملتُه، وبلَغَه الخبرُ في أثناء ذلك بوفاة الأمير أبي يحيى في السنة الآتية على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

فقام القَطِرانيُّ فيها بأمرِه ثائرًا، وزحَفَ القائدُ الـمَرينيُّ معَ مَن كان معَه من خَيْل ورجال إليه غادرًا يريدُ فيما زَعَم أن يقتُلَه، فخلّصَه اللهُ منه، وخَرج من القَصَبة برجالِه وخَيْله ووَلَدِه وأهلِه وانصَرف إلى الحضرة العَلِيّة الفاسِيّة، فوجَد التنازُعَ وقَع بها بعدَ موتِ الأمير أبي يحيى بينَ ابنِه وأخيه، وهُو الذي جَسَّر القَطِرانيَّ على القيام بسِجِلْماسةَ حين وجَد فترةً لتراخيه، فطلَبَ لنفسِه الاستبداد، واستبدَّ برأيه أيَّ استبداد(٢)، فجنَّد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩-٣٥٠.

(٢) عبارة ق، ك، ب: «واستعدّ برأيه أيّ استعداد».

الأجناد ووصَلتْه من العربِ الأمداد، وجاهَرَ على أُمراءِ الدّولتَيْن: الموحِّديّة والـمَرينيّة بالخلافِ والعِناد، وخاطَبَ للمرتضَى معتذرًا عن حالِه في ابتداءِ أمرِه حين دخُولِ بني مَرِين إلى سِجِلْماسة وحالِ ابنِ زجو معَهم وغيرِه، وأنه قائمٌ فيها بدعوتِه وداخلٌ[1] تحتَ طاعتِه، غيرَ أنه اشترَط عليه الاستبدادَ فيها، وأن يكونَ عاملَها وواليَها، فوصَلَه منَ المرتضَى خطابُه الكريم، يقتضي البِرَّ والتكريم، وقدَّمه على تلك البلاد أعظمَ التقديم، وقدَّم له ذلك مقدِّماتٍ يتعَلَّلُ بها، ويُجعَلُ في الشَّرَكِ بسببِها، وكان قد طلَبَ له في جملةِ مطالبِه أن يبعَثَ له قاضيًا من عنده، وأن يُعينَه بجَمْع كبيرٍ من جُندِه، فبعَثَ إليه الفقيهَ أبا عَمْرو بنَ حَجّاج قاضيًا، وكان في أمرِه حازمًا ماضيًا، وبعَث سيّدًا يَسكُنُ في القَصَبة من غير استبداد، وقائدًا من النّصارى معَ جُملةٍ وافرة من الأجناد، وأوصَى المرتضَى للقاضي المذكور ولقائدِ الرُّوم مُشافهةً لأمرٍ يكونُ عليه محفوظًا ومكتومًا.

فلمّا وصَل العسكرُ إليها، أدخَل القَطِرانيُّ القاضيَ وأجنادَ النّصارى إليه، وصَرَف السيّدَ ومَن كان معَه من الموحِّدينَ والمتجنِّدين وامتَنع لهم أن يَدخُلوا عليه، فانصَرفوا جميعًا عنه، وقيل: إنهم تَلوَّموا في تلك الجهات إلى أنْ أمكَنَ اللهُ منه، وذلك أنه لـمّا استقرَّ القاضي الفقيهُ أبو عَمْرو بنُ حَجّاج بسِجِلْماسةَ وحَكَم بينَ الناس بالشَّرع، وكان فاضلًا بالطّبع، استمالَ محبةَ الناس كلِّهم إليه، وأحال القَطِرانيُّ في الأمورِ كلِّها عليه، وتقرَّب الرُّوميُّ للقَطِرانيِّ المذكور، وتهيّأ للقاضي ما رامَه معَ قائد الرُّوم، وكان الرُّوميُّ الـمَخْزيُّ من طبعِه محاولًا للأمور مُبرِمًا، فدبَّر وجهَ الحِيلة في قَتْل القَطِرانيّ، فصار يدخُل إليه من غيرِ مَشُورة عليه، إلى أنْ ظَفِر به في بعضِ الأيام وقتَلَه، وركِبَ في جماعتِه ليورِّيَ للناس[2] زعامتَه وشَهامتَه فيما فعلَه، فقامت هُوشةٌ في البلد وقُبض على والد القَطِرانيّ فطلَبَ العفوَ من القاضي، وقال: هو ليسَ لي بوَلَد، وذكَرَ عنه ما كان له منه من العِصيان، وما كان فيه من الجَهْل والطُّغيان، وأبانَ القاضي المذكورُ للناس ما خفِيَ عنهم من تلك الأمور، وأنْ ما قتَل الرُّوميُّ القَطِرانيَّ إلّا بأمرِ أمير المؤمنين المرتضَى عِقابًا على ما فَعَل من جميع فعلِه، وهُو الذي أوجَبَ أمرَه للقائد بقتلِه.

---

(١) في ق، ك، ب: «ودخل».

(٢) في ق، ك، ب: «الناس».

وركِبَ القاضي في البلدِ مسدَّدًا ومصرَّفًا، ورُفع رأسُ القَطِرانيِّ على رُمح فنوديَ عليه: هذا جزاءُ الغادر، متطوَّفًا أسواقَ البلد، وبقيَ أبوه خائفًا مرتقِبًا أن يُقتَلَ معَه، فأمَّنَ الفقيهُ القاضي أبو عَمْرٍو رُوعَه، وكتَبَ إلى المرتضَى يُعرِّفُه ببراءة ساحتِه ممّا جَناه ابنُه، فعندَ وصُوله إلى مَرّاكُش أمَرَ بسَجْنه وعلَّق رأسَ ابنِه على السُّور، واستقامت بسِجِلْماسةَ الأمور، وعاد الفقيهُ أبو عَمْرٍو بعد ذلك إلى مَرّاكُش فقدَّمه المرتضَى على جميع أشغالِـها، فقام خيرَ قيام بأحوالها، وكتَبَ المرتضَى بخبر القَطِرانيِّ إلى الفقيه أبي القاسم العزَفيّ[1].

وفي سنة ستٍّ وخمسينَ وست مئة: كانت وفاةُ الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقِّ رحمه الله، فكانت دولتُه من حِين استيلائه على رِباط تازَى نحوَ عشَرة أعوام، وكان قبلَ دخولِه إليها واستيلائه عليها أميرًا على القبائل الـمَرينيّة وغيرِها وقائمًا بأمرِها وحالِـها نحوَ أربعة أعوام، وذلك من حين وفاةِ أخيه الأمير أبي عبد الله محمد بن عبد الحقّ رحمه الله في سنة اثنتين وأربعين، وكانت أيضًا إمارتُه نحوًا من ستة أعوام.

وأخبرني مَن أثقُ به عن وفاةِ هذا الأمير أبي يحيى وسببِه أنّ أحدَ الصُّلحاء نفَعَ اللهُ بهم عَضّ بيدِه على إصبعِه حين دَلّه على ما ينفَعُه، فما قام من موضعِه إلّا وقد تألَّمَ إصبعُه، فخَرَجت فيه حبّةٌ صغيرة، فما زالت تزيدُ وتكبُر من حينَ أوصاه الصّالحُ بوصيّتِه، إلى أنْ قضَى اللهُ في هذه السنة بمنيّتِه، وقيل: إنّ ذلك الرجُلَ الصّالح هو الحاجُّ التاهَرْتيّ، حين اجتَمع معَه بسِجِلْماسةَ، وقيل غيرُه واللهُ أعلمُ بحقيقة أمرِه.

وكان الأميرُ أبو يحيى رحمه الله فارسًا شجاعًا لم يكنْ في زَناتةَ أشجعُ منه، وبذلك كان يزيدُ على يَغْمراسنَ بن زَيّان.

ولـمّا توفِّي هذا الأميرُ أبو يحيى قام من بعدِه وَلَدُه الأكبر أبو علي عُمرُ فبايعَه بعضُ القبائل الـمَرينيّةِ وتأخّر عنه آخَرونَ من وجوه أشياخ بني مَرِين، واتّفقوا على تقديم عمِّه الأمير الأعلى أبي يوسُف، وقالوا: هذا أحقُّ بالتقديم، والتوقيرِ له والتعظيم، لِـما عَلِموا من دينِه وصَلاحه وتُقاهُ في الحديث والقديم، فوقَعَت بينَه وبينَ ابن أخيه مُنازعةٌ بل مقارعةٌ على مدينة فاسَ إلى أنِ استوطَنَ الأميرُ أبو يوسُف رِباطَ تازَى معَ ناسِه

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩-٣٥٠، والاستقصا ٢/ ٢٥٥.

وأهلِه، فكانَ بنو مَرِين يَسيرونَ إليه يومًا بعدَ يوم ويَفِدون عليه قومًا بعدَ قوم، إلى أنِ استَوفَى عليه أكثرُهم فقصَدَ بهم إلى مدينة فاسَ ودخَلَها، وخَرج أبو عليّ عُمرُ إلى مِكْناسة، فتحصَّن بها أشهرًا، وكان يعقوبُ بنُ عبد الله في أولادِ بني عبد الحقِّ كبيرًا عندَهم، فما يزالُ يحاولُ أمرَ الأمير أبي عليّ المذكور، إلى أنِ انقادَ لعمِّه أبي يوسُف وسَلَّم له في الأمور، وقيل: إنه وصَل معَه إليه حتى بايَعَه واجتَمعت كلمةُ بني مَرِينَ عليه، وفي أثناء ذلك قدَّر اللهُ بموتِه في هذه السنة المؤرَّخة، وقيل: في أوائل سنة سبع وخمسينَ وست مئة[1].

رَجْعُ الخبر:

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ستٍّ وخمسين: بُويعَ أميرُ المسلمينَ وناصرُ الدِّين أبو يوسُفَ يعقوبُ[2] بن عبد الحقِّ وصَلَ اللهُ أيامَهم ونَصَر أعلامَهم.

فكانت بيعتُه أولًا برِباط تازَى الخاصّة والعامّة، وطاعت له أكثرُ البلاد الغربيّة وانقادت لحُكمِه جميعُ الـمَرِينيّة، فاستوزَرَ منهم شيخَ بني عليّ أبا زكريّا بنَ حازم وشيخَ بني عسكرٍ أبا زكريّا بنَ أبي مِنديل، وهما أولُ وُزراءِ هذه الدّولة وكُبرائها، وكبَّر منهم شيخَ كلِّ قَبِيل وكرَّمه وعظَّمه، فكلٌّ بذَلَ جِدَّه وجُهدَه حين قرَّبه وأكرَمَه وعظَّمه.

واستَكتَبَ أبا عبد الله بنَ القَرّاق في أولِ أمرِه، ثم استَكتبَ بعدَ ذلك جُملةً من الكُتّاب واستَوْزَر جُملةً من الوُزراء، وكذلك أولادُه الأُمراءُ الكُبراء.

وكان استيلاؤه على الحضرة الـمَرّاكُشيّة عاشرَ محرَّم من سنة ثمانٍ وستينَ وست مئة، فعَظُمت مملكتُه في البلاد الغربيّة وضَخُمت دولتُه السّعيدةُ الـمَرينيّة، إلى أن توفِّي بالجزيرة الخَضْراء وهو على قَدَم الجهاد بالبلاد الأندلسيّة في سنة خمس وثمانينَ وست مئة، فكانت مدةُ دولتِه ثمانيَ وعشرينَ سنة[3].

وفي سنة سبع وخمسينَ وست مئة: رحَل يعقوبُ بن عبد الله بن عبد الحقِّ من بلاد عمِّه أبي يوسُفَ إلى جهة تامَسْنا برَسْم الاستيطانِ بها والسُّكْنى، وبرَسْم الـمَرعَى

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٤، والاستقصا ٣/ ١٩.

(٢) بقي إلى سنة ٦٨٥ حيث توفي المحرم منها (تاريخ الإسلام ١٥/ ٥٦٣).

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٤-٢٣٥.

والكَلا، وقد أضمَرَ التغلُّبَ على سَلَا، فعبَرَ الواديَ من مجازِ الرُّمّان، وذلك في إقبال الزّمان، واجتَمع عليه جُملةٌ كبيرة من رجالِه وخُدّامه، وبعضٌ من بني أعمامِه أولادِ بني عبد الحقِّ أعزَّهم اللهُ تعالى، وذلك بعدَ موت أبي عليّ عُمرَ ابن عمِّه أبي يحيى رحمَه اللهُ تعالى، فنزَلَ بمقرُبة من غبولةَ بدوّارِه، وما زال يُحاولُ هنالك ما أضمَرَه في ليلِه ونهارِه، وكيف يكونُ دخولُه إلى رِباط الفتح من حينِ نزولِه هنالك واستقرارِه، إلى أنْ دخَل إليها واستَولَى بكَيْدٍ عليها، وذلك أنّ واليَها الساكنَ بقَصَبة رِباط الفتح، هو أبو عبد الله محمد بن أبي يَعْلَى الكوميُّ، كان قدَّمه على ولايتِها وجِبايتها المرتضَى، وأمره بالحَفْزِ عليها من طارقٍ يَطرُقُ أهلَها، أو حادثٍ يحدُثُ فيها من أهلِها، خوفًا من أن يُخاطِبوا الأميرَ أبا يوسُف ويَدخُلَها، فحفَزَها غايةَ الحَفْز، بالسُّمّار في الأسوار وبها أمكَنَه من الحِرْز، وعَمِل المعارِضَ على كلِّ باب من أبواب العُدوتَيْن المذكورتَيْن وجَعَل الرُّماةَ والرّجالَ يحرُسونَها، ولا ساعةً من ليلٍ أو نهارٍ يفارقونَها، فما أفادهم حَفْزُهم في نهارِهم، ولا حِرْزُهم ليلًا بسُمّارِهم.

ذكرُ فَتْح[1] رِباطِ الفتح ليعقوبَ بن عبد الله

وذلك لـمّا أرادَ اللهُ بفتح رِباط الفتح وعُدوتِها سَلَا، بعدَما ضَبطَها ورَبطَها ابنُ أبي يَعْلَى، أراد اللهُ بتعجيزِه وضعفِه، فطَرَقَها أبو عبد الرّحمن يعقوبُ بن عبد الله بن عبد الحقِّ في ليلةٍ منَ اللّيالي، في جُملة كبيرة من الخَيْل والرِّجال، فقَصَد إلى باب سَلَا معَ مَن كان معَه خيلًا ورَجْلًا، فقصَد بعضُ رجالِه على سَلالـمَ استعمَلوها إلى السُّور فمَلَكوهُ، وقصَدوا إلى بُرج الباب فمَن وجَدوا فيه أهلكوه، فمنهم من قُتل ومنهم من رَمَى بنفسِه في الأرض من السُّور، فانكسَر أو هلَكَ فكانوا بينَ قتيلٍ ومكسور، فملَكَ رجالُ يعقوبَ بن عبد الله البابَ المذكور، فكسَروا أقفالَه، ودخَل فيه خَيْلَه ورجالَه، فصَعِدوا على أعلاه ورفَعوا العَلام، وقام الضّجيجُ في البلد، وضَجّت الناسُ من كلِّ ناحية إلى البابِ فوجَدوا العلامَ عليه، فارتفعَ الإشكالُ وانقطع الكلام، وعاد كلُّ مَن وصَل إلى موضعِه يَبغي النّجاةَ برأسِه والاستسلام، لئلّا يصلَ الخيلُ إليهم حينَ يدخُلونَ

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

البلدَ عليهم، فقد كانوا كَسَروا أقفالَ البلد البَرّانيِّ وبقي الدَّخْلانيُّ يحاولونَ كسرَه أو حلَّه، ففَرَّ الناسُ من هنالك حين رأَوْا ذلك راجعينَ إلى ديارِهم، واقتَحمَ أكثرُهم الجوازَ إلى العُدوة الأخرى مواضعِ قرارِهم، وتَركوا سلاحَهم وأثوابَهم وعبَروا الواديَ بالعَوْم، فأُخِذَت أسلابُهم، ودخَل رجالُ أبي عبد الرّحمن يعقوبَ بن عبد الله بن عبد الحقّ وغيرُهم في إثْرِهم، فسَلَبوا ونَهبوا في ليلِهم ذلك ونهارِهم، ثُم أمَرَ الأميرُ المذكور بالكفِّ عن الناس وعن أضرارِهم، فتهدَّنتِ الأحوالُ والأمور، وخَرج ابنُ أبي يَعْلَى في جَفْنٍ صغير من القَصَبة إلى أَزَمُّور، وملَكَ يعقوبُ بن عبد الله مدينتَيْ سَلَا، وضَبَطَها لنفسِه مُضاهيًا لعمِّه، وحدَّثته نفسُه أمورًا عنه غائبة، وأحوالًا كلُّها كاذبةٌ خائبة على ما أصفُه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة ثمانٍ وخمسينَ وست مئة: أراد يعقوبُ بن عبد الله أن يقومَ على عمِّه أبي يوسُفَ يعقوبَ بن عبد الحقّ ويُخالفَ في سَلَا عليه، وطَمِع أن يصيرَ مُلكُه فيما زَعَم[1] إليه، فهدَّن أهلَ سَلَا وأبدَى لهمُ اعتقادَه فيهم ووِدادَه، ونِفاقَه على عمِّه وعِنادَه، وضمَّ عليه عسكرًا من بني مَرينَ وغيرِهم من أجنادِه، وكتَبَ إلى مَلِك قَشْتالةَ أن يبعَثَ له بمئتَيْن من الرُّوم، يركَبونَ ويَسيرونَ معَه ويستعينُ بهم فيما يَروم، ثُم إنه اتَّهم أشياخَ سَلَا أنهم خاطَبوا إلى عمِّه وكاتَبوه فخاف أنهم يُبايعونَ له ويقومونَ عليه، فطلَبَهم في الـمَيْز فجازوا إليه إلى رِباط الفتح فميَّزهم وأخَذ سِلاحَهم منهم وجوَّزهم، وعادوا إلى عُدوتِهم دونَ شيءٍ من السلاح، وكان تدبيرًا خاليًا من السَّدادِ والصلاح، معَ قضاءِ الله تعالى وقَدَرِه.

اختصارُ الخبر عن كائنةِ مدينة سَلَا
الذي كُلُّ قلبٍ عن همِّها ما تَسلَّى ولا سَلَا[2]

وذلك لـمّا بعَثَ يعقوبُ بن عبد الله للنّصارى أهلَكَهم الله أنْ يصِلوا إليه برَسْم أن يكونوا أجنادَه، كان منتظِرًا إليهم ومعتمِدًا عليهم لينالَ بهم مقصودَه ومرادَه، ولـمّا وصَل إلى مَلِك قَشْتالةَ أهلكَه اللهُ كتابُ يعقوبَ بن عبد الله أدركَه الطَّمعُ في دخُول

(١) قوله: «فيما زعم» سقط من ق، ك، ب.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٥-٢٣٦، والاستقصا ٣/ ٢١.

كفَرتِه إليها واستيلائهم عليها، فاشتَغل بتعمير الأجفانِ في وادي إشبيلِيَة، ولا عَلِم أحدٌ من المسلمين ولا منَ الكافرينَ إلى حيثُ يتوجَّهونَ من البُلدان، فكتَبَ الفقيهُ أبو العبّاس العزَفيُّ(١) من سَبْتَةَ يعرِّفُ بخبر تلك العِمارة إلى كلِّ جهة من الـمَراسي ومكان، ويُحذِّر من غَدْرِهم ومكرِهم كلَّ إنسان، فمَن قدَّر ذلك وظهَرت له الدّلائل من أهل سَلَا والقبائل، خَرج منها قبلَ الكائنة بأيام قلائل، وهم قليلٌ من الناس، ومَن تأخَّر بالخروج ولا صَدَقَ الحال، وظنَّ أنه عيْنُ الـمُحال، قُتل أو أُسر لأمرٍ قُدِر ليس لأحدٍ عنه مَحِيدٌ ولا انتقال.

فلمّا كان في آخرِ شهر رمضانَ المعظَّم من هذه السنة ظهَرت في البحر قُرقورةٌ بعدَ قُرقورة(٢)، فظَنَّ أهلُ سَلَا أنهم تُجّار، إلى أن وصَلوا شيئًا بعدَ شيء مِرارًا، واجتَمعت من

---

(١) هكذا في النسخ كافة، وقال ناشرو (م): «بل أبو القاسم ـ كما يأتي ـ أما أبو العباس فقد حَدّث عنه منصور بن خميس الأنمري (كذا) من رجال القرن السادس، وهو من شيوخ ابن الأبار، ويستبعد أن يكون قد أدرك هذا الحادث، وهو صاحب «الدرّ المنظم»».

قلنا: هكذا قالوا، وفي هذا القول جملة أخطاء، أولها: أن منصور بن خميس لا يُعرف بالأنمري، بل هو لخميّ من أهل المرية، قال ابن الأبار في ترجمته: «منصور بن خميس بن محمد بن إبراهيم اللخمي، من أهل المرية، يكنى أبا القاسم وأبا علي، وأبوه خميس يكنى أبا جمعة».

وثانيها: أن هذا الرجل لم يكن من شيوخ ابن الأبار، ولو كان كذلك لصرّح ابن الأبار في ترجمته بذلك.

وثالثها وهو الأهم: أن قولهم هذا قلب الأمر، فجعل الشيخ تلميذًا والتلميذ شيخًا، فأبو العباس العزفي هو الذي حدّث عن منصور بن خميس لا العكس، قال ابن الأبار في ترجمة منصور المذكور: «ورحل حاجًّا، فنزل الإسكندرية، وسمع منه أبو عبد الله بن عطية الداني سنة ست وتسعين وخمس مئة. وحدّث عنه في الإجازة أبو العباس العزفي وغيره» (التكملة ٢/ الترجمة ١٨٣٤ بتحقيقنا).

وهذا النص يشير إلى أن منصورًا المذكور توفي بعد سنة ٥٩٦هـ، وعادة ما يجيز في أواخر عمره، فمن الطبيعي أن يكون من حدّث عنه في الإجازة قد عاش إلى نهاية النصف الثاني من المئة السابعة وبعدها لأنه في الغالب يكون في سنّ الكهولة أو الشيخوخة.

(٢) في ق، ك، ب: «مرقورة» وليس بشيء، والصواب ما أثبتناه، والقُرقورة، بوزن عصفورة: السفينة، وجمعها قراقر، كما ترد عند المؤلف بعد قليل.

القَراقر اثنتا عشْرةَ ومركَبانِ اثنان وأساطيلُ وشَلالير[1]، إلى أنِ انتهَى عددُ الأجفانِ سبعةً وثلاثين، وكلُّهم مملوءٌ من الكَفرة النّصارى، فبقيَ الناسُ في أمرِهم حَيارى.

فلمّا كان يومُ الجُمُعة ثاني عيد الفِطر أظهَرَ العدوُّ ما أضمَر من الغَدْر، فدخَلتِ الأجفانُ الغَزْوانيّاتُ إلى الوادي، بعدَما امتلأت بالرُّماة والبُغاة الأعادي، وكانت ناحيةُ الوادي ليس لها سُور، ولا يتأتّى لأحدٍ أن يكونَ فيها محصورًا، فهَبَط الكفَرةُ من أجفانِهم والمسلمونَ يُعاينونَهم بأعيُنِهم وأجفانِهم، حتّى صفَّفوا صفوفَهم، وجمَّعوا جموعَهم، وكلُّهم مدَّرِعونَ بدروعِهم، والمسلمونَ مجتمعونَ غيرُ مسلَّحينَ ولا مدَّرِعين، مُستبسِلينَ للقضاءِ وقوفًا صُفوفًا صفوفًا، والنّصارى يزحَفونَ لهم وجموعُهم مرتَّبةٌ وصُفوفُهم، وقدَّموا أمامَهم رُماتَهم وطُغاتَهم مستعدِّينَ للقتال، وليس عندَ المسلمين شيءٌ من السّلاح ولا منَ النِّبال، لكنْ بعضُ أقوام اغتَنموا الشهادةَ فمات منهم أعداد، وآخَرونَ قاتَلوا بالقَصَب الـمُستجوَدة، وكان بها نحوُ عشرينَ فارسًا فقاتَلوا حتى قُتلوا رحمةُ الله عليهم بعدَما صَبَروا صبرًا عظيمًا، وفي أثناءِ ذلك تزاحَمت الخلائقُ في الخروج على الباب، فخرَجَ مَن خَرج منهم بالجَهْد العظيم، ومات في الزِّحام عددٌ لا يُحصيهم إلّا السميعُ العليم، والنّصارى معَ ذلك يَقتُلونَ مَن وقَف إليهم حتى دفَعوا دَفْعةً واحدةً عليهم ودخَلوا البلاد بعدَما قَـتَلوا خلقًا كثيرًا، وكان موقفًا جَسيمًا وأمرًا كبيرًا، ويعقوبُ بن عبد الله يَعضُّ يدَيْه على قَبيح ما جَرى، ويشاهدُ ما تسبَّب فيه فعلُه ويَرى، ولا يقدِرُ أن يَجوزَ إليهم، بل يَنظُرُهم من قَصَبته وقد حَلَّ بهم من القَتْل والأسر ما قُدِّر عليهم، فبقيَ يَذُوب تلهُّفًا، ويَعضُّ بنانَه ندمًا وتأسُّفًا، حين عايَنَ ما عايَنَه من البلاءِ الذي أحاطَ بأهل سَلا.

ولـمّا دخَل النّصارى إليها، واستَولَوْا بالغَدْر عليها، قَتلوا مَن وجَدوا من الرّجال، وأسَروا النّساءَ والأطفال، وحصَروهم في الجامع الكبير مأسورين، وفي نفوسِهم مقهورين، فكانوا يعبَثُون في النِّساء والأبكار، ويقتُلون الشّيوخَ والعجائزَ الكبار، فسَفَكوا الدّماء وهتكوا الأستار، وخَرَّبوا المساجدَ والدِّيار، وعَمَّروا بالتُّرّاس والقِسِيِّ الأسوار. وكتَبَ المرتضَى رحمَه اللهُ تعالى للفقيه أبي القاسم العزَفيِّ حين وقَع هذا الأمرُ الفَظيع

(١) في ق، ك، ب: «سلالير»، والشلالير مفردها شلّير، وهو نوع من الزوارق (دوزي: شلر).

والتدبيرُ السيِّئُ الشّنيع كتابًا يَشكرُه فيه على ما كان يُحذِّرُ من أمرِ النّصارى، ويسألُه أن يستشعرَ أمورَهم ليحذَر منها استشعارًا.

فصولٌ من الرِّسالة التي وجَّهها المرتضَى للفقيه أبي القاسم العزَفيِّ حين كائنةِ مدينة سَلَا

وإنّا كتبناهُ إليكم كتَبَ اللهُ لكم أحمدَ عاقبة وأجملَها وأكنفَ كَلاءةٍ واكلأَها، وأن تَعلَموا أنّا نعتدُّ بولائكمُ الخالص، ونحفَظُ ما لكم ولسَلَفِكم من السوابقِ والخَصائص، ونَشكُر نصائحَكم التي ما زِلتُم إيّاها تَبذُلون، وخِدمتكم التي تُوالونَ وتصِلون، ونستمدُّ منكم إلى العلم الذي أنتُم له مُخلِصون، والدِّين الذي عن سَنَنِه القويم لا تَعدِلون، واللهُ يتولّاكم بحِفظه وصَوْنِه، ويُجزِل حظَّكم من إنجادِه وعَوْنه.

وقد طَرَأ في مدينة سَلَا جَبَرها اللهُ سبحانه واستنقَذها ما قد اتّصل بكم مما كنتُم أبدًا منه تحذِّرون، وبه لعِلمِكم بالعدوِّ الكافر تُنذِرون، ولكنْ لم تزِد الأقدارُ لـمَن فيها إلّا انهمالًا في الإضاعة وإذهالًا لـمَن محل في أعمالِه الساعةَ بعدَ الساعة، حين نفَذَ المقدور، ووقَع المحذور، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله الذي تصيرُ إليه الأمور، واللهُ سبحانَه يُجري دينَه القيِّم من النَّصر والظَّفَر ما عوَّده، ويجمَعُ أيديَ عبادِه المؤمنينَ على منِ اتَّـخَذ إلـهًا غيرَه وعبدَه، وهو سبحانَه يُكافِي سعيَكم على ما عرَّفتُم وحذَّرتُم لأهل السّواحل، وخوَّفتُم من فَجْأة العدوِّ الـمُخاتل، لِـما ظهَر منَ استعدادِه، ونبَّهتُم في ذلك أقصى مبالغة بنيّتِكم الصالحة الصريحة، ووفَّيتُم منه أوجبَ حقٍّ للمسلم على أخيه من النّصيحة، لكنْ يَنفُذُ حُكمُ الله تعالى فيما ثبَت في الكتُب مسطورًا، فلم يحذر التحذير محذورًا، وكان أمرُ الله قَدَرًا مقدورًا، وثوابُكم على الله سبحانَه فيما مِن ذلك تولَّيتُم، وقضَيتُم به حقَّ الإسلام وأدَّيتُم، وإنّا لَنَشكُر لكم ذلك، كما رأى اللهُ عزَّ وجَلّ فيه مَنابَكم وشَكَر إليه انتدابَكم، فما قصَّرتُم في عمَلٍ سَديد، ولا تأخَّرتُم في الجِدِّ والنُّصح عن شأوٍ بعيد، فعرِّفوا بكلِّ ما تتعرَّفونَ من إرادات الأعداءِ بعد، وطالِعوا مِن محاولاتِهم الذّميمةِ ما نتأهَّبُ لدَفْعِه بحول الله تعالى ونستعدّ، وهو سبحانَه يَتدارَكُ بمعهودِ لُطفِه ومُعتادِه، ويمُدُّ الإسلامَ وأهلَه بنَصْرِه وإنجادِه، ويعينُكم على أفضل ما أنتُم عليه من صَواب العملِ وسَدادِه بمنِّه. وكُتِب ثالثَ ذي القَعدة من عام ثمانيةٍ وخمسينَ وست مئة.

ذكرُ فتح سَلَا أمَّنها اللهُ وانتزاعِها من أيدي الرُّوم على يدِ أمير المسلمينَ أبي يوسُف رحمه الله[1]

وذلك أنه لـمّا بلَغَ الأميرَ المعظَّم أبا يوسُف خبرُ أهل سَلَا، واستيلاءُ النّصارى عليها، بادَرَ بعساكرِه إليها، فحاصَر الكفَرةَ فيها أعظمَ حصار، واجتَمع المسلمونَ عليها منَ البلاد الغربيّة[2] وما وَالاها منَ الأقطار، فكانوا يُقاتلونَهم باللّيل والنّهار، بالنِّبال والأحجار، ودام القتالُ مدةً من ثلاثةَ عشَرَ يومًا من شوّال، إلى أنْ خَرج منها الكُفّارُ بما حصَل في أيديهم من المسلمينَ الصِّغارِ والكبار، وبها ألفَوْه في المدينة منَ الأموال والأسبابِ والأمتِعة ما لا يحصُرُه حاصر ولا يصِفُه واصف، وذلك شيءٌ تَحارُ فيه الأفكارُ والأقوال.

وبطُول مقامِهم في تلك الأيام المذكورة، كان الطُّغاةُ الكفَرةُ يُطلِعونَ المسلمينَ لأجفانِهم، وما وجَدوا بالمدينة من أحوالهم وأموالهم، وحينَئذٍ أسرَعوا للفِرار، وتقَحَّموا لُـجَجَ البحار، ولو أقاموا فيها بعضَ الأيام لأخَذ المسلمونَ منهم بالثار، واقتَحموها بالدّخول عليهم وقَتلوهم ما بينَ الجُدُرات، ولكنّ الأمورَ تجري بحُكم الأقدار، ولكنْ هوَّن هذا الخَطْبَ الذي استنفَرَ الأحلام، وذاد عن الجفونِ لذيذَ المنام، خروجُ الطّاغية منها وعودتُها عن قريبٍ للإسلام، فعادَت للجُفون لذيذُ منامِها وغَمْضِها، وبعضُ الأشياء بالجُملة أهونُ من بعضِها، وملَكَ الأميرُ أبو يوسُف مدينتَيْ سَلَا ورِباطَ فتحِها، وعوَّد اللهُ سبحانه المسلمينَ عوائدَه الجميلة حين فتَحَها، وكان فتحًا ميسَّرًا بالإضافة لِـما كان يتوقَّعُ منَ استيطان عبَدةِ الأصنام بينَ ظهورِ الإسلام، ولو كان عامًا واحدًا من الأعوام.

وأمّا جَلِيَّةُ أمرِها فإنّ العدوَّ أهلكَه اللهُ لـمّا كان قد نزَلَ بجزيرة قادِس كانت الأقوالُ تختلفُ في أيِّ موضع يقصِدُه، إلى أن كان منَ الأمر الفاجِع والحدَث الصّادع ما تقدَّم ذكرُه وخبرُه وأمرُه، وكان في ذلك ما احتَسَبهُ الأميرُ أبو يوسُف من مصالح المسلمينَ شُغلًا، واكتَنَف بحِراسة هذا الثّغر قولًا منه وفعلًا، فأجمَع من أخلاط الناس

(١) الاستقصا ٣/ ٢١، ٢٢.

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

وأشتاتِ القبائل الـمَرينيّة وغيرِها آلافًا من الأعداد يَستنهِضُهم للجهادِ بالجِدِّ الخالص في ذلك والاجتهاد، إلى أن مَنَّ الله تعالى بهذا الفَتْح للعباد، فسُرَّ المسلمونَ به في جميع البلاد، وبصُنع الله الذي لا كفايةَ لهم بشُكرِه، وأنِسوا بعنايته الدّافعة في صُدور العدوِّ ونَحْرِه، الرّادّةِ عليه عاقبةَ كيدِه ومكْرِه.

وذلك لـمّا رأى العدوُّ أهلكَه اللهُ تكاثُرَ المسلمينَ على المدينة المذكورة وتوارُدَهم عليها معَ الساعات وخلالَ الآناءِ والأوقات، ولا يَفتُرُ لهم ليلًا ونهارًا ورودٌ وإلمام، ولا يَمضِي زمَنٌ فَرْدٌ إلا وفئامٌ تتبَعُها فئام، أوقَعَ اللهُ تعالى الرُّعبَ في قلوبِهم، وكان طلوعُ عشائر المسلمينَ إذْنًا بهروبِهم، فأصبَحوا يومَ الأربعاء الرابعَ عشَرَ من شوّال المذكور وقد طهَّر اللهُ تعالى الأرضَ من إلحادِهم، ورَكِبوا لُـجّةَ البحرِ على أعوادِهم، وأمَرَ الله الرِّيح فلم تُساعِدْهم، فصارتِ الأمواجُ تَسري بهم يمينًا وشِمالًا، وجَنوبًا وشَمالًا، ولانحفازِهم إلى الفِرار لم يتزوَّدوا كثيرًا من الماء، ولا قَدَّروا حُكمَ قاضي السماء، فطال مقامُهم في البحر ولا يُسيغونَ جُرعة، ولا يستطيعونَ إلى أهليهم رَجْعة، فصاروا يقصِدونَ السّواحل رجاءً في الظَّفَر بمَنْهَل يُعلِّل غُللَهم ويَبلُغُ نهلَهم وعَللَهم، فكلّما يَمَّموا جهةً تلقَّاهم المسلمونَ رُجّالًا وفُرسانًا يذودونَهم ذِيادَ البعير الضالّ، فيرجِعونَ وحُرَقُهم تتوهَّج، وغُللُهم تتأجَّج، بل إنّهم في بعض تلك المواطن قصَدوا فأقصَدَهم الحتفُ والحَيْف، وتقسَّمَهم الرُّمحُ والسَّيف، ففقَدوا عدّةَ رجال، وتَركوا دونَ مواردِ الماء جُملةَ حُماة وأبطال، ولقد وصَلت منهم قُرْقورةٌ إلى جهة العرائش فرامُوا أخْذَ الماء فعجَزوا عنه، فحاولوا شراءَه ببعضِ مَن عندَهم من الأسرى فأُجيبوا إلى ذلك، وأُظهِر لهم الإسعافُ فيه هنالك، فاستُنقِذَ منَ أسرى المسلمينَ المذكورينَ ثلاثةٌ وخمسونَ شخصًا أكثرُهم نساءٌ وأطفال، وذكَروا أنّ طاغيتَهم القَشْتاليَّ عزَم على تحريق رؤسائهم حَنَقًا عليهم لِـما أفتَوْه، وأسفًا على ما حصَل بأيديهم فأفلتُوه، ولذلك طلَبَ منهم جماعةٌ نحوَ عشرينَ شخصًا الأمانَ فأُعطُوه ونَهَضوا إلى الأمير المعظَّم المجاهد أبي يوسُف بن عبد الحقِّ ليركنوا ويَخدُموه.

وأخبرَ أبو الحَجّاج يوسُفُ ابن الأمين أنه وجَّه من ثِقاته إلى الأندَلس حينَ ذلك مَن وَثِق بنقلِه، واستندَ إلى فهمِه وعقلِه، ليتعرَّف حقيقةَ الأخبار هنالك، ويعرِّفَه بجَلِيّة

ذلك، فقال: إنّ الطاغيةَ أهلكَه اللهُ كان قد أعدَّ جموعًا وافرةَ العُدَد ظاهرةَ العدَد ليكونوا مددًا للكفَرة المستولِينَ على سَلَا، فعندَ وصُول نبإِ الفتح الذي سَدَّ دونَهم بابَ الرجاء، وضيَّق عليهم فَسيحَ الأرجاء، كاد العدوُّ تَفيضُ نفسُه، ويَطويه أسفًا رَمْسُه، فأقسَمَ أيْمانَ كُفرِه لَيُعاقِبَنَّ أشياعَه الخاسرةَ، وليَطبُخَنَّ مقدَّمهم جوانَ غَرْسيةَ على فَعلتِه الصادرة، فاتّصل ذلك بجوانَ المذكور ففَرَّ في ثلاثة قَراقرَ إلى الأشبُونة فبقيَ مُقيمًا بها ولم يرجِعْ إلى قادِس حيث كانت تتجهَّزُ الأجفانُ المذكورة إلا نحوَ خمسة وعشرينَ جفنًا وسائرُها تفرَّق أيَّ تفريق، وتمزَّق شملُه خوفًا من الطاغية أهلكَه اللهُ أيَّ تمزيق.

وأُهبِط من أسرى المسلمينَ ثلاث مئة وثمانون شخصًا فَدَاهم المسلمونَ من أهل شَرِيش وغيرِهم طالبينَ الأجرَ من رَبِّهم، إلى أن وصَلوا بعدَ ذلك إلى بلدِهم، وقيل: إنّ جُملةَ ما اجتَمع بإشبيلِيَةَ مِن أسرى أهل سَلَا نحوُ ثلاثة آلاف نَفْس بينَ ذَكرٍ وأُنثى صغيرٍ وكبير، أكثرُهم أطفال صغار وعجائزُ وشيوخ كبار.

وبعَثَ الأميرُ أبو يوسُفَ رحمَه اللهُ تعالى أبا بكرِ بنَ يَعْلَى في أواسط شهر ذي القَعْدة من العام المؤرَّخ برَسْم افتكاكِ الأسرى المذكورينَ، ففَكَّ اللهُ أسرَهم على يدَيْه وافتَدى أكثرَهم، وكان قد أُسِر في جُملتهم قاضي سَلَا أبو عليٍّ ابنُ عشَرة ففَداهُ الأميرُ أبو يوسُف في جملة مَن فَداهم، واستنقَذَهم من أيدي أعاديهم، وكلُّ مأسورٍ له أهلٌ أو مالٌ فُدِي مِن أسرِه ويَسَّر الله لهُ في أمرِه، وكلُّ فقيرٍ مُعسِرٍ سبَّب اللهُ في صَدَقاتِ المسلمين فافتَكَّ من الأسر، إذ ليس بعدَ العُسر إلّا اليُسر، وبقيَ عندَ الرُّوم آخرونَ مأسورينَ من أهل سَلَا المذكورين وآخرونَ مَتْلوفينَ لا يُعلَمُ لهم خبر، ولا وُقعَ لهم على أثَر، هل كانوا مقتولينَ أو محمولين، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله العليِّ العظيم.

ولـمّا دخَل الأميرُ المعظَّم أبو يوسُف إلى مدينة سَلَا بعدَما استوَلَى عليها العدوُّ وخَرَّب ديارَها ومساجدَها أمَرَ ببناءِ سُورِها، وتجديدِ مساجدِها المعظَّمة ودُورِها، فأوّلُ ما شَرعَ من تلك الأمور في ابتداءِ بناءِ السُّور، فرفَع الحَجَر بيدِه يوصلُه إليه برَسْم البناءِ المذكور، وفعَلَ ذلك مِرارًا يبتغي الأجرَ والثوابَ عليه منَ الله سبحانَه، فعندَما عايَنَه جميعُ الطوائف الحاضِرينَ من وجوه بني مَرِين الزُّعماءِ إخوانِه، ومن أشتاتِ القبائل وأخلاطِ الناس، رفَعوا الأحجارَ على كواهِلهم من غير تأنٍّ في ذلك ولا اختلاس،

حتّى رفَعوا جميعَ ما كان منَ الحَجَر في المقابرِ والكدان، وحصَل ذلك كلُّه في بناءِ السُّور المذكور، وذلك في أيامٍ قلائل[1].

وحينَئذٍ تفرَّق من هنالك مَن حضَر من القبائل. ولقد بادَرَ إلى الأمير المعظَّم أبي يوسُف جماعةٌ من الصُّلَحاء حين سَمِعوا أنه رَفَع الحَجَرَ بيدِه إلى ذلك البناء، مُسرِعينَ إليه بالشُّكرِ والثناء، راغبينَ منه ألّا يفعلَ ذلك، وقالوا: إنّ السُّلطانَ لا يكونُ كذلك، فقال لهم: ما ابتغَيْتُ إلا الأجرَ والثوابَ هنالك، فدعَوْا له وانصَرفوا عنه شاكرينَ، وبالثناءِ عليه ذاكرين، فاجتَهد رحمَه اللهُ في كائنة سَلَا غايةَ الاجتهاد، وما زال يحدِّث نفسَه من هذه السنة المؤرَّخة بالغَزْو والجهاد، إلى أنْ بلَّغه اللهُ في ذلك أقصى المراد، فجاهَد في سبيل الله معَ إخوانِه وأولادِه الفُرسانِ الأنجاد، فأعزَّ الله به الدِّين، وأذلَّ به الكافرين، وتسَمَّى بأميرِ المسلمين، وبَلَغ القصْدَ والمراد، ومات على قَدَم الجهاد.

وقدَّم على مدينة سَلَا في هذه السَّنة المذكورة أبا عبد الله بنَ أحمد الفنراريَّ[2]، وأمَرَه أن يشتغلَ فيها بالبناءِ والتسديد، والإصلاح والتجديد، فامتَثل المذكورُ أمرَه الرَّشيد، فجدَّد وسدَّد وبَنى وشيَّد، فقد كان الكُفّارُ خَرَّبوا الدّيارَ وحَرّقوها بالنار، وأشعَلوا في كلِّ ما وجَدوه في ديارِ المدينة وأسواقها منَ الأثاث والأسباب والأمتِعة والأوعِية والفُرُش وغيرِ ذلك منَ السِّلع قُطنًا كان أو صُوفًا أو كَتّانًا ممّا لم يتأتَّ لهم حَمْلُه لسُرعةِ فِرارِهم وثِقَلِه، أشعَلوا فيه في كلِّ موضع النيران، فكانت تلتهبُ فيها بكلِّ مكان، فحرَّقوا ومزَّقوا ونَهَبوا وسَلَبوا، ثم فَرُّوا وهَرَبوا، وترَكوها حينَ خَرجوا منها خاليةً خاوية، والنّيرانُ تشتعلُ في أسواقِها ودُورِها، وبعضِ علاماتٍ مرفوعاتٍ على سورِها، وعَمِلوا تخيُّلاتٍ ما بين شراريفِ السُّور بداخِلها، وأقلَعوا في أجفانِهم باللّيل شيئًا بعدَ شيء فما عَلِم أحدٌ من الحاضرينَ هل كانت عامرةً أو خالية، حتى باعَ نفوسَهم من الله بعضُ الـمُطَّوِّعة وطَلَعوا بسَلاليمَ عَمِلوها إلى السُّور، وحينَئذٍ تبيَّنَتْ لهمُ الأمور. ودخَل الأميرُ أبو يوسُفَ رحمه اللهُ إليها في يوم الأربعاء الرابعَ عشَرَ لشوّال من عام ثمانيةٍ وخمسينَ وست مئة.

---

(١) الاسقصا ٣/ ٢٢.

(٢) في ق، ك، ب: «الفنزاري».

ووصَلتْ في شهر ذي القَعْدة من هذا العام إلى نَظَر شَرِيش مئةُ فارس برَسْم إخلاءِ موضع القَناطر وإخراج المسلمينَ منها ووصُولِ الطاغية إليها، وقد اعتَمدوها لسُكناهم، وعَدُّوها مَثْواهُم، وأُخلِيَت أيضًا ديارٌ بشَرِيش برَسْم الطاغية لِـما عزَم عليه من الإقامة بها توغُّلًا في ضلالِه، وإرصادًا لمواقع كيدِه واحتيالِه، وتجرُّدًا لِـما أظهَرَه ونطَقَت به شيعتُه من قَصْد ذلك الثَّغر في مستقبل حالِه، على ما يأتي إن شاء اللهُ تعالى.

وأولُ مَن بادَرَ بورودِه إلى الأمير أبي يوسُف بمدينة سَلَا في أشياخ قبائلِ الـمَصامدة وكُبَرائهم: شيخُ بني تامردا الصُّنْهاجيُّ أبو فارس عبدُ العزيز بن يبورك، فأقبَلَ إليه أبو يوسُف بغاية إقبالِه، حين ورَدَ عليه بخَيْلِه ورِجالِه، فأنْجَح اللهُ سعيَه الحميد، ورأيَه السَّديد، في مقاصدِه ومصادرِه ومواردِه، فوَلّاه أبو يوسُفَ المدينةَ المذكورةَ بعدَ هذه السنة المؤرَّخة، فاستقرَّ فيها بأولادِه وعِياله، وصَاهَرَ لطلحةَ وزيرِ السّلطان وابن خالِه، ووصَلَه بها بعضُ قبائله من إخوانِه وخُدّامِه، وعاد إلى المدينة المذكورة من أهلِها ومن غيرِها حين صَلَح حالُها وأمرُها. وقد كان الفقيهُ أبو القاسم العزَفيُّ رحمه الله يُحرِّضُ على التفقُّد لتلك الأشياءِ والتيقُّظ للأعداء، فلمّا وقَع ما وقَع كتَبَ المرتضَى له كتابًا بالشّكر.

وفي هذه السنة، في يوم الثّلاثاء الموفي عشرينَ من شهر محرَّم: أمَرَ أبو عبد الله الـمُستنصِرُ بالله صاحبُ تونُس بقَتْل الكاتب الجليل أبي عبد الله ابن الأبّار، ولا يُعلَمُ لأيِّ شيءٍ كان ذلك، ثم نَدِم على قتلِه بعدَ ذلك(١).

وفي سنة تسع وخمسينَ وست مئة: كان مِن قضاءِ الله تعالى وقَدَرِه على أهل شَرِيش ما كان، من دخُول الرُّوم القَصَبةَ صُلحًا معَهم برَسْم السُّكْنى بها والاستيطان، ثم استَهوى الرُّومَ غَويُّهم والشّيطان، وأرادوا القيامَ فيها على المسلمين، فأخرَجوهم منها خاسِرين، واستعانوا عليهم بعَسْكر من بني مَرِين، حين كان جَوازُ محمد بن إدريسَ بن عبد الحقِّ في سنة اثنتين وستين.

وفي هذه السنة: كان بينَ الفقيه أبي القاسم العزَفيِّ وبينَ الأمير أبي عبد الله ابن الأحمر شَنَآنٌ وفتنةٌ وعداوةٌ في القلوبِ متمكِّنة، فأمَرَ صاحبُ الأندَلس القائدَ ظافرًا أن يَخرُجَ

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٤١٨-٤١٩.

بالأجفان الغَزْوانيّة فيضيِّقَ على سَبْتَةَ ويُحاصرَها، فاجتَمعت ونزَلَت بالجزيرة الخضراء، فكانوا يدخُلون مرسَى سَبْتَةَ مرةً بعدَ أخرى ويضيِّقونَ عليها ويقطَعونَ الـمَرافقَ الواصلةَ إليها، فأمَرَ الفقيهُ العزَفيُّ القائدَ أبا العبّاس الرنداحيَّ أن يَعمُرَ جميعَ أجفانِ سَبْتة كبارًا صِغارًا، فعَمَرها وخرَج بها إليهم، فكان الغالبَ عليه والظافرَ بها لديهم، فعكَّسهم ونكَّسهم وساقَهم إلى سَبْتة ولم تُفلِتْ منهم إلّا الأقلّ، وقُتل في جُملة مَن قُتل منهم القائدُ ظافر، وعلِّقت جثّتُه في البحر على حَجَر السُّودان وطِيف برأسِه سَبْتَةَ ثم عُلِّق، وبعدَ ذلك تهدَّنت الأحوال وسكَنَت الأقوال، ويُسمَّى هذا العامُ بسَبْتَةَ عامَ ظافر.

ومن أخبار العَرَب الداخِلينَ تحتَ طاعة الموحِّدين على الـجُملة من غير سنة معيَّنة

وذلك أنّ المرتضَى رحمه اللهُ تعالى قدَّم يعقوبَ بنَ جرمونَ أميرًا على قبائل سُفيانَ كلِّها ليقومَ بأمورِها قليلِها وجليلِها، وكان يُضاهيه ابنُ أخيه في العَقْد والحَلّ، فأمَرَ عليه بالقتل، ثم إنّ إخوةَ المقتول من أولادِ كانونَ أخذوا ثأرَهم بعدَ سنين، دخَلوا على عمِّهم وأسقَوْه كأسَ الـمَنُون، ورحَلوا إلى بلاد بني مَرِين ودخَلوا تحتَ طاعتِهم وفي حُرمتِهم كما تقدَّم ذكرُه حينَ[1] وفاةِ السّعيد رحمه الله[2].

ولـمّا وصَل الخبرُ إلى المرتضَى رحمَه الله بقَتْل يعقوبَ بن جرمونَ المذكور، قدَّم وَلَدَه عبدَ الرّحمن على قبائل سُفيان، فاستَوْزَر يوسُفَ بن أورزج[3] ويعقوبَ بن عُلْوان، وكان المذكورُ يستخِفُّ بالأمور، ولـمّا نزَل في بعض الأيام على وادي تانسيفت بدُوّارِه خَرج يومًا منه متنزِّهًا على شاطئ الوادي، ليُبصرَ الرائحَ والغادي، فما استقرَّ به هنالك القَرار، إلّا وقافلةٌ قافلةٌ بجُملة من التُّجّار، فأمَرَ عليها بالنّهبِ والدّمار، فاستولَوْا على ما أبقَوْه من المال والأثقال، ولم يعبَأوا بمَن سكَت ولا مَن قال، وكان في حال سُكر هنالك، فلمّا أفاقَ من سُكرِه وفاتَ الأمرُ في ذلك، ورَأى أنّ الجُرأةَ عظيمة في قَطْع السُّبُل والمسالك،

---

(١) في ق، ك، ب: «في».

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠، والاستقصا ٢/ ١٧٣.

(٣) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠: «وازرج».

أخَذ في الحين في فِرارِه، ورحَل من هنالك بدُوّارِه، ونكَثَ عن الطاعة الموحِّديّة، ودخَل تحتَ الطاعة الـمَرينيّة، وخَسِر التُّجّارُ جميعَ أمواهم، ولا قُدِّر لهم في الوقت إلّا ببَسْط آمالِـهم[1].

ثم بعَثَ المرتضَى رحمه الله إلى عُبيدِ الله[2] بن جرمونَ، فوصَل معَ إخوانِه الجَرامية المعروفينَ بأولادِ مرية، وكانوا في نحو مئة فارس بينَ وَلَد وحفيدٍ يُعدُّون، بل بنيّفٍ عليها يزيدون، ولـمّا وصَلوا إلى الحضرة الـمَرّاكُشية قعَد لهمُ الخليفةُ في بعض الأيام، وقدَّم عليهم وعلى قبائل سُفيانَ عُبيدَ الله الـمَكْنيَّ بأبي زِمام تقديمَ إنعام وإكرام، لكنْ كان المذكورُ عُبيدُ الله غيرَ مُنَجَّزٍ[3] في الأمور، ولا في الرأي والتدبير، فعجَّل له بالتأخير وقدَّم بعدَه على سُفيانَ مسعودَ بنَ كانون، فصَلَحت الأحوالُ على يدَيْه، واستقامت الأمورُ الراجعةُ إليه[4].

ثم إنّ عواجَ بنَ هلال أحَدَ أُمراءِ عربِ الخُلَّط وعظيمَهم وزعيمَهم عاد إلى الحضرة الموحِّديّة وخَرج عن الدّولة الـمَرينيّة، فوفَدَ على الخليفة بعَسْكر كبير من إخوانِه، فأفاضَ عليهم جزيلَ إحسانِه، وأمَرَ أن يقامَ بحقِّهم وبإكرامِهم، فأُقيمَ بهم خيرَ قيام، وأُكرموا غايةَ الإكرام.

واتّصل خبرُ[5] كرامتِهم بعبدِ الرّحمن بن يعقوبَ المتقدِّم ذكرُه، فخاطَبَ يعتذرُ في أمرِه ويرغَبُ في العفوِ والصَّفح من الخليفة المرتضَى وأن يعودَ كما كان إلى خِدمتِه، فأُسعِف في مطلبِه وبُغيتِه، ووَفَد على الحضرة الـمَرّاكُشيّة في جماعةٍ من جُملته، فأُنزِل على عادته بدارِ الدالية، وأُعمِل الكلامُ فيما جرَى منه في الأيام الخالية، فعجَّل باستدعائه، ودخَل معَ وُزرائه، فعندَ خُلوِّه معَهم ثُقِفوا بدار الحُكماء، فحصَل في الشَّرَك الذي نَصَبَه له مَن نَصَبَه، عقوبةً منَ الله على ما تقدَّم من فعلِه في شأن مَن أكَل مالَه وغَصَبه، وكان

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠: «عبد الله».

(٣) المنجذ: المحنَّك المجرب.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠.

(٥) سقطت من ق، ك، ب.

عليُّ بن أبي علي الخُلَّطيُّ غار بوصُول عواج إلى الحضرة، فزَرَع فيه كلَّ قبيح عندَ الخليفة، وكان المذكورُ عند المرتضَى ثقةً وعَدْلًا يُرتضَى، فجدَّد الكلامَ في شأن عواج المذكور، وقال عنه: إنه ما وصَل للحضرة إلا بالخِداع للأمرِ والفجور، فأُمهِل ولا أُهمِل، بل أُكرِم وأُنزِل، حتّى حصَل عبدُ الرّحمن بن يعقوبَ في الشَّرَك فأمَّر عليه عليَّ ابن أبي عليٍّ الخُلَّطيَّ المذكورَ الذي كان معَه في الإمارة مشترِكًا، فقُتل وقُتل عبدُ الرّحمن معَ وزيرَيْه المذكورَيْن وحُزَّت رؤوسُهم أجمعين، وعُلِّقوا على باب دكّالة، وبقيَ أميرُ سُفيانَ مسعودُ بن كانونَ بن جرمون، وأميرُ بني جابر إسماعيلُ بن يعقوبَ بن قَيْطون، وأميرُ الخُلَّط عليُّ بنُ أبي علي المذكور، فصَلَحت بهم في ذلك الوقت الأمور[1].

وفي هذه السنة: كانت هزيمةُ الموحِّدين معَ ابن وانودين في الموضع المعروف بأُمِّ الرجلين[2]، وذلك أنّ أميرَ المسلمينَ أبا يوسُف خَرج من حضرتِه متوجِّهًا إلى بلاد تامَسْنا برَسْم الرَّعي والكلإ والتهدينِ لمن هنالك من عَرَبٍ وغيرِهم، فبلَغَ الخبرُ المرتضَى بمَرّاكُش بوصُول عسكرِ بني مَرين إلى بلاد تامَسْنا، فأمَرَ في الحين بخروج العساكرِ الموحِّديّة والعربيّة والجُنْديّة، وقدَّم على الموحِّدينَ والمتجنِّدين أبا زكريّا يحيى بنَ وانودين، فرحَل بمحَلّتِه إلى مقرُبة من وادي أُمِّ ربيع، وهنالك اجتَمع الجَمْعان وأوقَع الحربَ الفريقان، ثم صَدَرتِ العساكرُ الـمَرينيّةُ إلى جهة الوادي المذكور، فطَمِع الموحِّدونَ في العلوِّ والظهور، فعجَّل ابنُ وانودينَ بالكَتْب بذلك، وما ظَهَر له من النَّصر هنالك. ثم بعدَ ذلك رجَعَت عساكرُ بني مَرين على عساكرِ الموحِّدين فهزَموهم أجمَعين وقَتلوا منهم خَلْقًا بموضع أُمِّ الرجلين، وعاد ابنُ وانودينَ معَ الموحِّدين إلى مَرّاكُش مفلُولينَ خاسِرين بعدَما كان المرتضَى رحمَه الله بكَتْبِه في غاية السُّرور، ولكنْ تحدُثُ من بعدِ الأمور أمور.

ولـمّا دخَل ابنُ وانودينَ على الخليفة قال: العفوَ يا أميرَ المؤمنين، لـمّا غدَر بنو جابر وانكَسَروا من ناحيتِهم انكسَر الناسُ بجُملتهم، وكان أولَ مَن بادرَ وفَرَّ إلى الـمَرينيِّين عليُّ بن أبي عليّ الخُلَّطيّ، ودخَل تحتَ طاعة المقام اليُوسُفيّ. ولـمّا وصَل ابنُ وانودين تفاوَضَ في أمرِ الهزيمة الخليفةُ معَ وُزرائه وأشياخ الموحِّدين، فأشار عليه ابنُ عَزّوز أن

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٧، والاستقصا ٢/ ١٧٥.

يَخرُج، وكان إفراجٌ قد أمَرَ به وأُخرِج. ثم إنّ ابنَ بَجيت قال: بئسَ الرأيُ يا سيّدَنا، بئسَ الرأيُ الذي أشار به عليكُم، وذكَر مِن أمرِ الخروج إليكم، فعَلِم أنّ قولَه قولُ محبٍّ خالص، وأمَرَ أن يُدخَل أفراك من المخالص، فأُدخِلت المضاربُ وأضرَبَ عن الحركة أيَّ إضراب، وأمَرَ بغَلْق أبواب مَرّاكُش ما عدا ثلاثةَ أبواب، وقامت في الناس هُوشةٌ وتشويشٌ، وكثُر القالُ والقيل، إلى أن وصَل الخبر بأنّ بني مَرِين صادرونَ إلى بلادِهم بالرّحيل.

وفي هذه السّنة، بعدَ انقضاءِ وَقْعة أُمِّ الرجلين: خَرَج عَسْكرٌ كبيرٌ من الموحِّدين معَ محمد بن عليِّ بن آصلماطَ إلى بلاد السُّوس، وظَنُّه أنّ عليَّ بن يدّر في قبضتِه، وكان يحدِّث نفسَه بذلك ويَزعُم أنه يظفَرُ به عندَ لقائه له ورؤيتِه، وكانت حركتُه في زمَن الخريف وحركةُ أُمِّ الرجلين في زمَن المصيف، ولم يكن بينَهما إلّا أوانُ الحصاد، وإذا بالخبر وصَل للمرتضَى بالوَقْعة السُّوسيّة وعليِّ بن آصلماطَ ومَن كان معَه من الموحِّدين والأجناد، وقُتل في هذه الكائنة ابنُ آصلماطَ قائدُ العَسْكرِ المذكور المدَّعي بالشَّهامة في الأمور، فعَظُمت المصيبةُ على الموحِّدين بفسادِ محلّتَيْنِ اثنتَيْن، ووقيعتَيْنِ كبيرتَيْن في أقلَّ من شهرَيْن، فكان ذلك من علاماتِ الإدبار للدّولة الموحِّدية.

ومنَ الاتّفاق الغريب أنّ ابنَ آصلماطَ قال قبلَ موتِه بأمدٍ قريب: تُرى هل يَرى المصلوبُ مُنكَرًا ونكيرًا أم لا؟ وبعدَ أيام قلائلَ قُتل وصُلب، فما خالَفَ قولًا.

ولـمّا كان من قتل ابن آصلماط وهزيمة عَسْكرِه وظهور ابن يدّر عليهم ما كان، قَدَّم المرتضَى على بلادِ السُّوس أبا زيد بنَ بَخيت أحدَ وُزرائه وأجلدَ نُظرائه، وتوجَّه معَه قائدُ النَّصارى المعروفُ بذي اللُّبِّ بجَمْع وافر من الرُّوم إلى السُّوس، وكان كما وصَل منَ الأندَلس، وكان قائدٌ آخرُ قد تقدَّمه اسمُه غرسية بجَمْع آخَرَ من الرّوم، فوقَعت الحربُ بينَ عسكرِ الموحِّدين وعسكرِ ابن يدّرَ هنالك، إلى أنِ افترَقَ الجمعانِ بينَ قتالٍ كثير ومعاركَ، وكان القائدُ ذو اللُّبِّ الـمَخْزيُّ متكاسلًا فيما وقَع من الحرب بينَ يدَيْه ليس له نهضةٌ ولا نَجْدةٌ في ذلك إلّا يطلُب مُياومتَه جاريةً في كلِّ يوم عليه، ويَطغَى بكلامِه ومَلامِه إذا لم تصِلْ يومًا إليه، وكان لأبي زيد بن بَخيت أميرُ العسكر غيرُ سامع لأمرِه ولا عارفٍ بقدرِه، فكتَبَ بذلك كلِّه للخليفة وعرَّفه بحالِه ومقالِه، فأمَرَ في الحين بوصُولِه من السُّوس وانتقالِه، فكان مِن أمرِه ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة إحدى وستينَ وست مئة: كان مقتَلُ القائدِ ذي اللُّبِّ النَّصرانيِّ، وذلك أنه لـمّا أُمِرَ بالوصُول إلى الحضرة الـمَرّاكُشيّة نظَرَ المرتضَى رحمه اللهُ مَن يتولَّى قتلَه من أشياخ الدّولة الموحِّدية، فوقَع رأيُه على الشّيخ أبي زيد بن أبي زكريّا الجدميوي، فبعَثَ عنه وأمَرَه بقَتْل القائدِ المذكور إذا وصَل منَ السُّوس إلى تاجانرتَ مجتازًا عليه، وأمَرَ النَّصرانيَّ أن يدفَعَ إليه براءةً بالإنزال والإكرام إذا وصَل لموضع أبي زيد، فلمّا وصَل المذكورُ بالبراءةِ المذكورة، ووقَفَ عليها دبَّر وجْهَ الحِيلة على أحسن صُورة، وكان من القَدَر المحتوم في هذا الأمر المكتوم أنْ وصَل قائدُ الرّوم رمِدَ العَيْن، فطلَبَ منه أن يُنزِلَه في بعض الدُّور، فسهَّل اللهُ على أبي زيد المذكور ما كان يَبغي ويَروم، فأنزَلَه في دارِه عندَه، واشتَرط عليه أن يكونَ وحدَه، فما أمكَنَ إلّا أنْ دخَل معَ ستة من الرُّوم خَدَمتِه وبقيَ بالفَحْص جميعُ مـحَلّتِه، فقام بهم أبو زيد وسَقاهم وأكرَمَهم، فلمّا جَنّ اللّيل حَلّ بهمُ الويل، والقائدُ ساهرُ العين إلى أنْ جاءه الحَيْن، فدخَلت عليه سبعةٌ من العَبيد معدّون، ولقتلِه مستعدّون، فأخَذوهم واحدًا واحدًا، وقُتل مَن كان ساهرَ العَيْن منهم ومَن كان راقدًا، وأبو زيد المذكورُ معَ جماعة من إخوانِه وعَبيده خلفَ الباب ناظرين، ولـحَتْف الكفَرة منتظِرين، إلى أنْ تخَلَّص حالُهم ورُبِطَت الحبالُ في أرجُلِهم وجُعلوا في قَعْر بئرٍ عميق.

وبعَثَ أبو زيد في الحين لجميع أهل نفيسَ أنْ يُصبِحوا عليه ويُقبِلوا بسِلاحِهم إليه، فأصبَحوا عليه كذلك، وكان قد جَمَع الساكنينَ هنالك، لئلّا يقَعَ بينَه وبينَ الكفَرة معارك، فلمّا أصبحَ دخَل عليه التُّرجُمانُ الحكيم فوجَد الجموعَ الواردةَ كالسَّحاب المتراكِم، فبادَرَ بسلامِه على أبي زَيْد وكلامِه، فنجَهَه أبو زيد وصاحَ عليه، وجَبَهَه بشَتْمِه إليه، وقال له: قد فعلتَ معَنا العار، حين جعلْتَنا أنزَلْنا القائدَ في الدار، فها هو قد هَرَب ولم نعلَمْ حيث استقرَّ به القَرار، فكيف يكونُ أمرُنا معَ الخليفة وحالُنا بسبب هذا الفِرار؟ فعاد التُّرجُمانُ إلى جماعتِه النّصارى الكُفّار فأعلَمَهم بهروبِ قائدِهم من الدار، فدخَل بعضُهم في السِّلاح وقام العَويلُ والصّياح، وأيقَنوا أنّ قائدَهم قد مات، وأنّ الأمرَ فيه قد فات، فأخَذوا في رحيلهم بصياحِهم وعَويلهم، ودعَوْا أهلَ تاكانرتَ للمرتضَى، فلمّا دخَلوا مَرّاكُش عَلِموا أنّ الأمرَ في قائدِهم قدِ انقضَى، وشكَرَ الخليفةُ لأبي زيد المذكور، على ما فعَل في تلك الأمور.

وفي هذه السنة: دخَل الرُّومُ أبادَهم اللهُ مدينةَ لَبْلة بعدَ حِصار عظيم وأمرٍ جَسيم، وكان صاحبُها ابنُ محفوظ لم يَدخُلْ في الصُّلح المنعقِد بينَ ابن الأحمر والرُّوم، بل قاطَعَ على نفسِه في العام بمالٍ معلوم، يُعطيه في بعض السِّنين، وفي بعضِها يجاهدُ في سبيل ربِّ العالَمين، معَ جماعته بزعامتِه وشهامتِه إلى أنْ حاصَره الرّومُ فيها في هذا العام، فلمّا اشتدَّ حالُه، وانقَطَعت آمالُه، أعطَى البلدَ للنَّصارى وأخرَج منها المسلمينَ أهلَها، ودخَلتِ الرُّومُ إليها، وقيل: بل كان ذلك في آخِر السّنة التي قبلَ هذه المؤرَّخة، ووصَل ابنُ محفوظ إلى المرتضَى معَ جماعتِه، فكان بمَرّاكُش يركَبُ معَهم فيها في جملة الأجناد، كأحدِ رُؤساءِ القُوّاد، إلى أنْ مات رحمَه اللهُ تعالى.

وفي سنة اثنتين وستينَ وست مئة: جاز الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن إدريسَ معَ أخيه عامر وجُملةٍ من بني مَرِين الأكابر في نحوِ ثلاث مئة من الفُرسان الأنجاد برَسْم الغَزْو والجهاد، وكان قد بقيَ من أمدِ الصُّلح المنعقِد بينَ ابن الأحمر والرُّوم بقيّةُ هذه السَّنة، فقد كان عَقْدُه معهم في سنة ثلاث وأربعين إلى عشرينَ سنة.

وكان السببُ في هذا النِّفاق قبلَ تَمام أمدِ الصُّلح أنّ الأميرَ أبا عبد الله ابنَ الأحمر توجَّه إلى إشبيلِيَةَ برَسْم الاجتماع معَ أَذْفُونْش ليجدِّد معَه الصُّلح على ما يقَعُ الاتّفاقُ عليه، فلمّا وصَل ابنُ الأحمر إلى إشبيلِيَةَ نزَلَ بخارجِها بالصِّهريج الأحمر، وكان معَه خمسُ مئة فارس من الفُرسان الأنجاد والرؤساءِ والقُوّاد، فخَرج أَذْفُونْشُ إليه وحَلَف عليه أن يدخُلَ إليها، فدخَل ونزَل بالعباديّةِ منها، ودخَل معَه الرئيسانِ الزّعيمان: ابنا أشقيلولةَ أبو محمد وأبو إسحاقَ، ونزَلا معَه في ذلك الزِّقاق معَ مَن كان دخَل معَهم من الرِّجالِ والفرسان إلى ذلك المكان، وبقيَ سائرُهم حيث نُزولُهم الأوّل. وحينَ دخول ابن الأحمر ونزولِه، عَمِل النّصارى على الزِّقاق الذي نزَل فيه خَشَبًا مُسَمَّرةً حين دخولِه إليه وحصولِه، وكانوا عَمِلوها عليهم باللّيل فأصبحت مُسَمَّرةً على الدّروب تمنَعُ جوازَ الخَيْل، فلمّا اتّصل بالأمير المذكور ذلك الحال، خاف أن يتوغَّلَ في الأوحال، فدبَّر على نفسِه في الخُروج والارتحال، حينَ عايَنَ أسبابَ الحِيلة عليه والغَدْر إليه، فخَرج بجماعتِه، بما عُلِم من زعامتِه، وأمَرَ رجالَه أن يكسِروا ذلك الخشَب المعمولة، وخَرج فحصَل بمحَلّتِه معَ جماعتِه وبني أشقيلولة، وأمَرَ في الحين بالرحيل منصرِفًا إلى بلادِه معَ قُوّادِه وأجنادِه، ثم

خَرج أَذْفُونْش إليه وحَلَف أنه ما عُمِلت تلك الإطْرُنكاتُ[1] إلّا احتياطًا من النّصارى السُّرّاق عليه، فأظهَرَ له أنه صَدَّقه، وقد عَلِم الأمرَ وحقَّقه، وحصَل ما حصَل في النفوس، فما نفَعت أَيمانُ الغَمُوس؟ فانصَرفَ عنه دونَ اتّفاقٍ ولا ارتباط، وبسبب ذلك وقَع في الأندَلس ما وقَع من النِّفاق.

وأخبَرني مَن حضَر ذلك الوقتَ بإشبيلِيَةَ المذكورة أنه ما كان فيها معَ أذْفُونْش من الفُرسان إلّا أقلُّ مما كان معَ ابن الأحمر هنالك أو قريبًا من ذلك، وحَلَف ابنُ الأحمر بأَيْمانِه حين ذلك، أنه لا يراهُ أبدًا ولا يَلقاه إلّا في قتالٍ أو جِلاد، فكان الأمرُ كذلك.

ولـمّا وصَل إلى مدينة ابن السَّليم، بقلبٍ مُنشرِح وصدرٍ سليم، فإنه كان عايَنَ هلاكَه ثم خَلَّصه اللهُ وسَلَّم، فأوصَى أهلَها وأهلَ تلك الجهات بالتحصُّن والإحاطة، وانصَرف مُجتازًا عليهم إلى غَرْناطة، فعَلِم المسلمونَ أنه انفَصَل من أذْفُونْش من غير اتّفاقٍ ولا ارتباط، فأخَذوا في التحصُّن على أنفسِهم والاحتياط، وأخرَج أهلُ شَرِيش مَن كان معَهم في القَصَبة ساكنين، فقد كانوا سكَنوا بها نحوًا من أربع سنين، وضَبَطوا مدينتَهم وقَصَبتَهم بقيّةَ هذه السنة، فكانوا بها هادِنين؛ لأنّهم كانوا بايَعوا ابنَ الأحمر ودخَلوا تحتَ طاعته، وكان اشتَرط على أذْفُونْشَ اللَّعين أنه من يدخُلْ تحتَ طاعتِه من بلادِ المسلمين يدخُلْ في صُلحِه، فكان بقيّةَ هذه السنة انصرامُه وتَمامُه.

وكان أيضًا أهلُ شرق الأندَلس صالَحوا الرُّومَ بمالٍ معلوم يدفعونَه لهم في كلِّ عام، وأعطَى أهلُ مُرْسِيَة قَصَبتَهم للرُّوم الذي هو قصرُهم، إلى أنْ وصَلَهم الرُّومُ الساكنونَ فيه بأذاهُم وضُرِّهم، فأخرَجوهم في هذه السّنة منه بالقتال لهم والحَصْر، وسمَّوه عندَهم قيمةَ القَصْر، فقاموا على النّصارى وضَيَّقوا بالحِصار عليهم، وحينَئذٍ أخرَجوهم بعدَما ألقَوا السِّلاحَ عليهم.

وكتَبَ أهلُ مُرْسِيَة إلى الأميرِ ابن الأحمر ببيعتِهم، فبعَثَ الرئيسَ أبا محمد ابنَ أشقيلولةَ إليهم واليًا عليهم فزحَفَ النّصارى إليها، ونزَلوا عليها، فبقي الرئيسُ فيها

---

(١) ذكرها دوزي في معجمه ١/ ١٥٣، فقال: «إطْرَنكة: ذكرها معجم فوك ولم يفسِّرها». قلنا: وهي مفسّرة في هذا النصّ المتقدم، وهي ما يعمل على الأزقة من الأخشاب المسمّرة لمنع الخيل من الجواز.

محصورًا، وفي نفسِه مقهورًا، فخَرج منها بخيلِه ورَجْلِه فِرارًا، فلم يجدْ أهلُ مُرْسِيةَ بعدَه حُماةً ولا أنصارًا، فضاقَتْ عليهم أحوالُهم، بما أصابَهم من العدوِّ ونالَهم، وطال عليهم حصارُهم وعَدِموا حُماتَهم وأنصارَهم، فأعطَوْا مُرْسِيَةَ للنّصارى وخرَجوا منها بأمانٍ إلى الرّشاقة، فسَكَنوا بها مدةً من عشَرة أعوام إلى أن كان مِن أمرِهم ما كان حين أخرَجوهم في سنة ثلاث وسبعين، وغدَروهم في الطريق أجمعين، وذلك بموضع يُعرَفُ بوركال، فسَبَوا النِّساءَ والأطفال، وقتَلوا جميعَ الرِّجال، وقد كانوا أخرَجوهم بالأمان دونَ سلاح، فتحكَّموا فيهم كيفَ شاءوا بالسُّيوف والرِّماح، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

ولما جازَ الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن إدريسَ وأخوه عامرٌ ومَن كان معَهم من الفُرسان الأنجاد، برَسْم الغَزْو كما ذكَرْنا والجهاد، كان الأميرُ أبو عبد الله ابنُ الأحمر استَصرَخَهم يُرغِّبُهم في ذلك، فوصَلوا إليه فاستعدَّ لهم بظَريف ضِيافاتٍ وكرامات حين جَوازِهم، وأمَرَ لهم بكلِّ ما يحتاجونَ لجِهازِهم، ثم استَقرُّوا بعدَ ذلك بمالَقة بقيّةَ هذه السنة، وانتقَلوا إلى شَريش في السّنة التي بعدَها، حين اشتَعلت نارُ الحروب بعدَ خُمودِها واقتَدح زَنْدُها، فنالَتِ الغُزاةُ المذكورونَ في غزوِها وجهادِها مُناها وقَصْدَها، ودامت الحروبُ مدةً من ثلاثة أعوام من هذا العام، إلى أنْ عقَدَ الصُّلحَ ولدُ الأمير ابنِ الأحمر بعدَ ذلك على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

اختصارُ الخبر عن مقتَل أولادِ الأمير أبي يحيى وكيفيّةِ أمرِهم

وذلك أنّ هؤلاءِ الأُمراءَ: أبا مُطهَّر وأبا سالم وأبا حديد، كان قد وصَل معَهم إلى طَنْجةَ ثلاثُ مئة فارس من بني مَرينَ وغيرِهم، فخَرج إليهم صاحبُ طَنْجة ابنُ الأمين(١)، وحَلَف عليهم في الدّخول بأعظَم اليمين، فدخَلوا معَه، فأنزَلَهم بالقَصَبة وبالَغَ في إكرامِهم وبرِّهم، فطلَبوا دخولَ الحمّام فأجابهم، فلمّا حَلُّوا بالقَصَبة غَدَروا ابنَ الأمين وجَرَّعوه كأسَ الحِمام، وكان قد قام بحقِّهم خيرَ قيام، واعتنَى بهم وبرجالِهم غايةَ الاعتناءِ التامّ، ودخَل بعضُهم إلى القَصَبة والآخَرونَ تفرَّقوا في البلد لقضاءِ حوائجِهم،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٤٦-٢٤٧، والاستقصا ٣/ ٣٤، ووقع فيهما: «ابن الأمير»، والدليل على صحة ما أثبتناه موافقته للسجعة التي بعده.

ثم إنّ رجالَ ابن الأمين المرتَّبينَ الذين كانوا تحتَ إحسانِه وإنعامِه اجتَمعوا أجمعين، ودخَلوا على مَن كان بالقَصَبة من بني مَرِين ورجالِـهم فقَتلوهم صَبْرًا وقَعَدوا بسِلاحِهم على أبوابِ القَصَبة واستدعَوْا من بقيَ منهم إلى القَصَبة، فظَنُّوا أنّ استدعاءهم كان برَسْم الطّعام والكرامة فيُقتَلونَ واحدًا بعدَ واحد إلى أنْ لم يبقَ منهم عَيْنٌ ولا أثَر، ولا مَن يُخبِرُ بخبر، إلّا أنّ شخصًا واحدًا ذُكِرَ أنه دخَل في سِرب وخَرج بعدَ أيام على شاطئ البحر، فسَلِم من الطَّعن والضّرب.

ولـمّا كان مِن قَتْل بني مَرِين وبني عبد الحقِّ ما كان، خاف أهلُ طَنْجةَ أن يُعاقبَهم السُّلطانُ أشدَّ عقاب، ويُوجِعَهم من القَتْل كلَّ باب، فخاطَبوا صاحبَ سَبْتَةَ أبا القاسم العزَفيَّ، وبعَثَ إليهم القطائعَ الغُزْوانيّةَ، وبعَثَ إليهم القائدَ أبا القاسم الرنداحيَّ وابنَ حمدان، فمَلَكوا طَنْجةَ وقَبَضوا على أولادِ ابن الأمين ورجالِـهم واستاقُوهم إلى سَبْتَةَ بأولادِهم وعِيالهم، ووَلِـيَ طَنْجةَ ابنُ حمدان من قِبَل الفقيه، واستقرَّ بقصَبتِها وأعطَى الحَفْزَ في أبوابِها، إلى أبي عبد الله ابن الغَمّاد، وبعَثَ إلى سَبْتَةَ بجماعة كبيرة من أعيان أهل طَنْجة، ورجَعَ حُكمَها إلى صاحب سَبْتَة.

ولـمّا كان هذا الحالُ الموصُوف والنبأُ المعروف، وصَل خبرُه إلى أميرِ المسلمين أبي يوسُف، فتحرَّكَ بعساكرِه إليها ونزَل بمحَلّتِه عليها، فقاتَلوه من أعلى السُّور(١)، فلم يَقدِرْ لهم بأمرٍ من الأمور(٢).

ذكرُ مقابلة أميرِ المسلمينَ أبي يوسُف للموحِّدين ومقتلِ وَلَدِه عبد الله بالمخالص

وقيل: إنّ هذا كان في السنة الفارِطة.

ولـمّا تحرَّكَ أميرُ المسلمينَ رحمه الله من بلادِ الغَرْب إلى مَرّاكُش برَسْم حصارِها والتضييق عليها، نزَلَ بمحَلّاتِه بظاهرِها بمقرُبة من جبل إيجليز، وكان القتالُ بينَ بني مَرِين والموحِّدين بفحص المخالص، فانقَبَضت النفوسُ بمَرّاكُش وارتَعَدت الفرائص،

(١) في ق: «فقاتلوه على السور».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٤٧، والاستقصا ٣/ ٣٥.

وغَلَت الأسعار وعاد كاللّيلِ الحالك النّهار، وكانت الحربُ بينَهم تُوقِدُ نارَها وتجدِّدُ رسومَها، والقواضبُ والأسِنّةُ تومضُ بروقَها وتُطلِعُ نجومَها، فقدَّر اللهُ بوفاة عبد الله ابن أمير المسلمين، فحال ذلك بينَهم وبينَ الحروب، ووجَّه المرتضَى إثْرَ ذلك رسُولَه يُعزِّيه في ابنِه ويعزِّي في إخوته، واستَلْطفَهم واسترضاهم واستعطَفَهم ثم وافقَهم على مال معلوم يَصِلُهم في كلِّ عام، فرحَل أبو يوسُف رحمه الله ووقَعَ بينَهم التراضي والإنعام.

وفي سنة ثلاث وستينَ وست مئة: كان فِرارُ السيِّد أبي العُلى الملقَّب بأبي دَبّوس من مَرّاكُش، بقصدِ السّلطان أبي يوسُف وهو بحضرة فاس يطلُبُ منه أن يُعينَه على حصارِ مَرّاكُش، وعرَّفه أنه اتّفق على ذلك معَ جماعة من الناس، فعجِبَ الأميرُ أبو يوسُف من مقالِه واستخَفَّ قولَه واستحقَرَ أن يكونَ ذلك من فِعاله، ثم أعطاه خمسةَ آلاف دينار وطبولًا وعلامات، بعدَ أنْ عاهَدَه أن يكونَ في خِدمتِه وأن يقاسمَه ما يجِدُه من الأموال والذّخائر المثمَّنات، وانصَرف إلى مَرّاكُش[1].

ذكرُ فِرار أبي دَبّوس من مَرّاكُش الذي كان السببَ في دخوله إليها واستيلائه عليها وما كان من أمرِه وخروج المرتضَى له من قصرِه

كان السببَ في فِراره اهتضامُ جانبِه في أحواله، فمِن ذلك أنه منَعَ الجوازَ على الوُزراء بنعالِه، وكان ذا همّة عالية، فأمَرَ أن ينقُصَ منها على غير عوائده الجارية، فخَرج لبُحيرة يطى بأولاده وعياله، وقد ساءته جميعُ أحوالِه، فرفَعَ إلى المرتضَى يعرِّفُه بقلّة ذات يدِه تعريفًا، ويستأذنُه في تطهير أولادِه ببُحيرة يطى ليكونَ عليه الأمرُ خفيفًا، فأمَرَه بذلك وأمَرَ بالإحسان إليه والإنعام عليه، فعند خروجِه إلى البُحيرة المذكورة قطَعَ أولادَه من حينِه في ليلته، ونظَرَ لأهله وعشيرته، وقال: لـمّا بدا التحقير زالَ التوقير، والله لأذهبنَّ فارًّا بنفسي، خِيفةً على رأسي، فودَّعهم وخَرج معَ ابن عمِّه السيّد أبي موسى إلى فاس، وبها استقرَّ، فلمّا كان في غدِ تلك الليلة التي فرَّا فيها وعُدِم حضورُهما بالقَصَبة

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١، والاستقصا ٢/ ٢٥٦.

لم يوقَفْ على خبرِهما، بل عُلِم تحقيقُ الفِرار، ولم يُعلَمْ حيث استقرَّ بهما القَرار، فعندَ ذلك أمَرَ المرتضَى بثِقاف ديارِهما وأولادهما، وطُلب[1] كلُّ من تعلَّق بأذيالهما.

ولـمّا وصَل السيّدُ أبو العُلى إلى حضرة فاس انصَرف منها مقضيَّ المآرب، مرضيَّ الأغراض والمطالب، بعدَ عهود مؤكَّدة، وأيمانٍ كما تقدَّم مردَّدة، وكتَبَ له أميرُ المسلمين أبو يوسُف إلى عليِّ بن أبي علي الخُلْطيِّ أن يُعينَه بكلِّ ما يحتاجُ إليه.

ولـمّا خَرج من فاس أبو دَبّوس نَشَر علاماتِه وضَرَب طبولَه، واجتَمعت عليه أوباشٌ عندَ قفوله، وتوجَّه معَهم بالعلاماتِ والطّبول، إلى حيث النزول، فضُربت له[2] هناك خبأة، وقياطين كأحد السّلاطين، ولـمّا علَّف قام في أوّل اللّيل ورحَل مجِدًّا في السَّير خوفًا أن يندَمَ الأميرُ على ما فَعَل معَه فيعقُبَ عليه بالغَدْر، ووصَل إلى عليّ الخُلْطي فأسعَدَ وأسعَفَ، وأقام عندَه بعضَ أيام ثم انصَرف، وتوجّه إلى مسعود بن جلداسنَ الهسكوريِّ فأعانَه، ولم يمنَعْ عنه إحسانَه، وكان فِرارُه من مَرّاكُش في العَشْر الوُسَط من شهر محرَّم من عام ثلاثة وستين، واستقرارُه بالجَبَل عند ابن جلداسنَ المذكور في أواخِر صَفَر من العام المذكور[3].

وفي هذه السنة: كان بالأندلس غلاءٌ مُفرِط أكثرُه بمالَقة، فكان فيها المأكولُ غال ونَيْلُه عويص، وبِيعت فيها الحاجةُ المثمَّنة بالثمن الرَّخيص، عصَم اللهُ من مثله بمنِّه.

وفي سنة أربع وستين وست مئة: تمكَّن السيِّدُ أبو العُلى بجَبَل هسكورةَ، وأخبارُ ظهورِه في كلِّ مشهد مذكورة، والناسُ تَرِدُ عليه في كلِّ الأيام، فيَعِدُهم بالإحسان والإنعام، ولـمّا تحقَّق ذلك المرتضَى، تقلَّب كأنه على جَمْر الغَضا، واتّهم شيخَ عَرَب سُفيان مسعودَ بن كانون أنه ينقُضُ عهدَه ويَرتكبُ الطُّغيان، فأمَرَ باعتقالِه بعدَ أن رادَدَه فيه من رادَدَه فلم يسمَعْ من مقالِه، فبقيَ في السِّجن معتَقَلًا إلى أن دخَل أبو العُلى مَرّاكُش فأطلَقَه وكرَّمه ثم اقتضَى نظرُ المرتضَى أن يثقَفَ شيخَ بني جابر وقائدَ الرّوم، واتَّهم أنّ كلَّ واحد منهما يَرومُ الفِرار.

---

(١) الضبط من ق.

(٢) ليست في ق، ك، ب.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١، والاستقصا ٢/ ٢٥٦.

ولـمّا استقرَّ أبو العُلى بالجَبل معَ الهسكوريِّ ورَدَ عليه حبيبُ بن يوسُف الصّوديّ، فأعطاه ثلاثةً من الخَيل الجِياد، فقَبِله منه وشكَرَه على ذلك وأبدى له جميلَ الاعتقاد، وطاعت له في هذه السّنة هَزْرجةُ وجميعُ قبائل هسكورة، وأحوالُه تَلُوحُ سَنِيَّةً مشكورة، ووصَلَه في هذه السَّنة من قِبَل عَزّوز بن يَبْروك هديّةٌ أيضًا، لكنّه لم يصلْ بنفسِه إليه ولا وَفَد عليه، بل من كان في خدمة الدّولة السَّنِية الـمَرينيّة، لكنّه لأجْل خروجِه عن مُبايعة المرتضَى وطاعتِه، أوجَبَ أن يُخاطِبَ هذا السيِّدَ ويُهاديَه ولم يدخلْ تحتَ مُبايعته. ووَفَد على السيِّد أبي العُلى في الجبل جماعةٌ من المساحة والموحِّدين وجمعٌ كبيرٌ من المتجنِّدين، فعَظُمت شوكتُه في الجَبل المذكور، وأصبح لديه جمعٌ مأمور، والمرتضَى في قصرِه عن أمرِه غافل والحَيْنُ عنه غيرُ متغافل، وهبّت عليه ـ نعوذُ بالله ـ ريحُ الإدبار، وأقبَلَت الفتوحُ على أبي العُلى بموافقة الأقدار، ومنَ المقادير أنّ المرتضَى لم يدَعْ بحضرته جُنديًّا إلا وجَّهه لرَجْراجةِ وحاحَة، فعَدِم في ذلك سَدادَه وصلاحَه، وثقِفَ كما تقدَّم شيوخَ العَرَب، فلم يتأتَّ له بلوغُ الأرب، ومرَّ جمعٌ كبيرٌ من عَرَب سُفيان، معَ شيخ من شيوخِهم الأعيان، وكذلك ابنُ قَيْطُون ثائر، معَ جَمْع كبير من بني جابر، وقَصَد جَبَلَ أبي دبّوس ليكونَ من أنصارِه وحُماتِه، ودخَل تحتَ طاعتِه، وكذلك جمْعٌ من الرُّوم أخَذوا له في الفِرار، معَ القائد زُنّار[1]، فقَوِي أمرُ أبي دَبّوس بالجَبل وزاد، وظهورُه في كلِّ يوم يزداد[2]، والموحِّدونَ في كلِّ وقت يكتُبونَ إليه ويَقدُمونَ عليه، ويُخبرونَه من أحوال المرتضَى بالقليل والكثير، وأنّ سِلكَ مملكتِه نثير، ولقد قال له وزيرُه وصِهرُه أبو موسى بن عَزّوز: يا سيّدَنا رضيَ اللهُ عنكم، حضرتُكمُ المباركة خاليةٌ من الأجناد، والعدوُّ في الجبل قد ظهَرَ أمرُه وزاد، فابعَثوا لابن وانُودينَ وابن عَطّوش ليصِلا إلى الحضرة، فنَظَره بأقسَى نظرة، وقال له: لا تُدخِلْ نفسَك في شيءٍ من ذلك، إلّا أنْ كان وتُنفقُ عليهم من مالِك، فيصِلوا جميعًا من هنالك، فصَمَت أبو موسى الوزير، ثم قال لـمَن قال: ضَرَب اللهُ القِلّةَ بالزَّبَد، وكان أبو محمد بنُ زَجُّو[3] في قلقٍ عظيم من ذلك.

---

(١) الضبط من ق.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١.

(٣) الضبط من ق، ك. وقد اعتاد النسّاخ في مثل هذا أن يضعوا ألفًا بعد الواو، وليس بشيء.

ومن تدبيرِه أنه أمَرَ بقَتْل إسماعيلَ بن قَيْطون المسجُون، وقيل: بل مات مسمومًا، فأورَثَ في قلوب إخوته همومًا، فاغتاظَ لموتِه أخوه ثائر، وكان في جَمْع كبير من بني جابر، واغتاظ أيضًا عَلّوشُ بنُ كانون، وخاف أن يفُوتَ الأمرُ في أخيه مسعود المسجون، مثلَ ما فات في ابن قَيْطون.

ولـمّا استَوْفَت على أبي دَبّوسٍ العساكر، واجتَمعت عليه جميعُ الهساكر، طَمِع في فتح البلاد، وعَزَم على الضّرب والجِلاد، فقَصَد إلى جهة أغمات، فخَرج إليه من مَرّاكُش أبو زيد بنُ بجيت[1] برَسْم حراسة أغماتَ وتلك الجِهات، فانقَضّت عليه خيلُ أبي دَبّوس فهزَموه وقَتلوا مَن كان معه، فكان أولَ الفتح ودليلَ النُّجح، فقامت قيامةُ المرتضَى من أجلِ ذلك، ولكنْ إذا أراد اللهُ بالحَيْن، صُمَّت الأذُن وعَمِيت العين[2]. وكان بمَرّاكُشَ أقوامٌ يبحثونَ على الأخبار، ويكتبونَ المتزايِدات بالليل والنهار، والمرتضَى لا يسمَعُ قولَ قائل، ولا يعبأُ بتلك الدّلائل.

وخاطَبَ أبا دَبّوس شيخٌ من أشياخ الموحِّدين، وقال له: إنّ البلدَ خالٍ من المتجنِّدين، وحرَّضه على النهوض، وأن يعومَ في بحر العَزْم ويخوض، قبلَ أن تصلَها الأجناد، المتوجِّهونَ لغرامةِ البلاد، فحَلَف علُّوشٌ شيخُ عَرَب سُفيان ليَسبِقَنَّ إلى مرّاكُش وليَضرِبَنَّ برُمحِه في باب الشّريعة أحدِ أبوابِها، ويقاتلُ كلَّ مَن يَخرُج إليه من أربابِها.

فلمّا كان يومُ الجُمُعة الحادي والعشرينَ لشهر محرَّم وصَل علّوشُ بن كانونَ السُّفْيانيُّ المذكورُ معَ جماعة من العرَب، برَسْم ما حَلَف عليه وله انتَدَب، والناسُ بمَرّاكُش في صلاة الجُمُعة، فقَصَد بابَ الشريعة وركَزَ فيه رمحَه، فقامت في البلد رَهْجةٌ وصَيْحة، فخَرج الناسُ من الجامع وطَلَعوا إلى السُّور، فعايَنوا عَلّوشًا المذكورَ وهو راجعٌ من الباب معَ أشياعِه، ولم يخرُجْ أحدٌ من البلد لاتّباعِه، وباتَ الناسُ في تلك الليلة خائفينَ مترقِّبين، ولِـما يَصدُرُ في أثناء ذلك متأهِّبين، فساءت حالُهم، وترادفت أوجالُهم، وأودَعوا بالقَيْساريّة أموالَهم، والمرتضَى غيرُ متأهِّب لحرب، ولا مفكِّر في طَعْن ولا ضَرْب، فلمّا كان يومُ السّبت بعدَه طلَعَ إلى القَصَبة أربابُ الدّولة على العادة،

---

(١) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١: «أبو يزيد بن بكيت» والجيم في بكيت جيم مصرية.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١.

فخَرج إليهم على عادته وسألَهم عن تلك الخَيْل الـمُغِيرة إلى باب الشّريعة، فأخبَروه أنه عَلّوشٌ المذكور، فما أطال ساعةَ الجلوس، وقام بوجهٍ عَبُوس، بعدَ أن قال: تَخرُج المضاربُ في غدٍ وتَضرِبُ بحومةِ المصَلّى إن شاء اللهُ تعالى.

كيفيّةُ دخولِ أبي العُلى المدعوِّ بأبي دَبُّوس مدينةَ مَرّاكُش[1]

ولـمّا كان يومُ السّبت أقبَلَ إلى مَرّاكش بمَن معه من الحشود ووصَلَه من الجنود، فتوَجَّه معهم قاصدًا إلى باب أغماتَ أحدِ أبوابها، فأمَرَ بتفقُّد الأسوار هل هي خاليةٌ من حُرّاسها ورُقّابِها؟ فتطلَّع أحدُهم على السُّور، فلم يجدْ شيئًا في تلك المسافة كلِّها إلى البابِ المذكور، فأعلَمَ الناسَ بذلك، وحينئذٍ تعلَّقت بعضُ رجالٍ من هسكورةَ بالسُّور وطَلَعوا على الباب من هنالك، ثم هَبَطت جماعةٌ منهم إلى الباب فكسَروا قُفلَه، وهَدَموا السِّتارةَ التي كانت حولَه، ودخَل أبو العُلى مَرّاكُشَ ونُصِبت الرايةُ عليه وأقبَلَتِ الحشودُ إليه، فما أوقَفَهم أحدٌ من أهل البلد، فبلَغَ الخبرُ المرتضَى فوجَّه وَلَدَه أبا عبد الله فركِبَ على جوادِه، وليس معَه أحدٌ من أجنادِه إلا نحوُ عشَرة من العبيدِ وفارسٌ واحد، فتوجَّه إلى باب الصّالحة فعايَنَ الخَيل وسمِعَ الطّبل، فولَّى نحوَ القَصَبة خائفًا وَجِلًا، وإن رأى غيرَ شيء ظنَّه رَجُلًا، وقد عايَنَ كثرةَ الرَّجْل والخَيْل، وترَكَهم يَميلونَ خلفَه مثلَ السَّيل، وذلك بمقرُبة من باب الصّالحة، فعايَنَ أحوالَ أبيه غيرَ ناجحةٍ ولا راجحة، ولـمّا وصَل إلى البُوَيْبة وجَد فيها ابنَ يعلو وأحدَ الوُزراء، فأخبره بما عايَنَ من دخول الأعداء، فسَقَط ابنُ يعلو إلى الأرض مَغْشيًّا عليه وفَرَّ راجلُه إلى أبي دَبّوس قاصدًا إليه، فأمَرَ السيّد أبو عبد الله بغَلْق البُوَيْبة وبابِ الطّبول، وأذِنَ لـمَن كان هنالك من الخُدّام بالدّخول، فدخَل معَه أبو زيد بنُ يعلو الكُوميُّ وأبو موسى بن عَزّوز الوزيران، وحضَر معَهما في الوقت أبو عبد الله المشرف ابن أبي البَرَكات وأبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ وابنُ عَبّاد الأندَلسيُّ وموسى الحافزُ الهرغيُّ والقائدُ سَعْدٌ الحاجب.

ولـمّا وصَل أبو العُلى معَ مَن كان معَه من الأجناد إلى البُوَيْبة وجَدها مُغلَقة، وحينئذٍ حفَز بعضَ الرجال الواصِلينَ معَه في حَرَم الجامع الكبير إلى أسارِاج الأول

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٢، والاستقصا ٢/ ٢٥٧ فما بعدها.

وحَطُّوا[١] فيه وكسَروا قُفلَ باب[٢] البُوَيْبة، وحينَئذٍ دخَل أبو العُلى معَ بعض مَن كان معه، فعرَّفَ السيّدُ أبو عبد الله والدَه المرتضَى بما عايَنَ، وحينَئذٍ حمَلَ ذلك على التصديق، فركِبَ جوادَه إلى باب الطّبول وعايَنَ ذلك بالتحقيق، وذلك من بين الأبواب، وهو راكبٌ على جوادِه، فقام اللّهبُ في فؤادِه، فطلَبَ الماءَ ليشربَ منه فأُتي بإناءٍ[٣] فشرب منه وشربَ أبو دَبّوس باقيه، فكان ذلك من أغرب الأشياء أنّ مَلِكَيْنِ شرِبا في ذلك الإناء من ذلك الماء، فلمّا عايَنَ ذلك الأمرَ المرتضَى، سَلَّم الأمرَ للقضا، وأمَرَ ابنَه عبدَ الله أن يصعَدَ على بُرج الباب، فصَعِد وصاحَ على كلِّ مَن كان فيه فأبرَقَ وأرعَد، وكان فيه عِلجٌ مسجون، فعايَنَه يتكلَّمُ معَ قائد الرّوم زنار، فاختَطَفه ورماه من أعلى البُرج فسقَطَ ميِّتًا.

ولـمّا رأى أبو دَبّوس سقوطَ العِلج إلى الأرض[٤] منَ البُرج قدَّر أنه معمورٌ بالرِّجال، فخافَ من الرَّمي عليه بالنِّبال، فتحوَّل من أمام بابِ الطّبول إلى حَوْمة باب الكُحول، فوجَده مفتوحًا؛ لأنّ أبا موسى ابنَ عزوز حينَ غُلِّقت الأبوابُ بقيَ في أساراج، فمِن خوفِه ووَجَلِه أمَرَ رجالَه أن يكسِروا قُفلَه فكسَروه وفَرَّ منه إلى جَبَلِه، فسُرَّ أبو العُلى من أجلِه، ووقَفَ أمامَه[٥] معَ قوم قلائلَ من خيلِه ورَجْلِه، وتفرَّقت عنه جموعُ هسكورةَ ودخَلوا القَيْساريّةَ ونَهَبوها أيَّ انتهاب، واستَولَوا على جميع ما كان فيها من الأمتعة والأسباب، وأشعَلوا النارَ فيها وحرَّقوها، وسَلَبوا الحوائجَ من الدِّيار واستاقوها، وبقيَ أبو دَبُّوس في أساراج الأول يوم دخولِه من الظهر إلى بعدِ العَصْر، ثُم أمَرَ بفتح دار الأشراف ففُتح ونُقِبَ منها إلى القَصَبة، ودخَل الرِّجالُ إليها من تلك الأنقاب، وحصَلوا منها بأساراج القباب.

وكان المرتضَى رحمه الله أمَرَ بإطلاق غرسيا طالس من ثِقافِه فأُطلق وأُزيلت عنه الكُبول، وأعطاه حِصَانًا ودرقةً، فزاد ونقَص في كلامِه ولم يُفهَمْ عنه ما يقول، ثم اشتَدَّ

---

(١) في ق: «وحصلوا».

(٢) ليست في ق، ك، ب.

(٣) سقطت من ق، ك، ب.

(٤) شبه الجملة سقط من ق.

(٥) ليست في ق، ك، ب.

الأمرُ على المرتضَى فوجَد النَّصرانيَّ غُفْلةً وفَلْتةً، فكان أولَ من صَعِد بابَ الطُّبول فوجَد فيه أبا عبد الله بنَ زجو والنَّصرانيَّ القطلاني(١)، وبعدَ ذلك وصَلَهم المشرِفُ ابنُ أبي البَرَكات والكاتبُ التِّلِمْسانيّ، وفيه كان اجتماعُهم بعدَما خارَت طبائعُهم فطَلَبوا العفوَ من أبي العُلى فعَفَا عنهم وحَلّوا البابَ فبايعوه، ودخَل بعدَ صلاة العصر وبقيَ تلك الليلةَ لم يدخُل القصرَ حتى صَحَّ عندَه هروبُ صاحبِه وفِرارُه، وحينَئذٍ اطمأنّ واستقرَّ به قرارُه.

كيفيّةُ فِرار المرتضَى من قصرِه، وما آلَ إليه أمرُه في آخرِ عمُرِه(٢)

ولـمّا رأى المرتضَى أمورَه غيرَ ناجحة، توجَّه إلى بَنيّتِه التي سمّاها بالفاتحة، فقَصَد إلى بابِها المسمَّى بابَ النَّحل، فأمَرَ عليه بالحلّ، وكانت مفاتحُه عندَ وكيل القائد سَعْد الحاجب، وكان الوكيلُ غائبًا في الوقت، وكان سعدٌ المذكورُ يريدُ الرجوعَ عنه فوجَد العُذرَ بالمفاتح لأنْ يرجِعَ ويُحضِرَها فقُبِل ذلك منه، فانصَرف ولم يعُدْ إليه بعدَ ذلك، وبقيَ المرتضَى ساعةً كبيرة ينتظرُه، فلمّا صلّى المغربَ أمَرَ بكسرِ باب النَّحل وخَرج منه فارًّا بنفسِه، لا يَعلَمُ يومَه من أمسِه، وهو راكبٌ على جوادِه، ومعَه الوزيرانِ المذكوران وبعضُ أولادِه، فأخَذ في التدبير معَ وزيرَيْه والفِرار، إلى حيث يكونُ الاستقرار، فقال له أبو موسى ابنُ عَزّوز: عسى يا سيّدَنا يكونُ استقرارُك بالجبل عندَنا وفيه يقعُ التدبير ووجهُ العملِ، وذلك منه إليه أكبرُ الحِيَل؛ لأنه كان في اختيارِه، أن يصِلَ إلى جبلِه وأهلِه وديارِه، وكان بعضُ العَرَب قد نزَلوا بواونزارتَ، فأخَذ المرتضَى معَ أصحابِه على تانششت وتوجَّهوا إلى بلد كيك، وفي نصف اللّيل وصَلوه فاجتَمع معَ أبي بكرٍ بن ياللتان النيمغريّ وبعض إخوانِه، فحَمَلوه إلى موضع أبي موسى بن عَزّوز وأوصَلوه، فلمّا وصَل أبو موسى إلى قبيلِه وجَدَ ابنَه أبا سعيد قد سبَقَ إليهم وعرَّفَهم بالخبر قليلِه وكثيرِه، فقال له بعضُ قَبيلِه: قد كتَبْنا لأبي دَبُّوس بمبايعتِه والدّخول في طاعته، فكيف يقيمُ هذا عندَنا بعدَ ذلك؟ فامتَنع أبو موسى من الرّجوع إليه وبقيَ المرتضَى رحمه اللهُ واقفًا إلى أن تبيَّن له الأمرُ، فتنقّل هو وولداه والوزيرُ أبو يَعلى الكُوميُّ، فمَرّوا على دوّار عليٍّ بن زجدار

---

(١) هذه القاف في أصلها كاف أعجمية.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٢، والاستقصا ٢/ ٢٥٨.

الونجاسنيِّ الـمَرِينيّ، وكان قد وصَل برَسْم خِدمته، فلم يقضِ اللهُ له أن يَراه في سُلطانِه وحضرتِه، وكان المرتضَى قد أذِن له في الوصُول إليه والقدوم عليه، فأبَى اللهُ ذلك إلّا ما قَدَّم من فِرارِه، وأن يكونَ اجتماعُه معَه في دوّارِه.

فلمّا وصَل معَ أولادِه إليه، بالَغَ في الإكرام والإقبالِ عليه، وصار يَذكُرُه ويُصبِّرُه، فقال له المرتضَى: يا أبا الحَسَن، أرَدْنا أن تكونَ من أضيافِنا فكنّا نحن من أضيافك. فبَكَى ابنُ زكدار من كلامِه، وتفجَّع لأمرِه وحالِه، ورحَل معَه بجَمْعِه إلى جدميوة، وكان فيها وزيرُه أبو زيد الجدميوي، فبعَث إليه المرتضَى أن يَصِلَه فمَنَعه ابنُ سَعد الله فتوجَّه إلى شفشاوة، وكان له بها جملةٌ كبيرةٌ من البِغال، فأعطاها لعليِّ بن زكدار، وكتَبَ إلى ابن وانُودين ليصِلَه بالأجناد من حاحَةَ والقُوّاد، فبقيَ ينتظرُه إلى أن قيل له: قد جاز، وإنّ ابنَ عَطّوش قد توجَّه أيضًا من رَجْراجةَ بمَن كان معَه من الأجناد.

ولـمّا بلَغَ إلى المرتضَى رحمه اللهُ خبرُ قُوّادِه، وأنهم توجَّهوا إلى مَرّاكُش، انقطَع أملُه وأملُ أولادِه، وبلَغَه أيضًا أنّ الكتْبَ وصَل ابن زكدارَ من أبي دَبّوس بالتوكيد في الوصُول إليه، فخاف المرتضَى على نفسِه أن يُقبَضَ عليه فتوجَّه معَ أولادِه والوزير المذكور إلى مدينة آزَمُّور، وقَصَد إلى عبد العزيز بن عَطّوش الوالي من قِبَلِه عليها الذي فداه من بني مَرِينَ بمالٍ كثير، ومن أجل ذلك توجَّه إليها.

ولـمّا وصَل إلى مدينة آزَمُّور قصَدَ إلى قبر الشّيخ الصّالح المبارك أبي شُعَيْب نفَعَ اللهُ به برَسْم الدّعاءِ والتبرُّك، وعندَ فَراغِه من الدّعاء بعدَ صلاة المغرب قال: تنصرفوا[1] إلى باب آزَمُّور، وتُعرِّفوا بوصُولنا البوّابَ الذي في السُّور، ليعرِّفَ بذلك عبدَ العزيز المذكور، فقال له أبو زيد بن يعلو: يا سيّدَنا، عبدُكم أعلمُ منكم بعبد العزيز وقلّة دينِه وعَدَم وفائه، وعبدُكم يعرِفُ حالَه في قُبح أعمالِه الدَّنيئة وأفعالِه، فنخافُ يا سيّدَنا عليكم من قُبح فعلِه إليكم، فقال: حاشى لله أن يفعَلَ ذلك معَنا ونحن فدَيْناهُ بأموالِنا وقدَّمناه على بلادِنا، فلمّا سَمِع أبو زيد ذلك منه ودَّعه وانصَرف عنه وترَكَه منفرِدًا معَ أولادِه، وحيدًا من رعاياه وأجنادِه، فوصَل أولادُه إلى الباب المذكور، وكلَّمهم البوّابُ

---

(١) كذا.

من أعلى السُّور، فقال له أحدُهم: تعرِّفُ أبا فارس بوصول سيِّدِنا إليه، فتوجَّه البوّابُ ودخَل عليه، فعرَّفه بذلك الخبر وأنّ الخليفةَ له منتظِر، فبَعَث إلى أبي عبد الله بن القاسم من حينِه إليه، فوجَد البوّابَ قاعدًا بينَ يدَيْه، فأخبرَه أبو فارس بالقضيّة فأخَذا في التدبير، وبقِيَا متحيِّرَيْنِ في هذا الأمر الكبير، والمرتضَى رحمه الله خلفَ الباب ينتظرُ البوّابَ بالجواب إلى نصف اللّيل، فانقَطع أملُه وانفصَلَ صادرًا من هنالك، لا يَعلَمُ مسلكًا من تلك المسالك، فبقيَ يتخبَّطُ لا يَعلَمُ طريقًا، ولا يألَفُ خِلًّا ولا صَديقًا، وأمّا ابنُ عطّوش فلم يجدْ له حيلةً؛ لأنه قد كتَبَ معَ أشياخ صُنْهاجة البيعةَ لأبي دَبّوس وأنّهم منتظمونَ في حِزبه وجماعتِه.

وكان أبو دَبّوس قد أمَرَ بالبحث عليه في جميع طاعتِه، فوصَل الجوزهرُ إلى آزَمُّور، برَسْم البحث على المذكور، فلمّا أصبح صباحُ تلك اللّيلة التي وصَل فيها إليه، أخْرَجَ في طلبِه جماعةً من الخَيْل والرِّجال للقَبْض عليه، فخَرج المذكورونَ والجوزهرُ معَهم وبعضُ أشياخ صُنْهاجةَ في طلبِه، فوجَدوه قد دخَل في غارٍ على شاطئ الوادي، خِيفةً أن يُبصرَه الرائحُ والغادي، وذلك بمقرُبة من الموضع المعروف بِوُرتوصوف، فقبَضوا عليه وأكبَلوه، وركَّبوه على زامل وحمَّلوه، وركِبَ أولادُه على زواملَ معتقَلينَ، وثَقَّفوهم في دُوَيْرة صغيرة بإزاءِ دار الوالي المذكور، فطلَبَ منَ الوالي أبو الحَسَن القُرطُبي الذي كان مشرِفًا بآزَمُّور أن يكونَ طعامُه من عِندِه ما بقيَ هنالك مُثقَّفًا، فأُبيح له ذلك، وكتَبَ ابنُ عطّوش إلى أبي دَبّوس يعرِّفُه بثِقافِه ليأمُرَه بما يفعَلُ به وبأولادِه، فلمّا ورَدَ كتابُه عليه سُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا، ولـمّا تحقَّق أبو العُلى الواثقُ بالله ثِقافَ المرتضَى بآزَمُّور وكتَبَ له ابنُ عَطّوش بكيفيّة حالِه فيها واعتقالِه، أمَرَ وزيرَه أبا موسى أن يكتُبَ له يسألُه عن بيت مال المسلمين حيث هو ليُعلِمَه بذلك في جوابِه إليه.

فكتَبَ السيِّدُ أبو موسى عن أمر أبي العُلى الواثق بالله إلى أبي حفص المرتضَى بهذا النصّ:

اقتضَى نظَرُ سيّدِنا ومَولانا الخليفة الإمام الواثق بالله تعالى المعتمِد عليه أميرِ المؤمنينَ أبي العُلى ابن سيِّدِنا ومَولانا الخليفة الإمام أبي عبد الله ابن سيِّدِنا أبي حَفْص ابن

سيّدِنا الخليفة عبد المؤمن أيّده اللهُ تعالى ونصَرَه وأعانه وظَفَّره، الوصُولَ إلى هنا برَسْم الاجتماع بكَ وسؤالِك عنِ المال الذي كان بيدِك بعدَ أن تعرَّف من طُرُق صحيحة كثْرتَه وأنه مالُ المسلمين، ولم تزَلْ أبدًا تنتمي إلى الزَّهادة وتتّصفُ بالوَرَع، ومَن يكونُ كذلك فلا يليقُ به كَنْزُ الذّهب ولا الفضّة حتى يدفِنَه في الأرض، وقد قال اللهُ تعالى في الذين يكنِزونَ الذّهبَ والفضّة ما قال، فإن كان ما بيدك مدفونًا فعرِّفْ حيث هو أو مودَعًا فعرِّفْ عندَ من هو، وإذا أقرَرْتَ بأحد هذَيْن الوجهَيْن يُرجى لك عفوُ سيّدِنا ومَولانا الخليفة أميرِ المؤمنين وإلا فلا تلُمْ إلّا نفسَك وأنت المسؤولُ عنها، وأنا الآنَ أرتقبُ جوابَك لنُطالِعَ به البابَ الكريم أسماهُ اللهُ تعالى. وكتَبَ عِمرانُ بن عبد الله ابن سيِّدِنا الخليفة.

فكتَبَ المرتضَى جوابَه بخطِّ يده: حفِظَكم اللهُ تعالى وأبقاكم رحمةً للرَّحِم، والله، وحقِّ هذا المقام، ما نُغادرُ ـ ولا نرضاهُ لحَشْري ونَشْري أن نُغادر ـ صغيرةً ولا كبيرة، فالذي كان في مواضعَ مختلفةٍ في بيوت وخزائنَ بل خزانةٍ واحدة وزَوْج صناديقَ والحُلى والقلائد متفرِّقة فلا أعرفُ ما وُجِدَ وما لم يوجَدْ وما تحتَ الأرض، اللهُ يعلَمُ أنّي ما دفَنتُه ولا أودعتُه، ونَعلَمُ ما يلزَمُ عندَ الله في ذلك، اللهمّ وقتَ وصُول الـمَرينيِّ كان الشيءُ كثيرًا حتى خَرج لـمّا وصَل الزعيم ابن سجن بمعرفة الخَدَمة كلِّهم واللهُ تعالى على ما نقولُ وكيل. وبفضلِكم يا أخي وبحقِّ الدم والرحِم، الإبقاءَ عليّ، واعمَلوا ما يُجازيكمُ اللهُ تعالى عليه إن شاء الله، والسلامُ يخصُّكم والرحمةُ والبركة.

وكتَبَ المرتضَى أيضًا في بطاقة مدرَجة معَ كتابِه: يا أخي حفِظَكم الله، عسَى بفضلكم تتلطَّفوا عندَ مقام الرحمة وغِيَاث الأرمة[1] رضي اللهُ تعالى عنه وأبقاه رحمةً لصِلة الأرحام وعزّةً للإسلام، في الذي وعدتُم من التأمين والأمان والإبقاء معَ الأصاغر والأحفاد بقيّةَ العمُر، فأخوكم شيخٌ ينتظرُ ما لا بدَّ منه وكثيرُ العِلَل، فبالله رحمةً وحنانًا وإشفاقًا فيما سألتُكم، فنضرَعُ لكم فيه بحُرمة مولانا المصطفى صَلّى اللهُ عليه وسلَّم تسليمًا، واللهُ سبحانَه يُبقي عليكم نِعمَه، ولا ينسى لكم هذه المكرُمة، ومولانا المقامُ الأرحمُ الأعطف، فقد عَمِل، فاللهُ تعالى يُجازيه بفضلِه ويُخلِّدُ مُلكَه آمينَ آمين.

---

(١) أي: الأصل والمنبت.

ولـمّا وقَف أبو العُلى الواثقُ بالله على كتابِه شَفِقَ وحَنَّ عليه، وبعَثَ السيّدَ أبا موسى عِمرانَ معَ أبي سِرحان بن كانون وجماعة من سُفيان برَسْم توصيله إليه وتمثيله بينَ يدَيْه، ثم بعدَ انفصالِـهم وقَعَ الرأيُ والتدبير في أن يُقتَلَ قبلَ وصولِه، فإنه لا يُعلَمُ ما يكونُ عند قُدومِه لحضرته على أجنادِه وخُدّامِه، أشار عليه بذلك السيّد أبو زيد الأعرج؛ لأنه قام في ذلك وقَعَد وانزعَج وحَرَج، فكتَبَ السيّدُ أبو العُلى إدريسُ براءةً بخطِّ يده إلى السيِّد أبي موسى المتوجِّه لإيصاله إليه وحَمْلِه ودَفَعَها لعمُرَ بن آصلماط السنون تتضمَّنُ قتلَ المرتضَى في أيِّ موضع يلقاه، فالتقاهُ بفرزغون، وثم جرَّعه كأسَ الـمَنُون. وكان رحمه اللهُ تعالى على بَغْل مكبولًا، وفي العماريّة محمولًا، وكذلك أولادُه مكبولينَ على الدوابّ، وكلٌّ واحد منهم بنِقاب.

ولـمّا وقَفَ السيّدُ عِمرانُ على الكتب الواصِل إليه أوقَف أبا سِرحان مسعودَ بن كانونَ عليه وأمَرَ الرِّجالَ أن يقفوا بالدابّة التي كان عليها المرتضَى هنالك بجانب، ودارت الخيلُ والرّجال عليه من كلِّ جهة بخِلال ما يُحفَرُ له القبر وينقضي فيه الأمر، وتقدَّم بأولادِه بعضُ الفُرسان من ذلك المكان، وقد تبيَّن لهم من حَتْف والدِهم وفَقْدِهم إياه حينَ أُخِّر عنهم كلَّ التِّبيان، ثم جُبِذ البغلُ بالمرتضَى رحمه الله إلى الموضع الذي قَدَّر اللهُ عليه بالموت فيه، فأُهبِط عن الدابّة وعايَنَ القبرَ الذي حُفِر له فقال للحاضِرين: هذا هو قبرُنا؟ فقيل له: نعم يا سيّدَنا، فقال: اترُكوني أُصلِّي ركعتين، فصَلاهُما خفيفتَيْن ثم تأهَّب للموت وقال للواصل إليه بالسيف: أتطوُّعٌ هذا منك أو أمرٌ أُمرتَ به؟ فقال له بالأمر، ثم استَشهدَ واستُشهِد وقضَى نحبَه رحمه الله، وقبرُه الآنَ مشهورٌ بفرزغون، فإنّا لله وإنا إليه راجِعون، ودُفن يومَ الثلاثاء الثاني والعشرين لصَفَر من العام المؤرَّخ بعد شهرٍ كامل من خروجِه من قصرِه، رحمه الله وعفَا عنه برحمته.

وكان الخليفةُ المرتضَى رحمه الله يتَوقَّى شرَّ منِ اسمُه إدريس؛ لأنه كان في عِلمِهم أنّ دولتَهم على يدِ منِ اسمُه إدريسُ تنقرِضُ وتندرس، فلمّا وَلِي الخلافةَ إدريسُ الملقَّبُ بالمأمون قتَلَ أشياخَ الموحِّدين وقطَع دعوتَهم وأزال اسمَ مهديِّهم من سِكّتِهم وخُطبتِهم، فقالوا: هذا هو إدريسُ المذكورُ الذي يَدرُسُ دعوةَ التوحيد، ثم أعاد الدّولةَ والدّعوةَ ولَدُه الرّشيد، فلما وَلِي الخلافةَ أبو حفص المرتضَى من بعدِ السّعيد، كان في أيام دولته

شخصٌ اسمُه إدريس من أولاد المنصور، يريدُ العلوَّ والظهور، فظَنَّ أنه هو إدريسُ المذكور، فقيل: إنه قتَله بالسُّم واللهُ أعلم بخَفِيّات الصُّدور، وأمّا إدريسُ هذا الملقَّبُ بأبي دَبّوس، فكان عندَه أبدًا محقورًا، فأراد اللهُ أن يُخرِجَه على يدِه من قصرِه مفؤودًا مقهورًا، يَسري ليلَه ويختفي نهارَه، لا يَأوي إلى معمور، إلى أنْ غَلَبه القَدَرُ المقدور، فكان من أمرِه ما ذُكِر رحمه الله.

وكان رحمه اللهُ إمامًا عادلًا وملكًا فاضلًا، وفقيهًا عالـمًا، وبالسُّنة والكتاب حاكمًا، لم تُعلَمْ له صَبْوةٌ في صِباه ولا سَطْوةٌ تتَّقيها أعداه، بل كان يأخُذُهم بإرادتِه، فكم له فيهم من قتيلٍ في أيام دولته. وكان أديبًا عفيفًا شاعرًا ظريفًا، غيرَ أنّ شعرَه كان ضعيفًا. ووقَفتُ له على سِفرٍ مجلَّد من شعرِه بنَظْمِه ونثرِه، فمن ذلك قولُه في شهر ربيع [من الكامل]:

وافى ربيعٌ قد تعطَّر نفحُهُ ... أذكى من المِسك العتيق نسيما
بولادة المختار أحمدَ قد بَدا ... يزهو به فَخْرًا وحاز عظيما
بُشرى بشَهْرٍ فيه مولدُه الذي ... ملأَ الزّمانَ علاؤه تعظيما
ضاءت به شرقُ البلاد وغربُها ... وتأنَّقت أرجاؤها تنعيما
فاعتزَّ أمرُ الله يومَ طلوعِهِ ... وغَدا به دينُ الإله قويما
فاعرِفْ لهذا الشهرِ حقًّا قَدْرَهُ ... فلقد غَدا بينَ الشهور كريما
شهرٌ كريمٌ جاء فيه محمدٌ ... صَلّوا عليه وسَلِّموا تسليما

ومن قوله في معنى الزهد [من المتقارب]:

ولـمّا مضَى العُمْرُ إلا الأقلّ ... وحان لروحي فِراقُ الجسَدْ
دعوتُ إلهيَ مستعطِفًا ... ليُصلحَ منّي ما قد فَسَدْ
ويُصلحَ نفسي وأخلاقَها ... ويُذهبَ عنها الرِّيا والحسَدْ
فسُوقُ الرِّياءِ بها نافقٌ ... وسوقُ العفافِ بها قد كسَدْ

ومن قوله معتذرًا عن لقبِه [من الكامل]:

يَـدْعُونَ عبـدَك سـيّدي بالمرتـضَى هيهـاتِ أيـن وأيـنَ منّـي المرتـضى
مـا لي عـلى مـا لقَّبـوه قـدرةٌ إلا بـما أرجـوه منـكَ مـن الرِّضـا

ولـمّا رَدَّ ولدُ ابن الصَّقر على الخطيبِ في خُطبته وكذّبه حين فاهَ بعصمة المهديِّ، أراد المرتضَى رحمه الله أن يَسجُنَه ولا يقتُلَه على قولِه، فأبَى الأشياخُ والوُزراءُ إلا وقوعَ قتلِه إلى أن غَلَبوا عليه، فآل أمرُه إلى القتل خوفًا من أن يقولَ ذلك غيرُه، فأَمَروا عليه فقَتلوه ظُلمًا قبَّحهم الله. وكان يقومُ بليلةِ المولد خيرَ قيام ويُفيضُ فيه الخيرَ والإنعام، وكان أشار له بذلك الفقيهُ[١] أبو القاسم العزَفيّ؛ لأنه لـمّا ألَّف كتابَه «الدُّر المنظَّم في مولِد النبيِّ المعظَّم» بعَثَ به إليه وأشار بذلك الرأي عليه. وكان مُحِبًّا في مطالعة الكُتب وتواليفِها وتصانيفِها، فألّف له الفقيهُ[٢] أبو محمد ابنُ القَطّان جُملةً من الكُتب الحَفيلة الجَليلة وأمدّه بالدّواوين العظيمة والخَيْراتِ الجليلة، فمنها: «كتابُ نَظْم الجُمان وواضح البيان فيما سَلَف من أخبار الزّمان»، و«كتابُ شفاءِ الغُلَل في أخبار الأنبياء والرُّسل»، و«كتابُ الأحكام لبيان آياتِه عليه السلام»، و«كتابُ المناجاة»، و«كتابُ المسموعاتِ»، فيه قصائدُ متخيَّرات فيما يَخُصُّ بالمولد الكريم وشهر رجَبٍ وشعبانَ ورمضان، وغيرُ ذلك.

وكان رحمه الله غيرَ مُبخَّت في حركاته، يَخرُج للحركة من الحضرة بالعساكر الضَّخمة والأعداد الجَمّة، فما يسلَمُ فيها من بُوس ولا من يوم عَبُوس، ولا تحدُثُ عليه فيها حوادثُ وخطوبٌ كوارث حتى يَجفَلَ عسكرُه بالهروب من غيرِ قتال ولا حروب، وطولَ ثقافِه بآزمُّور يَرثي نفسَه ويَبكي على فَقْد إلفِه وطولِ محنتِه وغُربتِه، فمن ذلك ما قاله [من البسيط]:

قهـرُ المنيّـة تحـتَ الـتُّربِ أسـكنَني وما أخذتُ مـن الـدنيا سـوى كفَـنِ
فيـا بُنـيَّ ويـا إلْفـي ويـا سَـكَني تـالله لـو كـان لي حُكـمٌ عـلى زمـنِ
يومًا من الدّهرِ مـا فـارقتُكمْ أبـدا

---

(١) ليست في ق، ك، ب.

(٢) ليست في ق، ك، ب.

تـركتُهمْ بـين تـشتيتٍ ومجتمـعِ ... وبـينَ بـاكٍ مـن اللّـذات ممتنِـعِ
ونـسوةٌ بالفِنـا يبكـونَ مـن جَـزَعِ ... أُلبِست من بعدِ عُـريٍ أهـونَ الخِلَـعِ

وما مددتُ لهـم يـومَ الـوداع يـدا

أنـا الغريـبُ بـأرضٍ ضـاقَ مـسلكُه ... مـعَ البنـينَ ولكـنْ كنـتُ أملِكُـهُ
مـا كـان ظنّـي صـغيرَ القـوم أترُكُـهُ ... في حُجـر مرضـعةٍ يحبـو فتمـسكُهُ

بالرَّغم منّي تركتُ المـالَ والولـدا

طمِعتُ في الرُّوح أن يبقى معي فأبَى ... لـمّا تحقَّـق أنّ الأمـرَ قـد وَجَبـا
ونـال صَرفُ زمـاني كـلَّ مـا طلبـا ... وصِرتُ مستوحشًا من جملـةِ الغُرَبـا

وعندَ قطع رجـائي لم أجـدْ أحـدا

عـينُ الزّمـانِ أصـابَتْني بنظرتِهـا ... وأذهبَـتْ عـزّتي في طـولِ مـدّتِها
عجِبت مـن بُطئهـا عنّـي وسُرعتِهـا ... وكيـف مـازَجَني تلـوينُ صِـبغتِها

في حينَ فارَقَ منّي روحي الجسَدا

وأمّا أولادُه فثقِفهم أبو دَبّوس طولَ مدّتِه إلى أن أخرَجَهم الأميرُ أبو يوسُف من ثِقافهم في عام ثمانية وستين إلا كبيرَهم أبا محمد عبدَ الله، فإنّ أبا دَبّوس قتلَه في السِّجن بمسَلّة أدخَلَها تحت إبطِه مات منها رحمه اللهُ تعالى، ولـمّا أخرَجَهم أبو يوسُفَ رحمه الله من السِّجن توجَّهوا إلى الأندَلس وحصَلوا عند الفُنْش بإشبيلِيَةَ أعوامًا عديدة، ثم انتَقلوا منها إلى غَرناطة وحصَلوا تحتَ طاعة أميرِها، وهم الآنَ بها في عافية بمُرتَّباتٍ شهريّة يقبِضونها في كلِّ شهر، وكبيرهم أبو عبد الله فيها معَهم. وأمّا أخوهم أبو زيد فوصَل من الأندَلس إلى السُّوس على حمارة، فسمَّته العوامُّ (أبو) حمارة، وذلك في عام أربعة وثمانين وست مئة، وهو الآنَ بقَيْد الحياة في جبل سكساوةَ يعيشُ منَ النَّسخ، وأخوه محمد بغَرناطة في وقتنا هذا، وهو عام اثني عشَرَ وسبع مئة.

ذكرُ خلافة الواثق بالله[1] أبي العُلى ومدّتِه
وبعضِ الأخبار في أيام دولتِه

نسَبه: هو إدريسُ بن أبي عبد الله بن أبي حَفْص عُمرَ بن عبد المؤمن.

كُنْيته: أبو العُلى، شُهرتُه: أبو دَبّوس؛ لأنه كان ببلاد الأندَلس في الجهادِ وغيره لا يُفارقُ الدَّبُّوسَ فاشتُهر به، وتسَمَّى من أسماءِ الخُلفاء باسمَيْن في نَسَق: الواثق بالله والمعتمدِ عليه.

صفتُه: أزرقُ العينَيْن أشقرُ الرأس واللِّحية ساطعُ البياض مربوعُ القَدّ، وكان شجاعًا فارسًا عازمًا حازمًا.

أولادُه: جماعةٌ، منهم: عبدُ الواحد، بايَعَه بمَرّاكُش بعضُ القرابة والموحِّدين بعدَ موت أبيه.

إخوتُه: كانوا تسعةً وهو عاشرُهم، وهم المشهورونَ بالبَيَّاسِيِّين.

وُزراؤه: السيِّدُ أبو زيد عبدُ الرحمن ابن السيِّد أبي عِمران، وأخوه لأبيه السيّد أبو موسى عِمران بن أبي عِمران، والمتقرِّبونَ عندَه من أشياخ الموحِّدين: أبو محمد بنُ زجو وأبو زيد بن عبد الكريم، ومن الحضَر: أبو الحَسَن الـمَغِيليّ.

وكتَبَ له أبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ وأبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ من كُتّاب الخلفاء قبلَه، وكتَبَ له غيرُهما.

مشرفُه: أبو عبد الله بنُ أبي البركات، كما كان معَ مَن تقدَّم قبلَه.

قاضيه: أبو إسحاقَ ابنُ القَشّاش.

وكانت دولتُه من حين استقرارِه بدار الخلافة مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى عامَيْنِ وأحَدَ عشَرَ شهرًا وثمانيةَ أيام أولُها يومُ السّبت الثاني والعشرين لشهر محرَّم مفتتَح خمس وستينَ على الرِّواية المتقدِّمة في دخول القَصْر على المرتضَى واستيلائه على مَرّاكُش، وآخِرُها يومُ الجُمُعة منسَلَخ شهر ذي الحجة من عام سبعة وستينَ وست مئة، وقيل:

---

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي ١٥/ ١٥٣.

إنّ قتلَه كان في محرَّم من عام ثمانية وستّين، ومن الغريب أنّ فِرارَه من مَرّاكُش كان في محرَّم، وفَتْحَه لها في محرَّم، وقتلَه في محرَّم.

ولـمّا استقرَّ الواثقُ بحضرة مَرّاكُش وفَرَّ المرتضَى من باب فاتحتِها اشتَمَلَ الناسُ على طاعته، وتوارَدوا من كلِّ مكان على حضرته، فرفَعَ عنهم الكُلَف والمحدَثات بالبوادي والحواضر، واقتَصَر على الحقوق الواجبة التي جَرى عليها قديمًا العملُ المتواتر، وذلك معَ تصرُّف القُوّاد، وكثرة الـمُؤَن للأجناد، وليس ببيت المال مالٌ ولا طعام، فاستَولَى عليه الاحتياجُ الشّديدُ والإعدام، إلّا صبابةً معروفةَ القَدْر قليلةَ الخَطَر، فاقتصَر على ذلك القَدْر اليسير، وأوسَعَ الأجنادَ العطاءَ للكبير والصّغير، وعفَا عن المجرِمين وصَفَح، وبذَلَ العطاءَ ومنَح، وأمَرَ بالقبض على بعض المشتغِلينَ فأغرَمَهم، وقدَّم بعضَهم على الأشغال والأعمال وأكرَمَهم، وسرَّح الأبوابَ للداخل والخارج دونَ غُرْم شيءٍ منَ الأشياء لا في سلاع ولا في زَرْع ولا غيرِ ذلك ممّا كان يُغرَمُ قبلَ ذلك من مُدَد الأمراء، وكما أمَرَ برَفْع غُرم الأبواب، كذلك أمَرَ برَفْع الـمَعُونة في الرِّحاب، وأمَرَ بحَلِّ باب نفيس وباب المخزن وباب الفَتْح الذي دُخِلت منه مَرّاكُش، وهو بابُ أغماتَ، فسَمّاه بابَ الفتح لِـما فتَحَ منه مَرّاكُش، وعندَ دخوله إليها وحلولِه بها رفَع إليه بعضُ الكُتّاب والطلَبة أشعارًا بالتهنئة والاستعطاف، فمن قول أبي الحَسَن الرُّعَيْني [من الوافر]:

أســـــيّدَنا ومولانــــــا والاوْلى ... بنــــا وخليفـــةَ الـــرّحمنِ فينـــا
وظـــلَّ الله مَـــن يَـــأوي إليـــهِ ... ينـــالُ أمانَـــهُ دُنيـــا ودينـــا
أتيتُـــكَ مُـــستغيثًا مـــستعينًا ... وشـــأنُك أن تُغيـــثَ وأن تُعينـــا
فإنّـــك رحمـــةُ الله التـــي قـــد ... تعارَفَهـــا جميـــعُ العالَـــمينا
ومـــا لي ملجـــأٌ إلّا إيـــادٍ ... تَعاهَـــدْنا بهـــا حينًـــا فحينـــا
إذا مـــا الخَطـــبُ أعـــضَلَ منـــه داءٌ ... وكـــان الأمـــرُ يقطَـــعُ بي الوَتينـــا
رجـــوتُ اللهَ عـــزَّ وجَـــلّ فيـــهِ ... وفـــضلَكَ يـــا أمـــيرَ المؤمنينـــا

وكان الواثقُ بالله يومَ فتح مَرّاكُش حينَ حُلَّ له بابُ الطُّبول، وبايَعَه كلُّ مَن كان فيه من الطّلبة والمشتغلينَ تَلقّاهم بالقَبول، وأولُ ما قَدَّم: الدّخولُ إلى المسجد الجامع

تيمُّنًا به وشُكرًا لله على جميل مواهبِه، فظَهر عليه فيه أثرُ الخُشوع، والتواضع لله والخُضوع، فلمّا قضَى حقَّ الشُّكر لله خَرج من الجامع وركب ببابِه ودخَلَ القصرَ في ذلك اليوم بعدَ صلاة العصر، ووقَف هنالك لتهنئةِ الناس له ولَثْم يُمناه، وذلك ممّن حضَر في الوقتِ معَه والذين سرَّحَهم من السِّجن كمسعودِ بن كانونَ وغيرِه، وصَرَفَ الناسَ عشِيَّةَ ذلك اليوم. وقيل: إنه لم يدخُل القصرَ تلك الليلة. ولـمّا كان في غدِ ذلك اليوم المذكور رَكِب بنفسِه ودارَ في البلد لرَدْع المفسِدينَ والمعتَدِين، وأمَرَ بضَرْب رِقاب شخصَيْنِ، فكفَّت أيدي التعدِّي عن الناس.

وبعَثَ إلى الأمير الأجَلّ أبي يوسُف أرسالَه، وشرَحَ له أحوالَه، وقيل: إنه بعَثَ له بشيءٍ ممّا تصيَّر في مِلْكِه، لأنه كان السببَ معَ قضاء الله تعالى في مُلكِه، وقيل: إنه لم يفِ بها وعَدَه، ولا بها عليه عاهَدَه، فتحرَّكَ إليه واستقرَّ ببلاد تامَسْنا، وكانت الـمُخاطَبات بينَهما كلَّ حين والـمُرادَدات.

وكان أيضًا بينَ الواثق بالله وبينَ ابن جلداسنَ وَحْشةٌ أوجَبت الحركةَ من مَرّاكُش لتحسيم ذلك كلِّه، فقَصَد إلى هسكورةَ على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي هذه السنةِ: تحرَّكَ الواثقُ بالله إلى هسكورة، كانت حركتُه يومَ الخميس الخامس لشعبانَ من العام المؤرَّخ، وكان نزولُه يومَ خروجِه من مَرّاكُش بالبُحيرة الشّهيرة بولحرب، فكان فَأْلًا له ذلك الموضعُ، فإنه لم يزَلْ طولَ مُدّتِه في هَوْل وحرب، فأقام به أيامًا ليُخلِّصَ أجنادَه من أزودتِهم ومُرتَّباتِهم، وكان الرّحيلُ من هذا المنزِل في الثانيَ عشَرَ لشعبانَ من السنة إلى الموضع المعروف بدار الرَّمّاك: من بلادِ هَيْلانة وبمقرُبة منه وادي أغمات، وكذلك وادي الزّات، وفيه ترتَّبَ نزولُ العَرَب في مَرْج بإزاءِ المحَلّة على عادة الترتيب المعتاد، وفيه تخلَّصت أمورُ الأجناد من أُعطِياتِهم برَسْم الزاد.

وفي التاسعَ عشَرَ من شعبانَ المذكور نزَلت المحَلّةُ المنصورةُ بموضع تادّارت[1] معطاسة، وفيه: وصَل بعضُ أشياخ قبائل هسكورة، وكان الشّيخُ الصّالح أبو العبّاس حُمَيْديّ بن مخلوف الهسكوريُّ قد توجَّه إلى الأمير الأجَلّ أبي يوسُف رسولًا من قِبَل

(١) مجوّدة التقييد في ق، ك.

الخليفة الواثق بالله أبي العُلى في مطالبَ قد كان وصَل فيها قبلُ إليه وشَرَط عليه، ثُم وصَل حُمَيْديّ المذكور أيضًا في هذا المنزل من قِبَل الأمير أبي يوسُف، وعاد أيضًا إليه من هذا المنزل بما وقَع الاتّفاقُ عليه.

وفي هذا المنزل كان تقديمُ الواثق بالله لأبي موسى بن عَزّوز على بلادِ حاحَةَ لتغريم جِبايتِها والنّظر في أشغالِـها وأعمالِـها كما جَرَت عادتُه في ولايتها، وتوجَّه رسولًا من قِبَل الخليفة الواثق بالله: أبو فارس عبدُ العزيز بن عَطُّوش إلى أبي عثمانَ مسعودِ بن جلداسنَ الهسكوريِّ في مصالحَ ومُهمّات، ثم عاد من عندِه المذكورُ بأُمورٍ وأحوالٍ بلَّغها للخليفة مشافَهةً، وربّما كان في ذلك من مسعودٍ بعض العَتْب بالـمُناجَهة، فعَلِم منه بعضَ الحقِّ في كلامِه، وأضرَبَ عن مقالِه ومَلامِه، وترَكَه على حالِه مقِرًّا بالسَّمع والطّاعة في جبالِه، فقَنِع منه بذلك ولم يطمَعْ في نزولِه من هنالك.

ثم شاعَ الخبرُ بمحَلّة الواثق بالله بانفصالِ بني مَرِين وإجازتِهم واديَ أُمِّ ربيع[1]، وأنّهم قد خامَرَهم من الجزَع ما اقتَحموا بسببِه الواديَ المذكور، حتى هلَكَ فيه كثيرٌ من أموالِـهم، ورأَوْا أنّ النَّجاةَ بنفوسِهم نهايةُ بُغْيتِهم وآمالِـهم، فسُرَّ بذلك الموحِّدونَ وأتباعُهم، وأشاع ذلك الخبرَ أشياعُهم، حتّى تملَّأت منه أسماعُهم، وليس الأمرُ واللهُ أعلمُ كذلك، وإنّما كان انفصالُ السُّلطان أبي يوسُف معَ بني مَرِين من هنالك، بعهودٍ ومَواثقَ وهديّة قَبِلَها من الواثق، فلم يتمَّ ذلك العهدُ المعهود، ولا العَقْدُ المعقود، إلى أن كان ما كان بينَهم من الضّرب والطِّعان، على ما سيأتي ذكرُ بعضِه مختصرًا إن شاء اللهُ تعالى.

وفي الخامس والعشرينَ لشعبانَ من السنة: انتَقَلت المحَلّةُ من تادّارتَ إلى الولجةِ في الجهة الشّرقية منها.

وفيها: عاد الشّيخُ الصّالحُ المبارَك أبو العبّاس حُمَيْديٌّ المذكورُ بتصحيح الخبر بانصرافِ بني مَرِينَ إلى الغرب دونَ طَعْن ولا ضرب.

ولـمّا تواتَرت الأخبارُ بانصراف بني مَرِينَ إلى بلادِهم، وارتحالِـهم بأموالِـهم وأولادِهم، وصَل أبو فارس عبدُ العزيز بن عَطّوش من عند مسعود بن جلداسنَ بكلِّ

---

(1) الروض المعطار ٦٠٥.

خير، وأنه تحتَ السَّمع والطاعة، فاقتضَى نظَرُ الواثق أن يتنَحَّى عن بلاد هسكورةَ لئلا تلحقَها معَرّةُ العَرَب بانتسافِ زروعِها والاقتحام بالغارة عليها وأن يكونَ التوجُّهُ إلى جهة وادي الدّيل ثم إلى وادي تانسيفتَ ليكونَ بمقرُبة من مَرّاكُش.

وكان السببُ أيضًا في استعجال وصُول الواثق بالله إلى مقرُبة من حضرتِه ما ذُكِر له عن عبد العزيز بن السَّعيد، ممّا أوجَبَ حتفَه ومَنِيّتَه قبلَ أن يبلُغَ أمنيَّته.

ولـمّا نزَلَت المحَلّةُ بموضع تاونزرتَ بموضع من مواضع تانسيفت، شَرَع الواثقُ بالله في التجهيزِ من هنالك عسكرًا لتغريم الجِباية الحاحِيّة والركراكيّة، وشَرع في تجهيز العساكر الموحِّدية والعربيّة ليتحرَّكوا معَه إلى بلاد السُّوس لاستئصال شقيِّها وإبادة غَوِيِّها عليِّ بن يدر وإخوانِه، فأَصْرَفَ من هذا المنزل إلى دَكّالةَ عَربَ سُفيان، ولم يُبقِ معهم إلّا شيخَهم أبا سِرحانَ في حِصّةٍ من إخوانِه، وتوجَّه الغيرُ برَسْم تجديدِ حركاتِهم، وبقيَ آخرونَ برَسْم أخْذ أُعطِياتِهم وبرَكاتهم.

ذكرُ القَبْض على ابن السَّعيد، وما جَرى عليه من الـخَطْب الشّديد

قال المؤلِّف: أخبرني بعضُ العارفينَ بأمرِه أنه لـمّا رأى ما تُصوِّر لأبي العُلى الواثق بالله من تصيير الخلافة إليه، وليس هُو من بني المنصور، أنه أحقُّ بها منه، ففَهِم بعضُ أصحابِه ذلك عنه، فهوَّنوا عليه الأمور، لينالوا معَه العلوَّ والظّهور، واستكْتَم ذلك الأمرَ من بعضِهم خِيفةً أن يظهرَ، كأبي الشَّرف عبد الرفيع، وكان عندَه أرفعَ من كلِّ رفيع، ومنَ ابن عبد القاهر، وكان عندَه كالطبيبِ الماهر، لعلمِه أنهما لا يوافقانِه على ذلك التدبير، ولا على ذلك الرأي الدَّبير، وممّن وافَقَ على ذلك ابنُ بجيت وابنُ جلداسنَ وغيرُهما، فبَعَث السيّدُ المذكور لابن جلداسن عليِّ بن منصور بتهليلٍ وبراءة بخطٍّ يدِه تتضمَّنُ العهدَ والنِّجازَ في تلك الأمور، فتكلَّم ابنُ منصور معَ ابن عبد القاهر وأخبره بذلك، ولـمّا رأى منه عَدَمَ الموافقة وخافَ أن يُظهِرَ الأمر بادَرَ بإظهارِه، وعرَّف الواثقَ بالله بأمور السيِّد وأخبارِه، وكان عليُّ بن منصور عندَ الواثق صادقَ القول، فعندَ وصُوله إليه وقدومِه بمغطاسةَ عليه، عرَّفه بذلك إثْرَ سلامِه ودَفَع له التهليلَ والبراءة، وتبرَّأ من تلك الأمور أتمَّ براءة.

وكتَمَ الواثقُ بالله ذلك الأمرَ عن وُزرائه وأربابِ دولتِه إلى أنْ وصَل تانسيفتَ بمقرُبة من حضرتِه، فخَرج إليه منها السيّدُ أبو زيد عبدُ الرحمن ابنُ السيِّد أبي عِمران، وكان واليَها وخليفتَه فيها، وهو ابنُ أُختِه وصِهرُه، فعرَّفه بحال السيِّد عبد العزيز ابن السّعيد وما كان من أمرِه، وأنه كان قد عَزَم على القيام بمَرّاكُش علينا، وأراد أن يقبضَ عليك ويعجِّل بالقتل إليك، وأنت غافلٌ عنه هنالك، ليس لك خبرٌ بذلك، فذَمَّه غايةَ الذّمّ، وأمَرَه أن يحتالَ عليه ويحصِّلَه حتى يأخُذَه بإقرارِه، ويقرِّرَ لديه ما أضمَرَ من أسرارِه، وحينَئذٍ يُكبِّلُه ويقتلُه.

وكان السيّدُ عبدُ العزيز ابنُ السّعيد لا يَخرُجُ من دارِه، بل يقعُد معَ إخوانِه، ورجالِه وأخدانِه، في رَحْبةِ أُسطُوانِه، فنظَر السيّدُ أبو زيد في شانِه، ودبَّر وجْهَ الحِيلة في أخْذِه من غيرِ أن يُعلِمَ أحدًا من إخوانِه، خِيفةً أن يشعُرَ المذكورُ ويفِرّ، ولا يُعلَمَ حيث يستقِرّ، فأخَذ السيّدُ ينظُرُ فيمَن يَكرُمُ عليه من وجوه الناس ومَن إذا توجَّه إليه استدعاه يَخرُجُ من حينِه إليه، وكان الشّيخُ الفقيهُ أبو العباس السَّقَطيُّ يَشتدُّ له في بيعِه وشراه، ويجتمعُ معَه في ذلك كلَّ وقت ويَراه، وكانت له عندَه شَهاداتٌ في مبيعات؛ لأنه كان اشتَغل ببيع أملاكِه، كأنه قد عَلِم بقُرب هلاكِه، فبعَثَ إليه السيّدُ أبو زيد الفقيهُ أبا العبّاس المذكور، ولم يَذكُر له شيئًا من تلك الأمور، إلا ليجتمعَ معَه في مَصالحِه وأمورِه، فتوجَّه إليه وبعَثَ عنه، فلمّا خَرج إليه السيّدُ من دارِه وقعَدَ معَه في رَحْبتِه، أقْبَلَ أبو الحَسَن بنُ أبي يَعْلى، وهو وزيرُ السيِّد أبي زيد، فبادَرَ بالسّلام عليه وقال: يا سيّدَنا رضيَ اللهُ عنكم، السيّدُ أبو زيد بعَثَ عبدَكم إليكم وأكّد عليكم في الوصُول إليه برَسْم الاجتماع معَكم فيما يَخُصُّه ويَخُصُّكم. فطلَبَ السيّدُ عبدُ العزيز أن يَدخُلَ إلى دارِه ليأخُذَ إحرامَه وعِمَّتَه ويَخرُجَ على العادة بهيئته، فقال له المذكور: يا سيّدَنا، هذا إحرامُ عبدِكم وعِمامتُه، فما قَبِل منه عُذْرًا حتّى قدَّمه أمامَه.

ولـمّا وصَل المذكورُ إلى السيِّد أبي زيد وهُو معَ بعض أشياخ الموحِّدين، قرَّر عليه ما فَعَل فأنْكَر، ولـمّا أخرَجَ إليه تهليلَه وبراءتَه، تغيَّر وتحيَّر ودَهِش وارتَـهَش، ووقَع مَغْشيًّا عليه، فصحَّ الخبرُ المنسوبُ إليه، وأُدخِل في دُوَيْرة هنالك وقُتل كما قُتل ابنُ المرتضَى بمسَلّة كذلك، والصحيحُ أنه مات مسيَّفًا رحمه اللهُ تعالى.

اختصارُ الخبر عن حركة الواثق بالله إلى السُّوس

ولـمّا تخلَّصت أشغالُه من حضرته، رحَل من تانسيفتَ على عادتِه وهيئتِه، فحينَ وصُولِه إلى تامزَّاوْرت[1] نزَلَ بعسكرِه[2] وجماعتِه، وهنالك وصَل كتابُ الأمير أبي يحيى يَغْمراسنَ وهديّتُه معَ رُسُلِه، وشاع الخبرُ بطاعتِه ومبايعتِه، فعَمَّ السرور، وانشَرَحتِ الصّدور، وقُدِّر أنه عُنوانُ الفتح ودليلُ النُّجح، وقالوا: الآنَ نَستظهرُ على بني مَرِين، ويَستتمُّ الصُّنعُ الجميلُ للخليفة والموحِّدين.

ولـمّا حضَرَ جميعُ الموحِّدين والعَرَب في أفراك بينَ يدَيْ خليفتِهم، قُرِئَ الكتابُ المذكورُ عليهم، وعَمَّت به الأفراح، وظهَرَ به الافتتاحُ والارتياح، وانطَلَقت الألسِنةُ بالدّعاءِ لله تعالى في أن يُشفَعَ هذا الفتحُ بمثلِه، ويُوالي للمقام الواثقيِّ ما عوَّده من عميم فضلِه. وأخَذ الناسُ في التهنئة له بجُملتهم، وضُرِبت الطّبولُ على ذلك.

ومِن هذا المنزلِ كان انفصالُ الشّيخ أبي زكريا بن وانُودين ليتوجَّه منه إلى بني واوزجيتَ الذين ببلاد السُّوس ليستنفرَهم ويَستدعيَهم للخِدمة والحَرَكة معَ المحَلّة في استقبالِ عليِّ بن يدرَ السُّوسي، ورحَلَت المحَلّةُ من هذا المنزل بعدَ ثلاثة أيام، وتَمادى الـمَسِيرُ إلى مسكروطن، وهو سَفْحُ الجبل وأولُ بسيطِ السُّوس، فارتاحت عندَ مُعاينتِه النفوس، وذهَب عنها ما كان قدِ استَولَى عليها من الخَبال ومُلاقاةِ الأهوال، واستبشَروا بالخروج إلى هذا البسيطِ المذكور، وانتَشَروا فيه كأنّهم في يوم النّشور، وبه أهَلّ هلالُ شوّال فأقامَت المحَلّةُ غُرّتَه هنالك لأداءِ سُنن عيد الفطر، وتوجَّه قاضي المحَلّة وخطيبُها أبو يحيى ابنُ عبد الحقِّ في يوم العيد إلى موضع في آخِر السوق يَصلُح لمصَلّى الناس فيه.

فلمّا كان بُكرةُ اليوم المذكور، رُتِّبت الأمور، وحضَرت الكافّةُ من الخاصِّ والجُمهور، ووصَل الواثقُ بالله إلى قِبلة الـمُصلَّى، وكان دخولُه إليها من باب مصنوع من الحَجَر بإزاءِ المحراب، فتقدَّم الخطيبُ أبو يحيى، وربّما لم تجْرِ عادتُه بذلك فيما سَلَف، فأدرَكَه

(١) الضبط من ق، ك.

(٢) في ق، ك، ب: «هسكورة».

الخَجَل، وكبَّر أولًا ثم قرأ الفاتحةَ وسُورةً من المفصَّل، ثم كبَّر بعدَ القيام ونقصَتْه تكبيرة، ولـمّا فرَغَ من التكبير نَسِي فاتحةَ الكتاب وابتدأ بقراءة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، فلمّا فَرَغ من الصّلاة خرَجَ من المحراب يَخطُب، فجلس إلى الأرض ثم قام فخَطَب فأدرَكَه أيضًا وَهْم، وحُقَّ له، فإنّ العيونَ إليه ناظرة والناسُ مُنصِتونَ سامعون، فنَسِي أيضًا اسمَ الخليفة الأوّل عبدَ المؤمن وابتدأ بالخليفة أبي يعقوب، وربّما جَرى في أثناءِ هذا كلامٌ الإضرابُ عنه أولى. ولـمّا كمُلتِ الخُطبة وعاد الخليفةُ الواثقُ بالله إلى مـحَلِّه ومقصدِه من القُبّةِ الحمراء، دخَل الناسُ بالتهنئةِ بالعيد السّعيد، ثم دخَل إلى أفراج، وأُحضِرت أنواعٌ من الأطعمة للعَرَب وزَناتةَ والفَرَحُ ظاهر والسرورُ باهر.

ورحَلَت المحَلّةُ في الثاني من شوّالٍ إلى منزل بني باداس، وهم إخوةُ الشقيِّ ابن يدر، وهذا الموضعُ على وادي السُّوس، وهُو على ستّة أميال من حِصن تيوينوين. واتّسع الناسُ بهذا الوادي وسُرُّوا بطِيب هوائه وكثرة مائه، والتفاف أشجارِه، واتّساع أقطارِه، وألفَى الناسُ به زرعًا كثيرًا.

وأقامتِ المحَلّةُ بهذا المنزل الفَسيح الأرجاء المعتدِل الهواء ثلاثةَ أيام، ومنه نفَذَت الظهائرُ لقبائل جُزولةَ وغيرِها، وذلك نحوَ أربعينَ ظهيرًا، ومنها لبعض قبائل هذا البسيط، وإن كان به من الأُمم والطوائف ما لا يُحصيهم إلّا خالقُهم. وتضمَّنت الظهائرُ الإعلامَ بالعَزْم على الإقامة بالبلادِ والاستيطان بها، واستئصالِ شَقِيِّها ابن يدر، وتأمين أرجائها وإعادة أحوالِـها إلى أحسن معهود.

وفي السادس من شوّال: نزَلَت المحَلّةُ على بني تيزغت وأقامت به يومَ السّبت لإحكام الرأي بما فيه النُّجح، وكانت طائفةٌ من الوافدينَ أشارت بقَصْد تورغت، فإنها ذاتُ زَرْع وبمقرُبة من العدوِّ، وطائفةٌ أخرى أشارت بقَصْد تيزغتَ، فإنّ أكثرَ زَرْع هذا البسيط قدِ ارتفَع إلى حِصن بها، فاجتَمع الرأيُ واقتضَى النظَرُ قَصْدَ تيزغت[1] للاحتواءِ على زَرْعِها والاستيلاءِ على جميع ما فيها، فخوطبَ مشتغلُ جنفيسة بقَطْع الماءِ عن أهل تيزغت وتسريبِه إلى الجهة التي يكونُ حلولُ المحَلّة بها.

---

(١) من هنا إلى قوله: «وتسريبه» سقط كلّه من ق، ك، ب.

وفي الثامن من شوّال: رحَلت المحَلّةُ إلى بني مقر، وهو نصفُ المسافة من بني تارغتَ إلى تيزغت، وكان مرورُها على تارودانت الشهيرة ذاتِ الخَيْرات الكثيرة، لكنها استَولَى عليها الخَرابُ منَ ابن يدرَ حتى صيَّرَها كالقَفْر دَرْسًا وعَفاءً، فإنه كان منها شَجيَّ الصّدر، ولم يبقَ بها إلّا جامعُ الخُطبة في قَصَبة الحصن المذكور، وأمّا ما هُو خارجٌ عن الحصن فإنّ الدِّيارَ باقيةٌ على حالها والمنازلُ لم يتغيَّرْ شيءٌ من أشكالِـها، وجميعُ ذلك من الرَّبَض معمورٌ آهِل[1]، لم يَـخْلُ شيءٌ من ذلك إلّا في أيام قريبةِ التاريخ قلائل، وعايَنَت الناسُ من هذا الخَراب والمعتمِر منظرًا عجيبًا، وشاهَدَت وضعًا حَفيلًا وبلدًا خَصيبًا، وذلك أنّ ساقيةً كبيرةً ارتفَعت من وادي السُّوس إلى تارودانت وعليها العِمارةُ والسُّكنى والرِّياضات، وكلُّ دار بإزائها رِياض، وفيها من الأشجار أنواع، واتّصل هذا المجموعُ بعضُه ببعض في بسيطٍ معتدِل الهواء فسيح الأرجاء، واسع الطُّرُقات كثيرِ الخَيْرات، قدِ احتَوت تلك الرِّياضاتُ على أشجارٍ اختَلَفت ألوانُها وحدائقَ ملتفّة أغصانُها، وماء في تلك الأنهار يَنسابُ كأنه الكوثر، وناهيكَ من وادٍ ينعقدُ من مائه السُّكّر، قد صَفَا زُلالًا، وزَهَت به هذه البلادُ جَمالًا. وحديثُ هذا الوادي في خِصبه أكثرُ من أن يُحصى، فإنه كلُّه روضةٌ رائقة وبهجةٌ فائقة، ومن عجائبِه أنه يَجري من الشّرق إلى الغرب، وليس في الأنهار مَن يَجري هكذا سواه، فنزَلَت المحَلَّةُ على هذا الوادي الغريبِ شأنُه العجيبِ أمرُه، فألفَى الناسُ زَرْعًا وخيرًا، واتّسعت بذلك أحوالُهم، وتجدَّدت باستقبال المسَرّاتِ آمالُهم.

وفي التاسع من شوّال: رحَلت المحَلّةُ منه إلى حِصن تيزغت، وهذا الحصنُ كان لصُنْهاجة تيزغت المذكور، فتغلَّب عليه ابنُ يدرَ وأخرَج أهلَه منه وأقطَعَه رَبيبَه وابنَ عمِّه حَمْدين، فاحتَشَد كلُّ مَن يليه من القبائل السُّوسية وأهلُ طالعة الوادي، وكلُّ مَن جاوَرَه من البوادي، وهذا الحصن من الحصون الشّهيرةِ الاتّساع وكثرةِ الوعرِ في مسالكِه والارتفاع، وذلك أنه حصنٌ في جبَل، وهو من ثلاثة وجوهِه لا يُرام، والوجهُ الرابعُ فسيح إلا أنه فيه شَعْراءُ كثيفةٌ وله ستارة، وله بابٌ يقابِلُ بابَ الحِصن، وفيه قَصَبةٌ مرتفعة، وفي أسفل السَّفح الفسيح في الشَّعراءِ المذكورة خندق، وفيه حَفيرٌ كبير، وعلى الحفيرِ

---

(١) سقطت من ق.

حائطٌ ممتنع، ودونَ هذا ثلاثةُ ديارٍ منتظِمة متّصلةٌ بعضُها ببعض، وعليها سورٌ بشرافاتٍ في بعضها ودون هذه الدِّيار حائطٌ كبيرٌ دائر من جَبَل إلى جبل يَخْرُج المقاتِلونَ الشقيُّونَ وراءَ هذا الحائط الذي يَلي الحِصن وأظهروا فيه قوّتَهم وعُدّتَهم وشوكتَهم، فاقتَحَم عليهم اللَّمَطيُّونَ وأخرَجوهم عن ذلك كلِّه وقَتلوا منهم جُملة، فانجلَوْا عن الدِّيار وتَركوها وما فيها من ماشية وزَرْع وأثاث ولـجَأوا إلى الخندق والحَفيرِ الذي بإزائه والحائطِ الذي عليه، وكلُّ ذلك في أسفل سَفْح الجَبَل الذي عليه الحِصن، فاحتوى الناسُ على أكثرِ ما في[1] تلك الدِّيار، فلمّا كان بعدَ صلاة العصر، وأوانُ ارتقابِ النّصر، جلسَ الخليفةُ الواثقُ بالله بالقُبّة الحمراء، وحضَر لدَيْه شيخُ العَرَب أبو سِرحان وزَناتةُ ووجوهُ الأجناد، وضُربت الطّبولُ إشعارًا بالقتال، فلمّا أخَذ الناسُ في اجتماعِهم وشَرعوا في بروزِهم واحتفالِـهم، ركِبَ الواثقُ بالله ورُفِعت أعلامُه واجتَمعتِ الناسُ عليه، وقصَد الحِصنَ المذكور، وطاف عليه من جميع نواحيه بجيوشِه وعساكرِه، واشتدّ القتالُ في هذا العَشِيّ على الأشقياء، وعايَنوا ما هالَهم وراعَهم، واستمرَّ الحالُ على مُضايقتِهم إلى آخِرِ النّهار.

وفي العاشر من شوال: تأهَّب الناسُ للمناضلة والمقاتلة، وركِبَ الخليفةُ الواثقُ بالله فرسَه القِرطاسيَّ الغازيَ وقوتِلت الأشقياءُ على الخَنْدَق، واستمرّ الحالُ على قتالِـهم إلى الظهر، ثم وصَل آخرَ النّهار عبدُ الله بن محمد الجنفيسيُّ في جَمْع كبير من إخوانِه، واستبشَرَ الناسُ بقُدومِهم عليهم.

وفي الحاديَ عشَرَ من شوّال: أحسَّ الناسُ بِفرار بعض الأشقياء فاحتَرسُوهم طولَ ليلتِهم ولم يُفْلِتْ أحدٌ منهم، وجلسَ الواثقُ بالله بُكْرَةَ اليوم المذكور، ثم ركِبَ الفرسَ الغازيَ ورُفعت الرايةُ، وتوجَّه إلى جهة الحِصن على عادته، فقوتلَ أشدَّ قتال، واستمرَّ القتالُ إلى الظُّهر، ثُم عاد إلى معسكرِه.

وفي الثانيَ عشَرَ منه: شَرع أيضًا في الحركة إليهم والنزول عليهم، ورأى أن تكونَ رايتُه بإزاءِ الحِصن من جهةِ غَرْبِه، ونزولَ لَـمْطةَ برحائلِهم من جهة شَرْقه، ونزولَ المحَلّة معَ العَرَب في قِبلتِه، فركِب الواثقُ بالله ورتَّب أجنادَه على هذه الهيئة، فرأى الأشقياءُ

(١) سقطت من ق.

من عَزَماته ما هالَهم وعايَنوا من الجنودِ ما راعَهم، واستمرّتِ الحالُ على هذا الترتيبِ من بُكرةٍ إلى نصف النهار، ولم يركَنْ فيها إلى راحة، بل يتردَّدُ إلى الموضع الواحدِ مرّات، وبعدَ المحاولةِ في ترتيبِ النزول على الحِصن عاد إلى معسكرِه، واشتدَّ القتلُ على الحِصن والحصار، ورأى أهلُه أنه لا نَجاةَ لهم ولا فِرار، ولا إقامةَ بجهةٍ ولا استقرار، وصاروا لأُسودِ هذه الجيوش ثعالب، ولقد كانوا يظُنُّون باغترارِهم أنهم لا مناضلَ لهم ولا مُغالب، فلمّا كان معَ الزّوال زال عنهم سُرادقُ الحياة، وأيقَنوا بالـهَلَكة ولا نَجاة، فوجَّه حَمْدينُ زعيمُ الأشقياء إلى أبي الحَسَن بن زجدار نَصيحِ الدّولة الواثقيّة في أنْ يتلافَى قضيّتَه، ويُظهِرَ له توبتَه، وأنه يَخرُج على عهد، ويخدُمُ خدمةَ نُصح وجَدّ، وأنّ ابنَ يدرَ يعودُ إلى الطاعةِ وجميعُ البلاد السُّوسيّة ومَن والاها من أصنافِ القبائل القِبْليّة، فلمّا وصَل أبو الحَسَن بن زجدار أوضَح عُذرَه، وبيَّن كلامَه إلى الواثق بالله وأمرَه، فكان جوابُه: تُقبلُ توبتُه وتُقضَى رغبتُه، بشَرْط التعجيل في هذا اليوم المذكور على البَدِيه، بالتخلّي عن الحِصن وجميع ما فيه، فلمّا عاد إليه بذلك أبو الحَسَن المذكور، كان وقتُ العصر، فقُضِيَتْ صَلاتُه.

وكان القتالُ على هذا الحِصن عامًّا من كلِّ جهة، ولقِيَ الأشقياءُ منهم أمرًا شديدًا لا يُطاق، وأيقَنوا بالحال التي أذِنَت لهم بالـمَحاق، فانهزَم الأشقياءُ من جهة لَـمْطة، واشتدَّ القتالُ من كلِّ حَوْمة، واقتَحم الناسُ عليهم الحَفِيرَ والخندَقَ من كلِّ مكان، وكانت الهزيمةُ الشَّنعاء، وركِبَ الواثقُ بالله فرسَه الغازيَ ولم يقتضِ الحَزْمُ عندَه انتظارَ ركوبِ وُزرائه وخُدّامِه، ثم إنه أرسَل عِنانَ فرسِه مارًّا كالبَرْق الخاطف، قاصدًا نحوَ رحائلِ زَناتةَ وليس معَه فارسٌ ولا راجِل، وبعدَ حين تَدارَكَه الوُزراءُ والقَرابةُ والأجنادُ والخُدّامُ وغيرُهم، وهو قد لحِقَ بموضع زَناتة يحُضُّهم على أخْذِ الجبل الذي فيه الحِصن واقتحام خندقِه، فلمّا ارتقَى أولياءُ الأمر الجبلَ من كلِّ جهاتِه توقَّدَ نارُ الحَربِ الشديد، وصَبَرَ الأشقياءُ صبرًا ما عليه مَزيد، والحربُ تَطايرُ شَرارُها، وتَترامى في ميدانها أبطالُ الفرسانِ وسَرارُها[1]، فلمّا دَنا اللّيلُ وامتدَّ سُرادقُه انكشَف الحالُ عن هزيمة الأشقياء، ولَـجَأوا إلى الحصن، وكانوا في خارجِه بأموالِـهم وأولادِهم وعيالِـهم، فمات منهم في

---

(١) أي: أوسطها وأفضلها، كما في معجمات اللغة.

ذلك الوقتِ ما لا يُحاطُ بالحصرِ والإحصاء، من رجالٍ ونساء، وأولادٍ وبهائم، واستَولَى الناسُ على جميع ما كان بخارجِه.

ولـمّا كمُل الفتح، وأضاء بأنوارِه الدُّجى وكأنه الصُّبح، وبَدَت مَخايلُ النُّجح، رتَّب المقامُ الواثقُ بالله على الحِصن من كلِّ جِهاته الأجنادَ لاحتراسِه واحتراسِ جميع ما فيه، ولـمّا كمُل هذا الترتيبُ على الحصن المذكور، وظهَرَ النُّجحُ في الأمور، عاد الواثقُ بالله إلى مَضاربِه والسَّعدُ يُسايرُه والنّصرُ يؤازرُه، فهنَّأه بعضُ الناس وأخَذوا بيدِه عند باب أفراج، وتَرادفَتِ البُشرى والابتهاج، بالبلاد السُّوسيّة التي حصَلت في سلكِ الانتظام بأهلِ الطاعة، واستَولَى الناسُ على ستارة الحِصن في هذه الليلة وعلى كلِّ مَن كان فيها وما فيها، ثم على الحصن، والأصواتُ من جميع الطوائف ترتفع، وكلُّ جهة من جهة القوم لا ترُدُّ يدًا ولا تمتنع، والضّجيجُ قد علا حتى لقد صُمَّت منه الأُذُنان.

فلمّا رأى الشّقيُّ حَمْدين أنّ المنايا قد كشَّرت عن أنيابِها، وعايَنَ ما لا طاقةَ له به من تمكُّن أسبابِها، دخَل دَخيلًا على ابن زجدارَ وهو معَ جماعة من إخوانِه ونسائه، وأُخِذت في جُملة المأسورينَ أُختُ عليِّ بن يدر. فلمّا أشرقَ نورُ الفجر في الثالثَ عشَرَ لشوّال جلسَ الواثقُ بالله في أُسطُوان أفراج، واستدعَى وُزراءه في تدبير الأمور وإحكامِها، والنظرِ في مصالح الجمهورِ والتئامِها، وأمَرَ بالكَتْب بهذا الفتح إلى الحضرة، وركِبَ إلى الحضرة والفتحُ تَروقُ عليه أنوارُه، والنّصرُ قد ظَهَرت آثارُه، ورُفِعت الرايةُ في أعلاهُ وكان مركَزُها في دارِه، وأخَذ من الحصن بطُول اللّيل ما لا يُحيطُ به حصرٌ ولا تقدير، وقُتل ممّن كان فيه عددٌ كثير، وأكثرُ ذخائرِ هذا الحِصن تصيَّرت للمَرينيِّين، وحصَل في أيديهم حَمْدين، فكان سببًا لـما استحوَذوا عليه وانفرَدوا به، وطلَبَ أبو الحَسَن بنُ زجدار بإحضار حَمْدين المأسورِ عندَه، فتأكَّدت رغبتُه في تتميم ما كان بدا من أمره من الفداء، فقد كان ارتَهن في أداءِ سبعينَ ألفَ دينار، فاقتضَى نظرُه أنْ أبقاه بيد أبي الحَسَن بن زجدار معتقَلًا مصفَّدًا في الحديدِ الثقيل، ورتَّب عليه ثقاةً من عَبيد المخزَن معَ حافظٍ من الموحِّدين، وأُخِذت أُختُ عليِّ بن يدر معتقَلةً مأسورة، وأُلفِي في الحِصن جماعةٌ من عَبيده قُتلوا صبرًا، وعيَّن للإقامة في الحِصن أحدَ القَرابة لحياطته.

ورحَلت المحَلّةُ ضُحى يوم السّبت الرابعَ عشَرَ لشوّال، واستقرَّت في المنزل الأوّل.

وفي الخامسَ عشَرَ منه: كُتِبت الكُتُبُ بهذا الفتح إلى البلاد، وبهلاكِ أهل الضّلال والعناد، وفيه صَدَرت مخاطبةٌ لأبي سِرحان بن كانون والتوكيد عليه في حِراسة البلاد من فساد العَرَب.

وفي عاشرِ شوّال: وَدَّع أشياخُ الساقية الحمراءِ والوافدونَ من بني واوزجيتَ وغيرُهم وانصَرفوا بحِفاظِهم إلى بلادِهم.

وفي الحادي والعشرينَ: رحَلت المحَلّةُ من المنزل المتقدِّم ذكرُه إلى بني داودَ على وادي السُّوس.

وفيه: ورَدَ الخبرُ بوصُول أبي زكريّا بن وانُودين معَ الوفدِ الكبيرِ من بني واوزجيت، ورغِبَ في لقاءِ الوافِدين والاعتناءِ بهم لوفودِهم وقوّتِهم وكثرة أعدادِهم ومُثابرتِهم لعليٍّ بن يدر ونَيْلهم منه، فأقامتِ المحَلّةُ بهذا المنزل الثانيَ والعشرين منه، وخَرج للقائه كلُّ فريق من أنصارِ الدّعوة الواثقية. ووصَل الوافدونَ بجُملة من الأعلام الكبيرة والعُدَد الوافرة الكثيرة، ولقد كان في هذه العلامات ما زاد على ثلاثينَ ذاتِ ألوانٍ وصنائعَ مختلفة، ولا يرتابُ أنها من الذّخائر القديمة التي كانت بدارِ الموحِّدينَ فيما مضَى من السِّنين، ولـمّا قضَوْا فرضَ الاستسلام والسلام ورأَوا البقيّةَ التي سَمَحت لهم بها الأيام، انصَرفوا إلى منازلهم.

وفي الثالث والعشرينَ منه: نزَلت المحَلّةُ بمقرُبة من تارودانت، وركِبَ الواثقُ بالله إلى حِصن تارودانتَ الذي كان قاعدةَ البلاد السُّوسيّة ودارَ الوُلاة ومستقرَّ أمرِهم ومَأْوى كلِّ غريبٍ من التُّجار وغيرِهم.

ولـمّا كان انتزاءُ الشقيِّ ابن يدرَ إلى الفتنة لم يكنْ أهمَّ أمورِه إلا تخريبُ هذا الحصن؛ لأنه كان محلًّا لاستقرارِ الأجناد، ومنه كان استيلاءُ الوُلاة على تلك البلاد، فلمّا عصَفَت ريحُ ابن يدرَ في نِفاقه وشِقاقِه، لم يكنْ أملُه إلا هَدْمَ هذا الحصن الذي اتَّخذه خلفاءُ الموحِّدين معقِلًا ومـحَلًا لوُلاتِهم ومنزِلًا، فأباد آثارَه، وزَلْزلَ قواعدَه وأزال أسوارَه واستأصَل جميعَه وهدَم ديارَه، ولم يتعرَّضْ إلى شيء مما جاوَرَه من الدِّيار والإملاك التي بخارجِه، فإنّها كانت مساكنَ الرّعية، وكلُّ من كان بهذه البلاد يُكابرُه ويُعانِدُه لم يُبقِ له اسمًا، ولا لديارِه وأملاكِه رَسْمًا.

ولقد بُني هذا الحِصنُ مرّات، ووجِّه إليه الصُّنّاعُ من الحضرة، وعُمِلت عليه أبوابُ الحديد التي كانت بباب السَّرّاجِين من داخل مَرّاكُش، فمتى خَلا من الأجناد انتهَز ابنُ يدرَ الفُرصةَ إليه وحشَد القبائلَ عليه، حتى صار طَلَلًا دارِسًا، فطاف به الواثقُ بالله وبجميع جهاتِه كلِّها وساحاتِه، ووقَع التفاوضُ في إعادتِه، والشروع في تجديدِ رسمِه وإقامتِه، ولو ساعَدَه الزّمان، لَوقعَ التدبيرُ في هذا الشان.

وفي السابع والعشرينَ من شوّال: بعَثَ الواثقُ بالله إلى مَرّاكُش عما يَحتاجُ إليه من آلة الحَرْب الذي لم يزَلْ عزْمُه عليه قائمًا، وكان عَزْمُ مَن تقدَّمه عنه نائمًا.

وفي غُرّة ذي القَعْدة: رحَلت المحَلّةُ إلى حصن تيوينوينَ الظالم أهلُه، المتأصِّلُ على النِّفاق وضعُه، فلمّا انتهى الواثقُ إليه رَتَّب الجيوشَ عليه، وأهلُه مصِرُّونَ على النِّفاق مُعلِنونَ بالشِّقاق، قد أخَذوا أُهبتَهم وأعَدُّوا عُدّتَهم، وأظهَروا التعرُّضَ للقتال، وأبدَوْا صفحةَ المجاهرة بالعصيان، فاشتَغل الناسُ عن قتالِـهم بطلب الماء وهو على ثمانية أميال، وبعدَ ذلك اشتَغلوا بحَفْر الآبار، وظَهَرت العيونُ بكلِّ مكان.

وفي الثاني منه: قوتلَ أهلُ الحصن قتالًا شديدًا من كلِّ جهة، وهو من الحصونِ المرتفعة المنيعة، وأصبح الأشقياءُ لـهَدْم ما يلي السُّور من هذا العريض توقِّيًا من الصعود عليهم منه.

وهذا الحصنُ شأنُه شهير، وأهلُه أُولو قوّة وأُولو بأسٍ شديد، فكم أعيَا الوُلاةَ داؤه، وأعوَزَ بهذا الطلب جُهدَ الإمكان دواؤه، وقد كان به من الخَلْق كثيرٌ من جميع البلدان، واجتَمع به كلُّ ثائر وسارق ومُتَمادٍ في الطُّغيان.

وقد كان حَمْدين المعتقَلُ تكلَّم مع بعض الناظِرينَ عليه من حراسة بأنه يستميلُ نفوسَ هؤلاءِ الأشقياء إلى الطاعة، وقَدَّر أنّ له أمرًا يَستبصِرونَ به ويرجِعونَ إليه، فأجابوه بالردِّ والطَّرِدِ والبُعد، إلا أنه وصَله عن شخص بعدَه أنه يجتمعُ معَ إخوانه ويُرادِدُهم، فعاد حمدينُ إلى حبسِه واعتقالِه.

وشاع الخبرُ في هذا اليوم بوصول عليِّ بن يدرَ إلى جهة المحَلّة، فركِبَ مسعودُ بن كانون معَ إخوانِه وأبو الحَسَن بن زجدارَ كذلك، وطلَبوا أثَرَ الأشقياء، وانقَضّوا عليهم كالعُقبانِ من جوِّ السماء.

وفي الثالث من ذي القَعْدة: وصَل كتابٌ من مَرّاكُش من قِبَل واليها السيِّد أبي زيد بجوابِ فتح، ووصَل معَه كتابُ أبي الحَسَن عليِّ بن أبي عليّ الخُلَّطيِّ وبيعتُه للمقام الواثقيِّ الـمُعتمِديِّ ودخولُه في طاعته، فعَظُمتِ المَسَرّة باجتماع الكلمة، وشَمِلت النُّعمى لأهل المحَلّة، وبقيَ الحِصنُ المذكور على حالِه من النِّفاق والاستعصاء، وشَرع الواثقُ في عمَل الـمَنْجَنيقات برَسْم الأشقياء.

وفي الخامس من شهر ذي القَعْدة: بعَثَ الواثقُ عن شيخ العَرَب ووجوهِهم، وعن أبي الحَسَن بن زجدارَ ووجوه مَن كان معَه من زَناتةَ ولَـمْطة وبني واوزجيت وغيرِهم، وأخَذ معَهم في التدبير في فَتْح الحِصن، وجلسَ الواثقُ بالله بالقُبّة الحمراء، وجلسَ الناسُ على أصنافِهم وطبقاتِهم، فلمّا استقرَّ بالناس مستقَرُّهم، قُرئ الكتابُ المتضمِّن بيعةَ أبي الحَسَن الخُلَّطيّ وضُربت الطُّبولُ على ذلك.

وفي التاسع من شهر ذي قَعْدة: توجَّه الوافِدونَ ببيعة أبي الحَسَن المذكور وإخوانِه الخُلَّط، وتوجَّه معهم أبو فارس بن الـمُعزّ الكفيفُ، إذ كان المقرَّب عندَ الواثق لفصاحتِه، فبعَثَه إليه برَسْم الاجتماع به وبجماعتِه.

وفي الثالث عشَرَ منه: تأهَّب الناسُ لقتال الأشقياء بما يجبُ من أُهبتِهم، ورَكِب الواثقُ بالله ورُفِعت الراية ورُمي حَجَرُ المنجَنيق، فجاء إلى الحِصن على تقديرٍ وتحقيق، وأهلُ الحصن على ضَلالِـهم لا يَرْعَوونَ ولا يَزدجِرون، كما قال الشاعر [من الوافر]:

لقد نُودوا فما سَمِعوا المنادي ... ولا أصغَوْا إلى داعي الرَّشادِ
وجاءت نحوَهم من كلِّ أَوْبٍ ... جيوشٌ ما تمَلُّ من الطِّرادِ
ولكنّ الضَّلال بهِمْ تمادى ... فلَجُّوا في العتوِّ وفي العنادِ

وفي شهر ذي حجّةٍ: حُفِرت مطمورةٌ لـمَبيت حَمْدين؛ لأنّ الخبرَ شاعَ أنّ أشياعَ عليِّ بن يدرَ عزَموا على انتهازِ الفُرصة في استنقاذِه ليلًا، وقد كان في كلِّ ليلة يَبيتُ في آلة من خشَب مسمَّرة على عُنقه وإحدى يدَيْه، مُضْجَعًا على جَنْب واحد إلى الصُّبح، زيادةً على تصفيدِه بالحديد الثقيل، وتبِيتُ عليه رجالٌ يحرُسونَه، فكان ذلك الخبرُ زيادةً في امتحانِه، نعوذُ بالله تعالى.

وفي عيد الأضحى: صَلّى بالناس أبو الحَسَن ابنُ قَطْرال، ثم خَطَب خُطبةً من إنشاءِ البديع بَهَرَ بسماعِها الألباب، وأتى من الفصاحة والبلاغة بالعَجَبِ العُجاب.

وفي الحادي والعشرين: وصَلت أرسالُ ابن يدرَ خاضعينَ قد غَلَب عليهم الاستيحاء، ورَغِبوا في إقالتهم والتجاوز عن شهوتهم، ونما خبرُهم إلى الواثق بالله فاستحضرهم وعتبهم، فوعدوا ببيعة ابن يدرَ وطاعته، وأنهم يعودونَ بذلك ويرجِعونَ إلى الحَقِّ والتمسُّك بدعوة التوحيد، فصُرفوا إلى صاحبِهم بما ذَكَروا من رغبتهم.

وفي التاسع والعشرينَ منه: وفَد على الواثق بالله خَلْقٌ كثيرٌ من المعقِل بأموالِـهم وعِيالِـهم، وخَرج أكثرُ العسكرِ للقائهم صُحبةَ الوزير أبي موسى، فلقِيَهم وقد رَتَّبوا مصافَّهم وقدَّموا فُرسانَهم بعلامات، ووراءَهم هوادجُ حسَّنوها بأنواع الثِّياب، ونساؤهم قد برَزْنَ فيها ظاهراتٍ غيرَ محتجِبات.

وفي أثناءِ توجُّه السيِّد أبي موسى لهذا اللقاء جلسَ الواثقُ بالله بالقُبّة الحمراء، إلى أن جاء الوافدونَ يَقدُمُهم في الصَّدرِ الأول منهم شيخُهم عبدُ المؤمن بنُ أبي الطيِّب، والسنُّ قد أزالَت رونقَه، وأطلَعَت كالصّباح مَفرِقَه، ولكنّه متجلِّد صَبُور، حنَّكته التجارِبُ في الدّهور. وتَلقَّاه الواثقُ بما سَرَّه وآنَسه، وبَسَط خاطرَه ونفسَه، وأعاد بعدَ الذهابِ حسَّه، ونزَّله في أقرب المواضع وأحظاها، وأشرفِ المنازل وأسناها، ثم استَدنَى الوافدينَ ووصَلوا بعلاماتهم وعددُها سبعةٌ من الحريرِ المختلفِ الألوان برشوم من ذهب، فقَضَوْا آمالَهم من السلام، وانصَرفوا إلى منازلهم في غاية الإكرام، وأخرَجَ المعتقَلينَ منَ اعتقالهم، وعايَنَهم إخوانُهم، ثم رُدُّوا إلى محبِسِهم ووُعدوا بتسريحِهم عندَ انفصال الصُّلحاءِ الذين تَطوَّقوا أمانةَ البيعة في أعناقِهم، وضُربت الطّبولُ إشعارًا بالإقبال عليهم، وأجزَلَ الإحسانَ إليهم، فعَمَّت الـمَسرّاتُ النفوسَ جميعًا، ومما قيل في ذلك [من البسيط]:

أهـلًا وسـهلًا وحيّـا اللهُ مَـن وفَـدا ... قومًـا أرادت بهـم أيـامُهمْ رُشُـدا
كـانوا كموسـى أتَـى نـارًا ليقبِـسَها ... بأهلِـه فأصـاب النـارَ نـورُ هُـدى
شَدّوا الـمَطِيَّ وأَمّـوا طـائعينَ وقـد ... نالوا من الصَّفح أقصى غايةٍ ومـدى

وفي هذه السنة، وهي سنةُ خمس وستينَ وست مئة: صالَحَ الأميرُ أبو عبد الله ابنُ الأحمر ملكَ النَّصرانية أذْفُونْش على يدِ ولدِه الأمير أبي عبد الله، وقيل: إنّ الصُّلحَ انعقَد بينَهما على نحو أربعينَ مُسوَّرًا من بلاد المسلمين أعادها الله للإسلام، وقيل: إنّ أكثرَها بغَرْب الأندَلس، ومن جُملة تلك البلاد: مدينةُ شَرِيش والمدينةُ والقَلْعة وبَجِيرّا وغيرُ ذلك.

قال المؤلِّف سَمَح اللهُ له: أخبرني مَن أثقُ به من بني مَسْلَمةَ أنّ الفقيهَ أبا القاسم العزَفيَّ قال له عندَ خروجِه من شَرِيش أنّ جُملةَ ما أعطى ابنُ الأحمر للفُنْش من المُدن والحصون المسوَّرة بما احتَوت عليه من الأقاليم الواسعة، والأرجاءِ الفسيحةِ اليانعة، مئةٌ وخمسة، صحَّح ذلك عندي العزَفيُّ رحمه الله. وقيل: إنّ أكثرَها كان في شَرْق الأندَلس، وفي غربِها كان الأقل، أحَدُهم بلدُكم شَرِيش، وهذا شيءٌ تَعافُه القلوبُ والأسماع، وتضطربُ لفظاعتِه الأصقاع.

وقد رَثَى الأندَلُسَ كثيرٌ من الأدباء، فمن ذلك قولُ صالح بن شَرِيف من قصيدة[1] [من البسيط]:

لكـلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ ... فلا يُغَرَّ بطيبِ العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما تدري لها دُوَلٌ ... من سرَّه زمنٌ ساءَتْه أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يَدومُ على حال لها شانُ
يمزِّق الدّهرُ حتمًا كلَّ سابغةٍ ... إذا نَبَت مَشْرَفيّاتٌ وخُرصانُ[2]
ويُنتضَى كلُّ سيف للفناءِ ولو ... كان ابنَ ذي يَزَنٍ والغمدَ غِمدانُ
أين الملوكُ ذوو التِّيجان من يمَنٍ ... وأين منهمْ أكاليلٌ وتيجانُ
وأين ما شاده شدّادُ في إرمٍ ... وأين ما ساسَه في المُلك ساسانُ
فخلَّفوا عِبَرًا وأصبحوا خبرًا ... كما حَكى عن خيالِ الطَّرفِ وَسْنانُ

---

(١) شبه الجملة سقط من ق.

(٢) سقط هذا البيت من ق، ك، ب.

فجـائعُ الـدّهر أنـواعٌ منوَّعـةٌ … وبعضُها فوق بعـض وهْـي أشـجانُ
دَهَى الجزيـرةَ خطـبٌ لا عـزاءَ لـهُ … هـوى لـه أُحُـدٌ وانـهَدَّ ثهـلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فامتُحنت … حتـى خَلَـت منـه أقطـارٌ وبلـدانُ
فـسَلْ بَلَنْسِيَةً مـا شـأنُ مُرْسِـيَةٍ … وأيـن قُرطبـةٌ وأيـن جَيّـانُ
وأين حمصٌ وما تـحويه مـن نُـزَهٍ … ونهرُهـا العَـذْبُ فيّـاضٌ ومـلآنُ[1]
قواعـدٌ كـنّ أركـانَ الـبلادِ وما … عـسى البقـاءُ إذا لم تبـقَ أركـانُ
تَبكي الحنيفيّةَ البيضاءُ من أسَفٍ … كـما بَـكَت لرسُـول الله أجفـانُ
على بيـوت مـن الإسـلام عاطلةٍ … كأنّهـا لم تكـنْ بالـذِّكر تـزدانُ
صارت كنائسَ قد صال الضَّلالُ بها … فلـيس إلا نـواقيسٌ وصُـلبانُ

وفي الثامن والعشرين لمحرَّم: ركبَ الواثقُ بالله فرسَه القِرطاسيَّ وقد تأهَّب الناسُ للبروز وخَرجوا للقائه من الحضرة بالطُّبول، وتوجَّه إليه العَرَبُ من كلِّ مكان، فلِقيَهم بأحسنِ القَبول، وكَسَا جَمَلَ المصحف الكريم بما جَرت به العادةُ من الزِّينة الزَّيناء، ورُفعت الأعلامُ الصِّغار معَ جوانبِ الغشاءِ المحتوى عليه، وجُعلت قلائدُ من فضّة في عُنقِه قد أُعِدّت له، والبغلُ أيضًا كُسِيَ كذلك، وجُعل عليه من الزِّينة مثلُ ذلك، وتزَيَّا العَبيدُ الذين يخدُمونَ الجمَل والبَغْل بالثِّياب البِيض. وغُسِلت لهم أكمامُ الأوصال فحَبَسوها وتقَدَّموا بها أمامَه، فكانوا في غايةِ الجمال والاحتفال، وأولادُ الواثق بالله معَ حاشيتِهم وقَرابتِهم يَتْلونَه، والوُزراءُ وراءَهم في الساقة الكبرى التي فيها الأعلامُ السبعة الخِلافيّة وعلاماتُ قبائل الموحِّدين على العادة المعتادة، وكذلك سائرُ العلامات، وترتّب المشيُ على هذا الوضع المذكور، وكان التوجُّه إلى مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى على طريق القِبلة. وخَرج أهلُ مَرّاكُش لهذا البروز رجالًا ونساء، ولم يبقَ بها فارسٌ ولا راجِل إلّا خَرج. وكان لقاءُ السيِّد أبي زَيْد بالقَرابة والطلَبة وأهل الخِدمة ببابِ الكحول، وكان هذا

---

(١) هذا البيت تأخر في ق، ك، ب بعد بيتين.

اليومُ في هذه الدولة الواثِقيّة من أعظم الأيام احتفالًا وأحسَنِها جمالًا، والناسُ يُقبِلونَ بعضُهم على بعض، وكلٌّ يُصافحُ صِنفَه ويُهنِّيه بهذا القدوم السّعيد والإيابِ الحميد.

ولـمّا دخَل الواثقُ بالله مدينةَ مَرّاكُش، قصَدَ إلى الجامع تيمُّنًا به، وشكرًا لله تعالى على جميل مَواهبِه، وتجدَّد له الدّعاءُ بذلك، ورَكِب من باب الجامع إلى باب رياضِ الحِزب، ووقَف هنالك فهنّأه الحاضِرونَ ولثَموا يُمْنَاه، ودخَل إلى قصرِه وقد قَرَّت عيناه بما كان يتَمنّاه.

وكمُلت هذه الحركةُ السُّوسيّةُ التي كانت إثْرَ حركتِه الـهَسْكوريّة، ولم يكنْ فيهما معًا من كبيرِ معنًى يُذكَر، وإن كان فضلُه لا يُنكَر، غيرَ بعضِ التسكين والتّهدين، والقَبْض على الشقيِّ ابن حَمْدين.

وأمّا ابنُ جلداسنَ مسعودٌ فامتنَع في جبلِه، ونقَضَ العهود، وقطَع الـمُواصَلة، وما كان تقدَّم له منَ الـمُجاملة. وذُكر عنه أنه قال في جملةِ كلامِه، وسببِ مقاطعتِه ومَلامِه: كما نقَضَ الواثقُ لملِك المغربِ عهدَه ولم يُنجزْ له وعدَه، فكيف أنا الذي قد رأى فيَّ عبدَه؟ وكان في ذلك، على ما قيل، كلامٌ له في هذا المعنى طويل، أضربتُ عنه خِيفةَ التطويل. وقيل: إنّ الواثقَ بالله كان بينَه وبينَ المقام اليُوسفيِّ عهودٌ مؤكَّدة، وأَيْمانٌ مردَّدة، فلم يفِ له إلّا بالبعض، وآثَرَ على الإبرام النَّقْض. فكانت بينَهما أنكاد، ودارَ بينَهما حربٌ وجِلاد، على ما يأتي.

ولبعض الطّلبة في الواثق بالله إثْرَ حركتِه جُملةُ أشعارٍ بالتهنئة على تلك الحركة رَفَعوها إليه، فقُرئت بجُملتِها عليه، فأحسَنَ إليهم وأنعَمَ عليهم، ورَفَع له بعضُ خُدّامِه وهو بالسُّوس أبياتًا، وهي [من الكامل]:

قالــت لنــا الأيــامُ بعــدَ صُموتِــها ... مَن ذا الـذي يَـرضى العُـلى والمنهَلا
يَحمي الـوَرى ويـذودُ عـن حُرُماتِـهِ ... يَروي سيوفَ الهند مِـن بَـرْي الطِّـلا
مَــن همُّــه قـرْعُ العِـدا وصـلاحُ مـا ... قـد كـان عـن نَـهْج السّدادِ تَحـوَّلا
مــن لا يَـرى يـصبو إلى دُنيـا ومـا ... يَرنــو لزهرتِــها إذا مــا تُــجتلى
قُلنــا لهــا ذاك الإمــامُ الواثــقُ الــ ... ـــهادي أميرُ المـؤمنينَ أبـو العُـلى

ولـمّا استقرَّ الواثقُ بالله بحضرتِه الـمَرّاكُشيّة بعدَ حركتِه السُّوسيّة، بلَغَه الخبرُ أنّ أبا يوسُف توجَّه بعساكرِه لمحاربة يَغْمراسَن، فبقيَ رسُولُه بمَرّاكُش حتى عاد أبو يوسُف إلى مدينة فاس. وبعَث الواثقُ هديّةً حفيلةً إلى أمير تِلِمْسان يَغْمَراسَن بن زَيّان، فتوجَّه الفقيهُ أبو الحَسَن بنُ قَطْرالَ ببعضِها في البَرّ، وتوجَّه أبو عبد الله البكريُّ بأثقالِـها في البحر، دخَل من آسَفي وخَرج في هنين، وأخَذ أبو الحَسَن بن قَطْرال على طريق سِجِلْماسةَ معَ رسُول يَغْمَراسَن، وهو ابنُ أبي عثمان، معَ ابنِ أبي مديونٍ الونجاسنيّ. فوصَلوا إلى سِجِلْماسة، فوجَدوا بها عثمانَ بنَ يَغْمَراسَن، فبعَثَهم معَ بعض أشياخ المعقِل فوصَلوهم إلى تِلِمْسان، فوجَدوا بها أبا عامر بنَ يَغْمَراسَن، وأبوه قد توجَّه إلى جهة مِلْيانةَ وغيرِها، وبها وصَلَه رَقّاصُ ابنِ قَطْرال بكَتْب أبي دَبّوس وبها وصَلَه من عندِه من هديّة، [فوصَلَه جوابُه لأبيه يأمُرُه][1] بإجراءِ كرامةِ أبي الحَسَن [وضيافتِه حتى تنقضيَ حركتُه من تلك البلاد][2] الشَّرقيّة ويعودَ إلى البلاد الغربيّة ليشغلَ بني مَرين عن التوجُّه لجهة البلاد الـمَرّاكُشيّة. فبقيَ أبو الحَسَن ابنُ قَطْرال تحت كرامة يَغْمَراسَن مدةً من عام كامل وأشهُرٍ يعِدُه وعدًا بعدَ وَعْد، وهُو مع ذلك ييسِّرُ له خيولًا وغيرَ ذلك برَسْم الهديّة لأبي دَبّوس، وبنو مَرين في أثناءِ ذلك قد توجَّهوا لحصارِ مَرّاكُش، وحَفُّوا بها، فخَرج إليهم الواثقُ بالله بجيوشِه، فكانت مُحارباتٌ ومقاتلاتٌ ومُواقفاتٌ ومُقابَلات أجْلَتْ عن هزيمة الواثق بالله وقتلِه، فبَلَغَهم بتِلِمْسانَ أنه قد مات مقتولًا، وتفرَّقت جيوشُه وعساكرُه، وانقَرضَت دولتُه، وانقَطَعت أوامرُه. فرجَع أبو الحَسَن ابنُ قَطْرال على طريق سِجِلْماسة، ومات في جهة بلاد دَرْعة رحمه اللهُ تعالى.

ولـمّا ظهَر للفقيه القاضي أبي إسحاقَ ابن القَشّاش اختلالُ الأمور والأحوال، وكثُرت فيه وفي غيرِه من بعض الناس الأقوال، رَفَع هذا الرَّفعَ للواثق بالله، فوقَّعَ له التوقيعَ بما أكتبُه بعدُ إن شاء اللهُ تعالى، نقلتُه من خطِّ وَلَدِه أبي عبد الله، والتوقيعُ عليه بخط أبي دَبّوس وهو: رضيَ اللهُ تعالى عن المقام الإماميِّ الواثقيِّ المعتمِديِّ، المؤيَّد المظفَّر

(١) ما بين الحاصرتين بياض في ق، ك، ب، والمثبت من ر٣.

(٢) كذلك.

الأسعدِ المبارك، وأطال للمسلمينَ أيامَه، ونصَرَ ألوِيتَه الكريمةَ وأعلامَه. عبدُ نعمتِه ومملوكُ مِنّتِه إبراهيمُ بن أحمدَ الأَوْسيُّ يُسلِّمُ على المقام الإماميِّ أيّده اللهُ تعالى ويقبِّلُ اليدَيْن الكريمتَيْن المباركتَيْن، ويهنِّئُ العبدُ مولاه أعزّ اللهُ مقامَه بما سَنَاهُ له من البشائر المتناسقة، والفتوح المتلاحقة، والحمدُ لله، وهُو سبحانَه المسؤولُ أن يَشفَعَ هذا الصُّنعَ الجميلَ بأمثالِه، ويوزِعَ العامّةَ الشّكرَ على إنعامِه بذلك وإفضالِه.

ويعرِّفُ العبدُ مولاه أنه لم يزَلْ محبًّا في هذه الدّولة السعيدة من أول بَدْئها إلى حين كمالِـها وانتهائها، راغبًا إلى الله تعالى في تتميم أمرِها وموالاة نَصْرِها. فله الحمدُ سبحانَه على أنْ رحِمَ المسلمينَ بدولتِه السّعيدة، وأمْنَنَ عليهم بأيامِه الصّالحة السَّديدة. وإنّ المقامَ الإماميَّ الواثقيَّ صدَرَ عنه في أولِ الفتح المبارَك مِن تقديم العبد للنظَر في الخُطّة الشَّرعية والاعتناءِ بمعالم الدِّين ما تكفَّل به اللهُ تعالى لمقامِه المؤيَّد [عظيم](1) الأجر وجَزيل الذُّخر، فشَكر العبدُ اللهَ تعالى والمقامَ الكريم على هذه الالتفاتةِ الكريمة، وشَرَع في النظَر في هاتِه الخُطّة بعدَ أنْ أتَتْه عفوًا دونَ أن يتقدَّمَ له فيها رغبةٌ ولا طلب، واستخار العبدُ اللهَ وتوكَّل عليه... (2) والمسلمينَ نُصحًا واجتهادًا بمبلَغ قُدرتِه إلى أنْ بَلَغَت العبدَ عن بعض [الذين كانوا](3) في الـمُدَد السالفة خامِلينَ مهتضَمِين أمورٌ وأقاويلُ غيَّرت نفْسَ العبد وكدَّرت خاطرَه، [فتحمَّل العبدُ](4) ما بَلَغه عنهم وطَواه ولم يلتفتْ إليه، فلم يَزالوا بعدَ هذا مستمرِّينَ على عادتِهم طاعنينَ [في الخُطّة](5) متعرِّضينَ بالأقاويل حتى ضاقَ بهم ذَرْعُ العبد، وصاروا بحيث يتفقَّهونَ في الأحكام والنّوازل، وينظُرونَ في العقود التي بها تُقطَعُ الحقوقُ في مجالس الخِصام ويقدَحونَ فيها. فوجَبَ على العبد إنهاءُ هذا كلِّه إلى المقام الإماميِّ أيَّده اللهُ ونَصَرَه، والرغبةُ إلى الله تعالى وإليه في أن يكُفَّ

---

(1) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ كافة، وما أثبتناه لعله هو الموافق للسياق.

(2) فراغ قدر كلمتين.

(3) فراغ في ق، ك، ب، والمثبت من ر٣.

(4) كذلك.

(5) كذلك.

هؤلاءِ القوم ويدفَعَ ضررَ ألسنتِهم حتى يَعلَمَ جميعُهم أنّ للخُطة مَن يقيمُ رَوْنقَها ويعضُدُ المشتغلَ بها، أو الإنعامِ على العبد بصَرْفِه عنها وتأخيرِه [وإعفائه منها][١]، ففي ذلكُم لعِلَل العبد وأدوائه أكبرُ شفاء، إذْ فيما تكلَّموا به أمرٌ كبير وخَطْبٌ شنيع.

[ولو صَدَر شيءٌ من هذا يا سيِّدَنا عمّن له تخصُّصٌ بالفقه أو أدنى مُلابَسةٍ][٢] للعلم لَسكتَ العبدُ عنه واحتَسَبه لله تعالى، [ولكنْ حرَّكَ العبدَ أنّ ذلك صَدَر عن قوم جَهَلةٍ أحداثٍ لم يَشُمُّوا قطُّ][٣] رائحةَ العلم، فكيف أن يتعرَّضوا [للأحكام][٤] التي هي ثمرةُ الفقه؟

وقد بَلَغ العبدُ من سنِّه نيِّفًا وثمانينَ سنة، والرغبةُ من المقام الواثقيِّ أن يأمُرَ العبدَ بأحدِ شيئَيْن: إمّا بصَرْفِه وإراحتِه بالإعفاء، وإمّا بنَصْرِه وشدِّ أزْرِه. وفي كريم علم [المقام][٥] الكريم. إنّ الخليفةَ بوجوده يكونُ نظامُ العالَـم، والقاضي نائبٌ عنه في أهمِّ أمورِه، فإنْ لم يكن منهُ [نظرٌ][٦] وتطلُّع لأمورِه تعرَّض إليه مَن لا خَلاقَ له بمثل ما تعرَّض للعبد. ولـمَولانا رضيَ اللهُ عنه الفضلُ الأتمّ في النظَر فيما شَرَح له عبدُه، وقَطْع هذه العِلَل وحَسْم هذه الأدواءِ بما يقتضيه نظَرُه المبارَكُ العليُّ أيَّده الله. والعبدُ منتظِرٌ لتوقيع كريم بما يعتمدُ عليه بحَوْل الله تعالى. وهو سبحانَه يُديمُ علاءه، وينصُرُ لواءه، والسلامُ الأتمُّ المبارَكُ العميم، يخُصُّ المقامَ الكريم، ورحمةُ الله وبركاته.

فوقّع له بهذا التوقيع:

هذه جُرأةٌ كبيرةٌ علينا، واحتقارٌ مُفرِطٌ لجانبِنا، والكلامُ في هذه الخُطّة وفيمَن اختيرَ لها ليس بهيِّن، ولا يقَعُ فيه إلا مختلُّ العقل غالِطٌ في نفسِه وفينا، جاهلٌ قدرَه، متعدٍّ

---

(١) كذلك.

(٢) كذلك.

(٣) كذلك.

(٤) كذلك.

(٥) فراغ في النسخ كافة، ولعل ما أثبتناه هو المقصود.

(٦) كذلك.

طورَه، والخُطّة أكبرُ من أن يَسلُك فيها أولو العلم والعقل هذا المسلكَ الصَّعب، فكيف بمَن سواهم؟! فيُبحَثُ عن المتكلِّم بهذا ويُعرَّفُ بهم فننظُرُ في قضيّتِهم بما يظهرُ لنا إن شاء اللهُ تعالى.

ولـمّا قُتل أبو دَبّوس كما تقدَّم، تفرَّقت أجنادُه، فلم يصِلْ أحدٌ من الموحِّدين ولا من رجالِهم إلى مدينة مَرّاكُش إلّا مَن وصَل إليها منهم... [1] ذلك. فلمّا وصَل إلى مَرّاكُش بعضُ أشياخ الموحِّدين ومَن وجَد السّبيلَ للوصُول إليها من المتجنِّدين، قدَّموا أميرًا على أنفسِهم أبا محمد عبدَ الواحد ابنَ أميرِهم أبي دَبّوس، وسمَّوه المعتصمَ بالله، وقَرَعوا الطّبولَ على مبايعتِه مدةً من خمسة أيام، وذلك إشغالًا للناس بخلالِ ما يدبِّرونَ لأنفسِهم في النّجاة برؤوسِهم.

وكان مقتَلُ أبي دَبّوس يومَ الأحد الثاني لمحرَّم مفتتَح عام ثمانية وستين وست مئة، ووجَّه أميرُ المسلمين أبو يوسُف وزيرَه أبا زكريّا بنَ حازم معَ بعض الفُرسان ليتشوَّفَ أخبارَ أهل مَرّاكُش... [2] بوادي تانسيفت ببيعتهم للسّلطان المؤيَّد أبي يوسُف، بَعثَها له قاضيهم [صُحبةَ][3] وَلَده أبي[4] عبد الله وصِهرِه تـمّام، وأبي عُمرَ حَجّاج، وأخبروا لأبي زكريّا بن حازم... [5] أبي دَبّوس إلى جبالهم بأولادِهم وعيالِهم وبعض خيلِهم ورجالِهم.

وخَرج الناسُ... [6] المنصورِ أبي يوسُف، فدخَلَها في يوم عاشوراءَ العاشر لمحرَّم من سنة ثمان وستينَ المؤرَّخة المذكورة[7].

---

(١) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٢) فراغ في النسخ قدر أربع كلمات.

(٣) فراغ في النسخ، ولعل ما أثبتناه يوضح المعنى المراد.

(٤) في النسخ: «أبا»، ولا تستقيم لما سيأتي بعد، ومثله كثير في النسخ تجاوزنا عنه.

(٥) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٦) فراغ في النسخ قدر أربع كلمات.

(٧) فراغ في ق، ك، ب، والمثبت من ر٣.

وانقَضَت دولةُ بني عبد المؤمن ودرَسَت... [1] منارُها، فسبحانَ مَن لا يَبِيدُ مُلكُه، ولا يَفنَى دوامُه[2].......... [3]

في منامِه هذَيْن البيتَيْن فورَّخَ ذلك اليومُ[4]، فكان يومَ مقتلِ أبي دَبّوس الواثق [من مخلّع البسيط]:

مُلْـكُ بنـي مـؤمنٍ توَلَّـى وكـان عنـدَ السِّماكِ سـمكُهْ
فـاعتبِروا وانظُـروا وقولـوا سبحانَ مَن لا يَبِيدُ مُلكُهْ[5][6]

---

(١) فراغ في النسخ قدر كلمتين.

(٢) إلى هنا انتهت نسخة ق.

(٣) فراغ في النسخ.

(٤) إلى هنا تنتهي نسخة ب وك، وما يأتي من ر٣.

(٥) كتب هذان البيتان في حاشية ر٣.

(٦) جاء في آخر نسخة ك: «انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم. وكان الفراغ منه بين صلاة الظهرين من يوم الاثنين الموفي عشرين... للشهر المبارك شعبان سنة خمس وستين وألف ومئة. والحمد لله ربِّ العالمين».
ملاحظة: كتبت ألف ومئة بالأرقام، وهناك طمس بعد لفظة عشرين. وكتب في آخر نسخة ق بخطّ مغاير لخطّها ما يأتي:
«الحمد لله وحده. استودع كاتبه هنا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ. وكتبها بيده الفانية في الأول من رجب الفرد عام ١٢٢٦ عُبيد ربّه تعالى وأقل عبيده محمد المكي بن الحسن بن الحسين بن محمد بن محمد بن ناصر غفر الله ذنبه وستر عيبه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».
وجاء في آخر نسخة ر٣ ما يأتي:
«انتهى ما وجد من السفر الأخير من البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري رحمه الله، نحمد الله حمدًا كثيرًا، وصلى الله على نبيّه المبعوث بشيرًا ونذيرًا».

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دار الغرب الإسلامي
تـونـس
لصاحبها : الحبيب اللمسي
6 نهج الدالية باللفي - تونس – فاكس : 0021671396545 – خلوي : 216-96-346567
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS

الرقم: 537/ 1000-10- 2013 تونس
التنضيد: المؤلف
الطباعة: برنت شوب - بيروت

AL-BAYAN AL-MUGHRIB

By

Abu Al-Abbas Ibn Athari

(Died after 712 AH)

Vol. 3

Edited with a Critical Introduction

By

Prof. Bashar A.Marouf & Mahmoud B.Awad

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري
المتوفى بعد سنة ٧١٢ هـ

المجلد الرابع

حققه، وضبط نصه، وعلق عليه
بشار عواد معروف
محمود بشار عواد

دار الغرب الإسلامي
تونس

الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب. 677 تونس 1035

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

المجلد الرابع

فهارس الكتاب

فهرس الآيات القرآنية

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾	الإسراء: ٨١	١/ ١٨٥
﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾	مريم: ٩٨	٢/ ٣٧٨
﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾	طه: ٢٥-٣٢	٣/ ٥٢٤
﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾	الأنبياء: ٣٤	١/ ٣٠٩
﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾	النمل: ٧٩	١/ ١٨٥
﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾	الأحزاب: ٤٠	١/ ٣٠٩
﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾	الأحزاب: ٦٢	٣/ ٤٣٥
﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾	فاطر: ٤٣	٣/ ٥٩
﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾	الزمر: ٣٠-٣١	٣/ ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤١
﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾	الزمر: ٦٨	١/ ٢٨
﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾	الزخرف: ٣٦-٣٧	١/ ١٩٠
﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾	الدخان: ٢٥	١/ ١٨٤
﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾	محمد: ٣٧	٢/ ٢٠٩

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾	الفتح: ١٠	٣/ ٥١١
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾	الحجرات: ٦	٣/ ٤٥٧
﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾	الحجرات: ١١	٢/ ١٦١
﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾	القمر: ٤٥	١/ ١٨٥
﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾	الحديد: ٣	١/ ٣٠٩
﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾	الحشر: ٢	١/ ٢١
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾	الحشر: ٢	١/ ١٨٤
﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	المنافقون: ١١	٣/ ٤٠٤
﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾	الطلاق: ١	٣/ ٤٦٩
﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾	نوح: ٢٦	٣/ ٤٠٧
﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾	التكاثر: ١-٣	٢/ ٣٩٠
﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾	الكافرون: ١-٢	١/ ٣٠٤، و٢/ ٣٩٠
﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾	النصر: ١	٣/ ٤٧٢
﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾	الإخلاص: ١	٣/ ٤٧٢

فهرس أطراف الأحاديث

فهرس الأعلام والجماعات

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأمكنة والبقاع

فهرس أسماء الكتب الواردة في المتن

فهرسُ الأشعار

المتخيَّرا	طويل	ابن الشبانسي	١	٢/ ٣٠٧
غضنْفرا	طويل	ابن زياد الكاتب	١	٢/ ٣٠٧
مظهرا	طويل	هشام بن جعفر	١	٢/ ٣٠٧
زجرا	بسيط	-	٢	٣/ ٢٨
فتفطَّرا	كامل	ابن حربون	١٠	٣/ ١٩٤
البشرى	طويل	أبو العباس الجراوي	١٩	٣/ ٣٢٧
الإشارا	رجز	ابن نغرالة	١	٣/ ٣٣٦
نورا	خفيف	أبو العباس الجراوي	١٢	٣/ ٣٦١
الظّهرُ	طويل	روح بن حاتم	١	١/ ١٢٠
نصيرُ	وافر	-	٤	١/ ٢٣١
الحصارُ	وافر	-	٢	٢/ ٥٢
العذارُ	مخلّع البسيط	عبد الله بن محمد	٤	٢/ ١٦٣
وتفورُ	طويل	-	٤	٢/ ١٨١
مُخاطُر	طويل	ابن أبي عامر	٦	٢/ ٢٦٦
وبدورُ	طويل	القسطلي	٢	٢/ ٢٦٧
القهارُ	كامل	ابن الخطيب	٢	٢/ ٢٨٦
مظفَّرُ	كامل	مروان الطليق	١	٢/ ٣٠٧
وزيرُ	مخلّع البسيط	أبو الربيع	٢	٢/ ٤٠٧
ناظرُهُ	بسيط	عبّاد بن إسماعيل	٢	٢/ ٤٤٨
والخدرُ	بسيط	المعتمد بن عبّاد	١١	٢/ ٤٩٥
الديارُ	خفيف	لبيد	٢	٣/ ٢٣٤
الأقدارُ	كامل	محمد بن إبراهيم	٥	٣/ ٢٦٤
النّصرُ	طويل	ابن مجبّر	١٣	٣/ ٣٠٧
أنهارُها	كامل	ابن يخلفتن	٢٣	٣/ ٣٦٨

يستقبلُ	كامل	ابن مجبّر	١	٣/ ٢٨٨
أكملُ	كامل	عبد العزيز بن عمر	٤	٣/ ٣٦٣
الثكلُ	طويل	أبو زكريا الحفصي	٥	٣/ ٥٢٧
الـجُهَّلِ	رجز	ـ	٥	١/ ١٩٩
المتهلِّلِ	كامل	بكر بن حمّاد	٣	١/ ٢١١
النّخلِ	طويل	عبد الرحمن بن معاوية	٤	٢/ ٧٢
وجمالِهِ	كامل	ابن الشمر	٤	٢/ ١٠٨
ساحلِ	طويل	ابن عبد ربّه	٤	٢/ ١٤٦
حالِ	متقارب	ابن قلزم	٢	٢/ ١٥٨
للمُفضلِ	كامل	ـ	٥	٢/ ٢٠٨
بتوالي	كامل	عبد الملك بن سعيد	٤	٢/ ٢٢٠
والظُّللِ	بسيط	عمرو بن أبي الحباب	٣	٢/ ٢٧٠
رسولِهِ	طويل	عبادة ابن ماء السماء	٨	٢/ ٣٩٣
الأكفالِ	كامل	ـ	١	٢/ ٤٧٩
وافعلِ	رجز	أبو العباس التطيلي	٥	٣/ ٥٣
بذبالِ	خفيف	ـ	٨	٣/ ٧١
المرسلِ	كامل	ابن حربون	٢٥	٣/ ١٩٢-١٩٣
الجذلِ	بسيط	ابن حربون	١١	٣/ ٢٠١
الصّواهلِ	طويل	ابن عياش	١٠	٣/ ٢١٦
وجذَلْ	رمل	ـ	٣	١/ ٢٩٩
الأملْ	كامل	عبد الله بن محمد	٥	٢/ ١٦٣
الذليْل	متقارب	ابن درّاج	٤	٢/ ٣٨٨
والمقاما	خفيف	ابن أبي عامر	٤	٢/ ٢٦٧
خادما	طويل	ابن حربون	٦	٣/ ٢٠٠

فهرس أنصاف الأبيات

دار الغرب الإسلامي
تونس
لصاحبها: الحبيب اللمسي
6 نهج الدالية باللفي - تونس - فاكس: 0021671396545 - خليوي: 216-96-346567
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS

الرقم: 537/ 1000-10- 2013 تونس
التنضيد: المؤلف
الطباعة: برنت شوب - بيروت

AL-BAYAN AL-MUGHRIB

By

Abu Al-Abbas Ibn Athari

(Died after 712 AH)

Vol. 4

Edited with a Critical Introduction

By

Prof. Bashar A.Marouf & Mahmoud B.Awad

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS